1979 N° 67

فهـــرس العـــــدد

أسلـــوب جديـــد في الصراع الثقـــافي (1)

عثمـــان شبـــوب

عقدت في الشهور الاخيرة مـن السنة الماضية عـدة مؤتمرات فوق الارض الامريكية منها المؤتمر الذى عقد في السنة الماضية ، في جامعة توليدو ، بولاية أوهايو ، الامريكية تحت غطاء المؤتمر السنوى لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الامريكية وكندا وشارك فيه ـ حسبما أوردت ذلك صفحة الفكر الدينى للاهرام المصرية ـ 1500 من الباحثين الذين حصلوا على الدكتوراه من الجامعات الامريكية وكندا.

وعقد مؤتمر في واشنطن للحضارتين العربية والامريكية وذلك في شهر أكتوبر 1976 .

وعقد مؤتمر في جامعة برنستن الامريكية بتاريخ 20 ماى 76 حول موضوع : مجتمع الشرق الادنى في الادب .

وشاركت في هذا المؤتمر شخصيات صهيونية الى جانب شخصيات من بعض البلدان العربية والاسلامية .

والاقتناع الذى يخرج به الانسان بعد أن يطلع على جدول أعمال هذه المؤتمرات هو أن هذه المؤتمرات ، والندوات ان هى الا وجه آخر من نشاط سابق ، ومتواصل ، للامبريالية الثقافية .

(1) نشرت في الشعب الاسبوعي بتاريخ 1977/2/3 .

فبعـــد أن انكشفت الطبيعة الايديولوجيـــة الاستعمارية لمؤسسة « فرانكلين ، و « المنظمـــة العالمية لتحرير الثقافة ، أصبحت الجامعات هى المخبر الجديد لصنع العقول « الجديدة » .

والواقع أن الصراع الثقافى ، والحضارى ، بـين بلـدان العالـــم الثالث ، ــ وفى مقدمتها البلدان العربية والاسلامية ــ وبين الامبريالية الثقافية العالمية لم يتوقف يوما ، وكل ما هنالك أنه يتخذ فى كل فترة ، طابعا معينا ، ويستعين بأساليب جديدة لبلوغ أهدافه .

فهناك اليوم أكثـــر من مصدر يتحرك ، وفى خطط متناسقة تبدو لأول وهلة ، وكأنها متباعدة ، ولكنها فى الجوهر ، متكاملة ، متناغمة ــ كما يقال ــ .

ان هدفها الاستراتيجى واحـــــد : وهو تقويض البنيان الثقافى والحضارى ، لهذه الشعوب العريقة فى التاريخ ، والثقافة والحضـــارة ــ لا الشعوب الفتية كما يسميها البعض خطأ ــ للسيطرة على روحها ، وضميرها ، وارادتها ، ولان هذا هو مفتـــاح السيطرة عــــلى الارض والاقتصاد ، والمجتمع والسياسة .

ان هذه المؤتمـــرات ، هى امتـــداد متطـــور لمخططات السيطرة الاستعمارية ، ومظهر للصراع الايديولوجى الاستعمارى ، ومن هنا كان لابد من دراسة أعمال كل هذه المؤتمرات بدقة « ميكروسكوبية » كما قال أحد الكتاب ، حتى لا نفاجأ بعدئذ ، بأشكـــال أخـــرى للمعركة الفكرية لا تخطر لنا على بال .

تقييـــدات ابن عيـــسى عـــن حصـــارى قسنطينـــة

د. عبـد الحميد زوزو
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر



وجدنا هذه الوثيقة بارشيف وزارة الحربية الفرنسية بفانسان (1) منذ عدة سنوات ، وعنوانها « تقييدات لابن عيسى عـن حصارى قسنطينة » . وقـد راينا تعريبها ونشـرها للاهميـة التي تكتسيها . فالوثيقة هامـة فى نظرنا لانها شهادة قائد تولى الدفاع عن مدينة قسنطينة خلال سنتي 1836 ـ 1837 . وبطل معظم الاحداث التي عرفها بايليك الشرق من سنة 1830 الى غاية سقوطه فى يد الفرنسيين ، بل والى ما بعد ذلك . فالوثيقة من هذه الناحية تعتبر تدعيما لمذكرات احمد باي التي تولى الاستاذ مارسيل اميريت نشـرها بعد تقديمها والتعليق عليها(1bis)ورافدا وثائقيا يقوى وجهـة نظـر الاهالي بالنسبة للاحداث التي عرفها الشرق الجزائري ، وبها يمكن أن نوازي نظرة الفرنسيين لنفس الاحداث . وتتجلى اهميتها كذلك فى الاسئلـة التي تثيرها حول بعض الاحـداث التى

(1) Archives du Ministère de la guerre à Vincennes. H 235.
(1 bis) Marcel EMERIT : Mémoires d'Ahmed Bey, in Revue Africaine (1949) pp. 71-125.

رواها احمد باي بشكل مغاير ، كقضية انسحاب ابن عيسى من عنابة ، وموضوع حزائن الباي ، كمثل ، فضلا عن فائدتها فى التوضيح والتصحيح • ومن أهميتها كذلك تضمنها لدلائل كاشفة عن جوانب من شخصية وتصرفات صاحبها ابن عيسى ، والذي سنحاول بهذه المناسبة أن نعطى عنه لمحة وجيزة •

فالوثيقة محررة باللغة الفرنسية ، وتؤكد التشطيبات التي بها والتصحيحات التعبيرية أنها مسودة كتبت على عجل ، فجاءت بعض كلماتها لهذا السبب وكأنها رموز وكان لابد من فهمها فهما تقريبيا بناء على السياق العام ، والرجوع الى مجموعة الكتب المؤلفة حول أحداث قسنطينة فى نفس الفترة فى محاولة للتأكد من القراءة الصحيحة • ومع ذلك بقيت كلمات غامضة لم نهتد بعد الى قراءتها وضعنا فى مكانها نقاطا ، أضف الى ذلك أن أفكار الوثيقة تتداخل أحيانا وينعدم الربط بين أجزائها وهذا ما أدى بنا الى تصور الوثيقة من عمل كاتب يعرف اللغتين ، وتولى كتابة وترجمة ما كان ابن عيسى يمليه عليه ، لان الوثيقة المكتوبة بيد صاحبها تكون عادة أكثر ترابطا من حيث الاسلوب وأكثر تسلسلا من حيث الافكار • وقد خضعنا لمتطلبات الاسلوب العربي الذي يقتضي الربط فأضفنا بعض الحروف والكلمات لم ترد فى الاصل مع الحرص الشديد على الحفاظ على روح الوثيقة مبنى ومعنى • والوثيقة بعد هذا لا تحمل التاريخ ولا المكان اللذين كتبت فيهما ، وتحديد تاريخها بدقة غير ممكن ، لكن ممكن حصره بالاستنتاج ما بين تاريخ وصول ابن عيسى الى الجزائر العاصمة فى أواخر شهر فيفري 1838 وتاريخ رجوعه الى قسنطينة برفقه الجنرال فالي (Valée) فى أواخر شهر سبتمبر من نفس السنة أما عن المكان فمن غير المستبعد أن يكون بربريجير (Berbrugger) محافظ المكتبة الوطنية والمتحف الوطني فى ذلك الوقت قد استفاد ، من اقامة ابن عيسى بالجزائر ، بأخذ شهادة منه حول الاحداث الهامة التي عرفها الشرق الجزائري ، خاصة وهو مولع باقتناء المخطوطات وجمع المعلومات التاريخية • وقد استندنا فى الافتراضين الى الاشارة الواردة فى مقال واتبلاد (E. Watbled) التي تذكر أخذ مدير المكتبة الوطنية المذكور لمعلومات عن ابن عيسى مباشرة (2) ، وعلى توقف الاحداث الواردة فى الوثيقة بالنسبة للتاريخ فى سنة 1838 •

---

(2) E. Watbled : Cirta, Constantine, expédition et prise de Constantine (1836 - 1837) d'après les documents laissés par MM. Berbrugger, Mollière et la Tour du Pin, in Revue Africaine, 1970, p. 391, note n° 1.

اما على ابن عيسى (3) فيعتبر الرجل الثاني بعد أحمد باي فى تسيير شؤون بايليك الشرق والدعامة الاساسية التي قام عليها الاصلاح الاداري والسياسي فى عهد أحمد باي منذ صيف 1830 ، والشخص المنفذ للسياسية الجديدة ، فاليه اسندت مهمة القضاء على طائفة الانكشارية وتطهير جهاز الدولة من العناصر التقليدية المحلية واحلال

3) ولد ابن عيسى بالتقريب سنة 1782 بقبيلة بني فرقان · وفى مطلع القرن التاسع عشر استقرت اسرته بقسنطينة بحي باب الجديد ، وكانت له أختان وأخوان هما محمد العربي وبلقاسم ، كان محمد العربي « طالبا » بالمفهوم التقليدي تولى فيما بعد ادارة أملاك البايليك ، وتولى بلقاسم منصب « الخوبة » أي كاتبا خاصا لاحمد باي عندما كان قائد العواسى (الحراكته) ، اما على ابن عيسى فقد كانت مهنته صناعة الاسلحة وبيعها الى أن بلغ الخامسة والعشرين فخلف والده ضمن المليشيا الخاصة بالباي ، فجمع بذلك بين الحياتين التجارية والعسكرية · ويبدو أن أحمد باي قد قربه اليه لما تبينت له مؤهلاته فى المجالين التجاري والعسكري ، واسند اليه مهام تجارية الى تونس فى البداية ولاكثر من مرة ، ثم رقاه الى منصب باشحامبة (قائد الجيش) بعد ذلك · وبعد سقوط قسنطينة عاد الى بني فرقان مسقط رأسه حيث حاول من غير جدوى تمديد المقاومة ، فاضطر الى طلب الامان من الجنرال كاستيلان ، وعرض خدماته على السلطة الجديدة ، فتعين فى عهد الجنرال فالي الحاكم العسكري العالم للجزائر خليفة على المنطقة الساحلية القسنطينية الممتدة من ستورة الى جيجل (من وادي الكبير الى السيبوز) وذلك فى 30 سبتمبر 1838 ، وأظهر خلال ذلك حماسا فى خدمة السلطة الفرنسية ، وقساوة بالغة ازاء بني جلدته ومساهمة كبيرة فى انشاء مدينة سكيكدة ، حتى نال وسام الشرف من يد الدوق دورليان فى 13 أكتوبر 1839 · لكن فى مارس 1841 أسندت اليه تهمة تزوير العملة فى عهد الجنرال نيقربيه حاكم الاقليم ، وحكم عليه المجلس العسكري بقسنطينة فى أوائل شهر افريل 1841 بالاشغال الشاقة لمدة عشرين سنة ، قضى منها حوالي خمسة عشر شهرا ببرج جزيرة القديسة مارقريت ، ثم افرج عنه فى 14 أكتوبر 1842 شريطة الاقامة فى مونبليه · وبعد مساعى عدة قام بها ابنه احمد ، رخص له بالاقامة فى الجزائر العاصمة ، وكان ذلك فى بداية سنة 1844 · لكن امنيته التي لم تتحقق كانت الرجوع الى قسنطينة والاستقرار بها للمزيد من التفاصيل أنظر :

Félix Mornand : Episodes et souvenirs de l'Algérie Française, Ali Ben Aïssa, in Revue de Paris, nouvelle série, t. 11, 1842. pp. 96-108.

X. Yacono : Les premiers prisonniers algériens de l'Ile Ste Marguerite (1841 - 1843), in Rue d'Histoire Maghrébine, N° 1 (janvier 1874), Tunis, pp. 39-56.

عناصر جديدة محلها · فمادة الاداة الجديدة اذن تكونها « عصبة القبائل » ، وكان ابن عيسى من هذه الزاوية منشئها وموجهها فى نفس الوقت · فلا عجب أن يوصف ابن عيسى فى هذه الحال بانه « توأم لاحمد باي » أو « صورة ثانية له »« ALTER, EGO » وتعهد اليه القضايا المتعلقة بامن البايليك · فهو المبعد للخطر الذي كان يمثله ابراهيم باي بالنسبة للبايليك وللباي احمد بصفة شخصية كما سياتينا ، وهــو المنظم لمقاومة قسنطينة المشهورة وبطلها مــن غير نزاع اثنــاء الحصارين الفرنسيين لهــا سنتـــي 1836 و 1837 · فبدا بذلك رجلا عسكريا موهوبا ، وبطلا صلبا شجاعا باعتراف الجنرال الفرنسي فالي ذاته ، اذ يقول فى مراسلة له الى وزير الحربية الفرنسي بأن ابن عيسى قد أظهر « مهارة وشجاعة نادرتين فى دفاعه عن قسطينة » (4) ، ويصفه فى مراسلة أخرى بأنه « رجل يتمتع بتفوق حقيقي » (5) · وبغض النظر عــن كون الجنرال فالييه كان يرمي بهذا الوصف الى الحصول على الموافقة من وزير الحربية لتعيين ابن عيسى « بايا » على الساحل القسنطيني لتحقيق أهداف بعيدة قد تؤثر على مقاومة الامــير عبد القادر نفسها ، فانه مقتنع بالطاقة التي يتمتع بها ، وبدوره فى اقرار سلطة فرنسا بالمنطقة المذكورة · ويكاد الجنرال فالي ينفرد برأيه فى ابن عيسى دون غيره من الكتاب عسكريين أو غيرهم ، فهم جميعا لا يقاسمونه فيه الرأي ، وينكرون ـ كعادتهم ـ توفر الصفات الحميدة فى غيرهم ·

وبناء على هذا المفهوم فان ابن عيسي لا يزيد عن كونه « حدادا » ، « ابنالفحام » و « فظا » « جاهلا » أو « جبانا » « ماديا » (6) · ودليلهم على جبنه فراره من جهـــة الطابية (7) ، بمجرد شعوره بالخطر · وقد أثرى الرســام الفرنسي كــور COURT

(4) G. Yver : Correspondance du maréchal Valée, t. I, p. 268. Valée au ministre de la Guerre, 23 février 1838.

(5) Idem, p. 277. Valée au ministre de la Guerre, 2 mars 1838.

6) انظر مثــلا :

Le Duc de Nemours : Le second siège de Constantine (octobre 1837) in Revue des 2 Mondes (1870) p. 773.

أن الطمس المتعمد فى بعض الكتابات الفرنسية يكشفه التناقض الذي يقعون فيــه بالضرورة ·

7) يبدو أن ثقة ابن عيسى فى حصانة المدينة كانت كاملة بدليل تركه لامواله بداخلها وبدليل تحدية للانذار الموجه اليه من طرف الجنرال Damrémont بقوله « لن تدخل المدينة طالما بقي واقفا مسلم واحد ، فان لم يبق لك بارود فسنمدك منه بما تحتاج وان لم يبق لك خبز فسنرسل اليك » · لكنه لما فقد الثقة فى الحصانة امام قوة المدفعية أثر الانسحاب بالرغم من توفر الامكانيات (مؤن وذخائر) لمقاومة أطول · انظر :

E. Mercier : Les 2 sièges. Constantne, 1896, pp. 46-47. Dr Baudens : Relation de l'expédition de Constantine. Paris 1838, p. 29.

عناصر جديدة محلها · فمادة الاداة الجديدة اذن تكونها « عصبة القبائل » ، وكـان ابن عيسى من هذه الزاوية منشئها وموجهها فى نفس الوقت · فلا عجب أن يوصف ابن عيسى فى هذه الحال بانه « توام لاحمد باي » أو « صورة ثانية له » « ALTER, EGO » وتعهد اليه القضايا المتعلقة بامن البايليك · فهو المبعد للخطر الذي كان يمثله ابراهيم باي بالنسبة للبايليك وللباي أحمد بصفة شخصية كما سياتينا ، وهـــو المنظم لمقاومة قسنطينة المشهورة وبطلها مــن غير نزاع اثنــاء الحصارين الفرنسيين لهــا سنتــي 1836 و 1837 · فبدا بذلك رجلا عسكريا موهوبا ، وبطلا صلبا شجاعا باعتراف الجنرال الفرنسي فالي ذاته ، اذ يقول فى مراسلة له الى وزير الحربية الفرنسي بأن ابن عيسى قد أظهر « مهارة وشجاعة نادرتين فى دفاعه عن قسطينة » (4) ، ويصفه فى مراسلة أخرى بأنه « رجل يتمتع بتفوق حقيقي » (5) · وبغض النظر عــن كون الجنرال فالييه كان يرمي بهذا الوصف الى الحصول على الموافقة من وزير الحربية لتعيين ابن عيسى « بايا » على الساحل القسنطيني لتحقيق أهداف بعيدة قد تؤثر على مقاومة الامــير عبد القادر نفسها ، فانه مقتنع بالطاقة التي يتمتع بها ، وبدوره فى اقرار سلطة فرنسا بالمنطقة المذكورة · ويكاد الجنرال فالي ينفرد برأيه فى ابن عيسى دون غيره من الكتاب عسكريين أو غيرهم ، فهم جميعا لا يقاسمونه فيه الرأي ، وينكرون ـ كعادتهم ـ توفر الصفات الحميدة فى غيرهم ·

وبناء على هذا المفهوم فان ابن عيسى لا يزيد عن كونه « حدادا » ، « ابنالفحام » و « فظا » « جاهلا » أو « جبانا » « ماديا » (6) · ودليلهم على جبنه فراره من جهـــة الطابية (7) ، بمجرد شعوره بالخطر · وقد أثرى الرســام الفرنسي كــور COURT

(4) G. Yver : Correspondance du maréchal Valée, t. I, p. 268. Valée au ministre de la Guerre, 23 février 1838.

(5) Idem, p. 277. Valée au ministre de la Guerre, 2 mars 1838.

6) أنظر مثــلا :

Le Duc de Nemours : Le second siège de Constantine (octobre 1837) in Revue des 2 Mondes (1870) p. 773.

أن الطمس المتعمد فى بعض الكتابات الفرنسية يكشفه التناقض الذي يقعون فيــه بالضرورة ·

7) يبدو أن ثقة ابن عيسى فى حصانة المدينة كانت كاملة بدليل تركه لامواله بداخلها وبدليل تحدية للانذار الموجه اليه من طرف الجنرال Damrémont بقوله « لن تدخل المدينة طالما بقي واقفا مسلم واحد ، فان لم يبق لك بارود فسنمدك منه بما تحتاج وان لم يبق لك خبز فسنرسل اليك » · لكنه لما فقد الثقة في الحصانة امام قوة المدفعية أثر الانسحاب بالرغم من توفر الامكانيات (مؤن وذخائر) لمقاومة أطول · أنظر :

E. Mercier : Les 2 sièges. Constantne, 1896, pp. 46-47. Dr Baudens : Relation de l'expédition de Constantine. Paris 1838, p. 29.

المتخصص فى الرسوم التاريخية هذه النقطة بالذات بابرازه الروع الذي استولى على ابن عيسى والفزع الذي تملكه وهو فى حالة فرار عبر الصخور الوعــرة المؤدية الى أسفل وادي الرمل بواسطة حبل يكاد يتقطع به · فالغرض اذن هو الطعن فى ايجابيات الخصوم أو على الاقل تشويهها عند الذكر · وبخصوص صفة « الفظاظة » يحــاول من يريد اثباتها فيه الاعتماد على ترأسه لمجلس الحرب الذي قضى بالاعدام على ستــة من الاهالى بتهمة القتل بضواحى الحروش فى مطلع سنة 1839 (8) وكأن حكم ابن عيسى لا يرد ، وكأن سلطته هي العليا ، تفوق كل سلطة بالبلاد · والواقع أن تجريد ابن عيسى من هذه الصفة صعب فالظهور بمظهر المرعب بالنسبة للاعــداء الاجانب صفــة حميدة ولا شك ، بل وهي مطلوبة لازمة ، ولكن كيف يمكن تفسير تصرفه الاخير مع بني جلدته ؟ فاذا كان القصد منه هو التدليل على اخلاصه فى خدمة السلطة الفرنسية فكيف نفهـم انقلاب هذه الاخيرة ضده والحكم عليه بالاشغال الشاقة لفترة طويلة · وعلى أي حــال فان تصرفاته فى ظـــل السلطة الفرنسية ضـــد مــن كان يحثهم بالامس على مجاهدة الفرنسيين ،وعزله للعائلات التقليدية المتحضرة ، وابعاده للعناصر التركية فى عهــد احمد باي قد تحول ولا ريب الى حقد طائفى انصب عليه فى شكل غضب وانتقام أمــا انقلاب السلطة الفرنسية ضده ، وخاصة العسكرية منها فيرجع سببه فى رأينا الى كون العسكريين لــم ينسوا الهزيمة التى لحقتهم على يـــده ، والضحايا التي سببتها لهـــم مقاومته (9) ، وكانت اشـــد عقوبة سلطت عليـــه هي التمثيل به على مـــرأى ومسمع القسنطينيين يوم 6 أفريل 1841 ، بقرب الثغرة التي دخلوا عليهــا الى المدينة ، وتسليط اعدائه القدامى من بقايا الاتراك عليه قبل ابعاده الى فرنسا ·

وهكذا ، وعلى الرغم من محاولات التشويه لشخصية ابن عيسى ، والتنقيص من قيمته بجعله موضوع حقد الفرنسيين وانتقام الاهالي ، يبدو لنا شخصا يتمتع بقـــوة الاحتمال ، ويتوفر على عناصر النفوذ المطلوبة وامكانات السلطة والتي من بينها الغنى

(8) G. Yver : Correspondance du maréchal Valée, op. cit., t. III, p. 32. Valée au ministre de la Guerre, 9 février 1839.

(9) لا شك ان الجنرال نيقربيه قد لعب دورا أساسيا فى الصاق تهمة تزوير العملــة بابن عيسى ، والسبب فى نظرنا يرجع الى مزاجه الخاص والى نظرته المبنية عــلى القهر والقوة · وقد كانت مراسلته لاحمد باي قد اكتست هذه الصـفة ، كما يلاحظ أيضا بأن الشهود كانوا كلهم ممن كانت لهم سوابق مع ابن عيسى   أنظر :

Emerit : Mémoires, p. cit., p. 111

Mornand : Episodes et souvenirs. op. cit., p. 104.

المادي والموهبة الحربية والشجاعة الحقة (10) ، فضلا عن الوفاء الذي تكشف عنه هذه الوثيقة بوضوح · فقد اخلص ابن عيسى لاحمد باي حاضرا معه وغائبا عنه ، ولم يكتم اخلاصه حتى فى حديث له مع الجنرال فالي حينما قال : ان أحمد بايْ هو الرجل الوحيد الذي يستطيع حكم ناحية قسنطينة ، وهو كمساعد له ، (أي ابن عيسى) وتكشف لنــا الوثيقة ، من ناحية أخرى ، عن تعلق ابن عيسى بمركزه بشكل مثير للتساؤل ، ويجعـل منه الدافع الرئيسي لكل مقاومة ، والشرط الاول لكل تعاون · ويشاركه فى هذا التعلق أحمد باي نفسه،ذلك أن المتتبع لتصرفات أحمد باي ولاقواله يستنتج تخوفه من منافسيه أكثر من تخوفه من الفرنسيين أنفسهم ، من ذلك حرصه على القضاء على ابراهيم باي والعمل على ابعاد خطره بأي شكل كان ، فقد كان هدفه بالدرجة الاولى من ارسال جيشه الى عنابة ، وعلى رأسه ابن عيسى ، هو القضاء على خصمه الخطر ومنافسه المغامر · ولم تذكر لنا المصادر ـ حسب علمنا ـ أن هناك قتالا وقع بين جيش ابن عيسى ودارماندى الذي جاء هو الآخر للاستيلاء على عنابة ، فى حين هناك مـا يفيـد بعقد هدنة بينهما ، وهي فى نظرنا ، تحالف ضمنى ضد ابراهيم باي ـ كما يفهم أيضا أن فرار ابراهيم باي من عنابة كان كافيا بالنسبة لابن عيسى لرفع الحصار والرجوع الى قسنطينة بعد حصار دام أكثر من ستة أشهر وبأمر من الباي نفسه (11) · ويتأكد استنتاجنا حينما يذكر أحمد باي بأن قتله لمرابط العربي ، قائده السابق لاولاد عبد النور ، لـم يكن بسبب رغبته فى الانضمام الى الصف الفرنسي ، وانما لتآمره مع يوسف الطموح الى منصب الباي (12) ثم أليست توصية البـاي بعـدم الضغط على الفرنسيين اثناء انسحابهم بعد فشلهم فى

(10) النفوذ فى نظر أحمد باي لا يتأتى الا لمن له مواهب وعلم وشجاعة ، والانتساب للعائلات الكبيرة النبيلة ، أنظـر Emerit : Mémoires, op. cit., p. 91. وتقدر ثـروة ابن عيسى بأكثر من 110.000 ف فرنسي ، ومن غير المستبعد أن يكون على قدر هـام مـن الثقافة التاريخية الجغرافية نظـرا لكمية الكتب والمخطوطات التي عثـر عليها بربروجير فى منزله ، انظر :

G. Yver : Correspondance du maréchal Valée. op. cit., t. I, p. 281. Valée au ministre de la Guerre. 2 mars 1838.

Watbled : Cirta, Constantine, op. cit., p. 465, note N° 1.

(11) يذكرنا موقف ابن عيسى بموقف هنبعل الذي رجع الى قرطاجة من غير اصابة الهدف ، ومن غير استغـلال جهوده الجبارة التي أوصلته الى مشـارف رومـا بعد انتصاره فى معركة كان سنة 261 ق م ·

(12) M. Emerit : Mémoires. op. cit., p. 98.

الحصار الاول تاكيد اخر لما ذهبنا اليه ؟ (13) ، ان هذه النقطة ، على أي حال ، تحتاج بالفعل الى توضيح لاننا نراها تتناقض مع عنف مقاومة أحمد باي وطول مدتها ٠ وهي بذلك تطرح سؤالا على البحث التاريخي ، بالاضافة الى أسئلة أخرى مثـــل مسؤولية العناصر اليهودية فى سقوط قسنطينة ومثـل قضية خزائن الداي وغيرهما ، وجميعها تشكل مواضيع جديرة بأن تبحث على حدة ٠

تقييـدات لابن عيسـى عـن حصـاري قسنـطينـة

بعدما تأكدت سيـادة الفرنسيين على مدينة الجزائر ، حاول هؤلاء امتـلاك مدينة عنابة كذلك ٠ وقد عول الفرنسيون فى مشروعهم هذا على ابراهيم باي (14) الذي كان متحصنا بقصبة المدينة ، غير أن هذا الاخير ظـل غامضا ومتقلبا ازاءهم ، اذ كـان يؤازرهم مرة للاستيلاء على المدينة ويصدهم عنها مرة أخرى الى أن بان لهـم موقفهم العدائي بقضائه على حمية الزواف الفرنسية بالقصبة (15) ٠

---

(13) Ibid. p. 96.

14) تولى ابراهيم باي شؤون بايليك الشرق فى عهد حسين داي من 1819 الى 1822 ولما عزله هذا الاخير ظل مقيما بمدينة المدية الى أن جاءته فرصة اعلان بومزراق عـن نفسه دايا مكان الداي حسين المستسلم ، فتعين بايا من جديد على الشرق الجزائري مكان أحمد بـاي الذي رفض الاعتراف بالوضع الجديد ٠ فكان على ابراهيم بـاي أن يتحالف مع فرحات ابن السعيد شيخ العـرب ضد أحمد بـاي فى معركتين فاصلتين انهزما فيهما ، وكذلك ضد نفس الشخص بجهة عنابة مع الفرنسيين ، ولما انقلب ضدهم هزموه ٠ ومن عنابة قصد بنزرت ثم عاد الى عنابة مرة أخرى فى محاولة يائسة ٠ رجع بعدها الى المدية حيث وجد بها قتيلا سنة 1833 ٠ ويعزو بليسييه دى رينو قتله الى أحمد باي ٠ للاستزادة أنظر :

Pellissier de Raynaud : Annales Algériennes, t. II, 1836. pp. 384-385.
M. Emerit : Mémoires. op. cit. pp. 7980.
Vayssettes : Histoire des derniers beys de Constantine, t. II, 1862. pp. 211-213.

15) كان ذلك أثنـاء محاولة الفرنسيين الثانية لاحتلال مدينة عنـابة ، حيث تمكـن ابراهيم باي من القضاء على هودر HOUDER ومساعدة BIGOT بيقو ٠ والاستيلاء على القصبة فى أكتوبر 1831 ٠ أما استيلاء الفرنسيين عليها نهائيا فكان فى أواخر شهر مارس 1832 على يد دارماندى ويوسف ٠

وكان ابراهيم باي فى ذات الوقت خصما لاحمد باي قسنطينة رعاه الله ، وكنت انا وقتها اشغل منصب باشحامبة · وعلى هذا الاساس انيطت بي مهمة التوجه الى عنابة ومحاصرة ذلك الخصم الخطر بها · واذ تمكنت من الاستيلاء على المدينة فقد باءت محاولاتي بالفشل امام قصبتها على الرغم من الجهد المبذول لاحكام الحصار المضروب حولها · وبينما الامر على هذا النحو أرسل الفرنسيون بوارج اتصلت بقائدها السيد دارماندى الذي كنت أمد وحدات جيشه بلحم العجول (16) ·

وأمام الخناق الذي كان يضيق تدريجيا على من بالقصبة ونفاذ مؤونتهم بمرور الوقت اضطر ابراهيم يوما الى المخاطرة بالخروج من منفذ باحدى أسوار القلعة ، فكانت فرصة رغب السيد دارماندى اعتمادها للدخول الى القصبة ، وبالفعل دخلها بسهولة مع رجال بحريته · وكان فى مقدوري ممانعته وسحق الفرنسيين ، لكن بعد استشارة أحمد باي فى الامر ابدى معارضته قائلا : « لا تذهب الى توريطى فى مشاكل مع الفرنسيين ، لقد احتل هؤلاء مدينة الجزائر ، وأن اي خطا منى قد يوقعني مجددا فى صراع معهم » (17) · فتركت حينئذ الفرنسيين يتمكنون من قصبة عنابة وانسحبت الى قسنطينة بعد اخلاء المدينة ·

وعقب هذا ، بلغنا قدوم مسلم تونسي يدعى يوسف للاقامة بعنابة والعمل منها على اغتصاب السلطة بالبلاد ، لكن الامور بقيت معلقة فترة طويلة ، وكنا نسمع الكثير عن مشاريعه ، ومما كان يقال عنه ان الفرنسيين سيعلنونه بايا على الشرق الجزائري .

وفى النهاية شاهدنا السفن الحربية محملة بالجيوش تصل الى عنابة ، ومنها شرعت فى زحفها على قسنطينة · ولو أن الفرنسيين راسلونا وقتها وقالوا : انكم ستبقون بالتاكيد فى مناصبكم وستحافظون على مراتبكم فى ظل سلطتنا ، وستكونون خدمة لنا كما كنتم تماما فى العهد التركي لكنا قد سلمنا · ولكن لم نخبر بمثل هذا بالمرة ، كما ولم نتلق اي طلب أو مراسلة ، بل كانت تصلنا أخبار تؤكد انضمام رجال

---

(16) انظر تفاصيل الاتصال بين دارماندى وابن عيسى فى Pellissier, op. cit., pp. 51-53

(17) فى حين يقول أحمد باي فى مذكراته غير هذا ويلوم ابن عيسى على الانسحاب وتخليه عن المدينة للفرنسيين أنظر : Emerit : Mémoires. op. cit., p. 81.



BEN AISSA
Kabile des Ouled Derguènes
Khalifa Commandant la Ville de Constantine pendant le siège de Novembre 183[illegible]
D'après le Dessin de M.r T... ancien Médecin d'Achmet Bey.

المصدر :
Valentin DE VOISINS : vues et portraits dessinés pendant l'expédition sur Constantine. 1837

الى جيشكم امثال يوسف (18) ، وابن زكري (19) ، والقائد سليمان (20) لاخذ اماكننا ، عندما اقنعنا انفسنا بضرورة المقاومة وتعاهدنا على صد هؤلاء الاشخاص الذين لا يعيرون اعتبارا لاي شيء عندما يتعلق الامر بمصالحهم ·

كلفت انا بالدفاع عن المدينة فى حين خرج الباي على راس فرسانه لحماية المدينة من الخارج ومنع الفرنسيين من الدخول اليها (21) · وكان عدد الذين شاركوا فى مهمة الدفاع الف واربعمائة من الجنود المسجلين بالاضافة الى الف شخص من السكان ·

---

18) انظر الدراسة التي خصصها له الاستاذ مارسيل امريت ،

M. Emerit : « Le mytère de Yusuf ». in R. A. 3e et 4e trimestre 1952. pp. 385-399.

19) هو الحاج مسعود ابن زكري المنتسب الى احدى العائلات القسنطينية العريقة ، وكان بعض افرادها امثال سي عبد الله ومصطفى وبلقاسم قد تقلدوا مناصب رئيسية فى عهد البايات السابقين لاحمد باي ، لكن هذا الاخير شتت عائلتهم ، وكان ممن نجا منها الحاج مسعود هذا الذي اتصل ببوستة من بجاية وبأمثاله الذين كانوا على اتصال بالجنرال قوارول · تكلف الحاج مسعود ابن زكري فى البداية بحراسة برج الكفان (فور دي لو) ورئاسة قبائل العريب ، ثم عين قائدا عليها سنة 1834 بعد ما تم تجميعها فى رسوتة (RASSOUTA)(بين بني مراد وبرج الكفان شمالا ، وباب الزوار والحميز جنوبا) فقائدا على أولاد عبد النور بعدما شارك فى الحملتين الفرنسيتين على مدينة قسنطينة فضلا عن اثارته للعديد من قبائل الهضاب العليا ضد أحمد باي · أنظر :

Notes sur la position politique du bey de Constantine (1837). Archives du Ministère de la Guerre à Vincennes. H 226.

G. Yver : Correspondance du maréchal Valée, op. cit., t. I, p. 296. Note N° 1.

20) شغل فى عهد أحمد باي منصب قائد أولاد عبد النور ، ثم التجأ الى تونس ومنها دخل فى خدمة يوسف · وتصفه المصادر الفرنسية بأنه « رجل ذو بعض الحذق والاهمية » · ومن هنا يمكن التنبيه الى ان احمد باي فى مذكراته ص 92 كان يقصد شخصين لا شخصا واحدا كما يفهم لاول مرة ·

21) يكون احمد باي قد طبق نفس الطريقة فى الدفاع التي نصح بتطبيقها ضد الفرنسيين عند نزولهم بسيدي فرج · وهي تعتمد على صرف الفرنسيين عن الهدف بتحويل اتجاههم عنه أو ملاحقتهم من الخلف وشغلهم بالحاق الخسائر بهم ·

وقد دافعنا بشجاعة طيلة ثلاثة أيام (22) قمت خلالها بغارة من جهة باب الجابية (23) ، ولما كان اليوم الثالث لاحظنا الجيش الفرنسي يرحل عن المدينة · لقد كان هناك من نصحنا ، اثناء الحصار ، بالتسليم ، لكنهم دفعوا حياتهم ثمنا لتخاذلهم (24) ·

تراجع الفرنسيون بشكل فوضوي ، وبينما قام الباي باتباعهم حتى رأس العقبة (25) فلم اتبعهم بدوري سوى لوقت قصير ، لكني نصحت الباي بمراسلة القبائل في شأن

22) الموافقة ليوم 22 و 23 و 24 نوفمبر 1836 · وكان وصول الفرنسيين الى سيدي مبروك (المنصورة) يوم 21 نوفمبر ، وكان انسحابهم في 24 ووصولهم الى عنابة يوم أول ديسمبر ·

23) وفعلا تشير المراجع الفرنسية الى هذه الغارة التي شارك فيها ما بين الف والف ومائتين من المقاتلين بالاضافة الى خلق هائل من الرجال والنساء لتشجيع المقاتلين بالتهليل والتكبير والزغاريد · ويفهم من نفس المراجع أن الغارة من الداخل اريد بها التنسيق مع هجوم أحمد باي على كدية عاتي من الخارج يوم 23 نوفمبر · انظر
E. Watbled : Cirta, Constantine, expédition et prises de Constantine (1836 - 1837) d'après les documents laissés par Berbrugger, Mollières et Latour du PIN, in R.A. t. XIV, p. 319.

24) كان مرابط العربي قائد أولاد مروان هو المتهم الرئيسي في هذه المؤامرة بالاضافة الى شيخ البلد محمد ابن الفقون · ويؤكد أحمد باي في مذكراته اعدامه للاول بسبب مؤامراته المتكررة واعفائه عن الثاني لكبر سنه · أما صالح العنتري فيذكر بأن المجلس المجتمع للنظر في أمر التسليم يتكون من (سي الشيخ؟) ومحمد البجاوي قائد الدار وسي الحاج المكي بن زقوطه وسي عمر القشي وسي علي بن حجوج ، وسي الحسين بن سليمان التاجر ، والمرابط العربي وسي محمد العنتري والده وهو الذي كتب الجواب بيده · ويذكر أيضا بأن أحمد باي قتل المرابط العربي وسي الحسين المذكورين . انظر تاريخ قسنطينة مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية ص 38 · ويذكر وابتلاد Watbled من جهته حضور ابن عيسى للاجتماع معتمدا على رواية بربريجير ويروى مارسييه من جهته نفس الخبر ويضيف اليه عدم توقيع وثيقة الاستسلام من طرف ابن عيسى · هذا ويفهم من الصيغة التي استعملها ابن عيسى بأن عدد من قتلوا كان اكثر من واحد · كما وأن البعض ممن شاركوا في هذا الاجتماع قد تأثرت وضعيتهم فيما بعد كالكاتب محمد العنتري وعائلة ابن زقوطة · انظر :
Watbled : Cirta, Constantine, op. cit, p. 391.
E. Mercier : Les 2 sièges, op. cit., p. 32.

25) رأس العقبة على بعد 96 كلم من عنابة · وهو ممر طبيعي قديم يربط سوق أهراس بقسنطينة وهذه الاخيرة بقالمة ، وعبارة عن عتبة تفصل بين وادي الزناتي ووادي الشرف ·

انزالهم على الفرنسيين عند ... (26) فكان ان اجابني : « ان الفرنسيين لا ينامون على هزيمة ، فرجوعهم يوما لاخذ الثار لا محالة آت وسيكون مروعا وخصوصا اذا ما الحقنا ضررا بابناء الملك (27) الموجودين هنا بصفوف الجيش · ولهذا السبب امتنع البــاي عن التشديد فى الضغط عليهم · امــا اهــل قسنطينة فقد اسرعوا الى المنصورة اثنــاء انسحاب الفرنسيين وقضوا على الجرحى هناك · فقتل الجرحى ليس عملا شجاعا لكن لا يمكن اسناده الى الرجال الذين خرجوا بحثــا عــن مخاطر القتــال (28) · وبمجرد رجوعنا الى قسنطينة بدانا نتدبر كيفية مواجهة الغزو الآتي المهدد ، من ذلك ان امر الباي بهدم جميع الابنية الموجودة خارج اسوار المدينة اي كل ما كان قائما من باب الجابية الى باب الوادي وما كان باطراف كوديت عاتي ·

ولقد اقبل الاهالي من غير ملل على الاستعدادات فاولوا المراقبة كل عنايتهم وحرصوا على ان تبقى فتيلة المدافع مشتعلة من غير انقطاع · لقد كنا جميعا مهيئين للمقاومة ، خاصة وان الاهالي يدركون عزم الفرنسيين على الانتقام منهم بسبب ما فعلوه بجرحاهم بالمنصورة ، والثار لكرامتهم المهانة ، فالمقاومة الشجاعة فى نظرهم هي منجاهم الوحيد.

عمل احمد باي على تهريب ثرواته خفية فى حين لم يسمح للسكان بالعمل مثله · وفعلا فان ابقاء الثروات داخل المدينة اثناء الحصار وعلى مرأى من اصحابها يجعلهم اكثر تصميما على الدفــاع عنها واكثر عزما لحمايــة انفسهم واموالهم ، ويجعلهم يتصورون النتيجة فى حالة الهزيمة ·

عملت على ترميم الحواجز وامرت بحفر خندق واقامة تحصينات جديدة يسهل بها اغلاق شوارع المدينة فى الحال ، وتبعث العدو فى حالة دخوله المدينة امام عقبة اخرى لابد له من فرض حصار جديد حولها ·· وبذلك لا اشك فى انى اهملت اجراء واحــدا

---

26) كلمة غير مفهومة ·

27) هكذا بصيغة الجمع فى حين ان ابنا واحدا فقط هو الدوق دى نمور (Duc de Nemours) هو الذي شارك فى الحملة الاولى كقائد للواء الاول · اما دى جوانفيل De Joinville ولي العهد فقد حضر بعد سقوط المدينة ·

28) تقدر الخسائر الاجمالية التي لحقت الفرنسيين اثناء الحملة الاولى بثمن العدد الكلي البالغ ثمانية آلاف تقريبا · اما الجرحى الذين تركوا بالمنصورة فقد قدر عددهم المشير كلوزيل بـــ (2 plonges) · انظر : Explication du maréchal Clauzel. Paris, 1937, p. 48.

من الاجراءات اللازمــة لحماية المــركز الذي أسندت الى حمايته (29) · وكــان الذي يساعدني فى مهمة الدفاع هو الحاج محمد ابن البجاوي قائد الدار (رئيس القصر) ، والذي قتل أثناء الحصار ·

وفى الوقت الذي كانت فيه الاستعدادات تامــة جاءنا يهودي يحمل رسالة مــــن الجنرال الحاكم بالجزائر العاصمة (30) · وكان اسم هذا اليهودي بوجناح (بوشناق) فساله الباي عندما مثل أمامه عن موضوع مهمته ـ ولا شك أن تدخــل اليهود فى هذه القضية قد أضر بالمهمة ، وانتم تعرفون عدم تقدير المسلمين لهــم ـ فأجابه بوجناح : بأن على الداي احمد الاستسلام فورا لفرنسا (31) ، وأن عليه كذلك دفع الاتاوات التي كان يدفعها فى السابق الى حاكم الجزائر · فأجابه أحمد : ولكن الدفع فيما مضى كان يتم مقابل وحدات من الجيش تأتي من الجزائر لاثبات سلطتي والقيام بمهمة جمــع الضرائب المفروضة بأنواعها ، والتي هي ضرورية لدعم مكانتي · فهل فى نية فرنسا القيــام بمثــل ذلك ؟

فرد بوشناف باستعلاء : فما عليكم الا ان تأخذوا هذه المبالغ عن طريق فــــرض الغرامات وتسلموا أنفسكم ، ففرنسا لا يهمها الدخول فى التفاصيل · فساله البــاي : وكيف يمكن فى هذه الحال تموين وحدات جيشي وموظفي ، فقال اليهودي : فما عليكم الا ان تمسكوا كبار دولتكم وتلزموهم دفع ما أنتم فى حاجة اليه أو هددتموهم بالقتل · (فكان رد الداي) يا لك من يهودي ، يا ابن الكلب فالذي اقترحته بشأن المبالغ يمكن عمله فى هذه السنة ، اما بشأن كبار الدولة فاعرف انهم حمــاة سلطتي فهــم بالنسبة لي بمثابة الريش للاجنحة ، فتجريدهم يعني القضاء عن نفسي ، وقد كشفت عن سوء الطوية ، وما أنت الا شرير · ومد الباي يده الى سيفه وقام بحركة عبر بها عن عزمــه على قطع رأسه ، لكنني بسرعة تدخلت وسمعت أحمد يقول : دعني يا عيسى ، ان قطع راس هذا اليهودي لا يغير من مصير قسنطينة شيئا ، ولن يبدل دم هذا الكلب ما قضى الله فى شأنها · لقــد وجدت صعوبة كبيرة فى تهدئة البــاي ، وافهامه الخاصية التي

---

29) فيما يتعلق بتفاصيل الاستعدادات لمواجهة الغزو الثاني ، انظر :
E. Mercier : Les 2 sièges. op. cit., pp. 46-47.

30) الذي هــو الجنرال Damrémont

31) هكذا « الداي » فى هذه المرة ولعلها تاكيد للاشاعة القائلة باعلان أحمد بــاي عن نفسه دايــا سنة 1836 ·

تجعل هذا المبعوث فى ظل الحصانة ، فجميع الامم تولى أمثاله كامل الاحترام · وأخيرا قمت باخراج اليهودي من سجن البـــاي الذي تـــرك المدينة راجعا الى مكان الجيش الفرنسي ، وبدل أن ينقل الى من أرسلوه ما جرى بأمانة اكتفى بذكر رفض اصغـــاء الباي اليه ، وتهديده بالقتل · وبذلك يتضح أن خسارة المدينة سببها تصريح اليهودي الكـــاذب ·

وكان زحف الجيش الفرنسي على قسنطينة · وقد رأيتم الذي حـدث ، فقد دافعنا عن انفسنا بشجاعة من حصن الى آخر الى أن أخذت المدينة عنوة تحت ضغط المدفعية · وعندها كان علي أن أخرج مع افراد قلائل من ذوى ، ومن فتحة بجهة القصبة (32) · وكان الخروج من هذا الممر شاقا للغاية بحيث كان الموت فى انتظار كل النسوة اللائى حاولن الخروج منه · أما انا فقد تمكنت من اللحاق بأحمد باي الذي كان بالجانب الآخر لوادي الرمل على رأس فرسانه ، ثم توجهت بعد ذلك الى مسقط رأسي (بني فرقان) · وبعد مرور ثلاثة أشهر طلبت الامان من الجنرال نيقريبه (33) فلم يرد ، فكاتبت الجنرال كاستيلان (34) · وبعد موافقته استدعيت الى الجزائر العاصمة بالقرب من الجنرال قالي الذي ادخلني فى ··· (35) ·

---

32) من جهة الطابية كما أورد ذلك صالح العنتري ·
33) تولى قيادة الناحية القسنطينية مرتين الاولى فى سنة 1838 والثانية فى 1841 ·
34) تولى قيادة منطقة عنابة من جانفى الى مارس 1838 ·
35) كلمة غير مفهومة ·

مشاكـــل البحـــث العلـــمى
فى الجزائـــر

د· يحيى بوعزيز
جامعة وهران



يواجه البحث العلمي فى الجزائر عراقيل ، وصعوبات كثيرة ، ومتنوعة ، تعود كلها الى طبيعة المعركة التــى تخوضها بـلادنا ، والتى جعلت الاولوية فيها للميادين الاقتصادية ، الفلاحية ، والصناعية ، ولثقافة الحـرف . فى حين ترك امر البحث العلمي ، فى اوســع معانيه ، للجهد الشخصى ، وللارادات الخاصة بصفة عــامة · وهو أمر طبيعى فى كل بلد نامي حديث العهد فى التصرف فى مصيره ، ما لم يتجاوز الحدود المعقولة ، والا سيصبح خطرا ، وأمرا غير طبيعى ·

والجزائر التى عانت اكثر من غيرها ، مسخا استعماريا لا نظير له ، شمل كـل جوانب الحياة الحضارية ، والتاريخية ، وأورثها تخلفا وتقهقرا كبيرين ، وجعل الهوة سحيقة بينها وبين ركب التقدم الحضاري · هذه الجزائر ، مطلوب منها أن تجعـــل البحث العلمى فى مقدمة اهتماماتها ، ولكن المشاكل الصعبة والعويصة التى ورثتها من حرب التحرير ، ومخلفات العهد الاستعماري الثقيلة ، حالت ، على ما يظهر ، دون ذلك لعدة سنوات · وفى الاعوام الاخيرة من عقد السبعينات ، أدركت قيادة البلاد أهمية

البحث العلمي واخذت تعمل على تنظيمه ، وتدعيمه بقواعد وأسس جديدة ، سوف لا تظهر نتائجها الا بعد مرور عدة سنوات · ولعل اهم هذه الاسس والقواعد : انشاء المركز الوطني للدراسات التاريخية ، والبحث عن الوثائق الجزائرية واستعادتها داخل البلد وخارجه ، والعمل على تنظيمها وفهرستها حتى يسهل على الباحثين الجزائريين القيام بالبحث والتحقيق فيها لتصحيح الاخطاء ، واكمال النقص ، وابراز الامجاد الوطنية والحضارية على مر التاريخ ·

ولكي تكون الصورة واضحة ، عن مصاعب البحث العلمي فى بلادنا ، نستعرض فيما يلي بعض النماذج التى عشناها نحن ، ويعيشها الكثير من زملائنا الباحثين الجزائريين ، مع التاكيد على أن هذه الصعوبات مرحلية فرضتها المرحلة الانتقالية التى تعيشها بلادنا بصفة عامة ·

مشكلة المشرف :

ان العثور على مشرف للبحث العلمي فى جامعاتنا الجزائرية من المشاكل العويصة والمعقدة ، نظرا لقلة الاطارات بصفة عامة ، خاصة الكفاة ، والمؤهلة للاشراف · وعدم وجود سياسة منظمة مدروسة لتوفير مثل هذه الاطارات الضرورية لتكوين اطارات جزائرية صميمة · وحتى بعض الاطارات التى وفرت يلاحظ عليها قلة الكفاءة من جهة ، وعدم الاستقرار من جهة أخرى بحيث تنقطع فجاة عن البلد وتترك الباحثين فى منتصف الطريق او فى بدايتها · وبذلك تضيع الجهود وتكل الهمم ، وكل ذلك على حساب تطور البلاد وتنميتها ، فكم من باحث لم يجد مشرفا أصلا ، وكم من باحث توقف عن البحث نتيجة غياب المشرف ، وانقطاعه عن البلد بصفة نهائية ، والنماذج فى هذا الميدان كثيرة ·

ان الجامعات الجزائرية من واجبها عندما تفتح اي فرع للدراسة أن توفر له الاطارات اللازمة ، وتحرص على خلق اطارات جزائرية بسرعة لتحل محل تلك الاطارات الاجنبية ، والا تكون متناقضة مع نفسها ومع الواقع · وكل التبريرات التى تقدم اليوم لا تكفى حجة لتبرير ما يعانيه الباحثون الجزائريون فيما يخص مشكلة المشرفين ·

وقد تأخرت انا شخصيا عن التسجيل فى جامعة الجزائر حتى عام 1969 بسبب عدم وجود مشرف · وكان المشرف الذي اخترته ، ولم يكن أحد غيره آنذاك ، وهو زميلي فى الدراسة بتونس والقاهرة ، الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي رحب بي ، وشجعنى

على اقتحام ميدان البحث العلمى ، والجامعة الجزائرية ، لانه يعرف نشاطى السابق فى حقل الصحافة والدراسة ٠

ولم اتعرض لصعوبات كثيرة معه فى البداية ، فقد اقترح علي تقديم مجموعة من المواضيع ، ليرجح هو احداها ، وتم الاتفاق على موضوع : ثورة المقراني والحداد عام 1871 ، بعد أن قدمت اليه مخططا مؤقتا عنه ، ومجموعة من المصادر الاولية التي بحثت فيه ٠ وفى ربيع عام 1970 ، اجتزت امتحان الانتقال من السنة الاولى الى السنة الثانية ، حيث تفرغت بعد ذلك للبحث ، وجمع المعلومات ، داخل الجزائر وخارجها ، وحصلت على عدد من الوثائق ذات اهمية فى مختلف دور المحفوظات الجزائرية ، والفرنسية ، والتونسية ٠

وعندما شرعت فى التحرير بدأت الصعوبات تظهر بينى وبين السيد المشرف ٠ وكان التحرير الاول صدمة له ولى معا ٠ فهو لم يكن يتوقع منى مثل ذلك الاسلوب ، وانا لم اكن اتوقع منه مثل ذلك التشدد فى أمور كنت أرى أنها شكلية وهامشية ٠

ان الدكتور سعد الله يحاسب على الفواصل ، والضمائر ، وتركيب الجمل ، وتكرار الافكار ، ومدلول الالفاظ ، والضمائر العائدة ، وأسلوب التهميش ، ونوع الهوامش ، والتقديم ، والتاخير للكلمات والجمل ، وما الى ذلك ٠ وقد شعرت فى البداية ببضايقات كثيرة ، ولم أستطع أن أتحمل أسلوب ملاحظاته هذه ، وصارحته فى احدى المرات كتابة بأن يقبل النصوص كما هي ، أو يرفضها ، ويخطر ادارة الجامعة بتخليه عن الاشراف ، غير أنه كان على غاية من التعقل ، والرزانة ٠ فقرأ حسابا لظروفى النفسية ، ولجهودي المتواصلة معه ، حتى شعرت فيما بعد بالحرج ، بل ووخز الضمير ، خاصة وأنه كان يستضيفني فى منزله ، ويكرمنى ، ويبقى معى الساعات الطوال ، فى البحث ، والمراجعة ، والتحقيق ، والتعديل ، والتوضيح ٠

لقد حررت الاطروحة وقرأها ، اكثر من ثلاث مرات ، وأصر على الا يقدم للجامعة عملا لا يرضى به أبدا ٠ وانصفته فيما بعد عندما اكتشفت أنى أجهل أساليب البحث العلمي الحقيقية ، رغم تدربى على الكتابة ، والعمل الصحفى ، وتآليفى لاكثر من كتاب قبل ذلك ٠ لان الكتابة الصحافية ، والانشائية شيء ، والبحث العلمى فى حقائق التاريخ شيء آخر ٠ وهنا أسجل امتنانى للدكتور سعد الله الذي اخذ بيدى ، وأرشدنى الى أساليب ، وطرق البحث العلمي الحديثة على حقيقتها ٠

وقد تعددت رحلاتى ، وسفراتى اليه من وهران الى العاصمة ، للجلوس والنقاش ، حـــول التحرير ، والحقائق التاريخية ، والمصادر ، والتهميش ٠ أحيانا فى منزله ، واحيانا فى مكتبة الجامعة ، واحيانا فى المكتبة الوطنية ، واحيانا فى الجامعة نفسها ٠

وفى التحرير الثالث حسم الموضوع ، حيث جلسنا معا عدة ساعات ، فى قـاعة عمل الاساتذة بمكتبة الجامعة ، واستعرضنا الاطروحة من أولها الى آخرها ، وقارناها بالتحرير الذى قبله للتاكد من العمل بالملاحظات السابقة ، وتم تعديل بعض العناوين ، وانتهت الجلسة باخذ الاذن بالطبع ٠ فتنفست الصعداء لاول مرة وشعرت بنوع مـــن الخفة لثقل الحمل ، وبالاطمئنان ٠ ولابد فى الاخير من التسجيل بأن معظم الصعوبات التى واجهتني ، تعود الى بعد المسافة بينى وبينه ، ولولا ذلك لقلت المشاكل والصعوبات ولاختصر الزمن كثيرا ، الذى قضيته فى اعداد هذه الدراسة ٠ وهذا ما يحتم فتـــح الدراسات فى كل الجامعات الجزائرية حتى لا يتعب الباحثون مثلى ٠

روتـين اعــادة التسجيل :

والى جانب مشاكل المشرف ، هناك مشكل اعادة التسجيل كل سنة ، وفى مواعيد محددة لا يــجوز تجاوزها ٠ وقد كلفني هذا الروتين الاداري التـردد شخصيا عــلى العاصمة طوال مدة اعداد الدراسة ، وكثيرا ما كان ذلك على حساب مهنتى التربوية ٠ ومما زاد فى تعقيد التسجيل كونه لا يتم فى مكان واحد ، وزمان واحد ، وانما يتطلب احضار موافقة المشرف كل سنة كتابة ، وعقد الازدياد ، والصور الشمسية ٠ ثم بعد كل هذا يسلم الباحث وصلا ليذهب به الى الخزينة العامة لدفع الرسوم المطلوبة ، والعودة بعد ذلك الى ادارة التسجيل لتسلم شهادة التسجيل ٠ وهذه العملية نادرا ما تتم فى يوم واحد لان الاشخاص المشرفين على التسجيل قد يحضرون الـىمكاتبهم ، وقـــد يغيبون ، وأيام التسجيل محدودة ، وفى الصباح فقط ٠ والضحية دائما هم الباحثون ٠ ان روتين اعادة التسجيل منهك ، ومقلق ، ومضيعة للوقت ، وبيروقراطية زائدة وممقوتة فلماذا لا يكتفى بتسجيل واحد فقط ؟ ولماذا لا يتم بالمراسلة مثلا ؟ أو فى البنوك الجهوية ؟ ولماذا لا يكتفى بتقارير المشرفين الدورية عن طلبتهم ؟ ولماذا على الاقل لا تبسط وسائل التسجيل ، فتقلل الاوراق المطلوبة ، ويتم فى مكان واحد ، ووقت واحد ، تخفيف لاعباء التنقـــل ٠

ان مسيرة التنمية التى تخوضها بـلادنا تتطلب التقليل من مثـل هذه الاجراءات الزائدة التى تدخل فى اطار البيروقراطية وأمراضها ، والوقت ثمين جدا ، ويجب أن نقدر قيمته ، ونحسن استغلاله ·

قضيـة البحث عـن الوثائق :

وهناك ايضا مشكلة البحث عن الوثائق فيما يخص بعض البحوث والدراسات ، كالتاريخ مثـــلا ، فالذى يبحث فى تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، لا يستطيع أن يتحصل فى عين المكان على الوثائق المطلوبة ، لان الاستعمار الفرنسى أخذ كل شيء بعد رحيله ، ونقله الى ما وراء البحر ، الى دور المحفوظات الفرنسية · وتسرب البعض منها الى بعض البلدان الشقيقة المجاورة ، والصديقة ، كالمغرب الاقصى ، وتـونس ، وتركيا ، ومصر وبلدان جنوب أوروبا الغربية ·

وكل باحث فى هذه الفترة من تاريخ الجزائر ، لا يستطيع أن ياتى بجديد ما لـم يقم بزيارة هذه البلدان ، أو بعضها ، للبحث فى دور محفوظاتها ، ومكاتبها العـــامة والخاصة · والزيارة تتطلب رخصة وامكانيات مادية لا تتوفر لكل الباحثين ، والاجهزة التى تشرف على البحث العلمى فى الجزائر لا تقدم المساعدة المطلوبة للباحثين ، واذا قدمت فانها تقدم للبعض فقط ، وفى حدود غير كافية ، وبمقاييس هي محل نظر ، وبحاجة الى اعـادة النظر فيها ·

فلقد قمت أنا شخصيا بخمس رحلات الى الخارج : أربعة الى فرنسا ، وخامسة الى تونس ، كلفتنى خمسة وعشرين ألف دينار ، وصرفت فى جولاتى داخل الوطن لنفس الغرض أكثر من خمسة آلاف دينار ، يضاف اليها تكاليف الطباعة ، والسحب ، وتصوير الوثائق ، وصنع الرسوم والاشكال ، والصور ، وشراء ورق الحرير ، وورق السحب ، فالطبع بمبلغ خمسة دنانير للورقة ، والسحب دينار للورقة ، وثمن الورق الحريري دينار ان للورقة الواحدة ، وتصوير الوثائق دينار ونصف للورقــة ، وورق السحب خمسة عشر دينارا لعلبة ذات خمسمائة ورقة ، ومبلغ صنع الرسوم والاشكال والخرائط الضرورية زاد على ألفي دينار بسعر المعرفة والاخوة · وتسفير النسخ عشرون دينارا للنسخة الواحدة · ويعلم الله فقط ، وانا كباحث ، مدى المشاكل والاتعاب المادية التى عانيتها فى سبيل اعداد مثل هذه الدراسة التى بلغت تكلفة الورقة الواحدة منها مائــة دينار ، وعدد صفحاتها حوالى أربعمائة صفحة · وقد اعتبرت نفسى نموذجا لكـــل

الباحثين أو جلهم ، وذكرت مثل هذه التفاصيل ليعرف القراء الكرام بأن البحث العلمى فى أي ميدان ليس سهلا ، وأن ما نقدمه لهم من دراسات وانتاج فكري ، يكلفنا ثمنا باهضا جدا ، وليس هذا منا ، وانما للعبرة والتأمل ·

مشاكل مناقشة الاطروحة :

ان أية جامعة ، عندما تأذن لاحد بحق الاشراف على البحوث العلمية ، تكون قد وضعت فيه الثقة ، واعترفت بكفاءته العلمية استنادا الى مؤهلاته العلمية · وهو عندما يشرف على عمل ما ، ويتابعه الى نهايته ويأذن بتقديمه الى المناقشة يكون قد تأكد من جديته ، وأهمية مستواه ، شكلا ومحتوى · وتبقى بعد ذلك قضية تقديمه الى المناقشة ، صورة شكلية من أجل منح صاحبه التقدير الذى يستحقه على عمله ·

ولكن الوضع فى جامعاتنا الجزائرية ، شيء آخر ، فنقاش الاطروحات تتحكم فيه الاهواء ، والاشخاص ، ولربما المجموعات · فهناك نوع العلاقة بين المشرف والباحث ، وبين المشرف والجهاز الاداري ، وطبيعة الموضوع نفسه ، وكون الباحث معربا ، أو مفرنسا ، ونوع الشخص أو الجهاز المشرف على البحث العلمي ، ونوع الاشخاص الذين اختيروا لقراءة الاطروحة ، وابداء رأيهم فيها ، ومشاركتهم فى النقاش ، وكونهم داخل البلد ، أو خارجه ، كل هذه الاشياء لها دخل فى موضوع النقاش ·

فلقد قدمت الاطروحة الى ادارة الكلية بجامعة الجزائر فى منتصف شهر نوفمبر 1975 · وبقيت انتظر عاما كاملا تقريبا حتى أواخر شهر أكتوبر 1976 · وقد بذل كل من السيد المشرف ، والاخ الفاضل الدكتور عبد القادر زبادية رئيس قسم التاريخ ، جهودا يشكر ان عليها من أجل التعجيل بالنقاش ، ومع ذلك امتد الاجل قرابة عام كامل ، وكانت فترة الانتظار مقلقة حقا ، ومثيرة للاعصاب ، خاصة عندما تأجل الموعد الاول للنقاش فى شهر جوان 1976 بسبب تفضيل المشرف للمشاركة فى رحلة الى المشرق العربي لغرض خاص بالجامعة ، وأسجل هنا أنه رغم انتظارى عاما كاملا ، فقد كنت محظوظا بالنسبة للبعض الذين انتظروا أكثر من عام ·

ازمة الدكتور التميمي :

وعندما حضر موعد المناقشة مساء الاثنين 18 أكتوبر 1986 بالطابق الرابع من مبنى كلية الآداب ، كانت اللجنة تتألف من السادة : الدكتور عبد القادر زبادية رئيسا ، والدكتور أبو القاسم سعد الله مشرفا ومقررا ، والدكتور برو السورى ، والدكتور عبد

الجليل التميمي التونسى ، عضوين · وعلمت من السيد المشرف بأن أكثر الاعضاء الذين سيناقشوننى ، هو التميمي باعتباره شبه متخصص فى الموضوع والفترة ، وعندما جاء دوره ، وكان ما قبل الاخير ، حاول أن يستأسد ، ولكن فى غير ميادين الاسود ، فناقش واطال النقاش ، وشعرت خلال ذلك برغبته فى الاحراج ، ولكنى مسكت أعصابي ، والتزمت الهدوء خاصة وان السيد المشرف أوصاني بذلك ، ثم ان الموقف يتطلب الهدوء وبرودة الدم ·

ويمكن حصر ملاحظاته فى الامور التالية :

اولا : طول التمهيد ·

ثانيا : عدم كتابة الاسماء الاجنبية بالحروف اللاتينية فى النص ·

ثالثا : وجود اخطاء فى الفهارس ، وبعض التهميشات ·

رابعا : ايراد مصادر فى البيبليوغرافية لم تستغل فى الدراسة ·

خامسا : عدم استغلال الوثائق الاجنبية ·

وقد حاولت فى جلسة النقاش أن أجيب ، ولكن الظرف والزمن ، لم يسمحا لى بالتوسع ، وأود هنا أن أوضح الامور على حقيقتها انصافا للواقع من جهة ، ولكي تكون درسا لغيرى من الباحثين ، وتجربة لهم ·

فالتمهيد كان طويلا بعض الشىء ، ولاحظ على المشرف ذلك خلال الاعداد والتحرير فاختصرت منه ما امكن ، والذى بقي كان ضروريا كمدخل للدراسة ، على الاقل فى نظري أنا ، وشرحت ذلك للمشرف فقبل ، واقتنع ·

وعدم كتابة الاسماء الاجنبية بالحروف اللاتينية فى النص ، يرجع الى صعوبة الضرب على الآلة الكاتبة · وكانت مكتوبة بحروفها اللاتينية فى التحريرين الاول والثانى ثم الغيت · ومع ذلك توجد كلها فى الهوامش بحروفها اللاتينية ضمن المصادر · وقد أشار علي المشرف أن انبه على ذلك فى المقدمة فنسيت ·

والاخطاء التى أشار اليها فى الهوامش ، والفهارس ، محدودة ، وترجع الى السهو وليس الى الجهل بقواعد البحث العلمي ·

واثبات بعض المصادر فى البيبليوغرافية مع عدم استغلالها فى البحث ، يعود الى انى اطلعت عليها كلها ، ولها صلة بالموضوع ، وعددها لا يزيد على تسعة وعشرين مصدرا من ضمن حوالى مائتين ، ومع ذلك فانى اعترف بأنه نبهني الى أسلوب غاب

عن ذهني ، أشكره عليه وهو اثباتها فى ورقة مستقلة بدلا من اقحامها فى البيبليوغرافية العــامــة ٠

تبقى بعد ذلك قضية عدم استغلال الوثائق الاجنبية ، كما ادعى وزعم ٠ ولابد هنا من أن أقف عندها قليــلا ، لقد تعرفت على الدكتور التميمي بواسطة السيد المشرف الدكتور سعد الله ، وقرأت له بعض كتبه التى كتبها بنفسه أو ترجمها لغيره عن المغرب العربي ، والتقيت به صدفة فى أرشيف فانسان بباريس خلال ترددي الى هناك للبحث والتنقيب عــن الوثائق ٠ وعندما زرت تونس أواخر عــام 1974 للبحث في موضوع الاطروحة ، أخذت اليه رسالة من السيد المشرف ، فسهل علي العمل ، مشكورا ، فى أرشيف الحكومة التونسية بالوزارة الاولى ٠ وأخذت بعد ذلك التقى به فى ملتقيــات التعرف على الفكر الاسلامي ببلادنا ، ولاحظت عليه أنا وغيرى أنه مريض بالحديث عن الوثائق ، وتعدادها ، وتراكمها بالملايين (كذا) فى دور المحفوظات الاجنبية ، ففى كــل ملتقى يشير الى ذلك أو يثيره ، ويتأوه ، ويتحسر على الباحثين العرب والمسلمين الذين لا يولونها ، فى زعمــه ، الاهتمام الــلازم ، ويفرد بالتقدير الباحثين الاجانب الــذين يقدرونها ، فى زعمه ، ويهتمون بها ونسي أو تناسى أنهم اختلسوها اختلاسا مـــن بلداننا ٠ ويظهر نفسه على أنه الوحيد الذى اطلع عليها ، والذى يبذل جهده لانقاذها ، وبعثهـــا ٠

وقد أثار بالحاحه هذا عددا من الباحثين الاشقاء الذين تصدوا للرد عليه ، ومنهم الدكتور احسان عباس الفلسطيني ، فى ملتقى عنابة عام 1976 ٠

وفى موضوع دراستى واطروحتى ، آخذ علي عدم استغلال الوثائق الاجنبية التى قال انها تعد بالملايين ، وعندما شعر بالحرج من شدة المبالغة تراجع بابتسامة وقــال انها تعد بالآلاف ٠ وفى نفس الوقت اعترف بأن الفصل الذى وضعته فى آخر الاطروحة لدراسة هذه الوثائق ، وتعدادها ، وذكر مصادرها ، وأماكنها ، هو فى حد ذاته كشفا علميــا هاما وقيمــا ٠

وفى ردي عليه آنذاك قلت لــه بأني حاولت اكتشاف الوثيقة العربية واستغلالها كغيرها ، لان هذه الثورة تدرس اليوم من وجهة النظر الوطنية ، ولابد للوثيقة الوطنية أن تستغل ويثبت رأيها فيها ٠ ولكن هذا لا يعني أننى لــم استغل الوثيقة الاجنبية ، والدليل أنى اطلعت عليها كلها تقريبا ، ووضعت عنها دراسة خاصة ، وفهرسا ، ضمن المصادر والوثائق اعترف التميمي نفسه بأهميتها ، واستغل الكثير منها فى الاطروحة وأشير اليها في النص والهوامش ، ولست أدري كيف غاب ذلك عنه ٠

وقلت له كذلك بان هذه الوثائق الاجنبية مكدسة فى عشرات من الصناديق باعداد كبيرة تعد بالاطنان (وقد اثرت ضحك اعضاء اللجنة وجمهور الحاضرين عندما ذكرت بانها مكدسة بالاطنان) ودراستها كلها يفوق جهدى وطاقتى انا وحدى ، ويتطلب جيلا من الباحثين والدارسين ، وفترة من الزمن طويلة ، ويكفينى انا فى هذه الدراسة أننى حاولت كشف أماكنها ، ووضع فهرس وبيبليوغرافية لمعظمها ·

وأضيف هنا بان الوثائق الاجنبية التى يشير اليها التميمي ، استغلت لمدة قرن كامل من الزمن ، من طرف الدارسين لهذه الثورة فى غياب الوثيقة العربية · ودورى انا ابراز هذه الوثيقة العربية ، واستغلالها للوصول الى حقيقة الاحداث والمشاكل من وجهة النظر الوطنية كذلك ، هل فى هذا ضير !

حكاية القارد دى سو : LE GARDE DES SCEAUX

على ان الدكتور التميمي ، لدافع لا اعرفه حتى الآن ، حاول ان يحرجنى ، واراد ان يثبت عدم معرفتى للغة الاجنبية ، عندما حاول أن يختبرني بتوجيه بعض الاسئلة فى ذلك ، فتحول من مناقش لعمل جامعي ، الى معلم اللغة الفرنسية ، والتركية · فسالنى عن معنى : le garde des Sceaux الذى ترجمته بحافظ الاختام ، ويعنى طبعا وزير العدل ، أو وزير الشريعة كما كان يعبر عنه الجزائريون خلال عهد ثورة 1871 ، وهو اللقب الذى كان يحمله ادولف كريميو اليهودي فى حكومة تور الفرنسية عام 1870 · وكان التميمي يعتقد اننى لا اعرف ذلك ، وسالنى كذلك عن معنى كلمة (الباشاغا) التى هي لقب تركي حافظ الفرنسيون على استعماله فى عهدهم · وهنا بدات افقد بعض الشيء هدوئى ، فرددت عليه بلهجة مشوبة بنوع من الغضب ، وتفطن لذلك ، ودعانى الى التزام الهدوء ·

وبودى هنا ان اوضح انى لم ادرس قط فى مدرسة فرنسية ، ولم اتعلم اية لغة أجنبية خلال مراحل دراستى الابتدائية والثانوية · وفى المرحلة الجامعية درست بعض مبادىء اللغات : الفرنسية ، والانجليزية ، واللاتينية · وعلى هذا فانا معرب الف فى المائة ·

ولكني عندما اقتحمت ميدان البحث العلمى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، الزمت نفسى بدراسة اللغة الفرنسية ، واعتكفت على ذلك حتى كونت لنفسى القدرة على القراءة

والكتابة ، والاستفادة من كل نص أو وثيقة فرنسية ، وما زلت حتى اليوم اقرأ وأدرس هذه اللغة ، وبحوثي العلمية ، واطروحتي الجامعية خير دليل على ذلك ٠

وحتى لو كنت لا أعرف أطلاقا اللغة الاجنبية ، فانى لن أصاب بحمرة الخدين من الخجل كما يحصل للبعض ، ولست انا الاول او الاخير ، من الباحثين الذين لا يعرفون اللغة الاجنبية ، ومع ذلك قاموا ببحوث قيمة ، وجادة ، ومعتبرة ٠

بعد هذا الاستطراد الذى كان ضروريا ، أعود الى موضوع المناقشة ، حيث ان اللجنة انسحبت فى نهايتها من القاعة للمداولة ، وطال أمد غيابها كثيرا حتى ان الكثيرين ممن حضروا المناقشة انسحبوا بعد ان تأخر الوقت كثيرا ، والسبب فى هذا الغياب الطويل هو اختلاف أعضائها على الدرجة ، وكانت النتيجة فى الاخيرة منح درجة جيدا للاطروحة بالاغلبية ، وهي أعلى درجة تمنح لشهادة دكتوراه للطور الثالث ٠ وكان الشاذ عن الاغلبية هو التميمي ٠ ولم استغرب ، ولم أتأثر ، ولكنى لم أكن أتوقع من التميمي مثل ذلك الموقف طبعا ٠

وكان السيد المشرف يرغب فى أن يصحبني معه الى منزله لتناول طعام العشاء مع أعضاء اللجنة الذين عزمهم ، ولكن رغبته فى عدم احراجهم فيما اذا أرادوا احياء النقاش من جديد ، جعله يودعنى على أمل اللقاء فى اليوم الموالى ، حيث أبلغنى انه عانى كثيرا من أجل الحصول على درجة جيدا جدا ، دون أن يذكر لى من المعارض ، فشكرته ، وقدرت موقفه وموقف الدكتور زبادية ، والدكتور بــرو ٠

حكـاية الرسالة الغـريبة :

وكان من المفروض ان تنتهى الامور عند هذا الحد ، لو كان التميمى منطقيا مع نفسه ، وفى مستوى رجال البحث العلمى ، ولكنه واصل سعيه للاحراج ، فقام بخطوة أخرى كشفت عن مرض فى نفسه ، ودلت على انه ليس أهلا للمهمة التى شرفته بها جامعة الجزائر ٠ فاشاع لــدى بعض أصدقائه بان الاطروحة ضعيفة وهزيلة ، ولا تستحق التقدير الذى أعطي لها ٠ ولولا حسن اللياقة لذكرنا اسماء بعض من ذكر لهم ذلك ٠

وعندما عاد الى تونس قام بخطوة ثالثة أكثر غرابة ، فكتب رسالة الى مسؤول البحث العلمى بكلية الآداب فى جامعة الجزائر ، أخبره فيها أنه غير راض عن الدرجة

التى منحت للاطروحة ، وانه امضى على المحضر بتاثير من باقى أعضاء اللجنة خاصة السيد المشرف ، واكد انها لا تستحق اكثر من (قريب من المستحسن) .

اننى أسال الدكتور التميمى عن الدوافع التى حملته على هذا الموقف ، خاصة وأن أعضاء اللجنة اقترحوا عليه أن يسجل اعتراضه فى المحضر ، ويوقع عليه . وكان بامكانه أن يرفض أصلا المشاركة فى المناقشة ، ويقدم تعليلا لذلك بواسطة تقرير مكتوب ويترك الامر للجهات المسؤولة ان تتصرف ، وهو امر معمول به فى كل جامعات الدنيا .

ان الحكم الفصل بيننا هم القراء عندما تصل الاطروحة الى ايديهم ليقولوا فيها كلمتهم ورايهم . وأنا متاكد من انهم كلهم ، سيكونون مع أعضاء اللجنة الشرفاء ، بانها تستحق تقدير « جيد جدا » ، واكثر من جيد جدا .

وبعد كل هذا ، فليس هناك أي شىء بينى وبين التميمى ، عندما ذكرته ، وكان لابد من ذكره ، لاؤكد له باننى انا ، وكل الزملاء الباحثين هنا بالجزائر ، دخلنا الى ميدان البحث العلمى من اوسع أبوابه ، ولا نخشى أن نعلن النقائص التى توجد فينا ان كانت هناك نقائص ، ولدينا القدرة والشجاعة على فعل ذلك ، ما دام الكمال لله وحده فقط .

مشكلة البحث فى الوثائق المعاصرة :

ان الدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة ، تعتبر الوثيقة أساسا ، لكل عمل ، او بحث . وبما أن الاحداث المعاصرة تتصل بمشاكل قائمة ، وباشخاص أحياء ، بانفسهم او باتباعهم ، ومدارسهم ، فقد جرت العادة على ان يحتفظ بوثائق هذا العهد ربع قرن على الاقل حتى يتقادم الزمن ، وهناك من اقترح نصف قرن ، حتى لا تبرز الحساسيات مع نشر هذه الوثائق . وهذه العادة تصلح فى بعض الاحداث ، ولا تصلح فى أخرى . أما الاحداث التى مر عليها قرن فاكثر ، فنشر وثائقها أمر هام لخدمة التاريخ الوطني والعالمي . ومرور مثل هذا الزمن يسمح للباحثين بالعمل بحرية ، ويجنبهم من الوقوع فى مزالق ، ومتاهات ، ويبعد عنهم الحساسيات ، والمشاكل .

وفى تاريخ بلادنا المعاصر ، احداث مر عليها قرن وزيادة ، ومع ذلك يبدو أن الحساسيات ما تزال قائمة حولها ، خاصة ما يتصل بزعماء المقاومة المسلحة فى القرن الماضى ، وعلى راسهم الامير عبد القادر ، والحاج أحمد باي ، والمقراني ، والحداد ، واولاد سيدي الشيخ ، وغيرهم .

ويبدو أن الدراسات الوثائقية التى نشرتها عن الامير عبد القادر قد أسيء فهمها لدى البعض ، ولابد من ازالة اللبس ودفع الغموض . فالامير عبد القادر رائد لكفاح الجزائر المسلح ، ورمز لمقاومتها الوطنية . وهو أب الجميع ، وفى جيوب الجميع . فالذى يحاول أن ينال منه كمن يحاول أن يهدم جبلا باظافره . وفى نفس الوقت هو فى غنى عن دفاع أي أحد بتاريخه الوطني ، وكفاحه البطولى .

وما كتبته من دراسات عنه ، هو ابراز لبعض مواقف معينة له ، حاولت جهدي أن أجد مبررا لها ، وذلك فى اطار البحث العلمى فى أحداث التاريخ ، وأي ضير فى ذلك ! هل الامير عبد القادر معصوم عن الخطأ ؟ أقول لا ! وألف كلا ؟ وهل ابراز مثل هذه المواقف ينال من سمعة الامير ومكانته ؟ أقول لا لا ! وألف مليون كلا !

ان أي زعيم ، أو مفكر ، مهما كانت مكانته ، هو غير منزه عن الخطأ . فالتاريخ فيه الحلو ، وفيه المر . وليس شرطا ، بل وغير ممكن ، أن تكون كل مواقف الامير عبد القادر صوابا ، وكذلك غيره من الزعماء والابطال .

وأول باكورة تاليف لى هو كتاب عن الامير عبد القادر بعنوان : بطل الكفاح الامير عبد القادر الجزائرى ، وذلك عام 1957 . وخلال بحوثى المختلفة فى المواضيع المتصلة بثورة المقراني والحداد عام 1871 ، عثرت على عدد من الوثائق للامير عبد القادر وغيره ، تعتبر جزءا من كفاحه ، ونشاطه السياسى ، ونشرتها فى عدة دراسات وثائقية منها :

- مواقف بايات تونس من ثورة الامير عبد القادر .
- الامير عبد القادر والبحر الافريقى .
- دور محيى بن الامير عبد القادر فى ثورة 1871 وموقف أبيه والسلطات التونسية منه .
- موقف الامير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871 .
- دور الامير عبد القادر وخلفائه فى تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية .

وقد تضمن مقال : البحر الافريقى ابراز عدم تفطن الأمير لما كان يهدف اليه الفرنسيون من استغلال نفوذه لصالح مشاريعهم الاستعمارية . وذلك عن طريق تكليفه بتوجيه نداء الى سكان منطقة الجريد ، ووادي سوف ، ليقبلوا مشروع البحث وما سينجر عنه من غمر أراضيهم وقراهم بالمياه .

وتضمن موضوع دور محيى الدين فى ثورة 1871 ، ابراز معارضة ابن الامير عبد القادر له ، وذلك من خلال نشر رسائله التى نسبها الفرنسيون اليه ، ونشرتها المبشر فى القرن الماضى ، وقد حاولت شخصيا أن أدافع على الامير وأجد له مبررا مثـــل : ضغط الفرنسيين عليه ، الى جانب عاطفة الابوة ، والخوف من النهاية المحزنة لابنــه التى سبق ان انتهى هو اليها ·

وهذه الاحداث التاريخية لا تنـــال من مركز الامير ، وسمعته ، ومكانته الوطنية والقومية ، ولا تضعه فى قفص الاتهام · فرصيده الوطنى والتاريخى أضخم ، وأقوى ، وأصلب من أن ينال منه شىء ، وعملنا يدخل فى اطار البحث العلمى التاريخى المحض والنزيه ، وفى الخط العام الذى حددته قيادة البلاد لاعادة صياغة تاريخنا الوطني العام .

فى ضرورة المعجـــم الفلســـفى والاجتمــاعى باللغـــة العربيــة (1)

المرحوم د. عثمان امــين
عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة
واستاذ فلسفة بجامعة القاهرة



لكل علم، ولكل فن، لسانه ومصطلحاته، وللمتخصصين وحدهم قدرة على فهم تخصصهم واستعمالها فى بحوثهم وكلامهم . يستطيع الرياضيون مثلا ان يتحدثوا فيمـا بينهم عن « منحنى الدالة » وعن « الاحداثيين » ، أو عن العـدد «المنطوق» والعـدد «الاصم» او عن «سيوماتيك» الهندسات و «سيوماتيك» الاعداد الخ ، دون ان يكـون كلامهم مفهوما ممن ليس له دراية بالعلوم الرياضية . ويستطيع الاطباء أن يتحدثوا فيما بينهم عن مرض معين، دون أن يفهم عنهم المرضى شيئا ...

لكن أحدا لا يستطيع أن يستغنى عن فهم اللغة الخاصة التي يستعملها الفلاسفة : لان المسائل الفلسفية ـ بطبيعتها ـ عامة وهذه العمومية من شأنها أن تمنع اي كائـن مفكر من الوقوف منها موقف اللامبالاة ويستحيل على الانسان المفكر أن يتكلم فى الادب أو فى الفن أو فى العلم دون أن يلتقي بعلم النفس او علم المنطق ، ويستحيل عليـه أن يشتغل بالسياسة دون أن يخوض ـ عن قصد أو غير قصد ـ فى مناقشات علم الاخلاق

1) كان المرحوم د. عثمان امين ارسل الينا هذه الدراسة القيمة قبل وفاته بشهور ، وتأخر نشرها حتى الآن بسبب الاعداد الخاصة التى اصدرناها .

وعلم الاجتماع · ويستحيل عليه عموما أن يرى الفكر فى أي خطوة من خطوات الحياة ، دون أن يضع مشكلة من مشكلات الحق والخير والجمال · ان الفلسفة ركيزة كل ثقافة حية عميقة باقية · واذا كان ارسطو قد قال قديما : ان الفلسفة «علم كلي» · لانها تبحث فى «الوجود المطلق» ، فانا نستطيع اليوم أن نقول دون اسراف ، انها « العلم الانساني على الاصالة » لانها تشتغل بدراسة المسائل العامة التي تشغل بال الانسانية المفكرة ، والتي لا يفلت أحد من أهل الوعي من ضرورة الادلاء فيها برأي ، أو ضرورة اتخاذ « موقف » كما يقول الوجوديون المعاصرون ·

ونحن أينما ولينا وجوهنا في مجتمعنا الحاضر وجدنا أنفسنا أمام المسائل الفلسفية وجها لوجه ، والتقينا معها باللغة الخاصة التي لم يكن للفلاسفة بد من أن يبتدعوها لاستعمالها فيما يقولون وفيما يكتبون · ومرة أخرى نقول ان الادباء والفنانين والعلماء والسياسيين ورجال الاعمال ـ جميعهم يتفلسفون على طريقتهم ربما دون أن يشعروا ، واحيانا على الرغم منهم ، وكل انسان محتاج الى ان يفهم لغة الفلسفة ، لكي يقرأ ما بين السطور فى جريدته اليومية ·

* * *

ولقد كان للصفوة من النظار الاقدمين ، المعنيين بنمو الثقافة فى كنف الاسلام فضل لا ينكر فى تطويع اللغة العربية للتعبير عن حاجات العصر وشحذ الاذهان المفتحة للوفاء بمطالب الفكر · وكانت ثمرة جهودهم الدائبة فى هذا المجال اثراء للغة والفكر معا ، اذ كانت عنايتهم بالالفاظ عناية بالمعاني أيضا ، وفى الوقت عينه · فلا ريب انهم حين زودوا لغة الضاد بذخيرة من المصطلحات الدالة فى مختلف ضروب المعرفة ، بين عربية ومعربة واعجمية ، قد زودوا الفكر العربي بمفاهيم جديدة ، ونقلوه من مرحلة الدلالة الواحدة بالمترادفات العديدة الى مرحلة الرؤية الواضحة للفروق الدقيقة بين المعاني المتداولة أو المألوفة · ولذلك صح للعلامة ابن جنى ان يقول فى الرد على من ادعى على العرب عنايتهم بالالفاظ واغفالهم أمر المعاني : « فاذا رأيت العرب قد اصلحوا الفاظها وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها وصقلوا غروبها وارهفوها ، فلا ترين ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه وتشريف » ·

واذا كانت هذه نظرة علماء العربية الى العلاقة الوثيقة بين اللغة والفكر ، فلا عجب ان نراهم يعكفون على فنون المعارف فى عصرهم يرتبونها ويصنفونها ويضعون

المعاجم الجامعة لمصطلحاتها الشارحة لمفرداتها ، واستطاعوا بذلك ان يـــؤدوا ، فى اخلاص وأمانة ، خدمة مذكورة مشكورة للمتأدبين والدارسين من أبناء هذه الامـــة الناهضة ، اذ جعلوهم يشعرون عن طريق اللغة المقدودة على قد الفكر بسيطرة الانسان على الطبيعة أو بسيادة (الذات) على (الموضوعات) كما يقول المثاليون المحدثون ٠

ولكن حين طوى الفكر جناحيه ، وفترت نوازع البحـــث والتنقيب باغتراب روح السيادة والاستقلال ، تخلف أبنـــاء العربية عن اللحاق بركـب الحضارة الانسانية ، فتخلفت اللغـة عـن مسايرة الفكـر فى تصعيده وتحليقه : فمنذ « احصاء العلوم » للفارابي ، « والرسائل » لاخوان الصفا ، و « رسالة الحدود » لابن سينا ، و « مفاتيح العلوم » للخوارزمي ، و « ارشاد القاصد » للاحفاني ، و « التعريفات » للجرجاني ، و « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوي ، انصرف أغلـب علمائنا عـن التأليف فى العلوم العقلية ، واهملوا التصنيف فى المعاجم العلمية ٠ واقتصر المحدثون منهم على النقل عن اللغات الاروبية ، دون ان ينتبهوا الى الافادة من التراث العربي القديم ٠

ولكن نود ان نسجل تنويهنا بالجهود القيمة التي بذلها مجمع اللغـة العـربية فى العشرين سنة الاخيرة ، لوضع المعجم الفلسفي الذي ظهرت منه الى الآن ست كراسات ، وتحتوي على المصطلحات الفلسفية باللغتـين الفرنسية والانجليزية ، مـــع مرادفاتها العربية ، وتعريفاتها الموجزة (1) ، ونود أن ننوه أيضا بمجموعة «مصطلحات الفلسفة» اصدرتها لجنة الفلسفة للمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب سنة 1961 ٠ وكتـــاب «المعجم الفلسفى» ليوسف كرم ومراد وهبه ، (1966) (2) : وهي كلها مشاركات عربية نافعة لتحديد أصول الفكر المعاصر وبيان ركائزه الفلسفية ٠

---

(1) ويوالي المجمع اصداره ابتداء من سنة 1962 ٠

2) ينبغى ان نضيف الـى ان صديقنا الاستاذ الدكتور عبد العزيز الحبابى اصـدر معجما فلسفيا باسم : المعين الاصالة ٠

دروس يمليهـــا عثمـــان أمـــين

- جاه العلـم والفلسفة فوق كل جـــاه
- جمال الحقيقة وجلالهـا فوق كل جمـال وجـــلال

د· ابراهـيم مدكـور
رئيس مجمع اللغــة العربية بالقاهرة
ورئيس اتحــاد المجامع العربية

كم املى عثمان امين فى حياته علينا وعليكم دروسا واعية ، روى فيها مـا روى ، وامعن مـا امعن ، روى بعقله ، وامعن بقلبه · فجلا امورا غامضة ، وحل مشاكل معقدة ، وكشف عن حقائق ثابتة ، وادلى باراء صائبة · وفى وسعه اليوم أن يلقى علينا دروسا اخرى كلها عظة وعبرة ، وتوجيه وحكمة · وما اجدرنا ان نصغى اليها ونعيها ، وأن نفيد منها ونعمل بها · وانا على يقين من انكم كنتم تستطيبون دائما حديثه وتعجبون ببحثه · وما دمنا هنـا فى قاعة الدرس ، فانه يروق لي ان اعرض عليكم نماذج من هذه الدروس ، وهي كلها مستمدة من حياة عثمان امــين ومسلكه وشخصه ·

---

1) القيت بكلية الآداب ــ جامعة القاهرة ــ مساء الاثنين 4 ديسمبر 1978 ·
وقد ارسلها الينا الاستاذ مدكور ، ضمن وقائع الجلسة العلنية التى أقامها مجمـع اللغة العربية بالقاهرة لتأبين الفقيد عثمان أمين ، للنشر فى الأصالة ·

وأولها حبه لعمله ، وتفرغه له ، واقباله عليه ، حب عميق اكيد ، ينبعث من القلب ، ويقوم على الايمان واليقين · حب للقراءة والاطلاع ، للافادة والاستفادة ، ومـا كان أسعده يوم أن يقف على بحث ممتع أو كتاب قيم ، أو يوم أن يخرج مؤلفا يفيـد منـه الباحثون والدارسون ، واني لاعلم أن أحب الاوقات اليه هي تلك التي كان يقضيها فى مكتبته بين كتبه ومراجعه ، قارئا أو كاتبا باحثا أو مؤلفا ، ولا أشك فى أن هذه المكتبة قد خففت عنه كثيرا من هموم الدنيا وآلامها · وكلكم يعرف حبه لتلاميذه وطلاب درسه ، فكان يانس لهـم كـل الانس ، ويطيب لـــه أن يحاورهم ويناقشهم ، ويحـرص على أن يوجههم ويرشدهم ، ويباهي بنبوغهم وتفوقهم ، ويسعد بأن ينزلوا منه منزلة الزملاء والاصدقاء ، فكان المربي الحق والمعلم الرائد ·

وشان المحب أن يشقى من اجل مـا يحـــب ، وأن يعاني ما يعاني ، وأن يبذل فى سبيله ما يستطيع من وقت وجهد ، وينفق ما يملك من صحة وعافية · وقد شقى عثمان امين فعلا فى عمله ومنحه الكثير · فقد بصره أو كاد ، واصيب فى سنواته الاخـيرة بعلة كانت دون نزاع وليدة جهوده الطائلة المستمرة ، ومعاناته القاسية · وكم كنـت أود ان أزوره مترددا فى مرضه ، وأن أقضى بعض الوقت الى جانبه ، ولكني كنـت أتحاشى ذلك اشفاقا عليه · وكم عز عليه أنه لا يستطيع متابعة درسه وبحثه ، والاتصال بتلاميذه وابنائه حتى آخر لحظة من حياته ·

احب عثمان امين الدرس والبحث ، فوقف نفسه عليهما ، وتفرغ لهما ، وصرفاه عن زخرف الدنيا ومباهجها · فلم يطلب مالا ، وكان فى وسعه أن يفعل وأن يحصل منه على ما يريد · دعته الى الدرس والمحاضرة جامعات شتى عربية وغير عربية ، ولـم يستجب الا لقليل منها ، ولم يخرج من رحلاته بشيء يذكر · ولعل أقسى هذه الرحلات سفره السنوي الى لقاء الجزائر ، تلبية لرغبة تلميذ عزيز عليه ، ومـا كان أشبهه فى هذه السفرات بالمتطوعين والمجاهدين فى سبيل الله · وأذكر أني كلفت مرة ان أرجوه فى أن يقضى عاما دراسيا فى باكستان ، وما كان يرفض لى طلبا ، فلبى وقضى عامه فى حدود الكفاف ، ونحن نعلم ظروف باكستان الاقتصادية والمالية · ولم يتردد عثمان امين فى المعاونة والمساعدة ، وفى أن يؤدي ضريبة العلم والمعرفة عـن طيب خاطر · وأغلب الظن انه رفض العروض المغرية التى كانت توجه اليه مؤثرا البقاء قريبا مـــن مكتبته ، لكي يستطيع متابعة الدرس والبحث ، وما أغناها من مكتبة متخصصة ، وأنا على يقين من انه سعيد الآن فى قبره كل السعادة ، لان هذه المكتبة أهديت الى جامعته ،

وستبقى موردا عذبا للدارسين والباحثين ٠ ولا أشك فى أن كليته تقدر هذا الاهـداء الكريم ، وتسجله بما يستحق من تكريم ورعاية ٠

ولم يسـع عثمان أمـين الى جاه ، وكانت أبوابه مفتحة أمامه ، ومن بين تلاميذه وأصدقائه القادة والرؤساء ٠ ولكنه كان يتحرز من ذوى النفوذ والسلطان ، فلا يقترب منهم ولا يسعى اليهم ٠ وكانت كلمة الحق عنده فوق كل كلمة ، ولابد له أن ينطق بها ، رضي الناس أو غضبوا ٠

وقديما قيل : « ان قول الحق لم يدع لى صديقا » ومهما يكن من أمر فان فقيدنا كان يؤمن فيما يبدو بأن جاه العلم والفلسفة فوق كل جاه ، وان آمن بهذا فليكن ٠

✡ ✡ ✡

والدرس الذي نخرج به من كل هذا هو أن عثمان أمين يدعو شباب اليوم دعـوة مخلصة الى أن يحبوا عملهم فى صدق ٠ وأن يلتزموا به فى أمانة ، وأن يقبلوا عليه اقبالا تاما ، والدهر يجد ولا محل لان نهزل ٠ وفى حبهم ما يذلل الصعاب ، ويشـق الطريق ، ويقود الى النجاح ٠ واياهم أن يكون هدفهم مجرد أداء الواجب ، أو سـد الخانة كما يقال ، أو دفع المسؤولية ٠ انهم ان أحبوا عملهم سعدوا به ، وجنوا ثماره على خـير وجـه ٠

✡ ✡ ✡

لقد تسلح عثمان أمين لعمله بأسلحة شتى ، أخصها صبر وجلد ، وقد رزقه الله صبرا يغبط عليه ، وجلدا مكنه من تحمل كثير من المصاعب ٠ نفسه طويل ، ومثابرته لا تنقطع ،ومتابعته دائمة لم يتعجل نشرا ، ولم يبتغ قط اعلانا ولا دعاية ٠ وقد أولـع بالتجويد الى أقصى درجة : تجويد فى خطه ، تجويد فى أسلوبه ، تجويد فى درسـه وبحثه ، تجويد فى مظر مؤلفاته وكتبه ، واستحق عن جدارة لقب الفيلسوف الفنان ٠ كان يحب الجمال فى كل شيء ، وجمال الحقيقة وجلالها عنده فوق كل جمال وجلال ٠ وكثيرا ما دفعه التجويد الى اعادة النظر فيما كتب وألف وقل أن يعيد طبع كتاب مـن كتبه ، دون تنقيح وتمحيض ٠ يبدأ البحث فى شبابه ، ويتابعه فى عمق وتحقيق سنين طوالا ، ولا يكاد يخرجه للناس الا فى كهولته ، وان بدأه كهلا روى فيه زمنـا ، وربما لا ينشره الا فى شيخوخته ٠ وأنا أعلم أن بين مخطوطاته معجما فلسفيا يرجع الى ربع

قرن أو يزيد وفى مخلفاته مذكرات ودراسات أر جو أن تخرج الى النور · ولن اقـف الآن عند انتاجه القيم الغزير ولا عند آرائه وفلسفته · وقد عرضت لشيء من ذلك فى تصدير « الكتاب التذكاري » لبلوغه سن السبعين الذي قدم للمطبعة مع الاسف منـذ أيام فقط ، وكان ينبغي أن يظهر منذ زمن لكي تقدم التحية فى حينها لمن هو جدير بها ، وكأنما شاء القدر أن يكون هذا الكتاب تذكارا لرحيله عنا · وكم يذكرني صنيع عثمان أمين فى تأليفه وانتاجه بما جرى عليه نفـر من شيوخ المستشرقين الالمان فى أخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، فقد كانوا يقفون عند الموضوع الواحد عدة سنين ، وأذكر من بينهم اللغوي الكبير فيشر الذي قضى نحو نصف قـــرن فى اعداد معجـم تاريخي للغة العربية ·

ولسوء الحظ جاءت الحرب العالمية الثانية ، فاعترضت جهوده ، وعاجلته المنية ، وحرمنا من ثمار هذا النفس الطويل ·

* * *

وهنا أيضا يوجه عثمان أمين دعوة أخرى الى أبنائه وتلاميذه بالتأني والتجويد ، تأن لا يؤدي الى كسل أو تباطؤ ، وتجويد يكشف عن هممهم ومواهبهم ، ويضعهم فى مصاف شباب العالم المتقدم · حقا أننا نعيش فى عصر السرعة ، ولكننا نعيش أيضا فى عصر الاجادة والاتقان وسرعة بلا تجويد جهد ضائع ، وعمل لا قيمة له ·

* * *

تسلح عثمان أمين لعمله بسلاح آخر له وزنه وقيمته ، ألا وهو زاده اللغوي الوافر الثمين · فقد تعلم العربية فى صباه ، واستمر يجودها طوال حياته · عنى بالوضوح والسهولة ، والاناقة والدقة ، وعرف كيف يقدم فلسفته فى ثوب قشيب جذاب · وكان يؤمن بأن العربية قادرة على أداء شتى المعاني واعقد النظريات ، ومن بين ما كتـــب ما يسمو الى مستوى الادب الرفيع · واستطاع فى مرحلة التعليم العـــام أن يدرس أيضا اللغة الانجليزية ، وتابع قراءاته فيها أثناء تعليمه الجامعي حتى تمكـن منها · وكانت كلية الآداب تحرص قديما على أن يدرس طلاب الفلسفة لغة حية ، ففتح أمامه باب اللغة الفرنسية على مصراعيه ، وأولع بها ، واستمع فيها الى دروس ومحاضرات من أساتذته الفرنسيين شيوخ الفلاسفة المعاصرين ، أمثال بربيه ولالند · وكان لبعثته

الطويلة بباريس ما مكنه من أن يجود لغته الفرنسية تجويدا تاما ، فأحاط بتاريخها ، ووقف على كتابها وادبائها إلقدامى والمعاصرين ، ودرس ادبها عامة درسا مستفيضا ، وكتب بها وألف • وكان لكلية الآداب تقليد: اخر يخيل الى أنه اندثر تماما ، وهو توجيه نظر طلاب الفلسفة نحو اللغات الاروبية القديمة • فكان للاتينية درس منتظم طـــوال أعوام الدراسة ، واحتفظ لليونانية بمكان فى دراسات الامتياز • وقد نمى عثمان امين زاده من هاتين اللغتين نموا واضحا أثناء مقامه فى فرنسا ، وكثيرا ما استمع مجلس مجمع اللغـة العربية فى انصات الـى تحليلاته ومقارناته الدقيقة للاصـول اللاتينية واليونانية لبعض المصطلحات العلمية • وهذا الزاد هو أنجع وسيلة لبحث علمـــي أو فلسفي دقيق مكتمل ، وهكذا كانت بحوث عثمــان أمــين ، فى تاليف أو ترجمـة أو تحقيق ويكفي أن نشير من بينها الى مثل واحد ، هو : « كتاب الفلسفة الرواقية » ، وفيه خير شاهد على ذلك •

* * *

ومن هذا نستلهم درسا ثالثا نقف عنده ، وان لم يكـــن الدرس الاخير من دروس عثمان أمين ، فقد كان يرى أن المثقف الحق لابد له أن يتمكن من لغتــه القومية تمكنا تاما ، وان يتذوقها تذوقا صحيحا ، وأن يعبر بها تعبيرا سليما • ويرى أيضا أنه لا يقبل بحال من جامعي طالبا كان أو أستاذا ، أن يقف عند لغته الوطنية وان جودها • بـــل لابد له من لغة أجنبية على الاقل يجودها تجويدا يمكنه من القراءة والكتابة والتعبير السليم • وبذا يستطيع الاتصال بالفكر الانساني فيأخذ عنـه فى صـــدق ويعطيه فى وضوح وجلاء ، والعلم لا وطن لــه •

* * *

لقد أعطى عثمان أمين فى حياته عطاء سخيا ، وهــا هو ذا يعطي اليوم بعد موته بنفس الروح السخية الكريمة • فقد كان ولا يزال قدوة مثــلى ، ورائدا حقا ، ومعلما صــادقا ، ومــربيا أمينــا •

تغمده الله برحمته وجزاه جزاء وفاقا على ما قدم لوطنه وأمته •

والســلام عليكم ورحمة اللــه •

خواطر حول موضوع الحرية (1)

اعد هذا البحث
عبد الكريم المراق
متفقد الفلسفة ـ تونس

قد يبدو ان الحديث فى هذا الموضوع هو من السهولة بمكان خاصة وان كلمة الحرية قد اصبحت متداولة عند جميع الناس حتى انه لا يكاد يخلو مجلس أو مؤسسة صغر شانها أو عظم من الحديث عن الحرية غير ان شيوع استعمال هذه الكلمة كان عاملا مساعدا جدا على ان تتعدد حولها المفاهيم تبعا لاستعمالات الناس ، والاوضاع الثقافية ، والاجتماعية التى هم عليها وبالتالى تبعا للزاوية التى تتحدد من خلالها رؤية هذا الموضوع ٠ ولذلك فان السؤال الذى يطرح نفسه هو الى اي مدى يتلاقى الناس حول مفهوم موحد لكلمة الحرية ؟

فنحن اذا ما نظرنا مثلا فى تركيب مؤسسة العائلة ودرسنا نوع العلاقات السائدة بين العناصر التى تساهم فى هذا التركيب من علاقات بين الابوين وعلاقات بين الابناء ثم العلاقات بين الآباء من جهة والابناء من جهة أخرى ، ان التعرف على الطريقة التى

(1) بحث القى فى الملتقى الثانى للامام المازرى بالمنستير بالجمهورية التونسية ٠

تبني بواسطتها هذه العلاقات يقودنا حتما الى الحديث عن نوع التربية السائدة داخل هذه المؤسسة ، هل ان اسلوب الكبت والقهر هو السائد أم إن طريقة الاهمال والحرية الكاملة هي المعمول بها أم ان الابوين يوفران الجو السليم الذى يضمن المناخ الملائم لتنشئة الاطفال تنشئة حرة مع اشعارهم بقيم المجتمع التى هم مدعوون للتقيد بها حتى ينشأوا نشأة اجتماعية سليمة ؟

ومن هنا يتبين كيف ان موضوع الحرية يلعب دورا أساسيا فى ميدان حيوي هو ميدان التربية ٠ وما قيل فى هذا الموضوع عن العلاقات داخل الاسرة يصح ان يقال عن المدرسة هذه المؤسسة التى كانت على موعد مع قضية الحرية فى التربية منذ نشأتها ؛ وقد ذهب المعنيون بشؤون التربية فى هذه القضية مذاهب شتى بين مؤيد ومعارض أو من هم من أصحاب الحلول الوسطى، ولا أعتقد ان الحوار سينتهي يوما الى حل بات فى هذه القضية ٠

وشبيه بهذا ، بل وعلى نطاق أكثر اتساعا وأكثر حيوية الحديث بمختلف الوسائل من مقروءة ومسموعة ومرئية حول ما يعرف بالحرية المدنية التى لا معنى لوجودها الا فى اطار الحياة الاجتماعية ، علما بأن هذا النوع من الحريات تقيده شروط خارجة عن نطاق الفرد وتحدده القوانين والانظمة الموضوعة للمصلحة العامة ، أي اننا لا يمكن أن نتصور حرية مدنية مطلقة الا اذا سلمنا مثلا مع ابن الطفيل بأن بطل قصته حي ابن يقظان كان بالفعل يعيش لوحده فى جزيرته النائية ٠

ان هذه الحرية المدنية هى اذن وفى الاصل حق طبيعى يتمتع به الانسان داخل المجتمع فى اطار القوانين وهذا مثل : حرية القول وحرية العمل وحرية الاجتماع وحرية التملك ، وحرية البيع والشراء ، وحرية التعلم ، واختيار الزوجة ، ونوع المهنة وكذلك حق التنازل عن الملك بالمعاوضة أو بالهبة أو بالوصية ٠

ثم وبجانب هذا الطابع الاجتماعى المدنى للحرية نجد أن لها مظهرا سياسيا يتمثل فى المطالبة بضمان حق الاشتراك فى الاعمال العامة مثل الحق الانتخابى وحق مراقبة أعمال السلطة المدنية وهذا هو ما يعرف بالحرية السياسية التى لا تتحقق الا فى ظل النظام الديمقراطي الذى يمارس فيه جميع الافراد حقوقهم فى وضع القوانين والسهر على تطبيقها إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة.ومعلوم ان هذا المعنى لا يتحقق فى ظل النظم الاستبدادية التى تحرم افرادها هذا الحق؛ مع العلم بانه من طبيعة النظام

الاستبدادي ان يكون مصحوبا بالظلم ، كما أن زوال الحرية السياسية يصحبه زوال للحـرية المـدنية ·

ثم انه من المدلولات الشائعة لهذه الكلمة المدلول الاخلاقى المتمثل فى حرية واستقلال ارادة الانسان عن الضغوط والمؤثرات الادبية سواء أكانت خارجية مثل تأثير العادات والآراء والاوهام وغيرها من الميول الاجتماعية الاخرى التى تقيد الشخصية الفردية ، أم كانت ذاتية فى الفرد نفسه مثل تاثير الاهواء والغرائز والعادات الفردية؛ذلك ان هذه البواعث من شأنها أن تؤثر فى شخصية الفرد وتمنعه من الاتجاه نحو الغايات السامية ، خاصة وان الحرية الاخلاقية تقتضي ان يكون الفعل صادرا عن تفكير وتأمل وعـلم · وهذا يحرر شخصية الفرد من سيطرة الاهواء والحاجات الطبيعية · وبذلك يسمـو درجات فى تحرير نفسه من الجهل ويترقى الى درجة الكمال ، وهذا هو ما يعرف بحرية الكمال التى يقيدها العقل ومبدأ الخير · ان هذا الصنف من الحرية هو مثل أعـلى يتطلع اليه الحكيـم باستمرار · ويؤكد « ليبنتز » هذا المعنى فى قوله « كلما كان سلوكنا اكثر مطابقة لاحكام العقل كانت حريتنا أوسع وكلما كان خضوعنا لاهوائنا أقـوى كانت عبـوديتنا أعظـم » ·

ومن المؤيدات الدالة على حرية الارادة ان قراراتها واحكامها تاتي بعد تفكيـر وتردد وبذلك يكون الفعل الصادر عن الارادة مستقلا عن الشرائط الخارجية وكذلـك عن البواعث الداخلية من تصورات وعواطف أى ان فكرة الحرية تحتمل إمكان وقوع الفعل أو عدم وقوعه على السواء · وفى حالة تساوى الاسباب المتعارضة تكـون الفعل أو عدم وقوعه على السواء · وفى حالة تساوي الاسباب المتعارضة تكون حرية اللامبالاة · فهذه الحرية هى القدرة على أخذ القرارات رغم عدم وجود المرجح وهى غير حرية الاختيار التى هى القدرة على فعل الشيء أو عدم فعله ·

وقد شغلت هذه القضية العقل الانساني منذ أقدم العصور وحتى اليوم · منذ ذلك مثلا ان «ارستيبوس» القورينائى نظر الى الحرية الانسانية فى اطار ما يمارسه مـن لذات مادية حسية آنية فكان شعاره « ولك اللحظة التى انت فيها فاغتنمها قبـل ان تفوت » فى حين أن أبقور قد فضل لذة أدوم وأبقى هي اللذة العقلية فى ظل التحـرر من المخاوف حتى ننعـم بالسعادة · فالالهة لا يعنون بالعالم ، والعالم مادة وحركـة ليس غير ، ومن هنا فلا معنى للقدر · ويتبين من هذا ان مذهب ابقور مادي صـرف

وذلك انطلاقا من فلسفته الطبيعية التى اعتمد فيها فلسفة ديموقريطس فى الجوهر الفرد، وبنى عليها آراءه فى الاخلاق والسياسة والاجتماع ·

وفى مقابل هذا الاتجاه الذى ينفى القول بوجود القدر نجد نزعة معاكسة كان قد مثلها زينون الرواقى · فبالرغم عن ان الرواقيين ماديون على مذهب هرقليطس الطبيعى ، أى انهم يتفقون فى هذه النقطة مع الابيقوريين فانهم يخالفونهم فى تصور المادة . ذلك ان الرواقيين لا يعتقدون فى الجوهر الفرد أى فى الجزء الذى لا يتجزء من المادة بل يرون بأن المادة متجزئة بالفعل الى غير نهاية وأن النار هي التى تمسك اجزاء الجسم الواحد وتجعله واحدا،كما انها هي التى تربط اجزاء العالم وتجعل منه كلا متماسكا · ورأيهم فى النار هو رأي « هرقليطس » من انها شىء حي فيه قانون أو قدر أو عقل تعمل بموجبه وان العالم جسم حي نفسه النار العاقلة · ثم انهم أصحاب نزعة حلولية أي لا يفصلون بين الله والعالم،فالعالم هو اللــه ، وبذلك فهــم يجعلون اللــه فى العالم ويجعلونهما موجودا واحدا يتطور من النار الصرفة الى مظاهر الكون المختلفة ، ثم تخلص النــار من هذه المظاهر فيحـــدث « الاحتراق العـــام » ، وتعود فتطور على نفس هذا النسق وهكذا الى ما لا نهاية · واذا كان فى الطبيعة قانون وعقل وكان الانسان جزءا مـــن الطبيعة ، فوظيفته ان يحيا وفقا للطبيعة وللعقل والا كان متمردا على القانون الكــلى متوهما نفسه مستقلا عن سائر الوجود وهو جزء منه مرتبط به كل الارتباط ·

هذا ويتعرف الانسان على قانون سيرته بالرجوع الى ميوله الاساسية ، وقـــد وضعت الطبيعة فيه هذه الميول لتدله على ماذا تريد منه ·

ويعتبر حب البقاء الميل الاولي الذي يهديه الى التمييز بين ما يوافقه ويحفظ كيانه وما يضاده ويعمل على افنائه ·

واذا كانت الطبيعة فى الجماد والنبات تتجه الى غايتها عفوا دون تصور ولا شعور واذا كانت فى الحيوان تتجــه الى غايتها بالغريزة دون تصور أو شعــور فــانها فى الانسان تتخذ طريق العقل الذى هو اكمل الطرق لتحقيق اسمـــى الغيات ، والانسان مدعو لان يستكشف فى نفسه العقل الطبيعى وان يترجم عنه بأفعاله . أى أن يحيي وفق الطبيعة والعقل ، كما أن الحكيم هو الذى يضـــع الحكمة والخير فى مطابقة ارادته للارادة الكلية · ذلك ان الارادة الصالحة هى شىء مطلق كالارادة الكلية، والانسان الكامل هو الذي يعلم ان كل شيء فى الطبيعة انما يقـــع بالعقل الكلى أو بالارادة الإلاهية أى

بالقدر؟ بحيث يعتبر ميوله بمثابة الوظائف لتحقيق هذه الارادة الكلية ويقبل ما أراده القـــدر ٠

فاذا ابتلي الانسان بمرض أو أصابته مصيبة آثر ذلك لعلمه انه مقدر عليه فيتوفر له الخير الحقيقى فى كل حال ٠ اللهم الا اذا نزلت بـــه فوادح لا تطاق فله حينئذ ان ينتحر ليتخلص من حياة لم يعد فيها شىء مطابق للطبيعة ، وفيما عدا هذه الشدائـد فانه يصمد للدهر ، لا يخاف ولا يرجو ولا يأسف ولا يندم بل يرتفع بنفسه فـــوق كل شىء ويحتفظ بحريته وينعـم بفضيلته ٠

أما الانسان الشرير أو الضال فهو الذى غابت عنه فكرة الطبيعة الكلية فاتخـذ نفسه مركزا للوجود وانحرفت ميوله عن استقامتها الاولى فعارض الخير الكلي باشباح من الخيرات الجزئية أو المنافع وحصر سعادته فيها فتعرض لشتى الهموم والآلام لان افعاله مناقضة للحكمة كل المناقضة وكلها عصيان للطبيعة وللعقل ٠

ان نفس هذا المعنى يكاد ان يكون قد ظهر من جديد على يد خصوم المعتزلة مـن اتباع « جهم ابن صفوان » مع الفارق الجوهري فى المنطلق ذلك انه فى حين ان منطلق الرواقيين هو المادة نجد ان منطلق الجبرية هو الله بما له من قدرة مطلقة وارادة مطلقة وشاملة ٠ فقد ذهبوا الى القول بان الانسان مجبور ، وليست له ارادة حرة ولا قـدرة خاصة به على خلق أفعاله ، انه كالريشة فى مهب الرياح أو كالخشبة تتقاذفها الأمواج وانما يخلق الله الاعمال على يديه ، وتنسب الافعال الى الانسان مجازا ، كأن يقـــال : ضرب فلان وكتب وأساء وهذا مثل قولك : اثمرت الشجرة وتحرك الحجر ، وطلعـت الشمس ، وامطر السحاب ٠ ومن أدلتهم : ان الانسان ان كان موجدا لافعاله وخالقا لها وجب ان تكون هناك افعال لا تجرى على مشيئة الله واختياره ، ويكون هناك خالق غير الله وكذلك استدلوا بآيات من القرآن تدعم موقفهم مثل قوله تعالى : « اللــه خالق كل شىء » ٠ « والله خلقكم وما تعملون » ٠

وفى مقابل هذا الاتجاه الجبري نجد النزعة العقلية الاعتزالية المتحررة التى أقامت مذهبها على القول بأن ارادة الانسان حرة وان له قدرة خاصة به يخلق بها أفعاله ، ذلك لان أفعال العباد مخلوقة لهم ، ومن عملهم هم وليست من عمل الله ، وباختيارهم المحض، ففي مقدورهم ان يفعلوها وان يتركوها من غير دخل لارادة الله وقدرته ٠ ان الحركة الارادية مرادة للانسان مقدورة له بخلاف الحركة الاضطرارية فلا دخل له فيها ٠

ثم انه لو لم يكن الانسان خالقا لأفعاله لأ بطل التكليف ، اذ لو لم يكن قادرا على ان يفعل والا يفعل ما صح عقلا ان يقال له افعل ولا تفعل ولما كان هناك محل للمدح والذم والثواب والعقاب بل ما كان لنبوة النبيء واصلاح المصلح فائدة · وفوق هذا فقد استدلوا بكثير من الآيات القرآنية لتأييد موقفهم من هذه القضية من ذلك مثلا قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » · ومن حججهم ايضا انه : ان كان الله خلق أعمال الناس فهو اذن لا يرضى عما يفعل ويغضب مما خلق ودبر ·

وأمام هذين الاتجاهين المتعارضين حاول ابو الحسن الاشعري العثور على حل وسط فاخترع ما اسماه « الكسب » وأساسه أن الله تعالى أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وارادته لا بقدرة العبد وارادته-فهذا الافتراض هو الكسب وهو فى الحقيقة جبرية مقنعة لان القدرة الحادثة لا تؤثر فى المقدور ·

وكذلك حاول ابن رشد أن يتقدم بحل جديد له طرافته الخاصة فقال : « يظهر أن الله تبارك وتعالى قد خلق لنا قوة نقدر بها أن نكتسب أشياء هي أضداد ، لكن لما كان الاكتساب لتلك الاشياء ليس يتم لنا الا بمواتاة الاسباب التى سخرها الله لنا من خارج وزوال العوائق عنها كانت الافعال المنسوبة الينا تتم بالامرين جميعا » ثم يضيف ابن رشد بعد أن يؤكد ان هذه الاسباب التى سخرها من خارج ليست هى متممة للأفعال التى نروم فعلها أو عائقة عنها فقط ، بل هى السبب فى أن نريد أحد المتقابلين · يضيف قائلا « فان الارادة انما هي شوق يحدث لنا عن تخيل ما أو تصديق لشيء · وهذا التصديق ليس هو لاختيارنا ، بل هو شيء يعرض لنا عن الامور التى من خارج · مثال ذلك اذا ورد علينا أمر مشتهى من خارج استهيناه بالضرورة من غير اختيار، وكذلك اذا طرأ علينا أمر مهروب عنه من خارج كرهناه باضطرار فهربنا منه واذا كان هكذا فارادتنا محفوظة بالامور التى من خارج ومربوطة بها » ·

ثم ان ما نقوم به من أعمال هو نتيجة أمرين : « أسباب خارجية وارادة ذاتية ، ولما كانت هذه الاسباب الخارجية تجرى على نظام محدود وترتيب منضود لا تختل أبدا ، وكانت ارادتنا الداخلية معلولة بهذه الاسباب كانت ارادتنا كذلك جارية على نظام محدود » والنظام المحدود الذى فى الاسباب الخارجية والداخلية هو القضاء والقدر الذى كتبه الله على عباده وهو اللوح المحفوظ « بحيث اذا نحن نظرنا الى الاسباب الخارجية وحدها قلنا ان الانسان مجبور واذا نظرنا الى الارادة وحدها قلنا : ان الانسان مختار وبهذا يمكن الجمع بين الآيات التى يدل ظاهرها على التعارض : « وبهذا

تنحل جميع الشكوك التى قيلت فى ذلك أعني الحجج المتعارضة العقلية ، أعني أن كون الاشياء الموجودة عن ارادتنا يتم وجودها بالامرين جميعا أعني بارادتنا وبالاسباب التى من خارج . فاذا نسبت الافعال الى واحد من هذين على الاطـــلاق لحقت الشكـوك المتقـدمة » (1) .

وهكذا نرى كيف أن ابن رشد مال الى تقديم حل هو أقرب الى التسليم بالضرورة الفلسفية . وهنا نصل الى طرح المشكل بهذه الصيغة : هل يمكن القول بعد هذا بأن للانسان حــرية مطلقــة ؟

ان هذا التساؤل يبقى غير ذي موضوع بعد أن تبين الى أي مدى يكون الانســان معرضا لعوامل وأسباب تعمل على الحد من هذه الحرية ، الامر الذى يؤكـــد نسبتهـــا فى مقابل حرية مطلقة تبقى خاصة بالمطلق وحده أى بالاله . وفى هذا المعنى يقول «لبنيتز» ان الله وحده كامل الحرية ، أما النفوس المخلوقة فلا حرية لها الا من حيث هي قادرة على التخلص من الاهواء .

أعتقد أنـــه يجب النظـــر فى موضوع الحرية من ناحيتين : الناحية النفسانية الشعورية والناحية الكونية،ذلك أن هذا الموضوع قد بحث من حيث هو ظاهرة مـــن ظواهر الشعور كما بحث باعتباره يمثل حادثة تتنافى مع التقيد الطبيعى .

لقد أكد العديد من الدارسين على أن الشعور الفردى شاهد على وجود الحرية ، ذلك اننا نشعر خلال الفعل الارادى بأننا أحرار ، حتى قال « هنرى برقسون » بأن الحرية هى احدى ظواهر الشعور ، كما قال « بوسويه » « كل منا يصغي لصوت قلبه ويستشير نفسه يشعر بأنه حر الارادة بقدر ما يشعر بأنه مدرك وعاقل » بحيث كل انسان فى مقدوره أن يدرك هذه الدرجة من الشعور اذا كان عاقلا مدركا .

ثم ان الحرية فى نظر « ديكارت » يدركها الانسان ادراكا حدسيا دون ما حاجة الى برهان عقلي ، ذلك ان الانسان يشعر بها فى داخله حتى انه من رأي «بوسويه» ، ان الانسان السليم العقل لا يحتاج الى البرهان على حريته لأنه يشعر بها فى داخله قبل الفعل وأثناءه وبعـــده .

---

(1) الكشف مناهج الادلة ــ ابن رشد .

فنحن نشعر بالحرية قبل الفعل لما لنا من حرية النظر بالاسباب واخضاع نزعتنا لميزان العقل ·

كما نشعر بالحرية أثناء الفعل لان العقل يدرك حركة الفعل من داخل فيطلع على عفوية الارادة فى تصور الغاية ويدرك أن الحرية فى المذاكرة وأخذ القرارات ، بحيث نشعر بان التامل يوجه الانتباه الى الاسباب المعقولة ويجمعها حول الغاية المقصودة من غير أن يكون مقيدا كل التقيد بالعوامل القوية ، ثم اننا أثناء أخذ القرارات نشعر بأننا أحرار فى اتباع الاسباب او الامتناع عنها ، اي انه يمكن القول بأن الانسان يشعر بانه قادر علي الفعل بقدر ما يشعر بأنه عاقل حيث يشعر فى الحالة الثانية انه مفكر ·

ثم اننا نشعر بالحرية بعد الفعل ، عن طريق الشعور بالمسؤولية الناشئة عن الفعل فلولا أننا احرار لما شعرنا بالمسؤولية ولا بارتياح الضمير او تبكيته بعد الاحسان او الاساءة · فنحن نشعر بالحرية لاننا نعلم أن مباشرة الفعل او اتمامه او الانصراف عنه كل ذلك متعلق بنا كما أن الندم عن أفعالنا السيئة هو ندم على سوء الاختيار وهو حالة شعورية ولا ريب ان الفعل الحر بهذا المعنى مشابه للكشف العلمي او الاختراع الفني ، فما الكشوف العلمية والاختراعات الفنية الا ظاهرة من ظواهر الفاعلية النفسية الحرة حتى أن الفيلسوف الالماني « كانط » جعل من الحرية أساسا للحياة الاخلاقية فقال : « الواجب يتضمن الاستطاعة والحرية ليست أمرا تجريبيا بل هو موضوعة من موضوعات العقل العلمي ولا وجود لها فى عالم الحوادث لان هذا العالم لا يدل على تقيد الحركات الطبيعية فحسب بل يدل أيضا على تقيد الحركات الارادية أما الشيء بذاته فيشتمل على الحرية كما يشتمل على الاختيار فالحرية خارجة عن العالم المحسوس غير مقيدة بالزمان والمكان · ومن هنا فهي شرط للواجب والمسؤولية معا » ذلك ان معاقبة المضطر شبيهة بمعاقبة الحجر على السقوط أو معاقبة المعدة على الهضم .

ان هذا الموقف الكنطي يؤكد بوضوح على القول بأن الحرية قيمة تستمد وجودها من عالم خارج عن اطار مقولتي الزمان والمكان أي هي قيمة مطلقة وعامة · ولكن ما هو موقف الفلسفة الوجودية من هذا ؟ ان الحرية ليست موضوعا خارجا عن الانسان ولكنها معاناة يعيشها صاحبها أثناء العمل ومن خلال هذا يثبت وجود الانسان وتتقرر شخصيته · ذلك ان الحرية فى نظر الوجودى ليست موضوعا محددا يمكن اثباته بالبرهان المنطقى كما هو الشأن بالنسبة للنظريات الرياضية لان الانسان ما هو الا مجموعة من

أعمال حرة ومتجددة باستمرار ، ذلك ان ماهيته هي الحرية نفسها . فالحرية عند الانسان هي حرية فردية كما أن ماهيته هي الحرية نفسها حتى انه كان شعاره · « انا حر فانا اذن موجود » وانطلاقا من أن الانسان هو وحده من دون سائر الموجودات يقوم بأفعاله عن وعي وتلقائية فهو الكائن الوحيد الذى يتصف بالحرية دون بقية الموجودات التـى تخضع فى تكوينها للقوانين الطبيعية ·

ثم ان الوجود سابق عن الماهية ولذا فان الانسان يصنع ماهيته الخاصة به عـن طريق وعيه واختياراته الحرة وبذلك يحقق النموذج الذى يراه ملائما لشخصيته ومن هنا كانت الحرية ظاهرة شخصية وهي وحدها المعبرة عن وجود الانسان،هذا الانسان الذى رمي به فى هذا العالم دون ارادة منه وحكم عليه بأن يكون حرا وأن يتحمل نتائج اختياراتـه ·

١

كانت هذه نظرة سريعة حول موضوع الحرية باعتبارها حالة شعورية ثم شعورية واعية ان صح التعبير كما هو رأى الوجوديين · ولكن اذا كان الشعور دليلا على الحرية فان هذا ينبغى أن لا ينسينا بأن العلم يقوم على التقيد الطبيعي ، ذلك أن الانسان نفسه ظاهرة طبيعية ؛ فهو يخضع فى الكثير من أنماط سلوكه الى طبيعة تركيبه البيولوجى بحيث يمكن القول بأن الشعور بالحرية لا يعدو كونه وهما ينشأ عن جهلنا للضرورة · أليس الحالم والمستهوى والسكران يتوهمون انهم يمارسـون أفعالهـم بحرية ؟ ثـم انــه لــو كانت الابرة المغنطة أو المروحة أو دوامة الماء واعية وشعرت بدورانهـا وهى تجهـل سببه أليست تتوهم أنها تدور من تلقاء نفسها حرة مختارة ·

ومن هنا هل يمكن التاكيد بان الحرية بمعناها المطلق غير ممكنة الوجود بالنسبة للانسان؟و فى حالة التسليم بهذه الحقيقة على أساس أن الحرية كصورة مجردة هي حرية كاذبة وصورة وهمية من صور الحرية « هيقل » وفى هــذه الحالة اذن يمكــن القول مع هيقل بأن الحرية هي وعي للضرورة؟أن هذا الوعي للضرورة يتمثل فى معرفة القوانين التى تقف حائلا دون تحقيق الحرية سواء اكانت هذه القوانين ذات طابــع اقتصادي أو اجتماعي أو طبيعي أو نفسي أو بيولوجى ·

ومن هنا يكون الهدف من عملية التحرر ليس فى ازالة هذه القوانين والتخلص منها اي ليس فى تغيير الطبيعة ولكن فى استغلال هذه المعرفة بمهارة فى سبيــل تحقيـق أهداف الانسان وبهذا تكون الحرية الانسانية أمرا نسبيا ناميا ومتطورا ، وهذا هو ما عرف بعملية التحرر الذى تجسمه محاولات الانسان فى أن يــلائم بين متطلبات الضوابط

الاجتماعية ومتطلبات توق الانسان نحو ارضاء ميله لان يعيش حـــرا · وبهذا تكون **الحرية سعيا متواصلا نحو ايجاد ظرف أفضل من العيش وفى شتى مجالات الحياة ·**

ومن هنا تكون الحرية وعيا بالوجود وممارسة شاملة فى اطار لا نتجاوز فيـه حدود الآخرين · ومما يؤكد هذا ان الانسانية على اختلاف أجيالها وفى شتى بقاع الدنيا كانت **وما تزال تصارع من أجل فك القيود ورفع الضيم؛وفى هذا ارضاء لنزعة طبيعية فى الانسان تدفع به الى التحرر ·**

غير أن هذه النزعة قد يعتريها شىء من الفتور فتضمر وتختفى نتيجـة لتواصل عملية القمع والكبت لمدة طويلة الامر الذى يؤدي الى أن يعتاد الناس العبودية والطرق فيحبوا الاغلال التى تقيدهم وبهذا تعوض ظاهرة العبودية كشىء مكتسب ظاهرة التحرر كاستعداد طبيعى ومن أجل هذا فان الحذر الدائم واليقضة المستمرة هما أمر لازم فى سبيل الحفاظ على الحرية وحمايتها ·

سياســــة الخلافــــة الامويـــــة
تجـــاه المغـــرب
ولا سيمـــا فى الميـــدان المـــالى

د. الحبيب الجنحـاني
كلية الآداب والعلوم الانسانية
ـ تـونس ـ



ان الجوانب التي تهمنا فى هذه الدراسة هـي مـا يتصـل منهـا بالسياسة الاقتصادية والجبائية ، ولكـن السياسة التي اتبعتها الخلافة الاموية فى المغرب فى هذا الميدان تعكس سياسة مالية عامة للخلافة ، ومن هنا فانه لا يمكن فهم هذه السياسة الا فى نطاق رؤية كلية شاملة لقضايا المجتمع العربي الاسلامي خلال العصر الاموي ٠

ان لتاريخ المغـرب الاسلامي ميزاته الخاصة ـ دون ريـب ـ ولكن للاختيارات الاساسية للحكـم المركزي فى المشرق تاثيرها الواضح ، وصداها العميق فى شؤون المغرب ، فليس من الغريب ـ اذن ـ أن يلمس المـرء نقاط ضعف ، أو يقـف على هنـات تلفـت النظر فى بعض الدراسات التاريخية حول المغرب الاسلامي فى العصر الوسيط تكمن وراءها معرفة سطحية بتاريخ المشرق الاسلامي ، أو فصل لاحداث المغرب عن أحداث المشرق ٠

ونـلاحظ بـادىء ذي بـدء :

أولا ـ أن المصادر التي تروي لنا أخبار الحكم الاموي لبلاد المغرب تعد متأخرة عن زمن الاحداث حيث أن أقدم نص بلغنا قد ألف بعد مرور ما يربو عن قرن من سقـوط

الخلافة الاموية ، ونعني هنا « فتوح مصر واخبارها » لابن عبد الحكم (182 ـ 257 هـ 798 ـ 9 ـ 871 م) (1) ، وهو أمر يضع أمام الدارس بعض الصعوبات ، ولكن هذه المصادر المتأخرة نسبيا تعد أساسية ، لانها تنقل عن مصادر لم تصل الينا ٠

ثانيا ـ ان معلوماتنا عن تأثير ذلك التحول الجذري الذي عرفته الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع الاسلامي ، وقد بدأت تبرز معالمه منذ عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (2) ، وتبلورت مع اتساع نطاق الفتوحات الاسلامية ، وتحول العالم الاسلامي الى مركز رئيسي للدورة التجارية العالمية ، وأدى ذلك الى ازدهار فئات اجتماعية ، ولا سيما فئتي أصحاب الملكيات العقارية الضخمة والتجار ، فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع المغربي فى العصر الاموي قليلة جدا ، ومن المعروف أن بروز حركات المعارضة السياسية ـ الدينية مرتبطة وثيق الارتباط بذلك التحول ، فمن القضايا المتصلة بالتحول المذكور نوع التغيير الذي تم فى ميدان الملكية العقارية فى العصر الاموي وتنظيم شؤون الخراج ، وأساليب جمع أنواع الجباية ، ولكن الاخبار حول هذه المسائل نادرة جدا ٠ قد يتساءل المرء هنا قائلا : الا يمكن قياس وضع الملكية العقارية فى المغرب فى العهد الاموي بوضعية أراضي السواد فى العراق ، أو أراضي بلاد الشام ؟

قد يقبل المرء ذلك بالنسبة للاراضي التي كانت بيد طبقة النبلاء البيزنطيين ، ولا سيما فى افريقية ، ولكننا نعتقد ان الوضع يختلف فى المغربين : الاوسط والاقصى ، وهي المنطقة التي عرفت بكثافتها السكانية ، وبسيطرة القبائل الكبرى عليها ، وعرفت ايضا باهمية الملكية المشاعية فيها ٠

ثالثا ـ أن النصوص ذات المحتوى الاقتصادي التي تشير الى الغنائم ، والى الهدايا التي كان يرسل بها ولاة المغرب الى دمشق نادرة ، أما مبالغ الجباية من خراج وجزية وصدقات ، ومدى انتظام ارسالها الى بيت المال فى عاصمة الخلافة فاننا لا نعرف عنها شيئا ، أو نكاد ٠

ان جمع الاموال وارسالها لم يتم بصفة منتظمة ، فمن المعروف أن أحداث المغرب لم تنته بانتهاء ولاية موسى بن نصير (86 ـ 96 هـ) ، وفتح الاندلس ، بل اشتد أمرها اثر بداية انتفاضات الخوارج سنة 122 هـ ، وسنرى أن ذلك لم يحدث صدفة ، بل جاء تعبيرا عن معارضة لسياسة معينة سلكها ولاة بني أمية فى المغرب ، ولا سيما فى ميدان السياسة الجبائية ٠

تعتمد السياسة المالية للدولة الاموية على تنظيم سياسي عسكري ، واداري دعامته سلطة الولاة فى أجزاء الخلافة ، وهي سلطة تستند الى قوة عسكرية تتألف نواتها ــ فى اكثر الاحايين ــ من جند الشام ، ولا سيما فى فترة الاضطرابات ، ولما تتأزم الاوضاع ، وتصبح مهددة لسلطة بني أمية فانهم يجندون من عشيرتهم ، ثم من سائر العرب ، وقد حدث ذلك بالخصوص فى المغرب أيام حركات الخوارج ، فلما قدم كلثوم بن عياض القشيري سنة 123 هـ لملاقاة جيش خالد بن حميد الزناتي على ضفاف وادي سبوكان يقود جيشا يتألف من ثلاثين ألفا « قال ابن القطان : فيهم عشرة آلاف من صلب بني أمية ، وعشرون ألفا من سائر العرب » (3) ، وتعتمد فى نفس الوقت على الصراع القبلي ، ولا سيما الصراع بين اليمانية والمضرية ، وقد اشتهر الامويون بانكاء ناره ، واستغلاله لفائدة حكمهم ·

كان الولاة يتمتعون بنفوذ كبير فى ولاياتهم ، فهم المسؤولون عن الشؤون السياسية والعسكرية والادارية والمالية ويعينون بدورهم قادة للجيش وعمالا ينوبون عنهم فى مناطق تابعة لولايتهم (4) ، وقد يعين الخليفة عاملا على الخراج يرجع بالنظر اليه مباشرة ، ولم يقع الفصل فى المغرب بين والي الحرب ، أو الصلاة ووالي الخراج ، كما حدث ذلك فى مصر (5) ·

ويبلغ نفوذهم فى بعض الحالات شأنا يتجاوز فيه الامر السلطة المطلقة لخدمة النظام الاموي فيصل الى كسب عدد كبير من الانصار والموالي ، وجمع ثروة ضخمة تثير حنق الخلفاء انفسهم ، وتبعث فى نفوسهم الغيرة ، ويمكن هنا أن نذكر مثالين ، مثال خالد بن عبد الله القسري عامل العراق (105 ــ 120 هـ) ، ومثال موسى بن نصير عامل المغرب والاندلس ، فقد جمع الاول ثروة ضخمة ، ولا سيما من دخل الاراضي الزراعية الشاسعة التي اصبح يملكها بالعراق ، وأطلق يد عماله فى المناطق التي ترجع اليه بالنظر شرقي العراق ، واصبح يزاحم انتاج ضيعات هشام بن عبد الملك فى الاسواق ، فقد اضطر الخليفة أن يكتب اليه قائلا : « لا تبيعن من الغلات شيئا حتى تباع غلات أمير المؤمنين » (7) ، ولما ختن طارق ابن أبي زياد خليفة خالد بن عبد الله القسري بالكوفة ولده أهدى اليه « الف وصيف ووصيفة سوى الاموال والثياب » (8) ·

أما نفوذ موسى بن نصير أيام ولايته للمغرب والاندلس فقد تجاوز جمع ثروة كبرى من الغنائم لم يدخل المشرق قبلها أعظم وأنفس ، وقد تسببت هذه الثروة بعد

نكبته فى تتبع أسرته وأنصاره بالمغرب ، وتغريمهم مبالغ طائلة (9) الى بعث قوة سياسية فى بلاد المغرب تعتمد على آلاف من الموالي والخدام ، ولعل هذا الحزب السياسي من الموالي والانصار الذي ركز أسسه فى بلاد المغرب هو الذي أثار خوف الخليفة الجديد فى دمشق ، وغضبه ، وأدى فى النهاية الى نكبته ، ومطاردة أسرته وانصاره ببلاد المغرب والاندلس ، يخبرنا ابن عذاري عن أهمية هذه القوة قائلا : (ثم ان يزيد ابن المهلب سهر ليلة مع الامير موسى) ، فقال له : « يا أبا عبد الرحمن ، فى كم كنت تعتد أنت وأهل بيتك من الموالي والخدام ؟ أتكونون فى ألف ؟ » فقال : « نعم وألف ألف الى منقطع النفس ! » قال : « فلم ألقيت بنفسك الى التهلكة ؟ أفلا أقمت فى قرار عزك ، وموضع سلطانك ؟ » فقال : « والله ! لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئا ! ، ولكني آثرت الله ـ عز وجل ـ ورسوله ولم أر الخروج عن الطاعة » (10) .

ان الامثلة كثيرة حول النفوذ الكبير الذي كان يتمتع به الولاة الامويون فى مناطقهم ، وقد كانت ولاية بلاد المغرب من الولايات الحساسة نظرا للصعوبات الكبرى التي واجهت الفتح الاسلامي للمغرب ، ولما اتسم به من هياكل اجتماعية ، ومعطيات ديمغرافية خاصة ، دعامتها الاولى العصبية القبلية ، وما يتصل بها من ميزات معينة ، فقد عين الامويون خلال فترة الفتح (27 هـ ـ 96 هـ) لإدارة شؤون المغرب قادة مشهورين فى تاريخ الدولة الاسلامية مثل عقبة بن نافع ، وحسان بن النعمان الغساني ، وموسى ابن نصير ، ثم تعاقب الولاة الامويون على القيروان ، فبلغ عددهم تسعة فى الحقبة الممتدة من 96 هـ الى استقلال عبد الرحمن بن حبيب الفهري عن مركز الخلافة سنة 127 هـ (11) .

ونلمس فى تتبعنا لتراجم هؤلاء الولاة أنهم مشهورون بولائهم للامويين ، وقد تولى الكثير منهم مناصب عليا قبل تسميتهم فى المغرب (11 أ) ، فقد كان يزيد بن أبي مسلم أحد تلامذة الحجاج ، فعمل لديه كاتبا ، ثم سماه صاحب شرطة ، وشغل بشر بن صفوان منصب والي مصر قبل تعيينه واليا على بلاد المغرب ، أما عبيدة بن عبد الرحمن السلمي فهو « ابن أخي أبي الاعور السلمي صاحب خيل معاوية بصفين » (12) ، وكان عبيد الله بن الحبحاب ابن الحارث ، قيسيا بالولاء ، اذ كان مولى لبني سلول ، بارعا فى الفصاحة والخطابة ، حافظا لايام العرب واشعارها ووقائعها » (13) ، وتقلب فى وظائف ادارية مختلفة الى أن سمي عاملا على خراج مصر سنة 109 هـ (14) ، وكان كلثوم بن عياض القشيري شيخا من أعيان القيسية الخلص ، وتولى منصب صاحب

الشرطة بعاصمة الخلافة الاموية دمشق ، ثم عين هشام بن عبد الملك بعده على بلاد المغرب حنظلة بن صفوان الكلبي والي مصر ·

ان اختيار ولاة المغرب من بين مشاهير القادة والموظفين يقيم الدليل على ما لمحنا اليه من اهمية هذه الولاية فى سياسة مركز الخلافة ، وهي الاهمية التي نلمسها فى تسمية أمراء الجيوش فى مرحلة الفتح ·

ويتساءل المرء هنا عن السياسة التي اتبعها هؤلاء الولاة فى المغرب ؟

ان ادارتهم لشؤون المغرب لا تختلف عن الاساليب التي استعملها ولاة بني امية فى بقية اجزاء العالم الاسلامي ، فقد ارتكبوا أخطاء فادحة كانت لها نتائج خطيرة فى حياة المغرب ، وقد كان رد الفعل فى المغرب تجاه هذه الاخطاء سريعا وعنيفا ، ولا سيما فى المناطق الريفية لما تمتاز به من هياكل قبلية ، شانها فى ذلك شان منطقة شرقي الجزيرة العربية (15) ·

وبلغ تعسف الادارة الاموية لشؤون بلاد المغرب درجة قصوى أيام ولاية تلميذ الحجاج يزيد بن أبي مسلم الذي حاول تطبيق السياسة التي اتبعها معلمه فى العراق ، يتحدث الطبري عن سبب قتله فيقول : « وكان سبب ذلك انه كان ـ فيما ذكر ـ عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج ابن يوسف فى أهل الاسلام الذين سكنوا الامصار ، ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة ، فأسلم بالعراق ممن ردهم الى قراهم ورساتيقهم ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم ، فلما عزم على ذلك تآمروا فى أمره ، فأجمع رأيهم ـ فيما ذكر ـ على قتله فقتلوه » (16) ، ويورد ابن عذاري رواية أخرى فى سبب قتله (17) ، ولكن الروايتين تشيران الى أن السكان الاصليين هم الذين ثاروا ضد سياسته التعسفية ، ودبروا خطة التخلص منه ، وحرصوا فى نفس الوقت أن يخبروا الخليفة الاموي يزيد بن عبد الملك بأن ذلك لا يعني أبدا خلع الايدي من الطاعة ، وانما هو رد فعل ضد سلوك معين يتنافى مع أبسط مبادىء الاسلام « انا لم نخلع أيدينا من الطاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضي الله والمسلمين ، فقتلناه ، وأعدنا عاملك » (18) ، اما الفترة الثانية التي اشتد فيها تعسف السياسة الاموية فهي أيام ولاية عبيد الله بن الحبحاب ، وسنرى مدى الظلم والارهاق الذي بلغته السياسة الجبائية بصفة خاصة ·

وقد اشتهرت فترة قصيرة فى تاريخ ولاة بني امية بالمغرب بحسن السياسة ، وتطبيق مبادىء الاسلام ، وهي فترة خلافة عمر بن عبد العزيز فقد قام بعزل محمد بن

يزيد القرشي ، وسمى مكانه اسماعيل بن عبيد الله ابن أبى المهاجر سنة 100 هـ على حربها ، وخراجها ، وصدقاتها ، « وكان حسن السيرة ، فأسلم البربر فى أيامه جميعهم » (19) ، ونلاحظ من جديد أن صدى سياسة الولاة يبرز فى صفوف البربر بصفة خاصة ، ولكننا نجد أكثر من اشارة الى ردود فعل صادرة عن السكان العرب تجاه سلوك معين يبدو فى تصرف الولاة الجدد ، ويمس هذا السلوك قادة مشهورين بين الاسر العربية التي استقرت بالمغرب (20) .

ولنحاول الآن التعرف الى مميزات السياسة المالية للادارة الاموية فى المغرب رابطين اياها بذلك التحول الجذري الذي بدأت تبرز معالمه فى المجتمع العربي الاسلامي منذ نهاية خلافة عثمان ، وهو تحول جاء نتيجة حتمية لظروف موضوعية ، وخضع لدينامية جديدة هي دينامية العالم الاسلامي الجديد الذي بدأ يحل عمرانيا واقتصاديا محل قوتين اقتصاديتين من قوى العالم القديم : القوة البيزنطية ، والقوة الساسانية ، لخص المعارضون للسياسة العثمانية يومئذ مظاهر التحول الاقتصادي والاجتماعي فى جملة ردوا بها عليه فى محاولته تبرير موقفه ، وهو محاصر فى داره من طرف الثوار « لانك غيرت وبدلت » ، ولكن ماذا غير الخليفة الثالث ؟ يخبرنا ابن قتيبة قائلا : « وذكروا انه اجتمع ناس من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، فكتبوا كتابا ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله ، وسنة صاحبيه ، وما كان من هبته خمس افريقية لمروان ، وفيه حق الله ورسوله ، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين ، وما كان من تطاوله فى البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة : دارا لنائلة ودارا لعائشة وغيرهما من أهله وبناته ، وبنيان مروان القصور بذي خشب ، وعمارة الاموال بها من الخمس الواجب لله ولرسوله ، وما كان من انشائه العمل والولايات فى أهله ، وبني عمه من بني أمية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول ، ولا تجربة لهم بالامور ، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة اذ صلى بهم الصبح ، وهو امير عليها ، سكران اربع ركعات ، ثم قال لهم : ان شئتم أزيدكم صلاة زدتكم ، وتعطيله اقامة الحد عليه ، وتأخيره ذلك عنه ، وتركه المهاجرين والانصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم ، واستغنى برأيه عن رأيهم ، وما كان من الحمى الذي حمى حول المدينة ، وما كان من ادارة القطائع والارزاق والاعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم لا يغزون ولا يذبون ، وما كان من مجاوزته الخيزران الى السوط ،

وانه أول من ضــرب بالسياط ظهور الناس ، وانما كان ضرب الخليفتين قبله بالــدرة والخيــزران » (21) ·

نلاحظ من خلال نص ابن قتيبة أن أهم مظاهر التحول الجديد الذي انكره النــاس على عثمان ما يتصل منه بالملكية ، ومظاهر الثراء لدى فئــة اجتماعية جديدة سماها طه حسين «طبقة الارستقراطية العليا ذات المولد والثراء الضخم والسلطان الواسع» (22).

قد كان لهذا التحول الاقتصادي والاجتماعي الذي تبلور مع مرور الزمن تأثيره فى المجتمع المغربي ، فمن المعروف في ميدان الملكية العقارية أن الامويين كانوا يهبــون أراضي الصوافي (القطائع) (23) ، وأسندت فى المشــرق أراضي الموات الى أفــراد الاسرة الحاكمة ، والى أنصارها ، والى رجال الخلافة بعنوان « القطائع » ، وأقــام المالكون الجــدد فى الامصار ، وتــركوا الفــلاحين القدامى يخدمون الارض ، وكانوا يتعهدون مقابل هذا الاسناد باحيائها ، وجمع الضرائب ، وتسليمها للجباة ، ثم أصبحت مع مرور الزمن ملكا يتصرفون فيه بالبيع والشراء ، وبرزت فئة جديدة من كبار الملاكين الزراعيين ، وقد اشترى العرب المسلمون كثيرا من أراضي الخراج التي كان يملكهــا غير المسلمين ، وأصبحت تؤدي العشر فقط ، ومن المعروف أن تطور الملكية الزراعية واتساعها لفائدة فئة جديدة أدى الى تضاؤل دخل الدولة الاموية من الجباية عــلى الارض ، وهو مورد أساسي مع الجزية ، وهذا التطور هو الذي يكمن وراء التفكير فى توظيف ضرائب جديدة ــ بعد انتهاء غنائم الفتوحات ــ غير شرعية ، وما آل اليه الامر من ردود فعــل السكان ، ومناصرة حركات المعارضة (24) ·

ان معلوماتنا عن نظام القطائع تتعلق بالمشرق ، ولا سيما بأراضي العراق ، وبلاد الشام ، ولكن لا شك أن هذا النظام قد عرفته افريقية من بلاد المغرب فى العصر الاموي فقد وزعت أراضي النبلاء البيزنطيين على العشائر والاسر العربية تشجيعا لها عــلى الاستقرار (25) ، ولكنه يبدو أن قضية التحول فى نظام الملكية العقارية فى المغرب لــم تكن لها أهمية تذكر فى العصر الاموي ·

أما القضايا التي تشير اليها النصوص حول السياسة الاقتصادية والمالية للادارة الاموية فى المغرب فهي :

أولا ــ أهمية الغنائم والهدايا التي يرسل بها الولاة الى المشرق بعد انتهاء مرحلة الفتح ، ورجوع موسى بن نصير مــن الاندلس والمغــرب بثروات ضخمة (26) « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ، ويبعثون فيها الى عامل افريقية ، فيبعثون

لهم البربريات السنيات » (27) ، وأصبح الولاة يتسابقون فى كسب ود حكام دمشق بارسال الهدايا والطرائف ، واستعملوا شتى الاساليب لجمعها من السكان . يحدثنا ابن عبد الحكم عن هدايا عبيدة بن عبد الرحمن القيسي الى هشام بن عبد الملك قائلا : « وكان فيما خرج به من العبيد والاماء ومن الجواري المتخيرة سبع مائة جارية وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية » (28) .

ثانيا ـ السبي ، فلما انتهت مرحلة الفتح ، وارسال آلاف السبايا من المغرب الى مركز الخلافة (29) ، واعتنق البربر الاسلام التجأ الولاة الى طرق تعسفية لضمان السبي ، وارساله الى المشرق . اننا نميل الى الاعتقاد بأن عبيد الله بن الحبحاب قد جهز حملات عسكرية الى مناطق نائية من بلاد المغرب لجلب السبي ، وارساله الى دمشق ، فقد بعث قائده العسكري حبيب بن أبي عبدة غازيا الى السوس الاقصى ليعود بسبي كبير (30) ، لان المصادر تشير الى أن ابن الحبحاب منى خلفاء المشرق بالكثير لما أفضى الامر اليه ، « وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر الى التعسف ، وسوء السيرة ، فحينئذ عدت البرابر على عاملهم ، فقتلوه ، وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب » (31) .

ان الحقيقة التي راسل بها عبد الرحمن بن حبيب الفهري الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور قائلا : « ان افريقية اليوم اسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها » (32) حقيقة قديمة تعبر عن وضع يعود الى نهاية القرن الاول الهجري ، وقد تجاهل الولاة الامويون هذه الحقيقة طيلة ربع قرن ، واتبعوا شتى الاساليب لمواصلة مد المشرق بهدايا المغرب ، وسبيه .

ثالثا ـ وبلغت هذه السياسة التعسفية للادارة الاموية ذروتها القصوى بسن سياسة تخميس البربر لضمان مورد قار وثري لبضاعة ثمينة من بضائع العصر : الرقيق ، وقد اصبحت الحاجة اليه ملحة نتيجة التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي أشرنا اليه ، يقول ابن عذاري : « ثم ان عمر بن عبد الله المرادي عامل طنجة وما والاها أساء السيرة ، وتعدى الصدقات والعشر ، وأراد تخميس البربر ، وزعم أنهم فيء المسلمين ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، وانما كان الولاة يخمسون من لم يجب للاسلام ، فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية الى كثير القتل فى العباد نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله » (33) . ان هذه السياسة تدل على مدى النفوذ الذي كان يتمتع به الولاة فى مناطقهم ، وقد كان واسعا

فى الميدان المالي ، فكانوا يستعملون أموال بيت المال لكسب الانصار (34) ، كما كانوا يتذرعون بمقاومة المعارضين السياسيين لاتباع طريقة التغريم ، واستئصال الاموال ، وهو ـ فى نظرنا ـ مظهر من مظاهر السياسة المالية فى حياة الخلافة الاموية فى المشرق والمغـرب (35) ٠

ان تصرف العمال فى أموال المسلمين يعكس نظرة بني أموية الى الشؤون المالية ، وقد بدأت تبرز هذه النظرة الجديدة منذ نهاية خلافة عثمان ، فنجد عبيدة بن هـــلال الخارجى يخطب سنة 64 هـ محللا نقاط الضعف ، وسوء التصرف أيام عثمان ، فيقول : « ... ثم أخذ فيء الله الذي أفاءه عليهم فقسمه بين فساق قريش ، ومجان العرب » (36) ٠

اننا نستطيع أن نؤكد فى هذا السياق أن نفوذ ولاة المغرب فى الميدان المالي كان كبيرا فتجاوز جمع الهدايا ، واستنباط أساليب ضمان السبي ، ليبلغ الميدان الجبائي بسن ضريبة متنافية مـــع المبادىء الاسلامية مثـل ضريبة التخميس ، وميدان ضــرب العملــــة (37) ٠

أما فى ميدان السياسة الجبائية فمن المعروف أن هذه القضية أصبحت تمثل سمة بارزة فى سياسة الخلافة الاموية بصفة عامة ، فبعد أن توقف تدفق الغنائم على مركز الخلافة بتوقف الفتوحات ، وذلك فى نفس الفترة التي أزدادت فيها تكاليف بناء جهاز الدولة الجديدة ، ولا سيما تكاليف الجند ، بدأ البحث عن موارد مالية جديدة بســن نظام جبائي مرهق يعتمد أساسا على الخراج والجزية ، وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يدخل اصلاحا جذريا على النظام المالي للدولــة الامويـــة (38) ، ولكن هذا الاصلاح لم يؤت اكله ، فقد كانت خلافته قصيرة ، ثم سرعان ما تراجع الخلفاء بعــده عن النظام المالي الجديد الذي حاول وضع أسسه ، فقد أخذ يزيد بن عبد الملك « أهــل السغد الذين دخلوا الاسلام بأداء الجزية بعد أن كان عمر بن عبد العزيز قد وعدهم بأن يسقطها عنهم ، وفعل مثل ذلك مع البربر يزيد بن أبي مسلم عامله على افريقية » (39) ٠

فهل يمكن ـ بعد التعرف الى ملامح هذه السياسة المالية ـ تفسير حركات المعارضة والانتفاضات المسلحة ضــد الخلافة الاموية بدون بحـث الاسباب الاقتصادية ، وهي أسباب قد دعمت المعارضة الدينية والاجتماعية كما لمحنا الى ذلك أكثر من مرة (40) ٠

قد يلاحظ المــرء قائلا : ان بعض النصوص تشـير الى محاولة الخلفاء الامويين التحري فى قبول أموال الجباية القادمة من المغرب ، ولكن هذه النصوص نفسها تكشف

عن عدم احترام الاصول الشرعية فى جمع أموال الجباية ، وينقل لنا مؤلف « أخبار مجموعة » نصا ثمينا فى هذا الميدان حيث يقول : « وذلك أن الخلفاء كانوا اذا جاءتهم جبايات الامصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس ، وأجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه ، وانه فضل اعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذي حق حقه فاتى وفد افريقية بخراجها ، وذلك أنها لم تكن يومئذ ثغرا ، فكان ما فضل بعد أعطيات الاجناد وفرائض الناس ينقل الى الخليفة فلما وفدوا بخراج افريقية فى زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا فحلف الثمانية ، ونكل اسماعيل ابن عبيد الله مولى بني مخزوم ، ونكل بنكوله السمح بن ملك الخولاني فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ، ثم ضمهما الى نفسه فاختبر منهما صلاحا وفضلا ، فلما ولي عمر ولى اسماعيل افريقية ، وولي السمح بن ملك الاندلس وأمره أن يخمس أرضها ، ويخرج منها ما كان عنوة خمسا لله من أرضها وعقارها ، ويقر القرى في يدي غنامها بعد أن يأخذ الخمس » (4I) ·

ان رفض رجلين من أعضاء الوفد عرفا بأمانتهما اداء اليمين يثبت أن أموال الجباية المنقولة قد استعملت فى جمعها أساليب غير شرعية ·

اما تعيين الرجلين على ولايتي المغرب والاندلس فيما بعد فهو يندرج ضمن خطة الاصلاح المالي الذي حاول عمر بن عبد العزيز ادخاله على الهياكل الاقتصادية للخلافة الاموية ، ولكننا نعرف أن هذه المحاولة لم تنجح ، واشتد عبء النظام الجبائي الاموي على المسلمين فى المشرق والمغرب ، ولا سيما أيام خلافة هشام بن عبد الملك (4I أ) ·

ويتساءل المرء فى هذا السياق عن نتائج هذه السياسة الجبائية والمالية بصفة عامة ؟

ان هذه النتائج معروفة نسبيا ، فقد كانت من العوامل الحاسمة فى اندلاع حركات المعارضة هنا وهناك ضد السياسة الاموية ، وفى سقوط الخلافة فى خاتمة المطاف ، ولكننا نريد أن نؤكد من جديد أن انتفاضات الخوارج فى بلاد المغرب تعبر عن معارضة ضد سياسة اقتصادية واجتماعية معينة ، فقد اكتسبت خطورة كبرى ضمن حركات المعارضة الاخرى حيث التحمت الدعوة الدينية ، شعار المعارضة السياسية والاجتماعية بالعصبية القبلية ، ولكنها لا تختلف كثيرا عن انتفاضات أخرى اندلعت ضد أخطاء السياسة الاموية ، فقد تزعم المختار بن أبي عبيد حركة معارضة فى الكوفة سنة 66 هـ

اعتمدت أساسا على مناصرة الموالي ، وقد التفوا حولها أملا فى التخلص من جور الادارة الاموية ، وقد عبر اشراف الكوفة عن سبب مناهضتهم لحركة المختار قائلين : « ... ولقد أدنى موالينا ، فحملهم على الدواب ، وأعطاهم ، وأطعمهم فيئنا ، ولقد عصتنا عبيدنا » (42) ، وقالوا له : « عمدت الى موالينا ، وهم فيء أفاءه الله علينا ، وهذه البلاد جميعا فاعتقنا رقابهم ، نأمل الاجر فى ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا » (43) ، وكانوا يشكون من وثوب عبيدهم ومواليهم عليهم (44) ، وقبل سنة من انتفاضة الخوارج بمنطقة طنجة بزعامة ميسرة السقاء اندلعت فى الكوفة سنة 121 هـ حركة معارضة مسلحة بقيادة زيد بن علي ، وكانت بيعته التي يبايع عليها الناس : « انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ، ورد الظالمين ، واقفال المجمر ، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا » (45) ، وفى نفس المدة ثار أهل السغد ضد جور السياسة الاموية ، وكلما قمع جند الشام انتفاضة حاول الولاة الانتقام من السكان فاشتد حنق الناس ، خطب يوسف بن عمر بعد هزيمة زيد بن علي سنة 122 هـ فى الكوفة قائلا : «... ابشروا يا أهل الكوفة بالصغار والهوان ، لاعطاء لكم عندنا ولا رزق ، ولقد هممت أن أخرب بلادكم ودوركم ، واحرمكم أموالكم ، أما والله ما علوت منبري الا اسمعتكم ما تكرهون عليه ، فانكم أهل بغي وخلاف ، ما منكم الا من حارب الله ورسوله ، الا حكيم بن شريك المحاربي ، ولقد سالت امير المؤمنين أن يأذن لي فيكم ، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم وسبيت ذراريكم » (46) ، فاذا كان هذا الكلام يوجه الى سكان مدينة اسلامية مثل الكوفة ، فيمكن أن نتصور معاملة الامويين للمعارضين لسياستهم فى مناطق نائية مثل بلاد المغرب .

ولم تمض سوى بضع سنوات على حركات الخوارج فى المغرب ، وثورة أهل السغد وانتفاضة سكان الكوفة بزعامة زيد بن علي حتى اندلعت حركة أخرى فى المدينة نفسها سنة 130 هـ بقيادة أبي حمزة الخارجي (47) .

فلا يمكن ـ اذن ـ فهم حركات الخوارج فى المغرب ضد أخطاء الادارة الاموية ، ولا سيما فى الميدان الجبائى اذا عزلت عن حركات المعارضة الاخرى فى بقية مناطق العالم الاسلامي عصرئذ ، ومنها الجزيرة العربية نفسها .

ان هذه الرؤية الشمولية هي التي تدحض ذلك الاتجاه الذي يذهب أصحابه الى التركيز على مقاومة بربرية للحكم العربي فى تفسيرهم لانتفاضات الخوارج فى المغرب (48) .

1) انظر دائرة المعارف الاسلامية ، 2 ، ج 3 ، ص 696 ،
R. Brunschvig, Ibn Abdalhakam et la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, t. VI, 1942-7, pp. 110-55.

2) راجع دراستنا عن حركات الخوارج فى المغرب وفى منطقة الخليج خلال العصر الاسلامي الاول ، أبحاث المؤتمر العالمي لتاريخ شرقي الجزيرة ، الدوحة ، مارس 1977 تحت الطبع .

3) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ليدن ، 1948 ، ج 1 ، ص 55 .

4) راجع عن التنظيم الاداري ، وعن المؤسسات فى المغرب فى عصر الولاة :
Hicham Djaït, Le Wilaya d'Ifriqiya au II[e]-VIII[e] siècle : Etude institutionnelle, Studia Islamica t. XXVII, 1967, pp. 77-121, t. XXVIII, pp. 79-107.

5) ن ، م ، ج 27 ، ص 98 .

6) انظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ، 1966 ، ج 7 ، ص 26 وما بعدها ، ص 142 وما بعدها .

7) ن ، م ، ج 7 ، ص 154 .

8) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، بيروت ، 1965 ، ج 5 ، ص 221 .

9) انظر : البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 47 .

10) ن ، م ، ج 1 ، ص 46 .

11) هؤلاء الولاة هم : محمد بن يزيد القرشي (96 — 100 هـ) ، اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر (100 — 102 هـ) ، يزيد بن ابي مسلم (102 — 102 هـ) ، محمد بن أوس الانصاري (102 — 102 هـ) ، بشر بن صفوان الكلبي (103 — 109) ، عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (110 — 114 هـ) ، عبيد الله بن الحبحاب (116 — 123 هـ) ، كلثوم بن عياض القشيري (123 — 124 هـ) ، حنظلة بن صفوان (124 — 127) .

11 أ) وكان بعض الخلفاء الامويين يعطون أهمية لتسمية ولاة من أصل قرشي ، فلما ثار سكان القيروان على يزيد بن أبي مسلم وقتلوه سموا مكانه محمد بن أوس الانصاري ، وأرسلوا خالد بن أبى عمران لاعلام الخليفة « قال خالد ودعاني يزيد خاليا فقال أي رجل محمد بن أوس فقلت رجل من أهل الدين والفضل معروف بالفقه قال فما كان بها قرشي قلت بلى المغيرة بن أبي بردة قال قد عرفته فماله لم يقم قلت أبى ذلك واحب العزلة فسكت » ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، ليدن ، 1920 ، ص 215 .

12) البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 50 .
13) ن ، م ، ج 1 ، ص 51 .
14) انظر : سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغــــرب العربي ، القاهرة ، 1965 ، ص 248 ، تعليق رقم 4 .
15) راجع دراستنا عن حركات الخوارج ، سبق ذكرها .
16) الطبري ، سبق ذكره ، ج 6 ، ص 617 ، ابن الاثير ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 101 .
17) البيان ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 48 .
18) الطبري ، ج 6 ، ص 617 .
19) ابن الأثير ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 23 .
20) انظر : البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 54 وما يليها .
21) الامامة والسياسة ، القاهرة ، 1963 ، ص 32 ، انظر أيضا : الطبري ، سبــق ذكره ، ج 4 ، ص 330 وما بعدها .
22) الفتنة الكبرى ضمن « اسلاميات » ، بيروت ، 1967 ، ص 743 ، راجع أيضا : دراستنا عن حركات الخوارج فى المغرب وفى منطقة الخليج ، سبق ذكرها .
23) فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ترجمة أبو ريده ، القاهرة ، 1968 ، ص 280 وما بعدها ، انظر أيضا : عبد العزيز الدوري ، نشأة الاقطاع فى المجتمعات الاسلامية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد 20 ، 1970 .
24) R. Mantran, L'expansion musulmane, Paris, 1969, p. 140.
25) يبدو أن توزيع الاراضي فى افريقية على الجيش لم يتـــم فى العهد الاموي ، انظر : دراسة هشام جعيط ، سبق ذكرها ، مجلد 27 ، ص 109 وما يليها :
نلاحــظ فى هذا الصدد أن حسان بن النعمان الغساني قــد صالح سنــة 82 هـ على الخراج ، وكتبه على عجم افريقية ، وعلى من أقـــام معهم على دين النصرانية فقط ، البيان ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 38 .
ويتساءل المرء عن معاملته لاراضي القبائل البربرية فهل اعتبرت أراض فتحت عنوة أم تركت لاصحابها ؟
26) ن ، م ، ج 1 ، ص 43 وما بعدها .
27) ن ، م ، ج 1 ، ص 52 .
28) فتوح مصر وأخبارها ، سبق ذكره ، ص 217 ، انظر أيضا عــن هدايــا الولاة

ن ، م ، ص 215 ، البيان ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 51 ، ابن الاثير ، سبق ذكره ، ج 5، ص 191 .

29) راجع عن سبايا حسان : البيان ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 39 ، وقـــد اشتهرت فترة موسى بن نصير فى مرحلة الفتح بكثرة السبايا حتى روي أن الليث بن سعد قـد قال : « لم يسمع قط بمثل سبايا موسى بن نصير فى الاسلام » ن ، م ، ج 1 ، ص 43 .

30) ن ، م ، ج 1 ، ص 51 .

31) ن ، م ، ج 1 ، ص 52 .

32) ن ، م ، ج 1 ، ص 67 وفى رواية ابن الاثير : « وقد انقطع السبي منها والمال ، فلا تطلب مني مالا » ، الكامل ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 314 .

33) البيان ، ج 1 ، ص 51 وما يليها .

34) مثلا عبيد الله بن زياد والي البصرة ، الطبري ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 505 ، حنظلة بن صفوان فى المغرب ، البيان ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 58 .

35) راجع مثلا عن تغريم أسرة موسى بن نصير : ن ، م ، ج 1 ، ص 47 .

36) الطبري ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 566 .

37) راجع : هشام جعيط ، سبق ذكره ، مجلد 27 ، ص 100 وما بعدها .

38) راجع فى هذا الصدد :
Claude Cahen, l'Islam des origines au début de l'Empire Ottoman, Paris, 1970, pp. 39-42 ;
فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، سبق ذكره ، ص 276 وما بعدها .

39) ن ، م ، ص 312 وما يليها .

40) انظر : دراستنا عن حركات الخوارج ... ، سبق ذكرها ،
R. Mantran, op. cit., p. 144.

41) اخبار مجموعة ، مدريد ، 1867 ، ص 22 وما يليها .
راجع فى هذا الصدد سبب تولية عمر بـــن عبد العزيز سنة 99 عبد اللـــه بن المغيرة ابن أبى بردة الكناني قضاء القيروان : الدباغ – ابن ناجي ، معالم الايمان ، القاهرة ، 1968 ، ج 1 ، ص 210 .

41) أنظـــر :
Mohamed Talbi, Rapports de l'Ifriqiya et de l'Orient au VIII[e] siècle, Les Cahiers de Tunisie, N° 26-27, 1959, p. 301 suiv.

42) الطبري ، سبق ذكره ، ج 6 ، ص 43 .

43) ن ، م ، ج 6 ، ص 44 .

44) ن ، م ، ج 6 ، ص 94 .

45) ن ، م ، ج 7 ، ص 172 ، انظر أيضا : ابن الاثير ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 233 ، فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، سبق ذكره ، ص 326 .

46) الطبري ، سبق ذكره ، ج 7 ، ص 191 .

47) راجع دراستنا عن حركات الخوارج ... ، سبق ذكرها .

48) ركزنا فى الدراسة المذكورة على خطأ هذا التفسير الذي لم يلفت النظر ، ولم يثر الاستغراب طيلة نصف قرن ، وما يزال البعض يتمسك به رغم النصوص الواضحة المفندة ، ولعل أثمن نص ، وأدقه فى تفسير ثورات البربر الخوارج ضد السياسة الاموية فى المغرب هو وثيقة الشكوى التي سلمها وفدهم فى دمشق الى الابرش الكلبي بعد أن رفض هشام ابن عبد الملك استقبالهم ، أنظر : ابن الاثير ، سبق ذكره ، ج 3 ، ص 92 وما يليها ، راجع أيضا ن ، م ، ج 6 ، ص 191 ، أخبار مجموعة ، سبق ذكره ، ص 31 ومـــا يليهـــا .

ونشير هنا الى أن الاستاذ كلود كاهن ما يزال متأثرا بالتفسير القديم لانتفاضات الخوارج ، وهو تفسير نلمسه بالخصوص فى دراسات كثير من المستشرقين الفرنسيين وقد جعله هذا التأثر يقع فى شيء من التناقض راجع :

Cl. Cahen, L'Islam..., op. cit., pp. 45-46.

الامامـــة والزعامـــة الدينيـــة

د٠ المنجـي الكعبي
كلية الآداب ـ الجامعة التونسية
نائب فى مجلس الامة التونسي



واجه الرسول صلى الله عليه وسلم فى بداية بعثته نوعين مــن المعارضة ، معــارضة سياسية ومعــارضة دينية ٠ ونعتقد أن المعارضة السياسية كانت أشد وأسبق من المعارضة الدينية ٠ وكانت المعارضتان ربما تتحدان أحيانا ، وأحيانا أخرى تفترقان ٠

وكانــت المعـــارضة السياسية شخصيـــة فى بعض الحالات ، كما فى حالة أبي سفيان خصوصا أثناء فتــح مكة ، وفى حالات أخرى معارضة قبلية ، كما فى حالة المواجهة بين قريش ، قبيلة الرسول المستظهرة بالدعوة ، وبين القبائل المكيــة الاخرى المنافسة لهــا فى السلطــة ، وفى بعض الحالات الاخرى معارضة قومية بين القبــائل المضرية ، التي منها قريش والقبائل القيسية ، أي بين عرب الشمال وعرب الجنوب ٠ وبطبيعة الحال كانت هناك مستويات أخرى دون ذلك من المعارضات السياسية ولدهــا الوضع القبلي فى الجزيرة على عهد البعثة النبوية ٠

وما واجهه الرسول (ص) واجهه تقريبا قادة الفتح الاسلامي فى سائر الامصار والممالك التي دخلها الدين الجديد صلحا أو عنوة ·

ولا نستطيع فى الحقيقة أن نتحدث عن معارضة دينية خالصة للاسلام الا من خلال معارضة اتباع الاديان السابقة لاتباع الدين الجديد ، لان الاديان فى حقيقتها السماوية لا تتعارض ، وانما تتناسخ وتتكامل ويسلم بعضها الى بعض ·

ولذلك فالمعارضة قائمة فى حقيقة الامر والواقع فى أشخاص قادة تلك الديانات القديمة لاستحكام نزعة التسلط والنفوذ فى نفوسهم ـ وهي نزعة بشرية ـ الى جانب ظاهرة اجتماعية نفسية تتمثل فى صعوبة انقياد السلف للخلف ، او بعبارة أخرى اذعان المتقدمين للمتأخرين ، الا أن يكون ذلك بسبب نزول أديان أو حدوث ثورات كبرى فيقع عندها خرق القاعدة العامة ·

وكان لابد للتغلب على المعارضة السياسية من أن يستظهر الرسول (ص) تباعا بعصبيته فى بيته وفى عشيرته وقبيلته وقومه ، ذلك ان العصبية هي أمر قدره الله فى طبيعة الاجتماع الانساني وما كان للرسول أن يقضي على قوة ضرورية للعمران البشري ، بل يسره الله الى اخضاع تلك العصبية لعصبية اقوى وأشمل هي العصبية الدينية ، أو الرابطة الدينية المقدسة ، وتمثل ذلك فى حركة المؤاخاة التي قام بها صلى الله عليه وسلم لبناء مجموعته الانسانية الجديدة المتجانسة ، التي هي الامة الاسلامية .

ومعلوم أن نواة الامة الأسلامية نشأت فى المدينة ، ونشأت بنشأتها الدولة الاسلامية خصوصا بعد أن تحددت دار الاسلام ودار الكفر بحدود جغرافية وسياسية هي حدود الفتح الاسلامي التي كانت دائرته فى توسع مطرد ، وبعد أن أصبحت تلك المجموعة ينتظمها نظام واحد متميز يسير شؤونها الدينية وغير الدينية ·

ومن الثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشاور أصحابه فيما يعرض للمسلمين فى شؤون حياتهم ، وكان يفضل بعضهم على بعض بما قدموا لنصرته على أعدائه غير أن جماعة منهم على رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضهم ـ كانوا جميعا فى المقام الافضل عنده · وربما لم يمنع ذلك من شعور كل منهم بزيادة فضل له على واحد أو أكثر من الآخرين ولذلك فعندما عرض المسلمون ، بعد وفاة الرسول (ص) للخوض فى تقديم احدهم للخلافة افترقوا ، فقدم بعضهم عليا وقدم بعضهم أبا بكر وقدم آخرون غيرهما ·

ولقد كتب أدب كثير حول ما حدث فى سقيفة بني ساعدة بعد موت الرسول ، اغلبه قائم على التهويل والمبالغة واقله لا يخلو من التوجيه والمعارضة ·

ومهما يكن من أمر فالمؤكد فى نظرنا أن اجتماع السقيفة يمثل قيام أول معارضة سياسية بين المسلمين انفسهم ، معارضة سياسية ومعارضة دينية كذلك ·

فالخلاف الذي دب بين المهاجرين والانصار يومئذ يمكن اعتباره مجرد نزاع على النفوذ السياسي ، وفيه مشابه قوية من المنازعات القبلية المعهودة ، فقد كانت كل من الطائفتين تستظهر من أجل استحقاقها الخلافة بما قدمته فى سبيل الدين الجديد ·

أما المعارضة الدينية فلا تعدو فى الحقيقة موقف علي بن أبى طالب ـ رضه ـ وان كان لم يشهد اجتماع السقيفة ، غير أن موقفه لم يكن ليخفى على الحاضرين ، ولا يبعد أن يكون له من بين أعضاء السقيفة أكثر من مؤيد ، ولا نعتقد أن فكرة الوصية بالخلافة ظهرت متأخرة عن زمن الرسول أو هي فكرة آل البيت وحدهم ، فقد كانت على الاقل احتمالا قائما فى الاذهان آنذاك الى جانب فكرة الاختيار فى دائرة الشورى ·

ونعلم ما أفضى اليه اجتماع السقيفة ، فقد بويع لابي بكر بعد نزول الانصار للمهاجرين عن الخلافة ، وحسمت المعارضة بينهما لكن لم يحسم مشكل الخلافة أصلا · فقد ظل تفكير طائفة من المسلمين منصرفا الى وجوب رد الخلافة بالوصية فى آل بيت النبي قطعا لاسباب الخلاف السياسي بين الاحزاب ، سواء بين المهاجرين وبين الانصار كما حدث فى السقيفة أو بينهم وبين غيرهم · لكن فكرة الوصية لو ظلت بهذا المفهوم لكانت تدبيرا سياسيا صرفا لا يشفع لها بالغلبة على التيارات السياسية الاخرى المتعددة ، ولذلك فهي ليست هي فكرة آل البيت ، لان الوصية عند هؤلاء ليست فكرة سياسية أو فكرة المقصود منها التبرك بالنبوة بل هي فكرة دينية خالصة ، قوامها أن الهداية الالهية ضرورية للاجتماع البشري · وهاته الهداية تكون بواسطة الانبياء والمرسلين وتكون من بعدهم بواسطة الحواريين والائمة ، فهم الاوصياء ، وكل امام ينص عمن بعده الهاما من الله وحكمة ·

ولذلك فالتفكير الشيعي ، وهو أكثر تدينا من هذه الناحية ، قائم على كون علي ـ عم ـ هو الذي اختاره النبي (ص) للامامة بعده ، ونص عليه نصا صريحا فى حديث غدير خم المشهور : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ، وربط الشيعة هذا الحديث بقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » ، وقالوا قرن الله عز وجل طاعة الائمة عليهم السلام بطاعته وطاعة رسوله ،

فلو كان للناس أن يقيموا اماما تجب طاعته باقامتهم اياه ، لوجب كذلك أن يقيموا نبيا والها كما فعلت الجاهلية !

ونحن نعتقد أن الشيعة كانوا ولا يزالون أتقى وأقوى اعتقادا من سائر المسلمين لتفكيرهم ذاك بالامامة ٠

وقد يقال كما قيل فى الرد على فكرة الامامة لو كان اللـــه سبحانه وتعالى أراد الامامة بعد النبوة لوضح ذلك توضيحا ما بعده توضيح ، ولما وقع خلاف بين المسلمين فى الامامة بعد وفاة الرسول ٠ لكن الـــرد على ذلك القول يمكن أن يكون بسيطا فى بساطة الاعتراض ، وهو أن ارادة الله أسمى من كل افتراض منطقي ، ومن يدرينا أنه جعل فى ذلك الخلاف وفى الامور الخلافية الاخرى سعادة المحقين وشقاوة المبطلين ٠

ولذلك قلنا ان اجتماع السقيفة وقع تهويل كثير لما حدث فيه ، واتخذ باطلا حجـة للتشنيع علي الصحابة وعامة العرب والمسلمين طـــوال تاريخهم ، بينما فى الحقيقة لا يعدو اجتماعا سياسية ، وككل اجتماع سياسي يمكن أن تخرج الاطراف المتقابلة منه باتفاق عام أو بنصف اتفاق أو بالانفضاض منه على غير اتفاق ٠٠

وقد وقع الخلاف والافتراق حتى بين الشيعة أنفسهم دون أن يمس ذلك بمبدأ الامامة فى جوهره ، مما يدل على أن اجتماع السقيفة ليس بدعا من الاجتماعات ولا أســوأ أثـــرا ٠

ولقد ولد ذلك الخلاف فى الحقيقة حركة فكرية قوية ، يشبه أن يكون ذلك الاجتماع منطلقا لها وبداية لظهور الفلسفة السياسية فى الاسلام ٠ ولم تكن كل الاحداث المتصلة بقضية الخلافة وما صاحبها من ثورات الا أحداثا زادت الفكر الاسلامي حدة ونفـاذا لتعمق مشكلة الحكم ، تلك القضية الدائمة التي شغلت جميع المجتمعات فى جميـــع الاقطار والازمان ٠

ذلك أن نظام الحكم ليس هدفا فى حد ذاته وانما سعادة الشعب هي الهدف ، ولـمـا كانت الشعوب فى تفاعل مستمر مـــع نفسها ومـــع غيرها ويعتريها مـــا يعتري الكائن البشري من التطور والنمو والانبعاث ، لزم أن تختلف النظم التي تتعاقب عليها لصلاحها بحسب أحوالها وأزمانها ٠

ولقد قرر ابن خلدون بحق أن العصبية الدموية وما التحق بهـــا من ولاء وحلف وارتزاق تنزع بطبيعتها الى الغلبة ، والغلبة تكون الملك فالدولة ، والدولة لا تستقر الا بتاييد العصبية التي كونتها ، أو بعصبية جديدة تستعيض بها عن عصبيتها القديمة ٠

وقرر كذلك أن الدين وكل دعوة حق بصورة عامة تكسب العصبية قوة الى قوتها الطبيعية وتزيد فى اتساع ملكها والتمكين لها فى الارض ، وقرر أيضا أن الدول العامة الملك تستمر وتطول أعمارها بتجدد العصبيات فيها ، أي القوى السياسية التي تعضدها ولا تزال نظريته فى انتقال الخلافة فى الاسرات التي حكمت العالم الاسلامي او أطرافا منه صحيحة • فقد رد استقرار الخلافة فى العرب طيلة قرون عديدة ببقاء الغلبة لقريش فى العرب ، وبذلك علل صاحب المقدمة ما وجده من اشتراط النسب القرشي فى كتب الاحكام السلطانية فى باب الامامة والخلافة •

ونفى أن يكون ذلك الشرط من باب التبرك بقبيلة النبي (ص) وعليه فقد اعتبر ذلك الشرط هو شرط العصبية بصورة عامة وأداه استقراؤه للتاريخ الاسلامي الى أن عامل العصبية كان وراء كل الانتفاضات والثورات والدول التي قامت فى الاسلام • ولذلك حمل محمل التهور خروج كل داعية أو ثائر دون حساب لقانون العصبية قبل الاعلان عن دعوته أو القيام بثورته •

اذن ، فعلاقة العصبية بالخلافة أو علاقة الخلافة بالعصبية هي علاقة طبيعية قديمة قائمة بينهما بصورة جدلية منذ بداية الحكم فى الاسلام ، وليس فى تقرير ذلك أدنى غضاضة على منصب الخلافة ، إذ النبوة نفسها على ذلك ، فقد قضى الله سبحانه وتعالى الا يبعث رسولا الا فى منعة من قومه أي فى عصبية وقوة •

وقد تقرر من الوهلة الاولى فى أذهان المسلمين أن الخلافة هي خلافة رسول الله على رأس الدولة الاسلامية فى شؤون الدين والدنيا معا • ولم يقم كما نعلم تفريق فى البداية بين الامامة والخلافة أو فصل بينهما •

الا أن الشيعة بعدما تبلورت عقيدتهم فى الامامة جعلوها ـ أي الامامة ـ أعم من الخلافة وتصوروا امكانية أن تخرج الخلافة من الشيعة دون أن تنقطع الامامة عنهم أي عن آل البيت •

ونحن نعتقد أن الخلافة والامامة لو ظلتا أمرا واحدا قبل التفكير الشيعي وبعده لما سقطت الخلافة كنظام ، ولما قام التصور فى الفكر الاسلامي عامة بانفصال الامامة عن الخلافة • لان نظرية الحكم فى الاسلام ارتبطت بالدين من البداية ، وحتى بعد سقوط الخلافة العثمانية وظهور دعوات فصل الدين عن الدولة لم تستطع المجتمعات الاسلامية أن تخضع لمنطق فصل الدولة عن الدين •

وفى الحقيقة يمكن أن نعتبر ، لا من باب التصور ولكن من باب الواقع ، أن الخلافة لم تسقط بسقوطها على يد مصطفى كمال أتاترك ، وانما سقط لفظها فقط أو مفهوم من مفاهيمها الكثيرة لدى الفقهاء · ذلك أن الشيعة الزيدية ، فضلا عن أهل السنة ، جوزوا امكانية قيام أكثر من خلافة فى بلاد الاسلام ، كما جوزوا خلافة المفضول مع وجـــود الافضل · ولما قام حكم الشيعة هنا بالقيروان ، ظل حكما بدون خلافة طيلة نصف قرن تقـريبـا ·

ولذلك فالتلقب بالخليفة أو الامير أو الامام أو السلطان أو غيره جائز ولا عبرة الا بما وراءه وهو اعتبار الصفة الدينية والسياسية للحاكم المنتصب على رأس الدولة كما هي فى نفسه وكما يراها له دستور بلاده ·

ولو ذهبنا نستقرىء الانظمة السائدة فى البلاد العربية والاسلامية الحديثة لوقفنا على سيطرة العامل الديني فيها ، سواء فى مستوى القيادة أو فى مستوى التشريع ، وكذلك فى الرؤيا المستقبلية التي تراها تلك النظم للعالم ·

فالزعامات السياسية التي عرفتها تلك البلدان فى مضمار كفاحها ضد الاستعمار لم يظفر منها بقيادة الجماهير وتعبئتها للحصول على الاستقلال الا الزعامات الدينية أو المعتضدة بالدين ، بينما الزعامات الشيوعية واللائكية ظلت هامشية وقليلة التأثير .

وفى عهد ما بعد الاستقلال بادرت كل القيادات السياسية الحاكمة بالاعلان عـن تأكيد انتمائها للامـــة الاسلامية وارتباطها ارتباطا عضويا بمجموعة مـــن مجموعاتها القـوميـة ·

وعادت من جديد الى السطح فكرة الوحدة العربية أو الوحدة الاسلامية كاختيار اساسي فى سياسة تلـك البلدان لمجابهة التكتـلات الاقتصادية والاجتماعية والدينيـة والمذهبية السائدة فى عـالم اليوم ، بينما كانت الوحدة حلمـا يراود بعض الزعماء والمصلحين أيام فترات كفاحهم العصبية · وكل الحكومات القائمة اليوم فى البـــلاد الاسلامية ملتزمة فى تشاريعها بمبادىء الدين الحنيف ، وأخشى ما تخشاه هو ظهـور معارضات دينية فى وجهها لسبب من الاسباب ·

وما تأقلم الشيوعية فى كثير من البلدان العربية والاسلامية وانكفاؤها عن مناهضة الدين الا دليل على تجذر الوازع الديني وقدرته الخارقة على أحداث كل تغيير حاسم فى المجتمعات الاسلامية ·

وكل الاشتراكيات التي ظهرت فى العالم العربي والاسلامي كان عليها قبل كل شيء أن تعرف نفسها بالنسبة للاسلام ، ولعل فيما حدث أخيرا لحزب البعث من تراجع الى ايمان صريح بالاسلام بعد تجاربه المريرة فى الحكم أبلغ دليل على حتمية أن يستلهم كل حزب ، يريد لنفسه النجاح ، القيم الاصيلة والمتجذرة فى وجدان أمته ٠

ان عددا من الزعماء السياسيين اليوم فى البلاد الاسلامية الحديثة عهدا بالاستقلال يدركون أن الاستعمار قد تخلى عن الكثير من مستعمراته مناورة لا هزيمة ، حتى لا ينتظر بحركات الكفاح الشعبي الاصيلة أن تجتثه من جذوره فى تلك البلدان ، وحتى لا يترك فرصة للشيوعية للتغلغل فى صفوف المقاومة الوطنية ، ولو كمجرد تكتيك واستراتيجية وحتى يمهد لعهد جديد من الاستعمار المقنع فى تلك البلدان ٠

وأصبحت صورة الاستعمار الجديد واضحة مكشوفة فى أكثر من بلد من بلاد العالم الاسلامي ، ومن قال : « الدين أفيون الشعوب » ، فبالنظر للاستخدامات الرأسمالية والامبريالية له ، هو على حق ، ذلك أن من أسلحة الصراع الدائر اليوم بين الشيوعية العالمية والرأسمالية الدولية هو تدعيم الرجعية الدينية من قبل هذه ومقاومة التخدير الديني من قبل تلك ٠

ولذلك فان رد الفعل لدى تلك الشعوب المسلمة لم ينتظر طويلا ٠ فقد ظهرت قيادات سياسية حديثة أسست حركة عدم الانحياز ، وتطور رد الفعل ، على يد قيادات ثورية أحدث عهدا ، الى الاعلان عن قيام نظرية ثالثة بين الشيوعية والرأسمالية هي النظرية الاسلامية ٠ وذلك لوضع حد للعبة الدين فى أيدي الرأسمالية والشيوعية وحتى يصبح الاسلام عاملا ايجابيا ثوريا فى تقدم المجتمعات وتجديد الحضارة ٠

وليس من قبيل الصدفة ظهور تلك الزعامات السياسية الدينية الجديدة فى دول بترولية غنية ، ذلك أن كل الدعوات بما فيها الدعوات الدينية تتطلب مناخا ملائما للظهور فيه والنجاح والا فانها تبقى رهينة فى الاذهان والكتب حتى يقدر لها من ينهض لتنفيذها من المتحمسين لها ، وحتى يقدر الله لهم سببا يقوون به على عدوهم ٠

ولقد تطلبت الدعوة الاسلامية نفسها أموالا لنشرها ، وكان عدد من الصحابة من كبار أغنياء قريش وكلهم نزلوا عن أموالهم ومكاسبهم للرسول (ص) لاقامة دعوته وتجهيز الغزوات وتمويل جيوش الفتح ، مصداقا لقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ٠٠ » ٠

ومعلوم من ناحية أخرى أن الهدف الذي تسعى اليه العصبية هو القوة والمنعة والغلبة ، وهذه كلها أمور لا تكون الا بالمال ، فالمال هو قوام الاعمال !

ولذلك فليس من باب الصدفة كذلك أن نرى القيادات السياسية الدينية الحديثة تبادر أول ما تبادر به بعد انتصابها بالسيطرة على موارد الثروة فى بلدانها وتأميم الاحتكارات البترولية العالمية فى أرضها ·· وآخر ما حدث من هذا القبيل ما صرح به منذ أيام أحد مساعدي الزعيم الايراني الامام آية اللــه الخميني بانه سيبادر اذا وقع تعيينه وزيرا للاقتصاد بتأميم الشركات البترولية فى ايران ·· .

ولم تتردد الزعامات الدينية المعاصرة ، سواء كانت امامية أو غير امامية ، من احتضان أو استقطاب المعارضات السياسية التي تسعى مثلها الى اقامة مجتمع العدالة والاشتراكية ·

وتشهد المجتمعات الاسلامية الحديثة تغييرا جذريا فى أنظمة الحكم التي أسلمتها اليها عصور الانحطاط والتدخل الاجنبي ، فبعد المحاولات الاولى التي قامت فى سبيل تقييد الحكم المطلق دون الرجوع به الى الخلافة ، لان الخلافة كما يعتبرها بحق الوزير المصلح ابن أبي الضياف صورة استثنائية قامت وانتهت فى مدة وجيزة هي مدة الخلفاء الراشدين ، أما ما ظهر بعدها فقد اتخذ اسمها فقط ـ بعد تلك المحاولات فى تقييد الحكم الملكي المطلق تقلص عصـــر الملكيات الاسلامية بقيام ثورات عديدة أعلنت الحكم الجمهوري ، وهي صورة من الحكم احترز بشأنها المصلحون القدامى مثل خير الدين وابن أبي الضياف باعتبار أن النظام الجمهوري فى أصل تعريفه لا يعتبر غير القوانين الوضعية ، لكن ذلك الاحتراز زال بزوال مقتضياته ، وشهدنا قيام جمهوريات اسلامية اسمـــا ودستورا ·

وجابهت الزعامات السياسية الجديدة فى الانظمة للجمهورية العربية والاسلامية الحديثة مشكلة انتقال الحكم بدون انتفاضات وانتكاسات ·

ويظهر أن مبدأ الوصية هو المبدأ الذي نال ثقة أغلب الزعماء مؤسسي الجمهوريات الحديثة عهدا بالاستقلال ، لضمان الاستمرارية لمذهبهم بعدهم ، فيجعلون الدستـور ينص بالصفة على من يريدونه لخلافتهم (الوزير الاول كما فى حالة نظامنا البورقيبي ونائب رئيس الجمهورية كما فى انظمة أخرى ··) ·

ومذهبهم ذاك فى الوصية قريب جدا من المذهب الشيعي ، ذلك أن الامـــام يوصي بالامامة من بعده لاحد أبنائه ممن يختاره منهم ، ويعتبر اختياره الهاما من الله لا حرية لـــه فيـــه ·

وهنا ينتفي كل احتمال للنزاع بين وُلْده ـ أي بين ابناء الامام ـ وينتفي كذلك كل احتمال للاختلاف بين اتباع الامام فيمن يولي من وُلْـده بعـده ، ويعوض القداسة والعصمة فى مبدأ الوصية الشيعية أمران مقابلان فى الوصية الجمهورية هما حـرمة الدستور وسداد نظر القائد ٠

وقضية تولي الرئاسة مدى الحياة نفسها هي صورة لا نجدها الا فى الامامة مدى الحياة ، واذا كان الزعيم الذي يمنح هذه الولاية هو حالة استثنائية فى نظر شعبه وفى الدستور ، فالامام هو بالاحرى حالة استثنائية فى نظر أتباعه وبمقتضى الدين ٠

واذا كان حب الرئاسة غريزي فى البشر ، فهو فى العرب أقوى وأشد للانفة التي تميزهم بسبب عراقتهم فى البداوة ، وقد أدرك ذلك ابن خلدون قبلنا ، ولذلك قرر أنهم لا ينقادون الا بسبب الهي كالنبوة أو الامامة أو نحوها ٠

ولذلك فالزعامة الدينية اليوم قد بدأت فى عدد من بلدان العالم الاسلامي تستعيد اعتبارها القديم بعد أن فشلت ألوان مـن الزعامات السياسية فى تحقيـق مطامح الجماهير ورغائبها ، وفشلت كذلك فى تأمين مستقبل الدول والشعوب من الانتفاضات العسكرية ونحوها ٠

ولذلك فقد يكون أخطأ الرئيس السنغالي ليوبولد سنغور عندما وصـم الزعامة الدينية الثائرة اليوم فى ايران بالرجعية والعودة بالبلاد الى حكم العصور الوسطى ٠ وقد يكون خطؤه صادرا عن جهل بالاسلام ، ولا يعيبه ذلك رغم ثقافته الواسعة ، لانـه قبل كل شيء رجل مسيحي مطبوع بالثقافة الفرنسية ، أو قد يكون تقديره راجعا الى أسباب تتعلق بميزان القوى السياسية فى بلاده ذات الاغلبية المسلمة ٠

وربما لا يختلف موقفه كثيرا عن موقف بعض الحكام العرب ممن لا يرتاحون لـما يجري فى ايران ، ذلك أن التعارض بين الزعامة الدينية والزعامة السياسية هو تعارض قديم مزمن ، ولم يستطع الحكام فى العالم العربي والاسلامي امكانية تصور حركـات دينية غير ذات هدف سياسي ، لان امكانية الفصل بين الدين والسياسة امكانية غـير قائمة الا فى عقول الزعماء عندما يصبحون حكاما والا على لسـان الزعماء الدينيين عندما يكونون فى المعارضة السياسية ٠

ومن الامثلة على ذلك مـن تاريخنا القومي بعد الاستقلال مـا حـدث فى الواقعة المشهورة بانتفاضة القيروان ، وما نشهده فى السنوات الاخيرة من تصاعد الحركات

الدينية وخشية الحزب من احتمال وجود عـلاقة بينها وبين المعارضات السياسية فى الداخل والخارج واحتمال تأثرها بما يجرى على الساحة الدينية فى ايران وغيرها ٠

ولا تزال القيروان العاصمة الدينية لبلادنا ، ولا تزال كعبة افريقيا المسلمة ولا يزال رئيس الدولة يخصها بزياراته الدينية وممثله بها يشهد بحرص صلاة الجمعة وصلاة العيدين والمواسم ، حتى ليبدو كأن ذلك أصبح من واجباته الرسمية ، ربما دونــه فى ذلك بعض ولاة جهات أخرى من الجمهورية ٠

وبينما الحكومة لا تفتأ تؤكد تمسكها وتعلقها بمبادىء الاسلام وباشرافها عـلى الشؤون الدينية ، بواسطة ادارة ملحقة بالوزارة الاولى ، تعمد بعض المجموعات مـن المواطنين الى خرق رزنامة الاعياد الدينية المسطرة وفق الحسابات الفلكية ٠

ولم تسكت الحكومة عن ذلك بل أكدت عدم تنازلها عن تحمل مسؤوليتها باعتبارها وحدها المتولية شؤون الدين فى البلاد ، بحكم النص فى الدستور على ديـن الدولة ، ولذلك فهي تعتبر أنه من واجب المسلم أن يلتزم بأوامرها ، فهي بمثابة امامه . ومخالفة المسلم امامه تلزمه عقابه ٠

هذه بعض قضايا ومشاكل تتعلق بالزعامة الدينية فى القديم وفى عالم اليوم فى البلاد الاسلامية بسطناها بقدر اجتهادنا والله أعلم ٠

الشيـــخ طـاهـــر الجزائـــرى
رائـد النهضـــة الفكريـــة الحديثة
فى بـــــلاد الشـــــام

محمود الارنـاؤوط
ـ دمشــق ـ



ولد العلامة الشيخ طاهر بن محمد صالح بن أحمد بن موهوب الادريسي الحسيني بعد خمسة أعوام من قدوم أسرته الى دمشق الشـام من الجزائر (من جبال بجاية) ومن هنا عرف الشيخ بالجزائري نسبة الى الجزائر من بلاد المغرب العربي ، وكان والده آخر الادارسة قدومـا الى بـلاد الشام سنة 1263 هـ واشتهر فيهـا بتبحره فى العلوم والمعارف والتزامه مكارم الاخلاق وفى سنة 1285 هـ توفي تاركا عدة أولاد أشهرهم الشيخ طاهر الجزائري موضوع بحثنا هذا ٠

وقد تلقى الشيخ طاهر علوم العربية وآدابها على مشاهير العلماء فى عصره حتى تزود بما يؤهله لان يستمر فى طريق البحث والتنقيب فى كتب مختلف الفنون ، وهذا ما دفعه الى التعلق بكتب التراث التي خلفها الاسلاف من متقدمين ومتأخرين ٠ فنشأت عنده رغبة قوية الى جمع المخطوطات منذ حداثة سنه ، ومن أجل هذه الرغبة سافر الى العديد من البلاد لجمع نفائسها ، فأكسبته رحلاته معارف جمة ، وتوثقت صلاته بكثير من العلماء والادباء فى البـــلاد التي زارها ، وصار مرجعا يعتد به فى فـــن وصف المخطوطات ومعرفة مظانها وتسهيل البحث فيها واليه رحمه اللـــه يرجع الفضل فى

السعي الحثيث الى انشاء كثير من المؤسسات النافعة فى دمشق وفى مقدمتها الجمعية الخيرية التي انضم اليها مشاهير العلماء والوجهاء الدمشقيين بشكل خاص والسوريين بشكل عام والى هذه الجمعية يرجع الفضل فى انشاء العديد من المدارس ، كما انشأت مطبعة قامت بطبع الكثير من الكتب المدرسية والى الجزائري يرجع الفضل فى تأسيس المدرسة الظاهرية بدمشق ، وانشاء مكتبتها العامرة التي جمع فيها ما كان مبعثرا من الكتب والمخطوطات القيمة فى المساجد والمدارس ، ودور الدمشقيين وغيرهم من أهالي بلاد الشام ، فحفظها بذلك من الضياع ويسر بذلك على طلبة العلم درب البحث والانتفاع بها (1) . واليه رحمه الله يرجع الفضل فى انشاء المكتبة الخالدية بالقدس الشريف . والى جانب هذا كله ، عكف رحمه الله على جمع نفائس المخطوطات ونوادر المطبوعات، وواصل جهوده فى التأليف والترجمة ، وكانت له رحلات عدة الى الحجاز وغيرها من بلاد المشرق العربي ، ثم اعقبها برحلات الى الاستانة ومصر وعدد من البلاد الاروبية .

وفى سنة 1316 هـ عينه الوالي العثماني مفتشا لمكاتب الشام ، ولبث فى هذا المنصب أربع سنوات قدم خلالها خدمات جليلة لتنظيم هذه المكاتب والنهوض بها .

وقد عرف الشيخ بتحرره الفكري من العصبية العمياء والبعد عن التزمت وسعة الافق لهذا التف حوله عدد من الشبان ممن أصابوا من بعد شهرة واسعة عمت الآفاق منهم محمد كرد علي (2) ، وخير الدين الزركلي (3) ، والامير شكيب أرسلان (4) ، وغيرهم ، حيث يقول عنه العلامة كرد على كان الشيخ العامل الاكبر فى توجيه ارادتي نحو الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي ، والاقدام على التأليف والنشر واشرابي محبة الاجداد والتناغي بآثارهم ، والحرص على تراث حضارتهم لهذا فهو أستاذي الاكبر ، وحسب الشيخ طاهر فخرا أن يترك من بعده تلامذة أمثال هؤلاء الاعلام الذين تركوا آثارا خالدة ينتفع بها العام والخاص على حد سواء .

وكما كان للسيد جمال الدين الافغاني وتلميذه الامام الشيخ محمد عبده دورا اصلاحيا واسع النطاق فى مصر ، فقد كان للشيخ طاهر الجزائري دورا مماثلا فى

1) دار الكتب الظاهرية هي اليوم من أشهر دور الكتب على الساحة العربية ، اذ فيها عدد كبير من المخطوطات تنفرد فيها دون غيرها فى العالم .

2) محمد كرد علي هو رئيس المجمع العلمي العربي ، اشهر مؤلفاته كتاب خطط الشام

3) خير الدين الزركلي عضو المجمع العلمي العربي ، اشهر مؤلفاته كتاب الاعلام فى تراجم الرجال والنساء .

4) الامير شكيب ارسلان نعت بأمير البيان ، عضو المجمع العلمي بدمشق ، اشهر مؤلفاته كتاب حاضر العالم الاسلامي .

الشام ، حيث شرع من الاساس ، والاساس عند الشيخ كان المدرسة ، فاخذ ينشيء المدارس الابتدائية والوسطى بمعاضدة الحكومة ويوهمها انه لا يقصد من مدارسه الا نشر العلم البسيط ليكون ممن يتخرجون فيها خداما للدولة فى المستقبل ! ويحبب الى الناس الرجوع الى كتب الاسلاف واتقان اللغة العربية ، ويحث على الاخذ من كتب شيخ الاسلام ابن تيمية ، وتلميذه الامام ابن قيم الجوزية ، لان فيها بحوثا ضافية تنبه من شر البدع التي الصقت بالاسلام وما هي منه بسبيل ، ويحض الناشئة على تعلم العلوم الرياضية والطبيعية والسياسية والتاريخية ويؤلف لهم أسفارا فى مبادئها ويزين الى من حذقوا لغات العلم أن ينقلوا منها ما أمكن الى لغتهم ليستفيد منها العرب عامة ، وينشروا الجيد الصحيح من كتب الاقدمين ، ويحمل كل من يأنس منه استعدادا على الطبع والنشر ، وعلى شغل ذهنه بما يفيده ، وكان يقول السياسة تأتي بعد اعداد المعدات لها من علم وصناعة ، وكان غرامه أن يتعلم كل طالب صناعة ما ، وهو عملي فى علمه وسيره ولطالما قال : ان الاشتغال بالعلم مضمون النتائج يأمن العاملون فى ظله عتو العاتين وما كان يخلو من استعمال شيء من التقية مخافة الاخفاق فى دعوته اذا عرفت حقيقة مقاصده ، وهواه أبدا التوفيق بين أرباب المذاهب المختلفة فى الاسلام والتقريب فيما بينهم ٠

ورأي الشيخ طاهر الجزائري كرأي السيد جمال الدين الافغاني والامام محمد عبده بأنه قام بين القرنين الثالث والرابع أقوام ظهروا بمظهر الدين فأبدعوا فيه البدع وخلطوا بأصوله ما ليس منها فانتشرت قواعد الجبر وامتزجت بالنفوس حتى امسكت بعنانها عن الاعمال وأن الزنادقة ـ والفسطائية أضروا بالدين ضررا بالغا لم يقل عن ضرر من وضعوا أحاديث نسبوها الى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وأثبتوها فى الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة والاقدام ٠

لهذا اعتبره البعض أحد رواد الفكر النير المتحرر فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بينما قال فيه آخرون انه خزانة علم متنقلة ، وقد اثار دهشتي الشيخ محمد جميل الشطي فى كتابة أعيان دمشق فى القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر حين اكتفى بتسجيل كلمتين فقط الى جانب اسمه (عالم مؤلف) بينما افرد صفحات لبعض الذين لم يتركوا لنا أي اثر علمي على الاطلاق مما يدل على ضيق فى أفق الشطي ، أو تجاهل متعمد للشيخ الجزائري ٠

ولم يقتصر تمكن الشيخ على اللغة العربية بل تعداها الى اللغات التركية والفارسية والسريانية الى جانب المامه ببعض اللغات الشرقية الاخرى كالعبرية والحبشية والزاوية وهي لغة قبائل الجزائر المغربية ٠

ولم تمنع مكانة الشيخ الرفيعة فى قلوب الدمشقيين السلطات العثمانية من الدخول الى داره وتفتيشها اثناء رحلة له الى فلسطين سنة 1322 هـ ومصادرة كتبه واوراقه والتحفظ عليها فى مكتبه الخاص بمدرسة عبد الله باشا العظم ، فاستاء الشيخ من هذه المعاملة واستقر رايه على الهجرة الى مصر ، وتم له ذلك سنة 1323 هـ ، وحمل معه اليها أشهر محتويات مكتبته الثمينة ، تاركا بقيتها فى المكتبة الظاهرية بدمشق بعد أن وقفها عليها ، وحين وصوله الى مصر رحب بـه علماؤها وادباؤها وبقي فيها محوطا بالاجلال والتكريم ، حتى أصيب بمرض طال علاجه ، ولما كانت سنة 1336 هـ ، قرر العودة الى دمشق حيث عين مديرا للمكتبة الظاهرية وانتخب عضوا فى المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) ولكن مرضه ما لبث أن اشتد ، فأسلم روحه الطاهرة الى بارئها سنة 1338 هـ فشيعته دمشق كلها فى موكب مهيب ٠

هذا وقد ترك الشيخ مؤلفات عديدة اليك ملحقا بها ٠

مؤلفاته المطبوعة ٠

1 ـ بديع التلخيص وتلخيص البديع ، طبع عام 1878 م ٠

2 ـ منية الاذكياء فى قصص الانبياء ، طبع عام 1881 م ٠

3 ـ الفوائد الجسام فى معرفة خواص الاجسام ، طبع عام 1883 م ٠

4 ـ عقود اللآلي فى الاسانيد العوالي ، طبع عام 1885 م ٠

5 ـ مدخل الطلاب الى فن الحساب ، طبع عام 1886 م ٠

6 ـ التمهيد الى فن العروض ، طبع عام 1886 م ٠

اما مؤلفاته المخطوطة فهي :

1 ـ التفسير الكبير ، مخطوط

2 ـ المعجم العربي » »

3 ـ السيرة النبوية » »

4 ـ جلاء الطبع فى معرفة مقاصد الشرع ، مخطوط ٠

5 ـ موسوعة التذكرة فى عدة مجلدات ضمنها ما أختاره من فرائد المخطوطات والكتــب النــادرة ٠

6 ـ مبتدأ الخبر فى مبادىء علم الاثر ، مخطوط ٠

7 ـ توجيه النظر الى أصول الاثر « »

8 ـ تدريب اللسان على تجويد البيان « »

9 ـ البيان لبعض مباحث القرآن « »

10 ـ مــراقي عــلم الادب « »

11 ـ التقريب لاصول التعريب « »

مصــادر البحــث :

ـ أعلام الفكر الاسلامي فى العصر الحديث لاحمد تيمور ٠

ـ كنوز الاجداد ، أقوالنا وأفعالنا ، خطط الشام لمحمد كرد علي ، الاعلام لخــير الدين الزركلي ، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، الحركة الادبية فى دمشق للدكتور اسكندر لوقــا ، أعيان دمشق لجميل الشطي ٠

الحضـــارة الاســـلاميــة
ودور الايرانيـــين فى نشرهـــا

د. جعفـر شهيدي
أستاذ الادب والفقــه الجعفري
وعميد كلية الآداب
جامعة طهــران ـ ايــران



كانت جزيرة الغرب الدائرة الاولى التي تمركز فيهـا الاسلام ، وبما ان الاسلام لم يكن دين العرب وحدهم ، وانما هو دين الانسان والفطرة الانسانية فكان لابد ان يتجاوز حدود الجزيرة الى نطـاقه الاوسع ونتكلم فى هذا المقال عن نطاق معين مـن هذه الحركة التوسعية ، وهذا النطاق هو الجزء الخاص بايران أو بلاد الفرس من هذه الانطلاقة العظيمة ٠

ولابد لنا ان نقول أولا أن موقف الامة الايرانية أمام الاسلام لم يكن كموقفها أمام الروم لقد كانت الحرب سجالا بين الفرس والروم وكانت كما يقال يوم لك ويوم عليك ولم تهن الامة الفارسية يوما أمام الـروم لان الحرب كانت تقوم على اســاس الكرامة والشعور القومي والعزة والوطنية ، وكانت صراعا على زعامة العالم ٠

اما موقفها أمام الاسلام فقد كان شيئا آخر ٠ كان بعيدا عن هذا كله ، نعم وقـــع التشابك بين العرب والامة الايرانية ووقعت الحروب الدامية فى بعض الثغور ، ولكـن

كل ذلك كان قبل ان تعرف الامة الايرانية الاسلام وحقيقة الدعوة المحمدية · فلما عرفوا الاسلام حق المعرفة استقبلوه واعتنقوه من أعماق قلوبهم ·

فكان ذلك الموقف اذا استجابة الى داعي الحق لا خضوعا للسيف او تسليما للقوة . وليس ادل على ذلك من السرعة الخاطفة التي انتشر بها الاسلام في ايران ·

والفتح الاسلامي مكن المسلمين من الدخول فى بلدان كثيرة واسعة على يد حفن من الرجال لا يزيد عدد الحفنة منهم عن حامية ثغر من هذه الثغور مع ما كان عليه العرب يومئذ من سذاجة المعيشة وقلة الدربة ، كل ذلك لان تقدير عنصر القوة لم يكن فى حساب المسلمين مطلقا ، ولم تكن القوة عاملا فى انتشار القرآن ، والا ما ترك العرب المغلوبين احرارا فى اديانهم ، فاذا حدث ان اعتنق بعض الاقوام النصرانية الاسلام واتخذوا العربية لغة لهم ، فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل ، ولم ينتشر القرآن اذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول ·

فنقول دخل اكثر البلاد الايرانية فى حكم الاسلام من باب الصلح والتفاهم لا من باب الهزيمة والارغام ، وفتحت ايران ذراعيها للاسلام فى قولها ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ·

فان سئل سائل وما السبب فى ذلك ولم يكن ما أوردناه كافيا · قلنا ان السبب يرجع الى عاملين أساسيين ·

الاول هو ان هذا الانقلاب العجيب الذي حدث فى الجزيرة العربية وأظهر المعجزة فى توحيدها بعدما ظل مستحيلا طول الزمان ، كان أهم العوامل الجذب التي لفتت انظار الفرس الى الحقيقة الاسلامية · فماذا رأت الامة الفارسية على ضوء ذلك ؟ وهنا ياتي السبب الثاني · فنقول ان الامة الايرانية كانت أمة كتابية اي كان لها اذ ذاك نبيها وكتابها ومن هنا كانت اذانها معتادة على نغمة السماء والايمان بالله ومن هنا لم يكن ظهور النبي غريبا على الفرس بل كان وصول هذا النبا الى اسماعهم مدعاة الى ازدياد شوقهم وتشوقهم اليه ومعرفة حقيقة الدعوة المحمدية ، فلما سمعوا القرآن يقول : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله» (١)· ويقول عز من قائل : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله

اتقاكم » (2) ، ثم يسمعون النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » (3) ويقول : « سلمان منا أهل البيت » (3) ، وكانه يخاطبهم بالذات ثم انه يحدد لهم مهمة معينة يلقيها كنوع من المسؤولية على عاتقهم بقوله صلى اللــه عليه وآله وسلم : « لو كان العلم معلقا بالثريا لتناوله قوم من أبنــاء فــارس » (5) ، باسم الله ذهبت عصبيتهم القومية واصبحوا بنعمة الله اخوانا وصار كتاب الله أعــز عليهم من انفسهم واولادهم كما لا يزال الى اليوم والغد بفضل الله ·

نعم لقد عرف الايرانيون دورهم فى الحركة الاسلامية وكان لهم مخططات ايجابية فى سبيل توطيد هذا الدين ولا يخامرني شك فى انه لا يخفى على القارىء الكريم ـ ان ايران فى ذلك الوقت كانت الامبراطورية العظيمة التي تخضع لسلطانها شعوب كثــيرة متباينة الاجناس مارست فيها الحكم ونظمه والسياسيات والحروب وفنونها كما هضمت الحضارات والمدنيات واستقطبت الامكانيات والكفاءات · فيوم ان دخل الاسلام هذه البلاد قدمت تجربة لالفي سنة من الحكم بانواعه وفروعه ونظمه وتقاليده كهدية للعرب فى وقت كانوا اشد ما يكونون حاجة الى تلك التجربة لسياسة هذا العــالم الجديد · واتجهت انظار الفرس كغيرهم من الشعوب الاخرى الى مهبط الوحي ، وارتبطت قلوبهم بمركز الدائرة ، بالكعبة وكان لابد من حدوث عملية المزج والانصهار على صعيد الامة الواحدة فبادروا الى واجبهم الاول وهو التفقــه فى الدين ودراسته دراسة استيعابية تمثيلية واعية ، وكان لابد من الاخذ بالاسباب الى ذلك الهدف ، فاقبلوا على الوسيلة · على اللغة العربية ، والمثل يقول من أحب انسانا خاطبه بلغته ، فكيف بمن يحب الله · لقد اقبلوا على اللغة العربية بحب بالغ وشوق عظيم ،شوق من يريد ان يسمع السماء بحرف السماء ويناجى بما علمته السماء يؤدي حق عبادة الله فرائضها وسننها أداء سليما ، واولا واخيرا شوق من يريد ان يكون حائزا على صفة العضوية الصحيحة فى المجتمع الاسلامي ، مما حث بعض رجال الفرس فى الصــدر الاول الى تــرك بيوتهم والتوجه الى مكـــة والمدينة مهاجرين فى سبيل اللـــه ، ومن ثم الى عواصم الخلافة وحواضر العلم الاسلامية من بعد ، وكانت الحركة الاسلامية تتطور بكل ازدهار وتوفيق وبدأ الفرس يفرغون كل ما فى جعبتهم من خبرة فى دوائر الحكم والسياسة والعـــلم والادب والفن والعمارة والصناعة ونظم المجتمع ·

اما موقفهم التاريخي من نشــر الدعوة الاسلامية ، فاذا كان العــرب قد انطلقوا بالاسلام غربا وشب الحصان على قدميه لعبد الرحمن الداخل شاهرا سيفه فى وجــه

الاطلس قائلا كلمته المشهورة « والله لو علمت ان وراء هذا البحر ناسا لقاتلتهم دون كلمة التوحيد » فان دور الفرس وسلاطينهم فى توسعة النطاق الاسلامي شرقا لا يقل عن هذه العظمة فقد اعتبروا أنفسهم الجناح الشرقي للنشر الاسلامي ، وانطلقوا باعلام الاسلام يحملون القرآن الى قلب آسيا الوثنية مبشرين ومنذرين ، ولم يكن موقف الداخل غير موقف محمود الغزنوى مثلا عن الغيرة على الاسلام فى نشره الدين فى الغور وبلاد الهند ٠

يقول الجرفادقانى فى ترجمته لتاريخ عتبى المعروف بتاريخ يمينى ما ترجمته « لقد اشتغل بال السلطان بالغور واخذته الانفة من تمرد السكان على حدود مملكته وثقل عليه ترصدهم للقوافل ، ولم يرق فى نظره ان تتطاول طائفة مشركة كافرة على الملك بسبب غرورهم لحصانة الجبال وساعة القلل فعزم على تاديبهم » ، وبعد وصف المعركة حق التوصيف يقول : « ولما رأى ابن مورى استيلاء المسلمين كان فى أصبعه خاتم فيه فص مسموم فامتصه ومات » (6) ٠

هكذا كانت ايران المنطلق الشرقى للاسلام ، وكان هذا دأبها فى كل فتراتها مع مد الغربي ، فلما انتهت عصور الملاحم الحربية ظلت هذه الاصقاع الشرقية من العالم الاسلامي ايرانية النبوة تحمل الطابع الايراني فى كل ما هو اسلامي ، وظلت تمثل القصة التي تنحدر منها الانهار الروحية تروي هذه الاراضي بسلسلال الاسلام بما تجود به قرائح مدارسها الفكرية ومعاهدها الدينية والعلمية ٠

لقد تعرض العالم الاسلامي الى تغيرات جغرافية كثيرة بين الاتساع الى الاندلس والبلقان وأروبا الوسطى وآسيا الوسطى والهند حتى حدود الصين ، وبين الانكماش الذي بلغ حد اختطاف بعض أقاليمه ، ولكن الواقع هو ان الاساس الذي وضعه هذا المنطلق الشرقي كان من المتانة والمنعة بحيث استعصى على أشد الانواء المعادية والحركات المعارضة ٠

هذا وقد ساهمت الامة الايرانية فى توطيد دعائم الحضارة الاسلامية التي هضمت جميع الحضارات الموجودة حتى اليوم وسادت عليها سيادة تامة اعترفت بها الامم فى الازمنة التالية حتى اليوم ٠ واذا انطلق الحديث بنا الى الحضارة الاسلامية لا أرى مانعا من ان نتجول قليلا فى افياء هذا الجو الفسيح الممتع ٠

قلنا ان الشمول الاسلامي كان الجاذبية الفعالة فى اقبال الانسان على الاسلام واعتناقه اياه اينما كان وكيفما كان فلما ادرك الانسان بلسم جراحه فى دين « أحب

لاخيك المسلم ما تحب لنفسك » (7) ، خلــع الاثواب الضيقة وارتــدى الثـوب الجديد وجلست الامــم والشعوب على صعيد الوحدة ، وحدة الدين ووحدة المجتمــع ووحدة حرمة الانسان وكرامته ٠

كان هذا الحجم الهائل من البشر فى حد ذاته يتكون من كتل مختلفة كان لكل عنصر منها امكانياته وكفاياته قبل الاسلام فما ان وحد الاسلام هذا الحجم الا نتجت نتيجــة لهذه الوحدة آثار كلية وتغييرات جذرية فى غاية الاهمية للحياة والتاريخ البشــري وكذلك التقت هذه الحضارات الواحدة بالاخرى داخل الاطار الاسلامي وتفاعلت جميعا واحدثت فيما بينها وحدة حضارية متكاملة هي مــا تعــرف بالحضارة الاسلامية التي بلغت الى حد اثبتت بذاقتها عمليا انها اسمى الحضارات وساهمت فى تكوينها كــل الشعوب فهي ليست قاصرة على نوع معين من الفكر أو لون معين من الحياة ٠

قيل فى تعريف الحضارة انها أحوال عــادية زائدة عن ضروري الحيــاة زيــادة تتفاوت بتفاوت الرفاهية وتفاوت الامن من القلة والكثرة ، وأساس كل تقدم حضاري هو المعارف حتى اصبحت أم كل عمل ، فالحضارة هي القلة الكبرى التي رفعت الانسان الى الدرجة التي يستحقها فى الارض وجعلت بينه وبين الحيوانات غير الناطقة بــونا عظيما وتختلف أسباب ذلك باختلاف نظام الهيئات الاجتماعية وقوانين المدنية وطبــاع الشعـــوب ٠

فاذا كان ذلك كذلك ، وكان العلم أساس كل تقدم وجب علينا أن نولى العلم المقام الاول من حديثنا ، وذلك بان نحدد الاسلام بالنسبة للعلم فنقول :

ان القرآن فى حد ذاته كتاب بعث به رسول من الاميين للاميين ، وكانت أول سورة نزلت منه بمثابة افتتاحية الكتاب أو مقدمته المعرفة له المحددة لموضوعه وهي : « اقــرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم » (8) ٠ فأول تكليف هو القراءة ، هو العلم بما يجهله الانسان ، فالاساس فى القرآن هو العلم والاساس فى الامة الاسلامية هو القرآن فهو فى حد ذاته درس سماوى استاذه النبى ومادته المعرفة وطلابه المسلمون ، هذا ولا أظن ان احدا من أصحاب الشرائع كان أعظم اعتناء بالعلم وأكثر اهتماما بشانه كصاحب الشريعة الاسلامية ، ولو أردنا أن نعدد ما ورد عن النبي فى موضوع العلم لنفد البحر قبل ان تنفد كلماته ، ومع هذا فانــه يسعدني ولو على سبيل التيمن ان أورد نبذا من هذه الاخبار : روى ابن عبد البر عن انس عن النبي (ص) انه قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (9) ٠ واخــرج أبو نعيم عن عــلي عليه السلام انه قال : « العــلم خــزائن ومفتاحها السؤال فاسألوا

يرحمكم الله فانه يؤجر فيه أربعة السائل والمعلم والمستمع والمحب لهم » (10) · واما عن العلماء فيكفي ان نشير الى المبدا العام عند المحدثين من التزام قاعدة تقليدية منهجية لم تتغير حتى اليوم وذلك بان يستهل عالم الحديث كتابه بباب فى تعريف العلم .

واما عن طبقة الخلفاء والامراء والحكام من المسلمين فقد رأوا فى العلم تزكية ومكنة وشرفا فاقبلوا عليه بشوق بالغ واعتنوا بشأنه وتنافسوا واحتفلوا بأهله · يقول ابن قتيبة : « خرج الوليد بن يزيد حاجا ومعه عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر فكانا ببعض الطريق يلعبان بالشطرنج فاستاذن عليه رجل من ثقيف فاذن له وستر الشطرنج بمنديل فلما دخل سلم عليه وساله حاجته · فقال له الوليد اقرأت القرآن قال لا يا امير المؤمنين شغلتني عنه أمور وهنات · فقال افتعرف الفقه ، قال لا ، قال افرويت من الشعر شيئا ، قال لا ، قال فكشف المنديل عن الشطرنج ، وقال شاهك » أي كش ملك بالمعنى الاصطلاحي · فقال له عبد الله بن معاوية يا أمير المؤمنين !! وأشار الى الرجل ، قال اسكت فما معنا أحد (11) ·

والذي أحب أن أضيفه الى هذه الرواية ان هذه العلوم التي ساله عنها كانت علوم العرب فى ذلك الوقت ·

ويتمدح المقدسى بسيرة آل سامان فيقول « انهم من أحسن الملوك سيرة ونظرا واجلالا للعلم وأهله (12) ·

وكان السلاطين والامراء يتفاخرون بتقريب العلماء اليهم وتاليف الكتب باسمائهم ويأخذهم الزهو فى ان يقال ان العالم الفلاني عند الملك الفلاني فكان العلماء والأدباء والشعراء واهل الفضل يدلون عليهم ويتعززون بهم ، وقد يقترح الامير على العالم ان يؤلف باسمه كتابا فلا يقبل بالغا ما بلغ العطاء . يحكي صاحب نفح الطيب : ان ابا غالب اللغوي القرطبي المتوفي سنة أربعمائة وست وثلاثين لما الف كتابه فى اللغة بعث اليه أبو الجيش مجاهد العامري ملك حرانية الف دينار ومركوبا وكساء على ان يطرز الكتاب المذكور باسمه فيزيد عليه جملة بسيطة هي « ان هذا الكتاب مما الفه أبو غالب لابي الجيش مجاهد » فقال أبو غالب : كتاب الفقه ينتفع الناس به واخلد فيه همتي اجعل فى صدره اسم غيري ؟ واصرف له الفخر ؟ فابى ورد الدنانير فلما بلغ هذا مجاهدا استحسن الفته وضاعف له العطاء ·

ويقول النظامى العروضى فى كتابه مجمع النوادر المشهور باسم جهار مقاله : جرى الرسم بين الملوك على التفاخر بالعلم فكان الملك منهم يبعث رسولا الى الملك

الآخر يساله غموض الحكم فيجمع هذا علماء بلده ويتشاورون ويدلى كل بدلوه حتى يعثـر على الجواب الـــلازم وظـــل هذا التقليد باقيا الى عهد سيكتكين فلما استولى السلاجقة على الحكم ، عفى هذا الرسم وانطمس كثير من معالم العلوم (I3) ٠

ويقول أبو حيان التوحيدى ان ابن عباد (أي الصاحب اسماعيل بن عباد) كـان اذا قدم عليه احد من أهل العلم يقول له : يا أخي تكلم واستانس وانبسط وافرح ولا ترع ولا يروعك هذا الحشم والخدم فان سلطان العلم فوق سلطان الحكم ، وكان كثيرا ما يقول لجلسائه فمن باليوم السلطان وبالليل الاخوان (I4) ٠ وانى وان كنت قد أطلت فى مقام العلم عند الخلفاء والحكام الا انني فى الواقع قد كبحت جماح القلم لان تنافسهم على شرف العلم هو الذي مـلأ المكتبـة الاسلامية بهذه الثروات الطائلة ٠ لقـد كانت النتيجة لهذا المقام الذي أولاه الاسلام ورجاله للعلم ان بلغ الرواة والمحدثون فى القرنين الاولين للهجرة عددا لا يحصيه الا الله ويندر وجود قرية صغيرة على خريطة العـالم الاسلامي لم يخرج منها عالم او محدث أو مفكر كان لجهوده اثر ملحوظ فى دفـــع عجلة التطور الى الامـام ٠

واما البيئة العامة والحالة العلمية للمجتمع بمعناه الاوسع فيكفى ان نشـير الى العرف المتوارث الذي لا زال جاريا فى ذلك الزمان ٠ فالبسطاء الذين لم يساعدهم الحظ حتى يحققوا لانفسهم قدرا من العلم ، كانوا يحلمون بتحقيق هذه الامنية فى أولادهم ، حتى يسعدوا سلالاتهم وأسراتهم باقتناء كنز العـلم وهم بذلك مـن أكبـر المساهمين والمؤسسين للكيان العلمي ، فاذا ما مـر العالم بهـم جعل ايامهم نـورا على نـور ٠ وكان المحدث أو الفقيه يهاجر فى طلب العلم فينتقل من شاش سمرقند فى أقصى الشرق الى قرطبة فى أقصى الغرب ، فمـا ان يدخل بلــدا فى طريقه الا ويحتفل بـه علماؤه ويعظموه ويفتنمون وجوده ، فالعربي والعجمي والبربري والتـركي والهنـدي سـواء بسواء فى هذا الحق وامـام هذا الواجب فالكل مسـلم وأخ للاخر ، وكـانت المدارس والزوايا والمنازل والارزاق وكل ما يلزم من أسباب الأقامة والرحيل حاضرا لان العلم كان العبادة العقلية ووسيلة التقرب الى الله عن طريق الفهم والاقناع ٠

كان هذا مركز العـلم فى نظـر الاسـلام ودور المسلمين بالنسبة له بصورة عامة ولهذا لا عجب فى ان تصل الحضارة الاسلامية الى أوج ازدهارها وتترقى الامة فى كل قطاعاتها وكوادرها ٠ وكان لانبساط الدولة العباسية ووفـرة ثروتها ورواج تجارتها اثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل حتى لقد بدأ الناس جميعا من

الخليفة الى أقل أفراد العامة شانا غدوا فجاة طلابا للعلم وكانوا يردون موارد العلم ليعودوا الى بلادهم كالنحل يجحطون الشهد الى جموع التلامذة المتلهفين ، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متواصل ، هذه المصنفات التي هي أشبه بدوائر المعارف والتي كان لها اكبر الفضل فى ايصال هذه العلوم الينا ٠

وقد يخطر على الذهن انني أقتصر القول على العلوم الدينية فأقول مع ان أشرف العلم ما وصل الى الحقيقة وما ربط الانسان بخالقه الا ان الدين كان فى خدمة المجتمع وكان الدين هو القاعدة التي نشأت عليها العلوم نقليـة وعقلية أصلية وفرعية ، فالى جانب التفسير والحديث والفقه والكلام والاخلاق والنحو والصرف والفنون البلاغية والادب والتاريخ والجغرافيا كانت الفلسفة والرياضيات والطبيعات والكيميا والصيدلة والنجوم واحكامها والطب والادارة والسياسة والحرب وحتى فنون اللعـب والصيـد والحرف على اختلاف أنواعها ٠ واذا كنا قد اثبتنا ان الاسلام دين حضاري يعتبر أول ما يعتبر بالعلم والتطور العلمي ، يحلو لنا ان نرى مظهرا من مظاهر هذه الحضارة المتطورة وذلك المظهر هذه الناحية الاقتصادية ٠

لقد كانت التجارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجري مظهرا من مظاهر عظمـة الاسلام ، فقد صارت السيدة المطلقة فى بلادنا وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد كما احتلت تجارة المسلمين المكان الاول فى التجارة العالمية ، كانت الاسكندرية وبغداد هما اللتان تحددان الاسعار العالمية فى ذلك العصر فكان التجـار المسلمون حوالي القرن الرابع الهجري يقطعون الاقطار برا وبحرا ينقلون البضائع من بلد الى بلد بين شواطىء فارس وسواحل افريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهنـد والصين وشائر الشـرق ويقطعون صحارى خرأسان وتركستان وارمينية وافغانستان والهند والشام ومصر والسودان وشمال افريقيا والاندلس ، ينقلون اصناف التجـارة كانهم هم وحدهم تجار الارض ، وليس فى الشـرق مركز للتجارة الا البصرة بحـرا وبغداد برا فظهرت فى عهد ذلك التمدن علاقات تجارية جمعت الاموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين مـن الدنانير (I5) ٠

قرات فى سيرة نظام الملك ان ملاحى نهر جيحون طالبوه باجورهم السنوية فاحالهم الى انطاكية فى الشام فشق عليهم الامر ورفعوا أمرهم الى السلطان ملكشاه السلجوقى فسأله السلطان عن الحكمة فى هذا الامر الغريب فأجاب نظام الملـك ، لقد اردت أن يعلم من يتولى الحكم من بعدنا الى أي حد من العظمة بلغ ملكنا ٠ ان هذا القول مـن

نظام الملك لما يحسن السكوت عليه الا ان ما تبقى من القصة أعظم من هذا بكثير · قال ملكشاه نعم ، ولكن ما لهؤلاء المساكين وكيف يقطعون هذه المسافة البعيدة ؟ قال نظام الملك ولماذا يشقون على أنفسهم بالسفر اذا كان فى امكانهم ان يأخذوا حقوقهم من تجار بلدهم مقابل التنازل عن نصف عشر فى المائة (16) ·

وقيل ان عضد الدولة لما صمم على تجديد عمارة بغداد الزم ارباب العقارات بالعمارة فمن قصرت يده عن ذلك اقترض من بيت المال ومعنى هذا ان راس مال الدولة أو الدولة براسمالها كانت تضمن مشاريع الافراد الخاصة (17) ·

اعتقد ان التحدث عن المظاهر الاخرى لهذه الحضارة الخالدة كالعمارة والفن ونظم المجتمع من حيث التقاليد والمعاملات وان كان فى حد ذاته طريفا الا انه يخرج عن حوصلة هذا الحديث · الا ان ما لا يدرك كله لا يترك جله فلنأخذ ما يلزمنا وما يؤيده هدفنا الاصلي من الطابع العام للوحدة الاسلامية كمظهر من مظاهر الشمول فى الاسلام · اما ازدهار العمارة والفن فهذا أمر لا يحتاج الى أدنى دليل لانه يقدم نفسه بنفسه فى كل مكان وزمان لقد هضم الاسلام الفنون المعمارية من فارسية وبيزنطية ، مكونا فنا اسلاميا صرفا متدرجا من المسجد الى المنزل الى القصر الى المدينة على اننا نلاحظ ان فى الطابع الاسلامي قاسما مشتركا بينهما جميعا وان فيها على اختلاف أشكالها وأماكنها وحدة مشتركة فالمسجد بطبيعة الحال يوجه قبلته نحو الكعبة فقبلته جنوبية اذا وقع شمال الكعبة وشرقية اذا وقع غربها والعكس بالعكس ، والمنازل والقصور فى غالبيتها تخفيض حوائطها وأسوارها المواجهة للكعبة وما يقال عن المنازل والقصور يطلق على المدن ، وذلك لان الاتجاه الاول للمسلم فى حياته هو الكعبة فالعمارة فى العالم الاسلامي اذ ذاك قبل ان تتدخل هندسة المدينة الحديثة كانت فى وحدة الاتجاه الى مركز الدائرة مهما كان وضعها على مساحة الدائرة ، وهذا ما احدثه الشمول فى الاسلام من اثر العمارة الاسلامية من سبكها بوحدة الاتجاه والهدف · والكلام عن الحضارة الاسلامية لا ينتهي ولو اقتصرنا على هذه القلائل من النماذج ، ولكن يجب أن نذكر كلمة تكون كنتيجة نهائية لهذا البحث وهي ان حضارتنا الاسلامية التي بلغت فى ذلك الزمان الى غايتها الاسمى ، وان كانت قد أثرت فى تكوينها علل عديدة وعوامل شتى ألا انه يمكننا ان نوحد على ضوء التفكير الفلسفي والتجريد العلمي ، هذه العلل مع كثرتها فى علة واحدة أو فى شتى واحد يكون كجزء الاخير للعلة التامة حسب ما يقوله الفلاسفة ، وهذه العلة الوحيدة أو هذا الجزء الاصلي

لم يكن شيئا الا الايمان ، ايمان المسلم باللـــه أولا ، وايمانه بالمجتمع الاسلامي الذي يعيش فيه ويتمتع به ويكون عضوا له ثانيا ، وايمانه بنفسه وبالقوة التي أودعها الله فيه ثالثا ، فمهما تكن هذه العلة موجودة ومهما تكمن قلوبنا من الايمان ومهما يكـن هذا الشعور حيا ، فليس لنا ان نشك فى ان الله معنا والله ناصرنا ولو افتقدنا لا سمح الله هذا الايمان ، اذا ليس لنا ان نطمح فى شىء من العـزة والمنعة ، بـل ليس لنا ان نطمع فى حياة سعيدة وعيشة راضية يقول الله عز وجل : « ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات مـن السماء والارض ، ولكن كذبوا فاخذناهم بمـا كانوا يكسبـون » (18) .

حول آراء ومواقف الفيلسوف الفقيد الدكتور عثمان أمـين



الاستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم يلقى كلمة الافتتاح وعلى يســاره الاستاذ اسماعيل العربى ، وعلى يمينه كـل من الاساتذة : عمـر بوخزار ، والربيع ميمون ، والبخارى حمـانة ٠

فى اطار النشاط الثقافي لوزارة الشؤون الدينية ، وبمناسبة ذكرى مرور ستــة أشهر على وفاة الفيلسوف المرحوم الدكتور عثمان أمين ، أستاذ ورئيس قسم الفلسفة سابقا بجامعة القاهرة ، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، نظـم المركز الثقـافي الاسلامي ندوة بالعربية حول آراء ومواقف الفيلسوف الفقيد الدكتور عثمان أمـين ، بمشاركة عدد من تلاميذه وأصدقائه مع عرض نماذج من فكره وروحه بصوته مما سجل له خلال ملتقيات الفكر الاسلامي من الرابع الى العاشر ، وذلك يوم الاربعاء 14 ذى الحجة 1398 هـ (15 نوفمبر 1978 م) ٠

وفيما يلي ننشر نصوص الكلمات التي ألقيت بهذه المناسبة ٠

هذا ، وننشير الى أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد عقد بداره جلسة علنية لتأبيد الفقيد د. عثمان أمين ، وتفضل ـ مشكورا ـ الاستاذ الدكتور ابراهيم مدكور ، رئيس هذا المجلس ، ورئيس اتحاد المجامع العربية بارسال وقـائع هذه الجلسة ، والكلمات التى قيلت فيها الى السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ٠ وننشرها فى هذا العدد ، مـع الندوة التى عقدنا فى الجزائر ، كما ننشر الكلمة القيمة التى ألقاها الاستاذ مدكور فى كلية الآداب ، جامعة القاهرة حـول المرحوم عثمان أمـين ، والتى ارسلها الينا ضمن وقائع جلسة المجمع ٠انظرصفحة 34 من هذا العدد٠

كان فقيـــدنا الوحيـــد
ممن كانوا يذكرون اسـم الجـزائـر

آراء ومواقـــف الفيلســوف عثمـــان أمـــين (*)

مولود قاسم نايت بلقاسم

بســم اللــه الرحمن الرحيم ،

يقول الشاعر الاندلسي عبد المجيد بن عبدون فى رثاء المتوكل بن الافطس :

الدهــر يفجــع بعـد العــين بالاثــر
فمـــا البكـاء عـلى الاشبـاح والصـور ؟

هكذا الوضع الآن مع الصورة المعلقة أمامكم ووراءنا للمرحوم عثمان أمين ، الذى كان كما يعرفه الكثير منكم ممن درس عليـــه ، أو ممــن عرفــه فى ملتقيات الفكـر الاسلامي فى الجزائر ، هكذا كان حيا ، يتدفق حيوية فى فكـــره ، وفى مشيته ، وفى كلامه ، ولم يكن من ذلك النوع السبهلل ، كما كان يقول ، من ذلك النــوع الذى أسميه المرتخى الأوصال ، المفكك الاجزاء ، لا ، لم يكن ذلك ، بل كان الحيوية بعينها ، وكان الحياة مركزة ، كان الحياة مجسمة . هكذا كان الدكتور عثمان أمـــين كما عرفناه من بداية الخمسينات .

(*) كلمة السيد مولود قاسم نايت بلقاسم المرتجة فى افتتاح الندوة .

نحن اذ نحتفل الليلة بذكراه ، بهذه الذكرى بعد مرور ستة أشهر بالضبط على وفاته ، فاننا نبقى أوفياء لما اعلنا عنه من بضع وقت من اننا سنحتفل بالمناسبات الوطنية الجزائرية ، من شخصيات ، واحداث تاريخية هامة ، ونحتفل بالشخصيات والاحداث الاسلامية ، كما هو الحال الآن بالنسبة له ، وبالنسبة للصادق بسيس بعد أيام ، وبالنسبة لآخرين فيما مضى ، كالشيخ أبو زهرة رحمه الله ، وعثمان الكعاك رحمه الله ، والشاذلي بلقاضي رحمه الله الخ... ونحتفل أيضا بالشخصيات العالمية بصفة عامة ، كما احتفلنا ببيتهوفن مثلا وغيره ممن يمثلون قيما في أعلى مستوى الحضارة الانسانية ، والفكر الانساني ٠

وفقيدنا الاستاذ عثمان أمين يهمنا كجزائريين ، (وليسمح لي الاخوان غير الجزائريين اذا كانوا هنا حاضرين) ، يهمنا في ناحية خاصة جدا ٠ عندما وصلنا الى مصر ، لم تكن عن الجزائر ، كما يعرف الكثير منكم ممن عاش في مصر اذ ذاك ، في نظر الكثير فكرة ، وكان الكثير هناك سالوننا عن الجزائر اين هي ، الخ ٠٠٠ هل فيها ترمواى ، وهل فيها نيل ٠٠٠ وهل هي جزر أندونيسيا ، أم البليار ، أم واق واق ؟

وكان فقيدنا الوحيد رحمه الله ، الوحيد من بين الاساتذة وواحدا من القلة القليلة جدا من شخصيات أخرى ، ممن كانوا يذكرون اسم الجزائر ! فكان ينتهز كل فرصة ، كل سياق في بداية الخمسينات ليتكلم من الجزائر ، ويشير الى وضعها اذ ذاك ، فكان ذلك يوثر فينا كثيرا جدا ، ومن هنا يهمنا ، كما قلنا ، عثمان أمين وطنيا ، أي كجزائريين ، ويهمنا اسلاميا ، لانه مهتم بالفكر الاسلامي ومن قادته ، واهتم طوال حياته بشخصياته ، سواء كان يكتب أو في محاضراته (I) في مناسبات مختلفة ، مثل ابن سينا ، وابن رشد ، والفارابى ، وجمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، ومحمد اقبال ، وعبد الحميد بن باديس ، ويهمنا عالميا وانسانيا عالميا لانه كان يهتم بالفكر الانساني ، عموما ، بقادة للفكر الانساني ولو من غير المسلمين مثل : ديكارت ، وكنط ، وفيخته ، وآخرين ٠ وكانت تهمه فيهم القيم العلياَ ، القيم السامية ، الحرية ، والتحرر ، والعقل ، والاخلاق ٠

هذا هو عثمان أمين الذى نحتفل الليلة بذكراه ٠ وسيعطيكم الاخوان هنا ، نبذا عن شخصيته ، وفلسفتُه ، تكملها وتجسمها وتبلورها المقتطفات التى ستعرض عليكم بعد ذلك من كلامه ، وفكره ، وعواطفه ، لانه كان فيلسوفا ، وكان في الوقت نفسه يتكلم

بعواطفه ، لانه لم يكن يسمو ، لم يكن يتعالى ، مثل كثير من أدعياء العقل ، عن العاطفة . فهذا الرسول صلى اللــه عليه وسلم بكى عندما عــاد الى مكة ، كما تعلمون ، بالفتح المبــين !

ستعرض عليكم اذن نبذ من حياته ، من روحــه ، وعواطفه ، بصوته فى تسجيلات فى مختلف ملتقيات الفكر الاسلامي ، من الرابع الى العاشر • واننا لنعتز كل الاعتزاز بحضوره المنتظم ذاك ! اما النصوص التى اقتطفت منها هذه النبذ ، فهي موجودة فى كتب الملتقيات المطبوعة ، والبعض الآخر فى طريق النشر ان شاء الله •

(وهنا اختنق المتحدث وتوقف عن الكلام) •

أنظر تكملة لهذه الكلمات ، مقالة له فى تأبين المرحوم فى العدد 60/61 من الاصالة تحت عنوان : مات عثمان أمين !) •

---

1) انظر مثلا كتبه عن : الرواقية ، وديكارت ، وكنط ، ومحمد عبده ، والجوانية ، وعبقرية اللغة العربية ، ومحاضراته ومناقشاته فى كتــب ملتقيات الفكر الاسلامي فى الجزائر ، من الرابع الى العاشر : 1970 ـ 1976 م •

عثمـــــان أمـــــين فيلســـوفا

البخاري حمـانه

اذا كان الموت هو الصخرة التي تتحطم عليها امـال الانســان ٠

واذا كان يستطيع باعتباره امكانية الاستحالة عـلى حد تعبير Heiddesis ، اذ يحول بالتالي حياتنا الـى مصــير كمـا يقـول Malraux وامكانياتنا المتعـددة واللامحدودة الى استحالة مطلقة ٠

فان افضل وسيلة انسانية ممكنة لمواجهته هو عـدم كف الانسان ولو للحظة واحدة عن التفكير فيه ، كمـا يلاحظ الفيلسوف اليوناني Sénèque ٠

يمثل هذا الموقف ، وبـــه وحده يستطيع الانسان أن يفلـــت من مفاجاة المــوت ومداهمته ، عن طريق العمل المستمر والجاد الذي يحول حياته الى سيمفونية مكتملة ، ويعطيها نهاية طبيعية تضفي عليها صورتها المشرقة ٠

وكأني بالفقيد الاستاذ والصديق ، د٠ عثمان أمين قد آمـن بهذه الحقيقة وحرص بالتالي على أن يكون لحياته أو لسموفنيته ـ كما يقول ـ صورتها المكتملة التي تفلت من مباغتة الموت ومفاجاته ٠

فقد كانت حياته كلها عمل متواصل وعطاء مستمر لامته العربية الاسلامية · كما توكد ذلك مؤلفاته العديدة ، ونشاطه الذي لا يعرف التوقف ·

كان رحمه الله يؤمن ايمانا صادقا بمسؤولية الانسان تجاه أمته ومجتمعه مسؤولية الوعي والتضحية من أجل المجتمع والقيم النبيلة ·

وكان يردد لنا دائما فى محاضراته وطيلة السنوات الدراسية الاربع التي كان لي شرف قضائها تلميذا له بجامعة القاهرة · قول الفيلسوف الالماني الاشهر وهو : ان كل ما هو عظيم وما هو حسن فى عصرنا هذا يرجع الى ان رجال الماضى النبلاء الاقوياء قد ضحوا من أجل المبادىء والافكار بجميع مباهج الحياة ·

على ضـوء هذه الملاحظات نستطيع ان نتعرف على بعض الجوانب مـن شخصية الفقيد ، وعلى ضوئها كذلك نستطيع أن نفهم بصورة أوضح « فلسفته الجوانية » التي كرس حياته من أجل ايصالها الى الجماهير العربية والاسلامية ·

يشرح الفقيد الظروف التى دفعته الى الفلسفة ، بل الى التفلسف فيقول : « ان هذه الطريقة فى التفلسف ولـدت عندي حينما لاحظت أن الوسطية الاسلامية فى كهنها الحقيقي تنوسيت على مر الايام ولم يبق منها الا رسومها الظاهرة ·· ومن هنـا كان شيوع البرانية بين الناس تبدى فى ذلك الاختلاف الصارخ بين الاقوال والاعمـال ·· بين المظاهر والنيات ، وافتراق العبادات عن العقيدة السمحاء واستغلال أحكام الدين الحنيف فى تحقيق المآرب وتبرير النزوات » ·

وأمام هذا الوضع المزرى للامة العربية الاسلامية آمـن الفقيد ان لا طريق لخلاص العالم الاسلامي والعربي الا بالتوعية والوعي هدفا ، وبالفلسفة أو التفلسف وسيلـة فالفلسفة صانعة التاريخ كما يقول ·· لان تاريخ الانسانية كله تاريخ فلسفات ·

وعلى اولئك الذين يعترضون بحجة أن الفلسفة لا تصنع خبزا يجيب ، بانها اذا كانت لا تصنع خبـزا فانها تصنع الافكار ·· ومن ثـم فهي تصنع التاريخ · ويكفي تدليـلا عـلى ذلـك فيخته Fichte الذى استطاع بنداءاته الى الامة الالمانية أن يسهم بقدر غير بسيط فى دحض الجيوش النابلونية الغازية لالمانيا ·

وفى هذا دليل على ان الفكرة ، والفكرة بذاتها وبمحض طاقتها الروحية تستطيع ان تغير مجرى التاريخ ·· فهي توقظ الامة من طول الرقاد وتفجر فيها روح الجهاد ·

في ضـــوء هذا الوضع المزرى للامـــة العربية والاسلامية ، وبهذا المفهوم للفلسفة ولحقيقتها ولدورها في التاريخ الانساني وتقدمه طـــرح الفقيد « فلسفته الجوانية » ٠ كطريق للوعي ، وللخلاص والتقدم للامة العربية والاسلامية ٠ في وقت كانت أصوات التعريب لكلاتراثنا يملأ الدنيا ضجيجا ٠

وما اظن ان الوقت يسمح لي بشرح هذه الفلسفة تفصيلا ، أو التحدث عن جوانب الاصالة فيها فذاك ما أتمنى ان تتاح لي فرصة القيام به ٠٠٠ قريبا ٠٠ وفاء لاستاذي الكبـــير ٠

على انه يمكن التعريف بهذه الطريقة الاسلامية في التفلسف ، لا بهذه الفلسفة بانها ليست فلسفة ولكنها طريقة للتفلسف فهي فلسفة تابى الركون الى مذهب ، أو الانغلاق في نسق معين ، بل هي طريقة للتفكير مفتوحة نبتت عند الفقيد ، كما يقول ، من تامله ، منذ صباه ، لروح الدين والاخلاق عامة ، وللقرآن والاحاديث النبوية بصورة خاصة ٠

من هنا أوجه أصالتها ، واتصالها بماضينا قدر ارتباطها بحاضرنا ٠

اما أهداف هذه الفلسفة فان الفقيد يلخصها فيما يلي :

– تزكية الوعي الانساني بالانية الذاتية للوصول الى الرؤية الواعية الواضحة للاشياء ولمجاوزة المظهر الى المخبر ٠

– وتحقيق الامكانيات اللا محققة لدى كل فرد ٠

– باستثمار قوة الروح في العمـــل الصالح للمجتمع الاسلامي بصورة خـاصة والانساني بصورة عامة ، لتحقيق الافضل ٠

فهي فلسفة أساسها الوعي ، ووسيلتها الطاقة الروحية ، وهدفها الوصول بالانسان لتحقيق أسمى ما فيه من مثالية وقيـم ٠

وقد يظن البعض انها فلسفة مغرقة في المثالية الى حد تنسى وتهمل فيه العمــل ، والـــواقع ٠

وذلك ما ينبهنا الفقيد اليه ويحذرنا منه حين يؤكد ٠ أن الجوانية تدعو الى العمل البناء المؤسس على النظر الواعي ٠٠٠ وتزكية الحرية الانسانية ٠٠ وهي من حيـث هي في صميمها وعي قد اتخذت لنفسها الشعار الاسلامي « الامر بالمعروف والنهـــي عن المنكر » ورات هذا المبدأ فرض عين لا فرض كفاية وجعلته مبدأ من مبادىء الوعـــي الانساني ٠٠

لذلك نجـد الفقيد قد حرص على تطبيـق هذه الفلسفة فى مختلف المجالات التـي حددهـا لها ‥ ابتداء مـن دراسـة اللغـة العـربية ٠ لغـة القـرآن ، وايجازها ودعوتها الى الحركة فى نفس الوقت الى الاخـلاق الاسلامية ودعوتها الى الكرامـة والعفة والحرية والشعور بالمسؤولية وصفاء الضمير ٠

ايها الاخوة ‥ كان بودي ‥ ولكن ان هذا التكريم للفقيد ياتي فى اليـوم الذي بدأت فيه وزارة الشؤون الدينية والجزائر التحضير للاحتفالات بحلول القرن 15 ‥‥ احتفالات نقيم فيها ما عملناه فى ظروف استخراب حالكة فى القرن المنصرم ، ونستفيد فيها لهذا القرن ، واظن ان الفقيد الذى اسهم بقدر كبير فى هذه الانجازات جدير بمثل هذا التكـريم ٠

فلقد عاش من أجل الامة الاسلامية العربية ‥‥ وعمل حتى آخر حياته من أجـل وعيها ونهضتها وتقدمها ‥

فالى تلك الروح الزاكية ‥ الطاهرة تحيـة ، والى المفكـر الاسلامي الكبير ، الى الاستاذ والصديق الذي ارتحل عنا الى دار الخلد ، وداعا ٠

في ذكـــرى الفيلســـوف عثمـــان أمـــين

اسماعيل العربي

سيدي الوزير ، ايها السيدات والسادة ،

نعي الينا منذ ستة أشهر شخصية اسلامية ، شخصية علمية من الطراز الاول وتألمنا لهذا الحدث الجلل بصفتنا ننتمي الى الثقافة الاسلامية التي خدمها بكل جد ونشاط ، ونتألم ايضالان الرحيل ، كان من خير من عرف بلدنا وعرف بها · ونتألم خصوصا لاننا عرفناه معرفة شخصية ·

اتيحت لي الفرصة لان أعرف الراحل معرفة شخصية وأن اقترب منه كما يقترب التلميذ من الاستاذ · عرفته أول ما عرفته من خلال أبحاثه وكتبه ، وهذا الجانب يشاركني فيه كل قراء الثقافة العربية ، ولكن الجانب الذي جعلني أشعر نحوه بعلاقة خاصة ، هي روحه الدينية التي تشكل خلفية متينة لابحاثه الفلسفية ، وبصفة خاصة ارتباطه بل والتزامه بمبادىء الحركة الاصلاحية التي كان جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا فى مصر والاستاذ عبد الحميد بن باديس عندنا أكبر أعلامه ودعاته ، وكم كنت سعيدا حينما قدمني اليه الاستاذ محمد الدراز مدير الادارة بجامع الازهر ، لقد أتيح لي ان أحضر محاضرات للاستاذ الراحل فى كلية الآداب بالجامعة المصرية ،

ولكن معرفتي الشخصية بالراحل كانت هي التي اتاحها لي الشيخ دراز · فقد كان مكتبه الواسع والعامر ملتقى لعدد من رجال الثقافة المصريين وبعض الطلبة المسلمين الاجانب الذين يتلقون العلم فى مصر والذين اتاح لي الحظ أن أكون من بينهم · ان هذه الفرصة لا تسمح لي بالحديث عما كان يجري فى هذه الاجتماعات الاسبوعية من الاحاديث الطيبة التي تتناول الدين والفلسفة والادب وبصفة خاصة شؤون العالم الاسلامي ، ولكنني مع ذلك أستطيع أن أقول أن الدكتور عثمان امين وأستاذي محمد البهي فرقر وأستاذي عبد الحليم محمود ، شيخ الازهر الذي وردت الاخبار المحزنة بنعيه مؤخرا ، كانوا هم الذين يقودون المناقشات التي كان يديرها الشيخ دراز بلباقة ومعرفة نادرة بمقدرة كل واحد من زواره وميوله واختصاصاته وذلك فى جو ·

ايها السيدات والسادة ، اليكم الآن كلمة مساهمة فى احياء ذكرى الفقيد الدكتور عثمان امين الذي تظللنا روحه الزكية ·

فى ذكرى الفيلسوف عثمان أمين

ان مساهمة الفلسفة الاسلامية فى تنمية الفلسفة الاروبية لا تزال مشكلة ومثار النقاش بين الباحثين ، والمتطرفون فى هذا الحوار طائفتان : طائفة ترى ان الفلاسفة الاروبيين لم يكن دورهم يتجاوز الاخذ والاقتباس ، أو بلورة المواضيع التي تدور حولها الفلسفة الاسلامية · فنظرية النبوة والتفرقة بين النبي والفيلسوف التي عالجها سبينوزا فى كتابه : « الرسالة اللاهوتية » فى نظر هؤلاء لم تكن الا توسيعا وتجديدا للنظرية التي شرحها الفارابي قبل ذلك بسبعة قرون فى كتاب أراء أهل المدينة الفاضلة · وحجة ديكارت القائلة : «انا افكر ، فانا اذا موجود» ، ليست سوى النتيجة التي توصل إليها ابو حامد الغزالي فى كتاب المنقذ من الضلال ، بعد فترة طويلة من الشك والمعاناة الروحية ، ونظريات روجر بيكون فى البصريات ، انما هي اقتباس بالحرف أو بالمعنى لاراء ابن الهيثم ، وهكذا ، وليقس ما لم يقل ·

والفئة الاخرى تنكر على الفلسفة الاسلامية أي وجود مستقل عن الفلسفة اليونانية فهؤلاء يرون أن دور المسلمين لم يزد عن القيام بترجمة واقتباس آراء الفلاسفة اليونانيين مثل اريسطو وافلاطون ومزجها فى بعض الحالات بالافكار الشائعة بين الطوائف المسيحية التي كانت تعيش فى سوريا وآراء الوثنيين من أهل حران · وبعبارة أخرى فان فضل المسلمين يقتصر على نقل التراث القديم الى أروبا فى العصور الوسطى مهضوما جزئيا ، اي انهم انما قاموا بدور الانسان العادي الذي يشكل جسرا لتعبر

الانسانية عليه الى الانسان المتفوق ، أي « السوبرمان » كما يصفه الفيلسوف نيتشه في نظريته المشهورة ٠

من البديهي أن هؤلاء المتطرفين انما يعتمدون على العموميات وعلى السهل من الحجج ، بل وعلى ما يشبه الحجج ، ولا يكلفون أنفسهم عناء الدرس المتعمق والتحليل. والملاحظ هو ان الاتجاه الاول شائع بين طائفة من المسلمين الذين ينكرون كل أصالة للحضارة الغربية ، بينما يردد آراء الفئة الاخيرة غلاة الجاحدين الذين ينكرون فضل الاسلام ولا يعترفون بصرح الحضارة الذي شيده المسلمون فى ثلاث قارات من القارات الخمس ٠

طرح عثمان أمين الراحل هذه القضية بمنهجية المعلم التي تعتمد على الشرح والتوضيح وتبسيط المشاكل العويصة ، فى المساهمة القيمة التي قدمها فى نطاق الملتقى الثامن للتعرف على الفكر الاسلامي فى بجاية ، فاختط لنفسه طريقا سويا فى العرض والتحليل وصاغ رأيه فى عبارات تتسم بالرزانة والصدق والالتزام للحقيقة ٠ فما هو موقف عثمان أمين من هذه القضية الخطيرة الشأن ؟

يرى الفيلسوف الراحل أنه لكي نكون منصفين يجب ان نعترف بان الفلسفة الاسلامية (أو الفلسفة العربية ، كما يرى البعض ، لانها كتبت باللغة العربية) تحتوي على عناصر هامة من الفكر اليوناني ٠ وكلمة عناصر التي استعملها عثمان أمين تعجبني بصفة خاصة ، لانها تثبت منذ مقدمة الاستدلال وجود الفلسفة الاسلامية ، لان كل كائن حي ، بل وكل نبات له شخصية متميزة ووجود مستقل ، يحتوي على عناصر مختلفة ، والفرق واضح بين العناصر المحفوظة ، وكلا على حدة والعناصر المهضومة التي تكون مع غيرها كائنا حيا مستقلا ٠

على أن الاستاذ الراحل لا يقف فى بحثه واستدلاله عند القول بان العرب هضموا عناصر الفلسفة اليونانية ، بل هو يذهب خطوة أخرى أبعد من ذلك حين يقول :

« ولكننا نقرر مع ذلك أن الفلسفة العربية والاسلامية شيء ، ومجرد الهضم والتمثيل للفلسفة اليونانية شيء آخر » ٠

ما معنى هذا التقرير ؟ معناه أن الفلسفة الاسلامية مرت بمرحلة أولى وهي مرحلة النقل والهضم والتمثيل ثم دخلت فى مرحلة ثانية ، وهي مرحلة الانتاج الاصيل الذي يعكس موقف المسلمين من المشاكل الميتافيزيقية التي يواجهونها فى عصرهم بمنهجية تعترف بالتطورات التي عرفها الانسان خلال القرون التى تلت عهد الفلسفة اليونانية ٠

وبهذا المنطق فقط يمكننا ان نعترف بدورنا بالمذاهب الفلسفية الكبرى التي ظهرت فى أروبا فى العصور الحديثة · فان زعماء هذه المذاهب مثل الفلاسفة بيكون وديكارت واسبينوزا ولايبنيتس ، قد تغذوا هـم ايضا بعناصر مـن الفلسفة اليونانية والفلسفة المسيحية والفلسفة الاسلامية ، ولكنه كان لكل منهم مع ذلك شخصيته ونظامه الفلسفي الذي يلتقي أو يفترق مع نظم الآخرين ·

وعلى ضوء هذا التحليل البارع يستنتج عثمان أمين نتيجة تكاد تكون بديهية فيقول :

« واذا ، فكيف صاغ البعض ان يظنوا ان عقلا كعقل الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد كان عقلا جديبا لم ينتج فى الفلسفة شيئا أصيلا ، وانـه لم يكن الا مقلـدا لليونـان ؟ » ·

ويمضي الباحث فيصرح بمضمون نتيجته قائلا :

«أبادر فأقول ان للفلسفة الاسلامية مكانتها التي يشهد بها الواقفون على اسرارها» .

ان اطار المحاضرة لا يتسـع لمعالجة مشكلة كبيرة مثـل مشكلة أصـالة الفلسفة والتفكير الاسلامي من جميع جوانبها · ولو تناولها الكاتب الراحل فى اطار أوسـع لفصل ما أجمله ولاتسع افق تحليله ليشمل مختلف العوامل التي ساهمت فى تكوين الرأي الذي ينكر وجود الفلسفة الاسلامية وفضل المسلمين بصفة عامة على الحضارة الحديثة · ولكن بعض هذه العوامل يمكن استخلاصه من سياق هذه المحاضرة القيمة ومن القراءة بين السطور ·

وفى رأيي أن أهم هذه العوامل هـو الجهـل المزدوج : أولا جهل العرب بتراثهم الفلسفي · فاذا استثنينا دراسات جـدية لا يكاد عددها يتجاوز عدد أصابع اليـد الواحدة ، فان الباحثين لم يعكفوا على درس دذا التراث · والصعوبة الاساسية فى ذلك مرجعها الى ندرة الوثائق حيث أن الاغلبية الساحقة من المؤلفات الفلسفية لا تزال فى حالة مخطوطات لم تمسها يد بالتحقيق فضلا عن الشرح والتعليق – وهي موزعـة فى مختلف مكتبات العالم فى الشرق والغرب ، هذا اذا لم تكن قد ضاعت كلية · بـل ان بعض مؤلفات الفلاسفة العرب لا توجد الا فى ترجمة لاتينية · ومن ثـم ، فان مهمة الباحث الصادق العزم والمخلص فى عمله مهمة شاقة للغاية من حيث انه يتحتم عليه ان يعرف الى جانب أشياء أخرى اللاتينية واليونانية ، وأن يتاح له وقت فسيح ومـال وفير وتسهيلات فوق العادة حتى يتمكن من التنقل بين مختلف مـدن العـالم للبحث

وللاطلاع عن نصوص خطية نادرة وهي فى حالة المادة الخام ٠ ومتى انتهى هذا الباحث من عمله المضنى الذي قد يستغرق جزءا مهما من عمره ، سيواجه مشاكل النشر أو تمويل نشر كتابه ، بالاضافة الى مشاكل التوزيع وعدم وجود عدد كاف من القراء فى البلد الذي ينشر فيه ، لان توزيع كتاب فى جميع البلدان العربية بما يعترضه من الحواجز الجمركية وغير الجمركية وقيود العملة الخ ، أصبح أمرا غير ممكن الا فى احلام الكتاب ٠

والجهل الثاني الذي أدى الى انكار قيمة الفلسفة الاسلامية ، هو جهل المستشرقين باسرار اللغة العربية ، وبصفة خاصة بالمصطلحات الفلسفية ، الامر الذي يجعل من الصعب عليهم الخوض فى البحث والمناقشة وتقويم الافكار الفلسفية ٠ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان متطلبات عصر الاستشراق كانت تتركز فى الجغرافيا والتاريخ والتشريع ، وهي أمور وثيقة الصلة بالسياسة وبمحاولات الاستعمار لفهم أوضاع سكان المستعمرات ٠ وأما تحقيق الكتب الفلسفية وترجمتها والتعليق عليها ، فهو مجهود ليس له مردود سياسي على الاطلاق ، وبالتالي ، فان احدا لم يتجه اليه بصورة جدية ٠ على انّ ملتقى ابن رشد الذي عقد مؤخرا فى الجزائر ، يبشر باتجاه جديد ويدل على الشعور بهذا النقص الخطير ، ان لم نقل هذه الفجوة فى تنميتنا الثقافية ٠ والاستاذ الراحل ، عثمان امين قد خط لنا الطريق ووضع معالمه وزودنا بارشاداته وآرائه القيمة بشأن الاتجاه الذي ينبغي ان نتجهه ٠

عثمان أمين فيلسوف الجوانية بين اللغة والديكارتية

د. الربيع ميمون

سيدي الوزير المستشار برئاسة الجمهورية ،

اخواني الاساتذة ،

سيداتي ، سادتي ،

يمتاز أستاذنا الكبير عثمان امين ، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه ، بحس فلسفي عميق ، نافذ ، جعله يجمع بين تعاليم الاسلام الكونية ، وتفتح النزعة الفلسفية الانسانية فى فلسفة خاصة به ، غايتها الانسان وكرامته وسيادة المثل العليا بين افراده ٠

لقد كانت فلسفته التي أعطاها اسم الجوانية تقوم على الدعوة الى تنمية الانسان لقواه الروحية تنمية يشعر معها بانه متآزر مع أفراد الانسانية المؤتلفة الواعية بصرف النظر عن اختلافهم فى اللغات والاجناس والاوطان (1) ٠

---

1) عثمان أمين ، محاولات فلسفية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1967 ، ص 29 ٠

ولهذا تقتضى من الانسان أن يكون صاحب وعي بالدرجة الاولى : صاحب وعـي بأنه انسان أي مخلوق كريم ، وصاحب وعي بأنه يجب عليـه أن يعيش كانسان ، وأن يحافظ على انسانيته ، ويحميها بكل قواه مما يمكن أن يحط منها ٠

ويظهر لنا بدون عناء أن أستاذنا المرحوم كان من كبار الوعاة الذين لا يرون أي شيء كأي شيء بلا اختلاف ولا اتفاق اذ كانت وضعية الامة الاسلامية تؤلمه نقائضها ، ويحز فى قلبه تأخرها ، وكانت حضارة الغـرب تجذبه اليها بايجابيتها فيميل اليها ، ولكن احتكاكه بها سرعان ما كان يذكره بأمجاد الاسلاف فيتركها الى حين ، ويـرجع الى حضارة أجداده ليتفهم روحها ، ويشيد بها ، ويجعلها جنة يحتمى بهـا ، وحاجزا بينه وبين أي ذوبان كان ٠

لقد كان يعتز بشخصيته العربية الاسلامية أيما اعتزاز ، وكان يرى فى المتجنسئن بالسلوك والعقلية ، واللباس ـ ناسا يمتازون بضعف عقولهم ، وانحرافهم ٠

ولهذا كان يدعو بالحاح الى التمسك بالاصالة الذاتية والمحافظة عليها ، وكان يرى أن قيمة الانسان الحقيقية كامنة فيها ، وأن التقدم الصحيح لا يمكن أن يكون الا انطلاقا منهـا (2) ٠

ان الجوانية التي نشأت نوازعها لديه فى أيام الصبا ، وتأكد انطباعها فى أيـام الشباب واكتمل وعيها فى أيام الكهولة (3) بين مواطنيه البسطاء من أهل قريته التي بقى يحن اليها طوال حياته (4) ، فلسفة ترجع أصولها الى تأملاته فى روح الدين والاخلاق بصفة عامة ، وتأملاته فى آي الذكر الحكيم ، والحديث الشريف بصفة خاصة (5) ٠

فهي ليست مذهبا أو نسقا فلسفيا مغلقـا ، ولكنها فلسفة أو طريقة فى التفلسف تمتـاز بتفتحها ٠

ويمكننا أن نقول عنها ، ومن بعده ، رحمة الله عليه ، « انها عبارة عن استعداد أوحال نفسانية ، ثم هي نظرة الى الاشياء ، وتقديم لها تقديما لا يقـف عند ظاهرها ، ويحاول أن يكتنه أسرارها وخفاياها » (6) ٠

---

2) مولود قاسم نايت بلقاسم ، مات عثمان أمين فيلسوف الجوانية ومفند الخواجات الاصالة ، سبتمبر 1978 م ، العدد 60/61 ، ص 2 وما بعدها ٠

3) عثمان أمين ، محاولات فلسفية ، ص 17 ٠

4) المرجع نفسـه ، ص 19 ٠

5) المرجع نفسـه ، ص 17 ٠

6) المرجع نفسـه ، ص 32 ٠

ولهذا فهي تجمع بين الحيـــاة الروحية والحيـــاة الدنيوية ، ولا تجعل حاجزا بينهمـــا (7) ٠

ان الغاية التي ترمي اليها دائما هي الروح أو ما يمكننا أن نعبر عنه بالحقيقة أو السر الذي يقوم عليه وجود كل شيء ٠

فالحقيقة ، فى نظر أستاذنا الكبير ، يجب أن لا تلتمس فى المظهر ، بل وراءه (8) ٠

ولهذا ، يطلب منا أن لا نقتصر فى درسنا للفلسفات على الاقوال التي صرح بهـا اصحابها ، وأن نحاول دائما استشفاف المعنى المستور وراءها من جهة ٠

ويطلب منا أن ننتبه الى أن مفاهيم بعض الفاظ اللغة التي نكثر من استعمالها مثل الامة ، والجماعة ، والشخصية ، والفكر ، والصداقة ، والولاء ، والايمان ، لا يمكن أن تكون الا جوانية من جهة أخرى (9) ٠

وهو يرى من بعد هذا كله أن تناسى المسلمين « للوسطية الاسلامية » على مـــر الايـــام جعـــل « البرانية » تطغى فى المجتمع الاسلامي ، وتسود كما يتجـــلى ذلك فى التخالف بين الاقوال والافعال الذي صار المسلمون يمتازون به (10) ٠

ان « البراني » ، اذ اطغى صعب على الانسان أن يتحرر منه ، ولا يمكنه أن يتحرر منه الا بكفاح وعراك مستمرين (11) ، أو بعبارة اسلامية ، الا بجهاد دائم للنفس ٠

فالجواني هو الذي يمنح الانسان وغيره قيمتهما فى نظر أستاذنا الكبير ٠

ولذلك جعل منه الزاوية التي ينظر منها الى اللغة العربية ، والفلسفة ، وكل قضية يتناولها بالبحث فتكتسى آراؤه بسبب ذلك حلـــة من الطرافة والكمال لا نجدهما الا فى آراء الفلاسفة العظـــام ٠

ان اللغة العربية ، فى نظر أستاذنا رحمة الله عليه ، لغة وعي وشهادة يجب الدفاع عنها والمحافظة عليها ، والرقى بها من غير تشويه لاصالتها (12) ٠

---

7) المرجع نفســـه ، ص 40 ٠
8) المرجع نفســـه ، ص 23 ٠
9) المرجع نفســـه ، ص 35 ٠
10) المرجع نفســـه ، ص 20 ٠
11) المرجع نفســـه ، ص 40 ٠
12) عثمان أمين ، فلسفة اللغة العربية ، الاصالة ، ماي 1978 م ، العدد 57 ص 110 ٠

ولذلك كان يرى فى تأخرها سببا من أسباب تأخر المسلمين كما كان يرى فى هجوم المستعمرين عليها ، وفى دعوتهم الى ترجمة القرآن الكريم مخططا مرسوما غايته القضاء عليها ، وعلى الهوية العربية ، وبالتالي على الاسلام والمسلمين (13) ·

فاللغة العربية لغة تمتاز فى نظره بمثاليتها وجوانيتها ، وباعرابها وصدارة المعنى فى تراكيبها ، وبظلال رسومها وألوانها ، وبحرصها على الايجاز والتركيز ، وبدعوتها الى الحركة وتوخى الوعي والفهم قبل المنطق ، والسمع ، والكتابة فى خطابها (14) ·

ولذلك ، فهي ذات عبقرية فائقة لا نجدها لغيرها من اللغات على الرغم من اهمالنا لها بسبب ما صرنا اليه من التدهور والانحطاط ·

وهي عبقرية فريدة فى نوعها ضمنت لها البروز والخلود ، وجعلت منها اللغة التى تستطيع ، دون غيرها ، أن تحمل معاني الوحى وأسراره ·

هذا ، ويبدو لفيلسوفنا الاصيل أن الديكارتية أقرب الفلسفات الغربية الى روح اللغة العربية (15) ·

لقد كان ، رحمة اللـه عليه ، يسرف فى حبه لديكارت ولغيره من الفلاسفة الذين اشتغل بهم ، وكتب عنهم (16) لانه كان يرى أن الفلاسفة والمفكرين الوعاة جديرون بالتقدير مهما كانت أجناسهم (17) ، وكان يرى أنه لا يمكن أن تكون لنا معرفة صحيحة بهم من غير مشاركة روحية ، أو « تعاطف عقلي » معهم (18) ·

ولهذا نجده يلتزم ، دائما ، بدراسة المذاهب الفلسفية من ناحية صلتها الوثقى بدراسة من أبدعوها (19) ·

وهو لا ينسى ، أبدا ، لدى دراسته للفلاسفة الغربيين أن يبرز سبق الفلاسفة المسلمين وفضلهم على الفلاسفة المحدثين فى نظرياتهم كلما سنحت له الفرصة (20) ·

---

13) المرجع نفسه ، ص 101 و ص 103 ·
14) المرجع نفسه ، ص 101 وما بعدها ·
15) المرجع نفسه ، ص 107 ·
16) عثمان أمين ، ديكارت ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، 1969 م ، ص 13 ·
17) مولود قاسم نايت بلقاسم ، الاصالة ، العدد 60/61 ، ص 4 ·
18) عثمان أمين ، ديكارت ، ص 13 ·
19) المرجع نفسه ، ص 7 ·
20) مولود قاسم نايت بلقاسم ، الاصالة ، العدد 60/61 ، ص 3 وما بعدها ·

ولا ينسى ، ايضا ، ان يطبق المنهج الجواني فى عرضه للقضايا الفلسفية علـى اختلاف انواعها ٠

ففلسفة ديكارت ، فى نظره ، جوانية مثل حياته (21) ٠ وذلك لانها فلسفة تقـوم **على الدفاع عن بداهة العقل** فى كل قول ، وكل معرفة وكل يقين ، **والدفاع عن النـور الفطري** الذي هو مناط كرامة الانسان (22) ٠

ان فضل ديكارت على الانسانية يظهر فى قوله بأن المثل الاعلى للانسان ماثل فى تحقيقه وعيه لذاته ، ولمكانه فى العالم بحيث يـرد جميع آرائه الى افكـار واضحة ومتميـزة (23) ٠

لقد أعرض ديكارت عن المعرفة المحيطة الشاملة تواضعا لله ، واكتفى بالبحث عن انفع المعارف فى هذه الحياة جاعلا مطمحه وضوح الرؤية فى العمل ، وطمأنينة السير فى الحيـاة (24) ٠

ولقد كان العقل قائده فى البلوغ الى هذه الغاية السامية بعد أن ذلل العقبات التي كانت تعترضه سواء كانت ذات علاقة بداخل النفس مثل الاهواء ، أو بخارجها مثـل العوائق الاجتماعية (25) ٠

فالعلم ، فى نظر ديكارت ، يجب أن تكون له غايات عملية تعـين الانسان علـى التحلى بأسمى الكمالات التي تسمح له بها طبيعته ٠

ولهذا ، فهو يرى فيه العلم الذي يستطيع أن يجعل منه مثل سيد ومالك للطبيعة ، والعلم الذي يستطيع أن يحرره من المرض ، وأن يجعل منه انسانا صاحب أخلاق سامية وحكمة عميقة فى النهاية (26) ٠

فالفلسفة الديكارتية غايتها اصلاح جوانية الانسان ٠

ولعلـه لهذا السبب نجـد أستاذنا الكبير يشتغل بهـا فيترجم لصاحبها كتابيه الاساسيين اللذين هما كتاب « التأملات فى الفلسفة الاولى » وكتاب « مبادىء الفلسفة

21) عثمان امين ، ديكارت ، ص 22 ٠
22) المرجع نفسـه ، ص 23 ٠
23) المرجع نفسـه ، ص 15 ٠
24) المرجع نفسـه ، ص 24 ٠
25) المرجع نفسـه ، ص 23 ٠
26) المرجع نفسـه ، ص 24 ٠

من جهة ، ويكتب فى التعريف وبفلسفته كتابا لا زال أحسن ما كتب عن ديكارت باللغة العربية على ما أعرف ، من جهة أخرى » ·

ويظهر لنا أن اهتمام استاذنا الكبير بالفيلسوف ديكارت كان اهتماما موفقا سواء فى كتابه عنه ، أو فى ترجمته لكتبه لان « الجوانية » التي اعتمدها كطريقة للتفلسف البناء فتحت امامه باب الديكارتية على مصراعيه ، ومكنته من أسرارها فصار يجول فى رحابها ، وكأنه احد اتباعها المتعصبين ·

لقد كان استاذنا فيلسوفا فى عرضه لآرائه وفى كتابته عن غيره من الفلاسفة ، وفى ترجمته لآثارهم ·

ولم يبلغ ، فى نظرنا ، هذه الدرجة من النضج الا لانه تحرر بتفكيره النافذ ، وشعوره المرهف من حدود الزمان والمكان فصار انسانا صالحا لكل زمان ومكان ·

ان الفلسفة ، فى نظره ، « عمل اخلاقي » يقوم به الفيلسوف (27) ، ولا يمكن أن يستغني الناس عنه لانه محرك نهوضهم وتقدمهم ·

ولعله لهذا السبب نجده يقول : « ان الفلسفة لا تستطيع ان تصنع الخبز · ولكنها تستطيع دائما أن تصنع الافكار · ومن ثم تستطيع أن تصنع التاريخ · وليس هذا بالشيء اليسير فى حياة الانسان الواعية » (28) ·

هذه جملة من الافكار يشرفني أن أقدمها اليكم ، سيداتي ، سادتي ، مشاركة متواضعة مني فى احياء ذكرى وفاة علم من أعلام الفلسفة العربية الاسلامية المعاصرة فارقنا الى جوار ربه راضيا مرضيا ، بعد أن قام بواجبه على اكمل وجه ، وابقى لنا من بعده انتاجه المتنوع العظيم لدراسته ، واستلهامه ، والسير فى خطاه لاثرائه ·

وهو انتاج جدير بنا أن نهتم به ، وأن نبرز جوانبه المتعددة ، وأن نكشف عن قوته ، وندل على أبعاده وفاء لصاحبه الذى أحب هذه اللغة التي هي قوام اصالتنا ، وهذا الدين الذي هو منارة عزنا ، وأخلص فى خدمته لهما اخلاصا يراه الله ورسوله والمؤمنون ·

لقد مات الاستاذ عثمان أمين رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه ، ولكن انتاجه الاصيل باق بيننا ، وسيبقى بيننا دليلا نهتدى به ما بقيت هذه اللغة ، وما بقى هذا الدين ·

---

27) المرجع نفسه ، ص 9 ·
28) عثمان أمين ، محاولات فلسفية ، ص 55 ·

الجلســـة العلنيـــة
لمجمــع اللغــة العربيــة بالقاهــرة
لتأبـــين المرحـــوم عثمـــان أمـــين

اقيمت يوم الاربعاء 23 من ذي القعدة سنة 1398 هـ (الموافق 25 من اكتوبر سنة 1978 م) جلسة علنية بدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة لتابين فقيده المغفور له الدكتور عثمان أمين (الذى توفى الى رحمة الله فى 17 ـ 5 ـ 1978) ·

وكان فى مقدمة المحاضرين والمتكلمين الدكتور ابراهيـم مدكور رئيس المجمع ، والسادة اعضاء المجمع ولفيف من كبار العلماء وأساتذة الجامعات وجمع من طـلابها ورجال الاعلام من صحافة واذاعة وتلفزيون ·

ثم اعقبه الدكتور سليمان حزين فالقى كلمة المجمع فى تأبين فقيده ·

وتلاه الاستاذ محمد عز الدين امين شقيق الفقيد فالقى كلمة الاسرة ·

وبعد ذلك اختتم الدكتور الرئيس الجلسة بكلمة شكر فيها السـادة الذين شاركوا المجمع فى تأبين فقيده ·

وفيما يلى ننشر اهم وقائع هذه الجلسة التى تفضـل الاستاذ الدكتور ابراهيم مدكور بارسالها للنشر فى الاصالة ·

1 ـ كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع
« انـــا وعثمــان امـــين »

أيهــا السيدات والســادة :

يفقد المرء نفسه شيئا فشيئا حين يفقد الاخوان الاعزاء والزملاء الاوفياء ، ولقـد كان عثمان أمين منى فى مقدمة هؤلاء ، عرفته شابا ، وصاحبته كهلا وشيخا ـ عرفته فى باريس بين الرعيل الاول من مبعوثي كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وفى باريس مجال فسيح للجد واللهو · وأشهد أن فقيدنا رحمه اللــه كان جادا دائما · اتيحت له موارد البحث والدرس فنهل ما وسعه ، قرأ فى الادب والفن ، كما قــرأ فى العلم والفلسفة ، وتابع كبار الاساتذة ، وتتلمذ لشيوخهم ، وجود لغته الفرنسية الى جانب لغته الانجليزية وضم اليهما حظا غير قليل من اليونانية واللاتينية · وتوفر له فى مصر قبل سفره زاد كبير من العربية أدبا وعلما وفلسفة ، ولم يصرفه تعمقه فى دراسة الفكر الغربي قديمه ومتوسطه وحديثه ومعاصره ، عن أن يتابع النظر فى الفكر الاسلامي · ويكفي أن أشير الى انه استطاع أثناء بعثته أن يحقق كتابا من أهـم كتب المعــلم الثاني ، وهــو كتاب « احصاء العلوم » لابي نصر الفارابي ، وجاءت طبعته الاولى وليدة هذه الجهود · وفى حرصه على التجويد الحق بها الطبعة الثانية والثالثة ·

وزاملته فى مصر منذ عودته من أوروبا ، فالتقينا على مائدة التدريس فى كليـــة الآداب بجامعة القاهرة ، واشتركنا فى لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية بمجمعنا هذا اشترك معنا خبيرا ، ثـم عضوا وزميـلا ، والمعجم الفلسفي الذي يخرجه المجمع الآن مدين له بقسط كبير من تمحيصه وتحقيقه · واشتركنا أيضا فى لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية بالمجلس الاعلى للآداب والفنون وجمعت بيننا ندوات ومؤتمرات متلاحقة · ولا أذكر أننا اختلفنا قط فى الحكم والتقدير ، أو تباعدنا فى التوجيه ورسم السياسة · وقد رميت يوما بممالاته والتعصب له ، ويعلم اللــه أنى لم أرشحه لامر ، ولـم أختره لموقف الا وهو به جـد جدير ·

واليوم وقد رحل عنا وخلف ما خلف من فراغ ، فان الواقع يقتضينا أن نسجـــل أنه يعد بحق من بناة الفكر الفلسفي المصري المعاصر · كون رعيلا مرموقا من الباحثين والدارسين ، وزود المكتبة العربية بزاد وفير سيبقى على الدهر · ولم يفته أن يكتـب ويؤلف باللغتين الفرنسية والانجليزية · تغمده الله برحمته ، وجزاه خير الجزاء عما قـدم للغتــه وثقافتــه ·

2 ـ كلمـة المجمع فى تابين فقيده الدكتور عثمان أمـين

للدكتور سليمان حـزين عضو المجمع

بسم الله الاول والآخر ، كانت الساعة ساعة الضباء ، وكان الفصل من السنـة فصل الربيع ، وكان النهر الذي نقف على شاطئه نهر دجلة ، وهذا النهر يفيض فيضانه فى وقت الربيع حين تذوب الثلوج القادمة من جبال بلوخستان ، وكانت القافلة قافلة طلاب كلية الآداب من الجامعة المصرية فى عام 1930 م · كانت القافلة بسيارتها العتيقة التي انهكها الزمن قد قطعت طريقا عبر بادية الشام التي كانت فى ذلك الوقت خالية من الطرق المعبدة ، سارت القافلة على درب قوافل الجمـال ، حتى اذا ما وصلت شاطىء دجلة القينا هذا النهر العاتي بمياهه الصاخبة ، ولم يكن فى ذلك الوقت من جسر عبر هذا النهر ، وانما كان العبور فوق جسر هو فى أساسه قرب هواء منفوخة شد بعضها الى بعض ، ونسجت من فوقها قطع الخشب مشدودة بعضها الى بعض ، واشفق قائد الرحلة على الطلاب من أن يعبروا فـوقه بسياراتهم ، فاشار الى أن ننـزل ، وعبـرت السيارات خالية ، ثم بدانا العبور على الاقدام ، وكان من بين هؤلاء الطلاب طالـب ربعة فى طوله ، مشرب وجهه بحمرة تعلوها طيبة المحيا ، يلبس طربوشا طويلا كمـا كانت عادتنا فى تلك الايام ، ويمسك فى يده بعصا معقوفة اليد ، وكانت تلك العصا قد لازمته طوال الوقت ، ذلك هو عثمان أمـين ، وكان عثمان أمـين منذ تلك الايام يبهره الجمال الرائع فوقف على الشاطىء ماخوذا بجماله ، ويرى فى ذلك الشاطىء لونـا من الجمال الذي تمسك به طوال حياته ، وفى تأمله ذاك زلت قدمـه عندما بدأنا نعبر جسر القرب المنفوخة ، وسقطت قدمه ، وظننا أنه سقط ، ولكنه تمسك ونهض قائمـا مرفوع القامة كما كان دائما بشخصيته هذه التي يبهرها جمال الطبيعة ، قام وأبى الا أن يستمر على الجسر مستندا الى عصاه ، وكان زميلا لنا فى كلية الآداب ، ولكننا كنا ننظر اليه على انه طالب فلسفة ، وعلى انه فيلسوف أيضا ، نوع جديد بين من يدرسون الفلسفة ، وكان فى كل تصرفاته منذ اليوم الاول فى كلية الآداب فريدا · كنا نحـاول دائما أن نتلقى الفكر والادب والعلم عن أساتذتنا فى كلية الآداب ، ولكنه اختلف عنـا جميعا ، فى انه ابى الا أن يتتلمذ على أساتذة قدامى سبقوا عصرنا بقرون كثيرة ، منهم افلاطون الذي أخذ عنه قوله ان الفلسفة محبة الفكر ، والفلسفة حارسة لهذا الفكـر ،

حارسة للدنيا كلها ، وأخذ عنه ان الفلسفة جمال فى الرأي · ومنذ ذلك الوقت أخذ عثمان أمين يعشق الجمال ، الجمال الحي والجمال المعنوي ، وانعكس ذلك كله على شخصيته التى أصبحت وبقيت الى آخر أيامه شخصية جمالية بكل ما يحويه الجمال من معنى رقيق ، وكان الى جوار ذلك مؤمنا ايمانا قويا ، وكان يكرر دائما أن الله سبحانه مالك الجمال المطلق ، وهو يعشق هذه الصفة من صفات الله تعالى ، وحاول أن يتأسى بها فى كل تصرفاته ·

وانتقل به الزمن والفكر من الفلاسفة القدامى الى الفلاسفة العرب ومنهم الغزالي ، الذي رأى أن الحياة حواس ثلاث منبعها القلب ، فكان يرى أن الانسان انما يسمع ويبصر ويحس باللمس ويحس بالذوق ، ويحس بالشم كل ذلك عن طريق القلب · وهكذا بقى عثمان أمين طوال حياته متأسيا بهذا القول الرائع من أقوال الغزالي ، فرأيناه فى كل حياته بيننا يسمع بقلبه ويرى بقلبه ويحس الاشياء بشغاف قلبه ، وأكاد أقول انه كان يشم رائحة الخبر ورائحة الجمال فى الحياة بقلبه أيضا ، من هنا انتقل الى التأثر بأقوال كثيرين من أهل الكلام والمتحدثين والفلاسفة وأهل الفن والفكر العربي كالفارابي وغيره متأثرا بهذا كله فى حياته حتى خرج منها آخر الامر بفلسفته الجوانية ، كان دائما يقول ان الحياة البرانية للانسان انما هي دائما حياة شكل ، أما المضمون فى الانسان فهو الجوانية ، ومن هنا رأيناه يهذب جمال حياته ، ويعلم نفسه ، ويثقف نفسه ، فلقد عنى بالغريزة فيه ، وعنى بالعقل والفكر ، وعنى بالنفس والضمير ، وعنى بالشخصية ، غريزته كانت مهذبة ، استطاع أن يهذبها وأن يغلبها فى كل شيء فعاش العيشة البسيطة ، لم تبهره الحياة أبدا ، وانما بقى دائما مثال الاستاذ المتواضع ، وأهل التربية يقولون ان تهذيب الغريزة يخرج حيوانا من حيوان كلنا حيوان ، ولكن الذين يستطيعون تهذيب غرائزهم هم حيوان آخر ، وأهل التربية يقولون ان تهذيب العقل والفكر يخرج بشرا من حيوان ، وقد استطاع عثمان أمين أن يهذب فكره فى مجالات الجمال ، وقد استطاع بجهده الخاص أن يخرج بنفسه من الحيوانية الى البشرية · وأهل التربية يقولون ان تربية الضمير تخرج الانسان من بشر ، وقد استطاع عثمان أمين أن يحيا بضميره وأن يتحكم فى سلوكه دائما ، ومن هنا فانه كان واحدا من أولئك القلائل الذين انتقلوا بأنفسهم وبذواتهم من البشرية الى الانسانية · وأهل التربية يقولون ان تهذيب النفس يخرج الانسان الارقى انسانية من الانسان ، وقد استطاع

عثمان أمين بتهذيب نفسه ، بل بما عرفناه عنه منذ كان طالبا فى كلية الآداب ، استطاع أن يخرج فى ذاته الانسان الارقى انسانية من الانسان ·

هكذا كانت شخصية عثمان أمين وبقيت حتى فارقنا الى دار الخلود ، وقد امتد فكر عثمان أمين فى العقدين الاخيرين من حياته ، استطاع أن يبرز نظرية الجوانية ، هذه النظرية التي خرجت من طور الحيوانية الى البشرية ثم الى الانسانية ، ثم من الانسانية الى انسانية أعلى هذه الجوانية هي التي جعلت معالم شخصيته ، وأنا أذكر أننا عندما اخترناه زميلا لنا فى المجمع العلمي المصري ، وجاء يقدم نفسه فى بحث فلسفي ، حاول أن يتحدث الينا عن هذه الجوانية وبهرنا جميعا ، لقد سمعت عثمان أمين أكثر من مرة ، وقرأت له أكثر من مرة ، تحدثت اليه أكثر من مرة ولكني لم أسمعه بمثل هذه الروعة عندما تحدث الينا فى المجمع العلمي ·

وامتازت حياة عثمان أمين بجانب ثان هو جانب اللغة العربية ، كنا فى الكلية نختلف الى بعض دروس الادب ، وكان جانب منا من الطلاب الذين تخصصوا فى الادب العربي الى جانب آخر تخصص فى الجغرافيا أو الاجتماع أو الفلسفة ، ولكننا مع ذلك كنا نحاول أن نستمع الى دروس أستاذنا الدكتور طه حسين ، وكنا ننتظر عثمان أمين وبعض زملائه فى قسم اللغة العربية ، لاننا مثلنا كمثل عابر السبيل فى قسم اللغة العربية ، واظن انني قرأت لعثمان أمين عندما جاء الى هذا المجمع وقد قدم نفسه على أنه عابر السبيل فى اللغة العربية ، ولا أظن ذلك الا أنه كان من جانب التواضع من جانب عثمان أمين ، لقد كان أصيلا على طريق اللغة العربية لانه عنى بالجانب الجمالى فى اللغة العربية ، وتعميق فهم الجمال فيها ·

فاللغة جانب منعكس من الانسان ، واللغة العربية بالذات أعرق اللغات الحية ، من هنا فاننا اذا أردنا أن نلتمس أسباب البقاء والخلود فى اللغة العربية فانما ينبغي البحث عن أصولها الجمالية ، وكان عثمان أمين سباقا فى هذا ، أتعب حياته منذ اليوم الاول فى كلية الآداب فى البحث عن جوانب الجمال ، وتلمس عثمان أمين طرق البحث عن جوانب الجمال فى اللغة العربية من الطريق المباشر ، طريق الجمال فى اللغة ، واستطاع عثمان أمين أن يتجه هذا الاتجاه ، هذا الاتجاه الفذ الفريد الذي فقدنا ذلكم كان عثمان أمين الاخ والصديق فى تلك الفئة الصغيرة قليلة العدد فى كلية الآداب ، تلك كانت مجموعة من الاخوة ، ومن هنا فاننا نفقد جانبا من جوانب أنفسنا ، كما قال الرئيس حين نفتقد واحدا من اخواننا ·

كان عثمان أمين شخصية فذة ، ترك طابعه الجمالي فى كلية الآداب وفى سلوك أبناء كلية الآداب من أبناء ذلك الرعيل الاول ، وقفة عثمان أمين تلك البعيدة على شاطىء دجلة مبهورا بالجمال ، جمال الطبيعة الرائع ، الذي أدخل فى نفوس زملائه جميعا الاشفاق والخوف ، عثمان أمين لم ير فى ذلك الموقف الذي ينطوى على الخطر كله الا جذب الجميع لينبهر به ، وكادت قدمه أن تزل فى قاع اليم ، عثمان أمين هو هو عثمان أمين الذي عرفناه فى أواخر أيامه لا يرى فى الحياة الا الجمال ، ولايرى فى الفلسفة الا الحكمة ولا يرى فى معاملة زملائه جميعا من أحسن اليه ومن أساء اليه ــ الا المحبة ، ذلكم كان عثمان أمين الذي دخل الآن الى دار الخلود ، وما أرى الا انه قد يحمل معه منظار الجمال الذي رأى الدنيا منه ، منظار الجمال الذي سيرى به آخر الدارين حب فى حب ، وجمال فى جمال ٠

توضيـــح حـــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائـدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتـذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـــات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مــن هــذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطـــر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاســـلامى .

فلسطين
أرض العروبة والاسلام

أحمد وافى أبو خليل
ممثل حركة فتح فى الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الامين وعلى من تبعه باحسان الى يوم الدين ،

معالى الوزير ،

الاخوة أعضاء الملتقى الاسلامى الكبير . . السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

يسعدنى وانا التقى بكم أن أنقل لكم تحية الثورة الفلسطينية ، وتحية اخوتنا فى القيادة العامة لـ «فتح» واخوتنا المجاهدين الذين يذودون بأرواحهم عن حياض الوطن ، يدافعون عن كرامة هذه الامة عن حضارتها ، عن وجودها ، يدافعون عن المقدسات وقد ديست قداستها ، وعن الاوطان وقد امتهنت كرامتها ، وعن الامة وقد سلبت ارادتها وحريتها ، أنقل لكم تحياتهم متمنين لكم مؤتمرا ناجحا ، وقرارات حاسمة لخدمة القضية الفلسطينية، والفكر الاسلامى العظيم.
أيها الاخوة :

المطلوب منا الآن أن نتحدث عن فلسطين فى وضعها الراهن ، وعن التطورات التى تعيشها الثورة الفلسطينية ، ولكن فى الواقع نحن نريد اذا اتخذنا مواقف أن نتخذها مواقف علمية على أسس علمية واضحة فاسمحوا لى أن نتحدث فى نبذة عن تاريخ الشعب الفلسطينى وتاريخ العروبة فى فلسطين ، وتاريخ الاسلام فى فلسطين ، حتى نستطيع أن نستخلص النتيجة الموجودة وهى أن فلسطين لنا ولا بد أن تعود لنا مهما كانت الصعاب ومهما كانت العقبات .

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 10/19 اوت 1970 م.

أيها الاخوة :

فلسطين وطننا العزيز الغالي جزء طبيعي من بلاد الشام ، فلسطين التي شهدت طلعة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، تمتاز مع موقعها الروحي العزيز بموقعها الجغرافي الفريد ، فهي تقع في مكان متوسط تقريبا من الوطن العربي ، وتربط بين أطرافه من ثلاث جهات برية ، ومما يزيد الموضوع أهمية أن هذه الاطراف تكون ثلاثة من الاقسام الجغرافية الاربعة التي يتكون الوطن العربي منها ، الهلال الخصيب ، وشبه الجزيرة العربية ، ووادي النيل ، جناح واحد فقط من الوطن العربي وهو المغرب العربي لا يتصل بفلسطين اتصالا ماديا مباشرا ، ففلسطين اذن تقوم مقام الجسر بين ثلاثة أرباع الوطن العربي الشاسع ، هذا بالاضافة الى أن هذا البلد فلسطين هو الذي يربط بين القارتين اللتين يتوزع العرب عليهما : آسيا وافريقيا ، وهو الجسر البري الوحيد بينهما وهو أقصر جسر بين الاماكن المقدسة الاسلامية في شبه الجزيرة العربية ، ثم ان فلسطين التي تتوسط العالم العربي تماما انما هي تتوسط العالم الاسلامي تمام التوسط وتجعل من الاماكن المقدسة في القدس قلب العالم الاسلامي ، جغرافيا مثلما هو قلبه ماديا وروحيا ، فهي اذن ملتقى وسطيا لقارات آسيا وافريقيا عن طريق البر ، وأوروبا عن طريق البحر المتوسط ، فموقعها هذا كون تاريخها ، اذ أن موقعها بين الدول العظيمة القديمة ، جعلها مسرحا لجيوش العالم القديم ، فقد وقعت فيها أهم الوقائع الحربية لاكبر الفاتحين كـ «تحسمس» و «نبوخذ نصر» و «قهمبيز» و «الاكسندر المقدوني» ثم ابن العاص وخالد بن الوليد وصلاح الدين الايوبي ، ثم نابليون ومن جاء بعدهم ، يقول «جورج آدم» المؤرخ المشهور : ليس في الدنيا من بقعة جرت فيها الحوادث التاريخية الحربية ما جرى في فلسطين ومثلما هي معرض للجيوش لتكون ميادين للقتال ابان الحرب كذلك فهي الطريق التجاري الهام والشريان الحيوي الذي تمر منه القوافل التجارية بين الشرق والغرب قديما وحديثا،وموقع فلسطين عند مجمع السبل وصيرورتها ميادين للقتال واتخاذها طرقا للتجارة كل ذلك أكسبها فوائد التمدن والصنائع والعلوم ٠

يقول «بريستد» في كتابه «العصور القديمة» : وقد تسنى لفلسطين أن يتألب في أسواقها أناس من كل بلاد وامة ، وبعد أن يتحدث عن

تعدد البضائع وجودة المعروضات وتعدد مصادرها يقول : وكما التقت في أسواق فلسطين تجارات الامم المحيطة بها تتبارى في مضمار السلم ، كذلك تلاقت جيوشها في ساحات الـوغى تتقاتل وتتطاحن لان موقعها بين جارتيها القويتين في ذلك الوقت مصر ، وبلاد ما بين النهرين جعلها معتركا حربيا لقرون عديدة ، ولقد منيت فلسطين مرارا في تلك الحروب ما منيت به بلاد البلجيك في الحروب العالية ما بين المانيا وفرنسا ، سنة 1914 فاستولت عليها مصر مئات السنين ثـم استولى عليها الآشريون ثم الكلدانيون ثم الفرس ، ولما آل جزء منها الى العبرانيين لم يؤملوا أن يبقوا فيها أمدا طويلا سالمين • والثورة الفلسطينية اليوم تؤكد لكم أن الاسرائيليين لم ولن تسمح لهم أن يؤملوا أن يبقوا فيها أمدا طويلا سالمين •

وعن أهمية فلسطين في الشؤون الدولية في العصر الحاضر يقول تقرير وضعته اللجنة الانجليزية الامريكية ، احدى اللجان المكلفة للتحقيق في الاضطرابات في فلسطين سنة 1946 ، وتستمد فلسطين اهميتها في الشؤون الدولية الى حد كبير ، من وقوعها على خطوط المواصلات الرئيسية للطرق والسكك الحديدية ، وهي تقع على الخط الممتد بين مركزي الثقافة العربية العظيمين القاهرة ودمشق ، وبين مصر مقر الجامعة العربية والدول الاخرى المنتمية الى عضويتها ، وبين العراق وشرق الاردن المستقلتين حديثا ونافذتها على البحر المتوسط ومن الجدير بالذكر أن نلاحظ أن قرب فلسطين من بادية العرب التي تحيط بها من الجنـوب والشرق جعل أهل الجـزيرة العـربيـة ينزلونها منذ اقدم أزمنة التاريخ ، فاكتسحوها حينا واستقروا على الحدود أحيانا ثم تدريجيا نزحوا الى الداخل وأنشأوا فيها دويلات كثيرة ، وتوالى هبوطهم وانتقالهم اليها الى أن اصطبغت البلاد بالصبغة العربية الحديثة واصبح التمدن فيها عربيا ، فحب الحرية والاستقلال والمناظرة الشديدة بين القبائل والعائلات هي من جملة مميـزات تاريخ فلسطين الناتج عن قربها من الصحراء فمن أين جاء انسان فلسطين أيها الملتقى الكريم ؟ لقد كانت فلسطين آهلة بالسكان قبل عصـور ما قبل التاريخ ، وتدلنا حفريات الباحثين أن الهياكل البشرية التي عثر عليها مؤخرا في مغارات وكهوف وأودية فلسطين ، تـدلنـا على أن الانسان الذي على مقربة من كهف الطابون في جبل الكرمل بفلسطين

كان حلقة بين الانسان البدائي والانسان الحالي والذى نسميه اليوم بالانسان العاقل ، وتقول الابحاث التى أجريت على جمجمة الانسان اكتشفت قرب طبريا بفلسطين سنة 1925، أما انسانها عاش قبل مائتى ألف عام،ويقول حول ذلك الاستاذ مصطفى الدباغ المؤرخ الفلسطينى المشهور فى كتابه «بلادنا فلسطين» يقول : ان فلسطين من أقدم مواطن الانسان ، وأنها كانت مأهولة قبل مائتى الف عام ٠ ويقول المؤرخ الفرنسى «رابو بورد» يرجع وجود السكان فى فلسطين الى عهد قديم جدا وقبل أن يضع اليهود أول قدم لهم فى هذه البلاد ، كان مستوطنا بها أقوام ذووا حضارة ومجد كالكنعانيين والفلسطينيين ، واقتضت سنة التطور أن يمر انسان هذه البلاد بمراحل التطور الطبيعى للبشرية منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، فمر بمرحلة جمع القوت وعاش الحياة البدائية الهمجية الاولى ثم تدرج الى حياة مرحلة انتاج القوت بعد اكتشاف النار والزراعة ، ويذكر بعض المؤرخين أن شعب هذه البلاد ربما يكون أول من عرف الزراعة فى العالم ، ثم تدرجوا فى بناء المدن وكانت مدينة أريحا أول مدينة بنيت حوالى 7000 ق ٠ م ، وكانت مبانيها وتحصيناتها حسب الحفريات تدل على أنها ربما تكون نواة أول حكومة فى العالم ، وهذا مما يؤكد رأى المؤرخين ، وأما العرق السكانى لهذه البلاد فيقول «حتى» : ان العرق البشرى الذى تنتمى اليه هذه الشعوب هو العرق المعروف بعرق البحر الابيض المتوسط ، ثم جاءت موجات بسيطة من آسيا يقال أنها تنتمى الى السامية ثم أثرت فى السكان الاصليين وتأثرت بهم الى أن جاءت فى نهاية الالف الرابع وبداية الالف الثالث قبل الميلاد ، موجات من الجزيرة العربية حيث حل الكنعانيون الساميون العرب بفلسطين وذلك حوالى 3000 ق ٠ م ٠ وتبدأ فى الحقيقة جذور التاريخ المعروف بحضارة الكنعانيين الساميين العرب ، والذين كانوا هم العنصر السائد فى فلسطين القديمة رغم موجات الغزو المتتالية ، وكانوا يعيشون لقرون طويلة فى مدن فلسطينية قطعت أشواطا بعيدة فى ميادين الحضارة والمدنية والتقدم ٠

هذا ولقد وفدت على فلسطين بعد ذلك وفى حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد قبائل قليلة العدد من الآريين من وراء البحر واستقرت على ساحلها الجنوبى ، وكانت البلاد فى ذلك الوقت ذات

حضارة تأثرت بها هذه القبائل ، والتى سميت فلسطين باسمهم فيما بعد ، تأثرت تأثرا كبيرا بالحضارة الموجودة فى فلسطين وذابوا فيها مع مرور الزمن مكونين شعبا واحدا متحدا هو شعب فلسطين العربى ولقد أسس الكنعانيون كثيرا من المدن فى فلسطين مثل القـــدس التى كانت تسمى «يبوس» أو «أورساليم» ومنها اكتسبت الاســـم العبرى «أورشليم» هذا بالاضافة الى الكثير من المدن الكبيرة الهامة الاخرى ٠

وفى القرن الحادى عشر قبل الميلاد هاجمت قبائل عبرانية جاءت من بلاد ما بين النهرين وعبرت غرب نهر الاردن الى فلسطين هاجمت فلسطين واحتلت جزء منها حيث قامت دولة أسسها داوود عليه السلام عام 1056 ق ٠ م ٠ ولم تكن سيطرتها سوى على جزء من البلاد بينما بقى الجزء الاكبر من البلاد فى أيدى السكان الاصليين من الكنعانيين الفلسطينيين ، ولم يقص التاريخ على أن اليهود سيطروا على فلسطين جميعها ، أو حتى على الجزء الغالب منها فى أية حقبة حتى خلال قيام مملكتهم الموحدة التى لم تعمر طويلا ، فمثلا لم يملك اليهود آنذاك من الساحل الطويل الفلسطينى ، كما ذكر الدكتور «غوستاف لوبون» سوى القسم الممتد من يافا الى الكرمل ، وذلك كما أورد فى كتابه «اليهود فى تاريخ الحضارات» وانقسمت هذه الى مملكة اسرائيل التى اقيمت فى الشمال ، وكانت عاصمتها «السامرة نابلس» وقــد دامت حتى سنة 751 ق ٠ م ٠ حيث دك الاشوريون عرشهم بقيـــادة «شلما نصر» وبمساعدة السكان الفلسطينيين الاصليين،ومملكة يهوذا فى الجنوب التى كانت عاصمتها «القدس» وقد دامت حتى عام 586 ق م حيث دمرها «نبوخذ نصر» البابلى وبمساعدة السكان الاصليين كذلك وقد أحرق الهيكل وسبى سكانها من اليهود الى بابل ، وتفرق الباقى ولم يبق منهم الا عدد ضئيل ، ومنذ ذلك التاريخ انتهت صلتهـــم بفلسطين بانتهاء غزوتهم التى احتلوا ابانها جزءا صغيرا من البلاد ما لبثوا أن أخرجوا منه ، وبقى فى فلسطين شعبها العربى الاصلى ٠

ويقول «غوستاف لوبون» فى كتابه السالف الذكر يصف اليهود فى خلال الفترة القصيرة التى قضوها فى فلسطين ، ان اليهود ظلوا حتى فى عهد مملكتهم بدويين أفاقين مفاجئين مغيرين ، سفاكين ، مولعين بقطعانهم الى خيال رخيص تائهة أبصارهم فى الفضاء ، كسالى

خاليين من الفكر كأنعامهم التى يحرسونها ، وكانت صورهم ووحشيتهم وتعطشهم لسفك الدماء تبرز من وصايا قائدهم يشوع بن نون حين قال لهم: احرقوا كل ما فى المدينة واقتلوا كل رجل وامرأة وكل طفل وشيخ حتى البقر والغنم بحد السيف ، أحرقوا المدينة بالنار ولا تستبقوا منها نسمة ما · يقول الكاتب المؤرخ اليهودى «مانوحييم موشى» فى كتابه «انحلال اليهودية» منذ أكثر من أربعة آلاف سنة عاش الكنعانيون فى فلسطين ، ان عرب فلسطين اليوم الذين يعيشون كلاجئين مشردين فى الخيام والاكواخ خارج وطنهم ، هم من نسل أولئك الكنعانيين ، لقد بنى الكنعانيون المدن والقصور واستعملوا الجص والعربات ، وأقاموا المعابد والاصنام ، لقد عبدوا الطبيعة وكان من أكبر آلهتهم «العاصفة» كانت بيوتهم متقنة بشكل جيد وبصورة فريدة فى ذلك الزمان · ويقول الكاتب نفسه : «لقد عاصر الكنعانيون حروب الغزو التى شنها العبرانيون الاوائل وشهدوا القادمين الغزاة يربحون ويخسرون ، وتبين أثناء ذلك ظل الشعب الكنعانى مستقرا يواصل أعماله واعتنق بعضه اليهودية وبعضه المسيحية ، وحين خرج محمد النبى من الجزيرة العربية اعتنق معظم هذا الشعب الدين الاسلامى ، فسكلوا مجتمعا عربيا واحدا متحدا ، ولهذا نرى اليوم عرب فلسطين يشكلون الغالبية الساحقة من السكان منذ تلك الايام» ·

أيها الاخوة :

لقد تعرضت فلسطين كذلك الى حكم الأشوريين ثم الى حكم الفرس ، جاء حكم الرومان سنة 65 ق · م · وفى كل مرة كان سكان البلاد يثورون أو يتعاونون مع جيرانهم للقضاء على الغازى الدخيل ، ولم يستقر قرار لدولة غازية غريبة عن فلسطين على مر التاريخ حتى جاء الفتح الاسلامى ذلك الفتح الذى عمق عروبة فلسطين وذلك بعد معركة اليرموك الشهيرة ، الفتح الذى أتاح للخليفة عمر بن الخطاب أن يتسلم مفاتيح القدس ويعطى عهده المشهور للمسيحيين حول القدس بتأمين سكانها ، وكما قال «ميلون موشى» : فقد تجاوب الشعب الاصلى العربى كثيرا مع الفتح الاسلامى وساعدوهم أيضا على تسهيل الفتح وطردوا الروم ، ومنذ ذلك التاريخ والبلاد تنعم بأمن واستقرار حتى جاءت الحروب الصليبية فى القرن الحادى عشر ، حيث وقعت

فى قبضة الاحتلال الذى لم يستمر طويلا ، وهزم الصليبيون عـلى يد القائد المشهور صلاح الدين الايوبى وذلك فى موقعة «حطين» الشهيرة ومنذ تلك العصور وفلسطين تعيش حياتها العربية الاسلامية رغم الغزوات الطارئة التى تعرضت وتتعرض لها مدى مرور السنين حتى كانت الهجمة الاستعمارية الغاصبـة الـتى تمثلت فى الاغتصـــاب الصهيونى الحالى فى فلسطين ، تلك الغزوة التى لم نعدها فى حسابنا الا كاحدى الغزوات التى تعرضت لها بلادنا على مر التاريخ ، وبذلك حافظت فلسطين على عروبتها ، وحافظت فلسطين على دينها الاسلامى رغم كل المحن التى تعرضت لها ، وسيحافظ شعب فلسطين اليـوم كذلك على عروبته ، وسيحافظ شعب فلسطين كذلك على دينه رغـم المحنة القاسية التى مرت بها فلسطين ، ويمر بها اليوم شعب فلسطين وثورة شعب فلسطين .

أيها الاخوة رجال الفكر وطلاب العلم : يا من تبحثون عن الحقيقة من أجل العمل ، لتعملوا من أجل الحقيقة ، اننى أرى وأنا أتحدث معكم اليوم أنه من واجبى أن أذكر أنه فى هذا الوقت الذى نلتقى فيـــه ونتحدث يمر بفلسطين حدثان هامان :

الحدث الاول : هو مناسبة مرور عام على حريق المسجد الاقصى فى القـدس .

والحدث الثانى : هو المحنة القاسية التى تتعرض لها الثـــورة الفلسطينية اليوم ، ثورة شعب فلسطين ثورتكم أنتم ، من أجـــل تصحيح انحراف التاريخ ، المحنة التى يتعرض لها شعب فلسطين نفسه ، عندما يتعرض لظلم الاشقاء الذين نصبوا أنفسهم أوصياء عليه دون أن يكون هو قاصرا ، ودون أن يكونوا هم أكفاء أو أمناء على هذه الوصاية ، أقول هذا وقد تحدثت عن فلسطين أرض العروبة ، فماذا عن فلسطين أرض الاسلام ؟ وموطن القداسات ، حتى نرى ماذا عن حق العروبة والاسلام فى فلسطين ، لنرى ما هو حق فلسطين عـلى العروبة والاسلام ، فلسطين أيها الاخوة هى أرض الاسراء ، حيث أسرى بالرسول الكريم من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، قال تعالى فى كتابه العزيز : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا**» ،وفلسطين

هى أرض المعراج حيث عرج بمحمد صلوات الله عليه الى العلا ، من الصخرة المشرفة بيت المقدس فى الليلة التى كان فيها الاسراء ، ورأى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم سيد الملائكة جبريل عليه السلام حيث فرضت الصلوات الخمس على المسلمين قال تعالى : **ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبـرى** » ، وفلسطين أيها الاخوة أرض القبلة ، اليها كان يتوجه الرسول الكريم وأصحابه فى صلاتهم ، حيث بيت المقدس عندما كانو بمكة قبـل الهجرة الى المدينة النورة ، ولا زال مسجد القبلتين فى المدينة فى يثرب يضم قبلتين الاولى منهما متجهة نحو الشمال حيث بيت المقدس فى فلسطين والثانية الى الجنوب وتتجه الى مـكة ، وفلسطيـن هى الارض المباركة هى الارض التى وجد عليها ابراهيم عليه السلام مأمنه ممن لم تنفعهم نصائحه من قومه فى بلاد ما بين النهرين فارادوا قتله قال تعالى : « **ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنـا فيهـا للعالمين**» وفلسطين هى الارض المقدسة ، فقد حدثنا القرآن أن موسى عليـه السلام وقومه لما دخلوا صحراء التيه طلب منهم أن يتشجعوا ويدخلوا فلسطين ولكنهم كانوا قد ألفوا الذل والمسكنة فى أرض الفراعنـة فتمكن الصغار من نفوسهم فلم تكن لهم قوة فى دخول فلسطين ، قال تعالى : **يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون**»ولقد قدست فلسطين كذلك بتطهيرها من الشرك ، وجعلت مسكنا للانبياء وعدها الله عباده الصالحين حيث قال : «**ولقد كتبنا فى الزبور مـن بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون** » ،ولما ابتدأ هيرودس بقتل كل طفل يولد فى بيت لحم آوى الله عز وجل سيدنا عيسى عليه السلام وأمه الى بيت المقدس الى فلسطين حيث قال : **وجعلنا ابن مريم وامه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين**» وعن سور القدس قال تعالى : **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهـره من قبله العذاب** » قال أبو العوام مؤذن بيت المقدس : سمعت عبد الله بن عمر يقول : ان السور الذى ذكره الله فى القرآن هو سور بيت المقدس الشرقى باطنه فيه الرحمة (المسجد) وظاهره من قبله العذاب وادى جهنم ٠

أيها الملتقى الكريم : هذه هى فلسطين الاسلامية التى ذكرها القرآن فى مواضيع كثيرة من كتابه الكريم ، وكرمها الرسول الكريم باحاديث كثيرة تدل على مدى اهتمام الاسلام بها والمسلمين ، وقيمة هذه البقعة من الدنيا عند المولى عز وجل، ، قال واثلة بن الأصقع ان رسول الله (ص) قال : «**يجند الناس اجنادا فجندا بالشام وجندا باليمن وجندا بالعراق ، وجندا بالمغرب ، فقلت يارسول الله : انى رجل حديث السن فان ادركت ذلك الزمان فايها تامرنى يا رسول الله ؟ قال عليكم بالشام ، فانها صفوة الله تعالى فى ارضه يسوق اليها صفوته من خلقه ، فاذا أبيتم فعليكم باليمن فاسقوا بغديره وقد تكفل الله تعالى لى بالشام واهله**» وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : «**انزلت على النبوة .... بيت المقدس واكناف بيت المقدس**» ،وعن عطاء أنه قال كذلك : **لا تقوم الساعة حتى يسوق الله عز وجل خيار عباده الى بيت المقدس والى الارض المقدسة فيسكنهم اياها** . وعن السلف الصالح ان سلمة بن نفيل جاء الى رسول الله (ص) فقال : اننى سيبت الخيل ووضعت السلاح ووضعت الحرب اوزارها وقال : الا قتال ؟ فقال له النبى «**لان جاء القتال لا تزال طائفة من امتى ظاهرين على الناس يزيغ الله قلوب اقوام فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى ياتى امر الله وهم على ذلك ، الا ان عقر دار المؤمنين الشام ، والخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة**» . وفلسطين أيها الاخوة هى البلد الذى رحل اليه أكثر من عشرة آلاف من الصحابة ممن رأوا النبى رأى العين وذلك بعد معرفتهم لفضائل هذه البلاد المقدسة على ما رواه الوليد بن مسلم .

أيها الملتقى الكريم :

قال **عمر بن الخطاب** لجلسائه يوما : **اى الناس اعظم اجرا ؟** فجعلوا يذكرون له الصلاة والصوم ويقولون له فلان وفلان بعد أمير المؤمنين ، فقال : الا اخبركم باعظم الناس أجرا ممن ذكرتم ومن أمير المؤمنين ؟ قالوا بلى ، قال : **رويجل بالشام اخذ بلجام فرسه يكلأ من وراء بيضة المسلمين لا يدرى اسبع يفترس ام هامة تلدغه او عدو يغشاه ، فذلك اعظم اجرا ممن ذكرتم ومن امير المؤمنين**» ، ووصف أحد الحكماء بلاد الشام ومنها فلسطين لعمر بن الخطاب قال : والشام يا أمير المؤمنين مرج خصب ووابل سكب كثرت أشجاره واطردت

أنهاره وغمرت أعشاره وبه منازل الانبياء والقدس ، وفيه جل خلق الله من الصالحين المتعبدين وجباله مكان المجتهدين والمنفردين ، وقال القزويني : والشام هي الارض المقدسة التي جعلها الله منـزل الانبياء ومهبط الوحي ومحل الانبياء والاولياء ، هواؤها طيب ، وماؤها عذب وأهلها أحسن الناس خلقا وخلقا وزيا وريا،هذا وقدورد ذكرجل المدن الفلسطينية في أحاديث نبوية شريفة أو أحاديث قدسية نخص بالذكر مدينة القدس التي نحن بصدد مرور عام على حريقها الذي يناسب 21 من الشهر الجاري ، قال تعالى في حديث قدسي لبيت المقدس **«انت جنتي وقدسي وصفوتي من بلادي من سكنك فبرحمة مني ، ومن خرج منك فبسخط مني عليه»** ، وفي الحديث الشريف **«ان فضائل بيت المقدس هي أرض المحشر والمنشر ائتوه فصلوا فيه فان صلاة فيه كالف صلاة في غيره»** ، وفي حديث آخر **«من مات في بيت المقدس فكانه مات في السماء»** ، وفي حديث ثالث : **«ان الجنة تحن شوقا الى بيت المقدس وصخرة بيت المقدس من جنة الفردوس وهي مسرة الدنيا»** .

أيها الملتقى الكريم :

هذه هي فلسطين أرض العروبة والاسلام قلب الامة العربيـــة ، وجزء من مقدسات عقيدتنا الدينية ، هذه البلاد فلسطين تعرضت قبل نيف وعشرين سنة لهجمة صهيونية غادرة تدعمها كل قوى البغي والظلم في العالم من أجل اغتصاب فلسطين ، من أجل اغتصـــاب عروبتها وانتهاك حرمة مقدساتها ، هجمة امتدت جذورها منذ وعـد بلفور الذي وقف شعبنا ضده وقاومه بامكانياته البسيطة في ظروفه الصعبة حيث كان يئن تحت وطأة الاستعمار الانجليزي ، وكانت الاصطدامات الدامية المتكررة ، وكانت ثورة 1936 ثم كانت ثورة 1947 ضد قرار تقسيم فلسطين ،ثم كانت انطلاقة الرصاصة الكاشفة الواعية في أول جانفي 1965 حيث كانت انطلاقة العاصفـــة في كل هذه المراحل أيها الاخوة الكرام قدم شعبنا الصغير الصامـد الكثير من الشهداء والكثير من التضحيات ، ولكن في كل ثورة كان يثورها شعبنا كانت تتصدى له أمتنا العربية عن طريق حكامها ، ففي سنة 1936 توجه أحد الملوك العرب باسم جميع الملوك والرؤســاء العرب الى الشعب الفلسطيني ليوقف الثورة ويلقي السلاح اعتمــادا على حسن نوايا الصديقة بريطانيا التي وعدت بحل المشكل ومنــع

الهجـرة اليهودية الى فلسطين مما أجهض ثـورة شعبنـا ثم كـان مشـروع التقسيـم الذى قاومـه شعبنـا لينفـذ على أيدى سبع جيوش عربية دخل حكامها الى فلسطين لانقاذها ، فعندما وصلت اذا باسرائيل تعلن دولة فيها وما أشبه اليوم بالبارحة ، فعندما وصلت ثورة شعبنا اليوم الى مرحلة أزعج فيها عدونا ، والى مرحلة اسماع صوتنا للعالم أجمع ، وأصبح العالم يحس بوجود شعب فلسطين بعد فترة الوصاية فترة التجهيل وبعد تلك النكسة النكراء التى منيت بها الامة العربية والعالم الاسلامى فى سنة 1967 على يد دويلة اسرائيل نسمع اليوم نفس الصوت يطلب منا الخلود الى الهدوء والسكينة حتى يسهل على عدونا أن يهضم ما ازدرد ، نفس الاصوات نسمعها اليوم تعلن عن قبولها لمشاريع استسلام ومذلة ، ففى الوقت الذى يحمل فيه اخوتكم السلاح كل يوم يقدمون أرواحهم على أكفهم من أجل تحرير فلسطينهم ، فلسطين العروبة ، فلسطين الاسلام ، فلسطين التاريخ والحضارة ، فلسطين العزة والكرامة ، نجد أناسا يذهبون الى موائد المفاوضات مع العدو مساومين بذلك على تاريخنا وعلى حضارتنا ، وأصبح ينطبق عليهم ما انطبق على قوم موسى وهم فى صحراء التيه .

أيها الاخوة :

انه انطلاقا من تاريخنا العربى العريق ، وانطلاقا من ايماننا بقداسة وطننا وقداسة قضيتنا ، وايمانا منا بصحة عقيدتنا الاسلامية وايمانا منا على أن الاشتشهاد على الحق خير الف مرة من حياة الذل انطلقنا نحو التحرير انطلقنا من أول يناير 1965 لن يفت فى عضدنا ظلم الاشقياء ، ولن يهز فى نفوسنا تجاهل اخوتنا لواجبهم العربى والدينى ، انطلقنا ونحن نملك أرواحنا ولن نسمح لاحد أن يملك ارادتنا التى ملكناها ، ولن نتنازل عنها ، لقد رفضنا فى السابق وعد بلفور ، ورفضنا التقسيم ، ورفضنا قرار مجلس الامن فى سنة 1967 واليوم نرفض بشدة مشروع الاستسلام الروجيرسى ، ونأسف لكل الذين يفلسفون معنى قبوله لا من ناحية التكتيك ولا مـن ناحيـة الاستراتيجية المفقودة ، واننا نعلن أننا نفضل أن نبقى فى حرب مع عدونا مئات السنين على لحظة استسلام نلطخ فيها كل تاريـخ أمتنا ، ونزرع فيها المآسى للأجيال القادمة من أبنائنا ، ونخون دماء رفاقنا من الشهداء الذين سبقونا ، اننا نتيجة قبول بعض الـدول العربية للمشروعات المذلة والاستسلام أصبحنا نسمع كل يوم عن

اضطهاد يواجه طلبتنا ومواطنينا في البلاد العربية التي تمارس علينا الضغط حتى نتوقف عن القتال، واننا نقول للذين يشككون في امكانية نجاح ثورتنا بأن يسألوا أنفسهم عن الامكانيات المقدمة لها ، ففي الوقت الذي نسمع فيه رئيس لجنة التبرعات الامريكية الصهيوني روكشي يقول بأنه قدم لاسرائيل في هذا العام مائتين وخمسين مليونا من الدولارات كمساعدة ، نرى أن كثيرا من الدول العربية لم تقدم لشعب فلسطين حتى أموال الغوث التي أقرت من أجل مساعدة شعبنا في داخل فلسطين على مواجهة المشاكل المعيشية ·

أما القدس أيها الاخوة التي كانت تنتظر منا التحرر في ذكرى حريق مسجدها قدمنا لها اليوم قيد المذلة الى الابد لتبقى مدينة بين الصهاينة ليس لنا عليها آيات ان البلاد التي باركها الله وقدسها شئنا نحن أن نوطىء على صك استسلامها لمن دنسها وداس قداستها وداس كرامتها ·

أيها اللقاء الكريم :

ان شعبنا الصامد الصغير مصمم على خوض معركة التحرير ، معركة المصير فاما حياة تسر الصديق واما ممات تكيد العداء ، ان ثورة هذا الشعب رغم قلة امكانياتها وضخامة امكانيات عدوها ، ورغم ضن الاشقاء عليها بالضروريات من المال والسلاح ، بل اليوم ضن عليها بالوجود ذاته ، هي تحقق كل يوم مكاسب على الطريق أكبر هذه المكاسب أن تبقى قضيتنا حية في الواقع ، حية ما دام فينا عرق ينبض حتى نعود اليها وحتى تعود الينا ·

أيها الاخوة :

ان التسليم اليوم في فلسطين معناه أننا سنستسلم غدا في مكة والمدينة ، وفي باقي مقدساتنا لان القدس هي مفتاح تلك البلاد ، فبا حتلال فلسطين،وباحتلال الاردن لايبقى أمامعدونا شيئا مستبعدا ولن نسلم من الشرور الا باجتثاث الخطر ويومها سيعلم الذين يشككون بثورتنا أنهم ليسوا من أذكياء التاريخ ما داموا قد القوا السلاح ، وقبلوا بالحلول اننا نؤكد لكم أيها الاخوة أن كل بقعة من وطننا الغالي فلسطين هي مقدسة لدينا لانها مجبولة بدماء الآباء والاجداد ، ولان فيها نمت حضارتنا وازدهرت حتى تفيأت بظلها أوروبا بعد القرون الوسطى ، وشاركت في جنى ثمارها ، ولن يفرط

الابناء بتراث الآباء وسندافع عن كل شبر من وطننا الغالى دفـــاع الاسد عن عرينه ، فهى عزيزة علينا دينا ودنيا ، قديما وحديثا ، ولن يفرط فيها مسلم مهما اشتدت الصعاب .

أيها الاخوة :

اننا نحملكم فلسطين أمانة فى أعناقكم مثلما هى أمانة ملقاة على كاهلنا ، ولكم علينا العهد نقطعه لكم وللرجال الذين قدموا أنفسهم قرابين خلاص وشموعا تنير الطريق لرفيق المسيرة والجهاد ، وعهدا نقطعه لاخوة السلاح والمصير ممن مضوا على الـدرب من قبلنـا ان نمضى خلفهم على نفس الدرب درب الفداء والاستشهاد لنحقق كل الاهداف العظيمة التى ما سقطوا الا لترتفع وما سكتت فيهم الحياة الا لتسرى فى شرايين شعبنا ، وان الشعب الذى تتساوى عنده الحياة مع الموت ، الشعب الذى يعرف كيف يموت لا يمكن أن يموت .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

الخصـــائص الحضاريـــة فى الاســـلام

عمر بهاء الدين الامـيرى
(سوريـــا)
أستاذ كلية الآداب ـ جامعة الرباط

بسم الله خير الاسماء فى الارض وفى السماء ، وصلاة وسلاما على امامنا وزعيمنا وقائدنا محمد خاتم الرسل والانبياء وسلاما على ابن باديس فى الشهداء والصالحين ، السابقين واللاحقين منذ آل ياسر حتى جمال الدين ، والبنا ، وقطب ، والابراهيمى ، واخوانهم الابرار ومدد الله المهين العزيز الجبار المتكبر ، لفتح والعاصفة ، وأبطال فلسطين والمجاهدين المؤمنين فى دنيا العروبة والاسلام ٠

أيها الاخ الوزير الشاب الوثاب ، المؤمن الغيور الجسور ،

أيها السادة الاساتذة والعلماء الاجلاء ،

أيها الحفل الكريم ،

أحييكم بتحية الاسلام الطيبة الخالصة ، فسلام اللـه عليكـم ورحمته وبركاته ٠

منذ خلق الله الانسان ، عاقلا ، عاملا ، مسؤولا ، وشرع له من الحق ما يستقيم معه أمر الخلــق ، جعل له نافذة من نــور لا يحور ، مفتوحة بينه ، وبينه سبحانه ، وبينه وبين العوالم كافة ، يتحلل بها من الاغلاق ، ويسمو وينطلق الى الآفاق ، حتى اذا سدها على نفسه ، أو تقاصر عن مشارفها انغلق فاختنق ، وتعطل معناه الانسانى ، تلك النافذة هى الحوار ، الحوار الهادف المشرئب ، تطلعا الى المعرفـة واستزادة من الخير ، الحوار بين الانسان والديان ، والحوار بـــين الانسان والاقوام ، والحوار بين الانسان والانسان ٠ وقد كنت شديد الحرص لذلك ، أيها الاخوة الاحباب ، على أن أستجيب للدعوة الكريمة فاسعى اليكم ، وأسعد بلقائكم ، ليكون الحديث بيننا حوارا مفيدا ، وليكون لقاؤنا فى اطار اللقاء الرابع للفكر الاسلامى ، تبادلا لوجهات

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 10/19 اوت 1970 م٠

النظر ، والتماسا بالرأى ، وتقليبا للفكر فى المشاكل والاوضاع الانسانية والاسلامية التى نعيشها اليوم ، والتى لا بد لنا أن نتخذ منها مواقف واضحة ، فى الفهم والعلم والعمل ، وان يكون لنا حيالها سلوك فردى وجماعى مدروس ممنهج ، والا ذهبت طاقتنا هدرا وجرفتنا عشوائية حياتنا ، فلبثنا عاطلين عن المضى الصاعد ، قوى مغلولة مبددة ، أحوج ما تكون دعوتنا وأمتنا وامننا وانسانيتنا الينا ، على اننى تساءلت وانا متوجه الى جزائر المجد والبطولة،والى قسنطينة بالذات ، هذه البلدة العريم ، ما محلى من الاعراب بينكم ، أنتم فى ريعان الشباب ، وانا فى قمة الكهولة ، أنتم فى الاقبال على الحياة فى النهل من موارد العلم ، فى القدرة على مضاء العمل ، فى الحيلة على توفير الوسائل ، أنتم فى كل هذا وسواه ، تحرك وممدودية ، وأنا تحرق ومحدودية ، وكان الجواب واضحا في نفسى ، مبدأ واحد ، وايمان واحد ، وهدف واحد ، وثمة سابقة معانات ومكابدة ، لها حصيلة من تجارب ، وعبرة من اخطاء ، وبصيرة فى تقدير العواقب ، مما لا يملك المسلم حبسه على نفسه ، فضلا عن تطلب علم جديد من أساتذة أجلاء ، وجمع جديد من فتيان أشداء أرمم بهما كيانى ، وأزيد شعلة روحى التهابا ، بزيت مبارك حى اريحى لامضى محاولا ما استطعت أن أبقى مستفيدا مفيدا ، الى ان ألقى وجه الله ، أمضى ولا أنتمى ، والله يحفظنى ولا أبالى بآمالى وآلامى ، الارض أكبر من عمرى، وأصغر من طموح نفسى ، وايمانى واسلامى ، ومن توثب روحى فى مشارفها الى الجهاد ، وهذا سر اقبالى ٠

ينعقد هذا اللقاء ـ أيها الاخوة الاشقاء ـ للتعريف بالفكر الاسلامى ، ولكن لا لمجرد المعرفة فيما أرى ، بل لتكون المعرفة طريقنا الاجتماعى فى الاعتناق ، ثم للسلوك والدعوة،ثم للعمل الصابر المثابر على اقامة الحياة وبناء الحضارة على أسس من الاسلام الحق ، بشكل حكيم سليم يؤمن لأمتنا فى اطار الانسانية سيادتها وسعادتها ويحقق رسالتها الهادية رحمة للعالمين ٠

وفى هذا الاطار سيكون الحديث بيننا هذا اليوم ، عن الخصائص الحضارية فى الاسلام ، وهو موضوع واسع شائق حى ، لم يتسع الوقت لايفائه كل حقه ، ولذا فاننى آمل أن نتعاون معا فى الخروج من معالجة له بثمرة مفيدة ان شاء الله ، منى البيان المكفث والايجاز

المركز ، ومنكم ــ ياشباب ــ فضل الاصغاء واكمال البحث ، بما لديكم من حسن فهم وعلم ، وقبل الخوض فى البحث تنفيذ أمر كريم لأخ حميم ، طلب الى الاستاذ الصديق مالك بن نبى اثر حديث ظهر اليوم بين رهط من أساتذة اللقاء أن ألفت نظركم تعقيبا على ما كان قاله فى محاضرة الصباح القيمة المجلية ، الى انه ثبت لديه أن كلمة الحضارة ولا شك مدلولها الخاص فى الاصطلاح المعاصر ، وان هذا المدلول ليتغير فى حد ذاته بين باحث وآخر ، وحضارة وسواها ، فبالنسبة للحضارة الاسلامية مثلا ، ومن وجهة نظرى الخاصة ، أرى أنها كيان انسانى عام ، له شخصيته الاعتبارية المعنوية ، فيه جانب التراث المجيد ، الى جانب الحياة القائمة المتنامية الى جانب الامل الممتد المشحون بالحوافز الايجابية البناءة ، بمستقبل دائم والارتقاء نحو الافضل ، لا لخير القوم الذين يتحقق على أيديهم فحسب ، بل لخير الاسرة البشرية جمعاء ، ولوضعها فى مقام الفعالية الهادية والجدارة الانسانية بخلافة الله فى الارض ، وهكذا تكون للحضارة فى التصور الاسلامى حياة مستمرة ، تصاحب حياة الانسانية ، ويمدها بهذا العمر الطويل تلاق كامل مع الفطرة الانسانية ، وقابلية للنماء المتكيف مع الزمن ، تكييف الفطرة الانسانية ، مع الرقى والتطلع نحو الامثل ، بحيث تحافظ الحضارة على شباب دائم يعايش شباب الحياة السوية فى كل عصر ومصر .

وبعد :

فاسمحوا لى يا فتيان اللقاء الاعزاء ، بأن أشرع معكم من بداية بديهية واضحة تعرفونها جميعا ، وان نتدرج بعد ذلك الى تقديم بعض الزاد الذى ينفع كثيرا منا فى حواره مع نفسه ، وفى حواره مع أبناء أمته الحيارى ، وفى حواره مع الاغيار الغافلين المكابرين،من مسلمات العقل الاولى ، ان لا خليقة بلا خالق ، وان الخالق أعظم من مخلوقاته، فلا بد أن تكون الصلة بينهما متناسبة مع تبعية المخلوق وأساسية الخالق وقد أدرك الانسان منذ وعى ذاته أنهومن حوله الحياة الطبيعية بكل أبعادها،ابداع قوةعليا، واردةهادية، علىانالتصورات والفلسفات المتباينة تختلف فىالتعبير عن هذه القوة ووصفها، وتسمية هذه الارادة وتقييمها ، كما يختلف الاعتقاد والسلوك ، لدى بنى البشر تبعا لذلك ، والتصور الربانى للحياة الذى ننطلق من قواعده ، يضيف

الخلق كله والحياة الطبيعية ومظاهرها ، الى الذات الالهية المبدعة ، التى يتنزه خلقها عن العبث والاعتباط والاسفاف ، وبالتالى فان أجزاء الحياة الطبيعية التى هذه هى صفاتها ، لا بد أن تكون لها قيمها الايجابية الخاصة بها والتى يتعايش معها الانسان بشكل او بآخر ، تبعا لعصره وفكره وعقيدته ، وفلسفته الحضارية ، فحين تنطلق المخلوقات وفق ارادة خالقها ، على النسق الذى رسمه لها ، يستقيم أمر الحياة ، وأمر مظاهرها ، والانسان بخاصة ، وهو محور الخليقة فى الارض ، حين يسلك سبيله فى العيش بتجاوب مع الفطرة واذعان من الناموس الالهى ، يكون قد استقام كما أمر ، وانطلق عن طاعة واسلام ، فالاسلام اذن بالنسبة للانسان ، أى انسان ، هو اسلام نفسه للفطرة ، وتكييف سلوكه مع نواميس الحياة ، كما شرعها الله، خيرا لا شر فيه ، تكييفا يحقق الحكمة الربانية ، من خلق الانسان فى هذه الارض ، يعمرها ويكون خليفة الله فيها .

وهكذا فان قاعدة الاسلام الازلية الابدية الاولى ، هى الاعتقاد الايجابى ، بالخالق الاحد ، الله الحق ، الراسخ ، الذى لا يحور ولا يتحير ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، مهما تغير الزمان والمكان ، واعجاز الاسلام الاكبر هو استعابه للكلية الانسانية المطلقة ، فهو يمثل البعد الصمد ، فى نفس الانسان وحياته ، فردا وجنسا منذ كان ، وأنى كان ، والى أن ينتهى ، وهذا البعد سيفقد قواه وفحواه ، اذا لم يستوعب سائر الابعاد الزمانية والمكانية ، التى يمتد اليها الوجود البشرى ، أما التصورات والفلسفات التى لا تصدر عن هذه الحقيقة الام الربانية ، أو التى تفهم الاله فى ذاته أو فى صفاته فهما آخر ، تبعا لزيغ أصحابها عن المحجة السوية ، والتى تكيف حياتها انطلاقا من ذلك ، فانها على اختلاف ما بينها فى الزمان ، والمكان والانسان ، جاهلية تصورا وفلسفة وسلوكا ، وبذلك فليست صفة الجاهلية قاصرة على الازمنة المتقدمة ، بل انها موجودة اليوم وغدا ، وبعد غد ، وقد تكون فى صميم حضارات سائدة لا بائدة ، فهناك اذن ، اسلام من عهد آدم حتى يرث الله الارض ومن عليها ، وهو دين الله ، وهدى الانسانية ، وشريعة الانبياء والمرسلين ، تقابله جاهلية من عهد آدم حتى يرث الله الارض ومن عليها،وهى كل ما ليس اسلاما.

ومن هنا كانت المواجهة الدائمة بين الاسلام وبين الجاهلية ،

عبر التاريخ الطويل ، حتى يظهر الله الهدى ودين الحق ، على الدين كله · ان المتتبع لهذه المواجهة ، ليجد شريطها المسلسل الممتد فى قصص الانبياء وفى حياة الامم ، وفى تاريخ الملل والنحل ، وهى تأخذ حينا شكل الفتن ، والمعانفة المادية والحروب ، وتأخذ حينا آخر شكل الجدل الفلسفى والتحزب الفكرى ، والاختلافات العقائدية، وينعكس اثر كل ذلك على حياة بنى الانسان ، سعادة أو شقاء ، سموا او تخلفا ، ولم تكن الديانات السماوية ، ولا جاء الانبياء وبعث الرسل الا لهداية البشرية الى الاسلام ، وانقاذها من الجاهلية ، لتستريح من لأواء المهاترات العارمة ، وقلق العراك الدائم · يقول السر توماس (ارنولد) فى كتابه **«الدعوة الى الاسلام»** : ان الاسلام كان الدين السماوى **الذى اختاره الله للجنس البشرى كافة ، ثم اوحى به من جديد على لسان محمد خاتم النبيين** ، كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل ، وفى (لسان العرب) عند تفسير قوله تعالى : **«يحكم بها النبيون الذين اسلموا»** ، عن ثعلب قال : **كل نبى بعث بالاسلام ، غير ان الشرائع تختلف** ، **«ان الدين عند الله الاسلام»** ، وليس الدين فى الاصطلاح القرآنى ما نفهمه من كلمة أى الطقوس العبادية ، وانما هو الدستور العام ، أو الناموس ، فالاسلام هو دستور الله للحياة ، وشريعة أنبيائه ورسله ، لهداية البشرية جمعاء ، كل فى حدود زمانه ، ومكانه وانسانيته ، فلما بعث محمد (ص) خاتما للانبياء والمرسلين ، مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه ، أصبح الاسلام علما على دينه العالمى الممتد ، المستوعب الذى لا دين بعده ، وهذا هو اعجاز الاسلام الاكبر كما أسلفنا ، انه يمثل البعد الازلى ، فى كيان الانسان الخليفة ، ومدارج سعيه فى الحياة ، وان الباحث الانسانى الممحص ليجد أن المواجهة اليوم بين الجاهلية والاسلام ، قد أخذت شكلا أعمق وأشمل ، واظهر واخطر ، لأن انسان الحضارة المادية المعاصرة ، وقد اشتط به غروره ، وسلحته كشوفه العليمة ، ومنجزاته الصناعية ، وطاقاته التقنية ، بما سلحته من معطيات باهرة ، غلا واستعلى ، ونصب نفسه فى دعواه ، كمصدر للقدرة الخلاقة ، وأخذ يستعيد عن الديانة السماوية الالهية ، بديانات ارضية مادية ، لها فلسفتها وتصوراتها الخاصة ، وتعايشها حضارتها التى أخذت تفرض وجودها منذ توقف المد الاسلامى ، وما زالت

سائدة حتى هذا الزمان ، وان هذه المواجهة لتكتسب اليوم معنى المعركة والتحدى ، ومن أخطر ما فيها ، أنها بعد أن كانت تستهدف غزو العقل الانسانى ، بتكوين قناعات جديدة وعقائديات فلسفية ، الى جانب ما فيها من استعمار واستثمار ، أخذت فى مراحلها الاخيرة تتناول الحياة كلها ، وتريد أن تزلزل وتقتلع الجذور ، بأخلاقية أهوائية ، هى فى الحقيقة لا أخلاقية ، تقيم روابط المجتمع ، وموازين الخير والشر ، على أساس من اللذات ، والشهوات الحيوانية ، ومن المصالح الارضية المادية ، وقد جعلت منها سهولة المواصلات ، ووسائلها المبذولة فى الاعلام والتثقيف،وازدياد التشابك الاجتماعى بين أبناء الارض ، جعلت منها غزوا جماعيا أشبه بالسيل المنقض ، والطوفان الجارف الذى يوشك أن يجتاح كل شىء ، وأصابت الامة الاسلامية منها داهية دهماء ، فى السياسة والاقتصاد ، والاجتماع والاخلاق ، وقد لا نبالغ اذا قلنا ، انه لم يكد ينجو من بلائها أحد ، بشكل أو بآخر ، بنفسه أو بأسرته ، وا نوباءها لآخذ بالانتشار أكثر فأكثر ، الى أجل من حياة البشرية يتحدد طوله أو قصره ، تبعا للمواقف الجادة ، القوية المخططة المستمرة ، التى يقفها المصلحون المجاهدون ، تساعدهم الاحداث العالمية بقصد ، أو دون قصد من جهة ،وع لى الانهيارات التى تصيب الانسانية،والضياع ألذى سيتفاقم فى اجيال هذه الحضارة الجاهلية ، والتداعى الذى سيلحق بناءها ، من ذات أبنائها من جهة أخرى .

هنا ــ أيها الاخوة الشباب ــ هنا ينتصب الاسلام من جديد ليثبت وجوده العملاق ، فى تدارك أمته وانبعاثها ، وفى انقاذ الانسانية جمعاء ، من فك جاهلية الثالوث الهدام ، الصهيونية ، والصليبية ، والاستعمار ، بكل أجنحته وألوانه ، وهنا أيضا ، تبرز حتمية مبادرة أبناء الامة الاسلامية الى البحث عن الاسلام وجدارته ، وحضارته ، وأخذهم أنفسهم بهديه وسلوكه ، أخذا يمد خطاهم بالمضى والسداد، ويعطيهم اليوم من تجارب الامس ، منهاج الغد المشرق المجيد ، دول وأيام ، هى الدنيا ، فلا بد أن تتداول الايام تاريخنا سيعيد سيرة مجده الاولى ، وللاسلام طحن ألهاه وقدر سيمضى فى البرية أمره ، طوى الكتاب وجفت الاقلام .

ان بين الاسلام والحضارة التى أقامتها أمته من التفاعل والتلازم مالا يوجد بين أى دين وحضارة أخرى عايشت ظهوره وانتشاره ، فقد أثر الاسلام فى الحضارة الاسلامية تأثيرا عميقا يجعل نسبتها اليه ، انبثاقا صادقا من الواقع الحى ، فثمة حضارة اسلامية حقا ، وليست هناك حضارة كنفوشية أو بوذية ، أو يهودية أو مسيحية ، أو سوى ذلك ، مع أن تلك الاديان ، قد قامت بالفعل ، واعتنقها الملايين ، وعايشتها حضارات ، فما هو السر الذى يجعل فى الاسلام دون سواه من عقائد الامم ، طاقة من البث الحضارى ، بحيث نجده حقا روح الحضارة الاسلامية ومدد حياتها،وحافز انتشارها وازدهارها يدعى الفيلسوف الالمانى أزولد شفانجلر ان التركيب الداخلى لأية حضارة هو ذات التركيب للحضارات الاخرى ، وقد فاته الانتباه الى خاصة فى الحضارة الاسلامية تميزها عن سواها ، ان جميع الحضارات قد تتشابه فى أبعاد الطول والعرض ، ولكن الحضارة الاسلامية تنفرد ببعد ثالث هو العمق الذى ينشأ من انبثاقهم عن الاسلام المطلق ، فى امتداداته الانسانية من قبل ومن بعد ، وعن ارتقائها الى المشارف الربانية وحيا وهديا ، اننا لنجد فى الحقيقة خصائص ذات شأن تفرد بها الاسلام كدين ، وتميز عن سائر الاديان ، والمعتقدات وبفعل هذه الخصائص ، تميزت الحضارة التى نسبت اليه عن بقية الحضارات ، وسنتلبث فى وقفات قصيرة عند أهم هذه الخصائص ، لنخلص من ذلك الى استجلاء الملامح الكبرى للحضارة الاسلامية ، ولو ترسلنا فى الحديث عن كل خاصة ، لكان موضوع كل خاصة ، موضوع محاضرة مستقلة ، ولجاء بحثنا عن ذلك كتابا ٠

اولا : جاء الاسلام يهندس الانسانية من جديد ، فقد كان منذ يومه الاول انقلابا عاما ، ولا أقول ثورة ، بل بالاحرى ، بناء انسانيا كاملا شاملا ، استوعب الحياة من كل جوانبها ، فى المعتقدات والعبادات ، والمعاملات ، وسياسة الحكم ، ولم يتناول كل ذلك ، تناولا سطحيا أو جزئيا ، جامل فيه وداور ، ورقع ورنق ، وانما كان انطلاقه كما قلنا بنيانا كاملا ، واصلاحا جذريا يتناول لباب العقائد والاوضاع فى حياة الناس الاولى والآخرة ، أفرادا وجماعات ، شعوبا وقبائل ، حكومات ودولا ، مبتدئا بالكائن البشرى ، وهو جنين ، فرضيع ، فطفل ، مرتقيا الى الشخص فى ذاته ، فأسرته فمجتمعه ،

منطلقا الى أوضاع الامة ، فالامم والدول ، فالانسانية جمعاء · وقد توفر الاسلام لذلك على طاقة فذة ، روحية وعلمية ، واشتمل على قوة من الدفع الدينى ، متلاقية مع الفترة الانسانية الاصلية ، نهضت الشجرة الطيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، على قواعد أساسية راسخة من ركنين :

اولا : حتمية العمل ،

ثانيا : منهجية السعى فيه ، لان مرادا عزيزا جسيما ،كمراده، لا يتحقق بمجرد الامل والدعوة والدعاء،كما لا يستقيم أمره بالاعتباط والعفوية والارتجال والتسويف ، وهكذا كانت عقيدة الاسلام المنبثقة من الله وتوحيده ، المسلمة له كل شيء ، المبنية على صفاته الالهية الايجابية ، واشعاعاتها الحافزة فى هداية الحياة الانسانية ، كانت عقيدة الاسلام هذه ، مقرونة دائما بالعمل والحث عليه ، ومهدية فى عملها بمنهجية تطبيقية مسددة ، هى السنة النبوية ، قولا وعملا ، وقرارا · يقول ميخائيل نعيمة : **«اما معجزة العرب الكبرى فهى القرآن ، وهى وحدها التى تستطيع ان تجعل من العرب قوة ، أين منها قوة الاساطيل البحرية والجوية ، والقنابل الجهنمية ، واين منها قوة المال والرجال ، فالاساطيل للصدع ، والرجال للموت ، والمال للزوال ، أما معجزة القرآن فللبقاء ، ذلك انها اقامت للعرب ولغير العرب ، هدفا من حياتهم وكانوا بغير هدف ، واختطت لهم طريقا الى الهدف وكانوا بغير طريق ، وبرهنت لهم بحياة النبى وصحبه ، ان الهدف مستطاع بلوغه على من سار فى الطريق ولولا لم يترجم النبى (ص) وصحبه القرآن الى افعال ، لما كانت المعجزة معجزة ، اجل ، ان معجزة العرب هى القرآن ، الا انها اصبحت اليوم وكانها عندهم ليست بمعجزة ، بكثرة ما الفتها الشفاه والآذان والعيون ، واغلقت امامها القلوب بعد ان حكم العرب دنياهم فى دينهم فهم اليوم يؤمنون بالراديو ، والدبابة ، والطائرة ، ثم بالفلس ، يبتاع كل هذه يؤمنون بها كما لو كانت المفاتيح الى الراحة ، والهناء ، والسلام ، والحرية والكرامة الانسانية»** · انتهى كلام ميخائيل نعيمة ·

ثانيا : الاسلام

اولا : الاسلام يهندس الانسانية من جديد ·

ثانيا:الاسلام ينبثق من الفطرة ويلبيها،لقد أقام الحياة على أساس

من خلافة الانسان لله فى الارض،فكل ما تقتضيه هذه الخلافة ، من سلطة فى الوجود ، وعلى سائر المخلوقات ، أمنه الله له ، وقد وطد الاسلام بذلك الاساس الصحيح الاول للانطلاق الحضارى ، من الحياة الانسانية الكريمة الجديرة القديرة ، وهذه هى الفطرة التى فطر الله الكون عليها ، وقد قصد الله بالانسان جنسه عموما ، النساء شقائق الرجال ، لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لغنى على فقير ، الا بالتقوى ، ومن هذا المنطلق مضى الاسلام يقيم حضارته على أساس الابداع الانسانى المسؤول المترتب من جهة أولى ، على ما فى الانسان من روح الله ، حيث تكون المثل الايمانية العليا النابعة من عقيدته الربانية ، والمترتب من جهة ثانية على ما فى الانسانية من ترابية تجعل مدارج سعى الانسان على هذه الارض الترابية وذلك فى امتزاج منسجم مبدع ، بين عناصر التكوين البشرى جميعا ، يميز الانسان كجنس عن سائر المخلوقات الحية ، كما يميزه كفرد عن سائر أفراد بنى الانسان ، بحيث تكون لكل كائن انسانى بذاته شخصيته الخاصة ، التى يختلف بها عن سواه ، فالانسان الجزء ليس نسخة مكررة من طبعة الانسان الاصل ، ولا هو فرد فى قطيع ، ولكنه خلقة سوية فعالة منفعلة ، مكلفة مسؤولة ، فى أسرة الانسان العامة كجنس ، ومتميزة على سائر المخلوقات الحية بتفوق مستمر ، خلافا لرأى داروين الذى يقول بمبدأ : «البقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطورى» ، وقد شرح كريسى موريسون فى كتابه «العلم يدعو الى الايمان» كيف بلغ العلم التقدم درجة تكفى لان يوقن بأن الله قد منح الانسان قبسا من نوره ، وكيف أنه بجعله خليفة فى الارض ارتفع من مرتبة الغريزة الحيوانية الىمستوى من التفكير يدرك عظمة الكون فى اشتباكاته ، ويشعر بجلال الله نافذا فى خلقه ، ويؤكد موريسون ، أن الحضارة دون ايمان لا بد أن تنتهى الى الافلاس ، ينقلب النظام فوضى ، وتهدر الضوابط والزواجر ، ويسود الشر العالم .

ان الاسلام وقد تلاقى مع الفطرة البشرية فى هذين الركنين الهامين ، ليتلاقى بعد ذلك تلقائيا ، مع كل جوانب الفطرة الاخرى من غرائز وحاجات ، ويلبيها أحكم تلبية وأسماها ، لان الجدارة القديرة، تتنافى مع الحرمان ، والروحانية البشرية تتنزه عن الاسفاف والتردى

ومن هنا لم ينقص رفض الاسلام الرهبانية ، شيئا من سمو معتنقيه ، لان ايجابيته تنزه الله عن أن يخلق شيئا ويأمر بخنقه وازهاقه ، وانما يرسم له المسالك المشروعة التى تلبيها تلبية سليمة كريمة ، وهكذا يشعر الانسان فى ظل الاسلام بانفتاحه الحضارى على الكون، وتعايشه معه ، فى كل مرافق حياته الخاصة والعامة ٠

من طرائف ما قرأت على ذكر الرهبانية ، أن جماعة من رهبان النصارى ، ألفوا ان يربوا أبناء ديورهم ، ورهبانهم على الانقطاع والانعزال التام ، عن الحياة بحيث ينشأ الانسان منذ ولادته حتى شبابه ، حتى شيخوخته ، دون أن ينطلق فى الحياة ودون أن يرى امرأة ، وقد حدث لراهب شاب ، أن دعته ضرورة الى أن يخرج للقاء رئيس الدير والاساقفة ، وفى طريقه رأى صدفة امرأة فتعجب،وسأل رئيس الاساقفة ما هذا المخلوق الذى لم أره فى حياتى ؟ قال له : انه الشيطان ! قال : لا شك أنه أبدع ما يمكن أن يوجد فى الكون ٠

ثالثا : الاسلام دعوة وتبشير ، وهذا من مستلزمات عالميته لان طبيعة الرسالة تستتبع التبشير بها ، وكلما استطاع الاسلام بحضارته وعقيدته وأمته ، أن يتبنى تحت لوائه عددا أكبر ، يكون قد مارس ذاته بمدى أوسع وهو فى ذلك مناقض تماما لواقع اليهودية التى تريد السيطرة على العالم ، لا بنشر رسالتها فيه واكثار عدد معتنقيها ، بل بتدمير العالم ، وافساده ، والتسلط عليه ، بزعم أن اليهود شعب الله المختار ٠

وحين ينتشر الاسلام دعوة ، تنتشر لغته التى لا تصح العبادة ، ولا يفهم القرآن الا بها ، فتنتشر ثقافته ويسود طابعه الحضارى عقيدة ونظاما ، وفلسفة ، ومنهجا اجتماعيا ، فى الحياة العامة والخاصة ، بشكل يصبح فيه الاسلام رباطا ، انسانيا عاما ، بين أبناء الحضارة الاسلامية على تباعد الازمنة والامكنة ، مما لم يتأت لأى دين آخر ، بالنسبة لأى حضارة أخرى ٠

رابعا : الاسلام مواجهة وبساطة ويسر ، انطلاقا من الجدارة والكرامة الانسانيتين ، وقد قررهما الاسلام فى أصوله الهامة ، كما مر بنا ، تضع العقيدة الاسلامية الانسان فى حقوقه ، وواجباته ، وتكليفه ومسؤوليته ، وجها لوجه ، أمام الله تعالى ، دون وساطة

الكنسية ، فالانسان الفرد فى الاسلام مسؤول عن الاسلام جميعا فى حدود قدرته ومؤيد من الله سبحانه ، حسب نواميسه ، يمده بالنصر ما دام يتبع سبيله ، ولا فرق فى ذلك بين انسان وانسان ، من حيث انتماؤه الى اسرة أو طبقة ، أو عنصر ، أو جنس ، أو لون •

فالاسلام يقرر لكل من أفراده ساحته الوظيفية ، ومسؤولية قطاعه الخاص «**كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته**» كما يبين له ركنتيه فى أمته ، ومسؤوليته فى قطاعه العام «**انت على ثغرة من ثغرات الاسلام فحاذر أن يؤتين من قبلك**» ، فينشأ المسلم مستشعرا ركنتيه فى أمته ، واعيا لتبعاته فيها ، ولكن الاسلام لا يكلف نفسا الا وسعها وما آتاها ، وانسانه فى تكليفه لا يؤدى مهمته فحسب ، بل يمارس تقوى ، ويحقق لنفسه كرامة ، وبغير العمل لا يسلم له مقامه أيا كان ، «**يابنى هاشم لا ياتينى الناس يوم القيامة باعمالهم وتاتونى بانسابكم ، فالذى نفس محمد بيده أنى لا اغنى عنكم من الله شيئا**» ثم ان المسلم فى الاسلام غير مهدور الجهد ، واثق من النصر ما سار فى طريقه «**ان تنصروا الله ينصركم • ولينصرن الله من ينصره • وكان حقا علينا نصر المؤمنين**» •

وآفاق المسلم فى فهم النصر بعيدة ، تستوعب القضية استيعابا حضاريا ، فى الزمان والمكان ، والانسان ، فهو يبذل جهده لتنتصر قضيته حيث كانت ، اليوم او غدا ، أو بعد غد ، هنا أوفى أية بقعة من الارض ، لان العالم كله ساحة دعوته ، وسواء عليه جنى بنفسه حصيلة جهده ، أو جناها سواه من أبناء أسرته الايمانية والانسانية ، فعمله الموصول بالله ، ربح مؤكد كله ، لا خسارة فيه أبدا ، وهو لذلك مندفع فيه ولو أدى الامر الى بذل روحه ، لان بذل الروح فى سبيل الله هو الربح الاكبر ، والشهادة ليست موتا ، بل هى مرتبة عليا فى الحياة ، أسمى من الحياة الدنيا ، ولذلك يتنافس عليها المسلمون المؤمنون حقا ، ويسالون الله لانفسهم ولمحبيهم نوالها ومنازلها ، وعقيدة المسلم سهلة واضحة لا تعقيد فيها ، ولا ابهام ، ولا تعمية ، «**لا اله الا الله محمد رسول الله**» أعمق فكرة وأجلها فى أبسط عبارة وأجلاها ، والدين يسر والاسلام يجب ما قبله ، فهو ولادة جديدة لمن يدخل فى دين الله ، تملا روح صاحبها طمأنينة ، وفكره رضا وسكينة والقرآن الذى تولى الله حفظه ، هو دعا. العقيدة ، وقد حفظه للحضارة

الاسلامية على اختلاف زمانها ومكانها ، وانسانها ، صفاء ينبوعهـــا ووحدة مصدرها ، وانسجامها فى مختلف منطلقاتها ، بشكل لا نظير له فى أية حضارة أخرى ٠

واسمحوا لى كما قلت لكم ، اذا كثفت واختصرت حتى نستوعب الموضوع فى حدود الوقت المحدد ٠

خامسا : الاسلام رحابة حضارية ، والتماس للحكمة ، واخـذ بالاجتهاد ، لم ينغلق الاسلام على نفسه ، ولا قطع أمنه وحضارته عن سابق الدنيا ولاحقها ، وهو مع أنه جاء بانقلاب عام ، وشاد بنيانا انسانيا كاملا ، على هندسة جديدة للحياة ، فقد ظـل فى سيـــره الحضارى الطويل ، منطلقا من قواعد الحق والعقل والضمير ، متوخيا للحكمة والعلم والفهم ، تقوم دعوته على التفتح الفكرى البصير ، سواء فى ذاتها أو فى استشرافها الحضارى ، وهكذا حافظ الاسلام لحضارته على اصالتها وشخصيتها المنطلقة من سلم خاص ، فى نفس الوقت الذى امتص فيه لها ، كل ما وجده صالحا سائغا من عطاء الحضارات الاخرى القديمة والقائمة على عهده ، يتمثله ويتفاعل معه ، ويخصب فيه وينجب ويولد ويجتهد ويتطلع ويبدع ويستزيد ، لقد أبرز عقيدة التوحيد على أصالتها ، رسخ لها جذورها وانطلق بها من قاعدة وحيه ومهد دعوته ، الى المشارق والمغارب ، فأنار بهديها العقول ، وشحذ بحوافزها الافكار والعزائم ، واحترم الرأى وأثاب على الاجتهاد ، ونادى بأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها ، وهكذا فان الاسلام الى جانب ما ولد وجدد ، قد استقطب واستوعب ألوان الحضارة فى مختلف البيئات والبلاد التى سادها ، وهضمها وأجراها فى مسالــك حضارته ، مصبغا عليها طابعه الاسلامى العام ، الشامل ٠

سادسا : الاسلام شمول ، وقصد وتوفيق ، **«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك» «اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كانــك تمـوت غدا»** ، دمج الاسلام الحياة فى برزخيها على أنها حياة الكل لها آخـرة وأولى ، وليس على أنها عمر محدود ، ثم فناء ممدود ، أمم ثم عدم ، فجاء الاسلام بذلك حيا ملائما للحياة ، ثانيا : يرتقى بالانسان عن محد جسمه وحدود عمره فى الارض ، والدنيا مطية الآخرة ، والعقيدة

تشمل الحياة الكل ، وتمد البناء الحضارى فى سائر مجالاته المادية العمرانية ، والايمانية الروحية والعقلية الثقافية ، والانسانية الاجتماعية والاخلاقية ، وساعد بجمع الاسلام للحياة بجناحيها ، على جذب أمم الحضارات المادية ، وامم الحضارات الروحية الى صعيده على السواء ، لان كل منها وجد فى الاسلام وحضارته سببا يصله بمالوفه الحضارى ، ثم تلبية لما كانت تستشعره ذاته الانسانية فى أعماق فطرتها من حرمان ، ونقص ، المادى للروح ، والروحى للمادة ، وكل ذلك باعتبار لا يطغى فيه جانب على جانب ، ولا يعطل نشاط وظيفة حضارية ، نشاط وضيفة حضارية أخرى ، فالقصد أساس ، والاعتدال مقياس ، والتوفيق بين كل التطلبات والحاجات والحقول ، والواجبات توفيق الهى ، وضع موازينهالقسط الخلاق الحكيم العليم الذى صنع الكون فهو خبير به ، واطلقه لسيره حسب نواميسه ، فهو قدير عليه (صبغة الله الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى) ، وكان ذلك من أهم ما نفح به الاسلام حضارته من عبقريات استيعاب ، حفظت لها حياة دائمة التفتح للنمو ، والتجدد من جهة وطابعا أصيلا مميزا من جهة أخرى ٠

سابعاً : الاسلام توسط ووصل وتوفيق (وكذلك جعلناكم امة وسطا) ، وسطا فى كل شىء بين الناس فى مخالطتهم ، لا كبرياء ولا غلواء ، ولا حزازة ، فالمسلم آلف مالوف ، ولا خير فى من لا يالف ولا يؤلف ، وسطا فى الارض ، لا تبتعد بكم مناطقها المترامية عن صميم الحياة ، وفى الجو ، والمناخ ، لا تقعد بكم قساوة الطبيعة عن الحركة والنشاط ، ووسطا فى العقيدة لا تشرد بكم الروحيات فى تجريدها ولا تجمد بكم الماديات فى سطحيتها ، وفى التاريخ بعد أن تطورت الانسانية فى مسيرتها الطويلة ، وتكاملت بتجارب أقوامها وتفانى انبيائها ، بتوصل أسسها ، وليس فى آخر عمر الارض حيث يتقاصر مدى الانطلاق الحضارى ، فضلا عما فى التوسط من معنى العراقة والناى عن اى تطرف مشيم ، وهكذا بنى الاسلام مسؤولية أمته ، ورسالة حضارته انطلاقا من هذا الاعتدال والجدارة فقال (لتكونوا شهداء على الناس) ولم يجعلها مسؤولية قهر واكراه ، بل وجه فيها الى النقد الذاتى : (وكفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ، (بل الانسان على نفسه بصيرة) ، «حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا» كما لم

يجعلها مسؤولية مسيبة لا رقابة عليها أصلا ، بل نصب عليها قيما عزيما رحيما (ويكون الرسول عليكم شهيدا) ،شهيدا بنفسه في حياته وبأحكام شريعته وسنته بعد انتقاله الى الرفيق الاعلى ، لقد جعـل توسط الاسلام هذا حضارته ، مفتوحة الابواب ، للتعامل والتفاعل البشريين بأوسع نطاق ، وساعد على ذلك نظام الاسلام الاقتصادى الذى يعتمد على التجارة الى أبعد مدى ، والتجارة ترابط وتبـادل ، وتبادل واتصال دائم ، بين أفراد وطبقات المجتمعات من جهة ، وبين الدول والاقطار والمواهب والانتاجات من جهة أخرى ، وهي من أكبر وسائل التبادل الفكرى والاستشراف الحضارى ، وقد كان بها تنويه في القرآن ، وأثر في حياة الرسول عليه السلام ، وعمل كبير في نشر الدين الجديد في الآفاق ، ولا سيما اذا أخذنا بعين الاعتبار ، روح الاسلام الانسانية ؛ البعيدة عن طغيان المادة بشرعه القرض الحسن ورفضه الباقي والتعامل الربوى ، مما كان من أكبر وسائل الوصل بين الاسلام والناس ، واصباغ طابعه الحضارى المشترط على الحضارة الاسلامية .

ثامنا وأخيرا : الاسلام مشاركة وقيم ، واخلاق انسانية عامة ، فهو ليس فرديا اعتزاليا ، ولا اعتباطي السلوك ، وليست قيمه وأخلاقه لابنائه فحسب ، بل هي للانسانية جمعاء ، ولما يعايشها من كل ذي حياة ، يصدر الاسلام عن قيمه الاصلية ، متوفرا على الجوانب المادية والمعنوية من جهة وعلى التضامنية البناءة من جهة أخرى ، بشكـل يحقق لهذه القيـم حيـاة ايجابيـة ، فعالة معنـوية في وجود الافراد والجمـاعـات ، ولما كـانت الحضـارة أى حضـارة لا بد لهـا من نسق عام تجرى عليه حياة الناس في ظلها ، وانما تتفاوت الحضارات بعضها عن بعض ، فيما تتفاوت به تبعا لإختلاف هذا النسق في حضارة عنه في أخرى ، وكانت جدارة النسق تختلف باختلاف القيم والاخلاق الانسانية التى ينبثق عنها ، وبسعة مداه الحيوي ، فكلما كان النسق صادر عن الفطرة الانسانية ، ملبيا لحاجاتها وكل ما كان مداه الحيوى متنامي المرونة بشكل ، يستطيع معه استيعاب أبناء الحضارة كلها ، جاذبا الى أسرتها متمثلا لها أكبر عدد من بني الانسان استيعابـا منسجما يجعل منهم كيانا حضاريا قاصدا ، متسما بنفس السمات في موازنة لا تحول معها قوة شخصية أفراده ، في نشاطاتهم ، دون

ترابطهم جماعيا ، متماسكين كالبنيان يشد بعضه بعضا ، كلما تحققت فى الحضارة هذه الجدارة فى النسق ، والسعة الجازمة المرينة فى المدى الحيوى بمقدار أكثر ، كانت الحضارة أكبر ، وأجدى وأخلد وأثمر ، وخصائص الاسلام فى الواقع قد تفاعلت مع أفراده ومجتمعاته تفاعلا ميز حضارته بظهور نسقها العام ، بشكل بارز على ملامح الحياة الاسلامية ، شخصية وعامة ، لقد أقام الاسلام نظامه انطلاقا من الاصل الاصيل ، خلافة الانسان لله فى الارض ، وما تقتضيه من الكرامة المخولة ، والجدارة المسؤولة ، كما مر بنا ، فكان من أبرز القيم التى وطدها اعتبار الشانية الذاتية للانسان السوى اعتمادا على مبدا مسؤولية الفرد ، فى نطاق الاختيار المركب فى أساس خلقته ، **(ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها)** ، وجنبا الى جنب مع اعتبار ذاتية الفرد الانسانى عامة والمسلم خاصة ، يوطد الاسلام نظامه على أساس الشمولية الانسانية فكثيرا ما يخاطب القرآن الناس كافة ، ولا عجب فهم سواسية كأسنان المشط ، وقد بعث رسوله رحمة للعالمين ثم يؤكد الاخاء بشكل أخص بين المؤمنين : «**انما المؤمنون اخوة**» ، «**لافرق بين عربى وعجمى ، وابيض وأسود ، وانثى ، وذكر وغنى وفقير مثلهم فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» يسعى بهمتهم أدناهم ، الامر الذى يشعر ابن الحضارة الاسلامية وهو فى أوج ممارسته لذاتيته الحرة فى نطاق النظام العام أنه جزء من كل ، عمله مشدود الازر بعمل سواه ، وقدرته المحدودة ممدودة بقوة أمته ، لا تهضمه ولا تسلمه ،فهو عزيز الجانب أبدا ، فى المساوات المطلقة ، لا يتفاوت الناس معها الا بالتقوى والعمل ، وقد كان لذلك مردودان حضاريان هامان ، أحدهما اقامة الحياة فى ظل العدل والانصاف على أساس من الطمأنينة التى هى ركن الازدهار الحضارى ، وقد شجع ذلك الناس من مختلف الاديان والاجناس على الدخول فى الاسلام أفواجا ، مستشعرين منذ بداية هذا الدخول حيازة كامل وضع المسلم ، من حقوق وواجبات واعتبار ، بصرف النظر عن كل ما فرط منهم من قبل ، وثانيهما اثارة روح التنافس فى الخير ، علما ، وعملا ، وتقوى ، للتحقق بمراكب الامتياز والكرامة ،مما جعله الله فى تطلعات الانسان السوى

منذ نفخ فيه من روحه ، الامر الذى يمد الحضارة دائما بعطاء خصيب ونماء مستمر ، ولم يكتف الاسلام باقامة العدل ، ولم يقصره على المسلمين ، بل جعله الحد الادنى للتعايش الانسانى ، يشمل حتى الاعداء والمشركين **(ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى)** ، وفى الحديث : **«اجعل بينك وبين صديقك الرضا وبينك وبين عدوك العدل»** ، لان العدل ككل الاخلاق الايجابية جدارة اصيلة لازمة فى ممارسة بصرف النظر عن الجهة التى ينصب عليها ، وقد حض الاسلام بعد ذلك فوق العدل على الخدم ، الربا كما مر بنا والرحمة والعفو ، والايثار ففى الاسرة : **(وجعل بينكم مودة ورحمة)** وفى المجتمع : **(جنة عرضها السماوات والارض اعدت للكاظمين الغيض والعافين عن الناس)** ، ومن هذه الاسس فى الفضل والعدل نشأ فى الاسلام الضمان الجماعى وتوزعت تطبيقه الدولة الحاكمة وأفراد الجماعة الاسلامية ، كل فى نطاق قدرته واختصاصه ، حتى يسمو الانسان الامثل الى مرتبة تفضيل الآخرين على نفسه ولو كان محتاجا **(ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة)** .

أيها الاخوة والأخوات الاحباب :

من معين هذه الخصائص الحضارية فى الإسلام ، هندسة جديدة للكون ، وانبثاقا من الفطرة وتلبية لها ، وانطلاقا فى آفاق الدعوة والتبشير ، ومواجهة للحياة فى بساطة ويسر ، والتماسا للحكمة وأخذا بالاجتهاد فى رحابة حضارية مستوعبة ، وتمسكا بالاعتدال مع شمول وتوفيق ، وتوسطا فى كل شيء ، ووصلا وتوثيقا للروابط الانسانية ، واقامة للحياة على أسس من القيم والاخلاق السامية ، لمشاركة يمارس فيها الفرد ذاته ، فى نطاق الجماعة وتحقق الجماعة مصالحها مراعية كل فرد من معين هذه الخصائص نفع الاسلام حضارته لنظام جامع مانع ، رحبا . . . كم لله فى الارض بمستوى لانجده ولا قريبا منه فى أية حضارة أخرى من الحضارات الانسانية.

أيها الشباب :

هذه الحضارة الاسلامية كون كامل مستمر الزمان ، ممدود المكان سوى الانسان ، والحديث المستوفى عن هذا الاسم خصيب مثمر ، ولا يتسع الوقت لاكثر مما كان منه الآن ، ومن أبرز ملامحها تعددا لا

شرحا ، الملاءمة الانسانية ، وعبقرية الاستيعاب ، ومرونة التكيف الالتقائي ، وقوة الارتباط والانضباط ، وحسبي في مرونة التكيف الالتقائي وردا على ما قيل عن الفقه الاسلامي في نقاش الامس ، أن أورد فقرة قصيرة من مؤتمر الفقه الاسلامي الذي كان عقد في جامعة السربون في باريس ، استجابة لتوجيه المؤتمر الدولي للقانون المقارن ، وضم أساطين علماء التشريع والقانون في العالم ·

لقد استخلص بجلاء أن مبادىء التشريع الاسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية ، وأن تعدد المدارس والمذاهب الفقهية ضمن هذا النظام الحقوقي الضخم ، ينطوي على ثروة من المبادىء الحقوقية والفنية المرموقة ، والتي تتيح لهذا التشريع الاسلامي أن يلبي جميع ضرورات التكيف التي تطلبها الحياة العصرية ·

أيها الحفل الكريم :

هذه الحضارة الاسلامية صنعها الله ، وحفظ لها ينابيعها أصيلة صافية ، وخصها بلغة مرنة تنفرد بين لغات البشر بالاستقرار والاستمرار ، مع التجديد والتوليد ، ونفحها من الاسلام بخصائص ليس في سواها ، انها حضارة ربانية وهذا ما يمدها بقدرة البقاء ، صاعدة في الظروف الملائمة للتألق الحضاري ، وصامدة في الاحوال التي تقهر على الانكماش والتوقف · وذلك في ترقب جو مناسب يساعدها على التألق والصعود من جديد ، لقد مرت بنا عهود وويلات فمزقت خلالها وحدة الامة الاسلامية ، وتوقف مداها الحضاري ، وسطا عليها الاستعمار بمختلف اشكاله ، وخيل للجهلاء الغافلين أنها نهاية الاسلام ، وظهور الجاهلية عليه ، ولكن الله يأبى الا أن يتم نوره ·

فبالاسلام وروحه قامت حروب التحرير ، وقهر الاستعمار وتقهقر بالاسلام قامت حرب الجزائر المجاهدة ، وفي سبيل الله مات الشهداء المليون ، وبنصر الله كان النصر فكان ردا لاعتبار الامة العربية الاسلامية في هذا العصر ، وما زال الجهاد مستمرا مع رواسب الاستعمار الكثيرة ، وقد كان من أخطر ما أصاب الاسلام خلال معارك التحرير الحضاري الطويلة هذا الداء المريع في شخصية كثير من أبنائه وزيغهم عن أصالتهم ، وان هذا الخطر ليزداد اليوم شدة وضراوة

كما بينا فى بداية هذه المحاضرة ، بحيث ابتعد التفكير والسلوك فى حياة جيل المسلمين عن العقيدة الاسلامية ومثلها العليا ، وكثيرا ما كان ذلك بزعم أو بوهم المدنية والرقى حتى صار العدد الكبير من أبنائها أعزم من خطر أعدائها ، لقد غاب عن أجيالنا المضللة أن أو الرأسمالى مثلهم الاعلى وأما الاسلام فمسكوت عنه على الاقل وقد يقدر كتراث قديم هذا اذا لم يتصد له ولدعاته بالبغى والعدوان،ومن أهم أسباب ذلك تسلط الجاهلية العدوة على مناهج التعليم ووسائل الاعلام فى بلادنا ، فنشأت بذلك أجيال تجهل وتجحد أصالتنا وجدارتنا حتى أصبح الخطر الذى يواجه الحضارة الاسلامية من بعد أبنائنا يرون فى الحضارة المادبه المعاصرة بأحد جناحيها الشيوعى حضارتنا الاسلامية حضارة صراط مستقيم أقصر خط بين نقطتين بدايته اسلام وزوج ، مسيرته سلام وحاضره وحافزه صدق مطلق وقمته حق يقين لانها كما قلنا ربانية ، فهى تنبثق من كينونة الهية وأما الحضارة المادية الصناعية المعاصرة التى تعتمد على الانسان وكشوفه العلمية والتقنية فانها تخضع للضروف البشرية وملابساتها غير المستقرة وتتقلب فى بينونتها بين الامة الاله ، والعنصر الاله والعلم الاله ، والعقل الأله ، والحزب الاله ، والانتاج الاله ، الى آخر ما هنالك من الآلهة الآفلين تصير اليهم واحدا بعد آخر كى تتوزعهم فى أوطاننا وأجنحتها المختلفة وتبقى على كل حال حضارة أرضية تنبثق من صيرورة بشرية ، وواضح فى الميزان أن العقيدة التى تنطلق من الكينونة الالهية تثمر فى الحياة سعيا ووعيا فيهما من الاستقرار ما يهب الانسان هذه العقيدة سكينة الاعمار ويجعل حضارته ايجابية متنامية ملبية لكل جوانب الفطرة مسعدة للبشرية وهكذا كانت بالفعل وشهادة التاريخ والحضارة الاسلامية وحياة الانسانية فى ضلالها وأن العقيدة التى تقوم على أسس الصيرورة البشرية تثمر فى الحياة سعيا ووعيا فيهما من التهاتر والتضارب ما يجعل انسان هذه العقيدة يعيش فى قلق ونصب وتوتر أعصاب فى ضل حضارة الطين الطاغية التى تسخر الانسان وتسخر منه تعلى له البنيان لتهدمه فوق رأسه وتكتشف بعقله وعلمه وبحثه أسرر الطبيعة وقواها لتدمره بها ، تبالغ فى تجنيده للكسب والحرب حتى لتكاد تجعل منه آلة وتسرف فى تحريره وحريته تحرير عقوق

وحرية فسوق حتى تكاد تجعل منه حيوانا فيعيش شقيا حائرا متمردا قلقا كما نشاهده بأم العين فى الاجيال المعاصرة وليدة هذه الحضارة الصناعية المادية ، وكما يعيش كثيرمن أبنائنا فى ظل سيطرتها ونقوشها المبهوط على الارض بمعسكريها الشيوعى الملحد والرأسمالى المدعى الايمان زورا سواء بسواء ، تعيش هذه الحضارة الضارة الضالة فى انسياق وعجز أو غفلة وافتتان غير منتبهين الى انهيار المعنى الانسانى فيها بحيث تزداد الجرائم وتنحط الاخلاق وتنحل الروابط الانسانية ويتفاقم القلق والمرض والانهيار العصبى ، وادمان المخدرات وينتحر مثلا في امريكا وحدها حسب احصاءاتها الرسمية أربعون الف نسمة سنويا انها الحضارة التى لا تلائم الانسان كانسان كما يقول أليكسيس كاريل ، وان توقعه ليتحقق «ان المجموعات والامم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى الآخذة فى الضعف والتى ستكون عودتها الى الهمجية والوحشية أسرع من سواها» ، «اننا قوم تعساء لاننا ننحط أخلاقيا» ، ويعطى كاريل حكمة فى كتابه «الانسان ذلك المجهول» : لا بد من قلب الحضارة الصناعية الحاضرة وظهور فكرة أخرى للتقدم البشرى .

يا شباب هذا اللقاء المبارك ، وشباب الاسلام فى كل مكان :

قد افلس العلم عن اسعاد عالمه
ها نحن رغم اعطاء العلم فى رهق

حضارة الطين تستوفى نهايتها
تريق زاكية الانسان فى رهق

عاشت وعشنا بها القرنين فى كبد
حرب الفناء وسلم الهم والارق

نطوى مراحلها النكداء فى قلق
وقد نخنوه بالخمر والشبق

السمت منقلب والامر مقترب
والجسم فى نصب والعقل فى برق

وما تفيد ه ..ن ترفهنا بها
سوى ما يفيد الميت من حبق

لا راسمال ولا دعوى التشـــارك فى الارزاق
تسعـــد والارواح فى غلـــــق

يــا ابن الهدى يــا فتى القــرآن
دعــك من الاوهام جلجل امر الله أن الق

انت الـــوريث لما أتته من أكــل
أنت الطهور عــلى أدرانها انبثـــق

ونقها واغضها خيرا ومرحمـــة
أسعـــد بها الكون أنت النــور فانبثق

مكبلـــون ولا تنفى غـــدا نبــأ
يا نجم مـزق ظلام الليــل واعتنــق

لسنـــا نبــالى وللقـــرآن فى دمنـــا
جذوى من العزم فاطو شقــة اللحــق

وطالب الحق لا يخشى غوائله فى الله
كـــم طالب للحق فيه لقــــى

هى الطريق طريـــق الله واحدة
وأشقيـــاء غرور العقل فى الطــرق

غدا سيشرق بـــالاســلام طالعنا
رغم الصعاب وتجلوا غرة الفلــــق

والنصــر بالصبر والايمان معقده
والمجد بالعـــزم والاعداد والصـــدق

أيها الحفل الكريم :

ونكبة فلسطين أليست ضربة الهية مسدودة لنتوب الى رشدنا ونعود الى الله ، ولو تحت وطأة المصائب والنوائب فنحمل الامانة بعزم ونؤدى رسالتنا المقدسة بيضاء ، أليست نكبة فلسطين بداية تحول حضارى خطير ينقذنا وينقذ الانسانية بنا ، من فتك الثالوث الهدام الصهيانية والصليبية والشيوعية ارهاصا لتحقيق أمر الله **(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)** نكبة فلسطين ولا سيما فى مراحلها الاخيرة المريرة ، أمـا هتكت زيوفا وشرعت سيوفا وأعدت للجانبين حتوفا ولكن شتــان شتــان

فشرع الخنوع الى الاستسلام فى جهنم خالدين فيها أبدا ، وشهداء الزحف المقدس فى سبيل الله مع اخوانهم من شهداء الجزائر البررة وشهداء الاسلام فى كل زمان ومكان أحياء عند ربهم يرزقون ٠

أنسيغ الحياة فى رهج الزيف
ونلوى عن المخاطر عنقا

وكأنا قد أزمن البطل فينا
فغدونا لا نعرف الحق حقا

الشعارات للخداع هتافات
وزور نرقى بها شر مرقى

ويساق الشعب المكلل بالاغلال
فى موكب التحرر سوقا

موهوا النكبة الضروس عليه
خنقوا ثورة الجماهير خنقا

أيها الصم عن دواهى حزيران
بكمتم فلا تطيقون النطق

قد كفانا يا أشقياء هواكم
أن نسام الهوان فيكم ونشقى

سيرى الكون من تمردنا الجبار
ما يسحق الطواغيت سحقا

ان للفتح موعدا راسخ العزم
وسعيا الى الفداء وسبقا

بيعة فى الجهاد شقت من القدس
الى الخلد دربها الوعر شقا

يطول الطريق لكن نصر الله آت
وعروة الله وثقى

أيها الحفل الكريم :

عذرا لمنابر الفكر من شطحات الشعر وعذرا مرة أخرى اذا كنت استشهدت وسأستشهد بأقوال باحثين أجانب ، فما هى والله عقدة نقص ولكنى أريد أن أجعل بين يدى شبابنا لمؤمن نماذج من آراء

الاغيار الى جانب ما يتوفرون عليه أصلا من أبحاث علماء الاسـلام لتكون حججا لهم وبراهين فى مجالات الدعوة والحوار ولا سيما فى أوساط أنصار الحضارة الغربية وأبناء الثقافة الاجنبية من شبابنـا وما عددهم بقليل ، عسى أن يهز ذلك أوتار قلوبهم ويجلوا غبار عقولهم ويردهم الى علميتهم وأصالتهم ردا جوانيا ، واسمحوا لى وقد استعرت هذه الاصطلاحات من السيد الوزير والدكتور عثمان أمين ، أن أتبنى الى جانب ذلك ، الصيحة المؤمنة والمطالب الواعية الهادئة التى جاءت فى محاضرة الاستاذ الجليل الحبيب بلخوجة وأن أشيد بهذا اللقاء الهادف المبارك وأشكر العاملين له والداعين له شكر المستفيد المستزيد سعيدا بمشاركتى فيه ، ضارعا الى الله أن يتولى الاسلام ورجاله بالتأييد والتسديد لنكون على مستوى أعدائنا وأعبائنا بـل على مستوى رسالتنا الخالدة الرائدة المقدسة خير أمة أخرجت للناس رحمة للعلمين ، يقول **فيليب حتى :ان الشرق الاسـلامى اليوم فى مطلع دور جديد فى حياته العلمية كما أنه فى فجر طور نسميه دور الابداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والادبية ولنا أن نتكهن بان أبناء الثقافة الاسلامية على اختـلاف بيئاتهـم سيكونون بقسطهم فى خدمة المدنية الانسانية بما يجعلهم خلفـاء جديرين بالميراث الذى تركه لهم أسلافهم)** • ويقول الدكتور غوستاف غرومبون الاستاذ بجامعة فينا ثم فى جامعة شيكاغو : أليس مـن المؤسف أن الشعور الثقافى الاسلامى لم يزل بعد متخلفا عن التحرر السياسى الاسلامى ، وأن نصيب العالم الاسلامى الجديد فى ميـدان البحث العلمى الانسانى لم يرتفع بعد الى مستوى مناسب ان البحث التاريخى عن الطرق العلمية الغربية قد قبل نظريا ولكن المسافة لاتزال واسعة بين تبنى المنهج وبين التعديل المناسب فى القيم والخطط التقليدية ، ولا يعنى هذا طبعا التخلى عن الاصالة وانما هى الخطط والاساليب، فغوربون نفسه يقول: ان حركة داخلية ـ اسمعوا ياشباب لحركة احياء دين فى بيئة ثقافية تكون عاملا منشطا فعالا فى اعادة تنظيم نموذج الحياة كله لتلك الجماعة ،أكبر أثر من الاتصـال بمدنيات أخرى مهما كانت الاقدمية الحقيقية أو المتخيلة للثقافـة المؤثرة ، ومهما كان الحرص على التكييف بها ، ويقول ، ان الحقائق والاوامر التى جاء بها الوحى والتى تمثلت فىحياة الرسول وفىتنظيم

الجماعة الاسلامية الاولى لا تحتاج الى أكثر من جلاء الاصداء التي علقت بها خلال التاريخ لتصبح صالحة للاستعمال · في أيامنا الحاضرة غرومبون هو الذى يقول : ومادة الوحي لا تنفذ ولكن النقص في فهم الانسان اياها ، غير أن حاجات العصر الحاضر ستفتح عيون المؤمنين للحل الناجع الذى احتواه نص القرآن وبينه عمل الرسول ·

أيها الاخوة والاخوات الاحباب :

لابد أن توجه الجهود كل الجهود في سائر مرافق الحياة لاقامة معنى الاسلام من جديد على أصالته الصرمدية التي تجعل منه عالم حقائق وفضائل ايجابية فعالة لا يتغير جوهرها وان تغيرت صورها في الزمان والمكان والانسان ، هذا التجديد المستمر لحقيقة الاسلام الثابتة التي يجب أن يكون لقاؤنا المبارك خطوة جديدة صادقة ثابتة ماضية فيه ، هو الذى سيحرك الحضارة الاسلامية وينقذ فلسطين ويحقق وحدة أمتنا مرة أخرى وينقذها وينقذ بها الانسانية بنواميس الله وحوله وقوته :

الهون الهون في دربي وفي هدفي

أظل أمضي غير مضطرب

ما كنت من نفسي على حذر

أو كنت من رب على ريب

ما في المنايا ما أحاذره

الله ملء القصد والاربة

بسم الله الرحمن الرحيم «ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ، ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم اولياء بعض والله ولي المتقين ، هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يؤمنون صدق الله العظيم ·

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته·

منشـــورات
وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

صـدر كتـــاب



(بالفرنسيـــة) في 3 أجــزاء

1979 n° 68-69

فهـــرس العـــدد

المجتمعات العربية الاسلامية
بين الجماعية والقبلية

عبد المجيد مزيان

اعتبارات منهجية :

يتعرض الباحث فى مظاهر التطور للمجتمعات العربية سواء كان فيلسوفا للتاريخ ، ام عالم اجتماع ، الى تعقيدات منهجية تفرض عليه استعمال ادوات عقلية كثيرا ما تكون مصطنعة ، لكنها مع ذلك أدوات ملتصقة بعض الشيء بالواقع ، رغم تجريدها وتحليقها فوق الانظمة والاحداث الجزئية · واننا اذ نستعمل مفاهيم اجتماعية مثل الجماعية والقبلية ، قد لا تعطي صورة دقيقة عن النظام القبيلي والنظام الجماعي اللذين يجب دراستهما فى نماذج متعددة ومتنوعة تأريخيا وجغرافيا وتطوريا ، مع ابراز كل المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية لهذه النماذج فى تفاعلاتها المتشعبة · وليست مثل هذه الدراسات الدقيقة بالامر السهل ، اذ أن تبعثر المعلومات فى المؤلفات والوثائق التاريخية ووصفها المستعجل والجزئى من جانب المؤرخين ، لا يُمكّن الباحث من التقرب الى واقع الانظمة الاجتماعية الا من جوانب جزئية وهي الجوانب المربوطة بالحروب وما يشبهها من ابرز الاحداث التى تلفت أنظار المؤرخين والادباء .

من هنا قد يصير لزاما على كل الباحثين فى الظواهر الاجمالية والانظمة الكبرى فى أهم مراحل تطورها ، أن ينهجوا منهجا اجماليا يتصف بعيوب عديدة هي عيوب المعرفة التقريبية ، والتعميم المستعجل فى ابراز قوانين التطور الاجتماعى . ومن اكبر الاخطاء التى قد ترتكب فى هذا الميدان ، الاخذ بالقوانين الجاهزة التى سبق استخراجها من تتبع التطورات المجتمعية فى أنظمة وبنيات ليس بينها وبين مجتمعاتنا العربية ، الا شبه قليل قد يكون شبها للتضليل اكثر مما يكون شبها للتمكن من التعميم . فتفسير كل تطور اجتماعى اجمالا بقوانين التطور المستخرجة من تاريخ المجتمعات الاروبية ، قد يؤدى الى كثير من التصورات الخاطئة رغم وجود الشبه الكثير بين بعض البنيات الاجتماعية الاروبية والبنيات العربية ، وعلى الخصوص فى فترات الاحتكاك والتأثر . ومن الخطا أيضا أن تعمم قوانين التطور التاريخى الخاصة بحقبة من الزمن لها خصوصياتها الاجتماعية ، مثل أن نجعل قوانين نشوء نوعية من الدول فى القرون الوسطى قواعد ثابتة لا تتاثر بالنسبيات التاريخية والاقتصادية وما يشاكلها من النسبيات القوية الاوزان . واذا ما لجانا الى الاخذ بالمنهج الجدلي كاداة عقلية لتفسير التطور التاريخى للمجتمعات لزم علينا أن نتحذر من التعميم المبسط الذى لا ينتبه الى الفوارق بين الجدليات المستخرجة من النوعيات المجتمعية المتباينة البنيات . غير أن هذه الاحتياطات لا تمنع من اعتبار هذه الادوات العقلية والتى هي المفاهيم الاجمالية ، بما تتضمنه من التزام منهج تعميمي ، ضامنة لبعض العصمة العلمية ، ما دام الوصف والتحليل العلمي الدقيق أمرا مستحيلا فى تتبع تطور المجتمعات . لكن الاداة العقلية فى مثل هذه المواضيع الكثيرة السيلان والتقلبات أداة مؤقتة يثبتها او يفندها او يصلحها الاحتكاك بالواقع الحي المتحرك .

مفهوم القبيلة :

ولقد أخذنا بمفهوم الجماعية والقبيلية كاداة عقلية متضمنة بعض التقابل الجدلي لتفسير التطور التاريخى للمجتمعات العربية ، مع كل هذه الاحتياطات ، وكل هذا الشعور بالنسبية ، فما هي القبيلية اذا ؟ أنها النزعة الى تغليب الانظمة والقيم المنبثقة من ذلك النظام العتيق الآخذ تماسكه من الشعور عند مجموعة من الناس بالانتماء الى نسب واحد وعرق واحد ومصالح اقتصادية واحدة ، والكل متشخص فى وحدة اجتماعية ضيقة هي كتلة يذوب فيها الفرد ، ولا يتعدى افقها الاقليم الضيق الذى يمتاز التعايش فيه ، بالقرابة والعداء المبنيين دوما على النسب والمصالح .

ان النوع القبيلي الصافى نوع خيالي ، لم يوجد منه اي نموذج كامل حتى فى الجاهلية ، وليس من الممكن أن نعثر عليه فى أصالته وصفائه منذ ظهور الاسلام وانتشار

العرب واتصالهم بالامم الاخرى ، فالوحدة النسبية الضيقة الكاملة التلاحم قد لا توجد الا فى الاسرء بينما يـؤدى تفــرع النسب الواحد عبر الاجيال الى تشتيت وتباعد فى التعايش يخل بلحمة النظام القبيلي · ولعل قبائل الرحل هي أقرب القبائل الى النــوع المثالي ، لانها ذات نظام ضيق ومتماسك بدافع الحفاظ على الاموال والمراعي ، فتجدها تحمي الانساب من الخلط وتقدس الاعراق وتجعل الذكورية أساس الوجود ، وتدعو الى تفاني الافراد فى كيان القبيلة ، فلا مسؤولية ولا حرية ولا وجود للاشخاص الا مــن خـلال المجموعة القبيلية التى تعادى أو تحالف بمقتضى المصـالح والجاه الضـامن للانتصار على الاعـداء ·

وليس وجود هذا النموذج الاجتماعى فى الرحل مما يثبت تعميمه بينهم أو تمسكهم به بطريقة تقليدية لا تعرف التفكك والتغيير ، بل القبيلة فى جميع الاحوال متفتحة على أنواع عديدة من التكيفات سواء كانت مربوطة بالتحضر أو الهجرة البعيدة أو الذوبان فى المجموعات الواسعة ، وذلك لاسبـاب متعـددة اقتصادية وسياسية وديمغرافية · فالانظمة والمثل وقواعد التعامل الجارية عند عرب اليمن المتحضرين ، وأهـل غســان القاطنين بالشام وبني المنذر المستوطنين العراق ، وأهل مكة والطائف ويثرب بالحجاز ومنهم التاجر والمزارع والمحارب المحترف ، انما هي أنظمة ومثل تبعد أيما بعد عــن القبيلية التى يتصف بها البدو ، وذلك رغم البقايا الموروثة ، ورغم الاعتناء باللحمـة النسبية · وقد ضربنا مثلا بحركية النظام القبيلي قبل الاسلام ليسهل علينا التعـرف على حركيته من بعد الاسلام · ولا يمكن أن يدعى بأن هذه النوعية الاجتماعية خاصة بالعرب بل من المعروف أن مفكرا مثل ابن خلدون كان يقول فى عصره ، بانتشار هذا النموذج عند مختلف الامم فكان يصف بالبداوة العرب ، ومن فى معناهم من الامــم مثل البربر والاتراك ، والتتر ، والنوبة ، ومن يشابههم فى الاعتماد على تربية المواشى والظعن · فالقبيلة مهما كان تماسكها عرضة للتحولات التى قد تذهب بكيانها وتنقلها الى بناء اجتماعى من نوع آخر ، مثل الجماعة المتحضرة فى القرى والمــدن ، ومهما بقيت من رواسب قبيلية فى هذا النظام الجديد الذى يلتهم القبائل ، فانه نظام له قيمـه وبناءاته المغايرة للقيـم القبيلية ·

مفهــوم الجمـاعية :

ونحن نرى أن الاسلام كان بمثابة المفجر العنيف للبنيات الاجتماعية التى دخــل عليها ، سواء كانت قبيلية كما وجدها عند العرب ومن يماثلهم فى الحياة ، أو امبراطورية كما وجدها عند الفرس والروم ، وذلك لانه قابل كل هذه البنيات بكيان جديد ذى قــوة

اجتماعية وروحية لا يصمد لها اي كيان اجتماعي آخر، الا وهي الجماعة بمعناها الاوسع الذى يشمل الجماعات المحلية ، بقدر ما يبعد الى آفاق الامة الواسعة ويتجه نحو الانسانية الشاملة التى يتوق الى وحدتها الاسلام فى تبليغه دعوته الروحية الى الناس أجمعين ·

لكن هذه القوة الهائلة لم تشخص فى نماذج واضحة المعالم والحدود الا فيما قل من البناءات والفترات التاريخية ، وبقيت تصورا مثاليا بعد مرور نصف قرن على الاسلام الاول الذى دفع بها الى الوجود كمفجر اجتماعى عميق المفعول ان الجماعية تكتل بشري واسع بالانتماء الى عقيدة انسانية شمولية ، وهي دعوة مستمرة ومتجددة الى المساواة بين الاعراق والاجناس والاشخاص وهي نداء الى الترابط الروحى بين الناس فوق الطبقات ومصالح الفئات ، وهي أمر بالتكافل الاوسع بين البشر ، وهي بناء يسمح بتعدد الجماعات فى الترابط الجماعى البعيد الافاق · فكانها النقيض الاكثر نقضا للقبيلية · وقد دخلت على العرب فأرادت أن تلهمهم التفوق الانساني بالخروج من حدودهم العرقية الضيقة ، وتلقنهم بأن القبيلية هي الجاهلية العمياء ، وأن الانتساب الى الاصول هو الانزلاق الى التطاحن والعداء ، فالقيم الجماعية انما هي فى أساسها قيم انسانية وروحية بينما القيم القبيلية لا تتعدى الوحدة النسبية المحدودة ، وهي تلقين للتلاحم العدائي والتفاضلي بين الفئات ·

ان الانتباه الى التفاعل بالانصهار أو الصراع بين البنائين القبيلي والجماعى بقيمهما المتناقضة قد يكون وسيلة لفهم الكثير من التطورات والتعثرات فى تاريخ المجتمعات العربية ·

ولكن يجب أن نتعدى التصورات النموذجية لنتوغل فى صلب الواقع الاجتماعى التاريخى لندقق مفاهيمنا ونفسر تلك الصيرورة الخاصة بتاريخنا الذى يكشف عن خصوصيات عجيبة مثل الازدهار السريع ، والتطاحن الداخلي المرير ، والانحطاط الذى لم يشاهد له مثيل · ولعل هذه الادوات العقلية ، ستعين اذا توغلت فى الواقع الاجتماعى ، على بعض المراجعات التاريخية التى قد شغف بها جيلنا الحاضر بعد أن مقت التحليلات الجزئية وأنواع السطحيات · قد يقال بشان الروح الجماعية التى الح عليها الاسلام كثورة اجتماعية،بانها لم تزد على أن ادخلت بعض التعديلات على الانظمة القبيلية العتيقة ، وتصورها بصفة المفجر القوي مجرد نظرة مثالية فى الموضوع، وهي من اختلاق المفكرين الآخذين بمثل العدالة الاجتماعية من أبناء الامة الاسلامية ·

لكننا نقول ان هذا الانتماء الى المثل الجماعية الشمولية التى تتعدى الاعراق الى الامة الواسعة فكرة لها حيويتها واتصالها بالواقع الذى قد يكون فى أغلب الفترات التاريخية هو الواقع الذى لا ترضى عنه الشعوب . ونضيف الى هذا الاعتبار انتباهنا الى أن المثالية فى الحياة السياسية عند المسلمين ، ليست هي التمثل الخيالي المقذوف به الى مستقبل الاحلام ، بل المعروف عن المثالية الاسلامية فى السياسة أنها الحلم بالرجوع الى عدالة العهد الاول للاسلام ، وذلك هو عهد الجماعية كنموذج تاريخى حي يتصف بكثافة الوجود التاريخى مع امكانية العودة به الى الوجود فى الاحقاب المقبلة من الزمان . انها مثالية تضرب عروقها فى الواقع التاريخى وهي قليلة الشبه بالمثاليات السياسية التى قطعت كل علاقتها بالواقع ، كما انها عديمة الصلة بكل أنواع المهدويات التى لا ننكر وجودها فى التصورات السياسية عند شعوبنا . فكما أن الديمقراطية الاثينية ودستور الاثينيين ، قد لعب دوره المثالي فى استيحاء الكثير من المبادىء الديمقراطية فى الانظمة السياسية الاروبية ابتداء من القرن الثامن عشر ، فكذلك النظرة الى الجماعية فى تاريخ المسلمين ، اذ أنها المثال المفقود الذى يمكن احياؤه وتجديده وتنميته فى كل زمان .

قد يقال ان دستور الاثينيين والدساتير المماثلة له فى الانتساب الى الديمقراطية مكتوبة ومدروسة ، بينما دستور الجماعية الاسلامية غير معروف ، ولقد سبق لبعض علماء الشريعة الاسلامية مثل القاضى علي عبد الرازق أن يتفقّدوا مثل هذه النصوص فلم يعثروا الا على ما قل منها، وأباحوا بناء على ذلك تفتح الفكر السياسي الاسلامي على العدد الواسع من الامكانيات والتوجهات .

لكن الحقيقة تثبت أن مثل هذه المواقف مجرد غفلة عن النصوص . ان القرآن لا يسمي هذه الجماعية التى نصفها كمقابل للقبيلية بالاسم الواحد فى جميع الاحوال ، فامة المؤمنين ، وامة المسلمين ، وذكر الذين آمنوا كجماعة لها روح جديدة وترابط جديد فى آفاق روحية وانسانية واسعة ينقلنا بقوة الى أخلاق جماعية لها مضمونها الاجتماعى والسياسى العميق ، مثل التوادد ، وعدم العدوان الا على الظالمين ، والعفة الاقتصادية ، والتكافل ، والشورى بين أفراد الجماعة وغير ذلك من المبادىء التى تعاكس الكثير من القيم القبيلية الجاهلية .

وليس من الصعب أن تجمع الآيات القرآنية ذات الطابع الدستوري ان صح هذا التعبير ، فترتب تحت عناوين اجتماعية واقتصادية وسياسية لابراز وثيقة أساسية

للجماعية الاسلامية · أمـــا بالنسبة للسنن فالامـر قد يصعب بعض الشيء لاختلاف الروايات وتعددها فى مواضيع الوثائق السياسية ، غير أنه من المعلوم عند كل مـن تعود استعمال هذه النصوص بأن عهد الاسلام الاول كان عهد الخروج السريع مـن عادة الرواية الى عادة الكتابة ، خلافا لما يظن الغالب من الناس · فالرسائل والعهود التى كتبها النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده وقـــادة الفتـــح الاسلامي كانت كلها مكتوبة بصفة العقـــود الرسمية المحررة بمحضر الشهود وعليها العلامات والخواتيم ، وقد روتها كتب التواريخ والسير مع اختلاف قليل فى الفاظها ·

اهميـة عهـد المـدينة :

ومن أهم هذه الوثائق السياسية التى تُثبت الجماعية الاسلامية وتنقل الناس من النظام القبيلي الى الانخراط فى الامة ، عهد المدينة الذى كتـــب فـــورا بعد استقرار المهاجرين وبناء المسجد النبوى.وهي بهذا الاعتبار أول دستور للمسلمين·ورغم أن هذا العهد لا يتعدى الخمس صفحات ، وان بنوده ملخصة ، فيما يقارب الثلاثين بندا ، اذا سكتنا عن تعداد أسماء الجماعات المنخرطة فى الحلف ، فانه يلفت نظر كل الدارسين الى أهميته العقائدية والحاحه على القيم الجماعية التى تمتاز بها هذه الامة الجديدة من بـين النـاس ·

ولنذكر هنا بعض البنود لاثبات هذا الاتجاه العقائدى الذى ذكرنا ·

يقـول البنـد الأول :

«هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس»·

ثم نقتطف بعض ما ورد فى هذا العهد الذى يقول:« ان كـــل طائفة تفـدى عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وأن المؤمنين لا يتركون مفـــرحا بيـــنهم أن يعطـوه بالمعروف فى فداء أو عقل ···

وان لا يُحالف مؤمن دونه وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى سيعـة ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولـد أحدهم · ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وان ذمة اللـــه واحدة يجير عليهم أدناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وأن مـن تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ···

وانه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن باللـه واليوم الآخر ، أن ينصر محـدثا ولا يـؤويه ···

وان بين المؤمنين النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، وانه لم يأثم امرؤ بحليفه وان النصر للمظلوم ·

وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ···»·

اننا اذا انتبهنا الى هذا المقتطف القليل من عهد المدينة الذى يمكن لكل قارىء مراجعته فى كتب السيرة ، وجدنا الالحاح فيه على تكوين أمة متكافلة روحيا ، واقتصاديا وسياسيا ، وانها أمة متفتحة على الترابط بين أكبر عدد ممكن من الجماعات ، وانها أمة متساوية الافراد فى المسؤولية والقدر الانساني ، اذ يجير على المؤمنين أدناهم واذ أن أيديهم على الظالم ولو كان أحد أبنائهم ·

هذا ولا ننسى أن العهود الكثيرة التى أعطيت لمختلف الجماعات والولاة فى الاسلام الاول ، كانت كلها عهودا مكتوبة ومعروفة عند الناس · ويلح أغلبها على ترك الترابطات الجاهلية المبنية على التفاوت الطبقى واستغلال القوى للضعيف، والانتساب الى الاعراق·

فلو أخذنا على سبيل المثال فقرة من كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى عمرو ابن حزم ، أحد عماله على اليمن حيث يوصيه باعلان الحرب على القبلية،لوجدنا عبارته عنيفة كأنها من أصدق ما عبرت عنه الجماعية الاسلامية فى ثورتها على الانتساب الى العشائر وقيمها · وقد ورد فيه الامر الى العامل المذكور « بأن ينهى اذا كان بين الناس هيج ، عن الدعاء الى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم الى الله وحده لا شريك له ، فمن لم يدع الى الله ، ودعا الى القبائل والعشائر ، فليقطفوا بالسيف حتى يكون دعواهم الى الله وحده لا شريك له ».

ومن المتفق عليه عند أصحاب السنن أن الدعوى القبلية أو العشائرية كان يسميها النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوى الجاهلية المنتنة ·

وفى خطبة الوداع من النقض للقيم القبلية والدعوة الى المساواة الانسانية والعدل بين الاجناس ما يثبت أن الجماعية الاسلامية تفتح على الاخوة البشرية ، وخروج من أفق الوحدات المحدودة الى الشعور بوحدة النوع الانساني الذى ينتسب الى أب واحد ورب واحد ·

الردة القبلية فى الاقطاعيات الحاكمة :

وملخص القول ان النصوص والاحداث التاريخية التى تثبت العزم الصارم على الخروج من الترابطات القبلية الى الجماعية متعددة وواضحة الاتجاه · غير أنه

لا يمكن الادعاء بأن هذه الدعوة العقائدية العميقة قد أثرت فى كل النفوس ومحت آثار القبلية • بـــل ان الصراع بين النزعتين قد اتخذ ابعـــادا جديدة اذ تدرعت القبلية بالمشروعية الاسلامية ووحدة الامة للحفاظ على بعض المكتسبات السياسية ، بينما لجأ أنصار الجماعية الى توسيع الجبهات النضالية بين الامـــم المجاورة لنصرة مواقفهم • والمعروف عن الصحابة أنفسهم انهم يصنفون حسبما يقول اغلبية المؤرخين صنفين : منهم المناضلون من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس ، وبث الروح الجماعية الاسلامية فى كل البلاد ، ومنهم من تغلبت عليه العصبية القبلية أو العرقية ، وحـــب المتعة واستغلال الاسلام وسيلة للسلطان •

ان الحياة الاجتماعية والسياسية التى تشخصت فيها التحقيقات الكبرى فى تكوين الجماعية بقيمها الاساسية لم تتعد الجيل الاول من الحكم الاسلامي ، مع مـــا للخلفاء الاولين والرابع من الميزة فى النضال من أجل نصرة هذه القيم ، لكن ظاهرة العصبية القبلية برزت للوجود بعنف غـــير منتظر ، وبـــرز بسببها هذا التطاحن بـــين النزعتين القبلية والجماعية الذى بقي مسيطرا على الحيـــاة السياسية للعرب والمسلمين الـــى عهد غير بعيد •

اننا لا نقول بأن هذه الفتنة الكبرى هي بمنزلة الخطيئة الاولى التى نحملها عـــلى عواتقنا فى كل نشاط سياسى أو كل تطور تاريخى لامتنا ، ولكننا لا ننفي عـــن أنفسنا هذا العجز الحضاري الآتي من تغلب النزعات البدائية على النزعة الانسانية التى دعت اليها الثورة العقائدية للاســـلام • فالتعثر الحضارى الذى نسميه انحطاطا أو تقهقرا انما يفسر أساسا بهذه الجدلية التى هي استفراغ الطاقات فى الصراع بين نقيضين أولهما كفاح فئة من أجل الصعود بالامة الى الشمولية الحضارية الانسانية ، وثانيهما النزول بها الى مستوى النزعة البدائية الضيقة •

اخطاء التفسيرات الجزئية للتطور التاريخى :

واذا كنا قد الححنا على تفسير الجماعية فى النموذج التاريخى المعروف عنـــد الجميع فليس من أجل التذكير بظاهرة لا يجهلها أي أحد من الناس ، ولكننا ركبنا هذا الطريق البسيط لنتجنب المتاهات التى ضل فيها مفسرو التطور التاريخى للمجتمعات العربية اذ انكبوا على الظواهر الجزئية لشرح الفشل الحضارى الذى أصيبت به هذه المجتمعـــات •

فمن هذه الافكار المنحصرة فى الظواهر الجزئية ، القول بتعثير المجتمعات العربية فى الصراع بين البدو والحضر ؛ مع عدم الالتفات الى أن الدول العربية الاولى كانت ذات طابع ونزوع حضرى ، وهي منبثقة من صميم الاولغارشيات التجارية العريقة فى التحضر ، وأن عصبياتها العسكرية من أهالي الشام وفارس كانت عصبيات جند منظم متحضر ، وليس من الدول الفارسية والتركية التى ظهرت للوجود فى ظل الخلافة العباسية من بديهيين وسلجوقيين وسامانيين وأيوبيين ومماليك الا عصبيات عسكرية نشأت من ممارسة الوظائف السلطانية فى بلاطات الحواضر ٠

هذا مع أننا لا ننفي الصراع فى فترات ومناطق معينة بين نوعيات من البدو ونوعيات من الحضر ، خصوصا بالمغرب العربي ، ولكن البدو لا يمثلون برمتهم ، وبكيفية حتمية طرف العصبية الثائرة كما أن الحضر لا يعدون حتما طرف المقاومة من أجل الحفاظ على المنجزات الحضارية ٠ ونضيف الى هذه الملاحظة قوة الحركية وسرعة التحولات فى المجتمعات العربية ٠ فالتحضر والتبدى بمناسبة الاحداث العسكرية الكبرى ظاهرتان من أبرز ظواهر التطور الاجتماعى عندنا ٠ وتصورنا لسير المجتمعات نحو التحضر الحتمي باعتبار البداوة بداية العمران والحضارة نهايته تصور خاطىء تكذبه الاحداث التاريخية التى تشهد بتشريد المجموعات البشرية الضخمة ، ثم ذوبانها فى الوحدات البدوية الكبرى بعد تخريب المدن والفتك بأهلها ومطاردتهم الى الارياف والصحارى ٠

ومن النظريات الجزئية اعتبار الانحطاط الحضارى عند المسلمين نتيجة لغزو البدو الخارجيين الذين هم المغول والتتر ، وهي نظريات يقع عليها الالحاح القوى الى درجة اعتبارها العامل الاساسي لهذا الانحطاط ٠ لكننا نعلم أن المغول قد أدمجوا فى الحضارة الاسلامية كعنصر فعال فى بنائها ، وليس أحسن من حضارة الهند الاسلامي كدليل على هذا الادماج وهذه الاستمرارية فى البناء الحضارى الذى لا تقل فيه انجازات المغول عن انجازات البربر أو الاتراك ٠

وأما مرد الاسباب الرئيسية فى الفشل الحضاري للمجتمعات العربية الى أسباب محض فكرية ، فمن النظريات الجزئية الشائعة اذ يدعى بعضهم أن الانحطاط راجع الى ضرب الحجر على الاجتهاد فى التفكير ، أو الى التصوف كعقيدة ، تواكلية لا عقلية أو الى تسلط التقليد على التجديد فى الفكر التشريعي ٠ وانها لتعليلات تلتبس فيها

الاسبـاب بالمسببـات والظـواهر الاجمـالية بالظـواهر الجـزئيـة، ولا تمكـن مـن تفسـير تطـور مجتمعاتنا الا مـن جوانب منعزلة عـن النظـرة الكليـة للتاريخ

ولقد سبق ان قلنا بأن القبيلية والجماعية طرفان لجدلية اجتماعية يمكن ان تستعمل كاداة عقلية لتفسير جل التطورات الكبرى للمجتمعات العربية الاسلامية ، ونبهنا الى أن الواقع الدقيـق قد يخالف هذه العموميات ، وأن النماذج الاجتماعية والسياسية لا تخضع دومـا للتعريفات العمومية المنحصرة فى هذيـن الطرفين ، ولكن النزعات الاجمالية تدخل بسهولة فى هذا التضييق الاجمالي ٠

نمـوذج الاقطاعية الحاكمة وهويتـه :

ولنتطرق الى أنواع الحكم التى عرفتها مجتمعاتنا ولننظر اليها من خلال وجودها الحركي لنتحقق من صحة هذا الاتجاه فى البحث عن التطور التاريخى ٠

قد يقال ان الدول الحاكمة عند المسلمين قد انطبعت بطابع الامبراطوريات البيزنطية والفارسية سواء فى سلوكها السياسي أو الاقتصادى ، ولا داعي للبحث عن نزعـات قبيلية فى هذا الميدان ما دام العرب الحاكمون قد صعدوا من مستوى البداوة أو شبـه البداوة الى الحضارة وتحقيق البنيات الاساسية للكيـان الحضارى النوعى الـذى يمتـازون بـه ٠

غير أننا نقول ، رجوعا الى النظرة الاجمالية التى ذكرنا ، بأن الـدول الحاكمة كانت اقطاعيات متسلطة على الشعوب ، وكان تماسكها السياسي مبنيا على العصبية القبيلية ، والنزعة الى التفوق العرقي ، وكان ارثها عن الامبراطوريات القديمة مبتلعا من طرف العرقيـة الجـديدة المنتصـرة ، وكان الاسـلام العقيـدة الـتى تتـدرع بها ٠ الاقطاعيات الحاكمة لاثبات سلطانها ٠ والدليل على ذلك أن هذا الحكم كان بيـد هذه الـدول ، استبدادا ، وتصرفا مطلقـا فى الارقاب والاموال ، وأن المبـادىء الاساسية للعقيدة الاسلامية الجماعية من عدل ، ومساواة ، وشورى ، وبيعة حقيقية ، لا تزييف فيها ، وحقوق الناس فى الاموال ، كانت مبادىء منبوذة ، يضطهد كل من ينادى بهـا من زعماء الروح الجماعية الاسلامية ٠ وسواء كان الحكم وراثيا بيد الاسر المالكـة المنبثقة من العصبية القبيلية ، أو منحصرا بيد الالغارشيات العسكرية المستندة الـى العرقية ، فانه يدخل تحت تصنيف واحد وهو الاقطاعية الحاكمة المستبدة ، وقد يعرض على هذا التصنيف بأنه من النوع الذي يطبق المفاهيم ، والكيانات الاجتماعية الاروبية على المجتمعات العربية ، ولكننا ننبه مسبقا الى وجود الكثير من الاختلاف والكثير من

الشبه فى نفس الآن بــين الاقطاعيتين · ومــا دام النموذج الاروبى معروف ومدروس فسيكون من أنفع البحوث الاجتماعية التاريخية تحديد النوع العربي · وقد خصصت لذلك بعض المجهودات فى السنين الاخيرة ، ولكن يمكن تلخيص هذا التحديد فى أهــم الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية دون كثير عناء ، ان الاقتطاعية العربية نظام ينصب من قمة الحــــكم الملكــي أو الالغارشي المبني على العصبية ، كما يصفها ابن خلدون ويتســرب الى مختلف البنيات بأجهزته الاستغلالية الاستبدادية ، وذلــــك بواسطة الانظمة العسكرية والادارية المبنية أساسا على الجباية والخراج الفاحشين ، والقمع الدائم من أجل تثبيت النظام · والخلاف الاساسي بين هذا النــــوع الاقطاعى والنوع الاروبي يرجع الى اعتماد هذا الاخير على تثبيت الملكيــة الارضية بمنتوجاتها ورقيقها بيد الطائفة المتسلطة الحاكمة ، بينما تعتمد الاقطاعية العربية الاسلامية على تسلطها السياسى العسكرى فى استغلال السكان من الخراج ومن الاحتكارات المختلفة والجبايات والمصادرات ، والغصب السافر لكل مال تحتاج اليه الاقطاعية الحاكمة ·

واذا ما تتبعنا الصراع بين الاقطاعيات العربية الاسلامية فيما بينها فاننا نجدها مجرد مغالبة للتسلق الى الحــــكم او المحافظة عليه لبســط النفوذ من أعلى ، وتعميم الاستغلال لفائدة الطائفة الغالبة وهو استغلال جامع مانع اي لا ينتفع به الا الحاكمون واعوانهم الاقربون دون أي اشراك على الاطلاق ، ولو كان الاشراك الطبقى الذكي المبني على حساب من أجل البقاء · وليس مثل هذا الافراط فى العنف ومثل هذه الاستبدادية فى نظرنا الا امتدادا للروح القبلية التى انتقلت مــــن الوحدات المحدودة الى الآفاق السياسية الواسعة التصرفات والتصورات ، لكنها بقيت محافظة على غرائزها الاولى المبنية على العــداء ·

يبدو من العجيب أن كيانا اجتماعيا وسياسيا مهما مثل الدولة بابعادها الحضارية والعالمية يبقى تحت سيطرة الغرائز القبلية محصورا فى بدائيته الاولى ، وكان العقيدة العميقة التى علت بالمجموعات البشرية من المستوى الفوضوى الى المستوى النظامي ، ومن المستوى العشائرى الى المستوى الانساني الشامل لم تؤد وظيفتها بالنسبة لهذا الكيان · اننا لو ضيقنا النظرة الى اعتبار الدولة مجرد ظاهرة سياسية شبه منعزلة كما نظر اليها ابن خلدون ، ثم ماكيا فيلي من بعده ، لقلنا بانها قليلة العلاقة بالاخلاق لانها ظاهرة موضوعية حسبما يراه بعض المفكرين ، ولكننا نعلم من جهة أخرى بــأن العقيدة الاسلامية ليست مجرد أخلاق ، بل هي أخلاق عامة وأخلاق سياسية وفكــر

اجتماعي واقتصادى متكامل مع مراعاة للواقعية الانسانية ، وتجنب للمثالية الخيالية . ومن هنـا لا يمكن اعتبارها بمثابة مجموعة مـن التصورات والافكار المجرّدة القليلة الانسجام مع الحياة السياسية · بل يمكننا ان نشاهد من خلال الاحداث التاريخية أن العقيدة كيفت حسب الغرائز السياسية الخاصة المنبثقة من العصبية ، وصار الدين نفسه أداة مسخرة لتحقيق الكثير من النزعات القبيلية البدائية · وليس أحسن مـن التلاعب بالمبادىء كدليل على هذا الموقف ، اذ أصبحت البيعة بأيدى الاقطاعيات الحاكمة بيعة اكراه ، والشورى ارغاما للاعيان وتدجينا لسفلة المثقفين ، والعدالة عدالة السلطة ، والمساواة مساواة فى واجب الطاعـة والخضوع للحاكمين · ولا يمكـن حسب هذه الاعتبارات أن ننساق الى القول بموضوعية الظواهر السياسية ، اذ السياسة أعمـال الناس ، وهي بالدرجة الاولى ظهور صراعاتهم وأحقادهم ، والموضوعية من وراء هذا هي موضوعية العلاقات الاجتماعية الاقتصادية التى تأتي بنفس التطورات ان توفرت لذلك نفس الظروف والاسباب ·

فطرف الجدلية الذى هو الدولة الاقطاعية بكامل غرائزها القبيلية ، ليست مع كل هذا خالية من التأثر بالجماعية وبعض مبادئها ، والشمولية الانسانية وبعض نزعاتها. ولكن كل هذه المبادىء المأخوذة من الطرف الآخر مكيفة فى البناء الملكي أو الامبراطورى ومن أجل هذا التكيف كان لها ذلك التحقيق الحضارى المرموق فى المعالم البارزة وفى سجلات التاريخ · غير اننا لا ننسى بأن الكثير من هذه التحقيقات الحضارية تحقيقات زائفة ، وناتجة عن غرائز التباهي والمتعة ، وهي محصورة فى بناءات وزخرفة ومـا شابهها من وسائل التفاخر وهي تافهة الفوائد الاجتماعية والانسانية ، قيمتها محصورة كلها فى لذة الاقطاعية الحاكمة . ولو أتينا بمثال تاريخى بسيط لاثبـات حكمنا هذا لتوضح لنا الامر · ان القصر الذى يبنى لجارية محببة أو القبر الذى يشيـد لسلطان معظم تصرف عليه من أموال الجبايات التى هي عـرق الناس ودموعهم ودماؤهم ، لا لغرض الا المتعـة والتفاخر ، ولا عبرة فى هذا الانجاز الحضارى المـادي الجميـل بمآسي البشر الذين انتجوا له الاموال ببذل مهجهم فيما لا يهمهم أبدا · هذا موقـف اقطاعية حاكمة مستبدة تتبع أهواءها وغرائزها البدائية فى منشأ حضارى قيمتـه جمالية بحته ومنافية للمبادىء الاساسية فى العقيدة · ولنقارنه بموقف مناقض عنـد احد عظماء النزعة الجماعية الملتزمة بأخلاقها والمناضلين فكريا وعمليا على تطبيقها ، الا وهو عمر بن الخطاب · ورد فى كتاب الكنى والاسماء للدولابي ج I ص 102 ، أن

جعونة بن الحارث بعث رسولا الى عمر ، وكان عاملا له على غزاة فى أرض الـروم · فقال له عمر : أسلم المسلمون ؟ فقال نعم كلهم ، الا رجلا واحدا ، عدلت به دابته فساخ فى الثلج · قال فصنع ماذا ؟ قال : هلك · قال : لقد اطلعتها عير مكترث ، علي بفلان ، كاتبه · فكتب الى عامله جعونة : « اياى وغارات الشتاء ، فوالله لرجل من المسلمين أحب الي من الروم وما حوت » ·

لقد أتينا بهذه المقارنة لا بقصد اثبات المفارقة بين المبادىء العقائدية وتطبيقها كما يزعم بعض نقاد التاريخ الاسلامي ، بل ان مقارنات من هذا النوع تثبت فعلا تصـارع الطرفين فى جدلية التطور التاريخى لمجتمعاتنا · لان هنالك من يعيش على هذه النزعة التى سميناها جماعية ، وهناك مـن يحاربها ويعيش على نقيضها مثـل الاقطاعيات الحاكمة ، ومن فى مقامها من أنواع الالغارشيات ·

نعود فنقول بأن هذا الصراع مثل كل الصراعات الاجتماعية لا ينفى التآثر بـين الطرفين · وقد أتينا بنموذج واحد وهو الاقطاعية الحاكمة لشـرح البقايا والتكيفات القبيلية لانه النموذج الاكثر بروزا فى التاريخ ، ولانـه الاكثر تعقيدا من الوجهـة السياسية بما فرضه من التباسات عقائدية وحضارية ، لا زالـت تحتاج الى الدرس العميق ، اذ أن الدراسات التقليدية أخذتها من جانب مبسط ومشوه الى أقصى الحدود

الجماعات فى نضالها السياسي :

ولا يكفي أن نأخذ كنموذج للطرف الجدلي الآخر نموذجا قد انقضى بانقضاء الاسلام الاول ومات مع الفتنة الكبرى ، الا وهو الخلافة الرشيدة التى يمثلها العهـد العمرى أحسن تمثيل · بل يمكننا أن نجد النماذج الجماعية فى العديد من الانظمة المحلية مثـل الجماعات القروية بالمغرب العربي فيما قبل الاستعمار ، وفى الكثير من النظم الاقتصادية مثل الجماعات الحرفية بالمدن ، ومختلف الجمعيات الثقافية العقائدية السرية منهـا والعلنية ، سواء كانت ظاهرة النشاط السياسي ، أو كانت متسترة من وراء التـربية الروحية المحضة · ومن المعلوم ان الالتقاء بين النظامين الجماعى الاجتماعى قـرويا كان أو بدويا والجماعى العقائدى الثقافى كان فى جميع الاحوال وفى مختلف الجهات من العـالم العربي الاسلامي بمثابة الفجـر الذى يحمل المقـاومة ، ثم الثـورة على الاقطاعيات الحاكمة ، لان الالتقاء بين النظامين تجسيد للجماعية الحقة التى يعـي أصحابها حقيقة الصراع بين الطرفين · ولكن قمة الصراع كانت تـوجد فى أغلـب الاحوال بين الطبقتين الاكثر تباعدا وتباينا فى المجتمع ، وهما طبقة المحرومين الاكثر

حرمانا وطبقة المترفين الاكثر ترفا ، وهما الاقطاعية الحاكمة من جهة والبدو من أهل الارياف والصحارى من جهة أخرى • وهذا لا يعني أن الصراع كان محصورا فى هاتين الفئتين المتباينتين ، بل كان الصراع يتسع الى مختلف التشكيلات الاجتماعية • ومن هنا يمكننا أن نتكلم عن تدخل الشعوب بجميع فيئاتها التواقة الى تحقيق المبادىء الجماعية ، وعن الاقطاعيات الحاكمة وأعوانها من جيوش محترفة وبيروقراطيات ، واقطاعيات محلية ، وتجار كبار ، وقبائل حامية للسلطان ، وهي الفئات الممارسة للتسلط الاقتصادى ، والداعية الى المحافظة على النظام ، والى قمع كل المعارضات • هذا وليست علاقات التآثر والصراع علاقات بينة السبل وواضحة المواقف بالقدر الذى يسهل تقديم الشروح المبسطة والمختصرة • فلو أخذنا ظاهرة عميقة مثل ظاهرة تصريف القوى الشعبية الى الغزو الخارجى باسم الجهاد لوجدنا فيها كثيرا من الالتباس فى العلاقات بين الاقطاعيات الحاكمة ومجموع فئات الشعب • وبقدر ما كان هذا الجهاد واضحا فى الاسلام الاول بثورته على الامبراطوريات المستغلة للشعوب ، بقدر ما أصبح غامضا فى عهد الملكيات اللاشرعية ، اذ أنه كان ينطلق دائما من قمع المقاومات الداخلية لينتهي باستفراغ القوى الشعبية على بعض الجبهات خارج دار الاسلام •

ولو أخذنا من جهة أخرى ضياع النضال الشعبي فى الكثير من الحركات الفوضوية ، وفى التدرع بالنظام القبيلي بسبب فعاليته العسكرية لوجدنا تعقيدا والتباسا كبيرا فى العلاقات والصراعات بين الجماعية والقبيلية •

غير أنه من الواضح بأن الشعوب بمختلف أنظمتها الاجتماعية كانت تحمل فى أغلب الاحوال روح الجماعة ، وان النظام القبيلي رغم ميزاته العسكرية كان نظاما كثير التحولات بيد الشعوب ، وكثيرا ما نسمي المجموعة السكانية البارزة الصفات الجماعية مثلما هو معهود عند فلاحى الارياف المستقرين على زراعة الري الراقية ، كثيرا ما نسميها قبيلة بدعوى نعتها الى نسب خيالي •

ولا ننسى أن الاقطاعيات الحاكمة لعبت دورها فى التحريش بين المجموعات البشرية وكثيرا ما خلقت لها صفوفا للقتال حزبت حسب النظام القبيلي العتيق ، وأقطعت مجموع أراضي الجماعات المعادية للحكم ، فوهبتها القبائل المحالفة له والتى كانت تعرف باسم الحاميات السلطانية ، فاستمرت بذلك الحروب الطاحنة بين الجماعات المدافعة عن أراضيها وقيمها الجماعية ، والقبائل المساندة للاقطاعيات الحاكمة ، والمحصلة منها

على فـوائد اقتصادية واسعة تتجسم فى الغصب المشروع للكيـــة الآخرين · فالقبيلة الإقطاعية بنظامها العسكري الذى هو تجنيد من أجل القمع والغصب ومساندة الحـكم الاقطاعى ، تختلف بهذا المظهر الاجتماعى والتاريخى عـــن الجماعة المتدرعة بالنظام القبيلي ذى الفعالية العسكرية ، بل اننا نعد هذا الاختلاف تناقضا بما يحويه من الصراع بين النظامين اللذين قد يشتبهان بعض الشبه الصورى مع تباينهما فى الهوية السياسية والعقـائدية ·

ان كل هذه التطورات المتشعبة تستحق البحث الدقيق لتوضيح الصيرورة التاريخية لمجتمعاتنا فى صراعاتها وانتكاساتها · ولكننا نعـود دومـا الى النظرة الاجمالية التى الحتنا عليها لنقول بأن جدلية هذا التطور قد توضحت على الخصوص بعد طول التجارب بين طرفى الصراع وادراك عمق العداء بينهما حتى صار حدسا سياسيا لا يمكن أن يبرز الا فى التطاحن العنيف · فالشعوبُ دائمة التوقان الى العـدالة الاجتماعية والمشروعية السياسية المنبثقة من العقيدة الجماعية ، والاقطاعية الحاكمة دائمة الممارسة للقمـــع والغصب ، وظواهر المشروعية السلطانية مغطاة بضباب النفاق الذى يسمى تقية واكراها وهذا سر الاحقاد المتراكمة عبر الاجيال بين سلطان غاصب قاهـــر ، وشعوب تتظاهر بالطاعة نفاقا وتهيء شحن الاحقاد للثورات التى تعمم الدمار قبل أن تتوجه للانجاز · ولقد رأينا فى أحوال الانحطاط كيف أن الغزو الاجنبي أصبح سهلا بسبب خذلان الشعوب لحكامها ، ثم كيف أن الغزو قد تحقق بكل بساطة بسبب تحالف الاقطاعيات الحاكمة مع الغزاة الاجانب لقمع مقاومات الشعوب · هذا وان تفتيت الحكومات المركزية والرجوع الى الجماعات المحلية الشبه قبيلية ظاهرة اجتماعية ، قد تعد من خصوصياتنا الاجتماعية ذلك لانها شبه رجوع بالمجتمع الى الوراء ، مع ما فيها من ايجاد لحلول سياسية من أجل مجابهة الاستبداد الاقطاعي · وهذه وضعية لا يمكن أن تدرك حقيقتها الملاحظات السطحية التى قد تعدها ردة نحو البدائية القبيلية · نقول ان كل هذه المراحل من التطور التاريخى للمجتمعات العربية تحتاج الى العديد من الابحاث العميقة ، والمراجعات فى المفـاهيم الاجتماعية والفلسفية التى نستعملها حتى الآن ، ولا يمكن للعروض المختصرة التـى تعودنا عليها الا أن تكون بمثابة الفزع الخفيف على الابواب ·

نضيف الى هذا بأن النظرة للتاريخ ليست من أجل التاريخ الماضى ، بـل التاريخ هو اكتشاف أسرار التطور الاجتماعى وادراك الهوية الحاضرة للمجتمعات · ولقـد قلنا ان الصراع بين الجماعية والاقطاعية أدى الى التخاذل والتفتيت الاجتماعى لتهيء

الغزو الاجنبي الذى ادى الى للاستعمار واحتلال الاراضى · وكانت نتائج الاستعمار أن قويت التباينات فى مجتمعاتنا العربية · وظهرت طبقات ذات هـوية جديدة أعطيت خلقة خاصة وصبت من عـل فـوق الفئات الاجتماعية التقليدية · فالبورجوازيات والبيروقراطيات العالقة بالقـيم والسلوكات الحضارية الاروبية قد كونت عـلاقات استغلالية وسياسية من نوع خاص · والاقطاعيات الحاكمة المدعمة من طرف الاستعمار أعطيت صفات التجديد التقني وهيمنة المعاصرة من أجـل اخضاع الشعوب والتدليس عليها فى علاقات الحكم بتغطية الاستبداد البدائى وبالتستر وراء المحافظة العقائدية ·

وليس التصارع القديم بين الجماعية والقبيلية بغائب عن الوجود فى هذا التصارع الجديد داخل مجتمعاتنا · فالعقيدة التحررية والوحدوية صيغة جديدة من صيغ النزعة الجماعية ، بينما الاقليميات والطائفيات المختلفة صيغة أخرى مـن النزعة القبيلية · وما أحوجنا الى درس مثل هذه العلاقات من صميم جذورها التاريخية الاجتماعية !

القيم السائدة فى تفكير ابن رشد وابعادها

الدكتور الربيع ميمون
رئيس دائـرة الفلسفة بجامعة
الجزائر

1 ـ فتح أبو الوليد محمد بن رشد عينيه الى النور فى بيئه مثالية قدمت له ما كانت عبقريته النادرة فى حاجة اليه لتحقيق امكانياتها ، والاعراب عن أبعادها ٠

لقد ولد فى عائلة علمية عريقة بمدينة قرطبة التى كان يفخر بهـا لكون هوائها أطيب هـواء فوق الارض (1) ، ولكونها حاضرة العلم ، ومركز الاشعاع الحضاري فى عصره (2) ٠

وعاش فى ظل دولة الموحدين التى اشتهر خلفاؤها بدفاعهم عن حوزه الاسـلام فى فى بلاد الاندلس ، وبحمايتهم لسواحل المغرب العربي التى كانت جيوش النصارى تهددها باستمرار ، وباستيلائهم على أقطاره كلها ، وتوحيدها لاول مرة فى التاريخ تحت لـواء حكمهم ، وبحرصهم على رفاهية الامة ، وسلامة عقائدها ، وبتشييدهم لمعالم الحضارة ، واقبالهم على دراسة العلوم الحكمية ، وتشجيعهم للفلاسفة والعلماء فى عصرهم (3) ٠

ومنهم ، وفى زمان ابن رشد ، القاضى أبو بكر بن العربي ، والطبيب مروان بن زهر ، والصوفى الكبير محيى الدين بن عربي ، والفيلسوف ابن باجة ، والحكيم ابن طفيل الذى قدمه الى الخليفة أبى يعقوب ، وحظيت قصته حي بن يقظان باشراف أعلام من الفلاسفة على ترجمتها بأروبا فى القرن السابع عشر (4) ٠

لقد عاش ابن رشد فى قرن كانت لا تزال فيه للمسلمين ببلاد الاندلس قوة وعزة ، وفى عالم يظهر لنا اليوم ، ما كان يجرى فيه من أحداث فى مجالات الحياة المختلفة ، تحضيرا عجيبا للحالة الجديدة التى ستصير اليها الانسانية فى الشرق والغرب ، بعد قليل ٠ وهي حالة يتحدث ابن خلدون عن الجانب الثقافى منها حين يتحدث عن نهاية العلوم الحكيمة فى بلاد المغرب والاندلس ، وبداية ازدهارها فى بلدان الفرنجة فيقول : « ثم ان المغرب والاندلس لما ركدت ريح العمران بهما ، وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منهما الا قليلا من رسومه نجدها فى تفاريق من الناس ، وتحت رقبة من علماء السنة (ولقد) بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الافرنجة من أرض رومة وما اليها من العدوة الشمالية نافقة الاسواق ، وأن رسومها هناك متجددة ، ومجالس تعليمها متعددة ، ودواوينها متوفرة وطلبتها متكثرة ، والله أعلم بما هناك ٠ وهو يخلق ما يشاء ويختار » (5) ٠

ان بلاد المغرب والاندلس لم تبق بعد ابن رشد مثلما كانت عليه فى زمانه ٠ لقد بدأت ريح العمران تركد فيها شيئا فشيئا ، وانتهى بها الامر فى زمان ابن خلدون الى حالة من الجمود تخالف تماما حالة البلدان الافرنجية التى بدأت تسير فى طريق الرقي ، وتنتعش فيها الحياة من جديد ٠ وهي حالة لعب ابن رشد فى الجانب الثقافى منها دور الامامة مع أنه لم يكن يفكر فيها اذ كانت غايته خدمة أبناء ملته ، وكان انتاجه موجها إليهم بالدرجة الاولى ، وان لم يهتموا به ، ولم يستفيدوا منه ٠

2 ــ لقد درس ابن رشد علوم الشريعة دراسة واسعة جعلته من أعلام المذهب المالكي مثلما كان جده الذى أوعز اليه بفكرة التوفيق بين الدين والحكمة (6) ٠

ودرس علم الطب فأحاط بمسائله ، وألف فيه كتابه « الكليات » الذى ترجم الى اللاتينية ، وكان من المراجع الاساسية فى المعاهد الاروبية قبل ظهور ترجمة القانون لابن سينا بها (7) ٠

ودرس العلوم الحكمية فكانت له فيها الامامة بشروحه على ارسطو ، ودفاعه عن الفلسفة وبآرائه الاصيلة التى لعبت دورا كبيرا فى ايقاظ العقول وتحريرها (8) ٠

وتلقى فيما بين ذلك تربية سامية منحته من الكمال ما لا يكون الا للرجال القلائل الذين يبنون الحضارة ، ويوجهون مجرى التاريخ الى ما فيه خير الانسان وعزه ٠

فابن الابار صاحب تكملة الصلة لا يبالغ فى وصفه حين يقول : « ولم ينشأ بالاندلس مثله كمالا ، وعلما ، وفضلا ٠

وكان على شرفه(أشد) الناس تواضعا ، وأخفضهم جناحا ٠ عني بالعلم من صغره الى كبره (٠٠٠٠) ومال الى علوم الاوائل فكانت له فيها الامامة دون أهل عصره ، وكان يفزع الى فتواه فى الطب ، كما يفزع الى فتواه فى الفقه مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب (٠٠٠٠) ٠ (ولقد) ولى قضاء قرطبة فحمدت سيرته ، وتاثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها فى ترفيع حال ، ولا جمع مال ٠ وانما قصرها على مصالح أهل(بلده) خاصة ، ومنافع أهل الاندلس عامة » (9) ٠

ان ما يقوله ابن الابار فى هذه الفقرة يصور لنا شخصية ابن رشد ، من صغره ألى كبره ، تصويرا دقيقا ، ويفسر لنا أسباب عظمته التى أعلنت عنها فى حياته ، وأرست قواعده عبر العصور ، تلك الجملة القيمة من الكتب التى تركها ، وهو يتوفى ، والتى تحتوى فى بطونها على روح جديد سرعان ما اندفع ، بعد انتشارها ، يوقظ العقول ، وينعشها ، ويسير بها الى الامام ٠

وهي كتب يعرض فيها ابن رشد فكرا يمتاز عما قبله بجدته وأصالته ، ويحضر ما بعده بالحقائق التى يحتوى عليها ، وبالقيم التى يكشف عنها ، ويدعو الى التمسك بها ، والعراك من أجلها ٠

ان القيم التى تسود فى تفكير ابن رشد حسبما يمكن أن تطلعنا عليها دراسة آثاره هي القيم التى تستلزمها الحقيقة الراسخة ويقتضيها العقل السليم ، ويفرضها الدين الحق ، وتدعو اليها المغامرة الفلسفية الرائدة ، ويقوم عليها الوجود الانساني الصحيح فى التصور الاسلامي المتفتح السمح ٠

وهي قيم لها بسبب سيادتها فى تفكيره آثار بارزة فى سيرته المثلى ، وآرائه الاصيلة ، وفى انتاجه العظيم ومواقفه الصريحة فى سبيل الحقيقة التى يجب على الانسان أن يطلبها ، وأن يطمئن اليها ٠

4 ـ لقد كان ابن رشد يرى فى الحقيقة ضالة يتوق اليها الانسان بطبيعته ، وهي قيمة يمكننا أن نعثر عليها اذا بحثنا عنها ، وسلكنا الطريق الصحيح اليها ٠

ولهذا نجده يقول فى تفسيره لما وراء الطبيعة ما يلي « من المعروف بنفسه عند جميع الناس أن هاهنا سبيلا تفضى بنا الى الحق ، وأن ادراك الحق ليس بممتنع علينا فى أكثر الاشياء · والدليل على ذلك اننا نعتقد اعتقاد يقين ، إننا قد وقفنا على الحق فى كثير من الاشياء · وهذا يقع به اليقين لمن زاول علوم اليقين · ومن الدليل أيضا على ذلك ، ما نحن عليه من التشوق الى معرفة الحق ، فانه لو كان ادراك الحق ممتنعا لكان الشوق باطلا ، ومن المعترف به أنه ليس هاهنا شيء يكون فى أصل الجبلة والخلقة وهو باطل » (IO) ·

ان الحقيقة لها وجود قائم ، ولنا السبيل الذى يفضى بنا اليها فى نظر ابن رشد · ودليله على ما يقول : ما نقف عليه من الحق فى كثير من الاشياء أولا ، وتشوقنا اليها ثانيا ·

فتشوقنا اليها دليل على وجودها لانه لا يمكن ، وهو فى أصل الجبلة والخلقة ، ان يكون باطلا ·

ولكونه بهذه الصفة ، فانه يمكننا أن نعتبر طلب الحقيقة والبحث عنها أمرين لا تمتاز بهما ، لدى ابن رشد ، طائفة خاصة من الناس ، فأمثال الغزالي من المتعطشين اليها ، وأمثال ديكارت ممن يشعرون شعورا مؤلما بحرمانهم منها يطلبونها ، ويطلبها ، أيضا ، كل انسان مهما كانت حالته وان على كل شكل تساؤل حائر عن وجوده ، ووجود ما حوله ، وعلاقة بعضهما ببعض لان انسانيته التى تتفتح وتسمو بما ينكشف له منها تؤلمها ظلمات المجهول التى تحيط بها ، وتفصل بينه وبينها ·

ان الحقيقة هي الجناح الذى يحرر الانسان ، ويسمح له بالطيران ، والجنة التى يحمى بها نفسه ، والثروة التى تضمن له الرخاء ، والهناء ·

ولهذا فانه لا يمكنه أن يستغنى عنها ·

ولهذا فانه يمكننا أن نعين درجته فى سلم الرقي بما يكون له من فتوحات فى مجالها ·

فالانسان الذى تهمه على اختلاف أنواعها هو الانسان الكامل · وأما الانسان الذى لا تهمه ولا تعنيه فهو الانسان المتخلف الذى لا زال عقله لم يتفتح بعد الى مقتضيات التقدم والكمال ·

5 ــ لقد أعطى العقل للانسان أداة لالتقاط الحقيقة والبحث عنها ، ووسيلة لفهمها والبلوغ اليها · ومن الخطا الذى لا تقدر عواقبه الوخيمة أن نعرض عنه لانه الوسيلة

التى ندرك بها حقائق الدين والطبيعة ، والوسيلة التى ندرك بها أسمى سعادة يمكننا الحصول عليها ، زيادة على كونه المميز لنا عما سوانا من الكائنات ٠

فهو وسيلتنا الى حقائق الدين لانه يداخل كل شريعة كانت بالوحي فى نظر ابن رشد ٠ ولولاه لما استطعنا أن نؤمن بها لانه هو الذي يحملنا فى النهاية على قبولها أو رفضها طبقا لما ندركه منها ، وتبعا لحظنا منه (I1) ٠

وهو وسيلتنا الى الحقائق الطبيعية لانه هو الذى ندرك به الموجودات التى تحيط بنا بأسبابها الفاعلة ، وبأسبابها الذاتية ٠ ولولاه لما كان لنا حد ، ولا برهان ولا علم حقيقى (I2) ٠

وهو وسيلتنا التى تصل بها نفوسنا الى معرفة ذواتها ٠ وذلك حين يصل الى ادراك نفسه ، ويصير العالم والمعلوم بالنسبة اليه شيئا واحدا ٠ ولولاه لما كان لنا علم بوجودنا وما يصبو اليه من سعادة وكمال (I3) ٠

ان العقل هو الطريق الى المعرفة ، والهداية ، والكمال ، فى نظر ابن رشد ٠

ولهذا يدافع عنه بالطرق المختلفة ، ويقضى على كل عدول عنه ، وكل استعمال سيء لمناهجه ٠

فهو يرفض باسمه رأي الغزالي الذى ينكر وجود الاسباب لان انكارها رفع له وابطال للعلم ٠

ويرفض نظرية أهل الظاهر الذين يقولون بأن معرفة الله لا سبيل لها الا الوحي ، ويحرمون استخدام العقل فى اثبات أمور الدين ٠

ويرفض نظرية الصوفية الذين يرون أن معرفة الله تحصل للانسان بنوع من الكشف الالهي ، يكون له اذا بلغ مقاما ما فى مدارج الرقي الروحاني ، فتتجلى له آفاق عالم الخلق ، وعالم الامر ٠

ويرفض طرق الاشعرية الذين يعتمدون على الجدل لا على البرهان فى التدليل على العقائد الدينية (I4) ؛

وهو ، اذ يرفض هذه الامور وغيرها باسمه ، لا ينسى أن يثبت حقه فى الحكم على كل قضية يمكنه البت فيها لانه ذو سلطة ، فى نظره ، تمتد اذا لم تقف أمامه العوائق ، الى كل شيء سوى الامور التى يختص الوحي بالاخبار عنها ٠ وهي أمور ليس من طبيعته أن يدركها ٠ ولذلك فعجزه عنها مطلق ٠ وأما عجزه عن ادراك غيرها

فانه قد يكون ولكن لسبب فى أصل الفطرة ، أو لامر عارض من خارج مثل التعصب الى مذهب وعدم التعلم ، والتوجيه الفاسد ، والطريقة السيئة ، وغيرها (15) ٠

ان ابن رشد يعطى العقل ، كما نرى ، المقام الجدير بـــه فى البحث عن الحقيقة ، ولكنه يبعده عن النظر فى الامور التى تتجاوز مداركه ٠

ولهذا نجده يدعو الى التفرقة فى مسائل الاعتقاد بين ما هو لعالم الامر وما هــو لعالم الشهادة ، وعدم قياس الاول منهما على الثاني (16) ٠ ومــن هذه المسائل على سبيل المثال تلك المسائل الثلاث التى كفر الغزالي الفلاسفة فيها ٠ وهي مسالة قـــدم العالم ، ومسالة علم الله للجزئيات ، ومسالة المعاد الجسماني ٠

فهو يقول بخلق للعالم من عدم ، ولكنه يرى من جهة ، أن لا بداية له لانه خـــلق مستمر ، ويرى من جهة اخرى « أن العقل الانساني يقصر عن ادراك كيفية ذلك ، وان كان يعترف بالوجود » (17) ٠

ويقول بعلم الله للجزئيات علما لا يشبه علم المخلوقات لها فى شيء لان علمــه تعالى سبب ما هو موجود ، وعلم المخلوقات مسبب عما هو موجود (18) ٠

كما يقول بالمعاد الجسماني ، ويرى فيه وجودا أفضل من وجودنا فوق هذه الدنيا اعتمادا على ما ثبت فى الحديث الشريف من أن الجنة فيها ما لا عــين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر (19) ٠

ان هذه القضايا يعالجها ابن رشد بعد غيره معالجة شاملة ، ويفرق فيها بين ما هو لعالم الامر ، وما هو لعالم الشهادة بالاعتماد على النصوص والعقل فى آن واحـــد حتى يبين لمن يبتون فيها بآرائهم الاجتهادية وحدها ، أو بالاعتماد على ظاهر النصوص وحده أنهم بعيدون عن جادة الصواب ، وحتى يثبـــت ان الشرع هــو صاحب الكلمة الاخيرة فيها لانه يعرف ، وهو الذى زاول علوم اليقين ، أن حقيقتها تتجاوز حـــدود العقل ، ويعرف أن العقل لا يمكنه أن يكون دليلنا الا فى الحقائق التى تسمح له طبيعته بالبحث فيهـا ٠

وهي حقائق ضمن له حقه كاملا فى مجالها ، وجعل منه حكما مطلقا يقضى بينــه وبين أصدقائه وخصومه على السواء فى تبيينها ٠

فهو مع الغزالي خصم الفلاسفة اللدود اذا قضى العقل عليه بذلك (20) ٠

وهو ضد الفارابي وابن سينا ومن سواهما من الفلاسفة اذا اثبت العقل له بعدهم عن الصواب (21) ·

وهو ضد صديقه ابن طفيل عند ما يجد أن آراءه لا تقوم على أساس (22) · وضد ارسطو على حبه له واعجابه به اذا لم يكن العقل بجانب ارسطو (23) ·

ان القاضى ابن رشد رجل يعرف مقامات الرجال على حقيقتها ، ويعترف لصاحب الفضل منهم بفضله ، ويعتز به ، وان كان مخالفا له فى الدين ، والبلاد والعصر ، ولكنه ايضاء عالم يعطى العقل مقامه ولا يحابى بحقوقه استجابة لمحبة وان كانت عميقة الجذور ، أو رغبة فى ارضاء جماعة بعيدة عن مقتضياته مهما كان علو درجتها فى السلم الاجتماعى أو الديني أو العلمي ·

فالتملق ، والمراءاة ، والتبعية ليست من صفات ابن رشد · والمؤلفون الذين ينسبونها اليه يخطئون · ويخطئون لانهم لا ياخذون بعين الاعتبار موافقه الصريحة فى سبيل الحقيقة ضد الفرق المختلفة ، وضد فلاسفة الاسلام الذين سبقوه ، وضد ارسطو نفسه ، ولانهم ينسون ايضا سعة اطلاعه ، وعمق فهمه ، ومرونة فكره ، وقوة جدله وهيامه بالحقيقة التى يرى امثاله سعادتهم فى العثور عليها والعمل تحت لوائها ، وفى سبيلها ·

ان ابن رشد فيلسوف عقلي يعتمد على العقل فى الادلاء بآرائه ، ويمنحه سلطة مطلقة يرى أنه يجب عليه وعلى كل انسان ان يخضع اليها ، ولكنه ، ومع هذا فيلسوف بعيد عن كل تهور عقلاني لانه يعرف عن ايمان راسخ أن العقل الذى له حدود معلومة لا يستطيع تجاوزها ، يحتاج الى امداد يسمح له أن يرمي بأشعة نوره الى ما وراءها ·

6 ـ وهو امداد ياتيه به الوحي فى نظره ، فيزيد فى نوره ويوسع آفاقه ، ويكشف له ما يتجاوزه من الحقائق الخاصة بعالم الامر فيؤمن بها ، وتكتمل معرفته بمعرفتها ·

ان ابن رشد صاحب موقف صريح فى هذه المسالة · ولهذا ، نجده يوافق الغزالي الذى يقول : « ان كل ما قصرت عن ادراكه العقول الانسانية فواجب أن نرجع فيه الى الشرع » ، ويحكم على قوله بانه حق لان « العلم المتلقى من قبل الوحي انما جاء متمما لعلوم العقل » · « ولان كل ما عجز العقل عنه افاده الله تعالى الانسان من قبل الوحي » الذى هو « رحمة للجميع » فى نظره » (24) ·

فالعقل هو الهبة التى ميزنا الله بها ، وجعلنا بسببها خلفاء له فوق الارض ، وأهلا لتكليفه ، والعبودية له ، ولكن الوحي هو النور الذى يضمن لنا الامن اذا اهتدينا به ، والسلطة التى تذوب أمامها كل سلطة ·

هكذا يرى ابن رشد الذى كونت تعاليم الديـــن الحنيف شخصيته تكوينا بارزا ، ومنحته كل المبادىء التى وجهت تفكيره ، وجعلته صاحب فلسفـــة حاسمة فى تطوير الفكر البشري وانهاضه · وهي تعاليم لا يمكننا أن نسهو عنها فى دراسة فكره الا اذا كنا نريد أن نرى فيه الشارح الذى امتلك ارسطو روحه ، وجعل منه انسانا عديم الرأي والشخصية ، أو كنا نريد ان نرى فيه ملحدا بلغ النفاق لديه درجة جعلته يخفى الكفر ، ويظهر الاسلام الى بني ملته حتى ينجو من عواقب سخطهم ، أو كنا نريد أن نرى فيه مجرما عالميا وقف نفسه لمحاربة الديانات كلها وتحطيمها كما توعز به دراسات عديدة فى فلسفته والتعريف بها ·

ان ابن رشد لم يكن مجرد شارح لارسطو ، ولم يكن زنديقا ، ولا مجرما · وانمـا كان عالما فاضلا بلغ القمة فى كل العلوم التى اشتغل بها ، وقضى حياته فى خـدمة الاسلام والدفاع عن حقائقه الكونية بالدليل البرهاني والسيرة المثلي التى تفند كـل الاتهامات التى وجهت اليه ، والاحكام التى تعرض لها ، والاهانات التى سلطت عليه ·

لقد درس كتاب الله دراسة عميقة بلغ بها درجة المفسرين ، وحصل من السنة النبوية الشريفة ما يجعله من حفاظها ، وأحاط بعلوم الشريعة أصولها وفروعها احاطة صـار يحتل بها مكانا بارزا بين أعلام المذهب المالكي على الخصوص ، وأعلام المذاهب الكبرى عـلى العموم (25) ·

فهل يعقل أن لا يترك هذا التكوين الاسلامي الرفيع آثاره فى فكر ابن رشد ؟ وهل يعقل أن ينسى ابن رشد مبادىء دينه السامية ، وهو امام من ائمته ، وأن يعرض عنها لاشتغاله بارسطو واعجابه به ، وأمانته وموضوعيته فى شرحه لكتبه ؟

انه لا يمكننا أن نقول بشىء من هذا فى دراستنا له الا اذا تجاهلنا عظمة التصور الاسلامي وعمقه ، وفعاليته فى تكوين الفرد والسمو به ، أو أردنا أن ننظر اليه مـن جانب دون آخر فنعرض عن الارضية التى تفسر لنا كل شىء عنه ، ونرضى بالوقوع فى خطا كبير لا يمكن أن تنتج عنه الا أخطاء كبيرة أخرى ·

فالاسلام والمشاكل التى كان المسلمون يواجهونها فى عصره هما اللذان يجب علينا أن نرجع اليهما لنجد التفسير الصحيح لمساعي ابن رشد ، واهتماماته الفكرية المتنوعة

ويمكننا أن نتحقق مما نقول اذا رجعنا الى تلك الفقر التى يتحدث فيها عن الدين ، ورأيه فيه ، وموقفه منه · وهي فقر ، كثيرا ما نجد مشاعره العميقة تتفجر فيها لتعرب عن نفسها فى أسلوب تشبع العاطفة عباراته وتكشف لنا عن حقيقة صاحبه وأعماقها ·

ان الشرع فى نظر ابن رشد ، له مقصود معين هو تعليم العلم الحق والعمل ، الحق الى الناس · أما العلم الحق فالمراد به ، لديه معرفة الله تعالى ، وسائر الموجودات على ما هي عليه (····) ومعرفة السعادة الاخروية والشقاء الاخروى · وأما العمل الحق فالمراد به امتثال الافعال التى تفيد السعادة ، وتجنب الافعال التى تفيد الشقاء ·

ونظرا الى هذا ، فهو أمر ضروري بالنسبة الينا ، ولا يمكننا أن نستغنى عنه لانه طريقنا الى المراتب العليا التى تسمح لنا بها طبيعتنا ، ولانه هو الذى يرشدنا الى من بيده الامر كله ويقربنا منه ·

هذا ، ويرى ابن رشد أن الايحاء به عن طريق الانبياء والرسل ظاهرة معروفة لدى الانسان فى عصور التاريخ المختلفة ، كما يرى أن له مبادىء عامة يجب على كل انسان التسليم بها ، وتقليد الواضع لها فيها · **وهي أمور الهية تفوق العقول الانسانية** ومن الواجب علينا أن نعترف بها ، وان مع جهل أسبابها « لانها تنحو نحو تدبير الناس الذى به وجود الانسان بما هو انسان وبلوغه سعادته · وهي الايمان بوجود الله ، ووجوب عبادته ، والايمان بالوجود الاخروي ، والامتثال الى الافعال التى توصل الى السعادة التى فى الدار الآخرة » (26) ·

ان الشرائع السماوية كلها تقوم على هذه المبادىء ، وان كانت تختلف فى تقديرها الى حد ما · فهي تدعو اليها ، وتدل عليها ، وتسمو بمن يعتنقها الى درجات من الكمال تناسب درجة اقتناعه بها ، ومقدار فهمه لروحها ومقاصدها · ومن الممكن أن نفضل بينها بالرجوع الى كتبها ، وفحص ما فيها ، وتقديره · وهو أمر قام ابن رشد به وتوصل فيه ، الى نتيجة يحدثنا عنها حين يقول : « اذا تؤمل ما تضمنه الكتاب العزيز من الشرائع المفيدة للعلم والعمل المفيدين للسعادة مع ما تضمنته سائر الكتب والشرائع ، **وجدت تفضل فى هذا المعنى سائر الشرائع بمقدار غير متناه** (····) · ولو ذهبنا لنبين فضل شريعة على شريعة وفضل الشريعة المشروعة لنا ، معشر المسلمين ، على سائر الشرائع المشروعة لليهود والنصارى ، وفضل التعليم الموضوع لنا فى معرفة الله ومعرفة المعاد ومعرفة ما بينهما لاستدعى ذلك مجلدات كثيرة مع

اعترافنا بالقصور عـن استيفاء ذلك · ولهذا قيـل فى هذه الشريعة : انهـا خاتمة الشرائع · وقال عليه السلام «لو أدركني موسى ما وسعه الا اتباعي» · وصدق صلعم . ولعموم التعليم الذى فى الكتاب العزيز وعموم الشرائع التى فيها ، أعنى كونها مسعدة للجميع ، كانت هذه الشريعة عامة لجميع الناس » (27) ·

هذا ، ولا ينسى ابن رشد ، وهو يفضل الشريعة التى عاش فى ظل قيمها ، ودافـع عن حقائقها أن يعرب لنا عن رأيه فى القرآن الكريم أو **الكتاب العزيز** ، كما يسميه ، وأن يقارن بينه وبين الكتب السماوية الاخرى فيقول : « (انه) اذا تؤمل وجدت (فيه) الطرق الثلاث الموجودة لجميع الناس (...) ولهذا فان كانت ها هنا كتب استأهلت أن يقال عنها : انها كلام الله لغرابتها ، وخروجها عن جنس كلام البشر ، ومفارقته بما تضمنت مـن العلم والعمل ، فظاهر أن الكتاب العزيز الذى هو القرآن هو أولى بذلك وأحرى أضعافا مضاعفة · وأنت فيلوح لك هذا جدا ان كنت وقفت على الكتب · أعنى التوراة والانجيل فانه ليس يمكن أن تكون كلها قد تغيرت » (28) · فالكتاب العزيز ، فى نظر ابن رشـد ، أفضل الكتب السماوية بصفة مطلقة وهو كتاب يتحدث عنه اعتمادا على معرفة واسعة به ، وبغيره من الكتب السماوية ، وعلى ايمان عميق بتعاليمه التى تفوق كل ما سواها فى نظره · وهي تعاليم لا يصعب علينا أن نرى تأثره الكبير بهـا فى السيرة الاسلامية المثلى التى تحلى بها طوال حياته ، وفى ذلك الابتعاد عن أرسطو فى آرائه التى تخالف عقائد الاسلام ، وفى تلك الاحكام التى كان يدلي بها هنا وهناك فى كتبه لتقدير شعـائر الاسلام المختلفة · فالصلاة الموضوعة فى الاسلام ، كما يقول ، أتـم مـن الصلوات الموضوعة فى سائر الشرائع · **وهي كذلك ، فى نظره ، لكونها انجـع فى النهـى عـن الفحشاء والمنكر** » بما شرط فى عددها ، وفى أوقاتها وأذكارها ، وبسائر ما شرط فيها من الطهارة ، ومن التروك ، أعني ، ترك الافعال والاقوال المفسدة لها » (29) · ولهـذا نجده يحافظ عليها ، ويتعلق بها · ولهذا نجده يتألم كثيرا فى أخريات أيامه ، وبعـض سفلة العامة يخرجونه من المسجد فى أيام نكبته ، ولا يتركونه يؤدي صلاته مع جماعـة المسلمين التى خدمها طوال حياته ·

ان ابن رشد ما كان ليتأثر من هذه الحادثة ، وما كان ليتحدث عنها ، ويعتبرها أعظم شىء أصيب به فى النكبة لو كانت فروض الدين لا تعنيه ، ولو لم يكن تواجده معها فى مستوى فهمه لروحها ، وأبعادها القصوى (30) ·

لقد ولد ابن رشد مسلما ، وعاش مسلما ، ومات مسلما ، وكانت قيم الاسلام منطلقة وغايته فى تفكيره ، وأعماله ومشاريعه ·

ولهذا نجده يندد بالزنادقة الذين يقصدون ابطـــال الشرائع ، وابطـال الفضائل ، والذين يرون أن لا غاية للانسان الا التمتع باللذات (31) ·

ولهذا نجده يسخر من أقوام ظنوا أنهم تفلسفوا ، وأنهم قد أدركوا بحكمتهم العجيبة أشياء مخالفة للشرع مـــن جميع الوجوه (····) ، وأن الواجب هو التصريح بهـذه الاشيـاء للجمهور (32) ·

ولهذا نجده يبوح لنا بأنه في غـاية الحزن مما تخلـــل هذه الشريعة مـن الاهواء الفاسدة ، والاعتقادات المحرفة التى لا سبب لها الا تأويلات من ليسوا أهلا للتأويل .

ان التأويل لا يصيب فيه الا أهل البرهان · وبالتالي فانه يجب تحريمه على غيرهم ، وعدم التصريح بما ثبت منه لمن هو دونهم كفاءة حتى يســـلم الدين من التحريف الذى يتسبب فيه الفهم القاصر ، وحتى تستطيع الامة أن تعيش على وفاق فى ظل تعاليمه (33).

فالخلافات التى عرفها المسلمون بعد الصدر الاول ، والتى بدأ بها ضعفهم ، وابتعادهم عـن الاسلام ، لم تتسبب فيها الا التأويلات الباطلة فى نظـــر ابـن رشـد · وهـــي تأويلات يحـــذر منهـا ، ويحـكم على أصحابها بالكفـر أو البـدعة لانهـــم عناصر تفرقة ، وتضليل ، وابعاد عن الاسلام وحقائقه السامية ·

لقد كان ابن رشد يهتم بالاسلام لانه دينه ورسالة الحق الى الانسانية كلها ، وكان يهتم بوحدة المسلمين لانها الاساس الذى لا يمكن أن تقوم له دولة فوق الارض الا عليه .

ولهذا فالدعوة الى التأويل الحق التى صدع بها ليست الا دعوة فى سبيل الاسلام ، وحماية المسلمين من ضلالات المتعالمين ·

وهي دعوة نجد مثيلا لها عنده فى الحملة التى قام بها ليرد هجومات الامـــام الغزالي على الفلاسفة ، ويعيد الى الفلسفة المكانة الممتازة التى يجب أن تكون لها بين اهتمامات المسلمين ·

ان هذا المشروع كان مقدسا فى نظره حسبما تشير اليه نصوصه ومواقفه ، ولعل ذلك لانه كان يرى أن المسلمين لا يمكنهم أن يكونوا فى مستوى ما يدعوهم اليه الاسلام وأن يعيشوه ، ويحملوا الناس على قبـوله الا اذا كانوا فى مستوى التصورات التى يتشبث بها الناس سواء كانت صحيحة أو باطلة ، وكانوا فى مستوى الاستفادة منها ، وفى مستوى نقدها ، وتجاوزها ·

فانطواء المسلمين على نفوسهم موقف يخالف تعاليم الاسلام لانه مناقض لكونيته وتفتحـــه ·

واعراض المسلمين عن الفلسفة موقف لا يمكن أن يدعو الاسلام اليه لانه مـوقف انغلاق وابتعاد عن العقل ، والنظر والكمال والعزة من جهة ، وموقف تأخر واستسلام الى الخرافة ، والتقليد ، والنقصان ، والمذلة من جهة أخرى · ومن المعلوم أن اتصاف المسلمين بهذه الصفات يفصلهم عن الاسلام مهما كان ادعاؤهم له لان الاسلام الـذى يعرف أصحابه التخلف فى مجال من مجالات الحياة النظرية أو العلمية ليـس هـــو الاسلام الذى يدعو القرآن الكريم اليه ·

7 – ان القرآن الكريم يدعو فى كثير من آياته الى النظر ، والاعتبار ، والتفكير فى المخلوقات لمعرفتها فى ذواتها ، ومقارنة بعضها ببعض ، والاستدلال بها على وجـود اللـه ومطلق كمالـه ·

وبما أن « فعل الفلسفة ليس شيئا اكثر من النظر فى الموجودات واعتبارها (···) من جهة ما هي مصنوعات للاستدلال بصنعتها العجيبة ، حين نعرف كيفيتها على وجود صانعها ، فالقول بأن القرآن الكريم يحرم الاشتغال بها لا أساس له (34) ·

وهو ما أدركه القاضى ابو الوليد محمد ابن رشـــد وحمله على الاشتغال بها ، والدعوة الى تعلمها وان كانت غـــير اسلامية ، والدفاع عنها ضد من ينالون منهـــا بكيفيــة أو أخـــرى ·

ان غاية الفلسفة هي الحقيقة · ويوجه القرآن الكريم اليها بالدعوة الملحة الـــى التفكير الذى هو قوامها فى كثير من آياته كما يبين ذلك العلامة الجليل الشيخ محـــمد الطاهر بن عاشور رحمه الله فى كتابه « أصول النظام الاجتماعى فى الاسلام » (35) ·

وهو يوجه اليها بهذه الدعوة الى التفكير لان قبول الدين عن وعي ، والايمان بـــه على بينة لايتمان الا بما يبذله الانسان من الجهود فى الدراسة لفهم تعاليمه وابعادها القصـــوى ··

فهي وظيفة انسانية لابد منها ، فى كل زمان ومكان ·

وهي وظيفة يقوم بها الانسان الكامل الذى يهمه أمـــر وجوده ، ويحاول بواسطة عقله ان يعرف حقيقته ليخرج من الظلمات التى تحيط به وتقيده الى النور الذى يطلق سراحه ، فهي علامة يقظته ، ووسيلته الى اثبات نفسه كانسان مسؤول يعنيه أن تكون آراؤه صحيحة ومواقفه واعية ، واعماله مثمرة ، وغاياته سامية ·

ولكونها بهذه الصفة فهي بعده وماهيته · ويكون المسلم فى حاجة اليها لانـــه لا يستطيع ، وهو انسان يعيش فى وسط من التيارات المتضاربة ، أن يكون فى مستـوى حقائق دينه ، وفى مستوى مسؤولياته الا اذا كانت معرفته بها أكمل من معرفة كل أحد ســـواه ·

هذا ، ولا يدافع ابن رشد عنها لانها الفلسفة بدون قيد ولا شرط ، ولكنه يدافـع عنها لانها ذات روح بناء ، ولانهـا لا تطلب الا الحقائق الراسخة ، ولا تدلى بـــرأي الا اعتمادا على يقـين ·

ولهذا نجده يدعو الى الاستعانة بالقدماء لدى الاشتغال بها من جهة ، ويدعو الى النظر فيما قالوه واثبتوه فى كتبهم من جهة أخرى ، فان كان ما فى كتبهم موافقا للحق قبلناه منهم ، وسررنا به ، وشكرناهم عليه · وما كان منها غير موافق للحق نبهنـــا عليه ، وحذرنا منه وعذرناهم (36) ·

وهو اذ يدعو الى الاشتغال بالفلسفة لا ينسى ضلالات أولئك المغرورين من المتفلسفين الذين يعتقدون انهم يستطيعون أن يتعلموا منها فى يوم مـا يتعلمه غيرهم فى عشرين سنة كما يقول ديكارت ، ويعتقدون انهم يستطيعون أن يصيروا من أعلامها بدون جهد ولا عناء · وبالتالى ، فهو لا ينسى أن يشترط فيمن يريد الاشتغال بها ذكـــاء الفطرة والعدالة الشرعية ، والفضيلة الخلقية لانها ليست فدامة فى نظـــره ولا زندقة ، ولا دعـــارة · (37) ·

ان الشريعة حق · وكذلك الفلسفة كما يفهمها امام الحكماء · « واذا تقرر هذا كله ، وكنا نعتقد ، معشر المسلمين ، أن شريعتنا هذه الالهية حق (····) فانا معشـــر المسلمين ، نعلم على القطع انه لا يؤدي النظر البرهاني الى مخالفة ما ورد به الشرع ، فان الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له » (38) ·

هكذا يقول ابن رشد · وانه ليظهر فيما يقوله ، دليل على أن تفلسفه كان من أجل الشريعة المطهرة ، ولم يكن من أجل غيرها لان شهادة الحق الذى تتوصل اليه الفلسفة للحق الذى يدعو اليه الدين هي الغاية منه ·

ولهذا يجعل الفلسفة خادمة للشروع ، ويجعلها تابعة له ، فيقول : الفلسفة تفحص عن كل ما جاء فى الشرع · فان أدركته استوى الادراكان ، وكان أتم فى المعرفة · وان لم تدركه أعلمت بقصور العقل الانساني عنه واختصاص الشرع بادراكه (39) ·

ان هذا النص يبين لنا بكل وضوح ما هي علاقة الفلسفة بالشريعة فى نظر ابن رشد ويبين لنا أن حقائق الشرع التى بلغ ابن رشد أعلى المقامات فى فهمها ، وقيمه التى عاش فى ظلها هي التى تعطي لتفكيره وجهته العامة ، وهي التى تهيمن عليه اذ هي التى تكيف نظرته الى الحقيقة · وتمجيده للعقل ، وتعلقه بالفلسفة ، ودفاعه عنها ، واعتباره لعلاقتها بالدين ، كما انها هي التى تكيف آراءه فى قضايا الانسان بوصفه فردا وجماعة ·

8 ـ وهي آراء تقدمية ، كثيرا ما يذكرها المؤلفون للاشادة بها ، ولكنهم يذكرونها ، وكأنهم لا يجدون السلك الذى يربط بينها ·

ويدل على انها لا تخرج عن الاطار العام لتفكيره تلك الآراء التى يدلى بها هنا وهناك فى كتابه « بداية المجتهد » ، ولا سيما فى نهايته حيث يتعرض لبيان مقاصد الشريعة السامية وكونيتها واعتبارها للانسان بالدرجة الاولى ·

ان ابن رشد الذى يشيد بالعقل والفلسفة امتثالا لتعاليم الاسلام ودفاعا عنه لا يستطيع أن لا يشيد بالانسان الذى يتمتع بالمكانة البارزة فى هذه التعاليم ، وأن لا يدافع عن كرامته ·

فاعجابه بأرسطو ، ورفعه له الى أعلى المقامات التى يمكن أن يرفع اليها انسان دليل على تفتحه الاسلامي واعتراف منه بالفضل الى عالم ممتاز بعلو مرتبته فى الحكمة · وهو موقف لا يمكن أن ينكره مسلم يعرف أن الحكمة خير كبير ، وأن الله يؤتيها من يشاء من عباده (40) ·

ودعوته الى الاستعانة فى طلب الحقيقة بغيرنا ممن سبقنا فى البحث عنها سواء كان من ملتنا أو غيرها ايمان منه بان القيمة جديرة بتقديرنا مهما كان الحامل لها لان البشرية عائلة واحدة ولانه لا فضل لفرد منها على غيره الا بما يحرز عليه من كمال (41) .

وتقسيمه الناس الى برهانيين ، وجدليين ، وخطابيين مع اعتباره درجاتهم هذه فى تعليمهم ، وكشف الحقيقة لهم عمل بمبادىء الدين الحنيف التى توجب علينا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم حتى لا يكذب الله ورسوله ، وتطبيق سليم لقواعد التعليم التى تقتضى منا مراعاة المستويات فى ابلاغ المعرفة ، « لان من جعل الناس شرعا واحدا فى التعليم فهو كمن جعلهم شرعا واحدا فى عمل من الاعمال · وهذا كله خلاف المحسوس والمعقول » ·

وهو تقسيم لا يوجد فيه أساس لنظرية الحقيقتين التى نسبت اليه ،(واتخذت)منطلقا للميل بفكره الى آراء لا علاقة له بها · فالحقيقة واحدة فى نظر ابن رشد ولا تتعـــدد باختلاف التعبير عنها مراعاة لمستويات الناس · ومن الكذب عليه أن ننسب اليه رأيـا لا يقول بــه حتى الصبيان (42) ·

هذا ، وتفضيله الجمهورية الفاضلة على غيرها من الحكومات اختيار منه لحكـم الشورى الذى يدعو اليه الكتاب العزيز ، والذى طبقته حكومة الخلفاء الراشدين التى كانت غايتها خدمة الامة ، ونشر الفضائل بين أفرادها ، والسير بها الى سعادتها فى الـداريـن ·

وهي حكومة كان ابن رشد شديد الاعجاب بها ، وكان يحمل معاوية بن أبى سفيان مسؤولية افسادها لانه اغتصب الحكم من سلفه ، وأقام كما يقول « رينان » ، حـــكم بني امية المطلق الذى سرت مفاسده الى ما تلاه من دول الاسلام ، وفتح تاريخ الانقلابات التى لم تخرج جزيرة الاندلس موطن ابن رشد من نطاقها (43) ·

واما دفاعه عن المـــرأة فاعراب رائـــع عن تلك « الثورة القرآنية » التى منحتها حقوقها كاملة لا كلعبة فى يد الرجل يفعل بها ما يشاء ، ولكن كانسان كـــريم كامـل الانسانية · وهي ثورة تشير اليها العالمة الفرنسية « جرمين تليون » فى كتابها «الحريم وابناء الاعمام والاخوال» · وتحكم فيه على المسلمين بأنهم لم يحترموا مبادئها (44) ·

9 ـ ان الاسلام ، يحتل مكانة بارزة فى تفكير ابن رشد · وانه لمن السهل علينا بعد هذا العرض أن نرى فيما قاله عن الحقيقة ، والعقل ، والدين ، والفلسفة ، والانسان أن تعاليمه ، ومبادئه ، وقيمه هي التى توجه فكره وتصور آراءه ·

فهو لا ينساها ، ولا يبتعد عنها ، ويهمه أن تكون آراؤه واعماله مطابقة لمقتضياتها ، ومتجاوبة مع كمالها وسموها ·

ولذلك كان انتاجه فى مستوى الانسانية كلها · ومن الغريب أن لا يكون بهذه الحال وأبعاد الاسلام ، دينه ، كونية ، وافاق الفلسفة التى يوجه اليها ، لا يمكن أن تكون الا عـالميـــة ·

فكونية الاسلام هي التى تقوم عليها آراء ابن رشد وعظمته · وهي التى جعلته من فلاسفة الانسانية الكبار اذ جعلته يقـــدم للناس بسيرته المثلى ، ومواقفه الجـريئة ، واعماله الجليلة أسباب التقدم ودواعي النهوض التى كانت تعوزهم ·

لقد شرح الفلسفة للناس وأوضحها لهم بعد أن كانت غامضة فجعلها فى متناولهم .

وأهداهم فلسفته الاصيلة ·

ودعاهم الى البحث عن الحقيقة دون سواها ·

واثبت لهم أن العقل هو المعيار المطلق فى مجالها اذا لم تكـــن من الحقائق التى يختص الوحي بالاخبار عنها ·

وعلمهم النقـد النـزيــه ·

وأبان لهم أن البشرية عائلة واحدة ، وأن تقدمها يتحقق بما تبذله الاجيال المتعاقبة عبر العصور من الجهود المباركة فى البحث عن الحقيقة ·

وأرشدهم الى أنه يجب عليهم أن يفحصوا أقوال كل قائل ، فيأخذوا الصحيح منها ، ويشكروه عليه ، ويردوا الباطل ويعذروه لان المجتهد معذور اذا أخطأ ، وله الحق فى أجرين اذا أصــاب ·

وأظهر لهم أن تعاليم الوحي لا تناقض فتوحات العقل اعتمادا على معرفة لخاتمة الشرائع بلغت درجة الاجتهاد ، واعتماداً على معرفة تفوقت بكثير على معرفة مـــن سبقوه لآثار فلاسفة اليونان والاسلام ·

ومهد لهـم الطريق للتحرر من أخطاء القدماء بتقديره السليم لاعمالهم وبمخالفته لهم فيما لم يصيبوا فيه ·

ودفعهم الى النهوض والتقدم بالاعتماد على المنهج القويم من غير اعراض عـــن الدين الحق وتعاليمه العليا ·

١٥ ـ ان فكر أبى الوليد محمد بن رشد تتويج ، مــن جهة ، لتاريخ فكري طويل ، وحاصل لآراء ونظريات تعاقبت عبر العصور ، وبلغـت نضجها أخيرا فى أحضانه · وهو من جهة أخرى بداية غراء لتاريخ فكري آخر لا زال يمتد الى أيامنا هذه ·

فابن رشد هو الذى بعث الحياة فى الفلسفة اليهودية من جديد ، وقدم لعلمـــاء اللاهوت من النصارى فى القرون الوسطى ما جددوا به طرقهم فى عـــرض القضايا الدينية والدفاع عنهـا (46) · وهو الذى منـــح مفكرى الرشدية اللاتينية الآراء التى اعتمدوا عليها فى محاربتهم للكنيسة ، وفى تمهيدهم لظهور النـــزعة الانسانية التى انتشرت فى أروبا ، وكانت مقدمة لبداية العصور الحديثة مع الثورة الديكارتية (47) ·

ولهذا فلا غرابة اذا وجدنا له أصداء لدى فلاسفة العصور الحديثة (48) ، ولدى انصار العلم والرقي فى عصرنا ، ولدى التقدميين ، والداعين الى تحرير المراة ، ولدى علماء اللاهوت الذين يرون أن العلم هو أعظم دليل على صحة الدين ·

II ـ ان فكره يمتاز ، لعمقه وأصالته وصلاحيته لحل ما يواجهه كل عصر من مشاكل روحيته محرجة ، بجدة دائمة تسمح لنا أن ننظر اليه ، وان كان قد عاش فى القرن الثاني عشر للميلاد ، كفيلسوف من فلاسفة عصرنا ·

ويظهر انه ما كان يمكنه أن يكون الا هذا الفيلسوف لان قيم الاسلام التى صاغت تفكيره ووجهته ، لم تعده ليكون فيلسوف زمان ومكان ، ولكن فيلسوفا لكل زمان ومكان ، ولم تعده ليكون فيلسوف أمة ، ولكن فيلسوفا للانسانية كلها ·

ولهذا ، فانه يجب علينا أن لا نرى فيه نهاية الفلسفة الاسلامية لان هذه الفلسفة التى لها به وبامثاله ضمان خلودها لم تمت قط ، ولن تموت أبدا مهما كانت المشاكل التى اعترضتها ، وتعترضها ويمكن أن تعترضها · ان رياحها لا زالت تهب ، ولكثير من جهابذة المفكرين فى بلدان العالم انجذاب اليها ، واهتمام بها ، واستلهام لها ·

فهي ذات نزعة انسانية بارزة ·

ولابن رشد بين أعلامها المقام الممتاز الذى يفرض علينا أن نرجع اليه ، وأن ندرس آثاره ، وأن نجعله من أئمتنا فى البحث عن الحقيقة التى نتوصل بها الى السعادة فى الدارين ·

فهو صاحب فكر جامع نلمس فيه تفتح المجتهد ، وأمانة الشارح الاكبر ، وعقلانية الفيلسوف الاصيل ، وموضوعية العالم الممتاز ، وكونية الباحث ، وانسانية الرجل العظيم ، ويقين المؤمن المطمئن ·

وهي صفات تجذبنا الى صفه ، وتوجب علينا أن لا ننسى تعاليمه وابعادها سواء فى تقديرنا لامجاد الاسلاف ، أو فى تطلعنا الى آفاق المستقبل المشرق اذا كنا نريد أن نكون أهلا لهذا المستقبل ، وأهلا للمشاركة فى بناء حضارته التى يتمخض بها عصرنا ، مثلما كان ابن رشد أهلا للمستقبل وأهلا للمشاركة فى بناء الحضارة التى قامت معالمها من بعده ·

المـــــراجـــــع

1 ـ ارنست رينان ، ابن رشد والرشدية ، الترجمة العربية لعادل زعيتر ، ص 31 ، القاهـرة 1957 .

2 ـ المقرى التلمساني ، نفح الطيب ، ج 1 ، ص 147 ، القاهرة 1949 .

(3) Ch. A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord de la Conquête Arabe à 1830, pp. 92-131, Paris, 1952.

(4) Ibn Tofaïl, Hayy Ben Yaqdhan, traduction française par Léon Gauthier, pp. 29-32 et p. 61, note 5, Beyrouth, 1930.

5 ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ج 4 ، ص 1090 ، لجنة البيان العربي ، القاهرة 1962

6 ـ محمود قاسم ، ابن رشد وفلسفته الدينية ، ص 15 ، القاهرة 1964 .

7 ـ عبده الشمالي ، دراسات فى تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص 652 ، بيروت 1965 .

(8) G. Quadri, La Philosophie Arabe dans l'Europe Médiévale, pp. 198-201, Paris, 1947.

9 ـ رينان ، ابن رشد والرشدية ، ص 435

10 ـ ابن رشد ، تفسير ما بعد الطبيعة ، ج 1 ، ص 5 ، بيروت 1967 .

11 ـ ابن رشد ، تهافت التهافت ، ج 2 ، ص 869 ، دار المعارف ، القاهرة 1965 .

12 ـ ابن رشد ، تهافت التهافت ، ج 2 ، ص 781 وما بعدها .

13 ـ محمود قاسم ، فى النفس والعقل ، ص 304 وما بعدها ، ط 3 ، القاهرة 1962 .

14 ـ ابن رشد ، مناهج الادلة ، ص 133 وما بعدها ، ط 2 ، القاهرة 1964 .

15 ـ ابن رشد ، تهافت التهافت ، ج 1 ، ص 410 وما بعدها .

16 ـ محمود قاسم ، ابن رشد وفلسفته الدينية ص 58 وما بعدها .

17 ـ راجع ابن رشـــد ، تهافت التهافت ، ج 1 ، ص 276 ، وص 271 وغيرهما . وابن رشد ، مناهج الادلة ، ص 193 وما بعدها ، ومحمود قاسم ، ابن رشـد وفلسفته الدينية ، ص 166 وما بعدها ، ويوسف موسى ، بين الدين والفلسفة ص 206 وما بعدها القاهـرة 1968 .

18 ـ ابن رشد فصل المقال ، الضميمة ، ص 59 وما بعدها ، بيروت 1961 .

19 ـ ابن رشد ، تهافت التهافت ، ج 2 ، ص 870 .

20 ـ راجع : عبده الشمالى ، دراسات فى تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية ص 654 .

21 ـ راجع : محمود قاسم ، ابن رشد وفلسفته الدينية ، ص 168 وما بعدها ، وص 178 وما بعدها .

(22) Cf. Léon Gauthier, Ibn Rochd, pp. 84-85.

23 ـ راجع : محمود قاسم ، ابن رشد وفلسفته الدينية فى عدة مواطن

24 ـ ابن رشد ، تهافت التهافت ، ج 1 ، ص 410 وما بعدها .

25 ـ راجع : رينان ، ابن رشد والرشدية ، ص 33 .

26 ـ ابن رشد ، تهافت التهافت ، ج 2 ، ص 866 .

27 ـ ابن رشد ، مناهج الادلة ، ص 219 .

28 ـ ابن رشد ، مناهج الادلة ، ص 220 .

29 ـ ابن رشد ، تهافت التهافت ، ج 2 ، ص 870 .

30 ـ لطفى جمعه ، تاريخ فلاسفة الاسلام ، ص 142 وما بعدها ، القاهرة 1927 .

31 ـ ابن رشد ، تهافت التهافت ، ص 871 .

32 ـ ابن رشد ، فصل المقال ، ص 53 .

33 ـ ابن رشد ، فصل المقال ، ص 45 وما بعدها .

34 ـ ابن رشد ، فصل المقال ، ص 27 .

35 ـ ص 51 وما بعدها ، تونس 1964 .

36 ـ ابن رشد ، فصل المقال ، ص 30 وما بعدها .

37 ـ ابن رشد ، فصل المقال ، ص 33 .

38 ـ ابن رشد ، فصل المقال ، ص 34 وما بعدها .

39 ـ ابن رشد ، تهافت التهافت ، ج 2 ، ص 758 .

40 ـ رينان ، ابن رشد ، والرشدية ، ص 70 وما بعدها .

41 ـ ابن رشد ، تفسير ما بعد الطبيعة ، ج 1 ، ص 9 وما بعدها

42 ـ ابن رشد ، فصل المقال ، ص 50 .

43 – رينان ، ابن رشد والرشدية ، ص 171 .

(44) Germaine Tillion, Le Harem et les Cousins, pp. 168-179, Ed. Le Seuil, Paris, 1966.

45 – راجع : رينان ، ابن رشد والرشدية ، ص 185 وما بعدها ، ومحمود قاسم ، ابن رشد وفلسفته الدينية ، ص 41 وما بعدها ، ومحمود لطفى جمعه ، تاريخ فلاسفة الاسلام ، ص 221 وما بعدها ، القاهرة 1927 .

Voir aussi : Haïdar Bammate, Visages de l'Islam, pp. 229-250, Montreux, 1946.

(46) Emille Bréhier, Histoire de la Philosophie, T. I, F 3, pp. 607-610 et pp. 674-675, Paris, 1967.

(47) Léon Gauthier, Ibn Rochd, pp. 196, 265, 268-276.

مســـيرة الكتـــاب

د· محمد بلغراد
معهد اللغـة والادب العربى
جامعـة الجزائـر

يمتد تاريخ الكتب على حقبة تزيد على نيف وخمسة آلاف سنة ومع ذلك لا نجد فى الثلثين الاولين من هذا التاريخ الطويل الا قليلا من الوقائع المتناثرة التى يمكن الاعتماد عليها لتكوين فكرة عن آلة الكتاب فى هذه الازمنة السحيقة ، وعلى الرغم من الحفائر الاثرية والمعاصرة وما اتت به فى هذا المجال من كشوف لها قيمتها ، الا انه لم يزل أمامنا كثير من الغوامض والامور التى يعتريها الشك فى هذا الميدان ، حتى ان كتـاب العصر الرومانى ـ وهم المرجع الاول فى كل ما يتعلق بتاريخ الحضارات القديمـة ـ لا يمدوننا الا بمعلومات ضئيلة جدا فى هذا الصدد ·

الكتاب فى مصر القديمة كان على شكل لفـافة بردية

كان للمصريين القدماء خبرة وبراعة فى تاريخ الكتابة والكتب ، وقد كثر فى ارض مصر فى العصور القديمة نبات سماه الاغريق باسم بابيروس ، وهو البردى ، وقد استخدمه المصريون فى أغراض شتى ، وأهمها استخراج شرائح من هذا النبات يعالجونها حتى تصير مرنة لينة يكتب عليها كما يكتب على الورق ، وصار ورق البردى يباع كما يباع الورق فى عصرنا هذا ·

والكتاب المصرى القديم كان على شكل لفافة ، اذا أريد قراءة ما فيها فلا بد من نشرها حتى تظهر الكتابة • وأقدم لفافة بردية معروفة ترجع الى عام 2400 قبل الميلاد تقريبـــا •

مســـيرة الانسان الطويلـــة عـلى طريــق الحضارة

منذ فجر التاريخ تفجرت على البشرية طاقات متنوعة من المعرفة ومع فجر التاريخ بدأ الانسان يرسى قواعد الحضارة ويضع دعائم العلم والثقافة فى كل ميادين الفكر، وأهله ذلك لان يفرض سيادته شيئا فشيئا على محيطه •

وبينما بقى الكون أخرس لا يفصح ولا يبين لانه لا يعقل،ولا يفكر، شرع الانسان ـ هذه القصبة المفكرة كما سماه باسكال ـ فى الاعراب عما فى نفسه وضميره وقلبه وروحه ، وصار يعبر عن رغباته وانفعالاته ووجدانياته وبدأ يسجل أفكاره ومشاعره بالكتابة على الفخار وعلى الاحصار والصخور وعلى ألواح من الخشب والطين والعظام وعلى لحاء الشجر وعلى لفافات البردى وعلى ضروب من الرق والحريـــر • وهكذا وصلت الينا معلومات شتى عبر عنها انسان ما قبل التاريخ فى شكل صور وكتابات على ألواح من الطين ، ولفافات بردية مصرية واغريقية ، تلك هى آثار من الحضارات القديمة البائدة ، ولاجل بقاء هذه الآثار والمعلومات البشرية حث الانسان الخطى وانتهى الى اختراع فن الكتابة •

ومن أمثلتها رسوم ما قبل التاريخ التى تزين جدران الصخور فى كهوف تاسيلى فى جنوب بلادنا ، وهى جزء جميل من تراثنا الحضارى القديم الذى نعتز به ، وهى شكل من أشكال الكتابة •

اختراع الصينيـــين لصناعـــة الـــورق

والجدير بالذكر ان اسم الكتاب فى اللغات اللاتينية هو لفظ ليفر أوليبرو المشتق من كلمة ليبر • ومعناها لحاء الشجر الذى كان يكتب عليه قبل اكتشاف ورق البردى ثم صار الناس يكتبون على الرق •

وبينما كانت لفافات البردى وكراس الرق مزدهرين جنبا الى جنب فى مكتبات الامبراطورية الرومانية ، كشفت الصين كشفا جديدا كان له بعد ذلك أهميـــة باسمة فى تاريخ الكتب . بدأ الصينيون يستعملون الحرير فى صناعة كتبهم ، ولما كانت مادته غالية الثمن دفعهم ذلك الى صنع مادة جديدة من خرق الحرير ، وذلك بنقعها فى الماء ، وبعد تمزيقها الى قصاصات صغيرة وتحويلها الى سائل مغلى رقيق ثم تجفيفها بعد ذلك للحصول على نوع من الورق الناعم ، ولكن هذه الطريقة كانت غالية الثمن جدا كما كانت العملية الثانية لانتاج الورق من الحـرير بحيث تعـذر انتشارها • حتى نجح تساى لون عام 105 م فى اختراع الورق ، وذلك باستخدامه فى انتاجه مواد أقل غلاء من الحرير كقشور النباتات وفضلات القطن الجاف ، وغير ذلك ، وما لبث ان نجح كشفه هذا نجاحا عظيما • بحيث امكن كتابة عدد كبير من المخطوطات على الورق فى غضون القرون التالية • وقد احتفظ الصينيون بسر صناعة الورق مدة قرون عديدة •

اكتشـــاف العـــرب لصناعـــة الـــورق

ولم يطلع العرب على هذه الصناعة الا فى بداية العصر العباسى بعد انقضاء الاربع قرون الاولى من القرن الثانى الهجرى تقريبا •

وقد ابدى العالم الاسلامى نشاطا كبيرا فى الثقافة والادب بفضل امكان الكتابة على مادة لم تكن أوروبا تعرفها ، ذلك لان العرب فى أواسط القرن السابع الميلادى كانوا قد غزوا بلاد الفرس حتى وجدوا فى سمرقند الورق الذى كانوا يجهلون وجوده فى ذلك الوقت ، وكان يربط سمرقند ببلاد الصين طريق تجارى قديـم ، وعن هذا الطريق وصل اختراع الورق الصينى الى الفرس ، ثم ما لبث سر صناعة الورق ان انتشر تدريجيا فى انحاء الامبراطورية العربية الى حد انه وجدت فى القرن الثامن الميلادى فى عهد هارون الرشيد مصانع للورق ببغداد وبلاد العرب ، وفى القرن الثانى عشر الميلادى وصلت صناعة الورق الى أوروبا عندما ادخلها العرب أنفسهم فى بلاد اسبانيا حيث كانت طليطلة من أول مدنها التى صنعت الورق •

الكتاب بعـــد اختراع صناعـــة الطباعـــة

وفى الوقت الذى كان فيه النقش على السطوح باختلاف موادها هو وسيلة الكتابة كانت هناك أنواع متعددة من المعرفة والثقافة . ولكن لم يكن هنالك كتب ، لان الكلمة المكتوبة كانت لا تزال تفتقد صفة أساسية وهامة يتصف بها الكتاب بمفهومه الحالى ألا وهى القدرة على الحركة ، فكما ان الكتابة قد مكنت الكلمة من أن تقهر الزمن فان الكتاب قد مكنها من أن تصل الى بعد آخر فتقهر الفضاء ، اذ لا شك فى ان المواد المختلفة الخفيفة والرقيقة والتى ـ قبل ثلاثين قرنا ـ أعطت الكتاب أسماءه المختلفة قد فتحت الطريق أمامه للتقدم فى اتجاهين : أولا : أصبح من الممكن أن ينقل أو ينسخ أصل طويل بسرعة وسهولة بعد ظهور صناعة استخراج عدة نسخ بالطباعة من الكتاب الواحد ، فقد أحدثت الطباعة ثورة كبيرة فى عالم الكتاب ، ويعتبر جوهان غوتنبرغ (1400 ـ 1468) مخترع الطباعة لانه هو الذى توصل الى تخيل آلة عملية لصهر الحروف والى جعل الطباعة سهلة حقا .

صناعـــة النشر

ثانيا : أصبح من الممكن أن تنقل اعداد من هذه النسخ الى اى مكان ، أو بعبارة أخرى أصبحت الكلمة المكتوبة تنتقل بأعداد كبيرة وتنشر بسرعة عجيبة ، وهكذا تغيرت الصورة تغييرا شاملا ، فبعد ان كان الكتاب الذى كان فى الازمنة القديمة يظهر فى نسخة واحدة تغيرت الاحوال فأصبح اليوم أمرا عاديا ان تطبع آلاف وآلاف النسخ من الكتاب فى طبعة واحدة ، وقد صاحب ذلك قيام صناعة جديدة : هى صناعة النشر . هذا التغيير الكبير الذى طرأ على نشر الكتاب قد بلغ أبعادا تسمح بأن يوصف هذا الذى حدث بأنه ثورة فى صناعة النشر .

الكتاب وسيلـــة من أهـم وسائـل النشر

وفى هذا المجال لابد ان نذكر التقدم الكبير فى وسائل الانتاج وطرق التوزيع المتزايدة من القراء . وهكذا يواجه الكتاب عملية تغيير كبيرة ليصبح وسيلة من أهم وسائل الاعلام فى عصرنا . ولا جدال فى أن الكتب أصبحت اليوم أسهل وأكثـــر

الطرق فعالية فى نشر الفكر والفن والمعلومات على اختلاف أنواعها ، ذلك لان الكلمة المكتوبة أصبحت تنتقل بأعداد كبيرة وبسرعة مذهلة ، وفكرة الانتشار هذه تعتبر المفتاح الذى يوجهنا ويقودنا فى متابعة كل ما يتعلق بالكتاب ، بل هى المحور الاساسى الذى تنبنى حوله أى دراسة لتطوير الكتاب ـ ويمكننا ـ بواسطة الكتاب أن نتفهم مشاكل القرن العشرين فى مجال الخلق والابداع الفكرى والنشر والتوزيع والقراءة ، والكتاب ـ وان كان يشغل فى الفراغ حيزا صغيرا ـ فانه يضم كمية كثيفة من الثقافة والمعرفة .

مزايـــا الكتـــاب

قد مدح بعض الناس الكتب قائلا : « الكتب بمنزلة معلمين يعلموننا بغير عصا ولا سوط ، ولا يسيؤون معاملتنا ولا يغضبون ولا يطلبون هدايا ولا مالا ، واذا دنونا منهم لا ينأون عنا واذا سألناهم لا يبخلون علينا بشىء واذا تغاضينا عنهم لا يستاءون منا ، واذا جهلنا شيئا لا يسخرون منا » .

ينبغى للعاقل ان ينتفع بالكتب ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فقد انتشرت فى كل مكان وصارت زهيدة الثمن سهلة الاقتناء صغيرة الحجم خفيفة الوزن ، وكل ما ينفق من المال لتأسيس المدارس والمكتبات ودور الآثار يعود بالخير العميم على جميع الناس وهو رأس مال ينمى ثقافة الامة ويزيد فى سعادتها ورقيها ، والكتب كالحافظة الامينة نجد فيها تاريخ الامم وما تقلبت فيه من حضارات ، فيها الحكم البالغة ، وتجارب القرون الماضية كما انها مرآة عجائب الطبيعة ، ربما يصعب ان نجد شيئا من مصنوعات الانسان هو قاسم مشترك بين جميع أبناء البشر فى مستوى الكتاب فقد صار الكتاب من الزم الاشياء للانسان ، وكاد يكون كالهواء لا تخلو منه بقعة من البقاع الاجتماعية فى العالم ، وهو عماد جميع أشكال الحضارة والثقافة فى جميع الميادين .

الكتـــب للجميـــع

الوثيقة المكتوبة منذ آلاف السنين والوثيقة المطبوعة منذ مئات السنين كلتاهما تلعب دورا أساسيا فى نشر المعارف الانسانية والحفاظ عليها ، فقد وجدت الشعوب

فى هذه المعارف نعم الحليف للهيمنة على حياة الفكر والظفر بالحرية ، حتى ولـــو تأسست بعض الثقافات على التواصل الشفاهى أو الايمانى فان البقاء لن يضمن لها فى العصر الحديث الا بالتواصل بالكتابة ٠

انتصـــار الكتاب عـــلى الزمن وعلى الفضـــاء

فالكتاب ـ أوثق وسائل الاتصال وأكثرها مرونة ـ هو أول جهاز أتاح لفكـر الانسان أن ينتصر على الزمن ثم على الفضاء ، ويندرج ـ منذ بضعة عقود ـ فى سلسلة من وسائل الاتصال بين الجماهير حيث ينبغى أن يضمن له مكانه ورتبته ودوره فى خدمة المجموعة البشرية الجديدة الممتدة ابعادها الى العالم أجمع ، والتى تجعلها هذه الوسائل ممكنة التحقيق ، يوجد حاليا فى العالم احتياج هائـل الى المطالـعة التى استحالت الحاجة اليها الى مجاعة حقيقية ٠

بينما يتيح الانقلاب الذى حدث فى تقنيات الانتاج والتوزيع ان تلقى فى السوق كمية مزايد من الكتب الجيدة الزهيدة الثمن تعانى البلاد النامية نقصا فى الكتب وهذا النقص يشتد كلما انتشر التعليم ولا تنتج هذه البلاد ـ بالاجمال ـ الا خمسا من الكتب المنشورة فى العالم ، وهى لا تستطيع ارضاء حاجاتها ـ ارضاء جزئيـا فحسب ـ الا فى مستقبل بعيد بعد ان تتوفر لها صناعة وطنية للنشر ٠

الكتاب وسيلة صالحـــة لتثقيف الافراد والجماعـــات

اذا كان البرنامج العالمى لليونسكو الرامى الى ترقية الكتاب متجها بصفة خاصة الى تدارك اختلال التوازن هذا بين البلاد المصنعة والبلاد النامية فان المشكلـــة لا تصاغ فقط فى صورة كمية ، أليس من الخطر أن نتصرف بحيث يسهم الكتاب ـ بصفة أداة ممتازة للمعرفة ـ فى ايجاد وضع يتفتح فيه الفرد ويتقدم المجتمع ويتاح فيه للجميع أن يقدروا احسن ما ينتجه الفكر عبر العالم حتى يسود التفاهم بين الشعوب الذى هو الشرط الاول لاستتباب سلام حقيقى ؟

حتى فى البلاد التى يزدهر فيها النشر لا يزال الكتاب بعيدا عن ان يكون قد دخل فى كل مكان فى حياة الجميع ، بينما تملك هذه البلاد بصفة عامة شبكة توزيع تتيح

ايصال الكتاب الى القارىء فمسألة : كيف يمكن ايصال القارىء الى الكتاب هى التى لا تزال مطروحة في أشكال شتى فى كثير منها كما تدل على ذلك النسب المائوية المرتفعة فى كثير من الاحيان من الاشخاص غير القراء كما ادت اليها تحقيقات شتى متطابقة .

الحاجة ماسة الى توفير انتاج وتوزيع الكتاب

ألم يحن الوقت لاعادة التفكير في مجموع مشاكل النشر لاجل ان يكون الكتاب خادما للتقنيات الالكترونية ، السمعية البصرية (الاذاعة والتلفزة) التى يتأثر بها أكثر فأكثر ؟ وحيث انه لم يعد ممكنا عزل الكتاب عن الوسائل الكبيرة للاعلام أليس من الواجب ان نعيد النظر فى دوره فى المجتمع ؟

ان المجموعة العالمية مدعوة لان تعكف على التفكير فى مشاكل من هذا القبيل لتبحث عن حلول تتطلب حقيقة مساهمة فعالة من قبل السلطات العامة وأيضا من قبل مؤسسات من كل نوع : وطنية واقليمية ودولية ومن الافراد .

اذا كان المشروع يجب ـ قبل كل شىء فى كل دولة عضو ـ ان يتمخض عن مجهود وطني متجه الى تجنيد الطاقات والى بعث مبادرات ملموسة يجب أن يحظى أيضا بحركة واسعة من التعاون الدولى ، ومراعاة للاحتياجات الهائلة للبلاد النامية ، يحق للحكومات والمنظمات التى تخطط برامج اسعاف من طرفين أو من أطراف عدة ان تسهم بشكل خاص اسهاما تقنيا وماليا فى انتاج وتوزيع الكتب ان دعت الضرورة الى ذلك .

سياسة الكتاب

الكتاب جهاز يؤدى خدمة اجتماعية هادفة واعدة من أعلى طراز . ولذلك ينبغى أن نتجه بكل قوانا الى خدمة الكتاب كوسيلة لتوسيع القاعدة القارئة وتيسير سبل الاستمتاع بثمرات العلم والادب والفن للطبقات التى طال حرمانها من هذه الثمرات ولابد من الايمان بضرورة الاتجاه بالكتاب الى عامة الجماهير والعمل على خلق تعود القراءة فيهم وذلك باصدار الطبعات الزهيدة الثمن الجميلة المظهر للكتب القيمة أو تبسيط أمهات هذه الكتب وتقريبها لهم دون الاخلال بجودتها وتيسير انتشار الكتاب

فى المدن النائية ، والقرى والارياف ، وكل ذلك يهدف الى اذابة الفوارق الثقافية من صفوف الطبقات المحرومة والارتفاع بالمستوى الحضارى للجميع ، ولابد من التوصل الى خلق قراء جدد يقبلون على الكتب ويحرصون على اقتنائها وذلك ــ مثلا ــ بانشاء مشروع يمكن ان ندعوه « كتاب تثقيف الجماهير » تخطط لمادته وشكله واسلوبه فى معالجة الموضوع ، ولا ينبغى أن نقتصر على الكتاب المقروء فحسب ، بل من الممكن جدا أن نستخدم شكلا آخر من الكتب كالكتاب المسموع فى شكل أسطوانة لتقديم مؤلفات فى موضوعات شتى : دينية وأدبية وتاريخية وهكذا كل ذلك فى أسلوب مبسط بعيد عن التعقيد الفنى ٠

والكتاب هو الاداة التى تمكن من تثقيف الاجيال الصاعدة الجديدة من الاطفال والشباب بروح القيم الرفيعة واختيار ثمرات الثقافة القيمة السليمة المهذبة للاخلاق المقومة للسلوك ٠

ولا ينبغى أن ننسى أن نولى اهتماما خاصا ــ دائما بواسطة الكتاب ــ بخدمة تراثنا القديم والحديث بالتحقيق والنشر والدراسة والتقييم لابراز قيمه الخالدة ورسم الملامح المتكاملة للفكر العربى الاصيل عبر التاريخ وبخدمة الجانب العلمى ذلك الجانب الذى كان له أبلغ الاثر فى نشأة الحضارة الاوروبية الحديثة ٠

المراجـــــع :

- تاريخ الكتاب ، تأليف سفند دال ــ تعريب صلاح الدين حلمى ــ القاهرة 1958 ٠
- خزائن الكتب والمطالعة ، مقال فى كتاب الحديقة الجزء الرابع جمع محب الدين الخطيب ــ القاهرة 1348 ٠
- تاريخ كتاب (بالفرنسية) ، تأليف دلون هاشيت ــ باريس 1882 ٠
- مقال د٠ أحمد كابش ــ مجلة الكتاب العربى ، جانفى 1969 ٠
- مقال د٠ محمود بوعياد ــ الملحق الثقافى لجريدة المجاهد اليومية ــ العدد 16 ــ نوفمبر 1972 ٠
- مقال رونى ماهو ــ مقتطف من : « بريد اليونسكو » جانفى 1972 فى الملحق الثقافى لجريدة المجاهد العدد 62 ــ 1 ــ 12 ــ 1972 ٠

صدى وفاة ابن باديس
في التقارير الفرنسية والصحافة الاهلية عام 1940

ابو الصفصاف عبد الكريم
أستاذ مساعد بجامعة قسنطينة

عرف النصف الاول من القرن العشرين ظهور شخصيات فذة فى الجزائر حملت على عاتقها مسؤولية الدفاع عن الشخصية الوطنية بكل مقوماتها التاريخية والحضارية ، انطلقت الى ذلك من معطيات اساسية داخلية وخارجية ، ففى الداخل كان هناك تردى الاوضاع الاجتماعية على كل المستويات الدينية والثقافية والسياسية ، بسبب السيطرة الاستعمارية على كل شرايين الحياة فى البلاد ٠

أما فى الخارج فكان هناك تأثير قادة الفكر الاسلامي ـ المعاصر ـ الذين جندوا كل الطاقات الفكرية والمادية لنشر الاصلاح الاسلامي ، ومحاربة الجمود الفكرى والامراض الاجتماعية المتفشية فى المجتمعات الاسلامية من جراء المد الاستعمارى الاروبى ، وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس من أهم تلك الشخصيات وابرزها فى الاصلاح والوطنية ٠

ان هذا الرجل منذ أن بصر النور فى شهر ديسمبر 1889 م ، وهو يضيق ذرعـــا بالاستعمار واعماله الوحشية فى الجزائر ، رغم أن ابن باديس كان من اسرة ثـــرية وموالية للفرنسيين ، ومع نمو عقله واتساع مداركه العلمية والوطنية تحول من مستاء الى مدافع تارة ، ومهاجم لسلطات الاحتلال واعوانها تارة اخرى ٠

وليس من هدف الكاتب فى هذا البحث المتواضع تتبع المراحل الرئيسية فى حيـاة هذا الزعيم الوطني الغيور ، وانما الغرض من هذه العجالة هو استكشاف الآثـــار التى تركتها وفاة « ابن باديس العظيم رسول الحرية والديمقراطية » (1) على الجماهير الاسلامية عامة والحركة الوطنية خاصة حسب ما جاء فى التقارير الفرنسية ، وبعض الصحافة الاهلية الصادرة باللغة العربية والاجنبية عقـــب تشييع جنازة الشيخ عبد الحميد بن باديس الى مثواه الاخير ، يوم 17 أفريل سنة 1940 ، تغمده اللـــه برحمته الواسعة واسكنه فسيح جنانه ٠

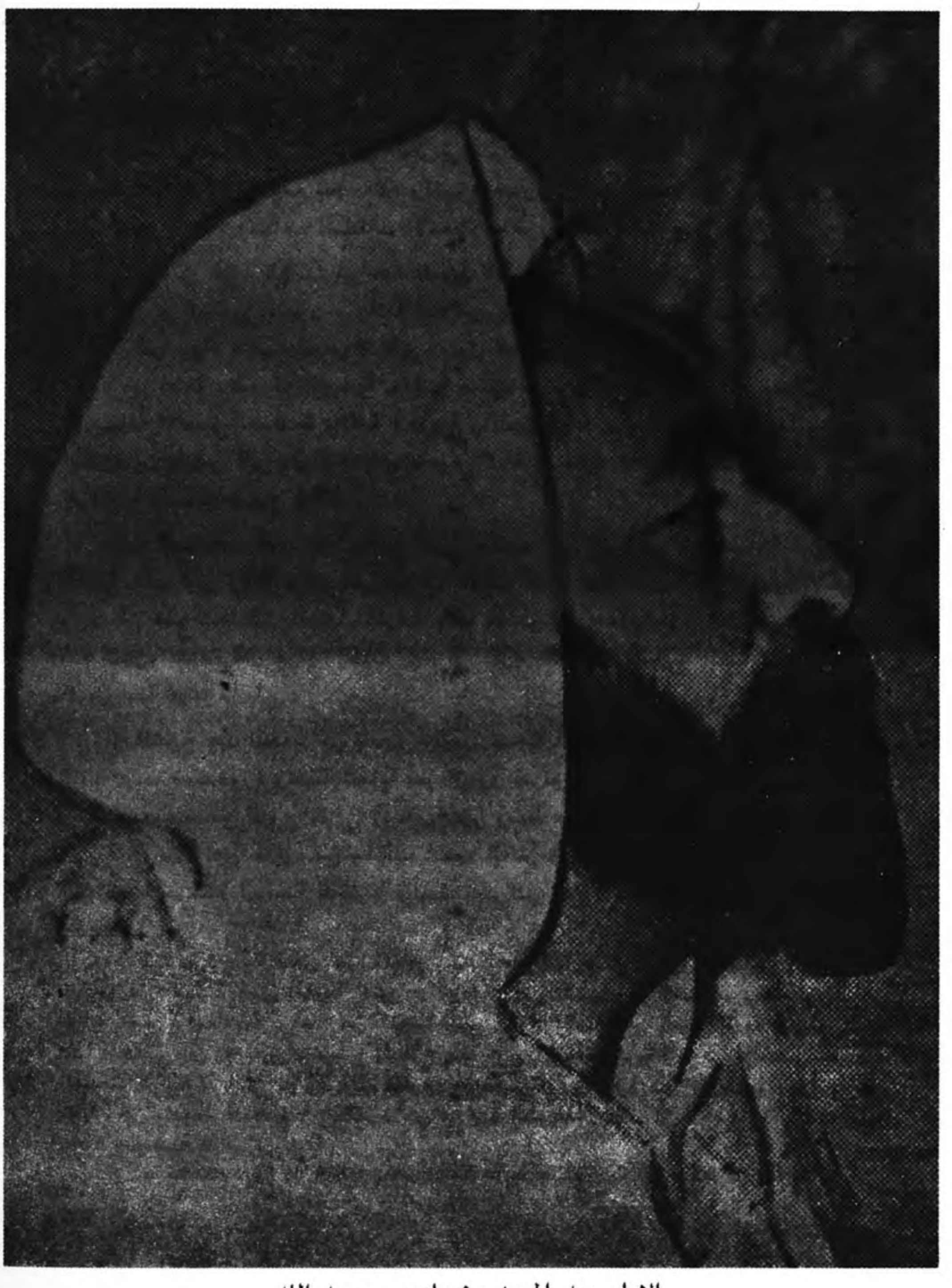
ظلت السلطات الفرنسية تخشى على سلطانها فى الجزائر من حــركة ابن باديس القوية حتى قبيل وفاته وهو على فراش المرض الذى لفظ على اثره أنفاسه الاخيرة ، ورغم أن هذه السلطات نفسها اعترفت بأنها كانت على عـلم بمرض الشيخ ابن باديس لمدة شهور عديدة قبل موته ، حيث جاء فى تقرير الشرطة السرية الصادر فى شهـــر أفريل سنة 1940 ما يلي :

ان الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المصلحين الجزائريين الذى كانت صحته متدهورة وسيئة للغاية منذ شهور قد توفي فى يوم 16 أفــريل بقسنطينة ، وشيعت جنازته فى اليوم التالي 17 أفريل فى وسط جموع غفيرة تعد بالآلاف من سكان المدينة ، ومن الذين جاءوا من مختلف أنحاء القطر (2) ، وسكنت فى قسنطينة ـ المدينة الكبرى ـ حركتها الدائمة العظيمة واستحالت الى هدوء شامل عميق يسير فى موكب

---

1) أخذت هذه الفقرة من نص افتتح بـــه المحام الباريسى الكبير الاستاذ (نردمان) خطابه فى الحفلة التى اقامها الشباب الديمقراطي الجزائرى لاحـــد رفقائهم المسمى كرايه حمو ، بمناسبة براءته من التهمة التى حاول الاستعمار الصاقها به ، وقد جـاء هذا المحامي من باريس خصيصا للدفاع عنه ٠ وكان عنوان خطابه : « أحيــى مدينتكم الجميلة قسنطينة التى لم تكن فى نظرى مدينة (لاموريسيار) كما يدعونها ، وانما هي مدينة ابن باديس العظيم » ٠ نقلا : عن جريدة الشعلة : عدد 31 ، قسنطينة 13 جويلية 1950 ، صفحة 2 ٠

(2) Rapport de police, avril 1940, archives historiques, wilaya de Constantine.



الامام عبد الحميد بن باديس رحمه الله

جنازة فقيد العلم والوطنية الجزائرية » وكان المشيعون خمسين ألفا أو يزيدون » (3) وقد حمل الفقيد على أعناق تلامذته وحدهم الى مقره الاخير ومشى فى موكب الجنازة عدد كبير من النساء الصالحات اللائي كن يواظبن على حضور الدروس التى كان يلقيها الاستاذ الراحل على النساء المسلمات بالجامع الاخضر ، كما شاركت فى موكب الجنازة جمعية « الكشافة الاسلامية » وسائر الجمعيات والهيئات والفرق الاسلامية كلها ، وكان يتقدم هذا الموكب الرهيب الشيخ العربي التبسي ، والشيخ مبارك الميـلي ، والدكتور محمد الصالح بن جلول الذين أبنوا الفقيد كلهم بخطب كان لها تاثير بالغ فى نفـوس الحاضرين (4) ·

وبناء على قرار الشرطة الفرنسية السابق الذكر فان ابن باديس الذى كان مصدر قلق للادارة الاستعمارية حتى أيام مرضه ، فان وفاته قد تركت حزنا عميقا فى النفوس ولا سيما فى عمالة قسنطينة التى كان فيها نفوذه قويا الى حـــد بعيد ، وقد كان لهذا الشعور الاليم اثر بالغ الخطورة على (الحزب الاصلاحى) الذى كان المحرك الرئيسى للحـــركـة ·

ولكن رغم ما أحدثته وفاة ابن باديس من يأس عميق فى نفوس المصلحين ، فان خطة الجمعية والافكار التى كانت موجودة لم تتغير بفضل قادتها المعروفين مثـل : الشيخ مبارك الميلي ، والعربي التبسى ، والشيخ البشير الابراهيمي الذي خلف الرئيس فى قيادة الجمعية فيما بعد ، رغم أن الابراهيمي كان قد وضع تحت الاقامة الجبرية منـذ أفريل سنة 1940 بآفلو ، وتوقفت الدروس بدار الحديث التى كان يديرها بتلمسان بعـد نفيـــه (5) ·

وقد يتساءل المرء كيف أن الابراهيمي حسب التقرير السابق قد خلف ابن باديس فى رئاسة الجمعية وهو تحت الاقامة الجبرية منذ 8 أفريل (أي قبـل وفاة ابن باديس بثمانية أيـام) ·

ان هذه الخلافة فى الواقع لم تكن ادارية فعلية ، ولكنها كانت اعتبارية على أساس أنه النائـــب الاول فى المجلس الاداري والشخصية الثانية فى الجمعية بعد انسحاب

---

3) جريدة الوفاق : الشيخ بن باديس ينتقل الى الرفيق الاعلى ، عدد 34 ، السنـة الثالثة ، وهران 9 ماي 1940 ، ص 1 ·

4) نفس المكـان ·

(5) Rapport de police, avril 1940, archives historiques, wilaya de Constantine.

الشيخ العقبي من عضويتها فى خريف 1938 ، وانه كان محل الثقة والموافقة من زملائه العلماء ، فتولى رئاسة الجمعية بعد الافراج عليه سنة 1943 « فكان الرئيس ، وكـان المعلم ، وكان الصحفى، وكان الكاتب، وكان الخطيب، وكان الباني، وكان المبشر» (6) .

والواقع انه بعد وفاة ابن باديس صار الناس يتساءلون فى كل مكان عن مصـير المشاريع العمومية التى كان يتزعمها القائد الراحل ، فبالنسبة لمدرسة التربية والتعليم الاسلامية فى قسنطينة فقد بقيت قائمة على أصولها يشرف على ادارتها وعلى تـوجيه التعليم فيها الشيخ عبد الحفيظ الجنان الذى اختاره ابن باديس لتلك المهنة ، وبخصوص مطبعة الشهاب (الاسلامية الجزائرية) فقد ظلت هي الاخرى تقوم بالاعمال التجـارية وغيرها فترة من الزمن ، ويقوم على تسييرها أحمد بوشمال الذى كان يتمتع بمكـانة خاصة عند الشيخ ابن باديس .

واما التعليم بالجامع الاخضر فان المسلمين الجزائريين طلبـوا أن يستمـر هذا التعليم الحر كالعادة ورشحوا الاستاذين العربي التبسى ومبارك الميلي ليكونا خليفتين للفقيد فى التعليم والتدريس وأوكلوا مهمة طلب الحصول على موافقة المسؤولين عـلى الشؤون الاهلية فى الجـزائر الى جماعة من النـواب المسلمين من بينهم الحكـيم ابن جـلول (7) .

أما فيما يتعلق بتسيير شؤون المجلس الاداري لجمعية العلماء فانه بعد تشيـيع جنازة ابن باديس كان الجميع يتوقعون تولية المهام الادارية فى الجمعية من طرف الكاتب العام (العربي التبسى أو الشيخ مبارك الميلي ، أو من قبل مجلس يتكون من عضوين هما : الشيخان خير الدين ، وبوشمال بقسنطينة) (8) .

وعلى أية حال فمهما كانت الآراء متفقة أو مختلفة على من سيرأس الجمعية بعد وفاة ابن باديس مباشرة فان الحركة الاصلاحية قد فقدت اكبر زعيم لها ، حيث تلاحظ التقارير الفرنسية أن وفاة ابن باديس كان لها اثر عميق فى نفوس الجماهير الجزائرية المسلمة ، وخاصة فى أوساط المصلحين سواء انصار الجمعية أو أتباع العقبي ، فهذا الاخير بالرغم من الخلافات التى كانت بينه وبين ابن باديس ، فقد تاثر هو الآخر وتأسف

---

6) أحمد توفيق المدني : حياة كفاح ، مذكرات القسم الثاني فى الجزائر 1925 – 1954 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1977 ، ص 337 .

7) انظر : جريدة الوفاق ، المرجع السابق ، ص 1 .

(8) Rapport de police, avril 1940.

بجسرة فى مواقف متعددة ، واتضح ذلك فى خطبــه ومقالاته التى كـان ينشرها فى جريـدة الاصـلاح ٠

والحق أن وفاة ابن باديس قد تركت فراغا عميقا فى أوساط العلماء المصلحين حتى أن أعضاء نادى الترقي (وهم من أنصار العقبي) كانوا متأسفين بدورهم على رحيـل زعيم الاصلاح فى الجزائر ، ولم يكن الاسى والحزن بهذه المناسبة قد أصاب العلمـاء المصلحين فحسب ، بل كان له تاثير بالغ على أعضاء حزب الشعب المنحل ٠ وبناء على تقرير الشرطة (أفـريل 1940) فان أعضاء حـــزب الشعب الذين كانوا يطمحون الى الاتحاد مع جمعية العلماء قد أصطدموا بهذا الحدث المروع وصرح مصالي بقوله : ان وفاة هذا الزعيم الروحى تعتبر أكبر كارثة لا على الاسلام وحده بل على الحـــزب الوطني أيضا (9). وقد أضاف التقرير بأن حادثة وفاة ابن باديس كارثة على كل المسلمين ولا سيما على الاوساط الشعبية التى كانت تعتبر الشيخ ابـن باديس الخصم الرئيسى لفـرنسـا (10) ٠

وقد كان حدث موت رئيس العلماء موضوع تعاليق مختلفة فى الصحافة الاسلامية بالجزائر ، وهو الامر الذى كانت تنتظره الجماهير الجزائرية حيث ظهرت الصحـف بعناوين بارزة بهذا الموضوع ، فقد كتبت جريدة الوفاق الصادرة بالفرنسية تعليقـا فى عددها الصادر فى يوم 9 ماي 1940 بامضاء (ا ـ ز) (A. Z.) جاء فيه : « كان ابن باديس رجل الوطن الوحيد وهو الجزائر ، وصاحب فكرة واحدة وهي الاســلام ، وكان يتطلع الى أن يبذل الرجال فى الجزائر جميع جهودهم كي يتفقوا ، ويتضامنوا ، ويتوحدوا ، وكان قد بارك هذه الوحدة فى الحركة الشعبية سنة 1936 ، ولكـن بعض الرجال وبعض الاحزاب خيبوا آماله فيما كان يطمح اليه » (11) ٠ ان هذا المقال كان يعبر بصدق على الدور الهام الذى مثله ابن باديس فى الحركة الوطنية خلال الثلاثينات ، وعما كان مخططا فى آرائه السياسية حول مستقبل الجزائر ٠

أما فى نطاق الدين فقد لخصت الجريدة الدور الهام الذى قام بــه ابن باديس فى تطهير الاسلام من الشوائب التى علقت بــه من بعض رجال الزوايا المشعوذين الذين استفادوا من الاستعمار ، وخدموا فرنسا باخلاص كبــير ، وحافظوا على مصالحهم

(9) Rapport de police, avril 1940.
(10) Ibid.
(11) Rapport de police, mai 1940.

الخاصة . حيث قالت الجريدة : « اما على المستوى الديني فقد كان يمثل الباعث الجديد للجزائر التى أصبح انهيار الاسلام فيها يمثل الصورة الحقيقية لنكبة العالم الاسلامي ، بعد أن كانت الحياة فى الجزائر مغطاة بالاكاذيب ، والمعتقدات الباطلة نتيجة للاعمال التى كان يمارسها المرابطون على عقول المسلمين ، حتى لم يبق الاسلام بين هذه الجماهير سوى ظاهرة فى حد ذاتها ، ولم يبق القرآن سوى أداة للصلاة فقط ، ولما جاء ابن باديس الذى كان يحمل معه نداء عالم جديد لم يستطع أن يتحرر من نداء طبيعته الحرة (12) .

أما فى تعليق آخر كتبه ابن حبيلس فى جريدة (لورابيل) (le Rappel) تحت عنوان «أكتراث المعسكر الآخر» فقد لخص فيه بعض الافكار الرئيسية لفلسفة ابن باديس فى تحرير الشعوب من الاستغلال الاجنبي قال : « كان لابن باديس فكرة صحيحة ، وهي أن الحكم النهائي لاي شعب لا يمكن أن يكون الا من شعب متنور ، وبرنامج العمل فى التجديد فقد وضعه ابن باديس فى بداية الحركة ، ونقطته الرئيسية هي التعليم » (13) واضاف صاحب المقال ، ومنذ أن وضع ابن باديس برنامج التجديد أخذ يهاجم جميع المعتقدات الملفقة والقوة الرجعية فى البلاد بلا هوادة ، ويهاجم بكل شجاعة جميع الاحكام المسبقة على مستوى الآراء التى هي العدو الاساسي للشعب « الذى يحب الشيخ محبة جنونية لانه كان متأكدا من أن هذا الاخير محل ثقة ، وقد رحل فى أحرج الظروف ووطنه فى حاجة ماسة اليه ، وخصومه يعلمون مدى خسارة العالم الاسلامي » (14) ، وختم الكاتب تعليقه قائلا : « ان ذكرى وفاة ابن باديس هي أعز الذكريات لدى المجتمع الجزائري ، لانها ذكرى رجل شريف ومواطن صالح » (15) .

وبعد وفاة ابن باديس أيضا اتهمت اذاعة المانيا السلطات الفرنسية فى الجزائر يوم 9 ماي 1940 م على لسان (تقي الدين الهلالي) بانها المسؤولة على وفاته ، وقد ذكرت أنه مات مسموما على أيدى الفرنسيين ، كما فعلوا بمعظم العلماء الذين ما يزال بعضهم يعاني فى ظلمات السجون ، وأن الطغاة الفرنسيين أرادوا تسميمه ، وقد

(12) Rapport de police, mai 1940.
(13) Ibid.
(14) Ibid.
(15) Ibid.

قتلوه كمـا قتلوا جميع الزعماء مـن قبله » والشعب الجزائرى اليوم يطالـب بفديته وسينتقم له آجـلا أو عاجـلا » (16) ·

وجملة القول فان موت ابن باديس قد ترك فراغا عميقا فى صفوف الحركة الوطنية من جهة ، وفى أوساط المصلحين الدينيين من جهـة أخرى ، وبين الجماهير الاسلامية ثالثة التى كانت تنظر اليه على أنه الزعيم المخلص والوطني الغيور على دينـه وشعبه فى الجـــزائـــر ·

ولعل ما سجلته التقارير الفرنسية حول انطباعات الشعب الجزائرى بمناسبة وفاته كان اصدق تصوير لتعلـــق المسلمين الجزائريين بشخصيته الفـذة حتى الذين كانوا موظفين لدى الادارة ، وموت ابن باديس فى ربيع 1940 ، أزمة أخرى تضاف الى قائمة الازمات التى هددت الجمعية فى العقد الاول من حياتها ، ولكن مع ذلك كله فان وفـــاة ابن باديس قد فوت على الادارة الاستعمارية المنال من الحركة الاصلاحية ، لان وفاته كانت حياة لافكاره ، ذلك أن موت هذا الزعيم قد حـرر نهائيا الفكرة الاصلاحية التى كانت تشبه « فكرة مجسدة » فأصبحت بموت صاحبها « فكرة مجردة » لا يجد الاستعمار اليها سبيـلا (17) ·

وبعد انتهاء فترة الاسى الذى أصاب المسلمين الجزائريين عقب وفاة ابن باديس ، لاحظت السلطات الفرنسية أن زعمـــاء الجمعية فى قسنطينة قـــد أصبحوا الورثـة الحقيقيين « لايديولوجية ابن باديس » وقد اجتمعوا واتفقوا فيما بينهم على توحيـــد الآراء ، والقيام بحركة موحدة فى الميدانين الثقافى والديني بعد ان اعترفوا بالخطـأ الذى وقع فى صفوف الجمعية فى الثلث الاخير من عقد الثلاثينات ، وواصـل المصدر حديثه حول العلماء : ولكي يبرروا موقفهم ازاء الادارة الفرنسية ، أوضحوا بأن هناك فرقا بين الاصلاح والوطنية أو « المواطنة » · أما برنامجهم فقد أصبح فى مرحلة مـا بعد ابن باديس يتمثل فى المطالب التالية :

أولا : حـرية تعليم اللغـة العـربية ·

ثانيا : حـرية فتـح النوادي ، وبيع المشروبات المباحة لروادها ·

---

(16) Ibid.

(17) مالـك بن نبي : مشكلة الحضارة ، الصراع الفكـرى فى البـلاد المستعمرة ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، بيروت 1969 ، ص 63 ·

ثالثا : حرية فتح المدارس والتعليم بالعربية والفرنسية وادخاله تحت المراقبة الاكاديمية ٠

رابعا : المحافظة على التعليم الديني فى جامع سيدى الاخضر ٠

خامسا : المطالبة والعمل من أجل الحصول على رخصة من الادارة الفرنسية تعترف فيها للشيخ الابراهيمي بخلافة ابن باديس فى رئاسة الجمعية (18) ٠

ومعظم هذه المطالب كان قد طرح فى عهد ابن باديس مرات عديدة ٠ وقد علق تقرير ماي سنة 1940 السابق الذكر الذى نقلنا عنه هذا البرنامج الجديد للعلماء فى قسنطينة بعد وفاة ابن باديس علق بأن حركة زعماء الجمعية فى هذه المنطقة ستكون ان تحققت عاملا قويا فى توازن قوى الحياة السياسية الجزائرية ، وان الشيخ مبارك الميلي قد أسند اليه منصب كرسي الاستاذ بالجامع الاخضر (19) ٠

وهكذا أو رغم اختفاء أبرز الشخصيات من مسرح العلماء ، فان ادارة الاحتلال ظلت تتخوف من قوتهم وتأثيرهم فى الاوساط الشعبية لانها كانت ترى أن العلماء هم القوة الحقيقية فى المحافظة على مسار الحركة الوطنية واتجاهها الانفصالي عن فرنسا سيما وأن هذه السلطات كانت تعلم أن ابن باديس قد ترك وراءه فى خضم المعركة شخصيات ورثت الكلمة والمنهج السليم لقيادة الحركة ٠

---

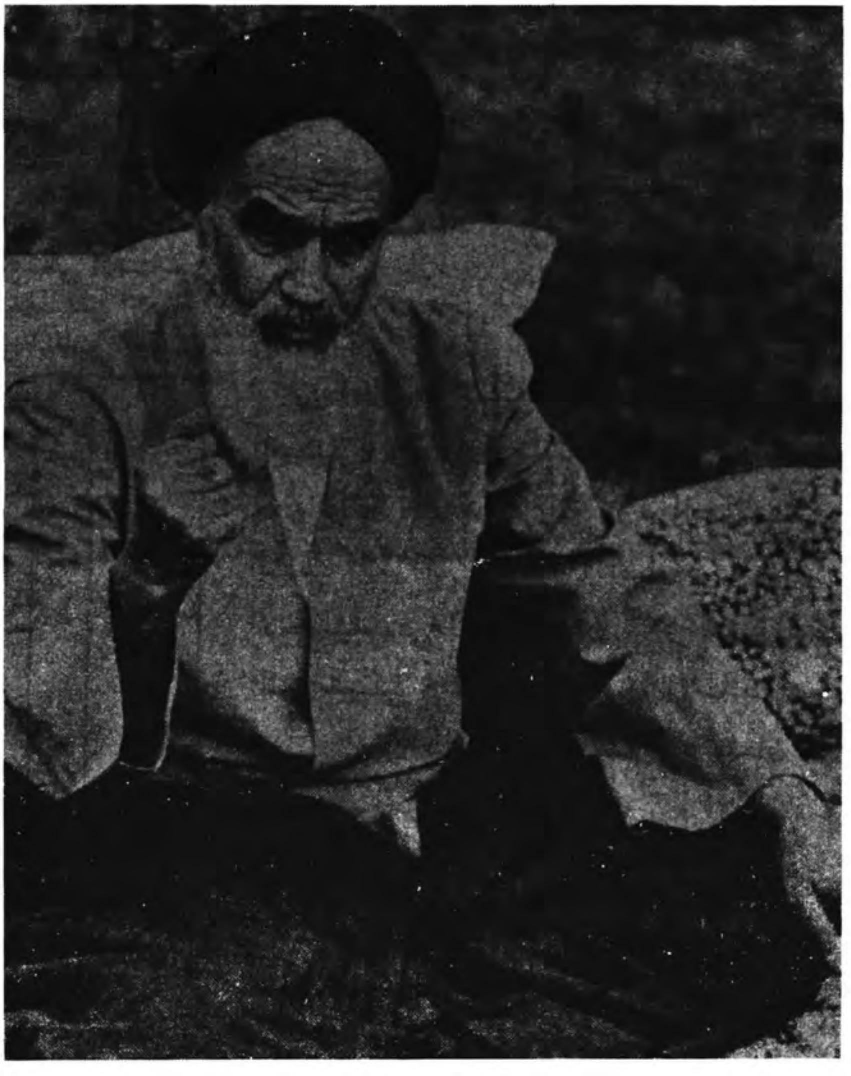
(18) Rapport de police, mai 1940.
(19) Ibid.

كيف انتصر آيــة الله الخمينى

فى المركـز
الثقـافى الاســلامى
نــدوة عــن الامــام
آيــة اللــه الخميــنى

فى اطار النشــــاط الثقافى لوزارة الشــؤون الدينية ، نظم المركز الثقافى الاسلامى ندوة فكرية حول قيادة الامام آية الله روح الله الخمينى لثورة الشعب الايرانى وعوامل انتصاره ، بعنوان « قيادة الامام الخمينى لثورة ايران ، أو كيف انتصر آية الله الخمينى ؟ » ، شارك فيها الاساتذة : أحمــد حمانى ، والطاهر بن عائشة ، وعثمان شبوب ، وعبد الرحمن شيبان . وذلك يوم الاربعاء 1 ربيع الثانى 1399 هـ ، (28 فبراير 1979) .

وننشر فيما يلى نصوص الكلمات التى ألقيت فى هــذه النــدوة .



الامام آية الله الخمينى

رأى فى الثـورة الايرانيـة

• هل هى ثورة اجتماعية ذات صبغة طبقيـة او انها ثـورة دينيـة اجتماعية وفية لأصولها الشعبية ؟

——— عثمـان شبـوب

بدء الثوزة الشعبية فى ايران ، وليس انتصارهـا فقط ، أثار اهتمام جميع المعلقين السياسيين ، ورجـال الفكر والثقافة • ذلك ان ما حدث فى ايران ليس فقط، ثورة سياسية للاطاحة بنظام معاد لشعبه وللانسانية ، بل هو ، الى ذلك ، ثورة فكرية ، شحذت العقول لاعادة النظر فى كثير من المسلمات النظرية الـتى كادت ان تصبح من البديهيات التى لا تقبل النقاش •

لقد اعتقد الكثير ـ والصحف الغربية وغيرها مليئة بهذا الكلام ـ ان الانسانية تطورت،ولم يعد أحد يفكر فى امكانية قيام دولة دينية فى عصرنا الحاضر ، وان التمايز بين الدين والسياسة ، سمة بارزة فى بنية الفكر المعاصر ، وان البحث فى غير هـذا ، يعد من باب تناقضات العقل مـع نفسه •

وعلى مستوى الدين الاسلامي نفسه ، كان يعتقد في الغرب خاصة رغم شواهد مفندة لاعتقاده ان الاسلام لا يقوى ـ امام العصرانية الغازية للبلدان الاسلامية ـ ان يكون قوة محركة أساسية للاحداث ، بدليل ان جميع التغييرات التي حدثت في العالم الاسلامي ، كانت بيد عناصر عسكرية وسياسية ، وليست بيد عناصر دينية ، وحتى بعض الفترات التي نشطت فيها عناصر اسلامية تحاول أن تمسك بزمام الاحداث اصطدمت اما بقمع ، أو ببقائها في مجال الدعوة النظرية ، مثل حركة جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، والكواكبي ، وغيرهم ، زيادة على تلك الفئة من « العلماء » والفقهاء الذين جندوا أنفسهم ، وسخروا الدين لخدمة الاقطاع ، وأوضاع الجمود ، والتخلف في العالم الاسلامي ، وحاولوا حصر الدين في العبادات لعزل عامة المسلمين عن الاهتمام بالامور العامة ٠

هذه الاعتبارات وغيرها ، جعلت الكثير لا يعير أهمية للدين ، كعنصر استقطاب أساسي في عملية الثورة ، وتغيير الاوضاع ، بل وكانت هذه الاعتبارات دافعا لاعداء الشعوب لدعم بعض العناصر الدينية المتخلفة لاستخدام الدين ضد الشعوب ، تامينا لمصالحها الاستغلالية ٠

اذن،فقد قلبت ثورة ايران هذه المفاهيم رأسا على عقب ، واعادت الثقة للمسلمين ، كما انها دفعت الى اعادة النظر في تلك الصورة القاتمة التي رسمتها كتب التاريخ لحركة الشيعة عبر التاريخ ، وقراءتها قراءة جديدة ، واثارة تساؤلات عديدة : هل لحركة الخميني أصول تاريخية تعود الى التشيع ، وبالتالي يتوقف فهمها على العودة الى هذه الاصول ؟

وهل التشيع أصلا حركة سياسية ، هدفها مقاومة الانحراف ، وتحقيق العدل ، والمساواة بين العرب ، وابناء الامم الاخرى التي دخلت في الاسلام ؟

أهو حقا ، واجهة لصراع سياسي واجتماعي داخل امبراطورية كبيرة لم يتح لها ان تمتص الفوارق ، والفواصل دفعة واحدة بين مختلف الاجناس التي دخلت الاسلام ؟ أم ان التشيع مجرد اندفاع لا واعي ، لا شعوري ، حركه شعور بالندم ، ندم تلك

الجماهير المسلمة على خذلانها لعلي وابنائه ولآل البيت عموما ؟ ام انه مؤامرة يهودية للقضاء على الاسلام ؟

ان الشيعة لا يرون فى هذه التساؤلات المشككة فى هوية حركتهم الا تشويها من طرف مناوئيهم من أهل السنة خاصة . الذين كما يقولون ، تعاونوا فى أغلبيتهم مع السلاطين والملوك ، والامراء المنحرفين عن التعاليم الاسلامية ، مقابل الجاه ، والمال ، والمنصب .

ويقولون،ان التشيع كان منذ البدء رد فعل للانحراف الذى بدأ فى صدر الاسلام منذ وفاة الرسول (ص) والتزام فكرى ، لا قبلى ، برسالة الاسلام الصحيحة ، ويرون ان الامام علي ، هو أولى بالخلافة لمعرفته وعدله، وموقفه المناهض للتفرقة بين المسلمين ولبوادر التحلل من الاخلاق الاسلامية ، ويرون أن أهل البيت اقرب الى تمثل الروح الاسلامية لقربهم من الرسول .

والتاريخ الحديث والقديم ، يسجل هذا الدور للشيعة ، فهم دائما ، ضد طغيان الحاكم ، فى ثورة الخميني ، والثورات الايرانية الحديثة كلها ، الى ثورة ، وانتفاضات الشيعة القديمة فى العراق . تتلخص كلها فى الوقوف فى وجه الانحراف السياسى ، أو الدينى .

« فمقاومة الانحراف هى فى صلب العقيدة المذهبية للشيعة ، وترقى الى مستوى الواجب الدينى » .

ومما يؤكد نزاهة موقفهم أو موضوعيته ـ بلغة العصر ـ تجاه أهل البيت ، ما قاله الرسول (ص) « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » ويعتبرون عقيلا شقيق الامام علي مستحقا للتهديد من اخيه بان يُكْوَى على يديه بالنار فى الدنيا قبل الآخرة لمجرد أنه طلب ان يأخذ من بيت مال المسلمين فوق حصته .

ان كل هذا يؤكد ان محبتهم لاهل البيت ليس ناجما عن اعتقادهم بتقديسهم، بل لانهم يعتقدون بانهم من أهل الصلاح ، وانهم الى جانب المستضعفين .

ويردون على من يتهمهم بالعصبية القومية الفارسية من الكتاب ، والمؤرخين ، بانهم ملتزمون فقط بالاسلام ، وان ثورتهم كانت ضد القبلية التى بـدأت تظهـر ، وضـد التفرقة العنصرية بين المسلمين ، العرب وغير العرب ، لانها من الانحرافات الخطيرة التى تهدد وحدة المسلمين ٠

ومن ايجابيات ثورة الخمينى ، تجاوز ما اسماه الخمينى نفسه فى تصريحه لجريدة الاهرام بالخلاف اللفظى بين الشيعة والسنة ، وان هذا الخلاف ضخمه الاجانب ليمزقوا وحدة الدول الاسلامية وهو فعلا ، لم يلفظ كلمة واحدة تدل على التمييز بين الشيعة والسنة ، وكان يوصى وهو فى منفاه فى الخارج الطلاب الايرانيين ان يخرجوا من صفوفهم من يقول بالتمييز بين السنة والشيعة ٠

وحتى عندما يتحدث عن الامام على ، واستلهام مناقبه ومثاليته ، وضرورة تصحيح الاخطاء التى لا تزال تترك آثارها منذ الامويين والعباسيين، فهو لا يقول ذلك من منطلق شيعى ، بل يقوله من منطلق العدالة الاسلامية التى يجمع عليها المسلمون ، السنيون والشيعة على حد سواء ٠

والمذاهب السنية لا تقر، ما لحق الشيعة من اضطهاد فى العهد الاموى ، أو العباسى، والعثمانى، والامام أبو حنيفة ، وقف فى صف الثورة الشيعية ضد ما لحقها فى العهد العباسى ، وقد عذب فى سبيل نصرتها ٠

اذن ، فثورة الخمينى فرصة هائلة لوحدة القوى الاسلامية الملتزمة بخدمة مصالح الجماهير الاسلامية الكادحة ٠

ورغم ريادة الحركة الدينية للثورة فى ايران ، فهناك من يتساءل عن هذه الثورة ، أهى ثورة اجتماعية ذات صبغة طبقية ، يمثل العنصر الدينى فيها جانبا من الجوانب كما يقول الماركسيون الايرانيون أم انها ثورة دينية اجتماعية وفية لاصولها التاريخية الشيعية التى كانت عبر التاريخ لا تفصل الاسلام عن حياة الشعب ، وتقاوم كـل اضطهاد سياسى أو اجتماعى؟

يجيب الامام الخمينى عن هذه التساؤلات بقوله : « اننا نريدها جمهورية اسلامية تستمد سلطتها من الشعب ، ونريدها اسلامية لان قانونها مستمد من شريعة الاسلام ، (الاهــرام) ٠

ويقول أيضا : « أولا أن النضال السياسى هو مسؤولية دينية اسلامية للشعب الايرانى المسلم ٠ وثانيا : ان نضال شعب ايران هو نضال الاسلام ضــد اعــداء الاسلام » ٠ ويقول : « ان للاسلام نظريات خاصة حول المعادن والمنابع الطبيعية ، وبشكل عام حول القضايا الاقتصادية ٠ وكذلك للاسلام قوانين ، وبرامج معينة فى العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية وأيضا العسكرية مع الدول الاجنبيــة » ، (جريدة الصباح التونسية) ٠

ولكن رغم هذا يبقى سؤال يفرض نفسه على المتتبع لهذا البركان الذى انفجــر وقلب كل الحسابات ، كيف تمكنت الحركة الدينية هذه بزعامة الخمينى ان تستقطب كل الحركات السياسية ، والاتجاهات الفكرية ، وتعترف كلها بزعامة الخمينى ؟

هناك عوامل منها :

1) شخصية الامام الخمينى : يقول الامام الخمينى لمندوب (الاهرام) : « لقد كنت مجرد طالب علم ٠٠٠ وما زلت طالب علم ، أتلقى دروس الحياة ، كل ما هنالك ان الشعب وجد أننى اعبر عما يجيش فى نفوسهم فتولدت المودة بينى وبين الشعب فى ايران ٠ ومن هنا بدأ الطريق » ٠

هذا التواضع ، والمعرفة الواسعة ، والمحبة العميقة للشعب ، والتضحية العملية فى سبيل الدفاع عنه ، كانت سببا فى محبة الشعب له ، وثقتها فيه ، وهذا عنصر لا يستهان به فى كل عمل تاريخى عظيم ٠

2) تحويل هذا التجاوب العاطفى المتبادل الى تنظيم عمــلى ، يعتمد السرية التقنية الشديدة رغم ملاحقات أجهزة الشاه القمعية المستمرة ٠

3) اعطاء مضمون اجتماعى متقدم للحركة الاسلامية ، ويوضح الخمينى نفسه هذا بقوله : « ان الشاه نفسه لم يمنع القيام بالشعائر الدينية ، من صلاة ، وزكاة، وحج،

وصوم ، ولكن عندما يتعلق الامر بتحقيق العدالة الاجتماعية ، وتوظيف الثروات الوطنية لفائدة الشعب ، والوقوف في وجه الاحتكارات الاجنبية ، أي عندما يصبح الاسلام ثورة اجتماعية يصبح الامر مدعاة للقلق » . (تصريح لمجلة الرائـــد التي تصدر في أمريكا) .

والذي أثار انتباه المعلقين الصحفيين والسياسيين في العالم هو تلك القدرة الهائلة للحركـة الخمينية في استقطاب كل الفئات حتى تلك التي تسكن في مناطق نائية فيقول احدهم : « ان تجميع ، وتحشيد الريف وتعبئته في ايران شيء صعب ، ولا تحلم به أكثر الاحزاب دقة في التنظيم ، لكون القرى متناثرة ، والسكان مبعثرون في أراضي شاسعة ، ومن استطاع ان يعبيء هذه القوى لفائدة الثورة ؟ انها الجوامع ، التي لعبت دور أعـــواد الثقـــاب » .

4) رفض المساومة ، وكما كانت الشيعه عبر التاريخ وفية لمبادئها لا تتزحزح عنها ، كذلك كان الخميني ـ رغم كل المغريات والمساومات ـ لم يقبل بانصاف الحلول ؟ وهذا هو منطق الرجال العظام ، والحركات التاريخية الكبرى .

5) فشل كل الاحزاب الاخرى في ان تتماسك تنظيميا ، وتحدد ايديولوجيـا : فالطبقة العاملة كقوة سياسية مؤثرة لم يكن لها وجود فعلي بسبب حملات القمـــع المستمرة ـ تبرير لاحدّ قادتها ـ ضدها .

اما العناصر السياسية الاخرى ، فقد كانت ضعيفة تنظيميا كما قلنا ، ومذبذبة متارجحة بين مطالب جزئية ترقيعية ، فهي لذلك تفتقد الايمان القوى ، ووضـــوح الهـــدف .

6) تردي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية بسبب سياسة التبذير ، والبـــذخ والاستغلال ، والمجون والاستهتار .

يقول الخميني في تصريح لجريدة الصباح : « ... ان الشاه ، وضع كل ثروات الشعب بصورة خيانية تحت تصرف الاجانب ، وأعطى البترول لاسرائيل المغتصبـة ، وعدوة الاسلام والتي تعيش في حالة حرب مع المسلمين ، وأقام كل اقتصاد الوطن على قاعدة النفط الذي سينتهي حتما ، وفي هذا الوضع الاقتصادي يبقى الوطـــن

مهددا دائما من قبل الدول المستهلكة للنفط ، بالاضافة الى ان ثمن هذا النفط اما ان يعود الى ايران اسلحة غير ضرورية ، أو ان يذهب الى جيوب الشاه وحاشيته ، أو أنه يستورد به الحنطة ، وسائر المواد الغذائية حيث انه لتبرير هذا العمل ، قد حطم الزراعة ، وجلب المصائب الماثلة على المسلمين فكان طبيعيا ان يعبىء الاسلام الشعب المسلم للدفاع عن حقوقه والنضال ضد هذه السياسة » ·

«الغريب ـ نقول هذا تجاوزا ـ ان الاوساط الغربية الاستغلالية تتباكى على سقوط هذا النظام بدعوى ان سقوطه يمثل نكسة حضارية، أو ما تسميه، نكسة، وتراجع نزعة التحديث أو العصرانية.فى ايران ! فكان الغاء الملكية المستبدة، المستهترة، وارساء النظام الجمهورى الديمقراطى ، وانجاز رسالة الاسلام الاجتماعية فى تحقيق العدالة، ورفع مستوى الشعب ، والغاء نظام الاستغلال ، والحفاظ على القيم الوطنية الاصيلة والمقومات الاساسية للامة ، ومقاومة مظاهر الانحلال البرجوازى ··· ، كأن كل هذا تراجع !

هل انجاز كل هذه المبادىء رجوع الى التخلف ، وسد لمنافذ التطور والعصرية ؟ · وهل هؤلاء ، فعلا ، حريصون على ان تكون الشعوب غير الغربية ، تحيا حياة مزدهرة متقدمة ؟ ·

والآن وقد انتصرت الثورة الشعبية الاسلامية فى ايران ، فهل يمكن ان نعتبر هذا الانتصار حسما مبدئيا ـ على الاقل ـ لتلك المناقشات الفكرية التى جرت فى السنين الاخيرة أولا بين العلماء المسلمين أنفسهم، وثانيا، بينهم وبين غيرهم من الدارسين الغربيين ، حول امكانية قيام دولة دينية ، ومدى انسجام هذه الدولة مع المدنية العلمانية الحديثة ، وملاءمتها لشروط الحياة العصرية بصورة عامة ؟

ان الصحافة العالمية ـ كما قلت فى أول هذه الكلمة ـ على اختلاف اتجاهاتها السياسية ، والايديولوجية ، تتساءل بدورها اليوم عن هذه الامكانية ·

انها ترى لهذه المسألة مظاهر عملية مباشرة كامكانية وضع الاشكال الدستورية فى اطار اسلامى مثلا ·

ومهما يكن من أمر ، فان الامام الخمينى والحركة التى يقودها قد حققت فى الواقع، ما كان فى القريب فقط ، حلما يراود اذهان العديد من رجال الحركات الاسلامية عن الدولة الاسلامية التى تعيد المجد الغابر ، وهو لا شك له برنامج محدد ، والاحزاب الايرانية تؤكد قيام هذه الجمهورية الاسلامية ٠

ونحن لا يسعنا الا ان نتفاءل بهذه الثورة التى سيكون لها تأثير ، واى تأثير لا فى العالم الاسلامى فحسب ، وانما فى العالم كله ٠

ارادة الشعب مـن ارادة اللـه

أحمـد حمـانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى

بسم اللـه الرحمـن الرحيم
وصلى الله على محمد النبىء الكريم

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »
(سورة الرعد ـ الآية 11)

السيد الوزير ، أيها الاخوة الكرام ، السلام عليكم ورحمة الله .

يسعدنى أن استهل هذه الكلمة بتوجيه تحية مباركة طيبة ـ باسمى وباسم جمعكم الكريم ـ الى الشعب الايرانى المجاهد ، والى امامه وزعيمه العظيم آية الله الخمينى، الذى برهن للعالم أجمع على قوة الاسلام وسلامته فى عقيدة وأخلاق الجماهير الاسلامية ، وأنه ما يزال له أكبر سلطان على النفوس ، وأقوى نفوذ فى الشعوب ، وأعطى درسا قاسيا لكل من تحدثه وساوسه بالاستهانة به ، ومحاولة تجاوزه ،

والتنكر لاحكامه ، أو امتهان شعوبه ، وان مآل من تجرأ على شيء من ذلك ـ ان عاجلا أو آجلا ـ الاطاحة به ، وانزاله عن عرشه وطرده من بلاده ، ولو كان فى أسمى مكان ، يتربع ـ امبراطورا ـ على عرش عظيم يحميه بالجيوش الجرارة المسلحة بافتك الاسلحة والقواعد الذرية يقودها الدهاة من القادة العسكريين ويدبر ملكه دهاتيز السياسيين والاداريين ،ويتحالف معه اقوى المتحالفين ، ولو كان يملك القناطير المقنطرة من الاموال والذهب مما يسمح له بملك طائرة لانتقالاته « مرحاضها » من الذهب ، فضلا عن الكراسى ٠ حقا ان فى ثورة الشعب الايرانى ، واقدام الامام الخمينى ، والاطاحة بالامبراطور الشاهانى لآيات للسائلين ، وعبرا للمعتبرين ٠ وبعد ثورة الجزائريين معتمدين على الجهاد فى سبيل الله ، ثم ثورة الايرانيين معتمدين على كلمة الله فى انشاء دولة للمسلمين ، أسفر الصبح لذى عينين ، ولم يبق الحق فى ارتياب المرتابين ٠ وقد شاء المنظمون للندوة ان نتحدث عن عوامل انتصار ثورة الشعب الايرانى بقيادة الخمينى ، فنحن نذكر بعضها ، ولسنا نحصيها كلها ، ولا نزعم أننا قد اصبنا كل الاصابة فيما ذهبنا اليه ، فانما هى آراء قد تخطىء وقد تصيب، والله الموفق ٠

العامل الاول ـ المكانة الدينية :

كان للمكانة الدينية التى يحتلها آية الله الخمينى أثر عظيم فى انتصار ثورة يقودها ٠ فعالم الدين المسلم اذا كان يخشى الله ويتقيه ، ويصدع بكلمة الحق قياما بواجبه يكتسب قوة لا تدانيها قوة ، ويحتل مكانا لا يسمو اليه أحد ، لان كلمته كلمة الدين ، وللدين اقوى سلطة على النفوس ٠ انه حينئذ لا يغضب لنفسه ولا يرضى لها وانما رضاه وغضبه لله ٠ ومن خشى الله هان عليه كل شىء سواه ٠ والذين اكتسبوا قوة عظيمة من شدة ايمانهم ترهب المنحرفين من أعداء الله واعداء أنفسهم كثير فى الاسلام لا يخلو منهم زمان ولا مكان ٠ أو لهم ـ فيما اذكر ـ من الصحابة ـ عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فقد كان فى حياة الرسول ومن بعده من اقوى الرجال فى الهيبة وفى الحديث الصحيح أن الرسول أخبره أن الشيطان نفسه يهابه ، ويسلك اذا لقيه فى طريق غير طريقه ٠ وانا اذكر لكم مواقف لبعض هؤلاء الرجال امام الخلفاء

والقادة ممن كانوا من اعظم الحكام واشدهم سطوة وباسا فلم يرهبوهم وجهروا بكلمة الحق امامهم ، فما كان منهم الا الخضوع والاستسلام لكلمة الدين ·

من ذلك ان القاضى أبا يوسف شهد فى قضيه أمامه وزير لهرون الرشيد فـرد القاضى شهادته ولم يقبلها منه ، فلما اشتكاه الى الرشيد ـ وكفى به ملكا وسلطانا ـ قال أبو يوسف : سمعته ذات يوم يقول لك : أنا عبدك ، فان صدق قوله فان شهادة العبد لا تقبل فى القضاء ، وان كذب سقطت عدالته اذ لا تقبل شهادة كاذب » فهذا درس لقنه أبو يوسف لهذا الوزير المستخذى ولقنه أيضا لهذا الخليفة المتعال الذى يرضى من وزيره أن يخاطبه بالعبودية له ، اذ لا يصح حتى لرئيس دولة مثل هرون الرشيد أن يتعبد الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا ·

ومن ذلك ان قاضى الاندلس محمد بن بشير تلميذ مالك رد شهادة رئيس الدولة نفسه أمير الامويين ، وكان من أعاظيم الرجال والملوك ، عرضت امام القاضى خصومة كان فيها بينة مات جميع شهودها ماعدا الامير الحكم · فطلب منه صاحبها ـ وهو عم الامير ـ أن يؤدى شهادته فقال يا عم اترك الخصومة وأنا ارضيك فعزم عليه ، فادى الشهادة امام شاهدى عدل ، فذهبا الى القاضى وأدياها فقال : انصرفا راشدين فقد سمعت قولكما · فلما جاء صاحبها قال له القاضى : « تلك شهادة لا تعمل عندى ! » فرجع العم الى الامير يقول : ذهب ملكنا ، القاضى رفض شهادتك ! فقال الامير : ألـم اقل لك جنبنا هذا الموقف المخزى ؟ ! القاضى معه الحق فلسنا من أهل الشهادة ، ولو قبلها لعزلته · وسئل ابن بشير رضى الله عنه لم رد شهادته ؟ فقال لابد من الاعذار للخصم فى الشاهد ومن يستطيع من الرعية أن يتكلم فى الامير (1) ·

وامتنع سحنون من ولاية القضاء ـ لما ألح عليه الامير الاغلبى ـ حتى اشترط عليه أن تكون أحكامه نافذة على أسرة الامير وحاشيته · فمكنه الامير من ذلك · واثناء قضائه زين الشيطان لقائد قواته اثر ثورة مسلحة ان يسترق حرائر مسلمات ، فبعث سحنون

(1) انظر ترجمة ابن بشير فى ترتيب المدارك للقاضى عياض ·

كوكبة من الفتيان المسلمين هاجموا دار القائد واستخلصوهن وجاءوا بهن الى دار القاضى • فاشتكى القائد المنتصر الى الامير فراجع سحنون ، وأصر القاضى على موقفه حتى أغضب الامير ، فبعث انذاره الاخير : اما ان يسلمهن الى القائد واما ان تضرب عنقه وجاءه الرسول فما زاد على أن كتب فى الجواب « ويا قوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار » فما كان من الامير لما تلا الآية الكريمة التى وعظه سحنون بها الا ان طأطأ الرأس واستكان ، وقال لقائده الجائر : لا سبيل لك على القاضى » •

وقريبا من موقف سحنون موقف القاضى اسماعيل بن حماد رئيس هذه العائلة التى تولى قضاء بغداد علماؤها عدة قرون ، فقد أرادت احدى محظياته من النساء ان يرشد القاضى قريبا لها ، وكان سفيها ، ووسطت الخليفة فى الامر فكتب الى القاضى فلم يفعل ثم ذكرت الخليفة فاستشاط غضبا وبعث الى القاضى برسالة شديدة اللهجة فما كان من اسماعيل الا ان كتب على ظهرها « يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » فما كان من الخليفة ـ بعد ان سمع الوعيد ـ الا أن لان واستكان وخضع لمن ليس فوقه سلطان •

وقصة عز الدين بن عبد السلام مع أمراء المماليك بمصر الذين طغوا وبغوا فأذلهم وباعهم ـ أمام الشعب ـ بيع الرقيق ووضع اثمانهم فى بيت المال ـ قصة شهيرة ، وقد خضع أمير البلاد لحكم سلطان العلماء ، كما خضع لقضائه الامراء والوزراء ، ودفع عن الامة شرا عظيما ، وازال الجبروت والطغيان •

ان هذه المكانة السامية ، والسلطة القاهرة لعالم الدين الذى يخاف الله انما اكتسبها من قوة الدين وسلطانه ، فانه اذا خاف الله وأدى واجبه أطمأن الناس اليه وخضعوا لحكمه ، فكلمته حينئذ كلمة الله ، وكلمة الله هى العليا • فان خان عالم الدين واجبه ، وباع دينه بدنياه كان شر الخلق وبلاء على الامة والحكام •

العامـــل الثـــانى :

يرجع العامل الثانى - فى نظرى - الى قوة قاهرة فى شخصية الخمينى ، وشدة ايمانه ، وثباته على مبدئه • فقد ثار على الشاه لما رآه منحرفا عن الدين يرتكب هـو واعوانه ، ما شاءوا من الفجور والآثام ، ويستبيحون الحرام ، ويصبون على الشعب أنواعا من الارهاب والطغيان ، ويسرفون فى موالاة الكفار وتقريبهم ومعاداة الابرار وامتهانهم وتعذيبهم • ومنذ عهد مصدق والخمينى ورجال الدين ثائرون • وفى عام 1913 خطب الخمينى فى الجماهير فالهب مشاعرهم ، ونزلوا الى الازقة والشوارع يعربـون عن سخطهم ومحادتهم للطغيان ، فقابلهم الشاه بضروب من القمع والارهاب الوحشى ، وألقى القبض على الامام الخمينى ، وسكن الشعب ظاهرا فزين الغرور للشاه أن كـل شيء انتهى ، فما دام آية الله تحت قبضته يمكن له اطالة سجنه أو اخراجه من بلاده فله الامر كله يفعل ما يشاء ، وبالفعل أخرج الخمينى من ايران • وبعد أشهر قليلة سألته جريدة «العالم» الفرنسية (لوموند) (1) عن الخمينى المعتبر رئيسا لشيعة ايران فأجاب قائلا :

« لا يعتبر الخمينى فى شيء - كممثل للشيعة ، أنظروا منذ خمسة اشهر لم اسمع حتى الكلام عنه ، ولا أحد سيمع مجرد الكلام عنه ! » •

فهذا منتهى الغرور ، وها نحن نرى أنه بعد 15 عاما لم يستطع الشاه أن ينسى الناس الخمينى ، وأصبح العالم أجمع يسمع ويتحدث عن الخمينى فاذا تكلم كتم الاعداء والاصدقاء أنفاسهم وقرأوا لكل كلمة تصدر منه الف حساب •

ومن منفاه كان يخاطب شعب ايران فى ديارهم ، ويتحكم فى عواطفهم ، ورغـم الحكم الارهابى للشاه كان يشوقهم الى تحديه في الشوارع والاسواق بما يرسل من خطب مسجلة على « الكاسيت » توزع باحكام وتنتشر فى الدور والمجتمعات فتؤجج نيران الثورة وتدفع الفدائيين الى الفتك بالجلادين • وقد رأينا كيف كانت قوة ايمان

(1) جريدة « لوموند » الفرنسية عدد : 25 - 26 فبراير 1979 نقلا عن عما صدر منها فى شهرى جوان - جويلية 1963 •

الخميني وصلابته تأبى عليه أن يتنازل قيد انملة عن مطالبه وقراراته : لا مفاوضة مع الشاه ، ولا مفاوضة مع بل لا مقابلة مع رئيس مجلس الوصاية حتى يستقيل لانه مجلس غير شرعي أسسه الشاه ، لا مفاوضة بل لا مقابلة مع رئيس الوزراء الذى طلب ان ينتقل اليه من ايران الى باريس - حتى يستقيل لان حكمه للبلاد غير شرعي ، كل أعضاء مجلس النواب مذنبون لانهم انتخبوا نتيجة انتخابات نظمها الشاه ، وباب التوبة لمن شاء منهم مفتوح بشرط أن يستقيل من مجلسه . ان الخميني - بما يملك من قوة شخصيته - استطاع ان يسقط الشاه ويطرده من ايران ، وينسخ نظامه وهو بعيد عن ايران . والحق أنني - بيني وبين نفسي - كنت أقول أحيانا : لم هذا التصلب الشديد ؟ أليس من الحكمة والمرونة أن « يتنازل » الخميني للمفاوضة ، ويقبل باستمرار الحكومة البختارية حتى يجرى انتخاب فى البلاد لا شك فى نتيجته ووصول الشعب الى تحقيق أهدافه ، وينتقل الحكم من نظام الشاه الى نظام الاسلام دون ان يحدث فراغ ؟ ولكن الخميني كان يأبى ذلك لانه يعلم من مكر اعداء ايران ما لا اعلم وان مكر الشاه واعوانه وحلفائه من الامريكان والصهاينة والعملاء لمكر كبار ، وكيف تجرى انتخابات سليمة والبلاد فى قبضتهم بواسطة حكومة وجيش أقسموا يمين الولاء للشاه وباستطاعتهم اجهاض الثورة ، واخماد الجذوة ، أو احداث انقلاب عسكرى ضدها ؟ ان هذه الصلابة فى الخميني تذكر بصلابة نبينا صلى الله عليه وسلم - وهو قدوة الخميني وقدوتنا - حينما ظن أن عمه أبا طالب يريد منه ان يتنازل لقريش عن شىء مما يدعو اليه صلحا معهم فأعلمه الرسول أنهم لو وضعوا الشمس فى يمينه والقمر فى يساره ما ترك شيئا مما يدعو اليه حتى يحكم الله له أو يهلك دونه . وقد كان وانهار الشرك وعم نور الاسلام فاضاء أفق ايران فيما اضاء من الاوطان . هذه الصلابة فى الحق تعرب عن قوة عظيمة فى شخصية الخميني وهى بلا شك من عوامل انتصاره وانهيار الشاه وأعوانه وحلفائه .

العامل الثالث :

يرجع الى شعب ايران ، فان تاريخه القريب والبعيد يشهد بانه شعب عظيم جد بنى حضارة عظمى فى القديم ، وشارك بنصيب الاسد فى بناء الحضارة الإسلامية .

وما ذل ولا استسلم • وقد اعتنق الاسلام عن اقتناع واستضاء بنور الحق وأمد دول الاسلام ومجتمع المسلمين بالقادة السياسيين والعسكريين العظام ونبغ منه الوزراء والعلماء الاعلام • فلما ضعفت الخلافة الجامعة لشمل المسلمين وانحلت عرى الحكم تحت ظل حكومة واحدة رئيسها خليفة واحد ، تأسست فى ايران دول ايرانية حميمة ، لكنها مسلمة وفية لمباديها ، وكان لسلطان الدين ـ فى أمرائها وقادتها وجماهيرها ـ قوة قاهرة ولرجال الدين الكلمة النافذة ، فان نشأ طغيان أو انحراف وزير أو سلطان ادب بما يجب ان يؤدب به المنحرف ، أو أطيح به وطرد من حكمه • والتاريخ لا يبخل بالامثلة على من أراد البحث والاستقصاء •

العامـــل الرابـــع :

يرجع الى وضعية الامام آية الله الخميني ومكانته الدينية على رأس العماء فى ايران فالرئاسة الدينية عند اخواننا الشيعة تكسب صاحبها قوة روحية سامية أحكامه لا ترد وكلامه لا ينقض لانه حجة الاسلام ، ينطق بلسان الشريعة . فمن خرج عنه خرج عن الدين واتبع غير سبيل المؤمنين • والاغلبية فى شعب ايران شيعة من الطائفة الجعفرية كشيعة العراق • وهم من الامامية الاثنى عشرية القائلين بان الامام « يعين بالشخص لا بالوصف ، وأن الرسول عين عليا وأوصى له بالخلافة ، ثم صار كل امام يعين من بعده بالشخص حتى بلغ عدد الائمة اثنى عشر اماما أولهم على كرم الله وجهه وآخرهم المهدى ابن الامام محمد العسكرى عليهما السلام • وقد اختفى فى سرداب بداره حيث كان معتقلا مع امه وعمره أربع أو خمس سنوات • وهم ينتظرون أوبته حتى اليوم ليقود الجيوش فيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا (1) • وهؤلاء الائمـــة كلهم مـــن

(1) عقيدة خروج الامام المهدى المنتظر لا يختص بها الشيعة بل يشاركهم فيها كثير من أهل السنة لورود حديث اختلف فى صحته . ابن خلدون ينفيه ، وليس هو من أهل الحديث • ويثبته غيره وقد نشأت دول اسلامية عظمى نتيجة عقيدة المهدويـــة كدولة الموحدين بوطننا المغربى التى أسسها المهدى « ابن تومرت » وآخر من قاد الجيوش فقهر الانقليز فى معارك عدة هو المهدى السودانى ، والفرق بين الشيعـــة وأهل السنة ان الشيعة ينتظرون « مهديا » خاصا قد ولد وعاش ثم اختفى ، وأهل السنة على استعداد لقبول كل من يدعى انه المهدى ويثبت التغلب بقوة السلاح •

آل البيت من الهداة ومن العلماء الراسخين ، وكفى بمنزلة علي وبنيه وأمثال جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر نبلا ورئاسة وعلما ، وتقى وزهدا ٠ ومن عقائد الشيعة في ائمتهم انهم موصوفون لا يرتكبون صغيرة ولا كبيرة من الذنوب ويستندون في هذا الى قوله تعالى : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وكل ائمتهم من آل البيت قد ذهب عنهم الرجس وطهروا تطهيرا ٠ وفي غيبة الامام المنتظر يقوم رؤساء المجتهدين مقامه ، ولعلهم ان يكون من السلطان الديني في الشيعة، والنفوذ ما للامام المعصوم ، وخصوصا اذا كان المجتهد من آل البيت ٠ ولهذا كان الرؤساء الزمنيون – كالشاه والحكام – يهابون العلماء ويحذرونهم ويصانعونهم ويتملقون اليهم ، ويقراون لمواقفهم ألف حساب ، ولا يتجرأون على مخالفة فتاواهم ومن فعل ذلك كان مآله الخسران ٠ وقد رأينا مثلا معاصرا حيا في موقف الشاه الاخير وعاقبة أمره ٠ ويوجد مثلا آخر كان في أوائل القرن الرابع عشر الهجري وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي وهو ما حدث للشاه ناصر الدين يوم أن اصطدم بجمال الدين الافغاني ، – وهو من آل البيت وان لم يكن شيعيا ولكنه تمكن من استصدار فتوى من حجة الاسلام ورئيس علماء الشيعة ، والقصة نرويها فيما يلي :

جمال الدين وناصر الدين :

أما جمال الدين (1) فأشهر من أن يعرف، فهو الثائر المفكر والعالم المصلح وعدو الاستعمار اللدود ، وطريده الحقود عليه ، وخصوصا الاستعمار الانقليزي ٠ وينحدر الافغاني من آل البيت ويتقن ألفارسية لانها لغة العلم في الافغان والهند كما في ايران واما الشاه ناصر الدين فانه ولي الحكم في الفترة (48 – 1892) وجال في أقطار أوروبا ، وعرف ما هي عليه من رقي علمي وتقدم صناعي ورخاء اقتصادي ، ورفاهية في شعوبهم فأحب ان يكون لوطنه ما لاوطانهم وشعوبهم ٠ وبينما كان في زيارة لروسيا علم أن في عاصمتها سانطراسبورغ (لينينغراد) السيد جمال الدين فبعث اليه ليجتمع به فلم يعبأ جمال الدين بدعوته ٠ ثم أجتمعا في بعض مدن ألمانيا كما

(1) ترجمة حياة جمال الدين في كتاب تاريخ الاستاذ الامام محمد رشيد رضا ، ج 1 ٠ ص : 54 – 55 ٠

قال جمال الدين بوساطه من بعض كبراء الايمان وغيرهم « فرغب الى ان أذهب معه الى بلاده ليجعلنى رئيس وزرائه فابيت ... فألح على أشـــد الالحاح حتى ألزمنى بالذهاب معه وكان يقول عنى : هذا رجل العالم السياسى الحربى الجدير بان يكون رئيس وزارة ويقوم بتدبير الشعب ! » . ولما حل بطهران أخذ يتصل برجال العلـم والفكر والسياسة والاقتصاد ، ويصرح بآرائه وبرامجه فى الاصلاح الدينى والسياسى والادارى والمالى . ومن ذلك تأسيس الحكم الشورى ـ كما هو الحكم فى الاسلام ـ وتمكين الامة من الحكم ومراقبة الحكام بواسطة المجالس النيابية . وكان الانقليز قد بدأوا يتغلغلون فى ايران بواسطة شركاتهم تمهيدا لاحتلالها . فهالهم وجود جمال الدين وامكان تنفيذ برامجه فأخذوا يدسون له بواسطة عملائهم وعلى رأسهم رئيس وزراء الشاه الذى خشى ان يخلفه جمال الدين فى منصبه ، فشرع يوغر صدر الشاه ضده ويفهمه أنه يريد أن يطيح به من كرسى الملك لتاسيس جمهورية ، وينقل اليه بواسطة الجواسيس والعملاء من كلام جمال الدين ما يدعم ادعاءاته ، مما جعل الشاه يعدل عن رأيه فى جمال الدين ، ويعزم على اضطهاده ومنعه من الخروج ، وجاهره الشاه ببعض ما يريد ، فاحتمى بمقام عبد العظيم ـ وهو حرم آمن عند الشيعة وبقى فيـه سبعة أشهر قضاها فى حرب الشاه بما يكتب من مقالات ومنشورات يدعو فيهـــا الشعب للاطاحة بالشاه ونظامه فلم يطق الشاه على وجود جمال فى طهران صبـــرا فأرسل جنده من الزبانية فاقتحموا المقام وهاجموا فيه الافغانى ، وساقوه فى قسوة وامتهان الى مقرهم ، ثم ساقوه من طهران حتى حدود العراق فى أحوال طبيعية شديدة من ثلوج ورياح عاصفة وحر لا يطاق . وجروه على الجليد وهو مريض يرتعد من الحمى وكانت هذه حماقة مزدوجة : أولا اقتحام حرم آمن مقدس عند الشيعة وفى ذلـك اعتداء على العقيدة الدينية . ثانيا اهانة عالم من علماء الدين ، ومن العترة النبوية .

فضح المستعمرين ومشاريعهم وأذنابهم :

فلما وصل الى العراق بعث بكتاب رائع الى حجة الاسلام وامام الشيعة المجتهـد المقيم بمدينة « السامرة » أو « سر من رأى » الحاج محمد حسن الشيرازى يفضح فيه الشاه ورئيس وزرائه ومشاريع الاستعمار جاء فيه :

« أيها الحبر الاعظم : ان الملك قد وهنت مريرته فساءت سيرته • وضعفت مشاعره فقبحت سريرته • وعجز عن سياسة البلاد ، وادارة مصالح العباد ، فجعل زمام الامور كلها وجزئيها بيد زنديق أثيم ••• يسب الانبياء فى المحاضر جهرا ، ولا يذعن شريعة الله أمرا ، ولا يرى لرؤساء الدين وقرا • يشتم العلماء ويقذف الاتقياء ••• وقد خلع العذار وتجاهر بشرب العقار ، وموالاة الكفار ومعاداة الابرار ••• ثم انه باع الجزء الاعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لاعداء الدين : المعادن والسبل الموصلة اليها، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ••• » (1) • ثم عدد جمال الدين ما احتكرته الشركات الانقليزية من المزارع والفنادق والعمارات والحقول والبساتين على جوانب الطرق والانهار ، وزراعة وصناعة وتسويق التمباك ، واحتكار العنب لصناعة الخمور ، وكل ما يتبعها وتسويقها ، وصناعة الصابون والسكر والشمع وكل ما يلزم لذلك من معامل وتسويق • وكذلك البنك وفيه يقول : « والبنك وما ادراك ما البنك ؟ ! هو اعطاء زمام الاهالى كلية بيد عدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه أياهم وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان ! » وجاء فى الرسالة وصف ما يلحق الاهالى من أنواع العسف ، وما لحق جمال الدين من الاهانة وما يقول عنه من البذاءة وهو سليل العترة النبوية • ونقل عنه اعتذاره السخيف عن بيع بلاد ايران للانقليز بقول الوزير : « هذه معاهدات زمنية ومقاولات وقتية لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة » (2) • ثم يقول عنه : « وعرض الجزء الباقى على الدولة الروسية حقا لسكوتها لو سكتت ••• ولكن الدولة الروسية شمخت بانفها وأعرضت عن قبول تلك الهدية وهى عازمة على استملاك الخرسان والاستيلاء على اذربيجان والمازندان ان لم تنحل هذه المعاهدات ••• وبالجملة ان هذا المجرم قد عرض اقطاع البلاد الايرانية على الدول يبيع بالمزاد، وانه يبيع ممالك الاسلام ودور محمد وآله عليهم الصلاة والسلام للاجانب ولكنه لخسة طبعه ودناءة فطرته لا يبيعها الا بقيمة زهيدة ودراهم معدودة ، نعم هكذا يكون اذا امتزجت اللئامة والشره بالخيانة والسفه » (3) وفى الكتاب تحريض لحجة الاسلام على العمل لاسقاط

---

(1) أنظر نص هذه الرسالة البديعة فى المجلد الاول من تاريخ الاستاذ الامام محمد رشيد رضا • ص 56 •
(2) المصدر السابق • ص 59 •
(3) المصدر المذكور ، ص 62 •

حكم الشاه ، وبيان لمسؤولية العلماء ـ وخصوصا حجة الاسلام ـ عن سكوتهم أمام الله وأمام الامة ٠

كلمة حجة الاسلام تزعزع سلطة الشاه :

وتكلم حجة الاسلام فضرب مشاريع الانقليز وسلطة الشاه ضربة قاصمة اذ أصدر فتواه بحرمة استعمال التنباك وزراعته . وكان اعظم المشاريع الانقليزية واذاع العلماء فتواه بسرعة البرق فخضعت لها اعناق الامة حتى فى قصر الشاه فانه « طلب فى صبيحة يوم ـ بعد وصول الفتوى الى طهران ـ النارجيلة (الشيشة) فقيل له : ليس فى القصر تمباك لاننا اتلفناه ، فسأل عن السبب فقيل له : فتوى حجة الاسلام . فقال : لم لم تستأذنونى ؟ قيل انها مسألة دينية لا حاجة فيها الى الاستئـذان ! ! واضطر بعد ذلك الى ترضية الشركة الانقليزية على أن تأخذ نصف مليون جنيه وتبطل الامتياز ، وهكذا نجد أن كلمة الدين من حجة الاسلام وجدت الطاعة المطلقة من شعب ايران حتى فى قصر الشاه . وقد انقذت البلاد من الاحتلال بابطال مقدماته ـ كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا ـ ووجه جمال الدين ضربة بارعة للشاه ووزيره ومشاريع الانقليـز ٠

مـآل ناصر الدين :

لجمال الدين مكانة عظمى فى نفوس الايرانيين ، لانه أولا من العلماء . وينتسب ـ ثانيا ـ للعترة النبوية . ولانه ـ ثالثا ـ عدو الاستعمار اللدود وكاشف دسائسه، ولانه ـ رابعا ـ المنادى بقاعدة الحكم الشورى الاسلامى فى البلاد ، والاطاحة بالحكم الملكى الاستبدادى ٠ ولهذا كانت اهانته واثارته من طرف الشاه وأعوانه من أكبر الحماقات التى ارتكبها الشاه ناصر الدين ووزيره الاكبر ، وقد آلى جمال الدين على نفسه الا يرضى «الا ان يقتل الشاه ويبقر بطنه ويوضع فى القبر» (1) وقد ندم الشاه

(1) المصدر السابق ، ص 63 ٠

على ما فعل وحاول ان يسكت جمال الدين ويرضيه بكل الوسائل فما استطاع ثم توسط بالسلطان عبد الحميد ،أعلن جمال الدين امامه بأنه يعفو عنه امتثالا لامر أمير المؤمنين ، ولكن الشاه مع ذلك لم ينج وذهب اليه فدائى من أصدقاء جمال الدين عام 1896 م ، وفى مقام عبد العظيم الذى أهين فيه جمال الدين تقدم منه الفدائى (رضا اغا خان) وضربه بخنجر قائلا له : « بدى آز جمال الدين » أي خذها من يد جمال الدين» (1) فلما بلغ الخبر الى الافغاني سر من ذلك، وقال : «قد تحققت الآن ان الامة الفارسية لم تمت ، وأنها أمة لم تنقطع منهل الآمال ، لان الامة التى يقوم من أبنائها من يأخذ بثارها ويفتك بالطاغى الذى على رأسها لا تكون فقدت جراثيم الحياة»(1) وقد أتهم الفدائى بأنه بابى ، ويحق لنا أن نشك فى ذلك ، فان جمال الدين – فى رسالته الى حجة الاسلام – يقول عن رئيس الوزراء انهم ينسبون العصابة التى ساقتها الغيرة الدينية والحمية الوطنية الى المدافعة عن حوزة الاسلام وحقوق الاهالى بقدر الطاقة والامكان الى الطائفة البابية » (2) • وقد برهنت ثورة شعب ايران بقيادة الخمينى على سلامة نظرية جمال الدين وصحة حكمه على هذا الشعب الحى وشدة تمسكه بالغيرة الوطنية والعقيدة الدينية وعداوته للاستعمار واذنابه •

العامل الخامس :

كون الثورة أعلنت ضد الاستعمار واذنابه والعمل للاطاحة به واراحة البلاد والعباد من شروره وآثامه • وقد كانت ايران منذ ابتداء زحفه مطمح أنظاره وموطن اطماع دوله العظمى ومدّ ثديها • وكلما حققت احداهن نجاحا بفضل خيانة عميل خائن لامته ودينه ووطنه كلما تفتحت شهيتها وقالت : هل من مزيد . وفتحت بابا لمنافسيها لينال حظا مثل حظها أو أكثر ، كما رأينا فيما قصه جمال الدين – وهو شاهد عيان – عن صفقات الشركات الانقليزية التى باع بمقتضاها رئيس الوزراء ، منافع الجزء الجنوبى من البلاد ، ثم اضطر الى عرض الجزء الشمالى على الدولة الروسية ثمنا لسكوتها فأبت الا اقتطاع اجزاء ثلاثة من مقاطعات الشمال ان لم تحل الصفقات الانقليزية ولم تنحل تلك الصفقات الا بثورة العلماء واصدار فتوى حجة الاسلام وطاعة الشعب

(1) حاضر العالم الاسلامى • ج 2 ، ص 295 •
(2) تاريخ الاستاذ الامام • ص 61 •

لكلمة الدين وشعور الشاه انه غير مطاع حتى فى قصره اذا استمر على بيع منافع البلاد والاستهانة بكلمة الدين ورجاله .

واذا كانت ايران قد نجت ـ قبل عام 1941 ـ من الاحتلال العسكرى فانها لم تنج من الاستعمار الاقتصادى والسياسى ، فقد استولى على خيراتها وثرواتها المعدنية ، وخصوصا البترول . ولما ثار الشعب ـ وفى طليعته علماء الدين بقيادة آية الله القاشانى ، وآية الله الخمينى وغيرهما ـ واستطاع ان يؤمم البترول ويضمن جزءا هاما من ثروته الوطنية بواسطة حكومة مصدق تدخلت القوات الاستعمارية ، والهيمنة العالمية بقيادة انقليترا وامريكا واسقطت حكومة مصدق ، وأرجعت الشاه الذى فر ناجيا بنفسه الى الحكم بعد الاطاحة به ونصبته من جديد على البلاد ، وأبطلت تاميم البترول ، وسلمت تسويقه الى شركات ثمانية (الكارتيل) وبعد ان كان الشعب يواجه شركة واحدة ودولة واحدة أصبح يواجه شركات ثمانية ودولا عديدة ، لقد تدخل الاستعمار عسكريا عام 1941 وطرد من الحكم شاها ونصب مكانه شاها آخر يطمئن اليه ، واستغل السكة الحديدية لفائدة المتحاربين فى حرب كان الشعب الايرانى محايدا فيها . ثم فرضت عليه سياسية خارجية ـ من بعد الحرب ـ لا يريدها ، فوجد الايرانيون أنفسهم مربوطين بحلف بغداد ، يعادون من شاء المستعمر أن يعادوه ، ويصادقون من شاء ان يصادقوه . وتحطم حلف بغداد ، يوم أصبحت بغداد ضد حلف بغداد فخلفه الحلف المركزى وقام مقامه ، وقد وجد الشعب الايرانى أرضه محتلة بعشرات الآلاف من الجنود الاجنبية تصول وتجول فوق ترابه تفسد الاخلاق وتنشىء ما ارادت من القلاع والحصون وتخزن فيها آلات الفتك والدمار، ومراكز التجسس وضرب حركات التحرير فى الشعوب ، ثم ضرب كل حركة تململ فى الشعب ، وهكذا وجد الشعب بلاده محتلة فعلا مستقلة اسما : خيراته مسلوبة ، وثرواته منهوبة ، وحرياته مفقودة ، وكرامته مداسة ، ودينه مهانا واقتنع الايرانيون أن الوجه الكريه للاستعمار فى ابشع صوره هو الشاه ، وانه لا يستطيع أن يتخلص من الاستعمار وعملائه ويسترجع كل خيراته وحرياته الا بالتخلص من الشاه وعائلته ونظامه فثار وانتصر لانه ثار ضد الاستعمار .

العامل السادس :

وهو يكمن فى حماقات كثيرة ارتكبها الشاه أوقعه فيها غروره الشديد وثقته بان حماية الاستعمار ـ الذى نصبه فى الحكم عام 1941 ثم أعاده الى العرش بعد ان

فقده بثورة الشعب وطرد من البلاد فى أوائل الخمسينات اثر تأميم البترول ـ كفيلة بخلود ملكه • وتعزيز سلطانه • فله ان يرتكب ما شاء من أعمال ، وينطق بما شاء من أقوال ويبذر ما شاء من أموال • وأمثلة حماقاته كثيرة نكتفى بسرد نماذج منها :

1 ـ فساد أخلاقه وتبذيره أموال الشعب ، ومن ذلك ما نقلته وكالة روتير عن صحيفة (اطلاعات) ـ تصدر بطهران ـ المسائية بأن حمام (مرحاض) طائرته مصنوع من الذهب الخالص ، وان السيفون والحنفيات والدش كلها مصنوعة من الذهب الخالص وان هذه الطائرة المسماة (الشاهى) تعد أغلى طائرة فى العالم فان ثمن الذهب الموجود فيها يبلغ مليون دولار ، فى حين يبلغ ثمن التجهيزات فيها حوالى 43 مليون دولار »(1) كل هذه الملايين ذهبت الى جيوب اعداء البلاد من المستعمرين ومحتكرى الذهب من الصهيونيين • وقد حرم الاسلام استعمال آنية الذهب على النساء والرجال ، وأحله ـ حلية ـ للنساء دون الرجال • ولكن هل يعد فى الرجال ـ ولو فى المائعين منهم ـ من يبيع وطنه ويخون أمته ، ويكفر بدينه ؟

2 ـ تحديه للدين واستهانته بقواعده ، وازدراؤه برجاله وجهله بقوة ايمان شعبه بالله ورسوله ، واعتزازه بما فيه الاسلامى • ومن مظاهر هذا التحدى محاولته لفصل شعبه عن دينه وماضيه الاسلامى والرجوع الى عهد الجاهلية بتبديله التاريخ الهجرى ، واستعمال تاريخ الامبراطور قورش (CYRUS)الجاهلى الذى حكم الفرس قبل الاسلام بأكثر من أحد عشر قرنا (خمسة قرون قبل الميلاد) • والظاهر ان مزيته عند الشاه أنه وسع ملكه على حساب جيرانه وأسس من الاقطار المفتوحة امبراطورية واسعة من ضمنها العراق ، ولما احتلها وجد فى بابل بقية اليهود الذين جيء بهم منفيين من فلسطين فأمر بارجاعهم ، واذن لهم فى العودة الى القدس ليفسدوا فيها مرة أخرى ويعلوا علوا كبيرا • فلم لا يخلد ذكره ولا يتسمى باسم « الامبراطور » ولا يسعى للتوسع ومحاولة الفتح فى الخليج واماراته وجزره ويزحف نحو بابل ويؤسس العلائق الحبية ـ سياسيا واقتصاديا وحربيا ـ مع اليهود ؟ وكيف لا يستبدل تاريخ

(1) عن جريدة الرأى العام الكويتية الصادرة فى 1399/3/25 بنقل مجلة المجتمع الكويتيــة •

قورش الجاهلي بتاريخ محمد عليه الصلاة والسلام ؟ · ان الاقدام على مثل هذا العمل جهل فظيع وغرور شديد يعرب عن زندقة وشعوبية كريهة يتبرأ منها كل مسلم سليم الدين في ايران ، وقد جاء في الحديث « من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن ابيه ولا تكنـوا » ·

3 ـ اعترافه بدولة الصهاينة المغتصبة لارض فلسطين وتحالفه معهم ، وفتح أبواب دولته في وجوههم ، لنهب ثروات شعبه وترويج منتوجاتهم ، وتموينهم بالبترول الضروري لصناعتهم ولحروبهم مع العرب واحتلال أوطانهم وتشريد نسائهم واطفالهم وضرب مخيماتهم في الملاجىء · ثم بلغ به الحمق أقصاه عندما استعان بجواسيسهم وشرطتهم وجنودهم ليفتكوا ـ في عاصمة ملكه ـ بشعبه ، وينكلوا بالثائرين على فساده وطغيانه ، وهو يعلم أن كل قارىء في ايران يتلو في كتاب الله من آياته « لتجدن أشد الناس عدواة الذين آمنوا اليهود » · ويتلو قوله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ·

فاذا أعلن اليهود الصهاينة رضاهم عنه فقد اتبع ملتهم ! ! ويتلو أيضا قوله تعالى : « ومن يتولهم منكم فانه منهم » · في شك ـ عند المؤمنين أنه أصبح منهم بهذا النص القرآني وكل شعبه يعلم أن القدس ثالث الحرمين وأولى القبلتين فكيف يستبيح شعب مسلم ان يداس من اليهود مسرى رسول الله وقبلة المسلمين ؟ ! فتحالف الشاه مع الصهاينة من أشد ما ارتكبه من الحماقات التي عجلت بتأجج الثورة وسحقه ·

أيها الاخـوة الكرام ،

هذه ـ في نظري ـ هي أهم العوامل التي اطاحت بالشاه ونظامه وعجلت بانتصار ثورة الشعب الايراني بقيادة آية الله الخميني ، وسهلت عليه ان يوحد كلمة الشعب ويجعل من وحدته قوة رهيبة ـ ولا يمكن أن تجمع كلمة شعب على اختلاف طبقاته وميوله وأهوائه الا كلمة الدين ـ وبهذه القوة الضاربة التي قنعها الخميني انتصر ، ولم يتحد الشاه وحده ، ولكنه تحدى بها كل قوات السيطرة والهيمنة العالمية وصرعها مع الشاه ونظام حكمه · ومما لا شك فيه ـ وهذا ظاهر لكل ذى عينين سليمتين ! ـ

أن قوة الدين وعقيدته الراسخة متى استعملها قادة مؤمنون ملتزمون، وزعماء مخلصون سرت من ايمانهم واخلاصهم نفحات روحية من الايمان والاخلاص الى ارواح الافراد والجماهير من شعوبهم واتباعهم ، فأصبحوا قوة ضاربة لا تغلب ، ارادتهم من ارادة الله وارادة الله لا تقهر دليل هذا قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغـــيروا ما بأنفسهم » ٠

وان الاسلام القوي ما يزال ينبت في أوطانه مثل هؤلاء القادة ، ويملك مثل هذه الجماهـــير ٠

والسلام عليكم ورحمة الله ٠

● أهم انجاز للثورة الايرانية هو القضاء على الحكم الوراثي .

● لقد برهن الخميني انه بامكان رجل الدين ان يلعب الدور السياسي والاجتماعي ، ويقود الجماهير الى النصر .

الطاهر بن عائشة
كاتب - الجزائر

أيها الاخوة ، السلام على من اتبع الهدى ،

يشدنا الى الثورة الايرانية ، ثورة الامام الخميني اشياء تاريخية كبيرة ، واشياء معاصرة أيضا أكبر .

للجزائر علاقات قديمة جدا مع شعب ايران ، ومع فارس القديمة تعود الى تأسيس الدولة المشتركة للخوارج في تيهرت، وكذلك عندما فر اللاجئون البرامك الى الجزائر بعد اضطهادهم من طرف هارون الرشيد . توجد قرية الى الآن ، سكانها يدعون بالبرامك قريبا من ادرار تسمى « بوعل » . والآن ونحن نخوض حربا لا هوادة فيها ضد الاستعمار ، وضد الصهيونية ، والرجعية ، ينضم الينا الشعب الايراني بكل طاقاته الثورية والمادية في معركة البترول وفي المعركة ضد الصهيونية ، وفي كل المعارك . هذه الاشياء تدفعنا الى التأمل في هذه الثورة ، وفي جذورها ، وفي طبيعة الرجال القائمين عليها ، وفي طليعتهم الامام آية الله الخميني .

باعتقادى انه ليس غريبا ان يبرز رجل كآية الله الخمينى ، المجتمع الاسلامى ملىء بالرجال ، الذين ضربوا المثل الاعلى فى التضحية والذكاء ، وفى النضال من أجل مصالح الجماهير . وكما قلنا فى الماضى ، المجتمع الاسلامى ، وكل مجتمع ينقسم فيه الرجال انقساما اخلاقيا بما فى ذلك رجال الدين أيضا ، ينقسمون انقساما اخلاقيا : فمنهم الشرفاء الشجعان ، النبلاء ، الذين يمثلون الحق ، ويمثلون جوهر الدين ، ومنهم أيضا الامتيازيون ، والوصوليون ، الذين يزينون للسلطان . هناك قوافل من رجال الدين الكبار الذين ماتوا وهم يصارعون الطغيان . نعرف الكثير منهم السهروردى ، الحلاج أبو الحسن الشوهى فى تلمسان الذى قطع راسه للقضاء والدين . وهناك أيضا كثيرون . لكن ظروف نجاح الثورة لا يعود الى شخص . وان الطاقة الحقيقية للثورة هى دائما الشعب ، مهما كانت الرجال ، ومهما كانت عبقريتهم ، يظل شروط نجاح الثورة مرهونة بالشعب . والشعوب أيضا مهما كانت ، فهى فى حاجة الى قيادات ، يبدو انى قرأت ذات يوم فى مكان ما ، أذكر ان احدهم مثل الشعب كجبل لليورانيوم ، الجبل خام فى اليورانيوم تبول فوقه الابل والمعز ، ويمكن ان يمر عليه انسان دونما الاحساس بالطاقة التى يختزنها ، ولكن عندما يعالج من طرف العلماء تصبح ذرة منه تدمر جزءا كبيرا من الارض وكذلك الشعوب عندما تعالج من طرف الخبراء ، والشرفاء وتحرك مشاعرهم وتثير وعيهم ، وتلهبهم الى الحق والنضال من أجل الحق ، ومن العزة ، تأتى هذه الشعوب بتلك الطاقة التى تعادل طاقة اليورانيوم .

فأين هذه الطاقة اذن فى الشعب الايرانى ؟ من أين بدأت ! هنا ، لابد من معرفة الوضع العام ، أو الحالة الاجتماعية التى كان يعيشها الشعب الايرانى من خلال بعض الاحصائيات .

يسيطر النظام الاقطاعى على أغلب الاراضى الزراعية فى ايران بحيث لا يحسب الاقطاعيون هناك أراضيهم بالهكتار بل بالقرى التى يملكونها سبع وثلاثين عائلة تملك 20 الف قرية ، 60 ٪ من الفلاحين لا يملكون أرضا ، 33 ٪ يملكون أقل من هكتار للفرد الواحد . 1 ٪ تملك عشرين هكتارا .

من 52 ألف قرية في ايران ، يمتلك 33 ألف قرية عدد محدود من الاقطاعيين ٠ تمتلك العائلة الاقطاعية الواحدة بين 600 ، 800 قرية ، وهذا يزيد في بعض الاحيان على مساحة سويسرا أو هولندا ، يملكها فرد واحد ، يمتلك الشاه وحده ألفي قرية ، تزيد مساحتها المروية على مليون ونصف المليون من الهكتارات ، وهي نسبة 25 ٪ من الاراضي التي يمتلكها ٠ 1 ٪ يسيطر على اقتصاد البلاد ، 3 مليون عاطل عن العمل ٠ يدفع العامل 60 ٪ من أجره القليل بـــدل الكراء السكني المتواضع ، يصيب العامل والفلاح 1800 كالوري يوميا ، وهي نسبة ضئيلة جدا حتى اذا ما قيست بأشد الفلاحين بؤسا ، مثل الفلاح الحضري الذي يصيب 2500 كالوري ، هذه الارقام ترسم لنا لوحة بسيطة للبؤس الذي يعاني منه شعب ايران ٠

هناك تميز في التعليم ، هناك تعليم خاص باهض التكاليف وهناك تعليم الحكومة الذي لا يفي باحتياجات المواطنين ، حيث ما يزيد عن نصف السكان لا يزال أميين في ايران التي تعتبر من أغنى الشعوب ٠ بالاضافة الى هذا هناك جنون العظمة لـــدى الشاه ، الذي حول ثروات البلاد كلها لجيشه يرى انه سيكون أقوى جيش بعد الولايات المتحدة الامريكية في المعسكر الغربي ٠ وبواسطة هذا الجيش كان يحلم بتوسيـــع الامبراطورية على حساب الجيران وبالفعل نعرف جميعا ان هذا الجيش هو الذي ساعد على اجهاض ثورة ظفار وعمان وهو الذي غزا بعض الجزر في الخليج وهـــو حارس المصالح الامريكية في المنطقة الى غير ذلك ٠ هذا الوضع ، وتوجيه كل ثروات ايران لتسليح هذا الجيش جعل البرجوازية الوطنية وحتى الاقطاعيين يثورون ويمتعضون من هذا النظام الذي لم يستفيدوا منه ٠

وتكونت حالة مقاومة لدى الشعب ، برزت في 1951 ثورة مصدق التي اجهضها الامريكيون في 1952 ، ثم في 1963 كانت ثورة الخميني الاولى ، وهنا يتساءل البعض ان الشاه قام بثورة سماها الثورة البيضاء لاسكات الرأي العام ٠ لكن هذه الثورة ، كانت عملية مغالطة ، والده عام 1920 عند ما كان ضابطا في جيش المملكة التي اتقلب عليها ، بعد ما عمل انقلابه غزا أراضي الشمال وصادرها واستولى عليها ، فاراد الشاه ان يعيد هذه الاراضي لاصحابها الملاك القدامى وسمى هذا الثورة الزراعية ٠

وبمناسبة الاحتفال بذكرى عاشوراء ، دعى الخميني الى مقاومة الشاه ، وقامت ثورة ، فعبر عنها الشعب بكل عنف ، وادى الى سجن الامام الخميني ثم نفيه • ومنذ ذلك الوقت ومحاولات الثورة مستمرة ، تكونت فرق للفدائيين متعددة ، ومنظمات ولكن الشاه كان يزهقها • فما هو الوضع العـــام ابـان قيـام الثـورة ؟ هنا بعض الاحصائيات أيضا :

أولا ـ الجيش : الجيش كان قوامه 400 الف مقاتل منهم 100 الف فى القوات الجوية و 25 ألف فى القوات البحرية ، وأكثر من 250 ألف فى جيش المشاة ، وتتكون القوات الجوية والبحرية من عسكريين نظاميين تدربوا على أيدى خبراء أمريكيين ، ولهم نزعات موالية لامريكا كما تضاف الى هذه الارقام 10 آلاف قوام الحـــرس الامبراطـورى الرهيب ، و 60 ألف عدد افراد الدرك • كما يوجد فى ايران جيش آخر مكون من 1200 مستشارا عسكريا امريكيا يعمل فى خدمة هؤلاء المستشارين 7500 أمريكى مدنى « جواسيس بطبيعة الحال » وأكثر من مائة ضابط متقاعد فى المخابرات الامريكية يضاف الى ذلك منظمة السافاك المرعبة ، وهى البوليس السياسى وقـــوامها 4800 عميلا ، و 56 ألف مخبرا مأجورا • وكانت المخابرات الامريكية هى التى انشأت هذا السافاك سنة 1957 ، وفيما بعد كانت المخابرات الاسرائيلية هى التى تقدم المساعدات الملموسة للسافاك •

ثانيا ـ القوة الدينية : يوجد فى ايران 80 ألفا مسجدا و 180 الفا اماما ، وهذه قوة تلعب دورا خطيرا ، ولعبت بالفعل الدور الاكثر خطورة فى هذه الايام •

ثالثا ـ الأسواق : تجار كبار ، ومتوسطين ، وصغار : لعبت الاسواق دورا هاما فى الاحداث الاخيرة لايران • فسوق طهران وحدها تقوم بتنفيذ 60 الى 70 ٪ من عمليات الاستيراد والتصدير ، وتمد البلاد بكل ما هو ضرورى بالفعل • ولا ريب فان غلق هذه الاسواق « حوالى 500 ألف دكان » فى العاصمة وحدها قد ادى الى وقف نشاط الاسواق الاخرى • وهذه الاسواق متحدة فى رابطتين كبيرتين ، تقدمـــان المساعدة المالية للمشتركين فى الاضرابات من عمال وفلاحين •

رابعا ـ الاحزاب السياسيه : تعتبر الجبهة الوطنية أكبر قوة فى البلاد وتضم هذه الجبهة ثلاث مجموعات أساسية : حزب ايران وممثلى الاسواق وبعض رجال الدين ويتزعم هـذه الجبهة الدكتور كريم السنجابى كما تضم الجبهة الوطنية الجزء الاكبر من المثقفين ·

ـ اما المنظمة الثانية من حيث الاهمية فهى حركة التحرير الوطنى التى يرأسها الدكتور بزرجان المقـرب جدا مـن الدوائر الدينية ومن الامام آية الله الخميـنى ·

ـ اما حزب ايران الشعبى المعروف باسم « تودا » أو الحزب الشيوعى فهو أكثر الاحزاب تنظيما فى عهد مصدق ، ولكنه تعرض للاضطهاد العنيف ابتداء من 1956 ولكنه حافظ على مواقعه القوية فى بعض المناطق من البلاد · كما توجد الى جانب هذه الاحزاب المذكورة حوالى ثلاثون منظمة سياسية صغيرة ، وهذه المنظمات الصغيرة لعبت دورا أيضا كبيرا فى هذه الايام ، ومن بينها الحزب الراديكالى الذى يعتمد عـلى بعض دوائر المثقفين ، والبرجوازية الوسطى ، الفرق المسلحة المعادية للحكومة وأهمها فرق الفدائيين ، وفرق المجاهدين ·

خامسا ـ الحركة الطلابية : يوجد فى ايران 170 ألف طالبا و 84 الفا تلميـذا بالمدرسة المهنية ، و 130 ألف تلميذا بالمدارس الثانوية ، والجميع يشتركون اشتراكا نشيطا فى الصراع السياسى ضد السلطة · ويوجد مائة ألف ايرانيا يدرسون فى الخارج ، والجميع تقريبا ضد الشاه ·

سادسا ـ الطوائف المختلفة : النقابات غير مصرح بها من طرف نظام الشاه ، وفى هذه الظروف تشكلت هيئة للاضراب شارك فيها كل أصحاب المهن ، بما فى ذلك المحامين والكتاب وكان أكبر سلاح وانجعه استعملته الثورة الايرانية هـو ذلـك الاضراب العام الذى أعلن يوم 11 نوفمبر 1978 الى غاية انتصار الثورة، والذى شاركت فيه جميع هذه الهيئات المذكورة ·

كما رأينا ينبغى أن لا تغيب كل هذه المجموعات عن البال عندما نتحدث عن قيادة آية الله الخمينى لهؤلاء الرجال ، وهذا لا لطعن فى الدور المتقدم لآية الله الخمينى ،

انما أردنا ان نضع كل الاشياء فى اطارها · لكن يبقى السؤال ان الذى حصل هـو حلم يراود أئمة الشيعة منذ بدأوا يحلمون ويصارعون الخلافة ، تلو الخلافة ، والمملكة تلو المملكة ، وكان الشيء الاساسى بالنسبة للشيعة هو القضاء على الحكم الوراثى ، هذا الحلم الذى راود السكان الايرانيين حتى منذ قبل الاسلام ، لانهم اضطهـدوا بواسطة الحكم الملكى منذ الساسانيين منذ 2500 سنة · هذا الشيء الاساسى هو الذى انجزته الى حد الآن الثورة الايرانية · ثم انها بدأت الآن فى انجاز هياكل ستسمح بالصورة المشرقة لمستقبل ايران · اعتقد ان الامام الخمينى ما كان له ان ينتصر لو لم يتمثل رغبة الشعب ويمثلها ·

فالامام الخمينى الذى انتصر هو رجل المطالب الشعبية هو الرجل السياسى ، هو الرجل الذى فهم الدين فهما حقيقيا فكثير من رجال الدين يرتلون علينا آيات الدين من الصباح الى المساء ، ولكن عندما يتعلق الامر بالشعب ، يتجاهلون الشعب.فسر البطولة وسر العظمة فى الخمينى انه برهن أنه بامكان رجل الدين ان يلعب الـدور السياسى الاجتماعى الخطير الذى يقود الجماهير الى النصر · والسلام عليكم ورحمة الله·

الاســـلام ثـــورة سماويـــة

● **النظام الامبراطورى كان واجهة يحركها اعداء الاسلام من صهاينة وامبـرياليـــين .**

عبد الرحمن شيبان
مفتش عام ـ وزارة التربية

بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه،

أيها الســادة :

نعيش فى هذه الايام حدثا خارقا للعادة ، ما كان أحد ينتظر وقوعه ••• حدث ارتجت له الارض مـــن أقصاها الى أقصاها ، واهتزت له الدول كبيرها وصغيرها واهتمت به مختلف الاوساط : السياسية والدينيــة والصحافية والاقتصادية والاجتماعية فى العالم ؛ وهى بين مرحب به راج انتصاره ومتوجس خيفة من نتائجه، ناشر الشك والبلبلة حول مستقبله. ذلكم هو الثورة الشعبية الاسلامية بايران ، التى يقودها الامام آية الله الخمينى •

لقد عرف الناس انقلابات عسكرية، تقع هناك وهنالك، تقوم بها جماعة مسلحة على أخرى مثلها أو عزلاء من السلاح ، وتكررت هذه الانقلابات حتى كادت لا تثير أى اهتمام •••

شيخ فقيه امام ، أعزل من كل سلاح ، الا من سلاح الارادة والايمان والتعبير عن ضمير جماهير شعبية اسلامية متجاوبة معه فى ارادته وايمانه ، يواجه جيشا منظما يعد خامس جيوش العالم ، وينتصر على نظام تؤازره قوة أمبريالية تعد القوة الاولى فى هذا العصر !

فكيف حدثت هذه المعجزة التى باغتت العالم وأذهلته ؟

ان المحرك لثورة الامام آية الله الخمينى ليس مستوردا من شرق أو من غرب ، وانما هو القرآن الذى أخرج الناس من الظلمات الى النور ، وجعل الضعفاء أقوياء والاذلاء أعـزة ٠

الاســلام ثــورة سماويــة

ان الاسلام ــ فى جوهره ــ ثورة سماوية ، لم تشبهها ولن تشبهها ــ فى مفاهيمها القويمة السليمة ــ أية ثورة أرضية ٠

لقد غير الاسلام ــ بمجرد بزوغ شمسه ــ المفاهيم التى كانت سائدة قبله ، والتى ما هى الا أوهام لا تقبلها الفطرة السليمة والعقل المستنير ، وان قبلتها نفوس سقيمة، ضربت عليها غشاوة من الجهالة والضلالة ؛ فهى لا توازن ولا تقارن ، ولا تجــادل ولا تداول ، وانما تتقبل كل ما يلقى اليها وتدعى اليه من نظم واتجاهات سلوكيــة وعملية ، تصدر عن كاهن ، أو قس ، أو ملك ، أو زعيم ، حتى أضحى الحق والباطل ، والخطأ والصواب أوهاما وظنونا تعتقد ، لا حقائق ثابتة لها وجود فى دنيا الواقع الواعى ٠ وأمسى الانسان العاقل مجرد آلة عجماء ، يحركها ذوو الاغراض الخاصة ؛ فتتحرك فى الاتجاه الذى يحدد لها ، لا الى الوجهة التى تحددها هى ! !

وهكذا فقد الانسان انسانيته ، وباتت الشريعة التى تسير بمقتضاها المجتمعات الانسانية هى شريعة الهوى والضلال ، لا شريعة العقل والهدى ٠

ولقد أدى هذا الضلال الفكرى الى فساد أحوال الانسان فى جميع المجالات حتى غدا الناس ــ رؤساء ومرؤوسين ــ عند ظهور رسالة النبى محمد ، صلى الله عليــه

وسلم ، كالاصنام بلا وعى للحكمه من وجود الانسان فى هذا الكون ، كما قال عنهم شوقى وهو يخاطب النبى صلى الله عليه وسلم :

أتيت والنـاس فوضى لا تمـر بهم   الا على صنم قد هام فى صنـم !

هكذا وفى ضباب هذه الاوضاع المتردية جاءت ثورة الاسلام تدعو الانسان الى أن يغير ما بنفسه ، اذا أراد أن يغير الله واقعه ويصلح أحواله : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . وبما أن الفكر النير الواعى عليه يتوقف تغيير الانسان ما بنفسه ، جاءت أول آية نزلت على الرسول الاكرم ، صلى الله عليه وسلم ، تدعو الانسان الى التعلم والتعليم ، والتفكر والتفكير : قال الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . وهذا يعنى أن التغير من وضع الى وضع انما يبدأ من نفس الانسان وعقله وارادته ؛ فليس الانسان عبدا للاوضاع المادية ، كما أنه ليس عبدا للاوثان التى اصطنعها ، ينتظر أن تغير واقعه فى جمود وركود ؛ وانما الارادة الانسانية الواعيـة النابعة عن عقيدة سليمة ، واتباع شريعة قويمة هى وحدها القادرة على تغيير الانسان وتحريره من كل أنواع العبودية والانحطاط .

ولقد أطلقت هذه الافكار الاسلامية طاقات الانسان المبدعة ، فى مشرق الارض ومغربها ؛ فبنى ، فى سنوات قليلة ، ما عجزت عنه الانسانية فى قرون طويلـة ، قضتها فى سفاهة معنوية ومادية مزرية بكرامة الانسان .

العلـم يؤيـد القـرآن

ولئن دل هذا على شىء فانما يدل على أن المحرك للثورة الاسلامية ليس من صنع البشر ، وانما هو من صنع خالق البشر ... ليس هو فلسفة انسانية نظرية محدودة لا يدرك واضعوها من أسرار الحقيقة الانسانية الا القليل ، وانما هو دين سماوى أراد به خالق الناس ، الذى أحاط بكل شىء علما ، هداية النـاس الى التى هى أقـوم « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى » . وقد برهنت على ذلك ـ وما تزال تبرهن ـ الحقائق المذهلة التى يكتشفها

العلم تباعا ، والتى تطالعنا بها المؤلفات العلمية النزيهة من حين الى حين ، ومنها كتاب « التوراة والقرآن والعلم » الذى أثار ضجة فى الاوساط الفكرية العالمية فى المدة الاخـــيرة ٠

لقد أنشأ المسلمون حضارة تفيأ الناس ظلالها فى مشارق الارض ومغاربها ٠٠٠ وظلوا فى عزة ومناعة أحقابا طويلة ، حتى انحرفوا عن منهاجهم القويم ، المتمثل فى العمل بما جاء به كتاب الله وسنة رسوله ، فضعفوا وانحطوا ، فوقعوا فريسة لانواع من الاستغلال والاحتلال من طرف دول لا تخاف الله ولا ترحمهم ؛ وعاشوا فى ذلـة ونكد احقابا طويلة ؛ فراحوا يبحثون عن المخرج من ويلات الليل الطويل البهيم الذى يتخبطون فيه ، فلم يجدوه الا فى العودة الى الاسلام ، الذى كان به نجاتهم وعزهم ، كما قال مالك : « لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها » ٠

وهكذا برز الى الميدان فى أواخر القرن التاسع عشر أئمـــة علماء ثائـرون ، ومناضلون مجاهدون ؛ فكانت صيحة الافغانى للثورة فى وجه الاستعمار السافـــر والمقنع التى دعا فيها الى العودة الى منابع الاسلام الاولى : الكتاب والسنة وسـيرة السلف الصالح ، لاصلاح العقول والنفوس الذى هو عماد كل اصلاح ٠ ولقد ألهبت هذه الصيحة العواطف وحفزت الهمم ، فكانت ثورات ودعوات ثورية اسلامية المنطلق هنا وهناك فى مختلف الاقطار الاسلامية ، قادها رجال مؤمنون أبطال نذكر منهم فى الاقطار الاسلامية الشيخ شامل والكواكبى ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهم ، ونذكر فى الجزائر ـ بصفة خاصة ـ الامير عبد القادر والشيخ ابن الحداد ، وأولاد سيدى الشيخ ، وعبد الحميد بن باديس ٠

ولقد أثمرت هذه الثورات والدعوات ثمارها وآتت أكلها ؛ فاستقلت البـــلاد الاسلامية ولم يبق منها تحت السيطرة الاستعمارية الا أقطار قليلة نذكر منها فلسطين التى ستنتصر هى الاخرى بفضل الله وبعون العرب والمسلمين ، غير أن التحـــرر السياسى لا يضمن دوامه الا تحرر اقتصادى وثقافى واجتماعى ، ومما يدل على ذلك

ان بعض الحكومات الاسلامية لم تكن الا قناعا للاستعمار ، يخفى وجهه ويطلق يده فى طول البلاد وعرضها يفعل ما يشاء وينفذ ما يريد ...

مظهـــر وطـــنى لمخبـــر أجنـــبى

وهل كان النظام الامبراطورى فى ايران الا واجهة وطنية يحركها أعداء الاسلام من صهاينة وأمبرياليين ؟ وهل سمح له بالانحراف عن طريق الاسلام ومصالح الشعب الايرانى المسلم الا شعوره بعدم وجود رأى عام اسلامى يراقبه ويوجهه ويوقفه عند حدوده ؟ ولعل هذا ما جعله يستمر فى استغلال الشعب المسلم لصالحـــه الخاص ، ولصالح أعدائه ومستغليه الى أن قيض الله لايران امامه الثائر آية الله الخمينى الذى صحح الوضع وأعاد مسيرة الشعب الايرانى المسلم الى منهجها السليم القويم الذى سيتحقق فى « الجمهورية الاسلامية » التى سيشاهد العالم ميلادها بعد أسابيع ان شـاء اللـه !

العبـــرة مـــن الثـــورة الايرانيـــة

لعل أبرز العظات التى نستخلصها من هذا الحدث الايرانى العظيم بزعامة الامام آية الله الخمينى هى :

أولا : أنه اذا كانت ثورة الافغانى بالامس ، تستهدف تحرير المسلمين من السيطرة الاجنبية ، السياسية والاقتصادية والثقافية ؛ فان ثورة آية الله الخمينى جاءت لتصحح الانحراف الداخلى الذى فرضه حكام منتمون الى الاسلام والوطنية على الجماهير الشعبية المسلمة من ناحية ، والتحرر الكامل من السيطرة الاجنبية المقنعة سياسيا وثقافيـا واقتصاديا من ناحية أخرى .

ثانيا : ان العالم الاسلامى قد شاهد فى أقل من ربع قرن انتصار ثورتين اسلاميتين واجهتا قوتين طاغيتين، تساندهما قوة امبريالية، بسلاح واحد، هو الايمان والارادة احداهما بالمغرب الاسلامى والاخرى بالمشرق الاسلامى وأعنى بذلك انتصار الثورة الجزائرية على الاستعمار الفرنسى المعزز بقوات الحلف الاطلسى ، وانتصار ثورة ايران على نظام الشاه المعزز بالامبريالية والصهيونية .

ثالثا : انه كما كان لثورة الافغانى نتائجها فى تحرر الشعوب الاسلامية واستقلالها فسوف يكون لثورة آية الله الخمينى - بمشيئة الله - نتائجها فى تصحيح الاوضاع الداخلية لكثير من الدول التى تقرر دساتيرها أن الاسلام دين الدولة فيها !

رابعا : ان انتصار الثورة الايرانية سيزيد المسلمين ايمانا بأن « الايديولوجية الاسلامية » هى أحسن نظام للحياة المادية والمعنوية فى كل زمان ومكان ، ويدحض حجج أولئك الشاكين والمشككين فى صلاحيه الاسلام للحياة والعمران ، عن ضلال فى التصور أو عمالة للشيطان !

« وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »

والسلام عليكم ورحمة الله .

الثــورات والانتفاضات الشيعيــة

صالح ماجدى
أستاذ اللغــة الفارسية
معهد اللغــة والادب العربي
ـ جامعة الجزائر ـ

فى البداية نذكر بعض الثورات التى حدثت على امتداد التاريخ الاسلامي ، والتى انطلقت مــن بعد معركة (صفين) بين الامــام علي عليه الســلام ، وبين معاوية بن أبي سفيان ، وحيث الاول كان يمثل الروح الدينية الاصيلة ، والذى كان يستهدف تطبيــق مبادى الدين الاسلامي الحنيف بكل ما تعني هذه الكلمة ، بينما نجد الثاني كان يمثــل فى الظاهر الاسلام ، ولكن تطبيقا كان يمثل الروح الملكية بالمعنى الحاضر ، وهناك طبعا دلالات كثيرة ، منها نظام الوراثة ، وكذلك ما امتازت به هذه الدولة التى أسست فيما بعد ، وهي الدولة الاموية التى امتازت بالاستغلال والمحسوبية والاثراء الغير شرعي ، والتى هي فى الواقع ضد المبادى الاسلامية السامية التى تدعو الى العدالة الاجتماعية ، والمساواة وعدم التفريط بأموال المسلمين · أعود الى الثورات التى ظهرت خلال وبعد معـــركة (صفين) وهي ثورات الحسينيين والحسنيين ، والعلويين ، ونقصــد بالاولى انصار الحسين بن علي بن أبي طالب ، والثانية انصــار الحسن بن علي بن طــالب ، والعلويين ، وهم الذين ناصروا عليا فى معركة صفين ، وبعد ذلك وحتى بعد وفــاته ، اذكر الثورة الاولى التى انطلقت ضد الدولة الاموية فى زمن الخليفة يزيد بن معــاوية الذى استهتر بحقوق الاسلام وبمبادئه ، وذلك فى سنة 61 هـ ، وحدثت فى العــــراق وبالضبط فى مدينة كربلاء وهي ملحمة فى الواقع ورمز للشهادة من أجـــل المبادىء

الاسلامية ولو عدنا الى الخطبة التى ألقاها الحسين بن علي عليه السلام فى هذه المناسبة وقبل أن تبدأ المعركة كانت الخطبة بالاجمال تدعو المسلمين الى محاربة الظلم والاستغلال والاستبداد والانحراف الذى قاده يزيد بن معاوية ، وقد ضحى الحسين ابن علي بن أبي طالب بنفسه من أجل هذه المبادىء ، وكذلك ضحى بعدد كبير من آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكانت أول ملحمة فى التاريخ الاسلامي وصفحة ناصعة ومفخرة من أجل هذه المبادىء السامية · أما الثورة الاخرى وهي ثورة الحرة المسماة بالحرة ، ووقعت قرب المدينة المنورة سنة 63 هـ · وكانت من أجل تلك أيضا المبادىء السامية ، والثورة الثالثة هي ثورة عبد الله بن الزبير والتى حدثت فى مكة المكرمة ، وتسمى بمعركة « مرج راهط » سنة 64 هـ ، وأذكر أيضا ثورة أخرى ، هي ثورة المختار الثقافى الذى قام بانتفاضة فى مدينة الكوفة ، وذلك بالمطالبة ، بل لثأر لدم الحسين بن علي وباسقاط الخلافة الغير شرعية التى تولتها الدولة الاموية ، ثم اذكر ثورة زيد بن علي فى الكوفة أيضا ، وذلك سنة 122 هـ · وكانت أيضا من أجل تلك المبادىء التى استهدفتها ، ثم ثورة محمد النفس الزكية ، أو محمد بن النفس الزكية وأخوه ابراهيم بن النفس الزكية ، اتفق الاثنان على أن يقاوما السلطة أو المملكة الاموية وان ينطلق احدهما من المدينة المنورة والآخر من مدينة البصرة فى جنوب العراق ، وذلك بين سنة 136 و 158 هـ · لكن فى الواقع لاسباب كثيرة قضيت على هاتين الثورتين وهناك أيضا أذكر ثورة أخرى هي ثورة محمد بن جعفر الصادق عليه السلام ، وذلك فى مكة المكرمة وكانت المدة هي خلال السنة 170 و 193 هو نفس الثورة أو ثورة أخرى مماثلة حدثت فى اليمن وكان هؤلاء الثوار من أنصار ـ أيضا ـ محمد بن جعفر الصادق ·

هذه هي الثورات التى حدثت فى التاريخ على امتداد التاريخ الاسلامي فى الفترة الواقعة بين معركة صفين وما تلاها ـ وبالنسبة لهذه الثورات أود أن أقول انها ليست الاولى فى العصر الحديث · حدثت ثورات سواء فى ايران أو فى العراق ، وخاصة كما تعلمون أن عدد الشيعة فى العراق أو هم الغالبية فى الواقع ، وخاصة الشيعة الذين يسكنون جنوب العراق ، وما حصل من ثورات وانتفاضات كلها ضد الاستعمار الانجليزي ، كانت بقيادة رجال الدين ، وانطلقت كلها من المدن المقدسة وخاصة مدينة « النجف » وكربلاء والكاظمية ، « وسامراء » ومناطق أخرى فى جنوب ووسط العراق · هذا باختصار عن الثورات والانتفاضات الشيعية التى حدثت فى التاريخ أو فى صدر الاسلام ·

ـ وشكرا ـ

الاستـــاذ مبـــارك الميـــلى والصحـــافة

احمد بن ذياب

أستاذ فى ثانوية الفتح
ـ البليـدة ـ

لست أدرى مـــا مـــدى الابعـــاد التى تحتلها شخصية الشيخ مبارك الميـــلي فى نفوس أبناء الجزائر المتطورة اليوم ؟ ولن أستطيع أن أتكهن عن مكانته ـ غدا ـ حين تصبح الثقافة الثورية سيدة المستقبل ، تشـــق الطريق اللاحـــب الى السؤدد الشامـــخ وتعلى منـــارة الاشراق وضاءة ساطعة ٠ ولكن الذى اعرفه ويعرفه اكثر الادباء المعاصرين : أن الرجل امضى جل عمره ثائرا ثـــورة ايجابية عاملة بناءة ، وان الرجل لم يعش يوما لم ينجز فيه صفحة مشرقة ، أو يخطط فيه لاخرى ، او يتعهد فيه ثالثة بالتحقيق والتمحيص ٠

ويكفى المرء دليلا ان يعاود منجزات رجل لم تطل به الاقامة فى هذه الدار الا سبعا وأربعين سنة حتى يقدر الرجل حق قدره ؛ ويعلم علم اليقين كيف جاء هذا العبقـــرى الى الوجود سنة 1898 ؟ وكيف غادره فى التاسع مـــن فبراير سنة 1945 ؟ وكيف كانت سنـــو عملـــه العشرون فى التعليم والصحافة ، فى الوعظ والارشاد ، فى التـــأليف والتحقيق ، فى تأسيس المشاريع والاشراف عليها ٠ فى النشاطات الاجتماعية هنـــا وهنالك : جميعها حافلة بالجهود المثمرة رغم المرض المزمن الذى لازمه فاقض مضجعه ،



الاستاذ مبارك الميلى رحمه الله

ونغص حياته ، وظل معه يغالبه ليقهره ، ويصاوله ليفل من عزمه ، ويطاوله ليهـــدم حياته ركنا ركنا ، وما ظن داء السكر العضال انه انما يهدم حياة شعب ، وينخر فى كيان أمة · ويعيث بمقدرات وطن ، اذ ان الشيخ مبارك الميلي لم يكن ليعيش لنفســه ، ولم يهمل يوما حق وطنه عليه · ولم يفرط فى صغيرة ولا كبيرة من مقدسات أمتــه ·

ورجل بلغ هذه المكانة من حب الواجب وتعشق التفانى فيه ، والاخلاص للمسؤولية التى يحسها المثقف العصامي فى الامة المتخلفة ، لن يستطيع كاتب مهما جد جده ان يختصر الحديث عليه فى مناسبة أو يوجز القول حوله فى كلمة عجلى · ولهذا اخترت أن أخصص هذه الذكرى بالقاء ضياء لامع أو لمحة خاطفة على حياته كصحفى ·

وقد كانت الصحافة ـ وما تزال ـ مجالا لخدمة الامــة ، وميدانا لتثقيف العقول ، ومجالا لاذكاء المشاعر ، وتهذيب الاحاسيس ، وقد عرف الاستاذ مبارك الميلي-كل هذه المزايا للصحافة وقدرها ، وأولاها عنايته من أيام نشاطه الاولى ، أو منذ عودته مــن تونس الى الجزائر ـ بعد ان نال شهادة التطويع سنة 1924 ـ حتى قررت جمعية العلماء ايقاف « جريدة البصائر » اثر اندلاع الحرب العالمية ، فى طلائع خريف سنة 1939 ، كما أوقف الشهاب عن الصدور نتيجة فرض رقابة شديدة على الصحافة الحرة ، ومحاولة الدولــة الاستعمارية تسخيرها فى صالــح بلاغاتها الحربية ، ومخططاتها الدعائية ، واباطيلها التزويرية · وقد تناول هذا الموضوع الاستاذ المرحوم عبد الحفيظ الجنــان ـ وهو من أخبر الاخوان بتاريخ الرجل ودخيلة نفسه ـ فقال :

رجع الشيخ مبارك من تونس حاملا معه مسودة قانون أساسي يحث الطلاب وأهل العلم ، على انشاء مطبعة كبرى ، تطبع المخطوطات ، وتنشر الجرائد والمجلات ، لتحيى أمته حياة عملية لا نظرية ، ووجد أستاذه عبد الحميد بن باديس قد بعث بقلمه صيحة مدوية فى ارجاء الوطن فانضوى تحت لواء أستاذه بالامس وصاحبه فى الحال ، وقال له : « ها انذا الفتى المقدام والمناصر الهمام » ·

واذا كانت هذه هي البادرة الاولى كما شهد بها عبد الحفيظ الجنان فهي بــادرة الرجل الذى يحمل بين جنبيه عزما مصمما ، وعقيدة راسخة ، ولا يكتفى بذلك بــل ترتفع به الهمة الطموح الى تسطير مشروع صحافى وتخطيط نظام لعمل جاد بناء ·

ويقول معاصروه بأن الامضاء المستعار الذى اصطنعه فى السنوات الاولى وهــو يشارك فى تحرير مقالات « المنتقد » ثم « الشهاب » كان تحت اسم (البيضاوى) ·

ولعل البيضاوى هنا هو (بيضاوى) التفسير الذى اشتهر ببلاغة أسلوبه ، واختصار تعابيره ودقة مدلولات الفاظه ، وكانت المقالات نقدية مرة ، وبحوثا طريفة أخرى ، ومواجهة للخصوم بالرد ثالثة ·وحتى السياسة قد تناولها عدة مرات ، ولكن فى المستوى الرفيع مثل الجمهورية ضمن الملكية ، وما قارب ذلك المستوى اوضاهاه فى العمق والسمو فى الموضوع وخطره ·

اما حين نحتاج استعراض النماذج ، والتامل فى غزارة أسلوب الرجل أو سعة افقه ، فقد نقدم له هذا النموذج وهو يستغرض حجج القائلين : بوجوب « اعطاء البنت حقها فى التعلم والتعليم » وفتح المدارس لها ـ بلا تحفظ ـ حتى تنال نصيبها من نور العلم ، وقسطها من زاد الادب ، وتكتمل ذخيرتها من أسلحة الحياة فتكون أفكاره بعد التمهيد المبسط على هذا النحو ·

ولما أخذت حركة تاسيس تلك المدارس فى الانتشار ظهرت مشكلة من يعمرها من النشء ، فقال فريق نعمرها بالبنين والبنات ، وقال آخرون نعمرها بالبنين دون البنات ، ولا يكاد يخلو مجلس من مجالس اركان الاصلاح التى يذكر فيها التعليم من الحديث فى هذه النقطة ، نقطة ادخال البنات المكاتب وافضاء كل برأيه ونظره فيها · فكان من حجج الفريق الاول :

1) ان فساد القلوب وانحطاط العقول كانا شاملين للامة ذكورها واناثها ، فيجب ان يكون اصلاح القلوب وترقية العقول عامين فى الذكور والاناث ·

2) وان المراة شقيقة الرجل فى الانسانية فلتكن شريكته فى التربية والتهذيب ، ولا تظلم بحرمانها حقها من ذلك ·

3) وان الام هي المدرسة الاولى التى يتلقى فيها الابناء معلوماتهم الاولية التى تصير كطبيعة لهم ، فعلينا ان نصلح هذه المدرسة لتهيىء لنا أبناء لا يتعاصى عليها اصلاحهم ·

4) وان الانثى مكلفة ـ فى حكم الاسلام ـ بمثل ما يكلف به الرجل لا يفترفان الا فيما يرجع للقوة والسيادة فيختص بالرجل كالامامة ، وولاية مناصب الحكم ، والا فيما يعود الى الضعف والحنان فيختص بالانثى كالحضانة ، وتنزل اثنتين منزلة واحدا فى الشهادة ·

5) وان الانثى شريكة الرجل فى منزله ، وقرينته فى حياته ، لاغنى لاحدهما عن الآخر فلابد من اشتراكهما فى التهذيب ، واقترانهما فى التثقيف ، ليرغب الفتى فى

الفتاة ، وتعرف الفتاة كيف تعاشر الفتى ، ثم ليكونا ـ وهما زوجان ـ أقرب الى الوفاق وابعد عن الشقاق ، فاما العناية بالفتى واهمال الفتاة ، فينشأ عنها البعد بين من يجب تقاربهما ، والنفرة بين من تتوقف السعادة على سكونهما ، احدهما الى الآخر ، ومن ذلك البعد وتلك النفرة تتكون ازمة زواجية ، وفي ذلك سقوط الاسر ، والكفر بالفضيلة ، وانقطاع العقب وذيوع الرذيلة ، الى آخر المقال القيم الذى نشرته الشهاب فى افتتاحية العدد السادس من سنتها الثانية عشرة بتاريخ سبتمبر 1936 تحت عنوان : (تعلم المرأة) والافكار التى يحملها المقال ، وكتب لاجلها : افكار العالم المتثبت ، أو العليم بما يكتب ويعتقد ، المهتم بالموضوع الحيوي الذى يتناوله ٠

والفكرة حول المرأة ـ يومئذ ـ ما تـزال اقرب الى الجمود المتحجر ، منهـا الى الاعتدال فضلا عن الثورية وحسبنا أن نعلم ان هناك مـن حملة الاقـلام ـ ولـو كانوا مزيفين ـ من يدعى ان تعليم المرأة « الكتابة » محرم شرعا ، مستدلا باحاديث واهيـة مكذوبة على رسول الله سيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ ٠

ومن هذه الزاوية يعتبر ما دبجه المرحوم استاذنا مبارك الميلي ـ يومئـذ ـ ثـورة عارمة على الجمود ، وتطلعا مبكرا الى مستقبل المـرأة الباسـم ، وتمهيدا لاعطائها حقوقها كاملة فى ميادين الحياة العامة ٠

أما ان أردنا أن نعرف رأي الاستاذ الميلي فى الصحافة فقد نجد أصـدق مثـال ما نقرأه له فى مقاله الافتتاحى لجريدة البصائر حين أسندت اليـه ادارتها فى خريف سنة 1937 ٠ فقد جاء فى العدد 84 وهو العدد الاول من انتقال ادارتها الى قسنطينة ، واسنادها اليه مع رئاسة التحرير والذى صدر فى 29 اكتوبر ، اقول جاء فيه فى جملة ما جاء قوله :

« وان من أهم الخطط واعم الوسائل لتحقيق الغايات ، ونشر الدعوات : انشـاء الصحف السيارة التى تحفظ جيدا الاقوال ، وسديد النظريات ، وتدخل بها على الطالب فى مسكنه ، وعلى التاجر فى متجره ، وعلى الصانع فى مصنعه ، وعلى الملا فى ناديهم وعلى المسافرين فى مراكبهم ، بل لا يحجبها عن الفتيات خدر ولا حرس ، ولا يحـول بينها وبينهن خفر ولا شرس ٠

وما وجدت فكرة الاصلاح الديني بأرض الجزائر حتى وجدت لها صحف تعبـر عنها ، وتبشر بها ، وتدافع دونها » ٠

واذا كنا لا نستطيع ان نتابع الاستاذ مبارك الميلي فى أشواط افتتاحيته القيمة التى ندرك منها ان البصائر هـي الجريدة الرابعة مـن جرائد جمعية العلماء وان اخواتها اللواتى استشهدن قبلها هن (السنة) ثم (الشريعة) ثم (الصراط) وأخيرا تجىء البصائر لتحمل شعار قوله تعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكـم فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » ٠

اما سلفه مديرها قبله فيقول عنه الكاتب المبين والخطيب البليغ ، والداعية البصير الاستاذ (الطيب العقبي) لكنه استقال من ادارة الجريدة ، فشكر له اخوانه صبـره على ما لاقى وقبلوا منه عذره واستقالته ٠

اما الاقتراحات التى قدمت للنهوض بالجريدة فيجملها فى قوله :

« 1 ـ على العلماء البارزين ان يعنوا بتحرير المقالات الراقية فى صحيفتهم ٠

2 ـ وعلى شباب العلماء ان يتقدموا الى ميدان الكتابة ـ وان لم تنضج أفكارهم ـ بشرط واحد ، هو الا يثوروا من تصرف الادارة فيمـا رأت التصرف فيه بالتنقيح ، أو بالتلخيص ، أو بالاهمال ، فان الثقة أساس التعاون ، والمدير قد يرى ما لا يتفطن لـه الكاتـب ٠

3 ـ وعلى من آنس من نفسه المقدرة على التحرير ان يكاتب الادارة : لتتخذه مكاتبا فى جهته ، بشرط واحد : هو الصدق فى التصوير ـ مع مراعاة ، أن الجمعية وجريدتها فوق حزازات النفوس ، ونزعات الاحزاب وعلى الكاتب أن يقصد الى تصوير الحقيقة لا الى شفاء النفس من فرد أو جماعة ٠

4 ـ وعلى أعضاء الجمعية ان يخبروا ادارة الجريدة بكل عمـل يقومون به ، فى خدمة الجمعية ، وبكل عقبة تعترض سيرهم نحو غايتها ، وبكل ظلامة تقع عليهم مـن أجل مبادئها ، لتقوم ادارة التحرير بابلاغ ذلك الى الفكر العام ، فتبين سير الجمعية ، وتخلد مواقف العاملين ، وتشهر بالظلمة الباغين ٠

5 ـ وعلى رؤساء الشعب ، وكـل غيـور من أنصار الجمعية ، أن يرتبطوا بادارة الجريدة ، للاتفاق على خطط العمل ، فى نشـر الجريدة ـ بيعـا واشتراكا ـ وتنمية ماليتها ، لتقوى على السير المنتظم ، والرقي المطرد » ٠

وبكلمة موجزة يمكن أن يقال ان دستور الاستاذ مبارك الميلي فى مسؤولية الجريدة ادارة وتحريرا ، وتجاوبا مع القراء قد بسط بسطا عاما شاملا فى افتتاحية العـدد

الاول الذى صدر بعد انتقال الادارة اليه ، وفيه عرفنا جليا مقدرة الرجل الصحفية ، ومحططه البارع ، وغايته النبيلة ·

لكن من حقه علينا أن نختم هذه الكلمة برأي له حول بعث الادب القومي والتراث الوطني ، فقد اهتم بهذه الناحية ـ اهتماما مشكورا ـ فى ذلك الدستور فقال :

« وهناك ناحية الفت اليها نظر شبابنا ، لما لها من المكانة ، في خدمة المجتمع ، وترقية الشعور ، وتوحيده الا وهي ناحية الادب انشاء ودراسة ·

واذا كانت هناك صعوبات فى دراسة أدبنا ، واحياء ماضيه : لفقد المواد والوثائق فان قوة الشباب يجب ان تذلل الصعاب ، وان تثب الى المطلوب وثبا لا يوجب مبدأ التدريج ولا يستنكر مبدأ الطفرة » حتى يقول : « وانا لنرجو ان نرى فى هذه الصحيفة آمال الشيوخ ، واعتدال الكهول ، وافراط الشبان ، وفى تحقيق ذلك الرجاء خير الاسلام والعروبة وسعادة الجزائر » انتهى ·

وأخيرا اسال الله ان يوفق أبناء الجزائر لبذل جهود مشكورة فى الاقتفاء بأثر المرحوم الشيخ مبارك الميلي فى الاخلاص للمهنة وصدق اللهجة ، وسعة الأفق ومواصلة التضحيات ·

اما اصدقاؤه وعلى رأسهم ابناؤه الروحيون فعليهم ان يجمعوا مقالاته لتحفظ فى سجل ، وتنشر فى كتاب ، والله لا يضيع اجر المحسنين ·

من هدى القرآن وتربيته (1)

احمـد حماني
رئيس المجلس الاسلامي الاعلى

بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم

الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا. قيما لينذر باسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين. والصلاة والسلام على عبده محمد النبى الامين . بعثه بالهدى ودين الحق رسولا فى الاميين ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وعلى آله وصحابته الذين كانوا معه خير امة اخرجت للناس آمرين بالمعروف وعن المنكـر ناهين . اشداء على الكفار رحماء بينهم راكعين لربهم

(1) محاضرة القيت بمكة المكرمة فى الندوة العالمية الخامسة لرابطة العالم الإسلامى أيام الحج .

ساجدين . اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . وعلى التابعين منهاجهم ممن يقولون (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) .

اما بعد : فان القرآن كتاب الله العزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، انزل الينا برهانا من ربنا ونورا مبينا ، لا يضل من سلك السبيل على نوره فانه المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، وانما يضل عن الصراط السوى من اعرض عنه ولغى فيه واتبع هواه بغير هدى من الله فسلك طريق الردى ، واستحب العمى على الهدى فاستحق العذاب الهون .

ان القرآن الكريم أنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، يهدى للتى هى اقوم ويبشر المؤمنين ، انزله الله الحكيم العليم على نبيه الكريم ليخرج به الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ، من ظلمات الشرك والكفر الى نور التوحيد والايمان ، ومن ظلمات الشك والريب الى نور اليقين والاطمئنان ، ومن ظلمات الجهل والعماية الى نور العلم والبصيرة ، ومن ظلمات الظلم والطغيان الى نور العدل والتواضع والاحسان . من ظلمات الرعب والخوف الى نور الامن والسلام والامان .

ان القرآن المنزل احسن الحديث ، وأبلغ المواعظ ، يداوى النفوس فيشفيها ويبرىء سقمها وينقيها ، وينقذ الارواح ويهديها ، ويسعد الافراد والامم ويعليها « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » . (يونس 57) . « الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » . (الزمر 23) .

وانما انزله الله علينا ، وبعث به رسوله الينا لنستمع اليه ، ونهتدى بهديه ونعمل باحكامه ، ونعلم علومه ونتعظ بمواعظه ، وان لم نفعل ذلك فلسنا على شيء كما قال تعالى فيمن قبلنا : « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة

والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تاس على القوم الكافرين » . (المائدة 68) . فمن قال اسلمت ولم يقم بفرائض الاسلام أو قال آمنت بالرحمن وهو يعطل ما شرعه القرآن ، ويجادل بالباطل ليستبدل الذى هو ادنى من قوانين الانسان ، بالذى هو خير من أحكام الفرقان فقد اتخذ الهه هواه وصدق عليه شكوى الرسول الذى قال : « يا رب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » . (الفرقان 30) . فان أكبر هجران للقرآن ان تعطل احكامه وان يحلل حرامه ويحرم حلاله . وان هذا لهو شأن الكثير من المسلمين اليوم ، ولذا كانوا كغثاء السيل . ولو التزموا احكام القرآن ، وساروا على نهجه لكانوا — فى كل زمان ومكان خير أمة أخرجت للناس طهارة نفوس ، ومتانة اخلاق ، وعلما وقوة وحضارة وتفوقا فى كل ميدان .

انزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم هدى للناس ، ومن التزم الهداية الربانية لم يضل أبدا ، ان من هذا الهدى القرآنى استعمال العقل والتفكير فى آيات الله الكونية ، وآياته المقروءة القرآنية ، وقد أمر الله بتدبر هذه الآيات وتفهمها والغوص فى معانيها ، والتوصل الى الحقائق ، واستنباط الاحكام واستخراج كنوز العلوم والدقائق « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب » . (ص 29) . وقال فى الآيات الكونية : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب » (آل عمران 190) . ثم قال : « ... ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا » . وقال : « قل سيروا فى الارض فانظروا ... » . (سورة العنكبوت 20) . وقال : « أولم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . (سورة الحج 46) .

فلو اقبل الانسان على هذه الآيات يتدبرها ، ويدرسها ويستخرج منها الحقائق والعبر لاهتدى الى اقوم السبل فى دينه ودنياه ، وآمن بخالق الكون وعبده وحده . وصدق برسالة النبى واقتدى بهداه . ولكنه اذا عطل هذه الموهبة الالهية عن عملها ،

وابطل آلة التفكير ، واغلق بابها وهى ميزته ألتى كرم بها ، وفضل على سائر المخلوقات بها ـ انحط الى درجة الانعام بل كان اضل منها .

لهذا أمر الله سبحانه بتدبر آياته القرآنية والكونية ، ونعى على الذين عطلوها فقال : « افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها » . (القتال 24) . وقال : « أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات آباءهم الاولين (68) أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون (69) أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون (70) ولو أتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن (71) » . (المؤمنون) .

وقال : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (الاعراف 179) . وقال : « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى ألقلوب التى فى الصدور » . (الحج) .

وان من هدى القرآن ان الله جعل امتنا الاسلامية هى الامـــة الوسط اذ قال : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكـــم شهيدا » والامة الوسط ، هى الامة الخيار لتوسطها بين طرفى الافراط والتفريط الافراط بالاغراق فى الروحانية والتفريط بالانجراف فى المادية ، وقد أخذ من قبلنا من الامم بهذا الغلو فى أحد الطرفين .

جاء الاسلام فانكر الغلو فى الدين بالتبانى فى الروحانية ، والاغراق فى العبادة الى حد الاضرار ، والزهد الى حد انكار كل حق للجسد ، والاعراض عن كل زينـــة والرغبة عن كل لذة مباحة ، وتعذيب النفس والجسد ، فان للجسد حقا ، وللنفس حقا وللاهل حقا ، وكان عليه الصلاة والسلام يصوم ويفطر ، ويقوم وينام ويأكل اللحم ويتزوج النساء ومن رغب عن سنته فقد برىء منه لانه ظلم واعتدي ، وجار وما اهتدى « يايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين (87) وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون » . (المائـدة 88) .

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين (31) قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق (32) » · (الاعراف) ·

هذا طرف الافراط ، وانه طرف الاعتداء بالتحريم لما أحل الله وذلك تعد على الله، اما الطرف الآخر فهو التفريط فى جنب الله والاغراق فى المادية ونسيان حـــظ الروحانية ، والانهماك فى اشباع الغرائز الجنسية والتهالك على طلب الملذات واجتناء الشهوات ، والاسراف فى متاع الدنيا من نزوة وجاه وملك وسلطان · ان ذلك يميت القلب وينسى الرب ويطغى العبد ويدفع الى الفجور والفسق والعلـــو فى الارض والفساد والاستكبار والمكر السىء والكفر · قال تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون» · (الاحقاف 30) ·

وقال عمن اطغتهم السلطة والمادة : « الذين طغوا فى البلاد فاكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد» · (سورة الفجر الآيات 11 ، 12 ، 13، 14) وعن فرعون مثال المغرق فى المادية المزهو بسلطانه قال : «ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون» · ثم قال سبحانه : « فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين (54) فلما آسفونا انتقمنا منهم فاغرقناهم أجمعين (55) فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين (56) » · (سورة الزخرف) · هذه امثلة للماديين الذين فرطوا فى جنب الله وكانوا من الساخرين ·

وشأن المسلم التوسط بين الافراط والتفريط يعمل للدنيا ولا ينسى الآخرة يكتسب ويجتهد ولكن لا يحمله استبطاء الرزق على قبول الكسب الحرام · يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا فاذا آتاه الله مالا شكره بالانفاق منه فى سبيل الله واعلاء كلمته والبر والاحسان الى ذوى القربى واليتامى والمساكين ··· وايتاء كل حقوقه ، عالما بأن ما أوتيه ليس بكسبه، وعلم من عنده، وانما هو من عند الله فلينفق مما آتاه الله « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين » · (القصص 77) · وان قدر عليه رزقه قنع وصبر · فالمسلم لا يعيش لدنياه فقط ولكنه لا ينسى نصيبه منها ويسعى للآخرة سعيها وهو مؤمن ولهذا يكون من الناس

الذين يقولون فى ابتهالاتهم : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » • (سورة البقرة 201) •

ومن هدى القرآن ان الحياة ـ فى سنن الله الكونية ـ مغالبة وجهاد لا تنال مطالبها بالتمنى ، ولكن بالسعى المتواصل ، والاجتهاد فى الكد ، والعلم والخبرة ، قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » • (البقرة 251)• وقال سبحانه : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » • (سورة الرعد 11) وقد حث على طلب العلم وأوجبه على المسلم وأمر بسؤاله المزيد منه « وقل رب زدنى علما » (طه 114) • وحكم بانه لا يستوى العالم والجاهل « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » (الزمر 9) • وذلك ان العلم وسيلة طلب الدنيا والآخرة والسعادة فيهما ، والتفوق والمتانة والقوة •

ومكان المسلم فى الحياة ليس مكان الذليل الحقير ، أو الضعيف المستضعف أو الخامل الكسول ، أو المتبلد المتواكل ، ولكن مقامه مقام القوى الابى ، والمجد الناشط الدؤوب • قال عليه الصلاة والسلام (المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز) • قال تعالى : « فاذا فرغت فانصب » • (الانشراح 7) • وقال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » • (التوبة 104) • وقال « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض ، وابتغوا من فضل الله » • (الجمعة 20) •

ان العزة من خلق المؤمن وصفاته « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » • (المنافقون8) ولا يذل المؤمن الا لله تواضعا له ، أو لاخيه المؤمن رحمة به وخفضا لجناحه له ، وهو على الكافر المعتدى المحاد لله ولرسوله القوى السديد الفظ الغليظ « اشداء على الكفار رحماء بينهم » • (الفتح 29) • « اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين » (العقود 54)• وقال : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » • (التحريم 9) •

فان لم يكن الكافر محاربا لله ورسوله ، ولم يكن عدوا للمسلمين أو مظاهرا لاعدائهم فلا ينهى عن مبرته والاقساط اليه « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين »

وهكذا يكون المسلم بعيدا عن كل تعصب مقيت ، فان كان ظلوما معتديا أو مظاهرا للمعتدين كانت ولايته ردة كما قال سبحانه : « انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون » . (الممتحنة 9) . وقال : « ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين » . (العقود 51) . فالمسلم محسن عدل لا يظلم ولا يعتدى ولا يرضى بالظلم ولا يظاهر على العدوان .

اننا لنجد كتاب ربنا يعلمنا كيف نكون المفلحين فى حياتنا السعداء فى دنيانا ، المنتصرين على اعدائنا . وفى آياته المحكمة اوامر ونواهى وامثال ومواعظ وأخبار تعلم الامة الاسلامية كيف تكون القوية المتغلبة العزيزة الفائزة برضى الله وجناته فى الآخرة والنصر والظفر فى الدنيا .

يقول المولى سبحانه فى سورة الانفال اثر غزوة بدر : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . (سورة الانفال 60) .

ويقول : « يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (45) واطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين (46) ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط (الانفال 47) .

فى هذه الآيات الثلاث جمعت عوامل النصر والهزيمة فى كل حرب تشتبك فيها القوى المختلفة : الايمان ، والثبات والمثابرة ، وذكر الله كثيرا حتى لا يغتر المحارب انه ينال النصر بحوله وقوته وفاعلية سلاحه فحسب ، وانما الحول والقوة لله والنصر من عند الله . وطاعة الله ورسوله ومن ذلك طاعة القائد وتنفيذ خطط القيادة ، والصبر عند اللقاء ومصابرة الاعداء ، فانما النصر لمن يصبر فى اللحظة الاخيرة . وعدم التنازع والاختلاف ، فان التنازع يسبب الفشل ويذهب الريح والقوة والدولة والاخلاص لله وعدم الرياء والتفاخر ، وشكر الله وعدم كفره ، والتزام الحق وعدم العدوان بالظلم والصد عن سبيل الله .

فهذه الآيات الكريمة خطة كاملة لقهر الاعداء وضمان النصر ، واجتناب الهزيمة والخروج عما جاء فيها خطر شديد ، ففى غزوة احد - بعد عام من نزولها - خالف الرماة بعض هذه القواعد والآداب فتسببوا فى مصيبة حلت بالمسلمين وقد أعلمهم الله انها بسبب العصيان والتنازع اذ قال : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ... منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتلكم » (آل عمران156)٠

وقال : « أو لما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شيء قدير » ٠ (آل عمران 165) ٠

وفى كل نواحى الحياة نجد نور القرآن يهدى المسلم السبيل القويم لا يضل لو سلكه ابدا ٠

لقد اهتدى بهدى القرآن أولنا ، واعملوا آياته ونفذوا احكامه وتخلقوا به ، واتعظوا بمواعظه ، واقاموا الدين ، واستقامت لهم الدنيا واسعدوا وانجز الله لهم ما وعدهم : أنزل عليهم وهم أمة أمية محتقرة منبوذة ، تهيم فى الفيافى القفر : غلظة وفظاظة وجهل كثيف وجهالة عمياء وعداوة بين قبائلها متأصلة ، وحروب دائمة وفساد شائع وضلال مبين ٠ فجاهدهم الرسول بالقرآن جهادا كبيرا كما أمر حتى لانت قناتهم بعد استعصاء وأذعنوا بعد تأب ، فاستمعوا اليه بعد تصامم ، وأقبلوا عليه بعد اعراض ونفور ، فزكت نفوسهم ، وهذبت طبائعهم ، وتطهرت قلوبهم ، واستقامت اخلاقهم ، وصحت دنياهم وعقائدهم ، وارتفع عنهم الجهل والجهالة وأصبحوا بالقرآن اساتذة العالم والامم المتحضرة - آنذاك - فى العلم والمعرفة والتربية والسلوك والاخلاق والآداب ، وفن الحكم والعدل والاحسان والقيادة فى السلم والحرب ، وصدق قول الله فى وصف تربية النبى صلى الله عليه وسلم لامته به : « هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » ٠ (الجمعة 2 - 3) ٠

فهذه هى الامة التى كونها القرآن من الاميين ومن الآخرين من الاعاجم الذين لحقوا بهم ـ أمة الحضارة الزكية الطاهرة النقية وقد خلف من بعد هؤلاء الاولين خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وأعرضوا عن القرآن ، وحكموا بغير ما أنزل الله فاستحقوا الهوان ، ولقوا الغى والخسران ، فاللهم نسالك ان تهدينا سواء السبيل ، وان تنصر حزبك من المؤمنين وتخزى الكافرين . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

تأثير الثقافة والبيئة الجزائريتين في شخصية ابن خلدون

المهدي البوعبدلي
مكلف بمهمة في وزارة الشؤون الدينية
عضو المركز الوطني للدراسات التاريخية

بمناسبة انعقاد هذا الملتقى الذى نظمه المركز الوطني للبحوث التاريخية ، احياء لذكرى مرور ستة قرون على ظهور مقدمة ابن خلدون ، التى كتبها بقلعة من قلاع امارة ونشريس ، اخترت موضوع هذه الدراسة ، كما يدل عليها عنوانها وهو : « تأثير الثقافة والبيئة الجزائريتين فى شخصية ابن خلدون » .

هذا وان حياة ابن خلدون ولو قتلت بحثا ـ على حد تعبير المعاصرين ـ فان معينها لا زال لم ينضب بعد ، وكذلك آثاره ، خصوصا « المقدمة » التى لا زالت محل اعتناء الباحثين بمختلف اللغات ، ومع هذا كله ، لا زالت جوانب من حياته ، ومن آثاره فى حاجة الى مزيد من التحليل والى ربط بعضها ببعض ، اذ آراؤه دائما فى تجدد وتطور ، ولهذا نجد كل باحث يعبر عنها حسب رأيه الخاص ، كان ابن خلدون كثيرا ما يشير الى

الاحداث التى شاهدها ، أو رواها ويكتفى بذكر الخطوط العريضة منها ، متجنبا الدخول فى التفاصيل ، وبعض هذه الاحداث التى أشار اليها ومن بينها التيارات الفكرية التى اجتاحت البلاد ، اعتنى بها من جاؤوا بعده وخصصوا لها دراسات قيمة ، سنتعرض لها فى موضعها ، وقد تناولها بعض الباحثين كل منهم تناولها ـ كما تقدم ذكره ـ من زاوية خاصة ، انني أركز دراستي هذه على اظهار صلـــة ابن خلدون بالجزائر ، اذ صلته بها لم تكن تلقائية ، بل كانت لها سابقية يرجع عهدها الى حوالي مائة سنة قبل ولادته ، وبالضبط من عهد انتقال جده الحسن من الاندلس الى المغرب العربي ، حيث اقام فى بونة ، والى ذلك أشـــار فى حديثه عن جده المذكور بقوله : « ولحـق بالامير أبي كرياء ببونة فأكرمه ، واستقر فى ظل دولته ، ومرعى نعمته ، وفرض له الارزاق ، واقطع الاقطاع ، ومات هناك ، فدفن ببونة وخلف ابنه محمد أبا بكر ، فنشأ فى جـــو تلك النعمة ومرعاها » اهـ . ولما انتقل أفراد أسرته الى تونس حيث ولـــد ، احتفظت الاسرة بأملاكها فى بونة الى ان صودرت وامحت فى عهده .

اهتـــم ابن خلدون بترجمة حياته ، فضمنها مقدمته وذكر فيها جـــل أساتذته ، وخصص من بينهم من لهم الاثر الملموس فى تكوين شخصيته كان فى طليعة أساتذته المذكورين ، أساتذته الجزائريون ، الذى تعهدت بذكرهم ، كما يـــدل على ذلك عنوان الدراسة ، ان أساتذة ابن خلدون الجزائريين لم تقتصر شهرتهم على بـــلاد المغـرب العربي ، بل جاوزتها الى بلاد الاندلس والمشرق ، كما سأتعرض فى هذه الدراسة الى صلته بالقبائل العربية وانطباعاته عنها ، تلك الانطباعات التى جرت عليه وابلا مـــن الانتقادات والاتهامات ، مثل العصبية ، والعنصرية ، والشعوبية ، وما الى ذلك ، مع ان كثيرا من معاصريه كانوا يشاركونه فى انطباعاته عن القبائل العربية ، وفى طليعتهم أشهر فقهاء البلاد المالكيين ، وعلى رأسهم خصمه اللدود الامام ابن عـــرفة ، الذى افتى بوجوب ردع تلك القبائل وقتالها ، وأيده فى فتواه جل معاصريه ، ولم يتصـــد احد من الكتاب بالانكار على هؤلاء الفقهاء ، كما لم يتهمهم احد بالعداء للعرب أو بمس كرامتهم ، مع انهم شخصوا جرائم تلك القبائل بمـــزيد من التفاصيل ولم تقتصر هذه الفتاوى على نشاطات القبائل العربية اذ ذاك ، بل شملت أيضا بغض تصرفات القبائل البربرية كما سبق ذلك امتاز ابن خلدون بربط صلته المتينة برؤساء القبائل العربية ، واطـــلاعه عن كثب على نشاطاتهم ، وتصرفاتهم ، ونظـم معيشتهم ، والادوار التى لعبوها فى بلاد المغرب العربي ، هذه النقاط هي التى سأحاول كشف القناع عنها ، اذ نظم هذا القبائل تطورت مع مرور الزمن ، ولم تبق على حالتها التي عرفت بها عنـــد

بداية مسيرتها واكتساحها لبلاد المغرب العربي فى أوائل القرن الخامس.استحالت هذه القبائل فى عهد ابن خلدون الى دول تشعر بمكانتها وقوة نفوذها ، المستمدتين من ضعف ملوك البلاد ، ذلك الضعف الناجم عن انحـــلال وانهيار الدولة الموحدية المركزية التى تقاسم عمالها اشلاءها فبنو مرين بالمغرب الاقصى وبنو زيان بالجزائر ، وبنو حفص بتونس ، وقبل مواصلة تتمة هذه النقاط ، ارجـــع الى ذكر نماذج من تراجم أساتذة ابن خلدون الجزائريين الذين كان يعترف بممنونيته لهم ، ولنبدا بالاخوين أبى زيـــد عبد الرحمن وأبي عيسى ابنى الامام التلمسانيين المشهورين بابنى الامـــام ، ترجمهما تلميذهما القاضى محمد المقرى أستاذ ابن خلدون فقال : « رحل الفقيهان الى المشرق فى حدود العشرين وسبعمائة الى ان قال ...... وناظرا التقــي ابن تيمية فظهرا عليه ، وكان ذلك من أسباب محنته ، وكان للتقي المذكور مقالات شنيعة ، من حمـــل حديث النزول على ظاهره ، ثم واصل المقرى ترجمته فقال : « ولما حللت بيت المقدس ، عرف مكانتى من الطلب ، وتناظرت مع بعضهم أتـــى الي بعض المغاربة ، فقال لـــي ، ان مكانك من النفوس مكين ، وقدرك عندهم رفيع ، وأنا أعلم اخذك عن ابنى الامام ، فان سئلت فانتسب اليهما ، وقل سمعت منهما ، واخذت عنهما ولا تعدل عنهما » اهـ .

تعلم ابن خلدون فى مراحل حياته الاولى تعليما تقليديا كبقية مواطنيه ، اذ كـــان نظام التعليم متشابها فى جل الاقطار العربية الاسلامية ، ثم واصل تعلمه فى عواصم المغرب والمشرق التى اقام بها ، اذ كانت الحياة الثقافية شغله الشاغل كما انه ولـــو كانت شهرته فى علمي التاريخ والاجتماع . كان له الباع الطويل فى بقية فروع المعرفة وامتاز بدراسة الحكمة ــ التى كانت تطلق على العلوم العقلية التى من بينها الفلسفة ــ وقد درسها على ابرز المتخصصين فيها .

رغم ان تعلمها كان محاطا بالحذر والتخوف ، ولم يغب ذلك عن ابن خلدون الذى اطلع على بعض ضحاياها من بينهم الفيلسوف الصوفى كما كان يلقبه ــ أبو عبد الله محمد ابن خميس التلمساني الذى خصصه معاصروه بتراجم وافيـــة كلسان الديـــن ابن الخطيب ، وأبى عبد الله الحضرمي ، وقد مثل ابن خميس امام محكمة استثنائية بمدينة فاس حكمت عليه بالزندقة والكفر ، وقد بسط القـــول فى هذه المحاكمة ، وفى ظروفها قاضي مدينة تلمسان ، ورئيس وزرائها ، ابن هدية القرشي فى تاليفه « العلق النفيس فى شرح رسالة ابن خميس » وهي الرسالة التى نشرها لسان الدين بن الخطيب وأشار اليها أحمد المقرى فى نفح الطيب » وبقيت لغزا مقفلا الى ان اكتشف شـــرحها

المذكور منذ سنوات قليلة لخبر يطول ، بين ابن هدية القرشي ظروف محاكمة فقهاء فاس ، لابن خميس وحكمهم عليه بالكفر والزندقة ذلك الحكم الجائر الذى يترتب عليه هدر دمه ، لم يخف ابن هدية رايه فى الفلسفة ومنتحليها فى عهده ، فقال عند التعريف بها : « والفلسفة عند أهل السنة وكافة الاشاعرة عبارة عن الزندقة البحتة ، والضلالة المحضة ، والكفر الواضح ٠٠٠٠٠ الى ان قال بعدما حلل مذاهبها واصحابها ، فوجب تكفيرهم ، وتكفير شعتهم من المتفلسفة الاسلاميين ، كابن سينا والفارابي وغيرهما من المهتدين بهديهم المقتدين برأيهم ، عليهم لعنة الله اجمعين » اه ٠

كما أخذ ابنُ خلدون عن أستاذين جزائريين الفلسفة ، وهما أبو عبد الله محمد ابن ابراهيم الآبلي ، وأبو عبد الله الشريف التلمسانيان ، وقد نوه بهما عدة مرات ، خصوصا الآبلي الذى لم يحظ أستاذ من جميع أساتذته الجزائريين وغيرهم بترجمة مثله قال فى ترجمة أبى عبد الله الشريف المذكور «انه أخذ بتونس عن ابن عبد السلام الذى كان يخلو به فى بيته فيقرؤ عليه فصل التصوف من كتاب الاشارات لابن سينا ، بما كان احكم ذلك الكتاب عن شيخنا الآبلي وقرأ عليه كثيرا من كتاب الشفاء لابن سينا ، ومن تلاخيص ارسطو لابن رشد وكانت له فى كتب الخلافيات يد طولى ، وقدم عالية ، فعرف له ابن عبد السلام ذلك كله ، واوجب حقه ، وانقلب الى تلمسان » اه ٠ لم يصرح ابن خلدون فى ترجمة حياته العلمية الى الكتب الفلسفية التى اخذها عن الآبلي ، وانما ذكرها فى ترجمة أبى عبد الله الشريف ، اذ يظهر عليه انه كان يحذو حذو ابن هدية القرشى فى حكمه على الفلاسفة كالفارابى وابن سينا ، حيث تعرض فى الفصل الذى عقده للفلسفة تحت عنوان « ابطال الفلسفة وفساد منتحليها » قال بعد ان استعرض تاريخ ظهورها من عهد افلاطون وتلميذه ارسطو » ثم كان من بعده فى الاسلام ، من اخذ بتلك المذاهب واتبع فيها حذو النعل بالنعل الا فى القليل ، وذلك ان كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس ، من اللسان اليوناني الى اللسان العربي تصفحها كثير من أهل الملة ، وأخذ من مذاهبهم من اضله الله من منتحلي العلوم ، وجادلوا عنها واختلفوا فى مسائل من تفاريعها ، وكان من اشهرهم أبو نصر الفارابي فى المائة الرابعة ، لعهد سيف الدولة ، وأبو علي بن سينا فى المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بني بويه باصبهان وغيرهما » اه ٠

ثم حلل ابن خلدون آراء الفلاسفة ومذاهبهم وعقب على ذلك بنقضها ، والتحذير من الاشتغال بها ، الا انه كان حذرا متحفظا حيث قيد رأيه فى تعلمها بقوله : « فليكن

الناظر فيها ، بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ، ولا يكب احد عليها وهو خلو من علوم الملـــة ، فقل ان يسلم لذلك من معاطبها ، واللـــه الموفـق للصــواب » اهـ ٠

ومما يلحق بموقف ابن خلدون من الفلسفة ، موقفه من علم النجم الذي عقد لـه فصلا فى المقدمة قال فيه بعد ان حلل آراء اصحابه ونقضها الا انه لم يمنعه ذلك مـــن الاستدلال على صحتها عندما اجتمع بتيمور مدة حصاره لدمشق وذكـــر لـه مسئلة القران الذى كان يترقبه المنجمون ويذكر فى ذلك ابن خلدون انه سأل شيخه ابا عـلي ابن باديس القسنطيني عام احد وستين بعد السبع مائة عندما لقيه بجامع القرويين فى فاس قال : « فقال لى يدل ـ أي القران ـ على ثائر عظيم فى الجانب الشمالي الشرقي من امة بادية ، أهل حنـــام ، تتغلب على الممالك ، وتقلب الدول ، وستولى على اكثـر المعمور » ٠ ثم قال ابن خلدون « فقلت ومتى زمنه ؟ » فقال « عام اربعة وثمانين تنتشر اخباره » ثم واصل ابن خلدون حديثه فقال « وكتـــب لي بمثل ذلك ابن زرزر اليهودى طبيب ملك الافرنج ابن اذ فونش ومنجمه » ثم قال « وكان شيخه رحمه الله امام المعقولات محمد ابن ابراهيم الآبلي ، متى فاوضته فى ذلك ، أو سألته عنه يقول : امـره قـريب ولابد لك ان عشت ان تراه » اهـ ٠

وكانت آراء هؤلاء المنجمين فى القران ، هي التى افرغها ابن خلدون فى بوتقـة أضفى عليها صبغة علمية ، وقدمها لتيمور تقربا أو تقية ، ونفس ما ذكرته من آرائـه فى الفلسفة ، وآرائه فى علم النجم ، نجده ينطبق تماما على آرائه فى التصوف التـى لايسعنا المجال لتتبعها ، ولنختم بهذا الفصل ما اثير حول نظريته فى الفقه ، التى اثارها د٠ طه حسين عندما انتقده انتقادا لاذعا لا مبرر له ، ذكـــر طـــه حسين فى « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ان ابن خلدون الذى ادعى انه قرأ مختصر ابن الحاجب الفقهى لم يقرأه ، ثم وضح ذلك بقوله : « يقرر ابن خلدون ان مختصر ابن الحاجب كان مـن بين الكتب التى يقول انه درسها فى تونس ، ويعده ضمن كتب الفقه المالكي فى ترجمته ، وفى مقدمته ، مع ان مختصر ابن الحاجب ليس كتاب فقه ، بل هـو كتاب فى أصول الفقه ، وهو مؤلف جم الانتشار ، لا يزال يدرس فى الازهر حتى يـــومنا هذا ، مؤلفه مالكي المذهب ، ولكنه لم يقتصر على الفقه المالكي ، بل شـــرح مبادىء التشريع فى المذاهب كلها وهو علم خاص » اهـ ٠ ما كتبه طه حسين ٠

وطه حسين فى تحامله على ابن خلدون ، وتزويره عليه انــه ادعى قراءة مختصرا ابن الحاجب الفقهي « لكي لا يبدو أقل شأنا من منافسيه اساتذة الازهـــر » جارى فى تحامله هذا كثيرا من القدامى والمتأخرين الذين يتسرعون الى اصدار أحكام معرضة على القدامى بالخصوص من دون تثبت ، وكثيرا ما يقولونهم ما لم يقولوه ، أو يخطر لهم ببال ، ويعللون اتهاماتهم بعلل واهية مرتجلة ، مثل ما علل به طه حسين دعوته ، وابن خلدون لم يقتصر على قراءة متخصر ابن الحاجب الفقهي ، بل قرأه وقرء مختصره فى الاصول ، وعقد فصلا فى مقدمته لا يقل عن الفصول التى خصصها لبقية فـروع المعرفة التى كانت تدرس فى عهده من تفسير وحديث وفقه وأصول الخ ... وقد خصص الفقه وأصوله بدراسة هامة ، وعندما ذكر مختصر ابن الحاجب الفقهي فانه لاحــظ ان ذلك التأليف أحدث ثورة ثقافية عند دارسى الفقه المالكي ببلاد المغرب العربي ، ولم يذكر ذلك المختصر « لكي لا يبدو أقل شأنا من منافسيه ، أساتذة الازهر » ، ولا أظـن انه وجد عالم أشاد بالازهر وبمصر مثل ابن خلدون ، ولكن قتل الانسان ما أكفـــره « ولذكر ابن خلدون مختصر ابن الحاجب وما احدثه من تطور فى دراسة الفقــه ببلاد المغرب العربي خصصه كثير من باحثى تاريخ الفقه الاسلامي بدراسات قيمة ، كانــت من بينها دراسة لهــا أهمية حررها العــالم الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور مفـتي الجمهورية التونسية فى عهده » ونشرها قبل موته بشهور فى « مجلة المجمع العلـمي العربي بدمشق » سنة 1389 هـ 1969 م ، نشرها تحت عنوان « الثقافة الاسلامية بالمغرب » وهذه الدراسة عبارة عن تحليل ، وتبسيط وتتميم ما قاله ابن خلدون فى الموضوع ، واذ قال ابن خلدون فى الفصل الذى عقده لاستعراض تطور قراءة الفقـــه ما يلـي : « ان ابن أبى زيد القيرواني ، الفقيه المالكي المشهور جمع ما فى الامهات فى كتاب النوادر الى انقراض دولة قرطبة والقيروان ، ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك ، الى ان جاء كتاب ابن الحاجب فلخص فيه طرق أهل المذهب .... الى ان قال ... فجاء كالبرنامج للمذهب » ثم واصل ابن خلدون حديثه فقال « ولما جاء كتاب ابن الحاجب الى المغـرب آخر المائة السابعة ، عكف كثير من طلبة المغرب ، خصوصا أهل بجاية ، لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوى ، وهو الذى جلبه الى المغرب ، فانه كان قرأه على اصحابه بمصر ، ونسخ مختصره ذلك ، فجاء به وانتشر بقطر بجاية فى تلاميذه ، ومنهم انتقل الى سائر الامصار المغربية » ثم ختم ابن خلدون فصله بقوله « وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ، ويتدارسونه ، لما يؤثر عن الشيخ ناصر الديـن من الترغيب فيــه » اهـ .

ايمقل بعد هذه التحليلات لاثر مختصر ابن الحاجب الفقهي فى تطور دراسة الفقه ببلاد المغرب العربي ان ابن خلدون ادعى قراءته « لكي لا يبدو أقل شأنا من منافسيه أساتذة الازهر » ثم يذكر طه حسين ان ابن خلدون إشتبه عليه مختصر ابن الحاجب الاصلي بالمختصر الفقهي وتعرض حين ذاك بتعريف بالمختصر الاصلي وفاته ان ابن خلدون عقد فصلا لاصول الفقه ، وذكر مختصر ابن الحاجب الاصلي فقال « واما كتاب الاحكام للآبلي وهو أكثر تحقيقا فى المسائل ، فلخصه أبو عمور ابن الحاجب فى كتابه المعروف بالمختصر الكبير ، ثم اختصره فى كتاب آخر ، تدارسه طلبة العلم ، وعنى أهل المشرق والمغرب به وبمطالعته وشرحه » اهـ · من هذا كله يتبين ان طه حسين يجهل تماما وجود مختصر ابن الحاجب الفقهي ، ولا عذر له ان كان يجهل وجوده ان يرمى شخصية مثل شخصية ابن خلدون بادعاء قراءة كتاب قبل تثبته ·

استفاد ابن خلدون وتأثر بأساتذته الجزائريين وأتأسف لضيق المجال عن تتبع مراحل هذا القسم من حياة ابن خلدون فى المجال الثقافى الدال على ان ابن خلدون كان يعطي الاولوية فى جميع نشاطاته للثقافة ، وفى ذلك قال عندما عين رئيس وزراء مملكة بجاية « وقدمني ملك بجاية للخطابة بجامع القصبة وانا مع ذلك عاكف – بعد انصرافى من تدبير الملك – الى تدريس العلم اثناء النهار بجامع القصبة ، لا انفك عن ذلك » وقد احتفظ لنا التاريخ بوثيقة هامة يذكر فيها صاحبها مناخ بجاية الثقافى مدة اقامة ابن خلدون فيها · واخذه عن عالم بجاية أحمد ابن ادريس ·

ولننتقل الى القسم الاخير من المحاضرة وهو ما يتعلق بتأثير البيئة الجزائرية فى حياته ، ولم أقصد من البيئة الجزائرية العواصم العلمية والسياسية التى أقام بها وخصصها بجل نشاطاته ، بل أقصد بيئة القبائل العربية التى نالت حينذاك نفوذا قويا وسلطة ممتازة ، كان يخضع لها الملوك والسلاطين وعملا بالقول المأثور ، وهو ما لا يدرك كله لا يترك جله ، نقتصر على ذكر اشهر هذه القبائل ، وان كان ابن خلدون عدد جلها ،وذكر انه كانت له علائق مع جميع رؤسائها ، ففى الشرق الجزائرى كانت قبيلة الذواودة ، وفى غربه كانت قبيلة بني عامر وفى الوسط كانت قبيلة سويد ، كانت صلة ابن خلدون وثيقة بهؤلاء الرؤساء ، وكان ملوك البلاد لا يجهلون هذه الصلة اذ كل منهم يلجأ اليه عند الازمات ليستعمل نفوذه فى صالح مملكته ، ان الحديث عن هذه القبائل وتطورها ، وشعور كل من رؤسائها بقوة نفوذه وهيمنته على إقطاعه ، ذلك النفوذ الذى كان له اثره ووزنه عند عزمهم على

تولية ملك أو عزله كانتصار قبيلة سويد ، لملوك بني مرين الذين مكنوهم من احتلال الجزائر ربع قرن ، ومن الادوار التى قامت بها قبيلة بني عامر فى أواخر عهد ملوك بني زيان ، وشاهدها الرحالة عبد البسيط المصري فى رحلته وشبه قبيلة بنى عامر بقبيلة آل فضل بالجولان ، اما الذواودة فهم الذين ساعدوا ملك قسنطينة على احتلال مملكة بجاية التى كان ملكها اخاه ، وكان ابن خلدون رئيس وزرائه ، كان رؤساء هذه القبائل كما سبق لنا ذكره يتشبهون بالملوك يولون العمال والقضاة فى مناطق نفوذهم يجمعون فى بلاطاتهم الشعراء والفقهاء ، يتخذون خزائن الكتب ، يدعون الشرف أو على الاقل الانتساب الى بعض الصحابة ، ويأنفون من الانتساب الى القبائل التى وردت على البلاد فى مسيرة بني هلال ، بل الكثير من شعرائهم ـ مثل الشاعر الشعبى ابن السويكت السويدى ـ يذكرون انهم جاءوا مع الفاتحين الاولين ، ذكر الفقيه يحيى أبو زكرياء المغيلي قاضى مازونة وتلمسان فى عهده ، فى كتابه الدرر المكنونة فى نوازل مازونة « فى باب الجهاد ما يلي » سأل بعض فقهاء بلادنا · وهو الفقيه أبو العباس احمد المريض ، سأل شيخه الامام ابن عرفة ، عن قضية قتال بني عامر وسويد عام ستة وتسعين وسبعمائة الى أن قال ، ونص السؤال عن اختصار لبعض الفاظه ··· جواب سيدنا امتع الله بكم عن مسألة : هي جماعة فى مغربنا من العرب تبلغ ما بين فارسها وراجلها قدر عشرة آلاف او تزيد ، ليس لهم حرفة الا شن الغارات ، وقطع الطرقات على المساكين ، وسفك دمائهم ، وانتهاب أموالهم بغير حق ، يأخذون حرم المسلمين ابكارا وثيبا ، قهرا وغلبة ، هذا دأب سلفهم وخلفهم ، مع ان احكام السلطان أو نائبه لا تنالهم ، بل ضعف عن مقاومتهم فضلا عن ردعهم ، بل انما يداريهم بالاعطية ، والانعام ببعض بلاد رعيته ، ونصب عمالهم فيها ، وقطع نظر عمال السلطنة عن النظر فى جناياتها ، وفضل احكامها الى ان قال « فأمرنا بقتالهم ، وصرحنا بانه جهاد » لما قاله مالك فى المدونة ، فاجتمع الناس على قتالهم فهزمهم الله ، وقتل منهم خلق كثير ، فانكر علينا بعض المنتمين للعلم بهذه البلاد بل كلهم ، فاستظهرنا عليهم بنصوص المذهب الخ ·· فاجابه ابن عرفة بالتأييد والموافقة ، وطرح نفس السؤال على فقيه تلمسان ومفتيها محمد العقباني وهذا نصه « وسئل الحفيد سيد محمد العقباني عن هؤلاء الاعراب المتغلبين على البلاد ، لضعف السلطنة ، احيانا يكونون مخالفين على السلطان كما يفعل عرب بلدنا مثل بني عامر وسويد ، يعمد احدهم الى تولية قاض فى وطنه ، بلا أمر الامام ، فيقضى ، هل تصح توليته ؟ وتنفذ احكامه ؟ ويعمل على خطابه ؟ أم لا ؟ اهـ » ·

وما ذكرناه عن أفراد هاتين القبيلتين الشهيرتين وغيرهما ، كان ابن خلدون اتصل برؤسائها اتصال ود ، وصداقة ، وانفرد بدراسة خفايا نظمها والاطلاع عن اسرارها ، اذ كثيرا ما التجأ الى الحياة فى ربوعها ٠

والخلاصة ان ابن خلدون الذى سجل أحداث زمانه وصور القبائل العربية على ما كانت عليه فى حياتهما اليومية ، اذ كانت رغم تطورها مع الزمان ، كانت تحتفظ على نظم حياتها العريقة ، من ذلك انه لا يهمها الا مصالح القبيلة ، وكان يشارك ابن خلدون فى انطباعاته عنها الرأي العام الذى كان يمثله فقهاء البلاد الذين افتوا بجوار الجهاد فيهم كما افتوا بجوازه فى القبائل البربرية التى كانت تشاركهم فى الفعل ، ومنها قبيلة بني تيغرين احدى قبائل مملكة وانشريس التى اعتكف ابن خلدون فى احدى قلاعها لتاليف تاريخه ، وكل ما يمكن ان يوخذ به ابن خلدون عن انطباعاته ، انها اتخذت سلاحا للحط من قيم العرب ومؤهلاتهم فى المجال الحضارى فرادى وجماعات ، واذا تتبعنا امثال هذه التصرفات الفردية أو الجماعية المرتبطة بأزمنتها ، نجد ارقى الامم الحضارية لا تخلو من امثال هذه التصرفات الهمجية فى فترات من تاريخها ومن ذلك ما قام به الجيش الفرنسي اثر الاحتلال مباشرة مدة ثلاث سنوات ، وسجلها الباحثون والمؤرخون الفرنسيون أنفسهم كما أيدها كثير من المسؤولين منهم فى تقاريرهم الخاصة كما ان اتصال ابن خلدون برؤساء القبائل العربية ، وتداخله فى استمالاتهم للملوك عهده جرت عليه التهم وفقدت منه الثقة ، ولم يكن يخف ان رؤساء القبائل فى عهده هم ذوو النفوذ المطلق بخلاف الملوك الذين كان لا يرتاح الى حماياتهم ، ويتهمهم بعدم الوفاء ، وكيف يرتاح لحماياتهم ، وقد شاهد ما هم عليه من الكيد لبعضهم بعض فالولد يغتال اباه ، والاب ولده ، والاخوة يستعينون على بعضهم بعضا بألد اعداء دولهم ، وقد عقد ابن خلدون فصلا سجل فيه هذا التدهور وبدايته واسبابه ، وذلك من منتصف القرن الثامن ، وقد غلب عليه اليأس من تحسن الاحوال ، بل كان ينتظر الكارثة وانفجار البركان ، وقد صرح بذلك فى بعض كتاباته لصديقه لسان الدين ابن الخطيب الذى كاتبه من تونس ، وقال له بعد أن وصف له حالة البلاد الحالكة وختم فصله بقوله : « الا ما شمل البلاد من تغلب العرب ونقص الارض من الاطراف والوسط ، خمود ذبال الدول فى كل جهة ، وكل بداية فالي تمام » اه فابن خلدون سجل وقائع زمانه بما فيها من محاسن أو مساوىء ، ثم ان اقامته بالجزائر وتجوله فى ربوعها ، واختلاطه برؤساء قبائلها وسكناه فى مخيماتهم ، ثم التفرغ لتاليف كتابه فى قلعة من قلاعهم ، جعلته ينفرد بالحكم على أحداث زمانه ، حكم خبير شاهد عيان ، لا أقل ولا أكثر ٠

منشـــــورات

وزارة الشـــؤون الدينيـــــة

صـــدر كتـــاب :



فى أربعـــة أجـــزاء

فتـــاو

امامـــة المتجنـــس

بســم اللــه الرحمــن الرحيــم

اعداد : أحمــد حمــانى

رئيس المجلس الاسلامى الاعلى

الســـؤال :

هل تصح الصلاة وراء من جنسيته فرنسية ، وشروط الامامة فيه متوفرة ، وهو قائم بجميع ما فرضه الله عليه ، وعلى جانب وفير من الفقه . أود ان يكون الجواب عن السؤال بخطكم وامضائكم لوقوع شقاق كبير وعداوة وتفرق فى صفوف المصلين من المغتربين . فالمطلوب منكم الايضاح ليزول الالتباس وما يخامر عقول كثير من الناس .

سائـل مسترشـد

مرسيليا ــ فرنسا

الجـــواب

الحمـد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أولا : اذا كان هذا الفرنسى الجنسية اكتسبها بالاصالة لانه من أبوين فرنسيين ، قد هداه الله للاسلام فاعتنقه . أو كان قد ولد من أم فرنسية وأب مسلم فورث الجنسية الفرنسية عن أمه بحكم القانون الفرنسى القاهر ، ورغما عنه ولا يقدر على التفلت منه ــ فلا بأس ان يؤم المصلين اذا كان هو إقرأهم للقرآن واعلمهم بسنة رسول الله وافضلهم . لقوله صلى الله عليه وسلم : (يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله فان كانوا فى القرآن سواء فاعلمهم بالسنة ...) الحديث .

ثانيا : اما اذا كان من أصل مسلم ، ومن جنسية أمة مسلمة ثم تجنس بالجنسية الفرنسية رغبة فيها وبمحض ارادته وهو يعلم ان اعتناق الجنسية الفرنسية يقوده الى احكام القانون الفرنسى الذى يمنعه من ان يطبق عليه ما بقى من احكام الشرع الاسلامى وخصوصا فى الاحوال الشخصية • مثل الزواج والطلاق والرجعة والنفقة والميراث ••• الخ • فان هذا المتجنس لا يؤم المسلمين ولا يصلى بهم لان العلماء قد حكموا عليه بالردة لما تجنس لرفضه ـ بمحض ارادته ـ احكام الشريعة الاسلامية وتملصه منها • واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » • وقد كان الحكم الاستعمارى فتح أبواب التجنس امام المسلمين لاغراء كثير منهم على التنكر للاسلام والتبرء من الجنسية الاسلامية والذوبان فى الجنسية الفرنسية ، ومن كثر سواد قوم من اعداء الله وظاهرهم على قومه وملته ودينه فهو منهم ، ولهذا افتى علماء الجزائر ـ وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء ـ بردة المتجنس ، كما افتى بذلك بعض علماء تونس فمنع المسلمون المتجنسين من ان يقبروا ـ بعد الموت ـ فى مقابرهم وكان ذلك سببا فى احباط هذه المكيدة ضد وحدة الامة • فالمرتد لا يصح اسلامه ولا تقبل امامته ما دام مرتدا ولم يفىء الى الاسلام •

ثالثا : ان تاب المتجنس الى ربه توبة نصوحا واستغفر لذنبه ، وندم على فعله واقلع عن جنسيته المكتسبة ورجع الى جنسيته الاصلية المسلمة أو جنسية شعب آخر مسلم ـ فان الاشكال يزول ـ ذلك ان الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات• فاذا تاب واصلح صحت امامته للمصلين المسلمين ، ويقدم على غيره ان كان اقرأهم للقرآن واعلمهم بالسنة •

اما ان قال بلسانه فقط : أنا تائب الى الله ، ثم بقى على جنسيته الفرنسية المكتسبة متمسكا بها ، راضيا عنها ، راغبا فيها ، متمتعا بفوائدها يورثها لابنائه ولا يريد بها بديلا ولا يبغى عنها تحويلا فهو مصر على الذنب ولا شك أن امامته للمصلين المسلمين لا تصح ، ومن صلى وراءه وجب عليه ان يعيد صلاته •

رابعا : ان رغب رغبة حقيقية فى الرجوع الى جنسيته الاصلية ولكنه لم يستطع لان القوانين الفرنسية أو غيرها لا تسمح له ـ حيث هو ـ أن يرجع أو لا تسهل الامر عليه ـ فليهاجر منها وليستقر فى وطن مسلم حيث يكتسب جنسيته وتجرى عليه الاحكام الاسلامية ويزول عنه العناء ـ فان لم يستطع التخلص من هذه الجنسية فامره الى الله ، وهو العالم بسرائر القلوب ·   والله أعلم ···

بلية كتب الجنس

« بعث الينا هذا الشاب سلسلة من الاسئلة منها هذه :

1 ـ كتب الجنس : هل تجوز قراءة كتب الجنس التى تتكلم بشكل فاضح عن العلاقة الجنسية بين الذكر والانثى مع العلم انها تثير الغرائز وتدفع الى الشر ؟

فريد حلوش عبد المؤمن
برج بوعريريج

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد :

فان قراءة مثل هذه الكتب مثيرة جدا · مخطرة على العزاب من الرجال والنسوان ، وخصوصا ما المراهقين والشبان من الفتيات والفتيان · وقد ترمى بهم فى احضان الفاحشة بمجرد ان يجدوا لها سبيلا · ولما نهى الله عن الزنا قال : » ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا » · ولهذا حرم الاختلاط المقيت بين الجنسين والخلوة بالاجنبية ، وابداء الزينة من المرأة ومن قرأ تلك الكتب فقد دنا خطوات حثيثة من الفاحشة · ثم ان قراءة تلك الكتب فى نهار رمضان مبطلة للصوم ، لان اقل ما تؤثره خروج المذى وذلك موجب للقضاء ، فان خرج المنى فعليه القضاء والكفارة · وكل منهما ـ خروج المذى أو المنى بارتكاب فعل يسبب احداهما ـ انتهاك لحرمة الصوم وذلك حرام ، وما أدى الى الحرام فهو حرام ·

فانتشار هذه الكتب بلية كبيرة مثل عرض الافلام الجنسية على الشاشة فى دور السينما ، أو على شاشة التلفزة · ومن واجب الدوائر المختصة مراقبة الطباعة والنشر والانتاج السينمائى بحيث لا تسمح بطبع هذه الكتب ، ولا اخراج مثل هذه الافلام ، ولا باستيرادها من الخارج ولا برواجها فى الاسواق ولا بعرضها · وان قصر مسؤول فمن الواجب على كل مسلم ان يقاومها بما استطاع · ومن ذلك عدم شرائها ولا التفرج عليها ، ويحرم على التاجر ان يبيع مثلها ·

وعلى العلماء والائمة ان ينبهوا الى اخطارها واضرارها ، وعلى الآباء والامهات ان يراقبوا ابناءهم وان يقوهم من شرورها · والله المستعان ·

الخلـــوة بالاجنبيـــة

2 ـ ما معنى الخلوة بالاجنبية ؟ أهى مجرد الجلوس معها فى حجرة واحدة دون تكليمها ولا الاشتغال بمحاسنها مع العلم ان (الظروف) سمحت بالجلوس معها فى نفس الغرفة عند وجود حجرة واحدة للعمل مثلا ؟ أم هى مجالستها وحدها مع التكلم والمباسطة واللعب والضحك وغير ذلك ؟

فريد حلوش عبد المؤمن
برج بوعريريج

الجـــواب

الحمـد لله والصلاة والسلام على رسول الله

تصدق الخلوة بالكون على انفراد ، فالخلوة بامرأة اجنبية تصدق بكون الرجل معها ـ وليس من ذوى محارمها ـ على انفراد فى مكان خال من غيرهما · سواء كانا جالسين أو قائمين ، أو راكبين أو ماشيين ، متكلمين أو صامتين ، متلاعبين أو متخاصمين · ولا شك ان وجود رجل سليم فى مكان خال مع امرأة سليمة ذريعة الى وسوسة الشيطان واغرائه ··· يحدث كلا منهما ويغريه بصاحبه · ولهذا جاء فى الحديث أن الشيطان يكون ثالثهما · فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم من أهلها فان ثالثهما الشيطان) رواه أحمد ، ويدعمه حديث ابن عباس رضى اللـهٌ عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يخلون احدكم بامرأة الا مع ذى

محرم) • رواه البخارى ومسلم ، ومثلهما حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اياكم والدخول على النساء) فقال رجل من الانصار (أفرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت) رواه أحمد والترمذى وغيرهما •

فهذه الاحاديث الصحيحة تدل على عموم النهى فى الامكنة والازمنة والاحوال بحيث لا يستثنى الا ان تكون المرأة مع ذى محرم قال الشوكانى : (الخلوة بالاجنبية مجمع على تحريمها كما حكى الحافظ فى الفتح ثم علل التحريم بان الشيطان يوقعهما فى المعصية اما مع ذى محرم فجائزة لامتناع وقوع المعصية مع حضوره) اهـ • ثم ذكر ان العلماء اختلفوا اذا وجد معهما من يقوم كجمع من النسوة الثقات •

وقد منع الحديث خلو حمو المرأة بها ، وهو قريب زوجها كأخيه وابن اخيه ، وابن عمه ، فالحمو قريب الزوج • قال النووى : (اتفق أهل اللغة على ان الاحماء اقارب زوج المرأة كأبيه ، وأخيه ، وابن أخيه ، وابن عمه ونحوهم) اهـ • وما يزال هذا فى عرفنا ـ فى جهات من الجزائر ـ مستعملا فحموها هو ابو زوجها ، وحماتها أمه • وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد تحذيرا من ان يخلو بها حموها ، وانه الموت لان الخوف من وقوع المحذور منه أكثر من غيره ، كما أن الخوف من الموت أكثر من الخوف من غيره ، ولان الدخول قد يتكرر كثيرا ولا يقع منه الحذر ، ولان المعرة بمثل الفاحشة التى قد تقع بينها وبين احمائها أشد ، والتهمة وحدها قد تهلكها وتقضى على هناء العائلة وعلى الزواج • قال المناوى : (انما بالغ فى الزجر بتشبيهه بالموت لتسامح الناس فى ذلك حتى كأنه غير أجنبى من المرأة) ثم قال : (وقد بالغ مالك فى هذا الباب حتى منع ما يجر الى التهمة كخلوة امرأة بابن زوجها وان كانت جائزة لان موقع امتناع الرجل من النظر بشهوة لامرأة ابيه ليس كموقعه منه لامه هذا قد استحكمت عليه النفرة العادية وذلك أنست به النفس الشهوانية) اهـ •

اما ما جاء فى ترديد سؤالكم : أم ان الخلوة هى الجلوس معها وحدها مع الكلام واللعب والضحك وغير ذلك ، فاعلم يا بنى أن الامر اذا بلغ الى اللعب والضحك فهما فى مقدمات الجماع ! وقد بلغ منهما الشيطان ـ ثالثهما ـ مراده • ولعنة الله على مثل هذه (الظروف) التى تسمح بالجمع بينهما الى هذا الحد وتؤدى الى هذه الفعال •

منشورات وزارة الشؤون الدينية

سيصـــــدر قريبا كتـــاب :

محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر

للفكر الإسلامي

عنابة

12 - 21 رجب 1396 هـ

10 - 19 يوليو 1976 م

في 5 مجلدات (بالعربية)

1979 N° 70-71

فهـــرس العـــدد

مذكـرة حـول اقليـم قسنطينة

NOTICE SUR LA PROVINCE DE CONSTANTINE
sans nom d'auteur, sans date postérieure à 1839

ترجمة وتعليـق :
د. ناصر الدين سعيدوني

بعد تصفحي العديد مـن الوثـائق المتعلقة بتـاريخ الجزائر الحديث ، المدرجة ضمن مجموعة (ش ـ 4) من أرشيف وزارة الحربية الفرنسية بفانسان (باريس) ، رأيت من المفيد ، بل من الواجب أن أقوم بترجمة لاحدى تلك الوثـائق التى تمس الحيـاة الاقتصادية للشـرق الجزائري اثر سقوط قسنطينة بيد الفرنسيين ، وذلـك حتى يتعرف القارىء على نوعية المعلومات التى كـان الفرنسيون يحرصون على جمعها والانتفاع بها قصـد استغلال الشرق الجزائرى اقتصاديا وفـق مخططاتهم الاستعمارية ٠

وقد وقع اختياري فى هذا الشـأن على المذكرة المسجلة تحت رقم A.M.G., H. 227 ، والتى تحمل عنوان : « مذكرة حول اقليم قسنطينة
« Notice sur la Province de Constantine

وهي محررة فى نسختين احداهما تعـود الى فترة متقدمة وهـي الاصلية ، والاخرى متأخرة وهي منقولة عن النسخة الاولى ٠

وعلى كل فاننا نستنتج من بعض الملاحظات المسجلة بخط محافظ أرشيف فانسان على النسخة الاصلية منها ، ان تاريخ كتابة هذه المذكرة يعود الى فترة متأخرة عـن الاحتلال الفرنسي لقسنطينة ، وبالتأكيد الى ما بعد عام 1839 هـ ، كما يفهم أيضا من تلك الملاحظات المسجلة على المذكرة ان أرشيف فانسان كان قد تسلمها مـن الجنـرال الفرنسي قالوا Le Général Gallois ، الذى أوكلت له مهمة اخضاع بعض الجهات من الشرق الجزائري ، وأن كاتبها من الراجح ان يكون اما دوسان سوفور De St Sauveur أو أوربان Urbain وان كنت ارجح ان هذه المذكرة هي عبارة عن احدى التقارير التى كان يبعث بها أوربان الى قادة الجيش الفرنسي للانتفاع بها فى حكمهم لسكان الارياف ، اعتمادا على كتابات أوربان ونوعية المعلومات التى كان يهتم بجمعها (1) ٠

وبغض النظر عن تحديد تاريخ هذه المذكرة أو تعريف كاتبها ، فاننا أرى أن مـا تضمنته من معلومات وما اشتملت عليه من وصف مفصل ، يجعل منها احدى الوثائق الاساسية التى تلقى الضوء على احدى الفترات الحاسمة التى شهـد فيها الشـرق الجزائري انهيار الوجود العثماني وحلول الاستعمار الفرنسي ٠

لكن هذه المذكرة مـع أهميتها تتضمن بعض الاحكـام المتحيزة والآراء المغرضة ، وهذا ما يدفعني الى ان ألفت انتباه القارىء الكريم وأنا أقدم ترجمة لهذه المذكرة ، الى ضرورة الاحتراز والتروى والمقارنة عنـد قراءتـه لهذه الترجمة ، أو عنـد انتفـاعه بالمعلومات التى تضمنتها فى تطوير ابحاثه والتوسع فى دراساته ، ولهذا السبب رأيت من المناسب أن ادرج فى مستهل هذه الترجمة الملاحظات التالية :

1) ان كاتب هذه المذكرة اعتمد فى معلوماته على الروايات الشفوية التى استقاها من شيوخ القبائل وزعماء العشائر وبعض الموظفين الجزائريين المتعاملين مع الجيش الفرنسي ، هذا بالاضافة الى رجوعه الى بعض التقارير التى كان يبعث بها قادة الجيش الفرنسي العاملين بقسنطينة ونواحيها الى السلطات العليا بقسنطينة والجزائر ٠ وهذا ما جعل بعض المعلومات الواردة فى المذكرة تميل الى المبالغة ، ولا تخلو من الأخطاء والهفوات ، وان كانت هذه الاخطاء والمبالغات لم تبلـغ الحد الذى ينقص مـن القيمة التاريخية لهذه المذكرة ٠

(1) Urbain, Notice sur la division territoriale de l'Algérie, 1843.

2) ان المعلومات التى اوردتها المذكرة تعكس لنا اهتمامات الادارة الفرنسية فى الفترة الاولى للاحتلال ، والتى تنصب على جمع المعلومات التى تتصل بالحياة الاجتماعية وتمس الحالة الاقتصادية ، وذلك بهدف الانتفاع بها فى انجاح المخططات الاستعمارية ، ولهذا الغرض بالذات تركزت معلومات المذكرة حول قضايا الملكية ونظام الضرائب وما أشبه ذلك .

3) ان المذكرة تقدم لنا عرضا مركزا ومعلومات قيمة لا سيما ما يتصل منها بأوضاع الشرق الجزائري الاقتصادية ، يمكن ان نستخلص منها صورة واضحة لبايليك الشرق أواخر العهد العثماني وبالخصوص أثناء حكم الحاج أحمد باي (1826 ـ 1837) ، فبالرغم من أن تاريخ هذه المذكرة كما أشرنا اليه سابقا يعود الى ما بعد سنة 1839 ، الا أن معلوماتها تنطبق على الحالة التى سبقت الاحتلال الفرنسي ، وذلك نظرا لان أوضاع الشرق الجزائري لم تعرف تغيرا شاملا ، كما أنها لم تشهد تحولا عميقا طيلة السنوات الاولى للاحتلال الفرنسي ، وذلك عكس باقى الجهات الوسطى والغربية من الجزائر التى تعرضت اثناء مقاومة الامير عبد القادر وبومزراق الى التخريب والتدمير من طرف قادة الجيش الفرنسي وعلى رأسهم بيجو الذى انتهج أسلوب الارض المحروقة ، هذا فى وقت كان فيه الشرق الجزائري بمعزل عن هذه التغيرات العميقة فى البنية الاجتماعية والاقتصادية ، نظرا لصعوبة تضاريسه وقوة عشائره وتأخر احتلال قسنطينة ونواحيها ، فضلا عن وجود مجموعة من الشيوخ والموظفين الجزائريين كانت مستعدة لان تقوم بدور الوساطة بين الادارة الفرنسية والاهالي امثال ابن عيسى وبوعكاز وبورنان وبوعزيز بن قانة والمقرانى ... الخ .

وهذا ما دفع الادارة الفرنسية بقسنطينة أن تنتهج أسلوب الحذر والتروى فى معاملتها لسكان الارياف ، وان تعمد فى فرض نفوذها وبسط هيمنتها الى شن الحملات العسكرية المحدودة المدى ، التى تهدف قبل كل شيء الى اقامة مراكز عسكرية وتأمين طرق المواصلات ومحاولة استدراج الزعماء المحليين وشيوخ القبائل ذوى النفوذ الى التعاون معها مقابل بعض الامتيازات ، وهذا ما ابقى الشرق الجزائرى ـ موضوع هذه المذكرة ـ محتفظا ببنيته الاجتماعية وبطابعه الاقتصادي الذى كان سائدا فى أواخر العهد العثماني ، فلم يعرف التغير الشامل والتحول الجذري الا مع اشتداد المقاومة المسلحة فى فترة الستينات من القرن التاسع عشر ، هذه الفترة التى عرفت بداية تطبيق مراسيم نابليون الثالث سواء ما يتصل منها بوضعية الاراضي

(Senatus Consulte du 22 avril 1863) أو ما يتعلق منها بالاحوال الشخصية للجزائريين (Senatus Consulte du 15 juillet 1865) كما شهدت هذه الفترة الاخيرة اشتداد مقاومة سكان الارياف للتوسع الفرنسي التى بلغت أوجها مع ثورة الرحمانيين بقيادة المقراني عام 1871 ، وما اعقب ذلك من تطبيق مجحف لقانون الاهالي التعسفي «كود انديجينا» الذى عوضت به الادارة الفرنسية أسلوب المكاتب العربية ، مما اضر بسكان الارياف بالشرق الجزائري وعمل على تفكيك تنظيماتهم الاجتماعية وهياكلهم الاقتصادية ·

4) ان هذه المذكرة تتناول أوضاع مقاطعة قسنطينة بروح استعمارية ، فهي تتعرض الى الاحداث بنظرة فرنسية متعالية تمجد النظام الفرنسي وتبرز مساوىء الادارة التركية وتميل الى تصنيف السكان الجزائريين على أساس عرقي ومفهوم طائفي ، دون مراعاة للاوضاع المحلية والواقع الاقتصادي ، متناسية ان هذه الاوضاع وهذا الواقع هو الذى تحكم الى حد كبير فى مثل هذه التصنيفات وهذه الاحكام ·

ولهذا نرجو ان يتفطن القارىء الكريم الى مخاطر هذه النظرة ومزالق هذه الاحكام الاستعمارية التى تهدف الى الاساءة الى سكان الارياف بقدر ما تشيد بتنظيمات الادارة الفرنسية ·

5) ان هذه المذكرة رغم ما يلاحظ عليها من جوانب سلبية ، تظل فى نظرنا من الوثائق الاساسية التى لا يمكن الاستغناء عنها للتعرف على فترة حكم الحاج أحمد باي وما أعقبها من احتلال فرنسي ، فهي تتصل بأوضاع الملكية وتتعرض لحالة الضرائب وتتضمن احصاء مفصلا وشاملا لقبائل الشرق الجزائرى ، وما كانوا يساهمون به من مبالغ عينيه ونقدية لخزينة بايليك الشرق بقسنطينة ، مما يساعد القارىء على تكوين فكرة صحيحة عن القدرة الاقتصادية والواقع الاجتماعى للشرق الجزائرى · كما يمكن الباحث من توجيه اهتماماته الى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية من التاريخ الجزائري ، هذه الجوانب التى ظلت مهملة وغامضة الى عهد متأخر ، والتى هي فى أشد الحاجة الى نشر الكثير من مثل هذه الوثائق حتى تسهل الكتابة حولها ويكثر الاهتمام بها ·

ناصر الدين سعيدونى

القســم الاول

معلومات عـن بايلـيـك قسنطينــة

بايليك قسنطينة يخضع مباشرة لسلطة داي الجزائر ، ويتولى حكمه باي ، يتـم تعيينه وعزله بأمر من الداي ٠

أما الموظفون الكبار ببايليك قسنطينة فهم :

الخليفة : كان يكلـف بالاشراف على مـردود الضرائب ، وحمل مـا يترتب على البايليك من العوائد الى الجزائر كل ستة شهور ، وكانت العادة تقضى بأن يسند هذا المنصب الى أحد أقارب الباي ٠

قائد الـدار : يتولى الاشراف على أملاك البايليك ، وقد ينـوب البـاي فى تسيير الامور ، عندما يكون هذا الاخير خارج المدينة ، وكان قائد الدار يخضع لاوامره قائد الباب الذى كان يقوم بمراقبة عوائد ومداخيل حقوق الكراء داخل المدينة ٠

الآغـا : تعود اليه قيادة الفرق العسكرية ببايليك قسنطينة ٠

الخزندار : مكلف بتسـلم كل الثروات والامـوال المستخلصة من مستوجبات الضرائب بالبياليك ٠

وكان يخضع لاوامره : **الباش كاتب** ، الذى يلحق به كاتبان آخران هما : الكاتب الثاني والكاتب الثالث ٠ وكان الباش كاتب مكلف بالاشراف على سجلات المحاسبات لكـل مداخيل البايليك ، بينما الكاتبان الآخران كانا يقومـان بتهيـئة بيانات مكتوبـة « وصول » عن كل المداخيل التى تخص خزائن البايليك ٠

باش المكاحلية : المتصرف فى فرقة مكاحلية الباي ٠

باش سراج : كبير السياس ، يكلـف بخدمة الاسطبلات وتجهيـز حصان البـاي الخاص ، عندما يعتزم الباي امتطاءه ٠

قائد المقصورة : حاجب الباي ، يحرص على الاعتناء بمسكن الباي الخاص ٠ .

قائد الجبيرة : المكلف بحمل جبيرة الباي ، وهي عبارة عن محفظة ، تعلق في مقدمة السرج ٠

قايد السبسي : حامل غليون الباي ٠

قائد الطاسة : مكلف بحمل الآنية وتحضير ما يتناوله الباي من مشروبات ٠

باش قهواجي : ضابط مكلف باحضار القهوة للباي ٠

وهذه الوظائف السبعة الاخيرة كانت خاصة بالمسلمين الذين هم من أصل نصراني، يحصلون على بعض الترضيات مقابل القيام بها ، حتى يتمكنوا من تسديد نفقاتهم الخاصة ، وتكون لهم تعويضا عن الاجرة والراتب ، بالاضافة الى بعض الحقوق المحددة والمتعارف عليها والتى يحصلون عليها فى بعض المناسبات المتعلقة باسناد المناصب ٠

وهذه الحقوق الخاصة لم تكن مقتصرة عليهم ، بل يتقاضاها أيضا كبار الموظفين ، فى بعض المواسم ٠ وعلى رأسهم مستشارا الداي وصاحبا الحضوة عنه وهما : ابن الحملاوي وبن عيسى ٠ وقد أسند الباي لهذا الاخير مهام ادارة شؤون السكة منذ احتلال الفرنسيين لمدينة الجزائر ٠

الباش آغا : وبالاضافة الى هؤلاء الموظفين الكبار ، كان يوجد بمدينة قسنطينة كما هو الحال بباقى أقاليم الايالة الجزائرية ، شخصية لها من النفوذ والسلطة ما يماثل نفوذ وسلطة البايات ٠ وهذا ما دفعني الى ذكر شخص الباش آغا صاحب هذه الشخصية الهامة ٠

وقد كان للباش آغا حاشية مكونة من عشرة أتراك ، كان يتم تعيينهم من طرف الداي ، ويعرفون بمجلس العشرة ، وتنحصر واجباتهم فى مراقبة تصرفات الداي وسير ادارة البايليك ، وتقديم عرض عنها لداي الجزائر ٠

وهكذا يكون الداي على علم بكل ما يحدث من أمور قد تكون مخالفة لارادته فى اقليم قسنطينة ، وذلك بفضل مجلس العشرة ورئيسه الباش آغا ٠

وكانت تخضع لاوامر الباش آغا الحامية التركية المؤلفة من خمسمائة رجل ، والتى كانت ترابط بحصن القصبة ، كما كان يعهد للباش آغا بتنصيب الباي فى مهامه ، أو تنفيذ الفرمان المتعلق بتنحيته وتنفيذ حكم الاعدام فيه ٠

وحال موت احد البايات كان الباش آغا يكلف بادارة البايليك بصفة مؤقتة حتى يصل الباي الجديد الى قسنطينة ·

خلع الباي : أما طريقة تنفيذ الباش آغا لفرمان الخلع المتعلق بأحد البايات فكانت تتم حسب الكيفية التالية بعد صلاة الجمعة فى المسيد ، يتوجه الباش آغا مصحوبا بمجلس العشرة الى قصر الباي ، وفى حالة تنفيذ فرمان العزل ، يبادر الباش آغا الى نزع خنجر الباي ، وذلك بعد تقديم مراسيم التحية المتعارف عليها للباي والقاضية بتقبيل كتفه · وفى هذه اللحظة بالذات يحيط مجلس العشرة بالباي ليسلموه الى الجلاد لتنفيذ الحكم الصادر فى حقه ·

وبعد هذه العملية مباشرة ينصب الباش آغا ، الباي الجديد اذا كان تم تعيينه مسبقا من طرف الداي ·

وقد بلغ عدد البايات الذين تم خلعهم بهذه الكيفية منذ صالح باي فقط ثلاثة وعشرين بايا ، وهذه قائمة باسمائهم ومدة حكمهم :

ـ صالح باي : تم القضاء عليه خنقا بأمر من داي الجزائر · بعد حكم دام اثنين وعشرين سنة ، شيد أثناءه مسجدا فخما ظل يحمل اسمه ، وأوقف عليه الاحباس للانفاق على اقامة الشعائر الدينية به وتسديد مصاريف صيانته ورعايته ·

كما أعاد بناء جسر القنطرة ، وقد استعان على ذلك بأحد المهندسين الايطاليين ، واستقدم للعمل به ما يناهز مائة عامل من أروبا (2)

وكان صالح باي يرمى من عمله هذا الى تشييد صف من الاقواس يكون بمثابة جسر وحنايا فى آن واحد ، وبذلك يتمكن من جلب ماء عين العرب (2) الواقعة فى أعالى سوق الغزل ·

على ان موت صالح باي حال دون تحقيق مشروعه الضخم لجلب المياه الى قسنطينة ، هذا المشروع الذى اتهم بسببه صالح باي على أنه كان يرمى من ورائه الى الانفصال واعلان الاستقلال ، مما جر عليه نقمة داي الجزائر الذى أمر بقتله خنقا ·

---

2) عين ماء غزيرة ، كانت تزود الحوض الواقع خارج جسر القنطرة بالمياه الصالحة للشرب ، وهي تقع قبالة المستشفى المدني على طريق عنابة ، وهي على بعد 1178،10 مترا من منارة جامع القصبة ، ومستواها يعلو على هذه المنارة بـ 10،08 أمتار ، مع ان المنارة تعلو هي الاخرى .

وبذلك بقيت القنطرة ، عبارة عن متاريس من الحواجز (Les Parapets) تستند عليها أرضية الجسر (Tablier du Pont) ، عندما أوقف العمل بها الباي حسين الذى خلف صالح بـاي ٠

ـ ابراهيم باي قتل بعد أن حكم ثلاثة اشهر ٠

ـ حسين باي قتل بعد أن حكم أربع سنوات ٠

ـ أوزن حاجى باي قتل بعد أن حكم ست سنوات ٠

ـ حاج مصطفى انقليز نفي بعد أن حكم أربعة سنوات ، وكان نفيه بمثابة تحريض للتونسيين لمحاصرة مدينة قسنطينة ، ولهذا لم يعد يبادر الى نفي البايات ٠

وقد قاد هذه الحملة حمودة باشا التونسي ، ورغم كون تفاصيلها ظلت معـروفة الا ان المدافع الذى وجدت بقسنطينة بعد الاستيلاء عليها مـن طرف الفرنسيين كـان مصدرها هذه الحملة ٠

ـ عصمان باي ، حكم مدة سنة ، ولقـى مضرعه فى احدى حملات التى جردها ضد قبائل ناحية جيجل ٠

ـ عبد الله باي ، قتل بعد أن حكم مدة ثلاث سنوات ٠

ـ ولد صالح باي ، دام حكمه مدة سنة ونصف ٠

ـ علي باي ، حكم ثلاث سنوات ٠

ـ مصطفى ، 15 يوما ٠

ـ أحمد باي ، ثلاثة شهور ٠

ـ احمد باي الطوبان حكم ثلاث سنوات قتل بعدها خنقا ٠

ـ محمد النعمان ، قتل خنقا بعد أن حكم سنتين و 24 يوما ٠

ـ شاكر باي ، دام حكمه ثلاثة سنوات وثمانية وعشرون يوما ٠

ـ قارة مصطفى حكم شهرا واحدا ٠

ـ أحمد باي مملوك حكم سنة و 29 يوما ٠

ـ ابراهيم باي الشابي نفي الى الجزائر بعد حكم دام سنتين و 31 يوما ٠

ـ بوشطابية نفي الى الجزائر بعد حكم دام سنة و 32 يوما ٠

ـ مانامانى نفي الى الجزائر بعد حكم دام سنة ونصف ·

ـ الحاج أحمد باي حكم اثنى عشر سنة و 47 يوما · ولـم يعترف بسيادة فرنسا على الجزائر بعد الغزو الفرنسى لها ، بل اعلن استقلاله واسبغ على نفسه لقب باشا ، وضرب العملة ، وأحاط نفسه بحاشية ضخمة ، بعد ان تخلص من مراقبة الباش آغا ·

ولقد أثارت تصرفات الحاج أحمد باي هذه استيـاء الاتراك المقيمين بقسنطينة ، لا سيما بعد ان اصبح ابن عيسى القبائلي الاصل والمعادي للاتراك بطبيعته ، موضـع ثقه أحمد باي ·

وقد دفع هذا الموقف المعادي للاتراك الحاج أحمد الى العمل على القضاء عـلى عدد كبير من الطائفة التركية ، مستعينا فى ذلك بابن عيسى الذى قضى على ما يزيد على 2000 تركي ، وبذلك تمكن أحمد بـــاي من فرض سلطته وبسط نفوذه على بايليك قسنـطينـة ·

حـدود اقليـم قسنطينة :

يعد اقليم قسنطينة من أكثر اقليم الايالة الجزائرية ثروة وخصبا ، ومن أوسعها مساحة، ويحد هذا الاقليم شمالا البحر، وغربا وادى الصمار (3) الذى يعرف بوادى بنى منصور ، وبني عباس ، ويصب هذا النهر فى البحر بالقرب من بجاية ، ويدخل ضمن اقليم قسنطينة برج حمزه ، وذلك لكون القائد المتصرف فيه كان يعين من طرف بـــاي قسنـطينـة ·

ومن الجنوب يحد اقليم قسنطينة الصحراء ويلحـــق به مدينة ورقلة الـتى كان حاكمها الباشا يبعث بهدايا قيمة الى قسنطينة عندما يكون الباي فى حالة تمكنه مـن المطالبة بهذا ، وقد ذهب صالح باي اثناء حكمه للاقليم الى توقرت لاخضاعها ولكنـه اضطر الى رفع الحصار عنها لانعدام الاقوات والمؤن ·

---

3) بفضل المعلومات القيمة التى أفادني بها قائد بجاية مدني ، حول نواحى بجـاية وجهات الساحل فان هذا الوادى «الصمار» يأخذ مجراه من أعالى برج حمزة ، وترفده أودية كثيرة من جرجرة ويعرف بالصمار وليس بالصمام ، وتختلف تسميته حسـب الجهات التى يمر بها ، فهو يدعى فى أعالى قربة بنى منصور بوادى بنى منصور ، ثـم يغير اسمه الى وادى بنى عباس وآقبو وبنى وغليس وتازمالت ، وفى الاخير يحمـل اسم وادي الصمار نسبة الى النبات المعروف بهذا الاسم (Joncs)

اما من جهـة الشرق فيحد البايليك اقلـيم تونس ، وتتبع الحدود وادى صـرات (Sarrath) حتى يلتقى بوادى مرجانة (Merdjana) ، وياخذ وادى صرات هذا منبعه من بلاد بني مراد الواقعة الى الشرق من الاوراس ، ويرفده عدد كبيـر من الاودية المنحدرة من هذه الجبال ، والى الجنوب من هذا الوادى يحد الاقليم بلاد الجريد من جهة الشرق ، وذلك حسب معلومات مأخوذة من ابن عيسى ·

ومما يلاحظ أن سكان بايليك قسنطينة لم يكونوا كلهم يخضعون لسلطة البـاي ، فهناك اهالى ساحل بجاية والبابور لا يدفعون الضرائب المترتبة عليهم ، وحتى الهدايا والعوائد لا تؤخذ منهم الا بالارغام والقسر ، فاصبحوا بعد الهزيمة التى الحقتها قبائل بني فليسة بالاتراك فى مضايق جرجرة لا يطالب منهم سوى الاخلاد الى السكينة ·

اما العشائر القبلية القاطنة بنواحى جيجل والقل وسطورة فقد ظلت مستقلة ولم تعد تدفع ما عليها من الضرائب منذ عهد طويل · وقد دفع عثمان باي حياته ثمنـا لاحد الحملات التى جردها على ساحل جيجل ، امـا المناسبة التى حدثت فيها الحملة فهي كما يلي :

انهزام عثمان باي من طرف قبائل جيجل : كان سببه أن أحد الاشراف قدم الى قسنطينة بجيش يتكون من عدة قبائل وحاصرها ، مما دفع داي الجزائر آنذاك وهـو مصطفى باشا الى اصدار أوامره الى البـاي عثمان ، وحثـه على الانتقام من هذه القبائل التى تراجعت بعد اندحارها الشنيع عن قسنطينة الى وادى زهور ·

وقد مرت الايام الاولى للحملة دون أن تطلق طلقة واحدة حتى وصلت الى سهـل يبعد عن جيجل بمسيرة أربع ساعات على الاقدام ، وهناك وجد عثمان باي نفسـه فجأة مطوقا بجموع (غفيرة) من القبائل بحيث بقي محاصرا لمدة ثلاثة أيام ، لا يستطيع اثناءها التقدم أو التراجع ، وفى الاخير اضطر أن يقاتل وهو يتقهقر بعد أن تناقصت المؤن والاقوات · وقتل هو كما هلك جيشه وحتى القليل من الاتراك الذين استطاعوا الافلات من الحصار والموت لاقوا حتفهم فى الجبال ·

الضرائب : كانت القبائل القاطنة بالبايليك يتوجب عليها تقديم مقدار من الحبوب ، تحدد كميته حسب أهمية الارض المزروعة ، ويعرف هذا الاجراء لاستخلاص الضرائب **بالجبري** ، وقد ظل العمل به جاريا فى عهد أحمد بـاي ومن سبقه مـن البايات ، حتى سقوط مدينة الجزائر فى ايدى الفرنسيين ، واستيلاء الجيش الفرنسى على عنـابة الذى حال دون تصدير الحبوب الى الخارج ، وحينئذ التجأ أحمد باي الى وسيلـة

أخرى عرفت بالحكور : اصبحت إلقبائل تدفع بمقتضاه قسطاً من الضرائب المفروضة عليها نقدا ، والباقى تدفعه عنيا كما جرت به العادة فى الحكور والعشور ٠

وكان الحكور فى هذه الفترة يقدر بعشرة بسيطات (Bacetas) من فئة 2،5 ف على الجابدة الواحدة ، على ان القبائل التى تساهم بامداد الفرسان للبايليك لم تكن مطالبة الا باربعة بسيطات فقط ٠

اما العشور ، فهو يقدر بصاع من القمح وصاع من الشعير بالنسبة لكل جابــدة ، على أنه لم يكن مطبقا على كل القبائل ، فهناك بعض العشائر التى ظلت محتفظة بطريقتها الخاصة فى تسديد ضرائبها ، وهناك البعض الآخر كان يكتفى بدفع مقدار معين مــن المطالب المخزنية ٠

اقسام البايليك : يشتمل بايليك قسنطينة على عدة نواحي كبيرة ، على رأس كل منها قائد يتصرف فى شؤونها ويقر العدالة بها ويستخلص الضرائب من سكانها الخ

وكان حكام هذه النواحى اما قيادا يخضعون لاوامر شيوخ العشائر ، أو من الشيوخ الكبار مثل شيخ العرب ، أو من كبار موظفى البايليك المقيمين بقسنطينة ٠ وهم يختارون لهذه المناصب حسب رغبة الباي ، ويدفعون مقابلها رسوم التولية ، ورسوم التولية هذه كانت تدفـــع مسبقا ومقدارها يتراوح حسب أهمية الاقليم الذى يسند الى الحــاكم ، وبغض النظر عن المبلغ الذى تساهم به القبيلة فى هذه المناسبة ٠

وتصور لنا هذه المطالب المالية حالة الشقاء والفقر التى كان عليها سكان البايليك فهم ملزمون بدفع ما يترتب عليهم من ضرائب العشور والحكور وتقديم أنواع العوائد لشيوخهم وقيادهم ، بالاضافة الى رسوم التولية التى كثيرا ما كان الباي يعتمد الــى تبديل القياد ، وبالتالى يتوجب عليهم فى هذه الحالة المساهمة فى رسوم اسناد المنصب الجديد مرة أخرى ٠

اما الاقسام التى تتالف منها القبيلة أو العرش المسيرة من طرف احد القياد فهي عبارة عن مجموعات صغيرة من السكان تعرف بالخروبة ، ويكون على رأسها احــد الشيوخ ، وتنقسم الخروبة بدورها الى دواوير ٠

وغالبا ما يجتمع تحت حكم قائد واحد العديد من القبائل ، كما هو الامر بالنسبة لقيادة الحراكتة ، وكثير من قيادات نواحى الساحل ٠

أما تصنيف السكان حسب أصولهم واعراقهم ، فيمكن ارجاعهم الى أربعة مجموعات عرقية متمايزة هي القبائل والعرب والترك واليهود .

1 ـ **القبائل** : تختلف مجموعة القبائل عن باقى السكان العرب بالبايليك لا من حيث لغتها فقط ، وانما أيضا من حيث عاداتها وأسلوب معيشتها .

وهم يعتبرون السكان الاصليين للبلاد ، وقد حافظوا على استقلالهم ضد الفاتحين من عرب وأتراك بالالتجاء الى المناطق الجبلية حيث تحصنوا بها .

وقد تمكنوا من استرجاع جزء من ممتلكاتهم القديمة تدريجيا اذ كلما تكاثر عددهم دفعوا أمامهم السكان العرب فى حوز قالمة وعنابة ومقاطعة الجزائر ، وأقاموا القرى والمداشر بوادى الصمام الخصب فوق الاراضى التى كانت فى حوزة العرب وقد تم لهم ذلك بصفة تدريجية وحسب كيفيات مختلفة ، بعد أن اضطر الرعاة الكسلاء من العرب الذين لا يميلون الى فلاحة الارض بأنفسهم ، الى جلب العمال القبائل لفلاحة الارض لهم ، وذلك لحاجتهم الماسة الى القمح والشعير ، فبهذه الطريقة وهي كراء الارض للعمال القبائل تخلت قبائل عربية برمتها عن أراضي كانت تملكها ، ليحل محلها سكان من القبائل لم يلبثوا أن رفضوا اداء الواجبات المترتبة عليهم مقابل كراء الاراضي التى يعملون بها ، بعد أن تعزز موقفهم باستقدام مجموعات جديدة منهم فى شكل هجرة متواصلة ، وهكذا استولى القبائل على الاراضى التى اكتروها من العرب ، وبقيت فى حوزتهم رغم ما انجز عن ذلك من معارك ونزاع ، وقد اضطر البايات أن يقروا هذا الوضع وان يعترفوا بشرعية حقوق الملكية الجديدة التى اكتسبها القبائل (4) .

ومما يميز القبائل أنهم كانوا ينزعون الى الاستقلال والحكم ذى الطابع الجمهوري ويسكنون المنازل المبنية ، ويعرفون صناعة النحاس والحديد والاسلحة والبارود ، كما كانوا ينسجون من الصوف الاغطية (الحياك) والبرانس الرفيعة ، وقد اشتهر فى ذلك بنو عباس بالزرابى الجميلة .

فضلا على أن القبائل كانوا يتفوقون عن العرب فى الاعمال الفلاحية ، فهم يقلمون زياتينهم ويستخرجون منها الزيت ، حتى أن الزيوت المعروضة فى أسواق قسنطينة كلها آتية من القبائل القاطنة بالجهات الساحلية بمنطقة البابور ومن نواحى فرجيوة .

وقد تأكد الاقتناع بتفوق القبائل على العرب باعتبارهم مزارعين مهرة اثناء حملة البيبان التى سلكت فى طريقها المناطق المحاذية لوادى بني منصور .

4) لا نسلم بهذه المعلومات لمنافاتها للحقيقة التاريخية (المترجم) .

2 ـ **العرب** : العرب بدو يسكنون الخيم ، وتتألف كل ثروتهم من قطعان المواشى ، فهم لا يفلحون الارض الا بقدر ما تضطرهم الحاجـــة الماسة الى الاقوات ، كما انهم غير مرتبطين بالارض ، ما داموا غير مالكين لها ، وهذا ما يجعلهم لا يغيرون شيئا من عاداتهم ولا يقبلون أي مفهوم اجتماعى أو حضاري آخر ·

والعرب ينقسمون الى عرب وشاوية ، والصف الاخير منهم وهم الشاوية (5) لـــه نفس عادات العرب الآخرين ، ولا يتميز عنهم الا باللغـــة الخاصة التى يتكلمها والتى لا تشبه لغات العرب الآخرين أو الترك أو القبائل ·

ومواطن الشاوية هو جبـــل قريون ونيف النسر ، اما عشائرهم المستقرة ببايليك قسنطينة فهي : الحراكتة ، عبد النور ، التلاغمة ، أولاد سلام ، أولاد الاخضر ، أولاد سلطان ، السقنية ، أولاد عزيز وأولاد معوش وعيساوة · ويضاف الى هذه المواطن منطقة الاوراس الغنيه بالآثار ذات الاهمية التاريخية مثل البوابات وأقواس النصـــر وحصون لا تزال فى حالة جيدة ·

وقد ذكر لى ان هناك برجا يماثل ارتفاعه عـــلو منارة مسجد قصر قسنطينة التى يتراوح ارتفاعها ما بين 25 و 30 مترا ·

3 ـ **الترك** : هم العنصر الحاكم للبلاد قبل الاحتلال الفرنسى ، وعدهم قليل ببايليك قسنطينة ، وقد كانوا يؤلفون فرق الجيش ويقدمون خدمات مفيدة وهم الآن يعاضدون فرقنا المرابطة فى المراكز المتقدمة ·

---

5) لقد أفادنى بعض المطلعين على نسب الشاوية بأن عثمان أحد خلفاء محمد (ص) عندما عزم على اخضاع الاقليم الممتد من الاوراس الى طرابلس والذى ظل مستقلا نصب الحصار على عاصمة الكاهنة ملكـــة جبـــال أوراس القوية ، واضطر جيشه ان يتراجع ولكنه بعد ثـــلاث سنوات من الحرب تمكن من التغلـــب عليها ونشر الاسلام ، فاستقر من غلب على امرهم من جيش الكاهنة عند جبل قريون ·

وينسب الى الشاوية أيضا عيشاوة (Ouichaoua أو Ichawoun) المستقرين الآن بين بنى محمد عند سطورة وسفوح ايدوغ غرب عنابة ، ويستنتج كذلك بان عشاوة تركوا اقليم الاوراس عقب ثورة مشابة للثورة التى ارغمت شاوية الاوراس الى ترك جبل نحو قريون . هذا اذا لم ياتوا أصلا من نواحى عنابة ليستقروا فى السفوح الغربية لا يدوغ ؟

وعلى كل فان الشاوية ما هم الا بقايا السكان الذين كانوا يسكنون البلاد قبل الفتـــح العربي رغـــم أن التفاصيل تنقصنا فى هذا المجـــال ، وعسى أن تتوصل اللجنة العلمية الى معلومات فى هذا الشأن تزيل الغوض وتبرز المجهول ·

4 ـ **اليهود** : كانوا أثناء حكم البايات يخضعون لقائد يعرف بالمقدم ، يكلف بجمع الضرائب والرسوم المطالبين بها ، وينال مقدم اليهود منصبه هذا مقابل تقديمه رسم للتولية يقدر بـ 1000 ف يساهم فيه جميع أفراد الجماعة اليهودية ، وغالبا ما تتضاعف رسوم التولية التى يحصل عليها البايليك ، والخاصة بقدم اليهود ، بعد أن اصبح هذا المنصب يتعاقب عليه شخصان فى العالم الواحد ·

وبالاضافة الى ذلك كان يحصل من اليهود على 500 فرنك اذا وافق موسم عيد الفطر يوم السبت ·

على أن الاحتلال الفرنسي لقسنطينة عاد عليهم بنفع كثير ، فلم يعودوا الآن مطالبين بالواجبات المالية التى كانت مفروضة عليهم فى عهد أحمد باي ، والتى يدفعون بمقتضاها 600 قطعة لباس من نوع المعاطف الواقية (Caban) لفائدة موظفى الخدمات الخاصة بالباي ، مع تقديم كمية من الورق تفى بحاجة بيت الباي ·

الضرائب : ذكرت سلفا ان الخليفة كان يكلف بتسلم الضرائب وحمل نصيب منها الى الجزائر كل ستة شهور ، وقد رأيت من المفيد أن أذكر بعض التفاصيل المتعلقة بهذه القضية ، ومفادها أن الخليفة كان يعود من الجزائر مصحوبا بقوة عسكرية « المحلة » لاستخلاص الضرائب من بايليك قسنطينة ، وتتشكل هذه المحلة من 60 خيمة وتتألف الخيمة الواحدة من 25 رجلا ، وعندما تلتقى هذه القوة العسكرية بالباي عند قصر الطير (6) ، تلتحق به 40 خيمة ، بينما 20 خيمة الاخرى يجوب بها الخليفة ساحل البابور وفرجيوة وزواغة والموية وبنى ولبان وبنى مهنة وايدوغ وساحل عنابة ومرداس وبنى صالح ·

اما الباي أحمد فيتوجه بما له من قوة عسكرية الى أولاد الساحلية بمنطقة بوطالب وأولاد سلطان والحراكتة والحنانشة ، ويلتقى بالخليفة بفج العرب ليعودوا بعد ذلك مع المحلة الى قسنطينة ·

ثم يتوجه الخليفة الى الجزائر بعد أن يمكث بقسنطينة مدة شهرين أو ثلاثة أشهر ، لتقديم مستخلصات الضرائب (الدنوش الصغرى) تحرسه فى طريقه قوة عسكرية مكونة من عشرة خيام ، يأخذها من الحامية التركية المعسكرة بالقصبة · ثم لا يلبث أن يعود بعد ذلك من الجزائر مصحوبا بستين خيمة لاستخلاص الضرائب مرة أخرى ، وهذا ما يحدث كل سنة ·

---

6) قصر الطير بأراضى قبيلة ريغة ، مكان على بعد 8 كلم جنوب سطيف ، على مقربة من البحيرة المعروفة بقرعة أو سبخة قصر الطير ·

أما القوة التركية التى بقيت فيتكفل الباي بتوفير وسائل النقل لها ، وامدادها بما تحتاجه من رعاية وتغذية ، كما يقدم لها أجرة شهرية تقدر بريالين (1،80 ف) عن كل شهر . هذا مع العلم بأن فى تلك الفترة كان صاع القمح تقدر قيمته بـ 5 الى 10 فرنكات ، بخلاف هذا الوقت الذى ارتفع فيه ثمن القمح الى 80،90 ف وذلك أثناء فصل الشتاء المنصرم لسنة 1838 ، ولكن نظرا لحالة الامن واحترام الملكية التى سادت اليوم البايليك أصبح من اللازم ان تعود اسعار الغلال الضرورية الى سابق عهدها .

اما القيمة الاجمالية لما يستوجب على بايليك من مستلزمات الضرائب اتجاه داي الجزائر ، والتى ذكرنا سلفا أنها كانت تقدم مرتين فى السنة ، فكانت تقدر بما قيمته 340000 ريال ، مع العلم بأن الريال الواحد يقدر بـ 0،93 ف .

وبالاضافة الى هذا المبلغ من المغارم ، كان الباي يقدم الى داي الجزائر ما يلي من العوائد :

- 1500 بقرة ، منها 100 بقرة تقدم مقابل حق المروى عبر أبواب الحديد . ورغم قدم هذه العادة فانها لم تهمل قط .
- 6000 خروف .
- 17 بين فرس وحصان أصيل ، تكون من نصيب الداي والموظفين الكبار بالجزائر.
- 100 ب[illegible] منها 40 من النوع الممتاز ، بينما 60 الباقية من النوع المستخدم للنقل .
- 70 برنسا من النوع التونسى الرفيع .
- 50 غطاء من نوع الحائك التونسى الرفيع .
- 40 دزينة من الطاقيات (قلنسوات) الحمراء اللون .
- 32 سبحة من العنبر والمرجان .
- 14 أوقية من عطر الورود .
- 3 أوقيات من عطر الياسمين .
- 16 كيسا معدا لحفظ الساعات ، موشى ومطرز بالذهب .
- 30 قطعة من جلد النمر أو الاسد .
- من 8 الى 10 أسود أو نمور .

ـ 700 قفة من التمور ، وكل قفة تتسع لعرجون من التمر يتراوح وزنه ما بين 1 كلغ الى 1،50 كلغ .

ـ 150 سلة من الزيتون الاخضر .

ـ 2 حمولتا بغال من القماش المستعمل فى تبطين السروج وغيرها

ـ 20 حمولة من الزبـدة .

ـ 20 حمولة من الكسكس .

وكان الخليفة بعد أداء هذه العوائد والضرائب (الدنوش الصغرى) يعـود مـن الجزائر محملا بقفطان الخلعة كهدية شرف من الداي الى الباي ، وهو بمثابة دليل رضا الداي على تصرفات الباي وهداياه له .

وقد جرت العادة على ان اهمال هذه الهدية الشرفية (قفطان الخلعة) يفسر على أنه علامة عن عدم رضا الداي لما قدمه له الباي ، كما يعتبر توقعا صادقا بقرب عـزل الباي وتنحيته من منصبه .

وما دام الامر كذلك فان عودة الخليفة بقفطان الشرف كان يعتبر مناسبة فـرح وابتهاج تهلل لها قصر الباي ، ويبعث باثناءها الباي الى الجزائر بهدية قيمتها 1000 سلطاني ذهبي (السلطاني يقدر بـ 9 فرنكات) كاعتراف بجميل الداي عليه .

ومما يلاحظ أن كل هذه المتطلبات المالية من ضرائب وغيرها والتى كان بايليـك قسنطينة ملزم بقديمها ، يضاف اليها مساهمة تقدر بـ 1400 قيسة من القمح و 7000 صاع من الشعير ، كان يبعث بها البايليك الى الجزائر عن طريق عنابة ، وذلك بعد ان اصبحت العادة جارية بها منذ عهد انقليز باي .

(يتبـع)

Postérieur à 1535 sans date

Province de Constantine

autorités sous le Bey et leurs attributions

La Province de Constantine relevait directement du Beylick d'Alger : elle était administrée par un Bey qui était revocable et à la nomination du Dey d'Alger.

Les grands fonctionnaires de l'Etat, étaient :

Le Khalifat qui était spécialement chargé de la rentrée de l'impot et de conduire à Alger tous les six mois les redevances de la Province : Cette charge était ordinairement confiée à un des parents du Bey.

Le Kaïda avait la surveillance et la gestion des biens appartenant au Beylick : il representait le Bey quand il était absent de la ville ; il avait sous ses ordres le Kaïd El Bab dont il Controlait les revenus & perceptions sur l'octroi de la ville.

L'Aga avait le Commandement des troupes de la Province.

Le Kasnadar était chargé de recevoir tous les fonds provenant des Contributions de la Province ; Il avait sous ses ordres

Le Bach-Katib qui était suppléé par deux autres secrétaires appelés Bach Katab, Katib Katib : Le Bach Katib était chargé de tenir la comptabilité des revenus de toute la Province ; les deux autres donnaient les reçus de tous les versements faits dans les magasins de l'Etat.

Le Bach Mekahia Commandant les fusiliers du Bey.

Le Bach Serradj grand Ecuyer : chargé du service des écuries, il tenait l'étrier du Bey, quand celui ci montait à Cheval.

Le Kaïd Mekoura chargé répondant à celle de [illegible]

Le Kaïd [illegible] chargé de porter le portefeuille du Bey, espèce de [illegible], se portant au devant de la selle.

Le Kaïd [illegible], le porte pipe.

Le Kaïd Tasfa, le porte tasse : il était chargé de donner à boire au Bey.

Le Bach Kaoudji officier chargé de présenter le café au Bey ; Les 7 derniers emplois n'étaient confiés qu'à des renégats auxquels le Bey avait concédé des haouchs pour subvenir à

leurs dépenses particulières et leur tenir lieu de traitement. Outre ces revenus, ils avaient sur toutes les investitures des droits fixés à l'avance, et des présents que les grands fonctionnaires eux-mêmes ne manquaient jamais de leur faire à certains jours de l'année.

Mais en 1re ligne il faut placer Ben-Amelaoui et Ben-Aïssa qui étaient les conseillers intimes du Bey : Ben Aïssa avait été chargé depuis la prise d'Alger de la direction de la monnaie.

Outre ces grands fonctionnaires, il y avait du temps de la Régence d'Alger, à Constantine un pouvoir égal à celui des Beys : je veux parler du Bach-aga. Il avait auprès de sa personne un Conseil composé de 10 Turcs, nommés par le Dey : ce conseil se nommait le conseil des dix, et devait, s'il y avait lieu contrôler tous les actes du Gouvernement et en rendre compte au Dey d'Alger ; c'est d'après ce Conseil présidé par le Bach-aga que le Dey était instruit de tout ce qui se passait de contraire à ses ordres et volonté dans la Province de Constantine. Une garnison turque de 500 hommes était logée à la Casbah et n'obéissait qu'au Bach-aga qui était chargé d'investir les Beys de leur Commandement ou d'exécuter leur firman de mort. C'était le Bach-aga qui remplissait l'intérim du Commandement de la Province, après la mort d'un Bey, jusqu'à l'arrivée de son successeur. Voici comment s'y prenait le Bach-aga pour l'exécution d'un firman de déposition. Tous les vendredis, après la prière de la mosquée, il était dit que le Bach-aga, accompagné du conseil des dix, se rendit au Palais du Bey : là il lui adressait les compliments d'usage et lui rendait l'hommage qui était dû : quand le Bach-aga avait l'ordre de faire remplacer le Bey, en embrassant son épaule l'aga lui enlevait son poignard. Dès ce moment là, le Bey était entouré par le conseil des dix qui le remettait au bourreau. Le Bach-aga investissait aussitôt le nouveau Bey, quand il était désigné par le Dey, et il n'était plus question de l'ancien.

Bach-aga. Étendue de ses pouvoirs

Déposession d'un Bey.

العقــلانية الرشــدية فى علــوم الشــريعة

عرض قدمــه :
عبد المجيد مزيــان

النصوص :

ان النشاط الفلسفى الذى اشتهر بــه ابن رشــد ، وأدرك بــه تلك المكانة العالمية البارزة ، قد طغى على شهرته وعبقريته الثقافية فى العلوم الاخرى ، مثل الطب والفلك ، وعلوم الشريعة ، رغم ما بذله هذا المفكر من جهد ، وما أصدره من انتاج فى مختلف الميادين ٠ ولا يخفى على أي مؤرخ للثقافة الاسلامية أن زعيم العقلانية بالغرب الاسلامي ، كان فقيها وعالما بأصول الديــن ، بقدر ما كان فيلسوفا ٠ بل يمكننا أن نثبت من دراسة مؤلفاته انه صاحب اجتهاد خاص في علوم الشريعة ٠ ويتلخص محور اجتهاده فى العمل على تثبيت الوسائل لبنــاء عقلانية نوعية فى هذه العلوم ٠ وليس الاهم أن نقف على نجاحه بذيوع طريقته ، او فشله بعدم انتشارها ، بل المــهم أن نعرف مجهوده الثقافى ، وأن نضعه فى مكانته المجتمعية والتاريخية ، حتى يعرف كظاهرة من ظواهر الفكر الاسلامي ، لها جذورها وامتداداتها ، ضمن الثقافة الاسلامية الواسعة ، على وجه العموم ٠

اننا لا نعرف لابن رشد الا بضع مؤلفات تهـم علـوم الشريعة وتنحصر كلها فى ميدانين وهما : أصول الدين والفقه · لكن هذه المؤلفات وان قلت ، فانما هي غنيـة بالافكار كثيفة المعاني وتعد من الانتاج المرموق فى ميدان الثقافة الاسلامية · ثـم ان هذا الاكتفاء بالتاليف القليل فى ميدانين من علوم الشريعة ، لا يعني أن العلوم الاخرى مثل التفسير ، وعلم الحديث ، وأصول الفقه لم تثر اهتمامات ابن رشـد ، بـل اننـا نلمس فى النصوص الفقهية ، كما سنرى تضلعه فى مختلف العلوم الشرعية · ويمكننا أن نقول بأن ابن رشد من أوسع الفلاسفة المسلمين ثقافة فى ميدان الشريعة · ولا يمكن أن نعد له من الاقران الا الغزالي وابن خلدون ، عند من يعتبر هذين المفكرين من زمرة الفـلاسفة ·

ان النصوص التى تهم الشريعة ، بمعناها الاوسع ، هي لا شك ، أكثـر المؤلفات الرشدية انتشارا بين الناس فى عصرنا هذا ، وقد تعد أصدق تعبير عن أصالته الفكرية رغم اختصارها وقلة عددها · وهي تنحصر بالضبط فى كتابي فصل المقال ، ومناهج الادلة ، فيما يتعلق بالعقيدة ، وفى كتاب بداية المجتهد فيما يخص الفقه · أما تلخيصه لمستصفى الامام الغزالي فى أصول الفقه فهو كتاب مفقود ، وعلى فرض أنه سيعثر عليه يوما ما ، فانه لن يعتبر من صميم الابتكار الرشدي · غير أنه لا يمكننا أن نقول بـأن أفكار ابن رشد عن الشريعة الاسلامية وعلاقاتها بالفكر الفلسفى العـالمي تنحصر فى مواضيع أصول الدين ، بـل نجد كثيرا مـن الفقرات الفلسفية ، فى مؤلفاته وشروحه وتلخيصاته لانتاج أرسطو ، تتعرض لمسائـل مشتركة بين الدين والحكمـة · فكتاب تهافت التهافت ، وشرح ما وراء الطبيعة ، وتلخيص الخطابة ، وبعض الرسائل الصغيرة تحتوي كلها على فقرات واشارات الى العقيدة والحياة الاجتماعية من خلال مواقـف متشابهة ما بين الاسلام والفلسفة ، ولا يمكن أن نتغافل عنها كنصوص تبرز جهد هذا المفكر المسلم فى تثبيت اللحمة بين الدين الاسلامي والحكمة العالمية ·

البيئـة الثقـافية :

لعل النقاش بين الباحثين فى الثقافة الاسلامية سيطول ، ولن ينفد عن قريب ، فى موضوع التصادف بين العقلانية الارسطية ، وبعض العلوم الاسلامية التى وصلت الى درجة الكمال المنهجى ، مثل أصول الفقه ، والعلوم اللغوية · ومهما يكن الانحياز الى القول بالاصالة الاسلامية البحتة ، فانه لا يمكن معه انكار تأثر علماء الاسلام بالفكر الفلسفى اليوناني ، كما أن الانحياز الى القول بهذا التأثير الفلسفى لا يمكن أن يـؤدي

الى انكار أصـــالة العلوم الاسلامية ، وأصـــالة مناهجها واتجاهاتها ، كما لا يمكن للباحثين الا أن يقروا بعبقرية وقدرات خاصة على التكييف والهضم ، تمتاز به المعارف الاسلامية ضمن الثقافات العالمية المتبادلة التأثير ·

ويمكننا أن نثبت معالم بـارزة وأوصافا مميزة للعـلوم الاسلامية ، قبـل عصور الانحطاط ، وهي : تفتحها لســائر الثقافات ، وتعايشها بتسامح مـع جميع الملـــل ، واستعدادها الدائم للمشاركة فى مجهود عالمية المعارف · والطابع الاوضح للفكـــر الاسلامي ، وأهم مميزاته بدون منازع ، هو طابع العقلانية الذى يعد سمة لجميع معارف المسلمين · وسواء أخذنا تلك العلوم الاكثر احتكاكا بالفلسفة مثل علم الكلام ، أو أقلها اتصالا بها ، مثل الفقه ، والعلوم اللغوية ، فان العقلانية فيها صفة بارزة ، خصوصا عند أئمة هذه العلوم ، وليس بدعا أن نجد المثقف المسلم ، الا فيما شـذ مـن العصور المظلمة ، والمذاهب المتطرفة ، مثقفا عقلانيا ، ولو كان دليل الاتصال بالمعارف الاسلامية من أجل هذا يمكننا أن ننتقد تلك الطريقة التى أصبحت سائدة بين مثقفي عصرنا ، وهي الطريقة التى تلجأ الى عزل كبار المفكرين المسلمين عن بيئتهم الثقافية التى نشأوا فيها وتأثروا بها ، ووضعهم مـوضع العباقرة الذيـن يحلقون فـوق المجتمعات ، وينشئون عقلانيتهم اما انشاء فرديا ، واما بالانتساب الى ثقافات غير اسلامية ، هذا ان لـــم يزعم بعض أنصار هذه الطريقة ، أن تلك العبقريات الفردية نشأت نشـــوء ثورة على المعارف الاسلامية التقليدية مدعين لها الالحاد والاستخفاف بعقائد الاسلام ·

لا يخفى على أي باحث اليوم ، أن لكل عصر ولكل بيئة ثقافية عقلانيتها ، وهـــي عنوان جهودها فى التوصل الى العالمية بوازع حضاري طبيعي معروف · لكن ليس من الصواب أن نقذف بتصوراتنا عن العقلانية المعاصرة الى ما قبل عصرنا ، وأن نـربط بين العقلانية والعلمانية ربطا حتميا ، ونقيس العقلانية السابقة بمقاييس عقلانيتنا · ويعد من التساهل والاسراع فى الحكم ، ان لم نقل من الجهل بالواقع تصنيف المثقفين المسلميـــن الـــى فقهـــاء معـــادين للحكمـــة والعقـــل ، وفلاسفـــة بعيـــدين كل البعد عن العلوم الشرعية · ويرى أصحاب هذا التصنيف أن الغموض مع الفقهاء ، بينما الفلاسفة كلهم عقلانيون · والواقع أن هناك متطفلين على الفلسفة ، قليلى البضاعة العلمية ، قد سلكوا بمعارفهم سبيل اللجج والجدل العقيم ، كما يقول ابن رشد ، كما أن أئمة الفقه ، هم فى الغالب المجتهدون الذين يمتازون بعقلانية فائقة من بين علماء الاسلام ان التعميم والتبسيط فى تاريـخ الثقافة الاسلامية لا يعطينا صورة واقعية عـــن هذه الثقافـــة ، ولا يمكـــن أن يساعـــدنا على تتبع ظواهـــرها ظاهرة ، ظاهرة كما نريد · من أجـل هذا يلزمنا أن نطـرح أسئلة أولية عن العقلانية ، بمـا فيها العقلانية

الرشدية ، هل هي مجرد امتداد للثقافة الفلسفية ، وتوغل منها فى علوم الشريعة ؟ أم هي عقلانية بيئة ثقافية اسلامية دفعت بصاحبها الى الانفتاح ، ثم التخصص فى علوم الحكمة ؟ أم هي تلازم مستمر وتداخل وعقلانية مشتركة ذات بعدين متساندين ، بعد فلسفى وبعد شرعي ؟

قد يقال اننا اذا رجعنا الى البيئة الثقافية والاجتماعية التى تإثر بها ابن رشد ، اتضحت لنا كثير من الجوانب التى تهم هذه التساؤلات · غير أنه من اللازم فى هذا الميدان أيضا أن يجتنب التعميم والتساهل اذ المعروف عن المجتمع الاسلامي أنه كان متعدد البيئات · ثم ان ذيوع مذهب أو عقيدة ما ذيوعا مقترنا بالتسلط السياسى ، أمر يستحق الكثير من التحليلات التاريخية ، واعتبار النسبية ، اذا نظرنا الى اختلاف المستويات والمشارب الثقافية عند الحاكمين والمحكومين · فلو كان ابن رشد ابنا للبيئة الثقافية العامة لكان أشعريا ، ولو كان فى غير زمن المنصور الموحدي لما صرح بمخالفته للاشعرية ·

الاشعرية فى الاندلس :

يمكننا أن نقول أن عصر ابن رشد كان عصر انتشار الاشعرية بالغرب الاسلامي ، اما عن اقتناع بالنسبة للكثير من المثقفين ، واما عن فرض وتلقين اجباري على يد سلطة الموحدين بالنسبة للجماهير · غير أن هذه الحقيقة التاريخية تتطلب كثيرا من التدقيقات : منها أن الغرب الاسلامي كان يشمل بيئات ثقافية متباينة ومتفاوتة المستويات فلا يخفى على أحد ما كانت تتمتع به عواصم الاندلس من ازدهار علمي متعدد النشاطات · ولم يكن مثقفو عواصم المغرب فى نفس المستوى من التفنن والاتقان الذي امتاز به اخوانهم الاندلسيون · ومنها أن الاشعرية دخلت الغرب الاسلامي ، وخصوصا عواصم الاندلس قبل ظهور الدولة الموحدية بهذه البلاد · ويجب الالتفات آخر الامر الى أن المجتمع الاسلامي كان يمتاز فى غالب الاحوال بثقافة رسمية ، يمثلها مثقفو الدولة وخصوصا منهم الفقهاء ، بينما توجد بجانب هذه الطائفة الرسمية المتمذهبة دوائر ثقافية مستقلة ، كثيرا ما تكون مخالفة أو معارضة للعقيدة المفروضة من لدن السلطات الحاكمة · فاذا أردنا أن نبحث عن البيئة الثقافية التى نشأت فيها العقلانية الرشدية فلا بد من البحث عن مختلف البيئات المتعايشة والمتصارعة فى القرن السادس ، هذا بالاضافة الى ابراز المجهودات الشخصية التى هي امتداد لآثار البيئات أو ردود فعل عليها ·

يذكر الفقيه ابن رشد الجد فى « مقدماته للمدونة » ، وبالضبط فى الفصول التمهيدية الخاصة بالعقيدة أنه على رأي « ما أجمعت عليه الامة من قول أبي الحسن الاشعري » ٠ ويذكر عدة مرات آراء أبي بكر الباقلاني ، ويـــرد على المعتزلة بمثل الرد الذى أورده أبو المعالي الجويني ، فيما يتعلق بذات الله وصفاته ٠ واذا علمنا أن ابن رشد الجد ، كان معاصرا للغزالي ، وأنه صنف أفكاره قبل قيام دعوة ابن تومرت بالمغرب ، علمنا أن الاشعرية دخلت الغرب الاسلامي فـور انتشارها بالمشرق ، وأن مؤلفات الاشاعرة كانت منتشرة ومدروسة فى أغلـب الدوائر الثقـافية بالاندلس ، وخصوصا بقـرطبة واشبيلية ٠ فملازمة الاشعرية للشافعية والمالكية ، بصفتها عقيدة السنيين المجمع عليها من طرف اغلبية فقهاء المذهبين ، لم تكن فى بداية الامر ، مربوطة بسياسة ثقافية مدبرة ومفروضة من لدن أرباب الدول ، بل الظاهر أن العلماء هم الذين حملوا أهل السلطة شيئا فشيئا الى التمسك بهذه السنة ذات الطرفين الفقهي والعقائدي ٠ وهذه ظاهـرة معروفة فى المشرق ، اذا التفتنا الى تأثير زعماء السنة الاشعرية مثل الجويني والغزالي واذا عرفنا مقدار اشعاع المدرسة النظامية ، وتأثيرها على رجال الدولـة ، ومساندة رجال الدولة لها ، الى أن تثبت المذهب الاشعري وأصبح العقيدة الرسمية التى تفرضها السلطات على الجماهير وأغلبية المثقفين ٠ أما ظاهرة الموحدين فى الغرب الأسلامي ، كظاهرة سياسية وعقائدية ، فانها فيما يبدو لي من باب تحريك العجلة بسرعة أكثـر ، اذ أن الاشعرية كانت قد توغلت في الدوائر الثقافية العليا ٠ ولم تكن معارضة بعض الفقهاء المالكية للاشعرية الا معارضة مبدئية تتجه الى عـلم الكـلام بمجمله ٠ وهـي معارضة فقهاء مقلدين قليلى التفتح على العلوم الاسلامية المتنوعة الغنيـة بالافكـار وما دام كل شيء نسبي فى مثل هذه الظروف ، فان الاشعرية كانت تعد تفتحا بالنسبة للجفاف الثقافى الذى كان عليه الفقهاء المقلدون ٠ وعصر الموحدين يعد عصر ازدهار بالنسبة للفقر الثقافى الذى عرف به عصر المرابطين ، لولا التعصب المذهبي ، وادعاء العصمة الذى عرفت به العقيدة الموحدية بعد عهد المنصور ٠

ومن المعلوم أن الفقهاء المجتهدين مثل ابن رشد الجد وأبي بكر بن العربي قـد جعلوا العقيدة الاشعرية عقيدة لهم ودافعوا عنها قبل انتشار سلطان الموحدين ٠ غير أننا نلاحظ أن دوائر الفقهاء المجتهدين فى الاندلس كانت كثيرة الميل الى عقلانية تدعو الى الاستدلال فى العقائد ، والقياس والاستنباط فى الفقه ، الى درجة أن ابن رشد الجد يصرح بأن الاستنباط واجب فى الشرع ، باتفاق الكتاب والسنة واجماع الامـة ٠٠٠

،لو لم يرد فيه شرع لاكتفي بايجاب العقل له · فالمالكية الاشعرية التى أصبحت المذهب السائد بالغرب الاسلامي منذ القرن السادس ، ليست سنة تقليدية فى جميع الدوائر الثقافية ، بل هي فى كثير من الاحيان ، وخصوصا عند علية المثقفين ، بيئة عامة لا تمنع من العقلانية ، وكثيرا ما يبوح بعضهم بالدعوة الى طريق العقل بكل الحاح ·

فى مثل هذه الدوائر العقلانية مـن الفقهاء نشأ ابن رشد ، تربى وترعرع مشبعا بروح البحث والتفكير ، فى بيت ذي ثقافة شرعية وعلمية عريقة · ومهما يكن تأثـير أساتذته وابيه ، فـانه فيما يبدو شديد التأثر بانتاج جـده ، شـديد الاعجاب بعقلانية واجتهاد هذا الفقيه · وقد أشار الى فتاويه غير ما مرة فى بداية المجتهد ، كما نقـل عنه كثيرا من الآراء فى كتابيه فصل المقال ومناهج الادلة ·

وليس من المبالغة أن نقول بأن الفقه ، اذا لم يته صاحبه فى الفرعيات ، يعد مـن أكثر العلوم الاسلامية عقلانية ، بما فيه من انضباط منهجى ، وتفكير فى معالجة الاصول وتبصر فى الاحداث ، والتفات الى الواقع المجتمعي · ونجد أن كثيرا من عباقرة الفكر فى العالم الاسلامي يفاخرون بأن ثقافتهم الاساسية ، التى اكسبتهم العقلانية وقـــوة النظر هي الثقافة الشرعية وخصوصا منها فقـــه الاصول · ان هذا صحيح بالنسبة للغزالي ، وابن تيمية ، وابن خلدون ، كما هو صحيح بالنسبة لابن رشد ، وهو باد من تصفح انتاجه وآثار حياته · وانه لمن المعروف ، الذى لا يحتاج الى تذكير أن الثقافة فى كامل البلاد الاسلامية ، كانت تبدأ فى الاساس من العلوم الشرعية وتنتهي الـــى التفرع فى مختلف العلوم الاخرى · وكثيرا ما كان الاتجاه العقلاني والتفتح على الحكمة وعلوم الاوائل ، ينشأ مع دراسة العقيدة والمنطق المساند لها ، وأصول الفقه ، وذلـك منذ بداية الشباب · فالعقلانية الرشدية ليست بدعا فى بيئة ثقافية اسلامية مثل البيئة القرطبية المتفتحة ، وخصوصا فى بيـــت بني رشـــد المنطبعين بالاجتهاد فى الفقـــه وأصول الديـــن ·

المزايا الاجمالية للعقلانية الرشدية فى علوم الشريعة :

ان الانتساب الى المالكية لم يكن يعني عند أئمـــة الفقه بالغرب الاسلامي الانغلاق داخل المذهب ، بل كانت عادة الدارسين أن يفرقوا بين المقلد والمجتهد ، ويشترطون فى الباحث المجـــد أن يكون مطلعا أدق الاطلاع على الاصول والمذاهب الفقهيـــة المختلفة · فالتعود على التحرر من ربقة التقليد والمذهبية الضيقة موقف علمي ، يكاد يكون طبيعيا

عند أغلبية المجتهدين ، ولو تمسكوا وظيفيا واجتماعيا بمذهب مجتمعهم . فالقاضي المالكي الذى هو ابن رشد ، لم يكن مقصرا ، رغم تقيده بالوظيف الرسمي ، فى الاطلاع على آراء أهل المذاهب كلها ، كما تشهد له بذلك النصوص .

1) أما فى أصول الدين فانه قد نهج منهجا عقليا متحررا من كل مذهبية ، ولو كان له اتباع لامكننا أن نثبت له مذهبه العقلاني الخاص فى علوم الشريعة . فهو يدعى لنفسه السنية ، وأي مذهب لا يدعيها ؟ وهي سنية عقلانية متفقة مع الحكمة العالمية ، منكرة على كل من الاشعرية والاعتزال مواقفهما الجدلية وتعثرهما المنهجي . ان التنكر للمذهب الرسمي للدولة ، وتسفيه أفكار عقائدية يدين بهـا العصر بالاجماع ، ليعد باعتبار الظروف السياسية والعقائدية الضاغطة والاطلاقية فى عهد الموحدين ، يعد أبعد حد فى التحرر والشجاعة الفكرية . واذا كان لابد من البحث عن أسباب حقيقية لاضطهاد هذا المفكر ، فمن الاحسن أن يقع استقصاؤها فى هدا الموقف المثير لغضب طائفة الاشاعرة المقلدين الذين نصبوا أنفسهم مثقفين ملتزمين سياسيا لصيانة العقيدة الرسمية لدولة الموحدين .

2) ولو قارنا بين مواقف الدوائر الثقافية المتمسكة بالآراء المذهبية وموقف ابن رشد فى الصراع الفكري ، لوجدنا عقلانية هذا العالم المجتهد عقلانية عفيفة وهادئة ، بعيدة كل البعد عن الجدل والتهريج ، قلما تنزل بصاحبها الى الاسراف فى القول أو التشنيع بالخصوم . واذا أردنا أن نعطي أوصافا عامة لهذه العقلانية ، فاننا نعدد لها بعض المزايا التى قلما تتوفر عند معاصريه .

3) فمن مزاياه السيطرة الكاملة على المواضيع ، والضبط الدقيق لها بسبب تعدد معارفه ، وتوسعه الثقافى فى مختلف العلوم ، مع اتقان الحدود الموجودة بينها ، وادراك الاشياء المشتركة بين الفنون المتقاربة الاغراض . فهو مثلا ، المدرك المدقق لاغراض العلوم الفلسفية ، مع الشعور بما يصلح منها لمساندة العقيدة الاسلامية ، وما هو بعيد عن روح هذه العقيدة . فبناء الحدود المنهجية بين الفلسفة والشريعة متى يجب بناؤها ، واقامة جسر التساند بينهما متى تصح اقامته ، موقف مدروس ناتج عن تـرو واطلاع محكم .

4) ومن مزايا الروح العلمية الرشدية ، الاعتماد القوى على النصوص ، والرجوع الى المصادر نفسها ، سواء منها الاسلامية وغير الاسلامية ، مع الاقرار بكل أمانة بعدم الاطلاع على بعضها ان تعذر هذا الاطلاع . فهو يعترف مثلا ، أنه لم يعرف آراء

المعتزلة ، الا من خلال عروض خصومهم الاشاعرة ، كما أنــه لا يخفى اعجابه ببعض مواقف الاشاعرة أنفسهم ، وخصوصا منهم الغزالي ، اذا أتتــه النصوص بما يوافق تفكيره العقلاني ·

هذا وقد أكسبه تعوده على الشروح والتلخيصات سيطرة خاصة وحدسا على ادراك المعاني الدقيقة ، ولو كانت غامضة التعبير أو سيئة النقــل عن الاصول الاغريقية · والمعروف أنه صحح غير ما مرة أغلاط الناقلين والشراح ، بفضل هذا الحدس ، مــع عدم معرفته باللغة اليونانية · ونجده في المواضيع الشرعية يتسلح بمثل هذه السيطرة على النص والمعانى العربية ، مدركا للتأويلات الصحيحة ومميزا بيـــن القريـــب والمستبعد منها ·

5) ومن مميزات العقلانية الرشدية تمسكها بالنقد والنقاش الاستدلالي الهادىء ، تتبع العبارات والافكار بأمانة ولا تتعرض للاشخاص ، ولا تتسرع فى الحكــم عـــلى الآخرين ، بالاضافة الى أن ابن رشد لم يلجــأ الى تزكية مواقفه تزكية المعارض الذي يريد العلو على الخصوم · فكل مفكر مجتهد مأجور وفاضل فى نظره ، وهو من أجل هذا يستحق التقدير · ولا نجده يمقت من المفكرين الا تلك الطائفة التى لا تحترم الخصوم فتلجأ الى التهريج والتشنيع بهــم أمــام العوام الذين لا يدركون أي شيء عن البحث العلمي والاجتهاد · ونقول بعبارة عصرنا ، ان ابن رشـــد لا يكـره عند ألمفكرين الا الديماغوجية ، واستشهاد الجهلة من رجال الدولة وسفلة المثقفين على ما يظن أنـــه عثرات للعلماء ، مع التعريض بأهل العلم لتعصب الرعاع · وأما الاسراع فى تكفــير الناس بسبب مخالفتهم للعقائد الرسمية ، فهو فى نظر ابن رشد ، ظلم وفحش كبيــر ، اذ انه محجة لاثارة الفتن ، واسعار الاحقاد بين عبــاد اللــه ، وتشتيت شمل الامــة ، وتصديع تماسك الملة · ويعد من الديماغوجية الكثير من تلك الاحكام السريعة التى جاء بها المعتزلة والاشاعرة ، وخصوصا الغزالي من بين هؤلاء ، بصفته مؤذنا لسفلة المثقفين يحرشهم على الحكماء الذين اجتهدوا فى الجمع بين الحقائق الشرعية والفلسفية ، ان مصيبين أو مخطئين · فالجدل فى نظره ، من أسخف طرق المعارف ، لانه لا يقصـــد الحقيقة بذاتها ، ولكنه يقصد الانتصار للمذهب مع الالتزام الاعمى له وتبرير كل ما تمسك به منشؤه من أفكار وعواطف · ونجد ابن رشـــد يستخف بكل طريقة جدليه ، كيفما كان توجيهها ومعالجتها للمواضيع · فالتصارع الكلامي فى نظره ، سواء كان بين مذاهب الملة الواحدة ، أو بين مختلف الملل ، أو بيــن المدارس الفلسفية ، ليس الا

علامة من علامات التهريج ، وامتدادا للعقلية السفسطائية التى يمقتها العقلاء والحكماء الحقيقيون الذين لا يعرفون الافكار الا بالاستدلال · اذا كانت المزايا البارزة فى خلال النصوص ، تكون فى الجملة شبه التزام خلقي بالتحرر والعفة العقلانية ، فانه لا يمكن أن نعرف هذه العقلانية معرفة تفصيلية الا اذا تتبعناها فى الميدانين الاساسين لعلوم الشريعة التى تطرق اليها ابن رشد ، وهما أصول الدين والفقه ·

العقلانية الرشدية في اصول الديـن :

من المعروف ان مبدأ التوافق بين الحكمة والشريعة على انهما حقيقة واحدة ذات مصدرين ومنهجين مختلفين ، كان مبدأ كل الفلاسفة المسلمين ، غير أن ابن رشد عالج هذا المبدأ بطريقة تختلف عن طرق أسلافه من عدة وجوه ، مكنته من تجنب تلك الاخطاء التى أدت الى اتهام الفلاسفة بأنهم يتصرفون فى الشريعة تصرفا لا يتفق مع عقائد الاسـلام ·

1) العقلانية الارسطية اولى بالتوافق مع الشريعة :

لعل ابن رشد متمسك أكثر من كل المفكرين الذين سبقوه بمبدا العقل الشمولي ، بصفته أرقى واصح الوسائل للمعرفة · ولكنه مع هذا يقف تجاه الحكمة موقف الدارس المعن فى الدرس ، فيميز من خلال المعارف الفلسفية بين ما هو علمي عقلي ، وما هو حديثي أو مجرد رسيب من عقائد القدماء · فالارسطية هي المجهود الفلسفى الوحيد الذى يعد فى نظره مذهبا عقليا بمعنى الكلمة · واذا كان لابد من التوفيق بين الحكمة والشريعة لانهما طريقتان لحقيقة واحدة ، فلابد من ابراز الحكمة فى أشرف وأرقى مظاهرها ، وهي العقلانية التى تنزهها عن متاهات الخيال والسخف العقائدي · ويظن ابن رشد أن الارسطية قد وفرت كثيرا من المتاعب للدارسين لانها أتقنت العلوم العقلية حق الاتقان ، وانتقدت كل معتقد خيالي عند من سبقها من المفكرين · فالطريقة الفارابية التى تحاول الجمع بين آراء الحكيمين ، أفلاطون وأرسطو ، فيها كثير من التصنع ، زيادة على أنها لا تستقصى النصوص بأتم معنى الاستقصاء ، وكثيرا ما تعتمد على النص المنحول · ثم ان الآراء الخيالية التى قد تكون امتدادا للعقائد الوثنية ، مثل فكرة الفيض ، ليست الا أفكارا ثانوية عند الحكماء ، فلا معنى لاصباغها بصبغة اسلامية ، واجهاد النفس فى تبديل الآلهة الوثنية بأرواح علوية ملائكية ، للاتفاق المصطنع العسير مع عقائد ملتنا · فالتوفيقية بناء على هذا ، يجب ان تكون توفيقية

ذكية تنبذ كل ما شذ عن العقل والشريعة ، مع التمييز بين المهم والثانوى فى الميادين التى يتحتم فيها التوفيق · فميدان الالهيات هو الميدان الاكثر ضعفا وتهلهلا عند الحكماء اذا نظرنا اليه بمنظار الشريعة ، ولكن يمكن مع هذا أن تنتقى منه أفكار معقولة ومقبولة بالنسبة للعقيدة الاسلامية · ولقد أخطأ الحكيمان أبو نصر وأبو علي فى أخذهما الحكمة كأنها حقيقة اجمالية ثابتة ، يجب تبريرها فى نظر الاسلام · وقد أخطأوا على الخصوص عندما نظروا نظرة غير نقدية لآراء أفلاطون ، مع علمهم أن أرسطو قد صحح له كثيرا من الانحرافات · فكأنهم كانوا يخافون من ابراز تناقضات الحكماء ، وهم كرواد للحكمة ، انما كانوا يدافعون من أجل اعطائها مكانة ممتازة ضمن المجموعة الثقافية الاسلامية · ويرى ابن رشد أن ما يعيبه أبو حامد على الفلاسفة المسلمين ، هو بالضبط هذه الآراء التلفيقية التى تكاد تكون ضربا من الشذوذ · لكن الحكمة لا يمكن أن ينظر اليها بمثل هذه السطحية وهذا الاستعجال ·

2) الحكمة مجموعة علوم متساندة ومساندة للحقيقة الشرعية :

ان الحكمة فى نظر ابن رشد مجموعة علوم متساندة ومتكاملة · وعلى الدارس أن لا يتوقف منها على الاجزاء الضعيفة ليحكم على الكل بالتناقض ، فأبو حامد ، رغم تمييزه بين العلوم الصحيحة والمعارف المهلهلة ، ورغم ادراكه الفوارق بين العقلانية الارسطية والاجزاء التلفيقية فى انتاج الحكيمين المسلمين ، يتسارع الى تسفيه الحكمة بأجمعها ، ويقدم دون تحر على التشنيع بأصحابها لدى الجماهير اللامدركة لطبيعة البحوث الفلسفية ·

ان الحكمة تحتاج الى الدرس الدقيق والممارسة الطويلة ، فى مختلف فنونها وكما أن علومنا الاسلامية لها مجتهدون متخصصون ، فكذلك الفلسفة معرفة واسعة وعميقة ، لا يمكن اطلاقا تلخيصها للجماهير · انها كسائر العلوم المتقنة ثقافة للخواص أي للمتخصصين القلائل ، ولا دخل هنا لذلك التقييم الارستقراطي الافلاطوني الذي يعد ضربا من الاستعلاء بالمعرفة · ان الخواص هم الاقلية من المجتهدين الذين حصلوا على كل العلوم الفلسفية ، وأدركوا أسرارها ، وتوصلوا بسبب التدريب على دقائقها الى اكتساب ملكة الاستدلال الصحيح المتقن الذى هو دليل العقلانية ، كما يراها ابن رشد.

فموضوع ما بعد الطبيعة بصفته علما أرسطيا عقلانيا يبحث فى الكائنات بطريقة تجريدية واجمالية ، يعطينا ، اذا مارسناه بجد وتعميق للمفاهيم ، ايضاحات واستدلالات تساند عقائدنا الاسلامية · ولا يمكن رفضه اجمالا بدعوى احتوائه على بعض الجزئيات

المتناقضة مع شريعتنا · ولعل تتبع ابن رشـــد للنصوص الارسطية فى ما بعد الطبيعة بالشروح المطولة والتلخيصات ، مجهود له وازع مفهوم ، وهو اعطاء البينة على أهمية هذا العلم وعمقه وصلاحيته لساندة ملتنا · أمـا المنطق ، فلا يتنازع اثنان فى أهميته كعلم أساسي بالنسبة لاكثر المعارف ، سواء منها الفلسفية أو الاسلامية · ومهما يـكن موقف المدارس الكلامية من العقلانية ، فانها متفقة جميعها على اعطاء المنطق مكـــانة ممتازة فى دراساتها ، والاشاعرة لا يقلون اهتماما به عن خصومهم المعتزلة · انـــه لا يصح ، مع هذه الاعتبارات ، أن نجعل الشريعة مجرد علوم تلقينية لا تستند عـــلى العلوم العقلية التى وصل بها الحكماء الى حد الاتقان ·

3) للعلوم الشرعية عقلانيتها واجتهادها العلمي :

اذا كانت العلوم الفلسفية تتطلب اطلاعا واسعا ومجهودا ضخما فى التفكير ، فان علوم الشريعة تتطلب فى نظر ابن رشد ، درسا واجتهادا وادراكا ، قد يكون أصعب مـن الذى تتطلبه الحكمة · والسبب فى ذلك أن النصوص الشرعية سواء منها مـا يهـم العقيدة ، أو ما يهم التشريع ، انما هي نصوص اجمالية ومختصرة ، تتوجه الى البشر فى العموميات الاساسية ، ولكنها تدعو العقلاء منهم الى التأويل والاستنباط لمواجـهة مختلف الاحوال المجتمعية والفكرية · من أجل هذا نشأت العلوم الاسلامية المتعددة · ولا يمكن أن نختصر جهد الاجيال العديدة من الدارسين لنحصرها فى ظاهرية مستحيلة التطبيق ، أو فى تقليدية تقلص السنة فى جيل واحد من هذه الامة ، وتحرم الاجتهاد على باقى الاجيال · ومن الواقع المعلوم أن الناس درجات فى الفهم والعـــلم ، ومن مزايا الشريعة أنها تخاطبهم جميعا على قـــدر مستوياتهم العقلية · فالخطاب الموجـه الى الجماهير الغافلة المنهمكة فى الحياة المادية هو أساسا تذكير ووعد ووعيد ، يستدعى العاطفة ويلفت الخيال · وهو أنسب أنواع الاقناع لهذه الفئة من الناس · وأهل الجدل قوم تعودوا على الصراع الخطابي ، والمخاصمات الطويلة العنيدة لفرض آرائهم · ولقد أعطتهم النصوص الشرعية حقهم فخاطبتهم بما يتفق مع مشاربهم الجدلية ، لانها السبيل الاليق باقناعهم · ولكن القرآن يتوجه خصوصا الى ذوي العقول الراجحة من أهـــل العلم فينبههم الى البراهين اليقينية ويوجههم تجاه التأويل الصحيح والاستنباط القويم ·

اننا نجد فى الملة الاسلامية هذه المناهج الثلاثة يماشي بعضها البعض · فالعوام يذكرون بآيات الله تذكيرا يناسب مستواهم العقلي ، ويلقنون الشريعة تلقينا · ولا يصح أن تفرض عليهم المجادلات العقائدية لانها قد تؤدي الى تشكيكهم وتكفيرهم بتصورات

غير صحيحة عن الشريعة · أما طريق الجدل ، وللجدل هنا معناه الخاص ، الذى هو التنقيب عن الحجج المجردة لنصرة المذهب ، فطريق عويص مصطنع لجـأ اليه متكلمو هذه الامة ، وظنوه طريق اليقين · والعجيب أنهم يحاولون الزام العوام بطريقتهم هذه ، مع ما فيها من أغاليط ، وغموض وتعقيدات ، ولجاج كثيرا ما يكون فارغا · لكن العلماء الراسخين فى العلم كما وصفهم القرآن ، هم أهل التأويل الصحيح للكتاب ، وهم حكماء هذه الامة وعقلاؤها ، ولهم طريقتهم الخاصة بهم فى ادراك أسرار الشريعة والتوصل الى تطبيقها ، وهي طريقة التأمل العميق والاستدلال والاستنباط · وصفة الراسخين فى العلم هي النزاهة العلمية التى تفرض الاعتراف بالحقيقة كيفما كانت ومن أي المصادر جاءت لان الحكمة « ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها » · والفلسفة ليست الا معـرفة للكائنات ، بأصح وأدق أنواع المعارف الذى هو العلم · ولا يمكن الا أن تكون سنـدا للشرع الذى يدعو الى التدبر فى المخلوقات ، للاستدلال على وجود الخالق وصفاته · وبما أن الراسخين فى العـلم ملزمون بالتأويل الصحيح الذى ينـاسـب العقل وطبيعة الكائنات فالعلوم العقلية من أهم أغراضهم · وما دامت تأويلاتهم عقلانية ، فلا يهمهم التأويل المذهبي أو التأويل الباطني لانهما اما تحيز واما انحراف عن واقـع الوجود البشري · فالعلوم الشرعية تقتضى بناء على هذه الاعتبارات مجهودا علميا ، ثـم مجهودا تأمليا يؤدي الى الاستنباط البرهاني العقلي لمعاني الشريعة ، والوقوف عـلى مدلولاتها الحقيقية ·

4) مكانـة ابن رشـد فى الفكر الديـني :

اذا أردنا ابراز مكانة ابن رشد فى أصول الدين بالمقارنة مع المفكرين الذين ظهروا فى هذا الميدان ، فاننا سنجد له مواقف يلتقى فيها مع من سبقه من المفكرين وعلمـاء الكلام ، ومواقف يتميز بها من بينهم جميعا · ويمكن تلخيص ذلك فى اتفاقه واختلافه مع الغزالي ، بصفته صاحب المواقف الحاسمة تجـاه أغلبية المذاهب المعروفة حتى القـرن الثاني عشـر ·

وسيبدو لاول وهلة من التصنع أن نظهر بأن صاحب تهافت التهافت ، قد يتفق مـع صاحبه تهافت الفلاسفة فى كثير من الافكار ، ويختلف معـه على الخصوص فى نقط منهجية أكثر مما هي عقائدية · فهو متفـق معه فى مستويات البشر بالنسبة لادراك المعارف · وكان ابن رشد متأثر بالعروض التى أتت فى القسطاس المستقيم ، وذكرها غيرما مرة دون أن يتعرض لها بأي نقد يستحق الذكر ·

ثم انه يتفق معه على الخصوص فى رفض الطريقة الجدلية التى ذهب اليها المعتزلة لكن ابن رشد يرمي الاشاعرة ، ومن بينهم الغزالي ، بنفس التهمة الموجهة الى مذهب الاعتزال • غير انه مع هذه الملاحظة لا يخفى اعجابه باجتهاد الغزالي ، بل يشهد له صراحة بالامامة الفكرية والعلمية فى كثير من المواضيع : منها أصول الفقه ، وادراك استقلال مناهج الشريعة ، والتنبه الى الانحرافات التوفيقية عند فلاسفة الاسلام ، والوقوف على سر العبادات والمجاهدات الروحية فى ترقية الانسان ، والوصول به الى مستوى الكرامة العقلية •

غير أن أبا حامد ارتكب فى نظر ابن رشد أخطاء أساسية :

فالخطأ الاول يشترك فيه مع غيره من الاشاعرة ، وهو الزام الجماهير بالعقيدة الاسلامية من طرق لا تناسبهم لتعسرها وتعقيد مناهجها وبراهينها • والخطأ الثاني هو مسؤول عنه اكثر من غيره ، الا وهو رفض الحكمة جملة واحدة بسبب بعض انحرافات الفلاسفة فى ميدان الالهيات ، وعدم توفق فلاسفة الاسلام فى انتقاء الآراء الصحيحة ، ورفض المنحرف من آراء الاولين ، هذا بالاضافة الى أن ابن رشد يتهم الغزالي بعدم الاطلاع الكافي ، وعدم الادراك الدقيق لكثير من ميادين العلوم الفلسفية .

أما اكبر خطأ اركتبه الغزالي فى نظر ابن رشد فهو اسراعه فى الحكم على الخصوم بالكفر والالحاد ، مع عدم فساد عقيدتهم فى الاساسيات ، ولم يلتمس لهم أي عذر من الاعذار الشرعية التى تدعو العالم المسلم الى العفة فى الحكم على الناس ، وتقدير المجتهد المخطىء على انه من العلماء المأجورين •

وآخر نقطة يختلف فيها ابن رشد مع الغزالي هي نقطة سبل المعرفة ، حيث ان ابن رشد لا يعترف بالطريقة الحدسية المباشرة ، وبالاحرى الذوقية أو الالهامية اللدنية لانها فى نظره من الشواذ فى طبائع البشر ، ورغم أنها طريقة لا تنكر شرعا وعلما ، فان أغلبية الناس محرومون منها ، بينما العقل والعلم الصحيح طريق متوفر لكل من استند اليه واجتهد فيه ، من بني الانسانية جمعاء • هذه هي فى مجملها النقط البارزة للعقلانية الرشدية فى أصول الدين • ويمكن أن تعدها بحق خطوطا أولية لفلسفة اسلامية ذات أبعاد عالية ، تهتم بشمولية الفكر الانساني من خلال العقل والعلم الصحيح ، بقدر ما تراعي خصوصيات الشريعة وواقعها الخاص •

العقلانية الرشدية فى الفقه :

سبق ان أشرنا الى البيئة الثقافية التى ينشأ فيها بعض اكابر الفقهاء ، وعرفنا أن الفقه عند المجتهدين لا يخلو من ممارسة للعقلانية ، ومن ذهنية تجريبية وواقعية تفرضها المادة نفسها ، بسبب ملازمتها للاشياء المجتمعية الحية ، واعتمادها على منهج مستمد من ضرورات التوضيح العلمي ، والنقد والنقاش ·

ونحن نعلم أن ابن رشد بـــدأ حياته كفقيــه ، ومارس الفقه بحكم وظيفه وتأملاته المستمرة حتى آخر عمره · فهو محصل فى بداية ثقافته على هذا النوع مــن العقلانية التى عرف بها جده وبعض أساتذته · ولكن الثقافة الفلسفية أكسبته نضجا زائــدا فى هذا الميدان ، خصوصا اذا علمنا أن معارفه المتعلقة بالشريعة أتت أكلها ، وبرزت فى صفة الانتاج المتقن أيام الكهولة والشيخوخة ، أي أيام الرزانة العلمية التى حصل عليها بعد الممارسة الطويلة للحكمة وعلومها ·

قد نعثر فى طي مؤلفه الفريد فى الفقه الذى هو بداية المجتهد ونهاية المقتصد على بعض الصفحات التى تقارب منحى الحكماء ، أكثر مما تجرى مجرى العروض الفقهية ، لكن الكتاب بمجمله ينبىء عن منهجية ، وقياسات وتحليلات ذات عقلانية منضبطة قلما يلجأ اليها الفقهاء العاديون ، بل هو ضرب من الاجتهاد كما يعلن عنه العنوان · وعلينا أن نتتبع هذه المنهجية فى أهم نقطها ·

1) الاعتماد على النــص :

يبدأ كل باب من أبواب الكتاب بعرض الاصل الاول الذى هو النص التشريعي ، اما آيات قرآنية ، أو سنن نبــوية · والرجوع الى هذا الاصل يعنى عند ابن رشد مناقشة عمومياته وخصوصياته ، وادراك تأويله الصحيح ، ان استحق التأويل · وهو يعني بالنسبة للسنة تتبع الاسناد بالنقد والمقارنات المتعارف عليها عند علماء الحديث ، هذا مع ابراز الظروف الاجتماعية المصاحبة لهذه السنن حتى يتيسر فهم عللها التشريعية أثناء النقاش · ويبدو جليا للعيان من خلال هذا التقديم للنصوص ، أن ابن رشد واسع الاطلاع ، كثير الاجتهاد فى التحصيل على مختلف القرائن التى تصاحب الاحكام الفقهية نراه فى كثير من الابواب الخاصة بالمعاملات مثل البيوع ، والمساقاة ، والاجار ، يتتبع الاحاديث المختلفة مقارنا بين الاسانيد ، وتواريخ الورود ، مقررا بعد الفحص الدقيق بنسخ البعض منها لخصوصيته ، والاعتماد على البعض الآخر لعموميته ·

ولكن اجتهاده فى معرفة النصوص بالدقة اللازمــة لا يمنعــه مــن عرض الآراء المختلفة عنها وسرد الاحكام المنبثقة عن ضعيف الحديث ، على أنها من الواقع الفقهي ، الذى يعني بتأويلاته وأحكامه فى تنوعها · ذلك لانه لا تعصب فى الفقه ، كما هو مشهور عند المجتهدين مــن الفقهاء ، ومــن النزاهة العلمية أن تعــرض الاستنباطات المختلفة والتفاسير المتعددة للنصوص ، مع البحث عن دواعي اختلافها ، تبريرا ونقدا محترما فى نفس الاوان · لكن ابن رشد يرى مع كل هذا الاحترام للتفسيرات المختلفة ، أن تأويل النصوص ، بعد اثبــات صحتها ومعـــرفة قرائنها الاجتماعية والتاريخية ، وعامها وخاصها ، ومنسوخها ، أنه لابد من مناقشات فى تحديد المعاني الصحيحة ، ولا يمكن ذلك الا بالاطلاع العميق والتمكن القـــوي من اللغـــة العربية التى وردت بهــا هذه النصوص · فلا يصح للفقيه أن يأخذ العبارات مــن مظاهرها فى كــل مناسبة ، كمــا لا يمكنه أن يلجأ الى التأويل البعيد لاستنتاج أحكامه · فالتمكن من النصوص حفظــا واطلاعا ونقدا وتحليلا وتأويلا ، شرط أساسى لكل مبتدئى فى طريق الاجتهاد · وأما العروض والمناقشات الفقهية الطويلة ، فليست الا امتدادا لهذا الاصل الاول الذى يعني به ابن رشد كامل العناية فى مؤلفه ·

2) القيـــاس :

ان طريق الوقوف على الاحكام بالاستنباط الصحيح ، هو الاصل الثاني فىالتشريع الاسلامي ، ويقول ابن رشد : « ان دليـــل العقل يشهد بثبوته ، وذلك لان الوقائع بين أشخاص الاناسي غير متناهية ، والنصوص والافعال والاقرارات (يعني التى هي أصل للتشريع) متناهية ، ومحال أن يقابل ما لا يتناهي بما يتناهي · فالقياس هـــو ميزان العقلانية والواقعية فى الفقه · وليست معالجته بالامر البسيط ، اذ أن « الحكم للفرع ، ارجاعه الى الاصل » يقتضي اتقان منهاج التوصل الى ذلك ، ومعرفة الاصول كلهــا حق المعرفة · ويلفت ابن رشد نظرنا الى بعض الصعوبات التى يتعرض لها الفقيه بشأن القياس · اذا لم يكن مدركا لدقائق المعاني فى كل أصل ، فيقول : « القياس الشرعى هو الحاق الحكم الواجب لشيء ما بالشرع ، بالشيء المسكوت عنه لشبهه بالشيء الذى أوجب له ذلك الحكم ، أو لعلــة جامعة بينهما · ولذلك كان القيــاس الشرعى صنفين ، قياس شبه ، وقياس علة · والفرق بين القياس الشرعى واللفظ الخاص يراد به العــام أن القياس يكون على الخاص الذى أريد به الخاص ، فيلحـــق بـــه غيره · أعني أن المسكوت عنه يلحق بالمنطوق به من جهة تنبيه اللفظ ليس بقياس · وانما هو من بــاب

دلالة اللفظ وهذان الصنفان يتقاربان جدا لانهما الحاق مسكوت عنه بمنطوق به ، وهما يلتبسان على الفقهاء كثيرا جدا » · فادراك الشبه في الاحوال الاجتماعية ، وادراك علل التشريعات للتوصل الى القياس الصحيح ، انما يقتضي الاستناد الى المعرفة الدقيقة لطبائع البشر ، وتصرفاتهم وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك فى العموميات أساسا ، وفى الخصوصيات قدر الامكان · فالقياس كأصل من الاصول التى يعالجها الفقيه المجتهد ، تقتضى كما نرى ، اطلاعا واسعا ، زيادة على عقلانية حصينة منتبهة الى الالتباسات والانحرافات ، ونجد أن ابن رشد يلتقى هنا مع اهتماماته الفلسفية فى اعطاء العقل والعلوم العقلية ، المكانة العليا فى المعارف ، اذ أن معرفة الموجودات والاطلاع على حقائقها ، سواء كانت بشرية ـ اجتماعية تهم الشريعة ، أو موجودات مادية تهم العلوم الوضعية ، انما تكون بالاعتبار العقلي والاستنباط الذى دعا اليه الشرع · والعلم والعقل يضمنان « أتم أنواع النظر بأتم أنواع القياس » · وفى هذا الاصل الشرعى الذى هو القياس ، تساند واضح بين العلوم الاسلامية وعلوم الحكمة التى يستمد منها ادراك الحقائق البشرية الاجتماعية ، والفائدة كل الفائدة فى هذا التساند ما دام كل من الشريعة والحكمة يقصدان تنظيم العلاقات الانسانية من مختلف الوجوه ·

3) التحديد والتحليل والمقارنات :

ان معالجة الاصول بهذه الطريقة العقلانية يستدعي منهجية ذات أهمية خاصة عند ابن رشد ، وذلك قصد التوصل الى درجة التوضيح الكافي الذى ييسر طريق الاجتهاد · ومن أجل هذا نجده يبدأ صدر كل باب من أبواب الكتاب بتحديد المصطلحات وتناولها بالشرح الدقيق ، قبل الشروع فى التفرعات التى تقتضيها الاحوال القانونية · ومن هنا ينطلق الى تحليل كل فرع مع ايراد المقارنات بين المذاهب ، وابراز علة الخلافات ، حتى يتسنى للفقيه أن يتجاوز ، بناء على هذا الوضوح ، موقف المقلد الملتزم بالرأي الواحد ، من المذهب الواحد · فضبط المعاني ، واستقصاء الاحوال المتعددة للمسألة الفقهية ، وذكر خلافات الناس فى المفاهيم والتطبيقات ، كلها ضمانات علمية ، لا يمكن الاستغناء عنها ، عند الباحث الذى يريد أن يتحرر من ربقة التقليد · ولنأخذ مثالا لهذه المنهجية من الفصل الخاص بالقراض فى كتاب بداية المجتهد حيث يقول ابن رشد فى التقديم العام لتحليلاته ومقارناته : « لا خلاف بين المسلمين فى جواز القراض ، وأنه مما كان فى الجاهلية فاقره الاسلام · وأجمعوا على أن صفته أن يعطى الرجل الرجل المال على أن

يتجر به على جزء معلوم يأخذه العامل من ربـح المال : أي جـزء كان مما يتفقان عليه ، ثلثا ، أو ربعا ، أو نصفا ، وأن هذا مستثنى من الاجازة المجهولة ، وأن الرخصة فى ذلك انما هي لموضع الرفق بالناس ، وانه لا ضمان على العامل فيما تلف من رأس المـال ، اذا لم يتعد ، وان كانوا اختلفوا فيما هو تعد مما ليس بتعد · وكذلك اجمعوا بالجملة على أنه لا يقترن به شرط يزيد فى مجهلة الربح ، أو فى الغرر الذى فيه ، وان كانـوا اختلفوا فيما يقتضى ذلك من الشروط مما لا يقتضى · وكذلك اتفقوا على انه يجـوز بالدنانير والدراهم ، واختلفوا فى غير ذلك · وبالجملة فالنظر فيه : فى صفته ، وفى محله ، وفى شروطه ، وفى أحكامه · ونحن نذكر فى باب من هذه الثلاثة الابواب مشهورات مسائلهم » · فالتحديد الدقيق مع الايجاز وكثافة المعانى الـتى لا يتعدى تعبيرها حرفا واحدا من المقصود ، والاعلان عن التفرعات ، واختلاف الاحوال ، كـل ذلك بارز واضح فى هذا النص الموجز المجمل ، الذى تعمدنا اختياره كنموذج للضبـط المنهجى · وانه لمثال أيضا عن مدى أهمية التحليلات الواردة فيما يليه ، كما انه مثـال لاحصاء الموضوع من جميع جوانبه بما فى ذلك المقارنات والخلافات مع سرد التعليلات لها · وكان المنهج مشترك هنا بين العلوم العقلية وعلم الفقه · واذا لم يكن ابن رشـد ممن ينفرد بهذه المنهجية من بين الفقهاء ، فانه يتميز عنهم بالوصول بالمنهج العقلاني الى درجـة الاتقـان ·

4) التعليـــل :

لقد رأينا بشأن القياس ، بأنه الاصل الذى تتفرع عنه مختلف العمليات العقلية ، والاجتهاد بالنسبة لابن رشد هو اتقان القياس ، وليس أصله فى حد ذاته ، كما يـراه بعض الفقهاء ، مثلما أن الاجماع الذى يعتبر هو الآخر أصلا عند بعضهم ، انما هو مجرد اتفاق بين المجتهدين ، وهو من أجل هذا مرتبط بالقياس وتابع لـه · وذلك لان الشـرع فى أصوله اما نص واما فعل واما اقرار ، وما سكت عنه يقاس فى شأنه على ما صرح به · ويقول ابن رشد بشأن الاجماع بأنه « مستند الى أحد هذه الطرق الاربعة ، الا أنه اذا وقع فى واحد منها ، ولم يكن قطعيا ، نقل الحكم من غلبة الظن الى القطع · وليس الاجماع مستقلا بذاته من غير استناد الى واحد من هذه الطرق ، لانه لو كان كذلك لكان يقتضي اثبات شرع زائد بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، اذ كان لا يرجع الى أصـل من الاصول المشروعة ، هذه ملاحظة دقيقة فى المنهجية الفقهية ، يقصد منها ابن رشـد اعطاء القياس مكانته الممتازة فى الاصول · وقد رأينا أن القياس يتطلب مجهودا علميا

وعقليا ضخما ، ويقتضى الوقوف على التعليلات الصحيحة للشريعة ، بادراك مقاصدها العامة من اصلاح البشر والمجتمعات · والفقيه المجتهد هو الذى يتتبع العلل فى كل حكم حكم ، زيادة على ادراك العلل الاساسية التى بها يراد الخير للمجتمع وتجنب عنه السرور · وليس اختلاف المذاهب فى الاحكام ، الا من اختلافها فى الوقوف على التعليل الانسب · ولا يعد فقيها من تغافل عن هذه الاسرار ، واكتفى بنقل أحكام مذهبه بالطرق التقليدية التى سلكها أغلبية فقهاء الغرب الاسلامي · غير أن التعليل الاجمالي لادراك الاسرار الاساسية للشريعة ، كثيرا ما يجعل ابن رشد يحلق فوق موضوع الفقه ، ليصل الى الموضوع المشترك بين الحكمة والشريعة فى عقلانية تبرز معاني التواجد والتعايش الاجتماعى · والشواهد من بداية المجتهد على البحوث التعليلية تكاد لا تخلو منها أي صفحة من صفحات الكتاب ، ولكننا أردنا أن نستشهد بنص عن هذا التعليل العام ، اخترناه كدليل على الاهتمام بالنظرات الشمولية التى هي دليل التمسك بالحكمة والعقلانية عند ابن رشد ، اذ يقول فى آخر كتاب الاقضية : « ان السنن المشروعة العملية المقصود منها هو الفضائل النفسانية · فمنها ما يرجع الى تعظيم من يجب تعظيمه ، وشكر من يجب شكره ، وفى هذا الجنس تدخل العبادات : وهي السنن الكرامية · ومنها ما يرجع الى الفضلة التى تسمى عفة وهذه صنفان : السنن الواردة فى المطعم والمشرب والسنن الواردة فى المناكح · ومنها ما يرجع إلى طلب العدل والكف عن الجور · فهذه هي أجناس السنن التى تقتضى العدل فى الاموال ، والتى تقتضى العدل فى الابدان · وفى هذا الجنس يدخل القصاص والحروب والعقوبات ، لان هذه كلها ، انما يطلب بها العدل · ومنها السنن الواردة فى الاعراض · ومنها السنن الواردة فى جمع الاموال وتقويمها · وهي التى يقصد بها الفضيلة التى تسمى السخاء ، وتجنب الرذيلة التى تسمى البخل · والزكاة تدخل فى هذا الباب من وجه ، وتدخل أيضا من باب الاشتراك فى الاموال · وكذلك الامر فى الصدقات · ومنها سنن واردة فى الاجتماع الذى هو شرط فى حياة الانسان ، وحفظ فضائله العملية والعلمية · وهي المعبر عنها بالرئاسة · ولذلك لزم أيضا أن تكون سنن للائمة ، والقوام بالدين · ومن السنن المهمة فى حين الاجتماع ، السنن الواردة فى المحبة والبغضة والتعاون على اقامة هذه السنن ، وهو الذى يسمى النهي عن المنكر والامر بالمعروف ، وهي المحبة والبغضة أي الدينية التى تكون اما من قبل الاخلال بهذه السنن ، واما من قبل سوء المعتقد فى الشريعة » ·

اعتبارات ثقافية اجتماعية عن العقلانية الرشدية فى الشريعة :

يظهر من هذا العرض عن العقلانية الرشدية فى علوم الشريعة ، وقد وقع اختصاره قدر الامكان ، أن التساند بين الحكمة والشريعة لم يقع التخلي عنـه حتى فى الميادين الخاصة مثل الفقه ، وان علوم الملة الاسلامية ، كما يسميها ابن رشد ، تكتسب نضجها وقوتها ، حينما تصبح علوما عقلانية ، تستغل ، كلما اقتضى الحال ، بعض ثمار المجهود الانساني العالمي ، وتمد هي الاخرى الفكر الانساني بتجارب ثقافية لم يعرفها الاولون . ان اجتهاد ابن رشد فى الشريعة لم يصل الى مستوى الاتقان ، حتى تمكن من استغـلال مختلف العلوم العقلية ، وما هو واضح بالنسبة للتجربة الشخصية عند هذا المفكر الذى يعد مثالا لهذه الظاهرة ، قد يكون أقل ظهورا ، اذا نظـرنا الى العـلوم الشرعية فى مختلف تطورها ، واكتسابها النضج العقلاني ، عبر مراحل التاريخ . غير انه يجب أن نتناسى احتكاك علماء الاسلام من أصوليين وفقهاء ولغويين ومتكلمين بمعارف الاولين ، وبالخصوص فى المواضيع التى تدعو الى اتقان طرق العقلانية وتثبيت المنهجيات المناسبة لبناء العلوم . ان الفكر الفلسفى متوغل فى أعماق الثقافة الاسلامية الاصيلة ، ومن حسن حظ المسلمين ، أنهم ساهموا بقدر عظيم فى اثراء الفكر الفلسفى العالمي ، مع اصباغه بالصيغ التى كانوا يرونها مناسبة لعقائدهم . فالتساند بين الحكمة والشريعة ، سواء كان ظاهرا أو خفيا ، منكرا أو مقبولا ، انما هو واقع ملموس . وميزة ابن رشـد فى الدعوة الاكيدة الى اتباع سبيل العقلانية ، هي ميزة الفضيلة العلمية ، على حد تعبيره وهي فضيلة تقتضي الصراحة ، والشجاعة الفكرية ، والتعالي عن التعصب المذهبي . وليس من العجيب أن يضطهد ابن رشد على يد سلطات وقع تحريشها من لدن صغـار المثقفين المتمذهبين ، بل من العجيب أن يقـع التخفيف مـن اضطهاده ، بفضل التفتح الثقافى الذى وجد فى صاحبه المنصور . ونحن نعلم أن سلطة الموحدين ، عند غـير المنصور ، العاطف على الحكماء والعلماء ، كانت سلطة مطلقة ، تبنى اطلاقيتها عـلى الالتزام المذهبي قبل كل شيء .

أما الشائعات عن الحاد ابن رشد ، والحكم عليه بتفضيل الحكمة على الشريعة ، والاقوال الملفقة عن تكفيره والمس بعقيدته ، فمن باب التحريف الذى أذاعه معاصروه من المثقفين المحدودين الذين تقلصت معارفهم عن الاسلام فى حدود تقليدية متعصبة ، حقودة على المفكرين المبدعين . واذا كان المجهود لم يتابع منذ القرون فى التنمية والتجديد المستمر لفلسفة اسلامية تماشى مقتضيات التطور الانساني ، فذلك لان أمثال ابن رشـد كانوا يضطهدون من لدن المذهبية الضيقة ، المتساندة مـع الاطلاقية السياسية ، وهي اطلاقية الاقطاعيات الحاكمة التى تعودت ضرب الحجر على الافكار .

أهـم المراجع لابن رشـد :

1) كتاب فصل المقال ، وتقرير مـا بين الشريعة والحكمة مـن الاتصال للقاضى أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد : ـ تقديم وتعليق ألبير نادر دار المشرق بيروت 1973 .

2) مناهج الادلة فى عقائد الملة لابن رشد : ـ تقديم وتحقيق محمود قاسم ـ نشر المكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة 1969 ·

3) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ـ طبعة البابي الحلبي · القاهرة 1960 ·

4) تهافت التهافت لابن رشد تحقيق سليمان دنيا نشر دار المعارف ، القاهرة 1964 .

5) تفسير ما بعد الطبيعة لابن رشـد ـ تحقيق بويـج ـ نشر المطبعة الكاثوليكية بيـروت 1952 ·

6) تلخيص الخطابة لابن رشـد ـ تحقيق وتقديم : عبد الرحمن بـدوي · مكتبـة النهضة المصرية · القاهرة 1960 ·

7) تلخيص السفسطة لابن رشد ـ تحقيق سليم سالم مطبعة دار الكتب القاهرة 73 .

لابـن رشـد الجـد :

8) كتاب المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الاحكام الشرعيات والتوصيلات المحكمات الشرعيات لامهات مسائلها المشكلات · لابي الوليد محمد بن احمد ابن رشد المتوفى سنة 520 · نشر مطبعة السعادة ، القاهرة ـ بدون تاريخ ·

للغـزالـي :

9) تهافت الفلاسفة للغزالي ـ تحقيق سليمان دنيا ، نشر دار المعارف القاهرة 1966

10) المستصفى من علم الاصول للغزالي ـ طبعة بولاق 1904 ·

11) القسطاس المستقيم للغزالي ـ تقديـم فيكتور شلحت ـ المطبعـة الكاثوليكية ـ بيـروت 1959 ·

للجـــويني :

12) الشامل في أصول الدين لامام الحرمين الجويني ـ تحقيق وتقديم علي سامي النشار ـ نشره منشأة المعارف ـ الاسكندرية 1969 .

13) الارشاد لامام الحرمين، نشر وترجمة لوسياني، المطبعة الدولية، باريس 1938 .

14) التعريفات للجرجاني ـ الدار التونسية للنشر 1971 .

15) الفارابي : كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين ـ تقديم وتعليق ألبير نادر ـ دار المشرق ـ بيروت 1968 .

عن حيـاة ابن رشـد وفلسفته :

16) عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن أبي اصيبعة ـ دار مكتبـة الحيـــاة ـ بيروت 1965 .

17) المعجب في تلخيص أخبار المغـرب للمراكشي ـ طبعـة دوزي وترجمة فانيـان الجـزائر 1843 .

18) الديباج المذهب في ذكر علماء المذهب لابن فرحون ، فاس 1898 .

19) التكملة لكتاب الصلة لابن الابار ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة 1956 .

20) ابن رشد وفلسفته الدينية لمحمود قاسم ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة 1964 .

المـراجع الفـرنسية :

(1) Abderrahmane Badawi : Histoire de la philosophie en Islam. T. 2 de 738 à 870 - Vrin Paris 1972.

(22) Ernest Renan : Averroès et l'averroisme - Paris 1866.

(23) Encyclopédie de l'Islam : article Ibn Rochd par Carro de Vaux.

مذكرة تاريخية عن وفيات الاشخاص الذين لهم علاقة بابن رشد (بالتاريخ الهجرى)·

ابن رشد (الفيلسوف) – 595 هـ ·

أبو يوسف يعقوب المنصور (السلطان الموحدى) 596 هـ ·

واقعة الارك Alarcos – 573 هـ ·

المعاصرون

أبو يعقوب يوسف (السلطان الموحدي) 580 ·

عبد المؤمن (منشىء الدولة الموحدية) 559 ·

أبو بكر بن العربي 543 ·

ابن تومرت (مهدي الموحدين) 524 ·

ابن رشد الجد (الفقيه) 520 هـ ·

زعماء الاشعرية

الغـزالي 505 ·

الجوينـي 478 ·

الباقـلاني 403 ·

الاشعـري 324 ·

الانعـزالية وانعكاساتها الخطـيرة

د· عـلي عيسـى

اذا كنا لا نستطيع التحدث عن السـلم دون الاشارة الى الحرب واذا كانـت معالجة المرض تتطلـب العناية بالصحة الوقائية ، واذا كانت طبيعة الفقر لا تفهـم الا بالتعرف على طبيعـة الغـنى ، واذا استدعت الاضداد بعضها البعض خضوعا لقـانون مـن قوانين التفكـير المنطقي ، فان الكلام فى اجتماعية الانسان يقتضى معرفة شيء عن انعزاليته وانعكاساته على شخصيته وتفكيره ·

والذين يحاولون ان يكونوا انعزاليين ، متباعدين عن المجتمع الذى يعيشون فيـه لا يخدعون الا أنفسهم ، فالانعزالية الحقيقية لا يمكن أن تكون واقعا ، لانها بمجـرد تبلورها تقضي على صاحبها قضاءا مبرما · ومعظم أمراض النفس سببها الانعزالية حتى ان أفضل علاج للمريض النفساني هو نصحه بأن يغير ظروفه بالانتقال الى مجتمع أفضل تسوده العلاقات الاجتماعية الصحية ·

وحينما يتحدث علماء النفس عن الغرائز يعتبرون غريزة «الاجتماعية» أو الرغبة فى لقاء الغير أساسية فى الانسان وعلى أساسها استطاع أن يدبر لنفسه بيتا يسكنه وأن يكون له فى هذا البيت زوج وبنون ، وعلى أساسها أيضا استطاع أن يجمع حوله

الاصدقاء وأن يبادلهم الود ، ومن اثار هذه اللقاءات مع الغير تعلم الانسان التسامح بالضرورة لان الناس وان اتفقوا فى الاسس النفسية فأن بينهم فروقا فردية تجعل الانسجام التام بينهم عسيرا بدون هذا التسامح ، ولنحاول ان نناقش الانعزاليين ـ الذين هم أخطر من السلبيين ، ونبادر اذا رغبوا فى الدفاع عن موقفهم ـ وبعضهم يفعل ـ بتجريدهم من الانعزالية وبعدم صدق قضيتهم الخاسرة التى يدافعون عنها لان مجرد الدخول فى نقاش دفاعا عن الانعزالية هو انعدام لها ـ لان المدعي لم يتعلم النقاش من الانعزالية ، وانما تعلمه من المجتمع ، وبارتضائه المناقشة ، فقد حكم على نفسه بأنه غير انعزالي مهما ادعى ذلك ·

وأول مظهر يبدد خرافة الانعزالية توقف حياة المولود على والديه وعلى الاخص على أمه ، يلتصق بها ويتغذى من صدرها ويتعلم لغتها وتحافظ هي على صحته وتحقيق سعادته مدفوعة الى ذلك بالغريزة الاجتماعية المتمثلة فى الامومة ، ولو كانت هذه الغريزة غائبة لهلك المولود من اللحظة الاولى الا اذا استطعنا ان نتصوره قادرا على الاغتذاء داخليا والنمو بلا رعاية والنطق غريزيا ، وهذا كله لا يحدث ويذكر المؤيدون للانعزالية بأنهم مخطئون فى تصوراتهم من اللحظة الاولى ، ثم كيف يدعي شخص بأنه انعزالى وهو يؤدى أعمالا منتظمة تتطلب الاخذ والعطاء مع الآخرين ؟

ولنفرض ان انسانا ما أصر على أن يكون انعزاليا فهل من الممكن ان يرفض عون جاره اذا ألم به حادث فجائي يستحق النجدة ؟ اكبر الظن أنه سيقصد الى جاره فى أي وقت من الليل أو النهار للاستغاثة ، وبذلك تبطل حجته ، ولندع هذا النوع من الانعزاليين الى غيره كالانعزالي الذى يستخدم هذه الصفة دون ان يكون صادقا ، وبلا أي منطق وانما ليخفى سببا آخر يمنعه من لقاء الناس ، ليخفى نزعته الطبقية حرصا منه على أن يعيش فى النطاق الضيق للطبقة الاجتماعية التى ينتمي اليها مشاركا فى ذلك بعض أهل مهنته على النحو السخيف الذى نجده فى المجتمع الرأسمالي بالذات ، فهو حينما يقول انه انعزالى لا يعنى تماما ما يقول ، وانما يعنى انه لا ينسجم مع أشخاص معينين من الذين ينتسبون لطبقة أقل من طبقته فى نظره ·

ولما كان المجتمع الرأسمالي منقسما الى طبقات رئيسية وطبقات فرعية عديدة ، وان الحدود بينها ليست واضحة تماما خصوصا عندما تزيد تفريعات هذه الطبقات فأن الانحصار فى طبقة أو فى فرع من طبقة أو فرع من أحد فروع طبقة ما يجمد الفرد عمليا ، وخلقيا وصحيا ونفسيا ، وقد تنبه لخطورة هذا التجميد فى بيئة المشتغلين

بالقانون كثير من الكتاب والمفكرين ودرسوه بالنسبة لمهنة القاضي ، وفى الماضي كان طلاب القانون والقضاء يبالغون فى تجنب المجتمع حتى لا يقع الاختلاط بينهم وبين العامة ، أو بينهم وبين المتقاضين ، ويترتب على ذلك فيما يزعمون ان يميلوا مع الهوى ، فتفسد احكامهم وتكييفاتهم للقضايا . وكانوا يرفضون لشدة جهلهم أية معونة أو مشورة بشان الاحكام التى يصدرونها . وفى نهاية شهر جانفي من عام 1969 م صدر كتاب فى بريطانيا يهم رجال القانون ورجال الاجتماع بقلم أحد كبار القضاة الذين مارسوا القضاء وأصدار الاحاكم لمدة تزيد عن ثلاثين سنة ، هذا القاضى هو جون واطسون وكتابه (أين هي العدالة ؟) ويدور هذا الكتاب حول التناقض الملحوظ بين احكام بعض القضاة فى المحاكم بسبب اختلاف ثقافة القضاة وقلة خبرة بعضهم بشؤون الحياة الاجتماعية والنفسية لمن يصدرون بشأنهم الاحكام ، ومن بين ما جاء فى كتابه ذكر انه يعرف قضاة كثيرين يتميزون جميعا بسداد الرأي والاحساس الشديد بالواجب ، ولكنهم يختلفون فى الطريقة التى يعالجون بها قضاياهم المطروحة للنظر امامهم ، حتى ان المتقاضين والمتصلين بالمحاكم لاحظوا أنه فى محكمة ما فى بريطانيا توجد فروق كبيرة بين الاحكام المنطوق بها أيام الاثنين والاربعاء والجمعة ، وبين الاحكام المنطوق بها أيام السبت والثلاثاء والخميس ، حسب نوعية القضاة المعنيين للنظر فى القضايا هذه الايام لدرجة ان الناس يتداولون فيما بينهم عبارات مثل : (لو كنت حسن الحظ ونظرت قضيتك أمام القاضي (س) فان الفرصة ستكون لديك للحكم عليك بغرامة صغيرة على عمل قد يخالف القانون مخالفة كبيرة أو توضع تحت المراقبة اذا كنت ارتكبت أخطاء سابقة ، واما اذا كانت قضيتك أمام القاضي (ص) فيا ويلك اذ لن تحظى بأي تساهل حتى لو كنت مخطئا لاول مرة فى حياتك) .

ويسوق مستر جون واطسون المثال الدقيق الآتي للدلالة على خطورة انحصار القاضي فى النصوص والتزامه حرفيتهبسبب انعزاليته وعدم ادراكه للحياة الواقعية التى تجري من حوله . ويمضي ـ بعد تجنب التكييف القانوني للتهم قائلا : هاكم حالة رجلين اتهما بجرائم استخدام العنف والاعتداء الوغد على الغير ، ولا يزالان يقضيان فى السجن المدد المحكوم عليهما بها ولنطلق على الاول (أ) وعلى الثاني (ب) ، وقد حوكم الاثنان أمام محاكم مختلفة وقضاة مختلفين :

ـ وعمر (أ) تجاوز الثلاثين واعتداءاته كثيرة وعنيفة ، قام بها فى مدى عدد قليل من الشهور فجأة ، ولم تكن له سوابق تذكر لتجعل منه مجرما عائدا ، وكان يبدو

عليه أنه ذو اخلاق حميدة ، ولكن مرة واحدة حدثت منه هذه السلسلة من الانحرافات فى فترة زمنية قصيرة • وكانت الاحكام التى تلقاها :

أولا ـ خمس سنوات سجن للسرقة مع استعمال العنف •

ثانيا ـ الاعتداء البشع وعقابه سنتان •

ثالثا ـ السرقة وعقابها خمس سنوات (جريمة مكررة) •

رابعا ـ اعتداء بشع تكرر وعقوبته سنتان •

خامسا ـ الاعتداء بقصد السرقة ثلاث سنوات •

سادسا ـ اعتداء بشع مرة ثالثة ومدته خمس سنوات •

وقد أدى (أ) بعض هذه العقوبات فى وقت واحد ، ولكن اكثرها متسلسل ، وكان مجموع سنوات الحبس ثماني عشرة سنة •

وأما الرجل الثاني (ب) فقد كان فى نفس طبقة العمر ، أي بعد الثلاثين ، ولما حوكم فى عام 1965 على السرقة والاعتداء البشع وجد أنه كانت له سوابق ومحاكمات مماثلة من قبل • وصدر الحكم عليه رغم سوابقه بالسجن ست سنوات فقط ، وفى شهر جويلية عام 1967 سمح له بمغادرة السجن لمدة نهار أحد الايام لحضور جنازة والديه ولكنه لم يعد الى السجن فى المساء ، وبدلا من ذلك تسلح ببلطة وهاجم فتاتين فى مكان قصي ، وبالصدفة كان هناك من يبحث عنهما وفر الجانى ، ثم امكن القبض عليه ، وقد كان نصيبه حكم بثلاث سنوات تقضى بالتوازى مع الحكم السابق عليه ، ويعرض القاضي واطسون الحالة فى كتابه بالصورة الآتية :

(أ) رجل كان معروفا بسلوكه الحميد ، صدرت ضده أحكام بالسجن لمدد مجموعها ثماني عشرة سنة ، وربما كان الحكم بست سنوات ، وهو الحكم الذى صدر ضد (ب) انسب له ، وهذا يجعل بين الحكمين هوة ، كما يصورهما غير متوافقين •

ومثل هذه الاحكام تدعو المتأمل ، كما دعت القاضى واسطون الى ضرورة اعادة النظر فى تعليم القاضي وتدريبه ، وعلى الاخص اعطائه الفرصة لفهم نفسيات الناس وما يطرأ عليها من تغيرات بعضها سريعة ، وبعضها بطيئة ، دون أن يكون معنى هذا التخصص العميق أو الدراسة السيكولوجية ـ ويرى ان مرور قاضي المستقبل بالوظائف التى دون وظيفة القاضي والتى لها علاقات بالاحكام تساعده فى فهم أنواع الجرائم ، والاحكام الملائمة لها ، ثم ان خبرة القاضي بأحوال الناس وشـؤون المجتمع • هذه

الخبرة التى نحصل عليها بالاتصال بالغير وبالقراءة فى فروع المعرفة خارج تخصصاتنا وليس بالانغزالية تساعده فى البلوغ باحكامه الى درجة الكمال .

ويرفض القاضي واطسون رفضا تاما الخطأ الشائع بين بعض رجال القانون والذى مؤاده ان ما فات القاضي أن يحصله اثناء اشتغاله بالمحاماة من خبرات بفنون الاحكام يمكن ان يحصله عندما يمارس القضاء ويبني رفضه هذا على خبرته الشخصية ، ومن بين ما يقترحه ليتأكد القاضي من صدق أحكامه وملاءمتها ان يخرج من انعزاليته بأن يندمج فى المجتمع وأن يحاول تتبع المحكوم عليه سواء فى السجن أو فى خارجه ليلمس عن قرب نتائج الحكم الذى أصدره عليه ، وبذلك يقرر ما اذا كان الجزاء الذى وقعه على المتهم حكيما أو غير حكيم .

واين هذا كله من الانعزالية ، التى كان يتفاخر بها القضاة ورجال القانون فى الماضي ، لقد أصبح القاضي كالدارس للعلوم الانسانية مطاليا بالاندماج بالمجتمع فى كل مستوياته مع اظهار القدرة على ان يكون بعيدا ومندمجا فى وقت واحد كما يفعل الانثروبولوجيون الاجتماعيون . فالبعد يساعده على تحقيق الموضوعية اللازمة لاحكامه ، والاندماج ييسر له معرفة حقائق الاشياء ، ولو أننا بحثنا الآثار الخطيرة المترتبة على الانعزالية فى المهن الاخرى كالتدريس والطب لوجدنا الامر جديرا بالتأمل ، ثم اذا تصورنا المجتمع كله انعزاليا فمعنى هذا الموت ، لان حياة المجتمعات قائمة على التفاعل بين الافراد وليست كما قد نظن قائمة على مجرد تكاثر اعدادهم .

ولا يزال أفضل تعريف للمجتمع أنه ذلك البناء الذي يتألف من أفراد تربط فيما بينهم علاقات تقتضيها الانظمة السائدة فى داخله وتترتب عليها أحكام وتصرفات سليمة من اعضائه .

اثـــر الثقـــافة الاســلامية
فى حركتى الكثرية والتروبادور

د. ميســوم عبد الالــه

المدير الجهوي للاذاعة والتلفزيون

ـ وهــران ـ

لقــد اتسمت الثقافة الاسلامية بمـا اتسمت بــه حضارة الاسلام العامة من توازن بين الجانب الانساني والجانب العلمي البحث ، فكانت بذلك ثقـافة سعادة وسلام ، ترفع من شأن المعرفة البشرية ، وتدعو الــى الابداع والابتكار ، وتنشـر أسباب التفاهم والاخـاء والتعاون النزيه بين بني الانسان حتى ينقشع ظـلام الجهل والحقد والتعصب ، وتستنير الانسانية جميعها بنور الحرية والعدالة والاحترام ·

ولعل فى هذه المثل السامية للثقافة الاسلامية ما يفسر سرعة انتشارها قديما بين المجتمعات البشرية مثل المجتمع البروفانسي بجنوب فرنسا الذى كان فى مرحلة مـن تاريخه ملتقى لصراع شامل بين الحضارة العــربية الاسلامية والحضارة الــلاتينية المسيحية ، وظهر أثر ذلك فى حركتي الكثرية والتروبادور · فما هي الكثرية ؟ ومــا صلتها بالتروبادور ؟ وما علاقة الحركتين بالثقافة الاسلامية ؟ هذا ما سنحاول بسطــه

فى هذا المقال مساهمة فى توضيح جانب هام من « عالمية » ثقافة الاسلام فى العصر الوسيط .

1 ـ الكثرية والكثريون :

الكثرية Catharisme ظاهرة دينية برزت وانتشرت فى جنوب فرنسا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، فهي حركة مواطنة ومعاصرة لحركة التروبادور الادبية . وليست الكثرية مجرد بدعة أو الحاد أو هرطقة Hérésie وهي غير المذهب المعروف باسم المانوية Manicheisme (1) « انها دين يختلف كل الاختلاف عن الدين المسيحى » (2) ، ويعرف الكثريون أيضا باسم الالبيجيين Les Albigeois نسبة الى مدينة البي Albi ، مع أن هذه المدينة لم تختلف عن غيرها ، ولم ينفرد أهلها دون غيرهم من سكان المدن الاخرى فى بلاد لغة أوك Languedoc باعتناق الكثرية ، هذا الدين الذى استقر استقرارا عميقا بكل اقاليم ونواحي تلك البلاد ، وتعلقت به قلوب أفراد مختلف الطبقات الاجتماعية من نبلاء وأغنياء وفلاحين وتجار وفرسان وغيرهم (3).

ومن أهم ما نعلمه عن الكثرية انها اتخذت موقفا مناهضا لمقدسات الكنيسة الرومانية ، فأبطلت فكرة قتل وصلب المسيح عليه السلام ، ورفضت عبادة الصليب ، وأنكرت مقدسات الرهبنة ، ولم تعترف بالتشريع الكنسي المتعلق بتنظيم الحياة الاجتماعية مثل الزواج وغيره ، بل « وكان الكثريون يعتقدون أن الكنيسة نفسها ما هي الا احدى صنائع الشيطان الرجيم (4) ، وأصبح من عادة العوام البروفانسيين اذا ما وجهت الى أحدهم التهمة بفعل شيء بالغ الخسة شديد الفظاعة أن يصيح قائلا : « أأفعل أنا شيئا كهذا ، أتظنني قسيسا » (5) .

والكثريون صنفان بالنظر الى درجة تفانيهم فى تطبيق تعاليم دينهم ، فهناك ، المؤمنون البسطاء ، وهناك أهل الكمال فى الايمان Les Parfaits ويمتاز هؤلاء عن

---

1) نسبة الى ماني Manes الذى عاش ما بين سنتي 215 و 276 للميلاد ، ويرتكز هذا المذهب على المبدأين المتقابلين : الخير والشر ، والنور والظلام ... الخ .

2) انظر : Fernand Niel : Albigeois et Cathares - P.U.F. - Paris 7e édi. 1974 - p. 5

3) المرجع نفسه ص : 60 ـ 61 .

4) المرجع نفسه ص : 55 .

5) انظر : J. Rutherford : The Troubadours - London 1873 - p. 12

أولئك بالتزمت ونوع من التطرف الشديد ، يرتكز أساسا على الصوم لمدة طويلة Endura وعلى الزهد فى متاع الحياة (6) ·

وتتسم العبادات الكثرية عامـة بالبساطة واليسر ، تتكون مـن صلوات وتراتيل وصوم قد يدوم فى بعض الاحيان أربعين يوما ، فكان الكثريون يجتمعون بصفتهم حوه، يقيمون الصلوات لله وحده ، ويقومون بدروس الوعظ والارشاد فى كل ـى ، داخل المباني وخارجها ، وكانوا يقرون الـزواج المنعقد دون تدخـل الكنيسة المسيحية ، ويحرمون على انفسهم اكل لحوم الحيوانات البرية ، ويعدون الكذب والقسم والزنـا من المنكرات الكبائر (7) ·

وكان الكونسولامينتوم Consolamentum أو الدخول فى هذا الدين يقتضي مـن المريد أن يقف وسط جماعة على شكل حلقة مستديرة من أهل الكمال ، فيضع يديه على رأسه ، ويتعهد جهارا باخلاصه لله واحترامه لمبادىء الدين والعمل طبق تعاليمه ، وبعد هذه المراسيم يتبادل القبلات مـع اخوانه فى الدين ، ويصير بهذا أخـا كثريا مؤمنا وملتزما بالحفاظ على عقيدته وعلى اخوانه ولو أدى به ذلك الى التضحية بحياته تعبيرا عن التفاني فى محبة الله Mourir par amour de Dieu (8).

ويؤنب الاستاذ نييل Niel المؤرخين عن التزامهم الصمت وعدم عنايتهم بتسجيل أحداث هذه الحركة الدينية القوية ، ويتهم من تحدثوا عـن الموضوع منهم ـ وهـم قليلون ـ بالتعصب الديني ومناصرة العنف الوحشي الشديد الذى استخدمته الكنيسة فى حروب الابادة التى شنتها على أهالي جنوب فرنسا الكثريين فى مجملهم (9) ·

ويذكر الاستاذ دي روجمونت De Rougemont أنه لا يمكن أن نعرف بالتفصيل عقيدة الكثريين وحـركتهم التاريخية ، ذلـك أن محـاكم التفتيش المسيحية L'Inquisition قد عملت على احراق الكتب والوثائق التاريخية المتعلقة بهذا الدين ، واذا كان قد تـم العثور على بعض الوثائق حول الموضوع ، فانها لا تخلو من مسخ وتغيير وتضليل (10).

---

6) F. Niel : المرجع السابق ـ ص : 52 ـ 53 ·
7) انظر : D. De Rougemont : L'amour et l'Occident - Paris 1972 - pp. 58-59
8) De Rougemont : المرجع السابق ـ 9 : 59 ·
9) F. Niel : المرجع السابق ـ ص : 6 ـ 8 ·
10) De Rougemont : المرجع السابق ـ ص : 57 ، مع التعليق الوارد فى الهامش ·

فربما كانت كلمة كثرية Cathare مشتقة من اليونانية كاثاروس Catharos بمعنى الصفاء Pureté ، ويكون اتباع هذا الدين الاصفياء Catharistes الا انني لا أستبعد صلتها بالكلمة العربية الاسلامية كوثر ، وهي اسم سورة من القرآن الكريم تدل على ادراك علم التوحيد (11) ، خاصة ونحن نعرف من مبادىء الكثريين زيادة على ما ذكر : اعتقادهم أن المسيح مخلوق فاضل ، وأنه رسول مصطفى ، وأنه فى الحقيقة لم يقتل ولم يصلب (12) ٠

ويمكن أن نقول : لو تمكن الباحثون من الحصول على معلومات وافية ونصوص ثابتة عن هذه الظاهرة الدينية وعن هذا المجتمع الذى تجمع بين أفراده الاخوة والصفاء فى الدين لتغيرت نظرية المؤرخين فى مدى المد والعمق للدين الاسلامي فى أروبا الغربية بعامة ، وفى جنوب فرنسا بخاصة ٠ فلقد كانت أقاليم بروفانس ملتقى الصراع الفاصل بين جبهتي الاسلام والمسيحية ، وطبيعى أن يحدث هذا الاصطدام بين العقيدتين نوعا من البلبلة الفكرية فى المكان الذى يقع فيه ، وهذا ما وقع بالفعل فى بلاد لغة أوك قبيل وأثناء عصر التروبادور ، حيث كان انتشار الكثرية ـ فى رأيي ـ مظهرا واضحا لتأرجح العقول والقلوب بين العقيدة الاسلامية والعقيدة المسيحية ٠ واني وان كنت لا أزعم أن أهالي جنوب فرنسا كانوا مسلمين عقيدة وعملا ، أكتفى بالتأكيد على أن تيار الدين الاسلامي كان ـ دون شك ـ من أهم عوامل غروب المسيحية فى ذلك المكان والزمان ، وأن أولئك الاهالي لم يكونوا مسيحيين على كل حال ، والا فلما ذاشنت عليهم الكنيسة الرومانية حروبا صليبية طاحنة وطويلة كالتي شنتها على الاسلام والمسلمين تماما ؟

2 ـ الصراع بين المسيحيين والكثريين :

من المرجح أن دين الكثرية كان شائعا بنواحى بلاد لغة أوك منذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي ، ولو بغير هذا الاسم الذى عرف فيما بعد ، تدلنا على ذلك صور تنفيذ حكم الاعدام التى سجلها التاريخ ابتداء من سنة 1017 للميلاد فى مدن جنوب فرنسا ، والتى ذهب ضحيتها اناس كثيرون بتهمة الردة عن الدين المسيحى (13) ٠

11) أنظر : محيى الدين بن العربي : تفسير القرآن الكريم ، بيروت 861/2/1968 ٠ تفسير آية : « انا أعطيناك الكوثر » ٠

12) F. Niel : المرجع السابق ـ ص : 52 ٠

13) المرجع نفسه ـ ص : 47 ٠

ويؤكد الاستاذ الالماني بورست Borst سرعة انتشار الكثرية فى أروبا الغربية ، فيذكر أنه فى سنة 1145 كان هذا الدين قد عم بلاد البلغار Bulgarie وبلاد الانغليز Angleterre ، وبدأ يظهر فى المانيا Allemagne (14) ·

ويبدو أن سر سرعة هذا الانتشار يعود الى طبيعة الكثرية والى نشاط الكثريين واقتناعهم الكامل بكونهم معتصمين بالعقيدة الصحيحة ، فاكتسبت ثورتهم على المسيحية طابعا سلميا ، لم يستعملوا عنفا ولم يعلنوا حربا ولم يستولوا على ممتلكات الكنيسة الرومانية (15) ، مع أنه كان بامكانهم تحقيق ذلك نظرا لكون معظم سادة جنوب فرنسا كانوا كثريين ، وفيهم من أظهر استعداده لمحاربة الكنيسة « ولو بدافع التعبير عن كراهيته للرومانيين » (16) ·

ومن الاميرات البروفانسيات والامراء البروفانسيين من دفعه ايمانه بالكثرية الى التنازل عن جميع أمواله الطائلة وأملاكه الواسعة لفائدة اخوانه فى الدين ، ثم يعيش بينهم مؤمنا متواضعا بسيطا ، ونشطت حركة الكثريين فى التبشير ، فكانوا يقومون برحلات متتابعة راجلين أو راكبين ، يقطعون المسافات الطويلة بسرعة فائقة « حتى أن منهم من كان يقطع على ظهر بغله نحو مائة كيلومتر فى اليوم الواحد » (17) ·

لقد أصبحت الكثرية فى بداية القرن الثاني عشر الميلادي ـ أو كادت أن تكون ـ الدين الرسمي لمجموع امارات بلاد لغة أوك التى كانت أشبه شيء بالولايات المتحدة ، سلطتها السياسية المركزية العامة فى مدينة تولوز Toulouse عاصمة دولة أسرة الريموندين Les Contes Raymond

وفى عهد ريموند السادس (1194 ـ 1222) أعلن البابا اينوسنت الثالث Innocent III (1198 ـ 1216) الحرب الصليبية الرسمية ضد أهالي جنوب فرنسا بعد أن بلغه خبر مقتل مبعوثه الخاص الى ريموند السادس ، وهذا المبعوث هو بيير دي كاستيلنو Pierre de Castelnau الذى قتل فى مدينة سان جيل Saint Gilles بالقرب من نهر الرون Rhône ، فى طريق عودته الى روما ، يوم 15 جانفي 1208 ·

---

14) De Rougemont المرجع السابق ـ ص : 61 ، وكتاب بورست مطبوع بالالمانية كالتالي : Arnot Borst : Die Kathares - Stuttgart - 1953

15) F. Niel : المرجع السابق ـ ص : 62 ·

16) انظر : René Nelli : L'erotique des Troubadours - Paris 1974 - 2-75

17) F Niel : المرجع السابق ـ ص : 64 ·

قام رجال الكنيسة بحملة دعائية واسعة فى كامل أروبا الغربية يدعون الناس الى التجنيد فى حرب صليبية ضد الالبيجيين La Croisade des Aalbigeois وقطعت جيوش المسيحية نهر الرون متوجهة نحو الجنوب فى أوائل شهر جويليت 1209 ، وفى صفوفها عـــدد كبير من القسيسين والرهبان ، من بينهم أرنـــود امالريك رئيس دير سيستو Arnaud Amalric, Abbé de Cistaux ، الذى اشتهر بعبارات كان يرددها فى المعارك ، وهي قوله : «اقتلوهم جميعا ولله التعرف على أنصاره » (18) ٠

ويقــف المؤلفون الاروبيون مندهشين امـــام همجية جيوش الصليب فى أراضي بروفانس ، فيذكرون مثلا انه فى نهاية شهر جويليت 1209 هجمت تلك الجيوش عــلى مدينة بيزيي Béziers ، فقتلت فى كنيسة مادلين Madeleine وحدها ما يزيد على سبعة الاف نسمة رجالا ونساء وشيوخا وأطفالا كثريين وغير كثريين كانوا ملتجئين فى تلك الكنيســـة (19) ٠

دامت معركة بيزيي المذكورة مدة يومين تم خلالها ابادة سكان المدينة عن آخرهم ، قيل يبلغ عددهم حوالي مائة الف نسمة ، الا أن الاستاذ نييل يستبعد هذا العدد ، ويقدر الضحايا بثلاثين الفا (20) ، وهو على كل حال عدد يفوق سكان بعض العواصم الاروبية العامرة فى ذلك الوقــت ٠

واستمرت صليبية الالبيجيين هذه تلتهب بشدة مدة نصف قرن تقريبا ، تلاها قرن تميز كله بمتابعة فلول الكثريين بجنوب فرنسا ، وأسفرت هذه الحروب عن مقتل حوالي مليون نسمة ، « خرجت بعدها الكنيسة الرمانية قوية موحدة ، ومهدت بذلك الطريق لضم الاقاليم البروفانسية الى شمال فرنسا » (21) ٠

ولعله مــن المفيد أن نـــورد ملخص نص معاهدة الاستسلام التى فرضتها جيوش صليبية الالبيجيين على الكونت ريموند السابع Raymond VII مات سنة 1249 ، وتعرف بمعاهدة مو Meaux جاء فيها (22) :

---

18) المرجع نفسه ـ ص : 77 ٠

19) انظر قائمة اتهم المؤلفات المطبوعة فى موضوع الكثرية باللغات الاروبية المختلفة الى سنة 1972 ـ روجمونت De Rougement المرجع السابق ص : 299 ـ 300 ٠

20) F. Niel : المرجع السابق ـ ص : 77 ٠

21) المرجع نفسه ـ ص : 6 ٠

22) المرجع نفسه ـ ص : 93 ـ 94 ٠

«٫ان ريموند السابع يلتزم بما يلي :

أولا : ان يبقى وفيا للملك والكنيسة الى الممات ، محاربا لاعدائها ٠

ثانيا : أن يدفع مكافاة مادية معينة لكل من يساعد على القاء القبض ولو على فرد واحـد من الكثريين ٠

ثالثا : أن يحافظ على السلم فى اراضيه ، وذلك بعدم ايـواء الاجانب والمسافرين وعدم استخدام كل من فيه شبهة الصلة بالكثريين أو مشكوك فيه ٠

رابعا : أن يعيد الى الكنيسة جميع الامـلاك التى كانت فى حوزتها قبـل نشـوب الحروب ، مع دفع غرامة تعويض لها قدرها عشرة آلاف مارك فضي ٠

خامسا : يوزع مبلغ عشرين الف مارك فضي على مختلف الاديرة المسيحية ٠

سادسا : أن يحمل الصليب ويذهب لخدمة المسيحية فى الاراضي المقدسة بالمشرق لمـدة خمس سنوات على الاقل ٠

سابعا : أن يعامل الصليبيين الذين حاربوا الكثرية معاملة الصديق لاصدقائه ٠

ثامنا : أن يزوج ابنته بالامير ألفونس دي بواتييه Alphonse de Poitier وهو أخـو الملك لويس التاسع Louis IX ٠

تاسعا : أن يزيل كل التحصينات الحربية الدفاعية بالمدن ، خاصة منها تحصينات مدينة تولوز Toulouse العاصمة ٠

عاشرا : أن يتنازل للملك عن أكبر عدد من القصور ، مـع القبول بحدود جغرافية جديدة تجرد امارة تولوز من ثلثي مساحتها لفائدة المملكة والكنيسة »٠

وبعد فهل يمكن لاحد أن يتصور أن جماعة التروبادور كانوا فى معـــزل عن هذه الحركة والاحداث والحروب التى عاشها مجتمعهم ووطنهم فى عصرهم ؟ أتراهم كانوا أثناء ذلك كله يستطيعون أن يكتفوا بالتفرغ لتاليف قصائد الغزل وتلحين انغام الموسيقى وتنسيق اصوات الطرب ، أم تراهم فنانين مرغمين على التجاوب مع مجتمعهم فى كل مناحي حياته الشاملة كما تجاوبوا معه فى ميادين فن الادب فعبروا عن افكاره وعواطفه وأذواقه فى أغانيهم الخالدة ؟

3 ـ التروبادور والكثرية :

الا يحق لنا بعدما سبق أن نتساءل : هل كان التروبادور كثريين ؟ أما الاستاذ مارو Marrou فينفى علاقة التروبادور بالكثرية نفيا قاطعا لا يقبل أي جدال أو مناقشة ، انهما ـ فى رأيه ـ حركتان منفصلتان وقعتا بالمصادفة فى نفس الزمان والمكان والمجتمع ، وما نجده فى أشعار التروبادور من هجاء لاذع للكنيسة المسيحية انما هو ـ عنده ـ أمر شائع بين ألسنة المسيحيين فى العصر الوسيط ولا يدل على اعتناق أولئك الشعراء لدين الكثرية (23) ٠

وعندي أن الاستاذ «مارو» لم يجد بدا من التمسك بهذا الرأي الباطل ليستمر فى خط تأييد نظرية الاصل اللاتيني المسيحى لفن التروبادور التى تبناها ، والا فكيف يعقل أن يكون شعراء بروفانس ـ دون غيرهم من أفراد مجتمعهم ـ مؤمنين أوفياء للكنيسة الرومانية يستمدون منها الالهام ، وهم فى نفس الوقت يهجونها شعرا لاذعا ؟٠

وأما الاستاذ دي روجمونت فيرى أن اعتبار التروبادور كثريين لا يخلو من مغامرة جريئة نظرا لعدم وجود وثائق كافية تثبت ذلك ، بيد أنه يبدي اعجابه بالباحثين المغامرين ـ أمثال الالماني أوتو راهن Ootto Rahn (24) الذين نفضوا الغبار عن هذه القضية الفكرية الهامة ، واجتهدوا فى توضيح « معالم الحضارة الكثرية الرقيقة التى لا نزال مدينين لها حتى اليوم فى ميادين الثقافة وأصول المعرفة الى درجة تتعدى حد التصور » (25) ٠

ثم يميل الى ترجيح نظرية من سماهم مغامرين ، فيفترض سؤالا فحواه : هل يمكن أن تكون هناك صلة بين أولئك الكثريين الذى عرفوا بالتشاؤم والزهد والابتعاد عن مخالطة النساء ، وبين هؤلاء التروبادور المتفائلين يغترفون من متاع الحياة فى نهم ومرح ، يغنون الحب والربيع والفجر والبساتين الزاهرة والسيدات الجميلات ؟

ويقرر بعد ذلك أنه على الذين يقولون بانفصال الحركتين عن بعضهما أن يبينوا لنا كيف أمكن للفريقين ـ الكثريين والتروبادور ـ أن يعيشا منفصلين غير متعارفين فى الحياة اليومية ، وذلك على الرغم من اشتراكهما فى البيئة وفى العصر المتميز بثورة نفسية عظيمة ؟ (26) ٠

23) انظر : H. I.-Marrou : Les_Troubadours - Seuil - Paris 1971 - p. 146

24) انظر : Otto Rahn : Croisade contre le Graal - Traduction française - Paris 1934.

25) : المرجع السابق ـ ص : 60 ٠

26) المرجع نفسه ـ ص : 61 ٠

ويصعب ـ فى نظري ـ الحكم على أفراد مدرسة التروبادور جملة بكونهم كانوا كثريين أو غير كثريين ، ما دام التدين عقيدة فردية كامنة فى نفس صاحبها ، قد تـدل عليها أفعاله وأقواله ، وقد لا تدل ، على أننا بالرغم من عمليات المسخ والتغيير والاتلاف التى تعرضت لها وثائق الكثريين وأشعار التروبادور من طرف رقابة الكنيسة الرومانية بعد انتصارها فى صليبية ابـــادة الاجسام ، يمكن أن نستنتج من هذا العداء الكنسي نفسه للحركتين المتعاصرتين فى وطن واحد دليلا على وجود صلة وثيقة بينهما ، ونجد فيما تسرب الينا من أخبار الشعراء البروفانسيين ، كما نجد فى كثير مما وصلنا من أشعارهم تصريحات واضحة تـــؤيد أنهـم جميعا ـ تقريبا ـ كانوا يبادلون المسيحية عداءها ويحاربون كنيستها محاربة شديدة ٠

وبالامكان أن نستدل على ذلك بوثـــائق ووقائع تاريخية كثيرة ، نذكـــر منهـــا مـــا يـــلي (27) : LA CHANSON DE LA CROISADE CONTRE LES ALBIGEOIS.

١ ـ أغنيـــة الصليبية الالبيجية ـ

وهي ملحمة شعرية تروي أحداث تلك الحروب الطاحنة ، يجمع الباحثون عـلى أنها احدى روائع الادب الفرنسي القـــديم بقسميه الجنوبي والشمالي ٠ تتكـون هذه الاغنية أو الملحمة من قسمين متباينين لمؤلفين مختلفين متتاليين ٠ القسم الاول منهـا يبلغ عدد أبياته الشعرية ألفين وسبعمائة واثنين وسبعين بيتا (2٠772) ، ألفه جونغلير معروف باسم غيوم دي توديل Guillaume de Tudèle من مواليد اقليم نبارة Navarre بدأ تاليفه بمدينة مونتوبان Montauban سنة 1211 للميلاد ، وسلك فيه الاعتدال فـــلم يذكر الكنيسة المسيحية بسوء كثير ٠ والقسم الثاني من هذه الملحمة يحتوي على ستة آلاف وثمانمائة وعشرة أبيات (6٠810) ، ألفه جونغليز مجهول يرجح أنه من شعـــراء البلاط الريموندي التولوزي Raymond de Toulouse بدأ كتابته حوالي سنة 1228 ، فـرسم صورة واضحة وشاملة لشعب جنوب فرنسا المناهض للكنيسة وأشياعها خاصة منهم سكان شمال فرنسا ، مبرزا العنف الوحشي والفساد الاخلاقى والخيانة السياسية التى

27) طبع مخطوط هذه الاغنية لاول مرة سنة 1837 مع ترجمتها الى الفرنسية ، ثـم أعيد طبعها فى مجلدين ، وكانت الطبعتان كالتالي :

HISTOIRE DE LA CROISADE CONTRE LES HERETIQUES ALBIGEOIS.

Traduit par Claude Fauriel - Paris 1837.

par Paul Meyer - Paris 1878 (2 volumes).

تميز بها رجال الكنيسة وفرنسي الشمال ، « ان هذا القسم من الاغنية هو أول وأكبر صرخة للروح الوطنية البروفانسية المستقلة ، وقد امتاز بتمجيد مبادىء انسانية سامية حتى أصبح ـ عند أهالي الجنوب ـ انجيل المحتجين ضد وجود سلطة فرنسي الشمال فى بلادهم » (28) .

ب ـ اشعار التروبادور المعاصرين واللاحقين للصليبية الالبيجية :

كان غيوم فيغييرا Guillaume Piguera الذى عاصر حروب الصليبيين ضد الكثريين ، من مواليد مدينة تولوز ، غادرها مهاجرا بعد استيلاء جيوش الفرنسيين الشماليين عليها سنة 1216 ميلادية ، استخدم موهبته كتروبادور وجونغلير فى محاربة الكنيسة وقوانينها وأتباعها الصليبيين ، ومات نحو سنة 1245 أو 1250 .

ومن عيون شعره قصيدة هجاء روما Sirventes contre Rome ، كتبها ما بين سنتي 1226 و 1229 ، « وتعتبر أعنف هجاء للبابوية فى العصر الوسيط » (29) . تتكون هذه القصيدة من ثلاث وعشرين (23) مقطوعة ، يفتتحها الشاعر بالتعبير عن رغبته الشديدة المستعجلة فى نظم شعر على نغم يعجبه ، ولو كان فى ذلك ما يغضب بعض الناس ، ليفضح بذلك خبث وغش وألاعيب روما ، التى هي رأس كل بلاء وانحطاط .. ويستمر الشاعر فى وصف كنيسة روما بكل أوصاف الدناءة والخسة والعار والنفاق والتزوير والتضليل من أجل الحصول على الشهرة والمال .. « فاعلمي يا روما أن الله لك بالمرصاد ، وسيخسف بك لا محالة .. يا روما ، لم تلحقي بالمسلمين كبير ضرر ، فوجهت حقدك المبيد ضد الاغريق واللاتين ... لن يدوم لك الهناء يا روما ، فأبشري بهلاك يأتيك على يد الكونت ريموند ، فسينصره الله ويمنحه السلطة والقوة ... ان شرورك يا روما كثيرة متعددة ، ولا خير ينتظر العالم الا فى ضعفك وانهيارك » .

وبعد الاستهزاء بطقوس الكنيسة وبرجالها على مختلف مراتبهم ، يختتم قصيدته قائلا :

« انك يا روما ترمين شبكة الصيد بطعم مزيف	« Rom',ab fals sembel-tendetz vostra tezura
وتصطادين للعيش كل رزق حرام تأكلينه	E man mal morsel-manjatz, qui que l'endura
فأنت ترتدين لباس الخروف الوديع ،	Car'avetz d'anhel-ab simpla gardadura

(28 انظر : ANTHOLOGIE DE LA POESIE OCCITANE - Librairie Stock - Paris 1961 p. XVI - pp. 92-101.

(29 انظر : J. Anglade : Les troubadours, A. Colin - Paris, 1929, p. 149.

وتحمين الذئـاب الضارية ،	Dedins lops rabatz,
والثعـــابين المتوجـة	Serpens coronatz
التى ولدتها افعى ، ولذا فان الشيطان يرعاك ،	De vibr'engenratz,-per que-i diable-US cura
كما يـرعى أعـز أوليائه » (30) •	Coma-IS sieus privatz »

وهذا بيير كاردينال Pierre Cardenal ، أحد فطاحل التروبادور ، ولد حوالي سنة 1180 للميلاد فى مدينة بوي اين فيلاي Puy-en-Velay ، ينتمي الى احدى العائـلات النبيلة فى جنوب فرنسا ، كان فارسا يتنقل ومعه جونغلير خاص يغني أشعاره . عاش ما يقرب من قرن ، وبقي لنا من شعره تسعون (90) قصيدة مجموعة فى ديوان مطبوع (31)

تميزت أشعار كاردينال بمهاجمة العشق الحسي الفاسق ، فدعى الى العفـة فى الحب والاستقامة فى الاخلاق والاعتدال فى طلب الشهرة والمال ، ومن هنا هاجم رجال الكنيسة وأمراء شمال فرنسا ، وكذلك الكنيسة نفسها التى تـــؤيد شرهم وفسادهم ونفاقهم • ومن شعره قصيدة بعنوان : كهنوب رذيل Un clergé infame ، جاء فيهـا قوله : « ان رجال الكنيسة مجرمون فى صور الرعاة والصلحاء ••• أرى رجــال الكنيسة يستولون على السلطة بالسرقة والخديعة والنفاق والعنف ••• ومهما ارتفعت مراتب رجال الدين سقطت قيمتهم وقل قدرهم وازداد حمقهم » •• ويستمر الشاعر فى قذعه وهجائه على هذا المنوال ، ويخاطب المنصورين Almassor أي أمراء المسلمين فيطمئنهم أنه لا خوف عليهم من القسس والرهبان ، ذلك أن هؤلاء لن يهاجموا أبـــدا أراضي المسلمين مـا دامـــوا قد وجدوا أماكن وممالك أخرى قـريبة منهم ينهبونها ويدمرونها •• ثم ينهي قصيدته قائلا :

« أيها الكهان ، ان الذى يخيل اليه أنه يراكم	(Clergues, qui vos chauzic
وليس فى قلوبكم خيـانة وتعسف	sens fellon cor enic
قـد ارتكب غلطا فى تقديره	en son comde falic
لانني لمْ أر فى الناس أقل منكم خسة » (32)	qu'anc peior cent no vic

ولم يختلف بقية التروبادور المعاصرين واللاحقين للحروب الصليبية ضد الكثريين عن فيغييرا وكاردينال ، فلا نكاد نجد واحدا منهم لم يعبر عن الروح العدائية التى كان

(30) انظر القصيدة بنصها الكامل فى :
René Nelli et René Lavaud : Les troubadours, le trésor poétique de l'occitanie - Tome II. Desclée de Brouwer 1966 - p. 804-815.

(31) المرجع نفسه ــ ص : 793 •

(32) المرجع نفسه ــ ص : 792 الى ص : 800 •

يكنها أهالي جنوب فرنسا للكنيسة الرومانية ، خاصة ونحن نعلم أن النساء اللواتي كن فى أغلبهن كثريات ، أو على الاقل ، غير مسيحيات متحمسات للكنيسة · ويكفى أن نلقي نظرة على وثائق القرن الثالث عشر الميلادي لنتأكد من قوة التأثير الذى بلغته الكثرية فى النساء البروفانسيات بعامة ، « فقد كان تعلقهن بالكثرية أشد من تعلقهن بأزواجهن » (33) ·

وكأني بمعترض يقول : ربما لم يكن التروبادور كلهم أعداء للكنيسة الرومانية بدليل أن أحدهم ، وهو فولكي دي مرسيلية Folquet de Marseille (مات سنة 1231) ، تحول من شاعر يتغنى بعشق المرأة الى راهب بلغ درجة الاسقفية Evêque فى الكنيسة ·· ثم هناك جمع غفير من التروبادور عاشوا قبل نشوب الصليبية الالبجية ، فهل كانوا ـ هم الاخرون ـ أعداء للكنيسة مع أنهم فى أغلبيتهم كانوا جنودا لها فى الحروب الصليبية ضد المسلمين ؟

أقول : فيما يتعلق بالتروبادور الاسقف فولكي دي مرسيليا ، يكفى أن نتذكر أن اسمه بُقي عند البروفانسيين بمعنى الخيانة والجريمة واللعنة ، وقد تخلت عنه الكنيسة الرومانية نفسها يوم رماه الكونت دي فوى Conte de Foix ـ فى حضرة البابا اينوسنت الثالث Innocent III ـ باللعنة ووصفه بأنه « شيطان رجيم تسبب فى مقتل حوالي خمسمائة نسمة من البروفانسيين »ـ (34) ·

وفيما يخص التروبادور الاوائل ، ليس فى أشعارهم الباقية أية علامة على عقيدتهم الدينية ، ولعل « فى ترك العلامة علامة » كما يقول علماء النحو العربي ·· واشتراكهم فى الحملات الصليبية ضد المسلمين قد يكون الدافع اليه ما عرفوا به من حب المغامرة وحياة السفر ، أو السعي للحصول على الجاه والمال ، أو الرغبة فى معرفة الشرق العربي مهد الشعر والعشق والموسيقى والغناء ، وقد يكون الدافع اليه كل هذه الاسباب مجتمعة ، أو غير هذه الاسباب الا التفاني فى خدمة الكنيسة الرومانية وعقيدة المسيحية ، بدليل أن كل أفراد التروبادور الاوائل كانوا من المغضوب عليهم ، حكمت عليهم البابوية غيابيا بالكفر ، وأعلنت عداءها لهم ، فهم عندها مطرودون من حظيرتها Excommunies (35) ·

(33 Nelli : المرجع السابق ـ 128/2 ·
(34 De Rougemont : المرجع السابق ـ ص : 63 ·
(35 Anglade المرجع السابق ـ ص : 196 ـ 222 ·

وبعد ، فكيف يعقل اذن أن يتأثر التروبادور فى شعرهم وحياتهم بمبادىء المسيحية تأثرا ايجابيا ، وقد خالفوها فى كل ما تميزوا به تفكيرا وتعبيرا وسلوكا وعقيدة ، وهي مقومات ان وضعنا عناصرها العربية الاسلامية فى كفة من كفتي الميزان ، وعناصرها اللاتينية المسيحية فى الكفة الاخرى ، رجحت ـ دون شك أو التباس ـ عناصر حضارة العــرب والاســلام ٠

فالمرجع عندي أن الشعر البروفانسي لا يرجع الى مصدر واحد معين ، ولابد أن هناك عوامل متعددة تفاعلت فى ايجاد التروبادور البروفانسيين وفنهم كما كان الشأن فى ايجاد الوشاحين والزجالين الاندلسيين وفنهم ، ومما لاشك فيه أن نفــوذ الثقافة العربية الاسلامية كان قاطعا فى كل ذلك ، كما هو واضح فى الخصائص التى تميز بها المجتمع البروفانسي ٠

4 ـ واقــع المجتمع البروفانسي :

ان ظهور التروبادور لم يكن وليد مجرد تقليد لنماذج الشعــر العربي بالاندلس ، فلا بد للبيئة البروفانسية من اثــر بالــغ فى نشأة أغاني التروبادور ، تدلنا على ذلك ـ بالاضافة الى الحقائق التاريخية ـ خصائص عميقــة واضحة انفرد بهـــا المجتمع البروفانسي دون غيره من مجتمعات أروبا الغربية غير الاسلامية ، فاهلته لانجــاب شعر التروبادور المعبر فى مجمله عن مبادىء سامية وأخلاق فاضلة وأفكار عالية لم يسجل تاريخ الادب قبلها مثلا لها سوى عند العرب والمسلمين ٠

فالخاصية الاولى : ـ وهي أم الحقائق والخصائص بعدها ـ أن أراضى بروفانس بمعناها الواسع كانت وبقيت لعدة قرون قبل ظهور التروبادور بلادا يقيم فيها العرب والمسلمون جنبا الى جنب مع السكان الاصليين دون أن ينفصلوا كليا عن أندلس العرب المتصلة بهم والمتصلون بها برا وبحرا ، وقد ترك هؤلاء المسلمون ـ البروفانسيون أثرا عميقا فى الدم واللغة والتقاليد وأسباب الحياة المختلفة ، كما هو ثابت فى التاريخ وفى عــلم وصف الانسان (36) ٠

والخاصية الثانية : هي المكانة التى تسنمتها المرأة البروفانسية فى مجتمعها أثناء الوجود العربي الاسلامي فى جنوب فرنسا ، فأصبحت صورة صادقة للمرأة الاندلسية والمرأة الحجازية قبلها ، تشتغل بالفن والادب وأنواع الثقافة ، تفرض احتراما وتفــوز

(36) انظــر : Gustave Lebon : La Civilisation des Arabes. pp. 317 et 318.

بحريتها ، تجالس الشعراء وتقوم بدور الحكم ببينهم ، تتعطر بعطور الشرق وتتـزين بالاصباغ لتدعم جمالها الفكري بجمالها الجسمي ، تظهر اعجابها بالبطولة والابطال ، وتتحدث فى رقة عن العشق اللطيف Amour Courtois حديث المثقفة البصيرة ، « انهـا سيدة رفيعة المكانة تتمسك بالشرف مع حمايتها للعاشق ، وقد لا يزيد الزواج بالنسبة لها عن كونه عقدا ديبلوماسيا تابعا للاعراف السياسية » (37) ٠

اما الخاصية الثالثة : المرتبطة بالاولى والثانية ، فهي أخلاق الفروسية التى عرف بها رجال هذا المجتمع تحت تأثير نفوذ النساء حيث أدى احترام المرأة الى التفاني فى خدمتها والظهور أو التظاهر فى عينيها بمظاهر الشجاعة والبطولة والخلق النبيل ، كما يعكس ذلك شعر التروبادور ٠

وتختلف الفورسية البروفانسية عن غيرها مـــن فروسية الاقطاعيين والـــرومان والاغريق اختلافا جوهريا ، اذ مقوماتها الاحترام العميق للمرأة ، والبعد عن المادة ، فكان مبدأ الفرسان البروفانسيين أن يحبوا ، وكان الحب فى نظرهم فضيلة ، بل منبع كل الفضائل ، ولهذا صار جميع الفرسان ـ ومنهم التروبادور ـ فضلاء لانهم يحبون أو يتظاهرون بالحب الذى صار عندهم أصل كل نشاط وكل فضيلة خلقية وكل مجد (38).

يقول الفرنسي فورييل Fauriel « هناك مـا يدعونا الى الحـكم بأن العـــرب الاندلسيين قد أثروا بما ضربوه من أمثلة حياتهم تأثيرا فعالا فى الحضارة الاخلاقية والاجتماعية التى انتشرت فى جنوب فرنسا ، ولا سيما ذلك الجانب المسيطر المتميز من تلك الحضارة ، وهو ما يختص بمبادىء الفرسان وآدابهم ونظمهم (39) ٠

ويمكن أن نقف على أثر الفروسية العربية فى فرنسا وفى الأمم المسيحية جمعـاء بمجرد القاء نظرة على قصص الفروسية الاوروبية قبل نهاية القرن الثاني عشر للميلاد ، من ذلك أن تاريخ توربان الريمسي Turpin de Reims (40) ٠ الذى يحكي قصة أغنيـة

37) انظـر Robert Briffault : Les Troubadours et Le Sentiment Romanesque. éd. du Chêne: Paris, 1945, pp. 74 - 75.

38) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ـ ص : 286 ٠

39) انظـر Claude Fauriel : Histoire de la poésie provençal. Paris, 1874. T. III p. 327

40) هو أسقف مدينة ريمس ، ورد اسمه فى أغنية رولان ، ترك كتابا باللاتينية يحكي معركة ممر رونسوفو Roncevaux التى وقعت سنة 162 هـ/778 م ، وهزم فيها العرب والاسبان جيش شرلمان الذى كان يضم أمراء مشهورين من بينهم رولان لاقوا مصرعهم مات الاسقف توربان الريمسي فى نهاية القرن الثامن الميلادي ٠

رولان La chanson de Roland الشهيرة ، يؤكد ـ فى الفصـــل العشرين ـ أن شرلمـــان Charlemagne قد تقلد مرتبة الفروسية على يد سيد كوليتو Coleto فى البروفانس ، وهو امير أندلسي اسمه جالافرون أمير Galefron Emir · ونـرى فى النص الالماني لقصة برسفال Perçeval أن أحد الفرسان المسيحيين لم يتردد فى الالتحاق بخدمة باروك دي بلداك Baruc de Baldac أي خليفة بغداد وكذلك كان شأن برنارد دي كاربيو Bernard de Carpio أقدم أبطال اسبانيا المسيحية (41) ·

والحقيقة فى واقع المجتمع البروفانسي أن هذه الخصائص التى تميز بها لم تكن مجردة منفصلة ، بل كانت مصحوبة بعوامل هـــامة مؤيدة ، نذكـر منها : التطـور الاقتصادي ، والاستقرار السياسي النسبي ، وبوادر التحول الديني ، مما يشبه ـ فى رأيي ـ الى حد بعيد ما جرى فى البيئة الحجازية العربية فى صدر الاسلام وعصر الغزل.

وقـــد وصف كثير مـــن الباحثين الاروبيين ، مـــن بينهم الانغليزي روثيرفورد Rutherford (42) ، وصفوا الازدهار الاقتصادي والوضع السياسي فى هذا المجتمع الذى أطلق على بلاده اسم أرض الاغاني واسم وطن التروبادور ، فذكروا التطورات الزراعية التى أحدثها العرب بفضل عنايتهم باستخراج المياه من الآبار لسقي الحقول والرياض ، وتعميمهم لغـرس الاشجـار والنباتات والخضر والفواكه ، وتفننـــهم فى صناعة الآلات الفلاحية كما أظهروا قدرة عجيبة فى صناعة الاسلحة والجلود والابسطة ونقش المعادن وصياغة الذهب والفضة ونسج الاقمشة وغيرها ، فنتج عن ذلك كله رخاء جذب اليه الوافدين والمسافرين ، وازداد عدد السكان ازديادا بالغا · وسيطر اليهود على التجارة تحت حماية المسلمين « وألفوا بجانب العرب طبقة غنية نافذة فى مـــدن سبتمانية المهمة » (43) ·

وتميز نظام الحكم السياسي البروفانسي عن غيره من النظم الاروبية الاخرى فى ذلك العصر ، فكان جنوب فرنسا يشكل مجموعة دويلات مستقلة ، يحكم كل دولـــه بارون Baron ، والظاهر أن هؤلاء الباروبات كانوا أكثر أمراء أروبا حبـــا مـــن شعوبهم ، نظرا للتجاوب الذى كان بين أولئك وهؤلاء فى ممارسة الحياة السياسية ، مثل : انتخاب القضاة ، وتقنين القوانين ، وتحديد الضرائب ، وما يشبه ذلك · وتدل

41) بطرس غـالي : المرجع السابق ـ ص : 21 ·

42) انظـر : John Rutherford : The Troubadours, Their Lores and Their Lyrios Smith Elder et Co. London, 1873

43) انظـر : Haidar Bammate : Visage de l'Islam. Payot - Lauzanne, 1958, p. 297.

بعض الشواهد على أن أهالي الارياف والمدن كانوا يتعايشون فى احتـــرام وعـــدل وانسجام · وكان يسمح للرجال من غـــير الطبقة الارستقراطية أن يصبحوا فرسانا عظماء ، وهذا على خلاف ما كان عليه الحال فى النصف الشمالي من فرنسا مثـلا ، حيث كانت مرتبة الفروسية خاصة بالنبلاء دمـا ·

وكان مسموحا لليهود أن يملكوا الاراضي وينالوا الوظائف المـــدنية ويشاركوا العرب فى تأسيس المدارس والقيام بمهنة التعليم ، مما لم يكن لهم حق فيه عند المجتمعات الاروبية الاخــرى ·

وهكذا كان واقـــع المجتمع البروفانسي مظهرا آخـر من مظاهر عالمية الحضارة العربية الاسلامية التى وجدت فيها ألانسانية كل خير وحرية وعدالة ، وانعكست صورة الحياة الاجتماعية البروفانسية العامة فى شعر التروبادور ، فظهر انحناء الطبقـــة الارستقراطية أمام ثقافة الشعب بمقوماتها الدينية والدنيوية ·

نظـرية الخلـق عنـد الفـارابى
(دراسة مقارنة)

د. حسين آتـــاى
أستاذ عـلم الكـلام
كلية الالهيات ـ جامعة أنقـرة

قبل ان نخوض فى البحث عـن نظرية الخلـق عند الفارابي يجب ان نعـرف معنى الوجود ودرجات هذا الوجود · فان معنى الخلق ايجاد شىء : أي الاعطاء للشىء وجودا بعد ان لم يكـن شيئا مذكورا · ولكن ما هو الوجود والموجود ؟

يقول الفارابي ان الوجود هي كلمة بديهية ولا يحتاج الى أي ايضاح ، ولا يمكن حده منطقيا لانه لا توجـد كلمـة أوضح واعرف منـه · واذا عـرف فانما يكون التعريف على سبيل التنبيه على الوجود والوجوب والامكان لا على سبيـــل التعريف بمعان اظهر منها (1) · ومعنى قول الفارابي هو ان ادراك كلمـة الوجود فى غايـــة الوضوح ومع ذلك فمفهومه أعم (2) فان الوجود لا يفيد لنـــا ماهية الشىء ولا يكون

1) العيون 56 ديتريسي ، الدعوة القلبية 2 ، حيدراباد ·
2) السياسة المدنية 50 بيروت ·

كذلك عنصرا من العناصر المكونة للماهية ، لانه من لوازم الماهية لا من مقوماتها (3) ، ثم ان الوجود عند الفارابي صفة ضرورية لاخراج الماهية الى الخارج اي اخراج عالم الاعيان خارج الشعور ·

ونستخلص مما سبق المفاهيم الآتية للوجود عند الفارابي :

1 ـ الوجود كلمة بديهية ومعروفة وعامة ·

2 ـ الوجود ليس الماهية نفسها ·

3 ـ وليس جزءا داخلا فى الماهية ·

4 ـ الوجود عارض لازم للماهية ومساوق لها ·

يكاد العلماء يتفقون على ان أول من وضع مسألة المغايرة بين الوجود والماهية ومسألة أيهما اسبق من الآخر الوجود أم الماهية ؟ هو الفارابي حيث قامت مناقشة حادة ومباشرة حول هذه المسألة (4) بين الفلاسفة ·

فاذا تكلمنا عن الفلسفة الاسلامية فى القرون الوسطى فاننا نفكر توا فى الفلسفة الاسلامية وحينما نقول الفلسفة الاسلامية يخطر ببالنا مما يخطر الفارابي دون نقاش · واذا تباحث فلاسفة عصرنا عن الفلسفة فى القرون حول المغايرة بين الوجود والماهية ، يقولون ان الرأي السائد فى ذلك هو ، ان الماهية تأتى فى الاول ، ثم يأتى الوجود ، ومما لاشك فيه انهم يقصدون الفارابي فى هذا الرأي · فالكتاب الذين يكتبون فى هذا الموضوع كثيرا ما يعتمدون على المنابع والمصادر الثانوية · وكذلك هناك من يبذلون بآرائهم بعد قراءتهم كتب الفلسفة كقراءة الجرائد ، قراءة عابرة سريعة ·

فالفارابي حينما يميز بين الوجود والماهية لم يصرح لنا بوضوح ايهما اسبق من الآخر · فلو كان الفارابي بين لنا اسبقية احدهما على الآخر ، لكان هذا مخالفا ومضادا لنظريته الفلسفية فى هذا الموضوع ·

فنحن من جانبنا اذا قلنا باسبقية الماهية مثلا يجب علينا اجابة هذا السؤال : هل الماهية موجودة لتأتي أولا أو لا ؟ فحينئذ يجب علينا اجابة سؤال آخر وهو : ألم يعط للماهية وجود قبل أن توجد ؟ وهذا يستلزم تحصيل الحاصل على اصطلاح المتكلمين

---

3) التعليقات 6 ، العيون 56 ·

4) انظر ، نظرية الخلق عند الفارابي وابن سينا ، للمؤلف باللغة التركية من 7 ـ 15 ، انقـرة 1974 م ·

Robbert Hamui, Alfarabi's
Philosophy and its influence on Scholasticism, 32 Sydney, 1928,
R. Hammond, The Philosophy of Alfarabi, 19 N. Y. 1947, E. Gilson, Being and some philosophers, p. 75, 1949.

وهو محال • نعم يلزم اجابة مثل هذه الاسئلة • وقبل أن نفصل الكلام فى الماهية والوجود يكفى ان نصل بكلمتين الى نتيجة وهي : ان المغايرة بين الوجود والماهية ليست الا فى التصور الذهني فقط ، اما فى عالم الموجودات الذى هو خارج عن التصور الذهني ـ يعني فى الاعيان ـ فانه لا توجد مغايرة بينهما بتاتا ، فان الماهية والوجود موجودان معا فى وجود شىء واحد •

لقد حقق الفارابي للفلسفة بالمغايرة بين الماهية والوجود معنيين بل معان ثلاثة •

المعنى الاول : عدم المغايرة بين الوجود والماهية على معنى أنه لا ينسب الوجود للماهية ولا الماهية للوجود ، لان النسبة توجب المغايرة ورفع المغايرة رفع النسبة واثبات العينية ، وهذا المفهوم يتحقق فى واجب الوجود ـ يعني ان وجوده ضروري لذاته (5) ـ ولا يمكن تصور ماهيته بدون وجوده • وعلى ذلك فهو الذى وضع عينية الماهية والوجود في واجب الوجود •

المعنى الثاني : المغايرة بين الوجود والماهية بمعنى انه لا توجد علاقة بين الماهية والوجود نظرا لمفهومهما المتبادر الذى يتحقق فى ممكن الوجود الذى فيه مغايرة الماهية للوجود • وبما انه لا توجد علاقة أو نسبة بين الماهية والوجود فى واجب الوجود ، فمن السخف ان يسأل ـ ما دام لا يوجد هناك فى واجب الوجود مغايرة ومباينة بين ماهيته ووجوده ـ فمن الذى منح لماهية الوجود ؟ وعلى هذا ليس من المعقول ولا من الممكن ان يبحث عن علة أو سبب لواجب الوجود بينما من الضروري ان يسأل عن علة أو سبب لممكن الوجود الذى يحتاج فى وجوده الى غيره لايجاد نسبة وعلاقة بين ماهيته ووجوده • وهذه العلة التى تخلق الشىء الغير الموجود بعد ان يوجد فى عالم الاعيان بين ما يتصور مفارقة فى الذهن من الوجود والماهية فيصبح الشىء موجودا فى الخارج (6) •

---

5) العيون 57 ديتريسي •

6) فان الفارابى يستعمل الهوية فى معنى الوجود يبينها بانها عينية الشىء وخصوصيته ووجوده المنفرد له والتعليقات (21) • وعلى هذا فان هوية الشىء هي وجوده الخارجى ، وماهية الشىء هي وجوده الذهني • فان لكل شىء له هوية وماهية بما ان وجود الشىء مغاير لماهيته فى الممكن ، فان الرجل مثلا اذا ادرك وفهم ماهية الشىء فانه لا يفيد انه قد ادرك وجوده أو هويته • فاذا كان ادراك الوجود لا يستلزم ولا يستتبع مفهوم الماهية فهو ليس بنوع ولا جنس ولا فصل ولا عرض لها منطقيا • فان أحدا اذا أدرك ماهية الانسان فهو لا يدرك نتيجة لذلك وجوده (النصوص 66) خلافا لاريسطو فانه لا يفرق بين الماهية والوجود وعنده ، الذى يدرك ماهية الانسان فهو يدرك وجوده (ما بعد الطبيعة 1103I ـ ب ، ابن رشد تفسير ما بعد الطبيعة 823/2، 833 ـ 4 ، نظرية الخلق عند الفارابي وابن سينا للمؤلف ص 15) •

وهو محال • نعم يلزم اجابة مثل هذه الاسئلة • وقبل أن نفصل الكلام فى الماهية والوجود يكفى ان نصل بكلمتين الى نتيجة وهي : ان المغايرة بين الوجود والماهية ليست الا فى التصور الذهني فقط ، اما فى عالم الموجودات الذى هو خارج عن التصور الذهني – يعني فى الاعيان – فانه لا توجد مغايرة بينهما بتاتا ، فان الماهية والوجود موجودان معا فى وجود شىء واحد •

لقد حقق الفارابي للفلسفة بالمغايرة بين الماهية والوجود معنيين بل معان ثلاثة •

المعنى الاول : عدم المغايرة بين الوجود والماهية على معنى أنه لا ينسب الوجود للماهية ولا الماهية للوجود ، لان النسبة توجب المغايرة ورفع المغايرة رفع النسبة واثبات العينية ، وهذا المفهوم يتحقق فى واجب الوجود – يعني ان وجوده ضروري لذاته (5) – ولا يمكن تصور ماهيته بدون وجوده • وعلى ذلك فهو الذى وضع عينية الماهية والوجود فى واجب الوجود •

المعنى الثاني : المغايرة بين الوجود والماهية بمعنى انه لا توجد علاقة بين الماهية والوجود نظرا لمفهومهما المتبادر الذى يتحقق فى ممكن الوجود الذى فيه مغايرة الماهية للوجود • وبما انه لا توجد علاقة أو نسبة بين الماهية والوجود فى واجب الوجود ، فمن السخف ان يسأل – ما دام لا يوجد هناك فى واجب الوجود مغايرة ومباينة بين ماهيته ووجوده – فمن الذى منح لماهيتة الوجود ؟ وعلى هذا ليس من المعقول ولا من الممكن ان يبحث عن علة أو سبب لواجب الوجود بينما من الضروري ان يسأل عن علة أو سبب لممكن الوجود الذى يحتاج فى وجوده الى غيره لايجاد نسبة وعلاقة بين ماهيته ووجوده • وهذه العلة التى تخلق الشىء الغير الموجود بعد ان يوجد فى عالم الاعيان بين ما يتصور مفارقة فى الذهن من الوجود والماهية فيصبح الشىء موجودا فى الخارج (6) •

---

5) العيون 57 ديتريسي •

6) فان الفارابى يستعمل الهوية فى معنى الوجود يبينها بأنها عينية الشىء وخصوصيته ووجوده المنفرد له والتعليقات (21) • وعلى هذا فان هوية الشىء هي وجوده الخارجى ، وماهية الشىء هي وجوده الذهني • فان لكل شىء له هوية وماهية بما ان وجود الشىء مغاير لماهيته فى الممكن ، فان الرجل مثلا اذا ادرك وفهم ماهية الشىء فانه لا يفيد انه قد ادرك وجوده أو هويته • فاذا كان ادراك الوجود لا يستلزم ولا يستتبع مفهوم الماهية فهو ليس بنوع ولا جنس ولا فصل ولا عرض لها منطقيا • فان أحدا اذا أدرك ماهية الانسان فهو لا يدرك نتيجة لذلك وجوده (النصوص 66) خلافا لاريسطو فانه لا يفرق بين الماهية والوجود وعنده ، الذى يدرك ماهية الانسان فهو يدرك وجوده (ما بعد الطبيعة 1103I – ب ، ابن رشد تفسير ما بعد الطبيعة 2/823،833 – 4 ، نظرية الخلق عند الفارابي وابن سينا للمؤلف ص 15) •

فان الفارابي كما ذكرنا يقول ان الوجود عارض للماهية ولكن هذا العرض ليس بمعنى العرض فى المنطق والفلسفة الذى يقوم بالجوهر كما بينه أرسطو وغيره ، لانه على هذا يجب ان يكون الوجود من المقولات العشرة ، ويجب كذلك ان يكون الشـــىء أو الجوهر موجودا قبل ان يتصف بالوجود ٠ فان الوجود اذا اعتبر عرضا مثل الابيض يمكن ان يزول ويستبدل بعرض آخــر كالاسود مثــلا ٠ فالوجود ليس من امثــال هذه الاعراض عند الفارابي ، وانما هو عــرض بمعنى ان يعرض ويحدث ويحصل وهـــو بمعنى المصدر أو بالمعنى اللغوي ، وعلى هذا المعنى اللغوى عروض أو عرض الوجود حدوثه وحصوله وظهوره الى عالم العيان ٠

فاننا اذا أردنا ان نعرف أيهما مــن الامكان وأيهما أسبــق مــن الآخر الماهية أو الوجود ، يمكننا ان نقول اذا نظرنا من جهة الحصول والظهور الى الخارج يكـــون الوجود أسبق بالنسبة لمعرفتنا ، لاننا حينئذ نتحقــق الماهية عندما كانت موجودة أي بعد اتصافها بالوجود فى الخارج ٠ واذا اعتبرنا امكانية الشىء بانه يحتمل ان يكون موجودا نظرا لماهية الشىء نفسها ، يمكن ان نقول : ان ماهية وامكانية الشىء تسبــق الوجود فى الذهن ، أي اننا نتصور ونتخيل شيئا ، ثم نحكــم عليه بان ماهيته ممكنــة الوجود أو ممتنعته ، ثم اذا تحققنا امكانيته نبحث عن اتصافه بالوجود الخارجى ٠

فصعوبة البيان والايضاح فى هذه المسألة تنشأ عن عدم مشاهدة الانسان حصول وخروج الشىء من العدم الصرف تحت تأثير الفلسفة المادية والعلوم التجريبية عليه ٠ وهنا يحاول الفارابي ان يصل الى توفيق مرضى بين الخلق من العدم المحض وهـــو الابداع عنده وبين الخلق من شىء وأهميته هذا التوفيق ، على ما يبدو لنا كما هــو عند الفارابي هو ثبات الصانع الحكيم وبوصفه وجعله منشئا لوجود غيره من الممكنات الموجودة واعتباره فى درجة أعلى مغايرة لدرجات الماهية الممكنة الموجودة ولتوضيح فكرته هذه يقول ، فيعرض له أي الممكن يمكن أن يكون وجوده بغيره (7) ، ويتبين من قول الفارابي هذا انه استعمل العرض بالمعنى اللغوى الاصطلاحى ٠ فانه يعرض للممكن وجود معناه ، ان يكون موجودا ويحصل بعد ان لم يكن حاصلا وموجودا ، ويحصل له الوجود دون ان يكون الوجود مستبدلا بغيره كمــا فى استبدال وتغيــير الاعراض الزائلـــة ٠

---

7) الدعوى القلبية ، 2 ، نظرية الخلق عند الفارابي وابن سينا للمؤلف ، 19 ٠

ويظهر امامنا مفهوم ثان آخر هو انه لا يوجد لواجب الوجود وهو اللـه تعـالى سبب أو علة عند الفارابي · أما ممكن الوجود فله سبب · ومعنى الامكان هنا هـو الذى يتساوى طرفاه أي ان وجوده وعدمه بالنظر الى ذاته سيان ، وبتعبير آخر انـه لا يترجح احد طرفيه على الآخر نظرا لذاتهما وذلك لعدم وجود مرجح لاحـد الطرفين على الآخر ، ثم اذا رجحت كفة طرف الوجود الممكن ، يكون الوجود ضروريا له مـن جانب واجب الوجود ، فيوجد هذا الممكن خارج الذهن · فهذا الموجود قد اكتسب صفة واجب الوجود من غيره ومن هنا يتضح لنا الطريق للوصول الى ان للوجود مراتب ثلاثة عنـد الفارابي :

المرتبة الاولى : واجب الوجود لذاته وهو الذى تكون هويته عين ذاته (8) ·

المرتبة الثانية : ممكن الوجود لذاته وهو الذى يكون وجوده من غيره ·

المرتبة الثالثة : الممكن الحقيقى ، وهو الذى يكون وجوده وعدمه سيان ·

ويمكننا ان نبني هذا المفهوم بما يـلي :

الشىء الموجود بالفعل ينقسم الى قسمين :

ا ـ واجـب الوجود باعتبار ذاتـه ·

ب ـ واجـب الوجود باعتبار غـيره ·

وهذا الاخير يكتسب وجوبـه من واجـب الوجود · ويبقى لدينـا بعد ذلك ممكن الوجود · وهـو الذى يسمى بهذا الاسم مجازا ، لان الامكان لـم يكتسب الوجود ، وتسميته الممكن أو بالاحرى ووصف الممكن بالوجود ينبغى ان لا يجلب الى ذهننا فكرة ترجح جهة الوجود على العدم لانه لا ترجيح هناك بعد بلا مرجح ، ولم يوجد بعد ولكنه يحتمل ان يوجد فى المستقبل بالفعل أو لا يوجد ، أو يبقى على الاحتمال الاصلي ·

حينما نتكلم عن نظرية الخلق عند الفارابي ينتقل ذهننا الى مفهوم واجب الوجود لذاته ، وواجب الوجود بغيـره والمناسبة بينهما · فاذا يجـب علينا ان نتصور أو ان نتخيل معنى أو ماهية تلك المناسبة أو العلاقة فما هي ؟ هل مناسبة أو علاقة بين الخالق والمخلوق أو بين الموجد والموجود أم هي شىء آخر ؟

8) النصوص 6 ، 66 ديتريسى ·

ويمكن ان نتناول النظريات الفلسفية التى تقدم بها الفلاسفة ومنهم الفارابي أيضا حول ايضاح وبيان هذه المناسبة عبر التاريخ فى ثلاثة نظريات أساسية :

1 ـ نظرية العلية أو السببية وهذه النظرية أوجدها اريسطو ، ولكن بعده أصبحت ملكا للفلسفة ، فواجب الوجود هو سبب الاول يعني أنه العلة الاولى ووظيفته تحريك المعلول أو الشيء المسبب فقط · ولهذا السبب سمي أريسطو العلة الاولى المحرك الاول · الا ان المحرك لابد من ان يصرف جهدا عند التحريك · ولكن أريسطو خوفا من اختفاء مجهود المحرك الاول فى يوم من الايام ، أراد ان يحصل على عدم اجهاد المحرك ، بذلك قبل فكرة جديدة لحل المسألة قائلا : ان المحرك الاول لا يتحرك وسمي العلة الاولى محركا لا يتحرك · هكذا رأى اريسطو أزلية الكائنات كما جاء بنظرية أبدية العالم فان مناسبة العلة والمعلول فى نظرية أريسطو مناسبة ديناميكية دائمة ، وقد فارق نظريته فى العلل الطبيعية وذهب مذهبا آخر فيما بعد الطبيعة ، وذلك عندما سلب الفعلية الفاعلية على العلة الاولى وهو الصانع تعالى · أما الفارابي فمع قبوله العلل الاربعة الطبيعية ، طبق العلة الفاعلية على العلة الاولى فيما بعد الطبيعة ، وهنا خالف المعلم الثاني (وهو الفارابي) المعلم الاول (وهو أريسطو) وان كان الفارابي قد قرب من نظرية الخلق فانه يبدو انه قد اضطر لذلك لاسناد الفاعلية للعلة الاولى توفيقا بين أفلاطون وأريسطو (9) ·

2 ـ نظرية الفيض أو الصدور فيض الكائنات وصدورها عن الواحد البسيط (10) · وتنسب هذه النظرية فى تاريخ الفلسفة الى أفلاطون · وفى هذه النظرية تفيض الموجودات عن الموجود الاول مثلما تفيض الحرارة من النار ويصدر النور من الشمس . ومع ذلك يوجد بينهما مغايرة الى أن النور ليس هو الشمس بعينها ، وان الشمس ليست هي النور بنفسه ، الا ان السالكين مذهب وحدة الوجود اعتبروا هذه النظرية منبعا ومصدرا لنظريتهم ولمذهبهم ، وان كان الفارابي لا يؤمن بوحدة الوجود ، فقد بحث عن هذه النظرية فى كتبه غير انه عندما بحث عنها لم يستعمل هذه الفكرة لايضاح المناسبة بين واجب الوجود وممكن الوجود واستعملها فقط لكي يوضح المناسبة بين الواحد

9) العيون 61 ، النصوص 78 ، النكث 110 ، طبع ديتريسى ، السياسة 31 ، شيخو ، الدعوى القلبية 9 حيدراباد ، فلسفة أريسطو طالس 9 ، 92 ، 114 نشر محسن مهدى الجمع ، 102 ، بيرو 27 ·
10) الزينون 6 ·

الفرد والكثير ، لان هناك فرقا كبيرا بين علاقة الخالق للمخلوق وبين الواحد للكثير · وهذه النظرية وضعت لبيان صدور الكثرة عن الواحد وهو العقل الاول الذى ابــدعه الصانع · ونظرية الخلق هي لايضاح ابداع العقل الاول من قبل الخالق ، وعلى هذا تكون نظرية الصدور فى المرتبة الثانية فى نشدان العلاقة بين الصانع والمصنوع ·

فان الفارابي يستعمل خمس كلمات لبيــان العــلاقة بين الصانع وبين ســائر الموجودات فى هذه النظرية هي : الفيض ، والصدور ، والعقل أي التعقل ، والحصول ، والخامس ، أن يوجد عنه ، وهذه الخامسة كأنها وضعت لسلب الارادة التى هي العناية والرضا عند الفارابي خلافا لما يفهمها المتكلمون وهم فلاسفة الدين · ومع ذلك فـان الفارابي قد استخدم هذه الكلمات الخمس بصورة دقيقة جـدا وأسلوب بديــع بحيث يحس ويشعر الا لقارىء بأنه فى أسلوبه ذلك قد قصد الابتعاد عن وحدة الوجود ·

وقد قلنا كما قال غيرنا ان نظرية الفيض لبيان الكثرة فى الكون ، ولكن القول الحق فانها على ما أرى ، لشىء أهم من ذلك وهو الايضاح والبيان بأن الكون يكتمل بصنعه هذا · لانه ليس لفعله لمية ولا يفعل فعله لاجل شىء آخر غير ذاته (II)

والاحرى والانسب ان نفصل بين نظرية الفيض ، وهي تعتبر من نظرية الخــلق عندنا ، وبين نظرية العقول ، أو المراتب أو مراتب الموجودات · واذا امعنا النظر فى تعبيرات الفارابي ، نــرى هذا التقسيم أو التفريق بـين النظريتين سـالما ومضبوطا ومنطبقا على ما يرمي اليه من المعاني · وانه من الصعب ان يرى الانسان نظرية العقول وعددها معقولة المعنى ، ولكنه من الممكن ان يتعقل معنى أو يتفلسف فى نظرية الفيض عندما لم تعتبر هي نظرية الخلق ، ويجد لها مفهوما معقولا ·

3 ـ نظرية الخلق ، فانها تبين لنا ان المناسبة بين واجب الوجود وممكن الوجود هي مناسبة بين الخالق والمخلوق · وهذه النظرية قد نالت اهتماما بالغا من قبل فلاسفة الدين أي المتكلمين · ومع ذلك فانه من الواجب علينا أن نقول ان هذه النظرية لم يأت بها فى الاصل ، فلاسفة الدين الى الفلسفة ، ولكن الفلاسفة أنفسهم أتــوا بها ليشرحوا علاقة الصانع بالكائنات · غير ان فلاسفة الدين شغفوا بها لموافقتها مفهوم الصانــع عندهم · وبعد برهة وجيزة سوف نرى ـ حينما نتكلم عن نظرية الخلق عند الفارابي ـ ان هناك فرقا بين فهم الفلاسفة لنظرية الخلق وبين فهم المتكلمين لها ·

II) المدينة الفاضلة 15 ، 16 ، 40 ديتريسى ، السياسة المدنية 48 ، 52 ، بيروت ، الدعوى القلبية ، 4 ، 5 التعليقات ، 2 ، الزينون ، 6 العيون ، 58 ، 59 ·

لقد قلنــا فيما مضى ان المكن هــو مغايرة بين الماهية والوجود ، فتوحيد الماهية والوجود جعل المكن واخراجه الى حيز الموجودات · وهو الذى يعمل هذا التــركيب والتوحيد ويسمى العلة الفاعلة ، وهكذا يوصف واجب الوجود بكونه علة أو سببا لانه يقوم بفعل من الافعال · الا انــه يجب ان نلاحظ هنــا نقطــة هي ان العلة الاولى عند أريسطو كان ساكنا كما علمنا ، ولذلك فهو لم يقم باي فعل من الافعال ، ونفهم من هذا ان أريسطو عندما غير مذهبه فى نظرية العلية فى الطبيعة وذهب الى مذهب آخر فى ما بعد الطبيعة كانه هرب من المشكلة دون حل مرضي ، بينما يرى الفارابي رأيا مخالفا لاريسطو وهو انه من الممكن أن تحل المشكلة القائمة فى الصلة بين واجب الوجود وغيره من الممكنات على ضوء الفلسفة الطبيعية ·

وهنا نتساءل كيف يوجد واجب الوجود ممكن الوجود ؟ لان ممكن الوجود شيء غير موجود أصلا ، وكيف يمكن ذلك عبر الهاوية السحيقة بين الوجود والعــدم حتى يتصل واجب الوجود بممكن الوجود ؟ وهذه هي المسألة العويصة التى لا تزال تحتاج الى الحل · وهناك خالق ومخلوق ، وبعبارة أخرى علة ومعلول · فالفلاسفة الذيــن يقبلون تأثير العلة على أنها أوجدت المعلول ، يختلفون فيما بينهم فى كيفية هذا التأثير · ولذلك ظهرت فى عالم الفكر النظريات الثلاثة السابقة الذكر ولو أننا رفعنا عدم الحركة عن العلة الاولى كما عند أريسطو وبعبارة أخرى لو وضعنــــا العلة الاولى بالفاعلية لاستطعنا الحصول على العلة التى تقوم بفعل الخلق ، وهكذا يمكن لنا الوصول الــى التوحيد بين النظرية العلية ونظرية الخلق فى نظرية واحدة أو ايضاح نظرية العليــة بنظرية الخلق أو بالعكس ، فيصبح واجب الوجود علة وخالقا وموجودا فى معنى واحد.

ونرى الفارابي انه يقبل نوعين من الخلق · أولهما الابداع ، وثانيهما الخلــق · فلنرجع الى ما بينا فى السابق لكي نفهم الفرق الفلسفي بين هاتين الكلمتين · وقــد قلنا فيما سبق ان وجود المكن وعدمه متساويان · وهذا تعريف للممكن الحقيقى · اذن ما هو الشيء المكن الذى يستعد عن الوجود والعدم بمقدار معين واحد ؟ ذلــك الذى يوجد فى المسافة الموجودة بين الوجود وعدم الوجود على السواء · فالكائنات قــد خلقت من هذه المادة الغــــير المعلومة · واسم هذه المادة عند الفارابي «الامكان» واذا كانت الكائنات قد خلقت من الامكان ، فاننا نصل الى النتيجة وهي ان الكائنات لــم تخلق من العدم ، بل خلقت من شيء غير معلوم ومعين وهو «الامكان» · وعلى هذا فان الشيء الموجود قبل ان يخلق كان ممكنا ، يعني فيه امكانية الخلق والايجاد · ومعنى

ذلك ان امكانية الخلق فى شىء موجود قبل ان يوجد ذلك الشىء · والامكان مثـلا ، النقطة فى مركز الدائرة والنقطتان المتقابلتان فى القطر ، احدهما طرف الوجود والآخر طرف العدم وهما متساويان فى البعد عن المركز · فالكائنات خلقت من هذه النقطة التى يتساوى بعدها عن الوجود والعدم سيان ويترجح طرف الوجود بالعلة ·

فالفارابي الذى كان متأثرا بنظرية الفلك القديمة يواجه هنا مسألة صعبة ، وهـي ان الاجرام السماوية تعتبر مقدسة ولا يوجد فيهـا نقص أو عيب · وهنـا يتدخل فى مسألتنا راي آخر لاريسطو وهو ان الشىء فى حالة الفعل أفضل وأقدس من الشىء فى حالة القوة ، ولان يكون الشيء مقدسا ينبغي ان لا يكون فى حالة القوة بأي حال من الاحوال ، واذا طبقنا هذه القاعدة على الاجرام السماوية لتكون مقدسة تامة التقديس يجب الا تكون قد خلقت من الامكان الذى يتقدم هذه الموجودات · فلذا قبلنا خلقها من الامكان الذى هو نوع من القوة ، لكن الكائنات قبل هذا الخلق فى حالة من القوة · ومن البديهي بالنسبة الى النظرية السابقة ان هذا المفهوم يجلب لتقديسها نقصا وعيبـا وينزلها من درجة التقديس ·

وقد يتساءل المرء ، كيف يقبل القول بان الاجرام السماوية لـم تخلق من الامكان ومع ذلك اعتبرت من الممكنات ؟

ونجيب عن هذا السؤال بما يلي :

نعم ، كل شىء ممكن قد خلق من الامكان · وكذلك الاجرام السماوية ممكنات وهي أيضا قد خلقت من الامكان ، ولكن امكانية الاجرام ما كانت موجودة قبلها وقبل خلقها بل وجدت معها فى آن واحد · وهكذا يقول الفارابي ان الاجرام السماوية لم تخـــلق من شىء وهو الامكان ، بل خلقت من العدم الصرف · لانه اعتبر امكانية هذه الاجرام السماوية موجودة معها ، ولم تمض عليها حالـــة من القوة بتاتا · ولذلك استعمل الفارابي كلمة «الابداع» ليشرح كيفية خلق الاشياء من العدم الصرف الذى لا يكون فى حالة من القوة ولان الاجرام السماوية كانت موجودة فوق القمر · اما الموجودات تحت القمر فهي قد خلقت من الامكان غير ان امكانيتها كانت قبل خلقها ولم تكن معها · ولهذا السبب تعتبر هذه الموجودات ناقصة قابلة للتغيير فى كل آونـــة · ثم يستعمل الفارابي كلمة «الخلق» او كلمة «الحدوث» ليوضح لنا ان هذه الاشياء قد خلقت من الامكان ، ومع ذلك خلقت من شىء وهو ايجاد شىء من شىء آخر ·

ومن الخطاء حصر اسناد سبب ابداع الاجرام السماوية كما شرحنا الى قدسيتها بل هناك سبب أهم من هذا وهو ، رفع مسافة الزمان وازالة مفهومه لاننا اذا فرضنا خلق الاجرام السماوية من الامكان الذى أتى قبلها يخطر ببالنا هذا السؤال ، ما مدة هذا الزمان الذى وجد فيه الامكان قبلها أي كم من مدة مضت على الاجرام السماوية وهي فى حالة الامكان أي القوة ؟

ومهما فكرنا فى قصر مدة هذا الزمان فانه مما لا شك فيه ان هناك مدة مقصورة لازمة التصور عند الفلاسفة وموهومة عند الغزالي بما يفيد مفهوم القبلية ، لان هذه المدة من مستلزمات مفهوم القبلية ، اذ الفعل له بداية ، وهذا مما لا ريب فيه · فان لكل بدء له قبل · ولو كان الزمان عبارة عن عد الحركة التى هي فعل الخلق · لكان للزمان بداية ، ولكان له قبلية ، ولو على اعتبار قول المتكلمين بان الزمان مع الخلق مساوق له · واذا وجدت مدة مثل هذه المدة فانه بطبيعة الحال زمان · اذن لابد ان يمضي زمان قبل الخلق ، وحينئذ لابد من أن يرد هذا السؤال فى ذهن الانسان وهو : ماذا فعل الخالق فى تلك المدة ، ولو كانت المدة قصيرة جدا ؟

فاذا قلنا ان العلة الاولى أي الخالق لم يقم بأي فعل من الافعال قبل ان يخلق العالم ، فقد يضطرنا هذا الى أسئلة كثيرة مما يصعب الاجابة عليها · ومنعا لهذه الاسئلة والمعارضات الفلسفية قال الفارابي بضرورة خلق الاجرام السماوية من العدم الصرف ، ولم تخلق من الشيء الموجود قبلها · وتعتبر هذه الاجرام بهذا المعنى ازلية لان حالة القوة لم يسبقها ، ولان الله تعالى خلقها منذ وجوده أو منذ الازل ، وقبل وجود الزمن ، واذا كانت الاجرام خلقت منذ الازل وقبل وجود الزمن فانها أزلية بهذا المعنى ، وهذا يستند الى نظرية الاجرام فى زمانه ، وهي ان السماوات مقدسة ، وهي تشكل عالما علويا وما هو تحت فلك القمر تشكل عالما سفليا ، ومادة العالم العلوى غير مادة العالم السفلي ، ولذلك لا انحراف ولا التئام فى العالم العلوي · وهذه النظرية كانت شائعة أيام الفارابي ، ولذلك قال بنظرية الخلق من العدم المحض لانه يجعل الاجرام ، الاجرام السماوية متقدسة بهذا المعنى ، وهو هنا استفاد من نظرية أريسطو القائلة ، ان ما هو بالفعل اكمل واقدس مما هو بالقوة · فاذا كانت الاجرام السماوية خلقت مما هو بالقوة مثل الهيولي أو المادة الاولي أو أي شيء كان ، فيلزم أن تكون السماوات ناقصة لانها كانت فى مدة من الزمن لم تكن موجودة اذن فانها انتقلت من حالة القوة الى حالة الفعل ، ومعنى هذا انها كانت ناقصة ، ثم اصبحت كاملة ، وهذا

يناقض ما يجب ان يكون كاملا ومقدسا ٠ وان الفارابي استعمل حكمة «الابداع» فى الاجرام السماوية وحكمة الخلق فى ما هو تحت فلك القمر ٠ لانه كان يعتقد ان مادة الافلاك فوق فلك القمر ومادة ما هو تحت فلك القمر مختلف ٠ واذا ظهر اليوم ان مادتهما واحدة ، فحينئذ من الممكن ان يقال نيابة عن الفارابي ان الابداع استعمل فى عالم الامر والخلق فى عالم الخلق ، وان نظرية الفيض عند الفارابي ليس كما يظنه كثير من الباحثين هي ايضاح لصدور الكون من الله تعالى وبيان الصلة بين الكون وبين الله ، وانما هي لتفسير صدور الكثرة والتعدد عن الواحد الخالق ومعنى الخلق عند ذلك الذى بيناه وهو الصلة بين الله تعالى وبين الكون أو بتعبير آخر هو الصلة بين فعل الخلق والايجاد كما ان العلاقة بين الفاعل والمفعول هي الفعل ، فالعلاقة بين الخالق والمخلوق هي الخلق ٠ اذ لم يوجد زمان والاجرام السماوية غير موجودة فيه بالفعل ، ولو كانت الاجرام فى حالة القوة الى الامكان فى زمن من الازمان أو بالاحرى فى مدة من المدد ، لعاد السؤال السابق ، وماذا كان يفعل الصانع فى تلك المدة ؟٠٠

هكذا نفهم سبب كلمة الابداع وغاية هذا الاستعمال وهي ، تخليق خلق الكائنات من العدم الصرف ، ثم أزلية الخلق والمحافظة على دوام الكون وأبديته لان الابداع ايجاد شيء لا عن شيء دفعة واحدة (12) ٠

يتفق فلاسفة الدين (علماء الكلام) مع الفارابي فى ان الاجرام السماوية قد خلقت من العدم الصرف ٠ الا انهم يختلفون عنه فى مفهوم خلق الكائنات (الاجرام) وان تصور وجود الزمان قبل خلق الموجودات كما يرى الفارابي والفلاسفة الآخرون بكون مناقضا ومضادا لتعريف الزمان السابق الذكر ٠

وجدير بالذكر ان هذا الاختلاف له أهمية بين علماء الكلام والفارابي ٠ فان الفارابي يرفض ان تكون هناك مدة موجودة قبل ابداع الكون ويمد فعل الابداع الى ذات الله

12) الجمع ، 1001 ، 102 بيروت ، الدعوة القالبية 4 ٠ أحب أن أقول هنا كلمة حول كتاب الجمع ٠ وان بعض الكتاب كانهم ينقصون من قيمة الكتاب وآراء الفارابي فيه لاستناده على اتولوجيا لافلاطون ظنا منه لاريسطو ٠ ولكن اذا امعن النظر فى المواضيع التى ذكر فيه اتولوجيا ، يرى انه قد ذكر فى مسائل قليلة ، ومع ذلك قد استند فيها الفارابي على مصادر أخرى ، ولذلك يمكن لنا ان نقول فان اتولوجيا اذا كان معروفا عنده منسوبا لصاحبه الحقيقى ، فان آراء الفارابي فى التوفيق بين الحكيمين ما كانت تختلف مما عليه هي الآن ٠ ومع ذلك فان الكتاب يفيدنا بثلاث مناهج مهمة فى قراءة الكتب الفلسفية وهي ، منهج للبحث ، والفهم ، والكتابة ٠ فعلى قارىء الفارابي ان يحاكمه على ما حاكم هو الآخرين من المبادىء والمناهج الفكرية الفلسفية ٠

تعالى ، ويجعل صفة الخالقية صفة ذاتية أزلية لله تعالى وبهذه الصورة يرفع وجود المدة التى تتصور بين الخالق والمخلوق ·

اما علماء الكلام مع قبولهم وجود الزمان كما فى تعريف الفلاسفة فلم يقبلوا وجود زمان متصور بين الخالق والمخلوق · فالفارابي والمتكلمون يصلون الى نتيجة واحدة مشتركة وهي عدم وجود الزمان السابق على الابداع والايجاد ، ويختلفون فى المطلوب لان غاية الفارابي من ذلك سد باب الاسئلة التى سترد على الاذهان من ان البارى تعالى اذا كان غير فاعل فعل الخلق من الازل أي شيء حض وحرك ارادته حتى ابدع العالم بعد ان لم يكن مبدعا له من قبل ، وأي شيء منع ارادته من ان يخلق العالم قبل ذلك ؟

والمتكلمون أعطوا أهمية لحرية الارادة لله تعالى ، وقالوا بعدم ازلية الخلق · وقال الفارابي تأييدا لرأيه فان الكون يوجد عنه تعلى بالضرورة ، والمتكلمون يقولون باختياره تعالى (13) · ومن ثم يصعب حل مشكلة الخلاف بين الفارابى وبين علماء الكلام ، لان الفارابي عندما يقول « ظهور الكائنات بالخلق الازلي » لا يريد ان يعطي لارادة الصانع صلاحية كما يفهمها المتكلمون · وغايتهم فى عدم قبول خلق الكائنات من الازل · انهم يريدون ان ينزهوا البارى تعالى من ان يكون مثل العلة الاولى ، عند أريسطو ساكنا لا يفعل شيئا وان يكون محروما من الارادة مسلوب الحرية أو غير حر فيما يقتدر عنه أو يبدع ، وأرادوا ان تكون لارادة الله الحرية الكاملة وصلاحية أوسع فى خلق الكون .

فالفارابي حينما قال بواجب الوجود فقد أراد افادة معنيين :

المعنى الاول عدم وجود علة لوجوده ·

المعنى الثاني كون وجوده يستلزم وجود موجودلت أخرى ويشترك معه علماء الكلام فى المعنى الاول ويقصدون هذا المعنى حينما يقولون بواجب الوجود · ولكنهم لم يقبلوا المعنى الثاني لسلبه ارادة الله تعالى الحرة · ومن ناحية أخرى فان الفارابي يعترف بارادة الله ولا ينكرها ولكنه يوضحها بالمعنى الذى يناسب فهمه لواجب الوجود.

---

(13) وهنا نقطة الالتقاء بين الفارابي والماتريدى الذى يقول بازلية صفة التكوين ، وانه يفارق الفارابى فى عدم قبول المكون أي المخلوق أن يكون أزليا · أنظر تفصيل ذلك فى تبصرة الادلة لابي العيني النسفى ، 107 ــ ب ، جار الله الرقم 1128 ، مكتبة سليمانية الاستانة ·

خـرافة الحيـاد الاعلامى الغـربى
والثـورة الاسلامية فى ايـران

د. محمد العربي ولد خليفة
معهد العلوم الاجتماعية
ـ جامعة الجزائر ـ

يسود الاعتقاد بأن سر قوة العالم المصنع تكمن فى السيطرة على مصادر الطاقة ، والقدرة على تطويعها ، والتحكم فى التكنولوجيا وترويض العلوم ، والاستثمار العقلاني المنسـق للمهارة التقنيـة ، وامتـلاك القـوة العسكرية الضاربة والمزودة بآلات الدمار عبر القارية وشبكات الاستكشاف الالكتروني ٠

والواقع أن كل ذلك لم يكن ليعطي العالم المصنع صفة «المرجعية» ٠ لـولا تفوقـه الساحق فى ميدان آخر بالغ الاهمية وهو وسـائل التبليغ الواسعة الانتشار والقـوية النفوذ ، فقد كشفت احصائية لليونيسكو أن العالم المصنع يحتكر (90 ٪) من موجـات الارســال الكهرومغناطيسية و (80 ٪) من مـادة الاعـلام الصحفى المصـور والمكتوب والمنطوق وأن مجموع مساهمة العالم الثالث لا تزيد على (25 ٪) ويعني ذلك أن ربـع العالم لا يسيطر على ثلاثة أرباعه الاخرى اقتصاديا وتكنولوجيا فحسب ، بل هو يسيطر عليها أيضا اعلاميا ويغزوها من الداخل بواسطة طلائع الاستكشاف التى تمهد الطريق

لاشكال الغزو الاخرى · وتخلق الذهنيات وتشكل أساليب السلوك ، وتمنع الشعوب النامية بوسائل بالغة الدقة والتمويه من التخاطب مباشرة ·

ويذكر ف. هوبشر (F. Hubscher) (1) أنه فى حين انتقل عدد أجهزة الراديو فى افريقيا الواقعة جنوب الصحراء من (500،000) جهاز سنة 1955 الى (22.500،000) جهاز سنة 1978 فان حوالي (30 ٪) من سكان هذه المناطق هم من المدمنين على الاستماع الى اذاعات أخرى غير اذاعات أوطانهم ، ويأتي فى مقدمة الاذاعات الاكثر تأثيرا والاقوى مضمونا الاذاعة البريطانية (British Broodcasting Coorporation) التى تقدم برامج خارجية تساوي (351) ساعة أسبوعا وتستخدم ستة من اللغات الاكثر انتشارا فى افريقيا وهي العربية ، الهاوسا (Haoussa) الصومالية ، السواحلي ، الانكليزية ، الفرنسية · وتدعم ارسالها بمحطات تقوية فى البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسي ويليها صوت أمريكا (Voice of America) الذى يوجه الى افريقيا (132) ساعة أسبوعا بنفس اللغات السابقة (مع تعويض اللغة الصومالية بالبرتغالية) ولها محطات تقوية فى طنجة (المغرب) ومنروفيا (ليبيريا) وهي تستخدم مجموع محطات التقوية التى تملكها آل ب· ب· س· فى العالم وأما اذاعة موسكو فهي تقدم (91) ساعة فى الاسبوع باحدى عشر لغة من بينها العربية والامهرية (لغة أثيوبيا) والبامبارا والهاوسا الصومالية الخ... ويقدم صوت المانيا (الفيدرالية) (86) ساعة أسبوعا بنفس اللغات التى تقدمها هيئة الاذاعة البريطانية بالاضافة الى الامهرية · وأما اذاعة بيكين فهي تقتصر على 18 ساعة أسبوعا مقسمة بين السواحيلي والهاوسا ·

وتخصص القناة الجنوبية للاذاعة الفرنسية 17 ساعة ونصف يوميا لافريقيا ولا تستخدم أي لغة أخرى غير الفرنسية (باستثناء ساعة واحدة يوميا بالانكليزية) وتزعم هذه الاذاعة أنها تلقت خلال سنة 1978 وحدها (35000) رسالة أغلبها من افريقيا الغربية والفرانكفونية (2) ·

فاذا كان من الممكن الاطلاع على أنباء العالم وتأويلاتها من خلال الاذاعات المرجعية ووكالات الاعلام ذات التقاليد المرعية والقدرة على التغطية الحية لاكثر المناطق بعدا أو التهابا واطلاعها على أشد الاخبار سرية وبعدا عن العين المجردة ، فانه من الصعب فى كثير من الاحيان التعرف على أخبار الوطن نفسه أو بلد آخر مجاور أو شقيق بطريقة مباشرة ، أي بواسطة تبادل اعلامي موضوعي ومرغوب فيه من الطرفين · اذ يبدو للبعض أنه من الضروري المرور بالقناة الكبرى المتمثلة فيما يسمى بالاعلام

العالمى الماهر فى تقنيات النشر والمشهود له بقوة الحجة والبراعة فى الاقناع · واما الاعلام الذى لا يمر من تلك القناة فهو مدعــاة للحيطة ، والحدر ، وباهض النفقات ، وقد لا يحسن مراعاة قواعد المرور بين المناطق المحرمة بما فيها من شوارع ذات اتجاه اجبارى واخرى ممنوعة اصلا لانها « طابو » لا يعرف كنهه الا الراسخون فى العلم !

حــدود التحييد فى الوسيط الاعلامي :

وبما أن حيادية المحتوى الاعلامي وموضوعيته قضية نسبية تتصل بطريقة مباشرة بالشكل الذى يقدم به والمنطق الذى يقوم عليه فان الملاءمة بين ســرد الوقائع وطريقة تاويلها والقالب الذى تقدم فيه ليس بالامر الهين ، فمــن الثابت لدى علماء التوصيل (Communicanisme) وهو علم يقع على حدود عدد من الاختصاصات الاكثر حداثــة) · ان الواقعة الاعلامية ليست سوى منبها للشخص المدرك تتلـــون حسب الطريقة التى يتمثلها (Assimiler) بها وتعتبر الاستجابة لها تأويل لما تلقاه أكثر منه نقل مباشر لما يسمع أو يرى أو يستحضر ، وبهذا المعنى يعتبر النقل الاعلامي « خامة » وثائقية لمــا يسمى التاريخ المباشر (Histoire immédiat) وتحتاج الى سبر وفرز قبل اعتماده كوقائع منفصلة عن صانعيها ومرتبطة بهم فى حدود الزمان والمكان ، ففصلها الافتراضى عن صانعيها يدعم موضوعيتها وربطها بهم يساعد على تفسيرها من داخلها وخارجها فى آن واحــــد ·

ان من البديهيات التى يمكن ملاحظتها فى الحياة اليومية أن الشخص الواحـــد لا ينقل الشيء نفسه مرتين (وكم يعاني القضاة من اختلاف أقوال الشاهد فى موقفين ؟) كما أن أشخاصا مختلفين لا ينقلون بطريقة واحــدة نفس الشيء ، فظاهرة التحــويل والنداخل التى تتدخل فيها الافكار القبلية والاتجاهات المكتسبة فى البيئة ونمط الثقافة والظروف المحيطة بالحدث والدوافع غير المعلنة ، هي التى تجعل النقل الخبرى مهمــا كان الحرص على الحيادية مجرد « شهادة » على ما يتصوره الراوي للحدث أكثـــر منها استحضار للحدث نفسه ، ولا يعني ذلك استحالة التبليغ الاعلامي الموضوعي بين طرفين ، لاننا فى هذه الحالة ، نقع فيما يسمى عند شكاك قدماء اليونان بدائرة الاستحالة فيصبح الكلام نفسه باطلا ووهما بينما نحن نعيش فى عصر من أبرز عملاته المتداولة كلمات مثـــل الحوار ، الجدلية ، الانفتاح ، التبـــادل ، وأشكال التجاذب والتنـــافر السوسيومترية الخ ··· ان ما يعزز الصلة الاعلامية بين المرسل والمتلقى هو الوسيط الاعلامي فى شكله ومحتواه ، فكلما تناقصت نسبة الموضوعية وارتفعت درجة العوامل

الذاتية المتضايقة معها ، كلما فترت تلك الصلة وبدأت بوادر أزمة الثقة فى الظهور واحسن المرسل انه ينفخ في رماد وواجه المتلقي الوسائط الاعلامية بالمنعكس الشرطي اي يذهب دائما لتاويل المحتوى الاعلامي على عكس منطوقه ، أو يلتجىء الى مصادر أخرى للتدليل على نقصه أو بطلانه ، ومن أسباب هذا الخطأ الجسيم توهم المصدر الإعلامي (المرسل) أن الطرف المتلقي مستعد لتقبل الوجبة الاعلامية على اي طبق وبغض النظر عن مدى جودة « الطعام » المعروض ، بدون أن يدرك أنه يقدم بسذاجة ما ينفر من تناول تلك الوجبة ويترك فى النفوس عكس الاثر المطلوب ·

حقا ان الاعلام « المحلي » فى الدول النامية يجد نفسه فى منافسة غير متكافئة مع الاعلام الدولي المسلح بالخبرة ، وتكنولوجيا البث بالاقمار الصناعية والتفرد الى يومنا هذا بتغطية الاحداث الساخنة مما جعل مادة الاعلام المحلي فى كثير من الاحيان ذات قيمة خبرية ووثائقية ثانوية لانها كما هو الشأن فى الصناعة ليست أكثر من تركيب لقطع غيار مستوردة من جهات متعددة وتحمل أختاما متباينة ·

وكيف يمكن للاعلام المحلي الذى تنهشه البيروقراطية ويتجادل رجاله منذ سنوات عديدة فى الحدود والصلاحيات ويتناقشون الى يومنا هذا فى تعريف المهام وحصر الاهداف ، فاذا توفرت له الامكانيات برر البعض عجزهم بنقص الكفاءات ، واذا تكاتفت بعض الكفاءات عاقها عن التطوير والتجديد نقص الامكانيات ؟ وياله من وضع دائرى يجعل الاعلام المحلي يقدم رجلا ويؤخر أخرى ويترنح فى ارجوحة جبالها الواهية هي قصر النفس وضحالة الخيال والقناعة بالعجز وقبول الانبهار !

كيف يمكن لمثل هذا الاعلام أن يملأ أوعيته من المنبع فى عصر من أبرز سماته الالحاح على الابتكار والتجديد واحتقار التكرار والترديد وتحقيق السبق فى كل شيء وتحطيم الارقام القياسية فيما هو عادى ومألوف ، وكذلك فى الاشياء التى لا تخطر على بال ، حتى كان عالمنا الراهن حلبة كبيرة لسباق لا يرحم ، ولا يستحق فيه الذكر والتنويه الا من يتصدر المقدمة ويتجاوز نفسه فى كل أشواط السباق · فاذا كرر نفسه أو تساوى مع غيره اختفى من المسرح وأسدل عليه ستار النسيان !

الاعلام المرجعي والظاهرة الايرانية :

قد تدور بخلد الشخص هذه الخواطر سواء اكان مستهلكا للمادة الاعلامية بصورها المختلفة أو كان صانعا لها ومكابدا لمشاقها من داخل « الفرن » الذى تنصهر

فيه الاذهان والاعصاب ، ان الامـر فى كلتا الحالتين سيـان ، لان الرسالة الاعلامية (بالمعنى الحرفي لكلمة رسالة) ، تقتضي طرفا ثان ، هو المتلقي الذى ينبغي أن يقـرأ له حساب ، فهو يتقبل الرسالة ضمن سلسلة من التوقعات ، ويحكم عليها فى اطـــار جملة من المواصفات ويقارنها بغيرها مما يرد عليه من أطراف الدنيا من رسائل مختلفة الاحجام والاشكال والالوان ، وهو ما يعرفه كل متعامل مع المحتوى الاعلامي من خلال ما يشعر به من نشوة أو خيبة أمل وهو يقرأ ركنه المفضل فى صحيفة او مجلة ، أو عند ما يستمع الى برنامجه الاذاعى ، أو يشاهد حصته التلفزيونية ، وبعبارة أخرى هنـاك بين المرسل والمتلقى تعاقد ضمنى معرض يوميا للتجديد أو الالغاء ٠

واذا جاز لنا أن ننطلق من موقف المتلقى وننظر فى وقع الرسالة الاعلامية مـــن خلال حادث تجاوزت أصداؤه الحدود الجغرافية التى وقع فيها ، وسوف تكون لـــه بكل الاحتمالات مضاعفات على الاستراتيجيات القارية للعمالقة ، الا وهو ثورة الشعب الايراني ، وهي أول ثـورة ثقافية اسلامية فى عصرنا هذا ، فانـه بالامكان مـلاحظة استماته الاعلام المرجعي ـ الذى أشرنا اليه فيما سبق ـ فى تبليغ تأويلاته وأفكـاره القبلية حول الحديث ، من خلال تغطية حية ومدعمة بعرض يوهم بالحيادية حتى ليبدو للمتلقي وكأن اللاشرعية الشاهنشاهية كانـــت ضحية مسكينة للاكليريكية ، وكـــأن الاستباحة والانتهاك الثقافى الذى حل بواحدة مـن أكثر الحضارات عراقة وأوفرها اسهاما فى الفنون والاداب والعلوم الانسانية ، قد عرض لها عائق بسقوط الشـاه ، أي أن المسخ والتشويه والاختناق الذى عاشته ايران فى ظل حكم الاسرة البهلوية هو فى عرف الاعلام المرجعي تقدم وانفتاح وعصرية سقطت صريعة التعصب والاتجاهات الدينية الراديكالية ٠

ان نظام القصر الامبراطورى الذى لعب دور « شاويش » المصالح الامبريالية التى طالما نهبت خيرات الشعب الايراني بتواطىء دولي استعماري مقابل ما كانت تقدمـه للشاه وحاشيته من أوهام العظمة ، وتستنزف موارد ايران لتضمن تشغيل مصانـع السلاح وازدهار تجارتها الخارجية ، وتجعل مـن النظام البهلوي القـــوة العسكرية الخامسة فى أكثـر البلدان خضوعا للوصاية الاجنبية وأشـدها اضطهادا للكادحين والوطنيين الاحرار (أكثر من 20،000 وطني مشتتين فى أرجاء العالم والرقم القياسي مع أندونيسيا فى كثرة المساجين بدون تهمة واضحة) ٠ ونموذجا خاصا فى التفنـن فى تبديد الثروة الوطنية فى الاستعراضات البهلوانية والفوارق الصارخة بين الطبقات.

ان مثل هذا النظام يصبح بين عشية وضحاها فى رأي وسائل الاعلام المرجعية فى قبضة « جماهير الشوارع » لتحاكمه بقسوة مع أنه لم يقترف الا خطأ بسيطا · هو عدم احترامه لحقوق الانسان ، وهي نزوة خفيفة لانه كان بصدد الشفاء منها بعد أن رقاه ووصاه الاستاذ حكيم العالم الحر فى حديث معه على انفراد ·

الدولــة الاسلامية والمــرأة :

ولكن ماذا يخيف وسائل الاعلام المرجعي ، وماذا يقلقها على ايران ؟ انه كمــا أعلنته بعض المنظمات « الخيرية » ، وكما يظهر من التحقيقات المتوالية والمقالات التى تفيض أسى وحسرة ، تتمثل فى جملة من الظواهر من أهمها

1 ــ اصرار زعيم ايران آية الله الخميني على تأسيس الجمهورية الاسلامية على أنقاض حكم النظام البهلوي العميل ·

2 ــ المحاكمة الصارمة لبطانة الشاه الفاسدة وجهاز الارهاب (سافاك) ·

3 ــ القضاء على الانحلال الاجتماعى والتفسخ الاخلاقى ·

4 ــ التقيد بالقيم الاسلامية فى معاملة المرأة (احترامها أمـــا وأختـــا وزوجة ، الافتخار بالزى الوطني «التشادور» الخ ...) ·

5 ــ عودة ايران الى حضيرة البلدان التقدمية فى العالم الثالث ·

وليس فى نيتنا أن نحاور من هم وراء ذلك الاعلام المغرض أو من يوجه اليهم من الناس ، فقد عرفت الجزائر غــداة استقلالها وضعا أكثر تكالبا على تشويهها ، حيث أشيع فى « العالم الحر » أن جيش التحرير الوطني سوف ينكل بالاجانب بمجرد انسحاب جيوش الاحتلال فكان أن عمدت شراذم من أولئك المستوطنين الى محاولة تخريب البلد الذى امتصوا دماءه واستغلوا عرق أبنائه وأبادوا أكثر من عشر سكانه ــ وما زالوا يفعلون ذلك مع مغتربيه الى اليوم ــ وأما جيش التحرير الوطني فان مهــامه وأهدافه كانت وما زالت أسمى مـــن ذلك ، وكان بوسعه فى تلك الظروف أن يقطـــع دابر تلك الشراذم الباحثة عن السراب والمتعلقة بأضغاث الاحلام ·

ومع التسليم جدلا بأن وسائل الاعلام المرجعية لم تتخلص الا نادرا مـــن الرؤية الصليبية للاسلام ولم تجتهد الا قليلا فى فهم هذا الدين باعتباره نسقا متكاملا للحياة لا يرى فى الدنيا مجرد محطة انتظار للآخرة ، بل هي بالنسبة اليه معبر لا تكون الآخرة

بدونه ، فانه من المفروض أن نتساءل عن مفهوم هذه اللائكية المزعومة وعن مظاهرها فى الحياة السياسية فى البلدان التى تدعيها وتدعو اليها ٠

ان تتبع هذا التساؤل سيؤدى فى أغلب الظن الى التشكك تماما فى معنى اللائكية الغربية والانتهاء الى نتيجة مؤداها أن الاسلام وحده هو الذى ينبغى فصله عن الدولة ، وأما اليهودية والمسيحية فلا بأس أن تكون لها مراسيمها وهياكلها وطقوسها المندمجة فى الدولة والموازية لها فى نفس الوقت ٠

والدليل على حسن نية الاعلام المرجعى المريبة حقـــا ٠ أنه لم يتطرق الى خطورة الاكليريكية فى اسرائيل التى بلغت ويا للعجب أقصى درجات اللائكية (٠٠) باحتـلال القدس تذكيرا بعرش سليمان على اريتز اسرائيل : (أرض اسرائيل) وأنشبت مخالبها فى الضفة الغربية لانها وردت باسم آخر فى التوراة وتحكم كل يهود العالم باسم الكهنوت وتبتز الاموال باسم صحائف التلمود وتشرد شعبا بأكمله باسم الوطن الموعود ونجمة داوود !٠٠

أما اذا تعلق الامر ببلد اسلامي (وايران هنا نموذج كامل) فان الدولة الاسلامية تكون فى رأي المفكرين ورجـال الاعـلام الغربيين مدعـاة للتعصب والتاخر الحتمي ، وكيف ذلك ؟ لقد وجد أولئك الحكماء ضالتهم فى دعوة آيـــة اللـــه الخميني النساء الايرانيات لان يظهـرن الاعتزاز بالزى الوطني (التشادور) وأن يبتعدن عـن التبـرج والانحلال الذى اشتشرى أثناء حكم الشاه ، حتى أصبحت ايران أشبه بكازينو عالمي ، يتفنن فيـه تجار « ايروس » فى المتاجرة بالشرف ، والاستهتار بأقدس قيـم وتقاليد المجتمع الايراني ، وهكذا نسق الاعـلام الغربي حملـة شعواء تسـير فى اتجاهين : ينادى الاتجاه الاول بتحرير المرأة من جبروت آيات الله (الاثمة) ويوحى الاتجاه الثاني بأن طغمة الشاه الفاسدة تعدم بالجملة وبدون محاكمة ٠ ولـو رجـع هؤلاء الحكماء المزيفون الى حقيقة الاسلام في أبعاده الاجتماعية وتخلوا عما رسخ فى أذهانهم مـن افكار قبلية وما غشى قلوبهم من أحقاد لوجدوا نصوصا صريحة تحض على تكـريم المرأة واحلالها المكانة اللائقة بها ، وتستهدف كل تلك النصوص احكام روابط التكامل بين الرجل والمرأة وحماية الاسرة والوقاية من الانحرافات وقطع الطريق على أسباب الزيغ والجنوح عن الخلق القويم ، ولو تمعنوا فى واقعهم الراهن لما وجدوا وجهـا للمقارنة بين النموذج المعروض لديهم وبين النموذج الذى يقترحه الاسـلام ولترددوا كثيرا قبل اسداء النصائح للغير ، فالمرأة حسب الصورة النقية للاسلام مثلها مثـل

الرجل تحقق ذاتها من خلال العمل المناسب لها حسب وظيفتها الخاصة فى اطار الاسرة أو خارجها ، وليس بناء على جنسها (كونها أنثى) ، والملاحظ أن المرأة الريفية التى تشارك زوجها أو أباها فى أعمال الحقل أو قطف الزيتون والتين ، لا هي بالمحجبة ولا هي بالمتبرجة ، وكل ما هنالك أنها لا تشبه المرأة فى أروبا وأمريكا التى تحولت الى لعبة أو بضاعة فى أيدى الاعلام المثير وتجار الموضة الذين يدور جزء كبير من نشاطهم حول الجنس فى كل المجتمعات الاستهلاكية حيث تصور المرأة وكأنها كرة بليارد تتقاذفها العصي ذات اليمين وذات الشمال ·

ان ما يسوء المجتمعات التى ترفع اليوم شعار حرية المرأة وازدهار شخصيتها ومشاركتها العملية فى النشاطات الاقتصادية والثقافية والسياسية أنه ليس لديها ما تقدمه لنا كمثال يحتذى فى المجتمعات الاسلامية ، وقد سبق أن أشرنا على صفحات مجلة الجيش (انظر العدد : 174 ، سبتمبر 1978) الى ما تعانيه الاسرة الغربية من تفتت وما يحدث تحت أضواء المدينة الظالمة من انحرافات هزت العلاقات الزوجية ، ووصل الامر الى حد سن الانحراف قانونا عند البعض واعتبار التهتك وألوان الشذوذ نشاطات «طبيعية» · تحتاج الى حماية قانونية عند البعض الآخر ، ويزداد الطين بلة اذا عرفنا أن التفكك العائلي بلغ درجة جعلت الآباء يتخلصون من أبنائهم بالقتل بسبب ما يحوم فى الاذهان من شبهات ، ومثل هذه الحوادث تكاد تكون يومية ، ودفعت الابناء الى ايداع آبائهم فى الملاجى عندما يبلغون سن التقاعد أو طردهم بكل بساطة وحرمانهم من كل رعاية أو عناية · هذا فضلا عن جرائم الاغتصاب والتمزق النفسي الاجتماعى والانهيار العصبي ·

اننا لا نستهدف من وراء هذه الملاحظات الدفاع عن الثورة التأصيلية الاسلامية التى يعمل الخميني وصحبه على ترسيخها ، فمن التعنت والمغالطة الاعتقاد مسبقا بأن ثورة ثقافية بالعمق والابعاد التى هي عليها فى ايران ، تكون معصومة وتخلو تماما من العيوب ، ولكن الذى ينبغى التنبه اليه والاحتراس من آثاره هو ما يعمد اليه بعض المغرضين من خلال وسائل الاعلام من أنباء مدسوسة وتخوفات مريبة ، وتضخيم للنقائص واثارة للعواطف واستعداء أو « تحريش » البعض ضد البعض الآخر ، فقد اتضح لاولئك المغرضين الآن فقط أن هناك أقليات عرقية مضطهدة فى كردستان وعربستان وتركمستان وأذربيجان الخ ··وأن هناك فى العالم الاسلامي سنة وشيعة ، وطائفة أخرى تدعى البهائية دينها الوحيد أن لا تعترف بأي دين وتدعو لاممية غير

واضحه الاهداف وغير نظيفة الوسائل ، وأن أنصار آية الله الخميني يمارسون الضغط على كل من يخالفهم فى الرأي ٠

ان الاحتكام الى ما يرد من وقائع عن الديمقراطيات الغربية والاشكال التى تحاكيها لا تخول قوما يقسمون المواطنين الى أنصار وأعداء يحرمون بحكم القانون من الوظيف العمومي (كل من لا ينتمون الى الاحزاب الرئيسية فى ألمانيا الغربية ويتعاطفون مـع اليسار : حركة بادر ماينهوف وما يشبهها) أو يسجلون فى القائمة السوداء فى أيـام الماكارثية فى الولايات المتحدة أو يمارسون أبشع أنواع الاضطهاد العنصرى فى جنوب افريقيا وروديسيا تحت حماية الوطن الام : بريطانيا ١) وغض الطرف من قبـل العالم الحر ٠ أو يشرعون قوانين لاستغلال اليـد العاملة المهاجرة والتخلص منها بعد أن تستهلك برميها وراء البحر أو جعلها تعيش فى رعـب دائـم من جـراء الاغتيالات والتهديدات المسكوت عنها كما هو الحال فى فرنسا ٢) ٠

والواقع أن هذا كله ليس غريبا ، وانما الغرابة هي أن يبقى اعلامنا نحن فى العالم الثالث ، فى مثل هذه المواقف ، وكأنه فى حالة ذهول يتلقى الوقائع بعد أن تصبح مـن الدرجة الثانية أي بعد استعمالها ويحجم عن المبادرة تحت وطأة الاعلام المرجعى الذى ينطبق عليه فى هذه المرة بالذات قول الشاعر القديم :

عين الرضى عـن كـل عيـب كليلة　　　وعـين السخـط تبـدى المساويا

1) ف. هوبشير : افريقيا الفتاة العدد 948 ص 49 ـ 50 ٠

2) ف. عيارى : ن م م ، ص 51 ٠

كلمــات النــدوة التى أقيمــت

احيــاء لذكرى وفــاة الاستاذ

محمد الصادق بسيس

يـوم الاثنــين 19 ذى الحجـة 1398 هـ 20 نوفمبر 1978 م

تحت عنوان :

جوانب من حيــاة ونضال الفقيد

مصلـح مـن بقيـة القـــوم

الدكتور المنجى الكعبى

ان هذا الاحتفال الخاشع الذى تفضلتم ، أيها الاخوة الجزائريون الكرام ، باقامته فى مستوى رسمى ممتاز تخليدا لذكرى الفقيد الاستاذ محمد الصادق بسيس وقع منا خبره ، نحن بتونس ، موقعا طيبا جدا ، وأثار فينا من مشاعر الاعتزاز بأخوتكم ومن عظيم التقديـر لمبادرتكم ما يعجز لسانى وحده عن التعبـير عنه أمامكم.

ولكن الله وحده يعلم حين بلغتنى برقية الدعوة لحضور الاحتفال كيف كانت سعادتى بالمناسبة أعظم من سعادتى بالدعوة للمشاركة فيها ، وكيف غلبنى الامتنان لكم باقامة الاحتفال عـــلى الامتنان لمن وجه الى الدعوة ...

(*) فى الاحتفال باربعينيته بالمركز الثقافى الاسلامى بالجزائر 19 ذى الحجة 1398 20 نوفمبر 1978 .

ولم أدع لمشاغلي حجة الاعتذار عن الحضور معكم هنا ، ولا لقلة بضاعتي من الكلام في ذكرى الشيخ الفقيد ما أرد به دعوتكم الكريمة المشرفة • فخففت نحوكم ببضاعة قليلة وحمل ثقيل • أما الحمل فهي مشاعر الاسى والاسف التي أثارها فقد الراحل العزيز لدى أسرته العلمية والروحية بتونس ، وهو كذلك وعد صادق قطعته وزارتنا للشؤون الثقافية على نفسها يوم موكب جنازته بالمساعدة على نشر تراثه • وأما البضاعة فهي ورقة خططت فيها على عجل واكبار جملة من مواقف الاستاذ الفقيد من قضايا عصره ومجتمعه التونسي خاصة •

واني لا محالة مقصر أمامكم وأمام روح الشيخ وأمام هؤلاء الجلة من علمائنا التونسيين الافاضل الذين تشرفت بصحبتهم الى هنا ، وكلهم أساتذتي وأهل الفضل في تكويني ـ قلت اني مقصر لا محالة عن اعطاء الموضوع حقه • فمعرفتي بالفقيد الجليل لا ترقى ـ لقلة حظي ـ الى أكثر من مصاحب عابر في بعض المجالس والندوات والمسايرات خصوصا في السنوات العشر الاخيرة من عمره ، وقارىء غير مواظب مع الاسف لكتاباته ومع ذلك فقد كنت أشعر نحوه منذ عرفته شعور التلميذ نحو أستاذه العظيم ، وأحفل كثيرا بتعليمه وتوجيهه ونصحه ورضاه •

وحين احتجت للرجوع إلى ما كتبه قبل المجيء الى هنا وربما في انتظار ما ننوي قريبا في تونس اقامته من تخليد لذكراه ، لم أجد كل ما نشره لا مجموعا ولا مفهرسا في كتاب • وكنت أتمنى أن أجد عند أسرته الكريمة ثبتا يساعد على الرجوع الى جميع كتاباته بالصحف والمجلات • فاقتصرت على ما وصل اليه علمي ووقعت عليه يدي بمكتبتي مما جمعته من مقالاته وهي قليلة من كثير ، واستحضرته في ذهني من أحاديثه ومحاضراته واذاعياته ومذاكراتي معه رحمه الله •

وضعت كلمتي تحت عنوان : « مصلح من بقية القوم » اعتقادا مني بأن الشيخ محمد الصادق بسيس كان من خيرة أبناء تونس من خريجي جامع الزيتونة المعمور ، من صنف أولئك المصلحين الذين رهبوا أنفسهم وجهودهم ومهجهم وأقلامهم من أجل خدمة قضية بلادهم ، واتصل جهاده ، رحمه الله قبل استقلال تونس وبعده بنفس الايمان ونفس الحماس •

ولم يترك الشيخ مجالا علميا ولا أدبيا ولا فكريا ولا اصلاحيا الا جال فيه بقلمه ولسانه وقوة ايمانه ، وكانت جولاته القلمية ومعاركه الصحفية لا تنقطع ، ولذلك فمن الصعب على الآن استعراض كل أو جل القضايا التى كان للشيخ فيها رأى وموقف ومقام ومقال . كما انه من الصعب على الآن ادعاء الدقة والتحرى فى كل ما سأعرضه من مواقفه حول بعض القضايا . ولذلك أرجو أن يقع احصاء مقالاته المختلفة ويوضع لها فهرست دقيق ييسر على الباحثين فى المستقبل الرجوع اليها والاستفادة منها ، ولعله من الخير العمل من الآن على جمعها ونشرها مع سائر مؤلفاته فى كتب أو كتاب ذى مجلدات قبل ان يفوت بها الزمان وتعتورها يد النسيان .

ولم يكن الشيخ محمد الصادق بسيس ليطرق قضية أو موضوعا دون ان يرده الى أصله ويربطه بفروعه ويقرر فى سياقه التاريخى الصحيح ، ويعالجه فى اطاره الخاص والعام ويوجهه فى تحليله وتأثيره فى اتجاه مستقبلى هادف واضح ، مضفيا عليه من روحه وايمانه وخلقه وسلوكه وأدبه كل ما يطبعه بطابع أعمال المصلحين الكبار .

وما كان لشيخ مثله ، واسع الاطلاع بالتاريخ دقيق المعرفة بالحوادث والرجال مطالع لاعمال الاعلام ، عميق الايمان فوق ذلك ، أن يساوره قلبه الشك فيما كان يعالجه من اصلاح أو يخالط نفسه يأس أو تشاؤم . بل لقد كان له رأى عجيب فى ما يعرض للمجتمعات من ظلم الحكام وجبروت المتسلطين بغير الحق والعدل ، وما يقع لها من انحراف عن الدين وابتعاد عن الاخلاق الفاضلة ، وهو أن الظلم لا يعمر طويلا والقيم الخالدة لا تطمس أبدا والمعدن الطيب يظهره الصهر والاحتكاك .

وكان رحمه الله يؤمن بالارادة الشعبية أى ارادة الامة فى تغيير الاحوال ايمانا لا يضاهيه الا ايمانه بقدرة الخالق تعالى . ولا يجد أمامه لضرب المثل أعظم من جهاد الشعب الجزائرى فى مواجهة الاستعمار ، فيقول : « الجزائر المجاهدة التى ابطلت ببطولتها قوانين الالحاق وافتكت حريتها من أشداق الوحوش الاستعمارية واصبحت ثورتها مضرب الامثال فى الثبات والفداء فى قرننا العشرين » (ص 53 من مقدمة تحقيقه لكتاب خلاصة النازلة التونسية) .

وذهبت به ثقته بالارادة الشعبية الى حد تسفيه ادعاءات من بخسوا من الافـراد لحساب زعامتهم الشخصية ما قدمته الحركات الشعبية فى تونس من تضحية وفــداء من أجل مكافحة الاستعمار واستعادة اصالة البلاد وحفظ تراث الاجداد · وفى ذلك يقول متحدثا عن أولى الحركات التى قامت لمقاومة الاحتـــلال الفرنسى لتونس وهى « حركة الوكلاء » : « ··· واعتبار تلك الحركة كدرس من التاريخ : هو سريان آثار تلك الحركة فى أعماق الامة ولو الى حين ، حتى تواتيها الظروف الملائمـة للعمـــل التحريرى من الداخل أو الخارج ، وهكذا انطلاقا من هذه الحركة الوطنية التونسية تسلسلت حلقات النضال الوطنى فى بلادنا الى ان بلغ الشعب قمة التحرير والاستقلال وحطمنا القيود والاغلال ومحونا عار الاستعباد والاحتلال وشمرنا السواعد لتحقيق المطامح والآمـــال ·

« ومهما يكن من شيء فان معركة الخروج من التخلف بعد الاستقلال لهى معركـة أشد ضراوة واطول نفسا واحوج الى العزائم الصادقة والثبات المديد ، لان فيها يقع تحرير العقول والضمائر والعزائم من أثقال الماضى البغيض بما فيه من استبداد الملوك المطلقين واستعباد الاستعمار ، وآفات الجوع والجهل والمرض · ومن أجل بلوغ هذه الغايات الغالية والحصول على الآمال الطيبة واصل الشعب التونسى ببسالة وصبر وتضحية ومصارعة الجبروت الاستعمارى قرابة قرن من الدهر تحت لواء الحركـــات الوطنية التى تعاقبت على حمل مشعل النضال المستميت ·

ثم يستطرد فيقول : « ان هذه الامة بشهادة التاريخ ليست مخلوقة حضاريا وفكريا وروحيا من صفر أجوف ، بدأ ظهوره من الامس القريب ، كما يزعم الخراصون · ولكنها كانت فى ماضى التاريخ والى اليوم باسقة كالشجرة الشامخة ، من جذور عميقة غائرة فى أعماق الدهر وادغال التاريخ · بقدر ما تحرص الامم الراشدة باحثة عن الجذور لتكون لها الاصالة والعتاقة والمجد فيكون من الجحود اللئيم والغرور الفاضح أن يزعم زاعم اننا أمة حديثة عهد بالوجود ، بلا بينات ولا شهود · هنالك ينهض **التاريـخ** قائلا : كلا ، هاؤم اقرءوا كتابيه انى فيه مقدم حسابيه ! » (ص 64 وما بعـدها من مقدمة خلاصة النازلة التونسية) ·

ومن هذا المنطلق الواضح فى فهم التاريخ ينكر الاستاذ بسيس ان يظل درس التاريخ مقصورا على تدوين أخبار رجال الدولة دون تتبع لادوار الحركات والارادات الشعبية وتأثيرها فى الرجال والاحداث ، وينكر كذلك أن تكون دراسة التاريخ خالية من كل هدف أو روح بدعوى المنهجية أو الموضوعية وله فى ذلك أقوال متفرقة طريفة منها قوله : « ان التاريخ لمعلم أكبر للشباب ، يغريه بالايثار ، ويدفعه الى اعتناق مثل عليا تملي عليه أن يفنى مواهبه ومكاسبه فى اثراء نهضة أمته وتجعله متناغما منسجما مع أمته فى آلامها وآمالها ، فلا يعيش ناشزا عنها ولا مفصوما ٠ ولن يثمر درس تاريخ أية أمة هذه النتائج الجليلة الحفيلة الا اذا كان عاملا فى تحريك سواكن العزائم ، وصقل مرايا التجارب ، وشحذ همم الطموح والانتفاع بعبر الاحداث ٠٠٠ والا اذا أعرض صاحبه عن سرد الوقائع سردا على حسب التقويم الزمنى للايام والاعوام والدول والملوك بلا تحقيق ولا تدبير ولا أمعان » (ص 8 من مقدمته على خلاصة النازلة) ٠

ومن هنا نفهم تنويه الشيخ محمد الصادق بسيس ـ رحمه الله ـ بأحد المنسيين من علمائنا ورجالات نضالنا القومى ، وهو الحاج أحمد الورتانى ، الذى امتحن فى فتنة العريضة التى قدمها الوكلاء عن الشعب الى الباى للاحتجاج على أضرار الحماية بمصالح الامة : « فصمد الورتانى عندما عزل (وكان مدرسا بجامع الزيتونة ورئيسا لجمعية الاوقاف وناظر المطبعة الرسمية) وامتنع عن العودة الى وظائفه الى ان لحق بربه راضيا مرضيا ضاربا مثلا عاليا لثبات أصحاب المبادىء حين يمتحنون بالشدائد وتثبيتا لقلوب الجماهير فى ساعة العسرة ، خشية زلزلة الاقدام وزيغ القلوب » ٠

وكان رحمه الله لا يتحرج من قولة الحق وانصاف الرجال والمؤسسات التعليمية، التى انقذت تونس من نير الاستعباد ، فيشير الى أن أغلب زعماء الحركات التحريرية فى تونس زيتونيون (ص 59 من الكتاب السابق) ، ويصرخ فى وجه كل مستنقص لدور جامع الزيتونة قديما وحديثا ، ويدافع عنه بكل قوة واجلال فى عديد المناسبات، من ذلك قوله : « وكان جامع الزيتونة دائما قلعة الامة فى حماية دينها ولغتها فى جميع أوقات الشدائد السوداء » (ص 56 من الكتاب السابق) وبين ما خطط له الاستعمار لاقامة التفرقة بين اصناف المتعلمين التونسيين فيقول من مقال له فى جريدة العمل :

« نرى فى أوائل الحماية ... كيف تتأسس ادارة العلوم والمعارف التى يديـرها المستعرب ميشويل ، وأنه يعـلم ببرنامج المدرسة الصادقية الذى وضعه الـوزير المصلح خير الدين ، وما يحويه من قيم لابراز الشخصية التونسية ، ولاخراج الاطارات العصرية من التلامذة لتونس الناهضة فيقيم لها ضرة هى المدرسة العلوية ، يفكر ان تكون معملا ينتج لمصالح الحماية لتخريج طائفة من المعلمين المصوغين صياغة خاصة على الهوى المطلوب والخطة المدبرة . ومن جهة أخرى فتح باب الاطماع فى المناصب والمرتبات لتخريجها من الموظفين والمترجمين ، أما التعليم فى الزيتونة والصادقية فقد بات يتخبط فى شباك من العراقيل والمكائد والاحابيل . ورغم كل ما أحيط بذلك التعليم العربى لغة الاسلام الروح ، فى كـلا العهدين فاننا لو رجعنا الى المصادر من كتـب وجـرائد ومجلات لرأينا طلاب الزيتونة عصرئذ يسجلون فى التاريخ حركة عظمى فى المطالبة بالاصلاح لم تخمد جذوتها طيلة مدة الحماية ويبدو ذلك واضحا للباحث المتجرد المنصف الراصد لتسجيل مجارى التيارات الاصلاحية التى كان المجتمع التونسى يموج بها موجا ويجيش فيها جيشانا تمسكا منه بالعروة الوثقى من ذخائره اللغوية والدينية والحضارية وراغبا فى اصلاح اجهزة التعليم لمد الروح الوطنية بالطاقات ، طاقات الثبات والصبر والمصابرة والامل فى النصر » .

وكان للشيخ بسيس كمثقف زيتونى مؤمن بدينه معتز بقوميته مخلص لبلاده ، ماضيه المعروف فى أيام الكفاح الوطنى ، ونجده بمناسبة تكريم صديقه الاستاذ محمد المرزوقى يذكره على سبيل المفارقة بما جمعهما أيامئذ فقال له : « قد جمعنا السجن عقوبة لنا على ماضينا الاسود عند الادارة الاستعمارية والابيض فى التاريخ » (من مقال له بجريدة العمل فى حفل تكريم الاستاذ الاديب محمد المرزوقى) .

لقد كان احساس المرحوم الصادق بسيس بالوطن احساسا غير رومانطيقى بل كان احساسا براغماتيا اذا جاز التعبير . ونقتطف له من مقال بعنوان : « الوطنيـة بين السلبية والايجابية » يعالج فيه أزمة الحنين السلبى لدى المغتربين ، وقلة التفاتهم الى ما تقتضيهم منهم أوطانهم . يقول الاستاذ بسيس : « كثير ما تغنى المحبون لاوطانهم بمغانيه ومعالمه ومنازهه ، وما فى طبيعته من خلابة مناظر وروعة مشاهد وبداعة مظاهر .

وهذا حب رومانطيقى شخصى ، وكدت أقول أنانى · الحب الصحيح : ان تحب وطنك من أجل مشاكله ، من أجل تخلفه ، من أجل الاوعار والعقبات التى تعترض قافلة التقدم وذلك همك والمقيم فى عقلك · ان الحب الاول يعطيك نشوة خمرية وغيبوبة صوفية ، أما الثانى فيلهمك كدا فى التفكير ويقظة فى الضمير ثم عملا للانقاذ » (العمل الثقافى بتاريخ 1971/4/30) ·

وهذه لعمرى فكرة من غريب توليداته ومعجز تعبيراته ، وانك لتجد للرجل الكثير من ذلك ، وكله ينم عن حدة فى الذهن وعمق فى الادراك ووضوح فى الهدف · وكأنه يرى بل لقد كان يرى ان لا معنى لحياة المرء خارج المساهمة فى بناء نهضة أمته وازدهار حضارتها · فالحياة عنده هدف ومسؤولية ·

وقد رأينا فى هذا المضمار رأيه فى الفائدة من درس التاريخ ، فكذلك تفكيره وموقفه من الادب والانتاج الادبى ، ينبغى أن يكون مبنيا على هدفية ومسؤولية دون مساس بالحرية الشخصية · وقد كان خرج بانطباعات عن مناقشات دارت فى أواخر الستينات حول الالتزام واللالتزام فى الادب فكتب يقول ، تحت عنوان : «رسالة الاديب حرية ومسؤولية » : « أنا أفهم أن الاديب حين يستعد بفضل مواهبه ومكاسبه لان يؤدى رسالته الادبية فى مجتمعه ينبغى أن يكون فى أدائها حرا فى مجال التعبير ، يأخذه بجلده وجهده وصراعه حين يحرم منه ··· » ثم يقول بثبات : « لقد مضى عصر الادب الخاضع المائع المنعزل عن مجتمعه ، أدب الصلة بالخلفاء والملوك والقواد والوزراء والحجاب · واقبل عصر أدب الحرية والمسؤولية ، حرية التعبير عن الفكرة ، والشعور بمسؤولية أدائها فى صدق وأمانة واخلاص نحو الذات ، سيما أدباء الشعوب المتخلفة · ان الاديب الحق يعيش متنازعا متداولا حائرا بين قلق وشوق · قلق نقد الواقع والتبرم به والشكوى منه والشوق الى التغيير والتحول والتطور نتيجة لنقد منبعث عن القلق وطموحا الى تجديد يتولد عن الشوق » · (العمل الثقافى 1971/11/19) ·

ومن أجل اخلاصه لمقومات أمته والمدافعة عن تماسك شعوبها بعروة الدين واللغة والوحدة القومية ، دخل الشيخ بسيس معارك رهيبة ، ولكنه أبلى فيها البلاء الحسن

دون أن يجف له قلم أو يكل له ذهن ، وقصاراه أن يقيم الحجة ويوضح المحجة حتى اذا ما أوفى على المقصود دون خدش أو تجريح ترفق بمخالفيه بمثل قوله فى بعض كتاباته : « ... فيبدو لك ما لا يبدو لى من رأى أو حكم أو تخالفنى فأنت حر قابلا كنت أو رافضا » (مقدمة خلاصة النازلة ص 72) .

وكذلك كان شأنه فى عديد من القضايا الاخرى كقضية اسلام البربر واستعرابهم وقضية العربية أمام تحديات اللغات الاجنبية واللهجات القومية ، وله فى هذه المسائل مواقف حازمة مشهودة ، رمى من أجلها بالتزمت والرجعية ، وناله غير قليل من أذى القلم واللسان وضروب الحرمان وحاشاه أن يكون زميتا أو رجعيا فى نظر من خبر طويته وألم بفكره وتحقق من مقاصده . وانظر مثلا رأيه فى مسألة استعراب البربر ، يقول بعد استعراض تاريخى حصيف لاطوار البربر قبل الاسلام وبعده : « وليعلل من شاء ذلك بشتى التعاليل ، أما أنا فأتمسك بتعليلى هذا : لو لم يكن الاسلام بالنسبة للبربر حبل الانقاذ من الطغيان الاستعمارى الرومى ، ولو لم يسر العرب الفاتحون فيهم سيرة العدالة والمساواة والتعالى عن التمييز العنصرى ما رضى البربر وهم فى دور السيادة والدولة والقوة أن ينتسبوا الى العروبة ... » (العمل الثقافى 19 مارس 1971) .

أما قضية العربية ومشاكلها مع العامية وصراعها مع اللغة الاستعمارية فمما يقول فيها : « واللغة العربية وأنصارها فى صراع مرير مع دعاة العامية وأبواق الاباحية اللغوية ، وتعرضت العربية فى تاريخ حياتها الطويل الحافل لحملات حاقدة مسعورة من الشعوبيين فى القديم وصنف من المستشرقين والمبشرين العاملين لمخطط السيطرة الاستعمارية فى عصر الاطماع الاستعمارية المادية ، فلما انقضى عهد الاستعمار المادى المكشوف أصبحوا يخدمون مع عملائهم منا الاستعمار الملفوف » .

ثم يستطرد فيوضح بأن « المخطط الاستعمارى عمد الى استقطاب هدفين :

1) تجميد العربية عن التوسع والتطور .

2) توسيع نطاق اللغات الاجنبية وتشجيع اللهجات المحلية واحياء الدائر منها . ومن أخطر وأكثر الدعوات الساعية الى تهديم الفصحى ما يدعون اليه من اللغة الوسطى » (المصدر السابق) .

وها هو ذا يقارن بين الوضعية اللغوية فى تونس قبل الاستقلال وبعده ، فيقول : « فلا عجب اذا أصبح الاصلاء فى العربية غرباء بغربة لغتهم عصرئذ ، ولا عجب اليوم ان يعيد التاريخ نفسه كما يقال فيخشى السطحيون ، وقد أصبح اللسان الاجنبى مورد رزق ومركز قيادة فكرية وهيمنة جماهيرية أن يصيروا غرباء بعد رحيل الموالى الاعزاء » (المصدر السابق) .

وكان يرى تأسيس مجمع لغوى بتونس وفى كل البلاد العربية وقد خاله بعض خصومه من أنصار العامية انه يتعصب على العاميات لاسباب دينية ووجدانية وتقليده ، وينكر دراستها ، بينما له كلام فى الحظ على العناية بالادب الشعبى ودراسة اللهجة يخاله القارىء لاحد من غلاة العامية ، مما يدل على مبلغ علم الشيخ بالادب وفنونه ومدى تفتح ذهنه لكل ما هو طريف وأصيل ، يخدم مصلحة اللغة ويكشف من خلالها عن عبقريات أصحابها الفردية والاجتماعية . يقول : « وأنا وان كنت من أنصار الفصحى ومن عشاقها العقليين لا المتيهين ، انى أومن بأن فى أدبنا الشعبى قيما رائعة تغوص فى أعماق الجذور التونسية وتعبر أصدق تعبير عن النفسية التونسية عبر التاريخ ؛ ما لا تكاد تعطيه لنا الفصحى الا فى أدبها الجاهلى وبعض العهود الادبية الاسلامية ذلك أن اللهجات العربية التى انسابت كالجداول من نهر العربية الاكبر من العهد الجاهلى كانت هى أداة التعبير الشعبية لجميع الطبقات ، لا فرق بين الخواص والعوام وخاصة عندما اختلط العرب بغيرهم وانتشر اللحن وبرزت اللهجات العامية ولهذا نرى الباحثين فى نفسيات الشعوب وتاريخها النابع من أعماق الوجدانات الشعبية لا من الكتب والمصادر الاخرى للتاريخ ، يعتمدون على الاستقاء من هذا النبع الفوار الذى يعطيهم على ما فيه من مبالغات أحيانا من الحقائق المجهولة خاصة فى العصور القديمة حين كانت قيم الشعوب مهملة من حكم الحاكمين وتصنيفات العلماء، ما لا تعطيهم المصادر الاخرى المكتوبة على الاوراق اما اللغة الام أعنى الفصحى فى كل أمة تلك

التى تفرعت عنها شعب اللهجات ، فانها حقا يمكن ان تكون مصدرا معتبرا عن قيم النخبة ومميزات خاص الخاص • ولقد كان العلم والادب والفن فى العصور القديمة والوسطى مقصورا على المحظوظين من أبناء الملوك والوزراء والقواد بل كان سرا مكتوما وطلسما مجهولا الا عند سدنة الكهان ورهبان الديارات واحبار البيــع » (جــريدة العمل الثقافى فى 7 ماى 1971) •

وله ــ رحمه الله ــ توفيقات عجيبة بين المصلحة العامة وأحكام الاسلام ، ومما يبرز فهمه لديناميكية الدين مع مقتضيات كل زمان ومكان هذه الشهــــادات التى لا يفتأ يرددها ، ومنها قوله : « أنا بصفتى مسلما أدرك ما فى الاسلام من قيم عقائدية مثلى ، وتشريعات حكيمة عادلة ، ومثل أخلاقية عليا ، وأومن من أعماقى بأن ما شرعه الاسلام من أحكام لعلاقة الانسان بربه وبأخيه الانسان وبالكون معاشا ومعادا هو الحكمـــة وفصل الخطاب ، وانه حيثما تكون المصلحة فثم أوامر الله واينما تكون المفسدة فثم نواهى الله » (من محاضرته فى الملتقى الاسلامى الحادى عشر بورجلان ــ الاصالة ••• ص 110) • والحقيقة أن هذا القول جاء فى محاضرته عن المرأة فى الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بورجلان ، وكان رحمه الله ربما عارض الغلو فى القول بتحرير المرأة من ربقة الرجل ، وكان يحبذ أن يطرق موضوع علاقة المرأة بالرجل فى الحياة الاجتماعية والزوجية بعيدا عن الديماغوجية السياسية صيانة للاخلاق ولحرمة الروابط العائلية • وكان يعتقد ان المرأة ينبغى بالاحرى أن تتحرر هى والرجل معا من الجهل الموروث عن عصور الانحطاط ، وان يستوفيا أولا ما أعطاهما الله من حقوق بعضهما على بعض قبل الانبهار بمثال المرأة الغربية • لان التطور من ناحية لا يمكن تقليده بصورة مأمونة دون المرور بمراحله الطبيعية المتقدمة ، ولان الاجتهاد من ناحية أخرى فى شؤون المرأة أو غيرها ينبغى أن يكون مبنيا على أصول مرعية من دين واجماع اجتماعى حقيقى •

ونراه فى هذه المحاضرة التى كتبها فى وقت تعدل فيه ــ أو هكذا بدا له ــ شيئا قليلا الموقف الرسمى بتونس فى قضية تحرير المرأة وتشغيلها واستشعر الشيخ ازاء ذلك بشىء من الارتياح، فاستمع اليه يقول دون ان يخفى تأسفه على ما فات : «وقد شاعت مادة ساس ويسوس وما تصرف منها ان نغتنم هذه الفرصة السانحة (دعوة انصاف

المرأة من غبن الماضى) تملقا منها لمشاعر المرأة الرقيقة لتعدها من مكاسب صـــفها المتعاطف معها فتزعمت الحملة بما لها من وسائل التبليغ ... فازدادت الازمة بين الرجل والمرأة وأصبح الرجل فى المحاكم مدانا مسؤولا وفى نظر المجتمع ظلوما انانيا وفى البيت مصدر سلطة مرفوضة . ولما دخلت المرأة مجال الشغل أصبح دخلها وسيلة تفوق واعجاب وشعرت أو أشعروها بأنها ملكت استقلالها التام فأصبح تشغيلها ذريعة الى أزمات اقتصادية واخلاقية باعترافهم ... » (محاضرته فى ملتقى الفكر الاسلامى بورجلان ـ الاصالة ... ص 120) .

ولكنه يقول قبل ذلك مناصرا المرأة بما يذكرنا بمناصرة الطاهر الحداد لها : « يجب ان نعترف بان الرجال فى عصور انحطاطنا وبعدهم عن مبادىء الاسلام حرموا المرأة مما أعطاها الله ، وحجبوها عن نور العلم ، وأهملوها من التربية القومية ، وفصلوها عن المجتمع ، وغبنوا مواهبها بالكبت والحرمان ، واعتبروها ظرف شهوة وتحفة متعة وطرحوها من قائمة انسان شريك ، ضرورى للانسان الرجل ، وضربوا عليها حجابا غليظا ، ارضاء للانانية ، وحبسوها فى البيت للخدمة والانجاب كسجين محكوم عليه باطلا بالسجن والاشغال الشاقة مدى العمر ، ونفوها من الواقع المعاش الى المتوهم المجهول حتى وقف عقلها عن النمو،والنضج،وردم تحت انقاض الجهل،وانحرفت مشاعرها الدينية الى قباب الصلحاء والاستعانة والاستغاثة بهم فى دفع المصائب ونيل الرغائب والتعلق بتهويمات الدجاجلة من الضاربين على دسوت الرمل ، مما جعل عقيدتها الى الكفر أقرب منها الى الايمان ، فهى غارقة فى الخرافة الى الاذقان ، وهى مقودة بالتقاليد السيئة ، ولا تشعر بسوئها من طول الامد عليها فى التدهور والتعود ، وكأنها أصبحت تطبيقا لمثلنا التونسى الشعبى الذى صورها لنا صورة دقيقة لا نجدها فى أدبنا الفصيح الذى انهمك خلاعة فى وصف ورد الخدود وبان القدود وليل الشعور وبرق الثغور ، يقول هذا المثل التونسى : « فى النهار دابة وفى الليل شابة » (المحاضرة نفسهـا صفحة 121) .

وكان الشيخ بسيس ـ رحمه الله ـ ذا تفكير عملى واقعى ، لا يرضى للمجتمعات الاسلامية المعاصرة ان تبقى أو يبقيها حكامها فى تناقض وحيرة من أمرها فى موضوع

المراة وغيره ولذلك كان من آخر أمنيات حياته ان يضع المفكرون المسلمين فى ملتقياتهم مناهج « تحقق توق المجتمعات لحل المشكلات التى طال عليها الامد وهى تؤلم النوعين الرجل والمراة فى بيوت ومجتمعات تلك الحكومات التى تنص فى دساتيرها على أن الاسلام دينها والعربية لغتها ، والا ـ كما يضيف ـ فان الشعارات الخادعة والعناوين البراقة مصيرها هو مصير من قال الله فيهم : « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا أنفسهم وما يشعرون » (المحاضرة نفسها ص 113) ·

ونراه يغضب غضبة شديدة لمن يحاولون نسخ « الاحكام العادلة الخالدة فى جوهرها الربانى الاصيل ··· باسم الاجتهاد المرفوض » ويضيف : « اذ لا اجتهاد مع وجود النص · والاجتهاد عند توفر دواعيه قائم على الكفاية العلمية الشرعية المشروطة فى المتعاطين له من العلماء وهو لا يكون فى هذا العصر الا اجماعيا شوريا ، حتى لا يهدم أحكام الله من فى قلوبهم مرض من أصفار العلماء واصنام الحكام » (المحاضرة نفسها ص 118) ·

ولم يمت رحمه الله ، على ما علمته منه ، الا وهو راض على ما حققته تونس بعد الاستقلال من خطوات فى سبيل اصلاح التعليم الدينى الزيتونى والا وهو مفعم قلبه بالمستقبل المشرق لحياة اللغة العربية والاسلام فى تونس والجزائر وسائر بلاد المغرب العربى وانتصارهما قريبا على مخلفات الاستعمار ومقتضيات الحضارة العصرية ·

لقد كان رحمه الله ربما دفعته العناية بالترجمة لعلمائنا الى البحث عن قبورهم بالمقابر مثلما وقع له مع الصوفى الكبير المرجانى التونسى المتوفى سنة 687 هـ · اذ أعثره الله على شاهد قبره · ولكن سرعان ما وجده مكسورا فى زورة ثانية له الى المقبرة فاعلم بتلك « المأساة » ـ كما يصفها ـ صديقا له من علماء الآثار وهو الاستاذ مصطفى زبيس ـ أمد الله فى عمره ـ وروى الشيخ تلك الحكاية فى مقال له مـؤثر بعنوان « الرعاية للامجاد » ، يقول فيه : « فتالم لمصير آثارنا فى بلادنا وذهبنا معا وحملنا المشهد فاودعناه عند أحد محركى المغارة الشاذلية ثم يضيف قائلا : « ولا ادرى ما فعل الدهر به الآن ، هل مكسور قطعا ؟ ام هو حجرة فى حائط ؟ ام مقعد لمستريح ، أو جذاذ ذره الريح ؟ »

ثم يتخلص الى القول بأن « الامم التى تخلد رجالها تغرى الخلف بالاقتداء بهـــم وتثير الحمية والنخوة والحماسة فى الصدور الخامدة وتغرس روح **الآمال** فى العزائم الخائرة ، فتنطلق نحو بلوغ الغايات الكبرى بطموح طائر وعزم فاتك · كم فرطنا وكم أهملنا فى القديم والحديث ذكريات رجالنا وبخسناهم حقهم وغمطنا صنيعهم ، وبذلك بعثنا من حيث ندرى ولا ندرى بواعث التشبيط والتعويق وعطلنا المواهب العذراء عن الاثمار والانتاج وقتلنا البراعم وهى لما تتفتح عن الزهر الجميل ، وخنقنا الحناجر فلم تهزج بالنغم المثير ، وما زلنا نفعل ذلك اما اهمالا وتفريطا أو حسدا وجحودا ·

« فمتى نرى فى أمتنا شعورا بتعظيم سلفنا من العلماء والادباء ؟ ومتى نرى آثارهم مخلدة وكتبهم منشورة واسماءهم مذكورة وسيرهم موروودة ؟ كفاهم ما لقوا وهم أحياء من جحود واهمال · اننا حين نفعل ذلك نحسن لانفسنا فى بناء حضارتنا وتنويــر شبابنا أضعاف ما نحسن لهم وهم أموات · وبهذا الخلق المعترف بالجميل نأخذ مكاننا الذى نستحقه بين هذه الامم التى ضربت بالسهم المصيب وكسبت القدح المعــلى فى العزة والسيادة والقوة والحضارة ، لان من شمائلها الفاضلة أنها أكرمت أبطالها فى التأريخ » (العمل الثقافى 12 مارس 1971) ·

فلعلنا بهذا الاحتفال أيها الاخوة الكرام الجزائريون والتونسيون الحاضرون هنا قد قمنا ببعض الواجب نحو مصلح من بقية القوم ·

جـوانب من حيــاة ونضـال الفقيـــد
الاستـــاذ محمـد الصــادق بسيـــس

محمد الطيب بسيس
شقيق الراحل الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسول رب العالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبـه الطيبين ،

سيدى الوزير ،

أصحاب الفضيلة ،

سادتى اخوانى ،

سلام عليكم من الله ورحمة ورضوان •

انى اتقدم بوافر الشكر وجزيل الثناء لوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالجمهورية الجزائرية وللسيد الوزير مولود قاسم المشرف عليها على ما تفضلت به من اقامة هذا الحفل الكبير لاربعينية العالم المصلح المربى المرحوم الشيخ محمد الصادق بسيس رحمه الله تعالى تقديرا لمكانته العلمية ولجهوده

التى بذلها فى خدمة القيم الدينية والاجتماعية والادبية واحياء للذكرى التى تركها فى مشاعر اخوانه بالجزائر فى الملتقيات التى شارك فيها كمحاضر ومناقش حتى فى بعض الجوانب الهامة فى تاريخ الجزائر المجاهدة مما يتصل بحياة باعث النهضة الجزائرية الزعيم الاسلامى الكبير الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس قدس الله روحه مما لا يزال صداه يتردد فى اجواء الجزائر وقد كان آخر لقاء له بكم على أرض الجزائر الحبيبة فى الملتقى الاخير الذى كان آخر نشاط جماعى قام به فى حياته وختم به صفحة حسناته ٠

وقد اتاحت الوزارة بذلك الفرصة لهؤلاء الاخوان الافاضل الذين دفعهم اخلاصهم للمبادىء التى عمل من أجلها الراحل الكريم ان يتفضلوا بهذه الكلمات الطيبة الكريمة تخليدا لذكراه واحياء لتلك الاهداف التى يرنو اليها كل عالم عامل بعلمه مخلص لله ولرسوله فاليهم جميعا أرفع آيات الشكر وخالص الثناء وللحكومة الجزائرية وللشعب الجزائرى المسلم الكريم ٠

سادتى :

ليس لدى بعد كل هذا الذى تفضلت به هذه الجماعة الكريمة الفاضلة من اخوان الصدق والصفاء للراحل العزيز ومقدرى علمه ومكانته من تعداد لخصاله وعلمه وجهاده وأدبه وتشخيص لمقدار الرزية فيه وقد كان منهم ذلك بلسان الحق للتاريخ وبخلق الوفاء للاخوة فى الله والاخلاص لدينه ٠

ليس لى أيها السادة ان اضيف شيئا أو أزيد كلمة على ذلك فالمصيبة به قد الجمت لسانى واذهلت كيانى انه ليعز على ان اقف فى هذا المقام راثيا لك يا أخى منوها بخصالك الكريمة واخلاقك الفاضلة وروحك النقية وآمالك العريضة وامانيك اللامحدودة فى ارادة الخير والهداية لغيرك وتشوقاتك لخدمة قضايا الاسلام والمسلمين ٠

من يستطيع يا أخى ان يعطر الدنيا بذكراك الفواحة فى مجالات الخير والهداية والاصلاح وانت قد افعمتها قبل ذلك عطرا وشذى ولم تترك أى مجال بعد ذلك لمن يريد ان يقول ٠

فالمقام يغنى فيه الايجاز عن الاطناب فالكلمات لا تعبر عن مبلغ الالم بك ويعـز الصبر فى فقد مثلك فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠

ســـادتـى :

ان المقام يستدعى ان أقول ما يجب ان يقال :

فالفقيد رحمه الله هو محمد الصادق ابن المرحوم الحاج محمود بسيس ولد بتونس العاصمة فى 14 من ذى الحجة الحرام سنة 1332 الموافق 2 نوفمبر 1914 من ابوين تونسيين وينتسب سلفه الى مدرسة القرآن تعليما وتلقينا ومن هناك نشأت طفولته فى وسط قرآنى متدين جد التدين ، فشب وهو من صنف الحفاظ المجيدين فتأهـل بذلك للامامة بالناس وهو صغير السن فى صلاة التراويح ، بمسجد سيدى بن عروس بتونس كما هى تقاليد الشمال الافريقى تقديرا لحفاظ القرآن وترغيبا لمن لم يبلغوا بعد هذه المرتبة الشريفة فى اتمام الحفظ ٠

وقد كان من قدر الله ان يستأثر الله بوالده وعمره دون العشرة ، ثم بوالدته بعد ذلك بخمس سنوات رحمهما الله وهكذا كتب لفقيدنا ان يتجرع طعم اليتم ويتذوق صابه وعلقمـه ٠

وقد كان من لطف الله ان ظهر المصلح الكبير المنعم الشيخ عبد العزيز الباوندى(1) فقام بدروسه فى الوعظ والارشاد للعموم بجامع الحلق بباب الجديد بتونس بين العشائين كل ليلة مدرسا الاربعين النووية والشفاء للقاضى عياض رحمه الله ، باسلوبه الجذاب وبيانه العذب الرائق النافذ الى قلوب العامة والجماهير ، فلازمه فقيدنا مواضبا عـلى دروسه فكان أن تفطن الشيخ الباوندى لنباهته وتشغفه للعلم والتعلم فارتأى له ان

(1) كان هذا الرجل اول مـن قـام بالدعوة وبالفعل الى تحفيظ الجماهير الاسلامية بتونس القرآن الكريم بواسطة الاملاءات التي انشأها فى كامل التراب التونسى وقد أتت أكلها حتى أوقفته السلط الاستعمارية وحجرت عليه ذلك وتوفى رحمه اللـه كمبدأ على ذلك سنة 1940 ٠

يحدث درسا بعد صلاة العشاء بمسجد سيدى الجبالى بالقرب من باب سويقة للفقيد ولجماعة آخرين يدرس لهم فيه الشيخ بطريقته البيداغوجية مبادىء العلم العربية وقد استمرت هذه الدروس الى حد التأهل للانخراط فى سلك التعليم بالكلية الزيتونية وكان ذلك فى أوائل الخمسينات الهجرية والثلاثينيات الميلادية •

ومن هناك انطلق فقيدنا فى ميدان المعرفة غير مقتصر على برامج التعليم وما تتضمنه من علوم بل انكب على المطالعة فكان يقضى سواد يومه بمكتبتى العبدلية والخلدونية وكان معجبا كل الاعجاب بمجموعة « المنار » فى اجزائها الاربعة والثلاثين حتى أتى على ما راقه منها • ومن هناك بدأت صلته بالحركة الاصلاحية ورجالها الاوائل الثلاثة الشيخ جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا رحمهم الله ، والى هذا يعزى تشبعه بمبادىء حركة الاصلاح واصطباغ افكاره بصبغتها الحية المنعشة فى وقت مبكر جدا من حياته • وكان الى جانب ذلك متلهفا على كتب الادب قديمها وحديثها وما كان يصدر من مجلات كالرسالة والثقافة • وزاده تدلها بالادب تعرفه على الشيخ العربى الكبادى الشاعر والاديب الكبير فتتلمذ عليه ولازمه ملازمة الظل سواء فى دروسه بمدرسة العطارين أو فى مجالسه الخاصة التى كانت تجمع هذا الاديب العظيم باصدقائه واحباء أدبه وقد كان فقيدنا ملازما له الى آخر لحظات حياته ومن هناك كتب عنه مؤلفه الذى عنوانه : « الكبادى كما عرفته » حيث ترجم له وكتب الكثير جدا عن أدبه وشعره ومؤرخا لحياته انسانا وأديبا انسانا •

ومن طرائف حياة فقيدنا الفكرية انه كان مغرما جدا بكتب الغزالى فاتى على كتاب الاحياء وغيره من كتبه التصوفية والفلسفية فاثر ذلك فى سلوكه الاخلاقى وفى طريقته فى الاستدلال والتمثيل والجدل فكان بذلك غزاليا سلوكا وتفكيرا •

فكان يقول لى لولا تاثرى بالسلفية الخالصة من مدرسة الامام رشيد رضا لاثر فى الغزالى تاثيرا كبيرا لا مناص لى منه فاصبح بذلك يرى التصوف سلوكا وايجابية فى الحياة ورقائق واذواقا ولا يساير الجوانب السلبية فى ذلك • ولكنه مع كل ذلك ظل

طوال حياته مخلصا لكل اساتذته هؤلاء ينافح عنهم وعن مبادئهم كلا فى ميدانه ، ولا ننسى صلاته الوثيقة بمدرسة ابن تيمية وعميدها بعده الامام ابن القيم الجوزية رحمهما الله فكان يرى ان هذين الامامين يمثلان حلقة ممتازة فى تاريخ الحركات الاصلاحية في الاسلام وان من جاء بعدهما ان هو الا صدى وترديدا لآرائهما ومبادئهما .

ســـادتـي :

ان هذه العوامل مع غيرها مما يضيق عنه هذا المقام هى التى تظافرت على تخريجه العلمي ومثاليته فى السلوك وعلى حيويته العجيبة فى العمل الايجابى يضاف اليهـا استعداد وهبى لتلقى المعرفة المتكاملة وشغف قوى منذ فجر حياته بالبحث والمطالعة الى حد التدله والهيام مع ذكاء ألمعى نفاذ الى الاغوار والاعماق . وامتاز فوق كل ذلك بالصبر والجلد على المطالعة . فكم من ليلة لا ينام فيها الا وهو مغلوب على أمره والكتاب فوق صدره أو ملقى حذوه .

ســـادتـي :

أليس حقا بعد كل هذا ان نقول فيه وانه كان داعية الى الله مناضلا عن الاسلام مدافعا عن كل قضاياه وعن قضايا لغة القرآن وصد هجمات الشعوبيين ومرتزقـــة الاقلام ومنحرفى الذمم عنهما فكان يقذفهم بوابل من ردوده المحكمـــة حتى يخرس أصواتهم ويدك عليهم حصونهم . أليس بهذا عرف الشيخ الصادق بسيس . ومـن لم يعرفه فهو بمواقفه الدفاعية هذه قد عرف ولقد ثبت فى الدفاع والنضال طـوال حياته من أجل تلك المبادىء حتى بعد ما ضعفت قواه وانهك المرض جسمه طيلة أربع سنوات فكانت روحه دائما عاتية قوية جبارة مهابة يحسب لها ألف حساب .

وقد كان موقفه هذا وثباته عليه سببا لما لقيه من اذايات وما بث فى طريقه من أشواك حتى سجن وعذب وأهمل شأنه رغم انه دعامة من دعائم النهضة فى تونس ورائد من رواد الاصلاح والثقافة ومحاضرا ومدرسا وواعظا ومؤلفا وداعيا الى الله بكل طريق وفى كل اتجاه فعمل فى منظمات الشباب فترأس جمعية الشبان المسلمين سنة 1934 ووسع مجالها فاضاف الى مشاريعها لجنة اغاثة فلسطين ولجنة الدفاع عن

فلسطين فكان مجهوده بارزا فى كل ما قدمه لمنكوبى فلسطين من آمـــوال ومواقف سياسية هامة مقلقة ومحيرة للاستعمار الفرنسى فى تونس واعطى بذلك لتونس مكانتها كاملة عربية مسلمة لم يستطع الاستعمار اخراجها عن صف اخوانها من الامم الاسلامية ثم اقام مهرجانا حافلا لاحياء ذكرى الامام محمد رشيد رضا شاركت فيه شخصيات اسلامية ممتازة وفى مقدمتهم الامير شكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب وعبد القادر المغزى وبهجة البيطار وغيرهم رحمهم الله جميعا بالاضافة الى من شارك فيه من الاخوان الجزائريين والتونسيين كما شارك أيضا فى نشاط لجنة اغاثة الجياع والعراة سنة 1936 التى فضحت سياسة فرنسا الاستعمارية التى أدت الى تفقير الشعب التونسى حتى أصبح جائعا يعيش فى العراء لا تستر جسده الا الاسمال البالية ٠

أما نشاطه الصحفى فى الادب والاجتماع والدفاع عن المبادىء السامية والتاريخ فقد ملأ كثيرا من الصحف اليومية والاسبوعية بسلاسل مطولة فى تلك المواضيع وذلك منذ أوائل الثلاثينات فقد كتب فى الزهرة والنهضة والنديم والبيان ولســـان العرب والحرية والعمل والصباح والبصائر الجزائرية وكوكب الشرق والسياسة اليومية المصرية ومجلة الثريا ومجلة الفكر ٠

وقد أصبح بقلمه السيال يخطب وده الصحافيون ويفتحون أمام كتاباته صفحات من صحفهم ليكتب فيها ما يروق له وكيف شاء ولكنه كان صاحب مبادىء واهداف لا يحرك قلمه ولا يصوب قذائفه الا لحماية تلك الاهداف ورد التهجمات عليها ٠

أما فقيدنا كأستاذ فلم يكن درسه الا وسيلة ينفذ بها الى قلوب تلاميذه فيما يبسطه عليهم من قضايا تشغل بال كل مصلح اجتماعى يهتم بشؤون بلاده ويشعر بالحاجـة الملحة الى ضرورة الدعوة الى المنهجية الجديدة لتوخى طرق الاصلاح كل ذلك فى نطاق المفاهيم الاسلامية الصحيحة السليمة وقد كانت تلك الاستطرادات التى تتخلل درسه من آن الى آخر هى المحاور التى يدور عليها الحوار بينه وبين تلاميذه فى الشؤون العامة ما بين سياسية واجتماعية وغيرها مما كان جليل الاثر فيمن تخرج عليه من ابنائه الروحيـين ٠

مــؤلفاتــــه :

في خضم هذه الحياة المفعمة بكل مظاهر الحيوية والنشاط اتيحت للفقيد فرص سانحة أمكنه فيها ان يتفرغ لدراسة جوانب عديدة من ثقافته المتراسية سواء في الناحية الدينية أو الادبية أو التاريخية أو الاجتماعية وكانت محل عناية منه وتقدير فكان ان ألف مؤلفات فيها فقد اتم البعض وهو حسب القائمة التالية وبقي البعض الآخر لم يتمه وهو غير داخل في هذه القائمة ٠

- تفسير جـزء عـم ٠
- الاجتهاد في التشريع الاسلامي ٠
- وظيفة الحسبة في المجتمع الاسلامي ٠
- الرعاية الصحية في الاسلام ٠
- دفـــاع عـن السنة النبوية ٠
- ريحـــان الأديـــب ٠
- العربي الكبادي كما عرفته ٠
- نظرات في التصوف الاسلامي ٠
- نضال الامير شكيب أرسلان عن قضايا المغرب العربي ٠
- نظرات في حياة الامام الرازي ٠
- مكانة الامام محمد رشيد رضا في الاصلاح الاسلامي ٠
- فلسطـين العربيـة ٠
- حياة أبي علي النفطي ٠
- حياة أبي محمد المرجاني ٠
- حياة الشيخ عبد العزيز المهدوي ٠
- أسرة التجاني في مجرى التاريخ ـ (ليست أسرة التجاني صاحب الطريقة

المعروفة ، بل هى أسرة تونسية اشتهر أفرادها بالعلم والادب فى القرنين السابع والثامـن) ٠

- حياة الشيخ محمد السنوسى وآثاره ٠
- حياة أبى المواهب التونسى ٠
- تاريخ تونس العاصمة ٠
- تاريخ جامـع الزيتونة ٠
- تحقيقه لرياض الصالحين للامام النووى ـ (بصدد الطبع) ٠
- تحقيقه لكتاب النازلة التونسية للشيخ محمد السنوسى ـ (طبع) ٠
- تحقيقه لتهذيب رسالة الشيخ عبد العزيز المهدوى للشيخ عبد الرحمن البجائى ٠
- تحقيقه لكتاب سبك المقال في فك العقال لابن الطواح التونسى ٠

سادتى هذه الحقائق عن حياة فقيدنا العزيز رأيت من واجبى ان أعرب بها حتى تكتب فى صفحة امجاده وحتى يعرفها عامة محبيه ومقدرى عظم المصاب به ولاستمطر بها على روحه الطاهرة الزكية غيث الرحمات ٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠ وشكرا لكم على تفضلكم بالاستماع الى ٠

جـوانب من حيـــاة ونضـــال الفقيــــد
الأستـــاذ محمــد الصــادق بسيـــس

بســم اللــه الرحمــن الرحيم

التهـامى نقـرة

معالى الوزير الاستاذ مولود قاسم ،

حضرات الاساتـذة ،

أيها السادة والسيدات •

اسمحوا لى قبل الخوض فى جانب هام مما عرف به الراحل الكريم من نشاطه الثقافى العام فى مجال الدعوة الاسلامية ان أعرب لكم أصالة عن نفسى ونيابة عن أسرة الفقيد التى حملتنى أمانة الاعراب لكم يا سيادة الوزير ولشعب الجزائر الابى ، ممثلا فى علمائه الابرار عن أصدق مشاعر التقدير والامتنان لما قمتم وتقومون به من خدمـــة للدين وللثقافـة الاسلامية ، ومن احياء لامجاد علماء طوى الموت أجسادهم ولكن الحياة نشرت عبيرهم بما خلدوه من جميل الذكر كما قال ابراهيم الخليل عليه السلام فى دعائه « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » •

ولسان الصدق لا يقتصر على الثناء وابراز المحاسن ، ولكنه يأخذ فى مقدمة ما يأخذ الدعوة الى العمل بالمبادىء التى دعا اليها الفقيد وعاش من أجلها وضحى فى سبيلها بما كان ينعم به أمثاله من زينة الحياة الدنيا ، فلم يزل هذا الخلف الصالح بالقـدوة متأسيا ، والى مبادئه داعيا ، حتى يترجم عنها فى سلوك وسيرة ، ويجسمها فى مواقف واعمال ، ويبرزها فى قوالب وأشكال . بذلك يكون الاخلاص والوفاء . ويطيب الثناء فى الرثاء ، وتحيا القدوة بالاقتداء ، لانها غرسها أينع وأثمر ، ولان الاقوال قد زكتها الافعال ، ولان حلقات الاجيال تماسكت فى ترابط والتئام .

أيها السادة الكرام !

ان قلبا يحمل فى سويدائه عقيدة صادقة ، ومبادىء سامية قلب لا يموت لانه يحمل بـذرة الخلـود .

وما الخلود فى هذه الدنيا الا جمال الاحدوثة ، وحسن الخبر ، وامتداد الاثر ، كما قال شـوقى :

والخلد فى الدنيـا ، وليس بهيـن ... عليـا المـراتب لـم تتـح لجبـان
فلو أن رسل اللـه قـد جبنوا لمـا ... ماتـوا عـلى ديـن مـن الاديـان
المجـد والشرف الرفيـع صحيفـة ... جعلـت لهـا الاخـلاق كالعنـوان
دقـات قلـب المـرء قائلـة لـه ... ان الحيـاة دقائـق وثـوانى
فارفـع لنفسـك بعـد موتك ذكرها ... فالذكـر للانسـان عمـر ثـانى

الاجساد تفنى ، ولكن الارواح تبقى بفضائلها ، وجليل أعمالها أصداء فى الآفاق ، وظلالا فى الحياة ، ومعالم على الطريق ... وما قيمة الحياة ان لم تكن مركز انطلاق الى آفاق أرحب ، ولم تخفق فى دروبها رايات النضال والبطولة ، ولم تكن ميدانا لنضال طويل ، وكفاح مرير فى سبيل عقيدة لا تخبو شعلتها بتسخير المواهب والطاقات فى خدمتها واذكائها ؛ وقيم خالدة لا تهون قداستها بصيانتها واعلائها ؛ ومبادىء غالية لا تزول آثارها بحمايتها واحيائها .

تلك هى الحقيقة التى تعلم الثبات والصمود ، وتلهم الحكم والروائع ، وتدفع الهمم والعزائم ، وتجند المواهب والطاقات ؛ وتجعل لوجود الانسان هدفا ، ولحياته معنى ، ولكدحه غاية !

هذا ما كان يؤمن به ويعمل بهدى من نوره فقيدنا الراحل الاستاذ الصادق بسيس الذى اختطفه الموت على عجل ، ولم نزل فى حاجة الى فكره الوقاد ، وروحه المتوثب ، وقلمه البليغ ٠ لكنها سنة الله فى الحياة ، ومشيئته فى الاحياء ٠

لكنهـا سنــن الوجــود جمـــاده   بـــاق وللحى الحمـــام مســـارع
لهفى عـلى الانسان ، عمـر « ضيق »   ومـــدار طاقتـــه الجليـــل الواسع
مستخلـف هـو فى الزمـان لربـه   وبقـــاؤه فيـــه السراب الخـــادع

ولكــــن :

ما مـــات مـــن خلفاؤه حسناتـــه   تزكـو عوارفهـا ، وفضـــل شـــائع

كان فقيدنا رحمه الله واسع الاطلاع ، عميق الفكر ، صادق الايمان ، كرس جهوده، وسخر قلمه ومواهبه لخدمة الاسلام ، واجلاء ما ران عليه من رواسب الجهل والانحطاط، وابراز جوهره النقى لمن ضلوا عنه وأضلوا ، وكان يجد فى لقاءات الفكر الاسلامى فى المؤتمرات والندوات متاعا لا يعادله متاع ٠

وما ازال اذكر وهو سننا منذ شهرين فى الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى بباتنة يحلل ويناقش ويعلق ، ولنبرات صوته الهادىء الفخم أصداء فى الاذن وفى القلب معا ، ولعباراته الفصيحة الجزلة وقع فى النفس ، لانه فيما يقول ويكتب يصدر عن ايمان وفكر ، ويستمد من ثقافة اسلامية أصيلة مكنته من التعمق فى البحوث التى يقدمها ، واهلته لان يعرض للمعضلات ، ويهتم بدقيق الامور وجليلها ٠ وكانى بصوته الدافىء يرن فى أذنى مرددا آخر ما قاله فى كلمته الختامية للملتقى ، تلك الكلمة البليغة التى ضمنها انطباعاته ، وأعرب فيها عن صادق حبه للجزائر قائلا : « لا يمكن للجزائر أن تعيش بدون تونس ، ولا يمكن لتونس أن تعيش بدون الجزائر ٠٠٠ » ٠

كان رحمه الله حريصا على دوام هذه الاخوة الرابطة بين شعبين هما فى الحقيقة شعب واحد ، اذ لا شيء يفصل بينهما قديما وحديثا ، حريصا على أن يربط بين الماضى والحاضر لبناء المستقبل ، مؤمنا بفاعلية الاسلام فى بناء الامة وصنع الحضارة ، باعتبار أن هذا الدين السمح هو العامل الوحيد لكل نهضة فكرية ، والحافز القوى لكل ثقافة حية ، وحضارة سليمة ٠

وقد درج طوال حياته على حب هذا الدين والعمل بشعائره على النحو الذى يحب أن يقوم به المؤمن التقى ، والعالم العامل ٠ فكان لاسرته المتدينة المحافظة ، ولمعارفه الاسلامية الواسعة ، ولدرسه لحركات الاصلاح فى العالم الاسلامى ، ومواكبته لاحداثه وانتفاضاته ، وايمانه بعدالة قضاياه ولا سيما قضية فلسطين المجاهدة ، الى حـــد الانفعال الايجابى والانصهار ، والقدرة على الافادة من علومه وتجاربه فى الدعـــوة والتوجيه ؛ كان لذلك كله أثره البالغ فى تكوين شخصيته وطبعها بطابع الجديـة ، والاصداع بالحق ، والـرد على مناويئه فى شجاعة لا يشوبها خوف ولا ريـاء ، والنقد الجريء الذى لا مهاترة فيه ولا التواء ، رغم شدته أحيانا على الذين يتنكرون لدينهم ولغتهم ووطنهم ؛ وذلك يرجع الى قوة ايمانه بسمو هذا الدين ، وأصالة الامة العربية ، وضرورة وحدتها وحفظ ذاتيتها من المسخ والتقليد ، ومقومات شخصيتها من تنكر المتغربين الذين أعماهم بريق الحضارة المزيفة ، وأغواهم ما استبد بعقولهم ومشاعرهم فعموا وصموا ، وأضحى صوت الدين عندهم نشازا فى النغم ، وعرقلة للهمم ، وحرفوا مفهوم السلفية عن مدلولها الاصلى ، وابتدعوا لها مفهوما جديدا ، وصارت عنوانا على الرجعية والجمود ، وكل من وقف حياته على خدمة الدين ونصرته اتهموه بالسذاجة والتخلف ، ولقبوه بالسلفى على المعنى الذى يقصدونه ، وان كان تحليله للاوضاع المعاصرة موضوعيا ، ونظرته الى الحياة متطورة ٠٠٠

وكذلك كان فقيدنا العزيز يساهم بمحاضراته وقلمه فى المنتديـــات والصحف والمجلات فى التوعية الدينية والوطنية ، ويعمل جاهدا بلا هوادة على اقامة بعث اسلامى جديد ، يعيد للاسلام مجده ، وللمسلمين مكانهم ، حتى يسير بناء الحضارة الاسلامية وتجديدها مع التاريخ ٠

ولعل هذه الشذرات التى نقدمها من فصول ومقالات نشرها فى احدى المجلات الاسلامية بتونس تلقى مزيدا من الاضواء على أسلوبه فى معالجة القضايا ، ومنهجه فى التفكير والتحليل ، وحصافة فكره فى الدعوة التى لم يتخل عنها الى آخر أيام حياته ·

جاء فى مقال كتبه سنة 1971 تحت عنوان : «الحقوق والواجبات فى الحياة الزوجية» :

« ان مهمة المصلح الاجتماعى أن يرقب سريان التطور والتفاعل والانفعال بينه وبين المجتمع الوليد ، ويحمله حب النصح لامته على أن يجهر بكلمة الحق ، ولو كانت كالدواء مرة الطعم ، كريهة المنظر يجب أن يكون ماسكا بامانة الميزان الذى يمنع كفتى الافراط فى طلب الحق ، والتفريط فى أداء الواجب ، من أن ترجح احدى الكفتين على الاخرى ، ما دام لسان الميزان هو الحكم العادل فى متاهات الاهواء ، والقطب الهادى فى ظلمات الاضطراب ·

وفى مثل هذه الادوار الانتقالية تظهر نزعات مختلفة لمفهوم التطور لاختلاف مقادير التثقيف والنضج الفكرى قوة وضعفا · فهناك المتطرفون الجاحدون الساخطون على كل عرف من أديان وأخلاق وتقاليد ، انهم لا يريدون أن يقف أمامهم سد من السدود ! والتطور اذا جاء على هذا المنوال القافز المتنطع كان ضرره أكبر من نفعه ، وكانت آثاره وبالا ؛ لانها لم تبن على قانون التدرج الرصين ، ولم تسر فى مسالك الانتقال على هدى وبصيرة · وهنا يأتى دور الناقد الاجتماعى الذى يدرك ما وراء الطفرة من أخطاء ومخاطر ، فينادى بالتحديد على مقتضى تصميم سليم · وهناك الجامدون الذى ألفوا الحياة الرخيصة فى جحور الركود ، واستأنسوا بأسلوب الدعة والخمود ، فلا يحبون أن يعكر عليهم ما ألفوه داع الاصلاح ، أو مناد بالخروج الى فجر الحياة · فهؤلاء عقبات كأداء فى سبيل التقدم » (1) ·

كان الصادق بسيس رحمه الله لا يقف عند مظاهر الاشياء التى تحتاج الى تحليل، ولا يحب المغالاة ولا التطرف ، لان المسلم فى رأيه رجل الوسط الذهبى فى كل ما يصدر عنه كما يقول · واذا كان الاسلام عقيدة وشريعة ونظاما غدو الكهانة ، والداعى

(1) جوهر الاسلام : س : 3 – ع : 8/7 – ص 36 ·

علنا الى قطع الوساطة بين الله والانسان ، ولكن فان شأن علماء الدين فى الاسلام كشأن الطبيب في ميدان طبه ، والسياسى فى منطقة سياسته . ومن أين للجاهل بالطب أو السياسة أن يعالج مريضا أو يسوس شعبا ·

ان مراعاة قانون التخصص توجب الرجوع اليهم فى معرفة أحكامه ، وكيف يكون النظام شاملا فى جميع مجالات التخصص الاطارى ، الا فى الميدان الدينى ، فهو فى فوضى واضطراب وانتقاص ، وليس فى الرجوع الى علماء الدين كهانة ، أو اتخاذهم وسطاء بين الانسان وربه ، فهو يقول فى هذا المبدا :

« ··· طبيعة التخصص وقانون توزيع العمل فى ميادين الحياة المختلفة تقتضى أن تقوم فى كل مجتمع اسلامى طائفة بواجب الاصلاح ، بما اجتمع لهم دون سواهم من الاطلاع الواسع على أصول الاسلام فى العقائد والتشريع والاخلاق ، والتفرغ التام لدراسته والتبحر فيه · وهذا القانون الحديث فى حضارة العصر ، وهو توزيع العمل والتخصص فيه ، نجد القرآن الكريم قد أمر به منذ قرون فى قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » ·

وكانما الآية نزلت الآن من عالمها العلوى الى عالم الناس ، لتكون دستورا للناس ، يتخذونه منهاجا فى توزيع العمل على المختص فيه والمنقطع اليه حفاظا على النظام وتحقيقا لصالح الانام » (1) ·

والى جانب هذه الموضوعية فى آرائه ، والاعتدال فى افكاره ، والحماس الواعى فى دعوته ، والعمق في نظرته ، فان الروحانية التى كان متشبعا بها ، ولها انعكاسات على أخلاقه ، هى التى جعلته يؤمن بأن له رسالة فى الحياة ، لان علماء الامة الاسلامية هم ورثة الانبياء ، فعليهم من التبعيات فى التبليغ والدعوة ما يدفعهم الى هذا الميدان بكل عزم ومضاء واخلاص ، وعليهم من مسؤولية التأسى والاقتداء بهم ما يفرض عليهم أن يكونوا أمثلة عالية تحتذى فى الفضل والايثار ، لانهم لم يعيشوا لانفسهم ، بل ليحددوا المعالم ، ويبددوا الحيرة ، وينيروا الظلام ، كما جاء فى مقال كتبه سنة 1968 تحت

(1) جوهر الاسلام ، س : 2 ـ ع : 1 ـ ص 33 ·

عنوان « محمد رسولا انسانيا » (وخير الفضائل الانسانية ما تعدت منافعه شخصك، وأكرم الشمائل الخلقية ما كان مشاعا مذاعا ، تبتدىء حدوده من الفرد ، لتشمل الناس ولا تنحصر فى منطقة الانانية الفردية المستأثرة . ولعل أيسر سبيل للكشف عن ذلك، انما يستبين للدارس حين يطالع سير العظماء بتدبر ، أولئك الذين ما نالوا أوج العظمة وشرف المجد واستمرار النفع الا بما توفر لهم من هذه الفضائل العامة موهبة وفضلا، مع ما اكتسبوه بالمجاهدة المستديمة ، والرياضة الشاقة ، حتى أخرجوا أنفسهم من ضيق الاثرة والفردية الى مجال الايثار والشعور بالاخوة الانسانية ، فخلصت نفوسهم خلوص الذهب الابريز بعد الصهر والامتحان ، الى نفع الانسان . ولا أعلم فى سيرة العظماء عبر التاريخ الانسانى سيرة أنضج أمجادا ، وأضخم آثارا ، وأنفع نتائج من سيرة البشير النذير ، والسراج المنير ، سيدنا ومولانا محمد صلوات الله عليه وسلامه » (1) .

والدعوة المؤثرة الناجحة تقوم أساسا على المثال الانسانى المجسم للقيم الاسلامية الحية . وما انتشرت الفتوحات الاسلامية فى الصين وباكستان وأندونيسيا وافريقيا السمراء بقوة السيف أو بقوة الحديد والنار ، بل انتشر الاسلام على أيدى التجار والملاحين الذين كانوا خير دعاة اليه بأفعالهم لا بأقوالهم ، وبحسن سيرتهم واستقامتهم وسلوكهم الجميل ، وبالكلمة الطيبة ، فاقبلت تلك الشعوب عليه عن طواعية واختيار، لينقذهم من الظلم والعسف ، ويحررهم من استعباد الكهان للعقول والوجدان .

لقد كان الفقيد يؤمن ككل الدعاة المخلصين بأن الايحاء بالعمل خير من الثرثرة باللسان التى يكذبها السلوك . وقد فطن الافغانى لهذا الداء فى الدعاة فقال : اذا أردتم أن تنشروا الاسلام فى المجتمعات الاوروبية فقولوا لهم : ان جل المسلمين الذين ترونهم أو تتعاملون معهم لا يمثلون حقيقة الاسلام فى جوهره النقى ومثله العليا ، وآدابه الرفيعة ، ولكنهم ينتمون اليه بالوراثة كما ينتمى الماجن المستهتر الى أسرة عريقة فى المجد .

---

(1) جوهر الاسلام ، س : 1 ـ ع : 54/6 .

انما الاسلام التزام ، فلا يجوز أن يكون حظه منــــه دون مستـــوى المذاهــب و لايديولوجيات التى صنعها البشر فى ظروف معينة ، وتحت مؤثرات زمنية ، وضغوط بشرية ، ...

ويمضى فى هذه السبيل منوها باخلاق السلف الصالح ، وما قاموا به فى سبيل عزة الاسلام واعلاء كلمته ، وابراز ما له من فضائل ومثل أغمرت الامم بالاتباع عن اقتناع ، ولم يطلق عليهم هذا اللقب عبثا ولغوا ، وانما أطلقه عليهم واقع حياتهـم الرفيع وطرازهم الاخلاقى النبيل ٠

ثم يقول فى الدعوة : « ومهما تفنن الدعاة فى وسائل الدعـــوة ، فانها ستبقى الركيزة الاولى والاساس المتين ، خاصة فى ميدان الدعوة الى الله ... وما مر وقت بالمسلمين فضلا عن غيرهم ، هم فى حاجة الى من يدعوهم الى الحق والخير ومقاومة المذاهب الهدامة ، والتيارات الجارفة مثل هذا الوقت الذى أصبح فيه المسلم مثالا سيئا بسلوكه المنحرف عن جادة الاسلام ، وذوبانه فى الرذائل المستوردة من الخارج ٠ ينفر مـــن الاسلام من يحاول دراسته من خلال شعوبه الممزقة ومجتمعاته المتخلفة دينيا ودنيويا٠ وما أخذ علماء الاسلام أخذا وبيلا فى جميع الاقطار الأسلامية الا لانهم انصرفوا عن قيادة الجماعة الاسلامية ، واشتغلوا بالدين الصناعى ، وغرتهم زهرة الحياة الدنيـــا فأبعدهم الله عن خلافة أنبيائه » (1) ٠

هذه نماذج يسيرة مما كتبه صديقى الوفى فى موضوع الدعوة الى الخير ، ولكنها تعبر أصدق تعبير عن حصافة رأى وعمق تفكير ، وشعور بالمسؤولية ، وتحمل للامانة ، والمام بمشاكل العصر ، ومنهجية فى الاضطلاع بأعباء الدعوة ، وواجب الاصلاح ، وقد كان لا يكفى فى رأيه أن نعيد القول ونكرره فى كل مناسبة بان المسلمين قد انحرفوا عن جادة الاسلام ، بل يحب أن نبين كيف انحرفوا ، وما هى العوامـــل الداخليـــة والخارجية التى جعلتهم ينحرفون ؟ واذا عرفنا سر هذا الانحراف وأسبابه ، عرفنا طريق العودة المأمونة من كل الحواجز والعراقيل ٠

(1) جوهر الاسلام ، س : 1 ـ ع : 10/46 ٠

واذا دعا الى مبدا من مبادىء الاسلام ، فانه لم يأل جهدا فى تبيان محاسنه وآثاره، وتمهيد سبيل الاقتناع به ، حتى تكون الدعوة اليه مدعومة بالادلة العقلية والتأثير الوجدانى ، وحتى يكون العامل بهديه وتعاليمه عن بينة وايمان ، وفى حماس واتزان ٠

وأعرف أن للفقيد المغفور له ، صلات بالمراسلات منذ حداثته بقادة الفكر الاسلامى ودعاة الاصلاح ، أمثال : محمد رشيد رضا ، وشكيب أرسلان ، ومحب الدين الخطيب، وعبد الحميد بن باديس ، وعبد القادر المغربى ، فنمت شخصيته المسلمة فى مصطرع الاحداث التى كان يعيشها العالم الاسلامى ، وثوراته ضد الاستعمار العسكرى ٠، والاستعمار الفكرى ٠ وطريق الدعوة شاق وطويل ، ولا سيما فى هذا العصر الذى انتشرت فيه المذاهب والايديولوجيات وكثرت التيارات ، واستحكمت التحديات والفتن والمغريات ، وأصبح من العسير الفصل بين الجوهر الاصيل ، والزبد الزائف، والكشف عن حقائق النفوس ومعادنها ؛ وأصبحت القلوب المصهرة بنار الفتنة ، تلهث فى زحمة التسابق المادى الذى يزيد الحياة تعقيدا بمطالبها المتزايدة التى لا تقف عند حد ، ليس من السهل أن تصح وتستقيم ، وتصاغ سليمة الا بنوع من التربية التجريبية الواقعية التى تحفر فى القلوب ، وتنقش فى الاعصاب ، وتأخذ من النفوس ، وتعطى فى معترك الحياة ، وذلك يتطلب نفسا طويلا ، وعملا دؤوبا صامتا ، لا تفسده غوغائية الدعاية، ولا عنجهية التطاول وحب الظهور، ولا تطرف المغالاة والمبالغة ، مصداقا لقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » وما التوسط الا اعتدال وحكمة كما قال النبىء صلى الله عليه وسلم : « أوغلوا فى هذا الدين برفق » ٠ وقال فى الرفق : « ما كان الرفق فى شىء قط الا زانه ، ولا كان العنف فى شىء الا شانه ، وان الله رفيق يحب الرفق » ٠

وقد كان الصادق بسيس رحمه الله رفيقا فى دعوته لانه يعرف من ظروف الحياة ، وأمزجة الناس، وحكمة الدعوة ما لا يعرفه الكثيرون، ولا ينتضى قلمه الا لمحاربة الاقلام المسعورة أو المأجورة التى تنقلب الى معاول هدم لمبادىء الاسلام وقيمه ، فلا يضع قلمه حتى يلقى الهدامون معاول التهديم ، ثم يمد يده اليهم فى صفاء وكأنه لم يكن بينه وبينهم خصام أو جفاء وتلك سمة الداعية الصادق الحصيف ، لا يغضب لنفسه ، ولا

يجعل هدفه انتصار الذات وارغام الخصم ، والظهور أمام الناس فى مظهر الغالب المنتصر ، واظهار خصمه فى مظهر المغلوب المندحر ، لان غايته أن يصوغ ضمائر ويقنع رجالها ، لا أن يخوض معارك ويهزم أبطالا ٠

ورغم ما نال المرض من جسمه المكدود ، فانه لم ينل من روحه التى بقيت الى آخر رمق ، قوية بالله ، جياشة بالايمان ٠ ولما فقدناه ، فقدنا مرشدا متحمسا واسـع الاطلاع ، رحب الصدر رقيقا بمشاعره ورفقه ، خبيرا بالمشاكل والادواء ، عرف كيف يدعو الى الله فى أناة وحزم ، ويرشد الى طريق الاسلام ، ويضع العلامات الى سبل السلام ٠ أجزل الله مثوبته ، وأسكنه فسيح جنانه ، ورزق أهله وأسرة العلم والادب جميل الصبر والسلوان ، وجزاه عن الاسلام خير ما يجازى به العاملون المخلصون ٠

جوانب من حياة ونضال الفقيد
الاستاذ محمد الصادق بسيس

الشاذلي النيفر

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلاته وسلامه على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين •

معالي الوزير ، حضرات الاساتذة ، ابنائي وبناتي :

تعبر هذه الذكرى ، المقامة اليوم عن معنى له مغزاه البعيد المدى وله آثاره الحميدة في النفوس النيرة الملتفة حول ذلك النبراس المشع الزيتونة ، فانها قد اجتمعت في حلقاتها نخب من الشباب التونسي والجزائري ، أيام كان ذلك الشباب ملتحما اشد الالتحام يشد بعضه بعضا ، وسيبقى كذلك ان شاء الله ، فان الايام لا تزيده الا توثيقا • واذ تحتفل الجزائر بذكرى احد رجال الزيتونة، وهو المرحوم الشيخ محمد الصادق بسيس ، نشعر نحن في تونس ان هذا النبراس الذي صرفنا كل جهودنا لابقائه مشعا، سيبقى كذلك ، بتظافر الجهود على المحافظة عليه في ثوبه القشيب الناضر • فمن يعمل

من الصالحات لهذا النبراس فلا كفران لسعيه لانه يسعى لابقاء الاشعاع متواصلا متسلسلا .

فان جامع الزيتونة أسس منذ فتحت تونس ، وقد أصبح ركيزة من ركائز الاسلام فى هذه الربوع ، وكان تعبيرا صادقا عن الاخوة بين الشمال الافريقى ، وليست الزيتونة لتونس وحدها ، بل هى لكل من تلقى بها كما اراده الاسلام . فان المساجد لله فى العبادة وكذلك فى العلم ، وفقنا الله جميعا لان نخلص اخلاص من يريد حياة هذا الجامع المشع ، ويسعى جهده لابقائه مصدرا لتلقى الاسلام الخالص ، وانى بلسان الزيتونة اشكر لكم هذا الالتفات المعبر عن قيمتها وقيمة رجالها . فهى يد لا تنساها تونس ، وخاصة رجال الزيتونة الشاعرين بأن اخوانهم فى الجزائر لا ينسونهم ، واحييكم تحية اخ وفى مخلص ، مكبر ، هذا الوفاء والاريحية .

شكر الله صادقا	وحباه بما يحب
يملك اللب كلما	خط فى الدرس أو خطب

هذان البيتان كنت انشدتهما فى المرحوم الشيخ محمد الصادق بسيس ، اعجابا بأثاره ، وخطابته ، فانه رحمه الله كان مفوها موفقا فيما يقوله ويكتبه ، فهو من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فى اجتذاب القلوب والعقول لخدمة الاسلام فى مواقب متعددة، انه منذ شب عن الطوق ، اخذ يلفت الانظار الى قضية كان الاهتمام بها اما مفقودا واما ضئيلا ، وهى القضية الفلسطينية التى كان الرأى العام حينذاك لا يعطى لها أهمية ظنا منه انها قضية عادية هى دون بقية القضايا الوطنية الاخرى ذهابا منه الى ان اسرائيل لا تستطيع ان تقف فى وجه الامم العربية فضلا عن كونها تنتصر على هذه الامم كلها ، وهو ظن خاطىء وقع فيها الكثير تهاونا بقيمة أولئك الشذاذ من الافاق لكنهم عاملون بكل قواهم العقلية والمالية للاستحواذ على الحرم الثالث ، فى تلك الغفلة وفى تلك السنة كان الشيخ الصادق يخطب ويكتب فى شأن تلك القضية الشائكة بحسب الواقع والبسيطة بحسب ما فى عقول الكثرة .

كتب وخطب منبها ، ومذكرا بأنها قضية يتحتم ان تكون فى طليعة قضايانا ، وكان فى ذلك متصلا بالشيخ أمين الحسينى مفتى فلسطين ، والمجاهد فى سبيل قضيتها ، فتعرف على غور تلك القضية فدعاه تمثله الى ان يمثل تلك الحركة فى تونس • فحينما جاء قرار التقسيم ، وهبت الامم الاسلامية لاحباط ذلك المشروع كان داعيا لبذل الانفس والاموال فى سبيل انقاذ فلسطين واجابة لدعوة الحق التى كان من ضمن افرادها الداعين اليها هبت تونس بقضها وقضيضها للتطوع فى الجندية ، وبذل ما تقدر عليه من اعانة ، ولا يزال ماثلا بين عينى ، ذلك الاجتماع الذى التأم بجامع صاحب الطابع بتونس تحت اشراف اللجنة التنفيذية للمؤتمر الاسلامى العربى يوم الخميس الواحد والعشرين من المحرم من سنة سبع وستين والرابع من ديسمبر سنة سبع وأربعين • فقد اقبلت عليه الامة أيما اقبال ، وتقرر فيه مساهمة تونس المساهمة الفعالة فى انقاذ فلسطين ، وهذا الموقف ، كان الشيخ الصادق من الباعثين له • ومما القى فى ذلك الاجتماع ـ واسمحوا لى اذا ذكرت لكم شيئا كنت أقوله شعرا وهو ما فى نفسى ـ القى فى ذلك الاجتماع قصيدة ، بعثنى عليه الحماس والغيرة على الحرم الثالث وحقق الله ما كنت قلته • وهذه مقتطفات من تلك القصيدة التى القيتها فى ذلك الاجتماع الذى نظمه الشيخ الصادق بسيس •

هذى المواقف فامض أمة العرب   وسدد السير للاحداث والنوب
وجرد العزم سيفا فى حزونتها   واستلهم النصر عند الجحفل النجب

ثم اقول :

واشهر الحرب للتقسيم مه ـة   وقوض الصرح ، صرح الخلف والكذب
يا موطىء القدم الغراء لا برحت   منك العروبة فى ابنائها الحجب
نفديك بالروح والاموال قبلتنا   نفديك بالاهل والاولاد والنشب
ابناء تونس هذا اليوم يطلبكم   عضوا على المجد فى الاسلام والحسب
وقاوموا الداء ان الداء ينخركم   وشمر الذيل للايام والكرب
لا تتركوا الجمرة الاولى قتلهمكم   هذه الخزعبيل من حمالة الحطب

سـيروا الى النصر والرايـات خافقــة   اللـه أكبـر ان النــصر للعـــرب
وسيكون ذلك ان شاء الله .

ان قضية فلسطين ارتبطت بحياة الفقيد ايما ارتباط وامتزجت به ايما امتزاج ، فكم له من مواقف ، اشتد فيها على الامة انهاضا لها لخدمة فلسطين . فلم يترك مسلكا للوصول الى انقاذ هذه الارض المقدسة الا سلكه ، ولا بابا الا طرقه ، وكأنه عـرف ان العزائم اذا لم تشحذ ، والهمم اذا لم تنصرف ، والامة الاسلامية اذا لم تتحد ، وقعت فلسطين فريسة ، وهو ما وقع . وقعت فريسة لاسرائيل ، وهو ما نقاسيه اليوم فى هذه القضية العويصة بسبب تراخى العزائم ، وبسبب عدم التنبه لقوة العدو ، الذى منذ دهر طويل يعد العدة للهجوم عليها . وها هو ينتقل الى الدار الآخرة ، والقضية الفلسطينية تبعث على العمل لها ، فنرجو من الله جل جلاله ان يجعل عينه فى رمسه قريرة بنيل فلسطين تحريرها المنشود ، وتطهيرها من الذين داسوا حرمها وشردوا أهلهـــا .

واسمحوا لى اذ اعدت لكم بعض الشىء مما قد تقدم من ترجمة الفقيد :

نشأة الفقيد : ولد المترجم فى العاصمة التونسية أواخر عام 1332 هـ ، ونشأ فى بيت الكثرة من أهله من حذاق القرآن ، فبيته يتلى فيه القرآن ليلا ونهارا . أكرم به من بيت يتلألأ بالذكر الحكيم . فبيته بالقرآن مغشى الرحمة ، ومنزل عليه السكينة ان شاء الله .

فقد جاء عن ابى هريرة رضى الله عنه : ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل اللــه له طريقا الى الجنة . وما اجتمع قوم فى بيت يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فى من عنده » أخرجه مسلم وغيره .

أخذ مسلك سلفه بحذق القرآن فتمكن من ذلك فى سن مبكرة . ثم يمم الجامعة الزيتونية ، فتلقى تعليمه الثانوى فيها ، متلقيا عـن فحولها عـــلم الشريعة والعربية ، فتفتق لسانه وقلمه بالمعجب المبدع دفاعا عن قضايا الاسلام وقد جذب اهتمامه ما كان يلقيه المرحوم الشيخ عبد العزيز « الباوندى » من محاضرات فى جامع

« الحلق » بالعاصمة التونسية فى تحريك الهمم الى الاقبال على الدين وحفظ القرآن وقد أنشأ الشيخ المرحوم عبد العزيز الباوندى فى ذلك الاملاءات القرآنية ، ولما توفى الشيخ عبد العزيز الباوندى سنة 1940 م ، واصل المرحوم العمل للدعوة الى القرآن مع ثلة من تلاميذ الشيخ الباوندى · ثم حصل على شهادة التحصيل فى سنة 1943 ، وعند ذلك اقبل على التعليم العالى ، فقرأ على جلة من رجاله ، ومنهم العلامة المرحوم الشيخ محمد البشير النيفر ، الذى وجد معه تجاوبا ، فان الشيخ البشير كان له اعتناء زائد بالتفسير ، فأقبل عليه تدريسا وتعليما ، فشفى المرحوم غلته من دروسه ، واحكم التجاوب بينهما ان الشيخ محمد البشير النيفر كان متتبعا لما يكتبه العلامة المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسيره وفى مناره ، فكان شغوفا بدرسه ، كما كان يجتمع به خارج الدروس ليزيد من معارفه ويغترف من منهله ، وأخذ عن العلامة المرحوم الشيخ محمد عبد العزيز اجعيط الاشراف للقاضى عبد الوهاب ، فاستفاد من تحقيقه وغوصه فى الفقه وأصوله · فأجتمع له من ذلك قوة ملكة واتساع علمى كما تلقى عن العلامة المرحوم الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور الكتب العليا فى علم الكلام مما ملأ وطابه ووسع دائرة تفكيره · وكما أخذ عن هؤلاء فى الزيتونة ، اخذ عن الوالد العلامة المرحوم الشيخ محمد الصادق النيفر ، فانه كان ملازما له ملازمتنا فلم ينفك عن الاجتماع به ، وكانت دروس الوالد رحمه الله جامعة بين غزارة العلم فى التفسير وخاصة الحديث فانه كان من رجاله الذين لا ينفكون عن دراسة الحديث فاستفاد من ذلك الشيخ محمد الصادق مثل استفادتنا لانه كان معه بمنزلة الابن البار · ومما لا انساه ، ولا ينساه التاريخ ، ان الوالد ليلة وفاته كنت جالسا أمام فراشه لانه متوعك المزاج ، وكان بصحبتى أخى الشيخ المهدى حفظه الله ، والشيخ محمد الصادق بسيس رحمه الله ، والشيخ محمد العنابى حفظه الله وسامرنا الوالد رحمه الله ، ودار فى حديثه الى الحديث عن المال الموجه الى الحجاز المعروف بالصرة · وهو ما يتجمع من الاوقاف التى على الحرمين ومن يتولى حملها من أهل العلم والفضل وغيرهم ·

وكان فى اليوم الذى قبل يوم وفاته ، زار الوالد العلامة المرحوم المؤرخ الشيخ عبد الرحمن زيدان ، اثناء مروره بتونس قصد الحج وهو صاحب كتاب « اتحاف اعلام الناس باخبار جمال حاضرة مكناس » ، فحدثنا الوالد فى تلك الليلة عن الشيخ عبد الرحمن زيدان وهذه الليلة التاريخية التى جمعتنا مع الوالد رحمه الله ، هى ليلة الجمعة ، التى توفى فيها الوالد ، وذلك يوم الجمعة السادس والعشرين من ذى القعدة والسادس والخمسين بعد الثلاثمائة والف ، وفى 8 جانفى سنة 1938 .

ان الروح العلمية وحب الاستزادة من المعارف ، جعلت الشيخ بسيس لا يغفل عن الاستفادة من كبار الشيوخ لا فى المسائل العلمية فحسب ، بل فى التعرف عن الحال الاجتماعية والوقوف على الحقائق التاريخية كذلك ، فنمت معارفه واتسعت مداركه ، فكان مع تضلعه العلمى من المحنكين الاجتماعيين وذلك زاده بسطة فى العلم والاطلاع .

اشتغاله بالتدريس بالزيتونة :

تقدم بعد صراع عنيف ، فى خوض المعارك الاجتماعية والسياسية وبعد ان تأهل التأهل التام الى خطة التدريس أصبح من مدرسى الزيتونة ، ولم يقتصر فى دروسه على المسائل العلمية فقط ولكنه جمع بين الافادة العلمية ، وبين اثارة الافكار للعمل الاسلامى ومن ضمن ذلك القضية الوطنية ، فشغف به طلبته لانه لم يكن متحجرا فى تعليمه اذ اجمع مع الافادة العلمية تأهيل الطلبة للقيام بدورهم الاجتماعى . وكان الطلبة الزيتونيون فى تلك الحقبة والتى قبلها هم العنصر الذى قام على كاهله العمل الوطنى ، وخاصة ما كان له مساس بالدين ، ولا عجب ان يكون الشيخ الصادق بسيس من العاملين للدفاع عن الاسلام ، لكونه اثناء دراسته وطلبه العلمى ؛ عاش عصرا اضطلعت فيه الزيتونة بقضية هامة ، وهى قضية المؤتمر « للافخارستى » الذى المقصود منه تركيز قدم الاستعمار فى الشمال الافريقى بادخال المسيحية فى الحكم ، غرست فى نفسه هذه القضية التفانى فى العمل الاسلامى ، فتلك الحملة التى دعا اليها المؤتمر الافخارستى ، هى حملة صليبية تاسعة فى سنة 1348 هـ و 1930 م .

وقد لقيت هذه الحملة من الزيتونة مقاومة واية مقاومة افشلتها . فالزيتونة ينشأ ابناؤها على بغض كل عمل يطعن في الاسلام . فلا يحفلون بتهديد ولا تعذيب اذا اندفعوا للعمل الاسلامي . فمن ينشأ في تلك الفترة ، في تلك الفترة القاسية ، أيام يعمل الاستعمار جاهدا على ابتلاع الاقطار الثلاثة « تونس والجزائر والمغرب » لابد ان يصبح جذوة نارية تحطم ما يبنيه الاستعمار ، ولهذا كان الشيخ الصادق حين تدريسه ، شغله الشاغل ان يرى تلاميذه متشبعين بحب العمل الاسلامي ، سواء في ميدان الاسلام العام أو الخاص « عمله الوطني » . وقبل ان ينال شهادة التحصيل ، أنضم الى الشباب الوطني ، فاندفع فيه بحماس ، ووطنية صادقة ، لا يلويه خوف ولا يصده صاد . فحين اندفع الشباب التونسي للمطالبة بالبرلمان التونسي ، وخرجت جموع الطلبة الزيتونيين في المقدمة كان من ضمن المتحمسين منهم . وقد نال الشباب المتحمس المندفع بكليته في سبيل حرية تونس تسليط عقاب السجن ، ومن أولئك مترجمنا ، فانه سجن لبروزه في الحركة الوطنية سجن أربعة أشهر ، وهذه الثورة الشعبية العارمة منطلقها في التاسع من شهر افريل سنة 1938 حين مل الشعب من المطالبة ورأى انها لا تجدي وحدها ، لان الحكومة الفرنسية متصاممة عن حركة الشعوب ، وقد بدأت في ارهابها الذي عاد عليها بالوباء . ولم يقعد به السجن في بكورة حياته ، فانه واصل العمل الوطني ، ولم ينفك عن المواصلة وبذل المجهود حتى يرى بلاده حرة متمتعة بما تتمتع به الامم ذات السيادة . وقرن بين العمل الاسلامي والعمل الوطني ، لان هذا الاخير جزء من العمل الاسلامي فهو في اطوار حياته كلها ، طالبا أو مدرسا أو كاتبا ، كانت هجيراه ان يسير بأمته بالمعنى العام والخاص في طريق العزة والحياة السعيدة كلفه ذلك ما كلفه ، شأن المخلص المتشبع بحب دينه وبلاده ، فلم تره الا عاملا بسعيه وقلمه ولم يقصر من شدة عمله المرض الذي أصابه في رجله ، فانه بمجرد ما تماثل للشفاء ، وخرج من العلاج ، عاد الكرة واستمر عاملا وان كان عمله بوجه آخر . فانه لم تنثن عزيمته ولم يقطع في كسر بيته ، شأن البعض من الذين اذا وقفت في وجوههم العقبات ، قعدت بهم ، وأصبحوا حبس بيوتهم ، بل كان عاملا الى آخر لحظات من حياته .

انضمامه الى الكلية الزيتونية :

انضم الى أساتذة الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين ودرس بها طوال سنوات ورغبته العملية لم تفقد ، فانه رغم الحالة الصحية ، كانت رغبته تلك بعينها ، وليس بين انتقاله الى الدار الآخرة تغمده الله برحمته وبين اجتماعي به فى الكلية الزيتونية الا أيام معدودة . حرصا منه على دروسه رحمه الله ، وكم حز فى نفسي ، ونفس عارفي فضله، وعلمه، حرمان الطلبة من الاستفادة منه فانا لله وانا اليه راجعون .

وستقيم لـه الكلية الزيتونية ذكـراه ، ـ وانما وقـع تأخيرها لاجـل هذه الذكرى ـ اثـر هذه الذكرى الطيبة التى نجتمع لها الآن ، فى هذا البـلد الشقيق عاصمة الجزائر · ولم يقصر عمله للزيتونة على التدريس بها ، بل أضاف الى ذلك الدفاع عن الهيئة ، وازالة ما يرميها به الذين لا يعرفون فضلها ، توصلا الى اقصاء علماء الدين عن كل ميدان سياسي أو اجتماعي ليخلو الجو لمن يريد اقصاء الاسـلام عن المجتمع ·

ومن دفاعه ما كتبه فى مقدمة كتاب الشيخ محمد بن عثمان السنوسي فى القضية الزيتونية تحت عنوان « دخول علماء الزيتونة المعركة » وهذا نص ما كتبه : « وهنا دخـل وجهاء الفقهاء سافرين ملبين . فكانت فتواهم الجامعة لنصوص المذهبين : المالكي والحنفي تأييدا دينيا كبيرا ، وسندا أدبيا متينا لرجال الحركة وتضامنا مـع الشعب فى حركته « هى أول حركة تونسية » والواجب علينا ، ونسأل الله ان يعيننا على ذلك ، ان نعرف بالحركات التونسية التى كانت متسلسلة ، ودامت فى تسلسلها الى ان جاء هذا الاستقلال ، وذلك اعطاء لكل ذى حق حقه · وتعاونت كلمة الدين مع الوكلاء وغيرهم ، وكان جامع الزيتونة دائما قلعة الامة فى حماية دينها ولغتها فى جميع أوقات الشدائد ، وظن الناس ان هذه الفتوى ستكون مقطع الحق وفصل الخطـاب ترجع بها الحكومة عن موقفها فى دفن الاموات على الطريقة الاوروبية لانها بدأت كمسألة التجنيس لانها اذ ذاك أرادت الحكومة الفرنسية عند نصب الحماية ان يقع دفـن المسلمين على الطريقة المسيحية · فدفاعه هذا ينم عن روح متشبعة بحب الزيتونة ذلك

البيت المصارع للاحداث ، والمقاوم للتيارات التى كان المراد منها العصف بالاسلام ، برمى علماء الزيتونة باشياءهم برآء منها ، وانها الصقت بهم كذبا وغيرة ٠

ميله للاصلاح : شغف رحمه الله بالمنار ، ومـا يكتبه صاحبه ، ولعـل ممارسته للمرحوم الشيخ محمد البشير النيفر ، استقى منها حب الشيخ محمد رشيد رضا ٠ والمنار اشع على العالم الاسلامى مبادىء النهضة الاسلامية ليقف المسلمون على وَاقعهم ، ويخطوا الى نهضة جديدة ، ويخرجوا من مخلفات العصور المظلمة ، وهى عصـــور خيم الجهل فيها على العقول ، فأصبحت منغلقة على ما اقامه الحكم الاستبدادى ٠ فالناشىء المتطلع الى ازدهار الاسلام يرى فى المنار مـا يشفيه ، وهذا خاص بالناشئة المتشبعة بالاسلام ٠ اما الناشئة المتغربة فى اخلاقها ولسانها الغريبة عن مقوماتها ، والجاهل بالاسلام لا يعنيها من حركات المنار شىء ، لا من المنار ولا غيره ٠ ولتعلقه بالمرحـوم الشيخ رشيد رضا ، كتب عنه لما توفى ، مقالات عديدة تحت عنوان « الرجل الذى لم يعوض ـ ٠ فهو يراه من افذاذ المصلحين من المسلمين الذين يضن بهم الدهر ، ولا يظهرون الا فى فترات قليلة متقطعة وتلك المقالات جمعت الكثير عن صاحب المنار ، فى آرائه الاصلاحية ومفاهيمه الروحية ٠

فميول مترجمنا الاصلاحية متشبعة بالحركة الاصلاحية المبتدأة بالشيخ جمال الدين ألافغانى، والشيخ محمد عبده، والمذاعة بلسان وقلم محمد رشيد رضا فى مناره ، وفى ما كتبه من كتب مفعمة بآراء استاذيه الافغانى وعبده ، ولما تولى المترجم الخطابة بالجامع الكبير بالمرسى ، اتجه فى خطبه هذا الاتجاه ، وحمل على البدع الغريبة عـلى الديـن وشدد فى النكير على الاخذين بها ناهجا منهجا يراه هو الاصلح للمجتمع الاسلامى ٠

صلته بالامـير شكيب ارسلان :

وكما اتجهت ميوله فى الاصلاح الى ما اعلنه الشيخ محمد رشيد رضا كذلك اتجهت وجهته نحو الرجل الذى كان شديد الصلة بالشيخ محمد رشيد وهو الامير شكيب ارسلان فانه اتصل به ودارت بينهما اتصالات جمة بطريق المكاتبة ، واشتد تعلقه بالمذكور لما

افاضـه فى مجلـة الفتـح للاستـاذ محـب الديـن الخطيب فانها المنبـر للـذين اتجهـوا نحـو الاصـلاح الاسـلامى ، فارتفع النـداء اثـر النـداء لايقـاظ الفكر الاسلامى وتنبيهه لكيد الذين يكيدون له ، فى الخفاء وفى العلن ، وانتم تعلمون وقد وقفتم على ما نشر فى كتابى الخاص وهو المعنون بكتاب « الغارة عـلى العالم الاسـلامى » ٠

ولم تكن اتصالاته بالامير شكيب ارسلان ، اتصالات لامور شخصية ، وانما كانت اتصالات لقضية الحرية ، لا فى تونس فحسب ، بل فى الشمال الافريقى ٠ وألف من أجل ذلك كتابه الذى سماه « علاقة الامير شكيب ارسلان بحركات التحرير فى اقطار المغرب العربى» ٠ ونرجو ان يرى كتابه هذا النور لاضفاء حلقة جديدة من حلقات كفاح المغرب العربى ذلك الكفاح المكتوب، بالايدى المضرجة بالدماء وخاصة فى الجزائر ، فانها صمدت صمود الرواسى فى وجه الاستعمار المكفهر، الغاشم، الرامى الى فرنستها ولولا الصمود والشجاعة ، والتهاون بالاخطار لم نر جزائر اليوم ٠ فان الاستعمار قـد افرغ كنانته لينتزعها من الجسم العربى فلم يفلح والحمد لله ، رغم ضراوته الاستعمارية فى هذه الرقعة من الارض ٠

علاقـة الفقيد بالجـزائـر :

كان الفقيد مؤمنا أشـد الايمان بالالتحام بين تونس والجزائر الشقيقتين ، ولهذا تمتنت علاقاته بأشبال الجزائر ٠ فأصبح احساسه بما يتعلق بها كاحساسه بما يتعلق بتونس ٠ وهـذا المعـنى كـم تبادلنا فيـه الحـديث فى تلـك اللقـاءات الـتى كانـت متصلـة بيـنى وبينـه ، وقـد عبـر عـن هـذا المعـنى فى غـير مـا موقف ، وظهر فى ابتـداء حياته الى آخـر حياته ، وها انـه يلاقى ربه رحمه الله بعد ان شفى الغلة من الجزائر ، باجتماعه بالذين يودهم ويودونه ٠ وهذا الاحساس المتحد عبرت عنه فيما عبرت عنه فى أبيات قلتها ، فى ذكرى المرحوم المناضل الشيخ عبد الحميد ابن باديس ، معبرا عن عواطف تونس الخضراء فى خاتمة قصيدى :

هــذى الشقيقة قـــد ابـدت عواطفها   وعبــرت لكـــم عـــن لطـف تأنيس

يا نخبـــة مـــن بنى الخضراء انكـــم   مــع الجـزائـر فى ضعـــن وتعنـيس

ان الشدائـد قـــد ابـــدت بوائقهـــا   وكـــل بـــائقـــة تـــأتـى بتنفيـــس

هذه أبيات ثلاثة من قصيدة الذكرى وقد مرت عليها عشرات السنين • وفعلا بدأت البوائق فى تونس والجزائر ، وخاضت الامتان حملات من أجل الاستقلال ، فأتت فى كلا القطرين البوائق والشدائد بتنفيس الكرب وازالة ذلك الكابوس الشديد الوطـأة فيهما وفى المغرب •

آثـاره القلمية : كتب بنفسه عن آثاره هذه منذ عامين وهذا ما ننقله مما كتبه :

1 ـ خلاصة النازلة التونسية ، وقد طبع هذا الكتاب بتحقيقه •

2 ـ علاقات الامير شكيب أرسلان بحركات التحرير فى اقطار المغرب العربى •

3 ـ خطة الحسبة فى تونس •

4 ـ محمد بن عثمان السنوسى ، حياته ، وآثـــاره : وهو الآن بصدد الطبـع ، وسيخرج عند اقامة ذكراه ان شاء الله •

5 ـ عبد العزيز المهدوى الصوفى التونسى •

6 ـ نظرات فى التصوف الاسلامى •

7 ـ الرعاية الصحية فى الاسلام •

8 ـ الدفاع عن السنة النبوية •

9 ـ مكانة الاجتهاد فى الاسلام •

10 ـ شيخ الادباء محمد العربى الكبادى •

11 ـ نظرات فى حياة الامام الرازى •

12 ـ أبو عبد الله محمد المرجانى •

واما بحوثه ، ومقالاته ، سواء منها الأجتماعية والادبية والوطنية ، ومحاضراته فقد ملأت الصحف ، والنوادى ، فليس هناك صحيفة أو مجلة فى تونس خلت ، مـن آثاره وله كذلك مقالات فى جريدة البصائر الجزائرية رحم الله تلك الروح الطاهرة الناشطة فى سبيل الاسلام جهادا باللسان والقلم ، واثابها على اخلاصها بما يجازى به العاملون باعلاء كلمة اللـه ، وشكر اللـه من احيا ذكرى هذا الرجل فى هذا الملتقى المعبر عن الوفاء والاريحية ، نشكر معالى وزير الشؤون الدينية ، الاستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم ، على هذه الاريحية الطيبة ، كما نشكر كل المشاركين فى هذا ، ونشكر الشعب الجزائرى ، الذى لا ينسى شقيقته تونس فى السراء والضراء ٠

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ٠

1975 No 72

فهــــرس الـعـــــدد

لقطـات من تاريـخ منطقـة الهجـار
فى المجالات الثقافية والحضارية والسياسية

المهدى البوعبدلى
مـؤرخ ـ الجـزائـر

انني بمناسبة انعقاد الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامى بتمنراست قاعدة الهجار ومبادرة مجلة الاصالة كعادتها لتخصيص عدد من أعدادها لهذه الملتقيات ، اخترت ان اتناول بالبحث هذه الدراسة التى هى كما يدل عليها عنوانها : « لقطات من تاريخ منطقة الهجار فى المجالات الثقافية والحضارية والسياسة » اذ هي النقطة الاولى من النقاط الاربع ، التى تنحصر فيها دراسات الملتقى · لفتت هذه النقطة انظار الباحثين والمؤرخين من عهد قديم ، يرجع الى عشرة قرون قبل الميلاد وقد خصصت بدراسات وتآليف لازال معينها لم ينضب بعد ، هذا وان كان كثير من الباحثين هدفهم التعمق فى البحث العلمى لهذه المنطقة التى جعلها موقعها الجغرافى صلة وصل بين حوض البحر الابيض المتوسط وتخوم السودان ، وبالطبع كانت هذه المنطقة ممرا للقوافل التجارية من قديم أي قبل الاسلام وبعده ، كان منطلق الاعتناء بتاريخ الهجار وسكانه ـ التوارق ـ من عهد افلاطون وهيرودوت وغيرهما ، وانني فى هذه الدراسة ساقتصر على تاريخ ما بعد الاسلام بايجاز ثم اركزها على

اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الجارى الميلاديين ، ولا يمنعنى هذا الالتزام ، من التعرض الى تاريخها القديم ، كلما جرنى الى ذلك سياق الحديث، اذ تاريخ هذه المنطقة ـ كما سبق لنا ذكره ـ كان محل عناية مؤرخى مختلف الاجناس ، ولا زالت استمرارية تلك العناية الى عهدنا هذا ، كما سنبين ذلك. نذكر من بين المؤرخين والرحالين المسلمين الذين اعتنوا بتاريخ هذه الناحية ابن حوقل وأبا عبيد البكرى وغيرهما ، فتعرضوا للقوافل التجارية التى كانت تجوب الطريق ، انطلاقا من بلاد المشرق ـ على طريق مدينة القيروان عاصمة افريقيا ، ثم على طريق قلعة بنى حماد ، بعد سقوط القيروان ـ الى أوداغست منبع مناجم الذهب ، ذلك الذهب الذى وصفه أبو عبيد البكرى بقوله : « وذهب أوداغست أجود ذهب الارض واصحه » وقال فى موضع آخر يصف « قلعة بني حماد » التى ورثت مكانة القيروان الاقتصادية ما يلى : « وهى اليوم مقصد التجار ، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب » وقد عرف هذا الطريق عند القدامى بطريق الذهب ، هذا ولم تكن الناحية الاقتصادية ، التى كانت منطقة الهجار من أشهر محطات قوافلها التجارية فى طريقها الى أوداغست ، هى الداعى الوحيد الى اهتمام الباحثين والمؤرخين ، الذين سبق الحديث عنهم ، بل كانت هناك دواعى أخرى ، منها آثارها الحضارية ، كبقايا فن النحت والتصوير ، كما ان كثيرا من العلماء المتخصصين فى دراسات السلالات البشرية ، ذهبوا الى أن التوارق ـ سكان الهجار ـ من بقايا سكان جزيرة خسفت بسكانها الارض ، ولم يبق من سكانها الا أقلية اندمجت فى قبائل التوارق ، وهذه الاقلية تعرف « بالمازيك » الذين تحدث عنهم المؤرخ اليونانى هيرودوت Hérodotte وهذا لا يمنع ـ فى نظرهم ـ ان أغلبية سكان التوارق ، من أصل بربرى ، كما سنتحدث عن ذلك بمزيد من التفصيل .

بعد الاحتلال الفرنسى للجزائر سنة 1830 توغلت فرنسا واحتلت أجزاء كثيرة من الصحراء ، والسنغال ، وحينئذ فتحت أبواب هذه المناطق الى مختلف رواد الصحراء من عسكريين ومدنيين وقسيسين ، تقمصوا مختلف الاردية ، لتغليط السكان وتضليلهم ، حيث كانوا يتتبعون حركاتهم بمزيد من الحيطة والحذر ، ولهذا كان جل هؤلاء الرواد يتعرضون للاغتيال ، وكان المسؤولون الفرنسيون يخفون الاسباب الحقيقية لهذه الاغتيالات التى كثيرا ما ينسبونها الى اللصوص

وقطاع الطرق ، هذه هى المواضيع التى ساتعرض الى دراستها فى هذا البحث ، بعد التعريف بهذه المنطقة ، كانت تمنراست هي قاعدة بلاد التوارق وهي محاطة بقرى يسكنها الحراطين والسود الذين كان التوارق يسخرونهم للخدمة التى يأنفون من مباشرتها بانفسهم كالحراثة ، والرعي ، وما الى ذلك ، استولى الفرنسيون على ناحية تمنراست ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر ، ومن جملة من وصفها بعد الاحتلال الفرنسى مباشرة ، الراهب الأب دوفوكو الذى اختارها للاقامة من سنة 1905 الى ان لقى حتفه بها فى دسمبر 1916.قال دوفوكو: « اخترت الاقامة بتمنراست التى وجدت فيها اثنين وعشرين كانونا – أي أسرة – » ثم قال: « موقعها فى قلب جبل الهجار ، منعزلة عن القرى الآهلة بالسكان ، يلوح لى ان هذه القرية ستبقى بعيدة عن العمران الاوروبى ، لا تتخذ فيها قشلة عسكرية ، ولا محطة للبريد والمواصلات ، كما لا تتخدها البعثات مقرا ، ولهذه الاسباب اخترت هذا المقر المهجور ، وألقيت فيه عصا التسيار » اه وقبل أن تتخذ تمنراست قاعدة المنطقة ، كانت القاعدة هي حصن موتيلانسكى ، ولم يستبدل حصن موتيلانسكى بتمنراست الا فى سنة 1920 ، كانت منطقة الهجار اثر الاحتلال الفرنسى تمتد من الشمال الى الجنوب بنحو الالفين كلم • ومن المشرق الى المغرب بنحو الالف كلم • وجميع سكان المنطقة لا يجاوز عددهم عشرة آلاف نسمة ، ورغم استحالة تمنراست الى قاعدة الهجار فلم ينم عدد سكانها الا ببطء ، حيث انه عندما زارها الوالى العام بالجزائر اذ ذاك وهو كارد (سنة 1932) رافقه الجنرال دو شان (1) Deschamp الذى دون رحلته وقال مقارنا بين حالة تمنراست اذ ذاك ، وما سبق من وصف الاب دوفوكو عندما نزل بها سنة 1905 فقال : « والآن استحال عدد الكوانين ونما ، فبعد أن كان اثنين وعشرين وصل الى أربعين » ثم قال الجنرال دو شان « ويطل على سكان هذه الكوانين حصن لابرين Laperrine وقد بنى بالقرية نزل كاتلان Hôtel Catelan ومركز للبريد ، وسكنها الاوروبيون ، كما اقيم بها معرض سنة 1930 » اه

هذا ما وصلنا من وصف تمنراست بعد الاحتلال الفرنسى •

---

1) دوّن الجنرال دوشان رحلة الوالى العام كارد ونشرها بنشرة الجمعية الجغرافية بالجزائر المؤرخة فى جانفى 1932 بعدد سنتها السابعة والثلاثين (37eme année)

ولنرجع الى الوراء قليلا لاستعراض تعاريف بعض المؤرخين المسلمين ، من بينهم الرحالة ابن بطوطة والمؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون،ثم المؤرخ الجزائرى محمد ابو راس الناصرى (2) الذى قال فى تاليفه « عجائب الاسفار · ولطائف الاخبار » (3) عند تعداده لقبائل صنهاجة فقال « قلت وقد أخبرنى الطالب الاجل ، الناسك الامثل ، شقيقى سيدى عبد القادر ، برد الله ضريحه ، وأسكنه من الفردوس فسيحه ، وكان ذا معرفة بتلك البلدان لما مر بها وتخطاها الى السودان ··· وكان اخباره لى بذلك ، لما سالته سنة أربع وتسعين ومائة والف » ··· الى أن قال « ثم ان صنهاجة أهل اللثام المعروفون عندنا بالتوارق مساكنهم بين السودان وبين الرمال التى هي تخوم بلاد البربر ، متصلون بالبحر المحيط لهذا العهد ، فى المغرب الى ساحل النيل بالمشرق ، وهم الآن على اختلاف الكلمة ، واختلاف السنن على عهدهم الاول ، بعضهم يعطون الطاعة لملك السودان ويفرون فى عسكره ، ولهم شرف بأرضهم ، وتمر عليهم القوافل الى السودان ،فكان أحب شيء عندهم الدخان ، وان أراد أحدهم الاكل وهو فى أهل الكبار تنحى قليلا ، ونصب درقته بينه وبينهم ، حذرا من أن يرمقوه ، وان ظفروا فى غزوهم بمال ، أخذوا منه الابل والبقر ، وأما الغنم فيأخذها حشمهم يقال لهم العنادى ، وبيوتهم من الجلد،وان ذبحوا لضيف جمعوا له كل اللحم ، فيأكل ، والباقى يتزود به ، وبازائهم رهط يقال لهم كنت (بإشمام وهي الآن بعضها تابع لمالى ، وبعضها لموريطانيا) وأفراد هذه القبيلة ينتمون الى بنى أمية والانصار، لم تتغير اللغة العربية عندهم الى الآن »،ثم واصل أبو راس حديثه فقال « هكذا أخبرنى شقيقى سيدى عبد القادر رحمه الله ، فقبيلة كدالة منهم – أي من صنهاجة – قبلة المعقل عرب السوس الاقصى ، ولمتونة وتريكة فى مقابلة ذوى منصور » ثم قال ابو راس « ومر الكلام على ملوك لمتونة ، ومسوفة فى مقابلة المغرب الاوسط، ولمطة فى مقابلة عرب الزاب ، وتركا فى مقابلة افريقيا الخ ··· والخيل عندهم قليلة أو معدومة ، ويركبون من الابل القارن يسمونها النجيب ، ولهم مع بنى سعيد من بطون رياح عرب ورقلة وقائع وغارات الى الآن ، ويغيرون أيضا على

2) محمد أبو رأس الناصرى الراشدى (1165 – 1237 هـ) له تآليف عديدة ·

3) « عجائب الاسفار ولطائف الاخبار » شرح به منظومته السينية التى هنأ بها الباى محمد بن عثمان فاتح وهران سنة 1206 هـ والكتاب لم يطبع الا انه ترجمت كثير من فصوله ونشرت فى المجلة الافريقية والمجلة الاسيوية الفرنسية ·

سوف وغدامس وفزان وغيرهم ، وأما أهل ورقلة فهم من بنى يفرن ومن مغراوة، وأميرهم يقولون له السلطان ، وعلى عشرين مرحلة الى القبلة منحرفا قليلا الى المغرب ، بلدة نكدة لصنهاجة ، وقد اجتاز بهم نفر من تجار مالى أيام أبى عنان ـ الملك المرينى ـ فأعطوهم اثني عشر ألف راحلة زكاة ، وأما أهل فجيج وتيكرارين وتوات ، وأكثر مصاب فكلهم صنهاجة وبعض مصاب من لماية والله أعلم » اه ما ذكره أبو راس ، اثبته على طوله ، واقتصر عليه دون غيره من تعاريف ابن بطوطة وابن خلدون ، لقرب عهده ، ولما اشتمل عليه من التفاصيل ، حيث صور لنا حالة المنطقة وسكانها ، تصوير خبير شاهد عيان ، اذ نجد معظم من تعرض لتاريخ هذه النواحى من المتاخرين الا واعتمد فى كتاباته على المصادر الاجنبية ، وحلها خلط بين التاريخ والاساطير ، كما انها لا تخلو من تزييف وتشويه،وقد تصدى لكشفها ، والرد على أصحابها ، كاتب فرنسى معاصر، سنتحدث عنه فى هذه الدراسة ، وقد رأيت ان الحق تعريفا له أهمية لمؤرخ معاصر وهو هنرى تيراس (4) Henri Terrasse ، قال فى تأليفه « تاريخ المغرب » فى التعريف بدولة المرابطين اللمتونيين : « وقد عرف الصنهاجيون بعد الفتوحات الاسلامية بالملثمين ، وكانوا متفرقين من غدامس الى المحيط الاطلنطى ، ومن جنوب المغرب الى السنغال والنيجر ، وفى القرن التاسع الميلادى كانت جموعهم تشمل لمتونة ومسوفة ، وكانوا يجوبون الصحراء ، وحينئذ اتخذوا أوداغست قاعدة حكمهم ، وقد نظموا التجارة بواسطة القوافل التى كانت تصل الى تخوم صحراء مصر » اه

نكتفى بهذا القدر من التعاريف بهذه المنطقة التى اهتم بها المؤرخون القدامى والمتأخرون ثم لفت أنظار الكتاب والباحثين اليها من جديد ، استيطان الراهب دوفوكو لقاعدتها تمنراست ، وكانت مدة اقامة دوفوكو بها ، مرتبطة بأحداث عقائدية وسياسية اجتاحت المنطقة ،ولازالت محل عناية الباحثين من مختلف الملل والنحل ، اذ حياته كادت أن تجمع بين النقيظين : الحياة المادية والحياة الروحية، ثم تغلبت حياة الزهد والتقشف على حياة البذخ والترف والاستهتار ، وهذا الصراع بين الحياتين صبغ كثيرا من الرجال الافذاذ ينتمون الى مختلف

---

4) هنرى تيراس كان استاذا بجامعتى الجزائر والرباط فى الخمسينات،له كتاب سماه «تاريخ المغرب» كان يدرس بثانويات المغرب الاقصى كما أن له تآليف قيمة فى الآثار الموحدية .

الاجناس والديانات ، وقد شخصه أحد الشعراء المعاصرين فى حياة أبى الطيب المتنبى الذى تنازع فيه هذان العاملان وقال فى تأبينه الالفى على لسانه :

يا لعمـر مشيـا فيـه معـا

جسـده الفـازل عـن شهوته سلـم العـارم روح الساميـة

فهـو لا ينفـك عـن شهوتـه وهـي لا تعـرف الا الالـا

هذا وان الاب دوفوكو كما يقال قتلت حياته بحثا ، وهي كغيرها من تراجـم أمثاله ، الا أن هناك بعض الجوانب منها فيه عبر ، فالرجل الذى كان ينتمى الى أسرة نبيلة ثرية ، وقد تخرج من كلية حربية ضابطا ، واطلق لحياته الاستهتارية عنانها حتى كان كثير من وزراء عهده يعجزون عنها، اذ كان ينفق فى مباذيله حوالى خمسة ألف فرنك شهريا فى التسعينات من القرن الماضى الميلادى ، وبعد اعتناقه للمسيحية تحول الى حياة الزهد والحرمان والتقشف، حتى نصحه أطبـاؤه بأنه ان تمادى على تلك الحياة يهلك ، وبعد حياة مليئة بالفاجـآت والاضطرابات ، والخوف والجوع ، تفرغ لمهمته التبشيرية، حيث ختم به المطاف بتمنراست ، وقـد أدرك من أول وهلة ان مهمته فى مجال التبشير لم تلق نجاحا ، ولكنه لم يبـال بنتائج أعماله ، ولم يستعجل جني ثمارها ، بل رأى انه عليه أن يخطط الخـطط ، ويضرب المثل للتضحية ، فبعد أن ضحى بالحياة المادية فى جميع مظاهرهـا : حياة القصور والسهرات والمطاعم الانيقة ، صار يلبس الخشن من الثياب ـ عباءة الصوف ـ وصار يأكل الخبز أو التمر والحليب حتى سـ ـت أسنانه، ثم اختار سكنه قرية تمنراست المنعزلة عن العمران ، وعندما اندلعت الحرب العالمية الاولى تنـازع فيه عاملان أيضا، مهمته التبشيرية، ووطنيته، وهو وان كان يرى ان الدين فى خدمة الوطن، فقد تغلبت عليه روح الوطنية، وصادف اذ ذاك اندلاع الثورة الليبية على الايطاليين سنة 1916، تلك الثورة التى دعمها التوارق، وسكان الصحراء الذين كانوا تحت حكم الفرنسيين ، وكلفت الايطاليين والفرنسيين معا خسائر فادحة، فعندئذ خرج الاب دوفوكو من عزلته ، واسترجع بدلته العسكرية التى خلعها عند عبوره لبلاد الصحراء ، واننى سأتعرض بمزيد من البيان لموقفه الذى جر له اغتياله بتمنراست فى دسمبر 1916 فى هذه الدراسة ، وانما لا يفوتنا أن نذكر ان مدة اقامـة الاب دوفوكو بتمنراست من سنة 1905 الى 1916 فتحت الابواب لمختلف الدارسيـن

فأعادوا النظر فى تاريخ هذه المنطقة، وبالطبع كانت كتاباتهم لا تخلـو من مبالغة وتزييف، مما أدى ببعض زملائهم الى الرد عليهم على أضواء الوثائق التى فتحت من جديد ، وأعيد النظر لماضى الهجار بعد عبور الرعيل الاول من رواد الصحراء الذين سبق الحديث عنهم ، كان فى طليعة من تولى الرد على الكتاب المذكورين الصحافى الفرنسى كلود موريس روبير (5) فى تآليفه المسمى : « ناسك الهجار » (6) خصصه لمراحل ترجمة دوفوكو نستعرض منها بعض اللقطات، قال: « بعد مـرور ربع قرن على احتلال الجزائر ، كتب أحد الصحفيين ما يلى : « ان التوارق يكنون الاحترام والاعجاب للفرنسيين ، فالتوارق أمة قوية مهابة يرغبون فى توثيق علائقهم مع الفرنسيين فى ميادين التجارة ، وبالفعل فان هذه الامة تشغل موقعا واسعا بين الصحراء الجزائرية وبلاد السودان تمبكتو Tombouctou ، ثم قـال: « يبلغ عدد سكان التوارق مليون نسمة، وقد جعلهم موقع بلادهم الجغرافى صلة وصل بين الجزائر وتمبكتو ، ثم تمتد هذه الصلة فيما بعد بيننا وبين مستعمرتنا السنيغالية » اهـ

وعقب الصحافى موريس روبير على هذه الجمل بقوله: « هذه الترهات نشرت بجريدة صدرت فى وهران سنة 1856 » ثم أضاف عينة أخرى فقال: « وبعد نصف قرن فقد مصباحنا انارته، حيث ان الكاتب پول لوروا بوليو Paul Leroy Beaulieu الكاتـب الشهيـر كتـب مـن دون حيـاء أو خجل ، مخاطبـا رجـال حكومة فرنسا بقوله : « انشروا الامة فى هذه النواحى الشاسعة ، واضيفوا الى ذلك استغلال المياه للانتفاع بها ، فحينئذ يمكن للصحراء بعد حقبة من الزمـان أن تغذى عشرة ملايين نسمة ، ان لم تكن عشرين مليونا » .

ثم واصل الصحافى روبير حديثه بقوله: « اننى لم أخترع شيئا فيما ذكرتـه فذلك ما نقلته من تآليف سماه صاحبه : « الصحراء » نشر سنة 1904 وهذا الكتاب يوجد فى واجهات كل المكتبات بالجنوب ـ أي بالصحراء ـ حيث لم نجد أثرا لكتاب « اكتشاف المغرب » تآليف الاب دوفوكو (وهنا بين قوسين يرى الصحافى روبير أن دوفوكو لم يخف فى تآليفه المذكور تشاؤمه من مغبة احتلال الصحراء ، ولهذا تواطأ أنصار الاحتلال لبلاد الصحراء على ترويج التآليف التى تدعم آمالهم وأحلامهم، وبالطبع

5) كلود موريس روبير Claude Maurice Robert محرر جريدة صدى الجزائر اليومية L'Echo d'Alger

(6) « L'ermite du Hoggar » Edit. Baccc nier, Alger. 1939.

كان المروّجون لهذه المغريات ضباط الجيش الذين تمكنوا من استرجاع نفوذهم الذى فقدوه بالشمال بعد استبدال الحكم العسكرى بالحكم المدنى) ثم واصل الصحافى روبير حديثه بقوله « أما تمبكتو ملكة الصحراء التى لا زالت توصف بالخفية رغم دنسها وقذارتها فهي كما يقال عن القطران : انه يشفى الجرب كما يشفى السودان الفقر » ثم علق على ما نقله بقوله « ان الكتاب الذين يسبحون فى بحر الخيال والاوهام لا زالوا يحلمون بالقوافل التى تحمل دقيق الذهب ، وريش النعام ، والعاج ، والزمرد الذى أشيع ان قافلة رائد الصحراء فلاتير (7) Flatters اكتشفته بكثرة،وكان من بينه من يبلغ حجم بيض الدجاج » ثم قال الصحافى روبير : « والآن عندما أزيل القناع عن التوارق انحل اللغز ، فدقيق الذهب موجود ، الا انه يتمثل فى رمال التلول ... » ثم قال « ينبغى أن نعيد النظر لتصحيح موقفنا فى قيمة الصحراء الاقتصادية ، فانها منعدمة تماما ، وستبقى منعدمة ، وانما تنحصر قيمتها فى المجالين السياسى والموقع الجغرافى (المعبر عنه الآن بالاستراتيجى) فالصحراء برزخ ، يفرق بين عالمين ، كانت العداوة بينهما محكمة ، عالم افريقيا البيضاء ، وافريقيا السوداء ، وبعبارة أصح عالم متمدن وعالم همجى متخلف»، ثم أضاف الصحافى روبير الى ما قاله مخاطبا قراءه بقوله : « انكم كثيرا ما تطلعون على أمثال هذه الترهات التى لا يقصد منها الا ذر الرماد للسواح والصحفيين الاغبياء مثل قولهم « الصحراء امبراطورية ، مساحتها تعادل مساحة فرنسا عشر مرات » .

« والحقيقة ان هذه الامبراطورية فارغة وستبقى فارغة ...»الى أن قال: « ذكرت فى الطبعة الاولى من هذا الكتاب (أي ناسك الهجار) ان عدد التوارق يبلغ 7800 نسمة،منها خمسة آلاف من الهجار وثمانمائة وألفين من أزجر ، وقد كنت سخيا حينئذ ، اذ نشرت الصحافة الاحصائيات الاخيرة لعدد السكان ، فذكرت ان عدد سكان الهجار يبلغ ثلاثة آلاف ، وعدد اخوتهم ازجر من سكان منطقة جانت يبلغ خمسمائة وألف ، فالجميع خمس مائة وأربعة آلاف ، ولهذا نرى اننا بعيدون كثيرا من عدد المليون نسمة ، الذى قدمه الصحافى الوهرانى ، سنة 1856 » ثم واصل الصحافى روبير حديثه بقوله « ومن جملة ناشرى هذه

---

7) ذكر هذه الرواية القبطان بروسلار
Capitaine Brosselard : « Les deux missions Flatters »

الترهات الكاتب هنرى دو ڤيرى Duveyrier فاذا كانت حالة التـــوارق الذين عرفهم بمثل ما وصفهم به سنة 1860 ، فكيف نصف حالتهم التى هم عليهـا فى وقتنا هذا» أي سنة 1938 · ثم قال الصحافى روبير « ومن ذلك العهد ـ أي صدور كتاب دو ڤيرى Duveyrier ـ نجد سواحا وكتابا وموظفـــين تباروا وتسابقوا الى خلق بلاد الهجار البعيدة كل البعد عن الواقع التاريخى ، أكثر من بعد بيير بونوا Pierre Benoît الذى ضمن روايتـــه المسمـــاة « اتلانتيد » ، تلك الرواية التى فتحت للكتاب الخياليين الافتراضات والتكهنـات من بينها ان بلاد الهجار هي ينبوع البربر ، وان موقعها هو محور البشرية » الخ ·

ثم قال الصحافى روبير رادا على الكتاب الذين حاولوا تزييف التاريخ، ومن بينهم قوتى Gauthier صاحب كتاب « الصحراء » الذى نقض الصحافى المذكور بعض ما كتبه فى تأليفه « الصحراء » الذى روّجه المستعمرون العسكريون ، الا ان الصحافى روبير اقتصر فى رده عليه على ما يتعلق ببعض الجوانب الاقتصادية والجغرافية ، وترك ما يهم موضوع بحثنا وهو المتعلق بالتوارق ، فتوليت نقلــه اتماما لموضوع الدراسة . قال قوتىْ فى كتاب « الصحراء » المذكور متحدثا عن التوارق وميزتهم عن بقية سكان الصحراء ما يلى : « ان هؤلاء النـــاس ـ أي التوارق ـ أقرب الينا من العرب، فانهم متفتحون ، والسبب فى ذلك ان اسلامهـم ضعيف ، سطحى ، فهم لا يعرفون كلمة عربية ـ العربية لغة القرآن ـ وهـــم لا يصومون شهر رمضان ، ونساؤهم متحررات ، ولهذا فهن أقرب شبها بنسائنا ، وهم يتحدثون باللغة البربرية ، ويمتازون عن بقية البرابر ، انهم لا زالوا يحتفظون بكتابة هذه اللغة ، دون بقية سكان العالم ، حيث انفردوا باستعمال الحـروف الهجائية الليبية القديمة المشهورة بحروف تيفنار Tifinar » ، وختم قوتى فصله هذا بقوله « من جملة ما ورثه التوارق من أصلهم البربرى ، وعضوا عليـــه بالنواذج ، هو بغضهم للعرب الفاتحين. ولهذا فالحروب بينهم متواصلة ، كمـــا لا زالوا يحتفظون بذكر كسيلة البطل الاوراسى قاتل عقبة الفاتح العربى الاول سنة 683 م· » وهذه الترهات لم يخصصها المستعمرون للتوارق فقـط ، بـــل استعملوها أيضا لجلب البربر وتضليلهم لحاجات فى نفوسهم ، والا فانهم فى دراساتهم الخاصة بمجتمعاتهم لا يخفون انطباعاتهم عنهم ، ويعددون مثالبهم كما نراه من بعض انطباعات الاب دوفوكو فى مذكراته عن التوارق أنفسهم ·

نكتفى بهذه العينات أو اللقطات التى ـ من حسن الحظ ـ لم يغتر بها بعض الكتاب أمثال الصحافى كلود موريس روبير الذى يعد من غلاة المعمرين ، هذا وانني ان خصصت لهذه الآراء صفحات ، فليس الغرض من ذلك احياء الاحـــن والخلافات التى كانت توحى لهؤلاء الكتاب ، حسبما تـــدعوهم اليه المصالـــح الاستعمارية أو الخلافات العقائدية ، فاننا فى عصرنا هذا نجتاز ظـــروفا تسعى فى طي صفحات التطاحن والخلافات وتستبدلها بالتعاون فى الاشـــادة بالقيم ، وبتوحيد الجهود فى احياء التراث العالمى ، سواء منه الثقافى والحضارى، والتعاون على نشره وتجريده من الرواسب التى ساعدت فى تضخيمها الاغراض السياسية والعقائدية ، ومما يجعلنا نتفاءل للقضاء على هذه الرواسب السلبية ، ما نراه من التسابق الى عقد الملتقيات والمؤتمرات فى بلدان مثل روما واسبانيا وصقلية وباريس ومالطة لدراسة حضارات البحر الابيض المتوسط وغيرهـــا من الحضارات ، واننا بنقل ردود الصحافى روبير على مؤلف كتاب « الصحراء » نريد تجريد التاريخ مما ألصقه به بعض المغرضين ، الذين لا زالوا متشبثيـــن بآرائهم ، أي بالرجوع الى مثل هذه المصادر المزيفة ، ويروى ان الفتوحـــات الاسلامية ببلاد المغرب العربى جنت على البلاد والعباد ، حيث وقفت عجلة الحضارة، اذ كانوا يرون أن هذه البلاد طبعها الفنيقيون ثم الرومان والبيزنطيون بالطابع الذى حاول استرجاعه أقطاب الاستعمار العقائدى ، أمثال الكاردينال لافيجرى ، ولكنهم نسوا ان الاسلام الذى نجح فى أداء رسالته ، وعمت تعاليمه سكـــان الشمال والصحراء والسودان ومن بينهم التوارق ، رغم ترهات الكتّـــاب الذين ذكرناهم ، ورد عليهم الصحافى موريس روبير ، وهناك أدلة أخرى تثبت استماتة التوارق فى سبيل العقيدة الاسلامية ، لا فرق بينهم وبين مواطنيهم من مختلف قبائل الصحراء والسودان ، فمن ذلك ما ذكره الجنرال مينى Meynier (8) فى دراسته القيمة التى خصصها للثورة العارمة التى كان منطلقها من جنوب ليبيـــا عـــلى الايطاليين ، ثم آزرها بقية سكان الصحراء التونسية والجزائرية ، ومن بينهـــا سكان التوارق بأجمعهم ، وهذه بعض اللقطات نثبتها فى هذه الدراسة مما ذكره الجنرال مينى. قال فى معرض حديثه عن مراحل هذه الثورة وصبغتها : « بعد اخلاء

8) نشر الجنرال مينى دراسة تحت عنوان : « الحرب المقدسة للسنوسية فى افريقيا الفرنسية » (1915 ـ 1918) بالمجلة الافريقية سنتها الرابعة والثمانين 1939 .

تبستى Tibesti فى أوت 1916 نتج عن ذلك تحركات بالهضاب العليا من السينغال والنيجر منطقة التوارق الذين استعدوا للثورة استجابة لدعوة قبيلة كل السوق Kelessouk وكذلك التوارق من سكان أولّيمندن (توارق تمبكتو) وكانت من الغلطات التى ارتكبها الفرنسيون القاءهم القبض على الرئيس فيهرون Fihroun وسجنوه بغاو Gao بعد ما حكموا عليه بخمس سنوات سجنا ، وقد تمكن من الفرار من السجن فى فبراير 1916 والتحق بعشيرته ، وبمجرد اتصاله بأفراد عشيرته ، كاتب حاكم تمبكتو الفرنسى برسالة استهلها بقوله « ان حكم الكفار قد انتهى » ثم أردف هذه الجملة بقوله « واننى أعلن الحرب على الفرنسيين» وقد وقع هذه الرسالة رؤساء القبائل الذين كان من بينهم توارق الهجار الذين كان يترأسهم موسى أق امستان ، تحصن أفراد القبيلة بمرج أمدرامبوكان Amderambouken حيث يجتمع واديا ازاواق واسكارى ، كان عدد إبلهم خمسة آلاف وعدد البقر خمسة عشر ألفا وعدد الغنم ثلاثين ألفا ، أمكن لافراد القبيلة التحصن بهذا المرج ، وهنا وصف لنا الكاتب ما لا يترك شكا لاحد بأن العقيدة الاسلامية العميقة فى نفوس السكان ، هي التى كانت تذكى هذه الحروب ، التى كثيرا ما نجد بعض الباحثين سواء من كانوا يؤيدون المعمرين أو من كانوا يتفيقهون يحاولون ارجاع هذه الثورات أو التمردات ، رد فعل لاهانة لحقت حاكما أو رئيس قبيلة ، أو كانت لاغراض مادية محضة ، والجنرال مينى الخبير بدراسات تلك القبائل ، التى سجل مراحل ثوراتها على الايطاليين ، ثم على الفرنسيين ، وكانت له معطيات جمعها ، عندما تولى التفتيش العام بشمال افريقيا ، ذكر وصفا رائعا لهذه القبائل فى بعض معاركها قال : « كان المحاربون يجتمعون للصلوات على سوط الطبل وأناشيد السلام » ، ثم قال : « كانت هذه الاناشيد التى تنطلق بها أصوات المحاربين فى سكون الليل ، شبيهة بأناشيد أبطال هوميروس Homère فى حروب طروادة (9) فمن هذه الفقرات تتجلى الحقيقة التى لا يتطرق اليها شك ، ان سكان مناطق التوارق برهنوا على انهم دافعوا عن العقيدة الاسلامية . ولنرجع الى الوراء قليلا ، لنبين ان رواد الصحراء الذين قتلوا أثناء أداء مهماتهم بالصحراء ، وخصصهم الصحافى روبير بقائمة طويلة، لم تكن غاياتهم واحدة ، اذ كان بعضهم يرى ان مصلحتهم العليا خصوصا فى

(9) نقل الجنرال مينى هذه الفقرات من تاليف Dr A. Richer : « Les Touaregs du Niger »

الميدان الاقتصادى ، تفرض عليهم الاتصال والتعاون مع السكان المسلمين ، ولما كان التاريخ يعيد نفسه ، فاننى أثبت ترجمة أحد الرواد الذى لعب دورا وذهب ضحية خصومه الاقوياء ، هذا الضابط الفرنسى هو من أسرة نبيلة مثرية ، ولما كان الدور الذى حاول أن يلعبه له خيوط تتصل بالتزاحم والصــــراع بين الدول والاحزاب ، وقد ظهرت فيه الرأسمالية اليهودية التى كانت تهيمن على سياسة الدولة الفرنسية اذ ذاك ، ظهر فى الافق هذا الرائد الذى لقي حتفه بالصحراء ، وعدّ فى قائمة ضحايا رواد الصحراء ، الا أن غايته وهدفه ، كانا يخالفان كثيرا من زملائه، ولهذا تتبعت ترجمته ومختلف نشاطاته بايجاز ، كان هذا الضابط يعرف بالمركيز دو موراس Le Marquis Do Morès وهو علاوة على ثروة أسرته تزوج بامرأة أمريكية مثرية سنة 1882، وفى سنة 1888 زار بلاد الهند والصيــن وحاول احداث السكة الحديدية التى تربط بين الهند والصين،وبعد رجوعـــه الى فرنسا صادف الحملة ضد اليهود فانخرط فى صفوفها ، وكان من أبرز محررى جريدة « الكلمة الحرة » (La libre parole) 1892 لســـان حـــال أعــداء اليهوديــــة الرأسمالية ، ولهذا جرّت عليه مقالاته عدة مبارزات مع كثير من الكتاب اليهود أمثال دريفيس Dreyfus والقبطان ماير الذى قتل فى المبارزة وغيرهما .

لم يكتف الماركيز دو موراس بمحاربة اليهود فى الميادين الصحافية بباريز ، بل شد الرحال الي الجزائر ، حيث كان للحركة انصار أقوياء ، فسعى فى ضــم المسلمين لهم ، ولما وصل الى الجزائر عقد تجمعا كبيرا بباب الواد ، ألقيت فيه خطب ووقعت توصيـــات فحواها التحذير من الرأسمالية اليهودية الـتى كانـت تحميها انكلترا ... ثم واصل الماركيز جولته الى تونس وذلك فى نفمــبـر 1895 وكان قصده الذهاب من تونس الى السودان على طريق زندر Zinder وأقدز Agadès لفتح باب التبادل التجـــارى. وفى 29 مارس 1896 ألقى محاضرة بالمسرح البلدى فى تونس كان عنوانها « عبور بلاد السودان الفرنـــسى بالتعاون الاسلامى الفرنسى » « La pénétration du Soudan français par l'allience franco-islamique » كان من جملة الشخصيات التونسية المؤيدة لنظرية الماركيز دو موراس الشيـخ الاصرم صاحب « الرحلة الى المناطق السنوسية » التى ألفها بمشاركة المراقــب المدنى الفرنسى فكتور سير Victor Serres ، وبعد الفراغ من المحاضرة وقـــع الحاضرون على التوصية الآتية : « ان الفرنسيين والمسلمين وسكان مناطق البحر

الابيض المتوسط (Les Méditerranéens) الذين اجتمعوا بتونس-وعددهم الفان، يؤيدون تعاون الفرنسيين والمسلمين ، وكذلك سكان شواطىء البحر الابيض المتوسط ، للدفاع عن مبدإ الاستقلال الذاتى ، والتعاون لتحرير الارض والسكان من قبضة الرأسمالية التى يشخصها الانكليز فى زماننا هذا ، اذ هم ممثلوها فى الميدان السياسى ، ان هذا التجمع المنعقد فى تونس يقدم الى المسلمين الذين يحاربون اليوم على ضفة وادى النيل تحياته وأجمل أمانيه » ثم قال الكاتب (10)«ان الماركيز دو موريس بشجاعته وصراحته لقي اقبالا عند أعيان المسلمين ذوى المكانة المرموقة بتونس منهم سى احمد بن ضياف وسى الطاهر العجيمى،وهما اللذان عرّفاه بالشيخ الوقور محمد بن عثمان الحشايشى محافظ خزانة جامع الزيتونة » (وحقيقة ان هؤلاء العلماء من أمثل علماء تونس فى عهدهم وتركوا آثارا هامة) .

نكتفى بهذا القدر من ترجمة أحد ضحايا الصحراء الذين خصّصهم مواطنوهم بتراجم ضافية تعرضوا فيها لظروف اغتيالاتهم ، والكثير منهم كانوا من معارف وزملاء الاب دوفوكو الذى لم ينج بدوره من السيل العرم الذى اكتسح منطقة الهجار اثر اندلاع ثورة الليبيين على ايطاليا،ثم تسربها الى المناطق الصحراوية التى كانت تحت الحكم الفرنسى ، ولنرجع الى الحديث عن الاب دوفوكو ، الذى طبع بدوره منطقة الهجار بطابع له وزنه وأثره ، بقطع النظر عن آراء الناس فى نشاطاته العقائدية الصرفة ، اذ لم يخف رهبانيته على أحد ، عند استيطانه لتمنراست التى لقي فيها حتفه ، كما لم يخف خيبة أمله فى التنصير ، وصرح بأن الوقت لم يحن بعد الى ذلك ، حيث ان حصانة سكان الصحراء ، ومناعتهم المكتسبين من التربية الدينية الاسلامية ، جعلت كل محاولة لتحويل عقائدهم ، ترتطم بالفشل الذريع ، اللهم الا افراد قلائل ، يتصلون بهم ، ويظهرون اعتناقهم للمسيحية رغبا أو رهبا،كما لم يعتنق دوفوكو أفكار من كانوا يدعون ان التوارق يحملون الحقد للاسلام من عهد الفتوحات . هذا وان حياة دوفوكو قتلت بحثا وتنقيبا ، ونشرت ترجمته،تتبعت مراحل حياته من مهدها الى لحدها.كما ان وزارة الشؤون الدينية ، خصصت له ضمن نشاطات المبشرين فى الجزائر نقطة من نقاط مواضيع الملتقى السابع للفكر الاسلامى ، المنعقد فى مدينة تيزى وزو ، ولهذا اقتصرت فى

---

10) نشرت المجلة الجغرافية لمدينة الجزائر وافريقيا الشمالية بعددها 123 سنة 1930 تحت عنوان ضحايا الصحراء : الماركيز دو موريس ومنها نقلت هذه الترجمة .

مدة الدراسة على الاشارة لبعض الجوانب من حياته بمناسبة انعقاد هذا الملتقى فى منطقة اشتهرت به ، ولا زالت قوافل السواح تشد اليها الرحال ، وبعض نشاطاته فى المجال الثقافى تولى مواصلتها بعض مريديه ، ومن بينها اتمام المعجم الـــذى جمع فيه ترجمات المفردات البربرية ـ لغة التوارق ـ الى الفرنسيـــة والجانـــب الذى ركزت عليه ترجمته هو حياته المثالية فى الميدان البشرى ، حيث تحدى عبيد البطون والشهوات ، عندما تحول من حياة رجل بالغ فى حياة الاستهتار الى منتهاها ، وسهلت عليه بلوغ مرامه فيها ، ثروة أسرته ، فتخلى عنها ، ومال الى الحيـــاة الروحية ، حياة العباد والنساك ، وقد تعرض بعض مترجميه ومنهم الصحـــافى روبير ، عندما تعرض الى مراحل حياته الاولى وتحوله من حياة البذخ والتـــرف الى حياة التقشف والزهد ، ان من جملة الاسباب ، انه فى سنة 1881 عندما أعلن السيد بوعمامة ثورته على الفرنسيين،تلك الثورة التى دعم بها ثورة أقاربه المشهورة فى التاريخ بثورة « أولاد سيدى الشيخ »،صادفه الحال بفرنسا وطلب الالتحاق بجيش المقاومة ، فأرسل الى نواحى سطيف فى قرية كان سكانها المسلمون يترددون على المسجد فى صلواتهم،ويسمعون قراءة القرآن والاذان فرأى ان هذه المظاهـــر للحياة الدينية هي الشغل الشاغل لهؤلاء الناس ، وحينئذ صار فى نقده الذاتى يقارن بين حياتهم وحياته ، مما أداه الى التفكير فى تحويل مجرى حياته · والحياة المثالية للمسلمين كان لها تاثير ، كثيرا ما التجأ اليها بعض القسيسين اثر الاحتلال الفرنسى مباشرة ، حيث كانوا يضربون المثل بابتعاد المسلمين عن الحانات والمواخير.

فـــالأمـــير عبد القادر عند اجتماعه برئيس الكنيسة فى الجزائر دبيش Dupuch وصرح له دبيش بأنهم أهل كتاب ودين ، فتعجب الامير من تصريحه ، وقال لـــه كيف تدعون ان لكم دينا وكتابا سماويا وأنتم تتجاهرون بشـــرب الخمر ··· والاسلام فى هذا الميدان،أي الحياة المثالية التى يدعو اليها،واحترام الاديـــان، والكتب السماوية،لا ينكرها الا المغرضون ، ورغم ذلك فان كثيرا من الباحثين من الاجانب لا زالوا الى يومنا هذا كلما أثير هذا الموضوع وهو تسامح الاســـلام الدينى نجد من يعترف للمسلمين بهذه الحسنة ، ومن ذلك أنه نشر فى جريدة لوموند اليومية الباريسية (Le Monde) مقال لاحد الاساتذة الفرنسيين قضى أزيد مـــن عشر سنوات أستاذا بمعهد فرنسى فى مدينة اصطنبول (تركيا) كتب هـــذا المقال فى الثانى من ماي 1979 ردا على ما كتبه أحد الكتاب الارمينيين بمناسبـــة احياء ذكرى قمع الدولة التركية سنة 1915 للارمن ، والذى يهمنا من هذا الرد فى موضوع دراستنا هو ما اعترف فيه كاتبه لمعاملة الخلافة العثمانية باصطنبول

لرعاياها المتدينين بديانات غير اسلامية، وبعد ان استعرض احصائيات رسمية عما كان يتمتع به الارمن طيلة أربعة قرون بتركيا، وكذلك غيرهم من الرعايا المسيحيين واليهود ، قال متحدثا عن الاتراك : « ان جميع المؤرخين متفقون على أن الاتراك مثل منفرد للدول الحاكمة ، فى تسامحها المثالى فى الميدان الدينى – وذلك حتى فى عهودها القديمة – مع رعاياها غير المسلمين ، ومن ذلك أنهم آووا اليهود الذين طردهم وشردهم الاسبان فى القرن الخامس عشر ، ثم آووا الآخرين سنة 1933 عندما طردهم النازيون الخ » .

وكاتب هذا المقال القيم الجوهرى فى موضوعه والمدعم بالحجج والاحصائيات، هو جان لاروش Jane Laroche والكل يعرف ان الارمن نظموا حملات دعائية وكثيرا ما يتعرض من انتصر الى الاتراك ، أو على الاقل أدى شهادة نزيهة الى الاغتيال .

ولنختم هذه الدراسة بما كنت تعهدت به من أن تاريخ منطقة الهجار لا زال محل عناية الباحثين من مختلف الاجناس، خصوصا العناية بتاريخها القديم الذى يرجع الى حوالى عشرة قرون قبل الميلاد ، فقد نشرت الصحف فى بداية هذه السنة نقلا عن وكالات الاخبار بمدينة لشبونة (البرتغال) تحت عنوان : « هل اكتشف السوفييت جزيرة الاتلانتيد ؟ » هذا السؤال هو الذى طرحته الصحافة البرتغالية بعد التصريحات التى صرح بها فى لشبونة العالم الروسى أندرى اكسينوف Andreï Aksinov عضو المجمع العلمى فى الاتحاد السوفييتى، ان السيد اكسينوف يقود قافلة متركبة من خمسين عالما تقلهم باخرتهم الاكتشافية فيتاز Vitiaz ، وصرح تصريحه هذا عندما وقفت الباخرة بميناء لشبونة ، وقال فى تصريحه: « ان بعض رفقائه أخذوا صورا لبعض آثار من بقايا أسوار ومدارج فى عمق البحر فى النواحى التى يعتقد – حسب الاساطير – انها كانت توجد فيها « الاتلانتيد » .

ولم تمض الا أسابيع قليلة حتى طالعتنا الصحف بمقال طويل نقلته جريدة الشعب الجزائرية تحت عنوان : « قارة اطلانطيس غرقت فى البحر المتوسط وليس فى المحيط الاطلسى » وقد بسط الكاتب القول فى الموضوع، وذكر ان موقع هذه الجزيرة كان بقبرص ، واستعرض آراء العلماء أصحاب هذا الرأي ابتداء من

افلاطون » الخ . سقت هذين المقالين للاستدلال على اننا لا زلنا بعداء عن مجاراة الباحثين الذين حاولوا أن يفرضوا علينا ان منطقة الهجار هي موقع جزيـــرة الاتلانتيد وكل هذا أيضا ، يزيدنا ايمانا ورسوخا ، بأن كثيرا من الكتاب يرسلون الاقوال على عواهنها ولهذا ينبغى لنا أن لا نجاريهم فى آرائهم ولو خلعوا على أنفسهم القابا لا دخل لها فى الموضوع اذ التاريخ وثائق .

هــؤلاء التــوارك الملثمــين

عبد الرحمن الجيــلالى
مؤرخ ـ الجزائر

هم أولئك الذين وقــع بشأنهم اجماع معظم مؤرخى هذا الشمال الافريقى بأنهم منحدرون من سلالة الجـذر المازيغى المغربى الذى سكن اسلافه ـ منذ احقاب طوال ـ هذا الوطن الممتد من صحراء ليبيا الى المحيط الاطلسى ، ومـن البحــر الابيض المتوسط الى حـوض السينيغال والنيجر ، فهم الذين عرفوا باسم البربر واشتهروا بـه فى التاريخ ٠

وكان فيما اجمع عليه هؤلاء المؤرخون أيضا ان أصل البربر يرجع الى جذمين اثنين ، هما البرانس والبتر ، ومن البرانس انحدرت قبيلة صنهاجة العتيدة ٠ ويقال ان اسمها هذا ـ صنهاجة ، أخذ من كلمة (صناك) بالصاد المشم بالزاى،والكاف القريبة المخرج من الجيم (زناك) ٠ وفى لهجة بربرية ينطق بهٗا (ايصناكى) و (ايزناكى) ، وفى حال اطلاقها على القبيلة يقال فيها (الزناكة) ، فلما عربه العرب قالوا (صنهاج)، وهـو اسم الجد الاعلى الذى عرف به هذا الشعب : صنهاج بن برنس ٠٠٠ ولا تــزال بعض

القبائل والعشائر المنبثة هنا وهناك بأرض المغرب هذه تدعى بهذا الاسم : (صنهاجة) الذى يطلق على اسم البطن الجامع الذى تنتمى اليه كل قبائله وبطونه .

وليس من غرضنا هنا تتبع ولا استقصاء ما قيل عن أصل هذا الشعب أو ما ذكروه عن مرجع جذره وأرومته ، ... هل هو عربى أم بربرى أم غير ذلك .. وهل هو سامى أم حامى ، أو هو من أصل هندى أو روبى ، أو هو مزيج من كلتا السلالتين أو السلالات الثلاث التقت هنا على اديم أرض هذه الاوطان المغربية مـن هذا الشمال الافريقى ، أو غير ذلك مما قيل ... فان هذا كله لم يكن مما نرمى اليه فى هذه العجالة الموجزة ، اذ أن لهذا البحث مجالات فسيحة وفسيحة جـدا ، يتيـه فيها الباحث الحـاذق والدليل الخريت ، والى هذا الخلاف الواسع الواقع فى نسب هذا الشعب يشير الشاعر الاندلسى ابن خفاجة بقوله فى مدح الامير أبى يحيى ابراهيم :

تنميهــم الـــدنيــا الى صنهــاجــة   والـــديــن ينميهــم الى الانصــار

شـــادت يـــد العليــاء فى عرصــاتهم   أعـــلى منـــار فى أعـــز ديـــار

فتاريخهم كما نرى عريق جدا فى غضون السلالات البشرية العديدة ، وكـل هذا كما ذكرنا لا يهمنا منه اليوم شىء ، وحسبنا ان صنهاجة هى قبيلة مغربية منتشرة بأرض المغارب الثلاث : الاقصى ، والادنى ، وفى القلب وهى (الجزائر) أرض المغرب الاوسط . وكان من أهم القبائل والبطون المنحدرة من الجذر الصنهاجى قبيلة (لمتونة) فى الشمال و (قدالة) فى الجنوب بالقرب من نهر السينيغال ، و (مسوفة) فى الوسط ، وهؤلاء هم الملثمون ، ومنهم ملوك دولـة المرابطين بالمغرب الاسلامى والاندلس (454 ـ 541 هـ 1062 ـ 1146 م) .

وقد اختص الملثمون بسكنى الصحراء الكبرى الممتدة من غدامس بليبيا الى البحر المحيط وبلاد السودان التى كان من ضمنها أرض الجزائر . وعندما ذكر ابن خلدون أرض مالى قال : « وبالقرب منها من شبماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين » ... وفى حديثه عن سجلماسة قال : « ... وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة ، وهـم شعوب كثيرة ، ما بين كزولة ، ولمتونة ، ومسراتة ، ولمطة ، وريكة ... » .

ويقول البكرى : « وبنى لمتونة ضواعن رحالة فى الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين فى شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام ويصيفون فى موضع يسمى أمطلوس ... » .

ولمتونة هى من كبريات قبائل الملثمين بالصحراء الكبرى ، وهم الذين يسميهم الكتاب الاوروبيون : الرعاة الكبار أو الجمالين الرحالة الكبار،وذلك تمييزا لهم عن الرعاة الصغار رعاة البقر والغنم . وكانت لهم الرئاسة بهذه الاوطان الصحراوية ، واستوثق لهم ملك ضخم فى الاسلام (أواسط القرن الخامس الهجرى - النصف الاول من القرن الحادى عشر الميلادى) توارثه منهم ملوك ورؤساء مذكورون دوخوا البلاد الصحراوية وما يجاورها من بلاد السودان وحملوا أهلها على الاسلام ، قال ابن أبى زرع :

« أول من ملك الصحراء من لمتونة (تيلوتان) فدوخ بلاد الصحراء واقتضى مغارم السودان ، وكان يركب فى مائة ألف نجيب ، وتوفى سنة 222 هـ/836 م ».وكان الرئيس الاعلى عندهم يدعى بلقب (آمنوقال) أو (امينوقالين) بمعنى أمير البلاد ، واستمر هذا اللقب يدعى به الحاكم المطلق الاعلى عندهم الى سنة 1060 هـ/1650 م . حيث تطورت الاحوال السياسية وتغيرت الظروف ...

ومن بين القبائل التى عمها الاسلام فى تلك المنطقة الصحراوية . قبيلة (تاركة) أو (تريجة) بجيم أو قاف معقودة كما ينطق بها أهل البادية عندنا بارض الجزائر (1) ويأتى الانتساب الى هذه القبيلة على صيغة (تاركى) والجمع تواركة و (توارك) وتأول بعضهم اسم التوارك الى انهم تركوا الوثنية الى الاسلام ، وقيل العكس ، وذلك عند أول عهدهم بالاسلام،والاسم الاخير هذا التوارك ، هو الذى حرفه بعض تراجمة المشرق فقالوا (طوارق) . وهم القبائل الملثمون الساكنون ببلادهم التى سماها لنا ابن خلدون (هكارة) وهى المعروفة اليوم باسم (الهكار) بالجيم أو الكاف المنطوق بها قافا معقودة . ويقول ابن خلدون فى أصل هذه الكلمة انها منقلبة عن (هوارة) قلبت العجمة واوها كافا .

(1) راجع بحثنا حول حرف القاف المعقودة المنشور بمجلة الشهاب . م 7 . ج 7 ص 446 قسنطينة 1350 هـ/1931 م .

وجاء في وصف حال هؤلاء الملثمين وموقع بلادهم من كلام ابن خلدون قوله :

« وهذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفز وراء الرمال الصحراوية بالجنوب ، أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها فاصحروا على الارياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها واعتصموا منها بالبان الانعام ولحومها انتباذا عن العمران . واستئناسا بالانفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر فنزلوا من ريف الحبشة جوارا وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا واتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الامم » .

ويبدو لنا من فحوى كلام ابن خلدون هذا ان نزول هؤلاء الملثمين بهذه المغازات الصحراوية الجنوبية انما كان بدافع الفرار من العدو المهاجم في الشمال،وخوفا من الهزيمة على أيدي هؤلاء الزاحفين من الاجانب على الساحل الشمالي من أرض افريقيا ؟ ولكنا نحن اذا نظرنا الى الطباع التي فطر عليها هؤلاء الملثمون وذكروا بها في التاريخ وشوهدوا عليها في العصر الحديث كدنا ان لا نصدق بهذه النظرية ! ؟ . فها هو العالم ابن حوقل،وهو ذلك التاجر الرحالة الذي لابسهم وعرفهم قبل ابن خلدون بخمسة قرون يصفهم لنا بقوله : « فيهم البسالة والجراة والفروسية على الابل والخفة والجري والشدة ...»ويقول :بأن فيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم ... ويقول : ولهم خلق تام وحول وجلد عام في نسائهم وفي رجالهم ...

كما يشهد لهم التاريخ الحاضر بالبطولة النادرة في حروبهم الثورية المتتابعة المتكررة ضد الاستعمار الفرنسي (1881 ، 1889 ، 1895 ، 1896 ، 1917 م) فواجهوا المدافع والاسلحة العصرية بأسلحتهم التقليدية والتي هي من صنع أيديهم مثل الرماح والحراب والسيوف الطويلة والخناجر القصيرة ، وحموا أنفسهم بدروع من جلود الضباء ولم يفروا أو يتقهقروا أمام العدو قيد انملة عن موطنهم هذا ، وظلوا كذلك الى عهدنا هذا عهد التحرير،فهم بحق كما وصفهم الواصفون : أسود الصحراء ، فكيف يتصور ممن هذا شأنه وهذه سجاياه يفر أو يرتحل عن بلاده ويتركها للعدو الزاحف ؟

ولكننا نقول انهم سكنوا بهذه الارض منذ عهد بعيد قبل الغزو الاجنبي بعصور مديدة عريقة وموغلة في القدم بما يرجع ربما الى ما قبل التاريخ بدهور ...

وبلاد (الهكار ، او الهجار) بالقاف المعقودة هى نجد كثير الارتفاع يقع فى أرض الجنوب بصحراء الجزائر ما بين درجة 14 و 30 عرضا شمالا ، وبين 5 غربا و 10 شرقا طولا ، بها جبـال هائلة تظهر قممها الرهيبة بأشكال مخيفة غريبة يـرتفع بعضها الى 3000 مترا كقمة (طهت) بمرتفعات (تاكور) الى الشمال مـن مدينة (تامنراست) ، وهى فى شكلها الطبيعى تظهر ماثلة كقلاع منيعة شاهقة لا يمكن اختراقها · كانت فيما مضى منطقة فلقانية ، وطول البلاد يبلغ 480 كيلومترا تقريبا ، وعرضها 320 كيلومترا ، وهذا المبلغ من مساحتها اليوم هو ما كان عليه الحال منذ أيام ابن خلدون حيث نـراه هو نفسه يقول : « ··· ومضى هؤلاء الملثمون وقبائلهم لهذا العهد بمجالاتهم من جوار السودان حجزا بينهم وبين الرمال التى هى تخوم بـلاد البربر من المغربين وافريقية ، وهم لهذا العهد متصلون من ساحل البحر المحيط فى المغـرب الى ساحـل النيـــل بالمشـــرق » ·

والواقع ان الاغلب من هذه المنطقة الصحراوية لم يسبق اكتشافه حتى اليوم ، اللهم الا بواسطة رجال اطلعوا على هذه الجهة من طائرات تمر فوقها ·

ومناخ بلاد الهجار ـ الهكار جاف كثيف الحرارة ، حيث الارض هناك حرة لا تنبت زرعا كما قال ابن خلدون ولا عشبا بالجملة ، فهى كارض الحجاز وجنوب اليمن ··· قال: « ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فان هؤلاء يفقدون الحبوب والادم جملة ، وانما غذاؤهم وأقواتهم الالبان واللحوم ··· » وهذا فى القديم ، اما اليوم فلا يوجد تارقى الا ويستعمل الحبوب والتمور بل ان بعض الـزرع بدأت فعلا بزراعة بعض المحاصيل فى مجارى المياه فى الوديان ـناك جماعات تستخدم الرى فى الزراعة ·

وتنزل بهذه الارض امطار ينمو بها النبات الذى يفى بحاجة السكان وتجرى به انهار وأودية أهمها نهر (ايغيغار) ووادى (طاغيت) و ـى (تافساست) ·

واهم قرى هذه الناحية هى (تمنغست) ـ تامنراست،عاصمة ولاية المنطقة وادارة الحكم بتلك السهوب التى يسكنها هؤلاء التوارك الملثمين اليوم ، لا سيما منهم فريق

(ايموشاغ) أو (ايموشاق) ، كما هم منتشرون أيضا فى النيجر وغينيا ونيجيريا وتشـــاد ٠

وسبق لنا ان أوردنا رأى ابن خلدون فى أصل تسمية هذه المنطقة باسم (الهجار) أو بلاد (الهكار) حيث قال : ان أصلها (هوارة) قلبت العجمة واوه كافا ٠٠٠ ولنا فى ذلك رأى ولا ندرى اسبقنا اليه غيرنا من الباحثين ام لا ؟ ٠٠٠ وقد حان الوقت لندلى به تاركين القول الفصل فيه للبحث العلمى والنقد المنهجى الصحيح ٠

فانى أرى من الجائز القريب والمحتمل لفظا ومعنى ان المنقلب من الحروف فى كلمة (الهكار) أو (الهجار) هو حرف الهاء لا الواو ولا الكاف كما قال ابن خلدون ، فنقول ان اصلها (حجار) وهى الاحجار، فالهاء منقلبة أو مقلوبة عن حرف الحاء ، وذلك نظرا الى وضعية هذه الناحية من كثافة جبالها الحجرية وعظمة صخورها الضخمة ومرتفعاتها من الحجارة الصلبة والادوات المصنوعة هناك من الحجارة ،أو من قولهـم (الحجار) بتشديد الجيم،وهو قاطع الحجارة،فسميت المنطقة هذه أولا بالحجار ، ثم غيرتها الالسن وحولتها الى قولهم الهجار ـ الهكـار ـ الهقـار بقاف معقـدة أليس هذا بممكن قريب ومعقول ؟٠٠ لا سيما وان باب القلب والابدال هو باب واسع فى اللغـة ومعروف ٠٠٠ فانهم قالوا فى كلمة (مدحه) مدهه ، ومدهته امدهه مدها، يعنى مدحته أمدحه مدحا ٠ كما يقال فى كدحه : كدهه ، وفى حبش : هبش ، فانه قلما نجد حرفا الا وقد جاء فيه البدل ولو نادرا كما قال أبو الحسن ابن الضائع اللغوى الاندلسى المشهـــور ٠

وكذلك اذا نظرنا الى موقع هذه البلاد وحاجة أهلها الى المرافق الاساسية فى حياتهم اليومية المتكررة ، نرى أهم ما يعول عليه هؤلاء الملثمين من التوارك سواء ذلك فى ضعنهم واقامتهم وفى أسفارهم وحال تنقلاتهم ، وفى طعامهم وأغذيتهم،وفى ملابسهم ومساكنهم وخيامهم وما الى ذلك من حال معاشهم،فكل ذلك مرجعه عندهم الى البعير ، نعم البعير الذى هو سفينة الصحراء ، فهو أكثر استعمالا وانتشارا بينهم من بين غيره من بقية سائر الحيوان الداجن أو غيره،فالجمل هو الصحراء ، والصحراء هى الجمل ، فهم حقا الرعاة الكبار ٠ ونرى الجمل اذا خلى عنه صاحبه أو تركه للمرعى أو تغافل عنه لحاجته

أو استغنى عنه فى وقت ما ، ربما نفر البعير أو ند وسار فى أرض الله يبتغى الكلأ والمرعى ، فكان لزاما على صاحبه ان يعقله ويشده بحبل ، أو تدرى أيها القارىء الكريم كيف يسمى هذا العقال أو الحبل الذى يعقل به البعير ؟ ان لهذا الحبل اسما خاصا يتميز به ما بين الحبال ، ذلك هو ما يسميه العرب « الهجار » بكسر الهاء وحينئذ تكون الهاء هنا اصلية . والهجار هو حبل يشد فى رسغ رجل البعير ثم يشد الى حقـوه ، وان كان موصولا شد الى الحقب ويقصر ليلا يقدر البعير على العدو ، فيقال اذا شد بعيره بالهجار ، ويقال للجمل المشدود بهذا الهجار : (المهجور) كما يسمى الحبل الـذى يجعل فى عنق البعير المثنى فى خطمه بالهجار أيضا • وشبه الداخل الى هذا الموضع الهجـــار بالبعير الذى فعل بـــه ذلك ثم غلـــب على اسم الموضع ، ويقال حجر البعير – بتشديد الجيم – اذا وسم حول عينيه بميسم مستدير • كما استعملت العرب هـذه المادة نفسها لاطلاقها على الناقة اذا شبت شبابا حسنا فتقول فيها : أهجرت الناقة وناقة هاجرة ومهجرة أى اذا فاقت غيرها فى الشحم والسير ، والهجر – بكسر الهاء – للفائق والفائقة من النوق والجمال ، والهجير ما يبس من الحمض وهو ما ملح وأمر من النبات وهى كفاكهة الابل ••• وبما أن أكثر مـا يشاهد فى الصحراء الكبرى ومـا يستعمل فيها من الحيوان هو البعير وما يتصل بالبعير سمى هذا الوطن ببلد (الهجار) ؟

وكذلك مما يحتمله لفظ (الهجار) من المعانى – ودائما مـع مراعاة المكان هذا هو مـا هى عليه تلك الناحية الصحراوية من اشتداد الحـر،ووقدات القيظ لا سيما فى فصل الصيف حيث تبلغ درجة الحرارة بها فى الشمال : 50 درجة مائوية ، وفى حالة التوسط : ما بين 35 و 36 درجة ، ومنطقة (الهجار) معروفة بهذا وموصوفة بـــه من قديم •

وفى اللغة يقال : هجر النهار – بتشديد الجيم – اذا اشتد حره ، والهاجرة والهجير شدة الحر ، وتطلق هذه الكلمة على نصف النهار فى القيض خاصة عند زوال الشمس ، ويقال له وقت الهجر – بفتح الهاء – وأهجر القوم وتهجروا اذا ساروا فى الهاجرة ، وأهجروا اذا دخلوا فى وقت الهاجرة : ومنها جاء تعبير العامة عن شدة الحر بقولهم

(الهقارة) بالقاف المعقودة ، وكأن هذه الناحية شبهت لشدة حرها بالهاجرة ، وكل هذه المعانى موجودة فى الصحراء موطن التوارك الملثمين ٠

أو يكون ذلك راجع فى الاشتقاق الى أصل المادة نفسها وهو الهجـــرة بمعناها المعروف وهو التنقل والترحل والخروج من أرض الى أرض ومن مكان الى مكان آخر ، وهذا مقبول اذا اعتبرنا ما هو عليه حال هؤلاء التوارك من الرحلة المستمرة المفعولة التى أكسبتهم صفة (الرحل) . وحينئذ نضطر الى اعتقاد القول بالرأى الذى قيل عنهم وانهم من المهاجرين الاولين الذين استوطنوا هذه المنطقة الصحراوية فنزلوا بها وسكنوها منذ عصور فسميت بلادهم هذه (بلد الهجار) أى المهاجرين على غير قياس ، كما تستعمل كلمة الهجر فى كل محل تسكنه وتنتقل عنه ، فيجوز أن يكون أصلـه الهجران كأنهم هجروا ديارهم وانتقلوا عنها الى هذه المنطقة ، أو من قولهم (هجر القوم) ـ بتشديد الجيم ـ بمعنى بكروا وبادروا الى كل شيء ٠٠٠ ولا يخفى انما تحسن الرحلة فى بلاد الصحراء وفى أرضها القاحلة فى وقت البكور قبل الشروق اتقاء للحر واللهيب ، وذلك ما جعل المكان هذا يعرف بالهكار ـ الهجار ٠

كما انه لنا ان نرد هذه التسمية الى ما ورد من اسماء البلاد العربية التى جـــاء اسمها مشتقا من هذه المادة : هـ٠ ج٠ ر٠ فمثلا ذلك البلد المشهور باليمن (هجر) ، و (الهجران) بفتح الهاء والجيم ، وهما قريتان متقاربتان فى رأس جبل حصينْ قـــرب حضرموت ، ولفظ (الهجر) نفسه هو فى لغة حمير والعرب العاربة معناه القرية كما هو فى لغة اليمن أيضا ، فكل ذلك قريب ، فان صح هذا كان تسمية بلاد التوارك الملثمين بالهجار تسمية عربية أصيلة ، وكانت نسبة الملثمين الى العرب صحيحة ، ولكن من أى طبقة هم من طبقات العرب الثلاث ؟ ٠٠٠ أهم من العرب البائدة ؟ ٠٠٠ أم هم من العرب العاربة ؟ ٠٠٠ أم هم من العرب المستعربة ؟ ٠٠٠ ذلك ما يرجـــع البحث فيه الى المختصين بدراسة التاريخ القديم المتعمقين فى البحث عـــن تاريـــخ السلالات البشرية فى العالم ٠

واذا التفتنا الى ما نريد ان نعرفه عن الحضارة والمدنية بهذه المنطقة من الصحراء الكبرى فاننا نجد أمامنا لونا من ألوان الحضارة متجليا فيما اكتشفه علماء الآثار فى

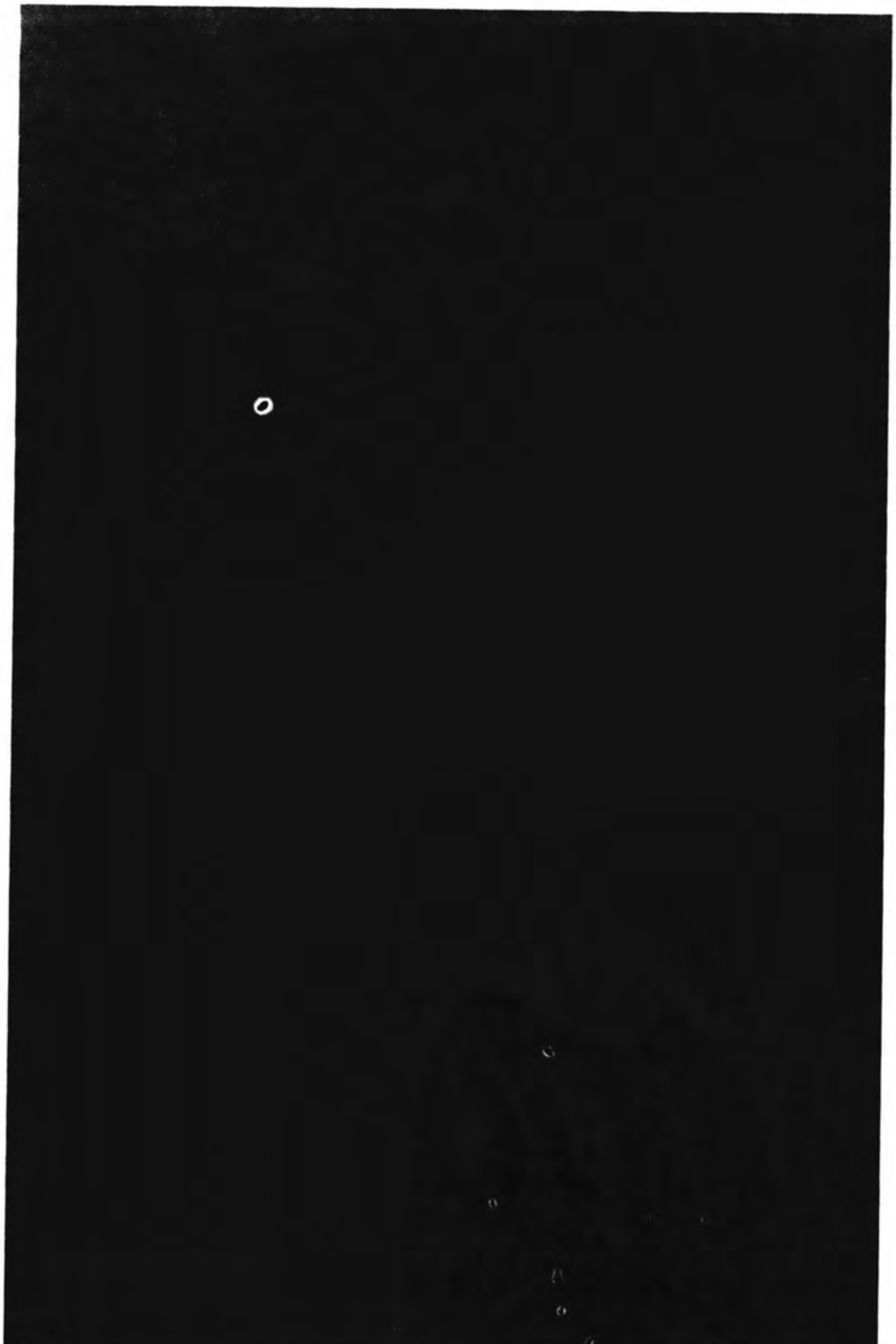
عصرنا الحديث هذا من آثار قيّمة تعتبر وثائق تاريخية تكفى للتدليل على حضارة هذا الشعب وتفننه ، ومن ذلك ما ظهر للباحثين بناحية (تاسيلى) شمال شرقى الهقار واطلع عليه الجمهور ، من تلك الرسوم والصور العجيبة المنقوشة على الصخور هناك ، وهى ذات أشكال مختلفة،وألوان زاهية،وتخطيط محكم،فى وضع أنيق وصنع عجيب ، يرجع تاريخها الى نحو ما يقرب من 8000 سنة مضت على هذه التحفة أو التحف الفنية، وهى لا تزال الى يومنا هذا مزهوة بألوانها البراقة ومظهرها الخلاب . وذلك رغم مر الدهور وتطاول عوارض الطبيعة عليها وعمل يد البشر بتصرفها فيها كيف شاءت !.. ورغم هذا كله فهى باقية الى الآن . ولقد نشرنا صورا شمسية منها فى كتابنا (تاريخ الجزائر العام) ج 1 . ص 62 ـ 63 . ط 3 الجزائر 1971 .

وفى مجال التصنيع نجد هؤلاء الملثمين اشتهروا بامتيازهم فى صنع الدرق لرد عادية العدو فى الحرب ، ولا سيما منها (الدرق اللمطية) الذائعة الصيت،والتى يضرب بها المثل فى المتانة والصلابة والجودة وحسن الصنع ، وهى منسوبة الى لمطة ، ولمطة هى من احدى قبائل الملثمين ، كانوا يتخذون جلود الوحوش بعد ما ينقعونها فى اللبن والحليب سنة كاملة لتزيد قوة وقساوة ، فيصنعون منها درقا بحيث اذا ضربت بالسيف الحاد القاطع نبا عنها ولا يؤثر فيها . وقد كانت الدرقة فى صدر الاسلام الاول تصنع من الخشب ثم يلصق عليها جلدة مساوية لها .

اما لغة القبيل هذا فهى المعروفة ما بين لهجات البربر بلغة (تماشغت) أو (تمازغت) أو (طماشق) وهى تقرب من لهجة قدماء المصريين التى لا تزال منطوقا بها فى بلاد النوبة (1) . وهى مستعملة هنالك فى بعض الكنائس القبطية بمصر ، وترجع فى اشتقاقها وتركيبها الى اللغة الحامية القديمة التى تمت بصلة الى اللغة السامية ، ويتحدث بها فى شمال السينيغال كما تتحدث بها فئتا كيل ايوليمدين وكيل أهجار ، وكلتاهما من التوارك .

كما ان لمحادثاتهم بينهم لهجات أربعا هى خاصة بهم يصعب على غيرهم النطق بها ، حتى ان الكاتب الرومانى القديم (فلينوس) قال فى حديثه عن لغة البربر عموما : « يتعذر على حناجر غير البربر ان تستطيع النطق بأسماء قبائلهم ومدنهم » .

(1) منطقة ممتدة على شاطىء النيل جنوب اسوان حتى دنقلة بأرض السودان .



وكان لهؤلاء الملثمين ابجدية قديمة جدا وهى خاصة بهم ، يكتبونها بحروف منفصلة صائتة بعضها مستنبط من الحرف الحميرى والخط المصرى القديم ، وهو ما يعرف بالخط اللوبى ، وبعضها استنبطوه من تلقاء أنفسهم ٠

وأشكال هذه الحروف يختلف باختلاف القبائل وهى فى جملتها متقاربة فى الشكل ومتشابهة فى الصورة ، ولا يزال هذا الخط موجودا الى يومنا هذا منقوشا على بعض الآثار العتيقة القائمة على مشاهد قبور وصخور يوجد بعضها بشرق قسنطينة وبغيرها ٠ كما توجد بعض نماذج منه بمتاحف عواصم القطر الجزائرى وهو ما يسمى بخط (تيفيناغ) أو (تافيناغ) ٠

ولهذا الخط ضوابط يسمونها (تيدباكين) والكل يسمى (أقامك) ٠ ويمكن كتابة هذا الخط من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين ، ومن أعلى الى أسفل ومن اسفل الى أعلى ، وقد خصصنا لهذا الخط فى كتابنا (تاريخ الجزائر العام) ج 1 ٠ ص 55 ط أولى الجزائر 1953 م ، وفى ط ثانية ج 1 ٠ ص 62 بيروت 1965 م ، وفى طبعة ثالثة ج 1 ٠ ص 61 الجزائر 1971 م ، جدولا مقارنا بثلاثة خطوط : تيفيناغ ، فينيقى ، عربى ٠ فانظره هناك ٠

وكان تعليم القراءة والكتابة والشعر والموسيقى عند التوارك هو من مواهب النساء ، فهن اللائى كن يشتغلن بتعليم ابنائهن وبناتهن ٠ وهذا يرجع الى ما تتمتع به المرأة التاركية من المقام الرفيع والمكانة الراسخة فى المجتمع التاركي ٠

وهذا وحده مظهر عظيم وشاهد ناطق بتقدم سكان هذه المنطقة الصحراوية الجزائرية وضربها بسهم صائب فى ميدان الرقى والحضارة التى نراها تقارب حضارة وادى النيل العتيقة ٠

ومما يحتفظ به هؤلاء التوارك كميزة خاصة يمتازون بها بين ما يجاورهم من البربر انقسامهم على أنفسهم الى قسمين اثنين ، أو نقول الى جماعتين كبيرتين : توارك الشمال ، وتوارك الجنوب ، يجتمعون فى ثمان فرق ، فتوارك الشمال هم المعروفون باسم (أزجر تاسيلى) Tassili والهجار الذين يقطنون الجبال المعروفة بنفس هذا الاسم ٠

وتوارك الجنوب وهم (ايو لميدن كل دناك) وهؤلاء امتزجوا بعناصر من السودان ، وعددهم جميعا يبلغ نحو 300.000 نسمة (1950 م) وطبقة السادة فيهم تــدعى (ايهقارن) وطبقة الشعب تسمى (ايمراد) ، ولا يزالون كلهم محتفظين فى سلوكهم العام بأساليب حياتهم التقليدية وعوائدهم الموروثة مهما اختلفت عن تلك التقاليد التى هى عليها غيرهم من قبائل البربر فرحا وترحا ، فهم على سبيل العموم منزوون عن المجتمع لا يخالطون ولا يختلطون ، وحتى فى زيهم وملابسهم فيهم شذوذ ٠

ومن تقاليدهم المشهورة والخاصة بهم ما يستعمله الذكور من اللثام المسمى عندهم بـ (تاقيلموس) الذى هو فى نفس الوقت يشمل اللثام والعمامة ولهم فى وضعه كيفية خاصة،وفى طوله وعرضه مقياس خاص ٠ فهو ادارة دور من العمامة يصعد بـه المتعمم من تحت الذقن فيجعله على فمه ، أو يصعد به الى أصل الفم وهو النقاب ، وقد يبلغ به أحيانا الى أن لا يظهر منه الا العينان ، وذلك هو ما يسمى بالاحتجــار أو (العجار) كما هو معروف فى لغة عامة أهل مدينة الجزائر ٠

وهذا اللثام بهذه الصفة لا يتزيا به الا طبقة النبلاء منهم،فلا يستعمله العبيد ولا الخدم ، وان كان قد تم القضاء على الرق فيما بينهم بصفة رسمية نتيجة لثورتهـم سنة 1916 ـ 1917 م ٠ فيغطون به وجوههم من أسفل العينين وحتى الجبهة والانف ولا يترك اللثام الا جزءا ضيقا جدا للعينين وقسما صغيرا للانف هى كل الاجــزاء الوحيدة التى يمكن ان يراها الانسان من وجه التاركى ، وتترك نوعية القماش وطريقة نسجه وخياطته مجالا واسعا للتنفس ، بل وتحتفظ بدرجة كبيرة من الشفافية ٠ وهم يتخذونه بلون ثيابهم الطويلة ذات اللون الازرق القاتم ٠ وفى منطقة (الايار) لا يشرع التاركى فى وضع اللثام ولبسه الا اذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، فعندئذ تقام احتفالات طقوسية لوضع اللثام أول مرة ، وتصحبها وليمة كبرى يقدم فيها الطعام والغناء والرقص ٠ وهم يقولون لا يصبح الرجل طاهرا وتقيا الا اذا لبس اللثام ٠

ولا يسمح التاركى اطلاقا لاحد بالاطلاع على وجهه بتاتا،وحتى لاهله واقــرب اصدقائه ولو هو مستقر فى بيته أو قيامه مع اقربائه وذويه ، لا ينزعه ليل نهار حتى

فى المنام . وحتى فى اثناء تناوله للطعام ، فعند ذلك يرفع التاركى القسم الاسفل من اللثام الذى يسمى (ايماوال) ليأكل برفع يده الى فمه ، ثم اذا احتاج فيما بعد الى ربط اللثام فانه ينتحى جانبا فى دغل من الادغال ليخفى ملامح وجهه حتى على أفراد أسرته . وهم يتعرفون على بعضهم بعض بسهولة ، قال ابن حوقل :

« ولم ير لاحدهم ولا لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم ، وذلك انهم يتلثمون وهم أطفال وينشئون على ذلك » . ومن هنا جاءت تسميتهم بالملثمين تسمية منطبقة عليهم تماما ، فهى تسمية طبيعية .

وهذا شيء نراه يخالف على طول الخط تقاليد الامم والشعوب على اختلاف أجناسها واديانها وتباين اذواقها ومشاربها ، فما رأينا ـ فيما نعلم ان هناك من ذكر ان فى الشعوب من يتزيا بهذا الزى الا هؤلاء . فياترى ما وجه ذلك ؟.. وما هو السبب الحامل لهم على تغطية وجوههم على هذه الصفة ؟ .. وما الباعث لهم على هذا ؟ .. واذا قلنا حملهم على ذلك اتقاء مهاب الرياح والزوابع الرملية التى لا تخلو منها الصحراء . قلنا فكيف بالجنس اللطيف عندهم لا يستعمله ، فكيف بحالهن اذا اشتدت زوابع الرمال وتصاعدت الحرارة واضطربت الرياح ؟ ! ... فهن دائما سوافر لا يتلثمن ولا يتنقبن أصلا ، فما هو السبب والعلة فى ذلك ياترى ؟ .. هذا هو السؤال الذى نطرحه اليوم على شيخنا التاريخ ليوضح لنا ذلك ويكشف لنا عن السر فيه ، قال ابن الاثير فى استمرارية حديثه عن ولاية يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين (454 ـ 541 هـ/1062 ـ 1146 م) :

« ... وخرجت قبيلة لمتونة ـ أى بعد تمهيد مراكش ، وضيقوا حينئذ لثامهم ، وكانوا قبل ان يملكوا يتلثمون فى الصحراء من الحر والبرد كما يفعل العرب . والغالب على الوانهم السمرة ، فلما ملكوا البلاد ضيقوا اللثام .

« وقيل كان سبب اللثام لهم ان طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدوهم فخالفهم العدو الى بيوتهم ولم يكن بها الا المشائخ والصبيان والنساء . فلما تحقق المشائخ انه العدو أمروا النساء ان يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ، ويضيقنه ، حتى لا يعرفن،ويلبسن

السلاح ، ففعلن ذلك ، وتقدم المشائخ والصبيان أمامهم واستدار النساء بالبيوت فلما اشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا ، فقال : هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت ، والرأى ان نسوق النعم ونمضى ، فان اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم ، فبينما هم فى النعم من المرعى اذ أقبل رجال الحى فبقى العدو بينهم وبين النساء ، فقتلوا من العدو فاكثروا ، وكان من قتل النساء أكثر ، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه ، فلا يعرف الشيخ من الشاب ، فلا يزيلونه ليلا ولا نهارا . ومما قيل فى اللثام :

قوم لهم درك العلى فى حمير ... وان انتموا صنهاجة فهم هم

لما حووا احراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهم فتلثموا

وهكذا نرى تلميذه ابن خلكان يروى لنا القصة بعينها فى تاريخه وفيات الاعيان، مع التعليق عليها بشىء من التوضيح والشرح فيقول وهو فى سياق فى حديثه عن دولة المرابطين :

« ... وهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم ، فلذلك سموهم الملثمين ، وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفا عن سلف ، وسبب ذلك على ما قيل : ان حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد ، تفعله الخواص منهم ، فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم ، وقيل ان سببه ان قوما من اعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم اذا غابوا س بيوتهم فيطرقون الحى فيأخذون المال والحريم ، فأشار عليهم بعض مشائخهم ان يبعثوا النساء فى زى الرجال الى ناحية ويقعدوا هم فى البيوت ملثمين فى زى النساء ، فاذا أتاهم العدو وظنوهم النساء فيخرجون عليهم ، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم ، فلزموا اللثام تبركا بما حصل لهم من الظفر بالعدو » . وهكذا استمر العمل عندهم حتى أصبح اللثام لديهم (موضة) La mode أو عادة غير شعورية .

اما ابن خلدون فانه اقتصر فى تفسيره لهذه الظاهرة عند التوارك بانهم : « اتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الامم » . ومثله فعل القلقشندى فى صبحه اذ قال : « واتخذوا اللثام شعارا يميز بينهم وبين غيرهم من الامم »

اما ابن حوقل فانه جاءنا بتعليل آخر غريب يخالف تماما ما رواه ابن الاثير وابن خلكان ، بل نقول فاجأنا بشيء لم يخطر لنا على بال ... فانه يقول : « ... ولم ير لاحدهم ولا لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم ، وذلك لانهم يتلثمون وهم أطفال وينشؤون على ذلك ، ويزعمون ان الفم سوأة تستحق الستر كالعورة لما يخرج منه اذ ما يخرج عندهم هو انتن مما يخرج من العورة » . وكذلك نجد هذا التعليل نفسه عند شيخ الربوة فى نخبة الدهر ...

ويرد ذلك بعضهم الى انه يستعمل وقاية سحرية لدرء العين وغيرها مما يتقى شره ، وهناك من يزعم من كتاب الغرب أن ذلك يرجع الى ما يكمن فى صدور التوارك وفى قرارة أنفسهم من نزعة ارستقراطية عريقة فيهم منذ قديم، ومهما يكن من شيء فان اللثام هو النمط الحضارى الذى يميز التوارك عن غيرهم .

ولقد تعرض الفقهاء الى هذا اللثام ومثله النقاب من حيث التزين به فى حالة الصلاة ، وحتى فى خارج الصلاة أيضا ، فقالوا فى النقاب هو بالنسبة للمرأة فى حالة الصلاة مكروه ، ولا سيما اذا كان يبلغ للعيون ، لانه كما قالوا : هو من الغلو فى الدين . ولكنهم نراهم قد تسامحوا مع الرجل اذا كان هو من قوم عادتهم ذلك ، وذكروا أهل (مسوقة) فقالوا بما أن النقاب من دأبهم ومن عادتهم لا يتركونه أصلا ، فلا يكره لهم الانتقاب اذا كان في غير صلاة ، وأما فيها فيكره وان اعتيد استعماله خارج الصلاة ، وشددوا في اللثام وهو ما يصل لآخر الشفة السفلى فقالوا بكراهته للرجل مطلقا فى الصلاة وخارجها .

وعلى ذكر اللثام هذا نسوق قصة حدثت زمن نزول جيوش الملثمين ببجاية (581 هـ/1185 م) بقيادة على بن غانية ، وكان قاضيها فى التاريخ الشيخ أبو على المسيلي ، فاكرهه أمير الجيش ابن غانية هو ومن كان حاضرا معه من أهل بجاية على البيعة،فتوقف القاضى ولم يبايع ، ذلك لما كان فى عنقه من مبايعة الموحدين ... فاكرهه ابن غانية على مبايعته ، فقال القاضى : نحن لا نبايع من لا نعرف هل رجل أم امرأة ؟.. وحينئذ سفر ابن غانية عن وجهه وكشف نقابه للحاضرين . وهنا يقول الغبرينى فى

بيان منزلة الشيخ عند القوم : وهذا هو منتهى ما بلغ توقفه ، وهو أمر كبير عند مطالبته بالبيعة ، ولولا علو منصب الفقيه ابن علي رضى الله عنه ما ساعده (ابن غانية) عليه ·

وفيما يعود الى تاريخ العقيدة الاسلامية والتدين بالاسلام عند هؤلاء الملثمين ، نرى فيما تذهب اليه بعض الروايات ان فتوحات عقبة بن نافع الفهرى فى دورته الثانيـة (62 هـ/682 م) بلغت الى مدينة (نول)،وهى كما عند البكرى والادريسى مدينة كبيرة عامرة كانت لبنى (كدالة) على ساحل المحيط الاطلسى ، هى آخر مدن الاسلام وأول العمران من الصحراء ، وكانت بعض قبائل الملثمين تنزل هذه البلاد ، فقاومت عقبة أول الامر دفاعا عن كيانها ، ولكنه هزم مسوقة واخضع الملثمين لسلطان الاسلام ، وهـذا ما نجده عند ابن أبى زرع حينما تحدث فى (الانيس المطرب ···) عن مدينة (تاتكلاتين) القريبة من موضع (بغارة) السودانية غربا ، قال : « ··· يسكنها قبيلة من صنهاجة يعرفون ببنى وارث ، وهم قوم صالحون على السنة والجماعة ، واسلموا على يد عقبة ابن نافع الفهرى أيام فتحه للمغرب ، وهم يجاهدون السودان الذين هـــم على غـــير الاسلام ···»وقال :

« ··· وكثيرهم على السنة والجماعة يجاهدون السودان »· وهذا ما نرى ابن خلدون قد وافق عليه فى تاريخه الكبير حيث قال فى سياق سرده لحوادث فتوحات عقبة بالمغرب : « ··· ثم أجال الى بلاد السوس فقاتل من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية ··· » · وبذلك يكون عقبة أول من حمل أهل اللثام على الاسلام ، ثم اتصل بهم بعد ذلك موسى بن نصير (86 هـ/705 م) فدعاهم الى الاسلام مرة أخرى فأقبلوا عليه ودخلوا فيه.هذا بالنسبة الى القرن الاول الهجـــرى ·

ولكن ابن خلدون نراه يعود الى ذكر الملثمين فيثبت لنا تاريخا آخر لزمن اسلامهم ، وهو متأخر عما سلف بكثير ، اذ نجده يقول : « ··· كان هؤلاء الملثمون فى صحاريهم كما قلناه ، وكانوا على دين المجوسية الى ان ظهر فيهم الاسلام لعهد المائة الثالثة » ؟ ·

ونحن نعلم ان هذا العهد الذى أشار اليه ابن خلدون ـ المائة الثالثة بالمغرب كان قد شارك فيه كل من دولة الادارسة والاغالبة والرستميين ، فأين هـــذا من عهـد

عقبة ؟ ... فأى التاريخين أحق باليقين ؟ ... وانما الامر الذى نتحققه بشأن ازدهار الاسلام فى هذه المنطقة الصحراوية النائية ، هو منذ حل بها الفقيه المالكى عبد الله ابن ياسين الجزولى صحبة زعيم قبيلة (كدالة) الامير يحيى بن ابراهيم (430 هـ / 1039 م) ، فمنذ يومئذ أخذت الدعوة للاسلام تنتشر بتلك البقاع من صحراء افريقيا ، وعمها الاسلام . وكان لهؤلاء الملثمين فضل تعميمه ونشره بجنوب صحراء القارة الذى هو يشتمل اليوم على عشر دول اسلامية مجاورة مستقلة .

ولم يقتصر تأثير الفتح على نشر الدين الاسلامى بين هؤلاء الاقوام بل جلب معه اليهم أساليب جديدة فى رعاية الماشية وتكاثرها وفى صنع الاسرجة وفنون العمارة والبناء والالبسة والادارة والتنظيم،وظهر أثر الاسلام فى كل مناحى الحياة ، وصار الانتساب الى الاب هو القاعدة بعد ما كانت الام هى المرجع فى نسب الاسرة ، وقام الاسلام بدور كبير فى تغيير الانظمة السياسية والاجتماعية .

مصـــادر البحـــث

ابن الاثــير	: الكامل ـ ج 9 · ط بيروت 1966 م ·
ابن حوقــل	: صورة الارض ـ بيروت بدون تاريخ ·
ابن الخطيــب	: أعمال الاعلام ـ الدار البيضاء 1964 م ·
ابن خلــدون	: كتاب العبر ـ ج 1 · 6 بولاق 1284 هـ ·
ابن خلكــان	: وفيات الاعيان ـ ج 2 بولاق 1299 هـ ·
ابن أبى زرع	: الانيس المطرب ـ ج 2 الرباط 1936 م ·
أحمد توفيق المدنى	: كتاب الجزائر ـ ط الجزائر 1350 هـ ·
أحمد توفيق المدنى	: جغرافية القطر الجزائرى ـ الجزائر 1948 م ·
أحمد شلبى	: موسوعة التاريخ الاسلامى ـ ج 6 القاهرة 1972 م ·
الادريسى	: نزهة المشتاق ـ ليدن 1864 م ·
البكـــرى	: المسالك والممالك ـ الجزائر 1857 م ·
حسن ابراهيم	: انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ـ القاهرة 1963 م ·
سام وابريل ابشتين	: الصحراء ـ القاهرة 1966 م ·
سعيد الشرتونى	: اقرب الموارد ـ بيروت 1889 م ·
عبد الجليل الطاهر	: المجتمع الليبى ـ بيروت 1969 م ·
عبد الرحمن الجيلالى	: تاريخ الجزائر العام ـ ج 1 · ط 3 الجزائر 1971 م ·
عبد الوهاب بن منصور	: قبائل المغرب ـ ج 1 الرباط 1968 م ·
الغبريــنى	: عنوان الدراية ـ الجزائر 1910 م ·
الفيروز ابادى	: القاموس المحيط ـ بولاق 1301 هـ ·
القلقشنــدى	: صبح الاعشى ـ ج 5 · ط الاميرية بولاق ·
النــاصرى	: الاستقصا ـ ج 2 الدار البيضاء 1954 م ·
ياقوت الحموى	: معجم البلدان ـ ج 5 بيروت 1957 م ·

الحيـاة الاقتصـادية والاجتمـاعية عنـد طـوارق أهجـار

اسماعيـل العـربي

على الرغم من أن الطوارق يتمتعون بخصائص أصيلة تميزهم عن جميع القبائل الصحراوية ، فهم يشتركون فى بعض السمات مع جيرانهم التيدة · فهم ، مثـلا ، كالتيدة يرتدون القطن ويحملون اللثام الذى اشتهروا به والذى اتخذوه رمزا لهم منذ أقدم العصور · وهذا التشابه والتقارب فى العادات هو الذى حمـل بعض الباحثين المحدثين على الاعتقاد بان الطوارق الاوائل قد استولوا على الاراضى التى كانوا يحتلونها واغتصبوها من قوم لهم شكل زنجى عام من أقارب التيدة ·

ولكن هذا الرأى لا يزال مجرد فرض ، وحتى لو صح ، فهو لا يلقى ضوءا على أصل الطوارق ، حيث أن التيدة (أو التبوّ) لا يزال مجهولا لدينا ، فلا نعرف ما اذا كانوا من الزنوج ، أو هم ينتمون الى قبائل الشمال ·

واللثام الذى يحمله الطوارق ، على عكس الاعتقاد السائد ، ليس بلباس وقائى ضد رياح الصحراء وزوابعها الرملية (والمرجح أنه لو كانت له هذه المزية لسارعت جميع قبائل الصحراء الى تبنيه منذ أجيال طويلة) ، ولكنه عادة عريقة فى القدم حيث كان قدماء الطوارق يحملونه بصفة رمزية لوقاية الفم والمناخر ، وبالتالى ، مداخل الجسم من تسرب الارواح الخبيثة اليه ٠

وقبيل الطوارق ينقسم الى ثلاثة فروع أساسية : طوارق تاسيلى ناجار ، وأهجار ، وأدرار نيفوغاس ٠ وهى موزعة على هذا الترتيب من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ٠ ولكن معظم الطوارق الذين يقدر عدد مجموعهم بنحو 150 الف نسمة ، موزعون فى مناطق أخرى أيضا غير التى ذكرناها ٠ ولا سيما فى آير وشمال السودان وشرقيه ٠ على أن اهجار هى مركز القبيل ، وهى المعقل الذى استعصى على النفوذ الاجنبى من جميع الانواع وفى مختلف الاوقات والازمنة ٠

والاراضى التى كان يعيش فيها الطوارق وينتجعون الكلأ قديما أراضى شاسعة تمتد على وجه التقريب حتى شمال ورقلة وحتى القطرون شرقا ، ووراء خط يسير من « أولف » الى تمبكتو غربا ، وجنوبا حتى منعطف نهر النيجر وحدود نيجيريا الشمالية٠ ولكنه فى غضون القرون الاخيرة تقلصت هذه الرقعة تدريجيا لعدة عوامل أهمها الضغط الذى مارسته هجرة العرب عبر القرون من الشرق والشمال ، ثم توغل الاستعمار الفرسى والايطالى فى الصحراء فى الازمنة الحديثة ٠

ونتيجة لتقلص مجالهم الحيوى ، اتجه الطوارق تدريجيا للهجرة الى أدرار نيفوغاس والى آير والسودان ٠ على أن ظروف القحط وغيرها كثيرا ما كانت دافعا للانتقال بعيدا عن الرقعة الجغرافية التى تعيش فيها قبيلة من قبائل الطوارق ٠ وقد حدث عقب الثورة التى قام بها الطوارق فى الفترة بين 1916 ــ 1918 ، أن هاجرت جموع كبيرة من آير الى نيجيريا التى كانت تحت الحكم البريطانى آنئذ ، كما غادرت جماعات كبيرة من قبيلة «طايطوق» منازلها من غرب أهجار لتستقر فى المناطق الواقعة غربى اجاديس٠

ولكن التحركات الاولى الهامة التى عرفها الطوارق ترجع الى القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) عندما أحس هذا القبيل بآثار الغزو العربى ٠

ناهجار الطوارق تشمل أراضيه على وجه التقريب المنطقة التى تمتد بين أمجيد ، وحزام ، وجنات ، وأوالن ، وهى مساحة تقرب من 140 000 ميل مربع ٠

والاحصاءات التى تتعلق بالرحل وبسكان الصحراء ، قلما تكون دقيقة ، وهى على العموم لا تتجاوز كونها تقديرات ، والتقديرات الحديثة لسكان المنطقة (وهى فى رأينا متحفظة) هى كما يلى : يقطن الهجار 4400 من الطوارق ونحو 4000 من الزنـوج ، وذلك بالاضافة الى 3500 من الحراثين المستقرين وعدد صغير من العرب الذين يعملون فى حقل التجارة ٠

والطوارق ينقسمون الى عدد من القبائل ، وكل قبيلة منها تنقسم الى افخاذ وعشائر ولكن الطوارق الرحل ينقسمون الى أسياد نبلاء واتباع وعبيد من الزنوج ٠ وصفـــة تتحلى بها العشيرة كلها ، وأما الفرد فهو انما يكتسبها بالانتماء ٠

وطوارق أهجار يتكونون من ثلاث قبـائل ، وهى : «كَلَّ رولـة(و «تيغيه ملت» و « طيطوق » ، وعلى رأس كل قبيلة منها عشيرة نبيلة تحمل اسمها ٠ وبما أن العشيرة النبيلة تفضل جميع العشائر وتعلو عليها ، فان رئيس العشيرة النبيلة هو ، بالضرورة رئيس القبيلة ، والعشائر النبيلة واتباعها مصنفة على الترتيب المتقدم ٠ وهكذا ، فان رئيس « كل رولة » هو رئيس قبيلته ، وهو في نفس الوقت « امنكول » رئيس قبائل الهجـــار ٠

ورئيس العشيرة النبيلة يختاره مجلس يتكون من رؤساء أسر العشيرة ، ولكن هذا الاختيار لكى يصبح نافذا يقتضى الامـر ان يؤكده مجلس للقبيلة يتكون مـن رؤســاء العشائر من الذكور يمثل القبيلة كلها ، والامر كذلك بالنسبة الى اختيار أمنكول الذى يجب أن يصدق عليه رؤساء العشائر فى القبائل كلها ، والرئاسة وراثية من نـاحية الام وليس من ناحية الاب ٠

ومركز العشيرة فى القبيلة عائم نوعا ما ، فان عشيرة ما تستطيع فى أوقات الشدة أن تنطوى تحت علم قبيلة تضمن لها حماية أقوى مما تقدمه لها قبيلتها ٠ وكذلـك كانت عشائر الاتباع فى الماضى تغير ولاءها كثيرا وتتردد بين قبيلة واخرى ٠

والزواج يقع ـ عادة وليس دائما ـ فى داخل العشيرة ، وفى الدرجة الثانية من القرابة ٠ وطفل الطوارق يرث الجاه والثروة عن طريق الام ، وذلك بقطع النظر عما

اذا كانت تنتمي الى عشيرة أبيه أم لا • على ان الميراث فى الطوارق يجرى منذ دخـول الاسلام الى هذه المنطقة طبقا لقواعد الشريعة الاسلامية (للذكر مثل حظ الانثيين) •

واطفال الطوارق يعيشون وتجرى تربيتهم فى حضن الجماعة التى اختار الابوان الانتماء اليها بصفة دائمة • والارملة واطفالها غير المتزوجين كثيرا ما يعيشون فى كنف خالهم ، ومتى كان أحدهم متزوجا ، عاشت أمه واخوته معه •

واحتفاظ الرجل بزوجة واحدة فى وقت واحد هو القاعدة بين الطوارق ، والطلاق قد يقع ، ولكن الناس هناك يعتبرونه « ابغض الحلال عند الله » • وعلى عكس ما زعمه بعض الكتاب الاوروبيين (مثل بلانجرنود) ، فان الزنى بين الطوارق ليس أكثر شيوعا منه لدى غيرهم من المجتمعات الصحراوية والافريقية الغربية • وما ردده بعض هؤلاء الكتاب من أن المرأة الطوارقية قد تهب نفسها للضيوف والاصدقاء ، قول لا أساس له من الصحة ، وهو من الاساطير الكثيرة التى عاد بها بعض السياح الذين كانوا يعتقدون بانهم هم وحدهم الذين عرفوا الهجار وكتبوا • ونحن ندرك مدى بعد هذه الاقوال عن الحقيقة اذا تذكرنا أن العرف المعمول به بين الطوارق يسمح للرجل الذى خانته زوجته بقتلها ، هى وصاحبها •

والعرف والتقاليد تمنح العروس الحق في أن تحتفظ لنفسها بمالها وبكل ما تملكه، بما فى ذلك الماشية ، وذلك فى الوقت الذى يتولى الرجل فيه الانفاق عليها ويدفـع تكاليف حفلة الزواج من جيبه الشخصى ، هى تقاليد لا ندرى مدى قدمها ولكننا نلاحظ أنها تتفق مع أحكام الشريعة الاسلامية • على أن المرأة تستطيع ، أن شاءت ، أن تساهم فى هذه التكاليف والنفقات •

والمرأة الطوارقية تعامل بكثير من الاحترام والتبجيل ولو أنها لا تتحمل أيـــة مسؤولية اجتماعية خارج حدود منزلها •

ويعتبر العرف الزعيم ، أمنوكل ، هو مالك الارض ، وبهذه الصفة يوزع عـــلى العشائر أراضى محددة لاستغلالها ، ولا يحق لصاحب الحق الدخول اليها الا بعد أذن الامنوكل ، هذا باستثناء العشائر النبيلة التى تتمتع بالحرية فى الرعى فى أية أرض

تشاء • وكثير من الطوارق يملكون بساتين النخيل وحدائق وأشجار الفواكــه فى المناطق الزراعية ، وبعضهم يملك أيضا حقوقا للصيد فى مناطق معينة •

وكما هى الحالة عند التيدة ، فان الذين يحرثون الارض ويعنون بالبساتين وجنى الغلل فى أوقات نضجها ، هم الحراثون (من السود) والخماسون • وأما الطارقى الذى يعتز بنفسه ، فيرى أن ممارسة العمل الزراعى أمر مشين ويحط من قدره •

والعشائر غير النبيلة تجمع ضريبة سنوية لزعيم القبيل ، أمنوكل ، أو لرئيس قبيلتها ، أو لكليهما • والضريبة تدفع عينا فى شكل اكيال من التمر والذرة واللحم المجفف والزبدة والمهارى ورؤوس الغنم والماعز والمنتجات المصنوعة • وكذلك تدفع العشيرة جزءا من المنتجات المستوردة ، كما تقدم نصيبا من الارباح التى تحققها فى تجارة القوافل لأمنوكل ، وذلك فى مقابل الحماية التى يقدمها لاتباعه وسهره عــلى شؤون الامن والنظام •

وشعب الطوارق ، مثل سائر القبائل الرحل ، يعيش على الماشيه التى تعيش بدورها فى المراعى • والمراعى فى بلاد الطوارق نوعان : ذلك العشب الضعيف والمائل الى الصفرة ، والشيجرات ، والحسك المنتشر بصورة غير منتظمة هنا وهناك ، ولا سيما ، فى قيعان الاودية • والنوع الثانى يتمثل فى العشب الاخضر والكثيف الذى ينبت وينمو فى مناطق معينة وقتا قصيرا ، عقب سقوط الامطار •

والمراعى فى أهجار قليلة وموزعة فى مناطق متباعدة فى صحراء المنطقة • ولهذا السبب يحتاج الرحل من الطوارق الى التنقل والانتجاع لارضاء حاجة مواشيــهم الى العشب الطرى ، حيث أن المراعى التى تحيط بالمخيم لا يلبث أن ينفد ما فيها مــن الكلأ • ويزيد من وطأة الحاجة الدائمة الى التنقل ، ندرة مواقع المياه والآبار ، فانــه كثيرا ما يحدث ان يعثر الرحل على مرعى خصيب العشب ، ولكنهــم لا يستطيعون استغلاله سوى يوم واحد ، بسبب بعده عن موقع الماء •

وهذه المجموعة من الاعتبارات هى التى فرضت على طوارق الهجار ضرورة انقسام القبائل الى مخيمات صغيرة سريعة التنقل تتكون من جزء صغير من عشيرة ، بل وفى

بعض الاحيان من أسرة واحدة فقط ، تتنقل من مرعى الى آخر كل فترة تتراوح بين اسبوع أو شهر • وهذا التنقل كثيرا ما يكون لمسافات طويلة ، ولو أنـــه لا يخــرج عن نطاق حدود أراضى القبيلة •

وبمجرد ماتحط الرحال وتقام الخيم يأخذ الرجال فى استغلال المرعى قبل أن يشرعوا فى استكشاف المناطق المجاورة بحثا عـن مرعى جديد ومـوقع جديد للمخيم ، وهكذا طـوال السنـة •

والذين يقومون بقيادة المخيم بين الطوارق الرحل ، هم نبلاء القبيلة ورؤســاء العشائر التابعة لها ، وهم الذين يتولون عملية البحث واستكشاف مراعى جديدة كما يقومون فى نفس الوقت بدور الحراس المدافعين عن المخيم ضـــد غارات الاعـــداء ، ويتربصون بالقوافل التى يمكنهم الغارة عليها ونهبها •

وأما رجال العشائر التابعة ، فان دورهم ينحصر فى الاعمـــال اليومية وفى رعى الماشية ، فى الوقت الذى يشكلون فيه احتياطيا مسلحا حينما تدعو الحاجة الى ذلك ، أى متى وقعت معركة كبيرة • وأما العبيد فيقومون بالخدمة فى داخل المخيم •

وهكذا نجد أن توزيع الاختصاص والعمل الاقتصادى ، توزيع محكم فى قبائـــل طوارق الهجار • وطبقة النبلاء والرؤساء الذين تقع على عاتقهم المسؤولية فى الدفاع عن القبيلة والهجوم فى الغارات ، طبقة أساسية خلقتها ظروف حياة الرحل تمثـــل القوة فيها أساس الحق والقانون •

وهذا التنظيم الذى فرضته اعتبارات الحياة اليومية ، لا توجد صلة شبه بينه وبين نظام الاقطاع الذى كان يقف على قمته النبلاء فى العصور الوسطى فى أوروبا • والذين حاولوا المقارنة بين النظامين ، انما أخذوا بعين الاعتبار ظواهر التقسيم الطبـــقى ، وليس حقيقته وطبيعة الدوافع اليه •

والنظام الطبقى التصاعدى السائد فى اهجار نظام ديمقراطى من حيث أن رئيس القبيلة وأمنوكل نفسه انما يتم اختياره بطريق الانتخاب باقتراع حر يشترك فيـه ممثلو العشائر النبيلة والعشائر التابعة ورؤساء القبائل على قدم المساواة • واذا تم

بنصيب أمنوكل ، لا يمكن لهؤلاء خلعه بنفس الطريقة السلمية (على عكس العرف المتبع عند الاباضيين ، مثلا) ، وبالتالى ، فان من الممكن القول بان نظام الحكم الذى يسير عليه طوارق أهجار ، هو أقرب الى النظام الديمقــراطى الجمهـــورى ، منـــه الى النظـــام الا[illegible]ستوقراطى ·

وقطعان الجمال والغنم والماعز تمثل مجموع رأس المال الذى يملكه شعب طـوارق الهجار ، ومجمل استثماراته أيضا ، وبعبارة أخرى ، فان الثروة الحيوانية تشكل أساس الاقتصاد القومى فى المنطقة · والثروة الحيوانية فى اهجار قدرت بارقـــام تختلف باختلاف الاوقات التى تناول فيها الباحثون هذا الموضوع ، ولكنه يبدو أن الارقـام التالية قريبة من الواقع بصفة عامة فى السنوات الاخيرة (فى السبعينات) : 12000 رأس مـــن الجمـــال ـ [illegible] رأس مـــن الغنـــم ـ 20 000 رأس مـــن الماعـــز ـ 5000 حمار ونحو 500 رأس من البقر ·

وهكذا نرى أن الثروة الحيوانية فى أهجار متواضعة ، ولا سيما اذا اعتبرنا ان الحمير غير منتجة ولا تصلح الا لحمل الاثقال · وعدد ما يملكه طوارق اهجار من البقر ليس له أهمية تذكر · ومجموع الجمال المحتفظ بها فى أهجار لا يتجاوز 4500 جملا ، والباقى تخرج للرعى مع الرحل فى منطقة تمسنا وعند اطراف السودان فى منتصف المسافة بين آير ومنعطف النيجر · وكذلك تخرج معظم القطعان للرعى خارج منطقـة أهجار ، ولا سيما فى أراضى تن زواتنة التى تمتد فى الجنوب الغربى لجبال الهجار ، وفى شمال شرق تامسنا ·

والطوارق يعنون بتربية جمال الركوب عناية خاصة ويبذلون كثيرا من الجهـــد لاعداد الجمل لمهمته ، منذ السنة الثانية من عمره ، ويخصى الذكور منها فى سن الخامسة ·

واذا كانت الثروة الحيوانية والبساتين تشكل القاعدة الاولى لاقتصاد طـــوارق أهجار ، فان التجارة لها مكانة تاريخية فى نظام هذا الشعب الاقتصادى · والمـــادة الاولى فى هذه التجارة هى الملح الذى يشكل حجر الزاوية فى التبادل التجارى ، بل والعملة الصعبة أيضا لهذا التبادل فى الصحراء كلها ·

ففى شهر أبريل (أو مايو) يرسل بعض الطوارق خدمهم من السود للعمل فى منجم « أمدرور » لاستخراج الملح لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ٠

وفى شهر يوليو ينقلون شحنات الملح على ظهور الجمال ويختارون مراعى تامسنا حيث يتيحون فرصة من الراحة لجمالهم ٠ وبعد ذلك يبدلون بعضها بجمال أكثر حيوية واشد قوة ، ويمضون بها فى اتجاه المراكز التجارية الواقعة على الحدود الشمالية للنيجر ٠ وهناك تجرى المعاملات التجارية لمدة نحو شهرين بالملح الذى يبادله الطوارق بالتمور والحمير والجمال والذرة وغير ذلك من منتجات الشمال ، والمنتجات المصنوعة المستوردة مثل ملابس القطن والاحذية والاوانى المنزلية والآلات المصنوعة من الصلب والحديد والاسلحة والذخيرة ٠٠٠ الخ ٠

وفى شهر يناير يعود طوارق الهجار الى الشمال ويستريحون بجمالهم بعض الوقت مرة أخرى فى تامسنا ، قبل ان يواصلوا سفرهم الى بلدهم الذى يصلون اليه فى شهر مارس أو أبريل ٠

والرحلة التجارية الاخرى التى يقوم بها طوارق أهجار ، هى التى تتجه فيها القوافل الى أسواق « تيدكلت » وواحة توات ٠ وهى تبدأ من الهجار فى شهر يناير أو أوائل فبراير وتنتهى فى شهر أبريل ٠ وفى هذه الاسواق يبيع الطوارق الجمال والاغنام والماعز والحمير ومنتجات الالبان ، مثل السمن ، ويشترون فى مقابلها التمر والملابس القطنية وأغطية الصوف التى تصنع فى القرارة ، والشاى والسكر ٠

على أن هذه الاسواق قد تقلصت كثيرا فى غضون الثلاثين سنة الاخيرة ، بسبب تدخل الوسطاء المجهزين بالشاحنات والذين استولوا على عمليات نقل هذه البضائع التى كانت القوافل تحملها من الشمال ٠ وهذه التجارة ، على كل حال ، لا تزال موجودة ، ولكنها تجرى بصفة غير مباشرة وأصبحت تجارة داخلية فى الهجار ٠

كان الملح والتمر يجرى تبادلها فى العصور الماضية فى البلدان الواقعة على منعطف نهر النيجر بالجمال والغنم والذرة والارز ، كما كانت الجمال وجلود الماعز تباع فى أسواق غدامس فى مقابل السيوف والثياب المطرزة والتمور والشاى والسكر ٠ وهذا

المركز التجاري العريق ـ غدامس ـ لا يزال حتى الآن مهما نوعا ما لانتاج الادوات والاواني المعدنية والسيوف وللتجارة فيها ٠

والى جانب تجارة القوافل يمارس الطوارق مراقبة القوافل فى الاراضى الواسعة التى تخضع لسيطرتهم ٠ فقد ذكر المستكشف الالمانى ، بارث ، منذ نحو قرن ، أن أمنوكل اهجار « جيماما » كان يسيطر على جميع النشاط التجارى الذى يجرى عن طريق القوافل بين مرزق وتمبكتو ، وهذه الحالة ربما كانت ترجع الى عدة قرون قبل ذلك التاريخ ٠ والمعروف ، على أى حال ، ان طوارق الهجار كانوا يسيطرون على طرق التجارة فى المنطقة التى تمتد بين « أودان » وجنوبه حتى شمال نيجيريا ، وذلك ، على الاقل ، منذ القرن الخامس عشر الميلادى ٠

* * *

كان الطوارق الذين يسيطرون على طرق التجارة فى المناطق الجنوبية الغربية يمدون القوافل التى تمر بهذه الاراضى بادلاء ومرشدين مسلحين لحمايتها ٠ وفى مقابل خدمات الحماية يفرضون اتاوة تقدر قيمتها على أساس قيمة البضائع التى تنقلها القافلة ، وعلى أساس ثروة مسيرها ، على أن أصحاب القوافل كانوا كثيرا ما يرفضون الرضوخ لتقديرات الطوارق ، كما أن بعض القوافل تصطحب معها فى بعض الاحيان ادلاء ومرشدين وحراسا مسلحين ٠ وفى هذه الحالة تسير القافلة بدون حماية ٠ ولكن الطوارق يتعرضون لها فى معظم الحالات ليثبتوا سلطانهم فى أراضيهم وحتى يتخذوا من القافلة الممتنعة درسا وموعظة لغيرها ٠ وهكذا كان الطوارق ، مثل الشعانبة ، جيرانهم في الشمال يفرضون سلطانهم على حركات التبادل التجارى فى الصحراء الجنوبية الغربية قرونا متواصلة ٠

ومثل غيرهم من القبائل الصحراوية القوية ، كان الطوارق يمارسون فى الماضى نشاطا آخر مربحا من الناحية الاقتصادية ، ونعنى بذلك نشاط الغارات التى يشنونها على القبائل الاخرى ، اما لغرض السلب ، واما بسبب الاحقاد والضغائن وطلب الثار ٠ وهذه الغارات كثيرا ما تتخذ شكل هجمة ليلية مفاجئة تقوم بها جماعة صغيرة من

الرجال تستولى على ما امكنها الاستيلاء عليه من الماشية ثم تختفى فى الطبيعة الصحراوية ولا سبيل الى تعقبها او اقتفاء أثرها . وعبيد الطوارق كانوا هم أيضا يقومون بغارات على قرى السود التى تقع فى أطراف الصحراء ويعودون بسبى وغنائم تعزز ما يملكه المخيم من اليد العاملة من العبيد . على أن هذه الغارات اختفت فى العصور الحديثة نتيجة لتحريم الرق ، كما اختفى المورد الذى يجنيه الطوارق من حماية القوافل التجارية ، ومن تسيير القوافل ، عقب حلول السيارة الشاحنة محل الجمل فى نقل البضائع عبر الصحراء . وهذه التطورات كان لها أثر قوى لوحظ منذ أواخر القرن الماضى فى تدهور الاقتصاد فى منطقة اهجار ــ ذلك الاقتصاد الذى لم يكن يتسم بالقوة على كل حال ، فى أى عصر فى تاريخ هذا الشعب الذى ظل القرون تلو القرون متمسكا بنمطه الثقافى الخاص وبطريقة معيشته التى لا يرضى بها بديلا .

وهذا النمط الثقافى سوف يفتض الاستعمار الفرنسى أسراره ويوقف نموه الطبيعى بعد ما بسط سيطرته على أهجار عقب المعركة التى وقعت فى واحة « تيت » الصغيرة بين جيش فرنسى بقيادة الملازم « كونتنست » والطوارق يوم 7 مايو 1902 ، والتى أبدى فيها رجال الهجار ضروبا من الشجاعة والبطولة لا تقل عما أبدوه فى معارك سابقة كان النصر فيها حليفهم ، ولا سيما فى المعركة التى تحمل اسم قائد الجيش الفرنسى فيها « فلاتر » .

فمنذ ذلك التاريخ أصبح الطريق الى أهجار مفتوحا أمام رجال الادارة العسكرية الفرنسية وأمام أنماط الثقافة الاستعمارية ، وخصوصا ، أمام أفواج المبشرين بتوجيه شيخهم ، شارل دو فوكول ، وبحماية حراب « لابيرين » .

والطوارق الرحل يعيشون فى خيام خاصة تصنع عادة من جلود الماعز ، واحيانا من جلود الغنم أو العجول ، ولكن النبلاء يتخذون لانفسهم خياما من جلد الموفلون وتعتبر الكلمة الاخيرة فى البذخ والاناقة . والجلد يدبغ ويجهز بصفة خاصة ويكون ناعم الملمس وذا لون مائل الى الحمرة . وبعد اعداده يقطع الى قطع متلائمة ثم تخاط قطعة بأخرى بعناية بخيط من الجلد نفسه . وعدد قطع الجلد الضرورية لصنع خيمة واحدة يتراوح بين 30 و 150 قطعة ، وذلك حسب كبر حجم الخيمة وصغره . «الخيمة المتوسطة

المنتهية الصنع تزن عادة ما يتراوح بين 25 و 30 كيلوغرام . ومتى انتهى صنع الخيمة ركبت على أعمدة عمودية وافقية من الخشب .

وأثاث الخيمة يتكون من جلود الغنم المصنوعة ومن السجاد الذى يستورد من الشمال، ومن اكياس الجلد التى تودع فيها المواد الغذائية ، والامتعة الشخصية والسروج والاسلحة والاوانى المصنوعة من الخشب .

والمخيمات تقام دائما فى مكان مرتفع وغير ملحوظ ، وذلك فيما عدا الاوقات التى لا تغطى الشمسَ فيها غيوم ، وحينما يثق الناس بانه لا يوجد خطر نزول الامطار فجأة وتنجم عنها سيول . وكل خيمة تشغلها عائلة واحدة تتكون عادة من جميع أفرادها . والمخيم قلما يزيد عدد الخيم فيه عن 5 أو 6 خيم ، ولكن مخيم أمنوكل يحتوى عادة على ما يتراوح بين 15 و 20 خيمة .

كانت ملابس طوارق الهجار فى الماضى تتكون من قمصان مصنوعة من الجلد تنزل الى ما تحت الركبة . وحواشيها مزينة بالزخارف ، وهذا القميص قد استمر حتى أوائل القرن التاسع عشر ، على الاقل ، لان السائح "ليون" ذكر أن رجالا من الطوارق زاروا مرزق فى سنة 1819 وكانوا يرتدون هذا النوع من القمصان. ولكن المستكشف الفرنسى ، دو فيريى ، يخبرنا بعد ذلك بأربعين سنة بأن هذه القمصان نادرة فى الهجار.

والقطعة الاخرى التى اختفت من ملابس الطوارق ، هى نوع من لباس الرأس يشبه الطربوش ، وهو مصنوع من اللباد وتدار حولها عمامة خاصة . وعلى الرغم من أن بعض رجال القبائل المغربية لا يزالون يرتدون هذا النوع من « الطرابش » حتى الآن ، وأنها كانت تمثل لباس الرأس الشائع فى الهجار أثناء زيارة دو فيريى له ، فهو قد اختفى منذ نحو نصف قرن من الزمن .

ورجال الطوارق حاليا (عدا من اعتمد منهم اللباس الاوروبى) يرتدون سراول فضفاضة سوداء أو ذات لون أزرق غامق مصنوعة من القطن تنزل حتى الركبة وطرفى الرجلين حتى العقب ، وفوقه قميص واسع من القطن حلت محله « القندورة » التى لم تعش طويلا هى الاخرى ولا سيما بين سكان المدن حيث قضى الزى الاوروبى على

الملابس التقليدية ، مثل ما هى الحال فى المناطق الاخرى من الجزائر • وكذلـك كان الطوارق يلبسون رداءا خارجيا فضفاضا مصنوعا من الصوف فى أيام البرد • ولكن هذا الرداء حل محله البرنوس المستعمل فى الشمال •

وينتعل الطوارق نوعين من لباس الرجل ، احدهما عبارة عن صندل ينعكف آخره على أصابع القدم ويمسك بواسطة خيط من الجلـد ويمتد بين الاصبع الكبير والاصبع الصغير الى الكاحل (رسغ القدم) • والنوع الثانى يستورد من السودان ، وهو عبارة عن صندل مسطح اوسع من القدم بنحو بوصة فى جميع الاتجاهات ويربط بخيط رقيق من الجلد بالرجل •

هذا بالنسبة الى الرجل • واما نساء الطوارق فيلبسن ثوبا مصنوعا من القطـــن يتدلى حتى ما تحت الركبة ، وسراول فضفاضة مثل سراول المدنيات فى عاصمـــة الجزائر (وهى تركية الاصل) ولو انها اقصر قليلا • وكذلك يلبسن نوعا من القندورة بيضاء وأخرى زرقاء فوقها ، ويتوج كل ذلك بشال ووشاح يغطى الرأس أزرق مصنوع من القطن • وكذلك كانت الطوارقيات فى الماضى يلبسن فى الصيف نوعا من القبعات واسعة الحواشى مخروطة الشكل مصنوعة من القش ، ولكن هذا اللباس اختفى الآن تقريبـــا •

* * *

يتفق الباحثون على أن الطوارق قبيل بربرى من أقدم من سكن الصحراء • وهذه الحقيقة التى اشار اليها الرحالة المغربى ، ابن بطوطة ، أكدها من قبل أبو عبيدة البكرى الذى كان يكتب فى القرن الخامس الهجرى (11 ميلادى) حين يقول فى وصف تادمكة (فى أدرار ايفوغاس) ما يلى :

« وتادمكة اشبه بلاد الدنيا بمكة ، وهى مدينة كبيرة بين جبال وشعاب ، وهـــى احسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكو • وأهل تادمكة بربر مسلمون • وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء ، وعيشهم من اللحم واللبن ومن حب تنبته الارض من غير اعتمال ، ويجلب اليها الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان ، ويلبسون الثيـــاب

المصبغة بالحمرة،من القطن والنولى وغير ذلك . وملكهم يلبس عمامة حمراء ، وقميصا أصفر ، وسراويل زرقاء ، ودنانيرهم تسمى « الصلع » ، لانها ذهب محض غير مختومة . ونساؤهم فائقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد » .

على أن الباحثين المحدثين ، وفى مقدمتهم ابن هزرا (Benhazra) وبلانجرون (Blangueron) يتفقون على أن عددا من القبائل التابعة للطوارق والمعدودة منها ، تنتمى الى أصل عربى ، أو الى أصل عربى طارقى مختلط . وهؤلاء يجتمعون فى عدد من العشائر تضمها علاقات تشبه علاقة القبيلة ، ويسمون « اسوكمرن » ويقول ابن هزرا ان اسوكمرن يزعمون انهم ينحدرون من أصل امرأة اشتراها عربى من الغزاة العرب الذين جاءوا الى البلاد فى منتصف القرن السابع (كذا) الميلادى . ولكن الطابع الاسطورى لهذه القصة واضح ، حيث أن ذلك معناه أن العرب قد وصلوا الى أدرار قبل الفتح العربى للمغرب بعدة اجيال ، وبالتالى فان هذه القصة ليست أصح ولا أقرب الى المنطق التاريخى من تلك التى يرددها مؤرخو العجائب والغرائب من الغربيين الذين يزعمون أن الطوارق ينحدرون من أصل قبيل من الصليبيين ظلوا طريقهم وتاهوا فى الصحراء بعد هزيمتهم فى الشرق وقطعوا الفيافى حتى استقر بهم المقام فى الهجار .

ويعتقد مؤرخ الصحراء والمستكشف المعاصر « لهوط » (Lohte) أن اسوكمرن ينحدرون من أصل من العرب من ناحية الاب ، ومن الطورق من ناحية الام . وهؤلاء الامهات ينتمين الى منطقة تادميت . ولكن بلانجرون يرى أنهم ينحدرون من أصل عربى من واحتى تيدكلت وتوات ، هزمهم الطوارق فى القرن الثامن عشر ، أو قبل ذلك قليلا ، واختلطوا بهم وضموهم الى قبائلهم .

ولكن هذا الانتساب الى العروبة ليس له فيما يبدو ، اى تاثير على وضع اسوكمرن الاجتماعى ، حيث ، أن الطوارق يضعونهم فى نفس المرتبة التى يضعون فيها العشائر (التابعة) غير النبيلة . على أن اسوكمرن الذين أثروا فى العصور الاخيرة ، واصبحوا يملكون كثيرا من الجمال ، يتمتعون بسمعة ونفوذ كبير استعاضوا به عما فاتهم من شرف الانتساب فى التنظيم الهرمى الطارقى .

ومن اهم عشائر اسوكمرن ، عشيرة اريجناتن(Arreguenanten) التى تعيش فى منطقة تامسنا ، فى جنوب اهجار ، وتمتد مجالات رعيها من هناك فى الاتجاه الشمالى الغربى ، عبر ادرار ايفوغاس لتصل أحيانا الى عرق الشيش • ويسود الاعتقاد بانهم ينحدرون من أصل من عرب القرارة ونساء من الطوارق « أبوتناتن » • وهذه العشيرة الكثيرة العدد أصابت ثراء واسعا بحيث أقاموا لانفسهم نوعا من الاستقلال الذاتى وحصلوا على مركز اجتماعى لا تحلم به كثير من العشائر التابعة من الطوارق • وهم يتفرعون الى فرعين أساسيين : أهجرانن وستافنن ، يرجع كل منهما ـ فيما يعتقدون ـ الى أصل عربى ولكن جد كل منهما يختلف عن جد الثانى •

والملاحظ ان العشائر التى تنتمى الى أصل عربى من الطوارق تعيش خارج جبال الهجار فى القوس الذى يحيط بها فى الغرب والجنوب الغربى والجنوب الشرقى وفى الجنوب ، حوالى أراضى قبيل الطوارق أجار •

لم تستقر أسرة من الاشراف فى الطوارق، فيما نعرف قبل الاسرة المغربية التي هاجرت الى هناك ، وأقامت دولة شملت طوارق الهجار وطوارق أجار وحكمت دولة « امنانن » (وربما كان ذلك تحريفا للكلمة امامن ـ الائمة) حتى سنة 1650 ، حينما اغتال رجل من قبيلة اوراغن اجار « جمعة » ، آخر هؤلاء الائمة/السلاطين • وقد تلى هذا الحدث عهد من الفوضى والحروب الاهلية التى استمرت زمنا طويلا •

وكذلك مارست الطريقة التجانية نفوذا قويا فى الهجار فى القرن الماضى وفى أوائل هذا القرن ، كما اعتنق بعض الطوارق الذين سافروا الى الاماكن المقدسة لاداء فريضة الحج الطريقة السنوسية وكونوا لها بعض الانصار لدى عودتهم الى الهجار •

* * *

تلك هى المعطيات الاساسية للحياة الاقتصادية عند طوارق اهجار فى الماضى البعيد وفى الوقت الحاضر • ولكن هذه الجبال الراسخة قد أخذت تتحرك ، هى وسكانها ، فى اتجاه المستقبل • فان بلاد الطوارق لم تعد جزيرة من جزر الرمال تعيش فى عزلة منطوية على نفسها ، بل هى أصبحت جزءا لا يتجزأ من أرض الوطن • وقد شملها

البرنامج الخاص بالمناطق الصحراوية المحرومة ، ذلك البرنامج الذى لم يبدأ تطبيقه الا مؤخرا . ولكننا نرى مع ذلك بعض آثاره بادية للعيان ، هنا فى تمنراست ، عاصمة الهجار نفسها • والطائرة والسيارة تربط بلاد الطوارق بأقصى الشمال فتنقل منتجاتها اليه وتعود منه بالمصنوعات ومختلف المواد •

تلك وغيرها مؤشرات الى التحولات التى ستطرأ على مجتمع الطوارق فى نطـــاق التخطيط الجهوى للتنمية ، ولكن الامكانيات التى ينطوى عليها الهجار نفسه ، سوف توفر قاعدة متينة لانطلاق هذه المنطقة لكى تنفض غبار الدهور المتراكم عليها • وهذه القاعدة تتمثل ، خصوصا ، فى أهجار • فان اهجار هى « كلورادو » الجزائـــر فى المستقبل ، وبعد اليورانيوم ، اكتشف فيها مؤخرا معدن الذهب •

نعم ، فقد اكتشفت ثلاثة مناجم للذهب . يقع احدها فى تيزين ، على مقربة من الحدود مع النيجر ، ويقع اثنان آخران فى تيرك وأمسمس ، فى ضواحى تيميمون (وهى مركز للحدود مع مالى) • ونحن لكى ندرك أهمية هذه المناجم التى لا تزال الجهود لاستكشافها فى المراحل الاولى ، يكفى ان نذكر ان المنجم الاخير وحده تمتد مساحته على 150 كيلومتر مربـــع •

وأما اليورانيوم ، فان أول اكتشاف له فى الهجار يعود الى سنة 1969 ، وذلك على الهضاب الاخيرة للهجار ، فى اتجاه الجنوب ، على مسافة 200 كيلومتر من تيميمون • والى جانب هذا المنجم الرئيسى توجد مناجم لنفس المعدن فى ولفرام ، ولو انها أصغر منه ، وهى منتشرة هنا وهناك ، وأهمها تقع فى العونى وفى تين امزى وفى بشــير • ونشاط الاستكشاف الذى يتخذ قاعدتين له فى ابنكور وتميمون لا يزال يجرى على قدم وساق • والدراسة والبحث لا تزال فى المراحل الاولى لتحديد القيمة الاقتصادية لمعدنى اليورانيوم والذهب الموجودين فى الهجار • والخبراء يعملون الآن بجد واجتهاد لمعرفة المساحات التى تمتد عليها عروق المعدن ولتقدير كمية الاحتياطى منه ونسبـة محتواه من التراب • وهذه كلها أمور فى طى الغيب ولا يمكن التنبؤ بها مسبقـا ، ولكنه يكفى فى هذا المقام أن نشير الى ان شعورا قويا بالتفاؤل يسود دوائر الخبـــراء والاخصائيين الذين يعملون فى هذه الحقول •

اهتمامات الفرنسيين بالتوارق
ومنطقة الهقار من خلال ما كتبوه

د. يحيى بوعزيز
جامعة وهران

المحاور العامة لاهتمام الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء :

يندرج اهتمام الفرنسيين بالتوارق ومنطقة الهقار ، ضمن اهتمامهم العام بجنوب الجزائر والصحراء ، الذى بدأ منذ احتلالهم لمدينة الجزائر عام 1830 ، ولكن المقاومة البطولية الصامدة التى واجهوها من طرف الشعب الجزائرى فى الشمال عاقتهم على ذلك قرابة اربعين عاما .

وقد اخذ الفرنسيون يتطلعون الى جنوب الجزائر ، وأقاصى الصحراء ، مع نهاية الامير عبد القادر ، والحاج أحمد باى . وتنوعت اهتماماتهم بذلك الى ثلاثة محاور رئيسية ، وباررة ، ركزوا عليها كثيرا ، وهى :

المحور الاول : وهو الهدف الاساسى لهم ، ويتمثل فى التركيز على الغزو والتوسع الاستعمارى الذى اعتادوا على نعته بالاستكشاف ، والتعرف على هذا المحيط الواسع

والمجهول من الرمال الصفراء بواحاته الخضراء المتناثرة هنا وهناك • واقترن هذا الغزو والتوسع الاستعماري بمحاولة التعرف على امكانيات الصحراء الاقتصادية ، والبشرية ، لاستغلالها واستثمارها ، وبمحاولة استكشاف المظاهر الجغرافية الطبيعية : التضاريسية والمناخية ، والطوبوغرافية ، والطاقة المائية الجوفية • كما اقترن هذا الغـزو والتوسع بدراسة المجموعات السكانية وعاداتها ، وتقاليدها ، وتاريخها السياسي ، والحضاري ، وأوضاعها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية •

المحور الثاني : بـرز كنتيجة للاهتمام الاول ، ولخدمتـه ، وتدعيمه • ويتمثل في محاولة وضع شبكة من طرف المواصلات الحديدية ، والبرية ، واسلاك الهاتف • وذلك لتسهيل سبل التنقل في ظروف آمنة ، للقوات العسكرية الغازية ، والمغامرين ، بـين مختلف المناطق الصحراوية الدانية والقاصية •

فاخذوا يدرسون المظاهر الطوبوغرافية ، والتضاريسية ، والمناخية ، من أجل تحديد المناطق الصالحة لمـد تلك الطرق البرية ، والحديدية ، وتحديد اتجاهاتها ، وابـراز المحاسن والفوائد ، والصعوبات التي تعترض ذلك ، وتقـديم الحلـول ، والاقتراحات اللازمة • فتعددت رحلات المستكشفين ، والدارسين المختصين ، والمغامرين المرتزقة • وتعددت وجهات نظرهم كذلك حول تلك المشاكل ، والحلول ، والاقتراحات •

المحور الثالث : والاخير ، برز كنتيجة للاهتمامين الاول ، والثاني ، ولخدمتهما معا ، كذلك • ويتمثل في محاولة خلق بحر داخلي صحراوي ، من أجل احداث تغيير جذري في الظروف الطبيعية ، والمناخية ، القاسية للصحراء ، فاتجهت أنظـار الفرنسيين الى أحواض الجريد التونسي ، وأحواض بسكرة ، وواد سوف ، في الطرف الشمالي لحوض ايغرغر ، لاتخاذها نواة لهذا البحر الداخلي الصحراوي الذي قيل انه كان موجودا في الزمن القديم ، وأن هيرودوت تحدث عنه ، ويدعى بحر تريتون • وسيربط هذا البحر بخليج قابس في شرق تونس ، بواسطة قناة تمتد من نهاية شط فجاج الشرقية الذي يعتبر الذراع الشرقي لشط الجريد الكبير الذي لا يبعد كثيرا عن البحر والخليج (1) •

1) انظر دراستنا بعنوان : الامير عبد القادر ومشروع قنـاة قابس والبحر الافريقي ، مجلة **الأصالة** ، عدد 25 (الجزائر جويلية ـ أوت 1975) ص 97 ـ 118 •

دوافع اهتمام الفرنسيين بالتوارق ومنطقة الهقـار :

يرجع سبب اهتمام الفرنسيين ، بالواحات الصحراوية الجنوبية ، ومنطقة الهقار ، الى تحولها الى معاقل للثـوار والمجاهدين الذين كانوا يفـرون من الشمـال اليهـا ، للاعتصام بها ، والاستعداد مرة ثانية للمقاومة • وقـــد بـدأ هذا الاهتمام يطغى على عقولهم ، منذ أحداث ثورة سكان واحة الزعاطشة بمنطقة بسكرة (2) ، وحركة الشريف محمد بن عبد اللـه بواحات الاغواط ، وورقلة ، وتقرت (3) • وثـورة سكان الجنوب الوهراني بزعامة أولاد سيدى الشيخ (4) •

واشتد هذا الاهتمام أكثر فى عقدى : الثمانينات ، والتسعينات ، بعد أن استعمروا غرب افريقيا ، وذلك من أجل ربط مستعمراتهم ببعضها البعض فى الشمال ، والغرب ، والوسط • وجاء تعرض بعض حملاتهم ، وبعثاتهم العسكرية التوسعية ، الاستكشافية ، الى هجمات الجزائريين فى اعماق الصحراء ، ليقوى عزمهم ، ويحفزهم أكثر الى التوسع والسيطرة ، على كل الواحات الجنوبية الصحراوية ، ومنها منطقة الهقار ، ووضع حاميات عسكرية بها ، أو فى بعضها ، تضمن لهم الامـن ، والاستغلال بحرية ، وتسمح لهـم بالتصدى لمقاومة ما دعوه : نشاط اتباع الطريقة السنوسية بليبيا ، ومنع سلطان المغرب الاقصى من التوسع الى بعض الجهات الاخرى خاصة منطقة توات •

وكان حادث مقتل الرجال التسعة لبعثة فلاتر FLATTERS الثانية عام 1881 ، من طرف فرسان التوارق ، بداية حقيقية لجهود الفرنسيين فى التوسع بجـد ، الى منطقة الهقار باعماق الصحراء ، فكلفوا الجنرال طوماسين THOMASSIN بالتفاوض مع زعماء اولاد سيدى الشيخ الشراقة ، والغرابة معا ، لاقناعهم بالتوقف عـن العنف ، والعودة

2) انظر دراستنا بعنوان : اضواء عـلى ثورة الزعاطشة والشيخ بوزيان عـام 1849 ، مجلة الثقافة : عدد 32 • (الجزائر ابريل ــ ماى 1976) ص 39 ــ 50 •

3) انظر دراستنا بعنوان : وثيقتان جديدتان عن ثورة الشريف محمد بن عبد اللـه ، مجلة الثقافة ، عدد 33 (الجزائر يونيو ــ يوليو 1976) ص 11 ــ 28 •

4) انظـر دراستنا بعنوان : اضـواء على ثـورة اولاد سيدى الشيـخ الاولى (1864 ــ 1873) • مجلة الثقافة ، عدد 46 (الجزائر أوغسطس ــ سبتمبر 1978) ص 11 ــ 32 •

جميعا الى الجزائر ، حتى يضمنوا لقواتهم الغازية ، الأمن والسلاح ، والرجال المحاربين ، وتم لهم ذلك عام 1883 ، بعد أن انتهت أحداث الشيخ بوعمامة ورفاقه •

وقد كان حظ التوارق ، ومنطقة الهقار من اهتمامات الفرنسيين هو الغزو ، والتوسع ، والاستعمار ، والاستغلال ، وليس شيئا آخر • فاكثروا من ارسال الحملات العسكرية الى هناك بعنوان : الاستكشاف ، والاستعلام ، وانكبوا على دراسة المنطقة من كل النواحي : السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، والطبيعية ، والبشرية ، وتوارد على المنطقة عدد من المغامرين والمرتزقة من جنسيات مختلفة • حاول كل منهم ان يدرس جانبا معينا ، ويحوز قصب السبق فيه ، ويصبح بطلا • فظهرت دراسات كثيرة بعضها متخصصة ، والبعض الآخر فى اطار الدراسة العامة لمنطقة الصحراء ككل •

ومن ضمن هذه البعثات الاستكشافية التى مهدت للاستعمار الفرنسى لمنطقة التوارق والهقار ، بعثات : هنرى دوفيرى المتعددة الى مناطق التوارق ومزاب • وبعثة بيرتاردتانو الى جنوب طرابلس وغدامس ، والى بلاد التوارق أزجيل ، وبعثة ايدين من جانيت الى بيلما ، وبعثة ايروين دوبارى الى غات والتوارق أزجيروتاسيلى ، وبعثة دو ، الى عين صالح وتيديكلت ، وبعثات فلاتر الى بلاد التوارق ، وبعثات فيرديناند فورو ، ولامى ، المتعددة الى معظم مناطق الصحراء ، وبعثة فلاماند الى عين صالح وتيديكلت • وبعثة فيلات لاختراق الصحراء من تيديكلت الى النيجر عبر الهقار • وبعثات كورتى المتعددة كذلك الى معظم مناطق الصحراء •

وقد قام هنرى دوفيرى Henri Duveyrier برحلة مبكرة الى بلاد التوارق الشماليين فدرس منطقتهم التى يسكنونها ، من حيث التضاريس ، ومصادر المياه ، واستعرض قبائلهم المختلفة ، وانتاجهم الفلاحى ، وتاريخهم السياسى ، وعاداتهم ، ومركز مملكتهم القديمة • ودامت رحلته من 1859 الى 1862 • ومنحته الجمعية الجغرافية ميدالية ذهبية على أعماله هذه (5) •

(5) Henri Duveyrier :
A) Notes sur les Touareg et leur pays (Paris Imp. L. Martinet, 1863), 24 p.
B) Exploration du Sahara. Les Touareg du Nord (Paris, Challamel, 1864), T. 1er XXXV + 501 p.

وأورد بوضربة تفاصيل كثيرة عن بلاد التوارق خلال رحلته التى قام بها الى غات أواخر الخمسينات ، وتحدث عن الاستكشافات التى انجزها من الاغواط الى غـات ، وعن نقاط المياه ، وحالة الاراضى التى مر بها من الناحية الاقتصادية (6) . وفعل مثله ايروين دو بارى : Erwing de Bary ، فقام برحلة الى غات ، وبلاد التوارق خلال عامى 1876 ـ 1877 ، وسجل احداث رحلته فى جريدة طريق يومية ، وبحث فى التاريخ السياسى للتوارق الشماليين ، ودرس أوضاع منطقة تاسيلى (7) .

واعتنى أوقيستان بيرتار ، ولاكروا ، بدراسة الغزو الفرنسى للصحراء منذ حملة الاحتلال الفرنسية عام 1830 الى مطلع القرن العشرين فوضعا دراسة مفصلة وموسعة قسماها الى سبعة اقسام ، وتناولا فى كل قسم جانبا معينا ، ومنها الزحف الاستعمارى على بلاد التوارق واحتلالها أواخر القرن الماضى ومطلع الحالى (العشرين) . الذى أطلق عليه عهد المسح ، والتقسيم ، والاحتلال . وذلك على النحو التالى :

1 ـ المحاولات الاولى للغزو والاحتلال فيما بين 1830 ـ 1852 .

2 ـ عهد الماريشال راندون من 1852 الى 1864 .

3 ـ عهد الهدوء والسكون فيما بين أعوام 1864 ـ 1879 .

4 ـ عهد وضع مشاريع المواصلات الصحراوية من 1879 الى 1881

5 ـ عهد المسح ، والاستكشاف الواسع للصحراء فيما بين 1881 و 1890 .

6 ـ عهد تقسيم القارة الافريقية بين الفرنسيين والانجليز ، الى نهاية القرن .

7 ـ عهد احتلال الواحات الجنوبية الغربية فى مطلع القرن الحالى ونتائج ذلك (8) .

واهتم القبطان بيرنارد بدراسة احداث ونتائج رحلة فلاتر الاولى الى بلاد التوارق منذ اعدادها وتجهيزها بورقلة يوم 26 فيفرى 1880 الى عودتها الى الاغواط يوم 3 جوان

(6) I. Bouderba : Voyage à Ghat (du 1er août au 1er décembre 1858). (Bul. Soc. G. Paris, 1860) T. XX, p. 145 - 190.

(7) Erwing de Bary : Le dernier rapport d'un Européen par Ghat et le Touareg de l'Aïr (Journal d'Erwing de Bary, 1876 - 1877). Traduit et annoté par Henri Schirmer (Paris, Fiscbacher 1898). 221 p.

(8) Augustin Bernard et le commandant N. Lacroix La pénétration saharienne 1830 - 1906 (Alger, Imp. Algérienne, 1906). X + 195 p.

من نفس العام ، واستعرض اسباب اخفاقها .. واكد ان البعثة تقرر تحطيمها ، وافشالها منذ البداية ، وذلك من خلال المعلومات التى استقاها من بعض أعضائها الذين شاركوا فيها ، كما استعرض أسباب اخفاق الحملة الثانية فى ديسمبر 880ء رمقتل فلاتر نفسه فى قلب بلاد التوارق أوائل عام 1881 (9) ٠

وكان فيرديناند فورو Ferdinand Foureau من الضباط الذين قاموا بعدة رحلات الى الجنوب عددها تسعة ، اخترق خلالها الصحراء الكبرى طولا ، وعرضا ، مع الضابط لامى LAMY ، ووضع عدة دراسات عن رحلاته ٠ فاهتم بالتوارق ومنطقة الهقار ٠ وتحدث عن الطرق الثلاثة التى تعرف عليها فى منطقة غدامس عام 1892 ، ولم تكن معروفة ومطروقة قبل ذلك من عين الطيبة الى حاسى مويلح،ومات الله ، وزاوية تيماسين ، وحاسى ايمولاى ، وحاسى تويزة ٠ وتحدث عن رحلته الى بلاد التوارق أزجير عام 1894، والى تادمايت ، وباتن ، وعين صالح ، ولقويلى ، وتاسيلى أزجير ، وواد مهيرو ، وعرق ايساوان ، وشرح هزيمته أمام السكان ٠ وبتكليف من الحاكم العام قام فورو ، بتخطيط طريق من القليعة الى عين صالح ، وعين القنارا ، وتاسيلى أزجير ، ودرس هيئة الارض ، ومقاساتها ، والظروف المناخية والفلكية ، وذلك خلال عام 1894 و 1895 ٠

وقد سجل أحداث رحلته الاولى فى دفتر طريق من بسكرة الى تيماسين ، ومنكرور ، فى تاسيلى أزجير داخل عرق ايساوان ، والعرق الكبير ٠ وكذلك أحداث رحلته الثانية من بسكرة الى البيوض ٠ فشرح طبائع التوارق ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، وتنظيماتهم ، واستعرض هجوم شعانبة الجرامنة عليه فى البيوض ، وأولاد رحمون ، مما اضطره الى قطع رحلته ٠

وفى عامى 1896 ـ 1897 قام برحلة طويلة فى الهضاب الجزائرية ، والتونسية ، شمال العرق ، وفى داخل العرق الكبير ، والهضاب العليا الجزائرية ٠ وسجل ما اكتشفه

(9) Le capitaine F. Ch. E. Bernard :
A) Quatre mois dans le Sahara. Journal d'un voyage chez les Touareg suivi d'un aperçu sur la deuxième mission du colonel Flatters (Paris, C. Delagrane, 1881) VII + 170 p.
B) Le Sebkha d'Amdghor et le massacre de la mission Flatters. (Bul. Soc. G. Paris, 1882) T. III, p. 415-417.
C) Deux missions chez les Touareg en 1880-1881 (Alger, A. Jourdan, 1896). 335 p.
D) Les deux missions transahariennes du lieutenant-colonel Flatters, (Bul. Soc. G. Alger, 1909) p. 43-61.

لدى التوارق ازجير ، والعرق من الآثار ، والعلوم ، وحدد المراكز العسكرية الفرنسية المؤقتة التي اقيمت في تيماسين،وتحدث عن دور الضابط دو D'EU في حمايته ، وحماية رفاقه خاصة لامي ، وبان : PEIN (10) ·

وقام الضابط ميري Méry برحلة الى غدامس ، صحبة ميرشير ، وبولينياك ، اهتم بها سيرفان ديسبلاس Servan - Desplaces (11) ، كما قام ميري برحلات الى بلاد التوارق أزجير من أجل الحصول على حرية المرور للقوافل الفرنسية الى السودان الاوسط (12)· وفعل مثله بيرنار داتانو Bernard d'Attanoux (13). وكانت نتيجة هذه البعثات والحملات، اقناع بعض عناصر التوارق بالخضوع للسلطات الفرنسية · فحضر بعضهم الى الحاكم العام مرتين : الاولى في 19 نوفمبر 1892 (14) ، والثانية في العام الموالي (15) · ثم في مطلع القرن العشرين حضر امينوكال الهقار موسى أ ق أماستان الى عين صالح في 20 جانفي 1904 ، وكان ذلك بداية لخضوع منطقة الهقار ، والتوارق الى السيطـرة الفرنسية (16)· ولعب أمينوكال هذا دورا بارزا مع الضابط الفرنسي نديليك Nédélec:

(10) Ferdinand Foureau :
A) Une mission chez les Touareg (Paris, Soc. G. 1893) 47 p.
B) Ma mission de 1893 - 1894 chez les Touareg Azdjer, le Tademayt, le Bâten et In-Salah, Léguélé, le Tassili des Azdjer, l'Oued Mihero, L'Erg d'Issaouan (Paris, Lib. Imp. Réunies, 1894) 65 p.
C) Rapport sur ma mission au Sahara et chez les Touareg Azdjer. Octobre, 1893 - Mars 1894 (Paris, A. Challamel, septembre 1894) VII + 279 p.
D) Mission chez les Touareg. Mes deux itinéraires sahariens d'octobre 1894 à mai 1895 (Paris, A. Challamel, novembre, 1895) 199 p.
E) Les Touareg de l'Est (Bul. Soc. G. Com. Paris, 1874 - 1895) T. XVI, p. 298 - 310.
F) Dans le grand Erg. Mes itinéraires sahariens de décembre 1895 à mars 1896 (Paris, A. Challamel, 1896) 106 p.
G) Mes missions dans le Sahara (Marseille, Imp. Barthelet, 1897) 16 p.
H) Mon neuvième voyage au Sahara et au pays touareg, Mars - Juin 1897 (Paris, A. Challamel, 1898) 151 p.
I) La mission Foureau - Lamy à la suite de la mission Foureau - Lamy, les reconnaissances du capitaine Pein (Bul. Com. A. F. 1899) pp. 176 - 178.

(11) Servan - Desplaces : La politique franco-touareg (N.R. 1893) T. LXXXIII, p. 165 - 169.

(12) La question du Touat et la pénétration par le Sud algérien (Bul. Com. A. F. 1892) N°ˢ I p. 16 ; IV p. 8-12 ; X p. 18-19 ; VI p. 11 ; VII p. 1-17 ; IX p. 15 ; X p. 5 ; XI p. 3 ; XII p. 5-7.

(13) Bernard d'Attanoux : Voyage d'exploration chez les Touareg Azdjer (Lille, Imp. L. Danel, J. 1895) 17 p. et Deux missions chez les Touareg (R.G. ,1893) T. XXXII pp. 457 - 463.

(14) Le Sud algérien en 1892 - 1893 (Bul. Com. A. F. 1893) N°ˢ I à XII.

(15) Le Sud algérien 1893 - 1894 (Bul. Com. A. F. 1894) N°ˢ I, p. 3 ; II, p. 1 - 12.

(16) Notre action au Sahara (Signé : un Saharien) (Bul. Com. A.F. 1904) p. 83 - 84.

فى مقاومة الثائر كاوسن Kaoussen خلال شهر فيفرى 1918 ، فى نهاية الحرب العالمية الاولى (17) .

وحتى عامر بن حوه ، وبيرنجير ، وايمار ، وبروسلار ، قامـــوا برحلات الى منطقة التوارق ، ووضعوا دراسات عنها متنوعة . فعامر بن حوه الذى كان عضوا فى رحلة فلاتر الثانية ، وضع دراسة عن الرحلة منذ اعدادها وسفرها الى تحطيمها على يـــد التوارق ، وشرح كيف نجا هو وعاد سالما (18) .

وبيرنجر أورد ثلاثة رسائل عن الرحلة اثنتان له . واحدة من اينيفل : Inifel يوم 17 ديسمبر 1880 ، والثانية من ايقيرى : Eguéré يوم 26 جانفى 1881 . أما الرسالة الثالثة فلفلاتر نفسه قائد البعثة ، أورد فيها تفاصيل جديدة عنها (19) .

أما ايمار فقد اهتم بدراسة التوارق من نواحى عديدة ، وبالاستكشافات الاولى التى وجهت الى بلادهم (20) . وهو ما فعله الضابط أردايو الذى توسع فى دراسة أوضاع التوارق ، والحملات الاستكشافية الى بلادهم من عام 1854 الى 1910 والتنظيمات الاجتماعية ، وأوضاع واحة جانيت ، وأهميتها فى التجارة والنقل الصحراوى (21) .

واعتنى بروسلار برحلتى فلاتر ، وكان عضوا فى الاولى ، فتحدث عن التوغل الى السودان للاحتلال ، وشرح مشروع الخـط الحديدى الذى سيربط الجـزائر بالسودان والسينيغال ، كما شرح الالفاظ العربية والبربرية المستعملة (22) .

وتناول كل من موريس بن حازيرة ، والضابط بيسى ، وبيتريكس ، وبيسويل ، منطقة الهقار ، والتوارق ، بالدراسة والتحليل ، من مختلف الجوانب ، فتحـــدث

(17) La pacification du Sahara (Bul. Com. A.F. 1918) p. 142.
(18) Ameur Ben Haoua : Documents inédits sur la deuxième mission Flatters. Récit d'Ameur Ben Haoua. Traduit et annoté par A. Cause (Mars 1894) (Blida, Imp. A. Mauguin 1894) 3 p.
(19) Beringer et Flatters : Mission du colonel Flatters dans le Sahara central (Bul. Soc. G. Paris, 1881) T. I, p. 250 - 257.
(20) Aymard (capitaine) : Les Touareg (Paris, Hachette, 1911) 242 p.
(21) Le lieutenant Ardaillon : Notes sur les Touareg Azdjer. Aperçu sur l'oasis de Djanet et sur utilisation au point de vue du commerce transaharien (Bul. Soc. G. Alger, 1911) p. 355 - 372.
(22) Henri Brosselard - Faidherbe : Les deux missions Flatters au pays des Touareg Azdjer et Hoggar. 2ème édition (Paris, Jounet, 1889) 304 p.

ابن حزيرة على كل أوضاع التوارق الذين قضى لديهم ستة أشهر ، بالهقار ، وذلك من النواحي : التاريخية ، والسياسية ، والحضارية ، والعرقيـــة ، والثقافيـــة ، والاجتماعية ، والاقتصادية (23) • واعتمد بيسى على مذكرات فورو ، ولامى ، فى دراسته التى انجزها خلال دورة بوليسية فى صيف عام 1903 ، الى بلاد التوارق أزجير، وتيخمار ، وأمقيد ، ونقوشه ، كما اعتمد معلومات بعثتى فلاتر ، ودرس جغرافيـــة تيديكلت ، وسكانها ، وسلالاتهم ، والعادات ، والتقاليد ، ومصادر الثروة ، كما درس بلاد التوارق ، ومويدير ، وأهنيت ، وأهقار ، وأدرار ، وتانزروفت • واقترح ضرورة مواصلة احتلال هذه المناطق (24) .

واعتنى بيتريكس بتسجيل ميزات وخصائص شعب التوارق ، والوسائل المستغلة لاخضاعه • واقترح أسلوبين لغزو بلاده والسيطرة عليها وهما : فرقة أوليميندن ، وفرقة أدرار ايفوراس (25) • واقتفى بيسويل أثره فى التاريخ لعادات التوارق ، وأسلوب تسلحهم وحروبهم (26) •

وفعل نفس الامر بول كاسون ، فتحدث عن طبيعة التوارق ، والاقاليم الصحراوية وتجمعات السكان (27) ، وتناول بورى التوارق بالدراسة من خلال نشاط الاب فوكولد التنصيرى بينهم (28) •

وركز رونى بوايى على أهمية احتلال عين صالح والواحات الجنوبية لصالح عملية التوغل الفرنسى الاستعمارى الى أقصى الجنوب وما وراء الهقار (29) •

---

(23) Maurice Ben Hazera : Six mois chez les Touareg du Ahaggar (Alger, T.P.A. Jourdan, 1908) XXIII + 233 p.

(24) G. Besset :
A) D'In-Salah à Tikhamar par Amguid. Une tournée de police en pays Azdjer. Rapport du lieutenant Besset (Bul. Com. A.F. 1904) supp. p. 79 87.
B) Le Tidikelt et ses banlieus (Bul. Soc. G. Alger 1904) p. 642 - 685.

(25) Bétrix : La pénétration saharienne touareg (Paris, Challamel 1911) 63 p.

(26) Le capitaine Henri Bissuel : Les Touareg de l'Ouest (Alger, A. Jourdan, 1888) XIX + 210 p.

(27) Paul Carcassonne : Maures et Touareg (R.F. Mus. Mai 1902) p. 34 - 44.

(28) Le capitaine Guy Bourée : A travers le Sahara avec le Père du Foucauld (Notes de route). (Bul. Soc. G. Maroc, 1924). T. IX, p. 3 - 12.

(29) Le capitaine René Boyé : La question saharienne. Oasis de figuig, du Gorarra, du Touat, du Tidikelt. Les Touareg (Mars 1897) (Paris, G. Kleiner, 1900) 68 p.

وانصب اهتمام كوفى على دراسة فروع قبائل التوارق جنوب عين صالح (30) ، في حين ركز ديريكاقيكس على النتائج العلمية التى توصلت اليها بعثتا : فلاتر ، وذلك من خلال رسائل الفرنسيين أنفسهم الذين شاركوا فيهما (31) . وتحدث دوراند على قبائل التوارق ، وأعدادها ، وطبائعها ، والمشاكل التى تنشب بينها (32) . في حين ركز فوك على مشاكل السنوسية والتوارق معا ، وهـو يستعرض الاوضـاع فى الصحراء (33) . وحاول أحد الضباط أن يتعرف على اسباب مقتل دول عام 1889 ، من طرف التوارق ، بين أوليف وآكابلى ، وذلك من خلال وجهة نظر بعض التوارق أنفسهم الذين كانوا أصدقاء له (34) .

وتحدث شودو عن الاستكشافات التى تمت فيما بين فيفرى 1905 ونوفمبر 1909 عبر عين زيزة ، وتيميساو ، وأدرار ، وتامنراست ، وايفراون ، واقاديس ، وزندر ، ومير ، وكولو ، الى تشاد ، والعودة عبر تاهو ، ونيامى ، وقاو ، على النيجر (35) .

واستعرض كورتى رحلاته مع ارنو ، ونتائج استعلاماتهما عام 1907 فى ادرار ايفوراس مع القبطان دينو الذى قدم اليهما من عين صالح . كما تحدث عن فرسان المهارى التابعين لقافلة قاو ، وقافلة بامبا ، واستعرض الاوضاع المختلفة فى الاقاليم الواقعة بين ادرار ايفوراس، وآير ، والاستكشافات التى تمت عامى 1909 و 1910 (36) وبحث فيلات قصة بعثته طوال عام 1909 ما بين جانفى وديسمبر من عين صالح الى تامنراست (37) .

---

(30) Le capitaine Cauvet : Notice sur fraction touareg au sud d'In-Salah (Bul. Com. A.F. 1903).
(31) Lieutenant-colonel V. Derrecagaix : Exploration du Sahara. Les deux mission du lieutenant colonel Flatters (Paris, Soc. G. 1882) 143 p.
(32) A. Durand : Notes sur les Touareg et sur les populations agrigées, alliées ou voisines d'après les légendes et les renseignements recueillis dans le Tidikelt (Bul. Soc. G. Alger, 1904) p. 686 - 713.
(33) A. Fock : La situation au Sahara central. Senoussya et Touareg (Bul. Com. A.F. 1895) p. 359 - 360.
(34) E. M. : La mort de M. Douls et la façon de voyager au Sahara (Bul. Soc. G. Com. Paris, 1889 - 1890) T. XII, p. 171 - 175.
(35) R. Chudeau : D'Alger à Tombouctou par l'Ahaggar, l'Aïr et le Tchad (Bul. Soc. G. Paris, 1907) T. XV, p. 261 - 270.
(36) Lieutenant Maurice Cortier :
A) L'Adrar des Iforass (Bul. Soc. G. Paris, 1908) T. XVII, p. 265 - 280.
B) Le pays des Touareg : Icullimniden (Bul. Soc. G. Paris, 1910) T. XXI, p. 221 - 236.
(37) N. Villatte : A travers le Sahara du Tidikelt au Niger par le Ahaggar (Bul. Soc. G. Paris, 1911) T. XXIII, p. 160 - 192.

وسجل كوتنيست أحداث حملته الى الهقار فيما بين 23 مارس و 23 ماى 1902 ، واستعرض نتائج معركة تيت التى هزم فيها التوارق الهقاريون يوم 7 ماى ، وذلك من الناحية السياسية بصورة خاصة (38) ٠

واهتم كل من لابيرين ، وفيليكس قوتى ، بدراسة أوضاع التوارق ، ومناطق الجنوب ، خلال رحلاتهما التى قاما بها الى هناك ٠ فلابيرين درس المظاهر الجيولوجية ، والمورفولوجية ، من خلال رحلاته هو ورحلات نييجير ، وبيسى ، وفلاماند ، خاصة بالنسبة لاقاليم : تيديكلت ، وأدرار ، والهقار ، وأهنيت ، وتانزروفت ، وتاسيلى ، وتيفديست ، وعين صالح (39) ٠ وقوتى ركز على ضرورة تركيز السيطرة الفرنسية بالصحراء بعد أن قام بعدة رحلات استكشافية ، فى أدرار ايفوراس ، ووادى تيلمسى من 15 جويلية الى 3 أوت 1905 ٠ ودرس الغزو الفرنسى للتوارق ، والصحراء الغربية، وتعرض لرحلة فلاتر الثانية الفاشلة والمحطمة ، ورحلة فلاماند عام 1899 ، ولغزو عين صالح ، وأسباب معركة تيت ، وهزيمة الهقاريين فيها يوم 7 ماى 1902 (40) ٠

واعتنى قيو ــ لوهان بالعمليات العسكرية التى قادها ضد التوارق أواخر عام 1902 ، ومطلع العام الموالى ، فشرح أسباب سيره ضدهم من أول أكتوبر الى 15 ديسمبر 1902 ، وأوضح النتائج السياسية ، والعسكرية ، والجغرافية ، التى توصل اليها (41)٠

اما مونتى ، وباريزوف ، وبولهياك ، وبان ، وبولينياك ، فقد ركزوا على دراسة أوضاع التوارق ، والهقار بعد أن قاموا برحلات الى هناك ٠ فتحدث مونتى عن تاريخ التوارق، وعاداتهم، وسلالاتهم،وتنظيماتهم، وعن الطرق والتجارة، والصناعة لديهم كما

---

(38) Lieutenant Cottenest : D'In-Salah au Hoggar (Bul. Soc. G. Alger, 1903) p. 321 - 347.
(39) Le commandant Lapirrène : Une tournée dans le sud de l'annexe du Tidikelt du 14 mars au 3 juillet 1904 (Bul. Com. A.F. 1905) supp. p. 37 - 63 et 123 - 139.
(40) E. F. Gautier :
A) Le Sahara Touareg (Bul. Soc. G. Com. Paris, 1903) T. XXV, p. 442 - 443.
B) A travers le Sahara français d'In-Ouzel au Niger (Paris, Masson, 1907) pp. 1 - 28 et 103 - 120.
C) La conquête du Sahara. Essai de psychologie (Paris, A. Colin, 1910) 261 p.
D) La conquête du Sahara Touareg (R. P. 1910) T. II, p. 542 - 560.
(41) Lieutenant Guillo - Lohan : Un contre Rezzou au Hoggar (Bul. Com. A.F. 1903) supp. p. 205 - 215.

تحدث عن أحداث تخريب وتحطيم رحلة فلاتر الثانية (42) · واهتم باريزون بالحياة والسكان ، ووسائل الاتصال ، بين عين صالح ، والهقار ، وغدامس (43) · وتحدث بولهياك على عادات التوارق وقبائلهم (44) · وشرح الضابط بان PEIN أحداث رحلته الاستعلامية الى بلاد التوارق أزجير عام 1903 ، وتحدث على حركة التشويش التى ظهرت هناك من طرف السكان ضد الغزو الفرنسي (45) ·

واهتم بولينياك باهمية صداقة التوارق أزجير لفرنسا ، ودعا الى تمتينها وتقويتها لتخدم الوجود الفرنسى واستقراره بالمنطقة (46) · واعتنى أحد الضباط برحلة القائد الحاج بيلو الى بلاد التوارق فى مطلع القرن الحالى ، لاقناع أمينوكال الهقار موسى أ ق امايستان ، بالحضور الى عين صالح للاتصال بالسلطات الفرنسية التى تسعى لتذليل سبل توسعها الى الجنوب (47) ·

واعتنى ضابط آخر برحلة محمد الحشايشى الى السنوسى ، والتوارق ، التى سجل فيها معلومات كثيرة عن عادات وتقاليد التوارق ، وأورد أخبار طريفة عن الاساليب الدينية لدى كثير من قبائلهم (48) ·

وقام فيكتور لارقو برحلة خلال شهور : جانفى ، وفيفـرى ، ومارس 1875 الى مناطق الزيبان ، وواد ريغ ، والحمادة الصخرية ، وايغرغر ، والعرق الكبير ، وغدامس، والتوارق ، وسوف ، وسجل تفصيلات واسعة عن التوارق فى رحلته الثالثة الى غدامس عامى : 1876 و 1877 (49) · واستعرض اليكسيس ميتوا قصة المفاوضات التى جرت

(42) Le commandant Monteil : Tombouctou et Touareg (R.P. 1er mars 1894) p. 9 - 35.
(43) A.V. Parison : La région entre ouargla et El-Goléa (Bul. Soc. G. Paris, 1876) T. XII, p. 577 - 603, 1880, T. XIX, p. 128 - 171.
(44) Lieutenant Paulhiac : Promenades lointaines. Sahara Niger, Tombouctou, Touareg (Paris, Plon, Nourrit et Cie 1905) XXII + 497 p.
(45) Le capitaine Pein : Chez les Touareg Azdjer. Une reconnaissance à Tarat (Juin - Juillet 1903) (Bul. Com. A.F. 1904) supp. pp. 73 - 78.
(46) Le colonel Prince de Polignac : Mes souvenirs sur le marquis de Morès (Paris, Imp. Hérissex, 1896) 11 p.
(47) H. S. Le voyage du caïd El-Hadj Ahmed Bilou chez les Touareg (Bul. Com. A.F. 1905) suppl. pp. 182 - 187.
(48) Mohammed El-Hachaichi : Chez les Senoussi et les Touareg. Traduit sur le manuscrit arabe inédit par Victor Sessé et Mohammed Lasram (R.P. 1901) T. IV p. 677 - 709 ; T. V, p. 408 - 422.
(49) V. Largeau : Le Sahara algérien, les déserts de l'Erg (Paris, Hachette 1881) XII + 342 p.

فى عين صالح بينه هو ولابيرين من جهة ، وبين زعماء التوارق الشماليين خلال أعوام 1903 و 1905 ، التى انتهت باستسلام التوارق وخضوعهم للسيطرة الفرنسية دون عنف ، ودون اراقة الدماء (50) حسب زعمه ·

وبعد ان استعرض كيرقانوف تفاصيل عن القوافل العسكرية الثلاثة ، التى وجهت لغزو الجنوب ، ابرز مركز سلطة التارقى ، ونفوذه الواسع فى الصحراء ، وأوضح أهمية تيديكلت للقوات الفرنسية الغازية . ولم ينس أن يتحدث عن مسألة توات (51)· واهتم بعض الضباط بغارات الضابط الليوطنان كوتنيست : خلال أيام 9 ــ 23 ماى 1902 فى عين صالح ، ومويدير ، وتيفديست ، والهقار . وسجل أحداث معركة تيت ضد التوارق ، واقترح مواصلة هذه الغارات حتى تفرض السيطرة الفرنسية ولو بالقوة على التوارق ، وتربط الجزائر بالسودان (52) ·

اما الطبيب ريشير ، فقد تحدث عن تاريخ التوارق منذ الازمنة البعيدة ، وعــن الاوليميندن منذ الغزو الفرنسى ، واستعرض أحداث غزو تمبوكتو عام 1893 ، وبعثة توتى TOUTEE عام 1895 ، وبعثة هورس HOURST عام 1896 ، ومقاومة الاوليميندن عام 1903 ، كما تحدث عن تهدئة أدرار الهقار ، والآير ، من عام 1903 الى 1905 ، وعن تاريخ الادارة الفرنسية بالجنوب حتى عام 1914 ، وثورة الاوليميندن خلال الحرب العالمية الاولى من عام 1914 الى 1917 ، والحركة السنوسية في الشمال الافريقى خلال نفس الفترة (53) ·

وركز شيرمير على أهمية منطقة الآير بالهقار ، وشرح الحالة السياسية للتــوارق الشماليين ، معتمدا على معلومات تقارير ايروين دو بارى التى وضعها عام 1876 (54) ·

---

(50) Alexis Métois :
A) La soummission touareg du Nord (Paris, A. Challamel, 1906) 65 p.
B) Essai de transcription méthodique des noms de lieux touareg (Bul. Soc. G. Alger, 1907) p. 401 - 410, 1908 ; p. 54 - 64, 207 - 221, 381[e]- 410, 507 - 531, 1909 ; p. 103 - 123.

(51) Y. Kerganof : Tableau du Sahara. Un convoi au Tidikelt (R.G. 1904) T. LIV p. 54 - 60.

(52) R.C. Le raid du lieutenant Cottenest (Q. Dipl. Col. 1902) T. XIV, p. 102 - 107.

(53) Dr A. Richer : Les Touareg du Niger (Région de Tombouctou, Gao, les Anlliminden (Paris, Larose 1914) XI + 35 p.

(54) Henri Schirmer : Le dernier rapport d'un Européen sur Ghat et les Touareg de l'Aïr (Journal de voyage d'Erwing de Bary) (Paris, Imp. National, 1899) 15 p.

وحتى الطاهر قدور بن الجيلالى الذى شارك فى حملة فورو ، ولامى ، استعرض المصاعب التى اعترضتهم مع قبائل توارق الهقار ، واقاديس ، وزندر ، وتشاد ، حتى الى برازافيل ، فى الكونغو (55) • وتحدث تروشار على رحلات الاستكشاف ، وحملات الغزو الفرنسى للصحراء التى تمت جنوب قسنطينة ما بين عـام 1899 و 1904 ، واستعرض العلاقات مع سكان ايفوراس وأزجير ، ومشاكل المياه ، وانجاز قلعــة فلاتر ، والرحلة من تاسيلى الى جانيت (56) • وفعل مثله باكى فاستعرض عمليات غزو الجنوب الصحراوى من طرف القوات الفرنسية فيما بين أعوام 1899 و 1905 (57) • وأورد ضابط آخر أهمية المراكز الصحراوية الفرنسية فى عملية احتلال المناطــق الصحراوية ، وفى عمليات الاستكشاف • واستعرض أحداث التوارق ، ومعارك الفرق العسكرية خلال عام 1903 ، ومطلع العام الموالى • وشرح كيفيــة استعمال فــرق المهــارى (58) •

ولم تقتصر أهمية منطقة الهقار ، وشعب التوارق ، على أواخر القرن الماضى ، بل ان هذه الاهمية برزت فى مطلع هذا القرن خاصة خلال الحرب العالمية الاولى • نظرا للصراع القائم بين الدول الاستعمارية ، حول السيطرة والنفوذ فى اطار توازن القوى من جهة ، ولحيوية عناصر التوارق فى الحرب ، واستراتيجية بلادهم فى أعمــاق الصحراء حيث كانت الحركة السنوسية نشطة ، ودعاية الاتراك العثمانيين ضــد السيطرة والمتسلط الاوروبى قائمة ، ومنتشرة •

وفى هذا الاطار تحدث أسكرى فى كتابه : الحرب فى الصحراء ، على العمليات العسكرية التى جرت فى الحدود التونسية الليبية خلال الفترة من 1914 الى سبتمبر 1915 ، وعلى حملة تاسيلى عام 1916 ، وحملة الهقار ، واير عامى 1917 و 1918 •

---

(55) Tahar Kaddour Ben Djilali : Mission Foureau - Lamy, récit d'un sergent indigène. Traduit de l'arabe par A. Gourdon (Bul. Soc. G. Arch. Oran, 1904) pp 17 - 41.

(56) Trouchard : Travaux et reconnaissance de pénétration saharienne exécutés dans le Sud constantinois par le cercle de Touggourt (Paris, Publication du Com. A.F. 1907) 148 p.

(57) Lieutenant Baquey : Le pénétration saharienne. Résumé historique 1899 - 1905 (Paris, Charles Lavauzelle S.D.) 63 p.

(58) Entre Alger et Tombouctou (R.P. 1904) T. III, p. 773 794.

واستعرض دور الجنرال لابيرين فى الدفاع على الصحراء بعد ان عين حاكما عليها فى 12 جانفى 1917 (59) ·

واستعرض أوقيستان بيرنار هجمات السنوسيين خلال الحرب العالمية الاولى ضد القوات الاوروبية ، وركز على ابراز نتائج ذلك على حكم الجنرال لابيرين ، واستعرض ثورة الهقار ، واعترف باخلاص زعيمهم موسى أق أماستان للادارة الفرنسية وحاول ان يحدد توقعات المستقبل بالنسبة للسيطرة الفرنسية (60) ·

وحتى حاكم المستعمرات ، أندرى بونامى ، اهتم بهذه المنطقة ، فدرس وسائل الاتصال الممكنة بين افريقيا الشمالية والسودان ، واقترح خطا يمتد من الجزائر الى تمبوكتو ، عبر الساورة ، والتشاد ، الى الهقار · وخطا من أقصى جنوب تونس الى وسط افريقيا ، وخطا ثالثا له أهداف سياسية وعسكرية يمتد من المغرب الاقصى الى افريقيا الغربية الفرنسية (61) ·

وقام ج· فرانسوا باختراق الصحراء خلال شهرى أبريل ، وماى 1917 ، عبر تشاد ، وبنى عباس ، وتيميمون ، والهقار ، وأدرار ايفوراس ، وكيدال ، وبامبا · وتحدث عن الشرطة الصحراوية ، ومشروع طريق برى للسيارات بين الجزائر وافريقيا الغربية الفرنسية (62) ·

واهتم الدكتور بول فيرمال بملاحظات الضابط دوكلو ، التى سجلها فى جريدة الطريق اليومية خلال اقامته بالسودان الاوسط والشرقى من 1913 ، الى ان قتل فى معركة عين الحجاج 1917 ، وأورد ملاحظات عن التوارق (63) · وأدخل كابانى منطقة الهقار ، فى دائرة مشروعه الكبير لمد خط السكة الحديدية من الجزائر الى بوسعادة ، وورقلة · ثم يفرع الى فرعين : واحد الى تونس ، وطرابلس ، والآخر الى

(59) Askri : La guerre au désert. Le général Laperrine et la défence du Sahara (Cor. 1920) T. CCLXXIX, pp 1106 - 1115.
(60) Augustin Bernard : Le Sahara français pendant la guerre (Bul. Com. A.F. 1920) suppl. p. 3 - 9.
(61) André Bonamy : Les deux rives du Sahara (Paris, E. Larose 1924) 204 p.
(62) G. François : Les mission Bonamy à travers le Sahara (Bul. Com. A.F. 1918) p. 211 - 215.
(63) Paul Vermal : Au Sahara pendant la guerre européenne. Correspondances et notes publiées par Augustin Bernard (Paris, E. Larose 1926) 223 p.

عين صالح ، وجبال الهقار ، وتمبوكتو • وحدد الشروط الضرورية لانجازه ماليا ، واداريا ، وتنظيميا ، كما حدد ضمانات الحكومة له (64) •

وفعل مثله دو بورتي ، ودرس مناطق : القليعة ، وقورارة ، وتوات ، وتيديكلت ، وبلاد التوارق الشرقية ، وحاول أن يتعرف على السكان ، والارض ، والانتاج ، والموارد المائية ، ودرس مشروع السكة الحديدية من بسكرة الى تمبوكتو (65) •

واهتم لحاش بمصادر المياه الجوفية فى الصحراء ، وتحدث عن نتائج أبحاث كتيبة الضابط بوّجا PUJAT حولها فى تيماسينين خلال شهور جانفى الى ماى 1899 (66) • بينما اهتم هاردت باختراق الصحراء بواسطة السيارة من تقرت الى تمبوكتو عبر عين صالح ، والهقار ، وتانزروفت ، والهضاب الرعوية السودانية (67) • وحاول هانوتو أن يضع قواعد نحو للغة تاماشك ، والبوشار ، والتوارق (68) ، كما حاول كل من الجنرال فيلبير ، وجورج رولاند ، أن يدرسا مشاكل الصحراء ، ومسألة التوارق (69) •

وفى الاخير تأتى تقارير الحاكم العام شارل جونار ، والحكومة العامة حول كل جوانب جنوب الجزائر وأقاصى الصحراء ، التى عرفت باسم المناطق العسكرية الجنوبية ، أو التراب العسكرى • وذلك من النواحى : السياسية ، والاقتصادية ،

---

(64) F. Cabanis : Grand chemin de fer d'Afrique (Paris, Librairie, novembre 1853) 32 p.

(65) Le commandant V.B. du Portier : A propos du Transaharien. Extrême-sud de l'Algérie. Le Gourara, le Touat, In-Salah, le Tidikelt, le pays des Touareg - Hoggar, l'Adrar, Tombouctou, Agadès 1881 - 1889 (Alger, Imp. Fontana, 1890) 476 p.

(66) J. Lahache :
A) Etude hydrolique sur le Sahara (R. Int. 1900) T. XIII, p. 625 - 640.
B) L'eau au Sahara (Bul. Soc. G. et Col. Marseille, 1901) T. XXV, p. 136 - 156.

(67) G.M. Haardt et L. Audouin - Dubreuil : Le Raid Citroën. La première traversée du Sahara en automobile de Touggourt à Tombouctou par l'Atlantide (Paris, Plon 1924) 307 p.

(68) Le commandant Adolphe Hanoteau : Essai de grammaire de la langue tamachek, renferment les principes du langage parlé par les Imouchar au Touareg (Paris, Imp. Impériale 1860) XXXII + 299 p.

(69) Le général Phelbert et Georges Rolland : La France en Afrique et le Transaharien. L'intérieur africain, ce que peut être encore l'Afrique française, pénétration par l'Algérie, question touareg, chemin de fer transaharien, ce qu'elle est, ce qu'elle doit être, par G. Rolland (Paris, A. Challamel, 1890) 96 p.

والمالية ، والعدلية ، والاشغال العامة ، وحركة الاستعمـــار وتقسيم المسؤوليات ، والبلديات ، والدوائر ، والمراكز (70) ·

ثم أعمال ، وتقارير الحاكم العام ستيف باســم الحكومة العامة ، التى ضمــت فى ثلاثة اجزاء :

فى الجزء الاول تحدث دوكلو Duclos ، رئيس مصلحة شؤون الاهالى العسكريين للحكومة العامة عن الحدود ، ووصف ايميل فيليكس قوتى المظاهر الجغرافية · ودرس روزى Rozis نائب المدير العام فى الحكومة العامة ، أصول وشروط التصويت علـى قانون 24 ديسمبر 1902 ، الذى بموجبه انشئت المناطق الجنوبية العسكرية ·

وفى الجزء الثانى درس روزى A. Rozis ، التنظيم المالى ، والادارى ، والعسكرى ، ودرس الحاكم العسكرى لمناطق الواحات ، دوكلو ، الحالة السياسية ، لمناطق الجنوب من عام 1902 الى 1922 · ودرس الطبيب فولى Foley الحالة الصحية خلال أعـوام 1919 و 1921 · وهو رئيس مصلحة الصحة لهذه المناطق ·

وفى الجزء الثالث الذى صدر عام 1923 ، تم وضع بيبليوغرافية عامة للمجلدات ، والكراريس ، والقرارات ، والمجلات ، والوثائق ، والخرائط · وعرضت فيه الوثائق الرسمية ، والدراسات الاقليمية ، والمحلية ، والغزو الصحراوى ، وتاريخ الحالــة السياسية ، والعمليات العسكرية ، والتنظيم الاستعمارى ، والاشغال العامة ، والنقل الصحراوى (71) ·

---

(70) Charles Jonnart :
A) Exposé de la situation général des territoires du Sud de l'Algérie, présenté par M.C. Jonnart, gouverneur général, année 1905 (Alger, Imp. V. Heintz, 1906) 103 p.
B) Gouvernement général de l'Algérie. Conseil supérieur, discours de M. le Gouverneur (C. Jonnart) à l'ouverture de la mission ordinaire pour l'année 1907 (Alger, Imp. V. Heintz, 1907) 26 p.

(71) Gouvernement général de l'Algérie : Direction des territoires du Sud. Les territoires du Sud de l'Algérie. Exposé de leur situation, publié par ordre de M. Steg, gouverneur général de l'Algérie (Alger, Corbonel 1922) 3 vol. 248 + 549 + 320 p.

هكذا يتضح ، من العرض السابق ، أن الفرنسيين كانوا شديدى الاهتمام بمنطقة الهقار ، وشعب التوارق ، وبذلوا محاولات مكثفة ، وطويلة ، للسيطرة عليهما دامت قرابة نصف قرن من الزمن ٠

وكان مصدر اهتمامهم ، هو خدمة مصالح فرنسا ، ودعم الاستعمار الفرنسى فى افريقيا كلها ٠ ولم يكن لشعب التوارق ، وكل سكان الصحراء ، اى حـــظ فى أى تطوير ، أو تقدم ، من طرفهم ٠ لان كل همهم ، وكل أهدافهم من وراء حملاتهـــم ، وغزواتهم ، واستكشافاتهم ، هو تذليل الصعوبات لقواتهم الغازية ، لتفرض سيطرتها الاستعمارية ، وتذل السكان وتهينهم ، وفتح المجال للمغامرين والمرتزقة ، ليمارسوا الجوسســـة ، والتخريب ، ويستغلوا ، ويستثمروا خـــيرات المنطقة ، وامكانياتها الاقتصادية والبشرية ٠

ورغم العزلة الخانقة ، والفاقة،والحرمان ، وقساوة الطبيعة ووعورتها ، وانعدام الامكانيات والوسائل ، فان شعب التوارق ، بالهقار ، وكل جهات الصحراء ، قاتلوا الغزاة الاستعماريين ، وقاوموهم بكل شدة ، وضراوة ، وخاضوا عددا كبيرا من الحروب والمعارك فى طول الصحراء وعرضها ، وسجلوا صفحات مشرقة فى تاريخ الصحـــراء والمقاومة الجزائرية ٠ وبقوا أوفياء لوطنهم حتى تحررت الجزائر بصفة نهائية ، والى الابد ، عام 1962 ٠

توضيح مختصرات الدوريات التى استعملت فى الدراسة

— Bul. Com. A.F. : Bulletin du Comité de l'Afrique française.
— Bul. Soc. G. Alger : Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord.
— Bul. Soc. G. Arch. Oran : Bulletin de la société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran.
— Bul. Soc. G. Com. Paris : Bulletin de la société de géographie et commerciales de Paris.
— Bul. Soc. G. et Col. : Bulletin de la société de géographie et d'études coloniales de Marseille.
— Bul. Soc G. Maroc : Bulletin de la société de géographie du Maroc.
— Bul. Soc. G. Paris : Bulletin de la société de géographie de Paris.
— Cor. : Le correspondant.
— N. R. : Nouvelle Revue.
— Q. Dipl. Col. : Questions diplômatiques et coloniales.
— R. G. : Revue de géographie.
— R. Fr. Mus. : Revue franco-musulmane et saharienne.
— R. P. : Revue de Paris.

المحتوى التاريخي للرسـوم الصخرية٠

المعطيـات الجغرافية والمنـاخة

محمـد الصغير غانـم
استـاذ التاريـخ

تجمع الدراسات التي تناولت موضـوع الرسوم الصخرية بالصحراء الجزائرية بان منطقة التاسيلي وجبال الهجار كانت منذ القديم تمثل ملتقى حضارات انسانية٠ فقد خول لهذه المنطقة موقعها الاستراتيجي ان تلعب دورا هاما ، بحيث انها كانت تتوسط مواقع المراكـز الحضارية الموجودة حينذاك ٠

فالمسافة التي تفصلها عن مصر العليا تقاوب تلـك التي تفصلها عن خليج الرت وشمال بلاد المغـرب ٠ ونفس المسافة تقريبا تفصلها عن أعالي نهر النيجر والصحراء الغربية وجنوب موريطانيا٠

ولم تكن الصحراء منطقة جافة كما هي الآن،بل كانت تتمتع برطوبة كافية تجعل حياة الحيوانات الاستوائية سهلة للغاية ، واستمر الامر على ذلك تدريجيا حتى حوالي الالف الثالث ق٠م٠ حيث ظهرت الصحراء بطبيعتها القريبة مما هي عليه الآن،ثم بدأ

سكانها يتجمعون فى واحات منتشرة هنا وهناك ، والبعض الآخر منهم هاجر المنطقة نهائيا متتبعا مصادر شرايين الحياة التى تتلخص فى وجود المياه والكلأ (1) .

ومن جهة أخرى يشير الباحثون الجيولوجيون بانه خلال فترة الرطوبة هذه كانت تتخلل منطقة الصحراء شطوط وبحيرات مغلقة موزعة فى بعض المناطق الصحراوية تغذيها وديان تنحدر من مرتفعات الهقار والتاسيلى ، والتبستى . وقد احتلت مكان هذه الشطوط والبحيرات اليوم العروق والاحواض الرملية . ومن بين الوديان التى تغذى اماكن تجمع المياه المشار اليها وادى تفاساسيت Taffassasset الذى كان ينحدر من مرتفعات التاسيلى وشرقى الهجار،ثم يواصل سيره بعد ذلك نحو الجنوب الغربى حتى أعالى نهر النيجر . وبالعكس من ذلك كان وادى إغارغار ينطلق هو الآخر من مرتفعات الهجار، متجها نحو الشمال الغربى،ليصب بعد ذلك بالقرب من شط ملغيغ بالحدود التونسية الجزائرية الحالية (2) . وهناك أدلة أخرى تثبت وجود معالم المياه المشار اليها تتلخص فى وجود عظام الحيوانات الاستوائية المتحجرة التى لا تعيش الا على أطراف الانهار والبحيرات وكذلك الاسماك ، وكل هذه الاشياء عثر عليها فى موقع أمكنى Amekni وتيهودين بغربى الهجار بالصحراء الجزائرية (3) . ومن دراسة بقية رواسب الكائنات العضوية أثبتت الدراسات الاثرية بان مناخ الصحراء خلال الالف السابع ق.م. كان مرتفع الرطوبة مما ساعد على وجود غابات تغطى رؤوس المرتفعات الجبلية مثل الهجار والتاسيلى والتبستى ، واستمر الامر على ذلك حتى بداية الالف الثالث ق.م. المرحلة الزمنية التى دخلت فيها الصحراء فى فترة الجفاف التدريجية .

وبصفة عامة نستطيع القول بان الصحراء كانت قد مرت بمرحلتين هامتين تتلاءم مع ظروف الرطوبة والجفاف ، وهما العصر الحجرى القديم الاسفل وبالخصوص المرحلة

1) G. CAMPS, *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara,* Paris 1974, p. 221.
2) Gautier, *Le Sahara,* Payot, Paris 1928, p. 62.
3) G. CAMPS, *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara,* Paris 1974, p. 221.

الاشولية المتطورة منه ، ثم العصر الحجرى الحديث ، اما العصران الحجرى القديم الاوسط والاعلى فان بقاياهما منعدمة فى المنطقة (4) • ففى الوقت الذى كانت تسود فيه عصور جليدية فى منطقة أوروبا أرغمت السكان عن المكوث فى الكهوف ، ودامت على ذلك حتى حوالى الالف الخامس ق·م· فى هذا الوقت صادف ان ساد منطقة الصحراء جو مطير أطال عمر العصر الحجرى الحديث الذى كانت البشرية الافريقية العائدة اليه عبارة عن صيادين ورعاة وفرسان تجوب المنطقة (5) •

وعلى هذا الاساس يذهب بعض الباحثين الى ان نهاية عصور ما قبل التاريخ فى الصحراء كانت ذات طابع سىء على المنطقة بأكملها،حيث حل الجفاف محل نزول الامطار وقلت منابع المياه ، وبذلك استحالت الحياة فى ربوعها فيما عدا فى بعض الواحات التى استقطبت سكان المنطقة ، بينما بالعكس من ذلك بدأت المناطق الشمالية المحاذية للبحر الابيض المتوسط تستعد للدخول فى الفترة التاريخية،وبذلك كانت منطقة استقطاب سكانى ليس فقط بالنسبة لاقوام البحر الابيض المتوسط،بل وأيضا للاقوام الصحراوية التى أرغمتهما ظروف الطبيعة على مغادرة مسرحها الاول باتجاه الشمال (6) •

تقييم الرسوم الصخرية الصحراوية :

ليس من السهل تقييم الرسوم الصخرية واعطائها المحتوى الذى تستحقه،وذلك لان الخيال والتكهن فى تفاسير مواضيع هذه الرسوم يلعبان دورا هاما ، والذى لا شك فيه هو ان هذه الرسوم والنقوش تعبران بصدق عن مظاهر انتاج فنانى عصور ما قبل التاريخ المغربية الذين سجلوا لنا مظاهر الحياة اليومية كتلك المجتمعات التى كانت تضمهم بين صفوفها • كما ان الاسلوب الذى عولجت به مثل هذه المواضيع التى لا زالت آثارها ماثلة على واجهات الكهوف والصخور والتقنية التى استعملت فيها يدلان بصدق على ان الفنان الذى انتج هذه الرسوم والنقوش لم يكن هاويا فحسب بل كان متخصصا يتقن عمله أحسن اتقان •

4) مجلة البحث العلمى ، المركز الجامعى للبحث العلمى ، الرباط العدد الثامن ، الرباط 1966 ، ص 42 •

5) نفس المصدر السابق ، ص 43 •

6) G. CAMPS, *Monuments et rites funéraires protohistoriques,* Paris 1961, p. 206.

فقد بدأت تظهر للوجود فكرة اسبقية الرسوم الصخرية المغربية منذ اكتشاف الرسوم الصخرية التى عثر عليها فى الجنوب الوهرانى • وقد ترك البت فى هـذا الموضوع الى نتائج الاشغال الفنية التى كان بصدد اعدادها حينذاك كل من فلاماند (Flamand) وبروى (Breuil) ، وغيرهما مثل روسو (Russo) وجلود (Joleaud) (7) •

اما فوفرى (Vaufrey) فقد أكد بقوله بان أقدم هذه الرسوم الصخرية سوف لن يتجاوز فترة النيولتيكى قدما (8) • وقد اعتمد فى ذلك على البقايا الاثرية الحجرية التى عثر عليها بالقرب من مواقع الرسوم الصخرية ، والتى لم يوجد من بينها ما يشير الى فترة الباليولتيكى الاعلى بل كلها كانت صناعة نيوليتيكية متأثـــرة بالتقاليـد القفصيـــة •

ومن جهته،قام هنرى لهوت (H. Lhote) بعدة مجسات مختلفة فى مناطق التاسيلى اعتقد بعدها بان الصناعة الحجرية التى كانت سائدة فى المنطقة هى تلك العائدة الى فترة النيولتيكى (9) •

وخلاصة لما ذكرنا بقى هناك رأيان يسودان هذا الموضوع :

أولهما مـــا استخلصه الباحث جلـــود (Joleaud) سنة 1933 ومفـاده ان معظـم الرسوم الصخرية قد يكون معاصرا لفترة النيولتيكى المتوغلة فى القدم والتى حددها بحوالى الالف التاسعة ق•م• (10) •

أما الرأى الثانى فهو الذى أورده فوفرى (Vaufrey) والذى يعدل التاريخ السابق الذكر فينزل به الى حوالى الالف الخامس ق•م•

7) Abbé Henri Breuil, *Les roches peintes du Tassili - N - Ajjer,* Extrait des Actes du II[e] Congrès Panafricain de Préhistoire, Alger, 1958, p. 67.

8) مصطلح تاريخى ، المقصود به العصر الحجرى الحديث ؛
R. Vaufrey, ***Préhistoire de l'Afrique,*** T. I, p. 114.

9) Henri Lhote, *Vers d'autres Tassili,* Paris 1976, p. 108.

10) L. Joleaud, *Gravures rupestres et rite de l'eau en Afrique du Nord,* Journal de la Société des Africanistes, T. 3, 1933, pp. 197-204.

وسوف لن ننهى هذه الآراء دون ان نشير الى ما أورده الباحث غردون تشايلد (G. Childe) سنة 1936 ، والذى قارن فيه الفن الصحراوى بالفن المصرى السابق لعصر الاسرات · فقد أكد هذا الباحث بان الفنان النيولتيكى المصرى كان أقل مهارة من نظيره الصحراوى المغربى والاسبانى ، واستخلص بعد ذلك الى ان الحضارة المغربية الصحراوية هى أسبق من الحضارة المصرية · وقد شاركه فى هذا الرأى فيما بعد أ· بروى (Abbé Breuil) (11) ·

والجدير بالذكر ان المنطقة الشرقية من مرتفعات التاسيلى كانت ولا زالت تمثل أغنى منطقة فى الرسوم الصخرية الصحراوية ليس فقط من حيث الرسوم ، وانما أيضا من حيث المحتوى الفنى · ويمكن ان يكون لذلك سببا يتلخص فى الموقع الجغرافى ، ووقوعها على الطريق الدولى الذى كانت تسلكه القوافل فيما بعد للوصول الى أعالى نهر النيجر وبلاد السنيغال ·

وعلى هذا الاساس،ووفقا للرسوم التى وجدت بهذه السلسلة الجبلية،فيبدو أنه توالى على منطقة التاسيلى كل من جماعات الصيادين ، والبقارة،والاكيديين (الذين استعملت فى عهدهم العربات) ثم الجمالة فيما بعد · ويمكن للدارس ان يعثر فى رسوم التاسيلى على كامل التأثيرات التى وجدت في بلاد المغرب،سواء المحلية منها أو الاجنبية، مثل تلك التى وردت الى المنطقة عن طريق ليبيا ومصر ، وكذلك تلك القادمة من أوروبا والتى مصدرها غزوة شعوب البحر (12) ·

وهكذا نستطيع القول بان منطقة الصحراء الوسطى الجزائرية كانت تؤثر وتتأثر بالتيارات التى تحيط بها سواء تلك القادمة من آسيا عن طريق مصر ، أو من بلاد الاغريق عن طريق جنوب غرب أوروبا ·

ففى كلتا الحالتين كان للتاسليين شخصيتهم المميزة كما يتجلى ذلك من خلال الالواح الفنية المعبرة التى تروى لنا قصة امجادهم الخالدة ·

---

11) Abbé Breuil, *Roches peintes du Tassili - N - Ajjar,* Extrait des Actes du II[e] Congrès Panafricain de Préhistoire, Alger 1952, p. 68.

12) بادل داقدسن ، افريقيا تحت أضواء جديدة ، ترجمة جمال م· أحمد ، دار الثقافة بيروت ، بلا تاريخ ، ص 50 ·

أهم المواضيع التي تناولتها الرسوم الصخرية :

قد يكون من المبالغة ان نحصر المواضيع التي تناولتها الرسوم الصخرية فى موضوع مثل هذا ، انما حاولنا بقدر الامكان ان نقدم صورة تقريبية اعتمادا على ما قدمته لنا الكتابات التى سبقتنا والتى استطعنا الاطلاع عنها • لقد اجمعت معظم هذه المراجع على ان للرسوم الصخرية عدة محاور اساسية تتمشى ونوعية الحياة التى كان يتأثر بها الفنان •

وعلى هذا الاساس وزعت الرسوم الصخرية فى شمال افريقيا على الشكل التالى :

1 ـ منطقة شمال بلاد المغرب وتضم كلا من تونس والجزائر والمغرب الاقصى والصحراء الغربية مع التركيز على الجنوب الوهرانى والاطلس الصحراوى •

2 ـ منطقة الصحراء الجزائرية الليبية وتضم جبال الهجار والتاسيلى ثم جبال تبستى ومنطقة فزان بليبيا •

3 ـ منطقة غربى ليبيا ومصر •

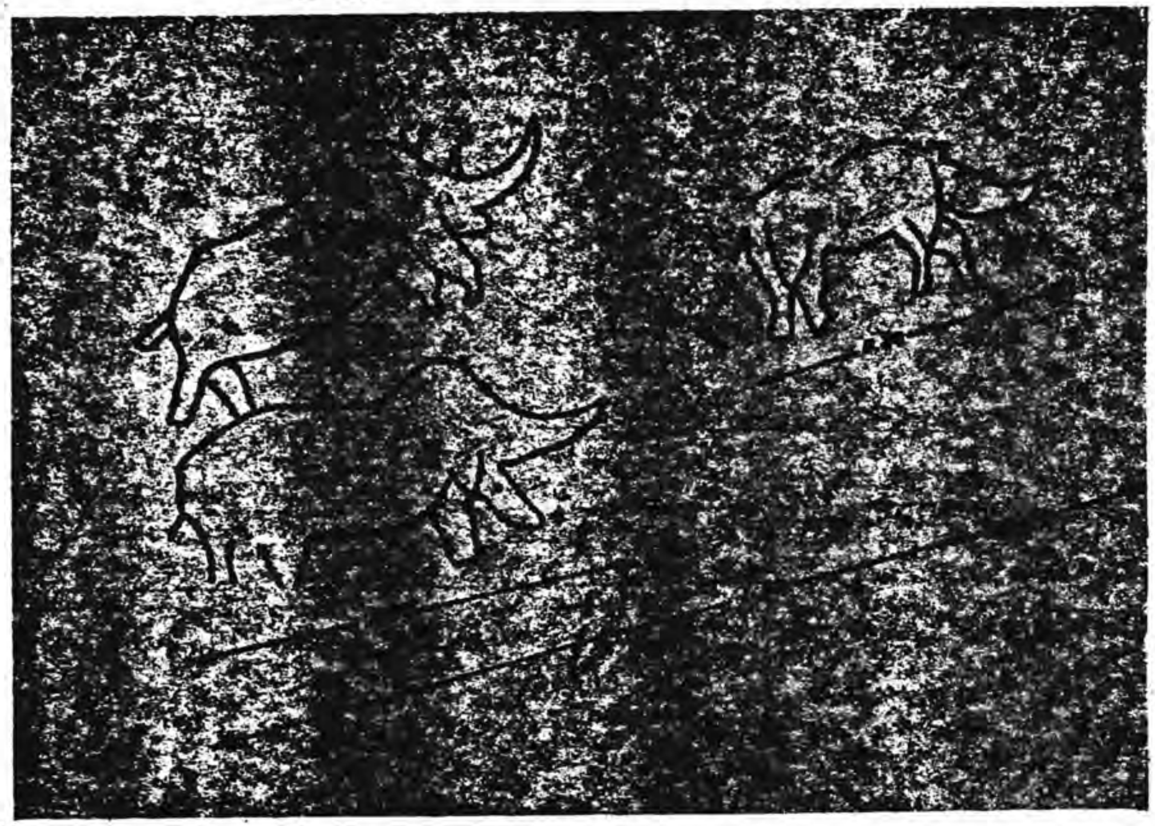
هذا من حيث التوزيع ، أما عن محتوى هذه الرسوم فقد رتبت هى الاخرى كرونولوجيا حسب التقريب على الشكل التالى :

أقوام الصيادين ، البقارة ، الاكيديين •

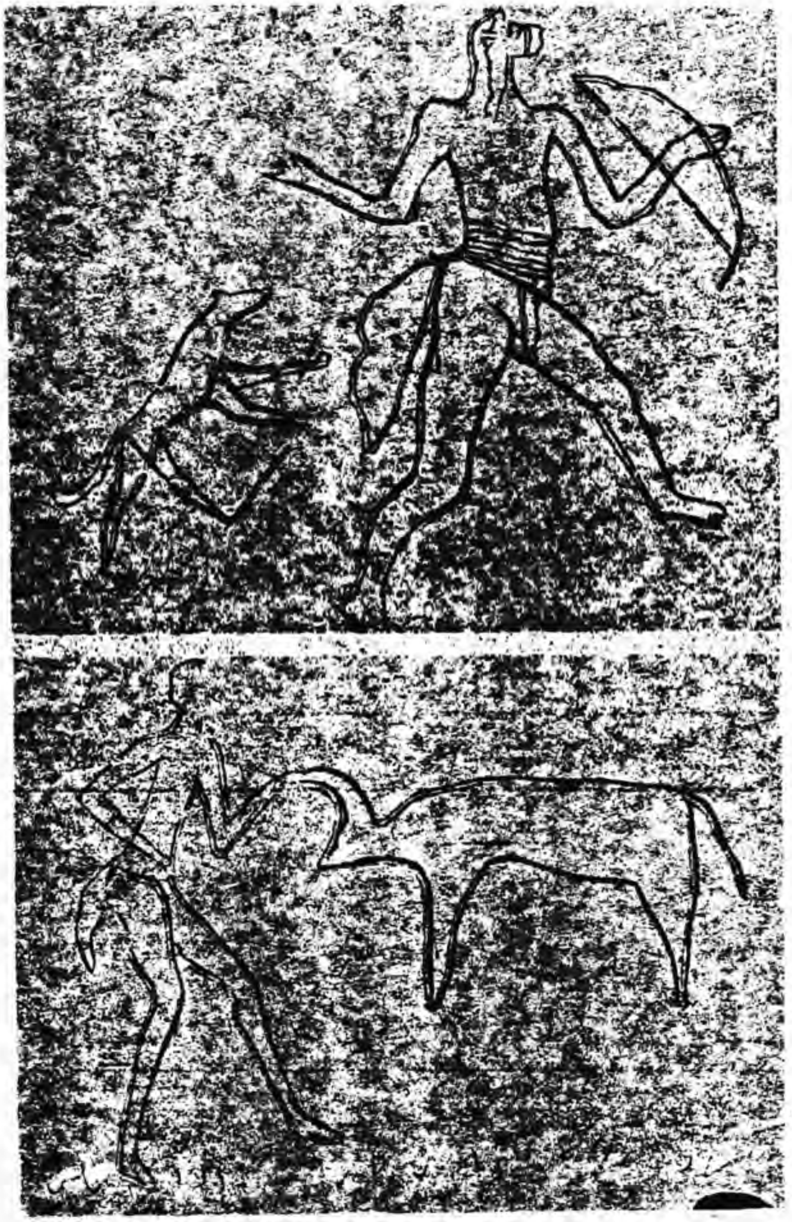
الصيادون : يسمى البعض هؤلاء بـ « الاقوام ذوى الرؤوس المستديرة » ، ذلك لان رسومهم كانت توحى بذلك (13) •

ومن بين الحيوانات التى يصطادها هؤلاء الاقوام،والتى سادت فى عهدهم نشير الى الفيل الذى عرف بالماموت،وهو حيوان منقرض،وكذلك الزرافة،وافراس النهر ، ووحيد القرن ، والجاموس ، وغالبا ما توجد صور الاشخاص المصاحب لهذه الصور فى شكلها الطبيعى عارية من كل ثياب مسلحة بالعصى والسهام الحجرية • والملاحظ ان صور هذه الفترة كانت دقيقة جدا وتميل الى الأسلوب الطبيعى •

13) G. CAMPS, *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara,* Paris 1974, p. 258.



رسوم لوحيد القرن ، عثر عليها فى وادى جيرات بالتاسيلى



مشهد صيد من وادى جيرات بالتاسيلى

وقد استعمل الفنان فى رسمها اللون الاحمر المأخوذ من المغرة ، كذلـــك رسمها بنقوش غائرة على واجهات الصخور (14) ·

والجدير بالذكر ان فترات الصيادين هذه كانت على ما يبدو قد استغرقت فترة طويلة من الزمن، بحيث امتدت من الباليولتيكى الاسفل حتى النيولتيكى ، وقد قدرت بداية فترة هذا الاخير فى الصحراء فيما بين الالف السابعة والخامسة ق·م· (15) · والشىء الذى يمكن ملاحظته هنا ان أنواع الحيوان المشار اليها لا تستطيع العيش الا فى مناطق ذات مناخ رطب وغابات غنية مما يعطينا الدليل على ان منطقة الصحراء فى تلك الفترة كانت تشبه مناطق الصفانا الاستوائية الحالية (16) ·

البقارة : يلى الاقوام الاولى فى الترتيب ما عرف بالبقارة نسبة الى الحيوانات التى توفرت رسومها فى عهدهم والتى على ما يبدو انها كانت تكوّن العمود الفقرى لهـذه الجماعات البشرية التى عاشت بهضاب التاسيلى والهقار والتبستى ، وحسب هـ· لهوت (H. Lhote) فان استئناس الحيوانات فى منطقة الصحراء يعود الى هذه الفترة ، وهـى تعد من أغزر واجمل الرسوم التى وجدت فى المنطقة · وقد امتد توزيع الابقار من منطقة الهقار بالصحراء غربا حتى وادى النيل شرقا ، وهى تعكس حضارة رعويـة نيوليتيكية مارس أقوامها الصيد والرعى معا (17) · ويعتقد الباحثـــون بان الذين استأنسوا الحيوانـات كانــوا ينتمون الى الجنس الحـــامى بالاضـافة الى الاقـــوام الافريقية الزنجية · ويستفاد من صور النساء التى وجدت رسومهن بوادى أمـــزار (Oued Amazzar)، وايدو ـ تيسوكال (Iddo Tissoukol) بالتاسيلى بان هذه الرسوم كانت قد رسمت بلون أسود غامق وقد رتبن شعرهن بطريقة خاصة ، ونوعية هذا الاخير تـدل على انهن ينتمين الى جنس البحر الابيض المتوسط ·

14) مجلـة البحث العلمى ، المركز الجامعى للبحث العلمى ، العـدد الثامن ، الرباط 1966 ، ص 44 ·

15) Encyclopédie illustrée de l'Homme préhistorique, Prague (Gründ) 1975, p. 488.

16) Stéphane Gsell, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord,* T. I, pp. 100-122.

17) G. B. M. Flamand, *Les pierres écrites du Nord de l'Afrique,* Extrait des Comptes-Rendus du Congrès inter d'Anthro. et d'Archéo. Préhistoriques XII[e] session, Paris 1900, p. 266-267

أما رسوم الرجال فقد كانت تبدو فارعة القامة بالاضافة الى ذقونهم الطويلة المنسدلة • وغالبا ما يظهر هؤلاء الرجال مسلحين برماح وعصى واضعين على رؤوسهم قبعة من الريش الطويل ومرتدين للباس قصير • وفى نفس الرسوم تظهر مجموعة أخرى من الرجال تحمل أقواسا صغيرة تعلوا رؤوسهم قرون البقر وتلف اجسامهم ثياب طويلة •

وهناك رسوم تعد أحدث من تلك المشار اليها سابقا تتلخص فى صورة ثورين يجران عربة ذات عجلتين ، وغالب الظن انها عائدة الى الرسوم المخصصة الى العربات الصحراوية والتى تعود الى منتصف الالف الثانية ق•م• (18) •

الاكيديون أو سائقو العربات :

تنتهى مرحلة البقارة فى الصحراء بانتهاء وفرة الاعشاب، وميول المنطقة الصحراوية الى الجفاف، وانكماش شريط الحياة نحو الشمال والجنوب ، وتبعا لذلك بدأ سكان الصحراء يتجهون نحو الشمال والجنوب فى شكل هجرات متوالية، متتبعين مصادر المياه والكلأ لقطعانهم • غير ان هذا لا يعنى بان البقارة فى الصحراء كانوا قد عوضوا بالاكيديين الذين أدخلوا الحصان الى المنطقة ، بل على العكس من ذلك فقد عاشت الجماعتان معا لفترة طويلة •

ويلاحظ الباحثون بان الحصان كان قد أدخل الى منطقة الصحراء بعد وقت قصير من اجتياح الهكسوس الى مصر (19) • وقد وجدت رسوم الحصان موزعة فى كامل المنطقة الصحراوية الممتدة من فزان شرقا حتى موريطانيا غربا • ولم يستعمل الحصان فى بداية الامر للحمل والركوب، بل كانت مهمته لا تتجاوز جر العربات (20) ، وكانت عجلات هذه الاخيرة قد صنعت من المعادن مما يدل على ان سكان المغرب لا سيما الصحراء

18) G. CAMPS, *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara,* Paris 1974, p. 258.

19) مصطفى عبد العليم ، تاريخ ليبيا القديم ، القاهرة 1966 ، ص 31 •

20) شارل أندرى جولئان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، تعريب بشير بن سلامه ، محمد مزالى ، الدار التونسية للطباعة 1969 ، ص 72 •



عربة صحراوية ذات عجلتين ، عثر عليها مرسومة
في وادي جيرات بالتاسيلي - الجزائر -



عربة صحراوية بسائق ، عثر عليها مرسومة بوادى جيرات بالتاسيلى

كانوا قد عرفوا استعمال المعادن قبل مجيء الفنيقيين الى شمال بلاد المغرب · ان صغر حجم العربات الصحراوية ، كما يبدو من رسومها ، جعل الباحثين يستبعدون فكرة استعمال هذه العربات فى نقل البضائع ، وقد يذهب الظن الى انها كانت مخصصة لشخص واحد أو اثنين فقط ·

ومن جهة اخرى فان وجود صور هذه العربات فى مناطق صعبة المسالك يدل على أن استعمالها كان مقتصرا على الجانب الحربى ، ولم تشارك فى الحياة اليومية الاقتصادية قبل تلك التى وجدت رسومها فى مصر وبلاد ما بين النهرين · وتوضح رسوم عربات تامجرت (Tamadjert) بالتاسيلى، بان هذه الاخيرة كانت بسيطة للغاية ، وفى الحقيقة فان افتراض استعمالها للصيد أو الحرب لا زال يحتاج الى شواهد مؤيدة (21) ·

يتجلى لنا من خلال هذه الدراسة بان فن الرسوم الصخرية هو عبارة عن متحف طبيعى يستطيع الباحث من خلال تفحصه لما يحتويه ان يتعرف على التقنية التى استعان بها الفنان القديم فى رسم ونحت صوره تلك · كذلك يمكن ان يتعرف أيضا على نوعية الحياة اليومية التى مارسها الانسان القديم فى المنطقة والتطور الذى تابعه · غير أنه يلاحظ بانه ليس بالامكان ضبط محتوياتها التاريخية فى الوقت الحالى ، وذلك لقصر المعطيات الاثرية الموجودة فى المنطقة والتى يمكن ان تعطى نتائجها المثمرة مع تواصل المجهودات المنظمة وتوجيهها وفقا للنهضة الشاملة التى تشهدها بلادنا فى الوقت الحاضر ·

21) Henri Lhote, *Les gravures rupestres de l'Oued Djerat* (Tassili-N-Ajjer), T. II, Alger 1976, p. 797.


البحر الابيض المتوسط
الجزائر
جبال الاطلس
طرابلس
خليج السيرت الكبير
غدامس
تمبكتو
جاو
تادميكا

الهقـــار والمــرحلة الحـاسمة

د. الجيـلالى صـارى

معهد علـوم الارض
جامعة العلوم والتكنولوجيا
- الجزائر -

نظرا الى موقعه الجغرافى والظروف الطبيعية القاسية التى تسيطر عليه ، ونظرا كذلك الى ثقل ماضيه البعيد والحديث خاصة ، فان الهقار يعد من افقر المناطق بالجزائر وباقى الصحراء الكبرى بعد المناطق المجاورة له غربا مثل التانزوف،اذ أن معظـم السكان لا زالوا محرومين مـن التجهيزات والخدمات العامة الضرورية ، ومما يزيد فى اشتداد وتعقيد المشاكل أيضا هى طول المسافات عبـر اقليم واسع الارجاء ، وصعوبة شق المسالك والطرقات ، زيادة عن تشتت العائلات .

ولكن بالرغم من ذلك،فان مرتفعات الهقار لا تخلو من طاقات كالثروات الباطنيـه والسياحة ، وعملا قبل كل شىء بسياسة التوازن الجهوى مهما كان الثمن والتضحيات ،

وعملا كذلك بسياسة الاخوة والتعاون مع الشعوب المجاورة والصديقة ، فانه قد بذلت مجهودات جبارة خلال السنوات الاخيرة لتوفير أهم شرط لتحقيق تلك المبادىء السامية الا وهو شق الطريق الصحراوى الذى أصبح يربط مدينة تامنغست بباقى الوطـــن منذ 19 جوان 1978 ، كما أنه تبذل أيضا مجهودات أخرى فى ميادين مختلفة تهدف كلها الى فك عزلة المنطقة وتاهبها للخروج من عالم التخلف والظلام الحالك .

وغاية هذا العرض هى ابراز المظهرين ، مظهر التخلف ، وتأهب الهقـار للتحليق وما يتوقع فى الامد القريب .

1 ـ مظاهر التخلف واشتدادها حديثـا :

ان مظاهر التخلف بالهقار كثـيرة ولا تتنج عن الموقع الجغرافى وبـاقى العـوامل الطبيعية فحسب بـل ترجـع أيضا الى العـوامل التاريخية ، وكـذا بعض المميـزات الديموغرافية الحديثة .

1) المظاهر الديموغرافية للتطور :

ان نتائج الاحصاء الاخير تؤكد التطور الحديث (الجدول 1) أى ظاهرة طرد السكان وتجمعهم ببعض المراكز ويتجلى الطرد بوضوح فى كل من بلديتى جنات واليزى اذ أن

1 ـ تطـور السكان 1966 ـ 1977 (1)

البلديات	1966	1977	1966 ـ 1977 عـدد	%	
تامنغست	16.298	23.247	6949	42	(1) لا نستطيع ان نحدد الزيادة بالضبط نظرا الى عـدم وجـود احصائيات سنـة 1966 ، ومهما يكن من أمر فان زيادة سكان عين امنـاس تـرجع الى المنطقـة الصناعية (البترول) .
جنـات }	5841	5319	522 ـ	9	
عين امناس }		4181	(1)		
اليـزى	4000	4632	632	15	المصدر : مصلحة احصاء السكان بالعـاصمة ، وزارة التخطيـط والاستصلاح المجالى .
برج عمر ادريس	1080	1889	809	74	
المجموع	27219	39.268	12049	44	

1) اعتبرنا البلديات الموجودة بالهقـار وهضبة التـاسلى فقط ، أى تقـريبا الحـدود الطبيعية ، واخرجنا منها اقليم التيدكلت (عين صالح) .

النسب قد بلغت على التوالى 9 % و 15 % ومثل هذه النسب بعيدة عن المعدل الوطنى الذى ارتفع الى 40،1 % وبالرغم من تحسن عمليات الاحصاء من 1966 الى 1977 ·

واما نسبة تامنغست التى تقترب من المعدل الوطنى ، وهى 42 % فهى ترجع من دون شك الى نوافد النازحين اليها،وخاصة الى مقر البلدية حيث تعددت مخيمات البؤساء ، بينما ان الزيادة الباهضة التى سجلتها بلدية برج عمر ادريس (74 %) فانه يصعب تحديدها بالضبط فربما يرجع ذلك الى عملية الاحصاء نفسها،اذ أنه من العسير على السكان ان يلتجئوا الى تلك البلدية المحرومة · واما وضعية عين امناس فهى وضعية خاصة ولا يمكن أن تضاف الى المنطقة التى تنتمى اليها نظرا الى انشطتها المتعلقة بالبترول والغاز وانجاز مصنع صغير لتكرير النفط منذ 1974 (000 300 طن) ·

وهكذا وبالرغم من زيادة 12049 نسمة خلال مدة 1966 ـ 1977 فان الاقليم قد كان مسرحا لحركات هجرية،اى طرد السكان من اماكن مختلفة والذين التحقوا ببعض المراكز وخاصة مقر الولاية والمناطق الصناعية على وجه العموم ·

2) عوامـــل التدهـــور :

هناك عوامل تاريخية قديمة وحديثة،فالاولى تتمثل قبل كل شيء فى اختلال نظام حياة الترحل ، واشتداد عزلة الاقليم منذ الاحتلال الاستعمارى (انظر المقالة عن كفاح القهارص ···) اذ أن اقتصاد السكان كان يعتمد بالدرجة الاولى على حياة الترحل ، ولهذه الحياة قاعدتان : الرعي وتجارة القوافل . فالرعي قـد تدهور تدهورا محسوسا اثر انقراض المراعى بينما أن التجارة قد تعرضت الى مشاكل عويصة ، ولا يلاحظ الآن من هذا النشاط الا حركة ضئيلة،هذا وبفضل بعض الاجراءات الادارية التى تمنع كل نقل الملوح بواسطة الشاحنات ·

ولا تشاهد الآن تجارة القوافل الا فى منطقة التاسيلى ، حيث تنتقل الجمال المحملة بالملح مرة فى السنة الى شمال النيجر ، وعددها يقدر بحوالى 3000 ـ 4000 جملا ، وحوالى الخمس من هذا العدد يحمل الملح،وحمولة كل جمل تبلغ حوالى 50 كلغ · وفى العودة ترجع القوافل محملة بالدرة البيضاء التى تكوّن أهم مصدر لتغذيـــة

السكان الا أن ثمـــن هذه المـــادة الاولية قد ارتفـــع كثيرا واصبح يمثل من مـدة 1945 ـ 1950 الى سنة 1971 عشر مرات،ومثل هذه النتيجة تبين الاخطار التى هددت النظام كله ، زيادة على مخلفات الجفاف الشتائى الاخير الذى استغرق من سنـة 1969 الى 1974 بمعظم اقاليم الصحراء الكبرى والساحل والذى ذهب ضحيته عدد كبير من السكان، فضلا عن انقراض قسم كبير من الماشية والبعير .

وكل هذا دفع المواطنين الى الاستقرار والتخلى عن الانشطة التقليديـــة الا أن ظروف الاستقرار غير متوفرة غالبا ، اذ أن أهم عاملها وهو المـاء لاستصلاح الاراضى الزراعية غير متوفر على وجه العموم، بحيث أن الواحة الوحيدة والتي تستحق الذكر لا توجد الا فى جنات ولكن مساحتها محدودة ولا يقدر نخيلها الا بـ 35000 ، ولا تنتج كل نخلة الا حوالى 10 كلغ .

وأما المعطيات الاخرى، فتؤكد ما سبق ، بحيث أن نسبة الامية بالاقليم مرتفعة جدا ، وتكاد تتعمم، لولا المجهودات الحديثة التى تواصلت فى ظروف شاقة، ونفس الملاحظة تتعلق بالصحة، اذ أن كل ما يوجد من تجهيزات الا وانجز اخيرا ولا يتوفر الا فى الاماكن المحظوظة، اى مقر البلديات، واهم التجمعات، نظرا الى اتساع المرتفعات وانعدام المسالك واستقبال الاطارات ...

وهكذا، اشتدت ظروف معيشة السكان بالرغم من قلة الكثافة التى لا تبلغ الا 0,05 شخص بالكلم² ، الا أن زيادة 12049 نسمة فى مدة 1966 ـ 1977 قد أثرت بدورها فى ذلك وكما أنها عززت النزوح الريفى كما تبين بلدية التاسيلى، وأمام هذه الوضعية التى لا تتماشى وأهداف الميثاق الوطنى اتخذت قرارات هامة من أجل تغيير الظروف العامة بالاقليم .

2 ـ تاهب الهقـار للتحليق :

كبقية الاقاليم الاخرى كان مـن الواجب ان يعتنى عنـاية خاصة بمشاكل هـــذا الاقليم، خاصة وأنه يمثل همزة وصل بين التراب الوطنى وعدد من البلدان الافريقية

وتتجلى المجهودات التى بذلت من أجل ذلك فى شق الطريق الصحراوى، واعـــداد برنامج خاص بولاية تامنغست ٠

1 ـ مواصلة تحقيق شق الطريق الصحراوى :

لقد فشلت جميع الاحلام والمشاريع التى شاعت فى بداية القرن العشرين، والتى كانت ترمى الى انجاز طريق حديدى يربط البحر الابيض المتوسط بالنيجر (2)٠ كما أن الدراسات والمداولات التى جرت منذ 1962 فى اطار لجنـة دولية تـابعة لـلامم المتحدة لا زالت تتواصل بدون أن تجد الوسائل المالية لتحقيق المشروع التالى (3) ٠

وكل هذا يبين لنا الظروف والعزيمة التى تم فيها شق القسم الكبير من الطريق الصحراوى داخل التراب الوطنى وبالوسائل المادية والبشرية الوطنية فقط (4) ٠ وبالفعل لقد انطلقت الاشغال فى سنة 1970 ابتداء من مدينة المنيعة (انظر الخريطة) ودشنها الرئيس الراحل يوم 16 سبتمبر 1971، أى ببضعة أشهر من تاميم المحروقات (فيفرى من نفس السنة) وقد تمت أشغال المرحلة الاولى، أى المنيعة ـ عين صالح وطولها 337 كلم فأطلق على المشروع اسم « طريق الوحدة الافريقية » وبعد ذلـك شرع فى المرحلة الثانية وهى عين صالح ـ تامنغست (640 كلم) ٠

وقد شارك فى هذه الاشغال كلها شباب الخدمة الوطنية، أى نخبة الشبيبـة الجزائرية التى دفعت بهذه المناسبة ضريبة العرق، وضحت بدورها من (5) أجل نجاح سياسة التوازن الجهوى وتدعيم العلاقات الاخوية الافريقية ، وبعد خمس سنوات أصبح الطريق المعبد يصل الى مقر ولاية الهقار ، أى تامنغست بعدما دشـن يوم 19 جوان 1978، وهكذا كللت مجهودات الشبيبة بالنجاح وتم انجاز 1000 كلم فى ظروف استثنائية، وقد بلغت التكاليف 420 م د ج ٠ ولولا تدخل وزارة الدفاع بفضـل

2) لتوضيح ذلك انظـر :

(2) Attilo Gaudio : La transsaharienne : un défi au passé, Africa n° 103, août-septembre 1978 ; Industries et Travaux d'Outre-Mer, n° 296, Paris juillet 1978.
(3) L. Blin : Algérie et route transsaharienne, Paris I, IEDES, 2e cycle, juin 1978.
(4) Maghreb-Machrek, Paris n° 82, octobre-décembre 1978, pp. 42-50.

5) فقد ارتفع عدد الضحايا أثناء الاشغال عشرون شابا ٠

وسائلها وعتادها لما كان المبلغ فى هذا المستوى ، ولنستطيع أن نلتمس مزايا هذا الانجاز فى أول وهلة علينا أن نشير الى المقارنة التالية : ففى سنة 1971 أى قبل مجىء الطريق المعبد الى المنيعة،فان ربط الهقار بالساحل بواسطة شاحنات خاصة التجهيز كان يتطلب مدة 12 الى 15 يوما بينما الآن فان المدة قد انخفضت الى ثلاثة أيام فقط ...

وبقيت الآن مواصلة الاشغال لربط تامنغست بعين قزام ، أى بالمركز الموجود بالحدود الجزائرية النيجرية ، وطول هذه المرحلة يقترب من 400 كلم ، ويتوقع تحقيقه فى سنة 1983،وربما يتم ربط الطريق الصحراوى بالطرق المعبدة بالنيجر فى سنة 1985، وأما الفرع الذى سوف يربط المالى فانه لا يتوقع انجازه الا فى آفاق 1990 .

وهكذا وبعد سنوات من العمل والمثابرة والجهد الجهيد أصبح الطريق الصحراوى واقعا محسوسا فى خدمة المواطنين ، وبالاخص سكان الاقليم المحروم الذى عانى من العزلة طويلا .

2) البرنامج الخاص :

فى الواقع خصص برنامجان للجنوب،الاول يرجع الى سنة 1966 وحظيت به ولاية الواحات وهى المقاطعة التى كانت تغطى الجزء الاكبر من الصحراء والمتعلق بالهقار الا أن الاعتمادات المحدودة نسبيا قد خصصت لواحات ورقلة واقليمها،وكذلك للمواصلات فى شمال الولاية . وأما البرنامج الذى حظى به الهقار (6) فهو حديث العهد واعلنت عنه السلطات السياسية بمناسبة تدشين الطريق الصحراوى،أى فى 19 جوان 1979 .

وقد ارتفعت الاعتمادات الخاصة لانجاز وسائل التخزين والتوزيع حوالى مليار من الدنانير، ومثل هذه الوسائل هامة جدا، وستلعب دورا حيويا فى توفير وضمان المواد الضرورية لتغذية السكان ، ونفس المبلغ قد خصص لقطاع السكن لا سيما وأن

6) وكذلك ولاية أدرار ودائرتى تندوف وبنى عباس (ولاية بشار) ، ومجموع السكان المستفيدين يقترب من 300.000 .

البرامج القديمة لم يحقق منها فى السابق الا جزءا قليــــلا نظرا الى انعدام الشروط الاساسية بحيث أنه من ضمن 780 سكنا مبرمجا فى سنة 1975 لم تخص الا 49 ورشة فقط أى بنسبة 6.3 % (7) .

وبالاضافة الى هذه الاعتمادات،فهناك اعتماد آخر يقدر بمليار ونصف من الدنانير يختص بالوحدات الصناعية الصغيرة والمتوسطة،زيادة عن مشاريع كبيرة من بينها مصنع للاسمنت لتغطية حاجيات الاقليم وما يجاوره ، كما أنه تتواصل الاشغـــال لتوسيع شبكة الطرقات واهمها الطريق الذى يربط ورقلة بعـين امناس ، وتـرميم وتوسيع مطار تامنغست ، وتوسيع شبكة المواصلات للراديو والارسال الهاتفى .

وأما الاعتمادات الاخيرة فهى تهتم بقطاع التعليم وقطاع الزراعة والمناجم ، فعلى الاول أن يضاعف المؤسسات من أجل تعميم التعليم تدريجيا لا سيما وأن عدد التلاميذ لا زال منخفضا نسبيا بحيث بلغ فى سنة 1975 ـ 1976 : 6732 من بينهم 1817 بنتا فقط،اى بنسبة 26 % بينما أن عدد المترشحين للشهادة الابتدائية لم يتجاوز 390، ولم ترتفع نسبة الفائزين الا الى 28% اى (182) فقط (8) وان كان هناك مجهود محسوس فى تحقيق برنامج المطاعم المدرسية بحيث ان هذه الاخيرة أصبحت تغذى يوميا عددا أكبر من عدد الاطفال المسجلين بالمدارس ، وعددهم فى نفس السنة (1975 ـ 1976) بلغ 7500 طفلا .

وأما فى القطاع الزراعى فان البرنامج يتضمن سلسلة من العمليات التى تهدف الى استغلال كل الثروات المائية فى الاراضى الصالحة ،بالاضافة الى ترميم القنوات القديمة ، اى الفقارا ، وكذلك تحسين انتاج التمور ، وغرس أشجار مثمرة ، كما تم مثلا غرس مساحة لا بأس بها من التين وغيره .

تلك هى اهم محاور البرنامج الخاص التى تهدف كلها الى تاهب الهقار لخوض المعركة الانمائية الضرورية والحتمية لتجسيد المبادىء التى نص عليها المرجع الاساسى

(7) Annuaire statistique de l'Algérie, Alger 1976, p. 53.
(8) Annuaire statistique de l'Algérie, Alger 1976, p. 82.

لسياستنا . وهل يمكن للباحث ان يتوقع الصعوبات والعقبات اثناء تطبيق المخطط من جهة ، وأن يتوقع أيضا النتائج المنتظرة من جهة أخرى ؟

3) التوقعات والصعوبات :

للظروف الجديدة توقعات وآفاق ينتظرها الجميع بفارغ الصبر ، وبمزيد من التفاؤل وان كانت هناك صعوبات وعقبات كثيرة لابد من التغلب عليها بكل حزم ومثابـرة ومنهجيـة خاصـة .

1) التوقعـــات :

من التوقعات المباشرة لشق الطريق الصحراوى، والمساعدة على تطبيق البرامج المسطرة،ارتفاع التبادلات التجارية،سواء على المستوى الاقليمى أو المستوى القروى وبالفعل فان الاحصائيات الاولى المتوفرة تبرز هذه الظاهرة المهمة،ففى سنة 1975 أى أثناء مواصلة اشغال المرحلة الثانية لشق الطريق الصحراوى بلغ مجموع حجم النقل بولاية تامنراست 58627 ط. ومثل هذا المبلغ يأتى فى الدرجة العاشرة بالنسبة للترتيب الولائى،ولو توفرت احصائيات أحدث من ذلك لادركنا التزايد،ومن أهم ما فى هذا الحجم المواد النفطية التى بلغت 13661 ط. والتى تسجل ارتفاعا محسوسا نظرا الى الحاجيات المتزايدة من جهة ، ووجود مصنع التكرير بعين امناس من جهة أخرى.

ولتتبع تطور النقل البرى واهميته فى التحولات،علينا أن نحلل انشطة الشركة الوطنية للنقل البرى خلال السنوات الماضية أى ابتداء من سنة 1974 بعد ما أصبحت تواصل مهمتها داخل الصحراء لحساب المنظمات الامية فى اطار تزويد المنكوبين بالمواد الغذائية،وكذلك لحساب بعض البلدان المجاورة والقريبة من النيجـــر ، وموريطانيا ، ومالى ، وفولتا العليا ، ونيجيريا خاصة ، فقد اعدت شاحنات خاصة حمولة كل شاحنة تبلغ 20 ط لنقل البضائع المختلفة لصالح شمال نيجيريا ومدة السفر، أى لعبور 3600 كلم،لم تتجاوز 9 أيام فى سنة 1978،بينما ثمن نقل كل كلغ

لا يزيد عن 2 دج (9) . ومثل هذا السعر يخدم مصالح البلد المذكور، وبالتالى يبين مزايا النقل البرى، خاصة وان النقل البحرى يتطلب وقتا طويلا بالنسبة لشمال نيجيريا ، بعدما اصبح ميناء ليقوص يعانى ازمة من أخطر الازمات ، وهى اختناق الميناء ، زيادة عن صعوبة ربط الشمال بالميناء (10) .

ونفس الدور تقوم به الشركة الوطنية فى الناحية الغربية، اذ أنها تربط العاصمة بمدينة ڤاوو بمالى فى ظرف 6 أيام فقط (2700 كلم) . وأما مدة ربط العاصمة بنيامى بالنيجر فهى تبلغ 8 أيام فقط (3150 كلم) ، ومن أجل القيام بهذه المهمة عززت الشركة الوطنية وسائلها اذ أنها تجهزت بـ 700 شاحنة خاصة للنقل البرى الصحراوى، تدعمها سبع وحدات تتوفر فيها كل الخدمات، وهذه الوحدات أسست بأهم المدن بالجنوب، كما أنه ابرمت معاهدات تجارية مع البلدان المعنية بالامر لتدعيم العلاقات التجارية، كما أن الشركة الوطنية للنقل البرى تتعامل مع الشركات الاجنبية مثل الشركة البريطانية Seevar التى كانت فى حاجة فى سنة 1976 الى نقل بضائع من لندن وروتردام بهولاندا الى مدينة كانو بشمال نيجيريا . ومنذ ذلك العهد تعددت العمليات فى مصلحة الجميع وخاصة الجزائر التى تتحصل بهذه الطريقة على توفير العملة الصعبة، ولكن لابد من مواصلة العمل والمجهودات لاستغلال الامكانيات، اذ أن النقل المتواصل لا يتعلق الا باتجاه واحد، وهو الاتجاه الشمالى الجنوبى، ولا يتعلق بنقل البضائع من الجنوب الى الشمال، بينما أن البلدان الجنوبية وهى نجيريا ومالى باستطاعتها ان تصدر انتاجها عبر الطريق الصحراوى، وهذا لا يتحقق الا باعادة النظر فى الانظمة التجارية التى تسيطر عليها الشركات العالمية .

هكذا تتجلى لنا الآفاق فى هذا القطاع الحيوى سواء بالنسبة لاقليم الهقار أو البلدان المجاورة له والقريبة منه، خاصة وأن أراضيها لا تخلو من ثروات باطنية كما بينته التنقيبات والابحاث خلال هذه السنوات الماضية، ففى الهقار تتواصل الاعمال

9) مقابل 4,5 دج للنقل الجوى وان كان هذا الاخير يتطلب وقتا طويلا نظرا الى العمليات الخاصة بالجمارك والادارية .

(10) P. Balta : L'aventure de la transsaharienne, « Le Monde » du 19 mai 1977.

لتحديد المواقع واهمية المناجم التى تم العثور عليها أخيرا فى اطار الابحاث التى أشرفت عليها الشركة الوطنية للابحاث واستغلال المناجم باقليم الهقار بعد ما انجزت محطة خاصة تضم مخبرا بعين ايكر فى سنة 1970 ـ 1971 ومخبـــرا ثانيا (11) بتامنغاست كل واحد منهما يضم تجهيزات حـديثة ومدققة ، الاشغال الاولى تكللت بالنجاح فقد عثر على مواقع تأوى مواد اشعاعية مختلفة تشير اليها الخريطة 2،ومن بينها نذكر الاورانيوم بتمقاوين، والنحاس بتين شفاو فى الشمال الغربى ، والذهب بعين ههـــاو بالقرب مــن المـوقع السابق الذكر، وكذلك بسيلت غـرب تامنغاست ، والدوفران بأقصى الشمال، ومواد أخرى، والغاية من هذه المرحلة الحاسمة دراسة وتحليل ظروف وشروط الانتاج وخاصة الشروط الرئيسية مثل الماء ، فعلى هـذه الثروة يـــ مثلا استغلال منجم تمقاوين للاورانيوم، كما أن تحديد حجم المناجـــم يكون العامل فى استخراج أو عدم استخراج الثروات،ومن المتوقع أن المرحلة الثانية أى مرحلة الاستغلال لا يشرع فيها الا بعد سنة 1980،ومن المحتمل الشروع فى انجاز وحدة للذهب وأخرى للاورانيوم من أجل استعماله كمصدر للطاقة الكهربائية .

وقد نجم عن هذه الانشطة تشغيل عدد لا باس به من السكان عبر الورشات المختلفة، كما أن تعدد هذه الاخيرة كانت وسيلة للتكوين والتجربة بالنسبة للعمال المحترفين والفنيين الذين أتوا من باقى التراب الوطنى، فتعرفوا جميعا على ظروف الاقليم، وأتموا دراستهم النظرية، ونفس الملاحظة تذكر بالنسبة للشبيبة التى حققت ولا تزال تحقق الطريق الصحراوى .

---

11) بالاضافة الى مخبر آخر بسكيكدة،ويضم بومرداس بالقرب من العاصمة مركبا من المخابر العصرية يمثل الاداة الفعالة لتدعيم قطاع المناجم،وكذلك الطاقة (النفط والغاز) أى القطاع الحيوى بالنسبة للصناعة .

وزيادة عن هذه الابحاث ، فان المجهودات تتواصل من أجل توفير الخدمات العامة (12) الضرورية فى مجال الصحة والتعليم والادارة،خاصة وان التقييم الادارى يهدف الى تقريب المواطنين بالادارات،ففى هذا الاطار تم انشاء مركز للتكوين الادارى وقد ضم هـ ا الاخير فى سنتى 1975 ـ 1976 : 54 شابا وثلاث فتيات،ومن دون شك أن هذا العـدد سيرتفع وسيلبى بعض الحاجيـات الاقليمية والمحليـة التى ستتضاعف بـدون انقطاع،نظرا الى متطلبات القطاعات وهنا لابد من الاشارة الى ما سينجز عن هذا العجز.

2 ـ العقبـات :

فاذا كانت هناك عزيمة وسياسة واضحة،واذا كانت هناك نتائج كما يشهد عن ذلك شق الطريق الصحراوى،ومواصلة الابحاث المنجمية،فعلينا أن نلح على المشاكل والصعوبات المختلفة ، كما يمكننا أن نلتمس ذلك فى انجاز حتى ابسط برنامج كبناء مدرسة فكيف يمكن احترام المدة المعينة،اذ أن توفير كل شرط الا وهو مرهون بعوامل كثيرة يصعب على المسؤولين التغلب على العقبات ، وكذلك الأمر بالتجهيزات واستعمال الآلات ، اذ أن الفنيين لا يوجدون ، زيادة عن عدم وجود قطع الغيار . وفى هذه الحالة ندرك أيضا اهمية النقل الجوى ودوره فى تزويد وتموين الاقليم فى أقرب الوقت، ولذا من الضرورى الاعتناء بهذا الميدان وتجنيد كل الطاقات لتعدد الرحلات الجوية بين الاقليم والشمال .

واما الصعوبات الاخرى فانه لا يتغلب عليها الا بواسطة تغيير الاوضاع الراهنة فى مختلف الميادين،وذلك لخلق روح وافكار سليمة تتماشى والسعى الى الامام .

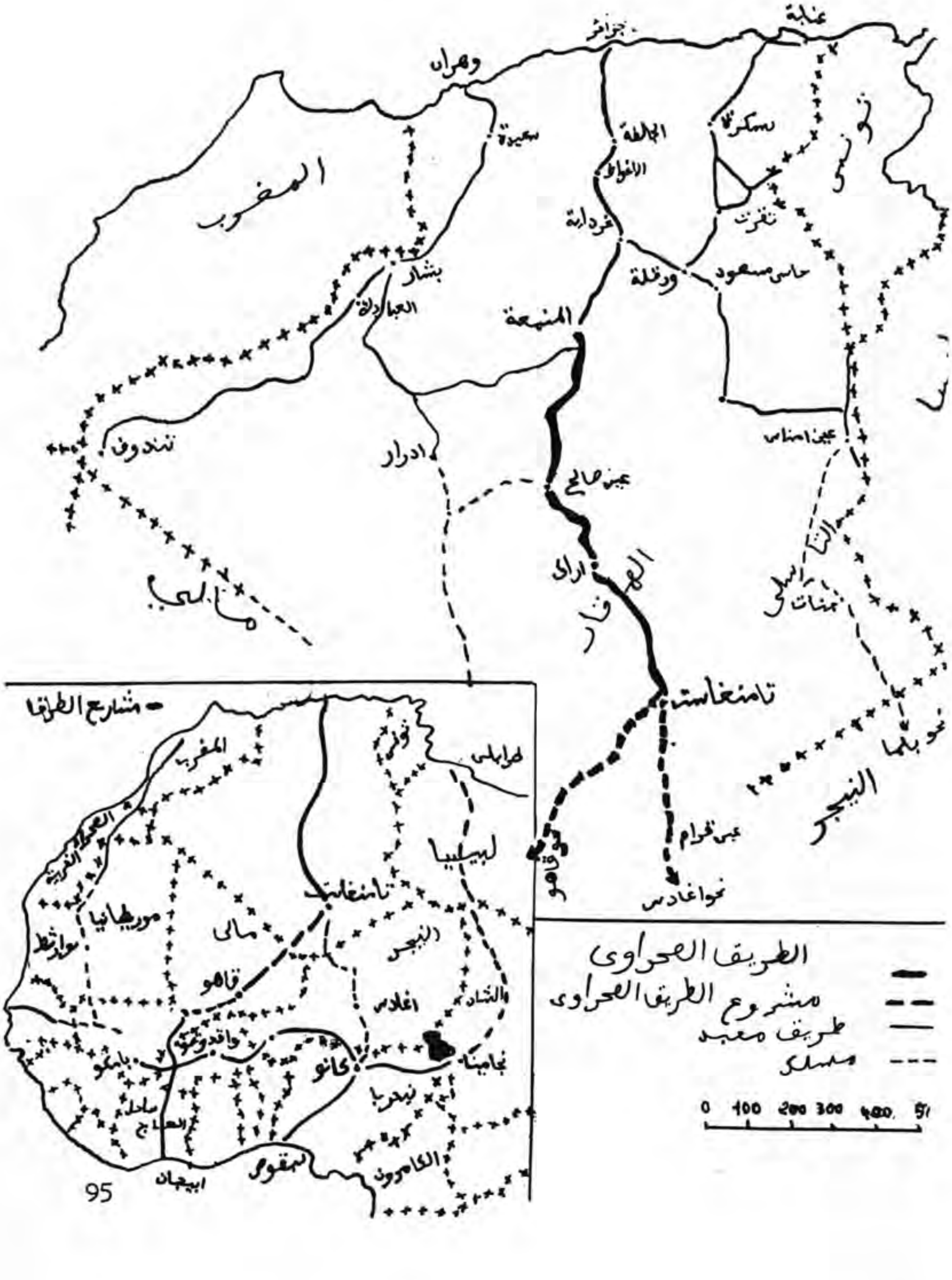
12) علينا أن نشير بهذا الصدد الى دور المواصلات التى اصبحت متوفرة بعد بناء محطة بالاقليم مرتبطة بالمحطات الفضائية فأصبحت تغطى المنطقة ببرامج التلفزة ، كما أنهـا دعمت المراسلات التليفونية وهكذا قفزت هذه الاخيرة من 462000 مراسلة فى سنة 1977 الى مليونين مراسلة فى سنة 1978 اى بنسبة 326 % فى ظرف سنة واحدة فقط . وامـا الخدمات البريدية فقد سجلت نسبة 20 % والعمليات المالية اى الحوالات وما يلحق بهـا كحسابات الصندوق الوطنى للتوفير فقد بلغت 18 % . وهكذا أصبحت مصلحة أقصى الجنوب مجهزة بأحدث التجهيزات العصرية الا أنها لا زالت تشكو من قلة الفنيين ..

الخـــلاصـــة :

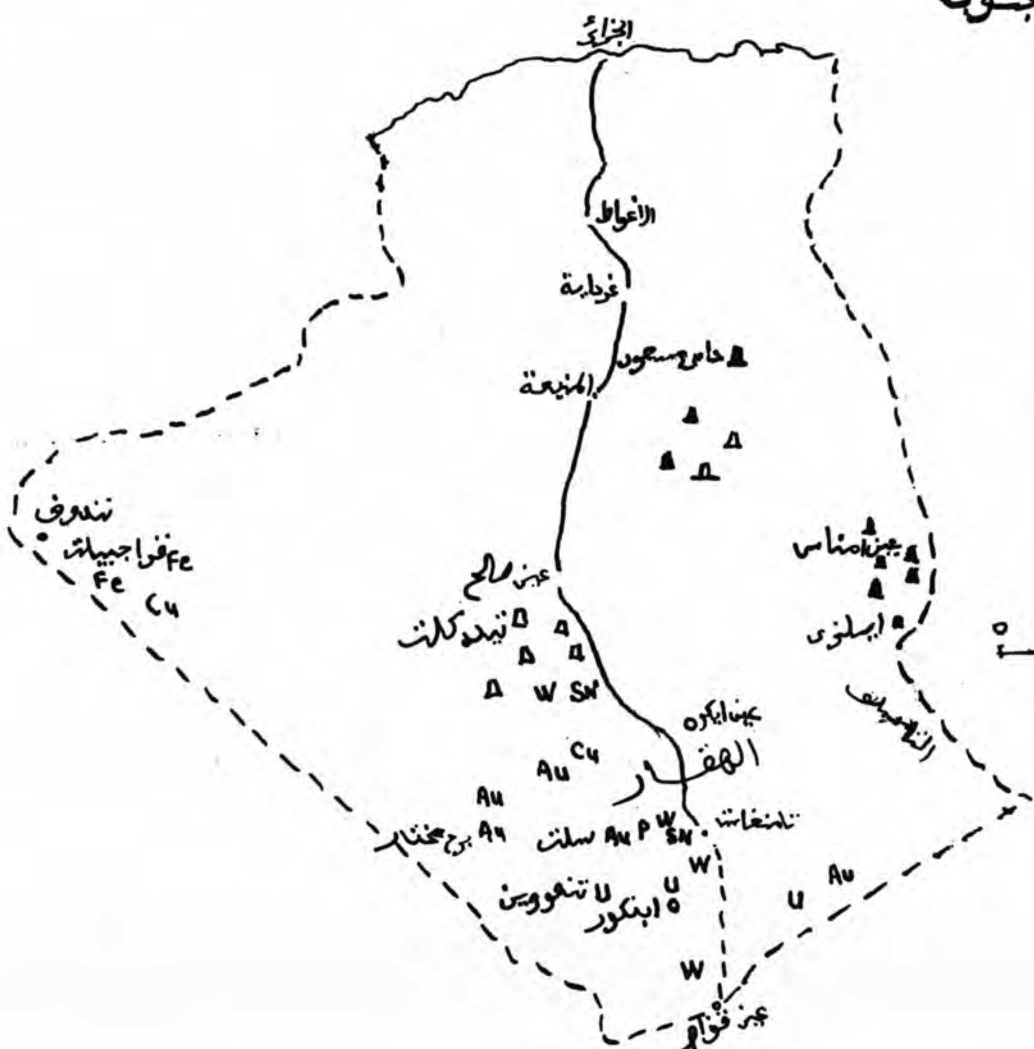
أوضح هذا التحليل الموجز المرحلة الحاسمة التى تمر بها احـدى الاقاليم اكثـــر تخلفا وعزلة وحرمانا بالتراب الوطنى، وان كان بالماضى البعيد، وخاصة قبيل الاحتلال الفرنسى لايشكو من قلة الموارد التى وفرتها التبادلات والتى لـــم يبـــق منها الآن تقريبا شىء، بل ظهرت هناك ظواهر خطيرة حديثا، فهددت حيـاة العديد مـن السكان واطردتهم من اماكن كثيرة كما تبينه الاحصائيات الديموغرافية بالـرغم مـن التزايد الطبيعى الذى أثر بدوره على المستوى العام ٠

وأمام هذه الوضعية وبالضبط قبل تدهورها اعتنت السلطات بهذه المشاكل المتعقدة وشرعت فى توفير الشروط الضرورية الرئيسية التى من الممكن ان تمهـد طريق الانطلاقة كما يشهد عن ذلك كل المجهودات التى تجسدت فى شق الطريق الصحراوى الرابط الآن ومنذ 1978 تامنغاست بالشمال، وكذلك المجهودات الاخرى المتعلقة سواء بالابحاث المنجمية أو البرنامج الخاص الذى يهدف الى تأهب الاقليم لخوض المعركة فى الميادين المختلفة وان كان الطريق شاقا وطويلا وفى حاجة الى تجنيد طاقات متعددة بدون انقطاع ٠

1- الطريق الصحراوي



2-المناجم بالجنوب



▲ النفط
△ الغاز

Fe الحديد
Cu النحاس
Au الذهب
P الفسفات
SN ايتان
W الوولفران

0 100 200 300 400 500 كلم

N°73-74 1979

فهـــرس العـــدد

اليـــوم الخـالـــد

بســم اللــه الرحمـــن الرحيــم

محمــد نسيــب

ان الذكرى الخامسة والعشرين لاندلاع ثورة نوفمبر الخالدة يجب ان تضيء طريقنا وتجد عمدنا وتشحذ عزائمنا ، وتقوى أواصرنا ، وتجمع كلمتــنا ، وتوحد صفــوفنا ، وتيقــظ نيــامنا .

ان أول نوفمبر يذكرنا بعهد الاستعمار ولياليه الحالكة الموحشة... ومهما يكن من أمر ، فمن الذكريات ما لا يمكن ان يمحوه الزمان ... من يا ترى ينسى كفاحنا المرير الطويل فى مختلف مراحله واشكالــه ، وما حفل به من بطولات وتضحيات ـ وما ذاق فيه الشعب الجزائــرى من حرمان واضطهاد ونفى وتشريد ..

ومن يا ترى ينسى مليونا ونصف مليون شهيد وما تركوا من ارامل وأيتـــام .

من يا ترى ينسى الجراح وما جادت به المآقى من دموع ، وما قدمه الشعب من دماء ، وما ضربه من امثلة فى البطولة والفداء ... من أجـل الجزائر الحرة ، والقضاء على عهد الجهـــل والحرمـــان والاستعبـاد والاستغلال ...

فى مثل هذا الشهر الاغر من عام 1954 انفجر بركان الثورة ، ثورة التحريـر والتغيـير .

لقـد كنـا نـزرع والاجنبى يحصـد .

وكنـا نغـرس والاجنـبى يجـنى .

وكنا نشقى ونتألم وهو ينعم ويتلذذ ، وكانت حياتنا قبل ثـورة نوفمبر الخالدة تشبه حياة الجمل الذى يحمل الماء على ظهره وهو يموت عطشا حتى جاءت ثورة نوفمبر فغيرت الاوضاع وصححت المفاهيم .

لقد صيرت ثورة نوفمبر الضعيف قويا والذليل عزيزا والعبد حرا والاسير طليقا والخادم المطيع ثائرا متمردا ، وصوت الاحرار يمـــلأ الفضـــاء ، ونداء الجهاد يرن فى الآذان ، والشعب يصـــرخ فى وجـه الاستعمـــار :

أين المفر ؟ هذا يومك يا عدو البشر .

وبركان الغضب يغلى ويفور فى كل صدر

والشعب يزحف ويتقدم الى الامام بخطى ثابتة ليصافـــح الموت ويعانق اللهب المشتعل، اذ كان أفراده يتزاحمون على الموت أمام الشدائد فابتسمت لهم الدنيا ، وطلبوا الموت لتوهب لهم الحياة

هذا نور الامل ينبثق فى كل جبين ، وشعاع الايمان ينبعث من القلوب المؤمنة يبدد ظلام اليأس والشكوك ويعلن عن نهاية الاقطاع والاستغلال والاستعباد وزوال الاستعمار ، والفرحة تغمر الوجوه ، والابتسامات تطفو على الثغور ، وبشائر النصر تبدو فى الافق ، وتعلن عن انبثاق الفجر السعيد وأفراح العهد الجديد .

ان الذى يجب ان نتذكره دائما هو الطاقات الروحية التى تستمدها الشعوب من مثلها العليا النابعة من دينها السماوى ومن تراثها الحضارى قادرة على صنع المعجزات .

إن الطاقات الروحية للشعوب تستطيع ان تمنح آمالها الكبيرة اعظم القوى الدافعة ، كما انها تسلحها بدرع من الصبر والشجاعة .

لقد تعلمنا هذا من تاريخنا الاسلامى المجيد الذى سجله اسلافنا الابطال بحروف من النور فى جميع الميادين والعصور ، وتعلمنا ان النصر دائما حليف المؤمنين أصحاب العقائد والقيم والمبادىء وأصحاب الصبر والثبات والصمود .

لقد شاهدنا هذا ولمسناه فى ثورتنا التحريرية . لقد احترقت الارض ولم يحترق الشعب ، وزحزحت الجبال ولم يتزحزح هذا الشعب المؤمن .

ان ثورتنا كانت صاعقة من نار على الذين يحاولون ابتلاعنا ، وطمس آثارنا ، وتحطيم كياننا ، وتشويه ثقافتنا ومسخ شخصيتنا وانكار وجودنا .

اننا أمة لها حضارة عريقة وتاريخ طويل تمتد جذوره فى أعماق الزمان وبه استطاع الشعب الجزائرى ان يتغلب على فرنسا المستعمرة وأحلافها ، لانه كان يحارب بايمان وعقيدة .

لقد سجل بدماء ابنائه صفحات من أروع صفحات تاريخنا المعاصر، وكان مؤمنا بحتمية انتصار الثورة لانها تعبير حقيقى عن ارادة شعب قرر انتزاع حريته واستقلاله من أيدى غاصبيه بفضل قوافل الشهداء الذين كانت اخلاقهم عفة ، وبطولة ، وصدقا ووفاء ، وشهامة وايثارا ، واقداما ونكرانا للذات .

يا شهداء نوفمبر لكم فى كل قلب قبر ، انكم مدفونون فى القلوب لا فى القبور ، ولكم فى كل تاريخ صفحة ، وفى كل سنة ذكرى ، وفى كل قرية رمز ، وفى كل شارع اسم ، وفى كل ميدان تذكار ، وفى كل درب قصة يحكيها الآباء للابناء والأحفاد ويرويها الزمان للاجيال تلـو الاجيـــال !

الجانب الاخلاقى والاجتماعى
فى ثورة أول نوفمبر 1954

يوسف يعلاوى
الامين العام للمنظمة الوطنية
للمجاهدين



ان الذى يستعرض مراحل ثـــورة نوفمبر 1954 ويحاول الالمام بجوانبها الهامة مفصلة ، لا شـك انـه سيتعثر دون تحقيق غايته المنشودة .

ولا يستطيع ، بالتالى ، ان يعطى جانبا واحدا منها ما يستحقه من التدقيق والتمحيص .

ولكن الواجب يقضى ، وفى كل مناسبة ، اضافة بعض من التفصيل وبعض من الايضاح واضافة عينات – على قصرها وتواضعها – تأتى نابعة من أعماق الذكريات ، وحضورا فى التاريخ لا زال يمضى شلالا ، ليكون الضمير الحى لهذه الامة ونبراسها فى العمل الدؤوب ... ومكانا لها فوق الشمس .

واذا كانت كـــل جوانب ثورتنا الخالدة ودقائقها : هامة وحاضرة ، فـان جانبها الاخلاقى والاجتماعى يحتم الابراز والتسجيل لما أولته الثورة من عناية فاقـــت كـل تقدير ، ولكونه الحافز الاسمى الذى الهم النفوس لتتحول آلام هذا الشعب آمالا وحقيقة.

ولانه عنصر رئيسى حفظ ويحفظ الثورة من الميوع والانحراف ·

وليس من المبالغة فى شيء القول : بأن وجود هذا العنصر (الاخلاق) هـو الذى جلب للثورة ورجالها الثقة والتصميم المطلقين فى نكران الذات ، وهو الذى جعل من الشعب الجزائرى رجلا واحدا · ينصهر فى الثورة ، مستميتا من أجل تعزيزها ، والسير من ورائها ·· وبذل اغلى ما يملك من نفس ونفيس ·· ومال وبنين حتى يتم انتصارها ·

وكانت ارادته من ارادة الله ، وكانت عبره ومآثره ما نذكر به الآن ، ونحن نوثق ارتباطنا بالماضى ، لنثب فى حاضرنا الجلى وبكل حماس ، نحو مستقبل زاهر أكيد ·

لقد اعلنت الثورة فى بيانها الاول عن مبادئها الاساسية التى حثت الشعب عـلى احترامها والعمل الجماعى من أجل تحقيقها وغرسها فى نفوس المواطنين ، فكان من أول أهدافها ـ كما جاء فى البيان ـ :

(أن تقام ، من جديد ، دولة جزائرية ذات سيادة ديمقراطية واجتماعية فى اطـار المبادىء الاسلامية) ·

وفعلا ، فان الوضوح الكامل الذى حصحص أبعاد الثورة ، جعل الشعب الجزائرى يدرك مبكرا حقيقتها والاسس التى ارتكزت عليها كبرنامج وكهدف واجب التحقيق ·

ولم تكن هذه الابعاد وهذه الاهداف سوى الوحدة الوطنية ، والتى طالما عمـــل الاستعمار بحقد واجتهاد محكمين على تمزيقها :

ـ بابادة ونهب وحجز الامة والمجتمع فى الجزائر وتدميرها تدميرا منظما ·

ـ وبتصنيف أبنـاء الشعب الجزائرى الواحد الى فئـــات متضاربة ·· متطاحنة متنـافرة ·

كما ان هذه الابعاد وهذه الاهداف لم تكن : غير التعبير الصريح للمجتمع الجزائرى ، ليندفع باتقان ـ وبحثا عن الذات ـ وشخصيته العربية الاسلامية ، محاربة فى نفس الوقت ، وبنفس قوة السلاح ، أسباب الاستيلاب والذوبان ، وجذور الآفات الاجتماعية والانحلال فى شتى أقنعته ومظاهره ·

وباختصار ، فان الامر يتعلق بحفظ البقاء الكريم العزيز ، بضريبة الدم ، لشعب يريد انتصار المبادىء التى تخدم الحق والعدل والرخاء ٠

ادرك ، الشعب الجزائرى جيدا ان الامر جد وعمل وانها ثورة حتى النصر ٠

وكيف لا يتسنى لها ذلك ، وقد جمعت الوسائل والشروط التى تضمن لها النجاح.

كما عرف انها لم تكن حركة فئة أو جهة أو قبيلة محدودة ومعينة ، ولكنها الارادة الجماعية النزيهة المنظمة ، والوضوح المذهبى الجلى الغاية والوسائل : تجسد فى اتحاد شعب مسلم ، تحرك بعد ان كره عيش الذل والهوان ، وفهم فهما سليما قوله عز وجل : **(انما المؤمنون اخوة) و (ان اللــه يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص) ٠**

وهذا بالذات ، ما يفسر العطف التلقائى والتجاوب العميق اللذين لقيتهما الثورة لدى مختلف فئات هذا الشعب العظيم ، ولدى جل الهيئات الشعبية فى العالم الاسلامى وفى مشرق الوطن العربى ومغربه ٠٠ وأمواج أنصار السلام قاطبة ٠

كما تفهم الشعب الجزائرى : ان الخناق العام الذى فرض عليه فى كل الميادين ، وعزلته التامة عن العالم ، والغربة الموحشة التى وضعه الاستعمار فيها ، قد آن الاوان ليخرج منها نهائيا بفضل ابنائه الثــوار ، ورجاله المجاهدين الذين حققــوا المعجــزة بقطعهم احابيل اليأس والقنوط والجمود ، وزرعهم فى نفوس المواطنين بذور الغــيرة والامل والحماس ٠

فأشعلوها ثورة على الاستعمار والخونة ، عجز المستعمر عن اطفائها واخماد جذوتها ، رغم استعماله لكل وسائل الترغيب والترهيب ٠

ان أولئك الرجال قلة فى عددهم ، ولكنهم أمة فى ارتفاع معنوياتهم ، وفى شجاعتهم واخلاصهم وتفانيهم ٠

تسلحوا بسلاح الايمان بالله والوطن ، فكانوا مثالا فى التفكير العبقرى والسلوك الانسانى والنموذج الاخلاقى القويم الشىء الذى جعلهم يندفعون فى أجيــج اللهيب المقدس ، لهيب الحرب التحريرية ٠٠ يشقون للجزائر طريق المستقبل الزاهر ، طريق

الانتصار على الظلم والجبروت ، طريقا تكشف للشعب ذاته وتاريخه التليد واصالته الحقيقية ، طريقا يمضي فيه زاحفا لمحو عار احتلال وطنـــه ··· وليقضي على أسطورة واحلام المستعمر الفرنسي الغاشم ، حين اعتبر في نص دستوره (ان الجـزائر أرض فرنسية ، وان العربية لغة أجنبية ، وان الدين الاسلامي تخضع مساجده ومؤسساته للحكومة · ولا يتمتع بما تتمتع بـه المسيحية واليهودية من حرية ومساعدة) · حتى بطاقة التعريف تشهد بان الجزائري « فرنسي » قبل كل شيء ، ثم « مسـلم » ان أراد الاستعمار ·

لكن المجاهدين الجزائريين قبل ان يرفعوا السلاح ويحملوا البنادق ، كانت قلوبهم وعقولهم ، مفعمة بالرد المفحم المقنع والفاصل للامام عبد الحميد بن باديس (الاسـلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا) ، مفندا بذلك ادعاءات ودسائس الفرنسيين المستعمرين ، والتي دونتها أياديهم الظالمة في قوانين واهية مزيفة ·

فكانت تلك عظمـة وايمـان الشيخ الامـام ، وذلك كان ايمانا وغايـة للمجاهدين الابطال · وما سيطرتهم التـامة في ميـــدان القتال ، والهزائم النكراء المتتالية التي ألحقوها بالاستعمار ، سوى دروس مثالية لتسفيه وتعرية عديمي الاخلاق من الطغـاة الجناة الذين حنطوا الانسان في تاريخ من السواد والدماء !

ولولا ان كانت الثورة العارمة اخلاقا وانضباطا لما حققت على ايدي المجاهدين مـا حققته من انتصار واسترجاع لسيادتهم وكرامتهم وعزة دينهم ووطنهم ولغتهم ·

فكنت تجد سلوك المسؤول الاول والجندي البسيط واحدا ، وكان من الصعب عليك ان تفرق بين هذا وذاك حتى في المآكل والملبس وأداء الواجب ، فلا امتياز لاحد على أحد ، وليست هناك حظوظ احد على الآخر ·

بل ، ما يمكنك معرفته حقا : ان المسؤول يتقدم الصفوف عند الشدائد ، ويتـأخر كثيرا بعد ذلك ، مسخرا ذاته وراحته من أجل اخوانه ·

ان القانون الداخلي للثورة التحريرية كان يطبق بصرامة وديمقراطية وعدالة على الضابط والجندي والمدني ·

واذا كان نظام الثورة قد يتسامح فى الاخطاء البسيطة التى لا تضر المجتمع ولا تمس الثورة كنظام ، فانه لم يكن ليجيز أو يتسامح لاى خرق للمبادىء أو أى اخلال بتماسك وحرمة الاسرة والمجتمع ، من فساد فى الاخلاق وخيانة للامانة ونهب لاموال الثـورة والشعب · وهكذا ، فبحجم خطورة الاخطاء المرتكبة تكون العقوبة من سجن لمـدد مختلفة الى حكم بالاعدام ·

ولعل القارىء الكريم يتشوق الى سرد بعض الامثلة التى تبرهن عن جدية الثورة وتأثيرها وتوفر العناصر الايجابية فيها ، والتى اتذكر من بينها هذه الاحداث :

الحادثة الاولى : (الولاية الثالثة سنة 1960) · أقيـم المجلس العسكرى لمحاكمة أحد الضباط يدعى (سى عمر فاقر) وكان موضوع القضية الزنى ·

قال رحمه الله أمام المجلس : « انى أشعر بفداحة ما اقترفته ، وسوف أكون أكثر اطمئنانا بنزاهة الثورة وقوتها اذا طبق على قانون العقوبة الصارم ، والذى هو الاعدام».

الحادثة الثانية : الولاية الثالثة 1960) : وهى التى جمعت بين ثلاثة مـن جنود جيش التحرير ، ظهر منهم نوع من الفشل · بدأ فى خروجهم عـن النظام ، فصاروا يتنقلون فى أوساط المدنيين ويستعملون أساليب غير نظامية فى أخذ الاموال ·

فحكمت المحكمة العسكرية التى نصبت فى شأنهم بالاعدام عـلى واحـد منهم ، وتعيين الآخرين فى مناطق أخرى ·

حـدث هذا فى أول اتصـال بـين الوفودين الجزائرى والفرنسى فى مفاوضات « مولان » ، الامر الذى أدى باحد أعضاء المحكمة اثناء المداولة الى القول ·

« لعـل هذه المناسبة المبشرة بقرب الاستقلال ، تتطلب تخفيف الحـكم عليهم » فأجابه الآخر (من أعضاء المحكمة) :

« ان قوانين الثورة ومواقفها لا تسمح لنا بالتهاون فى تطبيقها حتى آخـر دقيقة من الحرب التحريرية ، والتى ربما تتغير فيها مهامنا كما تتغـير فيهـا هذه القوانين وهذه المواقف » ·

اما الحادثة الاخرى ، والتى وقعت فى الولاية الاولى سنة 1958 فكانت كالآتى :
جاء المسبلون بأمرأتين جزائريتين الى المركز الذى يتواجد به جيش التحرير ، بعد ان شوهدتا مع رجلين أجنبيين داخل سيارة ـ جنوب مدينة سطيف ـ متلبستين بالسكر والاختلاط غير الشرعى (وقد فر الاجنبيان بالسيارة) •

جاؤوا بالمرأتين ، وبعد البحث والبث فى القضية ، وقع الحكم بالاعدام على واحدة منهما •• ولحظة تنفيذ الحكم عليها •• التفتت لتقول :

ـ يا عمار انى جزائرية ، فأجابها الجندى المنفذ :

ـ انت كذلك فعلا ، ولكنك جزائرية « سفيهة » ، جزائرية مريضة •• ولهذا أوجب استئصالك عن هذا الجسم الطاهر السليم ••• عن المجتمع الجزائرى الشامخ العظيم •

وبعد ، فان العديد من الامثلة والمواقف والاحداث من ثورة نوفمبر 1954 ، لا زالت حاضرة وتتطلب الوقوف والدراسة والبيان لتغدق على أجيالنا الصاعدة ، ينابيع هى تاج الصفاء والخلود •

الدرس المستفاد
من ثورة الجهاد

د. أحمد بن نعمان



اذا كان من الطبيعي ، بل ومن المطلوب ان تفتخر الامم والشعوب بأمجادها الخالدة ، وتحيي ذهراها السنوية ، والمائوية ، عبر الزمان والمكان ، لنقل مفاخر الآباء ، والاجداد ، لاعيان الاولاد والاحفاد ، ووصل السلف بالخلف ...

فانه لا ينبغي ان يكتفي في مثل تلك الاعياد السعيدة بتنظيف الشوارع وانارة الطرقات ، وزكشة الميادين بأشكال وألوان من الاعلام واللافتات ... لتزول بعد أيام وتعود الشوارع الى دكنتها ، وتظل القلوب والعقول على حالها ، بل الواجب على الامة الخليقة بتلك الامجاد والمآثر ، أن تتخذ من مثل هذه الاعياد عبرة للاقتداء ، ومناسبة للتذكر والتدبر ، ومحطة لتنظيف القلوب ، وتنوير العقول ، قبل انارة الشوارع ، وتنظيف الشرفات ، لان من يكن ذا قلب مريض أو فم مر يجد مرا به الماء الزلال ، (على رأى أبي الطيب المتنبي) ومن يكن ذا نفس مشرقة جميلة مؤمنة يرى الوجود جميلا ، ولو كان مضاء بالقناديل الزيتية ...

فالعبرة ـ اذن ـ هى مراجعة الجواهر قبل تغيير الاعراض ••• ومن غير الطبيعى الا يتعثر الكائن الانسانى فى سعيه الحثيث من أجل حياة أفضل ، لان الذى لا يتعثر هو الذى لا يسير أو لا يتحرك . والذى لا يتحرك يعتبر ميتا ، لان الموت سكوت . والحياة حركة ، والحركة فعل ، والفعل عمل ، والعمل المنظم الهادف هو ضمان الحياة السعيدة والكريمة • والذى لا يخطىء هو الذى لا يعمل •••

فمن هنا كانت المراجعة واجبة ، لان العامل متعرض للخطا ، والسارى متعرض للضلال ، والخطأ المضر هو الذى لا يصحح ، ولا يتدارك قبل فوات الاوان ، والضلال المضيع هو الذى لا يراجع صاحبه خط سيره على ضوء مبدا المراجعة ، ولا أقول التراجع (•••) لان التراجع قد يعنى أن البداية لم تكن صحيحة ، أو بعبارة أخرى لم تكن مبدئية (•••) أما المراجعة فتعنى ان البداية سليمة ومبدئية ، غير أن احتمال ما يمكن أن يتخلل الانجاز من انحرافات استوجب ظهور مبدأ المراجعة ، وهو المنهج الواقعى السليم ، الذى يقره العقل الناضج • وقد أكده . بل وطبقه ابو الفلاسفة الحديثة (رونى ديكارت 1596 ـ 1650) •

فمن هذه الحيثيات سيكون حديثنا منصبا على المراجعة وليس على التراجع ، خاصة ، واننا نرفع شعار الثورة المستمرة ، ونؤكد ايماننا دوما ، بأن لنا بداية صحيحة ، ومنهجا مستقيما ، ومبدءا ثابتا •••

فهذا يجعلنا ملتزمين أكثر بمراجعة الحاضر المتطور فى ضوء الماضى الذى نعتز بذكراه ، ونحاول أن نعى مغزاه ، ونصل عراه ، لان الزمان ، اذا كان غير الزمان ، فالانسان بجوهره الخلاق ، هو الانسان • واذا كان لنا ان نقف عند أبرز ما يتعين علينا مراجعة حاضرنا فيه على ضوء ثورة الجهاد ، فهو : **ضرورة توفر الايمان وتلازمه مع العمل •**

فالايمان والعمل من التكامل فى الحياة • بحيث يكونان وجهين لعلة واحدة ، وهما اشبه فى ضرورة التلازم بالقطب السالب ، والقطب الموجب فى الطاقة الكهربائية ، حيث ان ملايين الاقطاب السالبة أو الموجبة منعزلة بعضها عن بعض ، لا تحدث طاقة تذكر (•••) بينما يحدثها التقاء قطبين اثنين ، من الاقطاب السالبة والموجبة ••• فكذلك بالضبط يكون الايمان والعمل . على اننا نلاحظ انهما يذهبان ضحية تباين

الادراك ، وضعفه احيانا ، لدى الافراد والجماعات ، حيث يهتم بعضهم بالعمل وحده ، وبعد الايمان فى الغيبيات ، ويهتم البعض الآخر بالايمان وحده ، ويترك العمل للآلات ، ولا يهتم الفريق الثالث لا بهذا ولا بذاك · فى حين ان العلم يثبت لنا ان الايمان عملية وجدانية فكرية تحدث داخـل العقل بفعـل عوامل نفسية وفزيولوجية معينة ··· والعمل هو الشكل الخارجى لذلك الايمان الباطنى ، كما برهن عـلى ذلك السلوكيون الذين يرون ان كل فعل ارادى يقوم به الانسان ناتـج عن دوافع نفسية كامنـة فى الخفاء (···)

ولذلك كان الايمان بدون عمل هو جوهر محظ ، أى جوهر بدون عرض (ان صح هذا الاستعمال) ، أو هو اشبه بنفط متواجد فى باطن أرض يطبخ إصحابها بالهشم ، وينيرون خيامهم بالفوانيس السحرية ، أو الزيتية (!!)

واذا كان العلم يثبت لنـا العلاقة العضوية عند الاسوياء بين العقل والعضلات ، فكذلك تكون العلاقة فى حياة الاسوياء بين الايمان والعمل · حيث ان العضلات مجرد آلة انسانها هو العقل ، باعتباره الآمر الناهى ، والعقل السليم لا يستمد القدرة عـلى اعطاء الاوامر ، الا بقدر ما يكون مقتنعا بفائدة العمل الذى يأمر به العضلات ···

وانطلاقا من هذه المسلمة نأتى الى التطبيق فى حياتنا العملية الجماعية ، التى يهمنا ان تسير فى توازن دقيق بين جميع عناصرها دون افراط ولا تفريط ···

ولعل أقوى دليل (نصى) لنا فى ذلك هو الحديث الشريف القائل : « انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرء ما نوى ··· » حيث نستنتج بالضرورة ان الاساس فى كـل عمل هو النية التى تكون لدينا فى أذهاننا (بقطع النظر عـن نوعيتها أو مضمونها) والتى تكون الدافع للقيام بذلك العمل ···

ولئن كانت النية أو الفكرة سابقة بالضرورة عن العمل الارادى ، ايا كان نوعه ، كما نرى (···) فان الايمان سابق بالضرورة على النيـة ذاتها ، لانه هو مولدها فى النفوس ، ومفجرها فى العضلات ···

فالايمان هو الذى يولد النية لدى الشخص ليستشهد فى سبيل الله والوطن ، أو يموت من أجل الخير والحق والحرية ، وهو الذى يدفع الفرد ليعمل بجد ومثابرة فى المصنع والمزرعة ، والمدرسة ، والادارة ، ويشيد الحضارات ، ويغزو الفضاء ، ويرود المحيطات ...

ومن هنا يمكن القول بأن أى خلل يصيب سير الحياة المثلى لاى مجتمع ، أو أمة ، يعود فى بعضه ، أو كله ، الى عدم التوازن بين الايمان والعمل ، فاما ان يوجد ايمان ينقصه العمل ، وهو جمود وركود ، واجحاف لحق الجسد على الروح ، واما عمل (شبه ـ لا ارادى) مفروض على الافراد لتلبية الضرورات البيولوجية ، دون ان يقتنعوا به ، وهو عمل دون ايمان ودون هدف ، وبالتالى هو اشبه بانتاج الحيوانات الالة الجامدة التى تحتاج الى انسان يصونها ويصلحها عندما تعطل !!

واقصد بالايمان هنا : الاقتناع بمبدأ ، أو فكرة ، مستمدة من وحى سماوى ، أو عقيدة وضعية ، كما أقصد بالعمل الحركة الهادفة الملتزمة التى تدخل فى نطاق المنظور الاسلامى للعمل (كقيمة) فى الدنيا ، كالعيش أبدا ، ووسيلة للتزود الى الآخرة كالموت غدا (...)

وكأنى بالذين يكتفون بالايمان دون تجسيده بالعمل الصالح للدنيا ، والاخرى ... قد فهموا من الحديث القائل بأن الاعمال بالنيات ... انه يكفى ان ينوى المرء الاستقلال والتحرر ... قد استقل وتحرر ... أو ينوى بناء مسجد أو معمل ، أو ينوى التعليم قد أصبح عالما (!)

فهذا الفهم لسنة الحياة المثلى يخطئه الواقع المعاش لثورة الجهاد التى نراجع واقعنا على ضوء حقائقها الثابتة ... كما يخطىء واقعها ـ أيضا ـ من يفرغ الانسان من بعده الخلاق ، البعد الروحى ، والطاقة المعنوية الجبارة ... وينتظر منه الاخلاص والتفانى فى العمل من أجل تحقيق الاستقلال الاقتصادى والثقافى ، والخروج بالامة من الدائرة الحضارية للعالم الثالث .

فمن واقع ثورة الجهاد نؤكد انه لا الاول يجعل من ايمانه واقعا ملموسا دون جهاد باليد قبل اللسان ، والنوايا الطيبة ، ولا الثانى يضمن لاعماله (الآلية أو اللا ارادية)

مقومات الاستمرارية والفعالية والنجاح · لان العمل بدون دافع ايمانى سام ـ كما رأينا ـ هو سلوك حيوانى لا يتعدى (فى أحسن الظروف) اشباع الحاجات البيولوجية للانسان . فى حين ان الانسان كما **نعتقد** هو جسد وروح ، وعقل وعضلات ، وقوام حياته المثلى هو الايمان والعمل ·

وما دمنا نتحدث من وحى الذكرى عن تلازم الايمان مع العمل ، فلا نجد بدا من الوفاء بحق القارىء علينا ، فى الاستشهاد ببعض النماذج المعاشة فى تلك الليالى المضيئة ·

ولعل أبرز ما يفرض نفسه على الذاكرة بقوة ، هو ذلك التكامل والتلازم بين الايمان والعمل ، الذى يصعب على ابرع الكتاب قلما ان يصفه لابناء اليوم ، كما يعسر على اخصب ابناء هذا الجيل خيالا ان يتصور حقيقة ذلك الواقع المثالى ·

فهل يمكن لشخص اليوم ان يصدق بسهولة أن مجاهدا (وعددهم بالعشرات والمئات) يتطوع لتنفيذ حكم الاعدام فى أقرب وأعز الناس اليه (كالام ، أو الاب ، أو الاخ ، أو الاخت) ؟ أعتقد أن من يصدق بأن هذا الاجراء كان يحصل بكيفية اعتيادية على طول مراحل ثورة الجهاد ··· لا يتردد فى أن يتهم هؤلاء المجاهدين (على أقل تقدير) بأنهم قساة ، أو غير أسوياء · والحقيقة انهم كانوا قمة فى الاعتدال ، والتقوى والشفقة ، والتواضع أمام ما آمنوا بانه الحق ··· وليس الا ذلك الايمان المتأصل فى نفوسهم هو الذى جعلهم يحكمون العقل ، والمبدأ ، قبل العاطفة والمصلحة الانانية ، وبالتالى صيرهم فى نظر بعضنا اليوم بأنهم غير عاديين · ولكن هذا الالهام فى محله ، اذا نظرنا اليه بمنظور اليوم حيث أن الآية قد انعكست فى نظر هذا البعض (···)

وصورة أخرى للايمان والعمل ، هى تلك المتمثلة فيما يشبه الانتحار فى يومنا الحاضر ، وهو اقتحام المجاهدين العزل لوطيس المعارك ، والقلاع المحصنة ··· من أجل الحصول على قطعة سلاح أو نيل الشهادة · وكم كانت رائعة ودالة تلك التسمية التى كان يتندر بها المجاهدون الحاصلون على قطعة السلاح ، من الزملاء الذين كانوا يجابهون نيران الطائرات والمدافع بايديهم البيضاء ، اذ كانوا يسمونهم (أصحاب الايمان) ويبقى المجاهد من هؤلاء فى عداد أصحاب الايمان ··· الى ان يفتك قطعة

سلاح فى المعارك التى يخوضها الزملاء ، أو يستشهد دونها ... وكم من نفس راضية رجعت الى ربها فى مثل هذه الاعمال الجهادية الرائعة .

وعندما اتأمل اليوم تلك التسمية التى كان يطلقها الزملاء بكيفية عفوية على مـن لا سلاح له أجد ان لها دلالة أعمق من الفهم السطحى الفكاهى الذى كنا نفهمه فى ذلك الوقت (...) وأول الحقائق المستنتجة من هذا الواقع هو أن الايمان القوى المقرون بالعمل ، هو الذى يخلق السلاح المادى أو وسيلة الانتاج كما يمكن ان نطلـــق عليها اليوم ، وليس المادة هى التى تخلق الايمان ، لان الايمان شىء معنوى شعورى مرتبط بالجانب الروحى فى الانسان . والمـادة مشكلة ومرتبطة بالجانب المادى فى الانسان ، والروح (كما نعتقد) هى التى تحرك المادة الجسدية . وليس المادة الجسدية هى التى تحرك الروح ، بدليل ان الانسان عندما يفارق الحيـاة (نتيجة سكتة قلبية مثـلا) لا ينقص جسده شىء الا طاقة الروح المحركة الخفية « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » بينما قد يفقد الجسد العايد من أعضائه وأجزائه . ولا يفقد الحياة ، لان الروح لم تفارقه . واذا فارقته الروح توقف كل شىء (ولهذا الكلام تعليلات علمية لا يسمح السياق بعرضها) .

فالايمان اذن هو المحرك الاول . والعمل عنصر ضرورى مكمل لهذه الحركة ، واذا كان الايمان روحى المحتوى فالعمل مادى المحتوى ، ومن ثم يكون كلاهما ضرورى للآخر من أجل تكوين الفرد المتزن السوى ، وخلق المجتمع القوى ، لان الفرد كما أكدنا هو مادة وروح ، وعقل وعضلات ، وفكر وعمل .

واذا اتفقنا على ضرورة تلازم الايمان مع العمل على هذا النحو الذى تؤكده لنا ثورة الجهاد المضفرة ، سيبقى السؤال مطروحا حول كيفية تولد هذا الايمان المقرون بالعمل .

والجواب يكمن فى حقيقة علمية (سوسيولوجية) مفادها أن أى ظاهرة أو فعل قد تم انجازه فى الماضى يمكن تكرار التجربة لانجاز مثيل له اذا توفرت نفس الشروط ... والثورة التحريرية المسلحة انجاز قد تحقق فعـــلا وأعطى نتيجته الملموسة المتمثلة فى الاستقلال الذى ننعم به اليوم .

وما دمنا مقتنعين برفع شعار الثورة المستمرة . من أجـل الخروج من التخلف المادى والفكرى ، وتحقيق الاستقلال الكامل الجدير بتضحيات الشهداء ٠٠٠ يتعين علينا ان نراجع تلك الشروط المتوفرة فى ثورة الجهاد ، ومن أهمها فى اعتقادنا :

أولا : **مطابقة الافعال للاقوال :**

اذا كان العدل هو أساس الملك فلا شك ان الصدق هو أساس الثقة ، والثقة هـى أساس التلاحم بين الافراد والجماعات ، وهى أساس التضحية لان مـن لا تثـق فيـه لا تضحى معه ولا تضحى ـ قطعا ـ من أجله ٠

واذا فقدت عوامل التلاحم الاجتماعى المتمثلة فى مثل هذه القيم النفسية ، فقـد الافراد عوامل الترابط ، والايمان بخيرية بعضهم البعض ، وفقدت الغيرية مكانها لتبقى الانانية وحدها فى الميدان دون منافس ٠

فمطابقة الافعال للاحوال هى معيار الصدق المولد للثقة ، فالكافر صادق اذا قـال أنا كافر ، والكاذب صادق اذا قال أنا كاذب ، والمؤمن كاذب اذا قـال أنـا كافـر ، والصادق كاذب اذا قال أنا كاذب ٠٠٠

واذا أتيت بهذه القضايا ، والمقدمات البديهية. فذلك لاصـل الى توضيح الترابط الوثيق بين الايمان بالمبادىء والصدق فى التطبيق ٠٠٠

فالعاقل لا يؤمن بشىء انه حق الا اذا اقتنع ان هذا الشىء كذلك ، والاقتناع يأتى عن طريق الاستدلال ، والاستقراء ، والمشاهدة ، والمقارنة ، أى مقارنة المبدا بالتطبيق ، ومقارنة الاقوال بالافعال ٠ ومن هنا يكون الاقتناع سابقا للايمان ، كما يكون الايمان سابقا للفعل بحكم الاصول ٠

واذا طبقنا هذا المعيار النظرى على واقع ثورة الجهاد نجد أن الافعال كانت طبقـا للاقوال ، وما كان على اللسان صورة لما فى الجنان ، فتولدت الثقة بين الافراد ، وقوى الايمان ، لان الكلام صدق ، والعهد حق ، والوعد وفاء ٠

فلا يخاف المجاهد على أولاده ما داموا فى رعاية الاوفياء (٠٠٠) ولا يتردد الجندى فى اقتحام النار ما دام الضابط فى طليعة الشهداء ، ولا يشك الشعب فى ايمان الجيش

ما دام الجيش قمة فى الفداء ، ولا يخشى الجيش من خذلان الشعب ما دام الشعب قمة فى العطـاء ٠

فالثقة المتبادلة بين الافراد كانت هى أساس التفانى فى الجهاد ، وقوام التآلف والتكاتف والاتحاد ٠

فلنراجع هذا الشرط فى أنفسنا اليوم على ضـوء ثـورة الجهاد ، ونتساءل عما اذا كانت أقوالنا تطابق أفعالنا حتى نضمن الثقة بين الافراد ، ونحقق الهدف المنشود من الثورة المستمرة ، فذلك أول الشروط ٠

ثانيا : **الاحتكام الى المبادىء ٠٠٠**

اذا كان من الطبيعى أن تقـــع بعض الاختلافات بين الافراد فى مســائل الانجاز الثورى ، التى تخضع لاجتهادات الاشخاص المعرضين للسهو والخطا ، فانـه من غـير الطبيعى ألا يقع الاحتكام الى المبادىء بدلا من الاحتكام الى المصالح ٠ فهذه هى نقطة القوة وتلك هى نقطة الضعف فى حياة آية ثـــورة مهما كانت عارمة ، لان الاحتكام الى المبادىء عامل جمع واتحاد وقوة ، والاحتكام الى المصالح عامل تمزق وضعف وعزلة ٠

فالثورات مبادىء وانجازات ، والمبادىء أفكار موضوعية خارجة عن ذوات الاشخاص ومن ثم كانت قادرة على ان تجمع من حولها الملايين من الافراد ، لانها ثابتة فى مكانها ولا تتغير مع الاهواء ، فهى تؤتى ولا تأتى تغير ولا تتغير ، فمن يـريد أن يتعرف عليها يجدها فى مكانها ، على حالها ، فاذا اقتنع آمن بها ، ووجب عليه الالتزام بتحقيقها فى الواقع الملموس واتخاذها خطا للرجعة فى كل انحراف ، وأصلا للاحتكام فى كل خلاف٠

فالايمان شىء معنوى كما رأينا ، ولا يمكن أن نجعل شخصا مؤمنا ، بقوة السلاح المادى ٠ لان طريق الايمان الوحيدة هى الترغيب ٠ ومثلما لا نستطيع ان نصير شخصا مؤمنا بمبدا معين بالقوة المادية ، لا نستطيع ان نغير ايمـــان شخص بنفس الوسيلة ، فالافكار لا تغيرها الا الافكار مثلها ، ولا يفل الحديد الا الحديد ، فاذا آمن الفــرد بمبدا معين حق الايمان ، أعطى حياته رخيصة من أجله ، واذا لم يؤمن ضن حتى بالكلمة الملتزمة المفيدة فضلا عن بذل الجهد والعرق والحياة ٠

وما دام الايمان شيء معنوى فانه من السهل على أى فرد كذاب أن يقول : أنا مؤمن بمبدا كذا ، ومبدا كذا ، وليس لاحد منا الحق ان يخلع عنه ذلك الايمان ، وفى هذه الحالة قد يكثر المؤمنون . ويختلط المؤمن الحقيقى بالمؤمن المزيف ، الا ان المسلك الذى سيبقى فصلا فى هذه الحالة هو السلوك الذى يقوم به هذا الفرد أو ذاك ٠

فالسلوك والممارسة الفعلية للمبادىء هى التى تحدد ، وتجسد نوع الايمان ، وكمه الكامل فى باطن الفرد ٠

ومن تجربتنا فى ثورة الجهاد نذكر كيف كان يختبر الايمان بالعمل ، والمبـــدأ بالسلوك ٠٠٠ ولعل من أبرز الامثلة على ذلك ما عرف فى احدى مراحل الثـــورة (بمؤامرة الزرقاء) ومفاد هذه الواقعة كما تحتفظ بها الذاكرة ويؤكدها الزملاء هى محاولة القيادة العسكرية للاحتلال ، تقويض بناء الثورة المسلحة من الداخل ، بعد أن فشلت بكل الوسائل ، فى اخماد نارها من الخارج ، وتتمثل تلك المؤامرة فى غرس بعض الجواسيس فى صفوف المجاهدين ، عن طريق تظاهر هؤلاء الخونة بالوطنية ، وحب الجهاد ، والتضحية ، والرغبة فى الانضمام الى صفوف الثوار ، وكادت ان تنطلى هذه الخدعة على بعض القيادات ، حيث أخذت المؤامرة تأتى أكلها فى الظلام (٠٠٠) الا أنه هيهات أن يصمد الباطل أمام الحق ، اذا كان مع الحق رجال ، رجال ولو قلائل ٠

فكانت القوة وصمام الامان ، كان يتمثل فى الاحتكام الى المبادىء ، واختبار النوايا بمحك الافعال ٠٠٠ فكان سلوك الدخلاء على ثورة الجهاد مخالفا فى الشدة ، لما يدعونه فى الرخاء ٠ ومخالفا فى الميدان لما يدعونه فى الامان ٠٠٠ وكان ذلك كافيا وحـــده (بالرغم من وجود عوامل أخرى لا يسع المجال لتفصيلها) لكشف شبكة المجاهدين المزيفين ، من طرف المجاهدين الحقيقيين ٠ وتم استئصال الخونة كالشوك من أرجل الثورة العملاقة لتواصل الزحف المظفر ، الى الهدف المنشود ٠

وعلى الرغم من تغلب الثورة على المؤامرة ، لم يفت قيادة الجهاد آنئذ ان تستفيد من هذه التجربة الاليمة ، وتتخذ منها العبر ، وتتفادى تكرارها فى المستقبل ، (لان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين) ٠

واذكر انه منذ ذلك التاريخ (1958) أصدرت القيادة الولائية تعليمات صارمة بعدم قبول أى متطوع فى صفوف الجهاد الا اذا نفذ عملية فدائية بمفرده ، كتفجير قنبلة فى احدى بؤر العدو ، أو قتل احد الخونة ، المسلحين (٠٠٠) ٠

وكان منطق القيادة فى ذلك واضحا وسليما حيث يقول : ما دام الشخص يريد التطوع فى صفوف الجهاد ، فهو بالضرورة مؤمن بمبادىء الثورة ، واذا كان المتطوع كذلك حقا فهو بدون شك لا يخشى الموت ، لان الموت (فى تلك الايام) هى أبسط الامور التى تعترض طريق المجاهد ، وعليه فليختبر ايمان هذا الشخص المتطوع من الاساس ، حتى لا يحسب على الثورة ويعيش عالة على الثوار ، وكم من مدعى فشل فى الامتحان الصعب ، وأراح الثورة ، وكفاها شره ، واستراح ٠٠٠

ونعود الى موضوعنا ونقيس الحاضر على الغائب ، ونقول : ما دمنا نرفع شعـــار الثورة المستمرة ، ونصرح بأن للثورة أعداء فى الداخل والخارج ٠٠٠ أفلا يكون من المحتمل جدا ان تتكرر المأساة ، المؤامرة ، ونجد أنفسنا أمام الاعداد الهائلة مـــن المتطوعين في ثورة البناء ، والتوازن الجهوى ، والعدالة الاجتماعية ٠٠؟

فما هو ـ والحالة هذه ـ المسلك الذى يختبر به ايمان هـــؤلاء المتطوعـين ٠٠٠ بالمبادىء الاشتراكية ؟ ؟

اما الجواب ـ فى اعتقادى ـ فان التاريخ يمكن ان يعيد نفسه ، وان آخر الثورة لا يصلح الا بما صلح به أولها ٠

واذا كانت ثورة الجهاد قد نجحت باختبار الايمان بالعمل والاحتكام الى المبادىء قبل المصالح ٠٠٠ فان سنن الثورات لا تتبدل ، ومقومات النجاح واحدة ، وطريقته غير متعددة ، فاما مبادىء تحكم البعض من أجل صالح الكل ، واما مصالح تحكم الكل من أجل صالح البعض ٠٠٠

ولئن احتاج هذا الحكم الى توضيح فلا أجد خيرا من التعريب لاذكره كمثال بارز من مبادىء الثورة المستمرة ، ولتقس عليه المبادىء الاخرى (٠٠٠) ٠

فمن الناحية النظرية ، والكلامية ، نجد انه ما من أحد (من الثوار) يجرؤ على القول (الا سرا) بانه ضد مبدا التعريب ، واسترجاع الشخصية الوطنية ، وتحقيق هويتها ... الا ان الاعتراف - قولا - بمبدأ التعريب ، وسيادة اللغة الوطنية في المواثيق والخطب الحماسية الرسمية والشعبية ... لم يحل دون بقاء اللغة الوطنية حبيسة المساجد ، والمحاكم ، وبعض الثكنات ، والمدارس ، والكليات ، لان الاحتكام في هذا الامر انتقل من طور المبادىء الى طور المصالح ، فمن كانت مصالحه متعارضة مع التعريب اقره باللسان ، وحاربه في الميدان ، ومن كانت مصالحه متعارضة مع سيطرة اللغة الاجنبية على اللسان الوطني (لسبب من الاسباب) تحمس للتعريب ونادى بضرورة سيادة اللغة الوطنية، رافعا قميص عثمان (الضحية) الى ان يتحقق المنال (...) فكيف عن المقال ، ولا نعدم الامثلة الكثيرة عمن سكت عن نداه ، بمجرد ان تعلم اللغة الفرنسية أو نال رضاه في المساواة مع من كان أعلاه ...

وهكذا انتقل التعريب مع مرور الايام وتبدل الاحوال ، من مبدأ وطني عام الى مبدأ (بطني) خاص بأفراد أو فئات ، وفي غياب الاحتكام الى المبادىء العامة ظهر الاحتكام الى المصالح الخاصة ، وقويت حجة الاتهام بأن من جهل لسانا عاداه ، ومن فقد منصبا بكاه ، وميعت القضايا الجوهرية ، وقدمت المبادىء الوطنية قربانا على مذبح المصالح الفردية ، والفئوية .

فذلك مثال حي لنتائج الاحتكام الى المصالح بدلا من المبادىء ، في غياب المسلك الثوري الاصيل ، المتمثل في تلازم الايمان مع العمل ، وتطابق الافعال مع الاقوال ، والاحتكام الى المبادىء الموضوعية الثابتة بدلا من الاحتكام الى المصالح الشخصية المتغيرة.

فذلك درس من المئات التي تزخر بها هذه الذكرى المجيدة . ولقد حاولت ان اجتهد في استخلاص هذا الدرس الذي آرجو أن يكون مفيدا ، واذ فعلت آمل ألا يفوتني أجر الاجتهاد ، وان فاتني أجر الاصابة ، وذلك اضعف الايمان !

مـلامح عن ثـورة أول نوفمبـــر الجـــزائريـــة

ومواقف دوغول تجـاهها لغـاية مظـاهرات ديسمبر 1960

الدكتور يحيى بوعزيز
جامعـة وهران



تعتبر ثورة أول نوفمبر 1954 الجزائرية،من الاحداث العالمية الكبرى فى التاريخ الحديث والمعاصر ٠ وذلك لأن تأثيراتها تجاوزت الجزائر الى معظم أصقاع القـــارة الافريقية ، والى آسيا الجنوبية والغربيـــة ، وأمريـكا اللاتينية ٠ فأيقظت الكثير من الشعوب النائمة والمغلوبة على أمرها ، وحفزتها على التحرر ، والانعتاق من السيطرة الاستعمارية (1) ٠

وعندما اندلعت هذه الثورة ، زعمت السلطات الاستعمارية فى بلاغاتها الرسمية ، أن متزعميها هم جماعة من « المقلقين » للأمن . و « فلاقة » و « قطاع طرق » و «لصوص» « خارجون عن القانون » ٠ دفعوا من جهات أجنبية ٠ وبذل الفرنسيون كـــل ما فى وسعهم ، وامكانياتهم ، أن يقضوا عليهم ، ويضعوا حدا لنشاطهم ٠

1) انظر مقالنا بعنوان : مكانة ثورة أول نوفمبر بين الثورات العالمية ، ودورها فى تحرير الجزائر وافريقيا ٠ مجلة الاصالة عدد 22 ، (الجزائر ـ نوفمبر ـ ديسمبر 1974) ص 138 ـ 150 ٠

ولكنهم فوجئوا باحداث يوم 20 أوت 1955 فى كل مدن الشرق الجزائرى التى سفهت أحلامهم وكذبت ادعاءاتهم ، وأكدت لهم بأن ما يجرى ليس حوادث عابرة من طرف « فلاقة مقلقين للأمن خارجين عن القانون » ، وانما هى ثورة حقيقة ذات قيادة واعية ، وأهداف وطنية سامية ٠

ولذلك اخذوا يكثفون من قواتهم العسكرية ، ويوسعون من عمليات التعذيب الاجرامية للمواطنين الجزائريين التى كشفتها الصحافة الفرنسية نفسها ومنها لوموند Le Monde ٠ وبعض مراسيلها مثل كلود بوردى : Claude Bordie ، فى كتابه : المسألة : La Question وتم عزل روجى ليونار من رئاسة الولاية العامة ، وعوض بالفيلسوف الفاشل جاك سوستيل ، الذى بادر الى التصريح بان فرنسا لن تغادر الجزائر مثلما لا تغادر مقاطعة لابروفانس ، ولابروطان ، وأعلنت حالة الطوارىء بصفة جزئية فى الأراس ، والقبائل ، وشرق مقاطعة قسنطينة ٠ ثم مدت الى معظم أنحاء البلاد شرقا وغربا ٠ وكان الغرض من اعلان حالة الطوارىء هذه ، ممارسة عمليات التعذيب بحرية ، وبصورة بشعة ، وواسعة ٠

ولذلك مكنت حكومة قى مولى الاشتراكية ، الوزير المقيم بالجزائر ، من سلطات واسعة ، لحل كل الهيئات ، والجمعيات وتعطيل الصحف ، ومصادرة الأملاك ٠ وتم التوسع فى تطبيق هذا القانون ليشمل حتى الجزائريين المقيمين بفرنسا ابتداء من عهد حكومة بورجيس مونورى ٠

والى جانب تطبيق حالة الطوارىء ، أنشأت السلطات الاستعمارية ، فرق الميليشيات من المستوطنين الأوروبيين المتعصبين لمساعدة الجيش الفرنسى على تطبيق عمليات الايقاف ، والحجز ، والتعذيب ، رغم أن قوات الجيش الفرنسى أرتفعت الى أكثر من مائة ألف جندى مدعمين بسلاح الطيران ، والبحرية ، الى جانب الأجهزة الأخرى ٠

وقد توقع العالم ، عندما تولى الحزب الاشتراكى ، الحكم والسلطة فى فرنسا فى مطلع عام 1956 ، أن يحقق حلا سلميا مشرفا للقضية الجزائرية ، كنتيجة لتصريحات قى مولى زعيم الحزب ، وأمينه العام ، خلال المعركة الانتخابية ٠ ولكن شيئا من ذلك

لم يحدث لان قى مولى تراجع بسرعة عن أفكاره بعد أن تعرض « لضربات الطماطم » فى شوارع مدينة الجزائر صباح يوم 6 فيفرى 1956 من طرف المستوطنين الأوروبيين المتعصبين • وعين السفاح المجرم روبير لاكوست ، وزيرا مقيما بالجزائر ، بدلا من سوستيل ، وصمم على استعمال القوة للقضاء على الثورة باسم : « التهدئة » • وحشد ما يقرب من 400 الف جندى لذلك ، وما آت من الدبابات ، وقاذفات القنابل ، وكل وسائل الفتك والتدمير الجهنمية •

وابتكر الجلادون الفرنسيون أسلوب اقامة مراكز التجميع : Centres des quadrillages المتقاربة من بعضها البعض فى مناطق مختلفة ، وخاصة بلاد القبائل التى ركز ستوستيل عليها كمنطقة نموذجية لتحقيق تجربة « التهدئة » • وتم انشاء حوالى 517 مركزا من هذا النوع فى جبال جرجرة ، وحوض الصومام عامى 1956 ـ 1957 •

ولكن النتيجة كانت عكس المأمول ، لأن الجيش الفرنسى جمد فى هذه المراكز ، بينما وجد جيش التحرير الحرية لممارسة نشاطه بكتائب صغيرة وخفيفة ، واضطرت القوات الاستعمارية أن تشن عمليات عسكرية ضخمة دعيت بعمليات « فور » نسبة الى الجنرال فور ، على منطقة القبائل الصغرى التى كانت محررة ، ومستقلة آنذاك • وذلك فى اطار « التهدئة » • ومارست عمليات التعذيب بشكل قاسى ، وواسع فى المدن الكبرى مثل وهران ، والجزائر ، لوقف نشاط جبهة التحرير الوطنى •

ولم يتردد لاكوست فى تسليح فرق خاصة باسم « جيش التحرير الوطنى » ، ليطعن الثورة ويغدر بقادتها • وتفاءل بهذه العملية كثيرا لدرجة أنه أعلن أن الثورة فى : « ربع الساعة الاخير » من عمرها ولكنه فوجىء بتلك الكتائب التى أعدها ، وسلحها ، تلتحق بالثوار ، والمجاهدين ، بأسلحتها ، ومعداتها ، خلال عام 1956 •

وفى مطلع عام 1957 ، استغل الجيش الفرنسى فرصة الاضراب الاسبوعى العظيم الذى دعت اليه جبهة التحرير الوطنى ، فارتكب مجازر ضخمة ، فى المدن الكبرى ، وخرب الدكاكين وحطمها ، ونهب ما بها من سلع وبضائع ، وقتل الناس بالجملة • وشاعت فى العالم عمليات التعذيب الجهنمية التى يمارسها الضباط الفرنسيون ضد الجزائريين • وكان من ضمن ضحاياها : القائد العربى بن مهيدى ، والمحامى على

بومنجل • ومدت السلطات الفرنسية حالة الطوارىء الى فرنسا ، وطبقتها على الجزائريين المقيمين هناك على أمل وضع حد لنشاط جبهة التحرير الوطني •

ونظرا لأهمية كل من تونس ، والمغرب الأقصى ، كقاعدتين خلفيتين للثورة الجزائرية تصلها عن طريقهما الامدادات اللازمة ، فقد شرع الجيش الفرنسي في انشاء حواجز ، وموانع ، متنوعة على حدودهما المتصلة بالجزائر شرقا وغربا • تتمثل في مد خطوط الأسلاك الشائكة المكهربة (خط موريس ، وخط شال) ، بعد أن فشل في سياسة « حق التتبع للثوار » داخل هذين البلدين الشقيقين •

ويتراوح عرض هذه الخطوط للاسلاك الشائكة بين 1296 مترا ، تتخلها الالغام ، والأضواء الكاشفة ، وأجراس الانذار • وتتولى حراستها مراكز عسكرية مكثفة ، ومزودة بوسائل النقل السريعة ، والقذف البعيد المدى •

وامتدت في الناحية الشرقية من عنابة على البحر شمالا الى مدينة تبسة جنوبا على أبواب الصحراء • وفي الناحية الغربية مد خط رئيسي قرب الحدود ما بين فيقيق ووجدة ، وأحيطت المدن القريبة من الحدود بهذه الاسلاك ، وفرضت عليها حالة منع التجول ليلا بصفة دائمة ، وحولت الى محتشدات •

ولكي يكون لهذه الاسلاك الشائكة مفعول كبير في تحطيم الثورة ، صادق البرلمان الفرنسي على القانون ألاطاري : Cadres ، ورفضت حكومة فيليكس قايار ، وساطة تونس والمغرب ، وبرزت مشكلة الحدود على أشدها ، وصممت السلطات الفرنسية على استغلالها الى أبعد حد ، وبالغت في تحرشها ضد تونس والمغرب الأقصى في اطار ما زعمته لنفسها من « حق التتبع » للثوار الى داخل البلدين • وارتكب لاكوست حماقته الكبرى بتدميره لقرية « ساقية سيدي يوسف » التونسية بطائرات أمريكية مما دفع كلا من الولايات المتحدة الامريكية ، والمملكة المتحدة البريطانية ، الى التدخل ، ولكن وساطتهما فشلت بسبب ميولهما لوجهة نظر فرنسا ، ورفضهما التباحث في صميم المشكلة ، وهي القضية الجزائرية •

ولما لم تفد خطوط الاسلاك الشائكة ، فى ايقاف نشاط الثورة ، فقد عملت السلطات الاستعمارية على اقامة مناطق محرمة فى الحدود الشرقية ، والغربية ، وهجرت الناس بالجملة حول خطوط الاسلاك الشائكة • وتراوح عرض المنطقة المحرمة الشرقية بين 30 و 50 كلم • وامتد طولها من البحر شمالا الى قرية تقرين جنوب تبسة • وبلغ مجموع من هجروا منها فى ظرف ثمانية أيام الى مدن وقرى : مشرية ، وعين الصفراء ، والابيض سيدى الشيخ ، والبيض ، وخيثر ، وغيرها ، وفرض عليهم حصار بالاسلاك الشائكة ، والمراقبة العسكرية الدائمة ليلا ونهارا ، وزرعت المنطقة بالالغام •

وانشىء فى الحدود الشرقية « طريق الموت » بين خطوط الاسلاك الشائكة ، والمنطقة المحرمة • وزرع بالالغام القاتلة • ودعمت هذه المناطق المحرمة ، والاسلاك الشائكة ، وطريق الموت ، بالمراكز العسكرية المكثفة ، والاضواء الكاشفة ليلا ، وسلاح الطيران ، والسيارات السريعة التى تتدخل بسرعة عند الحاجة نهارا ، وفى الليل •

وحتى تكسب حكومة قايار ، تأييد دول جنوب غرب أوروبا ، وتمنع تونس والمغرب الاقصى ، من تأييد الثورة الجزائرية ، وتقديم العون لها ، اقترحت عقد حلف دفاعى بين دول حوض البحر المتوسط الغربى تقدم فيه الجزائر كأقليم فرنسى • وتضم اليه تونس والمغرب • ولكن هذه الفكرة لم تصب نجاحا ، ولم تجد صداها لدى الدول المعنية بأوروبا وشمال افريقيا •

ولما فشلت كل هذه المشروعات الفرنسية ، العسكرية ، والسياسية تمرد الجيش الفرنسى بالجزائر غداة 13 ماى 1948 بزعامة جاك سوستيل ، والجنرال سالان ، وأتى بالجنرال دوقول الى الحكم لينقذ فرنسا من الانهيار ، ويضمن بقاء خرافة « الجزائر فرنسية » الى الأبد •

وقد استهل دوقول سياسيته بشن عمليات عسكرية ضخمة كثيرة العدد ، طويلة المدة ، فى اطار ما عرف « بمشروع شال » الضخم ، بعد أن فشلت عمليات « التهدئة » و « التطهير » ، الواسعة للمناطق التى ينعتونها « بالمتعفنة » • لكونها تعفنت بالثوار والمجاهدين ، والتى كانت تتم فى خلال أسبوعين الى ثلاثة •

وقد اعتمد مشروع شال العسكرى على الأسس التالية :

أولا : غلق الحدود الشرقية والغربية بالاسلاك الشائكة المكهربة ، والمناطق المحرمة، والالغام ، والمراكز العسكرية ٠

ثانيا : ابادة فرق جيش التحرير الوطنى فى الجبال ، والارياف ، من الناحيـــة العسكريـة ٠

ثالثا : تحطيم نفوذ جبهة التحرير الوطنى ، والقضاء عليها فى القرى والمدن من الناحية السياسية ٠

رابعا : استحداث ادارة مخلصة للجيش الفرنسى تحل محل جبهة التحرير الوطنى٠

وخطط لتنفيذ المشروع على الشكل التالى :

أولا : المحافظة على مراكز التربيع ، مع تطويرها ، وتصغير حجمها ٠

ثانيا : تشجيع الفرق العسكرية الفرنسية على الحركة الدائبة والمستمرة ضد جيش التحرير الوطنى ٠

ثالثا : تكليف سلاح الطيران بالمراقبة المستمرة ، والمتابعة السريعة ٠

رابعا : تجنيد المزيد من جنود « القوم » و « الحركة » الجزائريين ، للمساهمة فى العمليات العسكرية ضد المدنيين الجزائريين ٠

خامسا : القيام بعمليات عسكرية جوية وبرية كثيرة لتطهير البلاد من الثـوار ، منطقة فمنطقة ٠

سادسا : احتلال المناطق « التى طهرت من الثوار » مدة طويلة للتأكد من ابـــادة جيش التحرير الوطنى ، والقضاء عليه بصفة نهائية ٠

أما مراحل تنفيذ مشروع شال فقد حددت وانجزت على الشكل التالى :

أولا : تطهير ولاية وهران بين فيفرى وأبريل 1959 ٠

ثانيا : تطهير جبال الونشريس خلال شهرى أبريل وماى ٠

ثالثا : تطهير جبال الظهرة خلال جوان ، وجويلية •

رابعا : تطهير بلاد القبائل خلال فصل الصيف •

خامسا : تطهير منطقة الشمال القسنطيني فى أواخر فصل الصيف •

وفى اطار هذا المشروع الضخم • شن الجيش الفرنسى عمليات عسكرية ضخمة وكثيرة على معظم الجزائر الشمالية من الحدود الغربية الى الحدود الشرقية •

ومن ضمن هذه العمليات :

1 ـ عملية الضباب Brumaire على بلاد القبائل فى شهر أكتوبر 1958 بقيادة الجنرال فور •

2 ـ عمليات الجنرال جيلى على جبال وهران خلال نفس الشهر •

3 ـ عمليات الجنرال مايو على مناطق الاخضرية (باليسترو سابقا) وجنوبها ببلاد القبائل •

4 ـ عمليات الغرب الوهرانى فى تلمسان ، ومعسكر ، وبلعباس ، وسعيدة ، وأفلو ، والجلفة ، وجبال عمور •

5 ـ عملية التاج أو الاكليل Couronne ، على جبال الونشريس بقيادة الجنرال قراسيو •

6 ـ عمليات المجهر : Les Jumelles على بلاد القبائل الصغرى فى صيف 1958 •

7 ـ عملية الشرارة : Etincelle على مناطق جبال الحضنة بقيادة شال نفسه •

8 ـ عمليات الاحجار الكريمة : Emeraude et turquoise على جبال الشمال القسنطينى •

9 ـ عملية رباط أو سير الجلد : Courroie على جبال الونشريس ، والأطلس البليدى ، وزكار ، والظهرة •

10 ـ عملية القرن : Tentacule على جبال الضاية •

11 _ عملية الصرصور : Cigale على جبال الونشريس •

12 _ عملية ماراثون : Marathon على منطقة الحدود الشرقية •

ورغم ضخامة هذه العمليات العسكرية ، وكثافتها ، وشمولها لمعظم أنحاء البلاد ، فان مشروع شال فشل فى تحقيق أهدافه • ولذلك التجأ الجيش الفرنسى الى اقامـة المحتشدات ، ومراكز التجمع الضخمة • وحشد السكان اليها ، ليفصلهم عن جيش وجبهة التحرير الوطنى • فتم انشاء حوالى 1500 محتشدا ، حشر داخلها حوالى ثلاثة ملايين شخصا • وأحيطوا بالاسلاك الشائكة ، والمراكز العسكرية وفرق القـــوم ، والحركة ، وسلطت عليهم حياة البؤس ، والحرمان ، والفاقة ، والقساوة •

ومع تنشيط أسلوب انشاء مراكز الاحتشاد ، تم التوسع فى انشاء فرق «الحركة، والقومية » ، وضباط مصالح الشؤون أو الصاص Service des Affaires Sociales لممارسـة عمليات التعذيب بمختلف أشكالها وأنواعها ، وأساليبها •

ولم يهمل الفرنسيون حتى ممارسة القرصنة الجوية والبحرية • فراقبوا 142,786 باخرة ، وأوقفوا 2076 باخرة ، وفتشوا 217 باخرة ، وساقوا الى الموانىء 115 باخرة تنتمى الى جنسيات : يوغوسلافية ، وتشيكية ، وبولندية ، وايرلندية ، وانجليزية ، وهولندية ، وألمانية ، ودانماركية •

ورغم كل هذه الوسائل الجهنمية التى استعملتها فرنسا ، فان ثورة أول نوفمبر واصلت سيرها ، وسارت من نصر الى نصر • فما هى أهم المراحل التى مرت بهـــا وقطعتهــا ؟

لقد اندلعت هذه الثورة المسلحة ليلة الاثنين أول نوفمبر 1954 على الساعة الواحدة بعد منتصف الليل • وكانت الخطة تقضى باتباع حرب « الكمين » بأسلوب «العصابات» فى تشكيلات خفيفة قادرة على الحركة والكر والفر بسرعة ، والحاق الضربات القاسية بالعدو ، وانهاك قواته ، وتشتيتها ، والاختفاء بسرعة •

وظهر منذ البداية نظام تقسيم الثوار الى اصناف ثلاثة : جنود ، وفدائيين ، ومسبلين، وانيطت بكل صنف أعمال خاصة ومحددة تقريبا • وكانت الثورة صدمة للعدو أفقدته

صوابه ، وأثرت فى أعوانه الذين كانوا يخدمونه باخلاص ، فاعلن **46** نائبا جزائريا من المجلس الجزائرى عن ضرورة تطبيق مبدا المساواة بين الجزائريين والأوروبيين . وليس ذلك من أهداف الثورة طبعا . وعرف العالم لأول مرة فى شهر جوان **1955** بأن قادة الثورة الجزائرية قسموا البلاد الى ست ولايات عسكرية مرقمة هى :

1 ـ ولاية الأوراس .

2 ـ ولاية السمندو (شمال قسنطينة) .

3 ـ ولاية القبائـل .

4 ـ ولاية الجزائر العاصمة وأحوازها .

5 ـ ولاية وهران (الغرب الوهرانى) .

6 ـ ولاية الصحراء (جنوب البلاد) .

وفى يوم 20 أوت 1955 خطت الثورة خطوة أخرى هامـــة الى الأمام ، فنظمـت هجومات عسكرية كاسحة على عشرين مدينة من مدن الشرق الجزائرى على الساعـــة الثانية عشر ظهرا ، وفاجأ الثوار ، القوات الاستعمارية فى سكيكدة ، والقل ، والميلية، وقسنطينة ، والخروب ، وعين عبيد ، ووادى الزناتى ، وغيرها . وكان مـــن ضمن أسباب وبواعث هذه الهجومات الكاسحة والشاملة :

أولا : توسيع رقعة الثورة ومدها الى جهات كثيرة من البلاد .

ثانيا : ازالة الغموض ، ومظهر الاحتشام لدى سكان الارياف حـــول أهدافهـا ومراميهـا .

ثالثا : وضع حد للتردد الذى كان ما يزال يـــراود بعض الهيئات والاحـــزاب السياسيـة .

رابعا : قطع الطريق على بعض العملاء الجزائريين الذين كانت الولاية العامة تسعى لاعدادهم لتطعن الثورة بهم .

خامسا : اعطاء الدليل القاطع للأمم المتحدة على أن ما يجرى بالجزائر هو ثـورة وطنية ، تحريرية ، يقودها ثوار ذووا أهداف وطنية ، وليسوا قطاع طرق خارجـين عن القانون كما يدعى ويزعم الفرنسيون ·

سادسا : اعطاء الدليل القاطع على أن الجزائر عربية اسلامية ، لان الحوادث جرت بمناسبة حلول السنة الهجرية الجديدة ، وهذا ما يؤكد تمسك الثورة بالاسلام ·

سابعا : التضامن مع الشعب المغربى الشقيق فى مأساته بمناسبة الذكرى الثانية لخلع السلطان محمد الخامس عن عرشه · وبذلك أعطت الجزائر شعب ، وثورة ، المثل فى التضامن حتى فى أحلك أيامها وأتعسها ·

وهكذا كان لأحداث 20 أوت 1955 ، آثار بالغة الاهمية فى الداخل وفى الخارج · أدت الى تمرد الجنود الفرنسيين فى الثكنات ، ورفضهم الذهاب الى الحرب فى الجزائر الذى يعنى الذهاب الى الموت فى سبيل قضية غير عادلة ·

وخلال خريف عام 1955 (وفى شهر أكتوبر) ، نضمت الثورة الجزائرية ، ولاية وهران الخامسة ، وكثفت العمليات العسكرية بها ، فى اطار مخطط عام مسبق · ومن أهداف ذلك تشتيت قوات العدو ، وكسب أنصار جـــدد ، ومدافعين ، ومؤيدين فى الخارج ، خاصة فى الامم المتحدة التى عرضت عليها القضية لتدرسها ، واضطر الوفد الفرنسى أن ينسحب من الهيئة يوم 2 أكتوبر احتجاجا على ما أسماه بالتدخل فى شؤون فرنسا الداخلية ·

وقد تمرد الجنود الفرنسيون مرة أخرى فى روان ، وفالانس ، وطولون ، ورفضوا الذهاب الى الجزائر للحرب · وتمكن القائد مصطفى بن بولعيد من الفرار من سجن قسنطينة ، بصحبة أحد عشر شخصا من رفاقه ·

وفى مطلع عام 1956 تأكدت الاحزاب المترددة من أصالة هذه الثـورة وقـوتها ، وصمودها · فأعلن زعماء حزب الاتحاد الديمقراطى للبيان الجزائرى انضمامهم اليها بعد تردد دام ثمانية عشر شهرا · وأسست جبهة التحرير الوطنى ، الاتحاد العـــام للعمال الجزائريين ، واستقال نواب الجزائر الستون فى المجلس الجزائرى ، احتجاجا على

حرب الابادة . وتوقف الطلبة الجزائريون عن الدروس فى المعاهد والجامعات الى أجل غير مسمى ، والتحقوا بصفوف جيش وجبهة التحرير الوطنى فى المدن ، والقرى ، والارياف ، والجبال وبذلك عمت الثورة كامل فئات الشعب الجزائرى • وقضى على خرافة « الفلاقة » و « قطاع الطرق » و « الخارجون عن القانون » •

وفى صيف عام 1956 ، خطت الثورة خطوة أخرى جديدة . وهامة . فعقد قادتها مؤتمر الصومام التاريخى يوم 20 أوت 1956 فى قرية « أوزلاقن » بجبال أكفادو شمال مدينة أقبو على الضفة الغربية لوادى الصومام بالقبائل • وتم فيه وضع اطار نظامى لجيش التحرير الوطنى ، وحددت سياسة جبهة التحرير ومهامها ، كما حددت الشروط الأساسية لمفاوضات السلم ، ومواصلة الحرب ، وأسست هياكل أساسية للثورة اهمها : المجلس الوطنى للثورة الجزائرية ، ولجنة التنسيق والتنفيذ • وبذلك كان مؤتمر الصومام خطوة تاريخية هامة للثورة فى الميدانين : السياسى والعسكرى •

وفى مطلع عام 1957 ، استهلت الثورة الجزائرية أعمالها بافتتاح « اذاعة صوت الجزائر الحرة المكافحة » التى كانت تذيع أخبار الكفاح المسلح ، ومعارك جيش التحرير وانتصاراته ، ونشاط جبهة التحرير السياسى • ونظمت جبهة التحرير الاضراب الاسبوعى العظيم فى أواخر شهر جانفى 1957 الذى كشف للاستعمار الفرنسى عن مدى تعلق الشعب الجزائرى بالثورة والجبهة معا •

واصدرت الجبهة الطبعة الموحدة لجريدة المجاهد الاسبوعية بدلا من جريدة المقاومة التى كانت تصدر فى طبعتين مختلفتين • وانعقد المؤتمر الثانى للمجلس الوطنى للثورة الجزائرية بالقاهرة • ودشنت الثورة افتتاح جبهة الصحراء باشعال الحرائق فى آبار البترول خلال سبتمبر 1957 •

وفى مطلع عام 1958 جددت الثورة رغبتها فى التفاوض على أساس الاعتراف باستقلال الجزائر • وأيد مؤتمر أكرا ، ومؤتمر طانجة (فى أبريل) ، مساعى الجبهة السلمية ، وأكدا على انها الممثل الوحيد للشعب الجزائرى • وأنضم اتباع بللونيسى المصاليون اليها بعد أن تأكدوا من قوتها • ونددت الجبهة باتفاق تونس مع شركة

البترول الفرنسية لنقل البترول الجزائرى عبر ترابها من حقول ايجلى الى ميناء السخيرة فى خليج قابس • ونشرت فى جريدة المجاهد مقال : الخبز المسموم ، الذى احدث أزمة بينها وبين الحكومة التونسية ، ونقلت الجبهة الاعمال الفدائية الى فرنسا نفسها لتثبت للفرنسيين قدرتها على العمل فى أى مكان •

وفى سبتمبر 1958 ، تقدمت الثورة خطوة أخرى سياسية الى الأمام ، فألفت : « الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية » فى المنفى لتكون أداة للمفاوضات المقبلة مع الحكومة الفرنسية ، واعترفت بها دول عديدة تجاوزت العشرين ، وأيدها مؤتمر أكرا، ووفود الامم المتحدة •

وفى مطلع عام 1959 أنضم عدد آخر من المصاليين المنشقين الى الثورة • وحذرت الجبهة ، الشركات الاستعمارية من البحث والتنقيب عن البترول والغاز فى صحراء الجزائر ، وشن المجاهدون هجوم عنابة التاريخى فى وضح النهار ، خلال شهر ماى ، وارتفعت أصوات من الكونقرس الامريكى ، تدعو للاعتراف بحق الشعب الجزائرى فى الحرية والاستقلال وتقرير المصير •

وكنتيجة لصمود الثورة ، وزحفها الى الأمام بقوة ، وهزائم الجيش الفرنسى المتوالية ، اضطر الجنرال دوقول ، مكرها ، الى اعلان مبدأ حق تقرير المصير للجزائر ، فى تصريح 16 نوفمبر 1959 ، وذلك لأول مرة منذ عام 1830 م ، بعد ان قام بعدة سفرات ، وجولات الى الجزائر ، واطلع بنفسه على الاوضاع ..وأدرك أن القضاء على الثورة أمر مستحيل ، فردت عليه جبهة التحرير بقبول مبدأتقرير المصير رغم ما فيه من القيود • وفعل مثلها المجلس الوطنى للثورة الجزائرية الذى انعقد للمرة الثالثة بطرابلس أواخر عام 1959 ومطلع عام 1960 •

ولكن جبهة التحرير نددت بشدة ، بفكرة التقسيم للجزائر على الأساس الطائفى ، الذى أخذ يراود الاوروبيين ، ودوقول نفسه • وجاءت مظاهرات ديسمبر 1960 لتضع حدا لكل الألاعيب ، والمساومات • فما هى حقيقة هذه المظاهرات ؟ وما مدى تأثيرها على مسيرة الثورة ؟ وعلى سياسة دوقول نفسه ؟

3

لقد جاء دوقول الى الحكم بفضل تمرد ضباط الجيش الفرنسى يوم 13 ماى 1958 ، ولكن الأوروبيين ، وقواد الجيش ، لما تأكدوا من أنه لا يسير فى ركابهم ، ولن يصبح أداة طيعــة فى أيديهم ، حاولوا التمرد عليــه ففشلوا ، وفوت هــو الفرصة عليهم ، فأشترط أن تمنح له السلطات الاستثنائية من البرلمان ·

وقد مرت سياسته تجاه الثورة الجزائرية بالمراحل التالية :

أولا : مرحلة الجزائر الفرنسية · وعامل الجزائر خلالها كاقليم فرنسى ، وطالب من سكانها الجزائريين أن يصوتوا بنعم أولا ، على دستور الجمهورية الخامسة ، بينما طالب من سكان المستعمرات الأخرى فى افريقيا أن يصوتوا على مبدا البقاء أو الانفصال عن الاتحاد الفرنسى · وخصص للجزائر 66 مقعـــدا فى البرلمان الفرنسى منهــا 44 للجزائريين ، و 22 للأوروبيين · وخصص لها 32 مقعدا فى مجلس الشيوخ · وسخــر الجيش الفرنسى لتحقيق الأمل الذى كان يراوده ، وهو القضاء على الثورة · وأعلن فى مدينة قسنطينة أواخر عام 1958 عن مشروع اقتصادى كمحاولة لخنق الثورة وأجهاضها على أساس أن اسبابها ، فى زعمه ، اقتصادية واجتماعية · وطالب الثوار أن يستسلموا ، ويسلموا أسلحتهم ، ويرفعوا العلم الابيض فى اطار ما دعاه : «سلم الأبطال الشجعان» ·

ثانيا : مرحلة التردد : بعد أن فشلت مشاريعه السابقة ، فأخذ يفكر فى أسلوب جديد ، واعلن فى خطاب لــه يوم 8 جانفى 1959 بمناسبة انتخابه رئيسا للجمهورية ، بأن الجزائر ستكون لها مكانة ممتازة داخل المجموعة الفرنسية ، وفى نفس الوقـــت راوغ كثيرا ، وحاول أن يستميل اليه الأوروبيين والجزائريين معا ·

ثالثا : مرحلة تقرير المصير : وذلك بعد أن تأكد من قوة وصلابة الجبهة ، وضعف تأثير مشروع قسنطينة الاقتصادى ، والاجتماعى ، وعجز وفشل الجيش الفرنسى فى القضاء على جيش التحرير · فبعـــد أن زار دوقول الجزائر فى شهــر أوت ، ودرس الاوضاع عن كثب ، أعلن فى بيان له يوم 16 نوفمبر 1959 عن مبدأ حق تقرير المصــير للجزائريين بعد أربع سنوات من تحقيق التهدئة التى حددها بعدم زيادة القتلى عـــن مائتى شخص فى العام · وذلك على الشكل التالى :

1) التصويت على الاستقلال والانفصال ٠

2) التصويت على الاندماج مع فرنسا ٠

3) التصويت على الفدرالية مع فرنسا ٠

4) مرحلة الجزائر الجزائرية : وتتمثل فى خلق الجزائر الجزائرية بدون جبهة التحرير الوطنى ، ولتحقيق ذلك الف فى شهر جويلية 1960 لجنة من 120 عضوا ينتمون الى مجلس البرلمان ، ومجلس الشيوخ ، والمجالس الاقليمية ، والغرف التجارية ، والفلاحية ، وشيوخ البلديات ، والمستشارين البلديين ، ووزعوا الى أربع لجان فرعية هى :

1) لجنة الاصلاح المالى ٠

2) لجنة الاصلاح الادارى ٠

3) لجنة الاصلاح الزراعى ٠

4) لجنة الهيئات والفئات السكانية ٠

واعتمد دوقول فى خلق الجزائر الجزائرية بدون جبهة التحرير الوطنى على عدة عوامل اهمها : تعب السكان من الحرب ، وميلهم لمساندة أى حل سلمى مهما كان ضئيلا حسبما كان يظن ويعتقد ٠ وطالب بوقف الاعمال الفدائية قبل الشروع فى المفاوضات ، ويوضع السكين أو الخنجر خارج طاولة المفاوضات ٠ وصرح بعبارة : « الجمهورية الجزائرية » لاول مرة فى أوائل نوفمبر 1960 ، التى ستوجد فى المستقبل ٠ وأعلن عن استعداده لقبول قيامها ما دام الجزائريون يريدون ذلك ، غير أنه أصر على عدم التفاوض مع جبهة التحرير ، لان « الجزائر الجزائرية » ستكون للجزائريين « فى الجزائر » وليس « فى الخارج » كما يزعم ٠

وتمشيا مع هذه الخطة ، حاول دوقول أن ينشىء « قوة ثالثة » ، وأعلن عن عدم اشتراط ضرورة انهاء القتال للشروع فى تزويد « الجزائر الجزائرية » بأجهزتها الادارية الخاصة ٠ فأجريت الانتخابات الاقليمية ، وتحصل أنصاره على الأغلبية ٠ وعارضوا فكرة الادماج ، وسعى لتدعيم مركزهم ، فانشأ جيشا جزائريا لهم من

« القومية والحركية » اطلق عليه اسم الحرس Les Gardes أو العسه • وهـو جيش عديم الفعالية طبعا •

ولكى يوفر فرص النجاح لمشروع الجزائر الجزائرية ، زار الجزائر بنفسه يـوم 10 ديسمبر 1960 ليقوم بالدعاية لــه ، ويشرحه للسكان شخصيا ، خاصة المستوطنين الأوروبيين • ولكن هؤلاء الأخيرين أحسوا بأن رياح التطور ، ومجرى الحوادث تسـير ضدهم ، ولغير صالحهم ، وأدركوا أنهم اذا لــم يتحركوا ، ويقوموا بعمل ما مضاد ، فسيرمون فى البحر كما كانوا يشعرون ويشيعون •

ولذلك فانهم بمجرد أن علموا بخبر زيارته للجزائر ، قرروا القيام باضراب عـام شامل ، وبمظاهرات صاخبة فى اليـوم الـذى يسبق زيارته للجزائر ، حتى يشعروه بغضبهم ونقمتهم على سياسته ، وليؤثروا عليه حسب زعمهم ، كما إثروا قبل ذلك فى فى مولى عام 1956 • فيتراجع عن مشاريعه وخططه • وتحمست للعمل منظمتهم التى اطلقت على نفسها اسم : « جبهة الجزائر الفرنسية » •

ولكى يبرزوا غضبهم ونقمتهم ، قاموا بأوسع حركة للارهاب فى مدينتى الجزائر ، ووهران ، راح ضحيتها ، حسب التقارير الفرنسية نفسهـا حـــوالى 500 جزائرى • وحاولوا ارغـــام الجزائريين بالقوة على الانضمام الى حركتهم ، والمناداة بشعـــار : « الجزائر فرنسية » ، مثلما فعلـوا ذلك خـلال تمرد 13 ماى 1958 ، حتى يؤكـدوا خرافة : « الأخوة الفرنسية الاسلامية » •

ولكن الجزائريين ، فى هذه المرة ، كانوا أقوى ، وأصلب ، منهم ، وأشجع وأشـد مراسا • فقرروا أن يعطوا لهم درسا تاريخيا فى معنى الأخـوة ، والوطنية ، ويؤكدوا للسلطات الاستعمارية مـدى اغترارها بالهدوء الظاهرى الذى علقـت عليه الآمـال العريضة • فقاموا بتنظيم مظاهرات معاكسة بلغت الذروة فى العنف ، والشدة ، والقوة والصمود ، والتحمل ، رغم كل الوسائل الجهنمية التى استغلت ضدهم لارغامهم على العودة الى الهدوء والسكينة •

وقد انتظمت هذه المظاهرات فى معظم مــدن الجزائر الكبرى وخاصة : الجزائر العاصمة ، ووهران ، وبلعباس ، والاصنام ، وشرشال ، وتيبازة ، والبليدة ، وبجاية ، وقسنطينة ، وعنابة • واستمرت من يوم 10 الى يوم 16 ديسمبر 1960 ، ولم تتوقف الا عندما وجهت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية نــداء الى الشعب الجزائرى لايقافها ، بعد أن حققت الغرض المطلوب منها •

وقد اتسمت هذه المظاهرات بالعنف ، والشدة ، والقسوة ، خاصة بوهران ، وأحياء الجزائر العاصمة الكبرى مثل بلكور ، والحراش ، وصالامبى (المدنية حاليا) والقصبة وحمل السكان خلالها الأعلام الوطنية ، ونادوا بشعارات : « تحيا الجزائر » و « يسقط الاستعمار » و « تحيــا جبهة التحرير » و « الاستقلال للجزائر » • واندفع الرجــال ، والنساء ، والأطفال ، الى التظاهر متحدين الدبابات ، والرشاشات ، والقنابل • ورسم الجرحى بدمائهم الأعلام الوطنية ، وشعارات : « الاستقلال » و « الحرية » • ولعــب اليهود دورا بارزا مع الأوروبيين فى الارهــاب ، والاعتداء عــلى الحرمات ، والمقدسات الاسلامية كالمساجد ، وحرمات النساء •

4

لقد كانت لمظاهرات ديسمبر 1960 ، نتائج بالغة الأهمية ، بالنسبة لمسيرة الثورة الجزائرية ، اذ كانت بمثابة بعث جديد للمقاومة الشعبية الجماهيرية فى المدن والحواضر الجزائرية التى كان الاستعمار الفرنسى يدعى ويتبجح بأنــه قضى عليها تماما ، وأن الشعب الجزائرى أصبح صديقا حميما للجيش الفرنسى الذى يقوم بتصفية ما سموه : « البقايا الأخيرة » لفرق جيش التحرير الوطنى فى الجبال والارياف •

اغترت السلطات الفرنسية كثيرا بذلك الهدوء النسبى الذى ساد المدن الجزائرية خلال عامي 1959 و 1960 • وزين لها الخبراء النفسانيون من هيئــة ضباط الصاص (مصالح الشؤون الاجتماعية) بأن نفوذ جبهة التحرير الوطنى قد انهار تماما ، وأن السكان اصبحوا لا يثقون بها ، ويتمنون أن يتمكن جيش الاحتلال من تصفية الثورة ، والقضاء عليها تماما حتى يخلدوا الى الهدوء والراحة •

وكانت دهشة الادارة الاستعمارية شديدة ، وبالغة ، عندما واجهها ذلك الفيضان الشعبى الهادر الذى اكتسح معظم المدن الجزائرية مثل الطوفان ، وهو ينادى بسقوط الاستعمار ، وحياة الثورة ، وجبهة التحرير ٠

ولكن دهشة الجنرال دوقول كانت أشد ، وأبلغ أثر ، لان الواقع الذى شاهده ، وعاينه ، بنفسه كان معاكسا تماما للتقارير التى كان يرفعها اليـــه مستشاروه مـــن الجزائر ، والتى تصف له خلود الشعب الجزائرى الى الهدوء ، والسكينة ، ومـوت جبهة التحرير الوطنى فى المدن ، وقرب نهاية جيش التحرير فى الجبال ٠ فادرك أن السلطات الاستعمارية بالجزائر تكذب عليه ، وتزور له الوقائع والأحداث ، وتأكد من أنه كان يتصور فى ذهنه قوة الأوروبيين بالجزائر أكثر مما هى فى الواقع ، ويتصور قوة الجزائريين أقل مما هى فى الحقيقة والواقع ، كما قالت ذلك جريدة بريطانية ٠

وقد عبر دوقول عن دهشته هذه بقوله : ان ما رأيته وسمعته هو واقع ، ويجـــب أن نقبله ، ونزن به المشكلة الجزائرية الوزن الصحيح ٠ فاسرع فى قطع رحلته ، وعاد الى باريس ، وشرع فى انتهاج مرحلة جديدة ، وأخيرة ، تجاه الثورة الجزائرية ، وهى : الاعتراف بجبهة التحرير الوطنى كممثل شرعى ووحيد للشعب الجزائرى ، والدخول معها فى المفاوضات المباشرة التى انتهت باعترافه ، مرغما ، بحرية الجزائر الكاملة ، واستقلالها التام والشامل عام 1962 ٠

وقد تأكد الفرنسيون بالجزائر ، بعد هذه المظاهرات ، بأن نهايتهم الحتمية قـــد أزفت ، وأن رحيلهم عن الجزائر ، بات وشيكا ، وأمرا محققا ٠ فعبر أحدهم عن ذلك الى جريدة لوموند (العالم) الفرنسية يوم 14 ديسمبر 1960 ، وقال : والآن لم يبـق لنا الا ان نحاول المحافظة على الأمن ريثما نحزم امتعتنا ، ونركب الباخرة ٠ فرد عليه آخر بقوله : لقد دقت ساعة الحقيقة ٠

والحقيقة أن المستوطنين الأوروبيين ، قد جنوا على أنفسهم الصخب الذى أثـاروه ضد دوقول فى مظاهرات يومى 8 و 9 ديسمبر ٠ وضاعفوا من هذه الجناية على أنفسهم

بعد امضاء اتفاقية ايفيان ، وايقاف اطلاق النار يوم 19 مارس 1962 ، عندما أسسوا : منظمة الجيش السرى الارهابية •

وبذلك أصبح لا مفر من أن يرحلوا عن الجزائر بدون مهلة ، وبصفة جماعية ، والى غير رجعة • وآراح الله الجزائر والشعب الجزائرى من شرورهم ، ومتاعبهم المستقبلة ، وكان ذلك رحمة من الله ويمنا ، وبركة ، على هذا الشعب ، وهذا البلد •

في مفهـوم الثـورة والنقـد الثـورى

د· عمـــار طالبى
أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر



ذاع فى عصرنا هذا عدد من المفاهيم ، الاجتماعية والسياسية والفلسفية ، واختلطت معانيها فى أذهـان الناس بالرغم من البحوث والدراسات الكثيرة الـتى عالجت هذه المفاهيم · لكن كانت هذه الدراســات فى بلاد اجنبية عنا لها مستواها الحضارى وامكانياتها العلمية التى تتيح لها البحث الدقيق والنظر العلــمى القائم على الوقائع المعاصرة وتحليلها والخروج مـن ذلك بنظريات ونتائج قد تكون ذات مفعول تطبيقى ، حتى ان كثيرا من الدراسات الاجتماعية والسياسية التى قـام بهـا الامريكان كان الغرض منها معرفة عناصر القوة فى الثورات من أجل القضاء عليها ومنعـــها أو تحويلها الى أهداف أخرى مضادة للثورة الحقيقية · وهو ما يسمى بالثورة المضادة ، اذ انه ـ كما قال مالك بن نبى ـ لا يكـفى اطـلاق الثورة وتفجيرها بل ان المشكلة الاساسية فى النقد الثورى هي المراقبة الدقيقة لسيرها تحميها فى تطورها ، وايجاد نظرية تحليلية تجعل هذه المراقبة فى الامكان لكشف الاخطاء ومعالجتها ·

اذ انه يمكن تفجير الطاقة الثورية فى نفوس الجماهير ، واثارة الوعي بالظلم الذى تراكمت آثاره فى النفوس ، وربما يكون هذا أمرا ميسورا ، ولكن العنصر الفعال هو عنصر القيادة ووحدتها وتوجيهها لهذه الطاقة توجيها فنيا ، ومعنى ذلك أنـه

بجانب تلك القوة النفسية التى ينطوى عليها الجمهور ، يكون من الضرورى وجـــود عنصر فني يحدد للثورة غايتها ووسائلها واستراتيجيتها التى تحفظ وجودها وتضمن استمراريتها حتى لا يتمكن العدو من الوصول الى داخلها للقضاء عليها وتحويـــل مجراها ، وهذا ما يجعل كثيرا من البلاد الاسلامية أنها « تجـد نفسها بعد الثورة فى وضع كان سابقا على الثورة وربما أسوأ مما كان بل وقـــد تجد نفسها فى ظـــل ايديولوجيات لا يعرف فيه الابطال الذين سقطوا فى ميدانها الافكار التى سقطوا من أجلها » (1) .

وربما يحدث أن يعتقد بعض الناس الذين اذا نبهوا الى بعض الانحرافات فى بداياتها أنها تستخفى تلقائيا ، وينصحون لنا بترك الامور فانها ستعود وحدها تلقائيا الى مجراها الطبيعى (2) .

قد ينتهي تطور الثورة الى ثورة مضادة مقنعة تنطلق فى وقت محدد لتحتـــل مراكز استراتيجية قبل أن تحتلها الثورة الحقيقية ، فالثورة الحقيقية تأخذ فى التخلى يوما بعد يوم عن مكانها لثورة مضادة تستخدم اسمها وصفاتها الظاهرة ووسائلها لقتلها وشغل مكانها مع المحافظة على مظاهر الثورة الاولى التى تصبح كالستائر التى تدور خلفها عمليات قلب خط السير ... » ويعتبر مالك بن نبى هذه الظاهرة هى المشكلة الجوهرية فى كل نقد ثورى (3) .

وذلك انه بالاضافة الى عيوبنا الداخلية عيوب المجتمع المتخلف وأخطائه هناك عملية « توليد الاخطاء » والمولد لها هو الذى يلعب فى مسرح السياسة والـــذى نسميه بالاستعمار الذى يبنى أموره السياسية على أمور نفسية يعرفها جيدا ولا تكاد نتائجه تخيب فى عالم يعتمد على الانفعال وعلى الاوثان من الاشخاص وتلقائيـــة السلوك اللاارادى .

والسبب فى ذلك فيما يرى أن « المفاهيم والآراء لا تتأسس فى عالم الافكـــار وانما فى عالم الاشخاص » (4) .

---

(1) مالك بن نبى ، مشكلات الافكار فى العالم الاسلامى، مكتبة عمار ، القاهرة 1971 ص 160 .

(2) المرجع نفسه ، ص 162 .

(3) المرجع نفسه ، ص 163 .

(4) المرجع نفسه ، ص 164 .

وتحاول أجهزة الاستعمار أن تمنع كل سبيل أمام النقد فى الحياة السياسية فى البلاد الاسلامية وخاصة اذا كان الامر يتعلق بتكوين ثورة مضادة فى الظلام أو لاخفاء أسبابها اذا كانت قد تكونت بالفعل ٠

فالاخطاء التى تؤثر فى التطور الثورى فى نظر مالك بن نبى نوعان : أخطاء طبيعية وأخطاء مولدة ولكن السبب واحد وهو يكمن فى حياتنا النفسية ، وذلك ان « طغيان الشيء وطغيان الشخص هما اللذان يسيطران على عقولنا » (5) ويذهب الى القول بأن هذه الاسباب يمكن أن تختفى عندما تبسط الافكار سلطانها على عالمنا الثقافى لاننا عند ذلك يسترجع تقديرنا للامور عامة وفى مجال السياسة خاصة طابعه المنهجي الشامل ورؤيته الواضحة للاشياء فى وحدة وتركيب متكامل ٠

ليست الثورة مجرد عملية عنف وكفى كما يزعم فانون والا لم تعد ان تكون عملية تمرد لا هدف لها ٠

ذلك أن الثورة فى معناها العام هي التغيير السريع الاساسى الذى يحدث فى الظروف السياسية والاجتماعية معا وذلك حينما يطاح بحكم قائم ليأخذ مكانه نظام جديد ٠ وقد تدل على تغييرات جذرية الا انها غير سياسية الطابع ، وتكون هذه التغييرات أحيانا تدريجية وبدون عنف كما تدل على ذلك المصطلحات الآتية : الثورة الصناعية ، الثورة الثقافية والثورة العلمية وما الى ذلك من التغييرات الجارية فى مختلف مجالات الحياة الثقافية ٠

فدلالة الثورة لا تقتصر فقط على التغيير العنيف أو التعديل العميق لنظام الحياة الاجتماعية ولكن تدل أيضا على تغيير أساسى فى العلاقات بين الطبقات العليا المسيطرة بحيث تدمر هذه العلاقة وتحرر الطبقة الدنيا من الاستغلال الاقتصادى فيما يذهب اليه بعض الباحثين الاجتماعيين ٠

واذا نظرنا الى معنى الثورة من الناحية العلمية الاجتماعية الوصفية فاننا نجد لها معنى وصفيا لا يشير الى معنى « القيمة » وهى أنها كل تغيير مفاجىء جذرى عنيف فى نظام الحكم والمجتمع ، وهو معنى الثورة الحقيقى ٠

وهناك من وقف من معنى الثورة موقفا آخر واعتبرها شأنا من الشؤون المعقدة المتناقضة دائما وأنها مليئة بالامور اللامتوقعة كما يذهب الى ذلك FEJTO F. وأنها

(5) المرجع نفسه ، ص 169 ٠

ظاهرة يتفجر فيها كل اللاشعور الشعبى مع كل ما ينطوى عليه من الرجعية والتقدمية كل شيء فيها اختلط فيه الحابل بالنابل الهادىء والعنيف (1) ·

وكان معنى الثورة فى القرن 18 الاوروبى مبنيا على معنى المساواة الطبيعية Natural equality بين جميع الناس ، وعلى نظرية « سيادة الشعب » Popular Sovereignty وهي نظرية تتنكر لسلطة التقاليد · وأن المحكومين لهم الحق فى تغيير الحكم بوسائل سلمية واذا الزم الامر فبوسائل العنف (2) ·

واعتبر مفكرو القرن 19 ان الثورة الاجتماعية والسياسية الكبرى هي أداة لتقدم الانسانية الحتمى نحو مجتمع تسوده الحرية والمساواة والانسجام الاجتماعى

وهناك مدارس فكرية لها اتجاهاتها فى تفسير معنى الثورة فمنها من يذهب الى تأكيد معنى المساواة باعتبارها غاية للثورة وانها ميزة التقدم ، وأنصار هذه المدرسة على استعداد لان يستعملوا المناهج الدكتاتورية فى سبيلها كما نجد ذلك فى نزعة لينين الدكتاتورية ·

ومنها من يذهب الى الديمقراطية الليبرالية التى تنظر الى ثورة الجماهير على انها ثورة تقدمية موجهة الى الطغاة للاطاحة بهم وترمى الى ترسيخ الحرية والحكم الديمقراطى · وهناك من يحاول أن يحقق الحرية والمساواة معا مثل الاشتراكيات الديمقراطية ·

ونجد من يقف من الثورة موقفا متشائما محافظا مثل نيتشه ولوبون Le Bon ومن اليهما ممن يرى ان الثورات انفعالات شعبية مهدمة ويذهب بعض علماء النفس الديناميكى المعاصرين الى أن ذلك تعبير عن « نفسية الجماهير » ويقارنون الثورة بالنزعة العدوانية عند الشعوب البدائية · وأنكر سان سيمون وماركس وأوجيست كميت مبدأ الحق الطبيعى باعتباره غير علمى وذهب ماركس الى القول بالطابع الحتمى للثورة الذى تحمل عليه ضرورات اقتصادية وزعم أن قوى الانتاج فى المجتمع تصل الى مرحلة من مراحل نموها الى الصراع مع علاقات الملكية ومع هيكل النظام الاجماعى والسياسى · وعندما تصبح الاخيرة أي علاقات الملكية قيدا للانتاج تنمو أزمة ويبدأ عهد الثورات الاجتماعية ويؤدى ذلك الى عجز الطبقة الحاكمة ولا ترضى

(1) Hangary and Socialism, University and Left. Revieu, Winter 1958, p. 13

(2) Thomas Jefferson and American Democracy, London, 1948, p. 69.

الطبقة المقهورة المستغلة أن تحيا أكثر تحت الظروف القائمة ويؤدى هذا الصراع بين الطبقات الاقتصادية الى ثورة عنيفة ، وينظر ماركس الى الثورات على أنها عوامل ضرورية للتقدم وأنها قطار التاريخ (1) ·

وعدل هذه النظرية الحتمية الاقتصادية فى الثورة الى حد ما لينين الذى رأى ان الحرب الضروس وقهر المواطنين يمكن أن يكون نقطة انطلاق ثورة وتهديم النظام القديم ، واعتقد أن عهد الامبريالية عهد الحرب العالمية الأولى يلزم بالضرورة أن يزرع سياسة الصراع وأن يرعاها تلك السياسة التى تقوم ضد الاضطهاد ، اضطهاد الاوطان وهي أيضا السياسة المتمثلة فى الصراع بين البروليتاريا والبورجوازية فهو يرى ان الحتمية تكون أولا فى صورة عصيان الحركات الوطنية وفى الحروب وثانيا فى حروب البروليتاريا وعصيانها ضد البورجوازية وثالثا فى الجمع بين هذين النوعين من الصراع · وهو يؤكد أكثر من ماركس ضرورة التنظيم السرى الذى تسوده الطاعة العمياء ويكون مركزيا لتكوين ثوريين نظريين وذوى مرانة محترفين للثورات لاعداد جماعة مسلحة ثائرة وقيادة الحركات الثورية ·

ونجد من جهة أخرى أنصار النظرية الفوضوية مثل Kropot Kin وغيره يرون أن كل الثورات حاولت أن تحقق « العدالة » بالثورة ولكن الواقع اننا نجد طاغية يأخذ مكان طاغية آخر فيها ·

ويذهب سوروكين وعلماء الاجتماع والسياسة فى القرن 20 الى أن الثورة هي تغيير مفاجىء سريع عنيف يشمل القانون الرسمى للمجتمع أو الدستور ونظام القيم التى يمثلها ووضع نظام آخر · ويفرقون بين الثورة السياسية التى تغير فيها الطبقة الحاكمة والحكم وبين الثورة الاقتصادية التى يغير فيها النظام الاقتصادى بعنف كما يميز الثورة الدينية والقومية ويسمى الثورة التى تحاول أن تغير كل النظم الهامة وكل القيم التى ترتبط بها الطبقة الحاكمة بالثورة الكلية : Total Revolution

وقد يأخذ علماء الاجتماع والمؤرخون والصحافيون كلمة « الثوره » بمعناها الواسع ·

(1) The Class Struggle in France, 1848 - 1850,

ويمكن القول بأن الثورة انما هي قضاء على النظام الاجتماعى والسياسى القائم لا ليحل محله مجرد جماعة أخرى كما يحدث فى الانقلابات ولكن ليحل محله نظام اجتماعى دينى سياسى فلا تصبح الثورة كما قال بعض الباحثين مجرد « طب لامراض الدولة » ولكن مذهب ثورى جديد يغير من ملامح المجتمع تغييرا جذريا فيما يذهب اليه J.S. Erös فى دائرة المعارف الفلسفية (1) .

والثورة الجزائرية ثورة تحريرية قام بها مجتمع أغلبه فلاحون فجروا ثورة تعبر عن توقهم الى الحرية وعن ضميرهم الذى تكون عبر التاريخ ، وكانت طاقتهم الحية فى جوهرها شعورا اسلاميا يتمثل فى اصطلاح « الجهاد » وفى كلمة « مجاهدون » مما يعطى لمعنى الكفاح معنى عميقا فى بعده النفسى والاجتماعى وقيمة عليا تعلو على كل شىء آخر على النفس وعلى الولد وعلى المال وكان شعار المعركة الاولى والمعارك التى تلتها عند الهجوم على العدو « الله أكبر » مما يزرع فى نفوس المجاهدين شعورا علويا غريبا لا يشعر به الا من عانى مثل تلك اللحظات الفائقة فى حياة الانسان ، فهذه الطاقة هي العنصر الأساسى فى ثورة الجزائر الذى أمدها بالحياة طوال فترتها بالرغم مما انتابها من صعاب ومشكلات ، وهو الذى غطى ما يمكن أن يقال عن ضعف الاستراتيجية النظرية الفنية وعوضه لحد ما . وهذا يتمثل فى صورته العنيفة القوية فى أهل البوادى والجبال الذين حاول الاستعمار أن يجمعهم فى محتشدات ليقضى على الثورة ولكنه لم يفلح ، بالرغم من حربه النفسية ودراساته المتعددة لعوامل هذه الثورة ومراميها ووسائلها ونفسيات القائمين بها وبث بعض أنصاره فى صفوف الثورة ليقضى عليها من الداخل وقد حاول ذلك عدة مرات وكانت خريطة الثورة الجزائرية مظلمة أمام الاستعمار لا يدرى عنها شيئا فى أوائلها الى سنة 1967 حيث حاول أن يصل الى بعض المعلومات التى يمكن أن تتيح اغتيال قادتها ومعرفة مراكزها ، وارسال أجهزة معينة كالمذياع وأجهزة الارسال والاستقبال وكتابة الرسائل الخادعة التى يمكن أن توقع الشكوك فى النفوس والخلاف بين القادة والمجاهدين واضعاف القوة المعنوية التى هي الزاد الاعظم لكل مجاهد ولكل مقاتل فى كل حرب وفى كل ثورة .

ان ثورة أول نوفمبر باعتبارها ثورة بلد مسلم تعتبر تجربة جديدة للتغيير وللتحرير على أساس اسلامى دفع النفوس وكان زادها الوصيد فى ظلال فقر مدقع فقر فكرى

(1) « Revolution » in Encyclopedy of philosophy.

وثقافى واقتصادى وتؤكد هذه التجربة فى زماننا القريب هذا الثورة الاسلامية فى ايران التى هدمت عروش الطغيان التى ظن الناس أنها راسخة قدمها بجيشها ومخابراتها وجواسيس الامريكان وغيرهم ولا مكان لاخضاعها ولكن القوة النفسية التى أعطاها الامام لجماهير ايران الاسلامية كانت أقوى من ذلك كله · انها نمط جديد فى عصرنا هذا من الثورات وتجربة تاريخية تستحق الدراسة كما تستحق الثورة الجزائرية الدراسة للكشف عن الحقيقة ، وليظهر القانون الحقيقى الذى يحكم التجارب الثورية ، وان فى مقارنة الثورات وتحليلها لدرسا يفيد رجل السياسة ورجل الاجتماع كما يفيد رجل التاريخ ورجل الفلسفة ·

مـن خصـائص الجيـش الـوطنى
البطـولة ـ العفـة ـ الشهـامة ـ التسـامح

محمد الصالـح الصديق



مضى على اندلاع ثورة التحرير الجزائرية ربع قرن ولم يكتب عنها لحد الآن الا لمحات وشـذرات لا تلقى الا بصيصا من ضوء على بعض جوانبها ٠

واعتقد أن المؤرخين سيعنون بهذه الثورة يوما وينصفونها ، وان جزءا من عنايتهم سيخصـص لميزاتها البارزة التى افتكت بها هذه الثورة اعجاب العالم وانتزعت تقديره واحترامه وكانت بها شغـل الفكر واللسان والقلم أكثر من سبع سنوات ٠

وأبرز مميزات الثورة الجزائرية ـ فى نظرى ـ هي البطولة، والعفة ، والشهامة والتسامح ٠ وليس مما يتسع له المقام الافاضة فى هذه الخصائص والمميزات لان ذلك يتطلب وقتا واسعا وعناية خاصة ومجلدا ان لم يكن مجلدات ٠

وانما غايتى فى هذه العجالة التى أساهم بها فى احياء الذكرى الخامسـة والعشرين من اندلاع الثورة أن أقدم لمحات خاطفة ولكنها ناطقة بهذه المميزات مـع ملاحظة بأن هذه الخصائص والمميزات هي طابع الشعب الجزائرى بمختلف طبقاته الثورية المناضلة ولكنى سأقتصر فى العرض والبحث والتحليل على جيش التحريـر الوطنى لكي لا يتشعب الموضوع ويتسع ٠

بطولة جيش التحرير الوطنى :

يتقاضانا واجب الانصاف أمام البطولة الخارقة التى سجلها جيش التحرير الابي الباسل خلال سبع سنوات ونصف سنة من الكفاح المرير أن نتتبع هذا الجيش من يوم أن بدأ زحفه المظفر أول نوفمبر سنة 54 الى أن انتزع حريته واستقلاله سنة 62 ونعيش معه فى كل مكان من التراب الجزائرى الملتهب فى الجبال وفى الصحـــــارى ، وفى الاودية وفى السهول فى كل كمين وفى كل معركة وفى كل هجوم ، ونرخى للقلم العنان ليكتب ويلاحظ ويسجل ، ويعلل ويحلل .

ولكن انى لنا ذلك ؟ وعمر الثورة طويل ... وطويل ... انه بحساب الايام (2693) يوما وكل يوم من هذه الايام التى ظل فيها هذا الجيش البطل يزحف الى النصر ، ويعانق الموت من أجل الحياة ملحمة فريدة يعجز القلم واللسان عن الاحاطة بوصفها ويقف العقل مشدودا مبهوتا ازاء ما تعكس من أحداث ومعالـــم وصور وأبعـــاد ...

وتاريخ كل ملحمة من هذه الملحمات صفحات مجد ، وآيات بطولة ، والحـــان فتوة وأهازيج نصر ... فأي ملحمة من ملاحم هذا الجيش البطل نوثـر بالاشـــادة والتنويه وبالذكر والتسجيل ؟ هل نتحدث عن تلك الكمائن التى كان ينصبها أبطالنا ضد القوات الفرنسية فى الشهور الاولى من الثورة بالعصي والخناجر وبنادق الصيد أكثرها مشدودة بالاسلاك فيثبتون ويصمدون ويستبسلون أمام الدبابات والرشاشات والقنابل ، ويلحقون بقوات العدو خسائر فادحة نكراء ؟

أم نتحدث عن تلك الهجومات الظافرة التى تزلزل مواقع العدو وقلاعهم وحصونهم وتشتتهم شر تشتيت وتوقعهم فى البلبلة والاضطراب وتنشر فيهم الرعب والفزع وتجعل من يتخلف منهم عن قوافل النار يعيشون بين الموت والحياة ؟

أم نتحدث عن المعارك التاريخية الخالدة التى خاضها جيشنا الباسل بعد أن أصبح جيشا حقيقيا عصريا منظما له مراكزه وعتاده ، وله اطاراته ومصالحه ، وصار يشنف آذان الدنيا بألحان بطولته حتى وقف العدو مندهشا حائرا من ضرباته الماحقة القاصمة لا يدرى مما يرى ويسمع أهو فى اليقظة أم فى المنام ؟

ولكن اذا كان هدفنا مما نقدمه فى هذه العجالة أن نعطى صورة ولو خاطفة عن بطولة جيش التحرير الوطنى فاننا نكتفى بالاشارة الى طائفة من المعارك المشهورة

والهجومات الرهيبة التى برهن فيها الجيش عن بطولة خارقة ستبقى هالة من نور على جبين الجزائر المسلمة ، ولنذكر منها :

هجومات سكيكيدة التى وقعت يوم السبت من شهر أوت سنة 1955 تلك الهجومات الصاعقة التى قام بها الوطنيون وبرهنوا بها على شجاعتهم واعتزامهم على افتكاك حرية الجزائر مهما غلا ثمنها ، وكان لهذه الهجومات أثرها فى انتشار اللهيب المقدس الذى أتى على يابس الاستعمار وأخضره ٠

معركة (قعور الكيفان) بالقرب من (الشريعة) والتى وقعت يوم 15 ـ 6 ـ 57 وقد استمرت عنيفة رهيبة من طلوع الفجر الى نهاية النهار ، وحشد العدو فيهـــا جميع أنواع وسائل الدفاع الجنونية من طائرات نفاثة ومدافع رشاشة والمدفعيـــة الثقيلـــة ٠

وبالرغم من عنف القتال وانعدام التكافؤ بين القوتين استطاع جيش التحـــرير البطل أن يصمد ويواجه ٠٠٠ ويقاتل باستبسال خارق سقط من جرائه (200) بين جرحى وقتلى فى جانب العدو ، حسب تقدير القيادة العليا للولاية ٠

معركة (فرنة) التي وقعت يوم 29 ـ 7 ـ 57 بنواحى ســوق هراس وشاركت فيها القوات الفرنسية بالطائرات والاسلحة الثقيلة المختلفة وانقلبت المعركة الى اشتباك عنيف ظل طويلا ، وكان جيش التحرير يتقدم الى النار فى شجاعة خارقة لا يبـــالى بالموت لانه يعلم أنه ان كسب المعركة فقد كسب عز الابد ٠٠٠ وقد قتل فى جانب العدو (93) جنديا فرنسيا أما العتاد الحربى فكانت الخسائر فيه كبيرة ضخمة ٠

معركة (جبل العمور) التى وقعت فى صبيحة يوم 2 أكتوبر سنة 1956 شارك فيها (500) جندى من جيشنا الوطنى وكانت قوات الاحتلال تعد بالآلاف وتواصلت المعركة على أشد ما تكون ضراوة وقساوة أسبوعا كاملا أظهر فيها المجاهدون بطولة فذة بالرغم من العتاد الحربى الضخم الذى كان يواجهه برا وجوا وكانت النتيجة قتل (1375) جندى فرنسى واحراق (82) سيارة عسكرية واسقاط عدد من الطائرات وقد ترك هذا النصر الباهر الذى سجله جيش التحرير فى هذه المعركة أثرا عميقا فى النفوس يذكر بملاحم أجدادنا الابطال ٠

أما القوات الفرنسية فقد صارت منذ وقوع هذه المعركة تنظر الى الثورة فى رهبة وخوف وتقرأ للثوار ألف حساب ٠

معـركـــة (بوزقـــزة) الـــتى بـــدأت يـــوم 3 أوت سنـــــة 1957 بقيادة جنرالات كثيرين من بينهم الجنرال (أولار) والجنـرال (ماسو) وهذه المعركة جرت فى المنطقة الجبلية الواقعة بين بالسترو (الاخضرية حاليا) وسور الغزلان والمدية والبليدة ·

وقد خاض جيش التحرير هذه المعركة بشجاعة نادرة واستطاع أن يلحق بالعدو هزائم نكراء فى الارواح والعتاد الحربى بالرغم من القوات الفرنسية الضخمة التى شاركت فى المعركة ، وبالرغم من أسراب الطائرات المقاتلة التى امتلأت بها السـماء ، ورغم اشتعال الارض بنيران القنابل المحرقة وقصف المدفعية الثقيلة ·

وقد ارتفعت خسائر العدو الى (420) قتيلا وزهاء (500) جريح ، واسقطـت طائرات وحجزت كمية من الاسلحة ومما يلاحظ فى هذه المعركة أن فرقتين من جنود العدو وقعتا فى الفوضى والاضطراب عندما جن الليل وأخذتا تتقاتلان اذ تظن كل واحدة انها تجاه جيش التحرير الوطنى ·

وقد حقق جيشنا فى هذه المعركة نصرا عظيما وأثبت للعدو قدرته على المواجهة الحربية وانه سيد الموقف فى كل وقت ·

معركة (عنابة) التى وقعت صبيحة يوم الاربعاء 24 جوان 59 وتظهر خـطورة هذه المعركة والروح النضالية الفذة التى يتمتع بها المجاهد الجزائرى فى أن عدد جيش التحرير كان لا يتجاوز (60) جنديا كلفوا بمهمة من طرف القيادة ولكن العدو اكتشفهم قبل أن يصلوا الى هدفهم وكانوا قادمين من تونس ·

وعندما كانوا على بعد (30) كلم من عنابة أخذت القوات العسكرية الفرنسية تضرب حولهم حصارا محكما ، واستقدموا عدة فرق من القواعد العسكرية فتجاوز عدد الجنود الفرنسيين (20000) جندى يعززهم عتاد حربى متنوع من طيران ، ومدفعية ثقيلة ، ومصفحات ·

وكان المجاهدون يحملون سلاحا عصريا يمكنهم من مواجهة العدو بالرغم من عدم وجود أي تكافؤ ــ وأية مقارنة بين الجانبين ·

واستمرت المعركة فى ضراوة وشدة صمد فيها أبطالنا للموت وأظهروا تفوقا ، مدهشا فى ميدان الحرب ومقدرة خارقة على المواجهة وأساليب الحرب الحديثة ·

ولما لم يطق الجيش الفرنسى مواجهة الموقف الرهيب بل صار الكثير من الجنود يرفضون القتال ويحاولون الفرار ويلقون بأسلحتهم الى الارض حتى أن أربعة منهم

قتلوا لارغامهم على التقدم الى الامام ـ وتأكدت القيادة الفرنسية من فشل جنودها وانتصار جيش التحرير ـ استعملت الغازات الخانقة ، وبذلك استشهد جل المجاهدين .

وقد بلغت خسائر العدو فى هذه المعركة نحوا من (840) بين قتيل وجريح وكان من بين من شاهدوا المعركة من ميناء عنابة ضابط بحرية ، بريطانى ، ولما شاهد عنف المعركة وضراوتها وكثرة الجنود الفرنسيين والاستعدادات الضخمة التى شاركت فيها سأل شخصا بجانبه :

كم عدد الثوار الذين تحاربونهم الآن ؟

فأجاب الآخر بأنه يقال ان عددهم حوالى السبعين .

فابتسم الضابط البريطانى ابتسامة سخرية وقال :

في استطاعة الحلف الاطلسى أن يعتمد على الجيش الفرنسى ضد الاحتلال السوفياتى ... وقد تناقلت هذه المعركة وكالات الانباء العالمية واطلع عليها العالم أجمع فى دهشة واعجاب ولم تستطع حتى القيادة الفرنسية أن تخفى نبأ هذه المعركة أو تحط من أهميتها كما تعودت أن تفعل لانها دارت فى ضواحى عنابة لا فى غابة أو فى منطقة جبلية .

معركة (غابة مزرانة) فى المنطقة الرابعة من الولاية الثالثة ، أحد حصون جيش التحرير الوطنى وعرين من عرائنه المهيبة وتشرف هذه الغابة على مدن تقزرت ودلس وعلى ماكودة وسيدى نعمان ، وسيدى داود وبغلية وقد دارت فى هذه الغابة معارك طاحنة فى مختلف سنوات الثورة ...

ولعل أقساها وأشدها وأوسعها تلك التى وقعت فى شهر أكتوبر سنة 1957 والتى انقلبت فيها غابة مزرانة سعيرا يتاجج ، وبركانا يتفجر بالحمام والقذائف .

وقد ضرب المجاهدون فى هذه المعركة أروع الأمثال فى البطولة وصمدوا صمود الرواسى وشعارهم (اما النصر الذى تعقبه العزة لله والحرية للوطن والكرامة للامة ، واما الشهادة التى يعقبها البقاء فى الدنيا بالذكر والخلود فى الجنة بالروح) .

وقد جندلوا من جنود العدو عددا كبيرا لم يعلم عددهم وسقط فى ميدان الشرف جمع من أبطال أول نوفمبر 1954 .

معركة (ميمونة) التى شاركت فيها قوات هائلة فرنسية تعززها قاذفات القنابل والطائرات العمودية والمدفعية والدبابات ، ورغم اشتعال الارض بنيران القنابل المحرقة وقصف المدفعية الثقيلة ورغم اختناق الجو بالرائحة الكريهة المنبعثة من القنابل المكروبية السامة التى لم يتورع أعداء الانسانية عن القائها على جيش التحرير الوطنى ـ فقد استطاع أبطالنا أن يتفادوا ضربات العدو وأن ينزلوا به أفدح الخسائر وقد قتل أكثر من (150) جنديا فرنسيا واستمرت المعركة من طلوع الشمس الى الساعة التاسعة ليلا حيث لم يعد يسمع (غير الصراخ والاصوات الشاكية تنبعث من صفوف الاعداء تائهة مختنقة) ٠

عملية (جيمال) التى شرعت فى تطبيقها القيادة العسكرية الفرنسية بتاريخ 22 جويلية سنة 1959 والتى تمثل فى نظر الفرنسيين المرحلة الحاسمة من مراحل برنامج شال الذى كان يهدف الى القضاء على الثورة ، وتعد أكبر عملية منذ بداية الثورة ، واجمعت الصحف الفرنسية اذ ذاك انها أضخم وأكبر وأوسع عملية منذ بداية الثورة وقد حشدت فرنسا لهذه العملية أكبر قوة عسكرية برية وبحرية وجوية ، (واعترفت القيادة الفرنسية انها جلبت لهذه العملية (35000) جندى من مراكز خارجة عن نطاق عملية (جيمال) ويضاف هذا العدد الى (40000) جندى هم الموجودون فى المراكز العسكرية القارة داخل مساحة العملية

واستمرت العملية أشهرا وقف أبطالنا خلالها مواقف تثير النخوة والاعجاب والاعتزاز وانتهت العملية بالفشل الماحق الذريع وانهيار معنويات الفرنسيين وخاصة الاطارات منهم لانهم كانوا قد علقوا آمالا كبيرة على هذه العملية ثم تبينوا أنهم واهمون حالمون، وان جيشا من هؤلاء الابطال الذين لا يعرفون الاحجام لا يمكن أن يهزم ٠

معركة (جبل مزى) التى دارت رحاها بين خمس كتائب من جيش التحرير الوطنى وقوات فرنسية يرتفع عددها الى (3000) جندى ، واشتدت ضراوتها أيام 6 ، 7 ، 8) ماي سنة 1960 بمشاركة أكثر من ثمانين طائرة وأسلحة ثقيلة مختلفة ٠٠٠ وأظهر جيش التحرير خلال هذه المعركة ـ كعادته ـ ضروبا رائعة من الثبات والصمود والبطولة اذهلت العدو وجعلته يعمد الى استعمال قنابل (النابالم) المحرقة لينتقم لخسائره الفادحة الضخمة التى قدرت بنحو (300) بين قتيل وجريح ٠

هجوم عين (الزانة) الذى قام به جيش التحرير الوطنى ضد مركز (عين الزانة) بالشمال القسنطينى فى شهر جويلية سنة 1959 م وهو أهم مركز فى الجهة

الشرقية حيث يشرف على مسافة شاسعة تمتد من سهول عنابة الى الحدود التونسية الجزائرية ، ويتكون من أربع مبانى أساسية : مبنى الكومندوس حيث يقيم معظم الجنود الفرنسيين ـ مبنى ضباط الشؤون الاهلية (الساس) ـ مبنى القيادة الفرنسية ·

وقد استطاع جيش التحرير البطل أن يحتل هذا المركز ويستحوذ على وثائق هامة ، وينزل العلم الفرنسى ويرفع مكانه العلم الجزائرى ، ويلحق بالقوات الفرنسية أفدح الخسائر فى الارواح والعتاد وقد ساعد على هذا النصر الباهر تنظيم قيادة جيش التحرير لهجومات منظمة منسقة فى نفس الوقت على جميع المراكز القريبة مثل (بوسزدوك ـ وبوحجار ـ وعين كرمة ـ والساقية ـ ولاكور ـ وغيران) ·

هذه بعض المعارك الضارية التى خاضها جيش التحرير الوطنى ضد القوات الفرنسية عرضناها تذكيرا ببطولته النادرة التى حقق بها نصرا باهرا، والتى ستبقى على مر الدهور تؤكد تلك الحقيقة العسكرية التى تقول (بأن قيمة السلاح تقدر بقيمة الجندى الذى يحمله) ·

أما سر هذه القوة التى صنعت المعجزات ، وجعلت من القلة كثرة ، ومن الضعف قوة ، ومن الجهل والامية علما ومعرفة ، فسرها يعرفه المجاهدون وحدهم وسيظل كامنا فى رسوخ العقيدة وقوة الايمان ، وصدق الوطنية وايثار الفدائية على الانانية ·

عفة جيش التحرير الوطنى :

ان سنوات الاحتلال البغيض المظلم الذى عاشه شعبنا وقاسى فيه ألوانا من الظلم وضروبا من الشقاء طهرته وجعلته شعبا يمتاز بأخلاق كريمة وسلوك قويم وظلت هذه الاخلاق كامنة تنتظر الفرصة وتتحين المناسبة حتى دقت الساعة واندلعت ثورة نوفمبر الخالدة سنة 1954 وعندئذ ارتفع الستار عن تلك القيم والفضائل فانكشفت على حقيقتها قوية ناصعة فانبهر العالم واندهش وصارت مثار الاشادة والتندر فى كل مكان ·

وجيش التحرير الوطنى هو المرآة التى تعكس تلك القيم والاخلاق ، والصورة الصادقة التى تنطق بأصالة الشعب الجزائرى وتاريخه وأمجاده · وقد كان فى الاشهر الاولى من ثورته لا يملك الا التوجيهات العامة ولما عقد مؤتمر الصمام فى 20 أوت 1956 سنت قوانين ، وحددت معالم ، يقف عندها كل مجاهد وكان من تلك القوانين تحريم الاعدام ذبحا ، والتمثيل بالشخص أو تشويه خلقته ، وتحريم الاعتداء بكل الوانه وأنواعه ونص القانون (على أن كل من يعتدى على عرض فتاة أو امرأة يحكم عليه بالاعدام) ·

فكانت هذه القوانين الصارمة تتجاوب كل التجاوب مع ما يشعر به المجاهد فى أعماقه من أحاسيس وما يؤمن به من سلوك ، وما طبع عليه من أخلاق ٠

وليس وكدنا فى هذا المقام أن نستعرض صورا تتجلى فيهـــا أخلاقية المجاهـد الجزائرى لان ذلك يتقاضانا ـ أيضا ـ دراسة خاصة ويكلفنا على الاقل مجلدا ضخما ولكن يكفى أن نورد حادثة واحدة ترينا اخلاقية المجاهد فى جيش التحرير ، وعفته وسفالة الجيش الفرنسى وتهوره ونذالته ٠

ان الثورة التى كان يقودها جيش التحرير الوطنى ثورة منظمة هادفة بكـــل ما تحمله هذه الكلمات من معانى وأبعاد ، أما الحرب التى يقودها الجيش الفرنسى فهي حرب وحشية ضد الشعب الجزائرى تستهدف الابادة الجماعية ، والمســـخ والتشويه والانتقام، يدفعه فى كل ذلك تكالب ٠٠٠ وعنصرية ٠٠٠ ووحشية (ورغبة ملحة فى دوس القيم والفضائل) ٠

ولعل الصورة التالية تكشف عن ذلك وان كانت الالفاظ والتعابير مهما كانت لا تصف الحقيقة على ما هي عليه وانما لها مدلولها الذى يعين القارىء الكريم على تصور الحقيقة :

نصبت كتيبة من جيش التحرير الوطنى كمينا لقافلة عسكرية فرنسية للتموين فى مكان يدعى (القلاب) بالقرب من مدينة باتنة فى شهر أوت سنة 1959 واستمر القتال بين الجانبين عنيفا قاسيا قرابة نصف ساعة قتل خلاله أغلب الجنود الفرنسيين وتمزقت جثث بعضهم واختلطت بسيارات حطمتها مدفعية جيش التحرير ٠

الى هنا فالامر عاد ليس فيه ما يستلفت النظر أو يثير الاهتمام لان المعـــارك والكمائن والاشتباكات تتكرر كل يوم فى مختلف أنحاء القطر الجزائرى والمجاهدون يسجلون كل يوم انتصارا على العدو ٠٠٠

ولكن الامر الذى راع المجاهدين وأثار عجبهم الى حد الدهشة هو انهم لم يكادوا يأخذون فى جميع الأسلحة التى رميت فى الارض وفوق جثث الجنود ـ وقد انسحب من الميدان من اخطأهم الموت ـ حتى رأوا أربع فتيات فرنسيات يخرجن بين الصخور فوق الطريق وهن يرتعدن روعا وفزعا :

وقف المجاهدون فى حيرة من أمرهن وعجبوا أن يسلمن من الرصاص الـــذى كان يمطر كل منطقة الكمين قرابة نصف ساعة ٠

انه الاجل ٠٠٠ الذى ما يزال فيه بقية ٠٠٠

تقدمت اثنتان وقد أصابهما عي واضطراب من هول الموقف ، وتمشت صفرة فاقعة فى وجهيهما ، فوقفتا أمام جمع من المجاهدين كأنهما تريدان أن تقولا شيئا ولكن اللفظ احتبس عليهما فصارتا تنظران اليهم فى وجوم غريب ...

واستطاعت احداهما أن تجمع قواها وتقول فى لهجة حزينة متهافتة :

(لا تقتلونا ... نحن نسوة) ...

فتقدم المجاهدون ونزعوا منهن السلاح الذى كن يحملنه ... ثم التفت اليهن أحدهم وقال :

(لا عليكن ... نحن ثرنا لنحارب الرجال لا النساء ...)

ثم تأهب المجاهدون للانسحاب وانطلقوا ومعهم الفتيات الاربع حتى وصلوا الى جبل (مستوى) جنوب (باتنة) حيث توجد تحصينات جيش التحرير المنيعة وهناك أفردوا مكانا خاصا للفتيات الفرنسيات حيث قدموا اليهن طعاما وفرشا ، وأحاطوهن بسياج منيع من الامن وعشن مع المجاهدين مدة فى طمأنينة وسلام حتى انهن دهشن من المعاملة الانسانية المثالية التى يعاملن بها من قبل جيش التحرير ، وصرحن للصحافيين بعد اطلاق سراحهن انهن وجدن ما لم يخطر على بالهن يوما من الرجولة والشهامة والعفة والكرم .

وفى الوقت الذى كانت الفتيات الفرنسيات يتلقين من المجاهدين كل احترام ، ويعاملن معاملة انسانية مثالية كان الجنود الفرنسيون يرتكبون أفظع الجرائم الخلقية مع النساء الجزائريات فى بيوتهن فى نفس الناحية ، فى منطقة (خنشلة) وفى ناحية (سلانيس) .

ففى ناحية (بابار) قرب (قرية سلانيس) توجهت قوات كبيرة من الجنود الفرنسيين الى القرية المذكورة ، فقتلوا مدنيا ومجاهدا مريضا كان يعالج هناك ثم أخذوا معهم فتاتين ـ احداهما أخت المجاهد الجريح ـ وامرأتين،وسيق اربعتهن الى المركز الفرنسى ، وبعد محاولات الاستنطاق فعلوا بالمرأتين ما لا يتصور، من ذلك اعتداء ستين جنديا على شرفهما .

وهكذا يتجلى الفرق بين جيش التحرير الوطنى الذى يقال عنه اذ ذاك انه مجموعات من الارهابيين والوحشيين والخارجين عن القانون ... وبين الجنود الفرنسيين الذين تخرجوا من معاهد وكليات ، وجاءوا للجزائر ليقضوا على الارهابية والوحشية وليقيموا دائم التمدين والتحضير .

ان انتهاك الجنود الفرنسيين للحرمات فصل طويل لا نهاية له ، وصفحة شنيعة سوداء تفوق كل وصف ، ولا نستطيع أن نكتب الا سطورا قليلة لكثرتها ، وللشعور بالانقباض والاشمئزاز من الحديث عنها وحسبك ـ قارىء الكريم ـ أن تعرف انه لم تسلم قرية ولا ناحية من هذه الفواحش والموبقات التى تندى منها الانسانية .

ان الجندى الفرنسى قد تخصص فى الاجرام الخلقى منذ حرب الهنـد (الصينى) ومارس الرذيلة حتى أصبحت طبعه الخلقى الذى يعسر عليه الانفلات منه ... والفظائع الوحشية ، والموبقات الخلقية التى كان يرتكبها فى الجزائر خارجة عن نطاق الاعمال العسكرية البحتة وداخلة فى نطاق الجرائم الفردية التى تعاقب عليها كـل القوانين فى العالم أجمع ... ومع ذلك فهي فى نظر القادة والضباط الفرنسيين قانونية يشجع عليها مرتكبها ... وكم من ضابط ترقى لانجاز عمليات اجراميـة تفوق كل تصوير

ان الجندى الفرنسى ينفلت من زمام العقل الذى يتحكم فى العاطفة ، ويدعو الى التفكير فى عواقب الامور فتراه يهبط الى حيوانية الجنس ، ويتحول الى نزوة بهيمية مسعورة مكلوبة ، وعندئذ لا يقيم وزنا أي وزن للقيم ولا أي حساب للاعتبارات المختلفة التى تخطر ببال العاقل المفكر ، فيصبح ذئبا مفترسا (لا يكاد ينتهى من الاعتداء على شرف حتى يبحث عن شرف آخر يلوثه ويدنسه فى بهيمى وحشى) وقد يعمد الى طريقة لا أحط منها ولا أدل على فقدان الآدمية منها ...

أما المجاهد فى جيش التحرير فانه يلقى القبض على فتيات فرنسيات ، وهو رجـل يتمتع بكل ما يتمتع به الجندى الفرنسى من القوة البدنية والنفسية ، فيعيش معهن اشهرا ، ويتمكن منهن كما شاء ، ويشعر بالاحساس الجنسى نحوهن ولكنـه لا يقترف ولو أدنى سوء بل قد لا يحضر بباله اقدام على ما لا يتفق والاخلاق العامة .. ذلك لانه يغلب نفسه ويسيطر على نوازعه ، البهيمية ، ويتحكم فى عاطفته ، ويفكر فى عواقب الامور ، ويقرأ الف حساب لسمعة الثورة التى هي سمعته وتاريخها الـذى هو تاريخه .

وهنا تظهر قيمة المجاهد ... وتتجلى عظمته وقوته ... وانها تتجلى أكثر وأكثر فى (عفته) فالاحســاس الجنسى ـ كما يذكر العلماء ـ أعنف الاحاسيس الـتى تتملك الانسان ، وتتصرف فيه بعد احساسه بذاته ... وهو القوة المسيطرة على كيانه ، الموجهة له من حيث يشعر أو لا يشعر ... واطمئنان المرء على ذاته مـن

الوحوش الضارية ، والآفات الجائعة ، والمفاجآت القاتلة أسهل من اطمئنانه على ذاته من (هذه القوة) .

وجيش التحرير الوطنى قد ضرب أروع الامثال فى تحكمه ، وفى سيطرته على عاطفته ، وفى قدرته على الانفلات من هذا الوحش الضارى .

وقد تواترت وقائع تاريخية عجيبة ما يزال المجاهدون يذكرونها كأحلام نائم تشهد للمجاهد الجزائرى بقوة شخصيته ، وكمال عقله ، وقوة ايمانه ، وحسن سلوكه ، وقدرته على الاعتدال والاتزان .

وكم نام مجاهد مع امرأة فى فراش واحد وتحت غطاء واحد (لظروف حربية خاصة) دون أن يشعر نحوها بما يريب وقد أكد لى ضابط فى جيش التحرير ـ وهو الآن على قيد الحياة ـ انه عاش مع امرأة أكثر من شهر وكثيرا ما نام معها فى مكان واحد (وهي على أجمل خلقة) دون أن يشعر نحوها الا بما يشعر به نحو أخته من عطف وحنان ...

ان المجاهد الجزائرى يستجيب بطبيعة نشأته وتربيته ودينه لنداء الضمير ... ومن ثم فهو لا يطيع دوافع الشهوة ، ولا يرضخ لسلطان الهوى ، ولا ينساق مع غريزته الحيوانية الى غايتها بل يضبط نفسه ويعلن لها رايه الصارم فتخمد وتنطفىء حتى يجد المتاع الشرعى فتنبعث وتعود الى مقرها وتجرى فى مجراها الطبيعى .

ان المعركة بين المثل الانسانية الرفيعة ، والغرائز الحيوانية الوضعية معركة قاسية صعبة لا ينتصر فيها الا من عظمت نفسه ، وتهذب طبعه ، واستقام سلوكه .

ولعل الغريب فى الامر ان الشعب الذى يسمى متأخرا وجاهلا ومتعصبا هو الذى كان يناضل من أجل المثل العليا وتحقيق نصرها فى هذه المعركة ، وان الشعب الذى يسمى متمدنا ومتعلما وراقيا هو الذى يحارب لتحطيم تلك المثل ودوسها) .

تلك هي (عفة) جيش التحرير الوطنى نسجلها للحقيقة والتاريخ وليعرفها من لا يعرفها وهي (بطولة) أخرى تضاف الى (البطولات) الكثيرة التى امتلأت بها صفحات التاريخ المشرقة الزاهية التى يتباهى بها التاريخ البشرى .

شهامة جيش التحرير الوطنى :

جيش التحرير الوطنى ثورى منظم ... يؤمن بالله ويدين بالاسلام ، دين العدل والرحمة والتسامح ، ويدفعه الى الكفاح هدف نبيل هو الحرية والاستقلال ومن ثم

فالمجاهد الجزائرى لا يتسفل الى الدنايا ، ولا يحيد عن الجادة ، ولا يخضع للعوامل العاطفية الفردية الشخصية ·

وكم صحافى أجنبى عاش مع جيش التحرير مدة فبهرته أخلاقه وفضائله ، وأدهشه احترامه لقوانين الحرب ، بكل دقة ، وكتب عن ذلك مشيدا ومثنيا ، وقـد اعترف لاكوست نفسـه بـأن (ما يواجهه فى الجزائـر ليس تمردا قبليا أو تهويشا عشائريا ، وانما هي ثورة حقيقية بالمعنى العصرى لمفهوم الثورة) ·

وتأخذ هذه الكلمة مكانتها فى الاعتبار عندما نعلم ان قائلها (لاكوست) من أعداء الثورة البارزين الذين بذلوا قصارى جهودهم من أجل القضاء عليها ·

فاذا كان الجيش الفرنسى الذى كان يحارب فى الجزائر جيشا مترصدا عنصريا سفاحا همه سفك الدماء ، وهتك الاعراض ، ودوس الكرامات ، ونشر الرعـب والفزع ، بلا شفقة ورحمة ، لانه لا يخضع الا لنوازعه النفسية ، ونزواته البهيمية ، فان جيش التحرير جيش نظامى واع ، يخضع للرأي والتدبير والخطة ، ويستجيب لنداء الشعور الانسانى والضمير اليقظ الذى زوده به دينه وتربيته ، وهمه الذى يشغل عليه مشاعره وأحاسيسه أن يزيل الحواجز والموانع التى حالت بينه وبين حريته وسيادته وسعادته ·

وتأتى رجولة جيش التحرير وشهامته فى طليعة المزايا الشخصية الكثيرة التى رفعت ثورة التحرير الجزائرية الى أعلى مكانة فى تاريخ الثورات التحريريـة فاكتسبت بذلك عطف العالم وتقديره وتأييده ·

واذا كانت الرجولة والشهامة من الصفات التى عرف بها جيش التحرير الوطنى ـ ولا ندعى العصمـة ـ والتى تغـنى بها كثير من الشعراء المعجبين بثورة الجزائر ، فانها تتجلى أكثر وتأخذ طابع الصرامة والتحدى فى بعض الاحيان وذلك عندما تنتهك حرمة ، أو تداس كرامة ، أو ينهش عرض ؛ فعندئذ تغلى الدماء ، وتصرخ فى العروق أصوات الاربعة عشر قرنا من تاريخ العقيدة والايمان والبطولة والمجد التليد فتنطلق الكتائب للثار والانتقام وتقتحم الموت ولا تبالى،وتروى الارض بالدم الوضيـع وبجثث الجراد القذر ··· الذى لم يكتف بسلب الحرية فسلب الشرف ، ولم يكتـف بالقتل والقمع والتشريد والنهب والتجويع ، فتدفق فى الفجور ، وتوغل فى الفساد ، فراح يقتل الفضيلة ، ويلوث الشرف ، ويمارس من الفواحش والموبقات ما يعد مـن الخرافة وهو صدق ·

وعادة جيش التحرير الوطنى البطل منذ اندلاع ثورته التحريرية انه ينصب الكمائن ويشن المعارك وينظم الهجومات على المراكز والمعاقل العسكرية الفرنسية ويبرهن فى كل ذلك عن بطولته ورجولته ، ويواجه ، العدو بثبات نادر ، ويعمل جهده على أن يجنب المدنيين العزل ـ من الجانبين ـ آفات الحرب وشرها ، أما الجيش الفرنسى فانه كان على العكس من ذلك ... انه يحارب الضعاف ويظهر شجاعته فى القرى الآمنة العزلاء أمام النساء والشيوخ والاطفال ، فيرتكب الفواحش ويمارس جرائم الاخلاق فى نذالة ولؤم وسفالة ، فيثور جيش التحرير ويثار للفضيلة والشرف ، وينتقم للضعاف ·

ان من العمليات التى لم تفتأ تمارس منذ اندلاع ثورة التحرير فى مختلف أنحاء القطر الجزائرى أن تهاجم القوات العسكرية الفرنسية معززة بالطائرات والدبابات والمدفعية الثقيلة قرية وتحاصرها من كل جهة ثم تقتل جماعة من الرجال بعد أن تجرب فيهم فنونا مختلفة من الاهانة والتعذيب ثم تتفرغ للنساء والاطفال فينتزع الجنود الفرنسى عن الصبايا والابكار ثيابهن ويخرجونهن من بيوتهن عاريات ثم يرتكبون الاهانات الفاحشة على مرأى ومسمع من ذويهن ، وأحيانا يجبرونهن على الرقص ، وكثيرا ما يقتلون أولئك النساء ويمثلون بهن أفضع تمثيل ثم يرمى بجثثهن فى خندق أو كهف ثم يهدم عليها بالمتفجرات كما وقع ذلك ـ مثلا ـ فى شهر ماي سنة 1957 بدوار الدكان جنوب مدينة تبسة ·

وكلما وقعت جريمة فظيعة عبث فيها الكلاب النجسة بالانسانية البريئة ، هذا العبث المخجل الذى ترتفع عنه حتى الوحوش الضارية ـ هاج جيش التحرير وهب هبة الاسد الهصور فانقض على الجنود الاوغاد يلقنهم درسا فى الشهامة والبطولة والرجولة ، وعلمهم كيف يكون الانتقام للشرف عندما يهان ، وكيف يكون الموت عندما تتسع جرائم الجيش الفرنسى ، وتتفجر غرائزه البهيمية ، ويتحول الى قطيع من الوحوش ، عندما ينهزم فى معركة أو كمين ، فعندئذ ينتقم لخسائره بارتكاب أفظع ما يمكن من الجرائم والفواحش والموبقات ، وقد صور الشاعر العربى هذا الطبع الدنىء ، وهذا الوضع المخزى الذى عرف به الجيش الفرنسى فقال :

احترق أيها الحقود المعنى ... وانفجر فى (الدروب) كيدا وطعنا
وتعلل لدى هزائمك النكراء ... بصيد الضعاف والعزل منا
قد عرفنا الاقدام منك على الاطفال ... والعاجزين ذلا وجبنا
ورأيناك فى الجبال وفى الميدان ... عبدا لمن يلاقيك قنا
فادخر هذه المخازى تمثالا ... من العار فى بلادك قنا

وتهز الفتوة الاسلامية ، والشهامة العربية والنخوة والرجولة جيش التحرير الوطنى حينما تهان المرأة الجزائرية وتستذل كرامتها وعزتها ، فتستنجد به فيهيب فى ضراوة الاسود فينجدها ويرفع رأسها عاليا ، ويسجل أروع موقف بطولى فى التاريخ المعاصر ، واليك صورة من الصور الكثيرة فى هذا الموضوع :

(أسفرت معركة ضارية دارت رحاها بين رجال التحرير وكتيبة عسكرية فرنسية - عن قتلى وجرحى كثيرين فى صفوف العدو ثم تفرق المجاهدون تحت جنح الليل فقصد ستة منهم قرية فى سفح الجبل ونزلوا ببيت أحد الفدائيين، وفى الصباح الباكر بينما كانوا يستعدون للخروج فوجئوا بحصار محكم خانق حول القرية فاختبأوا فى خندق أعد لذلك خصيصا ولم تكد تشرق الشمس حتى أخذت القوات العسكرية تزحف على القرية الآمنة ، للانتقام لقتلاهم وجرحاهم كعادتهم وأخذت تفتش القرى منزلا منزلا وفردا فردا ، وتحطم الاثاث وتنهب الاموال وتعتدى على الحرمات ، وتهين الرجال وتقتل المشبوهين ، ولم ينفك الحصار عن القرى وتنسحب القوات العسكرية حتى بعد الزوال .

وما ان استيقن أحد الفدائيين من انسحاب القوات العسكرية حتى حضر الى المجاهدين الستة ليكشف لهم عن فظائع جيش الاحتلال فى هذا اليوم المحموم وكان مما أنبأهم به أن امرأة فى قرية مجاورة بينما كان ضابط فرنسى يحاول الاعتداء على كرامتها اذ صرخت بأعلى صوتها تستغيث بجيش التحرير الوطنى وهي لا تعلم ان بالقرية مجاهدين ولكن معرفتها ببطولتهم وسماعها بالمواقف المشرفة التى يقفها جيش التحرير فى مثل هذه الظروف جعلها تتصورهم على مقربة منها وانهم ينجدونها اذا استغاثت بهم . ولم يكد المجاهدون يسمعون هذا النبأ حتى غلا الدم فى أجسادهم وهزتهم النخوة القومية والعزة الاسلامية ... وهبوا هبة الاسود وأقسموا يمين الاحرار ليأثرن لهذه المرأة بما يرفع رأسها ورأس المرأة الجزائرية عاليا ، فانطلقوا - وهم ستة - وأرواحهم على أكتافهم ، وقلوبهم تتنزى فى صدورهم ، الى أقرب ثكنة عسكرية .

وهناك ثاروا للمرأة المسلمة وبرهنوا بالفعل على أن الحياة لا قيمة لها اذا ديست الكرامة وأهين الشرف ... وسجلوا فى تاريخ الجزائر عنوانا من عناوين العلا ، اسمه (الشهامة) .

فقد اقتحموا - كالقذائف الموجهة - باب الثكنة واندفعوا الى ساحتها وهم يطلقون الرصاص يمينا ويسارا فى ضراوة مذهلة وقتلوا منهم عددا كبيرا ثم سقطوا جميعا شهداء الكرامة والعزة والشهامة .

تسامح جيش التحرير الوطني :

الاسلام دين التسامح والعفو والصفح عند المقدرة ، والذى يتسامح فى حقه ويعفو ويصفح عن السيىء يعد عظيم النفس ، نبيل الخلق ، رحب الصدر ، عالى الهمة ، وليس من السهل أن تعفو عمن أساء اليك ، وتتسامح معه الا أن تكون قوي العزيمة ، عظيم الصبر ، فحينما استشهد حمزة بن عبد المطلب مثل به المشركون وأراد المسلمون أن يمثلوا بمن قتل من المشركين فمنعهم الرسول ، ولما آمن قاتل حمزة وهو وحشى الحبشى لم ينتقم منه النبى بل عفا عنه وقد مثلت هند بجسد حمزة (وأخرجت كبده ولشدة حقدها حاولت أن تأكلها ثم جاءت الى النبى (صلعم) متنكرة واعتنقت الاسلام ثم اظهرت وجهها فعرفها الرسول وصفح عنها ولم يعاقبها على ما فعلت بعمه حمزة ٠

وعندما سير أبو بكر الصديق رضي الله عنه جيش المسلمين الى (ابنى) بقيادة أسامة بن زيد زوده بهذه الوصية :

(يا أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، لا تمثلوا ، ولا تقتلوا ، طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تقطعوا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ولا بعيرا الا للطعام ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له سوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها) ٠

هذه أخلاق الاسلام وبها استطاع أن ينتشر فى مختلف أنحاء العالم ، ولما عرفت هذه الاخلاق عن المسلمين كانت هي التى تغزو القلوب والبلدان قبل الجيوش ، حتى (أن الجيش لما بلغ وادى الاردن) وعسكر أبو عبيدة فى (فحل) كتب الاهالى المسيحيون فى هذه البلاد الى العرب يقولون :

(يا معشر المسلمين : أنتم أحب الينا من الروم وان كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، واكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا) ٠

(وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل وأبلغوا المسلمين ان ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الروم وتعسفهم (١) ٠

---

(١) الدعوة الى الاسلام تأليف (ارنولد) ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين ٠

وعلى هذا المنهاج القويم سار جيش التحرير الوطنى ، وبهذه المبادئ والاخلاق كان يعامل الاعداء وشهد الاجانب والفرنسيون آنفسهم بآن جيش التحرير جيش النظام والتسامح والرحمة وكان يعامل الاسرى الذين يقعون فى قبضته بالشهامة والرجولة والحسنى .

ومن الذى ينسى تلك الرسالة الخالدة التى كتبتها القيادة العليا لجيش التحرير الى القيادة العسكرية الفرنسية وارسلتها مع أسير فرنسى أطلق سراحه بمناسبة شهر رمضان المعظم سنة 1956 تلك الرسالة التى تمثل عقيدة هذا الجيش وايمانه ، وتمسكه بمبادىء الاسلام ، واحترامه للقوانين الدولية فى الحروب ، وترفعه عن الدنايا لانه يبغضها ويحتقرها ، ويبغض ويحتقر كل من يتسفل اليها .

وقد جاء فى تلك الرسالة بالخصوص :

« ليكن فى علمكم اننا مسلمون واننا نؤمن بالله لا اله غيره وبأن الاسلام هو الذى علمنا مبادىء الرحمة والسخاء ... واننا نبعث اليكم مع الاسير الذى أطلقنا سبيله هذه الرسالة وفيها نطلب منكم ـ أيها الجنود ـ أن تحترموا التعاليم الاخلاقية التى يعمل بها الجنود فى أنحاء العالم كله ...)

ولا أدل على انسانية جيش التحرير وتسامحه ومعاملته الحسنى للاسرى الفرنسيين من شهادات هؤلاء أنفسهم ، فكل من يطلق سراحه منهم يشيد بجيش التحرير ويعود الى أهله بذكريات وعواطف تملك عليه مشاعره وأحاسيسه وتجعله يعيش مدينا لفضل هذا الجيش الانسانى العظيم .

وما أكثر شهادات الاسرى فى هذا الموضوع ولو جمعت لكونت كتابا يجمع بين الافادة والامتاع وحسبنا أن نورد ـ على سبيل المثال ـ طائفة منها :

فى يوم 9 سبتمبر 1959 أطلق جيش التحرير الوطنى سراح (جان شوفالى) أحد أعوان الحرس الفرنسى الجمهورى وسراح خطيبته الآنسة (كيربيل) وقد صرحت الآنسة للصحافيين عن معاملة جيش التحرير قائلة : (لم يعاملونا معاملة سيئة فى أي وقت من الاوقات بل انهم لم يحاولوا أبدا أن يفصلونى عن خطيبى وهو ما كنت أخشى أن يفعلوه وعندما نكون متنقلين فى الجبال يقدم لنا الثوار مأكلنا كسرة وعسلا أما عندما نستقر فى مراكز الجيش فيقدمون لنا مأكلا أحسن وأشهى وأكثر تنوعا) .

أطلق سراح جمع من الاسرى الفرنسيين فى شهر أبريل سنة 1959 فصرحوا للصحافيين بأنهم كانوا يعاملون من قبل جيش التحرير معاملة انسانية لم تكن تخطر

على بال أحدهم وكان لهذه التصريحات صداها البعيد فى أوساط الصليب الاحمر الدولى الذى نشر اذ ذاك بلاغا عبر فيه عن ارتياحه لمواقف جيش التحرير الوطنى ·

وأطلق سراح جماعة من يوم 18 ماي 1959 فصرحوا بما يثير النخوة والاعجاب ويظل هالة من النور على جبين الجزائر ومما قاله بعضهم : (··· وقبل ذهابنا قال لنا سكرتير الولاية الثالثة : اننا لا نطلقكم من أجل الدعاية فى الخارج ولكنا نرجع اليكم حريتكم بدافع انسانى) ·

ذلك هو الجيش الوطنى فى بطولته وعفته وشهامته وتسامحه ···

وذلك هو الجيش الفرنسى فى جبنه ولؤمه وسفالته وقساوته ···

فقد انتصر الاول وحق له أن ينتصر ، وانهزم الثانى وطبيعى أن ينهزم ···

وبعد فاننا نعيش هذه الايام ذكرى ثورتنا الخالدة التى قدم فيها جيش التحرير الوطنى أمثالا رائعة ببطولته النادرة ، وأخلاقه الكريمة ، وتمسكه بدينه الاسلامى القويم ، وسلوكه الذى كان مثار الاعجاب والتقدير ، لا بالنسبة الى قادته وشعبه فحسب ، ولكن أيضا بالنسبة الى العالم أجمع بما فيه أعداؤه الذين كانوا يواجهونه على جبهة القتال ·

واذا كان الاحتفال بالذكريات يهدف أولا وبالذات الى العظة والاعتبار للتزود بالوقود لمواصلة السير على الدرب الصاعد ، ومضاعفة الجهد من أجل حياة أفضل ، فاننا فى هذه الذكرى الخالدة (ذكرى مضى ربع قرن على اندلاع الثورة التحريرية) انما عرضنا طائفة من أخلاق هذا الجيش البطل للعظة والاعتبار ، والا فليس ما ذكرناه الا كلمات قيلت ، وقصص رويت ··

والعبرة التى نستخلصها مما ذكرناه هي ان جيش التحرير الوطنى لم ينتصر على الحلف الاطلسى الا بمزايا وخصائص كان يتمتع بها ولم يكن عدوه يملكها وهذه حقيقة لا يشك فيها الا من يشك فى البديهيات الاولية ·

فببطولته حطم الجيش الفرنسى :

وبسلوكه المثالى حتى مع عدوه اكتسب اعجاب العام وعطفه وتأييده ومؤازرته ··

فلنحافظ نحن على هذه المزايا والخصائص ولنتسلح بها ، ولنعش بها وعليها ومن أجلها · واذا كان جيش التحرير عفيفا شهما متسامحا وهو فى جبهة القتال ومع

عدوه الغاشم الغادر الذى لا يعرف الرحمة ··· فكيف ونحن نعيش أسرة واحدة فى ظل الحرية والسيادة والاستقلال ؟؟

مراجـــع البحـــث :

كتب للمؤلف (الجزائر بين الماضى والحاضر) (مذكرات مجاهد) (من قلب اللهيـــب) ·

المجاهد والمقاومة ·

العقيد (أعزورن محمد) ·

نــــوفمبــــر
والمجــاهــدون بالكلمـــة

الدكتور عبد الرزاق قسوم
أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

ربما كانت أكثر المعانى التصاقا بالثورة ، هى التى تتعلق بمدلول الجهاد • بل انه ليمكن القول أن الثورة والجهاد وجهان لعملة واحدة • فاذا كانت الثورة مدلولا لغويا ، يعنى التغيير ، والتحول ، بدءا بالفرد ، ووصولا الى المجتمع فالدولة ، فالامة ، فان الجهــــاد فى مدلولــه الاسلامى ، صفة موازية للثورة ، تنطلق فى أساسها من المعاناة اليومية للفرد ، فى بذل الجهد الديمومى ، لتحسين واقع الانسان ، كى يسهم بدوره فى تحسين الواقــع الاجتماعى •

فى ضوء هذا التحديد ، نستطيع التول بأن الثورة فى مفهومها اللغوى،تتسع لتشمل كل أنواع التحولات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، التى تتصل بحياة المجتمع

الانساني، في أي رقعة من العالم. أما الجهاد وهو مصطلح اسلامي ، فهو يلتقي مع الثورة، في جانب كبير من أهدافها في العناية بتغيير الواقع الانساني ، الا أنه ـ أي الجهاد ـ يبدو في مدلوله أكثر شمولا وعمقا ، لانه يتناول الانسان أفقيا وعموديا ·

من هذا المدلول تولدت معاني الجهاد الاصغر، والجهاد الاكبر . وفي كلا المدلولين نجد الجهاد يبدأ بالاعداد النفسي ، والتوعية ، وتحسين السلوك والاخلاق ، ليمتد الى الحد من سلطان الظلم ، وشيوع الانانية السياسية ، ومقاومة كل ألوان الاعتداء ، والاضطهاد، والوثنية، والشرك في حياة الامة ·

كان لابد اذن من هذه المقدمة، كتمهيد لمعالجة موضوعنا وهو العلاقة العضوية ، والجدلية بين ثورة نوفمبر الرائدة . وصنف من المناضلين في صفوفها . وهم المجاهدون بالكلمة ·

المثقف ··· والثورة

الحقيقة أن ارتباط الثورة الجزائرية بالمثقفين ، هو كارتباط الروح بالجسد· فقد كان المثقفون هم الطاقة الحية، التي تجلت في بزوغ فجر الثورة ·

فالى المثقفين ، يرجع الفضل في توعية الانسان الجزائري ، بشخصيته ، وبتاريخه ، وقوميته . وناهيك من شعار رفعه المثقفون في وجه الاحتلال الفرنسي ، وهذا الشعار هو « العروبة والاسلام » واحقاقا للحق نقول ان هذا الشعار هو الذي به قاومنا ، وهو الذي به تحررنا ···

وبالتفاتة عابرة الى تصريحات أقطاب الاستعمار الفرنسي، في مواجهة الثورة الجزائرية . يمكن ايجاد المقارنة بين شعار « العروبة والاسلام » الذي رفعه الشعب الجزائري المجاهد ، وبين ردود الفعل العنيفة، التي كانت من المستعمرين لاسقاط هذا الشعار ، والعمل على ابطاله ·

فليس من قبيل الصدفة؛ أن يخرج جورج بيدو وزير خارجية فرنسا أيام اندلاع الثورة في المغرب العربي، عن وقاره ، وديبلوماسيته، ليفصح في انفعال، وعصبية عن حقده ويقول : « لن نترك الهلال يتغلب على الصليب » ·

وليس بمحض الصدفة أيضا أن يصرح « قى مولى » رغم « اشتراكيته » و « انسانيه مبادىء حزبه » بأن الحرب فى الجزائر ، هى حرب صليبية بين المسيحيين والمسلمين ، متخذا كدليل على ذلك تسمية الثوار الجزائريين لانفسهم بالمجاهدين ، وهتافهم أثناء الاستشهاد بشعار « الله أكبر » ٠

لقد كانت ردود الفعل هذه كلها تعبر عن انفعال وحقد دفين ، فى مواجهة مبادىء المثقفين الجزائريين،الذين كانوا يعدون للثورة الجزائرية ، ويهيئون نفسية المواطن الجزائرى ، لارساء دعائم الثورة،التى تقود حتما الى استعادة معالم الدولة الجزائرية المطموسة ٠٠٠ فهذا زعيم الثورة الروحية فى الجزائر عبد الحميد بن باديس ، يرسم كيان الوطن الجزائرى ، الذى حاول الاستعمار طمسه ، فصاح فى وجه فرنسا قائلا : « اننا نحن فتشنا فى صحف التاريخ ، وفتشنا فى الحالة الحاضرة ، فوجدنا الامة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة ٠ كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ، ولهذه الامة تاريخها الحافل بجلائل الاعمال ، ولها وحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها ، وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح ، ثم أن هذه الامة المسلمة الجزائرية ليست فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ولو أرادت ذلك ، بل هى أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها ، فى أخلاقها ، فى عنصرها ، وفى دينها ، لا تريد أن تندمج ، ولها وطن محدود معين ، هو الوطن الجزائرى فى حدوده الحالية المعروفة » ٠

هذه الروح الثورية الوقادة التى كان يتحلى بها ابن باديس،وثورته هى التى ألهبت الحماس الثورى الوطنى ، فأعدته خير اعداد لخوض غمار المعركة التحريرية ، وبهذه الروح أيضا،اعتنق المثقفون الجزائريون مبادىء الثورة،ومشوا فى صفوفها أبطالا فدائيين فى موكب التضحية والاستشهاد ٠

ولقد شهد بذلك العديد من المثقفين،الذين قدموا أرواحهم فداء لتحيا الجزائر، من أمثال : عمارة رشيد ، وعبد الرحمن طالب ، ومحمد شهرة ، وأحمد بوزقاق ، وعلى بومنجل وغيرهم كثير ٠

ومما يشهد للمثقفين الجزائريين أنهم لم يكونوا أبطالا فى التوجيه والقيادة السياسية فحسب ، بل كانوا فى موكب الفداء ، وفرق الكومندوس ، وهذه شهادة بذلك :

« سعدت يوما بحضور اجتماع احدى فرق هؤلاء الابطال (يعنى أبطال الكومندوس) قبل تسللهم الى مدينة عنابة ... لم يستغرق الاجتماع سوى دقائق شرح خلالها القائد الخطوط العامة للمهام التى سيقومون بها ... نسف مركز الحاكم الفرنسى للمدينة ، واغتيال أكبر عدد ممكن من جنود وحلفاء ، وأذناب الاعداء من رجال الكولون . والذى لاحظته أن أغلب هؤلاء الفدائيين من الطلاب الجزائريين » (1) .

ومما يؤكد هذه الحقيقة أيضا نداء التعبئة الذى وجهه الشاعر الجزائرى صالح خباشة للمثقف ، مهيبا به الى الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطنى ، حيث يخاطبه بقولـــه :

خض فى الجزائـر ثـورة حمـراء	ودع المـدارس والكتـاب وراء
ثـر غاضبا فى وجـه من سلب البـلا	د حقـوقها وأضامهـا وأسـاء
لتكـن مدارسـك الجبـال فدرسهـا	أجـدى وأرسـخ فى الحياة بقـاء
ليس البـلاغة أن تشقشق هـادرا	كـلا ولا أن تحسـن الالقـاء
ما الطب فى الوقت العصيب سوى علا	ج الشعـب ممـا ضره وأسـاء
ما الصيدلـة بعـد هـذا بيـع	أقـراص تـدر دراهمـا وغنـاء
لكنهـا بيـع الرصـاص فانـه	يشـقى الصـدور ، ويحسم الادواء

* * *

الجهـاد بالكلمـة

اذا كان الشاعر هو سجل تاريخ شعبه ، فان شعراء الجزائر ، هم خير من يؤرخون للثورة الجزائرية ، فى جميع مراحلها .

ومنذ الارهاصة الاولى للثورة ، وحتى عندما كانت مخاضا كان الشاعر الجزائـرى يعد لها ويبشر بها .

(1) سعد زغلول فؤاد ، **عشت مع ثوار الجزائر** ، بيروت ، دار العلم للملايين 1960 ص 198 .

فهذا محمد العيد يتنبأ بطول فجر الثورة من الاوراس ، فيبعث بتنبآته بشائر خير للشعب الجزائرى ، فى قصيده الخالد الذى يستهله بقوله :

باتتنـــة رعـــد البشائـر لعلعـا فأطـرب أوراسـا بهـا والشلعلعا

وصدق تنبؤ محمد العيد ، حين اندلع لهيب الثورة المباركة من جبـال الاوراس ، ايذانا بنهاية ليل الاستعمار ، الحالك السواد ٠

وتـأبى موهبـة الشاعـر الكبـير : محمـد العيـد الا أن تـوحى لى بمناجـاة لـه من داخـل أسـوار السجـن مـع طائر جزائرى يعـرف « بأبى بشير » يقول محمد العيد على لسان الطائر الذى جاء يحمل اليه بشرى استقلال الجزائر القريب :

سيحمد شعبـك العقـبى قريبـا ويحـرز نصره بيـد القديـر
ويشهـد بعـث دولتـه فـيرضى ويحـظى بالهـلالى المنـير
ويحكـم حكمـه الشـورى حـرا وخـير الحكم ، حكـم المستشـير

تلك اذن حتمية التاريخ،فى انتصار الثورة الجزائرية رغم الحرب اللامتكافئة ماديا بين القوتين وان حاول محمد العيد صياغة هذه الحقيقة،فى قالب أسطورى على شكل مناجاة بين أسير وبين أبى بشير ٠٠٠ أما الجديد فى هذا الحوار فهو الدعوة ـ مـن خلال ذلك ـ الى ارساء دعائم الدولة الجزائرية ، على أساس المبدأ الاسلامى العـادل مبدأ الشورى ، الذى يحدد احدى صيغ الحكم الديمقراطى للدولة الاسلامية ٠٠

وعلى غرار محمد العيد،سار شعراء آخرون فى الاعـداد النفسى ، والثقـافى ، والاجتماعى ، للثورة الجزائرية ، فهذا الاستاذ أحمد سحنون يصعد من أعماقه زفرات تعبر عن مدى انشغاله بعملية فك الخلاص ، وتحرير الحمى ٠٠٠ يقول الشاعر أحمد سحنون فى قصيده الرائع بعنوان « لا تطل لومى » :

لا تطل لومى ، ولا تطلـب نشيـدى أنـا فى شغـل بتحطيـم قيـودى
أأغـنى ويـدى مغلـولـة وبرجـلى قيـود مـن حديـد
أأغـنى ولسـانى مـوثـق وبطـوق خانـق طـوق جيـدى
أيغـنى مـن غـدا موطنـه بـين أنيـاب ذئـاب وأسـود

أيغني من غدت أمته بعد عز الملك في ذل العبيد
لا أغني قبل أن أجني المنى وأرى الاسلام خفاق البنود
لا أغني قبل تحرير الحمى فاذا حرر غنيت نشيدى

انها دعوة بالكلمة الصريحة الى الجهاد ، يبعث بها الشاعر الكبير أحمد سحنون الى رفاقه ، فى الالتزام بالكلمة ، مهيبا بهم الى العناية أولا بتحرير الحمى ، وتخليص الوطن من أنياب الذئاب ٠

هذه الحقيقة،حقيقة اتخاذ المدفع الى جانب القلم ، والرصاصة الى جنب الكلمة ، وسيلة للثورة ، هي التى نجدها تتردد عند شعراء جزائريين آخرين مثل : أبى بكر مصطفى بن رحمون الذى يعلن أنه ورفاقه من المجاهدين بالكلمة ، قد يئسوا من الاكتفاء بالقلم وحده سلاحا للمعركة ، فاتجهوا الى المدفع والرشاش، يعززون بهما كفاح القلم والكلمة ، يقولون ابن رحمون :

شكونا الظلم بالاقلام دهرا فلم نظفر من الشكوى بزاد
ولم نر للتظلم من جوانب سوى اغراقهم فى الاضطهاد
فلما لم نجد للرفق بابا لجأنا للكفاح وللجهاد

هذه النماذج من الادب الجزائرى المعاصر ، تؤكد مدى تفاعل المثقفين مع الثورة المظفرة ، ومدى مساهمتهم ، فى الاعداد لها ، والتعبئة لصفوفها ، والسير فى قوافل ومواكب فدائييها وشهدائها ٠

على أن من جنود الكلمة أيضا،بالاضافة الى أصناف المثقفين الذين ذكرنا ٠ صنفا آخر من الجنود،لعبوا دورا حاسما فى الثورة الجزائرية ، فى الريف والمدينة ، وعانوا السجن ، والنفى ، والتعذيب ، والتنكيل ، أولئك هم المعلمون الاحرار حماة الضاد فى الوطن الجزائرى ، وناصرو قيمه ، وأصالته ، وتراثه ٠

لقد وفاهم القايد الروحى الكبير : محمد البشير الابراهيمى حقهم حين وصفهم فى احدى خطبه ، بأنهم جنود العلم ، فقال مخاطبا اياهم : » أنتم جنود العلم ، ولكلمة « جندى » معنى يبعث الروعة ، ويوحى بالاحترام ، ويجلب الشرف ، ويغلى القيمة ،

لانه فى غاية معناه ، حارس مجد ، وحافظ أمانة ، وقيم أمة ؛ لذلك كان من واجبات الجندى ، الصبر على المكاره ، واللزبات ، والثبات فى الشدائد ، والازمات ، والسمع والطاعة فيما يغمض على الاذهان فهمه من العلل ، ويعسر على العقول هضمه من الحكم ٠ فاذا استرسل الجندى فى الجزع والشكوى ، أو خانه الصبر ، فلاذ بالضجر ، أخطأ النصر ، وضاع الثغر ، وانما انتم حراس دروب ، ومرابطو ثغور ، فاصبروا واثبتوا » (1) ٠

لقد كان المعلمون رمزا للجهاد بالكلمة الشريفة ، الملتزمة فى جزائر الثورة ، ولولاهم لكانت الجزائر مثل جزائر الواقواق الخالية ٠

جنود الكلمة اليوم

ان من يتأمل واقع الكلمة العربية اليوم ، بالمقارنة الى المحتوى العميق الذى كانت تختزنه،نفس هذه الكلمة ابان الثورة،لتفزعه حقيقة رهيبة ، وهى أن مجاهدى الكلمة الذين حملوا بالأمس لواء المعركة ، فى اباء ، واصرار ، وايمان ، قد استراحوا اليوم من واجبات الجندية ، وأصبحوا وكأنهم طلقاء من كل التزام،الا من العمل اليومى الذى يضمن يسار الحياة بأسهل الطرق وأبسط الوسائل ٠

لم يعد للكلمة اذن وزنها،الذى كان يوازى ثقل الرصاصة وأكثر ٠ وانما أفرغت من محتواها فلم تعد متضمنة لمعنى الوطنية ، والقيمة الخلقية ، والشعور بثقل الامانة القومية ، الملقاة على عاتق الجندى حاملها ٠ ويكفى للتدليل على صحة القول أن نسوق على سبيل المثال ــ ونحن نعيش الذكرى الخامسة والعشرين للثورة الجزائرية ــ عينة من واقع المدرسة الجزائرية ، فى ظل الاستقلال والحرية ٠

ان المدرسة العربية فى عهد الثورة،وما قبل الثورة ، كانت تتميز بخصائص عديدة، لعل أبرزها فى نظرنا :

أولا : الارتباط الوثيق بين التعليم والتربية مما جعل المعلم واعيا بانه مثال لتعليم الاطفال وتربيتهم خلقيا ، ونموذج فى الاستقامة والامانة للكبار ٠

---

(1) محمد البشير الابراهيمى « عيون البصائر » ج 2 ، ص 297 ٠

ثانيا : اصطباغ التعليم بالشعور الوطني، ممثلا بالنشيد الذي يتغنى بالوطن وحبه ، والعزم على صيانته ، والدفاع عنه بالنفس والنفيس .

ثالثا : الهيام برمز الوطن الذى هو العلم ، واحلاله من القلب محل السويداء ، مع ما يتطلب ذلك من تغن بقيمته ، والعمل على اعلائه ، مهما كانت الظروف ، وأيا كانت التضحيات .

كانت هذه اذن هى خصائص المدرسة الجزائرية ، ابان الثورة وقبلها ، فأين مدرستنا اليوم مما كانت عليه بالامس القريب ؟

لقد تحلل « المجاهدون بالكلمة » اليوم من كل التزام خلقى ، فانفصل التعليم عن الاخلاق،فى تصور الكثير من المعلمين ، وهو ما يشكل احدى المخاطر ، التى تتهدد عملية تربية الجيل فى مجتمعنا .

كذلك اختفت ظاهرة النشيد الوطنى من التعليم ، فى مدارسنا ومعاهدنا ، على اختلاف مستوياتها ، بل اننى لأراهن على أن القليل النادر من طلاب مدارسنا وثانوياتنا هو الذى يحفظ النشيد الوطنى . فهل هذا هو الوفاء لثورة نوفمبر من جانب أحفادها ؟ وهل هذا هو معنى مواصلة الثورة والجهاد،من جانب حملة مشعل المجاهدين بالكلمة فى جزائرنا المستقلة ؟

ان أبسط واجباتنا نحو شهداء الكلمة فى الجزائر، هو أن لا نحل فقط النشيد الوطنى ، والتربية الاسلامية المكانة اللائقة بهما ، وانما وأن ندخل تقليدا عريقا الى مدارسنا وهو تحية العلم ، ورفعه صباح ، مساء كمحاولة لربط جيلنا برمزه الوطنى ، وغرس حب الوطن ، وعلمه فى نفوس ناشئتنا ، ففى ذلك بعض الوفاء،لمن ضحوا بأعلى ما يملكون فى سبيل تحرير الجزائر . وفى ذلك تخليد لمبادىء رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فجاهدوا فى سبيل تحقيق النصر العظيم، بالكلمة الشريفة الملتزمة الخالدة .

اننا لو فعلنا هذا، نكون قد قمنا بأقل واجباتنا، نحو قوافل الشهداء،الذين نضع اليوم أكاليل النصر على أضرحتهم ، ولعل ذلك أضعف الايمان .

من ابعـاد الذكـرى الخامسة والعشرين لثـــورة نوفمبـــر

د· عباس مدنى
أستاذ علـوم التربية
بجامعـــــة الجزائـــــر



ان ثورة نوفمبر من كبريـات قضايا العصـر · ما تزال أمانة كبرى فى عنق التاريخ ما لم تاخذ حظها من الدراسة الموضوعية المنهجية العلمية · وهي أمانة فى عنق الاجيال الجزائرية والعربية والاسلاميـــة كرسالة حق ومبادىء عدل وحرية ·

ما أكثر أولئك الذين كتبوا عن ثورة نفمبر أو عن بعض جوانبها وأحداثها · لكنهم لم يوفقوا لاسبـــاب كثيرة ، منها وأهمها افتقار هذه الدراسات الى المنهجية التى ترفعها الى مستوى علم التاريخ الحديث · ان دراسة حدث كبير كهذا لاشك يحتاج صاحبها الى المنهج الشامل الذى يساعد على وضع القضية الكبرى كمحور لاحـداث الثورة وقرينة تاريخية تضمن للباحث والقارىء معا التوصل الى التفسير الدقيق لمختلف العلاقات والاحكام وان الدراسة التى لم تنطلق من سلسلة وحدة التاريخ لا تستطيع ان تحقق شيئا مما ذكرنا من أغراض العلم · فدراسة ايف كوريار Yves Courrière كنموذج لهذه الدراسات التى جاءت خارج نطاق وحدة التاريخ كعملية تفريغ للثورة من محتواها وما تضمنه هذا المحتوى من مبادىء وقيم ومفاهيم ·

ان الذى يقرأ كتاب les fils de la Toussain أبناء التوسا يجد ثورة نفمبر لا تزيد عن مجموعة من الاحداث كردود فعل لسياسة فرنسا فى الجزائر ذلك الوقت · انها أشبه شيء بقصة مأساة انتهت بطلاق · وسعى بعض الكتاب الفرنسيين كسلسلة الكتب التى نشرتها مجلة هسطوريا فى أعداد خاصة بحرب الجزائر أن يعطوا لاحداث الثورة مدلولات مادية سياسية استعمارية ليموهوا على الناس ويضللوا الرأي العام عبر الاجيال · ولقد أشار الى هذا التمويه عبد الحميد مهرى فى مقال كتبه فى «الاصالة» العدد 22 · وحتى أولئك الذين تصدوا للكتابة كمدافعين عن الثورة قد وقعوا فى نفس الاخطاء · ومن هؤلاء أذكر على سبيل المثال فرانس فانون ، وهانرى علاق · ان تحليلهما وتفسيرهما الماديين جعلا من الثورة مجرد ردود فعل لسياسة القمع والقهر والحرمان ، وزعما ان الثورة الجزائرية خالية من المضمون الايديولوجى · انه لا سبيل الى مجابهة الفراغ الايديولوجى الا الاختيار بين الاديولوجيتين العالميتين الماركسية أو الليبرالية ، مع ان هذه الايديولوجيات قد ثبتت خيبتها فى المجتمعات التى نشأت فيها · وكأن الايديولوجيات – يرى هؤلاء – من صنع الفكر الغربى وحده · نسيا ان الثورة كتغيير جذرى للاوضاع السائدة لن تتحقق الا اذا كانت محتوية على مجموعة من المبادى والقيم والمفاهيم التى تتضمن الحل الامثل ·

فالثورة كحل جذرى للمشاكل قد تنشأ عن فشل المحاولات الجزئية لحل المشاكل الفرعية · لانه لا يتأتى اصلاح الجزء الا بصلاح الكل · واذا كان فشل المحاولات السطحية أمرا محتوما فان هذا الفشل من جهة أخرى سينمى القناعة بضرورة الحل الجذرى ، وهكذا يبدأ العمل الثورى فى نهاية فشل الحلول الجزئية ذات المفاهيم السطحية · حينئذ يبدو الحل الثورى كالطريق الوعر الوحيد · وعندئذ تشخص الثورة روح الامة وارادتها فى شكل متجانس للمبادىء والقيم والمفاهيم والمواقف · ومن تم فلكل ثورة كتب لها أدنى حظ من النجاح محتوأها الذى تستمد منه شرعيتها وأصالتها وأبعادها التاريخية ·

واذا كان لابد للثورة من محتوى يتكون من عصارة تاريخ الامة ومعاركها القاسية الحاسمة التى خاضتها فى ماضيها السحيق ، فان المحتوى الثورى – كما يعتقد علماء التاريخ المقارن – لن يكون الا محتوا تاريخيا · ومن ثم يسلم علماء التاريخ المقارن بضرورة مراعاة الفروق بين مختلف الثورات واختلاف محتوياتها · لان الفروق بين الامم حقيقة لا يكاد يختلف فيها اثنان · انه لا وجود لثورة بدون أمة ، ولا أمة بدون

مبادىء وقيم ومفاهيم . وهذه الابعاد التاريخية تمثل أصول الامة ومصدر قوتها ومنطلق آمالها . ومن ثم فان تفسير الحوادث التاريخية خارج نطاق وحدة التاريخ لا يسلم من الزيف والخطا . وان ايديولوجية الثورة لن تكون الا من قيم الامة ومبادئها والمفاهيم الناتجة عنها . فهي لا تكون الا من صنع الامة ذاتها .

لقد حاول هؤلاء أن يفصلوا الثورة عن ماضيها ويفرغوها من قيمها ومبادئها ، وان يزيفوا مضامنها . فاذا كان عذر هؤلاء جهلهم بالاصول ، فان تجرؤهم عن كتابة تاريخ الثورة أو معالجتهم لقضيتها جناية لا تغتفر . ان جهلهم أو تجاهلهم لاسس الثورة يترتب عليه بالضرورة بطلان أحكامهم وعدم صحة تفسيرهم ، اذ الحكم على الشيء فرع تصوره . فاغفال المصادر الاساسية للثورة ، والجذور البعيدة للقضية الجزائرية تزييف للحقيقة التاريخية فما يترتب عليه من الاحكام التفسيرية تكون باطلة . فتزييف مبادىء العمل الثورى لبطلان لشرعيته . اذا كان لا يمكن لعاقل فصل الثورة الفرنسية عن النهضة الفكرية التى تمتد جذورها الى الاتجاه الانسانى الذى من أصحابه بيترارك ، وارازموس ، وكوندورسيه ، والاتجاه الطبيعى ومن أقطابه روسو وجون لوك ، فانه لا يمكن لعاقل أيضا أن يفصل ثورة نفمبر عن الحضارة الاسلامية ونهضتها الفكرية . انه لا يتصور أن تكون الثورة الروسية على ما هي عليه دون وجود محاولة هيجل وفيورباخ وماركس . كما لا يتصور أيضا حدوث ثورة أول نفمبر من غير محاولات تقى الدين ابن تيمية ومحمد بن عبد الله بن تومرت والحركة السلفية الاصلاحية التى قام بها جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وعبد الحميد ابن باديس . فاذا كان ليس من العلم ولا من الحكمة أن تفصل الثورة الفرنسية والروسية عن أصولها ومبادئها ومفاهيمها ، فكيف يكون من العلم والحكمة فصل الثورة الجزائرية عن أسسها . فالمبادىء والقيم والمفاهيم الجزائرية هي التى غذت بل شكلت أهم عوامل النزاع الذى أدى الى الثورة .

ليس من المنطق أن يتوقع حدوث ثورة دون وجود تصور بين مختلفين أو أكثر للقضية الرئيسية التى تمثل بؤرة النزاع . فالقضية الجزائرية كانت موضوع نزاع بين المستعمر والمستعمر . وتشكل جذور هذا النزاع غزوا استعماريا ونكرانا للوجود الجزائرى . كان الفرنسيو يعتقدون أن المسألة الجزائرية ليست الا قضية أناس متوحشين ووطن شاغر ، على فرنسا كحاملة للواء المدنية ان تخضعهما لارادتها وسلطانها . فالاهلى Indigène فى رأي المستعمر كائن لا ماضى له ولا مستقبل ،

يعيش ليومه ، لا حق له فى الكيان الجماعى الا فى الاطار الفرنسى ، لا يجوز لـــه أي نشاط سياسى الا فى المحيط السياسى الاستعمارى الفرنسى · أما المجتمع الأصلى فانه مجتمع محكوم عليه بالتخلف ، فلا حق له فى النمو ، ولا سبيل له فى النهوض · فالروح الاستعمارية التى لم يبق لها مجال فى المجتمع الفرنسى بعد الثورة الفرنسية وجدت فى الجزائر ملجأ منيعا ومرتعا فسيحا وميدانا خصبا · لقد كان ما هو ممقوت فى الوطن الام مستحبا فى الجزائر · فالديمقراطية التى تمقت السياسة التعسفية الاستبدادية فى فرنسا لا ترى مبررا لمنعها فى الجزائر ولم تسع حتى للتخفيف من جورها وظلمها وحيفها · وديمقراطية التعليم كمبدأ تكافؤ الفرص فى المجتمع الفرنسى تغض الطرف عن سياسة التجهيل ونشر الامية فى الجزائر · وسياسة التنمية والتطـــور التكنولوجى التى نشطت بعد الحربين العالميتين كانت على حساب المجتمع الجزائرى لتفقيره والعمل على تخلفه ·

لقد كانت سياسة الحد من النمو الديمغرافى بالقتل والتشريد والهجرة واستبدال الاهالى الجزائريين بالايطاليين والاسبان ، لا تختلف فى شىء عن سياسة الامريكان مع الهنود الحمر ·

يقول أنطول فرانس : « ان فرنسا طيلة 65 سنة نهبت العرب وسلبتهم وشردتهم لتعمر القطر الجزائرى بالايطاليين والاسبان » ·

لقد كانت فترة آخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين فـــترة تقلص ديمغرافى ملحوظ واستيطان أروبى سافر · كانت سياسة « الجزائر الفرنسية » صورة واضحة للتطرف الذى وصل اليه المكر الاستعمارى · منذ ذلك الحين فالقضيـــة الجزائرية لم تبق مجرد قضية احتلال بالقوة بل تعدت الى نكران وجود أمة وفصـــل شعب عن تاريخه وحضارته ·

ان هذه السياسة كانت تعنى بالدرجة الاولى تزييف التاريخ وتشويه الشخصية الجزائرية · فالاسلام والعروبة فى رأي هذه السياسة ليس الا رواسب بدائيـــة وعادات وتقاليد بائدة ، لا يمكن بحال أن يترك لهما المجال كي يكونا نظام حياة واطار حضارة · ولقد سد الاستعمار كل طرق للنهضة أمام الاجيال الجزائرية ، ولم يترك لهم أي طريق سبيل غير الاندماج والذوبان فى حضارته والتبعية المحتومة ·

أما التصور الوطنى للقضية فكان ينطلق من مبدا اعتبار الجزائر غير فرنسية ، والاعتراف بالسيادة الجزائرية واعتبار الشعب الجزائرى شعبا له تاريخه وشخصيته

وحضارته · على ان من الجزائريين من كان يظن ان المطالبة بحق الامة سبيل لنيله · فأصحاب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية كانوا يرون الاستقلال هو المطلب الرئيسى الذى لا غنا عنه ولا بديل له · وجماعة حزب البيان والحرية كانوا يعتقدون ان المطالبة بالحقوق ابتداء من أبسطها قد تؤدى فى النهاية الى الاستقلال · وأما جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيعتقدون ان المشكلة بعد سياسة « الجزائر فرنسية » لم تبقِ مجرد مشكلة سياسية بل تعدت ذلك الى الآفاق الثقافية والاجتماعية · ومن ثم فان الاصلاح الاجتماعى الجذرى ابتداء من اصلاح الدين والتربية هو المنهج الاسلم للاعداد للمستقبل ، ووضع حد لمأساة الجزائر · فالاحزاب السياسية القومية والحركات الاسلامية ان اختلفت فقد كان اختلافها غالبا فى الفروع وليس فى الاصول ، وفى طرق العمل التى بها يتم الوصول الى الغايات المنشودة ·

ومهما يكن من أمر فان هذا الخلاف اذا دل على خيبة النخبة السياسية التى لم تسلم من التأثر بسياسة المراوغة الاستعمارية قد خدم القضية باثراء مفهومها وتعميق محتواها وبلورة مبادئها حتى أصبح الحل الجذرى هو الحل الاوحد · والجهاد فى سبيل الله هو المنهج الاقوم لفرض ارادة الامة وتحقيق استقلالها وضمان مستقبل أجيالها ·

يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه : « أدن من الموت تهب لك الحياة » ·

ان التضاد الحاد بين التصورين الاستعمارى والوطنى للقضية الجزائرية ان انتهى الى الحرب المحققة للحرية والاستقلال فانه لم يحقق التخلص التام من كل أشكال التبعية والتخلف · اذا أعاد الى الجزائر سيادتها فانه لم يحقق لها أصالتها ومكانتها اللائقة بين الشعوب المتقدمة · لذلك ان انتهى الحرب فان الثورة لم تنته · بل ما تزال قضية كبرى فى ذمة التاريخ ورسالة عظمى تحتاج الى أجيال العقيدة السمحة والمبادىء السامية والقيم النبيلة من بناة الحضارة وصانعى المجد رافعى لواء التاريخ ·

وشهـــد شاهـــد من أهلهـــا :

الثـورة الجـزائرية فى مذكـرات
الجنـــرال دوغـــول

محمد الهـادي الحسـني
مسؤول فى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع



كما تتعرض الشعوب للقهـر والاستغـلال يتعرض تاريخها للمسخ والتشويه · وما من شك فى أن نصيب الشعب الجزائرى من قهر الاستعمار واستغلاله قد فاق كل تصور ، كما أن ما لحق بتاريخ الشعب الجزائرى من المسخ والتشويه لا يعادله أي مسخ أو تشويه لتاريـخ أي شعب آخر · وان هذا المسخ والتشويه لا يقتصـر على مرحلة معينة من تاريخنا ، بل يمتد ويواكب هذا التاريخ منذ فجره ليصل الى المرحلة المعاصرة منـه ، أي الى جهادنا التحريرى · من ذلك مثلا ، أن هناك من ينكر أن شعبنا انتزع استقلاله عنوة ، واسترجع حريته غلابا ، فظهرت كتابات تدعي أن هذا الاستقلال انما هـو « منة » و « تكرم » من الجنرال دوغول ·

ان أصل هذا الادعاء هو الجنرال دوغول نفسه · فبعد أن فشل ميدانيا فى القضاء على الثورة أو تحجيمها على الاقل ، وبعد أن توالت عليه الهزائم ، ادعى ــ ليحفظ ماء الوجه ــ أنه قرر بملء ارادته أن يمنح الجزائر استقلالها · ولكن الحقيقة هي أن دوغول كان « مكرها لا بطلا » فى اعترافه بأحقية الجزائر فى الاستقلال والحرية ، ودوغول نفسه على ذلك شهيد ·

واذا كنا لا نعير أدنى اهتمام لمقولة الجنرال العجوز ومن يرتئيها من أبناء جلدته ، فانه يحز فى نفوسنا أن تردد هذه الاكذوبة من طرف بعض أبناء جلدتنا سواء كانوا من الجزائريين الذين لم يعيشوا الثورة ، أو من اخواننا العرب . ومما يحضرنى فى هذا المقام أنه لما عرض فيلم (معركة الجزائر) فى الكويت فى أواخر سنة 1967 ، كان مصدرا بمقدمة للدكتور ثروت عكاشة ، وزير الثقافة فى مصر آنذاك ، شكر فيها الجنرال دوغول على موقفه من العدوان الاسرائيلى فى جوان 1967 ، مشيرا الى أن هذا الموقف ليس غريبا من الجنرال دوغول ، لانه سبق له أن برهن على نبله وشهامته عندما منح الشعب الجزائرى استقلاله !!!

ولكن ، وكما يقول المثل الجزائرى فان « الشمس لا تغطى بالغربال » ، لان قول دوغول الاخير قطع قول كل خطيب ، فقد افرد الجنرال فصلا خاصا للجزائر فى مذكراته « الامل » كما تحدث عنها فى أكثر من موضع فى بقية فصول الكتاب ، معترفا فى هذه المذكرات بالوضع المأساوى الذى وضعت فيه الثورة الجزائرية فرنسا ، والمأزق الذي وجد فيه نفسه نتيجة ذلك .

أود فى البداية أن أشير الى جملة من الملاحظات :

أولا : ان الذين ينعتون دوغول بالانسانية والنبل ينسون أو يتناسون أن مجزرة 8 ماي 1945 التي أدت خلال ثلاثة أيام الى استشهاد 45 ألف جزائرى ، انما وقعت بأمر من الحكومة الفرنسية التى كان يرأسها هذا الجنرال النبيل !!

ثانيا : ان الفضل فى اعادة دوغول الى السلطة بعد أن كان نسيا منسيا ، انما يعود الى الثورة الجزائرية ، فقد عرفت فرنسا أحداثا خطيرة فى الهند الصينية ، وتونس ، والمغرب ، ومصر ، ولكن هذه الاحداث كلها لم تعد الجنرال العجوز الى السلطة ، ولم تهدد المؤسسات الفرنسية كما فعلت ثورة الجزائر .

ثالثا : ان دوغول أعيد الى الحكم لتحقيق هدف واحد هو القضاء على الثورة الجزائرية ، ظنا من الفرنسيين ومن دوغول نفسه أنه يستطيع تحقيق ما لم تستطعه أوائله ، خاصة وأنه أصبح مزهوا بنفسه ، لانه اعتبر بطل تحرير فرنسا من الاحتلال الالمانى ، هذا التحرير الذى هو فى الحقيقة من عمل أبناء المستعمرات الفرنسية وفى مقدمتهم أبناء الجزائر . فدوغول جاء ليحقق نصرا عسكريا جديدا لفرنسا ، ولكنه فشل لان النصر الذى تحقق لفرنسا فى السابق انما كان بفضل هؤلاء الذين يحاربونها الآن .

رابعـــا : ان الذين يدعون أن دوغول كان فى نيته منذ البداية أن يعترف باستقلال الجزائر انما يزيفون الحقائق ، فدوغول عمل كل ما فى وسعه لتحطيم الثورة والقضاء عليها عسكريا ، ولكنه كان كمن يعض على الحديد · ففى سبيل هدفه العسكـــرى تخلص دوغول من جميع الالتزامات العسكرية التى كانت تثقل كاهـل فرنســـا فى المستعمرات الافريقية ، وجمع كل قواته فى الجزائر ، بل انه سحب الفرق الفرنسية المتواجدة ضمن الحلف الاطلسى ليزج بها فى الميدان الجزائرى ·

خامســـا : بعد أن فشل دوغول فى أخماد الثورة والقضاء عليها بالوسائل العسكرية التقليدية لجأ الى ســلاح جديد ، محاولا أن يرهب بـــه الشعب الجزائرى ، ففجر القنبلة الذرية الفرنسية فى الصحراء الجزائرية ، ولكن كل ذلك ذهب مع الريح ·

ولنعد الآن الى مذكرات الجنرال لنرى كيف يعترف فى أكثر من مكان بأنه كان فى محنة ، ومأزق ، ومأساة بسبب الثورة الجزائرية ·

يعترف الجنرال فى البداية أن « أهمية الجزائر لا مجال للموازنة بينها وبيـــن بقية البلاد التى كانت تابعة لنا ، فقد تعزز كثيرا موقفنا فى افريقيا والبحر الابيض المتوسط بفضل الجزائر ، اذ أقمنا فيها نقطة انطلاق لتسللنا الى تونس والمغرب والصحراء ، واستطعنا مؤخرا أن نجند فيها عددا من المحاربين ··· وكشفنا منذ عهد قريب حقول البترول والغاز التى ساعدتنا على استكمال حاجتنا الماسة الى الطاقة الصناعية · اذا فثمة أسباب كثيرة كانت تحمل الشعب الفرنسى على أن يعد امتلاك الجزائر مفيدا ومستحقا » ص 49 ·

ان هذه الاهمية الاستراتيجية للجزائر عسكريا واقتصاديا بالنسبة لفرنسا والتى يدركها الجنرال حق الادراك هي التى جعلته يعمل كل ما فى استطاعته لكسب الحرب لصالح فرنسا وعن طريق القوة ، فأعطى أوامره بأن « لا يكون هناك تهاون فى الجهد العسكرى » ص 72 ، وأنه « يجب البحث عن الخصم والتغلب عليه والحاق الهزيمة به » ص 98 ، وان هذه المهمة العسكرية « كانت تحتجز جيشنا وطيراننا وأسطولنا » ص 225 ، وبسبب هذه الاهمية للجزائر ، وللامكانيات العسكرية الضخمة المخصصة لتلك المهمة « أبقيت قضايا الجزائر تابعة لاشرافى » ص 97 ، وتقديرا من الجنرال للعامل المعنوى لدى الجندى فقد زار الجيوش الفرنسية الميدانية ثمانى مرات منـــذ تولى السلطة حتى شهر ديسمبر 1960 ، اي بمعدل أربع مرات فى السنة ، وذلـــك لرفع معنويات جنوده وضباطه ·

وبما أن الجهد العسكرى يتطلب اعتمادات مالية فى مستوى المهمة الملقاة على عاتقه ، فان الجنرال لم يقصر فى توفير هذه الاعتمادات المالية لجيوشه الجرارة ، فماذا فعل الجنرال دوغول ؟ لجأ الى دغدغة الشعور الوطنى لدى الشعب الفرنسى ، فتبرع الشعب الفرنسى بـ « 324 مليار فرنك ، منها 293 مليارا من الاموال النقدية ، يضاف اليها كمية 150 طنا من الذهب » ص 156 . كما انه : « أوقف زيادة الرواتب والاجور ، وفرض رسوما اضافية بلغت 50 مليارا على الشركات والاموال الكمالية ، ورفع سعر مبيع البنزين ، وخفض أو أوقف جميع الاعتمادات الممنوحة الى كثير من مشروعات الابنية وأعمال التجهيزات » ص 156 ــ 157 .

كان الجنرال يعتقد أنه سيقضى على الثورة الجزائرية بسرعة بعد أن حشد لها كل الجيوش الفرنسية البرية والجوية والبحرية ، وجمع لها مالا كثيرا ، فطلب من البرلمان سلطات استثنائية ، ولذلك كان يردد فى ثقة مطلقة بأنه ليس « أمام وضع يقتضى حله وديا » ص 49 .

كان الجنرال يحلم بذلك اليوم الذى يتلقى فيه نبأ استسلام الثوار ، ولكن هذا اليوم لم يأت ، لان « الموقف الذى اختاروه ــ أي الجزائريون ــ هو تحمل الاذى دون الاستسلام » ص 58 ، وهو ما « يؤدى الى ابقاء فرنسا تغوص سياسيا وماليا وعسكريا في مستنقع لا قاع له » ص 54 .

بدأ الجنرال يدرك أن الامر ليس كما كان يتخيله ويتصوره ، فقد « **كان القتال شديد الخطر ، وأحيانا منهكا ، وغالبا مخيبا للآمال** » ص 85 .

وتفتقت عبقرية الجنرال العسكرية عن خطة حربية تهدف الى تقسيم الجزائر الى عدة مناطق « كادرياج » ، وتطهيرها من الثوار منطقة منطقة ، وهي العمليات المعروفة باسم « جوميل ، وشال ، وبريمير » وغيرها . وقد جند لها الجنرال الآلاف من الجنود والعشرات من الجنرالات ، والمئات من الطائرات والدبابات ، وحتى البوارج الحربية ، ولكن ماذا كانت نتيجة تلك الحملات الضخمة ؟ يقول الجنرال : « وفى بعض المناطق كجبال الاوراس ، والنمامشة ، والحضنة ، وبيبان ، والونشريس، والظهرة ، والضاية ، وتلمسان ، والاطلس الصحراوى الخ يعاد تأليف تجمعات الثورة فور بعثرتها » ص 60 . والغريب أن يستعمل الجنرال تعبير « بعض المناطق » وهو يقطع الجزائر من شرقها الى غربها الى أطلسها الصحراوى مضيفا كلمة الخ !!! فاذا كانت هذه المناطق التى عددها الجنرال تعتبر « بعضا » فلسنا ندرى أين هو « الكل » ؟

ومما زاد فى حنق الجنرال ـ وهو يتلقى تقارير الهزائم الشنيعة لجيوشه الجرارة ـ أن الثـــوار « لم يتجاوز عـــددهم فى أي زمن ثـلاثين ألف رجل ، وهـم يكادون يكونون مزودين بالبنادق والقنابل اليدوية وأحيانا الرشاشات ومدافع الهاون ، ولم يكن لهم مدافع ميدان أو أي دبابة أو أي طائرة » ص 60 ·

وبينما كان دوغول يمني نفسه بالانتصار ـ عسكريا ـ على الثوار فى الجزائـر ، تأتيه لطمة أخرى ، حيث قررت القيادة الجزائرية نقل العمليات العسكرية الى فرنسا نفسها « فيقتل مدنيون من مواطنيه حتى فى شوارع باريس » ص 101 · ولاحظ دوغول « ازدياد اعتداءات جبهة التحرير الوطنية زيادة مذهلة على الفرنسيين فى فرنسا » ص 102 · لا تؤاخذوا الجنرال فى استعمال كلمة « اعتداءات » ·

وبدأ دوغول يقتنع أنه لا يمكن تحقيق أي نصر على الثوار « لانهم أصبحوا اليـــوم يمثلون الاغلبية الساحقة من الجزائريين » ص 110 ، وليس هذا فقط ، بل « انى اعترف فى الوقت نفسه بالشجاعة التي يبديها المقاتلون » ص 102 ·

ومما زاد الطين بلة أن دوغول أصبح جنرالا على جنود « مست حوادث الجزائر شعورهم معنويا » ص 315 · وأن « القتال انتشر فى جميع مناطق الجزائر وعـــلى طول حدودها » ص 21 مما جعل « الجيش ـ الفرنسى ـ غارقا فى بحر من التوتر » ص 58 · و « مورطا فى قتال لا طائل تحته ولا نهاية له » ص 54 ، الامر الذى صير جيش الجنرال غير منضبط حتى « انتهت المأساة الجزائرية وعاد الجيش بكامله الـــى الانضباط » ص 361 ·

وازداد الوضع سوءا عندما أحس الجنرال أن شعبه « كان يتحمل على مضض ويصبر قارغ القتال البالغ النفقات » ص 49 · وبعد أن كان دوغول يستقبل بالهتاف بحياته حيثما حل ، بدأ يلاحظ « تخلى الرأي العام الذى أرهقه الجهد العسكرى والمالى» ص 52 : ولأن الجنرال أخفق فى تحقيق النصر ·

كانت التقارير تتوالى أمام الجنرال : هزائم عسكرية فى الميدان ـ تمرد فى صفوف الجيش ـ معنويات منهارة ـ انهيار اقتصادى ـ تزايد أنصار الثورة الجزائرية فى العالـــم الخ ··· فتساءل الجنرال العجوز بعد أن لعن ذلك اليوم الذى عاد فيه الى الحكم : « أليس من الافضل أن نتخلى عن الجزائر التى أصبحت « صندوقـــا للاحزان ؟ » ص 109 · ورد دوغول على تساؤله : « فقد أضحى ثابتا لدي أن استمرار هذا الوضع لا يمكن أن يجلب لبلادنا سوى الخيبة والمآسى » ص 108 ·

فشل دوغول فشلا ذريعا فى الميدان العسكرى ، ونشف ريقه ، فقرر أن يتخلى عن صفته العسكرية ، وأن يلعب لعبة السياسيين ، فاجتمع فى آخر زيارة له الى الجزائر بمن أسماهم أعيان الجزائر ورؤساء المجالس البلدية ، وأراد أن يخلق منهم شيئـــا يضعف به مكانة جبهة التحرير فى نفوس الشعب الجزائرى ، ولم يكد دوغول يُتـــم كلامه حتى جاءته صفعة قوية من أولئك العملاء أنفسهم حيث « أطلق الجميع عــلى مسامعى أن الحل النهائى لا يمكن أن يتم الا عن طريق الاتفاق مع جبهة التحرير الوطنية » . ص 106 .

رأى دوغول خلال هذه الرحلة ــ ولا شك أنها أشأم رحلة قام بها فى حياته ــ بأم عينه ، وسمع بأذنه « ما ترك لدى انطباعا واضحا عن حقيقة وضع الجزائـــر » ص 107 ، فقد « كانت الفئة المسلمة ــ أي الجزائريين ــ مقتنعة بأن لها ملء الحـــق بالاستقلال وأنها ستحصل عليه أن عاجلا أو آجلا » ص 107 .

ولكن دوغول حبذ مواصلة اللعبة السياسية ــ بلاك تحكم ــ فراح يلعبها مع من يسميهم بالبرلمانيين وأعضاء مجلس الشيوخ الجزائريين فى باريس ، فاذا بهم هم الآخرون يطلبون منه « افتتاح المباحثات مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائريـــة » ص 116 .

وسوس شيطان الطمع فى أذن الجنرال المسكين بما يلى : ماذا ، وقد وقعت الواقعة ، لو فصلت الصحراء عن الجزائر ، فهي وان كانت رمالا فى ظاهرها ، ففى باطنها ما يعوضك عن متيجة ، وشلف ، و ... و ... و ؟ أعجب الجنرال بالفكرة وتبسم بعد طول عبوس وحزن وخرج يصيح ظانا انه اهتدى لنظرية فى الجغرافيـــا وقال : ان الصحراء ليست جزءا من الجزائـر واعتقد أنه أقنـــع الناس بهـــذه الاسطوانة ... ونام على هذا الحلم الجميل ...

لا شك أن الجنرال حضر بعض المعارك فى الجبهة الاوروبية ، وهي جبهة ذات مناظر خلابة ، فيها الغابات ... والبحيرات ... والانهار وحتى الازهار ، ولكنه لم يكن يظن أن الحرب يمكن أن تقع فى الصحراء ــ ربما كان غائبا عن درس « حرب الصحراء » فى كلية سانسير التى تدرب فيها ــ المهم أن الجنرال لم يستمر فى حلمه الجميل ، لانه بدأ يغرق فى رمال الصحراء ، واشتدت عليه الحرارة ــ حرارة الصحراء، حرارة البترول والغاز ، حرارة الرصاص ــ فأخذته الحمى ، وفشلت كل المحاولات فى تخفيض هذه الحمى الى أن اعترف بالحقيقة « وهي أن كل جزائرى كان يؤمن بأن الصحراء يجب أن تعد قسما من الجزائر » ص 138 .

واقتنع الجنرال ـ بعد فشله في كل الميادين ـ انه من الاحسن أن ينجي البقية الباقية من قوة فرنسا ، وينقذ سمعته كجنرال ، فصرح بأنه « **يترتب على السكان الجزائريين أن يقرروا مصيرهم بأيديهم** » ص 129 · وبعد أن تبجح الجنرال أنه هو الذى سيقرر مصير الجزائر وحده وباسم عظمة فرنسا ، اذا به يتراجع ـ بالدبزة ـ ويعلن : « اننى أتوجه الى زعماء الثورة ··· فنحن بانتظارهم هنا لنجد مخرجا مشرفا للقتال الذى ما زال مستمرا ، وبعد ذلك سنهيء كل شيء لكي يكون **للشعب الجزائرى الرأي فى تهدئة الامور · فالقرار فى هذا المجال سيكون ما يقرره هو** » ص 100 ·

وجرت المفاوضات الاخيرة بين جبهة التحرير الوطنى والحكومة الفرنسية ، وكان الجنرال يتابع المفاوضات أولا بأول مخافة أن تفشل فتعاوده الحمى ، ولهذا فما أن تم توقيع اتفاقيات ايفيان حتى تنفس دوغول الصعداء ، وتأكد حينئذ أن الحمى لن تعاوده ، وتفاءل الجنرال العجوز من جديد بعد أن نجا من هؤلاء الجزائريين ، وقد وصف سنة 1962 بـ « عام النعم » ، فقال : « فى عام النعم 1962 ، ازدهر تجديد فرنسا · كانت مهددة بحرب أهلية يكاد يرمقها الافلاس ، ونسى العالم صوتها ، وها هي تتخلص من المأزق » ص 333 ، فقد كانت « فرنسا رجل أوروبا المريض » ص 347 ·

لقد بدأ دوغول الفصل الاخير من كتابه بهذه الكلمة « لقد استقرت الجمهورية الخامسة فى السنة الخامسة من عمرها » ص 366 · وهي دليل قاطع على أن هذه الجمهورية لم تستقر الا بعد أن ولى دوغول مدبرا من الميدان الجزائرى ، وقد كان مدركا أنه لو لم يفعل ذلك لاصاب جمهوريته ما أصاب أمها التى كفنها الجزائريون ودفنها دوغول نفسه ·

وأخيرا ، ألم يان للجاحدين أن يعترفوا ، وللمكذبين أن يؤمنوا أن الشعب الجزائرى كان فاعلا مرفوعا ، وأن دوغول لم يكن حتى مفعولا ، بل كان مجرورا ·؟

فرحمة الله عليكم أيها الشهداء الابطال ، وسلام عليك أيها الشعب الجزائرى العظيم ، وحمدا لله على نعمة النصر ·

حول دور جماهير البادية فى ثورة نوفمبر الكبرى

د· عبد القادر زبادية

رئيس قسم الدراسات التاريخية
والآثار ـ جامعة الجزائر



استمرت الثورة الجزائرية الكبرى حــوالى ثمانى سنوات تقريبا ، وراح ضحيتها من الشهداء حــوالى الثلاثة ملايين شهيد ، منهم مليون ونصــف ماتوا فى ساحة الوغى ، وحوالى مليون ونصف ، آخرين ماتوا من جراء التعذيب والحوادث النفسية والجسمية ، المتعددة الجوانب والنوعيــات ·

ولا تزال هذه الثورة العظيمة تحتاج الى مآت من المجلدات لكى يحيط الانسان بكل ما قدمته وما أدتــه من خدمات للجزائر وللانسانية جمعاء ·

ظل موقف سكان البادية الذين يمثلون الطبقة الفلاحية وعمال الارض يتسم بالتمرد طيلة الفترة الاستعمارية التى استمرت مائة واثنين وثلاثين سنة كاملة ، بما فيها فترة المقاومة الاولى ؛ ففى كل مرة يقوم سكان البادية الجزائرية بانتفاضة ما يتعرضون للقمع والتشريد ودفع الغرامات وتكاليف الحرب الباهضة ، فيخلدون للسكينة وأنفسهـم ممتلئة غيضا وحقدا على الادارة الاستعمارية وممثليها من الحكام المحليين والقياد · وكان ذلك يعنى أن انتفاضاتهم العديدة لم يكن ينقصها الاخلاص والتصميم وشــدة العزيمة ، ولكن كان ينقصها التنظيم والاتساع والشمول · وقد بقى الامر كذلك ، تقوم الانتفاضات العديدة وتقمع ، وهذا حتى ثورة الفاتح من نوفمبــر المجيــدة لسنة 1954 ·

لقد تبنت جماهير الفلاحين هذه الثورة منذ البداية وأعطتها من التضحية والفداء كل ما يمكن أن تعطى . ويمكن القول بأن ثورة نوفمبر كان سكان البادية يشاركون فيها بمعدل قد يزيد عن الثمانين بالمائة من حاجياتها البشرية • فقد قامت تلك الثورة فى الجبال ، فالتحق بصفوفها سكان الجبال والبوادى والسهول بأعداد هائلة حقا ، وظلوا طيلة سنوات الثورة الطويلة يطعمون الجنود ويمدونهم بالمؤونة ، ويتحملون فى سبيل ايوائهم وتوفير العلاج لهم والمؤونة كل أنواع التعـــب والتعسف والارهاق ؛ وكلهم كانوا من المشكوك فيهم من طرف الجيش الاستعمارى لهذا السبب . وهـــذه الوضعية كانت تعنى استباحة الضباط والجنود الفرنسيين لدم الفلاحين فى البوادى كلما بدا لهم ذلك وبهذه الطريقة غاب الكثيرون تحت قنابل الطائـرات والدبابات ، ووضع الكثيرون تحت الحراسة المشددة فى المحتشدات ، فسلط عليهم التعذيب فمـات من مات وتشوه من تشوه •

ان موضوع مشاركة الفلاحين فى الثورة الجزائرية ودورهم الكبـير فيه لم يحظ بالعناية اللازمة حتى الآن ، وباستثناء بعض افراد لا يكادون يذكـــرون ، لقد شارك الشعب الجزائرى كله فى الثورة ولم يتوان أى فرد فى أداء المهمة الموكلة اليه أو التى كان يستطيع أداءها ، ولكن دور الطبقة الفلاحية ربما كان له دور خاص ، وسبب ذلك أن معظم المعارك الكبرى كان ميدانها فى الجبال والبوادى ، فكان الفلاحون يستشهدون فيها جماعات وفرادى ، ويقدمون لرجالها كل العون ، فهم يعطونهم الاخبار عن تنقل جيش العدو ويقاسمون المجاهدين ما يتيسر لديهم من الزاد والعون ، ويتسترون عليهم ويجتهدون فى معالجة المرضى والمصابين •

ان المشاركة الجماعية لجماهير البادية الجزائرية فى ثورة نوفمبر الكبرى لهى احدى الخصائص الهامة للثورة العظيمة ، ويستلزم هذا من الباحثين فى ميادين هذه الثورة وخصائصها الكثير من العناية والاهتمام دون شك ، وما هذه الاسطر الا مجرد الفات انتباه لهذا الجانب من جوانب الثورة وخاصياتها العديدة •

من وثائق الثورة
حول استشهاد الشيخ العربي التبسي

علي مرحوم



« رجل علم وعمل ، فريد في ورعه وتقواه ، شديد في الحق وحماية حماه وفي غيرته على حرمات الدين ، لا يتساهل مع الخونة والمفسدين ، متضلع في جوانب علمه ، ودائرة اختصاصه ٠ بليغ العبارة ، دقيق الاشارة ، سريع البديهة ، حاسم الحجة ٠ أقض مضاجع المستعمرين وصنائعهم ، وأضحى شجى في حلوقهم ٠ امتاز بالصراحة والشدة في حملاته على الجهاز الاستعماري الجائر ، وخاصة فيما يرجع لفرض سيطرته على الدين الاسلامي في الجزائر ، واستعباده لرجاله ، واغتصابه لاوقافه ظلما وعدوانا ٠٠٠ » ٠

« لقد حاول المستعمرون مساومته في مبادئه ، وطمعوا أن يجدوا منه لينا أو مهاودة في حقوق بلاده ٠٠٠ فما رأوا منه غير المضي في حربهم ، والتنديد بسياستهم وعنصريتهم ، فاضطهدوه وعذبوه ، وفي غير ما مرة سجنوه ٠٠٠ ولكنه بقي ثابتا

كالطود الاشم ، لا يتزحزح عن موقعه ، ولا ينكص على عقبيه ··· متمثلا بقول ربه : «رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه » ·

هذه كلمات كنت كتبتها منذ أكثر من عقدين من الزمن ، عن أستاذنا المبرور الشهيد ، الشيخ العربي التبسي ، رحمة الله عليه · أوردتها في مطلع حديثي هذا عنه، تذكيرا ببعض ما جبل عليه من كريم السجايا ، وعلو الهمة ، وشجاعة القلب والعقل ··· وقد أردت أن أستعيد بعض ذكرياته ، بمناسبة مرور ربع قرن على قيام الثورة التحريرية الوطنية ···

تلك الذكريات الخالدة ، التي ظلت وستظل موضع القدوة ، ومثار العبرة والوعي، لدى أجيالنا ومواطنينا ··· كلما استعرضوا أطوار الكفاح الوطني الجزائري ··· وذكروا الرجال الابطال الذين أخذوا على عاتقهم قيادة ذلك الكفاح الطويل ، نحو الظفر المرجو ، والنصر المرتقب ··· أولئك **(رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ···) ·**

منذ حوالي سنة 1910 تقريبا ، شد الشيخ العربي الرحال الى بلدة نفطة بجريد تونس ، لاستكمال حفظ القرآن الكريم ، وتلقى ما يتاح له من المعلومات الاولية ، الدينية والادبية ، وقواعد اللغة العربية ، قبل أن يواصل رحلته الى جامع الزيتونة بتونس ، سنة 1913 ، ليمضي به عدة سنين ، قبل أن يشد رحاله أخيرا الى أزهر مصر ، سنة 1920 ، ليتابع فيه دراسته العالية ، طوال نحو من سبع سنين دأبا ··· وقد كان الشيخ على اتصال دائم بوطنه ، متتبعا لاحداثه وتطوراته ، أثناء مزاولته العلم ، سواء بتونس أو بمصر ··· على عكس ما كان عليه بعض مواطنيه من طلاب الزيتونة والازهر يومئذ ، أولئك الذين قطعوا ـ أو كادوا ـ صلاتهم بوطنهم بمجرد فراقهم لذويهم وأرضهم ··· وخاصة اذا أسعف الحظ بعضهم وأحرزوا على وظائف يرتزقون منها ··· بعد تخرجهم · وقد ابتلعت مصر وتونس فئة من هؤلاء ، بينما كان وطنهم في أمس الحاجة الى علمهم وخدماتهم ··· على أن منهم من عاد الى وطنه ، بعد أن أحرز على استقلاله ، واستتب الامن والسلام في ربوعه ···

لم يفتنا الشيخ العربي ـ كما أشرت ـ يعيش بروحه وضميره على أرض وطنه ـ وان كان بجسمه ظل بعيدا عنه ، لمدة أكثر من عشرة أعوام ··· وهاهو يراقب عن كثب ما يتمخض عنه فجر النهضة الوطنية ، التي ظهرت طلائعها الاولى ، بعد أن وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها ··· ونزل أبو النهضة الجزائرية الشيخ عبد الحميد بن باديس الى الميدان ، وليس بيده من سلاح يناضل به ، الا سلاح العلم والايمان ··· وما أعظمه من ســـلاح ···

ومنذ ظهور صحيفتي « المنتقد » ثم « الشهاب » الاسبوعي ، أخذ يتابع بغاية الاهتمام والاعجاب نشاط هاتين الصحيفتين ··· ثم أبى الا أن يربط صلته الادبية والروحية بصاحبيهما · وشرع يراسل من الازهر الصحيفة الثانية ، بعد تعطيل الاولى ··· ولعل أول مراسلة له تمت بعد محاولة الاغتيال الشهيرة، التي استهدف لها الشيخ ابن باديس بعد خروجه من درس التفسير ، الذي يلقيه اثر صلاة العشاء ؛ وذلك في شهر ديسمبر سنة 1926 ···

فقد نشر (الشهاب) الاسبوعي (عدد 82 س 2/30 رجب 1345 هـ و 1927/2/3م) رسالة باسم مجاوري الازهر من الطلاب الجزائريين ··· بعد أن قدم لها بالكلمة التالية :

« ننشر مع الشكر الجزيل هذا الكتاب من اخواننا الازهريين ، الدال على غيرتهم على دينهم ، وتعلقهم بوطنهم · حامدين الله تعالى على ما نتحققه من خير لمستقبل الجزائر ، على يد هؤلاء الابطال المجاهدين في سبيل العلم والدين ··· » ·

وجاء في ديباجة الرسالة ـ بعد البسملة ـ ما يلي :

« واذا العنايـــة لاحظتـك عيونها   نـم فالمخاوف كلهـن أمـــان »

« أما بعد فنهنى أنفسنا ، ونهنى العلم وآمال الامة ونهنيك بالنجاة من كيد من ابتلى الله به الدين والامة والعلم والقومية ··· واننا لما أصابك لفي غم يونس ، وحـــزن يعقوب ، ونشكو الى الله التقصير ··· فلك في ابن طالب ـ جعل الله أجلك أفسح من أجله وقارب بينك وبينه في عظيم الاجر ـ ما يملأ النفس عزاء ، والقلب رضى ··· وان جل الخطب وعظم المصاب ··· وان ما نزل من القضاء الذي لا محيص عنه ، قد كان علينا ـ جيرة الازهر الجزائريين ـ أوجع نبا ··· الخ » ·

(التوقيع عن جيرة الازهر الجزائريين : العربي بن بلقاسم التبسي)

ثم نقرأ له فى نفس الصحيفة (عدد 83 ـ س 7/2 شعبان 1345 و 1927/2/10 م) أى منذ أسبوع واحد فقط مقالا قيما ، جعل له عنوانا هذا البيت الشعرى ، وكأنه يشير به الى محاولة الاغتيال الآنفة الذكر · بل ان فى المقال ما يعبر عن التنديد بها واستنكارها ··· ونص البيت هو :

« أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد »

وجاء فى استهلال الموضوع ، تنويها بالشهاب ، واشادة بذكر صاحبه :

« جريدة (الشهاب) ـ وأيم الله ـ نعمة من نعم الله على أمم شمال افريقيا عموما والجزائر خصوصا ، يجب أن تؤدى الشكر عليها لله خالصا ، وتشكر لمن كان أبا بجدة هذه اليد البيضاء حتى تستحق المزيد · وجريدة الشهاب ظاهرة من ظواهر الحياة ، نرجو منها أثرا طيبا فى حياة الجزائر الدينية والادبية ، وفى سمعة الجزائريين ، الذين لا يكاد يظن أن فيهم من هو بمثل هذه الصحيفة جدير ··· » ·

« وجريدة الشهاب كنز من كنوز السنة ، ينقل الى قرائه ما لذ وطاب ، مما تقطع الاعمار دون الوصول اليه ، ليقبس منها من يريد الله به خيرا ·· وجريدة الشهاب مدرسة شعبية عصرية ، على أحدث نظام وأشهى أسلوب ··· فيها تلتقى الديانة الاسلامية بالمدنية العصرية الصحيحة ··· لا تفتأ تهدى الى قرائها من مختلف العلوم ، وضروب المعارف ما تقر به العين ، وتحسد عليه الجزائر ··· » الخ ·

وعاد الشيخ العربى من مصر الى وطنه فى أواخر سنة 1927 ، بعد ما ملأ وطابه من العلم ، ونهل من معين المعرفة والثقافة ، ما استطاع اليه سبيلا ، وما اتخذه منهما سلاحا فعالا لمقارعة خصوم الدين والامة والوطن ··· وما عتم أن أخذ مكانه فى ميدان المعركة الوطنية الكبرى ، التى كان يخوضها صديقه ابن باديس ، منذ أوائل العقد الثانى من هذا القرن ، عندما انتصب للتدريس بقسنطينة ، منذ سنة 1913 · وكرس كل جهوده ومواهبه العلمية ، وشجاعته النفسية والذاتية ، من أجل الانتصار فى تلك المعركة ، ضد الجهل والجمود والتضليل ، وضد استبداد الاستعمار وأعوانه من كل

نوع ··· ووقف الجندى الباسل الى جانب قائده ، الموقف الذى تقتضيه منه الرجولة ، وتدعو اليه البطولة ، وخاصة فى تلك الايام السود ، التى كان فيه سوط المحتل مسلطا على ظهور أبناء الشعب · فى حين كاد ينعدم فيه من يعلو صوته بالنكير ، أو يكون لامته فى محنتها نعم النصير ···

منذ ذلك اليوم ربط الشيخ الشهيد مصيره بتلك المعركة ··· كشأن قائده ومن كانوا معه فى جهاده من السابقين الاولين ··· وتوثقت صلة العلم والعمل بين الرجلين· وغدا الشيخ العربى من أبرز كتاب (الشهاب) الاسبوعى والشهرى ··· يدبج يراعه المقالات الممتعة ، فى حقل الاصلاح ··· وكانت كتاباته تحظى بالتقدير والتنويه ، وهذا موضوع له بعنوان :

« **الاضرار بالدين باسم الدين** » يقدم له قلم التحرير ، فى العدد (115 س/فى 2 ربيع الثانى 1346 و 1927/9/29) بهذه الكلمة ، تقديرا واشادة به ··· وهى :

« الاستاذ العربى التبسى عالم مفكر ، قضى سنوات بالازهر ، ونال شهادة التطويع هذه السنة من جامع الزيتونة · وقد عاد الى وطنه الجزائر ، ومسقط راسه تبسة ··· ينشر العلم ، ويهذب العقول ، ويحارب الخرافات والبدع ··· ويعمل لتكوين ناشئة متعلمة مهذبة ··· والشهاب يبتهج بأن يكون واسطة لايصال معارفه وارشاداته الى قرائه الكرام ··· » ·

وبعد ما حصل التعارف والتآلف بين الشيخين ، عن طريق (الشّهاب) ـ كما أشرت ـ وقع الاتصال المباشر ، عندما قام الشيخ العربى بزيارة لادارة الشهاب فى قسنطينة · واجتمع خلالها بالشيخ ابن باديس لاول مرة ، فى أواخر سنة 1928 · ولابد أنه وقع يومئذ بينهما تبادل الآراء والافكار ، حول الوسائل الكفيلة بانهاض الامة ، ونشر اليقظة والوعى بين بنيها ، وانقاذها مما كانت فيه من جهل وظلام ···

ونشر الشهاب عن هذه الزيارة كلمة قال فيها :

« هذا رجل عالم نفاع ، قصر أوقاته ببلدة تبسة على نشر العلم الصحيح ، وهدى العباد الى الدين القويم · وقد عرف قراء (الشهاب) مكانته بما نشرناه له ، وخصوصا

مقالته الاخيرة (بدعة الطرائق فى الاسلام) ٠٠٠ لاول مرة زار هذا الاستاذ قسنطينة، فرأينا من فصاحته اللسانية ، ومحاجته القوية ، مثل ما عرفنا من قلمــه ٠٠ الى أدب ولطف ، وحسن مجلس ٠٠٠ طابت له المنازل ، ورافقته السلامة حالا ومرتحلا ٠٠٠ »

(عدد 19/170 جمادى الاولى 1347 و 1928/11/1) ٠

وفى أثناء رحلة فى بعض بلدان شرق عمالة قسنطينة ، قام بها الشيخ ابن باديس، فى صائفة 1929 ٠٠٠ اجتمع مرة أخرى بالشيخ العربى فى تبسة ٠٠٠ فقال عنــه فى انطباعاته عن رحلته ٠٠٠ واصفا اياه : « الاستاذ العربى ابن الزيتونة والازهر ، مشارك مشاركة قوية فى علوم الشريعة والادب ٠ ذكى الفؤاد ، صحيح الفكر والعلم ، فصيح اللسان ، محجاج قوى الحجة ، حلو العبارة ٠٠٠ شديد الحب لدينه ووطنه ٠ شديد فى الدفاع عنهما ٠٠٠ » ٠

(مجلة الشهاب ج 1 م 5 تاريخ جمادى 1348/2/ونوفمبر 1929)

استقر الشيخ فى تبسة ، وشرع فى القاء دروسه العامة ، بأسلوبه البليغ المؤثر ٠ فأحدث بدروسه تلك ما كان متوقع لها ، من أثر عميق فى النفوس ، ويقظة فى العقول والاذهان ٠٠٠ ولكن سرعان ما أمر (الحاكم الفرنسى) امام المسجد الرسمى ، بمنعه من القاء الدرس فيه ، وغلقه فى وجهه ٠٠٠ وتوجه الشيخ الى الفئة الواعية من أهل البلد ، يدعوها الى تأسيس مدرسة ومسجد حر ٠٠٠ كما هو الشأن فى بلدان أخرى ، حيث أسس أهلها مشاريع تعليمية ودينية ٠٠٠ استقلوا بها عن الحكومة ٠٠٠ ولكن المعنيين بهذه الدعوة فى تبسة أحجموا عن السعى فى تحقيق ما دعوا اليه ، بعد أن بلغهم تهديد ووعيد من طرف الحاكم ٠٠٠ اذا ما هم استجابوا لداعى الخير ٠٠٠

ويظهر أن الشيخ قد أصيب فى هذه الآونة بخيبة أمل ٠٠٠ ولذلك أقدم على مغادرة تبسة الى بلدة (سيق) بعمالة وهران ، بناء على طلب الشيخ ابن باديس منه ذلك ٠ كان هذا فى سنة 1930 ٠٠٠ وقد أدى مهمته الاصلاحية فى سيق أحسن أداء ٠٠٠ وخلد فيها ذكرا جميلا ، لم يزل يذكر به ، ويؤثر عنه لمدى أعوام ٠٠٠ وبعد سنتــين اثنتين عامرتين بصالح الاعمال ٠٠٠ عاد الى مسقط رأسه ، نزولا عند الرغبة الملحـة

التى أبداها أهل تبسة · بعد أن استيقظ احساسهم وشعروا بمدى الفراغ الروحى والدينى الكبير ، الذى تركه غياب شيخهم فى بلدتهم · بعد أن فارقهم ··· واستأنف جهاده كما كان منتظرا منه ··· فكانت النتيجة فى مستوى ما بذل من الجهود ··· اذ تأسس مسجد ومدرسة فى مدة قصيرة ، وذهب تهديد (الحاكم) فى مهب الرياح··· كما يزيل ظلام الليل نور الصباح ··· وازدهرت الحركة ازدهارا ، وآتت أكلها باذن ربها ··· فتأسست مشاريع اجتماعية وثقافية أخرى : أسس نادى الشبان المسلمين على أنقاض حانة لمستعمر ··· وجمعية كشفية ، وأخرى فنية ، وثالثة رياضية ··· فأصبحت تبسة ـ بعد وجود هذه المؤسسات فيها ـ مضرب المثل فى النهضة والحياة ·

ومن الطبيعى ألا تروق هذه النهضة لممثلى السلطة الاستعمارية ، وعلى رأسهم الحاكم ··· الذى دأب على محاربتها ، والسعى فى عرقلتها ، بكل ما لديه من خبث ومكر وعدوان ، جاعلا هدفه ··· أن يوقع الشيخ فى حبائل مكره ··· كما سيأتى فيما بعد ···

وانتخب الشيخ العربى فى الهيئة الادارية لجمعية العلماء ، ابان اجتماعها العام الثانى ، سنة 1932 · وبعد نحو من عامين أصبح كاتبا عاما لها · وما برح يشغل هذا المنصب فيها · الى أن أنيطت بعهدته نيابة الرئاسة بعد وفاة الشيخ ابن باديس ··· كان متفانيا فى خدمة مبادىء الجمعية ، واعلاء مكانتها ، والحفاظ على ناموسها ، وتبليغ رسالتها العلمية والاصلاحية · وقد أوذى شديد الاذى من أجل ذلك فى شخصه وفى مصالحه ··· قصد الحيلولة بينه وبين ما كان ينهض به من مهام حيوية ··· فى بناء المجتمع الاسلامى الجزائرى ، واستعادة شخصيته الوطنية ···

بعد انتقال ابن باديس الى رحمة الله سنة 1940 ، ترك وراءه مئات من تلاميذه الذين كانوا يتلقون عنه الدروس العلمية فى قسنطينة · وكان لابد أن يعوضه فى القيام بها أحد الشيخين : اما الميلى واما التبسى ، وكلاهما يحظى بالكفاءة العلمية المطلوبة وزيادة ··· ونظرا لبعد الثانى عن مقر الدروس وارتباطه بأعمال ذات أهمية قصوى فى تبسة ، تقرر أن توكل المهمة الى الاول ، حتى نهاية العام الدراسى ··· ثم

يقع النظر في تنظيم جديد يؤمن استمرار الدروس بصفة دائمة منتظمة ··· لان الشيخ مبارك الميلي لا يستطيع أن يواصل القيام بالمهمة ، لما كان يعانيه من مرض ··· وهكذا قررت جمعية العلماء أن تنقل تلك الدروس الى تبسة ··· ابتداء من شهر أكتوبـــر 1940 ، مفتتح السنة الدراسية ··· ليتولى تسييرها والاشراف عليها الشيخ العربي··· واستقبل مئات التلاميذ في هذه البلدة أحسن استقبال ، وتابعوا الدراسة في أحسن الاحوال · وقد قام الشيخ ومساعدوه بمسؤوليتهم العلمية ازاء أولئك التلاميذ خـير قيام ، طوال أعوام ···

بيد أن الاستعمار لم يهادن الشيخ في هذه الفترة ، ولم يستطع أن يغمض عينيه على حركته الجديدة ، وهو يرى أفواج الطلاب تغدو وتروح على أماكن الدراسة ، في حيوية ونشاط ··· ولذلك ما عتم أن دبر له مكيدة خطيرة ··· كادت تذهب بحياته ـ لولا لطف الله ـ تلك هي تهمة اتصاله بالالمان في تونس ، وتلقيه السلاح منهم ، من أجل اثارة الجزائريين ضد فرنسا ··· وألقى عليه القبض (1) ··· بناء على هـذه التهمة الملفقة في مكتب (الحاكم) وأعوانه ··· وقضى الشيخ في السجن حوالي ستة أشهر ، بين (تازولت) وقسنطينة ··· ولم يتم اطلاق سبيله الا بعد سعي من رجال مخلصين في عملهم لفائدة القضية الوطنية ···

لم يفت في عضده ، أو يفل من عزيمته ما سلط عليه من عنت واضطهاد في سبيل دينه ووطنه ··· وواصل اشرافه على سير الدروس ··· الى أن وقعت حوادث الثامن ماي 1945 · فالقى عليه القبض ثانية · كما ألقى القبض على الشيخ الابراهيمي رئيس الجمعية ، وعدد من أعضائها ، الى جانب القاء القبض أيضا على آلاف المواطنين ، مـــن مختلف الهيآت والمنظمات والاحزاب · وبعد سراحه فرضت عليه الاقامة الجبرية في المدية لبضعة أشهر ··· وتوقفت الدروس في تبسة ، بعد هذه الاحداث الجسام ··· انما كان توقفها مؤقتا · ريثما تعود الى مقرها الاول في قسنطينة · حينما يأتي أوانها، وتتيسر وسائلها ··· وتحقق الامل بعد أقل من عامين ···

(1) كان القاء القبض عليه في سنة 1943 ·

وجدت جمعية العلماء غاية الجد • وبذلت جهودا جبارة ، من أجـــل اعادة الحياة لتلك الدروس ، التى أضحت أمانة فى عهدة الجمعية ، يجب عليها أداؤها ، وفاء لذكرى المرحوم مؤسسها منذ سنة 1913 ••• وأثمرت تلك الجهود ثمرتها ، المتمثلة فى تأسيس (معهد عبد الحميد بن باديس) بقسنطينة ، وافتتاح الدروس فيه ، فى أواخر سنة 1947 ••• وتم انتداب الشيخ العربى للاضطلاع بأعباء ادارته • فكان نموذجا قليل النظير فى الضبط والنظام ، والتوجيه السديد ، والتكوين الرشيد ، فى نطاق التربية العلمية والخلقية ، التى هى عمدة بناء الجيل الصالح فى كل أمة واعية ••• راشدة •••

ان عملية انجاز تأسيس المعهد تعد خطوة بعيدة المدى فى تاريخ النهضة الجزائرية الحديثة ••• عبر عنها الشيخ الابراهيمى فى مقال له بقوله :

« هذا المعهد أمانة الله بيننا وبينك ـ أيتها الامة ـ وعهد العروبة والاسلام فى عنقنا وعنقك ، وواجب العلم علينا وعليك ، وحق الاجيال الزاحفة الى الحياة مـــن أبنائنا جميعا • فأينا قام بحظه من الامانة ، ووفى بقسطه من العهد ، وأدى ما عليـــه من الواجب ، واستبرأ لذمته من الحق ••؟ » •

أما منهجه فى تكوين الطلاب واعدادهم للحياة الجدية فقد حدده فى هذه الفقرة :

« يقويهم فى الدينيات علما وعملا • وفى القرآن حفظا وفهما • ويروض ألسنتهم على القراءة والخطابة ، وأقلامهم على الانشاء والكتابة ، وعقولهم على التفكير الصحيح ، ويصوغهم صياغة أخلاقية متقاربة • ويشرف بهم على علوم الحياة ، من باب الرياضيات والطبيعيات ••• ويهيئهم تهيئة صحيحة قوية للتعليم العالى • هذه هى حقيقته لا نغلو فى بيانها ولا نقصر ••• » •

واستمر المعهد على أداء رسالته الثقافية نحو الاجيال ، قرابة عشرة أعوام ، الى أن تعطلت الدروس فيه تحت ضغط ظروف الحرب ••• وبعد أن احتل الجيش الفرنسى دار الطلبة ••• كما احتل كثيرا من مدارس التعليم العربى الحر ، فى مختلف البلدان• وعطل بقيتها عن التعليم • وذلك فى شهر يوليو سنة 1957 •••

فى آخر عام 1373 هـ و 1954 م ، عقد الشيخ العربى العزم على الرحلة الى البقاع المقدسة ، لاداء فريضة الحج ، يرافقه صديقه الشهيد أحمد بوشمال ، العضو الادارى فى جمعية العلماء ··· وعمدة الشيخ فى كثير من شؤونه ، ومستودع سره ··· كما كان دائما بالنسبة لسلفه : الشيخين ابن باديس والابراهيمى ··· وعند رجوعهما من الحج عرجا على دمشق ··· ثم القاهرة ، حيث كان يقيم الشيخ رئيس جمعية العلماء ، بمعية مستشاره الخاص الاستاذ الفضيل الورتلانى ··· ولا ريب فى أنه كان لهـذا اللقاء بين الرئيس ونائبه أهمية خاصة ، بالنسبة للجمعية ومشاريعها ، وبالنسبـة للاحداث التى أخذت بوادرها تبدو يومذاك فى أفق الحياة الوطنية بصفة عامة ···

بعد هذه الرحلة المباركة عاد الشيخ ليستأنف جهاده فى أرض الوطن ، كما كان من ذى قبل مشرفا على جميع مؤسسات الجمعية : المعهد ، والجريدة (البصائـر) ، والمدارس الابتدائية الحرة ··· طبقا للتوجيهات التى تلقاها من رئيسه فى القاهرة ··· ومن أهم الاعمال التى أنجزها هى : عقد الاجتماع العام وتجديد انتخاب الهيئة الادارية لجمعية العلماء · وذلك بتاريخ : (23 جمادى الاولى 1375 ـ موافق 7 جانفى 1956) · وقد ألقى فى ذلك الاجتماع خطابا منهجيا ضافيا ··· جمع فأوعى ، وكان فى مستوى الأحداث الجارية ـ حينئذ ـ فوق تراب القطر ، اذ أنه ألم فيه بكل ما يجب عمالـه والقيام به ، بالنسبة للافراد والجماعات والامة · فى نطاق أوكد الواجبات ، الـتى تتطلبها أوضاع الثورة المسلحة ، التى تتوقف على مصيرها حياة أو موت الامة والوطن قاطبـة ···

وأود أن أنهى هذا العرض المقتضب عن حياة الفقيد الشهيد ، بتسجيل فقرات من البلاغ الرسمى ، الذى صدر عن الاجتماع المشار اليه · وقد تناول الحالة التى كانت سائدة فى القطر حينذاك وموقف الجمعية منها · ومما جاء فيه ما يلى :

ـ « ··· ويعلن بكل صراحة أن النظام الاستعمارى المفروض بقوة السلاح عـلى القطر الجزائرى ، منذ سنة 1830 ، هو المسؤول الوحيد عن كـل المآسى والمصائب والويلات ، التى وقعت فى القطر الجزائرى · وذلك بما أحدثه فيه من ميـز عنصرى مخجل، وما سلكه فيه من سياسة التفقير والتجهيل والحرمان من كل نعم الحياة بالنسبة

للعنصر الاسلامی ··· وما حارب به الدين الاسلامی فی أقدس مقدساته وما أجهز به على التعليم العربی القرآنی ، فی كل جهة من جهاته ··· وما تعمده من محق جنسية الامة الجزائرية ومحاولة ابتلاعها . ومحو كل مظهر من مظاهر سيادتها ··· » ·

« ويترحـــم على الشهداء الابرار ، الذين ذهبـوا ضحية القمع الاعمى الفظيـع ويدعو الامة للقيام بواجبها نحو أبنائهم وعائلاتهم ، وكفالتهم كفالة يوجبها الاسلام وتفرضها المروءة والشرف ··· » ·

ــ « ويقول كلمة صريحة علنية يرجو أن يسمعها المسؤولون فی باريس · وأن يسمعها العالم أجمع · وهی أنه لا يمكن حل القضية الجزائرية بصفة سلمية وسريعة الا بالاعتراف العلنی الصريح بكيان الامة الجزائرية الحـر ، وجنسيتها الخاصـــة ، وحكومتها القومية ، ومجلسها التشريعی المطلق التصرف · فی دائرة احترام مصالح الجميع والمحافظة على حقوق الجميع ··· » ·

ــ « ويؤكد أنه لا يمكن وضع حد لحالة الحرب الحاضرة ، والاقدام على بناء النظام الحر الجديد الا بواسطة التفاهم الصريح المخلص ، مع سائر المثلين الحقيقيين للشعب الجزائری ، من رجال الحل والعقد ، الذين أظهرهم الكفاح الجزائری » ·

« ويوصی الامة ختاما بالحق ، ويوصيها بالصبر ، ويستحثها على العمل الصالح ، والثبات وتوحيد الصفوف ونسيان الخلافات القديمة · حتى تستطيع متحدة متظافرة أن تصل قريبا الى الدرجة الرفيعة ، التی أهلها لهـــا جهادها المستمر منــذ أحقاب ، وكفاحها الشريف ، الذی أصبح فی العالم مضرب المثل ، وتاريخها الحافل بجلائـــل الاعمال ·· » (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوی عزيز) (2) ·

وظل الشيخ العربی مثابرا على ممارسة مسؤولياته ومهامه بالمعهد فی قسنطينة ، وبمركز الجمعية فی العاصمة الى اليوم الذی تم فيه اختطافه من منزل اقامته بالجزائر ، ثم اغتياله من طرف عصابة اليد الحمراء الفرنسية ، كما سيأتی بيانه ··

(2) (البصائر) عدد 349 ــ 29 جمادی 1 ــ 1375 ــ 13 جانفی 1956 ·

وذات يوم من أيام شهر رمضان سنة 1376 هـ حمـــل الى البريد ظرفا على غـــير انتظار ٠٠ واذا به يحتوى على مفاجئة جد أليمة ٠٠ اذ كان به بلاغ باسم جمعية العلماء حول اختطاف الشيخ من منزله واغتياله ، بصورة وحشية فظيعة ٠٠ ومعه كلمة تذكير واستنهاض ، تدعو جميع الهيئات العلمية الاسلامية فى العالم ، الى اعلان استنكارها وشديد احتجاجها ، ضد اعتقال واغتيال أحد كبار علماء الاسلام فى الجزائر ٠٠

وأما الذى بعث لى بالبلاغ والكلمة التى معه باسم مستعار ، فهـــو الاستاذ أحمد حمانى ٠٠ كما بعث لى فيما بعد بعدة تقارير هامـــة ، عـــن معارك الثـــورة وأحداثها وتطوراتها ، بعنوان خاص فى مدينة طانجة ٠٠٠ وقد قمت بنشر البلاغ المشار اليـــه والتقارير ، على نطاق واسع ، فى الصحافة المحلية ، والاذاعات المغربية ٠ وفى صحيفة (المقاومة الجزائرية) ٠٠

ونظرا لما تكتسيه هاتان الوثيقتان من أهمية تاريخية ٠ فقد رأيـــت أن أنشرهما اليوم بمناسبة ذكرى ربع قرن على اشتعال نار الثورة التحريرية ٠٠ وبعد مضى حوالى ثلاث وعشرين سنة على استشهاد أحد كبار علمائنا الابرار المجاهدين ٠٠ من أجل حرية واستقلال الجزائر العربية المسلمة ٠ واعلاء كلمة الله فيها ٠ وجعل كلمة الذين كفروا السفـــلى ٠٠

كلمـة الختـام :

لما انتهيت الى هذا الحد من الكتابة ، شعرت أننى لا زلت بعد لم أوف أستاذنا حقه على من التكريم ، والذكر الجميل ٠٠ ولذا آثرت أن يكون مسك الختام لموضوعى هذا باقة جميلة من كريم الصفات ، وحميد السجايا ، التى أصبغها قلم شيخنا الابراهيمى على الفقيد العزيز ٠ وهو يتحدث فى مقال له عن (المعهد) أثناء عام 1948 ٠٠ قال :

« والاستاذ التبسى ـ كما شهد الاختبار وصدقت التجربة ـ مدير بارع ـ ومرب كامل ، خرجته الكليتان الزيتونة والازهر فى العلم ، وخرجه القرآن والسيرة النبوية ، فى التدين الصحيح ، والاخلاق المتينة ٠ وأعانه ذكاؤه وألمعيته على فهـــم النفوس ، وأعانته عفته ونزاهته على التزام الصدق ، والتصلب فى الحـــق وان أغضب جميع

الناس ·· والزمته وطنيته الصادقة بالذوبان فى الامـــة والانقطاع لخدمتها بـانفع الاعمال ·· وأعانه بيانه ويقينه على نصر الحق بالحجة الناهضة ، ومقارعة الاستعمار فى جميع مظاهره ·· فجاءتنا هذه العوامل مجتمعة منه برجل يملأ جوامع الديـنَ ، ومجامع العلم ، ومحافل الادب ، ومجالس الجمعيات ، ونوادى السياسة ، ومكـــاتب الادارة ، ومعاهد التربية ·· » (البصائر عدد 44/20 رمضان 1367 ـ 26 يوليو 1948) رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل فى جنة الخلد مثواه ··

وهذا نص الوثيقتين :

(1) بلاغ من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
فى قضية اعتقال الاستاذ الشيخ العربى التبسى
الرئيس الثانى للجمعية ، ومدير معهد ابن باديس

فى مساء يوم الخميس 4 رمضان 1376 4 ابريل 1957 · وعلى الســاعة الحادية عشرة ليلا اقتحم جماعة من الجند الفرنسى التابعين لفرق المظلات المتحكمين اليوم فى الجزائر سكنى فضيلة الاستاذ الجليل الشيخ العربى التبسى ، الرئيس الثانى لجمعية العلماء والمباشر لتسيير شؤونها ، وأكبر الشخصيات الدينية الاسلامية بالجـزائر · بعد أن حطموا بعض نوافذ الاقسام المدرسية الموجودة تحت الشقة التى يسكن بهـــا بحى بيلكور طريق التوت ، وذلك شأنهم فى اقتحام ديار المسلمين لا يأتونها غالبا من ابوابها ، وانما من السطوح والنوافذ ، لتتم حسب زعمهم المفاجاة ، أو ليشتد الارهاب والنكال · ثم طرقوا باب الشقة ففتح لهم ، وكانوا يرتدون اللباس العسكرى الرسمى للجيش الفرنسى ، ومسلحين بالاسلحة التى يحاربون بهــا الشعب الجزائرى والمدنيين المسلمين ·

وقد وجدوا فضيلة الشيخ فى فراش المرض الملازم له ، وقد اشتد عليه منذ أوائل شهر مارس 1957 واخذت نوباته تتــوالى عليه ـ عنيفة ـ مرات فى الاسبوع ، فلم يراعوا حرمته الدينية ، ولا سنه العالية ولا مرضه الشديد وازعجوه من فراش المرض بكل وحشية وفضاضة ، ثم أخذوا فى التفتيش الدقيــق للسكنى ، والملفات والكتب والرسائل بعد أن حجزوا العائلة وفصلوا عنه أبناءه وبناته واعتدوا بالضرب عـــلى

أكبرهم لما حاول مساعدة والده المريض ، ثم أخذوا محفظته بما فيها ، ثم اخرجوه حاسر الرأس ، حافي القدمين ، غير متدثر بأي شيء الا لبسة المتفضل ولكنهم ارغموه على ارتداء (سروال) ولده الافرنجي ومعطفه وكلاهما لا يصلح له لباسا لصغره ٠

وقد كان من المحقق لدى العائلة انهم ذهبوا به للتحقيق معه ، وانما عومل هذه المعاملة لانهم لم يشاؤوا أن يميزوه عن شعبه زيادة في النكال والاستفزاز ، وكان هذا شأنهم منذ التحصيل على التفويضات الخاصة في مارس 1956 وخصوصا منذ أن (حجرت) الجزائر الى القائدين لفرق المظلات (ماسو) و (بيجار) ٠

ولكن المفاجاة كانت تامة عندما سئل عنه في اليوم الموالي والايام بعده في الادارات الحكومية المدنية والعسكرية والشرطية والعدلية ، فتبرأت كل ادارة من وجوده عندها أو من مسؤوليتها عن اعتقاله ، أو من العلم بمكانه حتى وصل الى الادارة العليا بمقر الوزير المقيم والوالي العام فتظاهرت بانكار العلم و (استنكار) الفعل ووعدت بالبحث٠

وقد بقيت المسألة كذلك الى ان ارسل مكاتب جريدة (لومند) الباريسية بخبر صغير نشر في زاوية مهملة يعلن فيه ان رجال المظلات قد اعتقلوا الشيخ العربي التبسي وهو - عضو هام - في جمعية العلماء ، وانه تحت ايديهم لاجل الاستنطاق والتحقيق وكان ذلك بعد يومين من اعتقاله ، واذا بشركة الصحافة الفرنسية - وهي رسمية تبادر بنشر بلاغ واذاعته على العالم تزعم فيه ان الشيخ العربي قد اختطف من طرف مجهولين وان وليه التجا الى الادارة العليا فبادرت بفتح بحث في القضية انتج انه اختطف من مجهولين ويشم من هذا البلاغ انها بريئة من القضية ، وانها ممن يشتكى اليه ، ويلتجا الى حمايته وعونه ٠

وجمعية العلماء تذيع على العالم أجمع ان الحكومة الفرنسية بادارتها المدنية والعسكرية مسؤولة مسؤولية كاملة في قضية الشيخ العربي ٠ وتخشى ان تكون قد اغتالته يد العدوان أو مات تحت العذاب ، ولم يمكنها في هذه المرة ان تدعي انه حاول الفرار ، أو افتكاك السلاح من يد الجنود فقتل ، كما لم يمكنها ان تدعي انه انتحر - كيف وهو مقيد اليدين والرجلين - بعد افتضاحها في قضية الشهداء الابرار العربي ابن مهيدي ، وعلى بومنجل والشريف العمراني فاخترعت هذه الدعوى الجديدة تنصلا

من المسؤولية . وعدوان أعوانها • وتلاحظ الجمعية ان فضيلة الاستاذ العربي كان فى الزمن الاخير قبلة أنظارهم ومحط آمالهم لعلهم يجدون منه لينا أو (تفهما) يشجعهم على اتخاذه (المفاوض الصالح) للفت فى عضد الثورة وتشتيت شمل الشعب ، فما وجدوا فيه الا الصلابة والحزم ، والتضامن الكامل مع شعبه المكافح • وجيش التحرير المحارب وجبهة التحرير المناضلة فقد أرسلوا اليه فى شهر نوفمبر 56 مفاوضهم الخاسر م• كومان كاتب الحزب الاشتراكى المتولى الحكم فلم يفز منه بطائل ، وأبلغه ان المفاوض الوحيد هو جبهة وجيش التحرير أو من يعينونه لكم ، ومع ذلك فقد كتموا هذا الخبر واخفوا هذه المقابلة حتى قرب أوان المداولات فى القضية الجزائرية أمام منظمة الامم المتحدة . واذا بهم يعلنون ـ فى أسلوب تساؤل أهناك مفاوضة ؟ ـ ان م • كومان قابل الشيخ العربى وتحادث معه فى القضية الجزائرية ثم علقوا على هذه المقابلة كما يحلو لهم دون أن تكون بيد الشيخ وسيلة لنشر أى ايضاح •

ثم أرسلوا اليه اثناء شهر جانفى 1957 مبعوث جريدة (لومند) البارسية ليحاول أخذ حديث منه ينشرونه من بعد • ثم يعلقون عليه بما يريدون فاعتــذر له ، ورفض مقابلته ، ثم نشرت الجريدة نفسها حديثا طويلا لشيخ آخر كان ينتسب لجمعية العلماء واخرج منها منذ سنة 1938 فزعمت :

1 ـ ان هذا الشيخ من المؤسسين لجمعية العلماء المتكلمين باسم العلماء الى اليوم • الناطقين بلسانهم •

2 ـ ان هذا الشيخ يعتنق مذهب غاندى فى استنكار العنف والالتجاء اليه •

3 ـ ان العلماء ـ وقد خرجت هذا التعليق تخريجا ـ منذ ابتداء الثورة الجزائرية قد انقسموا فطائفة منهم انخرطت فى الجبهة وأيدت الثورة كالابراهيمى رئيسها ، والمدنى كاتبها العام ، وطائفة بقيت بالجزائر دون هذه المشاركة •

ولا شك ان هذه الجريدة أو الايدى التى حركتها للعمل ورسمت الخطــة لمبعوثها كانت ستفعل هذا أو شبهه فى حديث فضيلة الشيخ العربى لتضليل الرأى العــام الفرنسى ، وتخذيل الشعب الجزائرى لولا انه رفض المقابلة ورد المبعــوث المسخــر خاسرا •

وقد حاول فى هذه الايام الاخيرة بعض رجال الحكومة الكبار فى الادارة الجزائرية استدراج الشيخ لمقابلتهم · والتفاهم معه فلم يمكنهم من ذلك ·

وآخر مكيدة دبرتها هذه الدوائر انها أرسلت ذنبا من اذنابها يوم الجمعة 27 شعبان 1376 الموافق 19 مارس 1957 م ، الى المسجد الجامع بحى بلكور فصعد المنبر دون طلب أحد وبحضور آلاف المصلين وفضيلة الشيخ ثم تلا الآية الكريمة «**انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم**» الآية · ثم شرع الخبيث يتهم رجال الثورة الابرار بما شهد العالم اجمع انهم بريئون منه وزعم ــ افكا ــ أنه طلب من الشيخ التدخل فجبن ولم يفعل ، ثم زعم انه متصل بالثوار وانه أتى منهم باوامر لينفذها الشيخ فأحجم وأبى ، واسترسل فى الكذب والمتناقضات حتى أنزل عن المنبر . وقد غضب الجمهور على هذا الخائن غضبا شديدا ولولا تدخل الشيخ لفتك به ومما لا شك فيه ان هذا الخائن المسخر كان يراد منه اثارة الشعور العام ضد الثورة وضد الشيخ وضد الجمعية ، كما أريد منه التمهيد لما أتى بعد الاختطاف فقد زعم بعض المسؤولين أولا ان الشيخ ربما اختطفه الارهاب المضاد · ثم زعموا فى البلاغ انه اختطف من طرف مسؤولين مجهولين ثم صرحت الصحافة الاستعمارية ــ زاعمة افكا وزورا ــ ان الذين اختطفوه هم الارهابيون وبهذا تسمى رجال جيش التحرير ·

ان جمعية العلماء تكذب كل تضليل فى الموضوع وتعلن للرأى العام الاسلامى وللرأى العام الفرنسى وللرأى العام العالمى ان الادارة الفرنسية المدنية والعسكرية هى التى اعتقلته ، وان رجالها الرسميين هم الذين أخذوه ، وانها تتحمل مسؤوليتها كاملة · والامة الجزائرية تهيب بكل ذى ضمير حى فى العالم وبالهيئات الاممية ، والمنظمات الانسانية والمذاهب الدينية وبالعالم الاسلامي العربى ان يتدخل فى الموضوع، وان يسألوا الحكومة الفرنسية فى القضية ويجبروها على قبول بحث محايد اما بواسطة منظمة الامم المتحدة أو بواسطة رجال الصليب الاحمر الاممى من غير الفرنسيين أو بواسطة من يتفق عليه ·

ان الامة الجزائرية تعتبر قضية فضيلة الشيخ العربى ـ وهو أكبر رجال الدين الاسلامى فى الجزائر ـ قضيتها الروحية وما قصدها الا اهانتها ، واذلالها ، والمبالغة فى استفزازها . وانها لتكذب تكذيبا قاطعا لكل دعوى تدعيها الحكومة الفرنسية من جنوحها للسلم العادل كما أوصت به منظمة الامم المتحدة وقبولها للحل السلمى وانما ننتظر هدوء الحالة بايقاف اطلاق النار وانما تتخذ كل الاجراءات للتوصل لهذا الهدوء ، فهل اختطاف أكبر رجال الدين الاسلامى بالجزائر واهانته وتعذيبه والتنكيل به فى شهر الصيام ثم الذهاب به الى مصير مجهول مما يساعد على ذلك ؟

ان الامة الجزائرية لتعلم ان الحكومة الفرنسية ساعية بكل عزم وتصميم لافناء الشعب الجزائرى والانتهاء منه واحلال جموع الاوروبيين بتله ونجده وصحرائه وهى فى سبيل ذلك تدفع جيشها دفعا الى ارتكاب أفظع ما يتصوره العقل من أعمال القمع ، تقتيلا ، وتعذيبا ، وتحريقا ، وتحاول ما استطاعت ربح الوقت ، وتأخير الحل .

ان الشعب الجزائرى المؤمن بحقه فى الحياة الحريص على كرامته ، المصمم على نيل حريته واستقلاله ليعلن للعالم أجمع انه سيواصل الكفاح ، ويداوم الجهاد والمقاومة الى النصر النهائى ، ولن يثنيه سقوط أى كان من أبطاله فى الميدان مهما سمت منزلته ، ويعتقد أن الشهداء أفضل رجاله وأكرمهم عند الله ، وأبرهم بوطنهم وشعبهم ودينهم ، وسقوطهم فى ميدان الشرف كرامة لهم وهوان لاعدائهم ، ولن يفت ذلك فى عضده أو يثنيه عن عزمه بل ما يزيده الا ثباتا وعزما وتصميما ، ولن يوقف اطلاق النار الا بالاعتراف بالاستقلال ، ولن يوضع السلاح حتى يتحقق هذا الاستقلال .

والله أكبر ، والمجد للعرب والنصر للجزائر

والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين

(2) كلمة تذكير واستنهاض ولوم وعتاب

فى مساء يوم الخميس وليلة الجمعة 4 من رمضان 1377 الموافق 4 من ابريل 1957 انتهكت حرمة العقيدة الاسلامية بالجزائر . وأهين المسلمون اهانة بالغة ... ونكل بهما تنكيلا شنيعا ، ومثل بهما تمثيلا فظيعا ، واستخف بهما استخفافا لئيما ...

وذلك باهانة شيخ المسلمين بالجزائر وانتهاك حرمة بيته ودوس كتبه ومصاحفه والتمثيل به والاستخفاف بعائلته ·

لقد اقتحم الجند الفرنسى منزل فضيلة الاستاذ العربى التبسى الرئيس المباشر لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومدير معهد عبد الحميد بن باديس اقتحاما · وانتزع من فراش مرضه انتزاعا · وعومل بغلظة وفظاظة وحيل بينه وبين أبنائه الصغار ونسائه · وأهين ابنه الكبير أمام عينيه اهانة ··· وبعثرت كتبه وديس بالاقدام أمام عينيه مصاحف القرآن وكتب الحديث والتفسير · وحجزت محفظته بما فيها من المستندات الهامة ومن مالية لا يعلم عددها ترجع اليه أو الى الجمعية التى هو مسؤول عنها · ثم ذهب به بعد هذه الشناعات الى مصير مجهول حاسر الراس حافى القدمين ، عارى البدن لا يكاد يستره شيء ، لم تراع فيه مكانته الدينية السامية ، ولا سنه العالية ـ وقد قارب السبعين ـ ولا حالة مرضه وقد ألح عليه ···

أكل هذا يقع ولا نكاد نرى اختلاجة واحدة فى جسم العالم الاسلامى ··· ولا نسمع صوتا يرفع للتشهير بهذا المنكر عدا صوت أو صوتين فاترين همس به أو بهما همسا واحتج به أو بهما احتجاجا حييا متواضعا ثم أعقب ذلك سكوت أبلغ من كل كلام ·

لقد أحست الدوائر الاستعمارية بفداحة الجريمة وشناعة هذا المنكر فأذنت لدعايتها أن تشيع حول (اختطاف) الشيخ اشاعات كاذبة ومفتريات نكراء ، وتطلق فى الجو (ضبابا) ساترا للتمويه والتضليل حتى يمكنها أن تحفظ خط الرجعة ، وتتنصل من الجريمة ··· ولكن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وزملاء الشيخ فيها ـ المضروب على أيديهم والمحرومون من كل وسائل الكلام ـ استطاعوا أن يرفعوا اللبس ويزيلوا كل اشتباه بالبيان الصادر من الجمعية فى تحميل الحكومة الفرنسية كل المسؤولية ، ورفض كل تنصل منها ، وفضح كل تأويل أو تفسير ، وذلك لان اعوانها الرسميين وجنودها المجندين المحصلين على التفويضات الكاملة منها بلباسهم الرسمى وأسلحتهم ، وحيثيتهم ولغتهم وأسلوبهم الخاصين بهم أولئك الذين اقتحموا دار فضيلته وأهانوه وذهبوا به · ولولا ذلك لفضل أن يموت بفراشه على الذهاب معهم ولمات دونه كل من وجد معه من عائلته أو من قرب محله من داره من المسلمين ···

فكل تنصل من الحكومة الفرنسية مرفوض ، وكل تأويل مردود ، وكـــل تمويه أو تضليل مفضوح ٠

فما بال اخواننا المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها يسكتون عن هذه الهضيمة ويبتلعون هذه الاهانة الشنيعة ، وما قصد بها اهانة الشيخ شخصيا وانما أريد بها اهانة الاسلام والعقيدة الاسلامية والمسلمين فى شخصيته وما بال أشقائنا الاقربـين وأصدقائنا الحميمين بتونس والمغرب تخفت أصواتهم وتتلجلج ألسنتهم وتنام ضمائرهم ونحن نعلم يقينا ان الشعب فى تونس كشعب الجزائر وشعب المغرب يغلى غليانـــا ويشتعل اشتعالا ٠٠٠ وهو على كمال الاهبة لحرق الغاصبين المعتدين ، وما بـــال زملائنا واخواننا علماء الزيتونة والقرويين والازهر وغيرهم من علماء الاسلام وهـــم حملة الشريعة وحماة الملة يصابون فى زميل لهم ويمس الاسلام فى أحدهم وتهـــان العقيدة فى أكبر ممثل لها فى قطر من اقطارها ثم هم مستمرون على سكوتهم سادرون فى غفلتهم متمسكون بعزلتهم ، مصرون على تواضعهم مستكينون الى خمودهم ٠ كأن الامر لا يعنيهم ولا يتصل بهم ولا ترتبط ماساته بادنى سبب من الاسباب مع مهمتهم وحيثيتهم ٠ أو كان الشيخ العربى أجنبى دخيل فى وسطهم غريب على مجتمعهم أو كان قضية هذا الشعب ـ الشعب الجزائرى ـ وما يتصل به وبديانته وعقيدته ودمائه ورجاله اهون من ان يشتغلوا بها أو يعتنوا بمشاكلها أو تأخذ جزءا أدنى جـــزء من أوقاتهم الثمينة ٠٠ مع أن قضية الدين ورجاله قضيتهم وقضية انتهاك حرمات الاسلام والمسلمين من مهماتهم ومشمولات أنظارهم وكل ما يمس واحدا منهم من أجل حيثيته وصفته يمسهـــم ٠

أيها الاخوان ويا أيها الاشقاء ويا معشر الزملاء ما هكذا تهـون العقيدة ، ويرخص رجالها وتنتهك حرماتها وتداس كتبها ومقدساتها عند الامم الاخرى أو الملل الاجنبية ثم لا يكون منهم الا الاستخذاء ، والخنوع والرضى والاستسلام ٠٠

لقد رأينا أيها الاخوان كيف اهتزت أركان العالم المسيحى اهتزازا وزلزلت الارض زلزالا يـــوم القت حكومة بولونيا الشعبية ـ وهى حكـــومة شرعية وليدة انتخابات شرعية ـ القبض على زعيم الديانة المسيحية ، ورئيس المـــذهب الكاثـــوليكى فى

بولونيا ، وتزلزلت الارض زلزالا ، وتكاد تخرج اثقالها ، يوم القت حكومة المجر أيضا القبض على زعيم آخر من زعماء المسيحية ، زعيم المذهب الكاثوليكى بها بنفس التهمة ، ولنفس الاسباب مع انها حكومة شرعية وليدة انتخابات شعبية .

لقد رأينا أيها الاخوان كيف قامت قيامة العالم المسيحى - عندئذ - وارتج ارتجاجا شديدا ، بكنائسه ومذاهبه وقساوسته وأحباره ورهبانه ، والب العالم أجمع والانسانية جمعاء تاليبا محكما ضد الحكومتين حكومة المجر وحكومة بولونيا .. حتى قامت قيامة الدنيا غضبا للكاردينالين الكاثوليكيين المعتقلين المسجونين . فتظاهرت الشعـــوب ، واحتجت الحكومات ، وتدخل النواب فى مختلف الاوطان يستنطقون حكوماتهم أمام المجالس النيابية ، كان القضية قضيتهم ، واهتزت شركات الانباء تفصل أنباء الاعتقال والسجن والمحاكمة تفصيلا ، وكتبت الصحف والمجلات ، وابدع الكتاب تشنيعا وتهويلا ، ولقد حوكم الكردينالان المتهمان محاكمة ، وقامت ضدهما البينات ، وكافحهما الشهود واعترفا اعترافا . فادينا ، واودعا السجن بمقتضى أحكام صادرة . ومع كل ذلك فالدنيا التى قامت لم تقعد والحكومتان المعتقلتان للكاردينالين الحاكمتان لهما لم تطمئنا ولم تراحا وتستريحا الا بعد ان افرج عن الكاردينالين - رغم الاحكام الصادرة - واطلـق سراح كل منهما .. وارجعت له سائر حقوقه ، وحريته . واننا لا نلوم العالم المسيحى على ما فعل بل نغبطه ، ولا نأسى لاحراز الكاردينالين على حريتهما . بـــل نغتبط بها ولو قارنا بين القضيتين قضية الكاردينالين ، وقضية الشيخ العربى التبسى ، لوجدنا الفرق واضحا والاختلاف بينا لفائدة قضية الشيخ ولصالحه ..

ففى قضية كل من الكاردينالين اعتقلتهما حكومتا بلاديهما الشرعيتان ، بتهم معينة كما يعتقل كل متهم ، والمتهم برىء حتى يدان ، وكل منهما قد حوكم أمام محكمة بلاده فقامت عليه البينة أو اعترف أو شهد عليه حقا ، أو زورا - كل ذلك لا يهمنا - فأدينا ، وكان اعتقالهما انسانيا ، واستنطاقهما قانونيا ، والحكم عليهما مستندا الى حيثيات ..

اما الشيخ العربي التبسي فقد اعتقلته حكومة غير شرعية تعذب شعبه ، وتغتصب وطنه وتهين دينه اعتقالا مجرما ظالما ، لا يستند الى قانون ، ولا تبرره شريعة ، ثم أهانوه اهانات بالغة ، فاعتدوا على كل حق قانوني أو شخصي أو انساني ، وأهانوا مقدساته ومقدسات المسلمين أمامه بدوس المصاحف القرآنية ، وكتب الحديث والتفسير · ثم انهم فعلوا كل ذلك وذهبوا به الى مصير مجهول في حال تتبرأ منها الانسانية ، حاسر الراس حافي القدمين ، عاري الجسم ، لم يراعوا مكانته السامية ، ولا سنه العالية ولا مرضه الملح ··

يا عجبا ما بعده من عجب افبعد كل هذا نرى السكوت والتردد ، والتخاذل في صفوف المسلمين ؟ والاستسلام (والرضى) من علماء الشريعة ؟

يا أصحاب الفضيلة حملة الشريعة وحماة الملة ·· لقد طالما رأيناكم تثورون وتغضبون فيقرأ لثورتكم ألف حساب ويرتعد لغضبكم اعتى العتاة ، أفلا ترون ان قضية اليوم أهل لثورتكم وغضبكم ؟

ان في الجزائر اليوم ـ ولا نتكلم عما سلف ـ مساجد جامعة ، ومساجد للصلوات الخمس محتلة بحثالة الانسانية وجذام البشرية من كل شريد وطريد وشاذ ·· ياتون فيها الفاحشة ، ويشربون الخمور في محاربها ، ويبولون ويتغوطون في بيوت الصلاة منها ، وان في الجزائر اليوم ـ ولا نتكلم عنها منذ 1830 مساجد جامعة ومساجد للصلوات قد نسفت بالمتفجرات ـ الديناميت ـ نسفا أو حطمت بفعل قنابل الطائرات والمدافع تحطيما ، واغتيل المصلون بها ـ وهم في حالة الصلاة أو عند الخروج ـ اغتيالا وان في الجزائر من رجال الدين أئمة ومدرسين ، وواعظين مرشدين ، يوخذون فيسامون سوء العذاب ، ثم يقتلون صبرا ··

وهذا شيخ المسلمين بالجزائر وعالمهم يهان ويعذب ، وينكل به التنكيل الشنيع ، ثم يذهب به الى مصيرمجهول حتى اليوم ، ليت شعري أيرى المسلمون ان السكوت بعد

كل هذا واشنع من هذا جائز مستساغ ؟ أو انهم لا يرون ذلك ولكنهم قد (ديثوا بالصغار) ·· انتهى

الجزائر 12 ماى 1957

حـاشية :

« يمكن القول أن أكثرية علماء الاسلام ومن فى حكمهم ·· فى العالم الاسلامى قد أصيبوا بضعف النفس ، الناتج عن ضعف الايمان · ووصفوا بوصف الجبـن ، الـذى لا يجتمع مع الايمان فى قلب رجل واحد · فلا غرابة ــ اذن ــ اذا رأيناهم لم يحركوا ساكنا فى قضية الاعتداء الفظيع على شهيد الجزائر واغتياله بصورة شنيعة ·· وان أصدق ما يصدق على علماء ديننا فى هذا العصر ــ الا من رحم ربك ــ هو قول الشاعر» :

« لقـد أسمعـت لـوناديـت حيـــا ولكن لا حيـــاة لمـــن تنـــادى »

ع ــ م



نوفمبر

محمد الاخضر السائحى

كان وهما ، وكان حلما بعيدا   أن نناجيك يا نفمبر عيدا
وتعود الدموع فيك إبتساما   ويعود النشيج فيك نشيدا
قل « ليوليو » هنا « نفمبر » باق   خلد النصر مجده تخليدا
قد حفرنا اسمه على كل قلب   وجرى فى الدماء عزما أكيدا
وحبوناه ما حبانا اعتزازا   ومقاما مدى القرون حميدا
مسحت كفه الظلام وألقت   كل شر عن الطريق بعيدا
كم سهرنا مع الليالى نناجى   أملا طاف فى سناه جديدا
رف فى مقلتيه حلوا جميلا   ومشى فى القلوب مشيا وئيدا
فأرقنا له الدماء بحارا   وملأنا من الضحايا الصعيدا
وتلظى عنادنا فصرخنا   اننا سادة ولسنا عبيدا
وصبغنا الدموع فينا دماء   ثم صغنا القلوب فينا حديدا
ونسينا سكوتنا ورضانا   وعرفنا الوعود تعنى الوعيدا

ومشينا كما علمت صفوفا   وحد الصدق رأينا توحيدا
لا نبالى اذا سقطنا جميعا   من يمت فى الجهاد مات شهيدا
وتمطى « أوراس » تيها وعجبا   فاذا سفحه يعج أسودا
تتنزى تحت الحديد غضابا   كاد « أوراس » تحتها أن يميدا
ومشينا على الصخور ولكن   فى سبيل الحياة كانت ورودا
فاسأل الليل كم دخلنا دجاه   ولبسناه أدرعا وبرودا ؟
وخرجنا مع الضياء نغنى   لم نر الليل ـ أو يرانا ـ رقودا
ووقفنا على الجبال جبالا   وانتصبنا على الحدود حدودا
ومسحنا الدجى فما عاد ليل   كل دار ظلامها قد أبيدا
لم يعد يسمع الدجى صوت باك   أو يرى الصبح فى الطريق شريدا
أو يلف الظلام منا جسوما   أو تلم الاسمال منا جلودا
لم نعد نجمع الغلال ونمضى   لا نرى للغلال فينا وجودا
ننصر العدل أينما كان ظلم   لا نرى الناس سيدا ومسودا

تحيا الجزائر

محمد نسيب



عرفت البطل الشهيد مدنى الطاهر ذلك الجندى المجهول الذى لم يبخل يوما بجهده وعرقه ولا بدمه وروحه ... من أجل أن تحيا الجزائر .

عرفته فى أول نوفمبر 1954 م عندما اندلعت ثورة التحرير وانفجر بركانها .

عرفته عندما حمل الفأس على كتفه والمنشار فى يده والمقص فى حزامه ليقطع الاسلاك التليفونية ويخرب الطريق ويحطم الجسر لكى يتعطل الجيش الفرنسى فلا يصل الى الميدان حتى تنتهى عملية المجاهدين وينسحبوا الى مواقعهم فى الجبال ، حيث المخابىء والحصون .

لا ترى مدنى الا حاملا الزاد والذخيرة للمجاهدين متنقلا بين القرى والجبال لا تكاد تراه فى مكان حتى تجده فى مكان آخر . عمل متواصل ليلا ونهارا لا يوقفه الظلام ولا يثنيه القر ولا يمنعه العدو المترصد له فى كل مكان ، عمل متواصل لا يعرف السكون ولا العجز ولا العياء .

تراه يقظا فى كل لحظة يترصد الاعداء ويتابع تحركات الجيش الفرنسى ويراقب الخونة الذين يعملون ضد الثورة ويتجسسون على المجاهدين،فكان ينقل الاخبار الى المجاهدين بسرعة مدهشة رغم الحصار والعيون المنبثة فى كل مكان . وكان نقمة على هؤلاء الخونة الانذال الذين رفضوا حياة العزة والحرية واختاروا حياة الذل والمهانة وفضلوا البقاء فى ظل اسيادهم المستعمرين ، فراحوا يعرقلون الثورة ويكيدون لهـــا كيــــدا ويسددون لهــا الضربات . ويتاجرون بأخوانهم ويبيعون مواطنيهم وينتقمون من أحرارهم لكى يمدحهم العــدو ويزين صدورهم بأوسمة الخزى والعــار والخيانة ويكافئهم بالخبز المعجون بدماء ابطالهم ودموع اراملهم وايتامهم وكم من مرة حاولوا ايقاع مدنى فى الفخ ، ولكن مدنى كان واعيا متيقظا يعرف كل مــا يجرى فى الناحية فلا تخفى عليه خافية . وكان أيضا دليلا ماهرا يرافق فرق جيش التحرير الوطنى لانه يعرف كل المسالك والمخابىء ، ودرس تلك الجبال الوعرة شبرا شبرا تراه دائما فى مقدمة الجيش ، فلا يسلك طريقا حتى يفحصه فحصا . يتحدى الشدائد ويذلل العقبات ويقتحم الاخطار المحدقة به فلا يبالى بحياته ولا يفكر بشخصه ولا فى أهـــله كما كان يفكر فى تحرير وطنه من مخالب الاستعمار الذى يسومه خسفا وهوانا ويذيقه انواعا وألوانا من الظلم والحرمان والقهر والاضطهاد ٠

فاذا نظرت اليه رأيت العزم يتقد فى عينيه وعلامة الصدق والوفاء مرسومتان على محياه والحياة تتدفق فى أعماقه والامل مشرق فى جبينه والابتسامة تبدو على ثغـــره وكلما لقاك استوقفك وبادرك بهذه الكلمة العذبة التى يرددها فى كل لحظة :

« تحيا الجزائر » فان اردت أن ترضيه ويرضى عنك فقل تحيى الجزائر كلما لقيته لانها أمله الوحيد وضالته المنشودة ٠

وها هو مدنى يعود من العملية بعد أن خرب الطريق وقطع أسلاك التليفون وأضرم النار فى احدى مزارع المعمر ، وهو يلهث من شدة العياء والعرق يتصبب على جبينه . فاذا ببعض الجبناء يتعرضون له فى الطريق يجرى بينهم وبينه هذا الحوار :

الجبناء : انك تسبب لنا الخراب والدمار يا مدنى وتدفعنا نحن وابنائنا وعائلتنا الى النار ٠ فاذا لم تتوقف عن هذه الاعمال المخربة وتكف عن هذا التشويش فان القرية تحرق وتقنبل ، وقد اعلمنا القائد بهذا صبيحة اليوم ٠

وبناء على هذا فنحن نرجو منــك أن تكف عن هذه الاعمال حتى لا تشــوه سمعتنا وسمعة القرية . لقد شوهت سمعتها فعلا ، هذه القرية التى لا تذكر هى وأهلها الا بالخير فأصبحت اليوم قرية (الفلاقة) قرية المشوشين والعصاة والمتمردين الخارجين عـــن القانــون ٠

ولم يكد مدنى الطاهر الذى تغلى فى جسمه دماء وطنية حارة يسمع هذه الكلمة حتى هاج وثار، اجابهم بلهجة عنيفة تخالطها المرارة وقال لهم ما معناه

ان هذه النعوت والاوصاف التى تنعت بهـــا قريتنا كلها شرف لنا وفخر لقريتنا ومجد لبلادنا ووسام البطولة فى صدورنا لاننا نخوض معركة عقيدة وقيم ومبادىء ٠

ان هذه الالقاب التى تخشونها وتشمئزون منها هى التى تصحح تاريخنا وتثبت وجودنا وتعيــد لهذا الشعب كرامته وحريته واستقلاله وثرواته المنهــوبة وشخصيته المسلوبة ، ولغته المنسية ٠

اننا اليوم ملــك للثــورة ، للاجيال ، للتاريخ ، لا لانفسنا ولا لاهلينا ولا لقريتنا الصغيرة ، بل لوطننا الكبير ولكل المضطهدين والمعذبين مثلنا فوق هذه الارض ٠

ألا تريدون أن تسجلوا أسماءكم على صفحات التاريخ وتكتبوا بدمائكم وترسموا طريقا للاجيال المقبلة ؟ ألا تحبون أن تحملوا مشعل الحرية فوق قمم هذه الجبال الشامخة جبال الجهاد جبال الاحرار والابطال، أم تفضلون العبودية على الحرية ؟ والطاعة والانقياد على التمرد والعصيان لانكم تخشون غياهب السجن ، فالسجن أرحم وأفضل من الحيــاة التى أنتم فيها وتفرون من الموت ، والموت ملاقيكم فخير لكم أن تموتوا رجالا أبطالا فى ساعة المجد والفخار فى مواجهة العدو وجها لوجه خير لكم من أن تحترقوا فى أكواخكم الحقيرة وتموتوا تحت الردم كالارانب فتبقوا منسيين فلا التاريخ يذكركم ولا الاجيال تــرحمكــم ٠

الجبناء : نحن نخشى على قريتنا ان يصيبها الأذى من هؤلاء المشوشين اذا دخلوها فيسببوا لنا البلاء والشقاء ٠

مدني : ليسوا مشوشين انهم مجاهدون مناضلون ثائرون وهم اخوانكم وابناؤكم ٠

انهم طلاب الحرية والعزة والكرامة ، لقد وهبوا ارواحهم واموالهم ودماءهم لهذا الوطن انهم يعملون ليل نهار من أجل تحريره من قبضة الاستعمار وتحطيم أركانه واطاحة دولته الجائرة وتحرير رقابكم انتم أيضا من حباله الغليظة التى تحز فى رقابكم ويزيحون الستار عن أبصاركم لتروا الوجود الحقيقي وتفتحوا عيونكم على جمال الحياة وتستنشقوا نسيم الحرية الذى حرمتم منه وحجب عنكم منذ نزول جيش الاحتلال الفرنسى فى سيدى فرج الى اليوم ، ويعود الشباب الى اجسامكم الهرمة وتجرى الدماء الغاضبة فى عروقكم وتنفجر ينابيع الامال فى قلوبكم وتدب الحركة فى اعضائكم المشلولة وتنطلق السنتكم الخرساء لتعبر عن احساسكم وشعوركم وآلامكم ، وآمالكم ، وتصرخون فى وجه الاقطاعية المجرمة التى حصرتكم فى هذه الاحراش وفرضت عليكم الاقامة الجبرية فى ظلمات هذه الكهوف الموحشة فيها ولدتم وفيها تذبل زهرة شبابكم فى صمت ، وفيها تموتون وتدفنون ٠

ثوروا على الذين انكروا وجودكم . وشوهوا شخصيتكم وجحدوا تاريخكم وداسوا مبادئكم وحاربوا لغتكم وأعلنوا عن موتكم وفنائكم وملأوا الدنيا صياحا وادعاء أن الجزائر (فرنسية) فان رضيتم وسكتم ستلعنكم الاجداد وتزدريكم الاجناس ، فالثورة وحدها هى التى تعبر عن وجودكم وتعلن للعالم اجمع انكم أحياء لن تموتوا قبل تحرير بلادكم واثبات شخصيتكم وفرض وجودكم واسترجاع حقوقكم واجتثاث جذور المستعمرين من بلادكم فيرحل آخر جندى عن قارتنا السمراء ٠

الجبناء : ان فرنسا دولة قوية لا نقوى على حربها وهى قادرة على حرقنا وافنائنا ، ألم تسمع تصريح (لاكوست) الذى قال : اننا سنقضى على هؤلاء الفلاقة فى ربع ساعة اذا لم يسلموا أنفسهم ٠

ألم تسمع الى الاذاعة ؟ ألم تقرأ الصحف اليومية ؟ كم قتلوا وكم سجنوا وكم من حكم عليهم بالاعدام شنقا ، وكم من ثائر يسلم نفسه كل يـوم الى السلطات الفرنسية نادما على ما اقترف من اثم وذنب مدنى . اشتد غضبه وثار فى وجوههم حاقدا ساخطا على السياسة الاستعمارية الثعلبية ، سياسة المكر والخداع محذرا لهم من هذه الحرب النفسانية الخطيرة التى تحطم العزائم وتدمر النفوس وتضلل العقول وتنشر الرعب والفزع فى قلوب الضعفاء قائلا لهم : لا . لا تصدقوا اذاعتهم ولا أقوالهم ولا جرائدهم انها أخبار كاذبة مزيفة . انبـــاء الخداع ، أنباء التخدير والتنويم ، أنبـــاء العجز والاستسلام ، نحن لن نستسلم أبدا ولن نخشى أى قوة سنصمد فى وجه العدو صمود هذه الجبال فى وجه الزمان .

الجبناء : أليس من الحمق والجنون ان تغامروا بأنفسكم وتقامروا بأهلكم وتلقوا بهذا الشعب فى جحيـم لا يطـاق ؟ الا تفكرون فى العواقب الوخيمة والعذاب الـذى ينتظركم والمشانق المعدة لشنقكم فى كل مكان . تزعمون انكم أقوياء تحاربون فرنسا وتخرجونها من الجزائر بل من افريقيا . لا تنخدعوا بهذه الاحـلام المغرية والسراب اللامع ... كيف تستطيعون الوقوف فى وجه دولة من الدول العظمى وتقاومون جيشها الجبار المـزود بالاسلحة العصرية الجهنمية مـن طائرات وصواريخ ودبابات ومـدافع ومدرعات وتجابهون هذه القوة المتفوقة ، بأسلحتكم العتيقة « بنادق الصيد » بنـادق العصافير بل لعب الاطفال . وفوق هذا معهـم الحلف الاطلسى الذى يؤيدهم ويدعمهم ماديا وسياسيا ...

مدنى : الله معنا ، ان ارادة الشعوب لا تقهر فارادة الشعب أمضى وأخطر من أى سلاح ، انها أعظم وأفخم من أى جيش . انها اعنف واصلب من أى مادة ، انها صخـرة تتحطم عليها معاول الهدم والتخريب .

اذا لـم نملك الجيش والمـال والسلاح فالحمد للـــه اننا نملك الايمان والعقيدة والارادة التى تدك الجبال وتفتت الصخور . لو وقف العالم كله ضد هذا الشعب لمـــا تراجع عن موقفه ولا سكت عن حقه ولا وقف عن زحفه حتى يحقق آماله وينال مطالبه ويفرض وجوده أو يزول من الوجود ، اما الوجود واما اللاوجود .

الجبناء : كم من ثورة قامت في الجزائر وكم من زعماء قادوا الحملات ونادوا بتحرير البلاد ، وكم من بطل تمرد وثار في الصحارى والجبال ، ولم نجن سوى الجروح والدموع والنفى والتشريد والجوع والحرمان ، والبؤس والشقاء ، وملء السجون وشنق الشبان وكثرة الارامل والايتام ، وحرق القرى وهدم الخيام منذ 1830 م . والجزائر لم تعرف الهدوء والإستقرار ، ونحن وقود الثورات وضحايا الارهاب والتعذيب والقتل الجماعى الا تخشى الله يا مدنى ان تلقى بهذه القرية وأهلها بين أيدى هؤلاء الجزارين القساة الذين لا يرحمون ولا يشفقون ·

مدنى : فالموت أحلى وأعذب وأرحم وأشفق من هذه الحياة التى تحبونها ، فالثورة لن تقف ونحن لن نتراجع مهما كانت التكاليف والتضحيات سنواصل القتال ولو بالحجارة والايادى والاظافر والاسنان ·

الجبناء : أليس من العيب ان نخسر مرة أخرى وتتكرر هزائمنا وتتجدد ماسينا وتدمى جروحنا ، فلا أحد يضمدها ويشد أزرنا ·

مدنى : ليس العيب فى أن نخسر معركة ، ولكن العيب فى الفشل والاستسلام والطاعة والانقياد للعدو ، فى الحياة نجاح واخفاق ، انتصار وانكسار ، علو وانخفاض ، شروق وافول ، طلوع ونزول ، حلاوة العسل ومرارة الحنضل ·

ان الشعب الجزائرى لم يفقد يوما آماله فى النصر ولم ييأس من استرجاع سيادته وحريته ، ما دام فيه عرق ينبض بالحياة وقلب يخفق بالحب رغم الهزائم المتعددة والمتكررة ، فهو يرنو للحياة ويتطلع للافق البعيد ، ويحاول الخلاص وتحطيم الاغلال فى كل لحظة فلا يدع الفرص تمر دون أن يعلن عن وجوده ويصرخ فى وجه الاعداء ، لم يذعن ولم يستسلم استسلام المغلوب للغالب هذا هو سر النجاح وعظمة الشعب الجزائرى انه لم يقهر ولم يطأطىء رأسه لاحد ، ولم ينحن أمام الاعداء مهما تجبروا ، بل وقف أمامهم مرفوع الرأس عالى الصدر انه رمز البطولة والصمود ، لقد تجسدت فيه معانى التضحية والفداء ورسمت على ملامحه مخائل النبل والوفاء وتمثلت فيه ارادة الحياة ·

الجبناء : نحن نريد فقط أن تسلم قريتنا من التدمير والتخريب ٠٠٠

مدنى : اتضحون بوطنكم الكبير وتتخلون عنه من أجل الاحتفاظ بقريتكم الصغيرة التى هى جزء لا يتجزأ من هذا الوطن الشاسع المترامى الاطراف ؟ فلا سعادة لكم الا بسعادته ولا عزة لكم الا بعزته ولا قوة لكم الا بقوته ولا حياة لكم الا بحياته ولا نجاة لكم الا بنجاته هل يصح للانسان المفكر العاقل ان يضحى بجسمه كله من أجل الاحتفاظ باصبعه ؟ لا تتمثل روعة الحياة وجمالها فى هذا الجسم الا بالتكامل والتناسق والانسجام بين الاعضاء كلها فلا يمكن ان نفرق ونفصل بين عضو وآخر ٠ وكذلك بالنسبة للوطن ـ فالوطن بمدنه وقراه ، بجباله وصحرائه ، بوديانه وشعابه ، بسهوله وهضابه ٠

الجبناء : نحن نريد الحياة ونحب الحرية ونطالب بحقوقنا ، ولكن بالسياسة لا بالحرب لان الحرب لا نستطيعها ٠

مدنى : انكم تطلبون المستحيل وتهرعون خلف السراب ، الحرية تؤخذ ولا تعطى تنزع ولا تمنح ولا تهدى ٠٠ فاليد التى يؤلمها وخز الاشواك لا تقطف الورود ، والذى يخشى لدغ النحل يحرم من حلاوة العسل طول العمر ٠

الجبناء : ولكن نخشى الهزائم التى تلاحقنا فى كل مرة والعذاب الذى ينصب علينا فى كل ثورة ولا تزال تلك الصور البشعة الرهيبة صور التقتيل والتنكيل وشنق ابناء القرية تتمثل أمام عيوننا فى كل لحظة ٠ لم تفارقنا منذ طفولتنا ، انها أول منظر فتحنا عليه عيوننا وأول صورة طبعت فى اذهاننا ٠

مدنى : لا نسميها الهزائم بل نسميها دروس الحياة ، انها صفعات الدهر أيقظت ضمائرنا وصقلت عقولنا وكشفت عن أمراضنا وعرفتنا بدائنا وعلمتنا ان المنتصر لابد يوما أن يذوق مرارة الانهزام ويكوى بنار الانكسار حتى يعرف قيمة النصر فالفارس الذى يخشى السقوط لا يكون فارسا ـ فالسقوط هو الذى يعلمه الثبات على صهوة الجواد ان الثورات التى انهزمنا فيها لم تعد أسبابها الى الضعف والجبن وقلة المال والسلاح والبشر ، فالشعب الجزائرى كجميع الشعوب العربية لم تنقصه القوة

والاستعداد والشجاعة والحماس والعزم والصلابة ، وتتجسد فيه روح النضالية والتضحية ، ولكن تقصه الوعى السياسى في جميع الثورات التى خاض أبطالنا غمارها واقتحموا لهيبها وفجروا بركانها لم يدعمها الوعى السياسى الذى يعتبر العمود الفقرى لكل ثورة ومحركها الوحيد . فكانت طاقات الجماهير الشعبية تمتصها العاطفة وحماسها المتأجج يحترق ويتبخر هنا وهناك . فلا اعداد ولا تخطيط ولا تنسيق بين القادة والزعماء . فكل منهم يريد أن يكون بطل الثورة وحده ، فكانت الثورات جهوية اقليمية قبلية ، فأصبح كل اقليم مستقل عن الآخر هذا يحارب والآخر يتفرج وينتظر العدو حتى يصل اليه ، بهذه التفرقة والتجزئة استطاعت فرنسا ان تضرب كل الثورات وتقضى عليها فى مهدها ، لو قام الشعب دفعة واحدة والتحمت صفوفه وانسجمت أعماله لما استطاعت فرنسا أن تتقدم خطوة واحدة ولا احتلت شبرا واحدا من بلادنا ان فكرة قريتى وعشيرتى ومدينتى وعرشى وقصرى هم سبب محنتنا التى أوقعتنا جميعا فى هذه الهوة السحيقة وها هى الاجيال تدفع ثمن الغفلة والسذاجة ان الذين رفضوا التعاون والاتحاد والوحدة والدفاع المشترك وفضلوا الانكماش والانزواء فى قصورهم والانطواء على أنفسهم . فكان حكام الشعوب العربية والاسلامية فى افريقيا وآسيا يتنزهون ويتفرجون والجزائر فى شدة ومحنة غارقة فى الدماء معرضة للخراب والدمار والفناء ٠٠٠ وهم ينظرون ساكتين صامتين جامدين . ماتت فيهم الغيرة والانفة ، وانتزعت منهم المروءة والرجولة ٠٠ والشهامة . ففقدوا الشعور الانسانى والوعى الوطنى ، والاحساس الاخوى ، وقطعوا صلة الرحم ٠ وعلاقة الجوار ، والتزموا السكوت والسكون . ولم يتكلموا ، ولم يتحركوا ٠٠ ظنا ان عروشهم ستبقى على حالها لا تتزلزل وكراسيهم لا تتحطم ولا تلتهمها النيران وملكهم لا يتزحزح ولا تتعرض للخراب والزوال وتيجانهم لا تنزع اذا سكتوا عن جرائم الاستعمار . والتزموا الحياد وقعدوا عن نصرة اخوانهم فى الجزائر وامتنعوا على اعانتهم ومساعدتهم والتضامن معهم٠

فانخدعوا وانساقوا وراء الشهوات والملذات وغرتهم الالقاب فباعوا أوطانهم وشعوبهم لكى يظفر كل واحد منهم بلقب السلطان أو الملك أو الامير ٠٠٠ على حساب شعوبهم الساذجة المضطهدة المستبدة والجماهير الكادحة الشقية . والانسانية المعذبة ٠

ان رنين الدولار قد سد آذانهم فلا يسمعون نداء الوطن وبكاء الجياع وانين الجرحى وصراخ المستغيثين وعويل الثكلى والمتشردين الحفاة العراة فى أقصى الفيافى وأعالى لجبـــال ٠

فليعلم كل عربى وكل مسلم وكل افريقى ان احتلال الجزائر هو احتلال لمصـــر وسوريا والعراق والحجاز وليبيا وتونس والمغرب وقارة افريقيا ٠

ان احتلال الجزائر هو احتلال افريقيا واستعمارها استعمار الوطن العربى كلـه ان الاعتداء على الجزائر اعتداء على الأمة العربية كلها ألا يعلمون أن الدفاع عن الجزائر هو دفاع عن أوطانهم وضمان استقلالهم ، ان سكوت العرب والمسلمين عن اغتصاب شبر واحد من الاراضى العربية الاسلامية ، يعد خيانة وجريمة لا تغفر ، فالسكوت معنـاه القبول والرضى والاستسلام ٠

لقد تناست الشعوب العربية والاسلامية والافريقية أن الوحدة والتعاون والتحالف والدفاع المشترك أعظم قوة وأخطر سلاح يشهر فى وجه الغزاة والطغاة الذين يحاولون ابتلاع الشعوب الضعيفة ، ولكن شعوبنا الغافلة لم تتفطن ولم تستعمل هذا الســلاح لان الوعى السياسى مفقود عندها ٠ وانتبه الاستعمار الغـربى واكتشف هذا الفــراغ السياسى الهائل فعلم أن هذه الشعوب لا تزال فى غفوتها وسذاجتها واستغل أبشع استغلال ، وقام بعملية التفرقة والتجزئة منطلقا من مبدأ فرق تَسُدْ ٠

وتسابقت الدول الغربية الاستعمارية « فرنسا ، وانكلترا ، وايطاليا ، واسبانيا ، وهولندا ، وبلجيكا ، حتى الصهاينة شذاذ الآفاق الى احتلال وتقسيم البلدان العربية والاسلامية فى افريقيا وآسيا وكل دولة غربية لها حق ونصيب فى هذه الغنيمة المسوقة اليهم لقد اتفقوا واجتمعوا على تقسيمنا وتشتيتنا واستعبادنا واحتلالنا واذلالنـــا وتشريدنا والقضاء على وجودنا وابتلاع شعوبنا ونحن لم نتحد ولم نجتمع ولم نتفق على تحرير نفوسنا وتحطيم اغلالنا والدفاع عن حقنا وانقاذ وطننا اذا أردتم ان تحافظوا على وطنكم وتدافعوا عنه فاحموه تُحمَ قريتكم ، ارفعوه تُرْفعْ قريتكم ، انقذوه تنقــذ قريتكم ٠

الا تذكرون الحرب العالمية الثانية عندما هاجمت ألمانيا فرنسا واحتلتها واحتلت أيضا جزءا من أوروبا وامتدت أطماع هتلر وطغى جنونه وحاول ابتلاع العالم فى بضع ساعات ، فاذا أمريكا تشعر بالخطر ويساورها الخوف والقلق فتسرع الى الميـــدان وتعلن الحرب على ألمانيا وتتفق مع فرنسا وبريطانيا وتتحد الدول الكبرى وتتعـاون على تحرير فرنسا والوقوف فى وجه ألمانيا وضرب قوتها وشل حركتها وتمزيق جيوشها وتشتيت وحدتها وطردها من أوروبا وتحرير شعوبها ·

اتصدقون ان أمريكا تحب فرنسا وتدافع عنها وتحمى استقلالها وتنفق مليارات من الدولارات وتخسر أطنانا من السلاح وتضحى بآلاف من جنودها من أجل تحرير فرنسا وفك الحصار عن أوروبا ؟ كلا ، ان الولايات المتحدة تدافع عن نفسها وعن بلادهـــا وحماية استقلالها واقتصادها ومصالحها ، لان احتلال ألمانيا لفرنسا كان يهدد وجود أمريكا بالفناء والزوال لقد شل اقتصاده والقى عليه الخناق وسينزع عنـه القـــوة والسلطة والنفوذ ·

ان أمريكا لم تدافع عن فرنسا ولا عن أوروبا ولا عن الضعفاء المضطهدين ولا عـن الحرية ولا عن العدالة ولا عن الانسانية المعذبة وبريطانيا أيضا نفس الامر ·

لولا الاتحاد بين الدول الكبرى والدفاع المشترك والتعاون على هذا المارد الجبـار لاحتلهم جميعا كما احتل فرنسا فى بضعة أيام فألمانيا الغازية الطاغية وجدت نفسها مقهورة ومحصورة أمام هذا التجمع الذى وقف لها بالمرصاد ، وأحاط بها من كل جهة ، وما على ألمانيا الا أن تخضع وتستسلم للقوة المتجمعة ضدها ·

فليعلم كل الضعفاء والمتفرقين والمغلوبين فى العالم ان فى الاتحاد قوة وفى التخاذل ضعف وما من أمة أخذت مكانها تحت الشمس الا كان أفرادها كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا هذا هو سر القوة والنجاح وهذا هو الوعي السياسى الموجود عند هؤلاء الاقوياء ، والمفقود عندنا نحن الضعفاء لقد اجتمع هؤلاء على الباطل وافترقنا نحـن على الحق ·

أما انتم يا حماة القرية فاطردوا عنكم هذه الافكار السوداء والاشباح المخيفة التى تعبث بعقولكم وتثير فى قلوبكم الرعب والفزع حتى استوطن الخوف فى صدوركم وعشش فى أمخاخكم وتصورتم كل ذبابة طائرة وتخيلتم كل نملة دبابة فهذه التصورات هى التى قادتكم الى المذلة والمهانة فصرتم تخافون من كل شيء والخوف امسى فيكم داء عضالا فثبط عزائمكم وشل ارادتكم وقتل طموحكم وعطل مواهبكم وخنق عبقريتكم وحرمتم من قطف ثمار هذا العقل الذى وهبه الله لكم كجميع البشر لقد طمس نور الآمال فى أفقكم فلم تعودوا ترون الا الظلام الدامس ، وتبدو لكم من خلاله صور مشؤومة مشوهة مخيفة تتراقص أمام عيونكم تجعلكم فريسة لليأس والقنوط لا تيأسوا ولا تقنطوا فالايام تنقلب والزمان يتغير ويتحول لا تقبروا أنفسكم وتنزووا فى زوايا الاهمال والنسيان وتنطووا على أنفسكم وتفضوا على روعة الحياة وجمالها اطلبوا الحياة وانشدوا الحرية وانزلوا الى الميدان فالمواهب لا تتفتح الا فى جو الحرية والعبقرية لا تنمو براعمها ولا تتفتق أزهارها الا فى الميدان انزلوا الى الميدان تجدون الحياة غير الحياة التى الفتموها ٠

الجبناء : انبعثت فيهم الحياة وغلب دماؤهم وصرخت فى عروقهم وصاحوا جميعا فى صوت واحد نحن معك يا مدنى حتى الموت دلنا على المجاهدين من هنا ننطلق لا نريد العودة الى بيوتنا ٠

مدنى : لستم معى أيها الاخوة بل مع الوطن انتم وأنا وكل ما فى القرية نحن جميعا للوطن لان الوطن باق ونحن زائلون ، نحن رابحون لن نخسر أبدا لاننا شهداء الاسلام والمبادىء والحرية من مات منا مات شهيدا ومن عاش عاش حرا كريما ٠

الابطال : نعم أبطال ليسوا جبناء كما كانوا بالامس لقد تخلوا عن ذلك اللقب الملعون الحقير انها القاب مزيفة لن يرضى بها أبناء الجزائر فالثورة ستصنع منهم قادة وابطالا عظماء عباقرة ٠

سألوا مدنى من هو قائد الثورة ؟

مدنى : انتم قادتها نحن جميعا مسؤولون عنها انها ثورة شعبية فالشعب قائدها وبطلها وزعيمها انها ثورة شعبية لم تكن فردية ولا طبقية ولا جهوية ولا اقليمية بل ليس لها آفاق ولا حدود انها تزحف فى كل مكان ويتفجر بركانها فى كل موطن ويتأجج لهيبها فى صدور المظلومين والمضطهدين والمستعبدين والمعذبين فى الارض فى شرقها وغربها فى شمالها وجنوبها ·

انها ثورة تحريرية من العبودية والاستغلالية والطبقية والعنصرية والتعسفية والاستبدادية والطغيانية والاقطاعية المجرمة التى أغرقت البلاد فى أوحال الشر والفساد والقتها فى جحيم البؤس والشقاء ·

انها ثورة قائمة على مبادىء الاسلام والاسلام دين الحرية والعدل والمساواة والانسانية ·

وليشهد التاريخ ولتعلم الاجيال ان ثورتنا آعلنت باسم الله وقامت باسم الجهاد وانطلقت بكلمة الله أكبر لا اله الا الله ·

انها صرخة الايمان فى وجه الكفر والالحاد ·

انها صرخة الحق فى وجه الظلم والعدوان ·

انها صرخة العدل فى وجه الطغيان والاستبداد ·

انها صرخة الحرية فى وجه العبودية ·

انها صرخة الضعفاء المظلومين فى وجه الاقوياء المعتدين الطامعين فى خبز الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام ·

انها صرخة المدفونين وهم أحياء ـ المدفونين فى الكهوف والشعاب وفى المغاور والاكواخ ليعلنوا للعالم أجمع انهم أحياء لن يموتوا قبل تحطيم القيود وبعث الجزائر الى الوجود واستئصال جذور الاستعمار وتقويض بنيانه فى كل مكان ·

لن يموتوا قبل اثبات وجودهم وفرض شخصيتهم وكتابة تاريخهم بحروف من لهب وتسجيل أسمائهم بدمائهم على صفحات الوجود وصية للاجيال الآتية ·

وهكذا وجدت كلمات الشهيد الواضحة الصريحة الهادفة قلوبا مفتحة وآذانا مرهفة ومشاعر طيبة ففعلت فيها فعلها فصنعت منهم أبطالا وشهداء .

ولقد اقنع عقولهم وأحيا ضمائرهم ونشط عزائمهم وحرك ساكنهم وألهب حماسهم فصاحوا جميعا : نعاهدكم أيها الشهداء سنواصل الجهاد ونقاتل حتى آخر قطرة من دمائنـــا .

فانضموا الى صفوف المجاهدين وبدأوا يخوضون المعارك الحامية ضد الاستعمار الفرنسي ويسددون له الضربات فى كل مكان ويقاومون جيشه المتوحش المنتشر فى القرى والمدن وفى الجبال والسهول وهم يقاتلون بقوة وشجاعة .

فالثورة تقوى يوما بعد يوم وهم من معركة الى أخرى ، وفى احدى المعارك التى وقعت فى ناحية ارميلة قرب حلوان استشهد رفاق مدنى جميعا بعد القتال العنيف والدفاع المستميت ، لقد حوصروا من جميع الجهات وتعرضوا لهجوم الطيران فاشتعلت النار فى كل شبر ورغم ذلك ثبتوا فى المعركة وصمدوا فى وجه العدو الشرس وقاتلوا حتى آخر قطرة من دمائهم كما قالوا ، اما مدنى لقد أصيب بجروح عديدة فسقط بين أيدى الفرنسيين وحملوه الى احدى مراكز الجيش الفرنسى الكائن فى آيت اسماعيل لكى يستعملونه وسيلة من وسائل الاعلام والاشهار ولكى يعلنوا عن قوتهم ويبرهنوا للشعب بأنهم أقوياء قادرون على ضرب الثورة واخماد بركانها والقبض على المجاهدين ولكى يثـيروا الرعـب والفـزع فى قـلوب المواطنين بهذه الاعمال الوحشية الدنيئة اللاانسانية ، وجمعوا أهل القرية الى الساحة العامة مع جميع القرى المجاورة ليشاهدوا مجاهدا أسر فى المعركة ويعذبونه أمام المـلأ حتى يتظاهروا بالعنف والقسوة ويثيروا الخوف والفزع فى صدور هؤلاء العزل ، ويستنطقون البطل الشهيد حتى يقول لهم الأسرار أين يأكل ويشرب وينام ؟ وفى الاخير يعترف بفرنسا أمام الجماهير ويسب المجاهدين ويذكرهم بالسوء وينادى تحيا فرنسا ، وذلك بالتهديد والسياط وبوسائل الطمع والاغراء . ولكن خابت آمال الجلادين وتحطمت معاولهم فوق تلك الصخرة الصلبة، وعندما احتشدت الجماهير الشعبية فى ساحة القرية رأوا مدنى البطل الشهيد موثوق

الايدى معفرا بالتراب ملطخا بالدماء وهو ينادى فى كل مرة طالبا شربـــة ماء ٠٠٠ فاحتشدت الجموع حوله وساد صمت رهيب ، وجوه كالحة وعيون دامعة وقلوب دامية ٠

لقد وقفوا أمام هذا المنظر الكئيب كالتماثيل جامدين واجمين لا كلمة ولا حركة ، فلم يعودوا يستطيعون التعبير عن غضبهم وسخطهم. أحاسيس مكبوتة وأنفاس لاهبـة وأفكار متصارعة أسئلة تطرح ويبحثون عن الاجوبة ، هل للاستعمار زوال ؟ وللعبودية نهاية ؟ ما ذنب هذا المجاهد اليس هو ابن لنا وأخ لنا يتعذب فـلا نستطيع ان نضمد جروحه أو نناوله شربة ماء ليطفىء غليله ٠

ويل لكم ايها القساة أيها الجلادون ايها الوحوش ، لقد عاد الوعى واستيقظـــت الشعوب المخدرة ثقوا أيها المجرمون أن الارض التى تتمتعون بخيراتها وتحرقون أهلها وتذبحون أبناءها وتشردون نساءها ، وتقطفون ثمار أشجارها المروية بالدماء والدموع ستتحول عما قليل الى بركان يتفجر تحت أقدامكم فى كل مكان ٠

وبعد لحظات تقدم الجلادون الى ضحيتهم وراحوا ينهشونه كالكلاب المسعورة ينبحون ويعضون فحاولوا استنطاق البطل الشهيد ليقول لهم (تحيا فرنسا) ولكن الاسئلـة بلا أجوبة فالبطل الشهيد كأنه أصم لا يسمع، أبكم لا يتكلم ، جماد لا يحس، ولم يلتفت اليهم ولم يعبأ بوجودهم، فاشتد غضبهم وتحركت فى أعماق نفوسهم احقاد الصليبية الدفينة ، وصبوا عليه العذاب صبا ، والمحتشدون فى الساحة كل واحد منهم يحمـل قلبه فى يده ينتظر فى خوف وقلق وينصت متى ينادى باسمه ويبـوح بسره ويـزيح الستار عن أعماله فيكون نصيب احدى تلك المشانق المعدة للطلاب الحرية فى كل مكان لان البطل الشهيد كان يعرفهم جميعا وعمل معهم وأكل فى بيوتهم واختفى عندهم ولكنه كان قبرا لكل أسرار ، فتحيروا وتعجبوا فى أمره وكلما اشتدوا فى التنكيل به وتفننوا فى تعذيبه وازدادوا فى عنفهم ووحشيتهم ازداد هو أيضا فى صلابته وثباته وتظاهر بالتجلد والصبر يتحدى كل أساليب الجلاد ٠

الا يعلمون أن هذا المجاهد يجاهد فى سبيل الله لا فى سبيل المال والشهوة ولا من أجل الانتقام والشهرة انه يجاهد بايمان وعقيدة ، لقد خرج فى سبيل الله وقاتل فى

سبيل الله وسيموت فى سبيل الله فهو يبتسم للشدائد والمحن فلا يخشى الموت بل يمد له يده ليصافحه فى كل لحظة ، فان وضع فى كبر الشدائد وعرض على نار الشقاء فسيظل وفيا مخلصا لمواطنيه ولمبادئه التى حمل السلاح من أجلها ليناضل حتى النصر أو الاستشهاد .

فنظر هؤلاء المواطنون العزل والعجزة من الشيوخ والنساء والاطفال الى البطل الشهيد كيف يصارع الموت ويقاوم الآلام وخفقت قلوبهم حبا وعطفا واشفاقا على بطلهم المعذب تمنوا لو يفتدوه من العذاب الاليم ويفكون عنه الاغلال ، ولكن أيديهم مشلولة لا يمدونها نحو بطلهم ولا يستطيعون أن يقدموا له يد المساعدة سوى تلك الادعية الصامة الخافتة التى لا تتعدى نطاق صدورهم ولا يستطيعون حتى اسكاب عبراتهم المحرقة الحابسة فى مقتلهم المعلقة فى أجفانهم اللامعة فى عيونهم فلا يملكون سوى تلك النظرات الحادة المعبرة عن غليانهم وسخطهم على تلك العصابة اللصوصية التى سلبت حريتهم وداست كرامتهم وفسخت شخصيتهم وطمست تاريخهم وانكرت انسانيتهم ونهبت ثرواتهم واستولت على خيراتهم واكلت خبزهم بل حاولت تجريدهم من كل معانى الانسانية .

البطل الشهيد : نظر الى تلك الثغور الحزينة والوجوه الكالحة العابسة وأدرك ما يجوس فى أعماق تلك الصدور العريضة المعبرة عن آلام الحاضر وآمال المستقبل فاجابهم بكلمة قصيرة اطلبوا الموت توهب لكم الحياة اننا سنضع الحياة لاجيالنا ونبنى مستقبلنا بأيدينا ونشق طريقنا بمعاولنا ، ونشيد بأرواحنا وأشلائنا أمة قوية عظيمة خالدة لا تموت بموتنا ما كاد يلفظ الجملة الاخيرة حتى انهالوا عليه بالضرب صفعا ولكما رفسا وركلا وشتما مقذعا ، وهم يصيحون فى غضب وجنون اذا لم تسب الفلاقة وتقول : تحيا فرنسا ، فاننا نقتلك فلن تمشى على الارض بعد اليوم فقال لهم ألبطل الشهيد بصوت كله هدوء وكله اطمئنان اقتلونى أنا لا أقول أنى لا أهاب الموت ولا أخشاه الموت أحب الى من حياة العبودية .

الضابط : سنقتل الجميع اذا لم تقل تحيا فرنسا ، فسكت الشهيد فاذا به يقول اقتلونا ان شئتم فالثورة لا تموت بموتنا بل هى زاحفة الى الامام فلن تقف بموتنا ولا

بتعذيبنا ولا بسجننا ولا بنفينا ولا بأحراقنا ، بل نحن وقودها كلما احترقنا زاد غضبها وأرتفع لهيبها واشتد سعيرها ...

الضابط الفرنسى : الا تعلم ان جيشنا واقف لكم بالمرصاد يصطادكم فى كل مكان خير لك أن تقول تحيا فرنسا . وها هى زجاجة الماء نعطيها لك لتزيل ظمأك عندما تفى بالوعد ونعفو عنك ونطلق سراحك . ونظر اليه البطل الشهيد وصاح فى عزة وكبرياء اتساوموننى فى عزتى وتشترون كرامة بلادى بشربة ماء ويل لكم لا تعرفون من أنا ، وتقدم اليه ضابط ومسكه من شعر رأسه ثم أخذ يجذبه حتى كاد ينزع جلدة رأسه . ثم تقدم الآخر فوضع المسدس على صدره وهو يصيح قل تحيا فرنسا والا فرغت فيك هذا المسدس ، والشهيد ساكت صامد فكأنه يقول أيها الجلادون انكم لا تملكون الا جسمى فافعلوا به ما تشاؤون مزقوا جسمى قطعوه أربا اربا ان شئتم احرقوه فهو ملك لكم فاصنعوا به ما بدا لكم . أما الروح فلله رب العالمين فان استعبدتم اجسامنا فلا تستعبدوا أرواحنا وان احتللتم أراضينا فلن تحتلوا عقولنا وان تحكمتم فى مصيرنا فلا تتحكموا فى مشاعرنا ولا تملكوا احاسيسنا ولا تتصرفوا فى عواطفنا وان حطمتم أسوار مدننا واقتحمتم بيوتنا وفتحتم أبوابها فانكم ستظلون عاجزين صاغرين واقفين أمام قلعة قلوبنا فلا تستطيعون فتح أبوابها ولا اختراق جدرانها ولا تنفذون اليها مهما أوتيتم من مهارة ومهما جندتم من قوة ...

ان موقف الشهيد قد اغضب الجلادين واقلقهم فلا يطيقون صبرا فراحوا يصبون عليه كل أنواع العذاب كى يطيع أوامرهم ويستجيب لرغباتهم ويخضع لسلطتهم ويقول تحيا فرنسا أمام الجماهير المحتشدة ولكن الجلادين تناسوا ما لقيه على أيديهم هذا البطل من تعذيب وتنكيل واضطهاد وحرمان حتى من شربة ماء وما تحمل ذلك الجسم الواهى من مآسى وجراح من أجل ان تحيا الجزائر ، لقد سلم جسمه لهؤلاء الجزارين القساة يقطعون ويمزقون فهو ملك لهم كما قال وعندما أحس بأن روحه كادت تزهق وتفارق ذلك الجسم الفانى ، وطلب من الضابط الفرنسى ان يكف عنه ويرفع يداه ويقول له ما أراد قبل ان يفارق عالم الفناء الى عالم البقاء والخلود فدهش الضابط الفرنسى بما سمع فلم يكد يصدقه .

فقال له حقا ما تقول ؟ وتقول تحيا فرنسا الشهيد نعم ، فابتسم الضابط الفرنسى ابتسامه نصر وفوز ٠٠٠ فقال له الآن قد عاد اليك الوعي وعرفت الصواب ٠

ولكن الشهيد قطع كلامه لا يريد سماعه وكان قلقا بخشى أن يفارق الحياة قبل ان يفجر آخر قنبلة احتفظ بها لآخر لحظة من حياته وقال لهم : أوقفونى لاقولها ـ أقولها واقفا فأمر الضابط جنديين فأوقفاه ورفع رأسه فى كبرياء وشموخ ونظر الى تلك الجماهير المتجمعة المتطلعة اليه فى كل آونة وصاح صيحته الاخيرة : الله أكبر تحيا الجزائر فاذا بالضابط الفرنسى تهيج أعصابه وتظلم الدنيا أمام عينيه بهذا التحدى والاعتداء على كرامة فرنسا ٠

انتهاك حرمتها واهانتها أمام جيشها الجبار فاعطى الاشــارة الى جنوده فيصوبون بنادقهم الى صدر البطل فتهاطل عليه وابل الرصاص وسقط شهيدا فى ساحة المجد والشرف وانفجرت الحناجر ودويت ساحة القرية بالزغاريد ، وبذلك تصدعت جدران الخوف وزلزلت أركانه وانهار بنيانه وزالت تلك الحواجز الصلبة المدعمة فى وجــه تلك الجماهير الزاحفة المتطلعة الى النور المتعطشة الى الحياة الكريمة المتلهفة الى الحرية٠

لقد تحرروا من ذلك الخوف الذى زرعــه العدو فى أرضهم وغرسه فى صدورهم وصار يتغذى من مخيلتهم ويتطاول عى أفاقهم ٠

لقد اختفى ذلك الشبح المخيف الذى حولهم أقزاما وتماثيل ٠

وكانت الاصوات تتجاوب مع الاصداء ترددها تلك الجبال الشاهقة وكأنها صواعق تصم الاذن وتنزل على رؤوس هؤلاء الاوغاد تنذرهم بالويل والثبور وأرتفعت الصياحات هنا وهناك ، والتحمت الجماهير وتعالت الهتافات بالتهليل والتكبير ، الله اكبر الله اكبر لا اله الا الله تحيا الجزائر ٠

1979 - 1980 No
72 76 - 77 - 78

بسم الله الرحمن الرحيم

فهـــرس العـــدد

الإفتتاحية



السيد بوعلام باقي
عضو اللجنة المركزية ووزير الشؤون الدينية
(الجزائر)

وداع القرن الرابع عشر واستقبال القرن الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله
وصحبه ومن والاهم باحسان إلى يوم الدين،

ها نحن نودع قرنا مضى، ونستقبل آخر أتى :
فوداعا - أيها القرن الرابع عشر - بما مضى فيك من احداث وعبر، وحلو ومر،
وأهلا وسهلا بك - أيها القرن الخامس عشر - فقد أشرقت علينا أيامك بالأمل الباسم، المبشّر بالمستقبل العظيم، نسأل الله أن يجعل أيامك وشهورك وأعوامك ظروفا للعمل الصالح، والرقيّ والازدهار في أمة الاسلام، وللسلام والوئام بين جميع أبناء الانام .

ان القرون والعقود في حياة الأمم والشعوب انما تعد بمثابة السنوات والشهور في حياة الافراد. ولقد أتى على أمة الإسلام - وشعب الجزائر من أركانها - أربعة عشر قرنا من تاريخ حافل، ومازالت فتية، قوية متطلعة، تملك من الطاقات الروحية والمادية، ومن المبادىء السامية مايجعلها تنظر الى المستقبل بتفاؤل كبير، وأمل عظيم، لتقوم بدور بناء في حضارة الانسان وأمنه ورخائه.

وأثناء القرون الماضية من تاريخها الطويل مرت عليها أيام عز ورخاء ويسر، وأيام هوان وبؤس وعسر وشقاء، فلم تبطر أيام النعمة، ولم نيأس أيام المحنة، بل ثبتت مؤمنة صابرة رصينة في كلتا الحالتين، وقوفا عند قول رب العالمين: "لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ". وقد وجدت عناية الله تحف بها كلما توجهت اليه، واعتصمت بحبله.

لقد اختارت أمة الاسلام - بإجماع الصحابة أيام عمر بن الخطاب في السنة ١٧هـ - هجرة النبي (ص) من مكة الى المدينة مبدأ لتاريخها، وروي عن عمر، رضي الله عنه، عبارة ستظل خالدة خلود مواقفه، حيث قال: "الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها" انها كلمة صدق وادراك عميق لايقولها الا مثله، لان الهجرة بالفعل كانت للاسلام أعظم انتصار، وللكفر والعدوان أكبر اندحار، وبفضلها نشأت الأمة الاسلامية.

وماجاء الاسلام الا بإيمان عميق، وتصحيح للعقيدة عريق، واستقامة في السلوك، وعمل صالح لخير الدنيا وسعادة الآخرة، وتعاون بين الناس على البر والتقوى، وكف عن الاثم والعدوان، واحسان كامل، يعم الناس، وعدل مطلق شامل بينهم كلهم، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى. فقضى الاسلام بتعاليمه الخالدة السمحاء على الطبقية، وَرَفَعَ شأن المرأة، وجعل أمر الناس شورى بينهم.

وكان الاسلام حريا أن يجد قبولا وتفهما من بني الانسان في كل زمان ومكان. ولكن العقوق شنشنة طوائف من البشر منذ كانوا على ظهر الأرض، لقد بعث الله بمكة في الأميّين رسولا منهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويخرجهم من الظلمات الى النور. غير أن المترفين من قومه كبر عليهم ما كان يدعو إليه، فأعلنوا الكفر والعصيان، وبادروا بالاثم والعدوان، ولم يكتفوا بالكفر لانفسهم بل تجاوزوا به الى غيرهم، وصدّوا الناس عن الايمان، وعذّبُوا مَنْ قَبِلَ الاسلام، فمن قتيل وجريح، ومن سجين وسليب، ومن عار وجائع ومفتون، لم يكد ينجو أحد من أذاهم، وبلغوا الى الرسول وذويه اذ وقفوا دونه ولم يسلموه اليهم ليقتلوه. واستمر عدوانهم يستشري مدة ثلاث عشرة سنة. حتى اذ استيقن المجرمون أن نور الله لا يطفئونه

بأفواههم . وأن الإيمان سطع نوره بيثرب، اجتمع كبراؤهم بدار الندوة وردّدوا الرأي في واحدة من المكر الكبّار يقترفونه : إما أن يسجنوه سجنا أبديا حتى الموت، وإما أن يخرجوه من مكة مشردًا، وإما أن يقتلوه . فأجمعوا على قتله بكيفية شيطانية بحيث يهدر دمه، وبادروا بحصار بيته " وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ، وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ" فأي جريمة عظمى لو تمّ مكرهم ؟

لقد خرج الرسول إلى الهجرة بإذن ربه - ليلا - من بينهم، فأعمى الله أبصارهم عنه، والتجأ - مع صاحبه أبي بكر الصديق - إلى الغار بجبل ثور جنوبي مكة، واشتد الطلب وبلغ الاعداء الى فم الغار، بحيث لو طأطأوا رؤوسهم لأبصروه . وخفق قلب الصديق أن يصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

بأذى، وكان قلب الرسول في اطمئنان الى ربه ونصيره "إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا، فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ، وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا، وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" ومن ينصره الله فلا غالب له. ووصل الى المدينة بأمان وسلام في يوم الاثنين 12 من ربيع الأول، فوجد جند الله مدججين بالسلاح مستعدين لدفع العدوان بالعدوان.

لقد كانت الهجرة نصرًا عظيما للاسلام: بنجاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وببناء الدولة الاسلامية الأولى، واتخاذ المدينة عاصمةً لها يجب على كل مسلم أن يهاجر اليها للتجمع فيها تاركا أرضه وأهله وماله إن حال شيء من ذلك بينه وبين الهجرة. وبإنشاء جيش قوي لحماية الدعوة، وتنفيذ الأحكام، وسيادة النظام

وضمان الامن، والدفاع عن الأمة. وبناء المسجد ليكون معبدا وبيتا لله يذكر فيه اسمُه ويسبَّح له فيه بالغدو والآصال، وليكون مدرسة جامعة للفقه في الدين، وتعلم العلم المطلق، وفهم الحياة، وليكون مجلس أمة تجتمع فيه وتدبِّر شؤونها وتتشاور في أمورها من الخوف والأمن. فالهجرة حققت وجود أمة الاسلام ودولتِه الأولىٰ، وبيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يكون التعايش بين الجماعات المتخالفة من المتساكنين متحدين في الدين أو مختلفين: آخىٰ بين المسلمين من الانصار والمهاجرين، وعقد لليهود بالمدينة عقودا ينالون بها حرية عقيدتهم وتدينهم، والأمن في أموالهم وأنفسهم وأهليهم، علىٰ أن لا يعينوا عدوًّا على المسلمين، لقد طبَّق بالفعل ما كان قد أُنزل عليه "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ" وما أُنزل عليه من بعد "لَاإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"

ولكن اليهود خانوا وغدروا، فنالوا جزاء الغادرين الخائنين.

لهذا اتخذ المسلمون سنة الهجرة، من أول المحرم مبدأ لتاريخهم،

ومنذ السنة الأولى من الهجرة توالت على المسلمين الدروس والعبر بعناية من ربهم الذي وعدهم النصر المبين ما اعتصموا بحبله المتين، وماساروا على سنة الله فى الخلق أجمعين، وإنّ الحياة دفاع ومغالبة وجهاد، "وَلَوْلَا دِفَاعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ". وان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم، وانه قد جعل العاقبة للمتقين الصابرين، وقد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ليكونوا أبدًا مجاهدين الجهاد الأصغر فى ميادين القتال، والجهاد الأكبر فى ميادين الحياة، يدفعون بقوة وعزم كيد الأعداء وشهوات النفس الأمارة بالسوء

إن السنوات العشر بعد الهجرة كوّنت من المسلمين أمة قوية متينة متماسكة لا تقهر، وما كانت وفاة رسول الله الا محنة زادتها صلابة وقوة، واستطاعت ان تقهر المرتدين، وتخمد فتنة المنحرفين، ثم أسِّسَت جمهوريةُ الخلفاء الراشدين جمهورية مثالية لم يعرف البشر على مختلف الأزمان أقوم ولا أعدل ولا أرحم من حكامها. وفي زمنها انتشر الاسلام واتسعت حدود دولته، وبلغ وطننا في بلاد المغرب: حمله اليه أجدادنا من الصّحابة والتابعين، وتقبّله منهم أجدادنا من الأحرار الامازيغ، وانصهر الفريقان في بوتقة الاسلام، وألّف الله بين قلوبهم " لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ".

إنّ تاريخ الاسلام تاريخنا، وأمجاد أمته أمجادنا، وعزته عزتنا. " وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ "

وبفضل الاسلام تماسكت أمتنا، واحتفظت بشخصيتها القوية، واستطاعت أن تخرج من المحنة سالمة قوية. وها هي دولتنا قائمة، ورايتنا مرفوعة، وأمتنا صامدة، رغم أن قرنا وثلث قرن من تاريخها كان ظلما وظلاما وعوامل فتنة وانحلال.

أيها الشعب الجزائري المسلم،

لقد كان جزء من القرن الثالث عشر، ومعظم القرن الرابع عشر من الهجرة أيام بلاء وجهاد وعسر وظلم وظلام في تاريخنا، لكننا لم نيأس من رحمة الله، وما اليأس من طبيعة المؤمن، فجاهدنا وثبتنا وصبرنا حتى جاءنا نصر الله. فالحمد لله والشكر.

وقد ودعنا القرن الرابع عشر، واستقبلنا القرن الخامس عشر فعلينا أن نحقق في هذا القرن ما تصبو إليه أمتنا، بمتابعة الجهاد في كل الميادين، وان ميادين الجهاد في داخل البلاد كثيرة، ومن أعظم

اعدائنا الجهل والتخلف، والفساد، والانحلال، والانحراف، والأنانية، والكسل.

وهي في الخارج ذود عن الكيان، ونصرة للمستضعفين في كل مكان حتى لا يحرموا حقهم في الحياة الذي كتبه الله لهم يوم أن خلق الأرض ومن عليها فاستخلفهم فيها مثل ما استخلف غيرهم. ورحم الله عمر بن الخطاب صاحب القولة المشهورة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارًا".

ونحن لا نريد لأحد شرًا، وانما نريد لشعبنا وأمتنا الاسلامية الأمن والرخاء والحرية والرقي والازدهار.

ومن الله نستمد العون والنصر.

وهنيئًا لأمة الاسلام عامة وللمسلمين بالجزائر خاصة بالقرن الخامس عشر.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته



المعجزة الخالدة

الاستاذ محمد الصالح الصديق

تمهيـــد :

عندما طلبت منى مجلة (الأصالة) الغراء – مشكورة – أن أكتب عن القرآن الكريم بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجرى قبلت الطلب مبتهجا ورأيت انها فرصة ثمينة للمساهمة فى هذه المناسبة العلوية ، والسانحة المباركة ، التى تهل على المسلمين وهم فى حاجة أكيدة ملحة الى هذا الكتاب العظيم الذى أحدث أكبر انقلاب عرفته البشرية فى مختلف عصورها ، ليشحذوا به عزائمهم ، وعقولهم ، ويقوموا أخلاقهم وسلوكهم ، ويوحدوا صفوفهم وكلمتهم ، ويجمعوا فى ظله كل ما فيهم من عناصر القوة استعدادا للجهاد الاكبر من أجل حياة أفضل تجتمع فيها عزة الاسلام وعزة الاوطان .

ولكنى عندما فكرت فى الموضوع تضاءلت أمام عظمته ، وشعرت برهبة الموقف وقلت فى نفسى : ماذا عسى أن أقول عن هذا الكتاب الذى وصل الارض بالسماء ، ورفعها اليها ، وانار ظلمتها ، وفجر فيها الحياة .. وايقظ الشعور العالمى ، ونهض بالبشرية الى المستوى اللائق بها بعد أن كانت فى الدرك الاسفل من الانحطاط ؟

ولكنى عندما تصديت للموضوع وامسكت بالقلم تشجعت وجمعت قواي ، ولكن تداخلنى الغرور واعترانى ما يعترى الانسان فى بعض الفترات وقلت فى نفسى : ألست قد عشت على هذا الكتاب منذ نعومة الاظفار وكتبت فيه كثيرا وما أزال أكتب ، فلتكن كلمتى عن القرآن جامعة وافية تليق بالمناسبة ..

ولكن سرعان ما أفقت الى نفسى ، وانفلت من غرورى ، وتبينت خطاي ، وتخيلت طيرا صغيرا ، يحوم على شاطىء البحر ، يتسامى ويتدانى ، ويسرح بنظره فى عرض البحر وطوله، وأحيانا يركز بصره فى أعماقه ، وهو فى كل ذلك يريد أن يتعرف على هذا المخلوق العجيب بكل ما عليه من الافلاك والسفن العظيمة ، وبكل ما فيه من الحيوان ، والنبات ، والزهر ، واللؤلؤ، وان يدرك ما يعكسه من روعة الجمال الطبيعى ، وما ينطق به من حكمة المبدع، وعظمة الخالق ... ونسي الطير المسكين انه بجانب البحر ضعيف عاجز ، ان رأى شيئا خفيت عنه أشياء ، وان علم أمرا غابت عنه أمور ، وان أدرك سرا دقت عنه أسرار ، فأنا الطير .. والقرآن البحر .. ان أنا حاولت أن أفى بما يستحق هذا الموضوع ، وان أقدم عنه دراسة جامعة ..

ولكن ان تعذر ذلك فلا أقل من أن أقدم محاولة دراسية لبعض جوانب القرآن وموضوعاته ، فان وفقت فذلك غايتى ، وان تجافانى التوفيق فعزائى ان لى أجر من اجتهد وأخطأ .

القرآن الكريم:

القرآن هو كتاب المسلمين الاكبر ، ودستور البشرية الاعظم ، ووحى السماء الذى نزل به الروح الامين على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان أعظم معجزة لاعظم نبي .

وأقل ما يوصف به هذا الكتاب انه المعلم النصوح ، والمربى المخلص ، والمعيار الصحيح ، والحجة القاطعة ، والبرهان الساطع ، والنبراس الهادى .. يثبت العقول المضطربة ، ويداوى القلوب المريضة ، ويروى النفوس المتعطشة ، ويندى الجوانح الصادية ، ويهدى الانسانية الضالة ، ويحيى الضمائر ، ويجلو صدأ الارواح ، ويزيل ما ران على الافئدة ، بالبراهين الواضحة والآيات البينة ، ويحقق لمن اهتدى بهديه وسار على ضوئه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

(وليس فى وسع القلم أو اللسان مهما كانت مقدرته البيانية أن يحيط بشأن القرآن ووصف ما احتواه من الدقائق والحقائق والاسرار ، اذ هو كتاب الدهر كله ، وما الفرد فى جيل الا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى زمن الا لبنة فى بناء ، وما الزمن أو الدهر الا مقدمة محدودة لعالم البقاء ، فكيف الاحاطة به وعقول البشر جميعا تلتقى عليه فتجد نفسها مع الكون جميعه ، ومع الدهر كله) .

فلنترك وصف القرآن اذن ليصفه من أنزله ، ووصفه أبين وأفصح ، وأدل وأوضح ، وأصدق وأقوم ، قال الله تعالى : « **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** » وقال : « **هذا بلاغ**

للناس ولينذروا به وليعلموا انما هـو اله واحد وليذكر أولوا الالباب » وقال : **«كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمـات الى النـور باذنـه ويهديهـم الى صـراط مستقيم»** وقال : « **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** » وقال : « **كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب** » وقال : « **أن هذا القرآن يهـدى للتى هي أقوم ويبشر المؤمنين الذيـن يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا** » وقال : « **انه لقول فصل وما هو بالهزل**» ٠

أما من نزل عليه القرآن فقد وصفه بأبلـغ وصف ، وصوره أصدق تصوير، أخرج الترمذى فى سننه عن علي بـن أبى طالب كرم الله وجهه **قال** : **سمعت** رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(**اما انها تكون فتنة ، قلت : فمـا المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالى ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبـر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى ، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم ، وهـو الصـراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الاهواء، ولا تلتبس به الالسنة ، ولا تشبع منـه العلماء ، ولا يخلق علي كثرة الـرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنتـه الجن اذ سمعته حتى قالوا** : « **انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا بـه** » من قال به صدق ، ومن عمل به أجـر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه ، هدي الى صراط مستقيم) ٠

فالقرآن اذن حافل بالزمن كله ، ماضيه وما حوى ، ومستقبله بما سيحدث فيه ، مما يخطر على بـال ومـا لا يخـطر ، وحاضره بما يعج ويجيش من مشاكـل مختلفة ، وقضايا متنوعة ، يقف منهـا جميعها موقف الطبيب النصوح ، والحكم العدل ، والقائد الامين ، والموجه الرشيد، فيعالج المرض ، ويحل المشكل ، ويضع الحدود ، ويرفع معالم الهدى ، ويثيـر دوافع الرحمة ، ونوازع الوئام والاخوة والتضامن ٠

اسمـــه :

اسمه القرآن ، وللقراء فى أداء هذه الكلمة طريقان : تحقيق الهمزة فيهـا ، واهمالها منها ٠٠ فمنهم من يقرأهـا (القرآن) بالهمزة ، ومنهم من يقرأها (القران) فهذا اللفظ اذا همز ـ وهـو الاكثر ـ مأخوذ من قرأ بمعنى تـلا ٠ وتنص بعض المعاجم العربية عـلى أن القرآن مهموزا مأخوذ من (قـرأ) بمعنى جمع لانه يضم السور ، بعضهـا الى بعض ٠ وقد ذهب الى هذا الراي كثير من المفسرين ، وهو قول يرضـخ للنقد وبالتالى للبطلان ٠

وذلك لان القرآن سمي قرآنا لاول مرة فى سورة (المزمل) فى قوله تعـالى : « **ان علينا جمعه وقرآنه** » وهي السورة

الثالثة بحسب النزول فلم يكن قد جمع السور حينئذ ·

والرأي المنطقى المختار الذى نرتاح اليه هو انه مأخوذ من قرأ بمعنى تلا ، فيكون القرآن هو كتاب الله تعالى المتلو ·· وعلى هذا قول الشاعر العربى فى مرثية عثمان :

ضحو باشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحا وقرآنا .

واذا لم يهمز هذا اللفظ فهو من (قرن) بمعنى ضم لضمه السور والآيات والحروف بعضها الى بعض ، وقيل من القرائن لان الآيات يصدق بعضها بعضا، ويشابهه ، وقد نسب الى الفراء ·

والرأي المختار ان اللفظ مهموز ويحذف همزه للتخفيف ·

ويعبر عن القرآن أيضا بأسماء أخرى كـ (الفرقان) و (الكتاب) و (الذكر) وقد تبلغ أسماء القرآن نيفا وتسعين اسما ، ولعلماء القرآن ورجال اللغة فى معانى هذه الاسماء واشتقاقها وتصرفها أبحاث وتآليف ·

وهذه الاسماء فى الغالب ليست الا صفات للتنزيل كالهدى ، والشفاء ، والرحمة ، والموعظة ، والحكمة ، والبركة ··

نزوله :

جاء التعبير بمادة (نزول القرآن) وما تصرف منها فى الكتاب والسنة قال تعالى : « **وبالحق انزلناه وبالحق نزل** » وقال صلى الله عليه وسلم : (ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف)

وشرف الله القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزلات :

التنزل الاول الى اللوح المحفوظ ويدل عليه قوله تعالى : « **بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ** » وكان ذلك جملة لا مفرقا ، لانه الظاهر من اللفظ عند الاطلاق ، ولا صارف عنه ، ولان أسرار التنجيم لا يعقل تحققها فى هذا التنزل ·

التنزل الثانى الى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ويدل على ذلك قوله تعالى : (فى سورة الدخان) « **انا أنزلناه فى ليلة مباركة** » وفى سورة القدر « **انا أنزلناه فى ليلة القدر** وفى سورة البقرة « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** » ·

التنزل الثالث الى العالم الارضى بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام ، ينزل به على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، ودليله قوله تعالى : « **نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين** » (1) ·

وكيفية أخذ جبريل للقرآن من الله تعالى قضية تناولها كتاب ومفكرون بالبحث ، ولكن الذى ينبغى التسليم به انها من قضايا الغيب التى لا يعلمها الا الله ، وكل ما قيل من الآراء يعوزه الدليل عن المعصوم ، على ان الذى يهمنا اكثر فى موضوع التنزيل هو ما نزل به جبريل من رب العالمين هل هو

القرآن بلفظه ومعناه ؟ أو هو بمعناه دون لفظه ؟

الذى لا مجال للشك فيه هو ان ما نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن بلفظه ومعناه .

أما المعنى فأمر لم يرتق اليه شك عاقل منذ نزل القرآن ، واما اللفظ فقد زعم بعض المتقولين المسفين ان اللفظ لجبريل وان الله كان يوحى اليه المعنى فقط ، ومنهم من ذهب الى أن جبريل كان ينزل بمعانى القرآن على الرسول وهو يفرغها فى قالب عربى ، والقولان باطلان ، بل هما سخيفان لا يقول بهما عاقل منصف ، لانهما يعارضان صريح الكتاب والسنة والاجماع .

فجبريل نزل بالقرآن لفظا ومعنى لا دخل له ولا لمحمد فى لفظ من ألفاظه، ولذا كان معجزا ، وانما جبريل أوحاه الى محمد ، ومحمد وعاه وحفظه ، ثم بينه وفسره ، وطبقه ونفذه ، وفى القرآن الكريم نصوص، كثيرة على ذلك منها : **« واذا لم تأتهم بآية قالوا لو اجتبيتها ، قل انما أتبع ما يوحى الي من ربى »** **« وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم»** **«واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى أن اتبع الا ما يوحى الي انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم»** .

ونزل القرآن الكريم منجما (مفرقا) فى المناسبات التى تتطلب ذلك ، واستغرق هذا النزول مدة تبتدىء بمبعثه صلى الله عليه وسلم ، وتنتهى بقرب انتقاله الى الرفيق الاعلى ، وتقدر هذه المدة ببضعة وعشرين عاما .

ودليل التنجيم قوله تعالى فى سورة الاسراء « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا**» وقوله فى سورة الفرقان «**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك ، لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** » .

ولنزول القرآن منجما حكم وأسرار يمكن اجمالها فيما يلى :

١) تثبيت النبى صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه ، لان فى تجديد الوحي وتكرار نزول الامين من قبل الله تعالى على نبيه سرورا يملأ قلب الرسول ، وبهجة تشرح صدره ، وأنسا يغمره بالطمأنينة والامن .. وفى كل نوبة من نوبات التنزيل المنجم معجزة جديدة تقرع آذان المشركين ، وتتحداهم ، وتحمل فى كل كلمة ، وفى كل معنى سرا دقيقا، وحكمة بليغة ، وحجة واعجازا ، ولا ريب ان المعجزة تقوي عزمه ، وتشد أزره ، وتضاعف صبره ، **باعتبارها مؤيدة له**، ومشجعة ، وخاذلة لخصومه ومخزية .

وفى التنجيم أيضا تيسير من الله على الرسول فى حفظه وفهمه ومعرفة حكمه وأسراره ، وفيه كذلك تعهد من الله لنبيه عند اشتداد الخصام واحتدام النزاع بينه وبين مناهضى الدعوة وأعدائها بما يروح على قلبه ويسرى عن نفسه ، ويهون عليه المحن والشدائد، فكلما تأزم الوضع ، وحرج الموقف ، وضاقت عليه الارض بما رحبت ، سلاه ربه وانسه ، وخفف عنه بطرق مختلفة، وفى أساليب متنوعة ، كالاخبار بقصص الانبياء والمرسلين ، والوعد بالنصر والتأييد أو التخويف بعواقب الحزن من كفر الاعداء .

وفى القرآن نصوص على ذلك كثيرة منها قوله تعالى فى سورة هود : « **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** » وقوله فى سورة الطور : « **واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا** » وقوله فى سورة المائدة « **والله يعصمك من الناس** » وقوله فى سورة القمر : « **سيهزم الجمع ويولون الدبر** » وقوله : فى سورة فصلت : « **فان أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**» وفى سورة الاحقاف : « **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** » وفى سورة الشعراء : « **لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين** » وقوله فى سورة الانعام : « **وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت** أن **تبتغى نفقا فى الارض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون** » .

وهذه الحكمة بمختلف وجوهها نستشفها من قوله تعالى فى سورة (الفرقان) « **كذلك لنثبت به فؤادك** » .

2) التدرج فى تربية الامة الاسلامية الناشئة علما وعملا .

ذلك ان الامة العربية كانت أمية يندر فيها الكاتبون ، وعندما جاءها الاسلام اشرأبت اليه أعناق ، واستشرفت اليه أعين ، ورحبت به قلوب ، وتسابقت اليه نفوس ، وجافته قلوب ، وتنكرت له نفوس ، فكان العرب فريقين : فريقا مع الدعوة الجديدة يناصرها ويؤازرها ويستبسل فى الدفاع عنها ، وفريقا ضدها وحربا عليها يناوئها ويحاربها ، فلزم الدفاع عن الدين بالحديد والدم .

فاشتغل المسلمون بالجهاد والمقاومة بالاضافة الى الاشتغال بمصالح المعيشة التى تتطلب هي الاخرى صراعا ومقاومة وكفاحا ، فكانت الحكمة الالهية أن ينزل القرآن منجما ليتيسر عليهم حفظه واستظهاره .

وفى تنجيمه أيضا تمهيد للعرب على الانسلاخ من العقائد الباطلة والعادات الفاسدة ، وترويض على التخلى عن الحياة المتعفنة المألوفة ، فتنجيم القرآن وتدرجه فى التنزيل يساعدهم على ترك ما تعودوه وهجر ما ألفوه لا سيما

والامة العربية أبية معاندة تتحمس لموروثاتها .

وبجانب هذا يلاحظ ما فى التنجيم من رشد السياسة فى تربية العرب على العقيدة الحقة ، والعبادات الصحيحة ، والاخلاق الفاضلة ، مقدما الاهم على المهم ، والمقدمة على النتيجة وهي خطة حكيمة لا أنجع منها فى قيادة الامم ، وسياسة الشعوب ، وتهذيب الجماعات ..

ونستشف كل هذا من قوله تعالى فى سورة الاسراء : « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث** » .

3) **مسايرة الحوادث والطوارىء فى تجددها وتعاقبها على مسرح الحياة**، فكان ينزل من القرآن ما يناسب كل طارىء وحادثة ، فتارة يكون ذلك اجابة للسائلين عن أسئلتهم التى يطرحونها على الرسول صلى الله عليه وسلم فى أوقات مختلفة ، ونوبات متعددة .

وهذا النوع غالبا ما يكون مصدرا بمادة السؤال : كقوله تعالى فى سورة الكهف : « **ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا** » (الآيات) وقوله فى سورة الاسراء : « **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا** » وقوله فى سورة البقرة : « **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** » « **ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير** » .

وتارة يكون مجاراة للوقائع والاقضية والحوادث ، فينزل القرآن مبينا لحكم الله فيها ، وأمثلة ذلك كثيرة فى القرآن منها قوله تعالى فى سورة النور عن قضية أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها : « **ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم** ــ الآيات » وقوله تعالى فى سورة المجادلة عن شكوى خولة بنت ثعلبة الى الرسول صلى الله عليه وسلم « **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير**» .

وطورا آخر يكون بلفت أنظار المسلمين فى مناسبات مختلفة الى أخطائهم وهفواتهم الى الصواب ، وتبصيرهم بالغاية المطلوبة ، والمصلحة المنشودة ، وانظر ذلك فى قوله فى سورة آل عمران « **واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم** » (الآيات) التى نزلت فى غزوة أحد ارشادا للمسلمين الى اخطائهم وتوجيهاتهم الى مصالحهم فى هذا الوضع العصيب ، وفى قوله تعالى من سورة التوبة « **ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت**» (الآيات) وهي آيات أنزلت فى ردع المؤمنين عن رذيلة الاعجاب والاغترار، وتربية حتى لا يعودوا الى الغرور بالكثرة ، وتنبيههم الى انها فى الحقيقة ليست الا أحد الاسباب المادية للنصر ، والاسباب المعنوية ــ كالصبر ، والثقة بالله والاتكال عليه ، والثبات ، ــ أعظم منها .

وقد يكون لكشف حال المنافقين ، ورفع الستار عن وجوههم الحقيقية ، ليأخذ الرسول منهم حذره ويعاملهم حسب وضعهم الحقيقي ، وحتى يتوب من يشاء منهم أن يتوب ٠

وتجد هذا فى مثل قوله تعالى من سورة البقرة « **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا أنفسهم وما يشعرون** » (الآيات) ٠

وهذه الآيات وهي ثلاثة عشرة آية فضحت المنافقين ، وهتكت استارهم ، وكشفت للرسول سرائرهم ، كما فضحتهم آيات كثيرة من سورة التوبة وسور أخرى من القرآن ٠

ونستشف كل هذا من قوله تعالى فى سورة الفرقان : « **ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** » ٠

4) النص والتقرير بأن هذا القرآن كلام خالق ولا يمكن أن يكون لمحمد أو مخلوق آخر ٠

وهنا نلاحظ فى غمرة من الدهشة والاعجاب سمة الاعجاز الالهى فى هذا التصنيف والتنظيم ، وهذا التناسق والتسلسل ، وهذه الملاءمة الكاملة التامة بين الآيات والاحوال ، والدواعى والاحكام ٠

وتتضخم سمة الربوبية ، وتبرز أكثر عندما نلاحظ ان مدة التنزيل تجاوزت العشرين سنة ، وان دواعى التنزيل ، مختلفة متنوعة ٠

وبديهى ان الانفصال الزمانى والاختلاف بين تلك الدواعى، يستلزمان عادة التفكك والانحلال ، ولكن ذلك فى كلام المخلوق ٠٠٠ أما فى كلام الخالق فلا تجد الا الترابط والانسجام ، والوحدة والانتظام ، والترتيب والاتساق ٠ فسبحان من قال : « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** » وقال : « **قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والارض انه كان غفورا رحيما** » ٠

الوحي وكيفيته وانواعه :

ان الحديث عن القرآن الكريم يتقاضانا التعرض للوحي ولو بكلمة قصيرة ، فكل ما يذكر عن القرآن من قريب أو بعيد ، لا يقبله ولا يسلم به الا من آمن بالوحي وصدق بالاتصالات الروحية بالملا الاعلى ٠٠ وهو موضوع هام وخطير خاضت غماره عقول عباقرة ومفكرين من مختلف المذاهب والاديان ٠٠

واذا كان أعلام الفكر الذين يؤمنون بالشرع يثبتون الوحي ويرونه ممكن الوقوع فان العقلية العصرية الملوثة بالالحاد والاباحة ، والمرتكسة فى حمأة المادة ، تستبعد الوحي وتعتبره نوعا من الوهم والخرافة ، أو ظاهرة من ظواهر الهوس ، وتنظر الى من يؤمن به نظرة احتقار وازدراء ٠

واذا كان هذا الموضوع يتطلب بحثا خاصا وتأليفا منفردا فلا أقل ـ ونحن نكتب عن القرآن بمناسبة مضي أربعة

عشر قرنا على هجرة من نزل عليه — أن نلم به ولو المامة خاطفة ·

ولنقف أولا عند الـوحي من حيـث مدلولــه :

اذا تتبعنا القرآن الكريم وجدنـا لفظ الوحي يرد مفيدا لمعان كثيرة منهـا (الالهام الفطرى) يقول الله تعالى : « **وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون**» أي الهمها وعلمها تنظيم شئونها على **ذلك الوجه العجيب ، والصنعة الدقيقة، التى تحير العقول وتشهد بقدرة الخالق سبحانه وتعالى · ومن معانيها (الايماء والاشارة) يقول الله تعالى فى شـأن** زكرياء عليه السلام « **فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحـوا بكرة وعشيا** » اي أشار اليهم · ومنهـا (الالهام) الذى يقع فى النفس وهـو اخفى من الايمـاء يقـول الله تعالى : « **وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيـه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادوه اليك وجاعلوه من المرسـلين** » أي الهمناها · ومنهـا الوسوسة وفى ذلك يقول الله تعـالى : « **وان الشياطين ليوحون الى أوليائهـم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون**» أي ليوسوسون اليهم ·

ويرد الوحي فى القرآن بمعنى الموحى به وهو القرآن الكريم الذى نزلَ عـلى محمد صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : « **ان هو إلا وحي يوحى** » (2) ·

ويجيء الوحي بمعنى الكتابة والرسالة والكلام الخفى والمكتوب والامر والصوت كما ذكر اللغويون ، وهذا هـو المعنى العام للوحي · أما معناه الخاص فهو اعلام الله تعالى لنبيـه كـل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والمعرفة· وهو المراد فى قوله تعالى : « **انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيئين من بعـده** » ·

وعرفه الامام محمد عبده بقولـه · (ان الوحي عرفان يجده الشخص من **نفسه مع اليقين بانه من قبل اللـه بواسطة أو بغير واسطة ، والاول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ، ويفـرق** بينه وبين الالهام ، **بأن الالهام وجدان تستقيه النفس وتناسق ما يطلب على غير** شعور منها من أين أتى ، وهو أشبـه بوجدان الجوع والعطش والحـزن والسرور (3) ·

وهذا التعريف يشمـل أنواع الوحي الثلاثة التى أوردها القرآن الكريـم فى هذه الآية : « **وما كان لبشر أن يكلمـه الله الا وحيا أو من وراء حجـاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انـه علي حكيم** » ·

والآية الكريمة تقرر صورا ثلاثـة للـوحي :

الاولى أن يكون الاتصال بين اللـه ورسوله وحـيا ، أي الـقاء المعنى فى القلب ، وهو المعبر عنه بالنفث فى الروح بحيث لا يعرف دلالة ما أوحي بـه الا الرسول وحده ، وفى الحديث ان الرسول

صلى الله عليه وسلم قال : (ان روح القدس ، نفث فى روحى، ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله واجملوا فى الطلب) ٠

الثانية أن يكون الاتصال بين اللـــه ورسوله بالكلام من وراء حجاب ، أي أن يسمع الموحى اليه كلام الله من غير أن يراه ، حيث لا يمكن أن تقع الرؤيــة للبصر المحدود الذى لا يتعامل الا مــع ما هو محدود ، والله تعالى منزه عــن التجسد والحد ، ولذا كان قول اللـــه لموسى عندما قال : « **رب أرنى أنظـــر اليك ، قال لن ترانى ولكن انظـــر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخـــرّ موسى صعقا ، فلما أفاق ، قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين** » ٠

ومثل هذا النوع من الوحي ما وقــع للرسول ليلة الاسراء والمعراج ، ولموسى لما سمع النداء مــن وراء الشجـــرة ، وسجله القرآن فى قوله : « **قال لأهلــه امكثوا اني ءانست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون، فلما أتاها نودي من شاطيء الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى أنا الله رب العالمين** » ٠

الصورة الثالثة أن يكون الاتصـــال بواسطة ملك من عالم الروح يرسله الله الى نبيه حاملا آياته وكلماته ، فيتلقاها منه النبي ٠ وقد روي ان الرسول صلى الله عليه وسلم سئل يوما ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : (أحيانا يأتينى مثـــل صلصلة الجرس ، وهو أشد علي فيفصم عنى وقد وعيت عنه ، ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجـــلا فيكلـــمنى فــاعى ما يقول) قالت عائشة رضي الله عنها : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينـــه ليتفصد عرقا) ٠

وهناك طريق آخر للوحي غيــرهذه الطرق الثلاثة وهو ما يراه النبي فى منامه فان رؤيا الانبياء حق ، ومن هذا القبيل ما رآه ابراهيم عليه السلام فى منامه بشأن ذبح ولده ، وحكاه القرآن الكريم فى قوله : « **فلما بلغ معه السعي قال يابني انى أرى فى المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعـــل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله مـــن الصابرين** » ٠

وفى صحيح البخارى عن عائشـــة رضي الله عنها انها قالت : (أول ما بدىء رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح) ٠

الوحي من الناحيتـــين : العلميـــة والعقليـــة :

ذلك هو الوحي وكيفيته وأنواعــه ٠ أما الوحي مــن الناحيتيــن العلميـــة والعقلية فنوجز القول عنه فيما يلى :

ان الذين ينكرون الوحي لا يؤمنـــون الا بالعقل على الطريقة التى يستسيغونها وبالعلـم الـــذى تواضـــعوا عليه فى

اصطلاحهم الحديث وهو جملة المعارف التى انتجها دستور البحث الجديد فى الوجود وكائناته من جعل الشك أساسا للبحث والاستناد الى القاطع الذى يؤيده الحس دون سواه ، فهم يضعون الشك مقدمة لكل شيء ويعتمدونه أساسا للبحث ثم لا يعترفون الا بالحساسيات ، ومن ثم كانوا سجناء المادة لا وجود فى نظرهم لما وراء جدرانها ، والالهيات والنبوات والوحي وكل ما يدور فى هذه الافلاك يعد عندهم من الوهم لا يبوىء من يؤمن به الا فى مصاف الخرافيين المتجمدين (4) وظلوا فى سجنهم هذا حتى باغتهم بحقائق ناصعة عندما ظهرت آية الارواح فى امريكا سنة 1846 وسرت منها الى أوروبا كلها واثبت الناس بدليل محسوس وجود عالم روحانى آهل بالعقول الكبيرة والافكار الثاقبة ، فتغير رأيهم فى المسائل الروحانية ، وحييت مسألة الوحي بعد أن كانت فى عداد الاضاليل القديمة ، واعاد العلماء البحث فيها على قاعدة العلم التجريبى المقررة على أسلوب التقليد الدينى ، فوصلوا الى نتائج وان كانت غير ما قرره علماء الاسلام، الا انها خطوة كبيرة فى هذا السبيل (5)

ولقد تغير بهذا النظر الجديد موقف العلماء مما وراء المادة ولم يبق الا ضحايا العناد والغطرسة ، وضحايا الكفر والجحود ، وصرعى المذاهب المتطرفة فى العالم يلجون فى الغواية ، ويتلهفون جريا وراء السراب يحسبونه ماء ٠

ولا يتسع المقام لعرض أدلة الوحي العلمية والعقلية مع الملاحظة والتعليل، لان ذلك يتطلب مؤلفا خاصا ولكن حسبنا أن نعرضها مجردة ، فعلى من يريد التوسع والاستفاضة أن يراجعها فى مظانها ٠

أدلة الوحي العلمية :

ان هذه الادلة تقرب العقل من الوحي وتجعله يؤمن بامكان وقوعه ، واستساغة العقل للوحي خطوة ايجابية أولى فى الموضوع ، فالدليل الاول التنويم المغناطيسى وهو من المقررات العلمية الثابتة كشفه الدكتور الالمانى الشهير (مسمير) فى القرن الثامن عشر وبذل هو وأتباعه جهودا كبيرة طوال قرن كامن من الزمن ، فى سبيل اثباته وارساء قواعده ، ونجحوا فى ذلك نجاحا باهرا، واعترف العلماء به علميا ، وقد أثبتوا به حقائق تدعو الى الدهشة والاعجاب ٠ وممن نبغوا فى هذا العلم واشتهروا بتجارب فيما وراء المادة (جون لوك) و (جلاد ستون) و (باركس) و (هود دسن) و (كاميل فلامريون) و (ساردون) و (فرولبى) و (زولنر) وغيرهم كثير ٠

الدليل العلمي الثانى :

الاختراعات الحديثة ٠٠ ان العلم الحديث استطاع أن يخترع عجائب لم

تكن تخطر على بال الاقدمين ، فلو بعث أحدهم اليوم ورآها لاستبد به الذهول وحسب انه فى الحلم لا فى اليقظة ، فالطيارة والسيارة والقطار والتلغراف والتليفون والمكروفون والراديو ، والحاكى ، والتليفزيون ، والمراكب الفضائية المختلفة ، والعقول الالكترونية ·· كل ذلك مخترع حديث · وبواسطة هذه المخترعات العجيبة أمكن للانسان أن يقرب المسافات النائية ويعيش فى مختلف أرجاء الدنيا وهو جالس فى بيته بين أولاده ، ويكشف عوالم وحقائق وهو فى مختبره ··

فهل يعقل بعد حدوث هذه المخترعات المادية المدهشة وتحقيقا لما لم يكن يحلم به أجدادنا ان يعجز الاله الحق خالق السماوات والارض على أن يوحى الى بعض عباده مما شاء بواسطة أو بغير واسطة ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ·

الدليل الثالث العلمي :

أشرطة التسجيل والاسطوانات ، انها جامدة جاهلة ، ولكن العلم الحديث استطاع أن يملأها أصواتا وأنغاما وأغانى وكلاما ، على كيفية تجعلها تنطق بها بدقة واتقان ··· وقد كان مما لا يخطر على العقل أن يحتفظ بصوت شخص مدة بعد موته ، وأصبح الآن بهذا المخترع أمرا ميسورا بل بديهيا ، فقد يسمع الحفيد صوت جده الذى واراه التراب قبل ولادته بعشرات السنين ، كما كان مما لا يخطر على بال أحد أن تبقى صورة المرء بعد موته بسنين تتكلم وتقوم بأدوار كما لو كان حيا ، وأصبح الآن بمخترع (التليفزيون) أمرا عاديا بديهيا ·

أبعد هذا يستبعد على الله تعالى – خالق هذه المخترعات كلها – ان يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس على وجه يجعل ذلك الكلام منتقشا على قلب رسوله يحكيه بدقة واتقان ؟

تلك بعض الادلة العلمية ولا نرى ضرورة لايراد الادلة الاخرى لان المقام سيتمدد بها ويتسع ، ولان همنا أيضا الايجاز والاكتفاء بما يضيء جوانب الموضوع لا التقصى والاستقراء (6) ·

أما الوحي من الناحية العقلية فحسبنا مما طفحت به الكتب من الابحاث والاقوال عن هذا الموضوع ان نلاحظ ان الوحي الذى ثبت امكان وقوعه قد وقع بالفعل ، وأخبر به الصادق المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل ما أخبر به الصادق المعصوم حق ثابت لا يتطرق اليه شك ·

وأي امرىء له مسكة من العقل يشك فى أن هذا الكتاب أوحي الى محمد من الله عندما يعلم انه نشأ أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ثم اتى قومه وهم أئمة الفصاحة ، وفرسان البلاغة ، بكتاب معجز ، كل آية منه حجة قاطعة ، وبرهان ساطع ؟

يضاف الى ذلك ان هذا الذى أوحي اليه هذا الكتاب جمعت فى نفسه كـل خلال الخير التى يستحيل أن يتصـور العاقل معها ادعاء أو كذبا أو مبالغة · من الصدق والامانة والحلم والصبـر والمروءة والعدل والنزاهة والتواضـع والشجاعة والحياء والجود والرحمة ، حتى كان له من كل هذه الصفات قوة تخر أمامها الجبابرة ، ونور ساطـع سار فى ضوئه الدانى والقاصى ، ودليل قاطع صدق نبوته ·

أما من يؤمن بأن للعالم خالقا مدبرا، وصانعا حكيما وفاعـلا مختارا ، فلا مناص له من الايمان بأن القرآن كلامه أوحي به الى خاتم انبيائه ، ليهديهم به الى أقوم طريق ، ويكون به أقـوى وأفضل مجتمع عرفه التاريخ فى مختلف عصـوره ·

والمنصفون من ذوى العقول الحرة من مختلف المذاهب والنزعات يعترفون بمعجزة القرآن الخالدة · ويعجبنى فى هذا المقام قول الفيلسوف الدكتور شبلى شميـل :

دع من (محمـد) فى صدى قرآنـه
ما قـد نحـاه للحمـة الغايـات
انى ، وان أك قـد كفـرت بدينـه
هـل اكفـرن بمحكـم الآيـات ؟
ومواعـظ لـو أنهـم عملـوا بهـا
ما قيـدوا العمـران بالعـادات
من دونـه الابطـال فى كـل الورى
من غـائب أو حاضـر أو آتى (7)

أول القرآن وآخره نزولا :

أصح الاقوال وأرجحها ان أول آيـة نزلت من القرآن على النبى صلى اللـه عليه وسلم وهو يتعبد فى غار حـراء بمكة قوله تعالى : « **اقرأ باسم ربـك الذى خلق ، خلق الانسان من علـق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** » من سورة العلـق ،

وعن عائشة أم المؤمنيـن ـ فيما رواه البخارى وغيره ـ انها قالت : (أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي : الرؤيا الصالحـة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح) ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيـه (وهو التعبد) الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهـد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنـا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حـتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقـال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقـارىء ، فأخـذنى فغطنى الثالثة.ثم أرسلنى فقال : « **اقرأ باسم ربك** ... الآيات) ·

والعبرة الضخمة ، والدرس العظيم الذى تأخذه البشرية من هذه الكلمـة التى بدىء بها الوحي ان المادة الاولى من الدستور الاسلامى تأمر بالقراءة :

القراءة – الكتابة – العلم وفى ذلك عبرة وأية عبرة لاولى الابصار ..

أما آخر ما نزل من القرآن فهو مثار اختلاف العلماء ، فمن قائل انه خاتمة سورة النساء : « **يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة** » ومن قائل انها آية الدين فى سورة البقرة : « **يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه** » . ومن قائل انها قوله تعالى فى آل عمران : « **فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى** ... » . ومن قائل انها قوله تعالى فى سورة المائدة : « **واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله** ... » .

والقول الفصل انه لا سبيل الى القطع بآخر آية نزلت من القرآن وان كان النفس تستريح الى ان آخر القرآن نزولا قوله تعالى من سورة المائدة : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » .

أسباب نزوله :

القرآن الكريم قسمان : قسم أنزله الله تعالى غير مرتبط بسبب من الاسباب، بل هو لمحض هداية البشرية الى الحق وارشادها الى خير الدنيا ، وسعادة الآخرة ، وهذا القسم كثير يدركه المتتبع للقرآن بالتلاوة والدراسة . وقسم نزل مرتبطا بسبب من الاسباب .

وأسباب النزول هو مانسميه اليوم فى اللغة العصرية بما حول النص من ملابسات ومناسبات وظروف مختلفة بالنص الادبى الذى ندرسه .

وسبب النزول اذن هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه ، أي ان الآية أو الآيات انما تنزل لمناسبة من واقعات حياة الاسلام والمسلمين .

ولمعرفة أسباب النزول أهمية كبيرة فى فهم القرآن ، وقد قدر القدماء هذه الاهمية ، فكان منهم من قال (بأن سبب النزول طريق قوي فى فهم معنى القرآن (8) وقد أخطأ من زعم انه لا فائدة فى معرفة الاسباب لانها لا تعدو ان تكون جارية مجرى التاريخ .

والطريق الى معرفة أسباب النزول هو النقل الصحيح لا غير ، (ولا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الاسباب وبحثوا عن عللها (9) فقد روى الواحدى بسنده عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا الحديث الا ما علمتم ، فانه من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار) ومن هنا لا يحل القول فى أسباب النزول الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الاسباب وبحثوا عن علمها (10) .

نزوله على سبعة أحرف :

كثيرا ما سئلت عن هذا الموضـــوع وخاصة من طرف الطلبة الوعاة المعنيين بالقرآن ، وهو موضوع خطير شائك ، صالت وجالت فيه أقلام الفرسان مـــن علماء الثقافة الاسلامية من مختلـــف أنحاء العالم ، ومن المحققين الكبار من عني بالموضوع وأفرده بالتأليف قديمـــا وحديثا ، نذكر منهم العلامة أبا شامـــة من محققي القرن الســـابع الهجـــرى ، والعلامة الشيخ محمد بخيت من محققي القرن الرابع عشر الهجرى .

وليس لى من الشجاعة والســـلاح ما يسمح لى بالنزول الى ميدان هـــؤلاء وهم المسلحون بأقوى سلاح ، والمتفرغون لمثل هذا الكفاح ، فحسبى أن أعرض هنا من أقوال المحققين ما يسلـــط عـــلى الموضوع ولو بصيصا من نور :

روى البخارى ومسلم ان عمر بـــن الخطاب رضي الله عنه يقول : (سمعت هشام بن حكيم ، يقرأ سورة الفرقـــان فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أساوره فى الصلاة فانتظرته حتى سلم ، ثم لببته بردائـــه أو بردائى ، فقلت : من أقرأك هـــذه السورة ؟ قال : اقرأنيها رسول الله (ص) قلت له : كذبت فوالله ان رسول الله (ص) اقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرأها ، فانطلقت أقوده الى رسول الله (ص) فقلت : يا رسول الله انى سمعت هـــذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لـــم تقرأنيها ، وأنت اقرأتنى سورة الفرقان فقال رسول الله (ص) ارسله يا عمـــر : اقرأ يا هشام ، فقرأ هذه القراءة التى سمعته يقرأها . قال رسول الله (ص) هكذا أنزلت ثم قال رسول الله (ص) ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) .

والاحرف جمع حرف وهو يطلـــق فى اللغة على معان كثيرة ذكرها صـــاحب القاموس ، والحرف اذن من قبيل المشترك اللفظى (والمشترك اللفظى يـــراد بـــه أحد معانيه التى تعنيها القرائن وتناسب المقام ، وانسب المعانى ـ التى ذكرهـــا اللغويون ـ بالمقام هنا الوجـــه فيكـــون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم (انزل القرآن على سبعة أحرف) على سبعـــة أوجه وهو مظهر من مظاهر رحمة اللـــه تعالى وتخفيفه على عباده ، وتيسيـــره لكتابه على كافة الشعوب الاسلامية مـــن كل جيل وقبيل .

والوجوه السبعة على ماذكر الامـــام أبو الفضل الرازى فى (اللوائح) وهي كما يـــلى :

الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف فى الاختلاف :

1) اختلاف الاسماء من إفراد ، وتثنية، وجمع ، وتذكير ، وتأنيث .

2) اختلاف تصريف الافعال من ماض ومضارع وأمر .

3) اختلاف وجوه الاعراب .

4) الاختلاف بالنقص والزيادة ·

5) الاختلاف بالتقديم والتأخير ·

6) الاختلاف بالابدال ·

7) اختلاف اللغات (يريد اللهجات) كالفتح والامالة ، والتفخيم ، والترقيق، والاظهار والادغام ، الى غير ذلك · وقد مثل العلماء لهذه السبعة حسب ترتيبها بالامثلة التالية :

فللاول بقوله تعالى : « **والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون** » قرىء (لاماناتهم) (وأمانتهم) بالجمع والافراد ·

وللثانى بقوله تعالى : « **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** » قرىء (ربنا) بالنصب على انه منادى ، وقرىء (ربنا بعد) بالرفع على انه مبتدأ وبتشديد عين بعد على انه ماض مضعف العين والجملة الفعلية خبر ·

وللثالث بقوله تعالى : « **ولا يضار كاتب ولا شهيد** » قرىء بفتح الراء على ان لا ناهية والفعل مجزوم وانما فتحت الراء للادغام ، وقرىء بالضم على ان (لا) نافية فالفعل مرفوع ·

وللرابع بقوله تعالى : « **وما خلق الذكر والانثى** » قرىء هكذا بزيادة (ما خلق) وقرىء بنقصها (والذكر والانثى) ·

وللخامس بقوله تعالى : « **وجاءت سكرة الموت بالحق** » قرىء هكذا وقرىء (وجاءت سكرة الحق بالموت) ··

وللسادس بقوله تعالى : « **وانظر الى العظام كيف ننشرها** » قرىء (ننشزها بالزاي) و (ننشرها) بالراء ·

وللسابع بقوله تعالى : « **وهل أتاك حديث موسى** » تقرأ بالفتح والامالة (فى أتى ــ ولفظ ــ موسى) (11) ·

وتلك هي الوجوه السبعة التى نزل عليها القران · وللمحققين كلام طويل فى الموضوع (كما قدمنا) ، وما ذكرناه عنهم هو الخلاصة المختارة ·

كتّاب الـوحي :

اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا يسجلون ما ينزل من القرآن وهم فضلاء الصحابة أشهرهم الخلفاء الاربعة (أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي) فكانوا يحفظونه فى الصدور كما يحفظونه فى السطور ، ولم يكن الورق معروفا فى عهدهم فكانوا يكتبونه على ما اتفق لهم من الجلود ، وجريد النخل، وصفيح الحجارة ، وعريض العظام ·

القرآن مكى ومدنى :

لعلماء القرآن فى معنى المكى والمدنى كلام طويل ، وأهم ما يجدر بنا ذكره هو ان المكى ما نزل قبل الهجرة النبوية الى المدينة ولو نزل بغير مكة ، والمدنى ما نزل بعد الهجرة وان نزل بمكة ، وهذا ما ذهب اليه المحققون من العلماء ، وهو أضبط فى التقسيم ، وأحصر ، بحيث لا يرد عليه اعتراض ولا ترتقى اليه شبهة ·

ويبتدىء الدور المكى من (17) رمضان سنة 41 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم الى سنة 54 من ميلاده أيضا . وأما الدور المدنى فينتهى بوفاة الرسول ، ونسبة المدنى الى المكى كنسبة $\frac{11}{30}$ نسبة كلية .. والطريق الى معرفة المكى والمدنى من القرآن فمرده الى السماع عن الصحابة والتابعين ، اذ لم يرد عن الرسول صلى الله عليه وسلم بيان للمكى والمدنى ، لان المسلمين لم يكونوا فى عهده بحاجة الى هذا البيان ، حيث كانوا يعيشون بأنفسهم الوحي والتنزيل ، ويعينون مكانه وزمانه . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (والله الذى لا اله غيره ، ما نزلت سورة من كتاب الله الا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله الا وأنا أعلم فيما نزلت ؟ ولو أعلم أن أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه) .

ولكن هذا لا يمنع من معرفة المكى والمدنى ببعض الضوابط والعلامات ، فقد قالوا – مثلا –

ان كل سورة فيها لفظ (كلا) أو فيها سجدة فهي مكية ، وكل سورة فيها قصص الانبياء والامم السابقة فهي مكية سوى البقرة ، وكل سورة فيها قصة آدم وابليس فهي مكية سوى البقرة أيضا .

وقالوا فى معرفة المدنى كل سورة فيها الحدود والفرائض ، أو فيها اذن بالجهاد ، وبيان لاحكامه ، فهي مدنية ، وهي بعض الضوابط والعلامات الكثيرة التى يهتدى بها الى المكى والمدنى ، ومن أراد استيفاء القول فيها فعليه بمظانها فى أبحاث القرآن ، وهي كثيرة .

جمعه وتدوينه :

جمع القرآن فى الصدور ، وانتقش فى القلوب الواعية عندما كان ينزل منجما ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر الصحابة بوضع كل آية فى موضعها ، فيقول لهم مثلا (ضعوها قبل آية كذا ، أو بعد آية كذا ، حتى تتم السورة) ويعرضها على جبريل عليه السلام فيعارضه بها ، ثم يعرضها الرسول بعد ذلك على أصحابه ، وكان جبريل يعارضه بالقرآن فى كل عام مرة حتى عام الوداع فعارضه به مرتين .

ويتضح من هذا ان ترتيب الآيات فى سورها كان بتوجيه من الرسول عن جبريل عن ربه .

وانتقل الرسول الى الرفيق الاعلى والقرآن لم يجمع فى مصحف واحد ، وان كان كتّاب الوحي قد دونوه مفرقا فى الرقاع والالواح والعظام ، كما تقدم آنفا .

وكان جماعة من الصحابة قد حفظوه على ظهر قلب فى عهد النبى . وقد نظم بعض العلماء أسماء عشرة منهم فقال :

لقد حفظ القرآن فى عهد أحمد
علي ، وعثمان ، وزيد بن ثابت

أبيّ ، أبو زيد ، معاذ ، وخالد
تميم، أبو الدرداء، وابنُ الصامت

وفى خلافة الصديق بعد وفاة الرسول (ص) وقعت حروب أهل الردة التى منها غزوة اليمامة ، وكان أكثر المحاربين فيها من الصحابة ومن حفظة القرآن، فقتل فى هذه الغزوة كثير من الحفظة ، وخيف على القرآن من الضياع ، فأشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق بجمع القرآن فى مصحف خشية ان يذهب بذهاب الحفظة ، فتوقف فى بادىء الامر ، فلم يزل به عمر حتى اقتنع بسداد الرأي وصواب الفكر ، فدعا زيد بن ثابت ، لانه كان الزم الصحابة لمجلس الرسول ومن أحفظهم للقرآن ، فكلفه بجمعه ، فجمع كل الصحف فى مصحف ولكنه غير مرتب السور ، واحتفظ أبو بكر بتلك الصحف الى أن توفي ، فانتقلت الى عمر بن الخطاب، ثم جمعها عند بنته حفصة . . .

وفى عهد عثمان رضي الله عنه انتشر المسلمون فى الآفاق ، واختلط العرب بالعجم ، وكثر قراء القرآن فى مختلف الاقاليم التى فتحها المسلمون ، واختلفت لهجاتهم حتى صار بعضهم يخطىء الآخر فى قراءته ، أو يقول قراءتى خير من قراءتك ، فأشار حذيفة بن اليمان على عثمان بتدارك الامر ، فوقف عثمان عند مشورته ، وامر باستحضار الصحف ، ووكل الى زيد بن ثابت وجماعة ممن اشتهروا بالحفظ والضبط والدقة فجمعوه ، ونسخوا منه صورة رتبوا سورها على الذى نقرأه الآن ،وكتبوا من هذه الصورة خمس نسخ ، أستبقى عثمان واحدة بالمدينة ، وبعث بأربعة الى مكة ، والكوفة ، والبصرة ، والشام، وهذا هو المشهور ، خلافا لمن رأى انها أربعة .

ومما تقدم عرضه ــ من ظروف التنزيل، وعناية الصحابة بالقرآن حفظا ، وفهما، وكتابة ، ــ تتجلى لنا أصالة القرآن وصحة نصوصه ، تلك الميزة التى انفرد بها هذا الكتاب دون غيره من الكتب السماوية الاخرى . وهي ميزة سجلها كثير من الكتاب الغربيين باعجاب ، حيث قالوا (ان لاصالة نص القرآن مكانة منفردة بين كتب الوحي لا ينازعه فيها العهد القديم ولا الجديد) (12) .

القرآن آيات وسور :

تطلق الآية فى اللغة ويراد بها عدة معان :

(المعجزة) قال الله تعالى : « **سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة** » .

(العلامة) قال الله تعالى : « **ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم** » .

(العبرة) قال الله تعالى : « **ان فى ذلك لآية ...** » .

(الامر العجيب) قال الله تعالى : « **وجعلنا ابن مريم وأمه آية** » .

(البرهان والدليل) قال الله تعالى : « ومن آياته خلق السماوات والارض » .

(الجماعة) ومنه قول الشاعر :

خرجنا من النقبيـــين لا حي مثلنا
بآياتنـــا نـــزجى اللقـــاح المطافلا

أي خرجنا (بجماعتنا) نسوق سوق النوق وصغارها .

والآية من القرآن : جماعة من الحروف مكيفة بتراتيب خاصة وصور مستقلـــة تحدت البشر فأعجزته . والمناسبة بين هذا المعنى والمعانى اللغوية المذكــورة واضحة ، فالآية القرآنية معجزة وعلامة على صدق من جاء بها ، وعبرة لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ، وهي من الامـــور العجيبة (سموها واعجازها وأثرهـــا وحلاوتها) ، وفيها أيضا معنى الجماعة ـ كما قدمنا ـ لانها مؤلفة من الحروف .

أما السورة فلاهل اللغة والتفسيـــر كلام طويل فى أصلها واشتقاقها ومعناها، وبعضهم همزها ، وبعضهم ترك همزها، ويرجح انها من أصل سامى ، اشتــرك فيها العرب وغيرهم (13) . وقيل انها من أصل (صورت) السريانى تسربت الى العرب الحجـازيين عـن طريـــق السريانيين (14) اللاجئين الى الحجاز، ولا تزال الى اليوم عندهم تدل عـــلى الوحي المنزل المجهور به . وقد أفاض العلمـــاء فى هـــذه المـباحث حـــتى المستشرقون (15) .

وفى لسان العرب : السورة هي كل منزلة من البناء ، ومنه سور القــرآن الكريم لانها منزلة مقطوعة بعد منزلـــة مقطوعة عن الاخرى .

ولكل سورة من القــرآن اسم خاص بها ، فهي اما أن تسمى بأول كلمة فيها مثل سورة طه ، ويس ، والصافات ، و ص ، والفجر ، والضحى ، والشمس، والليل ، والتين ، والقارعة ، والعاديات، والعصـــر ، الخ .

واما أن تسمى باسم شيء أو لفـــظ له ذكر وارد فى أثناء السورة بعد أوائل آياتها ، مثل سورة ، البقرة ، والنساء ، والنحل ، والكهف ، ومريم ، وابراهيم ، ومحمـــد ، الخ .

واما أن تسمى بلفظ له منطوق فى أوائل آياتها كسورة الاسراء ، والانفال، وغافر ، وفصلت ، وفاطر ، الخ ..

واما أن تسمى بمعنى خاص ملحوظ فيها من غير أن يكون له ملفوظ مذكور فى آياتها ، مثل سورة الفاتحة ، سميت بذلك لانها أول الكتاب وفاتحته ، وسورة الاخلاص لانها فى جملتها داعية الـــى الاخلاص لله وحده لا شريك له ـ وليس فى القرآن غير هاتين السورتين شيء آخر من السور بمعنى ملحوظ لا بلفـظ ملفـــوظ .

واما أن تسمى بأسمـــاء مواضيعهـــا كسورة الطلاق، والتحريم، ونحو ذلك ..

أما معانى فواتح السور القرآنية فقد قيل فيها كلام طويل ، وما يزال المجـــال واسعا أمام المفكرين والباحثين من جميع

النحل والمذاهب · ولاهمية الموضوع نلاحظ ان من العلماء من رأى ان بعض الفواتح رمز لاسماء الله تعالى ، ومنهم من قال انها للدلالة على ان القرآن مؤلف من تلك الحروف (الم) (حم) (يس) (ق) و (ص) التى عرفها العرب ، ومع ذلك فقد عجزوا عن الاتيان باقصر سورة منه · وبهذا الرأي أخذ المبرد وتبعه كثير من العلماء (16) ، كما أخذ به الفراء أيضا (17) · وقال الكلبى : انها قسم · ويرى ابن قتيبة فى ذلك أن يكون الله أقسم بالحروف المقطعة كلها ، واقتصر على ذكو بعضها من ذكر جميعها ، وهو يريد جميع الحروف المقطعة ، كما يقول القائل : تعلمت ا ، ب ، ت ، ث ، وهو لا يريد تعلم هذه الحروف الاربعة فقط دون غيرها · وتقول (قرأت الحمد) وتريد الفاتحة (18) · وتناول ابن أبى الاصبع فواتح السور بالتحليل والتفسير وأتى بالعجب العجاب ، حيث بحثها بعقل الفلكى الرياضى ، فبين عددها ، وأقسامها ، وأصولها من الحروف · وينتهى (الدكتور حفنى محمد شرف) فى تعليق له على راي هذا النابغة : ان بعض الفواتح بسورها وحروفها والعدد الذى يخصها مشيرة الى الصانع والمصنوعات من جميع أحوال الدنيا والآخرة وعوالمها وكل موجود فيهما الآن وما وجد من قديم الزمان وما يوجد بعد فناء الاكوان (19) · وتوضيح ذلك كله لا يسعه المقام ·

أما العالم الكيميائى المصرى الدكتور رشاد خليفة الذى يعيش فى أمريكا فان له رأيا جديدا فى هذه الحروف توصل اليه بعد تجربة طويلة مثيرة ، استخدم فيها العقول الالكترونية ، وهي أول تجربة من نوعها وتعد جريئة فى محاولة تفسير هذه الحروف ·

وقد قام الدكتور رشاد بتسجيل نتائج أبحاثه فى مكتبة الكونجرس الامريكى تحت رقم (27386) ، وكان من أهم أغراضه فى هذه المحاولة الفذة أن يطلع العالم الغربى على نتائج أبحاثه التى اكدت معجزة القرآن الكريم ·

ولقد سئل الدكتور رشاد بعد انتهائه من هذه التجربة عما اذا كان قد وجد تفسيرا لفواتح السور فقال :

(ان العمليات الحسابية التى قام بها العقل الالكترونى خلال ثلاث سنوات قد أثبتت ان القرآن الكريم قد وضع للناس طبقا لحساب غاية فى الدقة والتعقيد ، بحيث يستحيل ان يكون من صنع البشر ·· كما ثبت ان كل حرف من الحروف الابجدية فى كلماته قد تم اختيار زمانه طبقا لعدد من القواعد الحسابية المتداخلة ·· وان القرآن كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) · (20)

ودلت عملية الاحصاء الاليكترونية ان استهلال (سورة بحروف معينة يقابله دائما تفوق حسابى لمعدل توارد وتكرار

هذه الحروف فى نفس السورة) فحرف (الصاد) مثلا متفوق حسابيا فى سورة (ص) وحرف (القاف) متفوق حسابيا فى سورة (ق) وحرف (النون) متفوق حسابيا فى سورة (القلم) وهي (نْ **والقلم وما يسطرون**) ٠

ويطول بنا المقال اذا نحن تتبعنا السور المبدوءة بحرف والمبدوءة بأكثر من حرف : (الم) (المر) (يس) (حم) الخ ٠ فيكفى أن نلاحظ ان العقل الالكترونى أثبت ان الاحرف فى هذه الفاتحة (كهيعص) التى بدأت بها سورة مريم تتفوق فيها الاحرف (ك ـ هـ ـ ي ـ ع ـ ص) على بقية أحرف فى غيرها فى سور القرآن المختلفة ٠

عناية المسلمين بالقرآن :

لم يعرف التاريخ فى مختلف عصوره أمة فى العالم عنيت بكتاب سماوى أو أرضى كالامة الاسلامية ، ولا سيما فى العهود الاولى ، ولم يعرف التاريخ فى مختلف عصوره كتابا سماويا أو أرضيا أحيط بسياج من الرعاية والتقديس بمثل ما أحيط به القرآن الكريم ٠

فقد كانت تنزل الآية أو الآيات فيحفظها النبى ثم يتلوها عند نزولها على المحيطين به ، ثم يأمر عشرة بتدوينها ، فلما جمع القرآن وارسلت منه مصاحف الى مكة والكوفة والبصرة والشام (21) أقبل المسلمون فى ظمأ وتلهف على تلك المصاحف ينسخون عنها مصاحفهم ٠ وقد كتب عبد العزيز بن مروان (أمير مصر) مصحفا بالغ فى ضبطه ، وأعلن ان من وجد فيه خطأ كان له فرس وثلاثون دينارا ، فوجد فيه أحد القراء كلمة (نجعة) مكان (نعجة) فنال الجائزة (22) ٠

أما تعلق السلف بالقرآن وشدة حرصهم على حفظه وتلاوته واستظهاره واستماعه ، فشىء يكاد لا يرتقى اليه الخيال ٠ قال الامام الشافعى رضي الله عنه : (رأيت سفيان بن عيينة قائما على باب كتاب فقلت له ما تصنع هنا ؟ قال : أحب أن أسمع كلام ربى من فم هذا الغلام) ٠

وبلغ تعلق المسلمين بالقرآن وعنايتهم به فى مختلف العصور أقصى الحدود ، فلم يكتفوا بحفظه وفهمه والكشف عما فيه من علوم ومعارف وأسرار ، واحصاء كلماته وحروفه ، بل أحصوا أيضا المرار التى ورد فيها كل حرف من أحرف الهجاء ٠ ونحن نورد ذلك فيما يلى ، ليعتبر أبناؤنا وبناتنا الذين لا يعرفون حتى عدد سور القرآن الكريم وأجزاءه

الكلمات	**73440**
الحروف	**722332**
الالفات	**40792**
الباءات	**1140**
التاءات	**1299**
الثاءات	**1291**
الجيمات	**3293**
الحاءات	**1179**
الخاءات	**2419**

الدالات	**4399**
الذالات	**4840**
الراءات	**10903**
الزايات	**9583**
السينات	**4591**
الشينات	**25133**
الصادات	**1284**
الضادات	**1200**
الطاءات	**840**
الظاءات	**9320**
العينات	**1020**
الغينات	**7499**
الفاءات	**2500**
القافات	**5230**
الكافات	**22000**
اللامات	**14591**
الميمات	**205610**
النونات	**2036**
الواوات	**13700**
الهاءات	**700**
الياءات	**502**

ترجمة القرآن :

اشتد الجدل ، وكثر النقاش بين أهل العلم قديما وحديثا حول ترجمة القرآن الى اللغات الاجنبية ، فذهب جمع منهم الى التحريم محتجين بأن ذلك بدعة يترتب عليها ضرر كبير ، اذ ان ذلك يؤدى الى ترك المسلمين ــ من غير العرب ــ تعلم اللغة العربية ، ويقتصرون فى تعلم القرآن على الترجمة ، وهذا سيفضى حتما الى الاختلاف فيه ، لان الترجمات قد لا تتفق ، فيحدث بذلك للمسلمين ما حدث لبنى اسرائيل من اختلاف نسخ التوراة السامرية والعبرانية والسريانية واليونانية ، بالاضافة الى ان معانى القرآن الكريم كثيرة عميقة ، فيتعذر على المترجم أن يحيط بها حتى يترجمها ترجمة دقيقة وافية تتسم بسمة القرآن ، وتحمل طابعه فى اعجازه اللفظى والمعنوى ، وتغوص فى أعماقه ، لتصور دقائقه وأسراره . وقد قالوا :

ان أشهر وأدق ترجمة للقرآن فى اللغة الفرنسية ترجمت فيها هذه الآية « **أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** » فكانت الترجمة هكذا : (هن بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن) وكيف يمكن أن نترجم هذه الكنايات الدقيقة بشرح وبسط ، تؤدى فيه الكلمة الواحدة بجمل طويلة (24) وأمثال هذه الكنايات وجه من وجوه اعجاز القرآن للغات العالم كله .

وذهب آخرون الى جواز ترجمة القرآن ، بل دعوا الى ذلك فى حث وترغيب ، فمنهم الامام أبو حنيفة الذى يقول بترجمة القرآن وبصحة الصلاة بالترجمة ، وعلى هذا الدرب سار كافة الحنفية ، ومنهم الامام الشاطبى الذى استدل فى الموافقات على جواز الترجمة بالقياس على ما أجمعت عليه الامة من تفسيره للعامة ، ومنهم الامام البخارى

الذى استدل فى صحيحه على جواز ترجمة القرآن الى لغات الاعاجم بالقياس على ما كان من ترجمة التوراة الى العربية بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم · (25)

هذا موقف القدماء من ترجمة القرآن، فما هو موقف العلماء المعاصرين منها ؟

لقد ثارت مناقشات حادة منذ ما يقرب من نصف قرن بين علماء الازهر ، واحتدمت بينهم معركة جدلية عنيفة كان السلاح فيها العقل والقلم واللسان ، وانتهت بأن قررت مشيخة الازهر ترجمة تفسير القرآن ، وتألفت لجنة من كبار العلماء ورجال من وزارة المعارف المصرية لوضع تفسير عربى دقيق ، ووضعت دستورا تسير عليه لتحقيق هذا العمل الضخم الجليل ، وبعثت به الى كبار العلماء والجماعات الاسلامية فى أرجاء العالم الاسلامى ليدلوا بآرائهم فى هذا الدستور (27) · وقد نشرت مجلة الازهر هذا الدستور وقواعده فى عددها (648 ـ 649) ·

والرأي الصحيح الذى يركن اليه العقل ويستسغيه ، وترتاح اليه النفس وتطمئن اليه ، وتقتضيه الدعوة الاسلامية بطبعها العالمى ، هو جواز ترجمة القرآن بلوجوبها الضرورى الاكيد ، لما يترتب على ذلك من فائدة تختفى بجانبها المضرة ولكن بشروط لابد من توفرها فى المترجم ، وهذه اهمها :

ـ أن يكون على دراية تامة، ومعرفة مستبحرة باللغة العربية واللغة التى يترجم اليها ·

ـ أن يكون عليما بدقائق العربية وأسرارها من نحو وصرف واشتقاق وبلاغة ·

ـ وان يكون واسع الافق باسباب النزول مع تمكنه من اللغة الاجنبية من حيث أحوالها وقواعدها وأساليبها وألفاظها وآدابها ، حتى تتهيأ له امكانيات الترجمة المنشودة ·

بل هناك من رجال العلم فى العصر الحاضر من افتى بجواز ترجمة القرآن الكريم مطلقا ولو كانت الترجمة مقتصرة على بيان أصل المعنى المدلول عليه بالصراحة ، أو بالظاهر للجملة المترجمة ، ولو خلت من بيان الدقائق والمعانى التى لا يتفطن لها الا مهرة العلماء ·

وممن ارتأوا هذا الرأي العالم المغربى الاستاذ محمد بن الحسن الحجوى ، من علماء العصر الحديث ويقول بالخصوص :

(ان ترجمته من الامور المرغوب فيها ، وانها من فروض الكفاية التى يجب على الامة القيام بها ، فاذا قام بها البعض سقط عن الباقين القيام بها، ولم يكن عليهم حرج ، وان لم يقم بها أحد أثم الكل) (30) ·

وبالرغم من الصعوبات الكثيرة المتنوعة التى تواجه من يتصدى لترجمة القرآن ويمارسها ، فقد ترجم الى عدة لغات شرقية وغربية تجاوزت أربعين ترجمة ..

وقد دخل القرآن الكريم الى أوروبا عن طريق الاندلس (اسبانيا) . وأول ترجمة له هي التى ترجمها العلامة (روبرت كنت) الى اللغة اللاتينية (لغة العلم والادب آنذاك فى أوروبا سنة 1143) واستعان على ترجمته بعالمين عربيين هما بطرس الطليطلى ، وسمعان المالطى ، ولكن الكنيسة ورجال الحكم لم يسمحوا للقراء باقتنائه ومداولته الا مصحوبا بالردود عليه. (31) واصدر (هنكلمان) ترجمة سنة 1594 ، ثم جاءت على الاثر سنة 1598 طبعة (مراتشى) مصحوبة بالردود ، وبعد هذا أخذ القرآن فى الظهور مترجما الى اللغات الاوروبية الحديثة (انجليزية ، وفرنسية ، والمانية ، وايطالية ، وهولندية ، وروسية ، حتى لا تخلو الآن لغة من ترجمة أو ترجمات للقرآن . (32)

ومن أقدم هذه الترجمات ترجمة (سالى) الى الانجليزية سنة 1734 ، ثم ترجمتها القاديانية والاحمدية اللاهورية فى القرن العشرين باللغة الانجليزية .

ومن التراجم الحديثة للقرآن ترجمة ايطالية لبوللى (ميلانو 1929 وأخرى باللغة التشيكية) ا. رنكيل 1934 وثالثة باللغة الانجليزية (مولاي شير على بباكستان 1955) .

وينبغى بعد هذا العرض الوجيز لتراجم القرآن ألا ننسى ان نلاحظ ملاحظتين :

الاولى – ان ترجمة القرآن فى بداية الامر لم تكن الا للرد والتمكن من الطعن فيه ، فان أعداء الاسلام الكثيرين جندوا وما يزالون يجندون عقولهم وأقلامهم لمحاربة الاسلام والطعن فى دستوره . وأمامى الآن عشرات من الكتب والابحاث والدراسات التى تفيض سما وحقدا على القرآن ، كتبها أمثال (ادوارد فرمان) و (ادوين كالفرتى) و (ارثر جيفرى) و (ارنولد توينبى) .

الثانية – ان بعض التراجم – المذكورة وغير المذكورة – بعيدة عن الروح العلمية التى يجب أن يتسم بها الباحث وخادم الحقيقة ، فكانت مشوهة بالتحريف والتزييف .

محتويات القرآن :

من تتبع القرآن الكريم بتأمل ووعي، وجده كتاب البشرية جمعاء فى مختلف الامكنة والازمنة ، فى حالها العاجل ، ومصيرها الآجل ، فى حضارتها وبداوتها، فى قصورها وخيامها ، ويحتوى من الآيات ما يفتح العيون ، ويقرع الآذان، ويهز المشاعر ، ويوقظ القلوب ، ويحيى الضمائر ، ويشرح الصدور ، ويهذب النفوس ، ويلقح العقول ، ويرقى

المدارك ، ويجلو الصدأ عن الارواح ، ويضمن العزة والكرامة ، ويقي من التردى والضياع · غير انه يمكن حصر محتوياته فى ثلاثة أصول أساسية ، تتفرع عليها سائر الاغراض والمقاصد الاخرى :

1) العقائد وما يتعلق بها من أصول الدين كالايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه، ورسله ، واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، والصراط ، والميزان ، والحشر، والنشر ، والثواب ، والعقاب · وقد جاء ذلك كله فى أسلوب محكم وآيات مفصلات ·

2) الشرائع وكل ما يتعلق بأفعال الجوارح من الاوامر والنواهى ، وهما قسمان : العبادات والمعاملات ، فالاولى هي التى تتعلق بصلة العبد بربه ، وأما الثانية فهي التى تتعلق بصلة العباد والافراد بعضهم ببعض ، وكلا القسمين معروض فى مختلف السور القرآنية ، فى عبارات بليغة ، وأسلوب مشرق ، وآيات بينات ·

3) الفضائل الخلقية والآداب الاجتماعية، ، التى بها تسمو الارواح ، وتتهذب النفوس ، وتستقيم الطباع ، وتحسن الشمائل والخلال ، فتنتظم المجتمعات البشرية ، ويسودها التفاهم، والمحبة ، والعدل ، والجمال ·

وقد فصل ذلك كله فى آيات بينات كانت منطلق علماء الاخلاق فى أبحاثهم وكتبهم وأعمالهم ·· كما كانت آيات العقائد والشرائع أرضية لكل أعمالهم الفكرية ، وثمارهم العقلية ، التى تزخر بها المكتبات الغنية فى مختلف أنحاء العالم ·

وقد أقر مؤتمر المستشرقين المنعقد بأكسفورد سنة 1347 هـ النظم القرآنية وهي كما يلى : (33)

1) العقائد، 2) الفرائض الدينية ، 3) الاوامر والنواهي ، 4) الانذار والتبشير ، 5) الجدل والتحدى ، 6) القصص ، 7) التشريع ، وهو أقسام أ) التشريع السياسى ، ب) التشريع الجنائى ، ج) التشريع الحربى ، 8) المواعظ والارشاد ·

ومن تأملها وجدها ترجع الى الاصول الاساسية المذكورة ·

قراءات القرآن :

القراءات جمع قراءة وهي الطريقة التى يتلى عليها القرآن وينطق بألفاظه، مخففة ، أو مشددة ممالة ، أو مشمومة، ممدودة ، أو مقصورة ·

ولابد فى القراءة من التلقى والسماع ··

والقراءات على نوعين : 1 مقبولة ، وهي التى ثبتت بالاجماع والتواتر ووافقت رسم المصاحف العثمانية ، ومنها القراءات السبع الصحيحة ، وهي قراءات (أبو عمرو بن سليمان) شيخ الرواة المعروف بحفص ، وحمزة، والكسائى ، وعاصم ، وابن عامر ، وابن كثير ، ونافع ·

وقراءات هؤلاء السبعة هي المتفق عليها اجماعا ولكل منهم سند فى روايته وطريق فى الرواية عنه ، وكل ذلك محفوظ مثبت فى كتب هذا العلم (فن القراءات) ٠

وقد يضاف الى هذه القراءات ثلاث فتصبح عشرا وهي رواية أبى جعفر يزيد بن القعقاع المدنى ، ويعقوب بن اسحاق الحضرمى ، وخلف بن هشام بن ثعلب ٠٠ وقراءة هؤلاء صحيحة متواترة أيضا (34) ٠

التفسير والمفسرون :

التفسير هو الايضاح والتبيين ومنه قوله تعالى : « **ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** » ويطلق على الكتب التى تشرح كتبا أخرى (كشروح كتب أرسطو ـ مثلا ـ التى ترجمت الى العربية ٠

ويراد بالتفسير عند الاطلاق العلم الذى يوضح كتاب الله ، ويبين معانيه ، ويستخرج أحكامه ، وحكمه ٠٠٠ والتأويل مرادف للتفسير فى أشهر معانيه اللغوية يقال : أول الكلام تأويلا، وتأوله : تدبره وقدره وفسره ومنه قوله تعالى : « **فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله**» ويرى الماتريدى ان التفسير مباين للتأويل : فالتفسير هو القطع بأن مراد الله تعالى من الآية كذا ، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع، والذى يبدو ان التفسير للألفاظ ، والتأويل للمعانى البعيدة المستنبطة وهناك أقوال كثيرة فى الموضوع يراجعها فى مظانها من يريد التوسع ٠ (36)

والتفسير على نوعين : تفسير جاف عقيم هامشى لا يتجاوز شرح الالفاظ واعراب الجمل وبيان ما يحتويه نظم القرآن من صور البلاغة واشارات فنية، وهذا النوع من التفسير لا يختلف كثيرا عن التطبيقات العربية ، ولا يشعر قارئها الا بما يشعر به قارىء كتب القواعد العربية ٠

وتفسير تتموج فيه روح الحياة، وتتهلل عليه اشراقات الهداية ، وتنبثق منه أنوار الحكمة والرشد والخير ٠٠٠ تفسير خصب مشرق يتجاوز هذه الحدود أو يمر عليها كجسر الى الآفاق العليا ، فيجعل هدفه الكشف عن تعاليم القرآن، والغوص على أسراره ومكنوناته ، واستجلاء كنوزه ودفائنه ، على طريقة تفتح القلوب ، وتجتذب الارواح وتجلو البصائر ، وهذا النوع من التفسير هو الجدير بالاقتناء ثم بالعناية والاهتمام، والعالم به حقيق بكل تقدير ، لانه استطاع بقدرته العلمية والبيانية أن يرفع الستار عن كنوز القرآن وذخائرد ، ويقدمها الى الافهام واضحة مجلوة ، فيها هدى ونور ، وفيها شفاء لما فى الصدور (فالقرآن الكريم حجة الله البالغة على دينه الحق ، فلا بقاء

للاسلام الا بفهم القرآن فهما صحيحـا ، ولا بقاء لفهمه الا بحـياة اللغـة العربية · (37)

والقرآن الكريم وان نزل بلغة العرب الا انها تعلو عن مستوى العامة مـن العرب ، ولذلك كان الناس فى العهـد الاول من الاسلام يسألون كبار الصحابة عن تفسيره ، وشرح الغريب من ألفاظه·

فهذا الصحابى الجليل عبد الله بن عباس كان يسأل عن ألفاظ من القرآن ، فيفسرها للسائلين ، ويستشهد عـلى تفسيرها بالشعر العربى ، فلقد قـال الامام السيوطى فى كتابه (الاتقان فى علوم القرآن) انه (بينما عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن · فقال نافع بن الازرق لنجدة بن عويمر : قم بنا الى هذا الذى يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما اليـه ، فقالا : انا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ، فان الله تعالى انما أنزل القرآن بلسان عربي مبين فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما · فقـال نافع : اخبرنى عن قول الله تعالى : « عن اليمين وعن الشمال عزين » قـال : (العزون) حلق الرفاق · قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم · أمـا سمعت عبيد بن الابرص وهو يقـول :

فجـاءوا يهرعـون اليـه حتى
يكـونـوا حـول منبـره عزينا

قال : اخبرنى عن قولـه تعـالى : « وابتغوا اليه الوسيلة » قال : (الوسيلة) الحاجة · قال : وهل تعرف العرب ذلك قال : نعم ، أما سمعت عنترة وهـو يقـول :

ان الرجـال لهـم اليـك وسيلـة
ان يأخـذوك تكحـلى وتخضـبى

ويمضى نافع بن الازرق يسأل وابن عباس يشرح ويفسر ويستشهد عـلى ما يقول بأبيات من الشعر العربى فى حوالى مائتي لفظة مـن ألفاظ القرآن الكريم · (38)

ومن هنا يتبين لنا أهمية الشعر العربى فى فهم الغريب من ألفاظ القرآن ، كمـا يتبين لنا خطأ بعض المتشدقـين مـن المعاصرين الذين ينعون علينا تمسكنـا بالشعر العربى القديم وروايته وحفظه ، ويرون فى ذلـك اضاعـة للوقـت فى شىء قد مضى عهده ، وفاتهم ان الشعر العربى مفتاح مغاليق الالفاظ والاساليب الغريبة فى كتاب الله وسنة رسولـه صلى الله عليه وسلم · وقد قال أبـو حاتم الرازى : (ولولا ما بالناس مـن الحاجة الى معرفة لغة العرب والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلـم والصحابة والتابعين والائمة الماضين ، لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعـراء، ولعفى الدهر على آثارهم ونسي الناس أيامهم · (39)

ويقول ابن عباس : (الشعر ديـوان العرب فاذا خفى علينا الحرف مـن القرآن الذى أنزله الله بلغة العـرب ،

رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منـــه · (40)

واشتهر بالتفسير عشرة من الصحابة الكرام : الخلفاء الراشدون ، وابـــن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الاشعرى ، وعبد الله بن الزبير ·

أما الخلفاء فأكثر من روى عنه منهم علي بن أبى طالب كرم اللـه وجهـه ، والرواية عن الثلاثة قليلة جدا ، وكان السبب فى ذلك تقـدم وفاتهـم ، وورد تفسير عن طائفة من الصحابة منهم أنس وأبو هريرة وابن عمر وجابر وعمرو ابن العاص وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم أجمعين ، ولكنه قلين · (41)

وأكثر الصحابة تفسيرا للقرآن الكريم ابن عباس أيضا ، ولعل ذلك لتأخر الزمان به ، حتى امتد ظلال الاسلام ، واستبحر العمران ، واشتدت الحاجة الى الاخـذ عنه ، ولتفرغه أيضا للدعوة والتعليـم والارشـــاد ·

ويعتبر ابن عباس ترجمان القـــرآن الكريم ، ويشهد بذلك من نزل عليـــه الوحي · فعن مجاهد قال : ابن عباس : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم (نعم ترجمان القرآن أنت) وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود رضي اللـه عنه قال : (نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس) وقد دعا له النبى (ص) بقوله :

(اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل)

ثم جاء مفسرون كثيرن يتعاقبون على مسرح الحياة كل بطريقته ومنهاجـه ، وكل بكفاءته ومقدرته ، وكل قد ساهـم بالجهد المستطاع فى استخراج كنـــوز هذا الكتاب وذخائره ، لتوضع للانسانية أسسا وأصولا لحضارتها المجيدة الحقة·

أشهر التفاسير :

ومــن أشهـــر التفاسيـــر فى القديـم والحديث (تفسير ابن جرير الطبرى) 224 ــ 310 قال النـــووى فى تهذيبـــه : (كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله ·

وقال أبو حامد الاسفراييني شيـــخ الشافعية : « لو رحل أحد الى الصيـــن ليحصل تفسير ابن جرير لم يكن ذلـــك كثيرا عليه » ·

تفسير الامام جلال الدين السيوطى (الــدر المنثور فى التفسير بالمأثور) وقد ذكر فى مقدمته انه لخصه من كتاب (ترجمان القرآن) وهو التفسير المسند الى الرسول صلى الله عليه وسلم ·

تفسير ابن كثير (وهو من أصـــح التفاسير بالمأثور ان لم يكن أصحهـــا جميعـــا) ·

تفسير بقى بـــن مخلـــد الانـدلسى القرطبى وهو من أعلام الثقافة الاسلامية المشاهير قال ابن حزم (اقطع انه لـــم يؤلف فى الاسلام مثل تفسيره، لا تفسير ابن جرير ولا غيره) ولكن المؤسف انــه لم يكتب له البقاء ولم يحظ بما حـظي به تفسير ابن جرير من البقاء والخلود، ولم نعرفه الا على ضوء ما كتب عنـــه العلمـــاء ·

تفسير (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) للامام العلامة جار اللـــه

محمود الزمخشرى . قال الامام السيوطى فى (شواهد الابكار) بعد ذكر قدماء المفسرين : ثم جاءت فرقة أصحاب نظر فى علوم البلاغة التى بها يدرك وجه الاعجاز وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة) .

وقد جاء تفسيره آية فى البيان العربى الاصيل ، ولذا نال الشهرة الواسعة، والصيت الذائع فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى . وقد أدرك الزمخشرى هذه الحظوة الكبيرة التى حظي بها تفسيره فسجل ذلك فى هذين البيتين تحدثا بنعمة ربه وشكرا له على مننه :

ان التفاسير فى الدنيا بلا عدد
وليس فيها لعمرى مثل كشافى
ان كنت تبغى الهدى فالزم قراءته
فالجهل كالداء والكشاف كالشافى (41)

تفسير (روح المعانى) المشهور بتفسير الالوسى لعمدة المحققين مفتى بغداد وامام أهل العراق العلامة شهاب الدين محمود الالوسى وهو من أعظم التفاسير الحديثة ان لم نقل أعظمها علما ، واجادة وبراعة ودقة وصحة ولا بدع فى ذلك (وكم ترك الاول للآخر) .

تفسير المنار : لفريد عصره وعلامة زمانه الامام المصلح السيد رشيد رضا ، وقد جرى فيه على الطريقة التى سلكها فى التفسير حكيم الاسلام الامام محمد عبده ، وقد كانت دروسه فى التفسير فتحا جديدا فى الدين حيث كان يلفت أنظار المسلمين الى هداية القرآن ، ويوقظ ضمائرهم ، ويثير عقولهم بصيحاته التى تدوى فى أرجاء الجامع الازهر .

وقد كانت أغلى أمنيات الاستاذ رشيد رضا أن يتمدد أجله حتى يكتمل تفسيره ويراه كالمصباح المنير يبدد الظلام ، وينير الطريق أمام المدلجين ، ولكن الشيخ اختفى ولم تتحقق له هذه الامنية فترك تفسيره ينتظر من أعلام الاسلام من يتقدم اليه بفكر ثاقب ، وعلم واسع، وهمة عالية ، وجد دائب ، فيتمه على النهج الذى سار عليه صاحبه .

ولكن يبدو ــ لحد الآن ــ ألا أحد يأنس فى نفسه الشجاعة والكفاءة والقدرة على التضحية بالوقت والراحة والجهد. ولذلك سيبقى هذا التفسير ينتظر حتى يمن الله على المسلمين بمن يخلف الرشيد فى رشده وعلمه وجهاده ، وعزيمته ورغبته الشديدة فى خدمة المسلمين ودستورهم .

وصدق الكاتب الاسلامى الكبير محب الدين الخطيب فى قوله من كلمة أبن بها المرحوم الاستاذ رشيد رضا : (آفتنا نحن ــ المسلمين ــ فى هذا العصر أن تموت أعمالنا بموت مؤسسيها ، فالخطب الذى نزل بنا بوفاة السيد رشيد كنا نعرف انه سينزل وان لم نعلم متى ينزل ، أما الخطب الذى لا يزول أله فهو ان يكون الميدان خاليا الآن ممن يعتمد عليه فى نماء الاعمال التى أسسها السيد ، ولا سيما اكمال التفسير الذى

أصدر منه هذا الراحل الكبير (12) جزءا وشـــرع فى جزئــــه (13) ، ومـــا أظن ان مسلما خدم الاسلام فى هـــذا العصر مثل ما خدمه السيد رشيد بهذا التفسير العظيم • (43)

والحديث عن التفسير والمفسرين يطول ويتشعب ، ولا يسع الاسهاب والافاضة فيه الا مجلدات ضخام ، حسبك ـ قارئى الكريم ـ ان التفاسير تعد بالآلاف ، وكل تفسير له منهاجه ، وله خصائصــــه ، ومميزاته ، وكل هذا دليل واضح على عظمة هذا الكتاب المعجز وأهميته عند المسلمين ، وادراكهم انه نزل لاصـــلاح البشر ، وانقاذ الناس ، والكشف عـــن حقائق الكون •

وكلما تقدم الزمن وازدهرت الحياة العلمية ، واتسعت المدارك الفكريـــة ، ونبغ المخترعون والمكتشفون ، واستقام العقل السليم على جادة الانصــــاف ـ كلما ظهر جلال القرآن وعظمتـــه ، وبدت آفاق جديدة ، لم يتطلع اليهـــا متطلع ، ومجالات فسيحة لم يجل فيها جائل ، وقمم شامخة لم يرن اليها ران، ولم يوجد على وجــه الارض ولا يرجى ان يوجد كتاب حظي أو يحظى بمثل ما حظي به القرآن من العناية والاهتمـــام والتقديس •

وهنا ملاحظة يجب الانتباه اليها وهي ان هناك تفاسير لا ينبغى أن يعول عليها ولا أن يركن اليها لما تحتويـــه مـــن الاسرائيليات التى ابتدعها واضعوها ، فكلفوا كتاب الله تعالى من التأويلات، وغريب الروايات ، وسخيف الاخبار ، ما أخرجه فى بعض آياته عن الغرض الذى أنزل من أجله ، وجعله مثار الطعن والنقد أمام أعداء الاسلام وخصومه ، وأما ذوو الطوايا النقية ، والعقـــول النيرة ، والافئدة الذكية ، فانهم يعلمون أو يدركون ان القرآن أجل واكرم من أن يكون وعاء لتلك الاباطيل السخيفـــة التى لا يقبلها العقل البصير •

واذا أردت أن تعرف هذه السفاسف التى أضلت بسطاء المسلمين وكانت مثار استهزاء وسخرية الاجانب ـ كمـــا قدمنا ـ فارجع الى ما ذكـــره بعض المفسرين فى شرح (**ارم ذات العماد**) (**وثمود الذين جابوا الصخر بالـــواد وفرعون ذى الاوتاد**) والى ما ذكـروه فى الزلازل والثـور الحامـــل للارض وياجوج وما جوج) وما عللوا ما يشعر به الانسان من سخونة مياه الآبار ، فى الشتاء ، وبرودتها فى الصيف حيـــث عللوا ذلك بأن ليالى الشتاء طويلة ، ولما كانت الشمس تغرب ، فتدخل فى جوف الارض ، كان تاثيرها فى الميـاه التى فى جوف الارض ، خلال الشتاء ، أشد من تأثيرها فى أثناء الصيف !!

ومما يبعث على التحسر والاسى ان من المفسرين المشهورين من وقـــع فى هذا الافك المبين وفى هذا الجهـــل الفاضح • فقد جاء فى الجزء الثـانى عشر من تفسير الطبرى على قولـــه

تعالى : « **وقيل يا أرض ابلعي مـــاءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضـي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين** » حديث موضـــوع فى وصف سفينة نوح حيث قال عن ابـــن جريج انه قال : كانت السفينة ، أعلاهـا للطير ، ووسطها للناس ، وفى أسفلها السباع ، وكان طولها فى الجو ثلاثـين ذراعا ، ودفعت من عين وردة يـــوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجـــب وارسلت على الجودى يوم عاشـوراء، ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقـــد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت ٠٠

وجاء فى كثير من التفاسيـر فى شرح قوله تعالى : « **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله** » ذكر حديث روي عن كنانة العـدوى قال : دخل عثمان بن عفان على رسول اللـه صلى الله عليه وسلم فقال : اخبـرنى عن العبد كم معه من ملك ؟ قال : ملك عن يمينك على حسناتك ، وهو أمين على الذى على الشمال ، وملكان من بيـن يدك ومن خلفك يقول الله تعالى : « **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** » وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعك ، واذا تجبـرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ، وملك على فيك لا يدع الحية تدخل اليه ، وملكان عـلى يمينك ٠ فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى ، وابليس بالنهار وولده بالليل ٠ هذا نص الحديث كما روي ٠ ٠ وواضح انه افتراء وبهتان على من نزل عليـــه الوحي ، بالاضافـة الى انـــه سخيف العبارة ، يتبرأ منه سياق الآية الكريمة، وكل من له معرفة بطبيعة القرآن ، وذوق بجو بيانه يشفق من أن يشوه جـــو الخفاء والرهبة والتعقب الذى يشيعـه السياق وتوحيه هذه الجملة (**لـــه معقبات**) ٠

والحفظة التى تتعقب كـل انسان ، وتحفظ كل شاردة ، وكل واردة ، وكل خاطرة ، وكل خالجة ، والتى هي مـن أمر الله لا يتعرض لها السياق بوصف ولا تعريف ولا اشارة ، فلا نتعرض لها نحن بتساؤلات غيـر مجدية : ما هي ؟ وما صفاتها ؟ وكم عددها ؟ وكيف تتعقب؟ وأين تكون ؟ ولا نشوه ذلك الجو المثير بالتحليلات والتأويلات والتفصيـــلات فضلا عن تلك السخافات التى تحط من قيمة القرآن ، وتذهب بجلاله وروحه ٠ (44)

ومن هذه السخافات ما قاله بعضهم فى شرح قوله تعالى : « **تنزل الملائكـة والروح فيها** » حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السمـوات السـبع ، والارضين السبع ، كانت له لقمة واحدة، أو هو ملك رأسه تحت العرش ، ورجلاه فى آخر الارض السابعة ، ولـــه ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا ، وفى كل

وجه ألف فم ، الى آخر هذه الاباطيل والخزعبلات التى يفسر بها كلام الله ٠

قل لى بربك ألا يكون كل هذا مثارا لسخرية خصوم الاسلام ، وداعيا الى القول بأن هذا الدين خرافى يؤدى الى حياة الركود والجمود والضعف ؟ وشاغلا عن القيام بجوهر الدين الصحيح الذى من أجله جاء ؟ وباعثا على عدم التأثر بروعة الاسلام والاخلاص فى التقيد بأحكامه ؟

ذكر الاستاذ المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش انه رأى ترجمة للقرآن بالانجليزية أتى واضعها بما سطر أولئك الجهلة المتعالمون ، ثم أعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدين ذلك الكتاب ٠ (45)

وهذا كله مما يفسر لنا شيوع استخفاف بعض الناس بالاسلام لانهم لم يفهموا جوهره وروحه وانما فهموه كما يصفه هؤلاء المتنطعون وكما يصورونه ٠

ولن ينتفع المسلمون بالقرآن الا اذا فهموه فهما صحيحا ولن يفهموه كذلك حتى يقرأوه كما نزل بعيدا عن الخرافات والاوهام ، التى تشدهم الى الوراء ، وتنشر الضعف والارتخاء فى أجسامهم، وتبعد بهم عن الجادة المثلى التى يهدى اليها القرآن ٠٠

أسلوب القرآن الكريم :

اذا عدنا الى المعاجم العربية وجدنا هذا اللفظ (الاسلوب) يطلق فى لغة العرب على معان مختلفة ، منها الفن والوجه والمذهب والطريق بين الاشجار والشموخ بالانف وطريقة المتكلم فى كلامه ، وهذا الاخير هو الانسب بالاصطلاح ٠

وأسلوب القرآن هو الطريقة التى امتاز بها فى تأليف كلامه ٠٠

وواضح ان الاسلوب غير المفردات **والتراكيب التى يتألف منها الكلام ٠٠٠ وأساليب المتكلمين فى عرض كلامهم تتعدد بتعدد أشخاصهم وقد تتعدد فى** الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التى يطرقها والفنون التى يتناولها ٠

وبالرغم من أن المفردات التى يوظفها الجميع واحدة ، والتراكيب فى جملتها واحدة ، والقواعد المرعية فى صوغ الجمل واحدة ، فان الاساليب تختلف من متكلم الى آخر ، ومن ثم كان للقرآن الكريم أسلوبه الخاص الذى انفرد به عن سائر الاساليب ٠

فهو من حيث الحروف والمفردات والجمل والقواعد جار على النهج العربى المألوف ، ولكنه من حيث أسلوبه الفذ ومذهبه الكلامى خارج عن المعهود ، ومباين للمألوف (فما هو شعر ولا هو سجع ٠ متكلف ملتزم ، ولا ازدواج متعمد دائم ، ولا نثر مرسل ارسال الحديث ، ولا خطابة طنانة

متفيهقة ، وانما هو نهج بديع من الكلام العذب المحكم البالغ الروعة فى أدائه الشريف غاية الشـــرف فى معانيـــه ومقاصـــده . (46)

وقد سمع أعرابى رجلا مسلما يقرأ قوله تعالى : « **فلما استيأسوا منـــه خلصوا نجيا**) فقال : اشهد ان مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وسمع عمر بن الخطاب آيات مـــن سورة (طـــه) فاهتزت مشـــاعره ، وارتعدت فرائصه ، وتحول من ذلــك **الرجل الجاهل الكافر الغليظ الذى جاء ليقتــل منقــذ البشرية ، وسيد الخلــق محمدا صلى الله عليه وسلم ويقتــرف أكبر الجرائم فى حياة الانسانية ـ تحول** الى عمر المسلم الصادق ، والمؤمـــن القوي ، والعبقرى العظيم الذى أصبح يدير وحده احدى عشرة دولة من دول اليوم ، وكان القاضى فيها والامام ووزير المالية ووزيـــر الداخليـــة والمحتسب ، وكان قائد (ثلاث جبهات) ، وكان الى ذلك يحمل الدقيق على ظهره ويطبـــخ للمرأة الفقيرة ويطعم أولادها ..

وقال الاصمعى سمعت : بنتا مـــن الاعراب خماسيـــة أو سداسيـــة ـ أي بنت خمس سنوات أو ست ـ تقول :

استغفـــر اللـــه لذنـب كلـــه
قتلــت انســـانـــا بغيــر حلـــه

مثـــل غـــزال ناعـــم فى دلـــه
وانتصـ ـف الليـــل ولـــم أصلـــه

فقلت لها : قاتلك الله ، ما أفصحــك فقالت : ويحك ، أيعد هذا فصاحة ؟ مع قوله تعالى : « **وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحـزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين** » فجمع فى آية واحدة بين خبريـــن ، وأمريـــن ، ونهيين ، وبشارتين . (47)

وبذلك الاسلوب الفذ أعجز القرآن العرب وهم أمراء البيان ، وأربـــاب الفصاحة ، وافحمهم وهم أساطيـــن البلاغة وفرسان النظم والنثر .

خصائص أسلوب القرآن :

والخصائص التى امتاز بها أسلوب القرآن كثيرة يمكن أن نلخص أهمهـــا فى الامور التالية :

1) مسحة القرآن اللفظية ، فانهـــا جذابة أخاذة تتجلى فى الاتساق والائتلاف على طريقة عجيبة لا يمكن أن يرتقى اليها كلام بشر مهما توفر له من عوامـــل الابداع .

2) ارضاؤه العام ، ومعنى ذلك انه اذا تلي على العامة شعروا بجلالـــه ، وأحسوا بعظمته ، وذاقوا حـــلاوته ، وانصاعوا بعقولهم على قدر استعدادهم، وكذلك الخاصة اذا قرأوه أو قرىء عليهم انقطعوا اليه بقلوبهم وعقولهم يستروحون فى ظلاله ، ويستشعرون روح الطمأنينة والثقة فى حماه ، فتشيع فى صدورهم أنوار الايمان والانس بالله تعالى .

3) ارضاؤه العقل والعاطفة، فالقرآن يخاطب العقل والقلب معا ، ويجمع الحق والجمال معا ، وهي غاية صعبة المرتقى، عزيزة المنال ٠ فارهف أذنيك ـ قارئى الكريم ـ واستمع اليه وهو يسوق الاستدلال العقلى على البعث كيف يهز القلوب ، ويمتع العاطفة معا ٠ قال الله تعالى : « **ومن آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، ان الذى أحياها لمحيى الموتى انه على كل شىء قدير** » ٠ وقال فى سورة (ق) : « **أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج** » أرأيت كيف جمع بين مخاطبة العقل والقلب معا ، وبين الاستدلال المنطقى والامتاع العاطفى ؟

4) جودة السبك ، فالقرآن الكريم بلغ أقصى الدرجات ، وأبعد الغايات فى ترابط كلماته ، وتماسك جمله ، وتعانق آياته ، مع طول نفسه ، وتنوع مقاصده ، فاذا فتحت المصحف دون أن يكون لك قصد أو غرض بأية معينة فقرأت ما وقعت عليه عيناك وتأملته ، وجدته وحدة متماسكة الاجزاء ، متآلفة الاعضاء ، متآخية الاوصال ، فجل من قال : « **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون** » ٠

5) البراعة فى تصوير القول وثروته فى أفانين الكلام ، أي ان القرآن يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة ، بمقدرة فائقة خارقة ، تنبهر أمامها انفاس الفصحاء والبلغاء ٠ والامثلة على ذلك واضحة لا تعزب عن الذكى البصير ، وهو يتلو القرآن الكريم ٠

ويكفى دليلا على ان القرآن معجز بأسلوبه ، ان التأليف فى البيان العربى ولد ونشأ وأينع وترعرع فى جو القرآن ٠

سأل ابراهيم بن اسماعيل من كتاب الوزير الفضل بن الربيع ومن جلسائه ـ سأل أبا عبيدة معمر بن المثنى عن قول الله تعالى : « **طلعها كأنه رؤوس الشياطين**» كيف وقع هذا التشبيه والمشبه به غير معروف ؟ وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله ٠ فقال أبو عبيدة : انما كلم الله العرب على قدر كلامهم ٠ أما سمعت قول امرىء القيس :

ايقتلنى والمشرفى مضاجعى
ومسنونة زرق كأنياب أغوال ؟

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به ٠

وعزم أبو عبيدة منذ ذلك الحين أن يضع كتابا فى القرآن ، فى أشباه هذا، وما يحتاج اليه من علمه ، ثم وضع

كتابه (المجاز) فكان أول كتاب ألف فى البلاغة (48) ٠

اعجاز القرآن : المعجزة هي أمر خارق للعادة خارج عن حدود الاسباب المعروفة ، يجريه الله تعالى على يد أنبيائه مقرونا بالتحدى ودعوى الرسالة، وطلب المعارضة ، وهي فوق مستوى العقول والافهام ٠ أما ان تأتى أمرا خارقا للعادة على العموم كمعجزة سيدنا ابراهيم الذى لم تحرقه النار ، وكمعجزة سيدنا صالح فى الناقة التى تشرب النهر ٠ واما أن تأتى من جنس شىء اشتهر عند المرسل اليهم ، كاشتهار السحر فى عهد موسى ، والطب فى عهد عيسى ، والبلاغة فى عهد محمد ٠

وقد تدرج هذا النوع من الاعجاز حسب تدرج العقل البشرى فى سلم العلم والمعرفة والادراك ٠

ففى زمن فرعون موسى (منفتاح) بمصر كان السحر عدة العلماء وزادهم، ومثار فخرهم واعتزازهم ، فكانت المعجزة التى أظهرها الله على يد موسى حينما تقابل مع علماء السحر عصا تلقف ما صنعوا ٠٠ حيث القوا عصيهم وحبالهم فاذا هي حيات وثعابين ، فأوجس موسى فى نفسه خيفة ، فأمره الله أن يلقى عصاه فاذا هي حية تزحف وتسعى ، واذا هي تبتلع حيات السحرة وتلقفها (49) فأصابهم العي وادركوا ان ذلك من صنع الله تعالى فخروا له ساجدين ٠

ثم مضت قرون وتطورت العقول والافهام ، وانتشر فن التحنيط ، وارتقى علم الطب ، وظهرت الكيمياء ،فكانت المعجزة التى أظهرها الله على يد سيدنا عيسى فوق ما نبغ فيه قومه من الطب والكيمياء والتحنيط ، انها احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ، والنفخ فى قطعة من طين فتكون طيرا باذن الله ٠

ثم مضت قرون ، وتطورت الانسانية، وانطلق العقل البشرى فى باحات النظر ، والتأمل والتفكير ، فكان العرب فى هذا العهد النبوغ المطلق فى الفصاحة والبلاغة والعبقرية الفذة فى فن الكلام نثره ونظمه ، فكانت المعجزة التى أظهرها الله على يد سيدنا محمد من جنس ما اشتهروا به ، وتفوقوا فيه ، انه القرآن الكريم ، الذى : « **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** » ٠

واذا كانت معجزات الانبياء جميعها محدودة بقوم معينين ، وموقتة بزمان معين ، فان معجزة محمد صلى الله عليه وسلم عامة وخالدة ٠

وبالرغم من حرص العرب على تكذيب محمد ، وتكالبهم على اخفاء أمره ، وتألبهم على اطفاء نوره ، ورفضهم الصارم لدعوته ، لانه سفه احلامهم ، ونعى عليهم زيغهم وضلالهم، وتحداهم بلسان القرآن ، بأن يعارضوه أو يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة ،

وليس الا النظم والاسلوب (50) ولن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسعها عشر سور ، ثم قرن التحدى بالتأنيب والتقريع ، ثم استفزهم بعد ذلك ، جملة واحدة فقال : « **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** » .

بالرغم من كل ذلك عجز العرب عن معارضة القرآن بسورة من مثله، وقامت عليهم الحجة ، فهي قائمة على غيرهم (لان عجز الجماعات وهم متعاونون أفرادا ومجتمعين عن معارضة عمل جاء على يد بشر مثلهم وهو وحده لا معين له دليل على ان ما جاء به هذا الفرد الوحيد من عند الله ، لا يقدر أحد أو جماعة على معارضته ، فأفحم كل حجة ، واسكت كل لسان ، وأعيا كل بيان ، وأبطل كل محاولة ، وهزم كل مكابر ، وحطم كل عناد وجدال ، فظل القرآن وسيظل فى فم الدنيا لسانا ناطقا، وآية باهرة ، و (معجزة خالدة) .

وسيبقى هذا التحدى المثير المدهش : « **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين** » ـ سيبقى قائما ما بقيت الحياة ، فكل انسان من يوم أن نزل القرآن الى نهاية الحياة على هذا الكوكب السفلى يواجه هذا التحدى وبالتالى هو محكوم عليها مسبقا بالعجز والفشل والاخفاق .

وفى كتب التاريخ محاولات ممن طاشت عقولهم ، واستبد بهم الغرور، فتصدوا لمواجهة هذا التحدى ، وما دروا انهم فى ذلك كمن أراد أن يقطع المحيط سبحا ، أو يسابق النفاثة مشيا .

ومن هذه المحاولات ما وقع من الشاعر العربى لبيد بن ربيعة الشهير ببلاغة منطقه وفصاحة لسانه ، ورصانة شعره (فعندما سمع أن محمدا يتحدى الناس بكلامه ، قال بعض الابيات ردا على ما سمع ، وعلقها على باب الكعبة وكان التعليق على باب الكعبة امتيازا لم تدركه الا فئة قليلة من كبار الشعراء العرب ، وحين رأى أحد المسلمين هذا أخذته العزة ، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم ، وعلقها الى جوار أبيات لبيد ، ومر لبيد بباب الكعبة فى اليوم التالى ولم يكن قد أسلم بعد فأذهلته الآيات القرآنية ، حتى انه صرخ من فوره قائلا : والله ما هذا بقول بشر ، وانا من المسلمين) (51) وكان من نتيجة تأثر هذا الشاعر العربى العملاق ببلاغة القرآن انه هجر الشعر . وقد قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوما : يا أبا عقيل ، انشدنى شيئا من شعرك . فقرأ سورة البقرة وقال : ما كنت لاقول شعرا بعد اذ علمنى الله سورة البقرة وآل عمران .

وهناك محاولة أخرى أغرب من هذه وبطلها الكاتب الشهير عبد الله بن المقفع ، وخلاصتها ان جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن الكبير فى عامة الناس ، وهيمنته على قلوبهم ، فقرروا مواجهة تحدى القرآن ، واتصلوا لاتمام خطتهم بابن المقفع ، وكان معتدا بقدرته الادبية الواسعة ، فقبل الدعوة للقيام بالمهمة ، واخبرهم ان هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة ، واشترط عليهم أن يتكلفوا بكل ما يحتاج اليه خلال هذه المدة ··

ولما مضى على الاتفاق نصف عام عادوا اليه وفى أنفسهم تلهف وشوق ، وتطلع الى معرفة ما حققه الكاتب العملاق لمواجهة تحدى القرآن · وحين دخلوا غرفة الاديب وجدوه جالسا والقلم فى يده وهو مستغرق فى تفكير عميق ·· وأوراق الكتابة متناثرة أمامه على الارض ، بينما امتلات غرفته بأوراق كثيرة ثم مزقها ·

لقد حاول الكاتب العبقرى ، وبذل أقصى جهوده من أجل أن يتم له ما أراد ، ويحقق للزنادقة والملاحدة أمنيتهم الغالية ، ولكنه أصيب بالفشل الذريع ، فلم يستطع أن يأتى بآية واحدة من طراز القرآن ، بالرغم من مضي ستة أشهر · (52)

والذى يعنى بهذا الموضوع ويتتبع مظانه فى كتب التاريخ ، يجد أمثلة لمحاولات مواجهة هذا التحدى القائم المثير على ممر الدهور والعصور، فممن حاولوا ذلك واخفقوا ـ طبعا ـ وتحطمت آمالهم على صخرة الاعجاز ، مسيلمة الكذاب ، والنضر بن الحارث ، وطليحة بن خويلد الاسدى ، والاسود العنسى ·

وان شئت ـ قارئى الكريم ـ ان تعرف لونا من هذه المعارضات السخيفة المخجلة لتدرك ضياع البلاغة ، وفشل البيان ، وتفاهة التصوير عند هؤلاء المغرورين المتطاولين على وحي السماء، فدونك فقرة من (قرآن) مسيلمة الكذاب فأقرأها ثم ألعنه ، وارث لبلاغته وبيانه :

(والمبذرات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما، اهالة وسمنا ·· لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغى فناوئوه) ·

وممن عارضوا القرآن ، أو حاولوا ، أبو الحسين المعروف بأبن الراوندى ، وأبو الطيب المتنبى ، وأبو العلاء المعرى، وقد أدرك هذا الاخير ان القرآن كلام الله الذى لا يجارى ولا يعارض ، والوحي السماوى الذى لا يتسامى اليه بيان · فقال من رسالته فى الرد على ابن الراوندى :

(واجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، ان هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

كتاب بهر بالاعجاز ، ولقى عدوه بالارجاز ، ما حذى على مثال ، ولا أشبه غريب الامثال ، ما هو من القصيد الموزون ، ولا فى الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ، ذوى الارب ... وان الآية منه أو بعض الآية لتعترض فى أفصح كلم ، يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه ما لشهاب المتلالئى فى جنح غسق والزهرة البادية فى جدوب ذات نسق) .

وروعة الاعجاز قد فعلت فعلها حتى فى غلاة المشركين وأشدهم عدواة للقرآن، فكان أبو جهل وأبو سفيان والاخنس بن شريق من ألد أعداء النبى صلى الله عليه وسلم وأشدهم بغضا للقرآن ، ومع ذلك فقد كانوا يتسللون فى الليل فرادى الى جدار بيت الارقم ليتسمعوا من النوافذ والكوى الى النبى وهو يتلو القرآن .

كان كل واحد من هؤلاء يجلس فى مكان مظلم حيث لا تراه العيون ، وهو يظن انه وحده الذى جاء ليستمع ، حتى وقعت المفاجأة ذات ليلة ، حيث التقى الثلاثة وجها لوجه وهم يهمون بالانصراف بعد أن انتهى الرسول صلى الله عليه وسلم من التلاوة ، وسأل كل واحد منهم صاحبه من أين جئت ؟

فاطرق الجميع برؤوسهم ولم يحر أحدهم الجواب ، وجميعهم متهمون ، ولم يسعهم أمام ما فعلوا الا أن يقسموا ألا يعودوا مرة أخرى خشية أن يؤدى بهم سماع القرآن الى الايمان واتباع محمد .

وفى الليلة الثانية فكر كل واحد من الثلاثة فى الموضوع، وتحدث الى نفسه، ان أحدا لن يذهب الليلة لسماع القرآن من محمد ، فماذا لو حنثت فى قسمى وذهبت وحدى ..

وذهب الثلاثة واستمعوا ، ولما انتهى الرسول من التلاوة أخذ كل منهم يطوف حول دار الارقم ليستيقن من أنه جاء وحده ، فكانت المفاجأة ... وكان التلاحم والتشاجر ، وكاد الخصام ينقلب الى التقاتل ..

وهكذا ظل الثلاثة يقسمون ويحنثون ويستمعون .. ولم يقدروا على مغالبة هذه النوازغ الجياشة ، وكبت هذه الرغبة الملحاحة .. فاتفقوا على أن يجتمعوا كل ليلة فى بيت أحدهم ليراقب بعضهم بعضا حتى لا يذهب منهم أحد .

الى هذاالحد بلغ تأثير القرآن فى نفوس الكفار والمشركين ، أعداء الوحي وأعداء من نزل عليه ...

وهل أتاك ـ قارئى الكريم ـ نبأ الوليد ابن المغيرة أحد فرسان البلاغة وسادة البيان العربى ؟

لقد سمع آيات من القرآن فهاله اعجازه ، واستبدت به روعته ، فسارع الى قومه ليقول لهم : (لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن . ان له لحلاوة . وان

عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسقله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه·

وهكذا عجز خصوم القرآن عن مواجهة تحديه ، وسيظل ما بقيت الحياة معجزا للانسان والجن ، وهو ما سجله الوحي فى قوله تعالى : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » ·

وجوه الاعجاز :

لاهل العلم فى بيان اعجاز القرآن كتب ودراسات ، وأبحاث لا يحصرها العدد ، وممن خاضوا هذا البحر الباقلانى ، والسكاكى ، وعبد القاهر الجرجانى ، والزمخشرى ، والقاضى عياض والرافعى ، وما تزال أقلام الكاتبين مغموسة فى الحبر ، وأوراقهم مبسوطة ، ولكل باحث وكاتب رأيه واجتهاده ·

والدارس لابحاث هؤلاء والواقف على أرائهم يرى أولا ان هناك خلافا فى اظهار السر الكامن من وراء اعجاز القرآن ، فمنهم من ارتأى ان القرآن فوق طاقة البشر ومقدورهم ، وهم عاجزون عن معارضته ومجاراته بالقوة والفعل ، وهو رأي العلامة الباقلانى فى كتابه (اعجاز القرآن) ·

وذهب آخرون الى أن القرآن تحت طاقة البشر ومقدورهم ، وهم عاجزون عن معارضته ومجاراته بالفعل لا بالقوة، فالله تعالى هو الذى أعجزهم عن مناظرته ومباراته · وممن ذهب الى هذا الرأي ابراهيم النظام ·

والرأي الاول أقرب الى العقل وأدعى الى الرضى والاقتناع · ولا يتسع المجال لعرض أدلة الترجيح ، وهي مبسوطة فى المطولات ·

أما وجوه الاعجاز فكثيرة يمكن عرض طائفة منها فيما يلى :

ذكر القاضى فى كتابه (الشفاء) وجوها كثيرة منها :

1) حسن تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحته ووجوه ايجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب فيما يأتون من بيان ·

2) صورة نظمه العجيب ، وأسلوبه الغريب ، المخالف لاساليب العرب ومناهج نظمها ونثرها ، فلم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه فى فواصله ، وما انتهت اليه مقاطع آيه ·

وذكر الباقلانى من وجوه الاعجاز ثلاثة :

أولا — ما تضمن من الاخبار عن الغيوب بما لا يقدر البشر عليه ولا سبيل لهم اليه ·

ثانيا — اتيانه بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الامور ، ومهمات السير ، من حين خلق الله آدم الى حين مبعثه ، صلى الله عليه وسلم ، مع انه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يقع له شيء من

كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ، ومن أمثلة ذلك قصص الانبياء، وأصحاب الكهف وذى القرنين ، وياجوج ومأجوج الخ ·

ثالثا ـ انه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة الى الحد الذى عجز الخلق عنه · (53)

ويعجبنى فى موضوع اعجاز القرآن قول السكاكى (ان اعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه) ولكن هذا الادراك لا يتهيأ الا لارباب الفصاحة والبيان · ومن هنا يتبين ان غير العرب الفصحاء من سائر الناس أعيا وأعجز فى ميدان المعارضة ·

ويقول الامام محمد عبده عن معجزة القرآن : (معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما ما يتناوله العقل بالفهم هو معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها ، ونشر ما انطوى فى أثنائها ، وله منها حظه الذى لا ينقضى ، فهو معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منه) · (54)

ووجه اعجاز القرآن فى نظرى هي (روحانيته) أي انه روح من رب العالمين « **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان** » · وهذا وحده كاف فى ارشادنا الى جهة اعجازه وقصور الانس والجن عن محاكاته ، وبقائه خالدا يمد البشرية نورا وهداية ·

والحقيقة الجديرة بالملاحظة هي ان معجزة القرآن لا تستمد خلودها من كون القرآن معجزة فقط بل من كونه أيضا قد جاء بتخطيط محكم سليم للانسانية فى مختلف العصور وفى مختلف أنحاء المعمورة ·

انه هدية الخالق للمخلوق ، وصلة السماء بالارض ، ومنهج السلوك للانسان ، فما من كبيرة أو صغيرة، دنيوية أو أخروية ، فردية أو اجتماعية، الا وفى هذا الكتاب الخالد تصريح لها أو اشارة ··· واتسع مجاله ، وبعد أفقه ، فى كل فن وفى كل نظام ··

ولئن كانت شمس الكون لها مع الناس فى هذه الارض حدود ، فان شمس القرآن لا تعرف الحدود ولا السدود ، ولا تعرف زمنا دون زمن ، ولا وجودا دون وجود ، فهي مع الناس فى كل مكان وفى كل زمان وفى كل حال، فى حضارتهم وبداوتهم ، فى قصورهم وأكواخهم ، فى سلمهم وحربهم ، فى صحتهم ومرضهم ، فى صغرهم وكبرهم، فى ليلهم ونهارهم ، فى حياتهم وبعد موتهم ·· انها شمس القرآن ·

وهذا ما جعل رجال الغرب فى نهضتهم الحديثة يعنون بهذا الكتاب ويهتمون ، حتى تخصص فيه علماء أجلاء وقفوا عقولهم وأقلامهم على دراسته واستخراج ما فيه من الكنوز

والذخائر ، واستوحوا منه نظريـــات واستلهموه دروسا وعبرا فى الحـــق والجمال ، والخير والشر ، وغيرها من المفاهيم والنظريات ٠

صحيح ان هناك من الغربيين مـــن تخصصوا فى دراسة القرآن لا لغرض شريف ، وانما من أجل الطعن والنقد ٠ ولكن حتى هؤلاء لم يقدموا على دراسته الا تحت تأثيره ، والايـمـان بأنه شىء عظيم يدعو الى النظر فيه ، والانقطاع لدراسته ، فخدموه خدمة جلى بمـــا كتبوا عنه من دراسات وأبحاث كشفت عن عجزهم ، وأكدت سمو القرآن ، وانه وحي من الله لا يأتيه الباطل من بيـــن يديه ولا من خلفه ، فمنهم من آمن ومنهم من انطوى على نفسه فى خـجل ٠٠٠ الا عملاء التبشير الذين ارتكسوا فى حمأة الحقد والحسد والبغضـاء فهـــم عمي الابصـــار ، وطـمس العقـــول ، لا يؤمنون بالحق لانهم أعداؤه ٠

وستظل العقول المفكرة الناضجـــة الجبارة التى تكتشف وتستنتج وتخترع ٠٠ وتبحث عن الحق من أي جنس ومن أي بلد تعلن اعجابها الى حد الدهشة بهذا الكتاب الخالد المعجز ٠٠

يقول الفيلسوف الفرنسى (الكسى لوازون) فى كتابه (حياة محمـد) : (خلف محمـــد للعالـم كتابا ، هو آية البلاغة وسجل الاخلاق ، وكتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفـــة حديثا ، والمكتشفات الحديثة مسالـــة تتعارض مع الاسس الاسلاميـــة ، فالانسجام تام بيـن تعاليـم القـــرآن والقوانين الطبيعية ٠

ويقول العلامة (فريد وجدى) : لا ترى قاعدة دلت عليها التجارب ، ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر ، يكون لهـــا أثر فى رقي الانسان ، وتحسين بنـــاء العمران ، الا وهي صدى صوت آيـــة قرآنية ، أو حديث من الاحاديث النبوية، حتى يخيل للرائى ان كل جد ونشـــاط يحصل من علماء الكرة الارضيـــة فى سبيل رفع شان الانسانية لا يقصد بـــه الا اقامة الحجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الاسلامية ٠

وجماع القول ان القرآن الكريم :

معجـزة بحروفـه ، وكلـماتـــه ، وتراكيبه ، ٠٠٠ معجز بطلاوته ولذاذته معجز بتأليفه ، والتئامه ، وتناسقه ٠٠٠ معجز بسلامته من التعارض ٠٠٠ معجز بأسلوبه ، ونظمه ، وفواصله ، ومقاطع آياته ٠٠٠ معجز برموزه العجيبـــة المدهشة فى فواتح السور ، معجـــز بموسيقاه ، وفصاحته ، النادرة ٠٠٠ معجز بأنبائه الغيبية عن كوامن الزمن وقضايا الامور ٠٠٠ معجز بأســـراره الدقيقة ، وقوانينه المحكمة ، وخطابياته البديعة ، وطرق اقناعه الفذة ٠

معجز باشاراته ، واستعاراته ،٠٠٠ معجز بالاسرار العلمية التى هدى اليها ولم تهتد اليها العقول البصيرة فى العصر

الحديث الا بالآلات الدقيقة والمخترعات الحديثة المدهشة ...

معجز بجذباته الروحية للمشاعر والاحاسيس ... معجز بالتحويلات الجذرية والانقلابات التاريخية عبر التاريخ ... معجز بمثله العليا التي بلغت الذروة فى ديموقراطيتها وانسانيتها ..

وأخيرا : ان القرآن معجز لانه (قرآن) وكفى .. والقرآن كلام رب العزة ، نزل به الروح الامين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم .

تلاوة القرآن :

القرآن الكريم كتاب الله تعالى ، تفضل به على هذه **الامة** المحمدية ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويهدى للتى هي أقوم . ورسالة القرآن اذن علمية عالمية ، عظيمة ضخمة ، لا يفى بوصفها قلم أو لسان ، مهما أوتيا من مقدرة فى الفصاحة والبيان .

فاذا تتبعنا الآيات الكريمة التى تصف القرآن وتحدد رسالته وجدناها تنص أو تشير الى انه يحيى القلوب ، ويرقق الاحاسيس ، ويحقق الاخوة الصادقة ، وينظم **العلاقات بين الافراد** والجماعات ، ويضىء العالم بتعاليمه السمحة ، ويضمن سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، وهذا بعض ما تنطق به آيات من هذا الكتاب **الكريم** ، فأرهف أذنك – عزيزى القارىء – واستمع الى الله جل وعز يقول :

« **ان هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا** » ويقول « **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض، ألا الى الله تصير الامور** » .

ويقول : « **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم اليه صراطا مستقيما** » ويقول : « **ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون** » ويقول : « **ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك** من **ربك هو الحق ، ويهدى الى صراط العزيز الحميد** » ويقول : «**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** » .

والحقيقة التى ننتهى اليها من هذه المقدمة ، ونخرج بها من دراستنا لهذه الآيات ، وآيات أخرى فى مجراها ونسقها . ان القرآن لم ينزل لمجرد التلاوة ، كما انه لم ينزل ليقرأ فى المآتم والجنازات ، ولا لقضاء الحاجات ، ولا ليكتب فى التمائم ، وانما أنزل لغرض أجل وأهم ، ليكون مدرسة تربوية

يتخرج منها بناة الحياة الفاضلة ، وصناع التاريخ الماجد ، الذين أراد الله أن يعمر بهم هذه الارض : « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون** » ٠

مدرسة فريدة فى نوعها يتلقى فيها المخلوق عن خالقه دروسا لا كالدروس، وعلوما لا كالعلوم ، ومعارف لا كالمعارف فاذا كان احضار العقل ، والتأمل والتدبر عوامل ضرورية لفهم كتاب تقرأه ، فانها مع كتاب الله تعالى أوجب وأوكد ٠

ومن ثم وجب أن تكون تلاوة القرآن تلاوة تأمل وتدبر ، وتلاوة نظر واعتبار، وتلاوة خشوع وانفعال ، وتلاوة درس واستنباط واهتداء ، يقول الله تعالى : « **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به** » ٠ ويقول : « **كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب** » ٠ ويقول : « **هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا انما هو اله واحد ، وليذكر أولوا الالباب** » ٠

فهداية القرآن اذن متوقفة على أمرين هامين لابد منهما لمن يبتغى الهداية والانتفاع بالقرآن : تلاوته بتأمل وتدبر، وفهمه فهما صحيحا ٠

هذان الامران لابد منهما لمن يريد ان يصلح بالقرآن وينتفع ، به وبدونهما لا صلاح ولا انتفاع ٠٠٠

وفهم القرآن أمر ميسور ، خلافا لمن يعتقد انه صعب عسير ، أنزل للخاصة لا للعامة ٠٠ ولقد أثبتت التجربة واثبت الواقع انه يفهم بشىء من العناية والاهتمام ، لان بعضه يفسر بعضا ، ولان معانيه أيضا تتسابق واضحة الى القلوب والاذهان ٠ يقول الله تعالى : « **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** » ٠

فالقرآن يلتقى مع حقائق الوجود ، ويتفق وسماحة الفطرة ، ولم يكن ما فى القرآن من الآيات مبهما أو مغلقا أو معمى مع ما يرى الانسان فى الكون تفاسير وشروحا ٠٠ بالاضافة الى أن القرآن الكريم يواكب الانسان من مرحلته الاولى من تكوينه الى أن يفارق هذا الوجود ، بل القرآن مع الانسان قبل هذه المرحلة حيث يعتنى بالتربة التى ينشأ فيها ، والرحم التى يتطور فيها ، ثم يرافقه فى طفولته ، وفى شبابه ، وفى كهولته ، وفى شيخوخته ٠٠ ثم فى موته الذى هو نهاية وبداية ٠

فالقرآن اذن ميسور للفهم ، لانه كتاب الكون وكتاب الانسان ٠٠٠ وان حاد بعضهم عن الجادة وظنوا انه كتاب صعب عسير ٠٠٠ وكيف لا وهو مع الانسان فى جميع مراحل حياته فى هذا الكون ؟

ومما لا أزال أذكره بأسف وتحسر ، ما كان يتقوله بعض مشائخ الزوايا من أن القرآن يجب حفظه ، ولا يجوز شرحه ، وكانت العبارة التى يرددونها وسمعتها غير مرة من شيخ علمنى القرآن (من أصاب فى تفسير القرآن

فقد أخطأ ، ومن أخطأ فقد كفر) مما جعل كثيرا من طلبة الزوايا بالخصوص على الاكتفاء بحفظه ، والحذر من محاولة فهمه ، فالبقاء على الجهل بمعانى القرآن خير من الكفر فى نظرهم·

وقراءة القرآن النافعة هي التى تستهدف المعنى ، وتتجاوز اللفظ الى ما وراءه من سر وروح ··

صحيح ان التلاوة نفسها عبادة تقرب المرء من خالقه ، ولكن الاجر يتضاعف ويعظم على قدر ما فى التلاوة من التأمل والتدبر ، وعلى قدر ما يحقق التأمل والتدبر من الغايات المطلوبة · تأمل جيدا هذه الآية الكريمة : « **فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الالباب** » ·· « **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء** » ·

فالذين يتلون القرآن (حق تلاوته) هم الذين يقرأونه وطنية وأخلاقا واجتماعا وعبادة ··

وما أشد حاجة البشرية اليوم الى هداية القرآن فى هذه المجالات بالخصوص : فالقرآن ضرورة وطنية لان الوطن فى حاجة ملحة الى ابنائه المخلصين ، والى سواعدهم وكفاءاتهم وتضحياتهم وامكانياتهم المتنوعة · وليس كالقرآن عامل قوي يبعث فى نفوس المثقفين ، وكافة طبقات الامة ، حب الوطن ، وحب التضحية فى سبيله ، والذود عن كيانه وحماه · وما حياة المسلمين الاوائل الملآى بأروع معانى التضحية والايثار الا صورة ناطقة بما فعل القرآن فى أنفسهم ·

والقرآن ضرورة اجتماعية ، فجميع الذين يحملون قلوبا حية وضمائر يقظة، ويغارون على مصالح الامة وكرامتها ، يشعرون بأن المجتمع الاسلامى ملىء بالنقائص والمفاسد والعيوب ، وان القرآن خير وسيلة لمعالجة هذه الامراض، لانه الكتاب الوحيد الذى يكفل لكل مواطن حقه فى العلم والعقيدة والعبادة والحياة الكريمة ·

والقرآن ضرورة انسانية ، فانه أمر بالتعاون بين الشعوب على أساس الحق والكرامة ، وعلى مبادىء العدالة المطلقة التى لا تتأثر بالمصالح الشخصية، ولا ترضخ للفروق الجنسية ، وقد نزل من السماء ليقول للناس فى صوت عال « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » ·

وبهذا المفهوم الواضح استأصل داء الفلسفة التى تمزق شمل الناس ، وتجعل عواطفهم رهنا بأراضيهم وحدودها · (55)

والانسان عندما ينقطع الى القرآن الكريم يتلوه بعقله وقلبه وروحه، يشعر بلذة لا تعادلها لذة ، وتغمره مشاعر

وأحاسيس لا يرتقى الى وصفها بيان ، ويحس من الاعماق انه يعبىء النفس بفيض متدفق يملأ عليه كل وجوده ، ذلك لانه يعيش مع الله خالقه وخالق الكون ، ومن أسعد ممن يعيش مع الله يناجيه ويستهديه ؟

(من أجل ذلك يوصى الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين بمداومة التلاوة والذكر ، ويحذر من الجفوة والقطيعة بين المسلم وكتاب الله ، لكيلا تنقطع تلك الصلة الحية ، ولا ينقطع الرباط الذى يربط القلب المؤمن بالله ، .. لكيلا يرين الران على القلوب .. يغشاها ما يغشاها من جراء تعرضها الدائم (للتراب) المتناثر فى جو الحياة .. سواء هو تراب (الجسد) أو تراب (المادة) وما يدور حولها من الصراع .. وهو تراب يتراكم ويتراكم ان لم يمسحه الانسان عن نفسه وروحه ، حتى يتغبش صفاء النفس ، وتعتم شفافية الروح ، وتنطمس فى النهاية ، فلا ينفذ منها النور . والقرآن يمسح عن النفس ذلك الران حين يعيش الانسان فيه مع الله ، فتنطلق الروح من اسارها تقبس من النور العلوى ، وينسرب الحديث المتصل عن الله فى أعماق النفس فيشيع فيها النور . (56) قال الله تعالى :

«الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شىء عليم » سورة النور .

وتجدر الاشارة الى ان هناك آدابا وشروطا تجب مراعاتها عند قراءة القرآن الكريم :

فمنها الجلوس فى تواضع وتأدب وخشوع ، ومنها استحضار عظمة من أنزل القرآن على حال من يراه (فان لم يكن القارىء يرى ربه فانه سبحانه يراه) ومنها قراءته بتوءدة وتمهل وتفكر ، واعطاء الحروف ما تستحقه من حسن الاداء ، والبكاء لمن استطاع ذلك ..

فقد روى ابن ماجه باسناد جيد عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (اتلوا القرآن وابكوا ، فان لم تبكوا فتباكوا) .

ومما تجب مراعاته فى قراءة القرآن تحسين الصوت بشرط أن يكون ذلك فى حدود الواجب شرعا بأن يخرج كل حرف من مخرجه موفى حقه من الصفات والاحكام ، قال الله تعالى : « **ورتلناه ترتيلا** » وقال : « **ورتل القرآن ترتيلا** » والترتيل : تلاوة بأداء صحيح بحيث يقرأ على توءدة وتمهل وتبيين حروف .

قال الامام النووى : اجمع العلماء من السلف والخلف من الصحابة والتابعين وعلماء الانصار وائمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن · وقال الامام القسطلانى فى كتابه (لطائف الاشارات) قال البراء وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ فى العشاء (والتين والزيتون) فما رأيت أحدا أحسن صوتا منه أو قراءة)·
وقد امتدح النبى صلى الله عليه وسلم قراءة أبى موسى الاشعرى حين مر عليه وهو يقرأ فى بيته فأصغى اليه وقال له فى الصباح : (يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود) وكان داود عليه السلام أحسن الناس، فشبه حسن صوت أبى موسى وحلاوة نغمته بصوت آلة المزمار ·

أما ما عليه كثير من قراء اليوم حتى المشهورون منهم بالتغنى المجنح بالقرآن والتمطيط والافراط فى المد واشباع الحركات حتى يتولد منها أحرف لم ينزل بها القرآن ، واضاعة صفات الحروف كالشدة والجهر فى الباء والدال واخراج الحروف من غير مخارجها ·· والترقيص والترعيد والتطنين فى الغنات ·· واضعاف بعض الحروف وقتلها ، وقياس قراءة القرآن على القطع الموسيقية بادخال النغمات والاصوات المخزية المنكرة كالاصوات الرقيقة المخنثة ـ أما هذا فحرام ، لانه يخرج بالقرآن العظيم الى الهزل واللعب ، ويتنافى أيضا مع قدسية كلام الله ويحط من مستوى القرآن الى مستوى الالحان المطربة ، وفى من يفعلون هذا يقول صلى الله عليه وسلم (مفتونة قلوبهم ، وقلوب من يعجبهم شأنهم) ·

أما ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه من قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(ليس منا من لم يتغن بالقرآن) ·

وما رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم وصححه ، وابن حبان من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (زينوا القرآن بأصواتكم) ـ فالمراد منه مد الصوت ، وحسن الترتيل ، ومراعة قواعد التجويد ـ كما قدمنا ـ وابراز الحروف والكلمات فى صورة قوية مؤثرة ، تستولى على القلوب ، وتأخذ بالالباب ، مع الخشوع والتعظيم والتوقير ·

يضاف الى ما تقدم وجوب مراعاة المعنى عند التلاوة ، فيلون القارىء صوته باللحن الموسيقى الذى يناسبه ، فالنغمة التى تناسب مواضع القوة والعظمة والقدرة غير النغمة التى تناسب مواضع أخرى · كالضعف والعطف والحنان مثلا ·

فقوله تعالى : « **قال كذلك قال ربك هو علي هين** » من سورة مريم تناسبه نغمة تشعر بالقوة ، لان هذا المقطع من القرآن يتحدث عن قدرة الله تعالى

فى خلق عيسى من غير أب ، فيجب على القارىء أن يراعى ذلك فى صوته ·

أما قوله تعالى فى نفس السورة عن مريم عليها السلام :

« يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » ·

فالنغمة التى تناسب المقام هي نغمة الحسرة والحزن ·

وما أزال أذكر زيارة الدكتور طاهر الخميرى الى جامع الزيتونة بتونس وكان ذلك سنة 1950 وكنت حينذاك طالبا فيه ، فدخل ووجدنا محلقين حول شيخ يجود القرآن وهو من مشاهير المقرئين، فوقف ردحا من الزمن يستمع باهتمام ، ثم انطلق وهو يهز رأسه ، ويمط شفته ، شأن المتعجب أو المنكر ··

وبعد ثلاثة أيام حضرت له محاضرة ألقاها بقصر الجمعيات ، لا أذكر الآن موضوعها بالضبط ، ولكنها حول (الموسيقية اللغوية) لاحظ فيها انه زار الجامع فجذبه صوت مجود ، فوقف يستمع ، ولكنه اطلع بعد حين انه ـ وان كان يحسن الابتداء والوقوف ، وله صوت رخيم مؤثر ـ لا يحسن استعمال الالحان فى قراءته حيث لا يفرق بين النغمة التى تمثل القوة ، والتى تمثل الضعف ، والحزن والحسرة ··

وهذا اللون من التلاوة أو هذه الطريقة هي المطلوبة والمرغوب فيها لانها تجتذب القلوب ، وتستميل النفوس ، فتقبل على القرآن بلهفة وشغف (وربما أثمر ذلك فى تدبر آياته ، والتفكر فى غوامضها ، والغوص على أسرارها ، فيحصل بذلك الامتثال لاوامر القرآن والانتهاء عن نواهيه) ·

وتلك هي الحكمة فى مشروعية الانصات الى تلاوة القرآن فى الصلاة أو غيرها قال الله تعالى :

« واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » ·

ثورية القرآن :

اذا كانت الثورة من أجل التحرر، وتغيير الاوضاع الفاسدة التى لا تستقر معها حياة الفرد والمجتمع من أبرز مميزات هذا العصر الى حد اننا نفخر بأنه عصر الثورات ، فان الثورة من أبرز مميزات القرآن الكريم ·

وهذه الخاصة من مميزات القرآن أيضا عن سائر الكتب السماوية ،·· وهي التى ضمنت الخلود للاسلام، وبالتالى ضمنت مواكبته للبشرية فى تطورها وتجددها وتقدمها ·

وقد يتبادر الى الذهن من عنوان هذا المحور ما يتشدق به المستشرقون المتعصبون وضعاف العقول من انصاف المتعلمين من ان الاسلام لم ينتشر ولم تثبت قدمه فى هذا الوجود الا بحد السيف الذى كان يمهد له الطريق ، ويذلل أمامه الرقاب ···

وهذا ـ طبعا ـ من لوثات المتعصبين وتشكيكاتهم ، لا يقول بها ذكي الفؤاد ، ونقي الطوية ، وسليم العقل ، وانما نعنى بثورة القرآن ، (وثورية الاسلام) طبيعته فى المواجهة ..

فالملاحظ أولا ان القرآن الكريم لا يرضى بالصور الباهتة ، ولا المظاهر الخادعة ، ولا الالوان البراقة ، ولا الاشكال الخلابة ، ولا المعانى التافهة ، ولا التماثيل الكاذبة ، ولا الظلال التى تخفى وراءها حقائق مموهة .

ولا يرضى للانسان ـ هذا الذى استخلفه فى الارض ـ ان يكون (ضعيفا فى طلب ، أو مريضا فى عزم ، أو هزيلا فى هدف ، أو مقصرا فى غاية ، أو متأخرا فى ركب ، أو قانعا فى خير ، أو نائما عن مجد ، أو متهاونا فى كسب ، أو متوانيا فى واجب ..

بل يريد القرآن من الانسان ويطلب منه بالحاح أن يكون قويا فى كل شىء :

قويا فى بدنه ، قويا فى تفكيره ، قويا فى ايمانه ، قويا فى أخلاقه ، قويا فى سلوكه ، قويا فى عمله ، قويا فى كل جانب من جوانبه ، وفى كل حالة من حالاته ، وان يكون طوال عمره كما يقول أبو فراس :

وانا أناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وهكذا .. فالقرآن لا يرضى الا أن يكون أهله (أصحاب عضلات مفتولة ، وسيوف مسلولة ، (57) ولكن لا على أساس أن يستخدموها للتدمير ، ويسخروها للعدوان ، ويوجهوها للشر ، ويرصدوها لاقلاق راحة الآمنين الوادعين ، وانما من أجل حراسة الحق ، وصيانة الحدود ، ورعاية الحرمات ، ونصر الفضيلة ، وارساء مكارم الاخلاق ، وبناء حياة كريمة عزيزة) وهو الذى يقول : « **وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** » .

ونتبين بوضوح ثورية القرآن من هذه الآيات التى نكتفى بها عن مجموعة كبيرة موزعة فى مختلف أجزاء القرآن : « **يا أيها المدثر قم فأنذر** » .. « **يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » .. « **فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون** » .. « **يا أيها النبىء حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان تكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون** » .. «**قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة** » .. « **فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** » .. « **ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** » .

ونحس بثورة القرآن فى الآية الاولى التى قيل انها أول ما نزل من القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم (**يا أيها المدثر**) (58) وندرك عظمة النداء العلوى

وجلالته وقوته (**يا أيها المدثر**) وندرك ايثار الخالق الكريم «فى انتداب محمد لمهمة عظيمة خطيرة شاقة هي انقاذ البشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والهلاك ·

وندرك خطورة الموقف ، وعظمة المهمة، التى انتدب لها محمد من انتزاعه من النوم والتدثر والدفء الى اليقظة والاستعداد ، والكفاح والجهاد ، والسهر والمشقة « **يا أيها المدثر قم فأنذر** » ·

وندرك من وراء الامر بالقيام وهجران النوم والراحة الى السهر والتعب ما يتطلبه الموقف العظيم من التهيؤ والاستعداد ، وصرامة الارادة ، وقوة العزم ، وشجاعة النفس ، واستقرار القلب ، والحزم والاصرار ···

وأي وضع أشد وأخطر من الوضع الذى انتدب محمد صلى الله عليه وسلم لتغييره ؟

يجب اذن أخذ العدة ، ويجب هجر النوم والراحة ، ويجب اعلانها ثورة لا لين فيها ولا هوادة ، وذلك لعمرى ما فعله رجل القرآن محمد صلى الله عليه وسلم ·

انها ثورة على الوثنية والشرك ، وثورة على الظلم والجور ، وثورة على الاخلاق الفاسدة والاوضاع العفنة ·

واننا لنلاحظ ثورية القرآن فى الاساليب التى استعملها فى تغيير الوضع المتعفن الذى أصابه الانهيار والاساليب التى استعملها فى طريقه للدفع بالانسانية الى الانطلاق من الاسار :

فالقرآن يهدد « **ذرنى ومن خلقت وحيدا** »

والقرآن ينذر « **سأرهقه صعودا** » ·

والقرآن يدعو بقطع اليدين « **تبت يدا أبى لهب وتب** ··

والقرآن يزجر « **كلا انه كان لآياتنا عنيدا** »

والقرآن يلعن الخراصين الذين يقدرون الاشياء بحدسهم وظنهم من غير تعقل وتدبر ودون ان يستندوا فى ذلك الى وعى وعلم وادراك « **قتل الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون**»·

ويكشف عما يلقاه أهل الكفر والضلال من العذاب الاليم فى الآخرة ، ويعبر عنهم بالمجرمين ، لانهم أهل جنايات جنوها على أنفسهم وعلى غيرهم : « **ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون** » ·

ويهدد بالويل والبلاء لمن يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يضيق بها ويتنكر لها ويستعلى عليها · « **ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم** » ·

ويستفهم للسخرية وينبه للقوة : « **واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم**

من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون، أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » ٠

ويستهجن العقيدة الجائرة ، المأفونة فى جعل الملائكة اناثا « **وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن اناثا ، أأشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون** » ٠

ويعرض بأخلاق المرأة الجاهلية عن طريق التنويه بفضائل المرأة المسلمة ومحاسنها « **محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** » ٠

ويوعد المتلاعبين بالكيل والوزن فيغشون وينحرفون عن القسطاس ويبخسون الناس أشياءهم « **ويل للمطففين ، الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين** » ٠

ويحكم على الذين يحاربون الله ورسوله ، ويفسدون فى الارض بالسلب والنهب ، واهلاك الحرث والنسل ، أو اثارة القلق والفزع ـ بالقتل أو الصلب أو بتقطيع الايدى والارجل من خلاف « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الارض فسادا ان يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الارض، ذلك لهم خزي فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** » ٠

ويشبه الكافرين بالانعام « **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تاكل الانعام والنار مثوى لهم** » ٠

ويمثل هذه الاساليب الثورية واجه القرآن الكريم عناد الكفار وتعصبهم ، وتمردهم وعتوهم ، واصرارهم على المضي فى الظلام الدامس ، وعلى الطريق الملتوى ٠٠

وبهذه الثورة العرمة غير الوضع العربى المتعفن الى وضع آخر لم يكن يحلم به الفلاسفة المصلحون ٠٠٠ وانتشل الانسانية من وهدة الانحطاط الفكرى والعقيدى والاجتماعى ، ونقل الاجلاف العربية من حمأة الصغار والضياع الى أعلى الذرى ٠٠ الى « **خير أمة أخرجت للناس** »

وتهدأ ثورة القرآن عندما يخاطب المسلمين الذين شبوا على الجاهلية ، فيجمع لهم بين الشدة واللين ، والتأديب والتهذيب ، حتى يألفوا حياة الاسلام الجديدة ، ويتطبع بطابعها ، فتراه يلفت أنظارهم الى نعمة الاسلام ، نعمة تأليف القلوب ، ورأب الصدوع ، تلك النعمة التى حولت شتات العرب فى جاهليتهم وحدة وعداوتهم فى الجاهلية مودة ، ويدعوهم الى الاعتصام بحبل الله من خطر الفرقة ، ومن التيه فى متاهات الشهوات والعداوات والحزازات :

« **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ**

كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » ·

وينصحهم بالتخلى عن بقايا الجاهلية ومساوئها « **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن** » « **يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** » ·

ويهديهم وفق ما تتطلبه الحياة الجديدة من ضرورة التعاون ودوام الصفاء ونبذ الفوارق الطبقية وجعل معيار الفضيلة الطاعة والتقوى « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » ·

ونلمس هذه الثورة القرآنية نفسها فيمن نزل عليه الوحي محمد صلى الله عليه وسلم عندما توسط عمه أبو طالب بينه وبين المشركين ، فاندفع فى صدق وحراة ايمان، وفى لهجة قوية صارمة وقال قولته المشهورة : (والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الامر أو أهلك دونه) ·

ولما حطم بيده آخر صنم للمشركين فى الكعبة يوم فتح مكة هدأت ثورته ولان أسلوبه ، وقال فى جمع من أعدائه الالداء الذين آذوه وأخرجوه من بلده العزيز وهموا بقتله مرارا وقاتلوه : (يا معشر قريش ما ترون انى فاعل بكم ؟ فقالوا : خيرا · أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء) ·

من هذه المدرسة القرآنية الكبرى التى كان يعلم فيها نبي الانسانية ، تخرجت أفواج من الرجال الاقوياء الصادقين الذين فتحوا الدنيا وعمروها ، وكان فيها سادة العالم ، تدين لهم رقاب الجبابرة، وتنحنى لعظمتهم هامات المتغطرسين ، وبذلك الاسلوب الحكيم فى الدعوة (ثورة وسلم ، وشدة ولين ،) انتصرت دعوة الاسلام ·

وسيظل القرآن ينتصر بثوريته وعمق ارشاده وسماحة تعاليمه ، وسيبقى المنهج القويم لتربية البشرية وتوجيهها خير توجيه الى الحياة الكريمة المثلى ·

ولها الطابع الثورى الذى امتاز به القرآن عن سائر الكتب السماوية ، وتميز به الاسلام عن كافة الاديان ·· (كان الاسلام ولا يزال المعين الاول للبطولة ، والمنبع الاول للشجاعة ، فهو مصنع البطولة والابطال ، ومعرض الشجاعة والشجعان) ·

أثر القرآن :

حدث القرآن الكريم عن فعله وتأثيره فقال : « **كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم** » ·

فالقرآن اذن كتاب هداية ــ وقد تقدمت الاشارة الى هذا ــ يهدى به الله من يؤمن به ، ويبحث عنه ، ويعمل بآياته وتعاليمه ..

والى أين يهديه ؟ يهديه الى سبل السلام :

سبل السلام الروحى : وذلك بالاطمئنان الى العقيدة الواضحة التى لا غموض فيها ولا تعقيد . وقد طلب القرآن الكريم الايمان بالله والالتجاء اليه فى كل شيء ، وافراده بالعبادة ، والاستعانة والدعاء .. والانسان فى حاجة الى هذه العقيدة فى كل وقت وخاصة فى عصرنا هذا ، وهو يعيش فى ظلام المادة ويكتوى بلهيبها المسعور، ليحيا آمنا مطمئنا .

سبل السلام الدينى : وذلك باخلاص العبادة لله تعالى ، فالانسان ضعيف عاجز ، بل ما هو فى هذا الكون الهائل الا ذرة تائهة ليس لها كيان ولا وجود ، ولكنه باتصاله بالخالق ، واخلاص العبادة له يصبح قويا لا يغلب ، خالدا لا يفنى ، عزيزا لا يذل .

وسبل السلام الاجتماعى : وذلك بالتواد ، والتكافل ، والتلاحم ، حتى يكون المؤمنون بالقرآن أينما كانوا ومن أي لون أو جنس كانوا أسرة واحدة أو جسدا واحدا ..

تلك هي السبل التى يهدى اليها القرآن الكريم : « **كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام** » وهكذا :

فمن آمن بالقرآن واهتدى بهديه فانه يخلص لله فى عبادته ، لانه يحس بقربه منه ، ومراقبته له فى جميع حركاته وسكناته ، وذلك يبعثه دوما على السير فى الجادة نحو الغاية المثلى التى من أجلها خلق ...

فمن آمن بالقرآن واهتدى بهديه تنقى قلبه من شوائب الخيانة والغدر والبغضاء والختل والرياء ، وبذلك يعيش فى المجتمع عضوا محبوبا ، وعنصرا نافعا ..

ومن آمن بالقرآن واهتدى بهديه خرج من ظلام الجهالة ، وظلام الشبهات ، وظلام العداوات ، وظلام الشهوات ، الى نور العلم والمعرفة ، الى نور الادراك واليقين ، فى دنيا التفكير الصحيح .. الى آفاق الحقيقة فى عالم العقل والقلب والضمير .. : « **ويخرجهم من الظلمات الى النور** » .

وأي انسان يتفاعل مع القرآن الكريم : مع نظمه وتوجيهاته ، مع أحكامه وحكمه، الا ويهتدى ويستقيم على الجادة، ويكون منه عضو صالح ينفع نفسه ، وينفع غيره ، ويتكون منه ومن أمثاله مجتمع قوي فاضل . فالقضية قضية ايمان وتفاعل ، واستقبال .

فاذا قوي ايمان المرء بالقرآن، وأحسن القلب استقبال آيات الله بتفرغه اليها وتفاعله معها ، ــ ارتبط بالملا الاعلى ،

وعاش زمنا فى الصفاء المؤنس، وأحس من الاعماق انه مع الله ، يمده بطاقات من العون ، وشحنات من الارادة ، والعزم ، ويؤنسه ، ويضيء نفسه وقلبه ، ويثير فى أعماقه عالما من المشاعر والاحاسيس ، لا سبيل الى وصفها ·· فينزل بعد ذلك الى الميدان مزودا بسلاح لا يفل ، وقوة لا تغلب ، ونور لا يخبو ·· وهكذا يعيش محمى العقل والضمير ، والنفس ، فلا يحيد عن الحق ، ولا يميل عن الصدق ، ولا ينحرف عن الجادة ·

وآية واحدة من كتاب الله الخالد اذا انفعل معها القلب ، والتقت مع أسراره المشاعر والاحاسيس ·· وعملت موجاتها الاثيرية عملها فى النفس ، تفتح القلب لحياة جديدة ، وتغير السلوك ، وتحول الانسان من شخص الى آخر ·

وهذا أثر القرآن وتلك هدايته ··

واذا أردنا أن نتبين أثر القرآن الكريم فى صورة أوسع وأوضح ، وفى صورة ناطقة من واقع الحياة فلنعد الى التاريخ نسأله عن حياة جاهلية كانت فيها البشرية ممزقة الاوصال ، ضاربة فى مهامة الضلالة ، تعانى الجهود الشاقة فى صراعها مع الحياة ، بعيدة عن نور القرآن الهادى ··· وعن حياة انسانية أشرق فيها وحي الله بما يحمل من التوحيد ، والعبادة الصحيحة ، والحب، والشفقة ، والعدل ، والرحمة ، والحياة الكريمة لبني الانسان ···

نسأل التاريخ عن ذلك فينبئنا بما يثير دهشتنا ، ويحبس اللفظ فى أفواهنا ، ويضاعف ايماننا بأن هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم · واليك البيان :

لو قدر لاحد أن يرى شبه الجزيرة العربية منذ أربعة عشر قرنا فماذا يرى ؟ وماذا كان يتوقع لذلك الجزء من العالم ؟

انه يرى القبائل المنتثرة هنا وهناك فوق رمال الصحراء القاحلة ، قد طغت عليها الجاهلية فسلختها من انسانيتها، وتملكها حب المادة فباعد بينها وبين سماء الرحمة ، وكانت من العقائد فى غواية ، ومن الاخلاق فى همجية ، ومن الدين فى وثنية ، ومن العادات فى وحشية ، ومن الاجتماع فى انقسامات قبلية ، وتحزبات عصبية ، لا دين يجمعها ، ولا قانون يردعها ، ولا قيم تؤلف بينها ·

وكانت جميع معالم الحياة الفكرية والسياسية والاخلاقية والاجتماعية تنذر بسوء المصير ، وتدل من يراها لاول وهلة ان بقاء الانسانية على تلك الحالة الشاذة لابد أن يفضى بها الى التلاشى العاجل ، وتريه بوضوح ان تلك العقول الجامدة ، والقلوب المتحجرة ، والعواطف الجافة ، والفطر الفاسدة ، لابد لها من صيحة توقظها ، وهزة تنفض عنها غبار الماضى : غبار الوثنية والهمجية والعبودية ، وروح سماوية تردها عن

غيها ، وتكبح جماحها ، وتردهـــا الى الطريق السوي · (58)

بالاضافة الى ان العالم فى ذلك الحين كان كله يتخبط فى ظلام دامس ، وغيوم معتمة من الاضطرابات والفتن والقلاقل·

(كتب (ج · هـ· دينسون) فى كتابه (العواطف كأساس للحضارة) يصـف الفترة التى سبقت بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدن على شفا جرف مـــن الفوضى ، لان العقائد التى كانت تعين على اقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ،، وكان يبدو ان المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وان البشرية توشك أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه مـــن الهمجيـة ، اذ القبائـــل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام ، أمـــا النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار ، بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالـــم كلـه ـ واقفة تترنح وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب ··· وبين مظاهر هـــذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحـد العالم جميعه · (59)

وهكذا كانت البشرية قبل مجـــيء القرآن تتيه فى ظلام دامس مـــوحش ، وتتخبط فى حمأة مسنونة ، وتوشك أن تنهار وتضيع ·

فكان نزول القرآن الى الدنيا ، كما قال أحد المفكرين المعاصرين ، كالضوء ينبثق فى أعقاب الليل شيئا فشيئـــا ، فيبدد ظلمة الكون تدريجيا ، ثـم تكون اشراقة الصبح ، مؤذنة بانجلاء الظلام وانحسار الليل ، عن طلائع النهـــار ، وتبتدىء الشمس فى بهجتها فتنير جوانب الدنيا وتكشف للابصار عن مسالـــك الحياة فى آفاقها الواسعة ·

غير ان ضوء القرآن لم يكن يتضاءل بعد بزوغه ، أو ينكمش بعد اشراقـه ، كما يتضاءل وهج الشمس وهي تجـرى الى مستقرها فى السماء ···

وظلت آيات القرآن تتوالى عن طريق الوحي ، وهي تبدد الظلام ، وتقشـــع السحاب ، وتحـــرر العـــقول ، وتحيى القلوب ، وتوقظ الضمائـــر ، وتصنـــع الانسان الذى يليق بالحياة وتليق بـــه الحياة ·

وتمسك المسلمون بالقرآن فحفظـــوه وتأملوه وتدبروه وغاصوا على ما فيه من حقائق وذخائر وأسرار ··· وطبقوه على أنفسهم وعلى ذويهم بدقة ، لانهـــم أدركوا انه دستور دينهم ، وأســـاس عقائدهم ، وشرائعهم ، وانه أنزل لصلاح الدنيا وصلاح الآخرة · فأعزهم بعد ذل، وحررهم بعد عبودية وبدلهم بالضعـــف قوة ، وبالانحطاط رفعة ، وبعبادة الاوثان عبادة الله ، وانتظمـــهـــم فى وحـــدة

الانسانية اخوانا متحابين متراحمين ، ينصر بعضهم بعضا ، ويعين بعضهم بعضا ، في ايثار وانكار ذات ٠

واستماتوا في سبيل اعلاء كلمة الله ، ورفع شأن الوطن ، وباعوا أنفسهم في سبيل المبادىء والقيم ، وصغرت الدنيا في أعينهم فلم يفكروا في ذواتهم ، وانما فكروا في مبادئهم وأهدافهم وأوطانهم ، فضحوا في سبيلها ، وهزموا بايمانهم مع قلتهم الفرس والروم مع كثرة عددهم وعدتهم ، وحققوا النصر المبين ، وبسطوا ظل العدل والمحبة والاخاء في كل بلد فتحوه ، وكل قطر حلوا به ، حتى قال الفيلسوف الهولندي الكبير (ديوتش) :

(كان القرآن الكتاب الذي استعان به العرب على فتح عالم كبير ، من العالم الذي قهره الاسكندر الاكبر ، بل أكبر من عالم الرومان ٠٠ لقد جاء العرب مع قرآنهم الى أوروبا كملوك ، وهنا رفعوا مشعل النور ، لينيروا الطريق أمام البشرية التي كانت منغمسة في غياهب الظلمة ، وليعلموا الناس الحكمة والعلم والمعرفة والفلسفة والطب وعلم الفلك والفنون ٠ (60)

وكان المسلمون اذا فتحوا بلدا كان هدفهم اعلاء كلمة الله ، وتطبيق نظم القرآن ، والقضاء على الفساد ٠٠

وكيف لا والقرآن قد حدد لهم هذا الهدف في قوله : « **الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتووا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبه الامور** » ٠

وكانت أخلاق القرآن التي طبقها المسلمون على أنفسهم تغزو القلوب والنفوس قبل أن تغزو البلدان والجيوش :

(لما بلغ الجيش الاسلامي وادي الاردن ، وعسكر أبو عبيدة في فحل ، كتب الاهالي المسيحيون في هذه البلاد الى العرب يقولون :

(يا معشر المسلمين ، أنتم أحب الينا من الروم ، وان كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، واكف عن ظلمنا ، واحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا ٠ (61)

وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين ان ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الروم (62)

وكل هذا من أثر القرآن وفعله وصنعه وهدايته ٠٠٠

أجل ـ قارئي الكريم ـ ان هذا الانقلاب الجذري الذي حدث في حياة العرب ، وهذا التحول الغريب الذي غير مجرى التاريخ ، وتلك الحضارة الزاهرة التي لم يشهد التاريخ نظيرا لها في مختلف العصور ، وذلك المجتمع القوي الفاضل الذي أصبح طاقة زهر لا شوك فيها ، واسرة واحدة لا فضل لاحد على آخر الا بالتقوى ـ ان ذلك كله من أثر القرآن وفعله وصنعه

وهدايته . هذا الكتاب الذى « **يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه، ويهديهم الى صراط مستقيم** » .

تلك صورة مجملة عن أثر القرآن الكريم فى العرب وفى سائر المؤمنين به، ويعنينا بعد هذا الاجمال أن نصنف هذا التأثير وننوعه، ونكتفى منه بالاهم فى ايجاز خاطف :

أثر القرآن فى الحياة العقلية :

لقد غير القرآن الكريم من طابع الحياة الجاهلية ، فبعد ان كانت عقلية الأنفة الباغية ، والعزة الحمقاء ، الطاغية ، والحمية الجاهلية ، جعلها القرآن عقلية الاسلام تقوم على المحبة والسلام ، وطاعة الله تعالى ، وامتثال أوامره ونواهيه .

أثره فى الحياة العقائدية :

غير القرآن مفاهيم الالوهية لدى العرب ، فبعد ان كانت عقيدتهم الدينية تقوم على تعدد الالهة وعبادة الاوثان ، والتقرب بها الى الله ، جعلهم يخلصون ايمانهم وعبادتهم لله وحده ، هو رب كل شىء .

أثره فى الحياة الاخلاقية :

استبدل العرب بالاخلاق الجاهلية المقيتة أخلاقا اسلامية فاضلة ، تقوم على التضامن والتعاون والتضحية والعمل الصالح المثمر .

أثره فى الحياة الاجتماعية :

أبطل القرآن الكريم القوانين والنظم الجائرة الفاشية بين العرب التى تقوم عليها القومية العربية ، ورسم لهم نظما وقوانين يسعد بها الفرد ، وتنتظم بها الاسرة والمجتمع ، ووضع نظاما لوسائل العيش ، وكسب القوت فى عزة وكرامة، كما سوى بين الجميع فى الحقوق والواجبات الدنيوية ، والشعائر والتكاليف الدينية ، وفى أنواع العقوبات والجزاء الخ ...

أثره فى نفسية العرب :

فبعد ان احتبست نفوس العرب فى الجزيرة الضيقة ، فلا يستوحون من الرسوم والاطلال والاودية والجبال والصخور والرمال والناقة والبعير والبيد والسراب ـ لا يستوحون الا ما يلبى نوازعهم فى وصف المرأة أو الناقة أو غيرها من المعانى الفطرية البدوية ، ولا يدرون ما وراء الكون من وجود، ولا ما فى الوجود من سر وحكمة ـ جاء القرآن يدعو الى النظر والتفكير فى الكائنات وفى النفس البشرية، فصفت قلوبهم ، وذكت عقولهم ، وسمت مداركهم ، وكبرت نفوسهم ، واتسعت أمامهم آفاق الجلال ، وعوالم الجمال، وباحات الكمال .

أثره فى اللغة العربية :

أدى القرآن الكريم رسالة لغوية أدبية لم يؤدها أي كتاب سماوى أو

أرضى ، فلولا القرآن الكريم لاندثـرت اللغة العربية كما اندثر غيرهـــا مـــن اللغـــات ٠

ويمكن اجمال أهم مظاهر هذا التأثير فى أمور أربعة :

بقاء اللغة العربية هذا الامد الطويل توحد لهجاتها ، وزوال ما كـــان فيهـــا من تناكـــر ٠

جعلها لغة رسمية فى جميع الممالك التى دخلها الاسلام ٠

جعلها لغة تعليمية بعد ان كانت ملكة راسخة ٠ وتفصيل هذه الامور يتطلـب كتابا مستقلا (62) ، وحسبنا أن نسوق هنا جواب العالم الشهير الدكتـــور (ستينجاس) الذى أجاب به عن هـــذا التساؤل :

(ماذا كان يكون مصير هذه اللغـة العربية لو لم يكن القرآن ؟) فقال :

(نحن لا ننكر ان اللغة العربية انتجت قبل الاسلام ألوانا عديدة من الشعـــر هي غاية فى الحسن والرقة ، الا انها كانت كلها محفوظة فى أذهان النـــاس غير مكتوبة ، زد على ذلك ان الشعـر ليس هو الادب كله ، وكان العرب فيما بينهم منقسمين الى قبائل متفرقــــة ، مختلفين فيما بينهم ، فى ظروف طاحنة دائمة مما أثر على كيانهم وعلى ألسنتهم المختلفة ، ولولا القرآن لذهبوا ، وذهب معهم لسانهم وشعرهم الملىء بالغـزل والحرب ، وكان للسائح المجازف مجال للبحث والمخاطرة فى سبيل جمع ما باد من هذه الكنوز ، وزال بسبب شحنائهم وتعاملهم ، فلما جاء القرآن ابقى بطبيعته على هذا التراث ، وأوجد من مختلـف اللهجات العربية لغة موحدة مكتوبـــة هي لغة الادب العربى الى اليوم ، وزاد على ما كان موجودا من الشعر شيئـا كثيرا ، وجعل له أساسا يرتكز عليـه ، بل انه نظم الحياة العامة والخاصـــة للمسلمين فى صور كلها أدب ، وحكمة، ونثر عذب ، لا يزال حتى يومنا نبراسا للادب العربى فى أعلى صوره) ٠ (63)

وهكذا وحد القرآن اللغة العربيـــة ، فجعلها لغة الدولة الاسلامية ، وجعلها لغة سرمدية باقـية ما بقى القـــرآن ، والقرآن باق خالد ، بالاضافـة الى ان القرآن هذب العربية وسما بها الى أعلى المستويات ، ووسع نطاقها وحملها الى البلدان التى دخلها ٠

والخلاصة ان القرآن الكريم قـــد أحدث أعظم انقلاب فى تاريخ البشـر ، أحدثه فى نفوس المسلمين ، واحـداثـه بواسطتهم فى المجتمع الانسانى ، وكان هذا الانقلاب غريبا فى كل شىء (غريبا فى سرعته ، غريبا فى عمقه ، غريبا فى سعته وشموله ، غريبا فى وضوحه) ذلك سر القرآن ، وذلك أثره ، وذلـــك عمل منهجه التربوى فى صنع الافراد والامـــم ٠

خلود القرآن وسلامته من التحريف :

أعلن الله تعالى عن خلود القرآن وسلامته من التحريف فى هذه الآية الكريمة : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » ٠

كتاب باق خالد ، كتاب محفوظ لا يندثر ، ولا يتبدل ، ولا يلتبس بالباطل، ولا يمسه التحريف ، ولا تنال منه حيل الزنادقة ، وجهود المبشرين ، ومحاولات خصوم الاسلام ٠

وكم بذل أعداء القرآن من حيل وجهود ، وكم انفقوا من أعمار فى سبيل البحث عن مطاعن فى القرآن أو لاثبات نقص أو زيادة أو لنفي الاعجاز له ، أو لنفي قداسته ، أو للتقليل من قيمته ، أو للحط من أثره ، فكانوا والقرآن كما قال الشاعر العربى :

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يهدها وأوهى قرنه الوعل

فضاعت حيل الزنادقة ، وجهود المبشرين ،وخصوم الاسلام فى اختراع المزاعم وتلفيق الاوهام والاباطيل ، فبقى القرآن ٠

والسبب واضح جلي ، هو ان الله تعالى هو الذى تولى حفظه ، وسيظل يتولاه ، لانه كتاب الانسان ، وكتاب الكون ، وكتاب الدنيا ، وكتاب الآخرة ٠٠

والذى أصبح من البديهيات ان التاريخ لم يعرف طوال عمره أمة فى هذا الوجود عنيت بكتاب سماوى أو أرضى كالامة الاسلامية فى عنايتها بالقرآن ٠ ولم يحظ كلام الهى أو بشرى بمثل ما أحيط به القرآن من وسائل الحفظ والرعاية والتقديس ، حتى ان الرسول صلى الله عليه وسلم نهى أن يكتب حديثه حتى لا يختلط بالقرآن ، وتم تدوينه كاملا باشراف الرسول وتحت رقابته ـ كما أشرنا الى ذلك فى موضع من هذه الدراسة ـ ٠

والسبب فى بقاء القرآن محفوظا من كل ما من شأنه أن يعرضه للتحريف أو التبديل أو التغيير أمران :

1) طريقة نزوله ٠

2) شيوع القرآن بين عامة الناس ، وهذا من الفوارق الاساسية بينه وبين الكتب المقدسة التى سبقته ، فالقرآن عام شامل بين سائر المسلمين ، يتعبدون بتلاوته ، ويتلوه الطفل فى كتّابه ، والصبي فى مدرسته ، والطالب فى معهده ، والاستاذ فى درسه ، بالاضافة الى انه الحكم الذى يحتكم فى الشؤون الدينية والاجتماعية ٠

ولا يعقل ـ والحالة هذه ـ أن يتطرق اليه تبديل أو تحريف ٠

كما نلاحظ ـ بازاء ذلك ـ انتشار القرآن فى مختلف أنحاء العالم عن طريق الترجمة ، وهذا ما لم نعرفه عن أي كتاب آخر سماويا كان أو أرضيا ٠

فقد ترجم القرآن الى اكثر من أربعين لغة وهي ظاهرة تعد من معجزاته البارزة ٠

كتاب ينفرد بهذه العناية ، والاهتمام، وينتشر هذا الانتشار المدهش ، ويبقى كيوم نزل من السماء نصا ومعنى بالرغم من المزاعم الباطلة ، والحيل المخترعة ، والمساعى المبذولة ، والسفاهات والبذاءات التى توجه الى القرآن الكريم طعنا ، ونقدا ، وتجريحا ، وتشكيكا ··· أليس ذلك من معجزات هذا الكتاب ؟

وكم تقول كفار مكة ، وتشدق يهود يثرب ، وقالوا انه شعر ، أو انه سحر، أو انه أساطير الاولين ، فذهبت الاقوال وذهب أصحابها أدراج الرياح وبقى القرآن ، كالحياة ، كالزمان ، كالشمس ···

وكم من معارك ضارية ، وهجومات عنيفة طائشة شنها الاستعمار الثقافى ، والصليبية الفكرية ، وطوائف من المستشرقين والمبشرين والكاتبين ، ضد القرآن الكريم ، فقالوا فيه - حقدا وبغضا - انه بشرى ، وانه مادى ، وانه يدعو الى الحيوانية ، ويدعو الى الاستغراق فى الملذات الدنيا ، وانه يدعو الى الاعتداء والاغتيال ، ويحرض على القسوة على غير المسلمين ، ويدعو الى الدنيا ، ولا يدعو الى صفاء النفوس والمحبة الخ : ولكن القرآن بقى قويا صامدا كالطود الاشم ، لم تنل منه هجوماتهم المسمومة الا كما ينال نباح الكلاب من الشمس المشرقة الساطعة ·

وظهرت منذ بضع سنوات فى بعض الاوساط الفكرية والثقافية مقالات بأقلام أنصاف المسلمين وانصاف المتعلمين ، تزعم ان القرآن نزل بالمعنى وان النبى والصحابة كانوا مفوضين فى أن يقرأوه كيف شاءوا ، يغيرون لفظا بآخر يؤدى معناه · وزاد الطين بلة - كما يقولون - ان مهزوزى العقيدة وضعاف الايمان، يتأثرون بهذه الاباطيل · ومن شطحات المراهقة (ان طالبة عربية مسلمة تقدمت - منذ سنوات - الى جامعة الاسكندرية برسالة لنيل (الماجستير) كان موضوعها اثبات (تلك الشبهات والترهات التى نشرها انصاف المتعلمين) ولم تعدم الطالبة المغرورة أن تجد لها من صغار النفوس ومرضى الاقلام من يدافع عن عملها هذا باسم حرية الرأي والبحث والدرس · (64)

ولكن القرآن بالرغم من هذه الهجومات التى تتوالى عليه من أعداء الاسلام وانصاف المسلمين بقى قويا ثابتا ناصعا مشرقا ·

فاذا كانت الشمس منذ أمد سحيق هي الشمس فى مرآى العين ، بشعاعها الوهاج ، وشكلها القرصى ، ومكانتها العليا ، لم تتبدل ولم تتغير ولم تنل منها اية قوة ، فكذلك القرآن ···

وجل من قال : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » ·

والعوامل التى جعلت القرآن يحتفظ بنفسه ، ويبقى غالبا غير مغلوب ، ويظل خالدا يمد الانسانية بطاقة لا تنفد مدى الحياة - كثيرة ولكن أهمها وأبرزها

ن القرآن الكريم انفرد بخصائص جعلت نزوله يأخذ منهجا طبيعيا ، ونسقا منطقيا ، يرتبط بأحوال الحياة ، وشؤون الناس فترة كافية للاحاطة بكل دقيق منها وجليل ٠

(فالمدة التى استغرقها نزول القرآن وهي ثلاث وعشرون سنة ـ كما قدمنا ـ يمكن اعتبارها دورة اجتماعية كاملة (65) ، تم فيها البيان الالهى لسياسة الحياة والاحياء ، وليس ما تفد به القرون بعد ذلك من أحوال نفسية واجتماعية الا صورة مكررة لما سبق أن جاء به القرآن) ٠

ولقد قضى القرآن من عمره الطويل الخالد أربعة عشر قرنا وهو يساير الانسان فى حياته وفى تطوره ، فى بداوته وحضارته ، فى طفولته وشبابه وكهولته وشيخوخته ، وما من شأن من شؤونه الفردية أو الاجتماعية ، الا ووجد له فى القرآن مبداه وقانونه ٠

ومهما تقدم الانسان وتطور ، ومهما اتسعت آفاق علمه ومعرفته ، ومهما اكتشف من قوانين لتنظيم الاسرة ، كلبنة فى المجتمع وتنظيم المجتمع ، كوحدة بشرية ، وتنظيم العالم كوحدة انسانية ٠ ففكرة القرآن عن الكون والحياة والانسان أكبر منها وأرحب وأعظم قابلية للنمو والتجدد ، وأكثرها توازنا ومراعاة للفطرة البشرية ٠ (66)

ومن أجل ذلك بقى القرآن أربعة عشر قرنا كما نزل (نصا ومعنى) ٠ وعلة بقائه هذه المدة هي نفسها علة خلوده الدائم ٠

والسر اذن فى (حفظ الله تعالى للقرآن) يكمن فى الحقائق الثابتة ، التى احتواها ، (67) فاذا كانت هناك معارف قد يطرأ عليها تغيير أو تبديل أو خطأ فان معارف القرآن ـ سواء فى ذلك الكونيات ، أو الاسس والعبر ، أو النظم والتوجيهات المختلفة ـ ثابتة ثبوت الحقائق التى لا يغض من شانها قدم ، وهي قديمة وجديدة فى آن واحد ، تتناسب مع تقدم الحضارة الانسانية فى شتى مجالات الحياة ٠

وجل من قال : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » ٠

الى القرآن الكريم :

لقد كان القرآن الكريم هدى للمسلمين، منه استمدوا قوتهم ونشاطهم وحيويتهم وعزتهم وسلطانهم ، يوم جعلوه قبلتهم، وامامهم ، وقائدهم ، وعدتهم وزادهم ٠٠

وكانت عناية المسلمين بالقرآن فوق كل عناية يتنافس فى استظهاره ، وحفظه المسلمون ، ويتسابقون الى مدارسته ، وتفهمه ، ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه ، وكانوا يتجافون عن المضاجع ايثارا للذة القرآن الكريم، يتلونه فى الليل والناس نيام ، وكان من يمر ببيوت الصحابة فى جوف الليل يسمع فيها دويا كدوي النحل ، بالقرآن، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم

يرغب فى تعليمه ونشره ، وفى تدبره وتفهمه ، ويرسل بعثات القراء الى كل بلد يعلمون أهلها القرآن ، (وربما كانت قرة عين السيدة أن يكون مهرها فى زواجها سورة من القرآن يعلمها اياها زوجها) .

وعلى هذا الدرب سار المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ، حتى أن حفظ القرآن واستظهاره شرط ضرورى لدراسة اللغة والعلوم ، فلاحق لاحد فى طلب العلم حتى يكون قد وضع القرآن أساسا له وأرضية .

وانتشرت المعاهد والزوايا فى مختلف البلدان الاسلامية لتحفيظ القرآن ومدارسته ، وما من عالم أو مصلح أو مفكر ، أو كاتب أو فيلسوف ، الا وقد حفظ القرآن الكريم فى هذه المعاهد والزوايا .

فاقرأ تاريخ من شئت من علماء الجزائر ـ مثلا ـ فانك تجده قد حفظ القرآن فى زاوية أو معهد أو على والده فى بيته ، ثم اتجه الى مناهل العلم يغترف ويكرع ، فابن باديس ، والابراهيمى ، والعقبى ، والميلى ، والتبسى ، والشرفاوى ، والحافظى ، والورتلانى ، وغيرهم من العلماء ورجال الدين ، وابطال المقاومة الجزائرية ، كلهم خريجو هذه المدرسة (المدرسة القرآنية) .

فخلف من بعدهم خلف قل اهتمامهم بالقرآن ، وصار أكثرهم عناية واهتماما من يحفظ طائفة من السور القصار ، واصبح أبناؤنا ، لبعدهم عن القرآن ، لا يفرقون بين كلام الله وكلام الرسول، بل منهم من لا يفرق بين القرآن ، والامثال، والحكم العربية .

وقد قال لى يوما طالب جامعى يعمل مراقبا باحدى الثانويات، انه لم يعرف ان قوله تعالى : « **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، انه لا يحب المسرفين** » من القرآن حتى دله على ذلك أستاذ ، وذكرنى هذا بما قاله الاستاذ عبد السميع البطل أحد محررى (منبر الاسلام) ، انه صلى اماما باحد المساجد بالقاهرة ، وشرح فى الخطبة قوله تعالى فى تربية البيوت « **يا أيها الذين آمنوا ليستاذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر** ـ الخ » ثم قرأها فى الصلاة وعند الانتهاء منها تقدم اليه موظف كبير فقال له : لم أعرف ان الآيات التى شرحتها فى الخطبة ، من القرآن الا حين سمعتها منك فى الصلاة ...

فاهتمام المسلمين بالقرآن قليل جدا فى أغلب البلدان الاسلامية ، وقد صليت الجمعة منذ أسبوعين فى جامع صاحب الطابع بتونس ، وتعاقب على تلاوة القرآن خمسة قراء ، فاثار عجبى أن يخطئوا جميعا فى القراءة مرة أو مرات ، فأين الاهتمام بالقرآن والحرص على حفظه ، وخاصة فى المغرب العربى؟

وقد سرنا قرار اللجنة المركزية فى اجتماعها الاخير بالجزائر بانشاء المعاهد لتحفيظ القرآن ودراسته ، وبجعل المادة الدينية من المواد الضرورية الاساسية ٠

وجدير بالملاحظة ان القرآن كتاب العامة والخاصة ، ومن ثم يجب أن يهيأ لهم جميعا ، فالائمة فى المساجد ـ مثلا ـ يجب أن يقرأوا فى الصلاة من مختلف أجزاء القرآن ، لتتعود أذن المسلم على القرآن كله ٠ ولكن الغريب فى الامر ان جلهم ـ ان لم نقل كلهم ـ لا يقرأون الا السور القصيرة المشهورة ، حتى صار القرآن غريبا عن المسلمين ، واستماع المسلمين الى القرآن كثيراً فى المساجد والمدارس والاذاعات ، مما يقربهم منه، ويجعلهم يألفونه ولا يستغربونه ٠

هذا من حيث العناية بالقرآن حفظا ودراسة ٠٠٠

أما من حيث العناية به تفهما وعملا واهتداء ، فللمسلمين فيه شأن آخر ٠٠

فقد كان القرآن اماما يتبع ، وفيصلا يحكم ، ونورا يهدى ، ومعلما يوجه ويرشد ، وطبيبا يداوى النفوس والارواح، حتى ساد الجهل ، وأخذ من المسلمين مأخذه ، فاستعملوا آيات القرآن للتطبيب، والفتك بالاعداء ، وكشف عالم الغيب، وقضاء الحاجات ، وحل الطلسمات ، وتسخير الجن ، وتوسيع الرزق ، والتعاويذ والتمائم ، ولم يقفوا عند هذا الحد المخجل المخزى ، بل سولت لهم أنفسهم أن يتجرأوا على جلالة القرآن ومكانته ، فأولوه طبقا لاهوائهم واغراضهم السافلة ، وأخرجوا آياته عن معناها ، فأولوه وحرفوه ليلبوا به نزعات (المشرعين) المفسدين ٠ والقرآن حجة على غيره وليس غيره حجة عليه، والقرآن لا يرضخ لرغبة غيره ، وانما غيره يرضخ لرغبته ، فهو مسير وغيره مسير ، وهو قائد وغيره مقود ٠٠

و (ما اضاع المسلمين ومزق جامعتهم ونزل بهم الى هذا الدرك من الهوان الا بعدهم عن هداية القرآن ، وجعلهم اياه عضين ، وعدم تحكيمهم له فى أهواء النفوس ، ليكفكف منها ، وفى مزالق الآراء ليأخذ بيدهم الى صوابها ، وفى نواجم الفتن ليجلى غماءها ، وفى معترك الشهوات ليكسر شرتها ، وفى مفارق سبل الحياة ليهدى الى أقومها، وفى أسواق المصالح والمفاسد ليميز هذه من تلك ، وفى مجامع العقائد ليميز حقها من باطلها ، وفى شعب الاحكام ليقطع فيها بفصل الخطاب ٠ وان ذلك كله لموجود فى القرآن بالنص أو بالظاهر أو بالاشارة والاقتضاء مع مزيد تعجز عنه عقول البشر ، مهما ارتقت ، وهو تعقيب كل حكم بحكمة ، وكل أمر بما يثبته فى النفس ، وكل نهي بما ينفر عنه ، لان القرآن كلام خالق النفوس ، وعالم ما تكن وما تبدى ، ومركب الطبائع ، وعالم ما يصلح وما يفسد وبارىء الانسان وسطا بين عالمين : أحدهما خير محض ، والآخر

شر محض ، فجعله ذا قابلية لهما من غير أن يكون أحدهما ذاتيا فيه ، ليبتليه أيشكر أم يكفر ، وليمتحنه أي الطريقين يختار ، كل ذلك ليجعل سعادته بيده، وعاقبته باختياره ، وتزكيته أو تدليسه من كسبه ، وحتى يهلك عن بينة أو يحيا عن بينة · (68)

وامام المذاهب الفكرية المتعارضة ، والفلسفات السياسية المتناقضة ، والتيارات المختلفة المنافية للاسلام وما استحدثه المسلمون من البدع والخرافات والاوهام ، وما ألحقوه بدينهم من مظاهر وأشكال ، و (عبادات) وعادات، صار القرآن غريبا ، وأصبحت بينه وبين المسلمين هاوية سحيقة واسعة ، حتى انك لتجد القرآن فى واد والمسلمين فى واد آخر ·

ولن يكون المسلمون بخير ، ولن تكون لهم مكانة تحت الشمس ، الا اذا عادوا الى القرآن ، وتواردوا على الاستمساك به ، وتدبروه ، وتفهموه ، وعملوا بسننه ونظمه وقوانينه فى مختلف الميادين ، فى نظم الحكم والاقتصاد والمال ، فى اكتشاف أسرار الكون ، بل فى الحياة الخاصة لكل فرد ، وفى الحياة الاجتماعية لكل مجتمع ، وفى الصلات بين الشعوب فى كل مكان ·

على انه قد يكون هناك من يجهل طبيعة القرآن ، ويجهل رسالته ، ويستهين بدوره فى الحياة، ويتساءل هذا التساؤل:

ماذا يصنع القرآن اليوم ، وقد بلغت الانسانية بالعلم درجة لم تكن تخطر بالبال ، واصبحت تحقق بين فينة وأخرى ما كان يعد بالامس القريب حلما وخيالا؟

والجواب عن هذا السؤال ان الحقائق التى احتواها الدستور السماوى لا تتعارض مع هذا التقدم العلمى الرائع المدهش ، **بل ترحب به ، وتشجع عليه، وتدعو اليه ·**

ألم يحرر القرآن الكريم الفكر من الوهم والخرافة ؟

ألم يطلق العقل يرتاد الآفاق العليا ؟

ألم يكن حربا على الجهل والخمول والجمود والكسل والبطالة ؟

أليس أول ما نزل من القرآن « **اقرأ باسم ربك** » ؟

ألم يطلب الايمان بالله عن طريق النظر والتأمل ، لا عن طريق التقليد والمحاكاة ؟

ألم يعد البحث القائم على العقل والعلم عبادة ؟ ألم ير العلم فى روح البحث الحر جوهر الحياة ؟

ألم يقر للبشرية أصول الحق، وانار لها مسالك الحياة ، ووضع لكل داء من أدوائها دواء ناجعا ؟

هل يحسب أصحاب النغمات الناشزة المرتفعة هنا وهناك ان القرآن لو نزل فى هذا العصر ، عصر البخار والكهرباء، عصر الذرة والصواريخ ، ينقص مبدأ من مبادئه أو يعدل عن رأي من آرائه ؟

ماذا ينقص ؟ أينقص مبدأ الاخــوة فى المجتمع ؟ أو ينقص مبدأ التعارف بين الامم ؟ أو ينقص مبدأ العدالة فى الاحكام ، ومبدأ التواطؤ بين القــول والعمل ، أو مبدأ حرية الفكر ، وحرية العقيدة ، أو مبدأ التوازن بين الجسم والروح ؟ أو مبدأ السلوك القويم الذى خططه للفرد والمجتمع فى المعاملات ؟

هل يحسب هؤلاء المتفيقهون انه ينقص أو يعدل من ذلك شيئا ؟؟

أو يحسبون انه يعدل عن تلك القصص العلمية الواقعية التى قدمها فى مجــال الفضيلة والاخلاق ، وفى مجال التربية الصادقة لانشاء جيل مثالى ؟؟؟

القرآن في مرآة الفكر الغربي :

ولقد أدرك الاجانب المفكرون الذين انصفوا القرآن فأشادوا به فى تقديــر واعجاب ، وأكدوا ان المسلمين لن ينهضوا الا اذا عادوا الى القرآن ، يهتدون به ، ويسيرون على ضوئه · فهذا (ريتشارد وود) يقول :

(ان كثيرا من المستشرقين يزعمــون ان المسلمين لن يتقدموا ما زالـــوا مقيدين بنصوص القرآن التى لا تتلاءم – فى زعمهم – مع المعارف والفنــون الحديثة · وهذا وهم باطل نشأ عـــن الجهل بمقاصد القرآن · ويكفى برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام، وعناية علماء العرب بالعلوم والفنون ، ودراستهم لكتب الحكماء الاقدمين · (69)

ويقول الدكتور (بنوه) الفرنسى :

(ان نصوص بعض آي الكتاب الموحى به الى محمد منذ ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنا ، تتناسب وأحداث مبادىء العلوم العصرية · وكـان من جراء هـــذه الملاحظات ان آمنت نهائيا (70) ·

ويقول (فون بابن) مستشار الرايخ الالمانى قبل هتلر :

(اننا نقف على حافة هاوية ، ذلـك لاننا تعلقنا بأهداب العلم وظنناه كـل شىء ·· حتى استبعدنا العلم وبالغنـا فى الآلة والاختراع حتى صرنا عبيـد الآلة والاختراع ، ولم تبق الا بارقـــة أمل وحيدة فى النجاة ، وهو ان نؤمن · ان هذا الكون له خالق ، وان هذا الخالق قد وضع لنا سننا وقوانين ، فان سرنا على هدى من هذه السنن والقوانيـــن سخر لنا العلم ، وسخر لنا الاختراع ، ونجونا ولم نسقط فى الهاوية · (71)

ويقول الاستاذ (ادوار جيبــون) :

(ان القرآن معترف بــه مــن حـــدود الاوقيانوس الاطلنطى الى نهر الكانج : انه الدستور الاساسى ليس لاصـــول الدين فحسب ، بل للاحكام الجنائيـــة والمدنية والشرائع التى عليها مدار حياة البشر وترتيب شؤونهم · (72)

ويقول (غوستـــاف لوبون) : ان التعاليم الاخلاقية التى جاء بها القرآن هي صفوة الآداب العالمية والمبـادىء الخلقية الكريمة) · (73) ووقف رئيس

الحكومة البريطانية فى عهد الملكــــة فيكتوريا (غلادستون) وأعلـــن فى مجلس العموم البريطانى وهو ممسـك فى يده بالقرآن الكريم : قائلا :

(انه ما دام هذا الكتاب باقيافى الارض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم · (74)

تلك – قارئى الكريم – هي المعجزة الخالدة ، التى من الله بها على هـــذه الارض ، ففعلت فعلها ، وصنعت صنعها، وأحدثت العجب العجاب ···

وذلك هو القرآن الكريم الذى نقـــل العرب من الجزيرة الضيقة التى يتناحرون فيها ، الى العالم الفسيح الواســـع ·

نقلهم الى العالم ليقودوه من ناصيته، على أساس العقيدة الواحدة ، والايمان العميق ، والصلة الروحية القوية ·

وذلك هو القرآن الكريم ، فى اعجازه واثره ، وفى هدايتــه ورسالتـــه ، وفى تحولاته الجذرية العميقة التى غير بهـا مجرى التاريخ فى العالم ···

فليقرأه المسلمون قراءة تدبر وتفهم ، وليعملوا بمبادئه وقوانينه ، وليعلموا ان المسلمين الاولين لم يكونوا صالحيـــــن بالجبلة والطبع، وانما أصلحهم القرآن لما اعتصموا به ، واهتدوا بهديه ، وساروا على نهجه ، ولن يصلحنا القرآن الا اذا فهمناه وطبقناه ··· اذن ، الى القرآن الكريم ·

الى القرآن الكريم ، نستضىء بـــه ، ونسير على هداه ، ونمضى على سننه ، ونحيا فى ظلاله ، ونتسلح به ، ثم ننـزل الى الميدان ونحن المنتصرون بحول الله ·

وهنا ، أقف بفكرى ، وقد أتعبه الغوص فى هذا البحر الواسع الذى لا ساحـل له ، والتحلق فى هذا الفضاء الرحـــب الذى لا حد له ، وأرفع هذا القلم الذى أحفاه احصاء ما لا يحصى ، وحصـر ما لا يحصر ، ووصف ما لا يوصف ··

وانى اذ أقف هنا ، اعترف اننى لـم أف الموضوع حقـه ، فالحديث عـــن (المعجزة الخالدة) فى كل جانب من جوانبها مع الاجادة والاتقان أمر ستظل جهود الانسانية متضافرة عليه الى يوم القيامة ، (وتجد نفسها دائما أمام بحر زاخر واسع لا تنقضى عجائبه ، ولا تنفد خوارقه ، ولا تنتهى كنوزه وذخائره) ·

وأودعك – قارئى الكريم – وأملنـا أن يشاهد القرن الجديد ، الخامس عشر الهجرى ما شاهده القرن الاول مــن التطور العظيم الذى أحدثه القرآن الكريم فى جميع الميادين ···

وطريق المسلمين الى ذلك هو الطريق الذى جربه أجدادهم من قبل (العقيدة الصحيحة ، والايمان القوي ، والعمـل من أجل مستقبل أفضل فى ظل الاسلام، وتحت راية القرآن) ·

(المصـــادر والمـراجـــع)

1) انظر مناهل العرفان ـ محمد عبد العظيم الزرقانى ، ج 1 ص 36 ·

2) تفسير المنار والالوسى ·

3) رسالة التوحيد للامام محمد عبده ص 125 ·

4) انظر مناهل العرفان ج 1 ص 58 ·

5) دائرة المعارف ـ فريد وجدى ·

6) يراجع فى الموضوع مثل (الاسلام فى عصر العلم) لفريد وجدى و (ارتفاع الجسم الانسانى) للعالم الانجليزى الفذ فى علم الكيمياء (وليم كروكس) وكتاب (الحادثة الروحية) للاستاذ (دولن) ·

7) ثورة الاسلام للدكتور أبى شادى ص 235 ·

8) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ·

9) السيوطى فى الاتقان نقلا عن الواحدى ·

10) مناهل العرفان للزرقانى ص 107 ج 1 ·

11) انظر العرفان للزرقانى 6

11) انظر المرجع السابق ، والانتصار لنقل القرآن ـ لابى على الباقلانى ·

12) التوراة والانجيل والقرآن للكاتب الفرنسى (موريس بوكاي) ص 119 ·

13) معجم القرآن لعبد الرؤوف المصرى ص 181 ·

14) الاب مرمرجى ، فى (معلمته) ·

15) المعلمة الاسلامية م 4 ـ 5890 ·

16) مفاتيح الغيب ـ 1 ـ 156 ·

17) الجامع لاحكام القرآن ـ 1 ـ 155 ·

18) انظر (مشكلة القرآن) 1 ـ 23 ·

19) منبر الاسلام ـ العدد الثالث س 21 ـ اغسطس 1963 ·

20) يراجع آخر ساعة ـ العدد 1996 ـ 24 يناير ـ 1973 ويراجع أيضا كتـــاب (من أسرار القرآن) للدكتور مصطفى محمود ·

21) المصاحف خمسة ـ كما قدمنا ـ خلافا لمن قال انها أربعة ·

22) الاخلاق والواجبات ـ عبد القادر المغربى ص 8 ·

23) الهلال ـ ج 18 س 10 ـ يونيو سنة 1902 ·

24) أطوار الثقافة ج 1 ص 316 لجماعة من المؤلفين ·

25) ينظر فى أمهات الكتب الاسلامية ومنها مناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى ·

26) وهو الاسم الذى أطلق على المخطط المتفق عليه ·

30) أطوار الثقافة 1 ص 320 .

31) معجم القرآن لعبد الرؤوف ج 2 ص 92 ·

32) المصدر السابق ·

33) المصدر نفسه ج 2 ص 93 ·

34) يراجع (اعجاز القرآن) للرافعى و (مناهل العرفان) للزرقانى وللموضوع مراجع كثيرة ·

35 يراجع (طبقات القراء) لابن الجزرى الذى عنى به المستشرق الالمانى ج· برجستراس ·

36) مقدمة تفسير المنار ·

37) المنار ـ محمد عبده ·

38) الاتقان ـ 1 ـ 120 ·

39) كتاب الزينة 1 ـ 116 ·

40) الاتقان 1ـ 119 ·

41) انظر نفس المرجع ·

42) نموذج من الاعمال الخيرية فى ادارة الطباعة المنيرية ـ محمد منير عبده ص 166 ·

43) الشهاب نقلا عن مجلة الفتح ـ جانفى سنة 1935 ·

44) انظر (الاسلام دين الفطرة والحرية) ـ عبد العزيز جاويش ص 21 ·

45) المرجع السابق ص 26 ·

46) أطوار الثقافة ·

47) نموذج من الاعمال الخيرية ، لمنير عبده ص 297 ·

48) مجلة (رسالة الاسلام) العدد الثانى ـ أبريل سنة 1954 ·

49) فى التاج العروس ، وفى المحكم (اللقف سرعة الاخذ لما يرمى اليك باليد أو باللسان) .

50) اعجاز القرآن ـ الرافعى .

51) الاسلام يتحدى ـ لوحيد الدين خان 109 نقلا عن المؤرخ (ج. ساروار) .

52) المصدر نفسه نقلا عن المستشرق (ولاستن) .

53) انظر (الشفاء) للقاضى عياض و (نكت الانصار لنقل القرآن) للامام الباقلانى .

54) العلم بين الاسلام والنصرانية .

55) انظر مجلة (المسلمون) العدد الثامن ـ يونيو 1953 .

56) دراسات قرآنية ـ محمد قطب ص 488 .

57) والراجح ان أول القرآن نزولا قوله تعالى (**اقرأ باسم ربك** ...) كما قدمنا .

58) راجع فى هذا الموضوع (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لابى الحسن الندوى .

59) (المسلمون) العدد العاشر ـ يولية 1953 .

60) منبر الاسلام العدد الخامس يوليو 1968 .

61) (الدعوة الى الاسلام) ارنولد .

62) انظر بسطة تفصيلية عن هذا الموضوع فى كتاب (أثر القرآن الكريم) فى اللغة العربية) ، للباقلانى .

63) أطوار الثقافة والفكر ص 285 ج 2 .

64) منبر الاسلام العدد الخامس ـ أوت سنة 1966 .

65) يراجع فى مظانه من كتب التفسير .

66) يراجع كتاب (الدعوة الاسلامية) دعوة عالمية) لمحمد الراوى .

67) تنطق بهذه الحقائق المختلفة المتنوعة آيات القرآن .

68) المسلمون ـ العدد العاشر يوليو سنة 1953 ـ كاتب المقال البشير ابراهيمى

69/70) على مائدة القرآن ـ للدكتور أحمد محمد جمال .

71) الدعوة الاسلامية للاستاذ محمد الراوى ص 526 نقلا عن محاضرة للدكتور مصطفى الحفناوى .

72) على مائدة القرآن .

73/74) منبر الاسلام ـ العدد الثالث ـ مايو 1968 .



بداية مظلمة ونهاية مشرقة

الشيخ أحمد حماني
رئيس المجلس الاسلامي الأعلى - الجزائر

البداية المظلمة 1300 ـ 1341 هـ :

كانت بداية القرن الرابع عشر الهجرى بداية مظلمة ، ثم كانت آخرته نهاية مشرقة بالآمال العريضة والاماني الجميلة.

اطل علينا هذا القرن الذى مضى بما فيه ـ باهلال المحرم من عام 1300 الموافق 12 نوفمبر 1882 ، ثم اختفى بنهاية يوم الثلاثاء 30 ذى الحجة 1399 هـ الموافق 20 نوفمبر 1979 م • وكانت أحوال المسلمين يوم البداية كلها تنذر بالويل والثبور ، وعظائم الامور ، دينية كانت أو اجتماعية أو سياسية • وحتى الاربعين منه كانت تزداد سوءا على سوء ، فلا يوم الا كان الذى قبله خيرا منه ، ولا تزيد الهاوية فيه الا عمقا واتساعا ، ولا الامال فى النجاة الا بعدا وعسرا • ثم طلعت بشائر فى الافق ، واخذ الظلام ينجاب شيئا شيئا ، وادركتنا نهايته ـ والحمد لله ـ وقد تحررت معظم أوطان الاسلام ، وتطلعت أممه الى المستقبل البسام ، الملىء بالاحلام •

وقد كان القرن الثالث عشر الهجرى اسوأ القرون فى حياة المسلمين ، واظلم فترة فى تاريخهم ، خسروا فيها مساحات شاسعة من أراضيهم ، واطيح بدول عزيزة من دولهم ، وكانوا ـ كما قال عنهم مؤلف (أطلس التاريخ الاسلامى) السيد هارى ، و• هازارد : فى هذه الفترة قد « احرز الاوروبيون فيها نجاحا باهرا على العالم الاسلامى ، وكان الفضل فيما بقى لهذا العالم من استقلال سياسى يرجع الى تنافس الدول » ثم عدد خسائر الاسلام فيها من الاوطان ، فحسب فيها سقوط دولة الجزائر بين مخالب فرنسا ابتداء من عام 1246 هـ (1830 م) واقسام بُريطانيا ، والمانيا ، وايطاليا ، والبرتغال سواحل افريقيا الشرقية ، وسكانها مسلمون ، وامتداد نفوذ بريطانيا الى الجزيرة العربية نفسها ، فاحتلت جنوبها وجزائرها ، وبسطت حمايتها على بعض

سواحلها ، وتعرض بلاد فارس والافغان للضغط الشديد من بريطانيا ، وروسيا ، التى استولت على آسيا الوسطى وابتلاعها أوطان ما وراء القوقاز ، واحتلالها بيساريبا (رومانيا) ، ومساعدة دول أوروبا النصرانية على انفصال ما كان تابعا للدولة العثمانية (دولة الخلافة) من رومانيا ، وبلغاريا والعرب والمجر واليونان (1) ·

هذه بعض خسائر العالم الاسلامى فيه ولم يشاء هذا القرن ان يودع دون ان يسجل ضحيتين غاليتين يضيفهما الى قائمة الخسائر الطويلة فى أواخر ايامه : تونس ومصر ، فقد أهل القرن الرابع عشر على العالم فوجد تونس قد سقطت بين مخالب فرنسا ابنة الكنيسة البكر فى ربيع عام 1298 هـ (1881 م) وبدات ايامه والفريسة تتخبط بين يدى الوحش الاستعمارى يشد وثاقها باتفاقيات ومعاهدات ليس لتونس منها الا الامضاء وعليه الوضع والاملاء ، كما وجد مصر قد وثب عليها الاسد البريطانى الذى لا يشبع ، فعصف بامنها وغصب استقلالها ، واستعبد شعبها ووثب منها الى السودان يقطع أوصاله ويستبيح خلاله وحرامه · وبسقوط تونس ومصر فتح فى الجسم الاسلامى جرح جديد عميق وثلم فى حصونه ثغرة واسعة خطيرة ، واصبح الطريق ممهدا أمام الاستعمار الصليبى للقيام بهجمات مسعورة على بلاد الاسلام وضد شعوبه ليعيث فى الارض فسادا ، ويجوس خلال دياره فى بلاد السودان شرقا وغربا وجنوبا يفتك بدوله ، ويبطش بامه ، ويروع الآمنين من أهله ، ويعلن فى زهو وخيلاء بتمكينه من الاسلام والانتصار عليه ، ثم يخيل اليه انه من القوة والتمكن بحيث يستطيع الاجهاز عليه واذلال بنيه نهائيا وتسخيرهم لدولته ·

يعرب عن ذلك بوضوح قول وزير خارجية فرنسا المسيو هانوتو فى جريدة الجرنال الباريسية بعد بضعة عشر عاما من حلول القرن ما نصه :

(صارت فرنسا بكل مكان فى صلة من الاسلام ، **بل صارت فى صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه ، واخضعت لسطوتها شعوبه** ، وقامت تجاهه مقام رؤ سائه الاولين وهى **تدبر اليوم شؤونه وتجبى ضرائبه ، وتحشد شبابه** لخدمة الجندية، واتخذت منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ، ومواطن القتال) (2).

---

(1) اطلس التاريخ الاسلامى ، ص 30 ·

(2) من مقال لهانوتو نشر فى جريدة الجرنال الباريسية ترجمة العلامة محمد مسعود ونشرته جريدة (المؤيد القاهرية عام 1317) وهو موجود فى تاريخ الاستاذ الامام محمد رشيد رضا ، ج 2 ·

وأى فرنسا هذه التى صارت فى صدر الاسلام وكبده ؟ انها فرنسا الصليبية التى ردت العرب عن أوروبا ، والتى تواجه الاسلام وهلاله الذى (لا يزال طرفاه ينتهى احدهما من جهة بمدينة اسطمبول والآخر ببلدة فاس فى **المغرب الاقصى ، معانقا بذلك الغرب كله . فى تلك البقعة الافريقية التى اصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة** الفرنسية لمباغتته : جاء القديس لويس الذى ينتمى الى اسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده بالايالات الافريقية ، وعاود هذا الخاطر نابوليون الاول . فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القرن التاسع عشر حيث **أخذوا على دولة الاسلام** التى كانت لا تنى فى متابعة الغارات على القارة الاوروبية **فاصبحت الجزائر فى ايديهم منذ 70 عاما** ، وكذلك **القطر التونسى منذ 20 عاما** وقد وصلت طلائع قوانا الآن الى اصقاع من الصحراء تنتهى اليها كثبانها الرملية فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم ... وقد حلق عليهم الاوروبيون من جميع الجهات 3) . وفى هذا المقال ذكر الوزير ما أصاب ـ أو سيصيب ـ السينغال ، ومالى ، والنيجر ، وتشاد والكونغو وكل أقطار وسط وغربى افريقيا الاسلامية .

فهذا الوزير مزهو بان فرنسا حققت أحلام القديس لويس الصليبية فى حرب الاسلام واطماع من جاء بعده من ملوك فرنسا وساستها ، **شامت بالاسلام الذى صارت حراب فرنسا مغروسة فى صدره وكبده** ، متفائل بدوام تدبير فرنسا لبلاده واستغلال ثرواته ، واذلال شعوبه ، باحث عن أمر الوسائل التى بها (تختلس) فرنسا الاسلام من قلوب وعقول المسلمين ، وصرفهم نهائيا عن مكة . فقد زعم ـ افكا ـ انهم توصلوا فى تونس بحسن السياسة فى أحكام الحيلة والتدبير من استغفال أهلها وصرفهم عن الاسلام (تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئا فشيئا وأجريناه من المراقبة على الامور الادارية والسياسية من التدخل فى شؤون البلاد والقبض على أزمته بدون شعور من أهلها . تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتالم منه الاهلون ، ولم تنخدش منه احساساتهم ... اذا يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصل الحبل بينه وبين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال

(3) انظر تاريخ الاستاذ،الامام محمد رشيد رضا ، ج 2 ص 401 وما بعدها .

عضها ببعض ، اذا توجد أرض تتفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضى الاسيوى ... أرض يصح ان تتخذ مثالا يقاس عليه ، ونموذجا ينسج على منواله الا وهى لبلاد التونسية (4) .

والوزير الفرنسى فى هذا الرأى الذى يزهو بان فرنسا توصلت به الى فصل بلد من بلاد الاسلام عن القافلة وصرفته عن مكة الى باريس انما يرد على رأى آخر يذهب أصحابه الى اخذ المسلمين بالعنف والشدة ، فقد قال مواطنه المسيوكيون فيما نقل عنه من كتابه (باثولوجيا الاسلام) :

« ان الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس واخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هى مرض مريع وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الانسان على الخمول والكسل ... والمسلمون وحوش ضارية وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع ... والواجب ابادة خمسهم ، والحكم على الباقى بالاشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر (5) » . والمسيو هانوتو الوزير الكيس لا يمانع ـ مبدئيا ـ فى هذا الحل ولا يسفه هذه الاحكام على المسلمين ، الا للمخاطر المتوقعة من تنفيذه اذ يقول : (وهو حل بسيط ، وفيه مصلحة للجنس البشرى ... أليس كذلك ؟ وقد برح عن خاطر الكاتب انه يوجد 130 مليون مسلم ، وان من الجائز ان يهب هؤلاء المجانين للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم (6)) . فمحو الاسلام كدين والقضاء على دوله ، وابادة أهله لم يكن ـ حتى مطلع القرن العشرين الميلادى ـ فكرة شعبية عند الاوروبيين فحسب ، وانما كانت فكرة فى أذهان (المؤلفين) من الكتاب والعلماء والمفكرين ، وخطة عند الوزراء والسياسيين ، وغاية للدول والقادة المسيرين ، وقد كانوا يسمون دولة الخلافة ـ رمز الاسلام ـ (الرجل المريض) ويعملون بكل حقدهم ودسائسهم للتعجيل بوفاته لقسمة تركته ، بل يخططون ـ بمعاهدات سرية أو علنية ـ لتوزيع أجزاء مملكته . ولم تستول فرنسا على تونس ولا بريطانيا على مصر الا بالرضى والقبول من الاخرى عن صنع صاحبتها وقد باركت المانيا

(4) المصدر المذكور ، ص : 413 ـ 414 .
(5) المصدر المذكور ، ص 409 .
(6) المصدر المذكور ، ص : 409 ـ 410 .

فعل فرنسا فى تونس ودفعتها اليه حتى تسكت لها عن الالزاس واللورين ، وكادت فرنسا وبريطانيا تصطدمان فى السودان ، ثم اتفقتا واصطلحتا .

ولما أنهى الجيش التركى عهد السلطان عبد الحميد رحمه الله عام 1908 واستلم الحكم ضباط شبان كان ينتظر منهم تجديد شباب الدولة ، والنهوض بالجيش والقضاء على الفساد ـ تألبت ضدهم الدول الاوروبية الحاقدة ، وأغرقتهم فى مشاكل ومصائب لا نهاية لها ، بل بادرت بالفعل الى غزو أرضها ، واقتطاع أطرافها وانتهزت الفرصة فى البقية الباقية من البلدان فى أيدى المسلمين ، ففى عام 1911 سلطت ايطاليا على طرابلس الغرب ، وانزلت جيوشها بسواحلها ، وارتكبت اثناء حربها من الموبقات والفظائع ما تقشعر من هوله الابدان ، وكل ذلك مباح فى عرف أمم النصرانية ضد الاسلام .

وكان فى مؤازرتها كل الدول الاوروبية الصليبية كى تنال ايطاليا حصتها تحت الشمس من افريقيا الاسلامية ، وفى السنة الموالية عام 1912 امتدت يد فرنسا بالعدوان الى المغرب الاقصى ، وقبضت على الطرف الغربى من الهلال الاسلامى ، كما لمح الى ذلك من قبل الوزير الفرنسى هانوتو . وفى هذه السنة نفسها (1912) دفعت أوروبا دول البلقان الى اعلان الحرب على دولة بنى عثمان ، مخططين سياسة صليبية رهيبة أعلنوا عنها ولم يخفوها (ما أخذه الصليب من الهلال فلن يرجع الى الهلال ، وما أخذه الهلال من الصليب فلابد أن يرجع الى الصليب) وهكذا قرروا عاقبة الحرب ومآلها وبتروا من جسم الاسلام كل أراضيه فى شبه جزيرة البلقان ما عدا مساحة ضئيلة من تراقيا الشرقية ، وأثناء هذه الحرب القذرة ارتكب البلغار والصرب واليونان من الفظائع ما لا يتصوره انسان له دين وخلق يقول كاتب تركى : « الجيش البلغارى قد علمنا درسا لا ننساه ، وهو انه يجب على كل جندى فى ساحة الحرب ان يقاتل مقاتلة البربرية والوحشية ، ويشرب الدماء كالماء ، ويذبح النساء والاطفال والشيوخ الشيب تذبيحا ، ويسلب وينهب السكان الآمنين ، ويمتهن حرمتهم وشرفهم ويزهق أرواحهم » (7) . وقد حققت بعثة جمعية امريكية الى البلقان (ما روى من الفظائع التى ارتكبها البلغار واليونان والصرب بالمسلمين سنة 1912 فثبت لديها كل ما قيل بل زيادة على ما شاع ،

(7) لوتروب ستودار فى كتابه حاضر العالم الاسلامى ، ج 4 ص 17 .

وحررت خلاصة الفحص وقررت ان الترك ارحم جدا وارأف واشرف فى حربهم من الامم البلقانية المسيحية ، ولكن الصحف الاوروبية لم تنشر هذا التحقيق ولا أشارت اليه ، وكان أكثر الاوروبيين ينظرون الى ما حل بمسلمى الروميلي بنظر الشماتة » (8) ·

وهكذا نرى ان عام 1912 كان من أسوا الفترات فى تاريخ الاسلام بما تحقق فيه من خسارة جسيمة فى بلاده ، وهزائم متلاحقة لجيوشه ، وتسلط الاعداء على أممه ، وزيادة عما ضاع فعلا ، فان أمم الاستعمار الصليبى كانت تتعاقد فيما بينها على اقتسام ما بقى من اجزائه وتدبر الخطط لاحتلاله ، ولم يكن هذا خافيا على ساسة المسلمين ووزراء دولهم وانما كان قصارى همهم ان يحاولوا الانفلات والتملص من شباكهم ، يقول الامير شكيب ارسلان رحمه الله ــ وهو يترجم للمرحوم أنور باشا احد قادة الانقلاب فى تركيا ، ورجال الحرب والسياسة فيها فيما بين 1908 ــ 1918 م ما نصه : (كان أنور يرى ان الحلفاء تقاسموا بلاد الدولة فيما بينهم شق الابلمة قبل الحرب العامة ، ففرنسا وانقليترا تقاسموا سرا سوريا وفلسطين منذ سنة 1912 كما اعترف بذلك المسيو بوانكرى فى مجلس الشيوخ الفرنسى » (9) · **وما خفى عن السلطان ما كان يدبره الامير حسين ضد حكم الدولة فى الجزيرة العربية وانذر بذلك وزراءه** ·

وقد سعى هذا الامير ــ بواسطة أمير من أمراء البيت المالك فى مصر ــ لدى حكومة الانقليز فى لندره عام 1912 لتمده بالسلاح والعتاد قصد (تحرير) بلاد العرب من الترك فرفضت ذلك (ولم تكتم السبب فى رفضها هذا المشروع وهو ان انقلتيرا تريد هى الاستيلاء على بلاد العرب ، فلا يوافقها أن تعطى جزيرة العرب سلاحا) (10) · وكانت انقلتيرا تمنع دخول السلاح الى الجزيرة العربية منذ زمان ، بل حاولت جمعه من أيدى العرب بواسطة شراء ما عندهم بضعف ثمنه ، كما حاولت جمعه من سكان امارة

---

(8) شكيب أرسلان (حاشية) فى المصدر المذكور وفى الصفحة نفسها ·
(9) حاضر العالم الاسلامى ، شكيب أرسلان ، ج 4 ص 375 ·
(10) حاضر العالم الاسلامى ، شكيب أرسلان ، ج 4 ص 391 ·

عمان بالقوة بواسطة أميرهم فنشبت ثورة عارمة أجبرتها على الدول عن تنفيذ مشروعها بالقوة (11) .

ثم اضطروا من بعد نشوب الحرب الى محالفة الامير حسين ، ومنوه الامانى ، وضربوا به الدولة من الخلف ، ولكنهم خانوا عهوده ، واقتسموا البلاد العربية ، واستعملوه وابناءه لخدمة سياستهم واغراضهم .

وكما عرض حسين صداقته على الحلفاء والدخول فى صفوفهم منذ عام 1912 فان دولة فارس فعلت ذلك فى مستهل الحرب لاتقاء شرهم فكان الجواب الرفض ، وعرضت ذلك مصر اثناء الحرب بشرط ان يجلوا الانقليز من بلادهم فرفض الطلب لان فى المحالفة مشاركة توجب حقا وتفرض وفاء ، وتمنع اساءة وما كان هدفهم الا اقتسام بلاد الاسلام واحتلالها .

وقبل دخول تركيا الحرب العالمية الاولى بجانب الالمان وحلفائهم (عرضت على الحلفاء أن تكون معهم بشرط ان تامن شرورهم فى المستقبل ، فابى الحلفاء محالفة تركيا لهم ، وكل ما طلبوه منها كان التزام الحياد التام ، وبمقابلة ذلك تتعهد الروسية بان لا تهاجم تركية مدة ثلاثين سنة (12)) ... و « بديهى ان رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامى مبنى على أساس واحد ، وهو ان الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الاسلامية اثناء الحرب العامة لما كان لائقا ان يقتسموا فيما بعد الحرب بلاد الاسلام الباقية الاقتسام الاخير كما كانوا ينوونه اثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب ولو رضوا دخول تركية معهم وقبلوا عضدها ... لما كان يجوز بعد الحرب انفاذ برنامج التقسم الذى كان مقررا بين انقلتيرا وفرنسا منذ عام 1912 م ... ولو رضوا بدخول العجم (فارس) فى الحلف لما كان يحل لهم ان يجهزوا عليها الاجهاز الاخير – بعد الحرب – كما كانت النية منهم مبيتة ، ولو قبلوا اقتراح مصر لتعين عليهم الجلاء عن مصر بعد الحرب على وجه المكافأة » (13) . فاقتسام بلاد الاسلام التى كانت ما تزال محتفظة على استقلالها كان من أهداف نشوب الحرب العالمية الأولى وقد رأينا ما أتفق عليه الانقليز والفرنسيون ومثلهم غيرهم (مما لا ينكر أن الاستيلاء

(11) حاضر العالم الاسلامى ، شكيب أرسلان ، ج 4 ص 391 و صفحة 445 .
(12) حاضر العالم الاسلامى ، شكيب أرسلان ، ص 329 ، ج 1 .
(13) نفس المصدر ، ص : 329 – 330 .

على الاستانة كان أول أهداف الروسية فى دخولها هذه الحرب ، ومع ذهاب الاستانة يذهب الاناضول » (14) ٠٠٠. ولو خرجت الروسية من الحرب العامة غالبة لكانت السلطنة العثمانية أثرا بعد عين (15) (وكذلك ثبت ان بعض الدول الغربية الكبرى كانت عرضت على المانيا تقسيم السلطنة العثمانية وأن تكون حصة هذه الاناضول) (16) ٠ فقسمة العالم الاسلامى واستعباد أهله ، واستباحة حماه كان قدرا مشتركا بين الدول الاوروبية الشرقية منها والغربية . وقد ظن الحلفاء انهم بانتصارهم فى هذه الحرب الكونية يستطيعون ان يحققوا كل احلامهم فى القضاء على الاسلام ودوله ، ووسوست لهم شياطين اطماعهم انهم قاب قوسين أو ادنى من الوصول الى أهدافهم الصليبية ، ولم يخف ذلك قادتهم فان الجنرال اللنبى لما دخل القدس عام 1917 قال : (الآن انتهت الحروب الصليبية) ولما دخل الجنرال الفرنسى المغرور غورو دمشق من بعد وقف فوق قبر صلاح الدين الايوبى وقال : (صلاح الدين ها نحن احفاد غود فروى فأين احفادك ؟) ٠ لقد انسلت روسيا من الحرب عام 1917 اثر ثورة أكتوبر الاشتراكية ، ثم خرج منها الالمان وحلفاؤهم ــ ومنهم دولة الخلافة ــ عام 1918 خاسرين ، وخرج الحلفاء الفرنسيون منها ظافرين بعد ان رجحت الولايات المتحدة الامريكية كفتهم بوضعها كل ثقلها المادى الرهيب ، وثقلها السياسى الخلاب فى ميزانهم ، باعلان رئيسها ويلسون مبادئه الاربعة عشر لتكون قاعدة السياسة بين الامم ، ومنها اعلان حق الشعوب المغلوبة فى تقرير مصيرها بيدها ، فاستبشرت الانسانية ، وتفاءلت الشعوب خيرا ٠

ولكن الحلفاء الغربيين ، دهاقين الاستعمار الطامعين ، والصليبيين الحقودين كانوا من وراء أطماعهم يهرعون ، فقد احتلوا من تركيا تراقيا الشرقية وهى البقية الباقية من تركية أوروبا ، كما احتلوا المضائق التركية ، والاستانة (اسطمبول) عاصمة الخلافة الاسلامية ، وتعففوا عن احتلال برلين ، وفيينا ، وبودابيست ، وصوفيا عواصم المانيا وبقية حلفائها ، ثم اخذوا يقتسمون بلاد الاسلام غنائم ، يوزعونها بينهم ، ويمنحون منها ما شاء ولمن شاءوا من

(14) شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامى ، ج 4 ص 376 ٠
(15) نفس المصدر ونفس الصفحة ٠
(16) المصدر السابق والصفحة السابقة ٠

أصدقائهم ، ولم يبقوا منها شبرا واحدا لاهله يتمتعون فيه باستقلال حقيقى يليق بانسان حر ، وقد ولدت الناس أمهاتهم أحرارا • كان من جملة ما صنعوا انه ليس لتركيا أى حق فيما قرب من شواطئها وما بعد من جزر البحر الابيض المتوسط أو بحر ايجى ، ووزعت هذه الجزر منذ 1912 ما بين ايطاليا واليونان وكانت جزيرة قريطش (كريت) قد سلخت من جسم الدولة العثمانية عام 1898 م (1300 هـ) ومنحت لليونان ، كما ان قبرص سطت عليها بريطانيا منذ عام 1878 فاحتلتها ، ثم أخذت تعمرها باليونان ، واعلنت الحاقها بمستعمرات التاج عام 1914 ، كما أجبرت تركية على ان تتخلى عن كل مطلب فيما كان تابعا لها أو مرتبطا معها من الدول والاقطار العربية ، ومنها طرابلس ومصر وبقية البلاد العربية ، حتى يكون احتلالهم لها شرعيا ، وميراثهم اياها سائغا •

ومع ان الملك حسين وأبناءه ومن تبعهم من العرب حاربوا اخوانهم فى الدين منخدعين بوعود الحلفاء التى امضاها ملك الانقليز أو نوابه المفوضون فان الحلفاء خانوا عهدهم ولم يوفوا بشىء من عقودهم ، و (عومل العرب بعد الحرب معاملة الاعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم والذى هو باق اليوم بدون احتلال فعلا ، فالنية وضع اليد عليه عند أول فرصة (17) • ثم ظهرت نياتهم المبينة فى جعل وطن الاتراك مستعمرة يونانية اذ حرضوا دولة اليونان على النزول بشواطىء تركيا فى آسيا ، واحتلال مدنه ، ثم الزحف منها على الاناضول واحتلوا ازمير وزحفوا على الاناضول ، واحتلوا العاصمة العتيقة لدولة آل عثمان (بروسيا) حيث يوجد ضريح مؤسس دولة الخلافة العظمى وابنائه من عظماء السلاطين واخذوا يعيثون فى الارض فسادا ، تحت سمع الحلفاء وبصرهم بل وتحت حماية اساطيلهم ، وباسلحتهم ، واهازيج النصر والغبطة العارمة فى أوروبا كلها وجميع بلاد النصرانية • ثم كانت ارادة الشعب التركى المسلم الذى ابى الاستسلام الذليل الذى قبلته حكومته ، وكانت معركة مسقارية التى دفنت فيها أحلام النصرانية •

لقد كانت فترة 1337 ـ 1341 هـ (18 ـ 1922) اظلم فترة فى تاريخ الاسلام ، اذ لم يبق له فيها دولة مستقلة الاستقلال

---

(16) شكيب ارسلان ، حاضر العالم الاسلامى ، ج 1 ، ص 335 •

التام بعد ان أصبح بالاستانة (خليفتهم) فى قفص يقول ما له يقال ، وحول دولة فارس والافغان كانت المؤامرات تحاك لمحوه والحاقه بسائر الاوطان فى الذل والهوان . ولكن بقى الايمان فى الصدور وما بقى الايمان فلا يأس ولا خسران .

النهاية المشرقة :

انتهى القرن الرابع عشر ، وقد اشرقت شمس الحرية على معظم بلاد الاسلام ، وتطلع المسلمون الى مستقبل تتوحد فيه كلمتهم ويعتز دينهم ، وتتخلص البقية الباقية منهم تحت الاغلال التى تكبلهم ــ من أغلالهم .

ولقد كان سقوط دولتهم نتيجة انحطاطهم وتاخرهم عن ركب الامم المتحضرة فى كل مناحي الحياة : الدينية والاخلاقية والعلمية والثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والمادية والفلاحية فما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم . وبينما يوجب عليهم دينهم ان يكونوا خير أمة اخرجت للناس ــ أصبحوا فى الحضيض الاوهد ، حجة على دينهم وفتنة للذين كفروا قد هجروا القرآن وانحرفوا عن هديه ، واتخذوه وراء ظهورهم . فلم يكن بد من تسلط عدوهم عليهم ، ثم استيقظوا وارادوا ان يغيروا ما بأنفسهم فانجز الله وعده لهم .

بداية النهضة :

أول نذير لهم كان من بيت النبوة ومعدن الرسالة ، وهو السيد جمال الدين الافغانى الذى عاش نشاطه العلمى والثقافى والسياسى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ومات عام 1314 . يقول المستشرق الامريكى لوثروب ستودار فى كتابه حاضر العالم الاسلامى . ج 1 ص 305 ــ 306 ما نصه :

(ان السيد جمال الدين الافغانى أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها وامتدت حياتها ... وادرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها . فهب جمال الدين يضحى نفسه ويفنى حياته فى سبيل ايقاظ العالم الاسلامى وانذاره بسوء العقبى ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير . فلما اشتهر شأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب فنفته بحجة أنه هائج المسلمين) .

وقد بدأ جمال الدين حياته العملية فى بلاده الافغان حيث تولى رئاسة الوزارة فى أول شبابه اثناء الربيع الاخير من القرن الثالث عشر وحاول

اصلاح الحكم فيها والنهوض بالمسلمين فلم يرق عمله للطامعين فيها فاصطدم بهم . وكان الانقليز من الجنوب ، وقياصرة روسيا من الشمال ، يطمعون فى الاستيلاء على الافغان ، ويعمل كل منهم لبقائها فى تأخر وانحطاط ليسهل ابتلاعها فقد علموا انه لا يتم لهم مرادهم اذا استيقظ الشعب . فكادوا لجمال الدين ـ وخصوصا الانقليز ـ واسقطوا حكومته والامير الذى استوزره واضطروه الى الهجرة ، ولم يسمحوا له باستيطان الهند فقصد دولة الخلافة وحاول هنالك الاصلاح فطارده اذنابهم ، فرجع الى مصر واستقر بها فى عهد اسماعيل حينا من الدهر فى غفلة الرقيب فبذر فيها بذور النهضة العربية الاسلامية والثورة الشعبية وهذا ما يقوله الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله :

« جرت سنة الله فى خلقه بان عظائم الامور تتولد من صغارها ، كما ان ضخام الاشجار تبسق من بذورها ، جاء الى هذه الديار فى سنة 1286 هـ رجل غريب بصير فى الدين عارف بأحوال الامم واسع الاطلاع جم المعارف جرىء القلب وهو المعروف بالسيد جمال الدين الافغانى وركن الى الاقامة بمصر فتعرف اليه بادىء الامر ـ يعظ طلبة العلم ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والاعيان ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد فكان ذلك داعيا لطلب الاجتماع به ... وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ويتردد على مجلسه كثير من العلماء وغيرهم وهو فى جميع أوقات اجتماعه لا يسأم من الكلام فيما ينير العقول أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس الى معالى الامور أو يستلفت الفكر الى النظر فى الشؤون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد» (18)

وصادف وجوده بمصر قيام الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا عام 1293 هـ وكانت روسيا قد قضت قرونا فى عداوة الدولة واقتصت من اطرافها مساحات شاسعة ، وكان هدفها احتلال العاصمة (اسطمبول) والاستيلاء على المضائق لتصل الى البحر الابيض المتوسط لتسيطر على مصير أوروبا وآسيا الغربية فاستغل جمال الدين هذه الحرب لبث الوعى والهاب مشاعر المسلمين وتنبيههم الى الخطر العظيم فأخذ فى انشاء جرائد وتكوين كتاب قادرين (على التحرير

(18) تاريخ الاستاذ الامام للشيخ رشيد رضا ، ج 1 ، ص 37 .

وانشاء الفصول الادبية والعلمية فى مواضيع مختلفة ... فتسابقت الكتاب وتبارت الاقلام واخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه فى عالم خيال (19) ، واشتد ساعد الحركة التى كونها بمصر وأسس حزبا سياسياً يعمل لانشاء مجلس شعبى يحاسب الحكومات ، ويضع قوانين الاصلاح والحكم النيابى الدستورى . ولم يرق هذا للحكومات الاستعمارية الطامعة فى احتلال مصر ـ وخصوصا انقليترا ـ فضغطت على الخديو توفيق ـ وكان قبل تولية الحكم من تلامذته فأمر بنفيه أواسط رمضان 1296 هـ (سبتمبر 1879 م) بتهمة افساد البلاد . واذا كان توفيق واسياده قد استطاعوا نفى جمال الدين فانهم لم يقدروا ان ينفوا مبادئه التى غرسها ، وقامت الثورة العرابية اثر خروجه يقودها تلميذه ، فاستنجد توفيق بالانقليز فاحتلوا مصر عام 1882 فلم يطب لهم فيها مقام حتى طردوا منها وتخلصت مصر من مكرهم نهائيا بعد أكثر من خمسين سنة ، وكان الذى قاد المقاومة لمدة طويلة هو سعد زغلول وحزبه وهو تلميذ جمال الدين ومحمد عبده .

واذا كان جمال الدين هو مؤسس النهضة الثورية فى مصر فانه هو المؤجج نيرانها ببلاد فارس ، فقد عرفه الشاه ناصر الدين فى أوروبا والح عليه ان يصحبه الى ايران ليوليه رئاسة الحكومة وقال عنه « هذا رجل العالم السياسى الحربى الجدير بان يكون رئيس وزارة ويقوم بتدبير الشعب » (20) . ونجح فى اقناعه ، ولم يكن جمال الدين راغبا فى ذلك . ولكن لما حل بطهران انصرف الشاه عن وعده ، واتصل جمال الدين بالعلماء ، والمثقفين والشعب واخذ يبشر بالمبادىء الثورية وآرائه فى اصلاح حالة المسلمين ، وبناء الحكم على قاعدة الدستور والشورى وازعجت حركته الشاه ، وهم بالقبض عليه فالتجأ الى حرم آمن عند الشيعة هو مقام عبد العظيم وقضى فيه سبعة أشهر يؤجج الثورة ضد الحكم الفاسد وممثله وهو الشاه حتى اخرج منه ـ وهو مريض يرتعد من الحمى ـ مسحوبا مهانا فاقسم أن ينتقم من الشاه وقد فعل ، وكانت رحلته هذه بداية النهضة الثورية فى ايران ـ يقول السيد صاحب حسن الصادق فى كتاب له صدر حديثا عن ثورة ايران عنوانه :

---

(19) المصدر المذكور ، ص 38 من الجزء الاول .
(20) المصدر المذكور ، ص 55 من الجزء الاول .

(الثورة والقائد) فى صفحتى 7 ـ 8 ما نصه (مع ظهور جمال الدين الاسد أبادى المعروف بالافغانى بدأت موجة التحرر تتصاعد فى المسرح السياسى فى ايران وبلدان الشرق عموما • مصحوبة بالفكر الاسلامى الاصيل واخذ المسلمون الذين استعادوا صحوتهم الاسلامية يخطون خطوات كبيرة فى ساحة النضال والنهضة التحررية ضد الاستبداد والاستعمار ، وكان أول موقف سياسى وشعبى للفكر الاسلامى المناضل الذى عم ايران من ادناها الى أقصاها هو فتوى المرحوم آية الله ميرزا حسن الشيرازى بتحريم التمباك عام 1892 مصحوبا بجهود السيد جمال الدين فى تهيئه الارضية المناسبة ، وفى هذه القضية وجد ناصر الدين شاه ـ الذى كان قد باع امتياز التمباك للغزاة الانقليز بثمن بخس ـ نفسه ـ ولاول مرة ـ مع المستعمرين الانقليز مهزومين ومفضوحين ومن المعلوم ان جمال الدين هو الذى كشف لحجة الله الشيرازى تغلغل نفوذ الانقليز وسيطرتهم الاستعمارية على دولة ايران وطلب منه اصدار هذه الفتوى ، ثم يقول صاحب الكتاب (وطرد جمال الدين مرتين من ايران وبأسوا الاشكال ، وكان ناصر الدين شاه ـ من خلال عمليات القمع والمطاردة الوحشية لدعاة التحرر ـ ان يضاعف الاستبداد ويضيق الخناق على البلاد ، لكنه فى النهاية قتل على يد (ميرزا رضا كرمانى) احد تلاميذ السيد جمال الدين وباشارة منه والذى كان قد لاقى اقسى عمليات التعذيب فى سجون ناصر الدين شاه وكان ذلك عام 1897 م) اهـ •

واثر احتلال مصر انتقل الى أوروبا من الهند ـ التى كان معتقلا بها ـ واستدعى الى باريس تلميذه محمد عبده حيث أنشآ حزب (العروة الوثقى) وجعلا جريدة (العروة الوثقى) لسان حاله ، وأضرما الحرب ضد الاستعمار ، وكان « الغرض البعيد منها اعادة الحكم الاسلامى وهداية الدين الى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال فى العصر الاول بتأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة فى الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام من أمور الدنيا ويتبع هذا انقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم ، واما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال » (21) • وقد ناصرت جريدة (العروة الوثقى)

---

(21) حياة الاستاذ الامام ، ج 1 ، ص 283 •

ثورة المهدى بالسودان ، والذى انتصر جيشه على جيش الانقليز مرارا وأمده حزب (العروة الوثقى) ، بالعون المادى والادبى . وشهد كاتب انقليزى بما أصاب قومه هناك فقال : ـ بعد ان بين ما أصاب السودان من رزايا من فقد الرجال وسفك الدماء ـ ما نصه :

« ولم يكن نصيب الانقليز من الرزية أقل من نصيب تلك البلاد فانفقوا أموالا وافرة وفقدوا رجالا من أعز أبطالهم واشجع رجالهم وهتكوا استار قوتهم الحربية ، ثم عادوا بالخيبة والفشل والصق بهم عار الهزيمة وسوء المفر» (22)

لقد كان جمال الدين يبث فى مبادئه أن (العالم النصرانى على اختلاف امه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد وروح الصليبية لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ... وهى أبدا ناظرة الى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت ... ان العالم الاسلامى جميعه يجب عليه ان يتحد اتحادا دفاعيا عاما متمسك الاطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذيادة عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى هذه الغاية الكبرى يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته (23) هذه هى دعوته التى افنى حياته فى سبيل نشرها .

ولم يكن وحده فى الميدان ، فقد (بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها وبغيها منتشرا فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى (24) . وبعد احتلال ايطاليا طرابلس الغرب عام 1911 ، وفرنسا المغرب عام 1912 وتالب دول البلقان على تركيا وافتكاكها منها جميع أراضيها فى البلقان عام 1912 واتفاق الانقليز وروسيا على خنق الثورة الفارسية (اخذ العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتعلا غضبا ... وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان تنبأ به ـ على غير انقطاع ـ دعاة الجامعة الاسلامية منذ 50 سنة : الحرب الصليبية لدك الممالك

(22) من مقال للسير صمويل باكر عرب ونشر فى جريدة ثمرات الفنون فى 14 ذى القعدة 1302 . انظر تاريخ الاستاذ الامام ، ج 2 ، ص 355 .
(23) لوثروب ستودار ، حاضر العالم الاسلامى ، ج 1 ، ص : 306 ـ 307 .
(24) المصدر المذكور ، ص 308 .

الاسلامية دكا . وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الافغاني الحكيم العظيم (25) .

ومن تالب دول النصارى على الاسلام وأرضه أخذ المسلمون وزعماؤهم دروسا مهمة ، وعدلوا موقفهم من أهل الكتاب ، واخذوا يتآزرون ـ ضدهم ـ مع الهندوس والبوذية والوثنية ، وذلك منذ الحرب الروسية اليابانية عام 1904 التى انتصرت فيها دولة بوذية على دولة نصرانية (فهب غالب المسلمين يبتهجون لانتصار اليابان هذا ابتهاجا ملؤه الفخر الشرقي والحماسة الاسلامية (26) . ووضع المسلمون ايديهم فى ايدى الهندوس لمقاومة الانكليز فى الهند (27) وتآزر الصينيون المسلمون مع غير المسلمين فقالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان تدعو الى اتحاد الصينيين قاطبة للوقوف فى وجه الغرب المعتدى ! « ان أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغا لاحد له فهى لا تنفك تنازعنا على حريتنا التى هى اقدس شيء لدينا وأوروبا ثم أوروبا ضاربتنا الضربة القاضية ، اذا لم يستنصر بعضنا بعضا ونهب معا فى يوم آت هبة المدافعين عن الاوطان دفاع الابطال » (28) . وكان شيوخ السياسة ودهاتها من الاوروبيين يدركون الخطر الشديد من هذه الهجمات ويخشون رد الفعل من عالم الاسلام . فقد كتب وزير الخارجية الفرنسى هانوتو يستنكر هجمة ايطاليا على طرابلس : « لماذا وجدت ايطاليا طرابلس كوكر الزنابير ؟ أفليس ذلك لانها لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامى اجمع . فايطاليا جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها » (29).

ومع تكالب المستعمرين وزحفهم على اقطار الاسلام واحتلالها واستعباد أهلها واختلاس خيراتها حتى لم يبق اثر الحرب العالمية الاولى قطر يصدق عليه انه يملك تمام حريته واستقلاله كانت اليقظة تهب ، والحركات الثورية والفكرية والسياسية تمتد وتخترق الحدود ، وتهز الجماهير من الشعوب . وبينما كان المستعمرون ـ اثناء هذه الحرب ، تم فى مؤتمر فرساى للصلح

(25) المصدر المذكور ، ص 314 .
(26) المصدر السابق ، ص 314 .
(27) المصدر السابق ، ص 315 .
(28) المصدر السابق ، ص 312 .
(29) حاضر العالم الاسلامى ، ج 1 ، ص 312 .

ـ يقتسمون بقية أراضى الاسلام بينهم بمقتضى معاهدات سرية واتفاقات دولية ـ كانت آمال المستضعفين تتضاعف فى الخلاص من نير استعبادهم وطردهم من بلادهم ، وقد أجج الثورة فى صدورهم مبادىء ولسون رئيس الولايات المتحدة التى تعلن حق الشعوب المغلوبة فى تقرير مصيرها ، وانتشار هذه المبادىء بين شعوب العالم ، والمصادقة المبدئية من الدول الكبرى عليها وتأسيس (عصبة الامم) فى جنيف للسهر على تطبيقها ثم خيانة هذه الدول لها واقتسامها فيما بينها أراضى تركيا والشعوب التى كانت مرتبطة بها ، والمستعمرات الافريقية الالمانية •

وانفجرت الثورات فى كل مكان ، وعمت اليقظة كل الشعوب المستعمرة قديما أو حديثا واغلبها من المسلمين •

فى تركيا : واول ثورة اثر الحرب العالمية الاولى كانت فى تركيا بقيادة الغازى مصطفى كمال ، وتمكن الشعب التركى من طرد (الحلفاء) من عاصمة دولته ، وسحق الغزاة اليونانيين المتوغلين فى الاناضول ، والقائهم فى البحر ، وتوصل الاتراك الى ذلك بصدق ايمانهم ثم بالعون الذى جاءهم من جارتهم الكبرى دولة الاتحاد السوفييتى لا حبا فى سواد عيون الاتراك ، ولكن رغبة فى طرد الانقليز والفرنسيين من مضائق البسفور والدردنيل •

وفرح المسلمون بنصر الله فى كل أنحاء الارض ، وتحفزوا للجهاد ، ولكن مصطفى كمال الذى احيى انتصاره الآمال سرعان ما خيب الظنون ، وانحرف عن الاسلام وأخذ يعمل على عزل الشعب التركى عن العالم الاسلامى ، فالغى الخلافة عام 1924 والغى مجلة القوانين الاسلامية واستبدل بها القوانين الوضعية السويسرية ، الايطالية ، واجتهد فى الفصل بين العرب والترك خصوصا ، فمنع قراءة القرآن بالعربية وكتابة اللغة بالحروف العربية ، والاذان بها وحاول ان يلصق تركيا بأوروبا فى الاخلاق والعادات واللباس ففرض البذلة الاوروبية والقبعة على الشعبولولا صدق الاتراك فى ايمانهم وصلابتهم فى دينهم لمحى الاسلام من تركيا • وأخطر ما فى عمله ان اعداء الاسلام طبلوا له وزمروا ودعوه اصلاحا ، وجعلوا مصطفى كمال من كبار المصلحين لانه تنكر للاسلام واحكام شريعة القرآن ولا رقى ـ فى زعمهم ـ الا بالتخلص من القرآن ! واغتر بذلك كثير من (الزعماء) والكتاب فى بلاد الاسلام فأخذوا يروجون لهذا

« الاصلاح » وينفذونه اذا وصلوا الى الحكم • وتركيا الى اليوم ما تزال من دول العالم الثالث سبقتها أكثر الامم التى كانت دونها مع تمسكها بالدين ، واخلاصها لتاريخها •

ولم يلبث شعب مصر ان ثار على (الحماية) المعلنة عام 1914 م ، وعلى الاحتلال الجاثم فوقها منذ عام 1882 ، فطالب وفد بزعامة سعد زغلول برفع الحماية وانسحاب جيش الاستغلال فلقى من المندوب السامى صلفا وعجرفة وسجنا وابعادا ، ولم يجد الوفد المسافر الى فرساى من المؤتمرين من يسمعه منهم ولا يعرض عنه اعراضا فانفجرت الثورة عام 1919 واستمرت حتى اعلنت بريطانيا اصدار تصريح فى 1922/2/28 من طرف واحد تعطى فيه مصر «استقلالا» وتحتفظ لنفسها بأربعة نقاط تفرغ هذا الاستقلال من كل معنى واستمر الكفاح والثورة حتى بدت علامات الحرب العالمية الثانية فى الافق منذ عام 1935 م ، فاضطرت لمفاوضة المصريين بزعامة حزب الوفد وعقدت معهم معاهدة الاستقلال التى أمضيت عام 1936 م ، وجاءت حرب 39 ـ 1945 م ، فوجدت مصر نفسها محتلة اشنع احتلال ثم استؤنف الكفاح من بعد واجبرت بريطانيا على سحب آخر جند لها من مصر عام 1956 م ، وحاولت بعد ذلك بشهور ان تعود ليس وحدها ولكن مع فرنسا واسرائيل باحتلال قناة السويس فباءت بالفشل وطردت مذمومة مدحورة • ونشبت فى المغرب ثورة الامير عبد الكريم الخطابى عام 1925 م ، والحق بالجيش الاسبانى الهزائم المتكررة ، فسارعت فرنسا لانجادها ، وبعثت ماريشالها بيتان ، وزحف عبد الكريم حتى أشرف على فاس • كما نشبت الثورة فى دمشق ، ونال الانكليز هزائم متكررة فى العراق، وطرد صنائعهم آل حسين بن على من الحجاز ، فاطمأن المسلمون على أماكنهم المقدسة بزحف السعوديين وتحريرها من نفوذ الحسين وابنائه ، وتأججت ثورة عظمى فى وسط آسيا بقيادة أنور باشا رحمه الله لتحرير بلاد المسلمين ، واستعرت الحرب فى طرابلس بقيادة الشهيد عمر المختار عدة سنين وتأزم وضع الانكليز فى الهند ، وتحالف المسلمون والهندوس ضدهم فذاقوا مرارة كفاح الاحرار، والعذاب المهين • ونهض شعب اندونيسيا يطالب بحقه فى استقلال بلاده • وهكذا وجد المستعمرون انفسهم ـ فى كل مكان ـ مفضوحين عراة امام العالم اجمع قد انكشفت سوءاتهم ، وبانت عوراتهم • ثم جاءت هجمة ايطاليا على الحبشة عام 1935 م ، فضيحة

عظمى للاستعمار وتهديدا خطيرا لدولـه الهرمة • فاشتد النكير علـى ايطاليا ، وارتعبت بريطانيا وفـرنسا خوفا مـن توسع موسولنى على حسابهم ، وقـد صرح بهذا وما اخفاه ، فاخذوا ينكرون عمله ويؤلبون العالم عليه ، فساعد كل ذلك مساعدة عظمى فى استيقاظ الشعوب واشتداد الرأى العالمى فى حكمه ضد الاستعمار •

ثم كانت الحرب العالميـة الثانيـة وأساسها « المتسع الحيوى » الذى كان يطالب به هيتلر لشعب ألمانيا ، وامتاز النازيون عن غيرهم بما ذهبوا اليه من أن (استعمار) شعوب أوروبا ممكن واحتلال الاراضى لا ينبغى ان يختص بافريقيا وآسيا وانما يجـوز أيضا فى أوروبا وهكذا آذنوا لجيشهم ان يتوجـه نحـو تشيكوسلوفاكيا ثم بلونيا زحفا نحـو أوكرانيا وبترول القوقاز • وبعد قليل من بداية الحرب ، وجدت أوروبا نفسها ـ الا قليلا ـ محتلة من الجيوش النازية تذيق شعوبها « نعم » الاحتلال وطعم الاستعمار ولذائذ نزوات قادة وساسة المحتلين • لقد قدم النازيون للشعـوب المستعمرة الضعيفة خدمة جليلة مـن حيث لا يشعرون فقد أذاقوا شعوب أوربا مـن البلاء وألوان العذاب مما أفهمهم جيدا قيمة الاحتلال الاجنبى وقسـاوة المستعمرين ونعمة الحرية والاستقـلال الوطنى وفهم الفرنسيون والهولانديون والبلجكيونوالانكليز ـ وان لم يحتلوا ـ ما يصيب الشعوب المستعمرة من جراء احتلالهم وفقدان استقلالهـم واضطـر ساستهم ان يقبحوا الاحتلال ويحكمـوا ضد استعبـاد الشعوب رغم ارادتهـا ويصادقوا على ميثاق المحيـط الاطلسى أولا ثم على ميثاق الامم المتحدة ـ فى سان فرانسيسكو ـ ثانيا التى تخول لكـل شعب حقه فى الحرية والاستقلال •

ومع ذلك فان قادة الاستعمار وساسته كانوا ينوون خيانة العهود بمجرد نهاية الحرب والعودة الى تركيز نفوذهم مـن جديد • ففى أول أيـام النصر ، فى 8 مايو 1945 م ، وثبت فرنسا على الجزائر لتبطش بشعبها لانه تجرأ على رفـع الراية والمناداة بالاستقلال ، وفى نفس هذا الشهر وثبت على دمشق عاصمـة سوريا ، واستعادت جيوشهم بلاد الهند الصينى بعد انسحاب اليابان كما استعاد الانكليـز برمانيا ، وساعدوا هولاندة بجيوشهم واساطيلهم فى النزول مـن جديد بجزر اندونيسيا التى اعلنت ـ من قبل ـ جمهوريتها وعملت لطرد اليابان من بلادها وحاولت ايطاليا ان تعود بأى سبيل ـ على الاقل ـ الى ليبيا والصومال.

ولكن الشعوب التى تفتحت أعينها جيدا ، ورأت اندحار فرنسا وايطاليا وخروج بريطانيا هزيلة من الحرب ـ رغم انتصارها ـ أبت ان تقر الضيم من جديد وان تخضع للاحتلال اذ أخلدت الى الثورة العارمة فى كل مكان وقد تمكن بعضها بيسير من التضحيات من الاعتراف له باستقلاله ، وبذل بعضها أغلى التضحيات قبل ان يجبر الاعداء ، والاصدقاء على الاعتراف بالاستقلال •

ان المسلمين الذين خرجوا من حرب 14 ـ 18 19 بدون دولة مستقلة ، نال أغلبهم ما كانوا يصبون اليه من حرية واستقلال ، وأصبح لهم فى المجتمع الدولى كلمة مسموعة ونفوذ قوى : لقد طردت جيوش المحتلين اثر الحرب مباشرة من العراق وسوريا ولبنان عام 1945 م، كما اعترف باستقلال اندونسيا وخرجت جنود بريطانيا من الهند عام 1948 بعد ان اعترفت للمسلمين بدولة الباكستان، واعترف باستقلال ليبيا اثر ذلك ، ونشبت الثورة فى المغرب وتونس ، وفى كينيا ومدغشقر ، وفى الفيتنام ، وقبلهم كانت قد نشبت فى الجزائر فى مايو 1945 م ، ومع اخفاقها ظاهرا فان هذا الاخفاق كان درسا مهما جعل القادة يدبرون لها جيدا ويستعدون لها استعدادا كاملا ، حتى اذا أعلن الجهاد فى يوم 6 ربيع الاول 1374 هـ (أول نفامبر 1954 م) وجد العدو نفسه امام جيش ، وشعب يريد الحياة • حدثنى المرحوم الحاج مصطفى بن باحمد انه ذهب الى مقابلة الجنرال دوقول عام 1956 م ، مبعوثا من جبهة التحرير ليوضح له ما يرتكبه الجيش الفرنسى من فظائع فانصت له الجنرال جيدا ـ وهو المحامى اللبق ـ فلما انتهى من بيانه رفع دوقول رأسه وقال له : (ليس لكم حق فى الشكوى من اعمال الجيش فقد كلف باخماد الثورة ولابد ان يرتكب فى سبيل الوصول الى غايته ما تشكون منه ومع ذلك فانى أوكد لكم بانكم ستنالون الاستقلال لانكم قبلتم ان تموتوا من أجله وكل أمة تستقل اذا قبلت الموت ، وانتم قد قبلتم ذلك فلابد ان تستقلوا ، لا أقول لكم ان ذلك قريب أو بعيد ولكنه آت لا ريب فيه » •

وقد جاء الاستقلال للجزائر بعد تضحيات دامت سبع سنوات وخمسة أشهر ، وبعد نحو مليون ونصف مليون من الشهداء • ولم يكن هؤلاء الشهداء فداء لاستقلال الجزائر فحسب ولكنهم دعموا استقلال تونس (الوهمى) ، واستقلال المغرب (الخيالى) فجعلوا من كل منهما استقلالا حقيقيا • كما اجبروا

فرنسا على ان (تمنح) الاستقلال للدول الافريقية التى كانت تحت استعمارها • المسلمة منها وغير المسلمة ، ومن هـذه موريطانيا، والسنيغال، ومالى، والغابون، وغينيا ، والكامرون ، والنيجر ، وتشاد وفولتا العليا ، ثم جزر القمر، وجيبوتى• كلها دول اسلامية • كما نال هذه المنحة الداهومى (بنين) والطوغو ـ والكونغو ـ وافريقيا الوسـطى ، وساحل العـاج ومدغشقـر •

وبفعل الثورة فى الجزائر (منحت) بريطانيا الاستقلال لنيجيريا المسلمة ، وتنجانيقا وزنزبار (تانزانيا) واغلب السكان فيهما مـن المسلمين ، وأوغاندة واضطرت بلجيكا الى الاعتراف باستقلال زائير (الكونغو) وأورندى وبوروندى واعانت الجزائر اعانة فعالـة انغـولا وموزنبيق ، كـما عاونت على احباط المكيدة ضد وحدة نيجيريا •

ان الثورة الجزائرية كانت معجـزة القرن الرابع عشر حقا (القرن العشرين) وقد ضرب الشعب الجزائرى أروع الامثلة فى الثبات والصبر والاحتمال والتضحية الى حد العناد فجاء استقـلاله حقيقيا لا وهميا بفضل الله ثم بفضل الاخلاص والوعى الكامل فى القيادة واليقظة فى الجماهير •

واذا كان الثلثان من المسلمين قـد تحررت بلادهم ، واطمأنوا تحت رايات دولهم فان الامل القوى فى اللـه وفى جهاد المسلمين ان يتحرر الباقون اثناء القرن الخامس عشر وان ينفض المسلمون اثناءه كل غبار الخمـول والكسـل والتخلف عن ركب الامم الراقية ، وان يتجنبوا فى نهضتهم الوقوع فيما وقعت فيه الحضارة الغربية من مادية بحتة ، لتكون حضارتهم اسلامية جامعة بـين المادة والروح مرتبطة بالدين من غـير جمود ولا تزمت وعليهم ان يوحـدوا صفوفهم ، ويعتبروا أنفسهم أمة واحدة لا تذل الا لله كما حكم الله فى قوله : « **ان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكـم فاعبـدون** » • وان اللـه لفى عونهـم ونصرهم اذا أوفوا بعهد الله •

ولهم عبرة فى (جهاد شعب الجزائر) القائم على أساس الدين ، ثم فى ثـورة شعب ايران التى أعلنها (ثورة اسلامية لا شرقية ولا غربية) بعيدة عن المذهبية وعـزة الجاهلية (ثـورة اسـلامية ، لا شيعيـة ولا سنيـة) فاستطاعـوا ـ بالاسلام ـ ان يحطموا كل الاصنام وان يطيحوا بالشاه الذى لم يغن عنـه ما جمعه من مال وما حشده من جند كلهم (سفاك) للدماء سفاح • وخذله حماته

من الصهاينة والامريكان وخنسوا عنـه فعل الوسواس الخناس · فعلى الايمان والعمل الصالح للدنيا وللدين ، والاتحاد المتين بين جميع المسلمين والتعاون على البر والتقوى ونفى التنازع والاختلاف والتخاذل يجـب ان يبنى المسلمـون مستقبل حياتهم · ذلك هو سر قوتهم وخير ضمان لانتصارهم « **ولينصرن اللـه من ينصره ان الله لقوى عزيز** » ·

وكان للاسلام فى القرن الرابع عشر دمعة وابتسامة : بداية مظلمة ، ونهاية مشرقـة ·



الوحي والعقل في الإسلام
عند المعتزلة وبعض المفكرين المتأخرين

د. بوعمران الشيخ
أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

قد برزت صلة الوحى بالعقل فى الاسلام منذ القرن الهجرى الاول (القرن السابع الميلادى) وخاصة فى بداية المدرسة الاعتزالية • ثم اتضحت هذه الصلة من خلال المناظرات التى انتشرت فيما بعد ، حين التقى الاسلام بنظريات حديثة • وفى الواقع ان هذه المسألة كانت لها أهمية دينية وأخلاقية عظيمة فى الاعتزال حيث تميز بها هذا المذهب عن بقية المدارس الاسلامية المعاصرة له واللاحقة به •

أجمع كبار المعتزلة على وحدة الوحى والعقل • فيرى أبو على الجبائى وهو رئيس الاعتزال فى القرن الثالث الهجرى (القرن 9 بعد الميلاد) أن كل معرفة هى عقلية وسمعية فى آن واحد (1) • ويؤكد عبد الجبار (المتوفى سنة 415 هـ ـ 1025 م) هذا الرأى (2) ويضيف أحد تلامذته أن الافعال التى حرمها الوحى هى بالذات التى يرفضها العقل (3) • وينجم عن هذا كله أن من ينحرف عن العقل يبتعد عن الشريعة فى نفس الوقت ، اذ الشريعة لا يمكن أن تناقض العقل • والشىء الذى يعلمه الله مخالفا للعقل لا يمكن وجوده ، مثل وجود الدائرة المربعة أو عقوبة الاطفال فى جهنم (4) •

وتؤدى هذه النظرية الى طرح عدد من التساؤلات : هل التوفيق بين الوحى والعقل يناسب الاسلام ؟ واذا حصل هذا التوفيق الاساسى لماذا الوحى ؟ ألا يكفى العقل وحده ؟ وفى حالة الخلاف بينهما ما هو الذى يجب أن تكون له الاسبقية ؟ سنحاول فى هذا البحث أن ندرس هذه المسائل ونعرض الحلول

التي توصل اليها المعتزلة وميزات آرائهم عن آراء خصومهم .

(1) ـ اعتماد المعتزلة على العقل :

يعتمد المعتزلة على العقل انطلاقا من القرآن والسنة النبوية ، فيستشهد المرتضى (ت 436 هـ/1045) بالآية الكريمة : « **ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون** » (سورة يونس 100/10) ، كما يذكر يحيى بن الحسين (ت 298/ 910) الآية : «**ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين** » (سورة الجاثية : 2/ 45) . ويروى الماوردى (تـ 450 هـ 1058) حديثا شريفا يشير الى مكانة العقل فى سلوك الانسان : « لكل شىء عمل دعامة ، ودعامة عمل المرء عقله » (6) .

والعقل هو أساس جميع المعارف والافعال ، فجعله الله أساس الحياة الاجتماعية والدينية ، وبالعقل جعلنا الله مسؤولين عن اعمالنا ، والعقل هو الذى يسود وجودنا ويفسر تضامننا مع بنى البشر ، رغم اختلاف الحاجات والمصالح ، والعقل هبة من الله للانسان (8) . وعملنا بمقتضى معرفة الله ، وهى تيسر لنا الشعور بحدود حريتنا وتبين لنا الواجبات ، غير أن معرفة الله لا تكسب الا بالعقل (9) .

ان العقل شىء مشترك بين جميع الناس الذين يتمتعون بقدراتهم الفكرية ، ولكن بعضهم ينمونه أكثر من غيرهم (10) . والمعرفة العقلية واجبة على كل انسان لانها تضمن المسؤولية ، واستعمال العقل يساعد على تجنب الخطأ والخوف (11) ، وذلك لانه لا يصدر عن سلطة ظالمة أو عابثة ، والله ذاته لا يعير قيمة لعمل ما الا لسبب مشروع ، فانه لا يأمر الانسان بفعل معين ثم يعاقبه لتنفيذه ذلك الامر . ويحصر أبو على الجبائى وظيفة العقل العملية فى العلم الذى يبعد عن الشر ويحض على الخير .

أما افعال الانسان فهى تنقسم الى ثلاثة أقسام : الافعال العقلية والافعال الشرعية والافعال التى يمكن أن تساهم فى أحكام افعال أخرى (12) .

الاول على حرية الاختيار والتأمل ، فيعلم الفاعل مثلا أن من واجبه أن يرد الامانة الى صاحبها كما يعلم أنه يتعين عليه أن يعترف بالجميل لمن أحسن اليه ويستطيع كل انسان أن يقوم بهذه الافعال . فهى تقرب الانسان من الله ويشترط فيها معرفة الله أولا ، وذلك بفضل التأمل والاستدلال العقلى ، ونذكر من هذه الافعال الصلاة والصيام (13) .

والعقل عند المعتزلة نوعان : العقل الفطرى الذى يظهر فى البديهيات الاولى

مثل أن « الشيء موجود أو معدم » ، و « توحيد المتناقضين مستحيل » و « والواحد أقل من الاثنين » . والعقل المكتسب ينطلق من البديهيات ويتطور ويتحسن بالعمل والتجربة المستمرة(14). وعلى هذا الاساس يميز المعتزلة بين نوعين من الافعال العادية وهى الافعال التى تصدر عن العقل الفطرى والافعال التى تستند على التامل والاجتهاد (15) .

ويرى النظام (231 هـ/846 م) أن العقل هو الذى يوجه الفعل ويرشده ، ويتجلى دوره خاصة فى حرية الاختيار التى يشترط فيها دافعان متعارضان ، واحد يحض على الفعل وآخر يمنعه (16). فيسمح العقل باختيار أحد الدافعين(17). وفى القرآن الكريم أكثر من آية تدل على ذلك منها : « **وهديناه النجدين** » (سورة البلد : 10/90) وقد بين السجستانى ـ أستاذ التوحيدى ـ معنى النجدين وهو طريق الخير وطريق الشر (18) .

(2) صلة الوحى بالعقل :

أكد المعتزلة صلة الوحى بالعقل منذ نشأة المدرسة كما أشرنا الى ذلك سابقا الا انه وقع شيء من التطور فى نظرتهم الى طبيعة هذه الصلة . بدأ تركيزهم أولا على ربط الدين بالعقل من أجل فهم القرآن ، اذ العقل هو الوسيلة لادراك معنى النص . ثم اتجهت عنايتهم فى مرحلة ثانية الى التوفيق بين الوحى والعقل فبينوا بأنهما متكاملان ومرتبطان على الرغم من أن كل واحد منهما متميز ومستقل عن الآخر . وفى النهاية جعلوا الاسبقية للعقل .

ولكن هل يكفى العقل البشرى فى توجيه سلوكنا توجيها حسنا دون الوحى ؟ كان هذا هو رأى جل المعتزلة لانهم اعتمدوا على العقل بالدرجة الاولى وبنوا عليه صحة الافعال الانسانية . فذهبوا الى أن الله أمر بالافعال الحسنة لحسنها ونهى عن الافعال القبيحة لقبحها ولم يكن الامر هكذا بمحض ارادته تعالى (19) . وقالوا اننا لا نعرف الاسباب الالهية عندما نقوم بفعل ما ، فلا نحسب لها حسابا . وفى الواقع ان الناس تأملوا وفكروا قبل نزول الوحى ، فيمكن اذن أن نميز بين الخير والشر ونختار أحدهما عن بصيرة ، وذلك بفضل عقلنا ، وندرك أن علينا واجبات فنؤديها كما انه يتحتم علينا أن نتجنب الشر والظلم والكذب (21) .

ولا يقوم حسن الفعل على ارادة الله وحدها كما تزعم الجبرية ، ولو صحت نظريتهم لترتبت عليها نتائج غريبة ، اذا أمرنا مثلا بالكذب أو الظلم كان فعلنا

حسنا ، واذا نهينا عن الصدق والعدل كان فعلنا قبيحا ، فيكون الفعل الواحد حسنا وقبيحا فى آن واحد ، لانه يجوز فى الحالة الاولى ويحـرم فى الحالة الثانية (22) ومـن جهـة أخرى كيف يعقل أن يضفى النص القرآنى قيمـة اخلاقية على فعل هو خال منها ؟ وهذا أمر مستحيل لانه ليس هناك فـرق اساسى بين الافعال العقلية والافعال الشرعية من الناحية الاخلاقية (23) .

غير أنه لا يجوز أن نخلط بين القانون الطبيعى والقانون الالهى . قـد لاحظنا فيما سبق أن كل انسان مسؤول عـن أفعاله وان كان لا يؤمن بالوحى . ومن المعلـوم أن الملاحـدة والماديين يميزون فعلا بين الخير والشر (24) . واذا زعم أحـد أن هذا ليس فى مقدورهم حقـا فهو بعيد عن الصواب كل البعد . وهل يمكن أن يقال أيضا أنهم لا يميزون بين الابيض والاسـود ؟ هـذا رأى غـير معقول (25) . والواقع أن البرهمانيين لا يؤمنون بالنبوة ورغم ذلك نلاحظ أن سلوكهم حسن (26) .

ان العقل البشرى يـدرك بطبيعته أن بعض الافعال حسنة أو قبيحة كما أنـه يدرك بعض الواجبات ، فيعرف مثلا من الافعال الحسنة الفعل الصالح ويعترف بالجميل ورد الامانة لصاحبها ومن الافعال القبيحة يعرف الظلم والنكران والكذب بدون مبرر ، ويـدرك أيضا ان السلوك الطيـب ممـدوح والسلـوك القبيـح مذمـوم (27) . ولـذا لا يـرضى بالعقوبـة الـتى لا يستحقها الفاعـل مثـل التى تسلط عـلى انسـان بـرىء فى مكان انسان ظالم لان كل عاقل يرفض المسؤولية الجماعية (28) . وهذه اشارة الى موقف الخوارج الازارقة وكان المعتزلة يعارضونهم بشدة . فيرى أبو هـاشم الجبائى أن الفعل الحسن يجب أن يقصد لذاته كما يجب أن يتجنب الفعل القبيح لذاته (29) . والظلم مذموم ولو كـان صادرا عن الله تعالى وهذا الرأى يخالف موقف الجبرية بوضوح (30) . وهكـذا يتبين أن الفعـل البشرى يكتسى قيمـة اخلاقية لذاته وهذا ما يقره العقل .

(3) الوحى يدعم العقل :

اذا كان العقل هو الاساس فى حيـاة الانسان ما هى وظيفة الوحى ؟ هل نحن فى حاجة اليه والى أى حد ؟ يرى المعتزلة أن السلوك العقلى يتميز عن الوحى فأثارت نظريتهم اعتراضات كثيرة مـن المعارضين سنقف عندها فيما بعـد . ويتعين علينا هنا أن نبين آراء المعتزلة كما عبرت عنها كتبهـم .

ان الرسالة النبوية ضرورية وذلـك لسببين رئيسيين : انها تدعم أولا ما جاء

البقلانى (ت 403 هـ/1013) على المعتزلة بـأن العقل لا يمكنه أن يوجه الافعـال البشرية توجيها خلقيا ، اذ المصدر الوحيد لهذا التوجيه هو الشريعة الالهية ولا دخل فيها للعقل ولا توجد أيـة وسيلة عقلية تستطيع اجبار الانسان على فعل ما ، أو الامتناع عنـه • والجـدير بالملاحظة أن الكثير مـن الناس لا يمتثلون للعقل فى تصرفاتهم • ولو صح رأى المعتزلة فى أن اللـه وهب العقل الكامل لكـل انسان لفقدت النبوة وظيفتها (38) • ويضيف الشهرستانى (ت 548 هـ/1153) أنـه ليس هناك خير عقلى ولا شر عقلى والاخلاق تعتمد عـلى الـوحى فقـط (39) ، واذا تخلينا عن الوحى فلابد أن نأخذ بعـين الاعتبـار عـادات كـل الشعـوب وتقاليدها (40) •

وتعارض الصوفية أيضا رأى المعتزلة وخاصة منهجهم العقلى ، وتعتبر أن تأويل القرآن لا يخلـو مـن الخطـأ ، ويحصر المحاسبى (ت 243 هـ/848) واجب العقل فى المساعدة على فهم النص والبرهنة على صحته (41) ويعتقد أن المنهج الصوفى هو السليم لا منهـج التأويل العقـلى ، لان الاول يعتمد عـلى الحدس ويـوصل الى الحقيقة والثانى لا يتحرر كلية من الخيال الفردى ، ويحـذر الشعرانى (ت 973 هـ 1566) من خطر التأويل العقلى للقرآن لانه قد يفقدنا الايمان ، فيجب أن نساير الوحى لا العقل (42) •

وينتمى الى المجموعة الثانية من خصوم المعتزلة عدد من المفكرين والفلاسفة نذكر منهم بعض الشخصيات البارزة ، ينتقد ابن الراوندى الملحد (ت 298 هـ/910) الوحى ويرى انه لا يفيد فى شىء ويتمسك بالعقل وحده اذ هو الذى يميز بين الخير والشر ، فالانسان ليـس فى حـاجة الى النبوة ولا الى المعجزات وذلك لانها تخالف القوانين الطبيعية • وقد رد عليه أبو على الجبائى الذى كان من معاصريه ، ثـم أبو الحسين الخياط فى (كتاب الانتصار) ومن خصوم المعتزلة الطبيب الفيلسوف أبو بكر الرازى (ت 313 هـ/925) الذى أيـد مواقف ابن الراوندى ، ورفـض التوفيق بين الوحى والعقل بل رأى أن الفلسفة وحـدها هـى التى تستطيع أن تضمن السعادة للانسان والتقدم للمجتمع ولذا هاجم الرسالة النبوية وناظر كثيرا فيها أحد مواطنيه ، وهو أبو حاتم الرازى (ت 330 هـ/941) المنتمى الى الشيعـة والمعتزلة ، فألف هذا الاخير فى الموضوع كتاب (أعلام النبوة) وفند فيه رأى أبى بكر الرازى •

(5) تطور الآراء فيما بعد

وتطورت آراء بعض الخصوم فيما بعد وتقبلوا الى حد كبير ما رفضه المتقدمون • يلاحظ هـذا التطور عند الحنابلة أولا بعدما كان الامام ابن حنبل (ت 241 هـ 855) من أشهـر المعارضين للمذهب المعتزلى • فتبنى ابن عقيل (ت 513 هـ

1119) الحنبلى التأويل العقلى (43) كما فعل بعده ابن الجوزى (ت 597 هـ 1200) الذى رد على المجسمة ، معتمدا على النص والعقــل (44) · وصرح ابن تيميـــة (ت 728 هـ/1328) بالتوفيق بين العقل والوحى مؤكدا انهما متكاملان وبـين أن الدليل العقلى لا يناقض الدليل الشرعى ، وفقا لما اشار اليه القاضى عبد الجبار من قبل (45) · وأضاف ان الشريعة لهـا أسس عقليـة (46) ، وقـد رأى تلميذه ابن قـيم الجوزية (ت 751 هـ/1350) نفس الرأى (47) ·

أما الاشاعرة المتأخرون فانهم قـالوا أيضا بالتوفيق بين الدين والعقل ورأى الغزالى (ت 505 هـ/1111) « أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ··· فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضا للاجفان · فلا فرق بينه وبين العميان · فالعقل مع الشرع نور على نور » (48) ، ان العقل يدعم الايمان ويوصل الى اليقين (49) · ويـؤيد فخـر الـدين الرازى (ت 606 هـ/1209) هذا الرأى ويتوسع فيه ، غير أنه لا يفضل العقل على الوحى ، لان الوحى هو أساس العقل (50) ·

وأقر الفلاسفة المسلمون سـواء كانوا من أهل السنة أو مـن الشيعة التوفيق بين الوحى والعقل·فيرى «أخوان الصفاء» أن ضرورة العقل لا يمكن الشك فيها ، لانه الدليل الذى يستدل به اللـه تعالى والحـكم المعترف بـه فى المعامـلات الاجتماعية ، وتوحيد الدين والعقل من دعـائم فلسفتهم (51) · ويـؤكد رأى المعتزلة كـل مـن الفيلسوفين الكندى (ت 260 هـ/873) وابن رشد (ت 595 هـ 1198) ، فيقول الاول بتكامل العقـل والنبوة ، ولكنه لا يفضل العقل عليها ، وخصص ابن رشد رسالته المشهورة ـ (فصل المقال) ـ لتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال (52) · فيذهب الى أن مصدرهما واحد وهو الحقيقة ، ولذا لا يمكـن الخـلاف بينهما : فالحقيقة لا تعارض الحقيقة (53) ·

وعند ظهـور حركة النهضة الاسلامية الحديثة نـلاحظ انهـا تمسكـت ببعض الآراء من مذهب الاعتزال · وتكفينا هنا وقفة عند رائدى هذه النهضة وهما جمال الدين الافغانى ومحمد عبـده · قـارن الافغانى (توفى سنة 1897) بين النبوة والحكمة ، فبين أن الاولى يهبها اللـه لمن يشاء ، فى حين ان الثانية تكتسب بالنظر ولكنه فضل النبى على الفيلسوف كمـا فعـل المعتزلة قبـله ، فالنبى معصوم والفيلسوف معرض للخطأ ، ولذا يجب الامتثال لاوامر الاول ويسمع للثانى أو لا يسمع له (54) · والاسلام فى رأيه كاد

أن يكون من بين الديانات الاخرى الدين الوحيد الذى يعتمد على العقل ويذم من يؤمن بدون دليل (55) • واقتدى محمد عبده بآراء الافغانى وقال هو الآخر بالتوفيق بين الدين والعقل مؤكدا أن العقل هو أساس الاخلاق كما قال المعتزلة من قبل ، فيستطيع كل انسان أن يهتدى الى الاخلاق بقطع النظر عن الوحى ، انه يميز بين الخير والشر بفضل التأمل وبه يكتشف القواعد الاخلاقية ولا تقل قيمة هذه القواعد في الواقع عن تعاليم الشريعة الالهية (56) فيقول محمد عبده فى هذا المعنى : « جاء الشرع مبينا للواقع ، فهو ليس محدث الحسن ، ونصوصه تؤيد ذلك » (57) ، والفعل يعتبر حسنا لذاته والله يقره لحسنه ولا يصير الفعل القبيح حسنا لان الله أقره (58) ••• وأما النبوة فانها تدعم العقليات وتكملها ، والانبياء « يبينون ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ويؤدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة » (59) •

وهكذا يبدو لنا تأثير آراء المعتزلة والعلماء المتأخرين واضحا فى الفكر الاسلامى الحديث بعدما تطورت مواقف أهل السنة نحو الاعتزال ، فرأينا ما توصل اليه اجتهاد العلماء الذين أرادوا أن يسايروا العصر ، فتجاوزوا الخلافات القديمة وراجعوا الكثير منها • واستمر هذا الاجتهاد الى يومنا هذا فى مختلف الاقطار الاسلامية ، بغية الوصول الى نظريات تناسب العقل من ناحية وتدعم الوحى من ناحية أخرى • ويلاحظ أن القضية الاساسية التى يجب مناقشتها الآن هى صلة العلم بالدين اذ تبلورت اليوم قدرة العقل البشرى فى مجالات العلم والتكنولوجيا ، وهذا موضوع بحث آخر نرجو أن يقوم به غيرنا فى مناسبة من المناسبات ، فنكتفى بالاشارة اليه هنا ولا نخرج عن اطار موضوعنا •

الهـــوامـــش :

(1) على خشيم ، **الجبائيان** ، طرابلس (ليبيا) ، 1967 ، ص 282 •

(2) عبد الجبار ، شرح **الاصول الخمسة** ، مكتبة وهبة ، القاهرة 1965 ، ص 142 .

(3) ابن متويه ، **المحيط بالتكليف** ، الجزء الاول ، القاهرة بدون تاريخ ص 235 •

(4) ألبير نادر ، **فلسفة المعتزلة** ، فى جزئين،الاسكندرية 1950 ــ 1951 ، ج 1 ، ص 65 ·

(5) **رسائل العدل والتوحيد** ، تحقيق محمد عمارة ــ دار الهلال ، القاهرة 1971 ج 2 ، ص 178 ·

(6) الماوردى ، **أدب الدنيا والدين** ، مكتبة الحلبى ، القاهرة،1965 ، ص 3 ·

(7) عبد الجبار ، **تنزيه القرآن عن المطاعن** ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 111 ·

(8) التوحيدى ، **الامتاع والمؤانسة** ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج 2 ، ص 9 ·

(9) عبد الجبار ، **شــرح** ، ص 88 ·

(10) **رسائل العدل والتوحيد** ، ج 2 ، ص 177 ــ 178 ·

(11) عبد الجبار ، **شــرح** ، ص 68 ·

(12) أبو الحسن البصرى ، **المعتـــمد** ، المعهـد الفرنسى ، دمشــق 1964 ، ج 1 ص 363 ــ 364 ·

(13) عبد الجبار ، **شــرح** ، ص 70 و 327 ·

(14) الماوردى ، **أدب الدنيا والدين** ، ص 5 ·

(15) الشهرستانى ، **نهاية الاقدام فى علم الكلام** ، مكتبة المتنبى ، بغداد ، بدون تاريخ ، ص 371 ·

(16) الشهرستانى ، **الملــل والنحــل** ، تحقيق الكيلانى ، القــاهرة،1961 ، ج 1 ص 158 ·

(17) أبو ريدة ، **النظام** ، مطبعة لجنة التاليف ، القاهرة،1946،ص 172 ·

(18) التوحيدى ، **الامتاع والمؤانسة** ، ج 2 ، ص 19 ·

(19) التهاناوى ، **كشــاف مصطلحات الفنــون** ، طبعــة القــاهرة ، ج 2،1969 ، ص 149 ــ 150 ·

(20) عبد الجبار ، **شــرح** ، ص 313 ·

(21) أبو ريدة ، **النظــام** ، ص 16 ·

(22) عبد الجبار ، **شــرح** ، ص 311 ــ 312 ·

(23) » ، **المغنى** ، ج 6 ، 1 القاهرة،1962،ص 24 و 123 ·

(24) عبد الجبار **المغنى** ، ج 6 ، 2،القاهرة،بدون تاريخ ، ص 232 ·

(25) » ، **شـــرح** ، ص 72 و 479 .

(26) » **المغنى** ، ج 15 ، القاهرة،1965 ، ص 97 .

(27) » ، **المغنى** ، ج 11 ، القاهرة،1965 ص 384 .

(28) » ، **شـــرح** ، ص 321 .

(29) » ، **المغنى** ، ج 15 ، ص 66 .

(30) » ، **المغنى** ، ج 6 ، 1،ص 128 .

(31) » ، **شـــرح** ، ص 564 .

(32) » ، **المغنى** ، ج 15 ، ص 45 ـ 46 و 110 .

(33) التوحيدى ، **الامتاع والمؤانسة** ، ج 2 ، ص 12 ـ 14 .

(34) » ، **الامتاع والمؤانسة** ، ج 2 ، ص 9 ـ 10 .

(35) ابن متويه ، **المحيط بالتكليف** ، ج 1 ، ص 25 .

(36) عبد الجبار ، **تنزيه القرآن عن المطاعن** ، ص 41 ـ 42 .

(37) الشهرستانى ، **نهاية الاقدام** ، ص 371 .

(38) الباقلانى ، **كتاب التمهيد** ، دار الفكر ، القاهرة،1947 ، ص 371 ـ 372 .

(39) الشهرستانى ، **نهاية الاقدام** ، ص 223 و 370 .

(40) » » » » ص 373 .

(41) عبد الحليم محمود ، **المحاسبى** ، مكتبة غوتنير ، باريس،1940 ، ص 88 .

(42) روجير أرنالديز ، **ابن حزم** ، مكتبة فران ، باريس،1956 ، ص 27 .

(43) جورج مقدسى ، **ابن عقيل** ، المعهد الفرنسى ، دمشق،1963 ص 508 ـ 509 .

(44) ابن الجوزى ، **صيد الخاطر** ، دار الفكر ، دمشق،1960 ، ج 1 ، ص 128 .

(45) ابن تيمية ، **التفسير** ، بومباى،1964 ، ص 96،353،386 .

(46) » **مجموعة الرسائل** ، القاهرة،1341 هـ ، ج 5 ، ص 30 .

(47) ابن قيم الجوزية ، **شفاء العليل** ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 79 و 248 .

(48) الغزالى ، **الاقتصاد فى الاعتقاد** ، القاهرة ، 1962 ، ص 3 .

(49) » ، **احياء علوم الدين** ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج 3 ، ص 410 .

(50) فخر الدين الرازى ، **التفسير** ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج 2 ص 177 178 .

(51) اخوان الصفاء ، **رسائل** ، القاهرة، 1928 ، ج 4 ، 1 ، ص 391 .

(52) ابن رشد ، **فصل المقال** ، طبعة الجزائر، 1978 .

(53) ابن رشد ، **فصل المقال** ، طبعة الجزائر، 1978 ، ص 34 و 64 .

(54) الافغاني ، **خاطرات** ، دار حراء ، القاهرة، 1963 ، ص 16 .

(55) « ، **الرد على الدهريين** ، **دار الهلال** ، القاهرة ، ص 166 .

(56) محمد عبده ، **رسالة التوحيد** ، مكتبة القاهرة ، 1960 ، ص 80 ـ 81 .

(57) « « « « ص 81 .

(58) عثمان أمين ، **محمد عبده** ، القاهرة، 1944 ص 99 .

(59) محمد عبده ، **رسالة التوحيد** ، ص 120 .



ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في المغرب الإسلامي ودورهما في نهضة أوروبا ويقظتها

د. يحيى بوعزيز
أستاذ بجامعة وهران
(الجزائر)

ان الحديث عن ازدهار الحضـــارة والفكر الاسلاميين باقليم المغرب الاسلامي، وجناحيه الاوروبيين ، ودورهمـــا فى نهضة أوروباويقظتها ، يتطلب العـودة قليلا الى الوراء ، للتعرف على الاوضاع قبل ذلك · فقد كان اقليم شمالى افريقيا الغربى ،أو شبه جزيرة المغرب ، قبيـل الفتح الاسلامى ، يعيشفى دوامة مـن الاضطـرابات الخطيرة التى عرضتـــه للتمـزق ، والتشتت ، والتحطيـم ، فى معظم المجالات · لانه بلي بالاستعمار الرومـانى الجائـر ، والشـرس ، ذى الطابع العسكرى كما يتضح من آثـاره الباقية حتى اليوم فى لامبيس ، وتيمقاد، وجميلة ، وتبسة ، وتيبازة ،وشرشال ، وبطيوة ، وغيرها · والذى كان كل همه تسخير امكانيات الاقليم الاقتصاديــة والبشرية ، لخدمة مصالح رومـــا ، وايطاليـــا ·

وبعد رحيل الرومان ، تسلط الوندال على الاقليم ، وكانوا بداة متوحشين ، فارتكبوا المزيد من التخريب ، والحرق ، والتحطيم ، لمظاهر العمران ، والاقتصاد، والثقافة ، فى اطار مطاردة بقايا الرومان من جهة ، ومواجهة مقاومة شعب الاقليم الباسلة من جهة أخرى · وليس هـذا بالشىء الغريب عن الوندال ، لانهـــم جبلوا على التخريب فى أوروبا وشبه جزيرة ايبيريا ، قبل أن يعبروا الى هنا، ولم تسلم منهم حتى المسيحية ورجالها الذين اضطهدوهم وقاتلوهم ، ومنهـــم القديسأوغسطين الســوق أهـراسى ، العنابى ، الذى تزعم مقاومتهم حـتى توفى عام 430 م بعنابة ·

وبعد حوالى قرن من الزمن ، حـــل البيزنطيون محلهم فى استعمار هـــذا الاقليم ،وواصلوا نفس سياسةأسلافهم الرومان فى ممارسة سياسة الارهاب ، والتقتيـل ، والتشريـــد ، والتخـريب

(*) ألقي هذا الموضوع فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى بعنابة خلال شهر جويليـــة 1976 ·

للعمران ، والاقتصاد ، ودخلوا فيما بينهم فى صراعات ، وتطاحن حول السلطة والنفوذ ، واشترك فى ذلك رجال الدين والعسكريون والاداريون المدنيون، وامتد هذا التطاحن الى عاصمة بيزنطة نفسها على ضفاف البحر الاسود الجنوبية الغربية ، فىشرق البحر المتوسط ٠

وخلال هذا كله ، عانى شعب هذا الاقليم أعباء شاقة : اقتصاديا ، واجتماعيا ، وسياسيا ، تذكرنا بما عاناه حديثا خلال الاحتلال الفرنسى الذى يمثل المرحلة الثالثة والاخيرة للاحتلال الرومانى لهذه البلاد ٠ ولم يجد وسيلة للتخلص سوى التمرد ، والثورة ، بأشكال جد عنيفة ، وبصورة متواصلة، فاندلعت الثورات وتوالت هذه وراء الاخرى ، ومد زعماؤها أيديهم الى حلفاء خارج الاقليم تمثلوا فى المسلمين العرب الوافدين من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى ٠

وكان مما ساعد على فك عرى الارتباط بين شعوب شمال افريقيا الغربى ، والادارة البيزنطية ، هو انعدام وجود الانسجام بينهما رغم القرون الطويلة التى قضاها الغزاة البيزنطيون فى هذه البلاد ٠ وهذا يذكرنا أيضا بالعهد الفرنسى حديثا الذى قضى قرنا وثلاثين عاما هنا ، ولكنه لم ينجح حتى فى أحكام مجرد الصلة مع شعب هذا الاقليم ٠

ما قدمه الاسلام لهذا الاقليم :

وهكذا استطاع المسلمون العرب ، بسهولة ويسر ، وفى وقت قصير ، أن يفرضوا سيطرتهم السياسية على هذه البلاد ، ويندمجوا مع سكانها ، ويؤثروا فيهم ، بفضل المبادىء السمحة للدين الاسلامى الجديد الذى جاؤوا به ، ومن أجله ، الى هذه البلاد ٠ وأعاد هذا الاندماج السريع بين المسلمين والوافدين الجدد ، والسكان الوطنيين ، الوحدة الوطنية ، والقومية للاقليم ، وازال ذلك التشتت والتمزق الذى خلقه العهد البيزنطى وما قبله ٠ وبذلك انسجمت الوحدة الجغرافية والتاريخية للاقليم ، مع وحدته السياسية ، والدينية ، واللغوية ٠

وبعد تحقيق هذه الوحدة السياسية، فى اطار الدين الاسلامى الجديد الوافد، ربط الاقليم بالخلافة الاسلامية فى دمشق أولا ، وبغداد ثانيا ، وبقي الوضع هكذا حتى عهد هارون الرشيد ، ثم حدثت تطورات جديدة ، فرضتها الاحداث الجارية ، تتمثل فى بروز الزعامات المحلية الاقليمية من جديد ، وسعيها لتحقيق استقلالها وانفصالها عن الخلافة بالمشرق ٠ ولكن فى اطار الاسلام دائما على أي حال ، وهذا موضوع آخر ليس هذا مكان تفصيله ٠

وكان أهم شىء قدمه الاسلام الجديد الوافد لهذا الاقليم ، وشعبه ، هو وحدة العقيدة ، واللغة ، الى جانب الوحدة السياسية ، والعرقية ، والتاريخية ، التى كانت له قبل ذلك ، وهو أمر هام

جدا لم يستطع الرومان ، ولا مسيحية بيزنطة ، أن تقدمه وتوفره لهما · وبفضل وحدة العقيدة واللغة هذه، انكب شعب الاقليم على الخلق ، والابداع ، والبناء الحضارى ، فى جو من الحرية السياسية ، والبحبحة الاقتصادية ، وقامت بالاقليم مراكز حضارية هائلة لا تقل مكانة عن مراكز الشرق الاسلامى مثل : القيروان وفاس ، وتيهرت ، وقلعة بنى حماد ، وبجاية ، ومراكش وتلمسان، الى جانب حواضر الاندلس الكبرى ، وصقلية ، التى تعتبر جزءا من هذا الاقليم ، ومن خلقه هو،وقد أخصب فيها الفكر ، ونفقت التجارة ، وتطور العمران، وازدهرت الفلاحة والحياة الاقتصادية فى معظم مجالاتها ، وتطورت الحياة الاجتماعية ، وانجب الاقليم أبطالا من عظماء الرجال ، وذوى مكانة عالية ، أمثال ، طارق بن زياد ، وأسد بن الفرات وجوهر الصقلى ، وجعفر بن فلاح ، وبلكين بن زيرى ، وحماد بن بلكين ، وعبد المؤمن بن على ، وياغمراسن · امتد أثرهم الى خارج الاقليم ، وكان من نتيجة أعمالهم ، خلق الاندلس ، وصقلية الاسلاميتين بأوروبا ، وتأسيس القاهرة والازهر ، فى أرض الكنانة ، اللذين تحولا الى قلعة منذ ذلك اليوم للاشعاع الحضارى الاسلامى ·

كما أنجب الاقليم فطاحل الشعراء ، والادباء ،والكتاب ، والمفكرين ، والفقهاء ، أمثال : ابن رشيق المسيلى ، وسحنون القيروانى ، وابن عرفة التونسى ، والقاضى عياض السبتى ، والشريف السبتى الادريسى ، وابن مرزوق الخطيب ، والحفيد ، والمقرى التلمسانيين ، والغبرينى الجرجرى ، والثعالبى ، وابن معطى ، والشيخ ابن مروان العنابى ، وغيرهم · شاركوا كلهم فى بناء صرح تلك الحضارة الرائدة التى ستكون أهم رافد لنهضة أوروبا ، ويقظتها (I) ، لان حضارة هذا الاقليم الاسلامية هي التى حملها شعب هذا الاقليم نفسه الى أوروبا عبر جناحيه : شبه جزيرة ايبيريا فى شماله الغربى ، وجزيرة صقلية ، وجنوب ايطاليا فى شماله الشرقى ، ومن هناك انتقلت وتسربت الى معظم أنحاء أوروبا الغربية والوسطى كما سيأتى ، وهو صلب هذا الموضوع ·

حالة أوروبا فى العصر الوسيط :

وفى الوقت الذى كان فيه الغرب الاسلامى ، وشرقه ، يعيشان هذه النهضة الواسعة سياسيا ، واقتصاديا، وثقافيا ، واجتماعيا ، كانت أوروبا تمر بأزمة تخلف حادة ، وواسعة ، كثيرا ما يعبر عنها وعن زمانها ، بالعصر المظلم ، شملت معظم ميادين الحياة ·

ففى الميدان السياسى ، كانت صفات الاستبداد، والجور، والظلم ، هي الطابع

(I) يحيى بوعزيز : جهود الجزائر الفكرية فى موكب الحضارة العربية «**الاصالة**» عدد I9 · (الجزائر ــ مارس ــ أبريل I974) ص 287 ــ 30I ·

الـذى يميـز الحكـام ، والامـــراء ، والاباطرة · وكان الشكل الامبراطورى هو السائد على معظم شعوب أوروبـــا التى حشرت قسرا تحته ، رغم كونهـا تختلف فيمـا بينهـا عرقـا · ولغـة ، وتاريخا ، وعادات ، وتقاليد · ونتـج عن كل ذلك انتشار الحروب والثورات والقلاقل ، فيما بينها حقبا طويلة مــن الزمــن (2) ·

وفى الميدان الاقتصادى كان الفقـر هو الظاهرة الغالبة على شعوب أوروبا، لان الارض التى هي مصدر الثـــروة والغنى ، فى العصر الوسيط ، كـــانت ملكيتها احتكارا لفئة صغيرة وأقلية من الناس ، يدعــون : رجـال الاقطـاع ، ويتمثلـــون فى الامـــراء والملـــوك ، وحاشياتهم ، أما أغلبية المجتمعـــات الاوروبيـة ، فكانت فقيـرة معدمـة ، سخرهـــا هؤلاء الاقطاعيـون لخدمـة أراضيهم بأجور زهيدة جدا · وبمـــا أن هذه المجتمعات لا مجال لها للعمـل الا فى أراضى الاقطاعيين ، فقد أصبـح يعبر عن أفرادها بأقنـان الارض ، أو رقيق الارض لارتباط حياتهم بها ، ولكن لصالح غيرهم · ومن هنا كثر فيما بينهم تفشى الامـراض المعدية ، والاوبئـــة ، والمجاعاة الحـادة (3) ·

وفى الميدان الثقافى كان الجهل هو الطابع المميز لاوروبا نظرا لانتشار الفقر من الناحية الاقتصادية ، ولتحكم الكنيسة فى الفكر ، واحتكارها له وفرضهـــا اتجاها خاصا لا يتلاءم الا مع مصالحها وسياستها الخاصة · وفى نفس الوقت حرمان الطبقة المثقفة من استعمال فكرها ، وبذلك حبست الكنيسة أذهان الاوروبيين فى أقفاص مظلمة عدة قرون ، ومنـعت شعوب أوروبـا مـن التطـور الفكـرى والثقافى · وزاد فى الطين بلة جهــل أوروبا بالوسائل التى تساعد عـــلى انتشار العلم ، كالورق الذى انتشـرت صناعتـه بالعالـم الاســلامى غربـــه وشرقه (4) · يضاف الى هذا أن أوروبا لم تكن تملك لغة للعلم مشتركـة ، لان اللاتينيـة كانت لغـة الكنيسـة فقـط ، واحتكـــارا لرجـال الـدين فيهـا وفى الاديرة ·

وفى الميدان الدينى احتكرت الكنيسة لنفسها تفسير الكتاب المقدس ، وادعت لشعوب أوروبا ، بأن تعاليمها أزلية من عند الله ، وليس من حق أحد أن يناقشها أو يحاسبها على أعمالها ، وعلى هـذا الاساس خلقت فى الدين المسيحى ما ليس فيه ، وفرضت سيطرتها حتى عـــلى الاطار السياسى المتمثل فى الامـــراء والملوك ، واستغل رجال الدين الامـوال

---

(2) د· محمد فؤاد شكرى ، د· محمد أنيس : أوروبا فى العصور الحديثـــة · (القاهرة 1956 ــ 1057) ص 17 ــ 33 ·

(3) د· سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصـــور الوسـطى · الجـزء الثانى · نظم وحضارة · (القاهرة ــ 1959) ص 43 ــ 91 ·

(4) نفس المصدر · ص 123 ــ 1550 ·

الطائلة التى ترد على الكنيسة فى حياة اللهو والمجون والخلاعة ، وزاغوا عن الطريق المستقيم ، وتحولوا الى رجال أعمال بدلا من صبغتهم الدينية (5) ٠

وفى الميدان الاجتماعى كانت الطبقية هي السائدة فى مجتمعات أوروبا التى قسمت الى ثلاثة فئات متفاوتة ، فالنبلاء والاشراف رقم 1 ، ورجال الدين رقم 2، هم الذين كانوا يتمتعون بكل الحقوق ، ويحتكرون لانفسهم كل الامتيازات ، السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية، والثقافية ، رغم كونهم يمثلون أقلية صغيرة جدا ، بينما الطبقة العامة رقم 3، التى تمثل الغالبية العظمى للشعوب الاوروبية ، كانت محرومة من كل الحقوق ، وعليها فقط الواجبات والاعباء، لخدمة الطبقتين الاولى والثانية ، النبلاء والاشراف ، ورجال الدين ، ودفع الضرائب التى لا تتناسب مع امكانياتها المادية المحدودة ، لهما وللدولة (6) ٠ ان ظاهرة الطبقية هذه من أشنع خصائص تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، فى حين كانت المجتمعات الاسلامية فى الغرب الاسلامى ، وشرقه ، يسودها العدل ، والاخاء ، والمساواة ، الكاملة فى الحقوق والواجبات ٠

معابر الحضارة الاسلامية الى أوروبا :

هكذا يتضح أن هناك عدم توازن من الناحية الحضارية بين العالم الاسلامى غربه وشرقه ، والعالم الاوروبى فى العصر الوسيط ٠ فبينما بلغ الاول شأوا عاليا فى التطور والتقدم فى أوسع مجالاته ، انحط الثانى الى أقصى درجات التخلف ، ومع ذلك لا ينبغى المبالغة فى هذا الميدان ، لانه ليس معنى ذلك أن أوروبا ليس لها تراث أصلا ، وكل ما فى الامر انه عند المقارنة نجد فرقا كما بينا ٠ ولا شك أن للعالم الاسلامى ، بحضارته وتقدمه ، تأثيرا كبيرا على العالم الاوروبى فى العصر الوسيط ، ومطلع العصر الحديث ٠

وقد وصل هذا التأثير الاسلامى اليه عن طريق معابر أربعة أهمها : معبرا الغرب الاسلامى المتمثلان فى الاندلس ، وصقلية ، أما معبر مصر والشام ، ومعبر آسيا الصغرى ، خلال توسع العثمانيين فى شرق أوروبا ، فقد حالت الحروب الكثيرة ، والطويلة على أديمها دون ايصال هذا التأثير الاسلامى بشكل بارز، وهذا لا يعنى التقليل من دورهما على أي حال ، غير أن الاندلس وصقلية سيبقى دورهما بارزا ، ورئيسيا ، مع المغرب العربى ، فى تحضير أوروبا ، وتمدينها ، وايقاظها ، فعن طريقهما دخلت العلوم والمعارف العربية الاسلامية الاصيلة ، والاغريقية المترجمة الى أوروبا ابتداء من القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين بواسطة تجار

(5) نفس المصدر ٠ ص 1 ـ 42 ٠

(6) ج ، و ٠ كوبلاند ، ب٠ فينوجرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ٠ ترجمة محمد مصطفى زيادة ٠ (القاهرة 1958) ص 47 ـ 133 ٠ عاشور ص 63 ـ 91 ٠

ايطاليا ، والبندقية ، وجنوة ، وبيزا . قال ديورانت ، فان النقل فى الحضارة كشأن التناسل فى الحياة (7) .

فبلاد الاندلس الاسلامية ، التى تمثل المعبر الاول ، هي التى قدمت لغرب أوروبا خلاصة الفكر الاسلامى فى الآداب والعلوم ، والفنون ، والفلسفة ، وعرفته بكثير من تراث الاغريق القديم الذى حفظه المسلمون من الاندثار ، وحموه من الضياع بفضل نقلهم له وترجمته الى اللغة العربية ، لغة العلم والحضارة فى العصر الوسيط (8) .

والعجيب فى الامر أن شبه جزيرة ايبيريا (الاندلس) هذه قبل دخول الاسلام اليها كانت تعيش فى جو من الفوضى ، والاضطراب ، الدينى ، والسياسى ، والطبقية الاجتماعية، وذلك لسوء سياسة العناصر القوطية الحاكمة هناك . والتى هي صنوة الوندال المتوحشين الراحلين ، غير أن شعوب المغرب العربى الاسلامى ، حملت اليها الاسلام ، وأصلحت أحوالها ، السياسية والاجتماعية ، ونشرت فى ربوعها وبين أهلها ، الامن والاستقرار ، ووجهت شعبها بعد ذلك الى عمل البناء والتشييد الحضارى كاحياء الاراضى ، وتنشيط التجارة ، وانعاش الصناعات ، وتطوير حركة العمران ، حتى أصبحت فى ظل الخلافة الاموية من أغنى بلدان أوروبا وأكثرها كثافة وسكانا . ثم انكب بعد ذلك ، ومن ورائه دائما ، شعوب المغرب العربى التى تعتبر معينا له ، على الخلق والابداع فى ميادين : العلوم والآداب ، والفنون ، وفتح بأعماله وجهوده ، آفاقا كبيرة ، وواسعة ، لاوروبا خاصة ايطاليا التى ظلت تستفيد منه منذ أواخر القرن الحادى عشر الى ما بعد القرن السابع عشر .

وكانت طريقة الشعب الاندلسى المسلم فى الحصول على العلوم والمعارف ، فى بداية أمره ، من المغرب والمشرق الاسلاميين ، تتم اما باستدعاء بعض العلماء من هناك مثل أبى علي القالى ، أو بتسفير بعثات علمية الى هناك مثل بعثة يحيى بن يحيى الليثى (9) .

واما بجمع الكتب التى هي أهم وسائل النشاط العلمى والثقافى ، كما فعل الحكم الثانى المستنصر (10) .

وبعد أن تشبع المجتمع الاندلسى بالثقافة والحضارة العربية الاسلامية عن طريق شعوب المغرب العربى ، شرع

(7) ول . ديورانت : قصة الحضارة . ترجمة محمد بدران . ج 17 . ط 2 (القاهرة 1966) ص 169 .

(8) د . جمال الدين السيال : اثر الاسلام والعرب فى النهضة الاوروبية - (القاهرة 1970) ص 365 ـ 378 .

(9) عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الاندلس . (القاهرة 1958) ص 97 ـ 109 .

(10) نفس المصدر . ص 140 ـ 144 .

فى الخلق والابداع والابتكار فى نفس الخط والاطار . ولم يحل النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى حتى بلغت الحضارة الاسلامية أوجها بالاندلس ، وغدت قرطبة احدى عواصم العالم الكبرى بسكانها الذين زادوا على مليون نسمة ، ومنازلها التى زادت على مائتى الف مسكن ، وبأضواء شوارعها الليلية التى لم تعرف مثلها مدينة لندن الا بعد سبعة قرون من ذلك (11) .

ومن أسباب وعوامل ازدهار النهضة الاسلامية بالاندلس ، تسامح الاسلام والمسلمين بها ، تجاه أهل الذمة من اليهود والنصارى ، واقبال المستعمرين الاسبان على تعلم العربية واستعمالها فى نشاطاتهم المختلفة ، خاصة التأليف والترجمة، باعتبارها لغة العلم والحضارة آنذاك ، ثم قيامهم بعد ذلك بدور الوسيط بين هذه الحضارة الاسلامية من جهة ، وشعوب غرب أوروبا وجنوبها الغربى، ووسطها من جهة أخرى .

وعندما سقطت طليطلة عاصمة الثغر الاوسط فى يد النصارى الاسبان عام 1085 م ، تقاطر اليها الاوروبيون من كل الانحاء للاستفادة من الدراسات الاسلامية ، وثقافة المسلمين ، فنشطت حركة الترجمة من العربية الى الاسبانية القشتالية ، والى اللاتينية ، بشكل واسع منقطع النظير ، واستمرت كذلك الى ما بعد القرن الخامس عشر والسادس عشر ، سواء من العلوم العربية ، أو اليونانية المترجمة اليها مثل : جالينوس . وأبقراط ، وافلاطون ، وأقليدس (أيوكليد) . ووجد من حكام اسبانيا المسيحيين من قدر الثقافة العربية الاسلامية مثل الفونسو العاشر الحكيم (1252 — 1284) الذى أسس مدرسة خاصة للدراسات الشرقية ، استخدم فيها أبا بكر الراقوطى كأستاذ ومدرس لاجيال من المسيحيين واليهود على ما قيل ، وكان هذا الرجل أعلم علماء عصره على ما قيل أيضا (12) .

وقد عاد هؤلاء الذين تقاطروا على الاندلس الى أوروبا بالعلوم والمعارف الاسلامية التى فتحت آفاق المستقبل لهم ، وأحدثوا فى الحياة الذهنية الاوروبية انقلابا عظيم الاثر على التطور الاوروبى (13) .

وبعد الاندلس تأتى جزيرة صقلية كجسر ثان ومعبر ، لحضارة المسلمين فى الغرب الاسلامى ، الى أوروبا . وهي شبه جزيرة مثلثة الشكل ، تقسم البحر المتوسط الى قسمين ، ولا تبعد عن الحذاء الايطالى الا بمضيق مسينا

---

(11) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب . اثر الحضارة العربية فى أوروبا . ترجمة : فاروق بيضون ، وكمال دسوقى (بيروت 1964) ص 499 — 502 .

أحمد أمين : ظهر الاسلام . (القاهرة 1953) ج 3 ص 22 — 23 .

(12) الفريد قيوم : تراث الاسلام . تعريب : جرجيس فتح الله . (القاهرة ط 2 أكتوبر — 1972) ص 354 .

(13) ديورانت : نفس المصدر . ص 14 .

الصغير الذى لا يزيد عرضه على ثلاث كيلو مترات · وفتحها الاغالبة من القيروان بالمغرب الادنى أوائل القرن التاسع الميلادى ، (817 م) وبقيت تحت سيطرتهم حوالى قرنين ونصف قرن حتى عام 1060 م ، فاهتموا بالاعمال الفلاحية بها · وتطوير وسائل الري ، واصلاح الاراضى ، والترع ، والسدود، وأنشأوا المجارى المائية المعقوفة ، وأدخلوا اليها زراعة القطن ، وقصب السكر ، واستغلوا ثرواتها المعدنية كالحديد ، والنحاس ، والفضة ، فى صناعة العملات ، وبعض الآلات والادوات الاخرى ، كما أدخلوا صناعة الحرير ، وبعثوا الحركة التجارية وطوروها ، ونشطوها ، ثم اتجهوا الى النشاط العلمى والثقافى ، حتى حولوا الجزيرة الى معقل للعلوم والمعارف ، وتغنى الجغرافى الادريسى ، والرحالة ابن جبير ، بمفاخر هذه الجزيرة العمرانية، والاقتصادية : الفلاحية والتجارية وبقصور ، ومساجد ، ومتنزهات ، ومباهج ، وأحياء مدن : باليرمو ، وسرقوسة ، ومازرة ، ومرسى على ، وغيرها (14) ·

وعندما سقطت هذه الجزيرة فى أيدى النورمان فى مطلع النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ، اهتم ملوكهم بالتراث الاسلامى على عكس الاسبان بالاندلس ، فشجع روجر الاول Roger i مظاهر الحركة الاسلامية ، برعايته الجالية الاسلامية الافريقية ، وكتب على مراسيمه بالعربية الى جانب اللاتينية ، واليونانية ، كما كتب بالعربية على نقوده أيضا · وكذلك فعل روجر الثانى ، فكلف الشريف الادريسى بتأليف كتاب له فى جغرافية الارض ، وما يزال حتى اليوم فى متحف نور مبورج ، الرداء الحريرى الذى اعتاد ملوك النورمان على لباسه ، وهو مطرز بكتابات عربية بالخط الكوفى يرجع الى عام 1133 م · وحتى فريدريك الثانى فى القرن الثالث عشر ، أحاط نفسه بالمظاهر العربية الاسلامية ، وبحاشية اسلامية افريقية حتى دعي بالامبراطور نصف الشرقى · وشجع العلماء ، والجغرافيين ، والفلكيين ، والادباء المسلمين كثيرا (15) ·

ومن هذه الجزيرة الصغيرة حجما ، والعظيمة تقدما ، أخذت الحضارة الاسلامية الافريقية طريقها الى مدن الحذاء الايطالى مثل : أمالفى ، وبيزا، وجنوة ، ومنها الى فرنسا وغرب أوروبا، ووسطها ·

ومن دلائل تأثير الغرب الاسلامى على أوروبا ، حضاريا ، ان الملك الانجليزى جورج الثانى أرسل وفدا من ثمانية عشرة فتاة من بنات أمراء وأشراف انجلترا على رأسهن ابنة أخيه الاميرة دوبانت ، ورئيس ديوانه ، الى بلاط هشام الثالث

---

(14) الشيال : نفس المصدر · ص 379 ـ 389 ·

(15) أحمد توفيق المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا · (الجزائر ـ 12 ربيع الاول 1365) ط 1 · ص 284 ·

الاموى بالاندلس لدراسة نظم الحكم والدولة وآداب السلوك وكل ما يؤدى الى تهذيب المرأة ، وأرسل مع هذا الوفد هدية ورسالة ، نصها المهندس زكريا هاشم زكريا (16) ٠

وعلى غراره فعل الملك الجرماني ، فأرسل وفدا برئاسة وزيره الاول ويليمين الذى سماه الاندلسيون وليم الامين ، للتعلم والتزود بالثقافة الاسلامية ٠ وأرسل ملك بافاريا بعثة الى الاندلس ، بعد أن استأذن من الخليفة هشام الاول، لدراسة نظم التعليم ومناهجه ، وأساليب الادارة والحكم ٠ وعند عودته زوده الخليفة بوفد من المسلمين كمستشارين وخبراء ليساعدوا الملك فيليب فى كل ما يراه ٠ وأخذ ملوك أوروبا الآخرون يفعلون مثلهم وعلى غرارهم حتى ان كثيرا من الاعمال العمرانية بأوروبا كالسدود والجسور ، أقامها مهندسون مسلمون أندلسيون من ضمنها جسر هشام على نهر التايمز بانجلترا الذى سمي باسم الخليفة هشام الثانى على ما ذكره زكريا هاشم (17) ٠

وقد أكد لوبون بأنه لا يوجد فى اسبانيا المعاصرة من أعمال الري الا ما انشاه المسلمون وخلفوه وراءهم رغم ما حاوله الاسبان من أجل محو وطمس آثار المسلمين بها (18) ٠

لقد كان دور المسلمين فى الغرب الاسلامى وشرقه عظيما جدا ، فى ميدان الحضارة بالنسبة لاوروبا ، فقد حفظوا التراث من الاندثار ، وترجموه ونقلوه الى العربية ، لينقل بعد ذلك الى اللاتينية وباقى اللغات الاوروبية الحديثة ، فى أواخر العصر الوسيط ، ومطلع العصر الحديث ، وقاموا بدور الوسيط بعد ذلك بين الحضارات القديمة والحديثة من جهة ، وبين الشرق الاسلامى والآسيوى ، والغرب الاوروبى من جهة أخرى ٠

هكذا وجد الاوروبيون عندما استيقظوا من نومهم ، تراثا هائلا ومعينا لا ينضب من المؤلفات العربية الاسلامية فى شتى العلوم والفنون فمالوا الى استغلالها بمختلف الوسائل خاصة بعد أن اشتد عليهم ثقل الكنيسة وكابوسها ، وتزمتها الشديد القاتل ، الذى حاول أن يفرض عليهم دائرة ثقافية خاصة وضيقة ، فأصبحوا يتطلعون الى حياة علمية وفكرية أكثر خصبا ، وتنوعا ، وفى جو من الحرية التى اعتاد عليها ابن رشد وأمثاله من المفكرين والفلاسفة المسلمين ، فانكبوا على دراسة مظاهر الحضارة الاسلامية بشغف وحماس ، ونهم ، وشراهة ، منقطعى النظير ، ترك

---

(16) زكريا هاشم زكريا : فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم (القاهرة 1970) ٠ ص 24 — 25 ٠

(17) نفس المصدر ٠ ص 25 ٠

(18) غوستاف لوبون : حضارة العرب ٠ ترجمة عادل زعيتر (القاهرة 1964) ص 294 ٠

آثارا واضحة فى الحياة الفكرية الاوروبية ، وفى جامعات أوروبا منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى . فقد اهتموا بتعلم اللغة العربية التى تساعدهم على فهم وترجمة ذلك التراث الى لغاتهم ، مما جعل روجى باكون (1215 ـ 1292) ، يؤكد بأن الفلسفة مستمدة كلها من العربية ، ولذلك لا يمكن لاي شخص أوروبى لاتينى ، أن يفهم فلسفة العلم ، الا اذا تعلم العربية التى أصبحت شرطا أساسيا للمثقف الاوروبى . فأولت الجامعات الاوروبية عناية بها فائقة حتى القرن الثامن عشر، بل وأوائل القرن التاسع عشر . وبقيت آراء ابن رشد المحور الاساسى فى تدريس الفلسفة بفرنسا منذ القرن الثالث عشر ، واعترف لويس 15 بذلك عندما نظم التعليم فى بلاده أواخر القرن 15 ، وأكد غوستاف لوبون بأن أساتذة جامعة مونبيلى Montpellier لم يكفوا عن شرح كتابات ابن سينا فى الطب الا منذ نصف قرن فقط (19) .

وحتى فى جامعات ايطاليا ، خاصة بادوا ، كان نفوذ الفكر العربى الاسلامى لا يقل شأنا عنه فى فرنسا ، وأصبحت الدراسات الاسلامية ذات شأن كبير ، جعلت بيترارك يصيح فى وجه مواطنيه قائلا : يا للعجب ! لقد استطاع شيشرون Ciceron أن ينبغ فى الخطابة بعد ديموستين Démosthène واستطاع فرجيل Vergil أن ينبغ فى قرض الشعر بعد هيوم ، فهل قدر علينا نحن الا نكتب بعد العرب ! لقد أدركنا الاغريق وجميع الشعوب ، وسبقناها فى بعض الاحيان ما عدا العرب (المسلمين) ، فيا للحماقة، ويا للجهل ، ويا للعبقرية الايطالية الخامدة (20) .

حركة الترجمة ودورها فى نهضة أوروبا :

والذى ساعد على ازدهار هذه النهضة، هو نجاح تيار حركة الترجمة الواسعة من العربية الى اللاتينية بواسطة جيل من العلماء والمثقفين ينتمون الى عدة فئات متنوعة . وهي نفس العملية التى قام بها المسلمون فى بداية نهضتهم العلمية فى المغرب والمشرق الاسلاميين، فالتاريخ يعيد نفسه هنا فى هذه القضية .

لقد ترجم يوسف قمحى اليهودى (1105 ـ 1190) ، فى ناربونة كتاب « المرشد الى واجبات القلب » للفيلسوف اليهودى بهية . وترجم صمويل بن طبون اليهودى « دليل الحيران » لابن ميمون . وترجم موسى بن طبون كتاب : العناصر لاقليدس، وكتاب : القانون ، لابن سينا ، والترياق للرازى ، وشروح ابن رشد لارسطو ، ومؤلفات ابن ميمون . وترجم الطبيب والفيلسوف شم طب (1264) كتاب : المنصورى ، للرازى ، فى مرسيليا . كما

(19) د. غوستاف لوبون : (ص 518) .
(20) نفس المصدر . ص 591 .
(21) ديورانت : ج 17 ، ص 15 ـ 16 .

ترجمت كتب أخرى مثلها من العربية الى العبرية مثل كتاب اليسير لابن زهر فى بادوا (1280) ، وكليلة ودمنة ، وذلك من طرف هذه الفئة اليهودية التى تعرف العربية وهاجر البعض منها الى جنوب فرنسا ·

غير أن التيار الرئيسى للفكر الاوروبى من التراث الاسلامى ، كان عن طريق ترجمة الكتب العربية الى اللاتينية · فجمع ريموند المستنير المتسامح (1130) كبير أساقفة طليطلة ، عددا كبيرا من المترجمين برئاسة دومنيكو جنديلسقى، وعهد اليهم بترجمة الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وكان من بينهم يهود يعرفون العربية ويتقنونها الى جانب العبرية واللاتينية ، مثل حنا الاشبيلى ابن داود الذى ترجم عددا هائلا من المؤلفات العربية لابن سينا ، والفارابى ، والغزالى ، والخوارزمى · ومثل جيرارد الكريمونى الذى قدم الى طليطلة عام 1165 وأعجب بتراث المسلمين فى العلوم والفلسفة ، فترجم احدى وسبعين كتابا عربيا على ما قيل لعدد كبير من المفكرين المسلمين فى مختلف العلوم والفنون والآداب (22) ·

ويلى الاندلس فى الاهمية ، فى تزويد أوروبا بالثقافة الاسلامية ، صقلية الاسلامية كذلك ، لان النورمان بعد أن سيطروا عليها حافظوا على التراث العربى الاسلامى ، وشجعوه ، واستعمل فريدريك الثانى فى بلاطه المفكر ميخاييل اسكوث الاسكتلندى الاصل للترجمة ، وعاش فى طليطلة ، وبولونيا ، وروما ، ثم فى فوجيا (نابولى) · وقام بحركة ترجمة واسعة للتراث العربى على غرار جيرارد الكريمونى فى اسبانيا ، ففتح بذلك آفاقا لروجى باكون Roger Bacon والبرت ماجنا ، فى القرن الثالث عشر · وواصل شارل صاحب أنجو عمل الترجمة ، وشجعها فى جنوب ايطاليا ، واستعمل العالم اليهودى موسى من أهل سالرنو فى هذه الحركة ، كما استعمل اليهودى فرج بن سالم الجرجنتى ، الذى ترجم كتاب الحاوى للرازى ، وعددا آخر من المؤلفات العربية الاصلية أو المترجمة من اللاتينية · ولعب نفس الدور ، قسطنطين الافريقى، والحسن الوزان ، الذى يلقب بليون الافريقى ، فألفا وترجما عددا كبيرا من المؤلفات العربية الى اللاتينية (23) ·

نماذج مما قدمه الغرب الاسلامى الى أوروبا من مظاهر حضارية ، ودورها فى يقظتها ونهضتها ·

لقد شملت جهود المسلمين الحضارية ميادين كثيرة ، فى الآداب ، والفلسفة، والرياضيات ، والفلك ، والعلوم الطبيعية ، والطب ، والجغرافية ، والفنون ، والصناعات ، وغيرها · وكان لشعوب الغرب الاسلامى دور بارز فى

---

(22) نفس المصدر · ص 16 ـ 17 ·
(23) نفس المصدر · ص 18 ـ 22 ·

ذلك ، خلقا وابداعا من جهة ، وتأثيرا وايصالا الى أوروبا من جهة أخرى ٠

ففى ميدان الآداب ، كان الفكر اللاتينى ، يتصف بالجفاف ، والجمود ، فى حين تتصف الآداب الاسلامية بالخصوبة والابداع ، ولذلك اتجه اليها الاوروبيون ، ليشفوا غليلهم ، ويشبعوا نهمهم ، وليزيلوا الجمود الذى سيطر على عقولهم حقبا طويلة من الزمن ، مما جعل روسكين جب يقول : « ولعل خير ما أسدته الآداب الاسلامية لآداب أوروبا أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربى ، فى شعر ونثر العصور الوسطى » (24) ٠ فتمكنوا بفضلها من خلق نزعة جديدة فى آدابهم الاوروبية تتمثل فى النزعة الرومانتيكية خاصة فى ميدان الغزل الرقيق ، والرثاء الباكى (25) ٠

لقد أثر الادب العربى الاسلامى المغربى ، تأثيرا كبيرا ، وبالغا ، فى الدراسات النثرية الاوروبية ، خاصة القصص الخرافية ذات المغزى والهدف الاخلاقى التى تتخذ الحيوان موضوعا لها ٠ وكان الادب الاسبانى أول من تأثر به ، فنقل بطرس الفنونس اليهودى مجموعة قصص هندية من العربية الى الاسبانية عرفت باسم : التعاليم المسيحية ٠ وترجمت كليلة ودمنة الى الاسبانية عام 1251 ٠ وقصة الحكماء السبعة (سندباد البحرى) سنة 1253 ٠ وتوالى بعد ذلك ترجمة الكتب والدراسات الادبية فى معظم أنحاء أوروبا ٠ وأكد جب بأنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن ما تمتاز به آداب جنوب أوروبا من انبساط وخيال خصب انما يرجع الى تأثرها بالبيئة العربية ، والى ما خلفته الثقافة العربية فى أهل الاندلس من تأثير (26) ٠

وبفضل هذا التأثير ، برز وجه الشبه بين بعض القصص العربية الخيالية ، ومثيلاتها الاوروبية فى العصرين : الوسيط والحديث ، مثل قصة ايزولد ذات اليد البيضاء Isolde Blanche Main وفلوار والزهرة البيضاء : Floire et Fleure Blanche والقاسينى نيكولت : Au Cassinet Nicolette التى لا يرقى الشك الى أصلها العربى الذى حرف من القاسم الى قاسينى (27) ٠

وتبدو روح الادب الاسلامى الاندلسى واضحة فى قصة أماديس دوقوالا Amadis de Gauala التى كتبت فى القرن 13 ، كما تبدو فى غيرها من القصص الاوروبية، وقصص الموريسكيين، وبلغت الذروة فى قصة «الحرب الاهلية»

---

(24) السيرها ملتون اليكساندر روسكين جب : تراث الاسلام ٠ (دار الطليعة للطباعة والنشر ــ بيروت 1972) ص 189 ــ 190 ٠

(25) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج 3 ٠ ص 308 ٠

(27) لوبون ، حضارة العرب ، ص 474 ٠ وروسكين جب ٠ تراث الاسلام ٠ ص 277 ــ 279 ٠

لجينزبيريز الهيتى Ginès Pérez de Hitai وهي كلها تشكل مجموعة من الثقافة العربية الاندلسية التى قدر لها أن تصبح نقطة تحول فى تاريخ الآداب الاوروبية الحديثة ، أدت الى ميلاد الرواية الحديثة ·

وقد أكد دبريسكوت Prescott الامريكى بأن قصة دون كيشوت Don Quichotte للكاتب الاسبانى الشهير ميقيل سيرفانتيس Miguel Cervantès (1547 ـ 1616) ، الذى كانت العربية فى عهده ما تزال متداولة بالاندلس ، تعتبر أندلسية قلبا وقالبا ، بأناقتها ، وحبكتها (28) · وأضاف تراند بأنها كتبت أصلا بالعربية ، وهي لمؤرخ عربى جغرافى اسمه سيدى حامد بنقالى Sidi Hamed Bengueli وذلك لان جميع قصص الفروسية قد أثر عنها بأنها أخذت من أصل عربى (29) · وهذا الحكم على قصة سيرفانتيس يسرى على قصص أخرى لا تقل شأنا عنها فى ميدان الادب مثل قصة رودينسون كروس : Rodinson Crusse التى اقتبست من قصة حي ابن يقظان للكاتب الاندلسى المشهور ابن طفيل التى ترجمت الى اللاتينية عام 1671 ، والى الانجليزية عام 1708 (30) ·

وكان للموشحات والازجال الاندلسية، تأثير كبير على الآداب الاوروبية الحديثة ، وبدأت تظهر أواخر القرن التاسع الميلادى على يد محمد بن حمود القبرى الضرير المدعو كذلك مقدم بن معافر القبرى ، وهي السبب فى ظهور ما سمي بشعر التروبادور ، أو الاداء الغنائى فى القرن الثانى عشر بشمال اسبانيا ، وجنوب فرنسا قبل أن ينتقل الى جهات أخرى فى جنوب ووسط وغرب أوروبا ، وتولد عن هذا الشعر ، أو أدب التروبادور ، ما عرف بشعر الجونقلور : Jhon Gleurs أو أدب الصعاليك (31) والمشردين مثل قصة الفارس ثيقار Elcavallero Cifar ذات الروح العربية (32) ·

وأحسن مثل لتاثير الآداب الاسلامية المغربية على الآداب الاوروبية ، قصة الكوميديا الالهية الشعرية لدانتى ، التى استقاها واقتبسها على ما يظهر ، من قصة ابن عربى وأستاذه ابن مسرة، خاصة القسم المعروف بالفردوس والمعراج ، كما أكد ذلك القس بلاثيوس · اذ لا يوجد أي اختلاف بينهما سوى أن ابن عربى استعمل فى روايته بطلين، ودانتى استعمل بطلا واحدا فقط هو

(28) روسكين جب · ص 194 و 287 ·

(29) جون برنارد قراند : تراث الاسلام ، ص 71 ـ 72 ·

(30) جورج يعقوب : أثر الشرق · ترجمة فؤاد حسنين علي (القاهرة 1946) ص 81 ـ 84 ·

(31) د· سهير القلماوى ، د· محمود علي مكى : أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية · (القاهرة 1970) ص 36 ـ 58 ·

(32) روسكين جب · ص 188 ·

شخصه مقرونا مرة بفرجيل ، وأخرى بعشيقته بياتريسي . ولقصة دانتى هذه الشعرية ، شبه كذلك برسالة الغفران للمعرى (33) .

وكذلك قصة الدوكاميرون Decamerone النثرية المشهورة لجيوفان بوكاشيو : Giovanni Bocaccio أو الليالى العشرة، التى كتبها على لسان عشرة أشخاص : سبعة رجال ، وثلاثة نساء ، هربوا من الطاعون الذى تفشى فى ايطاليا وكل بلدان البحر المتوسط عام 1348 ، والذى خصه الكاتبان الاندلسيان : لسان الدين ابن الخطيب القرطبى ، وتلميذه ابن خاتمة الميرى ، برسالتين ما تزالان مخطوطتين على ما قيل حتى اليوم . وكذلك كتاب : Ilcorbaccio **الذى** وضعه بوكاشيو فى مثالب النساء وكيدهن ، وخيانتهن ، على غرار القصص العربية الاسلامية مما يدل على تأثير الادب العربى فيها (34) .

وكما أثرت الآداب العربية الاسلامية للغرب الاسلامى ، فى الآداب الغربية الاوروبية ، أثرت كذلك فلسفة الغرب الاسلامى فى الفكر الاوروبى ، وكان لها باع طويل فى تطويره خلال العصرين الوسيط والحديث عن طريق الاندلس الاسلامية ومفكريها الكبار الذين اعترف الغرب الاوروبى نفسه بقدرتهم ، وبدروهم الكبير ، وأكد بيرنارد تراند بأن أعظم ما خلفه المسلمون للفكر الاوروبى هو أعمال فلاسفتهم (35) . ذلك أن الفلسفة الاسلامية فى الغرب الاسلامى فتحت أمام أوروبا آفاقا واسعة وجديدة ، ووجهت أنظارهم نحو ثقافات لم يكونوا يأبهون لها ، حببتهم فى الثقافة العربية، فجدوا فى طلبها ، والاخذ منها . وبواسطتها نفذوا الى ثقافة اليونان القديمة ، وعملوا على كشف ذخائرها (36) .

فقد اهتم فلاسفة المسلمين بنقل فلسفة الاغريق الى العربية ، وشرحها، ونقدها ، وبفضلهم تعرف الغرب عليها، واشتد حماسه للتعرف عليها ويتذوقونها حتى ظهر فلاسفة المسلمين ، ونقلوها الى العربية وشرحوها ، وعرضوها بصورة شاملة . وأهم فلاسفة المسلمين الطبيعية ، والطب ، والجغرافية ، والفنون، الذين أثروا فى الفلسفة الاوروبية ، فلاسفة الغرب الاسلامى ، وعلى رأسهم : ابن باجة السرقسطى (1106) وابن طفيل (1107 ــ 1185) ، وابن رشد الذى علقت تعاليمه بتعاليم فلسفة أرسطو (37) .

(33) سهير القلماوى . محمود علي مكى : أثر العرب والاسلام . ص 114 ــ 118
(34) نفس المصدر . ص 118 ــ 120 .
(35) جون بيرنارد تراند : نفس المصدر . ص 55 .
(36) د . ابراهيم بيومى : أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية . ص 191
(37) الفريد قيوم : تراث الاسلام . ص 240 .

ان ابن رشد أبا الوليد (1136 ـ 1198) أو أفيروايز Averroès يعتبر أكبر شارح لفلسفة أرسطو التى أعجب بها أيما اعجاب ، ووضع لها ثلاثة شروح مما جعل أرنست رينان يقول : بأن أرسطو ألقى على الكون نظرة صائبة ففسره وشرح ما غمض فيه · وأن ابن رشد عندما جاء ألقى على فلسفة أرسطو نظرة خاصة ففسرها وشرح ما غمض منها (38) ، ولذلك اعتبر شارحا أعظم فى حين اعتبر أرسطو فيلسوفا أكبر · ويمتاز ابن رشد بالصراحة ، والجرأة فى النقد ، وفى اعلان آرائه التى عرضته لتهم الكفر والزندقة ، فقد انتقد بطليموس ، وهاجم ابن سينا ، ورد على الفارابى ، والغزالى ، وكان شديدا فى نقده قاسى اللهجة (39) ·

ولم يحاول أن يقلب بين آراء أرسطو، والمبادىء الدينية ، كما فعل ابن سينا ، وابن ميمون · بل عبر عن تعاليم أرسطو بصورة صادقة ، وقال بأن العقل العام المطلق أبدي قابل للانفصال عن الجسم، وانكر الخلود والبعث ، وصرح بأن على المرء الا ينتظر ثوابا أو عقابا غير ما يلقاه فى هذه الحياة الدنيا ، واستنكر الاستبداد ، وأوضح بأنه لا فرق بين الرجال والنساء فى الطبع ، وانما فى الكم (40) ·

وقد أثرت فلسفة ابن رشد تأثيرا كبيرا ، فى فلسفة أوروبا ، ومنها اقتبس الغرب كل أفكاره الفلسفية · وكان من حسناتها أنها حلت عقال الفكر الاوروبى، وفتحت أمامه أبواب البحث والمناقشة على مصاريعها (41) · غير أن أفكار ابن رشد عارضت اتجاه الكنيسة المسيحية وتعاليمها ، فنقمت عليه ، وعلى أرسطو بالتبعية ، وأصدرت عدة قرارات فى القرن 13 حرمت بها تعليم وتبادل آرائها مع توقيع قرار الحرمان ضد كل من يردد فلسفتهما ، ومع ذلك فان تأثير ابن رشد وأساتذته بقى حتى القرن 15 وما بعدهما · وأكد دانتى اليجرى الشاعر الايطالى ، بأن ابن رشد يعتبر من عظماء الفلاسفة الذين شهدهم التاريخ ·

ان تعاليم ابن رشد الفلسفية هي التى دفعت الاوروبيين الى عصيان تعاليم الكنيسة ، والاخذ بمبدا الفكر ، وتحكيم العقل ، على أساس المشاهدة والتجربة، كما أثرت فى فلسفة توما الاكوينى (1225 ـ 1274) ، تأثيرا كبيرا لدرجة أن الفصول التى كتبها عن العقل والعقيدة ، وعن عجز العقل عن ادراك الاسرار الالهية ، عبارة عن مقابلة لما كتبه ابن رشد فى باب : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة » · واكثر

---

(38) E. Renan : Averroès et l'averroïsme (Paris 1866). p. 12.

(39) قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب · (القاهرة 1960) ص 206 ـ 207

(40) د· سعيد عبد الفتاح عاشور : فضل العرب على الحضارة الاوروبية · (مكتبة النهضة المصرية 1957) · ص 24 ـ 29 ·

(41) طوقان : نفس المصدر · 207 ـ 210 ·

من هذا فان طريقته فى معالجة وجود الله هي طريقة ابن رشد نفسه ، ويحوى كتابه الخلاصة ، مذاهب اسلامية الاصل مما يثبت أن الاثر الذى تركه ابن رشد فى عقلية الغرب لم يكن مجرد شروح لكتابات أرسطو ، وانما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير (42) · ويعود ذلك الى تأثير ابن رشد ، وكتبه المختلفة مثل : الكليات فى الطب ، وكتاب الترياق ، اللذين ترجما وطبعا عام 1552 بالبندقية، وكتاب السوم الذى ترجم وطبع فى بوغدونى عام 1517 ، وتوالى بعد ذلك طبعها مرات عديدة (43) ·

وفى ميدان الرياضيات ، خطا المسلمون خطوات هائلة ، فى تطوير علوم الحساب والهندسة ، والجبر ، والميكانيكا ، وحساب المثلثات ، والفلك · نقلوا أصول هذه العلوم من الاغريق والهنود ، ثم عكفوا على دراستها ، والاستفادة منها ، فأصلحوا ما بها من أخطاء ، وأكملوا ما بها من نقص ، وأضافوا اليها بعد ذلك معلومات جديدة، خاصة مادة الحساب ، لم يكن الاوروبيون على علم بها ، ولم يتعرفوا عليها الا منهم وبواسطتهم · فهم الذين عرفوا بنظام الاعداد الهندسية ، والصفر ، اللذين يمثلان ثورة بحق فى علم الحساب، واستطاعوا بهما أن يزيلوا ذلك التعقيد الذى كان فى النظام العددى الرومانى، واستعملوا نظام الترقيم بدلا من حساب الجمل الذى كان سائدا فى العصور القديمة خاصة عند الرومان ·

لقد تمكن المسلمون من ايجاد خانات للاعداد ، ووضع صفوف الآحاد ، والعشرات ، والمئات ، والآلاف ، وما بعدها · وصار بالامكان تغيير قيمة الرقم الواحد حسب الرتبة التى يوضع بها بينما فى النظام الرومانى لا يتغير أبدا حتى ولو غير مكانه · فالارقام التالية تكتب فى النظام العربى الجديد بشكل يختلف عن النظام اللاتينى :

CCCCLXXXVII = 487
CCCLXXXIII = 383
MMMDCCCCLII = 3952
DCCCCXXXXVIII = 998

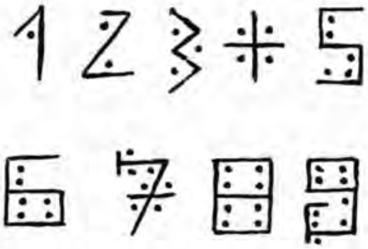
وذلك على أساس أن كل شكل له قيمة خاصة مثل

10 = X ; 1 = L ; 1.000 = M ; 500 = D
100 = C ; 50 = L (44).

ولما كان لدى الهنود أشكال مختلفة للترقيم فقد اختاروا من عندهم سلسلتين، عرفت احداهما بالارقام الهندية (٥,٤,٣,٢,١) وهي التى تستعمل فى المشرق العربى الاسلامى ، حتى اليوم · وعرفت الثانية باسم الارقام الغبارية وهي التى استعملت فى بلاد المغرب الاسلامى ، وسادت فى بلاد الاندلس بعد ذلك ، ومنها أنتقلت الى أوروبا ، وعرفت باسم الارقام العربية ، ويرى البعض أنها مرتبة على أساس الزوايا · فرقم 1 يشتمل على زاوية

(42) Renan ص 237 ـ 246 ·
(43) لوبون : ص 628 ـ 629 ·
(44) زيغريد هونكه : ص 70 ـ 73 ـ و 91 ·

واحدة ، و 2 على زاويتين ، و 3 على ثلاث زوايا وهكذا على الشكل التالى :



ثم دخل عليها تحريف وتعديل حتى أصبحت على ما هي عليها الأن · وفيما يخص الصفر استعمل الهنود نقطة (·) للدلالة عليه ، واسمه عندهم (سونيا) ، واستعملوا الدائرة (o) للدلالة على النقطة، فأخذ المسلمون النقطة بدلا من الدائرة حتى لا يلتبس رقم (o) عليهم ، ولكن مسلمى المغرب والاندلس استعملوا رقم الدائرة (o) صفرا ، وعنهم انتقل استعماله كذلك الى أوروبا (45) ·

والاصل فى تسمية هذه الارقام غبارية فى السلسلة الثانية هو أن الهنود كانوا ينثرون غبارا على لوح الخشب الذى يرسمون عليه هذه الارقام · وتأتى أهميتها هي والسلسلة الاولى من سهولة تركيب أي عدد منها مهما كان كبيرا لانها تقوم على النظام العشرى ، بحيث تتغير قيمة العدد أو الرقم حسب موقعه · فهو فى خانة الآحاد غيره فى خانة العشرات ، أو المائات ، وهكذا · وأعطى الصفر لهذا النظام ميزة خاصة بعد أن نقله المسلمون عن الهنود (46) ·

ومن أعلام المسلمين فى العلوم الرياضية بالغرب الاسلامى : مسلمة المجريطى ، الذى يعتبر اماما للرياضيين بالاندلس ، وتوفي عام 1007 م · وعنه تتلمذ كل من ابن السمح ، وابن الصفار، والكرمانى ، وأمية بن أبى الصلت ،ـ وغيرهم (47) ·

ومن ضمن الذين نقلوا نظام الحساب الغبارى ، ونظام الصفر ، الى أوروبا ، من الاندلس ، البابا سلفستر الذى كان يدعى جلبرت قبل أن يصل الى مركز البابوية ، وذلك خلال عهد الحكم الاموى أواخر القرن العاشر الميلادى (48) ·

ومن الذين نقلوه من الجزائر بالمغرب العربى ، الرياضى البيزى ليوناردو فيبونانشى الذى كان أبوه الطبيب Bonaccio رئيساللمركز التجارى البيزى ببجاية · فقد ولد ليوناردو فى بيزا بايطاليا عام 1180 م ، والتحق بأبيه فى بجاية فى صدر شبابه فأهتم بتثقيفه، وأسند مهمة تعليمه الى أستاذ بجائى اسمه سيدى عمر ، يدعى فى البداية باسم ليوناردو فيليوش بوناتشى : *Leonardo Filius BONACCI* ثم اصبح

---

(45) جرجيس فتح الله : تراث الاسلام · ص 593 ـ 594 ·
(46) د· عبد الحليم منتصر : أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية · ص 216 ـ 217 ·
(47) أحمد أمين : ظهور الاسلام · ج 3 ص 270 ـ 273 ·
(48) زيغريد هونكه : ص 80 ـ 84 ·

يدعى بعد ذلك باسم ليوناردو فيبوناتشى : LIONARDO FIBONA CCI وأهتم الطفل منذ صغره بعلوم الرياضيات ، وساعده اختلاطه بالتجار البجائيين ، وغيرهم، على تعلم ما سماه : طريقة العد السريعة بوسيلة عجيبة ، استخدم فيها الارقام الهندية الغبارية التسعة · ودفعه شغفه هذا الى القيام برحلة طويلة الى كل بلدان المغرب العربى ، ومصر والشام ، واليونان ، وصقلية ، اطلع خلالها على جهود المسلمين فى العلوم الرياضية · وفى الاخير وضع عدة كتب من ضمنها : كتاب العد : Liber Abaci عام 1202 م وكتاب الهندسة التطبيقية : Protica Geomitrica عام 1220 م ، وكتابان آخران ابتكر فيهما طرقا جديدة لحل معادلات حسابية وهندسية من الدرجة الاولى والثانية · وبذلك كان من الرواد الاوائل الذين أدخلوا الى أوروبا الارقام الهندية ، والصفر ، والطريقة العشرية، والحساب ، والجبر ، والهندسة العربية (49) ·

وكان لتقدم المسلمين فى الرياضيات، أثر كبير فى تقدمهم فى علم الفلك ، الذى نقلوا أصوله الاولى من اليونان ، فصححوا النظريات الخاطئة لبطليموس السكندرى (50) · وأقاموا مراصد بشرق العالم الاسلامى وغربه لرصد النجوم من ضمنها مراصد فاس ، وقرطبة ، والقيروان ·

ومن أعلام الفلكيين المسلمين فى الغرب الاسلامى أبو ابراهيم الزرقالى (1029 ــ 1087) الطليطلى الذى اخترع الازياج الفلكية التى هي عبارة عن جداول فلكية تعتمد على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب وحركاته ، ووضعه، وسرعته ، وانتقاله ، ورجوعه ، وما الى ذلك · وصنع اصطرلابا جديدا دعي « بصفيحة الزرقالى » تحدث عنها راجيو مونتانوس ، ونشر عنها دراسة فى القرن 15 ، وتحدث عنها الفلكى البافارى يعقوب زيقلر Jacob Ziegler عام 1504 م · وكتب عنها ترجمة جديدة ، يوحنا شونر Johan Schoner باللغة اللاتينية عام 1534 م ، تحت عنوان : فى عالم أبى العلوم الفلكية الزرقالى (51) ·

ومما يدل على تاثير الزرقالى ، أن الفونسو العاشر القشتالى أخذ أزجاله الفلكية وحاول أن ينسبها لنفسه ، وصارت تعرف فى الغرب الاوروبى باسم : الازياج الاذفونشية (52) ، وحتى المرصد الذى أقامه في قشتالة اعتمد

---

(49) نفس المصدر · ص 88 ــ 94 · ديورانت · ج 17 · ص 170 ــ 171 ·

(50) M. Delambre : Histoire de l'Astronomie du Moyen Age. (Paris 1819). pp. 10 - 60.

(51) زيغريد هونكه : ص 152 ــ 153 ·

(52) حيدر بامات (ج· بريفوار) : مجالى الاسلام · ترجمة عادل زعيتر (القاهرة 1956) · ص 133 ·

فيه على الخبرة العربية المغربية ، وآلاتها الدقيقـــة (53) ·

وتمكن ابراهيم السهلى البلنسى عام 1081 ، من صنع أقدم كرة معروفـة فى التاريخ ، على ما يظهر ، من النحـاس الاصفر طولها 209 مليم (81،5 بوصة)، وحفر على سطحها 1015 نجما مقسمـة الى 47 كوكبة ، تبدو النجوم فيها حسب أقدارها · وجعلت خيـــرالدة اشبيليـة منارة ومرصدا فى آن واحد استعملهـا جابر ابن أفلح الاشبيلى في أرصـــاده الفلكية التى نشرها فى كتابه : اصــلاح المجسيطى عام 1240 الذى انتقـد فيـــه بعض آراء بطليموس ، وأثبت أن المريخ والزهرة أقرب الى الارض من الشمس · واليه ينسب اختراع بعض الآلات الفلكية، وبعض النظريـات فى حســاب المثلثات الكروية (54) ·

وقد قام جيرارد الكريمونى بترجمة كتاب : المناظر ، وغيره ، من تراث ابن أفلح الى اللاتينية عام 1270 ، وطبع فى نور مبورج سنة 1533 (55) ، ومعلـــوم أن ابن أفلح كان ضمن من أشرف على بناء صومعة اشبيلية ، أو برج الخيرالدا الذى اعتبر من المراصد الاولى والكبرى بالاندلس (56) ·

وفى عام 1229 م نشر الحسن المراكشى جداول فلكية تشمل جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات ، وجداول بجيــوب التمام ، وجيوب الاقواس ، والاقــواس المتماســة · وذلك فى كتابه : « جامــع المبادى والغايات فى علم الميقات » الذى ترجم سيديو بعضه فى القرن المــاضى عـــام 1843 ·

وحتى أبــو اسحــاق البطــروجى ، الاشبيلى الذى أصبح يعرف عند الغرب، باسم البتراجيوس Alpetragius انتقد نظريات بطليموس السكندرى الفلكية ، التى ادعى فيهــا بأن حركـات النجوم ومساراتها تنبنى عـلى نظريــة أفـلاك التدوير ، والدوائر المختلفة المركـــز · وبانتقاده هذا مهد الطريق لكوبر نيكوس رائد الفلكيين الاوروبيين فى عصـــــر النهضة ليخطو بهذا العلـــم خطـوات أخرى الى الامام (57) ·

وللبطروجى كتاب فى هذا العلــــم سماه : كتاب الهيئة ، ترجمة ميشيــل اسكوث الى اللاتينية عام 1217 ، وترجمه الى العبرية موسى بن ميمون حـــوالى عام 1529 ·

ان الفلكيين المسلميـن فى الغـــرب الاســـلامى هـم الذين زودوا أوروبـا

---

(53) زيغريد هونكه : ص 136 ـ 152 و 181 ـ 194 · تراث الاسلام · ص 566 ·
(54) ديورانت · ج 13 · ص 356 ـ 357 ·
(55) لوبون : ص 631 ·
(56) جلال مظهر : أثر العرب فى الحضارة الاوروبية · نهاية عصر الظـــلام وتأسيس الحضارة الحديثة (بيروت 1967) ص 291 ·
(57) زيغريد هونكه : ص 191 ـ 192 و 201 ، ديورانت · ج 13 · ص 357 · أثر الاسلام · ص 566 ·

بالمعلومات والنتائج الفلكية الهامة التى توصلوا اليها · وما يزال حتى اليوم علم الفلك مليئا بالاصطلاحات العربية ، وأسماء الابراج ، والنجوم، والكواكب ، كما هي دون تحريف مثل : الطرف : Altaref وكرسى الجوزاء Cursa والكف Caph والارنب Arneb والبطين : Botein والوزن ، Wezn وسعد السعود : Saadisud والراعى Errai وقرن الثور Tauri والسمت : Azimuth وغيرها (58) ·

وفى علم الطبيعة والكيمياء ، لعب الغرب الاسلامى أيضا دوره الكبير ، خاصة فى اختراع واستغلال القوة الناجمة عن انفجار مادة البارود الذى كان الصينيون أول من اهتدى اليه على ما قيل · وذلك بفضل استغلال ملح البارود أونترات البوتاسيوم ، والفحم ، والكبريت · وفى أواخر القرن 13 ألف حسن الرماح كتابا عن الاسلحة النارية، وملح البارود ، أشار الى اختراع ما يمكن تسميته بالقنبلة أو الطوربيد ، وذكر بأنها : « بيضة تخرج وتحترق » (59) ·

وأشار ابن خلدون الى ما يفيد استعمال المدافع النارية بالمغرب العربى منذ القرن 13 خلال استعراضه لحادثة استيلاء السلطان أبى يوسف على سلجماسة عام 1273 فقال :« نصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات ، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قوة باريها » ·

وسرعان ما تعلم الاوروبيون هذا الاكتشاف الجديد ، فكتب مرقص جريكوس بيانا بمسحوق ملح البارود والكبريت والفحم ، تحت التأثير العربى فى القرن 13 ، وعندما هاجم الفونسو الحادى عشر مدينة الجزيرة الخضراء فى جنوب الاندلس عام 1342 استعمل المسلمون ضده الاسلحة النارية ، وكان حاضرا آنذاك معه كونت دربى : Derby وكونت سالسبورى : Salisbury الانجليزيان ، فشاهدا نتائج هذا المخترع وأسرعا فى نقل كيفية صنعه واستعماله الى بلادهم ، واستخدمه الانجليز بعد أربع سنوات فى معركة كريسى Crecy (60) ضد الفرنسيين · كما استعمله الفرنسيون قبلهم عام 1339 للدفاع عن كامبرى Cambri (61) ·

ولا شك أن اكتشاف البارود واستغلاله من طرف المسلمين فى الشرق وفى الغرب الاسلامى كان له أهمية فى تاريخ العالم من جهة ، وتأثير على نهضة أوروبا الحديثة سواء فى الحروب أو فى المشاريع العمرانية الهائلة والمختلفة الانواع والاشكال · كما أن تقدم المسلمين وتفوقهم فى علم الكيمياء كان سببا فى

(58) عاشور : فضل العرب · ص 42 ·

(60) نفس المصدر · ص 52 — 54 · وجلال مظهر · ص 343 — 351 ·

(61) حيدر بامات · ص 141 ·

حذقهم لصناعات الدباغة ، واعـــداد الجلود ، وتنقية المعادن ، وسببـــا فى الشهرة العالمية لحرير غرناطة المتمــوج الالوان ، وموصلى قرطبة الابلق ، ونصال طليطلة · وما تزال المصطلحات العربية فى هذا العلم كثيرة فى اللغات الاوروبية حتى اليوم ومن ضمنهـــا : الكحــول : Alcool و Alcohol والقلويات : Alcail وغيرهـــا ·

وكان للمسلمين دور بارز وهام فى علم الطب والجراحة · فبعد أن ترجموا تراث اليونان الى العربية ، اهتمـــوا بدراسته وتطويره ، وتصدى لذلك جيل من العلماء خصص لهم ابن أبى صبيعة مجلدا خاصا من كتابه : عيون الانبـاء فى طبقات الاطباء · للتعريف بهـــم ، وقد انصبت جهودهم على تعديل الكثير من الحقائق الطبية ، وتصحيح غيرها ، واضـافـة أبـواب جديـــدة فى الطب والصيدلة ، لم يسبقهم اليها أحد قبلهم ، وذلك فى الوقت الذى كان رجال الدين بأوروبا يعتبرون المرض نوعا من الجزاء والعقاب الالــهى لا ينبغى للانســان أن يعالجه بحيث اذا انتاب أحد منهم مرض أو حمى يهرع الى أقرب كنيسة أو دير اليه ، ويبقى هناك منتظرا حدوث معجزة تشفيه · وروى أسامة بن منقذ حوادث ونماذج كثيرة توضح الفرق الكبير بين مستوى المسلمين الرفيـع فى ميـــدان الطب ، ومستوى الفرنجة المنحط حتى لابسط مبـادىء الطب خـلال الحروب الصليبية (63) ·

ومن أبرز أطباء المغرب والاندلس ، أفراد عائلة ابن زهر بمؤلفاتهم ، وابن رشد ، وابن البيطـار المـالقى ، وابن اندراس البجائى ، وابن حزم الاندلسى، وغيرهم ، الذين ترجمت كتبهم عدة مرات الى اللاتينية منذ 1509 م الى منتصـف القرن 18 ، وظلت مرجعا هاما للاوروبيين فى أبحاثهم الطبية طوال هذه الفترة ·

فابن أندراس أبو القاسم أحمـد بن محمد المرسى ، استقر ببجاية فى بحـر العشرية السادسة من القرن السابـــع الهجرى (حوالى 1252 ــ 1260) وتصدى للتطبيب فى قصر الامارة ، واشتهــر بخبرته الواسعة فى العلاج ، واستحضار الادوية ، مما جعل الامير المستنصــر بتونس يستدعيه اليه ويضمه الى هيئة أطباء قصره · وله أرجوزة فى أسمـاء أدوية الطب المفردة المختلفة (64) ·

ويعتبر أبو القاسم الزهراوى القرطبى (936 ــ 1013) من الجراحين والاطباء الكبار ، بالغرب الاسلامى ، ابتكر عدة عمليات جراحية دقيقـة فى العيــون ، والاسنان ، والولادة ، أهمها : سحـــق الحصاة فى المثانة ، واستخراجها ،وكي الجراحات ، ولزوم تشريح الاجســـام الحية والميتة · وهو الذى اقترح عندما

(63) نفس المصدر · ص 55 ·

(64) أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبرينى : عنوان الدراية فيمـــن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية · تحقيق محمد بن أبى شنب · (الجزائر 1910) ص 45 ــ 47 ·

كان طبيبا فى قصر الحكم الثانى ، استخدام مساعدات ، وممرضات ، فى حالات اجراء العمليات الجراحية للنساء ، لان ذلك أدعى فى نظره للرأفة، والحنان ، والاطمئنان .

ويشتمل كتابه : « التصريف لمن عجز عن التآليف » المؤلف من ثلاثين فصلا ، على وصف لاكثر من مائة آلة جراحية الكثير منها من صنعه هو ، كان لها أبلغ الاثر فى الجراحة الاوروبية خاصة فى القرن 16 (65) . وقد قام جيرارد الكريمونى بترجمة كتابه هذا فى وقت مبكر ، وبقي مرجعا وعمدة فى الطب لاوروبا أكثر من خمسة قرون حتى عصر امبروازباري : Ambroiseparé المتوفى حوالى 1590 (66) ، وذلك فى مدرستى سالرنو Salerno الايطالية ، ومونبيلى Montpellier الفرنسية ، الطبيتين (67)، وهو مقسم الى ثلاثة أقسام : أ) ـ الطب الداخلى . ب) ـ والاقرباذين والكيمياء . ج) ـ والجراحة (68) . ويقال ان مدرسة سالرنو التى أسسها أربعة أشخاص كان من بينهم واحد عربى يدعى عبد الله وحرف اسمه الى عقلة (69) .

وتعتبر أسرة ابن زهر من العائلات المشهورة فى ميدان الطب ، والعلوم الطبيعية ، والكيمياء بالمغرب والاندلس . أنجبت ستة من مشاهير الاطباء كان كل واحد منهم علما على رأس القائمة فى عصره ، نخص بالذكر ثلاثة منهم وهم : عبد الملك ابن محمد الايادى الذى درس بالاندلس ، ومصر ، والقيروان ، وأولى عنايته بالطب . ومن بعده جاء ابنه أبو الفداء زهر الذى أولع بالطب والعلوم الطبيعية . وفى الاخير يأتى ابنه أبو مروان الثالث عبد المالك زهر الذى طارت شهرته الطبية فى الاندلس كخلف للرازى فى المشرق الاسلامى . لقد امتاز أبو مروان أو Avenzoar كما كان يسمى فى الغرب ، بالتخصص فى دراسة الطب على عكس غيره الذين جمعوا بين الطب والعلوم الاخرى . وبرز تفوقه فى الطب الاكلينيكى بعد الرازى (70) . وألف كتاب : « التيسير فى المداواة والتدبير » إستجابة لرغبة صديقه وتلميذه الفيلسوف ابن رشد ، شرح فيه فن الاستشفاء ، والعلاج ، والاحتماء (اتباع أغذية الحمية) . واهتم بدراسة أنواع مختلفة من الاغذية والادوية البسيطة ، والصحية ، وخلد مآثر هامة فى وصف الامراض ، وترك تحليلات أثرت عنه فى الورم الحزمى ، والالتهاب التاموري ، والسل المعوى ، والشلل البلعومى .

---

(65) جلال مظهر ، ص 248 ــ 260 .
(66) لوبون . ص 519 .
(67) طوقان . ص 154 ــ 155 .
(68) زيغريد هونكه . ص 277 ــ 291 و 340 ــ 347 .
(69) د . محمد كامل حسين . ص 283 .
(70) ديورانت ج 13 . ص 360 .

وتدين له الجراحة بأول فكرة عن جراحة الجهاز التنفسي ، وبتعليماته الدقيقة عن انتقال العظام ، والكسور ، وقد عارض جالينوس في آرائه التشريحية وبعض نظرياته الطبية · وبذلك أصبح عضدا لاطباء أوروبا الذين عملوا على بناء علم التشريح على أسس جديدة في القرن 16 وما بعده ، ومنهم فيساليوس (71) · ونظرا لاهمية آرائه الطبية ترجم الاوروبيون كتابه الى اللاتينية والعبرية منذ القرن 13 ، وظهرت أول طبعة له بالبندقية عام 1490م كان لها تأثير كبير في عالم الطب · ومن كتب ابن زهر الاخرى ، كتاب : الاقتصار في اصلاح الاجساد · الذي ألفه الى الامير المرابطي أبي اسحاق بن يوسف ابن تاشفين ، أثناء وجوده بمراكش ·

ويعتبر الطبيب ابن الجزار (أحمد ابن ابراهيم بن أبي خالد أبو جعفر) الذي عاش في القيروان حتى توفي عام 1004 م) ، من رواد الطب في الغرب الاسلامي ، تضلع فيه واتخذ لنفسه عيادة لاستقبال الناس ومعالجتهم في الفصول الباردة · أما في فصل الصيف فانه يغلقها ويذهب مع الاساطيل الاسلامية الغازية في البحار لمعالجة المرضى ، والجرحى · وساعده ذلك على تطوير معلوماته الطبية ، والصيدلية · ومن مؤلفاته الطبية : « قوت الحاضر » و « طب الفقراء والمساكين » و « كتاب الاقرباذين » و « كتاب الاعتماد » و « كتاب الابدال » ترجم معظمها الى اللاتينية ، وما يزال البعض منها في الاسكوريال ، ودرسدن، وباريس ، وأكسفورد ، والجزائر (72) · وترجم الطبيب ستيفان Stephan كتاب الاقرباذين بعنوان : زاد المسافرين Via Ticum Peregrinantis

ومن أبرز الاطباء الافارقة الذين لهم دور كبير في امداد الطب الاوروبي بالخبرة الطبية الاسلامية ، قسطنطين القرطاجني الذي ولد بقرطاجنة في تونس حوالي عام 400 هـ (1009 م) · فقد قام بجولات واسعة في الشرق والغرب بعد أن تزود بالمعلومات الواسعة في مسقط رأسه بتونس ، وذلك من أجل الاستزادة بالعلوم والمعارف · ثم رجع الى تونس ، ولظروف غامضة تنصر ، واتجه الى صقلية واتخذه الامير النورماني روبير جيسكار Robert Guiscard كاتبا له مدة من الوقت ، ثم اعتزل منصبه ، واعتكف في ديرمونت كاسينو Monte Cassino وأخذ يهتم بالتأليف والترجمة من العربية الى اللاتينية في ميدان الطب غير أنه أهمل ذكر أسماء أصحاب هذه المؤلفات ، وحاول أن ينسبها الى نفسه ، كما أن ترجمته كانت رديئة · ومن الكتب التي ترجمها زاد المسافرين لابن الجزار باسم : Viaticus وكتاب علي بن العباس باسم : Pratica Pantegni وكتب الرازي ، واسحاق بن سليمان

(71) جلال مظهر · ص 244 ـ 245 و 262 ـ 263 ·
(72) زيغريد هونكه · ص 288 ـ 348 ·

الاسرائيلى ، وألف نحو 22 كتابا فى مختلف فروع الطب وطريقة الوقاية من الامراض ، والعلاج ، طبعت كلها بين سنتي 1536 و 1539 (73) ·

وقد اعتبر قسطنطين أول الرواد الذين قدموا الطب العربى الى أوروبا اللاتينية ، وهو الذى فتح الطريق لجيرارد الكريمونى (1114 ــ 1176) ، وأدى الى ظهور وقيام مدرسة وجامعة مونبيلى التى أصبحت فيما بعد احدى المراكز الهامة للثقافة بأوروبا الى جانب مدرسة سالرنو (74) ·

ومن الاطباء الآخرين الذين اشتهر بهم الغرب الاسلامى وأدوا دورهم بارزا : أبو بكر بن باجة السرقسطى · والطبيب علي بن عبد الرحمن الطليطلى صاحب الشهرة الواسعة فى طرق العلاج للمرضى · والطبيب الفلكى أمية ابن أبى الصلت الدانى الذى رحل الى القاهرة واعتقل عدة سنوات هناك من طرف الحكومة الفاطمية · ومن مؤلفاته : رسالة العمل بالاسطرلاب ، وكتاب الوجيز فى الهيئة ، وكتاب الادوية المفردة ، وكتاب تقوية الذهن · وقد نفي الى تونس واستقر بالمهدية وألف لاميرها عدة كتب · والطبيب الفيلسوف أبو بكر ابن طفيل صاحب رسالة « حى بن يقظان » و « أسرار الحكمة المشرقية » و « الارجوزة الطبية المجهولة » و « رسالة فى النفس » · والطبيب الفيلسوف ابن رشد الذى نكبه المنصور ونفاه الى قرية اليشانة مدة من الزمن قبل أن يسفر الى مراكش · والطبيب الفيلسوف أبو عمران موسى ابن ميمون القرطبى الذى عاش بالاندلس ، ثم بمراكش ، ثم بالقاهرة ، حيث تولى مهنة الطب للقائد الاسلامى الكبير صلاح الدين الايوبى (75) · والطبيب الكاتب والوزير لسان الدين ابن الخطيب الذى نشر رسالة عن العدوى وانتشارها بواسطة الاتصال والاختلاط بالمرضى ، وذلك عام 1348 م ذلك العام الذى كان أكثر هولا وفضاعة فى الامراض والاوبئة (76) ·

هكذا يتضح أن الطب الاسلامى قدم لاوروبا فوائد كثيرة كان للغرب الاسلامى دور بارز فيها من ضمنها الكتب الجامعة التى تناولت معظم فروع الطب ، والمادة العلمية الغزيرة المتعلقة بالطب الاكلينيكى ، والمعرفة الواسعة للعقاقير والادوية المركبة والمفردة ، والخبرة الواسعة فى ميدان الجراحة ، ونظام البيماريستانات (77) ·

وقد أثبت الباحثون الاوروبيون أنفسهم أن الدورة الدموية التى يدعى الايطاليون أن مكتشفها هو ميقيل سيرفيد Miguel

---

(73) أحمد توفيق المدنى : ص 223 ــ 226 ·
(74) جلال مظهر · ص 184 ــ 191 ·
(75) زيغريد هونكه · ص 340 ــ 342 ·
(76) نفس المصدر · ص 263 ــ 269 ·
(77) د · محمد كامل حسين · ص 299 ــ 302 ·

Served المولود فى فيلانوفا Villanouva من أعمال أرغون عام 1509 ، انمـــا اكتشفها فى الحقيقة والواقع الطبيب العربى ابن النفيس البصرى المولود عام 1210 والذى كان كبير الاطباء فى مصر عشرات السنين • • وعنه أخذهـــا واقتبسها ميقيل ، ونسبها لنفسه (78) •

وفى ميدان علـم النبـات برز ابـن البيطار المالقى ، وأبو العباس الاشبيلى الذى اهتم بدراسة أنــواع النباتـــات المختلفة التى تنمو فى المنطقة المتـدة بين المحيط الاطلسى والبحر الاحمر •

ويعتبر أبو محمد بن البيطار المالـقى (1190 ـ 1248) رائد هذا العلـــم الى جانب خبرته الطبية • تنقل فى عواصم الانـدلس الكبـرى ، وبـلدان المغـرب العربى ، ومصر والشام ، واهتم بدراسة الاعشاب والنباتات الطبية والصيدلية، حتى لقب فى مصر برئيس العشابين ، وبالطبيـب الحـــاذق ، والعشــــاب البارع (79) • وعني بذكر ماهيـــات الادوية ، وقوامها، ومنافعها، ومضارها، واصلاح ضررها ، والمقدار المستعمل فى جرمها ، أو عصارتها ، أو طبخـها ، والبدل منها عند عدمها • ووصف ما يقرب من 1400 نباتا ، وغذاء منها ما لم يكن معروفا اطلاقا قبل ذلك ، وحلل تركيباتها الكيمياوية وخصائصها العلاجية وطرق استخدامها ، ورتبها ترتيبا أبجديـــا ، وذكر أسماءها بعدة لغات (80) •

ومن كتبه التى ألفها فى هذا الميدان كتاب : الجامع فى مفردات الادويـــة والاغذية ، وكتاب : المغنى فى الادوية، وكتاب : الاقرباذين • ويعتبر كتابه الاول، موسوعة كبيرة ، غزيرة المادة ، عظيمة الفائدة، بقيت مرجعا وحيدا لاوروبا حتى القرن 16 وما بعده ، وجعلت ابن البيطار من عظماء علماء النبات ، لانه جمع كل ما ذكـره جالينـــوس وديسقـوريدوس اليونانيان وكل ما عرفـــه المسلمـــون قبله • وترجمت أجزاء من كتابه الجامع الى اللاتينية ، وطبعت فى البندقية عام 1598 ، ثم فى باريس ، وكريمونـــا ، والمانيا بعد ذلك (81) • وترجمه لوكلير كاملا وطبعـه فى باريس عـامي 1877 ـ 1881 •

وكما اعتنى ابن البيطار بعلم النباتات، اهتم أيضا بوصف كثير من أنـــواع الحيوانات التى تستخلص منهـــا بعض العقاقير العلاجية (82) • والى جـانب نشاط ابن البيطار وغيره فى علـــم النبات والحيوان ، نجد علماء آخريـن بالغرب الاسلامى يهتمون بدراسة أنواع الترب ، والاسمدة ، وعلى رأسهـــم

---

(78) هونكه ص 275 ـ 276 •
(79) د• محمد كامل حسين : أثر العرب والاسلام • ص 242 ـ 243 •
(80) زيغريد هونكه • ص 322 ـ 323 • طوقان ص 218 ـ 221 •
(81) جلال مظهر • أثر العرب • ص 273 ـ 275 •
(82) محمد كامل حسين • ص 246 •

أبو زكرياء بن العوام الاشبيلي في القرن 12 م · الذي ألف « كتاب الفلاحـــة » ووصف فيه طريقة زرع 585 نوعـا مـن النباتات و 50 نوعاً من الاشجار المثمرة، وشرح طرق التطعيم ، وأغراض الامراض في الفلاحة ، فجاء كتابه أكمل البحـوث في العصور الوسطى، وبقيت أهميته حتى القرن التاسع عشر مما دفع كليمان موللر الى ترجمته وطبعه في باريس عـــام 1866 (83) ·

وفي ميدان الجغرافية ، كان فضــل المسلمين عظيما على أوروبا ، لانهـــم نقلــوا تراث اليونـان ، الجغــرافي · واعتكفوا عــلى دراستــه وتطويـره ، فصححوا الاخطاء الموجودة به ، وأضافوا له معلومات وخصائص جديدة ، بفضــل رحلاتهم الكثيرة ، ومشاهداتهم الواسعة خلالها لتلك البلدان والامصـــار الـتى زاروهـــا ·

ومن الرحالة المسلميــن بالغـــرب الاسلامي ، ابن بطوطة ، ومن الجغرافيين اللامعين ، الشريف السبتي الادريسي، الذي أسهم هو وغيره بجهد كبير وفعال في بناء علم الجغرافية ، وفي اثـرائـه بالمعلومات والبحوث النافعة التي استفاد منها الاوروبيون ، وترجموهـــا الى لغاتهم اللاتينية والاوروبية الحديثـة · وظل المسلمون في هذا الميدان ، كما في غيره ، أساتذة أوروبـا عـدة قـرون ، رجاءت المعلومات التي توصلوا اليها ، هي عين الحقيقة ، أو قريبة منها ، في حين أخطأ بطليموس الاسكندري ، وكذلك غيره من علماء الاغريق ، في تقديـــر طول البحر المتوسط بحوالي 400 فرسخا، على عكس المسلمين (84) ·

ويعتبر الشريف الادريسي (1099 ــ 1166) رائد الجغرافيين المسلمين في الغرب الاسلامي ، ولد في مدينة سبتة بالمغرب الاقصى ، واعتكف على الدراسة والتحصيل ، ثم قام بعدة رحـــلات الى الاندلــس ، وبلدان المغـرب العـربي ، وجنوب فرنسا ، وايطاليا ، واليونان ، وآسيا الصغرى ، وحتى انجلترا ، وفي الاخير استقر به المقام في باليرمـــو بصقلية ، وحظي بالتقدير لدى ملكهـا روجر الثاني Roger II (1101 ــ 1154م)، بفضل نبوغه وتضلعه في علم الجغرافيا، فكلفه بوضع كتاب له في هذه المادة ، أنجزه بسرعة ، وسماه : « نزهة المشتاق في ذكر الامصــار والاقطـار والآفـاق والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » (85)، وأصبح يعرف بالكتاب الرجاوي نسبة الى روجر فيما بعد · وقد زوده الادريسي بحوالي سبعين خريطة كانت أحسن من خرائط الجغرافيين السابقين له · وجمع بين الجغرافية الوصفية والفلكية (86) ،

---

(83) ديورانت : ج 13 · ص 358 ·
(84) عاشور : فضل العرب · ص 44 ــ 45 ·
(85) ديورانت · ج 13 · ص 58 · طوقان · ص 197 ــ 200 ·
(86) ج · ش · كرامرز : تراث الاسلام · ص 141 ــ 143 ·

وقسم الارض الى سبعة أقاليم عرضية ، ووضع خريطة جامعة للكرة الارضية رسمها على كرة من الفضة وزنها 1800 أوقية ، وخطط عليها تلك الاقاليم السبعة المتوازية عرضيا ابتداء من خط الاستواء (87) ·

ولاهمية كتاب الادريسى اعتنى الاوروبيون به فترجموه الى اللاتينية فى وقت مبكر ، وطبع فى روما عام 1619 لاول مرة بصورة مختصرة ، وبقي مرجعا لعلماء أوروبا الجغرافيين طوال ثلاثة قرون وزيادة ·

وقد أشار الادريسى الى ما يثبت أن مسلمى الغرب الاسلامى كانوا أسبق فى اكتشاف أمريكا ، وعبور الاطلنطى ، من كولومبوس ، وذلك عند حديثه عن الاخوة المغرورين الذين خرجوا من لشبونة واتجهوا الى المحيط الاطلنطى غربا حتى اكتشفوا أكثر من جزيرة (88) ·

وحتى فاسكو داجاما الايطالى لم يستطع أن يصل الى الهند عبر سواحل افريقيا الشرقية الا بفضل الملاح العربى شهاب الدين بن ماجد الذى لا يشير اليه الاوروبيون ، وقد اندهش فاسكو عندما وجد لدى ابن ماجد اصطرلابا من النحاس ، وخريطة بحرية دقيقة ، وعددا من الادوات البحرية الهامة ، بينمّا هو لم يكن يملك سوى اصطرلاب خشبى صغير وغير دقيق (89) ·

ومما ساعد المسلمين بالمغرب والمشرق الاسلاميين ، على تطوير علم الجغرافية، وفنون الملاحة البحرية اهتداؤهم ، منذ وقت مبكر ، من نهضتهم ، للبوصلة أو بيت الابرة ، واستغلالهم لها استغلالا علميا ، رغم أن مبتكريها الاولين هم الصينيون على ما قيل ، وعن المسلمين نقله الاوروبيون الى أوروبا ليستغل بعد ذلك فى النشاط البحرى الاوروبى أواخر العصر الوسيط ومطلع الحديث · وليس صحيحا ما قيل من أن المسمى فلافيوجيوبا الايطالى الامالقى هو الذى اخترع هذه الآلة ، رغم أن كرامرز يميل الى ذلك (90) ·لان بطرس فون ماريكور : Petrus Ven Maricourt هو الذى نقل عن العرب عام 1269 ، معلوماته عن المغناطيس ، وعن كيفية استعمال البوصلة التى أشار اليها الادريسى فى كتابه قبل ذلك فى القرن الثانى عشر · وأدخل الاوروبيون استعمالها الى أوروبا ، وأشار اليها ماريكور فى رسالة خاصة سماها : Epistole de Magnete وبعده بحوالى خمسين عاما ، أي حوالى عام 1320 اكتشف فلافيوجيوبا البوصلة كما زعموا ، وفى الحقيقة أخذ أسرار استعمالها من غيره (91) ·

(87) توفيق المدنى · ص 236 – 237 · جلال مظهر · ص 314 – 329 ·
(88) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج 3 · ص 293 – 299 ·
(89) زيغريد هونكه · ص 416 – 423 · كرامرز : تراث الاسلام · ص 150 – 151
(90) كرامرز · ص 152 – 153 ·
(91) زيغريد هونكه · ص 47 – 48 ·

ومثلما انتفع الاوروبيون بتــــراث الادريسى الجغرافى المغربى ، استفادوا أيضا من تراث الحسن بن محمد الوزان الزيانى ، أو ليون الافريقى ، الذى ألف كتاب : وصف افريقيا ، فاعتمدوه عدة قرون للتعرف على شمال هذه القارة ٠ وقد كتبه الحسن الوزان بالعربيــة ثـم ترجم الى اللاتينية ، عندما كان مقيما بالفاتيكان خلال بابوية ليو العاشر (92) ٠ وبقي هذا الكتاب مرجعا كذلك لاوروبا حتى القرن التاسع عشر ٠ وما تـزال حتى اليوم مصطلحات بحرية وتجارية فى اللغات الاوروبية مثل : Admiral من أمير الماء (البحر) و Arsenal من دار الصناع (صناعة)، و Felouque من الفلك ، و Calfate من القلفطة، و Boussol من البوصلة ، و Tare من طرح السفينة ، و Fregar من الفرقاطة ٠ وغيرها (93) ٠

وفى ميدان الصناعة ، كان للمغرب الاسلامى دور بارز فى تعريف الاوروبيين بعدد هائل من الصناعات وفنونهـــا كـــالورق ، والنسيـــج ، والخـــزف ، والزجاج، والسكر، والبارود، والزخرفة، وغيرهـــا ٠

فصناعة الورق الـتى اخترعهـــا الصينيون أول مرة ، وصلت الى أوروبا عن طريق مسـلمى الغرب الاسلامى ٠ وكان لمصنع شاطبة الاندلسى ، شهرة واسعة فى صناعة الورق الجيد الـذى امتدحــه الشريـف الادريسى فى القرن 12 م ، وأطلق عليه اسم رقائق القماش تمييزا له عن رقائق الجلد ، لانه يصنع من أسمال القطن ، والقنب ، والكتان ، بدلا من الحرير ٠ ومن الاندلس وصقلية، والمغرب العربى ، انتقلت صناعة الورق الى ايطاليا ، وباقى أوروبا ، واقيم أول مصنع فى فبريانوا بايطاليا عام 1276 ، ثم فى بادوا عام 1340 ، ثم فى المانيا بعد ذلك (94) ، وساعد ذلك على تطوير التعليم وتوفير الكتاب ٠

وقد تعرف الايطاليون على صناعتــه عندما كانوا يترددون على الانــدلس فى القرن 12 ، خاصة الذين كانوا يذهبون الى زيـارة قبـر القـديس يعقـوب فى سانتيوغادى كومبوستيلا Santiogadi Compostala شمال غرب اسبانيا ٠ وكان ذلك سببا فى انتشاره بايطاليا ثـم فى أوروبا (95) ٠ وحتى القطن الذى يستغل فى صناعة الورق ازدهرت زراعته فى بلدان المغرب العربى والاندلس وصقلية، ومن هناك انتقل الى باقى بلدان أوروبا الغربية ليستغل فى صناعـة الـورق والنسيج كذلك (96) ٠ وكان بفـــاس

(92) د٠ محمد محمود الصياد : أثر العرب والاسلام ٠ ص 317 ـ 318 ٠
(93) السير أرنست باركر : تراث الاسلام ٠ ص 96 ـ 98 ٠ لوبون ٥ ص 441 ـ 442
(94) جلال مظهر ٠ أثر الاسلام ٠ ص 337 ـ 340 ٠
(95) حيدر بامات ٠ ص 106 ـ 108 ٠
(96) زيغريد هونكه ٠ ص 32 ـ 41 ٠

وحدها حوالى 400 حجرة لصناعة الورق ، وكذلك الامر فى طرابلس الغرب، وبجاية ، والقيروان • ومسلمو الغرب الاسلامى هم الذين عرفوا أوروبا بزراعة قصب السكر ، وصناعة السكر ، أو الملح الهندى ، الذى كانت صناعته شائعة فى المغرب الاسلامى ، مثل طرابلس الغرب ، والقيروان ، وبجاية ، ومراكش، وفاس ، وعواصم الاندلس الكبرى ، وصقلية • ومن هناك انتقل الى جنوب أوروبا ، وغربها ، والى جزر ماديرا حوالى عام 1420 ، وجزر الكنارى حوالى عام 1503 ، ومن هناك انتقلت الى العالم الجديد (97) •

وقد أشرنا فى السابق الى دور المسلمين فى الغرب الاسلامى ، فى صناعة البارود ، نظرا لخبرتهم الواسعة فى علم الكيمياء والطبيعيات ، ونضيف هنا دورهم فى صناعة الزجاج ، والخزف، بمدن المغرب الكبرى ، والاندلس ، وصقلية ، وفى نقلهما بعد ذلك الى أوروبا باشكالهما ورسومهما المختلفة، وزخرفتهما الجميلة التى كان يستغل فيها حتى الخط العربى خاصة الكوفى، وأثارت اعجاب الاوروبيين الذين قلدوا ذلك بشكل واسع ما تزال بعض آثاره حتى اليوم فى بعض التحف ، والصلبان (98) • ومن بجاية تعلم الاوروبيون صناعة الشمع ونقلوها الى أوروبا ، وأصبحوا يطلقون عليه اسم هذه المدينة Bougie (99) •

هكذا يمكن القول ان الغرب الاسلامى بأقاليمه الواسعة ، هو الذى بعث الحياة فى أوروبا الجنوبية والغربية ، وعرفها بالعلوم والصنائع الاسلامية ، ومكنها من استغلال مزروعات لم تكن معروفة لديها قبل ذلك كالقطن ، وقصب السكر، والبرقوق ، والزعرور ، والياسمين ، والزعفران ، والقرمز ، والعنبر ، والقنب ، والزنجبيل (100) • ومن أقوال الدكتورة زيغريد هونكة فى هذا المقام قولها :

فى الواقع ان كثيرا من الكتاب العرب فى القرن العاشر الميلادى ، يشهدون بوجود تجارة مزدهرة بين عرب شمال افريقيا من جهة ، وبين كل من البندقية، وأمالفى ، وباليرمو ، من جهة أخرى ، تحمل سفنها الستائر الحريرية النادرة، وأكيسة الهياكل ، والاوشحة السوداء، والاردية ذات الالوان السماوية الجميلة، وسلال سكر طرابلس الغرب وأكياسه ، من القيروان ، وسوسة ، وقابس ، وطرابلس الغرب ، الى أوروبا.انها تحف عربية شائقة تستقر بعد طواف مديد فى

---

(97) جلال مظهر • ص 331 — 334 • زيغريد هونكه • ص 49 — 51 •
(98) كريستى : تراث الاسلام • ص 96 — 99 •
(99) الجيلالى • ج 1 • ص 328 •
(100) حيدر بامات • ص 106 — 108 •

مونت كاسيـنو Monte Cassino وفى أديرة شبه الجزيرة الايطالية، وكنائسها، بدليل أنها لا تزال حتى يومنا هذا (IOI) ·

هذه لمحات مختصرة ، عن مركز هذا الغرب الاسلامى ، وجهوده فى بنـاء الحضارة الاسلامية من جهة ، وعن دوره فى تحضير أوروبا ، وتأثيره فى تطورها وتقدمها ، بما قدمه لها من أسس حضارية هامة ، حية ، ومتنوعة، بعثت فيها دماء الحياة ، ودفعتها الى الامام بخطوات عملاقة ·

(IOI زيغريد هونكه · ص 32 ·

بعض مراجع البحث المعتمدة

ـ اثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية ·
أعدت الدراسة باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) · (القاهرة ـ 1970) · 466 ص ·

ـ ارنولد (سيرتوماس) :
تراث الاسلام · تعريب فتح الله (جرجيس) · ط 2 (بيروت ـ 1972) · 616 ص

ـ أمين (أحمد) :
ظهر الاسلام · ج 3 (القاهرة ـ 1973) ·

ـ بوعزيز (يحيى) :
جهود الجزائر الفكرية فى موكب الحضارة العربية · الاصالة · عدد 19 (الجزائر ـ مارس ـ أبريل 1974) ص 278 ـ 301 ·

ـ حيدر بامات (ج · ريقوار) :
مجالى الاسلام · ترجمة زعيتر (عادل) · (القاهرة ـ 1956) · 450 ص ·

ـ ديورانت (ول) :
قصة الحضارة · ترجمة بدران (محمد) · ج 13 و 17 (القاهرة ـ 1964 ـ 1966) · 398 ـ 365 ص ·

ـ زكريا (المهندس زكريا هاشم) :
فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم · (القاهرة ـ 1970) 610 ص ·

ـ شكرى (د٠ محمد فؤاد) ٠ أنيس (د٠ محمد) :
أوروبا فى العصور الحديثة ٠ الجزء الاول من النهضة الايطالية الى الثـورة الفرنسية (القاهرة ـ 1956 ـ 1957) ٠ 255 ص ٠
ـ طـوقان (قدرى حافـظ) :
العلوم عند العرب ٠ (القاهرة ـ 1960) ٠ 238 ص ٠
ـ عاشور (د٠ سعيد عبد الفتاح) :
أ) فضل العرب على الحضارة الاوروبية ٠ (القاهرة ـ 1957) ٠ 107 ص ٠
ب) أوروبا العصور الوسطى ٠ ج 2 ٠ نظم وحضارة ٠ (القاهرة ـ 1959) ٠ 316 ص ٠
ـ عاشـــور (د٠ سعيد عبد الفتاح) ٠ أنيس (د٠ محمد) :
النهضات الاوروبية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ٠ (القاهرة ـ 1959) ٠ 292 ص ٠
ـ العبـــادى (عبد الحميد) :
المجمل فى تاريخ الاندلس ٠ (القاهرة ـ 1958) ٠ 216 ص ٠
ـ العقـــاد (عباس محمد) :
أثر العرب فى الحضارة الاوروبية ٠ ط 4 ٠ (دار المعارف بمصر ـ 1965) ٠ 179 ص ٠
ـ عنـــان (عبد الله) :
أ) دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى (القاهرة ـ 1960) 467 ص ٠
ب) عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ٠ مجلدان ٠ (القاهــرة ـ 1964) 566 ـ 806 ص ٠
ـ الغبرينى (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله) :
عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ٠ تحقيق بن أبى شنب (محمد) ٠ ط 1 (الجزائر 1910) ٠ 236 + 8 ص ٠
ـ كوبلانـــد (ج٠ و) ٠ فينوجردوف (ب) :
الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ٠ ترجمة زيادة (محمد مصطفى) ط ٢ (القاهرة ـ 1958) ٠ 140 ص ٠
ـ لوبون (غوستاف) :
حضارة العرب ٠ ترجمة زعيتر (عادل) ٠ (القاهرة ـ 1964) ٠ 656 ص ٠

ـ المدنى (أحمد توفيق) :
المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا (الجزائر ـ ربيع الاول 1365) · 284 ص ·
ـ مظهـــر (جلال) :
أثر العرب فى الحضارة الاوروبية نهاية عصر الظلام وتأسيس الحضـــارة الحديثة : (بيروت ـ 1967) · 439 ص ·
ـ هونكـــه (زيغريد) :
شمس العرب تسطع على الغرب · أثر الحضارة العربية فى أوروبا · ترجمـة بيضون (فاروق) ، دسوقى (كمال) · (بيروت ـ 1964) · 563 ص ·
ـ يعقـــوب (جورج) :
أثر الشرق · ترجمة على (فؤاد حسنين) · (القاهرة 1946) ·

— De Lambre (M.) : Histoire de l'astronomie du Moyen Age (Paris 1819).
— Renan (Ernest) : Averroes et l'Averroïsme (Paris 1866).

مجهودات المسلمين في علم الجغرافيا



د. عبد القادر حليمي
أستاذ الجغرافيا - جامعة الجزائر

1 ـ المجهودات الجغرافية السابقة للاسلام

مقـدمــة :

لفهم مدى مساهمة المسلمين فى تطوير علم الجغرافية يجب البحث فيما وصل اليه هذا العلم قبل ظهور الاسلام سنة 570 م ، الموافقة لميلاد الرســول عليــه السلام أو لهجرته سنة 622 م ، وذلك حتى يمكن التمييز بين ما هو موروث وما هو مستحدث ، أو ما كان لهم وما كان لغيرهم ٠

والحقيقة العلميــــة الــتى لا ينكرها الباحثون هى ان كل علم من العلـــوم مهما كان نوعه أو سعته هو عبارة عن ارث بشرى لحلقات متواصلة من الابحاث والتجارب التى اجراها الانسان ولا يزال يجريها بغية الوصول الى التفسير الخالص والصحيح لمركب الحياة المعقدة ، وهذا العمل المستمر ناتج عن ان البحث عـن المعرفة من طبيعة البشر بـل هو جـزء منه منذ نشأتـــه الاولى ، ولا يمكن ان يتخلى عنه طالما بقى حيا ٠

ومن ماهية البحث انه شديد التنوع وان ليس هناك بحث يتصف بالكمال الذى لا يمكن ان يأتى بعده بحث اصـح منه اذ كما يقال :

قــل لمــن يدعى فى العلم معرفة
علمت شيئا وغابت عنك أشياء

كما ان ليست كل نتائج البحث صحيحة صحة كاملة وليست كلها مخطئة خطـأ كاملا ، بل ان نسبة الصواب والخطـــأ تختلف باختلاف الزمان والمكان والمركب البشرى ، أو انها خاضعـــة للظـروف الطبيعية والبشرية التى اجريت فيهـا هذه الابحاث وهى ظروف كثيرا ما دفعت بالانسان الباحث نحو وجهة معينة ٠

والانطلاق من هذه المفاهيم يدفع الى القول بان علم الجغرافية مثله مثل سائر

بقية العلوم يجد وصوله فى الانسان الاول الذى ولا شك انه فكر أول ما فكر فيما يحيط به من اشياء وحاول تفهمها أو ان يجد لها تفسيرا • وعندئذ أصاب بعض المرات واخطأ مرات أخرى ، وبتقادم العهد أدت التكرارات فى التفكير والتأمل الى نشأة ما يعرف بسلسلة التجارب والمعرفة التى بنيت عليها الحضارات القديمة مثل حضارات : بلاد ما بين الرافدين واليمن ووادى النيل وبحر ايجة • وسنتعرض بايجاز فيما يلى الى الجانب الجغرافى الذى ورثه المسلمون من هذه الحضارات •

1 ـ الجغرافية عند العرب فى الجاهلية :

ولعل شبه الجزيرة العربية بموقعها الفلكى كانت تمثل منذ القديم منطقة الاحتكاك والاتصال للحضارات القديمة التى ازدهرت فى شرقها وفى غربها ، بل كذلك فى شمالها وفى جنوبها ، والمنطق يفرض ان نقول ان العرب لم يقوموا بدور الوسيط فقط بل كانت لهم آراء وردت فى اشعارهم ، آراء منها المقتبسة ومنها الاصيلة التى ولا شك انها اضافت معلومات لا بأس بها الى علم الجغرافية •

كما أن الانصاف يفرض ان نقول ان البيئة الطبيعية لشبه الجزيرة العربية قد علمت الانسان العربى اشياء كثيرة لم تعلمها انسان بحر ايجى مثلا • فشبه الجزيرة العربية كثيرة القحط ، عديمة الانهار ، قليلة العيون ، نادرة الامطار ، فقيرة الاعشاب لذلك علمت ساكنها طول الدراية ودوام التفقد فى بطون الاودية عن منابت الشجر ، والطواف للبحث عن مواقع القطر والكلأ لعلف دوابه ولتلبية سائر حاجياته •

ولا شك ان هذا التجوال المستمر قد اكسبه خبرة فى تحديد المواقع ومعرفة المواضع وفهم الانواء ، والتمييز بين السحب الممطرة وغير الممطرة ، والتفريق بين البرق الخلاب عن سواه ، ووصف المطر والغيث باقسامه ، والوقف على الرياح وخواصها ، وادراك ما يعقبها من حوادث ، من غير اسناد الى آلة حديثه ، بل كانت قوة شمه للتراب والنبات كثيرا ما أهدته الى مواقع المياه حتى ولو كانت فى باطن الارض ، وقوة بصره وبصيرته لحركات بعض الحيوانات البرية والطيور المعينة قادته أو أرشدته الى معرفة اشياء كثيرة ، منها على الاقل معرفة بقاع المياه والعيون والاعشاب • هذا من جهة ومن جهة أخرى فان هذه البيئة الجذباء المترامية الاطراف والواسعة الارجاء والمتيهة فى بعض

الاحيان قد دفعت بالعربى الى كثرة الترحال الذى يفرض بدوره على الانسان الاسترشاد ببعض المعالم ، لذلك نظر الى سطح الارض نهارا للاسترشاد بجبالها ووهادها وتلالها التى جاءت فى اشعاره ، ثم قلب وجهه نحو السماء ليلا وراح يبحث عن طلوع وافول كواكبها ، وحركات نجومها ، وهنا حاول الربط بين ما يجرى فى السماء وما يجرى على الارض فى اقامته وظعنه ، وفى مكاسبه ومعاشه ، وفى سائر متصرفاته من غزو واستباحة وانتجاع وتجارة ، بل ذهب الى ابعد من ذلك حيث حاول الربط بين حوادث الارض وما يجرى فى السماء فى بحثه عن المستقبل والظفر بالمقصود والمطلوب • فآمن بالسحر والكهنوت ، واعتقد فى الارواح الخفية مثل الجن واللاهوت •

تلك هى الملامح الاصيلة التى سلكها علم الجغرافية عند سكان شبه الجزيرة العربية لكن هذه الملامح لم تكن خالية مما وصل اليه الانسان فى الحضارات العريقة مثل بابل وآشور واليمن وفارس حيث يحدثنا التاريخ ان هناك هجرات عديدة كان فيها الانسان المغلوب يلجأ الى ديار العرب مثل هجرة الآشوريين الذين فروا من بلادهم بعد ان تغلب عليهم الفرس ، وهجرة اليمنيين بعد ان خربت السيول سدهم المعروف بسد مأرب الخ ••• ولا شك ان سكان شبه الجزيرة العربية قد تعلموا الكثير أو القليل من هؤلاء النازحين ، فاخذوا مثلا عن الآشوريين اسماء عديدة من النجوم ، وتعلموا منهم مواقع الابراج ومنازلها ، وحساب السنين والشهور ، كما ولا شك انهم فكروا فى شكل الارض وابعادها وتعلموا اشياء أخرى فى رحلاتهم التجارية بين الشمال والجنوب •

هذا بأيجاز عن مدى مساهمة عرب الجاهلية فى تطور علم الجغرافية الذى جاء فى اشعارهم ومعلقاتهم وايامهم المشهورة ، وهى مساهمة محدودة اذا ما قورنت بما ورثه المسلمون من الحضارات القديمة •

2 ـ الجغرافية عند المصرين والبابليين :

لقد حاول المصريون والبابليون القدماء فى عصور فجر التاريخ معرفة سر الكون والحوادث التى تجرى به • وظنوا ان العالم على شكل مستطيل واعتقد المصريون ان مصر هى وسط الدنيا وبالمثل اعتقد البابليون الذين زعموا ان العراق وسط الدنيا وان الارض قد انسلخت من البحر أو المحيط وان السماء التى تحيط بهذه الارض

تظهر على شكل قبة تتحكم فيها قوة خفية كامنة وراء المحيط · ولعل السبب فى ذلك يرجع الى ان البابلى والمصرى فى تلك الفترة المبكرة من التاريخ لم تكن له اتصالات الا بجيرانه أو بمحيطه المعمور ، لذلك ظن ان العالم ينتهى حيث انتهى به الطواف وان كان طوافه هذا محدودا نظرا لصعوبة السفر وركوب المخاطر لمن حاول ان يتجاوز الحدود المعمورة ، فالمصريون القدماء مثلا لم يعرفوا أكثر من بلاد الحبشة وبونت جنوبا ، وبلاد كوش غربا ، وبلاد اليونان شمالا وما بين الرافدين شرقا · أما البابليون فلم يتركوا لنا آثارا قيمة عن البلدان التى كانت تمتد الى الشرق منهم مثل بلاد الهند والصين · لكن هذا لا يمنع من القول ان كل من المصريين والبابليين قد ساهموا مساهمة قيمة فى تطور علم الجغرافية بمفهومه الواسع ، ذلك ان علم الجغرافية لا يشمل جانب الاستكشافات ومعرفة البلدان فقط بل له الجانب العلمى البحت مثل الجانب الرياضى والفلكى والاستصلاح الاقليمى والتنظيم العمرانى ولقد كان كل من المصرى والبابلى بارعين فى هذا الميدان حيث جاءوا بنظريات عديدة واستحدثوا علوما جديدة كانت نورا واستنارة لمن جاء من بعدهم · اذ هم الاولون الذين ابدعوا فى حساب السنة وقسموها الى اثنى عشر قسما بحسب ما كانت لهم من معلومات بالنجوم وفيضانات النيل ودجلة والفرات ، ورسموا خرائط استغلال الارض والملكيات ، ورسموا تبين الابعاد بين النقطتين أو الاقليمين وطرق سفرهم وتنقلاتهم البرية والبحرية ·

3 ـ الجغرافية عند الفينيقيين :

لقد اشتهر الفينيقيون بركوب البحر وطول الاسفار للتجارة والبحث عن الرزق ، وهذا طبيعى فى الانسان الذى اذا اكتمل عقله راح يبحث فى نفسه ثم فى بيئته ثم فى البيئة المجاورة لبيئته الخ ··· فالتاجر الفينيقى هو جزء لا يتجزأ من الحضارة المصرية وحضارة بلاد ما بين الرافدين أولا وقبل كل شىء ، لذلك راح انسان حضارة الشرق الاوسط الممثلة فى الفينيقى الذى بعد ان اكتسب خبرة محلية كصناعة السفن وضبط النقط ، وحساب الابعاد، راح طبيعيا يبحث عما وراء عالمه المعروف · فخرج من فينيقيا نحو الغرب وركب البحر المتوسط من سواحله الشرقية قصد المعرفة لسواحله الغربية وبذلك جاب سواحل شمال افريقيا

حتى جبل طارق وكذلك جزءا كبيرا من الشواطىء لشبه اجزيرة ايبيريا وبلاد الغال • بل حاول ان يخرج الى المحيط الاطلسى ، حيث قام بأول رحلة تاريخية الى السواحل الغربية للقارة الافريقية • واعنى بذلك رحلة هانو Hanno الذى ابحر من مدينة قرطاجنة سنة 520 ق•م متوجها نحو الغرب فعبر مضيق جبل طارق ثم توجه جنوبا على طول السواحل الاطلنطية الى ان وصل الى الجزائر الخالدات ومنها تابع سيره حتى مصب نهر السنغال وقيل دون ذلك ، لكن هذه الجهات اصبحت بمرور الزمن كقاعدة منها خرج الفينيقيون فى عديد من الرحلات الاستكشافية صوب الجنوب وربما وصلوا حتى بلاد الكامرون • ولقد دون هانو رحلاته هذه على لوح وضع فى معبد بقرطاجنة فيه ذكر عجائب وغرائب الطبيعة والمشاكل التى اعترضت سبيله ، وهى مشاكل لم تسلم من الخيال والتخمينات •

ومن هذا العرض السريع نخلص الى ان أهل فينيقية قد أدوا دورا هاما فى ميدان الكشف الجغرافى ، وهم على الرغم من احتفاظهم بأسرار مهنتهم لانفسهم فقد مهدوا بلا شك هذا الميدان أمام اليونان الذين عاصروهم والذين جاءوا من بعدهم •

4 - الجغرافية عند اليونانيين قبل بطليموس :

لقد ساعدهم موقعهم البحرى على ركوب البحر منذ القديم وذلك للتجارة أو للبحث عن المستعمرات • ولا شك ان اتصالاتهم بسكان مصر وبلاد ما بين الرافدين كانت قوية ، وبالخصوص احتكاكهم بالفينيقيين الذين بادلوهم التجارة ونافسوهم فى المستعمرات • وقد قام اليونانيون برحلات استكشافية فى البحر المتوسط والمحيط الهندى بل وصلوا مثل الفينيقيين الى السواحل الشرقية للمحيط الاطلسى بعد ان عبروا مضيق جبل طارق • ومن أهم رحالتهم سكيلاكس Scylax الذى أرسله ملك الفرس داريوس سنة 510 ق•م ، لاكتشاف نهر السند ، ورحلة نيورخاس 327 ق•م ، Nearchus أحد قواد الاسكندر الاكبر لنقل جزء من الجيوش اليونانية من بلاد الهند الى بلاد فارس وقد كانت لديه أوامر من الاسكندر بان يدرس طريق رحلته بدقة وان يأتى بتقرير مفصل عن كل الاماكن التى مر بها • ولعل أهم ما قدمه اليونانيون لعلم الاكتشافات الجغرافية هو ما صحب الحملات العديدة للاسكندر الاكبر ذلك ان هذا الرجل قد مكن من التقاء العالمين

الشرقى والغربى وجها لوجه على مساحات واسعة من وجه هذه المسكونة ومزج بين الحضارات القديمة ببعضها بعض ومكن اليونانيين من الاطلاع على ما لدى الغير من أخبار ومشاهدة البلدان بالعيان بدلا من افواه القصاصين والسياح والملاحين ، وتصحيح ما جاء فى اساطير أجدادهم مثل اسطورة الالياذة والاوديسة لهوميروس Homer (القرن 9 ق٠م) التى مزج فيها الخيال بالواقع ٠ وبعد ان فتح الاسكندر المقدونى أو الاكبر مصر سنة 332 ق٠م ، أسست بها مدينة اطلق عليها اسمه وهى الاسكندرية الحالية عند مصب وادى النيل المقدس فى البحر الابيض المتوسط ، فعمرتها عناصر مثقفة ومختلفة الاجناس من مصريين ويونانيين ويهود وبذلك أصبحت مركزا علميا عالميا لم يدانه مركز عالمى من قبل ، كما جمعت فيها الآثار الحضارية القديمة ، وأسست بها مكتبة الاسكندرية الشهيرة التى غرف منها عدد كثير من العلماء وتخرج منها اساتذة كان لهم دور عظيم فى تطوير العلوم الدينية والدنيوية ٠

وعلى العموم فقد ظل كل من الفلاسفة والمفكرين اليونانيين قبل الاسكندر الاكبر وبعده يحاولون تفسير ثلاث مشاكل جغرافية أساسية هى :

أ ـ شكل الارض وابعادها ووضع البحار بالنسبة لها ٠

ب ـ ثبوت الارض فى الفراغ ٠

جـ ـ علاقة الارض بالاجرام السماوية ٠

وحسب ما وصلتنا من آثار تبدأ سلسلة تفكير هؤلاء الفلاسفة والباحثين بالشاعر أو القصاص هوميروس فى القرن التاسع قبل الميلاد لتنتهى بالفلكى الرياضى بطليموس كلاديوس خلال القرن الثانى للميلاد اذ ولد هذا الاخير خلال سنة 168 ميلادية ٠

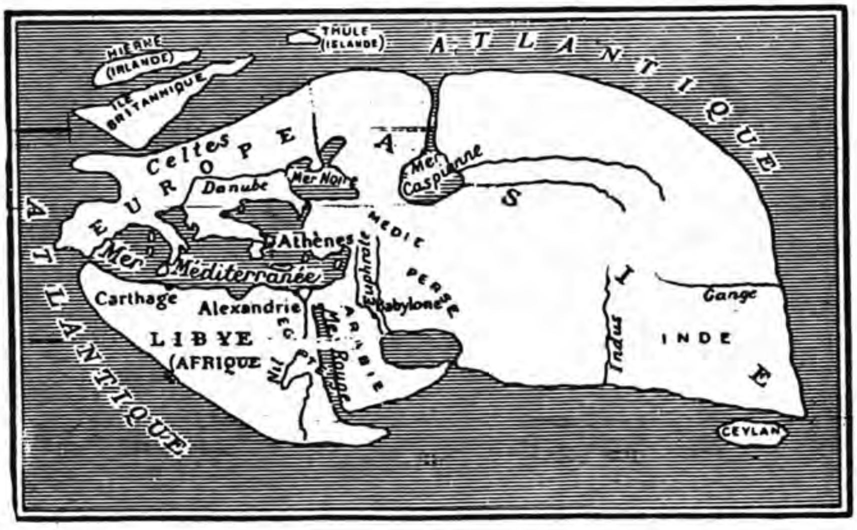
أما هوميروس فقد تخيل ان الارض عبارة عن قرص مستدير تحيط به المياه من كل جبهة فى شكل حزام اطلق عليه النهر المحيط فى بعض الاحيان ، وانها ثابتة تسكنها الآلهة والبشر ، وقد ظل معظم هذه الفكرة سائدا لدى الشعب اليونانى أكثر من أربعة قرون حيث ظن طاليس دى ميلى (640 ـ 648 ق٠م) ، أيضا ان الارض عبارة عن قرص أو طبق مسطح يطفو فوق الماء ، والماء فوق الهواء ، وكذلك كان اعتقاد أنا كسيمندر الذى عاش فيما بين 610 و 547 ق٠م ، فى ان الارض فى البداية كانت عبارة عن جزء من اسطوانة كبيرة فى الفضاء ثم انسلخت منها لتبقى محافظة على شكلها٠

ولم يناد بكروية الارض ودورانها لاول مرة الا فيتاغور (570 ــ 496 ق٠م) الذى اعتقد ان الارض على شكل كـرة تحيط بها الكواكب التى تدور حـول حلقة من النار هى الشمس ، وتابعه فى ذلك هيكاتى دى ميلى سنة 517 ق٠م ، الذى رسم أول خريطة جيدة للعالـم المعروف حين ذاك ووضع عليها الشمال فى الجهة العليا والجنوب فى الجهة السفلى والشرق على يمين القارىء والغرب على يساره مثل خرائطنا الحالية ، اما بحر قزوين فقد أوصله بالمحيط أو الاقيانوس (**شكل 1**) ٠ لكن هذه الفكرة ظلت محل شك حيث ان عددا كبيرا مـن المفكرين اليونانيين الذين جاءوا من بعد فيتاغور امثال هيرودوت(480 ــ 425ق م) الذى ظن ان العالم عبارة عن صدفـة يحف بها المحيط من كل جهـة ، وان السماء عبارة عن قبة تغطى هذه الصدفة.

ولم يتأكد المفكرون اليونانيون مـن كروية الارض الا بعد ان بلغوا شوطا بعيدا فى علم الفلك والرياضيات وزاد اتصالهم بالعالم خارج بحر ايجـة فى القرن الثالث قبل الميلاد وهى الفتـرة الموافقة للفتوحات الكبرى للاسكنـدر المقدونى (356 ــ 323 ق٠م) الذى بعد ان اعتلى عرش مقدونية سنة 336 ق٠م ، وحد بين اليونانيين ثم خرج بهم غازيا بلاد الشام والفرس الى ان وصل بهـم الى بلاد الهند ثم قفل راجعا الى مصر حيث استـولى عليها أيضـا ، وبـذلك استطاع ان يمـزج بـين الحضارات القديمة واطلاع اليونانيين عـلى ما فى بلدان واسعة من العالم لم يكن لهم بها عهد ٠ ورغم ان امبراطورية الاسكندر قد تمزقت سياسيا بعد وفاته الا ان آثارها بقى عاملا من عوامل الدفع نحو تطوير العلوم حيث نجد ان اريستارك الساموزى (310 ــ 250 ق٠م) يقوم لاول مرة فى التاريخ البشرى بتقدير أو حساب البعد بـين الارض والقمـر والشـمس ، وايراطوستين (275 ــ 194 ق٠م) الليبى المولـد واليونانى الاصل والامين لمكتبة الاسكندرية يقوم لاول مرة فى التاريخ بقياس ابعـاد الارض وتقويم محيطها برقم يقرب من الرقم الذى نعرفه حاليا ، ان هـذا الرياضى العظيم والفلكى المشهور طبق علم الهندسة والفلـك فى حساباتـه الجغرافية ٠ فقد لاحظ فى يوم من أيام السنة وهو يوم 21 يونية ان الشمس تكون عمودية وقـت الزوال أى عـلى الساعة 12 على منطقة اسوان بدليل ان اشعتها تصل الى اعماق المياه لبئر عميق فى هذه المنطقة ، وان هذه الظاهـرة



(شكل 1) خريطة العالم حسب هيكاتي (517 ق٠م)



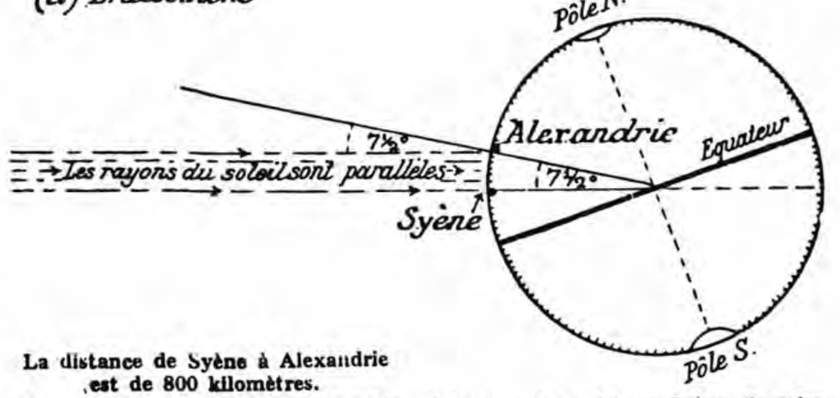
(شكل 3) خريطة العالم حسب ما جاء عن ايراطوستان (250 ق٠م)

لا تثبت فى غير ذلك اليوم من شهور السنة حتى ولو كانت الشمس فى سمتها لانها لا تكون عمودية على رأس الراصد ، كما لاحظ ان ظل الاشياء ينعدم تماما على الساعة 12 من يوم 21 يونية في منطقة اسوان ، اما فى مدينة الاسكندرية التى تبعد بحوالى 800 كيلومتر الى الشمال من مدينة اسوان فان الشمس لا تظهر عمودية على راس الراصد فى أى يوم من أيام السنة ، وبالتالى فان الاشياء لها ظل فى اليوم الذى لا يكون لها ظل فى منطقة اسوان ومعنى هذا اذا ثبنا عمودا فى الارض بمدينة الاسكندرية ونظرنا الى ظله وقت الزوال (الساعة 12) من يوم 21 يونية لاحظنا ان هذا الظل يكون زاوية قدرها سبع درجات ونصف الدرجة كما فى الصورة رقم 2 . واذا كانت أشعة الشمس تصل الى سطح الارض وهى متوازية معناه ان الاشعة الواصلة بين طرفى قوس (الاسكندرية واسوان) مركزه الارض ، تكون زاوية قدرها

واذا كان محيط الدائرة المصطلح عليه هو 360 فان زاوية سبع درجات ونصف تمثل قيمة أقل من قيمة الدائرة الكاملة بحوالى 50 مرة ، ونستنتج من هذا ان محيط الارض يساوى 50 × 800= 40.000 كلم . هكذا كان تفكير اراتوستين فى الوصول الى معرفة محيط الارض ثم قدر شعاعها باستعمال نسبة لارشميد (287 ـ 212 ق م) كالتالى : $2 \times \frac{1}{7} 3 \times$ ش= 6400 كلم .

وبعد ان قدر اراتوستين ابعاد الارض راح يرسم لها خريطة تمتد من الشرق الى الغرب أو من أعمدة هرقل المعروفة بجبل طارق حاليا ومن الشمال الى الجنوب أو من جزيرة تول أى ايسلندا الى مصب نهر الكانج تول الى خط الاستواء تقريبا (شكل 3) وهى خريطة رغم ما كان بها من عيوب مثل اتصال بحر قزوين بالمحيط وامتداد القارة الاسيوية الى الشرق أكثر من اللازم فانها تعد من أوائل الخرائط التقريبية للعالم القديم ظل معمولا بها لعدة قرون ، بل حتى مطلع العهد الاسلامى حيث ان خريطة استرابون الرومانى (63 ق م ـ 25 م) لم تختلف كثيرا عن خريطة اراتوستين ، وكذلك خريطة بطليموسن (90 ـ 168 م) فى العهد الرومانى (شكل 4) الذى قال بكروية الارض ورغم انها لا تدور وانها تحتل مركز الكون . ولكن رغم ذلك فان خريطته تعد أحسن خريطة للعام فى القديم واقرب للواقع .

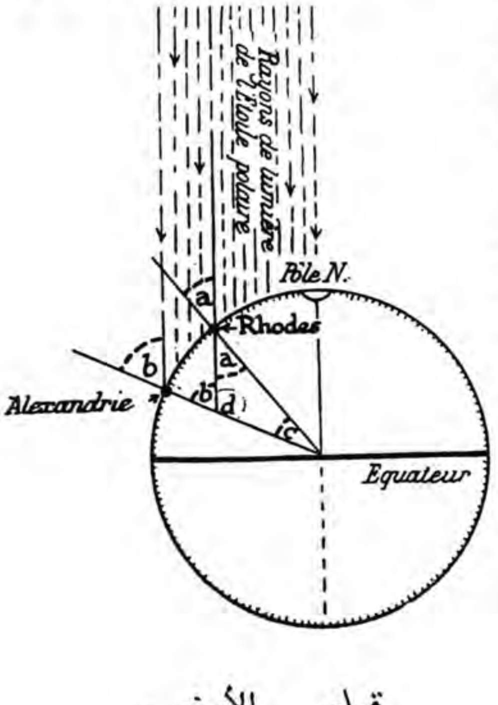
(a) Eratosthène



La distance de Syène à Alexandrie est de 800 kilomètres.

Remarquons que dans cette figure l'angle entre Alexandrie et Syène, de même que l'angle entre Alexandrie et Rhodes dans la figure qui est au-dessous, est exagéré pour rendre les figures plus claires.

(b) En utilisant l'Etoile polaire



$$a + d + c = 180° \text{ (Dém. 5)}$$
$$a + c = 180° - d = b$$

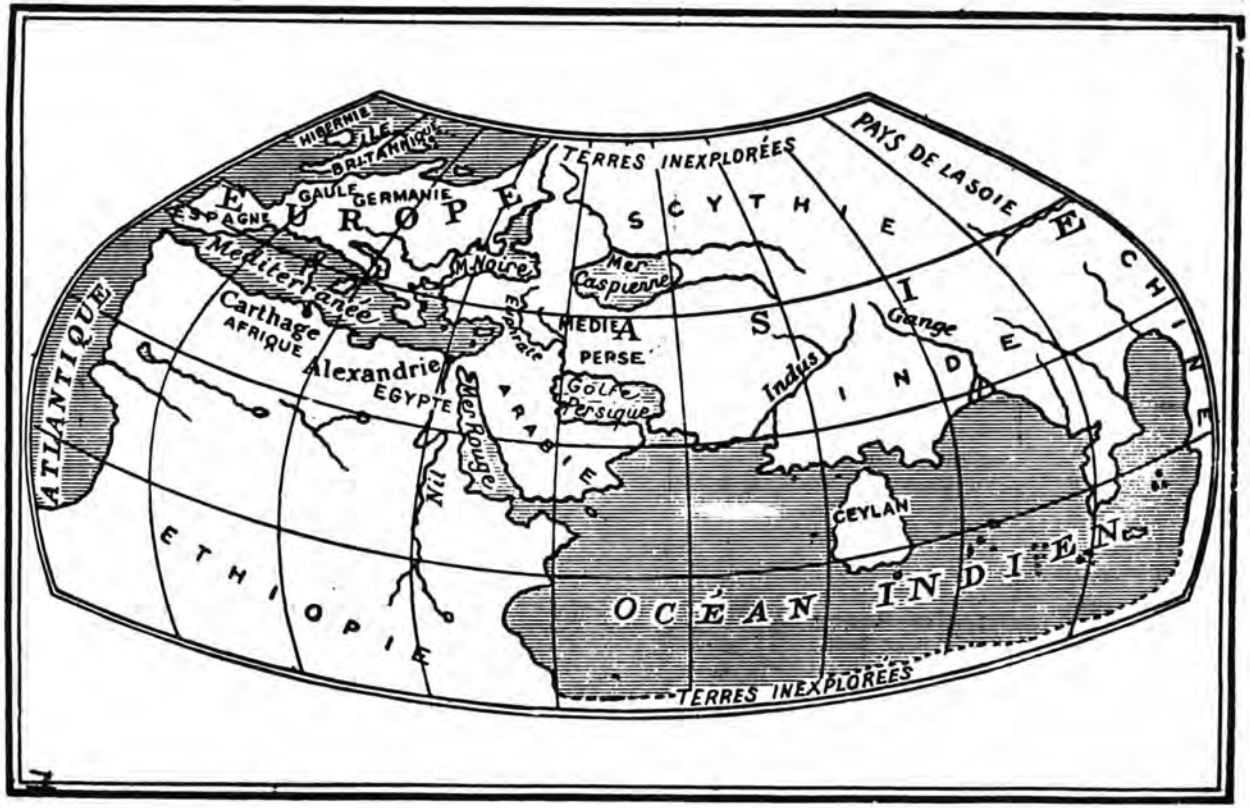
d'ou

$$a + c = b \text{ ou } c = b - a$$

Par suite, l'angle au centre de la terre ayant même mesure que l'arc dont les extrémités sont Rhodes et Alexandrie (ou deux autres points quelconques) est la différence entre les hauteurs de l'étoile polaire au-dessus de l'horizon en ces deux points. Si D est la longueur de l'axe de méridien compris entre ces deux points, la longueur de la circonférence terrestre est

$$\frac{D \times 360}{c}.$$

شكل 2) قياس الأرض.



(شكل 4) خريطة العالم لبطليموس (حوالى 168 ميلادية)

5 ـ الجغرافية بعد بطليموس :

يعد كتابى : الجغرافية والمجسطى لبطليموس آخر صيحة لتطور علم الجغرافية فيما قبل الاسلام . اذ بعد بطليموس أخذ هذا العلم فى التراجع والافول وبدأت انجازات الخرائط تقل شيئا فشيئا أو تأخذ طريقها نحو الضياع والاهمال ، بل أخذ الدين يسيطر على البحث وراح المفكرون يتقيدون بما جاء فى الكتاب المقدس الذى ادخلت عليه تعاليم غريبة ما انزل الله بها من سلطان ، فاعتقد كوزماس (547 م) فى كتابه الكوزموغرافية ان الارض منبسطة وليست بكروية الشكل وان بيت المقدس هى مركز الدنيا وان الجنة تقع فيما وراء بلاد آسيا وانه يوجد بها كل أنواع الاخشاب وأشجار الفاكهة وأشجار الحياة ، ولا يوجد بها حر ولا برد بل ربيعها دائما • كما حرم رجال الدين المسيحى القول بدوران الارض بزعمهم ان هذا كفر ، ومخالف للعقيدة لذلك لا ينبغى الخوض فيه بل يجب تسليم هذا الامر لله وحده . اما صناعة الخرائط فقد تدهورت على يد الرومان الذين صرفوا جل اهتمامهم للسيطرة والاستعمار دون الاستزادة فى العلم • فقد كان العالم فى نظرهم عبارة عن قرص مستدير تتوسطه مدينة روما عاصمة الامبراطورية الرومانية • ولم يهتموا بعلم الفلك ولا بالرياضيات الا بقدر ما يخدم مصلحتهم •

وقد زاد تدهور علم الجغرافية فى أوروبا فى فترة انهيار الامبراطورية الرومانية وانقسامها سنة 395 م ، وبالخصوص فى تلك الفترة التى اعقبت زحف الجماعات البربرية من وسط آسيا الى قلب أوروبا حاملة معها الدمار والخراب ، فقضت على حضارة حوض البحر الابيض المتوسط باستيلاء القوط على وسط أوروبا والبلقان فى القرن الرابع للميلاد وزحف الوندال الى اسبانيا سنة 414 م ، ومنها الى شمال افريقيا ، ثم قضى الاستراقوت على مدينة روما سنة 476 م • وهكذا تحول التطور الجغرافى الى اوهام وضلالات وخرافات سادت المعمورة من الارض كما توقفت حوافز الرحلة والمشاهدة نظرا لعدم الامن الى ان تمكن أهل شبه الجزيرة العربية بعد اسلامهم من تكوين امبراطورية ضخمة امتدت اطرافها فى أقل من قرنين من بلاد الهند الى المحيط الاطلسى فساد الامن مرة أخرى وعاد التطور الحضارى الى مجراه الطبيعى •

2 المجهودات الجغرافية لدى المسلمين :

1 ـ العوامل التى ساعدت على تقدم علم الجغرافية لدى المسلمين

ان العوامل التى أدت الى تقدم علم الجغرافية عند المسلمين كثيرة ومتنوعة منها ما هى أصيلة أصالة الانسان العربى الذى تعرضنا اليه سابقا ، ومنها ما ترجع الى اتساع رقعة الاسلام وما صحبه من حركة لترجمة الكتب اليونانية والهندية والآثار القديمة بصفة عامة ، يضاف الى هذا التعاليم الدينية الاسلامية التى تحث على العلم والمعرفة والبحث عن الحقيقة ٠

أ ـ التعاليم الاسلامية :

ان الدين الاسلامى ليس بدين للتزمت والانزواء بل هو دين يدعو الى البحث واستعمال الفكر للوصول الى الحقائق وفهم اسرار الحياة ، وبذلك يكون الايمان القوى المنبعث عن اقتناع النفس والعقل ٠ وفى مجال استعمال الفكر لادراك الخالق من صورة مخلوقاته يقول سبحانه عز وجل فى سورة الغاشية : **«أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت »** ، ويقول تعالى فى سورة ق : « **افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج** » ويقول فى آية أخرى : سورة الملك « **الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور** » ويقول فى نفس السورة (الآية 14) : « **هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور** » ٠ والمتبع لسور القرآن يجد بها آيات كثيرة تحث المسلم على استعمال الفكر ، والترحال طلبا للمعرفة والرزق اذ يقول تعالى : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » (سورة الجمعة ـ الآية التاسعة) ٠ كما ان بعض الشعائر الدينية تدعوا الى معرفة الفلك والترحال مثل فريضة الحج التى ينتقل فيها المسلم بين موطنه وبيت الله الحرام « **واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** » (سورة الحج الآيات 24 ، 25) ٠ واداء الصلاة يدعو الى معرفة حلول الوقت « **وألقي في الارض رواسى ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم**

يهتدون » (سورة النحل ، الآيتين 14 و 15) . وفى سورة الاسراء نقرأ فى الآية 11 ما يلى : « **وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا** » . ويقول تعالى أيضا فى سورة البقرة ، الآية 187 ما يلى : « **يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون** » • ومجمل القول ان كلا من الاسلام والايمان يدعوان الى التعرف على علم الفلك والبحث فيه للتعرف على الخالق •

ب ـ اتساع الامبراطورية الاسلامية :

لقد بدأت الفتوحات الاسلامية بعد وفاة الرسول عليه السلام مباشرة ، ولا شك ان نجاح المسلمين فى توسيع نفوذهم الى ان أصبح يشمل الامبراطورية الفارسية شرقا وجزءا كبيرا من الامبراطورية الرومانية غربا يعود الى الاوضاع الاجتماعية والسياسية والظلم الذى كان سائدا لدى مجتمع القرن الخامس والسادس والسابع للميلاد ، لذا وجدت الامم المضطهدة من التعاليم الاسلامية عهدا للخروج من الظلمات الى النور ، فدخلوا فى الدين الجديد أفواجا ، وبذلك لم يصادف المسلمون فى طريق فتوحاتهم الا مقاومة ضئيلة ، على عكس ما حدث للاسكندر المقدونى فى القرن الرابع قبل الميلاد عندما أراد نشر النفوذ اليونانى فى الشرق • وكذلك التعاليم الاسلامية التى لم يكن الهدف منها الاستعمار ، ولكن السلم والامن فى ربوع العالم ، وفى هذا المعنى يقول تعالى فى سورة البقرة : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين** » (الآية 188) • وعلى أى حال فان اتساع الامبراطورية الاسلامية أدى الى اتساع العالم المعمور واحتكاك المسلمين ببعضهم وبغيرهم وامتزاج الحضارات القديمة وبعثها من جديد هذا من جهة ومن جهة أخرى اتساع افق المعرفة باستقدام الحكام والامراء للعلماء من كل حدب وصوب •

ج ـ حركة الترجمة :

لا شك ان المسلمين فى انتشارهم وتوسعهم قد وجدوا أمما لها آثار قيمة فى الحضارة والتقدم وقد خالطوا مجتمعات تتصف بالرقى والمعرفة وهى آثار وعلوم لا تتنافى فى معظمها والدين الاسلامى بل ان هذا الدين يحث المسلم على الخوض فيها والاخذ بما حسن منها واستعمالها وسيلة لتثبيت الدين ومعرفة

الخالق والمخلوق واستثمار الدنيا ولقد بدأ اهتمام المسلمين بالآثار القديمة بعد ان استتب لهم الامر واطمأنوا على دينهم وكان هذا بالخصوص فى العصر العباسى حيث أخذ الخلفاء العباسيون فى ارسال البعثات للبحث عن الكتب والمؤلفات باى لغة كانت وباى ثمن كان ، واستمر المسلمون ينقبون فى تلك الكنوز العلمية بصبر ، وللاستفادة من هذه الكنوز كان لابد من ترجمتها الى لغة السيادة أو لغة المسلمين التى هى لغة القرآن ، فظهرت حركة الترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية ونشطت هذه الحركة فى عصر العباسيين أيضا • وفى هذا الشأن تطالعنا كتب التاريخ ان احد اعضاء السفارة الهندية اسمه مانك جاء الى بلاط المنصور سنة 154 هـ الموافق سنة 771 م بكتاب قيم عن علم الفلك لدى الهندوس اسمه كتاب **السند هند** ، ونظرا لما لهذا الكتاب من فوائد قيمة أمر الخليفة العباسى بترجمته الى اللغة العربية واوكل المهمة الى الفزارى الذى قام بترجمته •

ومن المتعارف عليه ان حركة الترجمة وجدت التشجيع الكامل لدى الخلفاء العباسيين ابتداء من عهد هارون الرشيد بالخصوص (170 ـ 193 هـ ، 786 ـ 809 م) الذى أمر بانشاء بيت الحكمة ، واهتم بهذا الجانب العظيم من بعد الرشيد ابنه المأمون الذى قرب اليه العلماء دون النظر الى دينهم بل قومهم حسب ما لديهم من علم ، وجعل بيت الحكمة تحت اشراف الدولة مباشرة واستقدم لها العلماء من قوميات مختلفة وديانات عديدة ، كما بعث من ينقب له عن ألوان المعرفة أو الكتب فى خزائن الامبراطورية البيزنطية وعادت اليه هذه البعثة بكتب قيمة لمختلف التخصصات العلمية باللغة اليونانية ، فأمر بترجمتها الى اللغة العربية •

وكان من نتائج هذا الاهتمام العباسى للبحث العلمى ان ترجم كتاب **الزيج** الشهريار الفارسى ، وكلمة الزيج فارسية الاصل تطلق عادة على الجداول الفلكية • كما ترجم يحيى بن خالد البرمكى (190 هـ ـ 805 م) كتاب المجسطى لبطليموس وهو كتاب قيم اذ جمع فيه بطليموس السابق الذكر ما وصل اليه البحث اليونانى فى هذا الميدان ، ونظرا لما لهذا الكتاب من قيمة فقد ترجم عدة مرات منها ترجمة حنين ابن اسحق (195 هـ ـ 260 م) ثم والحجاج ابن مطر سنة 212 هـ ، الموافق لسنة 827 ميلادية ثم ترجمه أيضا الى العربية ثابت بن قرة (288 هـ) •

ومن أمهات الكتب فى الجغرافية التى ترجمت فى هـــذه الفترة نجد كتـاب الجغرافية لبطليموس الذى يطلق عليـه أيضا اسم دليل الجغرافية وهو يشتمل على مبادىء أولية فى الرياضيات ، وفيه تحديـــد لصـــورة الارض وعظمتهـا وأوضاعها ومكانتها فى الكون ، وجداول فلكية لعروض واطوال النقط من الجزء المعمور من الارض • وقد قام بترجمة هذا الكتـــاب : أبو يوسف يعقـــوب ابن اسحق الكندى المتوفى سنة 255 هـ (868 م) ثم ثابت بن قرة كما ترجمه محمد بن موسى الخوارزمى المتوفى سنة 232 هـ (846 م) •

والملاحظ على هذه الترجمة انها كثيرا ما كانت تستعمل فيها بعض المصطلحات الاجنبية التى لا يوجد لها مقابـــل فى العربية ، اذ المدار على الفهم ، وما اللغة الا وسيلة من وسائل أداء المعرفـــة بامانـــة •

2 ـ مجهودات جغرافية فيما بين القرن الاول والثالث هجرى :

اَن القرن الاول للهجرة يعـــد قـــرن الفتوحات وخروج الاسلام مـــن شبـــه الجزيرة العربية الى بقية انحاء العالم ، اذ الغرض الاول لدى المسلمين فى هذا القرن هو نشر الاسلام والسلام وتمكين الانسان من الاطلاع على هذا الدين الجديد ذى المبادىء السامية الذى يدعـــو الى الاخوة وحق الحياة فى ظل الامان لكل فرد على وجه المعمورة •

اما القرنين الثانى والثالث فقد اتسما بحركة الترجمة وتمكين الامم من اللغـة العربية لغة القرآن والدين الاسلامى ، ولغة الادارة والمعاملات الدنيوية ، اذ بعد أن عمرت بغداد التى بناها المنصور سنة 145 هـ ـ 770 م ، فتحت أبوابها لكل وافد من جميع جهات المعمورة ، فجاءها التجار من كل الجنسيات ووصل اليها العلماء والاطباء مـــن اليهود والصابئة والنصارى والمجوس والبوذيـين الى ان أصبحت اغنى عواصم المعمورة واكثرها ضيـــاء •

ويمكن التعرف على التقدم الجغرافى لهذه الفترة فيما وصل اليه علم الفلك ، وفى الرحلات التى قام بها المسلمون •

أ ـ علم الفلك :

لقد نشأ هذا العلم لدى المسلمين فى بداية الامر نشـــأة بسيطة اذ اهتـــم المسلمون فى أول الامر بمعرفة حركة الشمس والقمر لاثبات الفصول الاربعة التى تتعلق بالفلاحـــة ، وكذلـــك أداء الشعائر الدينية على أكمل وجه • ولم يخوضوا فى علم الفلك فى أول الامر

خشية الخلط بينه وبين علم السحر والكهنوت الذى عرف عليه قديما بعلم الغيب ولكن بعد ان ميزوا بين هذا وذاك واطمأنوا على عقيدتهم اداروا ابصارهم نحو السماء لملاحظة طلوع الكواكب وغروبها والاستفادة من هذه الحركة فى ركوب البحار وقطع القفار ، ثم زاد شوقهم الى معرفة الامور الفلكية لاستعمالها فى تحديد النقط على سطح الارض والمسافات ورسم الخرائط والطرق ومعالم الارض لتسهيل الجباية وادارة الدولة وخدمة الانسانية بصفة عامة . لذلك انشئت المراصد على غرار مراصد الاسكندرية فى العهد اليونانى ومراصد جند يسابور بخوزستان فى العهد الفارسى . وكان من اشهر فلكى هذه المراصد الاسلامية أحمد النهاوندى الذى قام باعداد زيج اطلق عليه الزيج المشتمل سنة 188 هجرية (803 م) . أما أشهر المراصد فهو المرصد الذى انشأه المأمون سنة 214 هـ (728 م) عند باب الشماسية وهى احدى الابواب الاربعة لمدينة بغداد . ثم تليه مراصد أخرى منها مرصد سند بن على (165 ـ 229 هـ) ومرصد يحيى بن أبى منصور المتوفى سنة 215 هـ . ويذكر المؤرخون ان من مرصد باب الشماسية قام الفلكيون المسلمون برصد منظم لحركات الاجرام السماوية ، وصححوا ما جاء فى كتاب المجسطى اليونانى من براهين للنظريات الفلكية العديدة ، من بينها دوران الارض حول الشمس وحول نفسها ، وطول السنة الشمسية . ومما يذكر ان المأمون طلب من هؤلاء الفلكيين القائمين على هذه المراصد ومن علماء آخرين فى الرياضيات والهندسة من بيت الحكمة ان يتحققوا من آلات الرصد الوارد ذكرها فى الآثار اليونانية والفارسية والهندية ، وان يقوموا بصناعة ما يشابهها أو ما هى احسن منها لاستعمالها فى ارصاداتهم . وقد تمكن هؤلاء العلماء فى النهاية من الحصول على معلومات كثيرة فى هذا الميدان جمعوها فى كتاب ضخم اطلق عليه اسم : **الرصد المأمونى او الزيج المأمونى الممتحن** . ولم يكتف المأمون بمراصد بغداد فقط بل أمر بانشاء مراصد أخرى فى ارجاء المعمورة حيث انشأ مرصدا على جبل قيسون المشرف على مدينة دمشق ومرصدا فى مدينة اصفهان .

اما آلات الرصد التى استعملت فى هذه المراصد فهى كثيرة ومتنوعة منها ذات الاصل الاغريقى كاللبنة ، والحلقة الاعتدالية ومنها المستحدث مثل ذات

الاوتار ، وذات السمت والارتفاع ، والحلقة الكبرى والحلقة الصغرى ، والمزاول الشمسية والمتنوعة • واهمها آلة الاسطرلاب التى ارتبطت صناعتها عند المسلمين باسم ابراهيم الفزارى اذ هو أول مسلم اخترع اسطرلابا وألف فيه كتابا باسمه وهو كتاب العمل بالاسطرلاب • والاسطرلاب عبارة عن صورة مصغرة لقبة السماء ، وكانت صناعته تحتاج الى مهارة فائقة لما يرتسم على هذه الآلة من خطوط رئيسية حتى يتم تحديد مواقع النجوم عليها • ولهذا انتشر نوع آخر أكثر بساطة من هذه الآلة وهو الاسطرلاب المستوى •

ووظيف الاسطرلاب ايا كانت صورته هى معرفة ارتفاع النجوم والكواكب وبالتالى معرفة ما انقضى من ساعات الليل والنهار • وقد ظلت هذه الآلة منتشرة فى العالم الاسلامى طيلة الحضارة الاسلامية ومنها انتقلت الى أوروبا حيث بقى الاوروبيون يعملون بها حتى نهاية القرن 17 م ، كما أخذوا عن المسلمين طريقة استعمال البوصلة فى رحلاتهم البحرية والبرية •

ولم يكتف المسلمون فى ابحاثهم الفلكية المبكرة بمعرفة حركة الاجرام السماوية فقط بل طبقوها على قياس الابعاد كقياس محيط الكرة الارضية مثلا وذلك بعد ان برهنوا على كرويتها وحركاتها وفى هذا المعنى يقول ابن سينا (290 هـ) فى كتابه الاعلاق النفيسة ان الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من فى نواحى الارض فى وقت واحد ، بل ان طلوعها على المواضع المشرقية من الارض اسبق من طلوعها على المواضع المغربية وغيبوباتها عن الجهات الشرقية اسبق منها عن الجهات المغربية • وأيضا انه يوجد فيما بين المواضع المتباعدة الى الشمال والجنوب مثل هذه الظاهرة فانه ان سار احد فى الارض من ناحية الجنوب الى الشمال رأى انه يظهر له من ناحية الشمال بعض الكواكب التى لها غروب، فيكون ابدى الظهور ، ويحسب ذلك يخفى عنه من ناحية الجنوب بعض الكواكب التى كان لها طلوع فيصير ابدى الخفاء • وللارض حركة يومية بدليل وجود الليل والنهار • ومن نزل تحت القبة فالليل والنهار ابدا عليه مستويان : الليل اثنتا عشرة ساعة والنهار اثنتا عشرة ساعة ، وكلما ابتعدنا عن وسط السماء (القبة) نحو الشمال حيث المعمورة من الارض ـ المنقسم الى اقاليم سبعة ـ يطول نهار الصيف ، وليل الشتاء حتى 66 درجة شمالا ينتهى

النهار فى الطول ما يكون أربعا وعشرين ساعة ، ويذهب الليل فى أول الصيف ، وفى أول الشتاء الليـل ينتهى الى 24 25 ساعة ويذهب النهار ، وما زاد فى النهار نقص من ساعات الليل ٠

اما الحركات الثانية السنوية للارض فينتج عنها فصول السنة الاربعة والتى يبدأ كل منها فى مواقيت معروفة فلكيا٠ ويذكر ابن رسته انه كما ان الارض مستديرة الشكل ، فالسماء أيضا تتخذ نفس الشكل ، وهو يورد عدة أدلة تبرهن على ذلك وابرزها ظهور بعض الكواكب التى لا تكون بدرجة واحدة ٠ « فلو كانت السماء مسطحة على ما يقول بعض الناس كما كان يجب ان يكون بعض نواحى السماء منا على قدر واحد بل كان يجب ان يكون أقرب مواضع السماء منا ما كان محاذيا لرؤوسنا » ٠ اما موضع كرة الارض فهى مثبتة فى وسط السمـــاء « كالمركز وقدرها عند قدر السماء كقدر النقطة من الدائرة صفرا » فالخلاصة مما تقدم « ان الارض فى وسط العالم كالمركز . والهواء يحيط بها من جميـع الجهات . والسماء محيطة بالهواء عـلى مثال الكرة ٠

اما عن قياس محيط الارض فيذكـر التاريخ ان المأمون أمر سند بن عـــلى وخالد بن عبد الملك بقياس مقدار طول الدرجة ٠ ولتحقيق ذلك سار الرجلان من بغداد نحو مكان بعيد الى ان وصلا الى منطقة تدمر ، كما سار رجلان آخران هما على بن عيسى الاسطـرلابى وعـلى ابن البحترى فى اتجاه آخر ٠ وقـــام الرجال الاربعة بقياس طول الدرجة من درجات اعظم دوائر تمر بسطح الارض ، فكانت 111,81 كيلومتر ومعنى هذا ان محيط الارض ـ حسب هذه التجربـة المأمونية ـ يساوى 40251,6 كلم وهو رقم أقرب الى الرقم المعروف حاليـا ٠ والقياس المأمونى أول قياس حقيـــقى اجرى على الطبيعة ، بل يعد من الاعمال الجليلـة التى ساهـم بهـا المسلمون فى تطوير علم الجغرافية وتصحيح العلـوم القديمة ٠

ب ـ الرحـلات :

لم يهتم المسلمون فى هذه الفتـــرة المبكرة من تاريخهم بعلم الفلك وتطبيقاته فقط ، بل راحوا يجوبون انحاء الارض للتعرف على معالمها الطبيعية والبشرية ، وتصحيح ما جاء فى كتب الاولين ٠ وممن اشتهـــروا بالرحـــلات والاكتشافـات الجغرافية نذكر سليمان التاجر (237هـ) الذى ترك لنا معلومات قيمة عن بـلاد الشرق الاقصى حسب ما ورد فيما ترجم

له الى اللغة الفرنسية بواسطة المستشرق الفرنسى رينودوت تحت عنوان سلسلة التواريخ • ويذكر سليمان التاجر فى رسالته واخباره التى نقلها عنه أبو زيد الحسن السيرافى اشياء كثيرة عن بلاد الهند والصين، والبحار الشرقية والموانى مثل ميناء خانفو ، والجزر مثل جزيــرة سيلان أو سرنديب ، وظاهرة المد والجزر وارتباطهما بحركة القمر ، وهو ارتباط سليم اثبته العلم الحديث ، كما وصـف فى رسالته رياح التيفون بالمنطقة وعادات وتقاليد سكان الصين والهند بشىء من التفصيل •

ورحلة سلام الترجمان الى الجهات الشمالية من بلاد الصين ذلك فى عهـد الخليفة العباسى الواثق بالله (227 ـ 232 هـ) الذى أرسل سلام الترجمان الى بلاد الصين • وفى هذه الرحلة انطلق سلام الترجمان من مدينة سامرا الى أرمينيا ومنها الى بلاد الخزر شمال غرب بحر قزوين ومنها الى بلاد الصين بعد ان اجتاز سد ذى القرنين ، وقد صحبه فى هذه الرحلة خمسون رجلا من بينهـم محمد بن موسى المنجم عادوا الى عاصمة الدولة العباسية بمعلومات قيمة عــن الاراضى الممتدة من بحر قزوين الى بلاد الصين •

ولما كانت الجهات الشمالية من البحر الاسود غير معروفة حتى لدى الاقدمين مثل بطلموس واسترابون وبلينى ، فقد اهتم المسلمون باكتشافها ، لذلك أوفد الخلفاء العباسيون بعثات كثيرة الى هذه الاصقاع ، ومن بينها بعثة ابن فضلان الى بلاد البلغـار (309 هـ ـ 921 م) الذى أرسل لنشر الاسلام بطلب مــن حاكم البلاد بالفلجا ، وقد عاد هــذا الرحالة بعد حوالى السنة بملاحظـات ضمنها كتابه الذى يعد أول مصــدر موثوق به عن بلاد تلك الاصقاع •

ولم يقتصر المسلمون فى رحالاتهـم واكتشافاتهم على الجهــات الشرقيـة والشمالية فقط بل منهم من خرج مـن بلاد المغرب ليكشف السواحل الشمالية للمحيط الاطلسى وبلــدان أوروبـا الشمالية الشرقية • ومن بين هــؤلاء الرحالة نذكر رحلة يحيى بن الحكـم الغزالى (حوالى 230 هـ ـ 844 م) الى بلاد الدانمارك وقيل الى جزر ايرلندا ، وقد أرسل فيها هذا الرجل من قبل الخليفة الأموى عبد الرحمن بن عبـد الحكم الذى كان بالاندلس وخرج الغزالى من قرطبة الى شلب التى انشىء له فيها مركب حسن كما يذكر ، ومنها ركـب المحيط الاطلسى المعروف حين ذاك ببحر

الظلمات الى أوروبا الشمالية وقد رجع بعد عامين من رحلته الى بلاد الاندلس بمعلومات قيمة .

ومن المجهودات التى قام بها المسلمون فى المغـــرب لكشف ما وراء المحيـط الاطلسى نذكر رحلة سماها الادريسى برحلة الفتية المغرورين ذلك ان ثمانية رجال كلهم ابناء عم عزموا على ركوب بحر الظلمات فانشأوا لذلـــك مركبـا ووضعوا فيه ما يكفيهم من الزاد والماء لمدة شهر ثم انطلقوا من مدينة لشبونة نحو الجهات الجنوبية الى ان وصلوا الى جزر آزور ومنها اطلقوا شراعهم للرياح التجارية التى ربما قد أوصلتهـــم الى العالم الجديد . واذا صحت هذه الرواية يمكن القول انهم أول من اكتشـــف أمريكا قبل كلومبس بحوالى السبعـــة قــرون .

ج ـ الجغرافية الوصفية :

ونعنى بها تلك المؤلفات فى مـــادة الجغرافية التى ظهرت لدى المسلمـين فيما بين القرن الاول والثالث للهجرة وهى مؤلفـــات عديد ومتنوعة لذلـك سنقتصر على البعض منها فقط . وهى مؤلفات يغلب عليها الطابـــع الوصفى والخلط بين العلوم المختلفة .

1 ـ كتاب الاوطان والبلـــدان لعمر ابن بحر بن محبوب المعروف بأبى عثمان الجاحظ (150 هـ ـ 255 هـ ، 767 ـ 868 م) وهو عالم جليـــل له مؤلفات عديدة منها البيـــان والتبيين وكتاب البخلاء ، والحيوان وكتب أخرى عديـدة لا يمكن حصرها . وتعتبر مؤلفات الجاحظ كنوز قيمة أخذ منها من جاءوا من بعده مثل ابن المقفـــع وابـــن خرداذبة ، وابن حوقل والمسعودى والمقدسى الخ.. ممن كتبوا فى الجغرافية .

2 ـ كتاب صورة الارض لابى جعفـر أبى عبد الله محمد بن موسى المشهـور بالخوارزمى وقد ألف كتابه فى النصف الاول من القرن التاسع للميلاد وقيـل سنة (232 هـ ـ 846 م) وليس فى وسعنا القطع بتاريخ محدد ، ولكن ومما لا شك فيه ان الخوارزمى قد شارك فى النشاط العلمى الذى ازدهر فى ابـان عهد المأمون (813 ـ 833 م) ويعتقد ان هناك صلة بين هذا الكتاب وبين خريطة العالم الشهيرة التى تعاون على رسمها نفر من الباحثين تحقيقا لرغبة الخليفـة المأمون اطلق عليها الصورة المأمونية . وهى أول خريطة للعالم ببره وبحـره وعامره وغامـــره وضعت فى العهـــد العباسى . ويعتبر كتاب صورة الارض

احسن ما انتجته القريحة الاسلامية فى فجر نشاطهـــا العلـــمى ، فيــه أورد الخوارزمى الاسماء القديمة للبلـــدان والمواقع والاسماء المتداولـة فى العصر الاسلامى ٠

3 ـ مصنفات المسالك والممالك وهى مؤلفات عديدة جاءت تلبية لحاجـــة الادارة الاسلامية كمعرفـــة الطـرق ، لايصال البريد وجمع الضرائب ، وتنقلات الجيش ، والتجـــارة الـــخ ٠٠٠ وهى مصنفات وصفية بحق اذ ان أصحابها لم يتعرضوا الى التحليـــل والتعليـــل الجغرافى بل اكتفوا بوصف المظاهـــر الطبيعية وصردها وذكر الطرق وابعادها وربما كان مرد هذا الى حكم الوظيفة التى كان يشغلها صاحـــب المسالـك والممالك كما هو الشأن لدىابن خرداذبة الذى كان موظفا رسميا فى الدولة حيث كان يشغل منصب صاحب بريد وخبر فى عهد أحمد بن جعفر المتوكل (256 ـ 279 هـ ٠ 869 ـ 892 م) وبذلك كان عمل ابن خرداذبة مرتبطا اشد الارتباط بالمسالك وشؤونها ثم ان اطلاعه عـلى وثائق الدولة العباسية قد سهل لـــه الحصول عـلى اخبـار عديدة ومعلومات كثيرة عن اصقاع العالم الاسلامى اذ ذاك فضمنها كتابه المسالك والممالك الذى انجزه وهو بمدينة سامرا على نهر دجلة فيما بين عامى 230 ـ 234 هـ ٠ 844 ـ 849 م ٠ فيه ذكر الطرق التجاريـة الرئيسية فى العالم الاسلامى بجانـب وصفه لجهات قاصية مثل : الصين وكوريا واليبان غير انه كثـــيرا ما خلط بـين الحقيقة والخيال ٠ ومهما يكن فان هذا الكتاب يعد من المصادر القيمـــة التى اعتمد عليها الجغرافيون الذين اعقبـوا ابن خرداذبة مثل البيرونى وياقـــوت الحموى والاصطخرى وكلهم أصحـــاب مسالك وممالك ٠

والخلاصة ان الدراسات الجغرافيـة لدى المسلمين فيما بـــين القرن الاول والثالث للهجرة تتميز بالآتى :

أ ـ عدم التخصص . فالذين كتبوا فيها متخصصين فى الجغرافية فقـط ، لذا لم يكتبوا فى الجغرافية فقط بـــل كتبوا فى فنون أخرى فابن خرداذبة مثلا كان موسيقيا وأديبا فى أول الامر قبل ان يشغل وظيفة صاحب البريد . والخوارزمى اشتهر بالرياضيات والجبر بالخصوص ٠ والجاحظ عرف بالبـلاغة قبل ان يعرف بالجغرافية . ولعل هــذا من شأن العلوم القديمة التى كان فيها الحكيم والعالم هو الذى له من كل فن بطـرف ٠

ب ـ الخلط بين الحقيقة والخيال فى بعض الاحيان وربما مرد هـــذا الى ان

البعض ممن كتبوا فى هذا الفن اكتفوا بالاخبار المنقولة دون ان يتحركوا عن مكاتبهم للمشاهدة والاطلاع فى عين المكان عما قيل أو روى فلان عن فلان ·

ولكن رغم هذه النقائص التى تعد جزءا من عدم الكمال لطبيعة البشر فان المسلمين فى هذه الفترة المبكرة من التاريخ قد أتوا بما لم تات به أمة فى فجر تاريخها · ويكفى ان نذكر فى هذا ان هناك فضلا عظيما يرجع للمسلمين فى جمع التراث البشرى القديم وبعثه من جديد سواءا كان هذا التراث يونانى أو فارسى أو هندى أو فرعونى · فلولا المسلمين لاندثرت تلك المجهودات العقلانية البشرية ولما عثر عليها الى الابد · وكذلك يرجع الفضل الى المسلمين فى المزج بين الحضارات القديمة وتصحيح النظريات العتيقة وتوسيع رقعة العالم المعروف ·

3 ـ مجهودات جغرافية فيما بعد القرن الثالث هجرى :

يذكر المؤرخون ان اتساع الدولة الاسلامية ودخول عناصر اجنبية فيها وانحلالها كانت من الاسباب التى ادت الى انقسامها الى دويلات منها دولة الصفارية فى خراسان على يد يعقوب بن الليث الصفار سنة 254 هـ التى استمرت الى سنة 290 هـ · ودولة السمانيين فى تركستان سنة 216 هـ واستمرت الى سنة 389 هـ · والدولة الغزناوية فى بلاد الافغان والبنجاب سنة 351 واستمرت حتى 582 هـ · والدولة البويهية فى فارس سنة 320 هـ واستمرت حتى 447 هـ · والدولة الحمدانية فى الموصل والشام من 317 الى 393 هـ · ودولة الامويين فى الاندلس من سنة 138 الى 424 هـ والدولة الطولونية فى مصر من 254 الى 292 هـ · والدولة الاخشيدية فى مصر والشام من 323 الى 358 هـ · والدولة الفاطمية فى شمال افريقية ، ثم فى مصر من سنة 297 الى 567 هـ · ودولة الاغالب فى تونس من 184 الى 296 هـ ودولة الادارسة فى المغرب من سنة 172 الى 375 هـ · الخ الخ ··· مما يطول ذكره ، واننا لم نستعرض هذه الدويلات الا لبيان مدى الانقسام السياسى الذى أصاب الامة الاسلامية ، وان هذا الانقسام ظل يشتد فى بعض الاحيان حتى أدى الى الحروب بينهم مما اضعف شوكتهم واذهب ريحهم باستلاء التتار على معظم ديارهم وخرب جنكيز خان عاصمتهم بغداد سنة 656 هـ ـ 1258 م · ولكن واحسن الحظ فان هذا الانقسام السياسى لم يؤثر فى المدى القصير على

الاقل ، على المستوى الحضارى ، بل انه قد زاد من التنافس فى البحث عن المعرفة ويتجلى هذا فى ظهور مراكز ثقافية أخرى مثل قرطبة والقاهرة وبخارى وهى مراكز ظلت تنافس مدينة بغداد فى المعارف والعلوم أكثر من خمسة قرون . وأصبح كل منها قبلة للعلماء والشعراء والكتاب فى مختلف الفنون الذين كانوا ينتقلون بكل حرية بين هذه العواصم طلبا للاستزادة فى العلم أو ابتغاء الكسب أو الجاه · هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الامراء والملوك المسلمين بحكم عقيدتهم أخذوا يشجعون ويقدرون العلم ويقربون اليهم العلماء اسوة لمن سبقهم أو منافسة للخلفاء العباسيين ، فازدهرت بخارى فى عهد الدولة السمانية الى ان أصبحت محطة رجال الادب والعلم · وفى القاهرة اهتم الفاطميون وخاصة فى عهد العزيز بالله (365 ـ 386 هـ) والحاكم بامر الله (386 ـ 411) بالعلم والعلماء · وفى قرطبة كان اهتمام الحكم الثانى المستنصر بالله (350 ـ 366 هـ) بالعلم والعلماء كبيرا حتى وصف قصره بانه كان حافلا بالكتب وأهلها حتى بدا وكأنه مصنع لا يرى فيه الا النساخون والمجلدون والرسامون ·

ومهما يكن من أمر فان علم الجغرافية فيما بعد القرن الثالث للهجرة قد شاهد دفعة أخرى نحو الامام وتطورا ملحوظا يتجلى فى كثرة ما كتب فيه وذلك حتى القرن السابع للهجرة · ولا بأس ان نستعرض فيما يلى البعض من هذه الآثار القيمة :

1 ـ كتاب المسالك والممالك **للبلخى** وهو أبو زيد أحمد بن سهل البلخى من موالد بلخ بشامستان ، قصد العراق وهو صغير فتتلمذ على الفيلسوف المشهور الكندى الذى علمه التاريخ والجغرافية والفلسفة · ولما رجع الى وطنه استخدمه أمير بلخ فى الدولة · والبلخى هو احد الرواد المسلمين فى صناعة الخرائط اذ ان معظم كتبه تحوى صورا واشكالا ورسوما للاقاليم التى تحدث عنها : وقد انجز كتابه المذكور سنة 309 هـ 921 م . وتوفى سنة 322 هـ ـ 934 م · ويذكر المقدسى ان البلخى قد سبقه فى تصوير الخرائط · ومما تجدر الاشارة اليه ان البلخى كان أيضا طبيبا ماهرا وفقيها جليلا ، وانه ممن هجموا على اسرار علم التنجيم والهيئة ·

2 ـ المسالك والممالك **للاصطخرى** وهو أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الاصطخرى الفارسى ، ربما عاش فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى · وقد عاصر

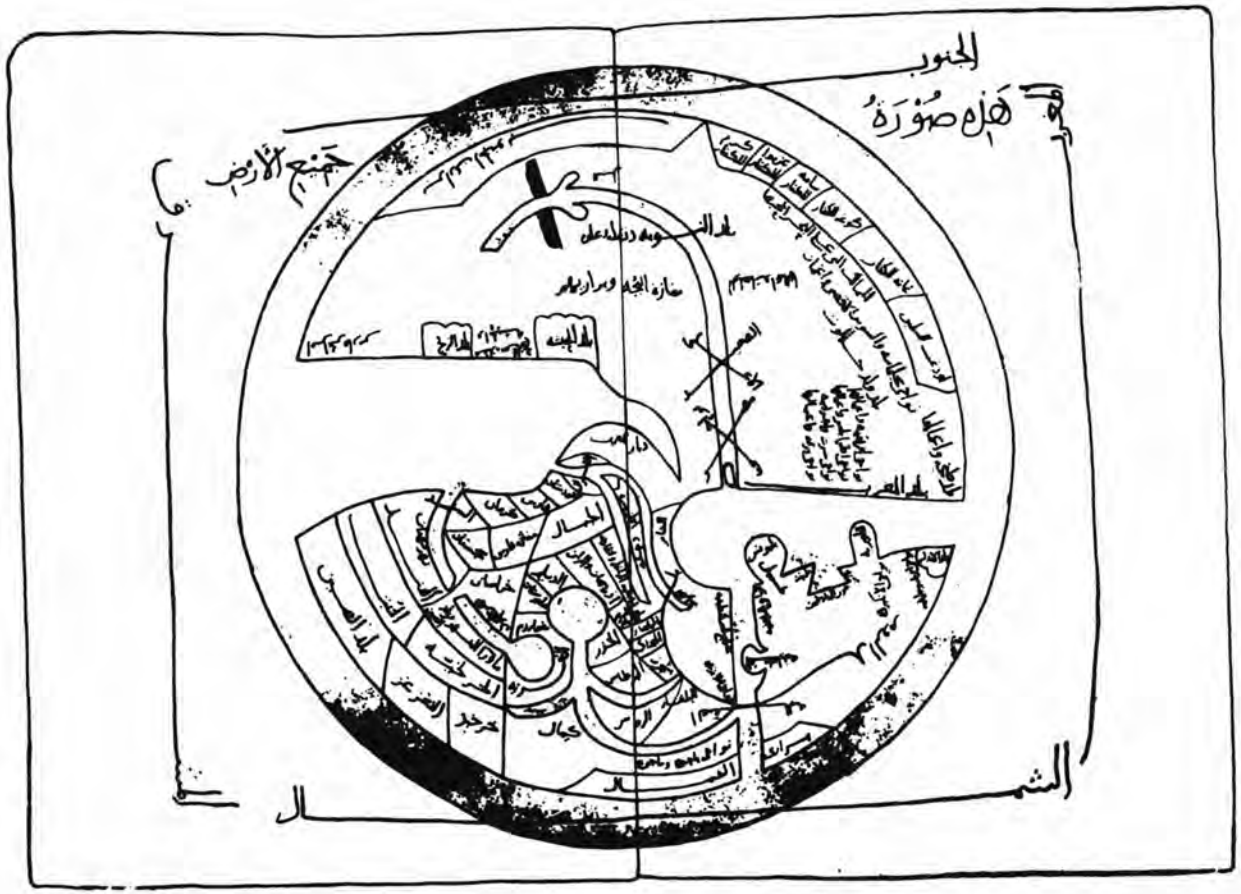
ابن حوقل واتصل بـــه سنة 340 هـ ٠ وقـد كتب الاصطخرى كتابـه المسالك والممالك معتمدا على مؤلف البلخى الذى تقـدم بنفس العنوان ٠ والملاحظ عـلى الاصطخرى انه ذكـر بالتفصيل بـــلاد فارس وذلك لمعرفته بها امـا عن بـلاد المغرب فقد أوجز كـل الايجاز ٠ وقـد اهتم برسم الخرائط عن الاقاليم التى ذكرها ٠

3 ـ كتاب صورة الارض لابن حوقل ، وهـو ابـو القاسم محمد بن حـــوقل البغدادى الموصلى النصيبى ٠ ويذكر فى كتـابه هذا ان الدافع الى تأليفه كـان شغفا بالعلم وتكميلا لما قصر عنه غيره ٠ ثم يقول : وأعاننى عليه تواصل السفر ، وانزعاجى عن وطنى مع ما سبق بـــه القدر ، لاستيفاء الرزق والاثر ، والشهوة لبلوغ الوطر ، بجور السلطان وكلـب الزمان ، وتواصل الشدائد على أهـــل المشرق والعدوان ، واستئناس سلاطنه بالجور بعـد العـدل والطغيان وكثـرة الجـوائح والنـوائب وتعـاقب الكلـب والمصائب ، واختلال النعم وقحط الديم ٠

ومما تجدر الاشارة اليه ان ابن حوقل اعظم رحالة ، حيث ضرب الرقم القياسى فى التجوال ، خرج مـــن بغداد يـوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة 331 هـ ، وهو في احدث السن وغرته ، وفى عنفوان الشباب وسكرته. وظل يطوف بمشارق الارض ومغاربها لمدة 30 عاما الى ان جمع اكداسا مـــن المعارف والتجارب ضمنها كتابه المذكور ٠ والعجيب انه لم يركب البحار بل ظل طيلة تلك المدة يتجول على اليابس فقط ٠

وقد فصل بن حوقل فى كتابه البلاد الاسلامية اقليما اقليما وصقعا صقعـــا **وكورة كورة ، كما رسم عدة خرائـط منها خريطة للعالـــم التى تظهر فـى شكل 5 ٠ وفيها نلاحـــظ الشمال فى** اسفل الخريطة والجنوب فى اعلاها على عكس ما نعرفه الآن فى خرائطنا والخرائط اليونانية القديمة وقد زادت خريطتـه تشويها لعدم استعماله لخطوط العرض والطول فى تحديد المواقع ويظهر ان هذه الخريطة غير منقولة وانها من اجتهاده الخاص وفيها تظهر سواحل البحار فى شكل خطوط مستقيمة ولعل السبب فى ذلك يرجع الى ان ابن حوقل لم يركب البحار حتى يمكنه ان يتنبه الى تعرجاتها كما انه يبالغ فى رسم القارة الافريقية ، ويفصل بين القارة الآسيوية والاوروبية فى مده للبحر الاسود نحو الشمال حتى المحيط الشمالى ٠

4 ـ مروج الذهب ومعادن الجوهـــر للمسعـــودى وهـــو أبو الحسن عـلى ابن الحسين بن على ولد فى بغداد سنة



(شكل 5) صورة الارض لابن حوقل (القرن 4 هـ . الموافق للقرن 10 م)

287 هـ وتوفى بمصر سنة 345 هـ . وهو من ابرز المؤرخين والجغرافيين على السواء . أحب التجوال منذ صغره لذا امضى معظم حياته فى الترحال الى بلاد الهند والسند والبنجاب وملبار وسيلان والصين ثم رجع الى زنجبار وزار مدغشقر ثم قفل راجعا الى عمان ومنها رجع الى بغداد لكن حنينه الى السفر عاوده مرة أخرى لذلك خرج نحو الجهات الشمالية فزار البلدان التى تحيط ببحر قزوين والشام وفلسطين ثم مصر التى ادركته فيها الوفاة . والمسعودى واسع الاطلاع والمعرفة . ومن حسن الحظ ان كتابه متيسر للقارىء حيث اعيد طبعه عدة مرات ويحتوى على جزئين . وقد رسم صورة للارض انظر شكل 6 .

5 _ احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم للمقدسى وهو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى ولد ببيت المقدس حوال 335 هـ . ومن هنا كانت تسميته توفى سنة 381 تقريبا . وشهرته معروفة فى الغرب الى حد كبير . وقد طاف بانحاء العالم الاسلامى ما عدا الهند والاندلس وقضى فى ذلك حوالى 20 سنة . ويمتاز المقدسى بالتجربة فيما يقول والصدق فيما يذكر والامانة فيما ينقل . والنظرة الثاقبة فيما يلاحظ ويقدر .

وقد صنف مؤلفه فى سن الاربعين بمدينة شيراز بفارس سنة 375 هـ _ 985 م . ويرى المقدسى ان الجغرافية لم تكن تلقى عناية كبيرة لدى من سبقوه من رجال العلم ومن هنا أخذ على عاتقه ان يضطلع بجمع مادته العلمية من شتى أنحاء العالم الاسلامى معتمدا على رحلاته وملاحظاته الشخصية . وفى هذا الشأن يقول : فرأيت ان اقصد علما قد اغفلوه (أى من سبقوه) وانفرد بفن لم يذكروه الا على الاخلال . وهو ذكر الاقاليم الاسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والانهار ووصف امصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة . وعناصر العقاقير والآلات . ومعادن الحمل والتجارات . واختلاف أهل البلدان فى كلامهم واصواتهم والسنتهم والوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم . ونقودهم وحروفهم . وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم . ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم واليهم الخ ... » الى ان يقول : « وعلمت انه (أى علم الجغرافية) باب لابد منه للمسافرين والتجار . ولا غنى عنه للصالحين والاخيار . اذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء وتطلبه القضاة

والفقهاء وتحبه العامة والرؤساء » وفى هذا الرجز المليح يبين أهمية الجغرافية من بين العلوم ٠

وقد استعمل الخرائط فيما يقـــول حيث قسم العالم الاسلامى الى 14 قسما أو اقليما لكل اقليم خريطته المفصلـة استخدم فيها الرموز والالوان لبيـــان المظاهر الطبيعية ٠ كاستعمال اللـون الاحمر للطرق والاصفر للرمال والاخضر للبحار والازرق للانهار والاغبر للجبال ، وهى تقريبا؟ نفس الالوان المستعملة فى خرائطنا الحالية ٠ والارض عند المقدسى كروية الشكل يقسمها خط الاستواء الى قسمين متساويين ومحيطها 360 ٠ وان نصفها الجنوبى يغلب عليه الماء على عكس نصفها الشمالى ٠

6 ـ تحقيق ما للهند من مقولـــة فى العقل أو مرذولـــة للبـــيرونى وهـــو أبو الريحان محمد بن أحمد المولـــود بأحدى ضواحى خوارزم سنة 362 هـ ، والمتوفى سنة 440 هـ ٠ والبيرونى من اشهر العلماء المسلمين فى التاريخ وله مكانة مرموقة فى علم الجغرافية والطبيعة والجيولوجية والفلك والرياضيات كمـا انه درس التقاويم والطب وبذلك تثير سعة افقه الدهشة بحق ٠ وقيل انـــه توفى سنة 442 هـ الموافق لسنة 1050 م، بعد ان خلد آثارا قيمة لم يصلنا منها الا النزر اليسير ٠ وقد اكتسب شهرة واسعة كباحث فى الفترة التى سبقت عام 407 وهو العام الذى وقع فيـــه البيرونى أسيرا بين ايدى السلطان محمد الخزنوى عند سقوط حيوه مسقط رأسه ثم اطلق سراحه وقربه السلطان محمود اليه وصاحبه فى حملاته على بلاد الهند واغتنم البيرونى هذه الفرص لتعليـــم اللغة السنسكريتية وكرس جهوده لدرس علوم الهندوس التى أودعهـا كتابـــه المذكور اعلاه ٠ ومن اشهر كتب البيرونى فى الجغرافية : الآثار الباقية من القرون الخالية ، وكتاب الهند الذى يعتبر بحق احدى المجهودات العظيمـــة فى حقـــل الجغرافية الاقليمية اذ تناول فيه حتى جيولوجية الارض وعلم المعادن ، اذ هو يذكر ان سهل الهندستان كان قديمـا عبارة عن قاع البحر ثم أخذت تترسب فيه جزئيات الطمى الى ان سوت منـــه سهلا ٠ وهى الفكرة الشائعة حاليا فى تكوين معظم السهول الرسوبية ٠

وعندما يتعرض البيرونى الى ما جاء عن بطليموس فيقول انه أصاب فى خطوط الطول والعرض ولكن ما أورده من ذكر لاقوام قـد يشوبه الشـك نظـرا لان بطليموس لم يزر هذه البلدان ، هـــذا

من جهة ومن جهة أخرى فان الترحال فى عهد الرومان لم يكن ميسورا وان ولوج الاراضى لم يكن ميسورا فى الماضى نظرا لتباين الملل الذى هو أكبر عقبة فى سبيل التنقل بين البلدان فهناك قوم مثل اليهود يظنون انهم يتقربون الى الله عندما يغدرون بمن كان على غير دينهم ، والرومان يسترقون من جاء فى قبضتهم، وهناك أمم ترد المسافرين على اعقابهم لانهم غرباء ، وآخرون يقتلون الغرباء ٠

ولهذا ربما ما ورد عن بطليموس عبارة عن روايات ٠ اما فى العهد الاسلامى فالظروف قد تغيرت تماما حيث اطمأن المسافر وتوسعت دار الاسلام ، وتفهم الكفار معنى السلم واصبح الجميع يدعون للسلام وعلى هذا النحو صار الحصول على معلومات تتعلق بالاماكن المختلفة على ظهر الارض أكثر سيرا وامنا الى درجة لا تقارن بما كان عليه الحال من قبل ٠

7 ـ معجم ماا ستعجم للبكرى وهو أبو عبيد الله بن عبد العزيز المولود بقرطبة سنة 432 والمتوفى هناك سنة 487 ٠ وله كتب أخرى مثل المسالك والممالك الذى ضمنه ما شاهده فى رحلته فى المغرب وأرض الحجاز واوروبا ٠

8 ـ تحفة الالباب ونخبة الاعجاب لابى حامد الغرناطى وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازنى القيسى الاندلسى ٠ ولد بغرناطة سنة 473 ومنها رحل الى بغداد سنة 557 بغية الاستزادة فى العلم ومنها انتقل الى خراسان للاتصال بعلمائها والاستفادة منهم ثم قفل راجعا الى حلب للتدريس والدراسة حتى توفى بدمشق سنة 565 الموافق لسنة 1161 م ٠ وله كتب عديدة فى جغرافية بلدان المغرب وبلاد الاندلس بالخصوص كتاب نخبة الاذهان فى عجائب البلدان التى ذكر فيها ما شاهده فى رحالاته من بلاد الاندلس حتى بلاد الخزر ٠

9 ـ رحلة ابن جبير لابن جبير وهو أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى البلنسى الاصل (المولود سنة 540 هـ ، والمتوفى سنة 614 هـ) وقد تمتع بين مواطنيه بشهرة عالية فى الادب والشعر حيث زاول التدريس فى مالقا وفاس وسبتة ببلاد المغرب ٠ وله جهد عظيم فى ميدان الجغرافية حيث سجل فى يومياته وهو فى طريقه الى الحج كل ما لاحظه على بلاد الاسلام ابتداء من موطنه بالاندلس الى شبه جزيرة العرب ٠ وما ان آب من حجته الى الاندلس حتى نشر هذه المذكرات تحت عنوان رحلة بن جبير وذلك بعد تنسيقها وفقا لمراحل رحلته ٠ وقد لقى كتابه هذا

رواجا فى الشرق وفى الغرب على السواء واستفاد منه من جاء من بعده من الكتاب والمؤرخين امثال العبدرى البلنسى فى كتابه عن رحلته فى افريقيا الشمالية سنة 688 هـ ـ 1289 م • وابن بطوطة الذى تجول فى بلدان العالم الاسلامى لمدة تزيد عن 28 سنة (725 ـ 753 هـ 1325 ـ 1353 م) صاحب كتاب رحلة ابن بطوطة الشهيرة التى قطع فيهـا ما يزيد عن 75 الف ميل ، وهذا الرقم لم يكن يتجاوزه احد كما يبدو قبل عصر البحار ، وبذلك يكون قد ضرب الرقم القياسى فى التجوال

10 ـ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للادريسى وهو أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الله بن الادريسى الشريف وهو من أشهر الجغرافيين المسلمين لدى الاوروبيين • ولعل السبب فى ذلك يرجع الى انه تجول كثيرا فى أوروبا وأنه خدم لمدة طويلة من الزمن بلاط روجى الثانى ملك صقلية الذى رسم له كرة ارضية وخرائط فى قرطبة ثم رحل طويلا فى ارجاء العالم الاسلامى ثم أوروبا الى ان استقر بصقلية حيث اغراه ملكها للاقامة وهناك صنف كتابه سنة 549 هـ ـ 1144 م • ويعتبر الادريسى أكبر جغرافى انجبته العصور الوسطى حيث انَ كتابه حافل بالمعلومات الصحيحة واجتهاداته الخاصة وتجاريبه المكتسبة • أجل لقد كانت له بعض الاخطاء فى وضع خرائطه مثل الشمال الذى وضعه فى اسفل الصورة والجنوب فى اعلاها • انظر شكل 7 ، وبعض الخرائط التى أوردها فى كتابه وهى أوسع ما تكون انتشارا فى عصره •

11 ـ معجم البلدان لياقوت الحموى • وهو من أسرة رومية ولد سنة 574 هـ ـ 1179 م . باليونان ووقع فى الاسر وهو لا يزال صبيا ، واشتراه تاجر بغدادى من قبيلة حموية ومن هنا جاءت تسميته بالحموى • وياقوت الحموى من مشاهير الجغرافيين المسلمين وبالخصوص اذا نظرنا اليه وهو يصور العالم الاسلامى قبل ان يصيبه الخراب على يد التتر بقيادة هولاكو خان • وقد بدأ حياته بالتجارة لصاحبه ثم انفصل عنه بالترحال واكتساب الرزق والعلم الى المناطق البعيدة وعمره 26 سنة وبعد ان اكتسب قدرا من التجربة خرج فى رحلته الثالثة سنة 610 هـ ـ 1213 م ، فاتجه أولا الى تبريز ومنها الى الموصل فالشام فمصر ، ثم عاد نحو المشرق الى ان بلغ نيسابور ثم دخل مروالتى عكف فيها على دراسة الكثير من الكتب القيمة • وبذلك تهيأ للكتابة والتأليف لكن دوى

خريطة الإدريسي للعالم
(حوالي ١١٥٤م)



صوت التتر على هذه الجهات دفع به الى الخروج منها مسرعا نحو الموصل سنة 1220 م · وقد انجز كتابه المذكور سنة 1224 ثم توفى بعد ذلك فى حلب سنة 627 هـ ـ 1229 م · والتتار على أبواب العراق · وكتاب معجم البلدان يصور العالم الاسلامى بالتفصيل من بلاد الاندلس الى بلاد ما وراء النهر والهند، كما يتعرض فيه الى صرد جمهرة من الادباء والعارفين وأهل الفكر والجغرافيين كما يذكر تآليف عديدة لم يعد متيسرا الحصول عليها · ولعل أهم ما يمتاز به فى كتابه معجم البلدان انه قد استعمل طريقة النقد والتمحيص التى يأخذ بها الجغرافى الحديث ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على سعة اطلاعه ·

12 ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينى وهو زكريا بن محمد ابن محمود أبو يحيى القزوينى نسبة الى مدينة قزوين شمال فارس التى ولد فيها سنة 600 هـ ـ 1203 م · وفي عهد الخليفة المستعصم آخر خليفة عباسى كان القزوينى يعيش بالعراق ويشغل منصب قاضى على واسط والحلة · واذا صحت وفاته سنة 682 هـ ـ 1283 كما يذكر المؤرخون فلا شك انه شاهد الكثير مما خربه التتار وعاصر احراق جنكيز خان لمدينة بغداد سنة 656 هـ ـ 1259 م ·

واغراق نهر دجلة بالمؤلفات · وللقزوينى تآليف عديدة منها الكتاب المذكور الذى بقى معروفا حتى العصور الحديثة فيه تناول الاشياء السماوية مثل الشمس والكواكب والافلاك والبروج والاشياء السفلية مثل كرة الاثير أى الغلاف الغازى وكرة الماء وعجائب بحارها وكرة الارض وسعتها وقرارها ورسوخ جبالها وامتداد انهارها وفوائد معادنها وخواص اشجارها ·

وقد روى فيه كل ما قرا او راى او سمع دون ان ينقد ما كتب واثبت · وله كتاب آخر فى الجغرافية عنوانه آثار البلاد واخبار العباد الفه سنة 1250 م . وفيه يتابع التقسيم البطليموسى السباعى للاقاليم · والكتاب يفيض بمادة غزيرة فى التاريخ والتراجم وبه مجموعة من الرسوم والصور ، وقد رجع القزوينى فى مؤلفاته الى مصادر عديدة منها مؤلفات : الغرناطى والعذرى والاندلسى وابراهيم الطرطوشى والجاحظ وابن فضلان ومسعد بن المهلهل والملتانى وغيرهم كثيرين ·

13 ـ رسائل اخوان الصفاء · وهى مقالات عديدة لجماعة من الصوفيين والفلاسفة المسلمين الذين سموا أنفسهم باخوان الصفاء وخلان الوفاء · ومن أهم مؤلفاتهم تلك التى كتبت فى القرن

الرابع للهجرة وتناولت جوانب علمية عديدة منها علم الجغرافية حيث تعرضوا فى كتاباتهم لكسوف الشمس وخسوف القمر كما تعرضوا لدورة الفصول تبعا لحركة الشمس الظاهرية وتصوروا ان الارض كروية الشكل وقالوا بوجود غلاف جوى يحيط بالكرة الارضية وينقسم الى ثلاثة اقسام أو ثلاث طبقات (أ) اعلاها واشدها حرارة هى الاثير (ب) والطبقة الوسطى قارسة البرودة وتسمى الزمهرير (3) والطبقة الاخيرة وهى ادنى الطبقات الى الارض وتسمى النسيم لاعتدال درجة حرارتها • وهذا ما وصل اليه العلم الحديث فى عصر الاقمار الصناعية ونقوم بتدريسه فى الجامعات • حيث ان درجة الحرارة والضغط يقلان بالارتفاع الى ان نصل الى نهاية طبقة التروبوسفير فتنعكس الآية بالنسبة للحرارة التى تأخذ فى الزيادة أما الضغط فيستمر فى النقصان الخ •• وكذلك تناولت رسائل اخوان الصفاء التى تعتبر آثارا من آثار الحضارة الاسلامية ظاهرة السحب وكيف انها عبارة عن مياه للبحار التى تتحول الى بخار فتتصاعد فى الهواء ثم تسوقها الرياح ثم تتكاثف لتسقط مطرا ، وعلى هذا النحو ينصرف كثير من هذا الماء الى الانهار • ووجهوا اهتمامهم الى اثر التعرية والتحات والى العمليات الجيولوجية كما لم يغفلوا عن علم النبات والحيوان • اما فيما يخص العمليات الجيولوجية فذكروا ان الجبال أصلها رواسب نزلت باعماق المحيطات وان البحر ليس بثابت الشواطىء وانها عرضة للارتفاع والانخفاض ، فقد يطغى البحر ويفيض على السهول والمراعى حتى تصير السهول بحارا ويصير البحر يابسا على مرور الايام • وعلى سطح الارض التى برزت من البحر يتساقط المطر وتتكون المجارى المائية التى تحمل معها التربة والرمال وعليها ينمو النبات والمراعى والشجر • ولعمرى ان هذا لمن صميم الجغرافية الطبيعية ودورة التعرية النهرية وتكوين السواحل التى ندرسها لابنائنا حاليا فى الجامعات •

14 ـ تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار لابن بطوطة السابق الذكر وهو أبو عبد الله محمد بن بطوطة المعروف أيضا بشمس الدين من مواليد سنة 704 هـ ـ 1304 م ، بطنجة ببلاد المغرب ، توفى فى فارس سنة 771 هـ ـ 1369 م • وابن بطوطة من اشهر الرحالة المسلمين فى القرن 14 ميلادى اذ طاف بكل البلدان الاسلامية من طنجة الى بلاد الصين• ذلك انه لما بلغ الثانية والعشرين من عمره خرج من مسقط رأسه مهاجرا

فى سبيل الله ، فزار أولا بلدان المغرب العربى : المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومنها انتقل الى مصر ففلسطين فالشام فمكة التى نزل بها لاداء فريضة الحج ومنها خرج نحو الشرق فزار بلاد ما بين النهرين ، ثم قفل راجعا الى بلاد العرب ومنها الى اليمن التى اقلع منها بحرا الى منبسا وسواحل افريقيا الشرقية ثم عاد مرة أخرى للحج سنة 1332 م ، سالكا هذه المرة طريق عمان والخليج الفارسى • وبعد حجته الثالثة عزم على زيارة بلاد الهند لكن الاقدار وجهته نحو القاهرة ففلسطين فالشام ثم انتقل الى آسيا الصغرى ومن هناك ركب البحر الاسود متوجها نحو بلاد القرم التى كان بها السلطان محمد أوزبك خان المغولى الذى اسلم مع قومه واستقبل ابن بطوطة استقبالا حارا واتاح له الفرصة ليتنقل فى اقليم الاستبس الروسى ويكتب عنه الكثير وليزور القسطنطينية . ومنها ولج الى خراسان عن طريق خوارزم ليزور بخارى وبلخ وهراه وطوس ومشهد ونيسابور ثم اجتاز جبال الهندكوش متوجها الى كابل حتى دخل بلاد الهند ووصل الى دلهى حيث قربه اليه سلطانها محمد طلغق وأرسله فيما ارسل الى بلاد الصين • سنة 1342 م ، وبعد ان زار هذه الجهات الشرقية قفل راجعا الى بلاده بعد ان حج حجته السابعة سنة 1348 م . وزار بلاد الاندلس كما تجول فى بلاد النيجر عبر الصحراء • وخلاصة الحديث ان رحلات ابن بطوطة تستحق الاعجاب والتقدير حيث صور فيها العالم الاسلامى احسن تصوير كما امدنا بمعلومات كثيرة عن البلدان النائية الواقعة فيما وراء بلاد الاسلام كشمال سيبيريا وافريقيا السوداء وما وراء جبال الهملايا •

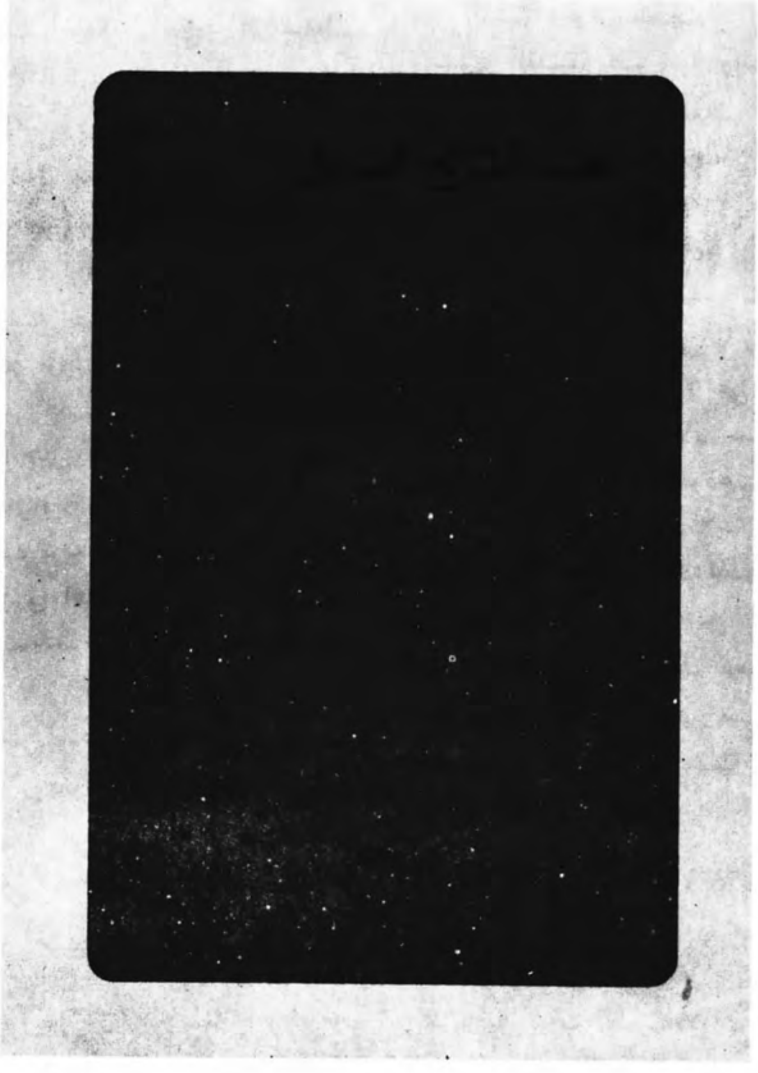
4 ـ الجغرافية فى عصر الانحطاط :

وبعد كتاب ابن بطوطة ومقدمة عبد الرحمن بن خلدون (733 هـ ـ 1332 م ، 809 هـ ـ 1406 م) أخذ مصباح علم الجغرافية عند المسلمين يسير نحو الانطفاء اذ ان هذا العصر يعتبر من اسوأ عصور الانحطاط والانحلال فى جميع انحاء العالم الاسلامى يقابله عصر المنافسة والنهوض للعالم المسيحى أو الاوروبى • اذ ظل الاوروبيون أكثر من ثلاث قرون من الزمن ودلك فيما بين القرن 10 و 13 ينهلون من معارف المسلمين • أما المسلمون فى هذه الفترة فقد انقسموا الى احزاب وشيع مما سهل على العدو أخذهم اخذا شديدا ، حيث سقطت مدن كثيرة على سواحل لبنان وفلسطين فى أيدى الصليبيين فيما بين

القرنين 11 و 13 ميلادى وأرض فارس فى يد المغول فى القرن 13 م • وغرناطة وهى آخر معقل من معاقل المسلمين بالاندلس سنة 1492 م ، الموافقة للسنة التى خرج فيها كلومبس من لشبونة لاكتشاف أمريكا • وبعد ان سقطت مدينة القسطنطينية فى يد العثمانيين سنة 857 هـ ـ 1453 م أخذوا يوسعون نفوذهم على حساب الدويلات الاسلامية من الجهات الجنوبية وعلى حساب دول أوروبا الشرقية من الجهات الشمالية والشمالية الشرقية وما هو أقل من قرن حتى ورثت الدولة العثمانية بلدان الحضارة الاسلامية ، لكن ويا للاسف ان هذا الارث لم يكن مصحوبا بتطوير علم الجغرافية وكأن الحضارة الاسلامية قد بلغت مرحلة من الشيخوخة لم يكن من السهل اعادة شبابها وازدهارها • اذ بعد سقوط الاندلس ومن قبلها بغداد ثم استيلاء الاتراك على الحكم بدأت مجهودات المسلمين فى ميدان البحث تقل أو تزول لكن ما وصل اليه المسلمون خلال سبعة قرون على الاقل لم يندثر بل هاجر من المسلمين الى غيرهم ليظهر فى شكل ثوب آخر فى أوروبا ، وهذه سنة الحضارة منذ الازل التى هى عبارة عن ثوب نسجت خيوطه الانسانية وهو ثوب واحد ولكن يستجد ويعاد تفصيله من انسان لآخر ، فاليونان ورثوا هذا الثوب فى عهد الاسكندر المقدونى بالخصوص من بلاد الهند والهلال الخصيب ومصر ، والمسلمون ورثوه من اليونانيين والهنود واعادوا تفصيله حتى يتماشى مع مقوماتهم الدينية والدنيوية ويقول فى هذا الشأن اخوان الصفاء : انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال • ثم ان الاوروبيين ورثوا هذا الثوب من المسلمين واستزادوا فيه ، وابدعوا فى تفصيله الى ان أصبح وكأنه ملك لهم • والعجيب ان كل من أزيل عنه هذا الثوب بدا وكأنه لم يكن عليه • ولعل ما زاد الطين بلة استيلاء الاوروبيين لا على المؤلفات الاسلامية التى نجدها الآن مقسمة بين المكتبات الاوروبية أو موزعة بين المسيحيين ولكن على بلاد الاسلام واذلال شعوبها الى درجة ان كادت الصلة تنقطع بين الحاضر والماضى ، وعمل الرجل الاوروبى على توجيه المسلم نحو نسيان شخصيته أو ماضيه وحتى صار المسلم يبدو له وكأنه لم يك شيئا أو كأنها اضغاث احلام •

فالله نرجوه الصواب وان يعيننا على استرجاع مجدنا التليد وما ذلك على الله بعزيز ، فى هذا القرن 15 هجرى الذى فيه بدأت تظهر علامات النهوض للعالم الاسلامى بعد التحرر من نير الاستعمار الاوروبى ونيل الاستقلال •

صـدر أخـيرا :



أربعة عشر قرنا حافلة من تاريخ الإسلام في إفريقيا والتطورات الجديدة



د. عبدالقادر زبادية
أستاذ التاريخ الافريقي الحديث
- جامعة الجزائر -

تمهيـــد

من الحقائق الثابتة أن الاسلام قـــد وصل الى افريقيـا جنوب الصحراء منذ القرن الثامن الميلادى وانتشـر منذ ذلك الحين بسرعـة هائلة ، ويعزو المؤرخون أسباب اقبال الافريقيين على اعتنـــاق الاسلام منذ البداية الى ما تحتويه تعاليمه من مبادىء العدالة والبساطة والمساواة، وهي التقاليد الاجتماعية ذاتها الـــتى تتلاءم والحياة الطبيعية للفرد الافريقى فى العادة ، ويذهبون أيضـا الى أن الاسلام بالنظر لهذه الوضعية العلميـــة قد أصبح دينا افريقيا أساسيا ولا توجد منطقة فى افريقيا لم يصلها الاســـلام أو لم يكن له تأثير فى ثقافتها (1) ·

ومن الحقائق الثابتة كذلك أن الاسلام لم يصل الى افريقيا بحد السيف كمـــا أن نظام العبودية لم تكن أسبابه اسلامية فى يوم من الايام ، وقد عاشت افريقيـــا مع الاسلام ، فتفتحت على ثقافة عالمية وارتبطت بعالم كان متطورا الى فتـــرة قريبة جدا ، ثم جاءت فترة الاستعمـــار الاوروبى المباشر فى القارة الافريقية ، فتمخضت عن تطورات جديدة ، هي التى يجب أن تكون موضوع اهتمامنا هنا ·

لا يوجد بلد افريقى يخلو من المسلمين اليـــوم ، وتتراوح نسبتهـــم باختـــلاف البلدان فى كامل القارة بين 5٪ الى 90٪ وللاسلام فى افريقيا تاريخ طويل يمتد على أربعة عشر قرنا كاملة ، وقد ساهمت الثقافة الاسلامية فى نقل شعوب القـــارة من العزلـــة والوثنية الى الامتـــزاج فى

(1) A.I. Dôl : « Islamic Thought and Culture - Thier impact on Africa ». *The Journal of Muslim world league,* N° 6, March 1974, pp. 36 - 39.

صف الحضارة العالمية والانخراط فى ديانة التوحيد ، كما ساهمت فى تأسيس الدول وتخطى المفهوم القبلى الضيق لدى الشعوب الافريقية ، وهذا قبل أن يعرف الاوروبيون أي شيء عن القارة وشعوبها ، وبذلك كان للاسلام مجال السبق فى ايجاد مبدأ توحيد الدول والشعوب والحكومات فى افريقيا وكان المحرك العملى لخلق الوطنية لدى المسلمين الافارقة (2) ٠

وليس المهم هنا هو تتبع كل التطورات التاريخية الناصعة للاسلام فى افريقيا، لان هذا ليس جديدا ، ولا طارئا ، وانما الجديد هو ما تمخضت عنه الفترة الاوروبية منذ نهاية القرن التاسع عشر من القضاء على اللغة العربية وادخال الديانة المسيحية ورعايتها وايجاد اتجاهات جديدة فى الفكر الافريقى عن طريق خلق طبقة اجتماعية جديدة ذات ايديولوجية تختلف عن ايديولوجية الاسلاف ورعايتها ٠ فقد قام كل من الانكليز والبرتغاليين والاسبان والالمان والفرنسيين والبلجيكيين بدور متشابه فى هذا الصدد ، وذلك فى كل قطعة احتلوها على أرض افريقيا ، وان اختلفت طريقة استعمارهم الا ان الهدف والنتائج كانت واحدة ٠ واذا كنا لا نستطيع هنا دراسة كل منطقة مستعمرة على حدة تبعا للبلد الاوروبى الذى استعمرها ، فلنأخذ المناطق التى استعمرها الفرنسيون كمثال فقط ، وهذا يعطينا صورة عن التطورات الجديدة بصورة عامة وعن الاساليب العلمية التى اتبعت للوصول الى الاهداف المرسومة لبلوغ تلك التطورات والتمكين لها ٠

التاثيرات الجديدة للفرنسيين فى مستعمراتهم الافريقية وأساليبها العملية

1) الانسان الجديد :

ان التساؤل عن الاسباب التى أدت الى التطورات الشخصية أو النفسية السريعة فى افريقيا الغربية يمكن اعتباره فى صميم الموضوع ، ذلك أنه فى خلال أقل من نصف قرن أمكن للفرنسيين احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية وأمكن لهم كذلك خلق جيل مهما تكن نسبته المائوية ضعيفة فانه استطاع أن يركز للاعتزاز بالفرنسية وللارتباط المصيرى بها فى كامل المنطقة الناطقة أو المستعملة للفرنسية فى افريقيا الغربية والمدارية (3) وأذكر بهذه المناسبة أنه فى مؤتمر المؤرخين الافريقيين الذى انعقد فى شهر

(2) A.I. Marcel Chailley : Histoire de l'Afrique Occidentale Française. Paris 1968, p. 32-37.

(3) عرف عن الاستعمار الفرنسى دائما الاسلوب المباشر فى حكم المستعمرات ، وفى مجال التعليم بصورة خاصة كان هدف الادارة الفرنسية فى المستعمرات دائما هو السير بالناس ، وبمختلف الاساليب ، كي يتحولوا الى فرنسيين لغة وعقلية وارتباطا وهو ما يعرف لدى الفرنسيين بـ (سياسة) المزج أو الاندماج : Assimilation

راجع : D. Bouche : Histoire de l'ENS, A.O.F. Université de Nancy, 1974

ديسمبر من سنة 1975 فى ياوندى عاصمة جمهورية الكاميرون كان هناك جمهور غفير من مثقفى افريقيا وخاصة الغربية والاستوائية ، وكان هناك بحث قدمه أحد الاساتذة النيجريين وموضوعه الهجرة من المناطق الخاضعة للاستعمار الفرنسى نحو المناطق الخاضعة للاستعمار الانكليزى ، ورغم أن الموضوع كان هاما وكان مدعوما بالوثائق والاحصائيات المقنعة ، الا أنه حين انتقل الباحث الى الحديث عن الاسباب المتمثلة فى طبيعة الاستعمار الفرنسى من حيث كونه استعمارا مباشرا كان قد ضايق الاهالى وخاصة فى قوانين المزج Assimilation وفرض الضرائب ذات الشكل المضر على القبائل الرافضة ، ثار الكثيرون فى شكل هوس واعتبروا مثل هذا التحليل الواقعى قدحا فى الاستعمار الفرنسى لصالح الاستعمار الانكليزى ·

ويوجد الآن فى افريقيا الغربية تطاحن واضح بين اللغتين الانكليزية والفرنسية ، ويهتم بهذا الموضوع معظم المثقفين بالثقافة الفرنسية ، كأن هذا الموضوع يهم بلدانهم بمثل ما يهتم به بعض المثقفين والساسة الفرنسيين ·

ويتم تعيين المتخرجين الجدد من الجامعات بافريقيا الغربية من طرف الجامعات الفرنسية ويتلقون الاشعار بالترقية من طرف الجامعات الفرنسية ويشكل هؤلاء طبقة ممتازة فى بلدانهم ترتبط أشد الارتباط بالدفاع عن الثقافة الفرنسية فى افريقيا ·

ولا يقبل الاستاذ Hargraeves النظرية الشائعة لدى حكام افريقيا الغربية السابقين من كونهم قد مكنوا للثقافة الفرنسية وللديانة المسيحية بدرجة كافية (4) · والواقع أن اللغة العربية كانت لغة افريقيا الغربية والمدارية حتى الحرب العالمية الاولى ، ولعل أول عمل رسمى لايقافها نهائيا كان هو المرسوم الذى أصدره حاكم افريقيا الغربية فى سنة 1911 والقاضى بتحريم التحرير بالعربية فى المحاكم منذ ذلك التاريخ (5) ·

لقد كان للوجود الفرنسى فى سواحل افريقيا الغربية تاريخ طويل يعود الى القرن السادس عشر ، ولكن العمل المنظم ضد وجود العربية واحلال الفرنسية محلها انما بدأ مع بداية القرن العشرين، ويعود للمفتش جورج هاردى G. Hardy الفضل الكبير فى اعطاء الطابع الحقيقى لاهداف اللغة والثقافة الفرنسية فى افريقيا الغربية ، فقد جاء مفتشا للتعليم فى تلك المستعمرات فى ظروف صعبة ، ظروف الحرب الكونية الاولى · ووجد معظم القرى لا يقبل سكانها وجود المدرسة الفرنسية ولا المعلمين الفرنسيين بينهم ، ويفرون من القرية فى جنح

---

(4) الاستاذ هاريجريفس Hargraves من أقدم الاختصاصيين الباحثين الانكليز فى تاريخ المستعمرات الفرنسية فى افريقيا وتطورها الاجتماعى والثقافى ، ويغلب على استنتاجاته التاثر الدينى · أنظر كتابه : Franca west Africa, New-York 1973

(5) Circulaire du Gouverneur général Ponty, 8 mai 1911.

الظلام حينما يفرض وجود المدرسة في قريتهم بالقوة ، كما وجد المستوطنين الفرنسيين ورجال الشركات وأصحاب الاعمال ضد تعليم الافريقيين لان ذلك في نظرهم كان مما سيخلق يقظة في المستقبل قد تؤدى الى الفوضى والضرر بالمصالح التى يجنونها من مستعمراتهم، ولكن هاردى وجد من الحكام العامين آذانا صاغية فراح يشجع امتداد المدارس الفرنسية الى جميع المناطق الاستراتيجية في تلك البلاد الشاسعة وأعطى للمعلمين كل المساعدة وراح يختار ذوى الخبرة من بينهم وذوى الجرأة والصبر وقوة العزيمة .. واعتبر هاردى أن تعليم المستعمرات انما هو تعليم النخبة التى ستربط البلاد نهائيا بفرنسا ، وأنه يجب أن يكون عبارة عن فتح أخلاقى وثقافى، ومن ثم فهو لا يخضع لمقاييس التعليم العام في فرنسا وليس هدفه تكوين علماء ولا حتى ذوى معرفة على الشكل الكلاسيكى في أوروبا ، وانما هو عبارة عن تعليم في شكل خاص ، فلا تدرس فيه الكيمياء ولا الفيزياء مثلا الا بالمقادير المحدودة والعامة جدا في الاطوار النهائية ، وبدلا عن ذلك يدرس فيه المناخ في فرنسا وافريقيا الغربية ويعتبر مادة أساسية ، ويدرس فيه النبات في فرنسا وافريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية ، ويدرس فيه المحيط والجغرافيا الطبيعية في فرنسا وافريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية وتعطى في هذا التعليم الاولوية لكل ما تحتوى عليه فرنسا من ضروب التقدم والرقي (6) .

ويرى هاردى أن جميع الخريجين من الافارقة يجب أن يضمن لهم مجال العمل حتى يكونوا القدوة لغيرهم ، وفضلا عن ذلك فقد عين هاردى ولاول مرة ، معلمين افريقيين من بين الخريجين ، وفي سنة 1916 أرسل عددا من الخريجين الذين لم يستعملوا في التعليم الى الدار البيضاء في المغرب الاقصى حيث هيئت لهم وظائف .

2) المدرسة الفرنسية - الاسلامية كوسيلة مساعدة :

لقد أخذت المدرسة الفرنسية في افريقيا الغربية طابعها النهائى مع بدايات الحرب العالمية الاولى ، وذلك في وقت كانت هذه المدرسة قد مرت بتجارب واكتسبت خبرات في شمال افريقيا وخاصة في الجزائر ، وعندما بدأت المدرسة الفرنسية تأخذ طابعها النهائى في افريقيا الغربية كان في تلك البلاد عدد كبير من المدارس العربية التى تأسست في الماضى وبعضها كان له شهرة كبيرة وقديمة مثل مدرستى تمبكتو وجنى اللتين بلغتا درجة الجامعات في أيام الاسقيين على الخصوص ، ولم يكن من صالح الفرنسيين اغلاق تلك المدارس التى انتشرت لها فروع في

---

(6) Georges Hardy : Une conquête morale, l'enseignement en A.O.F. Paris (A. Colin) 1917.

عديد من الجهات ، كما لم يكن من صالحهم أبدا تركها تؤدى دورها كما كانت تعمل فى الماضى ، وهذا ما دعاهم الى استعمالها لصالحهم ، فقد ركز الفرنسيون اهتمامهم على جلب أبناء الوجهاء والعائلات الشهيرة فى المنطقة ليرتبطوا عن طريقها بالحكم الفرنسى منذ الصغر ، أما التعليم فى تلك المدارس فقد وضع له برنامج خاص يصف هاردى دواعيه بقوله : (لقد كان هناك اقتناع بأنه يوجد فى غرب افريقيا كما فى الجزائر وتونس والمغرب الاقصى ثقافة اسلامية وذلك يدفعنا الى القيام ببعض التنازلات لهذه الحضارة التى سبقت وجود حضارتنا ، وأيضا بغية التسهيل لقبول تعليمنا الفرنسى فقد كان علينا أن نشتغل بالابقاء على نوع التعليم الرسمى للاسلام واللغة العربية بحيث تكون واسطة بين المدارس القرآنية والمدارس الفرنسية ، ويستهدف العمل على نسيان الاولى وقبول الثانية (7) ٠

لقد كانت كل مدرسة عربية ـ فرنسية Ecole franco-arabe أو مدرسة Medersa كما كانت تسمى أيضا ، تؤدى خدمة لانتشار الفرنسية على حساب اللغة العربية التى كانت حتى ذلك الوقت لغة العلم والدين معا ، ويتحدث هاردى عن البرنامج الخاص بتلك المدارس فيقول :

(ان برنامج هذه المدارس قد تحول نهائيا فلم تصبح جامعات اسلامية وانما هي بالضبط مدارس فرنسية ـ عربية ، يأخذ فيها اللسان الفرنسى والعلوم الفرنسية بالناصية أكثر فأكثر وذلك على حساب اللغة العربية والعلوم العربية، وعلى سبيل المثال فان تعليم العربية قد تحرر من الطرق العربية الصرفة وأصبح عبارة عن ترجمات من العربية الى الفرنسية، وبهذا أمكن تحويل الدرس المخصص للعربية الى دروس للفرنسية ، ثم يستطرد هاردى الى القول :

« ومن ناحية أخرى فان العربية والعلوم العربية من نحو وبلاغة وعروض وقانون أصبحت لا تستوعب كل الوقت ، بل نستطيع القول بأنها أصبحت لا تؤدى أكثر من رموز وذكريات فى استعمال الزمن ، وقد اختلط بها تعليم الفرنسية والتاريخ والقانون والجغرافيا والحساب والعلوم المستعملة ، وبكلمة واحدة فان اللغة العربية لم يصبح لها من ذلك التاريخ فى برنامج المدارس الفرنسية ـ العربية أكثر من الدور والمكانة التى تحتلها اللغات الاجنبية فى الثانويات الفرنسية » (8) ٠

وبالاضافة الى هذا فقد ألحق الفرنسيون ببرنامج المدارس الفرنسية ـ العربية تدريس اللهجات المحلية وذلك على حد تعبير هاردى : « لانه يوجد أحيانا خط التقاء بين تعليم لغتنا واللهجات الافريقية ، ذلك ان مهنة المترجم تحتاج الى تدريب وطنى ، وطلابنا فى الغرب الافريقى تكون لهم مناسبات للترجمة من العربية الى الفرنسية أقل بكثير من تلك المناسبات التى يحتاجون فيها للترجمة من اللهجات المحلية الى الفرنسية » (9) ٠

---

(7) Hardy, Op. Cité, p. 108.

(8) Ibid, p. 110.

(9) Ibid.

وقد كان لخريجي هذه المدارس دور خاص بهم، فهم مساعدو الادارة الفرنسية فى شئون الاهالى وخاصة الحالات ذات الصبغة التقليدية والعائلية ، وفى هذه الوضعية نجد الفرنسيين يطبقون القاعدة التى طبقوها فى شمال افريقيا على خريجى المدارس الفرنسية ـ العربية ، وقد عبر هاردى بكل وضوح على الدور الخاص لخريجى المدارس الفرنسية ـ العربية كما كانت تستدعيه المصلحة الفرنسية بقوله :

« ... وبما أن مدارسنا تستهدف التصاق الطلبة بالتراب ، وتعويدهم على العمل اليدوى أو تحضير قائمين ببعض المصالح التقنية مثل ادارات البريد والاشغال العامة ، فان المدارس الفرنسية ـ العربية تكون بصورة عامة مترجمين رسميين قضاة أو كتاب ضبط للمحاكم الاهلية ، ورؤساء للجمعيات المحلية الاهلية ، وبعبارة واحدة مساعدين لادارتنا وعدالتنا وهذا ما يجعل من الضرورة تعويدهم على اللسان الفرنسى قراءة وكلاما ، ومن الضرورة كذلك أن يكونوا على معرفة جيدة بأغراضنا الحضارية ... » (10) .

وعلى عكس ما فعل الفرنسيون فى الجزائر حينما اصطدموا اصطداما مباشرا مع الطبقة البورجوازية فانهم فى افريقيا الغربية اعتمدوا على بعض المتعاونين معهم بين أفراد تلك الطبقة ، فجعلوا تعليم أولادهم وفق المخطط الفرنسى فى المدارس الفرنسية ـ العربية ضمانة وهدفا ، ويشرح هاردى هذه الحقيقة أكثر فيقول :

« بما أنه من المفروض أن المدارس الفرنسية ـ العربية لا توظف طلابها عن طريق الصدفة ولذلك فهي لا تمتلىء الا بالنخبة الاجتماعية .. وهذا يعنى استعمال الطبقات الارستقراطية الحاضرة وعلى مختلف المستويات فى هذه البلدان الجديدة كضمانات جديدة ... ومن ناحية أخرى فان المدارس الفرنسية ـ العربية الثلاث فى افريقيا الغربية انما هي فى الواقع وقبل كل شيء مدارس لابناء وبنات الوجهاء ، ان مدرسة تمبكتو التى هي أكثر شبها بمدرسة الجزائر قد أقيمت فى منطقة حضارية اسلامية قديمة وهي بالتالى تستقبل أبناء الامراء والعلماء المشهورين فى حوض النيجر (11) . أما مدرسة بوتليميت (12) التى وضعت الى حد ما تحت الرئاسة الشرفية للشيخ سيديا (13) فهي تجمع أحفاد العائلات الكبيرة للترارزة والبراكنة والعصابة الذين كان

(10) Hardy Loc cité p. 111.

(11) تقع تمبكتو فى الشمال الشرقى من مالى الحالية .

(12) فى الجنوب الموريطانى .

(13) الشيخ سيدنا ، كان من المتعاونين مع الادارة الفرنسية ، لمزيد من التفاصيل حوله ، انظر بصورة خاصة :

Charles Ttewart, The Role of *Skaykh* Sidiyya and the gadiriyya in soutern Mauritania, P H D thesis 1970 : Massigon « Bibliothèque d'un marabout, le cheik Sidia » *Revue Africaine* 1921.

آباؤهم قد لعبوا أدوارا مهمة فى مختلف مراحل الاحتلال الفرنسى ••• وتعتبر مدرسة سان لويس أكثر أهمية وهي تمتلى بشروط مماثلة ، وتقبل طلابها من بين (قبائل) الاولوف والتوكولور والموريطانيين والفلان والسريس والماندينغ والسراكوليين والبمبارا (١٤) • وهناك طالب على الاقل من أبناء الملوك السابقين فى الناحية •• كما تأوى هذه المدرسة الابناء الثلاثة لسلطان وضاي السابق الذين بعد أن أمضوا بعض الاشهر فى ثانوية الجزائر قدر الحاكم العام لافريقيا الاستوائية الفرنسية أن يعهد بهم الينا » (١٥) وينتهى هاردى الى النتيجة التالية :

(ان هذه المدارس الثلاث بعد أن تحولت وفق أهداف محددة لافريقيا الغربية الفرنسية •• تستحق البقاء وهي الى جانب المدارس الاخرى تكفى لان تهيء لفرنسا رعايا مخلصين ومطيعين) (١٦) •

3) التاريخ :

فى سنة ١٩١٢ صرح نائب لاليه l'Allier فى الجمعية الوطنية الفرنسية السيد بيرونى Peyronnet لمجلة الحوليات الاستعمارية Annales coloniales قائلا : (ان هناك مادة أريد أن أرى أختفاءها دون تأسف ألا وهي مادة التاريخ ويكفى أن تعوض أثناء درس الفرنسية ببعض القراءات لتعطى لطلاب (المستعمرات) فكرة عن قوة بلادنا) (١٧) • وقد طبق الفرنسيون هذه النظرية فى البرامج المخصصة لمدارسهم فى افريقيا الغربية بكل دقة ، فكانت فكرة هاردى تقتضى تدريس التاريخ وفق الاهداف التى تبرر الوجود والاحتلال الفرنسى للمنطقة بل وتؤدى الى اقتناع الطلاب بوجوب بقائه ، ولتجسيم هذه الفكرة يقرر هاردى أن المعلم الفرنسى يجب أن يوضع فى قسم تتخلله خطوط متشابكة لتجسم المدفع الذى عياره 75 مم ، وذلك هو التاريخ ، فان أضيف الى هذا حسن التنسيق والاختراع فى تقديم المادة فان ذلك سيتناسب كل التناسب مع عقلية الاهالى القابلة للخوارق ، وعلى حد تعبيره (فان تدريس التاريخ فى المستعمرات يجب أن يبتعد عن أي تاثير كان قد عرفه ميشلى Michelet (١٨) •

لقد كانت الادارة الفرنسية فى حاجة الى دراسة الاهالى نفسيا واجتماعيا حتى تتمكن من حكمهم ، وقد كان لرؤساء

---

(١٤) أسماء للقبائل الكبيرة والهامة فى غرب افريقيا •

(15) Hardy, op. cité p. 112.

(16) Hardy, op. cité pp. 112 - 115.

(17) Annales coloniales 1912, p. 37.

(١٨) هو أحد أصحاب النظريات الفلسفية المشهورين ، كرائد للمدرسة الفرنسية الحديثة فى كتابة التاريخ •

الاقسام العسكرية chefs des cercles militaires منذ البداية مساعدون لجمع المعلومات الشفاهية حول القبائل المختلفة ، واعتبروا ذلك هو التاريخ الذى يجب أن يعرفه الناس ويتدارسوه ، وكان من أشهر الكتاب الفرنسيين الرواد وفق هذا الاسلوب مارتى : Marty وموريس دولافوس Maurice Delafosse.

ففى حين كان الاول جماعا للمعلومات الشفاهية ومتحريا الاغراض الادارية والسياسية للاحتلال الفرنسى فيما يكتبه كان الثانى حاكما لاعالى السنغال والنيجر ثم انتصب أستاذا (حجة) فى تاريخ افريقيا الغربية بباريس ·· ووفق طريقهما أصبح هناك تاريخ لقبائل المنطقة الفرنسية بافريقيا الغربية والاستوائية من نوع خاص تهمل فيه الوثائق المكتوبة بالعربية وقد يشار لبعضها احيانا بشكل مقتضب وتعتمد المصادر الشفاهية اعتمادا كليا (19) · ولا يزال لهذه المدرسة أثرها القوي فى فرنسا حيث يتصدرها في تدريس طلاب افريقيا الغربية الآن أو الاشراف على رسائلهم أمثال Hubert des Pamps هيردى شامب Eves Personnes وايفى بيرسون فى جامعة باريس ، وتضع هذه المدرسة كأساس الطريقة الإثنولوجية نصب أعينها فيصبح تاريخ المنطقة عبارة عن حركة مطردة للقبائل فى تنقلاتها التاريخية بين الشمال والجنوب وتفسرها علاقاتها بالعرب أنها كانت لا تتجاوز فى نوعيتها العلاقة الاستغلالية التجارية فى أبشع صورها وخاصة قضية الرقيق والذهب !

وكانت الادارة الفرنسية منذ البداية قد قطعت الصلات الانسانية بين افريقيا الغربية وشمالها · وكونت وحدات جيش المهارة (أو الجمال السريعة) لمراقبة الحدود وانهاء حركة القوافل القديمة وبذلك حرمت كل تنقل عن طريق القوافل، وبقيت هذه الوضعية قائمة حتى استقلال كل من شمال افريقيا وغربها ، وأثناء هذه الحقبة الطويلة التى استمرت حوالى نصف قرن تمكن الفرنسيون من التشجيع على ظهور تقاليد سودانية خاصة فى مجال الديانة ، وذلك بالتدخل المباشر والتمكين لنظام المريدين فى الطريقة التيجانية أن يصبح هو السائد ، أما العناصر التى عارضت وعلى رأسها رجال الطريقة القادرية فقد قضى عليهم بمختلف الاساليب ، ومنها العنف ·

4) الفرق بين جيلين :

كان القرن التاسع عشر هو عصر الجهاد فى افريقيا الغربية (20) وقبل خضوعها للاحتلال الفرنسى فى آخر

(19) C.F. Paul Marty : Etudes sur l'Islam et les tribus du Soudan, Paris 1918 ; Maurice Delafosse : Les Noirs de l'Afrique, Paris 1921.

(20) عن حركة الجهاد هذه يراجع بصورة خاصة

H.F.C. Smith : « Anglected theme of west African History » Journal of African Society of Nigeria, vol. 2, 1961, p. 184 FF.

ذلك القرن ، عمل عدد من رجالها على القيام بثورات اصلاحية ، كانت أهدافها :

1) ـ اصلاح وضعية المسلمين فى بلادهم عن طريق احياء الاسلام فى النفوس وتكوين دون حسب مفهوم العقيدة الصحيح .

2) ـ نشر الاسلام الى المناطق الوثنية .

3) ـ ربط صلات قوية مع العالم الاسلامى وخاصة فى شمال افريقيا وذلك كله مما يعرف بحركة الجهاد ، الا أن الخلافات التى رافقت فترة الجهاد هذه بين رجال الطريقة التيجانية والقادرية كان لها أثر عكسى خاصة فى مناطق نهرى النيجر والسنغال وساعد ذلك الفرنسيين على احتلال المنطقة كلها فيما بعد .

ولقد انتبه رجال وزعماء حركة الجهاد الى الخطر الفرنسي منذ البداية فعمل أحمد الكاي الكنتي ، زعيم تمبكتو ، على الاستعانة بالانكليز ضد الفرنسيين وذلك حين تيقن بأن الانكليز لم يكونوا يريدون احتلال المنطقة على عكس ما كان يبيته الفرنسيون ، ورفض كل من الحاج عمر وابنه وخليفته أحمد الاحتلال الفرنسى أو الإنتداب بكل الوسائل

ولما بدأ الفرنسيون فى الثمانينات من ذلك القرن تنفيذ مخططهم التوسعى باتجاه الجنوب والشرق انطلاقا من معقلهم القديم فى سان لويس كان من أشهر من حاربوهم الشيخ ساموري فى غينيا بكل تصميم وضراوة ، وانشاء دولة مستقلة تشبه الدولة التى كان قد أسسها الامير عبد القادر الجزائرى لملاءمة ظروف الحرب ضد الغزاة الفرنسيين ، ولكن كانت الظروف ملائمة للفرنسيين أكثر فتمكنوا من احتلال كامل افريقيا الغربية مع بداية القرن العشرين بقوة السلاح (21) ، وقد رفض السكان التجنيد الاجبارى رفضا مطلقا فى البداية حينما بدأ الفرنسيون تطبيقه في افريقيا الغربية على غرار ما فعل اخوانهم فى شمال افريقيا وذلك اعتمادا على المبدأ الاسلامى لديهم من أنه لا يجوز التجنيد فى جيوش غير اسلامية والقتال والموت للدفاع عن الفرنسيين المحتلين وكانت الحكومة الفرنسية أنذاك قد قررت وتريد تجنيد أبناء المستعمرات استعدادا للحرب العالمية الاولى ، فوجدت صعوبة كبيرة وتهربا من قبل الاهالى ، فاستأجرت العديد من المتعاونين معها لاصدار الفتاوى بجواز الموت الى جانب الدولة الحاكمة وقد خرجت فرنسا من الحرب العالمية الاولى منتصرة ثم دخلت الحرب العالمية الثانية فأعطت وعودا بتصليح أوضاع السكان فى المستعمرات بعد الحرب وكانت النخبة المثقفة بالفرنسية قد تكونت فلما جاءت الانتخابات التمثيلية للجمعية الوطنية الفرنسية خاض الاهالى تلك الانتخابات دون استعداد وتحت المراقبة الادارية الصارمة للفرنسيين وكانت له طموحات واسعة بحكم أرضيته الثقافية على الخط الفرنسى ، ولكن كانت لا تزال تقف أمامه حواجز الرعوية وعدم المساواة بالفرنسيين الشباب الذين

(21) Jean Suret-Canal : Afrique Noire, Paris, 1936, pp. 123-87.

أخذ ثقافتهم وأراد الاندماج والمساواة بهم وعجز عن بلوغ هذه الاهداف ، ولذلك كانت مطالب المثلين الافريقيين فى الجمعية الوطنية الفرنسية التى تكونت بعد الحرب لا تتجاوز المطالبة بادخال بعض الاصلاحات وعلى رأسها الغاء قوانين السخرة والغاء قانون الاهالى (أنديجينا) ·

لقد نادى فرحات عباس (ممثل حزب البيان الجزائرى المعتدل فى الجمعية التأسيسية الفرنسية) بقيام دولة جزائرية وبرلمان جزائرى ، وقال ميقان أبيتى Migan Apithy الذى كان ممثل منطقة الداهوس - طوغو : (أن عنايتنا ليست الجلوس على ضفاف السين ولا أن نقحم أنفسنا فيما هو أساسا قضايا الوطن الام ولكن لتنظيم قضايا بلداننا على ضفاف الكونغو والنيجر) ، ثم أراد التأكيد على الارتباط بفرنسا قائلا : (ان الافريقيين سيستمرون على المحادثة مع الشعب الفرنسى فى القضايا التى تهم الجميع ، هذا الجميع الذى نكونه معهم) (22) · وربما يعتبر ميقان اكثر المثلين من افريقيا الغربية الفرنسية تقاربا مع مطالب بعض المثلين من الشمال الافريقى وزعماء افريقيا الغربية الواقعة تحت الحكم الانكليزى الذين كانوا يطالبون اما بالحكم الذاتى أو الاستقلال ، وفى غير ذلك فقد كانت الواقعية هي أبرز سمة ارتبط بها السادة نواب الغرب الافريقى فى الجمعية الوطنية الفرنسية (23) · فحينما لوحظ بعض الامتعاض من طرف النواب الفرنسيين من مطالبة عباس فرحات بالحكومة المحلية ضمن الاتحاد الفرنسى فى بلاده انبرى Apithy ليخاطب النواب الفرنسيين قائلا : (بالتأكيد فان بعض زملائى قد طالب بالاستقلال فى اطار الاتحاد الفرنسى للبلدان التى يمثلونها ، ولكن هذا لا يتعارض مع المبادىء التى كنتم قد قبلتموها أنتم أنفسكم وأكدتموها فى أحيان كثيرة) (24) · وحينما تم رفض المشروع الاول للدستور من طرف المنتخبين الفرنسيين لانه كان يتضمن بعض مبادىء للمساواة بالرعاية فى المستعمرات قال ياسين ديالو (وكان يمثل غينيا) : انه فيما يختص بالافريقيين فان الدستور المقترح قد أدى رفضه الى الرضى الكامل) (25) ·

حينما أعلنت نتائج الانتخابات فى افريقيا الغربية بعد نهاية الحرب الكونية الثانية لم يفز بها غير بعض المثقفين فى المدارس الفرنسية وكان للادارة المحلية

---

(22) لمزيد من التفاصيل عن قرارات مؤتمر برازافيل ومطالب المثلين الافريقيين فى الوطنية الفرنسية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، راجع بصورة خاصة :

R. Morgenthau : Political partie in Franch Speaking west Africa, Oxford 1964.
Emortimer, France and the Africans, London, 1969.

(23) Ibid.

(24) A.Tayi and Crowder (eds), History of west Africa, v. 2, London 1964, 664 FF.

(25) Journal Officiel, débats 2e session, 18 septembre 1946, p. 474 FF.

دورها على كل حال . ومنطقيا كان لا يمكن لنائب أن يؤدى دوره فى الجمعية الوطنية الفرنسية على شكل من الاشكال بغير اللغة الفرنسية ، ولقد كان نواب الغرب الافريقى حريصين منذ البداية على اعلان الارتباط بفرنسا ، وباستثناء ممثل غينيا (ياسين ديالو) فقد انقسم نواب الغرب الافريقى جميعا حسب الانضمام اما للحزب الاشتراكى الفرنسى أو للحزب الشيوعى الفرنسى ، وهذا ضرب من الواقعية حيث كان هؤلاء الوافدون الجدد على باريس فى حاجة الى التوجيه والخبرة بالمداولات البرلمانية، ووجدوا فى الحزبين الشيوعى والاشتراكى قبولا للانخراط ضمن كتلتيهما النيابيتين ، ولم يكن من هم نواب الغرب الافريقى غير الاهتمام بادخال الاصلاحات ولما وجدوا فى البرلمان الفرنسى خطرا واضحا تجاه مثل هذه المطالب انخرطوا ضمن مجموعة كتلة ما وراء البحار « الممثلة للمستعمرات » وهذا حتى يجدوا، كغيرهم، بعض التضامن (26) ، ولقد ضمت كتلة النواب لغرب افريقيا الفرنسية آنذاك نائبين مسلمين من مجموع ستة نواب، وباستثناء ممثل غينيا فان التمثيل لم يكن له أبدا علاقة نسبية بالدين ، ففى منطقة السنغال كان انتخاب سنغور المسيحى المتدين والذى لم يعش فى السنغال منذ 1928 حتى نهاية الحرب بتأييد واضح من لمين غاي ، ولم يكن تمثيل المناطق الاسلامية الاخرى ، وهي تمثل أكثر من ثلثي المساحة والسكان حتى ذلك الوقت ، لينسجم هو الآخر مع الوازع الدينى ، وكان هذا اتجاها جديدا لم تكن لتعرفه افريقيا الغربية على هذه الصورة فى سنة 1900 مثلا ولا فى السنوات التى بعدها مباشرة قبل التجنيد الاجبارى منذ سنة 1912، وبتكاثر عدد الطلبة الخريجين من المدارس الفرنسية فى فترة ما بين الحربين أخذ الاتجاه الجديد طريقه الواضح الذى مثلته نخبة ضئيلة العدد ، ولكنها كانت شديدة الاثر لدرجة أنها جعلت النخبة القديمة المتمثلة فى شيوخ القبائل والزعماء الدينيين تنقاد اليها ، والحقيقة أن الادارة الفرنسية كان لها دورها الكبير فى انتقاء أفراد من النخبة القديمة وخلقهم ليتلاءموا وهذا الاتجاه الجديد، أما المناهضون فقد أكلتهم فترة الجهاد الاولى وقضى على أنصارهم وتشتت أحفادهم تحت نير الفاقة ، وبقى المناصرون الذين ازداد عددهم بفعل التجهيز واعطاء الاولوية فى كل ناحية للقادمين من مناطق بعيدة كي يواكبوا الركب ويخدموا أهداف الادارة مقابل أبهة الوجاهة والعيش الرغيد نسبيا فى ظلها .

(26) Marcel Chailley, Histoire de l'Afrique Occidentale, Paris 1968, pp. 474 FF.

5) **التعليم الدينى الفرنسى :**

لم يكن فى افريقيا الغربية كلها عند بداية القرن العشرين مسيحيون أفارقة، وهذا باستثناء أفراد قلائل من الهجناء الذين توالدوا من جراء المعاشرة الطويلة للفرنسيين مع بعض الاهليات فى سان لويس فلما انتهت الحرب العالمية الثانية تكونت البذور الاولى للجاليات المسيحية من الاهالى فى عدة مناطق هي :

1) ـ بلدية السنغال (سان لويس، داكار ، كورى ، رونسيكوتياز) ٠

2) ـ فى الكازا مانس (السنغال الجنوبى) ٠

3) ـ فى أعالى السنغال والنيجر (أفراد قلائل من قبائل البمبار أو الموسى فى سيغو بصورة خاصة) ٠

4) ـ بعض الافراد فى باقاس بغينيا٠

5) ـ فى ساحل العاج (على الساحل بصورة خاصة) ٠

6) ـ فى الداهومى (فى الجنوب الغربى من ذلك الاقليم) ٠

لقد كانت تلك هي حصيلة سياسة التمسيح فى مدة أربعين عاما ، وقد وجدت ثمارها الاولى فى المناطق الوثنية وكان الرسميون الفرنسيون منذ البداية يعتبرون ذلك فتحا مبينا (27) ٠ والحقيقة أن الفرنسيين فى افريقيا كما فى غيرها من مستعمراتهم كانوا يطبقون باستمرار قول غمبتا Gambetta ذلك السياسى الفرنسى الشهير : (ان مناهضة أعمال الكنيسة يجب أن لا تكون مادة للتصدير) ذلك أن التبشير كان قد منع فى فرنسا منذ مدة طويلة ولكن الادارة الفرنسية فى المستعمرات كانت تعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، وكانت مدارس المبشرين فى افريقيا الغربية قد سبقت الى الوجود قبل المدارس الحكومية ، ولذلك فقد كانت المدارس التبشيرية واستمرت طيلة عهود الاحتلال تنفق عليها الادارة الفرنسية كما تنفق على مدارسها ، وذلك حسب تعبير هاردى (لانه يكون من غير الصواب عدم الاعتراف بالعمل الفرنسى العميق الذى يؤديه المبشرون (28) ٠

لقد كان المبشرون الكاثوليك هم عمدة العمل الفرنسى ، ولكنه سمح للبروتستانت أيضا بالعمل ، وكانت نسبة الكاثوليك الى البروتيستانت بين الاهالى المتنصرين هي الغالبة منذ البداية ٠ وبالرغم من أن مدارس (المرابطين) الاسلامية كما كان يطلق عليها (29) ، كانت فى ضعف متزايد من حيث كفاءة رجالها فان المبشرين وجدوا صعوبة كبيرة فى تنصير المسلمين ولذلك قلدوا طريقة (لا فجرى) التى كان قد جربها فى الجزائر ، وهي تعتمد

---

(27) Hardy, op. cit., p. 319.

(28) Ibid, p. 320.

(29) Les écoles des marabouts.

جلب اليتامى واقتناص مناطق المجاعات لتنصير بعض الافراد من بين المسلمين ثم الهروب بهم أو عزلهم من المناطق الاسلامية بقدر الامكان حتى لا يعودوا للاسلام (30) ، ثم مال المبشرون فى هذا الاتجاه الى الاعمال الاجتماعية مما سهل مهمتهم للاستقرار والانتشار فى جميع المناطق ، وهذه الطريقة هي التى لا يزال يسير عليها المبشرون فى افريقيا الغربية ، واغلبهم فرنسيون ، حتى الآن (31) ·

لقد سخرت الادارة الفرنسية فى افريقيا الدين لخدمة أهدافها واستخدمت المدرسة لنشر اللغة الفرنسية ، واستفادت من الامتيازات التى كان يحصل عليها الافراد من التعاون مع تلك الادارة للقضاء على اللغة العربية وتمكنت فى أقل من نصف قرن من خلق طبقات جديدة تتوق الى أهداف وتتعلق بمفاهيم تختلف عن مفاهيم الاجيال السابقة ، وهو عمل كبير لا يمكن للمؤرخ أن لا يلاحظ المجهودات التى بذلها الفرنسيون عن جدية ومعرفة فى سبيله · وأخيرا فانه لا يمكن اعتبار هذا البحث احاطة بموضوع واسع كهذا الذى نحن بصدده، ولكنه ، وهذا هو الهدف الذى كتب من أجله ، اقتراح جدى لعناصر الموضوع نضعها أمام الباحثين وخاصة الشباب من بينهم ، ولنا اليقين بأنه سوف لن تنقصهم المصادر وانما يلزمهم العمل ·

---

(30) C.F. Hardy, op. cit. p. 320 ; Paul Marty, Les écoles maraboutiques du Sénégal, Paris 1914.

(31) لمزيد من التفاصيل حول طريقة الكاردينال لافيجرى ، راجع بصورة خاصة : Lavigerie : Oeuvres choisis, Paris 1884.



تأملات فلسفية في الذكرى الهجرية

د. أحمد بن نعمان

اذا كان الزمان وليد الحركة ، فالحركة لا تدرك الا فى المكان ومن هنا كان ارتباط الزمان بالمكان . وعرف التأريخ لدى الانسان ، وكتب التاريخ عبر الزمان ، وقوم المكان عبر الزمان وقوم الزمان عبر المكان ...

وعرف الانسان اللاحق ، ما كان عليه الانسان السابق ، وظل يأمل فى توقان الى تحقيق أحسن ما ينبغى أن يكون على ضوء أفضل ما كان ...

والزمان أزمنة والمكان امكنة، ... فأي الامكنة نعنى ، وبأي الازمنة نعتنى ؟؟

أما المكان فهو العالم الاسلامى .. وأما الزمان فهو الزمان الهجرى ، أو التاريخ الاسلامى ... والتاريخ ماض وحاضر ومستقبل ، فالمستقبل والحاضر تاريخ بالقوة ، والماضى تاريخ بالفعل ... فما هو مستقبل اليوم سيصير حاضرا غدا ، وما هو حاضر أمس سيصير ماضيا غدا ... فلنقس ما هو قائم على ما هو قادم ، وما ولى وفات على ما هو آت ... فالتاريخ انجاز فى الحياة بالحياة ومن الحياة ، وللحياة ... والحياة حركة والحركة فعل ، والفعل المنظم تقدم ، والتقدم قوة ، والقوة بقاء ، والبقاء غايته الخلود ووسيلته وقوامه الاعتدال بين القول ، والفعل ، والعقل ، والعاطفة ، والدنيا والآخرة . فالانسان مادة وروح، وفكر وجسد ... وكما انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان فليس - أيضا - بالصوم وحده يقوى الجوعان ، ... لان الحياة الانسانية السوية - كما نعتقد - هي عاملان متفاعلان ، متكاملان لدى الفرد فى الجماعة ، ولدى الجماعة

فى الأمة ، ولدى الامة فى التاريخ ، ولدى التاريخ فى البقاء ، والتاريخ الذى نعنيه هنا ، هو التاريخ الهجرى كما قلنا ...

وهذه الوسطية ، وهذا الاعتدال فى الاسلام هو ميزان القوة ، وصمام الأمان ... ولئن عدمناه ، فى حياة بعض المسلمين ، فى عصرنا الحاضر، فلا نعدمه فى تاريخ المسلمين الزاخر بالمفاخر والمآثر ...

ومثلما كان الاسلام معتدلا فى نظرته للانسان ، فهو وسط - أيضا - بين الاديان من ناحية موقفه بين المادة والروح ، والدنيا والآخرة . فمثلما هو معتدل بروحانيته تجاه المادة التى تطغى فى الديانة اليهودية بكل وضوح « **أرنا الله جهرة** » فهو معتدل بماديته تجاه الروحانية التى تطغى فى الديانة المسيحية بكل وضوح - أيضا - فى (من ضربك على خدك الايسر اعطه خدك الايمن) و (لا كهنوت فى الاسلام) فكل تقدم فى الحضارة الاسلامية كان سببه الاعتدال ، وكل تقهقر سببه التطرف ، والمغالات فى جانب من جانبى الانسان ، دون الآخر ... فاما مادة بلا روح ، وبلا ايمان ، واما روح وايمان بلا مادة وبلا عمل ... وكلا الوضعين غير سليم ...

فالاسلام انتشر فى الافق وساد أقطار العالم ، وشيد الحضارات الراقية فى المشرق والمغرب والاندلس ، بفضل الاعتدال ... وتقهقر المسلمون بسبب التطرف ، الذى ظل وما يزال يهددهم بالزوال الحضارى والانحلال !!

فأول انحطاط للعالم الاسلامى فى الاندلس ، وفى المشرق العربى ، كان سببه الطغيان المادى على الروح والمتمثل فى العمل للدنيا - فقط - كالعيش أبدا، وعاش بقاء التقهقر الحضارى المدمر ، والانحطاط الطويل المعمر هو رد الفعل العكسى الذى نقل معشر المسلمين فى هذه الاقطار من النقيض الى النقيض ، العمل للدنيا - فقط - كالعيش أبدا ، الى العمل للآخرة - فقط - كالموت غدا (!! .)

فظلوا أقرب الى الموت منهم الى الحياة (الثنائية) القوية بين الأمم والحضارات العصرية ...

وهكذا نجدهم يعيشون فى وضع حضارى ، لا يتلاءم ابدا مع مبادىء الدين الاسلامى ، الذى يحملون اسمه وينتسبون اليه تاريخيا، وجغرافيا (!!.)

ويرجع هذا الوضع المرضى العضال، الذى يعيش فيه المسلمون الآن ، فى عهد الانحطاط الحضارى ، الذى أوجده بعض الاجداد المتطرفين من الجانبين (..) ودعمه بعض الاحفاد اللاحقين النائمين (المحافظين) على الوضع ، الذى كان المهد الاساسى للاحتلال الأجنبى الذى كرس نتائج الانحطاط الأول ، وشجع التطرف لدى الاشقاء . (السعداء - الاشقياء) ليتم له البقاء والهناء ..

ويشيد حضارته الراقية مـــن خيرات أقطارنا الاسلامية الجامدة الراقدة ·!!

ولذلك لم يكن جلاء الاحتلال الشرقى، والغربى ، عن الارض الاسلامية ، فى بداية نهاية منتصف هذا القـرن ·· الا بداية مشجعة تنم عن بوادر وعي قوية · بضرورة الاعتدال الذى حقق بعـــض المنال فى الاستقلال ، وما يزال يتطلـب المزيد من التعميق فى أوساط الاجيال، الحاضرة والقادمة كي يتم التحـــرر الكامل من مخلفات الانحطاط الحضارى المولد للاحتلال الاستدمارى · ولا شك أن بوادر التحرر الكامل موجودة بفضل عودة الوعي الفعال ، ورجوع الحلقة المفقودة فى الاعتدال ، الا أن هذا الوعي الفئوى الذى انتشر فى بعض الاقطـار على يد الثوار لم يصل من الناحية الكمية الى القدر الذى من شأنه أن يعم كـــل الديار الاسلامية ، وكـل شعوبهـــا المستضعفة المتأففة !!

وهكذا نجد أن الاحتلال الاجنبى الذى انجسر عن جل الحقول الاسلامية · لم يخرج بعد من كل العقول الاسلاميـــة ونعتقد أن احتلال الاراضى أقل تأثيرا وخطورة على مستقبل الشعوب المتحررة : من احتلال العقول ···

لان احتلال الارض شيء مجسد فى الواقع الملموس ، وخارج عـــن ذوات المسلمين المجاهدين المحتلـة أرضهم ، مما يمكنهم من ادراك خطورته المباشرة عليهم ، ولمس أضراره المادية باليـــد والعين ، قبل الفكر والذهن ، فيحفزهم الجوع والجهاد الاصغر · الى القضاء على العدو الاظهر ··· وغالبا ما يتـم للمسلمين القضاء عليه فى الجولـــة الاولى بفضل الارادة القوية ، ووحدة الصف ، ووضوح الهدف ···

أما احتلال العقول الاسلامية (بالمادية والروحية المغالية) فانه غير ملموس ، ولا ينتهى بالضرورة مع تحرير الاراضى، فى مرحلة الجهاد الاصغـــر ، والعـــدو الاظهر ··· لانه كما تم متأخرا · فـــلا يخرج ـ ان خرج ـ من كل العـقـون الا متأخـــرا ···

وقد بدأ يخرج بفضل وعي الطليعة الثائرة المثقفة ، ولكن خروجه من عقول كل الفئات المستضعفة ، المتخلفة ليس يسيــرا ··· لأن احتـلال الـــروح ، واحتلال الفكر يصيب ذوات الاشخاص أنفسهم فيجعلهم رغم الاستقلال يفكرون ـ دون شعور ـ بعقلية الاحتلال ، وقد يحققون فى أنفسهم ، بأنفسهم ، مـــن تكريس للتخلف ما يعجز المحتل التقليدى عن تحقيقه فيهم بالطرق الاكراهيـــة التقليدية المباشرة ···

ويصبح القضاء على هذا الاحتلال النوعى الخطير من أعسر مهام الفئـة المجاهدة المثقفة لان الخصم فى هـــذه المرحلة من الجهاد الاكبر ، قد يكـون هو الحكم (الاحمر ، أو الانور) فى ذات الحين (!!) ولكن الانطلاقة موجودة وقوية ، وكما تحقق الاستقـــلال الاول

بفضل الوعي الاسلامى الذى عم ربوع المسلمين ، وانار بعض عقول الغافلين، فأنار الطريق أمام اللاحقين الصادقين ·· كذلك سيكون الوعي الاسلامى مفتاح التحرر للاذهان بعد الابدان والاوطان ··· وعلى ضوء ما تم من تحرر للمسلمين فى هذا القرن ، يحق لنا أن نتفاءل بمستقبل زاهر للمسلمين ما دام فيهم مؤمنون مجاهدون باليد والقلم ، واللسان ، فى ميدان الصراع بين الاديان ، والعقائد السماوية (الخالقية) والارضية (المخلوقية) من أجل التحرر والتحضر ، ومن أجل المبدأ الاسلامى الفعال فى المساواة والاعتدال بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وعالم المادة والانتاج ، والزيادة ، وعالم الطهارة ، والتخلق والعبادة ···

ولا نستبعد أن تتحقق نبوءة (برنارد شو) فى أن يعم الدين الاسلامى أقطار العالم الاخرى ، الصغرى منها والكبرى (!!) وتدول دولته فى القرون القادمة ، ان لم يكن ذلك فى نهاية هذا القرن ··

ونعتقد أن الاسلام سيبدأ فى الضرب فى الارض عمقا ، بعد أن ضرب أفقا ، والعمق والافق بعدان ضروريان متكاملان لبقاء الاسلام قويا فى أمان، وصالحا لكل زمان ومكان ، كما نص القرآن ، ولعل ما نشهده الآن من اعتناق تلقائى ، وجماعى للاسلام فى أوروبا واليابان ، ومن انتشار أفقى فى أمريكا وافريقيا، ومن تعمق فى الثورة الجزائرية السابقة الرائدة ، وثورات الافغان ، والباكستان ، وفلسطين ، والصحراء ، والفلبين اللاحقة الصاعدة الصامدة · وآخرها عملاقة الشعب الامام القاعدة · الماردة ، ذات الابعاد الثورية العالمية والآثار الايجابية ، ضد الذهنية التواكلية، الداعية للمحافظة ، على المصالح الامبريالية ، والانظمة الرجعية الاقطاعية ··

فتلك الثورات الاسلامية النموذجية هي المفتاح لكل قضية ؛ وهي الاساس فى القياس لكل افلاس ، والموضح لكل التباس ··· واذا عرف السبب بطل العجب ، وازداد الغضب على بعض المسلمين ، من العرب الغافلين ، الخانعين ، الجائعين ، الصابرين على الجرب ، والكلب واللعب (!!)

وكما وجب الاعتدال بين الدنيا والآخرة ، فى الزمان ، وجب الاعتدال بين العقل والعاطفة فى المكان على مستوى الكائن ، الانسان ، فالعقل والمنطق له دوره الفعال كما ان للعاطفة (والايمان بالغيب) دورها ، لتصعب العقيدة ، عن المنال ، بالطعن فيها ارضاءا لطموح ، أو جموح العقل ، مع تبدل الاحوال ···

فاذا كان الخالق المصور قد ميز الانسان بقدرات عقلية ، ومنطق جعله أهلا لحمل الامانة ، فذلك لانه قد خصه بتكليف فى مستوى ذلك التشريف ···

والتكليف هو الامر بفعل الشىء · والنهي عن اتيان آخر لسبب يعلم الله سره ، ولا نعلم نحن الا ظاهره ··· غير ان الانسان لما كان يتمتع بهذا الذكاء الذى حقق له انتصارا معتبرا فى عالم المادة والحس قد ظل متفائلا · وطموحا الى استكناه كل شىء محاولا اختراق حجب هذه المادة للنفاذ الى أسرار العالم الغيبى معتمدا فى ذلك على العقل والمنطق محكما اياه فى كل الامور حتى اننا لنلاحظ فى حياتنا اليومية أن أي شخص – عاقل – كلما أراد أن يقوم بعمل اختيارى حكم عقله ولا يقبله – حرا – الا بعد اقتناع بفائدته العاجلة ، أو الآجلة ···

ولا شك ان تحكيم المنطق فى الشؤون الدنيوية أمر فى غاية الحكمة · الا أن نفس المنطق وحده لا يكفى فى الامور العقائدية الايمانية ، بل لابد فى هذه الاخيرة من وجدان متدفق وعاطفة قوية تكون لها الكلمة الاخيرة عندما يفقد العقل صوابه ، أو توازنه فى عالم الروح والماورائيات ··

وهنا نقف عند موقف العقل من التكاليف السماوية ذلك أنه كثيرا ما يحاول بعضنا ادراك السر أو الغاية من تحريم هذا الشىء أو وجوب ذلك ···

ومن ذلك أن يحاول البعض – مثلا – معرفة السر من وجوب الصلاة والصيام والزكاة والحج ··· وتحريم الخمر والزنا والربا والميسر ···

فان من يريد أن يمنطق هذه التكاليف ويحصر فائدتها المادية ، أو المعنوية يكون قد جانب الصواب اذا ادعى انه ألم بكل مقاصدها ، لان المحاولة المنطقية فى ذاتها ، وان كان دافعها مشروعا الا أن لها عواقب خطيرة بالنسبة للكثير من العقول المحدودة الافق ، حيث يرتد المنطق الى نحر المتمنطق وسأسوق فيما يلى أمثلة لكل ذلك ولنبدأ بالصلاة :

فعندما نحاول أن نمنطق وجوب الصلاة على المسلم ، فنحصر فائدتها العلمية ، فى الطهارة والرياضة، كقول البعض بأن الصلاة طهارة للابدان بحكم اغتسال المسلم ، خمس مرات فى اليوم، وبالطهارة والنظافة ينجو الجسم من الامراض الكثيرة التى تكون تلك الاوساخ ، سببها المباشر ···

أو أن يقال – بحق – انها رياضة للنفس ، والبدن ، فتروض النفس ، وتنشط البدن ، وتقوى نشاط الدورة الدموية ··· فاذا حصرنا الغاية من الصلاة فى هذه الفوائد العريضة ، فان المنطق سيعود علينا قائلا :

ما دام المقصود من الصلاة هي النظافة والرياضة البدنية ··· فان الرياضيين الذين يتدربون مئات المرات فى اليوم ، وممارسى اليوجا الذين يركزون أذهانهم بعض الساعات فى اليوم وعمال الحمامات (التركية) الذين يغتسلون عشرات المرات فى

اليوم ، هؤلاء ـ اذن ـ يسقط عنهم تكليف الصلاة لانهم يقومون بأعمال تفـــوق ما يقوم به المصلي (المواظب) الــذى يصلي خمس مرات فى اليوم ···

فهذا جـــواب حتمى أو استنتـــاج ضرورى ، ينجم عن تحديدنا لغايـــة الصلاة بهذه الكيفية · والحقيقة ان الغاية الاساسية من وجوب الصــلاة « وان كانت من أغراضها ما ذكر » أعلى وأعمق مما يمكن للعقل الانســانى أن يدرك أو يتنبأ ، بدافــع الطمـــوح أو الغـــرور ··

أما الصيام فلا يقل حظا عن الصلاة، فى فلسفة الوجوب وحصــر الغايـــة · وكثيرا ما نراه يفلسف من طرف بعض المجتهدين بأنه ابتلاء من الله للاغنيـاء ليتساووا مع الفقراء فى الاحساس بألم الجوع فترق قلوبهم ، ويعطفون عـــلى الفقراء والمساكين ، فيتصدقون عليهم ، وبالتالى تتحقق بعض المساواة ويسعد الجميع ، لان سعادة الفرد لا تكتمل الا بسعادة المجتمع ، الذى يعيش فيه ···

وهنا أيضا يرتد الينا منطقنا فيقول : اذا كان الهدف الاســـاسى من وجوب الصيام هو استعطاف الاغنياء عـــلى الفقراء ، فمن الطبيعى ـ اذن ـ للفقراء ألا يصوموا لانهم طوال السنة يشعرون بالجوع ويسبحون فى بحر من الحرمان، يهون أمامه الامساك عن الطعام فى أيام معـــدودات · أي بمعنى ان الفقـــراء لا تمسهم الحكمة من وجوب الصيام ، لانهم هـــم مـــحـــل العطف ، ومحـــور الصوم (؟!) ، كما قد يأتى متمنطق آخر ويقول لنا : فهل من الحتمى أن يكون فى المجتمع المسلم فقراء وأغنياء ؟ أليـــس من الممكن أن يصل المجتمع المسلم الى درجة من التقدم ينتفى معها وجود ، من يستحق الصدقة ، والعطف مثلما هو ملاحظ فى المجتمـــعات الاوروبيـــة المتقدمة ··· ؟؟

وان كان هذا هو شأن منطق التكاليف فالمثال نفسه ينسحب على النواهى ، والمحرمات فتحريم الخمر نجده يمنطق لدى البعض ، بأنه مضر للجسد، والعقل، ومبذر للاموال ··· فهذا صحيح ·· ولكن ألا يحتمل أن يعترض أحد ويقول اذا كان السكر هو سبب تحريم الخمر فأنا أشرب كذا وكذا · من زجاجات الخمر ، ولا تحرك لى ساكنا فلمـــاذا أعتبر مذنبا ، طالما لم أسكر ولم ألحـــق الضرر لا بنفسى ولا بالآخرين ، ثم من الناحية المالية ، فأنا غني والحمـــد لله (···) أما من ناحية الصحة فهي تقوينى وتفتح شهيتى للاكل ، وتدفئنى فى البرد ، ولا شك أن هذا منطق سليم ومؤكد لقوله تبارك وتعالى : « **فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما** » وأحسن جواب للكف عن هـــذا المنطق هو هذه الآية ، التى ترى المنفعة فى الخمر وتقر بوجودها ثم تدعو للكف عنها ، باعتبار ان فيها اثما ، والاثـــم شىء معنوى بالدرجة الاولى ، وليس

بالضرورة أن يكون ضررا للجسد ، فهو أشبه بالاثم الذى يرتكبه تارك الصلاة ، أو النمام ، أو الراشى ، أو الكذاب ٠٠٠

أما الزنا فقد لاحظناه بمنطق لدى بعض المجتهدين بأنه حث للناس على الزواج ، وتحمل مسؤولية الاولاد الناتجين عن الزواج ، بخلاف الاولاد الذين ينتجون عن اللقاءات المحرمة ٠٠٠ فهم يولدون مشردين ، ويصبحون عالة على المجتمع ٠٠٠ فهذا ولا شك اجتهاد صائب لتبرير بعض الاسباب الاجتماعية لتحريم الزنا ، أو لمشروعية تعدد الزوجات ٠٠ غير أن الخطأ كل الخطأ، أن نحصر السبب كله ، فى هذا التبرير، لان أحد العصاة سيأتى ويقول لنا : نعم كان الزنا حرام فى الزمن الماضى، حينما كان الطب متأخرا ٠ أما الآن مع تقدم العلم واكتشاف وسائل الوقاية من الحمل ، ذات المفعول القطعى ، ينتفى سبب تحريم الزنا ، لان اللقاء لا ينتج عنه أي أثر يتعدى نطاق الزانيين ٠٠٠

والحقيقه أنه رغم وجود العديد من الاسباب الاخرى الاجتماعية ، والنفسية، والصحية ، التى تبرر تحريم الزنا الا أننا لا نرى موجبا لذكرها فى هذا المقام لانها كلها فى النهاية ، يمكن أن نجد لمنطقها منطقا مضادا يبطل المبررات التى نوردها ، ونفس الشىء يقال على التكاليف الاخرى أو النواهى ، والمحرمات مثل الربا والميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به الى آخره ٠٠٠ الا أن كل ما يمكن أن يصل اليه المجتهدون ، من تبريرات لهذه التكاليف أو تلك المحرمات ، فانها ستظل دائما جزئية لا تعدو كونها مظهرا عمليا ٠ وفائدة عرضية من فوائد التكاليف ، أو فوائد الامتناع عن المعاصى ، لان سر التكاليف لا يعلمه الا المكلف نفسه ٠٠٠

ونحن فى هذه الحالة أشبه ما نكون، بالشخص المريض الذى يذهب الى الطبيب ، فيعطيه وصفة دواء ، يقول له فيها أفعل هذا ولا تفعل ذاك ٠٠٠ فلا يحق للمريض أن يسأل عن مكونات الدواء الذى وصفه له ، وسبب وصفه له ، لان ذلك من اختصاصات الطبيب ، ولكن اذا صادف المريض ان وجد الدواء حلوا فى مذاقه ، فيظن انه وصف له من أجل تلك الحلاوة (العارضة) التى قد يكون سبب وضعها ، هو تمرير (مرارة) الدواء الاساسى الصالح للجسد والذى غلف بطبقة من الحلوى ليسهل تجرعه ليس الا ٠٠٠

وفى الاخير أود ألا يحسبن البعض أن تناولى لهذا الموضوع هو محاولة صوفية أستهدف من ورائها الحط من قيمة العقل وعبقرية الذكاء الانسانى ٠ فأنا من الذين يحترمون العقل ويعتمدون عليه كثيرا ، فى نطاق صلاحياته وحدوده الممتدة فى الزمان والمكان ، والمعتمدة على القنوات المعرفية المتمثلة فى الحواس الخمس وعلى رأسها البصر ٠

ولكن ليس كل ما لا يرى غير موجود ، واذا كان من صلاحيات العقل ان يعقل وان يستنتج ما يمكن أن يوجد وراء الظاهر المحسوس ، فان الخطأ كل الخطأ أن يدعى معرفة كل ما لا يرى ، أو ان يتصور كل ما يعقل ، فالعقل السليم من واجبه أن يقر بأن للوجود الها ، أو قوة يسميها كما يشاء ، ولكن خطأه القاتل هو محاولة تصور حدود وكنه الشيء المعقول ، فذلك لا يأتى الا بحاسة البصر · والبصر محدود ، محدود ، محدود ·

والخلاصة أن للعقل حدودا للتعقل ، لا يتجاوزها ، ولا ينبغى أن يستهان بالعقل فى حدود امكانيات التعقل ، ولكنه اذا تجاوز حدود صلاحياته ، ضاع فى متاهات الغيب ، وعالم الروح، التى يقول فى حقها خالقها :

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا» ·

ومعنى الآية هنا « **وما أوتيتم من العلم** يعنى : وما أوتيتم من (العقل) الا قليلا ·

ومن ثمة يتعين علينا أن نكمل هنا ذلك النقص (العقلى) بالعاطفة ، وبالتالى وجب التكامل ، والاعتدال ، فى كل شيء حسب المظهر الاسلامى ، الذى اجتهدنا ، لاظهاره – بقدر المستطاع – فى هذه الذكرى العطرة ·



الفن الإسلامي أصوله وخصائصه

الاستاذ صالح بن قربه

لقد وحد الاسلام العرب ، وجعل منهم دولة كبيرة فى العصور الوسطى ، امتدت من الهند شرقا الى الاندلس غربا ، وجبال البرانس شمالا ، الى المحيط الهندى جنوبا • وقامت على يدى الشعوب الاسلامية على اختلاف أجناسها ، من عرب وفرس وروم وترك واقباط وبربر وغيرهم حضارة زاهرة ، امتدت فى ربوع الاراضى الاسلامية المترامية الاطراف ، ونشرت اشعاعها الثقافى والفنى الى كثير من بلدان العالم • ولا يخفى علينا أن هذه الحضارة التى أقامها العرب بجميع مظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لم تخلق فجأة بل سبقتها عوامل مختلفة داخلية وخارجية ، مهدت أمامها السبيل ، وامتزج بعضها بالبعض الآخر ، فلما جاءت الفتوحات الاسلامية أخذ هذا التمهيد وهذا التفاعل يظهر ويتطور مع الايام فنعم بحياة الاستقرار والرخاء وانتشار الامن ، نتج عن ذلك مظاهر جديدة أتيح لها أن يزداد أثرها •

وثمة حقيقة هامة ينبغى ألا نغفلها ، وهى أن الاسلام لم يتخذ الفنون وسيلة لذيوعه وانتشاره وأداة تعبدية كما فعلت المسيحية فى فنون المسيحيين واليهودية فى فنون اليهود •

وكما يقول الاستاذ ابراهيم جمعة : لقد كانت وسيلة ذيوع الاسلام وانتشاره ذاتية منبعثة من صلب العقيدة ، لا تحتاج الى الاستعانة بغير كتاب الله وسنة رسوله • وكان فيها الغناء ، وذلك الى جانب قوة الحجة وفصاحة اللسان ونصوع البيان • ظل العرب المسلمون طوال قرنين من الزمان بعد الفتح يمارسون أعمال الولاية والسياسة والامامة والقضاء وغيرها من شؤون رعاية المجتمع الاسلامى فى أمور الدين والدنيا • ويتقاضون من ديوان العطاء

المال القليل الذى يكفى الحاجة حــتى حرمهم الخليفة العباسى المأمون (*) من ذلك فاضطرت الغالبية العظمى من العرب المسلمين فى البلدان المفتوحة الى النزول الى معترك الحياة العامة يمارسون شتى المهن والحرف والصناعات .

ويسهمون فى كــل الاعمال بقدرات تنفي عنهم صنعة العجــز فى مجالات الفنون بدعوى شعوبية تقول بأن العرب من الجنس السامي الذى لا يحذق الفنون بخلاف الجنس الآرى الذى وهب حـذق الفــن بالسليقة والطبع ، وقــد أثبتت الممارسة العملية أن العرب المسلمين لم يكونوا أقل من غيرهم مهارة وخبرة فى هذه الميادين وقــد برعوا فيهــا وبرزت منهم جماعات اجادت فنونا قائمة بذاتها وتفوقت فيهــا تــاركة مجــالات أخرى لغيرها .

ومما سبق يتضح أن العرب المسلمين قد انصرفوا عن ممارسة التصوير وتركوه للفرس والهنود والاتراك . واتجهوا الى الخطوط والزخارف . وقد شهــد لهــم تفــوقهم فى فنـــون الخــط والزخرفة والفنون التطبيقية بديلا عن تفوقهم فى فنون التصوير والنحت . ذلك لان فــن الخط العربى هو أسمى أشكال الفنون الفرعية فى الحضارة الاسلامية (1) ولا يمكن ادراك أو فهم الفن الاسلامى بدون فهم منزلة ودلالة تقاليد الخط .

ظهور الفن الاسلامى :

يعتبر الفن الاسلامى بجميع فروعه من أعظـــم وأجمــل مظــاهر الحضارة الاسلامية شأنا ، ونتساءل لمــاذا هــذا التقدير كله ؟

والاجابة عن هذا السؤال تكمن فى أن الفن الاسلامى يعتبر بحق من أوسع الفنون انتشارا ، وأطولها عمرا مـــع استثناء الفن الصينى ، كان مولده فى القرن السابع الميلادى ، عندما شـــرع النبى صلى الله عليه وسلم فى بناء مسجد المدينة المنورة . حيث أنشأ نمطــا (2) جديدا فى الفـــن المعمارى ، اذ اتخــذ نموذجا فى تصميــم المساجد الاسلامية الجامعة فيما بعد .

وظل ينمو ويتطور حتى بلــغ أوج عظمتــه فى القرنين الســـابع والثامــن

(*) تولى الخلافة العباسية من سنة 193 هـ الى 218 هـ ، واشتهر بتشجيعه للعلـــم والعلماء . وفى عصره ازدهرت حركة الترجمة والنقل .

(1) انظر : David James : Islamicart an introduction Hamlyn, London 1974, p. 16

(2) رسالة اليونسكو العدد 199 ــ السنة 1978 ، ص 39 .



(لوحة ١)



(لوحة 2)

الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) .

ثم دب اليه الضعف والفقر الفنى فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وذلك بعد أن تأثر الفنانون والصناع فى العالم الاسلامى بمنتوجات الفنون الغربية ، فأقبلوا على تقليدها ، وكانت النتيجة ظهور أساليب فنية ضعيفة ، ونعتقد ان ما آل اليه الفن الاسلامى هو عدم اهتمام الفنانين أنفسهم بالاتقان اذ أصبحت السرعة فى الانتاج والاقتصاد فى النفقات مظهرا من مظاهر الحياة الجديدة .

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نذكر بأن الفن الاسلامى لم يكن هو أول عهد بالفنون . بل كان للعرب قبل الاسلام ماض فني مجيد ، يتجلى لنا فيما عرف من فنون تشكيلية ومعمارية .

فقد عرف العرب القحطانيون فى بلاد اليمن فنونا تمثلت فى قصورهم ، وتخطيط المدن ، واقامة الدور ، وبناء المعابد ، بالاضافة الى فنون فرعية كالكتابات المنقوشة التى ما زالت تشهد على ذلك (3) .

أما عرب الشمال فخلفوا لنا بعض الآثار التى تشهد على عظمة الحضارة التى وصل اليها الانباط والتدموريون ، وتأثرهم بحضارة الاغريق والرومان وأساليبهم الفنية ، كخزنة فرعون أو هيكل الخزنة ، التبراء والمسرح المنقور فى الصخر ، وهيكل بعل .

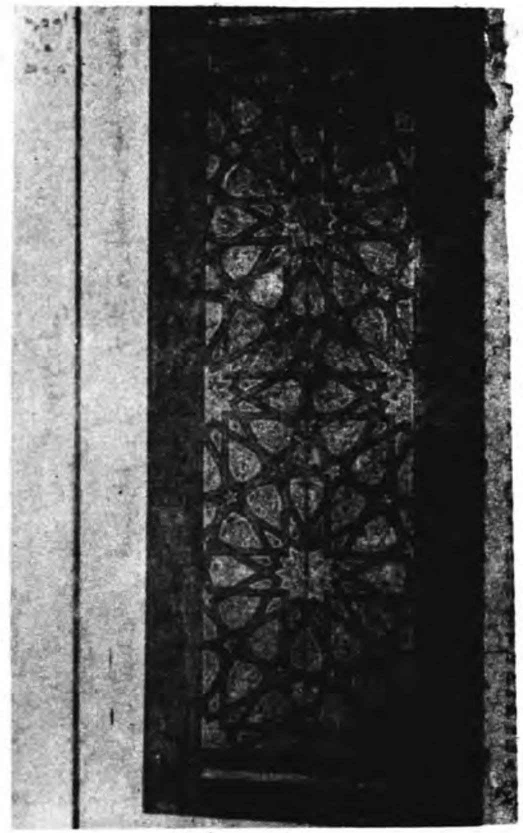
وهكذا بعد أن اتسعت دولة الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، ظهر فن جديد فريد فى موضوعاته وتعبيراته الفنية . واختلف مؤرخو الفن فى تسميته ، فمنهم من يرى أنه لا يمكن تسميته بالفن العربى ، لان نصيب العرب فيه كان أقل من نصيب غيرهم من الشعوب الاسلامية ، كما أنه لا يمكن أن نطلق عليه اسم الفن الشرقى ، لان هذه التسمية لا تنطبق على الفنون التى ازدهرت فى تركيا وشمال افريقيا والاندلس .

كذلك من الصعب جدا تسميته بالفن المغربى ، فهذا المصطلح يكون قاصرا فقط على الفن الاسلامى فى المغرب والاندلس ، وهناك من وصف الفن الاسلامى بالفن المحمدى ، غير ان هذه التسمية أيضا

(3) المعالم الاثرية فى البلاد العربية ـ الجزء الاول طبع جامعة الدولة العربية ـ الادارة الثقافية ـ القاهرة 1970 ، ج 1 ، ص 197 وما بعدها .



(لوحة 3)



(لوحة 4)

يأنفها المسلمون لانهـا تنسـب الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ظاهرة دنيوية ، وجانبا من جوانب الحضارة ·

وخلاصة القول أن هذه التسميات المختلفة التى أعطيت للفن الاسلامى كلها ناقصة ، كما أنها اسماء ليست جامعة شاملة ·

وأرى أن الاسم الشامل الجامع الذى يمكن من خـلاله وصف الفنون التى نشأت وازدهرت فى البـلاد الاسلامية قاطبة ، هو الفن الاسلامى ذلك لان الدين الاسلامى كان سلسلة متصلة الحلقات جمعت شتات الامـم وجعلها وحـدة متماسكة متميزة على الرغم من اختلاف أصولها ومشاربها ، وبعد هذا كله نبحث الآن عن المصادر والاصول الفنية التى استقى منها الفن الاسلامى بعض العناصر الزخرفية ·

أصول ومصادر الفن الاسلامى :

قـام الفـن الاسلامى على أصـول وأساليب فنية كانت سائدة فى الاراضى التى فتحهـا العرب ، وبنـوا فيهـا امبراطورية اسلامية واسعة وفى هـذه النقطة يقـول الاستاذ جاستون فيت G. Wiet فى كتابه (4) « دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية » ، « وقد سير الاسلام النزعات والميول الزخرفية فى سبيل معين ، ووجهها فى طريق كان فى استطاعتها أن تسلك غيره ، وأن يكون لها مصير آخر غير ما هيأه لها · وحتى ان كان المسلمون لـم يأتوا بموضوعات زخـرفية مبتدعة أو مستحـدثة يمكـن تمييزها فى سهولة عن سائر العناصر فى الفنون الاسلامية ، فانهم نفخوا فى تلك العناصر روح الاسلام وطبعوها بطابعه» .

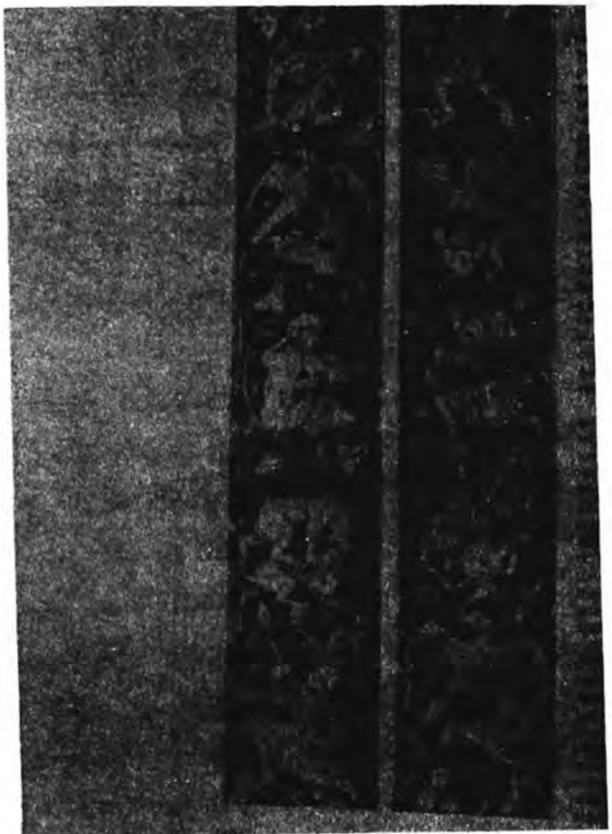
واذا كان هناك من يزعم أن الفنون العربية الاسلامية قد قامت على أساس من فنون الاقطار التى فتحها العـرب بعد ظهور الاسلام ، فانه من المسلم بـه كما يقول الدكتور حسن الباشا (5) : أن العرب بدورهم قـد نقلـوا الى هذه الاقطار نفسها الخط العربى ، كما نقلوا اليها أيضا اللغة العربية والاسلام سواء بسواء ·

وقبل أن نشير الى أبرز المصادر التى استقى الفن الاسلامى منها مادته يجدر بنا أن نورد فى هذا المجال عبارة لهـا وزنهـا ودلالتها الواضحة فى الفـن

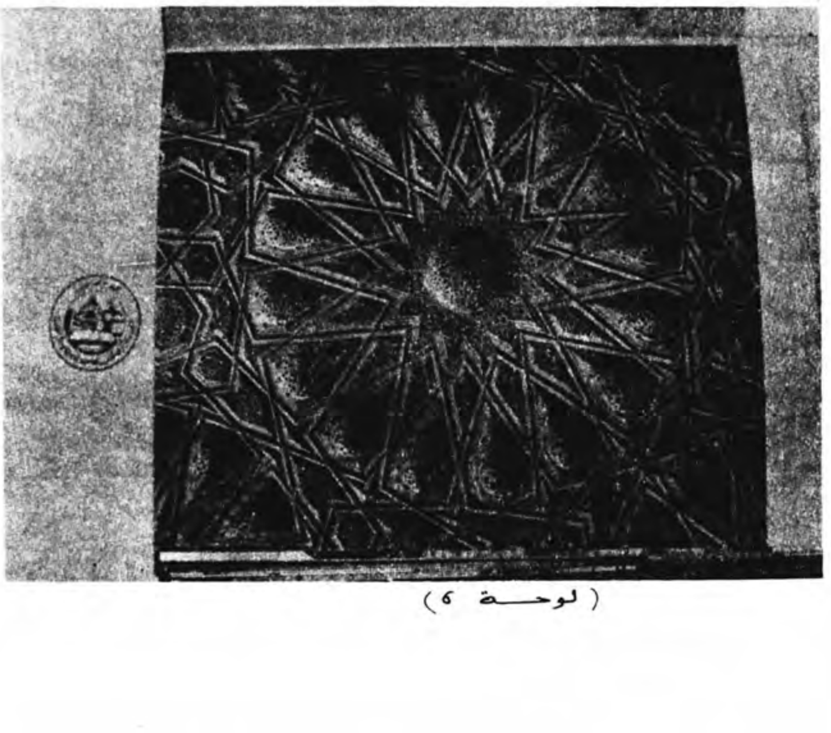
---

(4) نقلا عن كتاب حلقة بحث الخط العربى ـ المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ـ دار المعارف بمصر 1968 ، ص 84 ·

(5) حلقة الخط العربى ، ص 23 ·



(لوحة 5)



(لوحـــة 6)

الاسلامى قالها كريستى (6) : «ان الفن الاسلامى أخذ انسجته الروحية من بلاد العرب ، بينما انسجته المادية تكونت فى بلاد أخرى ، حيث كان الفن قوة حيوية عظيمة » ٠

والواقع كما يقول الاستاذان : Glück Diez ، ان العرب لم يأتوا فارغي الايدى (7) ٠

ـ أبرز الفنون هي :

1) الفن المسيحى الاول أو الفن البيزنطى فى بلاد الشام ٠

2) الفن الساسانى فى بلاد ايران والعراق ٠

3) الفن القبطي فى مصر ٠

4) الفن الهليسيتي فى الهند ٠

5) الفن البكتيرى (افغنستان) ٠

كانت الشام فيما مضى متقدمة جدا فى ميدان الفنون تحت حكم اليونان والرومان من بعدهم ، الى جانب ما كان لها من أساليب وتقاليد فنية قديمة فى عهد الحثيين والفينيقيين ٠

ولا ريب فى ان فتوح الاسكندر الاكبر للشرق الادنى، ثم دولة السلوقيين من بعده ، واستقرارها بالشام ونجاحها فى نشر الحضارة اليونانية قد أدى الى قيام حضارة تعرف باسم « الحضارة الهلينستية » وانتشار اللغة الاغريقية فى الشرق، وخاصة فى الشام ومصر، ومن ثم انتشار الفن الاغريقى الذى أخذ يتطور فى هذه البيئة الشرقية ، حيث فقد شيئا من البساطة وصدق التعبير ، وصارت له وجهة جديدة اذ أصبح يعرف بعد وفاة الاسكندر (323 ق م) باسم الفن الهلينستي اى الفن الذى قام على أسس من الفن الاغريقى ، وانتشر فى القرون الثلاثة التى تلت وفاة الاسكندر ٠ كان انتشاره فى الحوض الشرقى للبحر الابيض المتوسط ، غير أن تأثيره وصل الى روما ٠

وعلى أية حال فقد قامت فى هذا العصر بالشام مدن ، وعمائر جميلة كالحمامات والقصور ، والمسارح ، وميادين السباق ، وأسواق ، ومبانى كانت تعرف باسم « البازليكية » ٠ وقد اتخذت نموذجا بنيت على طرازها

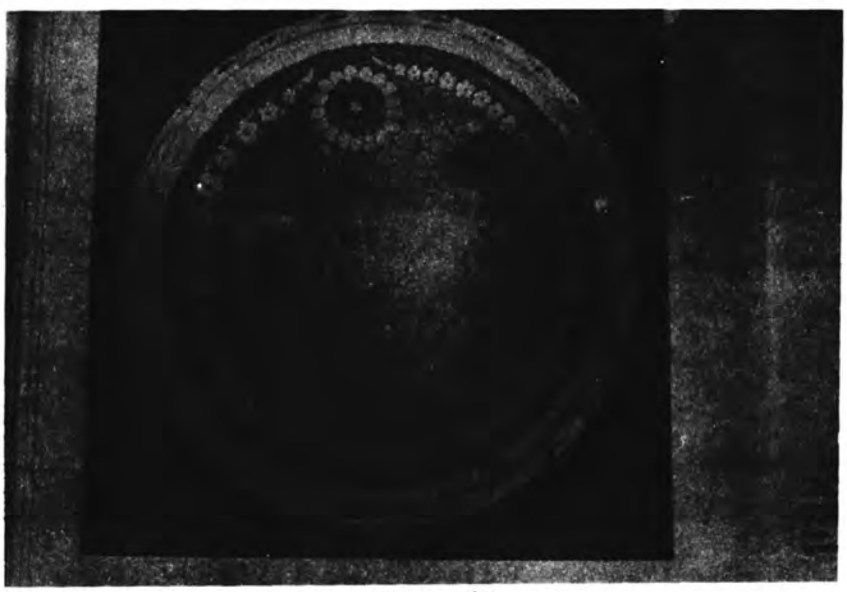
(6) انظر : The Legacy of Islam, p. 108

(7) انظر : Glück und Diez : Die Kunst des Islam, Berlin 1925, p. 14.

وعن نفس الموضوع راجع : زكى محمد حسن ـ الفن الاسلامى فى مصر ـ ص 81 ٠



(لوحة 13)



(لوحة 14)

الكنائس التى عرفت فيما بعد باسم « الكنائس البازليكية » .

انتشرت فى هذه المبانى القاعات المزخرفة بالفسيفساء ، بالرسوم النباتية والتصاوير الآدمية ، والحيوانية والطيور . ولما آلت اوضاع بلاد الشام الى حوزة الدولة الرومانية منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد لم يحدث تغيير ملموس ، فقد ظلت نفس الاساليب الفنية تمارس ، ذلك لان الفن الرومانى قام هو الآخر على أسس من الفن الاغريقى .

لم يقتبس الطراز العربى الاسلامى وحدات أو تفاصيل معمارية أو زخرفية من التقاليد الهلينستية أو الرومانية ، بطريقة مباشرة ، بل كان الوسيط هو الطراز البيزنطى الذى يمكن اعتباره قد ولد من الطراز الرومانى بعد أن أدخل عليها أدوات شرقية (8) .

وعندما أصبح الدين المسيحى فى عهد الامبراطور قسطنطين فى نهاية القرن الرابع الميلادى ، الدين الرسمي للدولة .

بدأ الفنانون يظهرون أعمالهم بطرق كانت فى غياهيب الكهوف والسراديب. وكان ذلك عاملا رئيسيا ساعد على تطور الفن الهلينستى بعد أن احتضنته المسيحية وأصبح منذ ذلك الوقت يعرف باسم الفن المسيحى أو الفن البيزنطى .

أهم خصائص الفن المسيحى الاول :

امتازت العمائر التى أقيمت فى بلاد الشام فى القرون الثلاثة الخامس والسادس والسابع الميلادية ، بالتناسق وجمال النسب والزخارف والرسوم الجميلة وكذلك الفسيفساء والنحت .

وعلى الرغم من التخريب الذى أصاب المدن الشامية على أثر الغزو الساسانى لها قبل الاسلام ، فقد بقى الفن المسيحى المتطور عن الفن الهلينستى مزدهرا زمن الفتوح الاسلامية الشيء الذى جعل الفن الاسلامى يستمد أصوله من الفن المسيحى ويهمنا أن نلفت الانظار الى ذلك النموذج من تخطيط الكنائس المسيحية المبكرة والبيزنطية ، الذى يوجد فيه فناء يتقدم الكنيسة نفسها ، وتتصل به من خلال أبواب صغيرة وتطل عليه من خلال نوافذ وضعت فى الجدار الذى يفصل الفناء عن الكنيسة ، فان هذا التخطيط الذى ظهر قبل قرنين أو ثلاثة من ظهور الاسلام

---

(8) فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الاسلامية ــ عصر الولاة ــ المجلد الاول طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ــ القاهرة 1970 ، ص 101 .

ــ انظر كذلك : Carel J. Dury : Artof Islam, New-York, 1970, pp. 17 - 39.



(لوحة 15)

وكان ذلك عاملا رئيسيا ساعد على تطور لم يكن له أى تأثير على تخطيط المساجد فى العصر الاسلامى ، منذ أول حلقة فى تطورها حتى القرن السادس عشر الميلادى ، كما لم يؤثر ذلك النموذج من تخطيط الكنائس فى العصر المسيحى المبكر والعصر البيزنطى على المساجد الا فى العصر العثمانى (9) ٠

وقد تأثر الفن الاسلامي اذا بالزخارف المسيحية الشرقية المحفورة على العاج (10) والمجوهرات ، وعلى سبيل المثال الحشوات التى تزين كرسى الاسقف ماكسيميان في راقنا ٠

ذلك لان المسلمين استعانوا بالصناع المسيحيين من الشام فى عمل وانجاز عمائرهم وتحفهم الفنية (11) ولهذا يمكن القول ان العناصر المعمارية والزخارف المسيحية قد أثرت فى تكوين الفن الاسلامى ٠

1) الزخارف المحفورة ورسوم أوراق العنب ، وأشكال الطيور والحيوانات ٠

2) رسوم اكليل الغار المحور عن الطبيعة ، وقرون الرخاء ، والفاكهة ، والزهور ٠

الفن الساسانى فى بلاد ايران والعراق

يعد العصر الساسانى (226 ـ 637 م) من أزهى عصور الفن الأيرانى ، اذ بلغت فيه الفنون والصناعات درجة كبيرة من التقدم ، وتتضح مميزات الفن الساسانى فى أوضح صورة على النقوش الصخرية الرائعة التى تمجد آل ساسان ، وتسجل انتصاراتهم على الرومان ٠ وظلت أوراق المراوح النخيلية احدى التعبيرات الهامة فى الفن الساسانى ٠ وتتمثل كذلك فى ورقة الاكانتس والحليات البيضوية ، وحبات اللؤلؤ ، والحيوانات المتقابلة تفصلها شجرة الحياة ، الوريدات ، النجمة ، الدائرة الى جانب استعمال الحيوانات الخرافية المركبة ، وبعض الحُليات الهندسية ٠

ويمكن حصر أهم العناصر الزخرفية الساسانية التى اقتبسها عنه الفن الاسلامى وتعتبر تفريعات المراوح النخيلية ومشتقاتها المتعددة الاصول المباشرة لمثيلاتها فى الآثار الاسلامية (12) كما تشاهد في قصر المشتى

(9) فريد شافعي : العمارة العربية ، ص 125 ٠
(10) ديماند : الفنون الزخرفية الاسلامية ، ترجمة أحمد موسى ــ دار المعارف بمصر القاهرة 1958 ، ص 26 ٠
ــ وانظر كذلك : Migeon (G.) : Manuel d'Art Musulman, t. 7, Paris 1907, pp. 41 - 42.
(11) انظر : Marçais (G.) : L'Art musulman, Paris 1962, p. 10.
(12) ديماند : الفنون الزخرفية الاسلامية ، ص 31 ٠



(لوحة 9)



(لوحة 10)

(لوحة 1) ومنبر مسجد القيروان ، وعلى ذلك نستطيع القول بالتطور الفنى من العصر الساسانى الى العصر الاسلامى ، بل حدث فى بعض الحالات أن أقتبس الفنان المسلم شكل المروحة الساسانية بدون تحوير • وابتكروا أشكالا جديدة مجردة • أدى تطورها تدريجيا الى أسلوب زخرفى اسلامى أصيل •

ومن بين العناصر الزخرفية التى اقتبسها الفنانون المسلمون أيضا عن الفن الساسانى ، الاشجار النخيلية •

ـ الخيول المجنحة •

ـ الحيوانات والطيور داخل مناطق مستديرة أو متعددة الاوضاع يتكون محيطها من اطار برسوم حبيبات أو فروع نباتية •

ـ الحيوانات المتقابلة والمتدابرة (شكل 5) •

ـ مراعاة التماثل والانتظام فى التكرار فى رسم العناصر الزخرفية •

ـ رسم الملوك والامراء وهم يصطادون الوعول والاسد وحمار الوحش •

وقد تأثرت العمارة الاسلامية بالعمارة الساسانية • اذ يستلفت النظر فى طاق كسرى أنه يوجد به عنصر من أهم العناصر المعمارية التى تتصل اتصالا وثيقا بالفن والطراز الاسلامى وهو العقد المدبب الذى يعد من السمات الرئيسية للعمارة الاسلامية •

استخدم هذا العقد فى هذا القصر لتتويج تسعة شبابيك كاذبة وضعت فى صف واحد فى الطرف العلوى للواجهة الخلفية فى النصف الباقى من جدار الواجهة الرئيسية وهو يحف بالايوان الكبير (13) • وما زال معظم المؤرخين من الغربيين يعارضون فكرة وجود العقد المدبب فى العراق فى العصر الساسانى وما يزال الاتجاه قائما نحو اعتبار المثل الموجود فى كنيسة قصر ابن وردان بالشام (561 ـ 564 م) هو أقدم أمثلة العقد المدبب ، وانه النموذج الذى اقتبس منه العقد المدبب الاسلامى • وأقدم مثل موجود فى العصر الاسلامى يرجع الى عصر الوليد فى المسجد الكبير بدمشق (96 هـ ـ 714 م) واستخدم الساسانيون أيضا من القباب لتغطية الحشوات الغائرة المتعامدة بالجوانب كما هو الحال فى قصر السرفستان ، ظهرت هذه الفكرة فى العمارة الاسلامية • واقدم مثل باق منها فى قصر الاخيضر فى بهو

(13) فريد شافعى : المرجع السابق ، ص 173 •



(لوحـــة ١١)



(لوحـــة 12)

المدخل الكبير .

استخدام الحشوات أو الدخلات فى الواجهات مرصوصة بجوار بعضها .

وأخيرا تأثر الفن الاسلامى بالفن الساسانى فى الخزف (14) والمنسوجات والتحف المعدنية سواء من ناحية الموضوعات الزخرفية أو أشكال الاوانى وهكذا يتبين لنا مما سبق ذكره أن أسلوب الفن الاسلامى الناشىء قد اعتمد على مصدرين فنيين وهما :

الفن البيزنطى ، والفن الساسانى ، ويلاحظ اقتباس التعبيرات الفنية فى هذين المصدرين ووجودهما جنبا الى جنب فى الآثار الاسلامية المبكرة كالفسيفساء فى قبة الصخرة والمسجد الجامع بدمشق وواجهة قصر المشتى ، والتصاوير الجدارية فى قصير عمرة وكلها ترجع الى العصر الاموي .

3) الفن القبطى فى مصر :

يمكن تحديد عبارة الفن القبطى بأنها كلمة تطلق على فن الكنائس الرهبانية فى وادى النيل . لانه الفن الوحيد الذى كان سائدا فى مصر منذ الفتح العربى لها أى الفترة المسيحية من 313 م ، حتى الفتح العربى لمصر سنة 635 م (15) .

وقد سبقت هذا الفن فنون أخرى وأساليب مهدت له ، لذلك يعتبر الفن القبطى مرحلة انتقال من الفن الهلينستيى المتأثر بالاساليب الرومانية.

ويمتاز الفن القبطى بأنه فن شعبى اقليمى . كان يتم فى الخفاء والاديرة والمغارات ، لان مصر دخلتها المسيحية قبل أن تصبح الدين الرسمى فى الدولة الرومانية . فاضطهد المسيحيون فى مصر . وهذا يعنى أن الفن القبطى قد نشأ بين أفراد الطبقات الفقيرة التى اعتنقت الدين المسيحى .

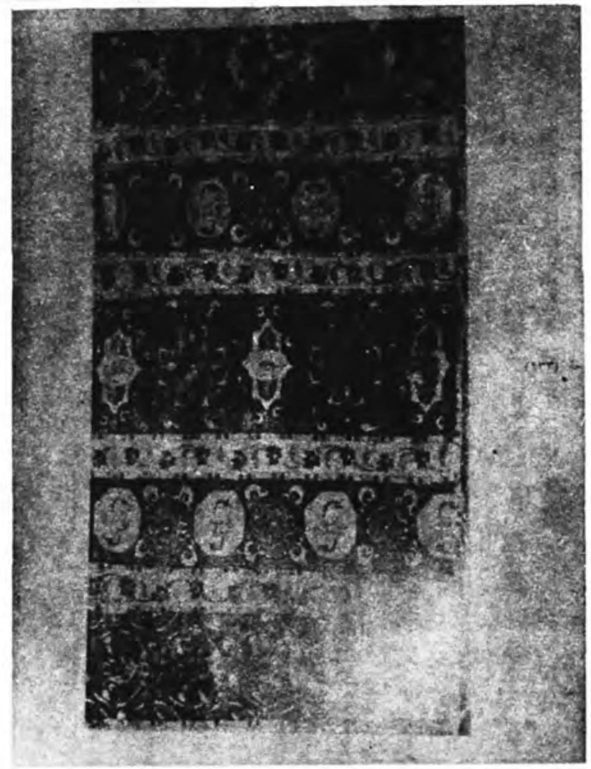
لذلك اتجه هذا الفن الى الرمز . بحثا عن القيم الروحية التى تغنى عن النظر فى الدنيا . واتخذ بعض الاشكال فى الفن المصرى والاغريقى رموزا ألبسها فكرا روحيا جديدا .

ـ تنوع الاساليب الفنية فيه وهى مزيج من عناصر الفن الاغريقى الرومانى كالاساطير الكلاسيكية القديمة. رسوم الآلهة ، ورقة الاكانتس أوراق العنب ، الحيوانات المتواجهة والمتدايرة، الاطارات المحلاة بالحبيبات ، الخ ...

(14) انظر : Migeon (G.) : Manuel d'Art musulman, t. 2, pp. 159 - 161.

(15) نعمت اسماعيل علام : فنون الشرق الاوسط من الغزو الاغريقى حتى الفتح الاسلامى ـ دار المعارف بمصر 1975 ، ص 79 ـ 80 .





(لوحـــة 8)

ـ الاقبال على الزخارف المنحوتة على الاحجار (16) ، ذات الفروع النباتية ، يمكن اعتبارها مرحلة انتقال بين الفروع النباتية القريبة من الطبيعة فى الفن الاغريقى الرومانى ، وبين الفروع النباتية المحورة عن الطبيعة فى الفن الاسلامى .

والخلاصة التى نخرج بها هى أن الفن القبطى ذو طابع زخرفى ، احتفظ بالزخارف النباتية التى ورثها عن الفن الهلنيستى ، ولكنه حورها عن الطبيعة الى حد ما ، فكان بذلك مرحلة ممهدة الى التحوير الذى بلغ ذروته فى الفن الاسلامى وبذلك يكون تأثير الفن القبطى على الفن الاسلامى أقل بكثير من تأثير الفن الفارسى . وأنه لفهم نشأة التصوير الاسلامى فى مصر ينبغى دراسة الفن القبطى .

4) الفن الهلنيستى البكتيرى :

يعرف هذا الفن باسم الفن البكتيرى، نسبة الى اقليم باكتيريا (افغنستان) ، حيث قامت فى هذا الاقليم دولة هلنستية،تأثرت بفتوح الاسكندر الاكبر، ويعرف كذلك بالفن الاغريقى البوذى ، تمتاز تماثيله بدقة رسم جسم الانسان ، والعناية بملاح الوجه ، والحركة ، والاحاسيس المختلفة ، ويظهر التأثير الاغريقى فى طريقة رسم الملابس وطياتها، ويلاحظ على هذا الفن بعض التأثيرات الساسانية فى رسوم الحيوانات والازهار ، أدى ذلك الى تأثر الفن الفارسى والاسلامى من بعده ببعض الزخارف الهينستية .

5) فن قبائل الترك الرحل فى شرق وأواسط آسيا :

فقد أشار الاستاذ ديماند Dimand فى كتابه الفنون الزخرفية الاسلامية بأن الفن الاسلامى تأثر بفنون قبائل الترك الرحل ، وانه اكتسب عناصر وأساليب زخرفية جديدة لم يعرفها الفن المسيحى الشرقى أو الفن الساسانى . وتم ذلك بفضل الاتصال بهذه القبائل وهذه الاساليب الجديدة يمكن حصرها فى الآتى : ـ

1 ـ طريقة الحفر المائل ، وقد ظهرت فى زخارف الجص والخشب فى أوائل العصر العباسى والطولونى بمصر (شكل 4) .

(16) نعمت اسماعيل علام : فنون الشرق الاوسط من الغزو الاغريقى الى الفتح الاسلامى ، ص : 82 ـ 83 .
ـ حسن الباشا : فن التصوير الاسلامى فى مصر ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة 1973 ص 25 .



(لوحة ١٦)



(لوحة ١٧)

2 ـ ظهور أشكال زخرفية جديدة كالتفريعات الهندسية ذوات الاوراق المستديرة ، وتتجلى لنا هذه الزخارف فى جص سامراء (لوحة 2) ويعتبر الشرق الاقصى ووسط آسيا الموطن الاصلى لهذه التفريعات الهندسية ، وقد عثر على أمثلة لها فى التركستان الصينية . ومن المحتمل ان تكون هذه الزخارف الهندسية قد أثرت الى حد بعيد فى تطور زخرفة الارابسك .

هذه هى أبرز الاصول الفنية التى اقتبس عنها الفن الاسلامى بعض العناصر الزخرفية التى صاغها واضاف اليها أشكالا جديدة لم تكن موجودة من قبل فى تلك الفنون . حيث تبلورت ليصوغ منها فنا زخرفيا تجديديا .

عناصر الزخرفة فى الفن الاسلامى :

من الثابت تاريخيا ، والمعروف فنيا ، أن الفن الاسلامى قد قام فى أول نشأته على أنقاض كل من الفنين الكبيرين الساسانى والبيزنطى ، وهذا لا يقلل فى شىء أبدا من قوة وجمالية الفن الاسلامى ، اذ لا غرابة فى ذلك ، فجميع الفنون السابقة ، قد قامت هى الاخرى على أسس من الفنون التى سبقتها ، والتى كانت تعاصرها . أثرت فيها وتأثرت بها . وأصدق دليل على ذلك الفن الساسانى والبيزنطى اللذان تأثرا كل منهما بالآخر، برغم الحروب العديدة بين دولتى الفرس والبيزنطيين .

هكذا يتجلى لنا الفن الاسلامى فى صورة فن له جذور تقليدية كثيرة ، بالرغم من تجديداته الكثيرة فى موضوعاته وفى تركيب هذه الموضوعات واثرائها (17) . والشىء الذى يعطى ذلك الفن مزيدا من العظمة ، هو أنه يعلو على تعقيدات الحياة البشرية .

ولا يوجد شعب من الشعوب فى العالم قد أسهم فى زخرفة الصناعات والفنون التطبيقية ونبغ فيها كما هو الحال فى الفنون الاسلامية (18) ، هكذا تتجلى لنا الاساليب الزخرفية بطرزها المختلفة التى لعبت الدور الرئيسى فى الفن الاسلامى، لذلك يمكن اعتبارها من أبرز مميزاته أنه فن زخرفى تجديدى . قد استفاد الفنان من كل ما وقع عليه نظره من عناصر سواء أكانت نباتية أم هندسية أم حيوانية أم آدمية لتحقيق أهدافه الزخرفية ، وما ينشده من بيان وبديع جناس . فهو يكيف هذه العناصر

(17) شاخت وبوروث : تراث الاسلام ـ سلسلة عالم المعرفة ـ القسم الثانى ـ ترجمة حسين مؤنس واحسان صدقى ـ الكويت 1978 ، ص 89 .

(18) انظر : Negeon (G.) : Les Arts Musulmans, Paris 1926, p. 24.



(لوحة ١٨)



(لوحة ١٩)

ويبعدها عن صورتها الطبيعية للحد الذى يجعلنا فى بعض الاحيان لا نستطيع أن نستدل على أصل هذه العناصر ومصادرها • ولم يكتف بهذا فحسب بل استغل الكتابة العربية أيضا بنفس النسق ، وكما يقول الاستاذ أبو صالح الالفى (19) : « بل ركب هذه العناصر كلها وزاوج بينها فى كثير من الموضوعات وكأنما يأخذ (من كل بستان زهرة) ، فهو يريد أن يحشد فى عمله الفنى كل ما لديه من عناصر ووحدات ليخرج هذا العمل آية فى الرونق والبهاء » •

مما سبق يتضح لنا أن الطابع المميز للفن الاسلامى هو طراز الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية ، وعلى الرغم من الدور الذى لعبته الزخارف الحيوانية والآدمية بدرجة كبيرة الا ان ذيوعها لا يمكن مقارنته بما بلغته الزخارف النباتية والهندسية والكتابية (انظر لوحة 25)ـ لوحة 37) •

وقسم الدكتور فريد شافعى (20) تطور العناصر الزخرفية الاسلامية الى أربعة مراحل رئيسية هى :

1 ـ المرحلة الاولى تمتد من القرن السابع الميلادى الى القرن التاسع الميلادى . وفى هذه المرحلة الاولى تأثرت فيها الزخارف الاسلامية بالفنون المحلية تأثرا كبيرا (لوحة 1) •

2 ـ المرحلة الثانية تمتد من القرن التاسع الى القرن الثالث عشر الميلاديين . وفيها يكون الفن الاسلامى قد كون شخصيته المتميزة مع بقاء بعض التأثيرات المحلية •

3 ـ المرحلة الثالثة تمتد من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر الميلاديين • وفى هذه المرحلة تم تبادل العناصر والاساليب الزخرفية على مدى واسع بسبب الغزو المغولى ، وتوالى الهجرات بين البلاد الاسلامية ، كما ظهرت بعض التأثيرات المغولية الصينية .

4 ـ المرحلة الرابعة وتبدأ من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر الميلاديين • واستمرت فترة الازدهار فى بداية هذه المرحلة ، وزادت العناصر القريبة من الطبيعة ، ثم بدأ التدهور نتيجة لضعف الحكام وسيطرة الاتراك واستبدادهم وظهور النفوذ الاوروبى •

1) الزخارف النباتية :

تعتبر من أبرز خصائص الزخارف الاسلامية التى وجدت عناية خاصة من

(19) الفن الاسلامى أصوله وفلسفته ومدارسه ـ دار المعارف بمصر 1969، ص 111
(20) فريد شافعى : الزخارف الكأسية البسيطة فى الفن الاسلامى •



(لــوحــة ٢٥)

الفنان فى العصر الاسلامى . وهى من أوضح المظاهر التى توضح ابتعاد الفنان المسلم عن محاكاة الطبيعة ، ونقلها نقلا حرفيا . واتسمت بالجودة والتنوع منذ بداية العصر الى غاية العصر المملوكى ، وهذاالنوع من الزخارف وجد على جميع أنواع الفنون التطبيقية ، والعمائر الدينية والمدنية (كالمساجد والاضرحة والشباب ـ والتصور وغيرها) . (انظر اللوحة 36) .

وتميزت خلال القرون الهجرية الاولى بالقرب من الطبيعة ، متأثرة فى ذلك بالاساليب الزخرفية الساسانية والبيزنطية . وقد تنوعت هذه الزخارف فى الفن الاسلامى لتشمل الاوراق النباتية المختلفة البسيطة والمركبة ، والمتعددة الفصوص كالورقة الثلاثية الفصوص (البراسيم) والخماسية الفصوص (العنب) ، وكيزان الصنوبر وحبات الرمان ، والمراوح النخيلية وأنصافها ، بالاضافة الى الفروع النباتية المستديرة والمنثنية والحلزونية ، وهى فى أغلب الاحيان عناصر زخرفية مجردة كل التجريد .

ويعتبر طراز سامراء فى الزخارف الجصية بداية للاسلوب الاسلامى الحقيقى ، الذى انتشر بعد ذلك انتشارا واسعا فى مختلف انحاء الدولة الاسلامية . وهذا الطراز بمراحله الثلاثة ، انتقل بدوره الى زخارف الاخشاب وسائر الفنون التطبيقية الاخرى . (لوحة 2) .

وقد بلغ هذا الطراز من الزخارف (الارابسك) درجة رائعة خلال القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى ، فلا نكاد نتبين من الفروع والاوراق الا خطوطا منحنية ، وقد يظهر بينها زهور ووريقات لها فص أو فصان أو ثلاثة فصوص، وقد تخرج تلك الغصون من جذع شجرة أو ساق أو اناء ، وتمتد على هيئة أقواس أو التواءات أو حلزونات فى اطراء أو تتابع أو تشابك أو تقاطع (21) .

وأصبح هذا الاسلوب هو العنصر السائد فى الزخارف النباتية على العمائر المغربية (لوحة 25)، وكذلك على التحف فى العصر المملوكى ، الى جانب الزهور التى ازدانت بها تحف هذا العصر كأوراق اللوتس المختلفة القطاعات وغيرها .

ويتعذر فى أغلب الاحيان تحليل عناصر زخارف ـ الارابسك ـ وردها الى أصولها الاولى (لوحة 17) .

(21) أبو صالح الالفى : الفن الاسلامى ، ص 110 .



(لوحة 21)



(لوحة 22)

وهذا الطراز يعرف فى الفن الاسلامى باسم (التوريق العربى) (22) ، وهو ابتكار اسلامى خالص (23) ، يتألف أساسا من أشكال نباتية عظيمة مرتبة بأوضاع مختلفة ، تبعا لقاعدتين جماليتين جديدتين هما :

1 ـ التبادل الحركى الموزون ·

2 ـ النزوع الى تغطية السطح كله بالزخارف (انظر لوحة 17) ·

والظاهر أن هذا الاتجاه الزخرفى ، قد بدأ يتغير فى عصر المماليك ، اذ بدأ الفنان المسلم يميل ناحية صدق تمثيل الطبيعة ، وربما كان ذلك نتيجة للتأثيرات الفنية الصينية التى دخلت فى الفن الاسلامى بحكم العلاقات الحسنة بين سلاطين المماليك وملوك الصين (شكل 8) ·

2) الزخارف الهندسية :

عرفت فى الفنون السابقة على الاسلام غير أن وجودها فى الفن الاسلامى اكتسبت أهمية خاصة وشخصية فريدة لا نظير لها فى أى فن من الفنون ، وأصبحت فى كثير من الاحيان العنصر الرئيسى الذى يغطى مساحات كبيرة يلعب فيها الخط الهندسى دورا كالدور الذى يلعبه الخط المنحنى . وقد ساعد على انتشارها حب الفنان المسلم الى البعد عن صدق تمثيل الطبيعة حيث وجد فيها ما لا يقيد حريته (لوحة 4) ـ (انظر اللوحة 38) ·

وفى هذا الصدد يقول الاستاذ بشر فارس (24) مؤكدا هذه الظاهرة الزخرفية : « وكلا النوعين ينفرش على المهاد ويكسو العصاب ، ويثب على الافريز ويتناول العرضى ، ويهجم على الفراغ ، وتبلغ به الهمة أن يتعرج حتى فى الاكسية ، تلك النشوة مشت فى الخط تنبئك أن أفق الغيب المستغلق دون المؤمن مشغلة دائمة لدوقه » ·

ونظرا لتنوع الزخارف الهندسية فى الفن الاسلامى نرى تقسيمها الى نوعين :

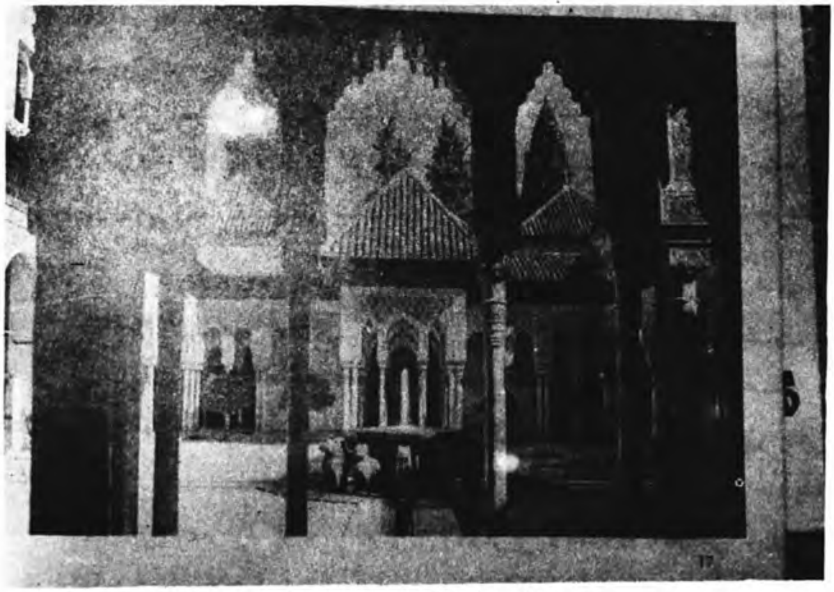
1 ـ الزخارف الهندسية البسيطة كالمثلثات والمربعات والمعينات والاشكال الخماسية (المخمسة) والمسدسة والدوائر وأنصافها ، والخطوط الحلزونية والجدائل (شكل 7) ·

---

(22) يعرف هذا النوع من الزخارف عند الغربيين باسم « Arabesque » نسبة الى العرب ·

(23) مصطفى الحبيب : اقتران الكتابة بالعمارة ـ رسالة اليونسكو ـ العدد 199 · فبراير 1978 ، ص 43 ·

(24) بشر فارس : سر الزخرفة الاسلامية ـ القاهرة 1952 ، ص 16 ·



(لوحة 23)



(لوحة 24)

2 ـ زخارف هندسية مركبة كالاطباق النجمية وهى سمة من سمات عناصر الزخرفة فى الفن الاسلامى ، وقد بدأ ظهور هذا النوع من التحف الخشبية التى ترجع الى أواخر العصر الفاطمى مثل محراب السيدة رقية ومحراب السيدة نفيسة . وأخذ يتطور وينتشر انتشارا واسعا خلال العصرين الايوبى والمملوكى على التحف المختلفة (لوحة 4) ـ (لوحة 38) .

والطبق النجمى يتألف فى الوسط من ترس رئيسى يختلف عدد رؤوسه من طبق الى آخر ، تحيط به كندات (أى الحشوة المحصورة بين عدد رؤوس النجم) مختلفة تتبع عدد رؤوس الترس نفسه (شكل 6) وتنتشر حولها الوحدات الاخرى المكملة للطبق نفسه ، لقد ظهرت هذه الزخارف الهندسية فى عدة تطبيقات (25) متنوعة فى السقوف الخشبية ، والحشوات المخرمة فى مسجد أحمد بن طولون .

وفى تكسيات مسجد قايتباى فى القاهرة (لوحة 28) . فقد طورت مصر (26) فى منتصف القرن السادس الهجرى ـ الثانى عشر الميلادى هذا التقسيم الهندسى للزخارف ويقوم على وحدات اتخذت فى أول الامر أشكالا نجمية ، ثم انتقل هذا الاسلوب بسهولة الى شمال افريقية والاندلس ، ثم الى الاناضول ، والاقاليم الاوروبية من تركيا .

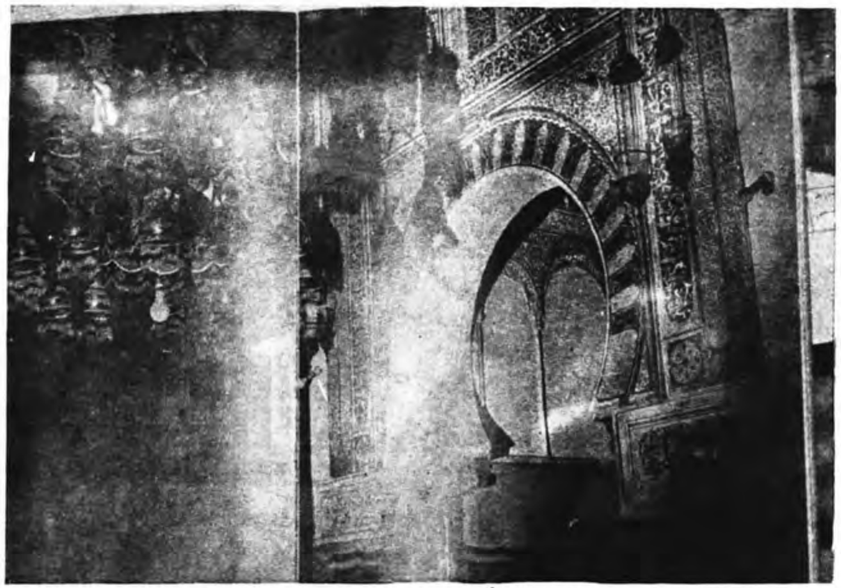
وقد شاع استعماله فى زخارف المغرب والاندلس ، ويتجلى لنا ذلك فى الباب المصفح بالبرونز فى مسجد سيدى أبى مدين بتلمسان ، وفى فسيفساء القصور الزيانية والمرينية . وساد ظهور هذه الاطباق على التحف الخشبية والمعادن (لوحة 6) والصفحات الاولى للمصاحف والكتب ثم المقرنصات التى تعتبر بحق من أكثر الصيغ الزخرفية المميزة للعمارة الاسلامية ، فقد استعملها الفنان المسلم المولع بالبحث عن الاشكال التجريدية ، والاشكال الهندسية المعقدة (27) . وقد استعملت المقرنصات فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وأقدم مثل باق لها يوجد فى مسجد تنمل (لوحة 27 ـ 30) .

---

(25) عنها انظر : Rousseau (G.) : L'Art décoratif musulman, Paris 1934, pp. 13 - 14 - 15

(26) شاخت وبوزوث : تراث الاسلام ـ القسم الثانى ـ ص 64 .

(27) انظر : Rousseau (G.) ; L'Art décoratif musulman, pp. 23 - 25



لوحة (كح)

3) الزخارف الكتابية :

يعتبر الخط العربى (28) من ابرز العناصر الفنية التى استعملها الفنان المسلم فى موضوعاته المختلفة ، بحيث لا نكاد نجد عملا اسلاميا لا يكون الخط فيه مكانته البارزة ٠

ولا يوجد فن من الفنون بلغت فيه الكتابة (الخط) دورا رئيسيا مثلما بلغته فى زخارف الفن الاسلامى ٠ وقد وجدت على مختلف الفنون التطبيقية والعمائر سواء أكانت دينية أم مدنية ٠ ولعـ[illegible]ـلك الى أن جوهر العقيدة الاسلامية يتمثل فى القرآن الكريم ، وهو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ٠ والذى سطر بالقلم : (ن والقلم وما يسطرون) ٠ بحيث تمثلت فيه قمة العمل الفنى العربى الذى كتب به كلام الله سبحانه وتعالى واصبح التبرك بكتابة بعض آيات القرآن الكريم أو الادعية ، أو الرجاء أمر لا يكاد يخلو منه عمل فنى أو بناء ٠

وهكذا يمكن القول بأن الكتابة فى الفن الاسلامى حلت محل الصورة فى الفن المسيحى الغربى (29) ٠

ووجود الكتابة على الآثار له أهمية خاصة ، فهى تحتوى على اسم صاحب التحفة أو مشيد البناء ، أو تاريخه او التبرك ببعض الآيات والعبادات الدعائية الى جانب دورها الزخرفى ، ومن تم تأتى اهميتها فى اعطاء تاريخ ثابت بمجرد وجودها على المبانى والتحف كما تبين تاريخ التحف الاخرى اعتمادا على ما هو مكتوب من طراز الخط نفسه ٠ وغالبا ما تحفر هذه الكتابة داخل أشرطة افقية أو رأسية (الشكلان 2 ـ 3) ٠

ولها طرز مختلفة أهمها الخط الكوفى والنسخى ، ومنها الخط الكوفى البسيط الخالى من الزخارف ـ الكوفى المورق ـ الكوفى المزهر أو المشجر الذى تخرج من أطراف حروف سيقان نباتية دقيقة محلاة بالوريقات المختلفة الاشكال ومنها ما يقوم على أرضية نباتية مستقلة وأحيانا تتعقد الكتابة لتصبح ذات طابع زخرفى يصعب قراءته ٠

والكتابة العربية ليست أقل مما يجذب الانظار ويسترعى الانتباه فى العمائر وفى التحف الاسلامية ٠ فاننا نرى منها فى كثير من الاحيان مجموعات

---

(28) أبو صالح الالفى : الخط العربى ووظيفته فى الفنون الاسلامية الاخرى ـ حلقة بحث الخط العربى ـ دار المعارف بمصر 1968 ، ص 47 ٠

(29) المرجع السابق ٠



(لوحة 26)

زخرفية غاية فى الجمال والاتزان . (شكل 1 ـ لوحة 24) . بل هى لا تقل فى هذا المجال عن المجموعات المكونة من عناصر الفروع النباتية والخطوط المتداخلة والمتشابكة . ولعل السر فى ذلك كما يقول الاستاذ أحمد أحمد يوسف (30) : « والواقع أن رشاقة الحروف العربية واناقة رسمها تأسران العين وتعاونان الرائى على الائتناس بها ، فلا يجد عناء فى متابعتها وتفهم ما تنص عليه وما تحويه من عبارات .. » .

ذلك لان الفن الاسلامى يتسم قبل كل شىء بصفة الفن الجماعى ، أى الذى لا ينتمى الى الفرد .

اذ أننا حينما ننظر الى تحفه فنية اسلامية الطراز لا نفكر فى اسم الفنان الذى أنجزها ، حيث توجهنا مباشرة الى المكان الذى صنعت فيه والى العصر الذى تنسب اليه ، وهذان العنصران ملازمان لاى انتاج فنى اسلامى (31) . والطريف أن الكتابة العربية بنوعيها الرئيسيين : « الكوفى والنسخ » من عناصر التجميل غير المتجمدة ، فالحروف فى النمطين على خامات الحجر والمعدن والخشب ، والجلود والرق ، النسيج ، فهى على أى سطح من السطوح وعلى أى شكل من المجسمات تتشكل وتتلون وفقا لمتطلبات الخامة المستعملة فيها ، كما تحتفظ بالجمال فى مظهرها العام ، فتأتى النتيجة واضحة مقروءة فى ثوب جميل يتفق وعنصر الخامة التى تشكلها (لوحة 7) .

وغالبا ما نجد أن خط النسخ كتب على أرضية من الزخارف النباتية (شكل 2) ذات الخطوط الدقيقة لتحقيق غرضين تشكيليين هامين (32) :

1) الاول خلق نوع من الايقاع نتيجة تبادل الظل والنور بين الاجزاء الغائرة .

2) الثانى اعطاء درجات متفاوتة من احساس لمسى من حيث الدقة والاتساع ، وما يحقق ذلك من احساس بصرى بالنعومة والخشونة والتكامل الفنى الذى يحدث نتيجة التنوع فى الايقاعات .

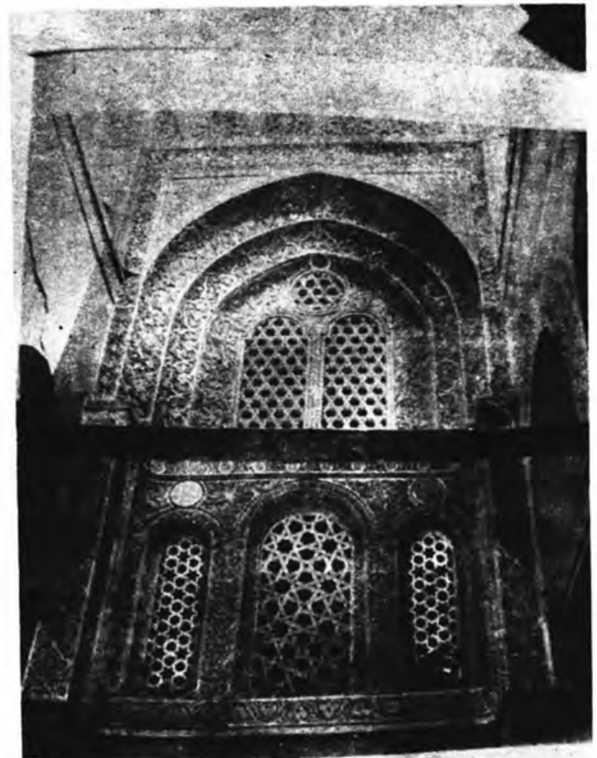
وهناك نوع آخر من الخطوط هو الخط الهندسى والذى يتجلى فى الزخارف الهندسية كما يتجلى فى الخط الكوفى .

---

(30) أحمد أحمد يوسف : الخط العربى وأساليبه فى الحياة العامة ـ حلقة بحث الخط العربى ـ ص 86 .
(31) أحمد أحمد يوسف : المرجع السابق ، ص : 87 ـ 68 .
(32) أبو صالح الالفى : الخط العربى ووظيفته فى الفنون الاسلامية الاخرى ـ حلقة بحث الخط العربى ـ ص : 48 ـ 49 .



لوحة 27



(لوحة 28)

وهــذا الخط الهندسى يعطــى احساسا بالاستقرار والثبات ٠ وقـــد تنـــوع استعمال الخط كعنصر زخرفى فاعطى الفن الاسلامى بحكم العلاقات الحسنــة للاقاليم الاسلامية شخصية متميزة فى اطـــار الشخصية الاسلامية العـامة ، فاستعمال الكتابة فى الطـــراز المغربى الاندلسى يختلف عـــن استعمالها فــى الطراز المصرى أو الايرانى أو الشامــى (لوحة 24) ٠ وصفوة القول ان الخط العربى قد أعار ـ بوصفه الفن العــربى الاصيل ـ (33) الى الفنــون الاسلامية المختلفة طابعــه الجمــالى القـــائم عـلى التناسب بين النقطة والخط (شكل 3) ٠ وانظر كذلك (لوحة 29) ٠

4) **الزخارف الآدمية :**

لم يقدر للزخارف الآدمية درجة كبيرة مـــن الانتشار فى الفـــن الاسلامى ٠ والسبب فى ذلك هو ما صاحب الفنان نفسه منذ بداية العصر الاسلامى مـــن أراء مختلفة كالنفور والهـــروب مـــن مضاهاة خلق الله ، ومن أن المصورين هم أكثر الناس عذابا يوم القيامة ٠

وليس هناك فى القرآن الكريم نص صريح يحرم تصوير المخلوقات الحية أو عمل التماثيل لها ٠ والآية التى كان يفهم منها خطأ أن التصوير محرم فى الاسلام هى قوله تعالى (34) : « يا أيها الذين آمنـــوا انمـا الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس مـــن عمـــل الشيطـان فاجتنبوه لعلكم تفحلون » ٠

ولكــن الـــواقع أن المقصود بكلمة (الانصـــاب) فى رأى المفسرين هـــى الاحجار الكبيرة أو الاصنام التى كـان العرب يعبدونها ويقدمون لها القرابين ٠ فليس هذه الآية اذن ما يحرم التصوير او عمـــل التماثيل ، عـلى أن المحـدثين ينسبون الى الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث تحرم تصوير المخلوقات الحية (35) (لوحة 5) ٠

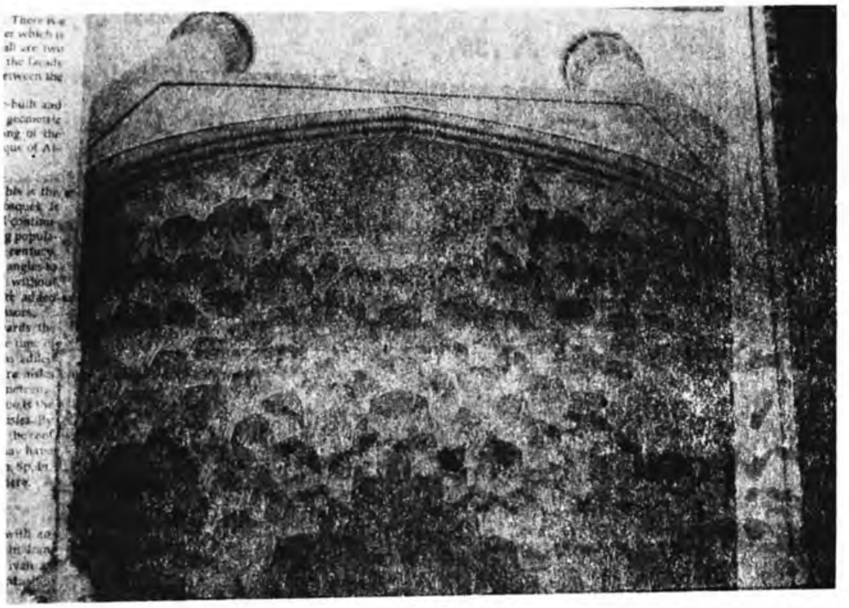
ولكن بعض العلماء فى العصر الحديث يرون أن النبى لم يفكر فى النهى عـن التصوير ، وأن التصوير كان مباحا فى فجـر الاسلام ، وأن الاحاديث المنسوبة اليه فى هذا الموضوع (36) ، وأنها فى الـواقع لا تمثل الا الـرأى الذى كـان

---

(33) حسن الباشا : حلقة بحث الخط العربى ، ص : 23 ـ 33 ٠
(34) سورة المائدة ، آية 92 ٠
(35) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة 1940 ، ص 67 ٠



(لوحة 29)



(لوحة 30)

سائدا بين الفقهاء وعلماء الدين فى مستهل القرن الثالث الهجرى • وهذا كله لم يمنع وجود مشاهد آدمية ، بعد أن هدأت حالة الجهاد التى لازمت المسلمين لكى يتفرغوا للجهاد فى سبيل الله • وان أغلب الرسوم الآدمية نجدها فى المخطوطات والتحف المعدنية والخزف والخشب خلال العصر الفاطمى والمملوكى حيث كانت تزين بموضوعات اجتماعية ودينية (لوحة 12) و (لوحة 13) •

5) الزخارف الحيوانية :

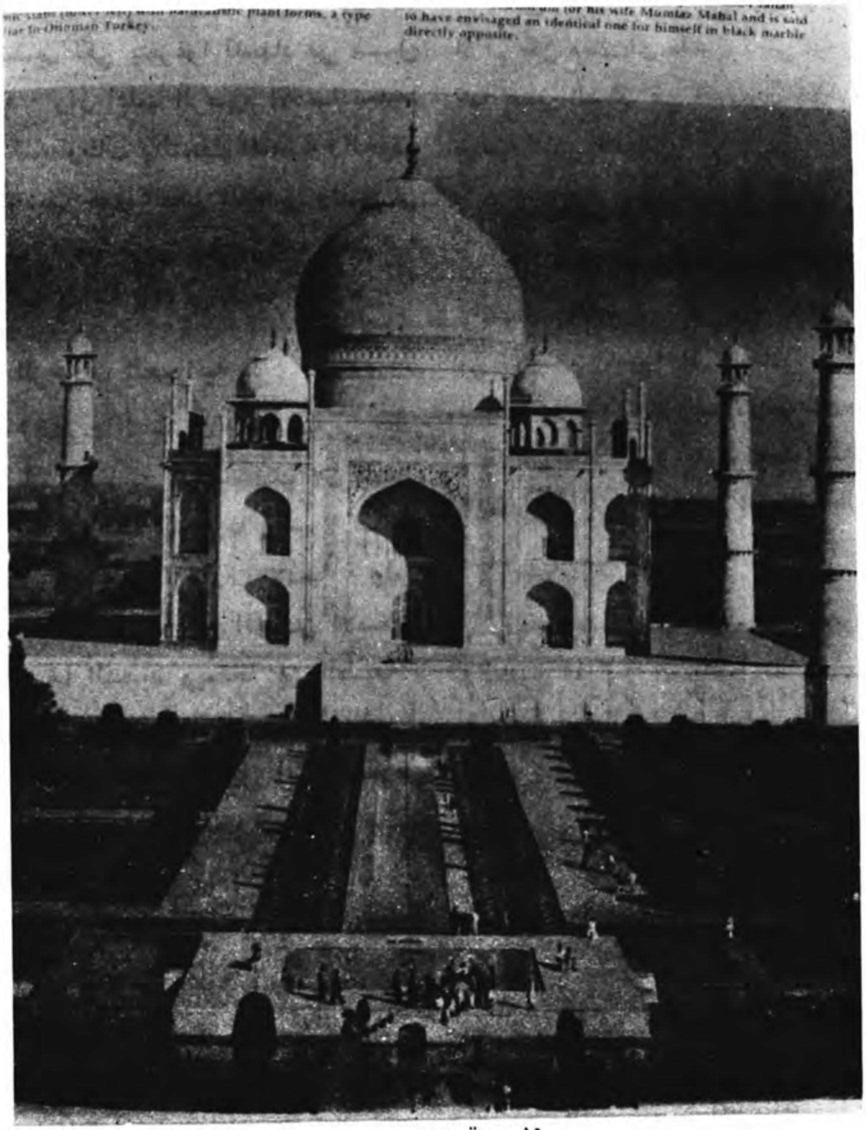
انتشرت الزخارف الحيوانية فى الفن الاسلامى بدرجة كبيرة ، ذلك لان الفنان لم يجد فى هذا النوع ما يقيده ، كما هو الحال فى طراز الزخارف الآدمية • ولعل أهم ما يميزها فى الفن الاسلامى تحويرها الشديد وبعدها عن الطبيعة ، وعدم مراعاة النسب التشريحية التى لم يكن يجهلها الفنان بدليل أننا نجده فى كثير من الاحيان يرسمها قريبة من نسبها الطبيعية •

وميزها الفنان فى كثير من الحالات بأوراق نباتية مختلفة الغصون تتدلى من افواهها ان كانت حيوانات أو من مناقرها ان كانت طيورا . وزخرف أجسامها فى بعض الاحيان بالزخارف النباتية ، ويظهر جليا وضوح التأثيرات الساسانية فى رسم الحيوانات الا أن وجود الزخارف الحيوانية فى الفن الاسلامى كانت ذات طابع زخرفى صرف، اذ لم يكن هناك أى مدلول دينى لوجودها كما هو الشأن فى الفنون الاخرى ، خاصة الفن القبطى •

وقد شملت التحف الاسلامية جميع أنواع الحيوانات والطيور ـ كالاسد والفهد ، الفيل ، الغزال ، الذى يعتبر من الرسوم المحببة الى الفنان فى هذا العصر بدرجة كبيرة • ـ الارنب ـ وجميع أشكال الطيور بأنواعها المختلفة كالطاوويس ، والنسور ، الحمام ، الديك البط ، العصافير وغيرها •

وقد وجد الفنان المسلم فى الحيوانات والطيور المركبة الخرافية تمشيا مع طبيعتها فى البعد عن تمثيل الطبيعة • لذلك رسم الكثير من الاشكال الخرافية كالحصان المجنح والنمور ، والبراق والعنقاء • غير أنها لم يكن لها أى مغزى عقائدى ، كما هو الحال فى الفن الساسانى (شكل 5) ـ (لوحة 5) ورسم كذلك أشكال الحيوانات والطيور ذات الوجوه الآدمية ، وتتميز هذه الزخارف الاخيرة بالقوة وعنف المظهر لا سيما فى

(36) انظر : K.A.C. Creswel, Early Muslim Architecture, t. 1, p. 269.


plant forms, a type
liar to Ottoman Turkey.
for his wife Mumtaz Mahal and is said
to have envisaged an identical one for himself in black marble
directly opposite.

(لوحة 31)

رسم المفاصل ، وقد رسمها الفنان منفردة أو مجتمعة ، متقابلة أو متدابرة • وصنعوا بعض الاواني والتحف المختلفة على أشكال الحيوانات والطيور المتنوعة . وقد انتشرت هذه الزخارف الحيوانية وأشكال الطيور على سائر الفنون التطبيقية للفن الاسلامي وخصوصا على المعادن والخزف والاخشاب (اللوحتان 12 ـ 13) •

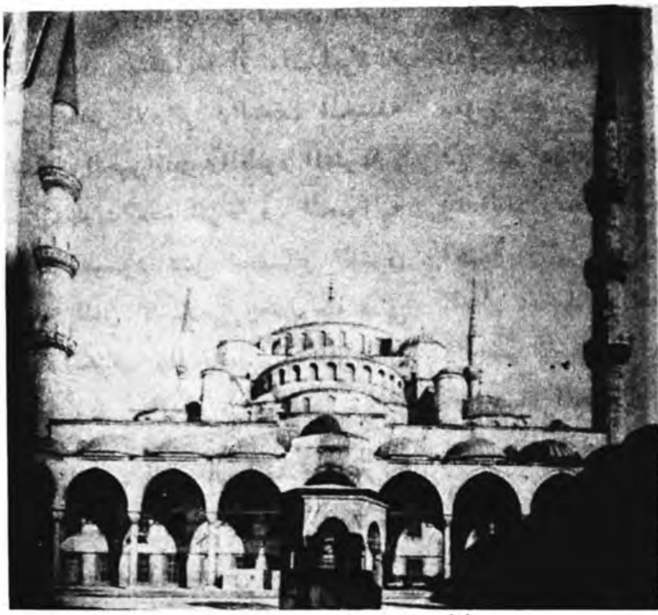
وأخيرا فان الاشكال الفنية المتكررة لا تقوم بدور الحيوانات في القصص الخرافي • وانما تمارس تلك الاشكال فاعليتها وتتكلم لغتها الخاصة الهامسة • وكما يقول بعض العلماء (37) ، ومع ذلك نجحت في أن تجعل الناس يصغون اليها ويتأملونها مشدوهين ، وكأنهم تحت تأثير منوم مغناطيسي ، سواء في داخل « دار الاسلام » أو في خارجها ، وهذه القدرة هي التي تعطي الفن الاسلامي طابعه الخاص الفريد •

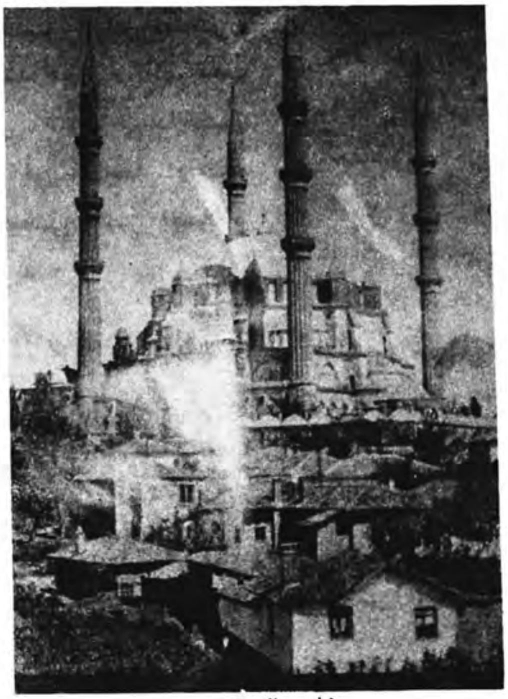
خصائص الفن الاسلامي :

والآن بعد أن عرفنا الاصول الفنية والعناصر الزخرفية التي استمد منها الفن الاسلامي مقوماته المادية ، حيث تبين لنا بجلاء أن دور الاسلام في الفنون التي صادفها كان دور توليف بينها ومزج ، وتكون من ذلك التوليف والمزج فن كبير عام ، اختلطت فيه الاصول ، وتداخلت بحكم هجرة أصحاب المهارات الفنية (38) ، من مكان الى مكان داخل العالم الاسلامي الكبير ، يؤدون بفنهم واجبهم الاسلامي العام ، باقامة المساجد أو بناء الحصون والقلاع أو بصناعة الاثاث الخشبي وأدوات الاستعمال اليومي ، وزخرفة الدور والقصور بما يرضي الاذواق الاسلامية ويحقق رفاهية الاقوام دون اسراف أو مبالغة • لا تتمشى وعقيدة الاسلام (انظر اللوحات 21 ـ 23 25 ـ 26) •

وقد بلغ الفن الاسلامي الذروة من الجمال في شرقي العالم الاسلامي وغربيه على حد سواء • واخرجا للعالم فنا بديعا برزت فيه خصائص جديدة جميعها من ابتكارات المسلمين أضفت عليه جمالا ورقة ورشاقة لا سيما في المغرب والاندلس حيث يلاحظ ذلك فيما تبقى من آثار وتحف فنية • وقد أكد هذه الظاهرة أي ظاهرة التعبيرات الفنية في الفن المغربي الاندلسي هنري تيراس (29)

(37) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع : تراث الاسلام ، ص 89 وما بعدها•
(38) زكي محمد حسن : الفنون الايرانية في العصر الاسلامي ، ص 15 •
(39) انظر
Marçais (G.) : L'Art Musulman d'Espagne - Hespéris Fax II, t. XXIII 1936, p. 5.


(لـوحة 32)


(لوحة 33)

نقلا عن الاستاذ جورج مارسية حيث يقول ما نصه : « ان الفنانين المسلمين فى الاندلس ، قد أعطوا تعابير فنية واضحة وجذابة تدل على مهارة ونبوغ الفن الاسبانى » (لوحة 22) .

وأوضح مثال على روعة الفن الاندلسى المسجد الجامع بقرطبة الذى يعتبر بفضل قيمته الذاتية المسجد الوحيد المؤسس فى اسبانيا من وحى الروح المبدعة المتفقة مع الطبيعة ، فللتاريخ والفن أن يسعدا به اذ لو كان قد دمر لاحدث فراغا لا سبيل الى سده ، فقد احتل بين الآثار الاسبانية المكان السامى . فهو يصور عصور الازدهار الاسبانى التى ظل ينطلق اشعاعها من الاراضى الاسلامية (40) (لوحة 22) .

ونتساءل الآن هل كان للفن الاسلامى خصائص عامة تميزه عن الفنون الاخرى ؟ نعم ، لقد كان للفن الاسلامى خصائص عامة وفى مقدمتها أنه يمتاز على الفنون الاخرى بكونه فنا زخرفيا قبل كل شىء وصارت الرسوم النباتية والهندسية والكتابية والحيوانية والآدمية المحورة عن الطبيعة تزين الجدران وصفحات المخطوطات والادوات التى تستعمل فى الحياة اليومية .

كذلك خلا الفن الاسلامى من وجود التماثيل الكبيرة أو اللوحات الفنية ، لان تصوير الكائنات الحية أمر مكروه فى الاسلام منذ زمن بعيد ، ومن المعروف أن القرآن الكريم لم يرد فيه نص صريح ينص على تحريم التصوير أو عمل التماثيل . وقد سبقت الاشارة الى ذلك . ونعتقد أن هذه الكراهية ليست جزءا من العقيدة الاسلامية ، ولكنها جاءت غالبا خوفا من التماثيل والصور الشخصية التى قد تذكر العرب الحديثى العهد بالاسلام بالعودة الى الاصنام . كما أن أصل هذا الاعتقاد يرجع الى عدة أحاديث نسبت الى النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك فان النهى عن التماثيل أى تمثيل الكائنات الحية بالتصوير أو النحت لم يكن يراعى بين سائر الامم الاسلامية ، فقد تجاوزتها الامم الاسلامية الغير السامية لا سيما تلك التى كان لها تراث فنى (انظر اللوحات 18 ـ 19 ـ 20) .

لهذا عرف فن التصوير وتوضيح المخطوطات بالصور ازدهارا كبيرا فى ايران والهند وتركيا ، ولهذا السبب يمكن تعليل وجود صور المخلوقات الحية

(40) مانويل جوميث مورنيو : الفن الاسلامى فى اسبانيا ـ ترجمة : عبد العزيز سالم ولطفى عبد البديع . طبعة دار الكتاب العربى ، القاهرة 1968 ، ص 16 .



(لوحة 35)



(لوحة 34)

الآدمية والحيوانية فى الخزف الاسلامى فى ايران (لوحة 12) وفى بعض منتجات الفن الفاطمى (لوحة 18) ٠

ومن هنا حدث جدل بين العلماء حول فكرة كراهية التصوير فى الاسلام اذ يرى البعض بأن كراهية التصوير كانت عند فقهاء الدين من سنة وشيعة على حد سواء ، وليس صحيحا ما يزعمه البعض من ان المذهب الشيعى لا يعترف بهذا التحريم ٠ والواقع أن فى كتب الشيعة أحاديث تحرم التصوير ، أو كما يذهب بعض مؤرخى الآثار الاسلامية (41) ، من أن حكم فقهاء الدين من الشيعة ، هو نفسه حكم أهل السنة فى كراهية التصوير والتماثيل ، ثم أن المذهب الشيعى لم يصبح المذهب الرسمى فى ايران (42) قبل قيام الدولة الصفوية فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ٠

ولكن تحريم الاسلام ، لم يقض على هذا الفن تماما ، ونظرة الى تاريخ الفنون الاسلامية تبين بأن الفنانين كانوا فى كثير من الاحيان لا يكترثون بهذا التحريم (43) (انظر لوحة 5) ٠

كذلك نجد الهنود والاتراك وهم من السنيين يمارسون فن التصوير ، والتحف المعدنية والخزفية المزخرفة بأشكال آدمية ٠

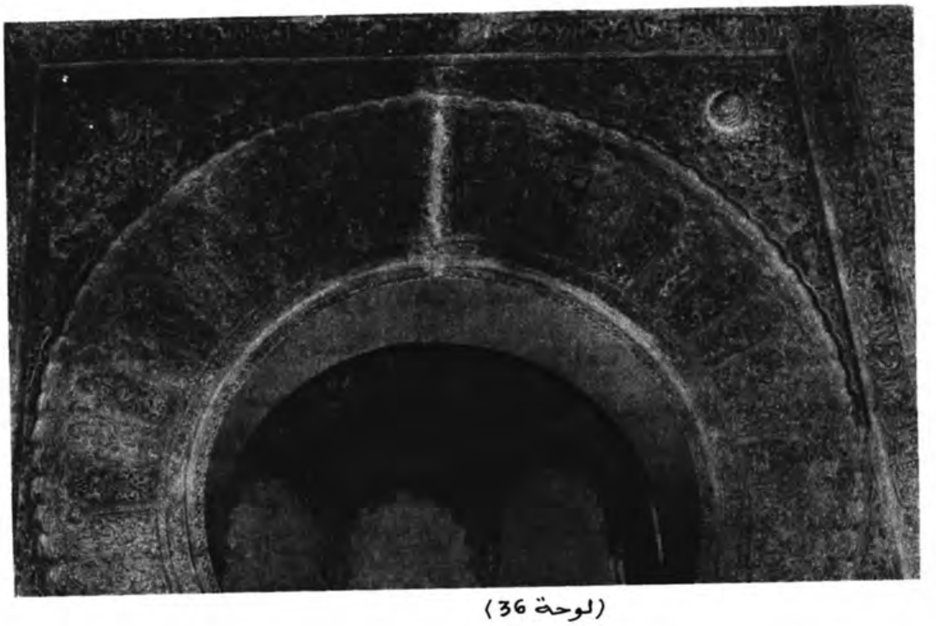
وكراهية تقليد الصور الشخصية كان لها تأثير عميق فى طبيعة الفن الاسلامى ٠

ويمكن تلخيص هذا التأثير فى النقاط الآتية :

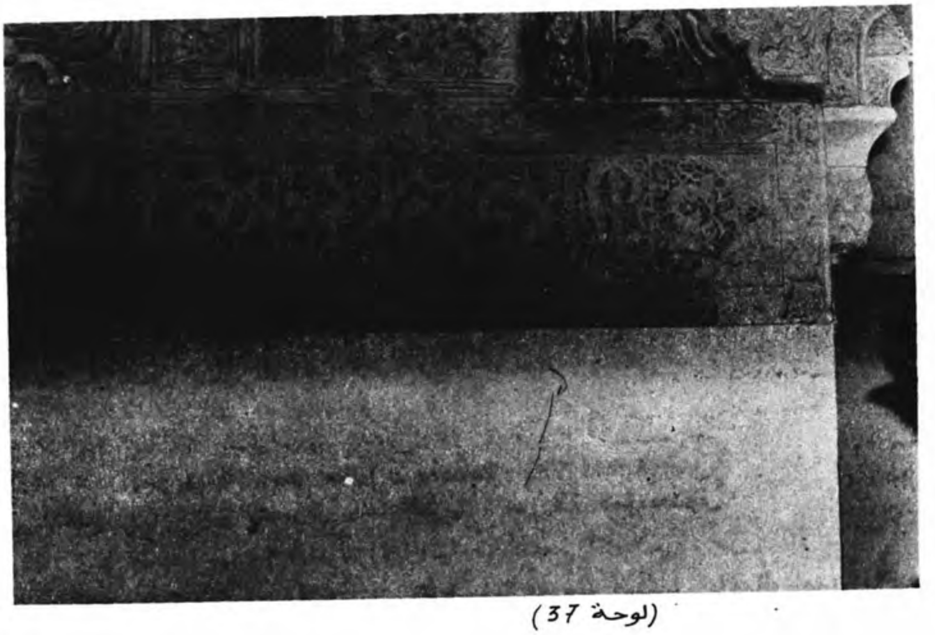
1 ـ صرف الفنانين الى اتقان أنواع أخرى من الزخارف بعيدة عن تصوير الطبيعة ، فقد افلحوا فى هذا الميدان ، حتى أصبحت العناصر الزخرفية التى ابتكروها طابعا على فنهم ونسبت اليهم كما فى لفظ l'arabesque.

2 ـ روعى فى زخرفة المساجد وأثاثها والمصاحف استبعاد الكائنات الحية فخلت من الصور والتماثيل التى يستعان بها على شرح العقيدة وتوضيح

(41) Arnold (Th.) : Painting in Islam, Oxford 1928, p. 11.
ـ اتنجهاوزن : فن التصوير عند العرب ، ص 12 وما بعدها ٠
(42) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ، ص : 75 ـ 76 ٠
(43) مثلا ، فالشعب الايرانى ميال للفن بفطرته وله احساس بالجمال أعمق وأقوى من يستطيع اطفاء جدوته أى عامل خارجى ـ الفنون الايرانية ـ ص 76 ٠



(لوحة 36)



(لوحة 37)

تاريخ الدين ، وحياة أبطاله كما هو موجود فى الدين المسيحى ·

3 ـ ان الفنون لا تظهر فيها عبقرية النحات ، ذلك لان التماثيل المجسمة لا وجود لها فى الفن الاسلامى ، الامر الذى جعل الفنانين ينصرفون الى زخرفة العمائر وتزيين التحف بالرسوم الفنية البديعة ·

4 ـ صناعة التصوير التى ازدهرت عند الايرانيين والهنود والاتراك المسلمين ، لم تتعرض للموضوعات الدينية الا نادرا (انظر لوحة 20) ، حيث نجد بعض المصورين الذين رسموا صورا للعديد من الاحداث المشهورة فى تاريخ الرسل ، بالاضافة الى وجود صور توضيحية لبعض الحوادث فى السيرة النبوية الشريفة · ولكن امثال هذه التصاوير كانت نادرة علاوة على أنها لم تنل رضى علماء الدين وهنا يتجلى لنا الفرق بين الفنون الاسلامية والفنون الغربية ، فقد كان المصورون فى الغرب على صلة وثيقة بالكنيسة يستلهمونها موضوعاتهم ، ويستمدون منها تشجيعاتهم لذلك غلب على انتاجهم الطابع الدينى الى وقت غير محدد ، فى حين كان المصورون فى الاسلام منبوذين من طرف علماء الدين ، لا يمنحونهم أى تعضيد أو تشجيع ·

5 ـ علت منزلة الخطاطين فى الاسلام لعنايتهم بكتابة القرآن الكريم · لان فنهم لم يكن مكروها من طرف علماء الدين ويليهم المذهبون من حيث الاهمية الذين زينوا برسومهم الجميلة الهندسية والنباتية صفحات المخطوطات وزاد الاقبال على منتجات هؤلاء الفنانين حتى أولئك الذين لم يتمكنوا من شراء المخطوط ، يقنعون بالحصول على نموذج لخطاط مشهور ، وارتفعت اثمانها ، وكانت فى الغالب آيات من الذكر الحكيم أو أبيات من الشعر ، وراح الامراء والاثرياء يقتنون المجموعات الفاخرة التى كان على اغلب هذه النماذج توقيعات الخطاطين (لوحة 16) ·

6 ـ معظم الفنانين المسلمين لم تكن لديهم مهارة فى الرسوم الحيوانية والآدمية ولم يجهد الفنان نفسه فى صدق تمثيل الطبيعة ، بل كانت لديه أساليب اصطلاحية ظلت باقية فى أزهى عصور الفن الاسلامى ، اذ نادرا ما نجد العناية بجسم الانسان ونسب الاعضاء وقوة التعبير فى الوجوه لتدل على الاحاسيس المختلفة ، وان وجدت على يدى قليل من اعاظم المصورين الذين نبغوا فى ايران ، كذلك الرسوم العارية غير معروفة فى التصوير الاسلامى ،



(لوحة 38)

وقوانين المنظور مهملة تماما . لذلك تبدو الصور الفارسية محملة لتشابهها ، واشراك المصورين فى اهمال الظل والضوء . سم الاشخاص فى أوضاع معينة تفقد الروح والحركة ودقة التعبير ورغم ذلك فلها سحرها وجمالها ، وهكذا يمكن القول بأن الفنان المسلم لم يصور الانسان أو الحيوان ، بل اتخذ منهما موضوعات زخرفية بحتة .

7 ـ من أبرز خصائص الفن الاسلامى كراهية الفراغ . تعرف هذه الظاهرة عند الغربيين با . الفزع من الفراغ » (لوحة 12 ـ 14) .

يعنى أن الفنان المسلم كان يكره أن يترك مساحات دون تغطيتها بالزخارف وازدحام المساحات (المسطحات) بالزخارف يلفت النظر فى العمائر (لوحة 29) والتحف وهذا الاتجاه أدى على أية حال الى تكرار الوحدة الزخرفية وتكرار الموضوع الزخرفى (انظر لوحة 4) وتبدو هذه الظاهرة واضحة فى المخطوطات وفى سائر التحف الاسلامية (لوحة 8) ـ (لوحة 14) .

8 ـ الزخارف المسطحة :

الغالب على الزخارف الاسلامية التسطيح ، ومرد ذلك انصراف الفنانين المسلمين عن التجسيم الى تغطية المساحات برسوم سطحية، ولكن التلوين والتذهيب قد خففا من هذا النقص (انظر اللوحات 19 ـ 12 ـ 13) .

9 ـ البعد عن الطبيعة :

يعنى ذلك أن عناصر الزخرفة فى الفن الاسلامى مستوحاة من الخيال بسبب الكراهية فى التصوير ، وأدى ذلك الى الاهتمام بالحيوانات الخرافية ، ليتجنب الفنان رسم الحيوانات الطبيعية . وتنطبق هذه الظاهرة على الزخارف النباتية المشتقة من الزهرة وغيرها (لوحة 29) .

10 ـ الرسوم التوضيحية : (لوحة 12) .

اهتم الفنانون المسلمون ولا سيما الايرانيون والهنود والاتراك بتوضيح بعض الكتب الادبية وتزيين دواوين الشعر بالمنمنمات (44) . ويرجع أقدم ما وصل الينا من مخطوطات موضحة بالصور الى القرن الثانى عشر

---

(44) المنمنمات : تعنى التصوير التصغيرى (الصور الصغيرة) فى المخطوطات الاسلامية .



شكل (I) الخط الكوفي ذو الأرضية النباتية وواضح جداً أن
هذه الأرضية المكونة من الفروع النباتية لا تتصل بالحروف.
إيران - القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي
(عن ابراهيم جمعة)

الميلادى (45) ، ومعظم هذه الصـــور توضيحات لقصص أبى زيد السروجى فى مخطوط من كتاب مقامـــات الحريرى ، وكليلـــة ودمنـــة وكتاب الاغـــانى ، والمخطوطات العلمية والكتب التاريخية ، وصفوة القول أن توضيــح المخطوطات بالصور وتحليلها بالرسوم الملونة كان فى المرتبة الثانية بالنسبة الى كتابتهـا بالخط الجميل (46) .

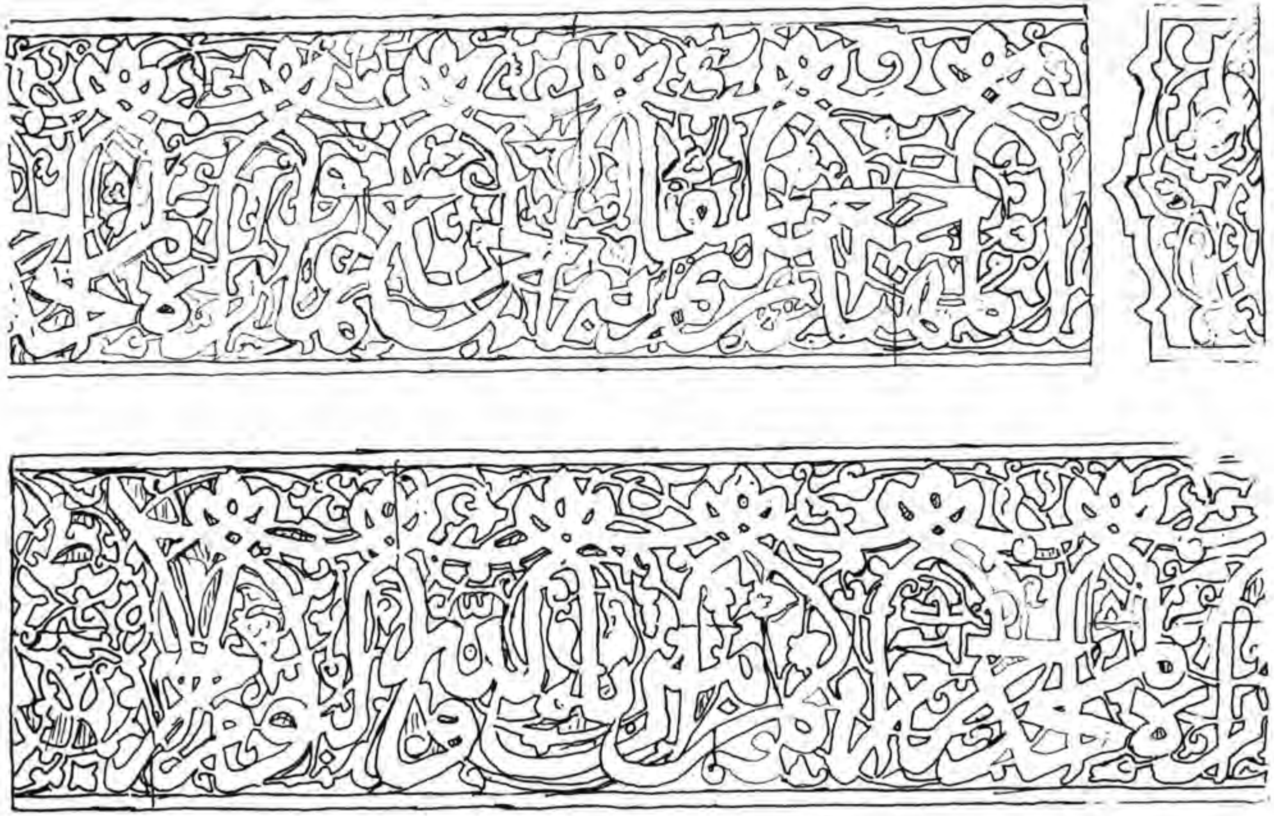
11 _ الكتابة العربية عنصر زخرفى :

استعمل الفنـــان المسلـم الحـروف العربية، سواء أكانت كوفية أم نسخية، كعناصر زخرفية رئيسية ، وتعتبر كذلك من أبرز الخصائص المميزة لاى عمـل فنى اسلامى . كما تبدو هذه الظاهـرة الزخرفية واضحة فى العمائر الاسلامية، وسائر التحف (شكل 1 ، 2) ، وتأثرت الوحدات الزخرفية الاسلامية بأشكـال الكتابة العربية ، وانها لتمتزج أحيانا حروفها بالوحدات الاخرى من نباتيـــة وهندسية وحيوانية حتى يصعـــب فى بعض الاحيان التمييـــز بينها (انظـر شكل 3) ، (لوحة 24) .

12 _ الفن الاسلامى فن جماعى :

معنى ذلك أن الفنان المسلم لم يتبـن طريقة خاصة أو أسلوبا معينا يميزه عن غيره ، وانما كان فى أغلب الاحيان يتبع الطـرق المطروقة ويسير على الاساليـب الفنية الموروثة ، أى أنه لم يبتكر جديدا فى هذا المجال وهذه الصفة التى تفتقر اليها الفنون الغربية ، والتى ينادى بعض نقاد الغرب باتبـاعها وقد كتب عنهـا أحد مفكريهم (47) « أوسكار وايلد » قائلا : « ان المثل الاعلى فى الفن هو أن يظهر الفن ويختفى الفنان » (انظــر اللوحات 21 _ 22 _ 23) وهذه العبارة لها وزنها ، مما لا شك فيه أن المعماريين والمصوريـــن والخطاطـــين والمزوقـين والفنانين على اختـــلاف درجاتهـم فى العصور الاسلامية ، قد أنتجوا تحفا فنية جميلة بدون أن يودعوها شيئـا مـــن خصائص حياتهم التى تلاشت فى سبيل الغرض الاســـمى مـــن أجل صالـح المجموع (48) . متحدثين الى شعوبهم عن طريق الفن بلغة الجماعة لا الافراد .

(45) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع : المخطوطات المرسومة فى العصر العباسى ، للدكتور خالد الجادر .
_ ايتنجنهاوزن : فن التصوير عند العرب .
(46) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية ، ص 67 .
(47) أحمد أحمد يوسف : الخط العربى وأساليبه فى الحياة العامة _ حلقة بحث الخط العربى _ ص 86 .
(48) أحمد أحمد يوسف : نفس المرجع السابق ، ص 87 .



شكل (١٥) إفريز من الكتابة ذات الأرضية النباتية تلتف حول مدخل مسجد السلطان محمد الناصر بن قلاوون (٦٩٣هـ - ٧٣٨هـ)

عن : (G. migeon)

13 ـ الفن الاسلامى بعيد عن العاطفة :

لان الفنان المسلم لم يهتم بتصوير المشاعر الانسانية ، لذلك لا نجد فى منتجاته ما يثير الشعور أو يبعث على التأثير العميق بخلاف ما نراه فى التصوير الاوروبى لا سيما فى اللوحات التى توضح التضحيات البشرية وغيرها من الموضوعات الاخرى ·

وصفوة القول أن الذى جعل الفنان يفعل ذلك هو البعد عن تمثيل الطبيعة ·

14 ـ الفن الاسلامى ذو طابع ملكى :

صحيح كان الامراء والحكام المسلمون ينقلون من بعض انحاء العالم الاسلامى الى الانحاء الاخرى (49) ، ويستدعون الى مقر حكمهم بعض من تمتد شهرتهم من الفنانين الناشئين فى سائر الاقاليم الاسلامية · وكان لهذا أكبر الاثر فى تكييف الطرز المختلفة فى الفنون الاسلامية ·

ولكن هناك من يرى بأن الفن الاسلامى فن ملكى بالدرجة الاولى (50) « فالامير هو الذى يرعى الفن ويعضد الفنانين ، الا فى حالات نادرة · فالفنان كان ينفذ ما يطلب منه سواء أكان هذا الطلب أساسه الدين أو الحب والعظمة والابهة اذ كان يعمل حسب رغبة الملك أو السلطان الذى يعيش فى كنفه ، وقد تثار هنا نقطة وهى ان الفن الاسلامى فن ارستقراطى يسخر الفنان لخدمة الامراء والسلاطين · ولكن يمكن الرد على ذلك بأن هؤلاء الامراء قد شملوا الفنانين بعنايتهم وعطفهم لتجميل مبانيهم وملء قصورهم بالتحف النادرة (لوحة 15) ·

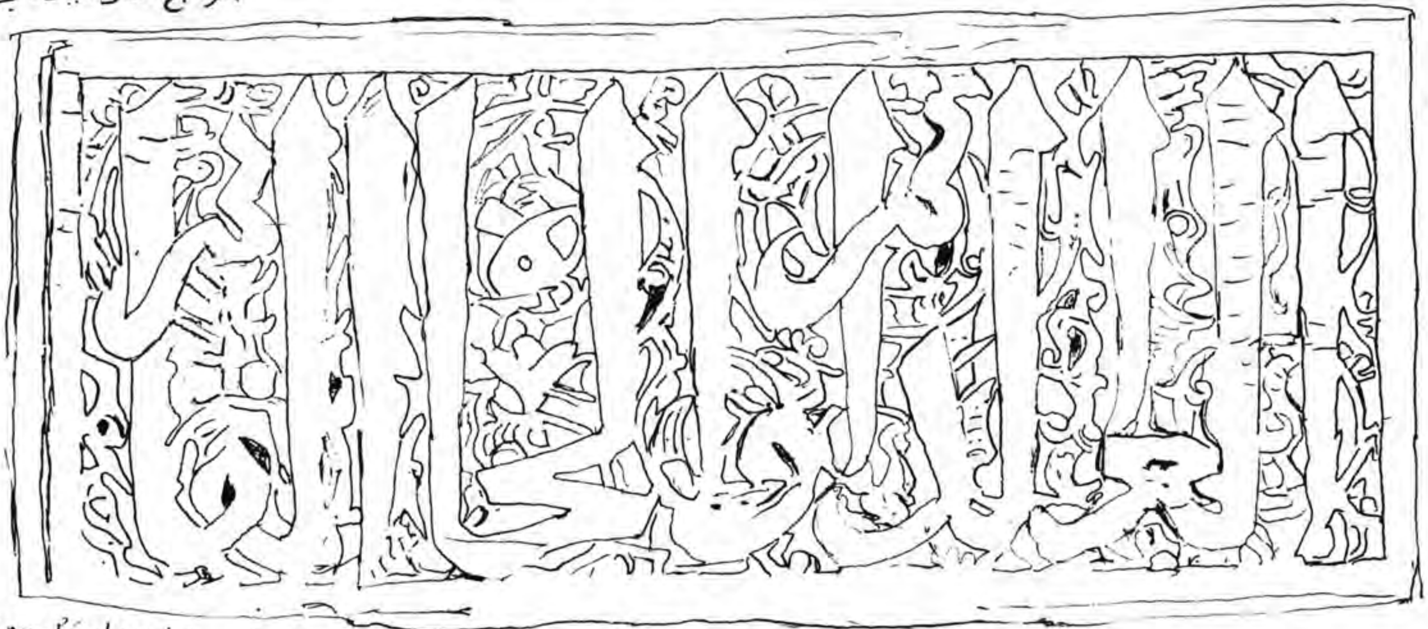
15 ـ فن ابتكارى :

لم تكن العقيدة الاسلامية تميل الى الاسراف فى الترف ، وتدل على ذلك حياة الخلفاء الراشدين ، وكان ذلك فى فجر الاسلام ، ومع ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، والثراء الذى عرفه الخلفاء فى العصور التالية لفجر الاسلام ، كان عليها أن تحقق شخصيتها وأن يستمتع الناس بأدوات الحياة من ملابس واشياء فاخرة تتناسب مع الثراء الكبير الذى كانوا ينعمون به ، ومن هنا نشأت فنون ابتكارية رائعة ، تجسد المبادىء التى ينطوى عليها الدين الاسلامى · وتحقق الثراء الذى يعيش فيه الخلفاء والامراء، فابتكر الفنان المسلم الخزف ذى البريق المعدنى ، كبديل صالح عن استعمال

(49) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية ، ص 15 ·

(50) عن هذا الموضوع ، انظر : Marçais (G.) : L'Art Musulman, Paris 1962, pp. 10 - 11.

حشوة من صناعة العاج تبين خط الثلث المملوكي المحفور فوق أرضية نباتية - مصر القرن 8هـ الرابع عشر الميلادي



(عن مجلة: Archeologia)

(شكل 3)

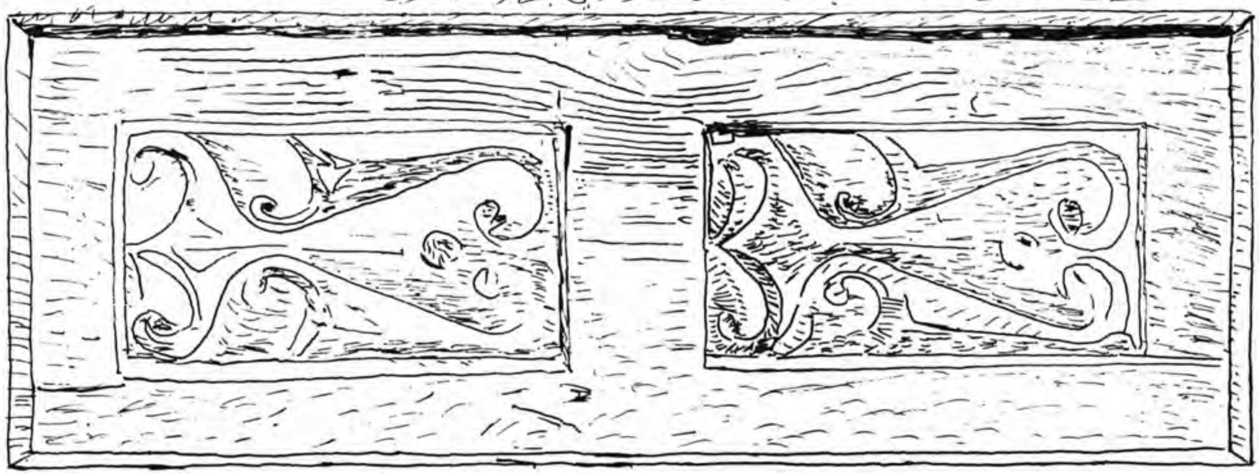
الاواني الذهبية والفضية · وينطبق ذلك على العمائر الاسلامية ، اذ نجد مثلا المحراب محور الاهمية فى المسجد ، وكان من الممكن أن يصنع من الذهب · ولكننا نلاحظ بأن المحاريب قد صنعت من الخشب أو الجص ، واستطاع الفنان أن يضفى عليها مسحة جمالية تخفف من هذه الخامات الرخيصة (لوحة 9) و (اللوحات 10 ـ 11 ـ 25) بالزخارف الدقيقة والالوان الجميلة · وصدق بودلير عندما وصف الفن العربى الاسلامى بقوله : « ان رسوم الرقش العربى هى اسمى الفنون كلها » (51) ·

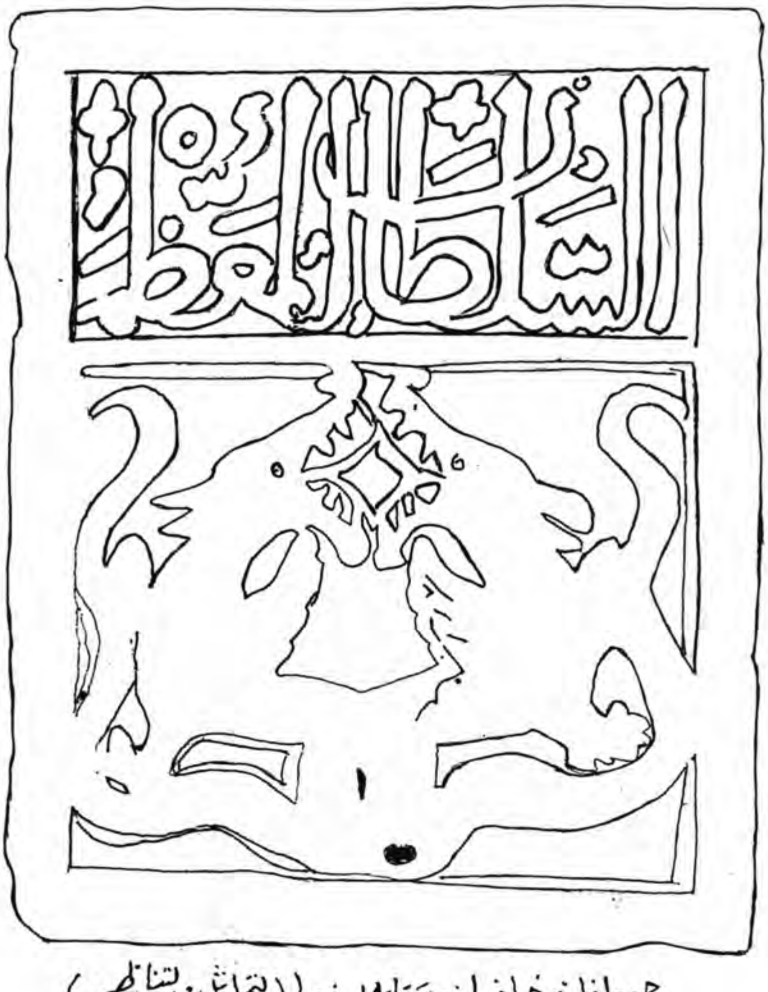
وخلاصة القول التى نختم بها هذا الموضوع ، هى أن دراسة الفنون الاسلامية فى مختلف مراحلها الزمنية وتطور أساليبها الزخرفية ، وطرزها المختلفة دراسة شيقة تذكر بعظمة الحضارة الاسلامية ومهارة المسلمين فى هذا المجال ، وتشير الى ماض مجيد ما تزال آثاره باقية حتى اليوم فى الرقعة الاسلامية الواسعة الممتدة من الصين شرقا ، الى الاندلس غربا ، شاهدة على ما بلغه الاسلام من ازدهار حضارى وفنى سيظل يبهر الاجيال تلو الاجيال ·

---

(51) لمزيد من الدراسة راجع :
Nadj Moudin Bammater, Aspects de l'Art Musulman, Lausanne 1946, p. 12.

شكل (4) الحفر على الخشب من العصر الطولوني بمصر - القرن الثالث الهجري -

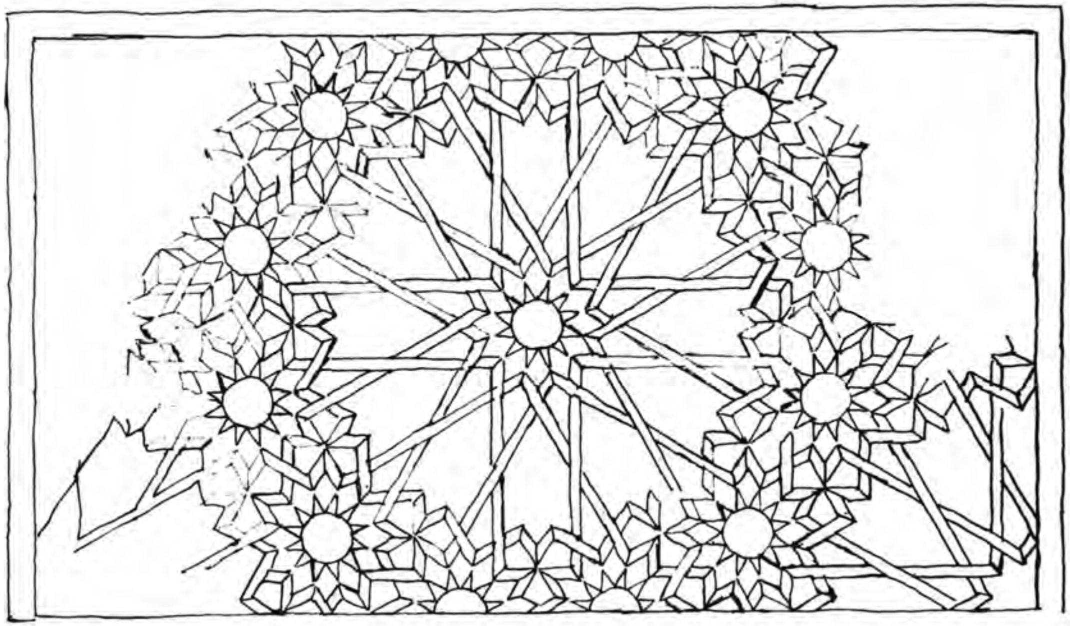




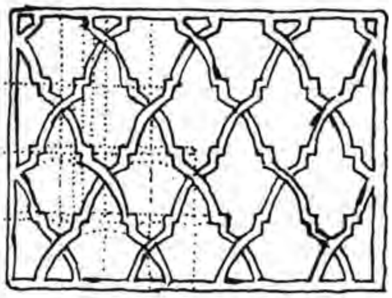
حيوانان خرافيان متقابلان (التماثل والتناظر)

إيران - القرن (٧هـ - ٨هـ)

(شكل 5)



شكل (6) . طبق نجمي من الفسيفساء الإسلامية . عن (G. Migeon)



شكل (7) عنصر زخرفة إحدى المآذن



شكل (8) حشوة صندوق من إيران
تمثل الزخارف النباتية المحفورة على العاج
(القرن 8هـ أو 14م)
عن (G. Migeon —)

فهـــرس الصـــور والاشكـــال :

أولا : اللوحـــات :

1) جزء من تفاصيل زخارف واجهة قصر المشتى ـ العصر الاموى (743 ـ 744 م) بالاردن ·

وتمثل هذه اللوحة أهم الامثلة المبكرة للزخارف الاسلامية المحفورة على الحجـــر · يلاحظ فيها تأثير الاساليب الزخرفية الساسانية والبيزنطية ·

2) حشوة من الجص تمثل الطراز الاول فى زخارف سامراء الجصية . نفذت الزخارف بطريقة القالب ـ قوام زخارفها رسوم نباتية كورقة العنب الخماسيـــة الفصوص واضح فيها التأثير الساسانى ·

3) قطعة من الجص نفذت زخارفها بطريقة الحفر المائل (المشطوف) وهى عبارة عن رسوم نباتية وهندسية محورة عن الطبيعة . سامراء ـ القرن التاسع الميلادى ·

4) مصراع باب خشبى ـ مصر ـ القرن الثالث عشر الميلادى وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى المطعم بالعاج ·

زخارف هذا المصراع عبارة عن أطباق نجمية ذات الاثنا عشر رأسا ، تحيط بها كندات على هيئة مسدسات · تتجلى لنا بدقة فى هذه الكندات زخارف التوريق العربى ، التى تعتبر من أبرز سمات الزخرفة الاسلامية ·

5) حشوة من العاج ـ مصر العصر الفاطمى ـ القرن الثانى عشر الميلادى ·
قوام زخارفها عبارة عن رسوم آدمية وحيوانية وطيور تحيط بها زخارف نباتيـــة وكيزان الصنوبر · نفذت بالحفر الغائر العميق ·

6) تفاصيل زخارف الاطباق النجمية التى تزين الباب المصفح بالبرونز . مسجـد السلطان المؤيد ·

7) لوحة تمثل قطعة من نسيج القباطى ، مملوءة بالاشرطة الزخرفية ـ العريضة منها تحتوى على رسوم هندسية ونباتية وحيوانية محورة عن الطبيعة · والاشرطة الضيقة تحتوى على كتابة مكونة من عبارة مكررة نصها « اليمن والاقبال » ·
مادتها من الحرير المتعدد الالوان . مصر ـ العصر الفاطمى ـ القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ·

8) غطاء قبر ـ صناعة شمال غرب ايران ـ القرن الثامن الهجرى بمشهد الامام على بالنجف ·

زخارفها مطرزة بغرز متعددة ــ غرزة حشوة مائلة ــ وغرزة الصليب ، كما استعملت غرزة الفــرع ٠

9) سلطانية من الخزف الاسلامى بالاندلس ، ذى البريق المعدنى ، مــن صناعة مدينة بلنسية ــ القرن الثامن الهجرى ــ الرابع عشر الميلادى ٠ زخارفها زهرة منتظمة داخل مناطق هندسية ، أى تمتاز بعنصرى الانتظام والتكرار ٠

10) زهرية من خزف طراز الحمراء ، على أسلوب صناعة مالقة ــ القرن الرابع عشر الميلادى ٠ هذا النوع من الجرار يمتاز بأن زخارفه أقرب ما تكون الى زخرفة المعادن ، كما تظهر عليها كتابات ، نصها : « اليمن والاقبال » مكررة ٠

11) طبق من الخزف ذو الزخارف المطبوعة بالقالب والطــلاء الزجاجى ذى اللـــــون الاخضر ، والمتعدد الالوان ٠ صناعة هراة القرن الثالث الهجرى ــ التاسع الميلادى ــ العاشر الميلادى ٠

قوام زخارف هذا الطبق ، رسوم نباتية محورة عن الطبيعة وكتابة كوفية بسيطة نصها بيت من الشعر لابى تمام :

لا تـأسين وان طالـــت مطـالبـه اذا استعنت بصبر (اعقبت) فـــرجا

12) طبق من الخزف السلجوقى ــ صناعة مدينة قاشان ايران ــ 607 هـ ــ 1210 م ، من عمل سيد شمس الدين الحسنى ٠ قوام زخارفه رسوم آدمية وحيوانية ونباتية ٠

13) طبق من الخزف القاشانى ــ ايران القرن السابع الهجرى ــ الثالث عشر الميلادى زخارفه رسوم آدمية ذات السحنة المغولية ، تتخللها رسوم نباتية ــ فى الوسط رجــل على ظهر حمار ٠

14) طبــق من الخزف التركى ــ صناعة مدينة ازنيك ــ القرن 10 هـ ــ 16 م قوام زخارفه زهرة القرنفل ــ قرن الغزال ــ زهرة الوسن وغيرها واستعمل اللون الازرق والفيروزى والبنفسجى ٠

15) مشكاة من الزجاج المموه بالميناء باسم السلطان حسن ــ من انتاج مصر ــ القرن السابع الهجرى ــ الثالث عشر الميلادى ، وعناصر الزخرفة فيها آيـــة « النـــور » ــ ورسوم نباتية ــ

16) ورقــة من مصحف مكتوبة بالخط الكوفى بحروف دقيقــة رفيعــة فيها تخطيط هندسى النمط تجرى خطوطه الافقية محددة الاسطر فى تقسيم يكاد يكون منتظما ، ونجد فى التوزيع نوعا من التوازن العام من حيث التشكيل ، ويحدد الصفحة اطار من الزخارف المضفرة ٠ وخلفية الكتابة قد زين بالزخارف النباتية التى تملأ السطــح

بأكمله فى رقة وعذوبة وشفافية (عن أحمد يوسف) (1) ايران القرن الثالث عشر الميلادى ·

17) الصفحة الاولى من كتاب تاريخ الامم والملوك للطبرى ـ صناعة هراة ـ 1469 م ، عناصر الزخرفة فيها الرقش العربى ·

18) تصوير جدارى ـ بالالوان المائية ـ العصر الفاطمى ـ القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر الميلادى · يمثل شاب جالس وبيده اليمنى كأس ·

19 صورة تمثل آدم وحواء من مخطوط عبد الله بن بختشوع ـ مراغة ايران ـ القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى ·

واضح فيها تقاليد المدرسة العربية فى التصوير ، التى تمتاز بالتسطيح ، وانعدام خلفية التصويرة · الاشجار رسمت بطريقة اصطلاحية ·

20) صورة تمثل سيرة النبى صلى اللـه عليه وسلم · القسطنطينية ـ القرن السادس عشر الميلادى ، يتجلى فيها صورة الرسول بلباسه الابيض تحيط برأسه هالة نورانية ·

21) قبة الصخرة المقدسة بمدينة القدس ، شيدها الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان عام (72 هـ) 691 ـ 692 م · تعتبر أقدم أثر معمارى باق واحدى روائع الآثار فى العالم الاسلامى ·

22) المسجد الكبير بقرطبة (القرن الثانى الهجرى ـ الثامن الميلادى) ـ ونرى فى الصورة محراب المسجد · وأبرز سمة معمارية فريدة فى هذا المسجد هى طريقة حمل السقف على أعمدة قصيرة وضعت الواحدة فـوق الاخرى · ويسترعى الانتباه كذلك عقوده المفصصة الفنية بالزخارف النباتية ·

23) بهو السباع فى قصر الحمراء ـ عصر بنـو نصر فى غرناطة ـ القـرن الثـامن الهجرى · (755 هـ ـ 1354 م) ـ الرابع عشر الميلادى ·

24) قصر الحمراء بغرناطة ـ القرن الثامن الهجرى ـ تبـين لنـا هذه الصورة دور الخط العربى فى الزخرفة وروعة الزخارف النباتية والهندسية ·

25) محراب مسجد سيدى بومدين ـ تلمسان ـ عصر بن مرين ـ القرن الرابع عشر الميلادى · نلاحظ جمالية ورقة زخارف المحراب النباتية والكتابية ·

26) مدرسة وصريح السلطان قايتباى (القاهرة) القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر الميلادى ـ نرى فيها المئذنة الرشيقة ذات المقرنصات ·
القبة التى تزدان بالزخارف النباتية والهندسية المتشابكة ·

---

(1) نقلنا هذا الوصف عن الاستاذ أحمد أحمد يوسف ـ حلقة بحث الخط العربى ـ ص 90 ·

27) المدخل المقرنص لمدرسة قرة طاى ـ قونية عام 1251 م من العصر السلجوقى ٠

28) واجهة ضريح السلطان قلاوون ـ مصر ـ القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى نرى فى هذه الصورة الشبابيك المخرمة ذات الزخارف النجمية ٠

29) توضح هذه الصورة تفاصيل زخارف مسجد الجمعة من الخارج ـ فى اصفهان ـ القرن 12 ٠ عناصر الزخرفة فى هذا المسجد ـ رسوم نباتية دقيقة , والخط الكوفى الهندسى ٠ وهى من الخزف القاشانى ٠ ويعتبر هذا المسجد من أجمل المبانى فى ايران.

30) المدخل الرائع لمسجد الشاه عباس باصفهان ـ ايران ـ العصر الصفوى القرن السابع عشر الميلادى ٠

تتجلى فى هذه الصورة روعة الزخارف الاسلامية كالمقرنصات المكسية بالخزف القاشانى ذى الالوان المتعددة ٠

31) ضريح تاج محل ـ أجرا بالهند ـ القرن السابع عشر الميلادى بناه الامبراطور المغولى شاهجيهان لزوجته ممتاز محل ٠ وهو من أفخم العمائر الاسلامية ٠

32) جامع السلطان أحمد الاول باسطنبول ـ القرن الحادى عشر الهجرى ـ السابع عشر الميلادي ٠

33) جامع السليمية بأدرنة , العصر العثمانى ـ بناه السلطان سليم الثانى , القرن العاشر الهجرى ـ السادس عشر الميلادى ٠ تبدو فيه رشاقة المئذنة التركية التى تشبه القلم ٠

34) سقف كنيسة الكابلا بالتينا فى باليرمو ـ صقلية ـ القرن السادس الهجرى ـ ويظهر فيها تأثير الفن الاسلامى ٠

35) مسجد السلطان حسن بالقاهرة ـ القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى ٠

36) زخارف عقد محراب مسجد سيدى بلحسن , ونلاحظ دقة زخارف التوريق العربى Arabesque المفرغة فى الجص ٠ ويعتبر هذا المحراب من أروع المحاريب فى العالم الاسلامى , لانه يمثل الذروة فى تطور الزخارف العربية على العمارة ٠

37) افريز من زخارف محراب سيدى بلحسن , ونلاحظ اقتران الكتابة العربية بالزخارف النباتية ٠

38) مئذنة المسجد الكبير بتلمسان , نلاحظ الزخارف المعمارية المتشابكة ٠

ثـانيا : الاشكـــال :

1) شريط من الخط الكوفى ذو الارضية النباتية · واضح جدا أن المهاد المكون من الفروع النباتية لا تتصل بالحروف · ايران القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى ·

2) افريز من الكتابة النسخية ذات الارضية النباتية ، وهى تكون جزءا مـن زخرفة مدخل السلطان محمد الناصر بن قلاوون · مصر ـ القرن السابع الثامن الهجريين ـ الثالث عشر ـ الرابع عشر الميلاديين ·

3) افريز من العاج ـ يبين جمالية خـط الثلث المملوكى ، المخور فوق أرضية نباتية ـ مصر ـ القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى ـ

4) حشوة خشبية ، من العصر الطولونى ـ مصر ـ القـرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى ·

نلاحظ فيها تأثير طرز سامراء الجصية فى الحفر المشطوف ·

5) حيوانان خرافيان متقابلان ـ يعلوهما شريط مـن الكتابـة نصهـا : « السلطان المعظم » ـ ايران ـ القرن الخامس ـ الثامن الهجريين ·

6) الاطباق النجمية ـ وطريقة تكوينها ـ اشتهر هذا النوع مـن الزخارف المعمارية فى مصر ، ثم انتشر منها الى المغرب والاندلس ·

7) اشتهر هذا النـوع مـن الزخارف المعمارية المصفرة فى تزيين المآذن فى المغـرب والاندلس فى العصور الوسطى وهو عبارة عن معينات متشابكة ·

8) حشوة هى جـزء مـن صندوق ـ صناعة ايـران ـ القرن الثامن أو الثانى عشر الهجريين ـ تبين بجلاء الزخارف النباتية القريبة من الطبيعة ، المحفوت على العاج ·

مـــراجـع البحـــث :

1) أبو صالح الالفى : الفــن الاسلامى أصوله وفلسفته ومدارسه ـ دار المعــارف ـ القاهرة 1965 ـ الخط العربى ووظيفته فى الفنون الاخرى ـ حلقــة بحــث الخط العربى ـ دار المعارف ـ القاهرة 1968 ·

2) أحمد أحمد يوسف : الخط العربى وأساليبه فى الحياة العامة ـ حلقة بحث الخط العــربى ·

3) بشرفارس : سر الزخرفة الاسلامية ـ القاهرة 1952 ·

4) حسن الباشا : فــن التصوير الاسلامى فى مصر ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة 1973 ·

5) حسن الباشا : حلقة بحث الخط العربى ـ دار المعارف ـ القاهرة 1968 ·

6) ديماند : الفنون الزخرفية الاسلامية ـ ترجمة أحمد مــــوسى ـ دار المعــارف ـ القاهرة 1958 ·

7) ريتشارد اتينغهاوزن : فن التصوير عند العرب ـ ترجمة : الدكتور عيسى سلمان والدكتور سليم طه التكريتى ـ وزارة الاعلام ـ بغداد 1973 ·

8) زكى محمد حسن : الفنــون الايرانية فى العصر الاسلامى ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة 1954 ـ زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ـ القاهرة 1935 ·

9) شاخت وبوزوث : تراث الاسلام ـ القسم الثانى ـ ترجمة حسين مؤنس واحسان ـ عباس ـ الكويت 1978 ·

10) علام (نعمت اسماعيل) : فنون الشرق الاوسط من الغزو الاغريقى حتى الفتــح الاسلامى ـ دار المعارف ـ القاهرة 1975 ·

11) فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الاسلامية ـ عصر الولاة ـ المجلد الاول الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة 1970 ·

12) فريد شافعى : الزخارف التأسية البسيطة فى الفن الاسلامى ·

13) مانويل جوميث مورينو : الفن الاسلامى فى اسبانيا ترجمة : عبد العزيز سالم ولطفى عبد البديع ، دار الكتاب العربى القاهرة 1968 ·

14) مصطفى الحبيب : اقتران الكتــابة بالعمارة ـ رسالــة اليونسكو العدد 199 ـ فبراير 1978 ·

15) المعالم الاثرية فى البلاد العربية ـ الجزء الاول ـ جامعة الدول العربية ـ الادارة الثقافية ـ القاهرة 1970 ·

(16) ARNOLD (Th.) : Painting in Islalm, Oxford, 1928.

(17) CAREL DURY (J.) : Art of Islam, New-York, 1970.

(18) CRESWEL (K.A.C.) : Early Muslim Architecture, t. 1.

(19) DAVID (J.) : Islamic Art an Introduction, London, 1974.

(20) GLUCK et DIEZ : Die Kunst des Islam, Berlin, 1925.

(21) GRABAR (O.) : Studies in medieval Islamic Art, London, 1976.

(22) MARÇAIS (G.) : L'Art Musulman, Paris, 1962.

(23) MARÇAIS (G.) : L'Art Musulman d'Espagne - Hespéris Fase II, t. XXII, 1936.

(24) MIGEON (G.) : Manuel d'Art Musulman, t. 1, Paris, 1907.

(25) MIGEON (G.) : Les Arts Musulmans, Paris, 1926.

(26) ROUSSEAU (G.) : L'Art Décoratif Musulman, Paris, 1934.



التجديد والمجددون في الإسلام

الاستاذ عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ - الجزائر -

جاء فى السنه عن ابى هريره رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» ٠

أخرجه أبو داود فى الملاحم من سننه، والطبرانى فى الاوسط عن أبى هريرة مرفوعا ، وصححه الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى المعرفة وفى المدخل ٠ وممن نص على صحته من المتأخرين أبو الفضل العراقى والحافظ ابن حجر ، ونقل الحنفى الاتفاق على صحته ٠

لقد غدا من البديهيات الضروية وأن العالم أصبح اليوم يمر بضروب من التحول والتغيير السريع مما لم يشهد مثلهما من قبل ، حتى ان القارات الواسعة التى كان يعرفها أسلافنا منفصلة عن بعضها صارت اليوم كوحدة متصلة ملتحمة الاجزاء مرتبطة الحلقات بشتى الروابط المختلفة ، ففى حين وجودك فى افريقيا مثلا فانك ترى وتسمع عن مشاهدة بعينى رأسك ما يجرى حدوثه بقارة أخرى تبعد عنك طبيعيا بآلاف من الكيلوميترات ٠٠٠ بل وحتى ما يجرى فى الاجرام العلوية من تحرك أو اصطكاك يقع فيما بين الاقمار والشموس والكواكب والافلاك التى تبعد عنك بملايين الكيلو ميترات تراه وتشهده فى وقته، وهذا جزء من التغيير المستمر العام الذى نعنيه ٠ وفى كل يوم تطلع عليك فيه الشمس تفاجئك الصحف والنشريات فى العالم أجمع وما يحمله اليك الاثير بطريق الاذاعة والتلفزة من أخبار الابتكارات والاختراعات الجديدة العجيبة الصنع والابداع مما يحملك على تغيير أفكارك وآرائك وتعديل معلوماتك فيما كنت تعلمه أو تعتقده مسلما صحيحا ٠ وكثيرا ما تنقلب على نفسك مخطئا ومؤنبا ٠ فتصبح ترى خلاف ما كنت تعتقده من قبل ، وكل هذه الاشياء تدخل فى باب التطور والتغيير الذى حدث ويحدث فى العالم ، وكل هذه الاحداث

تتطلب منك بصفتك مسلما ان تعلم حكم شريعتك فيها ··· ومنها مثلا وجود الانسان على سطح القمر ، فكيف يجرى على نفسه أحكام دينه فى عبادته ؟ ··· الى غير هذا من المحدثات العصرية ··· وهذا مما يبعث على تجديد النظر ومراجعة النصوص على ضوء وضعية العصر الحديث ودرسهما دراسة عميقة لحل مشكلات هذه القضايا المتجددة فى كل لحظة وحين ···

وبما أنك ملزم أيها المسلم بحكم الضرورة على مسايرة عصرك وممارسة أو ملابسة هذا الجديد فكان لزاما عليك أن تعلم رأي الدين فى ذلك ، وأنى لك ذلك وليس لديك نصوص تطبقها على الحادثة الجديدة ؟ ··· فكيف يكون العمل اذا وأنت مضطر للتعامل مع الخلق ؟ ··· فمن هنا نرى وجاهة رأي من أبى ورفض القول بغلق باب الاجتهاد فى الدين ، وقال بفتح الباب على مصراعيه (اجتهادا وتجديدا) لكل من حاز شروط الاجتهاد الشرعية كما هي مقررة مفصلة فى مضانها من كتب علم الاصول ·

فالاسلام كما تنص عليه أصوله الاصيلة من كتاب وسنة هو دين عملى صالح لكل زمان ومكان ونظام مرن اجتماعى خالد فيجب اجراء قوانينه وجميع أحكامه وفق مقتضى روح العصر فى اطار مبادى الشريعة العامة وقواعدها الصحيحة التى تدعو الى مصالح الناس ودفع الحرج عنهم حسب ما نطق به القرآن : **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج** · (المائدة : 6) ، **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** · (البقرة : 185) وما جاء فى السنة من قوله صلى الله عليه وسلم :

« يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » ، فان لنا فى هذا مجالا واسعا ، والوقت قد حان ، لا سيما وان التطور والتغيير قد لحق كل شىء وأصبحت المدارس فى العالم اليوم تعلم الناس الاستقلال فى التفكير للوصول الى معرفة الاشياء والحكم عليها بأنفسهم بطريق التجربة والقياس ، فالاوضاع نراها كما تراها يا أخى تتغير وتتطور فى كل حين وآن ·· فهناك دول وحكومات نشأت ، وهناك أمم كانت مستعمرة فاستقلت ، وهناك منظمات وأحزاب سياسية تكونت، وجماعات دولية تأسست ، وهيآت حاكمة استبدت ومذاهب فى العقائد والاجتماع قد بدت ، وقوانين ومعاملات جديدة فشت وتقررت ··· فليس من المعقول أن يبقى الاسلام مكتوف الايدى ينظر الى هذا التطور الشامل لسائر ميادين الحياة كلها بدون أن يتخذ لنفسه موقفا عمليا يثبت فيه وجوده الضرورى كأدات صالحة للسير بهذه الحياة الى النجاة، وانه بحق هو دين التجديد المستمر مع الزمن كيفما كان الحال الى قيام الساعة·

فان فى ضمن الحديث النبوى الورد فى التجديد الامر بالتجديد والحث على ذلك وان كانت صيغته هي من باب صيغة الاخبار بالمغيبات ففيه الى ذلك تشويق

الى الاحراز على هذه المنقبة العظيمة، منقبة التجديد ، وهذا من اعلام النبوة ·

وفى هذا الصدد جاء فى جريدة الاهرام المصرية (1384/9/27 هـ) سؤال طرح على شيخ الازهر ، يقول السائل :

« الى أي حد يمكن تطور الدين تبعا لتطور المجتمع ؟ » فكان الجواب كالتالى :

« ان للدين الاسلامى أحكاما أساسية وأحكاما تبعية وفرعية ، والاحكام الاساسية تبقى ما بقى الزمن ولا يجوز فيها التغيير · أما الاحكام الفرعية أو التبعية فهذه تخضع لما يثبت فى الكتاب والسنة ، واذا لم يوجد فى الكتاب أو السنة نص جاز الاجتهاد والاخذ بما يحقق مصلحة المجتمع » · فمعنى هذا ان المسائل الفقهية ما دامت غير قطعية الدلالة فهي قابلة بحكم الشرع نفسه للتجديد والتغيير ·

وانطلاقا من حديث أبى هريرة هذا أخذ الفقهاء والمؤرخون فى البحث عن المجددين فى الاسلام سلفا وخلفا ، فقالوا انه كان على رأس المائة الاولى من الهجرة عمر بن عبد العزيز ، وعلى رأس المائة الثانية الشافعى ، والثالثة ابن سريج أو الاشعرى ، وذكروا للمائة الرابعة كلا من أبى سهل محمد بن سليمان الصعلوكي والاسفيرايني - أو الباقلانى ، والخامسة الغزالى ، والسادسة الفخر الرازى ، والسابعة ابن دقيق العيد ، ··· وهكذا نجدهم يعددون أسماء المجددين على رأس المآت طيلة الاربعة عشر قرنا التى عاشها الاسلام ·

قال بعض شراح هذا الحديث انه لا يلزم أن يكون المبعوث المجدد على رأس المائة رجلا واحدا ، بل قد يتعدد المجددون فى القرن الواحد ، فيكون كل واحد منهم مجددا فى ناحية من نواحى هذا الدين ، بحيث يكون كل واحد منهم عاملا فى ميدان خاص من ميادين الحياة العلمية والعملية والدينية ، فان كلمة (من) هنا فى الحديث هي للجمع لا للمفرد كما قال الذهبى ، فكل واحد ينفع بغير ما ينفع به الآخر ، وأقول بأن حمل تأويل هذا الحديث على هذا الوجه هو أولى وأشبه بالحكمة والمعقولية ، ولهذا نرى بعضهم يختلف مع غيره فى ذكر أسماء المجددين وعددهم فى كل قرن ، فمنهم من يضيف أسماء بعض الخلفاء الممتازين كعمر بن عبد العزيز، وهارون الرشيد ، والخليفة المسترشد ، والمقتدر ، والقادر ، والمأمون وغيرهم ··· وفى هذا اشارة منهم الى أن الغرض من وجود المجدد هو حدوث جماعة من كبار المشهورين على رأس كل مائة سنة يجددون للناس دينهم ويحفظونه عليهم فى أقطار الارض ، وهذا يرجع الى اختلاف أنظار العلماء فى نوعية التجديد والمجددين ·

وقد يوجد المجدد فى أكثر من مائة سنة وقد يكون فى أقل من ذلك ، فليس

من الضروري تحديد المائة بالوزن أو الكيل ، أو تكون المائة سنة هجرية أو غيرها، وانما فائدة الحديث بيان الفكرة، والفكرة فى حد ذاتها وجيهة ، لان التشريع دائما يتغير بتغير الزمان والمكان واختلاف العادات والعرف والتقاليد ... فعن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال : ما كان منذ كانت الدنيا رأس مائة سنة الا كان عند رأس المائة أمر .

ولا يخفى كيف تطورت أفكار أصحاب المذاهب الكلامية ، وقل مثل ذلك فى الفقه ، فان لنا فى علم الفقه أمثلة كثيرة من هذا النوع ، فقد قال الفقهاء قديما فى باب الخيار : انه يسقط حق الخيار للشخص ـ المكارى أو المشترى اذا رأى غرفة واحدة فى البيت ، لان الغرف كانت متشابهة فى الشكل ، وبعد ذلك اختلفت البيوت والمنازل كما اختلفت الحجر والغرف فيها ، فأصبح لا يسقط حق الرجل فى خيار الرؤية الا اذا رأى الغرف كلها لاختلاف هندسة الغرف وتغير فن المعمار .

وكما يروى عن أبى حنيفة انه كان يقول : من غصب ثوبا وصبغه أسود فقد قلل من قيمته ، وكان أبو يوسف يقول : من غصب ثوبا وصبغه أسود فقد زاد قيمته ، والسبب فى ذلك اختلاف الزمان والبيئة ، لان الدولة العباسية اتخذت السواد شعارا رسميا لها ، وكان من خالفها يبيض ، أي يلبس البياض فارتفع بذلك سعر الملون باللون الاسود، والعلة عندهم كما يقولون تدور مع المعلول وجودا وعدما .

وهذا الامام الشافعى نفسه له مذهبان مذهب قديم لما كان فى العراق ، ومذهب جديد لما حضر الى مصر، وما ذلك الا لاختلاف البيئة بين العراق ومصر، فبيئة العراق غير بيئة مصر، وهكذا ... وهذه فى الاحكام بشروطه ...

ونظرا الى هذا التغيير المستمر فى الحياة وجب أن نأخذ فى التشريع الجديد بنظام التجديد السليم، ذلك التجديد الذى يحقق لنا العدالة الحقة ويتحقق معه ما جاءت به الشريعة الاسلامية من مباد سامية وأغراض نبيلة .

وقد لقيت فكرة التجديد هذه عند القدماء عناية كبرى ، فاهتم بها كبار العلماء فألفوا فيها كتبا نفيسة ومنظومات مفيدة كما نظمت متون العلوم ، فكان منها كتاب (التنبئة ، بمن يبعثه الله على رأس كل مائة) للجلال السيوطى ، كما ان له نظما فى الموضوع تحت اسم (تحفة المهتدين فى بيان أسماء المجددين) وعلى هذا النظم شرح للمراغى الجرجاوى أسماه (بغية المقتدين ومنحة المجددين على تحفة المهتدين) . وقبلهما وضع الحافظ ابن حجر كتابه (الفوائد الجمة، فى من يجدد الدين لهذه الامة) . وفيها يجد القارىء والباحث ذكر أسماء المجددين على رأس المآت خلال هذه القرون الاربعة عشر التى عاشها الاسلام .

واذن فان فكرة التجديد هذه هي فكرة قديمة اختمرت فى أذهان العلماء منذ عصر مبكر يرتقى الى زمن خير القرون وهي فكرة تحقق لنا ما أراده الاسلام لنفسه من عالميته وشموله وخلوده وصلاحيته لكل زمان ومكان ٠

وبعد ٠ فماذا يراد من معنى التجديد فى الدين ؟ ٠٠٠

لقد وضع العلماء لتعريف التجديد بمعناه العام جدا فقالوا : هو مرونة العقل لاحلال الاوضاع الجديدة محل الاوضاع القديمة ، أو هو تعديل القديم ليتفق والجديد ٠ اما فى حدود معناه الاصطلاحى الشرعى ـ وهو الذى نقصده فى مقالنا هذا ، فهو احياء السنة واماتة البدعة ٠ وقالوا فى تعريفهم للمجدد : هو الذى يذب عن السنن وينفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب ، ويعلم الناس أمر دينهم فيحيى ما اندرس ، فالتجديد عندهم حينئذ هو الرجوع الى المعين الاول للاستقاء منه ، وهذا يعلم من تتبع تراجم وأخبار المذكورين فى تعداد المجددين وسيرهم ٠٠٠

وبهذا الاعتبار يجوز لنا أن نضع الى جانب التجديد أو نقول هو من قبيل التجديد، هذه الحركة الاصلاحية الحديثة التى نادى بها ولي الله الدهلوى (1176هـ) فى الهند، ومحمد بن عبد الوهاب (1202هـ) بالحجاز والسلطان المولى سليمان بن محمد بالمغرب الاقصى (1148 هـ) ٠ والشيخ اسماعيل التميمى (1248 هـ) بتونس ، ومحمد بن على السنوسى الجزائرى (1276 هـ) ، وجمال الدين الافغانى (1315 هـ) بالمشرق ، ومحمد عبده (1323 هـ) بمصر ، وعبد الحميد ابن باديس (1359 هـ) بالجزائر ، ويدخل فى مفهوم معنى التجديد مثلا ما قام به الشيخ المراغى (1364هـ) من العمل فى ميدان اصلاح الاسرة وغيرها بمصر ،٠٠ فكل هذا يدخل ضمن مشمول معنى التجديد فى الدين الذى أشار اليه الحديث النبوى الشريف ٠٠٠ كما ينطبق اسم المجددين على هؤلاء فى العصر الحديث ٠

فالتجديد هو كما نرى يحقق لنا استمرار حيوية الاسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان ، ومسايرته للتقدم والرقي على مر الملوان ، فالى التجديد الى التجديد أيتها النخبة الرشيدة ، ولا سيما فى فروع المعاملات المبنية على مصالح كانت تليق بزمن مضي ولا توافق الزمن الحاضر ، فدينكم دين الفطرة ، ومن معانى الفطرة الخلق والابتداع والاختراع ، وان فيما وضعه لنا العلماء من القواعد العامة الهامة فى التشريع **مثل النظر فى المصالح المرسلة ، وفى القياس ، والنظر الى العرف والاستحسان والاستصحاب، وقاعدة الحضر والاباحة،** وأحكام الضرورة ، وقولهم ما ضاق شيء الا واتسع ، كما يقول الشافعى ، الى ما هنالك من مواقف للشريعة جاء فيها فتح باب الذرائع لا سده ـ وذلك نظرا لما يترتب على سده من الضرر

وعلى فتحه من النفع ، وحيثما كانت المصلحة فيما لا يعارض النص أو تعاليم الاسلام ومباديه العامة فثم حكم الله ، **فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه** (البقرة ، 173) الخ ··· ففى هذا متسع رحب ومجال فسيح للتجديد ، فلنسر على ضوء هذه المبادى الاسلامية السامية حتى لا نضطر الى استعارة أو استيراد قوانين وأحكاما أجنبية عنا ودخيلة على ديننا فنعود بها الى الخضوع الى سيطرة الاستعمار بأنفسنا ، **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة** ، وفى ذلك اعراض منا عن الشريعة الاسلامية والفقه الاسلامى الثرى ، **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** · (النساء ، 65) ويكفى لمعرفة ما للتشريع الاسلامى من منزلة رفيعة وفضل عظيم على قوانين وشرائع العالم أجمع ان نسمع لقول حجة الفقه المقارن وعمدة علم الحقوق بأوروبا فى العصر الحاضر، وهو الاستاذ (ادوار لامبير) حيث يقول لتلامذته :

« ان لديكم فى الفقه الاسلامى كنزا مخبوءا ينتظر من يجلوه لعالمنا المعاصر ليهتدى بهديه ، ويسترشد بمنطقه فى الحيرة المدلهمة التى أعجزت عالمنا الآن على التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وصرفته عن التوفيق الحكيم بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع » ·

ومليحة شهدت لها ضراتها
والفضل ما شهدت به الاعداء

وانتهز هذه الفرصة لالفت نظر أولى الامر منا، (هنا عندنا فى الجزائر) الى انه لم يبق لنا من أحكام شريعتنا الاسلامية الغراء داخلا فى حيز التطبيق الا مسائل طفيفة من أحكام الاحوال الشخصية ، أو ما يعبر عنه بقانون الاسرة ـ ولا حول ولا قوة الا بالله ··· **وانا لله وانا اليه راجعون** ! ··· فالله الله فى بقية الباقية فلا تتركوها لتعبث بها يد التخريب والتشويه ، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته · (**وقفوهم انهم مسؤولون**) الصافات آية 24 ·

كما أغتنم ثانيا هذه الفرصة السعيدة لاقدم لاخوانى فى الانسانية عامة بما فيهم من مسلمين وغيرهم أجمل وأبرك التهانى الحارة بمناسبة حلول هذا القرن الخامس عشر الهجرى ، ألهمنا الله فيه الى الرشد والصواب ووفقنا الى ما فيه الخير والصلاح :



نحو منهج إسلامي أفضل

د. عبد الرزاق قسوم
أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

تقف الانسانية المؤمنة اليوم « وقفة خاصة » مع اطلالة العام الهجرى الجديد، الذى يمثل بداية أفق أو سع وأشمـــل ، على امتداد مائة عام، انه القرن الخامس عشـــــر ·

ومع بزوغ هذا اليوم الخالد فى تاريخ الانسانية كلها ـ ولا أقول المسلميـــــن وحدهم ـ مع هذا اليوم ، تطوى صفحـــة قديمة ، وتبدأ صفحة جديدة ، بيضاء · نأمل أن تكون صفحة يمن وسعـــادة ، وتحقيق آمال وآمانى الامة الاسلاميـــة، والانسانية جمعاء ان شاء الله ·

ومع استقبال البشرية لهذه الصفحة الجديدة ، فى سجل الكون ، تقف أمتنا وقفة كلها أمل ، وتفاؤل ، واصرار على العمل بالرغم من كثبان الجليد المتراكمة، ومن جحافل السحب المتراصة ·

واذا كانت الصفحة المطوية بالامس تمثل كتابا كاملا ، بل سجلا عظيمـــا يحتوى على مائة سنة من الاحداث · فان من المنطقى أن تصاحب عملية طي **هذا الكتاب ، محاولة لتقييم هذه الحقبة** الطويلة فى حياة الانسان ، الحاسمـــة فى حياة الشعوب ·

وان القيام بمحاولة التقييـــم هـــذه، لهي عملية تفرضها تكنولوجية العصر الذى نعيشه ، والتقدم العلمى الـــذى نحياه ·

فبدون مراجعة الخطوات المقطوعة ، والمسافـــة الطويلـــة التى خطوناهـــــا لا نستطيع أن نقبل على كتابة الصفحة الجديدة من سجل الكون النقي ، بمـــا تتطلبه من عناية ، واهتمام وتجـــاوز للسلبيات ، وتصحيح للاخطاء ·

من هذا المنطق العلمى ، والواقعى، أبدأ هذه المحاولة وهي محاولة تأمـــل واقعنـــا الاسلامى المعـــاش ، فى ضوء تجربتنا السابقة والتخـــطيط للعمـــل المستقبلى ، من أجل تكوين وبناء المجتمع الاسلامى الافضل، ان شاء الله، تحقيقا للآية السمحة · « **كنتم خير أمة أخرجت للناس** » · الآية (١) ·

(١) آل عمران ، السورة 3 ، الآية ١١٠ ·

على أن مثل هـذه المحاولـة تتطلب ولا شك ، الشجاعة الادبية ، والموضوعية العلمية ، في تشخيص الداء ، وتقديـم ما يبدو لنا أنه الدواء وأعتقـــد أن تشخيص الداء يمثل نصف الدواء كما يقول الفلاسفة ، وعلماء النفس والاطباء بالـــذات ·

بهذا يمكن أن نقوم بعملية « تقييـــم آفاق » تبدأ بتقييم العمل السابق، وتحديد آفاق العمل المستقبلي للامة الاسلامية ·

ولابد لكل تقييم من أن تصاحبه عملية مراجعة للاخطاء ولنتفق على تسميتها بالسلبيات ، فالشـــجاعة النفسيـة ، والموضوعية التاريخية تقتضي منا أن نسلم بوجود سلبيات في عملنا الاسلامي السابق ، ولاستئصال جذور هـــذه السلبيات يجب أن نلح على عوامـــل نشأتها ليمكن تجاوزها ، وتفاديها في عملنا المستقبلي ان شاء الله ·

ما هي اذن خصائص العمل الاسلامي من خـــلال القـرن المـاضي ؟ ما هي السلبيات التي طبعته ؟ وما هي أيضـا الايجابيات ؟ كيف نستطيع العمل عـلى تفادي هذه السلبيات لضمان خطة عمل سليمة في نطاق المبادىء الاسلاميـــة السمحة ؟

ان من يتأمل واقع المسلمين خـــلال المائة عام التي طوينا بالامس القريـــب آخر صفحاتها ، يلمس سلسلة مـــن الاحداث ، والوقائع الهامة المتداخلة ، والمتلاحقة ، ألقت بظلها على حياة الامة الاسلامية ، فأثرت في نتائج عملهـا ، وانعكست بالتالي على العمل العقائدي والاخلاقي ، والثقافي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، والسياسي · وفي هذا كله تكمن الاجابة على الاسئلة المطروحة ·

واذا كنت لا أستطيع أن أقدم هنـا في صفحات قليلة حصيلة مائة سنة من الاحداث ، فلا أقل من أن أحاول وضع خطوط عامة لهذه الاحداث ، أو تقديم أمثلة وعينات ، ونماذج مـــن كبريات الاحداث ، التي ترسم الطابع الاساسي لخصائص القرن الهجري المنقرض ·

وسنلاحظ ان أولى الاحداث التي تطفو على سطح الحياة في واقعنا الاسلامي من خلال هذه الفترة ـ انما هي أحداث لسلبيتها وخطورتها قد أحدثت في الجسم العربي والاسلامي فجوات ، وندوبـا ، وجراحا ، ما تزال بصماتها واضحـــة على الجسم العربي حتى اليوم ·

الفـــراغ العقـائدي

لعل أكبر مصيبة نكب بها العالـــــم الاسلامي في القرن المنصرم ، هي أن أجيالنا الفتية فيه ، قد فتحت أعينهــا على هول الفاجعة ، لترى الارض محتلة، والثروات مسلوبة ، والانسان مقيـــد الحركة ، مكمم الفم ، فعرفت أنها تقف وجها لوجه أمام أخطبوط ، تزيى بزي عمراني ، خداع واصفا نفسه بأنـــــه « استعمار » ولعمري انها من الكلمات المظلومة التي صاحبت عملية القرصنة والاحتلال والنهب ، والغزو ، الـــتي

حملها الانسان الابيض الى عالمنا الاسلامى الآمن المطمئن ·

وتكاد ظاهرة الاستعمار بكل ما تتضمنه من ويلات تنسحب على معظم أجزاء الامة الاسلامية ، فى كل من آسيا وافريقيا ، وأوروبا ، عاكسة بذلك سلبياتها على كل ناحية من نواحى حياتنا الاقتصادية ، والثقافية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والسياسية ·

واذا كانت عملية الاحتلال الاجنبى للبلاد الاسلامية قد كانت الظاهرة الخطيرة التى ميزت بداية العلاقات المتوترة بين الانسان الاوروبى والاسلامى، فان من الطبيعى ــ نظرا لتباين الخصائص والمبادىء ، وموازين القوى ــ أن ينتج عن هذه العملية الاستيطانية الظالمة ورود أفكار ، وثقافات، ونوايا تختلف فى جوهرها ، ومنهجها عما ألفه الوطن الاسلامى فأدى ذلك التباين الى فرض انظمة سياسية ، هدفها الاساسى تشديد التبعية من جانب الاقطار الاسلامية ، لهذه الانظمة الواردة مع ما يصاحب ذلك كله من تخطيط لخدمة المصالح الاجنبية ، وتمزيق لوحدة الامة الاسلامية ، كمحاولة أساسية لتسهيل مهمة الاستيطان الاجنبى ، وضمان استدامته ·

على أن الاستعمار الاجنبى وهو يدنس بأقدامه القذرة أرض الاسلام الطاهرة ، لم يدخل فى زي عسكرى صرف، تدعمه الدبابة والمدفع ، بل انه حمل الى جانب العسكريين الغازيين « خبراء » مدنيين التحفوا بأزياء ثقافية ، وفكرية ، وايديولوجية مختلفة ، جاء هؤلاء الخبراء فى زي المعلم والطبيب ، والقسيس والسيكولوجى ، والمؤرخ ، والمتخصص فى الشؤون الاهلية، هؤلاء كلهم يحملون « الخبرة » و « المعرفة » ·

فتفنن الجميع متعاونين · عسكريين ومدنيين ، فى تقديم مختلف أنماط الحلول ، من أحلاف دفاعية ، وبرامج ثقافية ومخططات اقتصادية ، ومذاهب سياسية وايديولوجية ، مما أحدث لدى أبناء الامة الاسلامية ــ تحت وطأة الفقر ، والجهل ، والمرض ــ نوعا من الفراغ الثقافى والعقائدى ·

وهكذا تغلغلت فى نفوس وعقول الاجيال الاسلامية الصاعدة ، هذه السموم · فأصبحت هذه الاجيال فريسة صراع فكرى أحدثته التيارات السياسية والعقائدية الواردة فكان ما كان من تيار يمينى محافظ يعمل جاهدا على تعزيز قبضة الاحتلال ، والهيمنة الاستعمارية ، وبالمقابل تولد تيار يسارى معاد كبارقة أمل فى الخلاص من الاحتلال ، والتخلف الناجم عن هذا الاحتلال ·

وقد نتج عن تصادم التيارين ــ على أرض الاسلام ــ أن ولدت شعارات براقة تنادى بالخلاص من الاستعمار ، وتعمل لبناء المجتمع الاشتراكى الذى تسوده الكفاية والعدل ، والحرية ، ونبذ الاخلاق ·

ويلتفت المسلم فى غمرة هذه الاحداث كلها باحثا عن واقعه الاسلامى ، وعن مقومات شخصيته ، وعن وحدة أمته ، فيهوله أن التصدع قد أصاب كل هذه المقومات ، وان الانسان المسلم قد أصبح كل شيء الا أن يكون مسلما حقيقيا .

ولعل من نتائج هذا التصدع الذى مني به تفكير الانسان المسلم المعاصر، **انه قد فقد أهم خصائص مقوماته، وهي : صدق الارادة ، وصلابة الموقف ، والايمان بالمعتقد ..**

والمستعرض لتطور الاحداث فى العالم الاسلامى ، والعربى على الخصوص تهزه الهزائم التى مني بها الانسان المسلم فى ساحة المعركة ، بالرغم من القوة البشرية والعتادية التى يتوفر عليها الجيش الاسلامى ، فى مواجهة قوة قليلة العدد ، وربما العتاد أيضا . وتكاد قضية فلسطين تبرز كمحك رئيسى لصدق هذه الجدلية ، بالرغم من صراحة الآية : **ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ...** » الآية (1) .

ان الجيش الاسلامى دخل مع العدو الصهيونى فى معارك ثلاثة حاسمة . دخل فى 1948 وخرج يجر أذيال الهزيمة، والنكبة ، وضاعت الارض ، مع ملاحظة أن القيادة فى هذه المرة كانت قيادة يمينية ، بورجوازية ، محافظة .

وبعد عشرين عاما من الاعداد ، والاستعداد ، وبعد محاولة استخلاص العبرة من الهزيمة السابقة ، ومن سوء القيادة المهزومة ، وبعد مجيء قيادة عربية ثورية الى الحكم ... دخل الجيش المسلم الى المعركة عام 1967 ، تسبقه ألوية وشعارات النصر ، ويدعمه حماس الجماهير المتعطشة الى الثأر والنصر « **فما أغنى عنهم سمعهم ، ولا أبصارهم ولا افئدتهم من شيء ..** » **الآية** (2) .

وانسحب الجيش المسلم من المعركة شر انسحاب ، يجر أذيال الهزيمة والانكسار ، ويبشر بضياع مزيد من الارض ... ولم تجد القيادة الثورية التقدمية ، اليسارية ... وهكذا ضاعت الارض وضاعت فلسطين بين اليمين واليسار الاسلاميين .

التضليل باسم الدين

فى أعقاب هزائمنا المتكررة المتوالية، ونحن ما زلنا نحاول النهوض من كبواتنا، ومرارة سقوطنا، ظهرت الى الوجود فى سماء جزء من وطننا العربى الاسلامى، شعارات جديدة ظاهرها فيه الرحمة ، ولكن باطنها من قبله العذاب ، من هذه الشعارات شعار « دولة العلم والايمان » وشعار « الرئيس المؤمن محمد أنور السادات » وغيرها من الشعارات .

---

(1) الانفال : السورة (8) الآية 66 .
(2) الاحقاف : السورة (46) الآية 25 .

وتحت حماس هذه الشعارات خضنا معركة جديدة هي معركة رمضان · وكنا جميعا ونحن نستقبل طلائع المعركـــة ، واثقين من أن النصر هذه المرة سيكـون حليفنا ، لان هذه المعركة الفاصلــة ، ستمكننا بعد أن استفدنا من دروس الهزائم المتكررة ، ستمكننا من استعادة الارض السليبة ، والثأر للشرف المهان ··

وللحقيقـة التاريخيـة ، ان الجيش المسلم قد دخل المعركة يحدوه الامل فى النصر ، ولقد كان الجيش قاب قوسين أو أدنى من النصر ، ولكن القيــادة « المؤمنة » لم تكن مؤمنة بالنصر فحولت النصر الى هزيمة ، وهــا نـحن نعيش اليوم مضاعفات هزيمة حرب رمضان ·· وكانت زيارة القدس ، وجولات التزاور والتصالح والتفاهم على حساب المبـدا والشرف والقضية ·

وتتابع التضليل باسم الدين، فكانت مسرحية رفع المصاحف فى المغرب فى ما يسمى بالمسيرة الخضراء تضليـلا للجماهير المسلمة المسحوقة المغلوبـة على أمرها ، فى محاولة لخداعهــا وتلهيتها عن واقعها المر المؤلم ·

وفى شرق العالم الاسـلامى كـانت هناك فصول أخرى من مسرحية التضليل باسم الدين ·· فكان امبراطور ايـران « المسلم » وشاهها المخلوع ، يقــوم بحرب ابادة وتعذيب وتنكيـل ضــد الشعب المسلم الشقيق فى ايران وما ذلك الا أنهم رفضوا هناك الظلم والطغيان، وطالبوا بالاحتكـام الى كـتاب اللــه ، وسقط الآلاف من الشهداء المسلميـــن وقودا للثـورة الاسـلامية التى كـانت تتوثب للزحف ، والنصر ·

وازداد تمزق العالم الاسلامى تحت ضربات القيادات المنحرفة والمضللـــة باسم الدين · ففى مصر الازهر والحسين، وقع « الرئيس المؤمن » باسم « دولـــة العلم والايمان » اتفاقية « الصلح » مـع العدو الاسرائيلى فى كامب ديفيد ، على حساب المبدا والشـرف والقضيـة ·· وليت القضية التضليلية انتهت عنــد « الرئيس المؤمن » لقلنا انها محنـــة قيادات ، ولكن أعلام الامة الاسلاميــة ، أي علماءها فى الازهر خرجوا عـــلى المسلمين بفتوى غريبة ، يعلنون فيهـــا للناس باسم الدين ان « اتفاقية كـامب ديفيد » هي بمثابة « صلــح الحديبية » الذى عقده الرسول عليه السلام مـــع كفار مكـــة ·

ان النتيجة التى يمكن استخلاصهـا من هذه المظاهر السلبية كلها التى طفت على سطح الامة الاسلامية خلال القرن المدبر ، هي اننا قيادات وشعوبا قـــد تخلينا عن اسلامية المعركة ، فكنــا ندخل هذه المعارك ، فـاقدى الارادة ، معصوبى البصيرة ، مسلحين بمختلـف أنواع الاسلحة ، الا سلاح الايمـــان ، الايمان بالله والايمان بالنصر والقضية· ذلك ان المعـارك كـانت اما اقليـمية أو قومية ، ولكنها لم تكن أبدا اسلاميـــة وهذا عامل حاسم فى المعركة ·

انتصار باسم الاسلام

قد نظلم التاريخ لو أننا اكتفينا بسرد أمثلة من سلبيات واقع المسلمين ، في حين ان لتاريخ الامة الاسلامية ايجابيات تفرض نفسها على المحلل التاريخي . ولعل من أهم أحداث المد الاسلامي التي شهدها القرن الهجري الماضي ما يلي :

1 ـ استعادة معظم أجزاء الوطن الاسلامي التي كانت خاضعة للحكم الفرنسي أو الانجليزي أو الهولاندي أو الايطالي ، استعادتها للاستقلال والسيادة، وهو ما مكن أيضا من استعادة الموارد الطبيعية ، والامكانيات الاقتصادية الهائلة التي يتوفر عليها العالم الاسلامي وهكذا تحولت الدول الاسلامية التي كانت لا في العير ولا في النفير ، تحولت الى قوة اقتصادية يحسب لها كل حساب في واقع الاقتصاد العالمي .

2 ـ انفجرت في العالم الاسلامي ثورات كبرى غيرت مختلف المفاهيم الثورية والسياسية والعقائدية ، وكانت **هذه الثورات تحمل شعار الايمان والاسلام فجاهدت بالاسلام وانتصرت به .**

من هذه الثورات ثورة الجزائر العظيمة ، التي كنا فيها مجاهدين ، ولم نكن مجرد مناضلين أو مكافحين . وكان شعار « الله أكبر » هو الذي يعلو ولا يعلى عليه . كما ان اخواننا الذين يسقطون في المعركة لم يكونوا أمواتا فحسب ، بل كانوا شهداء ، وكان ذلك علامة مميزة من علامات ثورة الجزائر التي انتصرت بفضل الايمان ، رغم ضعف العدة والعدد .

ومنذ وقت غير قريب ، عادت التجربة الاسلامية من جديد ، تلقى درسا آخر على البشرية في الايمان والصمود ، والنصر ، فقد تعزز منذ أقل من سنة ، انتصار المسلمين أيضا ، بثورة ايران العملاقة ، تلك الثورة الاسلامية التي قادها الشعب الايراني المسلم تحت علم « آية الله » « ولا اله الا الله » . انتصرت الثورة الايرانية لانها كانت ثورة اسلامية ، تجاهد تحت لواء الاسلام واهب الارادة والحماس والثورة لمعتنقيه .. وفي هذا خير جواب لمن يزعم ان الاسلام دين يصد ذويه عن طريق التقدم . ان هذا الحماس الثوري الذي وهبه الاسلام لذويه في ايران ، هو الذي حدا بمبعوث الزعيم الكوبي فيدين كاسترو الى آية الله الخميني ، الى أن يقول : «اذا كان هذا هو الاسلام يمثل هذا **الحماس الشعبي ، وهذه الارادة في النصر ، فليحيا الاسلام » .**

ان الاسلام واهب النصر والايمان لمعتنقيه ، قد قام كما يقول الفيلسوف الانجليزي ارنولد توينبي بفضل خاصيتين فيه لسد حاجة المجتمع العربي هما التوحيد في الدين والنظام في الدولة .

ان الاسلام اذن دين ودولة ، وعلى هذه الثنائية يجب أن نقيم خصائص الاسلام ، ومن هذه الزاوية يجب أن ينظر اليه ٠

3 ـ ان انتصار الثورتين الاسلاميتين قد صاحبه أيضا بروز انتصارات أخرى اقتصادية واجتماعية وثقافية ٠ تمثلت على الخصوص فى بروز استراتيجية الموقع الاسلامى من الناحية الاقتصادية بفضل الامكانيات التى سبق أن أشرنا اليها ٠

الى هذا العامل الاقتصادى الهام ، يضاف عامل عقائدى آخر ، وهو ظاهرة عودة الشباب بالذات ، والمثقف منه على الخصوص الى حظيرة الاسلام ، مدفوعا بحماسه الكبير ، تحدوه الرغبة فى العمل الاسلامى ، وهذا فى حد ذاته عامل طمأنينة ، ويمن ، وضمان للمستقبل الاسلامى ٠

وهناك أيضا وعي المسلمين لواقعهم، تحت تأثير التطور الاجتماعى والثقافى والاقتصادى والسياسى الذى شهده المسلمون خلال عشرات السنين الماضية ٠ ان هذا الوعي قد جعل الجميع يدركون حتمية تحسين واقعهم المعاش وفى ذلك بداية ايجاب ، ونصف علاج كما نعتقد ٠

نحو منهج افضل

لعل هذه الحصيلة من السلبيات والايجابيات التى شهدها عالمنا الاسلامى، من شأنها أن تدعو كلها الى الالحاح على أمر بات ضروريا وحتميا وهو اعادة النظر فى المنهج المتبع على صعيد العالم الاسلامى بمنظور تجديدى ، علمى ، واقعى ٠٠ فذلك كله من شأنه أن يدفع بعجلة العمل الاسلامى الى الامام كمساهمة متواضعة فى وضع الخطة ، ورسم معالم الطريق التى نتطلع جميعا الى تعبيدها وتخليصها من كل المخارق والمناظر المؤذية ٠

فما هي ـ فى ضوء ما رأينا من امكانيات العالم الاسلامى اقتصاديا ، واجتماعيا وسياسيا ـ آفاق العمل الاسلامى ؟ وماذا يعنى المنهج الذى تدعو اليه ، ؟

ان تجديد منهج الدعوة الاسلامية الذى نتبناه ونداقع عنه وندعو اليه يتمثل فى عدة عناصر ، لعل أبرزها فى نظرنا ما يلى :

1 ـ العناية بالانسان ٠

ان مما لا جدال فيه ان الانسان الذى نتوجه اليه بالدعوة اليوم ، قد تغير فى كل مظاهر حياته عما كان عليه منذ قرن ٠ ومثل هذا التطور فى عقلية المعنى بالدعوة الاسلامية ، يتطلب ولا شك العناية بالداعى فى أسلوبه ومنهجه ٠ ذلك ان الدعوة الاسلامية الجديدة ، يجب أن أن تساير عصر التكنولوجيا ، وعقلية القرن الخامس عشر ٠

2 ـ احياء رسالة المسجد :

يلعب المسجد دورا هاما فى تبليغ الدعوة الاسلامية بحكم ارتباطه بالمجتمع ارتباطا وثيقا ٠ ذلك ان المسجد هو مركز هداية ، واشعاع واصلاح فهو جامع

للعبادة ، ومدرسة للثقافة ، ومعهد للتربية ، وندوة للتعارف ، وبرلمان للتشاور ومكتبة للمطالعة ٠٠٠

3 ـ الدعوة بأفضل الدعاة :

اذا كانت عقلية الانسان المدعوة للايمان قد تطورت واذا كان المسجد كمكان لهذه الدعوة قد اتسعت رسالته، فان من الضرورى والحالة هذه أن يصاحب ذلك أيضا تجديد فى اختيار الدعاة ، وذلك بتكليف أحسن العناصر وأنشطها للقيام بهذه المهمة ٠ فمهمة الوعظ ، والخطابة والتدريس فى المساجد تتطلب اعطاء هؤلاء الدعاة حرية التعبير عن حقائق الاسلام ، والتصدى لاباطيل خصومه ومكائد أعدائه ٠٠ وذلك كله يتطلب أسلوب الحوار والمناقشة، وهو ما تفتقر اليه الدعوة الاسلامية فى كثير من بقاعها ٠

4 ـ العناية بالتربية الاسلامية لدى الناشئة الاسلامية فى جميع مراحل تعليمها وتكوينها ، ففى ذلك خدمة للمجتمع والدين والانسانية ٠

هذه اذن انطباعات مسلم غداة اطلالة أولى خيوط فجر العام الهجرى الجديد ـ نسوقها للذكرى ونأمل أن تكون مساهمة متواضعة فى تحليل واقع الاسلام والمسلمين اليوم، خدمة للعقيدة ، وانقاذا للمسلمين من زيغ المادة والالحاد والضلال ، وانقاذا له أيضا من هوة السقوط فى العاطفيات السلبية ، والدوغماتيقية المشينة ، والجدلية العقيمة ٠٠

ورحم الله محمد عبده حين قال :

ولست أبالى أن يقال محمد
أبل أم اكتضت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه
مخافة أن تقضى عليه العمائم

من قواعد البناء لمنهج العمل في القرن الخامس عشر

د. أنور الجندي
عضو المجلس الأعلى للشؤون الدينية
(مصر)

ثلاثة عناصر تحتاج اليها الامة الاسلامية لتستوعبها وتضعها موضع التنفيذ اذا أرادت أن تحقق وجودها فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى :

أولا : امتلاك ارادة العودة الى « أسلوب العيش الاسلامى » والتحرر تماما من أسلوب العيش الغربى الذى يدفعها الآن دفعا الى الدخول فى مرحلة الترف والانهيار الاجتماعى تبعا للدور الخطير الذى تمر به الحضارة الغربية المنهارة والتى تعانى اليوم أزمتها القاتلة ·

ولقد كان المسلمون على مدى عصور النهضة والقوة لا يرون للترف ولا للمادة ولا لهوى النفس أو الترخص فى الامور والتراجع عن العزائم منطلقا فى حياتهم ·

فهم يأخذون الامور من تقاليد القوة والجرأة والاعتماد على الله تبارك وتعالى ولا يخافون فى الحق لومة لائم ويؤمنون بأن الموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم وان الفناء فى الحق هو عين البقاء وان من يحرص على الموت توهب له الحياة ومن هذا المنطلق القوي الجرىء دانت لهم القارات والممالك ·

وكان العدل الذى أقاموه هو المنطلق الذى دفع الناس الى الدخول فى دين الله أفواجا ·

وما اعتقد ان أسلوب العيش الغربى الذى فرضه النفوذ الاجنبى على بلاد المسلمين وأعانت عليه مقتبسات قشور الحضارة فى الترف والدعة والتراخى سواء فى الطعام أو الملبس أو المركب أو أدوات التسلى الا عاملا من عوامل انهيار العزائم والخوف من الاخطار والدعة والتسليم بالواقع الضعيف والقاصر ·

وما كان للمسلم الذى يؤمن بالله تبارك وتعالى أن يقبل الضيم أو يسكت عن الظلم أو يذهب مذهب التراخى والدعة والنوم وانما هو يقظان أبدا مقيم على ثغرة من ثغرات الاسلام فلا يؤتى من قبله صابرا مرابطا لا تكل أعصابه عن التحمل واليقظة وتوقع الاحداث ولقد كان المسلمون ابان الاحتلال الاجنبى قائمين على الدفاع والكفاح ولكنهم استلانوا واستناموا بعد أن حققوا الاستقلال وغفلوا عن أن عدوهم يدبر لهم ان تنهار قوتهم مرة أخرى بالغرق فى الترف والتراخى وتلك هي أزمة الحضارة الغربية الآن التى أصابتها بالتمزق ولا مخرج منها للمسلمين الا العودة الى الخشونة وملابس الجهاد والمرابطة فى ثغور الاوطان وثغور العقيدة نفسها ٠

ثانيا : القدرة على تحقيق الاصالة الفكرية بالعودة الى المنابع الاسلامية الثرة المستمدة من القرآن والسنة والتحرر من نفوذ الشبهات والسموم والايديولوجيات والمناهج الاجتماعية الغربية التى تحاول أن تقضى على « الذاتية الاسلامية » والطابع الاسلامى القرآنى الواضح الذى شكل به القرآن « الرجل المسلم » ليكون علامة بين الناس ونموذجا خاصا لا ينصهر ، ولا ينماع ولا يسقط فى أتون الاممية أو العالمية لانه مكلف بأن يحمل رسالة الله الحق بالتوحيد والعدل والرحمة والاخاء الانسانى الى البشرية بعد أن فشلت الايديولوجيات والمذاهب « اجتماعية وفردية ولبيرالية واشتراكية ووجودية فى أن تحقق له الطريق الى المجتمع الانسانى الطابع الربانى المصدر ٠

ولقد أوغلت البشرية فى طريق التيه بعيدا عن منهج الله حتى كادت أن تضل السبيل ولم يعد هناك من أمل فى عودتها الى الحق الا ذلك الضوء الضئيل السارى من بقاع أرض التوحيد ليعيدها مرة أخرى الى الحق والهدى ٠

ولكن أهل هذا الضوء ما زالوا فى مطالع القرن الخامس عشر غارقين فى الخلاف متمزقون فرقا ومذاهب لم يتجمعوا تجمع الحذر من الخطر حول وحدة الفكر الاسلامى التى شكلها لهم القرآن الكريم ودعاهم اليها الرسول العظيم ٠

وما تزال قدرتهم على التلقى من النبى العظيم بوصفه النموذج البشرى الامثل تطبيقا لمنهج القرآن ، ما تزال قدرتهم ضعيفة وما تزال ارادتهم عاجزة عن أن يكونوا ربانيين قرآنيين محمديين فى أسلوب الحياة والعيش وفى أسلوب الفكر بعيدا عن كل ما تحاول القوى الاجنبية غزوهم به :

«**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** » ولقد دعانا رسولنا الى أن نخالف أهل الكتاب فى طريق عيشهم وان نلتمس أسلوبا ربانيا قرآنيا ٠

وهذا كله يقتضينا أن نتحرر من الزيف والشبهات والسموم الناقعات الوافدة من الفكر البشرى الذى هو ركام الوثنيات القديم وعلم الاصنام اليونانية والمادية والمجوسية والباطنية وكلها مما يختلف مع منهج التوحيد .

ثالثا : القدرة على امتلاك المنهج العلمى فى التكنولوجيا والتجريب والمعامل وذلك لاقامة الحضارة الاسلامية القادرة على تحقيق الاسلوب الربانى فى العدالة الشاملة للبشرية كلها وتوزيع الثروة على كل أهل الارض « لكي لا تكون دولة بين الاغنياء منكم »

والمسلمون باجماع الرأي هم صانعو المنهج العلم التجريبى الذى قامت عليه الحضارة المادية الحديثة ولذلك فهم أحق الناس بالتماسه وهو الشىء الوحيد الذى يسمح لهم باستيراده على أن ينتقل الى أفق الفكر الاسلامى ليكون للناس جميعا والى أفق اللغة العربية ليدور فى فلك القرآن والعدل والرحمة والاخاء .

ولقد جاء الاسلام أولا ومنذ أربعة عشر قرنا بمنهج جامع للحضارة قوامه تحرير العقيدة من الوثنية وتحرير الانسان من عبودية الانسان التى كانت قوامه حضارات الرومان والفرس والفراعنة ثم جاء بشطر الحضارة الآخر وهو « المنهج التجريبى » استمدادا من القرآن : « **قل انظروا ماذا فى السموت والارض** » لاستخراج ما فى باطن الارض وتعميرها واقامة المجتمع الربانى على العدل والرحمة والاخاء الانسانى ثم زاغت حضارة الغرب عن هذا المنهج واعادة الوثنية والعبودية وجعلت مطامحها كلها فى اذلال الانسان للانسان وسيطرة القوي على الضعيف والاستعلاء بالجنس والعنصر وتكديس الثروات فى أيدى الافراد والامم دون بقية البشر ومن ثم حاقت بهذه الحضارات الازمات فانتقلت من الفردية الى الجماعية ومن الرأسمالية الى الاشتراكية دون أن يجديها ذلك نفعا فى تحقيق مطامح البشر واسعادهم .

ومن ثم فقد كان لزاما على البشرية أن تبحث عن منهج جديد يحقق لها الامن والسلام وليس هذا المنهج غير منهج الاسلام .

ولما كان على المسلمين أن يقدموا هذا المنهج الربانى الى البشرية واقامة الحجة به عليهم وهم لن يستطيعوا أن يقوموا برسالة التبليغ العالمى لدين الله الحق الا اذا أقاموا هم المجتمع الربانى ولابد من التحرر من هذه المحاذير الخطيرة التى دهمتهم والتى تضعهم الآن فى أغلال التقليد والتبعية للفكر الغربى الوافد سواء فى مجال الفكر أو العقيدة أو المجتمع ولذلك فان القرن الخامس عشر حفى بأن يمكنهم من تحطيم هذا القيد والانطلاق الى أمرين :

أولا : الى تطبيق الاسلام فى مجتمعاتهم .

ثانيا : الى تبليغ الاسلام الى العالمين .

الإسلام والنهضة الحديثة

الاستاذ عبود علواش
استاذ بجامعة الجزائر

لم يكن الاسلام مجرد عقيدة فحسب تعنى بالعلاقة بين الانسان وربه ، وكيف ينبغى أن تكون هذه العلاقة .. بل كان الى جانب ذلك شريعة الهية ترسم الطريق وتضع القوانين لبناء مجتمع يسوده العدل ويرفرف عليه الامن والاطمئنان ، ومن هنا كانت له رسالته الحضارية الهامة التى انتقلت بالمسلمين من حياة قلقة مضطربة تمزقها الاهواء والصراعات . وتتحكم فيها القوة الغاشمة ومنطق البقاء للاقوى الى حياة يمثلها القانون ويسيطر عليها منطق العدل والاخوة والمساواة .

نظر الاسلام الى الانسان نظرة تكريم باعتبار ما ينطوى عليه من طاقات مادية وروحية جبارة وما يشتمل عليه من قدرات واستعدادات تؤهله للسيطرة على الكون واخضاع الطبيعة لصالحه وصالح بنى جنسه فدعاه الى تنمية هذه القدرات بالعلم الدقيق والبحث العميق ، وحثه على امتحان ذلك كله بعقله واستخدامه فى كل ما يحيط به وما يصل اليه من نتائج .

كما رسم له الخطوط العريضة التى تنظم حياته وعلاقاته الاجتماعية انطلاقا من المجتمع الصغير - الاسرة - الى المجتمع الكبير ، وترك التفاصيل والجزئيات لاجتهاده وتكييفها طبقا للظروف ومقتضيات الاحوال - كل ذلك لعمارة الارض وتحسين سبل العيش والحياة - وفى كل ذلك كان الاسلام يحرص على الشورى فى القيادة واتخاذ القرار ، والعدالة فى الحكم وتطبيق القانون ، والنزاهة وحسن الاستقامة فى المعاملة والسلوك . وقد أدرك المسلمون الاوائل طبيعة الاسلام ومراميه البعيدة فراحوا يعملون على هديها لوضع اللبنات الاولى لدولة الاسلام العتيدة ، وحضارته الانسانية الشاملة . ولم يستنكف خلفهم من الاستفادة من تجارب الامم والشعوب الاخرى فأخذوا يدرسون ذلك التراث الضخم . ويعملون

على توجيهه وصبغته بالصبغة العربية الاسلامية الجديدة فاثروا بذلك تراثهم وحضارتهم التى استفادت منها الانسانية فوائد كبيرة • وكانت سندا لها عبر نضالها الطويل من أجل الازدهار والتقدم •

ولكن المسلمين فيما بعد مالوا الى حياة الدعة والخمول ، وانفصلوا عن تلك الحياة المليئة بالعمل الجاد والعطاء المستمر ، فخارت قواهم وتعطل ابداعهم، وزادتهم الصراعات السياسية والفوضى الاجتماعية وكوارث الغزو الاجنبى ضعفا على ضعفهم فاستسلموا لنوم عميق دام ما يقرب من ستة قرون • (1)

الا انه بالرغم من هذه المحن القاسية التى تعرضت لها الامة العربية الاسلامية والاحداث التى نزلت بها فانها لم تستطع القضاء عليها وعلى ما غرسه الاسلام فى نفوسها وما شادته النفوس المؤمنة العاملة بجهدها ودأبها • فقد بقيت تلك الروح الدينية الرباط المقدس الذى يربط بين ابناء هذه الامة المغلوبة على أمرها تلتجىء اليها كلما داهمها خطب فتجد فى كنفها القوة والصمود (2) كما بقيت بعض المؤسسات الاسلامية تؤدى رسالتها فى ضعف الا انها حافظت على تراث هذه الامة من التلاشى والاندثار ومكنت بعض ابنائها من أن يكونوا رسل النهضة والحضارة العربية الاسلامية الحديثة • لقد أدرك بعض رجال العلم والثقافة ممن أنجبتهم تلك المؤسسات ما تتخبط فيه الامة الاسلامية من فقر وجهل وما يسيطر على عقولها من خرافات وشعوذات فأقبلوا يلفتون الانظار الى هذا الواقع المزرى داعين الناس الى الاخذ بأسباب العلم والمعرفة والتمسك بأهداب الدين والرجوع الى منابعه الصافية البعيدة عن الشعوذات والخرافات التى أصبح السواد الاعظم من المسلمين يعتقد أنها من الدين والدين براء منها • (3)

أخذت هذه الافكار تسرى فى المجتمعات الاسلامية بالرغم مما تلاقيه من محاربة الحكام المستبدين ، واتباعهم من رجال الدين الرسميين الا أن الحجر على الافكار الاصلاحية لم يكتب له النجاح • وبدأت آثار هذه الافكار تجد صداها لدى الجماهير وفى كثير من الحركات التى قامت فى مناطق مختلفة من العالم العربى والاسلامى مطالبة بالثورة على الواقع ومحاولة تغييره •

ولعل أهم هذه الحركات جميعا الحركة الوهابية التى قامت فى الحجاز بزعامة ابن عبد الوهاب • لبست هذه الحركة لباس الدين واتخذت منه نقطة انطلاق لتغيير حالة العالم الاسلامى •• فدعت للعودة من جديد الى الدين الاسلامى الصحيح ونبذ ما علق به من أوشاب عصور الضعف والانحطاط وما أضافه اليه بعض الدراويش من أدعياء الدين ، كما دعت الى ما ندب اليه هذا الدين من حب للعلم وحث على

طلبه واستعمال للعقل وتكريمه والتحلى بالاخلاق الرفيعة والخلال الكريمة . وبالجملة كانت الحركة الوهابية عودة الى الدين من جديد ومحاولة الانطلاق منه كما انطلق رواد الاسلام الاول لبناء دولة الاسلام ووضع اساس حضارته . وقد أحدثت هذه الحركة هزة عنيفة فى المجتمع العربى الاسلامى واشراب الناس الى ما تحمله من مبادىء وأفكار وقيم فتاثر كثير منهم بدعوتها الامر الذى دعا العثمانيين الى الاسراع بمحاصرتها ومحاولة القضاء عليها فى مهدها ، لما تشكل من اخطار على الخلافة العثمانية ذاتها وتعرضها للخطر . (4) الا أن الشعور بالتغيير اضحى حديث الناس، والمطالبة بالاصلاح اصبحت الشغل الشاغل لاحرار الفكر خاصة بعد أن تأكد لهم تحفز الغرب للانقضاض على العالم الاسلامى بغية التهامه .

كانت اذا هذه الافكار والدعوات تعمل فى المجتمع الاسلامى وتجد صداها الكبير داخل جماهيره يحدوها الامل فى تغيير واقعها واعادة العزة والسيادة التى حققها الاسلام لها . وذلك قبل أن ترى مدافع نابليون وهي تدك مدن مصر والشام لزرع الخراب والدمار بها وتثبيت دعائم الاستعمار الغربى فيها . ومن هنا يمكن القول بأن هذه الحركات والافكار التى مهدت لها تعد البداية الحقيقية لليقظة الاسلامية ، (5) لا ما يذهب اليه بعضهم من جعل حملة نابليون البداية الحقيقية لعصر النهضة الحديثة ، نظرا لما رافقها من تنظيمات عسكرية وما جهزت به من أسلحة حديثة ، وما صاحبها من علماء وادباء ثم ما أحدثته فى مصر من مؤسسات وتشريعات لم يكن للمصريين عهد به فكانت هذه الاعمال جميعا الصدمة القوية التى أعادت للمسلمين والعرب وعيهم الحقيقى بواقعهم المتخلف ودفعتهم الى التخلص من هذا الواقع عن طريق تبنى أساليب النهضة الاوروبية فى البناء . (6)

اننا لا ننكر دور النهضة الاوروبية وتأثيرها على النهضة العربية الاسلامية الحديثة . لانه ما من نهضة أو حضارة الا وتأثرت بغيرها من النهضات الانسانية واقتبست منها ، كما اننا لا ننكر دور الحملات العسكرية وتأثيراتها عبر التاريخ ، واستفادة المتصارعين من انجازات بعضها فى مختلف المجالات ولكننا نعتقد أن اعطاء هذا القدر من الدعاية للحملة الفرنسية فى تغيير عقلية الامة ، وسرعة اقبالها على منجزات الحضارة الغربية وتمثلها لها دون أن تتقدمها مرحلة من الوعى والاستعداد لقبول التغيير ـ أمر ينطوى على كثير من المبالغة التى لا يقرها واقع التاريخ ، ولا طبيعة المرحلة التى وقعت فيها هذه الحملة ، والاهداف التى قامت من أجلها .

ذلك ان الحملة الفرنسية كانت كغيرها من الحملات الاستعمارية التوسعية وان حاول قائدها لبوس مسوح الرهبان ،

والتظاهر بالروح الانسانية لانقاذ المصريين من ظلم المماليك والاتراك العثمانيين والقضاء على الجهل والاستغلال اللذين كان يعانى منهما المصريون . وما كان لحملة هذه أهدافها أن تكون فاتحة للنهضة أو بادرة خير يمكن للمصريين الاستفادة منها والاستعانة بها للخروج من تخلفهم . ولعل ما قام به نابليون وجنوده من فضائع ومنكرات بعد ثلاثة أشهر فقط من احتلاله لمصر تدل على مدى نواياه (الطيبة) ، لمصر ، ورسالة التمدن التى يحملها اليها .

على ان الحملة من ناحية أخرى لم تستمر طويلا بفضل المقاومة الشعبية لها من جهة والصراع القائم على مناطق النفوذ بين فرنسا وانجلترا من ناحية أخرى الامر الذى لم يمكن هذه الحملة من تثبيت دعائمها وخلق قاعدة صلبة للاستعمار الفرنسى يستطيع بواسطتها احتواء الشعب المصرى ، وتكييفه مع المعطيات الاستعمارية الجديدة وجعل مصر مركزا من مراكز الثقافة الاوروبية الوافدة بحيث تمكن الشعب المصرى من امتلاك أسباب النهضة الاوروبية الحديثة . (7)

وأخيرا فان اعطاء هذه الحملة ذلك الحجم الواسع والدعوى العريضة انكار سافر لامكانيات الامة الذاتية ، واجهاض للحركات والدعوات التى كانت تنادى بضرورة التغيير والاخذ بأسباب التقدم ، وما من شك فى أن الشعور بالتخلف والرغبة الملحة فى الخروج من دائرته يعدان الاساس الحقيقى لظهور أية نهضة ونجاحها . لانهما يدلان على نضج الشعب وتقبله لاي حركة اصلاحية أو ثورة اجتماعية . وذلك ما كان يفتقده العالم الاسلامى قبل ظهور هذه الحركات والدعوات .

ومهما يكن من أمر فقد تمكنت هذه الحركات من فرض كثير من الاصلاحات على الدولة العثمانية ولكن هذه الاخيرة كانت قد بلغت درجة كبيرة من التدهور والفساد لم تمكنها من مواكبة الاحداث والاخذ بأساليب النهضة الحديثة فى بناء النهضة العربية الاسلامية الشاملة الامر الذى أدى الى سقوطها واقتسام ممتلكاتها من قبل الاستعمار الغربى فى منتصف القرن التاسع عشر وبذلك دخل العالم العربى والاسلامى فى مرحلة جديدة من مراحل تطوره ونضاله .

أمام هذا التكالب الاستعمارى ، والتهامه لمناطق عديدة من العالم الاسلامى تحرك شعور الامة الدينى والوطنى من جديد وقامت جماعة من المصلحين تدعو الى جمع الكلمة ووحدة الصفوف لمواجهة الغزو الاستعمارى البشع . وكان هؤلاء المصلحون على درجة كبيرة من الوعي والايمان والالمام بالمعطيات الراهنة ومن ثم كانت دعوتهم تتسم بالنشاط الشامل والوعي الكبير . بحث هؤلاء أسباب ضعف العالم الاسلامى

وتأخره كما حاولوا استجلاء قوة الغرب وتقدمه ، ودراسة مختلف الوسائل والطرق لاستعادة أمجاد الامة العربية الاسلامية والخروج بها من هذا الضعف المشين ·

كان دعاة الاصلاح فريقين : فريق تمحور حول جمال الدين الافغانى وتبنى آراءه الاصلاحية · وهي آراء تنطلق مرة أخرى من الدين واستلهام روح الماضى مع الاخذ بالتطورات العلمية الحديثة التى آتت أكلها فى الغرب · وفريق آخر كان من أولئك الذين أوتوا نصيبا من الثقافة الاوروبية واحتك بعض رجاله احتكاكا مباشرا بالمجتمعات الغربية ولمسوا عن كثب حقيقة التطورات التى تشهدها تلك المجتمعات فحاولوا تقليدها وبناء مجتمعهم المتخلف على غرارها · وقد تطرف بعض من هؤلاء فدعوا الى الانسلاخ من كل أثر للماضى والارتماء فى أحضان النهضة الاوروبية وتبنى مختلف المبادىء والاسس التى قامت عليها · (8) الا أنه بالرغم من هذا الاختلاف فى المنطلق وبعض الوسائل فان نقاط الالتقاء بين الفريقين كانت أكثر من نقاط الاختلاف ·

لئن دعا الفريق الاول للانطلاق من الدين واستلهام تراث الماضى فلانه يقدر الدور الذى يلعبه الدين فى بناء المجتمعات وتماسكها والحفاظ على وحدتها كما انهم فى دعوتهم هذه لم ينظروا الى الدين فى صورته التى بلغها ابان عهود الضعف والانحدار · وما ألحق به من أفكار وصور لا تتلاءم مع جوهره الاصيل وروحه المتحررة كما انهم لم يغمضوا أعينهم على حقيقة التطورات الغربية والاسباب الكامنة وراءها ـ وهكذا بعد البحث الدقيق لاوضاع العالم الاسلامى تمكن هؤلاء من وضع الايدى على الادواء والعلل التى كانت السبب فى تقهقره وتخلفه وجعله فى النهاية لقمة سائغة للغرب وأطماعه ·

لقد رأى هؤلاء أن سبب الانتكاسة التى يعانى منها العالم العربى الاسلامى يكمن فى الاستبداد السياسى والحكم المطلق الذى يسخر مقدرات الامة لصالحه وصالح الجماعة المحيطة به ومن تم نادوا بالعودة الى الشورى والديموقراطية التى نادى بها الاسلام واحترمها العقلاء كي تتمكن الامة من اختيار الرجل المناسب الذى يجسد آمالها ويحقق مطامحها واحلامها فى الحرية والعدالة الاجتماعية فلا تستأثر جماعة بخيرات الوطن · وتنعم بحياة الرفاهية بينما تعيش غالبية المواطنين تكابد آلام البؤس وجحيم الشقاء · وقد لاحظ الكواكبى هذه الظاهرة فى المجتمع الشرقى فندد بها وهاجم الحكومات التى تتجاهل هذه المأساة وتعمل على زيادة تعميقها فقال ساخرا منها : « لقد جعل الدين الاسلامى فى أموال الاغنياء حقا معلوما للفقراء ولكن الحكومات الاسلامية قلبت الاوضاع فصارت تأخذ الاموال من الفقراء وتعطيها للاغنياء » · (9)

كما هاجموا تلك الدعوات التى يلوذ بها الحكام المستبدون من أنهم انما يقومون بممارسة سلطتهم بموجب الحق الالهى الذى منح لهم كي يخدروا الجماعة الاسلامية ويحملوها على قبول سياستهم الجائرة وعدم محاربتها لهم ، ولذلك نجد سعيد البستانى يهاجم هذه الدعوى ويؤكد أن « ما رسخ فى عقول الملوك من حق سماوى أعطته لهم العناية الالهية انما هو حق منحته لهم الغلبة ، ، والغلبة لن تكون يوما منحة الهية » · (I٥) والاستبداد عدو المعرفة والعلم يعمل بكل امكانياته على بقاء الجماهير أسيرة الجهل حتى يسهل عليه حكمها وبالتالى توجيهها كما يشاء ، دون أن تجد مقاومة أو نقدا لاعماله ، ويوضح الكواكبى حقيقة هذه الظاهرة فيؤكد أن الاستبداد لا يعيش « ما لم تكن الرعية تتخبط فى ظلام الجهل ـ فأخوف ما يخافه المستبدون من العلم أن يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل » · (II) ومن هنا نادى هؤلاء المصلحون بفتح مجالات التعليم وتمكين أبناء الامة من حقهم المشروع فيه لانه أساس التكوين وصنع المستقبل ولم يقتصروا فى دعوتهم على التعليم النظرى بل دعوا الى ربط ذلك بالعلوم العملية التى بواسطتها يسيطر الانسان على الطبيعة ويستغل طاقاتها ومواردها لتقدم الامة وازدهارها أسوة بما وصل اليه التعليم فى أوروبا وما نجم عنه من اختراعات وابتكارات فى مجال التقنية والتصنيع ·

ولم يقصروا دعوتهم على تعليم الذكور بل دعوا الى العناية بالمرأة وتعليمها واخراجها من ذلك السياج المحكم الذى ضرب حولها لتصبح مجرد أداة للتفريخ والانتاج بعيدة عن واقع العصر ومتطلبات التربية الحديثة للاجيال وضرب هؤلاء المثل للناس بالمرأة المسلمة فى الماضى والاسهامات التى كانت تسهم بها فى صنع الاجيال · وحل كثير من المعضلات التى يواجهها المجتمع وبذلك لم تختلف عن أخيها الرجل الا فى الحدود الطبيعية ، ولكن عصور الظلام أجبرتها على النزول من مكانتها وفرضت عليها أن تكون « رهينة المحبسين » البيت والجهل · وبذلك شلت نصف طاقة المجتمع · وفشلت التربية البيتية فى صنع الجيل الذى يواكب تطورات الحياة ويكون عضوا فاعلا فيها ·

ولم يغمض هؤلاء أعينهم عن الجمود الفكرى الذى استشرى فى الامة بفعل الجهل من جهة وغلق باب الاجتهاد والحجر على العقول من جهة أخرى فحاربوا هذه الظاهرة المشينة ، وأكد جمال الدين الافغانى أن باب الاجتهاد مفتوح أمام من توفرت فيه شرائطه ملفتا نظر المستنيرين الى ما سببه الجمود الفكرى والعكوف على رأي السابقين ـ رغم تغير الظروف ـ من مآسى التأخر

والانحطاط · ودعا الى حرية العقل واستنباط القوانين التى تتلاءم مع المشاكل والظروف الراهنة حتى يتمكن العقل الاسلامى الحديث من الخلق والابداع كما أسهم العقل الاسلامى فى الماضى ·

وكما تنبه المصلحون الى خطورة الاستبداد على العلم والعقل تنبهوا أيضا الى خطره على الاخلاق وهي أجدى الدعائم الاساسية الهامة فى بناء المجتمعات وبقائها ففى ظل الاستبداد يتوارى الصدق · وتنعدم المروءة ، وتقبر الشجاعة ، ويشيع الرياء · يقول الكواكبى واصفا أدواءه الاجتماعية انه : « يرغم الاخيار منهم على الفة الرياء والنفاق ، ويعنى الاشرار على اجراء ما فى نفوسهم آمنين حتى من الانتقاد لان أكثر أعمالهم تبقى مستورة ·يلقى عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة » · (12)

كانت هذه الآراء الاصلاحية بالرغم من تباين اتجاهات بعض أصحابها واختلافهم فى الوسائل البؤرة التى جمعت حولها كثيرا من رجال الثقافة والفكر ، ومكنت من جلب كثير من الانصار والاتباع فى مناطق مختلفة من العالم الاسلامى فاتسع بذلك نطاق الدعوة الاصلاحية وتغلغل فى أوساط الجماهير فازداد وعيها ، وايمانها بحريتها ووحدة مصيرها الامر الذى مكن التلاميذ المتأخرين من استغلال هذا الوعى وتوجيهه لمحاربة الاستبداد والاستعمار والحصول على الاستقلال وارساء دعائم النهضة العربية الاسلامية على أسس من الحرية الحقة التى أصبحت الجماهير هي سيدة مصيرها ، والعدالة الاجتماعية المستنيرة التى تقوم فى ظلها الجماهير باستغلال مواردها الاقتصادية والاستفادة منها فى ايجاد عوامل الرفاهية والتقدم لها ·

وما من شك فان احتكاكها المباشر بالغرب مكنها من الاستفادة الواعية من منجزاته التقنية ومحاولة استخدامها لنموها والخروج من التخلف الذى فرض عليها ، وها هي نتائج تلك الآراء تظهر كواقع ملموس فى حياة هذه الامة وسعيها لامتلاك مختلف أسباب التقدم، ومع مسيرة البناء الحثيثة تبدو لنا مدى قوة تلك الاسس التى وضعها الاسلام وقامت عليها مدنيته · وقدرة تلك الاسس على الاستمرار والفاعلية فى بناء النهضة العربية الاسلامية الحديثة واثرائها ، كما انها كانت من أهم الاسباب فى المحافظة على شخصية هذه الامة ، وعصمتها من الانفصال عن ماضيها ، وعوامل الذوبان التى تعرضت لها · وفى كل هذا دليل حي على مدى مواكبة الاسلام لمختلف التطورات وقدرته على التفاعل مع كل التيارات الحضارية النافعة ، ومدها بكل وسائل التطور والنماء ·

هـوامش البحــث :

1 ـ الاسلام بين أمسه وغده : د. محمود قاسم ص 52 ـ 54 الانجلو المصرية ـ القاهــــرة

2 ـ المصدر السابق نفسه ص 160 ـ 162 .

3 ـ المصدر السابق نفسه ص 32 ـ 34 .

4 ـ التاريخ الموحد للامة العربية : د. على حسنى الخربوطلى : ص 197 المطبعة الثقافية ـ القاهرة 1970 .

5 ـ المصدر السابق نفسه ص 210 ـ 211 .

6 ـ د. فيصل السامر : العرب والحضارة الاوروبية : ص 44 ـ 46 منشورات وزارة الاعلام ـ بغداد 1977 .
وانظر أيضا : د. فاروق أبو زيد : عصر التنوير : ص 15 ـ 21 بيروت 1978

7 ـ التاريخ الموحد للامة العربية ص 211 .

8 ـ الاسلام بين أمسه وغده : ص 163 .

9 ـ رواد النهضة الحديثة : محمد الشرقاوى . ص 64 ـ القاهرة 1969 .

10 ـ د. فاروق أبو زيد : عصر التنوير . ص 97 .

11 ـ المصدر السابق نفسه . ص 100 .

12 ـ المصدر السابق نفسه . ص 100 .

سيصدر قريبا كتاب :



في 5 مجلدات (بالعربية)



العالم الاسلامي بين مواجهة التحدي والخلق الحضاري

الاستاذ عبد اللطيف عبادة
نائب بالمجلس الشعبي الوطني
(الجزائر)

من قوانين العمران العزيزة على ابن خلدون « ان المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » ٠ وساد هذا المنطق الجدلى العالم الاسلامى مدة طويلة من تاريخه المعاصر فتشبه بالغرب فى كيفيات التفكير وكيفيات العمل وفى النظم السياسية ٠ غير أن تعمق الوعي السياسى والايديولوجى جعل العالم الإسلامى يواجه التحدى الغربى الذى لا يجده على الصعيد المادى والسياسى فحسب بل يجده أيضا على الصعيد العقائدى ٠ واذا اقتضت المواجهة شيئا فانما تقتضى خلق وابداع كيفيات تفكير وكيفيات عمل نوعية نابعة من شخصيته وأصالته ٠ ذلك أن حركة المواجهة ليست حركة سلبية بحتة ترفض ما يرد الى العالم الاسلامى من الغرب بل هي تفاعل وأخذ وعطاء ونقد بناء يمهد السبيل الى ايجاد أسلوب حياتى نابع من الشخصية والتاريخ الخاصين بالعالم الاسلامى وهي بالاضافة الى ذلك نقد ذاتى اذ البناء يقتضى تقوية الامكانيات الذاتية وصقلها وتنقيتها من الشوائب وابرازها من حالة الكمون الى حالة الفعل ٠

بدأ العالم الاسلامى فى مواجهة التحدى الحضارى الغربى منذ بزوغ حركة النهضة فى رقعته ٠ وكانت بداية المواجهة فى شكل نقد ذاتى اذ تقتضى حكمة الله العلي القدير أنه « **لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » وكان منطلق المواجهة أيضا من التشخيص الحقيقى للداء العضال الذى يعانى منه العالم الاسلامى والذى ينخر جسمه فيصيبه الوهن والضعف ٠

وأحرى بنا أن نقارن العالم الاسلامى فى بداية نهضته ببوادر النهضة فى العالم المسيحى خلال العصور الوسطى على ألا يعزب عن

بالنا أثناء اجرائنا لهذه المقارنة الابعاد الحالية للتحدى التى لا يمكن أن نقول عنها الا أنها عملاقة ، والصفات المميزة لكل من الايديولوجية المسيحية والعقيدة الاسلامية ·

كما أنه يجدر بنا أن نعترف بوجود فوارق بين مختلف الاقطار الاسلامية ان فى ميدان النقد الذاتى أو فى ميدان تشخيص الداء ووصف أعراضه أو فى ميدان مواجهة التحدى أو فى ميدان الخلق الحضارى · فحركة النهضة فى باكستان تختلف عن حركة النهضة فى المغرب الاسلامى · واختلافهما ناتج عن اختلاف الظروف والمشاكل · غير ان هذه الفوارق ليست جوهرية الى حد يجعلنا نتكلم عن الاسلام الافريقى والاسلام الايرانى والاسلام الآسيوى كما يحلو لبعض الانثروبولوجيين من المستشرقين · فالعالم الاسلامى واحد بماضيه وبمشاعره وبآماله وهو واحد فوق كل ذلك بوحدة الكتاب الذى لم يلحقه تحريف · وان اختلفت التأويلات فستبقى مجرد تأويلات قد تصمد أمام التاريخ والاجيال أو لا تصمد · وكان على العالم الاسلامى أن يواجه التحدى على جميع الجبهات والاصعدة وعلى وجه التحديد كان عليه أن يقف بحزم ضد الغزو العسكرى والهيمنة الاقتصادية والغزو الفكرى وضد تسرب العادات والتقاليد الغربية الى المجتمع الاسلامى، وكذا الانحلال الاخلاقى وتفسخ الاواصر العائلية · كما كان لزاما عليه مواجهة مصيره بعزم لا يلين بمواجهة التخلف الاقتصادى والجهل والمرض ·

وقد كان الغرب آنذاك يدافع عن فلسفة عرقية ورجعية مفادها أن العالم صنفان : بدائى ومتحضر ، ديكارتى الاستدلال وخاضع لذهنية ما قبل المنطق ، متحرر من ربقة التقاليد والخرافات ومتشبث بها · وهم لا يقفون عند هذا الحد بل يكادون يعتقدون أن هذه الصفات جبلية لا تزول بمفعول جدلية التطور · وينيطون بأنفسهم مهمة تحضير هذه الاقوام « المتوحشة » ·

والتحضير فى نظرهم غاية نبيلة ومهمة أخلاقية تبرز جميع الوسائل اللاأخلاقية التى تبذل لاجل تحقيقه سواء تمثلت فى احتلال الوطن بالقوة أو فى نهب الخيرات أو فى تقويض مقومات شخصية العالم الاسلامى وهويته ·

فى حين أن العالم الاسلامى انقسم فى مواجهة التحدى الحضارى الغربى شيعا وأحزابا : فمنهم دعاة التغريب ومنهم الجموديون الوثوقيون ومنهم دعاة الاصلاح وقادة الثورات · والحق يقال أن كلا من دعاة التغريب والجموديين الوثوقيين يمثلون مواقف سلبية · فدعاة التغريب يرفضون الاعتراف للاسلام ومبادئه بقدرة التلاؤم مع عصرنا الحالى لذلك ينسلخون منها ويتنكرون لها ويتبنون مواقف مستوردة من المادية الجدلية أو من البراجماتية أو من العلمانية أو من شتى الفلسفات التى

لا تنسجم وتراثنا الحضارى • ويرون أن طريق الخلاص هو طريق التقليد الاعمى للغرب وانه أحرى بالبلدان الاسلامية أن تشارك الغرب حلو الحياة ومرها • أما الجموديون الوثوقيون فقد تشبثوا بالماضى ورفضوا التكيف مع متطلبات العصر • غير أن المتشبثين بالخرافات والاساطير هم أخطر أصناف الجموديين • ذلك أن الجموديين الخلص يقضون بالضرورة وفى يوم من الايام الى خلق كيفيات تفكير وعمل أصيلة ووفية لمبادىء الاسلام الحنيفة •

وأما دعاة الاصلاح وقادة الثورات فقد عمدوا الى تغيير الواقع بطرق مختلفة • ففى حين عمد دعاة الاصلاح الى تعليم الجماهير الاسلامية روح الشريعة الاسلامية والى تزويدها بفكر نقدى يجعلها تنفض عنها غبار الجمود والخمول والتواكل والركون الى الحلول السهلة والبدع والخرافات • وعملوا أيضا على تعميق الوعي السياسى والاجتماعى والاخلاقى لدى الجماهير الاسلامية • وأزاحوا الشبهات التى أثارتها أقلام أجنبية أو اسلامية حول الرسول (ص) وصحابته وحول التاريخ والفكر الاسلاميين • وتصدوا بشجاعة لحملات التنصير والمسخ الثقافى ولحظر تعليم الاسلام واللغة التى جاء بها : غير أن الاصلاح بدوره اتخذ أشكالا وصورا اصطبغت بصبغة العصر والمصر الذى ظهر فيه • ومجمل القول أن دعاة الاصلاح ركزوا حركتهم على التربية والتعليم والتوعية والوعظ والارشاد وكان لذلك كله أثره البالغ فى تنبيه الجماهير الاسلامية من غفوتها •

أما قادة الثورات فقد قاموا بما عجز عنه رجال الاصلاح والدعوة فحققوا دعوتهم فى جزء كبير منها اذ عملوا على تحقيق الاستقلال السياسى وأقبلوا على انجاز برامج ومخططات ترمى الى الاستقلال الاقتصادى والرقي الاجتماعى• غير أن المشكلة المطروحة على الثورات التى ظهرت فى العالم الاسلامى تتمثل فى مدى تشبثها بأصالتها الاسلامية وقيمها الروحية • وقد تاهت بعض النظم السياسية فى معضلة شائكة تتمثل فى التوفيق بين النظم السياسية الوضعية وركائز السياسة الاسلامية المنصوص عليها فى القرآن والسنة النبوية على غرار حركة التوفيق بين الحكمة والشريعة التى كانت محور تفكير بعض أتباع أرسطو من فلاسفة الاسلام • وقد ادعت نظم أخرى الصفة الاسلامية غير أنها لا تعدو أن تكون سوى خليط بين الليبيرالية والاقطاعية يرتاد قادتها كباريهات الغرب ويشترون عماراته ويودعون أموالهم الخاصة فى بنوكه • ولقد أثبتت التجربة فعالية الاسلام فى المجال السياسى والاقتصادى والاجتماعى فراح الكثير من المنظرين الليبيراليين والماركسيين يراجعون نظرياتهم ويعترفون للاسلام بثوريته ونجاعته •

فجارودى Garaudy مفكر شيوعى يعترف للاسلام كعامل ذاتى بمفعوله الكبير فى تفجير الثورات ويستشهد لذلك بالثورات الجزائرية والليبية والايرانية • ذلك أن الثورة بدون عقيدة دينية فى نظره هي ثورة تفتقر الى طابع انسانى • « **فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** » • واضطر من وراء ذلك الى تصحيح الادعاء الذى صرح به بعض الماركسيين اقتداء بأبى الشيوعية ومؤسسها الاول والقائل بأن الدين عفيون الشعوب • فقال بأن الدين قد يستغل من طرف بعض الحكام لاخضاع الرعية غير أنه فى صميمه صرخة المستضعفين ضد قوى الظلم والطغيان • ولا أدل على ذلك فى نظره من حركة طوماس منزر Thomas Munzer

هنا بالذات نرى أنه من الضرورى أن نقف وقفة قصيرة عند أشكال التحدى التى واجهها العالم الاسلامى • لقد اكتست الهجومات ضد الاسلام أشكالا متنوعة متراوحة بين الاحتلال العسكرى للبلدان الاسلامية والغزو الفكرى والايديولوجى : فالاستعمار والامبريالية والصهيونية والصليبية والشيوعية والفرنكفونية والانجلوفونية والبراجماتية والاستشراق والتبشير كلها حاولت أن تحد من عظمة المد الثورى الاسلامى وأن تطفىء نوره **والله متم نوره ولو كره الكافرون** • وهكذا بقي المصلحون والثوار فى جميع أنحاء العالم الاسلامى يرفعون لواء الدعوة والجهاد من أجل تصحيح الاوضاع فى العالم الاسلامى • وان معظم الحركات التحررية التى قامت فى العالم الاسلامى رفعت شعارات اسلامية بحتة وحركتها العقيدة الاسلامية السمحة ، ذلك أن الاسلام لا يرضى بالعبودية لغير الله • ألم يفضل الاسلام المؤمن القوى على المؤمن الضعيف ؟ بل ، ألم يحرض المسلمين على اعداد ما استطاعوا من قوة لاعدائهم ؟

ان الغزو الفكرى هو الذى أغرق العالم الاسلامى الحديث فى مشاكل زائفة ومارس ضغوطا قمعية على طاقاته الابداعية ومبادراته الخلاقة التى يمكن أن تجد حلولا مناسبة للظروف المناسبة من المنظور الاسلامى النقي • وتخبط العالم الاسلامى فى معضلات وهمية أهمها :

ــ هل تحرير المرأة أمر مشروع دينيا ؟ وهل تساوى المرأة الرجل ؟

ــ هل يتنافى الغاء الملكية مع ما ورد فى القرآن والسنة من تعاليم •

ــ هل يساير الدين روح العصر ؟ وهل يتفق مع العلم ومع هذا النظام السياسى أو ذاك ومع هذه القوانين أو تلك ؟

ــ هل شرع ديننا الحنيف الحدود لعصر ومصر معينين أم شرعها لكل عصر ومصر ؟

ــ هل للمحرمات الاسلامية أساس علمى ؟ وهل يسمح تطبيقها بمواكبة ركب العالم المعاصر ؟

ـ هل يمكن للعالم الاسلامى أن يحل النقائض بين الانتاج الاقتصادى والذهنية الدينية ، بين الحياة الصناعية وممارسة العبادات ؟

وهذه أسئلة كما نرى تندرج فى الاطار التقليدى الذى ابتدعه المشاؤون المسلمون وهو التوفيق بين الحكمة والشريعة ، ويمكن أن نطلق عليه فى الوقت الحالى اسم التوفيق بين الاسلام والنظم الوضعية الحديثة • وكان الاجدر بنا نحن المسلمين أن نفهم مقاصد الاسلام فى كل مجال من المجالات قبل أن نتحدث عن التوفيق ذلك أن النظم الوضعية متناقضة بالضرورة : فهذا يقول بالغاء الملكية وذاك يقول بحمايتها وتقديسها ، وهذا يقول بالحرية المطلقة للفرد وذلك يقول بضرورة توجيه الطليعة الثورية للجماهير الواسعة من الشعب • وكان الاحرى بنا أن نعمق المفاهيم الاسلامية قبل أن نحكم عليها أو لها •

وكان ينبغى على المفكرين المسلمين فى نظر الاستاذ مالك بن نبى ألا يقلدوا كما يفعل العوام • ولا ينبغى أن يشل حركة تفكيرهم ايمانهم وتصديقهم بأنه ليس فى الامكان فى ميدان الفكر الاقتصادى الاتيان بأبدع مما كان • فالمفكرون السابقون ما هم الا بشر مثلنا لهم محاسنهم ونقائصهم • وعلينا اذن أن نتحذر من الوقوع فى نقائصهم على أنها شر لابد منه كما يقول البعض • فلا يجوز لنا أن نقلد الرأسمالية فى اباحتها ولا المادية الجدلية فى الحادها • والمهم أن تتوفر الارادة : ارادة التغيير والثقة بالنفس ومعها تذلل جميع الصعوبات بدون استثناء •

وكأنى ببعض دعاة التغريب يريدون أن يتنصلوا من المبادىء الاسلامية فيهرعون الى النظم الوضعية ويأخذون منها ما يأخذون دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تعميق فهمهم للمفاهيم الاسلامية ••• وبعد ذلك فقط بدافع من عاطفة الشعور بالذنب أو خوفا من الجماهير الاسلامية يلجأون الى « أكذوبة التوفيق » ، أما المشاؤون القدامى فقد كانوا يخافون من التفكير والرمي بالزندقة •

والحل الصحيح يكمن فى الخلق الحضارى أعنى فى ابداع حلول أصيلة تتماشى وروح الشريعة الاسلامية وتستجيب والاوضاع الجديدة للعالم الاسلامى • اذ من الضرورى ابداع حلول لمشاكل الاقتصاد والانتاج والاكتفاء الذاتى من منظور اسلامى • اذ النظم الوضعية تتحمس وتنسى • فأين نحن يا ترى من نداء ماركس بالغاء الملكية والدولة والجيش مع حلول الشيوعية ؟ ! لم يعد هذا النداء سوى عبارة عن نظرة طوبوية لا أساس لها من الواقع بعد أن رفضتها كل المجتمعات الشيوعية المعاصرة • وأين نحن من مقولة ماركس « الدين عفيون الشعوب » بعد قول جارودى عن العقيدة الحقة بأنها « ليست عفيونا كلا ! بل هي خميرة

لتغيير العالم • وكل ضربة توجه ضد هذه العقيدة هي ضربة موجهة ضد الثورة ذاتها » • وأين نحن من أوهام تحرير المرأة فى العالم المعاصر بعد أن أصبحت مجرد بضاعة تعرض زينتها على القاصى والدانى • والاسلام ينص « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** » « **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** » • « **ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن** او ••• » •

لقد آن الاوان للعالم الاسلامى أن يتحد ويتكتل من أجل بناء الحضارة لاننا فى عصر الاتحاد والتكتل : والعبرة بالبلدان المتقدمة : أمريكا وروسيا والصين والبلدان الغربية التى تسعى بكل الوسائل لتحقيق وحدتها • لماذا نطالب بالوحدة والتكتل ؟ اننا لا نطالب بذلك من أجل الاعتداء بل من أجل ابداع حلول لصالح شعوب العالم الاسلامى ومن أجل الانتصار فى معركة الانتاج ومن أجل تحقيق الاكتفاء الذاتى ومن أجل ضمان عدالة فى المبادلات التجارية وارساء قواعد اقتصاد عالمى جديد • وفى هذا الصدد يقول الاستاذ المرحوم مالك بن نبى : « على المسلمين أن يتخلصوا من الاسباب التى تجعلهم أقل فعالية فى أوجز مدة ممكنة بالطرق التى يفرضها عصر تسريع التاريخ ، وهذا يعنى ، فى مجال الاقتصاد ، أن يوحدوا امكانياتهم وحاجاتهم حتى يحققوا فى أسرع ما يمكن شروط الاكتفاء الذاتى اي الحلقة الاقتصادية التى تستطيع الانغلاق على نفسها ، اذا ما اقتضت الضرورات الداخلية والخارجية ذلك » •

وأملنا أن يكون مطلع هذا القرن الخامس عشر فاتحة عهد جديد فى ميدان الخلق الحضارى والانتفاضة الحقيقية ضد الحلول الجاهزة التى تتلاءم وطبيعة المجتمع الاسلامى ومطامحه •

ويحتاج المفكرون المسلمون بهذا الصدد وكذا القادة السياسيون الى شجاعة فكرية هائلة وقوة غزيمة خارقة وثقة بالنفس • « **ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** » •

ان المبادرة التى شرع العالم الاسلامى فيها هامة وخطيرة فى نفس الآن ذلك أنها تهدف الى بناء حياة جديدة فى مستهل القرن الخامس عشر وفى العقدين الاخيرين من القرن العشرين • وانها مهمة عسيرة ونحن نحس أكثر من غيرنا بالمجهودات الجبارة (من الناحية المادية البحتة) التى يتطلبها اللحاق بركب الحضارة واجتياز الهوة التى تفصلنا عن العالم المتطور تكنولوجيا وعلميا عندما يتعلق الامر ببناء السدود وتنظيم المجمعات الصناعية وارساء المؤسسات التقنية وتعميم العلاج والتعليم • غير أننا نحس أقل بالمهمة التى لا تقل خطورة ولا صعوبة عن سابقتها وتنحصر فى المجالين الدينى والايديولوجى • وليس بالامر الهين تعويض خسارة بضعة قرون فى هذين المجالين • اذ يبقى على كاهل المسلمين أن يصيغوا دلالة الدين

فى عالم جديد يحتوى على سدود ومجمعات صناعية ومؤسسات تقنية ومؤسسات تضمن التعليم والعلاج للجميع مع ما يتطلبه كل ذلك من مسؤولية · وقد تبدو هاته المهمة عديمة الاهمية بالنسبة لاناس يعزلون الدين عن الحياة غير أن الاسلام كما يدرك ذلك الجميع يهدف الى تطبيق الاوامر الاخلاقية على الحياة اليومية ويربط بين الدين والدنيا برباط لا تنفصم عراه ·



هل يصبح العالم الإسلامي كتلة دولية ثالثة في القرن الخامس عشر؟

الاستاذ سماعيل العربي

يبدو أن انقسام الدول المصنعة الى كتلتين تستقطب كل منهما منطقة جغرافية وتخضع لزعامة خاصة بها ، ويتحدد نفوذها اجمالا بميثاق « يالطا » وغيره من الاتفاقيات الصريحة او الضمنية وتدعم ذلك النفوذ الاسلحة النووية المعقدة يبدو ان هذا الانقسام قد أصبح فى حكم الامر الواقع وهو اذا كان قابلا لتعديلات طفيفة ، فانه غير قابل للنقض على المدى المتوسط ، الا باستعمال القوة فى نطاق واسع · قلنا تعديلات طفيفة ، هذا فيما يتعلق بالمستقبل ، وأما بالنسبة الى الماضى ، فقد وقعت تعديلات جذرية فعلا بتوسع الكتلة الشرقية ، وخصوصا بفقد الكتلة الغربية لمستعمراتها وأراضى ما وراء البحار فى غضون العقد السادس· وهذا التعديل الاخير ، بالضبط ، هو الذى يهمنا فى هذا البحث ، وذلك لانه اذا كان توسع الكتلة الشرقية لم يكن على حساب البلدان الاسلامية ، لحسن الحظ (اذا استثنينا حالة افغانستان التى لم تتضح بعد كلّ عناصرها) ، فان التقلص الذى طرأ على الكتلة الغربية كان لصالح العالم الاسلامى ، حيث أن المناطق التى تحررت فى افريقيا وآسيا كانت فى معظمها من الاراضى الاسلامية التى تشكل الامبراطورية البريطانية والفرنسية سابقا ·

ونحن نقدم فيما يلى ثبتا اجماليا البلدان الاسلامية ولبعض البلدان غير الاسلامية التى تضم أقلية كبيرة من المسلمين والتى شملتها موجة التحرر الوطنى فى القارتين الافريقية والآسيوية، فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية :

اندونوسيا (125 مليون) بنغلاديش (77 مليون) باكستان (75 مليون) بورما (1 مليون) ثايلاند (1 مليون) المغرب (نحو 40 مليون) مصر (35 مليون) الهند (80 مليون مسلم) السودان (15 مليون (1) ماليزيا (7 ملايين)

(1) راجع احصاءات أخرى فى مقالة البحاثة Violette Graff فى صحيفة « Le Monde » نشرت تباعا ابتداء من 11 ديسمبر 1979 ·

والفليبين (نحو 3 ملايين) والنيجـــر (4 ملايين) ونيجيريا (63 مليون) ومالى (5 ملايين) وذلك بالاضافة الى البلدان الواقعة على الخليج وسورية (6 ملايين) والعراق (9 ملايين) وافريقيا الشرقية وبلدان افريقيا الغربية · ونحن هنـــا لا ندخـل فى الحســاب الجمهوريـات الاسلامية فى آسيا الشرقية ، لان وضع اخواننا فى هذه المناطق لم يدخل عليـه ، مع الاسف ، اي تغيير ، حيث أن هـــذه المستعمرات كانت روسيا قد تسلطت عليها بالقوة فى عهد القياصرة ، ولما قام النظام السوفييتى ادغمهـم واعتبرهـم جـزءا لا يتجزء من الامبراطورية الروسية ·

وكذلك نرى من هذه الاحصـائيات غير الكاملة ، ان العالم الاسلامى الذى يشمل أيضا بلدانا لم تفقد قط استقلالها (مثل السعودية وتركيا وايران) والذى تمتد رقعتـه من المحيـط الاطلسى الى المحيط الهادى ويضم نحو مليار نسمـة (أي حوالى ثلث سكان العالم) ، كان من الممكن أن يشكل كتلة دولية ثالثـة منذ الآن ، لو كان توازن القوى الـدولى يقوم على أساس المعايير التقليدية (مثل عدد السكان والموقع الجغرافى والقيـم الحضارية والموارد الطبيعية الاولية) ، بدلا من أن يقوم ـ كما هي الحال ـ على الطاقات الذهنيـة والتطـور الصناعى والتقدم التكنولوجى الذى يشكل الدعامة الاساسية للتفوق العسكرى · وبالتالى، فان كثيرا من الاصفار فى سياق العالم الاسلامى (بل وفى العالم الثالث كله) غير ذات مدلول ، سواء فى التقسيـم السياسى أو فى توزيع العمل الدولى فى الوقت الحاضر ·

ولكن حالة التخلف النسبى الـــتى يعانى منها العالم الاسلامى الذى يرتبط ارتباطا عضويا ببقية بلدان العالـــم الثالث ويشكل عموده الفقرى ، انمـــا تمثل مرحلة فى مسيرته التاريخيـــة والعقبة الاخيرة فى طريق انطلاقـــه ، وسوف يأتى يوم، حتما يرتبط فيه ماضيه المجيد بالمستقبل الذى تشير جميـــع الدلائل الى أنه سوف يكون زاهـرا ، اذا توفرت الارادة وصدقت العزيمة ·

تميز العالم الاسلامى فى العالـــم الثـــالث :

ان تسمية « العالم الثالث » تسميـة مجحفة، فضلا عن كونها غير منطقية (2)، وقد كان العالم الفرنسى ، الفريد صوفى هو الذى أطلقها على مجموعة المناطق المختلفة فى افريقيا وآسيا وأمريكـــا اللاتينية فى منتصف الخمسينات (3) ·

فهذا العالم توجد فيه جميع ديانات العالم ولا تجمعه حضارة أو منطقـــة جغرافية ويتحدث أبناؤه جميع اللغات المنشرة فى العالم تقريبا ، فضـــلا عن

(2) راجع كتابنا : هيئة الامم المتحدة والتنمية الاقتصادية ، بيروت ، 1972 صفحـــة 244 وما يليهـا ·

(3) A. Sauvey : Tiers Monde, Presse Universitaire de France, 1956.

كونه متخصص فى انتاج المواد الاولية التى يشتد التنافس بين بعض مناطقه لترويجها · والحقيقة أن هذا العالم الذى لا تجمع بين مختلف شعوبه سوى ظاهرة التخلف الاقتصادى والتكنولوجى، لا يعدو كونه « مخيما اقتصاديا » ضخما يمتد على ثلاث قارات · ومنذ أن وضعت الاسس الاولى لتنظيمه فى باندونج فى سنة 1955 ، والجهود كلها متجهة الى ازالة التناقض بين أطرافه والى محاولة تنسيق مصالحه ولملء الثغرات التى تفصل بين مناطقه الحضارية ، ولكن بدون حظ كبير من النجاح ·

وعلى الرغم من أن جميع المقومات التاريخية (بما فى ذلك الدين والمنزع الحضارى) قد استبعدت من تكوين مجموعة عدم الانحياز كما يتبين ذلك من ميثاق باندونج والاسس التى تقوم عليها جماعة الـ 77 ، فهيكل عدم الانحياز تطغى عليه المتناقضات الى حد تحجب معه الايجابيات ، وأنه لمن الحق أن يتساءل المرء عما اذا لم يكن مرجع ما يسود صفوف دول عدم الانحياز من قلة الانسجام بالضبط الى استبعاد كل ما يتجاوز اطار المصالح المادية (اقرا الاقتصادية) من تكوينه :

وبلدان مجموعة عدم الانحياز تسود فى مجموعها كل المذاهب والايديولوجيات المعاصرة وتخضع لنظم للحكم متباينة تتراوح بين الملكية المطلقة والشيوعية ، مرورا بالديكتاتورية العسكرية والديموقراطية الليبرالية بمختلف فصائلها · ومن ثم فلا غرو أن تختلف وجهات نظر هذه الدول فى القضايا السياسية العالمية الكبرى · وقد ظهر الشقاق على أحد ما يكون فى عدد من المسائل التى طرحت على بساط البحث فى هفانا ، كان أبرزها قضية الموقف الذى تتخذه المجموعة من نظام كامبوتشيا الجديد · ولكن المثال البارز حاليا هو ذلك الذى يتعلق باختيار عضو جديد لمجلس الامن حيث جرى ما لايقل عن 148 اقتراعا دون نتيجة بين كلومبيا وكوبا قبل أن يضطر الطرفان للتخلى عن السباق ويقع انتخاب المكسيك ·

ومجموعة بلدان عدم الانحياز ليست، كما قد يتبادر الى الذهن لاول وهلة ، « معسكر المستعمرات السابقة » (فان بلدان أمريكا اللاتينية مثلا ، كلها تقع فى يد العنصر الاسبانى الذى استعمر هذه المناطق بعد ما قضى على ثلاث من حضارات الهنود الحمر) ، كما أنها ليست مجمع « البلدان الفقيرة » كما يعتقد البعض (لان بعض أعضائها مثل قطر والكويت والسعودية تتمتع بأعلى دخل فردى فى العالم ، وذلك فى الوقت الذى توجد فيه دول فقيرة حقا ـ مثل البرتغال واليونان واسبانيا ـ فى المعسكر الغربى الصناعى) ·

والاديان السائدة فى مجموعة عدم الانحياز تتراوح بين البوذية والالحاد والمسيحية والاسلام ، ولكن الاغلبية

الساحقة فيها ، اذا اعتبرنا عد السكان مقياسا ، تنتمى الى الدين الاسلامى · ولكن كون الاسلام يمثل الديانة السائدة بين سكان هذه المجموعة لا يعنى أن جميع الدول الاسلامية تتمتع بالعضوية فيها ، لان عددا من البلدان الاسلامية لا تنتمى الى عدم الانحياز الذى هو التنظيم الشكلى للعالم الثالث ·

وكذلك يتضح جليا أن مجموعة عدم الانحياز لا يمكن أن تشكل كتلة دولية تقوم على أساس من التفاهم السياسى الا اذا ضمنت لنفسها قاعدة ايديولوجية متكاملة تتميز بها عن الكتلتين الدوليتين المتنافستين · والايديولوجيات بوصفها نظاما للسلوك والتفكير لمجموعة بشرية ما تمتد جذوره فى تاريخ تلك المجموعة، لا يمكن استيرادها أو تفصيلها حسب الطلب ، وانما هي تكون ، أو لا تكون ·

ان مجموعة عدم الانحياز انما قامت لكي تواجه محاولات سيطرة الكتلتين وتوسعهما على حساب بلدان العالم الثالث ، وكذلك قامت بدور لا ينكر فى تصفية الاستعمار ، وهي بهذا الاعتبار فكرة ذات محتوى سياسى واضح فى المرحلة الاولى من حياتها · وأما فى المرحلة الثانية فانها قد تطورت الى منهجية دولية للسيطرة على العوامل التى تساعد على الخروج من التخلف والاسراع بعملية التنمية ·

ولما كانت دول العالم الثالث تمر كل منها بمرحلة فى التنمية تختلف عن المرحلة التى تمر بها غيرها بخيث أن بعضها (وهي التى يطلق عليها اسم البلدان الاقل تطورا) لا يزال فى آخر ركب هذه المجموعة ، بينما بلغت دول أخرى درجة ما يسمى بمرحلة الانطلاق (مثل المكسيك ومصر) ، فان من المحتم أن تتغير مصالح البلدان التى تخرج من حالة التخلف وترتبط بعلاقات جديدة للتعاون فيما بينها ، وبينها وبين الدول الصناعية المتقدمة بصورة تتجاوب مع مصالحها وأوضاعها الجديدة ·

وهكذا، فان المقدر ألا ينتهى هذا القرن الميلادى حتى يكون عدد مهم من بلدان العالم الثالث قد حقق تقدما ما فى التصنيع لا يقل مستواه عما حققته بعض دول الكتلتين الكبيرتين · وهذا معناه تغير كبير فى رقعة الشطرنج الدولية ستكون له آثار عميقة فى كيان مجموعة عدم الانحياز · والبلدان التى ستصبح متقدمة صناعيا وتكنولوجيا سوف تجد نفسها حتما فى صف الدول الصناعية، فى الوقت الذى لا يقدر فيه البقاء بصفة دائمة فى مجموعة الدول المتخلفة سوى لتلك البلدان التى لا تسمح لها الموارد الطبيعية والبشرية بالتقدم وتكون محكوما عليها بأن تعيش على موارد المساعدة الدولية ·

وهنا يطرح سؤال : كيف يمكن للعالم الاسلامى فى مجموعه أن يكيف نفسه للتغيرات المنتظرة ؟ فهل يقنع بحالة الانقسام التى يعانى منها حاليا وبتوزع

ولائه بين الكتلتين ، أو يتبلور فيه وعي جديد بقيمة الامكانيات العظيمة التى يملكها ويتجه الى اقامة قواعد للتعاون والتكتل لمواجهة الاحداث التى تمس البلدان الاسلامية ؟

ولكن قبل أن نحاول البحث عن عناصر جواب ولو مؤقت لهذا السؤال ، ينبغى أولا أن نسجل حقيقة برزت بقوة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي أن الشعارات التى نادى بها رجال مثل جمال الدين الافغانى وشكيب أرسلان ومحمد على جناح ، قد وجدت تجاوبا بين مختلف الفئات الاجتماعية فى العالم الاسلامى وتبلورت الى أمل يلوح فى الافق · صحيح أن هذه المطامح ظلت مكبوتة طيلة ما ينيف عن نصف قرن من الزمن فى عهد الاستعمار ولكنها لم تمت فى النفوس · وقد انبعثت بعد زوال الاستعمار ولم تلبث أن تجسمت فى شكل تنظيمات للتعاون ، نذكر منها، على الخصوص ، اتفاق التعاون الاقليمى الذى عقدته باكستان وايران وتركيا (RCD) فى سنة 1964 ، والسوق العربية المشتركة ومؤتمرات وزراء الاقتصاد المغربية التى مهدت لتشكيل اللجنة الاستشارية الدائمة (4) · وأخيرا مؤتمرات وزراء خارجية الدول الاسلامية والمؤتمر الاسلامى الذى كان من أهم أوجه نشاطه تأسيس بنوك للقروض على أساس المشاركة وبدون فوائد ، كما تقضى الشريعة الاسلامية ·

على أنه من المؤسف أن نرى أن هذه المنظمات الاقليمية التى كانت تبشر فى الستينات بأن تكون قواعد للانطلاق فى طريق تكتل أوسع وتعاون أشمل ، لم تثبت أمام التجربة ، فأصبحت الآن كلها تقريبا ، مجرد حركات تاريخية ، حيث ان الصراع الايديولوجى الذى دخل الى العالم الاسلامى ، وخاصة الى العالم العربى ، لم يقض على مؤسسات التعاون الناشئة فحسب ، ولكنه أيضا مس شعور الجماهير الاسلامية التى تمثل الرصيد الاعظم لكل محاولة فى المستقبل للتقارب والتكتل بين البلدان الاسلامية ·

وأما الجواب عن السؤال الذى طرحناه آنفا حول الطريقة التى سيكيف بها العالم الاسلامى نفسه للاحداث والتطورات التى ينتظر أن تقع فى العالم الثالث فى غضون القرن الخامس عشر الهجرى ، فيبدو أنه رهن بتوفر شروط موضوعية وأخرى ذاتية ·

أ - الشروط الموضوعية

1 - والشرط الاول والاساسى من الشروط الموضوعية هو أن تستمر حالة السلام وألا يطرأ خلل خطير فى توازن

(4) بشأن هذه الترتيبات والتكتلات الاقليمية وغيرها ، راجع كتابنا : « التكتل والاندماج الاقتصادى بين البلدان المتطورة » الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1974 ·

القوى فى العالم ، بحيث تواصل المنظمات الدولية ، وعلى رأسها الامم المتحدة ، نشاطها السياسى والاقتصادى فى ظروف عادية ·

2 ـ عدم قيام تحالف استراتيجى طويل المدى وارتباطات ذات طابع اقتصادى أو سياسى دائم بين أفراد من الدول الاسلامية واحدى الكتلتين الايديولوجيين المتنازعين بحيث تتخطى هويتها الاصلية وتتخلى عن شخصيتها الاسلامية (كما حدث لالبانيا ، مثلا) ·

3 ـ عدم توغل المزيد من ايديولوجيات الكتلتين بين صفوف المسلمين ومقاومة النفوذ الصهيونى والامبريالية العالمية ، وبصفة خاصة ، ذلك الذى يحمله فى طياته نشاط الشركات العملاقة المتعددة الجنسيات ·

4 ـ الالتجاء الى المفاوضات والطرق السلمية لتسوية المشاكل والنزاعات الحالية أو التي ستظهر فى المستقبل ، ومقاومة الاتجاه الذى تبلور فى تجربة التصالح والتعاون المصرى الصهيونى ـ تلك التجربة التى توشك ، أن نجحت، ان تفصم العالم العربى والعالم الاسلامى ، بصورة لا تقل خطورة عن الحالة التى واجهها بالغزو التترى ·

5 ـ تبلور روح التضامن والتئازر بين البلدان الاسلامية فى اجراءات وأعمال لنجدة الشعوب والاقليات الاسلامية التى تناضل من أجل حريتها واثبات وجودها ضد السيطرة المحلية أو الاجنبية فى افريقيا وآسيا ، ولا سيما الشعب الفلسطينى والمسلمين فى اريتريا والفليبين ·

6 ـ العمل لايجاد مناخ من الثقة المتبادلة لتبادل الخبرات والمساعدة وخصوصا لايجاد الشروط والضمانات الضرورية لاستثمار فائض عوائد النفط فى مشروعات للتنمية فى البلدان الاسلامية على أساس من المشاركة وضمان ربح مشروع ·

ب ـ الشروط الذاتية

1 ـ لكي يخطو العالم الاسلامى الى الامام فى طريق التفاهم والتعاون الدولى يجب أولا ، أن يسود الوئام والسلام فى كل بلد من بلدان الاسرة الاسلامية · وهذا انما يمكن بتطبيق مبادىء العدالة الاجتماعية ومحو الفوارق بين الطبقات، وخصوصا ، باعتماد نظام الشورى الذى سنه أبو بكر وعمر والذى كان أساسا للاستقرار والازدهار الذى عرفه العالم الاسلامى فى الاجيال التالية · وعدم تمسك المسلمين بمبدا الشورى فى الوقت الحاضر ، يمكن اعتباره أهم عقبة فى طريق استقرار السلام والثقة فى العالم الاسلامى · وأما المحاولات الجارية لتطبيق الشريعة فى بعض البلدان الاسلامية ، فلا يمكن اعتبارها مؤشرا حقيقيا فى طريق اقامة حكم اسلامى على أساس الشورى ، حيث ان اعتماد الشريعة لم يكن فى معظم

الحالات الا منهجية للتخلص من الخصوم والمنافسين والمعارضين ·

ومن جهة أخرى ، فعلى الرغم من أن كثيرا من البلدان الاسلامية تنص دساتيرها على أن الاسلام هو دين الدولة الرسمي ، فان ذلك لم يحل دون سير الحياة العامة على نهج لائكي أو شبه لائكي ، فيكون التعامل بالربا (مثلا) صلب النظام الاقتصادي وتغذي الضرائب المباشرة وغير المباشرة على المأكولات والمشروبات المحرمة خزانة الدولة · ولكن الاسوء من كل ذلك أن أمريكا اللاتينية التي اشتهرت في التاريخ بديكتاتورياتها العسكرية قد تخلت عن مكانتها الاولى في هذا المجال للعالم الاسلامي · فان ما لا يقل عن 15 بلدا اسلاميا (أي بنسبة 39،47٪) من بين الثمانية والثلاثين بلدا ، تحكمها حكومات عسكرية لا دخل للشعب في اختيارها · وأما بقية البلدان الستة عشر الاخرى (بنسبة 42،1٪) ، فهي تحكم بنظم أتوقراطية وبدون دستور على الاطلاق، أو بدستور معطل أو موقوف (5) · وأما البلدان الاسلامية التي اعتمدت النظام الجمهوري للحكم (وهي 29 بلدا) ، فانها ليست في معظم الحالات أحسن حظا في ممارسة الحريات الفردية ، أو في رعاية المبادىء الاسلامية من الانظمة الملكية ، حيث تنعدم فيها حرية اختيار النواب للبرلمان ، أو ينعدم فيها البرلمان والتمثيل البرلماني كلية ، بل وكثيرا ما يكون رئيس الجمهورية ملكا غير متوج من حيث يكون منتخبا مدى الحياة · على أن الاتجاه الذي يمثل تقدما في هذا المجال ، هو زوال الملكية المطلقة تدريجيا في العالم الاسلامي ، حيث انه لم تبق فيه سوى أربعة نظم من هذا النوع (مضاف اليها خمس ملكيات دستورية) ·

وكذلك يبدو لنا أن قيام حكومات على أساس من الشورى والتراضي وبصورة تعبر عن رأي الامة وتضمن للحكم الاستمرار والدوام في كل واحد من البلدان الاسلامية ، أمر جوهري لكل تعاون وتكتل اقليمي أو دولي اسلامي سواء أكان هذا التكتل اقتصاديا فقط أم سياسيا واقتصاديا ·

2 ـ تنمية التعليم الاسلامي وجعله أساسا لنظام التعليم العمومي ، في الوقت الذي تنشأ فيه معاهد عليا وجامعات للتخصص في مختلف فروع الدراسات الاسلامية · وانه لما يدعو الى الدهشة والحزن العميق أن نلاحظ أن البلدان الاسلامية التي لعب الاسلام دورا كبيرا في تحريرها قد أهملت معاهد عليا للدراسات الاسلامية بعد استقلالها · بل ان بعض البلدان قد سارت على النهج الاستعماري في مناوءة التعليم الاسلامي واضطهاده ، فاغلقت معاهد وجامعات جليلة ساهمت في تقدم العلم والمعرفة

(5) راجع احصاءات أخرى في

A.S. Bank : Political Handbook of the World, Macgrois. Hill Book Company, New-York 1976.

أجيالا طويلة ، وهذا فى الوقت الذى نجد فيه معظم الجامعات فى أوروبا وأمريكا وأستراليا تملك كليات أو أقساما للدراسات الاسلامية · واذا أراد العالم الاسلامى قيام نهضة اسلامية حقيقية ، فلابد من أن يكون البحث حجر الزاوية فى التعليم العالى بحيث تغطى الفجوة التى انفتحت عبر القرون · وفى هذا المجال أيضا تلاحظ على سبيل المقارنة أن ما يصدر من الكتب والمجلات والبحوث المتعمقة التى تتناول الاسلام وحضارته فى الغرب أكثر وأعمق مما يصدر فى العالم الاسلامى نفسه · وهذا المكان يبدو لى ملائما كذلك للتذكير ، وليس للمقارنة ، بأن الكنيسة الكاثوليكية وحدها تملك أكثر من مائة جامعة ومعهد عال للدراسات اللاهوتية ، موزعة فى مختلف أنحاء العالم الكاثوليكى ·

3 ـ تعتبر الصحافة والاذاعة من أهم الوسائل للتقريب بين الشعوب · وتبادل الصحف والبرامج الاذاعية من شأنه أن يغذى عقول المسلمين فى كل مكان بالمعلومات عن مختلف القضايا والمشاكل التى تواجهها الشعوب الاسلامية فى الوقت الذى يكون فيه وسيلة فعالة لنشر التفاهم والتضامن · ولكن البلدان الاسلامية لا تزال متخلفة فى مضمار الصحافة والاذاعة ، حيث أنه لم يحقق الحد الضرورى الذى وضعته اليونسكو لاستهلاك الصحف وأجهزة الاذاعة (10 صحف و 5 أجهزة لكل 100 شخص) سوى بلد واحد فى مجال الصحف ، وهو جزر الملاديف Les maladives التى يبلغ عدد سكانها 120 ألف نسمة (300 كيلو متر مربع) · بل انه لم يصل الى مستوى توزيع ما يتراوح بين 5 ـ 9 نسخ لكل مائة شخص سوى 6 بلدان اسلامية (6) ويضاف الى ضئالة الكمية رداءة نوع المعلومات وقلة دقة الاخبار، حيث أن معظم الصحف لا تعدو كونها نشرات حكومية ، أو هي تتعرض للضغط والاضطهاد متى كانت تنطق باسم المعارضة (كما هي الحالة فى مصر الآن) ·

4 ـ تعزيز علاقات التبادل العلمى والثقافى بتفضيل استيراد الاساتذة والمتعاونين المسلمين فى مختلف المجالات، وتبادل الكتب والافلام والنشرات ، التى تتصل بموضوعات اسلامية ·

5 ـ العمل لاحياء المنظمات والتكتلات الاقتصادية الاقليمية والشبه الاقليمية القديمة ودعم النواحى التى حققت فيها نجاحا ، واستكشاف آفاق جديدة للتعاون الاقتصادى والتقنى ·

6 ـ تعزيز العلاقات التجارية على الصعيد الثنائى بين البلدان الاسلامية وتعميم مبدا البلد الاكثر رعاية

---

(6) راجع احصاءات أخرى فى كتاب الاحصاء السنوى ، نشر اليونسكو ، باريس 1978 ·

في العلاقات most favered nation التجارية بصفة عامة ·

7 ـ العمل لمقاومة تيار الافلام السينمائية والتليفزيونية التى تنتجها بلدان الكتلتين العالميتين المتنافستين ـ تلك الافلام التى تحمل فى طياتها الى جانب الدعاية الايديولوجية أنماطا من التحرر الاخلاقى المخرب لنمط الحياة الثقافية والاجتماعية الاسلامية ، والتى تبدو آثارها الوخيمة أوضح ما تكون فى عقول أطفال المسلمين ، وذلك اما بوضع برنامج لانشاء شركات لانتاج أفلام (ولا سيما الافلام الوثيقية) تعالج موضوعات اسلامية وتصور الحياة العصرية فى البلدان الاسلامية ، أو بتكوين هيئة تتعامل بواسطتها مع الشركات الاجنبية المنتجة للافلام (7) وتفرض عليها المقاييس والشروط التى يجب أن تتوفر فى الافلام التى تنتجها لاستهلاك العالم الاسلامى ·

وهكذا ، فاذا صدقت عزيمة المفكرين والساسة فى مختلف البلدان الاسلامية فى العمل لتحقيق هذه الشروط الحيوية فى غضون القرن الخامس عشر الهجرى، ووجد العمل تجاوبا فى الرأي العام الاسلامى (وهو أمر لا نشك فيه) ، فان ظروفا موضوعية ستظهر لا محالة لامكان قيام كتلة اسلامية تستقطب العالم الثالث وتعمل للسلام والرخاء ولنشر المثل العليا الاسلامية فى مختلف أصقاع العالم ، واذا كانت الكتلتان الدوليتان اللتان تتقاسمان السيطرة على العالم اليوم قد حققتا توازن القوى بينهما بواسطة « الرادع النووى » وغيره من أسلحة التدمير ، فان الكتلة الاسلامية، كما نتصورها ستضمن بقاءها بفضل سمو مبادىء الاخوة الانسانية والسلام والعدالة التى تمثلها · وفيما عدا ذلك، فان مثل هذا التكتل لا يمكن أن يقوم الا على أساس من الشورى والتعاون والرعاية المتبادلة لمصالح الجميع المشروعة ولمصالح البلدان الفقيرة فى العالم الثالث ·

وبعد هذا قد يتساءل القارىء : ما هو نصيب الامل والطموح ، وما هو نصيب الواقع ، وما هو حظ النظرية والاعتبارات العملية فى هذا التصور لقيام تكتل وتعاون اسلامى دولى وثيق فى غضون القرن الخامس عشر الهجرى ؟

نحن نؤمن بأن هذا التطور ليس ممكنا فحسب ، بل هو حتمي أيضا اذا أراد المسلمون أن يتعايش الدين الاسلامى بكل أبعاده فى حرية وكرامة مع الاديان والمذاهب السائدة فى الكتلتين اللتين تتصارعان لفرض سيطرتهما الايديولوجية على أكبر رقعة ممكنة من الكرة الارضية · وأحداث أفغانستان وايران تمثل نذرا فى الافق لا يسع المسلمين تجاهلها أو الاستهانة بها ·

(7) راجع المحاضرة القيمة التى قدمها الاستاذ محمد الشريف مجاهد أمام الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامى (تمنراست 1979) بعنوان : « التليفيزيون والاطفال فى العالم الاسلامى » ·



الأخلاق والنظم الإسلامية
أسس عقيدية وآفاق

د. أحمد عروة
طبيب وكاتب - الجزائر

ان الكلام عن الاخلاق والنظم الاسلامية يتطلب من الوقت أكثر مما يمكننا أن نعده له ومن الشروح اطول مما يمكننا أن نتقدم به • لهذا سيكون تعرضنا للموضوع تمهيدا ملخصا أكثر من أن يكون تحليلا معمقا وشاملا •

كما ان وجهة نظرنا فى هذا البحث ستبتعد شيئا ما عن الطرق التقليدية التى تكتفى برواية الآيات والاحاديث وتصنيفها وشرحها • حيث أننا نحاول أن نخرج ببحث منهجى وتعمق علمى من دون أن يجعلنا ذلك نحيد عن نطاق الوحدة المذهبية التى لا يمكن ان تتناقض فيها معطيات العلوم الموضوعية للطبيعة والكون وتعاليم الرسالة الالهية • وفى ذلك لا تخرج نظرتنا عن الاخلاق الاسلامية ومفاهيمها الاساسية ، سواء من الناحية العقائدية كالايمان بالله ووحدانيته وتصديق الرسالة النبوية ووحدة الايمان والعلم والاعتقاد بأن الله خلق الانسان وفضله وكلفه بالخلافة والامانة ، أو من الناحية التطبيقية كأداء الفرائض الدينية والامتثال بالفضائل الخلقية •

سنقوم فى القسم الاول بتحليل الدوافع والعوامل التى تؤثر فى سلوك الانسان الحيوى والاجتماعى والمعنوى •

ثم نعرض الارشادات والتوجيهات التى تدعو الى تفهم الاخلاق الاسلامية وتطبيقها سواء فى السلوك الفردى والاجتماعى أو فى تحديد النظم الدستورية •

وسنحاول بعد ذلك أن نقدم تقييما نقديا لمدى تأثير التعاليم الخلقية فى الحياة الفردية وفى تاريخ الامة الاسلامية •

وأخيرا سنقترح بعض المحاور لتفهم التيارات الفكرية المعاصرة ولاكتشاف آفاق جديدة للبحث والعمل •

1 ـ العوامل العامة التى تتحكم فى سلوك الانسان :

يوجد كما هو معلوم عدة عوامل مشتركة بين الحيوان والانسان تتحكم فى السلوك الطبيعى والنفسى والاجتماعى · لكن البعد العقلى الذى خص به الانسان يجعله حقيقة كائنا حيا يتميز على غيره ، بشعوره الفكرى بالكون الذى يحيط به وبادراكه العقلى وسيطرته الفنية على الطبيعة · وهذا يجعل سلوكه فى نفس الوقت غريزيا ومتعقلا · مقدرا وحرا · محكوما فيه ومسؤولا ·

لهذا فان التمييز المنهجى بين عوامل السلوك الحيوانى والسلوك العقلانى ربما يظهر مصطنعا الا أنه يسمح لنا بتبسيط المشاكل والتعقدات · هذا ما سنظهره فى المعطيات الآتية :

1 ـ ان سلوك الانسان الغريزى البدائى الذى يشترك فيه الانسان والكائنات الحية بما فيها من نباتات وحيوانات يشمل ثلاث وظائف أساسية :

ـ وظيفة غذائية ونفسية يقع بفضلها تبادل مادى وطاقى مع البيئة الخارجية مما يجعل الجسم يحيا وينشط وينمو ·

ـ وظيفة دفاعية مسؤولة عن حماية الجسم من الاصابات المتغلقة بالتنافس الحياتى للكائنات الحية ومن الآفات الطبيعية والحيوانية التى تهدده فى بيئته الحياتية ·

ـ وظيفة تناسلية تضمن بقاء الجنس وتكاثره وتنوعه ·

ان بنية المخ الانسانى وامكانياته الادراكية تجعله يطغى ويتفوق على المستوى الحيوانى حيث تفتح له آفاق الاحساس والادراك والاتصال الواعى والمدبر بغيره من الكائنات · فيكتسى سلوكُ الانسان بذلك آفاقا جديدة يتجه بها فى نفس الوقت نحو الحاجات التى تضمن له الحياة والبقاء والتغلب على الطبيعة بعلمه وعمله والتطلع الى الارتقاء فوق مستوى الانسانية البدائية ·

3 ـ زيادة على ذلك فان الانسان أكثر ما تكون غريزته اجتماعية حيث أن حاجاته ومطامحه مرتبطة بالافراد الذين يكونون معه المجموعة البشرية · ذلك التضامن الحتمى فى حياة ومصير المجتمع ينقص ويزيد فى نفس الوقت من نفوذ ومن حظوظ كل فرد ·

حيث أن طموح الفرد هو فى أن يضمن لنفسه اكبر قسم ممكن من محاصيل الاشتراك بهدف الحصول على أكثر وسائل الحياة والامن والرفاهية · ويؤدى ذلك الى بعض التوازن فى الاكتساب والنفوذ اما بتعادل الطاقات الجسمية والعقلية المتواجدة ، واما بوضع مناهج خلقية أو نظم اجتماعية تحاول تثبيت الاستقرار فى العلاقات بين الناس أو تغييرها اذا دعت الى ذلك ظروف جديدة ·

4 ـ بمجرد ما يتساءل الانسان عن ماهية الكون ومعنى الحياة فانه قد انتزع نوعا ما من السيطرة الغريزية البدائية فينطلق يسعى وراء قيم جمالية وفكرية وروحية أسمى · وهذا التساؤل هو فى نفس الوقت بحث عن الحقيقة على مستوى الفكر وبحث عن الحكمة على مستوى السلوك · وبالطبع فان الجواب الذى ينتهى اليه قد يختلف كثيرا مما يشهد عنه تنوع الآراء الفلسفية وتطورها على مدى تاريخ الانسانية · وبصفة عامة قد يمكن لذلك البحث الفلسفى أن يقود الى الشعور بوجود قوة فوق الطبيعة خالقة للكون أو بالاحرى مسيطرة على مصير الانسان · كما يمكن له أن يحجم عن التوغل فيما وراء الطبيعة وأن يقنع بالادراك العقلانى للعالم ·أما العقيدة الاولى فتحاول أن تمتثل للارادة المفترضة للآلهة أو للاله، وأما الثانية التى منطقها مادى فانها تستكشف فى « جدلية » الطبيعة والمجتمع الانسانى قواعد خلقية وتنظيمية تسير العلاقات بين الناس ·

5 ـ فى هذا المنعرج الفكرى يجد الانسان نفسه فى مأزق فلسفى لان علمه لا يمكنه من معرفة ما هو خارج عن نطاق التجربة والاحساس لولا الوحى النبوى الذى يكشف عن غيبيات ما وراء الطبيعة · ذلك هو النبأ الذى تعجز عنه الاستكشافات العلمية والاستلهامات الفلسفية لانه ينبئه بالغيب ويعلمه الايمان بوجود الخالق الاحد ويقص عليه أسرار وأهداف خلقه وخلق الكون · ثمَّ يرشده الى الامتثال بقوانين شرعية وقيم خلقية تضمن له النجاة الابدية · أما بمجرد الايمان فان الانسان يسمو للبعد الروحى الذى يصله بخالقه وأما بضميره وأعماله فانه يلتزم بالوفاء لعهده وهذا معنى كلمة الاسلام ·

2 ـ الاسس العقيدية للاخلاق الاسلامية

1) المصادر :

ان **القرآن الكريم** يمثل المصدر الاساسى الذى تنبثق منه الاخلاق الاسلامية فقد أنزله الله « **هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** » (البقرة185) والقرآن هو فى نفس الوقت تأكيد لما قبله وتجديد متمم للرسالات الموحدة المتواترة لا سيما منذ نبوءة ابراهيم الخليل « **ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل** » (الحج 77) والذى تنسب اليه ديانتى اليهودية والمسيحية · ولم يكن دور **محمد** صلى الله عليه وسلم تلقى وتبليغ الكتاب الكريم فحسب بل وكذلك تعليمه للناس ليطبقوه فى مفاهيمهم وسلوكهم ومعاملاتهم وهكذا يتكون المصدر الثانى فى **حديث الرسول وسيرته** · كيف لا وقد قال « **انما بعثت** لاتمم مكارم الاخلاق » بقى للناس الذين تلقوا الرسالة مباشرة أو من بعيد أن يتكفلوها وأن يتعلموها وأن يطبقوها فى حياتهم على مجرى الايام وتقلبات التاريخ · ذلك هو « **الاجتهاد** » الذى يمثل المصدر الثالث الذى يقود المؤمنين

فى مفاهيمهم الدينية وفى تطبيقهم للشريعة وفى سلوكهم ومعاملاتهم .

2) **الاسس** العقيدية أو القواعد الدينية التى تقوم عليها الاخلاق تكمن فى المعنى التى تعطيه لوجود الكون ولمكانة الانسان فى الخلق ولرسالته فى الارض ولمصيره النهائى . ان الفكر والسلوك عند المؤمن مرتبطان بالفكرة الاساسية التى تعلن بوجود الله الاحد والخالق المهيمن علما وقوة على الكائنات . تلك الفكرة التوحيدية هي أساس الفلسفة الاسلامية وكذلك أساس الاخلاق والنظم . وهي تتمثل فى مستوى الخلق بوحدة المادة والروح التى تنعشها وعلى مستوى الانسان فى خاصيتها التى تشترك فيها الحيوانية والعقلية . وعلى مستوى الاخلاق بالتضامن الوثيق الذى يربط بين الافراد والجماعة وعلى مستوى النظم السياسية فى وحدة الدين والدولة .

وفلسفة « **التوحيد** » (UNITE) هاته هي كذلك فلسفة « **الكلية** » (TOTALITE) التى تجعل الاخلاق تشمل جميع الافكار والتصرفات الانسانية انطلاقا من القيام بالحاجات الحياتية البسيطة كالاكل والشرب الى القيام بعبادة الله وذكره . ولابد هنا من التذكير ببعض المفاهيم الاسلامية :

1) **يتركز الدين أساسا على الايمان بالله الواحد الصمد المهيمن على العالم وعلى الزمان . لا تدركه الابصار** ولا العقول ولكنه يدرك كل المخلوقات بعلمه وبمشيئته وبرحمته التى وسعت كل شىء « **ان الله عالم غيب السموات والارض انه عليم بذات الصدور** » . (فاطر 38) . « **يخلق ما يشاء وهو العليم القدير** » (الروم 54) .

2) الايمان بالوحي النبوى وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنزل عليه القرآن هدى للناس « **الذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** » (البقرة 5) .

3) ان الله خلق الكون والكائنات وهو وحده يعلم حقيقتها وأنواعها ومصيرها « **ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة** (الشورى 29) « **ويعلم ما فى السموات وما فى الارض والله على كل شىء قدير** » (آل عمران 29) .

4) كل ما فى الكون خاضع لمشيئة الله ومكلف بعبادته وتقديسه « **يسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا** » (الاسراء ــ 44) . هاته العبادة تكتسى بخاصة الادراك والوعي عند الانسان العاقل وتكمن فى الايمان بالله وعبادته وذكره وتقديسه وفى الاداء الواعى والمسؤول لشرعه ولاوامره .

5) **ان الله قلد الانسان بمسؤولية كبرى** ذات مظهرين متكاملين احداهما الخلافة فى الارض والالتزام بطاعته والثانية

مسؤوليته فى تحقيق سعادته الابدية بطاعة الله ·

6) لم تكن حياة الانسان فى الدنيا الا مرحلة فى الوجود ولكنها مرحلة يتحقق فيها مصيره بموجب الايمان والتقوى والعمل الصالح · فتسجل كل أعماله ويحاسب ويجازى عليها يوم البعث · « **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** (الزلزال ـ 7 ـ 8) · « **فاما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فامه هاوية وما ادراك ما هيه نار حامية** » (القارعة 6 ـ 10) أما الحياة الدنيا فانما هي مرحلة فى وجود الانسان « **خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** » ولا يعنى فى ذلك أنها « وادى الدموع » كما قيل المملوء بالعذاب والشقاء وانما هي وادى الحياة التى تتواجد فيه الافراح والاقراح « **ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون** » (الانبياء ـ 21) · هذه الحياة وهذه الكائنات تخضع لسنة الله فى خلقه : يولد الانسان فينمو ويتقوى ثم يهرم ويموت بينما الحياة الحقيقية تلفاه فى النهاية فيسعد أو يشقى حسب ايمانه وأعماله ·

7) تتركز الاخلاق الاسلامية على قواعد الحكمة التى تضمن له القوام الحكيم بين البحث عن السعادة المعقولة فى الدنيا والبحث عن السعادة الابدية فى اليوم الآخر وهكذا تشمل الحكمة الاسلامية كلا البعدين من دون أن يكون فى ذلك تناقض أو تناقص · والامتداد الى الحياة الاخروية يستحوذ على الحياة الدنيا من دون أن ينقصها من معانيها ومتطلباتها الا أن الحقيقة الازلية تجعل الدار الآخرة دار البقاء ودار الحياة ودار السعادة : «**والآخرة خير وابقى**» (الاعلى ـ 17) «**وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** » (العنكبوت ـ 64) ·

8) ان مسؤولية الانسان فى سلوكه الخلقى منوطة بحريته · الا أن هاته الحرية تهيمن عليها ارادة الله · واذا راينا من جهة اخرى ان اعمال وأفكار الانسان تخضع لعوامل غريزية حياتية ولتاثيرات البيئة الطبيعية وللتراث النسلى وللوسط الثقافى والاجتماعى فان اكتسابه للعقل يجعله يتحكم فى هاته التاثيرات وتتقرر مسؤوليته نتيجة لملكة الاختيار « **وهديناه النجدين**» «**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » (الكهف ـ 29) لكن مصير الانسان ونجاته تحتاج الى الهداية الالهية التى توجهه وتقوده فى طريق الحق والخير · تلك القواعد المختلفة تصور مجملا مبسطا وملخصا للعقيدة الاسلامية وهي بمثابة حبكة نسيج تحاك عليها أعمال الانسان وتسجل ·

3 ـ ما هو المضمون العملى للاخلاق فى الاسلام ؟

ليس فى نيتنا أن ناتى بعرض مفصل للاخلاق فى الاسلام وانما نود أن نوضحه ببعض الإمثلة المعبرة عن ذلك ·

1) ان الايمان كما حددنا مبادئه هو أساس الاخلاق ودافعها ومبررها « انما الاعمال بالنيات » (حديث شريف) . وأما الذين يسعون من دون أن يكون الايمان دافعا لسلوكهم فلا قيمة لاعمالهم « **الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** » (النساء - 38) « **فاولئك أعمالهم كسراب** » (النور - 39) أو كما جاء فى آية أخرى : « **مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته** » (آل عمران - 117) .

2) ان الفضائل التى سميناها أساسية توجد على مستوى الضمير والدافع النفسى ونذكر منها « المرحمة » التى معناها الحب والسخاء والرحمة والاحترام للكائنات وللاشياء ومنها « الصبر » الذى هو تحمل المشاق والشجاعة فى مكافحة الشر « **تجده عند المؤمنين الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس** » ومنها «الصدق» الذى يعبر عما هو حق وعدل ويقتضى الاخلاص والاستقامة والشرف والكرامة . وبالطبع فان هاته الفضائل تتعارض مع الخصال الذميمة كالبخل والبغضاء والجبن والكبر والكذب .

3) أما الفضائل العقلية فهى تشتمل من ناحية أولى عن **العقل** الذى نستطيع بمزيته التمييز بين الخير والشر وتفهم أحوال العالم وتسخيرها للاهداف الحياتية ، ومن جهة أخرى عن **العلم** الذى يكتسب بالتجربة والدراسة والبحث . ان العقل والعلم يسمحان للانسان أن يسيطر على الطبيعة ويستخرج ثرواتها الكامنة والبارزة كما يسمح له باكتشاف القوانين التى تسير الكون وبمشاهدة الآيات العظيمة التى تظهر فى خلق الله .

4) ان العمل الفاضل يهدف الى الكمال الذى يحققه الاسلام فى حياة الانسان والمجتمع . وهذا الكمال ليس معناه التخلى عن الدنيا بل بالعكس هو التمتع بالحياة فى معناها الكامل الذى يجمع بين أبعاد الحياة الحيوانية والاجتماعية والجمالية والفكرية والروحية . وهنا سنعرض بعض المظاهر الاساسية فى مكارم الاخلاق :

- أما على المستوى البشرى الادنى فالاخلاق تتمثل فى « القوام » حيث أن البحث عن السعادة الدنيوية هو من المطامح الطبيعية والمعقولة الا أن الانسان متعرض الى دواعى متناقضة تتراوح ما بين الغريزة الحيوانية وتطلعات الفكر . والحكمة اذا تقوم على التوازن الذى يعنى فى نفس الوقت بقاء حياتى وارتقاء نفسى . وهكذا فانها على مستوى الاقتصاد الفردى تستقيم بعيدة عن البخل والاسراف « **والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** » (الفرقان - 67) .

وبالعكس فان هاته الفضائل لا تقبل ما هو من شانه أن يضر بصحة الانسان

الجسمية والعقلية والاجتماعية « **قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن** » (الاعراف ــ 33) ٠

ــ **وأما على المستوى البشرى المتوسط** فنرى الانسان يتعلق بقيم جمالية ترقية وشرفية تتجاوز حاجياته الحيوانية « **اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد**» (الحديد ــ 20) ٠ وكذلك «**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث** » (آل عمران ــ 19) والاخلاق هنا تمثل الوازع الحكيم الذى يهدىء الشهوات ويحولها نحو قيم أفضل وأحسن ٠ « **ذلك متاع الدنيا والله عنده حسن المئاب** » (آل عمران ــ 14) ٠

ــ **اما على المستوى الفكرى الاعلى** فان الانسان يبحث عن الملذات الجمالية والادبية والفكرية الا أن استجابته لمواهب الفنون والعلوم تخضع لرقابة الحكمة والخلق السامى لان سوء الفهم لهم يؤدى الى الفسوق والفساد ٠ ان التمتع بالجماليات وبالنعم التى سخرها الله لعباده ليست محظورة ولا ممنوعة « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق**» (الاعراف ــ 526) بل بالعكس والله يقول « **انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب** » (الصافات ــ 6) بل جعل الارض مرحبة بالحياة ومزينة بما فيها ففجر ماءها وشق أنهارها ورفع جبالها وملا بحارها « **ءانتم اشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم**» (النازعات ــ 27 ــ 33) ولكن ليس للانسان أن يغتر بمفاتن الدنيا لانها امتحان يجب أن يخرج منه منتصرا ومفضلا «**انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملا**» (الكهف ــ 7) كما أن التعمق والتوسع فى معرفة المخلوقات والكون من شانهما أن يزيدا للايمان أبعادا أسمى : ليس هناك علم من العلوم الطبيعية والكونية الا وهو مأمور به سواء كان فى الكونيات أو فى الطبيعيات أو فى التشريح أو حتى فى علم الجنين وتطور الكائنات « **أفلم ينظروا فى ملكوت السموات والارض** » (الاعراف ــ 185) ٠

« **أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت** (الغاشية ــ 17 ــ 20) ٠

« **قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق** » (العنكبوت ــ 20) ٠

« **فلينظر الانسان مم خلق** » (الطارق ــ 5) ٠

الا أن على الانسان أن يحترز من المغامرة فيما وراء المعقول اذا لم يكن لديه أساس علمى موضوعى أو حقيقة

منزلة فان « **من الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير**» . ليس من المعقول اذا أن يوقع الانسان بنفسه فى مخاطر الظن « **وان الظن لا يغنى من الحق شيئا** » (يونس ـ 36) ولا تؤدى به النظريات الخاطئة الا الى الهلاك « **ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** » (الاسراء ـ 36) .

ـ أما على المستوى الاجتماعي فأهم ما تشمله الاخلاق يتمثل فى العدالة وحتى على المستوى الجمادى نجد أن الاهداف ترجع الى ضمان السعادة والسلامة الفردية . فاذا كان المجتمع يطالب الفرد بالمشاركة فى تحقيق السعادة والامن والسلام لغيره من الافراد فانها تعطيه من الوسائل ومن ثقافة ومن أمن اكثر مما تاخذه منه . وهاته الاخلاق الاجتماعية التى تربط الناس بعضهم ببعض تظهر على كل مستويات العلاقات الطبيعية والاقتصادية والثقافية والروحية بينما تبقى خاضعة لمأمورية التضامن والعدالة . الا أن التنافس بين الناس سواء ساده طابع السلام أو طابع العنف فانه مرتبط بالغريزة البشرية التى من أخطارها أن يتغلب الاقوياء على الضعفاء فيحرمون لهذا كانت الاخلاق بحيث ما هي تكسب السلطة القانونية وعليها تتركز المعاملات الاجتماعية تعلن بأن كل الناس لهم حق فى الحياة والكرامة وانهم كلهم سواسية عند الله وأمام عدالته وأمام رحمته .

كما انها تؤكد فى الميدان الاقتصادى طابع الاستخلاف فى الملكية وذلك من جهة أن الله وحده « **له ملك السموات والارض** » (الحديد ـ 2) « **وأن ليس للانسان الا ما سعى**» (النجم ـ 38) .

والامر هو « **آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » (الحديد ـ 7) واذا كانت الملكية الخاصة الفردية أو العائلية محمية ومضمونة لانها ثمرة الجهد والعمل فانها من ناحية أخرى تخضع للمراقبة الخلقية والقانونية التى لا تتعدى الى استغلال وظلم الناس بل تعم فوائدها على الناس ولا سيما على الضعفاء منهم . ثم اذا انفق الانسان مما جعله الله مستخلفا فيه فانه لم يقم بذلك بأداء صدقة اختيارية « وانما هو يؤدى واجبا هو مطالب فيه » . « **وفى اموالهم حق للسائل والمحروم** » (الذاريات) أما الصدقة فتختلف عن الزكاة بطابعها الاختيارى كما تختلف عن الانفاق فى سبيل الله الذى هو مطلوب بالحاح ولكن بدون تحديد قانونى . وبالعكس فان الاخلاق تستنكر التكديس الغير المثمر والاحتكار للاموال « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** » (التوبة ـ 24) وذلك ليس فقط لان الافراط فى كسب الاموال يؤدى الى الكبرياء والاضطهاد « **ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى** » ولكن كذلك لانه من عوامل التزمت التفضيلى

المسيطر على المجتمعات « **وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون** » (الزخرف ـ 2I) . ذلك الاهتمام بالعدالة الاجتماعية والانسجام نجده كذلك على مستوى الاخلاق الجنسية (الزوجية) المبنية على أهمية وخطورة **الميثاق** الذى يجمع بين الزوجين وعلى **المساواة** بينهما أمام القانون « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** » وعلى **المودة** « **وجعل بينكم مودة ورحمة** » وعلى **الاحترام والتضامن** « **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** » وعلى **التقسيم** العادل **للمسؤوليات** فى التربية والانفاق وواقعية هاته الاخلاق جعلتها تسمح « بغير رضا » اذا صح التعبير ، ولا لغرض الا لضمان التلاؤم والاستقرار الاجتماعى بتعديد الزوجات « **وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ...» النساء 2) أو بالطلاق اذا نفذت وسائل الصلح والمراجعة . وبالعكس فآن الاسلام مثل الديانات الموحدة التى سبقته يحرم تحريما قاطعا كل علاقة جنسية تخرج عن نطاق الزوجية الشرعية .

ان العدالة الاجتماعية تزداد تماسكا بالرابطة الروحية التى تكون الاخوة داخل الامة بمافيها من التضامن المادى والمعنوى ومن الاحترام الشامل والمطلق لتطبيق العدالة للجميع . وهاته العدالة تشمل الامن والممتلكات والشرف والكرامة الانسانية لكل فرد ، كما تشمل التعاون المادى والمعنوى المباشر أو المنظم والخدمات الاجتماعية والثقافية .

أما فى مستواها الاعلى فتتمثل الاخلاق الاجتماعية فى تبليغ وتحقيق وحماية الرسالة الروحية . فالامة الاسلامية تعيش فى البيئة الروحية التى تظهر فى الشعائر الدنية وتكمن فى شعور الامة بأنها المسؤولة عن الرسالة المتمثلة فيها .

ـ وأخيرا على المستوى الكونى تتجاوز الاخلاق دائرة الانسان والامة الاسلامية لتشمل كل المخلوقات . أما فى الميدان البشرى فتسود روح المساواة المطلقة عند الله فلا الجنس ولا اللون ولا المرتبة الاجتماعية ولا الثروة كفيلون بأن يعطوا لايكان كرامة أو حقوقا يتميز بها عن الآخرين اذ لا يميز بين الناس الا درجة الالتزام بالايمان ، والمهم فى ذلك ليس التظاهر فى الشعائر اذ « **ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين** » (الآيه) ان الفضيلة فى تقوى القلوب وفى العمل الصالح ومخافة الله وفى هاته الفضيلة الخلقية يتفاضل الناس درجة عند الله « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير** » (الحجرات ـ I3) ثم تمتد الفضيلة الى

الاحترام وتقديس الحياة سواء فى العلاقات البشرية « **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق** » (الانعام 151) أو على مستوى الكائنات « **وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم** ... » (الانعام - 38) .

واذا كان العنف والقتال والبأس لا ينفصلون عن حياة الانسانية فعلى الانسان أن يواجهها لا كمحنة وابتلاء فحسب « **والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس** » ولكن كذلك كمكروه يجب محاربته والتحرر منه والصبر عليه اذا لزم ذلك .

5 - الاسس النظامية التى تتحقق الاخلاق تحت ظلها :

لم تكن النظم الخاصة بالمجتمع الاسلامى محددة شرعيا فى تركيبها وأجهزتها الا أن رسالتها ووظائفها معرفة بوضوح . والاطار الشرعى لهاته النظم على ثلاث مستويات : المصادر الاساسية العقيدية - **الوظيفة والامتيازات** - أسس النظام والتسيير .

1) ما هي المصادر العقيدية التى تعتمد عليها الانظمة ؟

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما لو اتبعتموه لن تضلوا من بعدى أبدا كتاب الله وسنتى»

- **كتاب الله** هو المنبع الاول والمرجع الاساسى الذى يحمل رسالة الايمان وروح القانون . انه كلام الله الذى يهدى للقيم الخلقية والدينية . أما **السيرة النبوية** فهي تنظم وتطبق عمليا مقتضيات الايمان وحدود الشريعة . ولهذا جمع فى الامر طاعة الله وطاعة الرسول : « **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ... » (التغابن - 12) « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** » (الحشر - 7) . أما ما يميز هذين العنصرين فهو أن الرسول لم يكن الا المسلم الاول والمثل الاول : « **وأمرت لان أكون أول المسلمين** » (الزمر - 12) كما انه المبلغ المسؤول « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالاته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين** » (المائدة 67) .

وهناك مصدر ثالث مفتوح فى الزمان والمكان وهو **الاجتهاد** الفردى أو الجماعى الذى يواجه به المؤمنون المشاكل التى تطرح عليهم مع التمسك بمبادئ الشرع . ومسؤولية الامة فى وفائها لرسالة الايمان واحترامها للمبادىء الخلقية ، تفرض وجود نظام جماعى مكلف بالقيام على هذه المبادىء « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** » (آل عمران (104) ويمكن لنا أن نتصور هاته المنظمة التى تمثل الضمير الدينى والمسؤولية الخلقية للمجتمع والتى تلعب فى نفس الوقت دورا استشاريا وتشريعيا وربما زاجرا للمخالفات ، وتكون سلطتها التى تعتمد على مبدا احترام الاخلاق الاساسية تهيمن على سائر الامة بما فيها الانظمة

الحكومية . وذلك يعنى أن السلطة الحاكمة تخضع للمبادىء الخلقية المفروضة .

أما على المستوى المركزى فتوجه النظم الحكومية :

انه من الحكمة السامية عدم تجميد نظام الجهاز التنفيذى للسلطة الحكومية أما الدولة التى أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة فهي مثل وحيد فى نوعه لانه مرتبط مباشرة بالوحي ، ولترسيخ العقيدة فى الناس ولتشييد المجتمع الاسلامى فى ظروف تاريخية غير عادية . وأما السلطة الشبه المطلقة التى سنتها العائلات الملوكية من بعد فقد كانت لا محالة انحراف خطير عن مفاهيم العقيدة ولكن لا ننسى من جهة أخرى أن الحكومات فى تاريخ الاسلام حتى يومنا هذا كانت تحكم باسم الشريعة الاسلامية سواء ابتعدت عنها أو اقتربت منها . ومهما يكن نموذج الدولة الاسلامية فانها تخضع لمبدئين أساسيين : المبدأ الاول هو أن تحكم بما أمر الله وأن يلتزم أولو الامر

بتطبيق الاخلاق والشريعة الاسلامية وبالدفاع عنها وحماية الاراضى ومصالح الامة الاسلامية . وبقدر ما يتمسكوا بما أمر الله فان لهم أن يطاعوا كما تنص عليه الآية الكريمة : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم** » (النساء ـ 59) وبالطبع فان عليهم أن لا يحيدوا عن أمر الله « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** » (المائدة ـ 44) كما أنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخاق » (حديث) .

المبدأ الثانى هو أنه على الحاكم أن يقتضى مبدأ الشورى : « **وأمرهم شورى بينهم** » (الشورى ـ 38) «**فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين** (آل عمران ـ 159) . أما كيفية تطبيق مبدا الشورى الذى يعارض كل أنواع الاستبداد فى الرأي والامر فهو موضوع دراسة اجتهادية من حق المفكرين والمسؤولين الاسلاميين أن يحددوا اطارها حسب الظروف الاجتماعية والفكرية الراهنة .

5 ـ الاخلاق والنظم الاسلامية على ساحة التاريخ :

لم يكن من شأن الرسالة الاسلامية أن تجعل من الحياة الدنيا جنة فى الارض ولا أن تجعل من كل الناس أولياء الله . وذلك لان الجنة محلها فى الدار الآخرة « **وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** » (العنكبوت ـ 64) وما الولاء الا الاجتهاد فى الفضيلة والتقوى التى تقرب من الله « **ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون** » (الانفال ـ 34) أما الحياة الدنيا فهي امتحان يتعرض فيه الانسان لدواعى متناقضة للخير وللشر ما بين الحيوانية التى يحملها فى طبيعته والروحانية التى تحرره .

وفى هذا الامتحان وفى هذا التنافس الخطير من أجل النجاة ليس للافراد والجماعات أن يحققوا نفس النجاح .

فمنهم من يسعى ونور الله بين يديه ومنهم من « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** » (البقرة – 7) وبين هؤلاء وهؤلاء درجات فى الكمال والضلال · الا أننا حين نتكلم عن حضارة الاسلام من الوجهة التاريخية نذكر أن هنالك انتصارات وهزائم وانحطاطا ونهضة · وبالرغم من ازدهار تمدنى امتد عدة قرون واتسع على قارات العالم وشمل مئات الملايين من البشر فالتطور التاريخى للعالم الاسلامى لم يكن متساويا واذا حاولنا أن نتحكم فيه نجد أمامنا نوعين من المسائل : المسألة الاولى ذات طابع فلسفى وهي : هل كان من المفروض على الامة الاسلامية أن تحول البشرية الى مجتمع مثالى مؤمن وعادل وموحد ومزدهر ومتكافىء ؟ من غير شك انه من حقها أن تحافظ على فضيلتها أحسن مما كان وأن لا تبتعد عما وصفها الله به فى قوله « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** » (آل عمران 110) · لكن الكمال البشرى ليس من طابع الحياة « **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم** » (المائدة 48) ·

المسألة الثانية تتعلق بجدلية التاريخ فاذا كانت حوادث الزمان خاضعة لمشيئة الله حيث « **أن الارض لله يورثها من يشاء من عباده** » (الاعراف 128) ؛ شيئة الله تقتضى التصرف الواعى والمسؤولية الفعالة للانسان « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » (الرعد – 11) · وحسب هذا المنطق يقول : « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون** » (الانبياء – 105) أما فيما يخص التفهم الموضوعى للعوامل التى تؤثر فى مصير الامم فهي أكثر تعقدا مما هو فى سلوك الافراد كما انه ليس من السهل أن نحدد دور الاقتصاد والبيئة الطبيعية بل وحتى مفعول الغريزة والشهوة والصدفة والارادة والاغلاط ·

ان الموضوعية فى الحكم على التاريخ تنفلت من قبضة الادراك والمعرفة على المستوى الانسانى · لقد حاول ابن خلدون ومن بعده كارل ماركس تحليل بعض العوامل التى تسيطر على تاريخ المجتمعات ولكن فى جدلية التاريخ ما هو حقيقة علمية وما هو تهافت عشوى ولهذا ليس من ادعائنا أن نجعل من فلسفة التاريخ علما موضوعيا بل نكتفى بعرض بعض العوامل السلبية التى كدرت تاريخ العالم الاسلامى وهي ترجع غالبا الى التفاوت الذى طرأ بين مبادىء الاخلاق والشريعة الاسلامية وبين تطبيقها وواقع الحياة · ما هي هاته العوامل ؟

1) تصدع الوحدة العقيدية فى مفهوم الايمان أدى الى اختيارات فردية

واجتماعية اعدمت التوازن فهي تارة تميل نحو تصوف انعزالى رافض لحقائق الحياة وتارة نحو اقتصادية مستحوذة على الحياة ونافية للقيم الخلقية والروحية ·

2) التباعد الذى وقع بين تحمل مستسلم رسالة الايمان وبين التفهم العقلانى للعالم أدى الى تحجر الفكر الدينى فى قالب التزمت الفقهى عوض أن يتفتح لآفاق العلوم الطبيعية والانسانية ·

3) التناقض بين دوافع الشهوات المادية ودواعى الامتناع الروحى كثيرا ما يؤدى على مستوى الافراد الى تغلب الغريزة التى تدعو للشهوات ولحب السلطة وعلى مستوى الاجتماعى الى تلاعب المتناقضات بين مصالح الجماعات والطبقات والاسر المالكة والدول الحاكمة ·

4) كثيرا ما يقع تباعد بين معتقدات الجماهير المؤمنة والمتمسكة بالشعائر الدينية وبين المفاهيم التى تحملها رجالات السياسة الذين لا يعبؤون بحماية الدين واحترام مبادىء الديمقراطية وتطبيق العدالة الاجتماعية ·

5) اذا كان المسلمون قد بادروا فى بادىء الامر بالاقتباس المتفتح والمثمر من الافكار والفلسفات القديمة أو الاجنبية من دون أن تنقص من عقيدتهم أو تلفتهم عن الثقافة الاسلامية فانهم في العصور الاخيرة لم يتحكموا في تاثير الافكار المختلفة التى تحملها المدنية الغربية ·

6) النزاعات السياسية العقائدية جعلت الوحدة العضوية للعالم الاسلامى تتشتت من دون أن تخفف من خطر التفتت السياسى بروابط التضامن والتعاون بين الدول · وازدادت تلك النزاعات حدة بسبب الهيمنة الاستعمارية وبروز النزاعات القديمة القومية وتنافس الدول العظمى ·

7) كان من شأن الاعتداءات الخارجية منذ بداية انتشار الاسلام حتى عصر التوسع الاستعمارى الحديث بما فى ذلك من حروب صليبية وغارات استعمارية أن تعرقل القوة السياسية والاقتصادية والروحية والثقافية فى العالم الاسلامى ·

8) كان فى استمرار أو فى بروز عوائد وعقائد وأفكار جاهلية أو أجنبية خارجة عن المفاهيم الاسلامية عامل جهل وشعوذة وركود مخالفة للفكر الاسلامى المحرر للعقل ·

9) هنالك عوامل أخرى أقل عمومية تدخلت فى تسلسل الاحداث التاريخية · كخصائص الاقتصاد وطبائع البلدان والاحوال الاجتماعية وحتى التطورات الوبائية التى كانت سببا فى هلاك البشر وتخلف العمران وركود المدنية ·

لم تشمل هاته القائمة كل ما يمكن أن يقال فى هذا الشان واذا كان هذا العرض متشائما نوعا ما فلا يمنعنا من

الحكم بأن الشعوب الاسلامية بقيت مرتبطة بالقيم الاسلامية لا فى العهد الزاهر للمدنية الاسلامية فحسب، ولكن حتى فى المحن المؤلمة التى مرت عليها · لهذا فان أخطر عهد يهدد وجود الامة الاسلامية وقيمها ووحدتها العقيدية ليس عهد الاغارات الوثنية ولا الاعتداءات الصليبية ولا الفتن الداخلية ولا حتى الغزوات الاستعمارية حيث استطاعت فى آخر الامر أن تردها أو تنتصر عليها،وانما هو فى هذا النصف الاخير من القرن العشرين · ذلك التحدى المتعدد الاشكال الذى يقوم به العالم العصرى : تحدى استراتيجى يجعل من العالم الاسلامى عالما ثالثا تتنازع فيه الدول الكبرى للسيطرة السياسية والاقتصادية والعقائدية · تحدى تكنولوجى حيث أن الغلبة القاهرة للغرب تواصل ضغطها وسيطرتها على عالم متخلف كسدت فيه مرافق الاقتصاد والعلم والثقافة منذ قرون عدة · ثم من الناحية الفكرية تحدى فلسفى حيث أن العقائد الالحادية والمادية تتسرب فى ضمائر المسلمين ولا سيما فى النخبة السياسية والفكرية · وأخيرا تحدى اجتماعى حيث ان الامة الاسلامية تتخبط فى تناقضاتها التاريخية الناتجة عن التخلف والتى أظهرت فيها عقليات واختلافات طبقية لا تتماشى ومبادىء العدالة والاخوة ·

6 ـ مفترق الطرق :

يعيش العالم الاسلامى اليوم على ملتقى مزدوج للطرق.حيث ان تطوره الزمنى بين الماضى والمستقبل يلتقى بالتطور المزدوج للعالم الغربى · فمن جهة يخرج العالم الاسلامى من عهد التخلف والاستعمار الطويل مع العزم المنعقد لا لاحياء واثبات قيمه الخاصة فحسب ، وانما كذلك للانطلاق فى عهد التكنولوجية الحديثة · وفى نفس الوقت يصطدم بالغرب المنقسم الى شطرين متعاديين يهدد تنازعهما سلامة العالم وتواجد الامم وحتى حياة البشرية · وكلا المعسكرين يعتمد على فلسفات مادية تتجاهل القيم الروحية،ولا يختلفان الا فى اختياراتها الاجتماعية الاقتصادية فالاول موجه نحو حرية المبادرة والآخر نحو اشتراكية وسائل الانتاج · والعالم الاسلامى يتعرض للضغوط الصريحة أو المخفية لا على المستويات السياسية والاقتصادية والاستراتيجية فحسب،ولكن حتى على مستوى العقيدة والفكر والسلوك الخلقى ·

وهذا الضغط المختلف الاشكال يتمخض عن تيارات فكرية مختلفة تتقارب أو تتصادم،فتثير التناقضات الداخلية فى المجتمع الاسلامى،كما تزرع فيها نفس الاختلافات العقائدية التى تتنافس فى المجتمعات الغربية ومن ضمن هاته التيارات التى لا يسهل تحديدها فى محتواها وفى تطورها وفى تداخلها سنذكر :

1 ـ تيار اسلامى فى أعماق الجماهير الغفيرة والذى مع ضعفه فى ميادين الشعور والتعبير والتنظيم يشهد عن

طموح شعبى يهدف لتحقيق الكمالات الاسلامية فى الاخلاق والقوانين والنظم وفى الترقية الاجتماعية والاقتصادية العادلة .

2 ـ تيار مناضل ينتسب للسلف الاسلامى ويطالب بحكم ونظام خلقى متمسك بالشرع والتقاليد الاسلامية . ربما أدى به نضاله السياسى وضعف تقييمه لحقائق ومتطلبات العصر الى التطرف والانعزال بالنسبة للجماهير التى من شأنه أن يقودها وبالنسبة للنظم السياسية التى ينكر شرعيتها .

3 ـ تيار محافظ يدعى التمسك بالقيم الدينية ويعتمد على المظاهر أكثر مما يعتمد على المعانى.وهو فى الواقع يمثل تحالفا بين الطبقات أو الجماعات الحاكمة والمسيطرة على الاقتصاد وفرقة من رجال الدين المبتعدين لا عن فهم التطورات التى طرأت على الفكر وعلى المعرفة فحسب ولكن حتى عن المحتوى العميق الخلقى والاجتماعى والفكرى فى الاسلام .

4 ـ تيار فكرى وسياسى متشبع بالمفاهيم الغربية العصرية ومقتنع بأنه لا توجد حلول خارج المدنية الغربية والديمقراطية من النوع الليبرالى . أما الدين فلا يكتسى فيه أهمية دولية بل يمكن أن يكون مسألة اختيارات فردية ربما يجوز احترامها ولكن لا يقبل الامتثال لها أو الاعتماد عليها .

5 ـ تيار يسارى ينتمى من قريب أو من بعيد للماركسية . له اختيارات ثورية اجتماعية . يتسامح نوعا ما مع ما نسميه « مخلفات العقائد الدينية » وربما يسعى الى ادماج المفاهيم الاسلامية والماركسية بصفة وقتية تتناسب مع ظروف خاصة

6 ـ دون هذه التيارات الكبيرة . توجد لا محالة أشكال عديدة من النزاعات العقائدية التى تفرق بينهم تزداد حدة مع تداخلها فى التحالفات السياسية الراهنة التى تصطاد الشعوب والدول فى شبكة الاستراتيجيات الدولية .

ان الازمة الخلقية فى العالم الاسلامى تظهر على مستوى النظم الحكومية بمقتضى النزاعات القومية الغيورة عن استقلالها وشخصيتها ومصالحها الاقتصادية بعامل الاختلافات الكبيرة فى نوعية النظم الدولية التى تتراوح ما بين الاحكام الاقطاعية الى الجمهوريات اللائكية مرورا على الدكتاتورية العسكرية أو المدنية . بما فيها من يمينية أو يسارية .

هل يمكن لنا أن نتنبأ أو نتدارك بوضوح ما هي الخطوط الموجهة للتطور فينطلق فى ضوءها العالم الاسلامى طبقا لتعهداته ولرسالته الروحية التى تهدف الى آفاق انسانية يسود فيها التقدم والعدل والحرية . انه ليس من كفاءتنا فى اطار هذا البحث التمهيدى أن نتكهن بماذا يحدث فى المستقبل ولا أن نرسم الطرق ولكننا نحاول أن نبرز

الاهداف الاساسية لاستراتجية عامة تحتاج الى استشارات وتقديرات على مستوى أوسع وأكفأ ٠

7 ـ في سبيل استراتجية بحث وعمل :

اذا كنا نتكلم بصفتنا مسلمين ومؤمنين بالله وملتزمين بخدمة الاسلام فان هدفنا يكمن فى تحقيق الفضائل الخلقية والروحية وهذا يفترض أهدافا عملية نذكر منها :

أولا : تكوين الانسان على مستوى الايمان أي فى معرفة الله وحبه وعبادته والعمل بدينه والاقتفاء بسنة رسوله ٠

ثانيا : تحقيق الانسان فى بعده الحياتى الاجتماعى اي فى حقه للحياة الكريمة وللامن وللصحة البدنية وللسعادة النفسية ٠

ثالثا : تحقيق الانسان فى بعده الخلقى،بما فى ذلك من محاسن نفسية وثقافية أساسية ومن فضائل سلوكية فى المعاملات الفردية والعائلية والاجتماعية ٠

رابعا : تحقيق الانسان فى بعده الاجتماعى المبنى على مفهوم الاخلاق الاساسية التى تتمثل فى الاخوة والمساواة والعدالة والتضامن فى النظم التى تضمن احترام هاته الاخلاق وتطبيق القوانين التى تنبعث منها ٠

خامسا : تكوين الانسان فى أبعاده الادبية والفكرية التى تعطى للحضارة الانسانية محتواها ومفاهيمها الفاضلة ٠

سادسا : تكوين الانسان على مستوى الامة التى تسودها علاقات الاخوة الصادقة تلك التى صمدت أمام تحديات الزمان وأنواع العدوان وهي التى توجد بين المسلمين عبر الحدود واللغات والاجناس والحكومات ٠

سابعا : تحقيق الانسان فى بعده البشرى أي فى علاقاته مع الشعوب والديانات الاخرى طبقا للمكانة التى خصصها الله للامة الاسلامية « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** » (البقرة ـ 143) ٠ هاته الآية الكريمة تعبر على رسالة الاسلام العالمية كعامل توازن بين الامم وسلام بين الشعوب وذلك يتضمن مسؤولية ايجابية للدفاع عن الحقيقة وعن الحق وعن العدالة والحرية فى العالم ٠

يبقى أن هاته الاهداف الخلقية تتطلب نظما مشروعة وملتزمة بحمايتها وتحقيقها ٠ أما النظام الحكومى فليس من الحكمة أن يتقيد بنموذج متجمد بل عليه أن يتطور حسب الاحوال والزمان والاوضاع الاجتماعية الاقتصادية فى كل بلاد ٠ ولكن اذا كانت الاوضاع الراهنة تجعل من الخيال واللامعقول أن نفكر عاجلا فى حكومة اسلامية عالمية ، ليست الافكار ولا الاوضاع مستعدة لفرضها ٠ فيبقى الاتحاد هدفا نظاميا أساسيا طبقا للوصية الالهية : « **واعتصموا بحبل الله جميعا**

ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » (آل عمران – 103) ٠

ولا يتمثل هذا الاتحاد فى علاقات التعاون والتضامن فحسب ولكن فى الاجتهاد الجماعى لتحقيق الاهداف الخلقية فى العدالة الاجتماعية والرفاهية والتقدم والتآخى والسلام بين الامم ٠

لا شك وان العقبات التى تقف دون تحقيق هاته الاهداف المثالية كثيرة ومعقدة، منها ما يكمن فى تناقض الطبيعة الانسانية، ومنها ما هو متعلق بالتطور الداخلى الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى فى العالم الاسلامى، ومنها ما يقع على مستوى الروابط التاريخية والاقتصادية والعقائدية والاستراتيجية مع الدول الكبيرة ومع شعوب العالم ٠ وعلى المفكرين المسلمين الاكثر اطلاعا ووعيا والتزاما مهما كان جنسهم او بلدهم او لغتهم، ان يتعارفوا وان يسعوا فى البحث عن أنجح طريق تقود الى مجابهة مشاكل الساعة التى تتخبط فيها ٠ ليست الشعوب الاسلامية فحسب بل كافة الانسانية ٠ لذلك لا يكفى بأن نعلن بوفائنا للاسلام ولا ان نؤذن بشموليته وعبقريته ٠ ان الجهاد الاكبر الذى هو جهاد فى سبيل الاسلام وتزكية الانسان مسؤولية كل مؤمن ، وامتحان متواصل٠ والتوصل اليه يقتضى أن نتعرف على الاسلام أحسن مما نحن عليه وان نطلع على تطورات العالم المعاصر ، وتنمية المعارف والافكار اكثر مما هو حاصل ٠ وان نوضح الاهداف والمقاصد وان نحدد بموضوعية أهم القضايا ، بعد تقييم الحواجز والعوائق، وأن نضع الخطوط الهامة لاستراتجية عامة ، للبحث والعمل على طول امتداد العالم الاسلامى ، وعلى اختلاف أوضاعه ٠

كثيرا ما كانت المساعى مبعثرة أو مشلولة والافكار متنافرة أو مشبوهة لكن الاضطرابات التى يشهدها العالم الاسلامى وردود الفعل التى يثيرها، تعبر فى مداها وفى ثباتها عن تلك القوة الفكرية التى ضاق عليها عالم يسوده الظلم والبخل والكذب، وتأبى الا أن تتفجر بأنوارها لتضىء العالم بالحق والعدل والسلام ٠



هل الى عزة المسلمين من سبيل ؟

الاستاذ محمد الهادي الحسيني

ها نحن نقف على عتبة القرن الخامس عشر للهجرة المباركة . فهل يلوح فى الافق ما يشير الى أن هذا الجيل من المسلمين هو المعنى بقوله عز وجل : « **وعـــد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا ، يعبدونني لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون** » ؟ النور الآيـــة 53 .

لقد طوى المسلمون من القرون أربعة عشر ، ذاقــوا خلالهــا الحلــو والمر ، وعرفوا اليسر والعسر ، وشاهدوا المد والجزر ، وتقلبوا بين العز والقهـــر ، وعاشوا الهزيمة والنصر ، ومسهم الغنى والفقـــر .

لقد أقام المسلمون خلال هذه القرون الخالية دولا كثيرة فى المشرق والمغرب، فى الشمال والجنوب ، وقد لوحـــظ أن هذه الدول كانت أقوى بنيانا ، وأرسى قواعد ، وأمتن أوتادا ، وأرهب للاعداء ما حكمت بما أمر الله ، واستمسكـــت بالعروة الوثقى ، وانها كانت أوهن من بيت العنكبوت ما اتخذت الهها هواها ، واستبدلت الذى هو أدنى بالذى هـــو خير ، واتبعت ما تتلو الشياطين .

كما لوحظ على هذه الدول فى أيــام عزها وصولتها ، أن قوتها لم تكن – فى الاغلب – مرتكزة على قوة عتاد ، أو كثرة عدة ، بقدر ما كانت تلك القـــوة مستمدة من مبادىء الاسلام ، ومن تشبث الناس فيها – حكاما ومحكومين – بحبل الله ، ووقوفهم عند حدود دينه . وكـم من مرة ظن المسلمون – عندما أعرضوا عن ذكر الله – أنهم أولو قوة ، وأولـــو بأس شديد ، وأعجبتهم كثرتهم ، ولكنهم عند لقائهم بالعدو ولوه الادبار ، وأثاروا

فى وجهه الغبار ، وفضلوا على الاستشهاد الفرار ، ولم يكلل جبينهم الغار • وكم من مرة كانوا ــ المسلمون ــ قلة فى العدد ، محرومين من المدد ، عارية ظهورهم من أي سند ، وظن عدوهم أن لن ينجو منهم أحد ، فاذا بهم ــ المسلمين ــ يسحقونه سحقا ، ويمحقونه محقا ، ويذيقونه من أمره رهقا •

وقد خاض المسلمون تحت لواء الاسلام جهادا طويلا مضنيا ضد الدول الطاغية ، كالدولة الساسانية والدولة البيزنطية ، وتصدوا لهجمات ظالمة ، شرسة ، حاقدة كالهجمة الصليبية ، **والهجمة المغولية ، والتكالب الاوروبى الذى ابتدأ منذ القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد) ، وما يزال مستمرا ، متواصلا الى اليوم فى عدة** أشكال منها **المفضوح المكشوف ، وهو اليسير ، ومنها المستور الملفوف ، وهو العسير •**

وقد حاول أعداء الاسلام ــ وما زالوا ــ أن يحطموه من الداخل ، بنشر مذاهب وافكار ضالة بين المسلمين ، فظهرت السبئية ، والمزدكية والبابكية ، وحركة القرامطة ، والبهائية والقاديانية، ويحاول الآن أعداء الاسلام بشتى الوسائل أن يحطموه باشاعة الداروينية، والفرويدية، والشيوعية ، والماسونية ، والافكار الرأسمالية بين شباب المسلمين ••• وقد تصدى لهؤلاء وأولئك علماء الاسلام، فكشفوا الضلال ، وبينوا الزيف ، وفندوا الادعاءات ، وفضحوا المضللين • وبقي الأسلام نقيا ، صافيا ، وسيبقى رغم كيد الكائدين ، وضلال الضالين المضلين، ألم يعد رب العزة بحفظ هذا الدين عندما قال : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » ؟ الحجر • الآية 9 • ألم يخبرنا بأنه لا يمكث فى الارض الا النافع المفيد بقوله : « **كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض •••** » ؟ الرعد الآية 19 •

وقد عرف المسلمون خلال الاربعة عشر قرنا الماضية أمراضا فتاكة ، وأدواءا قتالة ، وعللا مهلكة ، كانوا هم السبب فيها ، اذ أن الله جلت قدرته **لا يظلم مثقال حبة فى الارض ولا فى السماء ، وقد فعلت فيهم هذه الامراض ــ وما زالت ــ فعلا سيئا ، ولطخت ــ وما زالت ــ صفحات عديدة من تاريخهم ، ومنها :**

المذهبية : التى فرقت الجمع، وشتتت الصف ، وأهدرت الطاقة ، وأضعفت القوة ، وهدت البنيان ، وصار الاسلام ــ نتيجة هذه المذهبية ــ اسلامات ، والدين أديانا ، والاخوة أعداءا ، واصبحنا اليوم نقرأ الكتب الضخام عن الاسلام السنى ، والاسلام الشيعى، والاسلام الخارجى ••• وفى كل اسلام من هذه الاسلامات شيع وفرق يحار فيها العقل •

التسلطية فى الحكم : فقد ابتلي المسلمون ــ قديما وحديثا ــ بكثير من الحكام ، علوا فى الارض وعاثوا

فيها فسادا ، ونبذوا أمر الله « ·· وشاورهم فى الامر ·· » آل عمران الآية 159 · و « أمرهم شورى بينهم ·· » الشورى · الآية 35 · أعرضوا عن كل ذلك ، وراحوا يفرضون على المسلمين ـ بالترهيب ـ أحكاما ما أنزل الله بها من سلطان ، وأخذتهم العزة بالاثم ، ودعاهم الشيطان فاستجابوا له · وان منهم لفريقا اسجدوا لهم عباد الله ، وان منهم لمن يطالبون الناس بطاعتهم وهم يعصون الله ، وان منهم لمن يشهدون الله على ما فى قلوبهم وهم الد الخصام ، وأفتك بالاسلام من أعداء الاسلام ، وان منهم لمن يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ، وان منهم ·· وان منهم ··

التبذير : وكم أضاع المسلمون ـ وما زالوا ـ حكاما ومحكومين من أموال ، كانت كافية لاخراجهم مما هم فيه من سوء الاحوال ، لو أنفقت فى ميادين الخير ومواطن الحلال ، فمنهم من أضاعها فى بناء قصور ، ومنهم من بذرها فى تزيين وزخرفة قبور ، ومنهم من صبها فى بطنه فى شكل خمور، ومنهم من أحرقها كالبخور فى محلات الفجور ، ومنهم من صرفها فى مهرجانات الفولكلور ، واصفا اياها بالعلمية والثقافية ، رغم « الغايطة والطنبور» ، ومنهم من تكرم بها على جواسيس واصفا اياهم بالخبراء الاصدقاء ، ومنهم من كدسها فى بنوك الاعداء ، بل ان منهم من صنع بها مرحاضا من ذهب ، ليفرغ فيه ما يخرج من الامعاء ·

لا شك ان المسلمين فى غالبيتهم ، قد أدركتهم صحوة فى أواخر هذا القرن المنصرم ، وزالت عن أعينهم غشاوات، وانجلت عن عقولهم ضلالات ، بعد أن كانوا عمي الابصار والبصائر ، فارغى الافئدة ، موبوئى السرائر · وقد جاءت هذه الصحوة ، نتيجة أعمال تلك الصفوة ، من العلماء المجاهدين ذوى النخوة ، فى شتى أصقاع العالم الاسلامى ، كجمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ، ومحمد اقبال ، وابن باديس ، والابراهيمى ، وبن نبى ، والمودودى ·· وغيرهم كثير ·

ورغم ذلك فما زال المسلمون بعيدين عن الصورة الحقيقية التى يتحتم عليهم أن يكونوها امتثالا لامر الله ، فهم متفرقون شيعا واحزابا ، فقراء ، ضعفاء ، جهلاء فى حياتهم وسلوكهم ، جاهلين بقدراتهم وامكانياتهم · وان مثلهم كمثل العير تموت ضمأ فى البيداء · وفوق ظهورها الماء ، وانهم ليعزفون الدواء ، ولكنهم يفضلون الداء ·

ان المسلمين يملكون كل أسباب العزة ، وكل شروط المنعة ، وكل وسائل السؤدد ، وانهم لفى استطاعتهم أن يكونوا القوة الخيرة ، والقيادة الهادية فى هذا العالم الذى يقترب من هاوية ما لها من قرار ، لسيطرة قوى الشر ، وتحكم الطغيان · فما هي هذه الاسباب وهذه الشروط التى منحها الله للمسلمين لو قدروها حق قدرها ؟

أولا : الطاقة الروحية المحركة التى يتوفر عليها الاسلام ، وانها لطاقة ربانية جبارة ، قادرة على تجميع وتحريك كل المسلمين فى طريق واحدة، نحو هدف واحد ، هو الاصلاح فى الارض ، واعمارها ، بما يفيد الناس دنيا وآخرة · ولا بديل لهذه الطاقة ، وان ظن قصيرو النظر أن هناك طاقة أخرى يمكن التعويل عليها · وحتى هذه الطاقة البديلة ان حركت ، فانما تحرك لمسافة قصيرة ، ولا تحرك الا للفساد ، وان ظهر لعمي البصائر ، ومزوري الحقائق أنها للصلاح · ولنا فى تخبط المسلمين وتذبذبهم فى شتى أقطارهم البرهان الساطع ، والحجة الدامغة على فشل وعجز أية طاقة بديلة عن تحقيق المرغوب ، والوصول بهم الى المطلوب · وكل ما فعلته تلك الطاقة البديلة أنها أسلمت الرقاب ، وسلبت الالباب ، وجلبت ـ بدل الامن ـ الارهاب ، وان مصير المسلمين اليوم ـ نتيجة هذه الطاقة البديلة ـ هو بأيدى قوى أجنبية·

ثانيا الكثرة العددية للمسلمين ، فهم يبلغون اليوم مليار نسمة أو يزيدون، وهم يشكلون بهذا العدد ربع سكان العالم · ولو أن المسلمين مسلمون حقا وصدقا ، وطبقوا أمر الرسول الكريم : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » ـ والمسلمون كلهم مظلومون فى هذا العصر ـ أقول : لو طبقوا ذلك ، لارهبوا وأرعبوا كل طماع فيهم ، متربص بهم ، متآمر عليهم · فقد قدر الخبراء العسكريون أن أية أمة تستطيع أن تجند عشر أبنائها ، وان عشر المليار هو « مائة مليون » · فما ظنكم بجيش تعداده مائة مليون مجاهد ، لا يتحرك لاستعمار، ولا يستنفر لاستعباد ؟ ألا يرهب هذا الجيش عدو الله ؟ ألا يقصم ظهر كل معتد أثيم ؟ اي وربى ·

ثالثا : الموقع الجغرافى الوسط ، الذى يتحكم المسلمون بفضله فى مداخل ثلاث قارات، ويشرفون على ممرات مائية هي من هذه القارات كالمقاتل من جسم الانسان ، ويراقبون ـ بفضله ـ خطوط المواصلات الدولية ـ برا ، وبحرا ، وجوا ـ التى تربط شمال العالم بجنوبه ، وشرقه بغربه · ومع ذلك فالمسلمون أجهل الناس بقيمة هذا الموقع ، وأزهدهم فى استغلال هذا الوضع ، بينما تتصارع من أجله كل القوى فى العالم صغيرها والكبير ، وتبذل فى سبيل ذلك الغالى والحقير ·

رابعا : الثروة المادية الضخمة ، التى تحتويها أرضهم من معادن ، ونباتات ، وحيوانات ، وطاقة ، فهم يملكون 13٪ من الانتاج العالمى من الارز ، و 10٪ من القمح ، و 54٪ من المطاط الطبيعى ، و 20٪ من القطن ، و 22٪ من الفول السودانى ، و 11٪ من الابقار ، و 25٪ من الاغنام ، و 30٪ من الماعز ، و 9٪ من الثروة الغابية، و 10٪ من قصب السكر ، و 5٪ من الحديد ، و 10٪ من المنجنيز، و 50٪ من القصدير،

و 12٪ من الرصاص ، و 45٪ من معدن الكروم ، و 35٪ من الفوسفات ، و 41٪ مـن البتـرول ، و 70٪ من الاحتـياطى العالمى من البترول (1) · وان تكلـم العالم عن الطاقة الشمسية كبديل للبترول، فللمسلمين من هذه الطاقة نصيب الاسد، وهذا النصيب يكفى لاحراق العالم كله لا لتدفئته فقط ·

خامسا : المساحة الارضية الشاسعة، فالمسلمون يسيطرون على مساحة مـن الارض تبلغ 30،127،609 كيلو متر مربع، وهي مساحة كبيرة جدا ، متنوعـة المناخ والتربة ، مما يجعل التكامـل الاقتصادى بينهم أمرا ممكنا ، فيستغنون بذلك عن مد اليد ، واستجداء الغير ·

ولاعد الى التساؤلات التى استفتحت به هذه الكلمة ، وهو ، هل الى عـزة المسلمين من سبيل ؟

لقد رأينا رأي العين ، ما يملكـه المسلمون فى الوقت الحاضـر مـن امكانيات مادية هائلة ، وثروة بشرية عظيمة ، فما الذي يمنعهم من أن يكونوا أعزة ؟ وما الذى يسد أمامهم سبيـل السيادة ؟ الواقع ، أن المسلمين طلبوا العزة ولم يسلكوا سبيلها ، وتمنـوا المجد وابتعدوا عن طريقه ، لانه لا عزة، ولا سيادة حقيقية الا بالعودة الصادقة الى ما صلح به أوائل المسلمين ، وهـل صلح أمر الاسلاف الا بتمسكهم بالقرآن عقيدة ، وعبادات ، ومعاملات وأخلاقا ؟

قد يظن ظان أننى أدعو الى دولـة اسلامية واحدة ، تدير شؤونها حكومـة واحدة ، ويتهمنى بالاغراق فى الخيال، والجري وراء السراب · وأطمئن هـذا الظان ، بأننى لا أدعو الى دولة اسلامية واحدة ، تسير أمورها حكومة واحدة ، ولكننى أدعو الى أمة اسلامية واحدة ، تطبيقا لامره سبحانه وتعالى : « **ان هذه امتكم أمة واحدة** » الانبياء ، الآية 91 · ومعنى ذلك أن يكون المسلمون يدا واحدة على من يكيد لهم ، ويُعتدى على جـزء منهم ، وما المانع؟ان يتناصر غيرهـم ـ من الشرق الى الغرب ـ على العدوان، ولا يتناصرون هم عـلى رد العدوان ؟ ايتحـالف غيرهـم عـلى الظـلم ، ولا يتحالفون هم على دفع الظلم ؟ أم ترى لا يجوز للمسلمين ما يجوز لغيرهم ؟ !!

ان العزة لله فلنطلبها منه بسلـوك سبيله ، والعودة الى شريعته ، واقامـة دينه ، والاعتصام بحبله ، ولن يخلفنـا الوعد الذى وعد به ، والعهد الـذى أعطاه للمؤمنين من عباده ، وعندئـذ يحق لنا أن نسأله النصر ، كما سألـه المؤمنون الصادقون من قبلنا : « متى نصر الله » ؟ وسيجيبنا جلت قدرتـه كما أجاب المؤمنين السابقين « **قل عسى أن يكون قريبا** » ·

أما اذا أبينا الا الاستمرار فى طريق الغي ، والعزوف عن سبيل الرشـد ، ولم نقم القـرآن ، فلسنـا عـلى شىء · وسنبقى مذبذبين ، نخوض مع الخائضين،

---

(1) د· صلاح الدين الشامى ، وزين الدين عبد المقصود · جغرافية العالـم الاسلامى ، منشأة المعارف ، مصر ، 1974 ·

ونلعب مع اللاعبين ، حتى يأتى اللـــه بقوم يحبهم ويحبونه ، وسنخسر الدنيا، ولخسران الآخرة أكبر ، وسيــزداد تسلط الاعداء علينا ، ولن تغني عنـــا كثرتنا شيئا ، وعندئذ سنعض الانامـل ندما على ما فرطنا فى جنب الله، وينطبق علينا قول الله عز وجل : « **فلا تلومونى، ولوموا أنفسكم** » ابراهيم . الآية 22 .

الإسلام عامل رئيسي لإثبات الشخصية الجزائرية أمام محاولات الاندماج خلال القرن التاسع عشر



د. صاري الجيلالي

ان أهداف الاحتلال الاستعمارى لم تتمثل فى الاستيلاء على ثروات البلاد واستغلالها استغلالا محكما وباخفض الاستثمارات فحسب، بل رمت أيضا الى تحقيق سياسة واسعة النطاق تعتمد قبل كل شيء على استطانة عدد وافر من الاوروبيين الا أن تطبيق هذا المخطط نفسه ظل مرهونا بعامل آخر يضمن وحده وللابد بقاء الهيمنة الفرنسية وسيطرة الحضارة الغربية، وهذا العامل هو القضاء على العقيدة وبالتالى الحضارة العربية الاسلامية.

وهذا ما يتنافى وتعلق الجماهير بشخصيتهم العريقة ونظرا الى هذه الظاهرة التى اثبتتها المقاومات العنيفة والطويلة ضد الغزو الاستعمارى، فان السلطات الحاكمة لجأت الى وسائل خاصة، غير مباشرة وذات طابع انسانى على وجه العموم وهو كل ما جاء فيما سمى بسياسة الاندماج خاصة فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى وهى الفترة الحاسمة حيث أن الظروف كانت ملائمة جدا (1).

والهدف من هذا العرض هو تحليل تلك المحاولات ونتائجها وذلك لابراز دور الاسلام فى اثبات شخصيتنا وبفضل هذا التحليل نتوصل أيضا الى بيان علاقات تلك المحاولات فى اندلاع ثورة 1871 وبذلك تتأكد لنا فى الاخير عبرة هذه الثورة ومكانتها فى تاريخنا المعاصر.

---

(1) مع العلم أن معاهدة 4 جوليت 1830 قد نصت على : « ان ممارسة الديانة الاسلامية (المحمدية) تبقى حرة ».

Bulletin Officiel de l'Algérie et des colonies, Alger 1833, N° 1.

1) محــاولة الاندماج بواسطة التعلـيم الرسمى :

قبـل الشروع فى تطبيــق التعليـم الرسمى اتخذت اجراءات خاصة للقضاء تدريجيا على الحضارة والثقافة وكل ما يشخصهما فى مختلف المظاهر اليـومية بحيث أنه بعد شهرين فقط من احتلال الجزائر العامة استولت السلطات عـلى الاملاك العقارية التابعة للمساجد ومحلات التعليم وقد تمت العملية بصفــة نهائية وشرعية بمقتضى قانون 1851 فأصبحت هكذا المساجد والمؤسسات التابعة لهـــا بدون اعتمادات بل قد دمر منها عـــدد كبير فى مختلف المدن اثر الغزو ، ثـم بعده بمناسبة فتح طرق جديدة عبـــر الاحياء وبعد تحويل عدد منها الى ثكنات وكنـــائس ومستشفيات (2) ومثـــال العاصمة يلخص وحده هذه العمليات . ففى 1830 بلغ عدد المؤسسات الدينية 176 مؤسسة منها 13 مسجدا كبيرا و 109 مسجدا صغيرا ناهيك عن عدد هام من الزوايا ، بينما اصبح العدد لا يفـوق الا 48 مؤسسة أى 27،2 ٪ بعد عمليات الدمار والتحويل ، وبعدما كانت تقـدر نسبة الاوقاف داخل مدينة الجزائر فى اكتوبر 1830 ربع 8000 عمارة .

وليست هناك مبالغة فى هذه النسبة اذ أن التعليم الذى كان ملاحظا فى تلـك الاوساط وخاصة فى الاوساط الريفية كما شهد عن ذلك عدة ملاحظين (3) ، كان مرتبطا بهذه الاوقاف .

ولذا فان الاستيلاء على هذه الاملاك كان العامل الفعال فى القضاء على التعليم وتعميم الامية ابتداء من الجيل الثانـى للاحتلال كما أكـد ذلك المعاصرون (4) وما مثال قسنطينة الا برهان قاطع فقد انخفض فى هذه المدينة عـدد التلاميذ مـن 600 الى 60 فى سنة 1846 وعـدد مدارسها من 86 الى 30 (5) .

ففى هذا الاطـار شرعت الادارة فى اعـداد التعليم الرسمى خاصة حينمـا شعرت بضرورة اعداد العدد الضرورى مـن الموظفين فى بعض الميادين فسـن نظام التعليم العام ، وهـو ذلك التعليم

---

(2) ان المستشفى الاول الذى فتحتـه السلطات الاستعمارية كـان فى مسجـد فى باب عزون ، وأما اثناء مأساة 1867 ـ 1868 فقد حولت مساجد الى مستشفيات ولا زالت الى الآن ومنها مسجد شرشال ، انظر الصورة فى كتابنا :
Le désartre démographique de 1867-68, Alger 1980

(3) ان الدراسة القيمة فى هذا الموضوع هو ذلك البحث القيم الذى قامت به الخـبر المـــؤرخة : Y. Turin : Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, école, médecine et religion (1830 - 1880), Paris 1971.

(4) التفاصيد والبراهين كثيرة فى المصدر السابق الذكر للمؤرخة Y. Turin

(5) Ch. R. Ageron : Les Algériens musulmans et la France (1871 - 1919), Paris 1968, T. 1.

الذى اقتصر فى وجـود 12 مدرسة فى سنة 1862 منها 8 فى قطاع الوسط بينما أن عدد المعلمين بلـغ 26 وعدد التلاميذ 297 (6) الا أنه سجل فى سنة 1856 ـ 1857 : 1200 وهذا الانخفاض راجع الى قلة عدد المعلمين ولذلك انشئت مدرسة لاعداد المعلمين فى سنة 1865 مع ضرورة توفـير شروط خاصـة لاعـداد اطارات تحسن معرفة الوسط الجزائرى ، ولكن نسبة المسلمين ظل ضئيلا ولم تـزد عن الخمس (7) .

واما التعليم الثانوى فقد واجه هو الآخر مشاكل كثيرة وكان يتمثل الى سنة 1865 فى مؤسسة واحدة بالعاصمة يوجد بها 104 تلميذا فى 1863 مقابل 69 فى 1861 بينما أن الهـدف كان فى 1857 توقع 150 وهذا الفرق يعود الى البعـد بحيث أن العائلات كانت تخشى كثـيرا الاخطار التى تنجم عن ذلك من انحلال وغير ذلك (8) . والثانوية الثانية فتحت بقسنطينة فى 1865 وارتفع عدد التلاميذ بها 108 فى 1867 وأما الثانوية الثالثة التى تقررت فى 1865 بوهران فانها لم تحقق الى فى سنة 1870 .

هذا وبالرغم من هذا العدد الضئيل فان التلاميذ لم يجدوا المناصب الكافية والملائمة لهـم فقـد انضموا الى الادارة والجيش وقد شعروا بتأثر بالغ بالعزلة حينما انقطعوا عـن محيطهم وهـــم فى الجيش الفرنسى (9) .

وهكذا يتجلى لنـــا مـن وراء هذه الاحصائيات والابعاد لهذا التعليم أنـه كان يرمى (10) الى خلق ظروف معينـة

(7) Rey Goldzeiguer : Le Royaume arabe, Alger 1977, p. 174.
Ageron : Les Algériens musulmans et la France, 320.
Bulletin Officiel du Gouvernement général de l'Algérie. Alger 1865, p. 65.

(8) وقد عبر عن ذلك احد المعنيين بالامر وهو القائد بالحضرى بقوله :
« كيف تريدون أن نبعث نحن أهل وهران أبناءنا الى الجزائر فالمسافة طـويلة ولا نستطيع أن نتصل بهم مرارا للاشراف على تربيتهم وليتمسكوا بالمبادىء الشريفة . فكل متخرج يصبح منقطعا عنا ، فهو يتعاطى الخمر والزنا وهذا ما يمس بشرفنا وتعاليمنا » حسب ما جاء فى تصريح الضابط السامى Lapposset لنابوليون الثالث :
Lappasset : Le général Lappasset par un officier de l'Armée du Rhin, Paris 1898.

(9) وقد جاء فى تصريح الضابط على ابن شريف فى 1866 ما يلى :
« كان مواطنونا يروننا بارتياب والفرنسيون يقاطعوننا ، وكانت السلطات لا تمنحنا اية رتبة أعلى من رتبة Lieutenant ، وبين عـدم الثقة والاحتقار ظلت قلوبنا مملوءة بالحزن والالـم »
Ageron : Les Algériens musulmans et la France, 1823

(10) علينا أن نشير أيضا الى أهمية هذه الثانويات فقد ساهمت فى تكوين مزدوجى الثقافة (العربية والفرنسية) ومن اشهرهم محمد بن رحال من مواليد ندرومة ، انظر هذا العدد : A. Djegloul : M'Hamed ben Rahal et la question de l'instruction des Algériens Majallat et Tarikh, Alger 1977, p. 43.

تكون العامل الفعال لتمهيد السبل لاعداد جيل قابل للاندماج ·

2) محاولة الاندماج الاداري :

بالنسبة Sénatus Consulte (1865) ابعاد خطيرة جدا بحيث أنه كاد يقضي على مستقبل الشخصية الجزائرية الى الابد

أ ـ Sénatus Consulte ل 14 جوليت 1865

فان نص هذا القانون واضح كل الوضوح (11) ويتضمن في مضمونه النقط الخطيرة وهي تعارض القوانين الفرنسية للتشريع الاسلامي · وقد جاء في المادة الاولى :

« ان الجزائري فرنسي الا انه يبقى خاضعا للقانون الاسلامي » ·

ولكن منح الجنسية لا يتبع بالتمتع بالمواطنية :

« للجزائري المسلم الحق (بطلب منه) بالتمتع بحقوق المواطن الفرنسي وفي هذه الحالة فهو يخضع الى القوانين المدنية والسياسية الفرنسية » ·

وكل هذا يؤكد من جديد محاولة الاندماج بأتم المعنى وبصفة شرعية بحيث ان كل من يتوجه بطلب الا وهو شاعر كل الشعور بالتخلي عن شخصيته وأصالته فكل من يرغب عن الجنسية الا وعليه ان ينضم ويندمج بالاقلية الاوروبية المضطهدة المغتصبة ـ وهذا يتنافى والواقع والمبادىء الاسلامية ، بل والانسانية وهكذا نلتمس اخطار وابعاد مثل هذا القانون الذي يتنافى ، وسياسة « المملكة العربية » التي حاول نابوليون الثالث أن يطبقها بالجزائر واذ عارضها كل من بعض الضباط والاوروبيين أنفسهم كما وضحت ذلك بكل موضوعية وبكل دقة واحترام وتقدير للجزائريين المؤرخة Rey Goldzeiguer (12) ·

كما أن معظم المعنيين بالامر بالدرجة الاولى أي الجزائريين المعاصرين قد تنبهوا جيدا الى هذه الاخطار ·

ب ـ فشل المحاولة :

ليس هناك أي شك في أن الفشل كان واضحا كل الوضوح نظرا الى تمسك السكان بعقيدتهم وايمانهم المتين ، ولقد شعر بذلك الوالي العام نفسه اذ انه قال : « انه يتحتم عليهم أن ينقطعوا عن ايمانهم وان يمزقوا كتابهم المقدس وان يرتدوا ليصبحوا فرنسيين » (13) ·

---

(11) Bulletin Officiel 1965, p. 36.

(12) Rey Goldzeiguer : Le Royaume arabe, Alger 1977, p. 314.

(13) Mac Mahon : Archives F. 80 - 1810, Aix-En-Provence,

وهكذا وبعد مرور 10 سنوات من صدور قانون 1865 ارتفع عدد الطلبات الى 371 فقط فى سنة 1875 (14) ومن الواضح أن جل هذا العدد خاص بالذين اضطروا بالالتحاق بالجيش وبعض المناصب الادارية ومما يؤكد هذا كله هى الملاحظة التالية فبعدما لاحظت الادارة قلة الراغبين فى المناصب العالية سمحت لهم فى ذلك ولم تطلب منهم التخلى عن وضعيتهم الاصلية ·

ج ـ المحاولات الادارية الاخرى :

بالاضافة الى هذه المحاولات فان السلطات الادارية والعسكرية شرعت فى تخفيض الاطارات الجزائرية التابعة الى القبائل ذات النفوذ والسلطة وذلك للقضاء على كل ما يعبر عن تاريخ الجزائر ومثل هذه الاجزاءات تعممت فى منتصف القرن التاسع عشر وخاصة من طرف الجينرالات Devaux, Gastu بالقطاع الشرقى وبالرغم من توصيات نابليون الثالث كما جاء ذلك فى رسالته المشهورة المؤرخة بـ 25 جوان 1865 ·

3) حملة التبشير :

لم تأت هذه الحملة صدفة وانما ظهرت في ظروف معينة ، وذلك لتوفير كل الشروط اللازمة لنجاحها نظرا الى فشل المحاولات السابقة الذكر من جهة ومعارضة السلطات العليا المركزية من جهة أخرى ·

فقد شن هذه الحملة المسؤول عن الكنيسة بالجزائر وهو الكاردنال Lavigerie وذلك فى سنة 1868 أى أثناء المأساة العظمى التى كادت أن تقضى على مستقبل الشعب الجزائرى (15) وبعدما أصبح عدد كبير من اليتامى بدون ملجا ومأوى · ولذا فان الحملة قد اكتست صبغة انسانية الا أن هدف الكاردنال كان واضحا كل الوضوح كما جاء فى احدى تصريحاته (16) بصدد مستقبل اليتامى الذين اشرف على جمعهم فى مؤسسات الابيار وابن عكنون (17) بالعاصمة :

« سوف تنشيء فى السنوات المقبلة نخبة هامة من المستخدمين الصالحين

(14) Ageron : Les Algériens musulmans et la France. T. 1, p. 344.

(15) انظر دراستنا المذكورة فى (2) ·

(16) فلقد نشرت هذه الرسالة فى أوروبا فى لغات مختلفة كما أن الجرائد قد خصصت لها اقبالا هاما بالجزائر ·

17) والاسم الصحيح لهذا الحى هو : ابن سحنون ·

يكونون من أنصار مستعمرتنا الفرنسية أى انهم يكونون عربا مسيحيين » .

وفى الواقع أن هذه الحملة كانت الانطلاقة لتحقيق وتدعيم سياسة واسعة النطاق للتنصير بحيث أن العناية الموجهة لليتامى أصبحت تتوسع وشرع فى تطبيقها مباشرة باحدى القرى بمرتفعات الجرجرة لكن السكان قد رفضوها وحاربوها فمنهم من هاجر البلاد ومنهم من تظاهر بالاسواق . ومما أقلق السكان وخاصة الاعيان ، هى رسالة الكاردنال التى يمس فيها الدين الحنيف ، وقد جاء ما يلى (18) :

« علينا أن ننقذ هذا الشعب وألا نتركه مخيما فى قرآنه ... فعلى فرنسا أن تعطيه بل أنا مخطىء أن تسمح له بالتنصير أو أن تطرده الى الفلات بعيدا عن العالم المتمدن ... » .

فكان الرد واضحا ويمكننا أن ندركه بفضل مضمون ما جاء فى الرسالة التى وجهها 61 من أعيان الجزائر الى نابليون الثالث :

« ان ما يزيد فى المنا وغضبنا ما نصت عليها رسالة الكاردنال بتاريخ 16 ابريل 1868 والمنشورة فى الصحف والتى يهاجم فيها عقائدنا ويمس فيها القرآن الذى يشد أساس ديننا ... » (19)

وهناك وثيقة أخرى تعبر عن غضب السكان وموقفهم ازاء هذا المشكل الخطير ، وهى رسالة ابن على الشريف وكان قائدا ومنخرطا فى احدى الطرق الدينية فى نفس الوقت (20) :

« لقد قرأت رسالة الكاردنال المؤرخة يوم 16 ابريل 1866 والتى يبين فيها أنه يريد أن يستبدل القرآن بالانجيل وذلك لانقاد الشعب العربى . فلقد تركت هذه الرسالة ضجة كبيرة فى وسطنا ، فانا مسلم وكل مسلمى جيلى ألا ويفكرون مثلى فاننا نفضل أن نرى جميع أبنائنا يموتون عوض أن يعتنقوا الدين المسيحى فاننا لا نسمح بأى مساومة فى هذا المشكل فلقد تعهدتم بصفة واضحة بحرية العقيدة فاذا تراجعتم عن ذلك فانكم تخلفون الوعد فنبتعد نحن أيضا عن تعهداتنا » .

وهكذا يوضح الى الوالى العام بالنيابة عزم المسلمين عن سخطهم عن هذه المحاولات ويبين أنه لا مجال للشك

---

(18) رسالته المؤرخة يوم 6 ابريل 1868 التى جاءت فى عدة مناشير من صحف ومناشير رسمية للكنيسة .

(19) ارشيف فرنسية F. 80-1946

(20) ارشيف الولاية العامة بتاريخ 18 ماى 1868 ، TEF 33

والتردد فى مثل هذه الظروف وبالفعل فان السلطات الرسمية أخذت بعين الاعتبار هذا الموقف وطلبت من الكاردنال أن يمتنع عن مثل هذه التصريحات والتهديدات .

الخلاصة :

ان المحاولات المتقدمة جزء لا يتجزأ من المخطط الاستعمارى الذى كان لا يقتصر على مفهومه الاقتصادى فقط بالجزائر بل كان يشمل أيضا المفهوم الاديولوجى اذ انه كان يتميز عن باقى المستعمرات الاخرى . وقد ظل يرمى دائما الى استطانة واسعة النطاق عبر اقاليم مختلفة من القطر الجزائرى .

وبعدما تغلبت الجيوش على القبائل وتوغلت عبر أراضى الشمال شرعت السلطات فى فرض التعليم الرسمى وكانت مرحلة حاسمة فى توسع وتعمق النظام لنجاح اديولوجيته ، وبالتالى للقضاء على ما بقى من ثقافة عربية اسلامية ضئيلة ، الا أنه بعد تأكد فشل هذه المرحلة لجأت الادارة الى وسيلة أخرى فأرغمت الطبقة التى كانت تمثل همزة الوصل بينها وبين الجماهير ان تتخلى عن أصالتها وأن تطالب بالجنسية الفرنسية فأغلبية المعنيين بالامر قد تبصروا وامتنعوا . وبالفعل فان النتيجة كانت فادحة بحيث أن السلطات عدلت عن ذلك وسمحت لهم أن يشغلوا المناصب العالية بدون مطالبة الجنسية .

أما المرحلة الثالثة فان لم تأت الا فى ظروف اقتصادية واجتماعية استثنائية والا فى اطار ذى صبغة انسانية ولكن وحتى فى مثل هذه الظروف استطاع الاعوان وأصحاب النفوذ أن يعبروا بوضوح وبدون التباس عن موقفهم وموقف الجماهير وذلك أن كل ما يمس الدين الحنيف الا ويمس حياتهم قبل كل شىء ، وكيف لا وأن هذا الاخير الا وهو مظهر من مظاهر الاسلام نفسه وبالفعل بفضل التعاليم والحقوق الاسلامية استطاع السكان أن يثبتوا شرعية أراضيهم واملاكهم وتعلقهم بلغة الضاد وتمسكهم بالذكر الحكيم الخالد . وفى الاخير فان التحليل العميق فى المدة المدروسة يبين انه من بين أسباب ثورة 1871 هو رد الفعل لهذه المحاولات ، فقد عزم السكان أن يعبروا عن سخطهم والمهم قبل كل شىء كما وضحنا ذلك أخيرا فى دراسة تتعلق بهذا الموضوع الهام (21) اذ اننا نستطيع أن نرد

(21) دراسة : الجزائر قبيل اندلاع ثورة 1871 ــ بحث للمركز الوطنى للابحاث التاريخية (1979) .

بسهولة عما كان يسمى بثورة المقرانى أو بثورة الشيخ الحداد وكذا بثورة بلاد القبائل ـ فثورة 1871 كانت ثورة شعبية جندت قسما كبيرا من القطر الجزائرى ، ولم يشارك فيها على وجه العموم الا الاقاليم التى عانت كثيرا من أضرار ومخلفات ثورة 1864 ـ 1866 والتى سجلت بذلك أعلى نسبة من الضحايا فى 1867 ـ 1868 وهو القطاع الوهرانى ، وأما الشيخ الحداد فقد استسلم مع ابنائه بينما أن الجهاد الذى أعلنا عنه فى 8 ابريل 1871 قد تواصل بعد ذلك كما أن استشهاد المقرانى فى 5 ماى من نفس السنة لم يكن نهاية الكفاح بل قد تعمم واشتد كما يشهد عن ذلك استشهاد أثناء لحضات محدودة 2280 شهيد يوم 22 ماى وهم يتسلقون جدار محمية الاربعاء ناث يراثن ، وبعد ذلك توسعت المعارك الى جبال شرشال ثم الجنوب ٠

واما النتيجة الاخيرة فانها لا تتمثل فقط فى قمع الثائرين واغتصاب املاك كل القبائل التى رفعت لواء الثورة ، بل هناك نتيجة هامة بالرغم من هذا القمع والاغتصاب وهو **تخلى السلطات الرسمية نهائيا** عن كل مغامرة تهدف التنصير وكل ما يمس دين الجماهير ولقد تبصر الى هذا كله ذلك الجنرال الذى استدعى خصيصا الى ميدان المعارك بعدما انقطع عن الجزائر بعد اندلاع الحرب الفرنسية الالمانية فى سنة 1870 ، وهو الجنرال Lapasset فكانت من أهم خلاصته بعد انتهاء مهمته ما جاء فى مراسلته الى وزير الحرب : « بينوا لهذا الشعب أننا نحترم دينه » (22) ٠

بينما أن هذا الجنرال قد كان العامل الفعال فى اخماد معركة سيدى الازرق بوادى ميناء وبوادى رهيو فى 1864 والذى دعا انصاره محاربة الفرنسيين باسم الاسلام (23) ٠

---

(22) Le général Lapasset par un ancien offficier de l'armée du Rhin, Paris 1899, 2ᵉ édition, T. 2, p. 275.

(23) من جملة الوثائق المكتوبة التى وجدت فى جثة سيدى الازرق بميدان الشرف هو الكتاب الذى تسلمه من سيدى عبد القادر القادرى رئيس جمعية القادرية ، انظر المذكور سابقا ، الجزء 2 الصفحة 34 مع ترجمته بالفرنسية ٠ Lapasset صورته فى كتاب



لمحات من تاريخ الهجرة النبوية ونبذة من حياة عمر بن الخطاب

الاستاذ علي مرحوم
مفتش التعليم الابتدائي سابقا
(الجزائر)

لقد ولت أربعمائة بعد ألف سنة ، من تاريخ الاسلام والمسلمين في هذا العالم • يضاف اليها ثلاث عشرة سنة من حياة الرسالة الاسلامية ، قبل أن تتم هجرتها من مكة الى يثرب • وهذه الذكرى التاريخية العظيمة تدعونا اليوم الى أن نعود بأفكارنا وعقولنا الى ذلك الماضي البعيد ، لنلقى نظرة موجزة على بعض العوامل التى صنعت هذا التاريخ العريق ، وعلى العناصر التى أقيم بناؤه الشامخ عليها ، والمؤثرات التى أثرت فيه ، منذ بدء مسيرته ، الى آن استوى قائما على قدميه ، راسخ الدعائم ، متين الجذور فى أعماق هذا الوجود ••

منذ سنة ستمائة وعشر للميلاد ، أشرق النور الالهى على هذه الارض ، فأضاء أرجاءها ، وغمر باشعاعه جوانبها فانقشع الظلام ، واستبان الطريق ، وتجلت معالم الهداية لذوى الالباب •• ففى هذا التاريخ اتصلت الارض بالسماء عن طريق الوحى المنزل على رسول الاسلام ، عليه الصلاة والسلام •• وجاءت أول آية من كتاب الله ، ألقى بها الوحى الى رسول الله ، داعية الى القراءة التى هى سبيل العلم ، الذى هو مفتاح سر الكون ••

« **اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الاكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم ••** » سورة العلق

أجل ؛ ليس كالعلم هاديا الى معرفة حقيقة الكون ، واكتشاف كنه الوجود ، وادراك حكمة الله فى خلقه •• ولله فى

(1) نص محاضرة ألقيت ببلدة البويرة يوم فاتح محرم 1400 هـ •

خلقه شؤون .. وما نزلت آيات القرآن الكريم الا لتدعم قواعد العلم ، وتحث على طلبه ، وتوجه عقل الانسان الى التفكير فيه ..

« **والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الالباب** » سورة آل عمران .

ونهض النبى (ص) يدعو الى الله على ضوء ما يتنزل عليه من الآيات البينات - ولبث ثلاث عشرة سنة يصارع خصوم الرسالة ، ويجاهد أعداء التوحيد بسلاح القرآن وحده . امتثالا لامر ربه .. « **وجاهدهم به جهادا كبيرا ..** » ويبشر بتحرير العقل والفكر ، من عبادة الاوثان والاصنام .. والخضوع لغير الله . طبقا لما أوحى به اليه ، من تعاليم الدين الجديد الذى جاء لانقاذ هذه البشرية ، مما ظلت تعانيه من ظلم وعبودية ..

« **تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله . ولا نشرك به شيئا . ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله** » . (سورة آل عمران)

وقد لقى الرسول والفئة القليلة التى آمنت به ، وصدقت برسالته ، العنت الشديد ، والاضطهاد العنيف من المشركين وأعداء الدعوة النبوية .. فما وهن محمد (ص) وأصحابه « **لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا** » حفاظا على العقيدة التى اعتنقوها ، مؤمنين بها عن وعى لها ، وادراك لما تنطوى عليه من خير وسعادة ، وحرية وعزة «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» .

ولكن المشركين تكالبوا على المؤمنين ، واشتدوا فى عدوانهم عليهم ، واذايتهم لهم .. حمية لجاهليتهم .. وغيرة عمياء على معبوداتهم .. مما أدى الى استشهاد بعض المؤمنين فى سبيل عقيدتهم .. بعد ما نزل بهم من شديد التعذيب ..

وفكر النبى (ص) جديا فى تخليص أصحابه من العذاب الاليم ، الذى كانوا يتعرضون له ، على يد كفار قريش فى مكة . وكان يحز فى نفسه ويؤلمه أنه لم يكن يومئذ فى مقدوره أن يمنع عنهم ما يحل بهم من الاذى والاعتداء وأن يحميهم مما كان يسلط عليهم من شدة الارهاق .. وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم - وقد اهتدى - أخيرا - الى طريق الخلاص فأشار على أصحابه بالهجرة الى الحبشة . قائلا لهم :

الهجرة الاولى :

« لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد .. وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .. » . وكانت هذه هى الهجرة

الاولى فى الاسلام ·· وقد ترتبت عنها نتائج عظيمة ، فى افادة نشر الدعوة الاسلامية ، وانتصارها على المناهضين لها ··

كان الفوج الاول من المهاجرين الى الحبشة يتكون من أحد عشر رجلا ، وأربع نساء ·· من بينهم عثمان بن عفان وزوجته (رقية) بنت محمد (ص) · وبلغ عدد المهاجرين فى الفوج الثانى نحو ثمانين رجلا وبعض النساء والاطفال من بينهم جعفر ابن أبى طالب ابن عم الرسول (ص) .. لقد وجد هؤلاء الفارون بدينهم وعقيدتهم ، ما كانوا يأملونه من الامن على أنفسهم ، والحرية فى دينهم ، الذى هجروا من أجله ديارهم ، وعزيز أولادهم وأموالهم ·· وصدق فيهم قول الله : **«والذين هاجروا فى الله من بعدما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولاجر الآخرة أكبر ·· »** ·

وكانت قريش تعلم ماذا سيكون من وراء هذه الهجرة من دعم وقوة للدين الجديد ·· ومن اعداد واستعداد لمهاجمتها فى عقر دارها ·· ولذلك رأت أن لا تدع هؤلاء المهاجرين وشأنهم فى مهجرهم ، بعيدين عن اضطهادها وظلمها فأوفدت الى النجاشى رجلين اثنين من أبرز زعمائها ، محملين بالهدايا الثمينة اليه والى بطارقته ، من رجال دينه ·· سعيا وراء اقناعه باخراج المهاجرين من أرضه ، وتسليمهم الى قومهم الذين فروا بدينهم من فتنتهم ··

وحل عمرو بن العاص ، وعبد الله ابن أبى ربيعة ، رسولا قريش الى الحبشة وقد بادرا بتقديم الهدايا الى البطارقة أولا ، حتى يكونوا مناصرين لهما فى سعيهما لدى النجاشى · وهما يأملان أن مسعاهما سيحظى لديه بالنجاح ·· ولكن أملهما هذا قد باء بالخيبة ، وحاق بهما الفشل والخسران ··· « **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ·· »** ·

قال الرسولان القرشيان للملك النجاشى :

« انه قد أتى الى بلدك غلمان منا سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، ولا فى دين أحد من هذه الملل وجاءوا بدين جديد ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ·· وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم ، لتردهم اليهم ، فهم أبصر بهم ، وأعلم بما عابوا عليهم » ·

وأيد البطارقة المرتشون أقوال الرجلين ، متأثرين بما أخذوه من الهدايا وقالوا : « صدقا ـ أيها الملك ـ قومهم أعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما ، فيرداهم الى قومهم ·· » وقد حاولوا ـ باتفاق مع الرجلين ـ أن يحولوا بين

النجاشي وبين سماع أقوال المهاجرين ·· ولكنه أبى أن يسلمهم قبل أن يسمع منهم مقالتهم ، وينظر فى حقيقة أمرهم ... وبعث فى طلب ممثليهم ، ولما مثلوا أمامه سألهم أمام أساقفته :

« ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ··؟ »

وجاء أبلغ الجواب ، الذى كان فيه فصل الخصاب ·· قال جعفر ابن أبى طالب (رضى الله عنه) :

« أيها الملك – كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الاصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الارحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ·· كنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده · ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ·· » ·

« وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الامانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ·· ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ·· وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ·· وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ·· فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله · فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا · وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ·· فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الاوثان ·· وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ·· فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك ·· » (2) ·

ولعلنا نلاحظ أن مقالة جعفر هذه قد جمعت كل ما ينبغى أن تجمع – فى ايجاز – من آداب الاسلام وتعاليمه (بعد أن صورت رذائل الجاهلية ..) وحوت من سمو الاخلاق ، وكمال الفضائل ، ما لا يصح اسلام فرد أو جماعة ، بدون فقهها ، والعمل بما فيها من حكم وأحكام ويا حبذا لو أن أبناءنا فى مدارسهم ، وطلابنا فى جامعاتهم ، يدرسون مثل هذه الآثار الاسلامية الرائعة ، من تراث الاسلاف الامجاد ·· مما حفلت به أسفار الادب العربى ، والتاريخ الاسلامى ·· لو فعلوا ذلك لجاءت منهم لامتهم أجيال صالحة ، تتسم بحسن التهذيب ، وكمال

(2) سيرة ابن هشام ، ج 1 ، ص 359 ·

الخلق والاستقامة على الطريق ، الى بذل الجهد فى خدمة الدين والوطن ، وصيانة تراثهما المجيد ..

ونعود ـ بعد هذا الاستطراد ـ الى متابعة مشهد الثبات على المبدا ، والدفاع عن العقيدة .. الذى مثله جعفر ابن أبى طالب .. وقد سأله النجاشى ليستخلص الحقيقة :

« هل معك مما جاء به عن الله من شىء ، تقرأه على ؟ »

قال جعفر : نعم ، وقرأ عليه من أول سورة مريم ، الى قوله تعالى :

« فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت . وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ، ويوم ابعث حيا .. »

وتقول الروايات التاريخية : ان الملك وبطارقته قد تأثروا بما سمعوا من الآيات حتى بكوا .. وقال النجاشى : « ان هذا الذى سمعت والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .. انطلقا ـ والخطاب لرسولى قريش ـ فلا والله لا أسلمهم اليكما أبدا .. »

وهكذا انتصر الحق على الباطل .. بعد أن وقفا موقف الصراع ، وجها لوجه فى الميدان ..

« وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .. »

وقد ردت الهدايا على صاحبيها .. وقال النجاشى : « فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، فآخذ الرشوة فيه . وما أطاع الله الناس فى فأطيعهم فيه .. »

وينتهى الى هنا مجمل قصة الهجرة الاسلامية الاولى .. وهى ـ بلا شك ـ لا تخلو من عبر وعظات ، لمن يريد أن يعتبر ويذكر .. « **وما يذكر الا أولوا الالباب ..** »

وفيها قال شاعر من مهاجرى الحبشة منوها بأمنهم واطمئنانهم على دينهم فى دار هجرتهم :

« يا راكبا بلغن عنى مغلغلة
من كان يرجو بلاغ الله والدين »
« كل امرىء من عباد الله مضطهد
ببطن مكة مقهور ومفتون »
« انا وجدنا بلاد الله واسعة
تنجى من الذل والمخزاة والهون »
« فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
ى فى الممات وعيب غير مأمون » (3)

(3) لاحد مهاجرى الحبشة ـ عبد الله بن الحارث ـ سيرة ابن هشام، ج 1، ص 353.

الهجـرة الكبرى :

وننتقل ـ الآن ـ الى ايراد لمحات وجيزة عن الهجرة الكبرى • وهى بيت القصيد من موضوعنا هذا •• ومـوطن القدوة والعبرة البليغة •• فلا يزال يوم الهجرة النبوية الكريمة ، من مكة المكرمة الى المدينة المنورة • ولـــن يزال هـذا الحادث العظيم مصدر الهـام ووحـى ، يتلقى منه المسلمون فى أطراف العـالم أروع الدروس وأعمــق المعـانى ، فى الحفاظ على أسمى المبادىء ـ ويستلهمون مـن ذكـراه الدورية الهامات علـوية روحانية •• تذكرهم بأجل الذكريات فى تاريخهم الدينى والقومى •• وتبعث فى أجيالهم المتعاقبة روح الاعتـزاز بدينهم وعروبتهم ، فى هـذا الـوطن الاسلامى الكبير ••

أجل •• تقوم هذه المعانى والمشاعر بخاطر أبناء الامة الاسلامية ، وتختلـج بين جوانجهم ، كلما عادوا بذاكرتهم الى فجر ذلك العهد البعيد ، الذى وقعت فيه قصة تلك الهجرة الفريدة مـن نوعها ، والوحيدة فى بابها وفى نتائجها وآثارها فى تطـور حياة المسلمين الاولين •• فى مستهل جهادهم المقدس •• من أجــل الدفاع عـن دينهم وعن عقيدتهم ، التى كانت أقدس شىء لديهم •• بها يحيون ، وعليها يموتون •• ومــن أجلها هجروا الارض والولد والمال ، الى حين العـودة المظفرة ، والفتح المبين •• ويتم اللـــه نعمته على رسوله وعلى المؤمنين ••

انها ذكـرى جليلـة ، يستمد منهـا الانسان الواعى قوة روحية غلابة ، فى كفاحه ضد المغيرين على دينه ولغته ووطنه وضد الذين يريدون أن يحولوا بينه وبين الحياة الحرة الكريمة ، ليظل متسكعا فى تيه الضلالة ، متخبطا فى ظلام الجهالة ••

ان درس الهجرة جدير بان يقـوى ايمان المسلم ، ويجدد معانى الحيـــاة العزيزة فى نفسه •• ويجعل أزهـــار الامل والرجاء تنمو دوما فى قلبـه •• كيف لا ؟ وهو يشاهد رجلا أعزل مـن كل سلاح ، مجردا من كل قوة ـ الا سلاح الحق الذى أرسله الله به •• والا قوة الايمان بعظمة الدعوة التى يدعو اليها ، ويجاهد فى سبيلها ، ويخاطر بنفســه من أجل ظهورها •• يشاهده ينتصر على اعدائه ـ رغم قوتهم ـ بعدما ألحقوا به وبأصحابه أسوأ ضروب الاذى •• بـل انهم حاولوا قتله •• فلم يثنه كل ذلك عـن عـزمه ، ويستمر فى أداء مهمته ، وتبليغ رسالة ربـه الى الناس •• حتى يظفر بالفوز ، ويظهره اللـه على أعـداء دينـه ، فيهزم جمـع الشيطان ، وترغم أنوف أحلاف الشرك •• وتعلو رايـــة

التوحيد ، ترفرف في سماء العزة والخلود ·· ويجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمته هي العليا ، والله عزيز حكيم ··

« ·· كانت الهجرة ــ بمعناها العام ــ وما زالت هروبا من الباطل والمبطلين ، ونجاء بالنفس أو بالعقيدة أو بهما معا ــ فهي في خلاصتها انهزام يعتذر بالضعف ويلوذ بالقوة ، وفرار بعزيز يخاف عليه ، الى حيث يؤمن عليه · لم يخرج عن هذا المعنى حتى هجرة الانبياء والصديقين كابراهيم ولوط ·· هاجرا من بابل الى كنعان ولم يرجعا الى بابل من كنعان · أما هجرة محمد وأصحابه فكانت هجرة قوة كاثرها الباطل المتهافت ، والشرك المتخافت · وعاقها عن امتداد العروق ، وبسوق الافنان في أرضها التي فيها نبتت ، وجوها الذي فيه تنفست · ثم طاش ذلك الباطل الطيشة الكبرى وبحث عن حتفه بظلفه · فأخرج تلك القوة الى حيث تزداد قوة ورسوخا · وهذا من عجيب صنع الله لهذا الدين القوى الراسخ ·· » ــ البصائر ــ عدد 14 ــ 17 ــ 11 ــ 47 · بقلم ش· الابراهيمي ·

« ·· جاءت النبوة من مكة الى المدينة تعمل عملها في جمع القوتين اللتين أحالهما التفرق ضعفا · فجمعت المهاجرين والانصار ·· وكأنما جمعت عدنان وقحطان في دار ، يتصافحان على العروبة ، ويتآخيان على الاسلام ، ويحييان من الاواصر والشوابك ما أماتته نزعة الجاهلية ، ويميتان من النعرات المفرقة ، ما كانت تحييه المنافرات والمفاخرات ·· وفي عقد التآخي بين المهاجرين والانصار عنوان ذلك ودليله ·· » (4) ــ المصدر الآنف الذكر ··

كان حادث الهجرة حدا فاصلا بين عهدين في تاريخ الاسلام الاول ·· عهد كان المسلمون فية قلة ضعافا · تنالهم يد الطغيان بالعدوان ·· وتحاول صرفهم بالعنف عن دينهم ، وفتنتهم فيه · وردهم الى حضيرة الشرك والضلال ·· وعهد انقشعت فيه سحب الباطل ــ أو كادت ــ وبدا نور الحق يشع في الافق ، فيبدد ظلمات الشرك ، ويطارد أعوان الجهل والضلال · ويفتح على المؤمنين الصابرين أبوابا من الآمال ، قوت في نفوسهم الرجاء والثقة بنصر الله ·· « **ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز** » ·

لقد وجد المهاجرون أنفسهم في المدينة ، يعيشون بين اخوان لهم من

(4) البصائر ــ عدد 14 خاص بذكرى الهجرة/3 محرم 1367 هـ ·

الانصار ·· آووهم ونصروهم · وقدموا لهم كل ما تفرضه عليهم أخوة الايمان والاسلام ، من كرم الضيافة المتأصلة فى نفوس أبناء العروبة ، منذ أقدم العهود - والنصرة فى سبيل الدين الحق ··

أذن النبى (ص) لاصحابه بالهجرة الى المدينة ·· وقال لهم : « ان الله تعالى قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها ·· » وخرج المؤمنون فى خفية عن عيون قريش ·· متقاطرين افرادا على يثرب ·· تاركين وراءهم فى مكة كل ما يملكون من مال ومتاع ·· ولم يصطحبوا معهم غير ايمانهم وعقيدتهم ·· وهذا كل ما تزودوا به لدار هجرتهم ·· وفى شأنهم نزلت الآية القرآنية : « **للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون** ·· » سورة الحشر

وفى شأن اخوانهم الانصار المستقبلين لهم نزلت هذه الآية الكريمة : « **والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم · ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ·· ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون** ·· » وكفى بهذا الثناء الجميل من الله على الفريقين فى كتابه الكريم ·· وكفى بها أخوة صادقة ، باعثها الايمان ، وميزتها الحب والايثار ··

ضاقت قريش ذرعا بهذا الخارج على آلهتها ، المستخف بأوثانها وأصنامها ·· ولم تدر ماذا تفعل أمام صموده وتصميمه على المضى الى الامام فى سبيل غايته المثلى ·· امتثالا لامر ربه ·· « **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ·· »

وحاولت أن تساومه فى التخلى عن تبليغ رسالة الله · فأوفدت الى عمه أبى طالب من يعرض عليه : أنها على أتم استعداد لان تعطيه ما شاء من المال اذا أراد · أو تمنحه ما يحب من الرئاسة عليهم ·· أو غير ذلك مما يرغب فيه ، ويتضاءل أمامه ضعاف النفوس ، حرصا على حظوظ هذه الدنيا ·· على أن يكف عن تسفيه أحلامها ·· وذم معبوداتها ·· وأبلغه عمه - فى شىء غير قليل من الاشفاق على نفسه وعلى ابن أخيه - ما عرضته قريش عليه ·· فبماذا أجاب رسول الله (ص) عمه ؟ كان جوابا حاسما عبر عنه بقوله : « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ·· »

انها عبارة من الادب النبوى وجيزة اللفظ ، عميقة المغزى ، واضحة الدلالة - خليق بنا أن نتخذ منها قدوتنا فى الثبات على المبادىء الحقة ، والدفاع عن القضايا العادلة ٠٠ دون أية مبالاة ، بأيى ترغيب أو ترهيب ٠٠ وهكذا باتت قريش تتوقع شرا أكيدا ، بعد أن فشلت محاولاتها ٠٠ وأيقنت أن محمدا (ص) لابد أن يلتحق بأصحابه فى المدينة ٠ وأن يكون منهم ومن الانصار قوة فعالة ، تعرض تجارتها مع بلاد الشام الى البوار ، ووجودها فى مكة نفسها الى الاخطار ٠٠ ولذلك تداعى زعماؤها الى دار ندوتهم ليتدبروا أمرهم، وينظروا فى سوء المصير الذى يترقبهم ٠٠ اذا هم لم يجدوا مخرجا مما هم فيه من هم هذا الرجل ، بأية طريقة ٠٠

وقال المؤرخون عن ندوة قريش هذه ما خلاصته :

« لما دخل زعماء قريش الى دار الندوة للمداولة فى أمر النبى (ص) وقف على باب الدار شيخ مهاب ٠٠ قيل عنه : انه الشيطان تمثل لهم فى صورة انسان ٠٠ ورآه القوم فقالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، علم بما تواعدتم عليه ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ٠٠ وعسى أن لا تعدموا عنده نصحا ورأيا ٠٠ قالوا : أجل ٠٠ ادخل ٠٠ فدخل معهم ٠٠ » « قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ٠٠ وننفيه من بلادنا ٠٠ فاذا خرج عنا ٠٠ فوالله ما نبالى أين ذهب ٠٠ ولا حيث وقع ٠٠ اذا غاب عنا ، وفرغنا من شأنه ، وأقبلنا على شأننا - »

« قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ٠٠ ألم تروا صدق حديثه ، وحلاوة منطقة ، وغلبته على القلوب بما يأتيه ٠؟ ووالله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه ، حتى يتابعوه عليه ٠٠ ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم فى بلدكم بهم ٠٠ فيأخذ عليكم أمركم من أيديكم ٠٠ ثم يفعل بكم ما يشاء ٠٠ دبروا فيه رأيا غير هذا ٠٠» - سيرة ابن هشام ج 2 ص 93 .

تضاربت آراء القوم وتعددت ٠٠ فقال أبو جهل : « والله ان لى لرأيا ما أراكم وقعتم على مثله بعد ٠٠ » ٠ قال القوم وما هو يا أبا الحكم ٠؟ قال :

« أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابا فتيا جليدا ٠٠ ثم نعطى كلا منهم سيفا باترا ٠٠ فيعمدوا اليه فيضربوه ضربة رجل واحد ٠٠ فيقتلوه ونستريح منه ٠ فاذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل ٠٠ فلم يقدر بنو عبد مناف (عشيرة الرسول) على حرب قومهم جميعا ٠٠ فرضوا بالدية فيه ٠٠ » ووافق القوم على هذا

الرأى الذى أوحى به الشيطان الى أبى جهل ٠٠

وعلم النبى (ص) بما تآمرت عليه قريش من أمر قتله ٠٠ فخرج من بيته فى غفلة من المتآمرين به ٠ وقد غشيت أبصارهم عن رؤيته ٠٠ وذهب الى بيت أبى بكر الصديق ـ بعد ما أوصى (على ابن أبى طالب) أن ينام فى فراشه ، ويرد الودائع التى كانت عنده الى أهلها ـ ثم يلتحق به فى مهجره ٠٠

وحاصر فتيان قريش بيت الرسول (ص) منتظرين خروجه ليقتلوه ـ حسب الخطة المدبرة ٠٠ ـ ولكنهم باءوا بالحسرة والخسران فيما دبروا ٠٠ وما عليه أجمعوا الرأى وتآمروا ٠٠

« **ولا يحيق المكر السىء الا بأهله ..** »

وفى وصف مؤامرة قريش هذه نزل قوله عز وجل :

« **واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر اللـه واللـه خير الماكرين ٠٠** » سورة الانفال ٠٠

كان أبو بكر الصديق (رضى اللـه عنه) قد استأذن النبى (ص) فى الهجرة كما فعل غيره من المهاجرين السابقين ٠٠ ولكن الرسول قال له : « لا تتعجل لعل الله يجعل لك صاحبا ٠٠ » ومنذ ذلك اليوم أخذ أبو بكر يعد العدة لتلك الهجرة التى ظل ينتظر يومها الموعود بفارغ الصبر ، رغبة فى الحظوة بالصحبة النبوية ٠٠ وها أن أمله قد تحقق فعلا فى الفوز بهذه الصحبة الكريمة ، المحببة الى قلبه ٠٠ وهو يصاحب أفضل الخلق فى هجرته ٠٠

ولما آن أوان الرحيل عن الوطن الحبيب ٠٠ وقف النبى (ص) فى اتجاه الكعبة المشرفة ، والقى نظرة شاملة مستوعبة على أم القرى ٠٠ وكأنها نظرة وداع لاعز حبيب ٠٠ وقال :

« واللـه انك لاحب أرض اللـه الى الله ٠ وانك لاحب أرض الله الى ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت ـ »

وانطلق مع صاحبه فى اتجاه غار ثور ليختفيا فيه عن عيون المطاردين لهما من قريش ٠٠ ووقف المتعقبون للصاحبين عند مدخل الغار الذى آواهما ، وهموا بالدخول اليه ٠٠ لولا أن صدهم عنه ما رأوه من نسيج العنكبوت على مدخله ـ حتى قال أبو بكر : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ٠٠ » وقد ألم به بعض الخوف ـ لا على نفسه ـ بل على صاحبه ٠٠ فطمأنه رسول اللـه (ص) قائلا له : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ٠٠ يا أبا بكر ٠؟ »

وبعدما لبثا فى مامنهما ثلاثة أيام ، فى انتظـار سكـون البحث عنهما ومطـاردتهما ٠٠ خـرجا ـ صحبـة دليلهما ـ فى اتجاه المدينة ، فى رعاية اللـه وحفظه ٠٠ وقد خصصت قريش مكافاة هامة لمن يدل عليهما أو يردهما اليها ٠٠ وأغرت هـذه المكافأة سراقـة ابن مالك وطمـع أن يفوز بالغنيمة ٠٠ فتقلد سلاحـه ، وركب فـرسه ، وخرج يعدو وراءهما بكل قـواه ٠٠ وكاد أن يظفـر ببغيته فى القـاء القبض عـلى المهاجرين أو قتلهما ٠٠ وما درى أن الله مانعهما فى حلهما وترحالهما ٠٠ ولذلك فقد كبا به جواده كبوة القى فيها مـن على ظهر فرسه ، يتدحرج على الارض ـ قبل أن يدرك ضالته ٠٠ وتطير سراقة مما وقع له ٠٠ وظن أن الآلهة قد حالت بينه وبين ما يريد ٠٠ واللـه وحده هو الذى عرقل خطواته ، وخيب مـا سعى اليه من بغيته ٠٠ ورجع بخفى حنين ٠٠

وصور القرآن الكريم قصـة خروج النبى وصاحبه من مكـة فى طـريق هجرتهما وما أحاطهما اللـه به مـن نصره وسكينته ، وتأييده لهمـا بجنوده التى لا ترى ٠٠ فقال :

« الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ٠ فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها ٠ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » سورة التوبة ٠٠

وترامت الانباء مبشرة أهل يثـرب بالمهاجر العظيم وصاحبه ٠٠ فاخذ القوم يخرجون يـوميا الى ظـاهر المدينة فى انتظارهما ٠٠ وبعد رحلة شاقة دامت سبعة أيام متوالية ٠٠ حلا ـ فى ظـل الامـان والاطمئنان ـ بالمدينة ٠٠ وكان ذلك فى يوم الاثنين ظهرا ٠ وقد خـلت اثنتا عشرة ليلـة مـن ربيع الاول ، فى السنة الثالثة عشرة للبعثة النبوية ٠٠

وبعد أن أقام النبى (ص) فى (قباء) بضواحى المدينة بضعة أيام ٠ وأسس أثناءها أول مسجد فى الاسلام ٠٠ تابع طريقه الى المدينة بـين مظاهر التكـريم والتعظيـم ٠٠ مـن طـرف المهاجـرين والانصار ٠٠ وكان أول عمل قام به هو الشروع فى بناء مسجده ، ثانى الحرمين الشريفين ، ومقر مجتمع المسلمين ٠٠

ومنذ ذلك اليـوم التاريخى المشرق بأنوار النبوة ، أصبحت (يثرب) أول مدينة فى العالم ـ وقبل أن يعرف الناس معنى الهجرة السياسية المعهودة اليوم ـ آوت الفارين بدينهم وعقيدتهم من ظلم

الظالمين ، وبغى الباغين ٠٠ ولجأ اليها عظام الرجال بمبادئهم الانسانية التى عاش فى ظلها ، وفى عهد ازدهارها وقوتها ، عناصر من البشر ، تحت راية الحرية والعدالة الاسلامية ٠٠

أولئك الرجال العظام هم : محمد (ص) وأصحابه الكرام ، الذين فارقوا أهلهم وديارهم وأموالهم ، فى سبيل عقيدة الحق والواجب ، ورعاية القيم والمثل العليا ، التى سعدت بها أمم وشعوب عديدة ٠٠ فى حقب التاريخ المديدة ٠٠ ليبنوا لنا هذا التاريخ الخالد ، الذى نتفيأ ظلاله ، ونفاخر الامم والشعوب بأكرم تراثه ومآثره ٠٠

ـ بداية التاريخ العربى الهجرى :

هذه لمحات مقتضبة من قصة الهجرة ، أوردتها على عجل ، دون أن اذهب فيها الى تحليل أو تعليل لما حوته من بالغ الاعتبار ٠٠ على أن هناك مسألة هامة جدا ، ترتبط بهذه الهجرة ٠٠ أريد أن أقف معكم عندها بعض الوقت ٠٠ تلك هى بداية تاريخنا القمرى الهجرى ، الذى حدد بدأه منذ يوم وقوعها ٠٠ والرجل الذى اتخذ من تاريخ الهجرة النبوية بداية للتاريخ العربى الاسلامى ، هو الخليفة الثانى ، أمير المؤمنين ، عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) فقد هدته عبقريته الفذة ، والهامه ونظره البعيد الى ابتكار هذه الفكرة الرشيدة ٠٠ فخلد بها ذكرى الهجرة فى سمع الزمن وبصره وخلد لهذه الامة الاسلامية تاريخا عربيا اسلاميا قوميا ٠٠ تعتز بذكراه ٠٠ وتهتدى بنوره وهداه ـ لان هذا التاريخ ركن ركين من دينها ٠٠ وجزء متمم لشخصيتها ٠٠ وتعبير فصيح عن وجودها ومميزاتها ٠٠ وقد امتدت آثاره وتأثيراته فى حياتها الادبية والروحية والقومية ٠٠ طوال هذه المسيرة الزمنية ٠٠ التى تعد الفا وأربعمائة من السنين ، منذ وقع حادث الهجرة الى الآن ٠٠ وسيمتد الى أبد الآبدين ٠٠

ـ حول اهمال التاريخ الهجرى :

ولكن مما يؤسف له شديد الاسف أن هذا التاريخ العربى القومى ، قد أهمل استعماله فى الحياة العملية اليومية لدى الافراد والهيئات والمنظمات ، وحتى لدى بعض الحكومات ٠٠ ولا يكاد يذكر الآن فى المناهج التعليمية ، والحصص الدراسية ٠٠ اكتفاء بذكر التاريخ الميلادى ٠٠ ولذلك نرى المعلمين فى المدارس الابتدائية ٠ والاساتذة فى الثانويات والجامعات ٠ لا يكادون يذكرون تلامذتهم بتاريخهم هذا ٠٠ وقد

تجد الكثير من هؤلاء التلاميذ العرب ·· من لا يعرف أسماء شهور السنة الهجرية تماما ·· مع أنها مرتبطة بالاعياد الدينية التى فيها من الحكم والمعانى السامية ، ما لا يجوز جهله أو تجاهله فى مجـــال التربية الاجتماعية والوطنية ··

وقــد ارتفعت أصــوات ، وأعلنــت دعوات مشبوهة ·· ــ قديما وحديثا ــ تدعو الى الاستغناء عن التاريخ الهجرى العربى ، واستبداله بالتاريخ الميلادى ·· (لانه تاريخ عالمى فى زعمهم) · ومثل هذه الدعوات لا يراد منها الخير لديننا وعروبتنا ، لانهــا شبيهــة بالدعــوة الى استبــدال الحروف العــربية بالحروف اللاتينية ·· كما حصل فعــلا فى تركيا الكمالية ·· واستبدال اللغـــة العربية الفصحى باللغــة الدارجة ·· والتخلص من التزام تطبيق قواعد النحو فى الكتابة والمحادثة ·· لصعوبتها ــ كما يزعمون ــ وكلها دعــوات وشعارات مغــرضة ·· لا يهدف أصحابها من وراء بثها بين أبناء الشعوب العربية والاسلامية ، الا لهدف ابعادهم عــن أصول دينهــم ولغتهــم ، ومنابع تاريخهم وقوميتهم · سعيــا الى دمجهم وتغريبهم ·· واستلابهم روحيــا ومعنويا ·· حتى يغدوا ولا جـــذور ولا أصالة لهم ··

وقد نبه بعض علمائنا فى الماضى على خطورة هــذه المساعى المخربة لشخصية الامة العربية ·· فقد قال الشيخ طاهر الجزائرى (رحمه الله) (5) وكان من كبار علماء الشام ·· وقد سئل عــن التاريخ الهجرى : ــ « عجبت لمن يسعون فى أن نهجر التاريخ الهجرى ، ويفاتحوننا فى ذلك ·· كأنهم لا يعلمون أننا نعلم مــا يرمون اليه عن بعد ·· ان لكل أمة شعارا اذا تــركته طمــع فيهــا ، واستضعف جانبها ·· وربما صارت بعد مدمجة فى غيرها ·· وقد سعى أناس منذ عهد بعيد فى أن يضعفوا مــا يقوى أمــر الاسلام عموما ، والعرب خصوصا ·· فنجحــوا بعض النجاح ·· وطمعوا فى أن يقضوا عليه (يعنى الاسلام) فلم يجدوا أقرب الى ذلك مــن اضعاف اللغــة العربية ·· والسعي في تبديل خطها ·· والتزهيد فى الكتب التى كتبت به ·· جعلوا ذلك دأبهم وديدنهم ، حتى أثروا فى كثير من أبناء جلدتنا (المنحرفين) ، الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء ·· فكان ما كان مما هو معروف ·· ثم زاد الامر فطمعوا فى تبديل التاريخ الهجرى ·· »

(5) توفى فى سنة 1338 هـ 1920 بدمشق ·

« وليت شعرى ·· كيف بلام المسلم على أن يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجرى ·؟ فهل انقرض التاريخ الهجرى ·؟ وهل يريدون أن ينقرض وأصحابه أحياء ··؟ » (6) ·

أما مؤرخ الجزائر المرحوم الشيخ مبارك الميلى ·· فقال ـ وهو يتحدث عن ذكرياتنا الوطنية ـ : ـ « ومن هذه الذكريات ، التذكير بتاريخنا ، واحياء العمل به ·· فان التاريخ الهلالى الهجرى ، تاريخ عربى اسلامى · وشهوره عربية اسلامية ·· والذكريات التاريخية تجرى من الامم مجرى الشرايين من الافراد ·· فالشعب الاشد اعتبارا فى الحياة الاجتماعية ، هو الشعب الاشد احتفاظا بذكرياته التاريخية ·· وفى العمل بالتاريخ الهلالى رمز الى محافظتنا على صلاتنا بآبائنا الاولين وبرورنا بهم … وفى الاستغناء عن التاريخ الميلادى نفور من الاندماج وكراهية للاحتلال الادبى والروحى ، المفضى الى ذلك المسخ الاندماجى ·· »

ويتابع الشيخ الميلى (7) حديثه قائلا :

« ونرجو من كل غيور على الاسلام والعروبة ، مهتم بحياتهما وقيمهما أن يعد عمره بالسنين القمرية ، وأن يدون مذكراته بالسنين القمرية ·· وقد كان أسلافنا بهذا يؤرخون أحاديثهم وأحداثهم ·· ولا يضيق صدرنا لوجود التاريخ الميلادى الى جانب القمرى ·· لاننا قوم لا نكره الاجنبى ، ولا نرفض التفاهم معه ·· وانما نرفض الاندماج فيه ونمقت من يكفر جنسه ، ويلتصق بغيره ·· لان جنسه ضعيف فى الحال ، وغيره قوى الآن ·· »

« ولعل فى هذا بيانا لخطتنا ، وهى بكل صراحة وسذاجة : العمل لرفع مستوانا الاجتماعى ، فى دائرة الاسلام والعروبة ، من غير كراهية لجنس أو مبدا أو شخص ·· الا جنس الظلم ، ومبدا التفوق ، وشخص الظالم والمتفوق ·· » (8)

هذا رأى عالمين جزائريين كبيرين من علماء عصرنا ·· يؤكد على وجوب العمل بالتاريخ الهجرى · ويحذر من عواقب اهماله وعدم العمل به ·· وقد رويته

---

(6) من محاضرة للاستاذ محمد كرد على ، نشرت فى مجلة الشهاب ، ج 10 م 5 ، جمادى 1348/2 هـ ·

(7) ولد سنة 1316 وتوفى سنة 1364 هـ ·

(8) البصائر عدد 90 س 6/3 شوال 1356 هـ ·

لكم لا رتباطه الوثيق بموضوع حديثنا عن قصة تاريخ الهجرة النبوية الشريفة ولاتصاله المتين ببناء شخصيتنا العربية الاسلامية وحضارتها بصفة عامة ..

ـ نبذة من حياة مبتكر التاريخ الهجرى :

ونود أن ننهى هذا العرض بلمحة خاطفة من حياة عمر ابن الخطاب ، مبتكر التاريخ الهجرى .. ترينا مدى آثاره ومآثره فى حياة الاسلام والمسلمين .. منذ اسلامه الى يوم وفاته .. وفيما حوته سيرته وحياته من مواقف خالدة ، ومواهب عالية .. جعلته فى مقدمة العباقرة الافذاذ من بنى الانسان ، الذين لم يأت الزمن بنظير لهم ، الى يوم الناس هذا . وحسبنا فى ابراز بعض مناقبه ، أن نورد ما أمكن من أقوال أصحابه فيه حيا وميتا ..

كان عمر رجلا ندر مثله فى الرجال ، وبطلا عظيما ، قل نظيره من الابطال .. نشأ كغالب أترابه مجيدا للفروسية ، متمرسا على الضرب والطعان .. الى جانب فصاحة لسانه ، وجوده بيانه .. ومعرفته التامة بأنساب قومه ..

وكان قبل اسلامه من أشد خصوم الدعوة الاسلامية ، وأكثرهم ، ايذاء للمؤمنين بها ، منذ بزوغ فجرها .. ولكنه لم يمض غير قليل من الوقت ، حتى شرح الله صدره للاسلام .. وأصبح من أعظم أنصاره ، بعد أن ظل بالامس من الد أعدائه ..

دخل عمر فى الاسلام بعد الهجرة الاولى الى الحبشة . وكان اسلامه استجابة لدعاء النبى له بأن يعز به الاسلام . فقد دعا الله أن يعز الاسلام بأحب الرجلين اليه : عمر ابن الخطاب .. أو أبى جهل عمر بن هشام .. فكان أحبهما الى الله عمر الفاروق ـ كما سماه الرسول .. اذ أصبح اسلامه فارقا بين الحق والباطل ، وبين ضعف المسلمين الاوائل وقوتهم ..

وقال فيه النبى (ص) : «ان الشيطان ليفرق من عمر .. وما لقيه سالكا فجا الا سلك الشيطان فجا غيره .. » وروى عن ابن عباس أنه قال :

« لما أسلم عمر نزل جبريل عليه السلام . فقال : يا محمد : لقد استبشر أهل السماء باسلام عمر .. » وأخرج البخارى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « ما زلنا أعزة منذ اسلام عمر .. » .

نعم ـ كان عمر شديدا فى الحق ، لا يخشى فى الله لومة لائم .. ذهب الى النبى (ص) وقد رأى المسلمين الاولين يستخفون بصلاتهم من قريش ، حينما

يحين وقتها .. فقال له : السنا على الحق يا رسول الله ؟ قال الرسول : بلى يا عمر .. فخرج من عنده وقد عزم على تحدى قريش ، بأداء شعائر الدين جهارا نهارا .. ومنذ ذلك اليوم صار المسلمون لا يستخفون بصلاتهم ..

وجاء دور عمر فى الهجرة . فقصد الى الكعبة وطاف بها .. ثم صلى ركعتين عند مقام ابراهيم .. وذهب الى مجلس قريش بفناء الكعبة ، متقلدا سيفه .. وقال لهم متحديا اياهم :

« شاهت الوجوه .. لا يرغم الله الا هذه المعاطس .. من اراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو تترمل زوجته ... فليلقنى وراء هذا الوادى .. » ومضى الى سبيله .. دون أن يحرك أحد من قريش ساكنا .. أو يعترضه منهم أحد .. كما فعلوا بغيره من المهاجرين قبله ..

ومنذ وصل عمر الى المدينة ، كان ثالث ثلاثة - بعد صاحبيه - وضعوا قواعد الدولة الاسلامية ، واقاموا صرحها على تقوى من الله ورضوان .. لقد شهد عمر المشاهد العظمى كلها مع الرسول .. وكان ملهما فى قوله وفعله .. وان المؤمن لينظر بنور الله .. كما روى عن ابن عمر أن النبى (ص) قال : « ان الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه ... » .

وروى أيضا : « أنه ما نزل بالناس أمر ، فقالوا فيه قولهم .. وقال عمر قوله الا نزل القرآن مؤيدا لقوله ورأيه .. » .

وقد عبر شاعر معاصر عن ذلك فقال :

« رأيت فى الدين آراء موفقة
فأنزل الله قرآنا يزكيها »

وبعد التحاق الرسول بالرفيق الاعلى ، كانت مبادرته حاسمة للخلاف فى سقيفة بنى ساعدة .. فى قضية اسناد الخلافة لابى بكر الصديق .. اذ كان أول من أمسك بيد أبى بكر ، مبايعا له ، مذكرا القوم بفضله وسابقته فى الاسلام . فما كان منهم الا أن توالوا على الاقتداء به .. وقضى بمبادرته تلك على فتنة الخلاف ، بين المهاجرين والانصار . وخرجت وحدة الامة من تلك المحنة ظافرة منتصرة ..

وهو الذى أشار على أبى بكر بجمع القرآن فى مصحف واحد فى عهد خلافته فتردد أبو بكر فى أول أمره .. لان النبى (ص) لم يفعل ذلك فى حياته . وقال لعمر : « كيف افعل شيئا لم يفعله رسول الله (ص) . فقال عمر : «هو والله خير ..» يعنى جمع القرآن..

قال أبو بكر : « ولم يزل عمر يراجعنى .. حتى شرح الله صدرى

لذلك .. ورأيت الذى رأى عمر من الخير .. » .

ولما شعر أبو بكر بدنو أجله ، استشار كبار الصحابة فى العهد بالخلافة الى عمر .. فكلهم قال فيه خيرا . وذكره بما هو أهله من الفضل .. واستهل عمر خلافته بقوله فى خطابه المنهجى :

« انه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف ، حتى آخذ الحق له .. ولا أضعف عندى من القوى ، حتى آخذ الحق منه .. » .

ولعل فى هذه الكلمات الوجيزة ، ما يعطى صورة صادقة عن حفاظ عمر على قواعد العدالة والمساواة فى سياسته.. وتحقيقا لهذا المبدا الاساسى فى الاسلام.. فقد واصل عمر الجهاد بقسميه الاصغر والاكبر ، فى سبيل الله ، ومن اجل رفع راية الاسلام ، فى مشارق الارض ومغاربها .. بما قام به من الفتوحات العظيمة ، التى شرع فيها سلفه ، فى الشام ، والعراق ، وفارس ، ومصر .. حتى قوض عرشى كسرى وقيصر .. وهو لا يزال يرتدى عباءة مرقعة على ظهره .. بالرغم من كثرة ما كان يجبى اليه من الثمرات والاموال ..

كان عمر يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ولاته .. ونوادره فى محاسبة نفسه كثيرة .. فأين هو اليوم من يحاسب نفسه كحساب عمر ، من ولاة أمر المسلمين .؟ أما ولاته فقد كان يتحرى فى اختيارهم العفة والنزاهة والتقوى ، وصحة العقيدة .. لكنه كان اذا جمع أحدهم مالا ، من أى سبيل ، غير عطائه المفروض له من بيت المال .. طبق عليه قانون : « من أين لك هذا .؟ » فهو أول من وضع هذا القانون ، وطبقه حتى على أولاده ، الذين جمعوا مالا من التجارة.. فقد كان يبعث الى بعض الولاة من يقاسمهم ما استأثروا من الثروات ، لفائدة بيت مال المسلمين .. وقد طبق ذلك على كبار الصحابة .. وهم : عمرو ابن العاص ، وسعد ابن أبى وقاص ، وأبو هريرة ، وخالد بن الوليد .. وغيرهم . ولم يشفع لهؤلاء عند عمر أنهم من السابقين الاولين فى الاسلام . لان عدالة الاسلام لا تميز بين الناس الا بالتقوى .. « **ان اكرمكم عند الله أتقاكم** » . ولا تعامل الناس على أساس المنصب ، أو المكانة فى الدولة ، او غيرها من المقاييس ، التى ما أنزل الله بها من سلطان .. كما يجرى به العمل ، لدى أولى الامر فى هذا الزمان ..

هكذا كان عمر يطبق قانون العدل ، حتى لا يطمع قوى فيما ليس له من

حق .. ولا ييأس ضعيف من نيل ما له حق فيه .. على أن أكثر ولاة عمر ، كانوا يتخذون منه اسوتهم فى الزهد والتقشف .. أما أثرياء المنصب فقليل ما هم .. حتى ولو كانوا يحتلون أرفع المناصب فى الدولة .. وهو القائل :
« ان الناس ما زالوا على استقامة ، ما استقام لهم قادتهم .. » .

ومن آية زهد عمر (رضى الله عنه) أنه أقسم فى عام الرمادة ـ وهو عام مجاعة ـ ألا يذوق سمنا ولا لبنا ولا لحما .. حتى يكون ذلك فى متناول الناس جميعا ..

ولعمر فى ميدان القتال وصايا حكيمة . تدل على عبقرية نادرة .. منها وصيته لسعد ابن أبى وقاص . وهو يقود جيوش المسلمين فى فارس .. وقال فيها :

« أما بعد فانى آمرك ومن معك من الاجناد بتقوى الله على كل حال .. فان تقوى الله افضل العدة على العدو ، وأقوى مكيدة فى الحرب .. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم .. فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم .. وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم الله .. ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة .. فان استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا فى القوة .. وان لم ننتصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا . فلا تعملوا بمعاصى الله وانتم تجاهدون فى سبيل الله .. » .

ويوم التحق بربه وقف على ابن أبى طالب على جثمانه وقال :

« والله ما على وجه الارض رجل أحب الى أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى بالثوب .. » ثم بكى حتى اخضلت لحيته بالدموع ..

أما عبد الله بن مسعود فقال فيه :

« كان اسلام عمر فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت امامته رحمة .. ولقد رأينا وما نستطيع أن نصل الى البيت حتى أسلم عمر قاتلهم (يعنى كفار قريش) حتى تركوا سبيلنا .. » .

رضى الله عن عمر فقدكان مجموعة من الفضائل الاسلامية تمشى على وجه الارض .. وألهم أولياء أمور المسلمين القدوة الحسنة به فى عدله ، والسير على سواء سبيله ..

هذا قليل من كثير مما نعتز به من تراثنا وتاريخنا .. فلنعد اليه . ولنتمسك بحبله ، ولنحفظه من الضياع

والاهمال .. ولنعمل لحماية لغتنا من التلاشى والانحلال . وليكن لنا من عامنا الهجرى الجديد ، ما يدفعنا الى الجد والاجتهاد فى العمل ، ويحفزنا الى طلب ما فيه عزتنا ، متحدين متعاونين ، على خير البلاد والعباد ..

« تلك آمالنا عسى أن نراها
مثمرات فى حولنا ذا الجديد »

تحية لرأس السنة الهجرية

1400

الاستاذ أحمد بن ذياب

حادي العام هاتها من بعيد ... قبل الشوق للقاء السعيد
وابعث البشريات فى كل قلب ... والاماني غضة كالورود
واحد بالعرب للمعالى حداء ... يستفز الجموع للتشييد
ويقود الشباب للعمل الاسمى ... ويهدى للرشد كل عنيد
واتل من عالم التطور آيا ... من سجلات فجرك المولود
واملا الكون رحمة واخاء ... ونعيما من الرحيم الودود
أيها العام مرحبا بك سمحا ... تتهادى فى محفل التمجيد
خاتم الالف والمئين تباعا ... أربعا فى انسجام عقد نضيد
بينها النير المعالم شرقا ... والمحلى فى الغرب نجم سعود
والعديم النظير فى منجزات ... رائعات فى الموكب المشهود
تتغنى به الربوع مضيا ... فى نهوض ووحدة وصمود
وترى فيه طالعا يتراءى ... حافلا بالمنى ٠ فهل من مزيد ؟
وتباهى به العروبة دعما ... لرقي مخطط ممدود
والجنود الشجعان فى كل صوب ... يتبارون فى البناء العتيد
هل يريدون للسماء سبيلا ؟ ... أم يريدون معبرا للخلود ؟
انهم أقوياء قوة عزم ... واعتصام بما لهم من جهود
يبتغون الحياة هالة مجد ... وهم البدر فى حماها الوطيد

ليعم الرخا وتعلو الاغاريد ... ابتهاجا بسعينا المجمود
أيها العام قد دفعنا خطانا ... فى صراع الوجود دون حدود
وبدأنا نبتى وللعزم حاد ... فى اتحاد العروبة المنشود
نتلقى من كل عام حليفا ... ومجالا للسؤدد المرصود
ننشد الخير للجميع ونسرى ... كالدرارى بين الليالى السود
ونوالى الكفاح فى أي حقل ... من حقول التصنيع والتشييد
فامش يا عهد بيننا مستهاما ... بالمشاريع فى القرى فى البيد
تتقاضى منك الجزائر عهدا ... وتعاطيك صادقات العهود
لتكونن فى الطليعة اقدا ... ما ، وحرصا على المهم الاكيد
لتكونن قدوة فى مساعيها ... سباقا الى المرام البعيد
برجال سنوا المكارم غرا ... للبطولات للفدى للصعود
ونساء أحبب بهن نساء ... مخلصات فى كدحهن المفيد
يتنافسن فى الصلاح فلا يأ ... لون جودا بصالحات الجهود
وشباب تسمو به الهمم العليا ... فيمشى بكل درب رشيد
ويناديه للمروءة صوت ... من صميم الاسلام والتوحيد
يتحرى مجد البلاد وفيا ... للمبادى وللصراط الحميد
يتولى غدا الجزائر منه ... أخلص العاملين للتجديد
وترى فيه من يبنى ويعلى ... كل صرح للمكرمات فريد
يا شبابا ان الجزائر أم ... نعم أم المصاول الصنديد
فأطعها تنل رضاها وتحظى ... بحنان الامومة المعهود
واجعلنها حبيبة القلب والروح ... ومثوى عواطف التمجيد
واعمل الخير ما استطعت فخورا ... بهوى موطن الاباة الصيد
أنت نجم يضيء ليل سرانا ... فى بناء المستقبل الموعود
تتسامى الانظار نحوك فى شو ... ق كشوق المتيم المعمود
لا تقصر فللجزائر دور ... فى مطاوى الايام جد وحيد
فاخطها خطوة العمالق محفو ... فا بعون من الحكيم المجيد
وازرع العلم فى الديار لتجنى ... ثمرات الابداع والتجويد

وابن حصنا للاشتراكية الفضلى وصنها بكل بأس شديد
وابعثنها شعبية مزدهاة كازدهاء الربيع بين النجود
وارع حق الشهيد فى كل ذكرى ذلك الشهم فى الرعيل الفقيد
من تغنت به البطائح والدور وشعت به قبور الجدود
واستكانت له المعارك فى القر وفى الحر فى ظلال البنود
وغدا صيته العظيم يدوى ملء سمع الفضا وملء الوجود
كان للشعب صيحة تتعالى بين ساح الفدى كقصف الرعود
وغزت آية الجهاد نفوسا حررتها من ذلة وجمود
رددتها المظاهرات شعارا جعل الجيش قلعة من حديد
وتلتها الاوانس الحور وردا مستعادا منغما كالنشيد
وارتقت بالارواح للملا العلوى تبتغى عناق كل شهيد
وغدا للشهيد حفلا يضاهى حفلات الاعراس ليلة عيد
وتصافى الجميع فى خدمة الواجب زلفى للخالق المعبود
طبت يا شعب عنصرا وخصالا وسموا بسعيك المحمود
أيها العام خذ علينا عهودا من عهود الاحرار دون قيود :
أن نظل الحماة للوطن الغا لى وللعز والرقي السديد
نعمر الارض كالفراديس أمنا وسلاما وروضه للورود
ونصون الاسلام من كل ضيم ونجليه فى قشيب البرود
يا بلادى آمنت بالغيب يرعا ك ويحدو خطاك بالتأييد
يا بلادى وأنت أنت اذا اشتد بك الموج فى الخضم المريد
فالكفاح الكفاح فى كل صوب لتفوزى مشكورة أو تسودى
وستبقين ما بقيت رصيدا للمعالى : يفوق كل رصيد

البليدة فى غرة محرم 1400

سيصدر قريبا كتاب :



ـ في مجلدين ـ

1980 ١٠/ع
79-80-81-82

فهـــرس الـعــــدد

افتتاحية

كلمة السيد بوعلام باقى عضو اللجنة المركزية ووزير الشؤون الدينية بمناسبة انعقاد الدورة العادية لاطارات وزارة الشؤون الدينية ومديرى الولايات للشؤون الدينية .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الاخوان ،

كنا اجتمعنا فى مثل هذه الايام من السنة الماضية وكنا وعدناكم بأن الوزارة ستبذل قصارى جهدها فى حل كل المشاكل المطروحة على القطاع الدينى الذى شرفنا الله بالانتماء اليه والاشراف عليه وها نحن اليوم نلتقى لنستعرض معكم ما تم انجازه منذ ذلك الوقت وما هو فى طريق الانجاز ولنتدارس بيننا الاوضاع خاصة بوزارتنا على ضوء المعطيات الجديدة، لا سيما وان القيادة السياسية قد أولت القطاع الدينى عناية بالغة فحققت بذلك آمالنا وآمال شعبنا المسلم فى كثير من الميادين وسوف تحقق ان شاء الله كل ما نصبوا اليه من خير لبلادنا فى ظل شريعتنا الاسلامية السمحة التى اعتمدت الشورى والعدالة الاجتماعية حكما للامة .

ان اللجنة المركزية للحزب قررت فى دورتها الثانية تعميم تعليم مادة الدين فى جميع مستويات التعليم الابتدائى والثانوى والعالى مع جعلها مادة أساسية كما قررت تعليم القرآن فى مدارس قرآنية تابعة للمساجد حرصا على تحفيظ كتاب الله لابنائنا وبناتنا وهذا ما يطبق فى القريب ان شاء الله وان ما يتمتع به الدين فى بلادنا يدعو الى الارتياح بل الى الاعتزاز والفخر .

فحالة الائمة الادارية قد تمت تسويتها بالترسيم والترتيب لكل من توفرت فيه الشروط لذلك وحالتهم المادية قد سويت بمحو الفوارق التى كانت موجودة بينهم وبين غيرهم من الموظفين وهذا بعد أن وقع سيادة الاخ الشاذلى بن جديد رئيس الجمهورية والامين العام للحزب المرسوم رقم 80 ـ 17 المؤرخ فى 15 ربيع الاول عام 1400 الموافق لـ 2 فبراير 1980 .

ومساجدنا مفتوحة أبوابها من الفجر الى العشاء للمصلين والذاكرين والدارسين ، وهذا شىء تنفرد به بلادنا والحمد لله .

وقد ضاقت رحاب بعض المساجد أمام الجموع المتدفقة من المؤمنين

شيوخهم وكهولهم وشبانهم وان كل ما نرجوه وننتظره من الجميع هو أن يسود الوئام وأن تبقى حرمة مساجدنا محفوظة لا ينتهكها أي كان فالمسجد يجمع ولا يفرق وكل من سعى فى التفرقة بين فئات المسلمين ، الدين منه براء مهما كانت علته التى يتعلل بها لان النبى صلى الله عليه وسلم تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك ٠

ان للمساجد آدابا ينبغى أن يرعاها كل من دخلها كبيرا كان أو صغيرا وليس من الآداب فى شىء أن تصبح مساجدنا وهي بيوت الله محلا للضوضاء والغوغاء والجدال والفتنة،فيا ويح من يتسبب فى ايقاد نار الفتنة فى المسجد ولو بدعوى محاربة البدعة فقد سبق الامام عبد الحميد بن باديس وسبقت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كل أحد بمحاربة البدع والخرافات فطهرت منها بيوت الله ولا بدعوى تغيير المنكر ، فالمنكر لا يغير بالمساجد لانها منه محفوظة بحكمة من الله ما لم يتعد على حرمتها أحد حيث أن كل من يجتمع فيها انما يجتمع على التقوى من الله فلنتق الله فى بيوت الله وليسع كل داعية بالمسجد فى طلب مرضاة الله وليدع الى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة وليتجنب كل ما من شأنه أن ينفر طائفة من المصلين ولو كانت طائفة أخرى عنه راضية عملا بقوله تعالى « **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فضا غليظ القلب لا نفضوا من حولك** » وعملا بتوجيهات صاحب الرسالة صلوات الله عليه وسلامه بقوله « يسِّروا ولا تعسِّروا بشِّروا ولا تنفِّروا » ٠

انه ليس من آداب المسجد أن يسب بعض الدعاة غيرهم من المسلمين أو يلعنوهم من أعلى منبر المساجد وليس أهلا للدعوة من يطلب رضا بعض الناس فى شتم الآخرين وسبابهم والكل منا يعرف أن سباب المسلم فسوق بحكم الحديث الشريف والكل منا يعلم أن رسول الله (صلعم) لم يبعث سبابا ولا لعانا وانما بعث رحمة للناس كما قال عن نفسه فبمن نتأسى اذا لم نتأس برسول الله ؟ وأين هؤلاء من الاسوة الحسنة التى جعلها الله لنا فى رسوله المصطفى البشير ؟

ان الدين دين الله وليس حكرا على أولئك الذين يبيحون لانفسهم بغير حق تفكير الناس وهم يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فما توفى الله نبيه (صلعم) حتى أكمل للمسلمين دينهم وهو وحده أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين والحكم بما أنزل الله جامع شامل وليبدأ كل واحد منا بتحكيم شريعة الاسلام فى نفسه وأهله قبل أن يتوجه لاصلاح غيره من أفراد المجتمع فالله تبارك وتعالى يقول فى محكم كتابه « **وأنذر عشيرتك الاقربين** » فاذا أصلحنا انفسنا فى جميع

مظاهر حياتنا الظاهرة والباطنة واذا أصلح كل منا أهله وأولاده تم صلاح المجتمع اسوة بما قام به رسول الله (صلعم) بين عشيرته وأهله وما سوى ذلك الا صيحة فى واد ونفخ فى رماد وما سوى ذلك الا ادعاء ودعوة الى الشيطان لا دعوة الى الله ·

ان من الشعارات التى يرددها الكثير من محترفى السياسة تحت ستار الاسلام الحكم بما أنزل الله ·

وان نحكم الرسول فيما شجر بيننا فلنرجع الى القرآن والى السنة ان الله يأمرنا اذا تنازعنا فى شىء أن نرده الى الله اننا كلنا مسلمون واننا كلنا ضد الشرك بالله واننا كلنا ضد الالحاد سواء تشخص هذا الالحاد فى الشيوعية أو في غيرها من المذاهب الاجتماعية الاخرى التحررية منها أو الرجعية سواء تشخص هذا الشرك فى الاديان الاخرى أو فى معتقدات بعض المسلمين أنفسهم، لكن كفرنا بالماركسية الملحدة يجعلنا أشد تمسكا بالاشتراكية التى اخترناها لبلادنا · تطبيقا للكفالة الاجتماعية التى جاء بها الاسلام وقضى بها على الطبقية وسوى بفضلها بين الناس فتضمنها القرآن بمبادئها خشية أن يبقى الرزق دولة بين الاغنياء ويقع الترف فيفسد المجتمع ويتسبب فى دماره كما تضمنها الحديث بلفظها ومعانيها اذ ورد عن النبى (صلعم) انه قال ـ « الناس شركاء فى ثلاث الماء والكلأ والنار » ، ولا يخفى على أحد أن الماء والكلأ والنار كانت هي عناصر الحياة الثلاثة زمن النبى (صلعم) كما ورد عنه (صلعم) أنه قال ـ « أعطوا الاجير حقه قبل أن يجف عرقه » وورد عنه أيضا أنه قال « ما آمن بى من بات شبعانا وجاره الى جانبه طاو أي جائع» وقال : « أيما رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله» وما هذه الاحاديث الا قليلا من كثير لا يتسع الوقتلذكرها كما ورد عن الخليفة عمر بن الخطاب (ض) انه قال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لاخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على الفقراء » أليست هذه هي الاشتراكية الحقة التى لا تدانيها اشتراكية ماركس ولا لينين الملحدة فما بال بعض الناس يريدون أن ينكروا للاسلام فضله فى هذا الميدان الاجتماعى وهو الذى سوى بين الناس وقضى على التفاضل الا بالتقوى فكان ديننا كله عدالة وحرية ومساواة ولم يكن أبدا دينا يدعو للطبقية أو للتخلف والجمود والرجعية كما يتوهمه الكثير من أعداء الاسلام أليس هذا هو التقدم يأتى به الاسلام فى حين كانت الامم الاخرى تغط فى نومها وتغرق فى غفلتها فحكم الله اذن فى تصحيح العقيدة أولاً وهو فى الاحسان الى الناس والرحمة بين العباد وان أبعد شىء عن الاسلام هو تعصب كل ذى رأي لرأيه ولو كان خاطئا وغلظة القلب واستعمال العنف مكان الاقناع والموعظة الحسنة ·

ان حكم الله فى العمل بما ورد فى قرآنه وفى حديث رسولــه ولــم يرد فى القرآن ولا فى السنة ان قراءة القرآن بالمسجد ولو جهرا بدعة وقد ورد عـــن النبى (صلعم) أنه قال : أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن » ٠

وما ورد فى القرآن ولا فى السنـــة ولا حتى فى كتب الفقه القديمة والحديثة أن اللحية المسدلة شرط فى صحة الصلاة وان غير الملتحى لا تصح الصلاة خلفه كما يدعيه بعض المتطفلين على الوعـظ والارشاد الذين غاب عنهم قول رسول الله (صلعم) : صلوا خلف كــل من قال لا اله الا الله » ٠

ان الايمان ليس فى المظهر ولا الاسلام انما هو فى القلب تلك المضغة الــتى اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ٠

وما ورد فى القرآن ولا فى السنـــة ولا فى كتب الفقه القديمة والحديثـــة ان الصلاة لا تصــح الا عـــلى الارض العارية أو على الحصير دون غيره من الافرشة وان الساعة الحائطية لا ينبغى أن تعلق فى المساجد كما يريد البعض فرضه على غيرهم مــن المصليــن ، أن الدين لا ينحصر فى مذاهب مستـوردة يفهمها البعض من شبابنا انها وحدها الاسلام ويريدون تطبيقها فى هذا الوطن الذى هب فيه الناس على الاســـلام وشابوا عليه فكان هو أملهم فى الحياة وسلاحهم فى الكفاح الطويل ضد قوى الشر والفساد ٠

وهنا يبرز دور المسجد فى اصــلاح المجتمع وتربية الناس تربية اسلاميـــة وأن دور المسجد لا يكمل الا اذا قـــام الامام بكل واجباته التى فرضها عليــه الدين بحكم وظيفته وليس الاجر الــذى ينتظره الامام جزاء على عمله هو ذلك المرتب الذى يتقاضاه آخر كل شهــر من الدولة انما أجره عند الله وســوف يجزى الجزاء الاوفى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمــدا بعيدا فليحاسب الائــمــة أنفسهــم فى الدنيا قبل أن يحاسبهم الله فى الآخرة ٠

ان مسؤولية الامام مسؤولية كبرى فهو المعلم الذى يتعين عليه أن يعلـــم الناس أمر دينهم وهو المربى الذى يدعو الى مكارم الاخلاق ويحذر الناس من كل مفسدة وهو المرشد الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، والامام قبل غيـــره وأكثر من غيره لا يجوز له أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه لانه قـــدوة سواء فى أقواله وافعاله وقد تكون هذه اما سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها واما سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ، واذا كان الامام كل هذا فلابد أن يكون أعلم من غيره وافقه منه حتى لا يقع فى الاثم ويوقع غيره فيه بحكم جهله لا سيمـــا وان كل أولئك الاطفال والشبان الذين

يترددون على المساجد ويعمرونهـا فى حاجة الى من يأخذ بيدهم ويرشدهم الى تعاليم دينهم كي يهتدوا اليها ولا يتبعوا سواها من السبل التى يخشى أن تضلهم عن سواء السبيل فليعمل كل واحد منا على ترسيخ العقيدة الخالصة فى عقول الناس ولنبق كلنا خادمين لدين الاسلام الحنيف بكل ما منحنا الله تبارك وتعالى من جهد وعلى الله قصد السبيل وهـو الموفق الى سبيل الرشاد ٠

انتشار أم الخبائث فى البلاد العربية
الـــداء والـــدواء

اللواء الركن محمود شيت خطاب
اليرموك ـ بغداد (العراق)

فى العالــم

قدمت وزارة الصحة فى الولايــات المتحدة الامريكية الى (الكونكرس) الامريكى ، تقريرها السنوى لسنة 1978م، ذكرت فيه ان ميزانية الحكومة الامريكية تتكبد خسائر مالية سنوية مقدارهـــا ستة وخمسون الف مليون دولار بسبب المسكرات ٠

وجاء فى هذا التقرير ما نصــه : « ان تناول المسكرات يؤدى الى فاقد فى الانتاج يقدر بثلاثة واربعين مليون دولار سنويا ، يضاف اليها ثلاثة عشر الـــف مليون دولار سنويا لنفقات علاج الامراض الناتجة عن تعاطى المسكرات ٠

ان عشرة ملايين من المواطنيـــن الامريكيين يعانون مشاكل شتى فى : العمل ، العائلة ، الجرائم ، الصحــة ، النسل وغيرها ٠ يقف وراءها تعاطى المسكـــرات » ٠

وجاء فى التقرير عن الناحيـــة الطبية : « أصبــح من المقطــوع به أن المسكرات تساهم بشكل أو بآخـــر فى الاصابة بالسرطان واضطرابات القلب وأمراض الكبد » (I) ٠

فاذا كانت خسائر الميزانية الامريكية الحكومية وحدها ، هذا المبلغ الهائـل سنويا بسبب المسكرات ، فكم خسائرها بسبب المخدرات والتدخين ؟ وكـم هي خسائر الافراد والجماعات التى يدعونها فى شراء المسكرات والمخدرات والتدخين ويدفعونها فيما ينتج عنها من موبقات وعلاج صحى ؟

لا شك فى أن الخسائر التى تتكبدها الحكومة والجماعات والافراد بســبب المسكرات والمخدرات والتدخين جسيمة جدا من الناحيتين المادية التى قد تعوض، ومن الناحية المعنويـــة التى لا تعوض أبـــدا ٠

فلاعجب فى أن أطلق على هذا الثالوث الذى يؤدى الى كل أنواع الخبائـــث اسم : أم الخبائث فما كانت المخدرات شائعة ، ولا كان التدخين معروفا يوم أطلق على الخمرة : « أم الخبائث » ٠

أما اليوم فأصبحت الخمور أنواعا ، واستشرى شــرها وشـــر المخـدرات والتدخيـــن !

(I) جريدة الاهرام القاهرية ـ السنة (105) ـ العدد (33234) ـ ص (12) 2 صفر 1399 هـ (11 يناير ـ كانون ثان ـ 1979 م ٠

هذا الثالوث الخبيث ، أم الخبائث كلها ما ظهر منها وما بطن ·

لقد كان عدد المدمنين على المسكرات فى سنة 1964 م خمسة وعشرين مليونا من البشر ·

وأصبح عددهم من موظفى الحكومة والشركات الصناعية فى الولايات المتحدة الامريكية (وحدها) فى سنة 1978 م عشرة ملايين من البشر ، ولابد من أن يكون عددهم من مجموع السكان أضعافا مضاعفـــة ·

وكانت خسائر الحكومة الامريكيـة ماليا فى سنة 1964 م أربعمائة مليون دولار (1) ، فأصبحت خسائرها الماليـة فى سنة 1978 م ستة وخمسين الـــف مليون دولار !

وبعملية حسابية بسيطة ، نجد أن خسائر الحكومة الامريكية قد تضاعفت خلال أربعة عشرة سنة مائة واربعيـن مرة من الناحية المالية ، وتصاعد عدد المدمنين الى عشرين مرة من الناحيـة البشـــرية !! ·

ان الجنس البشرى يجرى بسرعـــة مذهلة نحو ادمان أم الخبائث ، ويتحرك باندفاع خاطف نحو الهاوية ،حـــتى أصبحت (القاعـدة) وهي معاقـرة المسكرات وادمان المخدرات والتهـــام الدخائن (2) ، واصبح (الاستثنـاء) هو اجتناب أم الخبائث ·

وظهرت دراسات علميـة كشفـــت الاضرار البالغة لام الخبائث اجتماعيا وطبيا ، تحذر الناس من انهيار اجتماعى وصحى ، فأزداد المدمنون عددا وزادهم تصاعد انتاج أم الخبائث مددا ، كـأن تلك الدراسات بشير للمدمنين نذيـــر للمتعففين جاءت تصديقا للمثل القائل : نجحت العملية ، ومات المريض » ·

لقد سيطرت أم الخبائث سيطرة كاملة على أفراد ومجتمعات الدول الرأسمالية والاشتراكية ، لان الاتجاه (المادى) فى الكتلتين الشرقية والغربية بما فيه من اغراء ، وتلاشى الاتجاه (الدينى) بما فيه من طهر ، لا يمكن أن يوجه الا الى الادمان على أم الخبائث والاغراق فى متطلبـات الرفاهيـة والجســـد ، والابتعاد عن نفحات الدين وانـــوار اليقين التى تبدد الظلمات وتعين عـلى تحمل أعباء الحياة ·

ولعل من المفيد أن أذكر تجربة مفكـر كبير عاش فى الاتحاد السوفياتى فضاق بها ذرعا ، لانها حياة ماديـة لا روح فيها ، وانشق على حكومته وقومــــه وبلاده ، وتحمل الاهوال عقابا له على انشقاقه ، فصبر على السجن والتعذيب

(1) دكتور (ر· برمكلى سمثرس
مشكلة الادمان الكحولى ـ ص (74) ـ بحث مقـــدم الى المجلس الـدولى السابع ـ فرانكفورت ـ المانيا الغربية ـ 1924 م ـ ·
(2) الدخائن : جمع دخينة وهي الكلمة العربية للسكارة الاجنبية ·

والحرمان طويلا ، مصرا على النزوع عن بلده الى الغرب ، لعله يحظى بالسعادة والراحة ·

وأخيرا تحقق لهذا المنشق الروسى حلمه ، فغادر الاتحاد السوفياتى الى دولة الكتلة الغربية · وتجول فى أرجائها باحثا ممحصا ، يفتش عن حلمه المنشود : السعادة فى الراحة والاطمئنان النفسى ، حتى وصل الى الولايات المتحدة الامريكية ، وهناك ألقى محاضرة أدان - فيها الكتلة الشرقية ممثلة فى الاتحاد السوفياتى ، والكتلة الغربية ممثلة فى الولايات المتحدة الامريكية ، وحملهما معا ما تعانيه البشرية من تمزق ، فكان من جملة ما قاله : « ان العالم منذ انتهاء العصور الوسطى وبدء عصر النهضة ، أخذ يهجر الدين ويتمرد على القيم الروحية ويحط من شأنها ، ويجعل القيم المادية هي أساس حياته ومحور أفكاره وبرهان تقدمه ومصدر سعادته ··· واصبح طموحه الفردى ماديا ، ووعود الزعماء مادية ، وثقافة أجهزة الاعلام مادية ··· هذا التفكير المطلق يلتقى فيه الشرق والغرب، فاذا كان الشرق ماديا وملحدا رسميا وبحكم فلسفة الدولة ، فالغرب يصل الى نفس النتيجة من طريق آخر : طريق الانغماس فى المصلحة والمادة وحب الذات ، ان فلسفة الغرب المادية تعتبر ان الانسان خلق للسعادة وبالتالى فان كل شىء يجب أن يكون فى مصلحة الفرد ، ولكن الانسان كما خلق للسعادة فى الحياة ، خلق للسعادة بعد الموت أيضا · فلابد له من الايمان ، الايمان بالله والقيم الروحية والمعنوية ، وبأن رسالة الانسان هي الارتقاء الى قيم أعلى » (1) ·

ان هذا المنشق الذى هرب من مادية الكتلة المغالية فى ماديتها ، اصطدم بعد هروبه بالكتلة المغالية فى ماديتها أيضا ، الشرقية مادية ملحدة ، والغربية مادية مصلحية ، وكلاهما فى ضلال مبين ·

وما دامت (المادة) هي (الغاية) من الحياة وليست (الوسيلة) ، بعد ان اقتصرت فلسفة الحياة على (الدنيا) وحدها لا على (الدنيا) و (الآخرة)، فالمرء هدفه الاول والاخير هو جيبه الذى يطمئن رغبات بيته وبطنه وفرجه ، كالحيوان الذى يقتصر اهتمامه على اسطبله وعلفه وفرجه ، لذا كانت الحياة المادية حياة حيوانية ، والفرق بين الانسان السوى والحيوان هو ان الاول يفكر فى الدنيا والدار الآخرة ، يفكر بالمادة والروح أما الحيوان فلا يفكر الا بالمادة ·

وجاءت معالجة داء الادمان على أم الخبائث بالنسبة للماديين (مادية

(1) القيت المحاضرة فى النصف الاخير من سنة 1978 م القاها الكاتب والاديب السوفياتي (سولجنتسين) ·

أيضا • والعلاج المادى بالنسبة لام الخبائث لا يقضى عليها داء بل يعمق جذورها ويزيدها بلاء ، كما نلمسه فى الشرق والغرب من تضاعف الاقبال على أم الخبائث ، فالدواء المادى هو الذى جعل الداء ــ المتمثل فى أم الخبائث مستفحلا يرجى شفاؤه ، لانه أثر من آثار المادة والحياة المادية ، وغياب التوجيه الدينى الذى هو الدواء الناتج لداء أم الخبائث ، قضى على آخر أمل فى شفاء هذا الداء العضال •

وازدحمت أدوية الماديين على الداء دون جدوى ، ومجمل الادوية هي : ان المسكرات داء العصر ، والطبيب يشخص الادمان على انه مرض نفسى ، ولا يستطيع المدمن الاقلاع عن الادمان بالنصح ولفت الانتباه الى العواقب الوخيمة للادمان ، فيجب ان يمارس أحدى الهوايات ، واستعمال وسائل المعالجة فى المصحات . والالتفات الى الاسباب الداعية للادمان) (1) •

تلك هي مجمل الدواء ولم يخرج عن الخط المادى الذىبسببه كان الداء ، ويخيل الى ان الطبيب المعالج وضع الدواء وهو يحتسى المسكرات أو يتعاطى المخدرات على تصاعد دخان الدخائن • وحسبه أنيكون مكبلا بأغلال الحياة المادية ، لا يستطيع الخروج من نطاقها ولا الخروج عليها ، والاسير المكبل بالحديد ، لا يقدر على فكاك الاسرى المكبلين ، وفاقد الشىء لا يعطيه •

فى البلاد العربية

جاء فى الدراسة التى قدمتها المنظمة العربية للدفاع الاجتماعى ضد الجريمة التابعة لجامعة الدول العربية ، الى المؤتمر الاول لوزراء الداخلية العرب المنعقد فى أيلول من سنة 1977 م فى القاهرة ما نصه : « وتتميز أقطار الخليج العربى بجرائم تسلل الاجانب ، وجرائم المسكرات والاغتصاب » • (2)

والمعروف ان سكان الخليج العربى لم يكونوا يعرفون جرائم المسكرات لقربهم الى الطبيعة العربية البدوية السليمة ، قبل سكانها الاسلام فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم واقبلوا عليه ، وكانوا القاعدة الامامية المتقدمة التى انطلق منها الفتح الاسلامى العظيم فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه سنة أحدى عشر الهجرية لفتح العراق ، وكان عقلاء العرب قبل الاسلام يعتبرون الاقبال على المسكرات مثلبة من المثالب التى تهدد العقل والمروءة ، وقال قائلهم جوابا للقائل : « ما سر احجامه عن الخمرة ؟ » كيف يقبل المرء على

---

(1) جريدة الجمهورية العراقية ــ العدد (7416) ــ ص (8) ــ 29 كانون الاول 1978 م ــ 29 محرم 1399 هـ •

(2) ص (4) من التقرير •

ما يضيع العقل ويهدر المروءة ؟ · فلما جاء الاسلام هجر المسلمون الخمرة والمسكرات ، فأصبح بالاسلام عدد عقلاء العرب كثيرين بعد أن كانوا قليلين ، وساد العقل وانهزم الجهل ·

هكذا أصبح الخليج العربى الآمن غير آمن ، فقد انتقلت اليه عدوى أم الخبائث ، ان احصائية المنظمة العربية للدفاع الاجتماعى ضد الجريمة ، لا تقتصر على احصائية الخليج العربى ولكن تشمل سائر الدول العربية ، وهذه الاحصائية عبارة عن مجموع البيانات التى بعثت بها الدول العربية الى المنظمة · وقد اعتبرت تلك المنظمة ان الجرائم التى وقعت فعلا هي اكثر عددا مما اثبتته بيانات الدول العربية فى جداولها · اذ تخفى قسم من الدول العربية ما يقع فيها من جرائم عمدا لسبب أو لآخر · ولكن المدقق لاحصائيات المنظمة يتبين بوضوح أثر أم الخبائث فى الدول العربية المدمر ·

كما يتبين تضاعف الجرائم بسبب تفشى أم الخبائث فى العرب تفشيا فظيعا يجب الا يسكت عنه المسؤولون أو يقفوا منه موقف المتفرج غير المبالى بعواقب الاخطار ·

وسأذكر ما يحدث فى لبنان الشقيق من تفشى أم الخبائث ، وهدفى من ذكرها انذار العرب المسلمين فى كل مكان ، ليحذروا عواقب تفشيها فى بلادهم ، لان ما يحدث فى لبنان كما علمتنا التجارب يحدث فى البلاد العربية اليوم أو غدا ، باعتبار لبنان همزة الوصل بين الغرب والبلاد العربية ، فهو محطة تلتقط مباذل الغرب وتبثها فى البلاد العربية ·

وسأركز على الشباب وبخاصة فى الجامعات ، لانهم عماد الحاضر وقادة المستقبل ·

ينتشر تعاطى المسكرات والمخدرات والتدخين فى الوسط الطلابى ، ويزداد انتشارها بسرعة هائلة بين يوم وآخر، وبخاصة فى الجامعات ، والاخطر انتشارها بين الفتيات اللواتى أصبحن يشاركن الطلاب بتعاطى أم الخبائث ويتفنن فى الادمان عليها ·

واحصائيات الامن العام اللبنانى لعام (1977 م ـ 1978 م) تفيد ان خمسة وسبعين بالمائة من جرائم القتل والسرقة وراءها أم الخبائث سواء عن طريق الاتجار بها أو ادمانها ·

وتؤكد تقارير الامن العام بأن الطالب الجامعى أصبح مدمنا على تعاطى أم الخبائث بشكل مريع ، ولا يقتصر الادمان على الشباب فقط · بل تعداه الى الفتاة اللبنانية التى أصبحت لا تقل رغبة فى الادمان عن الشباب · وكأنها بذلك تتبع مبدأ المشاركة فى كل شىء ، وغالبا ما تكون صاحبة المبادرة ·

وتذكر تلك التقارير ، ان فضائح كثيرة أثيرت فىاحدى الجامعات الكبرى وآخرها حديثة العهد فسرت على انها

اعتداءات وتجاوزات شخصية ، والواقع هو ان مجموعة مختلطة من الشباب والشابات تعاطوا أم الخبائث حتى غابوا عن الوعي ، فكانت الفضيعة !

وقد اثبتت التقارير الطبية ، ان أولئك الشباب والشابات مدمنون بالتربية والهواية · وهذا منتهى الخطورة، ويبدأ ادمانهم على احتساء كأس من المسكرات أو جرعة من المخدرات أو دخينة من الدخائن ليجربوا الطعم والنكهة ، ثم تتحول التجربة الى عادة يستفحل أمرها · فيشعر المدمن بعدئذ بحاجة الى المسكرات والمخدرات والتدخين ولو كلفه الامر انتهاك الاعراض ·

ويصف الامن العام اللبناني فى تقاريره تجارة المخدرات على أن تجارها هم من (الكبار) نفوذا وثراء ، لان هذا النوع من التجارة يتطلب رأسمال كبير وحماية للتنفيذ ·

وتذكر تلك التقارير ، انه لو نفذت الاحكام بالمتاجرين والمهربين والمدمنين ، لقضى سبعون بالمئة من اللبنانيين فى السجون (1) ·

تلك لمحات عن تعاطى أم الخبائث فى لبنان الشقيق · وما يقال عن لبنان يقال عن سائر البلاد العربية الاخرى بدون استثناء مع تفاوت فى عدد المدمنين وطريقة تعاطيهم أم الخبائث بين السرية والعلنية ، وفى بلدهم أو خارجه ، وفى أسلوب بيعها للراغبين فيها ، فقسم من البلاد العربية تبيع المسكرات علنا فى الاسواق لكل الناس من مختلف الاديان، وقسم منها تبيع المسكرات علنا لغير المسلمين ، فيستعين المسلم بغير المسلم فى تطمين رغباته ، وقسم منها لا تسمح فى بيعها علنا ، ولكنها متيسرة فى السوق السوداء ·

أما المخدرات ، فلا تباع علنا الا فى الصيدليات بموجب اذن خاص من الطبيب ، يحدد فيه الكمية المسموح ببيعها للمريض ، وتحدد وزارة الصحة الكميات المسموح بوضعها فى كل دواء · ولكن المدمنين على المخدرات يكتشفون المصادر التى توفرها لهم ، فالاقبال عليها يزداد والجرائم بسببها تتضاعف ·

أما تجارة الدخائن ، كاكتسحت الاسواق العرية كلها بدون استثناء · وما دامت الدول العربية تفكر بارتفاع الضرائب دون أن تفكر بتدمير العرب فستبقى أم الخبائث تعمل عملها المدمر فى الصحة العامة والاخلاق ·

عوامل الداء

(1) الابوان

للابوين تأثير رحاسم فى الاولاد ذكورا واناثا ، وفى صلاحهما صلاح للاولاد ، وفى فسادهما فساد لهم ·

وكثيرا ما يبقى الطفل وحيدا فى الدار ، بعيدا عن رعاية والديه ، لان أباه فى العمل ، ووالدته فى العمل

(1) مجلة الصياد ـ العدد 1784 ـ ص (4 ـ 5) باريس ـ 12 كانون ثانى 1979

أيضا ، فترعى الطفل جدته أو مربيتــه أو خادمة ، وهو بحاجة الى رعاية أمه، وربما تحمله أمه الى دار الحضانة ، ليبقى تحت رعايتها حتى تعود أمه مـــن عملها اليومى ، فتعود به الىالدار ٠

وتربية المربية أو الـخـادم أو دار الحضانة ، ليست كتربية الام ، فهـــو بحاجة الى نسبة عالية مـن الحـنان ، وهذه النسبة تقدمها الام بشكل طبيـعى لا تكلف فيه ٠

وتربية الخادم بدون رقابة فيها محاذير كثيرة معروفـة ، كمـا ان تربيـة دور الحضانة تجعل الطفل ينقل المرض مـــن أقرانه بالاختلاط ، فيعيش أكثر أيـــام طفولته مريضا ، وتبقى آثار مرضـــه المستمر فى طفولته بعد أن يكبر ، فيعانى من تأثيره طيلة حياته ٠

وأخشى ما أخشاه أن ينشأ الجيــل العربى الجديد بأشـــراف الخادمات ، لنطلق عليه : جيل الخادمات ٠

ان الوالد والوالدة أيضا كثيـــــرا ما يدخنان ، فيقلد الولد أباه وأمه ، أو يقلد أحدهما فى التدخين ، وقد شاهدت أطفالا فى المدارس الابتدائية ، يدخنون فى طريقهم من المدرسة الى الدار خلسة فى بادىء الامر ، فاذا كبروا استحكمت فيهم عادة التدخيـن فأصبحـوا مـــن المدمنين ٠

وقد شاعت بين العوائل عادة قضـاء السهرات فى النوادى ، فيقتبس الاطفال مما يجدونه فيها من مآسى ويسمعونـه من أسمـــــار ٠

فى هذه النوادى على الاغلب ، تقدم الخمور ، ويلعب الميسر ، ويستحـــم الكبار والصغار فى أيام الحر ، وتتبارى الفتيات الكاسيات العاريات بمظهرهـــن وتبرجهن الذى يناقض الحشمة والوقار وابسط تعاليم الاسلام ٠

وقد قرأت فى صحيفة عربية ، عـــن حفلة راقصة أقيمت فى أحد تلـــك النوادى ، لاختيار أحسن راقص مـــن الشباب وأحسن راقصة من الفتيات ، فقصدت احدى العوائل تلك الحفلـــة أسوة بسائر العوائل ، وكان مـــع الوالدين ابنتهما المراهقة التى شاركت فى الرقص واحرزت الجائزة الاولى ٠ وهي عبارة عن زجاجة من الخمر الاجنبى؛ فصفق لها الحاضرون طويلا ــ وكـــان أشد من صفق لها حماسة أبواهـــا ، وكانا سعيدين بفوز ابنتهما المراهقـــة بزجاجة الخمر الاجنبى ٠

(2) التعليـــم

كانت المساجد فى البلاد العربيـــة والاسلامية ، قبل عهد الاحتلال ، مدارس ومعاهد وجامـعـات ، تخرج الطـلاب فيها ، ويتولى التدريس فيها الشيـــوخ الذين كانوا يعتبرون التعلم والتعليـــم عبادة من أجل العبادات ٠

وادرك المحتل الصليبى أن المساجـد لا تقتصر على تخريج العلماء ، بـــل

تخرج المجاهدين وان بقاءها خطر على بقائه ، فجعل الشيوخ موظفين كسائر الموظفين ، واغراهم بالمناصب والرواتب، ثم جمع كل بضعة مدارس فى مدرسة واحدة ، وأخيرا قلص مدارس المساجد، وبدأ بالغائها • ونشر المدارس المدنية لتنافس مدارس المساجد ، وجعل الوظائف مقتصرة على خريجى المدارس الدنية وحدها دون المساجد ، فاقبل التلاميذ على المدارس المدنية وتخلوا عن مدارس المساجد التى أقفرت أو كادت •

وكان مدرسوا المدارس المدنية القدماء على شىء من الدين فى أول تأسيس المدارس المدنية ، لانهم كانوا على الاغلب من خريجى مدارس المساجد ، فأوفد المحتل خريجى المدارس المدنية من الثانوية العامة مباشرة الى الجامعة الامريكية فى بيروت التى هي كنيسة انجيلية والى الجامعات الاجنبية وأنشأ مدارس لتخريج المعلمين محليا تولى التدريس فيها خريجوا الجامعات الاجنبية الذين كانوا بعيدين عن الدين فى أحسن الاحوال وأعداء الدين فى غالبيتهم ، فتخرج فى جامعات بيروت والاجانب ومدارس المعلمين المحلية جماعة بعيدة عن الدين أو عدوة له ، تولت التدريس فى المدارس المدنية ويشككون ويدسون ويخربون ، كل همهم ابعاد التلاميذ والطلاب عن الدين وصبغهم بالصبغة اللادينية ، واشاعة قشور الحضارة الاجنبية فيهم •

وعاد خريجوا الجامعات الاجنبية وقد اقتبسوا مظاهر الحضارة الغربية وقشورها ، ومنها تعاطى أم الخبائث •

والتلميذ يقلد معلمه والطالب يقلد أستاذه ، والمعلم والاستاذ واقع فى مصائب أم الخبائث ، يتعاطاها فى الحفلات والنوادى والسفرات المدرسية، والتلميذ والطالب يرى معلمه واستاذه يشجع على المنكر ولا ينهى عنه ، وكيف ينهى غيره ولا ينهى نفسه ؟ وهكذا بدأت شرور أم الخبائث تستشرى •

وحرم التلاميذ والطلاب فى المدارس والمعاهد والجامعات العربية من التعليم الدينى ومن التراث العربى الاصيل ، فتخرجوا وهم يجهلون أبسط تعاليم الدين الحنيف • ويعرفون عن نابليون أضعاف ما يعرفونه عن سعد بن أبى وقاص •

وانقضى عهد الاحتلال وجاء عهد الاستقلال ، فكان المتوقع أن يعيد المسؤولون عن التربية والتعليم الامور الى مجاريها الطبيعية ، ولكنهم ابقوا مناهج المحتل ، بل زادوا على الطين بلة •فعمقوا آثار الاستعمار ، وتبنوا مناهجه ، فكان فى مصر أيام الاحتلال (دانلوب) واحدا ، فأصبح فى البلاد العربية فى أيام الاستقلال ما لا يعد ولا يحصى من (الدانلوبيين) •

قد كان ثم أبو رغال واحدا
واليوم آباء الرغال كثار !

فلا عجب أن تشيع أم الخبائث بيـــن الطلاب العرب ، أكثر مما تشيع بيـــن غيرهم من أصناف الناس ٠

ان المحتل سيطر على التعليم سيطرة قوية ، تنفيذا لمخططاته فى تخريـــج المتعلمين كما يريد ، بعيدين عن الدين ، جاهلين تعاليمه ، منصرفين الى مبادى حضارتـــه ٠

وبالامكان أن نفهم هدف المحتل مـن مخططاته ، فما بال العرب يصرون على تطبيق مخططات المحتل بعد رحيله !

لقد كثرت (كمية) المثقفين ، ولكـن قلت (نوعيتهم) ، فلا أستغرب ان وجدت الجامعى يخطىء فى أبسط قواعـــد الاملاء ، وهذا اذا استطعت قراءة خطه الذى يشبه خط تلاميذ الابتدائية ، كأن قلمه ذبابة سقطت فى زجاجة حبر فدبت على القرطاس ، ولا تستغرب ان سمعت خريج كلية الآداب يخطىء النحو والصرف أخطاء لا يقع فيها خريج الابـدائية ٠

ان منهاج المدارس والمعاهد والجامعات وضعها فى زمن الاحتـلال مبشـــرون حاقدون على الاسلام دينا والعربيـــة لغة ، وكان أخفى طريق عرفه المبشرون واقرته سياسة الدول الاوروبية المحتلة، هو طريق (التعليم) ، لان حاجة الناس الى العلـم لا تنقطـع خاصة بعـــد أن أصبحت (الشهـادات) التعليمية هي السبيل الاوحد لتسلم الوظائف الحكومية من أجل لقمة العيش ٠ كما ان (التعليم) يضمن تنشئة أجيال قد صبغوا بأيدى معلميهم واساتذتهم بالصبغة الـــتى يريدها الاستعمار ، وهو أخطر عامل فى توجيه الصغار الى الجهة التى يريدهـا المعلم ، فينشأ الطفل ويكبر حتى يصير رجلا ، فلا يحس فى نفسه انه قد طبع طبعا جديدا يراد به استبقاء سيطـرة الغازى عليه وعلى بلاده ، وتدميـــر أمنه بمسخه هو واقرانه الى عبيـــد لبطنه وفرجه وجيبه ، يذلل الطريـــق لاقدام السادة الطغاة من حيث لا يدرى انه عبد مسخـــر ٠

واليك كلمات دالة من كلام أحد رؤوس المبشرين ٠ تغنى عن الاكثار ، هـــو المسيو شاتليه ، قال فى سنة 1911 م « ان ارساليات التبشير الدينية تـأتى بالنفع الكثير فى البلاد الاسلامية مـــن حيث انها تثبت الافكار الاوروبية » ثـم قال « ولا شك فى أن ارساليات التبشير تعجز من أن تزحزح العقيدة الاسلامية من نفوس معتنقيها ٠

ولا يتم لها ذلك الا ببث الافكار التى تتسرب من اللغات الاوروبية التى بنشرها يحتك الاسلام بصحف أوروبا ، وتتمهد السبل لتقدم اسلامى (مادى) وتقضى ارساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية » وقال « انه مهمـــا اختلفت الآراء فى نتائج أعمال المبشرين من حيث خطتهم فى (الهدم) فان نزع الاعتقادات الاسلامية ملازم للجهود التى تبذل فى سبيل التربية النصرانيـــة ، والتقسيم السياسى الذى طرأ عـــلى

الاسلام ، سيمهد السبيل الى المدنية الغربية الاوروبية ، اذ من المحقق ان الاسلام يضمحل من الوجهة السياسية ، ولن يمضى زمن قصير حتى يكون الاسلام فى حكم مدينة محاطة بالاسلاك الاوروبية » .

ان المحتل فرض لغته على التلاميذ والطلاب فرضا ، وهذا من حقه ، ولكن بعد الاستقلال حرص المعلمون ، والاساتذة على ابقاء هذه اللغات فى المدارس والجامعات لتدريس العلوم بحجة ان اللغة العربية لغة أدب لا تصلح للعلم !!

أحقا ان اللغة العربية لا تستطيع النهوض بتدريس العلوم ؟ ! .

كل هذه الجهود المريبة هي لنزع الاسلام من النفوس نزعا ، ليبقى هذا القرآن مهجورًا ، كيَ تنطلق الغرائز بحرية الى ما نهى عنه الله ورسوله ، ولكي يصبح المتعلمون ماديين لا يفكرون بالمثل العليا ! .

(3) الدولة

تقف قسم من الدول العربية موقف المتفرج من معاقرة أم الخبائث ، فلا تعاقب قوانينها الوضعية على معاقرتها، وتسمح ببيعها علنا ، وتقدم فى النوادى والفنادق والمطاعم والطائرات وتتقاضى على بيعها الضرائب .

وتقف قسم منها موقف المعارض بدرجات متفاوتة أعلاها التحريم المطلق، وأوسطها التحريم المشروط ، وأدناها التحريم الدعائى .

أما التحريم المطلق ، فتطبيق للشريعة الغراء التى تحرم أم الخبائث ، وتضع على مقترفها عقوبات فى الدنيا والآخرة .

أما التحريم المشروط ، فهي محرمة على المسلمين وحدهم لا على غيرهم من المسيحيين واليهود والسياح على مختلف أديانهم ، فهي تباع علنا ، وتقدم فى الاماكن السياحية وغيرها أيضا .

أما التحريم الدعائى ، فتقرأ فى الصحف والمجلات وتسمع فى الاذاعات انها محرمة ثم تجد الاقبال عليها شديدا .

والمهم انك تجد أم الخبائث متفشية فى الدول التى تعارضها ، وهذا دليل قاطع على ان تحريمها لا يطبق بشكل حاسم يستأصلها من المجتمع العربى الاسلامى ، ولو كان التحريم يطبق بجدية كاملة لما تيسرت فى البلاد التى حرمتها ولما تزايد عدد المقبلين عليها فى تلك البلاد .

وقد يتظاهر العربى المسلم بالتعفف فى بلده ، ولكنه يخلع عنه لباس التعفف اذا توارى عن الانظار فى بلده أو فى البلاد الاخرى حين يسافر اليها سائحا أو فى عمل خاص أو فى واجب رسمى .

وقد رأيت رجلا بصحبة زوجته فى طائرة متجهة الى بلده ، فكان يعب الخمر هو وزوجته وهي كاسية عارية ،

فلما اقترب من بلده ارتدى ملابســـه العربية وارتدت ملابسها المحتشمة ٠

كما ان الدول العربية كلها ، متجهة اتجاها ماديا صرفا ، فالدول الراسمالية والدول الاشتراكية على حد ســـواء ، تتحدث عن تنمية اقتصادية ومشاريـــع صناعية ، وجامعات علمية ، كل اهداف زعمائها تحقيق مكتسبات مادية للفرد والجماعة والمجتمع ، لا اختلاف بيـــن راسمالى واشتراكى ، ولا تكاد تسمـــع شيئا عن الدين وتعاليمه فى المناهـــج الحكومية المعلنة ٠

وقد تجد فى ميزانية دولة من الدول العربية ، مخصصات حفل الالعـــاب الرياضية والساحات والملاعب والنوادى الرياضية ومرتبات الخبراء الاجانـــب المشرفين على الفرق الرياضية ما يبلـــغ أضعاف مخصصات المساجد والجوامع والائمة والخطباء بمئات المرات ، وهـــذا وحده يدل على اتجاه الدولة فى مجـــال التطبيق العملى لا فى مجال الاقـــوال الدعائية والتصريحات ٠

كما ان التعليم الدينى بشكله المؤثر غائب عن المدارس والمعاهد والجامعات، أما التعليم المادى فهو السائد سيـــادة مطلقة على المؤسسات التعليمية ، وهذا ايضا دليل قاطع على اتجاه اكثـــر الحكومات العربيـــة الى (الماديـــة) وحدهـــا ٠

وقد سمعت (دكتورا) يتولى منصب وزارة الثقافة والاعـــلام فى بلد عربى اسلامى يقرأ قول الله : (**ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم**) فيفتح الحاء ويكسر النون فى (حنين) ، ويقرأ (اذ) اذا ، وهكذا يكون الدكتور الوزير المسئول عن التوجيه الثقافى الاعلامى فى بلده والا فـــلا !

وأجهزة الاعلام العربية تعمل عملها التخريبى فى عقول ونفوس العرب بدون هوادة ، كأنها موكلة باشاعة الفحشاء فى الذين آمنوا ، لتقضى على البقيـــة الباقية من الايمان ٠

ان الاذاعة المسموعة والاذاعة المرئية قد دخلتا كل بيت عربى تقريبا ، والفتيان والفتيات يسمعونها ويرونها ، وأكثـــر ما يعرض فى الاذاعـــة المرئـــية مـــن الرفوف (1) والتمثيليات تحوى عـــلى تعاطى الممثلين والممثلات المسكـــرات والتدخين ، فينقل أم الخبائث بالعـــدوى الى المشاهدين فى عقر دورهم ٠

وقد اكتشف ان الخيالة (2) المصرية أسسها الصهاينة وممثليـــها الـــرواد من الماسونيين فما تنتظر من رفـــوف يمثلها الماسونيون وينتجها الصهاينة !

وما دامت الحياة عبارة عن صراع على (المادة) فهي (الغاية) التى تسخر للحصول عليها كل (الوسائل) ، لا فرق بين حلال وحرام ٠

---

(1) الرفوف : (ج) رف ٠ وهو الفيلم ٠
(2) الخيالة : السينمـــا ٠

ومظاهر (المادة) سيارات فاخرة ، وثياب غالية ، وقصر فخم ، ومنصب رفيع ، وطعام دسم ، وترفيه عن النفس، واليوم خمر وغدا قبر ، ولا شيء بعد المـــوت ٠

انها الحياة (المادية) التى تأمــر بالانانية والاستئثار ، وتنهى عن الجماعية والايثار ، وتحث على كنز المال لاشباع الرغبات الفردية ، وتحطم المثل العليا، وتخرب الذمم ٠

وهذا تحقيق لاهداف الاعداء ، أن يصبح العربى يهتم بنفسه فقــط ، ولا يهتم بمصير عقيدته وارضه وعرضه ٠

وهذا العربى المادى ، لا يقاتــل ولا ينتصر ، وكيف يقاتل ليموت ، وهــو يحرص على الحياة ليستمتع ويتمتع ، وكيف يقوى على التضحية والفـداء ، وهما من عطاء أهل القلوب ، لا مــــن صفات أهل الجيوب ٠

ان الدولة التى تزعم ان بناء الانسان ماديا سيدوم ، عليها أن تقرأ تاريـخ الامم الاخرى ، فستجد ان الحضـارات الماديـــة زالــت بـزوال أصحابهـا ، والحضارات الباقية هي التى ارتفعـت على الدين والدنيا لا عـلى الدنيـــا وحدهـــا ٠

وما نراه من انهيار النظم الماديـــة فى البلاد العربية بعد رحيل أصحابها مباشرة خير دليل على ان المادة بـــلا روح الى الفناء ، والمـــادة بالروح الى بقـــاء ٠

فما أحرى الدول العربية أن تعتبـــر بمن مضى ومن فنى ، والا فهي بحاجة ماسة الى مزيد من النكسات والنكبات ٠

أضرار الداء

1 ـ المسـكـرات

أضرار المسكـرات كثـيـرة جدا ٠ اهمال الاسرة ادارة ورعاية وتربية ، وانحراف الاولاد لانسياقهم غالبا الى تقليد آبائهم ، وتقليل قابلية الحصـــول على المعرفة والعلم ، وافساد قـــوى الانتباه والتركيز فى العقل ، وتحطيـم الاخلاق والمعاملة والمثل العليا ، والتخلى عن المسئولية الدينية ، والدفـاع عن الارض والعرض ، وارتكاب المعـــاصى والآثام والجرائم ، وتحطيم الجهـــاز العصبى والصحة العامة ، وازدياد نسبة الامراض والوفيات ٠

وقد اعتبرت المؤسسات الصحيـــة العالمية داء المسكرات أحد أربع كوارث تهدد المدنية الحديثـة بالـدمار وهي : السرطان ـ السل ـ الامراض التناسلية ـ المسكرات ٠

2 ـ المخـــدرات

ثبت طبيا ان المـخـدرات تؤدى الى تلف الجهاز العصبى وفقدان الذاكرة وضعف الشرايين الذى يؤدى الى الجلطة القلبية والسكتة القلبية ، وانهيـــار الاعصاب الذى يؤدى الى الجنون ـ أو الشرود الذهنى والنسيان ٠

وتظهر على المدمن ملامح اللـــــون الازرق حول عينيه بالاضافة الى لمعان العينين كما يصبح المدمن هزيلا لا يقوى على تحمل أعباء الحياة ٠

كما ان المدمن يفقد ارادتـــــه بالتدريج ، فيصبح مسلوب الارادة كثير التردد لا يقوى تحمل أية مسئولية فى نطاق عائلته وفى نطاق عمله موظفا أو تاجرا أو عاملا أو فلاحا أو طالبـا أو مدرسا ٠ فيقل انتاجه الفكرى والعملى حتى ليتضاءل ليكون عالة على المجتمع ٠

كما ان المدمن من الرجال يفقد قواه الجنسية شيئا فشيئا ، فيخرب بيتـــه ويدمر حياته الجنسية ، وتنتهى مادته العائلية ، ثم تنتهى حياته بالموت ٠

3 ـ التدخيـــن

يؤثر التدخين تأثيرا ضارا فى الاجهزة الحيوية لجسم الانسان ، وأول هـــذه الاجهزة هو جهاز التنفس والرئتـــان والاوعية الهوائية ، وهذا الجهاز يعتبر أول جهاز يستقبل المواد السامة الناتجة من التدخين ، ولهذا نجد ان احتـمال الاصابة بمرض سرطان الرئة يزيد عند المدخنين بنسبة عشرة أضعاف عنه عند غير المدخنين ٠

كما يؤثر التدخين تأثيرا ضارا فى الاوعية الدموية ، فمن المعروف ان مواد كثيرة مضرة تنتج عن التدخين أهمها : سم التبغ (النيكوتين) وأول أوكسيـد الكاربون ، يمتصهمـا الجسم وينقلان الى الدم ، فيحدثان ضيقا فى الاوعيـة الدموية نتيجة لاستثارة الغدة الموجودة فى جانب الكلية ـ بسبب افراز هرمون يضيق الاوعية الدموية ويحدث أضرارا فى جدار تلك الاوعية بصورة مباشرة ، مما يؤدى الى ترسب بعض الامـلاح والمواد الدهنية على جـدار الشرايـيـــن الدموية ، فيؤدى هذا الترسب ضيقـــا وربما اغلاقا لهذه الشرايين ، ويقـلل قدرتها على تزويد الاجهزة الحيوية فى الجسم بحاجتها من الاوكسجين والمواد الغذائية التى تنقل مع الدم ٠

والمحصلة لكل هذا ٠ هو ظهور أعراض انخفاض الدورة الدموية للقلب والارجل، مثل احساس المدخن بألم فى الصـــدر وبخاصة عند الارهاق ، مما يضطـــره الى الوقوف أو الجلوس للراحـــة حتى يزول الالم فيستأنف عمله ، كذلـــك الاعراض التى تظهر فى الرئتين بشكل سعال متواصل نتيجة التهاب الاوعيـة الهوائية وافرازها مـوادا .مخاطيـــة كثيـرة ٠

واذا لم تعالج هذه الحالات بازالـة المسببات ، فقد تضيق الاوعية الدموية أو تسد ، مما يسبب تلفا فىّ عضو مـن أعضاء البدن أو جزء معين فيه ، مثـل تلف أحد أصابع الرجل واسودادهـــا فيقتضى بترها ، أو حدوث الجلطـــة الدموية التى تؤثر فى عضلات القلب ، وربما حدوث شلل نتيجة لحرمان تزويد

جزء معين من الدماغ بحاجته من الـدم ٠

والتدخين لا يصيب الدماغ والقلب والرئتين والشرايين والرجلين بالضرر حسب ٠ بل يصيب الانسان بكثير من الامراض الاخرى ـ وكل انسان أصيب بقرحة فى معدته ، يعلم ان مرضه سيعود ثانية اليه اذا لم يقلع نهائيا عن التدخيـن ٠

وتحريم التدخين فى أثناء العمل وفى الاماكن العامة ناتج عن الاضرار الذى يسببها التدخين ليس على المدخن وحده، بل على من يكون معه أيضا ، فقد اثبتت التحليلات العلمية ان من يكون مع المدخن فى غرفة ما ، يتناول حوالى ثلاثين بالمئة من المادة الناتجة عن التدخين والمنتشرة فى هواء تلك الغرفة ، وهذه تسبب أضرارا بالغة وبخاصة فى الاطفال اذا دخن أحد الابوين أو كلاهما فى اثناء وجودهم ٠ كما اثبتت الاحصائيات ان أطفال المدخن أقل ذكاء ومناعة من غيرهم ٠

ان الدخينة الواحدة تحتوى على عشرة ملغرامات من سم التبغ ، وخلال التدخين يمتص الجسم واحدا او اثنين ملغرامات من سم التبغ ، فاذا علمت ان خمسين ملغراما من سم التبغ كافيـة لقتل انسان قوي ، فانك تقدر مبلـغ ضرر التدخين المدمر فى الصحة العامة للانســان ٠

ان سم التبغ وأول أوكسيد الكاربون هما من أهم المواد الضارة التى تحتوى عليها الدخائن الا ان القطران هو بلا ريب أخطر من كل ما تفرزه الدخائن من المواد الاخرى الضارة ، كما اثبتت الدراسات العلمية الحديثة التى أجريت فى السنوات الاخيرة ، ومن ثم كان تصنيف الدخائن الى فئات حسب محتويات القطران فيها ، وكانت القوانين والانظمة التى تحظر أو لا تشجع صنع الدخائن التى يزيد محتواها من القطران على معدل احدى عشر الى ستة عشر ملغراما من القطران ٠

وقد أسهبت فى ذكر مضار التدخين ، مستندا على الدراسات الطبية العالمية الحديثة لاثبت ان التدخين لا يقل ضررا على المسكرات والمخدرات ٠

وأضع هذه الحقائق أمام علماء الدين الاعلام لكي اتساءل : لماذا تحرم المسكرات والمخدرات ولا يحرم التدخين ؟!

أساليب الدواء

1 ـ الاساليب المادية

ان الاساليب المادية للدواء فى مجال القضاء على ادمان أم الخبائث هي الادوية المعتمدة فى الكتلتين الشرقية والغربية ومعظم الدول النامية ، ومن ضمنها أكثر البلاد العربية والاسلامية ٠

فالادمان مرض نفسى فى نظر الماديين، لا يستطيع المدمن الاقلاع عن الادمان بالنصح ولفت النظر الى العواقب

الوخيمة للادمان ، فالماديون لا يوصون باجتناب أم الخبائث نهائيا • لان قليله يشرح الصدر ويؤنس الانسان ـ كما يقولون ـ بل يكافحون الادمان ويعالجون المدمن • اذا تقدم المدمن طالبا معالجته، اذ ليس فى المصحات متسعا لجميع المدمنين وقد يبقى المدمن الذى يطلب معالجته فى احدى المصحات ردحا طويلا من الزمن على قائمة الانتظار ، ليتسنى له سرير فى المصح ، ويكون قادرا على دفع تكاليف العلاج الغالية جدا •

اذا لم يكن ضمن اشخاص المسجلين فى مؤسسات الضمان الاجتماعى •

أما الذى يرفض العلاج ، فغالبا ما ينتظر مصيره فى الموت البطىء ، حتى يقضى نحبه غير مأسوف عليه •

وكل انسان فى الانظمة المادية حر فى تصرفه الشخصى ما لم يخرج على القانون • والقانون الوضعى لا ينهى عن كثير من الفحشاء والمنكر ـ فيحل أم الخبائث ـ فالمجتمع المادى يعانى من فسوق القانون •

كما ان كل مدمن على المسكرات او المخدرات أو التدخين أو بهم جميعا ، بدأ فى أول أمره بكأس واحدة و مخدر ضئيل و دخينة واحدة ، ثم انزلق الى كؤوس كثيرة ومخدرات عديدة ودخائن غزيرة ، وبمرور الزمن أصبح مدمنا •

والتساهل بالقليل يفضى الى الكثير ثم يمسى ادمانا ، وهذا ما ينطبق على كل مدمن فى كل مجتمع من المجتمعات المادية وغير المادية أيضا •

فا هي الادوية التى يعالج بها الماديون الافراد المدمنين ؟

أول هذه الادوية هي ممارسة احدى الهوايات ، حتى تشغله تلك الهواية عن الادمان •

والهواية هي انصراف المرء بدافع ذاتى الى ما تصبو اليه نفسه ويرتاح له من أعمال فكرية أو يدوية أو خدمة اجتماعية أو نشاط انسانى •

وهذه الهوايات كلها بواد والمدمن بواد آخر ، لان الادمان أصبح هواية المدمن، ولو كانت لديه هواية أخرى اقوى تاثيرا فيه من الادمان ، لا نصرف اليها بكل طاقاته ولما انصرف الى الادمان •

وكل انسان يعلم انه اذا ترك عمله لاحالته على التقاعد اذا كان موظفا ، ولكبر سنه اذا كان عاملا او فلاحا أو ذا حرفة من الحرف ، لابدّ أن تكون لديه هواية يقضى بها أوقات فراغه ، فيشعر بالسعادة والاطمئنان وهو يزاول هوايته ، والا قضى وقته عبثا فى النوادى والمقاهى والمنتديات ، ولكن من الصعب على من لم يزاول هواية من الهوايات فى مقتبل العمر أن يزاولها أو يختارها وهو فى آخر العمر ، والمدمن قد زاول هواية تعاطى أم الخبائث ، فلا يستطيع استبدال هواية جديدة أخرى بأم الخبائث •

وقد حاول كثير من المدمنين العمل بنصيحة الاطباء فى اتخاذ هواية من الهوايات · فاختاروا هواية زاولوها مدة من الزمن ، فكانوا كالذى لا يشتهى طعاما فيجبر نفسه اجبارا على تناوله ، لذلك اخفقت محاولات تسع وتسعين بالمئة على اتخاذ هواية جديدة ، فهربوا منها الى ما يحبون ، أما الواحد بالمئة فبقى يزاولها مكرها لانها لم تبق هواية يقبل عليها فرحا مستبشرا ، بل اضحت دواء يتناوله المريض مضطرا ·

وثانى هذه الادوية هو استعمال وسائل المعالجة فى المصحات ، وقد اخفقت تلك الوسائل فى تسعين بالمئة من المدمنين ، وقد غادر قسم من هؤلاء المدمنين وهم اكثر ادمانا لانهم تعلموا وسائل عديدة من المدمنين الآخرين ·

وقد مكث قسم من المدمنين مدة طويلة فى المصحات دون أن تتقدم حالتهم الصحية خطوة الى أمام ·

ومن المعلوم ان المسئولين فى المصحات عن النظام يحرصون على ابتعاد المدمنين عن جميع أنواع أم الخبائث ، ولكن ثبت ان تلك الانواع رائجة فى السوق السوداء داخل المصحات ، وبامكان المدمنين تعاطى ما يشتهون بعيدا عن أعين الرقباء ·

وقد غادر أحد المدمنين المصح ومعه تقرير الطبيب المعالج الذى ينص على شفائه من الادمان · فاقام حفلة فى داره ابتهاجا بشفائه لاصدقائه ، فشرب معهم حتى الثمالة ·

وثالث هذه الادوية ، هو الالتفات الى الاسباب الداعية للادمان لمعالجتها، وأسباب الادمان فى هذا العصر معروفة جدا ، أولها : رفاق السوء ، الذين يبدأون حياتهم فى الادمان منذ الصغر فى المدارس الابتدائية ، ويتصاعد الادمان بمرور الزمن ، وتعاطى أم الخبائث أصبح وباء بين الصغار ، والمعالجة الناجحة هي الاسوة الحسنة فى الابوين والمعلم والمدرس والاستاذ ، فاذا كان هؤلاء أو أكثرهم مدمنين ، فكيف يمكن أن يكونوا أسوة حسنة للاطفال والاولاد والشباب ·

ورفاق السوء لا يقتصر نشاطهم فى مؤسسات التعليم ، بل يشمل دور الخيالة وأماكن الالعاب والمنتزهات والعمل ·

فاذا لجأ الطفل أو اليافع أو الشاب الى داره ، كانت الاذاعة المرئية رفيقه الذى يعرض عليه بما يعرض من رفوف تعاطى الخمر والمخدرات والتدخين ، فمن النادر أن يعرض رف ليس فيه آفة من تلك الآفات ·

ومن الاسباب تصاريف الدهر ونكبات الايام وضعف الرقابة العائلية والتشرد وهذه الاحداث تعالج بالاقبال على أم الخبائث ، فينسى المرء واقعه المرير ·

وفى كتب الادب ان أبا نواس تاب على يدى شيخ صالح عن شرب الخمر ، الا اذا فرح أو اجتاحه الحزن ، فكان يعاقر

الخمرة كل يوم بحجة انه فرح أو حزين، والمرء لا يخلو من حادث يفرحه أو يحزنه كل يوم ٠

وطالما سمع كل من يراجع طبيبا لمعالجته من مرض ألم به ، فيسمع موعظة كل طبيب ، لا تحزن ، والحزن لا يستورده أحد ولا هو قدر كل انسان فكيف يستطيع المريض أن يستجيب لموعظة الطبيب ؟ ٠

والخلاصة ان الدين غائب عن المجتمع وهو العلاج الوحيد الناجع للابتعاد عن أم الخبائث ، وبه يخلو المجتمع من الادمان والمدمنين ٠

2 الاساليب الدينية

لست أدعى ان الاساليب الدينية النابعة من تعاليم الاسلام تقضى على الادمان وتفشي المدمنين مدفوعا بعاطفتى الدينية – ولكن الاطباء الذين اطلعوا على الشريعة الاسلامية من المسلمين وغير المسلمين ، أكدوا ان الاسلام وحدة من بين سائر الاديان يقضى على الادمان قضاء مبرما ، ويعالج أسبابه معالجة ناجعة تجعل من المدمن انسانا سويا ، ينصرف تلقائيا عن أم الخبائث بالسمو الروحى والنفسى ، ويقلع عنها طوعيا ليتجه اتجاها جديدا الى ما يشغله عن الادمان ٠ ويعيش حياته نادما على ما جنت نفسه من آثام ٠

وقد استطاع مسلم من الباكستان يعيش فى الولايات المتحدة الامريكية ٠ أن يؤثر فى عدد كبير من المدمنين ، عجزت المصحات من شفائهم نهائيا ٠ فاتصل بهم اتصالا مباشرا ، فنجح فى دعوتهم الى الاسلام ، فانصرفوا الى الله وطبقوا تعاليمه ، فسمت روحهم وصفت نفوسهم واصبحوا خلقا جديدا ٠

ان اليهودية فى تعاليمها الباقية تتجه الى (المادية) ولا تحرم الخمر ، والنصرانية فى طقوسها المعتمدة تتجه الى (الروحية) ولا تحرم الخمر ، والاسلام وحده فى تعاليمه الخالدة يتجه الى (المادية) و (الروحية) فتجعل المسلم يبتغى فيما أتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا ، وهو وحده يحرم الخمر تحريما قاطعا، لذلك كان هو الدين الذى يصلح لكل زمان ومكان ، فلا (مادية) تعزل المسلم عن واجبه الدينى ، ولا رهبانية تصرفه عن متطلبات الحياة ٠

كما ان تساهل الاديان الاخرى بالقليل من أم الخبائث ، يؤدى فى النتيجة النهائية الى الادمان – فكل مخالفة صغيرة تصبح كبيرة بالتدريج ، وكل تساهل فى القليل يفضى الى الكثير ٠ وما دام الاتجاه (المادى) والفلسفة (المادية) ، تحث على اقتناص ما فى الدنيا من متعة ومتاع – واعتبار الدنيا هي البداية والنهاية دون التفكير فى الآخرة وحسابها والجنة والنار ، ومصير الانسان والآخرة ، بل التصريح علنا برفض المغيبات واطلاق تعبير (الغيبيات) على مجرد التفكير بالآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والحساب بأسلوب تهكمى،

ونعت المؤمنين بالغيب بنعوت سمجة ، فان الاتجاه (المادى) والفلسفة (المادية) لا تقود الا الى الادمان بكل عواقبه ونتائجه التى تهدد الحضارة والمصير والمصير الانسانى ، ولا تؤدى ألا الى تزايد المدمنين لتشمل الابناء والبنات والفتيان والفتيات والرجال والنساء ٠

لقد حرمت الشريعة الاسلامية الخمر تحريما قاطعا ، لانها تراها مضيعة للنفس والعقل والصحة والمال ، فحرمتها منذ أربعة عشر قرنا ٠

والاصل فى التحريم القران والسنة، وقد جاء تحريم الخمر فى القرآن تدريجيا ، لان العرب فى الجاهلية كانوا يتعاطون الخمر بكثرة ٠

وأول نصوص التحريم فى القرآن الكريم قوله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**) (1) ٠ ثم جاء القرآن بعد ذلك بتأثيم شاربها فى قوله تعالى : (**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما**) (2) ثم نزل التحريم القاطع فى قوله تعالى (**يا أيها الذين آمنوا ، انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه**) (3) ٠

أما السنة فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن) ٠

وروى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما ان النبى صلى لااله عليه وسلم قال : (كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام) ٠

وروى الامام أحمد عن جابر رضي الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ما أسكر كثيره فقليله حرام) ٠

وروى أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة اليه) ورواه ابن ماجة وازاد : (وآكل ثمنها) ٠

واخرج البيهقى عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان أناسا من أمتى يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها) ٠

واخرج الدارمى عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يشرب عليها الخمر) ٠ وروى أبو داود عن أبى هريرة رضي الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم

(1) الآية الكريمة من سورة النساء (4/43) ٠
(2) الآية الكريمة من سورة البقرة (2/219) ٠
(3) الآية الكريمة من سورة المائدة (5/90) ٠

قال : (ان الله حرم الخمرة وثمنها ، وحرم الميتة وثمنها ، وحرم الخنزير وثمنه) .

وقال عليه الصلاة والسلام (من شرب الخمر فاجلدوه) .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (لما نزل تحريم الخمر ، مشى الصحابة بعضهم الى بعض وقالوا أحرمت الخمر وجعلت عدلا للشرك) رواه الطبراني .

وروى ان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (ذهب الى ان الخمر من أكبر الكبائر) رواه الطبراني .

ومن المتفق عليه ، انه لا يشترط لتوفر ركن الشرب أن يؤدى الشرب الى السكر فيكفى لقيام الجريمة مجرد الشرب ، ولو كان من المستحيل أن تؤدى الكمية التى شربت للسكر ، لان الشرب محرم لذاته (1) .

وحد الشرب ثمانون جلدة عند مالك وابى حنيفة وهو رواية عن أحمد ، ويرى الشافعى وقوله رواية أخرى عن أحمد ان الحد أربعون جلدة فقط، ولكن لا بأس عنده من ضرب المحدود ثمانين جلدة اذا رأى الامام ذلك ، فيكون الحد أربعين جلدة ، وما زاد عليه تعزير .

وسبب اختلاف الفقهاء ، ان النبى صلى الله عليه وسلم جلد اربعين، وجلد أبو بكر الصديق أربعين ، وجلد عمر بن الخطاب ثمانين . قال على بن أبى طالب رضي الله عنه ، (جلد النبى صلى الله عليه وسلم اربعين وجلد أبو بكر أربعين، وجلد عمر ثمانين ، وكل سنة ، وهذا أحب الي) ويرى أصحاب هذا الرأي ان فعل النبى صلى الله عليه وسلم حجة لا يجوز تركه بفعل غيره ، وان الاجماع لا ينعقد على ما يخالف فعل النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق رضي الله عنه وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه ، ويحملون الزيادة من عمر بن الخطاب رضي الله عنه على انها تعزير يجوز اذا رآه الامام (2) .

والاصل فى الحدود انها لا تقبل عفوا ولا صلحا ولا اسقاطا اذا كانت من حقوق الله الخالصة ، ولما كان الشرب من حقوق الله الخالصة ، فليس للافراد والجماعة اسقاطه أو العفو عنه ، على اننا اذا اعتبرنا رأي الامام الشافعى رضي الله عنه فى أن الحد أربعون جلدة فقط ، وان ما زاد على ذلك تعزير ، فانه يجوز لولي الامر أن يعفو عن العقوبة المعتبرة تعزيرا كلها أو بعضها ، أما الجزء المعتبر حدا فلا يمكن اسقاطه ولا العفو

(1) بدائع الصنائع (112/5) وشرح الزرقانى (113/8) واسنى المطالب (158/4) والمغنى (328/10) .

(2) المغنى (32910) وشرح فتح القدير (185/4) واسنى للطالب 160/4 وشرح الزرقانى (113/8) .

عنه) (2) · ومن المتفق عليه أن العقوبة لا تنفذ على السكران حتى يفيق ، لان العقوبة جعلت للتأديب والزجــــر ، والسكران لا يشعر بما يحدث له) (3) ·

تلك حدود الله ، فيقتضى أن نلقـــن هذا الحد وحكمته لاولادنا فى ســـن مبكرة ، فقد وجدت كثيرا من الرجــال والنساء لا يعرفون حكمة تحريـــم أم الخبائث ولا حكم الشريعة فيها ·

وقد ذكرت ان عوامل انتشار الداء من أم الخبائـث فى البـلاد العربيـــة والاسلامية هي : الابوان ، والتعليم ، والدولـــة ·

فاذا كان الابوان متدينين · وجها أطفالهما الى الدين مبكرا ، وأمراهـم بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، وكـانـا الاسوة الحسنة لهم ·

أما اذا كان الابوان بعيدين عـن الدين ، يعاقران أم الخبائث أو يعاقرها أحدهما · فان الاطفال يقلدون الوالدين تقليداً أعمى فى أغلب الاحيان ·

كما ان الحياة المادية الطاحنة الـتى فرضت نفسها على البلاد العربيـــة والاسلامية · جعلت مورد الزوج وحده لا يكفى لاعالة الاسرة ، فشاركته الزوجة فى العمل طلبا لمورد مـالى اضـــافى وانصرفت الى عملها خـارج الـــدار وحرمت أطفالها من رعايتها ، فنشـــأ الاطفال على تربية لا ترقى الى تربية الام الحنون على أي حال ·

ولا أدرى هل تساوى خسارة الاسرة فى ضياع الاطفال وانحرافهم ما تربحه من دراهم معدودات فى عملها ؟ !

وانى لاعلم علم اليقين ان تربيـــة الزوجة لاطفالها تربية صالحة هي أهم واجب من واجباتها الاساسية الـــتى خلقها الله لادائــها فى الحيـــاة – ولا يمكن أن تكون مكاسب الزوجة المادية بدرجة من الاهمية بحيث تلفت المـرأة عن واجب تربية أطفالها تربية صالحة، واذا ربحت المرأة ما فى الدنيا من متاع وخسرت تربية أطفالها ، فانها تكـــون الخاسرة خسرانا مبينا ·

ان عجبى لا ينقضى من رجل يسمـح لزوجه أن تهمل تربية أطفالها من أجل المال ، فتعمل فى أعمال لم تخلق لها ، تلتهمها العيون الفاسقة ، وتتخلى عـن عملها الذى خلقت له ، وهو انجـــاب الاولاد وتربيتهم ·

ورضي الله عن شهدائنـــا الذيـــن استشهدوا دفاعا عن أعراضهم ، فقد تخلصوا من رؤية أشباه الرجال الذيـن يغضون النظر عن تصرفات أعراضهـم ويبيعونها بالمال ·

ان تقليد الاجانب فى حرية المرأة فى كل شيء ، سيؤدى الى نفس النتائـج

(2) التشريع الجنائى الاسلامى (507) ·
(3) شرح القدير (158/4) وشرح الزرقانى (113/8) واسنى الطالـــب 120/4 والمغنى (335/10) ·

التى يعانيها الاجانب · تفسخ الاسرة ، واختلاط الانساب ، وكثرة الخيانة الزوجية ، وتزايد الطلاق ، وتشرد الاطفال وانحراف الابناء والبنات ؛ وتفشى الرذيلة ، وتعاطى أم الخبائث، وانصراف الشباب عن الزواج ، وخراب البيوت ·

وقد أعطى الاسلام للمرأة حقوقها المشروعة ، وعين لها واجباتها المطلوبة ، ومن أهم تلك الواجبات تربية الاطفال تربية صالحة ، فعلينا أن نعطى المرأة حقوقها ، وعليها أن تؤدى واجباتها ·

والعامل الثانى من عوامل انتشار أم الخبائث فى البلاد العربية هو عامل : التعليم · ان ايفاد خريجى المدارس الاعدادية (الثانوية العامة) وهم فى دور المراهقة ، لم يتعلموا الدين والعربية الفصحى كما ينبغى ، الى الجامعات الاجنبية فى الخارج والداخل ، يؤدى الى اهتزاز شخصية الطالب العربى المسلم ، فتبهره علوم الغرب وحضارته، وتلوثه قشور مدنيته ، فيعود الى بلده ملوثا مفتوحا بكل ما هو أجنبى فى أسلوب الحياة والتراث واللغة ، فينقل أمراضه بالعدوى الى طلابه ، ومن أمراضه تعاطى أم الخبائث ·

ايفاد خريجى الاعدادية يؤدى الى ضياع أبنائنا فى وسط الحضارة المادية للغرب ، فلابد من ايفادهم بعد تخرجهم فى الجامعات العربية لاكمال دراساتهم العليا فى الغرب ، مع اختيار الطلاب الموفدين من هيئة حريصة على الدين واللغة ـ ليتعلموا العلوم التى لا يتيسر تعلمها فى الجامعات العربية كالعلوم التطبيقية المتخصصة مثلا ، فمن المهازل أن توفد الطلاب الى الجامعات الاجنبية للتخصص بالدين واللغة والتاريخ الاسلامى لان الاساتذة الاجانب فى الجامعات الاجنبية الذين يدرسون الدين واللغة والتاريخ الاسلامى أكثرهم يهود أو مبشرين أو جواسيس فيعلمون الطلاب العرب المسلمين الشك فى الدين واللغة والتاريخ الاسلامى فهذا الشك والدس والافتراء هو الذى يتقنونه ، وهم اذا عرضوا معلوماتهم فى تلك المجالات على علماء عرب مسلمين لا يستطيعون أن ينالوا درجة النجاح فى المرحلة الابتدائية من التعليم ، فكيف يستطيعون منح طلابنا أعلى الدرجات العلمية فى علوم لا يتقنونها ويكنون لها أعظم العداء · ويريدون لها أعظم البلاء !

كما يجب اختيار المعلمين والمدرسين من العناصر الخيرة التى تحرص على الدين الحنيف واللغة العربية الفصحى والتراث العربى الاسلامى والتاريخ الاسلامى ·

ان التلميذ والطالب يجد الاسوة الحسنة بعد والديه بالمعلم والمدرس والاستاذ ، فمن الحرام أن نفسح المجال للعناصر الفاسدة من التدريسيين لافساد أفلاذ أكبادنا من التلاميذ والطلاب ·

والمقاعد التى تتبعها الدول العربيـة فى اختيار المعلمين والمدرسين والاساتذة يقتصر على الشهادة العلمية وحدها ، بينما يجب أن ندخـل عنصر التديـن والاعتداد بالفصحى والتراث والتاريخ والاخلاق الحميدة والمعاملة الحسنـة فى الاختيـار ٠

وحينذاك سنجد ان العناصر الخيره من التدريسيين تخرج عناصر خيرة من التلاميذ والطلاب فى المدارس والمعاهـد والجامعات ٠

اما ان نزج كل من هب ودب فى مجال التعليم ، ففيه أعظم الاخطار وأوخـم العواقب ، كما نلمسه فى واقعنا المرير ٠

وسيقول قائل : واين يعمل أهـل الشهادات الآخرون الذين لم يختاروا للعمل فى حقل التدريس ٠ والجواب : انهم يمكن أن يعملـوا فى المناصـب الادارية الاخرى ـ وما أكثرها ـ حيث يكون تأثيرهم أهون شرا مما يكـون على التلاميذ والطلاب ٠

والعامل الثالث من عوامل انتشار أم الخبائث فى البلاد العربية هو عامل : الدولة ٠ والواقع ان عامل التعليـم وعامل الدولة : هما عاملان متصـلان اتصالا عضويا ، فهما عامل واحد وليسا عاملين لان الدولة هي المسؤولـة عـن التعليم بما فيه التعليم الدينى أيضا ٠

ان المحتـل الغاصب قـلص التعليم الدينى فى المساجد والمدارس والمعاهـد والجامعات ، وكان من المتوقع أن يعود هذا التعليم فى عهد الاستقلال الى ما كان عليه قبل عهد الاحتلال ٠ ولكن الدول العربية فى عهد الاستقلال حرصت على مناهج الاحتلال فى التعليم وذهب قسم منها الى مدى أبعد ، حيث الغوا التعليم الدينى نهائيا ، فبزوا المحتل الغاصب فى هذا المجال مع الاسف الشديد ٠

يجب أن تعود المساجد الى ازدهارها فى نشر التعـليـم الدينى واللغـوى والتاريخى ٠ لتخرج العلماء العامليـن من جهة والمجاهدين الصادقين من جهة أخـرى ٠

ويجب أن يعود التعليم الدينى الى المدارس والمعاهد والجامعات المدنية ، فمن أعظم الكوارث أن يتخرج تلاميذنا وطلابنا فى هذه المؤسسات التعليمية وهم فى جهل مطبـق بكـل تعاليـم الدين الحنيـف ٠

ويجب أن تطهر مناهـج التعليم التى وضعها الاستعمار لغرض تخريب الذمم وافساد الفرد والمجتمع ، وابعاد الدين عن الحيـاة ٠

كما ان الدولة مطالبة بالغاء القوانين التى لا تحرم أم الخبائث بل تشجـع عليها ، وقد فرض المستعمر هذه القوانين على البلاد العربية والاسلامية فرضا ، ليبيح الخمور والفسق والفجور ، حتى يدمر النشىء تدميرا ٠

ان الشريعة الاسلامية وحدها تحارب أم الخبائث حربا لا هوادة فيها ، فلابد من عودتها لتداوى المجتمع والفرد مما تركه المحتل من آثار تخريبية ، وتقـدم

للعرب والمسلمين لامراضهم أنجع الدواء .

ان المخجل أن تقدم الدولة فى حفلاتها الخمور ، وتسمح ببيعها علنا فى متاجرها الخاصة والعامة ، وتوافق على استيرادها أو انتاجها محليا ، ومن المخجل أن تكون أكبر صادرات احدى الدول العربية الخمور بأنواعها ، وان تشجع قسم من الدول العربية تقديم الخمور وبيعها بحجة تشجيع السياحة، وان تقيم احدى الدول العربية ناديا للعراة بحجة تشجيع السياحة أيضا .؟

أيبلغ الامر بقسم من الدول العربية ان تبيع الدين والعرض بالمال !!

أما أجهزة الاعلام العربية فتشجع بأسلوب مباشر أو غير مباشر على تعاطى أم الخبائث ويكفى أن تعرض أجهزة الاعلام المرئية تمثيليات يعاقر الممثلون والممثلات الخمر والمخدرات فيها ويدخنون .

وبمقدور الدول العربية أن تطهر أجهزة الاعلام وتوجهها للتى هي أقوم ، فتؤدى بهذا العمل واجبها ، وتجعل منها عنصرا للتعمير ، لانها بوضعها الراهن عنصر للتدمير .

وارجو ان لا تبلغ السذاجة بعربى مسلم حدا يصدق فيه ان الصحف والمجلات حرة فيما تكتب ، وان أجهزة الاعلام المسموعة والمرئية تلبى رغبات المستمعين ، فاكثر المستمعين ينصتون الى محطات اذاعة القرآن الكريم أكثر مما ينصتون الى محطات الاذاعة الاخرى ، هذا اذا كان هناك من ينصت الى الاذاعات العربية .

ولكن لو فرضنا جدلا ان قسما من المستمعين أو المشاهدين يرغبون سماع أو رؤية التمثيليات الفاجرة الداعرة ، أفتلبى الدولة هذه الرغبة المنحرفة ، وهي التى تدعى انها تقاوم الانحراف والمنحرفين ! .

وهناك صحف ومجلات تنشر اعلانات مدفوعة الاجر لانواع الخمر والدخائن، فيجب قطع دابر أمثال هذه المجلات .

وهناك دول عربية تقدم فى حفلاتها الرسمية وغير الرسمية الخمور والدخائن ، وتقدمها فى طائراتها الحكومية مع الطعام والهدايا ، وما سافرت على احدى تلك الطائرات الا وشعرت اننى غريب بين المسافرين لانهم يشربون الخمر ويدخنون ، وغريب على المضيفات لانهن يستغربن من وجود مسافر يعف عن الخمر ويكف عن التدخين .

وكم أتمنى على الله أن يتول الحكم فى الدول العربية حكام صالحون ، يخافون الله يتمسكون بتعاليمه ويلتزمون بالكتاب والسنة ، يرتادون المساجد ويغشون مجالس العلم والعلماء . لان الشعوب العربية متدينة بالطبع ، تميل الى الدين والتدين ـ والحكام الصالحون يؤثرون فى شعوبهم فى توجيههم الى التمسك بأهداب الدين الحنيف ، والناس

على دين ملوكهم ، كما يقول المثـــل العربى القديم ، ويزع الله بالسلـطان ما لا يزع بالقـــرآن ·

« الخـاتمــة »

تملك الدول العربية أقوى ســـلاح فعال لاستئصال أم الخبائث من الجذور نهائيا وهو تطبيق الشريعة الاسلاميـــة تطبيقا حاسما على الامير والاجيــر ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقيـر ، والصغير والكبير ·

ان التهاون فى تطبيق الشريعـــة الاسلامية يؤدى الى تكاثر الذين يتعاطون أم الخبائث وتضاعف عدد المدمنين ، وفى ذلك ما فيه من أخطار فادحة على حاضر المسلمين ومستقبلهم ·

وواجب علماء المسلمين مكتمل لواجب الدولة فى القضـــاء على تعـــاطى أم الخبائث ، فلابد من تعاون العلمـــاء والحكام على درء أفاتها الجسيمة تعاونا صادقا وثيقـــا ·

واجب رجال الدول أن ينفذوا فتاوى علماء المسلمين نصا وروحا ، فهـذا أعظم خدمة لابناء وطنهم وشعوبهـــم وأكبر وسيلة لرفع شأنهم أفـــرادا وشعوبـــا ·

وواجب علماء المسلمين أن يبينـوا للناس أحكام الشريعة بيانا واضحـــا لا لبس فيه ولا غموض وان يطالبـوا الدولة بكل وسيلة وبشـتى الطـرق أن تطبق الشريعة الاسلامية التى جـــاءت لخير البشر ومنفعتهم ، ومصلحة الناس وصالحهـــم ·

ومن المعلوم ان هناك اختلافـا بيـن الفقهاء وفيما يخص المسكرات ، ومـن المصلحة أن نضع حدا لهذه الاختلافات، لان تر كالثغرات التى يستطيع التسلل منها المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ليس فى مصلحة المسلمين فى مث هذه الظروف والايام ·

ولست بصدد ذكر هذه الاختلافـــات التى قد يكون من أسبابها حرمان قسم من الفقهاء فى وصول قسم من أحاديث النبى صل ىالله عليه وسلم الخاصـــة بالمسكرات اليهم فى أيامهم ·

فأجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد اعتمادا على الكتاب وعلى السنة التى اطلعوا عليها · أما اليوم وبعد تدوين الحديـث تدوينا متميزا ، فقد وضح كل شيء ، فلا عذر لعلماء المسلمين فى الا يجتمعوا على رأي واحد ، والحلال بين والحـرام بيـــن ·

واجتماع رأي علماء المسلمين الاعلام فى أمر المخدرات ضـروري فى هـــذه الظروف والايام ، نظرا لتفشى تعاطى المخدرات فى البلاد العربية والاسلامية، ويتضح بما جاء فى هذا البحث ان أخطار المخدرات لا تقل عن أخطار المسكرات ان لم تكن أشد خطرا منها وأعظم بلاء ·

وأعرض على علماء المسلمين النص الذى ورد فى كتب الفقه ليروا فيه رأيهم، « ويشترط أن تكـــون المادة المسكـر ، مشروبا ، فان لم تكن كذلك فلا حـــد فيها ، وانما فيها التعـزير كالحشيش والـــداتورة · (1)

(1) اسنى الطالب (159/) وحاشية ابن عابدين (329/3) ونهاية المحتاج (10/8) وانظر التشريع الجنائى الاسلامى مقارنا بالقانون الوضعى (502/2) عبد القادر عودة ــ الطبعة الاولى ــ القاهرة ــ 1379 هـ ·

وقد ابتكر تجار الخمور أنواعــــا كثيرة على شكل أقراص وحقن لا عــلى شكل مشروب ، تعمل عمل الخمـــر والمخدر ، لم يكن يعرفــها الفقهـــاء الاقدمون ، فهل من المعقول أن يكون حد هذه الخمور والمخدرات تعزيرا ؟ ! ٠

ومــا رأى علــمــاء المسلــمين فى التدخين ، بعد أن ظهرت اضراره الفادحة على الصحة العامة والاقتصاد ؟ ٠

ان مجمع البحــوث الاســلاميــة فى القاهرة ومجمع الفقه الاسلامى فى مكة المكرمة ، والهيئات الاسلامية فى كــل مكان مطالبون باصدار فتاوى جماعية فى حــدود أم الخبــائث : مسكــرات ومخدرات وتدخينا ، ونشر تلك الفتاوى على أوســع نطــاق وفى شتى أجهــزة الاعلام ، وتبليغها للحكومات العربيــة والاسلامية ، ومطالبتها فى اخراجها من حيز الفتاوى الى حيز التنفيذ ٠

ولست أشك فى أهمية هذه الفتاوى وتأثيرها فى المسلمين ، ولكنها لا تكفى ما لم تبادر الحكومات الى تنفيذها بحزم واستقامة ، وان تبادر الى تطهير أجهزة اعلامها واختيار الهيئات التدريسية فى مؤسساتها التعليمية ليكونوا أســـوة حسنة لتلاميذهم وطلابهم ، وان تقطــع دابر تهريب أم الخبائث الى بلادها ودار بيعها فى أسواقها ، وتمنع استيرادها فى الخـــارج وانتاجها فى الداخل ٠

وان تفتح أبواب أجهزة اعلامها لعلماء الديــن ليقولــوا كلــمــة الدين فى أم الخبائث ٠ وللاطباء والعلماء والادباء كلمة العلم والادب فى أخطارها ، وان يطهروا مناهج التعليم من كل ما يناقض الدين الحنيف ٠ وان يعيدوا تنظيـــم المناهج التعليمية على أسس مستمــدة من ديننا وتراثنا العظيم الذى ينفـــع الناس ، وان يضعوا تدريس الديـــن والتاريخ الاسلامى والتراث فى تلــك المناهج ، وان يعيدوا للمسجد مكانتــه فى العلم والتعلـيــم والعبــادة ، وان يهتموا بتربية الاطفال بجعل الاسبقيــة للتربية بالنسبة للامهات قبل أي واجب آخر ، وان يكونوا قبل كل شىء قــدوة حسنة للحكوميين ٠

ان على علماء المسلمين والحكـــام أن يتحركوا بسرعة وتعاون وثيق للتغلب على شرور أم الخبائث قبــل فــوات الاوان ٠

لقد رفع العلماء والحــكام شعار : استعادة فلسطين من العدو الصهيونى الى أصحابها الشرعيين ٠

ولن يستطيعوا استعادتها بالمدمنيــن الملوثين ، فالمدمن لا يقاتل أبدا ، والملوث لا ينتصر أبدا ٠

والذى يقاتل هو المجاهد فى سبيــل الله ، والذى ينتصر هو الطاهر مـــن الادران ٠

فلينظر العلمـــاء والحــكــام كيف يفعلون ٠

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآلـــه وأصحابه الطيبين ٠

الاجتهاد وقضايا الحياة المعاصرة

د. وهبة الزحيلي
أستاذ الفقه الاسلامى بجامعة دمشق

يعشق الناس فى عاداتهم وملابسهم وافعالهم كل جديد وقد شغف الانسان بالجديد من القديم ، لان النفس البشرية تمل بطبعها القديم وتألف وتهتوى الجديد ، الا ان التجديد لا يكون فى الواقع وبالمنطق مرغوبا فى كل شىء ، لان سلطان الاعراف والبيئات لا يجد له تأثيرا فى أصول الاشياء ومركوز الفطرة ، وانما يؤثر عادة فى بعض نظم المعيشة مما يلمس الانسان له فائدة ، فليس اذا كل جديد نافعا ، كما أن ليس كل قديم ضارا .

وهذا هو شأن تشريع الاسلام فى أصوله ومبادئه ، فقد نص صراحة على أصول الاعتقاد وأسس الاحكام ، وقرر أحكاما أساسية لا مجال للاجتهاد والتجديد فيها ، ووضع مبادىء العلاقات والمعاملات الاجتماعية ، وترك أمر التفصيل والتطبيق فيها لعقول المجتهدين ، تكريما من الله لهذه الامة حتى لا يهمل عقول أبنائها ، ومنعا من تعطيل فاعليتها ، ولئلا يحكم على الشريعة بالجمود ، ولتظل بقواعدها المرنة متجاوبة مع ظروف الحياة وتطوراتها النافعة الصحيحة ، وبخاصة فى عصرنا حيث أوجدت المدنية فى القرن العشرين أوضاعا وانظمة سريعة ومعقدة ومتشابكة اقتضتها ظروف الحياة المعاصرة واختراعاتها التى ملأت البر والبحر والجو .

والعقل البشرى وحده هو الميزان فى اصطفاء واختيار النافع المفيد وترك البالى العتيق فى ضوء الهدايا الالهية ولا يكابر عقل سوى فى أن المعتقدات والعبادات لها صفة القداسة والدوام والبقاء ، فجاء الاسلام موضحا الاصول، ومحددا نطاقا من الاحكام الشرعية لا مجال للاجتهاد فيها ، وهي الاحكام الاسلامية المتعلقة بأصول الاعتقاد والدين ، وأركان الاسلام الخمسة من فرضية الصلوات الخمسة ،والصيام والزكاة والحج والشهادتين ، والاحكام التى تمس مقاصد الشريعة الخمسة وأصولها الكلية وهي الحفاظ على الدين والنفس والعقل والنسب (أو العرض) والمال ، مما اقتضى تحريم الردة وجهاد الاعداء ، وتحريم جرائم

الزنا والسرقة وشرب الخمر وسائر المسكرات والقتل وعقوباتها المقدرة شرعا لها ، ومثلها أيضا كل العقوبات والكفارات المقدرة فى الاسلام ، فانه لا مجال للاجتهاد فيها ٠

كما لا اجتهاد فيما دل عليه النص صراحة أو قطعا « لا مساغ للاجتهاد فى مورد النص » مثل توزيع عبء الاثبات بجعل البينة على المدعى ، واليمين على المدعى عليه ، فى قول النبى عليه الصلاة والسلام : « البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر » فلا يسوغ لاحد أن يعكس هذا التوزيع ، فيقبل البينة من المدعى عليه ، ويرفضها من المدعى ، أو يجعل الخيار للحاكم فى تكليف أحد الخصمين بالبينة أو اليمين ٠

وفيما عدا ذلك تظل دائرة الاجتهاد خصبة واسعة فى النصوص الظنية التى تحتمل أكثر من معنى ، وفى الحوادث التى لا نص ولا اجماع فيها ، لان الاجماع القطعى فى حكم النص بل دلالته أقوى أحيانا ٠

والاجتهاد فرض فى الاسلام ، مارسه النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحابة والتابعون من بعده ، والتزمه المجتهدون طريقا نيرا للحياة ودفعا للحرج أمام المسلمين وتحقيق اليسر والسماحة ، ورعاية الحاجات والضروريات والمصالح الطارئة لهم ، اخلاصا منهم لشريعة الله ، وتجاوبا مع تطلعات الناس ، واثباتا لصلاحية الشريعة الدائمة ٠

وهذا وضع طبيعى تجاه كل قانون أو تشريع تكون نصوصه عادة محدودة متناهية ، وحوادث الناس وأقضيتهم غير محدودة ولا متناهية ، والمحدود لا يحيط عادة بغير المحدود ، الا من طريق الاجتهاد ، ومن المعلوم أن الفقهاء مطالبون شرعا بتعريف الناس أحكام الله ، اذ ما من نازلة أو حادثة الا وللاسلام حكم فيها ايجابا أو تحريما كما قرر الامام الشافعى ٠ وأن لم يجتهد الفقهاء كانوا جميعا آثمين معطلين بلا تردد ، فالاجتهاد حياة التشريع ، ولا بقاء لشرع ما لم يظل الفقه والاجتهاد فيه حيا مرنا مفتوح الباب ذا فعالية وحركة ، فالاجتهاد فى الوقائع الجديدة التى تتطلب موقفا شرعيا محددا فيها هو من أعظم القرب التى نتقرب بها الى الله سبحانه وتعالى ، لانه نقطة الارتكاز التى يقوم عليها الحكم بصلاح شريعة الاسلام لكل زمان ومكان : « **ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** » ٠

لكن الاجتهاد وهو بذل الجهد فى استنباط الاحكام الشرعية من أدلتها ، ليس كلمة سهلة يحلو ترداده لبعض الناس ، فهو اختصاص لفئة من الناس قادرة عليه ، وكما لا يقبل قول غير مختص فى أفق غير اختصاصه ، فلا يقبل قول ادعياء الاجتهاد ومدعى التجديد ومظهرى الغيرة فيما ليسوا أهلا له ، ذلك ان الاجتهاد فن أيضا يتطلب القدرة

على فهم النصوص العربية فى القرآن والسنة ، والناسخ منها والمنسوخ ، والتعريف على مسائل الاجماع ووجوه القياس الصحيح وشرائطه المعتبرة ، ولا يصير المرء مجتهدا الا بعد أن يفهم أساليب العرب فى كلامهم وعاداتهم فى استعمال المفردات والتراكيب ، ويعلم بعلم أصول الفقه لانه عماد الاجتهاد ، ويدرج مقاصد الشريعة والمصالح التى تستهدف الشريعة حمايتها ، والمفاسد والمضار التى تتجه الشريعة الى محاربتها والقضاء عليها • ومعيار المصلحة والمفسدة هو الشىء الالهى ، وليس مجرد ما يراه العقل المحض مصلحة ، فقد يرى الانسان ما هو ضار نافعا وبالعكس ، وقد يتأثر بمصالحه وأهوائه وشهواته : « **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن**» •

وبما ان المعاملات قائمة على رعاية المصالح البشرية فهي المجال الطبيعى للاجتهاد ، ونحن اليوم أشد الناس حاجة لبيان حكم الله فى المعاملات التى جرت فى سوق العقود وأعمال المصارف مثل خصم السند وتحصيل الاوراق التجارية وفتح الاعتمادات ، وأعمال الجمعيات التعاونية مثل اقراض المزارعين للمصالح الزراعية ، وأمور الاقتصاد وسياسة المال ، والشركات بانواعها المختلفة ، وبخاصة شركات التامين ، وسياسة الحكم وأصوله ونظم وقواعد حكم الامة، والعلاقات الدولية العامة فى ظل الانظمة الجديدة للمجتمع الدولى كهيئة الامم المتحدة وفروعها ، وغير ذلك من شئون الحياة • فما موقفنا من كل ذلك ؟ والفقهاء يقررون عادة « لا ينكر تغير الاحكام بتغير الازمان » •

هذه دعوة للتجديد والاجتهاد يقولها ويرددها من الناحية النظرية كل المشتغلين والمعنيين بالفقه الاسلامى ، ولكن ذلك مع الاسف ما يزال الامر فى حيز التأكيد والترغيب دون أن أجد لاحدهم الا ما ندر نصيبا فى هذا المجال •

ويجدر معرفة سبب الاحجام والاقلال ويتلخص ذلك فى أمرين :

أولهما : عدم توفر الاستعداد الكافى لتطبيق الشريعة من قبل السلطة الحاكمة وان كنا نسمع هنا وهناك خطبا وأقوالا تنادى بتطبيق الشريعة ، وأظن أن أكثر هذه النداءات للالهاء والاستهلاك المحلى، بدليل الاعراض الفعلى عن تنفيذ ما تقترحه لجان استمداد القوانين من الشريعة •

ثانيهما : عدم توفر الوعى والادراك العقلى والتجريبى لدى النشء بعامة ، والخصوم الجاهلين بالشريعة بنحو خاص ، وذلك بأن الشريعة وثروة الفقهاء وآراء السلف ما يحقق الغاية ، ويزلزل أركان الضعفاء المتطفلين على القوانين الاجنبية • كما انه ينبغى على المجتمع المسلم وبخاصة فئة التجار وأصحاب الاهواء أن يعتقد ضرورة العمل بالشريعة ، وألا يعمل فى الخفاء

للوقوف أمام القوانين والانظمة الشرعية التى قد تهدد مصالحهم غير الشرعية وتحجر أهواءهم فاننا أمام محاولات استقاء القوانين من الشريعة حوربنا من كثير من المسلمين التجار ، والمثقفين الذين نهلوا علومهم من ثقافة الغرب ومعارفه ٠

واذا تمكنا أولا من القضاء على مساعى هؤلاء الخصوم للشريعة ، وسددنا المنافذ أمام دعاوى وتيارات الاستغراب والاستشراق ، وبددنا المخاوف التى قد يثيرها غير المسلمين، عندئذ نتمكن من احلال شريعة الله المحل اللائق الواجب لها ٠

وعندها أيضا يمكن ترجمة الدعوة الى الاجتهاد الى واقع فعلى ، اذ من العبث فتح صيدلية أدوية نافعة مثلا ، دون أن نجد أحدا يشترى منها ، أو يساوم على الاقل فيها ٠

ومع أنى أرى ضرورة الاجتهاد فى قضايا الحياة المعاصرة فما هي المبادىء أو الاطر العامة لحل مشكلات الحياة الحديثة انى – مع غاية التواضع – أعلن لاول مرة مثل هذه المنطلقات الاجتهادية : لا يرفض الاسلام أو المسلمون كل ما جاءت به القوانين والحضارات الحديثة ، وانما نقر ونعترف بأغلب ما فيها من نظم مفيدة نافعة ، ونرفض بعض جوانبها السلبية أو عثراتها وأخطائها ونظمها غير المفيدة أو الضارة بمصلحة الانسان ، وان كانت محققة لمصلحة دولة أقوى ٠ هذا مع العلم بأننا لا نود ابقاء تلك القوانين والانظمة على انها مجرد متفقة مع الاسلام ، فهي غير اسلامية الصبغة والنهج والهدف ، ونود فى ديارنا الاخذ بما هو اسلامى صرف مبدءا وأسلوبا وغاية وتصورا وتطبيقا ٠

وبامكاننا أن نجد فى صيدليات الفقه الاسلامى بمعناه الاوسع – فقه الصحابة والتابعين وفقه المذاهب المشهورة والنادرة – نجد ما يغطى حاجة التشريع فى الوقت الحاضر ، بما تمخضت عنه أقوال فقهائنا من ثروة فقهية خصبة لا مثيل لها فى العالم ٠ فتعدد الاقوال الفقهية واختلاف النظريات والمبادىء وطرق استمداد الاحكام وتقريرها ، كل ذلك يجعلنا فى غنى عن استيراد واستجداء القوانين الاجنبية ، فاختلاف المذاهب رحمة ومفخرة ، يمكن الانتقاء منها حسب الظروف والتطورات وان الاخذ بقول ضعيف فى نطاق الفقه الاسلامى أولى وأجدر من أخذ تنظيم أجنبى ٠ فالاجتهادات الاسلامية وافية تماما بالحاجات التشريعية الحديثة ، بل قد تفوقها وتسمو عنها فى رعاية الحق والعدل والمصالح الانسانية ٠ واذا لم نجد أصلا فى فقهنا ما يغطى الحاجة التشريعية الملائمة للتطور والمدنية ، فان من الممكن أن نجتهد ونجدد ونحقق الغاية ، فليست شروط الاجتهاد وأهلية الاجتهاد متعذرة ، وأنما الاجتهاد ممكن

وميسر كل الامكان ، فقد هيأ اللـــــه للمتأخرين وعلماء العصر من يســـــر المواصلات وطباعة الكتب وتداولهـــــا والبحوث الفقهية المقارنة المتعددة بما لم يتهيأ للسابقين · وتستطيع اللجـــــان المتخصصة المتفرغة وضع تشريعـــــات متكاملة فى كل فروع القانون فى أشهر معدودات ، بالاهتداء بقواعـــد الشرع الكلية ومقاصد التشريع والاعـــراف الصحيحة التى لا تصادم النصـــوص القطعية أو الخاصة المعينة بقضية محددة، لان قاعدة « تتغير الاحكام بتغير الازمان» لا تعنى تغير الاحكام الشرعية الاصلية، والا كنا معطلين للشريعة مباشرة ، وانما الذى يتبدل بتبدل الزمان والتطور وأخلاق الناس هو الاحكام الاجتهادية من قياسية ومصلحية اي التى قررها الاجتهاد بناء على القياس أو على دواعى المصلحـــة ، بسبب فساد الاخلاق وضعـــف الوازع الدينى (فساد الزمان) أو بسبب حدوث أوضاع تنظيمية وترتيبات ادارية تحقق الهدف الحقيقى للحكم الشرعى حتى لا يكـــون هناك عبث ، ولا عـبـث فى الشريعة ، وهذا هو المسمى التطور مثل قبول شهادة الامثل فالامثل من النـــاس بدل وصف العدالة الكاملة المطلوبـــة شرعا ، ومثل التسعير ونحو ذلك · ومثل التسجيل برقم المحضر بدل ذكر حدوده الاربعة ونحو ذلك مما يدخل تحت مبدأ المصالح المرسلة وليس مجرد العـــرف وحـــده ·

ويمكننى الآن بيـــان أهـــم مـــبادىء الاجتهاد فى مختلف فروع القانون ·

أولا ـ فى نطاق القانون العام :

وذلك يشمل القانون الدولى العام ، والدستورى ، والادارى ، والجنائى ، والاقتصاد والمالية العامة ·

١ ـ العلاقات الدولية الخارجية : سبقت الشريعة االسلامية الى تقريـــر أسمى المبادىء والقيم التى تقوم عليها علاقات الدول الخارجية ، وهي احترام الكرامة الانسانية وتساوى جميع الشعوب فى الحقوق الانسانية ، والتزام العدالة المطلقة · واعتبار الفضيلة والتقـــوى أساس ـ العلاقات الدولية ، وتقديس المعاهدات والمواثيق ، والاعتراف بمبدأ المقابلة أو المعاملة بالمثل فيما لا يخالـــف المبادىء الاسلامية ، ويمكن التعامل مع غير المسلمين على أساس التعـــاون والتضامن فى تبادل المنافع والعلـــوم والمعارف ، واعتبار السلم هو الاصـــل والاساس فى معاملة الدولة الاسلاميـــة لغيرها · ومن الجدير بالذكر أن النظرية الغالبة عند فقهائنا هي اعتبار الحـــرب أصلا فى العلاقات الدولية ، تمشيا مـــع واقع الفقهاء الذى كان الفقهاء يعاشونه فى عصرهم ، فلم تهدأ الحروب الناشبة بين المسلمين وأعدائهم ، والتى كـــان الاعداء هم السبب الأوضح الدافع لها · ونرى أن الاصح هو اعتبار السلـــم أساس العلاقات الخارجية ، لان تشريع القتال فى الاسلام كان لدفع العدوان

أو للدفاع عن النفس أو الدين أو حماية المستضعفين والمعاهدين ، فلم يكن الجهاد وقتل الانفس مقصودا لذاته ، وانما هو وسيلة لتحقيق مقصود أسمى ، وغاية الجهاد هي تحقيق السلام العام ونشر دعوة الاسلام فى العالم · وقواعد السلم والحرب غاية فى الانسانية والعدالة والمثالية · ففى السلم تحترم الحقوق المكتسبة للدول ورعاياها ، وفى الحرب لا يجوز تجاوز الحد الذى يدفع به شر العدو ، فلا حرب بدون انذار ، ولا تمثيل ولا تعذيب للاسرى ، ولا اتلاف الا لضرورة حربية ، ولا قتل لحيوان الا للاكل أو لضرورة حربية ، والقتال لمن قاتلنا لا لمن سالم كالنساء والاطفال ورجال الدين والشيوخ والعجزة · والرحمة فى الحرب وبعدها هو طابع الحروب الاسلامية « فاعرف التاريخ فلا تجد أرحم ولا أعدل من العرب » ·

واذا كان المسلمون اليوم يلتزمون بميثاق الامم المتحدة الذى يرعى السلم والامن الدوليين ، فذلك متفق جوهريا مع دعوة الاسلام لكن لا يجوز شرعا عند توفر القوة الحربية اقرارا لغاصب لما اغتصبه من ديار الاسلام كما هو الحال فى فلسطين وكشمير وغيرهما مما يستولى عليه المستعمرون ، دفعا للعدوان وقمعا للجشع والطمع فينا ، وحماية لمقدساتنا ·

2 ــ النظام الدستورى : يلتزم الدستور الاسلامى بحماية العقيدة ورعاية الاقليات غير الاسلامية ، وبالحريات والحقوق الاساسية للانسان كحق الحياة والتعلم والعمل والتأمين الاجتماعى ، وحق الحرية التى لا تصادم النظام العام والآداب العامة ، ولا تصادر حريات وحقوق الآخرين ، وحق المساواة التامة أمام الشريعة فى الحقوق والواجبات والمسئوليات ، فلا امتياز لحاكم أو شريف أو غني أو طائفة على الآخرين : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لابيض على أسود الا بالتقوى » وكلمة عمر المشهورة المستمدة من صميم روح الاسلام : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » · هذا وقد مهد الاسلام لتحرير الناس دون أن يتمكن من الغاء الرق ، على نحو كان أفعل وأقوى فى ايقاظ الضمير الانسانى ، بدلا من منعه ووقوعه فى فشل المنع ، فسكوت الاسلام كرها على اباحة الرق معاملة بالمثل ودفعا للصعوبات والحرج الذى كان يصطدم به لا يعنى الرضا به أو الاقرار الضمنى لمساوئه ، وانما لتهيىء الظرف المناسب للتخلص من مرضه ، بدليل قول فقهائنا : الشرع يتشوق ويتعطش لتحرير الرقاب وعتق الانفس التى لم يبق مصدر لها الا الحرب المشروعة · فالغاء الرق من العالم يتفق تماما مع تطلعات الشرع والفكر والفقه الاسلامى ·

ويعتمد نظام الحكم فى الاسلام على أساس مبدأ الشورى الذى نص عليه

القرآن وطبقه الرسول عليه السلام ، فلا استبداد ولا جهل ، لان الشورى أساسها ومحورها هم العلماء والمتخصصون ولا يهم تحديد أداة الشورى وطريقتها وأسلوبها وكيفيتها وانما يرجع ذلك لتقدير المسلمين وما يتفق مع الزمان والعصر الذى يعيشون فيه ، ولعل أروع ما يرشد لذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحدد قبيل وفاته للمسلمين طريقة اختيار الخليفة ليتركهم فى سعة وتقدير من أمرهم وعقولهم واخلاصهم للمبدأ ·

3 ـ **النظام الادارى :**

للحاكم سلطات تقديرية واسعة فى تنظيم وترتيب أمور الدولة وحماية البلاد وتوفير النظام والامن وقمع الفساد والاجرام ، ورعاية الاخلاق وتوفير المصلحة الاسلامية العليا ، وذلك فى حدود تنفيذ أوامر الشريعة ، وتحقيق المصالح العامة ، « تصرف الامام على الرعية منوط بالمصلحة» و « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، انما الطاعة فى المعروف » والحاكم مسئول أمام الله والناس عن كل انحراف ، ولا يجوز للحاكم أن يأخذ شيئا من أحد الا بحق ثابت معروف · والامام راع ومسئول عن رعيته · بل هو مسئول عن الشاة والحيوان ان ضل أو تعثر ·

واجتماع هذه الصلاحيات الواسعة لا غرابة فيه اذا تصورنا تمثل الحاكم لكل معانى الاسلام وأحكامه ، وكان الحاكم من طراز الخلفاء الراشدين ونحوهم ، فان ساء الحال فلا مانع شرعا من الاخذ بمبدا التخصص فى العمل ، أو بمبدأ فصل السلطات ، وجعل اصدار التنظيمات بيد سلطة أهل الحل والعقد أو المنتخبين فى المجالس النيابية وفق النظام الاسلامى ، لان المقصود هو رعاية المصلحة العامة ، والاستجابة لمقتضياتها، والعبرة بالمعنى الجوهرى أو المضمون، لا الشكل والمظهر ·

ومبدأ الاسلام هو ضرورة تضامن الرعية مع الحكام والاهتمام بالقضايا العامة ، والشعور بالمسئولية ، والايجابية لا السلبية فى مناقشة الاوضاع وتحليلها واستمداد الحلول المناسبة لكل ظرف · واطاعة الحاكم والانقياد لاوامره فيما يرضى الله ورسوله ·

4 ـ **العقوبة والجريمة أو القانون الجنائى :**

كل معصية مخالفة للشرع هي جريمة ، وقد تستوجب الجريمة عقابا أخرويا أو عقابا دنويا مناسبا عادلا لتحقيق الامن وزجر الجانى · ويمكن ادخال كل ما نصت عليه القوانين الحالية تحت مبدأ التعزير فى الاسلام ، فلقد تركت الشريعة أغلب الجرائم لتقدير الحاكم ليحدد ما يراه مناسبا لظروف الجناية والجانى ولكل زمان ومكان · وأما الحدود أو العقوبات المقدرة فى الشريعة وهي خمس فقط فلا سبيل الى الاجتهاد فى الغائها أو تجاوزها لورود

النص فى شأنها ، ولانها تمس ناحية أساسية من نظام المجتمع الاسلامى وهي حفظ الضروريات الخمس : وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال · ولكن ما ينبغى علمه أن استيفاء شروط تطبيق هذه الحدودأمكن الانتقال الى التعزيرات، ولا يصح الادعاء بعدم امكان تطبيق الشريعة بسبب هذه الحدود ، كما لا يجوز ترك الشريعة بسبب عقوبات الحدود ·

5 ـ الاقتصاد العام والمال :

يقوم النظام الاقتصادى فى الاسلام على أساس الحرية الاقتصادية ورعاية مبدأ التوازن بين الفرد والجماعة (وسطية الاسلام) وتفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، والحرص على توطيد دعائم المودة والمحبة والتعاون والتكافل الاجتماعى ، واقامة صرح الحق والعدل ، ورعاية الحقوق ، ووجوب الوفاء بالعهود والالتزامات ، ومحاربة كل أسباب النزاع والخصام والعداوة ، ومقاومة كل أشكال التمييز والاستغلال والظلم ، فلا غش ولا ربا ولا احتكار ·

وللدولة خزينة (بيت المال العام) مستقلة عن ملك الحاكم ، وعن أملاك الرعية الخاصة ·

وتحريم الربا أو الفائدة أمر مقطوع به فى الاسلام ، فلا يصح التعامل بالفائدة ، ولابد من اقامة نظام مصرفى يقوم على أساس غير ربوى ، من طريق شركة المضاربة الجائزة شرعا ، اذ يكون أصحاب المال هم المودعون وادارة المصرف كالعامل المضارب · ولقد قام النظام الاشتراكى الحديث من أجل محاربة الرأسمالية والربا وإستغلال الطبقة الاقطاعية البرجوازية كذلك عقود التأمين ذات القسط الثابت لا تتفق مع الشريعة لقيامها على الغرر والاحتمال، ويمكن الاعتماد على بديل لها وهو التأمين التعاونى القائم على أساس التبرع والقرض الحسن والتعاون فى ترميم الاضرار وتخفيف آثار الاخطار ·

ويمكن القول بجواز الاعمال المصرفية التى لا يشوبها الربا على أساس الوكالة أو الحوالة أو الاجارة أو القرض ·

وبهذا يتضح أن أهم المعاملات المعاصرة هي أعمال البورصة والمصارف والشركات ، فهي المجال الحيوى للنظام الاقتصادى العالمى ، وبها تتأثر جميع المعاملات الفردية والجماعية ·

أما أعمال البورصة بورصة العقود التى تصادم قواعد الفقه من ناحيتى عدم وجود المبيع وقت العقد ، وعدم تحديد الثمن ، فقد نجد لها حلا فى بعض الآراء الفقهية ، فابن يتيمة يرى جواز بيع غير الموجود ، ويرى الحنفية والمالكية جواز بيع العين الغائبة أو غير المرئية على الصفة ولا حاجة للخيار ، طالما كان المبيع مطابقا للوصف · ولا يشترط الامام أحمد تحديد الثمن وقت البيع ، ويجيز التبايع على سعر المثل ·

وأما أعمال المصارف فما كان منها ربوى فلا يجوز وهذا محصور فى عمليتين هما قبول الودائع وأداء أرباح (فوائد ثابتة) للمودعين ، والاقراض بفائـدة وأخذ أرباح من المقترضين ·

وأما ما لا ربا فيه فجائز وذلك يتمثل فى العمليات التجارية المصرفية الاخرى وهي خمس : تحويل عملات الى أخرى مقابل عمولة تحصل عليها ، وتحويـل نقود من قطر الى قطر مقابل عمولـة ، وحفظ ودائع مقابل أجر تحصل عليه من أصحابها ، واعتماد « الشيكات » السفرية مقابل عمولة ، وبيع أسهـم الشركات مقابل عمولة · فهذه العمولة فى العمليات الخمسة انما هي أجر على عمل ، يقدره المصرف حسب قواعـد مـضبوطة وأنظمة عامة تكاد تكـون متماثلة فى العالم · وقد سهلت هـذه العمليات أمور الناس ، وقربت البعيد، وحققت الحاجات العامة ·

وأما الشركات الحديثة المساهمـة منها وغير المساهمة فكلها جائـزة فى الاسلام اما على أساس شركة المضاربة (رأس المال من جانب والعمل من جانب آخر) أو على أساس شركة العنـان (الاشتراك فى رأس المال والعمل معا) وقـد حـرم الشـرع الاحتكار لاضرار المحتكرين بمصالح الجماعة ، وحبس أقوات الناس ، وتأديته الى ارتفـاع الاسعار زيادة عن سعر المثل ، ممـا يجيز للسلطة مصادرة الاموال المحتكرة وبيعها بسعر المثل لحساب أصحابهـا ، منعا من الحاق الظلم بالناس ·

وأجازت الشريعة وفقهاؤها التسعير للسلع والامتعة اذا كان ارتفاع السعر بسبب جشع التجـار وتدخلهـم فى مصادمة قانون العرض والطلب ، وذلك رعاية لمصلحة الناس ودفع الضـرر والحرج عنهم ·

وأوجب الاسلام سد حاجيات الدولة وتأمين مرافقها من طريق الرسوم العادلة على الاغنياء ، كما أوجب كفاية الفقراء واغناءهم بالزكاة وغير الزكاة حـتى يتحقق المقصود ، وتشيع آثار الرحمة والتكافل والرعاية ·

وأجاز الفقه الاسلامى كل الانظمـة المعروفة بالتأمينات الاجتماعية للمسلم وغير المسلم ، وأقر الاجتهاد الحديـث قوانين العمل وحقـوق العمال والتزام أرباب العمل بالتعويض عن الاضـرار الناتجة من اصابات العمال بالآلـة وغيرها ، وذلك على أساس نظريـة « الاجر العادل » أجر المثل ، وعمـلا بقاعدة « الغرم بالغنم » ، لان الاسـلام يكره الجور ويمنع الظلم ويمقت الاكتناز والاحتكار والاستغلال ويبنى المجتمع الانسانى على الاخوة والمحبة والمساواة ورعاية الضعفاء من العمال والخـدم والتابعين ، بل والعطف على الحيوان ، واشاعة الرحمة بين العالمين ·

ثانيا ـ القانون المدنى الخاص :

ان الفكر العام القانونى فى نطاق القانون الخاص يكاد يكون موحدا بين الفقه الاسلامى والقانـون الوضـعى ، فمصادر الالتزام واحدة ، وهي العقـد والارادة المنفردة والفعل النافع (الاثراء بلا سبب) والفعل الضار ، والشـرع والهدف واحد وهو رعايـة الحقـوق الخاصة ودفع الضرر وترميم آثـاره لهذا كان كل ضرر موجبا للمسئوليـة والتعويض عنه عملا بالحديث النبوى : « لا ضـرر ولا ضـرار » والحـق فى التعويض أو ضمان الالتزام بمختلـف أنواعه مؤيد ومضمون بحماية القضاء، حتى ولو كان المقضى عليه هو الخليفة . والعقد كالاقرار ملزم لعاقده دون غيره « **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** » . والشروط العقدية حرة وملزمة للعاقدين الا ما يعارض النظـام العـام والآداب « المسلمون عندهم شروطهم الا شرطـا أحل حراما أو حرم حلالا » . والعقـود كلها رضائية لا تخضع لشكلية معينة ، ما عدا عقد الزواج الذى يتطلب حضور الشاهدين ، ويجب تنفيذ العقود بحسن نية ، فكل غش أو تدليس أو تغرير مـن عاقد يمنح الآخر حق الخيار وفسـخ العقد ، والعرف والعادة أساس لتوزيع الحقوق والواجبات بين المتعاقدين اذا لم ينص فى العقد على طريقة معينة .

واذا اقتضت المصلحة ايجاد عقـود جديدة أو تقرير شروط عقدية جديدة فيمكن الاجتهاد فيها فى ضوء مبادىء الشريعة العامة .

ثالثا ـ تنظيم الاسرة أوالاحـوال الشخصيـة :

حرصت الشريعة على تنظيم عقـد الزواج لاقامة بنيان الاسرة على أوطد الدعائم التى تمكن من الحفاظ على بقاء النوع الانسانى وانجاب الاولاد وتربيتهم تربية سليمة لان الزواج مظهر من مظاهر الرقى الانسانى ، وهو راحة النفـس الفاضلة ، وأساس سعادة الرجل والمرأة على حد سواء ، فجعل الزواج عقـدا مدنيا كسائر العقود التى تنعقد بمجرد الايجاب والقبول مع حضور شاهديـن بدون تدخل مرجع دينى فى شأنـه ، وأحيطت فيه الحقوق والواجبات بتقديس دينى ، فوصف الزواج بأنه « أحـب الحلال الى الله » كما وصف الطلاق بأنه « أبغض الحلال الى الله » وقد جعـل الطلاق بيد الرجـل لا بيد المـرأة أو القاضى ، لانه مسـئـول عن واجـبات الزوجية من مهر ونفقة والغنم بالغرم . ومع ذلك يجوز عند عـقـد الزواج أن يتنازل الرجل للمرأة عن الحق فى الطلاق، ويصبح الطلاق بيدها . واذا لم يتنازل عن ذلك الحق فلها أيضا أن تطلب من القضاء التفريق بينها وبين زوجهـا لاسباب متعددة كالغيبة سنة فأكثـر ، أو للضرر وسوء العشرة ، أو لامراض منفرة كالجذام والبرص والجنـون ، وقررت الشريعة رعايـة الضعـفـاء

والمرضى والقصر من الاولاد بالولاية والوصاية ، والولاية سلطة للاقرب فالاقرب على شخص القاصر لتربيته وتعليمه وتزويجه وتأهيله للمستقبل · والوصاية سلطة ادارية للاقارب أو من يختاره القاضى على مال القاصر لحفظه وادارته واستثماره ·

والارث فى الشريعة مشروع لتفتيت الملكية وتوزيعها بين الورثة فبالموت تنتقل ملكية المتوفى الى ورثته ، وهو حق جبرى بحكم الشرع لا بارادة المورث، فليس للمورث حرمان وارثه من حق الارث ، والارث مشروع فى الاسلام نعمة للوارث لا نقمة عليه ، فهو يتلقى الحقوق والاموال ، ولا يتحمل الديون التى على المورث · ووزع الشرع التركة توزيعا عادلا بين مستحقيها بحسب درجة القرابة للميت ، واذا لم يكن قريب وارث، فبيت المال (الخزينة العامة) وارث من لا وارث له ، وثبت توزيع المواريث فى القرآن الكريم فى أجلى بيان وأعدله وأكمله ، وتم بيان قليل من احكام المواريث فى السنة أو الاجماع ، لان الارث من أهم الوسائل اثرا فى تملك الاموال · وأحكام الميراث الشرعى غير قابلة للتغيير والتبديل والاجتهاد فيها ، لانها مرتكزة على العدل ، ووضع الحقوق فى نصابها ، ومنع أسباب الخلاف والنزاع والخصام فيما بين الورثة · أما اعطاء الذكر ضعف الانثى فى الميراث فغاية فى العدل ، لان الرجل هو المكلف بالانفاق على الاسرة ، ولا تكلف المرأة بأية نفقة سواء أكانت أما أو زوجة أو بنتا أو أختا ، مما يجعلها موفورة الحظ ، ولها ادخار كامل نصيبها لظروف الحياة ·

والخلاصة أننا نجد عن طريق الاجتهاد بالرأي الصحيح حلا لكل مشكلات الحياة المعاصرة ، ولكن ليس معنى الاجتهاد بالرأي هو الاعتماد على مجرد العقل والهوى والشهوة ، لان العقول تخطىء ، وانما لابد من الاهتداء بروح الشرع ، فالاجتهاد فى الشريعة محصور فى العمل بنصوص الشريعة وفهمها واستنباط المصالح والمعانى العامة منها والاهتداء بروح التشريع ومبادئه وقواعده الكلية ومقاصده التشريعية العامة ، وذلك أمر سهل للتفصيل والتفريع ورعاية المصالح والعدل والحق ·

حاجة البشرية الى التشريع السماوى

الاستاذ عبد الرحمن الجيلالى

بسم الله الرحمن الرحيم ،

وصل اللهم وبارك على نبينا ومولانا محمد النبى المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه أفضل الصلوات وأزكى التسليم ٠

أتقدم بالشكر الى هيئة المركز الثقافى الاسلامى ٠ حيث انها لاحظت فىأخيكم هذا حسن ظنها وانه يلقى محاضرة ، اسمتها محاضرة وجعلت الموضوع دينيا باقتراح منها ، وان شاء الله نكون عند حسن ظنها ٠

فنقول بعد البسملة والحمدلة ، كما أشار الاخ الكريم ، مقدم هذه المحاضرة بالعنوان الذى سمعتموه وهو : (حاجة البشرية الى التشريع السماوى) ٠

فيقال أيها الاخوة الكرام ، وانالعقل البشرى هو أعظم ما منح الانسان فى حياته ، حقا وهو أجل ما تكرمت به الخليقة الالهية (الخلقة الالهية) على هذا النوع البشرى وأنه ورد فى فضله، وفى شرفه ومدحه ، من أقوال الحكماء والعلماء والفلاسفة ٠ والانبياء والمرسلين ما ورد من نصوص وثيقة ، وأقوال صحيحة ٠ حتى انهم قالوا فى العقل ٠ هو منبع العلم ومصدره وأنه أساس العلم ، وهو الوسيلة الى سعادة الدنيا والآخرة ٠

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابى الدرداء رضى الله تعالى عنه « ازدد عقلا تزدد قربا » ٠ وقالوا « لو صور العقل لاظلمت معه الشمس » ٠ هذا حق وصدق ، نعم هو كذلك ، فالحمد لله على نعمة العقل ، ويكفى فى التنويه بشرفه والتنويه بفضله أن نوه به القرآن الكريم ، وكان العقل هو مناط التكليف من الله جل جلاله ٠ بالخلافة لعبده فى أرضه ، ولكن ما هو العقل ؟ وما هي ما هيته ؟ وما حقيقته ؟ لقد ذهب العلماء فى تعريف العقل مذاهب ، وعرفوه بتعاريف شتى وتتلخص هذه التعاريف وهذه الاقوال فى كلمة جاء بها ، التهامى (وهو صاحب كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » جمع هذه التعارف ، فى تعريف واحد يشتمل على جوهر ما عرف به العقل فقال « العقل غريزة للنفس ، تتمكن بها من ادراك الحقائق ، والتمييز بين الامور

(*) محاضرة القيت بالمركز الثقافى الاسلامى بالجزائر العاصمة بتاريخ 1979/06/11.

الحسنة والقبيحة وهي تزداد قــوة بالتجارب ، وتستنبط بها المصالـــح والاغراض ويحصل بها الوقوف عــلى العواقب » ٠

ولكن مع هذا كله ومع المدح الذى ورد فى العقل فى التنويه به والتعريف بـه وغير ذلك مما ورد فيه من نصـــوص نبوية ، وآيات قرآنيـــة ، وأقـــوال فلسفية ، ٠٠٠ الخ ٠

مع هذا كله نجد لهذا العقل ، نجد له حدودا ونهايات ، ينتهى عندهـــا ٠ ويقف دونها ، فلا يتجاوزها الى مـــا وراء ذلك ٠ بل يلتجىء العقل نفســـه الذى قيل فيه ما قيل حتى انه قيـــل « لو صور العقل لاظلمت أمامه الشمس» يلتجىء فى التلقين والتعليم ويلتـجىء الى الاسترشاد والاستزادة من الغيب ، اذ غير خاف عليكم أيها السادة ، وعلى كل ذوى البصائر وعلى كل منصف سليم التفكير ، غير معاند ولا ممـــارى ولا متعصب ، لا يدركها العقل ، ولا يدركها الانسان بعقله ، ولو بلغ ما بلغ مـــن شدة الذكاء والفطانة ، هناك أشيـــاء لا تدرك لا بالحواس ولا بالتمييـــز ولا بالعقل ، وانمـــا طريقهـــا التعلـــم ، والاسترشاد وهناك طريق آخر يسـمى بالجوهر وهو غير العقل ، فالعقـــل مهما بلغ كما ذكرنا من اتساع الافق ، وهو قليل العناء فى كثيــر من المواطـن المهمة ، كثير العناء المعضلات المدلهمة ، فالعقل ان عرف شيئا غابت عنه أشياء ٠

قل لمن يدعى فى العلـم معرفـــة
علمت شيئا وغابت عنك أشيـــاء

أو كما قيل لطالب علم النجم وعلـم الفلك ، ما قيل :

ولابد من شيخ يريك شخوصهـا
والا فنصـف العلم عندك ضائع

لا نكران فحاجة الانسان الى العقـل ضرورية ، لادراكنـا الاشيـــاء ولتعقل الاشياء ، غير أننا نراه لا يكتفى بهـذا الادراك لامتـلاك الملكة وللسلامة وليؤمن الخطـــأ ٠

فالعقل الملتبس به البدن ، أو البدن الملتبس بالعقل ، اذا نظرنـا اليـه الى صاحب هذا البدن الى الشخص الملتبس بالعقل نجده يجهل حتى مصالح نفسه، ومصالح ذاته وتسيير نفسه وشخصيته، لا يحسن كيف يعالج نفسه ، الا باكتساب ذلك من أهل المعرفة ، لمعالجة الاجسام ، ومعرفة العقاقير من الاطباء ، وهـــذا لا يدركه بحواس الانسان ولا يدركـــه بعقله ولا بذوقه ولا بتمييزه ، وانما يضطر للسؤال والاستفادة من الغير والاستعانة بالغير ، ان كان أعقل العقلاء ٠ فالعقـل كما نراه مجردا لا يغنى صاحبه ، ولا ينقذه من التهلكة ، بل قد يقع فى التهلكة وهو لا يدرى ، ويكفى لاستدلال عــلى قصور العقل وعدم غنائه بسلوك طريق النجاة أننا نجد هذا الانسان العاقـل يجهل حتى نفسه يجهل ماهيتها يجهـل روحه وحقيقتها ، لا أدرى فاذا كــان الانسان الكامل العاقل ، التام الحواس

والادراك والتمييز نراه حائراً فى معرفة نفسه التى بين جنبيه ، يتخبط أحيانا فى البديهيات ، فلماذا يقع الحبل على الغارب ؟ فاذا بالحبل على الغارب فى الغيبيات ، وفعلا لا نرى أيها السادة والسيدات • أن فى استعمال العقل والاستبداد به لتقويم معيشة الانسان القصيرة فى هذه الحياة الدنيا ، لا يكفى للاستقامة على المنهج القويم ، بل نجد انفسنا مضطرين الى التعلم والاسترشاد والاستشارة والاستعانة بالغير ممن قضى منهم الازمنة والاعصار فى تقويم الانظار ، وتعديل الافكار ، وتثقيف الاذهان ، ووضع قوانين لحفظها • ومع هذا كله نجد من بين العقلاء ، من يقوم على ما وضع من شريعة العقل فيزعم أنه أرفع من واضعها وأعلم بالمصلحة من غيره • فيذهب بالناس مذهب شهواته ، فتذهب حرمة تلك القوانين وتتهدم عن القوانين الوضعية ، تذهب حرمتها ، وبناؤها ، ويفقد ما قصد بها ولوضعها •

فها نحن أيها السادة والسيدات لا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا نتخبط فى المشاكل تتجدد وتتعقد فى كل حين وآن ، فلا ندرى ولا نعرف بطريق العقل المجرد ، متى ، ولا كيف الخلاص منها بسلام ؟ فنحن لا نزال فى شوق ملح ، وتلهف الى طمانينة واستقرار نفسانى ، تسكن اليه خواطرنا وتطمئن اليه قلوبنا ذلك لما نجده فيما اذا عولنا على الاعتماد في الاهتداء على العقل البشرى وحده وجدنا أمامنا تفاوتا عظيما ، وأعنى بهذا التفاوت ، ما هو موجود من تفاوت الناس فى الادراك ، وفى العقل وفى التمييز واختلافهم فى النظر والتفسير نظرا لاختلاف الغرائز وما فطر عليه الخلق من تفاوت درجاتهم فى تسليط على قمع الشهوات البهيمية ، وما يجد الانسان مع ذلك من قوة وضعف فى الفهم والادراك أو ما يقارب الفهم والادراك فيوافقه أو يخالفه •

أيها الاخوة الكرام ـ لقد ثبت فى تاريخ العقيدة الدينية أنها ترجع فى العهد القديم وفى عهدها الاول الى نحو ثمانية آلاف سنة مضت أي منذ شعر هذا الحيوان المفكر بالقوة العاقلة وهو الانسان ، منذ شعر بانه مغلوب بقوة غيبية هي أرفع من قوته ومغلوب القوة ما أنت منها بغلبتها عليه مما حوله ، وشعر بأنه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه ربما لا يعرفها حق المعرفة ، ولا تتطرق اليها ارادته ، فذهب هذا الانسان حينئذ الى التفكير ، والى البحث عن هذه القوة التى تسوقه الى مستقبل يجهله ، فتصورها بعضهم فى الحيوانات ولا أدرى لماذا تصورها فى الحيوانات ؟ ربما لكثرة نفعها أو لكثرة ضررها ومنهم من تمثلها فى بعض الكواكب ، فعبدها وهي على ذلك لظهور آثرها ، ومنهم من تصورها فى الانهار والاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها، ومنهم من تمثلت له هذه القوى فى آثار القوى مختلفة فى أنواع متفرقة، تتمثل فى أفراد من كل نوع وتتخالف

بتخالف الانواع فجعل لكل نوع الها ، فكان هناك اله للظلمة ، واله للنــور ، واله للمطر ، واله للبحر ، واله للريــح ، و ... الخ .

ومنهم من قدس الحيوانات كالصقر مثلا والنسر والقط والتمساح والبقر ، كل هذه عبدت على انها آلهة على انهــا قوة غيبية متسلطة على الانســان فى حياته ، ولا تزال الى يومنا هذا تعبد ، يعبد الحيوان وبالاخص فى الهند الذين لا يزالون يعبدون البقر ، ومنهم من أله الاشخاص وكان العرب فى الجاهليــة أنفسهم قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليم ، يذكرون الله على ألسنتهم ويسمون أبناءهـــم - عبد الله - ومنهم والد النبى صــلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله ، ويسمون تيم الله (والتيم بمعنى المستعبد وهو عائد الى عبد الله) لانهم يقولون عبد الله ، أو تيم الله ، وهم مع ذلك يعبدون الاوثان والاصنام ، ويقولــون « لا نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » ويقول عنهم القرآن الكريم « **ولئـــن سألتهم من خلــق السمــوات والارض وسخــر الشمس والقمــر ليقولن الله** » وهم فى حال الجاهلية وما يعنون بقولهم « الله » ؟ يعنون من قولهم الله هو مـــن كانت له القدرة على خلق ما ذكرتم ، من خلق السموات والارض ، هو الله ، من سخر الشمس والقــمر هــو الله ، يعنون صاحب هذه القوة فقط ، فهــذا الشعور بهذه القوة الغيبية كــاف فى الاستدلال به على ان البشرية فى حاجة الى تشريع سماوى . ولو فرضنا وان هناك من البشر من يصعد بقوة عقلــه وتدبيره الى أعلى مراتب الملكوت معتمدا على ما أوتى من العقل وحده ، فاننــا لا نجده الا مخطئا . مخطىء فى اصابة عين الحقيقة فى كثير من الاشياء ومــا ذلك الا لعجزه على التسلط والتغلــب على القوة الطبيعية الكامنة فى نفسه ، مع ما فى نفسه من نزعات الاهواء عــن العقل ، الا ما شذ من الخلق . فمــن أجل ذلك وبسببه - أيها الاخوة الكرام - قلنا بحاجة البشـــرية الى دين سماوى وان العقل البشرى لا يكفى بالاهتداء الى الصواب ، فلابد لمن يأخذ بيده الى كل ما هوضرورى لهذا الانسان البشرى لصاحب العقل له على ما فيه الهنــاء والسعادة . واذا أسلمنا بأن ما يراه عقل المرء هو وحده حق وعدل ، وهــو كاف لاستقامة أحوال الانسان وانتظام شمله ، فانه فضلا عن تفاوت العقــول ، وتضارب الافكار ، واختلاف الانظار ، فان الناس لا يرضون بحكم عقل عاقل ، لا يجمعون عليه ، وذلك لاختلاف أهوائهم واختلاف مراتب ادراكهم وغلبة الشهوات عليهم ، واختلاف النظر والغرائز فيهم فتضطرب آراؤهم ، فيما هو الصالح وما هو الاصلح ، ولما ركز ورتب فى الانسان من مزاج الميل الى مواقف الخير وباعث الشر ، فالانسان مفطور على ذلك ، واذا

كان هذا لانسان العالم ، المفكر ، والحكيم العاقل ، لا يزال يغتال الحقوق ويظلم من هو أضعف منه ، ولم يهتد الى الصواب ، فكيف يكون الحال ؟ اذا ألقى **الحبل على الغارب ، ووكل أمر هذا الانسان الى نفسه أو الى عقله ، عقله الشهوانى وغريزته الحيوانية ماذا يقع ؟**

لا شك وانه يلقى بنفسه الى التهلكة ، ويتدهور فى مهاوى الضلال ورحم الله من قال :

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم

اذن فالعقل البشرى هو محتاج ضرورة الى نبراس يضىء له الطريق حتى يصل الى غايته سالما من كل الاخطار والآفات . ومن كل العثرات ، وهذا النبراس ما هو ؟ هو الشرائع السماوية التى جاءت بها الرسل عليهم سلام الله ، هو العقل .

والعقل أيها الاخوة . وان كان يدرى ويعلم بفطرته بعض ما يهديه الى ما فى الحياة من خير أو شر . فانه على كل حال ، لا يدرك ذلك على حقيقته ، ولذلك نراه لا يتفق مع غيره ، فشملته العناية الربانية ، فأرسلت اليه الهداة يرشدونه ويهدونه الى سواء السبيل ، وليس معنى ذلك أيها الاخوة الكرام ان العقل بعيد عن الشرع ، أو هو مخالف للشرع كلا ، ثم ألف كلا . بل هما العقل والشرع متضافران فالعقل كالاساس والشرع كالبناء ، ولكن لا يغنى أساس ما لم يكن بناء ، ولا يثبت بناء ما لم يكن أساس، ولا يخفى أن كل تكليف بشرط العقل ورضي الله عن الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه حيث يقول :

« رأيت العقل عقلين ، فمطبوع ، ومسموع ، ولا ينفع مسموع اذا لم يكن مطبوع ، كما لا تنفع الشمس وضوء العين مملوء » واذا تأملنا أيها الاخوة ، خلقة أنواع الحيوان مطلقا الناطق منهم وغير الناطق ، ظهر لنا واضحا جليا ، أن فى الحيوانية ميلا عظيما الى الشر ، أو توقعا للشر أكثر من الخير ، والذى ينبؤنا على ذلك هو ما تظهر عليه الحيوانية أو الحيوان مطلقا فى خلقته الطبيعة من سلاح حاد ، فمن يومه الاول الذى يوجد فيه يولد الحيوان بسلاحه، فصاحب القرن يولد بقرنه ، وصاحب المخلب يظهر بمخالبه الجارحة ، ويظهر بأظافره الفتاكة وأنيابه القواطع ، وذوات منقار بمنقارها الحاد ، وذوات الشوك بشوكها المؤلم . وذوات السم الزعاف تولد كذلك بسمومها القاتلة ، نعم وان كان الاصل فى هذه الاشياء أو هذه الانواع من السلاح انما هي خلقت لدفاع أصحابها عن نفسه ، ولكنه يستعمل سلاحه هذا ، فى ظلم غيره فيتعدى به القوى على الضعيف ، ومن الحيوان هذا الانسان العجيب ، وما أدراك ما الانسان ! فهو ذلك الحيوان الناطق وليس معنى الناطق ، كما يفهم بداهة ،

معنى النطق أو الكلام ، أو التلفظ بالكلمات ، لا · فانما نعنى بالناطق هنا ، المصطلح عليه فى علم المنطق ، والمناطقة اذا قالوا حيوان ناطق ، يعنون به المفكر بالقوة العاقلة فهذا هو الحيوان الناطق فى اصطلاح المناطقة ، وهو الذى نعنيه ، فهذا الحيوان الناطق يمتاز عن بقية أنواع الحيوان كله بكونه متعدد السلاح ، ليس له سلاح واحد كبقية الحيوانات ، بل هو متعدد السلاح ، فهذه يده التى يبطش بها وهذا لسانه وهذه سيوفه وحرابه ، ومدافعه وهذه بنادقه وهذه أساطيله وغواصاته وصواريخه متفجراته وما فى حكمها من مدمرات الحصون ومدكدكات القلاع وهذه ··· الخ · أضف الى ذلك كله نفسه الامارة بالسوء.واذا قارنا بين أسلحة الانسان هذه ، وبين بقية أنواع أسلحة الحيوان الاخرى الطبيعية ، كان سلاح الانسان طبعا هو أشد فتكا وأعظم خسارة ومع هذا كله فلا يزال الانسان مستمرا ، فى استنباط الحيل ليتمتع وان لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك ، حتى انه ليخيل اليه أنه لا ضير عليه ولو انفرد وحده بالوجود عمن يطلب مغالبته ، وكلما لاح له النفع لنفسه فتح لفكره بابا من الحيلة ، وهيأ له وسيلة لاستعمال القوة ، وعند ذلك يقوم التناهب مقام التواهب ، ويقوم الشقاق محل الوفاق ، ويثور الضابط لسير الانسان اما الحيلة واما القهر ، فهذا هو شأن الانسان فهو دائما يجرى فى حلبة سباق التفكير فى ابتداع وفى اختراع أفتك سلاح ليقضى به على غيره ، وصدق الله العظيم « **قتل الانسان ما أكفره** » ·

ومهما ذكر الانسان فى القرآن الا وكان متبوعا بالذم والسخط ، فهل من حكمة أيها الاخوة الكرام ؟ كهذه الحكمة ، ليدرك هذا الحيوان المفترس مهلة ، كلا والله · اذن فكان من المعقول أن يسوسه سائس ويروضه مروض ، فلعل هذا السائس يحد من شوكته ويلطف من شدته · أو على الاقل يشذب من جبروته وطغيانه ، تطاوله على أبناء جنسه ، فكان هذا الانسان لهذا محتاجا ، بل فى أكثر الحاجة الى تشريع سماوى ، فأقام له الدين من أفراد جنسه مرشدين هادين ، وميزهم من بين أفراد المجتمع البشرى ميزهم بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها غيرهم وأيد ذلك زيادة فى الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخزى الطامع ويذل الجامح ، وليصدم بها عقل العاقل فيرجع الى مستواه ويرجع الى نفسه هؤلاء هم الذين يطرقون القلوب بقوارع وينبهر لها بشر الجاهل فيرتد عن غيه بأمر الله ، ويدركون المدارك بظواهر من آياته فيحيطون القول بما لا مندوحة عن الله ، وأولئك هم الانبياء والمرسلون عليهمسلام الله ·اذن فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متممات تكوين الانسان والانسانية · اذ يقول صلى

الله عليه وسلم « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .

فبعثة الانبياء والمرسلين من متممات الانسانية ومكارم الاخلاق والبشرية ، والانسان هو فى أهم الحاجة اليهم ، ومنزلة البعثة من النوع البشرى هي بمنزلة العقل من الشخص هي نعمة أتمها الله على عباده لكي لا يكون للناس حجة على الله بعد الرسل، ولنأخذ بذلك مثالا أيها الاخوة الكرام مثلا هذه العملة المالية النقدية نقول السكة الذهبية والفضية . ففى الشرع الاسلامى الكريم ، المنع البات من اختزانها من غير اعطاء بعضها للفقراء والمساكين ، ومن ذكرهم القرآن الكريم، من غير اعطائها لمن تصرف اليهم من الفقراء والمساكين وما عطف عليهم ممنوع ، لقد منع الشارع من ذلك ، كما يمنع الاسلام من اتخاذ الاوانى من هذه السكة من هذه النقود من هذه العملة أو هذا المعدن .

فاتخاذ الاوانى من الذهب والفضة للاكل والشرب ممنوع شرعا ، كما يمنع الاسلام بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة بزيادة هذا ممنوع فى الاسلام فاذا قيل لانسان لاتأكل ولا تشرب فى أوانى الذهب ولا فى أوانى الفضة أو لا تتخذ منهما آنية والا تعاقب ، ماذا يقول ؟ . يقول أنا أتصرف فى ملكى ولا ينازعنى فيه أحد ، فكيف أعاقب على التصرف فى ملكى ؟ يقول هذا خارج عن العقل لانه لا يدرك السبب فى ذلك ، واذا قيل له ليس بيع الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة بزيادة والا تعاقب ، قال أنا أبيع وأشترى برضى واختيار منى ورضا صاحبى الذى أعامله ولولا البيع والشراء لخربت الدنيا وتعطلت المنافع هذا شىء خارج عن العقل كيف لا أتعامل بالذهب والفضة ، وكلامه هذا صحيح فى بادىء الرأي كما يقال :

على وجه حي مسحة من ملاحة
وتحت الثياب العار لو كان باديا

فهو لا يدرى يقول هذا خارج عن العقل ، لان العقل غير مدرك لذلك ، والا لماذا وجب العقاب ، فكيف أعاقب ؟ فيحتاج اذن العقل من وجود من يرشده ويدله على السر فى ذلك فيقال له : ان الحكمة التى نجدها فى وجود الذهب والفضة بين أيدينا . هي الحياة بهما ، فهما فى حد ذاتهما حجران ، معدنان ، لا منفعة فى أعيانهما اذ لا يردان حما ولا بردا . ولا يغذيان جسما ، والخلق كله محتاجون اليهما وذلك أن كل انسان يحتاج الى أشياء كثيرة هي مزدرية له فى حياته وفى معاشه ضرورية له في حياته اليومية وهو محتاج الى مطعمه والى ملبسه والى مسكنه وقد لا يملك ما يحتاج اليه فى حياته ، ويملك ما يستغنى عنه ، كمن يملك مثلا حصانا وهو فى حاجة الى البر (القمح) والذى يملك البر قد يستغنى عنه وهو محتاج الى الفرس ، فلابد حينئذ من معاوضة صاحب الفرس ، فرسه هكذا بكل مقدار ولابد من تقدير العوض اذ لا يعطى

من البر ، بقليل أو بكثير ولا مناسبة بين البر والفرس حتى يقال يعطى له مثل هذا الوزن ، أو الصورة لا مناسبة بينهما ، فلا يدرى ان الفرس كم يساوى بالبر فتعذر المعاملة بين الناس فى هذا المثال وفى أشباهه . يحتاج الانسان الى متوسط يحكم بينهم بالعدل وكان الواسطة فى ذلك الذهب والفضة ، فكانا هما الحاكمين بين الناس فى جميع المعاملات فيقال هذا الفرس يسوى بما قدره مئة دينار مثلا . وهذا المقدار من البر يسوى بمثله فيقع التبادل بالمقابل بهذا المعدن . وان النازع ما دعى الى التعديل بين الذهب والفضة لانه لا غرر كما قلنا فى اعيانهما وانما خلقا لتتداولهما الايدى ويكونا حاكمين بالعدل ونسبتهما الى جميع الاموال نسبة واحدة .

فالذهب والفضة لا غرض فيهما وهما وسيلتان الى كل غرض ، فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكمة التى خلقا لها أنه يعاقب من طرف من أقامهما حاكمين بين الناس .

لماذا هذا العقاب ؟ لان الاستعمال وقع فى غير محله ووقع من المستعمل خروجا عن الحكمة التى خلق لاجلها بل أبطل الحكمة ، فعلى هذا وهذا هو مناط التكليف والعقاب وكان هذا الانسان المستعمل للذهب والفضة فى غير ما خلقا لهما كان كمن حبس الحاكم أو القاضى الذى يفصل بين الناس ويرفع الخصومات حبسهما فى سجن يمتنع على الحاكم ، الحكم بين الناس بسبب سجنه لان صاحب المال كنزه وادخره فقد ضيع وعطل سير التعامل بين الناس فكانه سجن الحاكم ، وسجن القاضى فى فصل الخصومات بين الناس فاستحق لذلك العقاب ولا شك ان العقل اذا عرف هذا حكم بأن ادخار الذهب والفضة عن الناس ظلم واستحسن العقوبة عليه لان الله تبارك وتعالى لم يخلق شيئا هملا ، ولم يخلق شيئا للضياع وكذلك نقول مثلا من اتخذ آنية الذهب والفضة للاكل والشرب فهو ظالم وكان أشر من الذى كنزهما وادخرهما ذلك لان مثال هذا مثال من جعل حاكم أو طبيب البلد جعله جزارا أو بقالا فى أي عمل من الاعمال التى يستطيع أن يقوم بها الناس ، بخلاف الطب مثلا أو الحكم والفصل بين الناس لا يقوم بهما الا المختصين المتخصصين فى ذلك من الاطباء والفقهاء فمن النحاس مثلا أو الرصاص أو الحديد أو الفخار أو الطين أو القصدير أو غير ذلك ، كل هذه الاشياء تنوب عن الذهب والفضة فى تكوين هذه الآنية وفى استعمالها كآنية ، تنوب عن الذهب والفضة وتقوم مقامهما ، ولا تقوم هذه المعادن فى التعامل بين الناس ، يعنى القصدير أو الفخار لا تقوم مقام الذهب والفضة فى الفصل بين الناس فى نوازلهم انما يقوم بذلك الذهب والفضة ، ولا القصدير ولا النحاس ولا الرصاص يكفى للقيام بالمقصود الذى يراد من الذهب والفضة،

ولا شك ان العقل اذا عرف هذا لم يتوقف فى استحسانه ، واستحسان العقوبة عليه ، وكذلك نقول لمن باع الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة بزيادة لذاتهما وهما غير مقصودين ، لانه باع الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة ، فكأن مقصوده بالذهب والفضة لا غير ، وذلك خلاف للحكمة ، لان من عنده الثوب مثلا وليس عنده ذهب ولا فضة ، وهو محتاج الى طعام فقد لا يقدر أن يشترى طعاما بالثوب ، لانه يملك الثوب، فهو معدول الى بيعه بالذهب والفضة لا يتوصل الى مقصوده ، فانهما كما ترون وسيلتان الى الغير ، لا غرض فى اعيانهما فان من عنده ذهب ، فأراد بيعه بذهب أو فضة ، أو بيع الفضة بالفضة فانه يمنع من ذلك ، لانه يبقى الذهب والفضة مقيدين محبوسين عنده ويكون هذا بمنزلة الذى كنزهما . وبمنزلة من قيد الحاكم كما قلنا ! أو الرسول المبلغ أو الموصل للحاجات فهو ظالم فلا معنى لبيع الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة لان اتخاذهما مقصودين .

فاذا عرف العقل هذا أو عرف بهذا ، حسنه وحسن العقوبة فيه ، وكذلك نقول لمن يبيع الذهب أو الفضة بزيادة الى أجل ، كبيع عشرة بعشرين الى سنّة أو سنتين ، نقول لهذا ان مبنى الاجتماع البشرى ، وأساس الاديان هو استعمال ما يوجب المحبة ويوجب الالفة بين الناس ليحصل التناصر والتعاون والانسان اذا كان محتاجا ووجد من يسلفه ، فلا شك يتقلد ملة من أسلفه ويعتقد محبته ، ويرى ان نصرته واعانته أمر لازم له ففى منع بيع الذهب والفضة بزيادة الى أجل ابقاء لنفعة السلف التى هي من أجل المقاصد، ولكن هذا السر ، فى منع لبس الذهب ، والفضة وتحريم اتخاذ الاوانى منهما ، ومنع التعامل بالربا فيهما ... الخ .

هذه الاسرار لا يدركها العقل وحده ومن تلقاء نفسه ، الا بالتعليم والكشف عن السر والتقويم والارشاد ، فاذا هدى اليه عرفه .

وهذا دليل آخر على شدة حاجة البشرية الى التشريع السماوى . وهذا الذى ذكرناه أيها الاخوة الكرام هو عبارة عن جزئية فقط تبين لنا العقل البشرى وانه لا يكفى وحده فى طريق السعادة البشرية ، وان الشرع لا يخالف العقل ولكن فيه (فى الشرع الشريف) ما يهتدى اليه العقل الا بالتوضيح ، ونحن فى أشد الحاجة الى التوضيح ، والتوضيح جاءنا على يد الانبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه ، والانسان فى ذلك هو أشبه بالعليل الذى يصيبه الداء فى ناحية من جسمه يسعى فى معالجة ذلك الداء فى نفس المحل الذى وقع فيه الداء (المرض)، فاذا قيل له أن هذا الداء لا يعالج فى مكان كهذا انما يعالج فى عكس ذلك

المكان اذا كان فى أعلاه ربما يعالج فى أسفل الجسد أو فى ظاهره ربما يعالج من الباطن .

فالعاقل ربما يستبعد ذلك ويقول كيف ، الداء هنا عن اليمين وأنا أعالجه هنا عن الشمال أو كان فى الاعلى ويعالج من الاسفل أو العكس فهذا يستبعده العقل ولا يدركه فيقول هذا خارج عن العقل ولكن ، اذا عرفه الطبيب ، كيفية انسحاب العروق ومنابت الاعصاب المشتبكة بالبدن ، أذعن ، حينئذ يذعن العليل ، وعرف أن هذا لا يدرك بالعقل، وانما يؤخذ عنه أهله عن طريق التلقين والتعليم وكذلك سر التشريع وأيضا أيها السادة ، فان ما أجمع عليه الباحثون من علماء من موحدين ووثنيين وفلاسفة وغيرهم من الحكماء ، الا ما شذ منهم وهم قليل ، أجمعوا على أن للنفس البشرية بقاء ، تحيا به متى تحيا به ؟ تحيا به حالا وتحيا به بعد مفارقة البدن وانها لا تموت موت فناء ، لانها (النفس) خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية « **وقل رب زدنى علما** » خلقت مستعدة لقبول الاستزادة من العلم والاستزاده هذه من طرق عدة ، وانما الموت المحتوم ، هو كما قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمة الله عليه ، قال« الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء فقط » وان اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء ، وفيم تكون عليه النفس بعد مفارقتها للبدن ،

وقالوا : ان الانسان حين يموت لا يموت حقيقة ، ولا يتحول الى ماض اطلاقا ، وانما هو يستمر حيا على نحو جلي ، لا نستطيع نحن أن نرى ذلك وليس بامكانياتنا ما يحدد لنا ذلك أو نعرفه به ، ولكنه حي على أية حال» كما أجمع على ذلك العلماء والفلاسفة والحكماء من المسلمين وغيرهم .

وقالوا ان هذا العمر قصير ليس هو منتهى الانسان فى الوجود ، فاذا كان ذلك هو منتهى الحياة وكانت حياة الانسان لا تزيد على حياته الدنيا هذه فانها تكون مأساة لا يقبلها الضمير الانسانى ولا يرضى بها بل يثور عليها لانها مأساة مروعة حقا وتدعو الى القنوط وتخلق فى الاحياء منا من أراد الحياة ولو استقرت هذه المأساة فى ضمير .

الانسان ما شاد حضارة ولا عمر بناء لانها حياة تدعو الى النهاية والى اليأس وانما الموت ، هو عبارة عن تجرد الجسم لهذه الحياة التى يحياها ، ويتحرك بها أمام أعيننا ، يتجرد منها هذا الجسم ، فينزعها عنه ، كما ينزع ثوبه ، أو كما ينزع الثوب عن البدن فيما يكون حيا باقيا فى طور آخر ، والحياة ثابتة مستمرة ، يبقى حيا وان لم يدركه الانسان « **أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم** » .

والحرص على الخلود هو غريـــزة بشرية أشار اليها القــرآن الكــريم فى قصة خلق آدم عليه السلام فحكى لنــا حكاية ابليس مع آدم اذ قال له « **هــل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** » ؟ وقال له « **ما نهاكما ربكما عن هـــذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونـــا من الخالدين** » ٠

فغريزة الخلود هي طبيعة بشرية ، فكان ما كان مــن آدم وحــواء بهـــذا الاغراء ٠

اذن فغريزة الخلود هي كما حققهــا الباحثــون من العلمــاء والفلاسفـــــة اسلاميين وغير اسلاميين ، هي طبيعة أو غريزة مركزة فى الانسان ، وأصيلة فى الطبيعـــة البشـــرية ،ولا تسمـح الشخصية البشرية أو الشخصية الحية بهذه الحياة المحدودة الــتى تنتـــهى بالفناء المطلق ، هكذا ٠ نعم ، هكــذا اتفقت كلمة العلماء والحكماء عـــلى اختلاف مللهم ونحلهم وعقائدهم ، الا ما شذ منهم وهم قليل ولهم على ذلك أدلتهم وبراهينهم المسطرة ، فاذا تحقق هذا فيا ترى من يحدثنا عن هذه الحياة المستمرة الخالــدة ٠ الباقيـــة ؟ كيف السلوك اليها ؟ وكيف السعادة بها ؟ ٠

وهذا ما حدثنا عنــه أولئك الانبيـاء والمرسلون الذين جاءت معجزاتهم مصدقة لما جاءوا به من خبر السماء ٠ فكـــان البشر بذلك فى حاجة الى الرسل ٠

وهذه الفكرة أو العقيدة أو الحاجــة الى ارسال الرسل وعقيدة حاجة الانسان الى التشريع السمــاوى هي عقيـــدة اسلامية ، قال بوجوبها عقلا عن اللــه عز وجل جميع الفلاسفة وطائفة المعتزلة معهم ، وبنى قول الفلاسفة هذا ، وهو كون ارسال الرسل للتشريع هو واجب عقلى على الله جل جلاله وعز سلطانه وملكه ، دليلهم فى ذلك ومبنى كلامهـم هذا على قاعدة التعليل والطبيعة ، ذلك لانهم يقولون يلزم من وجود الله ، وجود العالم بالتعليل أو بالطبع ، كما يعتقدون ويلزم لوجود العلم ، وجود من يصلحه، فكان ارسال الرسل عندهم واجب على واجد الوجود ٠ أما المعتزلة فيبنـــون قولهم هذا وان كانوا متفقين مـــع الفلاسفة وانما مبنى عقيدتهم ٠ وقولهم هذا على غير مبنى الفلاسفة فان مبنى كلام الفلاسفة هو على قاعدة وجـــود الصلاح والاصلح ، وانهم يقولـــون النظاميؤدى الى صلاح النوع الانسانى على العموم فى المعاش والمعاد ، لا يتـم النظام الا ببعثة الرسول صلى اللـــه عليه وسلم وكل ما هو كذلك وهو واجب على الله ، تعالى الله عن ذلك ، فهم يعتقدون الوجوب العقلى ، والفلاســفة مثلهم ٠

أما أهل السنة فيخالفونهم فى ذلـك وانكانوا يعتقدون بأن ارسال الرسـل هو واجب ، غير أن الواجب هنا عند أهل السنة ، هو واجب لا عقلى ، وليس بواجب وانما هو جائز ، أهل السنـــة

يخالفونهم فى ذلك ولا يعتقدون الوجوب العقلى وانما هو عندهم من باب الجائز العقلى ، وأهل السنة يقولـــون بأن ارسال الرسل هو جائز عقلا على الله سبحانه وتعالى ، وعلى كل فعقيدة الحاجة الى الشرع وعقيدة ارسال الرسل هي كما فى علم الكلام عقيدة اجمع عليها كل من أهل السنة والمعتزلة والفلاسفة ٠

وكونها من قبيل الجائز العقلى ، أو الواجب العقلى هذا بحث آخر ٠

فتبين لنا ذلـك ان البشرية هي فى حاجة الى التشريع السماوى وماذا فى هذا التشريع السماوى ؟ وماذا فى هذه الشرائع ؟

ماذا فى شرائع الانبياء التى جاءت بها هذه الشرائـع هي عبـارة عـمـا تعلمونه ، عبارة عن تعاليم أخلاقيــة وارشادات ونظم اجتماعيــة ، وتهذيب للارواح وتسلية للنفوس وطهارة لها ٠ فبها يتوصل الانسان الى تنظيم المجتمع البشرى ، والسير به الى حياة أفضل فى الدنيا والفوز بالسعادة الابدية فى الآخرة والنظام المقصود من هذا المجتمع هو عبارة عن تعمير الارض ، والسيـر فى المعاملة مع الغير على مستوى قول الشارع الاعظم صلى الله عليه وسلم :

« لا ضرر ولا ضرار » ٠

نعم نجد الانسان فى نفسه قد وضع نظما وقوانين هي قاصرة على حياته فى هذه الدار ، وهي مختلفة لدى جميع الامم والحكومات متضاربة متناقضة ، وكثير ما يسعى أصحابها فى تعديلهـا وفى تحويلها وتغيير هذا وتقديم هذا ، وتأخير هـذا وحذف هـذا وزيـــادة هـذا ٠٠٠ الخ ٠

بيد ان القوانين الدينية والشرائـــع السماوية ثابتة ، صالحــة لكل زمــان ومكان ، موافقة لكل السكان ، لا يعتريها النقص ولا خلل ، صالحة لاستمراريــة الحياة ، فى الدارين تنزيل من حكيـــم حميـــد ٠

فأن قيل لنا ، ما دام الامر هكذا لماذا كان النسخ فى الشرائع ؟

قلنا ان ذلك النسخ ، أو هذا النسخ لا يتعدى بعض المظاهر لبعض الاحكام الشرعية المتعلقـة بمصالـــح العبـاد واللطف بهم ، نظرا لتعاقب العصـور وتطور الزمان واختلاف أحوال الامم ، وتفاوت مصالح الناس « **وخلقناكـــم أطوارا** » صدق الله العظيم « **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** » ٠ فبهذا اختلفت الاحكام بحسب اختلاف ذلك كمعالجـة الطبيب فانه قد يأمر بتناول دواء خاص، فى زمن خاص ، فى وقت خاص، ثم يغيره فى وقت آخر حسب ما يقتضيه حـــال المريض ، وحسب ما يصلح شانــــه متمشيا به من صالح الى أصلح ، ومن نافع الى أنفع ، الى غيـر ذلـك ممـا تقتضيه الحكمة ، وفى الحقيقة ان أمـر التشريع الالهى ، هو عائد الى المشرع جل جلاله ٠ وهو الحاكم المطلق ، الفعال

لما يريد ، فيمكن أن يضع حكما ، ويرفع حكما لا لعلة ، ولا لغرض ، فهو العليم الخبير · ومع ذلك نجد الجوهر واللب واحد بين سائر الشرائع السماوية ، لا يختلف من نوح الى محمد عليهم الصلاة والسلام والى ذلك تشير الآية الكريمة : « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك، وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** » ·

وأي نبى لم يأت أمته بخير جم ، وأي نبى لم يأت أمته بالخير الاعم ؟ ما هذا التخالف بين الشرائع فى رأي الانبياء ، ما هو الا بسبب تفاوت الاعصار كما ذكرنا فى المصالح ، من حيث أن كل واحد من الاحكام حق بالاضافة الى أهل زمانه ، مراعا فيه مصالح من خوطب به ، والكل متفق على توحيد الله ، وعلى وصفه جل جلاله بصفات الكمال التى تليق بجلاله ، وجميع الشرائع متفقة على أداء عبادة الله تبارك وتعالى المحتوية على تعظيمه وشكر نعمه التى لا تعد ولا تحصى « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » ·

وجميع الشرائع متفقة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحلى بحلية الادب ، والاخلاق الفاضلة ، والمزايا الكريمة ، كماننا نجد هذه الشرائع ، تحث الناس عن التخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل ، وجميع الشرائع المبينة على لسان الانبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه وكل الشرائع تتعلق بنظام حياة الانسان العادلة ، وما ينتظره فى حياته الآجلة، وهي فى الحقيقة هذه الشرائع · فى الحقيقة هي خلاصة ما اتعب به الفلاسفة والحكماء أنفسهم بالبلوغ اليها فأضاعوا أعمارهم ، فى دعوى البحث عن حياة أفضل ، وقد أراحهم الدين من ذلك كله · عن حجة وبرهان ، وبأدلة قاطعة لكل انسان كما يعلم ذلك من درس القرآن ، « **وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** » ·

تأملات في كتاب الله

اختلاف الالوان والاشكال في عالم الحيوان

د٠ حامد صادق قنيبي

● الحيوان – دوابه وطيرد – صفحة مفتوحة فى كتاب الله المنظور ، ذكرها كتابه المسطور فى آيات كثيرة ، وأشار الى اختلاف أنواعها وأشكالها وأعضائها وقواها ، وألوانها وأصواتها، ومنافعها ومضارها ٠ وهي مع هذا الاختلاف خلقت من أصل واحد هو الماء والتراب ٠ قال تعالى :

« والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، ان الله على كل شيء قدير » (1) وقال ايضا : **« وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم امثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون »** (2) ٠

والسياق القرآنى هنا يعرض نشأة الحياة من أصل واحد ، وطبيعة واحدة، ثم تنوعها مع وحدة النشأة والطبيعة ٠

وقد اختلف المفسرون فى المقصود بقوله (من ماء) وهل هو ماء النطف الذى يخرج من كل كائن حي للقاح ؟ أو المراد بالماء العنصر المعروف بناء على انه داخل فى قوام كل حيوان ، ولا غنى عنه فى تخلق الحيوان وحياته ٠

وآية (النور) تشبه آية (الرعد) **« يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل »** (3) فى الدلالة على باهر القدرة فقد خلق الكل من الماء ثم تباينت الانواع والافراد تباينا تاما ، وفى هذا دلالة على كمال القدرة (4) ٠

وحقيقة ان كل دابة خلقت من ماء لا تعني ان كل حيوان نشأ فى أصله

---

(1) النور : 45 ٠
(2) الانعام : 38 ٠
(3) الرعد : 4 ٠
(4) انظر تفسير الزمخشرى 3 – 71 وابن كثير 3 – 298 وتنوير المقياس من تفسير ابن عباس – الفيروز أبادى – ص 221 – مطبعة الاستقامة بالقاهرة 1380 هـ – 1960 م ٠

من تراب الارض ومائها ، وأن الماء قوام كل كائن حي ، وقد تعنى أنه ما من دابة تدب على الارض الا وتكونت من بيضة من الانثى ولقاح من الذكر ، مع اختلاف أشكال الحيوان المنوى وخصائصه فى كل نوع من أنواع الدواب ليتميز كل جنس من الحيوان عن الآخر بصفاته وخواصه (1) ·

ونحن تمشيا مع منهجنا فى هذا البحث ، لا نعلق الحقائق الثابتة على النظريات العلمية للتعديل والتبديل لذا نكتفى باثبات الحقيقة القرآنية ، وهي ان الله خلق الاحياء كلها من الماء « **وجعلنا من الماء كل شيء حي** » ، فهي ذات أصل واحد ، ثم هي ـ كما ترى العين ـ متنوعة الاشكال ، فمن الحيوان من يمشى على بطنه وهو الزاحف ، ومنه الماشى على اثنين ، ومنه الماشى على أربع ، ومنه الماشى على أكثر من ذلك · وقد قدم ذكر الماشى على بطنه ـ الزاحف ـ لانه أظهر فى الدلالة على قدرة الله سبحانه، لان الماشى بغير آلة أمره أعجب من غيره ·· وكل ذلك وفق سنة الله ومشيئته ، لا عن فلتة ولا مصادفة و « **يخلق الله ما يشاء** » غير مقيد بشكل ولا هيئة · فالنواميس التى تعمل فى الكون قد اقتضتها مشيئته وارتضتها : « **ان الله على كل شيء قدير** » (2) ·

وان تأمل الاحياء المتنوعة الاشكال والاحجام ، والاصول والانواع ، والخواص والالوان ـ وهي خارجة من أصل واحد ـ ليوحى بالتدبير المقصود، والمشيئة المدبرة ، وينفى كل فكرة المصادفة العمياء ، ويؤكد تقدير الله العزيز وأنه الصانع الحكيم الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ··· وحتى عنصر الجمال فى الكون وراءه قصد وتصميم ، فعناصر الجمال هي التناسق، والتناظر ، والتناغم فى الاشكال والالوان والاصوات ، وتتكون من نسب مقدرة خاضعة لناموس ثابت أحكمته لتكوين الجميل ·· وعليه كان من كمال هذا الجمال ان الاشياء تؤدى وظيفتها عن طريق جمالها ، فهذه الالوان العجيبة فى الازهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التى تفوح ·· ووظيفة النحل والفراش بالقياس الى الزهرة هي القيام بنقل اللقاح ، لتنشأ الثمار · وهكذا تؤدى الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها ! ·· والجمال فى الجنس هو وسيلة لجذب الجنس الآخر اليه ، لاداء الوظيفة التى يقوم بها الجنسان · وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال (3) ·

وللطير من روائع الالوان والاشكال ما يعد مثالا فى جمال التنسيق وبراعة التصوير ، فكل لون ينسجم مع غيره

(1) انظر المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص 526 ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة 1975 م ·

(2) انظر تفسير الزمخشرى 3 ـ 71 ·

(3) انظر فى ظلال القرآن 6 ـ 698 ، ط 5 · بيروت ، دار احياء التراث العربى، 1967 م ·

بدقة بالغة ·· وسبحان من صور فأبدع !

وهذه العصافير المغردة ، طالما أطربنا تغمها الشجى ، ولحنها العذب ، وتساءلنا لماذا تغرد ؟

فى الحقيقة ان الذكر يقوم بهذا التغريد غالبا ليجذب الحسان من الاناث ، فالتغريد موهبته التى يعرضها عليها لعله يحتل قلب احداها وينجب الصغار ، وتارة أخرى نرى الذكر يغرد أمام حشد من الذكور وهو هنا يعلن للملأ أنه يذود عن عشه وعن أنثاه ·

وتارة أيضا يعلن العصفور بتغريده هذا أنه ملك لهذا العش وما يحيط به وهو لا يهمه فيما يحيط به الا الغذاء وهو يدرى وغيره لا يدرى أن الغذاء لن يكفيه اذا سكن هذاا لمكان وشاركه فيه دخيل ، ولهذا فهو ينذر ويحذر بأنه لن يرضى للآخرين بأن ينغصوا عليه حياته، ويعلن استعداده للقتال والحرب ، ذلك عمله ، وليس على الانثى الا أن تبنى العش وتضع البيض (1) ·

فمن ياترى أوحى اليه أن ينادى الاناث بذلك التغريد ، ثم يتخذ منه أيضا نذيرا لحماية عشه ؟

ومن الاختلاف فى خلق الطيور والدواجن جهازها الهضمى ، وهو اختلاف يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن القصد ، ويوضح جميل الصنع ، اذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب من الاسنان، عظمى التركيب هو المنقار ، الذى يستخدم فى التغذية عند جميع الطيور باختلاف أنواع غذائها بدلا من الفم والشفتين والاسنان ·

فالطيور الجارحة كالبوم والحدأة ، ذات منقار قوى مقوس حاد على شكل خطاف ، لتمزيق اللحوم · بينما للاوز والبط مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة ، تلائم البحث عن الغذاء فى الطين والماء · وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالاسنان لتساعد على قطع الحشائش ·

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب ، فقد خلقت له حوصلة وقانصة تهضم الطعام · ويلتقط الطير مواد صلبة لتساعد على هضم الطعام (2) ·

ومهما تحدثنا عن الطير ، فما يزال أمامنا كثير من مشاهده وكل ما فيه يتحدث عن الخالق ، وفى خلق ريش الطير الذى يتكون منه الجناح ما يدعو الفكر المتأمل أن يؤمن ، والقلب اليقظ أن يسجد ، فالملاحظ فى جناحى الطائر أنهما متساويان والا لما حفظ توازنه ،

(1) انظر من الخالق ·· الله أم الصدفة ؟ ص 29 وما بعدها · تأليف رشدى مدبولى حسن ، القاهرة ، مكتبة الزهراء ، 1974 م ·

(2) انظر "الله والعلم الحديث" ص 61 ـ 63 ، عبد الرزاق نوفل ، القاهرة ، الناشرون العرب 1971 م ·

واستقام فى طيرانه . وذيله خلق متناسبا مع جناحيه ، والملاحظ أيضا أن عينيه أقوى من الطير الارضى لحكمة : اذ يرى غذاءه وهو محلق فى الفضاء بخلاف الارضى فغذاؤه أمامه . قال تعالى : « **أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن، انه بكل شىء بصير** » (1) ... فهذه الطير السابحات فى الفضاء والقابضات الباسطات من الذى أودعها القدرة على ذلك ؟ ...

انه الرحمن يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب ، وبقدرته القادرة التى لا تكل ، وعنايته الحاضرة التى لا تغيب .

وبقى هنا شىء : وهو لماذا قال (صافات ويقبضن) ولم يقل (صافات قابضات) ، أي لماذا عبر عن الصف بالاسم وعن القبض بالفعل ؟

« ان النكتة فى التعبير عن القبض بالفعل المضارع الذى يفيد التكرار والتجدد هي تصوير الحالة لاذهان المخاطبين وزيادة تعجبهم منها ، فانهم حين نقول لهم انظروا الى الطير صافات يعجبون من أمرها ، ثم يخف العجب حينما يقع فى نفوسهم أنها عند بسط أجنحتها يكون قد دعمها الهواء كما يدعم الاجسام الرقيقة المنبسطة فيه ، فاذا نبهناهم الى أن الطير قد يقبض جناحيه فى أثناء الطيران ولا يقع يكون قد زدنا فى عجبهم ، وهجنا دهشتهم . والفعل المضارع بما فيه من معنى التجدد والحدوث والزمن يساعد على تصوير الحالة واحضارها فى ذهن المخاطب أكثر من الاسم ، يعرف ذلك من تفطن لاساليب العرب » (2) .

هذا وان فى الجناح قدرة خفية لا يعرف مصدرها ولم تزل من المشكلات التى لم يحلها العلم الحديث « فالقطار مثلا يقطع المسافات الشاسعة بقوة البخار الدافعة ، ولكن جناح الطائر يحمله مئات الاميال بدون أن يستمد طاقة من الخارج . وقد يرفرف الجناحان بسرعة عظيمة مدة طويلة من الزمن مدفوعين بقوة كامنة لا يدرك منشؤها ولا المورد الذى يغذيها . وتتضح هذه الظاهرة فى العصفور الطنان الذى يزيد حجمه قليلا عن النحلة ، فانه يستقر فى الهواء تحت زهرة بها رحيق مرفرفا جناحيه بسرعة مفرطة حتي ليخيل للرأى أنهما ساكنان » (3) .

* * * *

والحديث عن مشاهد الحيوان ـ دوابه وطيره ـ فيه كثير من الحقائق التى تذهل ، وفيه من القدرات ما يقف أمامها الانسان مبهورا ، فهذه (الانعام) ذكرها القرآن فى آيات عديدة وامتن

---

(1) الملك : 19 .
(2) تفسير جزء تبارك للمغرسى ص 18 وقارن بتفسير الزمخشرى 4 ـ 138 .
(3) غرائز الحيوانات ـ محمد محمد فياض ص 91 . سلسلة أقرأ العدد 48 سنة 1946 .

علينا بمنافعها الكثيرة ، وأبدع خلقها وتكوينها ، وتذليلها ، وجعلها ، (على كونها من أكلات العشب) ،مخزنا للمواد البروتينية والدهنية ، من ضروب الانتفاع بألبانها ولحومها وشحومها وأصوافها وأشعارها وأوبارها وجلودها وعظامها ، فضلا عن استخدامها فى حرث الارض ، والركوب ، وحمل الاثقال وجرها ·

يقول القرآن الكريم :

« والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » (1) ·

ـ « وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » (2) ·

ـ « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين » (3) ·

ـ « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون · وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون · ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » (4) ·

ـ « الله الذى جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تأكلون · ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون » (5) ·

هذا بعض ما ذكره القرآن من منافع الانعام الصريحة المفصلة ، والمنافع الخفية المجملة ، ونبه الى ما فيها من تلبية لضرورات البشر مما لا يستغنى عنه : ففى الانعام دفء من الجلود والاصواف والاوبار والاشعار ، ومنافع فى هذه فى الحليب واللحم وما اليهما · ومنها يأكل الانسان لحما ولبنا وسمنا ، ومنافع فى حمل الاثقال الى البلد البعيد لا يبلغونه الا بشق الانفس ·

والانعام آية مشهودة منظورة من آيات الله ، ليست غائبة ولا بعيدة ، ولا غامضة تحتاج الى تدبر أو تفكير ·· فهي ملك الانسان ، ذللها الله لمنافعه ·· وكل ذلك بقدرة الله وتدبيره ، وبما أودع الانسان والانعام من الخصائص ، فجعل الانسان قادرا على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها ، وجعلها مذللة نافعة ملبية لشتى حاجات الانسان · وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئا ، وما يملكون أن يذللوا ذبابة

---

(1) النحل : 5 ·
(2) النحل : 66 ·
(3) النحل : 80 ·
(4) يس : 71 ـ 73 ·
(5) غافر : 79 و 80 ·

لم يركب الله فى خصائصها أن تكون ذلولا لهم · (أفلا يشكرون) ·

وقال تعالى :

« وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » (1) ·

نعم انها لعبرة ما بعدها عبرة لبن خالص أبيض ناصع سائغ للشاربين يخرج من بين فرث قذر ذى رائحة كريهة ودم أحمر قان ، فقد خرج اللبن أبيض طيبا · ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون ·

« توجد فى ضروع الماشية غدد خاصة لافراز اللبن (الحليب) تمدها الاوعية الشريانية بخلاصة مكونة من الدم ، والكيلوز ، وهو خلاصة الغذاء المهضوم ، وكلاهما غير مستساغ طعما، ثم تقوم الغدد اللبنية باستخلاص العناصر اللازمة لتموين اللبن من هذين السائلين : الدم الكويلوز ، وتفرز عليهما عصارات خاصة تحيلها الى لبن يختلف فى لونه ومذاقه اختلافا تاما عن كل منهما » (2) ·

فما أعظم الاعجاز فى هذه الآية الكونية التى تصف للناس سرا يتم فى الظلام ، ومن المحال أن تراه عين انسان ، وتخبر كيف يصنع اللبن فى هذا المعمل اللحمى وكيف يطبخ فيخرج ناصع البياض نظيفا من بين فرث ودم أحمر · فسبحان من أخرج هذا الابيض من ذلك الاحمر ·

وحين ينظر الانسان الى نعم الله فى ضوء ما سبق يحس أنه مغمور بفيض من نعم‌الله ، فيض يتمثله فى كل شىء حوله ، وفى كل مرة يركب فيها دابة، أو يأكل قطعة لحم ، أو يشرب جرعة حليب ، أو يتناول من سمن أو جبن ، أو يلبس ثوبا من شعر أو صوف أو وبر ·· لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته · ويشمل هذا كل ما تمس يده من أشياء حوله ، وكل ما يستخدمه من حي أو جامد فى هذا الكون الكبير · وتعود حياته كلها تسبيحا لله وحمدا وعبادة آناءالليل وأطراف النهار ·

---

(1) النحل : 66 ·
(2) المنتخب فى تفسير القرآن ص 395 ·

الاسلام والعلاقات الدولية

د٠عبد الحليم عويس

اذا كانت الجوانب الاجتماعية والاقتصادية تمثل السياسة الداخلية للدولة الاسلامية ، فان « العلاقات الدولية » تمثل السياسة الخارجية لهذه الدولة ٠

وبامكاننا ـ باطمئنان كبير ـ أن نقول : ان الخصائص الاخلاقية والانسانية التى أرسى الاسلام دعائمها كمبادىء عامة ، تمتد من السياسة الداخلية الى السياسة الخارجية ٠ فالاسلام فى كل تشريعاته وخصائصه ـ كل منسجم يهدف الى غايات نبيلة ، ويعتمد ـ فى وصوله اليها ـ وسائل نبيلة كذلك ٠

وفقهاء الاسلام يقسمون العالم ثلاثة أقسام :

1 ـ دار الاسلام وهي كل البلدان الاسلامية ٠ وعقيدتها واحدة وشريعتها واحدة ٠

2 ـ دار الحرب ، وهي الدول المعادية للاسلام المتاخمة لبلاده التى لا يأمن المسلم فيها على دمه أو عرضه أو ماله ٠

3 ـ دار العهد ، وهي الدول التى بينها وبين المسلمين عهود ٠

وقد تحدثنا عن دار الاسلام حين تحدثنا عن المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العامة فى الصفحات السابقة ٠

أما دار الحرب ودار العهد ، فهما موضوع حديثنا هذا ٠

الاسس العامة للعلاقات الدولية فى الاسلام :

يضع الاسلام قواعد عامة لتعامله الدولى ، يبنى على أساسها تعامله مع الانسانية خارج دار الاسلام ٠٠ أي مع دار الحرب ودار العهد ٠٠

* فالاسلام ـ أولا ـ دين الله ، لكل الناس ، لم يأت لجنس دون جنس ، فهو عقيدة منفتحة ، وليست مغلقة « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » ٠

* والاسلام لم يأت حربا على الانسانية ، بل جاء ناشرا للواء السلم والرحمة والحب « **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة** » (1) « **فان**

(1) البقرة : 308 ٠

اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » • (2)

* والامة الاسلامية مسئولة عن نشر الخير والمعروف بين الناس ، فليست هي بالامة السلبية « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »** • (3)

* واعادة القوة ـ بالتالى ـ أمر هام بالنسبة للامة الاسلامية « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »** • (1)

* والحرب فى الاسلام انما شرعت لمنع الطواغيت عن مقاومة الحق والعدل • ولدفع الاذى عن المؤمنين ، ولارهاب الباطل حتى لا يفكر فى غزو الحق •؟

ومع ذلك فهذه الحرب لها آداب انسانية ، لم يشهد التاريخ تطبيقا لها يقارب التطبيق الاسلامى الانسانى الفريد •

* والحرب فى الاسلام جزء من رسالته فى تحرير المستضعفين فى الارض « **وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا »** • (2)

* والمسلمون ملزمون بالوفاء بكل العهود والمواثيق التى بينهم وبين الكفار، ولا يجوز لهم اهتبال الفرص والغدر ونقض العهود « **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها »** (3) •

* والتسامح ركيزة أساسية فى سياسة الاسلام • وكان له دوره فى نشر الاسلام ، واقبال الشعوب عليه •

هذه بايجاز شديد هي الاسس العامة للعلاقات الدولية فى الاسلام وهي ليست شعارات مزيفة بل هي واقع تاريخى حى بهر الاوروبيين أنفسهم فتحدثوا عنه باطناب ، وجعلوه من أبرز مزايا الاسلام (والاسلام كله مزايا لو أبصروه بعين الحق) •

من الواقع التاريخى :

ويؤكد الواقع التاريخى تطبيق المسلمين الحي النادر لهذه الاسس •

والصور التى يذكرها التاريخ لا تعطى الاسلام امتيازه فى جانب العلاقات الدولية فحسب ، بل هي ـ فى الوقت نفسه ـ دليل على الجدب الناتج

---

(2) النساء : 90 •
(3) آل عمران : 104 •
(1) الانفال : 60 •
(2) النحل : 91 •
(3) النساء : 75 •

عن التدهور الخلقى الذى يتسم به اتباع الاديان الاخرى التى خلا تاريخها من كل صور الانسانية · وما مواقف الصليبيين فى الحروب الصليبية عنا ببعيد ، حين حاصروا « معرة النعمان» بسوريا ، وأعطوا أهلها عهودا ثم غدروا بهم ، وقتلوهم عن آخرهم ، وهم أكثر من مائة ألف · وما جرائمهم ببعيدة أيضا حين شددوا الحصار على « بيت المقدس » ، وأعطوا أهلها الامان ·

فلما دخلوها ذبحوا كل من فيها حتى تحولت المدينة الى أنهار من الدماء ·

ولا نستطرد فى ذكر هذه الصور الكريهة ، فليست ما نهدف اليه ، وانما هدفنا توضيح الاسس التى كانت عليها العلاقات الدولية فى الاسلام من الناحية التطبيقية والعملية ·

بعد تسعين سنة من مجزرة بيت المقدس الآنفة الذكر نجح صلاح الدين الايوبى فى استرداد بيت المقدس من أيدى الصليبيين · فماذا فعل بمن فيها من النصارى ؟ ـ لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف أعطاهم صلاح الدين الامان على أنفسهم وأموالهم ··· فلم يقتل واحدا منهم ، وانما سمح لهم بالخروج لقاء مبلغ زهيد يدفعه القادرون منهم · وقد تجاوز عن فقرائهم ، وكانوا أكثر من خمسين ألفا ، فلم يأخذ منهم شيئا · ولما أراد البطريك الفرنجى الخروج سمح له بالخروج ومعه من أموال الكنائس الكثير ، فاقترح أحد المسلمين أخذ هذه الاموال ، فأبى صلاح الدين وقال : « لا أغدر بهم » ·

والاكثر من ذلك أن كثيرا من النسوة النصرانيات ذهبن اليه يشتكين الفقر والحاجة الى المأوى والعائل ، وأطلق الاسرى من رجالهن ، وأعطاهن مالا كثيرا (1) ·

ولما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية دون عهد أمان ، دخل الى كنيسة « أيا صوفيا » ، وكان قد لجأ اليها رجال الكنيسة ، فأحسن استقبالهم، وأكد حمايته لهم ، وطلب من النصارى الفزعين الموجودين فيها أن يذهبوا الى بيوتهم آمنين ثم نظم شئونهم ، وترك لهم حق اتباع كنائسهم الخاصة ، وقوانينهم الملية ، وتقاليدهم المتعلقة بالاحوال الشخصية ، وترك للقساوسة انتخاب بطريك لهم فانتخبوا «جناديوس»، واحتفل السلطان بانتخابه بنفس الابهة التى كانت متبعة فى عهد البيزنطيين ، وجعل له حرسا خاصا من الانكشارية، ثم أعلن السلطان اعترافه بقوانين الكنيسة الارثوذكسية ، ووضعها تحت رعايته، ثم جمعت واشتريت كل الآثار النصرانية التى نهبت يوم الفتح ، وسلمت للكنائس والاديرة » · (2)

(1) نقلا عن المرحوم الاستاذ : مصطفى السباعى : من روائع حضارتنا ص 99 ـ 101 ·

(2) المرجع السابق 101 ، 102 ·

فهل يضم التاريـــخ الصـــليـــبى أو اليهودى فى كل أدواره صورا تشابه مع هذه الصور أو تقاربها ؟ ٠

ان الخبائث والفتن وصــــور التخلف والتحلل وغيرها من المظاهر التى تركها الاستعمار الاوروبى الحديث فى كـــل البلاد التى دخلهـا أوضح اجابـة حية شاهدة على ذلك ٠

وان الاخلاق الحضارية ، ومظاهـــر الفروسية ، ونواحى العمران الـــتى تركها المسلمون فى الاندلس وصقلية ، وجزر البحر الابيض الاخرى ، والـتى لا زالت حية يعترف الاوروبيون بفضلها، ويحتفلون بها (1) كتراث خالــد عاش بينهم – هذه الاخلاق والآثار العمرانية والفنية أكبر دليل حي على مدى تسامح الاسلام ، وأقوى شاهد على نوعيـــة علاقاته بالدول التى اتصلت بنـــوره ، واستضاءت به « **يريدون ليطفئوا نــــور الله بأفواههم ، والله متـم نوره ولو كره الكافرون** » ٠ (2) صدق الله العظيم ٠

(1) تقيم اسبانيا بين الحين والحين احتفالات ضخمة لابطال حضارتنـــا الاسلامية والعربية من أمثال ابن حزم الاندلسى ، ولسان الدين بن الخطيب ، ومن أمثال بعض الشعراء كابن زيدون ، وابن عباد ، وأبن عمار وغيرهم ٠

(2) الصـــف : 8 ٠

العلاقات الابدية بين الاسلام والعربية

د٠ أحمد بن نعمان

يعتبر الدين من أقوى النظم الاجتماعية التى عرفتها البشرية منذ بدء الخليقة ، ولئن اختلف العلماء فى تحديداتهم لماهيته ، وتضاربت آراؤهم حول تحديد مصادره ، أو سبب وجوده ٠٠ فانهم لا يختلفون على انه موجود كظاهرة اجتماعية صاحبت الانسان فى جميع أطواره الثقافية عبر التاريخ ، وان له علاقة تأثير وتأثر بمعظم النظم الاجتماعية السائدة فى المجتمع لعلاقته بالانسان وارتباطه بصميم الواقع الاجتماعى ٠

وانطلاقا من هذه المسلمة سنحاول ان نتبين علاقة النظام الدينى بالنظام اللغوى كما نلاحظهما فى الحالات التالية :

1) ان الاديان مهما اختلفت أنواعها فهي مجموعة من القواعد الضابطة لسلوك الفرد مع نفسه ومع الجماعة، ومن حيث هي كذلك تتطلب ـ بالضرورة ـ الاستعمال اللغوى فى الدعوة لها ، وفى ممارسة طقوسها ، بل وفى اعتناقها كالتشهد فى الاسلام مثلا (حيث يعتبر التلفظ بالشهادتين شرطا أساسيا للدخول (فى الدين الاسلامى) ٠

2) يؤثر الدين فى اللغة ببعض الخصائص التى يتميز بها ، ومن هذه الخصائص الرموز التى تحمل الدلالات، ولا توجد بنفس المعنى فى غير النطاق الدينى ، ككلمة (أحد) التى ترمز الى الوحدانية وكلمة (البعث) التى ترمز الى يوم القيامة فى الآخرة وكذا (الخلود) ، و (الصراط) و (الحساب والعقاب) ٠٠٠ والرموز الحرفية مثل (الف ، لام ، ميم) و (ياسين) و (كاف هي عين صاد) فى القرآن الكريم ٠ فهذا النظام الرمزى فى لغة الدين له تأثير ظاهر فى النظام اللغوى عموما حيث يغير مدلول كلمات أو يضيف دلالات جديدة الى اللغة السائدة ٠

3) من خصائص الدين انه يتعلق بمبادىء وقيم ثابتة ، وبكائن أو كائنات علوية أبدية ، والاتصال بهذا الكائن العلوى الابدى ، او اتصال الكائن العلوى بالكائنات الدنيا يتم بوسيلة الاتصال التى هي اللغة ومن ثم يكون الدين من

أقوى الوسائل المحافظة على اللغة ونجد ذلك واضحا فى لغة الدعوات مثلا ، وأسلوب التضرع الى الله ... الذى لا يكاد يتغير فى جميع الديانات منذ ظهورها ، مع انه كلام بشر ، ويجوز الاجتهاد فى تغيير أسلوبه (نقصد الكلمات التى تصاغ بها الدعوات الى الله ، وليس كلام الله المقدس الذى لا يجوز تغييره) ، ومن الامثلة البارزة على ذلك : اللغة العبرية التى زالت من التداول منذ أكثر من عشرين قرنا ، ولكنها بقيت محفوظة كلغة خاصة بفضل علاقتها بأسفار التوراة التى ظل اليهود يحافظون عليها حيثما تشتتوا فى أقطار العالم الى أن كونوا وطنا قوميا لهم فى هذا القرن · فوجدوا وسيلة الاتصال، قائمة بين اليهود ـ على ضعفها ـ فعملوا على تقويتها ، واثرائها بالمفردات العلمية لتساير العصر ، ليجعلوا منها احدى دعائم القومية اليهودية ، واحدى وسائل الاتصال بين أشتات اليهود من سلالات البشر المختلفة · (1)

ويمكن القول بأن اللغة العبرية لو لم تكن لغة الدين اليهودى لزالت من الوجود الى الابد ، ولعلها هي اللغة الوحيدة التى عادت الى وضعها الصحى بعد جمود دام أكثر من عشرين قرنا !

ونفس الكلام يمكن أن يقال على اللغة العربية ، فلو لم يكن القرآن هو حافظ اللغة العربية لتغيرت كثيرا عما هي عليه الآن ، ولو فرضنا ان التوراة أو الانجيل أو القرآن أنزلوا باللغة السامية الاولى لوجدنا هذه اللغة مستعملة الى يومنا هذا ·

وأقرب مثال الينا فى هذه الحالة هي اللغة القبطية فى مصر ، فعلى الرغم من زوال هذه اللغة تماما من التداول اليومى منذ عدة قرون فاننا نجدها باقية فى الكنائس القطبية ، ومستعملة فى الطقوس الكنائسية والادعية والتراتيل · (2)

ويكفى القول (فى موضوع المحافظة، بأن الدين يتعلق بكائن أبدى (خالد) · واللغة التى بلغ بها هذا الدين ، أو اللغة التى تمارس بها طقوسه ، لابد أن تكون بالضرورة باقية ما بقي هذا الدين قائما فى المجتمع ·

4) تفرض لغة الدين نفسها على معظم فئات المجتمع ، لان الدين يخلق عادات وقيما وتقاليد فى المجتمع لا يجد الفرد بدا من اتباعها ـ طوعا أو كرها ـ ومن الامثلة التى يظهر فيها فرض الدين للغة على الالسن ترديد الناس لبعض التعابير الدينية المختلفة · والملاحظ

---

(1) انظر مقال Nicholas Boudet فى جريدة Le Monde عدد 15 يونيو 1965 ، وانظر مقالات للدكتور : مبارك باكر · بمجلة (أكتوبر) عدد 20 فبراير 1977

(2) أحمد مختار عمر ، اللغة العربية فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة 1970 ص 1 ، 2 (من المقدمة) ·

ان تلك التعابير تتردد على ألسنة أناس يجهرون بالحادهم . فهم على كفرهم يذكرون (الله) اذ يقسمون بقولهم (والله العظيم) أو يترحمون على الاموات بقولهم (الله يرحمه) أو يردون على المتسولين بقولهم (الله يفتح ، أو الله كريم) وذلك يصدر منهم ــ لاشعوريا ــ بحكم العادة ، والتطبع أو ــ شعوريا ــ بفعل ما للنظام الدينى من قوة الجبر والالزام لافراد الجماعة على عدم الخروج عن بعض قواعده ، وضوابطه العامة .

ويظهر تأثير الدين فى اللغة فى المناسبات المتعددة كالمواسم والاعياد ، وترديد الناس للمدائح الدينية بكيفية خاصة ، ولغة خاصة . ومن أوجه هذا الارتباط بين الدين واللغة ما يظهر باستمرار من كتابات أدبية ، أو فلسفية أو فقهية ، أو عامية ... تكتب حول الدين شرحا أو نشرا ، أو دفاعا عنه فى وجه خصومه .

5) والملاحظ فى هذا المثال الاخير ان للغة ــ أيضا ــ تأثيرا فى الدين بقدر ما للدين من دور فى نشر اللغة ، والحفاظ عليها ... فبالقدر الذى كان الدين دافعا للكتاب ، والفلاسفة ، والعلماء على التفكير وانتاج الآثار الادبية الرائعة دفاعا عنه ونشرا له ، كانت اللغة وسيلة مؤثرة فى الدين بوصفها أداة تبليغ للآخرين . وكلما كانت غنية فى بلاغتها ، وأجادت التعبير عن التعاليم التى يبشر بها الدين كلما ساعدت على نشره وأرسخت مبادئه ورغبت فيه ... ولعل بلاغة القرآن واعجازه البيانى الذى يؤثر فى النفوس لاوضح مثال على تأثير اللغة فى الدين . ولا أدل على ذلك من أن القرآن المترجم لا يجد قارئه أي ذوق أو جاذبية ، أو أثر فى نفسه أشبه بذلك الذى يستشعره المسلم من بلاغة المعنى ، وحلاوة التعبير وعذوبته عندما يقرأ القرآن بلغته الاصلية . ونخلص الى الاقرار بوجود علاقة قوية بين الدين واللغة تتمثل فى تأثير كل منهما فى الآخر بمقادير متفاوتة . وبقدر ما يكون الدين منتشرا فى المجتمع بقدر ما تكون علاقته باللغة أقوى تأثيرا وتأثرا ، والعكس صحيح فى بعض الاحيان : أي بقدر ما يبتعد أفراد المجتمع عن الدين تكون لغة هذا الدين ضعيفة فى المجتمع ، وأبرز مثال على ذلك ضعف اللغة اللاتينية وتقلصها فى أوروبا (3) حينما بدأ نطاق الدين المسيحى يضيق مع بداية عصر التنوير والثورة التكنولوجية ، مما اضطر رجال الدين المسيحى فى السنوات الاخيرة الى الافتاء بجواز القاء خطب الوعظ ... باللغات المحلية التى يفهمها

(3) توجد أسباب أخرى ساعدت على تقلص اللغة اللاتينية فى الواقع الاوربى ابتداء من القرن 16 عشر الى جانب الابتعاد عن الدين .

الجمهور ترغيبا له فى الدين (4) وفى هذه الحال أيضا نجدنا أمام مثال واضح لتأثير اللغة فى الدين حيث يعمد اليها كوسيلة لنشر الدين ، والتبشير به وترغيب الناس فى تعاليمه (5) ·

واذا كانت للغة علاقة تأثير وتأثر بالدين السائد فى المجتمع ··· على النحو الذى حاولنا التدليل عليه فيما سبق ·· فان للغة العربية علاقة خاصة بالدين الاسلامى تتميز بها عن علاقة سائر اللغات فى العالم بدياناتها السماوية، أو الوضعية ، ويعود السبب الاول لهذه العلاقة الى نزول القرآن باللغة العربية، وما نجم عن ذلك من تقديس المسلمين للغة العربية كتقديسهم للقرآن ، وتقديس المجتمع لشىء من الاشياء يتطلب بالضرورة فهمه والمحافظة عليه · وهكذا ارتبطت اللغة العربية ارتباطا قويا بالاسلام لانها مفتاح فهم للعقيدة الدينية ووسيلة المحافظة عليها ، ما بقى لهذه العقيدة معتنقون فى المجتمع ولو تتبعنا تاريخ اللغة العربية فى مختلف أطوارها فاننا نجدها تدين بوجودها فى البلدان العربية الحالية ، وبقائها وانتشارها المستمر فى العالم للدين الاسلامى أولا وأخيرا · فمهما قيل عن رقي اللغة العربية فى العصر الجاهلى ، ومهما اختلف الباحثون حول سمو معانيها ونضجها فى ذلك الوقت ، والمتمثل فى القصائد المعلقة ، وسجع الكهان ··· الا أن ما لا يختلف فيه أحد ان هذه اللغة كانت لغة قوم من البدو (فى الجملة) لا يعرفون للحضارة المعاصرة ولا للتأثير فى الشعوب المجاورة لهم أو التأثر بها سبيلا (الا قليلا ، لا يقاس بما تتأثر به المجتمعات فى مثل حالتهم تلك) · وكانت لغتهم بالتالى محصورة فى الحيز الجغرافى للجزيرة العربية ، ولم تختلط باللغات المجاورة لهم فى ذلك الوقت ، الا عن طريق رحلات الشتاء والصيف وكانت العربية فى هذه الحالة تتأثر دون تأثير يذكر فى غيرها من اللغات القوية السائدة فى ذلك الوقت مما أدى ببعض

---

(4) حدث ذلك فى ايطاليا سنة 1970 علما بأن اللغة اللاتينية ما تزال مقدسة ومحافظا عليها أشد المحافظة فى الفاتيكان بما تبق مع قوله بأن الدين يحافظ على لغته نسبيا ـ ولكن ليس بالضرورة أن يحافظ الدين على لغته فى مجتمع غير متدين ·

(5) يظهر ذلك فى الحملات التبشيرية بالدين المسيحى التى ما انفكت تجوب أقطار العالم ، وخاصة افريقيا مبلغة تعاليم المسيح باللغات المحلية ، علما بأن هذا ان انطبق على الديانة الاسلامية من حيث أسلوب الدعوة باللغات المحلية فانه لا تنطبق عليها فى تلاوة القرآن الكريم باللغات المحلية أو الدعاء ، أو الصلاة وهذا ما يجعل اللغة العربية أكثر ارتباطا بالاسلام من غيرها من الديانات كما سيأتى ·

المستشرقين الالمان الى القول بأن اللغة العربية كانت ذات ميزة التوالد الذاتى، أي انها تحمل مقومات التطور من ذاتيتها دون أن تقبل الدخيل من اللغات الاخرى (7) مما جعلها تصل فى عزلتها المعروفة الى ما بلغته من رقي ·

ومهما يكن من أمر فان اللغة العربية ما كان لها أن تبرح الجزيرة العربية ولا أن تكتسح الاقطار المجاورة شرقا وغربا ، وتنتشر فيها ، وتؤثر فى لغاتها، أو تحل محلها بالسرعة والكيفية التى عرفها صدر الاسلام لو لم تكن لغة القرآن ، ولغة العبادة ، ولغة فهم الدين الجديد فالاسلام كان دفعا جديدا لرقي اللغة العربية ، وجاء هذا الدفع على يد القرآن والحديث ، فأوجد القرآن نسقا جديدا فى التعبير الى جانب الشعر والنثر ، وكان القرآن الرابط الاقوى بين اللغة والدين ، فما يقوله القرآن يصبح القاعدة والمعيار حتىوان لم يكن للعرب عهد به · فالقرآن هو الفيصل فى الدين واللغة العربية · وفى ذلك يقول المستشرق الالمانى (يوهان فك) « ان لغة القرآن تختلف اختلافا غير يسير عن لغة الشعراء السائدة فى الجزيرة · فلغة القرآن تعرض من حيث هي أثر لغوى ، صورة فذة لا يدانيها اثر لغوى فى العربية على الاطلاق ، ففى القرآن لاول مرة فى تاريخ اللغة العربية يكشف الستار عن عالم فكرى تحت شعار التوحيد ، لا تعد لغة الكهنة والعرافين الفنية المسجوعة الا نموذجا واهيا له من حيث وسائل الاسلوب ، ومسالك المجاز فى اللفظ والدلالة » · (8)

ولو تتبعنا اللغة العربية فى العهد الاسلامى لوجدنا كتاباتها متأثرة فى المبنى والمعنى بالقرآن ويليه الحديث ، ومن أمثلة الكلمات والتعابير المتداولة فى اللغة العربية والتى ترجع فى أصلها الى القرآن : (العروة الوثقى ، سنة الله ، مثقال ذرة ، أسوة حسنة ، المثل الاعلى ، بكرة وأصيلا ، لا يكلف الله نفسا الا وسعها) ، والى جانب القرآن يوجد الحديث الذى ترك آثاره على اللغة العربية أيضا ·

ونتج عن حرص المسلمين على فهم القرآن والحديث ، ان اجتهدوا فى

---

(6) السيوطى ، المزهر فى علوم اللغة ، دار احياء الكتب العربية (ب ت) ص 293

(7) د· عائشة عبد الرحمن ، لغتنا والحياة · دار المعارف بمصر القاهرة 1976 ص 48 ·

(8) يوهان فك ، العربية ، ترجمة د· عبد الحليم النجار ، مطبعة دار الكتاب العربى 1951 ص 4 ·

وضع قواعد النحو والصرف لحماية القرآن من اللحن فى قراءة العديد من آيات القرآن مثل : « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » (9) « **أن الله برىء من المشركين ورسوله** » (10) و « **واذ ابتلى ابراهيم ربه** » (11) ولولا القواعد النحوية التى تمكن القارىء من قراءة مثل هذه الآيات بكيفية سليمة لوقع فيها تحريف كبير ، كما يسر المسلمون قراءته بوضع النقط ، والحركات على الحروف ، وتعمقوا فى دراسة فقه اللغة العربية لتفسيره ، وفهم دلالاته العميقة ، ووضعوا علوم البيان لمعرفة سر الاعجاز البيانى فى القرآن ، وفى هذا المعنى يقول ابن خلدون « أعلم أن ثمرة هذا الفن (أي البيان) انما هو فهم اعجاز القرآن » . (12) وكان للاسلام فضله على اللغة العربية فى اشتراط التشهد بها مما جعل الملايين من الشعوب الاسلامية حتى غير العربية منها تحاول أن تتعلم اللغة العربية ولو بالقدر اليسير الذى يمكنها من قراءة الدعوات وبعض السور القصار من القرآن الكريم ، وهذه الشعوب ان لم تجد اللغة العربية، فهي دائمة التشوق اليها من غيرها ، وهذه الرغبة فى تعلمها ، والتحدث بها، نلاحظها بكل وضوح لدى كافة الشعوب الاسلامية فى العالم . ففى الوقت الذى لا نجد للغة العربية أثرا يذكر فى المجتمع الهندوسى ، نجدها اللغة الثانية فى باكستان ، ويوجد اتجاد قوي فى هذا البلد لجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية والوطنية بدلا من اللغة الانجليزية ، كما كانت اللغة العربية فى موريطانيا ، وفى الصومال اللغة الثانية من حيث الاستعمال حتى قبل انضمام هذين البلدين الى الجامعة العربية . فالاسلام اذن هو الذى أخرج العربية من جزيرتها لتنتشر فى أقطار العالم العربى والاسلامى ، وجعل عباقرة الشعوب الاسلامية ينتجون الآثار الادبية والفكرية الخالدة باللغة العربية (فى زمن قصير) وما كتب الرازى ، وابن سينا ، والفرابى ، والغزالى ، والبيرونى، وسيبويه ، والطبرى ، والبخارى ... الا أمثلة على ذلك . ولولا الاسلام ما وجدت البلدان العربية التى لا تجمعها الا وحدة اللغة ، والتاريخ الثقافى المرتبط بهذه اللغة ، لان الدين - وان كان رابطها الاول - فهو ليس خاصا بها وحدها كامة بل تشترك معها فيه كل البلدان الإسلامية في العالم .

(9) الآية 28 من سورة فاطر .

(10) الآية 3 من سورة التوبة .

(11) الآية 124 من سورة البقرة .

(12) المقدمة ، مطبعة دار الشعب ، القاهرة ، ب ت ، ص 521 .

والبلدان العربية ان وجدت بحكم وقوعها تحت السلطان المباشر للامبراطورية العربية الاسلامية فى عهد الخلافات المتعاقبة على الوطن العربى عبر التاريخ المديد للحضارة الاسلامية فان الاسلام هو الذى حافظ على اللغة العربية فى هذه الاقطار بعد زوال الخلافة الاسلامية وتفتت المجتمع العربى الى دول صغيرة متناحرة منغلقة على نفسها ، وظهرت لهجات متباينة ضاعف من تباينها تفشى الامية والاحتلال الاجنبى الذى عمق الهوة ، وخلق أسباب العرقلة بين أجزاء المجتمع العربى الى درجة أن اصبح الامى الجزائرى المتحدث باللهجة العامية فى العاصمة مثلا يصعب عليه التفاهم مع الامى العربى فى العراق أو اليمن أو السعودية أو مصر ، ولا أدل على ذلك من أن كل الافلام الجزائرية الناطقة باللهجة العامية تترجم الى اللغة العربية الفصحى عند عرضها فى البلدان العربية فى الوقت الحاضر ، وكادت تصبح هذه اللهجات العامية (المنتشرة فى البلا دالعربية) لغات مستقلة بذاتها مثلما وقع للهجا تالاوروبية فى العصر الوسيط حيث استقلت عن اللغة اللاتينية الإم استقلالا كليا ، واصبحت كل لغة تكون قومية بذاتها (I3) . فرغم الظروف الموضوعية ، وما بذله الاستعمار (وما يزال يبذله بكل وقاحة وبدون ملل أو يأس الى اليوم !) من جهود للقضاء على اللغة العربية الفصحى ، فان تلك المساعى كلها تحطمت على صخرة القرآن حيث بقيت لغة القرآن – رغم انتشار اللهجات المحلية – هي اللغة العربية النموذجية الوحيدة التى تفرض نفسها فرضا على كافة اللهجات العربية والمعين الاقوى والاصفى الذى أخذت ولا زالت تأخذ منه اللهجات العربية مفرداتها للتعبير اليومى (I4) وبفضل القرآن وحده أصبح للفرد العربى لهجة محلية يستعملها فى التداول اليومى مع أبناء وطنه أو عشيرته (فى غياب انتشار التعليم) ولغة عربية فصحى تصله بأبناء أمته فى كافة الاقطار الشقيقة سواء بالاذاعة أو الصحافة المكتوبة أو اي طريق من طرق الاتصال اللغوى .

وأقوى دليل على هذه العلاقة بين اللغة العربية والدين الاسلامى هو فشل كل المحاولات التى بذلت لتغيير قواعد اللغة العربية أو حروفها (I5) أو اجراء اي اصلاح فيها ، ولو كان ذا غرض بناء ومضمون النتائج ... وذلك لان اللغة العربية هي لغة القرآن (كلام

(I3) ساطع الحصرى ، آراء وأحاديث فى اللغة والادب ، دار العلم للملايين بيروت ص 50 .

(I4) جمال البنا ، روح الاسلام ، مطبعة حسان – القاهرة 1972 ص 70 الى 78

(I5) عثمان صبرى ، نحو أبجدية عربية جديدة ، مطبعة المصرى بالاسكندرية 1964 ، ص I3 – I9 .

الله الازلى الابدى) فبقى المسلمــون يحافظون عليها كحفاظهم على أرواحهم المرتبطة بجوهر القرآن ٠

وخلاصة القول فان اللغة العربية مرتبطة ارتباطا شديدا (حتميا أبديا) بالـدين الاسلامى فى البلدان العربية والاسلامية وهي باقية على أي شكل من الاشكال ما بقى هذا الدين سائدا فى أية بقعـة من بقاع المعمورة ٠

فهــو حاميهــا من الزوال ومساعـدها على الانتشار ، واذا استطاع كمـــال أتاترك ـ مثلا ـ أن يغير الحروف اللاتينية بالحروف العربية فى اللغة التركية (16) فانه لم يستطع هو ولن يستطيع أتباعه أن يغيروا حروف القرآن ولا أن يفرضوا ترجمته باللغة التركية على المجتمـــع التركى المسلم حيث ما يزال يرتل القرآن باللغة العربية ويكتب بحروفها الى اليوم وقد بلغنا فى المدة الاخيرة ان الاتجاه السائد فى هذا البلد المسلم يسيــر الى ترسيم تعليم اللغة العربية كلغة ثانيـة فى المـدارس الابتدائيـة والثانويـــة والجامعات التركية ، ونفس الاتجـــاه يسود ايران بعد الثورة وكذلك ماليزيا فى المدة الاخيرة ٠

كما يلاحظ ان انتشار الاسلام فى الوقت الحاضر فى أي بلد مــن بلدان العالم (فى افريقيا ، وآسيا وأمريكـا وأوربا) يـؤدى بطريقـة عفويـــة الى انتشار مؤسسات لتعليم اللغة العربية، لغة تأدية طقوس هذا الدين الحنيف ٠

فذلك هو سر بقاء اللغة العربيــة وصمودها فى الماضى وعامل انتشارها وازدهارها فى المستقبل مصداقا لقوله تعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا لــه لحافظون** » ٠ (17)

صدق الله العظيم ٠

(يتبـــع)

(16) عبد القادر الكرمنى ، اللغة والتجدد ، المطبعة العلمية بحلب 1938، ص 55

(17) سورة الحجر الآية 9 ٠

مقاومة احمد بن سالم خليفة الامير عبد القادر في بلاد القبائل

الاستاذ اسماعيل العربي

يعتبر نهر يسر نهرا من صميم بلاد القبائل الكبرى بمجراه وبروافده التى تاتيه كلها ، تقريبا من جبال جرجرا . والنهر يتخذ عند أصله اسم « أسيف بوبشرة » ، وبعد منطلقه الاول ، يتسع مجراه تدريجيا بما يتلقاه من الروافد التى تاتيه ، خصوصا ، من أيت يتوره وايليتن وايلولن أومالو وأيت يجر . وعندما يقترب النهر من المنطقة التى تفصل بين أيت بوخالفة وأيت واجنون ، يحمل اسم « أسيف اعمريون » .

ونهر يسر غير قابل للملاحة، بسبب تعرجاته المفاجئة وانعطافاته السريعة ، وبسبب الصخور الكثيرة التى تنتشر فى مهده . ثم ان مياه النهر تكون غزيرة جارفة فى أوقات الشتاء وفى مواسم الامطار وأوقات ذوبان الثلوج على قمم الجبال . وأما فى فصل الصيف فان مياهه تقل ، وشأنه فى ذلك شأن جميع الانهار الجزائرية ، بل ان مجراه قد يجف تماما ، كما حدث أكثر من مرة فى الاعوام الاخيرة التى قلت فيها الامطار .

وأهم روافد النهر ، هما «أسيف نايت عيسى » الذى ينصب فيه فى منتصف أراضى ايعمريون ، شرقى تيزى وزو . والرافد الثانى يتكون من مجارى وجداول جبال المعاتقة الذى يكون خيطا رقيقا من الماء ثم لا يزال يقوى حتى يلقى بنفسه فى أحضان النهر .

وهذان الرافدان يقسمان سفوح جرجرة الجنوبية من منابع يسر شرقا حتى نهر يسر غربا الى ثلاث مناطق . والمنطقتان الاوليتان شبه متساويتان فى المساحة وتشكلان حوض نهر سبو ، وتقع فى المنطقة الشرقية منهما من القبائل المهمة ، أيت بوشعيب ـ ايليلتن ـ ايلولن أومالو ـ ايت يتورة ـ ايت منجلات .

والمنطقة الوسطى تقطنها قبائل ايت عيسى ـ ايت خليفة ـ ايت صدقه ـ المعاتقة ـ ايت كوفى ـ وايت عبد المومن .

وفى المنطقة الثالثة ، وهي المنطقة الغربية التى تمتد بين يسر غربا ووادى بوجدورة شرقا (وهي أوسع المناطق

(*) محاضرة ألقيت بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بتاريخ 23 ـ 10 ـ 1978

الثلاث ، يقيم عدد من القبائل أكبرهـا وأهمها قبائل فليسه أومليل ـ آيت خلفون ـ آيت عزيز وحرشاوة · وهذه القبائل كلها تشكل العمود الفقرى لقيادة أحمد بن سالم العسكرية ، كما تمثل أراضيها مسارح لمعارك دفع فيهـا الآلاف من أبناء القبائل الكبرى حياتهم ثمنا للحرية والشرف ·

وأما قبيلة بنى جعد ، وهي قبيلة أحمد بن سالم ، فتقع ديارها عند منابع الصومام ويسر ، وقد كانت ترتبط بعلاقاتهم وتحالف مع كثير من هذه القبائل ، وفى مقدمتها قبيلة فليسه أومليل التى كانت تمارس نفوذا قويا فى المناطق التى تمتد حتى جنوب البويرة · وقد اشتهرت فى عهد الاتراك بثوراتها العديدة التى كانت تقودها أسرة ابن زعمون على الحاميات التركية ، ولكنه لدى نزول القوات الفرنسية الغازيـة تناست القبيلة هذا النضال الداخلى وقدمت قوة كبيرة من الفرسان لمساندة الجيش التركى وضعتها تحت قيادة محمد بن زعمون ·

وفى شرق وجنوب قبيلة بنى جعد تمتد أراضى حمزة (البويرة) التى كانت تخضع لنفوذ ابن محيى الدين الذى اتصل عندما بلغته اخبار انتصاراته بالامير عبد القادر ليعرض عليه نفوذه فى هذه المنطقة · ولكن ...ح الرجل وحبه للمال سوف ينتهى ... الى أن يلقى بنفسه فى أحضان الفرنسيين الذين خلعوا عليه لقب آغا · وهذا الشخص سيقف صراحة ضد القوى الوطنية وسيواجه ابن سالم فى أكثر من معركة · ولكن من هو أحمد ابن سالم ؟

قدرت سلطات الاحتلال عمر أحمد ابن سالم حينما استسلم فى سنة 1848 بحوالى 45 سنة ، وبعبارة أخرى ، فقد ولد حسب هذا التقدير فى سنة 1803 (اي ان سنه قريبة من سن الامير عبد القادر الذى ولد فى سنة 1808) · وقد وصف ابن سالم بأنه طويل القامة ويحمل لحية سوداء ، وذو عينين سوداوين وأسنان بيضاء ناصعة البياض · وانه رجل يتسم بالعقل والرزانة ويتحلى بالتقوى وطاعة الله · وكذلك كان طلبة العلم فى منطقته يقدرون فيه ، الى جانب علمه بشئون الدين واللغة العربية ، تواضعه وعمله الدائب من أجل المصلحة العامة ·

وابن سالم ينتمى الى أسرة من المرابطين من قبيلة بنى جعد وكانت لها زاوية عامرة تقع فى بلخروب حيث دفن أجداد أحمد بن سالم الذين كانت المنطقة تحيطهم ، ولا سيما والده ، مخلوف ، بهالة من الاحترام والتبجيل ·

وأما والد المترجم له ، مخلوف ، فقد اشتهر بالتقوى والورع الى حد بلغت معه أخباره الداي حسين ، آخر دايات الجزائر الذى منحه حظوة ومكانة حتى أنه خوله السلطة ، فيما تقول الرواية ،

للعفو عن المجرمين الذين يقابلونــــه صدفة فى طريقهم الى ساحة الاعدام . وأما زاوية الاسرة ، فقد كانت علـى غرار زوايا بلاد القبائل مقصدا لطلاب العلم كما كان شيوخها ملجئا للفصـل فى القضايا والنزاعات بين الافــراد والعشائر . على ان شهرة مخلـوف وحظوته لدى السلطات التركية ، كانت مثارا لحســد أسرة منافســة مـن المرابطين ، أسرة أحمد بن طاهر التى عملت لقلب الاوضاع لصالحها لـدى انهيار الحكم التركى ، وقد انتهى الصراع بين الاسرتين بمقتل الشيخ مخلـوف الذى خلفه على رأس الاسرة والزاوية، ابنه أحمد .

ماذا كان موقف أحمد بن سـالـم فى المرحلة الاولى التى أعقبت احتلال مدينة الجزائر ؟

نحن لا نعرف شيئا عن ذلك عـلى سبيل اليقين ، ولكن المرجح ان عواطف أحمد بن سالم ، ومثله فى ذلك مثل بقية زعماء بلاد القبائل لم تتبلور الى اعمال محددة ضد الغزاة الا فى مرحلـة متأخرة . واذا كان يتابع باهتمـام تطورات نضال الامير عبد القـادر فى المناطق الغربية ، فان أصداء هـذا النضال تصل الى بلاد القبائل ضعيفة ، من حيث ان ولاية وهران التىكـانت مدة طويلة هي المسـرح الاسـاسى لعمليات جيش الامير تفصلها عن بلاد القبائل ولاية تيطرى .

ولكنه عندما استقرت الامور للامير فى ولاية وهران فى ظل معاهدة ديمشال (1834) – فى تلك المعاهدة التى سمحت للامير بنشر نفوذه بين قبائل شلـف ومليانة والمدية ، أخذت بلاد القبائـل تستيقض لاهمية المقاومة الوطنية الـتى أوقفت الغزاة عند حدود لا يتجاوزونها فى الاتجاه الغربى . وقد اقترب الامير من بلاد القبائل عقب تسلمه زمام الادارة رسميا فى مليانة والمدية اللتين عيـن عليهما وعلى أراضيهـما الحاج محيى الدين الصغير ومحمد بن عيسى البركانى (أوائل سنة 1835) .

وعقب فتح لمدية اتخذ الامير اجرائين بهدف نشر نفوذه فى منطقة بلاد القبائل، أولهما تعيين محمد بن محيى الديـن ، آغا الخيالة على بنى سليمان ، ولكن هذا الرجل كان يرى انه أحق بالخلافة على لمدية من البركانى ، وقد انتهت به هذه المنافسة الى السجن بأمر مـن الامير ، والاجراء الثانى هو تعييـن شخص لا نعرف شيئا كثيرا عنه اسمه سى السعدى خليفة على بلاد القبائل الكبرى فى سنة 1837 . وقد زوده الامير برسائل الى زعماء بلاد القبائل ، وفى مقدمتهم ابن زعمون وبلقاسم أوقاسى . ولكن هذا الرجل كان ضعيف الشخصية وأثبت عجزه ، على الرغم من أنه كان صهرا لابن زعمون ، عن ممارسة أي نفوذ بين زعماء بلاد القبائل . وكذلـك استخلص الرجل نتيجة الموقف بنفسه وقدم استقالته من منصبه .

ولكن التجربة التى قام بها ولد سى السعدى ، كانت مفيدة للامير من حيث انها سمحت له بجمع معلومات عن العلاقات بين القبائل وزعمائها وخصوصا عن امكانيات هذه المنطقة العسكرية واستراتيجية بوصفها منطقة جبلية وتقع خلف المنطقة المحتلة مباشرة ·

وقرب بلاد القبائل من المنطقة المحتلة سلاح ذو حدين · فان معرفة استغلال طاقتها البشرية وموقعها الجغرافى قد يكون عاملا حاسما فى الحرب ، ولكن هذا القرب نفسه يوفر فرصا لتوغل النفوذ الفرنسى فى بلاد القبائل ، ولا سيما بما تنطوى عليه العلاقات التجارية من اغراء بالكسب المادى · وهذه الحقيقة الاخيرة اثبتتها ثورة الزواتنة الذين ينتمون الى أصل كروغلى، ضد نفوذ الامير · ولكنه بعد ما أعادهم الى صوابهم بهجوم مظفر ، استخلصت القبائل المجاورة العبرة واتعظت بالدرس ، فأخذت فى أوائل سنة 1838 تسارع الى الاعتراف بسلطان الامير وبدفع الضرائب المستحقة ·

وفى الجولة التى قام بها الامير عقب هذا النصر فى المنطقة تعلم هو الآخر درسا أساسيا وأدرك مدى تشبث بلاد القبائل المجاورة العبرة واتعظت تقوم الزعامة فيها على أساس من التوافق والتراضى بين مختلف الفئات الاجتماعية ، ولذلك فهو لم يفرض عليهم شخصا من طراز سى السعدى ، وانما وضعهم أمام مسئولياتهم فقال لهم « عليكم ان تنظروا وتختاروا من ترونه آهلا للخلافة » ·

وبعد مشاورات مع زعماء المنطقة عرض الامير الخلافة على بلقاسم أوقاسى ، ولكن الرجل اعتذر عن قبولها قائلا ان البلد على وشك الدخول فى حرب مع العدو ، وانه لضمان تجنيد بلاد القبائل وتعبئة قواها يقتضى الامر تعيين شخصية دينية من المرابطين · وأضاف انه لا يوجد فى رأيه من هو أولى بهذه المهمة من أحمد بن سالم · واثر ذلك استدعى الامير أحمد بن سالم وعينه خليفة على الفور وخلع عليه برنوس الخلافة ، ثم أمر ، رمزا لترسيمه، باقامة استعراض عسكرى على أنغام الموسيقى · وقد كان هذا الاستعراض الذى يشرف عليه السلطان بنفسه حدثا عظيما فى نظر السكان وهو بالتأكيد بادرة لم تعرف لها بلاد القبائل مثيلا ·

وعقب هذا التعيين عمد الامير الى تقسيم بلاد القبائل الكبرى الى دائرتين (آغاليك) عين على رأس أحدهما بلقاسم أوقاسى وعلى رأس الاخرى ابن محيى الدين · وفى نفس الوقت وجه الامير رسائل الى زعماء فليسه يدعوهم فيها الى اعلان الطاعة والى الانضمام الى صفوف المقاومة ، وعلى الفور قدم ابن زعمون طاعته وطاعة أسرته القوية، فعينه الامير أغا على فليسه وبنى خلفون والمعاتقه ونزليوه وجشطوله وأولاد عزيز ·

وبهذه الترتيبات الادارية بسط الامير سلطانه الذى بلغ أوجه فى ظل معاهدة تافنا التى عقدت بينه وبين الحكومة الفرنسية فى سنة 1837 ، على جبال القبائل الكبرى التى ظلت مستعصية على الغزاة فى مختلف العصور ٠

ومن الاجراءات الادارية الاخرى التى اتخذها الامير فى غضون هذه الرحلة ، فصل أغلبية بنى سليمان التى كانت تابعة للبركانى عن المدية وضمها الى خلافة ابن سالم ، وبذلك اصبحت هذه الخلافة أكبر خلافة فى الدولة ـ على الاقل من الناحية الجغرافية ٠ وقد كان من مزايا هذا الاجراء انه يلحق بنى سليمان بمنطقة بلاد القبائل التى ينتمون اليها ، فى الوقت الذى يجسم فيه الخلاف الذى كان مستحكما بين ابن محيى الدين والبركانى ويتيح الفرصة للاول أن يفتح صفحة جديدة بيضاء مع ابن سالم ٠

وبعد ما أقام مركزا عسكريا فى برج سبو لمراقبة تحركات العدو ، أوصى زعماء القبائل بالتضامن والامتثال لاوامر الخليفة ابن سالم واغواته ، رحل الامير عبد القادر عن بلاد القبائل التى أصبحت الآن من أقوى وأمنع قواعده وعاد الى المدية ليكرس اهتمامه لمشكلة الواحات ، وفى مقدمتها الاغواط وعين ماضى ، معقل التيجانى ٠

كان على رأس الادارة الاستعمارية فى المنطقة المحتلة فى هذه الآونة المريشال «فالى» الذى خلف «دامريمون» الذى لقى مصرعه تحت أسوار قسنطينة الباسلة ، ، وقد كان هذا العسكرى من أشد المعارضين لضم الامير مليانة والمدية الى مملكته ٠ ولكنه لم يكد يقبل بالامر الواقع ويعترف بالوضعية الجديدة حتى رأي الامير يطوق المنطقة المحتلة من الخلف بضمه بلاد القبائل ، على أن أسوأ مما حل ما يتوقع ٠ فان مخطط الامير لضم ولاية قسنطينة الى مملكته مخطط معروف لدى سلطات الاحتلال ٠ وبعد ما رأى الامير تصلب السلطات الاستعمارية المحلية ، بعث بوزير خارجيته ابن عراش يتفاوض بشأنه مع لوى فليب، ملك فرنسا نفسه ٠ ولكن قوى الاستعمار سبقته الى باريس لتخرب مهمته السامية وتقوض المشروع ، لانه اذا كان احتلال فرنسا لقسنطينة يجد معارضة لا يستهان بها فى باريس ، فان الادارة الاستعمارية المحلية كانت مصممة عليه ، ولو أدى الامر الى خرق نصوص معاهدة تافنا واشعال نار الحرب مع الامير عبد القادر ٠

ومهما يكن من أمر ، فقد وجد فالى على مقربة منه وعلى حافة الطريق المؤدية الى قسنطينة خليفة للامير (أحمد ابن سالم) قوى الشوكة مرهوب الجانب ومزودا بالسلطة للدخول فى اتصالات مع الوالى العام فى جميع الشئون المحلية ٠

ونحن نجد بين أيدينا رسالة (أو بعبارة أدق ترجمة فرنسية لرسالة)

وجهها ابن سالم الى المريشال فالى بتاريخ 1 سبتمبر 1838 ، تبدأ بالعبارة التالية :

« الى من أجهل اسمه بسبب عدم وجود صلة بينى وبينه ، الى قائد الجيوش الفرنسية » .

وفى هذ الرسالة يخبر ابن سالم الوالى العام بأن السلطان الحاج عبد القادر قد أصدر أوامره بالتعايش فى تفاهم مع الفرنسيين وانه هو ، تبعا لذلك يسمح للفرنسيين بالتردد على أسواق بلاد القبائل التى تقع فى منطقة خلافته لشراء ما يحتاجون اليه بشرط أن يدفعوا ضريبة الدخول الى هذه الاسواق .

وتمضى رسالة أحمد بن سالم لتؤكد للمريشال فالى انه يستطيع أن يثق بأن السلام قائم وشامل وانه ما من أحد يستطيع أن يلحق أي ضرر بالفرنسيين، ثم يعرب عن أمله فى أن يحترم الفرنسيون شروط السلام التى تنص عليها المعاهدة بأمانة واخلاص .

ولما أثار أحمد بن سالم قضية اعتداء رجال احدى القبائل الموالية للفرنسيين يدعى الهادى حيث جردوه من أمواله واعتدوا على نسائه اضاف قائلا :

« فاذا كان هذا الحادث من تدبيركم فأبلغونا ذلك حيث انه يعتبر غدرا وخيانة ، والخيانة لا يمكن أن تأتى من أمثالكم ، ولكنه اذا كانت المسئولية تقع على رجال القبيلة وحدهم فاعلمونا بذلك وأمروهم باعادة الاموال التى أخذوها الى سيدى الهادى وبأن لا يعودوا لمثل هذه الافعال .

واختتم ابن سالم رسالته قائلا انه عدل عن انزال العقاب بهذه القبيلة لان الامير أمره بعدم متابعة الاشخاص الذين يلجئون الى الفرنسيين .

والرسالة الثانية التى عثرنا عليها وجهها أحمد بن سالم عن طريق القبطان بيليسيى رئيس المكتب العربى ، وهي مؤرخة فى 8 شوال 1254 (26 سبتمبر 1838) . وفى هذه الرسالة يبلغ أحمد ابن سالم فالى أنه بعد ما استقر الحكم للمسلمين ... لم يعد هناك مبرر لقلق الفرنسيين ، « فان السلطان يريد أن يعيش معكم فى سلام ، وهو قد أمرنا بذلك ونحن ننفذ أوامره » .

ويمضى فيقول انه على الرغم من ذلك فان الفرنسيين يسمحون لاعوانهم بالاستيلاء على البضائع . فان هؤلاء يوقفون التجار ويحولون بذلك دون مواصلة التبادل التجاري . وبعد ذلك يذكر ابن سالم الوالى العام بأن استتباب الامن فى الطرق أمر فى مصلحة الفرنسيين أكثر مما هو فى مصلحة العرب .

وفى شهر ديسمبر 1839 ، كتب ابن سالم رسالة أخرى الى فالى يذكره بأن « السلطان عقد الصلح معكم ونحن نتوقع أن تلتزموا طريق العدل والانصاف .

وفى هذه الرسالة يشكو الخليفة من اعتداء بعض أعوان الفرنسيين على رجال من بنى مستيد ويذكر الوالى العام أن الامير كتب اليه بشأن هؤلاء المعتدين عدة مرات ثم يعرب عن دهشته لان يرى السلطات الفرنسية تقف مكتوفة الايدى أمام هذه الحوادث ٠

* * *

كانت عمراوه وبنو سليمان وبنو جعد تشكل القاعدة الثلاثية الاضلاع التى يقوم عليها حكم أحمد بن سالم ٠ وبعد ما قبل ابن محيى الدين آغا بنى سليمان التعاون مع الخليفة فى المرحلة الاولى ، لم تلبث الاغراض الشخصية التى كان يخفيها أن ظهرت ، فراح يضع العراقيل أمام أحمد بن سالم ، بل ويحرض على الثورة عليه ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ، فقد بدا لعمراوة بعد وقت ان ابن سالم يحابى بنى جعد فى الوظائف العمومية وفى غير ذلك من المزايا ٠ وقد سرت عدوى التذمر لتبلغ فليسه أيضا ٠ ولكن بلقاسم أوقاسى وابن زعمون ظلا على ثباتهما وولائهما للخليفة ٠

وهذا الشقاق سيعرضه أحمد بن سالم على الامير ويطلب اليه الارشاد والمساعدة ٠

وبمجرد ما بلغته هذه الاخبار ، سارع الامير بارسال شحنات من الذخيرة ومعها تعزيزات عسكرية الى الخليفة ليبرهن له على تضامنه معه ٠ وفى الوقت نفسه كتب رسالة الى عمراوة يوبخهم فيها للصعوبات التى يثيرونها للخليفة ٠

ويبدو ان الامير ، من جهة أخرى لفت نظر ابن سالم الى ما تشكو منه عمراوة، لاننا نرى انه عندما قرر الامير تكليف الخليفة بمهمة جباية ضريبة اضافية تسمى « المعونة » ، عهد ابن سالم بالقيام بهذه المهمة الى رجال قبيلة عمراوة ٠ وقد بلغ ما جمعته عمراوة فى هذه المناسبة 45 الف فرنك ٠

ولكن مصاعب أخرى كانت تنتظر الخليفة ٠ فقد قامت قبيلة بنى واجنون بهجوم على برج سبو المركز العسكرى الذى أقيم للمراقبة ٠ ولما بلغت هذه الاخبار الى الامير ، سارع بارسال مساعد له برتبة آغا اسمه أبو زيد (وكان معروفا بشجاعته) على رأس بعثة تتكون من ستة ضباط برتبة سياف وبعث معهم 122 خيمة و 600 بدلة عسكرية مع أمر الى الخليفة بأن يقوم فورا بتجنيد قوة تكون نواة لجيش نظامى ٠

ولم يمض سوى وقت قصير حتى كان لدى الخليفة جيش يتكون من 600 جندى وعلى رأسهم العدد الضرورى من الضباط ، ممن قامت البعثة العسكرية بتدريبهم ٠ ولكن هذه القوة التى جهزت بصورة مستعجلة لمواجهة ضغط القبائل لم تتلق التدريب الكافى ٠ وقد ظهر هذا النقص فى أول اشتباك لها مع بنى خلفون الذين انزلوا بها هزيمة منكرة ، وهكذا وجد الخليفة ان استخدام هذه القوة لجمع الزكاة اجدى من استعمالها للاغراض الحربية ٠ وقد نجحت فعلا فى جمع مبلغ 60000 فرنك ٠

ولكن كفاءة هذا الجيش الاقليمي ستتحسن تدريجيا وعدد أفراده سوف يزداد حتى يبلغ الالف ، بحيث يتمكن أحمد بن سالم فى ظرف وجيز من اعادة القبائل العاصية وفى مقدمتهم عمراوة الى حظيرة الطاعة . وعند ذلك فقط قرر الامير زيارة بلاد القبائل للمرة الثانية .

وفى منتصف سنة 1839 ، نزل الامير ببرج حمزة فكان ابن سالم على رأس زعماء القبائل الذين كانوا فى استقباله، وانزله فى بيت أسرته فى بلخروب ، ثم قام معه بجولة الى برج بوغنى ، ثم الى زاوية سيدى على أوموسى . وفى كل مكان كانت القبائل تقف فى طريقه لتحية الرجل الذى تتجسد فيه الآن فى نظرهم كل معانى الحرية والكرامة القومية .

وقد افضت هذه الرحلة بالامير الذى اصطحب معه الخليفة وزعماء فليسة وعمراوة الى آقبو وسيدى عيش محاذيا وادى الساحل ثم الى بنى وغليس وسار حتى بلغ جبال توجه التى تطل على بجاية التى كانت مدينة محتلة . ولكن هذه الرحلة التى كانت لهانتائج طيبة فى تدعيم سلطة ابن سالم فى البداية قد انتهت نهاية محزنة وكادت تكون كارثة .

فان حاكم بجاية الفرنسى عندما علم بوجود الامير فى منطقته وهو يعرف ان بلده يرتبط بالامير بمعاهدة تافنا ، سارع الى توجيه رسالة اليه مع أحد ضباطه يرحب فيها بمقدمه ويقدم اليه المجاملات المتعارفة فى مثل هذه المناسبات . ولكن زعماء القبائل الذين يرون عاصمة مقاطعتهم محتلة ، لم يكونوا ليأخذوا الاعتبارات الديبلوماسية فى حسابهم . وكذلك اتهموا الامير ومرافقيه بأنهم خرقوا حرمة الضيافة وانهم يتراسلون مع المسيحيين بقصد تعريض منطقتهم للخطر . ولذلك اضطر الامير الى مغادرة المنطقة بسرعة وفى حركة سرية . ولكنه لما وصل الى وادى امسيس تعرض له الشيخ بن داوود واتباعه ولم ينج الامير من الموت الا بتدخل امزيان أورابح وبلقاسم أوقاسى.

* * * *

كان فشل سفارة ابن عراش فى باريس فى منتصف سنة 1838 ورفض الامير التصديق على مشروع فالى لتعديل معاهدة تافنا بشكل يطلق يد فرنسا فى جميع مناطق ولاية قسنطينة نذيرا بأن **البلد مقبل على حرب ضروس** .. وبالفعل ، فقد استقبل الامير فى 31 أكتوبر 1839 فارسين فى تكدمت قطعا مسافة 400 كليو متر فى يومين ليسلما اليه رسالة من أحمد بن سالم ، تقول كان الدوق دورليان ابن الملك والماريشال فالى قد جازا فى مضيق البيبان على رأس جيوش فرنسية محاولين بذلك فتح طريق المواصلات بين الجزائر وقسنطينة وخارقين بذلك نصوص معاهدة تافنا .

كان موقف ابن سالم فى غاية الحرج عندما رأى الجيش الفرنسى بقيادة ابن الملك يخترق حرمة أراضى ولايته . هل يقاوم المعتدين بالسلاح وهو ليس لديه أوامر بذلك ، فيتسبب فى بدء الحرب ، أم يغض النظر ويترك الغزاة

يمرون ليثبتوا بهذه السابقة حقهم فى المرور من والى قسنطينة ؟ وبعد تفكير وترو ، قام على رأس قوة لمناوشة الجيش الفرنسى عند جسر بنى هنى ، وبذلك تجنب الدخول فى معركة غير متكافئة فى الوقت الذى أثبت فيه انه وقف بالسلاح فى وجه العدوان الغادر ٠

* * * *

بعدما رفض مؤتمر بوخرشوفة الذى ضم رجال الحكومة والاعيان مشروع فالى لتعديل معاهدة تافنا ، وقرر مواجهة التحدى الفرنسى باستئناف القتال ، بعث الامير ببيان رسمى الى الخلفاء والاغوات يعلن فيه قيام الجيش الفرنسى باعتداء على حدود المملكة « بحيث تجاوز الحدود المقررة بيننا وبينهم ومروا ببلادنا من قسنطينة الى الجزائر » حسب نص البيان ٠ وكذلك بعث الى أحمد بن سالم يبلغه انه هو الرجل الذى يعتمد عليه فى بلاد القبائل التى هي خط المواجهة الاول لقيادة عجلة الحرب ٠

واثر ذلك ، جمع أحمد بن سالم جيشه فى معسكر عين بسام ، ومن هناك أخذ يذيع بيانات ويوجه الرسائل الى زعماء مختلف القبائل يشرح فيها الوضع الجديد ويحثهم على جمع الشتات وتنظيم الصفوف لمواجهة العدو ٠ وبعد جولات هنا وهناك يقرأ فيها بنفسه بيانات الامير ، عاد الى عين بسام ، ثم انتقل الى برج حمزة حيث التحق به قياده وآغاواته على رأس القوات العسكرية التى كانت تحت أوامر كل منهم ٠

ولما تجمعت لديه قوة كبيرة من الجيش النظامى والمتطوعين سار الخليفة على رأسها الى واد خضرة الذى يمثل الحدود الرسمية مع المنطقة المحتلة، ولكنه قبل أن يشرع فى الهجوم بوقت قصير وصله أمر من الامير بأن يمتنع عن ذلك ويترك حركة الهجوم لجيشى ابن علال والبركانى فى الغرب ٠

ولكن المجاهدين المتطوعين الذين كانوا خلف ابن سالم ، لم يستطيعوا الوقوف مكتوفى الايدى حينما شاهدوا سحب الدخان ترتفع عاليا فى سهول متيجة عقب بدء الهجوم من الغرب ، وقد سارع آلاف من أبناء القبائل واخترقوا المراكز العسكرية التى أقامها فالى بكثير من الجهد وأخذوا يتدافعون كالسيل لتخريب الضياع ولتدمير التحصينات الفرنسية ٠ واما ابن سالم وجيشه النظامى ، فقد وصل الى متيجة فى المرحلة الاخيرة من المعركة ، بعد ما حاول عبثا كبح جماح المتطوعين تطبيقا لتعليمات الامير ٠

وبعد ما تحولت هذه السهول الوارفة الى صحراء قاحلة فى ظرف وجيز أصدر ابن سالم أوامره الى الجموع التى أبدت شيئا غير قليل من سوء النظام بأن ترحل عن متيجة وذلك لكي يتجنب الهجوم الفرنسى المضاد ٠ أما هو فقد انتقل على رأس قواته الى مزيونة حيث فاجأه الامير بزيارة خاطفة ٠ وبعد ما أقام هناك يومين كان يحرر خلالهما الرسائل ويصدر الاوامر الى زعماء القبائل ، وجه الامير أحمد

بن سالم الى برج سبو وسار هو الى جبل بوزغزة حيث انضم اليه خليفة بلاد القبائل بعد ذلك على رأس قوة معتبرة من عمراوة وبنى يراتن وبنى واجتون وفليسه وبنى جناد ، وقد ضرب معسكره عند وادى بودواو ٠

ومن معسكر بودواو شن ابن سالم هجمات موفقة على المراكز التى حصنها المريشال فالى فى المنطقة وزودها بالمؤن منذ عدة أشهر استعدادا لفتح طريق المواصلات بين الجزائر وقسنطينة ٠

كانت المشكلة الاساسية التى واجهها أحمد بن سالم فى مرحلة المعارك ، هى ان جموع القبائل لا تلبث أن تتبخر فى الهواء بعد كل معركة وبذلك تترك فراغا ماديا وادبيا فى صفوف الجيش ٠ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان بلاد القبائل لا تتوفر فيها المرافق الضرورية لايواء جيش كبير ولتدريبه وتزويده بالمواد الغذائية والذخيرة بصفة مستمرة ٠

وهذه الاعتبارات هي التى اضطرت الامير الى سحب قوات المشاة التى وضعها تحت تصرف ابن سالم ليضمها الى جيشى مليانة ولمدية ، ولكنه على كل حال ترك له الخيالة النظامية والقوات التى يجمعها محليا من فرسان ومشاة ٠

على ان ابن سالم سرعان ما أعاد بناء جيشه على أساس محلى ولم يلبث ان وجد تحت تصرفه قوة ضاربة معتبرة وقام على رأسها فى هجوم شامل على منشئات العدو وجيوشه ، ولم يتوقف الا فى الحراش ٠

وفى مرحلة تالية غير ابن سالم خططه ، وبدلا من الاعتماد على جيش كبير ، فضل استخدام جماعات صغيرة للقيام بأغراض محدودة ، تختفى فى الغابات بالنهار وتنقض على منشئات العدو بالليل لتنزل به خسائر فى الممتلكات وتبعث الرعب فى نفوس المعمرين ٠

وفى احدى هجمات العصابات التى شارك فيها أحمد بن سالم بنفسه وفى رفقة الحسين ابن زعمون ، زعيم فليسه، اتجه المجاهدون الى معسكر الحراش الفرنسى ، ولكن العدو كان لهم بالمرصاد وواجههم بنيران شديدة كانت تنهال عليهم من كل جهة ٠ وقد نجا ابن سالم بنفسه ولكن الحسين بن زعمون أصيب برصاصة اردته قتيلا ٠

وبينما كانت قوات العدو منهمكة فى محاصرة الحصون التى أقامها الامير فى الجنوب فى سنة 1841 ، استغل ابن سالم ذلك الهدوء ليقيم هو حصنا له فى بلخروب ، لانه كان يرى ان تدمير العدو لحصن يجب أن يشحذ العزائم لبناء حصن آخر أقوى وامنع ٠

ولما انسحب الامير فى اتجاه المغرب الاقصى ، واجه البركانى وابن علال صعوبات جمة فى التجنيد وجمع المال الضرورى لتمويل الحرب ، ولكن وضع ابن سالم ظل قويا بفضل قوة نفوذه فى بلاد القبائل ، وأيضا بفضل الاستقلال المالى والادارى الذى كانت تتمتع به خلافته ، ولان العدو لم يكن قد مس الامكانيات المادية والمعنوية فى هذه المنطقة ٠

على ان ابن سالم كان يشعر بالعبء الفادح الذى ألقي على عاتقه بوصفه القائد الاول للمعركة فى الداخل بعد رحيل الامير وكبار خلفائه الى المغرب · ولكن الشىء الذى كان يحز فى نفسه أكثر من غيره ، هو انقطاع الاتصال بالامير بسبب تعرض العدو للمراسلات ·

وازاء قلقه المستمر على الامير ، ولا سيما عقب الاشاعات التى أذاعها العدو بموته ، قرر زعماء بنى جعد واولاد بن داوود وونوغة وعمراوة تشكيل وفد من خيرة فرسانهم ليقوم بالبحث عن الامير فى الغرب · ولما عرضوا الفكرة على ابن سالم قبل بها ولكن بشرط ان يضم الوفد أحد أشقائه ·

وكذلك سار هذا الوفد الغريب الذى يتكون من أكثر من 400 فارس وفى مقدمتهم زعماء القبائل للبحث عن الامير فى الغرب سالكين حافة الصحراء ولما لحقوا بمعسكره سلموا اليه رسالة ابن سالم التى تحمل اليه مخاوفه من الاراجيف التى يذيعها العدو بقصد شل العزائم وتخدير الارادات ·

وقد فرح الامير بهذه المبادرة وأحسن استقبال الوفد ورد على ابن سالم برسالة ارفقها بهدية ، وهي عبارة عن فرسه الشخصى وسيفه ، وهما أعز ممتلكاته · وهذه الاخبار التى عاد بها الوفد والتي أكدت للرأي العام أن الامير ليس حيا فقط ولكنه كذلك لا يزال يبادل العدو الضربات ، كان لها ولهدية الامير أثر معنوى منعش فى نفوس سكان بلاد القبائل ·

والعنصر الايجابى الآخر فى الموقف، هو انه عندما عجز البركانى (خليفة المدية) عن توفير المال للمحافظة على قوته النظامية وقرر الهجرة الى المغرب، رفضت هذه القوة السير معه وفضلت الالتحاق بجيش ابن سالم · ولما كانت هذه القوة حسنة التدريب وقد ساهمت فى المعركة بقيادة واحد من أشجع وابرع القادة العسكريين الذين أنجبتهم الجزائر · وفى فترة لاحقة ، بعث الامير الى ابن سالم بكاتبه الخاص ، الحاج محمد بن الخروبى الذى اشتهر بعلمه وتقواه ليكون بجنبه وليعمل مستشارا له ·

وهذه التطورات الحميدة لم تلبث ان ظهرت نتائجها على صعيد العمليات العسكرية حيث سمحت لابن سالم بتسجيل عدة انتصارات فى هجماته المتوالية على منشئات العدو فى السهول، واشهر هذه الانتصارات هي التى سجلها فى بوفاريك وفى البليدة حيث قضت قوات القبائل على تشكيلات عسكرية بأكملها · وهذه المعارك سيقيم لها الفرنسيون نصبا تذكاريا فيما بعد فى بنى مراد لاحياء ذكرى قتلاهم ·

ونحن يجب ألا ننسى أن الذى يواجهه ابن سالم فى أوائل سنة 1842 هو الجنرال بيجو الذى كان على رأس قوة عسكرية هائلة حسنة التدريب والتجهيز ·

وبعد ما احتلوا المدن الرئيسية فى الغرب ووضعوا حاميات فى القواعد العسكرية التى بناها الامير ثم خربها فى الجنوب تحت ضغط الجيرش التى

يقودها لامورسيير وبيد وسانت ارنو ، ادركت القيادة الفرنسية ان ابن سالم قد أصبح القوة الوحيدة المهمة فى البلد · وكذلك اتجهوا للقضاء عليه · وقبل الحملات العسكرية التى ستكون بلاد القبائل مسرحا لها ، بدأوا بشن حملة سياسية للدعاية كان لها بعض التأثير فى نفوس القبائل الضعيفة الايمان ·

ولما رأى ابن سالم انه لا طاقة له بمواجهة القوة الفرنسية التى ستتحول اليه الآن بكاملها ، قرر أن مما لا جدوى منه مواصلة الحرب النظامية ، ولذلك انسحب الى الجبال وأخذ يعد العدة لشن حرب العصابات ·

وأما بيجو الذى تلقى عونا جديد بتحول ابن محيى الدين الى المعسكر الفرنسى ، فانه قرر ، بعد سلسلة من الرسائل التى تنطوى على الكذب والمراوغة مع وزير الحربية ، تأمين منطقة الاحتلال بالاستيلاء على المواقع المجاورة لها · وفى 29 سبتمبر سار على رأس حملة عسكرية عسكرت عند وادى خضرة ثم واصلت سيرها حتى دخلت سوق حمزة فى 10 أكتوبر 1842 · وهذه العملية كانت لها قيمة سيكولوجية أكبر من قيمتها العسكرية ، حيث أحست بعض القبائل مثل بنى خلفون وبنى جناد بالخطر وبدأ الاضطراب فى صفوفها ، بل ان فليسة نفسها ستسرى فيها عدوى الخوف وتزعم أن الفرنسيين لا يريدون لهم شرا الا بسبب وجود ابن سالم بين ظهرانيهم · وكذلك طلبوا اليه أن يخرج من أرضهم · ولما خرج من أرضهم فى اتجاه شيطه سلطوا عليه أشرارهم ليعتدوا عليه ويستولوا على أمتعته ·

ومع ذلك ، فان أكبر انتصار يحققه ابن سالم هو الذى سجله بعد هذه الاهانة ، وضد جيش كان على رأسه الدوق دو مان ابن الملك نفسه ، وكان فى طريقه لاخضاع قبيلة نزليوة الباسلة ، ولم ينج بحياته الا بأعجوبة ·

ولكنه على الرغم من اصداء هذه المعركة التى قاد فيها الخليفة ألف رجل ، فقد واجه مشكلة داخلية غريبة · فان ابن سالم كان قد أودع ذخيرته ومئونه عندما أحس بالخطر فى الجبال فى زاوية سيدى عبد الرحمن · ولما بعث فى طلبها رد عليه مسئولون برفض طلبه قائلين ان هذه أموال الدولة وابن سالم لم يعد صاحب السلطان وانهم لن يسلموا هذه الودائع الا للامير عبد القادر !

وجريا على عادته فى التذرع بالصبر ومعالجة الامور السياسية باللين ،كتب ابن سالم الى الامير ليعرض عليه المشكلة · وبمجرد ما استلم رسالته كتب الامير رسالة طويلة موجهة الى بلاد القبائل كلها يدعو زعماء القبائل فيها الى الاستمرار على الطاعة والولاء للخليفة أحمد بن سالم · وكذلك كانت هذه الرسالة بردا وسلاما فى نفوس المجاهدين المخلصين ·

على ان الاخبار التى وردت بسقوط زمالة الامير عبد القادر كان لها وقع الصاعقة فى بلاد القبائل وبين صفوف

ابن سالم بصفة خاصة • فقد فسر الجميع هذا الحدث الذى لا نظير له بأنه بداية النهاية لمقاومة الامير • واثر ذلك قرر ابن سالم أن يجمد جهوده مؤقتا ريثما تمر سحابة التشاؤم المخيمة على النفوس ، فانسحب مع اثنين من اغاواته وبعض ضباطه ونحو عشرين من الجنود الى وادى شلاطة حيث بقى يرقب الاحداث عن كثب ويكتب رسائله الى زعماء القبائل •

ولكن روح التخاذل والانهزام التى تسرى فى القبائل لم تنج منها أسرة الخليفة نفسها • فان أحد اخويه ، عمر ، قرر الخروج من صفوف النضال ليعيش حياة هادئة • وأما أخوه الآخر ، علي ، فقد سلم نفسه للفرنسيين، ولكن الاخ الثالث ، زيد ، ظل على ولائه لاحمد بن سالم وفى الاستمرار فى الكفاح •

وفى هذه الاثناء ، تلقى أحمد بن سالم طعنة من الخلف ، فان ابنه هرب فى رفقة طالب الى الجزائر ، وهناك سلم نفسه للسلطات الفرنسية التى لم تكن تحلم برهينة من هذا القالب • ولذلك سارعت الى ارسال الشاب الى فرنسا بحجة تعليمه وتلقينه أفكارا تربطه بفرنسا ، لو أن الغرض الحقيقى هو الدعاية للمجهود السياسى والعسكرى الذى يبذلونه •

وكأنما لا تأتى المصائب منفردة ، فقد وردت فى الآونة نفسها أخبار استشهاد القائد المحنك والزعيم العظيم الذى كانت شجاعته مضرب المثل ، ابن علال ، خليفة مليانة ، وكان ذلك فى ساحة القتال والشرف •

وفى 26 أبريل 1844 خرج الوالى العام الجنرال بيجو على رأس حملة تتكون من 8000 جندى من الحراش وعسكر فى وادى الخميس ثم اجتاز نهر بودواو وسار على الضفة اليسرى لنهر يسر حتى وصل الى ثنية بنى عيشة ، وفى الطريق انضمت اليها قوات الآغا الفرنسى ابن محيى الدين • وفى نفس الوقت اتجهت قوة بحرية الى دلس التى سيتخذها الجيش المحتل قاعدة للتموين •

وقد ترك ابن سالم هذه القوة تتوغل فى الجبال عن خطة ولم يتعرض لها الا فى امايوحين وقعت بين الطرفين معركة شديدة أبدى فيها الوطنيون ضروبا من الشجاعة والتضحية • وقد جاء فى تقرير لبيجو الى وزير الحربية عن هذه المعركة قوله : « يجب علينا أن ننصف هؤلاء الاعداء فقد أرغمونا على الاستمرار فى المعركة وقتا أطول مما كنت أريد » •

وبعد هذه المعركة أخذت جموع القبائل تتكتل من جديد وتعيد تنظيم صفوفها • وبعد ما شن عليهم بيجو هجوما قليل الجدوى ، ضرب مخيمه عند عين ثرة ، وبينما كان جنوده يستجمون شنت عليهم قوات ابن سالم هجمات موفقة ، ولكنها لم تمنع بيجو من مواصلة سيره الى بلخروب ، قلعة ابن سالم ، التى خربها واطلق جنوده فى عمليات مخزية للسلب والنهب والاحراق وقوض منزل الخليفة حتى الاساس • وبعد ذلك انحدرت القوة

الغازية الى عين بسام ثم الى بــرج حمزة لتعود الى الجزائر فى 28 مايــو

وعندما ظهر الامير من جديد كالبرق الخاطف فى أولاد نايل فى سنــة 1846 ، التحق به ابن سالم مع بقية زعمـــاء المقاومة ليستعرضوا الحالة معه · وقد كان من بين المشروعات التى عرضهــا عليه مشروع لغزو متيجة · وبالفعـل فقد سار على رأس قواته النظاميـــة وفرسان أولاد نايل ودخل سهول متيجة ليصول ويجول فيها ويدمر منشئـــات العدو ويمعــن فى تخريــب ضيــا المعمرين ، وقيل انه لم يبق بينه وبيــن دخول الجزائر سوى مسافة أربـــع ساعات ، كان ذلك هو الرد على تخريب بلخـــروب ·

ولكن العدو سوف يحشد حشـــودد ويقوم بهجوم مفاجىء على معسكر ابــن سالم فى المكان المسمى « منزل الطبول » وهناك استولى على غنائم منــهــا 300 فرسا و 600 بندقية وعددا من السروج · ولكن الغنيمة الكبرى افلتت من أيديهم ، فلم يعرفوا ان الامير عبد القادر كــان موجودا فى هذا المعسكر أثناء تخريبـه الا بعد ما أفلت والتجأ الى المعاتقة ·

سيستمر أحمد بن سالم فى المقاومة بكل ما أوتي من العـــزم والتصميـــم والشجاعة ، يوما له ويوما عليه ، ولكن الروح المعنوية كانت ضعيفة بين السكان ·

وقد اغتنم الوالى العام هذا الوضع ليعيد الى ابن سالم ابنه مكرما معززا · وفى أوائل ينايـــر 1847 كتب ابن سالم الى الوالى العام ليشكره على هذه المبادرة ·

وقد أعقبت هذه المراسلة مقابلة جرت بين الخليفة وبين رئيس المكتب العربى فى سور الغزلان تباحث فيها الطرفــان فى شروط التسليم ·

وفى 27 فبرايــر دخل أحمد بن سالم وكبار رجاله الى المعسكر الفــرنسى ، فى سور الغزلان ، ولكن بلقاسم أوقاسى لم يكن من بين هذه الجماعة ، ولما نقل أبطال المقاومة الى مدينة الجزائر نظم بيجو استعراضا فخما للخيالة تكريمــا لهم فأطلقت البنادق النــار وعزفــت الموسيقى · وهناك أعد له منزل فخـم ليقيم فيه فى انتظار نقله الى الشــرق حسب رغبته ·

لقد شاءت الاقدار أن يصــل الى الجزائر فى نفس الوقت زعيـــم وطنى شجاع آخر ألقى السلاح ، ألا وهو محمد ابن عبد الله « بومعزة » زعيم الظهرة الذى استسلم للكلونيل سانت ارنو ·

وهكذا انتهت قصة نضال أحمد بن سالم ، وأما لواء المقاومــة فى بــلاد القبائل فسوف يرفعه زعماء آخـــرون وتسير وراءهم أجيال أخرى يسلم كــل منها مشعل الحرية للآخر حتى فاتـــح نوفمبـــر ·

مظاهر المقاومة وروادها فى الشرق القسنطينى ضد الاستعمار الفرنسى فى القرن التاسع عشر

د· يحيى بوعزيــز

يشمل الشرق القسنطينى ، الرقعــة الجغرافية الواسعة التى كانت تمثـــل بابلية الشرق ، أو بايليك قسنطينـــة ، والتى تمتد من البحر شمالا ألى ما وراء بسكرة وواد سوف فى حوض ريـــغ وايغرغر جنوبا ، ومن الحدود التونسية شرقا ، الى ما وراء اقليم ونوغة وبرج حمزة ، وأعماق جرجرة غربا · ويحوى على جبال البيبان ، وحوض الصومام ، وجبال البابور ، وقسنطينة ، وعنابة ، وسوق اهراس ، والسهول العليـــا القسنطينية ، وكتلة جبال الاوراس ، والنمامشة ، وتبسة ، وجبال الحضنة ، وحوضها ، وجبال الزاب والزيبان ، واقليم سوف فى حوض واد ريـــغ ، وواحات الصحراء الشمالية الشرقيـة مثل تقرت وورقلة ·

والشرق القسنطينى بصفة عامـــة جبلى فى معظمه ، من حيث المظهـــر التضاريسى ، تلتقى فى وسطه سلسلتا : جبال الاطلس الشمالية التلية ، وجبال الاطلس الجنوبية الصحراوية عند كتلة الاوراس ، وليس فيه عـــن الاحواض والسهول ، سوى حوض واد الصومام ، والسهول العليا القسنطينية التى تمثـــل الجزء الشرقى من اقليم الهضاب العليا الجزائرية الى جانب منبسطات تبسة ، وحوض واد سوف ، وريغ ، وسهـــول عنابة وسكيكدة · تناله نسبة لا بـأس بها من الرطوبة فى الشتاء لارتفاعـــه وقربه من جبهـــة البحـــر الشمـاليـــة المتوسطية · ونسبة كثافةالسـكان فيه عالية عبر التاريخ اذا ما قورن بوسط البلاد وغربها ، وذلك لظروف تاريخية ·

والحياة الاقتصادية فيه تعتمد على الفلاحة وتربية المواشى أساسا ، يضاف اليها النشاط التجارى ، والصناعـــة التقليدية التى كانت تدر على أصحابها مردودا لا بأس به فى القرى العمرانية الكبيرة وعلى رأسها مدينة قسنطينة ·

وبعد الاحتلال الفرنسى للجزائـــر العاصمة عام 1830 ، واجه الفرنسيون صعوبات كبيرة فى التوسع الى الغـــرب الوهرانى بسبب مقاومة الاميـــر عبـــد القادر التى دامت خمسة عشر عاما ،

(*) ألقيت هذه المحاضرة بكلية الشعب فى مدينة قسنطينة يوم 3 مارس 1979 بمناسبة ملتقى · (قسنطينة عبر التاريخ) ·

والى الشرق القسنطيني بسبب عوامل رئيسية ثلاثة :

أولا : الطبيعة الجغرافية التضاريسية الصعبة التى تتمثل فى كثرة الجبال ووعورة اختراقها ، والتنقل عبرها ·

ثانيا : بروز الحاج أحمد باي بمقاومته الصلبة والعودة دامت ثمانية عشر عاما ·

ثالثا : صلابة المقاومة التى أبداها السكان ، وصمودها ، واستمرارها قرابة خمسين عاما ·

فقد اعتصم بمختلف مناطق الشرق القسنطيني ، معظم المقاومين الجزائريين، البسطاء ، والكبار · وتحولت جباله وواحاته الى معقل للكفاح المسلح طوال نصف قرن من الزمن من عام 1830 الى ما وراء 1880 ، وبرز فى هذه الجهات أبطال وزعماء ، بذلوا النفس والنفيس، فى سبيل انجاح القضية الوطنية التحريرية ، وقادوا جماهير السكان ، الى المعارك الكبرى، أو الجهاد المقدس كما كانوا يعبرون عنه ، ضد القوات الاستعمارية الغازية ، ولم يبخلوا بتقديم اية تضحية مهما كانت غالية · ولقد مرت المقاومة المسلحة فى الشرق القسنطيني ، بمرحلتين اثنتين رئيسيتين : الاولى تدخل فى اطار مقاومة الحاج أحمد باي والامير عبد القادر فى الثلاثينات ، والاربعينات ، والثانية جاءت بعدها وتلتها فى مظهر شعبى صرف امتدت الى عام 1880 ·

أما المرحلة الاولى : فقد امتدت عقدين من الزمن تقريبا ، وتتصف بكثير من التعقيد ، والتشابه ، بسبب الصراع الحاد الذى كان قائما بين رائدى المقاومة : الحاج أحمد باي ، والامير عبد القادر · والذى لم يكن ، على أي حال ، فىصالح المقاومة الجزائرية ·

فالامير عبد القادر اغتنم فرصة ابرام معاهدة واد تافنة أواخر ماي 1837 ، ومد نفوذه ، وسيطرته الى الشرق الجزائرى ، وكون لنفسه ثلاث ولايات هي :

– ولاية برج حمزة (برج البويرة)، وأولى عليها البطل المجاهد أحمد الطيب ابن سالم ، وتشمل معظم جبال جرجرة، وحوض الصومام ، وجزءا من جبال البيبان الغربية ·

– وولاية مجانة وأولى عليها : على التوالى : محمد بن عبد السلام المقرانى، وأحمد بن عمر العيساوى ، والخروبى، وتشمل الجزء الشرقى من جبال البيبان وسهول سطيف ، والمسيلة وجبال الحضنة ·

– وولاية الزيبان والصحراء الشرقية، وأولى عليها على التوالى : كلا من فرحات ابن سعيد ، والحسن بن عزوز ، ومحمد الصغير بن عبد الرحمان بن أحمد بلحاج · وتشمل كل الواحات الصحراوية الشرقية ، وعلى رأسها مدينة بسكرة قاعدة الولاية ·

والحاج أحمد باي ركز جهوده بمدينة قسنطينة عاصمة بايليكه حتى انتزعت

منه فى أكتوبر 1837 فانسحب الى جبال الاوراس ، وأحمر خدو ، وأخذ من هناك ينظم المقاومة ويشن الحملات العسكرية ضد الاستعمار الفرنسى ، وأعوانه وضد خصومه من أعوان الامير عبد القادر • ومن ضمن المعارك التى خاضها معارك جبال أولاد سلطان ، فى ربيع عام 1844 ضد الدوق دومان ابن الملك الفرنسى لويس فيليب وقواته الضخمة • وقد انتصر فيها الحاج أحمد باي انتصارا عظيما بعد معارك دامت ثلاثة أيام • وحكى عنها فى مذكراته ، وتعرض لها كل من محمد بن عبد الكريم القسنطينى فى رسالته الى كاهية الكاف، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن فى رسالته الى على بن سالم البوغالى •

غير ان معضلة الحاج أحمد باي تتمثل فى خيانة صهره بن قانة له ، وتآمره ضده ، وخلق متاعب وصعوبات جمة له ، شرحها فى مذكراته وقال عنه بأنه بمثابة امرأة الى جانب فرحات ابن سعيد الذى يلقب بثعلب الصحراء رغم أنه خصم له كذلك • وكان ذلك سببا فى اخفاق الحاج أحمد واستسلامه للفرنسيين فى نهاية ربيع عام 1848 • ومن ضمن من برز للمقاومة خلال هذه المرحلة : الحاج مصطفى صهر الامير عبد القادر ، ومحمد عبد السلام المقرانى، والحسن بن عزوز ، ومحمد الصغير ابن عبد الرحمن ، والشيخ الحسناوى ابن بلقاسم الحنانشى ، والشريف مولاي محمد رفيق الشريف بومعزة ، والشريف سى موسى الاغواطى ، والشيخ بن شابيرة البوسعادى وذلك فى جبال البيبان ، والحضنة ، والبابور ، والاوراس ، ووادى سوف ، والمسيلة، وبوسعادة ، وبسكرة ، وبجاية ، وغيرها • وقام الكثير منهم بنشاط سياسى لصالح الامير عبد القادر ، فراسلوا بايات تونس ، ووزراءها لربط الصلة بينهم وبينه ، وتمتينها وليحيطوهم، علما كذلك بنشاط الحاج أحمد باي وأتباعه وانتصاراته ومن هؤلاء : الحسن بن عزوز ، ومحمد بن الصغير ابن عبد الرحمن ، والشيخ الحسناوى ، ومحمد بن عبد الكريم القسنطينى ، ونشرنا عن ذلك دراستين اثنتين بمجلة الاصالة ، والمجلة التاريخية المغربية التونسية •

أما المرحلة الثانية فطويلة بعض الشيء تمتد الى ثلاثة عقود من الزمن ، وبرز خلالها عدد من الابطال والزعماء ، قادوا ثورات وتمردات ضد الجيش الفرنسى الاستعمارى ، اختلفت فى الظروف ، والوسائل ، والطول ، والقصر ، والضحايا ، والنتائج ، ولكن أهدافها واحدة وهي طرد الغزاة الاستعماريين واستعادة استقلال البلاد وحريتها ، ففى واحة الزعاطشة جنوب شرق بسكرة برز الشيخ بوزيان وابنه، والحاج موسى الاغواطى ، وغيرهم عام 1849 وقادوا ثورة بطولية بلغت الذروة فى التضحية ، والفداء ، رغم العزلة وقلة الامكانيات وضخامة القوات

الاستعمارية التى كانوا يواجهونهـا ، وكان عددها حوالى عشـرين ألفـا واستطاعوا أن يصمدوا أكثر من خمسين يوما وكبدوا القوات الاستعمارية خسائر مادية وبشرية كبيرة ·

وفى الاغواط وورقلة ، وتقرت ،برز الشريف محمد بن عبد الله ورفاقـه وخاضوا معارك ضارية ضد القـوات الاستعماريـة الـتى قادهـا بيليسى ، وماكماهـون وغيرهمـا مـن الضبـاط والجنرالات الفرنسيين وتمكنوا مـن الاستقلال بالمنطقة مدة من الزمـن فى مطلع الخمسـينات ، الى أن اهتـدى الفرنسيون للاستعانة بحمزة ولد بوبكر ولدسيدى الشيخ ، وقومه وكافـؤوه على عمله بتعيينه خليفة على الجنوب الوهـرانى ·

وفى جبال جرجرة ، والبابور ، وحوض الصومام برز الشريف بوبغلة ، والشريف بوصبع ، وبوحمارة ، والحاج عمـر ، وفاطمة نسومر ، وشنوا بجموعهـم حروبا طاحنة ضد الجيوش الاستعمارية وفتكوا بالكثير منها وكلفوها ضحايـا كثيرة ولم تستطع القوات الاستعماريـة أن تتغلغل فى أعماق جرجرة الا بعـد أن جند الفرنسيون عشرات الآلاف من الجنود وكلفوا الجنرال رانـدون بغزو المنطقة فى ربيع وصيـف عام 1857 ، بعد أن عادت قواتهم من حروب شبـه جزيرة القرم فى شمال البحر الاسـود بشرق البحر المتوسط وكان من ضمـن المعارك الكبرى التى خاضها السكـان معركة ايشريضن يوم 24 جوان 1857 ، قرب اربعاء نايت ايراثن ·

وفى جبـال الحضـنة ، والخنـقة ، وبريكة ، وبسكرة ، برز محمد بوخنتاش البراكتى ، والشيخ الصادق الرحمانى، أواخر الخمسينات ومطلع الستينـات ، وقادوا جماهير السكان ضد القـوات الاستعمارية فى معظم جهات الهضـاب العليا ، وأبدوا من البطولة والشجاعة ما جعل شعراء الملحون يتغنون بمعاركهم مثل معركة خنق أم حمام ·

وبرز فى هذه المنطقة كذلك ابراهيـم ابن عبد الله ، وسى الفضيل بن عـلى، خوجة الباشاغا سى سليمان ولد حمزة ولد سيد ىالشيخ وحفزوا السكان على الثورة الحمل السلاح عام 1864 ، امتدادا لثورة أولاد سيدى الشيـخ بالجنوب الوهرانى ، وثورة الزواغة وفرجيـوة بالبابور شمال قسنطينة ·

وفى عام 1871 برز المقرانى والحداد بثورتهما وقادوا جماهير السكان الى المعارك فى جبال البابور ، وبوطـالب ، وجرجرة ، وحوض الصومام ، وونوغة، والحضنـة ، وجبـال الاوراس ، وفى واحات أعماق الصحراء الى عين الطيبة وخاضوا أكثر من 340 معركة كبيـرة ، فضلا عن المعارك الصغيرة ، والجانبية، ودامت ثورتهم قرابة عام كلفت الفرنسيين ضحايا كبيـرة فى الارواح والعمران والامكانيات الاقتصادية ·

وفى عام 1876 اندلعت الثورة فى واحة العمرى بزعامة الشيخ محمد يحيى، والمقدم الشيخ عايش الرحمانى ، وأبدى السكان بطولة وشجاعة رغم العزلة وانعدام الامكانيات المادية والاسلحة • وبعد ثلاث سنوات اندلعت ثـــورة الاوراس الغربية عام 1879 بزعامة الشيخ محمد أمزيان ، وتحولت جبال وشعاب المنطقة وقراهـا الى معاقـل للثـــوار والمجاهدين الذين ضحوا بكل ما لديهم فى سبيل انـجـاح قضيتـهـم وعانوا ما لا يتصور من المشـاق والاتعـــاب والمـــآسى •

مميزات وخصائص هذه الثورات :

هكذا كان الشرق القسنطينى برقعتـه الواسعة مسرحا لعدد كبيـــر مـــن الثورات ، والتمردات دامت كما ذكرنا نصف قرن من الزمن وتتصف بالمظاهر التاليـــة :

أولا : ان أحداثها كثيرة ومكثفة فى العقديــن الاوليـــن : الاربعينـــات ، والخمسينات ، وفيما بعد ذلك أخذت تقل، وتتقلص نتيجة للضغط الاستعمـــارى الشرس ، ماديا وبشريا ، وتطبيقـــه سياسة القـتـل والطـرد الجـمـاعى والتجويع ، والتجريد من الامـــلاك العقارية والمنقولة •

ثانيا : ان زعماءها كانت تنقصهـم فكرة التخطيط ، وتعوزهم الاسلحـــة الكافية ، والضرورية ، والمتطورة على عكس عدوهم • ولم يكونوا يملكون الا الحماس الدينى والوطنى كسلاح معنوى، والفؤوس والعصي ، والخناجر ، وبعض بنادق الصيد ، كسلاح مادى • وهي ضعيفة الفعالية كثيرا •

ثالثـا : لعب القادة الدينيون دورا بارزا فيها خاصة الرحمانيون الـذين كانت الثورة ضد الاستعمار الفـرنسى الاجنبى ، فطرية فيهم ، ويرتمون فيها أفواجا وجماعات دون تردد ، بجماهير اتباعهم الكثيرين ، فى طول الجزائـــر وعرضها ، خاصة الشرق القسنطينى ، أمثال : الشيخ بوزيان بالزعاطشـــة ، وبن عزوز فى واحة البرج ، والحداد وعزيز فى صدوق ، وبن فيالة ومولاي الشقفة وعمر برعرعور ، فى البابور ، والحاج عمـر ، والجـعـدى فى ذراع الميزان ، وبن التـــواتى فى مقـــاوس وبريكة ، وسى الصديق فى بلزمة ، وسى الصادق فى الخنقة وبسكرة ، والشيخ عايش فى العمرى ، والشيـخ محمد امزيان فى الحمام بالاوراس ، وهكـــذا •

رابعـا : أن هذه الثورات فى الشرق القسنطينى ، وان ارتبطت بأســـماء أشخاص ، وزعماء عائـــلات كبيـرة أوروستقراطية فى معظمها الا أن الذين اكتووا بنيرانها ، ولعبوا الادوار البارزة فيها ، هي الطبقات الشعبية الكادحـة من الفلاحين والعمال ، شيوخا وشبابا، رجالا ونساء • وهذه الطبقات الشعبية الكادحــة لم تكن لها مصالـــح أو امتيازات تدافع عنها دفعتها الى هـذه الثورات ، وانما هو الحافـز الوطـنى الصرف الذى كان ممزوجا بالعامـــل الدينى فى تلك الفترة ، وهذا على عكس

ما ادعى ويدعى الكتاب الفرنسيون الاستعماريون ·

فقد حرص هؤلاء الكتاب ومعظمهم من الضباط والجنرالات ، على نعت هذه الثورة بأسباب اقتصادية ، واجتماعية ، ليفرغوها من محتواها وأهدافها الوطنية ، وحاولوا أن يصلوا الى النتائج التالية :

أولا : ادعوا انالجزائريين عنصريون متعصبون دينيا وعرقيا ، ولا يستطيعون أن يتعايشوا مع الاجانب الاوروبيين المسيحيين، ولذلك كانوا يثورون باستمرار ضدهم وهو مصدر ثوراتهم المتعددة ضد الفرنسيين والدليل فى نظرهم هو كثرة رجال الدينالذين يرتمون فى هذه الثورات ويقودونها وهي دعوى باطلة لان الجاليات الاجنبية الاوروبية المسيحية قبل عام 1830 كانت تقطن بالجزائر ، فى أمن وبحبوحة من العيش ، ومنها الجالية الفرنسية التى تمركزت بساحل القالة وعنابة منذ تأسيس مراكز صيد المرجان بها فى منتصف القرن 16 م ·

ثانيا : ادعوا ان الجزائريين لا يثورون الا عندما يشتد عليهم الفقر ، والجوع ، والعرى ، والخصاصة ، أما عندما تتحسن أحوالهم الاقتصادية وينمو ثراؤهم فانهم يخلدون الى الهدوء والسكينة ويرضون بحكم الاجانب ، ومنهم الفرنسيون · وهذا يعنى فى نظرهم طبعا ، ان الجزائريين لا يثورون الا من أجل بطونهم الجائعة ، وأجسامهم العارية · أما الفكرة الوطنية فبعيدة عنهم · وهذا ادعاء استعمارى بحت وخطير تبناه معظم من كتب عن ثورات الجزائر التحريرية فى القرن الماضى ، والحالى ، أمثال : لويس رين ، وروبين، وشاتولى ، وولسيانى ، وهيربيون ، وبول أزان ، وفوانو ، وفيرو ، وتروملى، ولاباسى ، ومارقون ، وهمزى قارو ، وبيليسى ، وشارل ريشارد ، وأوقيستان بيرنارد · وسويى ، ولالمان ،وبريبوا ، وقورشود ، وغيرهم ·

وحتى من كتب عنها فى القرن الحالى ممن لا يزالون أحياء ، لم يتخلوا عن هذه الفكرة ، وحذوا حذوها أمثال جوليان ، وأجورون ، ونوشى ، وبرونان· · ولاكوست ·

ثالثا : ان معظم هذه الثورات حسب زعمهم ليست وطنية جزائرية ، لانها اندلعت بسبب ايحاءات ، وايعازات من الخارج ، من طرف قوى أجنبية فاتهموا المقرانى والحداد ، ومحيى الدين ابن الامير عبد القادر ، بعمالتهم للبرونسيين الالمان ، والدولة العثمانية، واتهموا الشريف بوشوشة ، وبن ناصر ابن شهرة ، والشريف محمد بن عبد الله ، بعمالتهم للسنوسية ، واتهموا أخرين بعمالتهم للانجليز المنافسين لهم فى النشاط الاستعمارى ، وهي نفس المواقف والادعاءات التى حاول الفرنسيون أن يلصقوها بثورة أول نفمبر 1954 عندما ادعوا أن ثوارها (فلاقة) وقطاع طرق ، خارجون عن القانون ، دفعوا من جهات أجنبية ليقلقوا أمن البلاد والسكان · ووضعوا مشروع قسنطينة الاقتصادى ليقضوا عليها علىأساس أن أسبابها اقتصادية · ولكن الثورة سفهت أحلامهم ، وكذبت

ادعاءاتهم ، واثبتت للعالم أجمع أن قضية الاستقلال الوطنية الكبرى ، هي أهم أسباب ثورة أول نوفمبر الكبرى عام 1954 وكل الثورات الاخرى قبلها طوال القرن التاسع عشر • وقد لعب الدين فيها دورا بارزا باعتباره احدى الركائز الكبرى للشخصية الوطنية الجزائرية ، ولا ضير فى ذلك بل انه من مظاهر الفخور والاعتزاز لكفاحنا الوطنى •

ومما تجدر ملاحظته هنا هو أن السلطات الاستعمارية ، خلال عهود ملكية جويلية (1830 ـ 1848) والجمهورية الثانية (1848 ـ 1852) والامبراطورية الثانية (1852 ـ 1870) اتبعت سياسة استمالة العائلات الارستقراطية اليها ، واسناد وظائف كبيرة لزعمائها مثل القائد ، والآغا ، والباشاغا ، والخليفة، لتتمكن بواسطتهم من اخضاع السكان اليها بسهولة ، ودون تكاليف وأتعاب كبيرة • وبقيت على هذه السياسة حتى منتصف عقد الستينات ، ثم أخذت بعد ذلك تغير من سياستها ، واصبحت تميل الى تطبيق الحكم المباشر والاستغناء عن وساطة هذه العائلات الكبيرة وزعمائها بعد أن قضت حاجتها ونالت وطرها منها ومنهم •

فعمدت الى التقليل من نفوذها ، وتقليم أظافرها وكبرياء زعمائها ، وانزلتهم من مركز الخليفة الى الباشاغا ، ومن الآغا الى القايد وهكذا وهو ما فعلته مع زعماء عائلة أولاد مقران بمجانة، وزعماء أولاد سيدى الشيخ بالبيض ، وأولاد بن عاشور ، وبن عزالدين فى الزواغة وفرجيوة وغيرهم • وهو مصدر ثورات البعض منهم •

وقد ألح الكتاب الفرنسيون كثيرا على هذا الجانب ، وعلى رأسهم لويس رين ليؤكدوا الطابع الشخصى لثورتهم، وابعاد العنصر الوطنى عنهم ولكننا بينا أن الجماهير الشعبية هي التى لعبت الادوار البارزة والرئيسية وهي ليست لها مصالح أو امتيازات تدافع عنها ، وانما الفكرة الوطنية الصميمة هي التى حفزتها الى ذلك ، وهي فكرة ممزوجة بالروح الدينية التى هي وطنية كذلك •

أحداث البابور والشمال القسنطينى فيما بين 1840 ـ 1871

فى الوقت الذى كان فيه الحاج مصطفى صهر الامير عبد القادر ، والحسن بن عزوز ، وأحمد بلحاج ، يقاومون القوات الفرنسية ، فى جبال المسيلة والحضنة ، وبوسعادة ، وسهول سطيف ، البرج ، ومجانة ، عام 1840 ثار سكان منطقة سكيكدة ، وهاجموا قرية الحروش ، وهددوا طرق المواصلات بين قسنطينة والموانى الساحلية ، واضطر الفرنسيون الى اخلاء معسكر عين الترك غرب سطيف ، ومارس الجنرال قالبوا : تخريب منازل السكان، ومزارعهم بصفة جماعية •

وثار سكان أولاد تبان فى جبال بوطالب بزعامة الشيخ ساعد التبانى ، وأولاد سيدى أحمد ، بريغة القبالة ، وأولاد بنى عبد النور غرب سطيف ، وهاجموا القوات الفرنسية التى كانت

تحارب جموع الحاج مصطفى واتباعه، وجموع مولاي الطيب بعموشة .

وفى عام 1846 برز مولاي محمد فى غبولة ببنى شبانة على الضفة اليمنى لواد الصومام ، وكان من رفاق الثائر بومعزة فى جبال الونشريس وحوض الشلف . فاستقر لدى أولاد صالح بجبال البابور ، وقاوم نفوذ وسيطرة بوعكاز بن عاشور فى فرجيوة ، وهاجم بنى ورزالدين ، وتنقل بين القرى والمداشر ، واصطدم بزعماء عائلة ابن عبيد ، وعائلة ابن عاشور المتعاونين مع جيش الاحتلال ، ووقف الى جانبه الشريف سى موسى الاغواطى الذى أسس زاوية ببنى يعلى ، ونظموا عدة هجومات ضد القوات الفرنسية فى السهول العليا وخاضوا معارك عدة فى جبل عنينى وبنى فوغال ، والعلمة ، وصدراتة ، وأولاد نابت ، وجبل مغريس وثنية طكوكة ، وجيجل ، وعموشة ، وبنى عقيف ، وبنى وجهان ، وبنى يعلى ، وبنى ورتلان ، وبنى عيدل ، وبنى جماتى ، وبنى عباس ، وأولاد سيدى ابراهيم .

وخلال اندلاع ثورة سكان واحة الزعاطشة عام 1849 ، اغتنم سكان البابور الفرصة ، وحملوا السلاح وثاروا ضد القوات الفرنسية واعوانها فامتدت اليهم ثورة الشريف بوبغلة التى انطلقت فى بنى مليكش عام 1851 بجبال جرجرة . وبرز الشريف بوصبع فى هضبة القل ليدعم ثورتهم ، وثورة بوبغلة ورفاقه ، واضطر الجنرال توسكى ، وماكماهون ، وسانت ارنو ، أن يزودوا قوات ضخمة لمواجهتهم .

ولم تنته أحداث بوبغلة ، وبوصبع، فى البابور ، حتى اندلعت أحداث أخرى فى ربيع عام 1862 . وامتدت الى العام الموالى ، وخاض الثوار معارك عديدة فى خراطة ، وواد البرد ، ومجاز النوق، وخلف الله ، وجبل منتانو ، وعين سلطان، وتاقربوست ، وراجت اشاعات بين السكان بأن الفرنسيين يسعون لطردهم من املاكهم واراضيهم ليملكوها للمعمرين الاوروبيين القادمين من أوروبا . كما يسعون لتجنيد شبابهم وابنائهم فى الجيش الفرنسى . وقويت هذه الاشاعة كثيرا بعد أن تم انشاء مركز تاقيطونت العسكرى ، فثاروا وهاجموه ، وسقط ضحايا عديدون وكثيرون من الطرفين .

وفى صيف عام 1858 اندلعت أحداث الثورة مرة أخرى فى هضبة جيجل ، والقل ، وحوض واد الكبير ، بعد أن قامت السلطات الفرنسية بتمليك غابات الفلين (الفرنان) للمعمرين الاوروبيين، فاشعل الثوار النيران فى الغابات واحرقوا حوالى 550 ألف شجرة فلين . ورفضوا دفع الضرائب للسلطات الاستعمارية ، وجدوا فى اقتناء الاسلحة والبارود . واضطر الجنرال قاستو : *Gastu* أن يهاجمهم بقوات ضخمة ، وأن ينشىء مركز الميلية العسكرى على الضفة اليمنى لواد الكبير .

ومع ذلك لم تتوقف ثورة سكان البابور، فاستغلوا رحيل القوات العسكرية الفرنسية الى ايطاليا للمشاركة فى الحروب التى اندلعت هناك عام 1859 ، وجدوا فى اقتناء الاسلحة والبارود ، وهاجموا الاسواق التى يرتادها

الفرنسيون ، وقطعوا خطوط الهاتف بين قسنطينة وجيجل أربع مرات . وساءت الاوضاع كثيرا فى الزواغة وواد الكبير وفى دائرة جيجل مرة أخرى وخاض الثوار ضد الجنرال ديفو ، وقواته التى تبلغ عشرة آلاف جندى معارك كثيرة وضارية فى العروسة ، وبوطويل . وينتمون الى أولاد على ، وبنى عيشة، وبنى حبيبى ، وبنى يدر ، وبنى فتاح ، وبنى مسلم ، وأولاد عواط وبنى طوفوط وأولاد عيدون ، وعرب تاسقيفت ، وغيرهم .

ثورة سكان الزواغة وفرجيوة وأسبابها عام 1864

كانت منطقة فرجيوة تشتهر بعائلة بوعكاز بن عاشور التى نزحت اليها من واد زناتى خلال عهد الاتراك ، ولعب زعماؤها دورا بارزا فى احداثها وتولى الحاج بوعكاز بن عاشور مشيخة فرجيوة من طرف الحاج أحمد باي عام 1834 ، واشترك معه فى حروبه ضد الفرنسيين ، واتسع نفوذه حتى شمل كل مناطق فرجيوة ، وساحل البابور ، وبنى فوغال ، وأولاد عمران ، وأولاد سيدى على ، والرواشد وسواحل جيجل .

وبعد احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة عينه المارشال فالى شيخا على فرجيوة تحت امرة الخليفة بلحملاوى . واشترك فى عملية استكشاف الطريق بين قسنطينة وسطيف لقافلة فالى التى ستعبر مضيق البيبان فى أكتوبر 1839 ، وتآمر على رئيسه بلحملاوى ولفق له تهمة فعزله الفرنسيون ونفوه مدة الى تونس ، على أمل أن يحل فى مكانه .

وفى عام 1850 أقتيد الى قسنطينة ، ورافق الجنرال سانت ارنو فى حملته العسكرية على بلا دالبابور فى العام الموالى ، بين قسنطينة ، والقل ، وجيجل . واستعمل كأداة لاخضاع السكان ، ومنح نيشان الشرف بعد عودته واذن له بالذهاب الى الحج لعدة شهور .

وخلال السنوات التالية اشترك مع الفرنسيين فى كل العمليات العسكرية التى شنها الجيش الفرنسى على هذه المنطقة حتى عام 1861 ، ثم تغيرت الاوضاع عليه ، وأصدر الجنرال ديفو قرارا فى شهر نوفمبر بابعاده من فرجيوة الى قسنطينة وقسمت ناحية الى منطقتين اثنتين : فرجيوة ، وعين عليها سى أحمد خوجة ، والبابور والدهامشة ، وعين عليها سى أحمد بن الدراجى ، وكلاهما من أقاربه وكان ذلك بداية لانهيار مركزه ونفوذه وضعف شخصيته فأخذ يمين هو الآخر الى الثورة .

أما الزواغة ، فقد اشتهرت بها عائلة أولاد بنى عز الدين الذين كانوا يتولون مناصب فى عهد الاتراك واشتهروا بعد الاحتلال الفرنسى باثارة الاضطرابات . وعندما غزا الجنرال بيدو مناطق بنى قايد ، وبنى خطاب ، وأولاد عيدون ، عام 1847 تمهيدا للتوسع الاستعمارى فى البابور وضع أولاد بنى عز الدين أنفسهم تحت تصرف السلطات الفرنسية، وبرز بورنان كزعيم مشاغب ، وحاول أن يستغل أحداث ثورة الزعاطشة لاثارة السكان ، فاقترح بن عاشور على السلطات الفرنسية أن تعينه قائدا على المنطقة فأخذت برأيه ، واعدت مشروعا

واسعا لاحتواء زعماء أسرة بنى عز الدين فعين بولخراص قائدا على موية، وبنى تليلان ، وبنى ابراهيم وعينت الشيخ محمد بن عز الدين قائدا على الزواغة، وأولاد عسكر ، وأولاد يحيى وأولاد عوات ، وعينت بورنان قائدا على حوض واد الكبير ٠

واشترك بورنان فى حملة سانت ارنو الكبيرة عام 1851 مثل بنى عاشور ٠ واظهر حماسا فى محاربة السكان بواد انجة ، وفج باينان والودية وفج العربة، وكازان ، وفج منازل ، والعروسة واشترك مع ماكماهون فى غزو حوض واد الكبير عام 1852 ، وبقى على اخلاصه حتى عام 1858 ثم تغيرت الاحوال والاوضاع ضده ، فاتهم باشعال الحرائق فى غابات الفرنان ، ومهاجمة الشيخ بوطمين فى الضفة اليسرى لواد الكبير ، وبقطع الهاتف بين جيجل وقسنطينة ، وقتل العمال الثلاثة بالميلية، وتشجيع الناس على الثورة وحمل السلاح كما ادعى فيرو ذلك ٠

وقامت السلطات الفرنسية باعداد ملف كبير ضده ، وصفت معه الحساب فى ربيع عام 1860 ، اذ اتهمه الجنرال ديفو بتحريض الناس على عدم دفع الضرائب ، ومهاجمة قواته فى سيدى معروف ، وبادر باعتقاله هو وابن أخيه عز الدين بن الشيخ محمد ، وقام بتصفية نفوذ أسرته كلها ما عدا اثنين وهما : بولخراص الذى أبقى قائدا على موية منذ تعيينه عليها عام 1850 والحاج بن عز الدين الذى عين قائدا على بنى يدر فى جيجل منذ عام 1859 وابقى عليهم.

وقد قدم بورنان وابن أخيه عز الدين الى مجلس حربى ، ونفى الى تونس حيث بورنان ، وسمح لولديه : علاوة، وعبود ، بالعودة الى الجزائر ٠

أسباب اندلاع ثورة الزواغة وفرجيوة :

لقد ساد الهدوء منطقة الزواغة وفرجيوة حتى مطلع عام 1864 ، ثم اندلعت فيها الاحداث وارتمى فيها كل أفراد أولاد بن عز الدين ، وأولاد بن عاشور ، الذين استطاعوا ان يلتحقوا بها ، ومن أهم أسباب هذه الثورة حسب رأي شارل فيرو :

أولا : تأثير ثورة أولاد سيدى الشيخ التى اندلعت بالبيض ، وستيتن بالجنوب الوهرانى ، وانتشرت أحداثها فى معظم أنحاء الجزائر الغربية والوسطى ووصلت تأثيراتها الى شرق الجزائر القسنطينى ٠

ثانيا : تأثير ثورة على بن غذاهم بتونس التى اندلعت ضد الباى الذى كان ألعوبة فى يد القناصل الاجانب ، ووصلت الى الشرق القسنطينى عبر الحدود الشرقية خاصة مدينة الكاف ، التى كان يستقر بها عدد كبير من اللاجئين الجزائريين المنفيين ويقومون بالدعايات الواسعة ضد الاستعمار الفرنسى ويحثون على محاربته ٠

ثالثا : بروز عدد من رجال الدين، والمقدمين الرحمانيين بالمنطقة قاموا بحث الناس على حمل السلاح والثورة ضد المستعمرين الفرنسيين واعوانهم ، ومن بين هؤلاء :

ـ الشيخ الحاج حجوج بميلة : الذى ادعى للناس بانه تلقى تعليمات بالحجاز

فى السنة الماضية من طرف نائب السلطان العثمانى ، بأن يقوم بالثورة ضد الفرنسيين ، ويدعو السكان لها ·

ـ الشيخ بوقرين ، فى أولاد عبد النور بقرية كارب ، الذى سعى هو الآخر للقيام بالثورة ·

ـ الشيخ مولاي محمد مقدم الطريقة الرحمانية بالزواغة الذى كان له أنصار كثيرون فى مدينة قسنطينة نفسها ، فحثهم جميعا على الثورة وحمل السلاح فى الاجتماع الذى عقد بمنزله يوم عيد الفطر لعام 1281 (10 مارس 1864) واكد لهم بانه بعد ثمانية أيام ستندلع الثورة ، ووفى بوعده ، وانطلقت حوادث العنف فعلا يوم 18 مارس 1864 بالهجوم على برج القائد حمو بقرية الزغاية الذى خلف بورنان فى منصبه ، وعقد اولاد ابن عزوز وأولاد بن عاشور عدة اجتماعات لتنسيق العمل رغم الاختلافات التى كانت بينهم سابقا ·

ورغم قيام السلطات الفرنسية باعتقال المقدم مولاي محمد ، وايقاف بوعكاز بن عاشور فى قسنطينة ، والقائد بولخراص ، وعبود وعلاوة ، فان معظم أولاد بن عز الدين القاطنين بقسنطينة التحقوا بالثورة ، ولحق بهم اخوانهم المنفيون بتونس خلال شهر جوان ، وحدثوهم عن أخبار ثورة بن غذاهم ، واشاعوا بينهم بأن سفنا حربية محملة بالسلاح هي فى طريقها الى تونس من القسطنطينية ، وان السلطان العثمانى عبد العزيز نفسه سيصل الى الجزائر قريبا ليحررها من الغزاة الفرنسيين الاجانب ·

وقد تصدى الثوار لقوافل الجنرال بيريقو التى كانت تقدر بحوالى عشرة آلاف جندى وهاجموه فى برج القانون قرب واد الحليب وأرغموه على نقل معسكره الى أطراف واد الكبير ليدافع عن نفسه وعن قواته ثم استدعى الى منطقة الحضنة وبوسعادة ليواجه أحداث ثورة أولاد سيدى الشيخ التى وصلت الى هناك ، فاستخلف فى مكانه القائد بن حبيلس كبديل للقائد حمو الدراجى صهر بوعكاز بن عاشور ولكنه واجه صعوبات كبيرة لان الناس رفضوا طاعته ، وامتنعوا عن دفع الضرائب له، وحاولوا اغتياله ، وارغموا عمال طريق شعبة الآخرة على التوقف عن العمل ، وخربوا محطة العمل ، وهاجموا زمالة قائد أولاد صالح بعموشة ، وبرج تاقيطونت العسكرى وبرج القائد حمو أو عاشور ، والقائد السعيد بن عبيد فى ذراع القائد ببنى سليمان وساحل قبلى ، ومعسكر أوقاس على ساحل بجاية وخربوا قرية الدهامشة، واضطر الفرنسيون أن يجندوا قوات أخرى بقيادة الكولونيل أوجورو ، والجنرال بيريقو الذى عاد مرة أخرى الى البابور بعد أن ساءت الاوضاع كثيرا ، ولم تنته حوادث الثورة هذه حتى صيف عام 1865 ·

ثم ساد الهدوء مرة أخرى منطقة البابور لغاية عام 1871 ، حيث اندلعت الثورة مرة أخرى ، بأولاد عيدون فى الميلية ، فى شهر فيفرى ، وبمعظم مناطق البابور بعد ذلك وحمل السكان السلاح بصورة جماعية بعد اندلاع

ثورة المقرانى والحداد بمجانة وصدوق فى مارس وأبريل ولعبوا دورا بارزا فيها بقيادة بومزراق ، وعزيز الحداد، وعمر بوعرعور ، وابن فيالة والحسين مولاي الشقفة ، وغيرهم ، وسجلوا صفحة مشرقة ومشرقة فى تاريخ المقاومة الوطنية الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى فى هذا القطاع القسنطينى ودامت الحوادث الى أواخر شهر أكتوبر

مصير زعماء ثورة 1864 و 1871

لقد واجه الفرنسيون بقسوة وشدة الثوار فى كلا المرحلتين فقد قبض على بوعكاز بن عاشور ، وأودع السجن بقصبة قسنطينة من 11 ابريل الى شهر أوت 1864 ثم نفى الى مدينة بو جنوب فرنسا الى أن صدر عليه العفو عام 1865 فعاد الى الجزائر العاصمة وفرضت عليه اقامة جبرية هناك حتى عام 1870 ثم سمح له بالعودة الى قسنطينة ·

أما أولاد بن عز الدين فقد نفوا الى مدينة كورتى *Corte* بشرق جزيرة كورسيكا ، وتوفى هناك عبود ، وسمح لبولخراص ، والحاج ، بالاتجاه الى تونس للالتحاق بأبناء عمومتهم المنفيين هناك منذ عام 1860 ·

وحاكموا عددا من ثوار 1871 ، وصادروا أملاكهم ونفوا البعض منهم الى نوميا بكاليدونيا الجديدة ، والبعض الى فرنسا وكورسيكا والبعض الى كايان بأمريكا الجنوبية ·

هكذا بهذا الاسلوب تخلص الفرنسيون من أولاد بنعاشور ، وأولاد بن عز الدين عام 1864 ، ومن الثوار الآخرين عام 1871 ، وهو نفس الاسلوب الذى اتبعوه بعد مع العائلات الاخرى كعائلة المقرانى بمجانة ، وعائلة أولاد سيدى الشيخ بالجنوب الوهرانى ·

تلك هي باختصار مظاهر المقاومة بالشرق الجزائرى وأولائك هم بعض روادها · وتلك هي خصائصها ، وذلك هو رأي الفرنسيين وموقفهم منها ، ومع ان الفرنسيين اهتموا بتسجيل أحداثها خاصة شارل فيرو ، ولويس ريسن ، وروبين وشاتوليى ، الا أن ذلك تم من وجهة نظرة استعمارية ، ولابد من البحث من جديد على وثائق جديدة عنها واعادة صياغتها من وجهة النظرة الوطنية الامينة وهي مهمة الباحثين الجزائريين فى جامعات الجزائر الصاعدة · والارشيفات الاجنبية خاصة : الفرنسية ، والتركية ، والتونسية ، والمغربية ، تزخر بكثير من هذه الوثائق وتنتظر من يزيل عنها غبار النسيان والاهمال وينقذها من الارضة ، والتلف ·

مذكرة حول اقليم قسنطينة (2)

ترجمة وتعليق
ناصر الدين سعيدونى

قوانين الملكية :

سوف نعالج فيما يلى أوضاع الملكية وقوانينها كما كانت فى الفترة السابقة وكيف أصبحت الآن ، وذلك قبل التعرض الى مداخيل بايلك قسنطينة ·

ففى هذا الشان كانت أراضى البايلك مقسمة الى ثلاثة أصناف مختلفة حسب أوضاع ملكيتها ·

ـ الصنف الاول : يشمل الاراضى التى سلمت للقبائل مقابل تسديد رسوم العشور والحكور عليها ·

ـ الصنف الثانى : أراضى الملك التى تعود ملكيتها لبعض الافراد ولا يؤخذ عنها سوى حق الزكاة ·

ـ الصنف الثالث : أملاك تعود للاوقاف فهي ملكيات موقوفة على المساجد · وقد اكتسبت هذه الاصناف الثلاثة من الاراضى أوضاعها الخاصة كما يلى :

1 ـ الاراضى التى كانت تقيم عليها عشائر . تعود للبايلك وليس لتلك العشائر الحق فى تملكها ، بحيث يمكن تحويلها من مكان الى آخر أو طردها منها حسب رغبة البايات ، ومع ذلك فان تلك العشائر كانت ملزمة بدفع رسوم الحكور وحق الزكاة ·

وقد كانت هذه الرسوم فى عهد الحاج أحمد باي يقدر بـ 10 قروش (ذات القيمة المعادلة لـ 2،5 ف) عن كل جابدة ، ولا يستثنى من ذلك سوى قبائل الدواير التى

كانت تساهم بالفرسان ، التى كانت لا تدفع من الحكور الا ما قيمته 12 ريالا ·

أما الآن (فى عهد الادارة الفرنسية) فقد حدد الحكور بـ 10 فرنكات للجابدة الواحدة وبقى العشور كما هو فى عهد أحمد باي وهو صاع من القمح وصاع من الشعير وحملين من التين عن كل جابدة ·

وعلى كل فان هذا النوع من الضرائب عن الاراضى المكتراة كان يخضع لاستثناءات من حيث نوعية الضريبة ومقدارها ، وذلك حسب وضعية القبائل التى كانت تسدد هذا النوع من الضرائب بحيث نجد الآن أو فيما مضى عشائر لا تساهم الا بمقدار معين من كل هذه

الرسوم ، فالشرفة المنتمين الى قيادة بنى عيسى كان يسمح لهم بالاقامة فى فصل الصيف بسفوح جبل الوحش وممارسة الزراعة بمحاذاة سهل عنابة (1) فى فصل الشتاء مقابل أداء رسم مقداره 700 فرنك ، وهكذا نرى ان هذا النوع من الضرائب لم يمكن أن يطبق على كل القبائل كما لم يكن يشملها جميعا ٠

2 ـ الاملاك الخاصة :

ما دام الحكور يدفع مقابل كراء الارض فان الاملاك الخاصة لا يؤخذ عنها سوى حق الزكاة أو رسوم العشور ٠

وأراضى البايلك الآن تستغل من طرف مالكيها ، أو يعهد الى العمل بها لاشخاص آخرين عن طريق الكراء ويعرف فى هذه الحالة بالعزلة أو العزل ٠ وينال مالك الارض فى حالة استئجارها أربعة أخماس المحصول ، ويترك الخمس الباقى للمستأجر الذى يعرف بالخماس ، شريطة ان يساهم صاحب الارض بالزريعة والمحراث والثيران والبغال الخ ، اما مصاريف الحصاد وتهيئة الارض للحرث الخ فيتقاسمها المالك مع الخماس بنفس النسبة التى يحصل عليها كل منهما ٠

وتعود ملكية عدد ضخم من العزل المجهزة ، بعتاد كبير الى البايليك مباشرة ، فهو يتصرف فيها باعطاء قسم منها لكبار موظفى البايليك مقابل أجورهم ، أو على سبيل المكافأة والترضية ٠ أما الباقى من هذه العزل فكان يترك للعشائر والدواوير تستغله مقابل أداء رسوم الحكور والعشور ، مع القيام بخدمة بعض الاراضى لفائدة البايليك بعد أن يوفر لهم رجال البايليك الزريعة والبغال والبقر الخ ٠٠٠

أما مهمة الاشراف على عزل البايليك، والسهر على حسن استغلالها فكانت من نصيب قائد الدار ، فهو يسدد مصاريف الخماسة ويراقب جمع المحاصيل والاقوات فى مخازن الدولة ، ويشرف على بيع الفائض منها والذى لا يكون منزل الباي فى حاجة اليه لصالح خزينة البايليك ٠

فبهذه الصلاحيات أصبح قائد الدار له حق التصرف الحر فى استغلال الملكيات الخاصة بالبايليك المعروفة بالعزل والتى كانت تحتوى على ثروات وعتاد ذات قيمة معتبرة من خيل وبغال وغنم وبقر وكميات من الحبوب الخ وذلك عندما تم الاستيلاء على قسنطينة من طرف الجيش الفرنسى ٠

أما اليوم فان تلك العزل لم تعد تضم أي شيء من هذا العتاد ، وذلك حسب الاقوال التى أدلى بها الموظفون المعروفون باسم الخليفة ، بعد أن أصبحت هذه العزل مصنفة ضمن الصنف الاول من الاراضى ، مما ترتب على هذه الوضعية ترك ذلك العتاد للعشائر تستغله مقابل رسوم الحكور والعشور فقط ٠

وبعد أن انقطع أحمد باي منذ 1830 عن تقديم ما كان مطالبا به من المواشى (بقر وخرفان) فى شكل ضريبة تخص داي الجزائر ، ولم يعد يحتاج منهـا سوى سد استهلاكه الخاص وما يفى بتموين فرق جيشه الحارس ، أصبح ما يملكه البايليك بهذه العزل يبلغ 3000 بغل و 600 حصان ، و 5000 جمل و 14000 صاع من القمح والشعير (1) ٠

وقد وضعت هذه العزل فى المزاد العلنى فى شهر ديسمبر من عام 1839 ، فارتفعت قيمتها فى هذا المزاد الى 250،000 فرنك ، وبذلك لما تدره من رسوم العشور المقدرة وحدها لنفس السنة بـ 14969،95 ف ، مع ان عوائد بايليك قسنطينة فى نفس السنة 1839 لم تتجاوز قيمتها 183،938 ف ٠

3 ـ املاك الاحباس :

يندرج تحت هذا الصنف تلك الاملاك التى أوقفت على المساجد والتى تمتاز بأنها غير خاضعة للضرائب والالتزامات المالية ٠

ويعود مصدر هذه الاملاك الى عطايا بعض الاشخاص الاتقياء الذين يشترطون فيما أوقفوه على المساجد أن تخصص عوائده على الصدقات أو تدخل فى هدايا الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، وقد كان هؤلاء الاشخاص فى الغالب مدفوعين الى هذه الاجواء بفعل جشع البايات وطمعهم ٠

ويسير شؤون هذه الاملاك العقارية من أوقاف وحبوس ، المقدم ، فهو مكلف يجمع عوائدها المالية واتفاقها على ما تحتاجه المساجد من اصلاحات ضرورية ، وما تتطلبه بعض الزوايا من أمور العبادة والصيانة ، مع توزيع بعض الصدقات ، بالاضافة الى تصرفه فى البناءات التابعة للمساجد داخل مدينة قسنطينة ٠

وما دامت هذه الاملاك الموقوفة تصبح غير قابلة للحيازة من جديد من مجرد تسجيلها فى دفتر أوقافا لمساجد ، فان كثيرا من الاشخاص تعمدون الى وضع ما يمتلكونه ضمن الاوقاف المسجلة شريطة أن لا تصبح أملاكهم داخلة فعلا ضمنا لاوقاف الا بعد انقراض عقبهم ٠

عوائد البايليك :

التزامات المالية التى كان يحصل عليها البايليك ، على شكل عوائد مؤخوذة من القبائل القاطنة بأراضى البايليك ، كانت تتنوع حسب وضيفة القبائل التى تساهم بها ٠

فهذه العوائد لم تكن موحدة أو قارة، فهي بالنسبة الى رسم الحكور تقدر بـ 10 قطع نقدية لبعض القبائل ، بينما بعض القبائل الاخرى كانت تدفع رسوما أقل من ذلك قبائل الدواوير الذى يؤخذ عنها 10 ريالات فقط الخ ٠٠٠

أما بالنسبة للعشور وهو فى واقعه رسم موحد على جميع القبائل باعتباره صاعا من القمح وصاعا من الشعير

وحمولتين من التين عن كل جابدة ، الا أن بعض القبائل كانت مطالبة عند تسديده باضافة خروف وحمولة قمح ومقدار غير محدد من الزبدة وبعض الدواجن كالدجاج الخ ...

وهناك بعض القبائل كانت غير ملتزمة بدفع هذا النوع من الضرائب والمتمثل فى رسمى العشور والحكور ، بل كانت تكتفى بتقديم نصيب محدد مسبقا من النقود ، ، مثلها فى ذلك مثل قبائل أخرى لم تكن ملزمة الا بتقديم كميات من القمح والشعير فقط .

كل ذلك يجعل عائدات البايليك تتكون مما يلى :

1) مساهمة القبائل بالحبوب من قمح وشعير ، تقدم فى شكلى ضريبتى الحكور والعشور .

2) مساهمة تشمل الحبوب من قمح وشعير ، ومقدارا من النقود ، تقدمها القبائل التى كانت تنتفع بعزل البايليك، مضافا اليها كمية أخرى من الحبوب تحدد حسب عدد الزويجات التى يمتلكها البايليك . وتقوم تلك القبائل بخدمتها لحسابه وفائدته .

3) مساهمة أصحاب الملكيات الخاصة، فى شكل كميات من الحبوب .

4) مساهمة من الحبوب فقط خاصة بالدواوير الكائنة بعزل البايليك .

5) مساهمة من النقود يتكفل بها شيخ العرب تكون عوضا عن الضرائب المفروضة على المناطق التى يتصرف فيها باعتباره قائد عليها .

6) مساهمة أخرى من النقود والماشية (غنم) تقدمها عشائر الحراكتة عوضا عن الضرائب المفروضة عليهم .

7) التزامات تؤخذ من القبائل النائية، وذلك بتجريد فرق من المحلة عليها .

8) حقوق تتعلق بتقليد المناصب لبعض الموظفين .

وهكذا اذا أخذنا بتصنيف وترتيب كمية الضرائب التىكانت تؤول الى أكياس البايليك نجد ان هناك 151 قبيلة كانت تدفع ضرائب حسب النوع الاول من المساهمات المالية ، (عشور حكور) وهي كالتالى :

اسم القبيلة	عدد الجابدات	عدد قيسات العشور		الحكور
		القمح	الشعير	بالريال بوجو
أولاد سيدى بوناب الغرب	30	30	30	400
الغرازلة » »	90	90	90	1200
الاربعاء » »	90	90	90	1200
صدراتة » »	100	100	100	1333

اسم القبيلة	عدد الجابدات	العشور عدد قيسات القمح	الشعير	بالريال بوجو الحكور
أولاد الهنـــانى الشــرق	30	30	30	400
أولاد بلقصير » »	60	60	60	800
أولاد سى حسن » »	60	60	60	800
أولاد جليل » »	40	40	40	533
أولاد سى سالم » »	40	40	40	533
أولاد سى عبد الرحمن »	20	20	20	267
أولاد عمار » »	20	20	20	267
أولاد زعوان » »	20	20	20	267
السماشة » »	20	20	20	267
العوامرة » »	15	15	15	200
أولاد سعيد » »	20	20	20	267
الفرادة وبنى وصيفان »	30	30	30	400
التعــلام » »	15	15	15	200
الطباقــة » »	20	20	20	267
أولاد بن فشيدة » »	60	60	60	800
عامرا القابية » »	600	600	600	800
العلمة القابية » »	150	150	150	2000
العلمة زاوية العوموني »	40	40	40	533
العلمة زاوية سيدى ثابت	30	30	30	400
العلمة زاوية الجودى »	20	20	20	267
أولاد ناصرة	60	60	60	800
السلاطنـــة	40	40	40	533
أولاد العيفة	30	30	30	400
أولاد قاسم	60	60	60	800
بنى ابراهيــم	50	50	50	667
أولاد سعيد بن سالمة	50	50	50	667
أولاد عباس	″	″	″	″
أولاد سعيد بن سالمة	″	″	″	″
ـ القرارب	50	50	50	667

اسم القبيلة	عدد الجابدات	عدد قيسات العشور القمح	الشعير	بالريال بوجو الحكور
أولاد سى سلامة وأولاد ـ ناصر	30	30	30	400
بنى فودة	30	30	30	400
عزلة أولاد واد الذهب	20	20	20	267
الدهامشة	70	70	70	433
معاويـــة	40	40	40	533
تاجنانت والسيفان	30	30	30	400
أولاد بنى مروان	70	70	70	433
طلحـــة	100	100	100	1333
أولاد سيدى فراج	20	20	20	[illegible]7
أولاد سيدى ناصر	20	20	20	267
أولاد صلاح	40	40	40	533
بنى اسماعيل	50	50	50	766
أولاد ضياف	10	10	10	133
أولاد سيدى عثمان	15	15	15	200
أولاد غنام	60	60	60	800
سى فرينة التحادرات	30	30	30	400
أولاد بوحلوف	40	40	40	533
أولاد سى داوود	20	20	20	267
أولاد عبد النور	600	600	600	8000
زاوية الشطى	30	30	30	400
زاوية بن يحيى	40	40	40	533
زاوية بن زروق	30	30	30	400
أولاد يدير	30	30	30	400
أولاد كباب	120	120	120	1600
غمريـــان	800	800	800	1067
أولاد بوحامة	60	60	60	800
أولاد بوحلوف عرب ـ البطحاء	50	50	50	667

اسم القبيلة	عدد الجابدات	العشور عدد قيسات القمح	الشعير	
أولاد رحمون	100	100	100	1333
التلاغمـــة	400	400	400	5333
العطاطـــفة	30	30	30	400
أولاد قبة بوعبدان	30	30	30	400
أولاد عزيز أهل القنطاسى	30	30	30	400
أولاد زايت	40	40	40	533
أولاد جملا	40	40	40	533
أولاد عشاش	30	30	30	400
أولاد يعلا	40	40	40	533
العربـــة	20	20	20	267
أولاد بلعقان	50	50	50	667
أولاد سلام الفحامة	60	60	60	800
أولاد رحمام	20	20	20	267
أولاد بوقرانة	20	20	20	267
أولاد الجرتينى	20	20	20	267
الزمـــول	20	20	20	400
السقنيـــة	800	800	800	10700
العلمـــة	60	60	60	800
أولاد عزيز، أولاد معوش	150	150	150	2000
عامر اشراقة	500	500	500	6700
أولاد ساكر	80	80	80	1070
أولاد الرحمة	80	80	80	1070
المزاميـــن	10	10	10	133
أولاد بن عمار	20	20	20	267
أولاد عنان	30	30	30	400
أولاد عجاس	40	4	40	533
أولاد عبيـد	20	20	20	267
أولاد يعقـوب	10	10	10	133

اسم القبيلة	عدد الجابدات	عدد قيسات العشور القمح	عدد قيسات العشور الشعير	بالريال بوجو الحكور
القنادلــــة	20	20	20	267
البشاكـــة	15	15	15	200
أولاد سي يحيى	30	30	30	400
الدبابـــرة	150	150	150	2000
أولاد عــموش	50	50	50	667
أولاد سي خليفة	100	100	100	1333
أولاد سي عفيف	60	60	60	800
أولاد دهان	200	200	200	2667
أولاد معافية	60	60	60	800
أولاد سي عمر بن سلطان	30	30	30	400
أولاد سي عمار بن عدة	30	30	30	400
أولاد زقروم	40	40	40	533
أولاد بوجمام	15	15	15	200
أولاد عزازية	10	10	10	133
أولاد بلعشور	40	40	40	533
أولاد عزيز	30	30	30	400
صدراتة الشراقة	300	300	300	4000
أولاد قاسم الشراقة	50	50	50	667
ولاد سي موسى الشراقة	40	40	40	533
بني وجانة كرفة	120	120	120	1600
العشاش الكرفة	150	150	150	2000
المعالــة	300	300	300	4000
أولاد سي يحيى بن عيسى	60	60	60	800
العربة بتروش	60	60	60	800
ولاد يحيى بن يدير	60	60	60	800
ســـــلاوة	200	200	200	2667
اولاد عرفــة	15	15	15	200
اولاد عزيزة	10	10	10	133

اسم القبيلة	عدد الجابدات	العشور عدد قيسات القمح	العشور عدد قيسات الشعير	بالريال بوجو الحكور
أولاد جـــا	6	6	6	80
ألاود سعــود	10	10	10	133
أولاد عزرارة	30	30	30	400
أولاد سى مناصـــر	30	30	30	400
بنى وجانة الغرب	150	150	150	2000
الزرادنــــة	60	60	60	800
أولاد أحمد بن السعيد	60	60	60	800
أولاد سى أحمد بومرزوق	50	50	50	667
أولاد خيـــار	100	100	100	1333
الشعابـــة	10	10	10	133
زمالة بن مرات	50	50	50	667
جميلـــة	300	300	300	1600
أولاد يحيى بن عيسى ولس	20	20	20	267
جينـــول	20	20	20	400
أولاد يحيى بن فراح	10	10	10	133
أولاد بلعراية	10	10	10	133
أولاد يعقوب الشراقة	40	40	40	533
فضـــلاوة	15	15	15	200
نكهة الشراقة	10	10	10	133
قبائل العوالم القرفة	200	200	200	2667
علمة كشكاشة	60	60	60	800
أولاد ساسى قرفة	70	70	70	933
أولاد أحمد قرفة	30	30	30	400
بن قليـــد	40	40	40	533
بنى مجللت	30	30	30	400
أولاد دراج	15	15	15	200
صدراتة	15	15	15	200
القرازلـــة	15	15	15	200

اسم القبيلة	عدد قيسات	العشور عدد الجابدات القمح	الشعير	بالريال بوجو الحكور
لاربعـــاء	15	15	15	200
العلمة الشراقة	100	100	100	1333
العلمة الصوادق	20	20	20	267
عميــز	60	60	60	800
العمويـــة	50	50	50	667
أولاد براهيــم	20	20	20	267
بلاد ولاد بوقدرة	30	30	30	400
المجمــوع	10381	10381	10381	137،547 بوجو

وهناك مساهمة أخرى من الحبوب كانتة ؤخذ من عـــزل البايليك وتودع فى مخازن الدولة ، وهي بمثابة حقوق الحكور والعشور من الدواويــر الــتى كانت تقوم بخدمة هذه الارض لفائدتها الخاصة · وهذه الدواوير كانت تسير من طرف القياد ، وهي كما يلى :

اسماء القبائــل	عدد الجابدات المستخدمة فى الحراثة	العشور عدد قيسات القمح	الشعير	الحكور بالريال بوجو
أولاد طلحــة	40	40	40	533
أولاد رحمون فى بومزروق	50	50	50	667
أولاد سالم فى بومزروق	40	40	40	533
أولاد وجنان	50	50	50	667
بلاد ولاد عمار	20	20	20	200
بــلاد والى	15	15	15	150
بلاد راس العين	25	25	25	300
بلاد بلبغيل	20	20	20	200
بلاد عمارات	15	15	15	150
الغـــازى	30	30	30	400
الغرازلـــة	30	30	30	400

أسماء القبائل	الحرث المشاركة فى عدد الزويجات	العشور بعدد قيسات القمح	العشور بعدد قيسات والشعير	الحكور بالريال بوجو
عين الحامة	30	30	30	400
عزلة المشيرة	60	60	60	800
عزلة مرج عزيز	25	25	25	300
عزلة عين عمراس	30	30	30	300
بلاد أولاد محمد بن على	20	20	20	200
الصفاصفـــة	20	20	20	200
أولاد زرابة	20	20	20	200
بلاد بوكروش	30	30	30	300
دوار بوشناق	60	60	60	800
أولاد القائـــم	60	60	60	800
العلقة كليـــم	30	30	30	500
أولاد بوغروم	40	40	40	1000
بلاد ولاد تبان	30	30	30	300
عين سلطـــان	30	30	30	300
عرقوب الرياحى	30	30	30	300
عزلة مولى الشفا	20	20	20	200
عزلة برقاسم	20	20	20	500
عزلة حمام الدمشة	40	40	40	400
النويحـــة	80	80	80	2000
بنى قشة	100	100	100	2000
زرامنة المنتورة	100	100	100	1000
عموشة البد	70	70	70	1000
عزلات عزدبيس: بوبتواش، بن غـــرار، سيدى مروان، سدى مرداد	130	130	130	2500
فردوس	20	20	20	400
الخضراء ولاد عميزة	80	80	80	30000

أسماء القبائل	عدد الزويجات المشاركة فى الحرث	بعدد قيسات العشور القمح	والشعير	الحكور بالريال بوجو
عين عرمات	30	30	30	600
بو الريح	30	30	30	400
بنى عجب	30	30	30	500
الخزارة	30	30	30	300
بنى عزيز	15	15	15	200
أولاد لامين	15	15	15	200
شعبة السعيد	40	40	40	600
أولاد سلام	30	30	30	500
الجار	40	40	40	400
عياد	20	20	20	300
أولاد البقرات	10	10	10	150
باب التروش	15	15	15	150
بلاد البيدى	10	10	10	150
بلاد بن القليلى	10	10	10	150
مسيدة	25	25	25	300
شعبة المذبوح	20	20	20	200
ولاد وارزق	70	70	70	1000
كدية عنايش	25	25	25	200
مشتة بن شريف	15	15	15	200
بنى حميدان	10	10	10	200
طكوك	10	10	10	150
حطابة	15	15	15	150
عين طلحة	10	10	10	150
جنان ولاد الباز	20	20	20	250
بنى ابراهيم	20	20	20	200
مبروكة	25	25	25	200
بوقرونة	25	25	25	100
بلاد غريب	40	40	40	500
بنى سليم	10	10	10	133
السطحات	30	30	30	300

أسماء القبائل	عدد الزويجات المشاركة فى الحرث	بعدد قيسات العشور القمح	والشعير	بالريال بوجو الحكور
عيون الدهـــان	30	30	30	200
العيشيـــة	50	50	50	667
أولاد مبارك	30	30	30	400
العطاطـــة	30	30	30	400
الفراويـــن	30	30	30	400
زكـــدال	40	40	40	500
طيار مؤكـــو	30	30	30	500
ماسيـــن	30	30	30	300
دار النينى	15	15	15	150
المجمـــوع	2345	2345	2345	35700 بوجو

اما العزل الاخرى فهي لا توفر للبايليك الا كميات محددة من الحبوب ، حسب عدد الجابدات التى يساهم بها البايليك · وقد جرت العادة أن يؤخذ عن كل زويجة من الابقار 12 قيسة من القمح و 12 قيسة من الشعير ، وبذلك يكون البايليك قد وفر لهذه العزل 220 زوج من حيوانات الحرث ، مما يجعل الرسم المستوجب عليها يبلغ 2640 صاعا من القمح و 2640 صاعا من الشعير (1) ·

ويعتبر العاملون بهذه العزل أجراء مطالبين بالمساهمة بالبذور والتكفل بجمع مصاريف الحرث والحصاد ·

أما العزل الداخلة فى الملكيات الخاصة ، فهي تضم 1400 زوج من الابقار ، ولا يؤخذ عليها سوى حق العشور ، باعتبار أن الحكور كان يعتبر كراء للارض · وبذلك يساهم هذا الصنف من ملكيات العزل بـ 1400 قيسة من القمح و 1400 قيسة من الشعير ·

ومما تجدر ملاحظته أن القيسة من الحبوب المستعملة فى بايليك قسنطينة اذا قورنت بالصاع ـ نجد أن 8 قيسات تساوى صاعا واحدا ، والقيسة من حيث شكلها عبارة عن حجم متساوى الاضلاع

قاعدته 0،320 م3 على 0،2990 م3 وارتفاعه 0،047 م وسمكه 0،0173 م · وحجمه 18،64 ل وبالتالى يكون الصاع حسب هذا القياس 149،12 ل ·

أما شيخ العرب الذى يأخذ المغارم من الجهات الصحراوية ، فكان يقدم عنها للبايليك ضرائب فى شكل قطع نقدية من القروش (مع العلم بأن قيمة القرش الواحد 25،50 ف) ·

وضرائب الصحراء تتوزع كالتالى :

القنطرة 300 قطع نقدية

بسكـرة	12000 (1)
بوشقرون	1000
الفـرفان	1500
ايشـن	500
الزعاطشة	250
باطلقـة	1500
البـرج	50
اللـواء	500
زراقـة	250
الصحـارى	250
المقـدم	250
العلمانة الاولى	500
النقـلال	500
البيتـوحا	500
أم قليـل	1500
عومـاش	500

كيرى	550
فتيـاش	60
الشاتمـة	60
القرتـة	150
العتـوم	100
القصيـر	150
بـادس	200
ليانـة	1000
أهل النميلة	4000
لرماك توقرت	7000
قائد بسكرة	4000
الشيخ سيدى عقبة	10000
شيخ صاولة	10000
المجمـوع	21850

(I) لقد أجاب بعض العرب يعدان الاستفسار عن فوائد بناء المنازل وغرس الاشجار · بأنهم برانية(أجانب) ما دامت الارض التى يعملون عليها قد تنزع منهم ، وما دام الحصاد ومنتوج البساتين يمكن أن تؤخذ منهم ، فضلا على أن نفاذ العشب يجعل تغيير السكن شيئا ضروريا ، وذلك سعيا وراء الكلا فى جهات وهذا ما يظهر فائدة الخيام ويجعل بناء مساكن قارة غير معقول ·

ولهذا فان اقرار ملكية المسكن والبساتين لهؤلاء السكان العرب ، يمكن أن يؤكد لهم الفوائد المترتبة عن الاستقرار ويظطرهم الى التوطن فى الارض مثل عزل : صالح باي وانقليز باي ومرابطى قرقارة وسيدى ناصر بالقرب من جميلة وسيدى بوليان بالقرب من مزرعة بنى قشة الخ ، وكذلك العزل الواقعة على الضفة اليمنى لواد الرمال و وادى الحامة وبساتين ميلة والعزل التى بجوارها · فبهذه الطريقة يمكن للعرب أن يبنوا منازل ، ويتركوا تدريجيا عاداتهم كما يغيرون أسلوب معاشهم وطرق زراعتهم ، وهذا متوقف على تغيير نظام حكرهم بحيث يصبح مغايرا لما هو جار به العمل الآن ، وهذا ما يترتب عليه تحديد وضبط مهام كل خليفة أو قائد أو شيخ فيما يخص الملكية ·

(I) معلومات أولى بها ابن جلول ، كاتب الباي أحمد سابقا ، وكان مكلفا باعطاء (كشوف) وصول عن كل ما يتسلمه البايليك من مداخيل نقدية أو عينية ·

(I) كانت زويجة الثيران (أو الجابدة) ببايليك قسنطينة ، تتطلب كمية من البذور تقدر بـ 6 صاع من القمح و 6 صاع من الشعير ، ويكون المردود فى الحالة الطبيعية I2 صاع عند الحصاد ·

(I) وكانت I2000 قطعة المتوجبة عن بسكرة ، تدخل فى تسديد أجور الحامية التركية ورعاية مصالحها · وكانت هذه الحامية التركية تكلف بجع الضرائب تحت قيادة شيخ العرب الذى يحضر بدوره ، الفرسان المساعدين لها ·

فى موكب الذكرى

الشاعر الخالد محمد العيد

محمد الصالح الصديق

كنت فى هذا الصيف (1979) أقضى عطلتى قريبا من شاطىء البحر، وكان يلذ لى أن أهرب من ضجيج الناس وضوضائهم الى مكان صخرى داخل البحر فأخلو الى نفسى وأحاول أن استجمع ما تبعثر من أشلائها هنا وهناك علنى أستطيع أن أفتح نافذة يعسر فتحها فى عالم الناس حيث الحركة والجلبة والصخب، نافذة أطل منها على ما بقى من الدرب الطويل الممدود بين البداية والنهاية ، عسى أن أستبين معالمه وأقف على حقيقته وسره وفى هذا اليوم (2) أوت اعتليت كعادتى صخرة عالية داخل البحر وأخذت أسرح طرفى فى الامواج المتلاطمة أتابعها على مد البصر وهي تزحف وترغى وتزبد حتى تتكسر على أسافل الصخرة ثم تتبعثر وتتلاشى ، لتزحف أمواج أخرى وتتكسر وتتبعثر وهاكذا دواليك .

ومن حين لآخر أطلق بصرى فى عرض البحر فأرى باخرة تمخر عبابه فأتصور الاختراع الانسانى العظيم الذى أمكن به لهذا المخلوق الضعيف أن يسخر هذا المخلو قالقوي الهائل فيعلو ظهره ويستخرج ما فيه من كنوز .. ثم فجأة أتصور غضب البحر وهيجانه وكيف تصير أكبر البواخر فيه كأنها ريشة أو حثالة تتقاذفها الامواج فترفعها طورا ، وتخفضها طورا آخر كأنها على أرجوحة، وقد يطويها ويبتلعها فى أحشائه فلا يعود يعثر لها على أثر .

وأفكر فيما شاهده هذا البحر من معارك حربية يشيب لها الوليد فيقشعر بدنى لاهوالها ، وأشعر بالرهبة من الحروب الطاحنة . التى يصاب بها الانسان كما يصاب بالوباء الماحق . وتمر بخاطرى لمحات من تاريخ الشعوب الاسلامية الحافل بالبطولات الخارقة ، ويتركز فكرى فى المعارك البحرية التى

خاضها أبناء الشواطىء الاسلاميـــــة فى البحر الابيض المتوسط لا سيمـا فى أعقاب المذابح التى تعرض لها مسلمو الاندلس والحمـلات الضاربـة الــتى استهدفت لها الثغور العربية بشمـال افريقيـا ٠

فبينما كنت فى هذه الخواطر اذ لمـع بذهنى قول شاعر الجزائر محمد العيـد آل خليفة يناجى البحر سنة 1830 :

وقفـت عـلى بحـر الجزائر ليلة
وناجيته لو كان يسمعنى البحر
فقلت له : يا بحر ما لك هائجـا
على البر مغتاظا ولم يذنـب البـر ؟
ومالك لا تألوه دفعا وضجـة
وصفعا بأيدى الموج رق له الصخر؟

ثم وثب فكر ىالى الماضى البعيـد أيام كنـت ألتمس الضوء الهادى الى حضيرة الادب ، وأروض عقلى ليتثقف وقلمى ليستقيم على الدرب ، فازدحـم على فكرى كثير مما كنت أحفظـه مـن روائع الادب العربى ، عن جمــال الطبيعة ، وعظمة الكون ، فمر بخاطرى قول الرافعي وهو يناجي البحر ويقول : (اذا ركبك الملحد أيها البحر فوجفـت من تحته ، وهدرت علـيه وثرت بـه وأريته رأي العين كأنـه بين سمـاءيـن ستنطبق احداهما على الاخرى فتقفلان عليه ـ تركته يتطأطأ ويتواضع ٠٠ وأطرت كل ما فى عقله فيلجأ الى الله وكشفت له عن الحقيقة : ان نسيان الله ليس عمل العقل ، ولكنه عمل الغفلة والامـن وطول السلامة) ٠

وحان موعد الاخبار ففتحت مذياعـا صغيرا كنت أحمله معى للاتصال بالعالم الخارجى الذى يفصلنى عنه البحر وبعد المسافة عن المدن ، فهالنى ما سمعـت فى موجزها ولم أصدق أذنى فيمـا سمعـت :

انه نعى الشاعر الجزائرى محمد العيد الذى كنت الآن أفكر فيه وأستعرض من شعره عن البحر ، وتابعت الخبر فعلمت انه قد توفي يوم الاربـعـاء (I) أوت بمستشفى باتنة وتشيع جنازتـه يـوم الخميس بمدينة بسكرة ٠ ثم انتقل المذيع الى أخبار أخرى وبقيت أنا مع النبـا المفجع مذهولا كأننى فى المنام أو كأننى غير مصدق ، ووجدت لسانى يردد قول أبى الطيب المتنبى عندما فاجأه نعى أخت سيف الدولة فلم يصدق النبأ :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبـر
فزعـت فيه بآمالى الى الكـذب
حتى اذا لم يدع لى صدقه أمـلا
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

ولكن سرعان ما أفقت من ذهولى ، فقلت : فيم هذا العجب وفيم استبعـاد الخبر واستغرابه ؟ أليس مكتوبا على كل انسان أن يفقد فى ساعة ما حياتـه ويلقى المصير المحتوم الذى ينتظره منذ وفادته الى هذا الوجود ؟ أليس أجـل الانسان جسرا معلقا بين البداية والنهاية فلابد يوما أن ينقضى هذا الاجل، وينتهى هذا الجسر فاذا بالحياة التى كان يراها

حقيقة ملموسة ، وفردوسا رائعا نضرا حلم ووهم ، وقصة تروى فى كلمات ؟

تبـا لدار غرور تبا لدار غرور
خداعة كالسراب

وقلت رحم الله الفقيد الراحل محمد العيد اذ يقول :

ويـــح ابـن آدم يلهـــــو
والمـــوت منـــــه كقـــاب

لابـــد أن ســــوف يخبـو
كــل امـرىء غيـــر خـــاب

تـبـــا لـــدار غـــرور
خـــداعـــة كـــالســـراب

ويـــح ابـن آدم يلهـــــو
والمـــوت منـــــه كقـــاب

المـــوت نـــوح ريـــاح
والمـــرء عـــود ثقـاب

لابـــد أن ســـوف يخبـــو
كـــل امـرىء غير خـــاب

نهاية لابد منها وان غفل عنها الانسان فى خضم هذه الحياة ، وغاية حتميـــة لا مفر منها وان لها عنها فى غمـرات المسرة والهناء ، فسنة الله فى كونـــه أن يجىء أجل الموت كما جاء أجل الحياة، فعملية التحلية والتخلية فى هذه الارض ستظل ضرورة قائمة حتى يجىء أجل الارض نفسها . فمن منا لا يعرف هذه الحقيقة ولا يوقن بها ؟ ولكن من منـــا أيضا لا يهوله وقع هذه النهاية ولا تهز كيانه هذه الغاية عندما تحل بالقرب من ساحته؟ فبالرغم من الايقان بأن هـــذه الحياة انما هي ممر الى الآخرة ، ومجاز الى عالم البقاء أو كالظل الذى يتفياه المار فى الطريق ـ فنحن لا نستطيع أن نحبس فى العين دمعة ، ولا أن نخفف عن القلب لوعة ، ولا أن نخفى من وجوهنا مسحة الحزن والكآبة ، عندما نفقد أحدا سيما من أقاربنا أو من خلص أصدقائنا ومعارفنا . ؟؟ وحزننـــا عـــلى الذين نفقدهم يتفاوت عمقـــا وأثـــرا بتفـاوت منزلتهم منا ومكانتهـــم فى قلوبنــــا ، وبالتالى بالفراغ الذى يتركه الفقيد فى حياتنا سيما اذا كان الفراغ لا يســـده أحد من بعده .

واذا كان حزننا على الشباب قويـــا وعاتيا يعصف بنفوسنا عصفا لانهم مناط آمالنا ومهوى خواطرنا، والورود المفتحة التى تستقبل الحـــيـــاة نديـــة عـــطرة فحزننا على الشيوخ ذوى الحنكة وذوى المواهب والكفاءات هادىء ولكنه عميق، يبقى ألمه فى الاعماق ما بقيت أعمـــــال الفقيد تنطق به ، وأثاره تذكر بـــــه ، ومواقفه تشير اليه.

ومن هؤلاء الشيوخ الذين جعلـــوا حياتهم عظيمة بما صنعوا فيها من مجد وبنوا فيها من تاريخ ـ صديقنا الوفى وشاعر الجزائر البار الاستاذ محمـــــد العيد الذى تخلصت روحه من قيدهـــا المادى الغليظ وصعدت الى ربها راضية مرضية لتلتحق بأرواح رفاقه الذيـــن مضوا قبله الى ربهم .

وانه لمن حق محمد العيد على هذا القلم الذ ىطالما ناجاه فى السراء والضراء ، وطالما استوحى من خياله الشعرى منذ الطفولة ما اخصب به الصداقة ومتن به عرى الاخاء والمودة - أن يحييه وهو نائم فى قبره بهذه الخواطر والنبضات تحية اخلاص ووفاء ريثما تتاح فرصة للوفاء له بما يجب منمثلى لمثله صداقة وتقديرا :

الشاع رمحمد العيد : لم أكن أتجاوز التاسعة من عمرى حينما سمعت بهذا الاسم ، وشغلنى التساؤل والاستفسار عنه ساعة من الزمن ومنذ ذلك الحين أحببت الشاعر محمد العيد وظللت أسأل عنه وأهفو الى شعره ·· وأتصفح ما يقع بين يدى من الصحف على أظفر بشعره حتى استقام عودى وعرفته وتوثقت بينى وبينه الصداقة · كان ذلك عندما كنت تلميذا بمعهد سيدى عبد الرحمن اليلولى بزواوة وكان أستاذ المعهد فى ذلك العهد هو الفقيه الاصولى، والمؤلف البارع محمد الرزقى الشرفاوى الازهرى ، وكانت لى قرابة به بحيث أدخل الى حجرته متى شئت وأتصفح من أوراقه ما شئت ، وأستفسره عما شئت ، وأناقشه أحيانا فى قضايا لا أفهم عنها شيئا لانها فوق طاقتى ولكنه مع ذلك كان معى رحب الصدر قلما يستثيره فضولى فبينما كنت معه ذات يوم أجاذبه أطراف الحديث اذا بطالب فى المعهد يطرق الباب ويسلم للشيخ ظرفا بريديا، ففتحه فاذا به كتيب صغير ·· فنظر فيه باهتمام ثم أخذ يتصفحه وهو يبتسم فسألته عنه فدفعه الي قائلا : اقرأ ···

فقرأت على الغلاف (أنشودة الوليد) فى يوم المولد للشاعر الجزائرى محمد العيد ثم قرأت فى أعلى الصفحة الاولى هذين البيتين :

بمحمد أتعلق
وبخلقه أتخلق
وعلى البنين جميعهم
فى حبه أتفوق

ثم أخذت أقلب صفحات الكتيب وأقرأ فى سر ، فقال الشيخ ، هذه القصيدة نظمها الشاعر محمد العيد خصيصا لتلامذة المدارس العربية فأهدانى نسخة منها ·

وما أزال أذكر ان أمرين هامين قد استبدا بعقلى فى ذلك الوقت وجعلانى أسأل الاستاذ الشرفاوى وأناقشه - كعادتى - وهو يجيب بعناية كأنه مع أديب أو مثقف أو كبير ، لقد كنت أعرف كثيرا من الشعراء كامرىء القيس ، وعنترة ، وزهير ، وطرفة ، والمتنبى وأحفظ لهم قطعا أو أبياتا ولكنى ما كنت أظن أنه يوجد فى العصر الحاضر شعراء اذ كنت أعتقد أن الشعر وقف على عرب الحجاز ومقصور عليهم ، فنبوغ شاعر فى غير الجزيرة العربية كالجزائر مثلا يعد عندى اذ ذاك غريبا يثير عجبى ودهشتى مما جعل الاستاذ الشرفاوى يطلق ضحكة طويلة هاج لها عضبى ،

وكدت أتضاءل أمامه لولا انى حاولت فى غرور الصبا أن أتمالك ونفسى .. كأن شيئا لم يقع .

وكنت أيضا أظن ان الشاعر محمد العيد انما ارسل الى الاستاذ الشرفاوى نسخة من كتيبه ـ ليعطيه عنه رأيه ـ ولكنى أعلم ان الشرفاوى ليس بشاعر الا أن أكون جاهلا عنه ذلك كما جهلت امكان نبوغ شاعر فى أي مكان وفى أي زمان . غير الشـرق العربى فى زمان مضى .

أما عن الامر الاول فقد قال الاستاذ وهو ينظر الى من الاستغـراب المشوب بالحنو والرفق : ما هذا يابني ؟ ألم تسمع بشعراء نبغوا فى غير الحجاز ؟ ألـم تسمع بأبى تمام والبحترى والمتنـبى وحافظ ابراهيم وأميـر الشعـراء أحمد شـوقى .

وأما عن الثانى فقد قال لـىفيما أذكر قد يقدم كاتب أو شاعر انتاجه الفكـرى لمن يأنس فيه الكفاءة والاخلاص لينقده أو يقرضه أو يرشده الى ما عسى أن يكون فيه من سهو أو هفوة قبل طبعه ، ولكن الامر ليس كذلك بالنسبـة الى الشاعر محمد العيد فانه أهدانى هـذه القصيدة لاهداف كريمة وغايات نبيلـة تتمثل فى توثيق الصداقة بيننا والعمل على تحفيظ طلبتنا هذه الانشودة الحافلة بالمشاعر الطيبة والاحاسيس النبيلـة والدعوة الى التخلق بأخلاق القـرآن ، والاقتداء بمن نزل عليه . لينشأ الطالب نشأة مثالية . ومنذ ذلك اليوم صرت أحمل فى نفسى للشاعر محمد العيد حبا وتقديرا ، وأحاول أن أقرأ له كل ما يقع فى يدى من روائعه الخالدة قراءة تأمل واستمتـاع .

وتعاقبت أمواج السنين على ساحـل الحياة تنفى ما عليه من خبث (I) وغثاء وتنسى بأيامها ما علق بالفكر من صور وأحداث الا الصور الناطقـة، والاحداث الخالدة التى تستعصى على النسيان، وتقوى على الزمان ..

وفى سنة 1950 خصصت جمعيـة الطلبة الجزائريين بتونس دروسا لنخبة من الطلبة الجزائريين واختارت لهـذه المهمة الشاعر التونسى الكبير محمـد بوشربية وكنت ضمن هذه النخبة ، وفى أحد الاقسام جرى بينى وبين الاستاذ الشاعـرحديث مطول عن أدباء الجزائـر وعلمائها فكان من بينهم الشاعر محمد العيد الذى أعجب به بوشربية وذكـر لى أنه يعرفه ، وقد نوه بشاعرية محمـد العيد المتدفقة الفياضة التى قال عنهـا يومئذ انها تبلغ أحيانا المرتبـة الاولى فى ابداعها ، ونقائـها ، واشراقـها . وعندما ودعته للعودة الى الجزائـر فى العطلة الصيفية حملنى اليه السلام .. فأرسلت الى الاستاذ محمد العيد رسالة أدبية مطولة ذكرت له فيها ما جرى بينى وبين الاستاذ الشرفاوى قبل أن أتخطى التاسعة من عمرى كما بسطت القـول عن علاقتى بالشاعر التونسى الكبيـر

محمد بوشربية ، وحبه للجزائر وعطفه على أبنائه الطلبة الزيتونيين ، وثنائـــه الجم على طائفة من أدباء الجزائــــر وعلمائها وما قاله بالخصوص فى شأن محمد العيد وكانت هذه أول رســالــة بعثتها اليه · ولم تمض الا أيــام قليلة حتى وافتنى منه رسالة قيمة كان لهـــا الاثر البالغ فى نفسى وربما فى مجــرى حياتى الادبية والثقافية ·

قراتها فاستهوتنى بصدق اللهجــة ، ونبل الاحساس ، وبراعة اللفتة ، وروعة التصوير ، كل ذلك فى أسلوب واضـــح سهل مشرق لا يتيسر الا لاديب مطبوع كمحمد العيد ·

وقد ركز فى رسالته بالخصوص بعد الديباجة على المحاور التالية :

الترحيب برسالتى والشكر عليها ·

الاشادة بمكانة الاستاذ الشرفــاوى العلمية والاصلاحية والدينية ، والاعجاب بقلمه المثمر الذى كان يثرى الصحافــة الجزائرية وخاصة (البصائر) بمقالاته القيمة فى مختلف الشؤون والاغراض · وذكر بالخصوص مقالاته عن التعليــم الدينى وكيف ينبغى أن يكون ·

وجوب التسلــح بالايمــان والقيــم الاخلاقية والمحافظة على الدين فمهمــا يكن للقوانين الوضعيـــة من أثــر فى الضمائر والنفوس فانهــا لن تقوم أبدا مقام تعاليم الاسلام لان الاولى من صنع الانسان العاجز الذى لا يعرف كـــل ما يصلح به ، ولان الاخرى من صنــع الله القادر الذى يعلم كل ما يصلـــح بالانسان فى هذا الوجود ·

الحث على مواصلة الدراسة بجد ، ومحاولة التغلب على الظروف القاسية القاهرة التى تواجه الطالب الجزائرى فى غربته ، والتذكير بما ينتظره الاهــل والوطن من الطالب الجزائرى المتغرب فى سبيل العلم من الــتزود بالعلــــم والاخـــلاق ·

أما عن الشاع ربوشربية فقد أطنب فى التنويه به والثناء علــيه وما أزال أتذكر بعض ما قاله فيه بمعناه وربمـــا بلفظه ·· فبعد تهنئتى على أن كنت من المحظوظين بالدراسة الادبية عنه قال : ان للعربية الفصحى قديما وحديثا أفذاذا من الكتاب والشعراء فالشيخ بوشربية أحدهم ، وان لتونس الخضراء فخـــرا بانتمائــــه اليها ، ولو لم يكـــن له الا قصيدته النونية فى مدح النبى لكفاه ذلك دليلا على عبقريته الشعرية ·

وعدت فى بداية السنة الدراسيـــة الى تونس واجتمعت بالشاعر بوشربية فى بيته وأريته رسالة الشاعر محمـد العيد فاهتز طربا وأثنى عليه الثنـــاء العطر وأوصـــانى أن أبلغــه تحياتـــه وتقديراتـــه ·

وعلمت ان القصيدة المديحيـة التى أشار اليها محمد العيد فى رسالته هي التى يقول فى مطلعها بوشربية :

نور النبـــوة ساطــع البرهــان
غمــر النــهى فانحــط عنه بيانى

ولا أبالغ فى وصف الحقيقة اذا قلت ان هذه الرسالة التى رد بها الشيخ محمد العيد على رسالتى قد ضاعفت في النشاط الادبى ، وشجعتنى على مواصلة السير فى درب الادب مما جعلنى ألتزم بالكتابة فى صحيفة (الطالب الزيتونى) بتونس ٠

وفى سنة 1951 أصدرت كتابى (أدباء التحصيل) الذى أعددته وفق برنامج جامع الزيتونة لشهادة التحصيل (البكالوريا) والذى قدم له الاستاذ بوشربية بمقدمة قيمة هدانى فيها الى عيوبى وأرانى رأي العين أن الاجادة تتطلب مراسا طويلا وخبرة واسعة ، فأرسلت نسخة منه الى الشيخ محمد العيد أرفقتها برسالة أدبية مطولة حدثته فيها عن اعتزازى بصداقته ، وتأثرى برسالته ، واعتزامى على مواصلة العمل فى حقل العلم والمعرفة وأسهبت له فى الرسالة عن أستاذى بوشربية واعجابى بعبقريته وذوقه وطريقته فى التدريس ، واستلفت نظره الى نقده فى المقدمة ٠

وكنت اذ ذاك أعتقد اننى أتيت بشىء لم يأت به أحد فبدل أن يستجيد كل ما فى الكتاب ويغتبط به كل الاغتباط وينهال علي بالثناء والتقدير والتهانى عرض مجموعة من مميزات الكتاب التى ترفع من شأنه ثم أعقبها بمآخذ نقدية شعرت أمامها بنوع من الخجل والتضاؤل ٠

وركزت له أيضا فى هذه الرسالة على التضحية الجسيمة التى يضحى بها المغترب الجزائرى فى سبيل العلم فهو يعيش حياة كلها بؤس وشقاء ، وكلها عذاب وجحيم وقد يقضى نهاره وليله دون أن يذوق طعاما بالاضافة الى آلام الغربة والوحشة المبرحة وعندما ينهى دراسته ويعود الى وطنه الجزائر حاملا للشهادة العلمية يجد الابواب مغلقة، والطرق مسدودة فكان أسعد أولئك الطلبة من يجد زاوية يقضى عمره بين تحفيظ القرآن وتلقين المبادىء الاولية فى الفقه والنحو.وبعد أيام جاءتنى منه رسالة قيمة عبر فيها عن تأثره برسالتى، وصور شعوره تجاه الطالب الجزائرى فى الغربة وما تجيش به نفسه من هموم وخواطر وأشجان شأن شاعر كبير ملهم يعيش فى داخله آلام الناس وأمالهم وأحزانهم وسراتهم ولا تمر به حادثة الا وله فيها نفثة ونبضة قلب، وبوح نفس ، حتى صار يعى الحياة أكثر من غيره ، ويتأثر وينفعل بما يصادف فيها ويصور ويبدع التصوير ٠٠ وابدى اعجابه بالكتاب وبمقدمة الشاعر التونسى وشربية ، وقال عنها ما معناه :

ليست مهمة أستاذك الاديب النصوح أن يدغدغ مشاعرك بالمجاملة والمبالغة حتى تقف فى الطريق مشغولا بهذه الدغدغة وانما مهمته أن يقول لك فى صراحة ونزاهة : هذه حسناتك وهذه سيئاتك ، فالحسنات والسيئات من

لوازم الانسان .. فلابد أن يصيب فى شيء ويخطيء فى شيء آخر ، وجل من لا يخطيء ، على أن سيئات الكتاب بجانب حسناته لا تكسف له شمسا ولا تخسف له قمرا (I) .

وارفق الشاعر محمد العيد رسالته هذه بقصيدة عصماء فاضت بها قريحته المبدعة صور فيها ما تعانيه اللغة العربية فى الجزائر من ضغط ومقاومة حتى أصبحت غريبة بين أهلها ، وأجنبية فى وطنها ، واشتد ظلام الجهل ولم يعد هناك سوى بصيص من نور يلوح فى العتمة مؤنسا ومرشاد .

وأوصانى فى هذا القصيد بالمثابرة على العمل الادبى والمضي فى هذا الطريق رغم ما يحف به من متاعب ومشاق ، ويقول فيه :

حلل فانك باحث منطيق
وانقد فانك بالصواب خليق
وانهج لناشئة الجزائر منهجا
حرا بأحرار العقول يليق
واكشف لهم أدب العروبة إنه
عنهم خفي كالسهى وسحيق
أسفى على الفصحى تحول نبعها
وشلا وكدر صفوه الترنيق
صدئت جواهرها وغاب ضياؤها
لولا بصيص نادر وبريق

وأشار الى الكتاب الذى أصدرته والشاعر بوشبية الذى قدم له وقال :

أعددت للتحصيل سفرك عارضا
ثمر العقول يزينه التنسيق
زاولت فى الزيتونة الآداب عن
أقطابها ودليلك التوفيق
ولبثت تروى عن (أبى شربية)
فاذا شرابك كوثر ورحيق
سر فى طريقك رائدا فطنا فما
كطريق رواد العقول طريق
واهدف الى مرماك وامن موفقا
ان الموفق بالنجاح حقيق

وهناك أبيات لا أستطيع عرضها هنا لما فيها من التنويه والاعجاب بشخصى الضئيل الذى لا يستحق كل هذا التكريم وهذا التقدير من شاعر الجزائر النابغة محمد العيد لولا قلبه الكبير ، ونفسه الكريمة ، وسجاياه النبيلة والحق أقول أنه أخجلنى بهذا الاطراء حيث أرى نفسى دون ما قال لا سيما وأنا اذ ذاك فى بداية الطريق بالرغم مما يصاب به الناشيء من غرور ، فكتبت اليه ردا شكرته فيه على تشجيعه الادبى ولاحظت له أننى جد خجول مما جاء فى القصيد ولولا خلقه السمح ما كنت أهلا لذلك وسقت له هذا البيت المشهور :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا

واحتجبت عنى رسائل محمد العيد قرابة شهرين ثم جاءنى منه كتاب يعتذر فيه عن التأخر بانه كان فى طور النقاهة من مرض لازمه أكثر من شهر

ثم طرأ عليه سفر الى العاصمة ، وكان الجواب مفعما بالعواطف النبيلة ، والوصايا الحكيمة والارشادات البناءة فى أسلوب رشيق متواضع واذكر منها ما ملخصه بالمعنى لا باللفظ ·

ما قلت فيك وفى كتابك الا ما أومن به ولست مرائيا ولا مجاملا فاذا بدت لك فيه مبالغة فليس ذلك الا انك لا ترى نفسك بنفسك وانما بنفس أخرى تراك، على أننى ان بالغت فى الثناء فذلك لان المفاجأة التى لم يسبق أن ذكرتها بل ولا لمحت اليها فى رسائلك سرت فى كيانى سريان الكهرباء فى أسلاكها فاهتززت فى نشوة من الغبطة ، وفورة من اللذة، فجاءت بعض الكلمات والعبارات تهتز وترقص ·

ثم أفاض القول فى الثناء على الطلبة الذين يغتنمون الفرصة المتاحة لهم فى الدراسة العلمية فهم الشموع التى ستحترق ولكنها ستضىء الطريق أمام الجزائر المتطلعة الى النور ···

وابتهج بتولى الاساتذة الاكفاء قيادتنا أمثال بوشربية الذى قال عنه أيضا : وقد أثلج صدرى أن يكون أستاذك ومن عبد لك الدرب والذى له الاثر الكبير فى النهوض بالكلية الزيتونية من العهد والغابر يوم كانت تتعثر بين الصناعة والتقليد الى العهد الحاضر المشرق حيث أصبح الادب رسالة تقوم على الطبع والاحساس ووضوح الاداء ···

ولما قمت بنشر كتيب للاستاذ الشرفاوى عن اثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية ، وهو مجموع مقالات كان قد نشرها فى جريدة (البصائر) سنة 1936 فجمعتها وقدمت لها ـ اهديت الى الشاعر محمد العيد نسخة منه فسر به جد سرور وأرسل الي كتابا يطفح بالثناء والتقدير والتهنئة الحارة على احياء ذكرى هذا العالم الاصولى بنشر أثر من أثاره ·

أما عن الشرفاوى فأذكر انه قد نوه بعمله الغزير ، وفكره الواسع ، وقلمه البليغ ، ووضع بين هلالين هذه العبارة (سيذكره التاريخ برجاحة العقل ، وحرارة الكلمة ، والغيرة على الدين والوطن) ·

والاستاذ محمد العيد يشير بهذا الى ما اشتهر به الشرفاوى من الشجاعة الادبية والجهاد فى سبيل الحق والاسلام، والى ما واجهه من مقاومة عنيفة عاتية من قبل بعض أهل الزوايا والطرقية فى زواوة ، عندما دعاهم الى التخلى عن البدع والخرافات والعمل بالكتاب والسنة فأعلنوا حربا شعواء ضده ولم يجدوا وسيلة لتحطيمه الا جربوها معه ولكنه وقف صامدا ثابتا لا يتزعزع ، وكان يقول عنهم انهم أعداء الوطن والاسلام لانهم آفة تقدمه ، وعائق رقيه ، والسوس الذى ينخر فى كيان الامة ومن ثمة وجبت مقاومتهم كما تقاوم الحشرات السامة والاوبئة الفتاكة ·

وتوفي الشاعر الكبير محمد بوشربية فى حادث سيارة رهيب فى شهر جويلية سنة 1952 فتأثرت للحادث بالغ التأثر وكتبت مقالا كله حسرة ولوعة وتصوير للمصاب الجلل الذى أصيبت به الكلية

الزيتونية واللغة العربية نشرته جريدة (المنار) الجزائرية فى ذلك الحين وما كاد الاستاذ محمد العيد يطلع عليه حتى بعث الي برسالة حزينة يعزينى فى خير أستاذ ، وخير قدوة ، وخير مرشد ، ويبدى رضاه العميق وارتياحه الكبير لاداء بعض ما يجب علي من حقوق هذا الاديب وما أزال أذكر قوله (بالمعنى لا باللفظ) :

سيظل بوشربية فى كل كلمة يكتبها أبناؤه والادباء والمفكرون ، وفى كل قلب ينبض بحب اللغة العربية وقد عاش عالى الهمة ، كبير النفس ، على جبينه هالة القريحة ، وعلى رأسه تاج العبقرية، وسيبقى كذلك فى القلوب والنفوس ٠

وفى شهر فيفرى سنة 1954 توفى الشاعر التونسى الكبير الشاذلى خزندار وكانت لى علاقة به وثيقة فكتبت عنه مقالات نشرت بالبصائر فى ذلك الوقت ولم يكد يطلع عليها الاستاذ محمد العيد حتى كتب الى يشكر على وفائى لهذا الشاعر وانصافه ، ويعدد فضائله وخصائصه ويكشف عن اعجابه بعمق تفكيره ، ورهافة حسه ، وسعة خياله وتدفق شاعريته ، وصدق وطنيته ، ويصف فى تأثر عميق الخسارة العظمى التى مني بها المغرب العربى فى فقدانه وفقدان الشاعر بوشربية فى ظرف وجيز ٠

وساق الاستاذ محمد العيد فى رسالته هذه الابيات التى قالها من قصيدة رائعة فى تأبين الشاعر الفقيد وألقيت نيابة عنه فى حفلة التأبين التى أقامها النادى للجمعية الرشيدية بالعاصمة التونسية ونشرت فى شهر مارس 1954 بجريدة البصائر :

آه مما حل بالخضراء من
فاجع كل عزيز فيه هانا

فقدت تونس من أفاقها
كوكبا قطبيا وبدرا اضحيانا

أين منها الشاذلى المرتضى
خزندار السمح كفا وحنانا

كل ناد بات فيها نادبا
يذرف الدمع عليه ارجوانا

ولما أصدرت كتاب (وقفات ونبضات) ارتاحت نفس الشاعر الراحل محمد العيد أيما ارتياح وأثلج صدره أن يكون الشاعران التونسيان (بوشربية) و (خزندار) من فصول الكتاب وعد ذلك مبرة منى ومكرمة ووفاء لعبقريين قدما للقارىء العربى شعرا قويا صافيا عبر عن المنازع الانسانية والطموحات الوطنية للحرية والعزة والكرامة ثم مضيا ولم يوف لهما حقهما ٠

وعندما هممت باعداد دراسات عن القرآن الكريم عرضت على الشاعر محمد العيد الفكرة ورسمت له بكل معالمه ومحاوره فاهتز للفكرة وأعجب بالموضوع والمنهاج وعارضنى فى بعض الفصول من حيث الترتيب فاقترح تعديلا لها بعد اعادة النظر فيها فارتحت للاقتراح ورأيت أن الاستاذ - رحمه الله - أبعد نظرا وأحق فيما ارتأى ٠ وكنت أثناء الكتابة نتبادل الرسائل الادبية حول قضايا وأغراض مختلفة وأذكر أننى فى وقت الفراغ كتبت

أقصوصة أدبية عن حورية حسناء. اسمها (ليــلى) رأيتها تشرب فنجانا مــن القهــوة ، وسقت فيها بيتين وذكرت فيها أن (ليلاي) هذه هي التى قال فيهــا الشاعر (شبلى ملاط) هذين البيتين :

شاهدت أخت البدر تشرب قهــوة
فى سهــرة عزلت بهــا عيناهــا
لــم أدر أيــا كــان أكثر رقــة
فنجانهــا الصينى أم شفتاهــا

فأرسلتها الى الشيخ محمد العيــد فجاءنى منه كتاب قيم يسيل طرافة ولطفا ويقول فيه بالخصوص : أمل (ليلاك) هي ليلى التى قلت فيها :

أيــن ليــلاي أيـنـهــا
حيــل بيـــنى وبينـهــا

هــل قضــت ديــن مــن قضى
فى المحبيـــن دينـهــا

أصلــت القلــب نارهــا
وأذاقتـــه حـينـهــا

مـــذ تعــرفت ســرهــا
وتعـشــقــت زينـهــا

روعتنى ببينهــا
لا رعــى اللـــه بينهــا

ولم أعلم ان الابيات قد نشرت الا منذ أشهر حينما عثرت عليهــا فى (الشهاب) ج (2) و (14) سبتمبر سنة 1938 بتعليق المرحوم الاستاذ عبد الحميد ابن باديس ونصه :

جــاء فى (الاغــانى) ج 3 ص 291 ما يــلى :

أخبرنى عمى قــال حدثنا الحزنبــل عن عمر وبن ابى عمر وقال : بلغنى أن الحسن بن زيد دعا ابن المولى فأغلظ له وقال : أتشبب بحرم المسلمين وتنشد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الاسواق والمحافل ظاهرا ؟

فحلف له بالطلاق أنه ما تعرض لحرم قط ولا شبب بامرأة مسلم ولا معاهد قــط ٠ قال : فمن ليــلى هذه التى تذكر فى شعرك ؟ فقال له : امرأتى طالق ان كانت الا قوسى هذه سميتها (ليلى) لاذكرها فى شعرى ، فان الشعــر لا يحسن الا بالتشبيب ، فضحك الحسن ثــم قال : اذا كانت القصة هذه فقل ما شئت ٠٠

فمن هي ليلى شاعرنا محمد العيــد ليست له قوس ولكن له مروح ، فهــل يعنى هو الآخر مروحته ؟ ان محمد العيد الذى يشعر شعور الشعب ويتخيل خيال الشعب ، لا تشغله قوس ولا مروحـــة ولكن ــ لا تفتنــه وهو البلبــل الغريد فى قفص الا الحريــة فهل يوافــق على هذا بعض من ينقصهم شىء عن السياسة ليفهموا ؟) اهـ ٠ تعليق الشيخ باديس ٠

وكان الاستاذ محمد العيد لا يفتــأ يسألنى عن سير عملى فى اعداد الكتاب وموعد نشره فى لهفة المشتاق، وتم الكتاب ورأيت أن أهديه الى طوائــف من بناة هذه الامة وصناع تاريخها الذين مــن بينهم رجال العلم والادب بالجزائــر فذكرت من هؤلاء الصديق الوفي الشاعر محمد العيد ٠

وطبع الكتاب فأهديته نسخة منــه مرفقة برسالة مطولة شرحت له فيهــا ما لا قيته من المتاعب والمشاق فى سبيل

اعــــداده وطبعـــه وتوزيعــه وركـزت لــــه فيهــا بالخصـــوص عـــلى حالة المثقف الجزائرى وما يعانيه مـن الاستعمار من نكد ومضايقة ومحاربـة لا سيما عندما يتصدى للتجربة الـتى تصديت لها بطبع الكتاب فجاءنى منـه كتاب يبادلنى فيـه التحسـر والتشكى ويحمل فى طياته قصيدا رائعا (لم ينشر لحد الآن) ٠

فكان مما ورد فى الكتاب ما مؤداه : ان انجاز عمل مثل هذا فى آلوضــع الشاذ الذى يعيشه المثقف الجـزائرى أدبيا وماديا يعد عظيما بحق يجـب التنويه به والاقتداء بصاحبه وان الامل الوطيد أن يهيىء الله لهذا الوطن أسباب الحياة ، ووسائل النجاة فقد طال الليل وفاض الاناء ونفذ الصبر فليس لنـــا مما نخفف به بلاءنا سوى هذه الزفرات الحرى نرسلها على القرطاس حـــتى يفرج الله ٠

أما القصيد فقد كان من الشاعر محمد العيد لفتة من لفتاته الروحية الى القرآن الكريم الذى أعجز الانس والجن وأحيا العرب بعد موتهم وصنع منهم قـــادة الامم وبناة التاريخ ورفعهم الى الذروة الشامخة حتى كانوا (خير أمة أخرجت للناس) ـ للكشف عن كنوزه الثمينـة والنهل من موارده العذبة والاستضاءة بنوره المبين شأن الهداة المؤمنين ٠

كما كان القصيد دعوة حـــارة الى مواصلة السير فى هذا الدرب رغـــم ما يحف به من متاعب ومخاطر ، والله تعالى خير معين فيه ونصير ٠
وفى هذا يقول :

أورد حجـــاك مـوارد العرفان
فهي المنـاهـل للحجى الظمآن
واصقـل بها مرآة ذهنـك دارسا
إن العلـــوم صياقـل الاذهـــان
قـــد خصهـــا القرآن فى آياته
بثنائــــه البـاقى عـلى الازمان
وقضى بهـا الاسـلام فى أحكامه
فغدا بــذلك سيــد الاديـــان
وأبان أربـــاب الهـدى ببحوثها
نهـــج الهـدى للتائـه الحيران
وتدارســوا القرآن فاكتشفوا بها
ما فى مناجمـه مـــن العقيان
أفواههـــم تحتـج لاهجـــة بـه
وقلوبهـــم تهتـــز بالايمـــان
واذا طلـبت لهـم مثالا صادقا
فاقـرأ كتـاب (مقاصد القرآن)

ثـــم يثنى عـــلى الكاتـــب والكتـــاب بمـا لا أقـدر عـلى اثباته هنا بل أخجل من عرضه وهـــو يعكس ما اشتهر به الشاعر من سمو الروح ، وكرم الخلق ، وصدق الشعور ، ونبل الاحساس ثم يصور تأثره البالغ بالاهداء، ويكشف قلمه عمايحاول دائمـــا أن يستره أو أن ينكره من مكانة أخلاقية فذة لا يتيسر ادراكها الا لمن أحبه الله تعالى واصطفاه وذلك بالتواضع الجم الذى عبر عنه فى هذه الابيات :

يا مهدى (العلق) النفيس الى من
لى أن أقـوم بواجـب الشكران ؟
من ذا الذى يعطيـك أجرك كاملا
لبضاعـــة جلـت عن الاثمان ؟

الا الـذى أنشـاك نشأة عفـة
وسخـا عليك بجوده الهتـان ؟
أخجلتنى بجميل صنعك مغمضا
عينيك عن عجزى وعن نقصـانى
هيهـات أن أنسى صنيعـك أنـه
لمنـزه عنـدى عن النسيـان

ثم يهنىء المؤلف ويشير الى مضايقات وضغوط استعمارية كان يعيشها عند اعداد الكتاب وطبعه ويحثه على اتمام المخطط فى محيط القرآن ويقول :

يهنيـك انـك فى كتابـك حائـز
ما شئت من حسن ومن احسان
لم تثنـك الاحداث عنه وان طغت
وكذاك تفعـل همـة الشجعـان
أتقنتـه وضعـا وطبعـا فانتهى
رغـم الظـروف لقمـة الاتقان
واصـل نشاطـك بعد أول جزئه
حـتى تعقبـه بـجـزء ثـانى
أرضيـت ربـك فى تدبـر ذكره
فجـزاك ربـك عنـه بالرضوان

وكتبت اليه عن مأساة مروعة وقعت لفتاة رائعة الحسن والجمال زفت الى القبر يوم عرسها فجاءتنى منه قطعة شعرية تعبر عن عاطفة جياشة ، وتنطق كل كلمة منها بلوعة حسرة من مشاهد البؤس والشقاء التى يفاجئنا بها الدهر من حين لآخر، وانقطاع حبل المراسلة بينى وبين الشاعر محمد العيد لظروف الثورة التحريرية · واستقلت الجزائر ، وتفقدت كتبى وأوراقى التى غبت عنها طويلا فوجدتها قد ضاعت كلها تقريبا ولم تبق الا بعض أوراق خفيت عن عيـون المستعمرين ، فكاتبته مهنئا باستقلال الجزائر ومستفسرا عن طوال السبع الشداد · وطالبا منـه أن يوافـينى بالقطعة الشعرية المذكورة اذا كان محتفظا بها فجاءنى منه رد يفيض فرحا وطربا · ويقول فيه بالحرف الواحد : (أما القصيد فلم أعثر عليه مع الاسف الشديد وكلنا فى البلاء سواء ، فلـو شرعت أقص عليك ما حل بى وبكتبى وأوراقى لما وسعت شرحه الا عشرات القراطيس ، فالحمد لله الذى أحيانا الى هذا العهد الحر السعيد وعلى الماضى العفاء :

ما مضى فـات والمؤمل غيب
ولك الساعـة الـتى أنت فيـها

وكاتبته بشأن كتاب أعده عن حياة طائفة من الابطال ورجال الفكر بالجزائر وبعض الشعوب العربية والاسلامية وسجلت له قائمة بأسماء من كتبت عنهم أو هم فى مخطط الكتاب فاهتز للمشروع بهجة وسرورا وأرسل الي كتابا يشكر ويهنىء مع أبيات ذكر لى أنها من قصيدة طويلة بعنوان (وحي الثورة والاستقلال) سجل فيها أهم أحداث الثورة الجزائرية وكثيرا من الاحداث العربية الهامة وذكر أنه يعتزم طبعها مستقلة وقد نشر بعضها فى ديوانه وهذه أبيات من المجموعة التى أرسلها وهي ـ فيما أعتقد ـ غير منشورة لحد اليوم والمجموعة تبلغ (28) بيتا :

نحـن الحمـــاة لشعبنا بدمائنـا
وشهودنـا شهـــداؤنـــا امترى
البـالغـــون لالـف الـف كثرة
فى العـد او مـن الف الف اكثرا
الطامحـون الى الصحابة نزعـة
يقفون (حمزة) فى الجهاد و (جعفرا)
مثل (التبسى) الوطنى (داعى الهدى)
و (ابن المهيدى) الفتى حامى الذرى
أو (مصطفى بولعيـد) والحواس أو
(ديدوش) أو (زيغوت) آساد الشرى
واذكر من الشهداء (عيسات) الذى
وفى و (لطفى) الجرىء المسعـرا
واذكر (عميروش) الرهيب و (طاهرا)
والشهم (عبان) الاشاوس منظـرا
واذكر من الشهداء (البوانت) الذى
فى القصبـة العليـا تحدى العسكرا
واذكر من الشهـداء (حوحو) كاتبا
حرا و (حيحى) ثائرا ومشـــورا
ورفيقى الشعـر (الربيـــع) ونده
(عبد الكريم) فواجب أن يذكـرا
واذكـر (عمودى) البلاد أديبهـا
واذكـر بها (مولودها) المتحـررا
واذكر (حسيبة) واحتسب ما نالها
واذكر (فضيلة) للفضيلـة مكبرا
ان الشهادة فى الجزائر أصبحت
عليهـــا بالسعـــادة بشـــرا

وقد ذكر الشاعر محمد العيـــد فى هذه المجموعة جميـــع أسمـاء الذين أدرجتهم فى كتابى (فى موكب الخالدين) الا (عبد الكريم العقون) و (فضيلة) و (العمودى) ولم أدر اذا كانت هذه المجموعة أنشأها بعد قراءته لرسالتى أم كان ذلك من قبيل الصدفة ·

وسيتمدد بنا الحبل ويتســع المقام اذا أنا تصديت بالملاحظة والتعليق لكل الرسائل التى تبودلت بينى وبين الراحل العزيز أمير شعراء الجزائر محمـــد العيد ولمعالم الصـداقة الوثيقة بيننا وحسبى ما ذكرت تحية صدق ، ودمعة وفاء ، ولوعة محزون ، حتى أتمكن من الوفاء له بأكثر من هذه اللمحـــات والخواطر ·

وبعدفقد مات الشاعر محمد العيـد والتحق بالشعراء الذين سبقوه أمثال بوشربية وخزندار وانضم الى الرفاق الذين مضوا قبله أمثال ابن باديس ، والميلى ، والتبسى ، والابراهيمى ··· ومن ذا الذى لا يموت ؟

والبرايـا للمنايـا عرضـــة
كلهـــا تصلـــح أخبارا لكـانا
كلهـــا تفنى ولا يبـــقى سوى
من تعالى عن جميع خلق شأنا (1)

فوجود الانسان فوق هذا النجـم السفلى أمر عارض فى الحقيقة سرعان ما يزول ويختفى وانما الفكرة التى جاهد فى سبيلها وعاش من أجلها هي الجوهر الثابت الباقى الذى لا يزول ولا يفنى ·

---

(1) من شعر محمد العيد

فالفكرة التى عاش من أجلها محمد العيد وجاهد فى سبيلها بفطرة ملهمة، وطبع شعرى أصيل ، وموهبة مبدعة ، وعقيدة راصية ، وايمان راسخ ، باقية ما بقيت الحياة هي الوطن ، والاسلام، والعروبة ، وقد زودها بثراء لا ينضب وزودته بحياة لا ينال منها الموت والفناء، وسيذكر محمد العيد بالاشادة والحب والتقدير كلما ذكر هذا الثالوث المقدس، ثالوث وجودنا وحياتنا وبقائنا ٠

وسيظل الشاعر محمد العيد فى كل قلب وعلى كل لسان ليس فقط لانه كان فى دنيا الحياة كالفراشة الجميلة تحوم على الزهر ، وترف على الماء ، وتنتقل فى الحدائق الغلب بين زهرة وأخرى لتمتص الرحيق ثم تمجه دواء وشفاء ولا لانه كان فى قيثارة الحياة وترا حساسا يثير دفائن الاسى حينا ، ويموج نسائم الامل حينا آخر ٠٠٠ ليس هذا فحسب وانما أيضا وقبل كل شىء لانه شعلة من الوطنية الصادقة تتقد فى آفاق واسعة لا يعرف لها حد ، وطاقة هائلة من الايمان الايجابى البناء، وقلب عظيم يتدفق حيوية وحبا ووفاء ٠٠٠

لقد كانت الحياة فى عهد الاستعمار الفرنسى البغيض مظلمة ، معتمة ، رهيبة ، موحشة ، وكان الشاعر الراحل محمد العيد واحدا من الشموع القليلة التى تضىء أعماق النفوس ، وتبعث فى القلوب الانس والبشر ٠٠٠

ولما أشرقت شمس الحرية وانقشع السحاب ، وتبدد الظلام ، وعمت الفرحة، وأهل عهد جديد انطلق محمد العيد يشدو حرا طليقا ، وينشد مبتهجا طروبا :

وطنى المفدى بالكفاح تحررا
ومصيره بعد النجاح تقررا
فابن الجزائر صار سيد أرضه
والغاصب المحتل ولى مدبرا
يا يوم عيد النصر صفوت قد جلا
ما كان ران على القلوب وكدرا
ذكراك ملء القلب حاضرة به
هيهات أن تنفك عنه وتعبرا
أقررت أعيننا فكل مواطن
لك هاتف يعلى الهتاف مكررا

رحم الله شاعر الجزائر محمد العيد ٠٠

لقد انطفأ بموته السراج الوهاج الذى طالما أضاء الحياة ٠٠٠

وذبل الغصن النضر الذى طالما أثمر أشهى الثمر ٠٠٠

ونام النومة الاخيرة ذلك العقل النير الذى طالما نفذ الى أعماق الاشياء فاستنبط واستجلى وعلل وحلل وسكن القلب الواعى الذى طالما نبض بمعانى الحياة، وأسرار الحياة ، وحقائق الحياة ٠٠

فيا أرواح الشعراء والعلماء والمفكرين لقد جاءتكم روح أخيكم (محمد العيد) فيا أنسكم به ، ويا وحشتنا بفراقه ٠

مزيدا أيها الصديق !..

محمد نسيب

كلما قرأنا بحثا أو مقالا أو كتابا للاستاذ محمد الصالح الصديق الا هز شعورنا وحرك عواطفنا والهب حماسنا، فتولدت الرغبة وانفتحت الشهية ، فطلبنا المزيد فيستجيب الاستاذ لطلبنا ويلبى رغباتنا فلا يبخل علينا بما آتاه الله من علم ومعرفة ، فلا يحتكر ما عنده بل يبذله فى كرم وسخاء ٠

لقد قرأت أول كتاب للاستاذ وهو لا يزال طالبا فى جامع الزيتونة منارة المغرب الاسلامى ، وقلعته وحصن اللغة العربية طيلة عهد الاستعمار البغيض ولياليه الحالكة ٠

ان أول زهرة تفتحت أكمامها فى حقله وانتشر أريجها فى الجو فحام حولها الفراش ومص رحيقها النحل وصدح فوقها الطير (أدباء التحصيل) فى أربعة أجزاء ثم تابعه انتاج غزير (مقاصد القرآن) (الجزائر بين الماضى والحاضر (صور من البطولة فى الجزائر) (عميروش) (من قلب اللهيب) (وقفات ونبضات) ٠

واليوم يقدم لنا كتابا جديدا غزير المادة شيق الاسلوب سهل الالفاظ دقيق التعبير عميق التفكير يجلب النفوس ويسحر الالباب ٠

وان كان اسم الكتا بيرهب الجبناء ويفزع الكسالى ويقلق الخملاء وتقشعر جلودهم وترتعد فرائصهم عند سماع هذ الاسم « الدروب الحمر » ٠

ولكن هذه الدروب يعشقها الابطال ويتغنى بها الاحرار والعظماء وتقتحمها الشعوب المستعمرة المظلومة المضطهدة ٠

لولا هذه الدروب الوعرة الرهيبة الموحشة ما استقلت الجزائر ، ولا تحررت من قبضة الاستعمار ، ولا تخلصنا م نالنظام الاقطاعى المستغل ٠

« فالدروب الحمر » تتحدث عن نضال الرجال بالدم والقلم ، وصمود المجاهدين للعقبات والمغريات ، واهل الكلمة الحرة الابية ٠٠٠ النزيهة الصادقة الواعية المسؤولة ٠

ان هذه الدروب التى يتحدث عنها الاسناذ الصديق هي دروب الحرية ، والعزة ، والكرامة ، والمجد والسيادة ٠

انها دروب الاحرار فى كل زمان ومكان ، ومسالك الابطال عبر القرون

والاجيال ، وستظل ملجأ للمظلومين والمضطهدين والمستعبدين والمحرومين فى هذا العالم ، المليء بالجبابرة والطغاة، بالظلم والاضطهاد ، والاقطاعيين والمستغلين والحكام الجائرين المستبدين المتسلطين على الضعفاء والفقراء الذين يستغلون جهودهم ويمصون دماءهم ويشربون عرقهم ٠

وستبقى « الدروب الحمر » معبدة ومفتوحة أمام هؤلاء المعذبين الذين ضاق بهم الافق وعبست الحياة فى وجوههم واظلمت أمام أعينهم ٠

رحم الله الشاعر التونسى الثائر أبو القاسم الشابى الذى يخاطب طغاة العالم فيقول :

ألا أيها الظالم المستبد
حبيب الفناء وعدو الحياة
سخرت بأناة شعب ضعيف
وكفك مخضوبة من دمائه
حذار فتحت الرماد اللهيب
من يبذر الشوك يجنى الجراح
سيجرفك السيل سيل الدماء
ويأكلك العاصف المشتعل

نعم سيأكلهم العاصف المشتعل ، وسينفجر البركان تحت أقدامهم ، وتحرقهم هذه الانفاس الكاظمة ٠

أين الاستعمار الفرنسى ؟ الذى جثم على الشعب الجزائرى أكثر من قرن وربع قرن على عرش الحكم وركز نفسه دعم أسسه وبسط نفوذه على قارة افريقيا ، وانتشر كالطاعون وامتد حتى الهند الصينية ٠

واين بريطانيا العظمى التى ملكت آسيا جوا وبرا وبحرا ودانت لها الرقاب وانحنت لها الرؤوس وانقادت لها الشعوب من أصفرها واسمرها وأسودها وكانت تصرف فيها كما تتصرف فى البضائع ؟؟؟ ٠

أين هتلر الطاغى الجبار الذى حاول ابتلاع العالم ٠ وبناء مجد ألمانيا بجماجم الضحايا وأشلاء البشر ؟؟

لولا هذه « الدروب الحمر » ما تحررت تلك الشعوب كلها ولا ارتفع فيها علم وطنى ولا انطلق فيها الانسان فى طريق الحياة يبنى المستقبل ويصنع التاريخ ٠

« ان الدروب الحمر » وعرة رهيبة موحشة يلفها ظلام دامس ، ومحفوفة بالاشواك الدامية ومفعمة بالمخاطر والاهوال ، فلا يسمع سالكها الا الصياح والانين ، ولا يفتح عينيه الا على المشانق ، ولا يرى الا الجلادين الغلاظ القساة يترصدونه ٠

ولكن الايمان أقوى من الجلادين والعزيمة أمضى من سلاحهم ونور الامل يمزق جلابيب الظلام ويزيح الستار عن الابصار ويبدو لهم نور الفجر فى كل آفاق ، فلا قوة تقف أمامهم ولا حاجز يفصل بينهم وبين ذلك النور المنبثق والشعاع الذى يخترق الصدور ويصل الى القلوب ويبعث فيها الراحة والاطمئنان فأيقنوا ان كل ليل يعقبه صباح وكل



ظلام وراءه نور يطارده ويمح آثاره ويكشف سره وخفاياه ويعلن عن نهايته ٠

ان الذين سلكوا « الدروب الحمر » ويسلكونها هم الذين تربوا على مبدإ الالتزام بالايمان ٠

وحين يوجد ملتزمون بالايمان تهون أمامهم نفوسهم وأموالهم وأولادهم ٠

وحين يسترخص الانسان ذلك فى سبيل الله يكون جندى الحق على استعداد لان يدهم الباطل مهما كانت قوته ومهما كان جبروته الالتزام الذى جعل العبد كله نفسه وعاطفته وغرائزه وأمواله ملكا لذلك الالتزام ٠

وهذا الالتزام هو الذى عبأ جيوش المسلمين فى كل المعارك وجعل الواحد من المسلمين يتلقى أباه والاب يتلقى ابنه ٠

وكلما عدنا الى الاسلام عاد الينا هذا الالتزام فوجدنا الملتزمين الواعين فى المجتمع الاسلامى ، فيحدثون التغيير ويغيرون المجتمع وفق هذه السنة ٠

« **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » ٠

ان مبدأ الالتزام نابع من شخصية الفرد بدون اكراه ٠

وحين يقبل الانسان على العمل بوعي وحب ورغبة تهون عليه الصعاب وتذلل أمامه العقاب وهذا ما نشاهده ونقرأه فى « الدروب الحمر » عندما نرافق سالكيها أصحاب المبدأ والالتزام ، أصحاب الهمم العالية والاخلاق الرفيعة والطموحات البعيدة الذين يحققون المستحيل ويصلون الى الغايات ولله در الشاعر العربى اذ يقول :

«اذا ما طمحت الى غاية
ركبت المنى ونسيت الحذر »
« ولم أتجنب وعور الشعاب
يعش أبد الدهر بين الحفر »
« ومن لا يحب صعود الجبال
ولا كبة اللهب المستعر »

ان الاستشهاد هو الطريق الوحيد من أجل نصرة الحق وبعث الامة الى الوجود واسترجاع حريتها وصون كرامتها الانسانية ، فالذين قدموا أرواحهم فداء لفتح عهد جديد ولكسب معركة جديدة فى كفاح الشعوب الاسلامية ضد الذوبان والفناء ، قد استشهدوا من أجل انتصار مبادئهم واثبات وجودهم المعبر عن عقيدتهم ولغتهم وتاريخهم ٠

ان الامة التى لا تؤمن بنفسها لا وجود لها ، فاذا لم يكن لشعب طابع خاص يعبر به عن نفسه وخصائصه ومميزاته فلا وجود له ٠

ان « الدروب الحمر » تروى لنا قصة شعب وما عاناه من محن وآلام وما قاساه من عذاب وجراح وما ذاق من بؤس وحرمان ، وما تجرع من مرارة العبودية والاضطهاد ٠

انها قصة شعب عاش أكثر من قرن وربع بين الموت والحياة وهو يصارع الاستعمار الوحشى وما يحمل من وباء وشر طغيانه وعجرفة جبروته بلا هوادة ولا استسلام ٠

انه شعب يريد الحرية والسيادة ، ويريد الحياة كسائر الشعوب ، ولكن الاستعمار يريد استعباده واذلاله وتسخيره واستغلاله بل يريد فناءه وابتلاعه كلقمة سائغة ، ولكن اللقمة كانت شجا فى حلقه أودت بحياته ٠

لقد حاول الاستعمار اقتلاع هذا الشعب وازاحته فوجده جبلا راسيا لا يتزحزح ، قوى الاركان لا يتهدم ، عميق الاسس لا يتزعزع ، طويل الجذور لا يقبل الاقتلاع فحاول تحطيمه وتفتيته فوجده صلبا قاسيا كصخور جباله ، لا يتحطم ولا يتفتت ٠

هكذا تروى لنا « الدروب الحمر » بطولة شعب وما قدمه من تضحية وفداء ، وكيف صنع جسرا من الجماجم والاشلاء فوق نهر الدماء تعبرها الاجيال نحو الحرية والاستقلال وتذكرهم أبد الدهور بتضحية الاسلاف والاجداد، والمهور الغالية التى قدمها الآباء ٠

وكم شربت هذه الدروب من دماء الاحرار أهل العقيدة والايمان من شجرة الحرية التى تهدلت أغصانها واينعت ثمارها ليقطفها الكبير والصغير والقوي والضعيف والغني والفقير ٠

كم فى هذه « الدروب الحمر » من دروس بليغة وعظات رائعة ، تعكس شيم الابطال واخلاق المجاهدين الملتزمين بالايمان فى أيام الحرب والسلم ، وفى أيام الرخاء والشدة ٠

ولعل أبرز الصفات المحمودة فيهم هي : نكران الذات والتجرد من الحقد والكراهية ، والانانية وراحوا يعملون على تقوية الامة والاعتزاز بالشخصية الاسلامية والوطنية وما تتضمنه هذه الشخصية من دين ولغة وتاريخ وحضارة ٠

ان شخصية أمة من الامم ليست شيئا اصطناعيا ثانويا بل هي شجرة تضرب بجذورها فى أعماق تلك الامة ، وان عظمة أمة من الامم ليست فى المظاهر العابرة. اذن يمكن لامة فى التاريخ أن تعيش وتبقى على أساس تذبذب الشخصية عن طريق والتبعية أو تغيير الجلدة لكل فكرة وافدة أو غاز منتصر ، أم ان لأية أمة من الامم ركائز ثابتة لا تقبل الاهتزاز مهما اعتراها من وهن وضعف وهي تتمسك بقيمها وتحافظ على أخلاقها وتعتز بشخصيتها فلا ترى عنها بديلا ، مهما كان هذا البديل ٠

هذا بعض ما نقرأه فى « الدروب الحمر » ويتجلى بوضوح لكل قارىء بامعان وتدبر ، فيكشف القناع ويزيح الستار عن تاريخنا المجيد ويبرز تلك الشخصيات الفذة ويحيى تلك البطولات النادرة المنسية فتكون قدوة لجيلنا يستمد منها قوة ويتخذ منها صلابة

وصمودا ويتخذها منهجا لحياته وقاعدة لانطلاقة تجعله يتوقد ايمانا ويتفجر حماسا وشجاعة ٠

« لم يضعف المسلمون ولم يقعوا تحت أيدى المستعمرين الا حينما تخلوا عن عقيدتهم الاسلامية التى من طبعها العزة والكرامة والاستهانة بالموت فى سبيل اللـــه » ٠

ان الايمان بالله هو الذى جعل بلالا العبد الحبشى المملوك يتحدى سادات قريش ويتحرر من عبوديتهم ومن عبادة أصنامهم الى عبادة الله وحده ويتحدى الجلادين القساة وكل أساليب العنف والقهر ٠٠٠ وكل أنواع العذاب المسلطة عليه وكانت السياط لا تزده الا التهابا ٠

وكلما اشتد عليه العذاب أزداد ايمانا وثقة وقوة وكلما تفننوا فى تعذيبه صلب فى موقفه وثبت على مبدئه فحير المشركين واقلق طغاة قريش ، وجبابرهم، ربما يستطيعون تحويل جبال مكة ولا يستطيعون تحويل الرجل المؤمن ، وكلما طلبوا منه أن يكفر بدين محمد صلى الله عليه وسلم ويعود الى أصنامهم أجابهم بكلمة واحدة تملأ الدنيا نورا وجلالا وعظمة ويردد الكون صداها « أحد أحد » وتثير الرعب فى قلوب المشركين ، وينتصر بلال الصحابى الجليل وتنهزم الفئة الباغية الكافرة ٠

« ان الدروب الحمر » هي العلامات البارزة فى جهادنا ونضالنا وفى تاريخ ثورتنا التحريرية تعبر بصدق عن آمالنا وتقاليدنا ، وهي جديرة بالعناية والاهتمام والسلوك لاستمداد الحياة والقوة وضمان البقاء ٠

ان « الدروب الحمر » جسدت أنبل ما فى الانسان العربى المسلم من القيم والاخلاق العالية وأروع معانى التضحية والفداء والنزوع نحو الافضل ونحو خدمة المبادىء والاهداف السامية ٠

ان الاستاذ الصديق استطاع أن يضع جسرا قويا ممدودا بين الماضى والحاضر تمر عليه الاجيال عبر العصور فيجدد لنا تلك الصفحات المشرقة من تاريخ أمتنا العربية الاسلامية وبذلك يذكى حرارة إيماننا ويفجر طاقتنا ويجدد عزمنا وآمالنا ويعطينا شحنة جديدة ودفعة قوية لنواصل سيرنا ٠

ان جسر التواصل والاستمرار سيظل قائما وممدودا على الدوام ٠

ان تواصل الايمان والاستمرار التاريخى هو الذى يبعث الشخصيات الاسلامية وبطولاته ويجعلها تتجدد باستمرار فى كل عصر وتحيا فى كل مكان ، هذا الجسر التاريخى هو الذى جمع بين بلال وابن مهيدى وبين الخنساء وفاطمة جناد وبين خبيب وزبانة رغم المسافة الجغرافية والبعد الزمنى انها أربعة عشر قرنا تفصل بينهم ولكن التاريخ يعيد نفسه ٠

لقد وحدهم الايمان وجمعتهم العقيدة وربطهم المبدأ ٠

ورابطة المبدأ هي الرابطة القويـــة المتينة وليست الرابطة القوية والوطنية ٠

والمبدأ هو الذى ربط بين محمد العربى صلى الله عليه وسلم وسلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى ومع انهم مختلفـــو اللغـات والقوميـــات والتقاليـــد ٠

والمبدأ هو الذى باعد بين محمد صلى الله عليه وسلم وابن سفيان وأبى جهل وأبى لهب مع انهم من قبيلة واحـدة وقومية واحدة ولهم لغة واحدة ونفس العادات والتقاليد ٠

وعلى هذا المبدأ تأسست الدولـــة الاسلامية الكبرى وضمت تحت لوائهـا أجناسا وألوانا ، فوحدت بين العربى والتركى ، وبين الفارسى والصينى ، والحبـشى والـرومى ، والســـودانى والبربرى ، شعارهم جميعا لا اله الا الله محمد رسول الله ٠

وعلى هــذا المبـدأ قـامت الثـورة الجزائرية وانطلقت مسيرتها ، شعارها التحرر من العبودية والسيطرة الاجنبية واقامة دولة اسلامية أساسها العقيـدة ودستورها القرآن ٠

ان مقدرة الكاتب ونبوغه وعبقريتـه تتجلى فى كل قصة وتبرز فى كل جملة وكان كل سطر دربا من «الدروب الحمر» ٠

وكل قصة من قصص « الـــدروب الحمر » لوحة فنية رسمتها ريشة فنان عبقرى تبدو فيه قوة الشخصية وشبوب الاحساس وتوقد الشعور وخصـوبـة الفكر وغزارة منابع الوحي والالهام ٠

ومما نلاحظه باعجاب عند الاستاذ محمد الصالح الصديق هو تسلســل الافكار وتناسق الالفاظ ، وترابـــط الاحداث فهو يمزج الشخصيات بعضها ببعض ويصبها فى قالب واحد ويعطى لها صفات ويضفى عليها ألوانا زاهية فلا تكاد تميز أو تفرق بين ذا وذاك ٠

هذه هي مقدرة الكاتب وبراعة قلمه الذى يصنع الشخصيات ويعطى لهـــا الحياة ويبعثها الى الوجود فى ثـــوب قشيب فيجعلها حية قوية نموذجية بعـد عدة قرون وآلاف السنين فمثلا عندمـا يقارن بين بلال وابن مهيدى ، وبيـــن خبيب وزبانة ، والخنساء وفاطمـــة جناد ، ترى التاريخ قد أعاد نفســه وأنت تقرأ فى مذهب تناسخ الارواح ، هؤلاء الشهداء والعظماء تتقمص بعضها بعضا وتتنقل بين الاجيال مـن شخص الى شخص وتظهر فى كل مكان ٠

ان الذى جمع بين بلال وابن مهيدى ووحد بين خبيـب وزبانـة وربط بيـن الخنســــاء وفاطمـــة جناد ، هؤلاء فى أقـــصى صحــــراء الحـجـاز وأعماق الفيافى والآخرين فى أعـالى جبال الجزائر – وقمم الاوراس وجرجرة وونشريس هؤلاء جميعا يربطهم ربـاط واحد ، (الايمان) الذى حرر بـلالا من الرق والعبودية وجعله حرا طليقا ، كذلك صنع ابن مهيدى وحوله الى قلعة صامدة فى وجه الاستعمـار الفرنسى وآلاته الجهنمية بصـــبر وايـمـان ،

فاستطاعت الطغمة المجرمة أن تنتزع جلدة رأس ابن مهيدى ولكنها لن تستطيع نزع سر واحد من صدر البطل الشهيد الذى باع روحه لله « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** » ٠

ما دامت البشرية مجردة من الايمان بعيدة عن الله ، متنكرة لشريعته فلا تذوق حلاوة السعادة ولا تشعر براحة البال والامن والاستقرار ، ما دامت الجاهلية مسيطرة عليها مغلغلة فى أعماقها تتولد الحقد والكراهية وتتغلب عليها الانانية التى تقودها الى الخراب والدمار ٠٠٠

انها محنة يتعرض لها المؤمنون والضعفاء فى كل زمان ومكان ، فهم فى صراع دائم وقتال مرير مع الجاهلية والجاهلين ٠

ان جاهلية القرن العشرين المتحضرة المتفتحة المتطورة أبشع وافظع ، من الجاهلية الاولى المتخلفة المتوحشة المتطرفة فلا تزال الروح الجاهلية سائدة مسيطرة على المجتمعات البشرية الضالة ٠

ان الافكار التى كانت تسود المجتمع الجاهلى والاعمال التى كان يمارسها كفار قريش ضد المؤمنين هي نفس الاعمال والاسلوب الذى اتخذه اليوم أعداء الاسلام ضد المسلمين فى كل مكان ٠

فالذين عذبوا بلالا هم الذين عذبوا ابن مهيدى ونزعوا جلدة رأسه ، والذين صلبوا خبيب هم الذين شنقوا زبانة « **وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** » ٠

وكلما تغلغلت المادة فى قلوب البشر تغلغلت فيهم الجاهلية وضربت جذورها فى أعماقهم ،أطلقوا العنان وجمحت نفوسهم وبرزت أفاعى الشهوات وزحفت على دنيا الناس ، وكلما تفوقت فى العلوم الاقتصادية والصناعية هبطت الانسانية وانخفظ صوتها فتفوقت الجاهلية فوق المتفوقين كما قال الشاعر الجاهلى :

ألا لا يجهلن أحد علينا ٠
فنجهل فوق جهل الجاهلين

وكلما تفننوا فى البنيان والعمران تفننوا فى وسائل التدمير والتخريب ٠٠٠

« **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الابصار** » ٠

وهكذا تتجلى الحقائق فى « الدروب الحمر » بوضوح وتبرز تلك الشخصيات التاريخية والمواقف البطولية الفذة النادرة فى كل بلد الا فى الشعوب الاسلامية المؤمنة الصادقة الملتزمة التى تتحاسد أبناؤها على الشهادة ويتسابقون الى « الدروب الحمر » ويكتبون صفحات التاريخ بدمائهم ويشقون الطريق ويمهدونها للاجيال والاحفاد ٠

ان شعبنا كان ولا يزال لا يعرف الا لغة الايمان ، اذا خاطبته بلغة الايمان اندفع كالسهم وتدفق كالينبوع ، وتفجر كالبركان ، فلغة الايمان هي لغة الاسلام فى كل مكان وفى كل عصر وجيل ، انها أقوى وأفصح وأبلغ من كل لغة ، بها

تحررت الامة العربية ـ الامية منذ أربعة عشر قرنا من عبودية الاصنام وتحررت الجزائر من الاستعمار السياسى والعسكرى وبها تتحرر اليوم من الاستعمار الثقافى والحضارى والصناعى والاقتصادى ، انها لغة التحرر والانطلاق والبناء والتشييد ، انها لغة الوحدة والقوة والترابط والاخاء ، والايثار والنضال ، والتضحية والتفانى من أجل المبدأ ، انها لغة التفاعل والتجاوب التى تصل الى القلوب وتخترق الحواجز وتمس العواطف وتحرك الشعور ·

كيف استطعنا أن نطرد جيوش العدو من بلادنا ونحطم أكبر دولة استعمارية ارست قواعدها فى أرضنا ومدت جذورها فى أعماق افريقيا ، وبسطت نفوذها على تلك الشعوب الضعيفة المقهورة ·

تمكننا من ذلك بفضل هذا الايمان الدافق الموجود فى نفوس الشعب وسلامة القلوب وصفاء النفوس ، فاستطعنا بهذه النفوس السليمة القوية الممتلئة بالحياة والنشاط المملوءة بالثقة والاعتزاز ، ان تشق « الدروب الحمر » وتقتحم العقبات وتتغلب على جميع الصعوبات هذه الصور النضالية البطولية المثالية التى نشاهدها فى « الدروب الحمر » ·

الاستاذ الصديق حطم كل الحواجز فاقام جسرا بين الماضى والحاضر ، فكان التفاعل والتجاوب بين العهدين والترابط والتواصل بين الجيلين ·

لقد أعطى لنا الاستاذ الصديق صورة صادقة عن الايمان ودوره فى تكوين الاشخاص وبناء الامم وفعلا رأينا كيف صنع الرجال الذين ايقظوا الامم وحركوا الشعور وحولوا التاريخ وصنعوا الاجيال الذين صنعوا الاستقلال وزحزحوا اركان الاستعمار فى كل مكان وأطاحوا بعروش الطغاة وأقلعوا جذور الاقطاعيين الذين ملأوا الدنيا فسادا وجورا ··· سيظل الزمان يحمل ذكراهم ، ويردد صداهم على مسمع الاجيال أبد الدهور ·

فهذه الخنساء الشاعرة العربية عند مقتل أخيها صخرا فملأت الدنيا بكاء وعويلا ·

« يذكرنى عند طلوع الشمس صخرا
وأذكره لكل مغيب شمس »

وقصائدها الفياضة كثيرة ، وبعد ذلك أسلمت الخنساء ، وكان لها بنون أربعة حضروا معركة القادسية فقتلوا جميعا !

هذه التى ظلت تبكى طيلة حياتها أخاها ، كيف استقبلت نبأ موت أبنائها ، فقالت : « الحمد لله الذى شرفنى بشهادتهم ، وأسأل الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته » ·

تلك هي ضريبة الالتزام ، وتغلغل الايمان فى أعماقها · قال عمر لها . « أتبكين على أخيك وهو كافر ؟ » ·

« قالت : ان بكائى عليه واجب لاننى كنت أبكى له لنفعه لي والآن أبكى عليه لدخوله النار » · انقلبت المعايير بواسطة الاسلام فى نفسها وانظروا أيضا لفاطمة جناد الجزائرية الريفية فهي صورة مثالية

للمـرأة المسلمـة فى القـرن العشرين حتى لا تظن ان هذه الصـورة المعروضة خيالية أسطورية تاريخيـة لا توجد الا فى بطون الكتب ولا تعيش الا فى ضمير الزمان ، ولا يمكن أن تتجدد فى عصرنا هذا الذى طغت فيه الشهـوة على الضمير ، والعاطفة على العقل ، والمصلحة الفردية على مصلحة الامـة والجماعة ، وحب الدنيا على الآخـرة ، ولكن فاطمة جناد الجزائرية القرويـة الساذجة أبت الا أن تحيى المرأة العربية المسلمة وتعلن عن وجودها وتبعثها الى الحياة فى ثوب جديد ، وتعـيد لهـا شخصيتها القويـة وجمالهـا الطبيعى واثبات وجودها بمعانيه وفعاليته هذه المرأة الجزائرية المسلمة التى هـزت الاستعمار وزعزعت أركانه وقوضـت بنيانه ، بالعقيدة والايمان ، وبالتربيـة الاسلامية والتقاليد العربية . لا باللغـة الفرنسية والتبعية الثقافية والتقاليـد الاجنبية والمسحوقات الباريسية ، هذه اللبوءة الهصوة التى ابتسمت أمـام الشدائد واعطت شبلها الوحيد الغالى وأملها المشرق ومستقبلها البسام ... للوطن العزيز وتدفعه للمعركة وتجعلـه وقودا للثورة التحريرية وتحرضه على الجهاد فى سبيل اللـه وتـقول له : ان عشت عشت حرا وان مت مت شهيدا لا أريد أن أراك يا ولـدى الا منتصرا أو شهيـدا .

وبعد هذه الكلمة الحارة المتؤججـة انصرف الشاب والتحق بالثورة وانضم الى اخوانه المجاهدين وقاتل حتى استشهد وسقطت جثته بين أيدى الجنود الفرنسيين كأنهم ظفروا بصيد ، فحملوا جثتـه الى القرية وهم يفتخـرون كعادتهـم بأعمالهم الاجرامية الوحشية ليفزعـوا أم الشهيد ويرهبونها وطرحوا الجثـة فى طريق القرية ليراها الجميع .

فجاءت الام لتعاين الجثة وترى ابنها الوحيد ، وتلقى عليه النظرة الاخيرة فما كادت تراه حتى عصر الحزن قلبهـا واحترق كبدها ، فانسكبت من عينيهـا دمعتان حارتان ، وسالتا على خديهـا لامعتين كاللؤلؤتين ، وهـذا من طبيعة الامومة ، ولكنها سرعان ما استرجعت قوتها وشجاعتها ، فحاولت أن تخفيهمـا على الاعداء ، ولكن الضابط الفـرنسى لاحظ عليها ذلك وتقدم اليها وقال :

أتبكين عليه يبدو انك نسيت تحريضك وتشجيعك اياه على الالتحاق «بالفلاقة» .

وكأن الكلمة أيقظت فيها الروح التى كلمت بها ابنها فأجابته بلهجة عنيفـة قاسية ممزوجة بالمرارة والسخرية قائلة :

أتظن انني أبكى لموت ابنى يا عدو الله ؟ كلا ! بل أبكى على أن ليس لى ولـد آخر يخلفه فى المعركة ! ولكن سأخلفه أنا ! خلفته فعلا فواصلت النضال .

وسارت فى « الدروب الحمر » حتى استشهدت سنة 1960 كما ذكر الاستـاذ الصديـق .

انها المثل الاعلى للام التى تعتقد بأن ابنها للوطن والواجب قبل أن يكون لها، لنرى كيف ضاعت العاطفة أمام الالتزام

فالالتزام الدينى الممزوج بحب الوطن هو سر النجاح فى الثورة الجزائرية ، التى أبهرت العالم وادهشت العدو نفسه الذى لم يكد يصدق الخبر ويستيقظ من حلمه لولا أن رأى بركانا يتفجر تحت قدميه ·

فلا يزال البعض يتساءل فى دهشة وغرابة كيف استطاع الشعب الفقير الامى الذى لا يتجاوز فيه 5٪ من يعرف القراءة والكتابة أن يتحدى فرنسا وحلفها الاطلسى ـ كيف غامر بنفسه وقامر بحياته وطالب حريته وراح ينتزعها من مخالب الوحوش الكاسرة ، وهو أعزل من السلاح مجرد من القوة ومن جميع الوسائل العصرية فيقف بصدره العارى ، أمام الدبابات ، والمدافع والرشاشات تحصده حصدا · فلا تسمع منه صراخا ولا شكوى ولا بكاء سوى كلمة « الله أكبر » تملأ الفضاء ويردد الكون صداها وهو يركض الى الموت سائرا نحو الامام يعانق اللهب المشتعل فلا يبالى بتلك القوة بل ساخرا منها لان ايمانه أقوى من تلك القوة المادية المنهزمة المنهارة أمام قوته الثابتة الخالدة خلود الزمان فى وجه الانسان فلا تدهش أيها السائل فالاستعمار نفسه لا يزال حائرا مرتبكا فى أمره يتساءل كيف خرج من الجزائر ·

لقد كان يكذب بهذا اليوم كما يكذب بيوم البعث والحساب لا يكاد يصدق حتى الآن ، انه خرج منها نهائيا ؛ بل لا يزال تراوده أحلام اليقظة وتستبد به الامانى وتلعب برأسه نشوة العودة ولكن عودته الى المقبرة التى لا رجعة منها ·

هذا ما تناوله الاستاذ محمد الصديق فى كتابه « الدروب الحمر » ·

ـ انه اشادة برسوخ العقيدة ، وقوة الايمان وعلو الهمة وعظمة الاسلام ···

ـ انه اشادة بالامة العربية الاسلامية وأمجادها وعناوينها البارزة عبر عصور التاريخ ···

ـ انه معالم وحدود الشخصية القوية الجديرة بالحياة لانها تبنى ، وتصنع، وتحيا ···

ان « الدروب الحمر » سيظل يتوهج نورا ونارا يهدى للتى هي أقوم ، ويفجر الطاقة فى كل قلب ، ويبعث الحرارة فى كل جسم ويدفع فى شوق يتلظى ، وفى ظمأ يتسعر ، الى التغيير ، والاصلاح ، ورد الاعتبار الى الفرد والمجتمع .

ان « الدروب الحمر » يضمن لك طالما أنت أسعد الاوقات تعيشها فى متعة العزة والنخوة والكرامة ، ويعدك خير اعداد لسلوك « الدروب الحمر » التى لا حياة لفرد ولا لمجتمع الا بسلوكها ···

فاقرأه أخى القارىء ـ لتعيش أنت بدورك فى هذا الفيضان الفكرى والوطنى والثورى الذى عشت أنا فيه والذى لا يدرك ما فيه الا من عاش فيه لانه « الدروب الحمر » ·

اسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب

د. عمار الطالبى

ان الامة الحية فى التاريخ لا تنسى من جدد لها أمر دينها . وابنعثها من مرقدها وهداها سبيل رشدها بعد غيها ، وأحياها بعد موتها .

ومن حق الامة الاسلامية على رجال العلم والفكر فيها أن يذكروها برموزها التاريخية وبرجالاتها الذين أذكوا فيها معانى الايمان ، ودعوها لما يحييها وأن ينشروا أعمالهم ، ويحللوا آثارهم ، ويبينوا جهادهم للناس ليقتدوا بهم ، ويزيدوا جهادا على جهادهم .

ومن السابقين الاولين فى عصورنا الحديثة الى الجهاد فى سبيل احياء الامة الاسلامية ، وتجديد الاسلام فى النفوس وفى الدعوة الى التوحيد الخالص ، والى الشريعة التى ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا ضال ، والى نبذ عبادة أوثان الطبيعه وأوثان البشر ، والكفر بالطاغوت مهما تباينت صورة : من هؤلاء السابقين الامام محمد بن عبد الوهاب النجدى (ت 1206 هـ/1791 م) الذى جاهد فى الله حق جهاده وأبان عن المحجة البيضاء فى التوحيد ، وواجه الجاهلية التى استحكمت فى النفوس ، والشرك الذى هيمن على كثير من القلوب ، فكان نداؤه أول نداء فى عصورنا الحديثة ، وكان صوته أول صوت بلغ صداه مختلف أصقاع العالم الاسلامى ، ينبه الناس من غفوتهم . ويدعوهم الى القرآن والسنة ، وأن لا يبقى المسلمون على هامش التاريخ بل يتوجهون الى المنهاج الاسلامى به يعملون ، وعنه ينافحون ، واليه يدعون ، فكان داعية نظرا وعملا ، وكان مجاهدا

(1) دعت جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية . كلية الشريعة بالرياض الى عقد ملتقى أسبوعى ونظمته من 21 ـ 4 1400 هـ الى 28 ـ 4 ـ 1400 هـ الموافق 8 ـ 3 ـ 1980/15 ـ 3 ـ 1980 .

حق الجهاد فى صحراء نجد التى وان صفت سماؤها ، وطهرت أرضها ، فان التوحيد فيها تكدر ، بعد صفو ، وأن السنة بها ما خلصت فى النفوس ، ولا وضحت فى الاعمال .

فانبرى ابن عبد الوهاب ينفى عنها تحريف الغالين وزيغ الضالين ، وعمل المبطلين ، وشرك المشركين ، وضلال المنحرفين ، فكان نورا يهدى البصائر ، كما تهدى نجومها الابصار فى حالكات الليالى ، فأكرم به من داع ، وأعلم به من هاد وامام .

وان أعمال جامعة الامام فى أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب لتذكر فتشكر ، وفى الطروس تسجل وتنشر ، حقا لقد كان هذا الاسبوع ملتقى للباحثين ، ومجمعا للدارسين ، ومحفلا للمؤرخين والمفكرين ، درست فيه جوانب شخصية الامام المختلفة ، ووفيت حقها من الدرس والبحث ، وان أعظم هذه الاعمال وأجلها ، وأحقها بالتنويه والذكر جمع آثار الشيخ وأعماله العلمية وترتيبها وطبعها فى اثنى عشر مجلدا مع فهارس مختلفة ، فهيأت هذه الجامعة ما يحتاجه كل باحث فى هذا الموضوع ودارس فالخطوة الاولى فى بحث أى عالم أو مفكر أو مجدد أن تنشر أعماله ، وأن تحقق آثاره ، لتكون بين أيدى الطالبين ، وهذا الجمع لمؤلفات الشيخ انما قامت به جامعة الامام محمد بن سعود لاول مرة فحصلت الامانة العامة للاسبوع على كل ما تيسر لها من مؤلفات الشيخ المخطوطة والمطبوعة من مختلف مظانها داخل البلاد وخارجها . وبلغ عدد صفحات هذه المجلدات الاثنى عشر 5904 صفحة .

وطرحت فى الاسبوع الموضوعات التالية للبحث :

1 ـ حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثاره العلمية .

2 ـ اعتماد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الكتاب والسنة .

3 ـ صلة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بمذهب السلف .

4 ـ الشبهات التى أثيرت حول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

5 ـ تأثر الدعوات الاصلاحية الاسلامية بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

دعت الامانة العامة للاسبوع العلماء الباحثين من مختلف أرجاء العالم الاسلامى للمساهمة فى هذا الملتقى فحضر جمع غفير منهم ، وجمعت أبحاثهم وطبعت حسب الموضوعات السالفة فى

مجلدات ، فخصص لكل موضوع مجلد من هذه الدراسات المقدمة فيه ٠

وجرت مناقشات حول هذه الابحاث والدراسات في لجان خاصة ، وعقدت ندوات عامة مسائية أثريت بمناقشات مفيدة واضافات ثرية دعى لها متخصصون وأشرف عليها ذو الخبرة بها والدراية ٠

هذا ومن بين الابحاث التى قدمت بحث الدكتور عبد الحليم عويس عنوانه « أثر دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب فى الفكر الاسلامى الاصلاحى بالجزائر » أحاط فيه بالموضوع ، وبحث آخر للدكتور مصطفى محمد مسعد عنوانه : « أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى حركة عثمان بن فودى الاصلاحية فى غرب افريقيا » فصل فيه القول عن حركة هذا المصلح الافريقى ودراسة نقدية حول رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب للدكتور عبد الله الصالح العثيمين الذى يعتبر من المتخصصين فى هذا الموضوع اذ قدم رسالة لنيل الدكتوراه الى جامعة ادنبره ببريطانيا حول «حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وفكره » (1) ٠

ومن المدعوين لحضور هذا الملتقى معالى وزير الشؤون الدينية بالجزائر الاستاذ باقى بوعلام ، الا أنه لم يستطع الحضور لانشغاله فى نفس الفترة بمؤتمر وزراء الاوقاف والشؤون الدينية للبلاد الاسلامية بمكة المكرمه ، وحضر الوفد الجزائرى المكون من الاستادين : عمار الطالبى ومحمد نسيب أعمال هذا الاسبوع كلها ٠

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثـــارها

ليس مـن شك فى أن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب كان يدعو بكل قوة الى تخليص المجتمع الاسلامى مـن البـدع والضلالات فى الاعتقدات والاعمال على هدى من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ومـن التزم بذلك فى مختلف عصور الاسلام ، وأنه على مذهب الامام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) من مجتهدى هذه الامة ، ومـن المتأثرين منذ شبابه بابن تيمية (ت 728 هـ) ٠

وكان حربا عوانا على الطواغيت كلها : « ابليس ومن عبد وهو راض ، ومن دعا

(1) نشر موجزها بالعربية ، دار العلوم ، الرياض 1979 ٠ وتفضل باهدائى نسخة منها مشكورا وعنوانها بالانجليزية :

Al-Uthaimin, A. Muhammed ibn Abd-al-Wahab : the Man and his works, Ph. I. the sis, Edinburg University, 1972.

الناس الى عبادة نفسه ، ومن ادعى شيئا من علم الغيب ، ومن حكم بغير ما انزل الله (...) والحاكم الجائر المغير لاحكام الله تعالى ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « **ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به** » ولا يصبح الانسان مؤمنا الا اذا كفر بالطاغوت « فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » (1) .

وان « التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل . فان اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما » (2) .

وبهذا مهد محمد بن عبد الوهاب الطريق لجميع المصلحين الذين جاءوا من بعده في مختلف أقطار الاسلام ، وتأثروا به من قريب أو من بعيد ، أمثال محمد ابن علي السنوسي (ت 1202 هـ/1276 هـ 1781/1859 م) والسيد أحمد الباريلي (ت 1246 هـ) بالبنجات الذى أسس دولة وهابية ، بعد رجوعه من الحج سنة 1237 هـ/1822 م متأثرا بدعوة الشيخ . وكذلك عثمان بن فودى (ت 1169 — 1233 هـ/1756 — 1817 م) في نيجيريا وظهر أحد تلاميذ فودى المتأثرين به وهو أحمد ولوبوت (ت 1260 هـ/1844) في منطقة ما بينه بين السنغال والنيجر ودخل تمبكتو ، وكان له شأن عظيم في تلك المناطق الافريقية ، وكون دولة اسلامية قاعدتها « حمد الله » .

كما وصلت أصداء دعوته الى الشوكاني (1250 هـ /1834 م) ومحمد عبده (1323 هـ/1905 م) ورشيد رضا (1354 هـ/1935 م) والحركة الاصلاحية السلفية في الجزائر وخاصة الشيخ الطيب العقبي (ت 1960 م) الذى نشأ بالمدينة المنورة ، ثم عاد الى الجزائر 1920 وحارب البدع والضلالات حربا ضروسا فغير النفوس وطهر مدينة الجزائر من كثير من البدع والانحرافات ويبدو أثر الحركة الوهابية التوحيدية في كتاب الشيخ مبارك الميلي : « رسالة الشرك ومظاهره » بوضوح تام ، ولعلنا نعود الى هذه المسالة بزيادة توضيح ، ومن الجدير بالذكر ان الامير عبد الكريم الخطابي المجاهد (ت 1963) كان متأثرا بالدعوة الوهابية في جهاده للاستعمار الفرنسي والاسباني وفي نزعته الاسلامية الراسخة .

---

(1) رسالة « ثلاثة الاصول » من القسم الاول « العقيدة والآداب الاسلامية » ص 195 .

(2) كشف الشبهات ص 91 .

تأملات فى القصص القرآنى

د· أحمد سيد محمد

عندما يستخدم باحث معاصر كلمة القصة ، وينسبها الى القرآن الكريم فانه ينبغى الا يتطرق الى الاذهان ذلك المدلول الفنى الذى عرفه ميدان البحث فى النقد الادبى الحديث ، فالقصة المعاصرة فى جميع لغات العالم وليدة التطور الذى بدأته أوروبا فى هذا الميدان فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وتبادلته بلدان العالم المعاصر بالنمو والتطور حيث تميزت فيه أعمال فنية ثلاثة هي :

1 ـ الرواية

2 ـ القصة

3 ـ الاقصوصة

ولا يعنى ذلك أن العصور السابقة لم تعرف الفن القصصى بأية صورة من الصور ، فلقد نشأت القصة مع الانسان منذ كان يقطن الكهوف والغابات، وحفظ لنا تاريخ الفراعنة منذ أكثر من ستة آلاف سنة مجموعة من القصص مثل قصة (سفرو والحكماء) و (نجاة الملاح) وغيرهما كما عرفت بلاد الهند القديمة ألوانا من القصص على يد بوذا المصلح الهندى الكبير ، وعرف الادب اليونانى القصة من خلال الملاحم، ومن خلال اشعار الرعاة ، وتجلت فى أدبهم النثرى ابان القرن الثانى والثالث قبل الميلاد ·

وكان للعرب الجاهلين قصص مختلفة دارت حول الوقائع الحربية المعروفة بايام العرب ووردت فيها الامثال التى عكست الواقع الاجتماعى والنفسى للشخصية الجاهلية ·

وفى التوراة والانجيل قصص عديدة لعب فيها الخيال الاسرائيلى دوره فاثراها ونماها · ومن ثم فان استخدام القرآن الكريم للاسلوب القصصى ليس بدعا عن المالوف من التراث الحضارى والبيئة الجاهلية التى نزل فيها القرآن الكريم ·

فما مدى اهتمام القرآن بهذا اللون من الاساليب ؟

وما أحجام القصة وأشكالها ؟

وما أهدافها ؟

وما موقف الدارسين منها ؟

وما آثارها فى القصص العربى ؟

ان الذى يطالع سور القرآن الكريم يجد كلمة (قصص) وردت فى أكثـــر من سبع وعشرين موضعا كما يجــد عنوان سورة منها تسمى « القصص » وسورا أخرى بتمامها دارت حول سيرة أو قصة نبى من الانبياء مثل ســـورة ابراهيم وهود ويوسف وغيرها ٠

وأنماط القصص القرآنى يوضحهـــا الدكتور أحمد الشرباصى بقوله : (القصة القرآنية قد تتراوح بين الاطناب المناسب، والمتوسط والايجاز وقد يأتى ذلك فى قصة بعينها ، يذكر القرآن منها نمطا فيه تفصيل ونمطا آخر فيه توسط ، ونمطا ثالثا فيه ايجاز ، وكل نمط منها يتعاون مع الآخر دون تكرار ممل أو خلـــل معيـــب) ٠

واستشهد على هذه الظـــاهرة فى القصص القرآنى بقصة موسى عليـــه السلام ، فقد أطنب القرآن بذكر جوانب مبسوطة منها فى سورة « الاعراف » و « طـه » وذكر جوانب منها متوسطة الطول فى سورة « الشعراء » ، وعرضها موجزة مركزة فى سورة « النازعات » ٠

وأوضح نموذج للقصة الطويلة فى القرآن هي قصة يوسف التى وردت فى سورة بأكملها بلغت آياتها (١١١) آية ٠ وهذا الطول فى تلك القصة يتفق والاهداف القرآنية فى الكشف عن نقائص النفس الانسانية والعمل على تهذيبها ، ففى القصة تتجلى نقائص الانسان متمثلـة فى غيرة اخوة يوسف من أخيهم وحقدهم عليه ، ومكيدتهم له ، كما تتجلى غرائز الجنس مقرونة بميراثها من مفاتن الجمال ومقاومة هذه الغرائز والغلبة عليهـــا وعلى أساس من مراقبة الـلـــه ٠ فى موقف امرأة العزيز من يوسف « **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهانا ربه**» وفيها تصوير صادق لعواطف الابـوة « **وابيضت عيناه من الـحـزن** » وفى القصة مثل واضح لتاثير الصدمـــات على الانسان « فيعقوب عندما يلتـقى بقميص يوسف يرتد بصيرا » ٠

وهذه ظاهرة انسانية طبيعيـــة ، وليست المعجزة التى يختص بها الانبياء دون سواهم وما يزال علم الطب النفسى يمحص هذه الظاهرة ويستكشف مختلف جوانبها ٠

وفى القصة دروس فى السياســـة والاقتصاد يطول الحديث فى شرحهـــا وتفصيلها وفى القرآن الكريم قصص موجزة تهدف الى تثبيت دعائم الشريعة الاسلامية فى النفس البشرية فتنـاول بعضها جانب العقيدة وتناول بعضهـــا الآخر جانب العبادة ٠ ففكرة الايمـان بقدرة الله المطلقة فى الخلق والبعـث تعالجها هذه القصة من سورة البقرة : « **ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن أتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت، قال أنا أحيى وأميت، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمـس من المشرق فات بها من المغرب ، فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين أو كالذى مر على قرية وهي خاويـــة على عروشها ، قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت ، قال لبثت يوما أو بعض**

يوم ، قال بل لبثت مائة عام ، فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشرها ثم نكسوهـا لحما ، فلما تبين له قال أعلم أن اللـه على كل شىء قدير » ٠

وفكرة الحض على الزكاة والصدقة تعالجها هذه القصة من سورة القلـم : **« انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ اقسمـوا ليصرمنهـا مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريـم ، فتنادوا مصبحيـن ان اغـدوا عـلى حرثكم ان كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون ، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادريـن ، فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكـم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا انـا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعـض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا انـا كنـا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون ، كذلك العـذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون» ٠**

وفى أسلوب القصص القرآنى الحوار وتصوير الحدث وتجسيمه ويراد **بالقصة** القرآنية غالبا الدعوة والتربية والتهذيب والتذكير بعبر الانسانية ٠ **يقول الامـام** محمد عبده : « ان المراد بهـذه **القصص** الاعتبار والعظة ، ببيان النعم متصلـة بأسبابها للسعي نحو طلبها ، وبيان النقم بعللها حتى تجتنب جهتها ولذلك وجب أن يكون ايراد الوقائع فيها على النحو الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى الى التأثير ٠

ولا يراد بالقصة القرآنية اشبـاع الخيال أو الامتاع الفنى أو التسلية أو التصوير البيانى ــ فهذه ليست هدفـا مقصودا فى القصص القرآنى ٠ ولذلك لم تلتزم ترتيب المؤرخين أو طريقـة الكتاب فى تنسيق الكلام فقد يأتى جانب من القصة فى موضع معين من القرآن يناسبه ذلك الجانب من القصة دون بقية أحداثهـا ٠

ولقد أثار القصص القرآنى اهتمـام كثير من الدارسين العرب والمستشرقين وكان ممن تناولها « نولدكه » وقدم بحثا مستفيضا فى دائرة المعارف البريطانية عن القرآن الكريم وقال عن أسلوبـه القصصى ، انه يتميز بالضعف حيث تفتقد القصة تسلسلها ، ويقصد بذلك أن القصة لا تروى فى طريقة خبريـة منظمة بل يعتريعها التقطيع والتشويش حتى يصعب فهمها على من لم يطلـع عليها فى مصدر آخر ٠ وعـاب هـذا المستشرق تكرير بعض الالفاظ أو العبارة تكرارا لا مبرر له (عنده) ــ فى القصص القرآنى ــ كما عاب كثرة الانتقال فى سياق الكلام من صيغة الى صيغـة أو حال الى حال ٠ ويقول ان كل عالم أوربى يقرأ الكتاب بروح الانصـاف يرى رأيه ٠ أما المتمسكون من أهـل الاسلام فينكرون هذا الكـلام ويرمون صاحبه بالالحاد ٠

وقد رد عليه الاستاذ أنيس المقدسى بقولـه :

« ومن الانصاف هنا أن نقول : ان نولدكه لم يصب كبد الحقيقة فيما ذهب اليه من نقـد الاسـلوب القرآنى ٠ اذ

لا يجوز مقابلة هذا الاسلوب بأسلوب القصة في التوراة لاختلاف الغرض فيهما · فالتوراة فيه عدا أسفار الانبياء والامثال والاناشيد الروحية حوادث تاريخية منظمة تجرى فيه الاخبار مجراها الواضح العادى · أما القرآن فانه يشير الى الحوادث التاريخية بوثبات أو بحملات روحية لا يقصد بها تسلسل الخبر ، بل يقصد بها الى التذكير والتهويل ، ولذلك ترد مرارا بحسب ما يقتضيه الكلام ، وكثيرا ما تروى على سبيل الاشارة والتلميح ·

وقد فلسف الاستاذ الشهيد سيد قطب في كتابه المشهور (في ظلال القرآن) ظاهرة تكرار القصة الواحدة وتناثرها في أجزاء مختلفة من القرآن الكريم بقوله :

« يرد القصص القرآني في مواضع ومناسبات وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة ، والحلقة التي تعرض منها ، والصورة التي تأتي عليها ، والطريقة التي تؤدى بها ·· تنسيقا للجو الروحى والفكرى والفنى الذى تعرض فيه · وبذلك تؤدى دورها الموضوعى ، وتحقق غايتها النفسية ، وتلقى ايقاعها المطلوب· ويحسب الناس أن هناك تكرارا في القصص القرآني ، لان القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في صور شتى · ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة قد تكررت في سورة واحدة ، من ناحية القدر الذى يساق ، وطريقة الاداء في السياق ، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هناك جديد تؤديه بنفي حقيقة التكرار ، ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقا للحوادث أو تصرفا فيها ، يقصد به الى مجرد الفن ـ بمعنى التزويق الذى لا يتقيد بواقع ـ ولكن الحق الذى يلمسه كل من ينظر في هذا القرآن وهو مستقيم الفطرة ، مفتوح البصيرة ، هو ان المناسبة الموضوعية هي التي تحدد القدر الذى يعرض من القصة في كل موضع ، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الاداء ، والقرآن كتاب دعوة ، ودستور نظام ، ومنهج حياة ، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ ، وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق ، وتحقق الجمال الفنى الصادق ، الذى لا يعتمد على الخلق والتزويق ، ولكن يعتمد على ابداع العرض وقوة الحق وجمال الاداء » ·

ولقد تجلى آثار القصص القرآني في القصة العربية واضحة فيما بعد ، فقد بعثت قصص القرآن نهضة عظيمة في القصص العربى فهناك قصص حول الانبياء عمل فيها الخيال عمله وافتن فيها العقل الاسرائيلى ما أمكنه الافتنان، وقد جمع الثعالبى (المتوفى 427 هـ) مجموعة من قصص الانبياء فيكتابه المسمى « بالعرائس » وقام بعمل شبيه بذلك الكسائى في القرن الخامس الهجرى ·

سيصــدر قريـبا كتــاب :



فى 5 مجلدات(بالعربية)

بســم الله الرحمن الرحيــم

حكم نقل رفات الشهداء الى مقابر صالحة

الى السيــــــد

رئيس المجلس الاسلامى الاعـــلى

يسعدنى أن أحيطكم علما بأن المنظمة الوطنية للمجاهدين تقوم بعملية جمع رفات الشهداء الموزعيــن فى الشعاب والجبال والوديان والتلال تدوسهـــــا الحيوانات وتعبث بها ، وهي مبعثـرة فى كل مكان ، قد تكون فى مكان بنـاء مصنع أو عنـد حـفـر بئر أو فى أرض يقومون باستصلاحها ـ مثلما حصل فى العديد من جهات الوطن · وقد سمعنـا بأن جمع الرفات محرم فى الشريعـــة الاسلامية ، وأكد لنا نائب مدير الشؤون الدينية باحدى ولايات الجمهورية تحريم هذه العملية · ان عمل منظّمتنا بعيـــد كل البعد عن مصادمة ديننا الحنيف ، واذا كان شهداء الغزوات فى الاسلام كبدر وأحد وغيرهما قد قبروا فى مقابر معروفة آمنة فان شهداء الثورة الجزائرية موزعون فى كل مكان قد قبروا بسرعة فى ظروف صعبة فى قبور لا تحفـــظ جثثهم أو عظامهم جيدا ، وطالما عبثت بهم الحيوانات فنبشت قبورهم ونهشت لحومهم وبعثرت عظامهم ، ولزاما علينا أن نحفظهم قياما بواجب دينى وانسانى وقومى ، ووفاء لروح ثورتنا ، وتخليدا لشهدائناالابرار ·

فرجاؤنا من المجلس الاسلامى الاعلى اصدار فتوى بحكم الشرع فى الموضوع يعرف به حكم الشرع ، وتطمئن اليـه النفوس ، ويقتنع الجميع بأن هـــذه العملية تجرى فى اطارها الشرعى ، وتقبلوا فائق احترامنا

يوسف اليعلاوى

الامين العـام

للمجـاهــــدين

بسم اللـه الرحمن الرحيـم

الجـواب

الحمد لله والصلاة والسـلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومـن اتبع هـداه ،

وبعد ، فان حكم نقل الميت قبل دفنه، أو نقل جثمانه أو رفاته من بعد دفنه يختلف باختلاف الحــالات والظروف والمقاصد ، فقد يجوز وقد يجب وقـــد يمنع وبيان ذلك فيما يلى :

أولا :

قبل دفنه يجوز نقله من بلد موته أو مكانه الى مكان آخر غير الذى مات فيه ولو من حاضرة الى بادية ليدفن بين أهله ، أو لتسهل عليهم زيارة قبره أو رغبة فى جوار الصالحين المحقق صلاحهم كالصحابة رضوان الله عنهم، وقد جاء فى موطا مالك بن أنس رضي الله عنه « أنه سمع غير واحد يقول : ان سعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد ماتا بالعقيق فحملا الى المدينة ودفنا بها » اه وفي الذين حملوهما ودفنوهما كثير من كبار الصحابة وعلمائهم رضي الله عنهم ٠

كما يجوز اخراج الميت من قبره ـ اثر دفنه ـ بقصد تكفينه أو غسله والصلاة عليه ان دفن دون ذلك ، لما رواه البخارى وغيره من حديث جابر رضي الله عنه قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي بعد ما دفن فأخرجه فنفث فيه من ريقه وألبسه قميصه » اه ٠ وفى المنتقى لشيخ الاسلام ابن تيمية أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أمر باخراج رجل دفن ـ حديثا ـ دون غسل ولا تكفين ولاصلاة عليه ، فغسل وحنط ثم صلي عليه » ٠ وفى المذهب ـ كما أشار اليه المازرى فى شرح التلقينى للقاضى عبد الوهاب خلاف فى اخراج الميت لنسيان الصلاة عليه ليصلى عليه ٠

ثانيا :

يجوز اخراج الميت من قبره ، ونقل جثمانه أو رفاته الى قبر آخر لغرض صحيح وقد وقع ذلك فى عهد الصحابة فاقروه ونص عليه فقهاؤنا فى كتبهم المعتمدة ومنها : كتاب الموطا وشراحه ، والعتيبية وشراحها ، ومختصر خليل وشراحه ٠

قال أبو الوليد الباجى فى كتابه (المنتقى) وهو شرح للموطا (لا بأس بحفر القبر واخراج الميت منه اذا كان ذلك لوجه المصلحة ، ولم يكن فى ذلك اضرار به ، وليس من باب نبش القبور لوجه الضرر ، أو لغير منفعة اه ٠ (جاء هذا القول عند شرحه قول مالك فى الموطا (ان عمر بن الجموح وعبد الله ابن عمر الانصاريين ثم السلميين كانا حفر السيل قبرهما ، وكان قبرهما مما يلى السيل ، وكانا فى قبر واحد وهما ممن استشهد يوم أحد فحفر عنهما ليغير من مكانهما فوجدا لم يغيرا كأنما ماتا بالامس وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك فاميطت يده على جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت ، وكان بين أحد وبين يوم حفر عنهما ست وأربعون سنة) اه ٠ وروى البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما انه حول أباه من قبره بعد ستة أشهر من دفنه قال جابر : (لما حضر أحد دعانى أبى من الليل فقال : لا أرانى الا مقتولا فى أول من يقتل

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم قال جابر : (فأصبحنا فكان أول قتيل ودفن معه آخر فى قبر ثم لم تطب نفسى ان أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فاذا هو كيوم وضعته هنية غير أذنه) اه . وفى فتاوى الشيخ عليش نقل عن شرح العتيبة بجواز تحويل الموتى للمصلحة قال : « عن جابر رضي الله عنه قال : (لما أراد معاوية أجراء العين التى جانب أحد أمر مناديا فنادى فى المدينة من كان له قتيل فليخرج اليه ولينبشه وليخرجه وليحوله قال جابر فأتيناهم فأخرجناهم من قبورهم رطابا) اه .

ونص خليل فى المختصر على جواز النقل بشروط فقال ـ عطفا على قوله وجاز غسل امرأة صبيا ـ ما نصه : (ونقل وان من بدو) الخ ، شرحه الدردير بقوله : (وجاز نقل لميت قبل الدفن وكذا بعده من مكان الى آخر بشرط أن لا ينفجر حال نقله ، وان لا تهتك حرمته وان يكون لمصلحة ، كأن يخاف عليه أن يأكله البحر ، أو يرجى بركة الموضع المنقول اليه ، أو ليدفن بين أهله أو لاجل قرب زيارة أهله) اه . وسئل الشيخ عليش عن موتى (فى قبور فناء مسجد وطريق الداخل للصلاة يتساقط منها عظم الاموات فى الطريق فهل يجوز نقل ما فيها من العظم لمحل آخر وحفرها ونقل ترابها الى محل آخر لمصلحة الخوف عليه كما اذا خيف عليه من الغرق » ؟ فأجاب بقوله . (نعم يجوز حفرها ونقل ترابها وعظامها لمحل آخر لهذه المصلحة) ثم استشهد للجواز بما مر من نقل شهداء أحد بأمر من معاوية رضي الله عنه ثم قال : وفى المواق وانظر فى حديث ثالث عن أبى رحال من التمهيد انه يجوز النبش لعذر وان جابر بن عبد الله عنه أخرج أباه من قبره ودفنه بغير ذلك الموضع ، وكذلك فعل معاوية بمحضر الصحابة ولم ينكروا عليه) اه . وفى جواب سؤال آخر جاء فيه : (ما قولكم فيمن دفن بقرب مجرى المياه وخشى عليه انتهاك حرمته من اختلاطه بها فى بعض الازمنة فهل يجوز نقله لصيانته ؟ فأجاب الشيخ عليش بقوله : (نعم ، يجوز **بل يجب** بشرط كونه بعد تمام جفافه ويشترط فيه ـ قبل الدفن وبعده ـ الا يؤدى الى انفجاره ولا هتك حرمته ، قال عبد الباقى ويشترط فى النقل بعد الدفن أن يتم جفافه وان لا ينفجر ولا تهتك حرمته وان يكون لمصلحة كأن يأكله البحر) اه . ثم نقل عن شرحى المجموع ما نصه : (وجاز نقل الميت من موضع لآخر قبل الدفن أو بعده اذا لم يهتكه أي لم يخل النقل بحرمة الميت ويؤذ . فان هتكه وأخل بحرمته وأذاه حرم النقل قبل الدفن . ابن حبيب لا بأس أن يحمل الميت من البادية الى الحاضرة ومن موضع لآخر ، مات سعيد بن زيد وسعد بن أبى وقاص بالعقيق فحملا الى المدينة ، رواه ابن وهب) اه .

ثالثـــا :

موارات المسلم ودفنه من الواجبات الدينية نحوه كما استنتجه العلماء مـن قوله تعالى : « **ألم نجعل الارض كفاتا احياء وأمواتا** » وقد جعلوا القبر بيتـه وانه حرز له لو سرق كفنه لوجب قطع يد السارق لان القبر حرز ومكان خاص بالميت فان دفن المسلم بعد غسله وتكفينه والصلاة عليه بمقبرة للمسلمين عامـة أو خاصة ولم يكن محل دفنه مغصوبا وانعدمت المصلحة فى اخراجه من قبره أو قصد باخراجه اهانته ، أو كان نقله يلحق الضرر بجثمانه أو سمعته فانـه يحرم نبش قبره وهتك ستره ـ بقرب أو بعد زمان ـ ما دام شيء منه موجودا فى القبر · وقد سئل الشيخ عليش عن قوم فى الارياف من الفلاحين (يمزقون أجزاء الموتى ويكسرون عظامهم فمـاذا يترتب عليهم ؟ فقال رحمه الله : « يترتب عليهم الاثم والادب الشديد ممن بسـط الله يده وولاه الحكم فيجب التشديـد عليهم فى النهي عنه والمنع منه) اه · ونقل فى فتاويه وفى شرحه على مختصر الشيخ خليل عن ابن الحجاج صاحـب المدخل قوله فيه : « ان العلماء اتفقـوا على ان الموضع الذى يدفن فيه المسلم وقف عليه ما دام منه شيء ما موجودا فيه حتى يفنى فاذا فني فحينئذ يدفـن فيه غيره فان بقى شيء ما من عظامه فالحرمة قائمة لجميعه ولا يجوز أن يحفر عليه ولا يدفن معه غيره ولا يكشف عنه اتفاقا الا أن يكون موضع دفنه قـــد غضب » اه ونقل عن المـازرى قولـه فى شرح التلقين : (للميت حرمة تمنع مـــن اخراجه من قبره **الا لضرورة**) كما نقـل عن ابن رشد فى امرأة دفنت حديثـــا ، وأراد أحدهم نبش قبرها ونقل جثمانهـا فقال : (لا يجوز ان ينبشها وينقلها عن موضعها ولا يحل له ذلك لان حرمتهـا ميتة كحرمتها حيـة فـلا يحـل لـه أن يكشفها ويطلع عليها وينظر اليها ، ولو كان ذا محرم لما ساغ له ذلك منها اذ لا يشك فى تغيرها فيه) ·

رابعـــا :

مما تقدم ذكره ـ من فعل الصحابة ومن اقرارهم ، ومن اقوال الفقهاء فى كتبهم وفتاويهم ومن شروطهم لجواز نقل الموتى من قبورهم أو لمنع ذلك ـ يتبيـن لنا الحكم الشرعى فيما جاء فى الاستفتاء من (عملية جمع رفات الشهداء الموزعين فى الشعاب والجبال والوديان والتلال تدوسها الحيوانات وتعبـث بها) أو تتعرض لنبش عظامها وكسرها وبعثرتها عند بناء مصنع أو حفر بئر أو استصلاح أرض مثلما حصل فى العديد من جهات الوطن) اه · ونستطيع أن نستنتج حالات المنع ، أو الجواز :

أ ـ فمن كان من هؤلاء الشهداء مدفونا فى مقابر آمنة من مقابر المسلميـــن ـ كالذين أعدموا فى السجون أو الذين استشهدوا قرب المـدن والقـرى ـ ولا خطر على قبورهم ولا على رفاتهـم ولا

يصيبهم شيء مما ذكر في السؤال ولا مصلحة عامة ولا خاصة في نبش قبورهم ونقلهم الى مكان آخر الا ان يجمعوا الى اخوانهم الشهداء في مقبرة خاصة - فهؤلاء لا تنبش قبورهم ولا ينقلون بل ينبغي ابقاؤهم بمضاجعهم وعدم حرمان اخوانهم المسلمين من أهل تلك المقابر من جوارهم لعل رحمة الله تدرك الجميع بوجودهم معهم ، فالقبر حبس - كما تقدم - ولا يجوز نبشه وكشف ساكنه ما دام موجودا شيء منه فيه **الا لضرورة أو مصلحة راجحة** ثم ان شئنا تكريم هؤلاء الشهداء فيكفي أن تميز قبورهم بعلامات خاصة بهم وكتابة تاريخ أعمالهم واستشهادهم - دون مبالغة في تشييد القبور ورفعها فوق ما أذن فيه الشرع - وهو مقدار شبر - ولنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في وضع علامة على قبر صاحبه عثمان بن مظعون رضي الله عنه ليعرف ويدفن اليه أهله .

ب - وما كان من قبور هؤلاء الشهداء في الحالة التي وردت في السؤال متعرضا لاخطار السيول ، وانكشاف العظام ، وعبث الحيوانات ، وحفر الآبار والعيون وبناء السدود وانشاء المصانع واستصلاح الاراضي وغير ذلك ، فالواجب نقله الى المقابر الآمنة الخاصة بالشهداء أو العامة صيانة لهم وحفظا لما بقي من أجسامهم أو رفاتهم ، ووفاء بعهدهم ، ومصلحة قدماء المجاهدين التي تقوم بهذا مشكورة شكر من قام بواجب ، ومن اعترض عليها - محجوج بالنصوص التي تقدم ذكرها عن علماء المذهب وغيرهم وعن الصحابة عملا واقرارا .

ج - مما يبرر نقل الميت - قبل الدفن وبعده - عند فقهائنا أن يكون الغرض دفنه بين أهله أو لاجل قرب زيارته ، أو لفضل المكان المنقول اليه .

قال الدردير في شرح مختصر خليل (أو ترجى بركة الموضع المنقول اليه أو لاجل قرب زيارة أهله) وقال الشيخ عبد الباقي الزرقاني (وان يكون لمصلحة كان يخاف عليه أن يأكله البحر أو ترجى له بركة أهل الموضع المنقول اليه من الصالحين أو يدفن بين أقاربه ، بل يندب في هذا الاخير كما في الطراز ، أولا جل قرب زيارة أهله له اه .

مثل هذا النقل جائز ، مأذون فيه وليس بواجب فمن شاء فعل ان توفرت الشروط ومن شاء ترك ، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلى أحد ان يردوا الى مصارعهم، وكانوا نقلوا الى المدينة » رواه الخمسة وصححه الترمذي ، وقال الشوكاني في شرحه للحديث (فيه جواز ارجاع الشهيد الى الموضع الذي أصيب فيه بعد نقله منه وليس في هذا انهم كانوا دفنوا بالمدينة ثم أخرجوا من القبور) اه .

والظاهر ان الغرض من نقل هــؤلاء الشهداء قرب مكان مقبرة المدينة (بقيع الغرقد) وسهولة زيارة قبورهم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أمــر بردهم ، ولا شك فى فضل أحد فانه جبل يحبنا ونحبه كما جاء فى الحديث ، وقد اجتمع عند سفحه عشرات الشهداء الصالحين وهم أفضل خلق الله بعد النبيئين والصديقين ·

وممن يتأكد علينا نقلهم من قبورهم للمصلحة ــ الشهداء الذين قبروا فى مقابر غير اسلامية ، ليدفنوا فى مقبرة خاصة بهم داخل الوطن أو خارجــه ، أو بمقبرة عامة بين الشهداء وغيرهم ، وهي خاصة بالمسلمين ويوجد مئات أو آلاف منهم خارج الوطن ·

خامسـا:

رأينا ان فقهاء ناقد شددوا النكيــر عــلى نبش القبــر الواحــد وهتــك ستر صاحبه الا لمصلحة أو ضــرورة ستر صاحبه الا لمصلحة أو ضــرورة حددوها ، وفصــلوا فى كتب الفقــه أنواعها بدقة ، فكيف بالاقدام على هتك حرمة المقابــر التى دفن فيهــا عشرات الالوف منذ قرون خلت ؟ ان الاســلام يكرم الانسان ويصونه فى حياته وبعد مماته الى درجة لم تصل اليها ــ حتى اليوم ــ الامم(المتحضرة)فانهم طمسوا معظم مقابرنا التاريخية فى المدن ونبشوا قبورها ، وأخذت عظام موتانا الى بعض مصانع السكر فى فرنسا وادخلت فى صناعته وهكذا أكلوا أمواتنا كما أكلوا الاحياء منا ، أما نحن ــ القدماء منــا والمحدثين ــ فان ديننا وخلقنا ووفاءنا لآبائنا واجدادنا تمنعنــا من اهانــة أمواتنا وازعاجهــم بنبش قبورهــم وخراجهــم مــن بيوت هي حبس عليهم الا لضرورة قصوى توجب نقلهم واعادة دفنهم وليس من هذه المصلحة أو الضرورة الهجوم على مقبرة كبرى تضم عشرات الآلاف من الموتى وبعثرة عظامهم مــن أجل انشاء حديقة أو بناء قرية أو اقامة عمارات أو فتح طريق ، أو تشييد معهد أو جامعة أو مصنع بل يمكن لنــا أن نترك الموتى فى مضاجعهم ونحقق مــا نشاء من منشآت بجوارهم وأرض اللــه واسعة واذا هانوا علينا ونحن أحفادهم فمن يكرمهم غيرنا ؟ وقــد كان الاعتداء على مقبرة الجلاز بتونس بدء الصدام المسلح بين الشعب التونسى والاستعمار الفرنسى عام ١٩١١ م وهي تحوى قبور العلماء والصالحيــن والآباء والاجداد الاقدميــن ·

وانما نبهنا بهذه الكلمة حتى لا يساء تفسير (المصلحة) حسب الاهــواء والشرع وحده هو الذى يفسر كلمــة (المصلحة) والضرورة ويحققها ، وآن بينا ــ استجابة للسؤال ــ متى يجــب نقل رفات الشهداء ومتى يجــوز ومــا يمنع وعلى المنتسبين للعلم منا الامناء على الشريعة الاكفاء ــ دينا وعلمــا وخلقا ــ أن يثبتوا عندما يسألون وأن لا يتسرعوا فى اعلان حكــم المنــع أو الجواز الا بعد مراجعة أمهات الكتــب وتطبيق أقوال العلماء عــلى الحالات الطارئــة ·

والله الموفق والهادى الى ســواء السبيــل ·

من الخطب الجمعية :

الوحدة ودعوة الاسلام اليها

خطبة الجمعـــة ليوم : 17 ـ 6 ـ 1400 هـ

الموافق لـــ : 2 ـ 5 ـ 1980 م

الموضوع : الوحدة ودعوة الاسلام اليهـا .

الحمد لله رب العالمين ، كتب العـزة لرسوله ولعباده المؤمنين ، هو الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحيـن ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له أمرنا بالاعتصام ، ونهانا عن التفرق والانقسام « **ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء انما أمرهم الى اللـه ثم ينبئهـم بما كانوا يعملون** » وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الامين ، سيد الانبياء كلـهم وامـام المرسلين ، فصلوات الله وسلامه عليـه وعلى آله وسائر صحابته الاكرميـن ، الذين كانوا فيما بينهم متآخين متحابين لا مختلفين ، ولا متناكـريـن فهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صـراط الحميـد .

أما بعد فيا أيها المسلمون : ان فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وازكى التسليم، آثارا متعددة فى كل ما يتصل بشؤون حياة أفراد الامة الاسلامية أجمعيـن سواء فيما يتعلق بدنياهم أو فيما يتعلق بالدين ، وكتاب الله رب العالمين وسنة النبى المصطفى الامين ، يهيآن الاسباب لوحدة المسلمين ، ويرشدان الى ما ينبغى أن تكون عليه الجماعة الاسلامية فى كل حين ، هذا وان البشرية قبل بزوغ شمس الاسلام ، لم تعرف دعـوة للوحـدة الانسانية كما جاء بها ودعا اليهـا القرآن ، وكما طبقها فى حياته بالفعل والقول سيد الانام عليه أفضل الصلاة وأزكى السـلام ، وأصبحـت شريعـة اسلامية بعد وفاته الى الآن .

ان وحدة المسلمين هي سياج هـذه الامة الاسلامية ودرعها المتين الواقى لها من كل فتنة وبلاء مبين .

وهو الطابع الذى تتميز به دون بقية الاقوام الآخرين ، ذلك ان وحدتهم هي حقيقة جاءت بها تعاليم الـدين ، ذلكم الدين الذى كان مصدر عـزة المسلمين ، وسعادتهم أجمعين ، والذى لا زال المسلمون بخير ما داموا بـه متمسكين « **والذين يمسكون بالكتـاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجـر المصلحيـن** » .

أيها المؤمنون : ان ماضى الامة الاسلامية وفى أمجادنا الخالدة من الاسلاف الصالحين ، عبر تاريخ هذه الدنيا الطويل ما يحفزنا الى الاهتداء بهديهم والسير على منهجهم القويم ، حتى نحقق ما حققوه للامة جمعاء من خير عميم ، فلقد تمسك المسلمون الاولون بأخلاقيات هذا الدين ، الذين كانوا فى جميع تصرفاتهم بها متصفين فغيروا رضوان الله عليهم مجرى التاريخ فى ذلك الحين الى حياة أفضل كانت بردا وسلاما على الناس أجمعين ، وكانوا أمثلة عليا فى أقوالهم وأعمالهم لمن أراد السير فى طريقهم مع السائرين ان واجبنا الدينى يحتم علينا كمسلمين أن نعرف حق المعرفة وأن نعلم علم اليقين بأن وحدة المسلمين هي من صنع الله رب العالمين وليست هي من صنع أحد من المخلوقين « **وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** » ولنستمع جميعا معاشر المؤمنين الى نداآت الله الحقة والى خطابه الكريم الذى يوجهه الى كافة عباده المؤمنين ، داعيا اياهم الى الاعتصام بحبله المتين ، وعدم التفرق أحزابا وشيعا متباغضين ، فيقول وهو أصدق القائلين « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** » كما جاء فى آي الذكر الحكيم · كما جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان الله يحب لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ، يحب لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال) ·

لقد كان لزاما علينا أن نكون بهذه الوحدة التى أمرنابها ربنا متصفين بها فى كل الظروف وعلى كل الحالات متشبثين · « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** » لقد جاء الاسلام ليكون مجتمعا اسلاميا تسوده المحبة والوئام بعيدا كل البعد عن التنازع والخصام وعن كل ما من شأنه أن يؤدى بالجماعات الاسلامية من قريب أو بعيد الى الانقسام لان وحدة المسلمين ، على تباعد أوطانهم واختلاف أجناسهم ولغاتهم والدين حقيقة دعا اليها القرآن الكريم وجاءت بها تعاليم السماء من لدن حكيم عليم ، والتى لا ينبغى أن يخفى أمرها على أي أحد من الناس أجمعين ، وخاصة علينا نحن المسلمين كمسلمين ·

أيها المؤمنون : لقد كانت وحدة المسلمين فى عهد أسلافنا من المؤمنين الاولين سبب قوتهم فى هذه الدنيا ونصرهم المبين الذى ما وصلوا اليه الا بفضل تمسكهم بدينهم القويم ، والتفاهم حول نبيهم وقائدهم العظيم واتحادهم أفرادا وجماعات متساندين ،

ففتحوا القلوب والاقاليم فى مدة يسيرة من الاعوام والسنين ، وقهروا بوحدتهم واتحادهم أعداء الله من الكافرين حتى علت كلمة الله فى العالمين ، وظهر دين الله على كل دين ، وامتدت الممالك الاسلامية فى مشرق الارض ومغربها فى أقل من الثلاثين ، تلك الوحدة التى انتصرت بها جيوش المسلمين ، والتى لا زالت الى الآن ولن تزال مصدر انتصارهم وعزهم فى كل حين ، فالاتحاد سعادة لا سعادة بعدها والتفرق شقاوة لا شقاوة تعادلها ذلكم التفرق الذى هو معول الدمار والخراب ، والذى ما حل بأمة من الامم الا أذاقها ألوانا من العذاب والله يقول : « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » وصدق الله اذ يقول : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** » ·

نفعنى الله واياكم بالقرآن الكريم وبما فيه من الآيات والذكر الحكيم ، وغفر لى ولكم ولجميع المسلمين انه هو الغفور الرحيم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ·

الخطبة الثانية

الحمد لله أمدنا بقوة الدين ، وأخى بين جميع المسلمين ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ألف بين قلوب عباده المؤمنين ، وجمع كلمتهم ووحد صفوفهم وكتب لهم العزة والقوة والفتح المبين ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد الكائنات وأشرف المخلوقات، أنقذ الامة من سعير التفرق والخصومات ، وجعلهم بالاسلام أمة واحدة تهدى الى الصراط القويم والى سبل السعادات ، فصلوات ربى وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وسائر صحابته الذين صفت نفوسهم واجتمعت كلمتهم واتحدت قلوبهم فعاشوا فى هذه الدنيا آمنين ، مطمئنين على أرائك العز والسعادة متكئين ، وفى بحبوحة النعيم متنعمين ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ·

أما بعد فيا أيها المؤمنون : ألا فليعلم وليعلم من لم يكن من العالمين بأن وحدتنا جاء بها ودعا اليها الاسلام منذ سنين عديدة مرت من عمر هذه الدنيا وأعوام تقدر بخمسة عشر قرنا من الزمان ، والتى طلب النبى عليه الصلاة والسلام من كافة أتباعه من أمة الاسلام ان يكونوا بهذه الوحدة الغالية متشبثين ، وعليها بالنواجذ عاضين ، تلك الوحدة التى استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون بفضلها دولة عالمية كبرى فى تلك الايام مما لم يستطع أن يقوم به أي نظام ولا أي دين من الاديان ، انه لا يليق ولن يليق بنا كمسلمين ، أن نرى أنفسنا متخاذلين متخاصمين ، وقد جمع بيننا ربنا

الرحمن الرحيم وألف بين قلوبنا بحبيبه ونبيه الامين ٠

ووحد كلمتنا بدينه القويم ، فأجمعنا ـ والحمد لله ـ كلنا اخوانا متحابين ، وخلانا فى السراء والضراء متكاتفين ، متعاونين على ما فيه خير البلاد والامة والوطن والدين ، لنعلم حق العلم بأن الله لا يرضى أن يرانا مختلفين متدابرين ، لاننا ان فعلنا ذلك فقد خالفنا ما أمرنا به رب العالمين ، الذى طلب منا طلبا أكيدا بصفتنا مسلمين ، أن نكون جميعا متحدين ، متعاونين ، غير متناكرين ، معتصمين بحبل الله المتين ، غير متفرقين ولا منقسمين ٠

أيها المؤمنون : لقد بين لنا ربنا سبحانه وتعالى غاية التبيين ، عاقبة الاختلاف والافتراق وانه شر على الامة مستطر ، حيث أخبرنا بما حل بمن قبلنا من الامم الماضية من خزي فى هذه الدنيا وعذاب أليم ، بسبب اختلافهم وتفرقهم أحزابا وشيعا متباغضين ، فقال وهو أصدق القائلين : « **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم** » كما يقول نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام : (عليكم بالجماعة ، فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية » كما يقول : « يد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ فى النار » من أجل هذا نجد الاسلام شديد الحرص على وحدة المسلمين ، حتى يتم الانسجام ين أفراد الجماعة الاسلامية أجمعين ، حتى يكونوا كمثل اللبنة القوية التى يتكون منها البناء الحصين ، ولذلك نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يقول فى وصف المؤمنين : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) كما يبين لنا صلى الله عليه وسلم الحالة التى ينبغى أن تكون عليها جماعة المؤمنين فيقول : (ترى المؤمنين فى تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) والله تعالى لم يخلق عباده ليختلفوا ولا ليتنازعوا ويتباغضوا ويتخاصموا ، وانما خلقهم ليتعارفوا ويتراحموا ، وليكونوا جميعا اخوة متحابين ، وعلى ما فيه خيرهم وسعادتهم متعاونين ، وصدق الله اذ يقول : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير** » ٠

اللهم ألف بين قلوب عبادك المؤمنين، واجمع شملهم يا رب العالمين ، ووحد على الحق كلمتهم يا أرحم الراحمين ، أنت ولي المتقين ، والآخذ بيد المستضعفين ، لا يعجزك يا رب شيء فى الارض ولا فى السماء وأنت على كل شيء قدير ، ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم ٠

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ٠

وزارة
الشؤون الدينية

الجزائر العاصمة

20 ـ 27 شوال 1400 هـ
31 اغسطس 07 سبتمبر
1980 م

1980 N° 83-84

فهـــرس العــــدد

المقاومة فى جبال الونشريس وحوض الشلف وجبال الظهرة ضد الاستعمار الفرنسي

40-1864 م

د· يحيى بوعزيز
جامعة وهران

الموقع الجغرافى للمنطقة :

تقع هذه المنطقة فى القسم الغربى من بلاد الجزائر ، وتمتد هوامشها الشرقية الى القسم الوسط من البلاد ، وتشرف فى الشمال على البحر المتوسط، وفى الجنوب على اقليم الهضاب العليا · وتتألف من أقاليم جغرافية متباينة من حيث التضاريس ، والمناخ ، والنباتات ، والامكانيات الاقتصادية ·

ـ ففى الشمال على البحر تقع كتلة (جبال زكار والظهرة) ، وتمتد فى شكل مستطيل من الشرق الى الغرب ، يمثل شرقها جبال زكار ، وغربها جبال الظهرة ، ويحدها من الجنوب حوض الشلف · معدل ارتفاعها 1579 م عن سطح البحر · وتغطيها أشجار البحر المتوسط المخضرة ، والمتنوعة ، وتتخللها حقول الكروم ، وكل الاشجار المثمرة خاصة الكرز · وترفع نسبة الرطوبة فيها غالبا بسبب مجاورتها للبحر ·

ـ والى الجنوب من جبال زكار والظهرة ، يقع حوض الشلف الرسوبى الذى يمتد على طول 200 كلم تقريبا ما بين مليانة شرقا · وغليزان غربا · وقد تكون هذا الحوض من رواسب المجارى المائية التى تنزل اليه من مرتفعات جبال زكار والظهرة شمالا ، ومرتفعات جبال الونشريس جنوبا ، والاطلسين : التيطرى ، والبليدى شرقا · ويمثل هذا الحوض منطقة زراعية ممتازة حاليا بتنوع مزروعاته ، واعتماده على السقي ، والوسائل العصرية المختلفة ·

والى جنوب حوض الشلف تقع كتلة جبال الونشريس التى تمتد من الاطلسين : التيطرى ، والبليدى شرقا ، الى جبال بنى شقران ، وفرندة غربا · وتجاورها فى الجنوب هضبة السرسو ، ذات الاهمية الاقتصادية فى الميدان الفلاحى · ويحوط مجرى واد الطويل، والشلف ، بشرق وشمال الونشريس ، بينما يفصلها واد مينا عن جبال بنى شقران ، وفرندة غربا · وتكاد منابع واد الطويل ، ومينا ، تلتقى فى جنوبها لتحكم عليها الحصار تماما · متوسط

ارتفاع جبال الونشريس 1985 م عن سطح البحر . وتقطعها أودية كثيرة تمثل روافد هامة لواد الشلف . وتظهر عليها آثار التعرية المائية كثيرا خاصة فى سفوحها الشمالية .

مناخها قارى ، شديد البرودة ، كثير الثلوج فى الشتاء ، شديد الحرارة ، والجفاف فى الصيف . امكانياتها الاقتصادية ، الفلاحية ، والحيوانية ضعيفة . وتمثل فتحة تيارت وسيلة الاتصال المهمة بين شمال البلاد ، وجنوبها ، عبر السفوح الغربية للونشريس ، على طول مجرى واد مينا .

وقد شهدت هذه المنطقة الواسعة ، أحداثا هامة خلال الاحتلال الفرنسى فى القرن التاسع عشر ، وخاض السكان معارك كثيرة ضد التوسع الاستعماري، ونشبت ثورات عديدة من بينها : ثورة الشريف بومعزة ، وثورة فليتة ، وثورة بنى مناصر . وسنتعرض لها فى هذه الدراسة حسبما يسمح بها الوقت .

أ ـ مقاومة فليتة عام 1843 :

كانت مناطق الونشريس ، وحوض الشلف ، وجبال زكار والظهرة ، تابعة للامير عبد القادر . فمليانة بجبال زكار عاصمة لاحدى ولاياته ، ومركزا لصناعاته الحربية . وتاكدمت بجوار تيارت فى سفوح الونشريس الجنوبية الغربية ، قلعة من قلاعه ومراكزه الحربية الهامة ، كما ان المدية فى شرق الونشريس عاصمة لاحدى ولاياته الاخرى كذلك .

وفى أواخر عام 1842 تفقد الامير مناطق فليتة ، وأقام لدى أولاد خسير، والصبيحات ، وبنى أوراغ ، وبنى مسلم ، وكانت الحرب شديدة بينه وبين الفرنسيين بقيادة الجنرال بيجو . فشن الجنرال جنتل Gentil والكولونيل لاباسى ، هجوما ضده فى مطلع شهر جانفى 1843 انطلاقا من مدينة مستغانم، وسلطوا على سكان بلحاسل ، وأعالى جديوية ، وتويزة ، وواد عمور ، أسلوب السلب ، والحرق ، والتخريب ، وسلبوا ما وجدوه من الحبوب فى آبار بنى مسلم . واضطر الامير عبد القادر الى الانتقال الى جبال الظهرة لمعاقبة سكان مازونة ، وقائدها الذين تضامنوا مع قوات جيش الاحتلال . ومنهم بن عبد الله ، وقدور بن المخفى .

وقد جند الامير عبد القادر حوالى 500 فارسا ،والف خيال من سكان الظهرة ، وتمكن من تحقيق الانتصار على الاعداء ، والسيطرة على كل مناطق الظهرة ، ما عدا مازونة ، واستمالة كل السكان الى حركته .

وكعادة الفرنسيين فانهم قاموا بتهديم وتخريب منازل بنى زروال ، وقطع أشجار ثمارهم ، ليحرموهم من مصادر عيشهم . وحصلت يوم 12 مارس 1843 معركة كبيرة حول ضريح سيدي

لكحل بالظهرة قتل وجرح خلالها عدد كبير من الطرفين ، وسلب الفرنسيون قطعان بنى زروال ، وخربوا لهم حقولهم ومزارعهم ، وقبضوا على عدد من نسائهم واطفالهم ، وسلبوا لهم 400 رأس بقر، و 3000 رأس غنم· ودامت العمليات العسكرية بالمنطقة حوالي سبعين يوما (1) ·

وخلال الغزو الفرنسى لهذه المنطقة فى اطار محاربة الامير عبد القادر ، ظهر الثائر محمد بن عبد الله الملقب ببومعزة الذى دامت حركته حوالى أربع سنوات ·

ب ـ ثورة الشريف محمد بن عبد الله (بومعزة) 1844 ـ 1847 م

ينتسب محمد بن عبد الله بن وداح بن عبد الله ، الى أولاد خويدم فى حوض الشلف · واصله من تارودانت بجنوب المغرب الاقصى ، هاجر أجداده الاوائل فى وقت مبكر الى المغرب الاوسط ، واستقروا لدى أولاد يونس فى جبال الونشريس ·

وقد ارتبط منذ صغره بالطريقة الطيبية الدرقاوية التى نشأت بالمغرب الاقصى ، وانتشرت بالجزائر كذلك (2) · وشب فى وسط دينى ، تحت كفالة امرأة أرملة متدينة يعتقد فيها الناس الولاية والصلاح · ومال الى حياة الزهد ، والتقشف ، واعتمد فى حياته على الصدقات التى كان الناس يقدمونها لتلك الارملة التى آوته رغم انه كان متزوجا ، وله أب ، وأخ ، وأخوان (3) ·

اشتهر بالذكاء والفطنة ، والانقطاع عن الناس ، والتفرغ للعبادة ، ولبس الرثة والمقطعة ، ولم يكن يقاسمه وحدته سوى معزة ، وقيل غزالة ، اهتم بتربيتها ، ويصحبها معه أينما ذهب مما جعل الناس يخلعون عليه لقب « بومعزة » ·

وقد أثار بوحدته وتزهده ، أنظار الناس ، فاعتبروه شريفا ، وعمت شهرته كل مناطق جبال الظهرة ، وحوض الشلف ، وجبال الونشريس · فحفزه ذلك على اظهار ما كان يكنه فى ضميره، ودعوة الناس الى الثورة وحمل السلاح ضد الفرنسيين المحتلين · فاعلن للارملة التى كان يقيم عندها ، أن وقت العمل قد وصل ، وحان الوقت ليغادرها ، ويعلن الثورة ضد المسيحيين على أساس أنه : « صاحب الساعة » و « المهدى المنتظر » ، الذى أرسله الله ، والسلطان العثمانى لتخليص البلاد من الاعداء ·

وخلال نشاطه الدعائى والثورى عام 1844 ، اضطر الماريشال بيجو : Bugeaud الى تجنيد عدد كبير من القوات لمحاربته

---

(1) Un ancien officier de l'Armée du Rhin : Le général Lapasset. (Paris - 2e édition, 1899), t. I, p. 10 - 18.
(2) Henri Garrot : Histoire général de l'Algérie. (Paris, 1910), p. 864 - 866.
(3) Lapasset : Ibid, p. 25.

بقيادة الجنرال بورجوللى : Bourjolly والجنرال ريفو : Reveu والكولونيل سانت ارنو : Saint-Arnaud والكولونيل لادميرولت : Ladmirault والكولونيل بيليسى : Pelissier.

وبعد أن تأكد بومعزة من انتشار سمعته ومكانته لدى الناس ، وآنس فى نفسه القدرة على حمل السلاح ، وقيادة الناس الى الثورة، غادر منزل سيدته، وولية نعمته ، الارملة المتدينة ، فى شهر مارس 1845 ، وقطع واد عبدى ، واتجه الى السواحلية فرع قبيلة أولاد يونس ، ونزل لدى الحاج حامد اليونسى ، صاحب السمعة والمكانة بالمنطقة ، وقدم له نفسه باسم محمد بن عبد الله « صاحب الساعة » و « المهدى المنتظر » • وأوضح له بأنه اختاره دون غيره يتعاون معه على طرد الفرنسيين • ففرح به الحاج حامد ، وقدم له ألبسة جديدة تليق بمقامه كشريف ومبعوث من الله • وأقام له ضيفة وحفلة تعارف جمع اليها وجهاء المنطقة ، حدثهم خلالها بومعزة ، عن أهدافه ، وأكد لهم بأن الله قد اختاره ليتم على يده طرد الفرنسيين • وادعى لهم بأن رصاص الاعداء لا يؤثر فيه • وأنه سيهاجم مدينة الاصنام ، وكل المزارع التى يمتلكها الاوروبيون •

امتدت دعاية بومعزة ، وانتشرت بسرعة فى اقليم الظهرة ، والشلف ، والونشريس ، بفضل المراسلات الواسعة، والمكثفة التى قام بها بواسطة أتباعه ، وانصاره • ومال البسطاء الى تصديق دعواه بأنه مبعوث من الرسول ، والسلطان العثمانى ، لانقاذ البلاد من الاعداء الفرنسيين المسيحيين • غير انهم اختلفوا فى أصله • البعض كان يعتقد أنه من أشراف فليتة • والبعض يرى أنه من المغرب الاقصى • والبعض الآخر يرون انه قدم من مكة تصديقا لدعواه بأنه مبعوث من الله ، والرسول، والسلطان • ولسنا ندرى كيف لم يتجرأ أحد لسؤاله عن أصله •

وقد زوده السكان بالاموال ، والاسلحة والذخائر ، والبغال ، والاحمرة ، وصنع له بعض الوجهاء علما للجهاد من الحرير ، وأعطاه آخر حصانا ليركبه وينتقل بواسطته • وقام هو بتنظيم أتباعه وانصاره • فعين الكتاب ، وجباة الاموال ، والشواش ، والجنود ، والفرسان • والآغوات • وخصص لآغوات العسكر مرتبا شهريا بمبلغ 10 دورو ، ولآغوات الخيالة 15 دورو • واتخذ لنفسه كاتبا خاصا يدعى سى الصادق (4) •

أول مواجهة بينه وبين الفرنسيين :

وبعد كل هذه الاستعدادات ، غادر بومعزة أولاد يونس ، وعسكر ، على واد أوخلال قرب قبة سيدى عيسى بن داود

(4) Lapasset : Ibid., p. 87.

على حدود منطقة الاصنام ، ومنطقة مستغانم . وشن غارة ليلية على قائد مديونة الحاج الصادق الذى كان معارضا له وتمكن من قتله ، فعاد الى معسكره . وفى يوم 14 أبريل 1845 اتجه الى عرش الصبيحات فى الشلف ، وخرجت من الاصنام قوات فرنسية لاعتراضه بقيادة سانت ارنو ، وتمكنت من التعرف على مكانه بواسطة وشاية رجلين من جنود قائد الصبيحات ، فتوقفت فى وادى راس . ووادى أوهارن .

وقد توقف بومعزة فى كرونانسة ، احدى فروع عرش الصبيحات المجاورين لسهل قرى . وهناك جرت معركة بينه وبين القوات الفرنسية عرفت بمعركة قرى ، فى عين مران ، وذلك يوم 14 أبريل نفسه . فقد فيها بومعزة حوالى ستين رجلا ، وأسر له حوالى 15 آخرين أعدمهم الفرنسيون فى الحين لارهاب السكان حتى يتخلوا عنه .

وعلى اثر هذه المعركة التى لم تكن فى صالحه انسحب بومعزة الى مازونة وأخذ من هناك يوجه الرسائل الى الناس يحثهم على الجهاد ، ويشرح لهم موقف خصومه الذين حاربوه مع الفرنسيين أمثال الحاج بلقاسم واتباعه . واستقبله المزونيون بحفاوة ، وجندوا له 300 رجلا ليحاربوا معه ، فلاحقه سانت ارنو بقواته الى هناك وعسكر أمام مازونة يوم 15 أبريل ثم انتقل يوم 17 الى سيدى عيسى بن داود حيث لحقت به قوات أخرى قدمت من تنس (5) .

تجند مع بومعزة عدد كبير من أخواله فرسان أولاد عبد الله فرع أولاد بوهنى بزعامة القائد محمد بن هنى ، وأخذوا يحثون الناس على حمل السلاح ، وعندما حاول الضابط الفرنسى بياتريكس : Beatrix رئيس المكتب العربى لمدينة تنس ، أن يعترض سبيلهم ، فى غابة واد ريحان هاجموه وقتلوه وحزوا رأسه ، ويديه ، وحملوها الى الجهات الجبلية ليشجعوا الناس على حمل السلاح وذلك يوم 20 أبريل 1845 .

وكان بومعزة قد خاض يوم 18 أبريل معركة كبيرة ضد القوات الفرنسية فى منطقة بعل مع ثوار أولاد يونس الذين حاصروا فرقتين فرنسيتين . ولم ينج القائد كانروبير Canrobert الا بصعوبة . واستغل بومعزة فرصة هذا الانتصار فكانت أولاد حيجه شرق تنس ، ووجه اليهم مبعوثين ليحفزوهم الى الثورة وحمل السلاح . فاستقبلهم القائد محمد بن هنى بحفاوة ، واستجاب بنو حجا لنداء الثورة ، كما استجاب سكان مناطق جبال الظهرة الذين اغتالوا بياتريكس . كذلك ، وهاجموا جميعا معسكر المضايق بحوالى 500 رجل ، وجددوا الهجوم عليه يوم 22 أبريل ، واقتربوا من المدينة

(5) Paul Azan : L'Emir Abdelkader, 1808 - 1883. (Paris, 1925), p.

وقتلوا خلال المعركة ضابط الهندسة الحربية الفرنسى (6) ٠

وفى يوم 23 أبريل تعرض الثوار لقافلة فرنسية فى طريقها من تنس الى الاصنام ، وذلك فى واد علال ، وخاضوا ضدها معركة دامت يوما كاملا ، وحاصر فريق آخر من الثوار مدينة تنس ، وقطعوا الطريق بينها وبين الاصنام ,واضطر سانت ارنو أن يخطر الجنرال بورجللى بخطورة الوضع ، وثورة سكان 22 قرية جبلية ، بين تنس ، وبعل ، وعلى رأسهم بنو حجا ، وبنو حوه ٠ وامتداد الثورة الى آغوية الزاتيمة ، وبنى مناصر بشرشال ، ومتيجة حتى أحواز مدينة الجزائر العاصمة ، مما جعل وضع الفرنسيين خطيرا (7) ٠

ويذكر بول ازان ، بأنه ظهر بومعزة آخر خلال شهر أبريل 1845 لدى بنى مناصر بشرشال ، ولكن الفرنسيين اعتقلوه واعدموه أمام الناس ٠ كما ظهر ثائر آخر يدعى محمد بن عبد الله من بنى زقزق سلم نفسه للفرنسيين بمليانة ، وهو من أصل مغربى وشقيق للاول (8) ٠ ويظهر أن اللذين يتحدث عنهما أزان . هما بومعزة نفسه الذى لم يعتقل الا عام 1847 ٠

مجازر بيليسى فى جبال الظهرة :

دخل بومعزة الى حوض الشلف ، وانضم اليه كل سكان الصبيحات ، على ضفتى الوادى بزعامة القائد محمد بن هنى ، وراسله سكان جنوب مدينة الاصنام ، وأمدوه بالرجال المسلحين ، واضطر الفرنسيون ان يحصنوا مدينة الاصنام ويحيطوها بالخنادق ، ويضاعفوا من الحراسة ، وتدعيم الدفاع حولها ٠ وقد حاول بومعزة مرات عديدة أن يحكم الحصار عليها ودامت مناوشاته للمحاصرين داخلها حوالى ثلاثة أشهر ٠

وأمام خطورة ثورة بومعزة توجه الجنرال بيجو بنفسه الى جبال الظهرة ووصل اليها يوم 9 ماي وبقى بالمنطقة الى يوم 12 جوان 1845 ، وشارك بنفسه فى المعارك ومواجهة الثوار ٠

وقد ارتكب بيليسى حماقة كبيرة ضد سكان أولاد رياح الثائرين الذين اعتصموا فى المغاور الجبلية بعد أن داهمتهم القوات الفرنسية ، ورفضوا الاستسلام لها ٠ وكان عددهم حوالى 500 شخصا ٠ فأشعل النيران فى أفواه المغارات وماتوا جميعا من جراء الحرق ، والاختناق بالدخان (9) ٠

---

(6) Lapasset : Ibid., p. 24 - 25.
(7) Azan : p. 204 - 205.
(8) Azan : p. 217 - 219.

(9) عن المجازر التى ارتكبها بيليسى انظر : يحيى بوعزيز : بطل الكفاح الامير عبد القادر الجزائرى (تونس ــ 1957) ص 219 ــ 221 ٠ وكذلك :

وكان بومعزة فى بداية أمره قويا ، وخاض عددا من المعارك غير فاصلة ، ولكن النتائج كانت ضعيفة ، وتسببت فى الخلل ، والفشل ، بين أنصاره وأتباعه · ولم يستطع أن يفرض ارادته على السكان ، رغم محاولاته المتعددة لتطبيق أسلوب الامير عبد القادر فى ارغام الناس على الحرب ، ودفع الاموال · وكان من ضمن العقبات التى اعترضته وحالت دون نجاح حركته ، معارضة آغا الونشريس أحمد بن الشاوش ، وآغا الصبيحات محمد بن عبد الله ، ومحاربتهما له بتأييد ودعم من القوات الفرنسية ·

فقد اعترض أحمد بن الشاوش طريقه عند بنى تيڤريرين ، بينما كان يحاول الانسحاب الى الجنوب ، وافتك منه أمتعته ، وقتل له عددا من الرجال · غير أن آغا الونشريس سرعان ما دفع حياته ثمنا لعمله هذا · فقد اعترضه بومعزة يوم 16 جويلية فى واد مروى قرب مازونة ، بينما كان يسير فى موكب عرس ابنته ، وانقض عليه وقتله هو وعدد من أفراد الموكب ، وسلب ما كان معهم من الامتعة والاثاث وحول موكب العرس الى مأتم · فى نفس الليلة حاول بومعزة أيضا أن يعترض سبيل آغا الصبيحات محمد بن عبد الله الذى كان يقوم بجمع أموال الزكاوات للسلطات الفرنسية · وانتهى الامر بمقتله كذلك · وبهذه الكيفية صفى بومعزة حسابه مع هذين الخصمين اللذين سببا له مشاكل وعقبات كثيرة ·

وبعد هذه الاحداث انسحب بومعزة الى مواطن فليتة ، واعتصم هناك ، حيث ظهر شريف آخر يدعى مولاي محمد ، دعا الناس الى الثورة التى امتدت الى كل المنطقة المحصورة بين واد ملوية غربا ، وجبال الاوراس شرقا (10) ·

وفى أوائل شهر نوفمبر 1845 ، اتجه بومعزة الى تنس ، وهاجم فى الطريق أعوان الفرنسيين ، وحث الناس على حمل السلاح والثورة ، وأقام عند بنى مدوح بعض الوقت ، ثم اتجه الى غرب تنس ، لدى سكان الشارير ، واقنعهم على حمل السلاح ، وأحرق بعض مشاتى المعارضين · وفى يوم 10 نوفمبر عسكر فى المغارات التى أحرق بها بيليسى 500 شخصا فى العام الفارط · ثم اتجه الى شرق تنس ، وأثار الناس هناك ، وأخذ طريقه الى الاصنام لمهاجمتها مرة ثانية ·

وفى أواخر شهر جانفى 1846 خاض بومعزة معركة كبيرة فى واد سيدى سالم ، قتل له خلالها حوالى 150 رجلا،

— Garrot : p. 865.
— Détails authentiques sur l'affreux drame dont les grottes des Ouled Rian ont été le théâtre. (La sentinelle de l'armée, 1845), p. 228.
— Busquet (R.) : L'affaire des grottes du Dahra (19 - 20 juin 1845). (Alger, 1908), 52 p.
— Gautier (E.F.) : Une visite aux grottes du Dahra. (Revue de Paris - R.P. 1914), t. III, p. 729 - 758.
(10) Charles Richard : Etude sur l'insurrection du Dahra, 1845 - 1846. (Alger, 1846). p. 10-20.

بينهم الآغا ولد دربال ، وبن هنى زعيم بنى حيجا ، وقتل للفرنسيين عدد من الرجال كذلك ، فانتقل الى حوض واد سيدى ابراهيم على الضفة اليمنى وعسكر بها ، وخاض عددا من المعارك ، وفقد عددا من الاسلحة ، والامتعة ، والحيوانات ·

وخلال شهر فيفرى خاض المديونيون معارك ضارية ضد القوات الفرنسية التى كان يقودها لاباسى ، وكاتروبير ، فى أحواز تنس ، ومازونة ، بالظهرة · وفى شهر ابريل اتجه بيليسى بقواته الى سفوح جبال الظهرة ، والتحقت به قوات تنس ، وقاموا بغزو قرى المنطقة، وخاض السكان ضدهم معارك وحروبا، واشترك بيجو نفسه فى هذه المعارك بالونشريس ، وحوض الشلف (11) ·

وقد تعضدت حركة بومعزة بعودة الامير عبد القادر من جديد الى الجزائر من المغرب الاقصى ، فانضم اليه ، واتجها الى جبال جرجرة ، واشتركا مع الخليفة أحمد بن الطيب بن سالم خليفة عبد القادر فى مقاومة الفرنسيين (12) غير أن بومعزة سرعان ما اختلف مع الامير عبد القادر ، وانفصل عنه فى أكتوبر 1846 ، والتحق بسكان بنى سناسن ، وبنى سنوس ، فى منطقة الحدود المغربية ، وعمل على دفعهم الى الثورة ، وحمل السلاح ، ومن هناك انتقل الى أطراف الصحراء عبر فليتة ، وعضده فى حركته زعيم فليتة ، ابن جلول ، جند له معظم سكان فليتة · والظهرة ، وجبل ديرا بمنطقة سور الغزلان · وامتدت الثورة الى أولاد نايل ، وأولاد جلال ·

نهاية بومعزة :

وازاء خطورة الوضع على الفرنسيين، وجه الحاكم العام الفرنسى قوات كبيرة الى منطقة الحوادث ، بقيادة مارى ــ مونج Marey-Monge والجنرال هيربيون Herbillon وخاض الثوار ضدهما معارك كثيرة فى جهات واد مينا بحوض الشلف خلال شهرى جانفى وفيفرى 1847 ، وعجز بومعزة على مواجهة العدو الذى تفوق عليه فى العدد والعدة ، فانسحب الى جبال الظهرة ومن ورائه مارى مونج ، الذى طبق حرب الابادة الشاملة فى أولاد نايل قبل ذلك عقابا لهم على تأييد الثورة وتدعيم الثوار ، وبومعزة ·

وفى أوائل شهر مارس 1847 ، واجه بومعزة قوات مونج ، وهيربيون فى معركة كبيرة بمنطقة ثنية الاحد فى قلب جبال الونشريس التى انتقل اليها ، وغرر به بعض الناس فاعتقلوه وسلموه الى الضابط الفرنسى سانت ارنو ، فوجهه يوم 13 مارس 1847 الى الجزائر العاصمة ، ومن هناك سفره بيجو الى

---

(11) Lapasset : p. 23 - 35.
(12) Azan : p. 219.

طولون ، ونقل من هناك الى باريس ووضع فى المعتقل ، وأخذ من هناك براس أخاه عمر ، وأباه عبد الله ، وصهره مصطفى بن زيدان ، والآغا التلى من أولاد نايل ، ومعزور من أولاد ساعد بأولاد نايل ، وذلك عن طريق الضابط لاباسى · يطلب منهم جميعا أن يسعوا لجمع أفراد عائلته واسكانهم فى مدينة تنس تحت رعاية الضابط لاباسى رئيس المكتب العربى بها (13) ·

واثناء وجوده فى المعتقل فر واتجه الى مرسى بريست الحربى مشيا على الاقدام ولكنه اعتقل فى الطريق وأعيد الى السجن فى قلعة هام الى أن أطلق نابوليون الثالث سراحه بعد اطلاق سراح الامير عبد القادر عام 1852 فسافر الى الآستانة وتطوع فى الجيش العثمانى خلال حروب القرم ، ثم اتجه الى العراق وأقام فى بغداد مدة ثم عاد الى باطوح وبقى بها حتى عام 1878 ، ثم انتقل الى دمشق وجاور الامير عبد القادر مدة ، وبعد ذلك اتجه الى شمال افريقيا مرة أخرى وحاول أن يحيى حركة الثورة والجهاد · فلم يوفق ، وعاد الى باطوح وبقى هناك حتى توفى فى دبروجه بمرض الكوليرا (14) ·

وفى شهر أبريل 1848 ثار بنو حساين ، وريغة ، جنوب الجزائر العاصمة ، وامتدت ثورتهم الى أولاد نايل ، والتيطرى ، وسور الغزلان · وثار بنو زقزق ، وبنو مناد فى المدية ومليانة · وتعاون الجنرال مونج حاكم المدية ، والجنرال كامو حاكم مليانة على محاربتهم ، واستعملوا أسلوب الحرق والتخريب والقتل الجماعى ، والتشريد (15) ·

جـ ـ ثورة سكان فليتة عام 1864

فى الوقت الذى اندلعت فيه ثورة أولاد سيدى الشيخ فى ربيع عام 1864 ، وانتشرت جنوب الجزائر العاصمة ، وفى الغرب الوهرانى ، ثار سكان فليتة بجبال الونشريس ، وحوض الشلف ، بزعامة الشيخ المتصوف سى الازرق بلحاج ، الذى ينتسب الى الطريقة القادرية ·

---

(13) كان لبومعزة أب أعمى يدعى وداح بن عبد الله ، وأم تدعى عيشة بنت بوهنى ، وأخ اسمه بن عبد الله أكبر منه يعيش مع أمه لدى أولاد خويدح ، وأخ آخر اسمه عمر ، سنه 16 عاما يعيش مع معزوز البقراى فى ولاد ساعد بن سالم ، بأولاد نايل ، وزوجة اسمها مريم بنت مصطفى بن زيان قاضى أولاد يونس ، وعم اسمه قادة بن عيسى قائد بنى بوخنوس ، وعم آخر اسمه بوخيرة بن التريكى كان قائد فى عهد الاتراك ، والامير عبد القادر لدى بنى بوخنوس · انظر : لاباسى ص 94 – 95 ·

(14) الامير محمد : تحفة الزائر فى مآثر الامير عبد القادر وأخبار الجزائر · (الاسكندرية ـ 1903) ج 1 · ص 296 ـ 297 و 313 ـ 314 ·

(15) (15) Garrot : p. 865 et 883 - 884.

وقد عدد الجنرال لاباسى أسباب ثورة فليتة على الشكل التالى :

أولا : اضطراب العقول ،ونظام البلاد ، وتقلبات الانظمة ·

ثانيا : اضطراب وضع المكاتب العربية ، وضعف الحكام ·

ثالثا : تعيين قواد جدد أجانب عن السكان ·

رابعا : ديموقراطية الشعب العربى

خامسا : كثرة الحركات الدينية القوية فى كل البلاد الاسلامية ووقوفها ضد عوامل التحديث والتطور ·

سادسا : اخلاء الجزائر من معظم القوات العسكرية التى أرسلت الى أوروبا وأمريكا للحرب ، وادعى لاباسى كذلك فى رسالته الى الجنرال فلورى : Fleury بأن سياسة اللين التى كان يتبعها الامبراطور نابوليون الثالث تجاه الجزائريين ، هي السبب فى ثورة سى الازرق وغيره · كما ان مبعوثى تركيا السريين الذين ينشطون فى الدعاية بطرابلس الغرب ، وتونس ، وتغاضى باي تونس عن نشاطهم ونشاط غيرهم من الدعاة والممونين للثورة ، كان سببا أيضا فى هذه الثورة ولكنه أكد فى النهاية أن العصبية الدينية ، وطبيعة العائلات الاوروستقراطية الجزائرية ، هي السبب الحقيقى فى الثورة ، وهي التى يجب أن تناقش ·

وادعى لاباسى كذلك بأن سى الازرق بلحاج ، ادعى للناس خلال صلاة الجمعة بأن شيخهعبد القادر الجيلانى، هو الذى أوحى له بمحاربة الفرنسيين، الذين لا تؤثر أسلحتهم ورصاصهم فيه (16) · ويحاول بهذه الرواية ، والادعاء ، أن ينال من زعماء المقاومة الجزائرية ، ويصمهم بالتعصب ، والدروشة ، وذلك هو موقف معظم الكتاب الفرنسيين فى القرن الماضى ، ومطلع القرن الحالى تجاه المقاومة الجزائرية ورجالها ·

جند سى الازرق بلحاج عددا كبيرا من الانصار والاتباع ، وخاض يوم 27 ابريل 1864 ، معركة كبيرة فى خنقة العازر ، ضد قوات الجنرال مارتينو : Martineux وقتل له تسعة ضباط ، وثمانية وستين جنديا ، وجرح له تسعة وثلاثين · بينما قتل من الثوار ما يقرب من 400 شخصا حسب رواية لاباسى نفسه (17) ·

وخلال ليلتى 12 و 13 ماي 1864 هاجم الثوار وسى لزرق ، قوات لاباسى فى المناطق الموجودة بين واد مينا ، وواد رهيو ، وميثاقسا ، وكان بمعية لاباسى الآغا الحاج جلول ، وابناه : بلعاليا ، وبلقاسم · وكان عدد الثوار فى هذه المعارك 2000 خيالا ، و 500 فارسا ، فأخذوا ينادون بكلمات : الجهاد ، الجهاد · وحاصروا زمورة ، واضطر

(16) Lapasset : t. II, p. 1 - 8.
(17) Ibid. p. 8 - 15.

لاباسى أن ينسحب الى غليزان ، ويطلب نجدات جديدة ، وذخائر حربية ، وحصلت معارك ومناوشات ، وخربت معظم خيام ومنازل زمورة ، وغليزان ·

وبعد معارك زمورة ، وغيليزان ، انسحب سى الازرق الى دواخل فليتة ، وأخذ يعمل على توسيع حركة الثورة ، وتنظيمها ، وتجنيد المزيد من الناس ، كما أخذ يخطط للهجوم على مركز الرحوية الفرنسى ، بينما أخذ الفرنسيون يحصنون مراكزهم فى عمى موسى ، وواد رهيو ، ومستغانم ، ونكمازيا : Nel:maria بالظهرة · واشتد فرار اليهود من غيليزان والقرى المجاورة لها الى مستغانم ، وشاع يوم 19 ماي بأن الثوار يسيطرون على هضبة بايموث فى أعالى مستغانم · واضطر اليهود الى الفرار الى ميناء المدينة (18) ·

جند سى لزرق سكان بنى مسلم ، واولاد صابر ، والشكالة ، والحلوية ، والكرايش ، ومد يده الى ثوار أولاد سيدى الشيخ الآخرين ، واصبحت قرية غيليزان ، مفتوحة أمام الثوار من كل جهة ، وارغم الاوروبيون على ايقاف الاعمال فى معسكر عمى موسى ، واخليت القرى الموجودة بين غيليزان وواد رهيو ، على طريق العاصمة ، وفر الاوروبيون كاليهود الى مستغانم ·

وتمكن سى الازرق من تخريب معسكر الرحوية يوم 20 ماي ، ومعسكر عمى موسى ، وواد رهيو ، واصل نشاطه حتى قتل فى معركة (ظهرة عبد الله) يوم 8 جوان 1864 أمام قوات الجنرال روز ، الذى كان مكلفا بملاحقته · (19) وخلفه فى منصبه سى عبد العزيز الذى سرعان ما سلم نفسه للفرنسيين فى زمورة يوم 25 جويلية من نفس العام نتيجة لاشتداد الضغط عليه وعدد أتباعه (20) ·

ورغم استسلام سى لزرق بلحاج ، وخليفته سى عبد العزيز ، فان احداث الثورة استمرت فى فليتة ، وجبال الونشريس ، طوال سنوات ثورة سيدى الشيخ ولو بصورة متقطعة ، وشهدت المنطقة أحداثا وتقلبات كثيرة · وعاث الجيش الفرنسى فيها كثيرا ، وقتل ، وشرد ، وخرب ، ولكن السكان صمدوا ، وقاوموا وتحملوا ، وصبروا للمحن ، والحروب ، وسجلوا صفحات مشرقة فى تاريخ المنطقة ، وكفاحنا الوطنى ·

---

(18) Ibid. p. 18 - 22.
(19) Ibid. p. 23 - 35. et Charles Feraud : Le Sahara de Constantine. (Alger, 1887), p. 500.
(20) Trumelet : Notes. R.A. (1879), p. 247.

انتفاضة سكان بنى مناصر فى شرشال ومليانة ، 14 جويلية ــ 21 أوت 1871 :

أسباب الانتفاضة :

اجتمعت عدة أسباب ، وظروف ، لاندلاع هذه الانتفاضة ، معظمها يرجع الى سوء تصرفات السلطات الفرنسية تجاه السكان ، وممارستها سياسة التفرقة والتقسيم بينهم ، وضرب هذا بذاك ·

فلقد كان هناك بمنطقة بنى مناصر عائلتان تتقاسمان النفوذ بينهما ، وهما :

ــ عائلة الغبرينى فى أحواز شرشال، وكانت موالية للفرنسيين منذ بداية الاحتلال ، وزعيمها فى هذه الفترة هو ابراهيم بن محمد السعيد الغبرينى ، قائد قواد سكان الزاتيمة الذى سبق له أن اشترك مع الفرنسيين فى محاربة مصطفى بومزراق باي التيطرى الاخير فى مطلع الاحتلال الفرنسى ·

ــ وعائلة البركانى التى تنحدر من محمد البركانى صاحب الضريح المشهور بمليانة · وزعيمها فى هذه الفترة هو مالك البركانى بن الصحراوى البركانى ابن أخ محمد بن عيسى البركانى خليفة الامير عبد القادر سابقا على ولاية التيطرى بالمدية · وكان منفيا لمدة 14 عاما من عام 1842 الى 1856 ، وفى عام 1865 عينه الفرنسيون قائدا على بنى مناصر الشراقة بالمنطقة ، ولكن نفوذه ونفوذ عائلته استمر فى الانخفاض، والانهيار لصالح عائلة الغبرينى ·

وقد ادعى لويس رين ، بأن البراكنة كانوا شعبيين أكثر من الغبرينيين ، وان محمد البركانى كان رئيسا دينيا ، وسياسيا ، لسكان منطقة شرشال ، ومنافسا كبيرا للمقرانى والرحمانيين (21) .أما قارو ، فقد ادعى بأن الفريقين معا كانا عدوين سياسيين ، ودينيين للمقرانى والرحمانيين معا (22) ·

وهو ادعاء ينبغى أن يكون محل نظر، لان منطقة شرشال بعيدة عن منطقة المقرانى والحداد ، وثقل كل فريق يتركز فى منطقة معزولة عن الاخرى · غير أن العداء بين الغبرينيين ، والبراكنة ، ممكن نظرا للجوار بينهما · على ان قارو سرعان ما ناقض نفسه عندما ذكر بأن الرحمانيين عندما حاولوا دفع الفريقين الى الثورة يوم 30 أبريل 1871 ، عارض المولود الحبوشى الغبرينى الفكرة ، وتغاضى مالك البركانى عن الامر مما جعل المشاكل تعترض سير ادارته (23) · وأكد رين بأنه كان صديقا للفرنسيين وشارك فى محاربة بوبغلة ومطاردته (24) ·

بوادر الانتفاضة :

فى يوم 30 أبريل 1871 كلف الفرنسيون البركانى ، والحبوشى ، بأستخلاص ضرائب المكس فى سوق

(21) Louis Rinn : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie. (Alger, 1891), p. 508 - 513.
(22) Garrot : p. 973 - 975.
(23) Ibid.
(24) Rinn : Ibid.

المدينة ، فرفض الناس ذلك ، وقذفوهما بالحجارة ، وهذا مما يدل على ان التذمر كان موجودا ، وان تأثيرات ثورة المقراني والحداد ، وصلت الى هذه المنطقة كذلك .

وفى يوم 6 ماي اجتمع شيوخ بنى مناصر من صف مالك البركانى فى قبة أحمد بن يوسف قربسوق الحد ، واتفقوا على قتل الحبوشى والتخلص منه ، وفى اليوم الموالى قرر مجلس بلدية شرشال ، اجراء تحقيق مع الحبوشى فقدم استقالته فى اليوم الموالى، احتجاجا على هذا الاجراء ، واتجه بعائلته الى قبيلة بنى فراح . وكلف مالك البركانى بمنصبه لقدرته على السيطرة على بنى مناصر الغرابة .

وفى يوم 20 ماي قبلت السلطات الفرنسية استقالة المولود الحبوشى ، وعينت فى مكانه السعيد الغبرينى ، فتسبب ذلك فى غضب وهيجان بنى مناصر لعداوة قديمة بينهم ، وبين عائلة الغبرينى . فكتبوا رسالة الى الحاكم العام الاميرال دو قيدون ، يوم 22 طلبوا منه فيها تعيين البركانى قائدا عليهم بدلا من الغبرينى ، فحول الحاكم العام رسالتهم الى حاكم مليانة العسكرى لاجراء تحقيق فى الامر يوم 30 جوان .

وخلال يومى 28 و 29 ، جوان ، اجتمع بنو مناصر لتدارس الامر وعزموا على اغتيال السعيد الغبرينى ، القائد الجديد، فى الوقت الذى كانت فيه لجنة التحقيق متجهة اليهم . وأدت هذه التطورات كلها الى قيام الغبرينى بتقديم استقالته خوفا من مغبة الامر . وقدم فارلو : Varloud رئيس المكتب العربى بشرشال الى تامزيت يوم 2 جويلية ليعلن للناس فى بنى مناصر ، بأن تعيين الغبرينى لم يبث فيه بعد ، ولم يصبح رسميا ، حتى يهدىء من خواطرهم ، وأكد لهم بأن هناك تفكيرا لدى السلطات فى تعيين قائد جديد من غير العائلتين المتناحرتين أصلا ، حسما للنزاع والخلاف .

وقد توالت الحوادث بعد هذا بسرعة، فكتب بنو مناصر رسالة ، يوم 4 جويلية، الى الحاكم العام ، رفضوا فيها تعيين المولود عيدى قائدا عليهم ، وهو من مواليد حفيان بقرية بنى حبيبة ، وطلبوا منه الحاق منطقتهم ببلدية شرشال ، اذا تعذر تعيين البركانى قائدا عليهم . فتردد دو قيدون فى تنفيذ قرار تسمية عبدى قائدا عليهم ، نتيجة لهذه الرسالة (25) .

اندلاع الحوادث :

وهكذا ، كانت التصرفات السيئة ، للادارة الفرنسية ، من ضمن أسباب ثورة بنى مناصر ، وفى يوم 13 جويلية، اجتمع وجهاء بنى مناصر فى سوق الحد، واتفقوا على اعلان الجهاد والثورة ، والزحف فى اليوم الموالى على قرى

(25) Rinn : Ibid., p. 513 - 519.

المنطقة مثل : نـوفى ، وشرشـــال ، وزوريخ ، والزايتمة ، ولم يكن مالـك البركانى حاضرا بهذا الاجتماع ، ولكنه كان على علم به ، وعلى صلة بالحوادث كما يدعى رين ·وقام السعيد الغبرينى، وعيدى بن المولود ، بابـلاغ السلطات فى شرشال ، أخبار هذا الاجتماع ، وما دار فيه ، وما اتفق عليه فيه · وذلك فى اليوم الموالى لاندلاع الحوادث ·

وقد ذكر ريـن بأن السلطـــات الفرنسية ، وجهت فى البداية التهمـــة لعائلة الغبرينى الدينية ، فى حيـن كان ينبغى توجيهها لعائلة البركـــانى، وفرنسا معا ، وذلك لان ابراهيم بـــن محمد السعيد الغبرينى قد تولى بنفسه ابلاغ الحاكم الاعلى الفرنسى ، وشيـخ بلدية شرشال ، بالوضع المتدهور ، منذ يوم 13 جويلية ، فكيف توجه التهمـــة اذن لعائلته (26) ·

اتفق الثوار علي تعيين مالك البركانى قائدا عليهم ، ولقبوه « آغا المجاهدين»، ووزعوا أنفسهم إلى ثلاث فرق رئيسية :

– فرقة برئاسة البركانى نفسه وأخيه ابراهيم ، ومصطفى بن عبد الله مالك ، ومحمد أوجلول أوزهرة · وتقـــرر أن تتجه لمهاجمة شرشال ·

– وفرقة بنى مناصر الشراقة بقيادة على بن أحمد أوكرجوج ، صديق جماعة البركانى ، الذى كان من أكبر المحرضين للثورة ، ولعب دورا بارزا فى احداثها · وتقرر أن تتجه لمهاجمة زوريخ ·

– وفرقة ثالثة لبنى مناصر الغرابة، بقيادة أحمد أودادى ، ورؤساء الدواوير الاخرى · وتقرر أن تتجه لمهاجمـــة نـــوفى ·

اهتم مالك البركانى بتدعيم جبهته ، وحاول أن يضم اليه كل بنى مناصـــر الغرابة ، والشراقة الآخرين ، لكـــي يضيق الخناق على جماعة الغبريـــنى والحبوشى ، وعبدى · فكاتب سكـــان المناطق المجاورة ، وأرسل عددا مـــن المبعوثين ليحثوا على الثورة وحمـــل السلاح ، وتمكن من استمالة قدور بن مبارك المنادى فى القليعة ، الذى كـــان صديقا للامير عبد القادر · واستمالـــة عبد القادر بن مختار من بنى فـــراح بمليانة الذين يعادون أولاد الخـــلادى المنحدرين من عائلة الشيخ أحمد بن يوسف بمليانة كذلك (27) ·

وفى يـوم 14 جويليـة 1871 ، زحف الثوار فى الاتجاهات الثلاثة ، وفشـــل السعيد الغبرينى ، وأخوه ، فى منـــع سكان الزايتمة ، وقوراية ، وغيرهمـــا من حمل السلاح ، واضطرا أن يفرا حتى ينجوا من سوء المصير ، بعد أن قطع الثوار كل الطرق والمسالك ·

واعترض الثوار قافلة الضابط فارلو، على بعد 2 كلم من قرية نوفى ، واصطدموا

(26) Ibid., p. 513 - 508.
(27) Ibid., p. 527 - 519.

معها ، وفرضوا الحصار على القرية ، واعدوا كمينا للهجوم عليها ٠

وفى نفس اليوم هدد الثوار قرية حجوط ، واحرقوا نزل حمام ريغة ، ليلتى 16 و 17 جويلية ٠ وقتلوا عددا من الحراس الاوروبيين ، مما اضطر السلطات الفرنسية أن تنجد المنطقة بقوات من القليعة بقيادة الكولونيل دوزاندرى : Desandre واصلت سيرها بعد ذلك من هناك الى ز ريغ ٠

أما البركانى فقد عسكر فى مزرعة المعمر تريبيى : Tripier قرب شرشال وأخذ يعمل على احكام الحصار حولها، وتجنيد المزيد من المقاتلين ٠ وبسرعة انتشرت حركة الثوار لتشمل كل المنطقة من حجوط الى أحواز العاصمة٠ وقطع الثوار الجسر الذى يوصل الى زوريخ ليلة 16 من الشهر ، وأحرقوا معملا لعصر الزيتون بواد ملاح على بعد 35 كلم من شرشال ٠ وهرب أوروبيو المنطقة الى تنس بمعية القائد الموالى لهم ، الحاج ابراهيم بلقاسم ٠ وحاصر الثوار شرشال من جهة سيدى يحيى ، ومزرعة المعمر تاولى ، ولم ينقذها الا السفن الحربية التى كانت راسية بالميناء ٠ وتم احراق المشاتى ، والمزارع الموجودة حولها ٠

وفى يوم 23 جويلية هاجم الثوار قرية بنيان ، وقتلوا عددا من الاوروبيين واحرقوا رحا للحبوب ٠ وتعاون كل من الباشاغا بوعلام بن الشريف ، والآغا سليمان بن صياح ، والضابط قراد : Grad ضد الثوار فى حمام ريغة ، مع قوات قادمة من الجزائر العاصمة ٠ وكتب مالك البركانى الى ابن صياح رسالة شرح له مؤامرات السعيد الغبرينى ، فحولها الى حاكم مليانة العسكرى ٠

وفى يوم 25 ، هاجم الثوار قافلة عسكرية قرب قرية زيوى ، وجرت معركة وادى بلاع فى مزرعة المعمر برانكور فى جبل الشنوة ، وقتلوا 31 ، وجرحوا عددا آخر من الاوروبيين ٠ وفى ليلة 26 قطع الثوار الماء على مدينة شرشال ، وأحرقوا له بعض المزارع حولها ومنها مزرعة نيكولا ٠

وبسبب خطورة الوضع على الفرنسيين ، جندت السلطات الفرنسية قوات كبيرة برية ، وبحرية ، من كل الجهات : من مليانة ، والعاصمة ، ومن بجاية ، بزعامة الضابط بونسار : Ponsar ووجهتها الى المنطقة ٠

وأخذت طرادات : Laviso و Kleber و Desax فى قذف جموع الثوار ، وزحفت قوات أخرى من البر بقيادة بوكسى ، على قرية نوفى ، واستعادتها من الثوار بعد أن خربت تماما ٠ واستعان بوسكى بقوات بحرية نقلتها الباخرة كليبير ٠

تعاونت هذه القوات كلها ضد الثوار ، وسقط مالك البركانى قتيلا يوم 2 أوت فى معركة قرب زوريخ ، على الطريق القديم المؤدى الى شرشال ٠

وكان مقتله ضربة قاسية لحركة الثورة باعتباره الزعيم البارز المدبر ، والمخطط لها ، ولم يستطع أخوه ابراهيم الذى خلفه أن يملأ الفراغ · وتمكنت القوات الفرنسية من استعادة قرية زوريخ من الثوار ، واتجه نيكو ، وبونسار ، الى زاوية البركانى فى ليانة وهدماها وجرت معارك أخرى يومى 6 و 7 أوت فى عين العنصر ، وفج محلى، وتواصلت المعارك بعد ذلك يومى 19 و 20 ، وهاجم الثوار قوات نيكو فى بنى زيوى (زورس) بقرية ايغيل أوزورو ، وتاحنوت ، وارغم ابراهيم البركانى على الاستسلام ، وخرب الفرنسيون معظم القرى والمداشر فى المنطقة ·

وفى يوم 21 أوت انتهت حوادث الثورة (28) ، وطبقت السلطات الفرنسية عقوبات صارمة ضد عائلات الثوار تتمثل فى مصادرة أراضيهم ، وديارهم ، وامتعتهم ، وفى تغريمهم بضرائب حرب فوق طاقتهم ، ومحاكمة عدد كبير من الرجال أمام محاكم عسكرية ومدنية (29) ·

وقد عثرنا فى أرشيف ايكس أن بروفانس ، على رسالة لقائد الشنموة ، ابراهيم بن الحاج ، وجهها الى الحاكم العام الفرنسى يطلب منه فيها تعويضا عن ضياع فرس له خلال هذه الحوادث، بعد أن تالفت لجان المصادرة والتعويض، لصالح المتضررين (30) ، وسنوردها فيما يلى بلغتها الركيكة والدارجة :

---

(28) Garrot : p. 975 - 978.
— Le colonel Philebert : Expédition dans les Beni Menacer en 1871. (Paris - Dumaine, 1873) 55 p.

(29) من أجل الاطلاع على المزيد من التفاصيل على حوادث هذه الانتفاضة يمكن العودة الى التقرير الذى وضعه الضابط الفرنسى شارل فيلبير :

(30) Archives d'Outre-Mer Aix-en-Province (A.O.M.). Carton 2 H 80.

نص رسالة قائد الشنوة الى الحاكم العام يطلب تعويضا عن ضياع فرس في ثورة بني مناصر 1871

الحمد لله وحده ولا يدوم الا ملكه (31) .

الى المعظم المحترم من له الله أمرنا ، ومن الى الله واليه شكواتنا (كذا) . سعادة القفرنور (32) حاكم الجيوش البرية والبحرية عليكم الف سلام ، وعلى كافة من تعلق بكم ، فالمطلوب من الله ثم من جزيل فضلكم تأمر على الجماعة المكلفة بدراهيم الحصاير (33) متاع سنة 1871 ، الى قائد في شنوة ماكث في داره واتت له بطاقة من عند المير (34) متاع زوريك لعزم عنده بناس شنوة لا أنهم تحركوا ليغيثهم، وصابوا (35) بني مناصر سبقوا ونهبوا البقرى (36) متاع الكولون (37) . ولما وصل آي مع الرعية متاعه ضربوا الكولون (37) وقتلوا له عود (38) .

فالمطلوب من الله ثم منك تأمر الجماعة المكلفة يغريموا (كذا) لنا عودنا (38) ، وعليكم ألف سلام من خديمكم ابراهيم بن الحاج محمد بن ابراهيم الذى كان قائد شنوة . بتاريخ في سبتامبر سنة 1875 .

(31) A.O.M. Carton 2 H 80.

(32) أي الحاكم العام من الكلمة الفرنسية : Gouverneur

(33) أي الاحصاء والحصر . ويريد دراهيم التعويض عن اصرار الحرب خلال انتفاضة بني مناصر .

(34) أي شيخ البلدية من الكلمة الفرنسية : Le Maire

(35) أي وجدوا .

(36) أي البقر .

(37) أي المعمرون من الكلمة الفرنسية : les Colons

(38) أي فرسا .

الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الامام

احمد بن يحيى الونشريسي

المهدى البوعبدلى

هو احمد بن يحيى بن محمد بن على الونشريسى كما عرف نفسه بخطه فى عدة وثائق وقد عرفه بعض معاصريه بأنه « أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن على » أي بزيادة اسم عبد الواحد ، بين محمد وعلى ، لصاحب « درجة الناشر ، فى بيان علماء القرن العاشر » ورأيت الاقتصار على تعريف الفقيه محمد الحجوى وزير المعارف فى عهده بالمغرب الاقصى ، الذى نشره فى تاليفه « الفكر السامى ، فى تاريخ الفقه الاسلامى » الذى يعد معاصرا وهو علاوة على ذلك ، اتيح له جمع معطيات لم تتح لغيره ، قال فى تعريفه : « أبو العباس أحمد بن يحيىبن محمد بن عبد الواحد الونشريسى التلمسانى الاصل ، الفاسى الدار ، حامل لواء المذهب المالكى بالديار الافريقية فى وقته ، وصاحب كتاب « المعيار » المشتمل على فتاوى فقهاء المغرب والاندلس وافريقية ، جمع فأوعى ، وهو من التآليف ذات الشان عند فقهاء الوقت ، على ما فيه من ضعف بعض الفتاوى ، طبع بفاس واشتهر فى العالم، وله تعليق على مختصر ابن الحاجب ، وكتاب فى القواعد الفقهية سماه « ايضاح المسالك الى قواعد الامام مالك » جمع نحو مائة قاعدة فقهية ، بنى عليها الخلاف المالكى ، ولكن كلها أو جلها مختلف فيها ، وعن الاختلاف فيها ، نشأ الاختلاف فى فروعها ، فهو كفلسفة فقهية مفيدة ، وله وثائق وكتاب فى الفروق ، وشرح وثائق القشتالى وغيرها ، توفى فى عام أربع عشر وتسعمائة » اه . ثم قال الحجوى فى الترجمة :ـ وفى دوحة الناشر ، فى آخر العشرة الاورلى فىالقرن العاشر»، ثم قال الا أن صاحب « الدوحة » لا يحرر الوفيات » .

اه تعريف الحجوى « بالفكر السامى » .

وفى الحقيقة ان تاريخ الوفاة ، التى أثبتها الحجوى ، هي محل اتفاق بين كل المترجمين ، اذ صادفت وفاته تاريخ احتلال الاسبان لمدينة وهران ، ولهذا نجد كثيرا من مترجميه وبالخصوص صاحب « ذيل الديباج » يعقب عليها

ويؤكدها بقوله « وهي السنة التى احتل فيها النصارى مدينة وهران » ٠

وقبل الدخول فى صميم الموضوع نمهد له بذكر نبذة من تاريخ ونشريس موطن المترجم ، ان ونشريس كان علما ملة جبلها الشامخ ، ولا زال الى يومنا هذا يطلق عليه من قبل أن يطلق اسمه أي ونشريس على الدولة التى تكونت فيه والتى عرفت تارة بدولة بنى توجين، اسم القبيلة الساكنة فى منطقته ، وتارة باسم دولة ونشريس ، تكونت هذه الدولة بهذه المنطقة فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وبالضبط عندما ثار حماد بن بلقين المشهور على ابن أخيه باديس بن المنصور بن بلقين ملك دولة بنى زيرى بن مناد ، اذ لما انتقلت دولة الفاطميين العبيديين من الشمال الافريقى الى مصر ، رخلفت بلقين بن زيرى قائد جيشها على حكم الشمال الافريقى، وكانت عاصمة الدولة فى مدينة القيروان ثم بعد وفاة بلقين خلفه ولده المنصور فانتقل الى قاعدة المملكة بالقيروان ، وترك أخاه (I) حماد بقاعدة الاسرة وهي أشير التى لم يفارقها بلقين مدة حكمه ٠ كان حماد واليا للمنطقة الغربية ، وعندما ثار ابن أخيه كانت قاعدة الناحية الغربية مدينة المسيلة فحينئذ حاصر باديس عمه حماد ٠ ومن جملة من انتصر له أثناء الحصار قبائل بنى توجين البرابرة الذين ينتمون الى زناتة ، فاقطع لهم باديس جزاء لنصرته ، حكم امارتهم ، وهو ما يعرف فى عهدنا بالاستقلال الذاتى وبالاستقلال الداخلى ٠ وكان موقع هذه الامارة كما عرفها الشريف الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق » الذى قال بعد تعريفه لمدينة مليانة ما يلى : « وعلى ثلاثة أيام منها ، وفى جنوبها ، الجبل المسمى ونشريس ، يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة ، وحرشوى ، وكتامة وبنى خليل ، ومطماطة ٠٠٠ » (I) الى أن قال ٠٠٠ « وطول هذا الجبل أربعة أيام ينتهى الى قرب تاهرت » ٠

وعندما تكونت هذه الامارة ، كانت رياسة القبيلة فى حكم دافلتن ، الذى توارث أفراد أسرته الحكم طيلة القرن الخامس ، وفى أوائل القرن السادس نزل بونشريس الامام المهدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين فى طريقه من ملالة ـ بجاية ـ الى مراكش ، فاستضافهم سكان ونشريس ، رغم انهم كانوا

(I) حماد هذا هو الذى تنتسب اليه دولة بنى حماد كما تنتسب اليه القلعة التي أسسها وصارت قاعدة حكمه لما انفصل عن أبناء أخيه وانقسمت الدولة الى قسمين قسم دولة بنى زيرى ، من سلالة المنصور وقسم بنى بنى حماد ملوك القلعة ثم بجاية ٠

(I) وجل هذه القبائل المذكورة لا زالت فى مواقعها ٠

يختفون من عيون ملك بجاية الحمادى ، وانضم اليهم عندما عزموا على الرحيل ، الفقيه عبد الله بن محسن الونشريسى المكنى بالبشير ، الذى لعب دورا مرموقا فى صفوف دولة الموحدين الناشئة اذ هو الذى عينه الامام المهدى ابن تومرت وخليفته عبد المومن بن على الكومى ، قائد جيش الدولة ، عندما أعلنوا الحرب على دولة المرابطين اللمتونيين فى عهد الملك على بن يوسف بن تاشفين نال قادة دولة ونشريس مكانة عند الموحدين اذ صاروا محل ثقة عند ملوكهم ، ومن ذلك العهد تبوأوا مكانة مرموقة عند ملوك الدولة الموحدية ، حيث لما هاجم بقايادولة المرابطين ، من بنى غانية ، الذين كانوا بجزر ميورقة ونزلوا بمدينة بجاية على حين غفلة ، جهز الملك المنصور (I) الموحدى جيشه ، وتتبع آثار بنى انية ، فلحقهم بتونس ، ومر فى طريقه اليها ، على أمير ونشريس اذ ذاك وهو العباس بن عطية أخ الامير عبد القوى الذى نالت المملكة فى عهده استقلالها ، كما سنتحدث على ذلك فى موضعه من هذه الدراسة ، فاستصحبه معه فى ذهابه وايابه وذلك فى سنة 584 هـ • وفى هذه المسيرة ولى الملك المنصور عميد أسرة بنى حقل حكم تونس لخبر يطول ، لا يسع مجال هذه الدراسة المحدودة ، على تتبع تفاصيله، وانما اكتفيت بذكر الخطوط العريضة من هذه الاحداث ، جرنى الى ذكرها ، سياق الحديث أولا ، ثم اننا نجدها مرتبطة بموضوع البحث ، وليست كما يتراءى ، خروجا عن الموضوع ، اذ كثيرا ما يقتصر الباحث على الايجاز فيرتكب أخطاء تترك القارىء فى حيرة ، فينتج عنها التناقض والتخليط • اذ يعتمدون على سرد الاحداث من تلاخيص ، هذه هي بعض النقط من تاريخ دولة بنىتوجين التى عرفت فى كتب التاريخ تارة بدولة بنى توجين وهو الاكثر ، وتارة بدولة ونشريس ، من بداية تأسيسها اثر تولية باديس ملك دولة بنى زيرى على حكمها جزاء لموقفه معه عندما قمع عمه حماد الثائر • وفى عهد الموحدين وبالضبط بعد ما لحق الملك المنصور الموحدى بنى غانية ورافقه فى مسيرته أمير القبيلة العباس بن عطية سنة 584 هـ تحولت نظرة الموحدين وبرهنوا له انهم يعترفون لهم بالاستقلال، بل وسعوا لهم رقعة الامارة فصار موقعها : تحده شرقا جبال تيطرى المعروفة الآن بجبال المدية ، وغربا سهول منداس وشمالا سهول شلف وواديه ، وجنوبا نواحى مدينة فرندة، وصارت هذه المملكة تشتمل على عدة قلاع حصينة منها تاقدمت (I) التى

(I) المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن على كان بقاعدة المملكة الموحدية اذ ذاك مدينة مراكش •

(I) تاقدمت أسسها الرستميون وكانت عاصمة مملكتهم الى أن أطاح بدولتهم

تقاسمت قاعدة المملكة مع الجبل المعروف الآن ببرج بونعامة وتفرقينت وتاغروت ولمدية فهذه هي القلاع الاربعة التي كانت تشتمل عليها مملكة بني توجين فى أواخر عهد الموحدين ومن هذه القلاع اشتهرت قلعة تاغروت شهرة عالمية ، اذ فيها اقام المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون لتحرير تاريخه الخالد ، فاقام بها أربع سنوات اتم فيها مقدمته، وقد احتفلت الجزائر منذ سنتين باحياء ذكرى مرور ستة قرون على هذا الحادث ، ونظم المركز الوطنى للبحوث التاريخية ملتقى جمع نخبة من الباحثين : مسلمين واجانب تناولوا حياة هذا العبقرى بدراسة عدة جوانب من تاريخ حياته ·

هذه لمحات من تاريخ مملكة ونشريس ذكرتها كتمهيد لترجمة احد أبنائها البررة ، نال شهرة ومكانة فى عهده بعدة عواصم اسلامية ثقافية ، الا انه كان وفيا لجبله الاشم ، فخصصه بتاليف قيم ، احصى فيه بعض علماء بلاده ، وهو المشهور بكتاب «الوفيات»، زيادة على بعض تآليفه التى نالت شهرة فى بلاد العالم الاسلامى كما اشتهر هذا العالم الاسلامى ببعض مواقفه التى تدل على انه من أباة الضيم والذى كان شعاره مع ملوك زمانه ما خاطب به عبد المهيمن الخضرمى ـ أستاذ ابن خلدون ـ ملك عهده ، ابا الحسن المرينى الذى كان كاتبه الخاص بأبيات لما أساء اليه فكسر قلمه وخاطبه بقوله :

أبت همتى أن يرانى امرؤ
مدى الدهر يوما له ذا خضوع

وما ذاك الا لانى اتقيت
بعز القناعة ذل الخضوع

اذ لم يفارق أحمد بن يحيى الونشريسى بلاده تلمسان الا مكرها ، وذلك ان ملكها أبو عبد الله محمد بن أبى ثابت المتوكل على الله ، الذى اشتهر بتشجيعه للعلماء ، ورعايتهم اذ فى عهده ـ 866 ـ 888 هـ ـ ظهرت تآليف قيمة من بينها « الدر والعقيان ، فى تاريخ دولة بنى زيان » للحافظ التنسى و « الدرر المكنونة فى نوازل مازونة » (I) ليحيى أبى زكرياء المغيلى المازونى ، ورغم ما اشتهر به، فقد حاول اخضاع احمد ابن يحيى الونشريسى · فصادر أمواله ، واقتحم عليه داره فهدمها، وكان أمكنه التسلل منها فمر عليه الخطر بسلام، حيث وصل الى مدينة فاس فواصل حياته العلمية وترك آثارا فرضت نفسها على تاريخ البلاد الاسلامية كموسوعته الفقهية المعروفة بـ « المعيار المعرب ، عن فتاوى علماء أهل افريقيا والاندلس والمغرب » وقد اشار بعض مترجميه الى اعتزازه بنفسه فقال « كان شديد الشكيمة فى دين الله ، لا تاخذه فى الله لومة لائم ، ولذلك لم يكن له مع أمراء وقته كثير اتصال » أما تآليفه فكلها

(I) يحيى أبو زكرياء قاضى مازونة توفى بتلمسان سنة 883 هـ

درر وغرر خصوصا كتابه الوفيات وهو وان كان صغير الحجم الا انه نظرا الى ان تاريخ هذه المنطقة مجهول ومغمور رغم ان بعض المؤرخين لم يهملوه ، وفى طليعتهم بن خلدون الا ان ابـن خلدون اهتم بتاريخه السياسى ، وقد تـــرك الفراغ لتاريخ البـــلاد أي ونشـــريس الحضارى والثقافى ، وان كان ما يبرر اهمال الكتا بلتاريخها الحضارى حيث انها كانت دولة بدوية تسكن الخيـــام فان تاريخها الثقافى الذى يتـمثـل فى تراجم علمائها أهمل ، فسد هذا الفراغ مترجمـنا فخصـص تأليـفـه المذكـور ـ الوفيات ـ لعلماء ونشريس ، ولـو نجد فى تراجم علماء الاندلس والمغرب كثيرا من تراجم الونشريسى الا أن مجرد النسبة لا تمكن من القطع بأن صاحبها نشأ بونشريس ، اذ كانت الهجرة مـن الشمال الافريقى الى الاندلس متواصلة من عهد فتح الاندلس ، فكان المهاجرون بنية الاجتهاد والرباط كثيرين ، وهـم بالطبع يحتفظون بالنسبة الى قبائلهـم ويورثون هذه النسبة لابنائهم واحفادهم، أما كتاب الوفيات فانه خصصه مؤلفه لمن عاشوا فى البلاد أو ماتوا بها ، فمن هذه الناحية كان لهذا التأليف وزنـــه وقيمته ، وقد أدى العلامة أحمد بابـــا التنبكتى خدمة جليلة للتاريخ حيـــث نقل كثيرا من تراجمه فى « ذيل الديباج» ويشاع انه كانت توجد منه بعض النسخ فى الخزائن الخاصة بالجزائر والمغرب ٠

ولنرجع الى مواصلة ما سبق لنـــا ذكره فيما يخص الاطوار التى استحالت فيها امارة ونشريس من امارة بسيطة، الى دولة ذات شأن تركت بصمـــــات أصابعها فى التاريخ وذلك من عهـــد الامير العبقرى عبد القوى التوجيـــنى الذى سبق لنا الحديث عن أخيه العباس ابن عطية الذى رافق الملك المنصـــور الموحدى سنة 584 هـ فى مسيرتـــه الى تتبع بنى غانية ولنترك الكلمة للمـؤرخ ابن خلدون الذى خصص لهذه المملكة فصولا مضبوطة مدققة فقال « ولما استبد بنو أبى حفص (1) بأمر افريقية ، وصارت لهم خلافة الموحدين نهض الامير أبـــو زكرياء الحفصى الى المغرب الاوســـط ودخلت فى طاعته قبائل صنهاجة وفرت زناتة أمامه ، وردد اليهم الغزو فأصاب منهم ، وتقبض فى بعض غزواته عـلى عبد القوى (أي الامير) ابن العبـــاس أمير توجين فاعتقله بالخضرة ـ تونس ـ ثم من عليه ، واطلقه على أن يستألف له قومه ، فصاروا شيعة له ولقومه آخـر الدهر ، ونهض الامير أبو زكرياء بعدها الى تلمسان فكان عبد القوى وقومه فى جملته ، حتى اذا ملك تلمسان ورجـــع

---

(1) تقدم لنا ان الملك المنصور لما لحق ببنى غانية وهزمهم بتونس عين عنـــد رجوعه والد الامير أبى زكرياء الحفصة عاملا عليها ولما توفى خلفه ولده أبـــو زكرياء فخلع طاعة الدولة المركزية وهذا ما أشار اليه ابن خلدون بالاستبداد ٠

الى تونس ، عقد لعبد القوى هذا على قومه ووطنه ، واذن له فى اتخاذ الآلة، فكانت أول مراسم الملك لبنى توجين هؤلاء » ثم تعرض ابن خلدون فى عدة مواضع لمشاركة ملك ونشريس فى رد عدوان الهجومات الصليبية التى شنها على تونس الملك الفرنسى سانلوي الذى لقى حتفه فيها ودفن بمدينة قرطاج ـ والى هذه الحادثة أشار ابن خلدون بقوله « ولما نزل النصارى الافرنجة بساحل تونس سنة ثمان وستين وستمائة (668) هـ وطمعوا فى ملك الحضرة بعث المستنصر بالله الحفصى ـ ولد أبى زكرياء الحفصى المتقدم الذكر ـ الى ملوك زناتة بالصريخ ، فصرفوا وجوههم اليه ، وخف من بينهم محمد بن عبد القوى فى قومه . وقد احتشد من أهل وطنه ، ونزل على السلطان بتونس ، وأبلى من جهاد العدو وحسن البلاء ، وكانت له فى أيامه معهم مقامات مذكورة ، ومواقف مشهورة ، عند الله محتسبة ، ولما ارتحل العدو عن الحضرة وأخذ محمد بن عبد القوي فى الانصراف الى وطنهم أسنى السلطان جائزته وعم بالاحسان وجوه قومه وعساكره ، واقطعه بلاد مغراوة (1) ، وجهات من الزاب »،ثم واصل ابن خلدون حديثه عن ونشريس وتطورها فقال « اخرج محمد ابن عبد القوى فى عهده الثعالبة الذين كانوا يحكمون جبل تيطرى وانزاحوا الى سبائط متيجة وأوطنوها .

نكتفى بهذا القدر لتوضيح أطوار مملكة ونشريس التى لقيت الجحود والعقوق من أبنائها حيث نجدهم يتطاولون على تاريخ ممالك ورجال لا يمتون لهم بصلة ، وأهلهم فى غنى عن تطفلاتهم ومع هذا يضربون صفحا عن تاريخ بلادهم واحياء ذكرى رجال اشتهروا بآثارهم فى الميادين البطولية والفكرية ، وممالك أو امارات كانت ولا زالت محل عناية المؤرخين النزهاء ، والانكى ان كثيرا ما يكتب بعضنا عن هؤلاء العلماء ونتهمهم ـ ظلما وعدوانا وغباوة ـ بأنهم كانوا كلهم يتقربون للملوك والسلاطين يحلون لهم الحرام ويشوهون التاريخ لترضيتهم ، ويعمون هذا الحكم القاسى الجاسر الذى لربما نجد أقلية ينطبق عليها ، أما تعميمه على علماء السلف فذلك خطأ وظلم وذكرت هذا بمناسبة تناول ترجمة هذا العالم أي أحمد بن يحيى الونشريسى الذى كان يمثل الشهامة وخلد له التاريخ مواقفه البطولية التى غادر بسببها عاصمة بلاده تلمسان وقد سبقه علماء آخرون خلد التاريخ مواقفهم مع ملوك زمانهم ـ الذى كان فيه الملك ملكا ـ ومن ذلك ما قاله عبد الرحمن

---

(1) بلاد مغراوة كانت اذ ذاك تحت حكم بنى منديل وعاصمتها مازونة وكان حكمها يمتد الى متيجة ومدينة الجزائر .

الثعالبى دفين الجزائر فى فهرسته يصف العلماء الذين أخذ عنهم ببجاية فى رحلته العلمية فذكر من بينهم تلامذة أحمد بن ادريس ـ صاحب المعهد بنواحى العزازقة ـ وتلميذه عبد الرحمن الوغليسى وأحمد بن ادريس هذا كان من مشائخ ابن خلدون قال الثعالبى انه وجدهما توفيا قبل وصوله الى بجاية الا انه أخذ عن تلامذتهما الذين كانوا على سننهما : « لا يعرفون الملوك ولا يترددون على أبواب قصورهم » ولم يخل تأليف من تآليف الثعالبى المذكور من تعرضه لاستعراض تآليفه التى ألفها واحدا واحدا مع ذكر سنه ويحث قراءه على عدم اهمال التعريف بأنفسهم لتتأكد الثقة فى التأليف ثم يصب جام غضبه على المؤلفين الذين يهدون تآليفهم للملوك والسلاطين فيقول « وينبغى للمؤلف أن يقصد به وجه الله • وما أقبح حال امرىء يقصد بأعماله عبدا مثله ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا » ثم اذا التفتنا الى من كتاب هذه الترهات ويرسلونها ـ من دون حياء أو خجل ـ فى التجمعات ان التفتوا الى أنفسهم ـ بالنقد الذاتى على حد تعبير المعاصرين ـ يجدون أنفسهم منغمسين فى الترف والتقرب لا الى الملوك والسلاطين ، بل الى الاذناب واذناب الاذناب الذين يصطادون فى الماء العكر وينالون مناصب وبمجرد ما تدور الدوائر عليهم يفرون منهم ويتنكرون لهم ، ولنرجع الى مواصلة حديثنا عن مواقف الثعالبى الذى ذكرناه كنموذج لاباة الضيمفانه استاذنه سكان الجزائر على صلاة الاستسقاء وكان ملازما لبيته أثر مرض فأجابهم بأبيات شعرية منها هذان البيتان :

يطوف السحاب بمزغنة ... بعذب فرات وماء زلال

يريد النزول فلم يستطع ... لجور القضاة وظلم الولاة

أأمثال هؤلاء يرمون بالتزلف والتقرب « **كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا** » ولنختم هذا الفصل بذكر شعار علماء الحديث السلفيين الذين لم تخن جائزة من جوائزهم ـ لتلامذتهم الذين كانوا يشدون اليهم الرحال ـ من هذه الوصية : « اتركوا اليأس مما فى يد الناس تعيشوا أعزة » وكان هذا شعارهم خلفا عن سلف •

ولنعد الى مواصلة بقية الحديث عن ترجمة أحمد بن يحيى الونشريسى التى ركزتها على بعض الجوانب المجهولة من حياته ، وأهم هذه الجوانب هو اكتشاف وثيقة كتبها فى تلمسان قبل نكبته بثلاث سنوات وهي عبارة عن تقريض تأليف استاذه أبى زكرياء يحيى بن موسى

المغيلى المازونى : « الدرر المكنونة فى نوازل مازونة » وهذا التقريض مجهول تماما ، اذ لم يشر اليه أحد من مترجمى الونشريسى المتوافرين بن صرح كثير من هؤلاء المترجمين للونشريسى أن تأليفه « المعيار المعرب ، عن فتاوى علماء أهل افريقية والاندلس والمغرب » انه استفاد فيما يخص فتاوى فاس والاندلس من خزانة تلميذه قاضى فاس فى عهده محمد بن الغرديس التغلبى قال أحمد بابا التنبكتى فى « ذيل الديباج » فى ترجمة أحمد الونشريسى ما يلى : « وبخزانة هذا الرجل ـ أي محمد بن الغرديس قاضى فاس ـ انتفع ، لاحتوائها على تصانيف الفنون ، وبها استعان فى تصنيف كتابه « المعيار سيما فتاوى فاس والاندلس فانما تيسرت له من هذه الخزانة قلت واما فتاوى افريقية وتلمسان فاعتمد فى ذلك على نوازل البرزلى والمازونى فيما يظهر لمن طالعهما » اه ٠

على هذه الوثيقة ، كما لم يشر أي أحد لها أو الى الظروف التى اجتمع فيها بشخصه المازونى اكتشف هذا التقريض بعد استقلال الجزائر وبالضبط سنة 1964 ، اكتشفه المرحوم الشيخ نعيم النعيمى مفتش الشؤون الدينية بولاية قسنطينة فى عهده اذ استعار نسخة « الدرر المكنونة فى نوازل مازونة » من خزانة الشيخ عبد القادر بن يسعد بقرية الدبة (1) ناحية قلعة بنى راشد قرب غليزان ـ فوجدنا ان النسخة نقلت من خط مؤلفها وعليها تقريض الونشريسى المذكور سماه ناسخه « بالاجازة » وقال انه نقله من خط الونشريسى وهذا نص التقريض « الحمد لله مستحق الثناء والحمد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد حائز أوصاف الكمال فى كمال المجد ، وبعد فانى لما طالعت السفر الثانى على أرمزة الانكحة والبيوع من التأليف الجامع المانع المطبوع المقيد هذا على أول ورقة منه المترجم بالدرر المكنونة فى نوازل مازونة جمع الفقيه الشيخ القاضى العالم العامل المفيد الجامع الشامل الحافظ الحافل الكامل المشار اليه فى سماء المعالى بالانامل ، الصدر الاوحد العلامة العلم الفضال ٠ ذى الخلال السنية ، وسنى الخصال شيخنا ومفيدنا وملاذنا وسيدنا ومولانا وبركة بلادنا أبى زكرياء سيدى يحيى ابن الشيخ الفقيه الامام علم الاعلام ٠٠٠ أبى عمران سيدى موسى ٠٠٠ الى أن قال « قد أحرز خصلها ، وجمع فرعها واصلها ، ورفع

(1) كان هذا الشيخ من المتخرجين على الشيخ بن محمد بن على المجاجى المتوفى سنة 1008 هـ وانتصب للتدريس بقرية الدبة وكون خزانة جمعت نوادر المخطوطات وضاع معظمها فيما ضاع من كتب التراث ٠

عنها نقاب الشيت والشكوك ، وأوضح نتائج الرسوم والصكوك ، وشحنه صاحبه أعظم الله مثوبته بكل نكتة بديعة ، من علم القضاء والفتوى ، وكل حقيقة ودقيقة تمس اليها الحاجة وتعم بها البلوى وحشد عيون نصوص مالكية المغرب والمشرق وجند ونشر الويته الخفاقة علي كل من ألف في الفن وبنى ··· ثم تعرض للظروف التى انتقل فيها المؤلف الى تلمسان وذلك ان المتوكل السابق الذكر عينه مستشارا فى بلاطه ··· ثم ختم هذا التقريض بقوله « والسلام الجزيل الجميل الاتم ، الاطيب الأهم يعتمد سيادة مؤلفه من كتابه العبد الفقير الجانى ، على البعد والتدانى ولحمها بالسر والمعانى عبيد الله تعالى أحمد بن يحيى بن محمد بن على الونشريسى خار الله له سبحانه وتعالى ولطف به وكتب فى العشر الاول (بيـاض) عام احدى وسبعين وثمانمائة عرفنا الله خيره » اهـ ·

هذه هي الوثيقة التى ركزت عليها ترجمة أحمد بن يحيى الونشريسى وهي علاوة على تقريض صاحبها لكتاب « الدرر » أفادنا بجوانب متعددة من ترجمة صاحب الدرر من بينها الظروف التى انتقل فيها من مازونة الى عاصمة البلاد تلمسان حيث لقى بها حتفه ودفن فيها مع ان مترجمى صاحب الدرر لم يخصصوه الا بسطور قليلة عرفوه فيها بأنه تولى قضاء مازونة ومات ودفن بتلمسان وفى ذلك قال امثل مترجميه صاحب « ذيل الديباج » : « يحيى ابن أبى عمران موسى بن عيسى المازونى قاضيها الامام العلامة الفقيه أخذ من الائمة كابن مرزوق الحفيد وقاسم العقبانى وابن زاغو وابن العباس وغيرهم ونجب وبرع والف نوازله المشهورة المفيدة في فتاوى المتأخرين أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم فى سفرين ومنه استمد الونشريسى مع نوازل البرزلى فيما يظهر لى ، وأضاف اليهما ما تيسر اي من فتاوى أهل فاس والاندلس والله أعلم توفى كما قال الونشريسى عام ثلاثة وثمانين وثمانمائة بتلمسان ووصفه بالفقيه الفاضل » اهـ ·

هذه صفحات من هذه الوثيقة الجوهرية بقيت مجهولة مغمورة نسج عليها العنكبوت بيته أهملها ورثة هذه الخزائن فلا هم استفادوا منها ولا مكنوا وسهلوا للمستفيدين أن يطلعوا عليها مع أن مؤسسى هذه الخزائن اشترطوا فى تحبيسهم الاهلية فى أعقابهم وقيمة هذه الوثيقة ليست منحصرة فى تقريض كتاب الدرر والاشادة بفضائل مؤلفها بل نجدها أيضا فى التعريف بمؤلفها والاشارة الى الظروف التى انتقل فيها الى تلمسان وذلك ان الملك المتوكل دعاه الى التدريس والاستشارة بالبلاط ثم تعرضه الى ترجمة والد المؤلف وجده الذين تولى

كل منهما القضاء بمازونة وكان والده من كبار المؤلفين حيث قال الونشريسى فيه « صاحب اليد الطولى والقدم الراسخ فى كل مقام ضيق وذى التصانيف التى كل لب اليها شيق المفتى المفيد المنعم أبى عمران سيدى موسى » ، ولولا هذا التقريض لما كنا نطلع على ترجمة هذا العالم الذى أهمله قومه ولم تحظ موسوعته الفقهية حتى بالاشارة اليها مع ان « المعيار » الذى نقل فتاويها حظي من جهته بالنشر وحظي مؤلفه بالتراجم المسهبة ، ولا زال محل عناية الباحثين ، بخلاف أستاذه ومفيده المزونى المذكور اللهم الا ان استثنينا ما قام به أخيرا أحد أعلام الفكر المعاصرين المستشرق الفرنسى جاك بيرك الذى خصصه بدراسة قيمة جعل موضوع سلسلة محاضرات بالجزائر ونشر بعض فصولها فى مجلة الحوليات التى تصدر بباريس · هذه هي الخطوط العريضة من ترجمة أحمد بن يحيى الونشريسى خصصتها للعدد الخاص من مجلة الاصالة وقد ركزتها على هذه الوثيقة الجوهرية ·

الونشريس مهد كفاح بعيد وقريب

د· صارى الجيلالى

(جامعة هوارى بومدين ــ الجزائر)

من بين الجبال التى لعبت دائما دورا بطولى فى المقاومــة ضــد الغــزاة والمضطهدين هي تلك المرتفعات الشاهقة الواقعة جنــوب سهــول وادى الشلف والمرتبطة بالتيترى شرقا والتى كانــت تكسوها غابات كثيفة بدون انقطاع الى قبيل منتصف القرن (I) العشرين (م) ألا وهو الونشريس (2) والذى يمثل همزة وصل بين التل والصحــراء نظرا الى موقعه الجغرافى (انظر الخريطة) ·

ومثل هذه الميزا تـالطبيعية الرئيسية جعلته مؤهلا للقيام بدور هام عبــر العصور الغابرة والحديثة كما اثبتت ذلك البحوث التاريخية الموضوعية وكذا الوثائق المختلفة وخاصة التى لا زالت موجودة الى الآن ويستطيع أن يلتمسها كل ملاحظ مثل الثكنا تـالثلاثة الضخمة التى شيدت فى أماكن استراتيجيــة فى منتصف القرن الماضى من طرف الجيوش الفرنسية لاخماد الثورات الشعبيــة ، وهناك أيضا علامات أخرى غير مباشرة لاستمــرارية هذا الكفاح وهي تتجلى فى انعدام معظم الغابات بعد تعميم استعمال النابالم من طرف الطيران الفرنسى أثناء حرب التحرير ·

والغرض من هذا العرض هو الفات النظر الىهذا الدور الاساسى فى اثبات الشخصية الجزائرية عبر العصور أمام كل احتلال أجنبى ولكننا نكتفى بالنقط التاليــة :

ــ عبرة المقاومة أثنـاء الاحتــلال الرومــانى ·

ــ المقاومة العنيفة ضد الاحتــلال الفرنسى ·

(I) انظر بحثنا الخاص بهذا الموضوع
Problèmes de l'environnement lans les pays sous-développés : le déboisement de l'Ouarsenis, dans recherches sur l'Algérie, Paris, CNRS, 1975, V. 17, p. 105 - 164.
R. Basset

(2) ومعنى هذا اللفظ : « ما ليس أعلى منه » وبالفعل ليس هناك قمة أعلى من قمة كاف عمار (1980 م) ·
R. Basset : (Ciornale della societa Aiosotn Italiana, Vol. X, 448) et Brockelmann : Geschichte der Arabischen Literatur, t. II, 248) cités par Pérez dans « Extrait d'al Miyar », Alger, 1940.
ويبدو أن كلمة ورشريس هي تحريف لــ : Ouarensis, Ouarcharis, Ouarsenis

(1) عبرة المقاومة أثناء الاحتـــلال الرومـــانى :

بالرغم من امتداد طول مدة الاحتلال الرومانى التى استغرقت ما يقرب مـــن 6 قرون (من الاستلاء على كارتاج فى 148 قبل الميلاد الى ظهور الفاندال فى 429 بعد الميلاد) وبالرغم من الاستـــلاء على جزء كبير الاراض الجزائريـــــة بالشمال بفضل وجود جيوش عديـــدة متمركزة فى عميات وخاصة بمركـــب اليمس (Pimes) وبالرغم ايضا مـــن انشاء شبكة من المدن المحصنة فـــان الاستعمار الرومانى لم يتوصل بعد الى احتلال بعض المناطق الجبلية وخاصــة الونشريس · وهنا لابد أن نطرح أسئلة هل السبب الرئيسى يرجع الى مقاومــة السكان أم الى عدم رغبة المحتلين انفسهم كما انه من الممكن أيضا أن نفرض قلــة وجود السكان بالمرتفعات ·

1 ـ شواهد استطانة قديمة جدا

بالنسبة للمناطق الشرقية فان بقايا الحضارة القديـــمـــة ضئيلـــة جـــدا بالونشريس بصفة عامة الا انه هنـــاك شواهد لها أهمية هامة بحيث أنها تبين بصفة قطعية استطانة هذه المرتفعـــات منذ 7 الى 8000 سنة تقريبا أي منـــذ ثبوت الغطاء النباتى للزمن الرابع (3) ·

وبالفعل قد عثر على شواهد مختلفة وذات قيمة تاريخية أعظمها من الاحجار المستعملة من طرف الانسان وهي كثيرة بمنطقة وادى رهيو (انظر الشكل) وخاصة بمحطة Columnata بالقرب من تيارت (4) وقد احتوت هذه المحطة على عدة طبقات تكاد تكون متكاملة من عهد الحجرى القديم الى عـــهد اكتشـــاف الزراعة وحسب الباحث Camps (5) فان ظهور هذه الاخيرة يرجع الى حوالى القرن الثانى قل الميلاد ·

وهكذا نستخلص أن جبال الونشريس قد عرفت استطانة قديمة وكان السكـــان بها يتعاطو نالزراعة قبيل الاحتــــلال الرومانى لكارتاج والزراعة معناهـــا وجود علاقات وثيقة تربـــط الانســـــان بالاراضى التى يعيش فيها اذ انهـــا تضـــمـــن له العيش ولا يستطيـــع أن يغـــادرها فجأة بدون أن يجعل حياته فى أخطار وهل هذه الخلاصة تتمـــاشى والملاحظات التالية ؟

2ـ شواهد المقاومة العنيفة

لو كانت هذه الجبال قليلة السكان لما اضطر الرومان الى بذل جهود هامة لحماية الاراضـ ىالقريبة منها وخاصة سهول وادى الشلف وعلينا أن ننتبــــه الى المنشآ تـالتى تاكد الاخطار الـــتى

---

(3) J. Dresch : *Le changement de climat en Afrique du Nord*. Information Géographique, Paris, n° 3, 1960, p. 107 - 113.
(4) Cadenat Recherche sur Columnata, Libyca, Alger, 1966, p: 21 - 114.
(5) Camps : Les civiisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara. Paris, Doin, 1974, 366 p..
et : Aux origines de la Berbérie, Massinissa, Alger, 1966.

كانت تهدد الوجود الاجنبي بالقرب من الونشريس .

ان مراكز وادى الشلف عبارة عن محميات مثل Oppidium Noum (عين الدفلة) و Tigaua Sastra (أولاد فارس) و Castellum Tingitannm (الاصنام) ... وما هذه المراكز المحصنة الا جزء لا يتجزء من موكب اليمس كما أكد ذلك Courtois (6) وقد أضاف هذا الاخير ما يلي :

« ان الآثار (الرومانية) خالية بالمنطقة الوسطى (للونشريس) وأكثر من ذلك فان المحتلين اضافوا جزءا آخر للمركب الرئيسي لليمس بجنوب المرتفعات » .

وأما الاسطورة التى تحدث عنها R. Basset والمتعلقة بأميرة الرومان التى عاشت بقمة بالخيرات والتى حاربت العرب فانه لا أهمية لها ولا معنى لها بل ان هذه الاميرة انما هي رمز لبطولة المرأة أمام الاخطار (7) وحسب أساطير السكان بالمنطقة ان هذه الاميرة كانت عدوة الروم أي الاجانب .

3 ـ أسباب المقاومة

يستخلص مما تقدم أن الاستطانة بالونشريس قديمة جدا كما هو الشأن بمعظم الجبال وعدد سكانه كان من دون شك مرتفعا بحيث أنهم استطاعوا أن يفرضوا وجودهم واستقلالهم أمام غزاة اضطروا أمام هذه المقاومة والصمود أن يشيدوا مجموعة من المحميات للدفاع عن مراكزهم شمالا وجنوبا وكل هذا يتأكد لنا في الحوادث التالية حينما ارسلت روما أحد قوادها المشهورين وهو Théodose من أجل اخماد ثورة تبناه Firmus من 372 الى 375 م وقد انضم الى هذا الاخير حينما وصل Théodose الى وادى الشلف جماعة من القبائل الجبلية منها Mykines Macices (8) وربما تكون هذه القبائل التى يصعب تحديدها فى المكان بالضبط من قبائل الونشريس .

ومما يثبت هذا الرأي الملاحظات والاحداث التالية التى تجسدت فى الثورات الشعبية التى استمرت طويلا بعد ظهور المسيحية واصبحت هذه الاخيرة تكتسى صبغة محلية خاصة تعرف باسم Donatisme وصار أصحابها يحاربون الكنيسة الرسمية المستغلة والمضطهدة للجماهير وقد تعززوا بعد ذلك بانضمام البؤساء (9) المستغلين من طرف المعمرين الرومان

---

(6) C. Courtois : Les Vandales et l'Afrique du Nord. Paris, 1955.
(7) R. Basset : Etude sur la Zénatia de l'Ouarsenis et du Maghreb Central. Paris, 1895.
(8) Gsell : Considérations géographiques sur la révolte de Firmus. Recueil de la Société Archéoogique de Constantine, 1902, V. 26.
Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris, 1960, t. I, p. 220.
(9) Bouamrane Cheikh : Saint Augustin et la Résistance populaire donatiste. Revue des Sciences Sociales, Alger, n° 1, 1979, p. 91 - 98.

وكبار الملاك واسم هؤلاء البؤساء هـو Circonceltions (أي ما يحوم حول المـــزارع) ٠

وهكذا ندرك الاسباب الرئيسيـــة للثورات الشعبية والمقاومة المستمـــرة بالمرتفعات طيلة ذلك العصر الطويل وهي الاسباب الاقتصادية والسياسية قبل كل شيء وهناك ظاهرة بارزة لابد مـــن التأكيد عليها خاصة بجبال الونشريس وهي ان السكان لم يرتبطوا بـــأراضى جبالهم فحسب بل كانوا دائما فى حاجة الى استغلال الاراضى الموجودة بالسفوح وحتى أراضى السهول شمالا وغربـــا كما لاحظ ذلك الخبراء الفرنسيس أنفسهم بعد الاحتلال وما هــذه الظـاهـرة الا برهان قاطع للنظرية الاستعمارية التى كانت تدعى وأن الجـبـال بالشـمـال الافريقى هي ملجأ للسكان ٠٠٠ بل ان السكان اعتصموا بالمناطق الجبليـــة لا لتجنب الغزوات وانما هي المناطـق الصالحة للاستطانة نظرا الى الاخطار التى تمثل السهول سواء فى الصيـف (ارتفاع الحـــرارة) أم فى الشتـاء (الفيضانات والجراثيم) فالجبال قـد خصصت للاشجار مع السفوح وذلـــك لوقايتها من التعرية ، بينما أن السهول خصصت لزراعة الحبوب والاقتصـاد الرعوى ٠ وكل هذا يبين التكامـــل الاقتصادى وبالتالى ضرورة استغلال كل الاراضى كما بيناه فى أطروحتنـــا وفى أبحاث كثيرة (10) ٠

(2) المقاومة العنيفة ضد الاحتـــلال الفـــرنسى

زيادة عن الاسباب الرئيسية الـــتى ذكرت ، هناك عامل جديد قد لعب دورا هاما اثناء الغزو الفرنسى ، فبالاضافة الى ارتباط السكان بأراضيهم وتعلقهـم بها ، فانهم لبوا دائما دعوة كل منادى الى الجهاد باسم الدين الحنيف كمـــا يتجلى ذلك فى مقاومات بومعزة وسيدى الازرق مثلا فى منتصف القرن الماضى ٠

1 ــ المقاومة ضد الغزو الفرنسى

كما أشرنا الى ذلك فى المقدمة هناك على الاقل ثلاثة ثكنات ضخمة فرنسيـة بالونشريس تؤكد عن الحوادث الدموية التى عرفتها المنطقة خلال القرن الماضى وتوجـدهذه المحميات فى ثنية الاحد ، وعمى موسى وزمورة ، أي فى أماكـن معينة كانت مسرح معارك طاحنة بيـــن السكان والجيوش المجهـزة بأسلحـــة فتاكة ٠

وقبل تشييد هـــذه الثكـنـات فان Bugeaud قد اضطر الى بناء مدينة الاصنام فى 1842 ــ 1843 اي فى وادى الشلف لحصار وقمع الونشريس خاصة

(10) Dj. Sari : L'homme et l'érosion dans l'Ouarsenis. Alger, 1977, SNED, 625 p.
Les problèmes de l'environnement dans les pays sous-développés, dans Recherches sur l'Algérie. Paris, CNRS, 1975, V. 17, p. 104 - 164.

وأن هذه الجبال كانت تحمى قاعدتين هامتين للامير عبد القادر وهما تاقدمت بالقرب من تيارت وتازة ، جنوب ثنية الاحد ، فانطلاقا من الاصنام استطاعت الجيوش الفرنسية أن تغزو الجبال وأن تشن غارات ضد القبائل ولم تتمكن من ذلك فى سنوات 1842 ـ 1843 الا بعد ما أن لجأت الى الوسائل الاستثنائية أي قطع الاشجار والاستلاء على الانعام وأخذ الرهائن من نساء وأطفال (11) وشيوخ ·

ولكن بالرغم من ذلك سرعان ما تجندت القبائل حينما ترددت بالونشريس أصداء دعوات البطل الشريف الذى كان يدعى بمحمد بن عبد الله المعروف لدى الاوساط الشعبية ببومعزة (12) وهو يخوض معارك ضارية بجبال الضهرة بالشمال فقد استئنفت المعارك من جديد وتعممت فى أقاليم عديدة هددت الجيوش الفرنسية خاصة وان معظم المتعاونين معهم فروا والتحقوا بصفوف محمد بن عبد الله وأمام هذا الوضع لجأ الضباط المحتلين الى تعميم وسائل التخريب وابذلوا كل ما فى وسعهم الى القاء القبض على عدد كبير من المكافحين وحينما سقط فى ميدان الشرف عدد هام من (13) المجاهدين والعزل وذلك فى سنة 1847 ·

ولم تكن هذه المرحلة آخر المقاومة بالقرب التاسع عشر بل فى مطلع سنة 1864 ما ان شيدت قلعة ثنية الاحد لتمركز أحيانا 8000 جنديا فى منتصف ذلك القرن ، لبت القبائل الموجودة بين وادى رهيو ووادى منا ء بغرب الونشريس دعوة سيدى الازرق أحد أفراد عائلة القبيلة فلقد استطاع هذا القائد والزعيم الدينى وابنه العزيز وصفوفه أن يفرض قوتهم وعزيمتهم أسابيع طويلة أمام أعظم جيثران من جينرالات الفرنسية وهو Lappasset بحيث ان هذا الآخر تراجع عن مهمته وتمرك بغيلزان وطلب النجدة من قلعة الاصنام ثم من فرنسا نفسه وكادت المعارك أن تنتشر الى الضهرة ، وبالقرب من المراكز الاوروبية بقرب غليزان لولا هذه النجدات من فرنسا ·

وقبل أن نذكر نتيجة هذه المقاومة علينا أن نشير الى أهميتها فى تاريخ

---

(11) Tableaux de la situation des établissements français en Algérie. Paris, 1843 - 44.
وهي العمليا تالتى قام بها الجنرال Changarnie والجنرال Yusuf .

(12) علينا أن نميز بين هذا البطل والبطل الثانى الذى يحمل نفس الاسم واللقب والذى واصل الكفاح فى الجنوب من 1851 الى 1861 بعد ما القي عليه القبض ونفيه الى فرنسا الى أن أطلق صراحه نابليون الثالث فى سنة 1862 ·
فالشريف محمد بن عبد الله الذى تزعم المقاومة ابتداء من سنة 1845 خاض المعارك بالشمال بجبال الضهرة ولم يستسلم الا فى سنة 1847 وبعد نقله الى فرنسا أطلق سراحه فالتحق بالجيش العثمانى وفيه نال رتبة عقيد ·

(13) Le général Lapasset, par un ancien officier de l'Armée du Rhin. Paris, 1899, 2e édition.

القطر الجزائرى ، فان مقاومة سيدى الازرق أو قبيلته كما عبرت عنها السلطات الاستعمارية انما هي جزء من مقاومة الجنوب الوهرانى التى اشرف عليها أولاد سيدى الشيخ والتى شارك فيها أبطال المقاومة السابقة مثل سيدى الاعلى ذلك الصنديد الذى اعترف به أعداؤه مثل Trumelet (14) وناصر ابن شهر وغيرهم وفى الواقع أن هذه المقاومة شملت مناطق أخرى واستمرت أشهرا طويلة خاصة بالجنوب ولم تنته نهائيا الا بعد مقاومة بوعمامة (1882) ...

وأما بغرب الونشريس فقد كانت المعارك ضارية الى أن وصلت الجيوش القادمة من ميناء مستغانم تحت قيادة الجنرال Rose وتدعمت بجيوش Lapasset وجيوش أخرى تحت الوالى العام بالنيابة ونظرا الى هذا التناسق من جهة وتعاون بعض العلماء مثل لاغا عمي موسى وابناءه من جهة أخرى وبعدما أن سقط عدد هام من المجاهدين يقدر ببضعة آلاف من بينهم سيدى الازرق كما تشهد على ذلك الوثيقة التى عثر عليها Lapasset فى جثته وذلك بأراضى دوار دار بن عبد الله فى غرة جوان 1864 فان القبائل اضطرت الى الاستسلام خاصة بعدما أن ارغمها Lapasset حينما التجأ كعادة الضباط الآخرين الى قطع البساتين وأخذ رهائن من النساء والاطفال كما صرح بذلك بنفسه فى مذكراته وبعدما أن أفرض غرامات باهضة قدرت بمليونين من الفرنكات حسب ما صرح بذلك فى احدى رسائله (15) فقد جاء فى احدى الوثائق للجنرال Lapasset ما يلى :

« 2 جوان : احترقت أراضى أولاد العابد وأولاد عيش وأولاد الدنيكر .

3 جوان : قهرنا كل قبائل عمى موسى

4 جوان : استسلمت 7 قبائل .

5 جوان : تدمير أراضى غمامرة وأولاد الصابر (الاستلاء على 15000 راس من البقر) .

14 جوان : توغل كتيبتين فى وادى رهيو : ان قرى مكناسة احترقت ابتداء من 14 جوان غارات عامة لاربع فصائل وذلك لقمع النهائى للقبائل التى تواصلت مقاومتها الى 3 جوليت » (16) .

وما هذه التصريحات الا نظرة وجيزة عن عنف القمع والدمار الذى أرغم السكان الى الاستسلام وقبول الامر الواقع وحبذا لو شيد تمثالا فى احدى

(14) « Homme d'un rare audace... que nous avons toujours trouvé devant nous dans les « combats que nous avons livrés dans le Sud algérien pendant ces zeize dernières années. « Il a exécuté sur notre territoire et jusque dans le Tell des pointes d'une témérité « inouïe, et qui eussent suffi pour illustrer un général européen », in Le général Yussuf, Paris, 1890.

(15) Le général Lapasset.

(16) الارشيف للولايات العامة بالجزائر سابقا ، 873

هذه المسارح تخليدا لتضحيات القبائل فى نفس المكان الذى قال عنه Lapasset ما يلى أي فى القرية الموجودة الآن وهي الرحوية :

« من دون شك هنا وفى المستقبــل يشيد تمثالا ليطلع المارين عن ضحايانا وعن الخسائر التى الحقنا بها قبائل افليتا » (17) ·

وبفضل هذه المعلومات الموجــزة نستطيع الآن أن ندرك معانى ومغـزى وجود تلك الثكنتين الضخمتين الموجودتين فى عمى مـوسى وثى زمـــورة التى كتبت عليها الآن وعلى جدرانهـا ملخص ذلك التاريخ الدموى خاصــة وان الاستبداد الاستعمارى تواصل بعد 186 بصفة خاصة فقد تواصل بضــرب غرامات باهضة ضد السكان الذيــن اضطروا الى استعمال الغابات كمــا تبين فى الغرامة التى أجبرت بها بعض القبائل بعمى موسى عام 1893 والــتى ارتفع مبلغها الى 84·641،23 ف وهــو المبلغ الذى لا مثيل له فى باقى الوطن أثناء كل مدة الاحتلال الفرنسى (18) · الم يكتب أحد أفراد لجنة التحقيق بهذا الشأن ما يلى بصدد سكان ثنية الاحد :

« ان الغرائم تهـطـل عليهـم مثـل الوبــل » (19) ·

ومهما يكن من أمر وبالرغـم مـن سوء العيش ومرارته أثناء مدة طويلة فان السكان لم ييأسوا وانتظروا بفارغ الصبر دعوة جديدة للجهاد وذلـــك ما حدث أثناء حرب التحرير ·

2) مشاركة الونشريس فى حــرب التحرير والدورالذى لعبه :

ان كل من يتتبع ذلك بصفة مباشرة أو غير مباشرة الا ويستطيع أن يكتشف العلامات والشواهد فى الميدان اذ ان آثار التدمير بالنابالم قد عثرت عليهـا بسهولة وبدون اعانة ابتداء من سنة 1969 وجدتها بالاخص فى غابات الوسط واستطعت بذلك أن ألتقط عدة صــور شمسية وحاولت أن أنشــر الاهــم منها (20) ، (انظر الصورتين 2 و 3) ·

وأما الملاحظ الذى يريد أن يتعمق فى الموضوع فما عليه الا أن يواصل أبحاثه عبر المرتفعات وان يستعين بالاشخاص الذين عاشوا الحوادث وتاثـروا بهـا فيدرك تدريجيا دور الونشريس فى الحرب التحريرية فيعرف مثل ان هذه الجبــال كانت تأوى محطات رئيسية لكل مــن الولاية الخامسة (وهي التابعة للقطاع الوهرانى) والرابعة (وهي التابعــة للقطاع الاوسط مع جبال القبائل) وقــد جرت فيها عدة معارك ونظرا الى الموقع

(17) Le général Lapasset, op. cit., t. 2, p. 26.
(18) Bulletin Officiel du Gouvernement Général de l'Algérie. Alger, 1893, p. 83 - 84.
(19) Pensa : L'Algérie, voyage de la délégation sénatoriale. Paris, 1894.
(20) Dj. Sari : L'homme et l'érosion dans l'Ouarsenis. Op. cit., p. 96.

الجغرافى البارز فان السلطات العسكرية الفرنسية قد تجندت وبذلت أقصى مجهوداتها لقمع الكتائب وقد حاول الجنرال شال مثلا أن يقضى على الثوار فى سنة 1960 بواسطة عمليات مختلفة (21) ·

وهناك ملاحظات أخرى تبين لنا قساوة الكفاح فى هذه الجبال فلقد أعدت السلطات الفرنسية « كتائب » مضادة اشرف عليها المدعو Kobus (وهو بلحاج الجيلالى) (22) فضلا عن تجنيد ما كان يسمى بالحركة أي المتعاملين مع العدو وقد تم هذا من طرف رئيس المجلس الفرنسى للنواب وهو البشاغا بوعلام الذى كان يملك مزرعة بالقرب من قرية الكريمينة ·

وما هذه المعلومات الوجيزة الا برهان عن تلك الفترة البطولية التى اشتهر فيها عدد كبير من المجاهدين ومن أشهرهم نقتصر على ذكر سى امحمد (محمد بومعزة) أحد رؤساء الولاية الرابعة ، وكذلك سى محمد وهو أبو نعامة الجيلالى من مواليد برج بنى هندل حيث ولد فيه J. Berque والذى أصبح يدعى الآن باسم البطل الذى استشهد فى 8 أوت 1961 أي قبل بضعة أشهر قبل الاعلان عن وقف اطلاق النار ·

واسم أبو نعامة أصبح مربوطا بما سجله التاريخ بمعركة الونشريس وهي تلك المعارك الطاحنة التى استشهد فيها مئات من الشهداء ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نذكر أهم ما رواه لنا أحد أمناء الناحية حسب ذكريات ثلاثة ضباط من جيش التحرير (23) ·

وقعت هذه المعارك بعد ما قررت السلطات الاستعمارية أن تقضى نهائيا على مقاومة الونشريس فأحضرت عددا هاما من جنود اللفيف الاجنبى قدر تقريبا ما بين 20000 الى 30000 رجلا واستغرقت العمليات من منتصف شهر مارس الى شهر جوان 1959 وقد امتازت العمليات بتدخل الطيران طيلة المدة على وجه العموم ومش بذلك الخطر الكبير والعنيف بالنسبة للمجاهدين فابتداء من تجمع اللفيف الاجنبى اشتدت المعارك وفجأة تدخل الطيران فأحرقت الغابات وتأثر لذلك صفوف المكافحين وبذلك قدرت الخسائر بعدة مئات من كلا الطرفين خاصة فى شهر أبريل وأمام هذا الوضع وصلت نجدات من المناطق المجاورة لتدعيم المجاهدين بينما ان اللفيف الاجنبى كان

لقد نشرت الجريدة اليومية « المجاهد » باللغة الفرنسية ملخصا قيما عن تلك العمليات (انظر أيام 24 الى 27 أكتوبر 1979) ـ وانظر أيضا :
Massu : La vrai Bataille d'Alger. Paris, 1974.
(22) Y. Courrière : La guerre d'Algérie. Paris, 1970, t. III, p. 41.
(23) Récits de Feu, témoignage sur la guerre de la libération nationale. Alger, 1977, 2e éd. p. 119 : La bataille de l'Ouarsenis.

يتدعم هو الآخر بنجدات متواصلة ونظرا الى عدد القتلى فان الهواء صار ملوثا والتراب مبللا بالدماء ٠٠ وبالفعل بلغ عدد الشهداء فى شهر ماي 500 وفى نهاية هذا الشهر اضطرت السلطات العسكرية الى أن تزرع الجبال بجنودها بحثا عن بقية المجاهدين وكان رد فعل بونعامة أن يتمثل فى ارسال رجالا من الكومندو فيقاتلون مع العدو بالسلاح الابيض ثم يغررون بأفراد فجأة وهكذا الى أن تدخل الطيران من جديد ٠

وفى الاخير وبعدثلاثة أشهر من النار والدم تراجعت السلطات الاستعمارية عن مخططاتها الجهنمية بعد ما ان تكبدت خسائر فادحة فى الارواح والعتاد (اسقاط عدد من الطائرات المقاتلة والمقنبلة) وقد قدر عدد الشهداء بحوالى 1400 أي ما يمثل 3 من الفصائل فأكدوا بذلك ارادتهم وارادة المكافحين فى مواصلة الجهاد من أجل تحرير الوطن ٠

وهكذا يستطيع الآن المار بهذه المرتفعات أن يتأمل فى هذا التاريخ كلما وصل الى بعض القرى التى تحمل أسماء الكتائب البواسل مثل الازهرية (عين للو سباقا) والحسنية (وهي مقر بلدية انشئت فى أوائل الاستقلال وتقع شمال ثنية الاحد) والكريمية بسهل وادى الفضة ٠ وأملنا فى المستقبل القريب أن تشيد تماثيل فى أهم الاماكن تخليدا لارواح شهدائنا وبطولتهم وعبرة للاجيال الصاعدة وحتى ينتبه الى ذلك الكبير والصغير ، الامى والمتعطش لمعرفة الاحداث والتاريخ ٠

الخلاصة :

لجبال الونشريس مكانة هامة فى تاريخ الجزائر القديم والحديث فلقد كان وظل مهد كفاح مستمر ضد المحتلين والمستغلين وان كان هذا التاريخ الحافل بالبطولة والصمود لم يحلل ولم يصنف بعد بالرغم من كثرة العلامات والشواهد سواء كانت ترجع الى العصور الغابرة أو الى العهد المعاصر ٠

ورجاؤنا فى انتظار نشر الكثير عن هذا الماضى البارع أن تقوم السلطات المعنية بالامر فى أقرب الوقت بتشييد تماثيل تخليدا لبطولة وتضحيات شهداء حرب التحرير ، كما اننا نرجو تحقيق ذلك المخطط الذى أعددناه من أجل استصلاح أهم الغابات وذلك للحفاظ على تربة المرتفعات واحتراما لتلك السفوح التى تغذت من دم الشهداء والتى أعانت استمرارية الكفاح عبر العصور ، فضلا عن دورها الهام والفعال فى الحفاظ على التوازن الطبيعى ٠

وبهذه المناسبة نتقدم بمشروع آخر يندرج دائما فى هذا الاطار ويتماشى

وتوصيات اللجنة المركزية ، وهو تحويل ثكنة ثنية الاحد الى متحف ياوى فى أجنحته أسرار هذا التاريخ الطويـــل كما هو الشان بالمتاحف الموجودة فى عدد كبير من بلدان العالم ، اي أنـــه يشتمل على كل ما يعبر عـن الحـــياة الشعبية العادية (الادوات الزراعية ، الثياب ٠٠٠) والغير العادية (الاسلحة وغيرهـــا) ٠

ونرجو الا تبقى هذه الاقتراحات مجرد حبر على ورق وان يلتفت اليها كل مـن يعنيه الامر بصفة مباشرة أو غيـــر مباشرة والله فى عون العبد مـا دام العبد فى عون أخيه ٠

الشهيد عبد الواحد الوانشريسي
955 هـ ـ 1549 م

عبد الرحمن الجيلالي

الوانشريسي بالنون وشينين معجمتين كما ضبطه ياقوت الحموى أو ونشريس بالسين المهملة فى آخره مع فتح الشين الاولى أو كسرها ، ويمد الواو أو حذف المد ، أو كما ينطق به العامة (وارسنيس) فهو دائما اسم لذلك العلم الشامخ المرتفع من الاطلس ألتلى بالشمال الغربى من أرض الجزائر المجاهدة ، أو نقول هو ذلك الجبل الباذخ الذى يتراءى لك شمال نهر شلف وجنوب غربى عاصمة الجزائر (دار الجهاد) كما كانت تسمى وتعرف به من قبل ولا تزال . يمتد فيما بين مدينة مليانة شرقا وتلمسان غربا وتبلغ قمته الى مرتفع عال جدا) 1985 مترا) وصدق من سماه (عين الدنيا) وهو الاسم الذى يطلق على هذا المكان الى الآن ؛ فهو بحق العين المبصرة التى كان المجاهدون فى حرب التحرير المتحصنون والمحتمون بهذا الجبل يبصرون العدو من هذا المكان على بعد منهم فيقضون عليه ، فكانت لهم هذه العين (عين الدنيا) كعين الزرقاء ـ زرقاء اليمامة ـ أو أحد ، وهكذا قل فى التاريخ الماضى ايام توغل الاستعمار فى الوطن : فكانت هناك معركة وانشريس 1846 م وبناحية فليتة وحوض الشلف ، ومعركة خنقة العازر الشهيرة وتخريب معسكر الرحوية (1864 م) الخ ...

وهو الى ذلك موقع جميل ممطر ومنتج يكثر فيه العشب والكلأ علاوة على ما يحويه من كنوز طبيعية وثروة منجمية ثمينة .

ومن أشهر العشائر به : عشيرة بنى وعزان ، وشوشاوا ، وبنى هندل ، وتاملاحت ، وأولاد بو سليمان ، وحرشون وأولاد غالية ...

ولقد كان لهذا الموقع من تراب الجزائر تأثير عظيم فى تطوير الحياة العامة بالجزائر ، سياسيا وعقليا واقتصاديا ، فهو كما أنه كان قلعة حصينة للجهاد بالسيف فهو الى ذلك قلعة ورباط حصين

للمنقطعين للجهاد فى سبيل العلم والمعرفة فكنا لذلك كثيرا ما نجد فى تراجم رجال الثقافة والحصافة والذكاء بالجزائر من ينتسب الى هذا الموقع ، فهذا أبـو محمد عبد اللـه بن محسن الونشريسى الملقب بالبشـير ، صاحب ابـن تومرت مهـدى الموحدين ، وهـذا سحنون بـن عثمـان الميـدوى الونشريسى صاحب كتـاب : « المحتاج » الذى شرح به نظم السراج فى عـلم الفلـك للشيخ عبـد الرحمن الاخضرى ـ مطبـوع ـ وأبـو الـربيع سليمان الونشريسى كان يقرىء التفريع لابن الحلاب والمدونة ، وكان يقوم عليهما أتم قيام ، وهذا القاضى أبو على الحسن ابن عثمان بن عطية الونشريسى ، ذكـره لسان الدين بن الخطيب فى (نفـاضة الجراب) فقال : « كـان فقيها عدلا مـن أهـل الحساب والقيام عـلى الفرائض والعناية بفروع الفقـه ، وكان يقـرض الشعر ، له أرجوزة فى الفرائض مبسوطة العبارة مستوفاة المعنى » ٠ قال التنبكتى : وقفت على رجزه فى الفرائض وهو حسن سلس ، وله الى ذلك فتاوى نقـل بعضها أحمد بـن يحيي الونشريسى فى كتـابه المعيـار ٠

وهذا عمه الحسن بن عطية ذكـره الاحمر فى فهرسته فقال : شيخنـا الفقيه المفتى المدرس القاضى الفرضى الاديب الحاج أبو عـلى بن الشيـخ الصالح عطيـة الونشريسى ، قال : وأجـازنى فى المـوطـأ رواية يحيـى ابن يحيى ٠٠٠

واشهر الجماعة اثنان ، هما أحمـد الونشريسى وولده عبد الواحد ـ الشهيد فالاول هو أحمد بن يحيى الونشريسى حامل لواء المذهب عـلى راس المائـة التاسعة ، عرف به المقرى فى مواضع من كتابه نفح الطيب فقال : « هو شيخ شيوخ شيوخنا الامام الكبير المؤلـف الشهير عالم المالكيـة سيدى أحمـد الونشريسى صاحب التآليف العديـدة كالمعيار والجامع المغـرب فى فتـاوى افريقيا والاندلس والمغرب ، وهو فى ست مجلدات (طبع فى 12 مجلـدا بفاس 1314 هـ) ، قال ولو لم يكن له غيره لكان كافيا ، وله مصنفات كثـيرة غيره أكثرها فى مذهب مالك ولم يؤلف فى المذهب مثلها ٠ ذكرها صاحب جذوة الاقتباس ، ولم يطبع منها سوى المعيار وكتاب الولايات ـ ترجم الى الفرنسية ٠

وحكى عنه المنجور فى فهرسته فقال : « كان مشاركا فى فنون من العلم الا أنه لازم تدريس الفقه ، يقول من لا يعرفه انه لا يحسن غيره ٠ وكان فصيح اللسان والقلم حتى كان بعض من يحضره يقول : لو حضره سيبويه لاخذ النحو من فيه ٠

كان مسكنه تلمسان فنقمت عليه الحكومة الزيانية بتلمسان أمرا فانتهبت داره ففر الى مدينة فاس فى أوائل شهر المحرم سنة 874 هـ/1469 م ، فأقام بها منكبا على كتاب المدونة وفرعى ابن الحاجب فى فقه المالكية ، تخرج به جماعة هم اساطين الفقه المالكى بالمغرب العربى ، منهم عبد السميع المصمودى، ومحمد بن عبد الجبار الورتديغى ، والقاضى محمد بن الغرديس ، وآخرون ... وتوفى رحمه الله بمدينة فاس يوم الثلاثاء 20 صفر 914 هـ - 1508 م .

والثانى هو ولده الشهيد عبد الواحد ابن أحمد الونشريسى ؛ ولد رحمه الله بعد سنة 880 هـ ، فأخذ عن والده وعن أعيان علماء المغرب الاسلامى فى عصره، كالشيخ ابن غازى ، والهبطى ، والحباك، وابن هارون ، والزقاق ، واضرابهم ... وبرع فى علوم الشريعة والادب ، وكان رائق الخط فصيح العبارة فائق الانشاء لا سيما فى انشاء الخطب ، فانه كان آية فى انشاء الخطب البليغة ، فيكتب بدون تكلف ، وشاعرا أيضا ، متقدما فى الوثائق والمكاتبات عدلا مهيبا ذا سمت وتؤدة وسكون ، قويم الطبع ورفيقه يهتز لسماع الالحان وآلات الطرب مع الورع والدين المتين يقول الحق ويصدع به ولو كان فى ذلك حتفه ، بهذا يصفه علماء التراجم فيما ذكروه به .

اتفق انه كان فى يوم عيد ينتظر مع المصلين خروج السلطان ابى العباس المرينى لصلاة العيد ، فتأخر خروج السلطان حتى حان وقت صلاة الظهر ، فحين خرج السلطان رقى عبد الواحد الونشريسى المنبر فخطب الناس قائلا : أيها الناس !.. عظم الله أجركم فى صلاة العيد !.. ثم أمر المؤذن ان يؤذن لصلاة الظهر ، فصلى بهم الظهر وانصرف ولم يراع فى ذلك سلطانا ولا غيره .

وكان فيما تولاه رحمه الله تعالى من المناصب الشرعية القضاء مدة ثمانية عشر سنة ثم تولى الافتاء بعد وفاة شيخه ابى هارون .

ولما توفى والده (914 هـ/1508 م) قدمته الجماعة ليقوم مقام والده فى التدريس بالمدرسة المصباحية بفاس ، فاقرأ بها التفسير بنقل ابن عطية والسفاقسى ومواضع من الزمخشرى ، ومن الرصاع على المغنى ، والبخارى بشرح ابن حجر مستوفيا له لانه شرط المحبس ، وابن الحاجب بالتوضيح من غير استيفاء مع زيادة طرر أبيه ، وحضر درسه ابن غازى واليسيتنى وعبد الوهاب الزقاق فأثنوا عليه .

وأغلب انتاجه العلمى كان فى علم الشريعة والفقه ، فله شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعى فى أربعة اسفار ، وشرح على رسالة ابن ابى زيد القيروانى وفتاوى محررة ، وخطب بليغة ونظم كثيرا فى مسائل من الفقه ، كشهادة السماع ، ومفوتات البيوع الفاسدة، وما تفتيه حوالة السوق ، وتعليق على صحيح الامام البخارى لم يكمل . ومواضع الاقالة فى البيع ، ونظم قواعد أبيه : ايضاح المصالك مستوفياء وزادها قواعد بأمثلتها وصورا ومثلا انتزعها من مختصر ابن عرفة ولم تتم الزيادة وهى مشروحة بقلم التنبكتى ، وله أزجال وموشحات ...

ولم يزل عبد الواحد رحمه الله سائرا على الخطة الرشيدة قائما بالعدل ناصرا للحق ناشرا للعلم الى ان فاز بالشهادة فى سبيل كل ذلك .

لقد كان المغرب الاقصى فى أواخر القرن التاسع الهجرى ـ أواسط السادس عشر الميلادى ، يمر بأزمة سياسية قاسية اذ كان محل نزاع وخلاف قائم على التنازع على السلطة بين دولة الوطاسيين القائمين يومئذ على الحكم وبين مزاحميهم السعديين ، فاستولى هؤلاء السعديون على مراكش عاصمة الجنوب سنة 935 هـ/1529 م ، وذهبوا ليستولوا على مدينة فاس فاستعصت عليهم ، فضيق الحصار عليها السلطان ابو عبد الله محمد المهدى الشيخ (السعدى) فلم يفلح وعسر عليه الامر ، فبحث عن السبب فقيل له : لا سبيل لك اليها ولا يبايعك أهلها الا اذا بايعك ابن الونشريسى يعنون : الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الواحد ابن أحمد الوانشريسى رحمه الله ، فبعث اليه السلطان المذكور سرا ووعده ومناه ، فقال له الشيخ عبد الواحد : « بيعة هذا السلطان يعنى أبا العباس الوطاسى فى رقبتى ولا يحل لى خلعها الا لموجب شرعى وهو غير موجود . ولعل الشيخ فى ذلك متمسك بما رواه مسلم فى صحيحه على النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : من بايع اماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع ، فان جاء آخر ونازعه فاضربوا عنق الآخر .

ويقال ان السلطان السعدى كتب الى أهل فاس يقول لهم : « انى ان دخلت فاسا صلحا ملاتها عدلا ، وان دخلتها عنوة ملاتها قتلا » . قالوا فأجابه الونشريسى بابيات تمثل بها وهى من نظم شاعر اندلسى من طليطلة جاء فيها هذا البيت :

كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا

ولا علم الرحمن من قولك الفضلا

ولما بلــغ ذلــك السلطان حقــد عــلى الونشريسى ودس الى جماعة من المتلصصة بان يأخذوه ويأتوا به الى محله محبوسا من غير قتل ، وكان الشيخ فى ذلك الزمن يقرأ صحيح البخارى بجامع القرويين بين العشائين وينقل عليه كلام ابن حجــر « فتــح البارى » ويستوفيه لانــه شرط المحبس ـ انظــر كيف كــان النــاس يحترمون الحبس ـ فقال له ابنه : يــا أبى انى قد سمعت ان اللصوص أرادوا الفتك بك فى هذه الليلة ، فلو تأخرت عن القراءة » فقال له الشيخ : أين وقفنا البارحة ؟٠٠ قال : على كتاب القدر ! قال : فكيف نفر من القدر ؟٠٠ اذا اذهب بنا الى المجلس ٠

وهذا يذكرنا بذلك المــوقف الرهيب الذى وقفه قبله سلطان العلماء وبــائع الملــوك العــز بن عبد الســلام 660 هـ 1262 م تجــاه أمــراء وسلاطين دولــة المماليك بالمشرق حــين صارحهم بانهــم ليسوا كلهم بأهل للامارة والملك وانهم عبيد أرقاء لا يصلحون لمزاولة الحــكم والامارة بل لابد من عرضهم فى السوق للمزيد ٠٠٠

وذات يوم كان باب الدار الذى يقطنها الشيخ يرتج تحت طرقات عنيفة وسارع ولد الشيخ ففتح الباب وها له ما رأى : كان نائب السلطنة واقفا وسيفه فى يده والشرر يتطاير مــن عينيه والدم يكــاد يتضجر من وجهه ، ومن خلفه كتيبة من جنده وأنصاره ٠

وغاض الدم فى وجــه الغــلام فارتد فزعا الى أبيــه يخبره بما راى ، ويكــاد يهتف : انج بنفسك يا أبى ! وفهم الشيخ ما يريد ولده ، فقال له فى تؤدة واطمئنان يا ولدى !! أبوك أقل مــن ان يقتل فى سبيل اللــه !!

وظهــر الشيخ فى البــاب واستقبل نائب السلطنة بكــل سكينة ووقـــار ، وحينما رآه النائب ارتعد وارتعش السيف فى يده فسقط على الارض وبكى النائب ، وسأل الشيخ الدعاء الى آخر القصة ٠٠٠

وهكذا فعل الونشريسى فذهب كعادته الى مجلسه فى جــامع القرويين واخذ مجلسه على الكرسى الخاص الذى أسسه السلطان أبو العباس أحمد بن الشيــخ الوطاسى 956 هـ/1549 م ليجلس عليه مدرس صحيح البخارى والقى درســـه كالعادة وهو فى ذلك يصول ويجول حتى انتهى من درسه وافترق الناس وتهيــأ الشيخ للخروج من المسجد من بـــاب

الشماعين فوجيء من طرف الجماعة المهيأة لتمثيل الجريمة فألقت عليه القبض وحاولت اخراجه من الباب المذكور وكان يسمى كذلك بباب الفخاريين وأرادوا حمله فاستمسك الشيخ باحدى عضادتي الباب فضرب احدهم يده فكسرها أو قطعها ؟.. وأجهز الباقون عليه فقتلوه بباب المسجد المذكور يوم 27 ذي الحجة 955 هـ/27 يناير 1549 م فمات رحمه الله شهيدا،وكان أمر الله قدرا مقدورا ، خير الشهداء كما قال صلى الله عليه وسلم : حمزة بن عبد المطلب ، ثم رجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك . ومن يومئذ عرف هذا الباب من بين أبواب القرويين باسم باب الشهيد كما اشتهر كرسيه هذا باسم كرسي الونشريسي .

وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه كما قيل ، فقد ذكر أبو العرب في كتاب المحن انه لما أراد عبد الملك بن مروان ان يكتب العهد لابنه الوليد ، قيل انه : لا يتم لك هذا الامر الا بابن المسيبة فاكتب له ، فكتب له ان يبايع ، فرد اليه : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نبايع لخليفتين ، فان أردتها لابنك ، فاخلع نفسك ، والا فلا . فكتب عبد الملك الى عامل المدينة هشام بن اسماعيل المخزومي : ان لم يبايع فاضربه مائة سوط ، فضربه مائة وحلق رأسه ولحيته وكساه تبانا من شعر ، ونادى عليه ، وطيف به الى الليل ... وكان أيضا قبل ذلك ضربه جابر بن الاسود والي المدينة على البيعة لابن الزبير فضربه ستين سوطا ودعاه هشام بن اسماعيل أيضا الى البيعة للوليد وسليمان بالعهد فلم يفعل ، فضربه ستين سوطا وطاف به في المدينة في تبان من شعر ، وقد وقع لمالك وأبي حنيفة شبيه بهذا ...

وصدق الله العظيم : **ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون .**

المـــراجـع

ابن القاضي ـ أحمد بن محمد : درة الحجال ـ القسم الثاني ط الرباط 1936 م
التازي ـ عبد الهادي : جامع القرويين ج 1 ، 2 ط بيروت 1973 م
التنبكتي ـ أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ط القاهرة 1329 هـ
الجيلالي ـ عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام ، ج 2 ط الجزائر 1955 م
الحجوي ـ محمد بن الحسن : الفكر السامي ، ج4 ط فاس بدون تاريخ
السبكي ـ عبد الوهاب : طبقات الشافعية الكبرى ، ج 5 ط القاهرة 1324 هـ
المقري ـ أحمد بن محمد : نفح الطيب ، ج 5 ، 7 ط بيروت 1968 م
المقري ـ أحمد بن محمد : أزهار الرياض ، ج 3 ط القاهرة 1942 م
الناصري ـ أحمد بن خالد : الاستقصاء ج 5 ط الدار البيضاء 1955 م

الونشريسي

عمار الطالبي

من علماء الجزائر الاعلام ، وفقهائها البارزين في القرن التاسع الهجري أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني الذي نشأ في عصر تكالبت فيه الاعداء على سواحل الجزائر وخاصة وهران في الناحية الغربية من المغرب الاوسط .

اذ ان سنة وفاته وهي 914 هـ (1508 م) هي السنة التي استولى فيها الاسبان على مدينة وهران (1) .

شيوخه :

من الاساتذة الذين أخذ عنهم العلوم الاسلامية أبو الفضل العقباني ت 854 هـ وابنه أبو سالم العقباني ، ت 880 هـ وابن مرزوق الكفيف ت 901 .

ونظرا لاضطراب الحياة السياسية وانتشار الاستبداد السياسي فان السلطة السياسية في ذلك الحين ضايقته فنهبت داره في سنة 874 هـ بمدينة تلمسان التي نشأ فيها وما كان منه الا ان التجأ الى مدينة فاس وأقام بها (2) ، وانكب في مدينة على تدريس المدونة ، وكتب ابن الحاجب وكان متمكنا من الفقه المالكي مشتغلا به تعليما وتأليفا وفتيا كما أنه اشتهر بالنحو وفصاحة اللسان والكتابة .

تلاميذه :

من تلاميذه ابنه عبد الواحد ت 955 هـ وأبو زكريا السنوسي ومحمد بن عبد

---

(1) أبو القاسم محمد الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، الجزائر 1334 هـ (1906 م) ج 1 ص 59 .

(2) المصدر نفسه ج 1 ص 58 .

الجبار الورتدغيرى (3) ومحمد بن عيسى المقيلى ت 875 هـ ومن أبرز تلاميذه أيضا الفقيه القاضى محمد بن الغرديس التغلبى ويذكر المؤرخون ان خزانة هذا الفقيــه الاخير من تلاميذه كانت له خزانة عظيمة من المؤلفات وان الونشريسى استفاد منها كثيرا فى تأليف كتبــه وخاصة كتــابه المعيار الذى هيأت له هذه المكتبة الفتاوى الخاصة بفقهاء فاس وفقهاء الاندلس ·

ويــذكر الحفناوى انــه استفاد مــن نوازل البرزلى والمازونى فيمــا يتعلــق بفتاوى افريقية (تونس) وفتاوى فقهاء تلمسان كما يبدو ذلك لمن قارن كتــابه هذا بهذه الكتب ·

تــآليفه :

من أهم تآليفه المعيار المعرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب فى ست أسفار وقد طبـع بفاس طبعه مجرية فى 12 مجلــدا ويجرى الآن طبعــه (4) فى صورة محققة واضحة ·

جمع فى هذا الكتاب فتاوى ونوازل ونصوصا ذات أهمية بالغــة فى معرفة الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية والاقتصادية فى المغــرب والاندلس فى عصور مختلفة ·

ومــن تاليفه تعليق عــلى ابن الحاجب الفرعى فى ثلاثة أسفار (5) ·

ومنها : كتاب « القواعد » فى الفقــه المالكى ، وكتاب « الفائق فى الوثائق » يقال انــه لــم يكمله ، ومنها عثر عــلى وثائق القشتالى وعنوانه : « غنية المعاصر والتالى عــلى وثائــق القشتالى » وكتاب « الفروق » فى الفقه عــلى نمط الفروق للقرافى · ومنها اضاءة الحلل فى الرد على من أفتى بتضمين الراعى المشترك ·

وتولى منصب الافتاء بفاس (6) التى هــاجر اليها ويــذكر البغدادى صاحب هدية العارفين ان وفاته كانت بمــدينة تلمسان واذا صح هذا فانه يكون قــد عــاد اليها وتوفى بها عــن ســن يناهز الثمانين ويحتاج كتابه المعيار الى دراسة خاصة نظرا الى قيمته التى لا تقدر ·

---

(3) ويكتب أيضا الورترغيرى ·
(4) تبعا لمــا أخبرنى به الاستاذ الحبيب اللمسى الذى يتــولى هــذا العمل ، جزاه اللــه خيرا ·
(5) المصدر نفسه ج 1 ص 59 ·
(6) مخلوف ، الشجرة الزكية فى طبقات المالكية ·

في موكب الخالدين

سي محمد قائد الولاية الرابعة

محمد الصالح الصديق

ليس في الوجود أجمل من الحرية ولا أغلى منها • فبالحرية يكون الانسان : يكون بجسمه وعقله معا • يشعر بوجوده في هذه الحياة ، ويحس بمعناه ، لانه يستطيع ان يؤدي رسالته كآدمي لم يخلق لما خلق له الحيوان الاعجم ، بل خلق لغاية اسمى واجل •

فالأنسان بدون الحرية يعيش طول عمره كانه لم يعش يوما واحدا ، لان العبرة في الحياة ليست في أن يأكل الانسان وينام ويعقب خلفا ، فهذا قدر مشترك بينه وبين سائر الحيوانات بل العبرة أن يعيش في الوجود نفسا من حياة ، وجزأ من كيان ، ولبنة في صرح ، ودفعة من دفعات التاريخ •

فهذا لا سبيل اليه الا بالحرية ، الحرية التي لا معنى للصحة والغنى والعلم الا بها • ولا معنى للشمس المشرقة والقمر المنير الا بها •

وماذا تجدي الصحة ويجدي العلم والمال اذا كان المرء عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ، ولا يتصرف في نفسه ولا فيها يملك ؟

وأي وجود للشمس المضيئة والقمر المنير اذا كانا لا ينيراه النفس ، ولا يبددان ظلام البغي والاضطهاد ؟

في داخل المحرومين من الحرية ، سحب متلبدة ، وظلمات حالكة دامسة ، لا تبددها ولا تقشعها سوى الحرية وفي أعماق النفوس جراحات لا دواء لها الا الحرية •

ولكن الحرية صعبة المنال ، غالية الثمن ، والطريق اليها طويل شاق ليس مفروشا بالورود أو محفوفا بما لذ وطاب بل هو صعب مهول مفروش بالجماجم والاشلاء ، مملوءة بالدموع والدماء ، لا يسلكه الا عشاق الحرية ، المفتونون بحبها ، الذين يستهينون بالزعازع والاهوال ، والجوع والبرد ، من أجلها •

وقد يطول الطريق ، بهؤلاء العشاق ويقسو عليهم وتشوى اجسادهم السنة

اللهب ، ولكنهم لا يبالون ، لانهم يعلمون ان التضحية والفداء والعذاب هي مهـر الحرية •

ويواصلون الزحف وفي اعماقهم ايمان يفجر العزم ، ويجدد الهمة ، ويعطـي القـوة ، ويضاعف الاصرار ، ونشيدهم قول الشاعر العربي :

لـن ينـال الحقـوق الا أبـاة
يتحـدون معجـزات الطغـاة
هي حـرب الحيـاة امـا حيـاة
أو ممات يكـن معنـى الحيـاة

ويهتف الشهداء للموت ، ويسقطون في الميدان وقلوبهم تصفـق بـين الضلوع للحـرية والاستقلال ، وترفرف الاعـلام على نعوش الضحايا مودعة ومبشرة • فاذا بعشاق الحرية يندفعون من جديد بايمان أقوى ، وعزيمة امضى ، واذا الطريق كانه ورود مفروشة ، تحت ظلال ممدودة ، الى فجر وضيء •

واذا كان الطريق الى الحـرية هـذا شانه ، ومهر الحرية هذا غـلاؤه ، وهذا ثمنه ، فان الطريق الذي سلكه الشعب الجزائري الى الحرية كان أشق واطول ، والحرية التي نالها كانت أغلى واثمن •

فالشعب الجزائري لـم يفتـأ يواصل الجهاد منذ سنة 1830 م الى سنة 1962 م ضـد القـوات الاستعمارية الغـاشمة ، وقاسى خلالها من ألوان الظلم والتعسف والهوان مـا لا ترتقي الى وصفه البلاغة والبيان ، وقـدم خـلال ثوراته المختلفة ملايين الشهداء •

وفي هـذا الطريق الطويل الشـاق ، اعلام مجد تخفق على شواهق تاريخنـا الجليل ، وما اعلامنا الا أولئك الشهداء الذين مـاتوا لتحيـا الجزائر سـواء في ثـورة نوفمبر الخالدة أو في الثـورات الاخرى التي سبقتها •

ولعل المدهش بحق ، الباعث عـلى العجب والاعجـاب ، ان ابطالنا الذيـن حرروا الجزائر ، وصمدوا لقوات الحلف الاطلسي ، ولقنـوا الجيـوش الاوروبية أقسى درس في الشجاعة ، رجال بسطاء لم يتخرجوا من مدرسة ، ولم يتدربوا على أسلحة ، ولم يتوفر لهم من العتاد والعدة ولا من الطعام واللباس ، ولا من الظروف الحربية الضرورية، ما يمكنهم من مواجهة الجيش الفرنسي سـاعة واحدة ، وكيف بالحلف الاطلسي طوال سبـع سنوات ونصف سنة •

ولكنـه الايمان القـوي ، والعـزيمة الصادقة ، والاصرار على التحرر •

وسمـة أخرى امتـاز بهـا المجـاهد الجزائري ، وهي انه ما ان يحتضنه الجبل

وينضم الى خلية من خلايا جيش التحرير الوطني ، ويتأهب للنزول الى الميدان حتى يتحـول الى شخص آخـــر ، تفكـيرا ، وسلوكا ، وأخلاقا ، ولم نعرف في جيش التحرير مجاهدا رخو الارادة ، أو مهزوز الايمان ، أو سقيم النفس .

اما الشجاعة فقدر مشترك بين جميع المجاهدين حتى قيل « ان البطولة فقدت وصف (الميزة النادرة) في الجزائر فلم تعـد مبعث فخر واعتزاز لانها أصبحت شيئا فشيئا مشاعا بين كل فرد من أفراد الشعب تقريبا ، يحمل بين أطوائه قصة كفاح ، وحكاية نضال ، وتاريخ صمود» .

وهذه الخصائص والمميزات التي يتسم بهـا المجـاهد الجزائـري : البســاطة ، والشجاعة ، والتحـول الجذري السريع بمجرد انتظـامه في سلـك الثـورة ، لا حظناها في كـل شخصية قدمناها أو قدمها غيرنا في صحافتنا أو على امـواج الاثـير حتى انها لتعد المحاور الرئيسية التي يدور عليها الحديث .

وعـلى هذا النسق وفي هـذا المنهاج نتناول اليـــوم هذا البطل المغــوار ، والوطني الصادق ، قائد الولاية الرابعة سي محمد .

عـرف قبل اندلاع الثـورة التحريرية بحب الوطن والاخلاص له ، وكان يتلهف ظما وشوقا الى الحرية ، ويعـد الحياة تحت العلم الاجنبي ، وفي ظل الاحتلال ، وجودا بـلا معنى ، وحسابا بلا ثـواب ، وسعيا بلا هدف ، وتاريخا بلا عنوان .

وبالرغم من أنه لم يلتحق بالثـــورة الا في أواخر سنة 1955 الا انـه كان كالبركان يهدر بين المناضلين الاحـرار بقوة الارادة ، ومضاء العزيمة ، وبغض المستعمر .

وكان ممن يؤمنون بحتمية الاستقلال ، لان حتميـة التاريخ ستقف لا محالة الى جانب الثوريين الاحرار ، الذين يشقون الطريق الى الحرية ويسقطون ضحاياها .

التحـق القائد سي محمد بالثـورة في أواخر سنة 55 وبفضل ما امتاز به من الشجاعة النادرة ، والعزيمة الصادقة ، والسلوك الاخلاقي القويم ، لم تمض الا أشهر قليلة حتى برز كمدرب وقائد في منطقة « الونشريس » بالولاية الرابعة .

واستمر في هذه المهمة مدة طويلة قبل تعيينه عضوا في قيـادة الولاية بـرتبة رائـد .

واشتهـــر سي محـمد في الاوساط الثورية بالتفكير المرتب الهادف ، والنظرة البعيدة ، ورحابة الصدر ، وسعة الافق ، والتواضع الجم ، مما جعل لـه شخصية محترمة تميل اليها النفوس ، وتنصاع

لهـا القلوب ، وتنفـذ أوامرها بـرغبة لا برهبة .

وكانت النظرية التى تشغـل تفكيره دائما وعرف بها وكان يختط لها دومـا ويدعو اليها زمـلاءه الثوريين هـى : « انهاك العدو وتحطيمه » ولذلك كـان يقرأ الف حساب لمواجهة العدو ، لا لان العـــدو يملك قـــوة كبيرة لا تستطيع مواجهتها الا قوة مثلها ، بل لانه كـان يهدف الى الحاق أكبر خسارة بالعدو ، وهـذا لا يتأتى الا بالتنظيم والتخطيط والتأهب الكامل ، فكان سى محمد لا يقوم بكمين ، أو هجوم ، أو معركة ، الا بعد ان يضع لها خطة حربية محكمة ، ويعد لها العـدة الكافية ، ولا يكتفـى بالانتصار والغلبة على الاعداء ، بل يضع فى حسابه قبل النزول بكتائبه الى الميدان ان يبيدهم عن آخرهم ، ويغنم أكثر ما عندهم مـن العتاد الحربى ان لم يكن كله .

وهذه النظرية التى تستبد بمشاعره كان لهـا الاثـر الكبير فى كـل معركة يخوضها ضد القوات الفرنسية ، فعزمه على الابادة الكاملة ، وتعبئة كتائبه بهذه الروح ، واقدامهم عـلى المعركة يدفعهم هذا العزم ، كل ذلك يجعلهم يستبسلون فى الميدان ، ويثبتـون ، ويصمدون ، ويواصلونها فى فدائية مذهلة ، وأفـق متأجج ملتهب حتى ينتصروا .

وكان القائد سى محمد يوصى كتائبه قبل الاقدام على خوض المعركة بالتأهب التـــام ، واليقظة الدائمـة ، وتـوجيه الضربات الساخنة الماحقة للعدو ، وكان يقـول لهـم بالخصوص : ان المجـاهد القـوى ، والوطنى الصادق ، لا يعـرف التردد ولا الاحجام ، ولا يتطرق الى نفسه خوف ، لانه يعلم ان أمامه احدى الغايتين اما النصر أو الشهادة ، فاذا قدر له الموت فذلك شرف له ولعائلته لانه مات مـــن أجل وطنه ومن أجل عزته ودينه ، فخير المجاهدين من يجعل نصب عينيه النصر أو الشهادة .

وكان القائد سى محمد يحتل مكـانة فذة فى قلوب المجاهدين الذين يسيرون معه على الدرب الصاعد ، لانه كان عـالى الهمة ، عظيم النفس ، كريم الاخلاق ، محبا بجنوده ، عطوفا بهم ، موثرا لهـم على نفسه ، لا تفارق البشاشة وجهه حتى فى الظروف الحالكة العصيبة ، وكـــم ضحـــك والامـور ملتـوية ، والطـرق مسدودة !

أمـا مـن يشاهده فى المعركة فانـه تستبد به الدهشة اذ يراه مع العـــدو شخصا آخر ، صرامة ، وقوة ، وعنادا ، واصرارا ، وقساوة وهكذا فمن يعرفه فى السلم يستبعد ان يكون رجـل حرب بتلك الصرامة والقساوة ، ومن يعرفه فى

المواجهات الحربية يستبعد ان يكون رجل سلم بتلك الليونة والمؤالفة .

وحياة القائد الشهيد سى محمد كانت منذ أن انضم الى جيش التحرير الوطنى سلسلة من العمليات العنيفة الناجحة متواصلة الحلقات ، وكان القادة العسكريون الفرنسيون فى نواحى الونشريس يعرفون عنه الشيء الكثير ، وكانوا أيضا يقرأون ألف حساب لكمين ينصبه أو معركة يخوضها ، ويحلمون دائما باليوم الذى يتخلصون فيه منه بقتله أو القبض عليه ، وكم حاولوا ذلك ووضعوا خططا محكمة ، ولكنه كان زئبقا كما كان العقيد عميروش فى الولاية الثالثة ، يظهران ثم سرعان ما يذوبان !!!

وظل يواصل مقاومته العنيفة بلا كلل او ملل أو ضعف ويلحق الخسائر الفادحة النكراء بالعدو ، ونصب عينيه دائما النصر أو الشهادة حتى كانت ليلة الاثنين 7 أوت سنة 1961 .

فى هذه الليلة كان الشهيد البطل مع فرقة صغيرة من جيش التحرير الوطنى فى (فلا) روفاتيل كوربى ، بقلب البليدة وفى حدود الساعة العاشرة كانت (الفلا) مطوقة بقوات من جنود المظلات الفرنسيين . وعندما أخذوا فى محاولة الدخول اليها فتحت عليهم سيول من الرصاص وتواصلت مدة طويلة سقط تحتها عدد من الجنود الفرنسيين .

« وأمام المقاومة العجيبة والاستماتة الغريبة التى ابدتها فرقة جيش التحرير الصغيرة التجأت قوات العدو ـ كعادتها ـ الى الاستنجاد بالمصفحات والمدفعية .

وفى هذه المعركة العنيفة صمد سى محمد مع رفقائه صمودا قاهرا حتى النفس الاخير ، أمام الهجومات الوحشية الضارية التى كان يواصلها جنود فرنسا الاستعماريون فى جنون متكالب .

ولما تحطمت الدار أبدى أبطال جيش التحرير شجاعة خارقة من نوع آخر ، فقد التحموا بقوات الاستعمار ، واستعملوا معهم السلاح الابيض ، واستطاعوا ان يكبدوهم أفدح الخسائر فى الارواح ، وسقط سى محمد ورفقاؤه شهداء الحرية ، وكتبوا بدمائهم الزكية وثيقة الشهادة ووثيقة الحرية .

وما ان ذاع نبأ استشهاد سى محمد حتى عم الحزن سائر أوساط جيش التحرير الوطنى وتملكهم هول المصاب ، وراحوا يتندرون بقصته البطولية الرائعة التى جعلها ختاما لتاريخه الثورى الرائع ، وكلهم يعاهدون روحه وأرواح رفقائه الابطال على مواصلة الجهاد بنفس

العـــزيمة والاصرار حتـــى النصر أو الشهادة ٠

واصدرت قيادة الجيش الوطنى للولاية الرابعة منشورا اثر استشهاد البطل سى محمد جاء فيه :

ان عظمة روحك ، وان أخوتك وحبك اللا متناهى لشعبنا البطل الذى كـان يعـرف كيف يتـدبر ويقـدر محامدك ومزاياك ، وان ضحكتك الدائمة ، ضحكة وجهك المشرق البشوش ، كل ذلك جعل منـك فى جيش التحرير الوطنى وفـى الشعب أخا لا ينسى أبدا ٠

وان وعيك العميق ، وتفهمك الدقيق ، اللذين كنت تفصل بهما أعوص المشاكل وان الارادة الحديدية التى كانت تغذيك وتبرزك عـلى رأس الفـرق المسلحة فى الولاية ، ان ذلك قد طبع المعركة العنيفة ، والمقاومة الصامدة التى كنت تجابه بهـا ــ بكل بطولة وانتصار ــ قوات العدو ، تلك القوات التى احرزت ضدها عـــلى انتصارات لا تحصى ٠

وبقدر ما كنت طيبا لينا مع شعبنا ومع جيش التحرير الوطنى بقدر مـا كنـت صارما وعنيدا مع القوات الاستعمارية ٠

ان الكتائب الصاعقة التى كنت تسيرها ضد جيش الاجرام والضربات القاصمة التى كنـت تنـزلها بالجنرالات والكولونيلات الفرنسيين ضباط الصالونات والخيبات المحرقة التى كنت تكبدهم اياها ــ كـل ذلك جعل منك قائدا بطلا ٠

« يا خير خلف لاحسن سلف :

يا خليفة الكولونيل سى محمد ، لقـد عرفـت بتبصرك ويقظتك كيف تواصل كفاح الولاية الرابعة ، سواء فى ميدان العمليات العسكـرية أو فى الميـــدان السياسى ٠

لقد عرفت كيف تزرع الفوضى والخيبة فى صفوف الضباط الاعداء ٠

ولقد عرفت كيف تموت ٠ وانا سنتبع خطاك فى الطريق التى سطرتها لنا حتى ننتصر أو نلتحق بك فى جنة الخلد (1) ٠

ذلك ــ عزيزى القارىء ــ قائد الولاية الرابعة ، البطل الشهيد سى محمد الذى وهب روحه عن ايمان وثقة ووعى من أجل ان تستقل الجزائر ، ومن أجل ان تحيا الاجيـال الحاضرة والمستقبلة ، عزيـزة كريمة ، والذى أضاف بمواقفه البطولية صفحة رائعة مشرقة الى تـاريخ الجزائر المجاهدة ٠

واذ نحيى من حين لآخر ذكرى شهيد من شهداء الحرية ، انما نحيى فى شخصه ذكـرى كـل الشهداء ، الابطال الذيـن عاهدوا الله على ان يهجروا النوم اللذيذ وأنس الحبيب ، وحياة الامن الى الشهر ،

والتعب ، والهنى ، الى الجوع والعطش والموت من أجل تحرير الجزائر . ومن أجل تسوية الظهور المقوسة ورفع الرؤوس المطأطأة ، واطلاق الارجل المصفدة .

وسيبقى شهداؤنا الابطال الذين حققوا بكفاحهم البطولى وتضحياتهم الغالية أعظم نصر ، (اعلام مجد تخفق على شواهق التاريخ الجزائرى ، ومنائر تهدى مواكب النضال الزاحفة الى غد أفضل) .

الاسقف لافيجرى ونشاطه التبشيري في وادى شلف 67 - 1592 م

د· أبو عمران الشيخ

1 ـ سياسة الغزو والادماج :

صرح عد من الشخصيات العسكرية والدينية الفرنسية بأن احتلال الجزائر وحده لا يكفى · فينبغى أن يدعم بادماج الجزائريين في المجتمع الفرنسى من ناحية وتنصيرهم من ناحية أخرى ، وان كان القائد « دى بورمون » قد وعد فى « تصريح 5 جويبلة 1830 » بعد استيلائه على مدينة الجزائر باحترام دين الجزائريين وعاداتهم وممتاكاتهم ، فكشف الغطاء عن نواياه عندما استقبل المرشدين العسكريين بمناسبة الاحتفال الدينى الذى انتظم بعد انتصاره فقال : « قد فتحتم من جديد معنا باب المسيحية فى افريقيا ، ورجاؤنا أن تزدهر فيها عما قريب الحضارة التى كانت قد انطفأت بها » (1) · وقد أكد أحد المرشدين العسكريين وهو « الابى » دو بيجير » أن مرشدى الجيش جاؤوا ليحتلوا هم أيضا افريقيا هذه باسم الانجيل » (2) ·

وقال « لويس فويو » ، كاتب « بيجو»، سنة 1481 ، فى كتاب له : « ان الجزائر ممتلكة مسيحية ولن تكون تونس والمغرب مثلها قبل زمن طويل » (3) · ثم أضاف : « ان العرب لن يكونوا لفرنسا الا اذا صاروا فرنسيين ، ولن يكونوا فرنسيين الا اذا تنصروا » (4) · وفى مقالة نشرت سنة 1846 ، شرح أحد الضباط الفرنسيين الذى لم يذكر اسمه لماذا يجب تطبيق سياسة التنصير فقال : « ان تعصب المسلمين هو الامر الحقيقى الذى يدعم المقاومة التى نواجهها فى افريقيا ، وهذا الدين (الاسلام) الذى احترمناه الى يومنا هذا نقترح الآن بجرأة محاربته ، وهكذا نثبت قوتنا وننشر طقوسنا على أنقاض الاسلام » (5) · ومعنى هذا كله أن الاسلام قد قاوم الاحتلال الفرنسى فرأى المستعمرون ازالة هذا الدين خدمة لمصلحتهم · وأبدى أسقف الجزائر السيد « دو بوش » أن « وجود الاسلام قد انتهى وبعد نصف قرن لن يبق، له أثر الا عند الهمجيين وستبعث به أوروبا الى الصحارى التى لجأ اليها لينقرض هناك · وهكذا ستستكمل مشروعها التى بدأت فى تنفيذه أثناء الحروب الصليبية » (6) · أما الاسقف الذى

تولى الامر بعد « دو بوش » وهو السيد « بافى » فقد رأى من واجبه محاربة القرآن وتنصير المسلمين (7) · وهكذا تتضح فكرة المستعمرين أن احتلال الارض لا يكفى وأنه يجب محاربة دين السكان وتحويلهم الى نصارى · فتتحول الجزائر المسلمة الى أرض فرنسية مسيحية ·

2 ـ آراء لافيجرى الاساسية :

كان لافيجرى قد تشبع بهذه الآراء الاستعمارية قبل أن يتولى رئاسة الكنيسة فى الجزائر وقد عين فى هذا المنصب بتزكية من الوالى العام الماريشال « ماك ماهون » ، الا أنه سينشب بينهما الخلاف فيما بعد · ان لافيجرى أظهر عداوته للاسلام مثلما فعل الذين سبقوه فقال سنة 1860 : « انه من الواجب علينا أن نعدل عن الاخطاء التى ارتكبناها فى الماضى ، فيجب ألا نحصر (الشعب الجزائرى) فى حضيرة القرآن كما فعلنا ذلك مدة طويلة » · فاقترح تنصير الجزائريين أو ابعادهم الى الجنوب (8) فقال : « يتعين على فرنسا اما أن تقدم (للشعب الجزائرى) ـ بل انى أخطأت التعبير ـ يتعين عليها أن تفسح لنا المجال لنقدم له الانجيل واما عليها أن تطرد هذا الشعب الى الصحارى بعيدا عن العالم المتمدن » (9) ·

وفى رسالة أخرى بين سبب هذه السياسة ، وهو مقاومة الجزائريين ضد الاحتلال الاجنبى فقال : « ان القضية فى جوهرها كما أكدنا على ذلك مرارا هي قضية هذا الدين الذى وقف أمامنا فى غزو الجزائر نهائيا » (10) · ولهذا الغرض أسس لافيجرى جمعية لنشر الدين المسيحى ثم أسس جمعية المبشرين الذين يرتدون اللباس العربى وهم «الآباء البيض» سنة 1874 ·

وقد أخطأت الادارة الفرنسية فى نظر لافيجرى لانها احترمت الاسلام ومؤسساته ، فطالبها بالتخلى عن مساعدة المساجد والمدارس الاسلامية التى تثبت « تعصب الاهالى » · فيجب أن تمنع هذه الادارة تعليم القرآن وتسهيل آداء فريضة الحج (11) · وتناسى الاسقف أن الحكومة الفرنسية قد استولت سنة 1843 على الاوقاف الاسلامية التى كانت تسهر على شؤون المساجد والمشاريع الخيرية ·

وتسهيلا لادماجهم رأى لافيجرى أن تمنح أراضى للجزائريين المتنصرين ، ولم يوافق طبعا على سياسة « الاحترام» لانها كانت تبحث عن معاملة الاهالى فى ظل القرآن وكان يعتقد ان المسلمين لا يمكن أن يتصوروا المستعمرين الا فى شكل « كلاب مسيحيين » على حد تعبيره ، فيجوز لهم أن « يذبحوهم ويرموهم فى البحر » (12) · وحق الكنيسة ـ فى تنصير الاهالى كان يبرره ـ فى نظره ـ تخلف الاسلام الذى تسبب فى « انحطاط الشعب العربى من الناحية الاخلاقية » (13) ولهذا كان

من الضرورى ابعاد هذا الشعب عن الاسلام حتى يعود الى ما كان عليه قبل القرن السابع الميلادى أي قبل الفتح الاسلامى (14) . وسعى لافيجرى أيضا أن يتولى التبشير فى تونس بعد احتلالها سنة 1881 ، فعين أول أسقف فى افريقيا وكان له مقر بقرطاجة قريبا من تونس ، غير انه لم يكتف بهذا النشاط فى الجزائر وتونس وانما دفعه الطموح الى مواصلة التبشير فى القارة الافريقية كلها ، وكان السبب فى ذلك أن الاسلام قد انتشر فى هذه القارة بصفة ملحوظة بحيث ان عدد المسلمين فيها بلغ خمسين مليونا خلال قرن واحد . فكان لابد من وضع حد لانتشار الاسلام . ووافقت روما الاسقف على ذلك وعينته « كاردينال » تقديرا لعمله التبشيرى (سنة 1882) .

3 ـ نشاطه التبشيرى :

أ) قضية اليتامى الجزائريين : شملت مجاعة كبيرة القطر الجزائرى ما بين 1866 و 1868 (17) فاغتنم لافيجرى هذه الفرصة ليجمع عددا من اليتامى الجزائريين بموافقة السلطة العسكرية . وطلب مساعدات مالية من المواطنين الفرنسيين وبعض المؤسسات ليبنى ملجأ لهؤلاء اليتامى وقرر أيضا أن « يعمدهم » وأن يربيهم تربية مسيحية وأن ينشىء لهم قرى فلاحية بعد رشدهم . الا أن الوالى العام « ماك ماهون » لم يقبل هذا المشروع وعارضه تخوفا من غضب الاهالى ومقاومتهم العنيفة له . فحذر الاسقف قائلا : « اذا علم الاهالى بواسطة الصحافة أنكم تريدون تنصيرهم بالقوة أو ابعادهم عن بلادهم ، أفلا يقولون بأنكم تريدون اغتنام هذه الفرصة التعيسة التى يعانون منها ليضحوا بدينهم فى مقابل الخبز الذى قدمتموه لهم ؟ » . فرد لافيجرى بعنف على رسالة « ماك ماهون » قائلا : « ان هؤلاء الاطفال هم لى ، لان النفس التى هي فيهم أنا الذى حافظت لهم عليها ، اذن فان القوة وحدها هي التى يمكن أن تأخذهم من مآويهم » . (18) وفى الواقع أن الاولياء لم يطلبوا أطفالهم الذين أستولى عليهم لافيجرى وذلك لانهم هلكوا عن آخرهم . وكانت أعمار اليتامى تتراوح بين الثامنة والعاشرة وبلغ عددهم 1753 طفلا فى أول الامر ، الا أنهم ماتوا بسبب المجاعة والتعب فبقى منهم 700 طفل وزعهم لافيجرى بين عدة ملاجىء . وفى سنة 1870 ، بعث بعدد منهم الى روما حيث تم « تعميدهم » ويصعب علينا أن نتصور تعصبا أعظم من هذا وعداوة أكثر صلابة المسلمين الذين لم يراع الا الاسقف شعورهم اطلاقا .

ب ـ انشاء القرى المسيحية :

قرر لافيجرى انشاء مراكز فلاحية لليتامى الذين نصرهم وبين الغرض من ذلك فى رسالته المؤرخة بـ 6 أبريل 1878 فقال : « سنجد فيها (فى هذه

القرى) بعد سنوات قليلة مجموعة كبيرة من العمال المفيدين الذين يساندون تعميرنا ويصيرون أصدقاء لنا أو بعبارة أخر ىسنجد عربا مسيحيين » ·

وفى سنة 1869 ، اشترى الاسقف لافيجرى بعض الاراضى فى وادى شلف لينشىء قريتين لفائدة اليتامى المسيحيين · وشيد سنة 1872 ، قرية « سان سيبريان » تخليدا لاسقف قرطاجة السابق · وقد اختار هذا المكان لانه وجد فيه آثار كنيسة قديمة (20) · وأقام فيه 26 أسرة بعد ما زوج اليتامى الذين بلغوا سن الرشد · ومنح لكل اسرة 20 هكتاراً صالحة للزراعة ومنزلا يتالف من غرفتين أو ثلاث غرف ومنحها تسبيقا من النقود أو من المواد الزراعية · وقد بنيت القرية حول الكنيسة ، ويوجد فى مدخلها بستان جماعى واسطبل يأوى الحيوانات فى المساء (21) · غير انه لم تكن الاراضى ملكا لكل أسرة ، ولكنها أجرت لها بثمن رمزى · وبهذه الطريقة ظل الفلاحون خاضعين لسلطة المبشرين ·

ثم أسس الاسقف القرية الثانية بعد الاولى بقليل ، وسماها « سانت مونيك» تخليدا لام القديس أوغسطين ، وتكونت القرية من 24 أسرة · ومن ضمن العائلات ، نجد عائلات « فرانسوا بن عيسى » و « جان الشريف » الذين كانوا يعيشون أولا فى « سانت أوجين » قريبا من بوزريعة (22) · وأقامت « الاخوات البيض » فى القرية واعتنين بالتعليم والتطبيب · وفى سنة 1876 ، أنشأ لافيجرى مستشفى « سانت ايليزابيت » بالقرب من القريتين ، وشيده بحضور شخصيات مدنية وعسكرية (23) وأعجب قنصل بريطانيا بلافيجرى الى أن شبهه بالقديس أوغسطين (24) واشتغل الفلاحون بالزراعة والرعي ، كما انهم اشتغلوا بالصناعات المحلية التى يحتاج اليها سكان القرية من نجارة واصلاح العربات والحديد ··· وأنشئت كذلك بعض الدكاكين للتغذية العامة · ولم يختلط سكان القريتين بالمعمرين المسيحيين ولا بالجزائريين المسلمين · وكان لافيجرى يخشى عليها عادات المسيحيين السيئة كما كان يخشى من المسلمين ان يضطهدوهم أو أن يجلبوهم للاسلام (25) وهذه العزلة المفروضة على سكان القريتين كانت لابد أن تؤدى الى فشل المشروع طال الزمن أم قصر · وقد اعتنى « الآباء » و « الاخوات البيض » بتعليم اليتامى وتربيتهم الدينية وكانت تجمعهم الصلاة كل يوم بالسكان فى كنيسة القرية ·

واقتصر تعليم الاطفال على المبادىء الاولى من قراءة وحساب ونشر « الوطنية الفرنسية » · قال لافيجرى : « بينما كان الفلاحون يشتغلون فى القرية ، كان اثنان من المبشرين يقومان بتعليم بعض الاطفال المساكين الذين التقطوهم ··· » (26) ·ولم يكن من الضرورى أن يتجاوز هذا التعليم مستوى

معينا • فرفض الاب الذى اعتنى بتربية « جان بن عيسى » أن يقدمه الى امتحان الشهادة الابتدائية بدعوى انه قد يتعلم أشياء كثيرة غير مفيدة ، وقد يؤدى به نجاحه الى التكبر والتطلع الى شيء آخر غير الزراعة فيضطرب أمره (27) فالغرض من هذا التعليم اذن هو ربط هؤلاء الناس بالارض وجعلهم مساعدين للمعمرين الفرنسيين •

وكان ذلك هو هدف لافيجرى اذ كتب فى احدى رسائله : « هذا هو التأكيد الحل الانسب للقضية الجزائرية الكبرى لانه هو وحده الذى يجعل تحت تصرفنا هذه الآلاف من الايدى العاملة من أجل الاعمال السلمية وقد كانت دائما مستعدة لتحمل السلاح ضدنا (28) وقد لاحظ أحد مترجميه أن « فكرته الاساسية » هي « ادماج الجزائر فى فرنسا عن طريق المسيحية » (29) •

4 ـ فشل لافيجرى :

أراد لافيجرى انشاء قرى مسيحية ولكنه لم يتمكن من تطبيق مشروعه بسبب معارضة الادارة والمستعمرين والجزائريين المسلمين •

1 ـ خشيت الادارة الفرنسية ما قد ينتج عن سياسة التنصير الجنونية هذه • ورفضت انشاء مراكز أخرى لان عجز الجيش عن حمايتها لم يسمح بذلك • ولم يرض « ماك ماهون » بنشوب حرب صليبية فى الجزائر وان كان قد ساعد لافيجرى (30) فى عملياته الاولى فى وادى شلف • ولكن أمام طموحه المفرط عدل عن مساعدته المالية سنة 1874 • وألغى مجلس النواب هذه المساعدة من المزانية وقد بلغت 950 ألف فرنك سابقا (31) •

2 ـ أيد المستعمرون لافيجرى فى أول الامر ضد الحاكم العام « ماك ماهون »، لانهم كانوا يرغبون فى ازالة الحكم العسكرى • ولكنهم عارضوا فيما بعد فكرته فى انشاء قرى مسيحية جديدة • وعبر الطبيب « فارنيه » عن رأيهم اذ من المساعدات المالية التى منحت لليتامى كان نائبهم فى المجلس الوطنى واتهم لافيجرى بأنه لم ينفق الا جزءا قليلا كما انه وزع الاراضى على عدد قليل من الجزائريين المسيحيين وهم معزولون بين المسلمين • فاقترح الدكتور « فارنيه» على مجلس النواب ، أن يوزع المتنصرين بين الاسر الاوروبية ليكونوا فى خدمة المعمرين (32) • ـ 3 ـ أما المسلمون فقد أظهروا عداوتهم لمشروع التنصير منذ البداية احتج السيد ابن على الشريف على رسالة لافيجرى المؤرخة بالسادس أفريل 1968 برسالة وجهها الى نائب الوالى العام فقال : « لقد قرأت رسالة الاسقف المؤرخة بالسادس أفريل الماضى ، والتى يقول فيها انه يريد استبدال القرآن بالانجيل من أجل احياء الشعب العربى • لقد أثرت هذه الرسالة كثيرا فى المسلمين ، اننا نفضل موت جميع أولادنا على تنصيرهم » (33) وبعث 61 من أعيان الجزائر برسالة الى

نابوليون الثالث عبروا فيها عن سخطهم ضد رسالة الاسقف لافيجرى • وفى بلاد قبائل ، أدى تعصب أحد المبشرين الى معارضة السكان بحيث اضطر حاكم القطاع العسكرى للمنطقة أن يطلب من هذا المبشر مغادرة البلاد وذلك خوفا من ثورة دينية • وهجر عدد كبير من أسر تيزى وزو وفور نابليون (فور ناسيونال) الى سوريا سنة 1870 (34) •

وأمام هذه المعارضة كلها وعدم الامكانيات المالية ، أرغم لافيجرى على التخلى عن مشروع انشاء قرى مسيحية أخرى • وتوزع المسيحيون الجزائريون فى البلاد وتوظفوا فى مختلف القطاعات ولم يبق الا 200 ساكن تقريبا فى القريتين المسيحيتين بوادي شلف (35) • ولم يتقبل الاسقف فشله بسعة الصدر واتهم كلل المعارضين بنوايا سيئة • فكتب الى « ماك ماهون » مدعيا انه سيترك لليتامى كل الحرية ، واذا أرادوا أن يظلوا مسلمين عندما يبلغون رشدهم، فسوف لن يمنعهم من ذلك « وسيظل مخلصا وحنونا لهم » (36) • وهذه « الابوية » الغريبة لم تستطع أن تخفى غرضه التبشيرى • وأما المعمرون فانهم عارضوه فى سياسته لانهم كانوا « كفارا » • صحيح أن الدكتور « فارنيه» كان ينتمى الى الاشتراكيين من أنصار « سان سيمون » ولكن موقفه كان موقفا سياسيا اذ كان غرضه تمليك الاراضى للمعمرين الاوروبيين فقط ، لا للجزائريين ولو كانوا مسيحيين •

أما الجزائريون المسلمون ، فقد اتهمهم لافيجرى بكل الاتهامات كما اشرنا الى ذلك • انهم يمثلون « الهمجية » فى نظره ، وشن ضدهم حملات غريبة : « فالاغنياء منهم لا يساعدون اخوانهم الفقراء بل يطردون ويحاربون من يطلبون منهم الخبز » ! (37) • وبلغت به العنصرية الى درجة أنه اتهمهم بأكل الانسان ، فقال : « لا يوجد اليوم فى بعض المناطق، ، منزلا لم يأكل فيه لحم الانسان » ! (38) •

حاول لافيجرى عبثا بهذه الاتهامات الكاذبة أن يغطى الواقع الاليم الذى لم يرد الاعتراف به وهو أن الغزو العسكرى واستلاب الاراضى قد حولا الجزائريين الى بؤس لا يوصف • ولاحظ هذه التعاسة أحد مترجميه السيد « كلاين » سنة 1890 فى ضواحى القرى المسيحية بوادى شلف (39) • وأجمع المؤرخون عن أن هذه السياسة الظالمةالتى تميزت بالسرقة والنهب والتعصب التى جعلت الشعب الجزائرى يقاوم الاستعمار ويثور عليه باستمرار الى ان اندلعت حرب التحرير النهائية •

ماذا تبقى اليوم من القرى المسيحية فى وادى شلف ؟ شىء قليل ، اذا اعتمدنا على دراسة حديثة (40) • فقد غادر المسيحيون الجزائريون بلادنا الى فرنسا سنة 1962 ، حسب ما ذكره الشيخ المهدى البوعبدلى • وفى الختام يمكن القول بأن نشاط لافيجرى قد ترك فى الجزائر ذكريات سيئة الى يومنا

هذا رغم تكيف بعض المبشرين مع ظروف الاستقلال ، فمثلت حركة هذا « الكاردينال » روح الاستعمار الحديث والحروب الصليبية القديمة . ولذا لا يمكن لحركة التبشير أن تنال ثقة المسلمين فيالجزائر ولا فى غيرها من البلاد الاسلامية (41) .

الهوامش :

1 ـ « الابى » دوبيجيز ـ ص 166 ، وكان هذا القسيس مرشدا عسكريا وقد رافق الجيش الفرنسى الذى احتل الجزائر .

2 ـ نفس المصدر ـ ص 28 .

3 ـ لويس فويو ـ ص 13 .

4 ـ نفس المصدر ـ ص 65 .

5 ـ رسالة لضابط فرنسى ـ ص 7

7 ـ الجينرال سبيلمان ـ ص 23

6 ـ شارل اندرى جوليان ـ ص 262

8 ـ شارل اندرى جوليان ـ نفس المصدر ـ ص 440 ٥

9 ـ رسالة لافيجرى 6 أفريل 1868 .

10 ـ غروسنميير ـ ص 153 .

11 ـ نفس المصدر ـ ص 160 .

12 ـ رسالة لافيجرى 6 أفريل سنة 1868 .

13 ـ شارل أندرى جوليان ـ نفس المصدر ـ ص 440 .

14 ـ لوسور ـ ص 69 .

15 ـ الاستاذ تميمى (عبد الجليل) الحركة التبشيرية فى تونس ـ مجلة الاصالة ـ العدد 30 محرم ـ صفر 1396 هـ ـ جانفى فيفرى 1976 ـ ص 49 ـ 61 .

16 ـ غروسنمييط ـ ص 539 .

17 ـ الاستاذ بوعزيز (يحيى) المجاعة فى الجزائر أواخر عقد الستينات من القرن 19 ـ مجلة الاصالة ـ العدد 33 جمادى الاول 1396 هـ ـ ماي 1976 م ص 7 ـ 29 .

18 ـ الجينيرال سبيلملن ـ نفس المصدر ـ ص 104

19 ـ آني ري ـ غولديغير ـ ص 499 ٠

20 ـ غروسنميير ـ نفس المصدر ـ ص 150 ٠

21 ـ يـــونس ـ ص 312 ٠

22 ـ كـــلاين ـ ص 114 ٠

23 ـ نفس المصدر ـ ص 127 ـ 128

24 ـ نفس المصدر ـ ص 128 ٠

25 ـ يـــونس ، ص 311 ٠

26 ـ غروسنمييـــر ـ ص 154 ٠

27 ـ كـــلاين ـ ص 121 ٠

28 ـ غرونسمييـــر ـ ص 153 ٠

29 ـ غروسنمييـــر ـ نفس المصدر ـ ص 155 ٠

30 ـ شارل أندري جوليان ـ ص 440 ٠

31 ـ كـــلاين ـ ص 114 ٠

32 ـ كلاين ـ نفس المصدر ـ ص 116 ٠

33 ـ آني ري غولدزيغير ـ ص 498 ٠

34 ـ نفس المصدر ـ ص 500 ٠

35 ـ يـــونس ـ ص 313 ٠

36 ـ غروسنمييـــر ـ ص 158 ٠

37 ـ ريـــن ـ ص 85 ٠

38 ـ آني ري ـ غولدزيغير ـ ص 509

39 ـ كـــلاين ـ ص 130 ٠

40 ـ البوعبدلي (الشيخ المهدي) ـ الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي مجلة الاصالة العدد 8 ربيع الثاني ـ جماد الاول 1392 هـ ـ ماي ـ جوان 1972 م ـ ص 305 ـ 320 ٠

41 ـ نذكر من الاباء البيض خاصة ميشيل لولون (Michel Lelong) الذي نشر كتابا قيما سنة 1975 تحت عنوان « اني لقيت الاسلام » ، كان طالبا في جامعة

الجزائر وعاش مدة طويلة فى تونس وهو اليوم يشـــرف على حوار الكنيســـة الفرنسية مع الاسلام وفى هذا الاطار ينظم الندوات والملتقيات مع بعض المسلمين وخاصة مع المغتربين المغاربة ·

.L'abbé Dopigez, Souvenirs, 1840

Louis Veuillot : Les Français en Algérie. Tours, 1847

De la conversion des musulmans. Edit. J. Lecoffre. Paris, 1846.

Charles-André Julien : Histoire de l'Algérie Contemporaine. 2e Edit. P.U.F., Paris, 1979.

Général G. Spilmann, Napoléon III et le royaume arabe d'Algérie. Edit. Académie des Sciences d'Outre-Mer. Paris, 1975.

A. Grussenmeyer : Le Cardinal Lavigerie. Edit. Jourdan. Alger, 1888.

P. Lesourd : Les pères blancs.

Annie Rey - Goldzeigner : Le royaume arabe. Edit. SNED. Alger, 1977.

A. Pons : La nouvele Eglise d'Afrique. Edit. Namura. Tunis, 1930.

A.F. Klein : Le Cardinal Lavigerie et ses œuvres en Algérie. Edit. Pouissielgue. Paris, 1890.

L. Rinn : L'insurrection de 1871. Edit. Jourdain. Alger, 1891.

1980 No 85-86

فهـــرس العـــدد

كلمة افتتاح
الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي

للسيد

عبد الرحمن شيبان

وزير الشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد النبي الكريم

معالي السيد الوزير الأول،
السادة الوزراء،
سادتي العلماء،
أبنائي الطلبة وبناتي الطالبات،
السلام عليكم ورحمة الله..

وبعد فيسعدني أن أرحب بكم، ضيوف الجزائر، وأبناءها، يا من قدمتم خير مقدم، تلبيةً لدعوتها، وهي تسعى سعياً حثيثاً في طريق البناء والرقيّ، والعزة والكرامة؛ على هدي من العلم والإيمان، بالتآخي والتضامن مع أبناء الأمة الإسلامية في السرّاء والضرّاء؛

وَبالتعارف وَالتعاون مَعَ أبناء الإنسانية في الشرق وفي الغرب، عَلىٰ أساسٍ من العَدل والإحسَان والإحترام المتبَادل.

إننا نجتمع في هَـذا الملتقى الرابعَ عشر للفكر الإسلامي؛ بعاصمة الجمهورية: الجزائر، مَدينة المقاومة العَنيفة طيلة قرون كثيرة، حَملت فيها راية الإسلام، وَتحطمت - عَلىٰ صخرتها الصّلدة؛ وعَزيمة أهلها الصّلبة - كل حَملات الطغاة البغاة الطامعين، ممن أرادوا بلعهَا، أو مَسخها، أو بترها من جسم أمة الإسلام، وَربّما زيّن للإستعمار وسَدنته الغرور؛ والطغيان، وَالجهل بحقائق التاريخ؛ وَخصَائص الشعوب أن يعلن في احتفالات العيد المئوي لاحتلال الجزائر: "أن الجزائر قد تحولت عَن وجهتهَا العربيّة الإسلامية، وأنها غَدت قلعةً لدين، غير الإسلام، واللسَان، غير لسَان القرآن؛ وإذا بالإرادة الإلهيّة تسفّه أحلام الطغاة؛ وتقيض عَبد الحَميد بن بَاديس ليوَاجه التحدي ويعبّر، بصدق وقوة، عن حقيقة الشعب الجزائري وعقيدته بقوله:

شعبُ الجزائر مسلم ، وإلى العروبة ينتسب
مَن قال حاد عن أصله ، أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجًا له ، رام المحال من الطلب

وإذا بالصبغة المزيفة - بفضل الإيمان والجهاد - تمحى وتزول ، وإذا بالصبغة الإسلامية الأصيلة تبرز مشرقة وضاءة ؛ خالدة على مرّ الزمن إن شاء الله .

ولقد اخترنا الجزائر مقرًّا لهذا الملتقى ؛ لما يوجد فيها من وسائل قد لا تكون كاملة في غيرها ؛ مما يضمن الراحة للملتقين ، بعد أن طوفنا بهم مدة سبع سنين في الآفاق مشرقين ومغربين ، متهمين ومنجدين ؛ وفي مهامه الصحراء وقفارها مغامرين .

فمن تيزي وزو عاصمة جرجرة ومعقل الجهاد والقرآن المبين ، إلى بجاية عاصمة الحماديين ، ومن تلمسان الزيانيين ، إلى عنابة قلعة الصناعة وروضة الرياحين ؛ ومن ورقلة ينبوع الطاقة وباسقات النخيل ، إلى باتنة عاصمة الأوراسيين ، أباة الضيم ، وأسود العرين ؛ وأخيرًا إلى تمنراست مدينة الهقار ومعقل الأبطال الملثمين .

أيها السادة .

إن الهدف من عقد هذه الملتقيات هو بالدرجة الأولى نشر الوعي في الشباب وتوجيهه الوجهة الصالحة، وتدريبه على تنظيم الاجتماعات والاستفادة من مختلف الخبرات؛ والدعوة إلى الحق بالحكمة والبرهان؛ والجدال بالتي هي أحسن.. في جو علمي راق؛ تتجمع فيه شخصيات عالمية بارزة شرقية وغربية، قد يكونون مختلفين في جنسياتهم ولغاتهم، وألوانهم وأوطانهم، وأديانهم ومذاهبهم؛ إلا أنهم متحدون في البحث عن الحق، واحترام الفكر، والإخلاص للعلم، وبذله بسخاء لمن طلبه .

إننا بهذه الملتقيات نتيح الفرصة، كل سنة، لجمع كثير من شبابنا؛ طلاب وطالبات جامعاتنا وغيرهم؛ أن يستمعوا إلى محاضرات هؤلاء الأعلام؛ وما يتبعها من تعقيبات ومناقشات، وأسئلة وأجوبة، ثم نتيح لهم الفرصة، ثانية، أن يقرأوا كل ذلك، في هدوء وتمعن؛ مطبوعاً في كتاب، أو منشوراً في مجلة، أو ملخصاً في مقالة، أو محللاً في بحث، أو معاداً في إذاعة أو تلفزة .

وهكذا أصبحت ملتقياتنا تحتل مكانة سامية في أوساطنا الثقافية والشعبية، وتسترعي اهتماماً بالغاً

من الحزب والدّولة ووسائل الإعلام، مما جعل ولايات الجمهورية تتسابق إلى طلب عقدها في عواصمها.

أما في الخارج فإن هذه الملتقيات تتمتع بسمعة كبيرة بفضل من شاركوا فيها من العلماء والدارسين، وما تحدّثوا به أو كتبوه عنها، بفضل ما نشرنا من أعمالها من محاضرات وتعقيبات، وبحوث ودراسات.. باللغة العربيّة وبالفرنسيّة، في مجلدات تطالب بها المكتبات العامة، والشخصيات الثقافية في مختلف أنحاء العالم، مما يوجب على الوزارة بذل جميع ما في وسعها في نشر ما تأخر من أعمال الملتقيات السّابقة.

ولعل السّر في النجاح الباهر لهذه الملتقيات، هو ما تمتاز به من جدية، ومن حرية في القول، واحترام للرأي، ومن مناقشة صريحة في نطاق آداب البحث والمناظرة، ومراعاة الموضوعية في الحديث والمحاورة، والتزام النظام من جميع المشاركين، أساتذة وطلاب ومسيّرين.

أيها السّادة..

لقد عالجت ملتقياتنا السّابقة موضوعات مختلفةً، مفيدةً هادفةً، خاصة أو عامةً، إسلاميةً أو عربيّة،

وَطنية أو إنسَانية عالمية ، علمية أو دينيَة أو اجتماعية أو تاريخيةً ، عصريّة أو قديمَة ، مما يجعَلها حَرِيَّةً باهتمام الدارسين ، واتخاذها أطرُوحَات للجامعيين ، ومَصَادر لمعرفة الفكر الإسلامي ، والتعريف به من الدعاة والباحثين .

وقد تضمَّن ملتقانا الرابع عشر برنامجًا حَافلاً ، اشتمل عَلىٰ موضُوعات أربعَة :

أولهَا : " الونشريس قلعة من قلاع العلم والنضال "

والونشريس سلسلة جبال شاهقة ، من سلاسل الأطلس التليّ ؛ ذات المناظر الخلابة والخضرة الدائمة الشائقة ، والأشجار الباسقة . تقيم فيهَا أو تحفّ بهَا قبائل جزائرية أصيلة ، وكان الونشريس منبت أبطال كثيرين في شتى الميادين ، نكتفي بذكر اثنين منهم :

أولهمَا : أبو محمّد عبد الله المعروف بالبشير ، رَجل العلم والدعوة وفن القتال ، عَاش أثناء القرن السّادس الهجري ، وصَحب المهْدي ابن تومرت ، وعَبد المؤمن بن علي ، وقاد الجيوش الأولى لتأسيس دَولة الموحّدين .

والثاني : انتسبَ إلى الونشريس ، وَعاش أواخر القرن التاسع وأوائل العَاشر من الهجرة النبَوية ، وكان

رَجل العلم والبحث والتأليف، وَهو أبو العبّاس أحمَد بن يحيي الونشريسي، صَاحب التآليف الثمينة، التي منها كتابه الشهير: " المعيَار " الذي جمَع فيه فتاوي علماء الأندلس وأقطار المغرب، وترك ثروة نفيسة لمن أراد أن يَدرسَ الحالة الدينيَة والاجتماعية لأهل هَذه الديار.

وأثناء حَرب التحرير الوطني كان الونشريس وأهله - كغيره من الجبَال - عَرين أبطال المقاومة والجهَاد؛ فهو لماضينا المجيد، وعَهده الجديد، يَستحق اهتماماً من علمائنا، ليعَرفوا به الشبَاب والأجيَال.

وثاني الموضوعَات عنوانه: " الإسلام والمذاهب الاجتماعية الحَديثة "

إن الاسلام هو دين الله الذي لا يقبَل غيره " وَمَن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وَهوَ في الآخرَة من الخاسِرين "

إنه دين جميع الأنبيَاء والمرسَلين، من لدن آدم إلى خاتم النّبيئين محمّد صَلى الله عليه وَسَلم.

وقد سَعدت به الإنسانية وسَمت، وخرَجَت من الظلمات إلى النور؛ ثم تكالبت الأمم علىَ الإسلام وأهله، وأججّت الحروبَ ضده؛ لمحو حضارته، فنالت مِن

المسلمين، وكانت بذلك وبالاً على الإنسانية؛ إذ حرمتها مما في الحضارة الإسلاميّة من عدل ورحمة وإحسان.. وطال على الجميع الأمد؛ فقست القلوب، وران عليها الكدر، واشتدّت الظلمات، وتعرض الناس للظلم والجور، والجهل والجوع، والعري والطغيان؛ فالتمسوا مخارج تقيهم من المهالك؛ ونبتت فيهم مذاهب حديثة: فلسفية واجتماعية، اقتصادية وسياسية؛ أراد بها دعاتها إنقاذ الإنسانية من الويلات المتنوعة التي كانت تعانيها؛ فنشأ عن هذه المذاهب ثورات عارمة: كان لبعضها انتصار ساحق في الميدان المادي؛ إذ كانت سبباً في رقي أقوام نهضت بهم من الحضيض إلى القمّة، وتفوقوا على غيرهم في الصّناعة، والتجارة، والفلاحة، وفنون الحرب، وبلغت بهم إلى القمر والسّبح في أفلاك السّماء، وفرضت هذه المذاهب نفسها على المجتمع البشري، وصار إهمالها وإغفالها شأنها فعل النعامة أمام الصّائدين؛ فلا بد من دراستها بموضوعية واهتمام، والانتفاع ببعض ما جاء فيها مما يوافق الإسلام، بحيث إن طبقناه كنا لم نخالف شيئاً من مبادئ وقواعد ديننا، وما كان فيها مما يصادم

روح الإسلام ويتنافى مع نصوصه الصحيحة الصريحة، وأحكامه القاطعة، نبذناه وأعرضنا عنه عن هدى وبصيرة.

إن بيدنا ميزان صدق، يعدل ولا يحيف، نزن به ما يجد من المذاهب والمبادئ والأحكام، ذلكم الميزان هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكل أئمة المذاهب الإسلامية، من المجتهدين، أوصى أن يعرض كلامه عليهما؛ فما خالفهما ضرب به عرض الحائط؛ وإذا كان هذا حالنا مع المذاهب الإسلامية، كنا أجدر وأولى برفض ما خالف ديننا من مذاهب قديمة أو حديثة، غربية أو شرقية؛ لأن ديننا لا يخالف، في كلياته ومبادئه، شيئًا صالحًا للحياة؛ وما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وقد كمل الدين وأتم الله به النعمة على المسلمين؛ «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينًا» وإنما يرضى الله لنا أن نكون، في دنيانا وآخرانا، خير أمة أخرجت للناس؛ وحاشا لله أن يرضى لنا الضعف والهوان، والجهل والخصاصة، والتخلف عن ركب الأمم بكل مظاهره وأشكاله؛ أو نكون عالة على فتات موائد الأمم، أو طعمة

لأعدائنا، ينهبون خيراتنا ويستذلون رقابنا؛ ويحققون مخططاتهم بطاقاتنا البشرية والمادية؛ بل يأمرنا بالجهاد في ميدان الحياة، ومغالبة الأمم عليها، ويعلمنا أن ذلك سنة الله في الكون: "ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض"

إننا نعيش في عالم اشتد فيه السباق بين الشعوب والأمم، لتحقيق التفوق في كل ميادين الحياة...؛ فإغماض العينين عما يجد فيها، من ابتكارات ونظم وتيارات، حماقة؛ وقبول كل شيء جديد، من غير تمحيص، ضلالة وخذلان؛ فالإسلام شريعة لا إفراط فيها ولا تفريط. والمسلمون أمة وسط تزن كل شيء بالموازين القسط، وتأخذ بالصالح المفيد، وتنبذ الشر والفساد؛ دون أن يؤثر فيها مصدر ما تأخذ وما تذر، أشرقيا كان أم غربيا، هذا هو سبيل الفلاح والنجاح.

إن الإسلام - بمبادئه السامية - هو المحرر الحقيقي للإنسان من العبودية الروحية والمادية. وقد كان أداة احتفاظ الشعوب الإسلامية بشخصيتها طوال ابتلائها بطغيان الإستعمار؛ ثم كان السلاح الفعال في استعادة حريتها واستقلالها.

وَفي الميثاق الوطني للجزائر تسجيل لهذه الحَقيقة، إذ يقول: "الإسلام هو الحصن المنيع الذي مكّن الجزائر من الصّمود في وَجه جَميع محَاولات النّيل من شخصيتنا، فقد تحصّن الشعبُ الجَزائري بالإسلام: دين النضال، والصّرامة، والعَدل، والمسَاوَاة؛ واحتمَى به في أحلك عهُود السّيطرة الإستعمارية، واستمدّ منه تلك الطاقة المعنوية، والقوة الروحية التي حَفظته من الاستسلام واليأس، وأتاحت له أسبَاب الانتصار"!!

وفي هَذه الحقيقة الواقعية التي أعلنها هذا النصّ من الميثاق الوطني تسفيه لأعداء الإسلام: من المستعمرين المستغلين، أو الجاهلين المغرُورين؛ أو الملحدين الماديّين، الذين يَرمُونه بالسلبية والتحَجّر والتأخر، ويقولون: إن على المسلمين إذا أرادوا الخروج من تخلفهم، والانطلاق في ركب المتقدمين أن ينبذوه.

ولقَد أدرك كثير من المصلحين الاجتماعيين، في عَصرنا، أن هَذه المذاهب الاجتماعية الحَديثة، على اختلاف فلسفاتها ومنابعهَا، لم تحقق للإنسان ما ينشده من سَعادة وانسجام في حَياة الأفراد والأسر والجماعات، مما جعَلهم ينادون: "أين البديل الذي ينقذ النّاس من الحيرة واليأس والضياع"؟

وَعنوان ثالث الموضوعات: "آفاق الدعوة الإسلامية في القرن الخامس عَشر الهجري"

إن الدعوة الإسلامية استمرارٌ لتَبليغ رسَالة محمد صَلى الله عليه وسَلم إلى العَالمين. قال تعالى: "قل هَذه سَبيلي أدعو إلى الله على بَصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحَان الله وَما أنا من المشركين" فعَلى الداعية المبلغ أن يلتزم بأسلوب الدعوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسَنة، والجدَال بالتي هي أحسَن؛ وعَلى المسلمين أن يكونوا في المستوى المادي والروحي والخلقي الذي يجعَل دعوتهم مَقبولة، وَحتى لا يكونوا، بانحطاطهم وسوء أحوالهم، حجة على الإسلام وفتنة لغيرهم: "رَبنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا".

والفرصَة موَاتية لنجاح الدعوَة الإسلامية، وقبولها في الآفاق كلهَا، لما نراه من إقبال عَظيم من ناشئتنا عَلى الإسلام، يدرسُونه، وعَلى الشعائر يعظمونهَا، وعَلى الأركان يؤدونهَا بإيمان وحماسَة، ولما نراه من جماعات كثيرة من غير المسلمين، في مختلف أرجاء العالم يدخلون في دين الله أفواجًا، ملتمسين فيه البديل عن المذاهب الاجتماعية، والعقائد الفلسفية التي كانوا عليهَا، لعجزها عن هدَايتهم وإدخال الطمأنينة في نفوسهم.

إننا في هذا القرن الخامس عشر سنرى تطورًا في الحياة البشرية، يوجب علينا استيعاب الماضي، ولأخذ العبر من أحداثه وطوارئه، ودراسة المذاهب الاجتماعية الحالية دراسة موضوعية، على أساس نتائجها الحقيقية ودوافعها الظاهرة والخفية في أصول الإسلام الثابتة ..

إن على الدعاة أن يفهموا الإسلام حق فهمه، ويتعمقوا في مقاصد تشريعه؛ ليستنبطوا، من أصوله وكلياته، الحلول الصحيحة لمشكلات وتطلعات الإنسان في القرن الخامس عشر؛ في حياته السياسية والاجتماعية، والثقافية والاقتصادية.

عليهم أن يساهموا في "استنباط" نظام اقتصادي مالي جديد؛ يسوده العدل، ويخلص العالم من شرور الاحتكار والاستغلال، بمحو الفروق المجحفة بين الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، في الشرق وفي الغرب، وفي الشمال والجنوب.

أما تفصيل الحديث عن أسس الدعوة الإسلامية، وأساليبها، ووسائلها، ومراحلها؛ فذلك ما تعبر عنه المحاضرات والتعقيبات التي تعالج هذه النقطة من جدول ملتقانا.

أما الموضوع الرابع والأخير فعنوانه : " فلسفة التربية في الإسلام ".

ومن واجبنا أن نهتم بالتربية ، ونختار أكمل وسائلها لنكوّن نشئاً صالحاً للحياة ليسعد في الدنيا وفي الآخرة. وقد اعتنى الإسلام بالتربية أيّما عناية ؛ لأنها أساس النجاح في الحياة إذا أحسنت ، وعامل الخيبة إذا أهملت أو أسيئت ؛ فالطفل يولد على الفطرة ، وأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، كما صحّ في الحديث ؛ ومن أول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى : " ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ، فأمّا اليتيم فلا تقهر ، وأما السّائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربّك فحدّث " ، وفي سورة التحريم قال سبحانه وتعالى : " يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً " ، والوقاية تكون بالتربية الصّالحة ؛ فلو التفت كل إنسان إلى نفسه وأهله ، فالتزم الاستقامة ، وألزم أهله بها لكانت الأمة صالحة طيبة ، وفي الحديث الشريف تكليف الأولياء بأمر أولادهم بالصّلاة لسبع وضربهم عليها لعشر ، والتفريق بينهم في المضاجع . ولا يخفى ما في الصّلاة من تربية شاملة للبدن والفكر والروح ،

بما تقوم عليه من طهارة وتدبّر وخشوع ؛ وفى رسالة عمر بن الخطاب إلى أهل الشام الحث على تعليم الأطفال الرماية والسباحة، وركوب الخيل، وكانت العرب تصف الرجل بالكامل متى كان كاتباً، سبّاحًا، راميًا، فارسًا.

إن علينا أن نجعل تربيتنا لأبنائنا، فى الأسرة والمدرسة والمجتمع، قائمة على أساس متين، من الدين القويم والخلق الكريم؛ لأن أحسن فلسفة تقوم عليها التربية فى الإسلام هى التى تكوّن لنا عضواً صالحاً للمجتمع المتطور؛ يتكيف مع تطوّر مجتمعه نتيجة لعوامل داخلية وخارجية؛ ولكنه يظل، دائماً وأبدًا، المؤمن العامل بأحكام شريعة الله التى جاء بها محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه فى كل زمان ومكان.

هذه هى موضوعات هذا الملتقى، وقد رأينا أن الإسلام كان محورها كلها، لأن فى الإسلام حياتنا، وخلاصنا، وعزتنا، وتقدمنا، أمس واليوم وغدًا.

إن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام الخالد مبيناً بالسنة الصّحيحة، مفسّراً من السّلف الصّالح، والأئمة المهتدين القدماء منهم والمحدثين، فما دام القرآن فى المسلمين يتلونه، ويتدارسونه، ويتدبّرون آياته فى الأنفس وفى

الآفاق، ويعملون بأحكامه في حياتهم، ويجعلونه أساساً في التربية والتعليم والتكوين والتشريع فهم لا يضلون، ولا يذلون، وفي طريق الفلاح والنجاة سائرون، وفي كل معركة يخوضونها بفضل الله منتصرون.

أيها الإخوة الكرام

أيمكن أن نختم كلمتنا دون أن نعرج على مأساة فلسطين؟ إنها المأساة يجب أن تخجل منها الإنسانية جمعاء؛ ففي هذا العصر الذي منحت فيه الشعوب الحقَّ في تقرير مصيرها بنفسها، وبعد هزيمة الفاشية والنازية العنصريتين، يشاهد العالم ويقر طرد شعب من وطنه، لتحل محله عصابات غريبة من شذاذ الآفاق، لا رابطة بينهم إلا فكرة جهنمية عنصرية مبنية على دعوى باطلة، وتعصب ديني مقيت؛ يرتكبون -أمام سمع العالم وبصره- أشد الجرائم وأبشعها، ضد الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، وضد معالم التاريخ، ومقدسات جميع الأديان؛ ومع ذلك يجدون الدعم القوي، بالمال والسلاح والحماية، من أكبر قوات العالم عسكرياً ومالياً واقتصادياً، في حين أن الفلسطينيين أصحاب الحق إذا قاوموا المعتدين المحتلين وجدوا من

يَستنكر أعمالهُم، ويَصفهم بالإرهابيين؛ وإذا بَان حَقهُم وأقاموا حجتهم فإنهم لا يجدون من المجتمع الدّولي إلا قرارات لا تنفّذ، وتوصيات فاترَة لا تسمع، أو تحسّراتٍ وآهاتٍ من الأولياء والرحماء لا تسمن ولا تغني من جوع.

إن قضية فلسطين، ليسَت قضية الفلسطينيين وَحدهم، ولا قضية العَرب وَحدَهم، ولكنهَا تراث وأمانة في أعناق جَميع المسلمين. وإنه لقبيح وغريب أن تغلبهم عصَابة الصّهيونيين.. أن على المسلمين أن يجاهدُوا - فعلاً - بأموالهم وأنفسهم لتحرير فلسطين؛ واسترجاع المدينة المقدسّة، وحماية المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.. ولا يَرُوعَنهم أن يكون ضدهم أكبر قوات العالم؛ فإن الحَقّ حَقهم؛ فليثبُتوا، وليصبرُوا، وليصَابروا؛ والعاقبة لهم.. وإن في بَلدهم الجزائر عبرةً وأسوةً حسَنةً لهم، فقد دَاومت المقاومة نحو قرن وثلث، ولم تعترف أبدًا للعدوّ بدَعاويه في امتلاكها، وَضم أرضها إلى أرضه، بالرغم عن اعتراف العالم بالملك المغصُوب، حتى جاءهَا نصر الله الذي وَعدَ به المؤمنين المجاهدين "يَا أيّهَا الذين آمنوا إن تنصُروا الله ينصركم، ويثبّت أقدامكم" وقد أعان على

هَـذا النصْر العرَب والمسلمون وأنصَارُ الحرية والحَـق في العَالم، من كل جنس ومن كل دين .

إن لدى المسلمين أسلحة فعالة تمكنهم من كسْب المعركة، وإجبَار المعتدين والمظاهرين لهم على الاذعان للحق، وترك الأرض لأصحَابهَا الشرعيّين، منها سلاح النفط والغاز وغيرهما من المواد الأولية، وسلاح الأسواق التجَارية؛ ثم هَذا التفوق البَشري السَّاحق الذي لو صَاحَبتْه العزيمة، لضمن لأهله الانتصار. أفلم يوجب الله على الواحد من المسلمين أن يثبت في مَيدان القتال لاثنين على الأقل من أعدائه؟ فمن المخجل حَقاً أن يغلبهم اليهود ونسبتهم إلى المسلمين واحد على تسعين.

فمَا على المسلمين إلا أن يُعدّوا قواتهم، ويوحّدوا كلماتهم، ويُنظموا صُفوفهم، ويَنصَحُوا لله ورَسوله في جهادهم، ويتآخوا ويتحدُوا ولا يتفرقوا مهمَا تبَاينت مَصَالحهم الخاصّة؛ "فإن الأخوة في الله فوق مَا يقبل ومَا يرد، والاختلاف في الشيئ الخاص لا تمس رُوح الأخوة في الأمر العَام". كما نادى بذلك الإمام عبد الحميد بن باديس منذ خمسين عامًا.

أيها الإخوان

نرجو أن تكون أيّام الملتقى الرابع عشر أيّام أخذ وعطاء من الجميع في ميدان الفكر الإسلامي، فإن غاية النقاش والمحاورة إنما هي الإقناع وتبادل المعارف والمعلومات، ولا يتحقق ذلك إلا متى التزمنا جميعا الصّبر والنظام والطاعة للمسيرين والاستماع باهتمام إلى المتكلمين.

والله أسأل أن يوفقنا في أعمالنا ويهدينا سواء السّبيل

والسّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

الاسلام والمذاهب الاجتماعية الحديثة

كلمة د. أحمد طالب الابراهيمي
عضو اللجنة المركزية والوزير لدى رئاسة الجمهورية

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .

أيها الاخوة ... أيتها الاخوات ...

السلام عليكم ورحمة الله .

لقد تعذر علي الحضور معكم فى هذا الملتقى الاسلامى الكبير ، وعز الغياب التام على مشاركتكم فى حوار فكرى اسلامى ، أعتبر نفسى معنيا به ، وأراه وسيلة ايجابية لضبط أسس الحقيقة الاسلامية ، وتوضيح ينابيعها الصافية للاجيال الصاعدة واللاحقة لكي لا يحصل الاغتراب وتمرض الشخصية بالانفصام، والذاكرة بالنسيان ، وتقع الكارثة ، ويفوت أوان مواجهتها .

ولهذا ، اسمحوا لى أن أصافح أفكاركم ومشاعركم بخواطر فكرية اسلامية ، أرجو أن تجد صداها لديكم، ولا أكتمكم اعتقادى ان الفكرة ، مهما كانت ثرية ، لا تنفع الاا اذا خرجت من عالم المثل الى ميدان العمل والتطبيق، فمنه قيمتها ، وفيه يدرك الناس صلاحها أو فسادها . واذا كان كل شيء لا يحيى ولا يتطور الا بالاستعمال فان المبادىء الاسلامية نفسها لا تحيا الا بالتطبيق ، ولا تعالج مشاكل العصر الا بالممارسة والمعايشة والاحتكاك بوقائع الحياة ، أما « الايمان الافلاطونى » فخيال شاعرى لا يكون له أي أثر فى الواقع الانسانى المضطرب .

لا يخفى عليكم ـ أيها الاخوة .. ـ أن القرن الماضى شهد ظهور تيارات فكرية وسياسية كثيرة ، لم تلبث أن تقولبت فى مذاهب اجتماعية ، اقتسمت القوى البشرية ، وعصفت رياحها بأركان الانظمة القديمة ، وانقلبت فى مذاهب اجتماعية اقتسمت القوى البشرية ، وعصفت رياحها بأركان الانظمة القديمة واحدثت انقلابا جذريا فى شتى الميادين ، غيرت مجرى التاريخ ، وأجبرته أن يعيد تنظيم خريطته السياسية والاقتصادية والاجتماعية على قواعد جديدة ، وبعثت فى الحياة حركة وعي ويقظة واسعة ، فتحت عيونها على الواقع المحيط بها ، وحببت اليها الحرية والعدالة والتقدم، ورغبتها فى اعادة بناء المجتمعات على أسس أفرزتها تجاربها ورمتها فى

أحضان النضال والتضحية حتى تكون الدولة مؤسسة اجتماعية ، قوامها العدل والتعاون والتفاهم والانسجام ·

ثم مرت الايام ، تتعقبها الشهور والاعوام ، ونضجت المبادىء ، واتسعت المشاريع والاهداف · واحتد التنافس والتسابق ، واصطدمت المصالح ، وانقلب ذلك الصدام الى صراع عنيف، غرز جذوره فى اكثر من مكان ، وانقسمت المذاهب على نفسها الى فرق وشيع ، وأخذ كل مذهب لون البيئة التى يعيش فيها ، وتطبع بطبيعتها ، وانحلت القيم الاخلاقية ، وتطورت العلاقات الانسانية ، واعتراها صدام هنا وانسجام هناك ، وبعد مرور وقت تغيرت المفاهيم ، ولم تبق تلك المذاهب مجرد أسلحة فكرية وثقافية واجتماعية للتجديد ، بل صارت أعمدة ايديولوجية ترتكز عليها الاتجاهات السياسية ، ومناهج تعتمدها الجماعات والامم فى حياتها ، وحصونا تتحصن بها فى المحافظة على ذاتها ، ورد العدوان الخارجي عليها ·

وحين يراجع الانسان اليوم أصول هذه المذاهب ، ويدرس مبادئها وقوانينها يجدها كلها أو بعضها جعلت الدعوة الى الاشتراكية محور نشاطها وعمدة تجربتها ، وسلاحها فى معاركها ودعواتها ، وان اختلف مفهومها وتعدد ، اختلاف المذاهب نفسها وتعددها لذا فان موضوع الاسلام والاشتراكية جدير بالدراسة والتحليل والتوضيح ، لا سيما انها مطروحة اليوم على المجتمعات كلها ، ولابد أن يقول الاسلام رأيه فيها بوضوح ، حتى يطوى ملف التساؤل والتناقض والخصام ·

فمن حين الى آخر يطرح موضوع الاسلا موالاشتراكية للمقارنة والدراسة، وكلما طرح قفزت الى صدارته أسئلة منها : الى أي حد تتفق الاشتراكية مع الاسلام ؟ واذا كانت الاشتراكية أنواعا فأية اشتراكية تنسجم أهدافها مع أصوله ومبادئه ؟ ·

لماذا استعمال اصطلاحات غريبة لا تعبر عن منهج االاسلام بدقة ؟ أليس الاسلام تسمية ذاتية الهية ؟ ألا يوجد تضاد بين الاسلام والاشتراكية فى الشكل والمضمون ؟

وفى الاجابة عن هذه الاسئلة تتشعب الآراء وتتعدد الاتجاهات ، لكن يمكن تلخيصها فى موقفين رئيسيين :

I ـ الموقف الاول ، يعتقد أصحابه أن هناك تنافيا بين الاشتراكية والاسلام ، ويرفضون التوفيق بينهما ، لانهم يعدون كل واحد منهما نظاما قائما بذاته ، وينكرون أن تكون فى الاسلام نزعة اشتراكية ما ، بل يعتبر بعضهم أية محاولة فى هذا الطريق انحرافا عن المبادىء الاسلامية أو تشويها للخطة الاشتراكية ، ويقولون على الانسان أن يختار الاشتراكية أو الاسلام ، أما الجمع بينهما فمستحيل · وهؤلاء أشتات

وأصناف ، ويرجعون الى أكثر من مشرب ، وينطلقون فى أحكامهم من أصول فكرية وانتماءات مذهبية متعارضة ، ففيهم البسيط الذى يخاف أن يجر استعمال اصطلاح «الاشتراكية» الى الانحراف عن المنهج الاسلامى ، وفيهم الحساسى ، والاقطاعى ، والرأسمالى ، والشيوعى ، والمستعمر ، والانبريالى ، والمؤمن الخرافى ، والملحد العصرى ، والرجعى ، وفيهم الجاهل والمغفل ، والغني الذى يستغل الاسلام فى خدمة مصالحه ثم يبررون موقفهم بعلل وأسباب تعكس أصولها الانتمائية وتكشف استراتيجيتها، فتذكر جماعة منهم أن الاسلام وضع الهى لا ينسجم مع الافكار والمناهج البشرية، وتذكر أخرى أن الاشتراكية منهج علمى حديث ، تلغى الملكية الفردية والارث ، ولها قوانين عصرية لم يعرفها الاسلام من قبل ، بينما هو يقر الملكية الفردية ويحميها ، ويجيز الارث ، ولا يسمح للدولة أن تتدخل فى حرية الافراد الاقتصادية ، ويذهب التعليل بآخرين الى اتهام الاسلام بالرأسمالية والطبقية لحماية مصلحتهم الحزبية ، فى الوقت الذى يعلن فيه غيرهم براءة الاسلام من الاشتراكية ليحافظوا على امتيازاتهم الفردية والطبقية ٠

2 ـ الموقف الثانى هو موقف التوفيقيين الذين يوفقون بين الاسلام والاشتراكية ، واذا حللنا هذا الموقف وجدناه يتفرع الى اتجاهين : أحدهما يعتنق أصحابه الاشتراكية ويؤمنون بها عقيدة ٠ ويتخذونها منهجا لهم فى حياتهم ثم يحاولون دعمها بالاسلام ومبادئه ويقولون : اننا بحثنا ودرسنا ولكن لم نجد فى الاسلام ما يناقض الاشتراكية أو يرفضها ، وهم ينطلقون من قواعد ومفاهيم غير اسلامية ثم يحاولون اخضاع الاسلام لها ، واعطاءها الصبغة الاسلامية ٠

أما الاتجاه الثانى فى جماعة التوفيقيين فيعتنق أصحابه الاسلام ، ويستوعبون مبادئه ، ويتشبعون بروحه ٠ ويدركون أن أصوله مبنية على نزعة اشتراكية انسانية من وحي السماء ، لها طاقة احتواء جميع القوانين التى تضمن عدالة اجتماعية شاملة ، يسعد بها القوي والضعيف ، ويقولون : اننا ما دمنا مؤمنين مسلمين لا يمكن أن نكون الا اشتراكيين ، وان الاشتراكية ليست غريبة عن الاسلام ولا مناقضة له ، بل بذوره كلها اشتراكية ثورية ظاهرة ٠ وهؤلاء ينطلقون فى اتجاهاتهم من الاسلام ، ويستوحون اشتراكيتهم من شريعته ، ويعدون منهجه قاعدة أساسية، يخضعون الاشتراكية لمبادئه ، ويستضيئون بذلك بقول الله تعالى فى سورة المائدة : « **لله ملك السموات والارض وما فيهن** » ٠ وفى سورة التوبة : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة**

ويؤتون الزكاة » • وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : **الناس شركاء فى ثلاث : « الماء والكلأ والنار »** وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » ويقولون : اذا لم ترد الاشتراكية فى القرآن لفظا صريحا ، فان آياته الكلية احتوتها ، وعاشها الرسول الكريم وأصحابه ، والمسلمون الحقيقيون ، وليس فى استخدام الطرائق والاصطلاحات الاجنبية أي ضرر ، اذا أخضعناها للحقائق الوطنية ، وأعطيناها مضامين اسلامية ، ثم ان استخدامها لا يختلف فى استخدام الاجهزة الالكترونية ، والادوية ، والالبسة ، والمطابع ، والسيارات وغيرها •••

الحقيقة اننا اذا استنبطنا المذاهب والاتجاهات الاشتراكية وجدنا القاسم المشترك بينها منع الاستغلال واحتكار الاموال والثروات ، والسعي الى اشراك جميع المواطنين فى المنافع وتوفير الحاجات المادية والمعنوية لهم ، واشراف الدولة على توجيه الطاقات الاقتصادية، ومراقبتها ، واستثمار الامكانيات البشرية وحمايتها من التبذير والضياع، وتحقيق التوازن الاجتماعى ، ومقاومة الفقر والمرض والجهل والتخلف • وهذه طريقة فى الحياة لا يرفضها الاسلام ولا يجد فيها أية غرابة ، بل يتجه فى أسلوبه الخاص به الى اقامة عدالة اجتماعية تحتويها ، وتنصف الناس من أنفسهم ومن غيرهم ، وتلبى المطالب الفطرية فى الانسان ، لكن فى تعاون وتكافل ومحبة واحسان ، فلا تقتل المواهب والجهود الفردية ، ولا تسمح لها بالطغيان والعدوان على مصلحة الجماعة • ولو أستعرضنا نصوصا من القرآن والحديث ، وبعض مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأعمال أصحابه الاوائل ، لرأينا الاسلام ثورة دائمة وشاملة على الاستغلال ووسائله ، مقت الجبابرة والظالمين ، وأوعدهم بالعقاب الاليم ، فقال الله فى كتابه العزيز : « **انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم** » - 42 - (الشورى)، وقال : « **تبت يدا أبى لهب وتب • ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب** » وارتفع بالضعفاء الى مستوى الاقوياء ، « **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا** فى **الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**» (القصص) (5)، وغرس فى نفوسهم شرارة التمرد على الضعف والفساد ، واعتبر المؤمنين سواسية لا يفوق أحدهم الآخر الا بالعمل الصالح « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » ، وانطلق فى ذلك من بواطنهم فغسل عقولهم ومشاعرهم من الضلال والالحاد، وحصنها بنفحة الايمان • حتى تثبت فى وجه العواصف وفجر فيها طاقات العمل والانتاج فأنتجت وأبدعت ، وجعل ملكية الثروات الطبيعية جماعية ، وألحق بها جميع الاشياء التى لا يتوقف وجودها والانتفاع بها على مجهود فردى خاص ، ولعل حديث الرسول صلى

الله عليه وسلم : « الناس شركاء فى ثلاثة » الغ ··· قاعدة تشريعية واضحة فى هذا الميدان · والى جانب ذلك حارب الملكيات الواسعة واستقبح تجمع الثروات فى أيدى جماعة قليلة ، أو فى يد فردية ، واذا أباح الاسلام الملكية الفردية وسهل سبل التملك ، فانه لم يجعلها ملكية كلية ، وانما قصرها على ملكية الانتفاع والاستثمار « **كلوا واشربوا من رزق الله** » · « **يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم**» (البقرة 60 ـ 172) ، وجعلها وظيفة اجتماعية واقتصادية يتحتم عليها أن تراعى مصلحة المجتمع وفوائده « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، ومن عطل أرضا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له » أما الملك فلله سبحانه وتعالى وحده « **وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » (الحديد ـ 7) ثم أحاطها بقيود دقيقة واجراءات لا تمكنها من التضخم والتجمع ، ومن هذه الاجراءات والقيود : الزكاة ، والصدقة ، والكفارات ، والخراج ، والضرائب الموسمية ، والارث ، والوصية ، والوقف وتحريم السرقة ، والرشوة ، والربا ، والاحتكار، والغش ، والظلم ، واستغلال النفوذ والسلطة ، وجميع العقود التى تنطوى على مضرة بالمصلحة العامة ، ويضاف الى ذلك قانون : من أين لك هذا ؟ وقد طبقه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن اللتبية عندما جاءه ذات يوم بالزكاة وقسمها الى قسمين ، وقال له : هذا لكم وهذه هدايا أهديت لى ، فغضب رسول الله وقال : انى استعمل منكم رجالا فى أمور مما ولانى الله ، فيأتى أحدكم فيقول : هذه لكم ، وهذه هدايا أهديت الي · فهلا جلس فى بيت أبيه أ وبيت أمه ، فينظر ، أيهدى اليه أم لا ؟ والذى نفسى بيده لا يأخذ أحد منا شيئا الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته » ثم صادر جميع الهدايا وضمها الى بيت المال ، كما أباح للدولة أن تنزع الملكية الفردية وتجعل الانتفاع بها عاما ، اذا اقتضت المصلحة ذلك ، وطبق هذا المبدأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فحمى أرضا قرب المدينة المنورة وجعل كلأها حقا مشاعا للفقراء ، وأمر أن تبعد عنها ماشية الاغنياء ، وقال : « ان تهلك ماشية الغني يرجع الى ماله ، وان تهلك ماشية الفقير يأتى متضورا بأولاده يقول : « يا أمير المؤمنين ، طالبا الذهب والفضة وليس لى أن أتركه ··· فبذل العشب من الآن أيسر علي من بذل الذهب » · ولما شكا أهلها قائلين : « انها أرضنا ، يا أمير المؤمنين ، قاتلنا عليها فى الجاهلية ، وأسلمنا عليها ، فعلام تحميها » ؟ أجابهم : « المال مال الله ، والعباد عباد الله » ·

أيها الاخوة والاخوات :

ان الاسلام عدو للاستغلال ، أقام أسسه على العدل والمساواة ، وتسابق الضعفاء فى فجر ظهوره الى الالتفاف

حوله والاحتماء به ، وكان فى طليعة المتسابقين امرأة ، وشاب ، وعبد ، وتضايق الاغنياء والاقوياء والاشراف وأبناء الطبقات العليا من ذلك ، وانبرى زعماؤهم الى مناوأته وتعطيل دعوته ، ولما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الايمان استغربوا مستهزئين وقالوا : « **أنؤمن لك واتبعك الارذلون»** ؟ واستولت عليهم الدهشة يوم سمعوه يقول لاتباعه فى تواضع « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » ، وازدادت دهشتهم أكثر من قوله عندما استشفع أسامة بن زيد لامرأة مخزومية سرقت : « انما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد • وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، انه العدل يأخذ طريقه ، ويطبق على الشعب والمسؤولين ، ولا يراعى فى الحق جاها ولا ثراء ، ولا نفوذا •

هذا منهج الاسلام ، وتلك بعض حقائقه وأصوله ، وهو ـ كما عرفنا ـ نسق الهى لا يتساوى بأعمال البشر ، وله ذاتية خاصة تنطلق من الايمان ، ومن تطهير عقل الانسان ، وتربية روحية لتكون أعماله صالحة ، وجمع ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فى اجابته أبا عمرة الثقفى لما قال له : قل لى قولا فى الاسلام لا أسأل عنه أحدا غيرك، قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » •

أما الاشتراكية فاصطلاح عصرى • ليس هناك ما يمنع من التعبير به عن القيم الاجتماعية والاقتصادية والانسانية فى الاسلام ، وبالفعل استعمله علماء مسلمون كبار ، واستعملته بلدان اسلامية منها الجزائر ، وأعطته هذه مضمونا قيدته أن يكون « فى اطار القيم الوطنية والاسلامية » ، وقالت فى ميثاقها الوطنى : « ان الاشتراكية فى الجزائر لا تصدر عن أية فلسفة مادية ، ولا ترتبط بأي مفهوم متحجر غريب عن عبقريتها الوطنية ، وان بناء الاشتراكية يتماشى مع ازدهار القيم الاسلامية التى تشكل أحد العناصر الاساسية المكونة لشخصية الشعب الجزائرى » •

ان الاشتراكية بهذا المفهوم الواضح لا تتنافى مع الاسلام ، فهي تنبع من ضمير الايمان ، وتنطلق من عقيدته المشتركة ، أقامها على المحبة والالفة والتعاون والتضامن ، وربطها بالصلاة والزكاة والصيام والحج والتوحيد ، وجعلها وسطية أو تعادلية تجمع بين المادة والروح ، وترتكز عليهما فى توازن عجيب « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا • وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين** » (القصص ـ 77) ، وحارب الفقر مثلما حارب الترف والبذخ والانحراف ، وعده مصيبة ينبغى القضاء عليها ، ولم يقره حسنة ، بل استعاذ رسوله الكريم منه فى أدعية كثيرة ،

وقرنه بالكفر ، منها قوله : « اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفقر ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، لا اله الا أنت » وأحب الله من عبده أن يرى اثر نعمته عليه ، وهذه كلها جوانب توازنية شمولية تبرز قدرته على استيعاب معطيات العصر الحديث ومنجزاته، وتعرى الضلال الذى يحاول اخفاء جوهره ، ويلهى المنتسبين اليه بالقشور والشكليات ٠

أيها الاخوة والاخوات :

اذا كان الاسلام منهجا ربانيا شاملا يقوم على افراد الله بالالوهية ، وينظم الحياة على أسس نموذجية ، وينشط أعمال التجديد والابتكار ، فلماذا وهنت عقيدته فى النفوس ؟ واذا كانت مبادئه سماوية تمتاز بالتفوق على جميع المحاولات البشرية فلماذا أعرض عنه الشباب المسلم المثقف وأقبل على غيره ؟ لماذا وجدت بعض المذاهب الاوروبية خطوة كبيرة عند هذا الشباب ؟ ولماذا تجاوب معها وأقبل عليها اقبال المحب المغرم بها ، بل اعتبرها عقيدة العصر الثورية ولم يبغ بها بديلا ؟ ولم وضع الاسلام على الرف ؟ واعتبره نظاما تقليديا تجاوزته الايام ولا سيما فى العهود الاخيرة ؟ أسئلة كبيرة تغمر الانسان اليوم ، حينما يستحضر أوضاع المسلمين وينظر فيها بعين الفكر والحقيقة ، لكن الاجابة عنها قريبة منه، يستمدها من واقع حياتهم ، ويستخرج عناصرها من وجودهم المضطرب ، فبعض المذاهب الاوروبية أعتنقها مناضلون حقيقيون ، تفانوا فى خدمتها وما يزالون يواصلون تفانيهم ، وضحوا فى سبيلها ، وطرحوها طرحا شاملا حتى يجيب عن جميع الاسئلة والتساؤلات، وسهر مفكرون « مجتهدون » على اثرائها وتعديل مبادئها حتى تلائم الظروف الجديدة والاوضاع المتطورة، وخصصوا لها دعاة بذلوا جهودا كبرى فى تلقين الشباب « عقيدتها » وتحصينهم من الافكار والعقائد الاخرى ، بل جعلوا مبادئها « منطلق التربية والتعليم والثقافة ، وضبطوا فى ضوئها القوانين الادارية والاجتماعية والعلاقات البشرية ، وربطوها بالعمل ، والسلوك، والاخلاق والمسؤولية ، وبنوا عليها دولا وانظمة وحضارة ، والتزموا بتوجيهاتها، وخلطوا الفكرة بالعمل ، وعاشوا ، مذهبيين فى عقائدهم وافكارهم ومشاعرهم ، وأوكبوا التحول والتغيير، ولم يجهروا مذهبهم أو يتركوه يتخلف عن العصر حتى يعجز عن احتواء المعطيات الجديدة ، بل هم يحاولون دائما تغذيته وتطعيمه ، بما يجد على سطح الوجود ، ويعرضونه كل مرة فى أسلوب جديد يكاد يظهره فكرة أو عقيدة صالحة لكل زمان ومكان ٠

أما الاسلام ، النظام الالهى شامل ، وصاحب الذاتية يتميز والجاذبية السماوية الحكيمة ، فقد كاد يصبح غريبا بين أهله ، انحرفوا عن طريقته

الرشيدة ، وهجروا مبادءه وقيمه وتراثه، وجهلوا أصوله وفروعه ، « ومزقوا وحدته وأزهقوا روحه وأخلاقه » ، واتهمه « المثقفون » منهم بالجمود والتخلف والرجعية ، واستبدلوا به « أديانا » صنعوها لانفسهم ·

أيها الاخوة والاخوات :

هناك جهود كبرى بذلها الاستعمار بالامس ، وهناك جهود أخرى تبذلها الامبريالية اليوم لتجريد الاسلام من أسلحته التربوية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية ، وصرفه عن الاهتمام بمشاكل الدنيا ، تاثر بها العلماء المسلمون فتعلقوا بالقشور وأهملوا اللب ، وأضاعوا منبع القوة والوجود ، فأصبحوا أو كادوا يصبحون تعبديين ، أخرويين شكليين « يتحدثون عن الآخرة ويخلطونها أحيانا بالماضى ويهربون من الصدام بالواقع ، ويحلقون فى الخيال ، ويفسرون الآيات القرآنية تفسيرا سطحيا أو تفسيرا انحرافيا ، ينفر من الاسلام ، ويدعم صفوف أعدائه ، وقد يبلغ الجهل أو الخبث والسطحية ببعضهم أن يزعموا بأن سعادة الدنيا للكفار وحدهم ، ويضلوا بذلك البسطاء ، ويقتلوا فيهم ارادة الطموح والتطلع الى الحرية والتغيير ، ويخرجوهم من ميدان معركة الحياة ويشغلوهم بالخرافات والاباطيل ، ويسوغوا لهم الذل والاستسلام للظلم والاستغلال · واذا قدر لهؤلاء البسطاء أن امتعضوا من أوضاعهم الطبقية المأساوية ، قالوا لهم فى غموض : « **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق** » « **ورفع بعضكم فوق بعض درجات** ··· » ، كأنما الله سبحانه وتعالى لم يبعث رسوله بالاسلام لاسعاد البشر كلهم : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » (الانبياء ــ 107) ، وانما بعثه لينعم به قلائل منهم ، ولربما احتقروا الاهتمام بشؤون الدنيا قائلين : « **انما الحياة الدنيا لعب ولهو** » ، ونسوا أو تناسوا أنها جسر عبور للآخرة ، وأن من كان فى هذه أعمى لابد أن يكون فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ·

ولا شك أن هذا الموقف طمس تعاليم الاسلام الصحيحة ، وأنعش الدروشة والخنوع وفتح الطريق لطرد تراثه الاصيل من حقول التربية والتعليم ، وهيأ الظروف لانتشار الجهل بأصوله وفروعه ، وأحدث فراغا فكريا وثقافيا سارعت الانبريالية الى ملئه بثقاتها وقيمها وأفكارها ، الامر الذى سهل اصابة الشباب المسلم المثقف بمرض فقدان الذاكرة أو نسيان الثقافة الوطنية، وبعثر طاقاته بين اتجاهات متعددة الالوان والاشكال تخدم مصلحة كل جهة الا المصلحة الوطنية وتأزمت نفسيته ، واحتار كيف يثبت هويته ؟ وأين يجد مقوماتها ؟ وانعكست وضعيته على الحركة الثورية الاسلامية نفسها ومستها فى الصميم ·

أيها الاخوة والاخوات ٠

ان اصابة الذاكرة بمرض نسيان الثقافة الوطنية داء خطير جدا ، يمسخ القيم ويفتك بالعقول والنفوس ، ويسلب روح المقاومة الذاتية ، ويكسر الحصانة الداخلية ويبث فى الشعوب الفشل والوهن ، فتنحل العزائم وتضعف المقاومة أو تموت ، وتستطيع الامبريالية حينذاك أن تحقق فى ظرف زمنى قصير ما عجز الاستعمار والصليبية عن تحقيقه فى عدة قرون ٠

لقد وجد استعمار الامس فى الامبريالية اليوم حليفا طبيعيا ووارثا مخلصا يتابع رسالة المسخ والتشويه وزرع جرثومة مرض نسيان الثقافة أو فقدان الذاكرة ولهذا يتعين على الشباب المسلم أن يحذر هذا الخطر ، ويتحصن بثقافته الاسلامية ، ويدرس تراثه فى أمهاته ، ويصاحب الشافعى فى رسالته ، والشاطبى فى موافقاته ، والغزالى فى مستصفاه ، وأبى عبيد فى أمواله ، والماوردى فى أحكامه السلطانية وابن خلدون ، وشهاب الدين القرافى ، وابن حزم الاندلسى ، والآمدى ، وامام الحرمين ، وابن القيم ، وابن تيمية ، وغيرهم من الذين أثروا الفكر الاسلامى وعالجوا جميع القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية والتربوية ، ولم ينعزلوا عن مشاكل الحياة ، وانماانـدمجوا فيها ، ولم يسخروا الدين لخدمة هدف لا يدخل وفى مقاصده كما انهم لم يعطلوا وظيفة من وظائفه ٠

فالتراث الاسلامى غني جدا بمحتواه العلمى والعقلى ، وكلما راجعه الانسان اكتشف فيه جديدا ، واقتنع انه يمكن اعتماده فى حل قضايا عصرية ٠ ولو عاد اليه شبابنا لاجابه عن مشاكل أقلقته وراح يبحث عن حلولها عند الآخرين ، ولكن مشكلة هذا التراث الاسلامى أنه مهمل ، والاهمال جر الى معادته ، وقديما قيل « الناس أعداء ما جهلوا » ٠ وعلى هذا يجب احياؤه ، وتجديد الروابط الوثيقة بينه وبين الاجيال الصاعدة ، واتخاذه اساسا من أسس البناء الثقافى الجديد ، وفتح باب الاجتهاد والانطلاق الى المستقبل فى استقلالية وتحرر من أي تبعية أجنبية أو جمود رجعى عند صيغ تقليدية بائدة ٠

ولا ننس أيها الاخوة والاخوات ان الثقافة الوطنية هي بناء الانسان ، عمدة التقدم والتطور ، واذا قلت بناء الانسان ، عنيت تحرير العقل ، والنفس ، وتنمية الضمير والاخلاق ، وتطعيمها من الامية ، وقصدت قوة الدين والتدين التى لا تماثلها أية قوة أخرى فى صياغة شخصية المجتمع ، وفى المحافظة على تماسكه واستقرار نظامه واحترام قوانينه ، وتعاون أبنائه ٠ ولا ينفع أن تبنى الامة المصانع ، وتشق الطرق ، وتشيد العمارات ، وتغرس الاشجار ، وتصنع الطائرات ، وتجمع الثروات اذا لم

تحصن « انسانها » من أمراض الانحلال ولامعية ، وفقدان الذاكرة والنسيان . ولا يكفي خروج الاحتلال العسكري السياسي والاقتصادي ، اذا استمر الاستعمار الفكري والثقافي ، وبقيت القوة التحريرية الكبرى المتمثلة في الاسلام بعيدة عن ميدان صنع الافكار وتربية الضمائر والعقول ، وتوجيه التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ان الانسان يساق من باطنه لا من ظاهره ـ كما قال أحد المفكرين المسلمين المعاصرين ـ لا تضبطه الاجراءات القانونية ، وترهبه العقوبات الجنسية والمالية وحدها ، كما ان « العلم المجرد سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير ، ويصلح للبناء والتعمير » ، ولضمان حسن الانتفاع به ، لابد من حارس أخلاقي يوجهه ويراقب استعماله ، وهذا ما يؤكد ضرورة تطعيم التعليم في جميع مراحله بالعلوم الاسلامية حتى يتسلح الطبيب ، والمهندس ، والاستاذ ، والمعلم، والجندي ، والموظف ، بالوازع الذي يقيهم شر التقصير في أداء الواجبات ويربط قلوبهم بالمحبة ، ويعزز صلاتهم الروحية ويمتن وحدتهم ، ويعلو بهم على العنصرية والجهوية والانانية ، يحميهم من التيارات الغازية . واذا ألححت علىالتعليم والتربية والثقافة فلانى اعتقد أنها الحقول التى تؤثر في العقل والذوق والاحساس وتكوين الشخصية السوية أو المنحرفة ، وتساهم في أي ميدان بحصة الاسد في الاخلاق أو في النجاح .

أيها الاخوة والاخوات .

ان الاسلام طاقة ثورية جبارة ، متى تمكنت مبادؤه من النفوس وامتزجت بالمشاعر ، وتفاعلت مع العقول ، قلبت الوجود ، ورفضت أن يستسلم أصحابها لليأس أو يركنوا الى الهزيمة ، أو يقبلوا الاستعباد ، وبقيت شعلة تنبض بالثورة والحرية ، وتغذى حب الجهاد والتضحية، وتواجه أسلحة الغزو والدمار ، في صعود لا يضعف ، وقوة لا تلين ، وتفجر هزات الكفاح هنا وهناك . ولو بحثنا عن القوة الخفية التى أشعلت شرارة الثورة في الوطن الاسلامى عبر التاريخ الطويل لما وجدنا قوة غير الاسلام ، فهو الذى جابه التحديات الكثيرة التى هددت الامة الاسلامية بالفناء ، وظل انتصاره الروحى مستمرا دون انقطاع رغم اضطراب أوضاعها وضعف قوتها السياسية ، وانقسامها الى جماعات وطوائف ، ولولاه لما تحرر المسلمون من الاستعمار . واذا كان هناك من يساوره الشك في ذلك فعليه أن يدرس الثورة الجزائرية ولا اخاله الا مقتنعا بأنها ثورة اسلامية اندلعت باسم الاسلام وانتصرت ، بفضله . وكان شعار رجالها قول الله تعالى : « **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون** » ، وكانت كلمة الله أكبر راية معاركها الحربية في الجبال

والمدن ، ومبعث الثبات حتى النصـر أو الاستشهاد ، لكن ما دام الاسلام واجه تحديات الاستعمار والامبريالية ، وكان قاعدة المسلمين فى معركة الحرية فهـل يمكن اعتماده فى بناء دولة عصرية ؟

أعتقد أن هذا الدين قادر على بناء دولة عصرية وخوض معركة التنمية ، اذا وجد رجالا يؤمنون به ويفهمـون مقاصده ، ويلتزمون بمبادئه فكـرا وعملا ، ويعيشون عصرهم ، ويتحررون من الشعوبية والمذهبية والخرافيـة ، ويملكون القدرة على التوفيق بيـن الايمان والعقل ، ويتبعون الحـق دون الاهتمام بمن نطق به ، ويعـودون الى المنابع الاسلامية ، ويجعلـون القـرآن والسنة فوق المذاهب والاقوال ومـا يمنعه اليوم ـ أيها الاخوة والاخوات ـ أن يبنى دولة أسسها متوفرة ، وقـد سبق له أن بعث دولة من العدم ، شادها من الحفاة والعراة ، ودك بها معاقـل الشرك والالحاد فى الفرس والروم ، وأعلى كلمة الله وأنشأ حضارة انسانية كانت شمسا ساطعة على العالم كله ٠

أيها الاخوة والاخوات ٠

ان لنا أملا كبيرا فى الشباب المسلم الاصيل المجدد ، وفى علماء الاسـلام المجتهدين ، ويقظة الشعوب الاسلاميـة وثباتها هنا وهناك لاقامة صرح البناء الاسلامى الجديد ٠ وفقكم الله وأنجـح أعمالكم ٠ وهـدى بكم المسلميـن الى سواء السبيل ٠

والسلام عليكم ورحمة الله ،

البنك الاسلامي للتنمية

الصديق التاوتي
مساعد رئيس البنك الاسلامى
للتنمية
فى مؤتمر الفكر الاسلامى

تمهيد :

لقد كان من حسن حظى ان تم اختيارى لامثل الجزائر ، ثم تم انتخابى لتمثيل مجموعة من الدول فى مجلس المديرين التنفيذيين للبنك الاسلامى للتنمية ، وكان هذا فى يوليو عام 1975 م ، والى هذا التاريخ لم تكن لدينا أى فكرة عن هذا البنك سوى ما كان يصل الينا عن عزم الدول الاسلامية على انشاء بنك اسلامى فى جدة ·

واليوم والحمد لله أصبح البنك كيانا قائما له دوره الفعال فى المجتمع الدولى بصفة عامة وصارت له أنشطة كما واجهته مشاكل وصعاب ·

وفى شهر فبراير 1979 م تم عقد اجتماع لعدد محدود من علماء الشريعة الاسلامية الذين يمثلون المذاهب الاربعة الشهيرة ، وكان بينهم الاخ الشيخ عبد الرحمن شيبان يمثل مذهب الامام مالك وقد طلب منى ان أقدم لاجتماعكم هذا نبذة مختصرة عن البنك الاسلامى للتنمية ، ولم تمكن ظروفى أن أقدم هذه الفكرة فى العام الماضى ، ولكننى سعيد بأن أقف فى هذا العام بينكم لاتحدث عن البنك الاسلامى للتنمية ·

مقدمة :

ان دول العالم فى عصرنا الحاضر أخذت تبذل الجهود من أجل النهوض وتحقيق التقدم والازدهار وتوفير الرخاء لشعوبها ، وشعرت هذه الدول شعورا قويا بالحاجة الى تحقيق التعاون فيما بينها وخصوصا فى المجال الاقتصادى وتطلع المسلمون منذ فترة طويلة الى وجود مؤسسات مالية تعمل وفق تعاليم الاسلام ، وظل هذا الامل حلما حتى ظهرت فكرة التضامن الاسلامى ،

وتكونت منظمة المؤتمر الاسلامى التى تضم لحد الآن اثنتين وأربعين دولة ·

ساد دول منظمة المؤتمر الاسلامى شعور قوى بضرورة تحقيق مزيد من التعاون الاقتصادى والمالى بينها ولهذا جاء فى ميثاق المؤتمر : « تنمية ودعم التعاون بين الدول الاعضاء فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من الميادين » ·

كما برزت الى الوجود الحاجة الى انشاء مؤسسة مالية ذات طابع دولى مختصة بالتنمية والاستثمار والرفاهية الإجتماعية تستمد أصول أعمالها ، وقواعد عملياتها التنموية من أحكام الاسلام ومبادئه ، وتكون أداة تعبر عمليا عن وحدة الامة الاسلامية وتضامن أبنائها فى مسيرتهم الخيرة من أجل البناء والعمران والازدهار وتبلرت فكرة انشاء بنك اسلامى للتنمية وسعى دولة تنكو عبد الرحمن ··· أمين عام منظمة المؤتمر حينذاك لانشاء هذا البنك مدعوما من جلالة الملك فيصل آل سعود رحمه الله ·

تأسيس البنك :

صادق المؤتمر الثانى لوزراء مالية الدول الاسلامية الذى انعقد بجدة فى 22 من رجب عام 1394 هـ (10 اغسطس عام 1974 م) على اتفاقية تأسيس البنك الاسلامى للتنمية ·

بدأ سريان هذه الاتفاقية فى 12 من ربيع الثانى عام 1395 هـ (23 من ابريل عام 1975 م) ·

عقد الاجتماع الافتتاحى لمجلس محافظى البنك الاسلامى للتنمية بالرياض فى 17 من رجب عام 1395 هـ (26 من يوليو عام 1975 م) ·

تم افتتاح البنك بصفة رسمية فى 15 من شوال عام 1395 هـ (20 من أكتوبر عام 1975 م) ·

أهدافه :

الاسهام فى عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ودعمها بالدول الاعضاء والمجتمعات الاسلامية فى الدول غير الاعضاء للنهوض بمستوى المعيشة طبقا لمبادئ الشريعة الاسلامية السمحة ·

رأس المال :

رأس المال المصرح به هو (2000) ألفا مليون دينار اسلامى (ألفان وستمائة مليون دولار أمريكى) ·

الدينار الاسلامى هو وحدة الحساب بالبنك . وتعادل قيمته وحدة من وحدات حقوق السحب الخاصة بصندوق النقد

الدولى ، وهـذه الوحدة تعـادل دولارا أمريكيا وخمس الدولار تقريبا فى الوقت الحاضر .

رأس المـال المكتتب فيـه حتى هـذا التاريخ (790) مليون دينار اسلامى أى ما يعادل (1028) مليون دولار تقريبا .

عمليات البنك :

بلغ عدد الدول المستفيدة الى تاريخه أربع وثلاثين دولة ، اما عدد العمليات التى وافق عليها البنك فهو مائة وثلاث وخمسون عملية ومجموع المبالغ المعتمدة للمشروعات التى تمت الموافقة عليهـا حتى تاريخه نحو (1106) ملايين دينـار اسـلامى تقريبا « أى مـا يعادل 1393 مليون دولار أمريكى تقريبا » .

وعلى ضـوء مبادىء اتفاقية التأسيس وسياسات واجراءات التمويل فان البنك يوجـه عناية أكبـر لمشروعات الدول الاعضاء الاقل نموا ، وهو يسعى الى دعم وتنشيط التبادل التجارى فى المـواد ذات الصبغة التنموية بين الدول الاعضاء هذا الى جانب عنايته بالمشروعات التـى يكون لهـا أولوية فى عمليـة التنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعى فى الدول الاعضاء .

وأهم مجالات تمويل البنك هى :

1) منـح القـروض لمشاريع البنيـة الاساسية (طرق ، مواصلات ، سدود ... الخ) دون فوائد وفقـا لاحكام الشريعة الاسلامية السمحة ، ويتقاضى البنك مبلغا مقطوعا مقابل التكاليف الادارية يدفع على اقساط . وفى هذا الاطار ساهم البنك فى تمويل انشاء طـرق فى الصومـال والسـودان والسنغال كما ساهم فى تمويل توسعة قناة السويس وفى تمويل انشاء سد بالنيجر هذا الى جانب القروض التى قـدمت لانشاء محطـة للاتصالات السلكية واللاسلكية بافغانستان وفى مجال الطاقة لسورية والكاميرون من أجل زيادة فعالية الطاقة الكهربائية .

2) المشاركة فى رأس مـال المشاريع الصناعية والزراعية ذات العائد المالى المباشر وفى هذا الاطار ساهم البنك فى مصانع وطنية لانتاج الاسمنت فى كل من المغرب وماليزيا ودولة الامارات العربية المتحدة كما ساهم فى مصانع نسيج بالباكستان والسودان ومشاريع لتكرير البترول فى الاردن والباكستان الى جـانب مسـاهمته فى مشروعات للمناجم وحديد الصلب فى موريتانيا كما ساهم البنك فى رأس مال بنك البحرين الاسلامى .

3) تمويل المشاريع الصناعية والزراعية ذات العائد المالى المباشر على أساس المشاركة فى الارباح وفى اطار هذا النوع ساهم مع بنك دبى الاسلامى فى مشروع مدينة بدر السكنية لانشاء الفى وحدة سكنية .

4) التأجير ، وقد وافق البنك على القيام بعمليات لصالح الدول الاعضاء منها :

بنجلاديش	سفينة شحن	
تركيا	خط تجميع جرارات	
تركيا	آلات ومعدات الكترونية	
الجزائر	مرافق وآلات لمشروع أمهات الدجاج	
الصومال	سفينتين احداهما لنقل المواشى والاخرى للنفط	
المغرب	عربات سكة حديد لمشروع اسمنت	
باكستان	وحدة تحويل لصفاة باكستان المحدودة	
ليبيا	باخرة مبردة لنقل الخضر والفواكه واللحوم	
الاردن	قاطرات ديزل كهربائية لسكة حديد العقبة	

5) تقديم المعونة الفنية لمساعدة الدول على القيام بدراسات الجدول الاجتماعية والاقتصادية والمالية اللازمة لتهيئة المشاريع واعدادها لتكون صالحة للتمويل من قبل المؤسسات المالية واذا كانت المساعدة فى حدود ثمانين ألف دينار اسلامى تقدم بصفة منحه اما اذا زادت على هذا المبلغ فانها تقدم بصفة قرض بدون فوائد وقد قدم البنك معونات فى هذا الاطار كمساعدة لكل من : ــ

- بنجلاديس
- غينيا
- أوغندا
- الصومال
- الجمهورية العربية اليمنية
- فولتا العليا
- فلسطين .

6) تمويل التجارة الخارجية للدول الاعضاء وذلك بشراء المواد ذات الصبغة التنموية والتى تطلبها الدول الاعضاء للحاجة اليها فى مجالات التنمية المتعددة ثم يعيد البنك بيعها للدولة العضو المستفيدة مع تيسيرات فى دفع الثمن على اقساط ، ومن أهداف هذا النشاط تنشيط ودعم التبادل التجارى بين الدول

الاعضاء فى البنك اذ تعطى أولوية للمواد التى يمكن استيرادها من دولة عضو لصالح دولة أخرى وقد بلغ مجموع ما تم فى هذا الاطار 67 عملية تمويل تجارة خارجية لصالح (18) دولة من الاعضاء ومن امثلة هذا النوع استيراد المواد البترولية من العراق لتركيا ومن ليبيا للنيجر وغينيا ومن الجزائر الى غينيا بيساو ومن الكويت الى السودان ومن دولة الامارات العربية المتحدة الى بنجلاديش كما وقع تصدير الفوسفات من الاردن وتونس الى تركيا واسمدة اليوريا من الكويت وقطر والسعودية الى باكستان وغير ذلك من العمليات ٠ ومجموع المبالغ المعتمدة للتجارة الخارجية 885 مليون دولار أمريكى ٠

المشروعات الاقليمية :

والبنك يبذل جهده لتشجيع المشروعات ذات الطابع الاقليمى تحقيقا للتعاون والتكامل الاقتصادى بين دولتين فأكثر ولذا فانه سعى الى دعم وتشجيع اقامة طريق الوحدة الافريقية عبر الصحراء الكبرى ومشروع حوض نهر السنغال بين السنغال ومالى وموريتانيا وقد كان للبنك دور رئيسى فى تشجيع قيام هذا المشروع ٠

فى مجال التعاون مع المؤسسات المماثلة

ـ لم يتمكن البنك من الوصول الى هذه النتيجة العظيمة فى مجال تحقيق أهدافه الا بمساعدة المؤسسات التنموية المماثلة ٠٠ ففى كثير من الاحيان دخل البنك ممولا فى المشروعات التى كانت فى حاجة لسد الفجوات فى التمويل ٠٠ وفى المعتاد تكون هذه المشروعات قد سبقت دراستها من قبل الاجهزة الفنية فى الدول والمؤسسات التمويلية الدولية والمؤسسات المحلية ٠

المؤسسات المالية الدولية :

ـ منذ تأسيس البنك وهو يسعى الى انشاء علاقة مع المؤسسات الدولية العالمية والاقليمية وقد وطد علاقات تعاون بالفعل مع مؤسسات منها : ـ

- ـ البنك الدولى للانشاء والتعمير
- ـ البنك الافريقى للتنمية
- ـ البنك الآسيوى للتنمية
- ـ البنك الامريكى للتنمية
- ـ البنك العربى للانماء الاقتصادى فى افريقيا
- ـ الصندوق العربى للانماء الاقتصادى والاجتماعى ٠

وعندما بدأ البنك الاسلامى للتنمية فى مزاولة نشاطه التنموى طلب الى هذه المؤسسات ان تمده بتقاريرها ودراساتها للمشروعات التى تقوم بتمويلها فى الدول الاعضاء والتى ما زالت فى حاجة الى سد فجوات فى التمويل لكى يقوم هو بسد هذه الفجوات .

الصناديق العربية :

زاد نشاط البنك فى مجال اتصالاته بالمؤسسات والصناديق التمويلية ، وتعتقد اجتماعات بصفة دورية للتنسيق وتوثيق الروابط مع الصناديق العربية مثل : -

- الصندوق الكويتى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية
- والصندوق السعودى للتنمية
- صندوق منظمة الدول المنتجة للبترول وغيرها .

البنوك التجارية :

ونظرا للمكانة الدولية للبنك الاسلامى للتنمية والمناطق المتعددة التى يمارس نشاطه فيها وعدد العمليات وحجم السيولة المستخدمة هذه الاعتبارات كلها جعلت لزاما عليه ان يتعاون مع نحو مائة من أكبر البنوك التجارية فى العالم .

البنوك الاسلامية المحلية :

ان البنك الاسلامى للتنمية وان كان له طابع دولى الا انه لم يعد وحده فى مجال التطبيقات الاسلامية على أعمال المصارف فقد تعددت هذه البنوك ومنها :

- بنك دبى الاسلامى
- البنك الاجتماعى المصرى
- بنك فيصل الاسلامى السودانى
- بنك فيصل الاسلامى المصرى
- البنك الاسلامى الاردنى
- بنك البحرين الاسلامى
- بيت التمويل الكويتى .

وغيرها من المؤسسات والبنوك التى قامت على أساس تحرير المعاملات من الربا وتطبيق احكام الشريعة الاسلامية على هذه المعاملات .

وكثيرا ما تعقد اجتماعات للتنسيق وتوثيق التعاون بين البنك الاسلامى للتنمية وهذه البنوك الاسلامية المحلية .

ومن أجل دعم هذه البنوك الاسلامية فى النواحى الفنية والتنظيمية وتحقيق التنسيق بينها وتنظيم التدريب للعاملين فيها تم انشاء « الاتحاد الدولى للبنوك الاسلامية » .

الهيئـات الدوليـة :

وزيادة على تعاون البنك مع المؤسسات والبنوك المالية الدولية والاقليمية والمحلية فانه عقد عدة اتفاقات للتعاون فى مجال المشروعات التى تتم فى الدول الاعضاء مع عدة هيئات دولية منها : ـ

- منظمة التربية والثقافة والعلـــوم (اليونيسكو)
- منظمة الاغذية والزراعة (الفاو)
- منظمة الصحة العالمية
- الصندوق الدولى للتنمية الزراعية ٠

وغيرها وقد تمت حتى الآن بالفعل عدة مشروعات بفضل هذا التعاون ٠

وأخـــيرا ٠

ولا يفوتنى فى ختام هذا الحديث ان أشير الى الدور الانسانى الاجتماعى الذى يقوم به البنك والذى يبرز اختصاص هذا البنك بأعمال لا تقوم بها فى المعتاد المؤسسات التمويلية والمالية المماثلة ٠

ومن الامثلة عـــلى ذلك ان مجلس المديرين التنفيذيين للبنك وافق حـتى تاريخه على تخصيص الهبات التالية :

أ) مبلـــغ 900،000 (تسعمائة ألـف) دولار أمريكى للسودان لصـالح اللاجئين الاوغنديين .

ب) مبلـــغ 1،000،000 (مليون) دولار أمريكى للصومال لصالح الـلاجئين مـن منطقة اوجادين .

ج) مبلـــغ 1،000،000 (مليون) دولار أمريـكى للباكستان لصـالح اللاجئـين الافغان ٠

د) مبلغ 1،200،000 (مليون ومائتى) ألـف دولار أمريـكى للكاميرون لصالح اللاجئين التشاديين ٠

وهناك حالات أخرى قيد الدراسة منها جيبوتى واللاجئين المسلمين فى كمبـوديا وفيتنـام ٠

وختاما أود أن أكون قد أعطيت صورة مبسطة مـن أجـل معرفة هذه المؤسسة الاسلامية الدولية ، واذا كان هناك حاجة الى توضيح أو معلومات أكثر فانا رهن طلبكم ٠

واللــه المـوفق ،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

الدولة وتنظيم السلطة في الإسلام

د٠ عبد اللطيف عبادة

مقـــدمة : سنتناول فى هـذا البحث بالدراسة مجالا من الفكر الاسلامى لا يزال خصبـا ولا يزال محملا بالافكار المسبقة للدارسين من المسلمين وغـيرهم ٠ وان القاء الاضواء الكاشفة على الفكر الاسلامى فى المجال السياسى يرمى الى توضيح كون السياسة فى المجتمع الاسلامى لم تـكن تسير على غير هدى وأنها كانت تستوحى ، رغم بعض الانحرافات فى المجالين النظرى والتطبيقى ، مبادئها واهدافها من القرآن والسنة وغيرهما من مصادر التشريع فى الاسلام ٠

والشىء الذى يتأسف له الباحث بادىء ذى بدء هو أن الدارسين قد اهتموا كثيرا بما اقتبسه المفكرون المسلمون أو شرحوه أو لخصوه من جمهورية أفلاطون أو مـن كتاب السياسة لارسطو (1) ٠ غـير أنهم لم يهتموا اهتماما بالغا بالفكر الاسلامى الاصيل المستمد من العقيدة الاسلامية ٠

ونحن فى هذا البحث نحاول اجـــلاء الاسس التى يرتكز عليها الفكر السياسى الاسلامى فى مسألتين هـامتين وهمـا : الدولة وتنظيم السلطات العمومية ٠

1 ـ السيـــاق التـاريخى للنظـرية السياسية فى الاسلام :

يجمع المؤرخون بأن هناك حادثتين أثرتا تأثيرا بالغا فى المستقبل السياسى للعالم الاسلامى وهما :

1 ـ الجدال الذى جرى فى سقيفة بنى ساعدة بـين المهاجرين والانصار حـول موضوع استخلاف رسول الله (ص) ٠

2 ـ معركة صفين وما أفضت اليه من تحكيم بـين عـلى بن أبـى طـالب (ض) ومعاوية بن أبى سفيان ٠

(1) فيما يتعلق بتلخيص كتاب السياسة لارسطو وترجمته ارجع الى مقالة للدكتور عمار طالبى نشرت بمجلة الثقافة (السنة الثامنة من العدد 48 ديسمـــبر 1978) بعنـــوان : النظرية السياسية لدى ابن رشد ٠

1 ـ الجدال الذى جرى فى سقيفة بنى ساعدة بين المهاجرين والانصار حول موضوع استخلاف رسول الله (ص) :

فقد ظن الانصار أن الامر ينبغى أن يكون فيهم وأن شؤون الحكم يجب أن تصير اليهم لانهم أصحاب المدينة ولان المهاجرين ضيوف لديهم • أضف الى ذلك أنهم آووا النبى (ص) والمهاجرين وخاضوا الغزوات فى سبيل اعلاء كلمة الدين • ورشحوا نتيجة لذلك كله زعيم الخزرج « سعد بن عبادة » للخلافة •

غير أنه لما انتهى الخبر الى مسامع المهاجرين لم يرضوا به ولم يرضوا حتى بأن يراس الدولة الاسلامية خليفتان : خليفة من الانصار وخليفة من المهاجرين . بل قال أبو بكر : نحن الامراء وأنتم الوزراء واحتج عليهم بأن النبى من قريش فيجب أن يلى أمره من بعده أولو قرابته • وروى لهم عن النبى (ص) أنه قال : « الائمةمن قريش » فثاب الانصار الى سماحة أنفسهم وكرهوا أن يأخذوا الخلافة مقابل ما أبلوا فى ذات الله ورسوله من البلاء • ثم اقترح عليهم عمر أن يبايعوا أبا بكر وأسرع هو الى بيعته فتبعه الانصار ولم يخالف عنهم سوى سعد بن عبادة •وبايع سائر المسلمين فى المدينة أبا بكر واستقام له الامر •

ولكن خلافا آخر شجر • وكان أشد على أبى بكر من خلاف الانصار الآنف الذكر ، وكان هذا الخلاف بينه وبين فاطمة (ض) بنت رسول الله (ص) وزوج على بن أبى طالب (ض) التى جاءته تطلب اليه ميراثها من أبيها • فأبى عليها ذلك وقال لها : انه سمع النبى (ص) يقول : « نحن معاشر الانبياء لانورث ، ما تركناه صدقة » • ثم قال انه لا يخالف أبدا عن قول رسول الله (ص) فغضبت فاطمة وشاركها زوجها فى غضبها وتأخرت من أجل ذلك بيعة على (ض) لابى بكر بستة أشهر أى الى أن توفيت فاطمة •

وان بنى هاشم وان كانوا يرون أن الخلافة يجب أن تكون فيهم الا انهم لم يريدوا الفتنة (2) •

ولقد نشأ التشيع من هذه الخلافات البسيطة ومن الخلاف حول الاجابة عما اذا كانت سلطة الخليفة زمنية وروحية أم زمنية فحسب ؟

أما أهل السنة والجماعة فقد قالوا بأنها سلطة زمنية فحسب ، وقالوا نتيجة لذلك بأن الخلافة تكون بالاتفاق والاختيار أى بالبيعة أو الاستفتاء والشورى •

وأما الشيعة فقد قالوا بأن الخليفة لابد أن يجمع بين السلطتين الزمنية

(2) طه حسين ـ اسلاميات ـ منشورات دار الآداب ـ بيروت 1967 • ص 72 ـ 73

والروحية وأن الخلافة تكون تبـعا لذلك بالنص والتعيين • وان السلطة الروحية لم تنته بوفاة النبى (ص) بل امتدت فى على بن أبى طالب والائمة من بعده وهـم أهل العترة (*) • وكلهم معصومون (3) وان الرسالة النبوية تجـد فى الامـامة – فى نظر الشيعة – امتدادا لها • ذلك أن الامـام لـه نفس صلاحيات النبـى باستثناء الوحى • والامامة مثل النبـوة قد تم تأسيسها من عند الله بمقتضى نص : آيـة قرآنية أو حديث أو وصية امـام • وان عليا (ض) قد عينه الله ونبيه لخلافة رسول الله (ص) •

والامام – فى نظر الشيعة – معصوم كالنبى وهو أفضل الناس • ولا تجـوز امامة المفضول فى حالة وجود الافضل • وهو واسطة بين الله وعباده وهو حافظ الشريعة وعنصر يضمن وحدة الامة (4) .

ويقدم الشيعة على قولهم بأن الخلافة تكون بالنص وبأن امامة على قد نص عليها فى القرآن والسنة الحجج التالية :

1 – قوله تعالى : « **انما وليكم اللـه ورسـوله والذين آمنـوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** » • يعتقد الشيعة أن الشطر الاخير من الآية قيل فى حق على بن أبى طالب •

2 – قوله تعالى : « **اليوم أكملت لكـم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينـا** » • يعتقد الشيعة أن هذه الآية نزلت بعد أن دعا الرسول (ص) الى امامة على فى غدير خم •

3 – قوله تعالى : « **قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا** » • والمقصود بالقربى – عند الشيعة – أهل البيت •

4 – ان النبى (ص) لما نزلت عليه الآية « **وأنذر عشيرتك الاقربين** » ودعا أقاربه الى الدخول فى الاسلام فلم يلب طلبه الا على (ض) قال له : « **اجلس فأنت أخـى** ووصيى وخليفتى من بعدى » •

5 – عنـدما استخلف الرسـول (ص) عليا (ض) فى المدينة عند ذهابه الى غزوة تبوك قال له : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، الا أنه لا نبى بعـدى » •

6 – قوله تعالى : « **يا ايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما**

(*) العترة : ولد الرجل وذريته أو عشيرته ممن مضى •

(3) د• يحيى هويدى • دراسات فى علم الكلام والفلسفة الاسلامية • دار النهضة العربية – القاهرة 1972 • ص 84 – 85

بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » . يعتقد الشيعة أن المقصود فى الآية تبليغ ما أنزل اليه من ربه فى امامة على · لذلك قال الرسول (ص) فى غدير خم « فمن كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ·

وقد رد أهل السنة على هذه الحجج الواحدة تلو الاخرى وفندوها تفنيدا قاطعا ·

الرد على حجج الشيعة :

الحجة الاولى : ان الآية نزلت عامة فى سائر المسلمين وليست خاصة بعلى كرم الله وجهه ·

الحجة الثانية : ان الآية نزلت على النبى عشية عرفة فى يوم جمعة ويوم عرفة ، كان قبل يوم الغدير بسبعة أيام . ويقولون انه ليس فى الآية دلالة على امامة على بأية حال من الاحوال · والحديث القائل : « الله أكبر على اكمال الدين واتمام النعمة ورضا الرب برسالتى وبالولاية لعلى من بعدى » منحول فى رأى أهل السنة ·

الحجة الثالثة : ان المقصود فى الآية ليس مودة القربى بل المودة فى القربى . أى مودة كل من يتخذ الى ربه سبيلا من المسلمين ·

الحجة الرابعة : يشك أهل السنة فى هذا الحديث ويكذبون أسانيده ·

الحجة الخامسة : يشك أهل السنة فى هذا الحديث أيضا يقولون انه موضوع ومتهافت ·

الحجة السادسة : يشك أهل السنة فى هذا الحديث ويقولون انه حتى لو كان هذا الحديث صحيحا فان المقصود بكلمة « مولى » هو « القرب من النبى » لا « الامامة والتصرف » وذلك طبقا للمعنى الذى جاء فى قوله تعالى : « **ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا** » الخ ··· (5)

وقد اتضحت ايديولوجية الشيعة فيما بعد واكتملت أركانها وهى كالآتى :

- التأويل الباطنى للقرآن ·

- نظرية العلوم السرية وعلم الغيب وتوارث هذه العلوم بين الائمة ·

---

(5) د· يحيى هويدى · المرجع السابق · ص من 85 الى 89 ·

ولمزيد من التفصيل فى بيان أهل السنة والجماعة فى تنفيذ حجج الشيعة يمكن الرجوع الى العواصم من القواصم لابى بكر بن العربى · تحقيق الدكتور عمار طالبى فى الجزء الثانى من كتابه آراء أبى كر ن العربى الكلامية · الشركة الوطنية للنشر والتوزيع · الجزائر 1974 · ص 422 الى 436 ·

ـ نظرية الوجود النورى للائمة ·

ـ نظرية عصمة الامام ·

ـ نظرية المهدى المنتظر ·

2 ـ معركة صفين وما أفضت اليه من تحكيم بين على بن أبى طالب (ض) ومعاوية بن أبى سفيان ·

لما آلت الخلافة الى على بن أبى طالب بايعه أكثر المسلمين عن رضى وبايعه بعضهم عن كره وأبى معاوية فى الشام أن يبايعه ·

وكان على على بعد توليه الخلافة أن يواجه نوعين من الخصوم :

1 ـ لقد ثار عليه عائشة أم المؤمنين (ض) وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام وواجهم فى موقعة الجمل ·

2 ـ وثار عليه معاوية فواجهه فى موقعة صفين التى آلت الى التحكيم كما نعرف بعد أن مالت الكفة لصالح على بن أبى طالب (ض) ·

واثر التحكيم ـ تلك الحيلة التى ستعملها معاوية للنجاة من الهزيمة ـ نشأت فرقة الخوارج التى :

ـ تنكر امامة عثمان بعد ولايته بـ 6 سنوات ·

ـ تنكر علـيا بعد قبوله التحكيم فى معركة صفين ·

ـ تكفر الحكمين وأصحاب الجمل وكل من رضى بالتحكيم ·

ـ تكفر معاوية ·

وانكارهم لولاية عثمان بعد ست سنوات من امامته مبنى على ما يلى :

ـ لانه حمى الحمى ·

ـ ضرب عمارا حتى فتق أمعاءه ·

ـ ضرب ابن مسعود حتى كسر أضلاعه

ـ أجلى أباذر الى الربذة ·

ـ أخرج أبا الدرداء من الشام ·

ـ رد الحكم بعد أن نفاه الرسول (ص)

ـ أبطل سنة القصر ·

ـ ولى معاوية وعبد الله بن عامر ومروان وولى الوليد بن عقبة وهو فاسق (6) ·

وقد رد أهل السنة على هذه الاسباب الواحدة تلو الاخرى وقالوا بأن النبى ص وصاحبيه (ض) · انما أعفوا من زكاة الخيل حين كانت قليلة ، وحين كانت جيوش المسلمين فى حاجة الى الفرسان ، وحين كان المسلمون يتخذون الخيل فى بلاد العرب على الاقل تجارة ومالا ، فأنفذ

---

(6) ن· م· ص· 89 و 90 ·

فيها عثمان ما أمر الله من الزكاة فى كل مال يتخذ للربح والشراء · وفى هذا يقول أبو بكر بن العربى : « وأما أمـر الحمى فكان قديما · فيقال : انه عثمان زاد فيه لما زادت الرعية · واذا جاز أصله للحاجة اليه جازت الزيادة فيه لزيادة الحاجة » (7) · وقال فى مكان آخر : « وأما ضربه لعمار وابن مسعود ، ومنعه عطاءه فزور ، وضربه لعمار افك مثله ، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبـدا · وقد اعتـذر عـن ذلك العلماء بوجوه ، لا ينبغى أن يشتغل بها ، لانها مبنية على باطل ، ولا ينبنى حق على باطـل ، ولا يذهـب الزمان فى مماشاة الجهال فان ذلك لا آخر له » (8) ·

وأما نفيه أبا ذر الى الربذة فيقول فيه أبو بكر بن العربى : « فلم يفعل · كان أبو ذر زاهدا ، وكان يقرع عمال عثمان ، ويتلو عليهم : « **والذين يكنزون الذهب والفضـة ولا ينفقونها فى سبيل اللـــه فبشرهم بعذاب أليم** » (التوبة/24) الآية ويراهم يتسعون فى المراكب ، والملابس حين وجدوا ، فينكر ذلك عليهم ، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم ، وهـو غـير لازم · فقال ابن عمر وغـيره مـن الصحابة وهو الحق : ان ما أديت زكاته فليس بكنز ، فوقع بين أبى ذر ، ومعاوية كلام بالشام ، فخرج الى المدينة فاجتمع اليه الناس ، فجعل يسلك تلك الطريق فقال له عثمان : لو اعتزلت ··· فخرج الى الربذة زاهدا فاضلا ، وترك جـــلة فضلاء » (9) ·

وأما رد الحكم فيقول فيه أبو بكـر ابن العربى : « فلم يصح · وقال علماؤنا فى جوابه : قد كان أذن له فيه رسول الله (ص) ، وقال لابى بكر وعمر ، فقالا له : ان كان معك شهيد رددناه ، فلما ولى قضى بعلمه فى رده · وما كان عثمان ليصل مهجور رسول الله (ص) ، ولو كان أباه ، ولا لينقض حكمه » (10) ·

وأما ترك القصر فهو فى نظر أبى بكر ابن العربى « اجتهاد ، اذ سمع أن الناس افتتنوا بالقصر ، وفعلوا ذلك فى منازلهم، فرأى أن السنة ربما أدت الى اسقـــاط الفريضة فتركها مصلحة خوف الذريعة ، مع أن جماعة العلماء قالوا : ان المسافر مخير بين القصر والاتمام ، واختلف فى ذلك الصحابة » (11) ·

(7) أبو بكر بن العربى ــ العواصم من القواصم · تحقيق الدكتور عمار طالبى وهو الجزء الثانى من آراء أبى بكر بن العربى الكلامية · الشركة الوطنية للنشـــر والتوزيع ــ الجزائر 1974 · ص 390 ٥
(8) ن· م· ص 381 ·
(9) ن· م· ص 384 و 385
(10) ن· م· ص 386
(11) ن· م· ص 386 ·

أما اخراج عثمـــان لابى الدرداء الى الشام فكان لان أبا الدرداء كان زاهدا واشتد فى الحق مع معاوية وأهل الشام حتى عزله عن القضاء وخرج هـــو الى المدينة (12) ٠

وأما معاوية « فعمر ولاه ، وجمع له الشامات كلها وأقره عثمان » (13) ٠

وأما عبد الله بن عامـــر بن كريـز « فولاه كما قال ، لانه كريم العمـــات والخالات » (14) ولجهاده وفتحه خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان ٠

وأما تولية الوليد بن عقبة فان عثمان قد أقتدى فى ذلك بأبى بكر الذى جعله موضع سره ٠ وأما فسقه فليست الذنوب مسقطة للعدالة اذا وقعت منها التوبة ٠ وقصة شربه (أى الوليد) للخمر مشكوك فيهـا (15) ٠

وأما خروجهم على على بن أبى طالب فيرجعونه الى ما يلى :

1 ـ التحكيم : بالرغم من أن اتباع على هم الذين كانوا قـد أشاروا عليـه بالتحكيم الا أنهم عادوا فلم يوافقوه عليه وقالوا لا حكم الا لله ولهـــذا سمـــوا بالمحكمة ٠

2 ـ لان عليا أباح لهم الغنائم ولم يبح لهم النساء عند موقعة الجمل ولا الذرارى. وقد أجابهم على آنذاك بأنه لم يبح لهم النساء والذرية لانهم لم يكن لهم ذنب ٠ ولو أبـــاح لهم نساءهم مـــن كان منهم يأخذ عائشة من قسمة نفسه ؟

3 ـ ان الله تعالى يقول : « **فقاتلـوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله** » ٠ واستشهادهم بهذه الآية يرمى الى توضيح أن الله تعالى أوصانا بالقتال ولم يوصنا بالتحكيم ٠ فرد عليها قائلا : « قد أبيته عليكم أول الامر فأبيتم الا اجابتهم الى ما سألوا ٠ فأجبناهم وأعطيناهم العهود والمواثيق، وليس يسوغ لنا الغدر» (16).

ومهما يكن من أمر هذه الخلافات فان الخلافة الراشدة : « كانت حكومة من أكبر حكومات العالم ، وقوة سياسيـة تفوق كل قوة فى عصرها ، تسود فيهـا المثل الخلقية العليا وتحكم معايير الاخلاق الفاضلة فى حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الاخـلاق والفضيلة مـع التجارة والصناعـــة ، ويساير الـرقى الخلقى والروحى اتساع الفتوح واحتفال

(12) د٠ يحيى هويد ى ٠ المرجع السابق ص 91 ٠
(13) أبو بكر ابن العربى ٠ المرجع السابق 387 ٠
(14) ن٠ م٠ ص 387 ٠
(15) د٠ يحيى هويدى ٠ المرجع السابق ـ ص 92 ٠
(16) ن٠ م٠ ص 93 ٠

الحضارة وتحسن علاقة الفرد بالفرد والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد » (17) ·

وستكون لنا الفرصة كافية لتفضيل الانتخاب على التعيين ولنفى العصمة عن الرئيس أو الخليفة ولتوضيح الصفات التى يجب أن تتوفر فى الخليفة الى غير ذلك من المواضيع التى دار حولها الجدال بين الفرق الاسلامية واستمر بين المفكرين المسلمين ·

2 ـ مفاهيم مشوهة عن الاسلام ونظامه السياسى :

ان أول مفهوم مشوه لا يوجد عند الغرب قطعا بل يوجد عند المسلمين أنفسهم ويشير اليه فى غير لبس محمد أسد فى كتابه القيم « منهاج الاسلام فى الحكم » اذ يقول : « ان الصلة المحكمة التى تربط الدين بالسياسة ، والتى هى من خصائص التاريخ الاسلامى ومميزاته، لا تحظى بالقبول عند كثير من المسلمين الذين تلقوا ثقافتهم عن الغرب ، والذين نشأوا على أساس الاعتقاد بأن لكل من مسائل الدين والحياة العملية عالمها الخاص المستقل بها » (18) ·

الى جانب المفاهيم المشوهة لابناء العالم الاسلامى من غلاة اليسارية والنزعة التغريبية نجد مفاهيم بعض المستشرقين الذين ان حاول بعضهم الانصاف والموضوعية فان معظمهم لم يقدموا لنا عن الاسلام وعن نظامه السياسى سوى مفاهيم مشوهة ·

ولنستمع الى غارديه اذ يقول : « انه لخطأ أن يعتبر هذا النظام السياسى أو ذاك وثيق الارتباط بالعقيدة الاسلامية · ذلك أن البلدان الاسلامية قد عرفت عبر العصور أشكالا من الحكومات بدءا بالديمقراطية المبتدئة (دولة المدينة) الى الثيوقراطية (الامبراطوريات الكبرى) الى الاوليغارشية (العهد التركى ـ المغولى) الى الشيوعية (الشيوعية البدائية للقرامطة)· وعرف العصر الحديث بدوره أشكالا مختلفة من الملكيات التقليدية ومحاولات فى الديمقراطية البرلمانية وارادات الديمقراطية الشعبية · وان التأثيرات التاريخية سواء فى الماضى أو فى الحاضر بارزة جدا ·

والواقع أن المبادىء القرآنية التى تتحكم فى الفلسفة السياسية ذاتها موجزة

---

(17) السيد أبو الحسن علي الحسنى الندوى · ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ط 6 ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت 1965 · ص 117 ·

(18) محمد أسد · منهاج الاسلام فى الحكم · نقله الى العربية منصور محمد ماضى ط 3 · دار العلم للملايين ـ بيروت 1967 · ص 17 ·

جدا وقليلة فى النهاية : من جهة الطاعة للرسول ولاولى الامر (القرآن 59/4 و 80) ومن جهة أخرى الزام الرئيس بمشاورة المرؤوسين (159/3) والامر الملح الموجه الى المسلمين كى يتشاوروا فيما بينهـم (38/42) · السلطـة والتشاور (الامر والشورى) هما قطبا كل تشكيل للدولة أمر بهما الله· وحسب التأكيد على هذا القطب أو ذاك نجـد أنفسنا أمام أشكال جد مختلفة مـن التنظيم السياسى » (19) ·

هل لغارديه أن يمنعنا حتى من التساؤل عن النظام السياسى الاكثر توافقا مـع روح الاسلام ؟ وهل له أن يمنعنا بالتالى من النظـر اثـر ذلك الى تاريخ العـالم الاسلامى فنميز داخـل نظمه السياسية الخبيث من الطيب ؟

والدارس النبيـه بامكـانه أن يفـهم بسهولة ويسر أن نظام الحكم فى الاسلام لم يكن فى عهد الخلفاء الراشدين « نظام حـكم مطلق ، ولا نظاما ديمقراطيا عـلى نحو ما عرف اليونان ، ولا نظاما ملكيـا أو جمهوريا أو قيصريا مقيدا على نحو ما عرف الرومان » (20) · وانما كان نظاما اسلاميا خالصا : « بين الاسلام له حدوده العامة من جهة وحاول المسلمون أن يملأوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى » (21) .

واذا كان النظام السياسى من حيث هو جملة مـن المبادىء كـاملا كمال القرآن وسنة من لا ينطق عن الهوى فهو من حيث هـو واقع يتجسد فى تصرفات ومواقف بشريـة معـرض للانحرافات والامراض الطفيلية شـأنه فى ذلك شـأن سـائر الانظمة السياسية الاخرى ·

وكأنى بغارديه يتجاهل آيات كثيرة من القرآن تتعلق بالنظام السياسى منها ما يسن المبادىء العامة :

1 ـ الامر والطاعة فى المعروف ·

2 ـ الشورى ·

3 ـ المساواة بين الناس ·

4 ـ الحاكمية لله وحده ·

5 ـ العدالة

6 ـ البيعة ·

7 ـ عدم طاعة المسرفين ·

بالاضافة الى المبادىء التى نستطيع أن نستنتجها من قصص الانبياء وأخبار الامم السابقة الواردة فى القرآن الكريم كمقت الاستبداد واستحسان الملـك الصالح

---

(20) و (21) طه حسين · المرجع السابق · ص 68z ·

وتمثيل الامة ونضرب لذلك مثالا بالآيتين 155 و 160 من سورة الاعراف ٠

والاسلام كل لا يتجزأ فلا يمكن أن نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما يمكن أن توحي بذلك الفقرة الاخيرة من كلام غارديه ٠

وكأني به أيضا يتجاهل أن آية الطاعة تبدأ باطاعة الله قبل طاعة الرسول وأولي الامر وهذه حقيقة لا ينبغي تجاهلها عند دراسة النظرية السياسية في الاسلام ٠

وان وليم زارتمان بدوره قد أثار بعض الشبهات قصد تشويه النظرية السياسية الاسلامية غير أنه في نظرنا لم يبلغ مراده ذلك أن النظرية السياسية الاسلامية تبقى سليمة رغم ما أثار حولها من شبهات وأهمها :

1) يعترف زارتمان أن العلماء في الاسلام هم الذين يختارون أحد الافراد لممارسة السلطة ٠ غير أن هؤلاء الافراد المختارين لا يخرجون من لا شيء بل هم اما أن يكونوا من العائلة الملكية أو تكون في حوزتهم قوة جيش (22) ٠

2) وبعد أن يعرف البيعة بأنها عقد خضوع تبادل فيها الامة ولي أمرها الوفاء والاذن بالتصرف في شؤونها مقابل تعهده بأن يحكمها بالتقوى والعدل ٠ انها عقد تجاري وديني يتسم بتبادل التمنيات ٠

واذا كان العقد يفترض امكانية الالغاء ٠ فان هذه هي نقطة الضعف - في نظره - في النظرية السياسية الاسلامية (23) ٠

3) ومن المآخذ التي يوجهها زارتمان الى النظرية السياسية الاسلامية انعدام الحدود وانعدام رقابة المراكز السياسية على المناطق النائية (24) ٠

4) وهو يعتقد من جهة أخرى أن الحكم في الاسلام ليس وظيفة عمومية بل هو نشاط خاص بالاسرة الملكية أو القصر (25) ٠

5) لا وجود لما يسمى بـ Tourn-Meeting ولا سوفيات ولا مجلس تمثيلي في النظرية السياسية الاسلامية (26) ٠

6) لا وجود لفكرة الدولة في الاسلام لان بعض وظائفها هي بين أيدي الله وقد

---

(22) I. William Zartman, Pouvoir et Etat dans l'Islam, in Pouvoirs, revue trimestrielle publiée avec le concours du CNRS, PUF, Paris N° 2, 1980, p. 7.
(23) Ibid, p. 7.
(24) Ibid, p. 8
(25) Ibid, p. 8
(26) Ibid, p. 7
(27) Ibid, p. 5

انتزعت الى الابد من أيدى المؤمنين على هذه الارض (27) ·

7) ان اختيار أولى الامر قد طرح دائما مشاكل كثيرة · اذا كان الرسول (ص) قد اختير من عند الله ، فان مثل هذه الطريقة ما كان يمكن تطبيقها منذ وفاته .

واذا كان انتقال السلطة عن طريق الوراثة مرفوضا من قبل أغلبية المسلمين فانه اتبع فعلا · كما أن الاستيلاء على السلطة بالقوة وان لم يؤيد نظريا فقد طبق فعلا فى الواقع (28) ·

8) مسؤولية الحاكم أمام الامة وامكانية نزع الثقة منه موضوعا اختلاف بين المنظرين فى مجال الفكر السياسى الاسلامى (29) ·

9) السيادة للامة أى مجموع المؤمنين وهذا يعنى أن الاذن بممارسة السلطة يمنح من طرف الامة ·

أما السلطة ذاتها فلم تخلق من طرف الامة بل من طرف الله · انها لا تكمن فى الامة حتى تنتدب لها زعيما معينا أو تحتفظ بها فى بعض الاحيان · ان الامة لا تحكم نفسها أبدا لا نظريا ولا عمليا (30) ·

ويعتقد ابن عاشور من جهته أن السياسة المستنتجة مباشرة من القرآن والسنة لا يمكن أن تكفى الاحتياجات المتجددة على الدوام للحياة الاجتماعية (31) ·

فى حين يعتقد محمد أركون أن مسألة معرفة ما اذا كان الرسول (ص) قد عين وهو لا يزال على قيد الحياة عليا كخليفة له هى مسألة ثانوية بالنظر الى الصراعات القبلية بين بنى هاشم وبنى سفيان فى مكة والاوس والخزرج فى المدينة التى تعقدت مبكرا بالقوى التى ظهرت الى الوجود مع الفتوحات (32) ·

ويمكن الرد على هذه الشبهات بأن أهل الحل والعقد فى الاسلام الذين يتكون منهم مجلس الشورى ليسوا من العلماء فقط بل قد يكونون من ذوى الخبرة والحنكة فى المجالات المختلفة للحياة ويكونون فى الغالب ممثلين لقومهم ويحظون بثقتهم وقد استنتج محمد حميد الله هذه الخاصية من الآيتين 35 و 60 من سورة الاعراف ·

---

(28) Ibid, p. 6
(29) Ibid, p. 6
(30) Ibid, p. 6
(31) Yadh Ben Achour, Structure de la pensée politique islamique classique, in Pouvoirs, revue précitée p. 17.
(32) Mohammed Arkoun, La pensée arabe, PVF, Paris, Collection «Que sais-je ?» N° 915, 1975, p. 31.

أما عن مقاييس الاختيار للخلافة أو الرئاسة العظمى فليس قطعا من ضمنها كما يبدو لاول وهلة الحيازة على الملك بل من ضمن الشروط التقى والورع وأمور سنذكرها فى حينها ٠

أما عن امكانية الغاء البيعة وخلع الخليفة فنقول أنها ممكنة نظريا وتطبيقيا وليست أبدا من نقاط الضعف التى يمكن تسجيلها على النظرية السياسية فى الاسلام ٠ فان الطاعة فى الاسلام مشروطة ومقيدة ٠ قال الله تعالى :

«**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** » ٠ (سورة النساء) ٠ وقد روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر (ض) ٠ أن النبي (ص) قال : « اذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » ٠

وفى حديث رواه البخارى ومسلم عن علي بن أبى طالب : « لا طاعة فى معصية ، انما الطاعة فى المعروف » ٠ وفى حديث رواه أحمد عن عبادة بن الصامت « لا طاعة لمن عصا الله تعالى » ٠ وقال عمر بن عبد العزيز (ض) « ألا انه ليس لاحد أن يطاع فى معصية الله عز وجل » ٠ وما يرويه المؤرخون من عزل الحكمين اثر واقعة حنين لعلي ومعاوية والتى اختلف فيه المسلمون فمنهم من قال أن الحكمين بعد أن : « اتفقا على أن يخلعا الرجلين ، فقال عمرو لابى موسى : اسبق بالقول ، فتقدم فقال : انى نظرت فخلعت عليا عن الامر ، فلينظر المسلمون لانفسهم ، كما خلعت سيفى هذا من عاتقى وأخرجه من عنقه ، فوضعه فى الارض ، وقام عمرو فوضع سيفه بالارض وقال : انى نظرت فأثبت معاوية فى الامر ، كما أثبت سيفى هذا فى عاتقى وتقلده ، فأنكر أبو موسى فقال عمرو : كذلك اتفقنا ، وتفرق الجمع على ذلك من الاختلاف » (33) أما رأي أبى بكر بن العربى فيختلف عن هؤلاء جميعا اذ يقول : « هذا كله كذب صراح ، ما جرى منه قط حرف وانما هو شىء اخترعته المبتدعة ٠٠٠ وانما الذى روى الائمة الثقات الاثبات أنهما لما اجتمعا للنظر فى الامر فى عصبة كريمة من الناس ، منهم عبد الله بن عمر ، ونحوه ، عزل عمرو معاوية » ٠ (34) واذا ثبت هذا فان العزل قد وقع حتى فى المجال التطبيقى ٠ أما فى المجال النظرى فالامر واضح لا لبس فيه ٠

أما عن انعدام الحدود بين أجزاء الامة فهو فى رأينا من علامات القوة وليس من علامات الضعف ، ذلك أن الدولة الاسلامية ليست دولة قومية ولا

---

(33) أبو بكر بن العربى ـ المرجع السابق ٠ ص 471 و 418 ٠

(34) ن٠ م٠ ص 418 ٠

دولة حدود ولا دولة عرق وانما هي دولة فكرة وعقيدة : « فالاسلام هو المنهاج الفكرى الوحيد الذى يمتاز من بين الافكار والمذاهب بأنه يقيم على أساس الفكرة فحسب نظاما للدولة مطهرا من العصبيات الجنسية وأقذارها، ويدعو الناس كافة الى الايمان بهذه الفكرة والانضواء تحت لوائها حتى تتشكل دولة فكرية غير مقيدة بجنس ولا قومية » · (35)

وان هذه الميزة التى تميز الدولة الاسلامية عن سائر الدول هي التى جعلت البعض يعتقدون أنه لا وجود لفكرة الدولة فى الاسلام ذلك أن : « الدولة الفكرية لا تنظر الى الاقوام والقوميات أو العشائر والقبائل بل تنظر الى الانسان بعين الأنسانية وتعرض على الناس كافة مبادىء وغايات مبينة واضحة وتقول لهم ان سعادتكم وفلاحكم فى أن تؤسسوا نظام الحكم على هذه القواعد ، بحيث كل من قبلها يكون نصيبه فى اقامة هذا النظام وادارته مثل نصيب سائر المؤمنين بهذه الفكرة سواء بسواء» · (36) غير أن هناك سببا آخر جعلهم يعتقدون هذا الاعتقاد وهو قضية الحاكمية التى يجعلها الاسلام بين أيدى الله لا بين أيدى البشر · ولا يشك كل من آمن بالله واليوم الآخر فى هذه الحقيقة · وخلاصة القول أنه لا وجود فى الاسلام لفكرة الدولة بالمعنى الغربى أي المرتكزة على القومية ·

وان الاختيار عن طريق البيعة والتراضى يختلف تماما والملك الوراثى · والاستيلاء على الحكم بقوّة السلاح مناف لمبادىء الاسلام · واذا كان الرسول (ص) يقول : « أنا والله لا نولى هذا العمل أحدا سأله ، أو أحدا حرص عليه » · وبالتالى يمنع من يطلب المسؤولية توليها فأحرى وأولى أن يمنع من توليها من يأخذها عنوة ·

واذا كانت السيادة للامة فليس ذلك بمعنى الحاكمية لان الحاكمية لله وحده ·

فالامة تحكم نفسها بنفسها دون أن تتعدى حدود الله ·

وان السياسة المستنتجة مباشرة من القرآن والسنة تكفى الاحتياجات المتجددة على الدوام للحياة الاجتماعية لانها حددت المبادىء الثابتة التى لا تتغير بتغير العصر والمصر وتركت الباقى لاجتهاد البشر دون الاعتداء على المبادىء السامية للدين · وهل تفعل الدساتير فى وقتنا الحالى شيئا آخر سوى تحديد مثل هذه المبادىء العامة ·

كما ان مسالة معرفة ما اذا كان الرسول (ص) قد عين عليا وهو لا يزال

---

(35) أبو الاعلى المودودى · منهاج الانقلاب الاسلامى ٥ نقله الى العربية محمد عاصم الحداد ـ دار الفكر العربى · ص 10 و 11 ·

(36) ن· م· ص 14 ·

على قيد الحياة لخلافته ليست مسألة ثانوية بل هي مسألة مختلقة وقد رد عليها أهل السنة بما فيه الكفاية · وها هو رأي أبى بكر بن العربى فى هذا الموضوع بالذات · يقول : « فان قيل : انما يكون ذلك فى المعانى التى تشكل · وأما هذه الامور فلا أشكال فيها لان النبي (ص) نص على استخلاف علي بعده · فقال : (أنت منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدى اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » (37) ·

ويضيف قائلا فى الرد على هذه الشبهة : « وقد أجمعت الامة على أن النبي (ص) ما نص على أحد يكون من بعده » · (38) ويضيف قائلا : « لو كان هنالك نص على أبى بكر يذكر أو على علي لم يكن بد من احتجاج علي عليه ، أو يحتج له به غيره من المهاجرين والانصار ، فأما حديث خم فلا حجة فيه ، لانه انما استخلفه فى حياته على المدينة ، كما استخلف موسى هارون فى حياته عند سفره للمناجاة ، على بنى اسرائيل ، وقد اتفق الكل من اخوانهم اليهود قاطبة على أن موسى مات بعد هارون ، فاين الخلافة ؟

وأما قوله (اللهم وال من والاه) فكلام صحيح ، ودعوة مجابة ، وما نعلم أحدا عاداه الا الرافضة ، فانهم أنزلوه فى غير منزلته ، ونسبوا اليه ما لا يليق بدرجته » · (39)

أما الصراعات القبلية فقد قضى عليها الاسلام وبصفة خاصة فى عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين · وعادت فى صورة مخففة جدا فى عصر بنى أمية الذين أفادوا منها تعزيز ملكهم وعرشهم ·

ولقد تبين لعصرنا بما لا يدع مجالا للبس أو غموض ·

– أن الدين ليس عفيونا للشعب بل يمكن أن يصبح خميرة للثورة اذا أراد ذلك معتنقوه · ولم يكن ذلك الحكم الجائر سوى تهمة حاقدة أدلى بها أحد دعاة المادية · وان الاسلام قد دعم دائما أركان العدالة الاجتماعية والتحرر من ربقة العبودية ·

– وليس الدين الاسلامى عامل تواكل ومبررا للفاشية والاستبداد بل تدعو تعاليمه الى الجهاد والاجتهاد ومحاربة الطواغيت أيا ما كان مصدرها ·

– وليس الدين الاسلامى مثالا بعيدا عن الواقع بل قد تحققت مثله فى المجتمع الاسلامى المبنى على أسس نظيفة من الاخلاق والقيم · وما عهد الرسول (ص) وعهد الخلفاء الراشدين سوى دليل قوي على ما نذهب اليه ·

(37) أبو بكر بن العربى o المرجع السابق – ص 421 و 422 ·

(38) ن · م · ص 423 ·

(39) ن · م · ص 429 و 430 ·

ـ ولقد أثبتت التعاليم المنزلة تفوقها الملحوظ فى الواقع على النظم الوضعية فى المجال السياسى المتسمة بالذرائعية الماكيافيلية والديماغوجية والغوغائية ٠

ـ ولقد أثبتت التعاليم المنزلة تفوق دولة الفكرة ودولة العقيدة على دولة الوطنية ودولة الطبقية ٠

3 الدولـــــة :

مفهومها : يقصد بالدولة مجموعا منظما من الناس دائم البقاء ويسكن أرضا معينة ، له موارده المالية ونظمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ويخضع لسيادة موحدة ويسعى وراء غرض عام مشترك ٠ ولابد من توفر مقومات أساسية لقيام الدولة نخص منها بالذكر أهمها وهي : السكان وهم شعب الدولة أو رعاياها والاقليم ويطلق عليه حدود الدولة والسيادة وهي السلطة التى تمارسها على رعاياها والثروة ثم الاهداف المشتركة ٠ (40)

وبتعبير آخر يعنى بالدولة جماعة قانونية يعنى مجموعا منظما من الافراد خاضعا لنفس التشريع ولنفس السلطة السياسية ذاتها ٠ ان الدولة هي الحكومة ومجموع الهياكل التى تسمح لها بالتعبير عن سلطتها ٠

وقد تكون هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها فتكون السياسة بذلك سياسة عقلية أو بتعبير عصرنا سياسة وضعية وقد تكون مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها فتكون بذلك سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ٠ (41)

ويصل ابن خلدون الى النتيجة التالية وهي : « أن الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها ، اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به » ٠ (42)

فالفرق بين الدولة الاسلامية والدولة اللائكية اذن هو أن التشريع الذى يخضع له أفرادها منزل من عند الله والسلطة السياسية التى يخضعون لها ويأتمرون بأمرها هي فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به بالتعبير الخلدونى ٠

---

(40) د٠ مصطفى الخشاب ٠ علم الاجتماع ومدارسه ٠ الكتاب الثانى ٠ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة 1967 ـ ص 387 و 388 ٠

(41) عبد الرحمن بن خلدون ٠ المقدمة ـ ط 2 ٠ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ٠ بيروت 1961 ـ ص 337 ٠

(42) ن٠ م٠ ص 338 ٠

وهكذا تكون الحاكمية لله وحده لا لغيره · كما أن هذه الدولة الواحدة التى تجعل المؤمنين على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأعراقهم وأمصارهم اخوة فى الله ·

غاية الدولة الاسلامية وخصائصها :

ان قيام الدولة والخلافة والولاية واجب ويقول فى هذا الصدد ابن خلدون « ثم ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه فى الشرع باجماع الصحابة والتابعين ، لان أصحاب رسول الله (ص) عند وفاته بادروا الى بيعة أبى بكر (ض) وتسليم النظر اليه فى أمورهم · وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ، ولم يترك الناس فوضى فى عصر من الاعصار ، واستقر ذلك اجماعا عادلا على وجوب نصب الامام » · (43) ·

ويقول الدكتور صبحى الصالح : « ولقد كان منطلق القوم الى اجماع الصحابة على هذه القضية قول أبى بكر يوم السقيفة : « ان محمدا قد مضى لسبيله ، ولا بد لهذا الامر من قائم يقوم به » · وقد صدقه القوم ، ولم يقل له واحد منهم : ان الدين يصلح من غير قائم به » · (44)

وقال الشهر ستانى فى كتابه نهاية الاقدام : « ان الصحابة ، وهم الصدر الاول ، كانوا على بكرة أبيهم متفقين على أنه لابد من امام · فذلك الاجماع ، على هذا الوجه ، دليل قاطع على وجوب الامامة » · (45)

وخلاصة القول أنه لابد للناس من حاكم وان الولاية أي قيام نظام الحكم واجب شرعا وعقلا للناس ·

روى الامام أحمد فى المسند عن عبد الله بن عمر (ض) أن النبي (ص) قال : « لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الارض الا أمروا عليهم أحدهم » · (46)

كما ان الحاكمية فى الدولة الاسلامية لله وحده دون غيره · قال تعالى : « ان **الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه · ذلك الدين القيم** » (يوسف 40) وقال : « **يقولون هل لنا من الامر شيء · قل ان الامر كله لله** » · (آل عمران 154) ·

وقال : « **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام** » · (النحل 166) قال : « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** » (المائدة 45) · فهذه الآيات تصرح بأن الحاكمية لله وحده وبيده التشريع وليس لاحد ·

وهكذا يظهر أن الخصائص الاولية للدولة الاسلامية هي :

---

(43) عد الرحمن بن خلدون · المرجع السابق · ص 339 ·

(44) الدكتور صبحى الصالح · النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ط 2 · دار العلم للملايين ـ بيروت 1976 · ص 282 ·

(45) نقلا عن المرجع السابق ص 284 ·

(46) محمد المبارك · آراء ابن تيمية فى الدولة ومدى تدخلها فى المجال الاقتصادى ـ ط 2 · دار الفكر ـ لبنان · ص 26 و 27 ·

1 ـ ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو لسائر القاطنين فى الدولة نصيب من الحاكمية ·

2 ـ ليس لاحد من دون الله شيء من أمر التشريع والمسلمون جميعا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا لا يستطيعون أن يشرعوا قانونا ولا يقدرون أن يغيروا شيئا مما شرع الله لهم ·

3 ـ ان الدولة الاسلامية لا يؤسس بنيانها الا على ذلك القانون المشرع الذى نزل على النبي (ص) من عند ربه مهما تغيرت الظروف والاحوال والحكومات التى بيدها زمام هذه الدولة لا تستحق طاعة الناس الا من حيث أنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أمره تعالى فى خلقه · (47)

أما عن الغاية من قيام الدولة فقد حددها المولى سبحانه فى قوله : « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** » · (الحديد 25) وفى قوله : « **الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** » (الحج 41) وقوله : « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** » · (آل عمران 110) (48)

وظائفها :

للدولة الاسلامية وظائف متعددة أهمها :

1 ـ حراسة الدين وسياسة الديانة ·

2 ـ اقامة العدالة الاجتماعية ·

3 ـ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ·

4 ـ التشريع دون الاعتداء على الحدود المرسومة فى القرآن والسنة ·

5 ـ تنفيذ أحكام الله فى اطار الهيئة التنفيذية ·

6 ـ الوظيفة القضائية ·

7 ـ الوظيفة الدينية والخلقية ·

8 ـ وظيفة الدولة فى اعداد المواطنين وتوزيعهم على الاعمال ·

9 ـ الوظيفة المالية ·

10 وظيفة الجهاد والدفاع ·

11 ـ الوظيفة الاقتصادية ·

12 ـ الحسبة ·

13 ـ الامن ·

14 ـ رفع مستوى المعيشة · (49)

---

(47) أبو الاعلى المودودى · نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور · نقله الى العربية محمد عاصم حداد وغيره · مؤسسة الرسالة ـ بيروت 1969 · ص 30 و 31 و 32 ·

(48) ن · م · ص 44 الى 50 ·

(49) انظر آراء ابن تيمية فى الدولة ومدى تدخلها فى المجال الاقتصادى المذكور أعلاه للدكتور محمد المبارك والمرجع السابق للمودودى و لمحمد حميد الله ·

قال الله تعالى : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** » (النساء 58 — 59) .

غير أنه ينبغى الاشارة الى ان الوظيفة الدينية هي السبب الحقيقى لوجود الدولة فى الاسلام (50) قال ابن تيمية : « ان جميع الولايات فى الاسلام مقصودها أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا » و « كلمة الله اسم جامع للكلمات التى تضمنها كتابه » . (51) فاصلاح الدين والدنيا وقيام الناس بالقسط فى حقوق الله والعباد واعلاء كلمة الله وهي تعاليم كتابه والامر بالمعروف والنهي عن المنكر تلك هي غايات الدولة ومقاصد الولاية فى الاسلام كما يرى ابن تيمية . (52) .

دستورها :

يعتقد بعض الباحثين أن الدستور الاسلامى يجب أن يتضمن نقاطا أهمها ما يلى :

1 — الحاكمية لله وحده .

2 — التشريع البشرى : لا يجوز له أن يخالف القرآن والسنة .

3 — لا تقوم الدولة على أساس عرقى أو لغوى أو غير ذلك . بل تقوم على مبادىء وغايات ورد التصريح بها ى القرآن والسنة

4 — وظائف الدولة هي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وحماية الدين والحفاظ على وحدة الامة والقضاء على الفوارق بين أفرادها وضمان الحاجيات الاساسية للمواطنين

5 — يتمتع أهل البلاد فى حدود القانون بجميع الحقوق التى منحتها أياهم الشريعة الاسلامية .

6 — جميع الفرق الاسلامية المعترف بها يتمتع أهلها بالحرية المذهبية التامة فى حدود القانون .

7 — وسكان الدولة من غير المسلمين يتمتعون فى حدود القانون بحرية تامة فى ديانتهم وعبادتهم وثقافتهم وتعليمهم الدينى .

9 — رئيس الدولة مسلم وهو المسوؤل الحقيقى عن تسيير شؤون الدولة . غير أنه يجوز له أن يفوض جانبا من صلاحياته الى فرد أو جماعة .

(51) محمد المبارك . المرجع السابق . ص 30 .
(52) ن . م . ص 31 و 32 .

10 ـ يسير الحكومة على منهاج الشورى ·

11 ـ الرئيس منتخب ويمكن عزله ·

12 ـ لا أحد فوق القانون ، لا الرئيس ولا غيره ·

13 ـ الهيئة القضائية منفصلة عن الهيئة التنفيذية · (53)

ولقد استنتج ابن باديس من خطبة أبى بكر (ض) بنودا لا تقل أهمية عن هاته يمكن أن يتضمنها الدستور الاسلامى نجملها فيما يلى :

1 ـ لا حق لاحد فى ولاية أمر من أمور الامة الا بتولية الامة · فالامة هي صاحبة الحق والسلطة فى الولاية والعزل ·

2 ـ ان الذى يتولى أمرا من أمور الامة هو أكفؤها لا خيرها سلوكا ·

3 ـ لا يكون أحد بمجرد ولايته أمرا من أمور الامة خيرا من الامة ، وانما تنال الخيرية بالسلوك والاعمال ·

4 ـ حق الامة فى مراقبة أولى الامر لانها مصدر سلطتهم وصاحبة النظر فى ولايتهم وعزلهم ·

5 ـ حق الوالى على الامة فيما تبذله من عون اذا رأت استقامته فيجب عليها أن تتضامن معه وتؤيده اذ هي شريكة معه فى المسؤولية ·

6 ـ حق الوالى على الامة فى نصحه وارشاده ودلالته على الحق اذا ضل عنه وتقويمه على الطريق اذا زاغ فى سلوكه ·

7 ـ حق الامة فى مناقشة أولى الامر ومحاسبتهم على أعمالهم وحملهم على ما تراه هي لا فيما يرونه هم ·

8 ـ على من تولى أمرا من أمور الامة أن يبين لها الخطة التى يسير عليها ليكونوا على بصيرة ويكون سائرا فى تلك الخطة عن رضى الامة ·

9 ـ لا تحكم الامة الا بالقانون الذى رضيته لنفسها ·

10 ـ الناس كلها أمام القانون سواء لا فرق بين قويهم وضعيفهم ·

11 ـ صون الحقوق : حقوق الافراد وحقوق الجماعات فلا يضيع حق ضعيف لضعفه ولا يذهب قوي بحق احد لقوته عليه ·

12 ـ حفظ التوازن بين طبقات الامة عند صون الحقوق ·

13 ـ شعور الراعى والرعية بالمسؤولية المشتركة بينهما فى صلاح المجتمع · (54)

وان هذه الافكار وغيرها التى قيلت حول الدستور الاسلامى ان دلت على شيء فانما تدل على امكانية الاهتداء

---

(53) أبو الاعلى المودودى · المرجع السابق ص 371 الى 373 ·

(54) عبد الحميد بن باديس · ابن باديس حياته وآثاره · اعداد وتصنيف الاستاذ عمار طالبى · ط 1 ـ دار اليقظة العربية 1967 · الجزء 3 ص 401 الى 404 ·

الى أهم العناصر التى يجب أن يتضمنها الدستور الاسلامى بالرجوع الى القرآن والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين مع مراعاة الدراسة المقارنة للدساتير فى العالم ومراعاة واقع الامة الاسلامية ·

وان البحث فى هذا المجال لا يزال فى بدايته يقول محمد أسد : « وانني أعتقد على الرغم من هذا أن البحث فى المبادىء التى يجب أن يقوم عليها كيان الدولة الاسلامية لم يستنفد أغراضه ، بل على العكس من ذلك ، فانه فى الحقيقة لا توجد بين الاقطار الاسلامية دولة واحدة يمكن أن تتصف بصفة « الدولة الاسلامية » ، ولذلك يصبح استمرار البحث فى هذا الموضوع أمرا حيويا لا غنى عنه بالنسبة ، على الاقل ، لهؤلاء الذين يشكل لهم الاسلام الحقيقة الجوهرية المهيمنة التى تدور عليها شؤون حياتهم وتفكيرهم » · (55)

ايديولوجيتها :

ان الفكرة الشائعة لدى غلاة اليسارية أن التخلف مرادف للتدين ، والتقدم يتطلب الكفر والالحاد ، حتى يستطيع الانسان فى نظرهم أن يضع جدولا كاالجداول الرياضية يكفى بمقتضاه أن تحدد درجة تدين الدولة لكي تعطى لك درجة تخلفها ! ···

فهم يدعون أنه من الممكن أن ترسم خريطة لهذه البلدان تصل بينها وبين مجموعة من الاطوار ، فتكشف لنا أن أكثر هذه البلدان تخلفا هي البلدان التى لا تزال تعتمد على الايديولوجية الغيبية كقاعدة للدولة والمجتمع ·

وفى هذا الطريق يمشى ماكسيم رودنسون مع شيء من التخفيف فى الهجوم على الدين اذ يميز موقفه منذ البداية عن موقف :

1 – الاستعمار الذى ضخم كثيرا الطابع التعصبى والمضاد للتقدم والمضاد للمعرفة فى الاسلام ·

2 – رينان Renan الذى لاحظ تخلف وتقهقر وانحطاط الشعوب الاسلامية · وعزا ذلك الى السيطرة الوحشية للطقوس الاسلامية المتحكمة فى المجتمع بأكمله دون فصل الجوانب الروحية عن الجوانب الزمنية ·

يريد رودنسون أن ينصب نفسه مدافعا عن العوامل المؤدية الى التقدم ومحاربا للعوامل المعاكسة له · ومن بين هذه العوامل الايديولوجيات (وهي جملة من المبادىء تسمح بالتقدم أو تعارضه) · ومن ضمن هذه الايديولوجيات فى نظرة الاسلام والمسيحية والماركسية والعقلانية الديكارتية ، غير أنه يميز داخل هذه الايديولوجيات نوعا خاصا يسميه بالايديولوجيا الكلية التى تدعى تنظيم عدد متفاوت الكبر من السلوكات

(55) محمد أسد · المرجع السابق · ص 11 ·

والافكار وتتوغل الى الحياة الخاصة بالافراد ذاتها ·

ويمكن لهذه الايديولوجيات ألا تكون كلية فى بدايتها ثم تصبح كذلك والعكس صحيح ·

ويلاحظ رودنسون من جهة أخرى أن ايديولوجيا الدولة لا تعوق الديناميات الاجتماعية المستقلة ذاتيا عن الاستمرار · وأنها يمكن أن تكون قابلة لاضفاء طابع القدسية على البنية السياسية أو الاجتماعية وعلى نوع الحكم ، وعلى حزمة من السمات الثقافية وعلى عرق بعينه · وان هذا الاضفاء يؤثر على أفراد الجماعة الايديولوجية · ويمكن أن يستخدم كسلاح سياسى قوي ·

وان كل ايديولوجيا اذا جعل منها ايديولوجيا دولة واذا أضفى عليها طابع القدسية الى أقصى حد يمنحها أصلا دينيا وقيمة علمية غير قابلة للدحض ، واذا كان الشك فيها ممنوعا ، واذا كانت فئة من المؤولين المأذونين بيدها احتكار الرأي فيما يتعلق بالنتائج الفكرية والعلمية لهذه الايديولوجيا ، فانها تشكل مكبحا للتقدم العلمى والسياسى والاجتماعى والتقنى · ورودنسون هنا يساند رأي رينان ·

وينتهى رودنسون الى النتيجة التالية وهي أن الاسلام ليس عاملا للتقدم أو للتقهقر · وكل ما يمكن التصريح به هو أن ظروف أصوله قد زودته بطموحات على الصعيدين السياسى والاجتماعى لا يستطيع أن يجسدها ـ من حيث هو مذهب ـ على الصعيد العلمى · وهنا يكمن الخطر · ويستطيع المؤولون المأذونون أن يفرضوا تأويلا يضفون بواسطته على موقفهم المفضل طابع القدسية · غير أن مذهبا ما لا يستطيع أبدا أن يشرط مجتمعا بأكمله ولا تاريخا بأكمله · والاسلام هو ما يستطيع أن يجعل منه المسلمون وما سيجعلون منه · (56)

غير أن حجج رودنسون ليست قوية الى الحد الذى يتصوره ذلك أنه لم يبرهن لنا بالاستناد الى النصوص القرآنية والنصوص المأخوذة من السنة بأن الاسلام كما يزعم ليس فى حد ذاته عاملا للتقدم أو للتقهقر · كما أنه يستعمل مصطلحات غريبة من ضمنها « المؤولون المأذونين » و « اضفاء الطابع القدسى » و « ايديولوجيا كلية » : ان الاسلام فى نظرنا عقيدة سماوية وبالتالى فهو « ايديولوجيا » مفارقة ومنزهة عن العيوب التى يمكن أن تنسب الى الايديولوجيات عادة · وانها لم تجمد المجهود الفكرى فى أي نص من نصوصها بل حثت عليه فى غير ما آية وحديث · كما أنها تحث على التقدم غير أنها تجعل التقدم الخلقى محورا وأساسا وهدفا لكل تقدم ·

ان هذه العقيدة أو « الايديولوجيا » ليست احتكارا لفئة ضيقة من الناس بل

(56) Maxime Rodinson. Islam, facteur de son servatisme ou de progrès ? in « Pouvoirs », revue précitée, pp. 27 à 32.

هي سلاح كل مؤمن · غير أن من يحق لهم أن يشرحوها ويبينوا أبعادها وأعماقها هم الراسخون فى العلم من معتنقيها · ولو كانت الايديولوجيا

لعبة بين أيدى الجهلة والمشعوذين لقضوا على لبها وأساسها ·

ويمكن أن نشير الى بعض عناصر هذه « الايديولوجيا » وليست قطعا أهمها وليست حتى جزءا بسيطا منها اذ أنه لا يمكن الالمام بها الا بعد دراسة حقيقية للقرآن والسنة النبوية :

- عدم الفصل بين الروح والمادة ، بين العقيدة والشريعة ، بين الدين والدنيا ، بين هذه الحياة والآخرة، بين الحياة الروحية والسياسية ·
- تقرير المساواة بين الناس أبيضهم وأسودهم وعربيهم وأعجميهم ·
- لا يكن التفاضل بين الناس الا بالتقوى وحدها ·
- القضاء على الفوارق بين الناس ·
- ترقية الانسان وتوفير اسباب فلاحه فى الدارين ·
- اعادة الاعتبار للعمل وربطه بالعبادة ·
- المؤمنون اخوة ·
- دور الدولة الدولة هو حماية الدين وسياسة الدنيا به ·
- القضاء على الجهل والامية والحث على طلب العلم والتفكير ·
- محاربة الآفات الاجتماعية والاخلاقية ·
- محاربة الشرك ومظاهره ·
- ضمان حقوق الاقليات المتمثلة فى أهل الذمة ·
- تأسيس نظام الزكاة ومنع الربا وتطهير التجارة من رجس الجاهلية
- تحريم الخبائث وتحليل الطيبات ·
- رفع درجة المرأة من مجرد بضاعة الى انسان يتمتع بالحقوق والواجبات التى تنص عليها الشريعة ·

4) تنظيم السلطة :

1 - شكل الحكومة :

يعتد الاستاذ مالك بن بنى فى كتابه عن الاسلام والديمقراطية أن تجربة الديمقراطية السياسية التى ما فتئت قائمة فى العالم منذ الثورة الفرنسية تدل دلالة قاطعة على عرضية حريات الفرد ما دمنا لم نقدم له فى الوقت نفسه الضمانات الاجتماعية التى ترسى استقلاله المادى ·

والامر الذى لا يقبل الجدال فى نظرنا وفى نظر الاستاذ مالك بن نبى هو أن النظام الذى يمنح للفرد حرية الانتخاب ويحرمه مما يسد به رمقه ليس بنظام ديمقراطى مطلقا ·

ولقد رأينا فى البلدان المتقدمة سياسيا كيف أن المواطن الحر يمكن أن يصبح بالفعل عبدا للمصالح القوية

المتحالفة ، وكيف أنه يفقد لنفس السبب كل الامتيازات التى منحها له نظريـــا تصريح بحقوق الانسان ودستور ليس لهما آثار ملموسة فى حياته ·

ولقد لاحظنا فى البلدان التى تعانى من فقدان التوازن بين الجانب السياسى والجانب الاجتماعى السالف الذكـــر ميلاد صراع الطبقات الـــذى يمكن أن يفضى الى ارساء نوع من الديمقراطية لا تمنح للمواطن الضمانات الاجتماعية الضرورية الا على حساب الحـريـات السياسية ذاتها ·

وقد تفادى الاسلام فى نظر مالك بن نبى وفى نظرنا هذه الهوة الساحقـــة بايجاد الحلول للحياة المادية للفـــرد ومنحه الحريات السياســـية فى نفس الآن ، وبهذا الصدد يمكننا أن ننظـــر الى الاسلام على أنه تركيب للديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية ·

غير أن أبا الاعلى المردودى يعترض على وصف الدولة الاسلامية بأنهـــا ديمقراطيـــة · فهي فى نظره ليســـت ديمقراطية · ذلك أن الديمقراطية هي عبارة عن منهاج للحكم تكون فيه السلطة للشعب جميعا ، فلا تغير فيه القوانيـــن ولا تبدل الا برأي الجمهور ولا تســـن الا حسب ما توحى اليهم عقولهم · فلا يتغير فيه من القانون الا ما ارتضتـــه أنفسهم وكل ما لم تسوغه عقولهم يضرب به عرض الحائط ويخرج من الدستور ·

ويؤثر أبو الاعلى المودودى فى مصطلح « الثيوقراطية الديمقراطية » أو « الحكومة الالهية الديمقراطية » لهذا الطراز من نظم الحكم لانه قد خول فيه للمسلمين حاكمية شعبية مقيدة · (57) وذلك تحت سلطة الله القاهرة وحكمه الذى لا يغلـــب · ولا تتألف السلطة التنفيذية الا بـآراء المسلمين وبيدهم يكون عزلها مـــن منصبها وكذلك جميع الشؤون الـــتى لا يوجد عنها فى الشريعة حكم صريح لا يقطع فيها بشىء الا باجماع المسلمين · وكلما مست الحاجة الى ايضاح القانون أو شرح نص من نصوص الشـــرع ، لا يقوم ببيانه طبقة أو أسرة مخصوصة فحسب بل يتولى شرحه وبيانه كل مـــن بلغ درجة الاجتهـــاد مـــن عـامـــة المسلمين · (58)

ويعتقد الدكتور طه حسين من جهته أن نظام الحكم آنذاك لم يكن نظام حكم مطلق ، ولا نظاما ديمقراطيا على نحو ما عرف اليونان ، ولا نظاما ملكيا أو جمهوريا أو قيصريا مقيدا على نحـــو ما عرف الرومان ، وانما كان نظامـــا عربيا خالصا (يريد بذلك اسلاميـــا) بين الاسلام له حدوده العامة ، وحاول المسلمون أن يملأوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى · (59)

(57) أبو الاعلى المودودى · نظرية الاسلام وهديه ··· ص 33 الى 35 ·
(58) ن· م· ص 36 ·
(59) طه حسين · المرجع السابق ص 682 ·

ولا أدرى لماذا يريد الباحثـــون أن يوحدوا نظام الحكم فى الاسلام باحدى النظم السياسية الوضعية · فلئن كان نظام « الخلافة » وهذه هي تسميتـــه الحقيقية يشبه بعض النظم الوضعيـــة من جوانب فهو يختلف عنها من جوانب أخرى ·

ومن مميزات نظام الحكم الاسلامى ما يـــلى :

1 ـ ان المجتمع الذى يكون كل عضو منه خليفة لا يتسرب اليه فساد التفريق بين الطبقات ولا شر الامتيازات التى تأتى من جهة الحياة الاجتماعية والفوارق النسبية ويكون أفراد هذا المجتمـــع سواسية لا يكون لاحد فضل على آخـر الا من جهة المواهب الشخصية والسجايا الذاتية · فليس لاحد فضل على أحد الا بدين أو تقـوى ·

قال رسول الله (ص) : « يا معشـر قريش ! ان الله قد أذهب عنكم نخـوة الجاهلية وتعظمها بالآبـاء ، أيهـــا الناس : كلكم من آدم وآدم مـــن تراب لا فخر للانساب ، لا فضل للعربى على العجمى ، ولا للعجمى على العـــربى « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » ·

2 ـ وفى مثل هذا المجتمع لا تحـول عقبات النسل أو الحرفة أو المنزلة فى المجتمع بين الفرد أو جماعة من الافراد وبين مواهبهم الشخصيـــة وتنميـة سجاياهم وملكاتهم المستودعـــة فى نفوسهـــم ·

3 ـ لا يكون لرجل أو طائفة أن تستبد بالامر أو تتسنم عرش الديكتاتورية ·

4 ـ ومن حق كل فرد فى هذا المجتمع سواء كان ذكرا أو أنثى أن يكون لـه رأي فى مصير الدولة وابداء الرأي · (60)

5 ـ ولي الامـر نابـع مـن مجلس الشورى ومن عامة الناس · يشـــاور وهو مسؤول عن أفعاله ·

6 ـ البعد عن النظام الحزبى ·

7 ـ المحاسبة والمراقبة ·

8 ـ توفر الصفات الحميدة فى أولى الامـــر · (61)

9 ـ حكومة انتخابية وشورية ذلـك أن لفظ بينهم فى الآية « **وأمرهم شورى بينهم** » يدل على ذلك · (62)

وهكذا يصبح شكـلالحكومـــة فى نظرنا أساسيا لا ثانويا كما يعتقد حميد اللـــه · (63)

ونظام الحكم مع ذلك فريد من نوعه انه خلافة شورية تخضع للتشريع المنزل من عند الله وتعين بواسطة البيعة ·

(60) أبو الاعلى المودودى · المرجع السابق · ص 50 و 51 ·
(*) فى عهد الخلفاء الراشدين ·
(61) أبو الاعلى المودودى · تدوين الدستور الاسلامى · دار الفكر ص 62 و 63
(62) محمد أسد · المرجع السابق . صمن 67 الى 93 ·

2) أولو الامر أو الهيئة التنفيذية :

اذا كان ابن تيمية يرى فى كتاب الحسبة أن أولى الامر هم أصحابه وذووه : « وهم الذين يأمرون الناس وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام .

ولهذا كان أولوا الامر صنفين العلماء والامراء فاذا صلحوا صلح الناس واذا فسدوا فسد الناس » . (64) فاننا نقصر هذا الاسم على ما نطلق عليه فى وقتنا الحالى اسم السلطة التنفيذية .

وعلى أولى الامر عامة المشاورة حتى لا يستبدوا برأيهم وحتى لا يقهر رعاياهم وحتى يجلبوا ثقتهم . وان الرسول (ص) **الذى لا ينطق عن الهوى** والذى كان معصوما من الخطا قد أمره الله بأن يشاور أمته فى الامر : « **وشاورهم فى الامر** » . ومن واجب الرعية بذل النصح لاولى الامر حتى لا يزيغوا عن جادة الصواب . ولتقتد الرعية بذلك المؤمن الذى قال لعمر « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » وليقتد أولو الامر بعمر الذى أجاب بحمد الله والثناء عليه أن جعل فى الامة الاسلامية من يقوم اعوجاجه بسيفه » . (65)

ـ انتخاب رئيس الدولة : اختلف المسلمون فى تسمية رئيس الدولة وأطلقت عليه ثلاثة ألقاب مختلفة وهي : الخليفة والامام وأمير المؤمنين . غير أن اللقب الذى أجمع عليه المسلمون هو خليفة رسول الله . قال ابن خلدون : « وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي فى أمته ، فيقال : خليفة باطلاق ، وخليفة رسول الله . واختلف فى تسميته خليفة الله . فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التى للآدميين فى قوله تعالى : « **انى جاعل فى الارض خليفة** » وقوله : « **جعلكم خلائف الارض** » . ومنع الجمهور منه ، لان معنى الآية ليس عليه ، وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به ، وقال : « لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله » (ص) ، ولان الاستخلاف انما هو فى حق الغائب ، وأما الحاضر فلا » . (66)

ان النبى (ص) لم يأمر المسلمين ويهديهم هداية صريحة قاطعة فى من يكون خليفتهم من بعده . والذى فهمه الصحابة من هذا السكوت ومن الآية « **وأمرهم شورى بينهم** » أن الله تعالى قد خيرهم فى تولية الرئيس لدولتهم بعد نبيه بالانتخاب وأنه ينبغى أن يكون هذا الانتخاب بمشاورة المسلمين فيما بينهم فانتخوا أبا بكر الصديق خليفة

(64) محمد المبارك . المرجع السابق . ص 32 .
(65) ن . م . ص 38 .
(66) عبد الرحمن بن خلدون . المرجع السابق . ص 339 .

على أنفسهم فى جمع حافل من المسلمين وبايعوه على السمع والطاعة · (67)

ويرى ابن تيمية فى هذا الصدد أن تعيين الامام يكون بالاختيار لا بالنص أو العهد ممن قبله · وهو يقول : « ومذهب أهل السنة ان الامامة تنعقد عندهم بموافقة أهل الشوكة ··· الذين يحصل بهم مقصود الامامة وهو القدرة والتمكن » · (68) وقال أيضا : « فلا يشترط فى صحة الامامة الا اتفاق أهل الشوكة والجمهور قال النبى (ص) : « عليكم بالجماعة فان يد الله على الجماعة » · (69)

وهكذا يكون مصدر سلطة الامام مبايعة الجمهور له ورضاهم به · أليس حب الرعية والشعب دليلا على صلاحه واستقامته ؟ (70)

فما معنى البيعة يا ترى ؟ انها : « العهد على الطاعة ، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر فى نفسه وأمور المسلمين ، لا ينازعه فى شىء من ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره · وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم فى يده تأكيدا للعهد ، فأشبه ذلك فعل البائع والمشترى ، فسمى بيعة، مصدر باع ، وصارت البيعة مصافحة بالايدى » · (71)

غير أن البيعة فى نظر الشرع تكون على الطاعة فى المعروف لا فى معصية الله · ولقد ورد فى نص بيعة النساء للرسول (ص) « ولا تعصيننى فى معروف » ولم يقل و « لا تعصيننى » ومن المعلوم أن الرسول (ص) لا يأمر الا بالمعروف غير أنه ذكر ذلك للتشريع ·

وان صلاحيات الخليفة وأولى الامر عموما محدودة ضمن ما قد وضع الله لها من الحدود · فما لهم أن يأتوا بشىء الا ضمن هذه الحدود ولا يجوز لهم أن يتجاوزوها فى أي حال من الاحوال ·

قال الله تبارك وتعالى : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** » (النساء 59) · (73)

وان طاعة الامام لذلك مقيدة وهو غير معصوم · وليس عند أهل السنة من

---

(67) أبو الاعلى المودودى · تدوين الدستور الاسلامى · ص 46 الى 48 ·

(68) محمد المبارك · المرجع السابق · ص 35 و 36 ·

(69) ن · م · ص 26 ·

(70) ن · م · ص 37 ·

(71) ابن خلدون · المرجع السابق ص 370 ·

(72) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى · فقه السيرة · ط 5 دار الفكر 1973 ص 356 ·

(73) محمد المبارك · المرجع السابق ص 29 ·

يجب أن يطاع فى كل شىء الا الرسول (ص) • أما الامام الحق فليس بمعصوم ولا يجب على الانسان أن يقاتل معه كل من خرج عن طاعته ولا أن يطيعه الانسان فيما يعلم أنه معصية • (74)

وهكذا تصبح مهمة الهيئة التنفيذية محصورة فى تنفيذ الاحكام الالهية وتهيئة الظروف فى البلاد وفى المجتمع لتنفيذها • أعضاؤها هم أولو الامر وطاعتهم مشروطة بطاعتهم لله • قال الله تعالى : « **ولا تطع أمر المسرفين الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون**» • (الشعراء 151) • (75)

وان الاحكام كلها قد تلقتها الامة عن النبى (ص) ولا تحتاج فيها الى امام وانما الامام منفذ لما شرعه الله • (76)

4) الهيئة القضائية :

ان حدود هذه الهيئة هي حاكمية الله القانونية • والانبياء هم القضاة الاولون وقد حكموا بما أنزل الله • وعلى أولى الامر أن يتقيدوا فى أحكامهم القضائية بما أنزل الله •

كما أن القضاء فى الاسلام لا يخضع لاحد ولا لسلطة ولا لهيئة الا لما أنزل الله على رسوله ولسنة نبيه (ص) •

ولقد بينت الآيات من 42 الى 50 من سورة المائدة حدود السلطة القضائية •

وتوجد آيات أخرى فى سور غيرها تبين مهام السلطة القضائية وحدودها •

ويمكن تلخيص المبادىء الواردة فى الآيات المذكورة من سورة المائدة فيما يلى :

- الامر بأن يكون الحكم بالقسط •
- يذكر الله بحكم التوراة وحكم الانجيل وحكم الله الذى حكم به النبيون من قبل •
- يصف من لا يحكم بما أنزل الله بأنهم هم الكافرون والظالمون والفاسقون •
- الامر بالحكم بما أنزل الله وعدم اتباع الهوى •
- ما دون ذلك هو حكم الجاهلية o

وعلى هذا فان محاكم الدولة تنشأ لتنفيذ القانون الالهى لا لمعارضته ومحاربته • (77) ان السلطة القضائية مبنية على تساوى الناس أمام القانون بما فى ذلك رئيس الدولة نفسه • كما أن أهل الذمة يتمتعون بالاستقلال الذاتى فى الميدان القضائى ولهم محاكمهم وقضاتهم • وعلى هذا يطلب القرآن فى الآيات المذكورة أعلاه من أهل التوراة وأهل الانجيل أن يحكموا بما أنزل الله • (78)

---

(74) ن • م • ص 40 •
(75) ن • م • ص 33 و 34
(76) ن • م • ص 38 •
(77) أبو الاعلى المودودى • نظرية الاسلام وهديه ••• ص : 267 و 268 •
(78) Mohammad Hamidullah. Op. cit. p. 106.

5) مجلس الشــورى ــ أهل الحــل والعقد : أو السلطة التشريعية :

وظيفة المجلس التشــريعي الاسلامي هي أن يضع القواعد واللوائح لتنفيــذ الاحكام الواضحة القاطعة الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله · وأن ينظر فى الامور التى تحتمل فيها أحكــام اللــه ورسوله تأويلات عديدة دون تغييــر أو تحريف · وأمــا الامــور الــتى لــم ترد فيها أحكام الشريعة فللمجلس أن يضع فيها القوانين وفقــا لمبــادىء الدين انه يعمــل على مراعاة ما هــو أنسب وأوفق لمصالح الناس دون منافاة مبدأ شرعي · (79)

وان التنفيذ بعرف سلفنا يشمــــل ما يسمى بعرفنا تشريعا · كما لو منع الحاكم نوعا من الاعمال والتصرفــات المباحة أو قيدها لمفسدة تنشــأ عنهــا تطبيقا لقاعدة شرعية أو وضع ضوابط لتحديد الاجور مثلا منعا للجور فــهذا وأمثاله فى نظر الفقــهــاء المتقدميــن لا يسمى تشريعا وانما تنفيذ · (80)

وعلى هذا يجدر بنا أن نراعى هــذا الاختلاف فى المصطلحات أثناء تحديدنا لمهام السلطة التشريعية · فهي لا تشرع الا فيما لم يرد فيه نص صريح من القرآن والسنــــة ·

وبهذا ترتسم أمامنا حدود المجالس التشريعيــة فلا يجــوز لها أن تضــع قانونا يخالف كتــاب اللــه وسنــــة رسوله (ص) · قال تعالى : « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضــــلالا مبينــا** » (الاحزاب 36) · (81)

النص على الشورى فى القرآن :

1 ــ فى سورة آل عمران :

قال تعالى : « **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين** » · (الآية 159)

وتهدف هذه الآية الى التأليف بيـــن قلوب المؤمنين بواسطة الشورى وتعويدهم عليها كمنهاج فى معالجة الامور ·

2 ــ فى سورة الشورى :

قال تعالى : « **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** » · (الآية 38)

توضح هذه الآية أن الشورى ركيــزة من ركائز المجتمع الاســلامى وتقــرر الشورى كعنصر من عناصر الشخصية الايمانية الحقة · وتذكــر لنا حالـــة المؤمنين الاولين الذين كانوا لا ينفردون

---

(79) محمد المبارك · المرجع السابق · ص 30 الى 33 ·
(80) ن · م · ص 39
(81) ن · م · ص 31 ·

برأي حتى يتشاوروا عليه وذلك من فرط تدبرهم ويقظتهم وصدق تآخيهم في ايمانهم وتحابهم في الله ·

3 ـ في سورة طه :

قال تعالى على لسان موسى : « **واجعل لى وزيرا من أهلى ، هرون أخى ، اشدد به أزرى ، واشركه فى أمرى** » · (الآيات 29 الى 32)

ويعتقد أبو الحسن على بن محمد البصرى البغدادى أن هذه الآيات تدل على أهمية المشاورة ذلك أنه يفهم منها أنه اذا جاز ذلك فى النبوة كان فى الامامة أجوز ·

4 ـ فى سورة النمل :

قال تعالى متحدثا عن ملكة سبا : « **قالت يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون** » · (الآية 32)

ويبين المفسرون أن هذه الملكة طلبت من قومها أن يشيروا عليها فى الامر الذى نزل بما عندهم من الرأي ما كان لها أن تمضى حكما حتى يحضروا ويكونوا شاهدين وذكروا أن أهل الشورى عندها كان عددهم 314 رجلا ·

الشورى فى السنة :

1 ـ السنة العلمية :

ـ شاور رسول الله (ص) فى غزوة بدر قبل أن تبدأ المعركة أصحابه قبل الاقدام على القتال وعند المعركة فيما يتعلق باختيار المكان وبعد انتصار المسلمين فى مسألة الاسرى ·

ـ شاور الرسول (ص) أصحابه قبل أن تبدأ غزوة أحد هل تدور المعركة داخل المدينة أو خارجها ·

ـ شاور الرسول (ص) فى غزوة الاحزاب سلمان الفارسى الذى أشار عليه بحفر الخندق ·

ـ شاور الرسول (ص) يوم الحديبية فى آن يميل على ذرارى المشركين ويقتلهم ·

ـ شاور الرسول (ص) فى بيعة الرضوان فى أمر قتال قريش فبايعوه جميعا على الحرب ·

2 ـ السنة القولية :

قال (ص) : « ما ندم من استشار ولا خاب من استخار » ·

وقال : « ما شقى قط عبد بمشورة وما سعد باستغناء رأي » ·

وقال : « المستشار مؤتمن » ·

وقال : « استعينوا على أموركم بالشورى » ·

وخلاصة القول أن الشورى واجبة بالنص القرآنى وبمقتضى سنة رسول الله (ص) · (82)

---

(82) د· يعقوب محمد المليجى · مبدأ الشورى فى الاسلام · مؤسسة الثقافة الجامعية · الاسكندرية · ص من 84 الى 97 ·

من هم أهل الحل والعقد ؟

1 ـ الفقهاء المجتهدون الذين يعتمد على أقوالهم فى الفتيا واستنباط الاحكام وأهل النبوغ العلمى والفقهى ٠

2 ـ وأهل الخبرة فى الشؤون العامة

3 ـ ومن لهم نوع قيادة أو رئاسة فى الناس كزعماء البيوت وشيوخ القبائل ورؤساء المجموعات وذوو السيادة فى القوم والسؤدد ٠

4 ـ وذوو المزايا العقلية والنفسية الظاهرة والصفات الخلقية الرفيعة والرأي السديد الذى يحظى بثقة المسلمين ٠

5 ـ ذوو الاسبقية فى الايمان والجهاد فى سبيل الله ٠ (83)

تشكيل مجلس الشورى :

بعد أن يؤكد محمد حميد الله ضرورة الشورى ٠ ويوضح الصفات التى يجب أن تتوفر فى أعضائه وهي النزاهة والثقة من طرف الناس الذين اختاروهم ٠ وهو يعتقد أن طريقة الانتخاب وعدد المقاعد من الشكليات ٠ (84)

الا أن هذا الحكم لا يثنينا بأية حال من الاحوال عن استنباط قاعدة كلية من تعامل الصحابة فى عهد الخلافة الراشدة بل من الاسوة النبوية ذاتها مفادها أن الخليفة لا ينبغى له أن يشاور فى الامر من يشاء ، أو أن ينتخب هذا الذى يشاور بنفسه ، بل يجب عليه أن يشاور فى أمر المسلمين من يكون حائزا لثقة عامتهم وقد يكون الناس على اطمئنان من اخلاصه ونصحه وأمانته وأهليته وتضمن مشاركته فى أقضية الحكومة بأن الامة ستمد الى الحكومة يد التعاون فى تنفيذ هذه الاقضية ٠ (85)

5 ـ **العلاقة بين أركان الدولة** : يمكن أن نلخص هذه العلاقة فيما يلى :

1) ينبغى أن يكون أهل الحل والعقد رجالا تدبر بمشورتهم شؤون البلاد ويقضى فى المسائل التشريعية ٠

2) القائمون بالحكم والادارة أمراء آخرون ليسوا من أهل الحل والعقد وليس لهم تدخل فى التشريع ٠

3) القضاة رجال آخرون غير هؤلاء وأولئك ليس لهم شىء من المسؤولية عن شؤون البلاد الادارية ٠

4) تنتهى مهمة أهل الحل والعقد عند بدء التنفيذ ٠

5) اذا كان الخليفة هو الذى يعين القضاة فهو لا يتدخل فى قضائهم ٠ بل اذا كان لرجل دعوى على الخليفة لابد أن يحضر أمام القاضىَ كعامة الناس ٠ (86)

---

(83) ن٠ م٠ ص 158 و 159 ٠

(85) أبو الاعلى المودودى ٠ تدوين الدستالر الاسلامى ٠ ص 57 ٠

(86) أبو الاعلى المودودى ٠ المرجع السابق ٠ ص 36 الى 44 ٠

6) ضرورة التحكيم بين هذه الاركان : ويكون التحكيم على أساس من كتاب الله وسنة رسوله (ص) · (87)

5 الصفات التى يجب توفرها فى أولى الامر وكل من يتولى سلطة من السلطات :

من أهم صفات أولى الامر ومؤهلاتهم :

- الاسلام
- الرجولة
- العقل والبلوغ
- سكنى دار الاسلام
- التقوى
- الاهلية
- بسطة العلم والجسم
- لا يولى من يجرى وراء مسؤولية (88)
- الامانة
- القوة أو القدرة والتمكن أو السلطة الفعلية بمقتضى قوله تعالى : « **ان خير من استأجرت القوي الامين** » · **(89)**

- غير أن صفة القرشية قد اعترض عليها البعض · واذا كان أهل السنة كلهم يرون هذه الصفة فان الخوارج مثلا يعتقدون أن أمر المسلمين لا ينبغى أن ينحصر بين أيدى قريش ·

وحجة أهل السنة هي الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق الذى قال قال رسول الله (ص) : « الائمة من قريش » وما ثبت فى الصحيح : « لا يزال هذا الامر فى هذا الحي من قريش » ·

أما حجج غيرهم فتعتمد على قوله (ص) : « اسمعوا وأطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشى ذو زبيبة » ويعتقد ابن خلدون أنه « لا تقوم به حجة فى ذلك ، فانه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة فى ايجاب السمع والطاعة » ·

ويعتقد ابن خلدون أن مقصد الشريعة من اشتراط القرشية هو توفر عنصر العصبية الذى لابد منه لقيام الدولة فى نظره · (90)

غير أن هذا المقصود فى رأينا مستبعد وربما كان المقصد من وراء هذا الحديث هو حسم الخلاف بين المسلمين بعد وفاة الرسول حتى يهتدوا الى الخليفة دون اقتتال أو تنازع ·

أما شروط الخلافة فى نظر ابن خلدون بالاضافة الى الشرط المختلف حوله فهي : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء · (91) وقد أشرنا الى هذه الشروط اجمالا فيما تقدم ·

---

(87) محمد أسد · المرجع السابق · ص 321 الى 127 ·
(88) أبو الاعلى المودودى · المرجع السابق · ص 63 الى 67 ·
(89) محمد المبارك · المرجع السابق ص 43 ·
(90) ابن خلدون · المرجع نفسه · ص 343 الى 345 ·
(91) ن · م · ص 343 ·

وينفى معظم المحدثين شرط القرشية وفى مقدمتهم حميد الله الذى يقول ان سنة سيدنا محمد لا تلزم القرشية فان الرسول (ص) عند خروجه من المدينة مركز الدولة الاسلامية استخلف من قريش ومن المدينة ومن كنانة . (92)

وقد قال الرسول (ص) « ولو استعمل عليكم أسود يقودكم بكتاب الله » .

وفى رواية « عبد حبشى كأن رأسه زبيبة فاسمعوا وأطيعوا » ٥ (93)

6 الاحكام التى يخضع لها من يتولى السلطة :

1 ـ كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ... الامام راع ومسؤول عن رعيته » .

2 ـ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق

3 ـ « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون** » .

4 ـ « ان والله لا نولى هذا العمل أحدا سأله ، أو أحدا حرص عليه » .

5 ـ « **ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** » .

6 ـ « **وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم** » .

7 ـ « **يا أيها الناس اناخلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » .

8 ـ هم فرسان بالنهار رهبان بالليل، لا يأكلون فى ذمتهم الا بثمن ، ولا يدخلون الا بسلام ، يقضون على من حاربوا حتى يأتون عليه . (94)

7 ـ الخاتمة :

نصل الآن الى خاتمة المطاف بالنسبة لهذا البحث لنؤكد على ما يلى :

1 ـ ان العالم قد خسر خسرانا مبينا بزوال نظام الخلافة الاسلامية الذى هو أرقى النظم السياسية فى العالم بخلوه من النفاق السياسى واعتماده على تشريع لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

2 ـ يستطيع العالم الاسلامى فى وقتنا الحالى أن ينحو نحو نظام الخلافة تدريجيا بان يبدأ بالسوق الاسلامية المشتركة كما يقترح الدكتور محمود محمد بابللى أو بالكومولث الاسلامى كما يقترح مالك بن نبى أو مجلس

---

(93) محمد المبارك . المرجع السابق . ص 41 .
(94) أبو الحسن الندوى . المرجع السابق ص 112 الى 117 .

الخلافة الذى يجمع رؤساء جميع الدول الاسلامية من سنة وشيعة وخوارج تكون رئاسته بالتداول كما يقترح حميد الله · وهذه اقتراحات يمكن دراستها فى بحث قادم ·

3 ـ غير أن الهدف الاسمى للمسلمين هو استعادة الخلافة الاسلامية وتدوين الدستور الاسلامى وانتخاب مجلس شورى وخليفة ·

4 ـ تحديد أعماق وأبعاد الايديولوجيا الاسلامية ·

كل هذه الامور ليست بمستحيلة اذا تظافرت جهود العلماء والسياسيين وما ذلك على الله بعزيز ·

الحصانة الدينية للشخصية الجزائرية

د. أحمد بن نعمان

من عظائم حكم الخالق فى شؤون خلقه انــه ابدع مـا شاء ووفر لكل مخلوقاته وسائل المقاومة من أجل البقاء الى أجل يعلمه ...

واذا صرفنا النظر عن الكائنات الدنيا كالنباتات والحيوانات العجمى ، وركزنا عـلى الحيوان النـاطق باعتباره ارقـى المخلوقات ... فاننا نلفيه أكثر حظـا مما عداه فى التوفر على وسائل المقاومة من أجل البقاء ، ولعل ذلك راجع لضعفه البيولوجى من جهة ، ورفعة قيمته الفكرية التى جعلته مستخلفا فى الارض ومسؤولا عن تحمل الامانة ، التى عجز عن حملها ما دونه من الكائنات من جهة أخرى ...

على ان هذه الوسائل المادية والمعنوية ، قـد وهبت للانسان فـردا فى جماعة ، وجماعة فى أمـة للمحافظة على الكيـان المـادى البيولوجى . والكيان المعنـوى الثقافي الذى يكون الشخصية الـوطنية المميزة للمجتمعات والامم .. واذا كان الانسان على الصعيد البيولوجى يرث ، ويكتسب مجموعة من المحصنات التى تمنح جسده المناعة ضد الامراض ... فكذلك الانسان ـ بوصفه كائنا اجتماعيا ـ يرث ويكتسب محصنات كثيرة تمنـــح كيانه الاجتماعى مقومات البقاء ، والمقاومة ضد العوامل التى تستهدف القضاء عـــلى شخصيته المتميزة ، وسنضرب صفحا عن المحصنات الجسدية المعروفة فى عـــالم الطب ، لنتحدث عن العوامل التى تكسب المجتمع مناعة تمكنه عن المقاومة والمحافظة على مكوناته ، وخصائصه المميزة لـــه عن سائر الاغيار من المجتمعات فى العالم وهـذه المحصنات الاجتماعية تتمثل فى كل النظم الاجتماعية السائدة فى حيـاة الافراد ، بقطع النظر عن درجة فعاليتها التى تختلف من مجتمع لآخر .

وبما ان الدين فى مجتمعنا يعتبر مـن أقـوى النظم (الاجتماعية ـ الثقافية)

المؤثرة فى الافراد والمتأصلة فى نفوسهم فاننا ارتأينا ان نتحدث عن قوة الحصانة التى يمنحها الدين الاسلامى للشخصية الوطنية ، من أجل الصمود ، والبقـــاء أمام الهزات العنيفة التى تعصف بهـــا من حين لآخر فى خضم الصراع العنيـف الدائر بين الثقافات والحضارات والنظم ... ومـــن بـاب اختبار أصالة هـذه الشخصية سنتناولها بالبحث فى الفترة التى تمثل أكبر امتحان لها ، وهى فترة الاحتلال الاجنبى ، لان الاصالة الحقيقية للاشياء تظهر أيام العسر أكثر مما تظهر أيام اليسر والرخاء . وهكذا نلمس بقوة أكبر محـك للحصانة الدينية للشخصية الجزائرية فى الصراع الطويل ، الذى دار بين الاصيل والدخيل على الساحة الوطنية فكيف تم ذلك الصراع ؟ وما هى فاعلية الحصانة الدينية للمحافظة على الشخصية الوطنية بكل خصائصها المتميزة عــن شخصية المستعمر الدخيل ؟

من التعاريف الشاملة للاستعمار انه (استيلاء دولة على قطر من الاقطار وادارة شؤونه والعمل عـلى استثمار مـرافقه المختلفة ، اما بيد مهاجرين يرحلون اليه ، أو بيد سكانه الاصليين أو باشتراك كـلا الفريقين ، والدولة المستعمرة تضمن فى هذا العمل لنفسها ولقومها أعظم فائـدة تستطيع الحصول عليها) (1) .

الا ان الاستعمار الفرنسى فى الجزائر كـان يهدف ـ زيـادة عـلى الاستغلال الاقتصـادى والاستحواذ السياسى ـ الى جعل الجزائر قطعة لا تتجزأ من التراب الفرنسى أرضا ، ولغة ، وثقافة ، ودينا ، وقد انتهج لذلك سياسة الفرنسة وهـى احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية فى جميع مجالات الحياة الاجتماعية ، حتى يصبح المجتمع الجزائرى فرنسى اللسان والثقافة ، وينقطع بذلك عـن تاريخه ، ويفقد مقومات شخصيته القومية تدريجيا ويذوب فى بوتقة الامـة الفرنسية ... فقد جاء فى احدى التعليمات الصادرة الى حاكم الجزائر غداة الاحتلال « ان ايـالة الجزائر لن تصبح حقيقة (مملكة فرنسية) الا عندما تصبح لغتنا هناك قـــومية ، والعمل الذى يترتب علينا انجازه هـو السعى وراء نشر اللغة الفرنسية بـــين الاهالى الى ان تقوم مقام اللغـة العربية الدارجة بينهم الآن » (2) وهكذا شرعت

(1) الامير مصطفى الشهابى ، الاستعمار ، معهد الدراسـات العربية بالقاهـرة (1955 الجزء الاول ص 21 ـ 22) .

(2) ساطع الحصرى ، ما هى القومية ؟ دار العلم للملايين بيروت 1958 ص 73 .

الادارة الفرنسية فى تطبيق سياسة الفرنسة فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية مبتدئة بمجال التعليم . وعن فرنسة التعليم يقول المؤرخ الجزائرى أحمد توفيق المدنى « كان التعليم ايام الحكومة الفرنسية استعماريا بحتا لا يعترف باللغة العربية ولا يقيم لوجودها أى حساب ، فاللغة الفرنسية هى وحدها لغة التدريس فى جميع مراحل التعليم » (3) .

فقد كان التعليم كله باللغة الفرنسية ، بقصد تنشئة أفراد المجتمع الجزائرى على اللغة الفرنسية وحدها فيتذوقونها ، ويطلون بها على الثقافة الفرنسية فيتأثرون بها ، ويتحمسون لها فى غياب معرفتهم للغة العربية .. ولم تكتف الادارة الاستعمارية بفرض اللغة الفرنسية فى التعليم الرسمى فى الجزائر ، بل كانت تطلب من الاعيان الجزائريين ان يرسلوا بابنائهم الى فرنسا ليتعلموا اللغة الفرنسية ، وعن ذلك يقول المؤرخ الجزائرى حمدان خوجة الذى عاصر كل أحداث الغزو الفرنسى : « .. وبهذه المناسبة جمع السيد (كادى دوفو ـ شيخ البلدية)المجلس البندىوكنت عضوا فيه لتهنئة الجنرال (كلوزيل) بالعودة سالما ، وعلى اثر الزيارة اخبرنا بالتقارير التى وصلته ، وقال بانه عملا على راحته وللتدليل على الثقة للحكومة الفرنسية ، يجب ان نجمع على الاقل (50 طفلا) من أبناء الاعيان يبعثون الى فرنسا ليتعلموا اللغة .. ايد شيخ البلدية هذا الطلب واقترح ان يشرع فى تنفيذه وقال : ان رفض ارسال الاطفال الى فرنسا يعتبر خروجا عن طاعة الفرنسيين والذى لا يريد الامتثال الى هذا الاجراء يجب ان يخرج من مدينة الجزائر » (4) .

وكان الهدف من المطالبة بارسال الاطفال الى فرنسا هو تكوين نخبة من الجزائريين الذين يعلمون باللغة الفرنسية حسب خطة مرسومة ، بعيدين عن بيئتهم اللغوية والثقافية ، وعن كل ما من شأنه ان يبعث فى نفوسهم الروح الوطنية ، والقومية ، ويوعيهم ضد الاستعمار ، فيعودون الى أهلهم مفرنسين فرنسة كاملة ويعملون على نشر اللغة الفرنسية ،

---

(3) أحمد توفيق المدنى ، جغرافية القطر الجزائرى ، مكتبة النهضة ، ط الثانية 1963 ص 138 .

(4) حمدان خوجة : المرآة ، الجزائر 1834 تحقيق وتقديم د. العربى الزبيرى ش و ن ت الجزائر 1975 ص 54 .

وترسيخ اقدام الاستعمار فى البلاد !!

وزيادة على جعل التعليم باللغة الفرنسية وحدها ، ومحاولة تكوين النخبة المفرنسة من الجزائريين الذين يساعدون على نشر اللغة الفرنسية بين اهليهم ٠٠ فرضت اللغة الفرنسية فى الادارة والمحيط الاجتماعى ، وأجهزة الاعلام ، فاصبحت هى اللغة الرسمية فى الادارة ، وهى اللغة الوحيدة فى كتابة اسماء المحلات ، والشوارع وكل المرافق العامة واستبدلت بمعظم الاسماء العربية للشوارع والمدن ، أسماء لقادة الغزو العسكرى ، والفكرى للجزائر امثال (بيجو) (كلوزيل) (لافيجرى) ولاعلام الفكر والادب الفرنسيين ، مثل (ديكارت) و (فيكتور هيجو) و (لامرتين) ٠٠٠ وكانت تهدف سياسة الفرنسة من وراء ذلك الى جعل البيئة الثقافية الجزائرية قطعة من البيئة الثقافية الفرنسية ، حتى يكون لفرنسة التعليم ، سند من فرنسة الادارة والمحيط الاجتماعى ، لان فرنسة التعليم بدون فرنسة المحيط ، عديمة الجدوى ، كما أن فرنسة المحيط والادارة بدون فرنسة التعليم ، أيضا لا تؤدى الغرض المطلوب من سياسة الفرنسة الكاملة للمجتمع الجزائرى ، وهى الغاية القصوى التى كانت تهدف الى تحقيقها الادارة الفرنسية من وراء كل محاولاتها .

ونذكر من القرارات التى اصدرتها السلطات الفرنسية لفرنسة الادارة الجزائرية ، قرار (1849) الذى يقول نصه : « ان لغتنا هى اللغة الحاكمة ٠٠ فان قضاءنا المدنى والعقابى يصدر احكامه على العرب الذين يقفون فى ساحته بهذه اللغة ، وبهذه اللغة يجب ان تكتب جميع العقود . وليس لنا ان نتنازل عن حقوق لغتنا ٠ فان أهم الامور التى ينبغى ان يعتنى بها قبل كل شىء ، هو السعى وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين قد عقدنا العزم على استمالتهم الينا وادماجهم فينا وجعلهم فرنسيين » (5) ٠

غير ان كل تلك المحاولات والاستمالات والاساليب المختلفة التى توختها الادارة الاستعمارية لفرنسة المجتمع الجزائرى ٠٠ لم تأت بالنتائج المتناسبة مع الجهود التى بذلت من أجلها ٠ وكان الحائل الاكبر دون تحقيق الفرنسة بالكيفية التى رامها قادة الاستعمار هو الاختلاف فى العقيدة الدينية ، وما نتج عن ذلك من

---

(5) ساطع الحصرى : حوليات الثقافة العربية دار الرياض للطبع والنشر 1951 المجلد الثانى ص 473 ٠

اختلاف ثقافي وحضاري ، جعل من المجتمع الفرنسي والمجتمع الجزائري نقيضين حقيقيين يفرقهما كل شيء ولا يؤلف بينهما أي شيء ، وقد عبر عن هذا التناقض الامام عبد الحميد بن باديس بقوله : (لو وضع لحم مواطن جزائري ولحم مواطن فرنسي داخل قدر واحد ، لطار احدهما وبقي الآخر) ولم يخف على الادارة الاستعمارية هذا الاختلاف الجوهري الذي ظل يقف كالجدار الحديدي في وجه الفرنسة ، فاخذت تخطط للقضاء على هذا العائق وانتهجت الادارة الاستعمارية لذلك ثلاث سياسيات هي :

أولا : التفرقة بين أهالي المناطق المختلفة ، وخاصة بين المتحدثين بالعربية والمتحدثين باللهجة البربرية اعتقادا من الادارة الفرنسية بان عزل هؤلاء عن أولئك ودق اسفين الخلاف بينهم سيسهل عليها فرنسة المتحدثين باحدى اللهجات لايهامهم بأنهم من عنصر غير عربي ، وأنهم هم أصحاب البلد الاصليين ... وقد استعمرهم العرب وفرضوا عليهم لغتهم العربية ، واسلامهم وكثرت بعد ذلك الدراسات الانثروبولوجية (بتوجيه من الادارة الاستعمارية) لمحاولة اثبات الفوارق العرقية والثقافية بين البربر ، والعرب ، وكانت فرنسا تدعى انها وريثة الحضارة اللاتينية التي شيدها الرومان في شمال افريقيا واغتصبها العرب الفاتحون!... وما فتئت طيلة عهد الاحتلال تسعى للتفرقة بين أصحاب اللهجات المختلفة في البلاد ، واستعداء بعضهم على بعض حتى تنجح سياسة الفرنسة جزئيا على الاقل .. وفي هذا الخصوص يقول العلامة الراحل ساطع الحصري « زعم رجال الحكم وصناديد الاستعمار ان البربر لم يكونوا مسلمين تماما ولذلك لم يكن من العسير تفريقهم عن العرب ، ثم استمالتهم الى فرنسا ، ولهذا السبب اكثرت فرنسا من انشاء المدارس في المناطق المسكونة بالبربر .. غير انها منعت فيها التكلم بغير اللهجات البربرية أو اللغة الفرنسية ، وحظرت على الفقهاء الانتقال الى المناطق المذكورة وتعليم القرآن فيها وذلك لقطع صلة البربر باللغة العربية وكل ما يتصل باللغة العربية » (6) .

ولكن رغم كل هذه الجهود المتواصلة من طرف الادارة الاستعمارية لتحقيق هذا الهدف لم تظفر بطائل طيلة عهد الاحتلال ولم يتزحزح البربر عن عروبتهم واسلامهم قيد شعرة ، وتدل على ذلك

(6) ساطع الحصري : حوليات الثقافة العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص 476 .

الآلاف من المساجد ، والكتاتيب والزوايا التى كان يبنيها الاهالى (فى منطقة القبائل الكبرى والصغرى) لتعليم ابنائهم الدين الاسلامى واللغة العربية ، مع امتناع الغالبية منهم (كشأن جميع أفراد المجتمع الجزائرى) عن ارسال ابنائهم الى المدارس الرسمية الفرنسية ، واصدق برهان على ذلك ان نسبة الامية فى منطقة القبائل لم تختلف فى يوم من الايام عن نسبة الامية فى مختلف مناطق البلاد الاخرى ، اختلافا يدل على نجاح الفرنسة فى هذه المنطقة دون غيرها ·

ثانيا : الادماج ، ويعنى اعتبار الجزائريين (سياسيا واقتصاديا ، واجتماعيا) فرنسيين يتمتعون بالحقوق السياسية التى يتمتع بها الفرنسيون داخل بلادهم وخارجها ، ويتلقون التعليم الذى يتلقونه ·· وان تكون الجزائر اقليما فرنسيا تتشكل من مقاطعات ، وتتجزأ الى مديريات كما تتشكل وتتجزأ – اداريا – كل الاقاليم الفرنسية فى فرنسا ، والغاء كل ما يفصل باريس عن المقاطعات الجزائرية أو ما يميز بينها ·· اذ ان كل تمييز (بين الجزائر وفرنسا) يعد مظهرا قوميا غير مرغوب فيه وغير شرعى فى نظر الادارة الفرنسية (7) ·

وكما نلاحظ فان الادماج الى جانب كونه وسيلة فعالة من وسائل الفرنسة اللغوية والثقافية فهو سد منيع ، أمام أية محاولة من طرف الجزائريين للمطالبة بالاستقلال عن الكيان الفرنسى · وكما يبدو فى ظاهره مفيدا لتحقيق المساواة ، بين الجزائريين والفرنسيين فى الحقوق والواجبات ·· الا أنه فى الواقع كان شيئا مخالفا تماما !!

فالجزائريون من حيث القانون الدولى فرنسيون ، يقومون بواجباتهم ككل المواطنين الفرنسيين ·· اما من حيث المعاملات فى الواقع ومن حيث الحقوق فهم فى ادنى المراتب تحت اليهود ، والايطاليين والاسبان ، الذين وطنتهم الادارة الفرنسية فى الجزائر ، وأنعمت عليهم بجنسيتها ليصبحوا أسيادا على أهل البلاد الاصليين ، من وراء سياسة الادماج ، وربطت الادارة الاستعمارية منح الحقوق الكاملة للجزائريين ·· بتخليهم عن أحكام الشريعة الاسلامية فى الاحوال الشخصية ، وقبولهم لاحكام القانون المدنى الفرنسى ، وذلك لاغراء أو ارغام الجزائريين على الارتداد عن الدين الاسلامى – تدريجيا – وهو العائق الذى تمحور حوله كل النشاط

(7) آلان سافارى : ثورة الجزائر ، ترجمة نخله كلاسى – دمشق 1961 ، ص 84 – 85 ·

الاستعمارى ورسمت من أجله المخططات ووضعت السياسات الصريحة والملتوية منذ بداية الاحتلال ٠

والحقيقة ان سياسة الادماج قد فشلت فى الجزائر ، وظل الحائل الاكبر دون نجاحها ، هو تمسك أفراد المجتمع الجزائرى بقانون الاحوال الشخصية الاسلامى ، الذى اشترطت الادارة الفرنسية التخلى عنه لمنح الجزائريين جميع الحقوق ، مثل باقى الفرنسيين ، وقد عبر الامام عبد الحميد بن باديس عن ذلك موجها خطابه الى الفرنسيين ، وبعض الجزائريين الذين استهواهم الادماج ٠٠٠ فقال :

شعب الجزائر مسلم
والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله
أو قال مات فقد كذب
أو رام ادماجا له
رام المحال من الطلب

ثالثا التنصير : واذا كان الدين الاسلامى هو الحائل دون انجاح سياسة التفرقة والادماج والفرنسة ، فان الاستعمار لم يفتا (منذ الوهلة الاولى للاحتلال) يخطط للقضاء على هذا الدين فانتهج لذلك سياسة (التنصير) وتتمثل فى اخراج المجتمع الجزائرى عن دينه باغرائه ، وارغامه على اعتناق الديانة المسيحية التى تخول له الحصول على الحقوق مثل أفراد المجتمع الفرنسى (ويتحقق بذلك الادماج الذى حال تمسك المجتمع الجزائرى بقانون الاحوال الشخصية الاسلامى دونه) ، وفى موضوع التنصير وعلاقته بالفرنسة يقول ساطع الحصرى : « لقد اظهر كتاب فرنسا وخطباؤها نزعتين أساسيتين عند تقرير السياسة التى يجب اتباعها فى الجزائر عند بداية الاحتلال وهما : التنصير والفرنسة ، وبتعبير أوضح : العمل على اقامة الديانة المسيحية محل الديانة الاسلامية ، واحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية ٠ وكانت هاتان النزعتان تتآزران فى اذهان الكثيرين من الفرنسيين لانهم كانوا يرون ان التنصير يساعد على الفرنسة كما ان الفرنسة تسهل التنصير » (8) ٠

ويؤكد هذا المعنى تصريح لسكريتير الحاكم العام الفرنسى للجزائر عام 1832 حيث قال « ان أيام الاسلام قد دنت وفى خلال عشرين عاما لن يكون

(8) حوليات الثقافة العربية ٠ المرجع السابق ٠ ص 471 ٠

للجزائر اله غير المسيح ، ونحن اذا امكننا ان نشك بان هذه الارض تملكها فرنسا ، فلا يمكن ان نشك على أى حال بانها قد ضاعت من الاسلام الى الابد » (9) ٠

واذا كانت سياسة التنصير وسيلة للفرنسة وهدفا من أهداف الاستعمار الفرنسى فى الجزائر فلم يكن تطبيقها بالشىء الهين ، فى مجتمع خال من الطوائف الدينية ، متمسكا بالاسلام كالمجتمع الجزائرى ولذلك عمدت الادارة الاستعمارية الى طرق فى منتهى الخطورة لبلوغ هذا الهدف منها :

أولا : تكثيف نشاط الارساليات الدينية المسيحية التى اخذت تتوافد على القطر الجزائرى تحت مختلف الاشكال ، والاسماء من هيئات تعليمية ، وجمعيات خيرية ٠٠ واظهرت نشاطا فى ميادين الخدمات الاجتماعية وتغلغلت فى المناطق الاكثر فقرا ، لاغراء الاهالى بالمساعدات المادية واستدراجهم الى الدين الجديد ، وامعانا فى التمويه ، وتسهيلا لاحتكاك هؤلاء القساوسة بمختلف الفئات الاجتماعية أطلقوا على انفسهم اسم : (الاباء البيض) فكانوا يرتدون ثيابا وبرانيس مثل الاهالى تماما ، بل كانوا بلباسهم ذلك اشبه برجال الدين الاسلامى ومشائخ الزوايا الى حد بعيد (وكأنهم فى ذلك يطبقون المبدا الميكيافيلى القائل ، الغاية تبرر الوسيلة) حيث سمحوا لانفسهم بالخروج عن تقليد عريق فى الديانة المسيحية وهو (اللباس الاسود للقساوسة) وغيروه بلباس أبيض لتغيير عقيدة الجزائريين ، مع ان القساوسة عادة يرتدون اللباس التقليدى الاسود ٠٠٠

٠٠٠ غير ان هذه السياسة لم تأت باية نتيجة تذكر مع أفراد المجتمع من الكهول ، ومن مؤشرات ذلك أورد هذه القصة التى رواها لى شاهد عيان ومفادها ان احد القساوسة بينما كان يجوب شوارع احدى القرى الوطنية بحثا عن ضحية ضالة يبشرها بالدين الجديد ، صادف عجوزا تبكى فبادرها بالسؤال عما بها باللهجة المحلية (علما بان هؤلاء القساوسة كانوا يجيدون اللهجات المحلية بكيفية عجيبة نتيجة اختلاطهم بالاهالى ٠٠) فاخبرته بانها حائرة على ابنها الذى لم تصلها منه الحوالة المعتاد ، ارسالها كل شهر ، لتنفق على ابنائها الصغار ، فسطعت عيناه (٠٠٠) وتظاهر بالرثاء لحالها ، وطلب منها ان تذهب معه

(9) فرحات عباس : ليل الاستعمار ٠ ص 25 ٠

ليقدم لهـا بعض المساعدات لابنائها ، ففعلت العجوز تحت وطأة الحاجة ٠٠٠ غـير ان القس طلـب منها ان تواصل الاتيان كل يـوم أحد لتحضر الصلاة وتأخذ بالتالى المـواد الغذائية لمنزلها . فاضطرت العجوز ان تفعل لبعض أسابيع ثم انقطعت فجأة ، وبعد أيام قابلها القس فى الشارع فسألها عن انقطاعها عـن اخذ المعونة ، فأجابته بكـل صراحة ، وعفوية : « لقـد بعث لى ابنـى الحوالة والحمد لله » ، فثارت ثائرة القس وقال لها : « اذا لم تستمرى فى الحضور الى الصلاة ، فسوف اجبرك على ارجاع كـل ما أخذته من مساعدات حتى الآن ٠٠ » فقالت العجوز : « أنـا أخذت المساعدة مقابل حضورى صلاتكم فتعال أنت الى مسجدنا يوم الجمعة ، وسأرجع لك كـل ما أخذته » ولم يجد القس ما يقوله غير التململ والاحساس بخيبة الامل التى لازمت كل رفاقه طيلة عهد الاحتلال ٠٠

ثانيا : التركيز على تنصير الاطفال : وعندما فشلت كـل المحاولات لاخـراج الكبار عن دينهم أخذوا يهتمون بالاطفال الصغار ، وخاصة اليتامى والمشردين ٠٠ فظلـوا يغرونهم بشتـى الوسـائل لاستجلابهم وتنشئتهم عـلى الديـانة المسيحية ٠٠٠ وقد نشط الاباء البيض فى اصطياد هؤلاء الاطفال ، وجمعهم فى ملاجىء انشئت لهذا الغرض ، نذكر من أهمها ملجأ (ابن عكنون) و (القديس ميشال) و (بيت بوفاريك) التى كانت تضم حوالى 250 طفلا ، ويجدر ذكر مـا قـاله (الكردينال لافيجرى) فى مقدمة برنامجه التنصيرى الذى اعده سنة 1867 (علينا أن نجعل من الارض الجزائرية مهدا لدولة عظيمة ، مسيحية أعنى بذلك فرنسا أخرى ، يسودها الانجيل دينا ، وعقيدة فهذه هى آية الله » (10) وقـد سار بذلك لافيجرى فى خط (لوفقيبو) سكريتير المارشال بيجـو الذى قال فى تصريح لـه سنة 1838 (ان العرب لا يقبلون فرنسا الا اذا أصبحوا فرنسيين ، ولن يصبحوا فرنسيين الا اذا أصبحوا مسيحيين) (11) ٠

وقد شاء الله بعد قرن من هذا التاريخ أى فى الثلاثينات مـن هذا القرن ، أن تأتى مدرّسة فرنسية الى بلاد القبائل ، لتثبت حقيقة الفشل الذريع الذى منى به المبشرون فى عمليات التنصير المذكورة للقضاء على الشخصية العربية الاسلامية للمجتمع الجزائرى .. وقصة هذه المدرّسة

---

(10) يونسى درمونة : المغرب العربى فى خطر ـ القاهرة 1956 ص 31 ٠
(11) يونسى درمونه ، نفس المجمع المذكور ٠

التى خطتـــها بنفسها فـى مذكراتها ، تقول : انها عينت للتدريس فى قـــرية نائية من قرى بلاد القبائل وذات صباح كان عليها أن تقدم درسا حول الصليب والمسيحية ، فاخذت تردد عبارات (الاب والابن والروح القدس ···) فلاحظت أنها كلما ذكرت كلمة **ابن اللـه** انفجر الصبيان بالضحك ، وظل ذلك يتكرر عدة مرات فاستغربت ، ودنـت مـن طفلـة صغيرة ، وسألتها عما يضحك الجميع ؟ فأجابتها على السليقة : قلت يا سيدتى **الله وابن الله ··· فهل يعقل أن يكون لله أبناء ؟** وتقول هذه المدرسة ، ايقنت من ذلك اليوم انه من المستحيل ان يتحول أبناء هذا الشعب عن دينهم الذى ورثوه بالفطرة كما يرثون الصفات البيولوجية والنفسية ، التى تحـــدد شخصياتهم ، وطلبت المدرسة نقلها الى مكان آخـر ، أو اعفائها من مهمة التنصير ·· وتـؤكد هذا الفشل ، وذلك الصراع الذى دار بـــين الثقافتين والشخصيتين ، وتلـك الحصانة الدينية التـى حافظت عـلى الشخصية الوطنية فى قرار مكين ، تؤكد كـل ذلـك المؤرخة الفرنسية (ايفـون تورين) فى كتابها (المجابهة الثقافية فى الجزائر خـلال عهد الاحتلال) فتقول : وبدأ الصراع يوم بـدأ المحتل يفرض لســانه وتفكيره وأسلوبه فى الحيـــاة مستعملا المدرسة والمستشفى ، المعـــلم والطبيب ·· الى ان تقول : ورد المسلمون الهدية المسمومة لصاحبها الذى قضـى حـوالى عشرين سنـة (1830 ـ 1850) يحدث المدارس فـلا يجـــد لها تلاميذ وينشىء المستشفيات فلا يتردد عليهـــا المرضى · وتعددت الصعوبات فى وجـــه المحتل وكثرت وأصبح الدين الاسلامى كالاسمنت المسلح يحمى مـن التفكـك والاندماج (12) ·

وهكذا نلاحظ دائما ان الفارق الدينى والثقافى عموما كـان الفاصل الجوهرى بـين المجتمعين (الجزائرى والفرنسى) والجدار الحديدى الذى كان يحول دون أى اندماج أو ذوبان فى المجتمع الفرنسى ورغم كل هذه المقاومة والرفض الصريح والقاطع لسياسة الفرنسة ، فان الادارة الاستعمارية لم تكف يوما عن استعمال مختلف الاساليب للوصول الى الهـدف المنشود · وعن مقاومة المجتمع الجزائرى لسياسة ازالـة كيـانه الثقافى وبالتالى تذويب شخصيته الوطنية ··· يقـول ساطع الحصرى « ومع كل ذلك لم ينجحوا

(12) راجع كتابها المذكور : ص 36 ·

فيما كانوا يرمون اليه ، ويمكن التأكيد بان الجهود التى بذلها هؤلاء فى هذا السبيل ، لم تثمر من الثمرات الايجابية ما يستحق الذكر ولم تنتج نتائج فعلية سوى تنفير الناس منهم ، وابعادهم عن المعاهد الفرنسية بوجه عام ، لان الناس صاروا ينظرون الى جميع تلك المؤسسات كفخاخ للتنصير » (13) ونعود مرة أخرى الى الدكتورة تورين التى تؤكد استمرارية تلك المقاومة العنيفة من طرف المجتمع الجزائرى ضد سياسة التهجين ، والفرنسة التى ظلت ديدن الاستعمار الفرنسى طيلة عهد الاحتلال . فنقول : « وتنتهى الفترة الاولى أى من (1830 — 1850) ويعترف الفرنسيون بان ما قاموا به من مغامرات لا طائل تحته واعترفوا بالفشل وفكروا فى أسلوب جديد ومناهج أقرب الى الواقع وأعادوا الكرة بعد التحقيقات المدققة ، فاختطوا لتعليم اللغة العربية خططا فى اطار القضاء على الروح المعنوية فظهرت مراسم سنة 1850 التى انشأت التعليم المزدوج فى المدارس الفرنسية العربية ، فلم يتغير موقف المواطنين ، وبقيت تلك المؤسسات خالية » (14) ، وقد ارجع بعض الكتاب الفرنسيين فشل سياسة الفرنسة والتنصير فى الجزائر ، الى الزوايا التى بقيت منتشرة فى البلاد رغم قضاء الاستعمار على العديد منها وكانت بمثابة مراكز دينية وثقافية ، ومدارس للكبار والصغار ، ودور للمعالجة واسعاف المرضى والمعوزين ، وملتقى ذوى الراى لحث المواطنين على الجهاد وعدم الولاء للكفار .. ولم يعرف الفرنسيون لهذه الزوايا مثيلا فى أوروبا ، ولذلك لم يتنبهوا لخطورتها الا بعد زمن طويل ، والملاحظ ان هذا التحليل صحيح الى حد بعيد حيث ان العديد من الثورات التى قامت ضد الفرنسيين كان يتزعمها مشايخ الزوايا حتى آخر القرن التاسع عشر ، ونذكر من هؤلاء ، الامير عبد القادر ، وأولاد سيد الشيخ ، وثورة للا فاطمة انسومر ، وثورة المقرانى ، وثورة الشيخ الحداد ، وثورة بومعزة ، وثورة بوعمامة وقد كان كل هؤلاء المجاهدين الاقوياء ، من أبناء تلك الزوايا التى كانت تخرج جنود الدفاع المادى والروحى ، ضد المستعمر الفرنسى .

---

(13) نفس المرجع المذكور ، ص 473 .

(14) نفس المرجع المذكور للمؤلفة .

ونخلص الى القول بان كل تلك المحاولات الذكية والخطيرة لم تعرف الفتور ، ولم يعرف أصحابها اليأس طيلة عهد الاحتلال ، لم تحقق نجاحا يذكر فى مجال التنصير وتغيير الشخصية الوطنية الجزائرية لان رسوخ العقيدة الاسلامية فى قلوب الجزائريين ، وتمسكهم بلسان القرآن كان أكبر محصن لهم ضد الفرنسة والتنصير والتهجين ، والمسخ لمقومات هذه الشخصية الوطنية القوية بعوامل حصانتها العربية الاسلامية .



آفاق الدعوة الاسلامية فى القرن الخامس عشر الهجرى

د٠ معـروف الدواليبى
مستشار بالديوان الملكى
(المملكة العربية السعودية)

حضرات السيدات والسادة والاخوات والاخوة والابناء المحترمين ،

1 ـ وبعـد فاننى عندما ألقيت نظـرة على جدول الاعمال الذى ستدور حوله كل المحاضرات والمناقشات فى « الملتقى الرابع عشر للفكر الاسلامى» فى الجزائر العاصمة ، كمـا أشار لنـا معالى وزير الشؤون الدينية السيد بوعلام باقى فى كتاب دعوته للمساهمة فى أعمال هـذه الدورة ، لم أتردد منذ القراءة الاولى فى اختيار الموضوع الثالث مـن المواضيع الاربعة ، وهو « آفاق الدعوة الاسلامية فى القـــرن الخامس عشر الهجرى » ، معتبرا أنـــه الاشمـل مـــن المواضيع الاسلامية الثلاثة التى كان أولها « الاسلام والمذاهب الاجتماعية الحديثة » ، وثالثها « فلسفة التربية فى الاسلام » ، تـاركا الموضوع الاول حول « الونشريس قلعة من قـــلاع العـلم والنضال » لاصحاب المعرفة فيه ٠

2 ـ غير أن كلمة « آفاق » من عنوان « آفـــاق الدعوة الاسلامية فى القـــرن الخامس عشر الهجرى » وقـــد عرضت أمام نظرى « آفـاقا » للدعوة الاسلامية لا حصر لها ، وخاصة وعلى الاقـل فى آفاقها العامة التالية :

أولا : العقائدية ،
ثانيا : الاجتماعية ،
ثالثا : الاقتصادية ،
رابعا : الثقافية ،
خامسا : السياسية ،
سادسا : الانسانية ،
سابعا : التشريعية ٠

وكلها آفاق هامة فى الدعوة الاسلامية وضرورية ومحببة الي ، ولا سبيل الـى الكتابة فيها كلها ، لانها تخرجنى تماما عن الوقت المحدد بثلاثين دقيقة ، فضلا عن ضيق أوقاتى لاعـــداد هذه البحوث العلمية المتكاملة ، وهذا مـــا يجعـلنى لا أشك فى أن الذين سيختارون معي هذا الموضوع مـــن الزملاء الكـــرام سوف لا تكون أبحاثهم فى أفـق واحد ، وفى ذلك ان شاء الله للخير كله ، راجين أن

يكون فى بحوثهم المختلفة « الآفاق فى الدعوة الاسلامية » ما يجعل منها ثروة علمية فى الموضوع لا غنى لنا عنها ٠

3 – هذا ولقد طالت حيرتى مدة أسبوع لا أدرى على أي أفق أستقر ، لــولا أن ألهمنى الله أخيرا أن أطرق أفقا حيــا رايت انه الاليق بمطالب عصرنا الجديد ومشكلات الانسانية فيه ٠ وانه يصلح لان يكون مدخلا لكل تلك الآفاق المختلفة للدعوة الاسلامية فى هذا العصر ، وذلك من ناحية أن الدعوة الاسلامية هي دعوة الى الحياة على أساس السلام للانسان» ٠

4 – ولما كانت الحياة الانسانية متطورة مع الزمن ، فانه قد يكون لكل طـور من أطوار الحياة على مدى العصور مشكلات وتحديات خاصة بــه مما يستدعي أيضا معالجة خاصة ، ويساعد على « آفــاق الدعوة الاسلامية » لمعالجة تلك المشكلات والتحديات فى عصر ما ٠

– فما هي مشكلات عصرنا وتحدياته ؟

– وهــل للدعوة الاسلامية باعتبارها « دعوة الى الحياة على أساس السلام للانسان » دور للمساهمة فى خـدمة الانسانية ؟

5 – وقبل أن أدخل فى الموضوع أريد أن أقــول اولا : ان تحديدنا للدعــوة الاسلامية بانها « دعوة الى الحياة عــلى أساس السلام للانسان » ليس فيه تزوير للحقيقة ، أو تضخيم ، وانما هو الحقيقة القرآنية نفسها حينما جهر القران الكريم فقال الله سبحانه وتعالى فى دعوته الى الاسلام « **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للــه وللرسول اذا دعاكم لمـا يحييكم** » وقال « **واللــه يدعو الى دار السلام** » ٠ وقال « **وان جنحوا للسلم فاجنح لهــا** » ، وأخيرا جعل الاسلام من كلمة «السلام» وحدها شعارا للتحية ايناسا للانسان ، وتذكيرا له على الدوام بالالتزام الواجب للســلام ٠

6 – ولذلك كله فان الدعوة الاسلامية كانت منذ ظهورها حتى اليوم « دعوة الى الحياة والسلام للانسان » لا شك فيها ، غير أنها دعوة الى نوع جديد من «الحياة الانسانية المتقدمة» ولا عــهد للمجتمع البشرى فى مفاهيمها الاسلامية لا مـن قبل ولا من بعد ، وذلك من خلال الايمان بالله الذى خلق الانسان على الارض :

– مسؤولا وجوبا عن القيام بعمارتها فى ظل السلام للانسان ،

– ومكلفا بعبادة الله فيها من أجل سلام الانسان ،

– ومدعوا الى التعاون فيما بين شعوبها على البر والتقوى لا علــى الاثــم والعدوان ، وعلى أساس من الحرية المسؤولة والكرامة للجميع من غــير تعيير بين الاعراق والالوان والاجناس والاديان ووفقا فى كــل ذلك لشريعة الله من أجل سلام الانسان أيضا ٠

7 ـ وبعد فان تقـدم العلوم فى هـذه العصور الحديثة ، وانتشارها السـريع اليـوم ، وكذلك تقـدم ـ التكنولوجية المتطورة ، قد كان لهما نتيجتان حتميتان همـا :

أولا ـ شعور كـل انسـان بوجوده ، وبكرامته وبحقه فى الحياة الكريمة من غير تمايز ما بين انسان وانسان ، لا فى القوميات ، ولا فى الاعراق ، ولا فـى الاجناس ، ولا فى الاديان ·

ثانيـا ـ زوال الحـدود بين الامـم والشعوب ، وتشابك مصالحها مما لـم تعد تصلح بعده الحياة فى ظل الانظمة العالمية السائدة ، والقائمة على التمايز فى الكرامة وفى المصالح الخاصة لدى بني الانسان ·

8 ـ وهكذا فان هذا التقدم السريع فى العلوم وفى التكنولوجية بنتائجه الحتمية المشار اليها قـد أوجد مشكلات حيوية حادة فيما بين الامم والشعوب ، وقـد حرصت منظمة الامم المتحدة « على العمل لحلها بكل الوسائل السليمة ، وقـد عالجتها معالجة طويلة خلال نحو مـن خمسة وثلاثين عاما ، اي منـذ نهـاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم ، ولكن بدون أن تتقدم خطوة نحو السلام ، وذلك على الـرغم مـن أن صيغة تاليف هذه المنظمة عقب تلك الحرب لم تكن الا وسيلة لحل المشكلات الانسانية ، ولضمان السلم العالمى ، وفقا لميثاق هذه المنظمة وملحقاته حتى اليوم ·

9 ـ ولا يسعنا مع ذلك فى هذا المقام الا أن نسجل لمنظمـة الامـم المتحـدة اهتمامها الشديد الذى أبـداه أعضاء المنظمـة بـالاجمـاع فـى دورتيهـا الاستثنائيتين فى عـامي 1974 ـ 1975 ، اللتين عقدتا خصيصا للبحث عن حلول سليمة لمشكلات المجتمع الـدولى التى أصبحت تنذر بسوء المصير للجميع ·

10 ـ كما لا يسعنا أن نسجل باعجاب قرارهم الاجماعى الذى انتهوا اليـه ، وما قد جاء فيه من صراحة جريئة حيث قـالوا : ان المشكلات العالمية الحاضرة لا أمل فى ايجاد حل لشيء منها فى ظلال الانظمة الاجتماعية السائدة اليـوم فى العـالم ، وخاصة النظـام الاقتصادى الخاص بكل شعب ولمصلحته وحده دون مراعاة مصلحة الآخرين فيه ·

11 ـ ولقد أكـدوا على ذلك بقولهم : ان البشرية قد تقدمت علميا وثقافيا ، وان التكنولوجيا المتطورة قد ازالتا الحدود فيما بينهم ، وأنه لم يعد يصلحهم ويليق بهم الانظام عالمى جديد يقوم على قواعد انسانية جديدة ، وقـد حددتها منظمة « اليونيسكو » بناء على طلب الامـم المتحدة ، وقالت فيها : انها تلك القواعد التى نلخصها فيما يلى ، وهي التى :

ـ تدعو الى « وحدة الاسرة البشرية » من غير تفاضل ،

ـ وتؤمن بحـق الجميع فى الحياة الكريمة من غير تمايز وتعتبر « مصالحهم الاقتصادية واحدة ، ولا يجوز التفاضل

والتمايز فيها لحساب شعوب تعتبر نفسها ممتازة على حساب الشعوب الاخرى ٠

ـ وأخيرا تدعو هذه القواعد أن تتخذ من « العدل » بين الجميع القاعدة الحتمية لهذا النظام العالمى الجديد ٠

12 ـ غير أنه يؤسفنا أن هذه الصرخة المدروسة من قبل الامم المتحدة فى هيأتها العامة ، ومن قبل منظمتها العلمية « اليونيسكو » قد ذهبت ادراج الرياح ، وذلك :

ـ لانها تحتاج أولا الى « الايمان بها ايمانا عقائديا » ،

ـ كما تحتاج ثانيا الى « اقامة علم التربية وفلسفتها عليها » ٠

إذ لا يكفى مجرد الدعوة اليها سياسيا تحت ضغط الاحداث ، ولا التوصية بها فقط كما كان شأن التوصيات بحقوق الانسان الواردة فى الاعلان العالمى لحقوق الانسان ٠

13 ـ ولما كنا معشر المسلمين نؤمن بها وحدنا « ايمانا عقائديا » ، عملا بعقيدتنا الاسلامية ، لذلك وجب علينا أن نرحب أولا بهذا اللقاء مع الفكر الاسلامى كما وجب علينا أن نكون أولى الناس بتأييد هذه الصرخة العالمية الدولية ، وأن نكون أحق الناس بالدعوة اليها بكل حرارة ، وأن نجعل منها أبرز آفاق الدعوة الاسلامية فى هذا العصر للتعرف بالاسلام عن طريق بعض آفاقه الاجتماعية ، وأن نتخذ منها كقواعد اسلامية القواعد الاساسية لنظام المجتمع الانساني الجديد اتخذها الاسلام من قبل ، وأن نبحث على ضوئها عن حلول المشكلات الانسانية فى سبيل السلام على الارض وأن نتقبل التعاون على أساسها مع من يرغب ، وأن نفتح الحوار من أجل ذلك مع أبعد الناس عنا فى الفكر والقيم ، وذلك من أجل سلام المجتمع والانسان ٠

14 ـ واننا اذا تقبلنا الدعوة الى ذلك والحوار فيه فانما ننطلق من منطلق اسلامي لا شك فيه ، عملا بما جاء فى القرآن الكريم حين دعى أهل الكتاب الى الحوار معهم اعتمادا فى الاصل على نقطة الوفاق معهم رغم أنه على خلاف أساسى معهم فيما عداها ، فقال لهم : **« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله »** ، وذلك اعتمادا أولا على نقطة الوفاق دون نقاط الخلاف ، لان الخطر على الانسانية أصبح عظيما ، وأن الحاجة الى دفعه بأسرع ما يمكن واجب لا شك فيه فى مفهوم الدعوة الاسلامية وأن التعاون عليه أوجب واكد ٠

15 ـ هذا ولا يفوتنا فى هذا المقام الذى ندعو فيه الى التعاون فيما بين أبناء البشرية كأسرة واحدة أن ننبه الى خطر التبعية فى الدعوة الاسلامية للمذاهب التقليدية الاجتماعية الحديثة التى تسود العالم اليوم ، والتى قد تخطاها الزمن

والعـــلم ، وأعترفت الامـــم المتحدة ، وأجهزتها العلمية بعدم صلاحها بعد اليوم لمعالجة مشكلات العالم الانسانى كما مر معنا من قبل .

16 ـ ونضيف على ذلك هنا ما جـاء فى كتاب « الديمقراطية الفرنسية » الذى وجهه الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان خلال فترة حكمه هذه الى الشعب الفرنسى فقـــال : « ان الماركسيـــة والليبـــرالية التقليدية نظريتان ناقصتان ، وتتنكـران للحقيقة الانسانية ، وانهما لـــم تعودا قادرتين على تفسير الواقع ، ولا عـــلى توجيه العمل ، وانهما تتفلتان بسهولة من قبضة البحث العلمى ، وان التحيز يغلب عليهما الى اليوم أكثر من العقل ، وانهما لم تعودا تمثلان الوقائع المحسوسة فـى مجتمعاتنا الا تمثيلا « ضعيفا » ، وانهما يتكيفان بصعوبة لايجاد حلـول لمشاكلنا الواقعية ، وان الموقف الموضوعى يدعو الى ترك هذه النظريات غير المتكاملة ، والى البحث عن صيغة جديدة مقبولة » .

17 ـ وكذلك نضيف لكثير من الفائدة ما قاله حديثا أستاذ علم الاقتصاد فى احدى جامعات فرنسا الاستاذ جـــاك أوستروى Jacqe Austruy ، ورئيس هيئة علماء الاقتصاد فى فرنسا ، فى كتابه : « الاسلام أمام التطور الاقتصادى » فقد قال هذا الباحث : « ليس هناك فى الحقيقة طريقة وحيدة وضرورية لابد منها للتطور الاقتصادى كما تريد أن تقنعنا به المذاهب القصيرة النظر فى النظاميين الاقتصاديين السائدين ـ (الصفحة 16 ـ 17) ، ثم ألح هذا الباحث الاقتصادى على ضرورة التماس المذهب الثالث فى الاسلام نفسه لانه ليس فرديا ولا جماعيا ، ولكنه يجمع بـين الحسنين ... وكذلك ألـــح على المسلمين بضرورة **العودة الى الاســلام نفسه** والى دراسة قواه الكامنة فيـــه لشق الطريق نحو **عوضا عـــن التقليد الاعمى** ـ الصفحة 80 ـ وجاهر بعد ذلك بأن الاسلام يتمتع بامكانيات هائلة ، وأنه اذا ما وجد الطريق الصحيح فان كثيرا من الصعوبات الاقتصادية التى ظهـــر للاقتصاديين تعذر التغلب عليها حتى الآن سوف يحلها الاسلام ـ الصفحة 112 ـ ثم دعا هذا الباحث المسلمين الى الاسراع قبل فوات الوقت لوضع الطريقة المنبثقة عن خصائصهم وقواهم الكامنة المبـدعة الهائلة ، ثـم **حذرهم** بأنهم ان لم يفعلوا ذلك فسوف يجبرون على قبول تغييرات غير سليمة فى نظمهم الاساسية ، وذلك نتيجة لاتباع منهـــج فى الانماء مفروض عليهم ، وفى هذه الحالة سيقضى عـــلى الاسلام كمنهج حضارى مستقل ـ 112 ـ 113 .

18 ـ ولذلك كله يتوجب اليوم عـــلى الداعيـــة الاسلامية التأكيد على ذاتيـــة الدعوة الاسلامية فى جميع آفاقها ، وعلى استقلالها ، وعلى كمالها ، وعلى التأكيد خاصة على الجديد فيها الذى لابد منـــه لتقدم الانسان وسعادته .

19 ـ واتماما للفائدة فها نحن أولاء نشير بكل ايجاز الى « الجديد التقدمى » فى جميع آفاق الدعوة الاسلامية التى أعددناها فى مطلع كلمتنا هذه من حيث آفاقها العقائدية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية ، والسياسية ، والانسانية ، والتشريعية ، وذلك تأكيد على ذاتية الدعوة الاسلامية ، وحاجة الانسانية الى الجديد فيها فى كل عصر ، وخاصة فى هذا العصر الذى تقدمت فيه العلوم الكونية والانسانية والاجتماعية ، وأخذ العقل العلمي مكانه فيها فى البحث والحكم كما يريده الاسلام ·

20 ـ وايضاحا لذلك نقول : ان الدعوة الاسلامية فى جميع آفاقها المذكورة قد قامت منذ نشأتها على قواعد **ومبادىء جديدة** ، ولا تزال كذلك فى جدتها بكل ما فيها من معاني الجدة ، وفى جميع آفاقها من وجوه الحياة التالية الشاملة :

ـ ففى آفاقها « العقائدية » أعلنت قبل اية أمة من الامم الحديثة : حرية العقيدة وعدم جواز الاكراه فيها ·

ـ وفى آفاقها « الاجتماعية » أيضا وقبل أية حركة تحررية فى العالم الحديث شجبت بكل قوة أنظمة « الطبقات المتفاوقة فى الحقوق والكرامة ، وأعلنت التساوي فى الحرية والكرامة الانسانية من غير تمييز بين انسان وآخر ، لا فى الاعراق ، ولا فى الاجناس ، ولا فى الاديان ·

ـ وفى آفاقها « الاقتصادية » قد فرضت الدعوة الاسلامية كل القواعد الاساسية للنهوض بالاقتصاد العالمى ، وذلك أولا فى « ايجاب العمل » من حيث هو ، وثانيا فى « ايجاب زيادة الانتاج وذلك عملا بكثير من الآيات القرآنية فى ذلك ، وعملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا حين قال : « لو أدرك أحدكم يوم القيامة وفى يده فسيلة ـ شجيرة ـ فليزرعها » ، وذلك حرصا على عدم اهمال الزيادة فى الانتاج لمصلحة الجماعة ، حتى فى تلك الساعات الحرجة التى يذهل فيها الانسان عن مصالحه الخاصة فضلا عن العمل لمصالح الجماعة · وأخيرا فقد فرضت الدعوة الاسلامية « العدالة » فى توزيع خيرات هذا الانتاج بحيث لا يكون هناك محروم ، وذلك وفقا لقواعد الاسلام فى العدالة المطلقة فى « الحق بالحياة الكريمة » ومن أجل ذلك أوجب « نظام التكافل فيما بين الجماعة » على أرض الاسلام ، حتى ولو اختلفت بينهم الاديان ·

ـ وفى « الآفاق الثقافية » للدعوة الاسلامية قد جعل الاسلام «فريضة العلم» أساسا لهذه الدعوة كما هو معلوم ، وعاقب على تركها ، بينما لا يزال موضوع العلم فى عالمنا الحديث المتقدم فى عدد الوصايا ، وحقا من حقوق الانسان لا فريضة علمية كما جاء بها الاسلام ·

ـ وأما فى « الآفاق السياسية » فقد فرض « الشورى فى نظام الحكم من غير تمييز ما بين « أقلية » ولا « أكثرية » فى الشورى ولم يأخذ بالراي فى هذه الشورى

اعتمادا على عـدد الاصابع المرفوعة ، وانما اعتمادا على التعمق فى الــرأي وترجيح الراجح منه وفـقا للمصلحة ، وذلك أيضا جـديد فى مفهوم الحــكم السياسى حتى اليوم ·

ـ وأما فى « الآفاق الانسانية » للدعوة الاسلامية فقد كان الاسلام ولا يزال أول من أزال الفوارق بين أبناء الانسانية حيث قال رســول اللــه صلى عليه وســلم : « لا فضل لعربى على عجمي ، ولا لابيض على أسود » كما قال : « الخلق كلهــم عيال الله ، وأحبهم اليه ، أنفعهم لعياله » مع وجوب مراعاة جميع حقوق الانسان الاساسية مــن ثقـافية ، واجتماعية ، واقتصادية، تجاه الجميع من غير تمايز ·

ـ وأمـــا « فى الآفـاق التشريعية » للدعوة الاسلامية ، فقد أقــام الاسلام شريعته على أسس عالمية وانسانية ، مع التشديد على مراعاة العدل فيها ولــو على الانفس والاقربين ·

21 ـ وبهــذا الاستعراض الـوجيز لجميع آفاق الدعوة الاسلامية بعد التوسع مقدما فى بعض آفـاق الدعوة الاسلامية من الناحية الاجتماعية بالنسبة للعصر الذي نعيشه ، نرجو أن نكون قد أعطينا موضوعنا جميع ما تجدر الاشارة اليه ، تارة بالبسط وتـارة بالانجاز · والله سبحانه وتعالى من وراء القصد ·

بخصوص تفاسير القرآن وترجماته الحديثة

أفكار أوحت بها تجربة شخصية

د. موريس بوكاي

تمهيد :

ان أي تأمل فى آفاق انتشار الاسلام وذيوعه فى القرن الخامس عشر الهجرى ، ليقتضى منا أن نتساءل عن الطريقة التى بها يعرض على الناس ، والتى بها يعلم ويفسر ، ولن يتحقق هذا الهدف بدون انتشار للمعرفة بالقرآن معرفة صحيحة ·

انى لأستبعد عن نفسى أية نية بالتفكير فى تعليم القرآن فى البلدان المتحدثة باللسان العربى حيث لا تطرح، باستثناء الترجمات بطبيعة الامر ، الا مسألة التفاسير فقط ، لذلك استثنى من كلامى هذا الجانب من تفسير القرآن فى البلدان العربية ·

وانما أود أن أنظر فقط فى مسألة المعرفة التى تنشر عن القرآن فى البلدان الغربية غير المسلمة ، فلا مناص - للتعريف به هنا - من استعمال لغة وصوابا والذى نستطيع الركون اليه هو رأي المتخصصين من أعلى المستويات، وهم الجامعيون المتخصصون فى البحوث الاسلامية ، لكن ما من حاجة الى التأكيد على ان كثيرا من هؤلاء ، فيما عدا بعض الاستثناءات المشجعة ، يعرضون القرآن - قبل كل شىء - كما يودون له أن يكون ، لا كما هو فى ماهيته ·

أترانا نرجع الى الترجمات الصادرة عن المتخصصين فى البحوث الاسلامية أو مختلف المستشرقين ، آملين أن يكون ما كتبوه متحدثا عن ذاته ، ان هذه الترجمات لتسىء ارشادنا للاسف ، وهي تضل القارىء لاسباب عديدة ، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أولا أن أي ترجمة تتضمن حتما نسبة مئوية من عدم

غير اللغة العربية ، لغة يفهمها من نعتزم ايصال المعرفة اليهم ، وليست المهمة بالمهمة السهلة ٠

– اذ من الصعب على رجل من الغرب لا يحسن اللغة العربية ، ويعيش فى وسط يظهر فى غالب الاحيان عداوة للاسلام ، أن تكون له فكرة صحيحة عن القرآن ، فالتعاليم التى يتلقاها ، والتصريحات التىيسمعها من أناس مأذون لهم ، – على ما يظهر – بالتحدث فيه ، أو يقرأها فى كتب عديدة ، تساهم جميعا فى اعطاء صورة مشوهة عنه ، والرأي الذى قد يتراءى أكثر سدادا الوفاء للنص ، وأن القرآن لا يقبل التقليد فى لغة أجنبية عن اللغة العربية، وهناك آيات قرآنية من ناحية أخرى ، هي فوق مستوى ادراك الانسان وفهمه : والقرآن نفسه يخبرنا فى الآية 7 من سورة آل عمران ان الله وحده هو الذى يعلم تأويله « **وما يعلم تأويله الا الله** » على أننا نلاحظ بين مختلف الترجمات لقطع بعينه الاختلافات العديدة ما يجعل القارىء يشعر بأنه يتيه بين تأويلات متباينة ، يتساءل فى شأنها بكل منطقية ، عما اذا لم تكن هذه التأويلات ترجع الى المترجم أكثر مما ترجع الى النص ذاته ٠

وأدهى من ذلك وأمر ، أن العارف باللغة العربية يسهل عليه أن يتبين هنا وهناك بين هذه الترجمات ، نوايا مقصودة بتزوير النص أو اخفاء بعض المعطيات ، واليكم مثالا حاسما على ذلك :

أود قبل كل شىء أن ألفت الانتباه الى أن كل قارىء قادر على تذوق نص من النصوص من الوجهة الادبية ، بل وحتى ترجمة من التراجم التى لا يمكن الاعتماد عليها من بعض الجوانب ، قابل لان يدرك الطراز الادبى الرفيع للنص القرآنى ٠ فستكون دهشته كبيرة على العموم ، حين نطلعه بأن النبي محمدا ، الذى كان يفترض أنه هو صاحب النص ، كان فى الواقع رجلا أميا ٠

وأنتم تعلمون جميعا ، أن تأكيد طابع الامية هذه ، ورد فى القرآن : «**النبي الامي** » (سورة الاعراف الآيتان 157 و 158) ، طالعوا ترجمة القرآن التى كتبتها الآنسة ماسون ، ونشرتها دار مجموعة « بلياد » الشهيرة، وهي أكثر الترجمات انتشارا فى أوساط المثقفين الناطقين بالفرنسية ، فسترون أن كلمة « **الامي** » قد أخفيت ، وأن المترجمة كتبت مكانها عبارة « نبي الكفار » ولا يذهبن بكم الظن الى القول بأن هذه المترجمة تنقصها المعرفة باللغة العربية ٠ انكم ستقتنعون بعكس ذلك عندما تقرأون ما ورد فى نهاية تلك الطبعة فى باب تعاليق الترجمة مما يتعلق بكلمة « **أمي** » ، وسترون أن المترجمة كتبت بأن كلمة « أمي صفة للمذكر المفرد تتعلق بالنبي » ومع ذلك

فهي تترجم الكلمة « بالكفار » ، وهو أمر يخالف المعنى مخالفة صارخة ، وخطأ فادح فى النحو ·

ثم ان هذه المؤلفة خصصت من مقدمة ترجمتها ست صفحات لتعرض فيها ـ حسب رأيها ـ « السمات التى تتسم بها شخصية محمد حسب ما ورد فى القرآن » وأيدت ذلك بشواهد عديدة ، ولو أنكم بحثتم فى ترجمتها ، ولو عن تلميح خفيف الى أن النبي كان أميا ، لما وجدتموه ، وهكذا فان اخفاء هذه السمة البارزة من سمات شخصيته ، أمر واضح هنا أيضا ·

ان اخبار الناس بأن النبي ـ حسب القرآن ـ كان أميا أمر ذو أهمية بالغة ، وحينما اخبر بهذا الواقع من فيه قابلية لان يتذوق قيمة القرآن الادبية ، ويقبل بالتفكير معى لحظة واحدة فى هذه النقطة ، وقد تعودت أن أتحدث على وجه التقريب باللغة العربية :

لقد ثبت ان النبي محمدا عاش نحوا من أربعين سنة فى مكة ، وكان معروفا من السكان ، ودون أن يدلى بأي تصريح فى اتجاه دينى مجدد ، لكن ها هو ذا الوحي قد نزل على هذا الرجل الذى بلغ من العمر سن النضج ، وها هو ذا يقوم بتبليغه من حوله ، فيتبعه الناس فى الطريق الذى رسمه ، وها هم أولاء أتباعه يرتلون الآيات القرآنية التى علمهم اياها ويحفظونها عن ظهر قلب ، ومن بينهم هذه الآيات آية سورة الاعراف التى نزلت بمكة ، والتى تصفه بأنه أمى ، اذن فلو لم يكن النبي أميا حقا ، لكان ذلك معروفا بمكة حتما بعد أكثر من أربعين سنة من حياته بهذه المدينة ، وكيف كان يستطيع أن يجمع حوله مؤمنين اتبعوه رغم ما لحق بهم من أذى فى أشخاصهم وذويهم وأملاكهم لو أنه وصف نفسه ـ كذبا ـ بأنه أمى ، وهو أمر كان يتفطن اليه الجميع ، وعليه فأنتم لا تستطيعون أن تشكوا لحظة واحدة فى أن النبي لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولا تستطيعون تأييد الاتهام بأنه صانع القرآن ·

لذلك فان الغاء صفة الامى المنسوبة الى النبي فى ترجمة الكتاب المقدس انما يعنى بتر القرآن من احدى المعطيات الاساسية التى تقوم حجة دامغة على أنه تنزيل وموحى به ·

هنا مقاطع كثيرة فى ترجمة الآنسة ماسون MASSON تخفى معانى حقيقية لا جدال فى أهميتها ، لتضع مكانها عبارات تنقص من قيمة بيانات قرآنية فى عين القارىء غير المطلع ، ولم تكن هذه الحالة بالحالة الوحيدة ·

فد وجدت فى كثير من ترجمات القرآن الى الفرنسية التى قام بها متخصصون فى البحوث الاسلامية ، مقاطع مضللة كغيرها ·

ولا ترج ع الصعوبة التى يلقاها الغربيون غير المستعربين لتكوين أفكار صحيحة عن القرآن الى مواقف التحيز

الواضح التى يقفها كثير من المترجمين وحدها ، فكثير من مقاطع الكتاب المقدس لا تفهم تمام الفهم اذا كان القارىء يجهل معطيات دينية وتاريخية أو معطيات تختص بشخصية الرسول عند نزول الوحي عليه ، لذلك من الضرورى اعطاء معلومات اضافية فى صورة شروح أو تعاليق مرفقة بالنص ، وينبغى لهذه التعاليق أن تشرح من جهة أسباب صعوبة الترجمة ، وأن تذكر التأويلات المختلفة الممكنة ، مما يصحح ترجمة نعلم سلفا أنها ناقصة ، وينبغى من ناحية أخرى ، أن تورد وقائع أو أحداثا تتعلق بمقطع و بآية يصعب فهمها بوجه آخر : وبذلك نستطيع أن نفهم بصورة أفضل سبب مثل هذا الاثبات ، أو مثل هذا الامر الدينى ، أو العائلى أو المدنى .

ان ترجما تفرنسية للقرآن مثل ترجمة الاستاذ حميد الله تشتمل على تعاليق مفيدة جدا ، وفى الانجليزية ، قد استفدت كثيرا فيما يخصنى ، من شروح يوسف على الطويلة جدا ، وعندما يستنصحنى أحد فى موضوع اختيار ترجمة للقرآن تفيد الغربيين ى فانى أوصى دائما بالترجمة التى تقترن بالتعاليق .

وهناك أيضا آيات يدل ظاهرها على أن فيها تناقضا ، وينبغى ارشاد القارىء بشأنها ، وليس أدل على ذلك من هذه الآيات الاربع المتعلقة بالخمر والمشروبات المسكرة .

فنحن اذا ما قرأناها حسب الترتيب الذى وردت به فى سور القرآن وجدنا أولا فى سورة « البقرة » (ص 229) .

« **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما** » . ثم فى سورة « النساء » (4 — 43) :

« **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** » . وفى سورة (المائدة) (5 — 90) نجد هذه الآية :

« **يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**» .

وأخيرا فى سورة « النحل » (16 — 67) هذه الآية :

« **ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا** » .

فهذه الآية تبدو كما لو كانت تعبر عن آراء متناقضة بشأن المشروبات المسكرة والخمر ، ولكن الامر ليس كذلك فى الواقع ، ونحن نعلم فعلا أن آخر هذه السور المذكورة هنا هي « سورة النحل » هي السورة المكية الوحيدة من بين مجموعة السور هذه ، وهي بذلك قد نزلت قبل السور الثلاث الاخرى المدنية ، وهي انما تشير فقط الى المنافع والمضار المنجرة عن استعمال فواكه العنب والنخل ، أما السور الاخرى ، فانها كانت متأخرة من حيث النزول ، ومن حيث الترتيب ، نرى أن

سورة « البقرة » تؤكد جانب الاثم الذى يشمل الخمر الى جانب منافع ممكنة ، وفى سورة « النساء » انما حرمت الصلاة فى حالة السكر ، وفى سورة « المائدة » وهي من أواخر السور المنزلة، ورد تحريم الخمر تحريما قطعيا ٠ وكل هذا واضح كل الوضوح اذا ما درس تبعا للترتيب الزمنى : فلقد ورد التنبيه أولا ثم التحذير ثم تحريم محدود ، وأخيرا التحريم القطعى ، الا انه ينبغى احاطة الغير علما بأنه حصل تدرج حكيم ومنطقى أمام عصيان الناس ٠

انى على يقين بأنكم تعلمون جيدا هذا كله ، وبديهى أنى لا أقدم هذه التفاصيل اليكم ، ولكنى أود عن طريقها أن ألفت انتباهكم فقط الى ان من الغربيين من يرى فى هذه الآيات ، اذا ما عرضت عليه دون شروح مقرونة بالنص ، تناقضات مما يحملهم على القول (وقد سمعت ذلك ، صدقونى) : « كيف يمكن أن نصدق بأن الله قد أوحى الى الناس معطيات متناقضة » ؟ تلك هي الوقائع ، وأستطيع أن أورد لكم أمثلة أخرى تبين بكل موضوعية ، أنه عند غياب معلومات اضافية توضح النص القرآنى ، يمكن للمرء أن يقع فى الخطا ما لم تكن له معلومات المسلم المتعلم ٠

أصل الآن الى مجموعة الوقائع الاخيرة التى أود التعقيب عليها أمامكم ، وأعنى بها الترجمات الرديئة ، والشروح أو التعاليق الناقصة لبعض الآيات التى لم يظهر معناها الحقيقى الا فى العصر الحديث ، سواء أكان الامر متعلقا بالاخطاء غير المقصودة التى يمكن اغتفارها ، أم الاخطاء المتعددة الصادرة عن بعض من يكتبون عن القرآن بيد انى أتحدث اليكم فى البداية عن تلك الآيات التى أرى فيها اليوم، وأنا رجل علم ، معنى اعجاز ، وفى مقدمتها الآيات التى تعد ترجمتها فى الواقع من أبسط الامور ، الا أنها عرضت بصورة لا يتجلى فيها هذا المعنى الاعجازى ، ومن الامثلة الكثيرة على ذلك ، هذا المثال المأخوذ من سورة « يس » (36 ـ 36) فبعد أن عددت الآية السابقة بعضا من نعم الله على عباده ، وقوله تعالى فى ختامها « **أفلا يشكرون** » جاء قوله عز وجل ٠

« **سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** » ٠ وقبل أن أعرض عليكم الترجمة التى أترجم بها ، دونما أي اشاكل ، هذه الآية ، أوضح لكم بأنى لا أرى ترجمة ممكنة لكلمة « زوج » التى تجمع على « أزواج » الا المعنى الذى تعطيه اياه المعاجم العربية القديمة ، والتى تعد حجة يؤخذ بها أي : العنصر الذى يقرن بعنصر آخر مثله فيتكون منهما زوج أي ثنائية ، والكلمة تصدق على الاحذية ، فيقال زوج من الاحذية ، وعلى فردين تربط بينهما علاقة زوجية أي الزوج والزوجة ، وبذلك أترجم الآية 36 من سورة « يس » التى تعقب الآية

35 المتحدثة عن الناس · ولا حاجة هنا الى ثقافة علمية لفهم ما تقصده الآية من الاشارة الى عناصر الزوجية أو الازدواجية فى النبات ولدى الانسان ، وقد أمكن للجميع فى كل عصر أن يفهموا المعنى لهذا الكلام ·

أما ما ورد فى آخر الآية وهو قوله تعالى : « **ومما لا يعلمون** » (أي الناس) والذى يشتمل أيضا على عناصر الزوجية ، فالمعتقد أنه يشير الى البنيات المتناهية الصغر والمتناهية الكبر كذلك ، وهي اشارة يؤكدها كثيرون بالاستناد الى قوى متضادة ازدواجية، وهو عنصر التوازن حسب قوانين الفيزياء الكونية ·

ولنتخط التفاصيل ، لناخذ بالاعتبار فقط مطلع الآية : أي ذكر عناصر الزوجية أو الازدواجية لدى النبات ، فحينما قرأت فى القرآن بالعربية هذه الآية لاول مرة اتجه تفكيرى حالا الى أنه ليس من المكن أن يستطيع رجل قبل ما يزيد عن أربعة عشر قرنا ،أن يصدر رأيا كهذا ، لا سيما وأنه سبق لى أن قرأت قبل ذلك فى سورة « الرعد » (13 – 3) قوله تعالى :

« **وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين** » · فاذا ما اخذنا بآية سورة (يس) نصا وروحا ، وجب علينا بالتالى أن نذكر عناصر الزوجية أو الازدواجية لدى النبات · ولننظر كيف تترجم الآنسة « ماسون » هذه الآية من سورة (يس) التى أكررها هنا :

« **سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** » : سبحان الذى خلق جميع الانواع : ما يخرج منها تلقائيا من الارض ، وما ينبته الناس بأنفسهم وما لا يعلمونه ·

ليس أفضل من ذلك لو كان الامر يتعلق بصرف النظر عما يوحى بأنه كلام لا يمكن للانسان تفسيره كما شرحت ذلك فى كتابى « القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم » وترجمة الآنسة ماسون تقدم فى أماكن أخرى بصد كلمة « زوج » بعينها تفسيرات مختلفة ولكنها جميعها على خطا ·

على أن اشاعة معطيات غير صحيحة فى ترجمات القرآن وتفاسيره ليست صادرة عن قصد دائما · وهنا أتحدث اليكم عن النوع الاخير من مجانبة الصواب أولا وهي الاخطاء غير المقصودة · ويبدو أننا نستطيع تفسيرها بالطريقة الآتية :

انه لا يمكن الادعاء اليوم بامكان القيام بترجمة أو تقديم تفسيرات وشروح مقبولة وصحيحة لبعض آيات القرآن ، ما لم يكن صاحبها ذا ثقافة علمية · لكن الواقع هو ان أغلبية المترجمين والشارحين المحدثين للقرآن هم من ذوى الثقافة الادبية الذين ليس لهم تكوين

علمي ، وأقول الغالبية الكبرى ، لان هناك استثناءات موفقة ٠ غير أن الثابت هو أن معظم الترجمات المتداولة ــ فى الغرب على الاقل ــ تشتمل على مقاطع تقدم فيها بعض الآيات التى تورد معطيات ذات علاقة بالمعارف العصرية بطريقة نعثر فيها بسبب أخطاء الترجمة، على أقوال وتأكيدات تخالف ما يبينه العلم الدنيوى على نحو لا يقبل الشك ٠ ومن السهل أن تتصوروا مدى ما يفيده فى الغرب من يبحثون من كل جانب عن حجج تدعم نظرياتهم القائلة بأن القرآن انما هو عمل قام به رجل أمكنه الوقوع فى خطا يذكره بعض الوقائع المعروفة جيدا فىيومنا ، لانه عاش فى حقبة زمنية لم يكن العلم قد نما فيها وتطور ، وحاصل القول ان أخطاء القرآن هذه يمكن مقارنتها بأخطاء من هذا النمط ارتكبها مؤلفوا كتب التوراة ، هذا ما يمكن أن نسمعه من قادحين لا هم لهم الا القدح ٠

ولنأخذ مثال السورة التى كانت أول ما أوحى الله به على رسوله ، وهي سورة ، « العلق » (96 ــ 1 ــ 2) :

« **اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق** » ٠ ولنفحص الترجمات والشروح التى طالما ترجمت أو شرحت بها كلمة « علق » فهي قد فسرت أو ترجمت بالدم المتجمد ، أو الدم المتخثر ، أو بما شئت من التفاسير والترجمات الاخرى ، وأمام مثل هذه الترجمات ، سمعت غير ما مرة من يتذرع بالحجة الآتية : « كيف يمكن أن نتصور أن الله هو الذى أنزل القرآن معلنا فيه أن الانسان مر بمرحلة كتلة من الدم المتجمد ، وأنتم تعلمون أن الامر ليس كذلك ، فهذا اذن برهان على خطا علمى فى القرآن » ٠ فما الجواب على هذا ؟ الجواب واضح ، وهو أن الترجمة رديئة، وأن كلمة « علق » ينبغى ألا تؤخذ على أنها تعنى احدى المعانى المشتقة منها (مثل الدم المتجمد هنا) الذى يقدم صورة غير صحيحة عن مظهر من مظاهر التناسل البشرى ، بل ينبغى أن تؤخذ فى معناها الاولي ، أي أنها ــ شيء من الاشياء ــ التى تعلق ما يتفق ومعارفنا فى علم تكوين الاجنة ، وفى هذه الاحوال، يكون التوافق كاملا بين النص القرآنى ، وبين معطى من المعطيات العلمية التى لا تقبل المراجعة ، لانه فى يومنا هذا ، ثابت بالمجهر ، ويمكن ملاحظته فى المراحل المبكرة التى تثبت فيها المضغة فى رحم الام بمحاجن ارساء حقيقية ٠

لم يكن لهذه المسائل فى الماضى أية أهمية ، ولم يكن لنا فى الواقع آن نبحث فى القرآن ، سواء فى الماضى أم فى الحاضر ، عن صيغ أو وصفات علمية، لقد كان القرآن ولا يزال كتابا دينيا فى المقام الاول ، فاذا كان هذا الكتاب المقدس يتضمن بيانات عن الظواهر الطبيعية التى أصبح فهمها الآن فى متناول الناس بفعل معطيات معارف ثابتة الصحة ، فانما كان ذلك بغرض لفت

انتباه الناس الى هذه الظواهر ، فهي بنوع ما ضرب من التعبير الاضافى عن الدرة الالهية الواسعة ·

لا بأس لهذا كان المفسرون فى العصور القديمة لا يعطون لكلمة « علق » الا معنى ظاهرا ولكنه غير صحيح فى ذلك العهد ، ما دام الانسان يتصور أو يستحضر عندما ترد عليه هذه الكلمة ، القدرة الكلية التى يتصف بها خالقه ، أما اليوم ، فان التقدم العلمى يسمح بادراك معنى آخر زائد على ذلك ، ألا وهو المعنى الحقيقى الذى تدل عليه الكلمة ،فنحن ندرك حينئذ المعنيين اللذين تحتملهما الآية : المعنى الاول والاصلى هو الطابع الدينى للتفكير فى القدرة الالهية الكلية ، والمعنى الثانى هو بيان معطى من معطيات العلم له أهميته ، وفعلا ، فنحن عندما نقرن هذا المعنى بمعطيات القرآن الاخرى فى موضوع تناسل الانسان نجد أنها تقود كل عالم موضوعى الى الاعتراف بأنه لا يمكن لرجل فى عهد النبي أن يكون هو صاحب هذه الافكار انشاء وتعبيرا ، وقد حصلت فى ذلك على برهان قاطع عندما قمت بعرض المعطيات القرآنية فى هذا الموضوع على أكاديمية الطب بباريس ·

ان هذه الآية ليتجلى منها هذان المعنيان ، سواء أكانت مترجمة أم مشروحة كما ينبغى أن تكون فى ظاهر الامر ، أما اذا ترجمت كما ترجمت فى الماضى أو فسرت دون مراعاة المعلومات العملية الثابتة صحتها ، فانها تكدر صفو كل شخص يؤمن بأن القرآن منزل من عند الله ، ويعلم من خلال ما تلقنه اياه العلوم الطبيعية كيف تتم عملية تناسل الانسان فى خطوطها البارزة ، فاذا كان هذا الشخص مسلما ، فان فكره قد يخامره الشك أمام هذا التفسير غير الصحيح ، واذا كان يتعلق بشخص لا يؤمن بأن القرآن موحى به ، فكيف لا يستغل هذه الطريقة فى الترجمة أو التفسير ، ويتخذ منها ذريعه وسندا لدعم نظريته التى ينسب فيها القرآن الى مخلوق من البشر ·

وعليه فان الترجمات التى يترجم بها اليوم ذوو الثقافة الادبية عددا لا يستهان به من البيانات القرآنية التى لها علاقة بالمعارف العلمية الثابتة ، قد تساهم فى صدور أحكام مغلوطة على القرآن ، وهذا أمر يطرح مسألة المراجعة، بمساعدة معطيات علمية يقينية ، لبعض الآيات التى قام بترجمتها أو تفسيرها أدباء ليس لهم قدر كاف من المعارف العلمية اللازمة فى يومنا هذا للقيام بترجمة صحيحة ، كما يطرح أيضا مسألة مدى مناسبة القيام بعملية اعلام حول المقاطع من القرآن سواء فى العالم الاسلامى أم فى العالم غير الاسلامى حيث تنتشر كثير من التصورات الخاطئة عن القرآن وعن الاسلام · من المؤكد أنه ليس من السهل القيام بترجمة وفية

للقرآن بأتم معنى الكلمة ، الا انه فى مقدور الانسان أن يعرض النص عرضا صحيحا قدر الامكان لمن لا يعرف اللغة العربية · ولتحقيق ذلك ، فى نطـــاق الموضـــوع الذى يشغلنا ، يجب استخدام المعارف العلمية حين تكون هذه المعارف ثابتة الصحة ثبوتا نهائيا : الامر الذى يستثنى بطبيعة الحال ، النظريات التى هي عرضة للمراجعة دائما ·

وفى الختام، من الملاحظ المألوف فى الغرب أن ترجمات القرآن وشروحـــه تشيع فى غالب الاحيـــان تشويهـــاتً مقصودة وأخطاء غير مقصودة ، وكلا الامرين مضر بالشر الحقيقة عن القرآن وعن الاسلام ، وفى هذا العصر الذى يسر فيه تقدم التقنيات وسائل الاعلام على نطاق واسع ، نجد أن اشاعـــة الاخطاء والتشويهات وكذا اذاعـــة الحقائق أمر ميسور للغايـــة ، الا أن التجربة تبين للاسف الشديد ، بـــأن نشر الباطل أيسر فى الغالب من اذاعة الحق · ان أقل ما يمكن أن نقوم به ، هو أن نخفض الى الحد الادنى من نشر واشاعة ما ليس صحيحا · ان التعريف بالترجمات والتعاليق المراجعة تبعـــا لمقترحات صادرة عن تجربة معاشـــة ، من شأنه أن يحارب التأويلات المغرضة التى ـ صدقونى ـ تلحق فى الغـــرب بالغ الضرر بالاسلام ·

تعدد المدارس الاجتماعية فى العالم الاسلامى وعواقبه الثقافية

د· عبد المجيد مزيان

ان الباحث فى الاحوال الحاضرة للمجتمعات الاسلامية بحثا اجماليا لا يمكنه أن يعزل المسائل الثقفية عن المسائل السياسية والاقتصادية التى يعانى منها هذا الجزء من العالم أشد العناء منذ حاول أن ينهض وحاول خصومه أن ينصبوا له العراقيل · وان لمن البديهيات الاجتماعية أن نعتبر كل ظاهرة ثقافية تبرز للوجود فى عالمنا المعاصر اما امتدادا أو رد فعل لظواهر متسلسلة تتصل فيها الثقافة بالسياسة، وتهون فيها الحدود الوطنية ، والحصانة الاقليمية ، بسبب تعدد الاتصالات ، والتفنن ف ىالتسلط والايحاء من لدن الحضارات المسيطرة · وليس من التسرع فى شىء أن نقول بأن حاضر المسلمين يتلخص فى استمرار النكسات، لا بسبب نقص امكانياتهم المادية أو البشرية ، ولكن بسبب هذا الكيد المستمر الذى تكيده لهم الحضارات المسيطرة من اشغالهم المميت عن وعي ذاتهم ، ووعي علاقاتهم بغيرهم ·

ومن البديهيات السياسية أن نقول بأن المسلمين يعانون فى أغلبيتهم مفارقات ضخمة تتلخص فى الرغبة الاكيدة فى النهوض مع مسالمة الاستعمار الذى يحارب هذا النهوض ، وهم يرغبون فى الوحدة ولكنهم يستسلمون لمخططات التشتيت ·

وسواء نظرنا الى المجتمعات الاسلامية بمنظار اجمالى أو منظار جزئى فاننا سنجد نفس التبعية اللاواعية ، ونفس المفارقات ، ونفس التشتيت ، سواء أخذت الظواهر فى تداخلها وتفاعلها بين السياسة والثقافة والاقتصاد ، أو أخذت كل ظاهرة فى تفرعها بين ميادين ونشاطات الحياة الاجتماعية فى تنوعها وتعددها ·

ان السياسة حاضرة حضورا طاغيا فى كل ظاهرة ثقافية ، مهما صرح المثقفون بأن السياسة كلما دخلت فى

شيء أفسدته ، هذا شريطة أن نفهم السياسة بمعناها الفكرى الواسع لا بمعنى الممارسات وحدها ·

من هنا لا يمكننا أن نقول بأن مذهبا ثقافيا ، أي مذهب ثقافى ، سيصبح فى يوم من الايام خلوا من الروافد العقائدية ذات الاهداف السياسية السافرة أو المتقنة التستر ·

هنا تكمن مشكلة العلوم الاجتماعية المعاصرة ، فاذا صرح عالم الاجتماع أو عالم الاقتصاد بأن علمه صحيح شمولى تجريبى فان هذا التصريح نفسه نوع من الدعاية السياسية لهذه الحضارة الشمولية من خلال افتراضها فى العلوم الانسانية ·

ان العلم الانسانى الكامل علم شبه خيالى تنصب فيه جميع المعارف الانسانية من اقتصاد واجتماع وتاريخ ولسانيات وبيولوجيا وتكون ضمنه وحدة متناسقة : وأين نحن منها اليوم ! وكم أثار علم الانسان هذا من أحلام مختلفة الاتجاهات · فمن الفلسفة من ظن انه سيكون التاريخ · ومنهم من ظن انه سيكون علم الاجتماع ، ومنهم من قذفت به تصوراته فى تطور البشرية الى القول بالانتقاء ، ومنهم من افترض الوحدة بين المجتمعات فى حضارة عالمية ، ومنهم من افترض الانقراض بتصاعد الصراع · من أجل كل هذه الاعتبارات نقول : ان التداخل بين الفلسفات وهي أمهات المذاهب وبين العلوم الانسانية ، ظاهرة ثقافية لم تنج منها أية مدرسة من المدارس الاجتماعية حتى الآن ، مهما ادعت الموضوعية

وهل يعنى هذا أنه يجب رفضها اجمالا ؟

ان السؤال نفسه يج دعدة مشاكل وسلسلة أخرى من الاسئلة · نتساءل فى البداية عن الهوية الاجتماعية للعلوم الاجتماعية ، لانها هي الاخرى ظاهرة ثقافية ، نشأت فى مجتمعات معينة · بأهداف معينة علمية وسياسية ، ولهذه المجتمعات هوية سياسية واقتصادية · وهي العلوم الاجتماعية ، علوم تختلف اختلافا جذريا بين مجتمع ومجتمع ، حسب الانتما ءالسياسى والعقائدى للمجتمعات ·

فهل من الممكن تصور ظهور الانثولوجيا مثلا لو لم يوجد مجتمع استعمار ىأوروبى ، يكتشف باحثوه خصوصيات الشعوب المستعمرة فى ثقافاتها وذهنياتها وسلوكياتها · واننا لا نعنى بهذا أن كل الانثولوجيين ينتمون الى المذهب الاستعمارى ، ولكننا نبحث فى نشر هذا العلم كظاهرة اجتماعية فى العالم الغربى وخصوصا عند الانجليز والامريكيين ، فور اتصالهم بالشعوب التى سموها بدائية ، وكثيرا ما أباح جنودهم لانفسهم ابادتها بدعوى هذه البدائية التى تصوروها نقيضا للحضارة أي لحضارتهم ·

ثم هل سبق للدراسات الاسلامية فى فرنسا أن تنطبع بهذا الطابع الاجتماعى والسياسى ، قبل دخول بونابارت الى مصر ، ثم استيلاء الجيش الفـرنسى على الجزائـر ؟

وهل كان من الممكن ظهور علــم الاجتماع اوقتصاد ماركسى صبغتــه الشمولية لو لم ينطلق مــن النقـــد الاجمالى للعالم الرأسمالى المتناقض ؟

ثم ان العلوم الاجتماعية اما علـوم اجمالية تتفلسف فى موضوعات تهـم التطور البشرى ، وهي فى هذا الميدان منكبة على نموذج واحد ذى امتيـــاز خاص وهو النموذج الاوروبى للتطـور الذى عددت قوانينه تعميما تجريبيا الى الانسانية جمعاء ، وهذا شأن العلـوم الاقتصادية والتاريخ وعلم الاجتمـــاع العام ، فى أهم موضوعاتها ، واما علوم جزئية تعتنى بالوحدات الاجتماعية التى كادت تنقرض اثـــر التحـــولات التى أحدثها الاستعمار ·

فأين مكانة العالم الثالث بحضاراته ومسائله الخاصة ونوعـيـة تطـــوره وصراعاته مع الاستعمار ضمن اهتمامات العلماء ؟ نقول ان هذا الموضوع لـــم يحظ بالعناية اللازمة حتى الآن ، ولـم يظهر بعد المذهب الاجتماعى المستقـــل الذى يطرح مشاكل هذا العالم ويحـــدد ميادين ومنهجيات البحث اللائق به ·

هذه بعض المشاكل التى يطرحهـــا البحث فى هوية العلوم الاجتماعيـــة المعاصرة بصفتها علوما مارسها باحثون لهم انتماءاتهم الفلسفية المذهبية ولهـم مدنيتهم المجتمعية ، نشير اليها بتلخيص واستعجـــــال ·

ثم نعود الى السؤال الذى طرحناه عن الرفض والقبول ، ، فنقول بأننا مــن بداية ما نسميه بالنهضة الاسلامية لم نتعد هذا الموقف الضيق المحرج الـذى هو أزمة الاختيار بين الرفض والقبول، وبين الانكماش والانفتاح · هذا هـــو موقفنا من المعاصرة فى مجملهــــا · وهكذا موقفنا اليوم من الثقافة الغازية، ومن السلوكات الاستهلاكية ، حتى أننا لنجد أنفسنا نعانى فى صلب حياتنـــا الاجتماعية تناقضا وتباينا بين المجموعات المحافظة والمجموعات التى انساقت مع المعاصرة كما نعانى انفصاما فى هويتنا الثقافية وفى ذهنياتنا · اذ نعيش يوميا ذلك التردد بيـن الاصالـة كمـنقـذ ، والمعاصرة كحياة راقية · وان هـــذه المشكلة نفسها لتعد من أمهات المشاكـل الاجتماعية للعالم الاسلامى ·

ولماذا لم نخرج من مأزق الاختيار بين الرفض والقبول الى فسحة الابداع الحضارى والاختراع العلمى لنأخـــذ ونعطى مـ نانتاجنا الثقافى ثمـــرات للانسانية جمعاء كما كان الشأن حينما كنا أصحاب حضارة لها مبادراتهـــا ومكانتها الممتازة فى العالم ؟

لنستعرض الآن طريقتى الـرفـض والانفتاح لنرى ما فيها من مشاكـــل وأزمات ثقافية ·

ان رفض المكتسبات العلميــة بكيفية اجمالية وبدعوى المحافظة على الهوية الثقافية للمجتمع يعنى الانكماش على الذات ، ويعنى انعزال تحجر فى عالم يتطور بسرعة مذهلة ، ومآل المجتمعات المتحجرة هو الانقراض لا محالة ٠

وما كنا لنذكر مثل هذا الموقف لولا وجوده ضمن التيارات المذهبية السائدة بين الاجيال الحاضرة التى تدعى ، باسم سلفية نوعية ، ما رأينا لها فى الماضى من شبيه ، بأن الرفض المطلق لكـــل منتوج حضارى استعمارى هو وسيلة النجاة بالنسبة لحضارتنا ٠

واننا هنا لبمحضر ظاهرة اجتماعية أخرى خاصة بالمجتمعات الاسلاميـــة ، وهي ظاهرة الرفض الناشئة عن أزمة التقليد الفاسد دللحضارة التكنولوجية وما أحدثته فى ذلك دولنا الاسلاميـــة المعاصرة المقــلــدة للغرب من فوضى وفساد واستبداد ٠

نعم اننا نعيش فى عالم تســـوده التطاحنات والاستغلال والتكالب عــلى المتعة ،ولكن هل فى امكاننا أن نرفض بدون تسلـــح مادى وثقــــافى يفرض مخططات هذا الرفض ٠

نقول بصدد السلفية التى هي ملجـأ هذا التيار الرفضى بأنها حلم يصعب تحقيقه ذلك لاننا لا نستطيع تجاهــل مشاكل جيلنا ، ومن جملة مشاكل جيلنا ما يتعرض له من غزوات الاستعمـــار الجديد اقتصاديا وسياسيا وثقافيـــا ، ومن وسائل الخلاص بكياننا الحضارى أن نعــرف أدق المعرفــة هذا المــركــب الحضارى الــذى يلتــهـمنا ببنياتــه الاقتصادية ومخططــاته السياســـية وتياراته الثقافية ٠

ان زعماء السلفية الاسلامية مثل ابن تيمية وجمال الدين الافغانى لم يكونوا جاهلين بالثقافات الاخرى ولم يـــدع أحدهم يوما مــن الايــام الى عـــدم الاطلاع على الفلسفات والعلوم ســواء أتت من اليونان أو الهند أو الغـــرب المسيحى ٠ وما من مذهب اسلامى سواء كان الاعتزال أو الاشعرية أو الشيعــة أو السلفية الا واعتنى شديد الاعتنــاء فى ابان عزة الحضارة الاسلامية بدرس المذاهب الاخرى والتيارات الفكريـــة العالمية دراسة عميقة موضوعية ونقدية فى نفس الآن ٠ وانما كان انكمـــاش التجهيل من حظ عصــور الانحــطاط ، والتجهيل نفسه من أسـباب تزايـــد الانحطاط والتردى فى ظلمات اللاوعي والانهـــزام ٠

أما الانفتاح الذى يعنى التقليـــد وانعدام الروح النقدية والاخذ بالنظريات المذهبية ضمن البناءات العلمية فلا يقل خطورة عن الانكمــاش لانه يؤدى الى ذوبان الهوية الثقافية والى التبايـــن والتشتيت فى المجتمعـــات المستــوردة للقيم الحضارية من الخارج ٠

المغلوب يقلد الغالب هي قاعـــدة اجتماعية صحيحة فى المجتمعات القديمة

ولا زالت تنطبق على الكثير من المجتمعات المنهزمة المستسلمة · غير أننا نرى رأي العين فى عصرنا الحاضر كيف أن المغلوب يعاكس الغالب ويرفض قيمه وثقافته وسياسته واقتصاده ، اذا كان عازما على البقاء بهويته وكيانه · وأصبحت القاعدة الاجتماعية الصحيحة فى عصرنا الذى تعددت فيه الصراعات هي مقاومة المغلوب للغالب انطلاقا من وعي الذات ووعي العلاقات الجدلية بين المسيطر والمسيطر عليه ، والمستغل والمستغل ·

اننا لم نصل بعد الى الرفض الواعي المبنى على العلم الدقيق بوضعيتنا الاجتماعية ووضعيات خصومنا بما فيها من سياسات ومعارف ·

ومن أجل هذه الغفلة نجد أنفسنا فى تبعية ثقافية هي نقيض النهضة التى تشترط الابداع والاخذ والعطاء الحضارى ·

ومن هنا جاء تعدد المدارس الاجتماعية فى العالم الاسلامى ·

انه لا يخفى على أحد أن قنوات الاخذ العلمى هي نفس القنوات الخاصة بالاخذ الاقتصادى ، وهي بطبيعة الحال قنوات التبعية السياسية · ولكل جزء من العالم الاسلامى قنواته · فهذا الغرب الاسلامى لا يزال يأخذ العلم عن فرنسا بتعدد مدارسها ، والمشرق يتجه نحو انجليترا وأمريكا · والقليل من البعثات تتجه الى البلدان الاخرى من الغرب الاوروبى ، أو الى العالم الاشتراكى الاوروبى ·

وانها لحصيلة ثقافية ضخمة وثمينة ولو تعدينا بهذا الاخذ عن غيرنا الى تكوين علم الاجتماع اسلامى بروافد فلسفية اسلامية ، ومخطط ثقافى اسلامى ، يهم دراسة المجتمعات الاسلامية ويع دلهذه الدراسة المناهج والاساليب الاليق بها · لكن علاقة البلاد الاسلامية بعضها بالبعض سطحى فى ميدان البحث العلمى كما انها سطحية فى ميدان العلاقات الاقتصادية · وكما اننا لا نتصارف فيما بيننا الا بعملة الآخرين ، فكذلك لا نتخاطب فى الميادين العلمية الا بما لقنتنا اياه المدارس التى أخذنا عنها ، وان لهذا التعدد لعواقب ثقافية كثيرة لا نريد احصاءها هنا لانها متنوعة وتستحق العناية والدرس العميق ، ولكننا نمر عليها باستعجال قصد التنبيه ·

ولنبدأ بالاغاليط العلمية التى يتخذها الكثير منا قواعد يحاولون الصاقها بمناهج البحث فى مجتمعاتنا ·

فى أغالبية المدارس الغربية هذه الانانية الاوروبية التى تكاد تذوب الكون فى أوروبا ، فلا تنظر الى العالم الخارجى الا بمنظار الذهنية الاوروبية ، ولا تعتنى بنموذج حضارى غير النموذج الاوروبى ، ولا تتصور اي تطور للمجتمعات الا بمقياس التطور الاوروبى،

ولا نعتنى بمرجع تاريخى الا من تاريخ أوروبا ٠

وكثيرا ما يأخذ علماؤنا بهذه الذهنية فيبحثون فى تطور مجتمعهم بمفاهيم مستوردة ، ونجدهم يتكلمون عن أسباب الانتاج الرأسمالى فى بلادهم ، وعن هوية الطبقات الاجتماعية عندنا نقلا عن النماذج الغربية وعن وسائل التطور بمقياس الشروط المنقولة عن الحضارة الاوروبية ، ولا يلمسون فى ذلك الفوارق الضخمة الموجودة بين الاوضاع الاجتماعية فى البلاد الاسلامية والاوضاع التى تكونت وتبلورت فيها تلك المفاهيم ٠ ومن مغالطتهم فى المعارك الاجتماعية الاجمالية ادماج التصورات المذهبية فى القواعد العلمية ، وخصوصا فى هذا الخصام المستمر فى تاريخهم الفقهى الذى يتمثل فى الصراع بين الروح والمادة ، حتى اننا لنجد نزعة مادية فى العلوم الاجتماعية تعطى الاسبقية للبنيات الاقتصادية ، ونزعة روحية أو مثالية تعطى الفعالية الاولى فى تسيير الحياة للثقافات والمذاهب الفكرية ٠

ومهما كان انتساب بعض علمائنا الى الواحد من هذين التيارين ، فانه ليس الا أخذا بخصومات الآخرين وصبها فى ثقافتنا التى كانت ابان ابداعها الحضارى ثقافة الوحدة الانسانية التى تأبى فصل الوجود المادى عن الوجود الروحى ، وتأبى اعتبار الكون المحسوس خلقا أدنى ينظر اليه نظرة الاحتقار بمنظار المثل المفارقة ٠

ومن أغاليطهم أيضا هذا التصنيف للمجتمعات الى متحضرة ، وبدائية ، وقابلة للتطور البريع ، وباردة متحجرة، مع اعتبارها النموذج الحضارى الاكمل الذى هو النموذج الاوروبى مقياسا لكل تحول مستحب ، ولقد أصبح علماؤنا الآخذون بهذا التصنيف لا ينظرون الى تطور وتقدم مجتمعاتهم الا من خلال المثل الحضارى الغربى متناسين الامكانات المتعددة للتطور ، ومتناسين الطريق الذى أخذته حضارات أخرى فى تحصيل توازنها وراحة شعوبها ٠

هذا ومهما كانت درجة العلم فى هذه المدارس التى نلتمس منها معارفنا الاجتماعية فانها لا تعتنى بمجتمعاتنا الا اهتماما جزئيا وعابرا وهي توحى الى أتباعها من أبناء العالم الثالث أن يأخذوا بالمفاهيم الجاهزة ، كما انهم فى ميدان الاقتصاد يوحون بأخذ التكنولوجية الجاهزة ومن أجل كل هذه الاعتبارات وقع التشطيب زمن الاختراع والابداع ونقل المنتوجات الحضارية تقليدا من غير نقد أو وعي ٠

أما المدارس الماركسية فى العلوم الاجتماعية ، ومنها ما يوج دفى داخل العالم الاشتراكى ، ومنها ما يوجد فى أوروبا الغربية ، ولم تعتن بالعالم الثالث

الا فى العلاقات الجدلية والاستغلالية التى تربطه بالغرب الرأسمالى ٠

ومن أغاليطها هيمنة الوثوقية عند أصحابها ، وهي تلك الوثوقية التى تفسر الحياة الاجتماعية تفسيرا ماديا ، وترد الصيرورة التاريخية الى نوعية الانتاج وعلاقات الانتاج وحدها ٠ وكان التصلب فى هذا لميدان « باسم السنة الماركسية » قد بلغ حده الاقصى فى البلاد الاشتراكية الاوروبية ، بينما أدت اجتهادات الغربيين الذين ينتمون الى المدرسة الماركسية على الاعتناء بتأثر البنيات ، مغالين من جهتهم فى فهم فلسفة التاريخ عند ماركس فهما يتفق مع الاصول الاولى للمذهب ، وقد ظهرت فى بلادنا أجيال من المثقفين لا يفسرون الحياة الاجتماعية الا من خلال الاقتصاد والانتاج وعلاقات الانتاج ٠ وكانت فلسفتهم هي الدعوة الى تغيير الهياكل الاقتصادية قصد الدخول فى المعاصرة والاقلاع عن التخلف ، ومن تهافت على الاساليب التكنوقراطية فى هذه الذهنية التطورية انطلاقا من الاقتصاد والتجهيز التكنولوجى دون سابق وعي بالواقع المجتمع الاسلامى ٠ ولا فرق فى مثل هذه المواقف بين السياسى وعالم الاجتماع ، فكلاهما يفهم تطور المجتمعات فى شبه علمية تقنية تبنى تماما كما يقع التجهيز الاقتصادى ويفرض فرضا على الشعوب من قمم الاجهزة المسيرة ٠

وأما التصنيف العلمى لانواع الانتاج فلم تخل فيه المدرسة الماركسية من تعميمات غامضة ٠ وذلك لانها لم تعتن حق العناية الا بنق دالانتاج الرأسمالى ووصف الانتاج الاشتراكى فى مقابله ٠ وأما الحضارات الآسيوية الافريقية التى عرفت أنواعا متعددة من الانتاج فانها صنفت بجملها تحت عنوان الانتاج الآسيوى ٠ ومهما حاولنا أن نطبق عموميات التصنيف على الحضارة الاسلامية فى المراحل المختلفة من تطورها فاننا لا نجد جماعيتها تتفق مع طبقية الهندية ولا مع الاقطاعية النوعية بالصين ، ولا مع الجماعات المحلية الافريقية ، ولكل نوع رأسماليته الخاصة واقطاعه الخاص ، ونظامه الاسترقاقى الخاص ، وصراعاته الخاصة ٠ فأين هذه التدقيقات وهذا النقد العميق عند علمائنا اليوم ؟

فكأنناانخاف من مغامرة الابداع الثقافي والعلمى ، أو كأنما يوحى الينا بالبقاء فى التبعيات المختلفة وبالاخص التبعية الثقافية منها ٠ وكأننا لم نعرف ابن خلدون ولو كان من غير ملتنا لاخذنا عنه الكثير ٠ لولا اعجاب بعض الغربيين به لتناسيناه ، غير أنه رد الينا اما رأسماليا أو ماركسيا ، أو روحانيا متدينا عند البعض وماديا عند البعض الآخ ر٠ ثم أوحى الينا منذ سنوات بتفاهة الانتاج الخلدونى ، لانه انتاج للقرون الوسطى ، وان مجتمعات اليوم تختلف جذريا عن مجتمعات تلك القرون ٠

ان نقدنا للتبعية وللانكماش واستعراضنا لبعض أغاليط المدارس

الاجتماعية يبين بوضوح احتياجنا الى انشاء علوم اجتماعية اسلامية ، كما أن هناك علوما اجتماعية أوروبية ·

فما معنىهذا ؟

اننا لا نعنى أن لكل أمة علومها الاجتماعية ، ولكننا نقصد من وراء ذلك التخلص من الرواف دالمذهبية والابعاد الفلسفية الخاصة بالحضارة الغربية فى نظرتها الى الكون والبشر نظرة نفعية استغلالية عريقة مهما تسترت فيها هذه النزعات · اننا مقتنعون بأن الاستعمار لم ينته وأن التخطيطات العدوانية للسيطرة على الخيرات والعباد لا زالت تحاك فى اتقان · واذا كانت الصهيونية لا تزال تصرح بالعداء وتبوح بخطط الاساءة · ان قمة الهرم الحضارى اليوم مبنية على قاعدة اشغال العالم الثالث بما فيه العالم الاسلامى ·

هذه حقيقة اجتماعية وسياسية لها ضمنياتها المذهبية ولا يمكن أن تخفى على أحد، وللثقافة نضالها كما أن للسياسة نضالاتها ،وللعالم الاسلامى أوضاعه الخاصة لا يمكن أن يدرسها باخلاص واتقان الا أبناؤه ·

وما شأن الخلدونية بأوضاع المسلمين اليوم ؟

اننا نعد ابن خلدون بمثابة الرائد الذى أختص بخصوصيات الحضارة الاسلامية واعتنى بطريقة تطورها النوعى وانتبه الى علاقاتها الجدلية من صراعات وتغيرات وانسجام ومفارقات · واذا كنا مقتنعين بأن النوعيات الاجتماعية التى درسها فى الماضى قد انقضى جلها ، فاننا لا نشك من جهة أخرى فى بقايا تعيش على النمط الاجتماعى القديم ·

ثم ان للحضارة الاسلامية كباقى الحضارات ثوابت ثقافية واجتماعية لا تنقرض مهما تجددت فى بعض مظاهرها ، وهذه الثوابت هي الحبل المتين بين الماضى والحاضر ، وهي النواة الازلية الهوية الحضارية ، وهي التى تطبع الاتجاه التطورى بطابعها العميق ·

ان الاساس الاعمق للكيان الاجتماعى فىالعالم الاسلامى هو الفكر الدينى ، ولا يزال هذا الفكر حتى الآن يحرك الشعوب وينقلها الى الوعي الثورى · ولهذا الفكر الدينى خصوصياته من بين الفلسفات الاديان ، لانه يمثل العقيدة المتعددة الابعاد ، وليس البعد السياسى والاجتماعى فيها بأقل أهمية من الابعاد العقائدية الاخرى ·

وكما اننا نتكلم عن علوم اسلامية خاصة بالحضارة الاسلامية ، لا وجود لمثلها عند غيرهم ، فكذلك يمكننا أن نتكلم فى الاوضاع الاجتماعية عن مدنية اسلامية ، وعن روح جماعية أسلامية ، وعن جماعات محلية اسلامية ، وعن اقتصاد اسلامى ، وعن حكم اسلامى فى مميزات خاصة · فالنظرة الجامعة التى تجعل عالم الاجتماع أو عالم الاقتصاد المبتدى يكتشف وحدة ثقافية

ووحدة اجتماعية بين سكان مراكش وسمرقند وكانو وجاكرتا ، هي نفس النظرة التى تفرض علينا التفكير فى علم اجتماع اسلامى ، أي خاص بالعالم الاسلامى له موضوعاته ومناهجه المستخرجة من هذه الموضوعات · وهذه المشاكل التى تثيرها خاصة المجتمعات الاسلامية ·

ثم ان لهذا الحاضر الاسلامى جذورا فى العمق التاريخى لا يمكن أن يفهم الا بواسطتها ، اننا مع الحاضر الاوروبى فى علاقات جدلية تتلخص فى صراعنا من أجل التحرر من الاستعمار الجديد والتبعية للامبرياليات ، بينما يخطط خصومنا لابقائنا مشتتين ضعفاء قصد استغلال ثرواتنا التى ينبنى عليها ثراؤهم ·

أما تطورنا الداخلى فله مظاهره الخاصة تختلف عن تطور الحضارة الغربية المبنية على صراع الطبقات والتطاحن بين المعسكرين ، فنحن نعيش الكثير من جدلياتنا القديمة المتلخصة فى الحروب بين الجماعات ذات العقيدة الاسلامية الواعية الى العدل والمساواة والهيئات المتسلطة ذات العقيدة التفاضلية النامية الى الطاعة والنظام وابقاء ما كان على ما كان بوسائل القمع والتهديد ·

والجديد فى مجتمعاتنا هو التقاء مصالح الهيئات المتصلة فى معظمها مع مصالح الاجانب المستغلين وكذلك الالتقاء بالمجتمعات الاسلامية الثائرة مع أغلبية الثورات · فهناك الجانب العالمى ، وهناك الجانب الخاص بالحضارة الاسلامية ، وجدلية التطور هنا لها بعد أن بعد ينتمى الى المجتمعات الاسلامية وبعد يتفرع الى عالمية ظاهرة النضال التحررى ·

وان لكل هذه الظواهر ضمنيات مذهبية ومقتضيات علمية · فالعالم الاجتماعى ذو الموضوعية الصرفة لو صح وجود هذه الموضوعية لا يمكن أن يدرك التشعبات السياسية لمثل هذه الظواهر، كما ان المفكر فى السياسة قد تخفى عليه خصوصيات الحضارة الاسلامية بعمقها التاريخى وما يحمله من ذاكرة غنية ملتصقة بموهبة المجتمع الحاضر ·

ولا يمكن أن تكون النظرة الى تاريخ حضارتنا نظرة تراثية ، اذا كنا نريد اقامة علوم اجتماعية ذات آبداع ووعي بأنفسنا وعلاقاتنا مع الآخرين ، بل يجب علينا فى حالة الابداع هذه أن نقيم تاريخنا تقييما نقديا صارما فنحصى المكتسبات الحضارية الحقة ، ونقف على النكسات ومظاهر الانهيار ·

ومن هنا نعود الى الخلدونية فنقول انها منطلق لبناء علمى يردنا الى انشاء علوم اجتماعية اسلامية تتعدى اهتمامات ابن خلدون الى دراسة عالمنا الحاضر فى تناقضاته وصيرورته الخاصة · ومن مزايا هذا المفكر الرائد

أنه حقق بناء نسق ثقافى قد سبق فيه طموحنا الى تكوين علم انسانى متكامل منسجم ٠ والسبب فى ذلك عقيدته الاسلامية كما ترى ٠

ومن قواعد هذا العلم الخلدونى الذى هو العمران : اعتبار الانسانية انسانية واحدة فى اي مكان أو أي عصر وجدت ٠

ورغم التنوع الاجتماعى فان المجتمعات كلها مؤهلة للحضارة والتقدم ، حتى انها لتنتقل من البداوة الى المدنية المبدعة فى سرعة البرق ، ودون وسائط الاطوار الحتمية المتسلسلة ٠

ومن مزايا العمران أيضا أنه ينظر الى الوجود الانسانى وجودا كليا متماسكا لا فرق فيه بين النشاط المادى والنشاط الفكرى ، فالصناعات فكر ، والعلم صناعة ، والاقتصاد ابداع وخلق انسانى عن وعي ، والثقافة لا توجد الا ضمن المؤسسات المادية مثل المدن والامصار ٠

ومن مزاياه أيضا هذا التوازن بين الفكرى العلمى التجريبى والفكر الدينى الذى تمتاز به الحضارة الاسلامية حتى ان الدين يعد وازعا للعلم ، وأن العلم يعد معززا للدين ٠

فلا نشعر ضمن التصور العمرانى بأي أزمنة فكرية على مثال ما نشاهده فى الثقافات المعاصرة من الضيق بالوجود والتيه فى الشكوك الفلسفية والصراعات المذهبية ٠

واذا كان علم العمران منطلقا لهذه النظرة الانسانية الشمولية المتوازنة فما أحوجنا اليه كراف دمذهبى لمعارفنا الاجتماعية الاسلامية نقابل به المذهبيات الاجتماعية الاخرى المشبعة بالصراعات والعرقيات ٠

هذا هو معنى وجو دعلوم اجتماعية اسلامية ذات أخذ وعطاء وابداع سواء فى جانبها العلمى المحض أو فى جانبها المذهبى السياسى والفلسفى ، ويمكن أن تنطلق هذه العلوم من خلدونية جديدة ذات نزعة نقدية صارمة ، وذات طموح حضارى يتخلص به علماؤنا من التبعية والانكماش ٠

ضوء على تفكيرنا الديني
في مطلع القرن الخامس عشر الهجري

د. محمد الغزالي
أستاذ الشريعة الاسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز
مكة المكرمة – العربية السعودية

الاستعدادات كبيرة لتوديع القرن الرابع عشر واستقبال القرن الذى يليه، وسأشارك فى احتفالات كثيرة تقام لذلك الغرض ، ولكنى – بعد طول تجربة – وجل من أحوال أمتنا ، وقلق مما ينتظرها اذا بقيت على ما أرى ...

بعض المرضى يحتاج الى صدمات كهربائية لتصحيح وعيه ، وايقاظ ما تخدر من حسه ، والمسلمون يحتاجون الى أمثال هذه الصدمات كي يحسنوا الخلاص مما حل بهم ، والسير على نهج يشبه أو يقارب نهج الراشدين من أسلافهم !

ان امتنا الآن جزء كبير من العالم الثالث ، تخلفها الحضارى لا ريب فيه ، ومظاهر التقدم المجلوبة من هنا عارية قد تسترد .

انها ليست افرازا لكيانها الخاص، ولا أثرا لنشاطها الاصيل .

ما الذى أوصلنا الى هذا الدرك ؟ ان التقدم والتأخر ليسا حظوظا عمياء ! ان ما نزل بنا هو نتائج لمقدمات طال عليها الامد وعلل هدت قوانا جيلا بعد جيل ...

وبعض الاجسام يصيبها فى سن مبكرة مرض شديد ، ولكن عافية الشباب تهزمه ، فتكن الجرثومة متربصة الفرص السوانح لتثبت عندما تريد ، ملحقة بالجسم ما تشاء من عطب ...

وأمتنا الكبيرة تعرضت لادواء وبيلة خلال عصورها الخوالى ، وقد قاوم كيانها الصلب هذه الادواء ، وبدا للعين المجردة كأنه سليم معافى ، ولكن الجراثيم الخانسة برزت من مكانها خلال القرون الاخيرة ، فلماذا اصطدمت بنا القوة المعادية للاسلام فضجتنا المعارك فى كل ميدان ، وسقط المسلمون بين المحيطين الاطلسى والهادى وبين أواسط أوروبا وآسيا شمالا ، وجزائر أندونيسيا والفلبين والمحيط الهندى وأقطار ما تحت الصحراء الكبرى جنوبا ...

ان هذا الكيان الاسلامى تهـــاوى تحت ضربات المغيرين ، وأصبح بيـن عشية وضحاها أسيرا تدميه القيـود ، ويرهقه الاذلال ...

لقد حدث هذا ، وكان لابد أن يحدث، لان المسلمين فقدوا أسباب التمكين فى الارض فعصفت بهم الرياح الـهـوج ، ان الرياح مهما اشتدت لا تنقل الجبال ، ولكنها تنقل كثبان الرمال ...

واذا كنـا عـلى أبواب نهضة حقـة فلندرس بدقـــة وبصيـــرة أســـرار ما أصابنا ، فان العافية لا تتيسر بدواء مرتجل ، والنصر لا يجىء باقتـــراح مرتجل ، ان الاسلاف تصدروا قافلـــة العالم بجدارة ، والاخلاف ملأوا ذيـــل القافلة بجدارة أيضا .

وقد تأملت فى أحوال ناس يعملون فى الحقل الاسلامى ، ويتحمسون لنصرة دينهم ، ولكنهم يحملون فى دمائهـــم جراثيم الفوضى القديمة ، والجهالـــة المدمرة ، فأدركت أن هؤلاء يتحركـون فى مواضعهم ، وأنهم يوم يستطيعون نقل أقدامهم فسيتجهون الى الوراء لا الى الامام ، وسيضيفون الى هزائمنا الشائنة هزائم قد تكون أنكى وأخزى ...

من أجل ذلك رأيت استثارة الهمـــم لبدء نهضـــة واعيـــة هاديـــة تعتصـــم بالوحي الاعلى ، وتتأسى بالرســـول وصحبه ، وتنتفع بتجـــارب القـــرون الاربعة عشر التى مرت بنا .

قد تقول وهل يخالف أحد فى هـــذا حتى تتناوله بالغمز واللمز ؟

وأجيب : ان أحدا لن يجرؤ على هذه المخالفة بقوله ، ولكنه بفراغ فكره أو فساد باطنه قد يجر الكوارث عـــلى الكتاب والسنة ، ولا يزيد الطـيـن الا بلـــة ...

الفساد السياسى مرض قديـــم فى تاريخنا ، هناك حكام حفروا خنـــادق بينهم وبين جماهير الامة لان أهواءهم طافحة وشهواتهم جامحة ، لا يؤمنـــون على دين الله ، ولا دنيا الناس ، ومـــع ذلك فقد عاشوا آمادا طويلة .

وقد عاصرت حكاما تدعو عليهـــم الشعوب ، ولا تراهم الا حجارة عـــلى صدرها توشك أن تهشمه ، انتفع بهـم الاستعمار الشرقى والغربى على سواء، فى منع الجماهير من الاخذ بالاســلام والاحتكام الى شرائعه ... بل انتفـع بهم فى افساد البيئة حتى لا تنبت فيها كرامة فردية ، ولا حرية اجتماعية أيـا كان لونها ، ومع هذا البلاء فقد رأيـت منتسبين الى الدعوة الاسلامية يصورون الحكم الاسلامى المنشود تصويرا يثير الاشمئزاز كله ، قالوا : ان للحاكم أن ايأخذ برأي الكثرة ، أو رأي القلة ، أو يجنح الى رأي عنده وحده ...!

أهذه هي الشـــورى التى قررهـــا الاسلام ؟ فما الاستبداد اذن ؟

ووضع بعضهم دستورا اسلاميـــا أعطى فيه رأس الدولة سلطات خرافية لا يعرفها شرق ولا غرب ، وعندما تدبرت هذا الكلام وجدت أن معايب ثلاثا تلتقى فيـــه .

سوء فهم لمعنى الشورى ، وغباء مطلق فى انشاء أجهزتها المشرفة على شؤون الحكم ، ثم عمى عن الاحداث التى أصابت المسلمين فى اثناء القرون الطوال والتى نشأت عن أثناء استبداد الفرد ، وغياب مجالس الشورى ، ثم جهل بالاصول الانسانية التى نهضت عليها الحضارة الحديثة ، والرقابة الصارمة التى وضعت على تصرفات الحاكمين ·

فاذا استقبل المسلمون القرن الخامس عشر ، وفهم عدد منهم لوظيفة الحكم لا يتجاوز هذا النطاق العقيم ، فكيف تسير الامة وأين تتجه ؟؟

ان الفقه الدستورى فى أمتنا يجب أن تنحسر عنه ظلال الحجاج ، وعبيد الله بن زياد ، وملوك بنى العباس ، وسلاطين آل عثمان ···

ويجب أن يمنع الخوض فيه شيوخ يقولون : ان الرسول افتات على الصحابة فى عمرة الحديبية ، فمن حق غيره أن يفتات على الناس ، ويتجاوز آراءهم (هذا الضلال فى تصوير الاسلام يفقد الاسلام حق الحياة) والمعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم احترم الشورى ، ونزل على حكمها فيما لا وحي فيه ، وأن قصة الحديبية تصرف فيها الرسول (ص) على النحو المروي لما حبس ناقته حابس الفيل ، وأحس أن الله يلزمه ، بمسلك يجنب الحرم ويلات حرب سيئة ، فكيف يجيء من يعطى الرؤساء حق الحرب والسلام ، بعيدا عن الشورى ·

لان الرسول فعل ذلك يوما ما فى مكة التى يعلل القرآن منع الحرب فيها بقوله : **« وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن اظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا ، هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما »** ·

وظاهر أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتجه مع توجيه السماء له ، وظاهر كذلك أن الشورى تكون حيث لا نص يوجه ، وان الامة هي مصدر السلطة حيث لا نص بداهة · ويؤسفنى أن الكلام عن تكوين الدولة عندما تعرض له أقوام على حظ كبير من الطفولة العقلية ، أو على حظ من الزلفى يكسبون منه الدنيا ويفقدون به الايمان ، واصلاح أداة الحكم وأصله الاول يحتاج الى فقهاء أتقياء أذكياء ···

والاوضاع الاقتصادية فى عالمنا الاسلامى تحتاج من أعصار طويلة الى النظر الفاحص والقلب النقاد ·

وكثيرا ما تساءلت : الى متى يظل التنفير من الحرام شغل واعظ ناصح ، أو وصية مرب مخلص ؟؟

ما أقل جدوى ذلك الكلام فى مواجهة الغرائز المريضة والامانى السيئة !

لو أننا جئنا الى كل ميل مربع من الارض الممهدة للزراعة ، أو المعدة للبناء، وتساءلنا أمن الحلال تم تملكه أم من الحرام ؟ لكان الجواب مفزعا ٠

ان تاريخ التملك أو واقعه المعاصر يشهد بأن كفة الشر أرجح ، وأن المسلمين من أفقر أهل الارض الى قوانين صارمة تحرس قيمهم الدينية ، ونصوصهم السماوية ، وما يقال فى ملكية الارض يطرد فى سائر الاموال ٠٠!

ثم لماذا تبقى محاربة البطالة ، والبأساء ، والضراء خاضعة لتطوع أفراد بأداة الزكاة وبذل المعونة ؟ لقد كان من أول أعمال الدولة الاسلامية ـ بعد حراسة الايمان ـ أخذ الزكاة ٠ وهذا ما عزم عليه الصديق ، وتابعه فيه بقية الصحابة ٠٠٠

ومعنى الاخذ من الاغنياء أن الدولة هي التى تتولى الانفاق فى المصاريف المقررة ٠٠٠ وانها مسؤولة عن رعيتها أمام الله ، وأمام جماعة المسلمين ، وسؤال آخر له خطره ، وتجاربنا نحن المسلمين مع الزمن توحى بتوجيهه الى كل ذى لب ٠٠ هل راقبنا سير المال فى المجتمع وطرق تداوله بين شتى الطبقات، ومساوىء تكدسه فى ناحية وافتقار ناحية أخرى منه ، أو نواح كثيرة ؟

وهل أدركنا آثار الترف المادى فى انتهاء الوجود الاسلامى بالاندلس مثلا وعملنا على عدم تكرار المأساة ٠٠٠

ان المال قوام الحياة وسياج المروءة، وعندما يكون دولة بين جماعة من الناس فان نتائجه مدمرة ، اذ الجوع كافر ، وحقد المحرومين قاتل ، وهل انتشرت الشيوعية الا مع هذه الخلخلة التى أحدثها العصيان لاوامر الله واعتداء حدوده ؟ فحتى متى يسترسل المسلمون مع أخطاء قديمة ؟

لقد رأيت فى أوروبا وأمريكا دولا شتى تشرع قوانين دقيقة لضبط سياسة المال والحكم ، وذلك لانها تعرضت لنزوات الجور والاثرة والطغيان ، وكما قال الشاعر :

والظلم من شيم النفوس فان تجد

ذا عفة فلعلة لا يظلم

فاذا وجدنا مجتمعات بشرية حصنت نفسها من هذه المآسى ، فلماذا لا نقتدى بها أو نقتبس منها ٠

قال لى البعض : هذا ما نخافه منك ، انك تستورد الاصلاح من منابع بعيدة عن ديننا وتراثنا ، ونحن أغنياء عن مقترحاتك تلك ٠٠ !

قلت : تمنيت لو كانت غيرتك هذه فى موضعها ! اننى معتز بدينى ولله الحمد ، ولكن ليس من الاعتزاز بالدين أن أرفض الجهاد بالصواريخ والاقمار الصناعية لانها بدعة ٠٠ ان التفتح العقلى ضرورة ملحة لكل من يتحدث فى الفقه الاسلامى ٠

اننا فى صمت نقلنا تسجيل كـــل مولود فى دفاتر خاصة ، واستعنا بذلك على تحصينه من الإمراض ، والحاقه بمراحل التعليم ، واقتياده للجيش لكي يتم تدريبه واعداده للقتال ، وذاك اجزاء نقلناه عـن دون أخـرى دون حرج ، فلماذا يمنع الفقيه المسلم من قبول كـل وسيلة أصيلة أو مستوردة لتحقيـــق الغايات التى قررها دينه ؟

ان النقل والاقتباس فى شؤون الدنيا، وفى المصالح المرسلة ، وفى الوسائــل الحسنة ليس مباحا فقط ، بل قد يرتفع الآن الى مستوى الواجب ...

ثم ان الدين فى باب المعاملات مصلح لا منشىء كما يقول ابن القيم ، انه لم يخترع البيع أو الزواج ، وانمـا جاء الى هذه العقود فضبطها بتعاليمه !

فللبيع مثلا بايجاب وقبول ، ولا يجوز فيه الغش ، أو الرباء أو الاحتكار .. الخ

والزواج مثلا بايجاب وقبول ، لا يجوز فيه الاتصال بالمحارم ، ولا الافتيـــات على الولي ، ولا ترك الاشهاد الخ .. وفى شتى المعاملات اذا تحققت المصلحة فثم شرع الله . ـ فما الذى يمنعنـــا نحن ـ الذين جمدنا فقهنا ، وأغلقنـــا باب الاجتهاد ألف عام ـ أن تنظـــر فى الوسائل التى اتخذها غيرنـا لمنـــع الفساد السياسى ، أو منع الاعوجـاج الاقتصادى ، ونقتبس منها ما لا يصادم نصا ولا يند عن قاعدة ؟

الحق ان التوقف فى هذا المجال ليس الا امتداد للكسل العقلى الذى سيطـــر على مسيرة الاسلام التاريخية أمـــدا ليس بالقصير .. !

وهناك تقاليد اجتماعية لابد من اعادة النظر فيها لتستقيم مع ديننا وأحكامــه الصحيحة ، وهي تقاليد تصل بوضـــع المرأة وتكوين الاسرة ...

اننى أحد الذين حاربوا تقاليد الغرب الجنسية ، وجاهليته الدميمة فى اشباع الغرائز من الحرام .

وقد وقف وقفة فى وجه الذين يحاولـــون نقل هذه التقاليد الى بلادنا وقفة جرت علي المتاعب واننى لراض كل الرضـــا عما أصابنى فى هذا الميدان . لانـــه فى سبيل اللـــه ...

الا أنه حدث ما جعلنى أطيل الفكرة فى العلاقة بين الجنسين ، ومكانة المرأة فى بنائنا الاجتماعى لقد رأيت البعـــض يؤكد أن المرأة فى الاسلام قعيدة بيتهـــا لا تخرج منه أبدا الا الى الزواج أو الى القبـــــر ...

قلت : أهذا هو البديل الاسلامى عن حالة المرأة فى الغرب ، بشقيه الشيوعى والرأسمالى ؟ لا ، الاسلام غير ذلك . ان قرون التخلف التى مرت بنا انتهت فى القرن الماضى بوضع للمرأة المسلمة به لا يقول فقيه مسلم !

لقد رأيت المرأة فى بلادنا لا تدخـــل المسجد أبدا ، بل فى قرانا ، وكثير مـــن المدن كانت المـــرأة لا تصـــلى وهي الى

جانب هذا الحرمان الروحى كان التعليم محرما عليها فما تدخل مدرسة أبدا ... وقلما يؤخذ لها رأي فى الزواج ، ويغلب أن يجتاح ميراثها ، واذا انحرف الشاب تسوهل معه أما اذا انحرفت المرأة فجزاؤها القتل !

هل هذه المعالم المذكورة لحياة المرأة تنسب الى الاسلام ؟ الله يعلم ان الاسلام برىء من هذه التقاليد ، كما هو برىء من المفاسد الجنسية فى أوروبا وأمريكا .. ! ومع ذلك فان منتسبين الى الاسلام وعلومه يرتضون هذه الاحوال أو لا يتحمسون لتغييرها ، واذكر انى كنت ألقى محاضرة فى اليوم العالمى للمرأة . فلما قلت : ان وجه المرأة وصوتها ليسا بعورة حدثت ضدى مظاهرة صاخبة ، وسمعت طالبا يقول لزميله : كنا نحسن الظن بهذا الرجل فاذا هو شر من قاسم أمين ولست – ولله المنة – مفرطا فى دينى ، ولكنى مشفقا على حاضره ومستقبله من الجهال والقاصرين الذين لا سيما واتتهم فرص فتحدثوا عنه ، وتكلموا باسمه، وأسوق قصة وقعت فى مؤتمر مسيحى اسلامى انعقد فىاستراليا هذه السنة 1399 هـ رواها الدكتور حسن با جودة رئيس قسم الدراسات العليا العربية كلية الشريعة قال : نظرت فوجدت امرأة فى سمة عفريت داخل قاعة المؤتمر ، كانت مغطاة من أعلاها الى أدناها مستخفية الوجه واليدين تطل على الجمع من وراء ثقبين فى نقاب الوجه عليهما غطاء من زجاج أو باغة قلت ما هذا ؟ قالوا : سيدة نصرانية تحتج على ظلم الاسلام للمرأة ، فارتدت هذا الزي الشرعى (! .) عند المسلمين لترى النساء فى أستراليا ما يعده الاسلام لهن اذا انتشر فى هذه القارة الجديدة .

وقال لىأحد المبعوثين فى لندن – ان رجلا انكليزيا أبدى اعجابه بالاسلام ثم قال : لكنى أذهب مع امرأتى يوم الاحد ، فأين تذهب امرأتى اذا كنتم تمنعونها من المسجد فلا تدخله طوال الاسبوع ...

قلت : ما حدث فى أستراليا وفى انجلترا حجة على المسلمين وليس على الاسلام ، فليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله أن وجه المرأة عورة يجب أن تستر ، ولا فى كتاب الله أو سنة رسوله أنها تمنع من دخول المساجد ، ان ناسا عليهم الهوى الجنسى هم الذين شوهوا هذه التقاليد بعدما تعسفوا فى شرح الآية بتفاسير مرفوضة ، تفاسير لم يقل بها واحد من الائمة الاربعة الذين انتشر فقههم فى طول البلا دوعرضها ...

وقد دهشت لان عالما من شنقيط – وهو قطر مالكى المذهب – وقف فى المسجد النبوى يقول أثناء القاء درس له : ان مالك بن أنس يقول : ان وجه المرأة ليس بعورة ، وأنا أخالف مالك

ابن أنس ... ! قلت : ليس مالك وحده الذى يقول ذلك ، بل سائر الائمة الاربعة ، الا رواية واهية عن أحمد بن حنبل تخالف المقرر من مذهبه كما حكى ذلك ان قدامى الحنبلى ، والشيخ الشنقيطى ، غفر الله له ، حين يخالف أو يوافق ما يقدم ولا يؤخر . وذكرت قول الشاعر :

يقولون هذا عندنا غير جائز
ومن أنتم حتى يكون لكم عند ؟

ان التربية الرشيدة الناضجة هي الضمان الاول لكل نهضة ، والبيت هو المدرسة الاولى لتلك التربية . وعندما تكون المرأة صفرا في العقل والقلب ، لا ثقافة فى مدرسة ، ولا عبادة فى مسجد ، فمن أين نحقق التربية المنشودة ؟

انه لا مجتمع يصلح عندما تكون المرأة حيوانا يحسن تقديم الاكل والمتعة ... وحسب ! والانهيار الذى عرض لامتنا فى العصور الاخيرة يرجع الى أسباب علمية ، واقتصادية ، وسياسية كثيرة . بيد أن فقدان التربية السديدة ، والاخلاق الصلبة يرجع الى العوج الهائل فى وسائل التربية . وأول ذلك المرأة المخرفة الغافلة ، والبيت الساذج المحدود ...

لقد كانت النساء فى العصر الاول تصلى فى مساجد خاصة بهن ، حتى جاء أخيرا من يمنعهن اداء الفرائض فى بيوت الله ، وكن يبايعن الامام على نصرة الاسلام ، ومكارم الاخلاق ، حتى جاء من يقوم بتجهيلها عمدا فى قضايا الاسلام الكبرى ، ومكافحة أعدائه المتربصين به . وقال لى رجل - ممن يرون سجن المرأة - نحن نعلمهن كل شىء ، ولا يخرجن من بيوتهن ! .

فقلت له : اننا نغرق فى محاولات مضنية لرفع مستواكم الفكرى ، ولا نكاد ننجح ! . فكيف نأمنكم على وظائف التربية والتعليم ؟

ثم هذا الذى تقوله ، أما كان محمد وأصحابه يعرفونه عندما فتحوا المسجد للمرأة ، وأذنوا لبعضهن بالمسير مع الجيش ؟

ان الاسلام لا يؤخذ من أصحاب العقد النفسية ، سواء كانت غيرتهن عن ضعف جنسى ، أو شبق جنسى ، ان الاسلام يؤخذ من كتاب الله وسنة رسوله ، والمجتمع الذى يصنعه الكتاب والسنة يجعل المرأة تلد ذريات مشرفة ، باهرة الاخلاق ، لا دابة تلد حيوانات ...

وضرورة الانتفاع من عبر الزمان ، ومر القرون ، تقودنا الى حديث عن الثقافة الاسلامية السائدة ، وجراثيم الاسترخاء والغناء التى تسرح فيها ...

وهذه الثقافة اختلطت بها عناصر سامة من جهالات الدهماء ، وأهواء الخاصة ، وخرافات أهل الكتاب ، وزيغ الجاهليات القديمة ، وايحاءات الحكام الطاغيين ...

وكم أذكر حاجة المسلمين بين الحين والحين الى علماء نقدة من الصنف العبقرى الذى قال فيه الرسول الكريم : (يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين) .

وكما اختلطت بالثقافة الدينية هذه المواد الضارة ، فانها نقصت أجزاء مهمة لتكون صورة صحيحة للقيم والغايات الاسلامية ...

وهذا النقصان هو السبب فى اضمحلال العلم الدينى داخل حدود العالم الاسلامى وخارجه ... ولا أريد الآن ضرب أمثلة كثيرة من علوم الكلام والتفسير والحديث والفقه ، فان الامر فى هذه الميادين يحتاج الى مؤتمرات تنعقد باستمرار لمصادرة الزوائد المؤذية ، واستكمال العناصر المفقودة ..

وانما اضرب المثل من علمين شعرت – وأنا أحدث الجماهير – بمدى عجزنا فيهما ، الاول علم التاريخ ، والثانى علم الدعوة ، ان التاريخ يسجل الوقائع ويستخلص منها العبر ... وعلم التاريخ الاسلامى فى كلا المجالين مقصر .

ونظرة عجلى الى الاربعة عشر قرنا التى غبرت ، والى الاقطار الفيحاء التى انداح فيها الاسلام ، خلال هذه المدة الطويلة ، ونظرة أخرى الى الهزائم والانتصارات ، وظروف التقدم والتأخر التى عرضت لهذه الامة ، تبرز بقوة أن علم التاريخ لم يتناول الا مساحة محدودة من الزمان والمكان، وأن حساب الارباح والخسائر مضطرب حينا ، ومعدوم حينا آخر ، وأن محاكمة الاشخاص والاشياء الى المثل الاسلامية بل ان الوحدة الجامعة للامة كلها على اخلاف الاعصار والامصار تائهة فى هذا التاريخ الطويل ...

كأن الامر قصة مؤسسة افتتحت لها فروعا فى عواصم عديدة ، ثم طال الامد ، ونسى الاصل ما تفرع عنه هنا وهناك ... ! ؟

ولولا لقاء الحجيج فى مكة ما عرف مسلمو (دكار) (ولاجوس) على المحيط الاطلسى أن لهم اخوة فى (أندونيسيا) والفلبين على المحيط الهادى ... ! !

أين التاريخ الذى يعرض هذا الكيان الطويل العريض فى نسق واحد وصفحات متقاربة ؟ عندما كان تاريخ الاسلام سنين عددا كان الصحابة يروون أولادهم مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلاقة هذه الامة بغيرها ، فلما طال التاريخ وجد نفسه من الرجال قد يروون الجد والهزل ، وقد يعقبون بعبر قليلة أو لا يعقبون ، ثم عجز التاريخ عن ملاحقة التحرك الاسلامى ، ثم عجز اقبح العجز عن لفت الانظار الى غارات العدو على هذه الامة ، (فاذا الفلبين) مثلا تضيع منا فى صمت ، وهذا العدوان

جلبته الصليبية الغازية لشرق العالم الاسلامى ، ووضعته على مجموعة الجزر القريبة من أندونيسيا ، وكانت هذه الجزر اسلامية مائة فى المائة ! ثم أخذ الغزو النصرانى يلح عليها ويتغلغل فيها قرنا بعد قرن ، حتى وضع عليها اسم فيليب الثانى ملك اسبانيا ، ومضى التنصير فى طرقه الدامى ، ومنذ قرن كان المسلمون نصف السكان ، وهم الآن عشر السكان ، والمراد الاجهاز عليهم واستئصال بقيتهم ·

ماذا كان يصنع الترك والعرب خلال هذه الحقب المشؤومة ؟ أين كتاب التاريخ والمعلقون على أحداثه الكبرى ؟

هل سكتوا كما سكت اخوان لهم من قبل بعد كارثة الاندلس ···

عندما كنا طلابا درسنا للشيخ الخضرى محاضرات عن التاريخ العباسى ، وضعها رجل ذكي بصير ، ساق الاحداث بين يدى شرح ضاف للصعود والهبوط ، والنصر والهزيمة ، قلت : ما أحوج أمتنا الى مثل هذا المؤرخ يلقى الضوء على تاريخها كله طوال أربعة عشر قرنا ، متناولا بقلمه الكشاف أبعد هذا التاريخ على خطوط الطول والعرض ، وأجناس الدول التى صنعته أو شاركت فيه ·

ان ذلك لزاما علينا حتى نواجه الردة المجنونة التى وقفت بتاريخ الاسلام العام وجعلت العرب يصنعون لهم تاريخا ، والترك تاريخا ، والعجم تاريخا ، والهنود تاريخا ··· الخ · ان التاريخ لرسالة واضحة الهدف ، انتظمت أجناسا شتى ، وعاشت أعصارا متطاولة ، رسالة مفروض أن تبقى الى آخر الدهر ، ان هذا التاريخ يجب أن يكتب بأسلوب أجمع ، وافق أوسع ··· مما هو الآن !!

ذلك عن علم التاريخ ·· ما الدعوة الى الاسلام فشأنها عجيب ···

فى عصرنا الحاضر توجد أنواع من الاعلام تخدم بذكاء ودهاء ألوانا شتى من الالحاد والانحراف ، والاجهزة الخادمة للشيوعية والصهيونية والصليبية بلغت من النجاح حدا كاد يقلب الحق باطلا ، ويجعل النهار ليلا ···

أما الاسلام فان الجهود الفردية التى بلغت رسالته من قديم لا تزال تواصل عملها بكلل وقصور · وأكاد أجزم بانه لولا عناية عليا ما بقى للاسلام اسم ولا كتاب ، فان أجهزة الدعاية الاسلامية وهم كبير ، حتى بعد قيام جامعات كبرى على الاهتمام بعلوم الدعوة وطرائق نشرها ···

معروف أن الدعوة الى الله عبادة يقوم بها المسلم القادر مرضاة لربه ، وابتغاء ما عنده ، وقد نشط أفراد كثيرون لتبليغ الاسلام فى أرجاء العالم ، وشرح صدور به كانت مغلقة،

والجهد الفردى مهما قارنه من اخلاص قليل الثمر ، انه يشبه نشاط التجـــار الصغار أمام الشركات الكبرى .

أين عمل الحكومات الاسلامية ؟ وأين ما وضعته من خطط لنشـــر رسالـــة عاليـــة ؟

ان الفساد السياسى عنـدنـا كـان السرطان الـــذى أودى بحضارتنـــا ورسالتنا خلال قرون مضت .

ان حكامنا كانوا القشرة العفنة فى كياننا من زمن بعيد .. !!

ولكي نعرف الفـــروق بيـن نشـاط نلفت النظر الى أن الفاتيكان استطـاع باجهزته المنظمة أن يجعل عشرين دولة فى أمريكا الجنوبية تتبع مذهبا واحدا ، وتنطق لغة واحدة ، أما نحن ففى الشام وحده جمدنا نحلا داخل الكيان الاسلامى، أو وفرنا لها النماء المستغرب ، فبقيت النصيرية ، واليزيدية ، والدرزية الى جانب اليهودية والنصرانية ، بقيت داخل قطر اسلامى واحد ألف عام !

أين أجهزة الدعوة ، بل أين أجهـزة التعليم العادى ؟؟

وكان فى الهند عشرات الملايين مـن المسيحييـــن ، هل فكـرت الحكومـات الاسلامية فى اجـتـذاب هـــؤلاء الى الاسلام ، وحركـت العلـمـــاء لدرس أحوالهم وكسب جانبهم ؟

ان ما كان على الدولة أن تقوم بــه نهض به أفراد احتسابا ، ولا ننكر نجاحهم فى توسيع دائرة الاسلام شرقا وغربا ، لكن الافراد قد ينجحون فى نشر الاسلام لسهولة تعاليمه ،ومواءمته للفطـــرة ، بيد أنهم يعجزون عن تعاليم اللغة العربية، وتيسير قواعدها ، ونشر أدبهــا . ان ذلك يحتاج الى هيئات منظمة .

والعرب الآن سبع أو ثمــن مسلمى العالم الاسلامى ، وقد نشأ عن توقف العربية وعجز اللهـجـات المحليـة أن اهتبل أعداء الاسلام الفرصة ، فقاموا بعملين مهمين عميقى الآثار .

- الاول نشــر اللغات الاوروبيـــة خصوصا الانجليزية والفرنسية .

- الثانى كتابـة اللغات القوميـــة بالحروف اللاتينية ، ومــعنى ذلـك أن ما كتب باللغات المحلـيـة والحـروف العربية عن الاسلام خلال ألف عـــام أمسى لا قيمة له .

انقطعت صلة الاجيـــال بـــه ... ويسهل الطريق أمام هؤلاء ليتصلـــوا بثقافات وديانات أخـرى عن طريـــق اللغات العالمية التى تساندها الـــدول الاستعماريـــة !!

هذا جانب من عجزنا عن تبليـــغ دعوتنا ، أما علم الدعوة نفســـه ، وتكوين الدعاة الاكفاء لما يناط بهـم ، فالكلام فيه مر المذاق ، وربما كان فى حديثنا المستأنـــف مـا يشـير الى ما نقصـــد .

نظرت بعيدا عن دار الاسلام ، وراقبت زحام الفلسفات والملل التى تتنافـــس

على امتلاك زمام العالم ، فوجـــدت الاعلاميين أو الدعاة يختارون من أوسع فكرا وأرقهم خلقا ، وأكثرهم حيلـــة فى ملاقاة الخصوم ، وتلقف الشبهات العارضـــة ٠٠٠

حتى البوذيـة ـ وهي دين وثنى ـ رزقت رجالا على قدر خطير من الايمان والحركة ، لقد طالعت صورا لرهبـــان يحرقون أنفسهم فى (فيتنام) ليلفتـوا الانظار الى ما يصيبهم من اضطهـــاد وعرتنى رجفة لجـلادة الرجال والنساء الذين يفعلون ذلك !

فلما رجعت بصرى الى ميدان الدعوة فى أرض الاسلام غاص قلبى الكـآبة ! كأنما يختار الدعاة وفق مواصفات تعكر صفو الاسلام ، وتطيـح بحاضـــره ومستقبلـــه ٠٠٠

وما أنكر أن هناك رجالا فى معادنهم نفاسة ، وفى مسالكهم عقل ونبل ! بيد أن ندرتهم لا تحل أزمة الدعـــاة الـتى تشتد يوما بعد يوم ٠٠٠

والغريب أن الجهود مبذولة لمطاردة الدعاة الصادقين ، والقضاء عليهم ، وترك المجال للبوم والغربان تنعق فى الاندية والمساجد ، ووراء ذلك مخطط استعمارى مدروس بدهاء ، تنفـــذه الحكومات المدنية بدقة ، حتى لا يبـقى للاسلام لسان صـدق ، وحـــتى تبقى العقـول المختلطـة هي التى تحتكـــر الحديث عن هذا الدين المظلوم !

ويوجد الآن شباب وشيوخ يعملـون فى ميدان الدعوة ، أبرز ما يمتازون به الجهل بالنسب التى تكون معالم الدين، وتضبط شعب الايمان !

تصور تلميذا يقال له ارسم خريطـة الجزيرة العربية ، ووضـــح مكـــان الحرمين بها ، فاذا هو يرسم الخريطـة وليس بها الا الربع الخـالى ، فـاذا سألته وأين مكان الحرمين وضـــع نقاطا بين تبوك والاردن !

أو تلميذا يقال له : ارسم خريطة لنهر النيل فاذا هو يجعل فرعى الدلتا يبدءان من الخرطوم لا من القاهرة ، ان كـــلا التلميذين ساقط لا محالة فى هـــذا الاختبار ، فما الرأي اذا اختير كلاهما مدرسا للجغرافيا ؟

أعداد غفيرة من المتحدثين فى الدعوة يشبهون هذا المدرس الجهول ٠

قضايا صغيرة تتضخم فى رؤوسهم، وقضايا تستخفى ! وحماس فى موضع البرود ، وبرود فى موضع الحماس !

كنا ضيوفا عند أحـد الناس فسكب فى يـدى قطرات مـن ماء الكلونيـا ، فاذا أحد الدعاة يصرخ : حرام نجس !

فقلت له : دعنىورأيىى ، ان مالكـا رضي الله عنه يرى ريق الكلب وعرقه طاهرين ويراها غيـره نجسيـن ٠٠٠ فلنتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعــذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه ٠

فقال : اليـد التى بها (كلونيـا) نجسة ، وتحرم مصافحتها ! وعلمت أنى

أحدث من لا يستحق المحادثة · ورأيت طالبا فى القاهرة يريد أن يدخل كلية الطب بجلباب وقلنسوة ، وسألته : لم هذا الشذوذ ؟ قال : لا أتشبه بالكفار فى ارتداد البذلة الفرنجية ! قلت التشبه الممنوع يكمن فى انحلال الشخصية ، واعلن التبعية النفسية والفكرية لغيرنا، ولقد لبس الرسول (ص) جبة رومية كانت ضيقة الاكمام ، فلما أراد الوضوء أخرج ذراعيه من أسفل ، ولكن الطالب الاحمق أبى وترك الدراسة الجامعية ، وكنا يوما فى حفل جامع وكنت ألقى محاضرة ذات بال فى موضوع خطير، ورأى أحد ــ الصحافيين التقاط صورة للجمع الحاشد ، ولكن داعية نهض يمنع التصوير ، فلما أصر الصحافى على المضي فى عمله اتجه الداعى الى الآلة ليكسرها ، وجاءنى الواعظ الغيور يسألنى : لماذا لم تمنع التصوير ؟ قلت : لانى أراه حلالا ! قال : ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم : ان أشد الناس عذابا المصورون ؟ قلت : انه يعنى صانعى التماثيل للعبادة ، ولا يتصور أن يكون هذا الصحافى أشد عذابا من الزناة والقتلة والمرابين والظلمة ···

قال : الحديث عام فلماذا تخصصه ؟ قلت : خصصه الواقع الذى لا يمكن تجاهله · فالوثنيون كانوا يعبدون أصناما مجسمة ولم يعبدوا صورا شمسية ، وعندما تكون الصورة الشمسية لصنم أو لصليب أو لمعنى دينى مرفوض فسنحرمها ، أما التقاط الصوت فى شريط مسجل ، أو التقاط الظل والملامح على ورقة لاغراض علمية أو اجتماعية فلا علاقة له بالوثنية ، ولا يحكم عليه بتحريم ، بل هو كما نبه مسلم فى صحيحه (الا رقما فى ثوب) قال : هذا الكلام مردود ، ومحاضرتك عن ــ الوحدة الاسلامية وعن التناحر بين المسلمين لا تقبل ، ما دامت مقرونة باقرار التصوير ! وشعرت بأننى أتكلم مع حيوان · وأحيى آخرون السنة النبوية بالاكل على الارض ، واستخدام الايدى ، رافضين الاكل على الموائد ، واستعمال الشوك والملاعق ···

قلت : من قال : ان الاكل على المائدة، أو استخدام الملاعق مخالف للسنة ؟ ان فهم هؤلاء الناس الدين غريب ، واثارة هذه القضايا التافهة مرض عقلى ، ان المؤامرات تستحكم يوما بعد يوم لاغتيال الاسلام أو الاجهاز عليه جهزة · فكيف يشتغل قوم بهذه الصغائر ؟

ورأيت يوما رجلا حليق الشارب والرأس وله لحية مشوشة فساورنى خاطر أنه قادم من عمرة ، واحترمت فى نفسى هذا المنظر ، ولكنى أعدت النظر فى هيئته فوجدته مكحل العينين ، وثوبه الى نصف الساق أو أعلى ، ولعمامته ذيل يغطى قفاه وينسدل على ظهره ···

فقلت : هذا رجل من المنتسبين الى الدين والحديث فيه (وهو بهذا الصمت يرى أنه جمع المجد من أطرافه كلها) ··

ورمقته ، ثم تشاغلت عنه ، ولكنه جاء يسألنى بأدب : أنت فلان ؟ فقلت : نعم ! قال : قرأت رسالة وزعت علينا تصفك بأنك تهاجم السنة ! وأنك مع الشيخ أبى رية فى تكذيب الاحاديث !! قلت : وقعت هذه الرسالة فى يدى ...!

قال : ما رأيك فى هذه التهم ؟ قلت : ما رأيك أنت ؟ هل قرأت لى كتابا ؟ قال : نعم ، قرأت كتابك خلق المسلم قلت : فى هذا الكتاب وحده أكثر من ألف حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم، وفى فقه السيرة وكتابين آخرين نحو ألفي حديث ، فاذا أثبت رجل فى عشر مؤلفاته نحو ثلاثة آلاف حديث فكيف يتهم بتكذيب السنة ؟

قال : انك رددت حديثا صحيحا رواه البخارى ومسلم ، وهو أن الرسول أغار على بنى المصطلق وهم غارون ! قلت على عجل : لقد رددت الفهم الذى استقر فى ذهن بعض الناس لما قرأ هذا الحديث ...

لقد فهم أن الرسول يأخذ الناس على غرة ، ويغير عليهم دون أن يدعوهم الى الاسلام كأنه قاطع طريق يطلب الغنائم ...

وعلماء المسلمين قاطبة قرروا أنه لابد من الدعوة قبل القتال ، وكاتب الرسالة التى هاجمتنى يرى أن الحرب الاسلامية لا يسبقها عرض دعوة ، ولا تنوير ذهن ، يرى أن الدعوة كانت قديما ثم نسخت وأمسى القتال هجوما مباغتاً، أو أخذا على غرة . فهل اذا زيفت هذا التفكير العطن ، أسرع الجهال الى اتهامنا بتكذيب السنة ؟ اننا نحمى السنة من افهام الارذال .

قال : وحديث آخر من الصحاح رددته ، حديث : (انه ما من يوم يجيء الا والذى بعده شر منه) قلت : بل رده حديث آخر : (أمتى كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره) .

وحديث حذيفة الذى رواه مسلم ، وجاء فيه ، أن بعد الخير شرا ، وبعد الشر خير . ومن جملة الاحاديث الواردة فى القضية يفهم أن تاريخ الاسلام بين مد وجزر ، وغربة وايناس ، ونصر وهزيمة .

أما القول بأن الاسلام يسير كل يوم الى الهاوية ، وأن مستقبله مشؤوم ، فقول مكذوب . قال هذا ظاهر الحديث ، قلت : هذا ظاهر فهمكم أنتم لحديث لم تبلغ عقولكم غوره .

بم سينزل عيسى ابن مريم ؟ وحديث نزوله صحيح ؟ أليس نزوله لمقاتلة الصليبيين ونصرة التوحيد وذبح الخنزير ووضع الجزية ؟

ألستم تقرأون هذا فأين الهاوية التى ينتهى اليها الاسلام حتما هل السلفية التى تزرعونها هي اتهام رجل . تكذيب السنة لانه أول حديثا يشعر ظاهره بسوء مستقبل الاسلام ، اي تدين هذا الذى تزعمونه ، وأي دعوة هذه التى تنشرون ...

الحق أن هناك ناسا يشتغلون بالدعوة الاسلامية ،وفى قلوبهم عل على العباد، ورغبة فى تفكيرهم أو اشاعة السوء عنهم ...

ولو كان الامر الي لجعلت هؤلاء أساكفة يصلحون النعال ، أو كناسين يجمعون القمامة .

أما اشتغالهم بالكتاب والسنة فمستوى لن يبلغوه أبدا ...

ان فقههم معدوم ، وتعلقهم انما هو بالقشور والسطحيات ، ان الاكتراث البالغ بالشكل يتم ابدا على حساب الموضوع ، كما ان الاهتمام الشديد بالنوافل يتم على حساب الاركان ، وأذكر أنى دخلت المسجد النبوي عقب أذان المغرب وجلست فى انتظار الصلاة التى قدرت أنها ستقام توا ، فاذا شخص يقول لى : لماذا لم تصل النافلة ؟ فقلت له : ركعتان : ليس واجبا لا الزام هناك ! قال : أعنى تحية المسجد قلت : لا الزام كذلك ، وما هي الا لحظات حتى أقيمت الصلاة وتهيأنا للفريضة ... وقال لى مراقب للحوار : أيمكن أن يكون قبل المغرب أربع ركعات ؟ فقلت له : لا ، وهذا امرؤ يريد الاستطالة علي بغير علم ؛ ولو أنه صرف نشاطه فى تعليم اللغة العربية لرجل أعجمى لكان ذلك أرجى له عند الله) ...

ان هناك مشتغلين بالعلم الدينى قاربوا مرحلة الشيخوخة ألفوا كتبا فى الفروع، وفى المبتدعات ، وأثاروا معارك طاحنة فى هذه الميادين ، ومع ذلك فان أحدا منهم لم يخط حرفا ضد الصليبية ، أو الصهيونية، أو الشيوعية، ان وطأتهم شديدة على الاخطاء بين أمتهم ، وبلادتهم أشد اتجاه الاعداء الذين يبغون استباحة بيضتهم .

بأي فكر يحيا أولئك ؟

تصور شخصا ذهب الى خياط ليصنع له جلبابا ، فهو يقول له : أريد الكم مضاعف الاساور ، واصنع عروة فى كل طرف تكون مكشوفة لتظهر منها الازرار ، لكن بلغنى أن الصيحة الاخيرة مضاعفة العرى وتغطيها ، اصنع لى عروتين فى كل كم وغطها بحيث تخفى من تحتها الازرار !! واذا كان لديك (كباسين) بدل الازرار ربما كان ذلك أفضل ، وقد رأيت البعض يصنع ثلاث عرى لوضع ثلاثة أزرار ماذا ترى ؟ أيكون ذلك خيرا أم ... الخ .

هل الدماغ المشغول بهذه القضايا يصلح لشىء طائل فى الحياة ، أهذا رجل يتماسك فى تفكيره أمر ذو بال ؟ ان أعدادا كبيرة من المتدينين تائهون فى هذه الموضوعات ، وقد استقلت الباكستان من ثلث قرن ، ولكن الخلاف بين الاحناف وأهل الحديث ، وبين التبليغيين ورجال الجماعة الاسلامية ، وبين السنة والشيعة ، وبين فرق أخرى نسيت أسماءها ، هذا الخلاف جعل الهند الوثنية تظهر وتستقر وتفجر الذرة !

أما الدولة المسلمة فهي منكمشة الشمل داخل فنون من النزاع الطائش قصم ظهرها وهدد وجودها !! ، ان هذا الدوخان فى دوامة الرسوم والمظاهر ، أو فى دائرة هيئات العبادة وأقدارها نشأ عنه أمران خطيران ، كلاهما يهوى بالامم من حالق ، ويذهب بريحها ٠

الاول ضعف الخلق ، فقد ترى الرجل دقيقا فى التزام المندوبات الخفيفة ، فاذا كان تاجرا احتكر السلع دون مبالاة ، واذا كان موظفا تبلدت مشاعره فى قضاء مصالح الجمهور ، واذا كان رئيسا وجدته سيء الملكة ، قاسى القلب ، مكشوف الهوى ٠٠٠

وقد ترى العابد من هؤلاء يضع يديه على صدره وهو قائم الى الصلاة، ثم يعيد وضعهما بعد الرفع من الركوع ، ويثير زوبعة على ضرورة ذلك ، فاذا كلفته بعمل ترقى به آلامة اختفى من الساحة !!

وكم تفتقر أمتنا داخل البيوت ، وأوساط الشوارع ، وفى الدكاكين والدواوين وفى الاسواق ، والمعاهد ، وفى كل مكان ، الى الاخلاق الضابطة الصارمة كي تؤدى رسالتها الجليلة على نحو جدير بالاحترام ٠٠٠

أما الامر الثانى فهو العجز العجيب عن فقه الدنيا والاقتدار على تسخيرها لخدمة الدين ، ان الدين الحق تقوى تعمر القلوب ، وجملة من العبادات لا يستغرق تعلمها زمانا ثم مهارة فى شؤون الحياة تتحول مع صدق النية الى وسائل لدعم الحق وسيادته ، ان تعلم الصلاة ــ وهي الركن الاول فى الاسلام ــ لا يستغرق دقائق معدودات ، ولكن التدرب على اقتياد دبابة أو طائرة أو غواصة يحتاج الى زمن طويل ، فبأي فكر يطلع علينا القرن الخامس عشر وجمهورنا جاهل فى فنون الجهاد وبارع فى اللفظ حول تحية المسجد ، ووضع اليدين فى الصلاة ٠

ان هناك علماء ــ هم فى حقيقتهم عوام ــ لا شغل لهم الا هذه الثرثرات والتقعرات ، وقد أضاعوا أمتهم ، وخلفوا أجيالا من بعدهم لا هي فى دنيا ولا هي فى دين ٠٠٠

وقد تأذنت الاقدار بقيام اسرائيل على أرض فلسطين الاسلامية ٠

فهل مددنا أبصارنا لنعرف كيف يحيا القوم وكيف ينصرون اليهودية ؟

لقد بنوا وجودهم على اقامة مجتمع صناعى متمرس بالعلوم المادية ، خبير بأسرار الكون ، يستغل الهواء والشعاع لدعم اسرائيل وتبويئها الذروة ٠٠!

المراوح تستخدم لاستخراج المياه الجوفية ، والشمس تستغل لتسخين المياه ، وجن سليمان ينظرون الى العرب الذين ينشدون اللذة أو العرب المشغولين بقشور العبادة على أنهم قطعان تسرح فى أقطارها الى حين ، لماذا جهلنا أسرار الحياة وعمينا عن قوى الكون

ولدينا كتاب لا نظير له فى لفت الابصار الى هذه وتلك ؟؟

بم شغلنا ؟ وما هي البحوث والقضايا التى حبست أفكار العامة والخاصة ؟ اذا كان الآباء قد شغلهم الترف العقلى ، فان الابناء قد شغلهم السخف العقلى ، فى رسالة عن التقدم العلمى داخل اسرائيل قرأت هذه العبارات عن الدولة التى تبنى نفسها فوق أنقاضنا ٠

قال الكاتب : ان فشلها فى الحصول على طاقة كهربائية رخيصة من المصادر المائية جعل معظم الابحاث العلمية التطبيقية تتجه نحو ايجاد بديل للطاقة الكهربائية مثل الطاقة الهوائية والشمسية ، والذرية ٠

وقال : وقد نجح الجيولوجيون فى ايجاد المياه اللازمة للمزارع القريبة من شاطىء المتوسط ، ويعمل الخبراء فى حفر عدد كبير من الآبار الارتوازية فى منطقتى الجليل ويهودا ، وقد تعاون المهندسون المائيون مع الفيزيائيين فى دراسة حركة مياه بعض الآبار بمحلول مشع ثم أخذوا عينات من مياه الآبار الاخرى القريبة من مركز الحقن ، وحللوها وعينوا كمية تركيز الاشعاع فيها ، وبذلك استطاعوا أن يحسبوا كمية المياه الجوفية واتجاهها وسرعتها، وأن يعينوا عمقها وتركيبها ، كما أنهم استخدموا تطبيقات النظار المشعة فى تعيين واختبار التبخر الكلى والجزئى ، كما ان خبراء الري قد استخدموا أحدث الطرق الفنية فى شق القوات لتحويل مياه الاردن الى صحراء النقب ٠

وقال : نجح الاسرائيليون سنة 1964م فى استغلال بعض الاراضى الصحراوية وتشجيرها ، وأقاموا مزارع نموذجية فى أفدات (Avdat) وشيفا (Shiva) ولا تزال أبحاث مستمرة فى مختبرات معهد أبحاث المناطق الجافة (فى بئر السبع) من أجل تحلية المياه الصحراوية ، وقال : ويستخدم خبراء المائيات طريقة جديدة مشجعة تعرف باسم ـ طريقة زاركين التحلية (Zarkin de Salination process)

نسبة الى اللاجىء الروسى أليكسندر زاركين ، الذى اكتشف هذه الطريقة ، وتقوم هذه الطريقة الجديدة على تجميد مياه البحر وفصل الاملاح آليا ، فعندما ينخفض الضغط الجوى الواقع على الماء فى وعاء محكم الاغلاق يمكن عندئذ جعل درجة غليان المياه أدنى بكثير مما عليه فى الحالة العادية ، وهكذا فان مياه البحر توضع فى غلاية مفرغة من الهواء فى درجة حرارة أقل من درجة الصفر المئوى ، وعندما يتبخر الماء فان الحرارة الباقية فيه تنفذ منه فيتحول رأسا الى جليد ، ولكن الملح لا يتجمد بل ينفصل عن الماء آليا ، حيث يمكن جمع الجليد على حدة ، والملح الذى كان ذائبا فى الماء يجمع على حدة أيضا ٠

وأقيم فى ايلات مصنع لفصل الملح عن الماء على هذا الاساس ، ينتج يوميا : 24000 لتر من الماء العذب ، وقامت تعاونية فيربنكس وينتى (Fair banks whitney)ببناء مصنع آخر عام 1962 م · ينتج يوميا مليون لتر من الماء العذب ، ويهدف المشروع الى تأمين مياه عذبة رخيصة بحيث يكون سعر كل 100 لتر حوالى (3) قروش لبنانى ، وهذا السعر أرخص سعر الماء العذب فى القدس مثلا · وعن الطاقة الكهربائية ·

قال : تتزود اسرائيل بالطاقة الكهربائية بواسطة التعاونية الفلسطينية المحدودة للكهرباء التى تحمل اسم ب روتنبرغ (P. Rutenberg) الذى عمل مديرا لهذه المؤسسة حتى وفاته عام 1942 م ـ وتمون هذه التعاونية اسرائيل بالطاقة الكهربائية ما عدا مدينة القدس وضواحيها ، وتشير الاحصائيات الى أن استهلاك الطاقة الكهربائية خلال الثلاثين سنة الاخيرة قد ارتفع من 2 مليون وات عام 1928 م الى 360 مليون وات عام 1958 م ، ويتراوح مجموع مبيضات الطاقة الكهربائية فى الفترة نفسها من 3 مليون كيلو وات ساعة الى 1800 مليون كيلو وات وعن الطاقة الهوائية (Windenegy)

قال : قام المهندس ج· فرنكيل (J. Frankiel) من مهندسى التكنيون باجراء دراسة شاملة للرياح فى اسرائيل ، واقترح على الدولة البدء باستغلال الطاقة الهوائية فى الامور الصناعية ، ومما قاله فى تقريره : (ان استغلال الطاقة الهوائية مهم جدا فى تطوير الصناعة الاسرائيلية طالما أننا ما زلنا نستورد الوقود اللازم ، لتوليد الطاقة من الخارج) · ووضع فرنكيل برنامجا خاصا لاستغلال الطاقة الهوائية ، وقام الخبراء بناء على هذا البرنامج بمسح مناخى للمناطق التى تتوفر فيها الطاقة الهوائية ، بكمية صالحة للاستغلال ، وتبين أن مناطق الجليل ، ومرج ابن عامر ، وجبل الكرمل ، وعرافة (Arave) فى النقب ، هي المناطق الصالحة لاقامة منشآت استغلال الطاقة الهوائية ، وأجريت تجارب ناجحة على محرك صغير طاقته 3 كيلو وات فى أيلات خلال 3 سنوات متوالية ، ونتيجة للابحاث والدراسات المستفيضة وقع الاختيار على منطقتين لبناء المنشآت الخاصة باستغلال الطاقة الهوائية واستخدامها وأقيم فى كل محطة برج عال يبلغ ارتفاعه 40 مترا ، ونصبت فى أعلى البرج االجهزة العلمية الدقيقة مثل : جهاز قياس سرعة الرياح (Amemograph)
وقياس اتجاه الرياح ، (Ane Mometer)
وقياس ضغط الهواء (Nanometer)
وقياس طاقة الرياح (Windenegycomar)
وأقيم فى احدى المحطات طوربين هوائى لتوليد الكهرباء تبلغ طاقته 200 كيلو وات ·

وتقوم محطة للطاقة الهوائيــة فى جيفات هامور (Givathamore) فى مــرج ابن عامر ، وتبين الارصاد التى سجلتها هذه المحطـة حـول سرعـة الرياح فى شتى الاتجاهات ، أن سرعة الريـــاح تزيد عن عشرة أمتار فى كل ثانية كلما ارتفعنا فى الجو مقدار 100 متــر ، وهناك محطة أخرى فى شمـال غربى النقب ، وبناء عــلى الارصـــاد التى سجلتها هاتين المحطتين خلال 5 سنوات، قامت السلطات المختصة ببناء 22 مركزا جديدا لتوليد الطاقة الكهربائية للاغراض الصناعية بواسطة الريـاح ، ويلبـث مقدار الطاقـــة الهوائيـة حاليـا فى اسرائيل لرفع المياه من الآبار ولتوليد الطاقة الكهربائية ٠

وعن الطاقة الشمسية (Solarenergy)

قال : تدل الارصاد المناخيـة على أن اسرائيل تتمتع خلال السنة بمــدة 8 أشهر تكون فيها الشمس مشرقـــة اشراقا كاملا دون غيوم ، وهذا ما يشجع الخبراء على دراسة امكانات استغلال الطاقة الشمسية فى الامور الصناعية ، ونجح الخبراء الاسرائيليون حتى الآن باستخدام الطاقة الشمسية فى كثير من التطبيقات الصناعية ، فالكثير من المنازل فى النقب تحتوى على سخانات شمسية لتسخين المياه والتدفئة المركزية ، وجمع الطاقة الشمسية بواسطة أجهزة خاصة تسمى لوحـــة التجميـع المسطحـــة Plate collector يمكن بواسطتها تسخين المياه باستمرار ٠

وحقق العلماء فى معهد النقب عــام 1958 م ، مشروعا ضخما لتوليد البخار بواسطة الطاقة الشمسية ٠ ولقد أقيمت منشآت كبيرة تتضمن أجهزة للتجميع (الجوامع) (Collector) ومركـــــزات (Concentrator) ومحــركات شمسيـــة (Salarmotor) واستخدمت فى أجهزة التجميع مرايا من الالمنيوم أسطوانيـــة مخروطية (Cylindricol) تعمل على جمع

وفى نهاية عام 1961 م ٠ بنت السلطا الاشعة فى نقطة اجتـمــاع واحـــدة (بـــرة) ، وهذه المرايا ترتكز عــلى سور شرق ــ غرب ، وتتجه نحو الجنوب، وتتحرك الاسطوانات الجامعـة آليـــا باتجاه الشمس ٠

وينتج هذا المصنع طنا من البخـــار يوميا ، وهناك امكانية أخرى لاستغلال الطاقة الشمسية عن طريق بناء أحواض شمسية خاصة تكون قليلــة العمــق ، وقاعها مطلى بطلاء أســود اللـــون ، سعندما تسقط أشعة الشمس على ماء يسيل على سطح أسود قليل العمــق ، فان الماء يتبخر بسرعة ، وتعتبر محطة الطاقة الشمسية القائمة عــلى شاطىء البحر الميت من أهم المحطات التجريبية فى هذا الصدد ، وحدث تطور هام فى استخدام الطاقة الشمسية فى عـــام 1960 م ، اذ نجح الخبراء الاسرائيليون فى صنع برادات شمسية تقوم عـــلى استخدام تيار دائم من بخار الماء وبعض المركبات الغازية ، وتمكنوا من الحصول

على البخار بواسطة جهاز خاص من المرايا والعدسات المتحركة باتجاه حركة الشمس ·

وفى نهاية عام 1961 م · بنت السلطات المختصة 45 محطة لقياس الطاقة الشمسية وزودت كل منها بجهاز لقياس مدة الانقشاع أو الاشعاع (Insolation) يعرف باسم هيليو غراف (Héliograph) وجهاز قياس بالطاقة الشمسية المعروف باسم (Actinometer) الذى يقيسها بالسعرة فى كل سم مربع، وفى كل دقيقة ، وغير ذلك من الاجهزة الدقيقة التى تلقى ضوءا على العلاقات القائمة بين الطاقة الشمسين وأوضاع المنطقة الجغرافية من حيث الارتفاع عن سطع البحر وخطى الطول والعرض الجغرافيين ، هكذا يبنى اليهود دولتهم فى فلسطين تحت علم اسرائيل فماذا يصنع المسلمون فى أقطارهم الفحياء ؟!

عندما شكا رئيس الوزراء من أن الدولة تدفع أربعة جنيهات ثمنا (لانبوبة) (البوتجاز) ، تساءلت أين الطاقة الشمسية ؟ ولم استغلت فى فلسطين المسروقة ولم تستغل فى أراضينا الواسعة ؟

لقد قال حافظ ابراهيم من خمسين سنة :

شمسهم غادة عليها حجاب
شمسنا غادة جلاها السفور

هل نحن مهرة فى الغزل وحسب ؟ وأين صراخ علماء الدين باعداد ما نستطيع من و ؟ لا صراخ ولا همس ؟ لان هناك شغلا بقضايا هامشية ، وخلافات فرعية ، والصغار دائما يتهمون بالصغائر ، فاذا رأيت من يهتم اهتماما هائلا بقبض اليدين فى الصلاة أهو فوق السرة أم على الصدر ، ويستثير ذلك أعصابه أكثر مما يستثيره قتل عشرة آلاف مسلم فى (تشاد) ، فاعلم أنك أمام مستبح من الخلق لا يؤمن بالله ولا دنيا الناس ، والامة التى تسلم زمامها الى هذا الانسان المخبول انما تسلمه لجزار ، ودين الله أشرف من أن يتحدث فيه هؤلاء الحمقى ·

بين يدي القرن المقبل أطلب من المسلمين أن يطرحوا الاسمال العقلية والاجتماعية التى أزرت بهم وحطت مكانتهم ، وان ينصفوا الاسلام من أنفسهم حتى يستطيع هذا الدين الانطلاق فى الارض واسعاد البشرية ، وتحقيق الرحمة العامة للعالمين ···

أما استقبال القرن الخامس عشر بحكم فردى يخنق الحرية ، ويستبيح الحرمات ، أو استقباله بقوانين تملك المال ولا تملك العدالة والرحمة ، أو استقباله ببطالة عقلية تهمل العمل والفكر ، وتحقر نتائجها ، وتؤخر العباقرة وتقدم التافهين ···

أو استقباله بعوامل همها فى الحياة المتعة لا التربية ، والفوضى الاجتماعية لا الاخلاق الدقيقة والتقاليد الزكية ، أو استقباله بقصور علمى فى المادة

وما وراء المادة أي فى شؤون الــــدين والدنيا جميعا ، أو استقباله بذاكـــرة مفقودة لا تستفيد من التجربـــة ، ولا تنتفع من عبر التاريخ ، أو استقباله بدعاة يتساءلون عن الصـــلاة مع دم البعوض فى قمصانهم ، ولا يتساءلون عن مستقبل أمة أرخص دمها ، حـتى أصبح سفكه لا يثير جزعا لا فزعا ...

ان استقبالنا للقرن الخامس عشـــر على هذا النحو هو خــزي الابــد ... فاذا عشنا مسلمين حقا ...

وامــا ممـــات لا قيــام بعـــده

ممــات لعمــرى لم يقس بممات !

على ضوء منعطف قرن جديد

خطوط عريضة فى منهج الدعوة الى الاسلام

د· محمد سعيد رمضان البوطى

رئيس قسم الفقه الاسلامى ومذاهبه
بكلية الشريعة ـ جامعة دمشق
ـ سوريا ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله ونستعينه ونستهديه ، ونستلهمه الصواب فى الفكر والقول ·

وبعد : لعل سائر مظاهر التخلف التى رانت على العالم الاسلامى ، خلال النصف الاول من هذا القرن الذى نشهد اليوم اختفاءه فى مغرب التاريخ ، تتلاقى تحت سلطان عاملين اثنين :

أولهما : الانبهار الذى عشيت له أعين الامة الاسلامية ، من مظهر النهضة الاوروبية التى تحققت فى أعقاب تحرر أوروبا من سلطان الكنيسة ، وانطلاقها فى ميادين البحث والعلم ، فقد أورث المسلمين هذا الانبهار شعورا بالنقص ، وريبة فى حقيقة الدين ، ورغبة فى أن يعامل الاسلام هنا كما عوملت النصرانية هناك ·

ثانيهما : بقايا الثورة الهائجة ، على قيود الكنيسة وآثارها ، فى نفوس الغربيين عموما ، وهو الامر الذى جعلهم يتبرمون بحقيقة الدين ، ويلوذون منه بالنعيم المحسوس والحياة المادية ، جاحدين على ما قد يلوح للذهن أو الخيال وراءهما ·

وقد أورث الغربيين ذلك التبرم بجواهر الدين وهذا الاقبال على غول المادة ونعيمها نظرة ازدراء الى الاسلام وأهله ، ثم راحوا يقومون سائر مبادئه وأحكامه من خلال هذه النظرة ، فكم من مبادىء شوهوها ، وكم من قيم وأحكام زيفوها ، وكم من حقائق تاريخية نكسوها ···

وكان طبيعيا أن تنعكس نظرتهم الى الاسلام ، على نفوس المسلمين آنذاك بالتأثر أولا ثم القبول والرضا بتلك النظرة ثانيا ، وعذرهم ذلك الانبهار الذى كانت تعانى منه أبصارهم ، ومشاعر النقص التى كانت تهيمن على نفوسهم ، فازدادوا ريبة بالدين وأحكامه ، وتطلعا الى حركة اصلاحية تسرى الى جملة أسسه وبنيانه ·

ولقد كان من آثار هذا الانعكاس أن استشرى المد الاستعمارى فى أقطار كثيرة من العالم العربى والاسلامى · وأخذ كثير من المسلمين يتململون من

التبعية الحقيقية للاسلام ونظامه · واتخذ هذا التملص أشكالا وتعابير مختلفة · فاتخذ شكل المجابهة الصريحة للاسلام جملة وتفصيلا عند كثير من الناس ، كما اتخذ شكل القبول له ظاهرا واستبطان الكفر به حقيقة عند آخرين ، أما عند فئة ثالثة فقد اتخذ مظهر الرغبة فى اصلاحه والاهتمام بتطويره ، تأسيا بما فعله الغرب بنصرانيته ، فى بلاده ·

هذه الفئات الثلاث من المسلمين ظلت تسير على خطوط مستقلة متوازية ردحا من الزمن · ولكن ما ان تبين أن شعار الرغبة فى الاصلاح والتطوير هو الذى بدأ يروج ويتغلب ، حتى انضوى الجميع تحت لوائه ، الا انهم لم يلتقوا تحت هذا الشعار · الا فى ظاهر الامر، فلا جرم أن كلا منهم أسر من وراء ذلك الفكر الذى يتبناه ، والهدف الذى يسعى اليه ·

وتحت هذا الشعار أصاب الاسلام كثير من التشويه والتغيير ، بدءا من حقائقه الاعتقادية الى الكثير من أحكامه العملية وآدابه السلوكية ، الى التشكيك بصلاحيته للحكم واتساعه لمقومات الدولة ·

تلك بارقة سريعة من صورة الواقع الاسلامى الذى نما واشتد فى ظل أحداث وظروف عالمية ، لا مجال للخوض فى تفصيلاتها فى هذا المقام ·

ولكن فما الذى طرأ على ذلك الواقع من بعد ؟

لقد طرأ أمران رئيسيان أعقبتهما اتجاهات ايجابية جديدة لم تكن فى الحسبان · أما الامران الرئيسيان فهما :

1 ـ زوال الانبهار الذى كان قد غشى على أبصار الامة الاسلامية فى أعقاب النهضة الغربية · فقد عادت مقاييس الضياء متسقة مع طاقة الابصار · وأخذ الشراب يتميز عن السراب · وتجلت فوارق ما بين الحق والباطل ، والاصيل والدخيل ·

2 ـ سكنت بقايا تلك الثورة المتعجلة فى صدور الغربيين على الكنيسة والدين، فتهيأت من ذلك الفرصة لفحص ثمرات الحياة المادية عندما تكون اليها القيادة وبيدها وحدها الزمام · وأمكن رصد الحناظل الشقية بل المميتة من بين تلك الثمار ·· فقد عاد أكثر منجزات المدنية والعلوم ، بسببها ، الى مصائب وأمراض تجاوزت هيكل الجسم الى طوايا النفس والروح ·· الروح التى طالما نسيها بل أنكرها المتمتعون بها ، أيام كانت سكرة النعيم هي السائدة ، وسلطان المادة هو الحاكم الغلاب ·

ولكن السكرة لا تدوم ، والعرض ـ كما يقولون ـ لا يستقر · فقد انحسر ذلك النعيم كله عن نفس كثيرة تشتهى الموت وتترامى بين أذياله ، على الرغم من بوارق المدنية ومغرياتها ، وعن صدور ران عليها الكرب الخانق · فهي تبحث عن متنفس بعيدا عن دنيا هذا

الصخب ودخانه ، وعن قلوب لم تعد ـ كما كانت من قبل ـ تنبع برحيق الحب والرحمة ·· ذلك الرحيق الذى كان محورا لدائرة الاسرة ، وحبلا يصل ما بين ذوى القرابة والرحم ، ونسبا يشد آصرة الانسان الى أخيه الانسان ، لقد أحالها صقيع الحياة الى قطع صخرية متجمدة لا ينبعث منها صدى اللهم الا أن يكون صدى ما قد ينقر عليها · من درهم أو دينار ·

أجل ·· هما صحوتان : احداهما أدركت العالم الاسلامى ، والثانية ظهرت فى ربوع الغرب · ومن خلالهما وعلى أعقابهما تبدلت أمور كثيرة ، وتحققت اتجاهات هامة جديدة ، لم تكن فى الحسبان ·

أما فى العالم الاسلامى ، فقد ذهب عصر الريبة بالاسلام ، فأصبح جل المسلمين اليوم يعتنقونه عن يقين علمى بجوهره ، وقناعة تامة بصلاحيته ، وانقضت أو ابتعدت تلك المقارنة التقليدية الجاهلة بين العلم والدين (وهو هنا الاسلام) فى ظل ذلك الانبهار الذى ران ردحا من الزمن على النفوس · وأفلت زمام العلم من أيدى المتلاعبين بالفاظه ، وعاد برهانا يملأ عقول الباحثين يقينا بصدق كل ما يتضمنه الاسلام من حقائق الايمان وأنظمة الحياة والسلوك · فكان من آثار ذلك أن اتجهت الآمال الصادقة ، فى معظم الاقطار الاسلامية الى اليوم الذى يهيمن فيه الاسلام نظاما للحكم ومنهجا للحياة ·

وأما فى الغرب ، فقد أخذ تيار الاشمئزاز من الدين تخف حدته ، ثم لم تزل تخف ، حتى ارتفعت الاصوات من كل جهة ، تشكو من شقاء المادة التى أنست الانسان الغربى نفسه ، وأحالته الى ما يشبه قطعة صغيرة فى آلة كبيرة، تنسحق فى حركة لا وعي لها · وأخذت الافكار تتجه الى نوافذ الفرار والخلاص ·· فكان الاسلام ـ ولا ريب ـ واحدة من هذه النوافذ التى وقفت عندها أنظار وأفكار كثيرة ·· وأمام هذه المشاعر والآمال الجديدة ، تحول الحديث عن الاسلام ، على كثير من الالسن ، الى رغبة جادة فى تفهمه ودراسته ، بعد أن كان مجرد أفتئات عليه وتشويه له وسخرية منه ·

واتجهت تطلعات كثيرة الى المناقشة والحوار ، والى البحث عن جذور توحد الاديان وتعقد بينهما صلحا حقيقيا يمكن الاعتماد عليه فى حل مشكلة الحضارة والتخلص من أوضارها · وفى ظل هذه الرغبة أصبح احتكاك الغربيين بملايين المسلمين الوافدين عاملا على تهدئة الصراع القديم ، بعد أن كان عاملا على تقويته ، وموجبا لمزيد من التفهم للاسلام ، بعد أن كان سببا فى مزيد من كراهيته ·

واننا لنستطيع أن نتبين بعد ما بين الصورتين ، من موقفين متناقضين وقفتهما الكنيسة الانطليطانية من الاسلام ، خلال هذا القرن الهجرى الذى تصرم ·

أما الموقف الاول فمليء بما شئت من دلائل السخرية والازدراء بالاسلام ونظمه · وكان عقب الحرب العالمية الاولى ، وبعد أن استولت بريطانيا على استانبول عام 1918 م · فقد وجهت هذه الكنيسة ستة أسئلة الى المشيخة الاسلامية ، تتضمن فى جملتها اثارات لمشاعر المسلمين وانتقاصا للاسلام ، وطلبت الكنيسة ، فى صلف وكبرياء ، أن يأتيها الجواب فيما لا يزيد على ستمائة كلمة ··· وقد كان طبيعيا أن تفعل الاثارة فعلها المتوقع فى صدور أولئك الذين وجهت اليهم هذه الاسئلة · فكان الجواب عليها هو : « أن هذه الاسئلة لا يجاب عليها بستمائة كلمة ، ولا بست كلمات ، ولا بكلمة واحدة · بل ببصقة واحدة على أفواه السائلين » ·

وأما الموقف الثانى ، فيفيض بما شئت من معانى التنويه بأهمية الاسلام ، وسعة سلطانه فقد وقف المطران الانكليكانى فى العام الماضى يقول مشيدا بالاسلام وما يلقى من قبول لدى الاوروبيين عموما والبريطانيين خصوصا :

« الاسلام اليوم دين يعتنقه مليون شخص من مواطنينا البرطانين » ·

ان بعد ما بين هذين الموقفين ، ناتج ولا ريب من فوق ما بين الواقعين ·· وهي مساحة اعتبارية هامة تجاوزها العالم كله خلال قرن من الزمن ·

على أن هذا التحول لم يكن محصورا فى نطاق العالم الغربى الذى آمن بالمادة ايمانا نفسيا أعزل ، أي قفزا من فوق قرارات العلم والعقل وأسوارهما · بل تعداه الى الاقطار الشيوعية ، حيث لا يزال يكره كل من العقل والعلم على جحود الدين ونكران الخالق ، وعلى اليقين بأن المادة هي محور الاشياء كلها ، وحيث يحمل كل منهما حملا على الاقرار بذلك عن طريق صياغة فلسفية وعلمية راسخة ·

فقد عادت هذه الاقطار ذاتها تخفى ـ مضطرة ـ قدرا كبيرا من عدائها للاديان عامة ، وللاسلام خاصة ، وتتخذ لمواجهتها سياسة جديدة ، بعيدة عن أسلوب السحق والمحق الذى قامت الثورات الاشتراكية على أساسه ·

وانما سبب ذلك ما تلاقت عليه التقارير الخفية المختلفة ، من أن الاسلام لم يعد كما كان يظن : طاقة بائدة · بل انه اليوم عنفوان مقبل ، وطاقة مستشرية ، وظاهرة كهذه لا جدوى من مواجهتها بعنف ، مهما كان الموقف الحقيقى تجاهها ، بل لابد من مصانعتها والالتفاف حولها ·

ومعلوم ان الزعيم الشيوعى الايطالى « تولياتى » الذى توفى فى أوائل الستينات ، ضمن وصيته الاخيرة كشفا عن هذه الحقيقة ، وتحذيرا لسائر الرفاق من الاستمرار فى سياسة المواجهة والعنف ، بل حتى من الاستمرار

فى الساسة السلبية تجاه الاديان عامة والاسلام خاصة · وأهاب باستغلال الطاقات الدينية والاسلامية ، بدلا من أن يعادوها فيخسروها فتتألب عليهم ·

ولقد لقيت هذه الوصية أصداء ايجابية لدى سائر زعماء المادية الماركسية ، سرعان ما تغلبت على تلك المعارضات الضعيفة التى كانت لا تزال متمسكة بالتعاليم اللينينية العتيقة ·

هذا وقد كان لابد أن تنعكس آثار هذه التحولات ، جملة ، على واقع القارة الافريقية التى طالما اشتدت عليها قبضة الاستعمار صنوفا وألوانا ، واتجهت اليا مكائد التبشير متسربلة بأردية الترغيب والاغراء آنا ، ومقنعة باقنعة الترهيب والعدوان آنا آخر ·

فلقد أريقت على عرض تلك القارة السوداء وطولها أموالا لا تحصى ، وجهود لا تكاد تصدق · ولقد ظهر من وراء ذلك بعض الثمار التى أيقظت آمالا جسيمة فى نفوس المتربصين بالاسلام وأهله ، ولدى قادة الاستعمار والمتخصصين بنهب الخيرات والثروات · ولكن سرعان ما هبت رياح الايمان فى كثير من جنباتها ، فاعتصفت الثمار وبددت معظم الآمال ·· واستيقظت نوازع الفطرة الاسلامية فى كثير من النفوس ، تغالب أغشية الجهل وأقنعة الخرافة حتى غلبتها ·

وبعد فليس المهم لنا فى هذا المقام أن نرصد موقف العالم من الاسلام اليوم ، وأن نضبط مؤشرات درجة الاقبال اليه أو الاعراض عنه · انما المهم أن نملك من خلال هذا التحليل الموجز الذى عرضناه ، تصورا سليما، يخولنا القدرة على اجابة سديدة عن السؤال التالى :

ترى هل لهذه التحولات التى تبدت واضحة خلال هذا القرن الذى نعيش الآن أيام توديعه ، من أثر على تقويم حقيقة الدعوة الاسلامية ، سواء من حيث اهميتها الذاتية أو من حيث ما قد يجب أن تتقيد به من منهج وأسلوب ؟

وأقول فى الاجابة على ذلك :

أما الاهمية الذاتية للدعوة الاسلامية، فلا ريب أنها قد تضاعفت ، وأن واجب النهوض بها فى أعناق المسلمين أصبح أشد أهمية وأكثر اتساعا ، فلقد كان القيام بهذه المهمة من الفروض الكفائية فى اكثر الاحقاب التى خلت ، أما اليوم فلا نبعد عن الحق ان قلنا : ان القيام بهذا الامر غدا اليوم من الفرائض العينية التى يتوجه الخطاب التكليفى بها الى كل مسلم وعي الحقائق الايمانية والواجبات السلوكية للاسلام على نحو سليم، ولم يعد خاصا بفئة أو جماعة من المسلمين ، وذلك للسببين التاليين :

السبب الاول : ان واقع الصحوتين اللتين أدركتا العالم الاسلامى وأمم الغرب والشرق معا ، مما سبق الحديث

عنه ، لم يبدل من حال الاعداء التقليديين للاسلام شيئا (وانما نقصد بأعدائه التقليديين أولئك الذين تبوأوا مراكز القيادة والحكم فى ربوع الغرب على اختلافها ، ولا يزالون يحلمون بآمال سيادة الرجل الابيض على المعمورة ، ان لم يكن بأساليب الاستعمار القديم فبوسائل جديدة أشد ذكاء وأعتى خطورة وأوغل خفاء) كل ما فى الامر أنهم أداروا الاشرعة نحو مسرى الرياح ، وركبوا الموجة المقبلة ، وآثروا أن يخادعوا العقول ويجاملوا النفوس ، بدلا من أن يعاندوها ، فيزيدوا الى الوعي الذى استيقظ ضدهم ، الكراهية التى قد تقطع سبيل الحوار معهم ٠

ولا ريب أن هذا الاسلوب الجديد أحرى أن تبذل الجهود للوقوف فى وجهه ، وأن ينبه اليه ويحذر منه ، على ألسنة الداعين الى الاسلام ، من المسلمين عموما ، وقادة المسلمين بوجه خاص ، من ذلك الاسلوب التقليدى العتيق الذى لم يعد يفيد أربابه شيئا ٠

السبب الثانى : ان العهد الذى يقبل فيه الناس الى الاسلام تمسكا به أو تفهما له ، أحوج الى المرشدين والدعاة ، من العهد الذى يدبر فيه معظم الناس عن الاسلام ٠ ذلك لان اثر الدعوة الى الاسلام فى صفوف المقبلين اليه ، أسرع ظهورا وأقرب جدوى وأهم فائدة ، منه فى صفوف المتأبين عليه والمحجوبين عنه ٠

وقد تكاثر اليوم عدد المقبلين الى الاسلام داخل ربوعه ، كما تضاعف عدد الراغبين سى فهمه خارج بلاده ٠ وأن بهؤلاء وأولئك لحاجة ماسة الى من يعرض حقائق هذا الدين لهم بأسلوب علمى مبسط ، ويزيح عن طريقهم اليه الغشاوات المصطنعة والشبهات المختلقة، فان لم يسرع من المسلمين الصادقين من ينهض بمسؤولية هذا الشرح والبيان على أتم وجه ، أوشك أن يسبق اليهم من أولئك الاعداء التقليديين وجنودهم ، من يجهض لديهم تلك الرغبة ، بابتداع صور مشوهة كاذبة عن الاسلام يضعونها نصب أعينهم ، ثم يتسللون بها الى مكمن الوعي من نفوسهم ٠ فاما أن يعرضوا بعد ذلك عن الاسلام ويرجعوا الى شر من الحالة التى كانوا عليها من قبل ، واما أن يعتنقوا اسلاما باطلا مزيفا ، لا يصلح فسادا ولا يتفق مع علم ولا عقل ، كما آل اليه حال كثير ممن دخلوا فى الاسلام فى كثير من جهات أوروبا وأنحاء أمريكا ، ثم لم يجدوا من يبصرهم بحقيقة ما هم عليه وبعدهم عن الاسلام الذى يطمحون اليه ٠

واننا لنسمع اليوم نداءات ، بل استغاثات ، تتوارد الى مختلف الاقطار العربية والاسلامية مقبلة اليهم من شتى انحاء آسيا وأوروبا وافريقيا ، تهيب بالمسلمين أن ينجدوهم بمن يعلمونهم مبادىء الاسلام وأحكامه ، وأن يتداركوهم بالكتب والنشرات الاسلامية المبسطة ، التى تصلح أن

تكون معتمدا كافيا بين أيديهم لتتعلم أسرهم وأولادهم كل ما يجب أن يتعلموه من مبادىء هذا الدين ٠

غير أن ما يلقاه أصحاب هذه النداءات من الاستجابة ، لا يبلغ الا النزر القليل من الحاجة الكبيرة التى يعانون منها ٠

فبناء علىهذين السببين ، لا نشك فى أن النهوض بأعباء الدعوة الاسلامية قد غدا اليوم واجبا عينيا ، يتحمل تبعته كل مسلم أخلص لله فى اسلامه ، وان كانت دائرة هذا الواجب تتسع وتضيق ، حسب تفاوت الامكانات والقدرات الثقافية والعلمية ما بين فرد وآخر ٠

نعم ، لقد كانت مهمة الدعوة الاسلامية من الفروض الكفائية ، قبل هذا العصر، كما قال علماء الشريعة الاسلامية آنذاك ، ولكن المجتمعات الاسلامية والانسانية كانت تسير يومها فى طريق الاسلام ، دون أن يكون على متنه أو عن يمينه أو يساره من يتربص بها الدوائر ويختلق لها العقبات ، ويصدها عن الوصول الى الغاية بفنون عجيبة من التلبيس والتشويه الاغراء ، أما اليوم ، وقد جندت كل امكانات الدنيا ، وجميع شهواتها واهوائها فى سبيل الصد عن صراط الله الخضوع لاحكامه، فقد أصبحت مهمة الدعوة الاسلامية فرضا من الفروض العينية يخاطب به كل مسلم . ولم تعد مقتصرة على ثلة من الناس مهما بلغ شأنها وكانت أهميتها ٠

صحيح ان دعائم أحقبة الاسلام ، لم تتجل للابصار والبصائر ، كما تجلت فى هذا العصر ، لا لاقوام من الناس بأعيانهم ، بل لاهل الارض جميعا ٠ الا أننا مع ذلك نعيش فى عصر تحاول فيه نيرأن الاهواء والشهوات والمغريات (وهي الاسلحة الحديثة فى أيدى محترفى الغزو الفكرى اليوم) أن تلتهم بنيان الاسلام بأكمله ، وفرق الاطفاء قليلة عاجزة عن الوقوف وحدها فى وجه هذه النيران ٠ اذن لابد من أن ينهض الكل على اختلاف قدراتهم ، لصد هذه النيران عن بنيان الحقائق الاسلامية ، ولفتح السبل اليه أمام الملايين التى تسعى جاهدة لفهمه ، أو تعزم صادقة على الرجوع اليه والاستمساك به ٠

ذلك هو ما يجب أن نعلمه عن الاهمية الذاتية لمهمة الدعوة الاسلامية فى هذا العصر ٠ أما عن المنهج الامثل للدعوة، على ضوء هذا المنعطف الزمنى الذى سيسلمنا عما قريب الى قرن جديد، فان الحديث عنه متشعب الاطراف ، طويل الذيل ٠ وانه لجدير أن يعالج فى كتاب جامع مستقل ٠

غير أن من الممكن فى هذا البحث ، أن نرسم خطوطا عريضة لهذا المنهج ٠ ولعل هذه الخطوط أن تدل الباحث المتدبرعلى الفروع الجزئية التى تنبثق

عنها ، فيكون فى هذا التلخيص غنـاء عن التفصيل والتطويل ٠

ان أهم كدعائم الكلية الهامة ، لنجاح المسلمين فى القيام بأعباء الدعــوة الاسلامية ، عـلى ضـوء الوقائــع والتطورات التى أوضحنا تحليلا موجزا لها ، يتمثل فى اتباع الشروط التاليه :

الشرط الاول : أن يكون الداعى على بينة ، قبل كل شىء ، من حقيقة الاسلام الذى كلفه الله أن يصطبـغ بـه ، وأن يعرف الناس ، ويدعوهم اليه ٠

ترى أهو مذهب فكـرى أو سلوكى يقارع غيره من المذاهب المماثلة ؟ أم هو نظام ينافس الأنظمة الاخرى ؟ أم هو جملة تشريعات وقوانين تنسخ بها بقية التشريعات ؟ أم هو يمين فى مواجهة يسار ، أم يسار فى مواجهة يمين ؟

ان على الداعى أن يكون على بينـة تامة ، قبل كل شىء بأن الاسـلام ليس شيئا من هذا ولا ذاك ٠ ولكنه كما يدل عليه اسمه : استسلام مطلق لالوهيــة الله وحده ، ثم انصياع لامـره ونهيـه وقضائه ٠ ولا يرتكز هذا الاسلام الا علـىيقين كامل فى القلب ، ولا يعمـر الايمان الحقيقى القلب الا بعـد خلـوه عن الاغيار وتزكيتـه عن الاوضـار ، وانقطاعه عن علائق المحرمـات مـن الشهوات والاهواء ٠

واذا استقام الايمان على هذا النحو فى الفؤاد ، خاليا عن الزغـل ، نقيـا عن الدرك ، تحققت مظاهر الاستسـلام كلها فى كيان الانسان لاوامر اللــه ونواهيه وسائر أحكامه وتشريعاته بدون عظيم جهد ولا طويل نقاش أو عناء ٠

زارنى فى العام الماضى ثلـة مـن الرجال والنساء الاوروبيين والامريكيين، قد اعتنقوا الاسلام ٠ وقد لفت نظـرى التزامهم الدقيـق بالسـلوك والمظهـر الاسلامى رجالا ونســاء ٠٠٠ فهـل تتصورون أنهم قد وصلوا الى الالتزام بتلك الاحكام السلوكية من خلال اجتياز مرحلة طولة من النقاش تمت فى أعقابها القناعة بها واكتشاف وجوه الفائـدة والمصلحة فيها ؟ ٠٠

معاذ الله ٠٠٠ لقد تحولوا من منتهى التفلت والتحرر ، الى الالتزام الكامل بالسلوك الاسلامى خلال أيـام قليلة ٠ وكان الجسر الوحيد الذى نقلهم من ذلك التحرر الـىهذا الالتزام ، اكتشافهــم بأنهم عبيد مملوكون لله عـز وجـل ، ويقينهم المطلق بألوهية الله وحكمتــه التى لا ريب فيها ، فى كل ما يأمر بــه وينهى عنه ٠

ولو أخذت تناقشهم دهرا طويلا فى الدفاع عن تلك الاحكام ، قبل رسـوخ هذا اليقين العظيم فى قلوبهـم ، لمـا اقتنعوا من ذلك كله بشىء ٠

ومن هنا كان قوام الدين الحق الـذى الزم الله به عباده مكونا مـن ثلاثــة أركان : ايمان ، واسلام ، واحسان ٠ فمغرس الايمان فى القلب ، ومكــان الاسلام الجسم كله ، ومستقر الاحسان

صلة ما بين القلب الذى آمن والجسد الذى استسلم · ولا ينفرد واحد من هذه الاركان الثلاثة بوجود مستقل مفيد · بل الدين انما يتكون من تآلف هذه الاركان الثلاثة التى لا تعدو أن تكون جذورا وفروعا وشرايين تنقل الحياة من هنا الى هناك ·

والمسلم اذا عاش فلهذا الدين يعيش، وان دعا الناس فالى هذا الدين يدعو ·

ومعاذ الله أن يكون دين هذا شأنه وجوهره مجرد نظام بين الانظمة أو مجرد مذهب من المذاهب ·

ليس للانظمة التى يتطاحن عليها اليوم الا وجود مخارجى يبدأ وينتهى فى ساحة المشاهدات والمحسوسات · وانه لوجود ما أيسر أن يكون قناعا يتستر خلفه النفاق ألوانا ، ويكمن وراءه الكيد والخداع أشكالا ·

أما الاسلام فوجوده شعاع يمتد فى كينونة الانسان كله، بدءا من باطن القلب الى ظاهر الجوارح ، من شأنه أن يحرر الانسان من أنانيته وآفات نفسه ، ثم يخضعه لاحكام ربه ·

واذا تشبع الداعى الى الله تعالى بهذه الحقيقة ، وتمثل هذا المعنى الكلى للاسلام ، ثم اتجه الى الناس يذكرهم بهذا الحق ، ويوقظ فيهم مشاعر عبوديتهم لله عز وجل ، مستعينا بلواعج الصدق والاخلاص لله فى قلبه ، وبدلائل المنطق والعلم على لسانه ـ : أشرق من كلامه قبس وهاج فى طوايا قلوبهم (ان هم أصغوا الى الحق بموضوعية وتجرد) واستطاع أن يسير بهم من أقرب طريق الى الخضوع لسائر الاحكام والشرائع الاسلامية التى ليست فى حقيقتها الا ثمرات وفروعا لذلك المعنى الكلى العظيم · وان لنا فى قصة أولئك الاجانب الذين حدثتكم عنهم آنفا أبين شاهد على ما أقول ·

ولكن اذا حصر المسلم نفسه من الاسلام فى منثورات فروعه وأحكامه وتشريعاته ، ثم راح ينبه الناس من الاسلام كله الى هذه الفروع ، وأخذ يبذل كل جهده فى اقناعهم بمزايا هذه الانظمة والتشريعات وأفضليتها على ما سواها ، فان دعوته هذه لن تثمر شيئا لانه يقدم لهم هذه الانظمة والاحكام منفصلة عن منبتها وجذورها · فهو كمن يقدم اليك غصنا أخضر يانعا ، بعد ان اقتطعه من شجرته الراسخة الباسقة ، هل تنتظر به الا عاقبة الذبول والامحاق ·

وهي حتى لو أثمرت فأيقن المخاطبون بمزايا التشريع الاسلامى وافضليته ثم انصاعوا له نظرا الى ما فيه من المزايا القانونية التى ترجحه على غيره ، فان هذا الانصياع لا يمت بحد ذاته الى جوهر الاسلام بشىء ولا يقربهم الى الله شروي نقير ، هو ليس انصياعا دينيا منبعثا عن الخضوع لحكم الله تعالى وسلطانه ، ولكنه مجرد اختيار له من بين سائر الشرائع الاخرى من حيث

المرجحات المصلحية فى نطاق الاهداف السوية المجردة ·· ولذلك كان من اليسير أن تجد سرعة الرضى والقبول باعتماد فقرة (الفقه الاسلامى مصدر للتشريع) فى صلب أكثر الدساتير القائمة اليوم فى أكثر البلاد العربية والاسلامية ، ولكن ليس من اليسير أبدا أن تحصل على مثل هذا الرضا لاعتماد فقرة أصغر منها ، وهي : (الاسلام دين الدولة) · ذلك لان هذه الفقرة تعتبر موجز عن الخضوع الكلى والاستسلام المطلق لربوبية الله وحكمه · أما الفقرة الاولى فمجرد التزام بجانب قانونى من بنية الاسلام · وما أيسر أن يتلاقى عليه المسلمون وغيرهم ·

ومع هذا ، فان أكثر مظاهر الدعوة الاسلامية اليوم انما يتحرك ضمن هذه الاجزاء الجانبية أو الدوائر الفوقية · وهي قلما تثمر الا مشادة حاقدة من نوع تلك المشادات التى تقوم بين أصحاب المذاهب الفكرية والسياسية المتناحرة · ذلك لان الاسلام الذى يعرض فى هذه الخصومة انما هو اسلام فكرة ونظام مجتثين من كلي الحقيقة الاسلامية المنزل من لدن رب لاعالمين الى الناس أجمعين ، يقارع بهما الافكار والانظمة الاخرى مقارعة مقايضة ومباهاة ، فى مشادة لا يمكن أن تنتهى الا مثل ما تنتهى اليه خصومة أي نظامين أو مذهبين متكافئين فى أن كلا منهما ليس فى حقيقته أكثر من نظام يوازن بنظيره من الانظمة الاخرى ·

ومن شأن الذى يدعو الى الاسلام بوصفه مجرد فكرة ونظام بين مختلف الانظمة ، أن يفقد من بين جوانحه مشاعر الشفقة على أولئك الذين يدعوهم، ودوافع الغيرة علء سعادتهم الآجلة والعاجلة ، وهو المعنى الانسانى الذى اتصف به الانبياء والربانيون ، فكان سر نجاحهم واقبال الناس عليهم ، والتأثر بكلامهم ·

فلماذا يفقد هذا الصنف من الدعاة تلك المشاعر والمعانى الربانية الشفوقة ؟ لان الذى يهيم فى طريق الدعوة الى الاسلام ، بعيدا عن المثلول فى محراب التبتل ومعانى العبودية لله عز وجل ، مندفعا بالاسباب ذاتها التى تدفع صاحب أي مذهب أو مبدا الى الدفاع عن مذهبه ودعوة الناس اليه ، لابد أن ينسى الله تعالى فى غمار دعوته تلك · ولابد أن ينجرف فى تيار الانانية ورغبة الانتصار للذات شأن سائر الدعاة الى مختلف المذاهب والاحزاب · وهيهات حينئذ أن يتأثر بدعوته أحد ، اللهم الا أن يكون تأثرا مصلحيا قائما على مناورة أو على الرغبة فى الوصول الى أمان ومصالح دنيوية · ذلك لان الناس لا يصعب عليهم أن يشموا رائحة حب الانتصار للذات ، من خلال هذه الطريقة فى الدعوة · واذا انتبهوا لذلك ، فلابد أن تستيقظ لديهم هذه المشاعر ذاتها ، بطبيعة الحال ، وأن يتحصن كل طرف ضد الآخر فى حصن أنانيته والانطواء على ذاته ، وعندئذ تتقطع مما بينهما

الجسور الواصلة ، ويتفاقم الحقد وتتوالد الضغائن ، ويقضى على كل أمل فى التفاهم والوئام ٠

اننى أستطيع أن أقرر أن جهد هذا النوع من المسلمين جهد ضائع ، مقضى عليه بالخيبة وان تراءت له بعض الثمار والآثار السطحية السريعة ، لان صورة الاسلام فى أذهان هؤلاء الناس ، لا تتناول اكثر من أنظمة فوقية مبتورة عن أصولها مجتثة عن تربتها ، فهم انما يقومون ويقعدون بالحديث عنها والموازنة بينها وبين غيرها ٠ وما أكثر ما يجلس أحدهم ليتكلم متحمسا فى هذه الامور أو ليناقش فى أمور الدعوة ومناهجها ، فينسى فى غمار حديثه ونقاشه أهم الواجبات الدينية التى أناطها الله فى عنقه ، كالقيام الى الصلاة فى أوقاتها مثلا ، ولعله لا يصحو اليها الا فى آخر الوقت ، ثم لا ينهض اليها الا متثاقلا ويؤديها بسرعة خاطفة شأن من يريد أن يسرع فيتخلص من عبء يلازمه ٠

والخلاصة أنه لا قيمة لدعوة الناس الى اختيار منهج معين فى السلوك ، أو نظام متميز للحياة ، الا أن تكون آتية من وراء دعوتهم الى الاصطباغ التام بالعبودية المطلقة لفاطر السماوات والارض ، وايقاظهم الى الحقائق الكبرى الكامنة فى قول الله عز وجل :

« **قل ان صلاتى ونسكى ومحياي ومماتى لله رب العالمين ٠ لا شريك له، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين** » (الانعام : 162 ـ 163) ٠

الشرط الثانى :

أن تشيع الدعوة أولا فى صفوف المسلمين أنفسهم ، حتى اذا استقام أمرهم على النهج السليم ، وتجسدت فى حياتهم حقائق الاسلام وفطرته وأخلاقه ، انبثق لهم من ذلك لسان مبين يدعو الامم الاخرى الى اتباع دين الله عز وجل ، وتجلى من سلوكهم أمام تلك الامم خط مضىء يشق سبيله وسط أمواج الظلام وعكر المذاهب والافكار المنحرفة ٠ فكان من ذلك أهم عامل يحمل تلك الامم على مزيد من الاهتمام بفهم الاسلام أولا والاعتناق له والانصباغ به ثانيا ٠

وان من أكبر الاخطاء التى يقع فيها بعض المسلمين ، انصرافهم ـ فى غمرة فرحهم باقبال كثير من الغربيين الى دراسة الاسلام ـ عن النظر فى اصلاح أنفسهم ومن حولهم من عامة المسلمين ٠ مستعيضين عن ذلك بالاتجاه الى الامم الاخرى ، يدعونهم فيما يزعمون الى الله ويرشدونهم الى الاسلام والتمسك به ٠

ذلك لان تلك الامم محجوبة عن الاسلام وحقيقته وحب الاقبال اليه ، بما تراه من واقع المسلمين وسوء حالهم ، أكثر من أن تكون محجوبة عنه بالجهل أو لسوء الفهم له ٠

يعرف هذه الحقيقة جيدا ، رؤساء تلك الامم وقادتها ، وهم الذين ما زالوا يتربصون بالاسلام وأهله الدوائر ، لذا تراهم يسلكون الى حجز الاسلام عن شعوبهم أقصر الطرق وأيسرها ، ألا

وهو الامعان فى حمل المسلمين أنفسهم على التنكر لاسلامهم ، بالوسائل المتنوعة وفى مقدمتها اغراقهم بشتى صنوف الملهيات والمنسيات ، وتقطيع سبيل ما بينهم الى التشاور والتناصح والتضامن · حتى اذا رأوا بأعينهم سوء حال المسلمين فى أخلاقهم وسائر أوضاعهم ، ووقوفهم ـ فى الجملة ـ على طرف النقيض مما يعرفون به ويدعون اليه ، قعدوا مطمئنين الى واقع شعوبهم ، ولم يبالوا عندئذ أن يقوم فيما بينهم آحاد المسلمين يدعونهم الى الاسلام أو يشيدون على أراضيهم المساجد ، أو ينشرون بينهم كتبا ونشرات تعرف بالاسلام · فانهم يعلمون جيدا أن هؤلاء المسلمين مهما نجحوا فى ابراز جوهر الاسلام ناصعا قويا أمام أفكار شعوبهم ، فان فى ذلك الواقع السيء المؤلم الذى يرزحون تحته ما يضمن ألا تكون لتلك الجهود الكلامية أو الكتابية أي تأثير خطير · فمن هذا الذى سيصغى بتأثر واعجاب الى ذلك الذى يتحدث عن كنوزه وأمواله الوفيرة، والناس جميعا يرون ما يعانيه من بؤس وضنك ، ويرون يده الممتدة بذل المسألة الى القادمين والرائحين ؟

ولعل من أبرز المظاهر التى تؤكد هذه الحقيقة ، ما تراه من سياسة دولة كأمريكا تجاه مسألة الحريات فى كل من داخل بلادها وخارجها · فمن المعلوم أنها تذهب فى تقديس الحريات الانسانية داخل بلادها الى أبعد مدى ممكن · وبموجب ذلك يحق لكل انسان أن يمارس نشاطه الدينى على النحو الذى يشاء ، كما يحق للمسلمين أن ينشطوا فى دعوة الناس الى الاسلام وتعريفهم عليه بالطريقة التى يحبونها ·

الا انها ترقب النشاطات الاسلامية للمسلمين فى بلادهم بمنظار آخر ··· فهي لا تبالى أن تنسف شعار الحرية التى تعتز به فى بلادها ، من أساسه ، اذا رأت حرية الدعوة الاسلامية قائمة فى جهة ما من بلاد المسلمين ، بجد وعلى قدم وساق ·· وربما استعانت بجهود من قد نراهم أعداء لها من أجل القضاء على تلك الحرية ، واغلاق أو تضييق السبل أمام الدعوة الاسلامية الجادة ، أن تبلغ مداها الاخير ·

وواضح أن السبب فى اتخاذها هذين الموقفين المتعارضين ، أنها تخشى من الاسلام اذا تحرك ونشط بجد فى بلاد المسلمين ، أكثر مما تخشاه اذا نشط على أيدى آحاد المسلمين داخل بلادها ·

نعم ، قد نرى ـ على الرغم من هذا الذى نقرره ـ أناسا فى ربوع أوروبا وأمريكا ، يقبلون الى الاسلام ويعتنقونه، دون أن يصطدموا بالسوء الذى يعانى منه المسلمون · الا أن هذه الظاهرة لابد أن تعود الى أحد سببين :

فاما انهم لحسن حظهم احتكوا بأشخاص مسلمين صادقين مع الاله فى اسلامهم فتنسموا فيهم عبير الفطرة

الانسانية الصافية ، وآنسوا فيهم الخلق الاسلامى الكريم، وأحسوا بنور الهداية الربانية يغمر قلوبهم ، فيرتفع بها صعدا عن الشهوات والاهواء الجانحة · فوجدوا فى ذلك الضياء والانس أعظم ملاذهـــم من ظلمات حياتهم الخانقة ، فدخلوا فى دين الله تعالى من هذا الطريق · وهــذا السبب يؤكد الحقيقة التى نحن بصـــدد بيانها وتقريرها ·

واما انهم أقبلوا الى دراسات فكريــة حرة عن الاسلام وحقيقته · فوجـــدوا حقائقه الناصعة وبراهينه العلمية والعقلية القاطعة ، فازدادت كراهيتهم للباطـل الذى يتقلبون فيه ، وتلاقى لديهـم مـن اشمئزاز مما هم تائهون فيه ، ومـــن يقينهم الفكرى بالحق الذى وقعوا عليه، عامل حررهـم من أســـر شهواتـهـم واهوائهم ، ثم وضعهم على رأس الطريق الى صراط اللة عز وجـل الهـادى الى السعادتين الدنيوية والاخروية ·

وأيا كان السبــب : هــذا أو ذاك ، فهي على كل حال حالات نادرة لا تشكل تيارا ، ثم لا علاقة لامر الدعوة الاسلامية بهـــا ·

انما المهم على كل حال ، أن يعلـــم المسلمون أينما كانوا ، أنهم فى اليوم الذى يتحققون فيه بمعانى الاسلام على وجهه الصحيح ، بدءا من أعماق أفئدتهم الى ظواهر أحوالهم ـ : ستفتح أبـواب الاسلام على مصاريعها أمام شعـــوب أوروبا وأمريكا وغيـرها · وســـوف يدخلون فى دين الله أفواجا كما دخلوا فيه من قبل أفواجا ·

فأما ، والمسلمون على هذه الحالــة التى هم عليها ، فان جهود الدعوة كلها يجب أن تنصرف الى اصلاح حالهـــم · وكل حديث يصطنع التباكى قبل ذلك ، على الاسلام خـــارج بـــلاد المسلمين ، دون التفات جاد الى واقع المسلميـــن أنفسهم ، لابد أن يكون مـــرده اما الى سذاجة متناهية فى معالجة الامـــور مترابطة بعضها ببعض واما الى كيـد خبيث يستهدف شغـل المسلمين عـــن البلاء المستشرى فيما تينهم ، وصـــرف طاقاتهم لتتبدد فى الفضاء ثم لا تعود الى أصحابها بشىء ·

الشرط الثالث : أن تتلاقى متناسقة على طريق الدعوة الاسلامية ، جهـــود الافراد والشعوب مع الطاقات التنفيذية التى يملكها القادة والحكام ·

فلا قيمة لما قد تنفرد به فئات أو أفراد من المسلمين ، فى نطاق العمل الاسلامى، اذا لم يكن للدولة الحاكمة فى ذلك دور أساسى فعال · ولئن ظهر بعض الفوائد والآثار ، فهي لا تعدو أن تكون آثـــارا جزئية ، ويغلب أن تكون مع ذلك سطحية وموقوتـــــة ·

ويتجلى دور الدولــة الحاكمــة على صعيد العمل الاســلامى ، فى النهـوض بجانبين اثنين ، ان هي تهاونت فيهمـا ، لم يصلح أن ينوب عنها فى النهوض بهما أحـــــد ·

أحدهما جانب داخلي يتعلق بحال المسلمين أنفسهم · ثانيهما جانب خارجي يتناول علاقة المسلمين مع غيرهم ·

أما بيان الجانب الاول ، فيتلخص فى أن نجاح الدعوة الاسلامية فى صفوف المسلمين ، فى ظل الواقع الذى أوضحناه ، يتطلب مع وسائل الارشاد والبيان قوة التنفيذ والحماية وتهيؤ المناخ المناسب ·

ومعلوم ان الارشاد والبيان وتوابعهما ، من وظيفة الافراد والجماعات الذين أوتوا القدرة على النهوض بهذا الواجب · على أن جميع المسلمين المتبصرين بحقيقة الاسلام ، يتساوون فى واجب النهوض بقاسم مشترك من هذه الوظيفة ، وهو ما قد تساووا فى معرفته من حقائق هذا الدين وأحكامه ·

ولكن الذين يرشدون ويوجهون ، انما يجتازون بالناس عقبة نظرية فقط · وتبقى من بعدها مرحلة السعي الى التنفيذ · وهي مليئة بالعقبات والمعوقات التى تصد السالكين عن بلوغ الغايات ، بل تقطعهم حتى عن مواصلة السير فى الطريق · ولا يقوى على تذليل تلك العقبات وازاحة المعوقات ، الا قادة المسلمين وأولوا الامر فيهم · فان هم أعرضوا عن القيام بهذا الواجب ، لم ينب عنهم فى النهوض به أحد ·

رب انسان أيقن منه الفكر واللب بحقائق الاسلام وأحكامه ، ولكنه مشدود بحبال نفسية الى الانحراف وسلوك مسالك الضياع ، بسبب المناخ الذى يحيط به ·· فمن ذا الذى يملك أن يطهر هذا الجو الذى يعانيه ، من الملهيات والمغريات والمهيجات ، غير الحاكم المسلم الذى اليه تصريف الشؤون وادارة أحوال البلاد ؟

ورب أناس يصغون الى كلمة الحق مفعمة بالروح والبرهان ، فتستقر فى عقولهم وتشرق فى قلوبهم ، ولكنهم ما يكادون يشعرون بنعيم الهداية والعرفان ، حتى تنتصب أمام أعينهم ، وتتساقط فى أيديهم ، وتسرى الى آذانهم ، كلمات الختل والتشويه والدس والخداع ، تأخذ طريقها اليهم من خلال المنشورات والمجلات والاندية والاذاعة، فمن ذا الذى يملك أن يحرس الكلمة (مكتوبة كانت أو مسموعة) أن لا تجعل مطية للدس والافتراء غير الحاكم الذى بيده تدبير ذلك كله ؟

ورب مؤتمرات وندوات عقدت على عرض البلاد الاسلامية وطولها ، لخدمة الاسلام وابلاغ دعوته ، طرحت الآراء السديدة · ثم انتهى المؤتمرون الى قرارات أو توصيات هامة ومفيدة ، فلما انفض الوفود ، بقيت تلك التوصيات ألفاظا مسطرة وأوراقا مطوية ·

ولا شك أن المسؤولية ليست مسؤولية الذين قرروا ثم انصرفوا ، لانهم لا يملكون أكثر مما فعلوا · ولكنها مسؤولية من قد عهد اليهم بأمر التنفيذ ،

ممن يملكون أسباب ذلك ثم لم يفعلوا ولم ينفذوا ٠

وما أظن الا أن هذه المسؤولية ، هي التي سيجدها ويعبر عنها الاثر القائل : ان اللـه ليزع بالسلـطـان ما لا يـزع بالقــرآن ٠

وأنا لست أعنى بهذه المهام الداخلية التي يجب أن ينهض بها قادة المسلمين (كما قد أصبح واضحا من الامثلة التي ذكرتها) مجرد تلك المسؤولية التقليدية التي تتمثل فى رسم القوانين الاسلامية ، ثم اعتمادها فى نطاق السلطة القضائية، فهذا جزء يسير جدا من مجموع الحقيقة الاسلامية التي يجب على النـاس أن يأخذوا أنفسهم بها أفرادا وجماعـات، بل ربما كان موقع هذا الجزء من الاجزاء والجوانب الاخرى موقع النتائج مـن الاسباب والمقدمات ٠ بل رب حاكـم خبيث الطوية عميق المكيدة ، يتشاغـل بوضع القوانين الاسلامية فى نطـاق الحكم والقضــاء ، ليصـرف نفســه ، وليصرف أنظار الناس معه ، عن واجب النهوض بالحقيقة الاسلامية المتكاملة ، والمتمثلة فى اليقيـن الـذى يجـب أن يستحوذ على العقل ، والخلق الــذى يجب أن يصطبغ به السلوك والنظـــام الذي يجب أن تنضبط به أصول المعايش والحياة كلها ٠

فأنا انما أعنى بمهام الحاكم المسلم هذه الجوانب المتلازمة كلها ٠

وأما بيان الجانب الثانى سيتلخص فى أن شطرا كبيرا من مهام الدعـــوة الاسلامية ، يجب صرفه الى مقاومـــة ذلك العدوان الخفى المتسلل من خـارج حدود البلاد الاسلامية ، والذى يمارسه أولئك الاعداء التقليديون الذين سبـق الحديث عنهم فهؤلاء يكيدون للاســـلام والمسلمين خارج بلاده ٠ ولا يعجزهـــم بطبيعة الحال أن يسخروا لذلك كـــل الطاقات الفكرية والنفسية ، وأن يجندوا له سائر رسل التبشير والاستشـراق ، وأن ينفقوا فى سبيله الاموال الطائلة ، وأن يستعينوا حتى بالعمليات العسكرية اذا اقتضى الامر ذلك ٠ فمن ذا الذى يملك أن يجابه عدوانهم هذا بوسائلهـم هذه ، غيــر قــادة المسلميــن ، وأولى السطوة والسلطان فيهم ؟ ٠٠

نعم ان للشعــوب الاسلامــية دورا كبيرا فى صد العدوان الخارجى عـلى الاسلام والمسلمين ، ولكن لابد أن يكون ذلك بواسطة قادتهم وأولى الامر فيهم، اذ انهم دون غيرهم ، الذين يشكلون أداة الاتصال بين شعوبهم وقـادة الغـــزو الفكرى ٠

فاذا تبين من خلال هذا الكلام مـدى أهمية الدور الذى يتحمله قادة المسلمين فى نطاق العمل الاســلامى والدعـــوة الاسلامية ، فلا مناص من أن نقرر بكل صراحة ، ومع قدر كبير من الاســف ، بأن هذا الشرط الثالث لم يتحقق منـــه شيء الى هذا اليوم ، على وجهه السليم،

اللهم الا فى أضيق الحالات ، وعلى مستوى سطحى لا يكاد يعطى ثمرة مفيدة ٠

فالدعوة الاسلامية انما تمارس الى الآن ، من قبل فئات وهيئات شعبية فقط ، دون أن تشد من أزرها ، بشكل متناسق وبالمعنى الذى أوضحناه أي سلطة حكومية ٠ فلا ريب أن عمل هذه الفئات الشعبية يشبه الى حد كبير ، راحة يد واحدة تسعى جاهدة أن تتلاقى على نفسها لتصفق بمفردها ، أو يشبه حالة من قد فتح صنبور ماء على حوض كبير ، تفتحت فى أسفله ثقوب واسعة كثيرة ، دون أن يجد من حوله من يعينه فى سدها ٠ فأخذ الماء ينهمر فى الحوض، وظلت الثقوب تبتلعه ، وبقى الحوض فارغا لم يصبه من الماء الا الرشاش والبلل ٠

ولعل من الخير أن نبحث عن السبب الذى أفقد روح التعاون الحقيقى بين المتحرقين على الدعوة الاسلامية من آحاد المسلمين ، والقائمين على أمرهم من القادة والحكام ٠٠

ان السبب ، بكلمة جامعة مختصرة، هو السياسة ٠٠٠ نعم السياسة بطبيعتها الجديدة . ومفهومها الذى يفرض نفسه على كل من قضى عليه أن يدخل فى غمارها ، ويستسلم لتيارها ٠٠٠

لقد كانت كلمة « السياسة » تعنى فيما مضى ، سلوك سبيل الحكمة والتعقل الى الهدف المنشود ٠ فكانت مطية ذلولا وسبيلا معبدة الى بلوغ الغايات السامية ، ولما كان اقامة سلطان الدين على المجتمع وفى النفوس، أسمى الغايات وأنبلها ، فلا غرو أن تكون السياسة هي الخادم الامين لتحقيق هذه الغاية ٠

ولكن هذه الكلمة غدت اليوم عنوانا على ألوان معقدة من المناورات والمحاولات ووجوه التعامل بين القادة والحكام بعضهم مع بعض ٠ وفى ظل هذا المعنى المتشابك المعقد ، الذى آلت اليه الكلمة ، أخذت السياسة تتحول شيئا فشيئا من وضعها السابق الذى كانت فيه مجرد وسيلة وطريق ،الى أن أصبحت فى أكثر الاحوال والظروف غاية بحد ذاتها ، أو ــ بتعبير أدق ــ غاية ووسيلة بآن واحد ٠٠

وما ينبغى أن نستغرب هذا ، فان الطريق اذا كثرت تضاريسه ، وتعقدت منافذه ، واشتدت عقباته ، يوشك أن يتحول الجهد الدائب للتغلب عليها أخيرا ، الى حركة مستمرة ضمن نطاق محدود ، لا تهدف بمجموعها الى شىء آخر غير ذاتها ٠

على أن الامر لم يقف عند هذا الحد فقط ٠ بل غدت السياسة هي المحور الثابت ، وتحولت الاهداف والغايات الاساسية الى وسائط تدور فى فلكها وتقوم على خدمتها ٠٠

ونظرنا ، فاذا الدين ذاته واحد من هذه الوسائط الخادمة ··· فما أكثر ما يستنطق الدين بما تهواه السياسة أو يقتضيه أسلوبها · وما أكثر ما تسخر الفتاوى لتوسيع مواقفها عندما تعوزها البراهين والمؤيدات ···

بل لقد نظرنا ، فاذا للدين الحق الذى نؤمن جميعا به ، أحكام متناقضة ومواقف متعارضة ما بين سياسة وأخرى :

ان عليه أن يدافع عن مواقف الرضا والاستسلام للعدو الغاصب المنكل ، وعن مديد الموالاة والتعاون اليه ، بكل وجه وعلى أي حال ·· وعليه أيضا أن يتحول فيصبح نصيرا لكل ما تقترحه أو تخطط له رعونات الثأر والانتقام ، ويتطلبه غليل القلوب الحاقدة ورغبات النفوس الهائجة ، دون أي تفريق بين ما شرعه الله من ضرورات الحرب والجهاد ، وما حذر منه من لواعج الثأر والانتقام ···

ثم على الدين أن لا يتخلى عن وظيفة التأييد لكل ما يقتضيه الوضع السياسى، من أتباع مذاهب معينة تتعلق بمبادىء الملكية والاقتصاد ، أو قضايا الاخلاق والاجتماع ·

هذا كله ، مع العلم بأن الله جل شأنه، ما أنزل الدين الحق على عباده الا كبحا لجماح الرعونات ، وجمعا لشتات الآراء ، واذابة لاحقاد القلوب وسخائم النفوس · فمعاذ الله أن تكون له وجوه متعددة يصانع بها أرباب السياسة وابطال الكر والفر ، ليفوز برضوان الجميع ···

وان المصيبة هنا لم تعد واقفة عند مشكلة انصراف القادة عن رعاية الدين واهمال مبادئه · فذلك أمر يسير بالنظر الى ما هو أدهى وأمر ·

اذ ان أمر الدين عندما يصبح مسخرا بيد السياسة وأربابها ، ويتجلى ذلك لكل متأمل ومتدبر ، يتكون من ذلك برهان وأي برهان ، لاولئك الذين ظلوا يقررون بأن الدين فى جوهره ، ليس أكثر من مؤيدات ذات قداسة مصطنعة ، ابتدعها على مر التاريخ الانسانى أولئك الذين يبالغون فى الاعتداد باتجاهاتهم وآرائهم ، ويسعون الى فرض أفكارهم على أكبر قدر من الناس خلال أطول حقبة من التاريخ · أجل ، فما أيسر أن يردد أولئك المبطلون هذا الكلام، ويجعلون من هذه المظاهر المؤسفة بين شاهد علمى على ما يقولون ·

ونحن وان كنا على يقين بأن هذا اللغو فى تفسير الدين الحر وتصوره ، لا يمكن أن يعلق بذهن أي انسان عاقل يريد أن يتعرف على هذا الدين من داخله ، ومن خلال التعرف على جوهره ومصادره ، الا أننا على يقين أيضا بأن كثيرين هم أولئك الذين يستعيضون عن دراسته بالقاء نظرة على بنيانه الخارجى وبالاصغاء الى ما يقوله عنه هؤلاء المبطلون ، ثم من خلال هذه المشاهد السياسية التى تجل ــ فى كثير من الاحيان ــ من الدين مطايا لتحقيق

المآرب والمطامع الشخصية والنفسية ذات الدوافع المتنوعة ·

فاذا أضفنا الى هذا أن كثيرا من الرعونات التى تشمئز منها الموازين الانسانية الصافية ، والتى تهيج فى نطاق المدافعات السياسية ، ترتدى فى كثير من الاحيان كسوة الاسلام وتنطق بلسانه ـ فان بامكاننا أن نتصور مدى النكسة التى يصاب بها كثير ممن تفتحت عقولهم ونفوسهم لدراسة الاسلام وفهمه ، فى مختلف الاقطار والبلاد ، اذ ما تكاد تواجههم هذه المشاهد حاملة راية الاسلام ، حتى ينكفئوا على أعقابهم ، وقد تعقدت نفوسهم تجاه الاسلام بجملة وتفصيلة وعادوا فى كراهيتهم له واشمئزازهم منه الى شر مما كانوا عليه من قبل · فما تكاد آذانهم تتفتح بعدها لسماع كلمة عن الاسلام وما يتعلق به ···

وهكذا ، فان بوسعنا أن نتصور بعد الفجوة الفاصلة بين ما ينهمك فيه كثير من أفراد المسلمين وفئاتهم فى سبيل العمل الاسلامى وتقريب الاسلام الى عقول الناس وتحبيبه الى قلوبهم ، وما قد ينحرف فيه كثير من الساسة من قادة المسلمين وأولى الامر فيهم · وليتها ظلت مجرد فجوة ·· أنها تتحول فى كثير من الحالات الى تشاكس فى السعي وتناقض بين عملية البناء والهدم والتقريب والتبعيد ···

على أن من الحق أن أعود فأقول : لعل « السياسة » بمعناها الذى يفرض نفسه اليوم تحمل تأثيرا يشبه أن يكون سحريا ، على كل من قد ينجرف فى تيارها · فهي تعدمه القدرة على تمييز الوسائل عن الغايات ، كما تعدمه القدرة على اعطاء كل منهما حقه من الرعاية والاهتمام ·

ومن يدرى ؟ ·· لعل ناقدا مثلى ، لو ابتلى ـ والعياذ بالله ـ بالوقوع فى دوامة العمل السياسى ، لنسي كل هذا الكلام التوجيهى ، ولأعجزته المشكلات المتارعة عن أن يعالجها بصفاء ذهنى وقدرة ذاتية على تسخير سلسلة الاحداث كلها فى سبيل رعاية الحق الذى يتمثل فى الاسلام عقيدة وأخلاقا وحكما ، ولتمزق بين المتطلبات المختلفة التى تفرض نفسها عليه من كل صوب ·

ولكن مهما يكن ، فان المسألة لا تعدو أن تكون مشكلة تحتاج الى حل · ولا ريب أن على قادة المسلمين أن يبذلوا كل جهودهم (ما داموا صادقين فى اسلامهم ، لحل هذه المشكلة ولضبط النشاطات السياسية ضمن حدود الوسائل والاسباب ، كما أن عليهم أن يفعلوا كل ما يمكنهم للتحرر من دوامتها ، وامتلاك ناصيتها ، ثم السير بها فى الطريق الى خدمة هذا الدين ورفع مناره وترسيخ سلطانه ·

ان علينا جميعا أن ندرك بأن العمل السياسى فى أيدى قادة الامة الاسلامية ، ليس الا سلاحا لخدمة الاسلام واقامة المجتمع الاسلامى فوق أرفع ذرى الارض . فان هم عجزوا أن يتخذوا من السياسة والحكم سلاحا لذلك ، فقد تحول كل منهما فى أيديهم الى باطل من السعي وعبث من الجهد والعمل ...

ودعونى أيها الاخوة أضع بين أيديكم وصية توجه بها السلطان محمد الفاتح رحمه الله الى ابنه أورخان ، عندما شعر بدنو أجله ، متمنيا أن يعدها كل واحد من قادة المسلمين اليوم ، تطرق سمعه ، وصية موجهة اليه عساها توقظنا جميعا من دوامة هذا التخبط الذى نعانيه :

(ها أنا ذا أموت ولكنى غير آسف ، لانى تاركا خلفا مثلك . كن عادلا صالحا رحيما بلناس جميعا . وأبسط على الرعية حمايتك بدون تمييز ، واعمل على نشر الدين الاسلامى ، فان هذه هي واجبات الملوك على الارض .. قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ، ولا تفتر فى المواظبة عليه ، ولا تستخدم الاشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون فى الفحش ، وجانب البدع المضرة ، وباعد الذين يحرضونك على الحقد والظلم .. وسع رقعة البلاد بالجهاد ، واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد .. واضمن للمعوزين قوتهم ، ولا تمد يدك الى مال أحد من رعيتك ، وابذل عطفك واكرامك للمستحقين .. وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة فى جسم الدولة فاعطف عليهم وشجعهم .. حذار حذار، لا يغرنك المال ولا الجند . ولا تبعد أهل الشريعة عن بابك ، ولا تمل الى عمل يخالف أحكام الشريعة فان الدين غايتنا والهداية منهجنا .. خذ منى هذه العبرة : حضرت الى هذه البلاد كنملة ضعيفة فأعطانى الله هذه النعم الجليلة . فالزم مسلكى واحذ حذوى ، واعمل على تعزيز هذا الدين المحمدى وتوفير أهله مع سائر رعيتك المطيعة ، ولا تصرف أموال الدولة أكثر من اللزوم ولا تضن على أخلافك بنصائحك ..) (I)

وبعد ، فتلك خطوط عريضة ثلاثة فى طريق الدعوة الى الله عز وجل . بسطت الحديث عنها بالقدر الممكن ، وتحت كل واحد من هذه الخطوط ملاحظات وآداب تفصيلية ، لا ضرر فى طي الحديث عنها ، لو ضمنا سلامة العمل بخطوطها الرئيسية العريضة .

فاذا تذكرنا أن واجبنا الذى شرفنا الله تعالى به ، قادة وشعوبا ، انما هو اقامة دينه وتنفيذ شرعه ، وارتداء جلباب العبودية له وأن اليه المرجع والمآب ـ : علمنا مدى ضرورة النهوض بهذا الذى ذكرناه ، والله المستعان فى الهداية والتوفيق .

(I) من كتاب : العاهل العثمانى أبو الفتح السلطان محمد الثانى . تأليف علي همت ، ترجمة محمد احسان عبد العزيز ص I46 و I42 .

كلمة اختتام

الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي

للسيد

عبد الرحمن شيبان

وزير الشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على رسول الله
وعلى آله وصحبه

السادة أعضاء اللجنة المركزية والوزراء،
السادة نواب المجلس الشعبي الوطني،
حضرات الأساتذة الكرام،
أيها الإخوة والأخوات،
أبنائي الطلبة والطالبات،
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ها نحن قد بلغنا - بعون الله وتوفيقه - النهاية الحميدة، من أعمال ملتقانا الرابع عشر للفكر الإسلامي، بعد ثمانية أيام مليئة بالجهود المضنية المتواصلة، استعرضنا فيها صفحات ماجدة من تاريخنا الثقافي

النضالي، وتحاورنا فيما يدعم بناءنا الإسلامي الذي نسعى إلى تشييده على أسس قوية، تجمع المسلمين على الحق، وتوحد جهودهم في خدمته، وتحصن الشباب المسلم من التبعية والاضطراب؛ وتقيه شر الانحراف والاغتراب؛ وتربيه على الاستقلالية في النظرة، والحرية في الفكرة، والذاتية في المنهج والتنفيذ.

لقد أقبلتم على المشاركة في ملتقاكم جادين مجتهدين، سواء كنتم محاضرين أم معقبين ومناقشين، أم سائلين ومجيبين، وتناجت بينكم وشائج الصداقة والقربى، وتداعت بالتعاون والالتحام، في ظل راية الأخوة وعقيدة الإسلام؛ وسارت أعمال الملتقى حسب البرنامج المضبوط، والخطة المرسومة، ووصلت إلى النتائج المتوخاة؛ ولم يبق أمامكم إلا التطبيق.

إن التاريخ ذاكرة الأمة، ومستودع أمجادها، وعنوان شخصيتها ووجودها؛ وطريقها إلى وعي نفسها، ومعرفة ذاتها؛ به تكتشف حياتها، وتزن ماضيها لتبني حاضرها ومستقبلها؛ ومن أحيا تاريخ أمة فقد أحياها، كما قال الإمام عبد الحميد بن باديس لتلميذه الأستاذ المرحوم

"مبارك الميلي"، يوم أخبره بتأليف كتاب عن الجزائر أسماه: "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، وتمنى أن لو سماه "حياة الجزائر"؛ لأنه كان - رحمه الله - ينشد الحياة للجزائر وللمسلمين حتى في أسماء الكتب.

فلا عجب إذاً أن يشتمل برنامج ملتقانا كل سنة على نقطة تاريخية، وكانت هذه السنة "الونشريس قلعة من قلاع العلم والنضال"، وقد تبين لكم مما سمعتم من محاضرات ومحاورات، في هذه النقطة، أنها صفحة من أمجد صفحات البطولة والتضحية والفداء، في تاريخ شعبكم، في الجزائر؛ واكتشفتم فيها وجهاً مشرقاً، وضاء الجبين، كتبت فيه أمجادنا بدماء الشهداء، ومداد العلماء؛ ثم اقتدى الأحفاد بالأجداد، فرفعوا الراية في الميدانين: العلمي والنضالي، منشدين:

" نبني كما كانت أوائلنا ∴ تبني ونفعل مثل ما فعلوا "

وفي النقطة الثانية: "الإسلام والمذاهب الاجتماعية الحديثة" غصتم في أعماقها تحللون وتناقشون؛ وخرجتم منها مؤمنين بأن الإسلام منهج رباني لا يساوى بمذهب من مذاهب البشر، أو بدين جاء إلى أجل، وإنما هو دين الله الخالد، تنطوي مبادئه على كل ما يحتاج إليه الإنسان في دنياه

وَأُخْرَاه، يحرِّم الاستِغْلاَل والظُّلم، ويَعتمد على الاقتناع الداخلي والارتباط الوجداني؛ ويَتّجهُ في ذاتيّةٍ استقلاليّة إلى إقامة العَدَالة الاجتماعية في أسمى مَعَانيها، ويحقِّق التَّوازنَ النّفسيّ والعَقليّ والماديّ، ويَعالج أدواءَ الإنسان من المرض والفقر والجهل والتخلف، معَالجة تنطلق من تنقية ضَميرِه، وتغْيير بواطِنِه، وتنمية نزعة الخير فيه «إنّ الله لا يُغيّر مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»[1]؛ واتّضَح لكم أنّ الإسلام يحَارِبُ الاستبداد بأنواعِهِ، ويَلعن الظالمين؛ ولا يحبّ المسرفين والمترفين والمنحرفين؛ ويُوجب طلبَ العلم، ويَدعو إلى التفكير، وَيَذُمّ التّقليدَ والجمودَ، وَيقبل الجَديدَ النافع المفيد، وَيَنسَجِمُ مَعَ جَميع العُصُورِ والأوطان؛ وكل مَا لا ينَاقِض روحه، ولا يعارض قاعدة من قواعده، أو ينسف نصًّا من نصُوصِهِ، لا يمنع أهلَه من الأخذ بهِ إذ «الحِكْمَة ضَالّة المؤْمِن يَلْتَقِطها حَيْث وَجدَها»؛ فلنأخذْ من المذاهب الاجتماعيّة الحَديثة، مَا يناسبُ العَصْرَ ويَدْعو إلى التّقدّم، دُون جمُودٍ أو انحرَاف؛ ولكن بَعدَ التّشاورِ والدّراسة والتحليل؛ ولا بأسَ أن يكونَ هَذا في نَدَوات إسلاميّة تنعقدُ هُنا

1 - سورة الرعد، 12

أوْهُناك، يُشَارِكُ فيهَا أهلُ الاختصَاصِ لاتخاذ موقفٍ موحّدٍ في أيّة قضيّةٍ هَامة، وَذلك مَايرشد إليه قوله تعَالَى: "وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ"[1].

لَقَدْ تَنَاولت المذاهبُ الحَديثةُ العقائدَ والدّيانات وَالأخلاَق، وافْترَقَت في شَأنها طرائق، وأنكرَ بعضُهَا البَدِيهيَات مِمّا لايجُوز أن يأخذ المسْلمُونَ شيئًا منه؛ لأنهُم أمة واحدة، توحّد الخالق وتعبُده؛ وتهتدي في حيَاتهَا بالقرآن: "إن هَذه أمتكُم[2] أمّة واحدَة وأنا ربُّكم فاعبُدونِ"، وَمَا اختلفت فيه من فرُوعٍ، وَسَلكت فيه كلُّ جمَاعة مِنهَا طَرِيقًا، فلا يَضِيرُها، مَادَامت مُتمسّكة بالقرآن، ومتحدَةً على الأركان، وَتتجهُ إلى القبْلة الواحِدَة؛ فَليَتحَلّ المسْلمُون بِرُوح التّسَامح والحِرْص عَلى كل مَا يَدْعمُ وحدَتهم وَيُجنّبهم التمزّق والتّشتّت؛ وَلاتعْذرُ أيّة جمَاعةٍ مِنَ المسْلمِين تجعَل اختلافَ العلمَاء في بَعضِ أحكامِ الوضوء، وكيفيّة الصَّلاة

1- سورة الشورى، 35

2- سورة الأنبياء، 91

المسْتَوْفيّة الأركان، أوأحْكام الصَّوْم والزّكاة والحَج، مَثار فِتنٍ دَاخليّة، مَا أغنى المسْلمينَ عنها !! أما القضايا الاقتصادية وَمَذاهِبَ العُلماءِ فيها فيَجبُ اعتبارُ المذاهِب الاسْلاميّة في ذلك شريعَةً واحِدَة، يُؤخَذُ بالأوفق الأنفَع المُلائم للعصْر من أي مَذهب كانَ، مثل ذَوي الأرحَام، تحرمُهُم بَعْض المذاهب الفقهية من الإرث، وتورّثهُم مَذاهب فقهية أخرَى مثل الحنفيّة من أهل السّنة، والزيدية من الشيعَة، وهوما أخذ به المجلس الاسلامي الأعلى في مشرُوع قانون الأسرة الجزائريّة ؛ عملاً بالقولة المشهُورة : "اختلاف العُلماء رَحمَة ".

أيها الإخوة :

إنكم الحَحْتم في دراستكم النقطة الثالثة : 'الدعوة الإسلامية في القرن الهجْري الخامِسَ عَشر' على اعتبار الدّعوةِ مَسؤولية جَميع المسلمين، وسلاحهُم الفعّال في مقاومة الإنحراف والإلحاد ؛ وَطالبتم أن يكونوا أثناء هَذا القرن، يقظين، حَذِرين، مستعدين

لأداءِ رسالتهم؛ ولاحظتم أنهم لا يتمكنون من ذلك مَا دَامُوا متخلفين عَن غيرهم عِلماً وخُلقاً واقتصاداً؛ ولا يستطيعون ذَلك حتى يُجسِّمُوا فيهم قول الله تعَالَى: "كنتم خير أمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمرُونَ بالمَعْرُوفِ وتَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ وَتؤمنون باللَّهِ "«1»؛ واتفقتم أن الإسلام حَمَى أَهْلَهُ بقوّتهِ الذّاتيّة مِن الاضمحْلال والزّوَال، وَلولاه لما بَقِيَ لهم وجُود في هَذِهِ الحيَاة، فقد كان دِرعًا واقيّة وَحصْناً منيعًا، مَكّن لهم في الأرض، وَصَنع من أشْتاتهم أمَّة، وَنَسَج من تمزّقهم وحدَة، وَغذاها بأسبَاب القوة والرّقيّ، وَأقام نِظَامَه على العلم والعَقل والإيمان، والاستقامة والحرية وَالعَدل وَالإحسَان، والعمَل الصّالح، وَشقّ طريقهُ إلى النفوس، في وضوح، بِدَعوةٍ أسلوبُها الحكمة والموْعِظَة الحَسَنَة وَجدَال المشاغبين بالتي هي أَحْسَن، وَغايتها هداية الإنسَان ليَسْعَد في الدّنيَا والآخِرة، وعُمدتها أعمال يَوميّة وسَنوية تعْتَبَر امتحاناً لصدقِ الإيمان وصحّة العَقلِ وسَلامَةِ الإرادَة.

لقد اقْتَنَعْتم جَميعًا أن الإسْلام لا يَتحقّق في المسلم إلاّ بالعَمَل، وترجمةِ مبَادئهِ إلى وَقائع يَعيشُها المسْلمُون في عَلاقاتهم، وأن ليسَ لأيّ فكرَة أوعقيدَة قيمَةٌ،

1 - سورة آل عمران، 112

إذا بقيتْ مُجرّد رأي أو فكرة، ولم تتحوّل إلى واقعٍ اجتماعيّ أو تربويّ أو اقتصاديّ، لتغيّره وتَصُوغه صِياغةً جديدةً؛ فلنَنْزل إلى واقع المجتمعات الإسلامية، ولنغرِسْ مَبادئ الإسْلام بالعَمَل والتطبيق؛ فإنّ الشّريعَة الإسلامية مرتبطة بالعَمَل ارتباط الرّوح بالجسَد.

إنّ شعَاعَ الثورة الإسلامية في عَصرنا الحَاضر أخذ ينْسِج خيوط نهارٍ جديدٍ، يَطْلُعُ على الدّنيا ضيَاؤه، وبالتجنيد والتعبِئَة والدّعوة يتّسِعُ إشراقه، ويَعمُق أثرُه، ويطرُدُ ظلام الجَهْل والضلال، والتبعيّة والاستعمار؛ وتُطلّ من بَين خيُوطِه توجيهَات المفكرين والعلماء المصْلحينَ مَنارات تدعو ضيَاءه، وتقف مَعالم هدَاية على طَريقه، إن سَار المسْلمُون على هَديها كانت النّهضَة، وكان الرُّقي في جَميع المجالات، من ذلك قَول الإمَام المرحُوم محمّد البشير الإبراهيمي في ضرورة الاعتماد على النفس في كلّ مَانقبل عليه من بنَاء وَنَسعَى إليه من تنمية: "إنّ الوطن الذي يعمر بمال الأجنَبي، وَيَد الأجنَبي، وَعلم الأجنَبي، محكوم عليه بالخراب، وإن تَعالت في الأفق قبَابه، وكسِيَت بوَشْيٍ من السّمَاء هضابه، وَسَالَت بِذَهَب الأرض شِعَابُه".

وَمِنَ الوَاضِح أنّ الإسْلام انتصَر بالدّعوةِ وانتَشر بالدّعاة في فَجرِهِ وَضُحَاه؛ ثم مرّت قرُونٌ خمُولٍ ذبل فيها المُسلمُونَ وَنامُوا،كمَا أشار إلى ذلك أحَد السّادة المحَاضِرين؛ وَلمّا أقبَل عَليهم القرنُ الهجريُّ الخامِسَ عشر وجَدَهُم قَد استيقظوا وَتحفّزُوا للانطلاق، وأخذت قواهم تتكَاثَر، وتعالت صرَخات الاستغاثة مِن شَتّى أنحاء آسيَا وأوربَا وَإفريقيَا وأمريكا تهيبُ بهم أن يمُدُّوهَا بمَن يُعَلّمُهَا مبادئَ الإسلامِ وأحكامَه، وَيُنجدُها بالمصَاحف والكتب والمجَلات الإسلاميّة؛ وهذا كَسَبٌ لِلإسلام كبيرٌ لا ينبغي إهماله أو إضَاعتُه.

وَهناك علمَاء وَمفكرون عالميّون اقتَنعوا بعد الدّراسَةِ وَالتحليل، أن حَلّ مشكلة الإنسانية كلّهَا تكمُن في الإسلام؛ وهَذه فرصَة على المسلمين أن يَستَغلوهَا في نشر الدّعْوَة الإسْلاميّة التي تتطلب أن يكون رجالهَا علماءَ قادِرينَ علَى تبليغ حَقائق الشريعَة الإسْلامية ناصِعَةً كالشمس؛ حَريصِين أن يقرنوا الدعوة بالتطبيق حَتّى يكونوا بأعمالهم أبلغ منهم بأقوالِهم؛ ولابد مِن تنسيق الجُهودِ بين رجَال الدّعوة الإسلامية والقادةِ والمسؤولينَ في الدّاخل والخارج؛ لأن اللَّه يَزَعُ بالسّلطان مالا يزعُ

بالقرآن ؛ وإذا تضافرت الجهود واقترن صدق القول بواقعية العمل والاستقامة كان النجاح والتوفيق.

لكن تبقى التربية الإسلامية دائمًا نقطة انطلاق هذه الأعمال كلها وعمدتها، وإذا لم يُعْنَ بها العناية الكاملة ولم يُحسن عرضها على الصغار والكبار في أساليب جذابة تلائم روح العصر، فإن الجهود التي تبذل في سبيلها لن تكون لها النتائج المرجوة، بل يحدث الانفصام والفراغ ؛ وتجد الاتجاهات غير الإسلامية الطريق سهلاً إلى تضليل العقول واستعباد القلوب ؛ وتلك مصيبة كبرى أخطر من احتلال الأوطان وتسخير الأبدان ؛ وهذا ما ركزتم عليه في النقطة الرابعة: "فلسفة التربية الإسلامية"، وأرشدتم إلى ضرورة إعطائها الأولوية، وجعلها الحصن الذي يتحصن به الشباب المسلم في مواجهة تحديات العصر وتياراته ؛ وجعلتموها حجر الزاوية في أي بناء محكم، وعماد الصلاح والإصلاح ؛ وناديتم بإدراجها في جميع مراحل التعليم لكي لا يصاب الشباب المسلم بفقدان الذاكرة، وينسى مقومات شخصيته، ويندمج في أوضاع تجلب الوبال لأمته الإسلامية ؛ وقدوتنا

في هذا الحقل القرآن الكريم وسُنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "لقد كانَ لكُم في رَسُول الله أسْوة حَسَنَة لِمَن كانَ يَرجوا اللَّهَ واليَوْمَ الآخِرَ "[1]، على أن نَرتَفِع فوق المذهبية الضيقة منطلقين من الإيمان الصّحيح: قوة الإنسان، وَمن العَمَل الصّالح: دَليل الحَيَوية والإنتاج، وبرهان الالتزام والارتباط بالواقع.

وَلعَل أهميّة التربية الاسلاميّة تبدو لنا أكثر وضُوحًا في أسئلة الطالبات والطلاب، أثناء الرّحلة إلى البليدة والشفة، وَفيما أثاروا من قضايا حَسّاسة يريدون أن يَعرفوا رأي الإسلام فيهَا، منها حاجة المسلمين إلى العلوم العصرية والتكنولوجيا، والانتفاع بها، مع الحذر ممّا قد يَبثه أصحَابها من أفكار مَسمُومة وأخلاق منحرفة، وَقضية المرأة ومكانتها في المجتمع: لماذا لا تسند إليها وَظيفة الإمامة؟ ولا تتحمل مَسؤولية القوامة..؟

إن الشبَابَ المسلمَ متطلع إلى مَعرفة الإسلام، وَالارتواء من مبادئه، والاحتماء به من الغَزْو الفكريّ وَالنفسيّ، وَلَيْسَت هُناك وَسيلة أفضل من التربيّة الإسلامية، تنيرُ له طريق الحَقّ، وتَمنحُه تصَوُّرًا

1- سورة الاحزاب، 21

إسلامياً صحيحاً، يفهمه أننا قد نحتاج إلى ما في عقول العلماء غير المسلمين من فكر صائب، وما في أيديهم من مهارة وإتقان، ولكننا لا نحتاج أبداً إلى ما في نفوسهم من زيغ ومكر وانحراف؛ وتبيّن له موقف الإسلام الإيجابي من مختلف القضايا، وتأخذ بيده في طريق التطوّر دونما اهتزاز نفسيّ أو ضلال فكري.

إن التربية المثلى التي تضمن للمسلمين إعداد أجيالهم إعداداً سليماً صحيحاً، إنما هي التربية التي تتعاون فيها المدرسة والمسجد، والمزرعة والمصنع، والبيت والشارع، والإدارة والمحكمة، والإعلام والثقافة، والحزب والحكومة، تعاوناً قائماً على الإيمان بمثل واحدة، وتصوّر شامل للحياة ولما بعد الحياة.

أيها الإخوة...

حاولنا أن تكون لغتنا في هذا الملتقى الإسلامي لغة القلب للقلب، والروح للروح والعقل للعقل، واعتمدنا على النقد الموضوعي البنّاء لأوضاعنا العامة في جميع المجالات في ضوء الفكر الإسلامي النقي من رواسب التخلّف والجمود، مستهدفين الحصانة الذاتية والعبور

إلى الغد الأفضل المنشود، في ثقة وهداية وإيمان.

إن الإسلام عظيم؛ فلنتمثل عظمته أحسن تمثيل، في أعمالنا وأفكارنا، ومعاملاتنا، في بلداننا وسط شعوبنا، وبيننا، كمسلمين، وبين الناس أجمعين، في السلم وفي الحرب، ولنحرص على ذلك أشد الحرص حتى نكون في مستوى مسؤوليتنا نحو أنفسنا ونحو الناس.

إن منهاج الاسلام قائم على حرية الفكر والاعتقاد، فلا يضيق بالحوار ولا يرفضه، بل يحبذه، ويعتبره سبيل الإقناع والاقتناع؛ وانطلاقا من هذا المبدإ نرحب بالحوار السليم ونشجعه لكن، على قاعدة «أنت أنت، وأنا أنا» لا على قاعدة «أنت أنا، وأنا أنت»، كما قال الإمام الرائد عبد الحميد بن باديس منذ ما يقرب من نصف قرن ردا على المحاولات الاستعمارية الرامية إلى الحاق الجزائر بالكيان الفرنسي.

أيها الإخوة...

إنه لا يفوتنا أن نسجل هنا بأن الاسلام كرم الإنسان، من حيث هو إنسان، وحرم أن يظلم أو يهان، للونه أو جنسه أو عقيدته، كما يشهد بذلك التاريخ أمس، والواقع اليوم؛ ففي كل الأوطان الإسلامية يعيش

غير المسلمين في كرامة وحرية وأمان؛

على أن القاعدة العامة في معاملة الناس الأقربين والأبعدين كانت ولا تزال:

من كان يبغي ودنا ∴ فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغي ذلنا ∴ فله المهانة والحرب

وكم نود أن يكون الاحترام المتبادل أساس العلاقات بين المسلمين وغيرهم، وأن تجد الجاليات الإسلامية في البلدان الأجنبية احترامًا يماثل الإحترام الذي تتمتع به الجاليات الأخرى في البلاد الإسلامية حتى يتعزز التعاون، ويقوم على العدل والإحسان؛

هذا، ونناشد من فوق منبر هذا الملتقى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها حكومات وشعوبًا وأحزابًا ومنظمات وعلماء ومفكرين؛ أن يقفوا إلى جانب المضطهدين والمحرومين، ويعتبروا تحقيق العدالة في جميع مجالاتها هدفًا من الأهداف الإسلامية الكبرى يناضلون في سبيلها؛ ويجعلوا إسعادهم أحد الواجبات الأساسية؛ يقومون بها في حماسة، اعتمادًا على أن المفهوم السليم للاسلام، إنما هو المفهوم الذي

يَربط الإيمَان بالإحسَان إلى الضّعَفاء، ويعُدّ الإسَاءة إليهم تكذيبًا للدّين في جَوهره وَصَميمه «أرأيت الذي يكذب بالدّين فذلك الذي يَدعّ اليتيم وَلاَيحض على طَعَام المسكين فوَيل للمصَلين الذين هُم عَن صَلاتهم سَاهُون الذين هم يُرَاءون وَيَمنعُون المَاعُون».

مَا أحوَجنا نحن المسْلمين اليوم، في فجر القرن الهجري الخامس عشر إلى وضع نظام اقتِصَادي تَسُوده العَدالة الإسلامية، ويكون النَاس في ظله إخوَانًا متعاونين في السَّراء والضرّاء.

وَأختم كلمتي بشكركم، أيهَا الإخوة المشاركون في الملتقى أساتذةً وطلبةً، عَلى جُهُودكم، وَعَلى روح المسؤولية الّتي تجَلّت في محَاضراتكم وتعقيبَاتكم وَمناقشاتكم؛ كما أشكر الصّحَافة المكتوبة والناطقة والمرئيّة؛ وأشكر رجَالهَا العَاملين، كُتّابًا ومُصَورين وفنيّين، والمترجمين والعمّال والتقنيّين، وجميع الذين سَاعدونا أوشرّفونا بالزّيَارة أوالحضُور؛ دُون أن ننسى التنويه بجهُود الإخوَة وزراء الشؤون الدّينية السّابقين لما كان لهم من فضل عَلى تنظيم هَذه الملتقيات الاسلاميّة بأرضكم

الجزائر. ! !

أيها الاخوة الكرام

إننا إذ نعلن ختام الملتقى الرابع عشر للفكر الاسلامي؛ فإنه يطيب لنا أن نعلمكم أننا، من الآن، نشرع في الاستعداد للملتقى الخامس عشر، الذي سوف نعلن مكان انعقاده وزمانه في وقت مناسب إن شاء الله.

فإلى اللقاء في ملتقانا القادم والله ولي الإعانة والتوفيق.

سيصدر قريبا كتاب :



في 5 مجلدات (بالعربية)

توصيات الملتقى
الرابع عشر للفكر الاسلامي

توصيات اللجنة الاولى

فى يومى الخميس والسبت 24 ـ 26 شوال 1400 هـ ـ 6 سبتمبر 1980 م اجتمع أعضاء لجنة النقطة الاولى : « الونشريس قلعة من قلاع العلم والثقافة » المتكونة من السادة :

الرئيس :

السيد المهدى البوعبدلى ،
عضو المجلس الاسلامى الاعلى والمركز الوطنى للدراسات التاريخية

المقرر :

الدكتور يحيى بوعزيز ،
الاستاذ المساعد للتاريخ الحديث والمعاصر ـ بجامعة وهران

الشيخ سليمان داود بن يوسف ،

الاعضاء :

بحاثة فى التاريخ ـ الجزائر ـ

الاستاذ اسماعيل العربى ،
مستشار لدى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع وأستاذ بمعهد اللغات الحية ـ جامعة الجزائر ـ

الاستاذ شارل ايمانويل دى فورك ،
أستاذ تاريخ القرون الوسطى بجامعة باريس ، انطير ـ فرنسا ـ

الدكتور الشيخ بو عمران ،
أستاذ فلسفة بجامعة الجزائر

السيد الطيب حديدى ـ طالب جامعى

السيد حسين عجايلية ـ طالب جامعى

السيد يوسف قامى ـ طالب جامعى

الآنسة فاطمة الزهراء قشى ،
معيدة بجامعة قسنطينة

الآنسة فضيلة قارة مصطفى ،
أستاذة ثانوى

الآنسة أنيسة بن تريدى ،
طالبة جامعية

وناقشوا ما جاء فى المحاضرات والتعقيبات عن منطقة الونشريس ، فلاحظوا أن هناك نقصا وغموضا فى تاريخها ، وحضارتها ، وشخصياتها العلمية ، كما لاحظوا نقصا فى العناية بأماكنها الاثرية ، ومنها : تيهرت ، وقلعة بنى سلامة ، وتاكدمت .

لذلك يتقدمون بالتوصيات التالية :

أولا : اهتمام الباحثين ومراكز البحث العلمى بالجزائر ، بدراسة تاريخ المنطقة عبر العصور وبخاصة الاسلامية منها الى نهاية عصر الاتراك وعهد المقاومة المسلحة فى القرن 19 م

ثانيا : استرجاع تراث علماء الونشريس الفكرى والثقافى الذى تسرب الى الخارج أنى يوجد من البلدان الشقيقة والصديقة ·

ثالثا : الاهتمام بدراسة آثار المنطقة التاريخية والحضارية ، وترميمها وبخاصة : تيهرت ، وقلعة بنى سلامة ، وتاكدمت · والسعي من أجل اقامة متحف تاريخى فى أكبر مدن المنطقة لحفظ وعرض ما بقي من التحف الاثرية التى ستكتشف فى المستقبل ·

رابعا : تشجيع الباحثين على وضع معجم تاريخى لعلماء المنطقة ، وانتاجهم الفكرى والثقافى ·

خامسا : العمل على ارجاع الاسماء التاريخية لقرى المنطقة ، والحفاظ على ما بقى فيها ، على ألا تتعارض مع تقاليدنا الاسلامية عقيدة وحضارة · أما الاسماء التى تتعارض مع ذلك فينبغى تغييرها حتى ولو كانت قديمة ·

بســـم اللــه الرحمــن الرحيــم

توصيات اللجنة الثانية الخاصة بنقطة :

الاســلام والمــذاهب الاجتماعيـــة

فى يوم الســـبت 6 سبتمــبر 1980 الموافق لــ 26 شــوال 1400 هـ ، والاحد 7 سبتمبر 1980 الموافــق لــ 27 شوال 1400 هـ ، اجتمعــت اللجــنــة الثانيــة المتعلقة بالنقطة الثانيــة (الاســلام والمذاهب الاجتماعيـــة الحديـثــة) ، والمتكونة من الاساتذة :

الرئـــيس :

د. محمد مبــارك ،

الاستاذ المستشار بجامعة الملك عبد العزيــز ـ مكة المكرمة

المقـــرر :

د. عمـــار طالبى ،

أستاذ فلسفة بجامعة الجزائر

الاعضـــاء :

القاسـم البيهــقى :

مدير التعليم العربى فى النيجر

خليفة بابكر الحسن :

رئيس قسم التربية الاسلامية ـ جامعة الخرطـــوم

محفــوظ سمـــاتى :

أستاذ علــم الاجتمــاع ـ جامعــة الجزائـــر

عبد الرزاق قســـوم :

أستاذ فلسفـــة ـ معهــد العلــوم الاجتماعية ـ جامعة الجزائر

أحمـد زردومى :

طالب فى قسم علـــم الاجتمـــاع ـ جامعة قسنطينة ـ

العمـــارى فوزية :

طالبة فى معهد الصناعات الخفيفة فى الهندسة الميكانيكية

بوطبـــة زكية :

ملحقة بالبحوث المكتبيــة بالمكتبــة الجامعية بقسنطينة

يشـــور خيـرة :

ليسانس أدب عربى ـ جامعة وهران

عبد القادر حجــار :

عضو اللجنة المركزية ورئيس لجنــة التعليم العالى

ابراهيم زيد الكيلانى :

أستاذ الشريعة بالجامعة الاردنيــة ـ عمان ـ الاردن

محمد عبد القادر :

أستاذ فى الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية

ابراهيم الاسيوطى :

أستاذ جغرافيا بمعهد علوم الارض - جامعة هوارى بومدين - والمدير العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة

سعيد بن عيسى :

أستاذ بجامعة الجزائر

أعراب بلقاسم :

طالب فى قسم الماجستير - جامعة الجزائر

محمد فارح :

مستشار تقنى برئاسة الجمهورية والامانة العامة للحكومة

خالد مكى :

طالب بجامعة الجزائر

خليل القاسمى :

أستاذ بالجزائر

وقد انتهت الى ما يلى :

ان العالم الاسلامى مقبل على بناء نفسه بناء جيدا مستمدا من الاسلام الذى يؤمن به ، يشمل تصوره وأسسه الفكرية ونظمه وتشريعاته ومؤسساته ودوله ، وهو مدرك أنه قد وقع خلال حقبة طويلة تحت تأثير الحضارة الغربية بفلسفاتها ومفاهيمها الاجتماعية ومذاهبها ونظمها وتشريعاتها الاقتصادية والسياسية والتربوية تأثيرا يغلب عليه التقليد والانقياد والتبعية والاخذ بسلبيات تلك الحضارة وايجابياتها بخيرها وشرها ، لذلك فان التفكير الاسلامى فى العالم اليوم ولدى جميع الشعوب الاسلامية منطلق من ايمانه هذا ، عازم على ارساء نهضته وتأسيس كيانه وحضارته على أساس الاسلام ، وعلى اعادة النظر فى جميع ما مر به من مراحل التأثير بالفكر الغربى والحضارة الغربية ومن جميع التيارات والمذاهب الفكرية من عقلانية وواقعية ووضعية ومادية وغيرها ، والاجتماعية من وطنية اقليمية وقومية مغلقة متعصبة وغيرها · ومن هذه المنطلقات يوصى المؤتمرون :

- بأن يكون التوجيه العام فى المجتمع اسلاميا مستهدفا بناء الشخصية الاسلامية للامة ، محافظا على مقوماتها الاساسية الحضارية · عقيدة وقيما

- وان تلتزم أجهزة التوجيه فى البلاد الاسلامية المتمثلة فى وزارة التربية والتعليم ووزارة الاعلام ووزارة الاوقاف والشؤون الدينية بسياسة توجيهية واحدة يجمعها فى كل قطر مجلس للتوجيه العام المنبثق عن الاسلام عقيدة ونظام حياة حتى لا يهدم جهاز ما يبنيه الآخر ·

ـ أن تراعى أجهزة التوجيه والاعلام فى البلاد الاسلامية فى برامجهــا الا تكون منافية للاسلام وأخلاقياته ·

ـ تسهيل استيراد الكتاب الاسلامى ونشره وتوزيعه على نطــاق واســـع واقامة معارض له ، وتشجيع أبناء الامة على دراسته ·

ـ أن تستمد الحكومات الاسلاميـــة قوانينها من الفقه الاسلامى بمعنـــاه الشامل الذى ينتفع بالمذاهب الاسلامية جميعـهــا ·

ـ أن تدرس الثقافة الاسلاميـــة فى الجامعات والبلاد الاسلامية ، وتعتبــر مادة اجبارية ليتعرف الطلاب عـــلى مقومـــات شخصيتهـم الاسلامـــية ، وتساعدهم فى بناء ، هذه الشخصيـــة وعرضها جميعــا فى ضــوء معاييـــر الاسلام للابقاء على ما يقبله الاسلام ، ونفي ما يرفضه مما سرى فيه الزيـف وعدم الصحة أو الضـــرر بالنسبـــة لتطلعاته الانسانية العامة ، وأبعـــاده الزمنية غير المحدودة ثقة بأن مصـــدر حقائقه وأحكامه هو الله فاطر السموات والارض ، وخالق الانسان والكـون ، « **ألا يعلم من خلق هو اللطيف الخبير** » ·

حيثما تدرس المذاهب الاجتماعيـــة المنافية للاسلام كالماركسية فتدرس على أساس نقدى ليكشف عجز هذه المذاهب وبطلانها ، كما يبين عدالة الاسلام فى حل مشكلات البشرية واسعادها ·

ـ تعميق دراسة الاسلام فى الكليات الانسانية فى الجامعات الاسلامية حتى تصاغ العلوم الانسانية بجميع فروعها الاجتماعية والحقوقية صياغة منطلقـة من الاسلام بعقائده ومبادئه ومفاهيمه ·

ـ ربط الصلة العلمية والتعاون بين الكليات الانسانية وكليات الشريعة فى الجامعات الاسلامية ، حتى يكون مـــن هذا التعاون الثمرة المرجوة من تقديم الدراسات الاجتماعية والحلول المناسبة التى تجمع بين الاصالة والمعاصرة ·

ـ أن تدرس الحقــوق الاسلاميـــة (التشريع والفقه) فى كليات الحقــوق والقانون ، بتوسع يصل رجال القانون بكنوز أمتهم الفقهية والقانونية ويساعدهم على تطبيق الشريعــة الاسلامـــية فى بلادهم وتحريرها من القوانين الاجنبية ·

ـ ريثما تتكون كليـــات اقتصـــاد وتجارة وعلوم سياسية وحقوق عــلى الاساس الاســـلامى كامــلا ، توســـع الدراسات الاسلامية المناسبة بكل كلية من هذه الكليات ·

ـ أن تتبنى وزارة الشؤون الاسلامية فى كل قطر اسلامى تشكيل لجنة مهمتها القيام بدراسات وبحوث متخصصة فى مجالات تطبيق الاســـلام فى ميـــاديـن الاقتصاد والتجارة والمعاملات والتربية وأنظمة الحكم حتى تخدم هذه الدراسات التعريف بالاسلام على مستوى العصر وقدرته على الحكم والتطبيق واسعـــاد البشريـــة ·

ـ تأكيد معنى « الامة الاسلامية » المؤلفة من جميع المسلمين أفرادا وشعوبا وعلى الرابطة الاسلامية بين أفراد كل شعب وأفراد جميع الشعوب الاسلامية على اختلاف أنتماءاتهم القومية ·

ـ اثبات الاصالة الاسلامية بالتوصل الى تصور صحيح لاسلام متحرر من المذاهب الوافدة واحياء المصطلحات الاسلامية وتحديد المصطلحات التى توضع على أساس المفاهيم الاسلامية ،

تشجيع التعاون العلمى والثقافى بين البلاد الاسلامية فيما بينها وبين البلاد الاسلامية وغير الاسلامية تعاونا فنيا خالصا لا تشوبه شائبة ايديولوجية منافية للاسلام ، وخاصة العلوم الانسانية ·

بســـم اللــه الرحمن الرحيــم

توصيات لجنـــة النقطـة الثالثـة

« آفاق الدعوة الاسلامية فى القرن الخامس عشر الهجرى »

اجتمعت اللجنة الثالثـــة - يـومي السبت والاحد 26 و 27 شوال 1400 هـ (06/7/سبتمبر 1980 م ، والمتكونـــة من الســـادة :

الرئـيس :

الدكتـور محمـد الغزالى

المقـــرر :

الدكتـور معروف الدوالبى

الاعضـــاء :

د. محمد سعيد رمضان البوطى

الاستاذ طيار آلتى كولاج

الاستاذ خير الدين قرة مان

الدكتور محمود أحمد غازى

الدكتور خليفة بابكر حسن

الدكتور جعفر شهيدى

الدكتور أحمد بن نعمـان

الاستاذ الهادى خسرو شاهى

الدكتور داود كاون

الاستاذ سعيد بن عيسى

الاستاذ عبد اللطيف عبادة

الاستاذ مصطفى خياطى

الاستاذ على مغربى

الدكتور مصطفى خيـاطى

الاستاذ سليم كلالشة

الآنسة فاطمة الزهراء بن قادة (طالبة)

الآنسة فطومة قسوم (طالبـة)

الآنسة خديجة باعلى الشريف (طالبة)

السيد على ربيع (طالب)

السيد بلقاسم لونيس (طالـب)

وبعد أن استعرض المجتمعون كلمات المحاضرين وتعقيبات المعقبين واستمعت الى اقتراحات أصحابهـا ، وبـعـد أن تداول أعضاؤها حول أهمية الدعـــوة الاسلامية فى هذا العصر ، أقرت اللجنة التوصيات التالية :

أولا : فى نطاق الاعلام وأجهزته :

أ - تجنيد وسائل الاعلام المختلفة عموما فى سبيل الدعوة الاسلامية وذلك بفسح المجال واسعا أمام البرامج الثقافية الاسلامية التى تبصر المسلمين بحقيقـة الاسلام بعيدا عن الخرافات والاباطيل ،

وبتطهير برامج هذه الاجهزة من شوائب الاشكال الدخيلة ومن العبث والمجون • والحرص على ألا تظهر المرأة على شاشة التلفزيون ونحوها الا متحلية بأداب الحشمة •

ب ـ تشكل لجنة مؤلفة في كل دولة اسلامية من كل وزارات الشؤون الدينية والاعلام والتربية ، قوامها رجال أخلصوا لله فى اسلامهم يملكون زادا جيدا من الثقافة والوعي الاسلامى ، يعهد اليها الاشراف على سائر النوافذ الاعلامية الى الشعب • أفلام سينمائية واذاعة وتلفزة وصحافة • كي لا يتسرب اليها السوء والدس ، على أن تعطى هذه اللجنة صلاحيات تامة فى هذا الصدد •

جـ ـ تنقية موظفى أجهزة الاعلام المختلفة من أولى الاتجاهات الهدامة ، والافكار الدخيلة ، وحشد الطاقات الاسلامية الواعية لتسيير هذا الجهاز •

د ـ السعي على مستوى التعاون بين الدول والحكومات الاسلامية من أجل التنسيق بين أجهزة الاعلام لديها ـ سواء العربية منها وغير العربية ـ بحيث نتعاون لتقديم زاد ثقافى اسلامى موحد لشعوب العالم الاسلامى تتساقط واسطة الفوارق الدخيلة والحواجز المذهبية التى تعكر السبيل الى تحقيق الوحدة الاسلامية المسلمة •

هـ ـ الاعتماد على وسائل الاعلام المختلفة ، وبالجهود المتناسقة (بين الدول الاسلامية المخلصة لدينها) لتأكيد عالمية الدعوة الاسلامية ودعم الحركات الاسلامية المنتشرة فى مختلف بقاع الارض ، ورفدها بأسباب القوة والنجاح •

ثانيا : فى نطاق الثقافة الاسلامية

أ ـ بما أن الكتاب الاسلامى هو المصدر الاول للثقافة الاسلامية فاذا فقد الكتاب الاسلامى ، أو شح وجوده بين فئة من الناس استحال أن تتكون لهم أي ثقافة اسلامية أو فكر اسلامى أصيل ، وتهاأوا بسبب ذلك لتقبل الخرافات والافكار الضالة الدخيلة •

ـ لذا فاننا نوصى بالحاح أن تيسر سبل وصول الكتب الاسلامى الى الشباب المسلم والا يعامل معاملة البضائع العادية بل يعفى من الضرائب الجمركية حتى لا يرتفع ثمنه فيعجز عن شرائه الطلبة • وأن يعالج هذا الامر معالجة فورية جادة ، مع العلم بأن هذه الوصية قد تكررت خلال عدة ملتقيات سابقة •

ب ـ انشاء دور نشر اسلامى تيسر وضع الكتاب الاسلامى بن يدى الجيل المسلم عن طريق الطباعة عندما لا يتيسر الاستراد لسبب أو لآخر •

3 ـ تكوين لجنة من كبار العلماء والمفكرين الاسلاميين ، على مستوى كل قطر اسلامى تكون مهمتها اعادة النظر فى جميع الكتب الثقافية والعلمية النظرية منها والتطبيقية ولذلك لتنقيتها

من الضلالات والشبه التى طالما البسها كثير من محترفى الغزو العسكرى لباس الحقاق العلمية ، وجعلوا منها أسلحة كيد ضد الاسلام وعقائده القائمة فى كل عصر على أقوى دعائم العلم واليقين · أو ابعادها عن نطاق التداول ·

د ـ العمل على تنظيم مواسم ثقافية مبرمجة تقام فيها المحاضرات العلمية المركزة فى مختلف البلدان والولايات ، وذلك ابتغاء دعم الثقافة الاسلامية بالمرشدين والموجلين ، ريثما يتحقق الاكتساء الذاتى فى صفوف المسلمين بالنسبة للمرشدين والعلماء الاكفاء ، على أن يستدعى لالقاء هذه المحاضرات علماء متخصصون يتمتعون بتقوى الله والاخلاص لدينه ·

هـ ـ يلاحظ فى نطاق الثقافة الاسلامية أن الترجمات المتنوعة للقرآن ، وباللغات المختلفة قد تكاثرت أخيرا فى مختلف بقاع العالم الغربى · ولاد أن نلفت النظر هنا ، الى أن هذه الترجمات مهما دقت ، فانها لا يجوز أن تسمى قرآنا ، هذا بالاضافة الى أنها تأتى فى الاغلب ترجمات مشوهة ومحرفة ـ بل منكسة فى كثير من الاحيان ـ لحقائق القرآن وحصانته الثابتة ·

لذا لابد من أن نأخذ بعين الاعتبار أن ترجمة القرآن لا يمكن أن ترقى الى درجة التعبير عن معانى القرآن الحقيقية ، وانما هي فى أحسن الاحوال ترجمة لمعانى القرآن ولابد من أن نلفت النظر الى ضرورة أخذ الحذر عند محاولة الافادة من هذه التراجم المختلفة ·

ثالثا : فى نطاق المسجد ووظيفته :

أ ـ تنظيم برامج توجيهية فى نطاق التثقيف والتربية الاسلامية ، فى المساجد ، تشرف عليها لجان ذات اختصاص ودراية ، بحيث تجذب هذه البرامج الى المسجد الناشئة على اختلاف أصنافهم ومستوياتهم الثقافية ، وبحيث تعاد الى المسجد وظيفته الاصيلة، اذ كان ولا يزال هو المصدر الاول للعلوم والثقافة الاسلامية ·

ب ـ انشاء مكتبة فى كل مسجد تحوى أهم الكتب الاسلامية العلمية منها والفكرية ، ويلاحظ أن تكون سليمة فى مستوى الحاجات التى يشعر بها الشاب المسلم ·

جـ ـ ضرورة الاخذ بعين الاعتبار ان المسجد يجب أن تكون أبوابه مفتوحة أمام كل من الرجال والنساء ، ولذا فلابد عند انشاء المساجد تنظيم مكان رئيسى مناسب للمرأة المسلمة ، يتسنى لها أن تمارس فيه العبادة وأسبابها والاشتراك فى التزود بالثقافة والعلوم الاسلامية بكل سهولة ويسر ·

د ـ نوصى وزارات الاوقاف والشؤون الدينية فى سائر البلاد الاسلامية المختلفة ، أن ترفع المستوى المادى

والادبى للقائمين على أمر المساجد من أئمة وخطباء ووعـاظ ، الى المكانـــة اللائقة ، بحيث يكون من ذلك خير عون لهم على التفرغ للقيام بهذه المهمـــة الخطيرة التى يتحملون أعباءها · كما نوصى بأن تنتقى هؤلاء القائمين على أمر المساجد (لا سيما الخطباء والمرشدين منهم من العلماء المشهود لهم بسعـة الافق وصدق الايمان ·

رابعا : فيما يتعلق بالمرأة المسلمة :

أ ـ نظرا الى أن المرأة فى ميـــزان الاعتبار الاسلامى تمثل أخطر شطرى المجتمع الاسلامى ولا تقل أهيمة عـلى الرجل ، حيـث ما قــد عهـد اليهــا بمسؤوليات ومهام أساسية ، فانـنـــا نوصى بأن تولى الدولـة فى سائـــر مرافقها ومؤسساتها عنايـة خاصـــة بالمرأة بحيث تفسح لهـا المجال واسعا وتعينها بالسبـل المختلفـة عـلى أداء رسالتها ، سواء فيما يتعلق بمظهرها أو بسلوكها ونشاطاتها ، أو بالمرافـق التى يجب أن تتبوأ مكانتها فيها ، بكل حرية وتقدير وتشجيع ·

ب ـ وعلى هذا الاساس فاننا نوصى بأن يفسح للمرأة مجال واســـع فى أجهزة الاعلام المختلفة ، بحيث تمكـن من أن تؤدى رسالتها الارشادية التثقيفية لاخواتها ، فى حقل التلفزيون والاذاعة والصحفة · وأن نجعل من ظهور المرأة على شاشة التلفزيون نموذجا للمظهر الاسلامى الـذى يجب أن تتحلى بـــه المرأة ، والفكر الاسلامى الذى يجب أن يشيع فى حياتها · لا أن نجعل مـــن ظهورها على هذه الشاشة دعـوة الى المجون والبعد عن الآداب الاسلاميـــة التى ارتضاها لنا الله عز وجل ·

جـ ـ تكويـــن جو مـــن التقـدير والتشجيع للمرأة المسلمة المتحجبـــة ، وفى كل من المدرسة (ســـواء كـانت متعلمة أو معلمة) وفى سائر المؤسسات الاخرى التى قد يكون لها وجود ونشاط فيها كالمستشفيات ، ونحوها وذلك بدلا مما يمعن فيه محترفوا الغزو الفكـرى من تشجيع مظاهر العرى والتهتك ، واشاعة أسباب السخرية والانتقـــاص من المرأة المسلمـة المعتزة بمظهرهـــا الاسلامى ·

خامسا : فيما يتعلـــق بالتربيـــة ومناهجهـــا :

نظرا الى ان جهاز التربية فى كــــل دولة هو المقود الحساس الموجه لاقطار الامة والمحدد لاتجاهاتها فقد كـــــان ولا يزال من لهم دعائم ·

الدعوة الاسلامية ومن أقوى أسباب الوعي الاسلامى الذى مـن شأنـــه أن ينفى عـن الاذهـان حيـث التشويـــه والضلالات المختلفة لذا نوصى بـ :

أ ـ التنسيق بين منهاج المواد العلمية المختلفة التى يتلقاهـــا الطـــلاب فى مدارسهـم فى المراحـل المختلـفـــة ، واخضاعها جميعا للرقابة الاسلاميـــة

الواعية ، وبنقيها من عبث التناقض والتشاكس القائم بين المواد التدريسية التى يتلقاها التلميذ ٠

ب ـ ابعاد كل من يتخذ مهمة التربية والتعلم مطية لبث أسباب الزيغ فى نفوس الناشئة المسلمة ، عن هذا الحقل الخطير ، وانشاء جهاز رقابة فعال فى هذا الصدد ٠

جـ ـ رفع مستوى الكتب التى تتضمن مادة التربية الاسلامية من الناحية العلمية والمنهجية بأن يعهد تأليفها الى ثلة من العلماء المتخصصين الاكفاء ٠

سادسا : فيما يتعلق بالدولة :

نظرا الى أن الدولة هي الجهاز الاول فىهذه التوصيات روح التنفيذ والحياة المحرك للامة ، فهي التى تملك أن تبث ان شاءت وان تجعلها حبرا على ورق ان شاءت ، وبما أن الدولة تمثل فى كل وقت خلجات الامة وتطلعاتها وأهدافها، فلابد أن تثبت هنا التوصيات التالية :

أ ـ القيام بالمسؤولية الاسلامية العظمى التى أناطها الله فى اعناق القادة والمسؤولين عن حماية الامة الاسلامية ، تجاه البقاع الاسلامية المقدسة والعزيزة علينا ، مما وقع فى براثن البغى والعدوان العالمى كالقدس وما حولها ، وغيرها من البلدان الاسلامية فى الشرق وفى الغرب والسعي بكل الاسباب والوسائل الممكنة لتحريرها من أغلال الذل والهوان من أجل تخليص هذه البقاع العزيزة من النكبات التى حلت بها ، ومن أجل اعادتها الى حمى الرعاية الاسلامية الواعية ٠

ب ـ اتخاذ الوسائل المختلفة وعلى سائر المستويات لضبط الطاقات السياسية بضوابط الاسلام ولتذكير القادة جميعا على مستوى العالم العربى والاسلامى أجمع بمسؤولية الدعوة الاسلامية ، فى أعناقهم ، ولان يتخذوا من السياسة ونشاطاتها مهما اختلفت خادما أمينا من أجل اقامة شرع الله على هذه الارض ٠

جـ ـ أن ينبثق منها جهاز رقابة يراقب بدقة مدى تناسق أجهزة الدولة والقائمين عليها لتحقيق هذا الهدف ، والقضاء على كل تشاكس قد يظهر هنا أو هناك ، حتى تظل مرافق الدولة متجهة فى تعاون وتساند نحو الهدف الاسلامى المنشود ٠

د ـ تكوين لجنة مهمتها متابعة هذه التوصيات ، والسعي الى نقلها من مجالها النظرى الى ساحة التنفيذ والتحقيق ٠

وأخيرا فان لجنة هذه النقطة الثالثة تتقدم الى حكومة الجمهورية الجزائرية وعلى رأسها رئيسها المؤمن المجاهد فخامة الاخ شاذلى بن جديد بالشكر القلبى الصادق على ما اتخذته من خطوات بناءة ايجابية نحو السعي الى اقامة مجتمع اسلامى فى هذا البلد الاسلامى

العريق ، كما نشكرها على ما أصدرته من اللوائح والقرارات النهائية الـــتى تتضمن انشاء جامعة اسلامية تكون منار علم وهدى لا للجيل الاسلامى فى هـذا البلد فقط بل فى سائر البلاد الاسلامية المحيطة ، وتكون معقلا عظيما لترسيـخ الحقائـق الاسلاميـة التى لا يأتيهـــا الباطل من بين يديها ولا من خلفهـــا ، ضد كل الدسائس الفكرية والنفسيـــة التى لا يزال يقوم ويقعد بها أعداء هذا الدين الاسلامى القويم ·

والله ولي كل هداية وتوفيق

توصيـات لجنـــة النقطـة الرابعة

اجتمعت لجنة فلسفة التربيـــة فى الاسلام ، يومى السبت والاحد 26 و 27 شوال 1400 هـ الموافق لـ 07/06 سبتمبر 1980 م والمتكونة من السادة :

الرئيس : الدكتور عمر موسى باشا

المقـــرر : السيد محمد حسن فضلاء

الاعضـــاء :

السيد : بابا عبدو رحيمى برايماه

الاستاذ : حاج سليمان تشانغ بينغ دو

الاستاذ : أحمد فرقاق

الاستاذ الحاج بوخاتم

الاستاذ أحمد شرقاوى

الاستاذ عبد القادر خياطى

الاستاذ : جلالى تكوك

السيد مصطفى ابراهيمى (طالـب)

السيد خديجة خيضـر (طالـب)

السيد على رميتـــة (طالـب)

الآنسة حميدة بن قادة (طالبـة)

الآنسة صبرينة بطـاش (طالبـة)

وقـد استعرضـت اللجنة الوضـــع التربوى العام فى العالم الاسلامى بشكل عام ، ولاحظت ما يلى :

1 ـ لفت نظرها عدم الاهتمام بشكل عام فى تطبق مبادىء التربية الاسلامية فى المدارس على اختلاف درجاتهـــا العلمية ، وأدى هذا الامر الى ظهـور جيل من الشباب بعيد كل البعـد عـن القيم الاسلامية السمحة ·

2 ـ انعدام الخطة التطبيقية الـــتى تكفل بانشاء جيـل متمسـك بأهـداب الشريعة الاسلامية ، ولذلك انتشـرت فى المجتمعات الاسلامية تيارات غربية أدت الى وجود فراغ ثقافى كبير أفسح المجال أمام الانحرافـات الاجتماعيـــة والخلقية والعقائدية ·

3 ـ لاحظت اللجنة عـــدم اهتمـام البرامج التعليمية بوضع خطة موحـدة لتعليم الدين الاسلامى ، فالكتب غيـــر متوفرة بشكل عام ، والدراسات العلمية الاسلامية تكاد تكون منعدمة ·

4 ـ لاحظت اللجنة عدم تشجيع البحوث والدراسات الاسلاميـة فى المؤسســات

الثقافية والاجتماعية والسياسية وعدم توفر الوسائل لها ، مما أدى بالتالى الى عدم الاهتمام بكل ما له علاقة بالاسلام ٠

5 ـ لوحظ أن وسائل الاعلام على اختلاف أنواعهاُ اذاعة وتلفزة وصحافة وأفلاما واعلاما لا تخدم التربية الاسلامية ولا تنشىء الانسان الصالح ٠

وبناء على ما تقدم فان الملتقى يوصى بما يلى :

أولا : وجوب الاعتماد فى التربية على الدين ، وتدرب الاطفال على تطبيق عبادته قبل سن العاشرة ، ومبادئه منذ الصغر ٠

ثانيا : تأليف كتب تربوية مبسطة يتعلم فيها الطفل المبادىء الاولى فى الدين وفى الاخلاق منذ صغره ٠

ثالثا : استمرار التربية الدينية والخلقية المعتمدة على القرآن والسنة والآداب الاسلامية منذ المرحلة الابتدائية حتى التعليم العالى ، وأن تكون مادة أساسية واجبارية لها أثر فى الفوز والتفوق ، وفى الرسوب ٠

رابعا : تشجيع تعليم القرآن ، واحداث مدارس لتحفيظه ولتعليم الحديث وشرحه ، وتزويد هذه المدارس بمكتبات خاصة ، كما توصى باحداث مكتبات عامة فى سائر المؤسسات العلمية والتربوية ٠

خامسا : ضرورة تكوين الدعاة والمرشدين الاكفاء الملتزمين لنشر الفكر الاسلامى فى المجتمعات المختلفة ، واعطاء الصورة المثلى عن الدين الحنيف ٠

سادسا : تكوين المعلمين المختصين فى سائر المراحل التعليمية لتدريس العلوم الاسلامية على أسس تربوية صحيحة مستقاة من الكتاب والسنة يستطيعون من خلالها انشاء جيل جديد مؤمن بالقيم الاسلامية مطبق لها ٠

سابعا اعادة النظر فى المناهج التربوية والتعليمية فى سائر المراحل على أسس اسلامية كفيلة باعطاء الفكر الاسلامى الصحيح ٠

ثامنا : ضرورة تخصيص مساجد فى المؤسسات الاجتماعية والتعليمية والتربوية على اختلاف درجاتها ، بالاضافة الى الاحياء الجامعية ٠

تاسعا : الاهتمام بتوجيه وسائل الاعلام وجهة اسلامية صحيحة كفيلة بتكوين الناشئة على المبادىء القويمة البعيدة عن الانحرافات الخلقية لتأثير التيارات الهدامة والغزو الفكرى ٠

عاشرا : يوصى الملتقى باشراف الآباء بأنفسهم على تربية أبنائهم ، ومراقبة الافلام المعروضة فى التلفزة أو دور العرض ومنعهم من مشاهدتها ٠

حادى عشر : يوصى الملتقى وزارات الاعلام فى الدول الاسلامية بالاكثار من الحصص الدينية فى مختلف أجهزة الاعلام على اختلافها شكلا ومضمونا وربطها بواقع المجتمعات الاسلامية .

جـ ـ ضرورة اهتمام الصحافة بنشر الوعي الدينى ، ونشر أخبار العالم الاسلامى كله ليكون المسلمون على اتصال فيما بينهم .

ثانى عشر : ويوصى بلفت النظر الى الاخطار التى تتولد عن الاختلاط بين الجنسية وما يترتب عليها من آثار سيئة على شبابنا المدرسى والرياضى .

1980 N° 87-88

فهـــرس العـــدد

مـن روائـع الاعجـاز
فى التصويـر القـرآنى

د٠ حامد صادق قنيبى
جامعة البترول والمعادن ـ الظهران
المملكة العربية السعودية

لما فى السماء من نجوم وكواكب لا تعد ولا تحصى ، ولما أودعه اياها من نظام محكم وتدبير متقن ، ولما لهذه النجوم من (مواقع) استحقت أن تكون محلا للقسم يقسمه الخلاق العظيم ٠

وأكثر أقسام القرآن الكريم استدلالية، فقد استدل سبحانه بالسماء والشمس والقمر والليل والفجر والضحى وغيرها ٠ وجعل القسم بيانا لمن يعقلون ويفكرون فى قوله تعالى : « **والفجر ، وليال عشر ٠ والشفع والوتر ، والليل اذا يسرى ، هل فى ذلك قسم لذى حجر** » (1) ٠

فنبه بعد القسم على أن الاشياء المقسم بها دلائل لمن يعقل ، وانها قسم عظيم فى تقدير من يفكر ٠

وكذلك قوله تعالى : « **فلا اقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون** » (2) ٠

---

(1) الفجر : 1 ـ 5 الحجر : العقل ٠
(2) الواقعة : 75 ـ 78 ٠

فصرح بعظمة القسم لا بعظمة المقسم به ، لان للمقسم به دلالات عظيمة · قال ابن قيم الجوزية : « واقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته » (3) ·

وقد سادت فكرة تعظيم المقسم به وسط آراء العلماء والباحثين ، وكلهم يجمع على أن الاقسام ببعض المخلوقات تعظيم لها ، ولفت الانظار اليها ، حتى نستدل بها على الخالق البارىء المصور، كما ذهب الى ذلك القدماء من المفكرين (4) والمحدثون منهم الاستاذ الامام محمد عبده وغيره (5) ·

واذا رجعنا الى الاقسام القرآنية وأجوبتها وجدنا ملاءمة بينها ، وأدركنا أن المناسبة قوية بين المقسم والمقسم به والمقسم عليه ، وهذا يعزز أنها أقسام استدلالية ·

قال تعالى : « **والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ؟ النجم الثاقب ، ان كل نفس لما عليها حافظ** » (6) ·

فاقسم سبحانه بالسماء ، وبالنجوم المضيئة للاستدلال بخلقها العظيم العجيب على قدرته ، وجاء جواب القسم ملائما لهذه القدرة ، وهو أن الله مهيمن رقيب على كل نفس ·

ونؤكد مرة أخرى أن القسم فى مشاهد السماء هو نوع من الدليل الواقعى المرئى المحسوس الذى يستميل المشاعر والوجدان ، ويثير الانتباه والتفكير ، هذا الى ما به من الوان البلاغة وضروبها ، والتى لنا وقفة معها فى الاعداد القادمة ان شاء الله ·

ولعل ما دفعنا للوقوف هذه الوقفة مع أقسام القرآن ملاحظتنا أن معظم الآيات التى عرضت مشاهد السماء قد وردت فى سياق القسم ، لذا آثرنا اتباع نهج القرآن الكريم فى عرضها ، وسنرعى ترتيب النزول فى ذكرها لاتحاد مضمونها :

قال تعالى : « **كلا والقمر ، والليل اذ أدبر ، والصبح اذا أسفر ، انها لاحدى الكبر ، نذيرا للبشر** » (7) ·

---

(3) التبيان فى أقسام القرآن ـ ابن قيم الجوزية ـ تصحيح طه يوسف شاهين ص 3 ـ دار الطباعة المحمدية بالازهر ، 1388 هـ ـ 1968 م ·

(4) انظر تفسير الزمخشرى 4 ـ 249 ، والاتفاق فى علوم القرآن للسيوطى ـ مطبعة المشهد الحسينى ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم 4 ـ 48 ·

(5) انظر تفسير جزء عم للاستاذ الامام محمد عبده ص 9 ، ص 44 وص 48 ، القاهرة عن طبعة 1903 م ·

(6) الطارق : 1 ـ 4 ·

(7) المدثر : 32 ـ 36 ·

ـ « فلا أقسم بالخنس ، الجوارى الكنس ، والليل اذا عسعس ، والصبح اذا تنفس • انه لقول رسول كريم » (8)

ـ « والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى » (9) •

ـ « والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والارض وما طحاها ، ونفس وما سواها، فالهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » (10)

ـ « والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الاخدود » (11) •

ـ « فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم » (12) •

هذا بعض آيات القسم ببعض المظاهر الكونية من سماء ونجوم وأفلاك وشمس وقمر وكان المقصود ـ والله أعلم ـ هو لفت أنظار الناس الى الكون وما يحتويه من أسرار عجيبة ، وما فيه من نظام بديع محكم اذ كل يجرى الى أجل مسمى عنده وكل فى فلك يسبحون، لا يصطدم هذا بذاك ، ولا يتخلف هذا عن ذاك ، ولا يبطىء فى سيره ، ولا يختل عن موعده • وصدق الله **وكل شىء عنده بمقدار** • وفى كل قسم من شىء خلقه . وفى كل قسم من هذه هذه الاقسام حكم خاصة وأسرار عجيبة، ومناسبات دقيقة قد يظهر لنا فيها بعض الاسرار والله أعلم بأسرار كتابه المحكم ، وكونه المتقن ، فتبارك الله أحسن الخالقين •

ففى سورة المدثر نقرأ قوله « **كلا والقمر ، والليل اذ أدبر ، والصبح اذا أسفر • انها لاحدى الكبر ، نذيرا للبشر**) •

اقسم الله سبحانه هنا بالقمر والليل والصبح وهي مخلوقاته وآياته الدالة، وفى القسم بها تنبيه الانام الى ما فى خلقها من جميل الصنع ، وبديع الاحكام، فمشاهد القمر ، والليل حين يدبر ، والصبح حين يسفر • وهي مشاهد كونية تلفت الانظار الى هذه الافلاك التى تظهر ثم تغيب ، وما ينشأ عن ذلك من ليل ونهار ، وكل ذلك بحكمة ونظام ودقة واحكام بحيث صار طلوع

---

(8) سورة التكوير : 15 ـ 19 •
(9) النجم : 1 ـ 4 •
(10) الشمس : 1 ـ 10 •
(11) البروج : 1 ـ 4 •
(12) الواقعة : 75 ـ 76 •

القمر ومغيبه ، ومجيء النهار وذهابه، ضوابط ضبط بها الايام والشهور والسنون والدهور « **يسالونك عن الاهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج** » (13) ٠

وهذه المشاهد للقمر ، والليل في ادباره ، والصبح في اسفاره ، مشاهد موحية بذاتها تثير مشاعر عميقة في القلب البشرى :

فالقمر ينشأ صغيرا ثم يكبر ثم يعود صغيرا حتى المحاق ، وهذا الليل بجحافله وسكونه وهدأته التى تسبق الشروق ، ثم اسفار الصبح وظهوره ، وما يتبعه من حياة حافلة ٠ كلها مشاهد موحية تنقل القلب الانسانى المتأمل لما وراءها من دلائل القدرة المبدعة والحكمة المدبرة والتنسيق المحكم لهذا الكون ٠ ففى الآيات ايماء الى أن الشمس والقمر مخلوقان لله ، وانهما فى حركاتهما وادبارهما واسفارهما ونشوء الليل والنهار عنهما مسخران لامره ، ساجدان بين يدى قدرته وقهره (14) ٠

وفى سورة التكوير يقسم الله بمشاهد كونية جميلة ، يختار لها تعبيرات أنيقة : « **فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس ، والليل اذا عسعس ٠ والصبح اذا تنفس ٠ انه لقول رسول كريم** » (15) ٠

يقسم الله تبارك وتعالى بعد أن تكلم عن يوم القيامة ومقدماته بالخنس الجوار الكنس ، والليل اذا عسعس ، وبالصبح اذا تنفس ، ان هذا القرآن لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين ، وما هو الا تبليغ من رب العالمين ، وما صاحبكم محمد صلى الله عليه وسلم بمجنون كما يدعى المشركون ٠

والخنس جمع خانس وخانسة من الخنوس وهو التأخر ، « وخنس الرجل بين القوم خنوسا اذا تأخر واختفى ، ومنه الخناس ٠ وفى الحديث : (الشيطان يوسوس الى العبد فاذا ذكر الله خنس) وفى أنفه خنس وهو انخفاض فى القصبة وعرض الارنبة ٠ والبقر خنس » (16) ٠

---

(13) البقرة : 189 ٠

(14) انظر تفسير جزء تبارك للمغربى ص 221 ٠

(15) التكوير : 15 ــ 19 ٠

(16) أساس البلاغة للزمخشرى ، أبو القاسم جار الله بن عمر ــ (مادة خنس) دار ومطابع الشعب بالقاهرة ٠

والخنس فى الآية الكواكب الدرارى، وهي زحل والمشترى وعطارد والمريخ والزهرة ، ويمكن أن يضم اليها القمر لخنوسه نهارا والشمس لخنوسها ليلا ، وبذلك تشمل الخنس جميع الكواكب السيارة ، أو بعبارة أخرى كواكب المجموعة الشمسية ، ولكل منها فلكها الخاص الذى تجرى فيه وتشرق وتغرب أو تظهر وتختفى (17) . « وقيل هي الكواكب جميعها . فانها لا تزال جارية راجعة علينا بعد مغيبها ، غائبة عنا بعد طلوعها » (18) . (والجوارى) جمع جارية لجريانها الدائب فى السماء أو الكون . و (الكنس) جمع كانس اذا دخل كناسه واستتر فيه . « ولما كان للنجوم حال ظهور ، وحال اختفاء، وحال جريان ، وحال غروب - أقسم سبحانه بها فى أحوالها كلها . ونبه بخنوسها على ظهورها لان الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ، ولا يقال لما لا يزال مختفيا : أنه قد خنس فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحا ، وخنوسها وظهورها ، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذى مبدؤه الطلوع ، فالطلوع أول جريانها .

فتضمن القسم طلوعها ، وغروبها ، وجريانها ، واختفاءها ، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته (19) .

وقيل : الخنس فى الآية بقر الوحش، والكنس الظباء التى تستتر فى كنسهما وبيوتها الشجرية . والاصح حمل الآيتين على الكواكب لذكر الليل والصبح بعدها ، وأضاف ابن قيم الجوزية الى ذلك وجوها أخرى منها أن البقر والظباء لا تختفى عن العيان اختفاء مطلقا ، بل لا تزال ظاهرة فى الفلوات ، ومنها أن كلمة (الخنس) لو كانت جمعا للاخناس من البقر لقيل الخنس بضم الخاء وسكون النون مثل أحمر وحمر ولو كانت جمعا للخنساء من البقر لقيل الخنساوات مثل حسناء وحسناوات ، انما هي جمع خانس مثل صائم وصوم : وبذلك يتعين أن الآية فى الكواكب لا فى بقر الوحش ولا الظباء وبخاصة أن القرآن لم يات فيه قسم بحيوان . وأيضا فانه اذا جعل القسم بحيوان لم تتضح الصلة بين القسم والمقسم عليه وهو القرآن ، أما الصلة بينه وبين الكواكب فواضحة ، اذ هي تهدى الناس بأضوائها ليلا ونهارا كما يهدى القرآن بأضوائه الربانية العظيمة (20) .

والتعبير بالخنس الجوارى الكنس يخلع على هذه النجوم الرواجع حياة رشيقة وهي تجرى وتختبىء فى كناسها وترجع من ناحية أخرى . فهناك حياة

---

(17) انظر تفسير ابن كثير 4 - 478 ، طبعة الحلبى ، القاهرة .
(18) تفسير جزء عم لمحمد عبده ص 25 .
(19) التبيان فى اقسام القرآن ص 72 .
(20) انظر التبيان فى أقسام القرآن ص 73 وما بعدها .

تنبض من خلال التعبير الرشيق الانيق عن هذه الكواكب ،وهناك ايحاء شعورى بالجمال فى حركتها : فى اختفائهـــا وفى ظهـورهـــا • فى تواريهـــا وفى سفورها • وفى جريها وفى عودتهـــا – يوازيه ايحاء بالجمال فى شكـــل اللفظ وجرسه •

(والليل اذا عسعس) ••• أى اذا أقبل ظلامه (21) • ولفظ عسعس يوحى بالمعنى وحيا فتشعر به شعورا عميقا ، وتحس بحياة هــذا الليل ، وهو يحس الظلام بيده أو برجله لا يرى ! وهو ايحاء عجيب واختيار رائع •

ومثله (والصبح اذا تنفس) •• يصور هذه اليقظة الشاملة للكون بعــد هدأة الليــل ، والصبــح حي يتنفس • أنفاسه النور والحياة والحركة الـتى تدب فى كـــل حي وتشـــمل الكـــون وأرجاءه •

وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى : (**فلا أقســـم بالخنس • الجوارى الكنس • والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس**) •• ثروة شعورية تعبيرية • فوق ما يشير اليــه من حقائق كونية جميلة بديعة رشيقة ، تضاف الى رصيد البشرية من المشاعر، وهي تستقبل هذه الظواهر الكونيـــة بالحس الشاعر •

وفى مطلع سورة النجم أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسولـــه وبراءته مما نسبه اليه أعداؤه مـــن الضلال والغي :

« **والنجم اذا هوى • ما ضل صاحبكم وما غوى • وما ينطق عن الهوى» (22)**

واختلف المفسرون فى المراد بالنجم فى هذا القسم • ولعل أقربها روايـة ابن عباس : يعنى الثريا اذا سقطت وغابت • والعرب اذا اطلقت النجــم تعنى به الثريا • قال : فباتت تعــد النجم • وفى رواية أخرى لابن عباس أيضا : يعنى النجوم التى ترمى بهـا الشياطين اذا سقطت فى آثارها عنــد استراق السمع •• ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهــدة التى نصبها الله سبحانه آية وحفظـــا للوحى من استراق الشياطين له عـلى أن ما أتى به رسوله حــق وصـــدق ، لا سبيل لشيطان اليه ، بل قد أحرس بالنجم اذا هوى رصد بين يدى (الوحى) وحرسا له على هذا فالارتباط بيـــن

---

(21) تفسير الزمخشرى 4 – 224 •

(22) النجــم : 1 – 3 •

القسم به والمقسم عليه فى غاية الظهور . وفى المقسم به دليل على المقسم عليه (23) .

ولعل هناك ارتباطا بين النجم اذا هوى وقوله فى نفس السورة : (**وأنه هو رب الشعرى**) والشعرى نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة . ونوره خمسون ضعف نور الشمس وهو أبعد من الشمس بمليون بعد الشمس عنا .

وقد كان هناك من بعيد هذا النجم . وقد هناك من يرصده كنجم ذى شأن . فتقرير أن الله هو رب الشعرى له مكانه فى السورة التى تبدأ بالقسم بالنجم اذا هوى ، وتتحدث عن الملأ الاعلى ، كما تستهدف تقرير العبودية لله وحده ، ونفى عقيدة الشرك الواهية المتهافتة (24) .

ومهما أحس الناس من منافع لهذه النجوم فانه ينبغى أن يردوها الى من وهبها لهم ، والا يعبدوها من دونه ، فهو الجدير بالعبادة لما أودعها من المنافع والاسرار . يقول سبحانه فى سورة فصلت : « **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن** » ، فهو الذى خلق الكونين ووهبهما نورهما ولو شاء لطمس هذا النور ، انه واهبه وصانعه ، وهو لذلك الخليق بالعبادة . ويقول انهما من آياته هما وما يتبعهما من اختلاف الليل والنهار ، آيات تدل على قدرته ووحدانيته . ولقوتهما وقوة الاجرام والنجوم فى التعبير عن هذه الدلالة كرر الحديث عنها جميعا فى القرآن وأقسم بها ، ليعبدوا الرب دون المربوب والصانع دون المصنوع .

☆ ☆ ☆

وفى القسم ببعض مخلوقات الله تنبيه الى ما فيها من روعة وجمال تدفع الى التفكير فى خالقها قال تعالى :

« **والشمس وضحاها . والقمر اذا تلاها . والنهار اذا جلاها . والليل اذا يغشاها . والسماء وما بناها . والارض وما طحاها . ونفس وما سواها . فالهمها فجورها وتقواها . قد افلح من زكاها . وقد خاب من دساها** » (25) .

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية ، كما يقسم بالنفس وتسويتها والهامها . ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ، وأن يوجه اليها القلوب تتملاها وتتدبر ماذا لها من قدر ، وماذا بها من دلالة ، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم .

---

(23) انظر التبيان فى أقسام القرآن ص 153 .

(24) انظر فى ظلال القرآن ـ سيد قطب 7 ـ 632 ـ دار احياء التراث العربى ـ الطبعة الخامسة ـ بيروت 1386 هـ ـ 1967 م .

(25) الشمس : 1 ـ 10 .

فهذا القسم يثير فى النفس الاعجاب القوي بهذا الكون والتقديس لمنظم شؤونه هذا التنظيم الدقيق ، ولذا نجد حرص القرآن على توجيه القلب الانسانى دائما الى مشاهد الكون بشتى الاساليب :

(والشمس وضحاها) فهذه الشمس تبدد ظلمة الليل البهيم بما أودعها الله من قوة ضوئية ، وهي على بعد هائل وبحجم ضخم ولولا هذا لفنى العالم وما كانت هناك حياة ، ولعل كوكب الشمس كان أكثر ما لفت الانسان ويلفته على توالى العصور وهي تبدو من وراء الافق فى مطلع النهار ، وتمضى فى الصعود الى وسط السماء ، وكلما تعالت ازدادت حرارتها ·

والضحى هو أروق أوقات الشمس وأصفاها ، ففى الشتاء هو وقت الدفء المستحب المنعش ، وفى الصيف هو وقت الاشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها · وقد ورد أن المقصود بالضحى هو النهار كله ، ولكننا نميل الى الاخذ بالمعنى القريب (26) ·

وقد الهم الاولون ما للشمس من تاثير فى حياتهم ، مع أنهم لم يكونوا يعرفون عنها ما نعرفه الآن من انها مصدر الحياة فى الارض بفضل طاقاتها الحرارية التى تبعث الحياة فى كل الكائنات الارضية ، ومع ذلك أحسوا احساسا دقيقا بخطرها وراعهم موكبها اليومى وأنه لولا بزوغها كل صباح لاظلمت الدنيا فى كسوف مستمر، وكانما شعروا أنها صاحبة السلطان الاول فى الوجود ، اذ توقد الكون بمصابيح أشعتها ، ، وكل شىء يسبح من الشروق الى الغروب فى أضوائها التى تتوالد كل يوم وتتلألأ ترسل الحياة فى كل كائن من كائنات الوجود · لذلك كله قدسوها وعبدوها ، فى مصر القديمة ، وبلاد الرافدين ، وفى جزيرة العرب وغيرها على أنها آيات الكون هي وضياؤها الذى يبلغ الاوج منذ الضحى (27) ·

والله جل ثناؤه يقسم بها وبضحاها أو ضوئها حين يسطع نوره ويلهب كل ما يمر به ، ليلفت الى بهائها وروعة صنعها وصنع ما ترسله من حرارة وأشعة تبثان الحياة فى الوجود · انه صنع يشهد بقدرته الخارقة بحيث لا يبدو فى صنعه لتلك الآية الكبرى أي خلل ، فهي تبزغ وتغرب بميقات ، وهي ترسل أشعتها وحرارتها بمقدار ، وفى ذلك ما يدل أكبر الدلالة على أنه واحد

---

(26) انظر تفسير ابن كثير 4 – 515 ·

(27) انظر سورة الرحمن وسور قصار – شوقى ضيف ص 322 وما بعدها – دار المعارف بمصر ، 1971 م ·

لا شريك له ، يفعل ما يشاء كما يشاء على مقتضى حكمة باهرة ، دون أن يمسه نصب أو تعب أو يدركه قصور أو عجز وهو القوى القادر الذى لا نهاية لقدرته له ملك السموات والارض ، فكل ما فيهما يصرفه ، حسب حكمته فى خلقه ، وحسب ما يريده من مصلحة ومنفعة ٠

ويكرر الله فى القرآن مرارا أنه سخر للانسان الشمس كي ينتفع بها أكبر نفع ، ينتفع بميقاتها اليومى وضوئها وحرارتها وينتفع بمنازلها وما ينشأ عنها من فصول لها أبعد الاثر فى حياته وكل ما يتصل بها من زروعه وغير زروعه ٠ وهو يقسم بها ليجذبه من حضيض الكفر والعصيان الى ساحة الايمان والعرفان بأنه مدبر الكون المتفضل بكل ما فيه من نعم وآلاء ينعم بها الانسان صباح مساء ، وجدير به أن يعبده ٠ انه الاله الحق رب العالمين العزيز بسلطانه لا ينازله أحد ولا يمانعه الحكيم بتدبيره لا يشوبه أي نقص ولا يداخله أي خلل ، له التصرف الكلى فى الوجود جميعه شمسا وغير شمس وضحى وغير ضحى ، وله نفوذ الامر فى جميع كائناته من الكواكب وغير الكواكب مما نعلم ومما لا نعلم ، تنزهت ذاته وتقدست أفعاله وصفاته ٠

☆ ☆ ☆

(والقمر اذا تلاها) ٠

وهذا القمر يتلو الشمس ويستمد نوره منها ، فاذا غلبت قام مقامها فى البدو للكون وابهاجه بنوره العميق ٠

ولقد كان القمر هو الكوكب الباهر بعد الشمس الذى لفت الانسان منذ القدم ، اذا رآه حين يرخى الظلام سدوله على التلال والوديان والجبال والاشجار والينابيع والآبار والمسالك والدروب يرسل نوره على جميع البقاع ، فاذا الحياة التى انطفأت فى كل مكان بانطفاء الشمس قد استيقظت من سباتها ولم يعد يرين عليها الصمت والسكون والركود ، فقد دبت الحركة فى الوجود، ولم يعد الانسان أسير الظلام ولا عاد يلابسه ويلابس كل ما حوله فقد طرده نور القمر ، وهو نور لطيف لا تمازجه حرارة كحرارة ضوء الشمس ، وكأنه رحمة كبرى تبزغ فى السماء لانقاذ الانسان من جنود الظلام ووحشته ومخاوفه ، ولذلك طالما ناغاه الانسان على نحو ما يناغى الطفل المصباح ، لما له من أثر فى تحريك نفسه وابتعاث خواطره ولما يجد له من أنس ومسرة ٠ وكان طبيعيا للاولين فى بدء الحياة الانسانية أن يعبدوه ويقدسوه كما قدسوا الشمس وعبدوها ٠ انه وحده الذى يعتلى عرش الليل كما تعتلى الشمس عرش النهار ، يستقل بسلطنة الليل كما استقلت الشمس بسلطنة النهار ، وكأن الكون يرى وجهه فى مرآته ، وكل شىء فيه يكتسى بهاء وجمالا : التلال والكثبان والجبال والوديان والكلأ والاشجار والمياه ، والنجوم تلمع ، وهو يبرز فى جلاله ، وقد بدد الظلام وبدد الوحشة ، والانسان ينظر اليه فى خشوع متأملا فى أشعته الفضية ٠ والله جل ثناؤه

يقسم به ليلفت الى تلك الآية الرائعة من آيات خلقه المحكم ، وكأنه سفير له عندهم ، سفير يحمل اليهم رحمته بهم ورعايته لهم آناء الليل ، رعاية تحتضنهم فيها أشعة القمر ، تغسل من عيونهم غبار الوحشة والظلمة ، وتنير لهم المسالك والطرق ، والارض تستقبلها هانئة بها فاتحة لها صدرها ، تريد أن تنبث فى كل ذراتها، حتى تتجلى فى نورها وتتحلى بلونها · وهو الله مفيض النعم على الانسان ، خلقه من التراب المظلم، وأنار له الوجود وجعله كله نورا، أما فى النهار فأضواء الشمس تغمر كل مكان نورا وحرارة تكتن فيها الحياة، وأما الليل فيبدو القمر بأنواره التى نفحتها فيه الشمس بما تمسكه عليه من أشعتها، وهو معنى قوله تعالى : (اذا تلاها) أي تلا الشمس وتبعها ، فهو تابع لها يقتبس من ضوئها والى ذلك أشارت آية سورة يونس : « **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب** » (28) ·

والضياء أعلى مرتبة من النور ، وكأن نور القمر يتجلى فيه ضياء الشمس ، فهو مظهر لتجليه ، ولذلك كان دونه فى الاسم وفى الحقيقة · ويذكر الله أنه قدر مسيرة القمر فى ليالى الشهر وبعبارة أخرى منازله الثمانى والعشرين ، لتعرف بذلك الشهور والسنون ، وليعرف الحساب بالاوقات من الشهور والاسابيع والايام حتى تنتظم مصالح الناس وشؤونهم الدينية والمعاشية · ويذكر الله مرارا أنه سخر القمر كما سخر الشمس للانسان لينتفع بهما فى حياته ما استطاع الى الانتفاع سبيلا ، انه لم يخلقهما لكي يعبدهما من دونه ، بل ليعبد صانعهما العظيم وليستقر فى نفسه شكره على ما أنعم به عليه من ضياء الشمس ونور القمر ، فتلك آيتان من آيات خلقه البذيع دالتان اكبر الدلالة على كمال قدرته وعظيم تدبيره وأنه اذا خلق شيئا أقامه فى أدق تقدير له ، ثم أجراه الى غايته · وقد أجرى القمر والشمس ليضيء بهما الكون ليلا ونهارا ، لا لكي يعبدهما الانسان أو يعبد غيرهما من الكواكب السماوية التى تخضع لاله أعظم منها شأنا ، وفى ذلك يقول : « **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم اياه تعبدون** » (29) · فهو الذى وهب لهما الضياء والنور ، ولو شاء لطمس النور ومحا الضياء فأظلم الوجود ظلاما لا نهاية له · انه وحده

---

(28) يونس : 5 ·
(29) فصلت : 37 ·

الخليق بالسجود والعبادة وان تعنو له كل الوجوه ·

☆ ☆ ☆

(والنهار اذا جلاها · والليل اذا يغشاها) ·

ويقسم بالنهار اذا جلاها ، فالنهار يبرز هذا الكوكب الوهاج (وقيل الضمير فى جلاها للظلمة أو للدنيا أو للارض وان لم يجر لها ذكر كقولهم : أصبحت باردة يريدون الغداة ، وأرسلت يريدون السماء) (30) فالنهار يجلى البسيطة ويكشفها (31) ·

وللنهار فى حياة الانسان آثاره التى يعلمها · وقد ينسى الانسان بطول التكرار جمال النهار وأثره · فهذه اللمسة السريعة فى مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل فى هذه الظاهرة الكبرى ·

ومثله الليل الذى لا يلبث أن يمحو سنا هذا الكوكب (والليل اذا يغشاها) ·· والتغشية هي مقابل التجلية · أي « فتغيب وتظلم الآفاق » (32) ·· والليل غشاء يضم كل شيء ويخفيه · وهو مشهد له فى النفس وقع وله فى حياة الانسان أثر كالنهار سواء ·

(والسماء وما بناها · والارض وما طحاها) ·

وهذه السماء : أحكم الله خلقها ، واتسقت فى عين رائيها بالبناء المحكم الدقيق (والسماء وما بناها) « وما » هنا مصدرية بمعنى والسماء وبنائها (33) · ولفظ السماء حين يذكر يسبق الى الذهن هذا الذى نراه فوقنا كالقبة أنى اتجهنا ، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة فى أفلاكها ومداراتها ·

فأما حقيقة السماء فلا ندركها · وهذا الذى نراه فوقنا متماسكا لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه · أما كيف هو مبنى ، وما الذى يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح فى الفضاء فذلك ما لا ندريه · وكل ما قيل عنه نظريات قابلة للنقص والتعديل · ولا قرار لها ولا ثبات ·· انما نوقن أن يد الله هي التى تمسك هذا البناء : « **ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا · ولئن زالتا ان أمسكهما من احد من بعده** » (34) ·

---

(30) تفسير الزمخشرى 4 ــ 258 ، طبعة الحلبى ، 1966 م ، القاهرة ·

(31) انظر تفسير ابن كثير 4 ــ 515 ·

(32) تفسير الزمخشرى 4 ــ 258 ·

(33) انظر تفسير ابن كثير 4 ــ 515 ·

(34) فاطر : 41 ·

فالسماء بكل ما فيها من قريب وبعيد ومن كواكب ونجوم بناء عجيب ، ويكفى أن نتدبر مجموعتنا الشمسية وما بها من شمس وقمر وكواكب لنحس عجائب خلق الله فى الكون وانه لابد لهذا الكون من بان يبنيه وصانع يقيمه • واذا نحن عبرنا مجموعتنا الى مجموعات الكواكب الاخرى ونجومها ملأنا العجب العجاب، ويكفى أن نعرف أن عدد النجوم يجاوز البلايين لا الملايين وأن منها ما تبلغ سرعة ضوئه نحو مائتى ألف ميل وان لا يصل الينا الا بعد عدد من السنين يتفاوت قلة وكثرة • وكل هذه النجوم والكواكب تسير بحركات منتظمة دقيقة محسوبة فى الفضاء الكونى الشامل لا يمسكها سوى الله ، فلا عمد ولا عائق ، وانما قدرة الله وحدها ، وهي قدرة تسخر كل ما فى السماء لنا •

فالانسان مركز الكون وكل ما فيه مخلوق من أجله ، ويقرر القرآن ذلك مرارا وتكرارا كما فى آية الجاثية : **«وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه »** فكل ما فى السموات مسخر للانسان كي يفيد منه أكبر فائدة (35) •

وهذه الارض وقد انبسطت فى سعة وهيئت للسكنى والعمارة ، وهذه النفس العجيبة بفجورها وتقواها يتسرب اليها الهدى والضلال فى دقة وخفاء ، فهي أبدا بين فجورها بغرائزها وميولها ، وبين تقواها بعقلها وروحها •

هذا هو القسم ، وهو يدل على الابداع والجمال والقدرة والعلم ، وأما المقسم عليه فقوله تعالى : (**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**) ، وهذا يلفت النفس الى التفكير العميق فى خالق هذه المشاهد والخلائق ، وهذا الخالق يذكر دائما هو وما خلق محوطا بهذا الاجلال فى مقام الحق والصدق •

☆ ☆ ☆

ويقسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة **(والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق • النجم الثاقب • ان كل نفس لما عليها حافظ)** (35) •

يتضمن هذا القسم مشهدا كونيا وحقيقة ايمانية • وهو يبدأ بذكر السماء والطارق ويثنى بالاستفهام التفخيمى المعهود فى التعبير القرآنى : (وما أراك ما الطارق ؟) •• « وهو استفهام ويقصد به ــ فى عرف خطابهم ــ تعظيم لمستفهم عنه ، كأنه ــ فى فخامة شأنه ــ مما لا تمكن احاطة الادراك به • فيقال وما الذى يدريك ما هو كذا ؟ » (36) ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته •

---

(35) انظر تفسير فى ظلال القرآن ٥ ــ 589 •

(36) الطارق : 1 ــ 4 •

(النجم الثاقب) الذى يثقب غـلاف الظلام بشعاعه · وهذا الوصف ينطبق على جنس النجم (37) · ولا سبيل الى تعيين نجم بذاته من هذا النص ، ولا ضرورة لهذا التعيين · بل ان الاطلاق أولى ليكون المعنى : والسماء ونجومها الثواقب للظلام ، النوافذ من هـــذا الحجاب الذى يستر الاشياء · ويكون لهذه الاشارة ايحاؤهـــا ، كمـــا يوحى جرس التعبير ذاته بالشدة والنفـــاذ والجـــزم ·

يقسم بالسماء ونجمها الثاقـــب : على أن كل نفس من الانفس عليهـــا رقيب ، وليس فى النفوس نفس أهملـت مـن رعايـة ذلـك الرقيـــب المدبـــر لشؤونها (38) : (**ان كل نفس لما عليها حافظ**) ·· وفى التعبير بصيغته هـذه معنى التوكيد الشديد ·· ما من نفس الا عليها حافظ يراقبها ويحصى عليها، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله · وتعيين النفس لانها مستودع الاســرار والافكار · وهي التى يناط بها العمـل والجـــزاء ·

ولا يعقل أن من خلق السماء وبناها ورفع سمكها فسواها ، وأنزل فيهـــا نجمها الثاقب ليرشد السارى فى ظلام الطريق حتى يصل الى غايته المنشودة – لا يعقل أنه تارك الانسان حائرا بين الدنيا والآخرة بلا هداية وارشاد ، كما أن النجم الثاقب يطرق حجاب الليـــل الساتر ، فهناك الرقيب الحافظ ، وصنعة الله واحدة متناسقة فى الانفس وفى الآفـاق ·

أقسم سبحانه بالمشاهـد فى عوالم هذا الكون من سمـــاء وأرض وشمس وقمر وليل ونهار وظلام ونور ، ويقســم أيضا بعوالم الغيب ليربط بينها وبيـــن المقسم عليه فيقول :

« **والسماء ذات البروج · واليـوم الموعود · وشاهد ومشهود · قتـــل أصحاب الاخدود** » (39) ·

و « هي البروج الاثنا عشـــر وهي قصور السماء على التشبيه ، وقيـــل البروج : النجوم التى هي منازل القمر، وقيل عظام الكواكب سميت بروجـــا لظهورها ، وقيل أبواب السماء » (40) ·

وأقسم سبحانه باليوم الموعـــود ، وهو يوم القيامة لان الله وعد به ولما نصل اليه (41) ، وفيه فصل وتصفيـة

---

(37) تفسير جزء عم لمحمد عبده ص 48 ·
(38) انظر تفسير الزمخشرى 4 ـ 240 ·
(39) انظر تفسير جزء عم لمحمد عبده ص 49 ·
(40) البـــروج : 1 ـ 4 ·
(41) تفسير الزمخشرى 4 ـ 237 ·

حساب الارض وما كان فيها ، وقد وعد الله بمجيئة يوما للحساب والجـــزاء ، وأمهل المتخاصمين والمتقاضين اليـه · وهو اليوم العظيم الذى تتطلع اليـــه الخلائق وتترقبه لترى كيف تصيـــر الامور ·

وأقسم بالشاهد والمشهود فى ذلـك اليوم ، والشاهد كل ما له حس يشهـد به ، والمشهود كل محس يشهد بالحس كما هو حقيقة معنى اللفظ (42) ·

« اقسم سبحانه اولا بما هو غيـب وشهود ، وهو السماء ذات البـروج : فان كواكبها مشهود نورها ، مـــرئى ضوؤها ، معروفة حركاتهـا فى طلوعها ومغيبها بحس البصر · (والسماء) ما علاك مما تسميه بهذا الاسم ، وفيه البروج تشاهدها ، ولكن فيهـــا غيب لا تعرفه بالحس ، وهو حقيقة الكواكب، وما أودع اللــه فيهـا من القوى ، وما أسكنها من الملك أو غيره ·· كل ذلـك غيب لا تدركه حواسنا ، وان وصـــل الى الاعتقاد بشىء منه عقلنا · ثـــم اقسم ــ جل شانه ــ بها هو غيب صرف، وهو اليوم الموعود · لانه أخبرنا بأنه سيكون ، وعمـــا يكـون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب ، ولكن شيئا من ذلك لا يمكن أن نشهده فى حياتنا هذه · وبعد ذلك أقسم بما هو شهادة صرفة ، وهو الشاهد : أي صاحب الحس ، فانه مرئى ، والمشهـود وهو كل ما وقع عليه الحس · فكأنـه ــ جل شأنه ــ اقسم بالعوالم كلهـــا ــ مع هذا التقسيم البديع ــ ليلفـتك الى ما فيها من العظم والفخامة بما حضرك، وتبذل الوسع فى ادراك ما استتر عنك، وتستعد لما استقبلك » (43) ·

وجواب القسم حذوف دل عليـــه (**قتل أصحاب الاخدود** (*)) « أي أنهم ملعونون يكنى كفار قريش كما لعـــن اصحاب الاخدود ، وذلك لان السـورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهـــم على اذى أهل مكة وتذكيرهم بما جـرى على من تقدمهم » (44) ·

☆ ☆ ☆

مما سبق يتبين لنا تكرار قسم اللــه سبحانه بالسماء والكواكب والنجوم ، ولعل فيما وقفنا عليه من مشاهد تحكى قصة الصنع البديع ، والتدبير المحكـــم ما جعلها محلا للقسم العظيم :

---

(42) انظر المصدر السابق 4 ــ 237 ، وتفسير جزء عم لمحمد عبده ص 45 ·

(43) جزء عم لمحمد عبده ص 45 ·

(*) واصحاب الاخدود : قوم كافرون ، ذوو بأس وقوة ، عذبوا قوما مؤمنين ، وحرقوهم بالاخدود (الشق) ·

(44) جزء عم لمحمد عبده ص 45 ·

« **فلا أقسم بمواقع النجوم · وانه لقسم لو تعلمون عظيم · انـه لقرآن كريـــم** » (45) ·

والمخاطبون يومـــذاك لم يكونـــوا يعرفون عن مواقع النجوم الا القليـــل الذى يدركونه بعيونهم المجردة · ومن ثم قال لهم : « **وانه لقســم لو تعلمون عظيم** » ·· فأما نحن اليوم فندرك مــن عظمة هذا القسم نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون · وان كنا نحن أيضـــا لا نعلم الا القليل عن عظمة مواقـــع النجـــوم ··

وهذا القليل الــذى وصلنــا اليـــه بمراصدنا الصغيرة ، المحدودة المناظير، يقول لنا أن : « النجوم فى السمــــاء يتقارب بعضها من بعض ، وينشأ عن ذلك مجموعة من النجوم ، فأخرى ، فأخرى ، وهكذا دواليك ·· ولفظ (يتقارب) يكاد يكون نابيا فى لغة النجوم ، ذلك اننـــا نعلـم أن أقرب نـجـــم اليـنـــا ـ الى الشمس (*) ـ يبعد نحوا من 4،4 (**) سـنــوات (ضوئيـــة) أو بالاميـــال : 26،400،000 ،000،000 (أي ان رائـــد الفضاء الذى وصل الى سرعة 25،000 ميل بالساعـــة ، اذا ما ســـار بنفس السرعة نحو أول نجم يلزمه من الوقت 115984 سنة عادية ، واذا ما تمكن من تحقيق سرعة الضوء فانه يصـل الى القمر بأقل من ثانيتين ، ويصـــل الى أقرب نجم بـ 4،4 سنوات ضوئية) · فالتقارب فى حديث النجوم يحمل معنى غير المعنى الذى كسبنـاه والفنـاه فى خبرتنا نحن بنى البشر على سطـــح هذه الارض من أنه تقارب على البعد ، تقارب ظل بعيدا ، أو هو بعد يتنـافس حـتى ليـدخلـــه شيء مــن معـــنى التقارب » (46) ·

هذا يعطى فكرة عن سعة السماء ، أما عددُ النجوم ، فانهم كانوا يعدونهـا بالالوف ، ثم صاروا يعدونها بالملايين ، ثم وصلوا الى مليارين · أما اليوم فانهم يقدرون عدد النجـوم فى المـجرة التى نحن فيها من عالمها بثلاثيـن مليارا · ومجرتنا (درب التبان) والتى يقـــع نظامنا الشمسى كله فى طرفها ، يوجد وراءها عالم السدم ومن جملته سديم المرأة المسلسلة بل ان عوالم الســـدم التى رأوا منها حتى اليوم بآلات التصوير (500) ألف سديم ثم قالوا لو تقدمت هذه

---

(45) تفسير الزمخشرى 4 ـ 237 ·

(46) سورة الواقعة : 75 ـ 77 ·

(*) أي الى نظامنا الشمسى ·

(**) يبعد نحوا من 4،4 سنوات ضوئية ، أو بالاميال هو يبعد 4،4 × 6 مليون مليون = 26،4 مليون مليون ميل ·

الآلات وازدادت اتقانا لرأينا أكثر من مليون سديم (47) ·

« ويقول الفلكيون أن من هذه النجوم التى تزيد على عدة ملايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى الا بالمجاهر والاجهزة ، وما يمكن أن تحس به الاجهزة دون أن تراه ، هذه كلها تسبح فى الفلك الغامض ، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم كوكب بآخر الا كما يحتمل تصادم مركب فى البحر الابيض المتوسط بآخر فى المحيط الهادى يسيران فى اتجاه واحد وبسرعة واحدة ، وهو احتمال بعيد وبعيد جدا ، ان لم يكن مستحيلا !! » (48) ·

وكل نجم فى موقعه المتباعد عن موقع اخوته ، قد وضع بحكمة وتقدير ، وهو منسق فى آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب ، لتتوازن هذه الخلائق كلها فى هذا الفضاء الهائل ·

فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم، وهو أكبر كثيرا جدا مما كان يعلمه المخاطبون بالقرآن أول مرة · وهو فى الوقت ذاته أصغر بما لا يقاس من الحقيقة الكلية لعظمة مواقع النجوم ! ·

وانه لنظام باهر تحدى الله به هذا الكائن البشرى المخلوق ، بان ينظر الى خلق السموات بامعان وتدقيق ، ليرى هل يجد فيها من (فطور) ، أي خلل ، ثم تحداه أن يرسل البصر مرة أخرى لاستيعاب ما خلقه الله من أسرارها ، الا أن بصره لا يلبث أن يرتد اليه تعبا من المحاولة ، خاسئا حسيرا من الخذلان فى الوصول الى المعرفة الكلية التى يسعى اليها ·

« **الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور · ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » (49) ·**

وتعد ، فمهما تعمق الانسان فى الانسان فى دراسة السماء وطوى الاجيال فى الاجتهاد فازداد معرفة بها ·· فان ما يعرفه سيظل أقل بكثير مما هو ·· ومهما تكشف له سر من أسرارها فان ما خفى أكثر وأبعد وأعمق ·· والعقل البشرى لا يستطيع ادراك سعة الكون ومداه ، وسيظل عاجزا عن ادراك أول خلق السماء ، ومسافاتها وأزمانها ، ذلك لانه لم يشهد خلقها ، كما لم يشهد خلق نفسه قال تعالى :

« **ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » (50) ·**

---

(47) مجلة العربى العدد 141 ـ 1970 ، مقال بقلم أحمد زكى ص 38 وما بعدها ·

(48) انظر قصة الايمان ـ الشيخ نديم الجسر ص 305 وما بعدها منشورات المكتب الاسلامى ـ الطبعة الثالثة 1389 هـ ـ 1969 م ·

(49) الملك : 3 ـ 4 ـ أنظر : الله والعلم والحديث ص 26 ·

(50) الكهف : 51 ·

القــرآن معجــزة أبديــة

البسيونى قنعـان

« اقتضت ارادة الله تعالى أن تكون معجزة الاسلام الباقى الخالد ، باقيـة خالدة ، تهدى ، وترشـد ، وتجـدد ، يدرسه كل جيل ، ويفسره العلماء كلما بلغ العقل البشرى حـدا جديـدا مـن النضج ، واذا مرت على البشرية فترة حيرة أو نسيان فى جيل أو أجيـال ، جاء من بعدهم فوجد فى القرآن عاصما وهاديـا ٠

- اتسمت تعاليم الديانة الموسوية فى طابعها العام بالعنف ، والمسيحية بالتسامح ، لماذا ؟
- العقلي والحسي من المعجـزات ، أثر كل منهما ، وصلاحيته ٠
- تكررت قصة آدم فى القرآن خمسا وعشرين مرة ، ما دلالة هذا ؟
- هل أضافت الاكتشافات الحديثـة لآثار الفراعنة أدلة جديدة عـلى صدق القرآن ٠

مقـارنـة

ان الدارس للدين الاسلامى يرى أن بينه وبين الاديان الاخرى فوارق منها :

أن الدين الاسلامى شريعة عامـة شاملة صالحة لكل زمان ومكان ، أما الديانات الاخرى فكانت قاصرة عـلى زمن معين ، أو لقوم معينين ، وكثيرا ما كانت تأتى لعلاج انحراف تفشى فى المجتمع ، وتحمل من التعاليم ما يكفى لعلاجه ، فاذا تفشى فى المجتمع انحراف آخر جاء دين آخر ، وهكذا ٠

فاليهودية جاءت لعـلاج المجتمـع الاسرائيلى من طبيعته المادية والمتمردة ومن الجبن الذى تأصل فى القلوب من جراء هذا ، ومن جراء عسف فرعون ، نتيجة أنهم عاشـوا جاليـة صغـيـرة ضعيفة ، مستضعفة ، فسامهم سـوء العذاب ، ومـن هنـا فـان الشريعـة الموسوية جاءت لتعالج فيهم هذا ، ولذا اتسمت فى بعض الاحوال بالعنف « **واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتـم**

أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم، فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم، فتاب عليكم، انه هو التواب الرحيم » (1) « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ،ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون » (2) وكتب الله عليهم التيه أربعين سنة حتى ينتهى الجيل الذى تربى على الذل والجبن ·

وعملت التعاليم عملها فى بنى اسرائيل ، ومر المجتمع اليهودى بمراحل تجاوز فيها مرحلة القوة اللازمة للدفاع والبناء ، الى مرحلة العنف والقسوة والهدم ، فجعلوا يقتلون الانبياء بغير حق ، وقست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة ·

فناسب أن تأتى ديانة أخرى ، لتنقذ المجتمع من هذه الضراوة التى جعلت الحياة نوعا من الجحيم ، فجاءت المسيحية وكل همها أن تنشر التسامح والاخاء « اذا ضربك أحد على خدك الايسر فأدر له خدك الايمن ، ومن نازعك الرداء فاعطه القميص أيضا » ·

فلما بلغت البشرية من قوة العقل والنضج حدا يجعلها صالحة لديانة تامة كاملة ، صالحة لكل زمان ومكان، جاء الاسلام ·

واذا كانت معجزة الانبياء السابقين حسية ، فقد اختار الله لخاتم أنبيائه محمد (ص) أن تكون معجزته عقلية وباقية ، وهي القرآن والعلة فى ذلك أن الرسالات السابقة كانت تخاطب فى الناس حواسهم ، كمعجزة اليد والعصا لموسى ، واحياء الموتى لعيسى عليهما السلام ، لان الناس فى ذلك الوقت لم يبلغوا من النضج العقلى حدا يجعلهم يذعنون لمعجزته ، كما ان المعجزة الحسية تكفى لاحداث أثر عاجل ولكنه سريع ، ولان الرسالة لا تدوم الي آخر الزمان ، فالحسية كافية ·

أما الاسلام الباقى الخالد فلابد أن تكون معجزته باقية خالدة ، تهدى ، وترشد ، وتجدد ، يدرسه كل جيل ، ويفسره العلماء ، كلما بلغ العقل البشرى حدا جديدا من النضج هرع الى القرآن ، يقرأ ويفسر ، واذا مرت على البشرية فترة حيرة أو نسيان وغفلة فى جيل أو أجيال ، جاء من بعدهم فوجد القرآن عاصما وهاديا ·

ولئن كانت المعجزات الحسية أسرع تأثيرا فالمعجزة العقلية أبقى أثرا ·

---

(1) سورة البقرة الآية : 54 ·
(2) سورة الانعام الآية : 146 ·

ولهذا فقد اختار الله أن تكون معجزة الاسلام الخالدة هي القرآن الكريم ، كتاب الله الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ·

ولئن كانت أسرار الاعجاز كثيرة فى القرآن ، بعضها طرقه الباحثون ، وبعضها لا يزال قيد البحث ، فاننى سأكتفى - نظرا لضيق المجال - ببعضها ، معتمدا الايجاز ما أمكن ذلك ·

السر الاول

لقد جاء القرآن فى قمة البلاغة من حيث المعانى والالفاظ والاساليب ، ولقد أحدث القرآن فى نفوس المؤمنين والكافرين أثرا قويا ، لم يستطع الكفار من العرب ، ومنهم فحول البلاغة والبيان ، أن ينكروه ، أو حتى أن يقللوا من شأنه ، فاذا علمنا أنهم قالوا عنه سحرا ، وشعرا ، وأنهم ما كانوا يتجنبون أثره فى نفوسهم الا بأن يتعمدوا عدم سماعه « **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** » (2) وان الحسد والحقد على من أنزله الله عليه أكل قلوبهم ، ودفعهم الى التحسر والالم « **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** » (3) ·

وانهم كانوا حينما يسمعون القرآن يبلغون قمة الانبهار والدهشة ، ولكنهم يغالطون ، شأنهم فى ذلك شأن الخصوم الحاقدين « **وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ، ويقولون انه لمجنون** » (4) ·

وما زال العرب يتفاخرون بايجاز المثل القائل « القتل أنفى للقتل » حتى جاء قوله تعالى « **ولكم فى القصاص حياة** » فكان أوجز ، وأبلغ ، ومحددا للمعنى بدقة ووضوح ·

ولقد ذكر القرآن - على سبيل المثال - قصة آدم خمسا وعشرين مرة ، بحيث تختلف الالفاظ والاساليب ، ويتحد المعنى مع جودة السبك ، وقوة الصياغة ، وهنا يكمن الاعجاز ، فان أبرع القصاصين من البشر لا يستطيع أن يعيد صياغة قصته مرتين بنفس المعنى دون اخلال بالصياغة ·

وقد سلك القرآن طريقة التحدى للعرب ، أن يأتوا بعشر سور فعجزوا ، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ·

والذى لم يكن يعرفه هؤلاء أن الزمان سمير ، وأن القرون ستتتابع ، وعجز الناس عن الاتيان بسورة من القرآن متواصل ، رغم أن الزمان يحمل فى

---

(2) سورة فصلت الآية : 26

(3) سورة الزخرف الآية : 31 ·

(4) سورة القلم الآية : 51 ·

طياته من البلغاء والفصحاء ما يحمل، ورغم أن العداوة للقرآن وأهله تبلغ حدودا لم تعرفها من قبل ، فهذه الحروب الضارية ، وهؤلاء الاعداء على قوتهم وضراوتهم ، وتنوع أساليبهم من الحملات الدعائية ، ومحاولات الهدم باسم التبشير ، وباسم العلم ، ولو نجح أحد من هؤلاء فى هذا الزمن الطويل ، أن يأتى مثل القرآن أو سورة منه ، لضرب الدعوة المحمدية فى صميمها ، ولكن الجميع - رغم المحاولات الكثيرة - باءوا بالفشل ، فلجأوا الى طرق أخرى ، وما أسهل الافتراءات والمغالطات ·

السر الثانى

ان القرآن أخبر بكثير من الامور الغيبية كما حدث من تنبؤ بظفر الروم بعد هزيمتهم « **غلبت الروم فى أدنى الارض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون · فى بضع سنين** » (5) وقد جاء الزمان بما يصدق هذا ، وكما حدث فى حق الوليد بن المغيرة ، حين أنزل الله فيه قوله : « **ولا تطع كل حلاف مهين · هماز مشاء بنميم · مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم** » (6) فدخل على أمه ، وهددها ! ان هي لم تخبره بحقيقة نسبه ، قائلا : ان محمدا ذكر فى حقى هذه الخصال ، وقد وجدتها جميعها عندى الا الزنيم فانه لا يعرف الا منك ، فقالت له : ان أباك كان لا ينجب فخفت على ماله من الضياع ، فمكنت راعيا من نفسى ، فأنت ابنه ·

هذا وقد أخبر القرآن بكثير من الاحداث التاريخية التى صدقتها الآثار فيما بعد ، وأخبر عن الانبياء والمرسلين وغيرهم ممن لم يكن يعرفهم أحد « **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ، وان كنت من قبله لمن الغافلين** » **(7)** ·

وقد حدثنا الدكتور غلاب : ان أستاذه فى « باريس » وهو يتعرض فى درسه لما حدث لفرعون موسى ، قال لهم : وللاسف فان الكتب المنزلة تقول ان فرعون قد غرق مع أن الاكتشافات الاثرية الحديثة قد اثبتت أن فرعون مدفون فى قبره ، وأن موميائه ما تزال، فوقف الدكتور غلاب وقال : ان القرآن قد ذكر ان فرعون قد انتشلت جثته بعد غرقه ، فقال له : كيف ذلك ؟ ، فقال : قال الله تعالى : « **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** » (8) فلم يسع الاستاذ الا أن يبدى اعجابه ورضاه ·

---

(5) سورة الروم الآيات من 2 الى 4 ·
(6) سورة القلم الآيات من 10 الى 13 ·
(7) سورة يوسف الآية : 3 ·
(8) سورة يونس من الآية 92 ·

الســـر الثالث

على الرغم من أن بعض العلمـــاء يرى : أنه يجب علينا ألا نقحم القرآن فى بحث نظريات علميـة ، فانـه ليس كتاب بحث علمى ، كما أن النظريات العلمية تتعرض للهدم والبناء بمـــرور الزمن ، مما يجـب علينا الا نعـرض القرآن لمثل تلك الامور ، أقول رغم ذلك فاننا نعلم ان القرآن حمل بين دفتيـه ما يمكن أن نسميه ـ على أقل تقدير ـ اشارات لنظريات علمية ، يعتبرهـــا الباحثون من أعظم ما وصل اليه العلم فى العصر الحديث ٠

فمثلا يقول الله تعالى : « **او لم يروا أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها**» (9) وقد أثبت الباحثون فى كروية الارض أنها كما قال القرآن الكريم غير تامـــة التكويـــر ٠

وقال تعالى : « **فمـن يـرد اللـه أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقا حرجـا كأنما يصعد فى السماء** » (10) فـــان الآية كما نرى تشبه الضال بالذى يصعد فى السماء ، فيضيق صدره ، ويكـاد يختنق ، لقلة الاوكسجين كلما ارتفعنا ، حتى ينعدم ، كما أثبت العلماء ٠

الســـر الرابـع

وأخيرا فان القرآن حمل الى البشرية تشريعا كاملا متكاملا ، وحمـــل بين دفتيه تعاليم خالدة ، تكفى لاسعـــاد المجتمع الانسانى ، فنظم العلاقة بيـن الانسان وربه ، وبينه وبين مجتمعـه ، وأفراد هذا المجتمع ، كما حرم كل ما من شأنه الاضرار بالبشرية أو المساس بها ٠ ولو ذهبنا لنستعرض ما فى القـــرآن من تعاليم ونظم ، وشرائع وقوانين ، لضاق بنا المجال ، ولكننا نقول :

ان المجتمع الانسانى فى هذا العصر الذى أعمته المادة ، وانخدع بما لديه من علم مادى ، راح يسخره للفنـــاء والهلاك ، مما جعله يعيش على فوهـــة بركان ، أقول : ان هذا المجتمع لا يشفيه من أمراضه الا اتباع القرآن الكريـم ، الذى حمل حضارة ، قوامها التـوازن الخلاق بين الروح والمادة « **وابتغ فيمـا آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » (11) ٠

نعم ٠ لا صـــلاح للبشـريـة ، ولا سعادة لهـا ، الا اذا أصبـح القلب الانسانى بما يحمل من حب وخيـــر وايمان ، معادلا للعقل الانسانى بمـا ينتج من علـــم وتكنولوجيا تجـاوزت

---

(9) سورة الرعد من الآية : 41 ٠
(10) سورة الانعام من الآية : 125 ٠
(11) سورة القصص من الآية : 77 ٠

الاحلام ، وأن ترجع البشرية الى رحاب القرآن الكريم ٠

« أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا اشد منهم قوة ، وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (12) ٠

---

(12) سورة الروم ، الآية : 9 ٠

معـــنى الــوحى فى القــرآن

د· عمار طالبى

بسم الله الرحمن الرحيم ·

حضرات الســـادة ،

انه ليسعدنى أن أتحدث اليكـم عن موضوع ذى أهمية فى عصرنا هذا وهو مشكلة الوحي · ولقد سبق للمسلميـن أن تحدثوا عن هذا الموضوع كما تحدث عنه النصارى وغيرهم من أهل الديانات السماوية · وأذكر بأن الشيخ رشيـــد رضا له كتاب سماه الوحي المحمـدى وكذلك الشيخ عبد الله دراز له كتاب سماه النبأ العظيم ويقصد به الوحي أو القرآن وكذلك مالك بن نبى له كتاب أصدره بالفرنسية وترجم الى العربيـــة وهو الظاهرة القرآنية والواقع انـــه يتحدث عن الوحي فى هذا الكتاب ، يمكن القول بأنه قد تعددت المناهـــج المستعملة فى دراسة الظاهرة الدينيـة كمنهج الانترولوجيا ومنهج التحليـــل النفسى · والمنهج التاريخى المقـــارن ومنهج التحليل المنطقى للغة هذا مستخدم عنـد الانجليـز بالخصـوص والمنهج الظواهرى والوجودى الذاتى كما أنه قد تعددت الفروض لتفسير الديانات فهو (الدين) ظاهرة فى نظرهم مصدرها اجتمــاعى أو نفسى أو موقـــف ازاء الطبيعة ولكن كثيرا ما يقع الخلط بيـن الدين كظاهرة منزلة · مصدرها خـارج الانسان فى صورتيه الفردية والاجتماعية وبين الدين كظاهرة مصدرها مخـاوف الانسان ومواقفه ازاء الطبيعة وغيرها لتسلية نفسه أو تعزيتهـــا أو لتبرير أوضاعه مما أدى الى القول بأن الانسان هو الذى صنع الدين والعكس نعم قـد يقال ان الدين المنزل نفسه قد تطرأ عليه تعديلات وتحريفات واضافات وروايات شفوية مختلفة تتسرب من خلالهـــا التقاليد الاجتماعية عبـر الـزمن فيـما ذهب اليــه (جون ماكينزى) فى مقاله الطابع الاجتماعى للالهـــام وهذا فى الواقع متصل بالديانة المسيحية ولا يمكن أن نطبقه على النص القرآنى ، ولكـن بالنسبة للقرآن فان نصه محفوظ تاريخيا مما يجعله خارج نطاق الحركة النقدية الحديثة للكتــب التى تسمى بالكتـــب

(*) محاضرة ألقيت بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة يوم 4 ـ 6 ـ 1979 م ·

المقدسة ، التوراة والانجيل لان المخطوطات فى العالم القديم الذى وجدت فيه هذه الكتب قد يقع نقلها بشىء من الحرية يتصرفون فى النقل فكانت موضوعات للمراجعة وللروايات الشفوية فيما يذهب اليه ماكينزى نفسه وهذا باحث أنجليزى ، ويمكن للدارس أن يستعمل المنهج الفيلولوجى فى دراسة مسألة الوحي ، المنهج اللغوى،فقه اللغة لانه كما يقال اذا كانت الرياضيات منهجا للعلوم فان الفيلولوجيا بالنسبة لعلوم الروح كالرياضيات بالنسبة للعلوم الطبيعية ولان اللغة هي الاداة المثالية للوحى، فالمعنى وتبليغه عن طريق القول عنصران أساسيان فى كل وحي ، لابد من القول لابد من الكلام واذا كانت اللغة نسقا من الرموز ذات طرائق معينة فى الاستعمال وفعلا موجها نحو الآخر فان تاريخ دين ما ، من الاديان ـ من الديانات السماوية خاصة ـ لا يعدو أن يكون قراءة متواصلة للكتاب،وتأويلا مستمرا له،ولذلك يقول الغزالى المتوفى سنة 505 هـ · « ان فى فهم معانى القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا وان المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الادراك وان الاخبار والآثار تدل على أن القرآن متسع لارباب الفهم »،ويذهب الغزالى أيضا الى القول بان الله تجلى فى كلامه للبشر فالوحى تجل لله وظهوره فى كلامه مستشهدا بكلمة قالها جعفر الصادق المتوفى سنة 148 هـ · قال جعفر الصادق « لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ، ولكنهم لا يبصرون» فمعرفة الله سبيلها قراءة واعية لرموز الوحي ولذلك اعتبر الغزالى القرآن شرحا لله عن طريق فعل من أفعاله وهو القول يقول الغزالى « وبالجملة فالعلوم كلها داخلة بأفعال الله عز وجل وصفاته باعتبار أن العالم كله فعل من أفعال الله وان المخلوقات كلها فعل من أفعاله » هذا كلام الغزالى،وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته وهذه العلوم لا نهاية لها · وفى القرآن اشارة الى مجامعها وأفعال الله تتمثل فى مخلوقاته والكائنات تمثل نسقا منظما كأنه ضرب من اللغة المنظمة تمام التنظيم وقراءتها وتنظيمها هو العلوم المختلفة علوم الكون العلوم الطبيعية ونحن لا نرمى فى هذه الكلمة الى نقد المناهج الحديثة فى نقد الدين وبحثه · وانما نهدف الى بيان معنى الوحي فى السياق اللغوى القرآنى باعتباره سياقا لغويا أو رمزيا ·

معنى الوحي فى اللغة : الوحي فى اللغة له معان كثيرة ولكن نختار أهمها تدل كلمة الوحي فى اللغة العربية على عدة معاني منها · الخط والكتابة · قال كعب بن زهير :

أتى العجم والآفاق منه قصائد
بقين بقاء الوحي فى الحجر الاصم

بقاء الوحي فى الحجر الاصم أي بقاء الكتابة والخط ومنه قول رؤبة :

كأنـــه بعـد ريـاح تدهمـــه

ومـرثغنـّات الدجـــون تثمـــة

انجيـل أحبـــار وحي منمنمـــه

أى كتبه كاتبـــه ومـــن المعانى الاساسية للوحي السرعة ، ففى الحديث

« اذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فـــان كانت شرا فانته وان كانت خيرا فتوحه»

أي أسرع اليه تسرع اليه فالوحاء هو السرعة ويقال سم وحي ، سريـــع القتل واستوحيته أي استعجلته وتوحيت توحيا : تسرعت هذا تجدونه فى تفسير الطبرى حينما تعرض لكلـمة الـوحي وكذلـــك الزمخشـــرى فى الفـائـــق فى غريـب الحـديـــث • ومـن هنـا ندرك السمة الجوهرية للوحي وهي أنه يقع فى لمحة خاطفة تكاد تكون لا فى زمان وهو ما تفطن اليه الكندى المتوفى سنة 152 هـ فى تفرقته بين العلم الالهى والعلم البشرى فاعتبر علـم الرســل موهبة دون اكتساب ولا حيلة ولا بحث وأنه يقع لا فى زمان بخلاف الفلسفـــة وغيرها من المعارف والعلوم الانسانيـة وهو ما ذهب اليه ابن خلدون أيضا كما سيأتى وقد لخص لنا محمد علي التهانوى فى كتابه كشاف اصطلاحات الفنـــون مختلف الدلالات اللغوية التى لا تختلف فى أساسها عما ذكره الطبرى المتوفى سنة 310 هـ فبين أنه الاعلام فى خفـــاء أي الوحي اعلام فى خفاء وسرعة عن طريق كلام أو كتابة أو رسالة أو اشارة كاشارة العيون ويطلق الوحي عـــلى الوسوسة كما فى قوله تعـــالى « ان **الشياطيـن ليوحـــون الى أوليائهـــم ليجادلوكم** » سورة الانعام آية 121 • فالمعنى العام للوحي اذن باعتباره عملية هـــو القاء المـوحى الى المـوحى اليه بالوسائل المشار اليها وقد يطلق عـلى اسـم المفعـول ، أي عـــلى الموحى ، فالقرآن مثلا وحي ، ويذهب الزاغـــب الاصفهانى المتوفى سنة 502 هـ الى القول : بأن الوحي هو التفهم وان كل ما فهم به شيء من الاشارة والالهام والكتـب فهو وحي ، من الناحيـــة اللغويـــة ، بطبيعة الحال •

ما هو معنى الوحي الذى ورد فى القرآن ؟ فى سياق القرآن ؟ فى الآيات المختلفة ، فى السور المختلفة التى وردت فيها هذه المادة ، مادة وحي بجميـــع الصيغ اللغوية ؟

لفهم معنى الوحي فى القرآن أيهـا السادة ، يكون من الضرورى ربط هذه الكلمة بكلمات أخرى ، مثل : القـول ، الكلام ، اللسان ، القراءة ، التلاوة ، الترتيل ، النداء ، الامر ، التنزيـل ، الارسال ، التعليم ، الخّلق ، الاتباع ، الاستماع • وهذه المواد كلها وردت فى القرآن تشير الي الوحي •

فالرازى يذهب الى أن الايحاء فيه معنى القول وورد فى كثير من الآيات أمـــر بصيغة ، قل • ثم يأتى ما يقال يـأتى

الموحى **قل هو الله أحد** · فى الاخلاص آيـــة ١ ·

قل ما كنـت بدعـا من الرســل · الاحقــاف 49 ·

وكذلك التعليـم فى قوله تعــالى : « **وأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا** » فسر الزمخشرى الوحي هنا بالتعليم أي بتعليمنا فى سورة المؤمنون آية 27 فسره بتعليم صنع السفن وقوله تعالى « **وانزل عليك الكتاب والحكمــة وعلمك ما لم تكن تعلم**» سورة النساء 113 وارتبط الوحي بسياق التلاوة فى قوله : « **واتل ما أوحي اليـك من كتاب ربك** » الرسول ما عليه الا أن يتلو لا يصوغ لا يؤلف لا يكتـب ســورة الكهـف 27 وبالترتيل فى قولـــه « **ورتــل القــرآن ترتيلا** » الترتيل أمر بترتيل شىء موجود ليس له يد فى صنعه سورة المزمل آية 4 ·

وبالقراءة ، تربط الوحى كما فى قوله تعالى « **اقر اباسم ربك** » سورة العلــق آيـــة ١ · « **سنقرئك فلا تنسى** » الاعلى آيـــة 6 ·

وكذلك تربط الوحي بالاتباع فى قوله تعالى « **قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى أن اتبع الا ما يوحى الي** » ســورة يونس آية 15 ـ كذلك قوله تعالى «**فـاذا قراناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه** » سورة القيامة آية 16 · وبالكلام أي ربط الوحي بالكلام فى قوله تعالى :

« **وكلم الله موسى تكليما** » ســـورة النساء آية : 16 ·

« **وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء** » سورة الزخرف آيـــة 51 ·

وكذلك باللسان فى قوله تعالى : « **وما أرسلنا من رســول الا بلســان قومــه** » سورة ابراهيم آية : 5 ·

وبالتنزيل فى قوله تعالى : « **نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديــــه** » آل عمران آية 3 · وكذلك قوله تعــالى : « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** » الاسراء آية 106 · وبالبلاغ « الوحي » « **ما على الرسول الا البلاغ** » المائدة آية 99 · هذه الآيات التى وردت فيها هذه الكلمات شاهدة كلهــا ان الوحي مصدره خارجى « خــارج الرسول » وأنه لا يمكن فيه التفرقة بين المعنى واللفظ كما يفـرق بعضــهم أن المعنى من الله واللفظ من الرسول ولا يفرق فيه بين السورة والمضمون فقـد نزل معنى ولفظا من اللــه · وما كــان لرسول ان يبدل ما عليه الا أن يبلــغ وأن يتلو · والتلاوة نفسها اتباع لنموذج معين على نحو ما يقال فى المنطق مقدم وتالى · ولذلك ارتبط بالاستماع ، فى قوله تعالى : « **وانا اخترتك فاستمع لما يوحى** » طه آية 13 ·

ومن جهة أخرى فالكلام أداة المخاطبة بين الذوات ، فاختار الله ألسن أقوال الرسل فى مختلف الامم أي اختار لغتها ليتجلى لعباده واذا تعددت اللغات لتعدد المجتمعات فذلك واقع اجتماعى لا مناص منه · لان الجوهر واحد وهو القدرة البشرية على التعبير واختيار اللغة الانسانية لا يتنافى مع علو الذاة الالهية أو تعاليها · ولذلك بين القرآن أنه ما أرسل الله رسولا من الرسل الا باللغة التى يفهمها قومه مباشرة اذ وظيفة اللغة وظيفة اجتماعية ، وظيفة تواصل واخبار بدونها يصعب التواصل بالمعنى الدقيق للكلمة · وأما اللغات الاخرى فيمكن بالترجمة · فليس الرسول متلقى المعانى تلقى فى قلبه ثم يتولى التعبير عنها بل هو يقرأ النص قراءة ويحفظه ويعيه ·

كما يجرى على لسانه ويجهد نفسه بحفظه وترداده بحرص شديد حتى انه منهي عن تحريك لسانه ليعجل بقراءته ·

لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » القيامة آية 16 ·

فهو يسمتع لصوت · ان من معانى الوحي فى اللغة العربية الصوت : صوت الناس ، صوت الطيور ، صوت الذئب كما فى لسان العرب لابن منظور ـ فقد شهد صاحب الوحي على نفسه أنه لا يد له فيه · وأي مصلحة له فى أن ينسب بضاعته لغيره · واذا قيل أنه نسبه الى الله ليزداد عظمة فى علم الناس فان محمدا قد صدر منه كلام نسبه الى نفسه ، فلم اذن لم ينسبه كله الى الله ، ومن جهة أخرى فان التاريخ لا يسمح لنا أبدا أن نجعله يحقق اصلاح قومه على أساس من التمويه · فقد شهدت خصومه بصدقه وشهد له أعداؤه بأمانته وفى القرآن « **ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين**» · الحق 44

« **ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء** » الانعام 94 ·

استعملت مادة الوحي فى القرآن موجهة الى أربع مستويات من الكائنات · المعانى الاساسية التى وردت فيها المادة فى القرآن · الجماد ، الحيوان ، الانسان ، الملائكة ·

فالوحي بهذا الاعتبار ، وحي عام ووحي خاص ·

فالوحي العام يشمل الخلق نفسه ، عملية الخلق · فاذا اعتبرنا الوحي فى صورته الرمزية ، اللغوية ، فان هذه الرمزية لها أساس فى طبيعة الكائنات والاشياء · فقوانين الطبيعة ان هي الا تجل وتعبير عن ارادة الله · ألا يتيح لنا هذا فيما يقول René Guénon وهو مفكر كبير فرنسى ثم أسلم وله عدة كتب ، وسمى نفسه عبد الواحد يحيى ، ألا يتيح لنا هذا فيما يقول René Guénon

أن نثبت أن هذه الرمزية ترجع الى أصل غير بشرى ، فالله يتجلى عن طريق الخلق نفسه باثبات خارجى لارادته • ولهذا فان العالم نفسه ، هذا الكون لغة الهية بالنسبة لاولئك الذين يستطيعون فهمها فى ما يرى René Guénon نفسه •

ومن ثمة فلا عجب أن نجد الفيلسوف Bercley يقول هذا فى القرن 18 م • توفى فى سنة 1753 ، يقول : أن العالم هو اللغة التى خاطب بها الروح اللامتناهى الارواح المتناهية •

والواقع ان كل تعبير وكل صيغة فهي رمز للفكر الذى ترجم فى صورة خارجية • وهنا يمكن المقارنة بين اللغة الانسانية باعتبارها رموزا وصيغا دالة وبين الموجودات الاخرى باعتبارها كذلك انساق ذات دلالة • فالرازى يبين لنا (الرازى : متوفى سنة 606 هـ) ان مادة كـ ل م فى اللغة وفى تقاليبها الستة ما يسمى بالاشتقاق الاكبر ، من حيث الاشتقاق الاكبر ، والاصغر يدل على الشدة والقوة • ك ، ل ، م •

تدل على الشدة والقوة والتأثير فى جميع مشتقاتها وتقاليبها فهي مؤثرة تأثيرا عضويا فى السمع مثلا وتأثيرا ذهنيا ووجدانيا ، لما تسمع الكلام هذا لابد أن يحدث أثرا عضويا وذهنيا ووجدانيا ان بالسلب وان بالايجاب ، بل يذهب الى أن الكلمة تطلق على فعل الله ، فأفعاله كلماته وبهذا المعنى فسر الرازى قوله تعالى : « **لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** » الكهف آية : 109 •

كما ان القول يدل فى تقاليبه الاشتقاقية الستة على الحركة والخفة بل ان الخلق نفسه يتم بكلمة : كن الوجودية ، كان التامة لا كان الناقصة • باعتبارها تعبيرا عن ارادة وتوجها الى ايجاد ، فالوحي فى أساسه انما هو أثر من أثر الكلمة مثل الخلق ، ولذلك استعمل العهد القديم فكرة اللغة لوصف فعل الخلق فهناك أمر بالكينونة ثم امتثال هذه الكينونة • فى التوراة قال الى النور : كن فكان النور •

فالكائنات كلها فيما يذهب اليه الشهرستانى ، هذا من المتاثرين بالغزالى توفى بعد الغزالى بقليل فى سنة 548 يقول : الكائنات انما تتكون بقوله وأمره •

قال الله تعالى : **انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون** » ويرى أن الكلمات مظاهر الامر (نص) والروحانيات مظاهر الكائنات والاجسام مظاهر الروحانيات والابداع والخلق انما يبتدىء من الارواح والاجسام • الكلمات أسباب الروحانيات والروحانيات مدبرات الجسمانيات وكل الكون قائم بكلمة الله محفوظ بأمر الله • هذا النص للشهرستانى فى كتابه : نهاية الاقدام فى علم الكلام •

وفى القرآن : **ما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » الذاريات آية 56 · فسرت العبادة هنا : بالمعرفة · الا ليعبدون أي ليعرفون ·

وورد فى الاثر تناقله الكثير من المتصوفة وكثير من المتحدثين كنت كنزا مخفيا لم أعرف (هذا حديث كانه حديث قدسى) فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت اليهم فبى عرفونى. عن طريق خلقه ، الموجودات · المقصود بالمعرفة هنا : المعرفة الفطرية ·

وفى سياق هذه الرمزية فى المخلوقات يذهب الغزالى الى أن لكل شىء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته وتعداد هذا الفن أيضا مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر فى علمه هذا فى كتاب الاحياء جـ 1 ص 103 ، وفى القرآن « **وان من شىء الا يسبح بحمده · ولكن لا تفقهون تسبيحهم** » الاسراء آية 44 · فالعلاقة بين الله وبين الموجودات علاقة أمر وطاعة قول فوجود ففى القرآن : « **ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ايتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** » فصلت آية 11 · فالرازى يرى أن المراد بـ:ايتيا الى الوجود والحصول فى الواقع وهو كقوله « **كن فيكون** » ، الاتيان الحصول فى الواقع على وفق المراد وهذا الضرب من الوحي هو الخلق الذى أشارت اليه الآية « **وأوحى فى كل سماء أمرها** » وهنا ينبغى أن يتأمل الانسان ـ فى كل سماء أمرها ، القوانين والنظام الذى فى السموات هو وحى وهو مظهر من مظاهر القدرة الالهية والارادة الالهية · هنا الوحى مستعمل فى الكائنات الجامدة « **وأوحى فى كل سماء أمرها** » ، فصلت آية 12 فالوحى الى السماء هو وضع نظامها الذى تنتظم به فى وجودها فهذه القوانين فى الطبيعة وهذا النظام فى الكون الذى تدل عليه كلمة (كوسموس اليونانية) هو وحى ، وكذلك نجد الوحي فى القرآن وجه الى الارض فى قوله سبحانه : « **بأن ربك أوحى لها** » الزلزلة آية 5 · أي أوحى اليها وأمرها ووجه الامر كذلك الى الجبال « **يا جبال أوبى معه والطير** » سورة سبأ آية 10 · وجه الوحى من جهة أخرى فى القرآن الى الحيوان ·

الى النحل « **وأوحى ربك الى النحل** » سورة النحل آية 68 فسر المفسرون الوحى هنا بالالهام ، قال الزمخشرى ان الله أودعها علما بذلك أي النحل وفطنها كما أولى أولى العقول عقولهم ، « كما أعطى لاصحاب العقول عقولهم » ويرى الرازى أن الله قرر فى نفوسها هذه الاعمال العجيبة « النحل » ويذهب ابن العربى المتصوف الى القول بأن ما فطر عليه كل شىء مما لا كسب له فيه من الوحي ايضا ـ ما فطرنا عليه من الاستعدادات النفسية والعقلية هذه

الاستعدادات كلها من الوحى كالمولود يتلقى ثدى أمه · ووجه النداء أيضا الى الطير · « **ويا جبال أوّبي معه والطير** » سبأ آية ١٠ · واستعمل الوحي فى مستوى الانسان لكن لغير الانبياء والرسل « **وأوحينا الى أم موسى أنْ ارضعيه** » القصص ٧ · أم موسى لم تكن نبية وفسر فى هذا المجال أيضا بالالهام وانما اعلى درجة من درجات الوحى هذا الوحى الموجه الى الرسل والانبياء وهو الوحى بالمعنى الخاص الدقيق الذى يمثل رسالة تبلغ فالوحى هنا ليس القاء غامضا وانما هو التشريع لا يقتصر على الرسول باعتباره فردا وانما يتجاوزه بالتبليغ الى غيره من الناس ، والامر هنا هو أمر تشريعى وليس أمرا تكوينيا الامر التكوينى للموجودات بكن ولكن الامر بالوحي الخاص بالانبياء انما هو أمر تشريعى يشرع للناس الاخلاق يشرع للناس كيف يسلكون كما كان بالنسبة للموجودات الاخرى « الامر التكوينى » وهنا يرتبط الوحى باللغة ارتباطا وثيقا باعتبار أن اللغة لها وظيفة اجتماعية اخبارية مبينة كما أشرنا من قبل · « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه** » ليبين لهم اللام هنا للتعليل ليبين لهم · كيف يفهمون الوحى بدون اللغة التى يفهمونها ؟ ولذلك نجد الغزالى يفرق بين الوحى الصريح وبين غيره من ضروب الالهام التى ربما تكون ذاتية خالصة · اذ الالهام قد يكون اندفاقا باطنيا لامور غامضة من غير تعلم ولذلك يرى أن هذا الالهام وهذه الانواع من الحدس الذى يأتى للناس يخالف الوحى الصريح · ما هو الوحى الصريح اذن ؟ يعرفه الغزالى « بانه هو سماع الصوت بحاسة الاذن ، ومشاهدة الملك بحاسة البصر » يعنى أقوى الحواس تستعمل فى الوحى لضمان يقينه وصراحته · الصوت · سماع للصوت بحاسة الاذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ، والسمع والبصر هما أقوى حاستين فى المعرفة على الاطلاق ولذلك أخبر عن هذا بالنفث فى الروع ودرجات كثيرة والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة · هذه لغة الغزالى دائما · قال هذا النص ولكن لم يرد أن يتعمق فى ذلك وانصرف فهذا الجانب الحسى أيها السادة هو الذى يضمن لنا الموضوعية فى الوحى وينفى فكرة اللاشعور التى يعتمد عليها المحللون النفسانيون الذين يفسرون أنواع الالهام وأنواع الحدس والوحى ويبعد مجرد التأمل والحدس اذا أضفنا الى ذلك معرفة تاريخية موثوق بها حول سلامة شخصية الرسول العقلية والاخلاقية وليشهد خارج مجاله الشخصى وان الاعراض الجسمية التى تصحب حالة الوعي لا تكون الا فى تلك اللحظة الخاطفة واللمحة القصيرة التى يأتى فيها الوحي لشدته ولذلك ورد فى القرآن « **انا سنلقى عليك قولا ثقيلا** » (وحى شديد) المزمل آية ٥ · أما فيما عدا ذلك من لحظات حياته فهو لا تظهر

عليه أية أعراض تشير الى مرض عصبى أو نفسى ومن جهة أخرى فان الالهام ليس محددا نفسيا فهو معرفة مباشرة للموضوع قابل للتفكير أو خاض فيه التفكير فعلا وهو يمكن أن يخضع للبرهان العقلى فيما بعد وهو لا تصحبه أية ظاهرة نفسية أو سمعية أو بصرية أو عصبية ، الالهام لا ينطوى على يقين كامل اذ يحتاج الى برهان بخلاف الوحى فهو يقين فى نفس الرسول لا يشك فيه أبدا وليس النبىء مختارا فى الوحى. يقول ابن عربى ولهذا ألا يتصور المخالف اذا كان الكلام وحيا · فلا يمكن للرسول أن يخالف فان سلطانه أقوى من ان يقاوم فدل على أن الوحى أقوى سلطانا من نفس الموحى اليه من طبعه الذى هو عين نفسه لقد شهد الانبياء جميعا أن رسالتهم خارجة عن كيانهم الشخصى فهذا أرمياء نبى من أنبياء بنى اسرائيل يقول فاذا قلت لم أعد أذكره أو أتكلم باسمه (الله) وجدت فى قلبى كالنار المضطرمة المستكنة فى عظامى فأحاول أن أطفئها ولكن لا أستطيع · ففى القرآن : « **أنا اخترتك فاستمع لما يوحى**» اختيار الله ، الله اختاره وليس له الاختيار ما عليه الا ان يستمع وكذلك قوله سبحانه وتعالى : « **الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس** » الحج آية 75 وتنبه ابن خلدون الى الجانب التربوى التدريجى فى الوحى فبين : ان الوحى على الجملة فيه صعوبة وشدة ولذلك ينبغى الترفق بالموحى اليه شيئا فشيئا ·

وأتى بقول عائشة كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه (أي يفارقه) وأن جبينه ليتفصد عرقا » ـ ولذلك بدأ الوحى تدريجيا بدأ بالرؤيا الصادقة أخف أنواع الوحي ـ ثم جاءه الملك متمثلا له فى صورة انسان غطه غطا شديدا حتى بلغ منه الجهد عدة مرات ليعده للرسالة الشديدة القوية ليستعد للوحى ·

قال ابن خلدون وقد يفضى الاعتياد بالتدريج فيه شيئا فشيئا الى بعض السهولة بالقياس الى ما قبله بل انه يرجع السبب (أي ابن خلدون) فى كون السور والآيات التى نزلت عليه فى المرحلة الاولى أي الآيات التى نزلت فى مكة ـ قصيرة لماذا كانت هذه الآيات قصيرة ؟

يقول : لان الوحي شديد · كانت قصيرة حتى يتعود وكانت الآيات التى نزلت عليه فى المدينة طويلة لانه تعود على الوحى فلم يصبح ثقيلا عليه كما كان من قبل فهذه العملية التربوية هي التى تفسر لنا طول الآيات والسور التى نزلت بالمدينة وقصر السور والآيات التى نزلت بمكة ويرى ابن خلدون أيضا أن التلقى والفهم والرجوع الى المدارك البشرية ـ لان حالة الوحى كانت تخرج عن المدارك البشرية ـ كأنه فى لحظة واحدة

بل اقرب من لمح البصر لانـه ليس فى زمان بل كلها تقع جميعا فيظهـر كأنها سريعة ولذلك سميت وحيا لان الوحى فى اللغة الاسراع (هـذا كلام ابـن خلدون) .

فالوحى اذن يبدأ بالرؤيا درجـة أولى اخف ثم يكون حسيا فى اليقظـة يتدرج الحس نفسه ابتداء من السمـع وانتهاء الى البصر وهو اكثر وضوحا وقد فسر لنا النبى صلى الله عليـه وسلم كيفية الوحى حين ساله الحـارث ابن هشام بن المغيرة المخزومى المتوفى سنة 18 هـ .

قال كيف ياتيك الوحى ؟ « فقال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عنى وقد وعيت ما قال . وأحيانا يتمثل لى الملك رجـلا فيكلمنى فاعي ما يقول » .

ولبيان التدريج علق ابن خلدون على ذلك بقوله : (ان المكانة الاولى أشـد لانها مبدأ الخروج فى ذلك الاتصال من القوة الى الفعل فيعسر بعض العسـر ولذلك لما عاج فيها عن المدارك البشرية اختصت بالسمـع وصعـب ما سـواه وعندما يتكرر الوحى ويكثـر التـلقى يسهل ذلك الاتصال ، فعندما يعوج الى المدارك البشرية ياتى على جميعهـا وخصوصا الاوضح منها وهـو ادراك البصـر .

يتفق ابن عربى مع ابن خلدون فى أن بداية الوحى هي الرؤيا الصادقـة ثم الحس ويعرف الوحى بانه « انزال المعانى المجردة العقلية فى القوالـب الحسية المقيدة (اللغة) فى حضـرة الخيال فى نوم كان أو فى يقظة » يبدو أنه متاثر هنا بالفارابى فى تفسير النبوة وهو من مدركات الحس فى حضـرة المحسوس مثل قوله تعالى : « **فتمثـل لها بشرا سويا** » مريم 17 .

وفى حضرة الخيال كما أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم العلـم فى صورة اللبن وكذا أول رؤياه لان البدء عنده هو ما يناسب الحس اولا . ثـم يرتقى الى الامور المجردة الخارجة عن الحس والوحى هنا تشريع ويذهب ايضا الى أن الوحى يقع فى لمحة خاطفة فهو المفهوم الاول والافهام الاول ولا أعجب من أن يكون عين الفهم عين الافهام عيـن المفهوم منه الا ترى ان الوحى هـو السرعة ولا سرعة أسرع مما ذكرنـاه فهذا الضرب من الكلام يسمى وحيـا وأنه تجلى ذاتى فالوحى ما يسرع اثره من كلام الحق تعالى فى نفس السامع وهذا الكلام الموحى يساوقه وعي بـه وبمصدره يخلاف الالهام والالقاء فى القلب فانـه لا يـدرى من أيـن أتى (لا يعرف مصدره) والوحى كما اشرنا فيه شدة وصعوبة كعملية تلقى من جهة وكعملية تبليغ من جهة اخرى ، كيـف يبلغ للناس ما يناقض أحوالهم الاجتماعية ومعتقداتهم هذا صعب ولذا اقـتـضى الصبر قال تعالى : « **اتبع ما يوحى اليك**

واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » يونس آية 109 « **فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك**» (هذا يدل على الصعوبة) هود آية 12 ·

ولكي يطمئن أنزل عليه : « **فاستمسك بالذى أوحى اليك انك على صراط مستقيم** » سورة الزخرف آية 42 · وبسر له العمل فقال : « **فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا** » القوم اللد هم المعاندون هذه صعوبة كبيرة اجتماعية · يسره بلسانه أي أنزله بلسانه الذى يستطيع أن يخاطب به وأن يفهمه قومه لانه يخاطبهم بلسانهم سورة مريم آية 97 ·

كذلك قوله « **بلسان عربي مبين** » الشعراء آية 195 · (**وهذا لسان عربي مبين**) النحل آية 103 (**انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**) يوسف آية 2 (**قرآنا عربيا غير ذى عوج**) الزمر آية 28 (**كتاب فصلت آياته لقوم يعلمون**) فصلت آية 3 · وازال عنه الشك بقوله : (**الحق من ربك فلا تكن من الممترين**) البقرة آية 147 · (**فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فاسئل الذين يقرأون الكتاب من قبلك · لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين · ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين**) يونس 94 ، 95 · و (**نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين**) هود 120 (**ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمة الله**) الانعام آية 34 · نفى القرآن عن النبى صلى الله عليه وسلم أن يكون شاعرا أو كاهنا (**وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون**) الحاقة آية 41 ، 42 · (**وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو الا ذكر وقرآن مبين**) يس آية 69 · فليس نظم القرآن بنظم شعر وليس بسجع كسجع الكهان وما ينطوى عليه من خرافات وسخافات · ويمكن للدارس ، أيها السادة بالاضافة الى هذا أن يتتبع بالبحث مادة الوحى فى الحديث النبوى فى مواقف مختلفة سواء ما كان منه توقيفيا أو توفيقيا (أنواع الحديث) فان فيه شواهد هامة على احوال النبى حين يوحى اليه وينبغى أن نشير الى أن الحديث سواء كان قدسيا أو غير قدسى انما لفظه من كلام النبى لا من كلام الله مع اختلاف فى القدسى والراجح انه من عند النبى فى لفظه ·

أما كتب الانبياء التى وصلتنا فانه من الصعب أن نميز فيها بين كلام الله وكلام الرسل التى نسبت اليهم من حيث النص لان هذه الكتب تعرضت لتغيير مستمر ودخلت فيه العادات الاجتماعية والقوانين ، ودخلت فى هذه النصوص وتناقلتها الالسن شفويا وتغيرت على تغير الزمن وتغير المجتمعات وتغير اللغات اللغة العبرية ، اللغة اليونانية ،

اللغة الآرمية · فانه من الصعب فيها أن نميز بين كلام الله الذى أنزل وبين الكلام الذى نسب الى الرسل رسل بنى اسرائيل ولذلك افترض الكاردينال (فرانزلين) يقول : أن الله أوحى المعانى وأن الانسان وضع الصورة والاسلوب ، ولكن هذا التمييز ان هو الا نظرى فان المسيح وحده هو الذى تكلم فى نظر القديس أغسطين ولذا نجد مجلس الكنائس مجلس الفاتيكان لسنة 1870 يقول : تعتبر الكنيسة هذه الكتب مقدسة وقانونية لانها كتبت تحت تاثير الروح القدس فالله هو الذى ألفها نسبوها الى الله كي لا يتركوا سبيلا للنقد الذى وجه الى هذه الكتب ولكن التاليف هنا يحتاج الى توضيح فهل هو وضع النص لفظا ومعنى أم ان الله هو العلة والمصدر المؤثر فى نفس الرسول وان الرسول له نوع من الحرية فى هذا الالهام من حيث التعبير هذا مشكل بالنسبة للكتب المقدسة ، التى وصلتنا ويقولون ان الوحى عندهم لم ينقطع الى يومنا هذا أي واحد من الكهان من الرهبان من القديسين عندهم يستطيع أن يتلقى الوحى الى يومنا هذا وكلامه وحى ولكن هنا كيف نفرق اذن بين كلام الشاعر وكلام الفنان وبين الكلام الذى ألهم وبين كلام شخص آخر يدعى أنه يوحى اليه هذه مشكلة كبيرة بالنسبة للمسيحيين واليهود ولكنها ليست مشكلة تماما بالنسبة للقرآن لانه حفظ نصه حرفيا ولم يتغير منه حرف واحد وهذه هي المعجزة الكبرى للقرآن وأول عمل علمى وقع فى المجتمع الاسلامى هو حفظ القرآن تسجيل القرآن جمع القرآن كتابة القرآن فى مصحف هذا أول عمل علمى عظيم حفظ لنا هذا القرآن على الصورة التى أنزل بها ·

ومن ثم فان الكتب القديمة دخلت فيها تغييرات كثيرة وتشريعات · تشريع حمورابى وجدناه فى كتبهم المقدسة وكذلك أناشيد فى ديانات الفراعنة القدماء وجدت بصيغها فى هذه الكتب على انها منسوبة للانبياء والرسل وكذلك مسألة الثالوث وجد فى الديانة البراهمية قبل المسيحية ووجد فى ديانة الفراعنة (قدماء المصريين) الثالوث هناك نصوص كثيرة فى هذا ولهذا فان النص الوحيد من الكتب السماوية الذى بقى كما أنزل هو نص القرآن وهذا بوعد الله سبحانه وتعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » فهذه المشكلة اذن بالنسبة للوحى فيما يتعلق بالمسيحيين خصوصا الذين يقولون ان الوحى مستمر الى يومنا هذا يمكن على ضوء قراءة الاناجيل أن يوحى الى أحد الصالحين منهم وكلامه يعتبر وحيا وكذلك يعتبر مثلا البابا يعتبر معصوما (من العصمة) مع أن الانبياء ليسوا معصومين عندهم وهذه الفكرة ، فكرة عصمة البابا وجدت اخيرا فقط ليس لها اصل فى المسيحية القديمة وبهذا أيها السادة فقد جمعت

الآيات التى وردت فيها مادة الوحى فى القرآن وهي سبعون آية وفهرستها على حسب ورودهـا فى السور بـالترتيب موجودة هنا وكذلك جعلت لها مختصرا فى أرقام، رقم السورة واسمها ورقم الآية واذا وجدنا سورة واحدة وردت فيها آيات كثيرة فيها مادة الوحى وضعنا أرقامها بجانب السورة حتى يسهل على الباحث أن يراجع سياق تلك المادة ليفهم ماذا يقصد منها وهذه تحتاج الى دراسـة مفصلة ولكن نحن اشرنا الى المستويات الاربع التى توجهت اليها هذه المادة أي الوحى ، الجماد والحيوان والانسان ، بطبيعة الحال الانسان غير النبى يوجه اليه الالهام والانسان الذى هو نـبي يكون معنى الوحى هنا بالمعنى الفنى الدقيق الذى فيه رسالة ، ثم الملائكة هناك آيات كثيرة أيضا توجهت الى الملائكـة على انهم رسل أرسلهم الله الى البشـر يعنى الى الانبياء ، لان النبي يرسل الله اليه ملكا من الملائكة فهذا الملك رسول وبهذا اختم كلمتى هذه وأرجو أن أكون قد وفقت شيئا ما ٠ الى بيان هذا المعنى والسلام عليكم ورحمة اللـه تعـالى وبركاته ٠



محمد (صلى الله عليه وسلم) في نظــر المفكرين الغربيين

محمد الصالح الصديق

ان الزمن بتعاقب أيامه ، وتــوالى احداثه ، يزيد فى سجل التاريخ صفحة بعد صفحة ، ويضيف الى ذاكرة الانسان، خواطر وصورا جديدة .

وان تشعب الاحداث وتراكمها فى معترك الحياة ، وتزاحم الصور والخواطر على الذاكرة كفيل بان يسدل ستارا على أى حادث فيختفى ويسقط فى حساب التاريخ فلا يعود يذكر ولا يعثر له على اثر .

ولكن هناك احداثا وان كانت قليلة بالنسبة الى الاحداث التى تجد فى الحياة لا تخضع لهذا القانون ، ولا ترضخ لهذه القاعدة ، بل هى شاذة ومستثناة مــن الحكم .

ويتصدر هــذه الاحداث ميــلاد نبــى الانسانية الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم . لقد مضت أربعة عشر قرنا فى جزر التاريخ ومده ، وصروف الدهــر وخطوبه ، استعمرت خلال هذه الاحقاب شعوب وتحررت شعوب ، وقامت دول ، وزالت دول ، وقويت امم وضعفت امم ، وظهرت مذاهب واختفت مذاهــب ، وانتصرت جيوش وانهزمــت جيوش ، وتهاوت عروش وقامت عروش . وميلاد محمد صلى الله عليه وسلم كوكب يتألق فى سماء الحياة ، ومشعل لا يخبو عــلى ساحل الوجود ، وعلم يخفق على شاهق التاريخ .

فكلما أهل شهر ربيع الاول أعلن للبشرية عن ذكرى ميلاد هــذا النبى الكريم . فترى مئات الملايين من المسلمين فى انحاء المعمورة وفى مختلف القارات الخمس يبتهجون بمقدم هذه الذكرى التاريخية الغالية ويستعدون لاقامــة الحفلات المختلفة ، فى الشكل والنوع ، ولكنها جميعها متحدة المصدر والباعث

وهو حب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومتفقة الهدف والغاية ، وهو اكـرام الرسول وتعظيمه وتبجيله ٠

وكلما أهل هذا الشهر اهتزت نفوس ، وتفتحت قلـوب ، وانتعشت أفكـار ، وتأهبت عقول واقلام لدراسة شخصية الرسول العظيمة فتراها تبحث وتحلل وتستجلي وتستنبط ، وتنقب وتعلـل وكلما فكر المفكرون ، وبحث الباحثون ، وكتب الكاتبون ظهرت آفاق بعد آفاق ، وآثار بعد آثار ، ومجاهل بعد مجاهل ٠٠٠ وظهر للانسان مهما بلغ عقله وقلمه من قدرة على التفكير والابداع انه امام علم شامخ دونه القول والبيان ، أو أمـام خضم هائل ، عميق الغور ، بعيد الارجاء تنقطع انفاسه ، وتكل عزماته ، ويضيق بيانه عن التعبير عن حقيقته ٠

أليس صاحب الذكرى هو المثـل الكامل في تاريخ البشرية ، والرمـز الخالد لدعوة الحق والخير والفضيلة ٠

أليس صاحب الذكرى هو الذى أرسله الله ليضع على وجه هذه الارض حياة مثالية فيها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ؟

أليس صاحب الذكرى هو الذى فجر في الارض ينابيع الحياة ، وأشعـل مصابيح الهدى ، وأرسى قواعد الحق ، وجعل للانسان قيمة ووزنا ، وللحياة اعتبارا ومعنى ؟

أليس صاحب الذكرى هو الذى نـزل عليه اعظم كتاب ، وأكرمه الله بأعظم نبوة ، وفضله باعظم رسالة ستظل منبع الحياة ، وقوام الحياة ، ما دامت الحياة ؟

ورسول البشرية ـ فى نظرى ـ يشبه هذا الوجود الضخم الهائل ، الزاخـر بالكنـوز والاسرار فمنذ أن وجـد الانسان وهو ينظر ويتأمل ، ويـدرس ويبحث مدفوعا بحب الاطلاع وكلمـا امعن فى البحث والنظـر والدراسة ، وتغلغل فى أعماق الكون ، ووقف على أسراره انكشفت له آفاق رحبة ، وعوالم واسعة ، وأسرار وحقائق تفوق الوصف والتقدير ٠ وأدرك عظمة الكون بصورة أجلى وأوضح ، وتفاءل أمام الحقيقـة الضخمة وتلاشى غروره وادعاؤه ٠

وهكذا نبى الاسلام صلى الله عليـه وسلم ٠٠٠ فمنذ أربعـة عشر قرنـا والعلماء والمفكرون والباحثون يجدون فى الكشف عن خصائص شخصيته العظيمة، ومكانته الفذة ، وقيادتـه الحكيمـة ، وشريعته الخالدة ، ومع تحقيقهم لغايات بعيدة فى الموضوع فما يزال الطريـق طويلا لا نهاية له ، والجهاد شاقا يتقاضى عزما وصبرا ومثابرة ٠

واذا كان بعض الباحثين المسلمـين ـ نظريا ـ والاجانب قد حرموا مـن

ادراك عظمة هذا الرجل ، بالرغم من خوضهم فى البحث عنها ، لضعف فى النظر ، وقصور فى العقل ، وخلل فى الادراك ، وانحراف فى الميدان ، وعقدة فى النفس وانطماس فى الفطـــرة ، وفساد فى المزاج فان مثلهم فى ذلك ـ كما يقول الشاعر الكبير جلال الدين الرومى ـ كمثل ابليس وابى جهل :

ان الظواهر اضلت ابليس فلم ير من جوهر آدم الا الماء والطين ، واضلت الظواهر ابا جهل حين نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على انه محمد ابن عبد الله القرشى ولم ير فيه سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم •

فما ذنب الشمس اذا لم تستطع العين رؤيتها ؟ وما ذنب الطعم اذا لم يدرك الفم مذاقه الحلو ؟

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفـم طعـم الماء مـن سقـم

واذا اعجـب بالرجـل قومـه واصدقاؤه ومحضوه الحب والتقدير واحلوه مكانة فذة بينهم فانه لا شك رجل عظيم ، ولكن اذا اعجب مع الاقارب والاصدقاء أقوام آخرون لا يمتون اليه بصلة ، فهو لا شك فى قمة العظمة •

فالمعجبون بالرسول اعجابا يفـوق كل وصف ، والمغرمون بحبه غرامـا يتجاوز كل حد ، هـــم المؤمنون به ، والتابعون لدينه ، والسالكون لنهجه •

ولكن هذا الاعجـــاب تجاوزهم الى أجانب لا يؤمنون به ، ولا يدينون بدينه ، ولا يمتون اليه الا بصلـــة الاعجـــاب والتقدير ، لشخصيته العظيمة ، ودينـه القويم ، وللكتاب السماوى المنزل عليه، فترفعوا عن التعصب ، وتساموا عـن مستوى الطغام المناكيد الذين يشوهون الحقائق بالخداع والدهاء والوهـــم والحيل الكاذبة ، والمؤامرات المضللة •

فكتبوا عن الرسول وعـــن القـرآن الكريم ، والاسلام والمسلمين ، فكانت كتاباتهم وابحاثهم علمية خالصة ، صادقة هادفة ، منطقية بريئة ، لا حقد فيهـا ولا تعصب ، ولا كذب ولا تضليـل ، ولا تحريف ولا تشويه، ولا طمع ولا رياء•

فهؤلاء المنصفون من الاجانب عظمـاء أبطال فى نظرى ، ونظر كل منصف ، لانهم أقوياء فى مواقفهم تجاه الحـق ، احرار فى تفكيرهم ، منصفون فى احكامهم امناء على رسالتهم فى الحياة كمفكرين وكاتبـين •

واننا لنرى احسن ما نساهم به فى الاحتفال بهذه الذكرى الخالدة لميلاد نبى البشر عليه الصلاة والسلام ، أن نقدم امثلة من هؤلاء المفكرين الاعلام فى صور

بليغة معبرة تعكس فى عمق واخلاص وصدق ، عظمة الرسول وعظمة الاسلام وعظمة القرآن عند هؤلاء ·

ولكى يستبين المرء عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعظمة دعوته الرشيدة الهادية ، والانقلاب الجذرى الهائل ، الذى أحدثه فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فضلا عما احدثه من تغيير جذرى فى سلوك الفرد ـ عليه ان يقف على حالة العالم قبل ميلاده عليه السلام :

كتب فى هذا الموضوع العالم الشهير « جون لابوم » يقول :

« كان العالم قبل مولد هذا النبى مملوءا بغيوم الاضطرابات والفتن والقلاقل ، ففى انجليترا كان الانجلو ، يتنازعون السكسونيين ، وفى فرنسا كان أولاد « كلوفيس » متخاصمين متحاربين ·

اما فى ايطاليا فكان اسم الرومان وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد هيبته القديمة وكانت روما وهى رأس ذلك التمثال المتهشم تترنح وتضطرب كلما ألم بها طائفة من ذكريات عظمتها الراحلة · اما فى افريقيا فكان اليونانيون والرومانيون انفسهم وهم اخلاط من عساكر وتجار وحكام دائبين على امتصاص دم مصر ساعين فى جعلها كالجثة الهامدة لا حس فيها ولا حركة » · هـ

واستطرد العالم الفرنسى (جون لابوم) يقول عن العرب :

« وكان العرب مغرمين بشرب الراح ولعب الميسر، وكان من عادتهم ان يتزوج الرجل من النساء بقدر ما تسمح به أحواله المعيشية ··· وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه ·

وكانت الارملة تعد من ضمن ميراث زوجها ·

وكانت عندهم متاعا يقتنى ، وسلعة تباع وتشترى ·

ولا يهم الرجل ما يصيب الاسرة من تفكك وانحلال وانهيار ، وكان من تقاليدهم البغيضة وأد البنات ، وكان الرجل اذا بشر بالانثى توارى عن أهله حياء » · هـ

اما العالم الانجليزى الشهير « بوسورث سميث » فانه وصف العرب قبل الدعوة المحمدية بأنهم ماديون لا يعتقدون فى الحياة بعد الموت، ولا يشعرون بمسؤولية أعمالهم ، وكانوا يؤمنون بالارواح الشريرة وينسبون اليها كل ما ينتابهم من علل واسقام ، وكان الجهل منتشرا بينهم ، وكانت الرذيلة متفشية الى أبعد حد حتى انعدمت كل رابطة فى البلاد ، اما أشعارهم فكانت مليئة بالفحش

والاستهتار ، وشاعت الفاحشة ولم يكن هناك رادع من نظام أو ضمير » ٠ هـ

اما العالم الباحث السيد « وليم ميور » فانه قد تناول العرب قبل البعثة المحمدية من جانب آخر فقال :

« لقد كانت عبادة الاصنام متأصلة في نفوسهم وتجرى فى عروقهم ٠ بعد ان ملأت الخرافات والاوهام والخزعبلات فراغ عقولهم ٠

فكان لذلك اثر بالغ فى كل أعمالهم وتصرفاتهم ٠٠٠

وكانت قبائلهم متنافرة ٠٠٠ لا تعرف الهدوء ، والاستقرار ٠

وكثيرا ما تدخل فى حرب طاحنة مع القبائل المجاورة بلا رحمة ولا هوادة حتى القبائل التى كانت تربطها رباط القرابة والمنفعة كانت تتقاتل لاتفه الاسباب » ٠ هـ

أما الكاتب الكبير (ج٠ هـ) دينسون صاحب المؤلف القيم (العواطف كأساس للحضارة) فقد وصف الفترة المظلمة التى سبقت شروق شمس الاسلام وبعثة خاتم الانبياء ثم قال :

« أما النظم التى خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدينة كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالم كله ، واقفة تترنح وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب ، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه » ٠ هـ

وظل العالم بما فيه بلاد العرب يعانى الضعف والخوار والتفكك والانحلال حتى جاء نبى الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم فبعث الحياة من جديد ، وغير مجرى التاريخ فى العالم بفضل دينه وكتابه الخالد المعجز، فاذا بالامبراطورية الاسلامية تمتد فى أمد قصير الى الهند مشرقا والى بلاد اسبانيا غربا حتى قال المستر «سباستيان شارلى» كلمته المأثورة الخالدة :

« لقد مات الشرق بموت (دارا) وعادت اليه الحياة على يد محمد » ٠ هـ

و (دارا) هو ملك الفرس الذى حاربه الاسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وقهره واحتل بلاده التى كانت أقوى امم الشرق وقتئذ ٠

وفى الطفرة الهائلة المدهشة التى حدثت في حياة العرب بفضل محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى التحول الجذرى الخارق الذى تم بفضل القرآن الكريم ، كتب المؤرخ والفيلسوف الانجليزى العظيم (توماس كارلايل) يقول :

« لقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور واحيا به أمة هامدة وما كانت هذه الامة الا فئة جوالة فى الصحـراء الهيجاء ، خاملة فقيرة تجوب الفلوات ومنذ بدأ العالم لا يسمع لها صوتا ولا تحس منها حركة فارسل الله لهم نبيا بكلمة من عنده ورسالة مـن قبلـه .

فاذا بالخمول قد استحـال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعف قوة ، واذا بالضوء الخافت قد اضحى نورا وهاجـا يملأ الانحاء ويعم الارجاء .

وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى امتدت دولة العرب الى الهند والى بلاد الاندلس وظلت هذه الدولة تشرق حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الحق والمروءة والعدل والشهامة والنبل » . هـ

اما الكاتـب العبقرى النابغة (ول ديورانت) صاحب الموسوعة التاريخية الرائعة (قصة الحضارة) فقد أوضح ما كان للحضارة الاسلامية المحمدية من اثر فى حضارة أوروبا والعالم أجمع .

واشاد فى اعجاب وتقدير بفضل محمد الذى فجر الحيـاة المثالية فى العالـم ثم قال :

« اذا ما حكمنا على العظمة بما كـان للعظيم من اثر فى الناس قلنا ان محمدا كان فى أعظم عظماء التاريخ فقد أخذ على نفسه ان يرفـع المستوى الروحى والاخلاقى لشعب القت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء ، وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يزاحمه فيه اى مصلح آخر فى التاريخ كله وقل ان نجد انسانا غيره حقـق ما كان يحلم به من اصلاح » . هـ

تلك طائفة قليلة من آراء اعلام الفكر الغربى فى عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والتغيير الجذرى المدهش الذى تم على يديه فى أمد وجيز .

✡ ✡ ✡

من أبرز ما آثار اعجاب المفكريـن الغربيين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وتناولوه بالدراسة والبحث ، شخصيته العظيمة الفذة التى تجاوزت كل حدود الادب والاخلاق المتعارفـة عنـد ذوى النفوس الكريمة ، والهمم العاليـة ، والطباع المهذبة الاصيلة .

فالبرغم من أنه ولد فى بيئة مفككة متخاذلة ، يسودها الجهل وتحكمها العصبية وتستبد بها أخلاق سيئة وعادات قبيحة ـ فانه كان أستاذ الانسانية ، ورائـد البشرية ، ومنبع الفضائل والاخـلاق ، كان لا يتكلم الا فيما يرجو خيره لا ثوابه ولا يواجه أحدا بما يكره ، وكان دائم البشر لـين الجانب ، يحتمل الجفوة فى

المنطق ، يساير الفطرة ، ويعيش فى ظلال الانسانية فهو بتواضعه الجم وتقشفه فى جميع مظاهر الحياة كالشمس قريبة من كل أحد : بضوئها ودفئها ، ولكنها فى حقيقتها بعيدة عالية ٠

وقد كتب الباحث السيد (توماس كاريلال) معجبا بهذه الشخصية المحمدية العالية التى استطاع بها ان يملك القلوب والعقول فقال :

« لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ٠

فكان طعامه عادة الخبز والماء ٠

وكثيرا ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار ٠ فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟

فحبذا محمد رجل متقشف حسن الملبس والمآكل ٠

مجتهد فى الله ٠

دائب فى نشر دين الله غير طامح الى ما يطمح اليه غيره لا من رتبة أو دولة أو سلطان) ٠ هـ

واضاف الفيلسوف (كارلايل) يقول : «ولو كان غير ذلك لما استطاع ان يلاقى من العرب الغلاظ احتراما واجلالا واكبارا ، ولما استطاع ان يقودهم ويعاشرهم معظم وقته ، ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون حوله ، يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله ؟

لقد كان فى قلوب هؤلاء العرب جفاء وغلظة وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم ٠

لهذا كان من يقدر على ترويضهم وتذليلهم بطلا (وايم الله) ، ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لارادته ولما انقادوا لمشيئته» ٠هـ

وفى نفس الموضوع كتب الدكتور (ريكورد الفارير كوستيل) الاستاذ بجامعة المكسيك بعد ان أعلن اسلامه وكان قد وقف نفسه مدة طويلة لدراسة الاسلام وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كتب يقول :

« ان اعجابى برسول الله صلى الله عليه وسلم فات الخيال فقد أيقنت بدء دراستى بشخصية الرسول المختار أن الدين الاسلامى هو خير الاديان وان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذا خلقه الذى رباه الله عليه كفيل أن يجذب بخلقه الكريم واخلاقه الحميدة كل العقول بمذاهبها المختلفة وأجناسها المتعددة ٠

وان نبى الله المختار شخصية فريدة فى نوعها فى هذا الوجود لانها اقامت الدنيا واقعدتها بثورة مازالت حتى اليوم

بدليل الكثرة اليومية الهائلة التى تدخل فى الدين الاسلامى عن طريقه وعلى طريق الحق الذى جعله الله كريما بها فاعز بها الاسلام » · هـ

اما العالم الكبير المستر (لين بول) فقد كتب رسالة قيمة دافع فيها ببطولة وصدق ، ونزاهة واخلاص عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فكانت صورة ناطقة بعظمته وعبقريته ، وصاعقة من نار على رؤوس الحاقدين على الاسلام الذين يرجون الشبه والاباطيل ·

وقد جاء فى هذه الرسالة ما يلى :

« ان كثيرا من كتاب التراجم والسير الاوروبيين الذين تناولوا الكلام عن سيرة محمد لم يتعففوا عن أن يشوهوا هذه السيرة بما ادخلوه عليها من افتراءات وادعاءات، كاتهامهم له بالقسوة وارتكاب الموبقات والانهماك فى الشهوات » · هـ

واسترسل الكاتب (لين بول) يقول : أما انه كان متصفا بالقسوة فتهمة غير جديرة بالاعتبار ·

ذلك اننا اذا رجعنا الى التاريخ وحكمناه فى هذه المسألة تبين لنا ان القسوة لم تكن قط من اخلاق محمد ·

بدليل معاملته للاسرى بعد موقعة بدر وتسامحه مع أعدائه وصبره على أذاهم ·

وعطفه على الاطفال المرضى وحقنه للدماء ·

وعفوه عن أولئك الذين قضوا فى محاربته ثمانية عشر عاما اظهروا له فيها صنوف العداء وأذاقوه فى خلالها كل أنواع الجور والظلم والاضطهاد ···

ولقد نال محمد تقدير العالم أجمع واعدائه بنوع خاص عندما ضرب للناس مثلا فى مكارم الاخلاق وأطلق سراح عشرة آلاف أسير كانوا فى يوم من الايام يعملون على قتله والفتك به وايراده هو أصحابه مورد الهلاك ولما استتب له الامن وخضعت شبه جزيرة العرب له ·

لم يحاول ان يكره أحدا على اعتناق الاسلام » · هـ

وتناول الكاتب العبقرى (أكسير وليم ميور) حياة محمد صلى الله عليه وسلم بالبحث والتحليل من جوانب مختلفة وأبدع فيما كتب ·

ووهب عقله وقلبه وعاطفته للحق جبا للانصاف والنزاهة ·

وتحدث بالخصوص عن شخصية الرسول الاخلاقية الفريدة التى كانت من أكبر العوامل على نجاح دعوته ·

وارساء دعائم دولته الدنيوية والدينية.

مما جعله فى غنى عن القوة ، لانه كان يخاطب العقل ويهدى القلب ، والعقل لا سلطان للقوة عليهما .

ومما قاله الكاتب :

« ومن صفاته الجديرة بالتنويه :

الرقة والاحترام اللذان كان يعامل بهما اتباعه حتى اقلهم شأنا .

فالتواضع والرأفة والاناة وانكار الذات والسماحة والسخاء تغلغلت فى نفسه فاحبه كل من حوله » . هـ

واضاف (السير وليم ميور) يقول :

وكان – محمد – يكره ان يقول لا ، فاذا لم يتمكن من ان يجيب الطالب لسؤاله فضل السكوت على الجواب ، وقد قالت عنه عائشة : انه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان اذا أساءه شيء تبيناه فى أسارير وجهه أكثر من كلامه ولم يمس أحدا بالضرر الا فى سبيل الله . ويؤثر عنه انه كان لا يمتنع عن اجابة دعوة الى بيت مهما كان رب البيت .

واذا جلس الى صاحبه لم يرفع نحوه ركبتيه تشامخا منه وكبرا ، وكانت له تلك الخلة النادرة التى يجعل بها كل فرد من صحابته يظن أنه المفضل المختار » . هـ

والكثير من الفلاسفة الغربيين الذين اهتموا بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ادهشهم تواضعه وبعده عن الادعاء والتظاهر والفخر والرياء .

ولنرهف آذاننا ونستمع الى توماس كارلايل وهو يقول :

« أحب محمد لبراءة طبعه من الرياء والتصنع .

ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأى لا يعتمد الا على نفسه ، ولا يدعى ما ليس فيه ، ولم يكن متكبرا ولا ذليلا ، فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله ، يخاطب بقوله الحر المبين أكاسرة العجم وقياصرة الروم ، يرشدهم الى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة » . هـ

واستمر كارلايل يقول :

« وكان محمد اذ سئل أن يأتى بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة .

انظروا الى هذه الارض ... أليست من عجائب صنع الله ؟ أليست آية من آيات عظمته ؟ » ويزعم المتعصبون ان محمدا لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان . لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس المملوء رحمة وبرا وحنانا وخيرا ونورا وحكمة .

أفكار غير الطمع الدنوى واهـداف سامية غير طلب الجاه والسلطان » ٠ هـ

وتأثــر العالم الباحث (بوسورث سميث) هو الآخر بشخصية الرسول النبيلة المتواضعة القوية ٠

التى كونت أمة تعد مثلا عاليا فى علو النفس ، وصفاء الطبع ، واقامة العدل، والخضوع للحق بالحق ، فكتب يقول :

« ان أعجب العجائب فى حياة محمد أنه لم يدع قط القدرة على اتيان المعجزات فايما شىء قال انه يستطيع ان يفعله رآه اتباعه وهو يفعله ، ولم ينسب أحد منهم اليه معجزة من المعجزات ٠

بل ان محمدا نفسه حرص دائما على ان ينكر قدرته على اتيانها ٠

أى دليل له مثل هــذه القوة عـلى الاخلاص يمكن ان يسوقه انسان ! !

لقد ظل محمد الى آخر حياته وليس له لقب يعتز به الا أنه نبى مرسل مــن عند الله دون أن يكون له جيش قائم ولا دخل ثابت ٠

واذا كان لاى انسان أن يدعى الحق فى تلقى الوحى من الله فانه محمد ، وانه لحدث فريد فى التاريخ ان يؤسس محمد شعبا وامبراطورية ودينا » ٠ هـ

وتحدث الكاتب الكبير (جرجس سال) فى كتابه « مقالة فى الاسلام » فقال :

« ان محمدا رسول الاسلام كان صالح الاخلاق ولم يكن على الشر والخبث كما يصفه به خصومه ٠ ثم مضى يعرض كلاما له دلالاته البعيدة فى الموضوع وقال :

قال (جيبون) : (عقيدة محمد خالصة ليس فيها عبس ولا ابهام والقرآن شاهد عدل وبرهان قاطع على وحدانية الله عز وجل ، لقد هجر نبى مكة عبادة الاصنام والبشر ، سواء أكانوا من النجوم ، أم من الكواكب السيارة ، أم من غير ذلك على القاعدة العلمية الصحيحة وهى :

« ان كل قابل للنهى لابد أن يبيد ويفنى ، وكل مولود لابد أن يموت ، وكل بازغ لابد له من أفول » ٠ هـ

وبحث العالم الشهــير البروفيسور (ليك) حقيقة الاسلام وطبيعته وأهميته العظمى فى حيــاة الانسان ، وخصص كلاما طويلا هاما لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيه :

« حياة محمد التاريخية لا يمكن ان توصف باحسن مما وصفه الله نفسه بألفاظ قليلة بين فيها خلـق النبى حيث قال : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » ان يتيم آمنة العظيم قد برهن بنفسه على انه أعظم الرحمات لكل ضعيف ولكل محتاج الى المساعدة ٠

كان محمد رحمة حقيقية لليتامى وأبناءالسبيل والمنكوبين والمدينين وجميع الفقراء والعمال ذوى الكد والعناء » ٠ هـ

وكتب المفكر الباحث « لورد هدلى » بمناسبة ذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسلم سنة 1351 هـ رسالة قيمة نبعت من عقل حر ، وقلب نقى ، ونفس سامية، واحساس قوى صادق ٠

ملكه حب محمد صلى الله عليه وسلم والاعجاب به ، مما دفعه الى اعتناق الاسلام بعد مدة قصيرة من كتابة الرسالة وقد جاء عند حديثه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما يلى :

« وقد كان محمد غيورا ومتحمسا ٠

وكلنا نعرف أن الغيرة والحماسة انما هما للعالم بمثابة الملح للارض ويحفظها من التعفن والفساد ٠

وقد يستاء استعمال الحماسة حيث يلجأ اليها بعض الناس لاغراض غير شريفة ، وفى مواطن لا تكون فيها الحماسة مقبولة ولا مرغوبا فيها ، ولكن غيرة محمد لم تكن من هذا النوع وانما كانت لغرض نبيل ومعنى سام ٠

فهو لم يتحمس الا عندما يكون ذلك واجبا مفروضا لا مفر منه الالهاب العالم ٠٠٠ فقد كان رسولا من الله ، وكان يريد ان يؤدى رسالته على أكمل وجه كما انه لم ينس فى يوم من الايام كيانه أو الغرض الذى بعث من أجله »٠هـ

وكتب شاعر فرنسا الكبير (لامارتين) دراسة قيمة وافية عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حلل فيها شخصيته العظيمة ، وابعاد رسالته السماوية الخالدة ، وسجل اعجابه به ، وتقديره له ، وقال بالخصوص :

« أترون محمدا كان أخ خداع وكذب ٠٠؟ كلا ٠ لم يكن خادعا ولا كاذبا بعد ما عرفنا تاريخه ودرسنا حياته ، فالكذب والخداع والتدليس صفات تتولد من نفاق العقيدة ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق » ٠ هـ

وتحدث فى موضع آخر يقول : « ان حياة محمد ، وقوة تأمله وتفكيره ، وجهاده،ووثبته على خرافات أمته،وجاهلية شعبه،وخزعبلات قبيلته،وشهامته،وجرأته، وبأسه ، وثباته ثلاثة عشر عاما يدعو دعوته فى وسط أعدائه ، وتقبله سخرية الساخرين وهزأه بهزء الهازئين ، وحميته فى نشر رسالته ، وتوافره على السعى فى اظهار دعوته ، ووثوقه بالنجاح ، وايمانه بالفوز ، ورباطة جأشه فى الهزائم ، وتطلعه الى اعلان كلمة الله وتأسيس العقيدة الاسلامية ، ونجاح

دينه بعد موته ، كل ذلك أدلة على انه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل . وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد الى الحياة فكرة عظيمة ، وحجة قائمة ، ومبدأ مزدوجا ، وهو وحدانية الله ، وتجرد ذاته عن المادة . الاولى تدل على من هو الله ، والثانية تنفى ما الصقه الوثنيون به . الاولى حطمت آلهة كاذبة ، والاخرى فتحت طريقا الى الفكر والتأمل » . هـ

اما القس (لوزون) الفرنساوى الشهير فقد كتب يقول تحت عنوان « ليس محمد بنبى العرب وحدهم بل هو أفضل نبى قال بوحدانية الله » :

« وليس محمد نبى العرب وحدهم بل هو أيضا أفضل نبى قال بوحدانية الله تعالى ، فان دين موسى وان كان من الاديان التى أساسها الوحدانية الا انه كان قوميا محضا وخاصا ببنى اسرائيل ولم يكن التعبد عليه ممكنا الا فى بيت المقدس .

واما محمد فقد نشر دينه بقاعدتيه الاساسيتين : وهما الوحدانية والبعث

وقد أعلنه لعموم البشر فى أنحاء المسكونة

وأنه لعمل عظيم يتعلق بالانسانية جملة وتفصيلا عند من يدرك غايته .

فالديانة المحمدية اذن مع كونها من بعض الوجوه خاصة بالعرب وبعصر ظهورها ــ هى للنوع الانسانى .

الديانة العامة الخالدة » . هـ

☆ ☆ ☆

لقد تم لنبى الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم فى أمد وجيز نجاح باهر مدهش لم يعهد له نظير فى تاريخ الانسانية . فقد كون خلال مدة قصيرة أمة صغيرة العدد ، ولكنها راسخة العقيدة قوية الايمان ، عظيمة الكفاح .

وكان يواجه بايمانها وأخلاقها وطاقاتها وعقولها وشريعتها ومبادئها وعددها ، ليعلن للعالم أن لا اله الا الله، وان محمدا رسول الله .

وبعد ليل مظلم طويل من الجهاد الحوارى والفكرى ، ومن بناء العقول والارواح، والضمائر والطباع، والنفوس والاخلاق ، تحققت لنبى الاسلام معجزة البعث والاحياء ، انه لم يحيى فردا كما فعل أخوه عيسى عليه السلام وانما احيا أمة بل أحيا العالم أجمع .

وهذه المعجزة الباهرة قد ادهشت علماء الغرب وفلاسفته ولم يسعهم الا ان يشيدوا بها فى اعجاب بالغ ، ويقفوا على التغنى بها والتنويه ، افكارهم وألسنتهم وأقلامهم ، فهذا العالم الشهير (سير وليم موير)

يقول فى كتابه عن سيرة الرسول عليه السلام :

« امتاز محمد بوضوح كلامه ، ويسر دينه ، وانه أتم من الاعمال ما يدهش الالباب ، فلم يشهد التاريخ مصلحا ايقظ النفوس ، واحيا الاخلاق ، ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل محمد » • هـ

وراع شاعر فرنسا الكبير لامارتين عظمة محمد صلى الله عليه وسلم وما حققه من تقدم ورقى فى المجال الدينى والدنيوى بكيفية عجيبة مدهشة فكتب يقول :

« لقد كان محمد فيلسوفا ، وخطيبا ، ومشرعا ، وقائدا ، وفاتح فكر ، وناشر عقائد تتفق مع الذهن ، (ومنشىء عشرين دولة فى الارض) وفاتح دولة فى السماء من الناحية الروحية •

أى رجل قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعتها لوزن العظمة الانسانية كان أعظم منه ؟ » • هـ

واستمر الشاعر الفرنسى الكبير يصور عظمة الرسول على شواهق التاريخ وآفاق الانسانية ، وقمم المجد الصادق يقول :

لو كان مقياس العظمة هو اصلاح شعب متدهور فمن ذا يتطاول الى مكان محمد ؟

لقد سما بأمة متدهورة ورفعها الى قمة المجد •

وجعلها مشعلا للمدنية وموردا للعلم والعرفان •

لقد كان مقياس العظمة فى توحيد البشرية المفككة الاوصال فمن أجدر بهذه العظمة من محمد الذى جمع شمل العرب وجعلهم أمة عظيمة وأمبراطورية شائعة ؟ ولو كان مقياس العظمة هو اقامة حكم السماء على الارض فمن ذا الذى ينافس محمدا وقد محا مظاهر ألوثنية ليقيم عبادة الخالق وحده ؟ ولو قسنا العظمة بالنصر الحربى والنفوذ والسلطان ، فمن يدانيه من هذا المضمار ؟ لقد كان يتيما لا حول له ولا قوة فأصبح ملكا عظيما ومؤسسا لامبراطورية دامت ثلاثة عشر قرنا من الزمان •

ولو كان مقياس العظمة هو الاثر الذى يخلده فى النفوس على مر الاجيال فها هو محمد يمجده أربعمائة مليون من الناس فى مختلف البقاع ، مع تباين أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم » • هـ

ويقول العالم الامريكى الكبير « ول دورانت » مؤلف موسوعة « تاريخ الحضارة الانسانية » بعد أن تحدث بتفصيل وتحليل عن تاريخ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

والحق أن هذا الحادث الجلل – يريد النبي وما حققه من معجزات على مستوى الدين والدنيا – الـذى تمخضت عنه جزيرة العرب ، والذى اعقبه استلاؤها على نصف عالم البحر الابيض المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه ، لهو أعجب الظواهـر الاجتماعيـة في العصـور الوسطى » . هـ

ثم قال (دول دورانت) أو اذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثـر في الناس ، قلنا ان محمدا من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والاخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجذب الصحراء وقد نجح في تحقيـق هذا الغرض نجاحا لـم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله .

وقل أن نجد انسانا غيره حقق كـل ما كان يحلم به واستطاع في جيل واحد ان ينشىء دولة عظيمـة وأن يبقى الى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم » . هـ

اما الاستـاذ الامريـكى الكبـير (ستودارد) صاحب الكتاب الشهـير (حاضر العالم الاسلامي) فانه هو الآخر أبدى اعجابه الكبير من انتشار الاسلام في مختلف انحاء الدنيا بصفة سريعـة ، ومن ظهوره في أرض صحراوية جرداء جدباء ، وفى أمة متخلفة متدهورة . وقال بالخصوص :

« كاد يكون نبأ نشوء الاسلام ، النبأ الاعجب الذى دون في تاريخ الانسان ، ظهر الاسلام في أمة كانت من قبل ذلك المهد متضعضعة الكيان وبلاد منحطـة الشأن ، فلم يمض على ظهـوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الارض ممزقا ممالك عالية الذرى ، مترامية الاطراف ، وهادما أديانا قديمة كرت عليها الحقب والاجيال ، ومغيرا ما بنفوس الامـم والاقوام ، وبانيا عالما حديثا متراص الاركان هو عالم الاسلام ، وكلما زدنا استقصاء باحثين في سر تقدم الاسلام وتعاليمه زادنا ذلك العجب العجاب بهذا . فارتددنا عنه باطراف حاسرة » . هـ

وبعد أن لاحظ (ستودارد) باهتمام بالغ واعجاب لا حد له ما كانت تلاقيه الاديان العظمى من تأييد ومؤازرة من قبل الملوك والسلاطين الذيـن ينتحلون تلك الاديان ، قال في روعة من ديـن محمد صلى الله عليه وسلم :

« ... انما الامر ليس كذلك بالنسبة الى الاسلام .

الاسلام الذى نشأ في بلاد صحروية .

تجوب فيها شتى القبائل الرحالة ، التى لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة فى التاريخ ، فسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته فى جهات الارض مجتازا أفدح الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون له من الامم الاخرى عون يذكر ، ولا آزر مشدود ·

وعلى شدة هذه المكاره فقد نعد الاسلام نصرا مبينا عجيبا ، اذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الاسلام خفاقة من (البراندى) حتى (هملايا) ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط افريقيا » · هـ

وترددت بين الغربيين شبهة تحمس لها كثير من الباحثين وجندوا لها عقولهم واقلامهم وكتبوا عنها ابحاثا ومقالات ومؤلفات ·

بعضهم أنصف الاسلام ونبيه ودافع عن الحق دفاعا بطوليا صادقا ·

وبعضهم هاجم الاسلام ونبيه هجوما شديدا عنيفا بدافع من الحقد والبغض والكراهية ·

وهذه الشبهة المغرضة السافرة هى أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يضع السيف أمامه وهو ينشر الاسلام ، وأن الاسلام دين سيف وحرب وقتال ، ودين عنف وشدة وقساوة لم ينتشر الا بالسيف والعنف ·

والحقيقة الناصعة التى يشهد لها التاريخ ، ويؤكدها الواقع ، هى أن الاسلام قام على الحجة والبرهان ، وانتشر بالاقناع والاقتناع ·

وكانت الدعوة المحمدية قوية فى غير عنف ، ولينة فى غير ضعف ·

ومن أجل ذلك كانت سريعة النفوذ الى القلوب، والتغلغل فى أعماق النفوس.

وما يقال من أن الاسلام دين ارهاب واكراه ، وتقتيل ، قول باطل لا يقول به ولا يركن اليه الا الجاهل بتاريخ الاسلام وطبيعة الاسلام وأهداف الاسلام ودستور الاسلام ، أو مغرض متعصب همه تشويه الحق واطفاء نوره ·

وممن تشيعوا للحق ، ووقفوا ضد هذه المزاعم الكاذبة ، والافتراءات الباطلة ، الفيلسوف الانجليزى (توماس كارلايل) الذى كتب يقول : « لجأت شيعة محمد الى الفتح ، وهو سبب لا حرج فيه فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشهم المظفرة التى سارت سير الصواعق الى الشام وشمال افريقيا ، وعبرت البحار ، الا أنهم مع ذلك لم يتركوا أثرا للظلم والتعسف في طريقهم ، فلم يقتلوا أمة أبت الاسلام ، وكانوا اذا

التقوا بأمة خيروها بين واحدة من ثلاث : الاسلام ، أو الجزية ، أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها » .

ويقول الكونت (هنرى دى كاسترى) : « لا حرج فى أن ينشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة التى لم تترك وراءها أى اثر للعنف والظلم ، لقد زحف المسلمون فى كل اتجاه ولكنهم لم يقتلوا أمة ابت الاسلام» .

وكتب الفيلسوف الفرنسى الشهير : (فولتير) يرد على المتعصبين المغرضين الذين يشوهون الاسلام ونبيه عليه السلام ، ويؤكد لهم أن الدين الاسلامى أتى بعقيدة وحدانية الخالق فى صورة مقبولة للعقل البشرى ، خالية من كل غموض ، ومن أجل ذلك تفتحت له القلوب فى مختلف ارجاء العالم ورضخت لاوامره وحدوده .

ثم يقول : « وليس بصحيح ما يدعى من ان الاسلام استولى قهرا بالسيف على أكثر من نصف الكرة الارضية ، بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس بعد أن اقنع عقولهم ، وأكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة هو اتصافهم بالشيم العالية اتباعا للنبى محمد ، فانه لا يخفى ولوع المغلوب بتقليد الغالبّ ، وحتى انخرط فى الاسلام أقوام لم تبلغهم سلطة المسلمين ولم تعلهم » .

وفى ختام حديث الكاتب الفرنسى (فولتير) عن الاسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم قال ما يلى :

« وهذا القول النزر (القليل) منى يكفى لتفنيد كل ما ذكره لنا مؤرخونا وخطباؤنا فارتكز فى ضمائرنا كثير من الاوهام الباطلة ، والاراجيف المتوارثة لان من الواجب أن تدحض الباطل بالحق ولنذكر دائما هذه الحقيقة التاريخية ألا وهى : ان المشرع الاسلامى محمدا كان ذا يقين راسخ وقوة عزم هائلة فأقام دينه ببسالة وثبات جنان ، ثم فيما بعد ظهر الدين الاسلامى بشفقة وسماحة لم تعهد من غيره ، ومن الغريب المشاهد أن مؤسس الدين النصرانى كانت حياته كلها خضوعا واستكانة ومسالمة ، وكان يأمر بالتجاوز عن الذلات ، والحال أن ديانته اللينة صارت لحماقتنا وبغينا ابعد الاديان عن السماحة ، واقربها للقساوة والطغيان » .

ونشرت صحيفة (الناقد) السورية فصلا قيما ممتعا لكاتبة انجليزية تتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتصف باسهاب شخصية الرسول القوية الفذة ، وما حققه من معجزة الانقلاب فى المجتمع العربى والمجتمع الانسانى بصفة عامة ، ثم قالت :

« ... ان الانسان يتساءل بدهشة غريبة عن تلك القوى الخفية التى ساعدت المسلمين على التغلب على شعوب تفوقهم حضارة واختبارا واستعدادا حربيا • وأعانتهم على توسيع بلادهم الصغيرة وتوطيد نفوذهم فى كل بلد احتلوه توطيدا لم يترك لاية جهود مبذولة مجالا لتقويضه ، ثم غرسهم فى نفوس الشعوب الغربية روحا شريفة ـ لا تعرفها الديانات الاخرى مضى عليها ثلاثة عشر قرنا ونيف لم تتحول بل ما زالت تشتد وتمتد وتزيد نفوس أنصارها رغبة اقتحام كل خطر فى سبيل الذود عن حياضها ، وأى انسان لا يقف مدهوشا أمام الديانة الاسلامية وهو يرى مصائر الديانات الاخرى ؟ » •

ومضت الكاتبة الانجليزية تحلل سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم واخلاقه السامية التى كان يغزو بها القلوب الصلبة ، والنفوس الجامحة والاكباد الغليظة ، فتلين وترق وتستنيم ويتحول أصحابها من اعداء الاسلام ونبى الاسلام ، الى انصار الاسلام ومؤيديه وناصريه ، ثم قالت :

« هذا هو الاسلام وتلك هى المعجزات التى انتشر على أساسها ، وان الانسان يشعر بالغبطة عندما يرى العداء الذى كان يظهر فى انتقادات الاوروبيين فى القرون الوسطى يتلاشى فى هذا القرن ، وعندما يرى الانصاف الكافى الذى يظهره كتاب اليوم نحو تلك الديانة السامية ، اسمى ديانات العالم ، الديانة التى قلبت العالم أجمع وانى أعتقد من جهتى أن عدم اهتمام علماء الاسلام بنشر الديانة الاسلامية وعرض آرائهم على الامم الغربية ، هو الذى حمل الاوروبيين على مثل هذه الاعتقادات السيئة • هـ

وقال العلامة النابغة (بارتلمى سنت هيلر) معجبا بتفوق محمد صلى الله عليه وسلم وخلقه النادر الذى بلغ به القمة : (لقد كان محمد أكثر عرب زمانه ذكاء وأشدهم تدينا واعظمهم رأفة ، وقد نال سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم ، وقد كان دينه الذى دعا الناس الى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التى اعتنقته » • هـ

☆ ☆ ☆

ما من مفكر باحث من غير المسلمين سواء أكان مؤرخا أو عالم دين أو رجل اجتماع الا راعه دين محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه المبين ، وأذهله ما أحدثاه من الاثر العظيم فى الفرد والمجتمع والانسانية جمعاء ومازالا يحدثانه •

وقد تظافرت أقوال المفكرين الغربيين الذين كتبوا للحقيقة والتاريخ على أن

الاسلام انما غير وجه التاريخ فى حقبة قصيرة من الزمن ، واستطاع ان يبسط ظلاله على معظم العالم فى أمد وجيز ـ لما يكمن فى طبيعة عقيدته من سر ، وفى طبيعة نظامه من قوة وقدرة ٠

وفى طبيعة كتابه المعجز ، من مزايا وخصائص ٠

وفى طبيعة نبيه من رحمة وسماحة واخلاص ٠

ان اثر الاسلام على الفرد وبالتالى على المجتمع يفوق كل أثر وذلك لسلطانه على الفكر والروح والقلب ٠

فالاسلام ثورة على الفكر ليحرره من الوهم والخرافة والتقليد وجميع الاعتقادات الباطلة ، فيتجه فى قوة وحيوية وحكمة الى صنع الحياة وتنميتها، وثورة على الروح ليحرره من الانحطاط والهبوط والتردى ويطلقه من أغلال المادة يرتاد الآفاق العليا ٠

وثورة على القلب ليحرره من الحسد والهوى والغش ويطهره من سائر الامراض التى لا يأتى شقاء الانسان الا منها ٠

وهل الانسان الا فكره وروحه وقلبه ؟ فاذا ارتقت هذه ، ارتقى الانسان ، فاذا ارتقى الانسان ، ارتقت الحياة ٠

وهل جاء الاسلام وبعث محمد صلى الله عليه وسلم وأنزل القرآن الا لارتقاء الحياة ٠

وقد انطلق أعلام الفكر الغربى فى هذا الميدان وأبدعوا فى تصوير محاسن الاسلام وخصائصه ، والتحويلات الجذرية العميقة التى أحدثها القرآن وفضائل هذا النبى العظيم الذى يعد رحمة مهداة الى العالمين ٠

فكتب العالم الشهير ، والفيلسوف الكبير (برنارد شو) يقول :

« لقد وضعت دائما دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته العظيمة فهو الدين الوحيد ، الذى يلوح لى أنه حائز أهلية العيش لاطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل زمان ومكان » ٠ هـ

ثم استطرد (برنارد شو) يقول :

« لا مشاحة فى أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال ٠٠٠ لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا فى الغد القريب وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم » ٠ هـ

وأضاف الفيلسوف (برنارد شو) يقول : « ولقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون امثال (كارلايل) و (جوت Geute) و (جيبون) القيمة

الذاتيةلدين محمد . وهكذا أوجد تحول حسن فى موقف أوروبا من الاسلام ولكن أوروبا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيرا .

فبدأت تعشق عقيدة محمد .

وفى القرون القادمة قد تذهب أوروبا الى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها .

وبهذه الروح يجب ان تفهموا نبوءتى » . هـ

ودرس برنارد شو عظمة الاسلام وعظمة محمد عليه الصلاة والسلام وعظمة القرآن من جهات مختلفة .

فهاله ما راى ، ولم يتمالك ان يقول فى صراحة وجرأة :

« اننى اعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لتم النجاح فى حكمه ولقاده الى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل السلام والطمأنينة ، والسعادة المنشودة » . هـ

وقال العالم الانجليزى المستر (وينتروب كيهمبال) فى معرض حديثه عن محاسن الاسلام : « أعجبنى من الاسلام أنه دين بسيط معقول ليس فيه ما فى غيره من نظريات معقدة واعتقادات مخيفة ، وطقوس لا معنى لها ، وقديسين يكادون يبلغون فى أدعائهم الباطل درجة الالوهية » . هـ

ثم قال :

«وبالرغم من أننى انتسبت الى الكنيسة الانجليزية البروتستانتية الا أننى لم اكن عضوا حقيقيا فيها الى ان بلغت العشرين من العمر ، ولا أزال أرى فى كنيستى فائدة عظيمة يجنيها اعضاؤها ولكنى لا اتفق معها فى الاعتقاد والايمان ولا أقرها على طقوسها الدينية ونظرياتها غير المعقولة » . هـ

وبعد ان تحدث (وينتروب) عن صدق الاسلام وقوته وجاذبيته وملاءمته للفطرة البشرية ختم حديثه بقوله :

« واعتقد أن فى أوروبا كثيرين من الناس لا يعتقدون بالمسيحية ولا يرون فيها ما يوافق روح المدنية .

ولو تباح لهم معرفة الاسلام ، لكنا نراهم يدخلون فيه افواجا افواجا (. هـ

وقال أحد العظماء وهو (السير د.ب)

« الاسلام هو اعظم دين ديمقراطى فى العالم ، لان الاسلام يوحد الخلق ويجعلهم أمة واحدة ، لا فضل لعربيها على عجميها الا بالتقوى ، طالما يعتنق الانسان دين الاسلام فيسقط كل الفروق بينه وبين أى مسلم آخر فيصبح مهما كان أصله فى درجة واحدة معه ، وان

الناس فى نظر الاسلام سواسية فانك ترى المسلمين فى الجوامع يصلون والفقير الى جانب الغنى ، والحقير الى جانب العظيم ، لا فرق بين مملوك وأمير ، أو ملك، وكلهم فى نظر الله اخوة، الاسلام .

لا يعرف فرقا بين قومية وأخرى ولا يفضل لونا على لون » . هـ

وتحدث (السير ك.ب) عن سبب انتشار الاسلام بالكيفية المعروفة من السرعة والعمق والاصالة فقال :

« ولم ينتشر الاسلام فى العالم أجمع هذا الانتشار ـ العجيب ـ من أقصى شواطىء المحيط الهادى الى أقصى شواطىء المحيط الاطلانتيكى ـ فى مدة قصيرة الا لانه امتاز بالمساواة والعدالة وفى المدة الاخيرة تراه يكتسح بلاد الملايا والصين واليابان والهند وأوروبا لا بالسيف ، ولكن بالعدالة والمساواة وحرية الفكر ونشر روح الاخاء » . هـ

ومضى يقول : « ومما يجدر بنا ان نلاحظ ان الاسلام ينتشر الآن فى بلاد لم يصلها الحكم الاسلامى ، ولم تعرف فتوحات العرب ، ولكن الاسلام ـ كما هو معروف عنه ـ انما ينتشر كانتشار النور لا يسد تياره شىء » . هـ

وقال السيد (بيرك) فى خطبة له بالبرلمان الانجليزى : « ان دين الاسلام هو أحكم وأعقل وأرحم تشريع عرفه التاريخ البشرى » . هـ

وقال (شارل ميزمير) الفرنسى الشهير : « انى اظهر فكرى بكل صراحة واقول : لو وجد دين الاسلام المبلغين المقتدرين الذين يقدرون المذاكرة والتفاهم مع علماء النصارى فى هذه الازمنة التى تنتشر فيها مذاهب الضلالة المتفرقة وتنتصر ، لاسلم الناس طبعا فى أوروبا » . هـ

وقال العلامة النابغة (بوسورث سميث) فى كتابه (محمد والدين المحمدى) يعلن عن اعجابه الكبير بكتاب محمد صلى الله عليه وسلم : « كان محمد فى وقت واحد مؤسسا لامة ، ومقيما لامبراطورية ، وبانيا لدين ، وهو وان كان أميا فقد أتى بكتاب يحوى أدبا وقانونا وأخلاقا عامة ، وكتبا مقدسة فى كتاب واحد وهو كتاب يقدسه الى يومنا هذا سدس مجموع النوع البشرى ، لانه معجزة فى دقة الاسلوب وسمو الحكمة وجلال الحق » . هـ

اما المستشرق الفرنسى الكبير (اميل درمنغم) فقد أطلق العنان لفكره وقلمه، فى الحديث عن عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعظمة المعجزة الخالدة القرآن الكريم وقال بالخصوص :

« والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة ، فأسلوبه المعجز ، وقوة أبحاثـه التى لا تزال لغزا الى يومنا هذا ، يثيران ساكن من يتلونه ولو لم يكونوا من الاتقـياء العابدين .

وكان محمد يتحدى الانس والجن بان يأتوا بمثله ، وكان هذا التحدى أقوى دليل على صدق رسالته ، وهذا لا يعنى الاشارة الى قيمة أدبية خاصة فى القرآن، ما دام محمد كارها للشعراء ، وما دام هناك فرق بين وحى الله ونفث الجن ، ولا ريب فى ان كل آية منه، ولو أشارت الى أدق حادثة فى حياته الخاصة تأتيه بما يهز الروح بأسرها مـن المعجزة العقلية » . هـ

والكتاب الغربيون يعترفون بمكانـة القرآن الفريدة سواء منهـم المنصفون والمتعصبون ، فهذا المستشرق الفرنسى الكبير الاستاذ (جاستون كارمن) يكتب مسلسلة مقالات فى جريدة (فيجارو) سنة 1943 يقول فيها :

« ان القرآن وهو منبع هذا الديـن العقلى ودستوره قد احتوى على أسس من امتزاج الاسس التى نشرها الاسلام ودعا اليها القرآن » . هـ

وهذا المؤرخ الانجليزى الكبير (ادورد جيبون) يقول عن القرآن الكريم : « ان موحدا ذا دماغ مفكر لن يتـردد فى الاعتراف بفضل القرآن وعظمة نظريات الاسلام وانه لدين أعلى من تطورنا الفكرى اليوم » . هـ

وقال العالم الانجليزى الشهير (من ستنفاس) : « القرآن من أهم الكتب التى جاءت الى الناس ليفيدوا منهـا ، فهو سجل جامع لاسس الاخلاق والعقائد الكفيلة للناس بالتوفيق والهدايـة فى حياتهم » . هـ

وقال عظيم من عظماء الانجليز وهـو (مانويل كنج) : « ان القرآن كتـاب معجز وخليق بالاعجاب من حيث التنزيل والترتيب ، مع ان لسان القرآن مخالف للساننا وآراءه تخالف آراءنا ، ولا يمكن انكار قدره وقيمته وفضله وجماله من جهات كثيرة ، والا كان ذلك الانكـار حرمانا من العقل والمنطق » . هـ

وقال المستشرق الكبير (سديو) وهو يتحدث عن العرب : « القرآن جامع لكل أسس الاخلاق والفلسفة ، فالفضيلة والرذيلة، والخير والشر، وماهية الاشياء الحقيقية كلها مهيمنة فى القرآن ، فقد أوحيت آياته الى النبى محمد بحسب احتياجات الزمان وحوادث العهد » . هـ

اما الفيلسوف الفـرنسى المعـروف (الكسى لوازون) فقد الف كتابا قيما

عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحلل فيه عظمة دعوته ، واسباب نجاحه ، وقال عن القرآن الكريم : « خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل الاخلاق ، وكتاب مقدس ، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا ، أو المكتشفات الحديثة ، مسألة تتعارض مع الاسس الاسلامية ، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية ، مع ما نبذله من المساعى للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية » ٠ هـ

وقال الفيلسوف الالمانى الشهير (يوحان يعقوب رايس) متعجبا من أولئك السطحيين الهامشيين الذين ينتقدون القرآن الكريم ويحاولون التنقيص منه والحط من قيمته :

« ما أن يتعلم بعض الناس قليلا من اللغة العربية حتى يقوموا بمحاولة الاستهزاء بالقرآن ، وكم استمعوا الى قدرة القرآن المثيرة ، الفصيحة المؤثرة ، واحسوا باللسان المعبر للالباب ، الذى استخدمه الرسول حين أفهم القرآن أصحابه ، لوقعوا فى الحضرة الالهية ساجدين صائحين : يا رسول الله أغثنا ولا تحرمنا من شرف الدخول فى أمتك » ٠ هـ

والحقيقة الناصعة التى يعترف بها كل مفكر متعصبا أو متجردا ، هى أن الاسلام دين الانسانية جمعاء يقوم بينها مقام الشمس فى عالم الطبيعة وأن فضله على الانسانية قاطبة لا ينكره الا من يتخبط فى ظلام الهوى وضلال السلوك وحماة الغرور والادعاء ، لان تعاليمه تتفق والفطرة البشرية فى كل زمان ومكان ٠

وقد اعترف المفكرون الغربيون بهذه الحقيقة ، وحاضروا فيها وكتبوا عنها مقالات وأبحاثا وألفوا كتبا ودراسات ضافية لا يتسع المقام هنا الا لنزر قليل جدا مما قالوه فى الموضوع :

يقول الكاتب المجرى الكبير (وامبرى) « انى أعتقد فى الحقيقة أن روح نظام المسلمين، دين الاسلام وهو الذى أحياهم والذى يتكفل لهم بالسلامة انما هو الاسلام فقط » ٠ هـ

ويقول الكاتب الكبير (برنارد شو) : « ان الرجل العالم يميل بطبعه الى الاسلام لانه دين وحيد ينظر الى أمور الدنيا والآخرة سواء » ٠ هـ

ويقول العالم اليهودى الكبير (عمانوئل دويسن) : « دخل الفنيقيون أوروبا تجارا ، واليهود قوميين ، ودخلها المسلمون حكاما وحملوا بفضل القرآن قبس العرفان الى أوروبا ، والحق ان المسلمين علموا الشرقيين والغربيين الفلسفة والطب والفلك ، وأحيوا تراث

اليونان وعلومهم الميتة . لقد كانت الدنيا محاطة ببحر من ظلمات الجهل ، فأغرقوا كل أرجائها فى النور فهم بهذا الاعتبار واضعو أساس العلوم الحديثة » ٠ هـ

ويقول البروفيسور الشهير (ارثر دروز) : « أن الاسلام هو الدين العظيم الوحيد الذى نعرف عنه باليقين أن مؤسسه محمدا ، كان شخصا عظيما له وجود تاريخى » ٠ هـ

ويقول المستر (ولز) الانجليزى : « كل دين لا يساير المدنية فى اطوارها المختلفة ، فاضرب به على الجدار ، فانه يؤدى بأصحابه الى الهلاك ، والديانة الحقة التى تساير روح المدنية انما هى الديانة الاسلامية » ٠ هـ

ولا تقل عن هذه الكلمة اهمية ووزنا كلمة العلامة (كولان) الاستاذ بجامعة السوربون اذ يقول : « وفى الحقيقة ان الاسلام دين الترقى والحضارة بدليل أن المسلمين عمروا كل موضع فتحوه ، وهم الذين نقلوا حضارة فارس الى اسبانيا » ٠ هـ

ويتعجب الكاتب الانجليزى الكبير المستر (ليونارد) من موقف الاوروبيين المعادى للاسلام والمسلمين ، وانكارهم لفضل الاسلام على العالم ويطلق صيحته تدوس فى أرجاء العالم منددا بهذا الموقف ، ومشيدا بالاسلام والمسلمين وفضلهم على أوروبا والعالم أجمع

ويقول : « لقد وصلت المدنية الاسلامية الى أعلى مستوى من العظمة ، عمرانية كانت أو علمية ، حتى ليرجع اليها الفضل فى بعث المجتمع الاوروبى وهدايته الى طريق الخلاص من الانحطاط والاندثار » ٠ هـ

ثم قال الكاتب العظيم (ليونارد) : « ألم يحق أن نعترف ـ نحن الذين بلغنا أعلى قمم الحضارة كما نزعم ـ بأنه لولا التهذيب الاسلامى ومدنية المسلمين وعلومهم وثقافتهم وعظمتهم وحسن نظام جامعاتهم لولا هذا كله لبقيت أوروبا تتخبط فى ظلام بهيم » ٠ ٠

☆ ☆ ☆

هكذا صور قادة الفكر الغربى عظمة الرجل الذى وحد العالم ، وأرسى فيه قواعد المحبة ، والوئام ، والعدل ، والسلام ، وجعل للحياة قيمة وشأنا وغاية

ويروعنا أن تنبعث هذه الصور الرائعة من أماكن متباعدة ، وتبدعها عقول متباينة وأقلام مختلفة ٠٠٠ انها لصيحات من لندن وباريس ونيويورك وموسكو وغيرها تعترف لشمس الاسلام بعلوها ونورها وفضلها على العالم أجمع ٠

وبقدر اعجابنا بهؤلاء العباقرة المنصفين ، واعتزازنا بآرائهم وأقوالهم

فى الاسلام ونبيه وقرآنه ، تتقطع قلوبنا آسى وألمـــا وحسرة مــن المنتسبين الى الاسلام ، والى محمد والقرآن ، وهم فى واقع الامر أعداء الاسلام وأعداء نبيه وقرآنه ، بسلوكهم وأخلاقهم ، وتصرفهم حتى قال الكاتب الكبير (برنارد شو) :

« ان الاسلام شيء والمسلمين شيء آخر، الاسلام حسن، ولكن أين المسلمون »٠ هـ

بل هناك ممن يحسبون مسلمون مــن يطعنون فى الاســـلام والقــرآن ونبى الاسلام محمـــــد صلى الله عليه وسلم ، ويجاهرون بالتنكر للحضارة القرآنيـــة والمدنية المحمدية ، ويسعون جاهدين فى تشويه الاسلام ٠

فليخجل هؤلاء وليتواروا فى المغـاور والكهوف وأحراش الغاب ، الى أن يفيقوا من غفلتهم ، ويقلعوا عن غيهم ، ويدركوا الحق حقا ، والباطل باطلا فعندئذ فقط سوف يعيشون فى عــز الاسلام الــذى لا عز بدونه ولا حياة بغيره ، ولا رقى الا به ، ولا نجاح الا فى ظله ٠

والكلمة التى نود أن ننهى بها هذه الاحاديث هى ان الاسلام كحقيقة فخمة كبرى لا عيب عليه اذا تنكر له بعض المنتسبين اليه ، أو انصرف عنه الجاهلون بقيمته، وانما العيب فيمن تنكر له وفيمن انصرف عنه ٠

نظـرة محمد (صلى الله عليه وسلم) الى المـــرأة

عبد الرحمن الجيلالى

لم يكد يصدر قرار مجتمع (ماكون) المنعقد بارض فرانسا سنة 586 م للبحث فى شأن المرأة هل هي انسان أم شيء آخر ؟ أم هي ماذا ؟ ! حتى كان أن قد دوى صوت محمد صلى الله عليه وسلم صارخا فى العالم أجمع : « انما النساء شقائق الرجال » ٠

وفى القرن السابع الميلادى ـ الاول الهجرى ـ عقد مؤتمر عام فى رومـا للبحث كذلك فى شؤون المرأة ٠٠٠ وبعد مناقشة طويلة وجدال عنيف قـــرر المؤتمر انهـا كائـن حي لا نفس له ! وعلى هذا الاساس قـرر المؤتـمـرون حرمانها من أكل اللحم وحتى عـــن الضحك والكلام ! وان ليس للمرأة الحق لان ترث الحياة الآخرة ٠٠٠ بل انهـا رجس ! ٠٠٠ وبينما الامر كان على هذا فى أوروبا اذ كان صلى الله عليه وسلم ينظر الى المرأة كشيء مقدس تبلغ قدسيته الى حد التعوذ به من الشيطان الرجيم ٠

فانه عليه الصلاة والسلام لقى يومـا فتى من أصحابه فكان هو معاذ بن جبل ، فسأله ، ألك زوجة يا معاذ ؟ ٠٠ فأجابـه معاذ بقوله كلا يا رسول الله ، فقال لـه عليه السلام : انك اذن مـــن اخـــوان الشياطين ! ٠٠٠ وكأنه يعنى بذلك عليـه الصلاة والسلام : انه كان من الواجب عليك يا معاذ أن تتعوذ من الشيطـــان الرجيم بامرأة تتزوجها ، فـالمـرأة هي التعويذة من الشيطان ٠ ومن تزوج كما قال عليه الصلاة والسلام فقد امتلـــك شطر دينه ٠٠٠

ومعلوم ان محمدا نشأ صبيا وطفلا يتيما فتولت حضانته فتاة حبشية اسمها بركة وتكنى بأم أيمن ، فعكفت هـــذه الفتاة على تربيته وحضانته حتى بلـغ

الخامسة والعشرين من عمره فكان قرير العين بما كان يشعر به فى حال حضانتها له من العطف والحنان والعناية بشؤون الطفولة ، فشعر من ذلك الحين بأول وظيفة من وظائف المرأة فى هذا الوجود · ثم شاءت العناية الربانية أن تنقل محمدا صلى الله عليه وسلم الى العيش بالقرب من أشرف امرأة فى قريش ، فتزوج خديجة بنت خويلد ، وهنا طبعا لم يبق ذلك الشاب الذى هو فى حضانة فتاة مكرمة عنده بل أصبح ذلك الرجل الشاب الذى تحبه امرأة ويحبها · ثم ماتت خديجة رضي الله عنها فشاء أبو بكر اكبر صحابة محمد أن يتشرف بمصاهرته فزوجه ابنته عائشة رضي الله عنها ، ولم تكن عائشة زوجة فقط ، بل وتلميذة أيضا تحفظ وتنقل عنه تعاليم دينه الكريم ، وهذا هو الطور الثالث من أطوار حياة محمد مع المرأة :

بركة الحبشية كحاضنة تسهر عليه فى طفولته ، وخديجة الكبرى كزوجة تحوطه وتشجعه فى شبيبته ، وعائشة الصديقة بنت الصديق تسره زوجة وتكون تلميذة له فى كهولته ومساعدة له فى غزواته وجهاده ·

قال أنس : اننى فى وقعة احد رايت زوجة النبى صلى الله عليه وسلم عائشة ومعها أم سليم مشمرتين أرى خلاخيلهما وهما تقفزان قفزا وعلى ظهورهما قرب الماء تفرغانها فى افواه العطاش ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواههم ·

فهذا محمد كما نرى قد اختبر المرأة فى جميع أطوار حياته وامتزجت عاطفته بعاطفتها طفلا وشابا وكهلا ··· وكان لها من التاثير فى حياته كلها ما جعله يرفع من شأنها ويعلى منزلتها ويعلن حريتها الى أن جعلها او كاد يجعلها فى رتبة أو نقول فى صفوف الابرار المقدسين ، أليس هو القائل : « الجنة تحت أقدام الامهات » ؟ ·· والمرأة من حيث هي امرأة ، فهي بالقوة أو بالفعل أم أو فى حكم الام · فهي على كل حال مصدر للامومة ، ومن كان حريصا على دخول الجنة فليعلم وان الجنة هي تحت قدم هذه المرأة ــ الام ــ ·

وكأن محمدا صلى الله عليه وسلم أراد بتكريم المرأة ورفع شأنها فى عيون الرجال على هذه الصورة افهامهم ان النهضة الصحيحة انما تقوم على سواعد الجنسين : الرجل والمرأة ، وذلك هو شأن ما شاهده التاريخ عبر العصور وشاهدناه نحن بأنفسنا لا سيما فى حرب التحرير هذه (1954 ــ 1962) ·

ولما رأى النساء العربيات هذه النهضة التى نهضها محمد ، وهذه المنزلة التى رفع المرأة اليها محمد اغتبطن بها وسررن به ونشطن الى الاستزادة من التطلع الى معرفة تعاليمه ومبادئه التى هي نبراس خطته فى الحياة، فكن يعقدن لذلك اجتماعات ويبعثن من

ينوب عنهن من النساء لرفع مطالبهن الى النبى صلى الله عليه وسلم ·

فرفعنها يوما بواسطة امرأة منتخبة من بينهن وكانت تلك المرأة يومئذ هي أسماء بنت يزيد الانصارية ، وكان يقال لها : خطيبة النساء · فجاءت الى الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت : انى رسول من ورائى من جماعة النساء وكلهن يقلن بقولى وعلى مثل رأيى ، ثم عرضت عليه مطالب النساء اللواتى ارسلنها ، فاجابها عليه السلام بما اقر عينها ويرضيهن ، وأعلن سروره بحديثها واعجابه بجراءتها والتفت الى من كان حوله من الصحابة رضي الله تعالى عنهم قائلا : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه المرأة ؟ ···

وكان محمد يحب أن لا يستبد أحد على امرأة فى أمر زواجها ، فهو يعطى الحق فى أن تتزوج المرأة من تختاره ويطيب لها العيش معه ، بشرط أن لا يحط هذا الزواج من كرامتها وكرامة أسرتها وعشيرتها · وهذا ما يعبر عنه الفقه الاسلامى فى اختيار الزوج باسم الكفاءة وذلك حرصا منه على سلامة الاسرة وحفظ كيانها · فقال عليه الصلاة والسلام : الايم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن فى نفسها ، ولما كان الخفر والحياء يغلبان على الابكار بالخصوص قال فى شأن البكر : واذنها صماتها ، وذلك اتماما لصونها وإبقاء لاستحيائها رواه مالك فى الموطأ ومسلم وأخرجه الشافعى وأحمد واصحاب السنن كلهم من طريق مالك ·

وهذا الحديث يدل على شدة تأثر عواطفه وشعوره صلى الله عليه وسلم بحساسية المرأة · ولقد رد زواج الخنساء بنت خذام الانصارية حين زوجها أبوها برجل لا رغبة لها فى التزوج به ، وكانت ثيبا ، فامر عليه السلام اباها بأن يلحقها بهواها ففعل ، وتزوجت بأبى لبابة بن عبد المنذر فأنجبت ولده السائب · فانظر يا هذا نظرة محمد الى المرأة فى القرن السابع الميلادى فى حال ان هذا الحق لم تنله المرأة فى أوروبا الا فى القرن السادس عشر ! ·

وهذه بريرة وهي جارية حبشية تزوجت بعبد من عبيد المغيرة – مرغمة – فاشفقت عليها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فاشترتها وأعتقتها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن « ملكت فاختارى » فرفضت زواجها بالعبد وأعرضت عنه وقد تمكن حبها من قلبه ، فصار يطوف بسكك المدينة يمشى وراء بريرة ودموعه تنحدر على وجنتيه والناس ينظرون اليه وهي منصرفة عنه كل الانصراف ··· فكلمها النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن زوجها فقالت : أتأمرنى أمرا يا رسول الله ؟ ·· فقال لا · وانما أنا شفيع فقالت : اذن لا حاجة لى فيه · فلم يعارضها عليه السلام فى استعمال

حريتها ولم يرغمها على الرضى بزوجها بعد تحررها من الرق على يد عائشة ·

كما انه كان عليه الصلاة والسلام يرى أحقية مشاركة المرأة فى الاشتغال بتسيير شؤونها ومصالحها الخاصة بها فاعطاها حق القيام على ثروتها وتعهدها فى استثمارها فلها الحق فى التمتع بالالتزامات المالية مثل التجارة والاقالة والخيار والصرف والشفعة والاجارة والرهن والقسمة والوكالة والكفالة والصلح والشركة والمضاربة والوديعة والوقف وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب الشريعة ···

كما أعطاها حق المشاركة للرجال فى المصالح العامة - داخل اطارها الطبيعى الخاص - وكان أهم تلك المصالح يومئذ تأييد الدعوة الاسلامية ومقاومة المعارضين للدعوة والتسابق للخير ، فكان للمرأة المساعى الحسنة فى هذا السبيل ·

وقد توفرت طائفة من نساء الصحابة رضي الله عنهم على مرافقة الجيش لمعالجة الجرحى ومداواة المرضى وخدمة المحاربين ، وكانت من بين هذا الرعيل ليلى الغفارية وأم عطية ، وأم سنان ، وكعيبة بنت سعد الاسلمية ، وأم سليم، وأم المؤمنين عائشة ، ورفيدة الاسلمية التى كانت خيمتها ملجأ للعجزة والبائسين ومستشفى عسكريا فى ايام الحرب ، وقد بوب البخارى فى كتاب المغازى بابا ذكر فيه مداواة النساء للجرحى فى الغزو ··· هكذا كان أمر المرأة فى صدر الاسلام بينما كانت أول طبيبة أمريكية في العالم هي اليزابيت بلاكول (1821 - 1910 م) ·

وأيضا كان فيما نظر فيه عليه السلام من الحقوق الثابتة للمرأة ان أعطاها حق حرمة استجارة المحاربين من المشركين والكفار وهو حق سياسى محض كما نرى فقبل اجارة أم هانى بنت عمه أبى طالب حين استجار بها مشركان محاربان كانا حموين لها ، فاستجارا بها فاجارتهما فغضب لذلك أخوها على بن ابى طالب وعزم على قتلهما وقال لها : أتجيرين المشركين ؟!· فبلغ الامر الى النبى صلى الله عليه وسلم فاجاز استجارتها وقال لها : قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت يا أم هانىء · وأصبح بذلك تامين المحارب الكافر حقا للمرأة كما هو حق للرجل ، ووقع على ذلك الاجماع ، ولم يكن ليعد صلى الله عيه وسلم ذلك من المرأة تدخلا منها فى السياسة أو فضولا خارجا عن اللياقة ، ولم يقل لها ان هذا ليس من شأنك وانما عليك بالطبخ او الزينة وتربية الاطفال فقط ، لم يقل هذا ·

قالت أم سنان لما أراد النبى صلى الله عليه وسلم الذهاب الى خيبر جئته فقلت له : أأخرج معك فى سفرك هذا أخرز السقاء وأداوى المريض والجريح وأحافظ على الرجال ؟ · فقال لها : اخرجى على بركة الله فان لك صواحب

سألتني الخروج معي فاذنت لهن فكوني مع زوجتي أم سلمة ٠

ومع ذلك فانه صلى الله عليه وسلم كان في الوقت نفسه يعجبه من المرأة أن لا تنسى أنوثتها وان لا تهجر وظيفتها التي خلقت لها وان لا تغفل عما خصتها الطبيعة والخلقة الالهية به وما خص به الرجل كذلك من الفوارق الكثيرة العديدة ٠٠٠ فلا تنسى أولا وبالذات تربية البنين والبنات وادارة المنزل وان لا تعطل أمومتها وزينتها لزوجها ، حتى انه كان يكره أن لا يرى أثر الخضاب في كفي امرأة ، وكان الخضاب أجمل زينة النساء في العصور الماضية ٠

يروى أنه نظر يوما الى يدي أم سنان فرآها عاطلتين عن الخضاب فقال : ما على احداكن أن تغير أظفارها وتعصب يدها ولو بسير ٠ فهنا نراه عليه السلام يحض المرأة على الخضاب وأن يكون في معصمها سوار ولو من جلد ٠

وعرف محمد نفسية المرأة وغرائزها الخاصة بجنسها اللطيف ، فكان يعاملها بمقتضى ما عرفه منها ، فيكثر من تأنيسها والرفق بها والانة القول لها فكثيرا ما كان يخرج معه نساءه عليه السلام فيسافرن معه ، وكن اذا أرادت احداهن الركوب بسط لها ركبته تدوس عليها وتصعد الى هودجها ، واذا كان معها في فلاة سابقها أشواطا للرياضة ولادخال السرور عليها ٠ وادخل الحبشة يوم العيد الى المسجد لترى زوجته لعبهم بالسيف والترس والحراب ٠

وكان صلى الله عليه وسلم يكرم حاضنته بركة الحبشية ويمازحها أحيانا، فطلبت منه يوما جملا تركبه فقال لها : انا أحملك على ولد الناقة ، فصاحت ! ٠٠ ويلك ما أصنع بولد الناقة ؟ ! ٠٠ وهل يطيق أن يحملني ؟ ٠٠ أريد جملا ٠ فضحك الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا لها : ويحك بركة ! ٠٠ وهل الجمل الا ابن الناقة ؟ ! ٠٠

ورأى في صبيحة يوم نساء مقبلات من عرس ومعهن صبيانهن فوقف عليهن وهتف قائلا : اللهم أنتم من أحب الناس الي ، قالها مرتين ٠ وهو القائل عليه السلام : « حبب الي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة» ٠ هكذا قال حبب الي ولم يقل أحببت وفي هذا دليل على أنه مجبور على حب ما ذكر من أصل الخلقة ، فهو بالنسبة له أمر طبيعي وغريزي لا يد له فيه ، وصدق الله العظيم اذ يقول في شأنه : « **وانك لعلى خلق عظيم** » ٠

أخي القارىء ! نعم محمد يحب النساء ، يحبهن بما يترتب على حبهن من كثرة التناسل ، ويحبهن لانهن يساعدن الرجال في النهضات الكبرى كما ساعدته خديجة في نهضته ضد الظلم والطغيان والكفران والشرك وعبادة الاصنام والاوثان ، ويحبهن لمشاركتهن

فى المعارك الحربية كما شاركته فى ذلك عائشة ورفيدة وأم عطية وأم سليم وأم سنان وغيرهن فى تأييد الدعوة الاسلامية، ويحبهن لينشرن الثقافة والعلم بين عالم النسوة وعالم الرجال ان اقتضى الحال كما فعلت عائشة وغيرها من الصحابيات منذ حملن ثقافته العالية وبلغن عنــــه شريعتـــه ٠

وهكذا ينبغى أن تكون المرأة المسلمة اذا أرادت أن تكون حقا محبة محبوبــة حبا طاهرا شريفا فلتقم بواجب الامومة الذى خلقت له أولا وبالذات وبمساعدة النهضات القومية والمشاركة الفعالـــة فى رد العدوان اذا ما ظهر الخطر على الوطن ، وذلك دائما فى دائرة حدودها الطبيعية والشرعية وتسعى فى نشــر الاخلاق الفاضلة والتعاليم الساميــة الطاهرة بين أبنائها وجميع أفراد أسرتها محافظة على وقارها وعفافها مرتديــة بلباس الحشمة والحياء فلا تبـــرج ولا تفرنـــج ٠٠٠ وهذا النوع من النساء هو الذى أحبه النبى صلى الله عليـــه وسلم وحبب اليه وأوصى به فى خطبته الاخيرة فى حجــة الوداع اذ قـــال : فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيـــرا ٠

هكذا كان نظره صلى اللــه عليـــه وسلم الى المرأة ، وهكذا كان يحبها أن تكون ، وذلك منذ أربعة عشر قرنا بينما كانت المرأة عند مدعى التقـدم والرقى بأوروبا الى حدود سنة 1882 م محرم من حقها الكامل فى ملك العقار وحرية المقاضاة ، بل بلغت الفطنة ولطافـــة الحس والذكاء عند نابليون ــ وهـــو مشرع القانون ــ فروى عنه انه قال : « لا قيمة للنساء » !! ٠٠٠

وقد اعتـرف المستشـرق الفـرنسى « أندرى سرفى » بفضل محمد عـــلى المرأة فى التاريخ ، فـقال فى كتابــه (الاسلام ونفسية المسلمين) : لا يتحدث هذا النبى عـن المـرأة الا فى لطـــف وأدب ٠٠٠ كان يجتهد دائما فى تحسين حالها ورفع مستوى حياتها ٠٠٠ لقد كان النساء قبله لا يرثون ، بل كانوا متاعـا يورث لاقرب الرجال ، وكأنهـم مـال أو رقيق ، وعندما جاء الرسول قلب هـــذه الاوضاع فحرر المرأة وأعطاهـا حـــق الارث ٠٠٠ ثم ختم كلمته قائلا :

« لقد حرر محمد المرأة ، ومـن أراد التحقيق بعناية هذا النبى بها فليقـــرأ خطبته فى مكة التى أوصى فيها بالنساء خيرا ، وليقرأ أحاديثـه المختلفـة ٠٠٠ ما أصدق هذا القول ! ٠٠ وما أكثر دفاع النبى عن المرأة وحقوقها ٠٠٠

ويقول (م٠ ريفيل) : « اننا لو رجعنا الى زمن هذا النبى لما وجدنا عملا أفاد النساء أكثر مما فعله هذا الرســول ، فالنساء مدينات لنبيهن بأمور كثيـــرة رفعت مكانتهن بين الناس » ٠

مميــزات التربيــة الاسلاميــة

الاستاذ محمد ناصر بوحجام

بسم اللـه الرحمـن الرحيـم

يقول الشيخ أبو الحسن الندوى : « التربية وسيلة مهذبة راقية لدعم العقيدة ، ونقلها سليمة الى الاجيال القادمة ، وأفضل تفسير لنظام التربية : انها السعي الحثيث المتواصل من قبل الآباء والمربين لتنشئة أبنائهم على الايمان والعقيدة التى يؤمنون بها ، والنظرة التى ينظرون الى الحياة والكون من خلالها ، ليكونوا ورثة صالحين للتراث الذى ورثه هؤلاء الآباء عن الاجداد مع الصلاحية الكافية للنهوض والتطور والتقدم » (1) ·

ويقول الاستاذ سليمان الشواشى : « ان النظام التربوى لأي أمة من الامم مرآة عاكسة للاهداف التى تسعى لتحقيقها ، والقيم التى تؤمن بها ، والمثل العليا التى تصبو اليها ، وبالتالى فمناهج التربية فى أي بلد من البلدان تعطينا فكرة واضحة عن حياة الامة ، وأسلوب عيشها · وهي فى النهاية تبرز لنا بوضوح مقومات حضارتنا وخصائصها التى انفردت بها » (2) ·

ان التربية هي وسيلة راقية لغرس العقيدة فى النفوس وتثبيت الايمان فى القلوب ، وامتلاك زمام الامور ، وهي

(1) مجلة منار الاسلام العدد الثانى ، السنة الثالثة ، ص 93 ·

(2) مجلة العلم والتعليم العدد 23 ، السنة 3 ، ص 24 ·

السبيل الوحيد لفرض الوجود ، وانتقال التجارب وضمان الاستمرارية ·

والتربية ووسائلها هي المفاتيح التى نفتح بها القلوب والنفوس ، من امتلك هذه المفاتيح استطاع أن ينتصر ، وتمكن من نشر أفكاره وبث وعيه ·

وان النظام التربوى لاي أمة هو الذى يعكس آمالها والاهداف التى تبغى الوصول اليها ، والتربية تجعل الفرد ينظر الى الكون والاشياء من حوله النظرة التى تتفق والمبادىء التى يصدر عنها ·

اذا كانت التربية تحمل هذه المفاهيم وتعنى هذه الدلالات التى أشار اليها بعض المفكرين ، فلنحاول أن نتعرف على خصائص ومميزات التربية الاسلامية · هذه التربية التى انتجت رجالا ، وأنشأت حضارة ، وأنارت الدروب للسالكين ، وبينت النهج القويم الذى يضمن النجاة والسلامة بعد ما ساد العالم ظلم واستعباد وفوضى ·

هذه التربية التى استطاعت أن تكون الانسان الصالح بدل المواطن الصالح ـ كما يقول الاستاذ محمد قطب ـ بعد ما ثبتت فيه دعائم الايمان ، وأوجدت فيه ارادة صلبة متماسكة بها يستطيع الصمود أمام الاعاصير المهلكة والتيارات الجارفة · وبعد ما حملته على التحلى بالاخلاق الفاضلة هذه التربية التى انشأت مجتمعا متضامنا متعاونا متآزرا، يسود فيه العدل والانصاف ، وتغشاه الفضيلة وحب الخير ·

نحاول أن نتعرف على ميزات التربية الاسلامية حتى نعرف ما اذا كانت التربية التى نمارسها فى مدارسنا وبيوتنا وفى المؤسسات ، وعلى مستوى أجهزة الاعلام ، ودور النشر وغيرها ، تتطابق مع هذه الخصائص أم تخالفها، حتى تضمن السير فى النهج الذى يوصلنا الى الهدف المنشود ···

وأريد أن أشير منذ البداية الى أن هذه الخصائص التى سأذكرها ، ليست هي كل الخصائص التى تمتاز بها التربية الاسلامية ، وهذه المميزات هي ما أشار اليها بعض المفكرين ، وليس لنا فيها سوى فضل الجمع والتنسيق فقط ·

مميزات التربية الاسلامية :

1) عنيت بطاقة الانسان الروحية ، ففجرتها ، فمنحت بذلك الفرصة للانسان المسلم ، كي يتصل بربه خالق الكون ويتعرف على حقيقة الخلود الابدى فى الآخرة ، ويعى حقيقة الوجود الازلى، وجعلته يسيطر على نفسه ، وعلى ما خلق الله ، وساعدته على التحرر من قيود المادة · هذه الطاقة المتفجرة أثبتت وجوده الانسانى فى هذه الحياة رغم كل الضغوط ، وكما قال أحد المربين ، لقد استطاعت التربية الاسلامية أن

تفجر طاقة الانسان الروحية ، وهذا أهم وأخطر من تفجير الطاقة المادية (3) ٠

2) عنيت بطاقة الانسان العقلية ، فحررت عقل الانسان المسلم من السحر والخرافة والشعوذة ، وهذا ما لمسناه فى بداية الدعوة الاسلامية من تحريم عبادة الاصنام والاوثان والاستقسام بالازلام ، وزجر الطير ، والاستماع الى هراء السحرة وتعاويذهم ٠

ذهبت التربية الاسلامية الى أبعد من ذلك حين أطلقت العنان للعقل البشرى كي يتدبر فى آيات الله ومخلوقاته ليستخرج مكنونات أسرار الخلق ، ويقف على حكم الله الكثيرة فى خلقه ، وتردد مثل هذا فى القرآن كثيرا ، لعلكم تعقلون ، لعلكم تفقهون ، لعلكم تتفكرون، « **ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا ، وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات الارض ربنا ما خلقت هذا باطلا** ٠٠٠ » (4) ٠

3) عنيت بالتربية الجسمية ، فالمسلم القوي خير وأحب الى الله من المسلم الضعيف ٠

هكذا أقبل المسلمون منذ أول عهد على تدريب أولادهم على السباحة والرماية ، وركوب الخيل ورفع الاثقال، وعلى تحمل المشاق والتعود على خشونة العيش ، كما كانت التربية الاسلامية تلزم المسلمين باتباع قواعد النظافة والنظام فى الطعام والملبس والمنام الخ ٠٠٠

بهذا التوجيه السديد استطاع المسلمون أن يبزوا غيرهم فى صناعة الاجسام ، واستطاعوا بعدها أن يقهروا العتاة ، وينتصروا على أعدائهم فى اغلب المعارك التى خاضوها مع قلة عددهم وعدتهم حتى وقف أعداؤهم مندهشين متسائلين عن مصدر هذه القوة وهذا البأس ، لكن سرعان ما زالت حيرتهم ودهشتهم حين عرفوا أنها التربية الاسلامية أحسنت وأكملت بناء وتنشئة الانسان السوي والانسان الصالح كما يقول الاستاذ عدنان سعد الدين ٠

4) عنيت التربية الاسلامية بالتوازن فى تكوين الانسان المسلم ، هادفة الى تربية متكاملة ، لا يطغى فيها جانب على آخر ٠ حاولت تربية الجسم والروح معا ٠

وازنت بين متطلبات الانسان الدنيوية والاخروية فى آن واحد « **وابتغ**

---

(3) مجلة منار الاسلام ، العدد الثانى ، السنة الثالثة ، ص 94 ٠

(4) سورة آل عمران ، آية 191 ٠

(5) سورة القصص ، آية 77 ٠

فيما اتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » (5) .

وازنت بين خوفه ورجائه « **يرجــون رحمته ويخافون عذابه » (6) .**

وازنت بين حبه وغضبه « أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغضك يوما مـا ، وابغض بغيضك هـونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » .

وازنت بين فرحه وحزنه : « **لكيلا لا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكــم » (7) .**

يقول الاستاذ عدنان سعد الدين : « هذا التوازن الدقيق الذى تهدف التربية الاسلامية الى ملاحظته ومراعاته فى التعليم والتوجيه ، وتكوين الشخصية المسلمة السوية ، بحيث ينتفى هـذا الخلق الذى ينتاب كثيرا من الناس فى طغيان جانب فى حياتهم على حسـاب الجانب الآخر » (8) .

5) عنيت التربية الاسلامية بتنميـة الملكات والفضائل ، يقول الشيخ البشير الابراهيمى : « يعتبر المسلم تلميـذا ملازما فى مدرسة الحياة ، دائما فيها ، دائبا عليها ، يتلقى ما تقتضيه طبيعته من نقص وكمال ، وما تقتضيه طبيعتها من خير وشر ، ومن ثم فان الاسلام يأخذه أخذ المربى فى مزيج من الرفق والعنف بامتحانات دورية متكررة ، لا يخــرج من امتحان فيها الا ليدخل فى امتحـان آخر وفى هذه الامتحانات من الفوائد مـا لا يوجـد فى الامتحـانـات المعروفة ... » (9) .

هذه الامتحانات تظهر فى الشعائـر التى فرضها الله على عـباده ، وفى التكاليف التى يظنها الجاهل لحكمـة الخلق ضروبا من التعبد الفارغ الذى لا طائل وراءه ، ولكنها فى حقيقة أمرها وسائل لتنمية ملكة الاقـدام على الخير والرحمة والاقلاع عن الشر وترويض النفس على الفضائل الشاقة لتتعود على الصبر والثبات والعزم والنظام والتحرر من استعباد الشهـوات الحيوانيـة . ولنأخذ كمثال على ذلك فريضة الصيام .

يقول الشيخ البشير الابراهيمى : « صوم رمضان محك للارادات النفسية، وقمع للشهوات الجسمية ورمز للتعبد فى صورته العليا ، ورياضة شاقة على هجر اللذائذ والطيبات ، وتدريب منظم على حمل المكروه من جوع وعطش ، وسكوت ، ودرس مفيد فى سياسة المرء لنفسه ، وتحكمه فى أهوائها وضبطـه بالجهد لنوازع الهزل ، والعبث فيها ، وتربية عملية لخلق الرحمة بالعاجـز المعدم ، فلولا الصوم لما ذاق الاغنيـاء

---

(7) سورة الحديد ، آية 22 .

(8) مجلة منار الاسلام ، العد الثانى ، السنة الثالثة ، ص 97 .

(9) جريدة الشعب ، عدد 459I .

الواجدون ألم الجوع ، ولما تصـوروا ما يفعله الجوع بالجائعين ... فلو ان جائعا ظل وبات على الطوى خمسا ووقف خمسا أخرى يصور للاغنيـاء ما فعل الجوع بأمعائه وأعصابه ، وكانت حاله أبلغ فى التعبير من مقاله ، ما بلغ فى التاثير ما تبلغه جوعة واحـدة فى نفس غني مترف ، لذلك كان نبينا امام الانبياء وسيد الحكماء أجود ما يكـون فى رمضـان » (15) .

---

(15) جريدة الشعب ، عدد 4591

الاسس الدينيــة للبيعــة
فى الاســـلام

د. عبد اللطيف عبــادة

بســم اللــه الرحمــن الرحيــم

مقدمة : لعل البعض يستغربون هذا العنوان لانه يتكلم عن الاسس الدينية للبيعة فى الاسلام ولم يتكلم عن أسس البيعة على الاطلاق • وكان مرادنا بهذا العنوان أن نبرز أن للبيعة أسسا دينية فى الكتاب والسنة والاجماع وهى كما نعلم جميعا المصادر الرئيسية للتشريع فى الاســلام ، ونــرمى فى النهــاية الى التأكيد على كون العقد الذى يربط الحاكم بالمحكوم فى الاسلام هو فعل تعبدى قبل أن يكون اجتماعيا • لذلك كان جديرا بأن يحظى برضى الله كما هو الحــال بالنسبة لبيعة الرضوان مثلا وكان جديرا بأن يحظى بدعمه وتأييده • وهذا ان دل على شيء فانما يدل على أن الدولــة الاسلامية ليست دولة لائكية كما يذهب الى ذلــك عــلى عبد الــرزاق وبعض المستشرقين •

تعريف البيعة وأنواعها :

ان القرآن وان نص عــلى البيعة أو المبايعة فى منطوق آياته وان السنة وان طبقت عمليا عملية البيعة فى عهــد الرسول (ص) فهما لم يعطيا الحق للامة فى اختيار حاكمها الاعلى المشرف عــلى جميع سلطات التنفيذ وهو الخليفــة أو الامام بنص الزامى صريح ، بل يتبين هذا الحق مما استقر عليه الاجماع فى عهد الخلفاء الاربعة الراشدين. ولا يخفى على أحد أن الشريعة الاسلامية لا تستمد من الكتاب والسنة فحسب ، بل تستمد كذلك من مصادر أخرى نذكر من بينها الاجماع •

فما هي البيعة يا ترى ؟ :

البيعة هي العهد على الطاعة طبقا لامر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز **« يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تاويلا » •**

ان المبايع يعاهد أميره على حد تعبير ابن خلدون على أن يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين ، لا ينازعه في شيء من ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره •

وكان المسلمون اذا بايعوا أميرهم او خليفتهم وعقدوا عهده وضعوا أيديهم في يده كما يفعل المصافح تاكيدا للعهد وتوثيقا لعقد البيعة كما يفعل البائع والمشتري • ونظرا لعلاقة الشبه هاته سمى العقد أو العهد بيعة ، مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالايدي (1) ، ويمكن تلخيص عناصر هذا التعريف في الآتي :

1 البيعة عقد أو عهد ولكل عقد شروط وأركان •

2 ـ للبيعة طرفان يقابلان البائع والمشتري في عملية البيع وهما الامير والمبايع •

3 ـ في البيعة مضمونان : أحدهما يتعهد به الامير والآخر يتعهد به المبايع •

4 ـ الشكل الذي تتم به المبايعة وهو المصافحة التي ترمز الى توثيق العهد •

5 ـ من يبايع ؟ هل هم أهل الحل والعقد كلهم أم بعضهم أم جمهور الناس ؟

ومهما يكن أسلوب تعيين او ترشيح الامام فانه يرتبط بالامة بمبايعة مزدوجة والمبايعة عقد ويمكن تعريفها بغايتها ألا وهي الارادة المشتركة في طاعة الله ورسوله • ومثل كل عقد فانها تفترض وجود طرفين : الامام وأهل الحل والعقد وهم الفقهاء وأهل العلم والسيادة في القوم وأصحاب الشوكة والتجربة والحنكة ويضيف اليهم هنري لاوست على خطا أهل الثراء (2) •

---

(1) عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ط 2 دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1961 ص : 370 •

(2) Henri Laoust : *Les Schismes dans l'Islam*. SNED, Alger 1979, p. 435.

ان المبايعة كغيرها من العقود يجب أن تترجم لدى الطرفين بفوائد مشتركة. ذلك أنها تعطى الامام قوة فعلية بدونها ستكون سلطته عديمة المفعول وتعطى بقية افراد الامة السلم وسائر الضمانات القانونية (3) .

ان الخلافة أو الامامة العظمى هي عقد أو عهد ـ عقد التزام ـ عقد ارتباط مبنى لا على القانون الطبيعى بل على القانون الشرعى الالهى ، يستلهم مثله الاعلى من بيعة العقبة الثانية التى تمت بين الرسول (ص) و 73 رجلا وامرأتين من الانصار ، نواة الامة الاسلامية المقبلة .

وان الطرفين المتعاقدين هما الامة الاسلامية من جهة التى يمثلها أهل الحل والعقد ومن جهة أخرى الخليفة المقبل ممثل الرسول (ص) الذى أرسل من عند الله ، وكل عقد فى الفقه الاسلامى مبنى على شروط وأركان . أما الشرط فيتمثل بالنسبة للبيعة فى قدرة الطرفين المتعاقدين وأما الركن فينبنى عبر ثلاث مراحل : تعيين الخليفة المقبل أو ترشيحه ـ العرض والقبول ـ انجاز العقد والمبايعة ، أما الشروط التى ينبغى أن تتوفر فى الخليفة وفى أهل الحل والعقد الذين يختارونه فسنشير اليها باختصار فيما بعد (4) .

ومن أنواع البيعة بيعة النبى (ص) وبيعة الخلفاء الراشدين ومنه أيمان البيعة . كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك ، فسمى هذا الاستيعاب أيمان البيعة ، وكان الاكراه فيها أكثر وأغلب كما يصرح بذلك ابن خلدون . ولهذا لما أفتى مالك (ض) بسقوط يمين الاكراه أنكرها الولاة عليه لانهم رأوها قادمة فى ايمان البيعة ، ووقع ما وقع من محنة الامام مالك (5) مع أبى جعفر المنصور (6) .

ذكر البيعة فى القرآن :

كانت بيعة الرضوان جديرة بأن تفوز برضى الله وتأييده . لذلك قال المولى عز وجل فيها وفى حق المؤمنين الصادقين

---

(3) Ibid., p. 435.

(4) Louis Gardef : *La cité musulmane : vie sociale et politique*. 4e édition, Vrin, Paris 1979, p. 167.

(5) عبد الرحمن بن خلدون . المرجع السابق . ص 370 .

(6) Henri Laoust, op. cit., p. 88.

الذين بايعوا الرسول(ص) تحت الشجرة :

« لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا » (7).

وقال سبحانه وتعالى : « **ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » (8)** ٠

وهكذا يتضح لنا الاهمية الدينية التى أعطاها المولى عز وجل للبيعة ، فهو يجعل من البيعة التى تمت تحت الشجرة أكثر من مجرد عقد بين المسلمين ورسول الله (ص) فهى عقد بين المسلمين وبين الله عز وجل لذلك كانوا جديرين بأن يفوزوا برضاه وبنصره ٠

كذلك كل بيعة مخلصة فى نيتها ومضمونها ستحظى من غير شك برضى الله وتأييده ٠ لان العقد الحقيقى فى الاسلام هو فعل تعبدى ٠

البيعة فى عهد الرسول (ص) :

تروى لنا كتب السيرة نبأ أربع بيعات تمت فى عهد الرسول (ص) وهى :

- بيعة العقبة الاولى ،
- بيعة العقبة الثانية ،
- بيعة الرضوان ،
- بيعة الفتح ٠

1 ـ بيعة العقبة الاولى :

وقعت هذه البيعة فى السنة 12 (الثانية عشرة) من البعثة ٠ وقد وافى فى هذه السنة موسم الحج أثنا عشر رجلا من الانصار فلقوا الرسول (ص) بالعقبة، وهى العقبة الاولى فبايعوه على نمط بيعة النساء وكان من ضمنهم أسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان ٠

وقد روى عبادة بن الصامت خبر هذه المبايعة ، فقال : كنا أثنى عشر رجلا ، فقال لنا رسول الله (ص) : « تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من

---

(7) سورة الفتح ٠ الآية 18 ٠

(8) سورة الفتح ـ الآية 10 ٠

ذلك شيئا فستره الله فأمره الى الله ان شاء عاقبه ، وان شاء عفا عنه »

رواه البخارى ومسلم ، قال عبادة بن الصامت فبايعناه على ذلك (9) ٠

واذا حللنا مضمون عقد البيعة وجدناه شبيها بمضمون بيعة النساء التى سنتحدث عنها أدناه ، وقد نص العقد على طاعة المسلمين لله والتزام حدوده وعلى طاعة الرسول فى المعروف ٠ غير أنه لم ترد الاشارة الى الجهاد لانه لم يفرض بعد على المسلمين فى حين أشير الى الجزاء ٠

2 ـ بيعة العقبة الثانية :

وقعت هذه البيعة فى السنة 13 من البعثة ، ويروى أن 73 رجلا وامراتين من الانصار اجتمعوا فى الشعب حتى جاءهم رسول الله (ص) ومعه عمه العباس فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب فى الاسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » ٠

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : « نعم ، والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أذرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أى السلاح كله) ورثناها كابرا عن كابر) ٠

فاعترض البراء أبو الهيثم بن التيهان قائلا : « يا رسول الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا » ٠ فتبسم رسول الله (ص) ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » ٠

وقد كان قال رسول الله (ص) : « أخرجوا الى منكم أثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومكم بما فيهم ، فأخرجوا منهم 12 نقيبا ، 9 من الخزرج و 3 من الاوس ، فلما تخيرهم قال للنقباء : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى » ٠ وكان أول من ضرب على يد رسول الله (ص) البراء بن معرور ثم بايع القوم كلهم بعد ذلك ٠

قال عبادة بن الصامت : « بايعنا رسول الله (ص) بيعة الحرب ، على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا

---

(9) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ٠ فقه السيرة ، ط 5 ، دار الفكر بيروت 1973 ٠ ص : 157 ـ 158 ٠

ومكرهنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الامر أهله ، وأن نقول بالحـــق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم » (10) ·

هذا ولم تقع بيعة العقبة الثانية الا بعد ان نزلت أول آية فى الاذن بالحرب وهى قوله تبارك وتعالى : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيــــع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز** » (11) ·

ومما يستنتج من بيعة العقبة الثانية :

1 ـ اذا كانت بيعة العقبة الاولى بيعة مؤقتة لانها لم ينص فيها على الجهاد ولان بنودها شبيهة ببنود بيعة النساء فان ورد النص على الجهاد بالقوة والدفاع عن رسول الله (ص) ودعوته بكل وسيلة فى بيعة العقبة الثانية ·

2 ـ ان بيعة العقبــــة الثانيـــة هى مبايعة لرسول الله (ص) على الطاعة فى العسر واليسر وفى المنشط والمكره وعلى عدم منازعة الامر أهله ·

3 ـ ونصت كذلك على الجهر بالحق دون خشية أحد الا الله ·

4 ـ وقد وقع أثناء هذه البيعة اختيار كفلاء القوم ونقبائهم ليكونوا شهداء على نص البيعة التى تمت ·

3 ـ بيعة الرضوان :

تمت فى شهر ذى القعدة آخر سنة (6) ست للهجرة · وسببها أن الرسول (ص) كان قد أرسل عثمان بن عفان (ض) الى قريش قبل كتابة صلح الحديبيـــة ليكلمهم فى الامر ، فاحتبسته قــريش عندها مدة ، وبلغ رســـول الله (ص) اذ ذاك أن عثمان بن عفان قد قتل ، فقال لا نبرح حتى نناجز القوم ، فدعــا رسول الله (ص) الى البيعة ، فكانت بيعة الرضون تحت شجرة هنالك · فكان (ص) يأخذ بيد أصحابه الواحد منهم تلو الآخر يبايعونه على ألا يفروا ، وأخــذ رسول الله (ص) بيد نفسه وقال : هذه عــن عثمان ·

ولما تمت البيعة انتهى الى رسول الله (ص) أن الذى بلغه من مقتـــل عثمان باطــل » (12) ·

---

(10) نفس المرجع ، ص : 168 ـ 169 ـ 170 ·

(11) سورة الحج ، الآية 37 ـ 38 ·

(12) البوطى ـ المرجع نفسه ـ ص 346 ·

وفي هذا السياق نزلت الآيتان السالفتان الذكر من سورة الفتح وهما الآيتان 10 و 18 ٠

ويمكن أن نقول عن هذه البيعة أنها بيعة حرب وقد نالت رضى الله سبحانه وتعالى كما أسلفنا٠ وان هذه البيعة هى النموذج لكل بيعة حقيقية فى الاسلام خصوصا البيعة التى وقعت فى عهد الخلفاء الراشدين ٠

4 ـ بيعة الفتح :

ان الناس فى اليوم الثانى من بعد الفتح اجتمعوا بمكة قصد مبايعة الرسول (ص) على السمع والطاعة لله ورسوله فى المنشط والمكره ، فلما فرغ الرسول (ص) من بيعة الرجال بايع النساء ٠

٠ بيعة النساء :

قال رسول الله (ص) لنساء قريش وفيهن هند بنت عتبة متنكرة : تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئا ، فقالت هند ، والله انك لتاخذ علينا أمرا ما أخذته على الرجال وسنؤتيكه ، قال : « ولا تسرقن قالت : والله ان كنت لاصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة ، وما أدرى أكان ذلك حلا لى أم لا ؟ فقال أبو سفيان ، وكان شاهدا لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل ٠

فقال (ص) : «وانك لهند بنت عتبة ؟» فقالت : «أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف عفا الله عنك ٠ قال : ولا تزنين ، قالت : وهل تزنى الحرة ! قال : ولا تقتلن أولادكن ٠ قالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا ، فأنت وهم أعلم ٠ فضحك عمر من قولها حتى استغرب ٠ قال : ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ، فقالت : والله ان اتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل قال : ولا تعصينني فى معروف ٠ فقال رسول الله (ص) لعمر : بايعهن واستغفر لهن رسول الله ٠ فبايعهن عمر ٠ وكان رسول الله (ص) لا يصافح النساء ولا يمس امرأة ولا تمسه الا امرأة أحلها الله له (13) ٠

والشيء الذى نستنتجه من هذه البيعة هو أن هناك صيغتين للبيعة أو نمطين : نمط للرجال ونمط للنساء ، وتختلف بيعة الرجال عن بيعة النساء باضافة البيعة على الحرب فى بيعة الرجال ٠ ذلك أن البيعة مرتبطة بالقدرة ٠ وقد روى عن عبد الله ابن عمر (ض) قال : كنا اذا بايعنا رسول

(13) نفس المرجع ـ ص : 396 ـ 397 ٠

الله (ص) على السمع والطاعة يقول لنا : « فيما استطعتم » رواه البخارى ومسلم .

والنتيجة العامة التى نخرج بها هى أن البيعة فى عهد الرسول (ص) كانت بيعة على الطاعة فى المنشط والمكره وكانت خالصة لوجه الله فحظيت برضاه . وكان حريا بهذا النوع من البيعة أن يصبح مثالا يحتذى من قبل المسلمين فى مبايعة خلفائهم . ذلك أن الاقتداء برسول الله (ص) أمر دأب عليه المسلمون فى جميع أمورهم . وقد ذكر ابن خلدون بيعة العقبة وبيعة الرضوان فى مقدمة وفى طليعة أنواع البيعة : « وهو المراد فى الحديث فى بيعة النبى (ص) ليلة العقبة وعند الشجرة الخ ... » (14) . ويقول فؤاد محمد شبل : « وعلى هذا المنهاج كانت الصحابة ـ وقد أخذوه عن النبى (ص) فقد بايعوه (ص) تحت الشجرة ـ وبايع أهل المدينة النبى (ص) عندما هم بأن يهاجر اليهم ، وبايعه أهل مكة عندما فتحها ، ودخل أهلها فى طاعته ومنهم النساء » (15) .

مضمون عقد البيعة :

ان مناط البيعة أن يعاهد المبايع الخليفة أو الامير على أن يسلم له النظر فى أمر نفسه وفى أمور المسلمين لا ينازعه فى شىء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على ما ينشط له الانسان ويحبه وما يكرهه ويبغضه ، ما لم تكن معصية لانه «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» (16) . ولقد سبق لنا أن رأينا أن الرسول (ص) نفسه لم يعاهد الا على الطاعة فى المعروف . وفى هذا يقول ابن خلدون فى مقدمته : « اعلم أن البيعة هى العهد على الطاعة ، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين ، لا ينازعه فى شىء من ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره » (17) .

---

(14) ابن خلدون ـ نفس المرجع ـ ص 371 .

(15) فؤاد محمد شبل ـ الفكر السياسى ـ دراسات مقارنة للمذاهب السياسية والاجتماعية . مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر 1974 ـ الجزء الاول ـ ص 235 .

(16) نفس المرجع ـ ص : 234 ـ 235 .

(17) ابن خلدون ـ نفس المرجع ـ ص 370 .

ويتعهد الخليفة بالمقابل بأن يقيم الحدود والفرائض ويسير على سنة العدل وعلى مقتضى كتاب الله وسنة رسوله (ص) وفى هذا يقول القاضى أبو يعلى الفراء فى « كتاب الامامة » : وصفة العقد أن يقال له قد بايعناك على بيعة رضى على اقامة العدل والانصاف والقيام بفروض الامامة ونحو ذلك » (18) · وقال الماوردى « والذى يلزمه من الامور العامة عشر أشياء : أحدهما حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الامة ، فان نجم مبتدع أو وازع ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، ليكون الدين محروسا من خلل والامة ممنوعة من زلل ؛ الثانى تنفيذ الاحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة ، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم ؛ الثالث حماية البيضة والذب عن الحريم ليتصرف الناس فى المعايش وينتشروا فى الاسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال ؛ والرابع اقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من اتلاف واستهلاك ؛ والخامس تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يظهر الاعداء بغرة ينتهكون فيها محرما أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دما ؛ والسادس جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل فى الذمة ليقام بحق الله تعالى فى اظهاره على الدين كله ؛ والسابع جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير خوف ولا عسف ؛ والثامن تقدير العطايا وما يستحق فى بيت المال من غير عسف ولا تقتير ودفعه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير ؛ التاسع استكفاء الامناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه اليهم من الاعمال ويكله اليهم من الاموال لتكون الاعمال بالكفاءة مضبوطة والاموال بالامناء محفوظة ؛ العاشر ان يباشر بنفسه مشارفة الامور وتصفح الاحوال لينهض بسياسة الامة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة فقد يخون الامين ويغش الناصح » (19) .

(18) نقلا عن نصوص الفكر السياسى الاسلامى ـ الامامة عند السنة لصحابه يوسف أيبش ، دار الطليعة ـ بيروت ـ ص 224 ·

(19) نقلا عن المرجع نفسه ـ ص : 160 ـ 161 وقد يحصها الحسن البصرى فى أربعة وهى : « الحكم والفيء والجمعة والجهاد » ·

وهكذا فالبيعة بمثابة عقد دينى اجتماعى بين الخليفة والامة . وبمقتضاه يتعهد الخليفة بالحفاظ على مصالح الرعية ، وتبذل له ـ مقابل ذلك ـ الولاء والالتزام (20) .

أطراف البيعة :

يقول العلامة المرحوم الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية الاسبق فى كتابه عن «حقيقة الاسلام وأصول الحكم» « ان منصب الخليفة انما يكون بمبايعة أهل الحل والعقد ، وان الامام انما هو وكيل الامة ، وان أفرادها هم الذين يولونه السلطة ... فمصدر قوة الخليفة هو الامة ، وهو انما يستمد سلطانه منها والمسلمون هم أول أمة قالت بأن الامة مصدر السلطات » (21) .

وقوله غير بعيد عن قول شيخ الاسلام ابن تيمية : « ومذهب أهل السنة أن الامامة تنعقد عندهم بموافقه أهل الشوكة ... الذين يحصل بهم مقصود الامامة وهو القدرة والتمكن . فلا يشترط فى صحة الخلافة الا اتفاق أهل الشوكة والمجهود ... ولا ريب أن الاجماع المعتبر فى الامامة لا يضر فيه تخلف الواحد والاثنين ، ولو اعتبر ذلك لم تنفذ امامة .. فلا يقدح فى اتفاق أهل الحل والعقد شذوذ من خالف» (22) وقال : « ان الامامة عندهم تثبت بموافقة أهل الشوكة عليها ، ولا يصير الرجل اماما حتى يوافقه أهل الشوكة الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الامامة ، فان المقصود من الامامة انما يحصل بالقدرة والسلطان ، فاذا بويع بيعة حصلت بها القدرة والسلطان صار اماما » (23) .

وهكذا يتبين أن الاسلام يعهد باختيار الخليفة الى أهل الحل والعقد ، وهم أئمة المسلمين وفقهاؤهم ورؤساء عشائرهم وأمراء أجنادهم وذوو الشوكة والمكانة

---

(20) فؤاد محمد شبل ، نفس المرجع ص 235 .

(21) الدكتور على عبد الواحد وافى ـ حقوق الانسان فى الاسلام ـ ط4 دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة 1967 ، ص 241 .

(22) أبو العباس تقى الدين أحمد بن تيمية ـ منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية . تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ـ مكتبة دار العروبة . القاهرة 1962 . الجزء الاول ص 367 و 368 .

(23) نفس المرجع ، ص 365 .

والرأى فيهم . وهؤلاء هم الممثلون الحقيقيون ـ فى نظر الدكتور عبد الواحد وافى للامه والمعبرون تعبيرا صادقا عن اهدافها وتطلعاتها ومطامحها (24) وهو الرأى الاصوب فى نظرنا ذلك لان ما ينتهى اليه أهل الحل والعقد بالاجماع او بالاغلبية هو ما يمكن أن ينتهى اليه راى الامة عن طريق الاستفتاء العام .

غير أن البعض وفى مقدمتهم رشيد رضا فى كتابه الخلافة يرى أن أهل الحل والعقد يعنى بهم الامة (25) .

وقد طبقت هذه الفكرة الواسعة عند الاعلان عن الجمهورية المصرية فى ماى وجويلية 1953 ، ففى ماى وقع حفل عمومى للبيعة الجمهورية وتمت باسم الله وطبقا للقرآن.وكرر نجيب بعض العبارات الشهيرة التى وردت فى خطاب أبى بكر عند بيعة السقيفة . وتمت البيعة بنصها مع ترديد الجمهور .

وفى جويلية وقع حفل البيعة من طرف العلماء لاهل (الحل والعقد) فى المسجد الجامع الازهر وتمت البيعة من طرف ممثلى الامة .

والملاحظ أن نجيبا قد قدم البيعة العامة على بيعة أهل الحل والعقد وأولاها أهمية كبرى كما هو الحال فى الانظمة الانتخابية (26) غير أن المسلمين والاوائل يولون أهمية كبرى لمبايعة أهل الحل والعقد كما رآينا ذلك عند ابن تيمية .

وهكذا يتبين أن أطراف البيعة هم : الخليفة من جهة وأهل الحل والعقد من جهة أخرى وهم ممثلو الامة وقد يضاف الى ذلك بيعة الامة بأسرها .

شروط البيعة وأركانها :

من ضمن الشروط قدرة الطرفين المتعاقدين وأهليتهما :

ما هى مؤهلات أهل الحل والعقد ؟ :

كى يتمكن أهل الحل والعقد من تعيين الخليفة يجب أن يحوزوا بصفة خاصة على المؤهلات الآتية : العدالة والعلم بشروط منصب الخلافة والذكاء والحكمة اللذان يسمحان لهم بتمييز الشخص الاكثر أهلية لهذا المنصب . كما يجب عليهم أن يكونوا أساسا قادرين على الاجتهاد باطلاعهم الواسع على أحكام القرآن والسنة والفقه (27) .

(24) الدكتور على عبد الواحد وافى ، نفس المرجع ، ص 240 .
(25) Louis Gardet. Op. cit. p. 165.
(26) Ibid. pp. 368 et 367.
(27) Ibid. p. 167.

ولا يبايع أهل الحل والعقد وسائر أفراد الامة الا على ما يستطيعون كما ورد فى الحديث الشريف ، ذلك أنه روى عن عبد الله بن عمر (ض) أنه قال : « كنا اذا بايعنا رسول الله (ص) على السمع والطاعة يقول لنا : فيما استطعتم » ٠

أما العدد الذى تنعقد به البيعة فيتمثل فى الاغلبية من أهل الحل والعقد « ولا ريب أن الاجماع المعتبر - على حد تعبير ابن تيمية - فى الامامة لا يضر فيه تخلف الواحد والاثنين ، ولو اعتبر ذلك لم تنفذ امامة ٠٠٠٠ فلا يقدح فى اتفاق أهل الحل والعقد شذوذ من خالف » (28) ٠

هذا وان الماوردى يرى أن الامامة تنعقد من وجهين : أحدهما باختيار أهل الحل والعقد ، والثانى بعهد الامام من قبل ٠ فأما انعقادها باختيار أهل الحل والعقد فقد اختلف العلماء فى عددهم ٠ فقالت طائفة : لا تنعقد الا بجمهور أهل الحل والعقد من كل بلد ٠ وهو مذهب مدفوع فى رأى الماوردى ببيعة أبى بكر ٠ وقالت طائفة ثانية : أقل من تنعقد به منهم الامامة خمسة يجتمعون على عقدها أو يعقدها أحدهم برضى الاربعة٠ وقالت طائفة ثالثة تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الاثنين وقالت طائفة رابعة تنعقد بواحد (29) ، والاشاعرة هم الطائفة الاخيرة واختلفوا هل يفتقر العقد لشهادة اثنين أم لا ؟ فمنهم من قال يفتقر ، ومنهم من قال لا يفتقر ٠ والاصح فى نظرنا أن الامامة تنعقد باجماع أهل الحل والعقد « لان الامام يجب الرجوع اليه ولا يسوغ خلافة والعدول عنه كالاجماع ، ثم ثبت أن الاجماع يعتبر فى انعقاده جميع أهل الحل والعقد ، كذلك عقد الامامة له » (30) ٠

أما شروط منصب الخليفة فهى خمسة :

1 - العلم ،

2 - العدالة ،

3 - الكفاية ،

4 - سلامة الحواس والاعضاء ،

5 - القرشية (31) ٠

---

(28) نقلا عن كتاب الدكتور على عبد الواحد وافى السابق الذكر ، ص 241 ٠

(29) نقلا عن نصوص الفكر السياسى الاسلامى المذكور أعلاه ، ص 150 ٠

(30) فؤاد محمد شبل ، المرجع السابق ، ص ص 231 و 232 ٠

(31) نقلا عن نصوص الفكر السياسى الاسلامى المذكور أعلاه ، ص ص 316 و 317 ٠

أما الغزالى فيعتقد أن شروط منصب الخليفة نوعان : فطرى ومكتسب ·

أما الشروط الفطرية فهى : البلوغ والعقل والحرية والذكورية والقرشية وسلامة حاسة السمع والبصر ·

أما الشروط المكتسبة فهى النجدة والكفاية والعلم والورع (32) ، والواقع أن دراسة هذه الشروط دراسة موضوعية يمكن أن يفرد له بحث بعينه ، غير أننا نريد من وراء سردنا لهذه الشروط أن تبين أنه يشترط فى المرشح للخليفة شروط بدونها لا تنعقد امامته ·

مستلزمات البيعة :

يقول أحمد بن حنبل : « من خرج على امام من أئمة المسلمين ـ وقد كان الناس قد اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة ··· فقد شق هذا الخارج عصا الطاعة وخالف الآثار عن رسول الله (ص) فان مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية » (32) · وفى الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال : دعانا رسول الله (ص) فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على : السمع والطاعة ، فى منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الامر أهله الا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان » (33) ·

وقد قال المولى عز وجل فى محكم تنزيله فى الآية 59 من سورة النساء : **« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله · وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا »** ·

وهذا ان دل على شىء فانما يدل على وجوب الطاعة فى المعروف وحرمة الخروج على أئمة المسلمين · هذا دون أن ننسى بأن الشرع يفسح أمام المسلمين مجال فسخ عقد البيعة · وهذه النقطة وحدها تحتاج الى بحث مطول ·

بيعة الاكره :

يقوء ابن خلدون فى مقدمته : « كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الأيمان كلها لذلك،فسمى هذا الاستيعاب أيمان البيعة ، وكان الاكراه فيها أكثر وأغلب · ولهذا لما أفتى مالك رضى الله عنه بسقوط يمين الاكراه أنكرها الولاة عليه ، ورأوها قادحة فى أيمان البيعة ،

---

(32) فؤاد محمد شبل ، المرجع السابق ، ص 236 ·

(33) ابن تيمية ، المرجع السابق ، ص 390 ·

ووقع ما وقع من محنة الامام (ض) »(34)
وقد وقعت محنته فى عهد أبى جعفر المنصور · يقول الدكتور صحيحى الصالح : « وظل الامام مالك منقطعا عن الخلفاء العباسيين حتى عام 146 هـ ، ولقى منهم ضروب التعذيب ، ويعتقد بعض المؤرخين أن فتوى مالك كان لها علاقة بثورة محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بالمدينة المنورة وهو الملقب بالنفس الزكية ·

وكان للنفس الزكية سمعة حسنة بين المسلمين وكان له فى أعناق الكثيرين بيعة تمت بالشورى والاختيار ·

وقد عمل أبو جعفر المنصور على استدراجه للاسراع بالخروج بخطة جهنمية ذات ثلاث شعب :

ـ بدس العيون فى صفوفه كي يختبر المواقف والاشخاص ·

ـ ضيق عليه وعلى أتباعه الخناق وأرهقهم من أمرهم عسرا بتجنيد العيون والجواسيس ·

ـ العمل على التعجيل بخروجه قبل أن يكتمل له التمكن والاستمداد ·

أجبرت خطة المنصور النفس الزكية على اعلان الخروج فى أول رجب سنة 145 هـ. أو لليلتين من جمادى الآخرة ·

وأفتى بالخروج معه وتأييده مالك ابن أنس على ما يروى الطبرى · ولما سأله الناس : ان فى أعناقنا بيعة لابى جعفر ؟ قال : انما بايعتم كارهين ، وليس على كل مكره يمين » !

فأسرع الناس الى بيعة النفس الزكية من علويين وأبناء المهاجرين وأبناء الانصار وسائر قريش · وهزموا يوم الاثنين 14 من رمضان سنة 145هـ، وقتل النفس الزكية ·

وهكذا اختفت هذه الحركة التى قادها محمد بن عبد الله كى يعيد بها الخلافة شورى (35) ·

فقد ضربه حاكم المدينة جعفر ابن سليمان بالسياط حتى انخلعت كتفه ، فكان يستعين على حمل يده اليمنى

---

(34) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص 370 ·

(35) دكتور محمد عمارة ، المعتزلة والثورة · المؤسسة العربية للدراسات والنشر · بيروت 1977 · ص ص من 99 الى 104 ·

باليسرى ، لانه أفتى بفساد بيعة الخلفاء بالقهر والاكراه » (36) ·

وانه من المعلوم أن البيعة التي كانت في عصر الصحابة تقوم على الرأى الحر والتزام الطاعة اختيارا وعن رضى · أما في العهد الاموى فقد صارت لغرض الحكم والاجبار على الطاعة · وكذلك الامر في العصر العباسى · ولقد اخترع الحجاج وأشباهه صيغا مختلفة يتبرأ منها الدين الاسلامى · فكان يجبر الناس أن يقولوا في بيعتهم : « عبيدى أحرار ونسائى طوالق ان خرجت عن طاعة الخليفة » (37) ·

وان بيعة الاكراه انحراف واضح عما أجمع عليه المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين ·

تطبيق البيعة في المجال التاريخي :

1 ـ بيعة أبى بكر الصديق :

لقد ثبتت صحة امامته بالاختيار لا بالنص الخفى ، ولم يتخلف عن بيعته الا نفر قليل كان على رأسهم سعد ابن عبادة وفي هذا يقول شيخ الاسلام ابن تيمية والصديق « صار اماما ··· بمبايعة أهل القدرة له » « ولو قدر أن عمر وطائفة معه بايعوه ، وامتنع سائر الصحابة عن البيعة، لم يصر اماما بذلك» « كما أن من ظن أن تخلف الواحد أو الاثنين أو العشرة يضر فقد غلط » (38). « فجمهور الذين بايعوا رسول الله (ص) هم الذين بايعوا أبا بكر » (39) ·

وهكذا صحت بيعة أبى بكر بمبايعة أغلبية أهل الحل والعقد له ·

بيعة عمر بن الخطاب :

واما عمر فان أبا بكر عهد اليه وبايعه المسلمون بعد وفاة أبى بكر (ض) ، فصار اماما وأميرا للمؤمنين لما حصلت له القدرة والسلطان بمبايعتهم له »(40).

بيعة عثمان بن عفان :

أما عثمان (ض) فلم يصر اماما باختيار الستة من الصحابة أو بعضهم ورضا

---

(36) الدكتور صبحى الصالح · النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ، ط 2 دار العلم للملايين · بيروت 1976 ، ص 214 ·

(37) فؤاد محمد شبل ، المرجع السابق ، ص 235 ·

(38) ابن تيمية ، المرجع السابق ، ص ص 367 و 368 ·

(39) نفس المرجع ، ص 368 ·

(40) نفس المرجع ، ص 369 ·

البعض الآخر ، بل بمبايعة الناس له ، وجميع المسلمين بايعوه ولم يتخلف عن مبايعته أحد (41) ٠

بيعة علي بن أبي طالب :

ان اتفاق المسلمين ومبايعتهم لابي بكر وعمر وعثمان ، أعظم من اتفاقهم على بيعة علي (كرم الله وجهه) وقد حصلت له البيعة باتفاق أغلبية المسلمين (42) ٠ وهذا لا يقدح في خلافة علي ، لان الخلافة تنعقد بمبايعة الاغلبية من أهل الحل والعقد (43) ٠

اما بيعة بني امية وبني العباس ومن بعدهم فيغلب عليها الاكراه ٠

الخلاف بين الفرق الاسلامية :

اذا كان **الشيعة** يقولون أن أبا بكر اغتصب الخلافة بالقهر والغلبة ويعتقدون أن الاجماع لم يتم على امامته لان عليا وبني هاشم وسعد بن عبادة زعيم الخزرج وأتباعه والزبير والمقداد لم يبايعوا وكذلك غيرهم من خيار الصحابة ، بايعوا بالقهر والغلبة ، كأبي ذر وسلمان الفارسي وعمار وحذيفة وبريرة وغيرهم ٠ ويستشهدون على فساد بيعة أبي بكر بقول عمر : « كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها فمن عاد الى مثلها فاقتلوه » ٠ وكونها فلتة يدل على أنها لم تقع - في اعتقاد الشيعة - عن رأى صحيح ثم سأل وقاية شرها ثم أمر بقتل من يعود الى مثلها وكل ذلك يوجب الطعن فيها ٠

ويعتقد الشيعة أن امامة علي ثابتة بالنص وكذلك امامة بنيه من بعده وهي كذلك ثابتة بادلة عقلية ونقلية (44) ٠

أما أهل **السنة** فيعتقدون أن الخلافة واجبة بالاجماع وأنها انما تنعقد بالاختيار والبيعة ٠ وقليل من أهل السنة هم الذين يقولون بثبوت خلافة أبي بكر بالنص ٠ وانما صحت خلافة أبي بكر باجماع أهل الحل والعقد ٠ ولا يضر تخلف سعد بن عبادة عن بيعته لانهم كانوا قد عينوه للامارة فبقي في

---

(41) نفس المرجع ، ص 369 ٠

(42) نفس المرجع ، ص 370 ٠

(43) د٠ علي عبد الواحد وافي ، المرجع السابق ، ص 245 ٠

(44) محمد جواد مغنية ٠ معالم الفلسفة الاسلامية ٠ دار العلم للملايين ، بيروت 1960 ، ص ص 197 الى 204 ٠

نفسه ما يبقى فى نفوس البشر • وهو مع ذلك لم يعارض • ولا يضر تخلف الواحد او الاثنين أو العشرة ومن ظـن ذلك فقد غلط لان الامامة انما تنعقـد باغلبية اهل الحل والعقد • وجمهـور الذين بايعوا رسول الله (ص) بايعوا أبا بكر •

ويعتقدون أن صحة خلافـة عمـر بترشيح أبى بكر ومبايعة الناس لـه وخلافة عثمان بنص عمر على ستة هـو أحدهم ومبايعة الناس له • وصحـة خلافة على بمبايعة اهل الحل والعقـد له (45) •

واذا كان عمر قد سبق الى بيعـة أبى بكر (ض) • ولكن سبقه اليها لا يعنى أنها تمت على كره من المسلمين ، بل قد تمت بالمشورة والرضى والاتفـاق وان سماها عمر نفسه « فلتة » وقعت بغتة من غير روية : فانه لما عاد الى المدينـة من آخر حجة له بمكة قبيل وفاته خطب يقول : « ••• ثم انه قد بلغنى أن فلانا قال : والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلانا ••• فلا يغرن امرءا أن يقول : ان بيعة أبى بكر كانت فلتـة فتمت أو انها قد كانت كذلك ، الا أن الله قد وقى شرها ، وليس فيكم من تنقطع اليه الاعناق مثل أبى بكر ! فمن بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين فانه لا بيعة له ، هو ولا الذى بايعه : تغرة أن يقتلا ! » (46) •

الخلاف بين المفكرين المسلمين :

فساد النص وضرورة الاختيار :

ان الشيعة يعتقدون ان الرسول (ص) نص على امامة على ويعتقد الرواندية أنه نص على امامة عمه العباس ويعتقد بعض أهل السنة انه نص على امامة أبى بكر • غير أن الرأى الاصوب فى نظر الاشعرى وفى نظرنا هو قول من « قال هو أبو بكر هو باجماع المسلمين والشهادة له بذلك ثم رأينا عليا والعباس قد بايعاه وأجمعا على امامته وجب أن يكون اماما بعـد النبى (ص) باجماع المسلمين » ولا يجوز الاجتماع بأن باطـن عـلى والعباس كان خلاف ظاهرهما والا بطل بذلك كـل اجماع (47) •

---

(45) ابن تيمية ، نفس المرجع ، ص ص 340 الى 378 •

(46) الدكتور صبحى الصالح ، نفس المرجع ، ص 283 •

(47) نقلا عن نصوص الفكر السياسى الاسلامى المذكور أعلاه ، ص 22 •

ويقول الغزالى : « فاما دعوى النص الصريح المتواتر ، فمحال من وجوه ··· أحدهما انه لو كان كذلك متواترا لما شككنا فيه ، كما لم يشك فى وجود على (كرم الله وجهه) ولا فى انتصابه للخلافة بعد رسول الله (ص) ولا فى أمر رسول الله (ص) بالصلاة والصيام والزكاة والحج ··· وعلى هذه الجملة فلا تتميز دعواهم عن دعوى البكرية ··· ولا عن دعوة الروندية (48) ·

وأبو بكر وعلى وغيرهما من الخلفاء الراشدين لم يصيروا أئمة الا بمبايعة الناس لهم ·

انعقـــاد البيعـــة :

اذا كان الاشاعرة يعتقدون أن الامامة تنعقد بواحد واختلفوا فى شهادة الاثنين هل تجب أم لا ؟ فان ابن تيمية ومـــن بعده رشيد رضا لا يرضيان بذلـك · يقول ابن تيمية : « فمن قال انه يصير اماما بموافقة واحد أو أثنين او أربعة وليسوا من ذوى القدرة والشوكة فقد غلط كما أن من ظن أن تخلف الواحد أو الاثنين أو العشرة يضر ، فقـــد غلط » (59) ·

ولايـــة العهـــد :

يقول الماوردى : « وأما انعقاد الامامة بعهد من قبله ، فهو مما انعقد الاجماع على جوازه ووقع الاتفاق على صحتـــه لامرين ، عمـــل المسلمون بهما ولـــم يتناكروهما : أحدهما ان أبا بكر (ض) عهد بها الى عمر (ض) فاثبت المسلمون امامته بعهده والثانى أن عمر (ض) عهد بها الى أهل الشورى فقبلت الجماعـــة دخولهم فيها ، وهـــم أعيـــان العصر ، اعتقادا لصحة العهد بها ، وخرج باقى الصحابة منها » (50) ·

واستنادا الى نفس الحجج يقول ابن خلدون : « اعلم أنا قدمنا الكلام فى الامامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة، وأن حقيقتها النظر فى مصالح الامـــة لدينهم ودنياهم ، فهو وليهم والامـــين عليهم ينظر لهم ذلك فى حياته ، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ، ويقيـــم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها،

(48) نقلا عن نفس المرجع ، ص ص 296 و 297 ·

(49) ابن تيمية ، نفس المرجع ، ص 368 ·

(50) نقلا عن نصوص الفكر السياسى الاسلامى المذكور أعلاه ، ص ص 153 و 154 ·

ويثقون بنظره لهم فى ذلك كما وثقوا به فيما قبل » (51) ·

والرد على ذلك يكون بنقض هـــذا الاجماع المزعوم ، ذلك أن أبا بكر (ض) لم يعهد الى عمر الا بعد أن استشار أهل الحل والعقد « وبايعه المسلمون بعـد موت أبى بكر ، فصار اماما لما حصلت له القدرة والسلطان بمبايعتهم له» (52).

وعثمان لم يصر اماما باختيـــار عبد الرحمن بن عـــوف وبعض الصحابـــة الآخرين : « بل بمبايعة الناس له» (53). يقول الامام أحمد : « ما كان فى القوم أوكـــد بيعـــة من عثمـــان كانـــت باجماعهم » (54) ·

ومن هنا يتضح لنا مبلغ الخطا فيما ذهب اليه الماوردى وابن خلدون وغيرهما اذ قررا : أن للامام الحق فى أن يولى على المسلمين من يخلفه وأن ينصب ولى عهد له · واستنادهم الى وصيتى أبى بكر وعمر (ض) فى غير محلـــه · ذلك أن وصيتيهما هما من قبيل ابداء الرأى الشخصى ومن قبيل الترشيح فحسب · ولم يصر عمر وعثمان امامين الا بعد أن بايعهما أهل الحل والعقد (55) ·

وخلاصـــة القـــول فى هذا البـاب نستخرجها من الجزء الثانى من الفتنة الكبرى · يقول طه حسين بصدد الحديث عن تولية معاوية لابنه يزيد عهده « ولم يكره المسلمون شيئا فى الصدر الاول من أيامهم كما كرهوا وراثة الخلافة » · فابو بكر لم يعهد الى ذويه بل عهد الى عمر بعد مشاورة أهل الحل والعقد وترك للمسلمين أمر مبايعته · « وزجر عمر من طلب اليه ان يعهد لعبد الله ابنه ··· ولم يخطر لعثمان أن يعهد الى أحد ··· وأبى على أن يستخلف وقال لاصحابه حين سالوه ذلك أتركهم كما تركهـــم رسول الله · وساله الناس : أيبايعون الحسن ابنه ؟ فقـــال : لا آمركـــم ولا أنهاكم » · وقد استكره معاويـــة الحسين بن على وعبـــد الله بن عمـــر وعبد الله بن الزبير وعبـــد الرحمـــن

---

(51) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ص ص 371 و 372 ·

(52) ابن تيمية ، نفس المرجع ، ص 369 ·

(53) نفس المرجع ، ص 369 ·

(54) نفس المرجع ، ص 369 ·

(55) د· على عبد الواحد وافى ، نفس المرجع ، ص 245 ·

ابن أبى بكر على الصمت عند توليته العهد لابنه : « فالشيء المحقق هو أن معاوية قد استكره هؤلاء النفر على الصمت بعد ان لم يستطع أن يستكرههم على البيعة ... وكذلك استقر فى الاسلام لاول مرة هذا الملك الذى يقوم على البأس والبطش والخوف ، والذى يرثه الانباء عن الآباء » . ورحم الله الحسن البصرى الذى عد هذا الامر من أكبر الموبقات فى قوله « واستخلافه ابنه بعده سكيرا خميرا يلبس الحرير ويضرب بالطنابير » (*) .

بين البيعة والانتخاب :

ويعتقد الدكتور عبد الواحد وافى أن مقارنة بسيطة مع ما يجرى فى عالمنا اليوم تبين لنا جوهر البيعة أى انتخاب رئيس الدولة فى الاسلام :

1 ـ الجمهوريات الرياسية : ينتخب الرئيس من طرف جميع الافراد المكلفين الراشدين .

2 ـ الجمهوريات البرلمانية : يختار رئيس الدولة من طرف البرلمان الذى هو السلطة التشريعية .

3 ـ أما الاسلام فيعهد بهذه المهمة لاهل الحل والعقد وهم أئمة المسلمين وفقهاؤهم ورؤساء عشائرهم وأمراء أجنادهم وذوو الشوكة والمكانة والرأى فيهم (57) .

فى حين يعتقد أبو الاعلى المودودى أن انتخاب الرئيس فى الدولة الاسلامية

---

(56) طه حسين ، اسلاميات ، ط 1 دار الآداب ، بيروت 1967 ، ص ص 1012 و 1013 و 1014 .

(*) يقول الجاحظ فى رسائله : « فعندما استوى معاوية على الملك ، واستبد على بقية الشورى ، وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين فى العالم الذى سموه عام الجماعة ، وما كان عام جماعة ، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذى تحولت فيه الامامة ملكاكسرويا ، والخلافة غصبا قيصريا ، ولم يعد ذلك أجمع : الضلال والفسق ـ ! » « نقلا عن المعتزلة والثورة المذكور أعلاه ص 48 » .

(57) د. على عبد الواحد وافى ، نفس المرجع ، ص 240 .

متوقف على رضاء عامة المسلمين ولا حق لاحد أن يسلط نفسه على رؤوسهم بالقسر والاكراه (58) ·

أما عن الكيفية التى يتضح بها رضا عامة المسلمين ، فان الاسلام لم يضع لهذا الغرض طريقا · يقول محمد أسد : «ان الشريعة لا تضع نظاما خاصا لانتخابه ولا تحدد هيئة الناخبين » (59) · ويعتقد محمد أسد من جهة أخرى انه يجوز تحديد المدة الرئاسية كما يجوز التنصيص على الحق فى اعادة الترشيح » (60) ·

أما الدكتور على عبد الواحد وافى فيعتقد : « أن الخليفة يتولى منصبه طول حياته الا اذا عزله المسلمون أما رياسة الجمهورية فمحددة بأجل » (61) ·

ومن المسلم به أن المسلمين سواسية فى حق التصويت وابداء الرأى وأن انتخاب الامير لا يكون الا على أساس من الشروط المذكورة آنفا وأنه لا ينتخب للامارة الا من كان المسلمون يثقون به وبسيرته وبطباعه وخلقه وأنه لا ينتخب من يرشح نفسه للامارة (62) ·

ولا شك أن المبايعة أطهر من الانتخابات فى أيامنا هذه وذلك لانها تخلص النية لوجه الله ولانها خالية من التدليس والغش ·

النتيجة : لقد وصلنا الى نهاية المطاف لذلك يجدر بنا أن نؤكد على بعض الافكار الرئيسية وهى :

1 ـ ان الحكومة الاسلامية ليست مفصولة عن الدين وبالتالى فهى ليست لائكية ·

2 ـ البيعة هى الانتخاب مطهرا من جميع طرق الغش والتدليس ·

3 ـ لا مجال لبعض الآراء المتطرفة القائلة بجواز ولاية العهد ·

4 ـ عقد البيعة عقد اجتماعى ـ دينى يرمى الى تطهير المجتمع ·

والله ولى التوفيق بمنه ولطفه ·

---

(58) أبو الاعلى المودودى ، نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور · ترجمة الاصلاحى وراجعه الندوى والحداد · مؤسسة الرسالة ، بيروت 1969 ، ص ص 278 الى 284 ·

(59) و (60) محمد أسد ، منهاج الاسلام فى الحكم ، ترجمة ماضى ، ط 3 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1967 ص ص 85 و 86 ·

(61) على عبد الواحد وافى ، نفس المرجع ، ص 241 (انظر الهامش) ·

(62) أبو الاعلى المودودى ، نفس المرجع ، ص ص 57 و 58 و 59 ·

مساهمة بعض الشخصيات السودانية
فى نشر الاسلام فى غرب افريقيا السوداء

عمار هلال
جامعة وهران

قبل أن نتطرق الى فحوى هذا الموضوع ، يجدر بنا أن نعطى ولو صورة بسيطة عن انتشار الاسلام فى غرب افريقيا السوداء ، وعن النتائج التى ترتبت عن هذا الانتشار بالنسبة للقارة السمراء من جهة ، وبالنسبة للاسلام كديانة سماوية سمحة ذات أعراف وقوانين اجتماعية واقتصادية وسياسية عادلة ، تسوى بين كل الفئات الاجتماعية ، بل تسوى بين الرئيس والمرؤوس نفسهما من جهة أخرى ٠

انتشار الاسلام فى غرب افريقيا السوداء :

يؤكد كثير من المؤرخين الفرنسيين على أن الاسلام هو الذى فتح باب التاريخ لافريقيا السوداء ٠ أما قبل الفتح الاسلامى فتاريخ القارة لم يبتعد قط عن ضفاف البحر الابيض المتوسط والاحداث التى تعرضت لها القارة على مختلف أنواعها وأهميتها ، لم يصل صداها الى العالم الخارجى الا بعد الفتح الاسلامى (1) ٠

ويرجع تاريخ انتشار الاسلام فى افريقيا السوداء الى القرن الاول الهجرى ، اي السابع الميلادى ٠ وفى هذه الحقبة التاريخية المتقدمة للاسلام حمل التاجر المسلم دينه معه عبر رحلاته التجارية الى ربوع مناطق افريقيا السوداء ٠

وقد استطاع الاسلام فى أول عهده، وفى فترة وجيزة أن يستحوذ على قلوب الزنوج الافارقة ٠ وتركت كثير من الاقطار الزنجية المتاخمة لكل من مصر وللمغرب العربى الديانة المسيحية وانقلبت الى الاسلام (2) ٠

ـ علاقة افريقيا السوداء بالاسلام :

ويرجع تاريخ علاقة الاسلام بالقارة السوداء الى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، اذ تدفقت الجيوش الاسلامية آنذاك فاتحة عبر برزخ السويس نحو مصر . وفى سنة 641 للميلاد غزى عقبة بن نافع بلاد النوبة الشمالية . ويبدو أنه لم يتوغل كثيرا فى البلاد . وأبرمت اثر غزواته هاته هدنة تعتبر من الناحية العملية انتصارا باهضا للاسلام فى شرق القارة السمراء .

وفى عهد تولى عبد الله بن أبى السرح ولاية مصر نقض النوبيون هذه الهدنة فجهز هذا الاخير حملة عسكرية أوكل لها تاديب النوبيين . وتوغلت هذه الحملة فى مملكة المقرة حتى عاصمتها « نقلا العجوز » وذلك سنة 652 للميلاد . وحاصر المسلمون عاصمة النوبة حتى طلب ملكها الصلح . واضطر الى عقد معاهدة معهم ، دارت محاورها الرئيسية خاصة على المحافظة على مكتسبات الاسلام فى المنطقة وعلى عدم مضايقة الاسلام والمسلمين هناك من قبل السلطات الحاكمة للبلاد (3) .

ومما لا ريب فيه أن الاسلام بلغ أوج انتشاره فى شرق القارة السمراء، وذلك فى عهد الدولة الطولونية ، حيث قاد عبد الرحمان عبد الله بن عبد الحميد العمرى حملة حربية نحو بلاد النوبة فى سنة 868 للميلاد . وكان هذا الاخير شخصية دينية فذة . واستطاع بغزواته هاته أن ينشر الدين الاسلامي والثقافة العربية فى أرض النوبة ، ومن ثمة زاد استقرار العرب بشكل ملحوظ فى هذه المنطقة .

وهكذا كان هناك اتصال وثيق بين افريقيا السوداء والحضارة العربية الاسلامية ، وذلك منذ القرن الاول للهجرة النبوية كما ذكرنا سابقا .

وقد سارت حضارة العرب غرب النيل وجنوبه عبر الفيافى والقفار (4) وبعد فتح شمال افريقيا اخترق الاسلام صحراءها نحو الجنوب ووصل قلب افريقيا السوداء ، وذلك حتى خط الاستواء واستقر العرب عند سواحلها الشرقية والغربية وانتظمت القوافل التجارية بين الطرفين .

واذا كان الاسلام قد انتشر بدون أي صعوبة فى السودان الشرقى ، وكرس وجوده فى سواحل القارة السمراء الشرقية ، فانه شاهد انتشارا باهضا فى غربها أكثر من أي منطقة أخرى .

وقد كانت العلاقات تربط منذ أقدم العصور المغرب الاقصى بالسودان الغربى . وبعد الفتح الاسلامى لافريقيا الشمالية اتخذ الاسلام طريقه نحو غرب القارة عبر الصحارى .

وقد وقفت الغابات الكثيفة أمام توغل الاسلام فى المنطقة ردحا من الزمن · وشكلت هذه الاخيرة حصنا منيعا للوثنية · ولكن سرعان ما زال هذا العائق أمام انتشار الاسلام ، بانشاء طرق المواصلات وتطويرها عبر الحشائش العالية والغابات الكثيفة ·

وقام المرابطون خلال القرن الحادى عشر الميلادى بدور هام ، فى نشر الاسلام فى افريقيا الغربية · واستطاعوا أن يدخلوا الاسلام الى المناطق الممتدة من الاطلنطى حتى غاو عاصمة مملكة سنغاي ، الذى اعتنق سلطانها الاسلام دينا حوالى 1075 للميلاد · وقد قلدته حاشيته واسلمت باسلامه (5) · وخلال القرون التى تلت انتشر الاسلام انتشارا كبيرا فى الجزء الغربى من القارة السمراء ·

وكان المرابطون قد حملوا على عاتقهم مهمة نشر الدين الاسلامى فى المنطقة عن طريق بعض الفتوحات وارسال الدعاة بقيادة عبد الله بن ياسين ، الذى ركز نشاطه فى أول الامر على القبائل الافريقية التى تقطن حوض السنغال · والتف حوله كثير من الانصار وبذلك وجد الاسلام طريقه الى السودان الغربى ·

– دور القبائل الافريقية فى نشر الاسلام :

وقد حملت القبائل الافريقية التى كانت تقيم فى حوض السنغال راية الدعوة الاسلامية كقبيلتى التكرور وسارا كولى ، وذلك حتى وادى النيجر ثم خلفتها فى مهمتها هذه قبائل الفلانى خلال القرن السابع عشر الميلادى ·

ولعل قيام السلطات الاسلامية فى غرب افريقيا هو أقطع دليل عن انتشار الاسلام فى المنطقة ، بحيث أسلم ملك التكرور حوالى 1048 م · وأسلم ملك سنغاي حوالى 1075 م · وفى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى أسلم سلطان مالى كنكن موسى · وحج حجته المشهورة سنة 1324 م · وقد صاحبه عند عودته من الحج أربعة رجال أتقياء من قبيلة قريش ومهندس أندلسى يدعى الساحلى · ويقال ان كنكن موسى قد قرر تأسيس مسجد فى كل مكان وقف فيه لصلاة الجمعة ، وهو ذاهب الى الحجاز ، وذلك فى المناطق الواقعة ما بين السودان الغربى ومصر ·

وعلى ما يبدو فهو الذى أسس مسجد غاو ومسجد تمبوكتو الكبير ، وهو مسجد السنكرى الشهير الذى يعتبر من أهم مراكز الاشعاع الثقافى العربى فى غرب افريقيا خلال القرون الوسطى · كما أسس السلطان كنكن موسى مسجد دكرى أو دكر وغودام وديبرى ، ومسجد ونك أو باكو (7) ·

ومنذ القرن التاسع عشر الميلادى انتشر الاسلام بصورة مكثفة لم يسبق لها مثيل ، خاصة بواسطة الفتوحات التى قام بها السورانيون انفسهم ·

وتوغلوا فى الغابات والحشائش العالية الكثيفة · وذلك لمعرفتهم الكافية لهـذه المسالك الوعرة واطلاعهم على ما تخفيه من أسرار واخطار · واسلمت بواسطتهم القبائل الوثنية التى كانت متحصنـــة هنـــاك ·

ـ مساهمـة بعض الشخصيـــات السودانية فى نشر الاسلام :

ومن هؤلاء الشخصيات السودانيـة التى اتخذت على عاتقها نشر الاســلام فى غرب افريقيا السوداء عثمان دان فوديو ، الذى ولد حوالى 1745 م · وقد تتلمذ على الشيخ جبريل المالكى المذهب، فى مدينة اغدامس · وتمكن دان فوديو من اللغة العربية تمكنا صحيحا · وقد وجد فى الطريقة القادرية ظالته فانقلب اليها · وأعلن الجهـاد ضـد الـزنوج الوثنيين فى السودان الغربى سنة 1804 للميــلاد ·

واعتبر دان فوديو قبائل الحوصـــا وثنيين وأخضعهم لسنــة الاســـلام · ويعتبر هذا الاخيـر مـن المصلحيـــن المسلمين ، واحدى المجددة الاسلامية ، ذلك لان ما جاء به من افكار اسلامية مصلحة تتطابق شكلا ومضمونا مـع الوهابية أو السنوسية اذا قورنــــت بهذين المذهبين الاخيرين ·

والى جانب الدور الهام الذى لعبــه عثمان دان فوديو فى بعث الاسلام فى السودان فهناك شخصية أخرى سودانية لعبت دورا لا يقل أهمية عن الدور الذى لعبه هذا الاخير · وهذه الشخصيـــة تتمثل فى شخص الشيــخ أحــمـدو ، الذى نشر الاسلام بين قبائل الغلانى واستطاع بعزيمته الفذة وايمانه الراسخ أن يبلغ ذروة من التمكن من نشر الدين الاسلامى فى غرب افريقيا ·

وقد ولد الشيخ أحمدو سنة 1755 · وهو أصلا من الفلانيين · وكان أبــوه قادريا · واعتنق هو الآخر المذهـــب الصوفى القادرى تاثرا بأبيه ·

وقد أعلن الشيخ أحمدو الجهاد فى المناطـق الوثنيـــة المتاخمـة لحــوض السنغال · وحرض الفلانيين ضد قبيلة البامبار وهزمها وتحدى المغاربة الذين كانوا يحتلون مدينة جنى · وأسس فى شرق حوض السنغال عاصمة لملكته سماها « حمد الله » ، والتى يطلق عليها أحيانا اسم « دينا » ·

وتوفى الشيخ أحمـدو سنــة 1845 وبقيت « حمد الله » تؤدى فى دورهـــا الدينى والسياسى من بعده ، وذلـــك حتى سنة 1862 السنة التى احتلها فيها الحاج عمر ، الذى لعب هو أيضا دورا حاسما فى توطيد ركائن الاسلام فى السودان الغربى ·

والحاج عمر هذا ، اسمه الحقيـقى عمار بن السعيد تال ، ولد بين سنتى 1794 ـ 1795 · وتوفى فى مغارة جمبرى بتاريخ 12 فيفرى 1865 م ·

ونستطيـع تقسيم حياة الحاج عمر الدينية والسياسية الى ثلاث مراحـــل هامة ، وتشمل كل مرحلة ما يقـــرب من عشر سنوات ٠

أما العشرية الاولى من حياته ، والتى تمتد بين سنتى (1837 ــ 1846) ٠ فقد أدى خلالها فريضـة الحج ٠ وفى بقاع الحجاز انضوى تحـــت لـــواء التيجانية ٠ ثم استقر ما يقرب مـــن سبع سنوات فى فاتك جالون ، بعـد أن مكث قليلا بسكوتو ٠

وخلال العشرية الثانية من حياتـــه (1846 ــ 1854) رجع الى مسقط رأسه فى حوض السنغال وأعلن الجهاد ضد القبائل الوثنية المحلية ،وخلال هــذه الفترة نفسها هاجر الى نقراي لمدة من الزمـــــن ٠

اما عن العشريـة الثالثـة ، والتى تنحصـــر بين سنتى (1854 ــ 1864) فتعتبر أهم مرحلة فى حياة الحاج عمر الدينية والسياسية ، حيث قام خلالهـا بالمسيرة الكبرى التى كانت فى أول الامر نحو نيورو وحمد الله ثم الســـــودان الغربى كله نحو جهاته الاربع ، حيـث هزم قبائل شتى وأخضعها لسنة الاسلام منها قبائل البامبارا السيفيين الوثنيين والفلانيين القاطنين بـ « حمد الله » ٠ ولم يوقف حركته هذه الا الاستعمـــار الفرنسى ٠ ومات الحاج عمر عن عمر تناهز السبعين سنة ٠

وكان ساموري توري آخر الشخصيات الاسلامية السودانية التى قامت بمحاولات نشر الاسلام فى المنطقة ٠ وولد سامورى بين سنتى (1832 ــ 1835) الميلاديتين، فى غينيا العليا ٠ وفى سنة 1865 م ٠ وعن عمر تناهز الثلاثين سنة أعلـــن الجهاد ضد الزنوج الوثنيين ٠

وقد اجتنب سامورى التشابك مــع الفرنسيين قــدر ما استطـــاع فى أول أمره ٠ وتدريجيا استطاع توحيد بلاد الماندونغ فى المناطق الممتدة بين النيجر الاعلى وسيكاسر ٠

وقد توغل فى الغابات الكثيفة فاتحا وأدخل الوثنيين الافارقة فى الاســلام تحت حكمه ٠ واقلقت توسعاته هـــذه الاستعمـــار الفـرنسى فى الســـودان الغربى وبات التصادم معهـــم أمـــرا محتما ٠ ودامت المعارك بين سامورى والاستعمار الفرنسى حوالى سبـــع سنوات (1891 ــ 1898) ٠ الشىء الذى الذى اضطر سامورى للتحرك باستمرار والاتجاه نحو الشرق ، أي نحو فولتـا العليـــا ٠

وأخيرا ألقى الفرنسيون القبض عليه فى سنة 1898 ونقلوه الى الغابون ٠ وتوفى هناك سنة 1900 (8) ٠

ومن هنا يتبين لنا واضحا المساهمة الفعالة التى بادرت بها هذه الشخصيات السودانية الاسلامية فى نشر الـديـن الاسلامى خاصة ، والثقافة العربيـــة عامة ، فى غرب افريقيا السوداء ٠

علما أن الفكرة الرائجة بين المؤرخين الغربيين ، هي : أن العرب هم الـذين

فرضوا دينهم بالحديد والنار على الجماعات الافريقية · والاغرب من ذلك هو أن بعض الباحثين العرب تبنوا هذه الفكرة وزادوها ترويجا ، وذلك على عكس بعض المؤرخين الغربيين النزهاء أمثال جان بول روو و فيلار و مونتوزير وغيرهم ، الذين يؤكدون من خلال كتاباتهم بأن العرب نشروا دينهم فى افريقيا الغربية السوداء بطريقة سلمية لا مجال للعنف فيها ، بل عمل المسلمون على جعل الاسلام أداة لينة وطيعة تتلاءم وأوضاع الزنوج الوثنيين الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية فى المنطقة ·

وخلاصة القول ، هو أننا نستطيع أن نقول دون أن نشخص أي خطأ ، أن نشر الاسلام فى افريقيا الغربية السوداء خلال القرون الحديثة مدين بالكثير للزعماء السودانيين أمثال عثمان دان فوديو ، والشيخ أحمدو ، والحاج عمر ، وساموري توري · والاولى بنا أن نقول ، بالنظر للواقع التاريخى الذى مر به الاسلام فى المنطقة ، أن السودانيين أنفسهم الذين أخضعوا الجماعات الافريقية الوثنية بالقوة والعنف وأدخلوها تحت راية الاسلام ، وذلك من باب الغيرة عليه والتحمس له ·

*****

الهوامش

(3) انظر محتوى المعاهدة فى : مروج الذهب ج 3 للمسعودى ـ باريس ص 31 ـ 33 بدون تاريخ الطبع ـ انظر كذلك مكى شبيكة : السودان عبر العصور ـ ص 29 ـ 30 ، وريمون مونى المرجع السابق ·

(4) أحمد سويلم العمرى : الافريقيون والعرب ص 60 ·

(5) ابن أبى الزرع : روض القرطاس ـ النسخة المطبوعة بالمطبعة الحجرية 1303 هـ ـ فاس ـ ص 84 ـ 87 ·

(7) محمود كعت : تاريخ الفتاش ـ ص 55 ·

عاشـوراء وزكـاة النقـد والتجـارة

الشيخ أحمد حمانى

اعتاد المسلمون فى بلادنا أن يتخذوا من مستهل السنة الهجرية ميقاتـــا لزكاة نقودهم وتجارتهم ، فيقوّم التاجر عروضه ، ثم يضم الى قيمتها ما نضّ عنده من نقد ، ويؤتى الــزكاة يــوم عاشوراء (العاشر من المحرم) • هذه عادة حسنة ، تنبه الغافل ، وتذكــر الناسى وتحفز الناشىء الى التــأسى بأهل الفضل والديانة فى ايتاء الزكاة ، والمحافظة على هذا الركن العظيم من أركان الاسلام ، وأما الميقات الحقيقى لزكاة التجارة والعين فهو يوم أن يمر على ملك النصاب من العين حول كامل، أو على أصل التجارة ورأسمالها عام، ولا ينتظر يوم عاشوراء •

والزكاة هي حق المال ، ومن أهــم أركان الاسلام ، ثبت وجوبها بالكتاب والسنة والاجماع ، فمن أنكر وجوبها فهو كافر لا يعامل معاملة المسلمين لانه انكر معلوما من الدين بالضرورة ، ومن أقر بوجوبها وامتنع من أدائها أخذت منه قهرا وان بقتال • جاء الامر بالزكاة مقرونا باقام الصلاة فى كثيــر من الآيات والاحاديـث ، قـال تعــالى : « **واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** » وقال سبحانه : « **وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيمـــوا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك ديـــن القيمة** » • وقال عز وجل : « **خذ مــن اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم** » ، وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » • متفق عليه •

وروى مسلم فى صحيحه انه صلى الله عليه وسلم قال : « والصدقـــة برهان » • فمن أداها فقد أقام البرهان على صدق ايمانه ، ومن منعها دخـــل فى الوعيد الشديد بالعذاب المهين ، كما شــهدت بذلك الآيــات ، والاحاديـــث

الصحيحة ، قال تعالى : « **وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة** » وقال : « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم** » . وهؤلاء هم الذين يمنعون الزكاة ، وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ما يؤكد انها فى مانعى الزكاة لان ما ذكره فى عذابهم هو نفس ما جاء فى هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار » الحديث ، وكفى بمثل هذا عذابا يلقاه جزاء شحه .

وتؤخذ الزكاة من مانعيها قهرا ولو بقتال ، اجمع على ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول خلافة أبى بكر ، فقد منعت الزكاة قبائل عربية واعترفوا بالصلاة ، فعزم أبو بكر على قتالهم حتى يؤتوا الزكاة ، وتبعه الاصحاب جميعهم بعد اعتراض من بعضهم ، وقاتلوهم حتى أرغموهم على أدائها وقهروهم على ايتائها ، ثم كفوا عنهم واعتبروهم اخوانا لقوله تعالى : « **فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين** » ، وفى آية : « **فخلوا سبيلهم** » .

وأهمية الزكاة اكتسبتها من انها حق المال ، وهو ضرورى لاقامة الدين، ودولة المسلمين ، واصلاح مجتمعهم ، وبناء أسس التعاون بينهم ، وتطهير نفوسهم وتزكيتها وتطهير أموالهم باخراج حق الله منها ، ومن تأمل فى مصارفها ألتى عينها الله فى القرآن ، ولم يكلها الى نبىء ولا الى غيره ، أدرك عظمة الاسلام فى نظامه المالى والاجتماعى والاخلاقى والتعاونى .

نصاب الزكاة :

انما تجب الزكاة على الاغنياء فتؤخذ منهم وترد على فقرائهم والحد الفاصل بين الغني والفقير حدده الشرع وسماه الفقهاء (النصاب) وعرفوه بقولهم (والنصاب هو القدر الذى اذا بلغه المال وجبت فيه الزكاة) وذلك مختلف حسب نوع المال المزكى وهو : العين ، والتجارة ، والحرث ، والانعام ، (الحيوان) والمعادن فلكل نوع نصابه، وذلك مبسوط فى كتب الفقه ومرادنا هنا الكلام على زكاة العين والتجارة .

زكاة العين والنصاب فى النقدين :

المراد بالعين وبالنقدين : الذهب والفضة ، وكانا أساس التعامل قديما وحديثا ففى عهد النبىء صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح والدول الاسلامية كان وسيلة التعامل الدينار (العملة الذهبية) أ والدرهم (العملة الفضية) فلهذا قدر النصاب فى الزكاة بهما ، ونصاب الفضة خمسة أواق

لقوله صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه فى الموطا ـ (وليس فيهما دون خمس أواق صدقة) والاواق جمع أوقية ، والاوقية أربعون درهما من وزن الفضة النقية ، فالنصاب فيها مائتا درهم · أما نصاب الذهب فهو عشرون دينار ـ والدينار المثقال ـ ورد بذلك حديث عن علي بن أبى طالب كرم الله وجهه ، رواه أبو داود · ولم تكن الموازين العشرية معلومة ، فقدر الفقهاء وزن الاوقية والدينار بثقل عدد مخصوص من حبات الشعير عند المالكية عددها 72 حبة كما نصوا عليه فى الكتب المتعددة وزنها نحو 4،67 غ × 20 دينارا = 93،40 غ، وعند غيرهم أقل من ذلك ، اذ قدر النصاب بعض علماء مصر كأبى زهرة فى محاضرة له ، والدكتور القرضاوى فى كتابه : « الزكاة » بـ 82 غراما فقط ، ولعل السبب فى اختلافنا معهم فى هذا التقدير ، الاختلاف فى عدد حبات الشعير التى يقدر بها المثقال ، فقد وجدت بعض المعلقين المعاصرين على شرح أقرب المسالك قدر الحبات بعدد 65 فقط فيكون مثقالهم أقل وزنا من مثقالنا بمقدار زنة 7 حبات من الشعير 20 مثقال = 140 حبة شعير ، نبهت بهذا الطلاب حتى تزول حيرتهم ، ولئلا يبادر بعضهم بالاتهام !

النصاب بنقودنا :

اذا عرفنا هذا سهل علينا أن نعرف النصاب بنقودنا ، ولما كان سعر الذهب متغيرا فان النصاب يتغير بها من عام الى آخر ، والزكاة فى أوراقنا واجبة وجوبها فى أصلها ، ذلك ان الدينار والدرهم المعدنيين النفيسين قد اختفيا من سوق التعامل ، وطبعت الامم على أساسهما أو أساس الذهب ـ أوراقا نقدية ليس لها قيمة ذاتية ، وانما قيمتها اعتبارية حسب الاتفاقات الدولية ، وقامت مقام الذهب فتجب فيها الزكاة ·

النصاب تسعة آلاف دينار (9،000 د ج)

ولما كان السعر الرسمى الذى به يشرى التجار الذهب من مصادره الرسمية فى بلادنا أثناء هذه الايام يقارب مائة دينار جزائرى للغرام الواحد ـ كما علمنا من عدد من تجار العاصمة الموثوق بهم ، وكما علمنا من بعض موظفى البنك الوطنى ولما كان سعره فى السوق الحرة بباريس حسبما نشرته جريدة (لومند) فى اعدادها الاخيرة يقارب ذلك ـ فاننا نرى تقدير النصاب فى هذا العام ـ 1401 هـ بتسعة آلاف دينار جزائرى (تسعمائة الف سنتيم) ، وانما قدرنا بحسب وزن السبائك وسعرها ـ لا بحسب المضروب، ولا بحسب المحلى ـ لان المعتبر فى النصاب بالوزن ـ لا بالعد ـ اذا نقص الدينار أو زاد ، كما نص عليه الامام مالك فى الموطا ، ونص عليه الفقهاء ، ولان سبائك الذهب هي رصيد النقد الورقى ·

زكاة التجـارة :

زكاة التجارة تابعة لزكاة العين ، ومقدرة بها ، والتجارة ـ كمـا هـو معـلـوم ـ ادارة واحتكـار فالمحتكـر يترصد بعروضه الاسواق وينتظر ارتفاع الاثمان وزكاته تجب عليه اذا بـاع عروضه ، وكان قد حال على رأسماله الحول ، واما المدير فلا ينتظر بل يبيع بالسعر الحاضر ، فاذا مر على رأسماله الحول قوم عروضه ، ثم ضم القيمة الى ما تحت يده ، وما فى خزائنه من مال ناض ، كما يضم الى ذلك ديونه الـتى له على الناس وقد حل أجلها ورجـا قبضها ، وأسقط ما عليه للناس مـن ديون فى ذمته ثم نظر فان وجد مالـه قد بلغ النصاب وجب عليه ايتاء الزكاة، وان وجده دون ذلك فلا زكاة عليه ·

التقويم حسب السعر الحالى :

ويقوم التاجر عروضه قيمـة عـدل حسب قيمة البضائع يوم التقويـم ، لا يوم الشراء ، كما فهم بعض التجار وجادلوا فيه ، وهذا مفهوم من لفـظ (التقويم) ولو كان المعتبر سعر الشراء لما سمى (تقويما) وهذا بديهى ، وقـد نص عليه علماؤنـا ، قال البـاجى فى كتابه المنتقى ـ شرح الموطأ ـ ما نصه :

« مسألة ، والمدير يقوم عروضه قيمة عدل بما تساوى حين تقويمه لا ينظر الى شرائه وانما ينظر الى قيمته عـلى البيع المعروف دون بيع الضرورة لان ذلك هو الذى يملكه فى ذلـك الوقت ، والمراعى فى الاموال والنصب حين الزكاة دون ما قبل ذلك وما بعده » اهـ (ج 2 صفحـة 125) ·

المقـدار الواجب :

وأما المقدار الواجب فى زكاة العين فهو ربع العشر ، أو واحد على أربعين أو هو 2ر50 ٪ فالواجب فى عشـرة الآف دينار هو : 250 دينار ، وفى مائة الف دينار هو : 2500 د ج ، وفى مليون دينار هو 25·000 د ج ، وهكذا ·

المستحقون للزكاة :

ثمانية أصناف يستحقـون الزكـاة عينهم الله بصفاتهم فى قوله تعـالى : « **انما الصدقات للفقـراء والمساكيـن والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهـم وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيـل فريضـة من الله ···** » فهذه الآية عينـت مصـارف الزكـاة وأهلها ، ولا يجوز أن تصـرف الى غيرهم ، دل عـلى ذلـك مـا جـاء فى الحديث :

ان رجلا سأل الرسول صلى اللـه عليه وسلم أن يعطيه منها فقال : « ان الله لم يرض فى الصدقات بحكم نبى ولا غيره حتى جزأها ثمانية أجزاء ، فان كنت من أهل تلك الاجزاء أعطيتك حقك » رواه أبـو داود والـدارقطنى ـ واللفظ له ـ · ولفظ الصدقة ان أطلق فى القرآن انصرف الى صدقة الفرض كما نص عليه القرطبى والفقير هـو الذى له بعض ما يكفيه ويقيمه والمسكين

لا شيء له فهو أسوأ حالا من الفقير ، وقيل بالعكس وكلاهما مستحق ٠

والعاملون عليها السعاة والجباة الذين يكلفهم الامام بقبضها وتوزيعها على مستحقيها يأخذون منها أجرتهم ولو كانوا أغنياء ٠

أما الغارمون فهم الذين ركبهم الدين ولا وفاء عندهم به ، ويدخل فى هذا الصنف من أصابته جائحة ونزلت عليه كارثة كما يدخل من تحمل حمالة (ضمن فى دفع دية للصلح بين الناس) وكذلك من أصابته فاقة ، دل على ذلك ما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيصة بن مخارق الذى تحمل حمالة وجاء يلطب من رسول الله أن يعينه عليها ، فأجابه الى ما طلب ، ثم قال : « يا قبيضة ان المسألة لا تحل الا لاحد ثلاثة : (رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل اصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى تصيب قواما من عيش ـ أو قال سدادا من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ـ أو قال سدادا من عيش» اهـ ٠ فهذا الحديث نص فى أن من أصابته جائحة أو فاقة أو تحمل دية استحق أن يأخذ من الزكاة وحل له ذلك ٠

واما سبيل الله فانه اذا أطلق انصرف غالبا الى الجهاد حتى صار كأنه مقصور عليه فى الاستعمال ، قال مالك : « لا أعلم خلافا فى أن المراد بسبيل الله هنا هو الغزو ٠٠٠ » اهـ ٠ ومن الفقهاء من وسع فى معنى (سبيل الله) ففسروه بما يشمل سائر المصالح والقربات وأعمال الخير والبر ، نقله الرازى فى تفسيره عن القفال عن بعض الفقهاء انهم أجازوا صرف الصدقات الى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الحصون وعمارة المساجد لان قوله «وفى سبيل الله عام فى الكل» اهـ ٠

وحقق الاستاذ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار ان سبيل الله هنا هو مصالح المسلمين العامة التى بها قوام أمر الدين والدولة ، يشمل سائر المصالح الشرعية العامة وأولها وأولاها بالتقديم الاستعداد للحرب ٠

ثم ان صرف الزكاة فى عمارة المساجد وفى المشاريع الخيرية كالمدارس والمستشفيات ومصانع الحديد والذخيرة مما صدرت به الفتوى من أهلها وشيوخها بمصر ، وبغيرها استنادا الى ما نقله القفال عن العلماء المجتهدين ٠

واما ابن السبيل فهو المسافر الذى انقطعت به الاسباب فى سفره عن بلده ومستقره وماله ، يعطى من الزكاة ولو كان فى بلده غنيا ولا يلزمه أن يشغل ذمته بالسلف ، وفسره الامام ابن شهاب الزهرى فى رسالته الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بأنه يعطى (لكل

رجل راحل من ابن السبيل ، ليس له مأوى ولا أهل يأوى اليهم فيطعم حتى يجد منزلا أو يقضى حاجته) اهـ ٠
وذكر الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار (ان اللقيط يوشك أن يدخل فى معنى ابن السبيل) وهذا بين واضح من القائه فى الطريق ، وذكر الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه (الزكاة) انه يشمل أيضا اللاجئين والمشردين من الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وأصبحوا لا مأوى لهم ولا مال ، يريد بهؤلاء من أخرجهم الاعداء من بلادهم أ ومن طاردهم الحكام الظالمون ٠

استحقاق ضحايا الزلزال :

مما تقدم يتبين لنا ان ضحايا الزلزال، الذين أصبحوا فى حالة تفتت الاكباد ويكاد يبكى من هولها الجماد أحق الناس بزكواتنا فى هذا العام وغيره حتى ينجلى عنهم الكرب ، وهم يستحقونها بعدة صفات : بصفة الفقر والمسكنة لمن أصبح كذلك ، وبصفة الغارمين كما تقدم ونص عليه الحديث فيمن أصابته جائحة أو فاقة شهد له بها ثلاثة ، ولا جائحة أعظم من الزلزال ، ومن الخسف بالديار وإبتلاع الارض لها ولاهلها ، وبصفة (سبيل الله) كما تقدم تحقيقه ، وبصفة ابن السبيل اذ أصبحوا بدون مأوى ولا مال مشردين فى فضاء الله ٠
ان الواجب على كل المواطنين والمواطنات أن يسخوا بأموالهم من الصدقات الواجبة ومن صدقات التطوع والتبرعات، وعلى أولى الامر أن يقبضوا ذلك وينظموه ويعطوه أهله من المستحقين المنكوبين ، وهم المسؤولون بالدرجة الاولى أمام الله ٠

هل تنقل الزكاة من موضعها ؟

لا حرج فى نقل الزكاة من موضعها عند الضرورة لهذا النقل كما هي نصوص العلماء المالكية وامامهم ، قال القرطبى : « قال ابن القاسم ـ أيضا ـ وان نقل بعضها لضرورة رأيته صوابا ـ وروى عن سحنون انه قال : « ان بلغ الامام ان ببعض البلاد حاجة شديدة جاز له نقل بعض الصدقة ـ المستحقة لغيره ـ اليه ، فان الحاجة اذا نزلت وجب تقديمها على من ليس بمحتاج ، والمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه » اهـ ٠ ونقل القرطبى أيضا عن بعض العلماء ان الذى لا ينقل انما هو حظ الفقراء والمساكين ، وأما باقى الاجزاء فانها تنقل ٠ وأقوى دليل على جواز نقلها ـ عند الحاجة ـ فعل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، واقرار الصحابة له ففى المدونة عن مالك ان عمر كتب الى عمرو بن العاص عام الرمادة (عام المجاعة) وهو عامله بمصر يقول : يا غوثاه ، يا غوثاه للعرب ، جهز لى عيرا يكون أولها عندى وآخرها عندك ، فأجابه عمرو ، وأغاث المسلمين فكان عمر يقسمها بينهم ويوكل على ذلك رجالا ٠ فالادلة على جواز تنقل الزكاة من موضعها ـ عند

الحاجة ـ متضافرة فى كتب المالكية المعتمدة وقول فقهائهم وامامهم ٠

يقول الدكتور يوسف القرضاوى فى هذا الموضوع :

« وهكذا تتكافل الاقاليم والاقطار الاسلامية فى ساعة العسرة ويلم بعضها بعضا ٠ ان أي بلد أو اقليم فى الدولة الاسلامية الواسعة ليس جزءا مستقلا كل الاستقلال ولا ولاية منفصلة عن سائر الولايات ، ولكنها ترتبط بالحكومة المركزية وبسائر المسلمين ارتباط الجزء بالكل والفرد بالاسرة والعضو بسائر الجسد وهذه الوحدة والترابط والتكافل يفرضه الاسلام فاذا نزلت نازلة كمجاعة أو حريق أ ووباء ببلد كان أهله أحوج الى العون ، واسعافهم الزم من ذوى الحاجات فى بلد الزكاة ٠٠٠ اهـ

يا غوثاه لمنكوبى الزلزال :

نقدم هذا بين أيدى المسلمين ايمانا منا بأن مصارف الزكاة تشمل هؤلاء الضحايا لعدة صفات ، ويجوز أن تنقل اليهم من أقصى الشرق والغرب بنصوص فقهائنا وبعمل الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضوان الله عليهم ، وبتحقيق العلماء الراسخين ، وانى أردد ما قاله أمير المؤمنين عمر :

يا غوثاه يا غوثاه ، لمنكوبى الزلزال وضحاياه ٠

الجزائر 9 من المحرم 1401 هـ



ثـــــــورة

1883 ـ 1881

د جيلالي صـــاري

بمناسبة الذكرى المائوية الاولى للاحتفال بهذه الثورة التي تكاد تبقى مجهولة من طرف الجمهور والتي تعد خاصة آخر كفاح مسلح ضد الجيوش الفرنسية بعد مقاومة استغرقت نصف قرن كامل ، يجدر بنا أن نتطرق الى أهم الجوانب للحركة التي قادها محمد ابن العربي المسمى بأبي عمامة وهي تلك الشخصية الدينية التي استطاعت أن تجند آخر الطاقات الشعبية لمحاربة جيوش كانت تستعد للاستيلاء على قسم كبير من القارة السمراء ...

وما ميدان هذه الثورة ـ الجنوب الوهراني بالتحديد ـ الا احدى أهم القواعد للتوغل الاستعماري الفرنسي والسيطرة على الاراضي الافريقية وبهذا التحديد الجغرافي تتجلى لنا أهمية ومغزى هذه الثورة بعد اخضاع شمال الجزائر وفرض النفوذ الفرنسي على القطر التونسي في نفس السنة ... وكل هذا حينما كان العالم الاسلامي يحتفل بحلول القرن الرابع عشر ويحاول أو يحلم أن يقوم بانتفاضة كما تشير الى ذلك ثورة عربي باشا بمصر أو الاضطرابات المختلفة داخل الامبراطورية العثمانية ...

كل هذا يحتاج الى تفكير وتحليل جديد بمناسبة حلول قرن هجري جديد . وفيما يلي نود أن نبين في هذا المقال الاول

الاسباب الرئيسية لثورة الجنوب الوهرانى التى استطاعت أن تفاجىء المستعمر والتى كادت أن تكبده خسائر فادحة حينما اندلعت فى ربيع 1881 (1) ٠

ان تحليل الوثائق المتوفرة يبين بالاقل ثلاثة أسباب رئيسية وهى الاسباب السياسية والاسباب الاقتصادية والاسباب الادارية ٠

1 ـ الاسباب السياسية :

تتمثل الاسباب السياسية فى الدور البارز الذى قام به أولاد سيدى الشيخ واتباعهم فى الاقليم وقسم كبير من الشمال الصحراوى داخل القطر الجزائرى قبل وبعد الاحتلال الفرنسى ٠

ففى الحالة الاولى استطاع أولاد سيدى الشيخ أن يفرضوا نفوذهم على المستوى السياسى بفضل وظيفتهم الدينية اذ انهم اسسوا زاوية بضريح سيدى عبد القادر ابن محمد المسمى بسيدى الشيخ والمدفون بالابيض (سيدى الشيخ) بجنوب الشاطىء الشرقى بالسهول العليا الغربية الوهرانية ، وهكذا ظل يتوافد على الضريح والزاوية معا بانتظام عبر السنين عدد كبير من سكان الاقليم والمناطق المجاورة شرقا وغربا ، فتعززت بذلك سلطتهم خاصة بعد تدعيم علاقتهم الشخصية بالمملكة المغربية فى منتصف القرن التاسع عشر (تزوج احدى فتاة أولاد سيدى الشيخ بملك المغرب) ٠

وعامل هذه السلطة المتزايدة لا يرتبط فقط بهذا الاشعاع الروحى بل يعتمد أيضا على أسس اقتصادية وثيقة فمقر الضريح والزاوية يشرف على الممر التجارى وكذلك على الاقتصادى الصحراوى وهو المصدر الرئيسى للثورة الاقليمية زيادة عن التبادلات المختلفة الموجودة بين القطرين الشقيقين من جهة، وبين الشمال والجنوب من جهة أخرى ٠

وهكذا ندرك الاهمية الاقتصادية والدينية التى نجمت عن وجود مقر الضريح والزاوية فى مثل هذا الاقليم الذى يمثل همزة وصل بين اقاليم واقطار تراقب علاقات تجارية لعبت منذ القدم دورا بارزا فى تجارة قارتين ، القارة الافريقية والقارة الاوروبية ٠

---

(1) مصادر ووثائق هذه الدراسة التى قمنا بها فى اطار الابحاث التابعة للمركز الوطنى للدراسات التاريخية ، هى معظمها من الارشيف الفرنسية الموجودة حاليا بمركز Aix-En-Provence.

وأملنا أن يقوم المركز الوطنى للدراسات التاريخية بنشر الدراسة فى اقرب وقت ممكن حتى يتيح المجال لوضع معلومات لدى جمهور وافر ٠

واما بعد الاحتلال الفرنسى وبعد مناصرة الامير عبد القادر فان أحد ممثل أولاد سيدى الشيخ ، وهو سى عمزة بن ابى بكر قد تعاون مع السلطات الفرنسية ابتداء من سنة 1850 الى وفاته بالجزائر العاصمة ، وهى وفاة مشبوه فيها فعزم بذلك ابناؤه على أخذ ثار أبيهم واستعدوا لشن مقاومة ضد المحتل وقد تجسم ذلك بالفعل باندلاع ثورة ابتداء من 1864 ، وهى الثورة التى سرعان ما شملت الاقليم وامتدت الى شمال القطاع الوهرانى والجنوب (2) ٠ وسطا وشرقا الى اقليم الحضنى ، وكذلك بلاد القبائل الصغرى ٠

ولولا النجدات المتوافدة من فرنسا لكادت أن تعم هذه الثورة كافة القطر الجزائرى بالرغم من التخريبات الناتجة عن المقاومات الشعبية السابقة ، وان استطاعت النجدات ان تسيطر على الشمال وجزء كبير من الشمال الصحراوى فانها لم تتوصل بعد الاستيلاء على زعماء الثورة وقواتهم بالرغم من الكارثة الديموغرافية التى اصابت السكان من صيف 1867 الى ربيع 1868 (3) ٠

ان كل هذا لم يمنع زعماء الثورة من مواصلة الكفاح فى ظروف اقتصادية واجتماعية جد صعبة بحيث انهم تمكنوا من توحيد صفوفهم مع جمع التجانيين وشن معركة فى عين ماضى بالقرب من الاغواط وذلك فى غرة فيفرى 1869 وقد استطاع أن يجمع فى هذه المعركة ذلك السنديد سيدى الاعلى بن ابى بكر حوالى 6000 فارس و 3000 مشاة ، ان كل الظروف كانت تقريبا فى صالح المكافحين لولا تدخل سلاح فتاك يعد من أحدث الاسلحة بأوروبا الا وهو سلاح Chassepot الذى جرب لاول مرة فى هذه المعركة ، ولذلك لم يستمر القتال أكثر من ساعتين حتى انسحب سيدى الاعلى وجيوشه من ساحة المعركة ولكن استطاع أثناء الانسحاب أن يفر للكولونيل Sonis

وبالرغم من هذه النتيجة فان أولاد سيدى الشيخ لم يستسلموا وواصلوا

(2) انظر البحث القيم :

Rey-Goldzeiguer : *Le Royaume Arabe*. Alger, 1977, p. 276 - 310. *Le désastre démographique*. Alger, 1980.

(3) انظر بحثنا

L'Insurrection de 1864 *et ses rapport avec la dépression démographique de* 1867, Madjellat Et-Tarikh, Alger 1977, n° 1977, n° 4, p. 25 - 41.

المقاومة بعدة وسائل واستمروا فى التمرد طويلا بالرغم من اشتداد رد فعل المحتلين.

وهكذا يمكننا أن نقول أن ثورة 1881 ـ 1883 انما هى مواصلة كفاح قديم استغرق سنوات طويلة عبر الجنوب الوهرانى تحت قيادة أولاد سيدى الشيخ اذ ان محمد بن العربى من الفرع الغربى لاولاد سيدى الشيخ أى الفرع الذى حاولت السلطات الاستعمارية أن تضمه الى المملكة المغربية بمقتضى معاهدة لالا مغنية (1845) الخاصة برسم الحدود الجزائرية المغربية الشمالية ·

2) الاسباب الاقتصادية :

تعود الاسباب الاقتصادية الى التوغل المفاجىء الى داخل الاقليم للاقتصاد الاستعمارى بعدما كان محدودا فى الجزء الشمالى فقط ·

وكل هذا يرجع الى التوسع الذى ساهمت فيه الجمهورية الثالثة الفرنسية بعد اخماد ثورة 1871 ومخلفاتها فابتداء من ذلك التاريخ شهدت اراضى الشمال استطانة سريعة من طرف الاوروبيين تمثلت فى انشاء عدد هام من مراكز الاستطانة والاستلاء على مساحة واسعة من اخصب الاراضى كما أن استغلال الثروات الطبيعية الاخرى اجتاز مرحلة حاسمة ، بينما أن النظام السابق أى الامبراطورية الثانية تحت قيادة نابليون الثالث كانت تسعى الى بعض التوازن بين المستوطنين والعرب ، وكان نابليون الثالث يعارض توسع الاستطانة خارج التل عملا بسياسته : « الامبراطورية العربية » (4) ·

وهكذا ندرك الفرق البارز الموجود بعد 1871 اذ أن التوسع الاستعمارى قد جاوز بسهولة التل وشرع ينتشر فى السهول العليا شيئا فشيئا وما هى العوامل التى ستجد به اذن خاصة وأن الظروف الطبيعية فى مثل هذه السهول العليا الوهرانية لا تتماشى والزراعة الجيدة ؟

---

(4) علينا الا ننسى وان هذه السياسة كانت تندرج فى مخطط واسع يشمل البحر الابيض المتوسط والشرق العربى كله اذ أن نابليون الثالث أراد أن يؤسس فيها دولة واحدة تحت قيادة الامير عبد القادر وذلك لمنافسة النفوذ الوطنى ، لكن الامير عبد القادر قد رفض ذلك ، انظر من أجل ذلك بحث المؤرخ

Ageron : *L'évolution politique de l'Algérie sous le Second Empire*. Information Historiquc, Paris, 1969, p. 165 - 172 - 211 - 216, 1970, p. 11 - 20.

ان هذه السهول العليا لا تخلو من أهمية فى الوقت الذى أصبح فيه الاقتصاد الاوروبى فى حاجة ماسة الى استغلال مواد أولية لتنمية صناعة الورق بعدما أصبح سعر المواد التى كانت تخصص لاجل ذلك وهى الاقمشة القديمة قد ارتفع فجأة ، وبما أنها أصبحت تعوض بالحلفاء فان هذه الثورة الموجودة بالسهول العليا الوهرانية مثلت اهمية كبرى فى ذلك الزمن لا سيما وأن سعرها اخفض من جهة ، ومزاياها من حيث الجودة لا مثيل لها من جهة أخرى ، وكل هذا دفع البلد الصناعى المتفوق أى بريطانيا العظمى الى استرادة متزايدة (5) .

لكن الشروع فى استغلال حلفاء السهول العليا يتوقف على شروط لابد من توفرها اذ ان تلك الاراضى ليست خالية من السكان ومن المستفيدين شرعا

وزيادة على ذلك لابد من شق طريق لنقل الانتاج بثمن معقول ، ومن أجل ذلك شرعت السلطات فى العمل ابتداء من سنة 1873 ، ففى هذه السنة وبموجب اتفاقية 20 ديسمبر 1873 (6) منحت « الشركة الفرنسية الجزائرية » Compagnie Franco-Algérienne حق استغلال الحلفاء فى مساحة قدرت بـ 300 000 هـ بجنوب سعيدة (7) ومقابل هذا تتعهد الشركة بتحقيق الخط الحديدى الرابط ميناء أرزيو بمدينة سعيدة فى مدة تزيد عن ست سنوات .

وبالفعل فان المدة المحددة قد احترمت ووصل الخط الحديدى المقرر والبالغ 171 كلم الى سعيدة يوم 28 سبتمبر 1879 (الجدول التالى) ونظرا الى أهميته فان الاشغال تواصلت ولم تتوقف وهكذا أصبح الخط ينطلق بسرعة من سعيدة الى خلف الله وهو يبلغ 43 كلم فى فاتح جوان 1881 أى أثناء بداية اندلاع الثورة

---

(5) ففى سنة 1885 قد بلغت الاسترادة فى العالم 225000 هـ. واسترادة بريطانيا العظمى وحده 200000 ط.

(6) ونفس الشركة كانت تستغل 25000 هـ . بحوض وادى المقطع ، بين سيق ومحمدية .

(7) من المعلوم انه شرع فى التصدير ابتداء من سنة 1862 بالساحل الوهرانى وقد بلغ فى تلك السنة 450 ط. ثم 9000 ط. فى 1869 و54000 ط. فى 1875 حسب الارشيف الفرنسية 1788 ـ F 80.

مراحل انشاء الخط الحديدى

ارزيو ـ سعيدة	171 كلم	28 سبتمبر 1879 : 171 كلم
سعيدة ـ خلف الله	43 كلم	1 جـــوان 1881 : 214 كلم
خلف الله ـ مصباح	24 كلم	1 جـــوان 1881 : 238 كلم
مصباح ـ الخيثر	34 كلم	1 جـويلية 1881 : 278 كلم
الخيثر ـ الابيض	52 كلم	31 ديسمبـــر 1881 : 324 كلم
الابيض ـ مشرية	29 كلم	1 ابـــريل 1882 : 353 كلم
مصباح ـ مرهون	31 كلم	1 أ و ت 1882 : 381 كلم
مشرية ـ عين الصفراء	102 كلم	23 أ و ت 1887 : 483 كلم

وبذلك فــان هذا الخط الحديدى الذى كان لا يمثل فى أول الامـر الا غايـــة اقتصادية صـــار يلعب دورا استراتيجيا بالغ الاهمية ولذلك واثناء صيف 1881 تولت الوزارة الحربية الفرنسية نفسها العملية وتمكنت فى أسرع وقـــت وفى ظروف طبيعية جد صعبة فى شق **115 كلم الرابطة مصباح بمشرية فى ظـرف 239 يـوما بينما أن المرحلة الموجودة بـين مصباح والخيثر والتى تبلغ 34 كلم تمتد فى ظرف 52 يوما فقط** وهو رقم قياسى (8) اذ ان المدة المحددة لذلك كانت 100 يوما ، وقد تطلبت هذه الاشغال نقل الماء من أماكن تبعد أحيانا 80 كلم اثناء حرارة الصيف ...

وعلينا ان نلح على أهمية هذا الخط فى تلك الاونة الحرجة أى أثناء العمليات الحربية اذ بقضله تم نقل النجدات ، والاسلحة والماء وغير ذلك ... كمـا سنراه فى المقال المقبل .

وقبل التعرض الى نص ذلك ندرك هكذا الاسبـــاب الاقتصاديـة لثـــورة 1881 ـ 1883 فان الاستيلاء على ثروات السهول العليا لم يتم بدون رد فعل من طرف المعنيين بالامر بالدرجة الاولى أى السكان الذين كانوا يستفدون دائما بها والتى كانت أهم مصدر اقتصادهـــم

---

(8) حسب أرشيف ولاية وهران ، وثيقة 2 أكتوبر 1881 لمدير الشركة الفرنسية الجزائريـة .

ووجودهم فانهم لم يقبلـــوا المعاهـــدة السابقة الذكر ورافضوا ما تعهد بـــه الوالى العام من الشركـــة الفرنسيـــة الجزائرية باسمهم جميعا ··· ولذلك حينما وصل المكافحين الى الورشات فى أوائل شهر جوان 1881 اضرموا النيران فى الانتاج وباقى المنشآت التابعة للشركة ··· وكل هذا يبين بوضوح العلاقـة الوثيقة بين تسلسل هذه الاحداث ابتداء من وصول الخط الحديدى والشروع فى قطف الحلفاء من طرف اليد العاملـــة الاسبانية ·

3 ـ الاسبـــاب الادارية :

زيادة عن الاسباب المذكورة يستطيع كل ملاحظ ان يكشف أسبابا أخـــرى خاصة اذا امعن النظر طويلا فى الوثائق القديمة الموجودة بمقر ولاية وهـــران وبالتحديد الملف الذى احضره احـــد الضباط المشرف على مصلحة المكاتـــب العربية بمدينة تيارت (9) ·

فهذا الملف المخطوط يعطى لنا نظرة وجيزة ولكنها دقيقـة فى نفس الـوقت عن تصرفات احد المتعاملين مع الادارة وهو آغا قبيلة الاحرار (10) ، وهـو النموذج للاضطهاد فى شتى الاشكـال لا نستطيع أن نلخص مـا جاء فى هـذه الوثيقة التى اعتمد صاحبها على أدلـــة قاطعة تبين كلها بوضوح الحدود الاقصى التى بلغها الآغا أثناء مدة 15 سنة كاملة فعلينا ان نكتفى بالاشارة التالية ·

فقد حكم عليه الضابط كما يلى :

« كان يعتقد أن الاحرار قد وضعـوا تحت قيادة من أجل هدف واحد وهو تعظيم ثرواته ، وكان يظـن أن دخلـهم واملاكهم واحيانا حتى حياتهم هى ملك له وقد ترعرع ابناؤه تحت ظل هـــذه المبادىء » ·

وما هذه الخلاصة الا تعبير للظواهر التالية فالبنسبة لادارة الضرائب كان لا يصرح سنويا الا امتلاك 161 جمـلا و 2081 كبشا وثلاثة أحصنة بينما كان يملك 3000 جمـل و 8000 كبس ··· وأما كمية الحبوب فقد قدرت تقريبـا بحوالى 1600 قنطار اى ما يمثل انتاج ألف هـ ، فلنتخيـــل اذن المساحـات

---

(9) Empérauger : *Etudes sur les causes, les effets et les conséquences de l'insurrection de 1881*, manuscrit, *Archives de la Wilaya d'Oran, Oran* 1883.

(10) لا داعى الا ذكر اسمه ولقبه فغاية الدراسة هى تحليل موضوعى وليس الحكم على شخص معين بعد مضى قرن ·

الواسعة التى اغتصبها للسكان الضعاف والعرق الذى تطلبه المجهود لاخضاع العدد الكبير من الفلاحين لحرث وحصد المساحة المذكورة تقريبا بدون عوض وانما بالاجبار والقمع والسجن وغير ذلك اذ أن الآغا كانت له مطلق الحرية فى تصرفاته أثناء المدة المذكورة وبالضبط من سنة 1864 الى 1883 أى الى سنة توقفه عن الحكم ٠

« السرقة والاضطهاد » ذلك هو شعار هذا القائد حسب ما جاء فى قرار الضابط الفرنسى الذى ذكر عدة أدلة عن ذلك فمن جملة ما ذكر استشهد بما يلى ، فكان فى كل مناسبة وأثناء كل تنقلاته يأمر ويطالب بدفع الهدايا والتبرعات ، وأما استقباله خارج أراضه فكان لا يتم الا حسب قوانين معينة تكلف العائلات أموالا باهضة فعلى سبيل المثال علينا أن نذكر استقباله فى شهر جوان 1882 فى احدى العائلات المتواضعة حيث احضر له 8 أكباش ، والطعام ، و8 خيام مجهزة بأرفع الزربيات ، وكمية من الشعير لتغدية 40 حصانا بينما أن انتاج هذا الموسم كان ضئيلا جدا ويكاد أن ينعدم تقريبا ٠٠٠

هذا بما أن الآغا كان يزعم أنه من الصالحين أفرض على جميع الفرق والقبائل التابعة له مبلغا من النقود سنويا قدر بـ 500 ف٠ لكل قبيلة ، وبهذا الصدد علينا أن نتخيل كم بلغت تكاليف ذهابه الى مكة المكرمة من أجل « أداء فريضة الحج » فكم كان يبلغ العدد من الاشخاص الذين رافقه ، وكم بلغت قيمة الهدايا التى تبرع بها أثناء السفر وغير ذلك ٠٠٠ أهل كل ذلك كان من عرق الآغا ورفاقه ؟

وعلى مستوى آخر كان يلقى القبض على عدد كبير من السكان بدون سبب وانما من أجل هدف واحد وهو ٠٠٠ التفاوض مع عائلتهم لفرض ضرائب من أجل الافراج عنهم رحمة وشفقة منه ٠٠٠ ومن المعلوم أن السجن المعنى بالامر كان يوجد بالقرب من السوقر فى أراضى اغتصبت من أصحابها ٠

ولتعزيز ثرواته كان لا يخشى شيئا وكان يلتجىء الى عدة طرق فاذا كان الاشتراك الى الصحيفة الرسمية وهى « المبشر » لا يتطلب الا 10 ف٠ فانه كان يفرض على الجميع 60 و 65 ف٠ وأكثر من ذلك وكان يخصص لاغراضه الشخصية عددا لا بأس به من الحيوانات (من أحصنة وبغال) التى كانت السلطات الفرنسية تنزعها من أصحابها أثناء التجند العام لقمع ثورة 1881 ـ 1883 ،

وفى مناسبات أخرى كان يسرق عمدا السكان وكان يتم ذلك اما بسجن ... اصاحب الحيوانات المسروقة ... وما بدفع عوض لفائدة الآغا أى انهم يرغمون لشراء ما كانوا يمتلكونه من قبل وبثمن معقول ...

ذلك هو مختصر تصرف هذا المضطهد ومثل هذا التصرف لم يبق مجهولا لا من طرف الادارة ولا من طرف السكان ففى الحجة الاولى سكتت السلطات وذلك أن مثل هذا التصرف كان يتماشى وأهداف المستعمرة فقبلته ولم تحاربه ، ولم توقف الآغا الى فى سنة 1883 أى بعد اخماد الثورة وبعد ما تأكد لها أن الآغا قد قام ببعض الاخطاء فى بداية اندلاع الثورة وبعد ما اشتكى منه باشاغا فرندة ، وكان هذا الاخير أكثر نفوذا وصلاحية للسلطة نظرا الى تعاونه الطويل (أكثر من نصف قرن بدون انقطاع) ولا مشروط ...

ان مثل هذه التصرفات تبين فى الاخير اقدام عدد كبير من السكان المظلومين للانخراط فى صفوف ابن عمامة وبالفعل قد لوحظ ذلك فى كل الحالات التى سمحت للافراد أن ينضموا الى القوات الشعبية حينما تخلصوا من قبضة المتعاملين مع الادارة ومن الجيش الفرنسى .

الخلاصة :

وهكذا فان هذا التحليل الوجيز يبرز لنا أهم الاسباب التى تفسر اندلاع الثورة التى تزعمتها شخصية متواضعة لم تلعب دورا سياسيا من قبل وانما قد خصصت حياتها الى العبادة قبل كل شيء وهل فى ذلك تناقض وانفصال بين النشاط الروح والنشاط السياسى ؟ كلا ، فمحمد بن العربى كان يعيش فى محيط معين وكان ينتمى الى قبيلة معينة كذلك ، وكان ينتبه جيدا الى مقومات هذا المحيط العام والخاص وكان كباقى رفاقه وكافة السكان يشعر باضرار الحكم البائد والتوغل المفاجيء للاستغلال الاقتصادى من طرف المعمرين وشركتهم التى غزت أراضيهم وتأهبت للاستيلاء على ثرواتهم .

اذن كانت هناك شروط موضوعية لهذه الثورة التى لم ينتبه اليه قط الوالى العام للجزائر اذ أنه فى أحد تصريحاته القديمة أكد أن « عهد الثورات قد انتهى » (11) ...

---

(11) وذلك فى أكتوبر 1879 .
نعالج فى المقالتين التابعتين :
ـ أهم مظاهر ثورة 1881 ـ 1883 .
ـ نتائج ثورة 1881 ـ 1883 .

تطـور ولايــة باتنــة مــا بــين

1962 ــ 1978م

الاستاذ جلول مكى

ينتصب الاوراس كحصن بارز فوق المنخفضات الصحراوية لناحية بسكرة والزاب الشرقى ، وبين منخفض باتنـة غربا ومنخفض وادى العرب وسهـل العمامرة شرقا ، فهو يشكل حاجزا طويلا يغلق على السهول العليا القسنطينيـة من الجنوب ، وهـذا الحاجـز الاخضر وسكانه الجبليون يضفيان على المنطقة طابعا خاصا .

فالاوراس هو امتداد لسلسلة الاطلس الصحراوى ولهذا فجبالـه متباعـدة وقليلة الارتفاع ، فالكتلة تتجه برؤوسها نحو الشمال حيث توجد أعلى قمة بشمال الجزائر بجبل الشلية (2.328 م) وجبل محمل (2.321 م) وهذه القمم هي خط تقسيم المياه بين شمال وجنوب الكتلـة الاوراسية ، فالسفوح الشمالية تنحدر بمقدار 1.300 م على السهول العليـا القسنطينية كما تنحدر السفوح الجنوبية رأسيا بمقدار 1.800 م على حـوض الشطوط الكبرى .

المنـاخ والنبـات :

الحرارة بالمنطقة مختلفـة جـدا ، فالفوارق الحرارية واسعة جدا بيـن فصلي الشتاء والصيف ، وبين الليـل والنهار ، وتتسع هذه الفوارق كلما زاد الارتفاع ، فالثلوج تسقط أكثر من 20 يوما على ارتفاع أكثر من 1.300 م بالسفح الشمالى وتبقى حوالى 3 أشهر بقمـم جبل الشيلية ، وهذا لان السفـوح الشمالية تخضع للمؤثرات البحرية كما تستفيد من عامل الارتفاع ، ولهذا فـهي باردة ورطبة ، وأكبر كمية من التساقط

تنزل بالقمم التى يتراوح ارتفاعها ما بين 800 ـ 900 م وهذا بخلاف السفوح الجنوبية التى تخضع لمؤثرات المناخ الصحراوى الجاف الذى يصعد بعيدا مع كل واد بالكتلة ، الامر الذى مكن من ايجاد فلاحة النخيل ٠

وبينما سكان شمال الاوراس « الجماعة » يتخذون الاجراءات اللازمة لمواجهة ما قد يترتب عن نزول الثلوج ، فاذا بسكان بلديات السفوح الجنوبية ، يعلنون عن نقص المياه ، وهذا التناقض هو نتيجة لوقوع الاوراس فى منطقة التل بالصحراء ، ولا تشبهه فى وضعه هذا أية منطقة أخرى من مناطق المغرب العربى (1) ٠

ومحطات الارصاد الجوية بالاوراس قلية جدا ، فتوجد محطة واحدة فقط بأريس على ارتفاع 1100 م وقد سجلت المحطة هذه الارقام الحرارية :

متوسط جانفى	جوليت	الدنيا متوسط جانفى	القصوى متوسط جوليت
5°02	24°6	8 ـ 0	(2) 32° ـ 1

ونتيجة لاختلاف المناخ وتنوعه ، فالنبات بالاوراس متنوع أيضا ، كما هو الشأن فى كامل القطر الجزائرى ، ورغم ان الاوراس يقع بعيدا عن البحر، فانه يبدو بمظهر كتلة خضراء وهذا الامر يدعو للدهشة لعلمنا ان الكتلة تقع بدائرة العرض الجنوبية وعلى مشارف الصحراء وهذا الموقع عادة قليل التساقط ٠

فغابات البلوط تكسو السفوح الشمالية للاوراس ، وفى الاعلى منها توجد غابات الارز الجميلة التى تمتد حتى تغطى القمم ، وامداد الغابات هذا على السفوح الشمالية يدل على صعوبتها على الانسان ، اما السفوح الجنوبية فتنمو فيها أشجار الغابات التى تفره فى المناخ الجاف مثل العرعر والصنوبر الحلبى ٠

وغابات الاوراس اليوم قليلة ، وتتألف من غابة الماكى (أشجار قديمة) ومن جنبات وأحراج ، وذلك لان الاوراس اخذت منه أشجاره منذ زمن بعيد ، وخاصة اشجار الارز الذى استغله الرومان ، واكلته القطعان ، كما

(1) *Géographie de l'Algérie.* Institut Pédagogique National, Alger 1967, p. 205.

(2) Jean Despois et René Raunal : *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest,* Paris 1967, p. 191.

استغلته حديثا الشركات الاستعمارية كثيرا ، وأتى عليه الحريق أثناء حرب الاستقلال ، فتناقصت أشجاره كثيرا ، وما نبت منه نما فى غير انتظام ، أما غابات البلوط الخضراء فقد تناقصت هي أيضا كثيرا منذ زمن قديم لاستغلال الفحامين لها .

والمساحة الاجمالية للغابات فى الاوراس تقدر نظريا بـ 50٪ من المساحة الكلية للكتلة الاوراسية البالغة حوالى 110.000 هـ (3) وفى الحقيقة ان المساحة الفعلية للغابات بالاوراس هي أقل من 20٪ من المساحة . (4)

وأجمل غابة اليوم بكتلة الاوراس هي التى توجد على ارتفاع ما بين 1600 م الى 2000 م بالسفح الشمالى لجبال : عيدل ، والشيلية ، ومحمل ، حيث توجد غابات الارز الجميلة على مساحة تقدر بـ 400 هـ من المساحة الكلية لاشجار الارز بالاوراس البالغة 17000 هـ (5) .

والباقى من مساحة غابات الاوراس، تشغلها غابات البلوط الخضراء ، بالسفح الشمالى ، وبالمرات الجبلية، أما أشجار غابات الصنوبر الحلبى بالاوراس فتقدر مساحتها بحوالى 100.000 هـ (6) وتوجد على ارتفاع يتراوح ما بين 1000 م و 1400 م بغابة بنى وجنانة شرق جبل الشيلية ، وبغابة بنى ملول بالمنطقة الشرقية من الاوراس، وبغابة أولاد يعقوب بأقصى جنوب جبل أحمر خد بالمنطقة الجنوبية من الاوراس وهذه الغابات هي أجمل غابات الصنوبر الحلبى الموجود بالجزائر ، وفى الاعلى من هذه الاشجار تظهر الحلفاء .

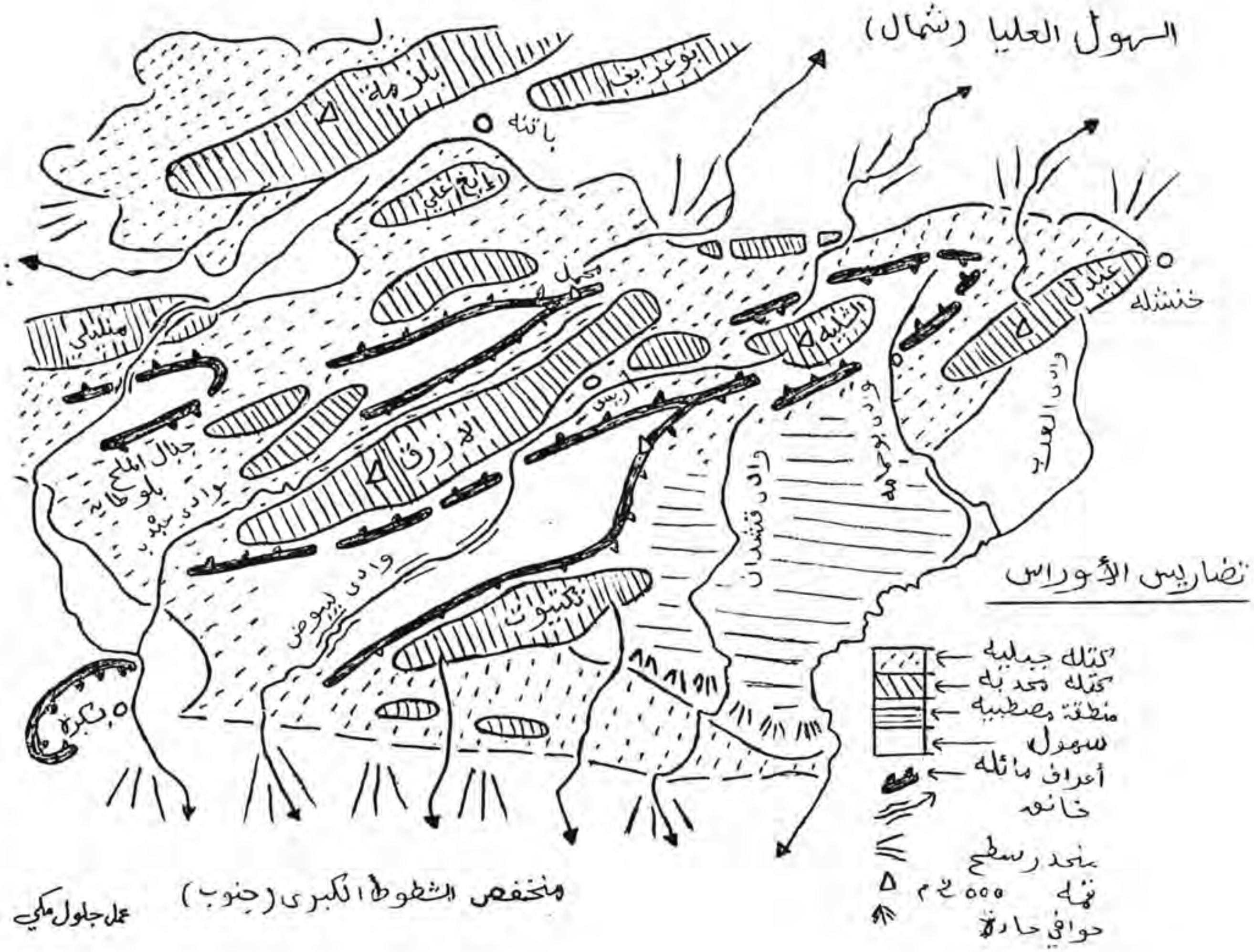
أما الشبكة الهيدروغرافية فهي تتألف من مجارى السيول المنحدرة من السفوح الجنوبية والتى تجرى فى أودية طويلة لتصب فى الصحراء ، بعد خروجها من آخر خوانق بالكتلة ، ولهذا فالاوراس صعب العبور بسبب حواجزه وخوانقه واعرافه المفصولة بالاودية العميقة التى حتت الى شعاب لها مناظر عجيبة تأخذ الانظار ، ولكن الدوران حول الاوراس ممكن ، ولهذه المميزات ثبت الاوراس أمام أعمال البدو الرحل واحتفظ بسكانه القرويين وباقتصاده الفلاحى الرعوى .

---

(3) Jean Modat : *Les Guides Bleus*. Algerie, Paris 1977, p. 475.
(4) *Géographie de l'Algérie*, p. 205.
(5) Collection (Visage de l'Algérie), la forêt algérienne. Madrid, Espagne, avril 1976 p. 31.

ملاحظة : مساحة غابات الاوراس تشمل أيضا كتلة بلزمة بالغرب من مدينة باتنة كما ان كثيرا من المناطق هي اليوم غير تابعة لولاية باتنة حسب التقسيم الاخير 1974 .

(6) *Visage de l'Algérie*, p. 31.


السهول العليا (شمال)
بلزمة
بوعريف
باتنة
متليلي
الأزرق
خنشلة
وادي العرب
وادي قشدان
وادي بيوض
تكتوت
بسكرة
تضاريس الأوراس
كتلة جبلية
كتلة محدبة
منطقة مصطبية
سهول
أعراف مائلة
خانق
منحدر سطح
قمة 2000 م
حوافي حادة
منخفض الشطوط الكبرى (جنوب)
عمل جلول مكي

الاقتصاد التقليدى بالاوراس :

ان النشاط التقليدى الفلاحى بكتلة الاوراس تتحكم فيه عدة عوامل جغرافية ومناخية ، من أهمها التضاريس ، وطوبوغرافية السطح والمساحة الفلاحية والمناخ ·

ان الكتل الجبلية والاودية والشعاب تحتل معظم مساحة كتلة الاوراس ولا تترك الا مساحة قليلة جدا للفلاحة اما بمنحدرات الاودية ، واما بالسفوح الشمالية والجنوبية وهذه المساحة الفلاحية سطحها غالبا مائل ولهذا قام الفلاح الاوراسى منذ القديم بتصطيب الاراضى الفلاحية المائلة وذلك ببناء العتبات لحفظ التربة من الانجراف وتمكين المياه من الوصول الى المزروعات لتغذيتها بكيفية شاملة وبهذه التقنية الفلاحية تمكن الفلاح من استغلال أية مساحة من الارض مهما كانت صغيرة والمحافظة عليها ·

أما عال المناخ فهو لا يقل أهمية عن التضاريس فى تأثيره على نشاط الانسان، بل المناخ هو العامل الاكثر تاثيرا على النشاط الفلاحى والرعوى للانسان ، ولهذا قام الفلاح بالاوراس باستغلال كل أرض حسب نوع مناخها وما يناسبه من المزروعات التى تتاقلم مع هذا أو ذاك المناخ فعلى السفوح الشمالية قام الفلاح بالفلاحة البعلية التى تعتمد على التساقط فقط وبدون ري ، مثل الحبوب وأهم محاصيل الناحية القمح والشعير، واشتغل بحدائق الاشجار المثمرة والخضر بالاودية الوسطى من الكتلة الاوراسية وأهم محاصيلها هي الجوز والخوخ والمشمش والتفاح وأهم خضرها هي القرعة والباذنجان والطماطم هذا بالاضافة الى بعض المزروعات الصيفية مثل الذرة البيضاء (السرغو) والذرة الصفراء ، كل هذه الفلاحة بالاودية الوسطى على المنحدرات بالمصاطب ، وباستعمال الري صيفا وشتاء لري الحبوب والاشجار المثمرة مثل التين والخوخ والحمضيات ، والمشمش الذى يجفف لغرض التسويق ، أما بالاودية الجنوبية المنخفضة حيث المناخ الصحراوى الجاف اشتغل الفلاح بحدائق أشجار النخيل مع شىء من الحبوب بالمصاطب أيضا ، وهذه الفلاحة تمتد على شكل أشرطة بالاماكن الاكثر انخفاضا لكي تتستفيد من الري بماء الوديان ·

وبما أن المساحة الصالحة للفلاحة محدودة ، فان قطع الارض صغيرة جدا بالاوراس ، ولهذا فهي شىء ثمين جدا مثل الماء فى هذه المنطقة الجبلية ، فعمل الفلاح على بناء المصاطب وتسميد الارض ، وهكذا صارت الفلاحة فى هذا المكان فلاحة كثيفة أشبه شىء بالبستنة مع ان مردودها قليل ، وهذا الامر هو الذى جعل سكان الاوراس يملكون عدة قطع من الارض فى أماكن متفرقة غالبا ما تكون القطعة بعيدة جدا عن الاخرى،

الامر الذى اضطر الفلاح الى التنقل دائما بين أملاكه كما اضطر كثيرا من الاوراسيين الى جعل سكناه وسطا بين أملاكه الموزعة ، فالمنزل يبعد عن أشجار الارز بالشمال بنحو 30 كلم حيث توجد قطعة أرضه ، ويبعد أيضا هذا المقر بما يقارب 30 كلم عن النخيل بالجنوب حيث يوجد ملكه والنتيجة لهذا الوضع الجغرافى لاراضيه فهو يحصد القمح فى شهر أفريل بالجنوب وفى شهر ماي بالوسط وفى شهر جوان بالشمال ٠

تربية الماشية :

ان العوامل الجغرافية والمناخية ، والتربة هي التى تتحكم فى حرفة الرعي مثل التضاريس وقلة التساقط ونوع التربة ووضع الاراضى بحيث لا يمكن استغلال هذه الاراضى فلاحيا ٠ واذا كان معظم مساحة الاوراس تشغلها الكتل الجبلية والاراضى الفلاحية قليلة وتوجد بالسفوح والمنحدرات والاودية، وما تبقى من المساحات بالقمم والمنحدرات الشديدة والاراضى القليلة التساقط والتى لا يمكن ريها استفاد منها السكان بطريقة الرعي وهكذا قرن سكان جبال الاوراس فلاحتهم التقليدية المعاشية بتربية الماشية وخاصة الغنم والماعز مستخدمين فى ذلك حركة الانتجاع الافقية بين السفوح الشمالية والجنوبية للكتلة الاوراسية أو بحركة الانتجاع الرأسية بين القمم والاودية وهكذا جمع السكان المقيمون بالاوراس بين حياة المستقرين وبين حياة الرعاة أشباه الرحل ، فالعائلات الفقيرة تملك قطيعا صغيرا من الماعز تقوم بتربيته فى نواحى القرية ، أما العائلات الثرية فتملك قطيعا من الغنم يتراوح عادة بين 50 ـ 100 رأس وهذا القطيع الكبير نسبيا يحتاج الى الانتجاع ٠

وتدرج مناطق الجغرافيا الحيوية بالجبل فرض على الحياة الرعوية التنقل بين السفح والقمة ، فالقطيع فى فصل الشتاء يفلى بسهول سفوح الجبال الصحراوية أو بالسفوح الشمالية أو بالاودية لان القمم فى هذا الفصل تكون مكللة بالثلوج ويصعد هذا القطيع فى فصل الصيف الى المراعى الجبلية العليا الخضراء لان مراعى السفوح والاودية تكون قد استنفذت ويبست ويصحب هذا القطيع راع أو بعض أفراد العائلة، ونتيجة لهذه الحركة الرأسية وخاصة بالقسم الشمالى من الاوراس أدت بالكثير من العائلات الى امتلاك مقرين : مقر بالوادى وآخر بالجبل ، وهذا مكن الفلاح المربى من أن يتجنب قساوة المناخ فيقيم بالوادى فى فصل الشتاء فرارا من صبارة القر ، لان القمم تكون باردة جدا ، ويقيم بالصيف فى أعلى الجبل هروبا من حمارة القيظ ، لان الوادى يكون حارا جدا ٠ ولكن هذه الحركة بدأت تقل شيئا فشيئا الى أن الى أن اختفت اليوم تقريبا ٠

نشـاط سكـان القرى :

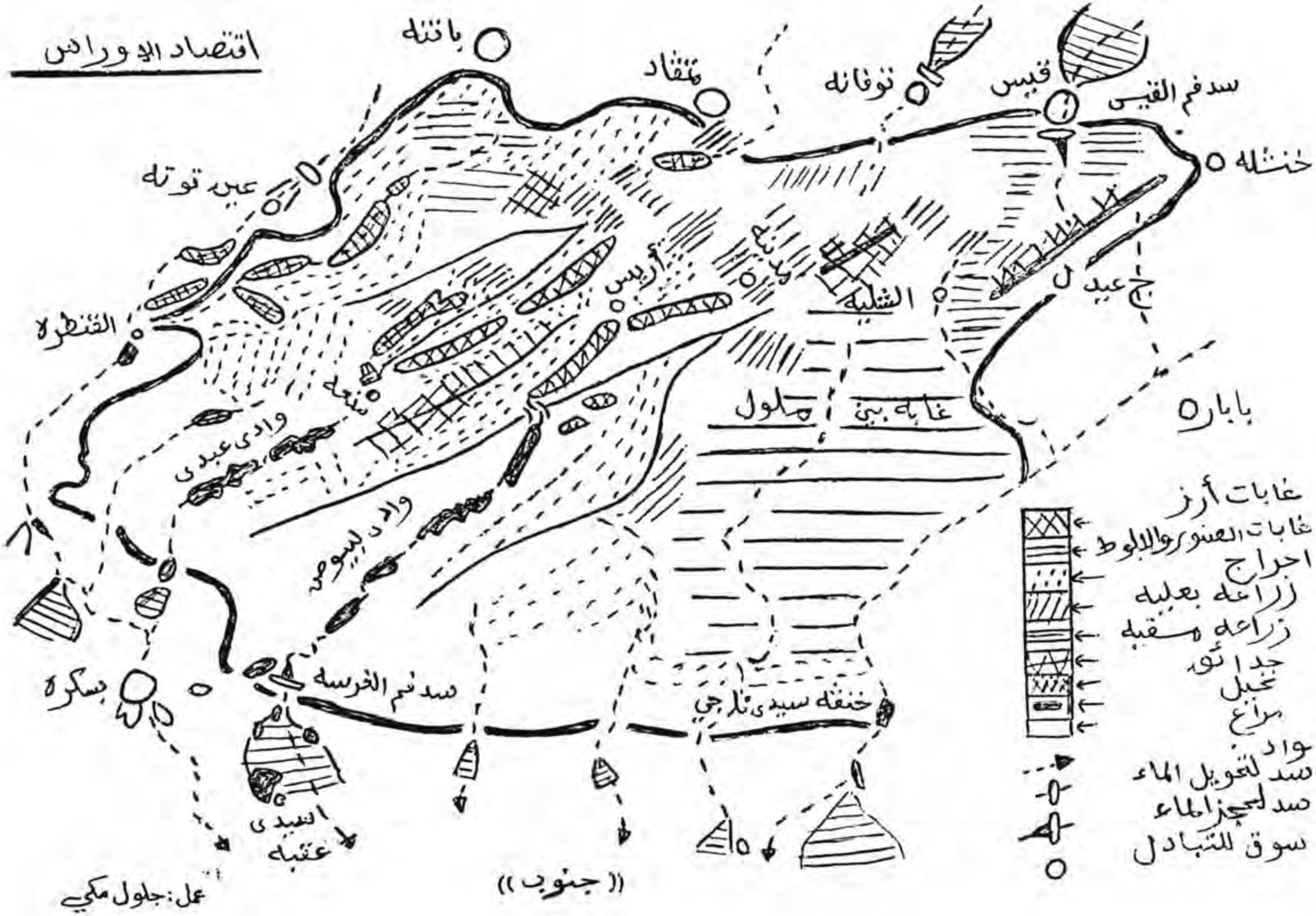
المقيمون بقرى الاودية العليا بالقسم الشمالى من الاوراس وهي منطقة باردة يعتمد سكانها فى حياتهم على اقتصاد فلاحى رعوى لاشباه الرحل ، فبعـض منهم ما زال يغادر قراه عنـد بدايـة سقوط الثلوج ، ويسوق قطيعه المتالـف غالبا من الانعام الصغيرة الى السفح الشمالى ، أو الى أطراف الصحراء ، مستخدما البغال فى تنقله هذا ، ويسكن اما خيمة صغيرة أو كوخا ، أو مغارة ويبدأ الصعود حثيثا للعودة الى القرى فى أول الربيع لغرض البذر للزراعـة الصيفية مثل : الذرة البيضاء (السرغو) والخضر ، التى تكون أمـام القـرى ، فالحقول فى هذه المنطقة بدون حواجز، ويستعمل الفلاح المحراث وثورين لجره، ويحصد غلته فى شهر جوان ، أو تكون هذه العودة لحرث الحدائق الصغيـرة لاشجار الجوز والتفاح والخوخ ، اما القطعان المتكونة من الغنم والماعـز فترعى بنواحى القرية حيث تصطـاف بالمراعى الجبلية مصحوبـة بعائلـة الـراعى ·

وهناك من سكان القرى من يملـك قطيعا كبيرا من الاغنام وهذا ما يضطره الى الانتجاع بقطيعه والتنقـل دائمـا شمالا وجنوبا بين السفحين الشمـالى والجنوبى مثـل أولاد عبـدى ، وأولاد داود ، كما ان هذا التنقل يكون أيضـا فى نفس الوقت لاجل الحرث والحصاد وري حدائقهم وأحيانا يكون للعمل فى أشغال الغابة بجبل الشيلية وفى غابـة سكاك شرق عين التوتة بواسطة البرنامج الخاص لولاية الاوراس سنة 1970 حيث تقوم الدولة اليوم بأعمال تجديد أشجار الارز باعادة تشجير الغابة ·

وهكذا يقوم هؤلاء السكان بحركـة التبدى التى فى الحقيقة ما هي الا شكلا من أشكال الحياة تباشره هذه الجماعة للبحث عن عشب جديد لتربية مواشيها أو للعمل ، وبهذه الحركـة تتـم دورة حياتها السنوية العاديـة المتمثـلة فى رحلتي الشتاء والصيف على أن تستأنفها فى العام القادم · وهكذا دواليك ، ولكن هذه الرحلة قصيرة وتتم فى منطقـة محدودة خلافا لما يقـوم بـه بـدو الصحراء ·

اما سكـان قـرى الاوراس الشرقى فيشتغل بعضهـم بالفلاحـة ، والبعض الآخر يحترف الرعي ، باستعمال حركة التنقل الراسى بين القمـم والاوديـة بالاضافة الى العمل فى أشغال تجديد غابة الصنوبر لبنى ملول ، وهذا بواسطة البرنامج الخاص لولاية باتنة سنة 1970م بينما يقوم سكان قرى الاودية الوسطى بالاوراس بفلاحة الحقول والحدائق على المصاطب مستعملين الري صيفا وشتاء لري الحبوب وأشجار الفواكه مثـل التين والخوخ والحمضيات والمشمـش بالخصوص ، والى جانب هذا النشاط الفلاحى يربى الفلاح قطيعا من الغنـم

اقتصاد الاوراس



والماعز على مراعى القرية أو على الحافة الصحراوية فى فصل الشتاء وعلى مراعى الجبل فى الصيف ·

أما سكان قرى الجنوب بالاوراس وهي منطقة حارة وتقع على مستوى أقل من 800 م فيعتمدون فى معيشتهم على أشجار النخيل ، مع شىء من الحبوب بالمصاطب أيضا وباستخدام الري من ماء السدود وخاصة أولاد زيان بوادى برانيس ويستعمل الفلاح فى هذه المنطقة محراثا بسيطا من الخشب يدعى (الجابدة) يجرها حصان أو بغل واحد ويحصد غلته فى شهر أفريل ، ولا يوجد الزيتون الا فى غربى الاوراس ، عند أولاد عبدى ، وبنى فراح · وأهم تجمع سكانى بهذه المنطقة الجنوبية من الاوراس هما : مشونش و جمورة ·

وبناء على هذه المناطق الاقتصادية المتنوعة يكن اعتبار الاوراس اقليما جغرافيا كل منطقة لها نوع اقتصادها ، فالشمال الشرقى من الاوراس غابى وتتوفر فيه أعمال تجديد الغابة ، والاوراس الشرقى تكسوه الاشجار ويعتمد اقتصاده على تربية الماشية ، أما الاودية الوسطى من الاوراس : وادى عبدى ـ البيوض فيعيش سكانها على الحدائق ، وبشىء من الصناعة الحرفية التقليدية لبيعها للسواح ، أما الجنوب الاوراسى فيعيش على نخيله وقطعانه ·

القرى بالاوراس :

عادة تكون صغيرة ، يتراوح عدد سكانها ما بين 200 ـ 500 ن ففى الاوراس الشرقى تشيد الضيعات الصغيرة والكبيرة على أطراف الغابة كما توجد بعض القرى على شكل كهوف ، وتتميز مساكن هذه القرى بأنها تشيد على مصاطب متدرجة ، كما تتميز جدرانها بأنها بنيت من الطوب ، كما توجد أيضا تجمعات سكانية من الاكواخ التى تتألف سقوفها من القش ، أو أغصان الاشجار ، ويتألف المسكن عادة من بيت واحد أو ثلاث بيوت مع حضيرة يتوسط هذا المسكن حوش ، والى جانب هذا توجد بعض المنازل الموسرة التى تتألف من طابق واحد ·

وبعض القرى تشيد على قمم الجبال المعزولة فهي أشبه ما تكون بأعشاش النسور ، أو تشيد على حافة رأسية لواد عميق فالقرية بموقعها هذا فهي تمثل مركز مراقبة ، وهي فى نفس الوقت حصن منيع على المغيرين ·

أما قرى أشباه الرحل بسهول سفوح الجبال الشمالية أو بسهول سفوح الجبال الجنوبية ، فهي تتألف من ضيعات تتكون من أكواخ الطين أو أكواخ القصب المؤقتة ، وهناك من السكان من يستعمل الخيمة مسكنا له قرب أرضه ، وقد يتخلى السكان عن قراهم لعامل اقتصادى كتعاقب سنوات القحط أو بعد الاسواق عنها ، وهذا شكل من أشكال الحياة

لحضارة قرية (ريفية) عتيقة لقبائل أمازيغ الجنوب ما زالت من بقاياها اليوم لغة الحديث وفلاحة المصاطب ٠

وبعض القرى تبنى لها حصنا (قلعة) على رأس أقرب جبل اليها ، يشتمل على عدة غرف يتوسطها حوش ، تستخدم هذه الغرف مخازن للمؤونة التى تستعمل فى أعوام القحط ، وهذه القلعة (تاقليعت) هي ملجأ فى وقت الخطر ينفر اليه عند أول هجوم ، وهي فى نفس الوقت مركز للمراقبة ، والداعى الى اقامة هذا الحصن هو كثرة الحروب وعدم الاستقرار اللذان شاهدتهما المنطقة فى العصور الخالية ، وهذه القلعة لا تختلف فى شكلها ومهمتها عن (اقادير) بجنوب المغرب الاقصى وعن (القصر) بتونس وطرابلس ٠

أما المدن الهامة بمنطقة الاوراس فهي المدن التى تقع بمحيط الكتلة مثل بسكرة وخنشلة وباتنة فهذه المدن هي أسواق هامة للتبادل التجارى مع المناطق الاخرى البعيدة عن الكتلة ، وسيتناول هذا المقال مدينة باتنة كنموذج لمدن منطقة الاوراس ٠

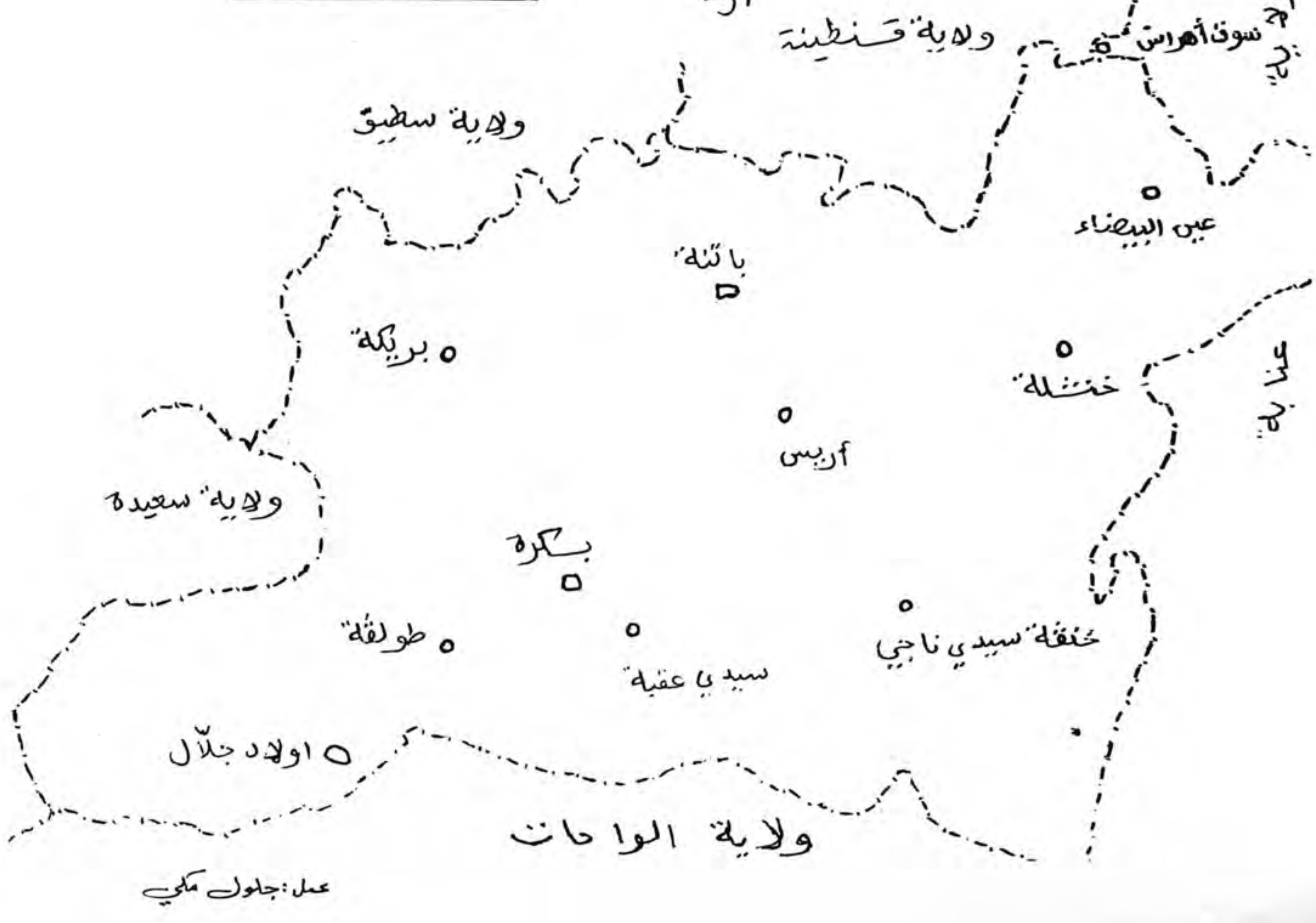
مدينة باتنة :

لقد بناها الجيش الفرنسى سنة 1844م عندما توجهت الحملة الفرنسية الى بسكرة لتكون مقرا للحامية التى تحمى الطريق الرابط بين التل والصحراء ، ولتكون قاعدة عسكرية لمراقبة الاوراس، وبعد شهرين من بقاء هذا المركز نقل الى الشرق من المكان الاول للتاسيس بنحو كيلومترين ثم بعد ذلك تجمعت حوله المنازل ، وصار هذا التجمع السكانى يدعى باتنة ٠

والمدينة خططت على مساحة مستطيلة الشكل لها أنهج واسعة ، وتقع عند نقطة اتصال الاوراس بالسهول العليا القسنطينية ، بسلل يرتفع بـ 1054 م عن مستوى سطح البحر ، تغذيه عدة ينابيع، ومناخه قارى صعب ، فالشتاء بارد جدا ، كما ان الصيف حار جدا ، ويظهر هذا فى الفوارق الحرارية اليومية والفصلية بين الليل والنهار والشتاء والصيف ، وأخذ هذا السهل اسم المدينة بعد ذلك ، ويعتبر السهل الممر الرئيسى للبدو الرحل للمنخفض الشرقى الكبير للصحراء الجزائرية ٠

وبمرور الزمن تحول هذا التجمع السكانى الى مدينة هامة لها وظائف متعددة فهي مقر للحماية العسكرية الفرنسية ، وسوق هامة عند اتصال الجبل بالسهل ، وهي مقر للاصطياف تقصده العائلات الموسرة لناحية بسكرة والزاب وفى نفس الوقت المدينة مقر لدائرة ادارية واسعة من الدوائر الستة لولاية قسنطينة الولاية الثالثة بالجزائر فى العهد الاستعمارى ، وكانت تشمل 10 مقاطعات ادارية منها 6 بلديات مشتركة ، بلغت مساحة الدائرة

ولاية باتنة تقسيم 1965





عنابة
سكيكدة
جيجل
بجاية
تيزوزو
قالمة
قسنطينة
البليدة
بويرة
سطيف
الاصنام
مستغانم
معسكر
المدية
بلعباس
تاهرت
مسيلة
باتنة
تبسة
سعيدة
الجلفة
بسكرة
لغواط
بشار
ورقلة
أدرار
تامنراست
المغرب
تونس

عمل : جلول مكي

ولاية باتنة، تقسيم 1974م.



عمل: جلول مكي

893·24 كلم وسكانها 237·353 نسمة منهم 435·9 أوروبى (7) ·

أما التقسيم الادارى الذى وقع فى عهد الاستقلال سنة 1965 م وقسمت بموجبه الجزائر الى 16 ولاية فكانت مدينة باتنة مقرا لولاية واسعة الاطراف هي ولاية الاوراس ، وكانت تشمل يومئذ 6 دوئر ادارية هي : باتنة - أريس - بسكرة - بريكة - مروانة - خنشلة ، وقد بلغت مساحة الولاية آنذاك 893·35 كلم ، وسكانها 800·893 ن بكثافة 24 نسمة فى كلم أما سكان المدينة فبلغوا 000·69 نسمة سنة 1966 م (8) ·

أما التقسيم الادارى الثانى الذى وقع سنة 1974 م وقسم بمقتضاه القطر الجزائرى الى 31 ولاية ، فبقيت مدينة باتنة مقرا للولاية الخامسة وهي ولاية باتنة وتشمل 7 دوائر هي : باتنة - قيس - أريس - عين التوتة - نقاوس - مروانة ، وتشمل 34 بلدية (9) ، مساحتها 837·13 كلم وبلغ سكانها 898·556 نسمة سنة 1977 م والكثافة 41 ن فى كلم (10) ، وارتفع هذا العدد فى شهر جانفى 1978 م الى 146·589 نسمة (11) ·

الهجرة من الاوراس :

لقد امتزجت عناصر السكان ببعضها البعض بمنطقة الاوراس منذ القديم كما هو الحال فى جميع مناطق العالم ولا يوجد تمييز بين الشاوية سكان السهل العليا وبين الشوية سكان جبال الاوراس لان هؤلاء يغمرون السهول العليا ·

وما زال سكان الاوراس يباشرون نمطا من أنماط حياة مجتمع قبلى قديم، هو المجتمع الامازيغى بمساكنه المدرجة، ولهجته وتقاليده ، كما احتفظ أيضا بحقه فى حل نزاعاته بنفسه ، وبفكرته الاستقلالية المشهورة · وهذا لان الاوراس استمر عبر القرون الماضية ملجا للاهالى وحصنا منيعا على المغيرين ، ولهذا لم يخضع سكان الاوراس للغزاة حكام الجزائر طيلة تاريخهم ، وايام الاحتلال الفرنسى للجزائر ظلت المنطقة قاعدة للمقاومة الوطنية ، ويشهد بذلك الثورات المتعاقبة التى عرفتها المنطقة مثل ثورات : 1850

(7) Aristide, Guide. Dictionnaire Encyclopédique, Paris 1934, p. 386.

(8) كتاب الجزائر فى أرقام - الجزائر 1974 - اللجنة الوطنية لاحصاء السكان ·

(9) Division Administrative de l'Algérie par wilaya, Secrétariat d'Etat au Plan, Avril 1975.

(10) Renseignement général de la population et de l'habitat du 12 février 1977. Secrétariat d'Etat au Plan.

(11) معلومات وزارة الفلاحة والثورة الزراعية ·

ـ 1859 ـ 1879 ـ 1916 ـ 1954 م وفى فترة الوجود الفرنسى بالبلاد لم يهتم به المعمرون ·

واهمية الاوراس هذه التاريخية والبشرية والاستراتيجية يرجع قسم كبير منها الى أن الاوراس بقى مدة طويلة عالما منغلقا على نفسه تحميه حواجزه وأوديته العميقة المنيعة ، ولم تكن هناك طرق مواصلات بالكتلة الاوراسية باستثناء بعض المسالك الجبلية التى أوجدتها القبائل اشباه الرحل بواسطة قطعانها المتنقلة بين شمال وجنوب الكتلة ·

وهكذا استمر نمو السكان بمنطقة فقيرة حتى اكتضت بسكانها حيث بلغوا 500·000 نسمة بكثافة 30 ن فى كلم سنة 1966 (12) ومستوى متوسط دخل الفرد السنوى منخفض جدا : (360 دج بالواحات ـ 250 دج بالسهول العليا 180 دج بالاوراس (13) ·

وهكذا لم يجد سكان المنطقةمخرجا من فقرهم وبؤسهم الا بالهجرة من المنطقة اما الى أوروبا وخاصة الى فرنسا ، واما بالهجرة الى أنحاء الوطن وهذه الهجرة الاخيرة معقدة جدا وكان سببها الرئيسى هو حرب التحرير التى اندلعت نيرانها من المنطقة وذلك لما اجتمع مجلس التسعة بقرية أولاد موسى بأريس حيث وزع مصطفى ابن بو العيد الاسلحة على المجاهدين وقرر المجلس أن يبدأ العمل بالثورة صباح أول نوفمبر سنة 1954 م ، وذلك بقتله للمعلم الفرنسى منيرو Monnerot

وقائد مشونش الحاج الصدوق ، وحدث هذا لما تعرض الثوار لحافلة الركاب عند التقاء وادى احمامة بوادى البيوض بالمنطقة الشرقية من الاوراس ، وهكذا بدأت حرب الجزائر التى دامت ما يقرب من سبع سنين ونصف وانتهت بالاستقلال (14) ·

وكان لهذه الحرب اهمية كبرى فى حياة المنطقة اذ فتحتها على العالم الحديث ، فالحاجة العسكرية أدت الى بناء شبكة من طرق المواصلات البرية فى كل جهة من جهات الكتلة ، حتى وصلت الطرق الى القرى الموجودة بالمناطق الاكثر صعوبة والاكثر بعدا بالمنطقة ، وهذه الطرق هي التى فتحت هذه المنطقة التى كانت منغلقة على نفسها منذ زمن بعيد على العالم الحديث، فهذه الطرق استخدمتها بعد الاستقلال حافلات الركاب والسيارات والشاحنات للباعة المتجولين وهكذا نشطت حركة التبادل التجارى والحضارى فى الاسواق

(12) Despois, p. 192.
(13) *Géographie de l'Algérie*, p. 209.
(14) *Les Guides Bleus*, op. cit., p. 195.

الواقعة شمال كتلة الاوراس خاصة ٠

فهجرة سكان الاوراس أثناء حرب التحرير (1954 ـ 1962 م) حدثت الى مدن خنشلة ـ باتنة ٠ أما بعد هذه الفترة فالهجرة تمت الى مدن أبعد من المدن السابقة ، لاجل العمل والتجارة والخدمات الاجتماعية وللترفيه مثل الهجرة الى قسنطينة والعاصمة ، ووقعت هذه الهجرة بتعويض وتمت على مراحل فالعائلات الريفية المهاجرة من الاوراس تستقر في مكان العائلات القديمة التي تنتمى اليها بقرابة والتى كانت فى باتنة أو خنشلة وانتقلت الى قسنطينة أو الى العاصمة وهذا النوع من الهجرة يمثل غالبا خروجا للنخبة ولرؤوس الاموال من المنطقة وهذا يعد خسارة بشرية ومالية كبيرة للناحية ٠

كما أثرت الهجرة أيضا على عدد السكان بالمنطقة فمجوع عدد المهاجرين من المنطقة ومجموع عدد الخسائر البشرية لحزب التحرير الوطنى تسببت جميعها فى نقصان من 10 الى 30٪ من سكان بلديات الاوراس الشرقى، بينما زاد عدد سكان الاوراس الغربى بالهجرة اليه لوجود المدرشة والتجارة، أما الارياف ، فان ثلاثة أرباع 4/3 مداشر الاوراس افتقرت من سكانها وهذه ظاهرة هامة فى التاريخ الديمغرافى اللاوراس فلاول مرة فى التاريخ ينخفض عدد سكانه ، وهذه ظاهرة ونتيجة حتمية لحرب التحرير ٠

وهناك تأثير آخر لحرب التحرير حدث بعد انتهائها وهو اعادة بناء القرى التى تهدمت ولكن أعيد بناؤها فى غير مواقعها الاولى حيث كانت تشيد القرية قرب الماء وفى مكان حصين ، فشيدت بعد الاستقلال قرب الطريق والمدرسة ، ووجود القرى قرب المدرسة يدل على أن سكان الاوراس دخلوا فى مرحلة التبادل الاقتصادى وانفتحوا على العالم الحديث ٠

الاقتصاد بمنطقة باتنة :

لقد قسم المخططون الاقتصاديون بالجزائر البلاد الى مناطق اقتصادية ثلاثة هي : 1 ـ منطقة اقتصادية من الدرجة الاولى وتشمل العاصمة وما حولها ، ووهران وارزيوا وعنابة وسكيكدة وهذه المنطقة الاولى تجمع أهم النشاط الرئيسى للاقتصاد بالبلاد وبها 38٪ من السكان و 3/2 سكان المدن و 58٪ من الوظائف غير الفلاحية ومستوى المعيشة يبلغ ثلاثة أضعاف المستوى الوطنى المتوسط ، أما المنطقة الاقتصادية الثانية بالبلاد فمستوى المعيشة فيها يساوى متوسط المدخول الوطنى وتشمل مدن : الاصنام ـ تاهرت تيزى وزو ـ سطيف ـ باتنة وهذه المنطقة هي بصدد التصنيع والمنطقة الاقتصادية الثالثة بالجزائر هي المنطقة الاكثر

حرمانا وتوجد عامة بجبال الشمال والسهوب والجنوب (15) ·

وحسب هذا التقسيم الاقتصادى للبلاد وحسب آلتضاريس فان منطقة باتنة تعانى متاعب اقتصادية واجتماعية متنوعة وخاصة ان الناحية عانت كثيرا من أحداث حرب التحرير ، فقد أحرقت غاباتها بالنبالم ودمرت قرى بأكملها وفقد كثير من سكان ما بقى من قراها واضطربت فيها الفلاحة واختل بها التوازن الايكولوجى بين الانسان والبيئة ولهذا كانت ولاية الاوراس محل اهتمام الحكومة حيث اجتمعت بمقر الولاية فى شهر فيفرى من سنة 1968 م لدراسة مشاكلها وانتهى هذا الاجتماع باقرار برنامج خاص لتنمية الولاية مبلغه (400) مليون دج وجاء بعد برنامج ولاية الواحات سنة 1966 م للتقليل من الفوارق الجهوية الموجودة بين الشمال والجنوب ، وبين المناطق المحرومة والمناطق المحظوظة ، وينص هذا البرنامج على النهوض بالولاية اقتصاديا واجتماعيا وهذا بتجهيزها وتطويرها ويتمثل التجهيز فى تجهيز أرياف الولاية بالكهرباء والغاز الطبيعى وقد وصل النور والغاز كثيرا من قراها وكذلك الماء النقى الصالح للشرب ، بالاضافة الى مد الطرق وتحسينها ، والاعمال جارية اليوم لاعادة بناء المطار القديم بمدينة باتنة للمواصلات الجوية (16) ·

أما تطوير الولاية فيتمثل فى وضع برنامج اقتصادى واجتماعى هام يشمل الميادين التالية : الفلاحة ـ الصناعة ـ التعليم والتكوين ـ والشباب والصحة ··· فى الميدان الفلاحى تعتبر ولاية باتنة ولاية فلاحية لانتاج الحبوب وهذا يظهر من المساحة المستغلة بالولاية البالغة (308·999) هكتار من المساحة الاجمالية للولاية حسب التقسيم الادارى الاخير لسنة 1974 م البالغة (1·383·700 هـ) أو 13·837 كلم (17) ·

ولقد وزعت المساحة الفلاحية كما يلى : بقطاع الثورة الزراعية (54·169 هـ) موزعة على 156 تعاونية فلاحية انتاجية للثورة الزراعية (ت ف ا ث ز) بها 1·431 مستفيد وهذه التعاونيات ظهرت بتطبيق المرحلة الاولى من الثورة الزراعية سنة 1971 م وقد انشىء بجانب هذه التعاونيات 34 تعاونية فلاحية بلدية متعددة الخدمات (ت ف م خ) لتدعيم تعاونيات الثورة الزراعية وهي العامل المحرك لها ،

---

(15) T. D. C. N° 158 du 18-12-1975, p. 28.
(16) El-Moudjahid du 18 mai 1978.
(17) Information Statistiques, p. 5.

وبالولاية حاليا 1247 فوجا يضم 49000 منخرطا فى الاتحاد الوطنى للفلاحين الجزائريين (ا و ف ج) (18) .

اما باقى المساحة الفلاحية (1.329.531 هـ) فموزعة بين القطاع الخاص والقطاع الاشتراكى وهذا يشمل المزارع المسيرة ذاتيا وتعاونيات قدماء المجاهدين ، فالمسيرة ذاتيا 20 مزرعة وهذا القطاع ظهر منذ سنة 1962 م .

ان معظم الاراضى الفلاحية بالولاية تشغلها المحاصيل السنوية بحيث تشغل مساحة تقدر بـ 304.614 هـ وتحتل الحبوب سنويا مساحة تقدر بـ 232.780 هـ وحدائق الخضر 1940 هـ والعلف 1030 هـ اما بساتين الفواكه والكروم فتشغل 4.385 هـ .

والملاحظ ان الولاية لا تكفى حاجاتها من الخضر والفواكه ولهذا فهي تستورد ما ينقصها وحوالى 95٪ من حاجاتها بواسطة التعاونية الفلاحية البلدية المتعددة الخدمات والتى تستوردها بدورها من التعاونية الولائية للخضر والفواكه .

وتوجد اليوم بالولاية 42.501 وحدة استغلالية (مزرعة) موزعة على الدوائر كما يلى : دائرة باتنة 4.687 وحدة استغلالية ، ودائرة مروانة 7.120 وحدة استغلالية ، ودائرة عين التوتة 4.311 وحدة ودائرة أريس 11.275 ودائرة نقاوس 5.657 وحدة ، ودائرة قيس 5.572 وحدة ، ودائرة بريكا 3.878 وحدة .

وتعتبر ولاية باتنة من الولايات الهامة لانتاج المشمس حيث تحتل اشجاره مساحة هامة تقدر بـ 940 هـ من المساحة الاجمالية لاشجار المشمش بالجزائر والبالغة 4.600 هـ وهذا يمثل 20،4 ٪ .

ان القطاع الفلاحى بالولاية يشغل 98.741 عاملا وهذا يمثل 16،7٪ من جملة السكان بالولاية ، ويمثل أيضا 48،6٪ من السكان القادرين على العمل والذين يقدر عددهم بـ 203.161 شخصا وهؤلاء يمثلون نسبة تقدر بـ 34،4٪ من جملة سكان الولاية البالغ عددهم حسب احصائية جانفى 1978 م 589.146 نسمة (19) .

الثروة الحيوانية :

الاغنام بالولاية 251.609 رأس منها 11.580 رأس لقطاع الثورة الزراعية و 20029 رأس للقطاع الاشتراكى المسير ذاتيا وتعاونيات قدماء المجاهدين و 220.000 رأس للقطاع الخاص .

اما الابقار فيبلغ عددها بالولاية

---

(18) EL-Moudjahid du 17 novmebre 1977.

(19) Résultats préliminaires par commune. Secrétariat d'Etat au Plan. Alger, novembre 1977, p. 13.

14·067 رأس منها 837 رأس للقطاع الاشتراكى و 1·230 رأس لقطاع الثورة الزراعية و 12·000 رأس للقطاع الخاص ٠ •

السد الاخضر :

ان الصحراء ما انفكت تغزو كل عام آلاف الهكتارات من الغابات والسهوب والسهول العليا ، واحيانا المزروعات، ولا نشاهد اليوم سوى الحصى والرمل، والاراضى الجرداء ، فحوالى 12 مليون هكتار من الغطاء النباتى بالسهوب تصخرت منها مساحات كبيرة محصورة بين خطى التماطر 300 ــ 400 مم تمتد من الحدود الغربية الى الحدود الشرقية للجزائر ، وتبلغ مساحة هذه السهوب 303·660 هـ وهذا الرقم يمثل 10,5٪ من المساحة الكلية لشمال الجزائر والبالغة 28·885·200 م هــ (20) فهذه السهوب تعيش عليها 8 ملايين رأس غنم من القطيع الوطنى البالغ 10 ملايين رأس بالاضافة الى هذا فان السهوب تقدم المادة الاولية للسيليلوز من الحلفاء، فهذه السهوب تعيش اليوم تغييرا كبيرا فى شكلها البنوى والاجتماعى والاقتصادى ، اذ ان تصحر هذه السهوب أدى الى القضاء على كثير من أنواع النبات التى كانت موجودة فى الماضى ، ولم يبق منها سوى نباتات متفرقة ، كما أدى التصحر الى وجود ظواهر طبيعية هذا بالاضافة الى تصحر مساحات واسعة من الغابات نتيجة لعدة عوامل من اهمها زحف الصحراء على شمال الجزائر ، فالغابة تؤلف وسطا طبيعيا حيث تتفاعل فيه عدة عوامل وتعمل على اتزان وتطور كل الاحياء ، فالارض الجرداء اذ اعشوشبت اينعت طبقة التربة ، وهذا يسمح بالاحتفاظ بالماء بواسطة التسرب، وهذا الامر يخفف ويهدوء من تقدم التصحر نحو الشمال ، ويجعل (2 م هـ) منتجة بالسهول العليا القليلة الامطار فى الخريف والربيع ، ومعنى هذا ان السد الاخضر يحسن اقتصاد السهول العليا بالاطلس (21) ٠

فالغابة الجزائرية كانت مساحتها 4 م هــ سنة 1830 م وانخفضت هذه المساحة الى 3·298·000 هـ سنة 1952م وتوجد حاليا 2200000 هــ و 800000 هــ غابة الماكى (22) ، فمجموع مساحة الغابات بالجزائر تقريبا 3·000·000 هــ ٠

---

(20) El-Moudjahid du 12- -1976.

(21) Algérie Actualité du 9 au 15 novembre 1976.

(22) غابة الماكى هي غابة أشجار قديمة اتلفت ٠

وعلى هذا فمساحة الغابة الجزائرية تشغل 1،3٪ من المساحة الاجمالية من التــراب الوطنى ، وتغطى المســاحة المشجرة بشمال الجزائر ما يقرب مــن 10٪ من مساحــة الشمال تقريبا (23) وعلى هذا تعد الجزائر اليوم فى أقل بلدان البحر الابيض المتوسط غابـات، وهذا نتيجة لتقدم الصحراء نحو الشمال كل عام متسببة فى تغيير المناخ والزيادة من عوامل جفاف المناخ فى بلادنــــا ، وابعاد الرطوبة والتساقط ، كما تسبب فى التعرية التى تأخذ كل عام 50·000 هـ تقريبا من الاراضى الفلاحية ولهــذا فالغابة عنصر أساسى للتوازن الطبيعى والمناخى والاجتمـاعى والاقتصــادى للمناطق الريفية بالخصوص وللوطــن كلــه ·

والغابة لا تظهر وسيلة ضروريـــة لحماية التربة من التعرية والتصحــر ، وحماية وتحسين الانشطـة الفلاحيـــة والرعوية ، وتحسين البيئة فقط ، بــل الغابة أيضا ضرورية لحيـاة سكـان الريف ، فهي ثروة طبيعية تساهــم فى الانطلاق الصناعى ، لكن الغابة الـتى تقدر مساحتها بملايين الهكتارات ، قد انخفضت هذه المساحة كثيرا ، فقـــد أصابتها منذ زمن بعيد عدة عوامل من التجريد ، أدت أحيانا الى زوال الاشجار تماما من مناطق واسعة ، متسببة فى اختلال التوازن الذى يؤدى غالبا الى زيادة الخطورة على الوسط الطبيعى ·

وهناك عدة عوامــل ساهمـت فى الوضعية الخطيرة للغابة ببلادنا ، منها الاستغلال المفرط للاخشاب ، خاصـــة أثناء الحرب العالمية الثانية ، فاستنفذ كثير من الاحتياطى لثروتنا الخشبية ، وعوامل الحرائق المتـكررة وخاصـــة الحرائق الاجراميــة للجـيش الفرنسى أثناء حرب التحرير الـوطنى فحــوالى 800000 هـ قضت عليها قنابل النبالم (24) فغيرت هذه الحرائق كثيرا حالة غاباتنا، وتسببت فى الاتلاف الهائـل لمساحات كبيرة للاشجار ، وزوال الغطاء النباتى الواقى لمناطق واسعة من الغابة وهكذا ساهمت هــذه العوامــل : البشريـــة والعوامل الطبيعية الاخرى فى عمليــة التعرية ، ففصل الجفاف والحر ، وفصل الامطــار والبرد ، وهبوب الريـــاح وسكونها ، عملت هي الاخرى عـــلى الاسراع فى عمليــة النحت ، وكذلـــك تذبذب نزول الامطار وعدم انتظامهـا ، ونزولها المفاجىء والعنيف ، ساهمـت هذه العوامل جميعا فى اتلاف التربـة وتصحيرها ، ففى كل عـــام تذهـــب

---

(23) « Visage de l'Algérie », la forêt algérienne, p. 13.

(24) Jean-Claude Martens : « Le modèle algérien de développement ». Bilan d'une décennie (1962-1972). Alger 1973, pp. de 189 à 190.

100000 م3 تقريبا مــن التربة وهـــذا ما يساوى 40000 هـ تقريبا (25) وهكذا تهدد بالاخطـار الانشطـة الفلاحيــة الفلاحية والرعويـــة ، وتتسبـــب فى الاختلال الكلى لتوازن البيئة ، وتؤدى هذه التعرية الى خسائر كبيرة منها : فقدان الاراضى الفلاحية ، وفيضانات تسببت فى تحول السدود ، وضيـــاع كميات كبيرة مــن الميــاه الى البحــر ، والنتيجة المباشرة لهذا التصحر هــو القضاء على جزء كبير من الثـــروة النباتية من الاخشاب والاعشاب التى يعيش عليها قسم هام مـــن الثـــروة الحيوانية المتمثلة خاصة فى قطعـــان الاغنام ، وهذا يؤثر مباشرة على مربى المواشى من بدو وحضـر كـمـا ادى التصحر الى تحويل الاراضى الفلاحية شيئا فشيئا الى مراع وهذه الاخيـرة الى أراض قفر .

هذه العوامل كلها لها انعكاســات سيئة وخطيرة على الاقتصاد الــوطنى، ولهذا وضع المسؤولون عن التخطيــط الاقتصادى بالبلاد مخططا لحل هذه المعضلة حلا دائما ، وهذا الحل يتمثـل فى مشروع اقامة حزام أخضر يمتد من الحدود التونسية شرقا الى الحـــدود المغربية غربا بطول 1500 كلم وبعـرض يتراوح مــا بيــن 12 الى 30 كلــم وفى المتوسط 20 كلم ويقام على طول خـط التساقط 300 مم الذى يقع على مشارف الصحراء (26) ويشمل قسما كبيرا من السهول العليا القارية بنواحى عيــن الصفراء ــ البيض ــ أفلو ــ جنــوب الجلفة ــ المسيلة ــ باتنة (27) .

وهذا الجدار الاخضر هو عبارة عن غابة من عدة انواع من أشجار الصنوبر والكافور تقف أمام زحف الصحراء نحو الشمال ، وتزيد هذه الغابة من عوامـل رطوبة المناخ ، وامكانية التساقـــط ، وبالتالى نمـو المــراعى من جـديـد ، والزيادة من مساحة الاراضى الفلاحية، واعادة التوازن الذى اختل بين الانسان والبيئة الطبيعية .

وهكذا بدأت الجزائر فى تنفيذ هذا المشروع الطموح يوم 14 أوت 1970 مع بداية الشروع فى تنفيذ المخطط الرباعى الاول (70 ــ 74) وليصادف دخـــول المرحلة الاولى من الثورة الزراعيـــة مرحلة التطبيق سنة 1971 م بعـــد أن استعانت الجزائـر بخبـراء دولييـــن اختصاصيين فى علوم التربة والمنـاخ والنبات واختيـرت خمس مناطـــق نموذجية لبدا التشجير بها هي : البيض

(25) Jeune Afrique, novembre 1972.

(26) Visage de l'Algérie, p. 51.

(27) Visage de l'Algérie, p. 52.

افلو ـ الجلفة ـ بوسعادة ـ تبسة ، وتم هذا الاختيار لاعتبارات طبيعية ومناخية هي فى البيض وافلو قلة التضاريس الجبلية مع توفر الماء والمساحات المغروسة مع سهولة التوسع فى غرس الاشجار لتوفر الامكانيات من قبل ، ونفس الشروط متوفرة فى مناطق بوسعادة والجلفة وتبسة ، وخصصت ميزانية ضخمة لهذا المشروع الخاص بتشجير 1٠500٠000 هـ فى مدة 7٠500٠000 ساعة عمل (28) ٠

واسندت هذه المهمة لاعادة تشجير الغابة للديوان القومى للغابات التابع لوزارة الفلاحة والثورة الزراعية ومن هنا ظهرت فكرة السد الاخضر العظيم ، فهو مشروع تنمية فى اطار سياسة تطوير الغابة ، ومنها ان يساهم السد في عملية وقف زحف الصحراء على الشمال ، وعهد بانجاز هذا المشروع التاريخى الكبير الى شبان الخدمة الوطنية ففى كل عام حوالى 500000 جندى تغرس حوالى 15000 هكتار بمئات الآلاف من الاشجار ويمتد انجاز هذا العمل التاريخى على مدى 20 سنة الى آفاق 1990 م وبالانتهاء منه تكون حوالى 7 ملايير شجرة قد غرست على 3 ملايين هكتار على أن تشمل المرحلة الاولى مسافة الطول فقط من شرق الحدود الى غربها بعرض قدره 10 كلم فقط (29) ٠

ويساهم السد الاخضر فى استرجاع 12 مليون هـ بالسهوب القابلة للفلاحة ، مقابل 4 ملايين هكتار تستغل اليوم ، ويشتمل المشروع أيضا على أعمال أخرى كاحياء الاراضى المسترجعة بأنواع أشجار الفواكه ، وزراعة العلف والزروع وانشاء البحيرات التلية ، واحواض ماء سعة كل منها 200 م 3 من الماء وأنظمة للري وبناء الطرق ، والقرى الغابية والبحث واستغلال المصادر المائية (30) ٠

ولقد قسم مكتب الدراسات والتخطيط التابع للمحافظة السامية للخدمة الوطنية التابع للجيش الوطنى الشعبى هذا المشروع الى مناطق نموذجية ستة تنطلق منها الاعمال ، وكانت المنطقة الاولى بدائرة نقاوس بولاية باتنة والثانية بتادميات بولاية الجلفة ، والثالثة بعين الصفراء بولاية سعيدة ، والرابعة بآفلو بولاية الاغواط ، والخامسة ببلدة ماء الابيض بولاية تبسة ، والسادسة ببلدية بوسعادة بولاية المسيلة (31) ٠

---

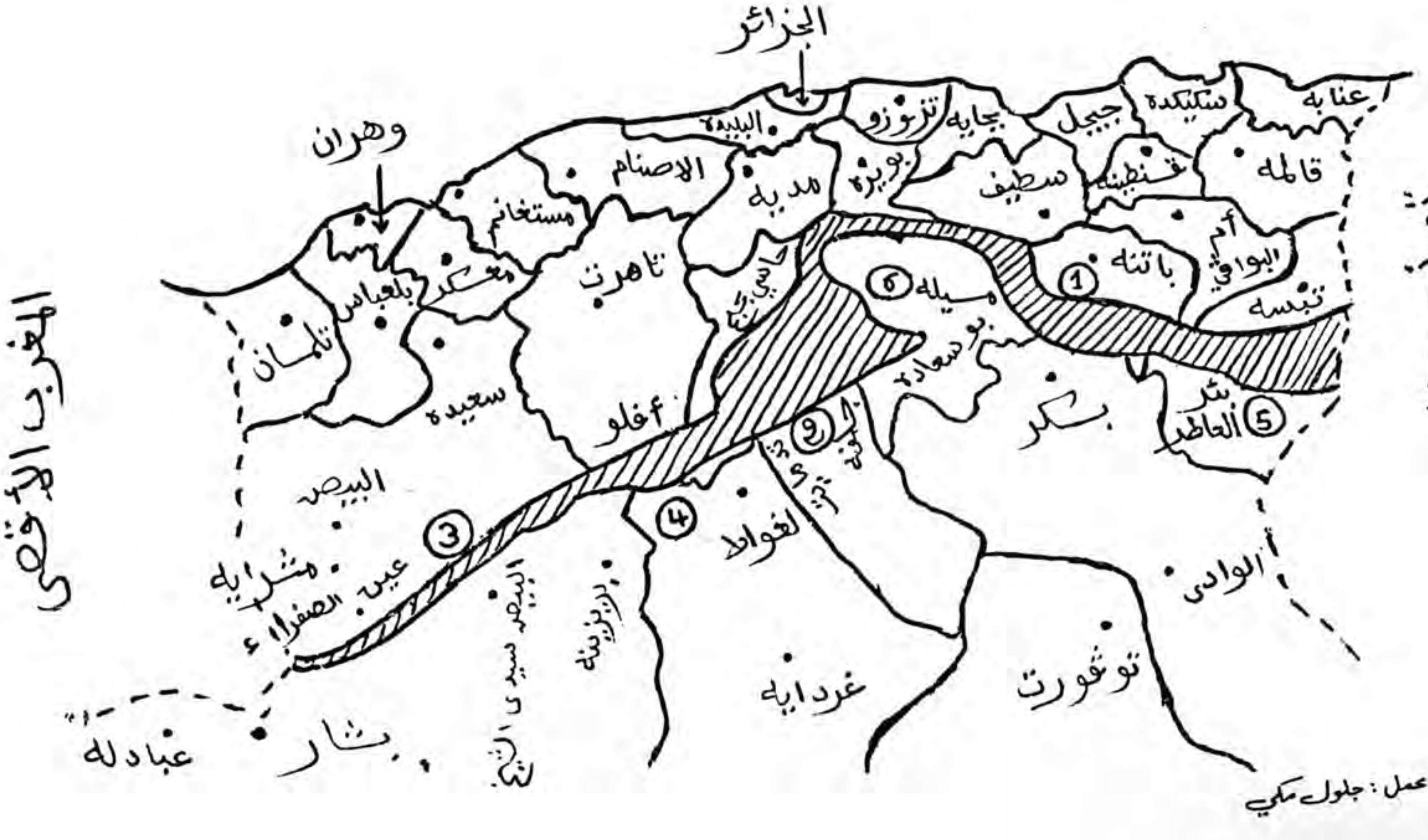
(28) عشر سنوات من الانجازات (19 جوان 65 ـ 19 جوان 1975) وزارة الاعلام والثقافة ـ ماي 1976 ٠ مدريد اسبانيا ٠ ص 150 ٠

(29) T. D. C. N° 140, 1975.

(30) عشر سنوات من الانجازات (المصدر السابق ذكره) ص 152 ٠

(31) El-Moudjahid du 4 avril 1977.

السد الأخضر


الجزائر
وهران
عنابه
سكيكدة
جيجل
بجايه
تيزي وزو
البليدة
قالمه
سطيف
قسنطينة
بويرة
مديه
الاصنام
مستغانم
معسكر
بلعباس
تلمسان
سعيده
تاهرت
مسيله
بوسعادة
باتنه
أم البواقي
تبسه
بسكر
الوادي
توقورت
غردايه
لغواط
البيض
مشرايه
عين الصفراء
بشار
عبادله
المغرب الأقصى
تونس
عمل : جلول مكي

وبدأت أول فرقة لحماية البيئة واحياء الاراضى باحياء أكثر من 2500 هـ سنة 1970 م بدائرة نقاوس وشجرت 5000 هـ بدائرة بريكة و 70000 هـ برمج لهـا لغرس الاشجار المثمرة فى سهل عطوطة بدائرة نقاوس (32) ٠

وقد نص المخطط الرباعى الاول على تشجير 190000 هـ وحماية واحيـاء أراضى تقدر بـ 100000 هـ وتنظيـم واستصلاح 347000 هـ (33) ٠

وتبدأ حملة التشجير هذه فى بداية كل خريف وتنتهى بنهاية شهر مـارس حيث ان هذه الفترة هي فترة الساقط الضرورى لنمو النبات فى هذه المنطقة، أما باقى الفترة الزمنية من السنة فهي فترة تهيئة الارض للغرس المقبل وري وحماية الشجيرات الصغيرة وتحضير المشاتل الى آخره ، وهكذا فى كل عـام تأتى دفعة جديدة من شبان الخدمـة الوطنية لتخلف الدفعة الاولى وتستأنف ما قد بدأته الدفعة السابقة من هـذا العمل التاريخى العظيم ، وأعمـال التشجير هذه تتناسب مـع 21 مارس اليوم العالمى للاحتفال بيوم الغابة الذى أقرته منظمة الاغذية والزراعة التابعة لمنظمة الامم المتحدة للتربية والعلـوم والثقافة (اليونيسكو) ولقد تلقـت مساعدات المنظمة المذكورة فى هـذا المجال ٠

وهذا المشروع سيحقق أشياء هامة منها أنه يقاوم ضـد التعرية والتصحر ، ويعمل على تحقيق التوازن الـطـبيعى المناخى لمناطق السهوب ، ويوفر أخشابا جديدة من الغابات ، وخلـق ظـروف حسنة لتطوير النشاطـات الفلاحيـة والرعوية ، وتحسين ودمج واسـع للسهول العليا للاطلس الصحـراوى ، وترقية اقتصاديـة واجتماعية لهـذه المناطق ، وخلق وظائف لتحسين ظروف حياة السكان الذين يعيشون بالغابات أو بالمناطق القريبة منها (34) ٠

السد الاخضر للاشجار المثمرة :

ان نقص بعض الفواكه ببلادنـا أدى بالمسؤولين الى التفكير فى ايجاد حل لهذه المسألة ، وانتهى الامر الى اقرار مشروع لا يقل طموحا ، عن المشـروع الاول للسد الاخضر المقام لايقاف زحف الصحراء ، نحو الشمال هذا المشروع هو اقامة سد من الاشجـار المثمـرة بالجنوب الجزائرى رغم ما يبدو اليوم من جفاف المناخ وقساوته وتصحـر

---

(32) عشر سنوات من الانجازات (المصدر السابق) ص 152 ٠

(33) J. C. Martens : *Le modèle algérien de développement,* p. 190.

(34) عشر سنوات من الانجازات ص 152 ٠

هذه المناطق التى ما زالت بها آثار تشهد فى الوقت الحاضر على أن المناطق الجنوبية من الجزائر كانت بها فلاحة لاشجار الفواكه ، وقد ذكر هذا الامر بعض المؤرخين والرحالة ، فقد كان الجنوب الجزائرى منطقة زراعية تشغلها الزروع والاشجار المثمرة ، وهذا باستغلال الثروة المائية السطحية منها والجوفية باقامة السدود الصغيرة وحفر الابار ومد السواقى وبناء القنوات وفلح الارض بما يناسبها من المزروعات والاشجار ، وهكذا وسع الرومان الزراعة الى الجنوب الجزائرى وزيتنوا مناطق واسعة بالعروض الجنوبية مثل مناطق : بريكة ـ نقاوس ـ القنطرة ـ خنقة سيدى ناجى جنوب الاوراس أو غرسها بالكروم وأشجار الفواكه (35) ٠

وهكذا صممت الجزائر على تعميم شجارة الاشجار المثمرة فى البلاد ، وهذا باقامة سد من أشجار الفواكه ، ويتمركز كثير من الجهود لتحقيق هذا الانجاز حول القرى الاشتراكية الفلاحية وحول المدن وبمناطق تخصص لها ، وتوزع الاشجار على المواطنين مجانا ، وسيشمل هذا العمل الكبير مساحة تقدر بـ 128000 هـ فى كامل التراب الوطنى وستغرس بعد الانتهاء منه حوالى 700000 شجرة مثمرة ٠

بدأت هذه العلمية بنهاية المخطط الرباعى الاول سنة 1973 م بداية وئيدة وانطلقت بفعالية سنة 1977 م بحملة وطنية لغرس الاشجار المثمرة فى ولاية المدية يوم 17 مارس 1977 والذى صار يوما وطنيا للاحتفال بالشجرة المثمرة وتستمر الحملة الى يوم 21 مارس اليوم العالمى للاحتفال بالشجرة ويكون الغرس فى المناطق التى تستقبل كمية من التساقط أكثر من 400 مم ٠

وقد غرس بولاية باتنة وحدها 14040 شجرة مثمرة بأنواع من أشجار الفواكه كالزيتون والمشمش والتفاح والاجاص وغيرها من الاشجار المثمرة والاشغال جارية اليوم لغرس 500 هـ بالعنب والزيتون (36) ٠

ولقد نص الميثاق الوطنى فى العنوان السابع منه الخاص بالاهداف الكبرى للتطور على زيادة المساحة المروية الى أكثر من مليون هكتار لمواجهة تزايد حاجات السكان من المواد الغذائية ، وتحرير البلاد من السوق العالمية للمنتجات الفلاحية وللتخلص من الضغط

---

(35) محمد بشير شنيتى (التوسع الرومانى نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية) مجلة الاصالة ، عدد 41 ـ جانفى 1977 صفحات 21 ـ 22 ٠

(36) معلومات من وزارة الري وحماية البيئة واحياء الاراضى ٠

الذى قد تمارسه الدول العظمى المسيطرة على هذه السوق ·

وفى المدة الاخيرة أنشئت فى كل ولاية مؤسسة ولائية لاعادة واصلاح الثروة الغابية يوم 4 ديسمبر 1977 فقامت بأعمال منها استصلاح سهل بلزمة بدائرة مروانة بحفر 29 بئرا فى شهر أفريل 1978 ومنشآت أخرى كبناء الحضائر وغيرها ، وهذه المؤسسة هي التى تقوم بأعمال الغابات واحياء الاراضى واقامة احواض مياه وحفر آبار الخ ··· (37) ·

أما الصناعة فان الدولة بذلت جهودا كبيرة بمنطقة باتنة لان ارض الولاية تتوفر على ثروات طبيعية هامة ، من مواد أولية نباتية وحيوانية ومعدنية تساعد على اقامة صناعات خفيفة بها فالاخشاب متوفرة في غاباتها والحلفاء فى سهوبها ، والحبوب من سهولها العليا ، والفواكه من جنائنها المنتشرة فى أنحائها كما يوجد بها قطيع هام من الاغنام لوفرة المراعى بسهوبها وبأوديتها وسفوح وقمم جبالها كما يوجد أيضا قطيع من البقر معتبر ·

أما المواد الاولية المعدنية فباطن أرض الولاية يزخر بمعادن هامة منها عدة مناجم مثل مناجم الرصاص والزنك والزئبق والنحاس والبرتين الطبيعى الذى تعتزم الشركة الوطنية للابحاث والاستغلالات المنجمية (سوناريم) استغلاله بجبل اشمول جنوب الاوراس حتى تستغنى الجزائر عن استيراد البرتين الذى يستعمل فى عمليات التنقيب عن البترول والتى يستورد منها كميات هامة ، والشركة تعتقد حسب التكوين الجيولوجى للاوراس انها ستجد فى باطنه معادن هامة وثمينة ، وعلى هذا فهي تعتزم القيام بمسح شامل ومنهجى للمنطقة للبحث عن المعادن واستغلالها ·

ولقد نص البرنامج الخاص بانماء ولاية الاوراس سنة 1968 م بتصنيع الولاية التى لم تعرف التصنيع من قبل وذلك باقامة مصانع صغيرة بعضها بمقر الدوائر والبعض الآخر بمقر الولاية وتتمثل في الوحدات التالية : مدبغة للجلود بها 174 وظيفة ، ومصنع للزفت وآخر للآجر والقرميد به 130 عاملا ، بالاضافة الى اقامة وحدات للصناعات الحرفية النفعية الحديثة كمصنع الغزل ومصنع البطانيات وثالث للاحذية به 239 وظيفة ورابع للخزف الملون ووحدات أخرى للصناعات الحرفية التقليدية ، كفن تقليدى مثل السراد والاثاث المنقوش وغيرها فهذه الصناعة مصدر لحفظ القطع الفنية النادرة ، وهي أيضا عامل حفظ وتنشيط للتراث الثقافى والفنى لبلادنا بالاضافة الى انها عامل دعاية داخلية وخارجية

---

(37) الجمهورية يوم 4 أفريل 1978 ·

للفن الشعبى ببلادنا بلغت جميع هـــذه الوحدات 13 وحدة انجز معظمها (38) ٠

ثم حظيت الولاية بمشاريع أخرى برمجت لها الدولة ضمن خطة التصنيع الشاملة للبلاد حسب المخططات الوطنية والمشاريع التى تحققت أو هي فى طريق الانجاز أو التى ستقق فى المستقبـــل القريب بين سنتى 1976 ـ 1982 ، الهدف منها هو ايجاد وظائف عمل لتشغيـــل اكبر عدد ممكن من اليـــد العاملـــة العاطلة ، وهذا للتخفيف مـــن مشكـــل البطالة المطروح بحدة فى هذه الولاية النائية والفقيرة كما تهدف الى ايقاف الهجرة من القرى الى المدن الكبرى ، وتدخل أيضا هذه الوحدات ضمن اطار سياسة التوازن الجهوى التى انتهجتها الدولة منذ شروعها فى تنفيذ البرامج الخاصة بالولايات المحرومة منذ سنـــة 1966 م بولاية الواحات ٠

أما المصانع الى اقرت للولاية فهي مصانع متوسطة وأخرى صغيرة الحجم أقيم معظمها بمقر الولاية حيث تتوفـــر اليد العاملة لوجود تجمع سكانى كبير بينما أقيم الباقى بمقر الدوائر (39) ٠

فالمشاريع التى تحققت بمدينة باتنـــة مقر الولاية هي : مصنع لقارورات الغاز الطبيعى ، ومخزن تابع للشركة الوطنية للحديد والصلب والذى دشن يوم 26 أفريل 1978 وينجز يوميا 9600 قارورة من غاز البيطان و 50 قارورة من غـــاز البروبان وبالمعمل خزانان سعة كـــل منهما 4000 طن ومنشآت أخرى تابعـــة لهذا المعمل ويشغل 460 عـــامـــلا (40) ومركز تدنين الغاز فى القارورات تابع للشركة الوطنية لنقل وتسويق المحروقات (سوناطراك) فالمنتجات تاتيه من حاسى الرمل ومجمع سكيكدة بواسطة الشاحنات فى انتظار انجاز محطة تجهيز حيـــث سيتم تعبئة وتجهيز ومراقبة القـــارورات الفارغة آليا ويشغل 115 عاملا وطاحونة لانتاج الدقيق تشغل 57 عاملا ومعمل للجير والاسمنت 75 عاملا ومصنع لانتاج المواد الغذائية من العجين يشغل 252 عاملا ومعمل للملابس الجـــاهزة 120 وظيفة ومعمل للخياطة 1043 وظيفـــة ومعمل بالولاية يشغـــل 130 عامـــلا ومجموع الوحدات التى تحقق معظمها بمقر الولاية 34 وحدة من ضمنها عدد تابع للقطاع الخاص وهـــذا الاخيـــر لا يتناوله هذا المقال لانه لا يشغل الا عددا قليلا من العمآل اذ يبلغ حوالى 500 عامـــلا (41) ٠

---

(38) كتاب الثورة الجزائرية : وقائع وأبعاد ـ اسبانيا 1972 ص 234 ٠

(39) كتاب الثورة الجزائرية (المصدر السابق) ص 234 ٠

(40) El-Moudjahid du 26 avril 1978.

(41) حسب احصائية وزارة الصناعات الخفيفة لشهر فيفرى 1978 ٠

أما فيمـا يخص المشاريـع التى سطرتها الدولة ما بين سنتى 1976 ـ 1982 لخلق وظائف شغل جديدة فلقد وضعت الخطة حسب كل دائرة ففى دائرة باتنة وفرت المشاريـع التى أنجـزت 3٠130 وظيفة شغل و 2090 وظيفة هي بصـدد التوفير و 13٠500 وظيفة هي مشاريـع المستقبل فالمشاريع التى هي بصـدد الانجاز هي : توسيع مجمع النسيج لكي يوظف 1٠200 عامـلا ووحـدة الميـاه المعدنية 60 عامـلا ومخزن لقـارورات الغاز 75 عاملا ، أما المشـاريـع التى سيعمل على تحقيقها بالدائرة فـهي : وحدة للجبس 150 وظيفة ووحدة لقوالب الطوب 200 عامل ومسبك للصلب وحديد الزهر 320 عامل ومركز لتركيب الهياكل المعدنية ، وقاعدة للهندسة المدنية 500 عامل ووحدة لهياكـل البنـاءات ذات المقاييس الموحدة 320 عامل ومركز متعدد الاختصاصات تابع لسوناطراك ، ومركز للتخزين والتوزيع 300 عامل ومحطـة تخزين تابعة لتدنين الغاز ، وموقـف ابدال لسائقى الشاحنات يشغـل 510 عامل ، ومجموع الوظائف فى دائرة باتنة بالمشاريع الجارى بها العمـل والمشاريع المقبلة تبلغ 10٠140 وظيفـة بالاضافة الى محطة لتوجيه الغـاز الطبيعى لحاسى الرمل الى مجمـع سكيكدة ولتزويد مدينة باتنة بالغاز ، كما يمر بها أنبوب البترول المتوجه الى المجمع البتروكيمياوى بسكيكدة (42) ٠

أما المشاريع بدائرة عين التوتة منها ما هي فى طريق الانجـاز ومنهـا مـا سيشرع فى تحقيقه وهي مقلع حجارة الملاط (حجارة ، رمل ، حصى ٠٠) قدرته الانتاجية 1000000 طن فى العام ومبلغ تكاليفه 8 ملايير سنتيم ويشغـل 160 عاملا والمشاريـع بالدائـرة هي طاحونة تنتج 2000 قنطار يوميا مـن الدقيق وتشغل 214 عاملا ووحـدة للقمصان 540 عاملا ومركز للتوزيع 20 عاملا فالمجموع 930 عاملا ٠

وفى دائرة أريس فى طريق الانجاز طاحونة 210 عمال مصنع لغزل القطـن 1200 عامل معمل خردوات للبناء 250 عاملا مصنع كنزات صوفية (بلوفر) 1100 عامل ومجموع العمال بالدائرة سيبلغ 2٠780 عاملا ٠

وبدائرة بريكة وحدة تشغـل 210 عامل مشروع مصنع سيارات خفيفة من نوع خاص للاستعمـال فى كـل أرض 3٠100 عامـل ٠

وفى دائرة قيس : مشاريع تجهيـز مجمع رياضى 500 عامل ، ومركـز للتوزيع 20 عاملا وفى دائرة مروانة :

---

(42) ملاحظـة : هناك عدد من الانجازات تمت فى أماكن هي اليوم غير تابعة لولاية باتنة حسب التقسيم الاخيرا 1974 ٠

مشاريع مصنع لغزل الصوف المندوفة 700 عامل مركز للتوزيع 20 عامـلا ، وبدائرة نقاوس : مشاريع مراطة لدبغ الجلود الرقيقة 320 عاملا ومركز للتوزيع 20 عاملا ، فمجموع العمال المشتغليـن بالقطاع الصناعى بالولاية يقـــارب 25٠000 عاملا (43) ٠

السكـــن :

وفى مجال السكن والبناء تم برمجة 9 قراى اشتراكية فلاحية هي : قريـــة زكار الكواشية بها 200 مسكن وقرية ذراع القبور بها 200 مسكن وقريــــة ذراع بولطيف بها 100 مسكن وقريـــة فنار نقاوس بها 150 مسكن وهذه القرى الاربعة قد دشنت ، وقرية هنشير المليح بها 210 مساكن وقرية راس الماء بها 100 مسكن وقرية ثنية السدرة بها 105 مساكن وقرية عين الاصــفر بهـا 100 مسكن وقرية عين البيضــاء بهـا 202 مسكن وهي على وشك الانتهاء ومجموع هذه القرى بها 1٠367 مسكنا بلغـت تكاليفها 142٠898٠000 دج ٠

ثم تقرر توسيع هذه القرى الاشتراكية باضافة مساكن أخرى اليها وهذا ببرمجة 900 مسكن واعتمد لهـا مبلغ من المال قدره 51٠480٠000 دج انجز منها بنسبة 10٪ ٠

أما فيما يخص البناء الذاتى فى نطاق البرنامج الخـاص للولايـة فخصـص 1٠000 مسكن أنجزت كلها وبلغـــت تكاليفها 9٠175٠260 دج ومن المعلوم ان هذا النوع من البناء هو أن المواطـــن يساهم بشىء رمزى فى هذا العمل اما بالاسمنت أو بالعمل اليدوى أو بأجرة البنائين الخ ٠٠٠ والباقى تســـدده الدولـــة ٠

ولقد وضع برنامج اضافى للبنــاء الذاتى بـ 1000 مسكن اعتمد له مبلغ من المـــال يقـدر بـ 17٠000٠000 دج فأنجز بعض منـه ، ومـا بيـن عـامى 1974 — 1977 خطط لبناء 2٠300 مسكن اعتمد لها مبلغ قدره 53500٠000 دج ، وهنالك نوع آخر من البناء فى مدينـة باتنة هو البناء المسير ذاتيا قـــدره 24٠220٠000 دج (44) ٠

وأخيرا ظهر نوع حديث من البنـاء فى مدينة باتنة وهو انشاء العـمارات التعاونية بمساهمة الصندوق الوطـنى للادخـار والاحتيـاط وبـدأ فى بنـاء عمارتيـــن (45) ٠

---

(43) Emplois et implantation des projets industriels en 1976,, en 1982. Décembre 1977 Ministère des Industries Légères, Alger.

(44) Villages socialistes agricoles. Ministère de l'Habitat. Etudes Art, p. 234.

(45) Algérie Actualité du 16 au 22 avril 1978.

التربيــة والثقافــة :

لقد شاهدت ولاية باتنة تطورا هاما فى ميدان التربية والثقافة ، ففى العهد الماضى لم يكن هناك شىء ذو أهميــة يذكر ، الا بعض المدارس وقليل جـدا من المتوسطات ، وثانوية واحـدة فى مدينة باتنة ، أنشئت فى الاصل لابنـاء الاوروبيين ، ولهذا بعد الاستقلال بذلت الدولة مجهودا ضخما فى هذا الميدان، حيث بدأت منذ الاستقلال تعمل على توفير المدارس ، حتى تهيىء لكل طفل مكانا فى المدرسة ليتعلم ، وتم فى هــذا المجال الشىء الكثير ، اما بواسطة البرنامج الخاص بتنمية ولاية باتنة ، واما ضمن المخططين الوطنيين الربــاعى الاول والثانى وقد احصى فى العام الدراسى 1977 ـ 1978 : 1745 قسمـــا و 1150 مسكنا هذا فى مرحلة التعليم الابتدائى، وقد بلغ عدد التلاميذ 7479 تلميـــذا وتلميذة وبلغ عدد المعلمين 2491 معلما على اختلاف أطرهم وجنسهم ، منهـم 1653 باللغة الوطنية ، 838 باللســان الاجنبى (46) ٠

وبلغ عدد المتوسطات 28 متوسطة ، بدون ملاحقها ، منها متوسطة متعـددة الاختصاصـات ومتقنان متوسطـان فلاحيان خاصان بفلاحـة الاحـــراج والغابـات وحمايـــة البيئة واحـيـاء الاراضى ، وقد بلغ عدد التلاميذ بهذه المرحلة 21545 تلميذا ٠

وفى مرحلة التعليم الثانوى ، فتوجد بالولاية 6 ثانويات ، منها 4 للتعليـــم العام ، و 2 متقنان وصل عدد الطلبـة بالتعليم العــام 5332 معربـــا و 1421 مزدوجا وبلغ عدد الطلبة فى التعليـم التقنى 827 طالبا منهم 584 مزدوجـــا و 243 معربـــا ٠

وفى ميدان التكوين فيوجد بالولاية معهدان لتكوين المعلمين بهما 660 طالبا وطالبة منهم 514 معربا ، 150 مزدوجـا وبلغ عدد الاساتذة بالمتوسط والثانوى 284 أستاذا على اختــلاف أطرهـــم وجنسهم واللغة التى يعملون بها (47) ٠

فمجموع التلاميذ والطلبة بالولايـة للعام الدراسى 77 ـ 78 بلغ 92811 مـن مجموع سكان الولاية البالغ عـــددهـم 589146 نسمة (جانفى 1978) (48) ٠ ومجموع المعلميـــن والاســاتذة 2789 معلما واستاذا ٠

وفيما يخص التكوين المهنى فقد انشأت الدولة ما بيـن سنـتى 1970 ـ 1975 م 103 قسم عبر الولاية بهـا والى 4120 تلميذا تكون منهم 1568 شابا ، وفى

---

(46) Informations statistiques au 12 novembre 1977. DECJ, Batna, p. 43.

(47) Information p. 2.

(48) احصاء وزارة الفلاحة والثورة الزراعية : جانفى 1978 ٠

العام الدراسى 77 ــ 78 انشىء 20 قسما جديدا فى كل قسم 30 شابا فالمجموع 600 شاب ومجموع المعلمين 339 معلما ، ويتخرج الشبان فى مختلف اختصاصات التكوين المهنى . لحرف الخدمات والصيانة ، وهذا نتيجة لتطور الاقتصاد وارتفاع مستوى المعيشة ونمو القدرة الشرائية ولهذا تزداد أهمية هذه الحرف يوما بعد يوم مثل أعمال البناء والنجارة والكهرباء والرصاصة والتجارة الخ ·· اذ أن هذه الصناعات الحرفية الحديثة الاستعمالية هي عنصر مكمل لمجمل الصناعة الوطنية ، وهي محققة للتجانس فى منتجاتها وانتاجها كما أنها موسعة للسوق المحلية ، وهي أيضا عنصر هام فى تثبيت الجماهير الريفية وفى تحسين أوضاعها بفضل انشاء فرص عمل جديدة لا تكلف الدولة الا استثمارات طفيفة ·

وفى التعليم العالى والبحث العلمى فقد أسس بالولاية مركز جامعى فى 16 نوفمبر 1977 جنوب المدينة على طريق بسكرة تتسع عند الانتهاء من بنائها 5000 طالب وطالبة وتضم معاهد هي :
1 ــ معهد العلوم التطبيقية (آلات صناعة النسيج ــ لمواد البناء ــ والكهرباء) ·

2 ــ معهد العلوم الاجتماعية : قسم العلوم الاقتصادية ، قسم الحقوق والادارة ــ قسم علم الاجتماع ــ قسم علم النفس ·

3 ــ 3 دوائر : 1 ــ دائرة الرياضيات 2 ــ الفيزياء والكيمياء ، 3 ــ اللغة والادب العربى والاجنبى ·

ويتبع الجامعة مركز حسابى ومكتبة بها 150000 كتاب ومطعم جامعى وقاعات للانشطة الثقافية والرياضية وحيا جامعيا به 500 سرير وبالجامعة حاليا 640 طالبا منهم 40 طالبة (49) ·

بالاضافة الى مدرسة تكوين المهندسين المطبقين للاشغال العامة بمدينة باتنة وستفتح فى العام القادم 78 ــ 79 مدرسة ثانية لتكوين مهندسين مطبقين لسد الحاجيات المتزايدة لهذا الاختصاص ، بالاضافة الى مركز لتكوين تقنيين اختصاصيين فى الهندسة المدنية تابع لوزارة البناء والاشغال العمومية ·

وفى ميدان الشبية والرياضة ، فقد برمج للولاية منذ البرنامج الخاص لولاية الاوراس عدة نشآت رياضية هامة لفائدة الشباب ، وذلك بتجهيز قاعة للتربية البدنية والرياضة بمدينة باتنة وتحسين واصلاح ملعبها ، ودار لانشطة الشباب ودار لايواء الشباب ،وأخرى للاحداث المنحرفين لاعادة تربيتهم بها حوالى (120 صبى) بالاضافة الى تجهيز ملاعب بريكة ــ مروانة ــ عين

---

(49) El-Moudjahid du 17 novembre 1977.

توتة ـ القنطرة ـ أريس ، وتشييد ثلاث مجمعات رياضية فى بريكة ـ وادى الماء ـ أريس ٠٠ ودارين لانشطة الشباب فى كل من شمرة وعين توتة ، أما فى ميدان التربية المدنية المدرسية وضعت وزارة الشباب والرياضة تجهيزات مدرسية فى نقاوس وباتنة ٠

وهناك مشاريع فى طريق الانجاز هي : تجهيزات رياضية مدرسية بثانوية للبنين وبالمعهد التقنى لتكوين المعلمين من ضمنها مسبح فى باتنة ومركز خاص بالاحداث المنحرفين لاعادة ترتيتهم سعته أكثر من 100 صبى وقد بلغت تكاليف هذه المشاريع 32٠000٠000 دج وهناك مشاريع هي بصدد الدرس وتشمل تجهيزات رياضية مدرسية بمتوسطات للتعليم فى كل من منعة ـ نقاوس ـ قيس تمقاد (50) ٠

وفى ميدان الثقافة فقد اقيمت قاعة للسنما بتيمقاد وزودت وزارة الاخبار والثقافة كل بلديات الولاية بمكتبة وهذا ضمن المخطط الوطنى الرامى الى تزويد كل بلديات الجمهورية البالغ عددها 703 بلدية ، بمكتبة وهذا للمساهمة فى تعميم الثقافة للجميع بالاضافة الى دار للثقافة بمقر الولاية ٠

وفى ميدان تعليم الكبار فان المركز الوطنى لمحو الامية يشرف على عدة أقسام لتعليم الكبار القراءة والكتابة وهذا النشاط يشمل ميادين ثلاثة هي : مجال محو الامية لدى الفلاحين فى المزارع ، لقد فتحت مديرية التربية والثقافة والشباب لولاية باتنة سنة 76 ـ 77 10 أقسام فى 10 مزارع بها 238 متعلما يدرس بها 11 معلما ولدى القطاع الصناعى فتحت المديرية فى 5 وحدات صناعية 12 قسما ، 7 أقسام للرجال بها 190 متعلما ، و5 أقسام للنساء بها 307 متعلمة ويقوم بهذه المهمة 27 مدرسا اما محو الامية الجماهيرى ففى هذه السنة غير موجود وقد كان عدده فى السنوات السابقة هاما جدا فقد بلغ 500 متعلم سنة 1975 م (51) ٠

وفى مجال الصحة والطب المجانى فقد أنجز بناء مستشفيات فى كل من أريس ، مروانة ، باتنة و 18 مركزا صحيا عبر مدن الولاية ، و 6 عيادات متعددة العلاجات بمقرات الدوائر ٠

وفي مجال السياحة فقد أقر البرنامج الخاص بالولاية انشاء عدة فنادق فى كل من تيمقاد ـ أريس ـ مشونش ـ منعة ، وفندق كبير فى مدينة باتنة

---

(50) معلومات وزارة الشبيبة والرياضة ٠

(51) معلومات المركز الوطنى لمحو الامية ٠

هو فندق الشيلية الذى دشن أخيـــرا ، 50 مقعدا وحانة 140 مقعدا (52) ، ولقد ويشتمل على 71 غرفة و 142 ســريرا زار المدينة عدد من السواح بلغ سنــة ومطعم يتسع لــ 160 وجبة ومقهى تسع 1976 م 2403 مسافرا (53) .

---

(52) جريدة النصر : الخميس 29 جوان 1978 .

(53) معلومات وزارة السياحة .

1984 N° 89-90

فهـــرس العـــــدد

افتتـــــاحيـــة

يصادف صدور هذا العدد من مجلة «الأصـــالة» انعقـاد ملتقى الفـكر الاسـلامى الخامس عشر بالجـزائر الخاص بالقـرآن الكريم .

ووزارة الشؤون الدينية ، اذ تخصص هذا العدد ، وملتقى هذه السنة ، ومشاريع أخرى هامة ، للقرآن الـكريم ـ ترى أن الانسانية فى العصر الحاضر ، ترقص على بركان من الحمم يوشك أن يقضى عليها : استبدت بها المادة الخرقاء ، وتحكمت فيها الأنانية الجشعة ، وسيطر عليها الهوى الكذوب،واستخف الناس بالقيم والأخـلاق ، فلم يعد هنـاك اعتبـار لروابط الدين ، والأخوة ، والصداقة ، فصـار الناس يعيشـون متباعدين متنافرين وان ضمتهم جامعة ، وربطتهم رابطة ، وولدتـهم أم واحـدة .

وما دام الأمن والسـلام أنشـودة كل عاقل ، وحلـم كل انسان يريـد الحياة ، وهما يرتبطـان بصفات النفـوس ، ويتصلان بالقيم والأخلاق ، فقد وجب على الانسان ان يعود الى الله الذى خلقـه ، وعلم ما ينفعه وما يضره .

..وجب ان يعود الى كتاب الله الخالد الذى يهدى للتى هى أقوم ، فيعمل بتعاليمه ، ويبصر الطريق على ضوئه ، ويبنى الحيـاة على هديـه .

وليس كهذا الكتاب السماوى الخـالد ، هاديا للانسـان ، ومربيا لروحه ، ومهذبا لأخلاقه ، وموقظا لضميره ، وحافظا لأمنه ، ومطمئنا لقلبه ، ومبرزا لخصائصه ، وآخذا بيـده الى حيث سعادة الدنيا والآخـرة .

«قلم التحرير»

في رحـــاب القرآن

التشريـــــع الاســـــلامى

أصـــوله ـ مبـــادئه ـ أنـــواعه ـ أهدافه ـ خصائصه ـ حاجة البشرية اليــه فى كـل عصـــر ومصـــر .

محمد الصالح الصديق

التشريع قبل الاسلام :

قال اللــه تعــالى : (**وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه مـن الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمـة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيـرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون وأن احكم بينهم بما أنزل اللـه ولا تتبـع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يربد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثـيرا مـن الناس لفاسقون افحكـم الجاهلية يبغون ومـن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**) .

المائدة رقم السورة 5 ـ رقم الآيات : 48 ـ 49 ـ 50 .

تحليلات وتعليلات :

(وانزلنا اليـك الكتاب بالحـــق) الكتاب هو القرآن الكريم ، وهو وحده الجدير بـأن يسمى كتابا عـلى الاطلاق لتفوقه عـلى سـائر الكتب السماوية ، فاللام للعهد ، والقرآن لم يسم فى أول أمره ـ عندما كان يتولى نزوله ـ كتابا بل كان يسمى قرآنا ، أى كلاما يتلى ، ولما أصبح النازل منه كثيرا بحيث يصح أن يكون كتابا ، سمى كتابا ، وهـــذا يرينا أن هذا الكتاب تطور تطورا علميا صحيحا .

(مصدقا لـمـا بـين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) أى حال كـونه مصدقا لما تقدمه واللام فى الكتاب للجنس أى

جنس الكتب المنزلة . ومهيمنا عليه ، أى رقيبا على سائر الكتب السماوية ، حيث يشهد لها بالصحة والثبات ، ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها ، ويعين أحكامها المنسوخة (1) .

وقيل مهيمناً ، مؤتمنا ، وقيل قفانا يقال قفان على فلان اذا كان يتحفظ أموره . فقيل القرآن قفان على الكتب لانه شاهد بصحة الصحيح وسقم السقيم (2) .

(**فاحكم بينهم**) أى بين أهل الكتاب والفاء لترتيب ما بعدها عما قبلها ، فان كون القرآن العظيم بذلك الشان من موجبات الحكم المامور به ، أى اذا كان شان القرآن كما ذكر فاحكم بينهم بما انزل الله اليك من الاحكام والحدود دون ما أنزله اليهم لان شرعك ناسخ لشرائعهم .

(**ولا تتبع أهواءهم**) الزائغة ، ولا تنحرف عما جاءك من الحق الذى لا محيد عنه ، وكل تشريع لا يستمد مما أنزل الله فهو هوى لا يثبت على قاعدة ، ولا يرجع الى مقياس واحد يتبين به الخطأ من الصواب .

(**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**)

كلام مستأنف جىء به لحمل أهل الكتاب من معاصرى الرسول صلى الله عليه وسلم على الانقياد لحكمه بما أنزل الله و (الشرعة) بكسر الشين ـ وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها : الشريعة ، وهى فى الاصل الطريق الواضح الذى يوصل الى الماء ، والمراد بها الدين ، واستعملت فيه لكونه سبيلا موصلا الى ما هو سبب للحياة الابدية ، كما أن الماء سبب للحياة الفانية (3) .

وقيل سمى الدين شريعة تشبيها بشريعة الماء من حيث أن من شرع فى ذلك على الحقيقة روى وتطهر وأعنى بالرى ما قاله بعض الحكماء (كنت اشرب فلا أروى فلما عرفت الله تعالى رويت بلا شرب)(4) .

وقيل (**الشرعة**) ابتداء الطريق ، والمنهاج الطريق المستقيم (5) .

وقال العلامة الالوسى فى قوله تعالى : (**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**) لكل امة كائنة منكم أيها الامم الباقية والخالية عينا ووضعنا شرعة ومنهاجا خاصين بتلك الامة لا تكاد أمة تتخطى شرعتها ، والامة التى كانت من مبعث موسى الى مبعث عيسى عليهما الصلاة والسلام شرعتهم ما فى التوراة ، والتى كانت من مبعث عيسى عليه السلام الى مبعث أحمد عليه الصلاة والسلام شرعتهم ما فى الانجيل ، وأما انتم أيها

الموجودون فشرعتكم ما فى القرآن ليس الا فآمنوا بما فيه .

(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) أى ولو شاء الله لجعلكم أيها الناس أمة واحدة فى جميع العصور ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد من غير اختلاف بينكم فى شىء من الاحكام الدينية **(ولكن ليبلوكم فيما اتاكم)** .

ولكن لم يشأ ذلك ليختبر كل فريق فيما أتاه الله من الشرائع المختلفة هل يعلمون ما مدعين معتقدين أنها مصالح قد اختلفت على حسب الاحوال والاوقات معترفين بأن الله لم يقصد باختلافها الا ما اقتضته الحكمة ؟ أم يتبعون الشبه ويفرطون فى العمل .

التشريع قبل الاسلام :

تفيد الآيات الكريمة تعاقب الرسالات السماوية من عند الله تعالى على هذه الارض حسب سنة الإرتقاء فى تطور بالتدريج حتى جاءت الرسالة الاخيرة التى تعرض الاسلام بشرائعه وقوانينه وآدابه وأخلاقه وفقا للفطرة البشرية ، وحاجات الحياة المتجددة فى جميع العصور المقبلة دون أن تصطدم بالاصول الاولية الثابتة والمبادىء الاساسية .

والملحوظ أن هذه الآيات التى نحن فى رحابها تقرر أن شريعة موسى وشريعة عيسى وشريعة محمد عليهم الصلاة والسلام مختلفة ومتباينة .

وفى الكتاب الكريم آيات أخرى تقرر أن الشرائع متفقة كقوله تعالى : **(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)** (6) وهذا قد يثير حيرة وتساؤلا على الاقل ، والجواب أنها متفقة فى الاصول والاسس التى لا تتبدل ولا تتغير ولا ترضخ لزيادة أو نقصان أو نظر ، وهى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وفعل الفضائل العامة واجتناب الرذائل ، ومختلفة فى الفروع كطرق العبادات وبعض الاحكام التى تتغير بتغير الازمنة لان الله تعالى جعل البشرية على الاختلاف **(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الامن رحم ربك ولذلك خلقهم)** (7) **(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة)** (8) .

والبشرية فى تطورها العقلى والوجدانى والحضارى والمادى لا تصلح لها شريعة واحدة ، فما يصلح لها فى طور من أطوار حياتها لا يصلح لها فى طور آخر ، يظهر ذلك ـ كما فى المنار ـ فى اليهودية والنصرانية والاسلامية .

فاليهودية شريعة مبنية على الشدة في تربية قوم ألفوا العبودية والذل ، وفقدوا الاستقلال في الارادة والرأى فهى مادية جسدية شديدة ليس لاهلها فيها رأى ولا اجتهاد فالقائم بتنفيذها كالمربى للطفل العارم الشكس .

والمسيحية يهودية من جهة وروحانية شديدة من جهة أخرى ، فهى تأمر أهلها بأن يسلموا أمورهم الجسدية الاجتماعية للمتغلبين من أهل السلطة والحكم مهما كانوا عليه من الفساد والظلم ، وأن يقبلوا كل ما يسامون به من الخسف والذل ، ويجعلوا غايتهم كلها بالامور الروحية وتربية العواطف والوجدانات النفسية ، فهى تربية للنوع فى طور التمييز عندما كان كالغلام اليافع الذى تؤثر فى نفسه الخطابيات والشعريات .

وأما الاسلامية فهى القائمة على أساس العقل والاستقلال ، المحققة لمعنى الانسانية بالجمع بين مصالح الروح والجسد ، وبهذا يصدق عليها قوله تعالى **(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)** وقوله : **(كنتم خير أمة أخرجت للناس)** ، فهى مبنية على أساس الاستقلال البشرى اللائق بسن الرشد وطور ارتقاء العقل (9) .

والاسلام بهذا الطابع وبهذه الخاصة كان دين البشرية جمعاء على اختلاف النوع والزمان والمكان ، فكل حكم وكل قانون وكل تشريع يجب أن يستمد منه **(وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق)** .

فكم حكم سوى الاسلام يعد جاهلية ، وليست الجاهلية فترة معينة من التاريخ انما هى حالة تتحقق كلما تحققت مقوماتها فى الحياة ومن مقوماتها الرجوع بالحكم الى غير قاعدة ثابتة (فتتحكم أهواء الافراد وأهواء الطبقات وأهواء العصبيات والقوميات (10) **أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون)** .

وهكذا فما يشرعه الفرد للفرد ، والجماعة للجماعة ، والمنظمة للمنظمة ، تشريع جاهلى لانه يعتمد على الهوى .. أما ما يشرعه الخالق للمخلوق فهو التشريع الحق لانه يجمع بين المادة والروح وبين الدنيا والآخرة .

وفى هذه الآية (**أفحكم الجاهلية** الخ) وجهان : أحدهما أن بنى النضير تحاكموا الى الرسول صلى الله عليه وسلم فى خصومة فتيل وقعت بينهم وبين بنى قريظة وطلب منه بعضهم أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من

التفاضل فقال عليه الصلاة والسلام : (القتل بواء) (11) فقال بنو النضير : (نحن لا نرضى بذلك) فنزلت الآية ٠

وثانيهما ـ أن يكـون تعييرا لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم وهم يبغون حكم الملة الجاهلية التى هى هوى وجهـل لا تصدر عن كتاب ولا ترجع الى وحـى السماء ٠ وعن الحسن : انه عام فى كل من يبغى غير حكم الله تعالى ٠

واذا كانت هذه الآيات تنعى على أهل الجاهلية رغبتهم عن حكم الله ونزوعهم الى أحكـام وضعية توافـق مزاجهم ، وتتفـق وأهـواءهم ، فـان المسلمين (الصوريين) اليوم الذين يعادون الاسلام ويتآمرون عليـه ويـرون أن الشريعـة الوضعية خير من شريعة الله لا يقلون خطرا عن أولائك ، ولا استحقاقا للنعى والخزى منهم أنهم يقولون ، أو لسـان حالهم يقول :

لقد مضى عهد القرآن ، وعهد الشريعة الاسلامية يوم كان الانسان يعيش فى الخيمة ، ويستضىء بالزيت والشمـع ويركب الجمل ، ويكتفى بالتمر والحليب قوتا له ، وعصرنا الحاضر عصر القصور وناطحات السحـاب ، وعصر الكهـرباء والبخار ، وعصر الطائرات والمخترعات الآلية العجيبة ، عصر أصبح فيه الانسان سلطان الاكوان ٠٠

فاذا كانت الشريعة الاسلامية قـد لاقت بانسان العهـود الغابـرة فهى لا تليق بانسان العصر الجديد الـذى اخترق أحشاء الفضاء وصار يفكر فى استعمارها كما استعمر هذه الارض ٠

كبر مقتا عند الله أن يتجرأ هؤلاء على الحقيقة فيختلقوا هـذه المزاعم ، وينسجوا حولها هذه الاوهام ، ويحاولوا تغطيتها أو تشويهها أو الحط منها وهى الشمس علوا ووضـوحا ونصاعـة ٠٠ ولو فكروا ونظروا بالبصيرة النافـذة والعقل الواعى النزيه لادركوا أن شريعة الاسلام تتفق كل الاتفاق ومقـررات العقل ، ومطالب الحضارة الانسانيـة الحقة أليست (تحبب الانسان فى الحياة ولا تزهده فيها ، وتنشطـه للعمـل وتحرضه على استصلاح المعيشة وتحثه لطلب العلم وتدعوه لاحترامه واستثماره، وتبيح له مجال الفكر ، وتفسح له ميدان النظر ، وتسمح له بالتمتـع باللذائذ البدنية المعتدلـة ، ولا تحـرم عليـه الا الافراط فيها ؟ ؟

أليست على النفس روح الحرية ، وثبت فى الفؤاد حرارة الشمم والحمية والاباء ، وتفضى بالروح الى خالقهـا ، ولا تقيم الوسطاء بينهما ؟ ؟

اليست الانسان في ضعفه ولا تطلب منه فوق طاقته ، تنزل معه الى حيث هو وتعلو به ولا تعلو عنه ·

أليست تراعي أطوار الحياة، وظروف الانسان فتعطى لكل طور وكل ظرف ما يناسبه ويلائمه (12) ؟

تلك هى الشريعة السماوية ، شريعة الله التى يعاديها هؤلاء ويوثرون عليها شريعة الانسان ···

وذكر الجاهلية يتقاضانا الحديث عن شريعة العرب ونظام الحكم عندهم قبل أن تشرف شمس الاسلام : كانت الحالة فى الجزيرة العربية سيئة متعفنة للغاية، فالقبائل لا ينقطع نزاعها ، ولا تنتهى حروبها ، ولا تهدأ غاراتها ··· وكلما أوشكت أن تنطفىء ، أججتها أحن مسعورة ، وأثارتها جهالات مستحكمة وثارات متوارثة ···

وكانت المظالم الاجتماعية تتجسم أشباحها الرهيبة فى كل مكان ، كقتل الاولاد خشية املاق، ووأد البنات خوف العار ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وتسمية الابناء بأسماء توحى بنزعة الاعتداء فى الحروب كصخر وأسد وسنان وزجر وكلب ···

وازاء ذلك كله تمارس عادات قبيحة واخلاق سيئة كالزنا وشرب الخمر ولعب الميسر وزجر الطير والكهانة والنفث فى العقد وغير ذلك من العادات والاخلاق الجاهلية التى لا تستقر معها حياة الجماعة ·

ومع ذلك كله فلم تكن فى الجاهلية هيئة حاكمة ، او طائفة من الناس تتكفل بحماية المظلوم وتأمين الخائف وردع الجائر المستبد ، وضبط السلوك وتوجيهه ·

ومن هنا يتضح ان (الجاهلية) لا تعنى الجهل ضد العلم وانما تعنى الجهل ضد الحلم ، ويشهد لهذا قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

ألا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويدل على ذلك ايضا اللغة العربية التى تدل دلالة واضحة على ان العرب لم يكونوا قوما جاهلين ، فقد وضعوا لثمرة (العنب) اربعين لفظة مختلفة المعانى منذ ان يبدأ زهرة الى ان يصبح زبيبا ، ولهم ايضا معرفة واسعة بعلم التشريح وعلم الفلك والنبات والحيوان (13) ·

كيف كان العرب اذن يسوسون شؤونهم ؟ ويسوون خلافاتهم ! ويدبرون حياتهم الجماعية ؟

كان النظام القبلي هو الذي يسود العرب في جاهليتهم ، وكان الرابط الذي يشد أجزاء القبيلة ، هو القرابة الدموية ، وكل فرد من افراد القبيلة مرغم على الخضوع لنظامها وليس له في اطار القبيلة صفة شخصية مستقلة، وليس له رأي ينفرد به بل هو تابع للقبيلة أحسنت أو أساءت ، استقامت أم انحرفت ، ولسان حاله يقول :

وما أنا الا من غزية ان غوت
غويت وان ترشد غزية أرشد

فالعصبية القبلية هي منشأ كل حركة ، واساس كل تصرف ٠٠ وحاكم القبيلة او بعبارة اخرى ، المسؤول الاول فيها هو (شيخ القبيلة) ٠

ولكي يترشح فرد من القبيلة لهذا المنصب في قومه لابد ان تتوفر فيه صفات ومؤهلات ، وهذه الصفات هي السن ، والشجاعة ، والجود ، والبلاء في خدمة القبيلة ٠

وهكذا فمن له هذه المؤهلات او هذه الكفاءات تسلم عرش القبيلة وساسها، ودبر شؤونها ٠ وقد حدد الشاعر العربي لقيط بن يعمر صفات القائد المدبر في قوله ينصح قومه :

وقلدوا امركم لله دركم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا أن رخاء العيش ساعده
ولا اذا عض مكروه به خشعا
مازال يحلب در الدهر اشطره
يكون متبعا يوما و متبعا
وليس يشغله مال يثمره
عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

وواضح من هذا ان الصفات المؤهلة لرئاسة القبيلة وتسيير شؤونها ليست صعبة التحقيق او عسيرة المنال بل هي ممكنة ميسورة يمكن ان يتصف بها أي فرد من افراد الجماعة وأن كل من له من شرف النفس ، وحنكة الايام ، ما يمكنه من رئاسة القبيلة تسلم قيادتها ونهض بمسؤولياتها ٠

وتجدر الملاحظة بأن (الدكتاتورية) لم تكن النظرية السائدة في عرف القبيلة بالرغم من ان رئيسها واحد ، وبالرغم ايضا مما فشا في ذلك العهد من الطمع والنهامة ، وتعاطى الربا الى حد الاغتصاب واستلاب الاموال بل ان شيخ القبيلة كان يجمع من حين لآخر رؤساء العشائر وهم الذين كان يتالف منهم شبه مجلس شيوخ القبيلة وكانوا يتدربون على الشؤون الكبرى ويتبادلون الرأي والمشورة ٠ (14)

وكان لهم وحدهم الفصل فى الامور الهامة كاعلان الحرب أو اقرار السلام ·

وكان فى شريعة الجاهلية حلال وحرام مباح ومحظور ، (ويراد بالحلال كل ما أباحه العرف مما لم يتعارض مع تقاليدهم ومالوفهم ، أما ما تعارض منه معه فهو حرام محظور ، ويعاقب المخالف المرتكب للمحرمات ولما حرمته شريعتهم ، ومعنى الحلال والحرام الاصطلاحى هو المعنى الوارد فى القرآن الكريم نفسه غير أن الاسلام حدد الحرام والحلال وفق قواعد الشرع أى أن الاسلام ندب المصطلحين وحددهما وفق قواعده ·· أما الجاهلية فحددتهما وفق عرفها (15) .

واذا كانت أخلاقيات الدين هى الموجه الاساسى لسلوكيات الافراد فى اطار الاسرة والمجتمع فان المجتمع الجاهلى كان يدين بالوثنية المرذولة التى لا أخلاق لها سوى الظلم ، والفظاظة ، والقساوة ، والانانية ، والانعزالية ، والتمايز الطبقى أو العرقى ، ومعاقرة الخمر ، ولعب الميسر ، وتعاطى الربا ، وتطفيف الكيل والميزان ···

والحقيقة التى تفرض نفسها على الباحث فى هذا الموضوع هى أن تقوية الاواصر بين الناس ، وتحسين علاقاتهم فى جو تسوده المحبة والاخاء والايثار هى الضمانة الاكيدة للمشاركة الوجدانية المسؤولة فى اطار التعاون والترابط والتكامل وهذا يؤدى حتما الى الخضوع والرضوخ لمصلحة الجماعة الانسانية بدلا من النظم الفردية التى تقوى الفرد وتجعل له كل الحقوق ·

وهذا الترابط والتمازج والتكامل الذى يفضى حتما الى الخضوع لمصلحة الجماعة بدلا من النظم الفردية هو الذى فقدته الامة العربية فى الجاهلية حتى كانت شريعتها (ما يرضى الهوى ويوافق المزاج) ·

ومن تتبع القرآن الكريم وجد فيه نصوصا كثيرة تصف طبيعة هؤلاء القوم المتميزة بالنفرة الشديدة لحياة الاستقرار ، والانانية ، والسيطرة ، والاستغلال ، وحب الذات ·· والمتميزة بالصلابة والعناد ، والامية والفظاظة ، والفوضى الاجتماعية وفقدانهم للاحساس الخلقى القويم الذى يتفق مع طبيعة الانسان ومجتمع مثل هذا لا يكون الحكم فيه الا تبعًا للنظام السائد فيه الذى لا يخلو من ظلم وهوى وافتراء بل هو مناف للفطرة الانسانية والطبيعة البشرية ، تأمل كل هذا فى هذه الآيات التالية :

قال تعالى : (اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رايتهم ينظرون اليك تدور

أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد) (16) .

(ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) (17) .

واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة (18) .

(وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) (19)

(وقالوا أآلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون) (20).

(أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طا غون ؟) (21) .

(كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما) (22) .

(انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام الا من غسلين لا يأكله الا الخاطئون) (23) .

(ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولائك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟) (24) .

حاجة البشرية الى الاسلام :

قال الله تعالى : (ان الدين عند الله الاسلام) .

كان العالم فى الفترة التى ظهر فيها الاسلام يتخبط فى ظلام معتم دامس ، ويعيش فى وضع يسوده الضلال .. والانحلال والاضطراب والذى يهمنا فى هذا الفصل بالدرجة الاولى هو وضعه الدينى الذى انحط بصفة عامة ومريعة .

ان بعض سكان العالم كانوا غير متدينين على الاطلاق وبعضهم كانوا خاضعين لاراء حكماء بلغت عندهم مبلغ العقائد الدينية ، فكانوا يقدسونها ولا يحيدون عن مجرياتها ، وبعضهم كانوا متدينين بشرائع سماوية ابتعدت عن الجادة القويمة ..

فالعرب وهم يدعون أنهم على دين ابراهيم يعبدون الاصنام ويقولون : (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) (25) .

وكانت عقولهم الضيقة لا تهضم أن هناك بعثا بعد الموت وحياة بعد هذه الحياة فيها الحساب وفيها الثواب والعقاب ، وقالوا : (أئذا كنا عظاما ورفاتا انا لمبعوثون خلقا جديدا) (26).

(ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر) (27) .

وكان (جمهورهم ينكر ذلك (الميعاد) ولا يصدق ولا يقول بالجزاء ، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبيد ، وان كان مخلوقا مبتدعا ، وكان فيهم من يقر بالمعاد ، ويعتقد ان نحرت ناقته على قبره يحشر راكبا ومن لم يفعل ذلك يحشر ما شيا) (28) .

واليهود وهم يزعمون أنهم على شريعة موسى ـ قد حادوا عن الطريق القويم بعد أن تحرفت التوراة وغمرتها الاوهام والاباطيل ..

والنصارى وهم يدعون أنهم على شريعة عيسى ـ قد اختلفت عندهم نسخ الانجيل فانقسموا الى فرق مختلفة ، وطوائف متعددة لا تجمع بينها رابطة ، ولا يضم شعبها أصل ، ويقول العالم البحاثة أبو الحسن الندوى يصف العالم الذى بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم وأشرقت عليه شمس الاسلام بعد ليل طويل .

(بعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزا عنيفا ، فاذا كل شيء فيه فى غير محله ، فمن أساسه ومتاعه ما تكسر ، ومنه ما التوى وانعطف ، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكانا آخر ومنه ما تكدس وتكوم) (29)

ويقول (دينسون) فى نفس هذا الموضوع : (وفى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتدين على شفا جرف انهار من الفوضى ، لان العقائد التى كانت تعين على اقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها وكان يبدو اذ ذاك أن المدنية الكبرى التى بعد جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه من الهمجية اذ القبائل تتحارب وتتناحر لا قانون ولا نظام ..

ويستمر (دينسون) كلامه فيقول : أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالم كله واقفة تترنح ، وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب ..

ويختم (دينسون) كلامه بقوله : وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه) (30) .

وهكذا من الله تعالى على البشرية البائسة المنكودة التى تعانى تمزقا واضطرابا ، وتيها وضياعا بالرحمة

الشاملة والعلاج الناجع ، فبعث فيها خاتم الانبياء محمدا صلى الله عليه وسلم بدين يجمع شملها ويوحد كلمتها ، ويعالج أمراضها ويوجهها نحو سعادة الدنيا وسعادة الآخرة فكان الدين الاسلامى ...

الدين الذى يرجى أن يعيد فى هذا العصر انقلابه الجذرى الشامل بعد أن اصبح وضع البشرية لا يقل تعفنا وانحلالا وبعدا عن الجادة عن وضع البشرية قبل البعثة .

فالانقلاب الشامل الذى يرجى من الاسلام مرة أخرى هو الانقلاب فى سلوكنا ، والانقلاب فى أوضاعنا ، والانقلاب فى أخلاقنا ..

ان العالم اليوم من شرقه الى غربه قد طغت عليه المادة ، ونسى أن الانسان انما ميزه الله بالعقل ، وكرمه بالشعور وسخر له الكون لينهض برسالته فى الحياة التى تتمثل فى تعميرها واستغلالها لفائدة الانسان ..

نسى ذلك فصار يتسابق فى الدمار ، ويتبارى فى الهلاك ، ويركز جهوده كلها فى التسلح استعدادا لحرب الابادة من غير أن تأخذه الشفقة ، أو تهزه العاطفة لانه لا يؤمن الا بوجود نفسه ، ولا يعلم أن الخير دائما فى الايمان بوجود غيره أيضا ولكن انى له ذلك وقد ابتعد عن السماء فانطمس عقله ، ومرضت نفسه وفسد ضميره ، وانحط خلقه ، وخبثت طويته ، فمال للشر ، وولع بالفساد ، ورغب فى سفك الدم ، وتفانى فى الاساءة والتدمير والتخريب .. ولن يعود انسانا كما خلقه الله ، الا اذا عاد الى ربه يؤمن به ، ويعتصم بحبله ، ويستضىء بنوره ، ويعمل بشريعته ..

عالمية الاسلام :

قال الله تعالى : (**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا**) .

كان آخر ما نزل من القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفات يلقى خطبته على المسلمين فى اليوم التاسع من ذى الحجة من السنة العاشرة للهجرة هذا المقطع الكريم : (**اليوم أكملت لكم دينكم الخ**) .

من شأن هذا المقطع أن يبعث الطمأنينة والرضا فى قلوب المسلمين ويثير فيهم البهجة والاغتباط والاعتزاز ويمدهم بطاقات من العزم والقوة والارادة لما احتواه من بشريات عالية يقدمها القرآن فى خاتمته ، للانسانية جمعاء فى ضمن أمة الاسلام .

انهـا تبعـات ثقيلـة ، ومسؤوليات كبيرة ، يطالب كل جيـــل من الاجيال البشرية التى تفد الى هذا الوجود ـ أن ينهض بها ويحميها ويعيش لها ويموت عليها :

فأولى هذه البشريات (**اليوم أكملت لـكم دينكم**) أكملت لـكم ما تحتاجون اليه فى تكليفكم من فرائض وحدود ، وحلال وحرام ، فلا زيادة بعد اليـــوم لمستـزيد ، ففــى مبادئـه ، وكليـاته ، وأصوله ، وتوجيهاته ـ الكفاية لبنـاء الضمائر ، وبناء المجتمعات ، وصنـع القيادات المؤمنة التى تحمل مشعـــل النور للسارين فى هذه الحياة ٠

فالدين الذى أعلن الله عن اكماله فى هذا المقطع ، هو الاسلام الذى امتاز عن سائر الاديان السماوية والوضعية بانــه دين الدنيا ودين الآخرة معا ٠

ومن ثم جمع للانسان كل ما يحتاج اليه من أمور دينه ودنياه فوضع أنماطا من السلوك ، ورسم معالم الطريق فـى الصلة بالله ، وحدد وسائل السعادة ، ووضع أسس العلاقة بين الافراد ، وحدد الحقوق والواجبات لكل فرد ٠٠ ورسم اطار التنظيم العام للمجتمعات ، واطـار الحياة للاسرة التى تعتبر اللبنة الاولى فى المجتمع وشرع قوانين وأنظمة لرقى الانســان ولكمـاله مـاديا ومعنـويا ، جسدانيا وروحانيا ٠

أما الحاجات الجزئية المتجددة التى لم يرد فيها نص فموكول أمرها الى العقل الذى صنعه الاسلام فهو يواجهها بالنظر والاجتهاد والحلول التى تلائم الظروف وتتفق مع تلك المبادىء والاصول ٠

وثانية البشريات (**وأتممت عليـكم نعمــتى**) وذلـك بالهداية والتوفيق ، وبهذه الشريعة التى تنظم حياة الانسان ســواء بوصفه فــردا فى مجتمع ، أو بوصفه مجتمعا فى دولـة ، أو دولـة تؤلف جزءا من الارض ٠

وثالثة البشريات (**ورضيت لـــكم الاسلام ديـــنا**) اخترت لكم الاسلام بين الاديان وآثرتكم به عـلى غيركم ويلتقى هذا التكريم الذى فضل اللـه به هذه الامة بتكريم آخر من قبل (**كنتم خير أمة أخرجت للناس**) (31) ، (**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**) (32) ٠

ولم يرتض هذا الدين لهذه الامة الا لما امتاز به من خصائص جعلته أعـــلى الاديان جميعها ، كما جعلته أيضا ينتشر فى مختلف أنحاء العالم انتشارا سريعا

لم يعرف التاريخ مثله لدين من الاديان أو مذهب من المذاهب ..

أليس دينا ينظر الى الانسان نظرة كاملة تتفق مع واقع فطرة الانسان ماديا وروحيا ؟

أليس دينا يؤهل الانسان بتعاليمه الخالدة للخلافة فى الارض كانسان كريم ؟

أليس دينا لا يفرق بين عنصر وعنصر ؟

أليس فى حقائقه الباقية الخالدة وفى نظرته الى الكون وفى تقديره لمصالح الناس وحقوقهم وطلبه الايمان عن طريق التأمل والعقل وفى رفعه الحرج وتوخيه اليسر وفى مده للانسانية بالقدرة على الحركة والتطور وفى حضه على العلم والاشادة بأهله ، وفى قيمه ومقوماته الغزيرة التى تعطى الحياة قوة الاستمرار ..؟

أليس فى كل هذا ما يرشح الاسلام لقيادة الانسانية جمعاء فى مختلف أماكنها وعصورها .

ان دينا هذا طبعه ، وهذا زاده ، وذلك منهجه وفلسفته ، فلابد أن يتعلق به الناس اذا هم نظروا فيه بعقول سليمة ، وفطر هاية ، وتجردوا من الاهواء والنزعات ..

ومن أجل ذلك كله ارتضى الله الاسلام لهذه الامة دينا وجعله خاتمة الاديان كلها ..

وفى اعلان القرآن عن شكل الاسلام النهائى وطوره الكامل بقوله **(اليوم أكملت لكم دينكم ـ الخ)** ما يدل على عالمية الاسلام ..

ومن الحقائق الواضحة أن الاسلام لا يمثل حضارة خاصة بعهد من العهود تتجلى فى عمران ذلك العهد وفى آثاره ومختلف صوره ومعالمه ، ولما مضى ذلك العهد مضى معه الاسلام ولم يبق الا على لسان التاريخ يردده كما يردد الحضارات البشرية المختلفة التى مرت بهذا الوجود (كاليونانية والرومانية) وغيرهما كما هو اعتقاد كثير من المستشرقين المتعصبين و (أنصاف المسلمين) الذين تعلموا ليجهلوا وليفسدوا ..

ان الاسلام دين حى ، ورسالة خالدة ، بفضل نظمه ، وتعاليمه التى سادت بها البشرية قرونا طويلة وستسود بها ان أرادت ذلك من جديد .. (33) .

وهكذا فالرسول فى الديانات السابقة كان يبعث فى نطاق قومى لا تتجاوزه دعوته ، ولا تتعداه هدايته واصلاحه ، أما رسول الاسلام فليس مبعوثا الى قوم

دون آخرين بل هو مبعوث الى العالم اجمع الى البشرية قاطبة ٠

قال الله تعالى فى شأن الديانات المحدودة :

(انا أرسلنا نوحا الى قومه) (34) ٠

(والى عاد أخاهم هودا) (35) ٠

(واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم) (36) ٠

وقال فى شأن الاسلام الدين العالمى الخالد :

(وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) (37)

(وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) (38) ٠

أصول التشريع الاسلامى :

قال الله تعالى : **(هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر أولو الالباب)** (39) ٠

لا يتسع المقام للحديث عن الاسس العامة للتشريع الاسلامى بالتفصيل فقد أفردت بتأليف وعنى بها المختصون من أعلام هذه الامة فى القديم والحديث ، فغايتنا نحن أن نوجزها فى كلمات حتى يتبينها القارىء الكريم وتكون له عونا على تتبعها بتوسع وعمق فى أمهات كتب التشريع ولنتحدث قبل ذلك على طبيعة الاسلام فى التشريع ومراعاته لفطرة الانسان ٠

بنى الاسلام تشريعه على أسس تتماشى مع الفطرة البشرية وتواكبها لان الاسلام دين الفطرة ٠ ومعنى ذلك أنه دين ينبع من أعماق الانسان ، ويعيش فى وجدانه ويحيا في فطرته ، دين يدعو الى الحياة يجمع ألوانها وصورها شريطة أن تخدم الانسان ، وتوفر كرامته ، وتعلى مكانته دين يدعو الى العلم والعمل والبحث فى أعماق الكون وآفاقه والتطلع دوما الى أعلى : الى العزة والكرامة ، الى المجد والسؤدد ، الى حياة فضلى تليق بخليفة الله فى الارض ، دين يهيب بالانسان أن يرفع رأسه ، وينصب قامته ، ويستقيم على الجادة المثلى - دين يراعى مراحل الحياة وأدوار الطبيعة فيختار لكل مرحلة ما يناسبها ، ويقابلها بما يلائمها ، ويضع كل شىء فى وضعه اللائق بكل دقة وبكل حكمة ٠

ذلك هو الاسلام الحنيف ، الدين الفطرى الخالد الذى أكرم الله به الانسانية قال الله تعالى :

(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (40) ٠

(صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) (41) ، وقال صلى الله عليه وسلم :

(كل مولود يولد على الفطرة فأبــواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه) (42) ويقول (شاشاون) :

(مهما يكن تقدمنا العجيب فى العصر الحاضر علميا أو صناعيا أو اقتصاديا او اجتماعيا ، ومهــما تقدمنا فى هــذه الحركة العظيمة للحياة العملية وللجهاد والتنافس فى سبيــل معيشتنا ومعيشة ذوينا فــان عقلنا فى أوقــات السكون والهدوء عظاما كنا أو متواضعين ، خيارا كنا أو اشرارا ، يعود الى التأمل فى هذه المسائل الازلية وفى الحياة الاخروية) (43) • ويقول (هنرى برجسون) :

(لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة) (44) •

ويذكر أهل العلم بما ثبت بالتجربة التاريخية : (ان الحضــارات التــى لا تتأسس على ديــن لا تــدوم طــويلا ولا تتمتع بثقة العقل الكاملة ولا تتعمق فى سعادة الافراد والجماعات) •

ومبادىء الاسلام العامة تتناسق مع الفطرة السليمة مما جعله دين البشرية جمعاء ـ كما قدمنا ـ وفى هذا يقــول الامام محمد عبده :

(ان الاسلام أكثــر مــلاءمة لمقتضى الفطرة السليمة فأبــاح الطيبات مــن الرزق ، ولم يكلف نفسا الا وسعها ، فكان الدين الاسلامى أكثر ملاءمة للطباع والعادات والقوى البشرية على اختلافها) (45) •

قال الله تعالى :

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (46) •

ومعنى كون الامة وسطا أنها ليست من ارباب الغلو فى الدين المفرطين ، ولا من أرباب التعطيل المفرطين •

(ذلك أن الناس كانوا قبــل ظهور الاسلام على قسمين : قسم تقضى عليــه تقاليده بالمادية المحضة فلا هم لــه الا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين ، وقسم تحــكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا ومــا فيها مــن اللذات الجسمانية كالنصارى والصابئين وطوائف مــن وثــنى الهنــد أصحاب الرياضات) •

ويمكن أن نستبين مراعاة الاســلام للفطرة فى مظــاهر الحيــاة المتنــوعة (فالانسان ينزع بفطرته نــزعا طبيعيا الى الايمان بأن لهذا الكون صانعا حكيما قديرا ، فكما ينشأ مفطورا على الايمان بأن الكل أعظم من الجــزء وأن الواحد نصف الاثنين وأن الشىء لا يــوجد فى

مكانين فى وقت واحد وأن المصنوع لابد له من صانع ـ كذلك ينشأ مفطورا على الشعور الوجدانى بسلطان غيبى فوق كل قوة هو خالقه وخالق كل شيء :

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (47) .

« اننى انا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » (48) .

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد»(49)

« وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (90) .

والانسان يرفض بفطرته ان يكون لله شريك الا أن يكون هذا الانسان فاسد الفطرة ، مريض العقل ، وهذا ما جاء به القرآن :

« لو كان فيهما ألهة الا الله لفسدتا » (51) .

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذن لذهب كلّ اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » (52) .

والانسان بفطرته ميال الى الجنس الآخر لتتحقق باجتماعهما الاسرة التى هى خلية المجتمع فجاء الاسلام داعيا الى الزواج متماشيا مع الفطرة ملبيا لنداء الطبيعة ، قال تعالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (53) .

والانسان بفطرته يحب الحرية ويرغب فيها بقوة ، ولان يحرم من الطعام والشراب أهون عليه من أن يحرم من الحرية فجاء الاسلام فكفل لكل انسان حريته حتى فى اختيار العقيدة والدين ، قال تعالى :

« لا أكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (54) .

« ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (55) .

والانسان بفطرته يحب المال ويرغب فى الكسب والتملك والاقتناء فجاء

الاسلام مشجعا له على العمل والكسب في اطار الشرع الحنيف فقال تعالى :

« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » (56) ٠

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (57) ٠

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله اليك » (58) ٠

« يا أيهان الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض » (59) ٠

وقال صلى الله عليه وسلم :

(نعم المال الصالح للعبد الصالح) ٠

والانسان بفطرته ميال الى الطيبات المتنوعة التي أوجدها الله في هذه الارض وشديد النفور من الخبائث المختلفة فجاء الاسلام محلا لهذه الطيبات ومرغبا فيها، ومحرما للخبائث ومرغبا عنها فقال تعالى :

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (60) ٠

« اليوم أحل لكم الطيبات » (61) ٠

« يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم » (62) ٠

ويتصل بالفطرة البشرية السليمة ما دعا اليه الاسلام من أنواع النظافة كالختان وكقص الشارب والاظافر والاستنجاء والاستحمام وتنظيف الاسنان قال تعالى :

« ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (63) ٠

وقال صلى الله عليه وسلم :

(لولا أن أشق على أمتي لامرتهم بالسواك قبل كل صلاة) (64) ، وقال :

(خمس من الفطرة : الاستنجاء والختان وقص الشارب ونتف الابط وتقليم الاظافر) (64) ٠

والاسلام أرسى تشريعه على أصول عامة لا تتغير ولا تتبدل فيما أهمها :

الاصل الاول : (رعاية المصلحة العامة)٠

حث الاسلام على ما يفيد المجتمع ونهى عن كل ما يضره ، ويتجلى ذلك في هاتين القاعدتين :

الاولى : تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة :

حرم الاسلام الربا لما فيه من الاثراء على حساب جهد الضعفاء وحاجتهم ،

وحرم الزنا لما فيه من نشر الفســـاد ، واختلاط الانساب ، وهتك الحرمات ، وأوجب اقامة الحدود مراعاة لما ينجـر عن اهمالها من التجرؤ على ارتكـــاب الجرائم وممارسة الموبقـات فتصبــح بحكم تكرارها عادة جارية وعرفا متبعا فتسوء حال المجتمع وبالتالى يصـــاب بالهلاك والانقراض ·

ومن أمثلة تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة انتزاع بعض الامـلاك من أصحابها عندما تقتضى ذلك مصلحـة الجماعة ·

(ومن ذلك أيضا ما حدث أيام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه من انتزاع دار سكـــنى العباس بن عبد المطلـــب لتوسيع المسجد) (66) ·

الثانية ـ الضرر الاكبر يزال بالضرر الادنى :

ومعنى هذه القاعدة أن الضررين اذا اجتمعا اهتم الاســـلام بأكثرهما ضررا بالمجتمع فيدفعه ولو بتحمل ضرر أصغر، تخفيفا من وقع الشر على المجتمـــع : ومثلوا لهذا بهدم البلديات للجدر المهلهلة الموشكة على السقوط والآيلة الى الخراب ان كانت فى طريق يكثر فيه المــارة · ففى هذا ضرر لصاحبه ان هدم الجـدار وضرر للناس ان سقط عليهـــم فالضرر الثانى أشد خطرا ولذا اهتم به الاسلام فدفعه بهدم الجدار ·

الاصل الثانى : (رفع الحرج عـن الامـــة) ·

من أصول التشريع الاسلامى مسايرة الامكان البشرى فى جميـــع الاوامـــر والنواهى التى يكلف بها الانسان ·

وكل فعل من أفعـــال المكلف لـه طرفان : طرف الافراط والتشديـــد بالكثرة ، وطرف التفريط والاستهانـة والقلة ، والشريعة الاسلامية التى جاءت لسعادة الانسان فى العاجلـة والآجلـة وضعت على أساس العـــدل الوسط ، فلا افراط ولا تفريط · فالتكليف بما فوق الطاقة ينتهى غالبا الى النفور أو العجز أو التقصير أو الضيق أو القلق ··

فليس فى التشريع تكليف يـؤدى بكثرته وشدته الى الضيق والحرج ، أو الى العجز عن المداومة على العمل بـل جاءت التكاليف مسايرة للطاقة البشرية ومحببة الى العباد ومشوقة لهم وهـى داعية يسرهـــا وسماحتها ومسايرتهـا للامكـــان البشرى الى المداومة عليهـــا ونصوص الوحى فى ذلك كثيرة ، قال الله تعالى :

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (67) ·

« وما جعل عليكم فى الدين مـــن حرج » (68) .

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (69) .

« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » (70) .

« ما كان على النبى من حرج فيمـا فرض الله له » (71) .

(ويضع عنهم اسرهم والاغلال التى التى كانت عليهم » (72) .

ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن المغالاة فى تكاليف الشريعة فقال :

(لا تشددوا على أنفسكم فيشـــدد عليكم) .

وشبه المتشدد فى الدين المرهـــق لنفسه بالمسافر الذى يهلك راحلته ولا يحقق غرضه : (ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى) .

ويتجلى تيسير التشريع الاســـلامى وسماحته فى الرخص المتعددة فى الطهارة كالتيمم وفى الصلاة بالقصر فى السفر والجمع بين الصلاتين ، وفى الصـــوم بالفطر للمريض والمسافر ، وبالنسبة الى حفظ النفس يسر التريع بأكل الميتـــة للمضطر ، وفى التناسل أبـاح الطـلاق للتخلص من العداء وقيده بالثلاث تيسيرا على المرأة حيث ينسد الباب على الرجل وتتخلص المرأة من المضرة .. وفى المال رخص الشارع فى الضرر اليسير والجهالة التى تلزم غالبا ، كما فى بيع ما يغيب بعضه واذا أخرج بعضه من الارض قبل البيع يفسد كالجزر ...

وفى التشريعات التى تحفظ العقـل رفع الله الحرج عن المكره وعن المضطر فى تناول محرم بالاكراه أو بالاضطرار.

وفى العقوبات كـــدرء الحـــدود بالشبهات فاذا قامت شبهة عـلى بـراءة المتهم فانه لا يقام عليه الحد مثل عـدم اقامة الحد على من سرق مال ابنه لما للاب من شبهة الحق فى مال ابنه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (ادرأوا الحدود بالشبهات ما استطعتم) .

الاصل الثالث : (قلة التكليف) .

ومن الاصول العامة للتشريع الاسلامى قلة التكليف ، فليس الغرض من ســـن الشريعة احراج متبعيها وارعاقهم وانما الغرض تهذيب نفوسهـــم ، وترقيـــة مشاعرهم ، وتربية عواطفهم ، والسمو بهم الى الكمال فى هذه الحياة ، واعدادهم خير اعداد لسعادة الآخرة ويشهد لذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحـــد

حدودا فلا تعتدوها ، وعفا عن أشياء ـ رحمة بكم لا عن نسيان ـ فلا تبحثوا عنها) .

وانظر الى التكاليف الاسلامية سواء منها العبادات أو المعاملات فانك تجدها قليلة ميسورة .

فالعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج فرائض معدودة محدودة يؤديها المكلف بلا جهد وعناء وفي وقت محدد واما المعاملات فهي أيضا ميسرة واضحة نصت الشريعة على المحرمات منها نص يدل على انها محدودة العدد بالاضافة الى ما بقى مباحا .

فالقرآن الكريم عدد المحرمات من المأكولات والذبائح ثم اعقبها بقوله :

« **يسالونك ماذا احل لهم قل احل لكم الطيبات** » وعدد من المحرمات من النساء واردفها بقوله :

« **واحل لكم ما وراء ذلكم** » ورد على المفترين على الله الذين يحرمون ما لم يحرمه الله الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ثم عقب ذلك برفع الحرج عن المضطر لتناول شيء من المحرمات قال تعالى :

« **قل لا اجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم** » (73) .

الاصل الرابع : (تحقيق العدالة) .

وضع التشريع الاسلامى ما للفرد وما عليه من حقوق وواجبات ازاء نفسه والمجتمع والانسانية عموما وضمن صيانة هذه الحقوق والواجبات محافظة على الآمن في الانفس والاموال .

فاوجبت الشريعة المحافظة على الدين والنفس والنسب والعرض والمال والعقل لان عليهما مدار حسن العلاقة بين العبد وربه وبين العبد وبين غيره من بنى جنسه وتسمى الكليات الست .. وقد أوعدت الشريعة كل من يستهين بواحدة منها بعقاب شديد وخزى عظيم فى الدنيا وفى الآخرة .

وضعت الشريعة القصاص جزاء لمن سلب الحياة قال تعالى :

« **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب** » .

والتقتيل أو التصليب أو تقطيع اليدين أو الرجلين من خلاف أو النفى لمن حارب الله ورسوله ويسعى فى الارض فسادا قال تعالى :

« **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا ان**

يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (74) .

وقطع اليد للسارق والسارقة قال تعالى :

« والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » (75) .

ونهت الشريعة عن تناول اعراض الناس لان فيه اعتداء على الكرامة التى يجب ان تصان وتحفظ قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب » (76) .

وحرمت أخذ أموال الناس بغير حق قال تعالى :

« ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (77) .

وحجرت على السفهاء ـ وهم المسرفون المبذرون أموالهم فى غير الوجوه المعقولة اما لفساد اخلاقهم وضعف عقولهم أو لسوء تدبيرهم قال تعالى :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قيما وأرزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا »(78) .

وأمرت بكتابة العقود المالية والرهن حفظا للحقوق ومحافظة على الروابط الاجتماعية قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تساموا ان تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى اجله ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم ، وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة

فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه » (79) .

وطالبت الشريعة كل مسلم ان يراقب تطبيق قوانين الاسلام وان يرد الظلم ان وقع وينبه الحاكم ان جار واعتبرته اثما ان رضى بالظلم فلم يغيره بيده أو بلسانه أو بقلبه قال تعالى :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) (80) .

وجماع القول فى هذا الموضوع الواسع العريض الذى لا تفى به مجلدات ضخام ان التشريع الاسلامى قد حقق العدالة بين المرء ونفسه قال تعالى :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » (81) .

وبين المرء وأسرته قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والاقربين » (82) .

وبين المرء وعامة الناس قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (83) .

وقد جمع القرآن الكريم جميع التشريعات الاسلامية فى هذه الآية الكريمة :

« من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون » (84).

وبهذا ارتفع التشريع الاسلامى الى الافق الاعلى واعتلى مكانة لا تدانيها مكانة أية شريعة عرفت على وجه هذه الارض مما استثار اعجاب علماء القانون ورجال الفكر وجعلهم يشيدون به فى تقدير واجلال فهذا الدكتور على بدوى وهو احد اعلام القانون يرى :

« ان التشريع الاسلامى له استقلاله عن غيره من التشريعات القديمة وانه يفوق فى. كثير من النواحى غيره من التشريعات الحديثة » (85) .

ويقول الدكتور شفيق شحاته احد عباقرة القانون فى العصر الحديث : «واذا أردنا المقارنة من حيث قيمة النظرة الثانوية وجدنا التشريع الاسلامى قد

سبق التشريع الرومانى فى تقرير لبعض المبادىء العظيمة » (86) .

ويقـــول الدكتـــور عبد الـــرزاق السنهورى والدكتور حشمت أبو ستيت فى المقارنة بين الشريعـة الاسلاميـــة والقانون الرومانى :

« لم تسلك الشريعة الاسلامية فى نموها الطريق الذى سلكه الفقه الرومانى فان هذا القانون بدأ عادات ونما وازدهر من طريق الدعوى والاجراءات الشكلية. اما الشريعة الاسلامية فقد بدأت كتاباً منزلا ووحيا من عند الله ونمت وازدهرت من طريق القياس المنطـقى والاحكـــام الموضوعية . الا ان الفقهاء المسلمـين امتازوا على الفقهاء الرومان بل امتازوا على فقهاء العالم باستخلاصهم اصـــولا ومبادىء عامة من نوع آخر وهى أصول استنباط الاحكام من مصادرها وهـذا ما سموه بعلم أصول الفقه » .

ويقول الاستاذ فارس الخورى العالم المسيحى المعروف :

وبالمقارنة بـــين الشرع الاســـلامى والشرع الرومانى مثلا نـرى اختلافـا بينا بين الشرعين :

الاول منهما قائم على قواعد العـدل المطلق ومقتضيات العقول .. والثانى على المصالح والمنافع الدنيوية .. فينبنى على هذا التخالف ان الاساس فى الشرع الاسلامى مصلحة الفـــرد فى الدنيـا والآخرة ، وفى الشرع الرومانى مصلحة الجماعة فى الدنيا فقط » (87) .

واذا تتبعنا أقوال رجال القانون فى الشريعة الاسلامية تمدد بـنا الحبـــل واتسع المجال فحسبنا منها ما ذكرنا واهم من هذا كله ان التشريع الاسلامى ربط احترام التشريع بالعقيدة حتى يكون الانسان قاضيا على نفسه اذا أراد ان يكون مؤمنا . فمن استطاع ان يخدع القضاء حتى اخذ ما ليس له بحق أو منع صاحب حق عن حقه فان القضاء له لا ينجيه بل تبقى ذمته معلق وهو غاصب لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يودى الحقوق الى اربابها وهذا ما عجزت عند الشرائع الوضعية التى لا محل فيها الفكرة الحلال والحرام بل ما قضى به القاضى فهو حق وما لم يقض به فهو باطل .. فالانسان فى ظل هذه الشرائع الوضعية لا يحتـرم التشريع الا ما دام القضاء مصلتا فوق رأسه » (89) .

واذا تتبعنا أقوال العلماء والمفكرين فى الاشادة بفضـل الشريعة الاسلامية يتمدد بنا الحبل ويتسع المجال فحسبنا ما أوردنا منها .

أهداف الاسلام من وراء التشريع :

قال الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » (90) .

الشريعة الاسلامية هى مجموعة الاوامر والنواهى والاحكام العملية التى جاء بها الاسلام وأوجب تطبيقها لتحقيق أهدافه الاصلاحية فى المجتمع البشرى، ويمكن ارجاء تلك الاهداف الى ثلاثة أساسية :

الاول : تحرير العقل البشرى من رق التقليد والخرافات والاوهام والبدع وذلك عن طريق العقيدة الصحيحة والايمان الصادق الحق ، وتوجيه العقل نحو الدليل والبرهان والتفكير العلمى الحر ، لذا حارب الاسلام الوثنية كالشرك الاعمى قال تعالى :

« ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون » (91) .

« أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (92) .

« وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » (93) .

« وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا » (94) .

« ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » (95) .

الثانى : اصلاح الفرد نفسيا وخلقيا وتوجيهه نحو الخير والاحسان والواجب كى لا تطغى شهواته ومطامعه على عقله وواجباته وذلك بممارسة الانسان للعبادة المشروعة التى تذكره بخالقه وبعقيدة الثواب والعقاب فى الآخرة ليكون المؤمن على اتصال دائم بربه فلا ينسى ولا يغفل ولا يضل ولا يحيد وكيف يغفل أو يضل وهو فى مراقبة ربه كل دقيقة وكل لحظة وكل نفس يصعده .

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » (96) .

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور » (97) .

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » (98) ٠

« من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون » (99) ٠

« ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها » (100) ٠

« قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » (101) ٠

« والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»(102)

« واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » (103)٠

الثالث : اصلاح المجتمع بحيث يسود فيه الامن والعدل والمساواة وتصان كرامة كل فرد وحرياته المعقولة ولتحقيق هذا الهدف جاء الاسلام بنظام مدنى يتضمن تشريعا شاملا لجميع الاسس القانونية اللازمة لاقامة حياة اجتماعية فى دولة (104) ٠

وسلك الاسلام الى اصلاح المجتمع سبلين :

السبيل الاول : انصاف المرأة ورفع شأنها فبعد ان كانت المرأة فى العصور الماضية ذليلة حقيرة تافهة رفع شأنها وبوأها مكانتها اللائقة بها كانسان ٠

السبيل الثانى : من وسائل ابطال الرق بانواعه المختلفة وصوره المتعددة ، وقد افاضت الشريعة الاسلامية فى هذين السبيلين افاضة واسعة لا حد لها ٠

مصادر التشريع الاسلامى :

قال الله تعالى :

« انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » (105) ٠

« وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » ٠

المصدر الاول للتشريع الاسلامى

هو القرآن الكريم : الذى ثبت قطعيا انه كتاب الله تعالى انزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليهدى الناس الى اقوم طريق باطاعة أوامره واجتناب نواهيه : « **ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** » ٠

انه منبع الهداية ، وموئل الحكمة : « فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره اضله الله ، وهو

حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هــو الـذى لا تزيغ به الاهــواء ، ولا تلتبس بـه الالسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا «انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد» من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه فقد هدى الى صراط مستقيم » .

وكل آيات هذا الكتاب،بل كل كلمة من كلماته ايضاح وبيان،وعلم ومعرفة،وثقافة وتهذيب ، ونظام وقانون وحجة وبرهان وحكمة ونصيحة ، ودواء وشفاء ، وأدب وتـربية ، وتعليم وتوجيه ، وهـداية ورشاد ..

لـم يـكد يبسط ظلـه على الارض ، ويدوى بصوته بين الناس حتى استقبلوه بلهفـة ، وعانقوه بشـوق ، وقــراوه بخشوع ودرسوه بامعان ، وتأملوه بجد وتفهموه بعمق ، وجعلوه الاليف الانيس والنـاصح المخلص ، والاستاذ المـربى والمنار الهادى ، والدستور الحـق ، والطبيب المعالج ، والحكم فى الصغـيرة والكبيرة ، فكان ان وصل ما بينهم وبين أنفسهم ، وربط ما بينهم وبين خالقهم ، ورسـم لهـم معـالم الحيـاة الكريمة وحدودها ، وهداهم الى طريق القـويم طريق السعادة فى الدنيا وفى الآخرة ، وجعلهم «خير امة اخرجت للناس» (106)

فلم تمض الا مـدة قصيرة حتى كان منهم « قادة الامم ، وفلاسفة الاجتماع ، واقطاب السياسة ، واساتذة العمران واعلام الشريعة ، وأساطين البيان » .

وظـل القـرآن الكريم منبـعا فياضا تتدفق منه المعرفة والهداية ، والعـلم والحكمة ، وسيظل كذلك مـدى عمر الحياة يحكم ويهدى ، ويعلـم ويهذب ، ويؤدب ويثقف ويوصى وينصح ، ويعظ ويرشد ، ويرسم ويخطط .

قـال أبـو اسحـاق الشـاطبى فى الموافقات :

« والقرآن هو كلية الشريعة وعمـدة الملـة ، وينبوع الحكمة وايـة الرسالة ونور الابصار ، والبصائر ، وانه لا طريق الى الله سواه ولا نجاة بغيره ولا تمسك بشىء يخالفه » (107) .

وقال أيضا :

« فكتاب اللـه هو أصل الاصول ، والغاية التى لا تنتهى اليها انظار النظار ومدارك أهـل الاجتهـاد وليس وراءه مرمى لانه كلام الله القديم وان الى ربك المنتهى وقد قال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة

وبشرى للمسلمين » وقال : « **ما فرطنا في الكتاب من شيء** » .

وقال الامام الشافعي رحمه الله في « الرسالة » ليست تنزل باحد من أهل دين الله ، نازلة الا وفي كتاب الله تعالى الدليل على سبيل الهدى فيها (108)

وقد اتى القرآن الكريم بقواعد كلية واحكام عامة ، وبلغت آيات الاحكام (120) آية ومعلوم ان الرسول صلى الله عليه وسلم أقام بمكة نحو ثلاث عشرة سنة ، ثم أقام بالمدينة نحو عشر سنين وهذا العصر الذي عاشه بعد الهجرة هو عصر التشريع حقا ففيه كان ينزل القرآن بالاحكام .

والمتتبع للآيات المكية يتبين له انها لا تتعرض للتشريع بل تقتصر على بيان أصول الدين والدعوة اليها كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والامر بمكارم الاخلاق كالعدل والاحسان ، والوفاء بالوعد ، واخذ العفو والخوف من الله وحده ، والنهي عن مساوىء الاخلاق كالزنا ، والقتل ، ووأد البنات والتطفيف في الكيل والميزان ولعل أوضح ما يبين التعاليم التي كان يدعو اليها القرآن في مكة سورة الانعام .

اما التشريع في الامور المدنية من بيع واجارة وربا وغير ذلك والجنائية من قتل وسرقة ، والاحوال الشخصية من زواج وطلاق فكل ذلك كان بعد الهجرة النبوية الى المدينة (109) .

المصدر الثاني للتشريع (السنة النبوية)

والسنة في مقام التشريع يراد بها ما يشمل من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وافعاله وتقريراته وليس ذلك لقصور في القرآن الكريم تداركته السنة ، ولا لغموض كشفته ، ولا لمغلق فتحته ، وانما لان أحكام القرآن قد تكون كلية تحتاج الى تفصيل أو عامة تحتاج الى تخصيص ، فمهمة السنة انها توضح القرآن الكريم وتشرحه .

فالاحكام التي توجد في الاحاديث الصحيحة مأخوذة من القرآن الكريم ، وقد بلغت أحاديث الاحكام في السنة ما يقرب من (500) حديث استنبطها الرسول صلى الله عليه وسلم منه بتأييد الهي ، وهذا الاستنباط يسمى في اصطلاح القرآن تارة (تبيينا) وتارة (اراءة) قال الله تعالى :

« **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون** » (110) وقال : « **انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما** » (111) .

كما ان السنة أيضا تستقل بتشريع الاحكام وتنص على تحليل الحلال وتحريم الحرام مما لم يرد له فى القرآن نص .

وقد يكون شرح السنة للقرآن بمثال من أفعاله صلى الله عليه وسلم ففى الصلاة مثلا شرح النبى طريقة اقامتها وبين عدد ركعاتها وعين الوقت الصحيح وقال بعد ان بين كيفيتها « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

وتوضأ أمام أصحابه ليعلمهم الوضوء الشرعى الصحيح ثم قال :

« هذا وضوئى ووضوء الانبياء من قبلى فمن زاد على ذلك أو نقص فقد أساء وتعدى وظلم .. » .

اما تقريراته فهى ان يرى المسلم يفعل شيئا فيسكت عنه أو يقع الفعل فى عصره ويبلغه فيسكت عنه كذلك .. وكذلك يسمع الكلام أو يبلغه فيسكت عنه فيكون سكوته عنه مقررا للفعل ومجوزا له .

مثال ذلك : ما جاء عن عمرو ابن العاص انه كان فى سرية فاصابته جنابة فى ليلة شديدة البرد ، فلم يستطع ان يغتسل فصلى باصحابه فلما رجعوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم شكوا اليه فقال : يا عمرو اصليت باصحابك وانت جنب ؟ فقال يا رسول الله : الله يقول :

« ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » .

ومن السنة الحديث القدسى وهو كالقرآن من حيث كونه لفظا ومعنى من الله تعالى الا انه يخالفه فى انه لا يصلى به ، وفى انه أيضا للترغيب والترهيب، والوعظ والارشاد لا لتشريع الاحكام .

وهذه الثلاثة (القرآن الكريم ، والحديث القدسى ، والسنة النبوية) تتلاقى كلها عند مصدر واحد وهى انها من عند الله تعالى قال تعالى : **« وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » .**

وقد ضل قوم انكروا السنة وقالوا حسبنا القرآن فى تشريعه كفاية ، وفى أحكامه ثروة ، وفى آياته نور وهداية ، وهم فى ذلك مخطئون لم يسمعوا قول الله تعالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب » (112) .

قال العلماء فى تأويل هذه الآية : ما أمركم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من طاعة الله فافعلوه وما نهاكم عنه من معصية الله فاجتنبوه » .

وقال القرطبى قال المهدوى فى قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول الى آخر الآية » هذا يوجب ان ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم أمر من الله تعالى ، والآية وان كانت فى الغنائم فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه داخل فيها ·

وقال القرطبى أيضا : وقال الحكم ابن عمير : « قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان هــذا القرآن صعب مستصعب ، وهو الحكم فمن استمسك بحديثى وحفظه فجامع القرآن ، ومن تهاون بالقرآن خسر الدنيا والآخرة ، وأمرتكم ان تأخذوا بقولى وتكتنفوا أمرى وتتبعوا سنتى ، فمن رضى بقولى فقد رضى بالقرآن ومن استهزأ بقولى فقد استهزأ بالقرآن قال تعالى : « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** » (113) ·

وكان الراسخون فى العلم من الصحابة يفهمون عموم الآية فى كل ما أمر به أو نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ·

المصدر الثالث : (الاجماع) ·

لما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى واتسع العالم الاسلامى بالفتوحات أصبح المسلمون يواجهون قضايا جديدة ، وحوادث مختلفة يحتاجون فيها الى تشريع صريح وواضح يلبى الحاجات وكان مدار الفتوى عندهم على القرآن الكريم ثم على السنة النبوية فاذا لم يجدوا حلا لقضاياهم فى هذين المصدرين نظروا فى الامر واجتهدوا وتشاوروا حتى يجمعوا أمرهم على حكم متصل الاسباب بالقرآن والسنة ويكون مثل هذا الاجتهاد مصدرا من مصادر التشريع الاسلامى · وهو كما ترى عبارة عن اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين فى عصر من العصور بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم على حكم شرعى · وقد بلغ عدد المجتهدين من الصحابة (130) مجتهدا من اشهرهم عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهم اجمعين ·

اما المجتهدون من التابعين وغيرهم فأكثر من ان يحصوا عددا لهذا كثرت المذاهب فى صدر الاسلام وما يليه ولكنها اختفت جميعها وانقرضت واشهر ما بقى منها متبعا بين الامم الاسلامية أربعة :

مذهب مالك ، ومذهب أبى حنيفة ، ومذهب الشافعى ، ومذهب أحمد ابن حنبل ·

والجدير بالملاحظة ان باب الاجتهاد فى الاسلام مفتوح فى كل عصر من عصور التاريخ واذا توقفت حركت الاجتهاد أصيب الفكر الاسلامى بالجمود والضعف والشلل ولذلك يقول الامام السيوطى رحمه الله : « ان الاجتهاد فى كل عصر فرض من فروض الكفايات وانه لا يجوز شرعا اخلاء العصر منه » ٠

المصدر الرابع : (القياس) ٠

القياس ان يعوز المجتهد حكم فى قضية أو مسألة أو حادثة فيعمد الى مسألة ثبت حكمها بنص قاطع لا يحتمل التأويل فيثبت حكمها لتلك التى اعوزه الحكم فيها ما دامت العلة فيهما واحدة٠

وعرف علماء التشريع بقولهم : « الحاق حكم أمر مجهول بحكم أمر معلوم لعلة مشتركة بينهما » ٠

ومثلو له بالخمر التى ثبت تحريمها بنص قطعى : «**فاجتنبوه لعلكم تفلحون**» لعلة الاسكار فاذا ما توفرت هذه العلة فى أى مشروب فانه يلحق بالخمر ٠

وقد ثبت القياس بالكتاب والسنة :

اما الكتاب فقوله تعالى : « **فاعتبروا يا أولى الابصار** » والاعتبار هو النظر فيما قام من الوقائع أو فيما هو قائم ليتوصل بهذا النظر الى حكم شبيهه فيما يقع ، وهذا هو القياس » ٠

واما السنة فحديث معاذ بن جبل رضى الله عنه حينما بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم قاضيا الى اليمن وقال له : (بم تقضى ان عرض لك قضاء ؟) قال : بكتاب الله ٠ قال : « فان لم تجد فى كتاب الله ؟) قال : فبسنة رسول الله ٠ قال : (فان لم تجد فى سنة رسول الله ؟) قال : اجتهد رأيى ٠

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر معاذ وقال : (الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله) (114) ٠

ولقد وضع نواة القياس عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وذلك عندما قال لابى موسى الاشعرى : (اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عندك) ٠

اما عصر النبى فلم تكن فيه الحاجة ماسة الى القياس والوحى يتنزل والنبى صلى الله عليه وسلم بين اظهر المؤمنين يعلمهم ويرشدهم ويوجههم ، فهو اذن جدير بان يسمى « عصر الوحى » ٠

« مصادر أخرى للتشريع » :

اتفق جمهور المسلمين على المصادر الاربعة المذكورة « الكتاب ، السنة ، الاجماع، القياس » وتعتبر المنابع الاولية والاسس الاصلية للتشريع الاسلامى ٠

وهذا لا يمنع من ان نقول ان كل مصادر التشريع ترجع فى واقع الامر وحقيقته الى أصل واحد هو القرآن الكريم لانه الدستور الجامع والكتاب الالهى المنقول الى الامة بالتواتر القاطع جيلا بعد جيل ، وعصرا بعد عصر ، محفوظا من التبديل والتغيير ، مصونا عن النقص والتحريف •

وترجع السنة النبوية فى التشريع الى القرآن الكريم باعتبارها مبينة لمقاصده ، ومقرره لاحكامه ، وموضحة لمعانيه وتأتى بعد ذلك مرتبة الاجتهاد واستنباط الاحكام من تلك الاصول •

وهناك مصادر أخرى للتشريع غير الاربعة المذكورة وهى :

(البراءة الاصلية ـ المصالح المرسلة ـ العرف والعادة ـ الاستحسان ـ سد الذرائع) •

البراءة الاصلية :

ويعبر عن هذا باستصحاب الاصل قبل ورود الشرع ، ومعناه الرجوع بالاشياء الى الحالة المتيقنة التى ثبتت لها قبل الشك ، وهو مظهر من مظاهر اليسر والسماحة فى الاسلام ، وهذا ما يعنيه الاصوليون (بالبراءة الاصلية) أى براءة الذمة •

قال الامام القرافى فى شرح البراءة الاصلية :

(أى العمل بمقتضى الاصل قبل ورود الشرع بالتحليل والتحريم) لان الاصل فى الاشياء قبل ورود الشرع عدم الحظر أو الطلب والاصل فى الاشياء الاباحة قال الله تعالى :

« **هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا** » •

ومثال ذلك أن يتوضأ المسلم ثم يساوره شك هل أحدث ؟ فان هذا الشك لا يؤثر فى اليقين •

المصالح المرسلة :

وفسر الاصوليون هذا الاصل بالمصلحة التى لم يشهد لها الشرع باعتبار ، ولا الغاء وهى مصلحة تحقق منفعة خالصة ويخصص بها عموم النص•

ولائمة الاصول أمثلة لذلك كثيرة فمنها عند مالك قوله فى المرأة ذات الحسب التى نشأت فى دعة ورفاهية ونعمة : (انها لا تلزم بارضاع ولدها) وخصص بذلك من نظره عموم القرآن فى قوله تعالى :

« **والوالدات يرضعن أولادهن** » •

قال القاضى أبو بكر بن العربى :

ولمالك فى المرأة الشريفة رأى خصص به الآية فقال :

(انها لا ترضع ، وهذا من باب المصلحة المرسلة ، ثم قال ابن العربي : قال مالك : كل أم يلزمها رضاع ولدها بما أخبر الله به من حكم الشريعة فيها ، الا أن مالكا دون فقهاء الامصار استثنى الحسيبة فقال :

لا يلزمها رضاعه • فأخرجها من الآية وخصها فيها بأصل من أصول الفقه ، وهو العمل بالمصلحة ، والاصل البديع فيه هو ان هذا الامر كان فى الجاهلية فى ذوى الحسب ، وجاء الاسلام فلم يغيره ، وتمادى ذوو الثروة والاحساب على تفريغ الامهات للمتعة بدفع الرضعاء الى المراضع الى زمان مالك ، فقال به والى زماننا فحققناه شرعا) (115) •

وقال القرافى :

(ان المصلحة المرسلة موجودة فى جميع المذاهب عند التحقيق لانهم يقيسون ويفرقون بالمناسبات ولا يطلبون شاهدا بالاعتبار) •

العرف والعادة :

اعتبار العرف والعادة من القواعد الاصولية شائع مشهور بين العلماء •

قال ابن نجيم :

(الاحكام تبنى على العرف فيعتبر فى كل عصر عرف أهله) •

وقال ابن العربى :

(العادة دليل أصولى بنيت عليه الاحكام وربط به الحلال والحرام) •

واشتهرت من أقوال الفقهاء قولهم : (العادة محكمة) وقولهم : (الثابت بالعرف كالثابت بالنص) •

وقال القرافى فى قواعده :

(ان الاحكام تجرى مع العرف والعادة وينتقل الفقيه بانتقالها) •

والعرف المعتبر عند الاصوليين هو الذى لا يخالف دليلا أو أصلا من أصول التشريع الاسلامى ومن أمثلة ذلك :

(مسألة الكفاءة بين الزوجين ، ومسألة النفقة التى يرجع فيها الى العادة والعرف) •••

الضرر يزال :

وهو مستمد من قول النبى صلى الله عليه وسلم : (لا ضرر ولا ضرار) •

ومن أمثلة ذلك نزع ملكية خاصة لنفع عام ، وقد نزع الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بعض املاك الصحابة لتوسيع المسجد الحرام •

الاستحسان :

وهذا الاصل مختلف فيه اختلافا كبيرا فمنهم من أقره ومنهم من أنكره كابن الحاجب الاصولى المالكى المشهور ، وهو أيضا نوع من المصلحة وقد مثلوا

له (بالسلم الذى هو بيــع معــدوم بموجود) فان القياس يأباه ولكــن المصلحة لما دفعت اليه والحاجة قد حملت عليه جوزه الفقهاء ·

ســد الذرائــع :

الذرائع جمع ذريعة وهى الوسيلــة لشيء ، ومعناها غلق أبواب الشر ، وسد الفساد ، صونا للمصلحة وجلبا للمنفعة، وضمانا للخير · وبعبارة أخرى ســد الذرائــع هو اعطاء المباح حكم الحــرام اذا افضى اليه وحمل عليــه وذلك ، كالدلالة على انسان ليقتلــه الظالــم وكمناولة السكين لمن يسفك بها دمــا حراما، وهكذا تأخذ الوسيلة حكم الغاية·

فكما ان وسيلة المحرم محرمــة ، فوسيلة الواجب واجبة ···

أنواع التشريع الاسلامى :

قال الله تعالى : **« ما فرطنــا فى الكتاب من شيء » (116) ·**

يمتاز التشريع الاسلامى بالشمــول من جميع الوجوه :

أولا الشمول الانسانى :

فليس فى الارض صنف من البشر ذكرا كان أو انثى ، طفلا كان أو شابا أو شيخا ، مسلما أو غير مسلم الا وسعه التشريع الاسلامى بمبادئه واحكامه فى جميع الظروف والاحوال من المهــد الى اللحد ، بل من قبل خلقه ، حيث يعنى التشريع بشرف التربة التى ينشأ فيها فحرم الزنا ، حتى تتوافر له قبل ان ينزل الى هذا الوجود أسرة ترعاه ، وأبوة تحوطه ، وأصل يمتد به نسبه وجو يليق به كانسان خلق لرسالة هامة فى هذه الحياة ·

ثانيا الشمول المكانى :

فليس فى الارض بلد فى أى ناحية من نواحى المعمورة مسلما كان أو غــير مسلم ، مهما كانت أوضاعه ، وظروفه ، واحواله ، وطبيعة جوه وطقسه الا وسعه التشريع الاسلامى ·

ثالثا الشمول الزمانى :

فمنذ خمسة عشر قــرنا من عمــر الانسان وفى أية ساعة من ساعات الليل والنهار ، وفى أى فصل من فصــول الزمان المختلفة ، والتشريع الاســلامى قائم ساهر ، يقضى ويفصل ، ويداوى ، ويشفى · ويعالج ويصلح ·

رابعا الشمول الحكمى :

فما من حادثة أو قضية أو مسألــة الا وفى التشريع الاسلامى علاجها ، فاذا كانت الحياة فى تجدد دائم ، وتطــور مستمر ، وفى تجددها وتطورها احداث

وقضايا ، وتغــيرات وتحــولات فان التشريع الاسلامى فى مواكبة كاملــة للحياة ، يراقبها ، ويرعاها ، ويسهــر على شؤونها •

أنواع التشريع القرآنى :

وأنواع التشريع القرآنى ، الذى هو مصدر التشريع الاسلامى بكل أصوله ، هى هذه :

التشريع الاجتماعى :

وهو فى الآيات التى توجب الزكاة واخراجها لمستحقيها مثل قوله تعالى :

« **انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهــم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيــل اللــه وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** » (117) •

وقوله تعــالى : « **يسالونك مــاذا ينفقون قل ما انفقتم من خير فللوالدين والاقربــين واليتــامى والمساكــين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فــان الله به عليم** » (118) •

التشريع السياسى :

وهو فى الآيات التى توجب الطاعة لاولياء الامور والوفاء بالعهود والمواثيق مثل قوله تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تاويلا** » (119) •

وقوله تعالى :

« **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتــم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقــد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلــم ما تفعلون** » (120) •

التشريع الجنائى :

وهو ما جاء فى الآيات للحــدود والقصاص مثل قوله تعالى :

« **وكتبنا عليهــم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجــروح قصاص** » (121) •

التشريع المــدنى :

وهــو ما تكفلت به آيات الربــا والميراث ••• الخ • وأشار اليه مثل قوله تعالى :

« **وما آتيتم من ربا لتربوا فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هــم المضعفون** » (122) •

وقوله تعالى :

« **يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » (123) .**

وقوله تعالى :

« **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثين ، فان كن نساء فوق اثنين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلامه الثلث فان كان له اخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما ، ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين . ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين . وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس . فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم » (124)**

التشريع الحربى :

وهذا فى الآيات التى تؤذن بالقتال وتشير بالسلم وتبين معاملة الاسرى وتوزيع الفىء وتخطط للقتال وترسم له طريق النصر كقوله تعالى :

« **اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » (125) .**

وقوله تعالى :

«**واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين . ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » (126) .**

وقوله تعالى :

« **يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين» (127) .**

ذلك ــ عزيزى القارىء ــ موجز عن التشريع الاسلامى الذى من الله به على الانسانية لتسير على هــداه فتستقيم شؤونها • وتنتظم حياتها ، ويعلو شأنها وتأخذ مكانة القائد الموجه بين الامم •

وقد سار على هداه المسلمون الاولون بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم بقيادة الخلفاء الراشدين من بعده ، وقيادة عظماء الاسلام فى عصره الزاهر، امثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص فكانت أسرهم خير لبنات فى المجتمــع الاســلامى وكان مجتمعهم أفضل مجتمع على وجه الارض بفضل هذا التشريع السماوى الخالد • حتى قال العالــم الانجليزى الكبــير (جونسون) :

(اننا نرى اخواننا المسلمين مولعين بالوقوف على عاداتنا وأحوالنا ، ويسعون فى تقليدنا ، ولكننا نحن الذين يجب علينا أن نأخذ عنهم ، ونتعلم منهــم ، فهم أصحاب التعاليم الحكيمة ، وهــم المقدمون علينا فى الهداية ، وهم أصحاب علم الالهيات ، وعلم التشريع فى العالم المتدين بأسره ، وان لهم الصنيع الجميل على تقدم المدنية الغربية ، ومن الواجب على أهل المملكة الانجليزية ان يقتفوا آثارهم ، ويسعوا فى دفــع الاباطيــل المنتشرة بين عامتنا عن دينهم وعاداتهم منذ القرن الرابع عشر ، وان يراعــوا احترام شريعتهم وكتبهم المقدسة ، ولو أننا تبصرنا من قبل أحوالهم وشرائعهم باخلاص لما وجد بيننا محل للنــزاع فى فضائلهم وآدابهم وسمو تشريعهم) (128)

تأمل جيــدا كلمــة هــذا العالــم المنصف ••• انه لم يصدع بها شهــادة للحق واشادة به الا بدافع من الاعجاب بهذا التشريع السماوى الذى طبقــه المسلمون فى مختلف مجالات الحيــاة فارتقوا الى أعلى المستويات اجتماعيــا ، واخلاقيا ، وسياسيا ، واقتصاديا •

واذا كان الجهلة من المسلمــين ، وانصاف المتعلمــين منهــم ، وبعض المثقفين الذين درسوا دراسات مدنيــة ولم يأخذوا من الدين بنصيب يزعمون ان الشريعة الاسلامية قد مضى وقتها أو أنها لا تطاوع الحوادث ، ولا تسايــر المدنية ، ولا تجارى الزمان ، فان ذلــك لا ينال من الحقيقة شيئا، فشريعة الاسلام هى المثل الاعلى فى هذا العصر وفى كل عصر من عصور التاريخ لسائر النظــم الفاضلة والمدنيات الصحيحة ، ســواء ادركوا هذا أم لم يدركوه •

فان تقلص ظل الشريعة الاسلامية وتخلت عن مكانة الصدارة فى كثير من

البلاد الاسلامية ، فليس ذلك ذنبها ، أو لعيب فيها وانما ذلك لتقصير القائمين بها فى كمال تطبيقها ·

فلنرفع الرأس عاليا فى اعتزاز ونخوة · ولنقل للدنيا بأسرها ، وبملء أفواهنا :

هذه شريعتنا ، شريعة السماء ، شريعة الله القائمة على العدل والمساواة، والمحبة ، والرحمة ، والمادة ، والروح ·

ان الفخر كل الفخر لقادة الاسلام السابقين وابطالهم الغابرين الذين احيوا بشريعة القرآن أمة ميتة ونفخوا فيها روحا جديدة فنهضت فى أمد وجيز ، وصنعت تاريخا لم يحلم به الفلاسفة والمصلحون وانها ـ أى الامة الاسلامية ـ لمدعوة الآن ان تعود الى هذه الشريعة التى جربها أوائلها ·

(ولن يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها) ·

هـــوامـش :

(1) أبو عبيدة ·
(2) نزهة القارىء ·
(3) تفسير الالوسي ·
(4) الراغب ·
(5) المبرد ·
(6) الشورى ـ آية 13 ·
(7) هود ـ آية 118 ـ 119 ·
(8) المائدة من آية 48 ·
(9) تفسير المنار ·
(10) فى ظلال القرآن للسيد قطب ·
(11) بواء : أى سواء ·
(12) أنظر الاسلام فى عصر العلم : فريد وجدى ·
(13) أنظر (نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الاسلامى) ظافر القاسمى ·
(14) انظر (المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام) للدكتور حواد على ج 5 ص 415
(15) نفس المصدر ، ج 5 ص 474 ·

(16) الاحزاب ـ آية 19 ٠

(17) البقرة ـ الآيتان 204 ـ 205 ٠

(18) المنافقون ـ آية 4 ٠

(19) ابراهيم ـ آية 46 ٠

(20) الزخرف ـ آية 58 ٠

(21) الطور ـ آية 32 ٠

(22) الفجر ـ آيات 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20 ٠

(23) الحاقة ـ الآيات 33 ـ 37 ٠

(24) المطففين ـ آيات 1 ـ 6 ٠

(25) الزمر من آية 3 ٠

(26) الاسراء ـ آية 49 ٠

(27) الجاثية من آية 24 ٠

(28) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ، ص 56 ٠

(29) المصدر السابق ٠

(30) عن الحركات كأساس للحضارة ٠

(31) آل عمران من آية 110 ٠

(32) البقرة من آية 143 ٠

(33) فى ظل الاسلام ، تحت الطبع لمحمد الصالح الصديق ٠

(34) نوح آية 3 ٠

(35) هـود آية 50 ٠

(36) الصف آيـة 6 ٠

(37) الانبياء 107 ٠

(38) سبا آية 28 ٠

(39) يوسف 48 ٠

(40) الروم الآية 30 ٠

(41) البقرة الآية 138 ٠

(42) رواه البخارى ٠

(43) (الاسلام منهاج وسلوك) أحمد عبد الجواد الدومى ، ص 12 ٠

(44) نفس المصدر ·

(45) نفس المصدر ·

(46) البقرة الآية 143 ·

(47) الرعد آيات 4/3/2 ·

(48) طـه آية 14 ·

(49) الاخلاص آيات 4/3/2/1 ·

(50) الذاريات الآيتان 21/20 ·

(51) الانبياء الآية 22 ·

(52) المؤمنون الآية 91 ·

(53) الروم الآية 21 ·

(54) البقرة الآية 256 ·

(55) يونس الآية 99 ·

(56) الجمعة الآية 10 ·

(57) الكهف الآية 46 ·

(58) القصص آية 77 ·

(59) البقرة آية 267 ·

(60) الاعراف آية 32 ·

(61) المائدة من آية 5 ·

(62) الاعراف من آية 157 ·

(63) البقرة من آية 222 ·

(64) حديث شريف ·

(65) رواه البخارى ومسلم ·

(66) الاجتهاد والتجديد فى التشريع الاسلامى لجماعة من المؤلفين ص 26 ·

(67) المائدة آية 6 ·

(68) الحـج الآية 68 ·

(69) البقرة من الآية 185 ·

(70) النساء الآية 28 ·

(71) الاحزاب ـ الآية 98 ·

(72) الاعراف من آية 157 ·
(73) الانعام الآية 145 ·
(74) المائــدة الآية 33 ·
(75) المائدة الآية 38 ·
(76) الحجرات الآية 11 ·
(77) البقرة الآية 188 ·
(78) النساء الآية 5 ·
(79) البقرة الآية 282 ·
(80) اخرجه الامام أحمد ومسلم والاربعة من حديث طارق بن منهاب عن أبى سعيد ·
(81) القصص ـ الآية 77 ·
(82) النساء ـ الآية 134 ·
(83) المائدة الآية 8 ·
(84) النحل ـ الآية 98 ·
(85) الاسلام منهاج وسلوك ـ أحمد عبد الجواد الدومى ص 67 ·
(86) نفس المرجع · (87) نفس المرجع ص 68 ·
(89) مجلة (المسلمون) ابريل سنة 1958 ·
(90) الحــج الآيتان 78/77 ·
(91) المؤمنون الآيتان 118/117 ·
(92) النمل الآية 64 ·
(93) الانعام الآية 116 ·
(94) يونس الآية 36 ·
(95) الاسراء الآية 37 ·
(96) الحــج الآية 77 ·
(97) البقرة من الآية 257 ·
(98) آل عمران الآية 101 ·
(99) النحل الآية 97 ·
(100) الشمس الآيات 10/9/8/7 ·
(101) الاعلى الآيتان 15/14 ·
(102) العصر ـ الآيات 1 ـ 3 ·

(103) النازعات الآية 41 ·

(104) عن بحث للاستاذ مصطفى أحمد الزرقاء نشر بمجلة (المسلمون) 1957 ·

(105) النساء الآية 41 ·

(106) (107) (الموسوعة فى سماحة الاسلام) للصادق عرجون ج 1 ص 34 ·

(108) نفس المصدر ·

(109) فجر الاسلام ، أحمد أمين ص 228 ·

(110) النحل الآية 44 ·

(111) النساء الآية 105 ·

(112) الحشر الآية 7 ·

(113) انظر الموسوعة فى سماحة الاسلام ج 1 ص 99 ·

(114) انظر الموسوعة والموافقات للشاطبى ·

(115) انظر كتب الاصول ، الموافقات ـ الموسوعة ـ اعلام الموقعين ·

(116) الانعـام الآية 38 ·

(117) التوبة الآية 60 ·

(118) البقرة الآية 215 ·

(119) النساء الآية 59 ·

(120) النحل الآية 91 ·

(121) المائدة الآية 45 ·

(122 الروم الآية 39 ·

(123) البقرة الآية 276 ·

(124) النساء الآيتان 12/11 ·

(125) الحـج الآية 39 ·

(126) الانفال الآيات 61/58 ·

(127) الانفال الآيتان 46/45 ·

(128) عن (حكمة الاسلام) محمد أبو الفيض المنوطى ص 77 ·

ملاحظة : من مراجعنا أيضا فى هذا الموضوع :

البحر لابى حيان ، التفسير الكبير للرازى ، تفسير الطبرى ، صحيـح البخارى ، صحيح مسلم (الموسوعة فى سماحة الاسلام) للصادق عرجون ·

محمد الصالح الصديق

من وحي السماء



الجهـــاد فى القـــرآن

البسيونى قنعان

ـ عدو واحد ، وهدف واحد ، وان تعددت الوجوه والاساليب والمبررات •

ـ الاسلام أول تشريع جعل للمهزوم حقا ، وللقوة ضوابط ومعايير •

ـ العدو الظاهر كثيرا ما يكون مجرد قنـاع أو واجهة لاعـداء مختفين ••• كيف عالج القرآن هذا ؟

ـ جميعية أبـى الحسن الشيبانى فى المانيا الاتحادية ••• لماذا أسست ؟ وما مبادئها ؟

ـ ما ذكر القرآن النصر ، أو حرض عليه ، الا ذكر الصبر ••• لماذا ؟

ـ لماذا انتصرنا على الصليبية قديما ، ولم نستطع ذلك حديثا ؟

ان أكثـر أحـلامى جنونـا ـ كمـا يقولون ـ ما كان يصور لى أننى سأرد الى الجزائر المجاهدة بعد تحررها اكتب فى احدى صحفها الدينية باللغة العربية التى ظن الاعداء أنهم قد انتهوا منها ، وأن أتحدث عن الاسـلام والجهـاد فى القـرآن ، رغـم كـل ما فعلـه الاعداء لينتزعوه من القلوب والصدور ، ولكن لماذا لا أقول : ان ما حدث ويحدث على هذه الارض الطيبة من تحرر وازدهار ، ورجوع الى الاصالة والعقيدة هبة مـن هبات الجهاد ، وثمرة من ثمار الاسلام ، بهما تحقق وبدونهما لم يكن ليتحقق أو يكون ، فما اجدرنا أن يكون شعـارنا الدائم ، قول اللـه تعالى : « **ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة** » •

التحـدى الـدائم

فى القـرن الثانى عشر الميـلادى ، حينـما تمكنت القوات الصليبية مـن دخول بيت المقدس ، ذبحوا فى المساجد وغيرها سبعين ألفا من المسلمين ـ فيما يقول الرواة ، أرسل قـائد القوات الى البابا يقول له : « لك أن تفرح يا آبانا ، فان خيولنا تسبح فى بحر مـن دمـاء المسلمين ، أشكر الـرب ، وأطلب لـنا المغفرة » •

وفى العقد الثانى من القرن العشرين وقف الماريشال الانجليزى (اللبنى) قائد الجيوش التى دخلت مدينة القدس ، ليقول فى شماتة وحقد : « الآن انتهت الحروب الصليبية »

وبنفس الشماتة والحقد وضع القائد الفرنسى الذى دخل بجيوشه مدينة دمشق ـ فى نفس الفترة ـ قدمه على قبر صلاح الدين الايوبى قائلا : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » ·

وفى خريف سنة 1956 حين تجمعت ثلاث دول : انجلترا وفرنسا واسرائيل لتضرب الاسلام والسلام فى مصر ، وقفت والدهشة تكاد تعقد لسانى ، وأنا أرى أن التاريخ يعيد نفسه ، فالعدو هو العدو ، والهدف هو الهدف ، ولم يتغير غير الوجوه، وغير الحجج والمبررات

جحافل البغى : هل ما زلت تبغينا ؟
أبورسعيد أرى أم ارض حطينا ؟

وحقد (ايدن) يزجيها ، ويدفعها
أم حقد (ريتشارد) يدعوها لتغزونا ؟

(وجى موليه) يغالى فى رعونته
أم ذا (لويس) يسوق الحرب مفتونا ؟

باسم الصليب أتوا بالامس ما خجلوا
وروعوا الشرق من آثامهم حينا

واليوم من يا ترى جاءوا لنصرته ؟
وباسم من يا ترى؟ هل باسم صهيونا؟

انها معارك لا أول لها ولا آخر ، وانه عدو شرس ضار يتربص بنا أبدا ، وانها فتن كقطع الليل المظلم ، ما ان ننقضى فتنة حتى تعقبها فتنة أخرى ، وصدق الله العظيم ! اذ يقول : « **ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة** » نعم ميلة واحدة ، « **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى** » (2) ومهما حاولنا أن نبحث عن حل ، فلن نجد الحل فى غير الجهاد ·· الجهاد أولا ··· والجهاد أخيرا ··· وهذا كل ما فى الامر ·

معنى الجهاد

وللجهاد فى الاسلام معنيان : الجهاد بالمعنى العام وهو جهاد النفس ويسمونه الجهاد الاكبر ، وبالمعنى الخاص وهو : القتال وما يكتنفه ويحيط به من اعداد واستعداد ، ولن نستطيع بطبيعة الحال فى هذه المقالة الموجزة الا أن نتناول

---

(1) الآية 102 من سورة النساء ·
(2) الآية 120 من سورة البقرة ·

بعض الجوانب الخاصة بالجهاد بمعناه الخاص باختصار ٠

اعـداد واستعـداد

ان الحرب لا تكون وليدة الساعة التى تعلن فيها ، أو يشتعل أوارها ، وانما هـى نتيجة اعداد واستعداد سابقين ، قد يكونان أشق من الحرب نفسها وأخطر فعلى قدر الاعداد والاستعداد يكون سير المعـارك ، ونتيجتها ، والاسلام ديـــن الفطرة يعتمد العقل والجهد الانسانى أساسا ، يأمر أتباعه بالاستعداد الدائم والاعداد المستمر ، قال اللـه تعـالى : **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بـه عدو اللـــه وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللـه يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيـل اللـــه يـوف اليـكم وأنتـم لا تظلمون » (1) ٠**

وبالتأمل قليلا فى هذه الآية نجد أن اللـه تعـالى أودع فيها من المعانى ما يجعلها وحدها دستورا خالـدا للاعداد المطلوب دائما ، والمفروض دائما ، بأدق عبارة ، وأبلغ بيان ، وقد عبر القرآن بقوله « **ما استطعتم** » ولم يقل مثلا كما يعدون لكم ، لانه لـو قال ذلك لقيـد جهدنا ، فقد نستطيع أكثر مـن ذلك ، واذن فنحـن مطالبـون بـما نستطيع ، وأيضا لو قال ذلك لشق علينا ، فقـد لا نستطيع الاعداد مثله ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وكذلك لو قال كـما يعدون لكم لترك لنا العذر فى الهروب ، وترك الاعداد والحرب اذا كان العـدو يستطيع أكثر ـ كما هـو حالنا هـذه الايام ـ كأن نقول : اذا كنا لا نستطيع الاعداد مثلـه فلماذا المحاولة ؟ ولمـاذا ندخل فى أمر نعلم سلفا أننا لا نستطيعه ولا نقدر عليه ؟ ألا يسعنا قول الشاعر :

اذا لـم تستطـع شيـئا فـــدعه
وجـــاوزه الى مـــا تستـطيـع

ومن هنا فما أبلغ القرآن وأدقه حـين يقول : ما استطعتم ، والله تعالى كفيل بأن يجبر النقص اذا عوضناه بايماننا الذى يفعل المعجزات ٠

ثم يقول « من قوة » فيترك القوة نكرة مجهولة الحدود ، ليتـرك للخيـال أن يسبح فى حدودها ، ويترك للزمان أن يصنفها ، فان القـوة تختلف باختـلاف الزمان ، وقد تختلف فى الزمان الواحد باختلاف المكان أيضا ٠٠ ثم يخص رباط الخيل ، فقد كانت الخيول فى عصرها تمثل عصب الجيوش ، وقوتها الضاغطة كالدبابات والمدرعات فى عصرنا الحاضر

---

(1) الآية 60 من سورة الانفال ٠

ثم يقول : « **ترهبون بـه عدو اللـه وعدوكم** » فالمطلوب منا أن ندخل الرهبة والرعب فى قلـوب الاعـداء ، بحيـث لا يقدمون على حربنا وهم يعلمون أنهم ذاهبون الى نـــزهة ، أو صائرون الى انتصار محقق ، فكلما استطعنا اقنـــاع العـدو بأن اعتـداءه علينا أو محاولته شيء فـوق طاقته ، وخطـر لا يستطيع الخروج منه ، فان هذا فى صف السلام ومن أقوى دعائمه ، فان العدو فى هذه الحالة سوف يـؤثر التريث ، ويتجنب الاندفاع ، ويحضرنى فى هذه المناسبة قول خبـير بريطانى فى الحرب عندما أثيرت فى مجلس العموم البريطانى من سنوات قليلة مسألة انسحاب بريطانيا مـما كـانوا يسمونه « محميات الخليج العربى » اذ قال بعضهم : « لماذا ننسحب وعندنا من القوة ما يكفى لهزيمة الاعداء؟ فتصدى لـه الخبير قائـلا : « ان ذلـك لا يكفى ، وانما المطلوب أن تكون لنا قوة فـوق ذلك ، بحيث لا يفكـر أحـد فى الاقتراب منها ، أو محاولة الاقتراب ».

ولكن ، أى عدو نعد له ؟ هل هـو عدونا الظاهر ؟ لقد علمتنا الايـام أن العدو الظاهر ليس كل شيء ، وانمـا قد يكون فى كثير من الاحيان مجـــرد واجهة أو قناع لاعداء يختفون خلفـــه ، أشد منه ضراوة ، وأبلغ خطرا ، وعـلى سبيل المثال فان تجاربنا مع عـــدونا الصهيونى تعلمنا انه مجرد واجهة لاعداء أشد خطرا وأقوى ، والقرآن يعلمنا ان نكون أبعد نظرا ، وأكثر حذرا، فيقول : « **وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللـه يعلمهم** » .

ثم يختتم الله الآية بطلب الانفاق : « **وما تنفقوا من شيء فى سبيل اللـه يوف اليكم وأنتم لا تظلمون** » فلابد من الانفاق ، وقد يكون مالا أو جهـدا أو غير ذلك ، ومن هنا قال « **من شيء** » وأى أمر أولى بأن ننفق فيه المال والجهـــد والنفس والنفيس من اعداد نصون به الحرية والعقيدة ، لنعيش كراما أعزاء .

الاسلام دين السلام

بديهى أن طلب الاعداد والاستعداد للاعداء لا يعنى أن الاسلام دين حـرب أكثر منه دين سلام ، وأنه يجهز للاعتداء والبغى ، فحاشا لدين الله أن يكـــون كذلك ، فان الاعداء من جانب المؤمنـين ليس فى صالح الحرب ، وانمـا فـى صالح السلام ، فلا شيء يدفع الاعداء الى العدوان ، ويفتح شهيتهم للحرب ، مثل أن يرونا ضعافا يسهل تحدينـا ، وغافلين يسهل اقتلاعنا ، ولقمة سائغة يسهل ابتلاعنا ، نعم كم من اعـــداد واستعداد لحرب منعت الحرب نفسها ،

وقد قرأت لمعلق غربى ساخر، يقول كلاما لا يخلو من سخرية ، وفى نفس الوقت لا يخلو من مغزى ، ومعنى ، ويقول المعلق : « ان الدول الضعيفة هى المسؤولة عن الحرب ، لانها هى التى تحرك القوى وتطمعه فى حربها » .

ولما كانت دعوات السلام من جانبنا لا تعنى ذلك من جانب الاعداء فمن يطالبنا بان نقف مكتوفى الايدى أمام أعداء يجهزون للاجهاز علينا ؟ أو يطالبنا بالغفلة أمام أعداء لا يغفلون ؟

والشر ان تلقه بالخير ضقت به
ذرعا ، وان تلقه بالشر ينحسم

ان الانسان هو الانسان ، مهما ادعى وقال ، تدفعه غرائزه الى الحرب ، وتدعوه أطماعه الى العدوان ، وها نحن أولاء نعيش عصرا يدعى فيه المدعون ، حتى اننا لو وزنا الكلام عن السلام فى عصرنا هذا لرجحت كفتها كل ما قيل فى جميع العصور السابقة ، ولقد أنشأ المجتمع الدولى هيئة الامم المتحدة ، وقبلها عصبة الامم ، فهل انتهى الاعتداء ؟ وهل انقضت الحرب ؟ فلماذا يراد منا نحن المسلمين أن نقف وحدنا لنشحذ السلام من الاقوياء ، ولنركع فى خضوع أمام بطش الباطشين ، وطمع الطامعين، والا فنحن متهمون بتعكير صفو العالم ، وقصم ظهر السلام ؟

دعاوى مضللة

وانه لامر يدعو للاسف والسخرية أن يقف أعداء الاسلام والمسلمون ــ وبخاصة من المستشرقين الذين تحولوا فى بعض العصور الى خدمة الاستعمار وهدم الاسلام ــ ليقولوا فى خبث : ان الاسلام دين حرب ، وأنه نشر بحد السيف، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم على عكس الانبياء السابقين بعث لسفك الدماء ، وقتل الناس ، الى آخر هذه الدعاوى المضللة ، وقد نسى هؤلاء أو تناسوا أن دولهم وليس غيرها هى التى تضرب المسلمين فى أشد الاماكن ايلاما، وأن دولهم وحكوماتهم كانت وما تزال المتاجرة بالسلام وبالدماء ، وبأقوات الامم وبحرياتها ، ان هؤلاء الخبثاء يريدون أن يخدعونا بدعاواهم ، ويوهمونا أن الاعداد والاستعداد شىء غير جائز ، وغير حسن ، لنغفل عن اسلحتنا ، فتكون نهايتنا .

لقد نسى هؤلاء الخبثاء أن الاسلام فى طريقه الطويل لم يدخل معركة الا مضطرا اليها ، ولم يحارب الا دفاعا ، وأن الاسلام الذى فرض الاعداد الدائم، والاستعداد المستمر ، لم يجعل الحرب كذلك ، وليس من قبيل المصادفة أن تلى آية « **واعدوا لهم ما استطعتم** » آية تقول : « **وان جنحوا للسلم فاجنح**

لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » واذن فعلى المؤمن أن يلبى دعوة السلام اذا لم يكن فيها مساس بالحقوق الدينية أو الانسانية ، يقول القرآن هذا الى حد أنه لم يجعل خوفنا من حذر العدو وخداعه ذريعة لرفض السلام ، قال تعالى : **« وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين »** وقد نهانا رسول الاسلام حتى عن تمنى لقاء العدو ، فيقول — ما معناه — (لا تتمنوا لقاء العدو ، ولكن اذا لقيتموه فاثبتوا) . والاسلام لم يشرع الحرب لفرض الاسلام على الكافرين ، يقول الله تعالى : **« لا اكراه فى الدين »** ولعمرى اذا لم يكن هناك اكراه فى الدين، فهل نتصور اكراهافى ظل الاسلام فى غيره ؟ لقد رسم الاسلام طريق الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

كيف نظر الاسلام الى الحرب ؟

أما الحرب وهى أقسى العنف الانسانى فقد نظر اليها الاسلام على أنها شر تجعله الضرورة أحيانا لابد منه ولا مفر ، ولله در شوقى اذ يقول مخاطبا الرسول (ص) :

الحرب فى حق لديك شريعة
ومن السموم الناقعات دواء

تكون الحرب دفاعا عن دين أو وطن أو مبدأ أو حرية وما الى ذلك من الحقوق الانسانية المشروعة للانسان ، اذا تعرضت لبغى الباغين ، أو اعتداء المعتدين « **أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز • الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور » (1) •**

والحرب بهذا المعنى واجبة على المسلم القادر ، ينال بها رضا الله ، يعيش فى ظلها عزيزا ، أو يموت تحت لوائها كريما مخلدا « **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » (2) •**

ولقد نظر الاسلام الى الجهاد على أنه رأس الامر وذروته كما يقول الرسول ،

---

(1) الآيتان 39/40 من سورة الحج •
(2) الآية 170 من سورة آل عمران •

والى المجاهد على أنه من أسمى الناس وأعلاهم قدرا ، والى الشهادة على أنها أعلى وأسمى ما يناله المؤمن ، والى الشهيد على أنه في قمة درجات الانسانية والطهارة ، وأنه مخلد في الجنة « **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما** » (1) ·

والحرب بهذا المعنى ليست قصرا على الاسلام وحده ، بل هى فى المسيحية واليهودية ، وغيرهما ، ولنستمع الى قوله تعالى : « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم» (2).**

الرحمة حتى فى الحرب

فاذا فرضت علينا الحرب ··· فأى حرب نوضها ؟ ان الاسلام لم تزايله نزعته الانسانية فى أعلى صورها ، ورحمته التى لا حد لها حتى فى الحرب، أقصى العنف الانسانى ، فننظر الى الحرب وكأنها عملية جراحية تجرى لصلاح المجتمع الانسانى اذا لم يكن من ذلك بد ، بأقل التكاليف ، وأقل الضحايا ، وفى حدود الضرورة القصوى ، فلا نلجأ الى درجة من العنف اذا صلح الامر بأقل منها ، ولا نبتر عضوا اذا استطعنا اصلاحه وعلاجه ، لا نقتل النساء ، ولا الاطفال ، ولا الشيوخ ، ولا الذى يغلق عليه داره ، ولا الذى لا يتصدى لنا ولا يحاربنا ، فقط لا يحارب الا المحارب ، من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ ·

ثم انها حرب من طرف مؤمنين يعرفون أن النصر من عند الله ، وأن الله لا يدرك ما عنده بسخطه ، وأن الاخلاق هى عماد قوة المحارب وعدته، وأن ذنوب الجيش أخطر عليه من عدوه، فلم يحدث فى حرب اسلامية ان أباح المسلمون مدينة بعد فتحها لسلب أو نهب أو هتك عرض ، كما هو شائع الآن وملازم للحروب فى عصر يدعى أبناؤه منتهى التمدين والتحضر ·

ولئن كان المسيطر الآن وقبل الآن على قانون الحرب هو القوة ، فالقوى هو الذى يبدأ الحرب،ويسير بها وينهيها

(1) الآية 95 من سورة النساء ·
(2) الآية 112 من سورة التوبة ·

وفق هواه ، وما يراه ، والضعيف لا حق له ، فان الاسلام هو أول تشريع جعل للمهزوم حقا ، وللقوة ضوابط ومعايير، ولم يترك للقوة وحدها أن تعربد وتصول فمن حق الضعيف اذا أدرك نهايته أن يستسلم ، ويرفع راية الامان ، عند ذلك علينا أن نمتنع عن قتاله ، ندخل معه فى قانون ما بعد الحرب ، ولا حق لنا أن نحارب مستسلما ، ولا أن تصور لنا القوة المتطاولة أنه يخدعنا باستسلامه ، ولا أن نتخذ من مسألة الخداع ذريعة نمعن بها فى حرب من يريد انهاء الحرب **« ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلم لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة » (1) ٠**

وقد حدث فى الحرب العالمية الثانية حينما دخلت جيوش الحلفاء مدينة (برلين) أن أباحوا المدينة أياما بطولها للقذف الشديد ، والدمار الشامل ، والقتل المروع ، والابادة التى ما بعدها ابادة، رغم أن ألمانيا كانت قد استسلمت ورفعت راية الامان ، ولكن لا مجيب ، وقد روت احدى السيدات عن مأساتها – وقد نجت من الموت بأعجوبة – أنها ظلت أياما بطولها تحت الانقاض ، وقد مات زوجها واطفالها جميعا ، ورمت جثثهم ، ولا تستطيع أن تخرج بها الى الشارع ، أو أن تجد لقمة ، أو جرعة ماء ، وكان أن قرأ أحد الالمان رسالة لابى الحسن الشيبانى الفقيه المسلم استقاها من الشريعة الاسلامية يقول : « ليس من حق المحارب أن يحارب مستسلما » فأعجب الرجل وغيره من الالمان بهذا القانون الاسلامى الذى يعطى المنهزم حقا ، ولا يترك الامر لعربدة القوة وأحكامها ، فأنشئت جمعية أبى الحسن الشيبانى فى ألمانيا الاتحادية ومن مبادىء هذه الجمعية أن تنشر على العالم هذا المبدأ الرحيم الذى شرعه الاسلام من خمسة عشر قرنا من الزمان٠

وما لنا نذهب بعيدا ، ان هذه الارض العربية الاسلامية – الجزائر – رأى أبناؤها من الاستعمار وأهواله وتعذيبه وخوضه فى بحار الدم ما لا عين رأت، ولا خطر على قلب بشر ، فلما انتصرت عاملت المعتدين بسماحة ما كان يظنها حتى المعتدى ٠

ورحمة الاسلام المتسامية لا تريد من الحرب أن تكون متنفسا لحقد ، فقد نهى الاسلام عن تعذيب الاحياء ، وعن التمثيل بالموتى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا قتلتم فأحسنوا القتلة)

---

(1) من الآية 94 من سورة النساء ٠

ولم يحدث فى تاريخ الاسلام أن مثلنا بجثة أو عذبنا حيا ، فالمسلمين كان شأنهم دائما بعد الانتهاء من المعركة أن يجمعوا جثث أعدائهم ويدفنوها كما يجمعون جثث قتلاهم ، فالرحمة والرحمة دائما هى التى تسيطر على الحرب بدءا وسيرا ونهاية من ناحية المسلمين ، فما ظنك بدين يدخل الرحمة حتى فى الحرب أقصى العنف الانسانى ؟

أســـس النصـــر

ثم تكون الحرب ... فما الـــذى يجب علينا أتباعه حتى نحرز النصر ؟ ان الاسلام لا يتركنا بغير تعاليم تكفل لنا النصر على عدونا بالغا ما بلغ .

ولما كانت الحرب نوعين : الحرب النفسية ، ويسمونها الحرب البـاردة أو حرب الورق فى العصر الحديث، والحرب الفعلية «القتال » ، ولم يهمل القرآن أيا من الحربين ، فكلتاهما ذات تأثير فعال وخطير على النصر .

ولنبدأ بالحرب النفسية ، فقد اعتاد الناس أن يقذفوا فى قلوب أعدائهـــم الرهبة والرعب ، وأن يحيطوا أنفسهم بهالة من السطـــوة والجبـروت ، وأن يفهموهم أنهـــم قوة لا تقهـــر ، وأن الانتصار عليهم مستحيـــل ، وبهـــذا يكسبون الحرب قبل أن تبدأ ، والاسلام وضع حلولا جذرية لكـــل هـذا ، فاذا تدبرنا أنفسنا : ما الذى يخيفنا مـــن الاعداء ؟ ، أن أقصى ما ينالونه منـــا حياتنا ، وان الموت لا يخيف المؤمن ، فلكل انسان أجله المحدد ، ان لم يدركه فى الحرب أدركه فى السلم ، قال الله تعالى : « **أينما تكونوا يدرككم المـوت ولو كنتم فى بروج مشيدة** » (1) .

وقال : « **الذيـــن قالوا لاخوانهـم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين**» (2) وقال : « **قل لو كنتم فى بيوتكم لبـرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليـــم بـــذات الصدور** » وقال : « **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الارض أو كانوا غـزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلـــوا ليجعل الله ذلـــك حسرة فى قلوبهـم والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير** » (3) تلك الحقيقة فى وضوحهـا أدركها حتى الشاعر الجاهلى عنترة :

(1) الآية 78 من سورة النساء .
(2) الآية 156 من سورة آل عمران .
(3) الآية 158 من سورة آل عمران .

بكرت تخوفنى الحتوف ، كأننى
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فاقنى حياءك ، لا أبا لك واعلمى
أنى امرؤ سأموت ان لم أقتل

وكان المسلمون يفكرون فى الموت فى سبيل الله ، وما أعده الله لهم ، ويرون أن صفقة الموت مع ما فيها من ثواب ، أربح من صفقة الحياة مع ما فيها من مغريات ، هذه المعادلة كانت تساوى بسالة تقرب من حد الاساطير والخيال ، حتى يخيل اليك أن هؤلاء المحاربين جاءوا من أجل الموت ، ويعملون فعلا لنيله ، بل ان الكثيرين ندموا لانهم رجعوا أحياء ، وانهم لم ينالوا الشهادة·

عاد عبد الله بن عمر بن الخطاب بعد أن أبلى فى اليمامة أحسن البلاء ، فلما لقيه أبوه قال له : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! (يعنى زيد بن الخطاب أخا عمر ، وعم عبد الله) ألا واريت وجهك عنى » فأجاب عبد الله :

« سأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق الى فلم أعطها » ·

وها هو ذا خالد بن الوليد ـ وقد حضرته الوفاة فى غير ما حرب ولا جهاد ـ متحسرا متألما : « لقد شهدت مائة واقعة أو زهاءها ، وما فى جسدى موضع الا وفيه أثر لضربة سيف ، أو طعنة رمح ، وها آنذا أموت على فراش كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » ·

تلك الحقيقة فى بساطتها ووضوحها كانت وراء كل انتصار يحرزه المسلمون وكانت أكبر تهديد يهددون به أعداءهم، فها هو ذا قائد مسلم يقول ردا على تهديد عدوه حينما أراد أن يخيفه بالعدد والعدة فى جانبه « لقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ·

تلك الحقيقة فى بساطتها ووضوحها كانت وراء حسم كل بادرة تردد ، أو خاطرة خوف ، تفرض نفسها على الموقف من جراء كثرة الاعداء وقوتهم ، وقف عبد الله بن رواحة فى غزوة مؤتة ليقول بعد أيام من المعركة بدا فيها أن النصر غير دان ، أو غير متحقق « أيها الناس : ان الذى تخافونه هو الذى خرجتم له ، اننا لا نقاتل العدو بقلة ولا بكثرة ، انما نقاتلهم من أجل الدين الذى أكرمنا الله به ، وان هى الا احدى الحسنيين : اما النصر أو الشهادة » وبهذا قضى الاسلام على أكبر ثغرة يدخل منها الاعداء ، وينفذ منها الشيطان ·

ولما كانت الجيوش تفقد جل حماستها اذا أدركت أنها تخوض حربا لا أمل فيها للنصر ، ولا منفذ فيها الى تحقيق

هدف ، فان الاسلام يعلم أبناءه أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، وأن النصر يعطيه الله مكافأة للمؤمن بحقه ، الماضي في سبيله . قال تعالى : « **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** » .

وأن الكثرة في العدد أو العدة ليست كل شيء « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين** » (1) « **الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** » (2).

ولقد أقدم المسلمون الاوائل على حرب الروم في معركة اليرموك ، وسمع خالد بن الوليد رجلا يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين !! فغضب خالد حين سمعها وصاح : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! انما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الاشقر – يعني فرسه – بريء من توجيه ، وأنهم أضعفوا في العدد » نعم صدق خالد ، فالجندي الشجاع يعتمد على قوته لا على ضعف خصمه .

تعاليم تكفل النصر

ثم تكون المعركة ... فهل تركنا القرآن نخوض الحرب بدون تعاليم نكفل لنا النصر ؟ ، استمعوا معي الى قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين** » (3) .

وبعد أن نكون قد استكملنا عدتنا المادية والمعنوية ، وبدأت المعركة ، فلا شيء غير الثبات « **اذا لقيتم فئة فاثبتوا** » والفرار ذنب ما بعده ذنب « **يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير** » (4) .

ان الفار من المعركة مأواه جهنم، وان ذنب الفرار لا ذنب يعدله الا الكفر .

ويعلم الله خالق الانسان والاسلام أن الضعف الانساني قد يدفع الانسان

---

(1) الآية 249 من سورة البقرة .
(2) الآية 173 من سورة آل عمران .
(3) الآيتان 45 و 46 من سورة الانفال .
(4) الآيتان 15 و 16 من سورة الانفال .

الى ما يكره ، ومن ثم فقد أعقب الامر بالثبات أمرا بذكر الله ، وقد يتساءل المرء ... أى علاقة بين الامر بالثبات ، والامر بذكر الله ؟ ونقول : « ان العلاقة أقوى ما تكون ، فلا شيء يجبر الضعف الانسانى مثل أن يذكر قوة خالقه ، ويراه أكبر كل شيء ، وأن أمره هو النافذ ، وأن قوته تجعل كل قوة عداه تتلاشى ، وأن مهابته تجعل كل مهابة لغيره تزول ، فاذا قويت النفوس بذكر الله استهانت بكل خطر ، ورحبت بكل تضحية ، وقوة الانسان أعظم ما تكون فى قلبه وفى روحه ، وأن النفس الخائرة والقلب الجبان يخاف من كل شيء ، ويفر من لا شيء ، مهما كان معه من عدة وعتاد ، وقديما قالوا : « ان سلاح الجبان ملك لعدوه » وقد قال رجل لرجل : « ان سيفى أطول من سيفك » فأجابه : «لن يكون كذلك الا اذا وصلته بقلبى» .

وهنا مكمن القوة ، وسر الشجاعة التى لا تخاف الا الله .

فول الوجه شطر الله وانظر
تر الاقوام أحقر أن تهابا

ثم يقول : « **وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » ولا شيء يضعف القوم مثل ان يتنازعوا ويختلفوا ، فلا نصر بغير اتحاد ، ولا قوة بغير تكتل ، ثم يختتم الآيات « **واصبروا ان الله مع الصابرين** » فالصبر مفتاح النصر ، وأعظم مقومات الشجاعة ، وقديما قالوا : « الشجاعة صبر ساعة » وقد قال رجل لعنترة : « لماذا كنت أشجع العرب ؟ » فقال له عنترة : « مدد يدك » فمد الرجل يده ، فقال له : اضغط على يدى ، واجعلنى أضغط على يدك » ، فجعل كل منهما يضغط على يد الآخر ، فصاح الرجل متألما « آه » فقال له عنترة : « لو صبرت قليلا لقلتها أنا » .

وهكذا يتلاقى الجيشان ، فيلاقى كل منهما من البلاء والشدة ما يلاقى ، ويبقى النصر أخيرا لمن يتحمل أكثر ، ويصبر أكثر ، واستمعوا الى القرآن الكريم اذ يقول : « **ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما** » (1) ، ولا نكاد نرى آية من آيات القرآن ذكرت النصر أو حرضت عليه الا ذكرت الصبر « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا ،**

---

(1) الآية 104 من سورة النساء .

وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القـــوم الكافرين » (2) « يا أيها الذين آمنـــوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (3) « بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكـــم بخمســـة آلاف من الملائكـة مسومين » (4) .

فـــوز محقـــق

ثم تكون نهاية المعركة التى لابد أن تكون لصالح الايمان والمؤمنين كائنـــة ما كانت النتيجة ، فالمؤمـــن اذا انتصر لا يبطر ، ولا يغتر ، ولا يستخفه النصر ويركبه الغرور ، فتكون النهاية الاليمة ، وكم من نصر حمل فى طياته الهزيمة .

ان الغـــرور اذا تملـــك أمـــة
كالزهـــر يخـــفى المـــوت وهو زؤام

وان كانت النتيجة خسارة معركة فلا ييأس ، ولا يتلاشى ، لانه يـــدرك أن العاقبة للمتقين ، وكم تساوى معركـــة فى ميزان الزمن ؟ ، ان المؤمن الصابر يعلم أن الزمان سلسلة متصلة الحلقات من المعارك والاهوال ، فيجب أن يتخذ من النصر عدة للنصر ، ومن الهزيمـــة معبرا للنصر ، واستمع الى القرآن الكريم **« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقـــد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايـــام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، واللـــه لا يحب الظالمين » (5) .**

وبعـــد :

فهذا ديننا سر قوتنـــا وانتصارنا ، والنأى عنه سر هزيمتنا وتلاشينا ، ولقد أعزنا الله بالاسلام ، فمهما طلبنا العزة بغيره فلن يزيدنا الله الا ذلا ، ان ديننا دين القوة ، ودين العزة يأمرنا دائمـــا أن نكون أقوياء أعزاء **« ولله العـــزة ولرسوله وللمؤمنين »** ولا يجتمع الايمان والذل فى قلب واحد ، ولم يجز لنا ديننا تحـــت أى ظـــرف أن نعيش أذلاء أو مستضعفين **« ان الـــذيـــن توفـــاهـــم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجـــروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وســـاءت مصيرا »** (6) ولقد ادرك أعداؤنا هـــذه

---

(2) الآية 249 من سورة البقرة .
(3) الآية 200 من سورة آل عمران .
(4) الآية 125 من سورة آل عمران .
(5) الآية 140 من سورة آل عمران .
(6) الآية 97 من سورة النساء .

الحقيقة ، ورأوها رأى العين ، ولذا فهم دائما يريدون مواجهتنا بعيدا عنها ، لانها سر قوتنا وعزتنا ، نعم لقد أدرك الاعداء أننا فى غيبة الاسلام يسهل اقتلاعنا ، ووعوا التاريخ ، فعرفوا أن الصليبيين مثلا حينما جاءوا يحملون شعار الصليب نبهونا فحملنا المصحف ، ورجعنا الى سر قوتنا فانتصرنا ، وفى هذا العصر جاءنا نفس العدو ، يعمل لنفس الهدف ، ولكنه يحمل شعارات تختلف فى ظاهرها ، فحاربنا أحيانا فى غيبة الاسلام ، وكثيرا ما كانت الهزائم فى جانبنا •

دعونا نع الدرس جيدا ، وننظر الى الامور بعيون مفتوحة ، وقلوب واعية ، ان عدونا الصهيونى جاء تحت لواء دينه وباسمه ، واستطاع أن ينتزع الانتصار، رغم ما فى دينه من تحريف وتزييف ، ما الذى يجمع اليهودى الشرقى مع اليهودى الغربى مع اليهودى الذى عاش حياته فى أرض العرب ؟ وما الذى جعل الجميع يعيشون وسط بحر من الاعداء؟ وما الذى خلق من اليهودى أسطورة الزمان فى الجبن والمادية مهاجرا يترك بلادا ولد فيها وعاش الى بلد مهدد بالحرب فى كل لحظة ؟ أليس الدين مع ما لنا على هذا الدين من ملاحظات وتحفظات ؟

فلنتوحد تحت راية التوحيد ، ولنجتمع تحت لواء الاسلام ، ولنفتح صفحات كتابنا الخالد ، ولنسر على نوره ، نسالم تحت ظلاله ونحارب ، واذا تجمعت علينا الدنيا بأجمعها ، وهاجمنا العالم بأسره ، فلنقل : اننا مسلمون ! اننا مسلمون !

★

مملكة النبات كما يعرضها القرآن ويصفها

د· حامد صادق قنيبى
الكويــت

النبات فى عالمنا الفسيح لسان من السنة التقديس والسبيح للخالق جـــل جلاله وهو من جملة بدائــع القـــدرة الالهية فى المخلوقات من حيث ايجـــاد الاشجار والثمار والحبوب ، والبقول ، والازهار ، والتأمل فى كيفية تكوينها ، وجميل صنعها ، مما يقوى فى الانسان عقيدة الايمان برب السماوت والارض وجميع الكائنات ·

واذا كان عالم النبات صفـحة فى كتاب الله المنظور فاننا نشهد فيه صورة الحياة فى حركتها وانتقالـهـا ، وفى مراحلها وأطوارها ، وفى جمالها المونق البديع الالوان والاشكال · قال تعالى : « **ألم تر أن الله أنزل من السماء مـاء فسلكه ينابيع فى الارض ، ثم يخـرج به زرعا مختلفا الوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ، ان فى ذلـك لذكرى لاولى الالباب** » (1) وقال أيضا : « **امن خلق السموات والارض وانـــزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائـق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون** »·(2)

ها هو ذا القرآن يلفت البصائـــر والابصار الى سر الحياة ومنشأ النبات وتعدده كما يحدثنا أن الزرع والنبات والشجر انما ينشأ نتيجة تفاعل المـاء والتراب والبذور · قال تعالى : « **سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى** » (3) · فالله هو الذى خلق عالمنا كله فسواه تسوية تامة كاملة لا عـوج

(1) سورة الزمر : 21
(2) سورة النمـل : 60
(3) سورة الاعلى : 1 ـ 5

فيها ولا اضطراب ولا نقص ولا زيادة بل كل شيء فيه فى وضعه الصحيح يؤدى الغرض الذى من أجله خلق ، فهو الذى قدر فهدى أي قدر لكل حي ما يصلحه مدة بقائه وهداه اليه ، وعرفه وجه الانتفاع بما فيه من منفعة له ·
« والذى أخرج المرعى » اي انبت النبات جميعه · وما من نبت ينبت الا وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان ما · ثم بعد ذلك انبت النبات (فجعله غثاء أحوى) والغثاء هو الهشيم ، او الهالك البالى ، والاحوى الذى يميل لونه الى لون السواد · (4)

والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ··· مثال على كمال الخلق والتسوية والهداية ، والغثاء الاحوى انما هو الفناء والاماتة ازالة الحياة فكيف ذلك ؟ وهنا نقف وقفة قصيرة مع العلم الحديث لننظر ماذا قال هنا :

(فجعله غثاء أحوى) أي « جعله بعد خضرته يابسا أسود · وهل هناك نبات اذا جف صار يابسا أسود ؟ لا يوجد فيما نعلم نبات هكذا ؟ اذن فكيف أخرج الله تبارك وتعالى المرعى ثم جعله يابسا أسود ؟ كيف ومتى ؟ ألا ينطبق هذا كل الانطباق على الفحم الحجرى الذى تكون معظمه فى حقب الحياة القديمة حينما ظهر النبات غير المزهر والسرخسيات بكثرة عظيمة ثم تراكمت فوقها فى بعض الجهات رواسب أخرى فتحولت الى فحم حجرى مع طول الزمن وارتفاع الضغط والحرارة ! نعم هذا هو الغثاء الاحوى الذى تكلم عنه القرآن الكريم وعلله فأصاب وأوجز · قال وأصاب فى وقت كانت فيه مثل هذه الحقائق غريبة على عقول البشر · قال هذا فسبق العلم بقرون عدة · أفليس هذا اعجازا ؟ · بلى والله انه نعم الاعجاز » · (5)

ونعلم أن أول النبات كانت الاعشاب والمراعى وما من نبات الا وهو صالح لخلق من خلق الله · فهي هنا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا · فالله خلق هذه الارض وقدر فيها أقواتها لكل حي يدب فوق ظهرها أو يختبىء فى جوفها ، أو يطير فى جوها ·

والمرعى يخرج فى أول أمره خضرا ، ثم يذوى فاذا هو غثاء ، أميل الى السواد فهو أحوى · وهو فى كل حالاته صالح لامر من أمر هذه الحياة بتقدير الذى خلق فسوى وقدر فهدى ···

ثم يقفنا التوجيه القرآنى على أمس الاشياء الى الانسان ، وهو طعامه ، وطعام أنعامه ، وما وراء ذلك من تدبير الله وتقديره له :

(4) تفسير جزء عم ص 52 بتصرف · جاء فى لسان العرب أن الغثاء هو اليابس والاحوى من الحوة وهي سواد الى الخضرة أو حمرة الى السواد وقد كثر فى كلام العرب حتى سموا كل أسود أحوى ·
(5) القرآن والعلم ــ أحمد محمود سليمان ــ ص 66 ــ 67 ــ دار العودة بيروت، الطبعة الثانية 1973 ·

« فلينظر الانسان الى طعامه · انا صببنا الماء صبا · ثم شققنا الارض شقا · فانبتنا فيها حبا · وعنبا وقضبا · (*) وزيتونا ونخلا · وحدائق غلبا (**) · وفاكهة وابا (***) · متاعا لكم ولانعامكم » · (6)

جاء فى الكشاف « والحب : كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما · والقضب : الرطبة ، والمقضاب أرضه ، وسمى بمصدر قضبه اذا قطعه لانه يقضب مرة بعد مرة (وحدائق غلبا) يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء فيزيد تكاثفها وكثرة أشجارها وعظمها كما تقول حديقة ضخمة ، وأن يجعل شجرها غلبا : أي عظاما غلاظا · والاب : المرعى لانه يؤب : أي يؤم وينتجع ، والاب والام اخوان ·· » (7)

فالآيات السابقة بيان لقدرة الله وعظمته فى الابانة عن منشأ النبات وتعدده ، والارتباط الوثيق بين الحيوان والنبات ، فالكائن الحي لا يتغذى الا من أصله الذى تكون منه ، ولذا أمر الانسان أن يتدبر قصة طعامه ، الذى هو ألصق شيء به · وسيجد أنه من الطين والماء ·

ان الله صب الماء من السماء صبا ثم شق الارض بجذر النبات ، شقه شقا فأنبت فيها حبا وعنبا وقضبا ·

وصب الماء فى صورة المطر حقيقة يعرفها كل انسان فى كل بيئة ، وفى أي درجة كان من درجات المعرفة والتجربة · والله الذى لا شريك له هو الذى صب الماء ، وهو الذى قدر أن يكون الماء العامل الاول فى خلق كل نبات ، ولنا عود لهذا الموضوع بعد قليل ·

ثم تاتى المرحلة التالية لصب الماء ، وهي شق الارض شقا بجذر النبات لتتكون الجذور الممتدة خلال التربة ، أو أن يشق النبت تربة الارض شقا بقدرة الله الخالق ، وينمو على وجهها ، ويمتد فى الهواء فوقها ، وربما شقت النبتة الصفراء الملتوية الهشة الارض الصلبة الجافة ، أو الصخرة العاتية نافذة الى أعلى مكونة الساق والاوراق ·

اذن على الانسان أن ينظر الى طعامه الذى به قوامه ، كيف تفضل الله به عليه فصار فى أشد الحاجة اليه ، وكيف حول الله له بعض عناصر الارض طعاما هنيا فى شكل جميل ولون جذاب ، وطعم مستساغ حلو المذاق ·

وجعل الله هذا الاصل الواحد أزواجا وأشكالا من حيث هو مأكول كالقمح والذرة والفول ، وغيرها من البقول ، أو هو فاكهة لذيذة كالعنب والنخيل ، وغير هذا كثير مما يؤكل قضبا كالقثاء

(*) القضب : الرطب أو الثمار الغضة التى يتكرر قطف أشجارها أو العلف على اختلاف الاقوال ·

(**) غلبا : كثيفة الشجر ·

(***) الاب : المرعى على أوجه الاقوال ·

(6) سورة عبس : 24 — 32

(7) تفسير الزمخشرى 4 — 220 طبعة اللحبى ، القاهرة ، 1966 م ·

والتفاح ، وهذه الحدائق الفيح الملتفة الاغصان ، وهذه السهول الخضر ٠٠ كلها متاع للانسان والانعام ٠

والنبات انما ينشأ من تراب وماء ، والله هو الذى أوجد الماء ، وأنزله من السماء بنظام وقدر موزون٠ وقد تكرر ذكر الماء كثيرا فى القرآن الكريم فى صدد الحياة والانبات قال تعالى :

« وهو الذى ارسل الرياح نشرا بين يدي رحمته ٠ حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به المـاء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ٠ والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والـذى خبـث لا يخرج الا نكدا ٠ كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » ٠ (8)

ـ « وهو الذى أرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا ٠ لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقناه انعاما واناسى كثيراً » ٠ (9)

ـ« والله الذى أرسل الرياح فتثيـر سحابا فسقناه الى بلد ميت فاحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور » ٠ (10)

ـ « الذى جعل لكم الارض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء مـاء فاخرجنا به ازواجا من نبـات شتى ٠ كلوا وارعوا انعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى » ٠ (11)

ـ « وهو الذى انزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شيء فاخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنـات مـن اعناب ، والزيتون والرمان مشتبهـا وغير متشابه ٠ انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ٠ ان فى ذلكم لآيات لقـوم يؤمنـون » ٠ (12)

ـ « هو الذى انزل من السماء مـاء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيـل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلـك لآية لقوم يتفكرون » ٠ (13)

ـ « وأنزلنا من السماء ماء بقـدر فاسكناه فى الارض وإنا على ذهاب به لقادرون ٠ فانشأنا لكم به جنات مـن نخيل واعناب لكم فيها فواكه كثيـرة ومنها تاكلون ، وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين» ٠ (14)

---

(8) سورة الاعراف : 57 ـ 58
(9) سورة الفرقان : 48 ـ 49
(10) سورة فاطر : 9
(11) سورة طـه : 53 ـ 55
(12) سورة الانعـام : 99
(13) سورة النحل : 10 ـ 11
(14) سورة المؤمنون : 18 ـ 20

ـ « **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان اللــــه لطيف خبير** » • (15)

ان الله هو الذى يرسل الرياح مبشرات برحمته • والرياح تهب حاملة للسحاب وفق النواميس الكونية التى أودعهـــا الله هذا الكون ••• يصيب بها مـــن يشاء من عباده ويصرفها عمن يشــاء من عباده ، فاذا أنزل الماء منها عـلى بلد ميت أحياها بأمـره جـل جلالــه وأخرج الله به من كل الثمرات رزقـــا لكم ، ومتاعا الى حين •••

« ودور الماء الظاهر فى انبات كـل شىء دور واضــــح يعلمــه الـبدائى والمتحضر ويعرفه الجاهل والعالم ••• ولكن دور الماء فى الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذى يخاطب به القرآن الناس عامة • فقد شارك الماء ابتداء ـ بتقدير الله ـ فى جعل تربـة الارض السطحية صالحة للانبات (اذا صحت النظريات التى تفترض أن سطح الارض كان فى فترة ملتهبا ، ثم صلبا لا توجد فيه التربة التى تنبت الزرع ، ثم يتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها الى تربة لينة) (*) ثم ظـــل الماء يشارك فى اخصاب هذه التربة ، وذلك باسقاط « النتروجين ـ الازوت » من الجو كلما أبرق فاستخلصت الشرارة الكهربائية التى تقع فى الجو ، النتروجين الصالح للذوبان فى الماء ويسقط مـــع المطر ، ليعيد الخصوبة الى الارض •• وهو السماد الذى قلد الانسان القوانين الكونية فى صنعه الآن بنفس الطريقة ! وهو المادة التى يخلو وجه الارض من النبات لو نفذت من التربة ! » • (16)

والآيات الكريمة السابقة من سور طـــه والانعـــام والزمـــر والنحـــل والمؤمنون ••• وغيرها تشير الى كثير من خصائص النبات فالآية الكريمة من سورة الانعام توضح معنى علميا • (وهو أن الماء ينبت البذور فتخرج أجنة النبات من دور الركود وتخصص أجزاء منه للاوراق فى انتاج المادة الخضراء وهي اللازمة لتكوين المادة الغذائية داخل عروق فتتكون البذور والثمار) • (17)

والنبات كما بينـا يبـدأ حياتـه فى الغالب بذرة أو نواة توضع فى الارض وتسقى بالماء ، ثم تنفلق ويخرج منهـا جذير يمتد الى أسفل وسويق يمتد الى أعلى ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله : « **ثم شققنا الارض شقا** » (18) وهذا الدور من حياة النبات يمكن أن

---

(15) سورة الحـج : 23

(*) انظر العلم يدعو للايمان ص 76 ، 40 كريسى موريسون ، ترجمة محمود الفلكى ، النهضة المصرية بالقاهرة ط 6 ، 1971 م •

(16) فى ظلال القرآن 3 ـ 324

(17) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص 189 طبعة القاهرة ، 1975 م •

(18) سورة عبس : 26

يسمى دور الانبات وفيه تنشق الارض عن النبتة الصغيرة ذات الورقتين الخضراوين ، وفيه لا تأخذ البذرة أو النواة من خارج الارض الا الماء والاكسجين ، أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق والورقتين فتستمد مما أودعه الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدرها الله بحيث تكفي لتكوين تلك الاعضاء · وعلى الجذير والورقتين يتوقف غذاء النبات بعد ذلك · فالجذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة فى الارض ، والوريقات الخضر تقوم بعمليتى التنفس والتمثيل الخضرى · (19)

« وتعرف هذه العملية (بالتمثيل الكربونى) · يدخل ثانى أكسيد الكربون من الجو الى النبات عن طريق الثغور، فيقابل المادة الخضراء والماء ، وتتكون من الكربون مواد الغذاء بفعل الحرارة والضوء ، أما طريقة تكوين هذه المواد من غاز ثانى أكسيد الكربون ، فهي عملية كيماوية معقدة ، لم يقل العلم عنها الا أن وجود المادة الخضراء والماء والحرارة ، ينتج عنها تغييرات تنتهى بتكوين المواد الغذائية ، ولا يتم الا فى الضوء ، ولذا فهي تسمى أيضا « بالتمثيل الضوئى » · ويقرر العلم ان هذه العملية هي أصعب وأعجب عملية تقوم بها الحياة ولا يمكن لأي تركيبات أو أجهزة أن تقوم بمثل ما تقوم به ورقة خضراء فى أى نبات » · (20)

والمادة الخضراء التى ورد ذكرها فى الشرح الآنف الذكر هي ما أشارت اليه الآية الكريمة بكلمة « **خضرا** » واخراج هذا (الخضر) أى المادة الخضراء يأتى بعد اخراج النبات من الماء ، واذا تابعنا عملية خلق النبات حسب تسلسلها فى آية الانعام ــ 99 وجدناها موضحة بعوامل خلق ثلاثة ، وهي كما يأتى :

1 ــ عامل الخلق الاول لكل النبات هو الماء :

(وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء)

2 ــ عامل الخلق الثانى : هو المادة الخضراء التى تشير اليها الآية بكلمة (خضرا) (فأخرجنا منه خضرا) ·

3 ــ عامل الخلق الثالث : وهو اخراج الحب والثمر المتباين والمختلف حجما وشكلا ، بين قمح ورمان وزيتون ·· الخ قال تعالى : « **نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه**» (21)

(19) الاسلام فى عصر العلم ص 356 ــ 357 بتصرف ــ محمد أحمد الغمراوى ، ط 1 ، القاهرة ، دار الانسان ، 1973 م ·
(20) الله والعلم الحديث ص 754 ، عبد الرزاق نوفل ، الناشرون العرب ، القاهرة ، 1971 م ·
(21) سورة الانعام : 99

والحب المتراكم كالسنابل وأمثالها ، والقنوان جمع قنوة وهو الفرع الصغير وفي النخلة هو العذق الذي يحمل الثمر . ولفظة (قنوان) ووصفها (دانية) يشتركان في القاء ظل لطيف أليف . وظل المشهد كله ظل وديع حبيب .. « وجنات من أعناب » .. « والزيتون والرمان » .. هذا النبات كله بفصائله وسلالاته - (مشتبها وغير متشابه) - أي (مشتبها في الخلق مختلفا في الطعام) (22) أو (بعضه متشابها وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم) (23) « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه » ... انظروا بالحس البصير ، والقلب اليقظ .. انظروا اليه في ازدهاره ، وازدهائه عند كمال نضجه . انظروا اليه واستمتعوا بجماله .. لا يقول هنا ، كلوا من ثمره اذا أثمر ، ولكن يقول : « انظروا الى ثمره وينعه » ، لان المجال هنا جمال ومتاع ، كما انه مجال تدبر في آيات الله ، وبدائع صنعته في مجال الحياة . (24)

والآية الكريمة من سورة الزمر (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فسلكه ... الآية (2) - توجه الانظار للتأمل والتدبر ، في ظاهرة تتكرر في أنحاء الارض، حتى لتذهب بجدتها وما فيها من عجائب في كل خطوة من خطواتها ... فهذا الماء النازل من السماء ... ما هو وكيف نزل ؟ اننا نمر بهذه الخارقة سراعا لطول الالفة وطول التكرار . ان خلق الماء في ذاته خارقة . ومهما عرفنا أنه ينشأ من اتاحد ذرتي ايدروجين بذرة أكسوجين تحت ظروف معينة ، فان هذه المعرفة خليقة أن توقظ قلوبنا الى رؤية يد الله التي صاغت هذا الكون بحيث يوجد الايدروجين ويوجد الآكسوجين وتوجد الظروف التي تسمح باتحادهما ، وبوجود الماء من هذا الاتحاد ، ومن ثم وجود الحياة في هذه الارض .. ولولا الماء لما وجدت حياة . انها سلسلة من التدبير حتى نصل الى وجود الماء ووجود الحياة . والله من وراء هذا التدبير ، كله مما صنعت يداه .. ثم نزول هذا الماء بعد وجوده وهو الآخر خارقة جديدة ، ناشئة من قيام الارض والكون وفق نواميس قدرها الله في هذا الكون، ودبر حركتها ، ونتائجها ، فسمح بتكون الماء ونزوله . (25)

ثم تجيء الخطوة التالية لانزال الماء :

« فسلكه ينابيع في الارض »

---

(22) تفسير الطبري : 11 - 578 تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف .
(23) تفسير الزمخشري : 2 - 40
(24) انظر منهج الفن الاسلامي محمد قطب ص 218 - دار القلم .
(25) انظر في ظلال القرآن 7 - 135 وما بعدها .

سواء فى ذلك الانهار الجارية على سطح الارض ، والانهار الجارية تحت طباقها مما يتسرب من المياه السطحية، ثم يتفجر بعد ذلك ينابيع وعيونا ، أو يتكشف آبارا · ويد الله تمسكه فلا يذهب فى الاغوار البعيدة التى لا يظهر منها أبدا !

« ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه »

والحياة النباتية التى تعقب نزول المطر وتنشأ عنه ، خارقة يقف أمامها جهد الانسان حسيرا · ورؤية النبتة الصغيرة وهي تشق حجاب الارض عنها ، وتزيح أثقال الركام من فوقها ، وتتطلع الى الفضاء والنور والحرية ، وهي تصعد فى الفضاء رويدا رويدا ··· هذه الرؤية كفيلة بأن تملأ القلب المفتوح ذكرى ، وأن تثير فيه الاحساس بالله الخالق المبدع الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى · والزرع المختلف الالوان ــ فى البقعة الواحدة ، أو النبتة الواحدة ، أو الزهرة الواحدة ــ ان هو الا معرض لابداع القدرة ، يشعر الانسان بالعجز المطلق عن الاتيان بشيء منه أصلا !

وفى ضوء هذا يتبين لنا بعض أسرار تكرار القرآن الكريم لحديث الماء ونزوله، وما يترتب عليه من اثر عميق فى الحياة بما ينبت من الزروع والحدائق ، المختلفة الانواع والاشكال · (26)

ومن مشاهد الارض أننا نراها ساكنة لا حركة فيها ولا حياة ، فاذا نزل عليها الماء اهتزت وانتفخت ، وانبتت من كل زوج بهيج قال تعالى :

« وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج » · (27)

وقال أيضا : « ومن آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى احياها لمحيي الموتى انه على كل شيء قدير » · (28)

واهتزاز الارض تحركها بالنبات ، واحياؤها بعد موتها ، ومعنى ربت أى ارتفعت لما سكن فيها من الثرى ثم أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح والاشكال والمنافع · (29)

(والخشوع : التذلل والتقاصر ، فاستعير لحال الارض اذا كانت قحطة لا نبات فيها كما وصفها بالهمود فى قوله تعالى ــ وترى الارض هامدة ــ وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ اذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال فى زيه ، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال فى الاطمار الرثة · وقرىء وربات : أي ارتفعت لان النبت اذا هم أن يظهر ارتفعت له الارض) · (30)

---

(26) أنظر فى هذا البحث ص 5 ·
(27) سورة الحج : 5
(28) سورة فصلت : 39
(29) انظر تفسير ابن كثير 3 ــ 208 و 4 ــ 102 ·
(30) تفسير الزمخشرى 3 ــ 454

وهكذا وصف الله تعالى الارض بأنها ميتة ، وأنه يحييها بالماء الذى يجعلها تهتز وتربو · أى تتحرك وتنمو ، وهذه الحركة العجيبة سجلها القرآن الكريم قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الاعوام ، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتربو ثم تحيا بما تنبت من كل زوج بهيج · وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد السكون ، وتنتفض بعد الهمود ·

وهكذا نجد ان القرآن قد عبر عن الارض قبل نزول الماء ، وقبل تفتحها بالنبات ، مرة بأنها (هامدة) ومرة بأنها (خاشعة) والتعبيران يوحيان بالسكون الذى ما يلبث أن يهتز ويتحرك اذا ابتلت الارض بالماء ، وبذلك ترتسم لنا معالم الصورة ، ويبدو لنا ما خفى عن ادراكنا للحركة الدائبة تحت سطح الارض ، فنعلم أن كل المراعى الخضر الزاهرة الوادعة فى مظهرها ، انما تخفى تحتها حياة وحركة ونموا بما يمتد فى باطن الارض من جذور وبما ينبت فوقها من نبات يتغذى منها ويعلو ويثمر ، قال تعالى : « وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون · وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون · ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم افلا يشكرون » · (31)

وقال تعالى : « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون » · (32)

فالماء حين يصيب الارض ، يبعث فيها الخصب ، وتموج صفحتها بالحياة المنبثقة النامية ·· ورؤية الزرع النامى ، وتفتح الزهر ، ونضج الثمر اليانع ، وتزين الارض بمختلف الالوان مشاهد تلفت العين والقلب الى القدرة المبدعة ففى كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج الى وجه الحياة ، وفى كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفى أجلها فتتحول الى هشيم أو حطام · ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والانبات ، ويوجد الغاز الذى ينطلق فى الجو أو تتغذى به التربة ، وتستعد للاخصاب · وفى كل لحظة تدب الحياة فى نبات أو حيوان ، ويتم التحول من خاصية الى أخرى (33) وانها لمعجزة لا يدرى سرها أحد ، ولا يملك صنعها الا خالق الاكوان ، ولذا حرص القرآن على توجيه القلب البشرى لهذا المشهد المتكرر : « ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي · ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ » · (34)

(31) سورة يس : 33 — 35

(32) سورة الروم : 19

(33) انظر فى ظلال القرآن 6 — 446 وما بعدها ·

(34) سورة الانعام : 95 ·

فهذا اثبات قاطع ان الارض الميتة تخرج النبات الحي يتغذى وينمو ويثمر ويموت · جاء فى الكشاف : « يخرج الحي من الميت » : أي الحيوان والنامي من النطف والبيض والحب والنوى « ومخرج » هذه الاشياء الميتة من الحيوان والنامى · فان قلت . كيف قال مخرج الميت من الحي بلفظ اسم الفاعل بعد قوله يخرج الحي من الميت ؟ قلت : عطفه على فالق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس اخراج الحي من الميت لان النامى فى حكم الحيوان ، الا ترى الى قوله ـ يحيى الارض بعد موتها ـ « ذلكم الله » أي ذلكم المحيى والمميت هو الله الذى تحق له الربوبية » · (35)

فالحب الساكن ، والنوى الهامد وهو يفلق باطن الارض ليخرج منه نبات حي، مشهد يتكرر فى كل لحظة ··· وفى الشجرة الصاعدة والنبتة النامية تعبير عن معجزة الحياة نشأة وحركة ، وطي لسر مكنون لا يعلم حقيقته الا الله ··· وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الاشياء وأشكالها ، وبعد ما درست من خصائصها وأطوارها ··· تقف أمام السر المغيب كما وقف الانسان الاول ، تدرك الوظيفة والمظهر ، وتجهل المصدر والجوهر ، والحياة ماضية فى طريقها · والمعجزة تقع فى كل لحظة !! ·

ولعل فى تنويع نسق التعبير بين (يخرج) و (مخرج) ايقاظا للحس حتى يلتفت للقدرة الباهرة وهو يعرض آيات الله فى الكون ·

☆ ☆ ☆

قال تعالى وهو أصدق القائلين : **« وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرآت جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون · وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »** · (36)

الآيات الكريمة هنا تطوف بالقلب البشرى فى مجالات وآفاق متعددة ، وتعرض من مشاهد الكون : الارض الممدودة ، وما فيها من رواس ثابتة ، وأنهار جارية ، والليل اذ يغشاه النهار، والجنات والزرع والنخيل فى مختلف الاشكال والطعوم والالوان ، ينبت فى قطع من الارض متجاورات ويسقى بماء واحد ·

وأول المشاهد المعروضة هذه الارض المبسوطة على امتداد البصر · ولا يهم ما يكون شكلها الكلى فى حقيقته اذ أن مد الارض وبسطها ليس دليلا على عدم كرويتها اذ هي مبسوطة ممدودة فى

---

(35) تفسير الزمخشرى 2 ـ 37 ·
(36) سورة الرعد : 3 ـ 4

نظرنا لنعيش عليها ، ويقابل مد الارض ارساء الجبال مع تحركها ودورانها ·

وعلى هذه الارض معارض مختلفة ، تتفاوت فيها أنظار الناظرين : بين النظرة العابرة التى لا ترى الا الآفاق الفسيحة الممتدة ، والنظرة المتأملة التى تنفذ الى تدبر عظمة الخالق ، وجلال علمه ، وروعة حكمته ، مما يملأ القلب خشوعا وولاء ، وحمدا للخلاق العظيم ·· رب العالمين ··

وقوله (جعل فيها زوجين اثنين) أي : « خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين حين مدها ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت · وقيل أراد بالزوجين الاسود والابيض والحلو والحامض والصغير والكبير وما أشبه ذلك من الاصناف المختلفة » · (37)

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن المقصود بالزوج فى مثل قوله تعالى : « **وأنبتت من كل زوج بهيج** » (38) وقوله : « **أو لم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم** » (39) ــ الزوج هو النوع ، أي أنبتت من كل نوع بهيج أو كريم ، وعندما يكون الغرض من الزوج ، الذكر والانثى يقول تعالى (زوجين) لان الزوجين هما النوعان ، نوع الذكر ونوع الانثى ، ومثله قوله تعالى : « **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** » · (40)

وقد دل علم الحياة على أن الكائنات الحية تنقسم الى ذكر وأنثى سواء فى الحيوان والنبات ، وقد يكون الذكر والانثى فى الزهرة الواحدة ، أو الشجرة الواحدة أو فى شجيرات ويتم التلقيح اما بالريح أو الطير ، وسبحان الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ·

وخلق الازواج ظاهرة مطردة فى الاحياء كلها ، النبات فيها كالانسان · ومثل ذلك غيرهما ·· قال تعالى : « **سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** » · (41)

فنعم الخالق العظيم الذى خلق الازواج من كل شىء ··· من أنفسنا كبشر ، ومن الحيوان والطير والنبات ··· ومن الاشياء التى تحيط بنا من ماء وهواء وسحاب ومن الذرات التى لا نراها بالعين المجردة ··· وانها لوحدة تشى بوحدة اليد المبدعة · **التى توجد قاعدة** التكوين مع اختلاف الاشكال والاحجام والانواع والاجناس ، والخصائص والسمات ، فى هذه الاحياء التى لا يعلم علمها الا الله · وقد أصبح معلوما أن

---

(37) تفسير الزمخشرى 2 ــ 349
(38) سورة الحج : 5
(39) سورة الشعراء : 7
(40) سورة الذاريات : 49
(41) سورة يس : 36

الهواء مكون من التزاوج بين الاكسجين وأكسيد الكربون · وان الماء مكون من التزاوج بين الهدروجين والاكسجين · وان دم الانسان مكون من التزاوج بين الكريات الحمر والكريات البيض ··· وان الذرة ـ أصغر ما عرف من أجـزاء المادة ـ مؤلفة من زوجين مختلفيـــن من الاشعاع الكهربى ، سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان ! كذلـــك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية · تتآلـف من نجمين مرتبطين يشد كلاهما الآخر ، ويدوران فى مدار واحد كانما يوقعان على نغمة رتيبة · (42)

فالتزاوج بين كل شىء أمر نوه عنه القرآن قبل أن تبرهن عنه القرائن العلمية الحديثة بقرون بعيدة ·

وكثيرا ما يتساءل الانسان عن السبب الذى من أجله خلق الله حشرات غريبة، وعن فوائدها ·· الا أنه سيقف مشدوها كما وقف أحد العلماء عندما عرف دور هذه الحشرات فى نقل بذور اللقـــاح لاتمام عملية التزاوج فى النبات فاقـر بأن هذا العمل من معجزات الله · (43)

وقـولـــه (وفى الارض قطـــع متجاورات ···) أي (بقاع مختلفـة مع كونها متجاورة متلاصقة طيبـــة الى سبخة ، وكريمة الى زهيدة ، وصلبـة الى رخوة وصالحة للزرع لا للشجـــر الى أخرى عكسها ، مع انتظامها جميعا فى جنس الارضية ، وذلك دليل على قادر مريد موقع لافعاله على وجه دون وجه وكذلك الزروع والكروم والنخيـل النابتة فى هذه القطع مختلفة الاجناس والانواع وهى تسقى بمـــاء واحـــد ، وتراها متغايرة الثمـر فى الاشكـــال والالوان والطعوم والروائح ، متفاضلة فيها · (44)

فهذه المشاهـد الارضيـــة معارض متعددة ، تثير فى الانسان رغبة التطلع اليها بحواسه جميعا ··· برغم تأكيد النص على تحبب التطلع فى ملكـوت الله ، والتفكير فيما أبدع وصور ، ولن يخطىء العقل طريقه الى الله اذا هـــو وقف متجردا بين يدى تلك الآيات ··· ففى الارض قطع متجاورات ، ولكنهـا غير متماثلة ·· منها الطيـب الخصـب ومنها السبخ النكد · ومنها المقفـــر الجدب ، ومنها الصلد ، وكل واحد من هذه وتلك انـــواع وصنـــوف وألـــوان ودرجات · منها العامر والغامر ، ومنها المزروع الحى والمهمل الميت·ومنها الريان والعطشان · ومنها ومنها ومنها ··· وهي كلهـــا فى الارض متجـاورات · ولكنها ليست متساوية فى الخصـــب

---

(42) انظر : مع الله فى السماء ص 174 · أحمد زكي ، دار الهلال ، القاهرة ·
(43) انظر : الله والعلم الحديث ص 99
(44) تفسير الزمخشرى 2 ـ 349

او الخواص ٠٠ ثم قال تعالى : (وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ٠ ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) ٠ ولقد شاءت قدرة الله أن تفلح هذه القطع من الارض وتزرع وتعمر بوساطة الانسان، حتى يتالف منها ثلاثة أنواع من النبات : الكرم المتسلق من العنب [illegible] تشاكله ، والنخل ... والزرع من بقول وحبوب وخضروات متشابهة وغير متشابهة ، حيث تكون كلها مجتمعة حدائق كالجنات بما فيها من نبات يسبح باسم الله العلي القدير ٠ وذلك النخيل : صنوان وغير صنوان ، منه ما هو عود واحد ، منه ما هو عودان او اكثر فى اصل واحد ، وكله (يسقى بماء احد) والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعوم والاحجام ، والألوان، والخواص الاخرى ، ومنها ما هو مختلف كل الاختلاف فى نواح عديدة وصفات متعددة ، وهنا تتجلى عظمة الخالق فى جعل حبة الحنظل اذا وضعت فى جوف الارض تطلب من معادنها ما ينمى مرارتها ، وجعل حبة البطيخ تأخذ من بين عناصر الارض ما ينمى حلاوتها ٠ وكلتاهما من تربة واحدة وهما تسقيان بماء واحد ٠ (45)

هذه الجولة فى مشاهد الكون تعرض مشاهد عدة تشكل لوحة فنية رائعة ، تصور أرضا مبسوطة ، وجبالا راسية، وأنهارا جارية ، وأزواجا من الثمرات، وقطعا من الارض متجاورات ومتباينات، ونخيلا صنوانا وغير صنوان ، وثمارا مختلفة الطعوم والزروع والنخيل والاعناب ٠٠ كلها توقظ القلب ، وتنبه العقل ، وتؤكد روعة التدبير ، وقدرة الخالق سبحانه ، الذى أخرج كل نبت فى هذه الارض ، وفى خلقه دقة واحكام وتقدير لا يزيد أو ينقص ، وقد وصفه القرآن بأنه (موزون) ، وفيه دليل على التناسق فى الخلق الدال على الحكمة الالهية البالغة ، والقدرة العجيبة ، التى تعين كل شىء بمقدار ، وتزن كل موجود بميزان ، بحيث تتحقق فيه المنفعة التى أرادها الله لعباده ٠ قال تعالى :

« والارض مددناها والقينا فى رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون ٠ وجعلنا لكم فيها معايش من لستم له برازقين » ٠ (46)

وقوله « موزون » وزن بميزان الحكمة، وقدر بمقدار يقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان ، (47) ولذلك اتبعه بقوله : « وجعلنا لكم فيها معايش » ، لان ذلك يحسب بحسب الانتفاع بعينه ٠

---

(45) انظر أيات الله فى الآفاق ص 73 وما بعدها ٠
(46) سورة الحجر : 19 ـ 20
(47) تفسير الزمخشرى 2 ـ 389

وقال الراغب الاصفهانى : « وقيل بل ذلك اشارة الى كل ما أوجده الله تعالى ، وأنه خلقه باعتدال ، كما قال « **انا كل شيء خلقناه بقدر** » (48) .

والحقيقة هي أننا نجد قرينة دالة على معنى التقدير بمقدار معلوم فى كلمة « موزون » هذه القرينة نفهمها من سياق الآيات الكريمة بعد ذلك وهي قوله « **وان من شىء الا عندنا خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم** » (49) فالآية ظاهرة الدلالة على أن ما يتفضل الله به انما هو وليد الحكمة فى الخلق والتقدير والاتزان ، فليس من شىء ينزل جزافا وليس من شىء يتم اعتباطا .

☆ ☆ ☆

ولعلنا بعد هذه الجولة فى دنيا النبات ومملكته ، نقف عاجزين عن الاحاطة بمشاهده المتعددة ، ومروجه الخضر ، التى تأخذ بالقلوب والابصار لجمالها ... انه عالم مترامى الاطراف ، غني بشتى أنواع النبات والاشجار وفصائل النبات والازهار ووافر الثمرات والغلات ، التى يتغذى عليها الملايين من ذرية آدم وحواء وما لا ينحصر من المخلوقات المتنوعة التى تعيش وتدب فى الارض أو تسبح فى الفضاء أو تغوص فى قاع الماء .

رأينا الحب والنوى يحفظ الحياة داخل البذرة ، ثم ينقل هذه الحياة الى جذيرها وسويقها .

ورأينا فى عملية الانبات تلك العشب والشعيرات الهينة اللينة تخترق الارض الصلبة وتشق طريقها الصعب الوعر باحثة عن غذائها وعامل نمائها ، فتعطى الثمر الكبير الجحم والوزن المتفاوت والثمر المختلف شكلا وملمسا ولونا ورائحة وطعما ومذاقا ، كلها بديع التنسيق التكوين ، وهي تسقى بماء واحد وتتغذى من تربة واحدة « **وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله بل هم قوم يعدلون** » . (50)

ورأينا فى النبت الموزون مع الآختلاف والتعدد دقة الخلق واحكام التقدير « **والارض مددناها ، وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون** » . (51)

نعم لقد رأينا جملة النبات تتفاوت فى تركيبها ، وقدراتها ، غير أننا قد رأينا فيها جميعا قدرة الخالق ، فسبحان من أوجد الوجود ونظمه ، وخلق كل شيء وألهمه ، وهدى كل حي وعلمه ! .

---

(48) معجم مفردات ألفاظ القرآن مادة وزن .
(49) سورة الحجر : 21 .
(50) سورة النمل) 60
(51) سورة الحجر : 19

مميــزات التربيــة الاسلاميــة

الاستاذ محمد ناصر بوحجار

بسم الله الرحمـن الرحيـم

يقول الشيخ ابو الحسن الندوى :

« التربية وسيلة مهذبة راقية لدعـم العقيدة ، ونقلها سليمة الى الاجيـال القادمة ، وأفضل تفسير لنظام التربية : انها السعي الحثيث المتواصل من قبل الآباء والمربين لتنشئة أبنائهم علـى الايمان والعقيدة التى يؤمنون بهـا ، والنظرة التى ينظرون الى الحياة والكون من خلالها ، ليكونوا ورثة صالحيـن للتراث الذى ورثه هؤلاء الآباء عـن الاجداد ، مع الصلاحية الكافية للنهوض والتطور والتقدم » · (1)

ويقول الاستاذ سليمان الشواشى :

« ان النظام التربوى لاى أمة من الامم مـرآة عاكسـة للاهـداف التى تسعى لتحقيقها ، والقيم التى تؤمـن بهـا ، والمثل العليا التى تصبو اليها ، وبالتالى فمناهج التربية فى أي بلد من البلدان تعطينا فكرة واضحة عن حياة الامة ، وأسلوب عيشها · وهي فى النهايـة تبرز لنا بوضوح مقومات حضارتنـا وخصائصها التى انفردت بها » · (2)

ان التربية هي وسيلة راقية لغرس العقيدة فى النفوس وتثبيت الايمان فى القلوب ، وامتلاك زمام الامور ، وهي السبيل الوحيد لفرض الوجود، وانتقال التجارب وضمان الاستمرارية ·

والتربية ووسائلـها هي المفاتيـح التى تفتح بها القلوب والنفوس ، مـن أمتلك هذه المفاتيح استطاع أن ينتصر، وتمكن من نشر أفكاره ، وبث وعيه ·

(1) مجلة منار الاسلام العدد الثانى ، السنة الثالثة · ص 93 ·
(2) مجلة العلم والتعليم العدد 23 ، السنة الثالثة · ص 24 ·

وان النظام التربوى لأي امة هو الذى يعكس آمالها والاهداف التى تبغى الوصول اليها ، والتربية تجعل الفرد ينظر الى الكون والاشياء من حوله النظرة التى تتفق والمبادىء التى يصدر عنها ٠

اذا كانت التربية تحمل هذه المفاهيم، وتعنى هذه الدلالات التى اشار اليهـا بعض المفكرين ، فلنحاول ان نتعرف على خصائص ومميزات التربية الاسلامية ٠ هذه التربية التى انتجت رجالا ، وانشأت حضارة ، وأنارت الدروب للسالكين ، وبينت النهج القويم الذى يضمن النجـاة والسلامة بعدما ساد العالم ظلم واستعباد وفـــوضى ٠

هذه التربية التى استطاعت أن تكون الانسان الصالح بدل المواطن الصالح ـ كما يقول الاستاذ محمد قطب ـ بعد ما ثبتت فيه دعائم الايمان ، وأوجدت فيه ارادة صلبة متماسكة بها يستطيــع الصمود أمام الاعاصير المهلكة والتيارات الجارفة ٠ وبعد ما حملته على التحلى بالاخلاق الفاضلة ٠ هذه التربية التى انشأت مجتمعا متضامنــا متعاونــــا متآزرا ، يسود فيه العدل والانصاف ، وتغشاه الفضيلة وحب الخير ٠٠٠

نحاول ان نتعرف على مميــــزات التربية الاسلامية حتى نعـرف ما اذا كانت التربية التى نمارسها فى مدارسنا وبيوتنا وفى المؤسسات ، وعلى مستوى اجهزة الاعلام ، ودور النشر وغيرها ، تتطابق مع هذه الخصائص أم تخالفها ، حتى تضمن السير فى النهج الــذى يوصلنا الى الهدف المنشود ٠٠٠

وأريد أن أشير منذ البداية ، الى أن هذه الخصائص التى سأذكرها ، ليست هي كل الخصائص التى تمتاز بهــا التربية الاسلامية ، وهذه المميزات هي ما أشار اليها بعض المفكرين ، وليس لنا فيها سوى فضل الجمع والتنسيق فقــط ٠

مميزات التربية الاسلامية :

1) عنيت بطاقة الانسان الروحية ، ففجرتها ، فمنحت بذلك الفرصة للانسان المسلم ، كي يتصل بربه خالق الكون ويتعرف على حقيقة الخلود الابدى فى الآخرة ، ويعى حقيقة الوجود الأزلي ، وجعلته يسيطر على نفسه ، وعلى ما خلق الله وساعدته على التحرر من قيود المادة ٠ هذه الطاقة المتفجرة أثبتت وجوده الانسانى فى هذه الحياة رغــم كل الضغوط ، وكما قال احد المربين ، لقد استطاعت التربــيــة الاسلامــيــة أن تفجر طاقة الانسان الروحية ، وهــذا اهم وأخطر من تفجير الطاقة المادية ٠ (3)

2) عنيت بطاقة الإنسان العقلية ، فحررت عقل الانسان المسلم من السحــر والخرافة والشعوذة ، وهذا ما لمسناه فى بداية الدعوة الاسلامية من تحريــم

(3) مجلة منار الاسلام ، العدد الثانى ، السنة الثالثة ٠ ص 94 ٠

عبادة الاصنام والاوثان والاستقسام بالازلام ، وزجر الطير ، والاستماع الى هراء السحرة وتعاويذهم ·

ذهبت التربية الاسلامية الى أبعد من ذلك حين أطلقت العنان للعقل البشرى كي يتدبر في ايات الله ومخلوقاته ليستخرج مكنونات أسرار الخلق ، ويقف على حكم الله الكثيرة في خلقه ، وترديد مثل هذا في القرآن كثيرا ، لعلكم تعقلون ، لعلكم تفقهون ، لعلكم تتفكرون ، « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا ، وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا ··· » (4)

3) عنيت بالتربية الجسمية ، فالمسلم القوي خير وأحب الى الله من المسلم الضعيف ·

هكذا اقبل المسلمون منذ اول عهدهم على تدريب أولادهم على السباحة والرماية ، وركوب الخيل ورفع الاثقال، وعلى تحمل المشاق ، والتعود على خشونة العيش ، كما كانت التربية الاسلامية تلزم المسلمين باتباع قواعد النظافة والنظام في الطعام والملبس والمنام الخ ···

بهذا التوجيه السديد استطاع المسلمون أن يبزوا غيرهم في صناعة الاجسام ، واستطاعوا بعدها أن يقهروا العتاة ، وينتصروا على أعدائهم في أغلب المعارك التى خاضوها مع قلة عددهم وعدتهم حتى وقف أعداؤهم مندهشين متسائلين عن مصدر هذه القوة وهذا البأس ، لكن سرعان ما زالت حيرتهم ودهشتهم حين عرفوا انها التربية الاسلامية احسنت واكملت بناء وتنشئة الانسان السوي والانسان سعد الدين ·

4) عنيت التربية الاسلامية بالتوازن في تكوين الانسان المسلم ، هادفة الى تربية متكاملة ، لا يطغى فيها جانب على آخر · حاولت تربية الجسم والروح معا ·

وازنت بين متطلبات الانسان الدنيوية والأخروية في آن واحد « وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » · (5)

وازنت بين خوفه ورجائه « يرجون رحمته ويخافون عذابه » · (6)

وازنت بين خوفه ورجائه «يرجون هونا ما عسى ان يكون بغضك يوما ما ،

---

(4) سورة آل عمران ، آية 191 ·
(5) سورة القصص ، آية 77 ·
(6) سورة الاسراء · آية 57 ·

وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » ٠

وازنت بين فرحه وحزنه : « **لكيلا لا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** » ٠ (7)

يقول الاستاذ عدنان سعد الدين : « هذا التوازن الدقيق الذى تهدف التربية الاسلامية الى ملاحظته ومراعاته فى التعليم والتوجيه ، وتكوين الشخصية المسلمة السوية ، بحيث ينتفى هذا الخلل الذى ينتاب كثيرا من الناس فى طغيان جانب فى حياتهم على حساب الجانب الآخر » ٠ (8)

5) عنيت التربية الاسلامية بتنمية الملكات والفضائل ، يقول الشيخ البشير الابراهيمى : « يعتبر المسلم تلميذا ملازما فى مدرسة الحياة ، دائما فيها، دائبا عليها ، يتلقى ما تقتضيه طبيعته من نقص وكمال ، وما تقتضيه طبيعتها من خير وشر ، ومن ثم فان الاسلام يأخذه أخذ المربى فى مزيج من الرفق لا يخرج من امتحان فيها الا ليدخل فى امتحان آخر وفى هذه الامتحانات من الفوائد ما لا يوجد فى الامتحانات المعروفة ٠٠٠ » ٠ (9)

هذه الامتحانات تظهر فى الشعائر التى فرضها الله على عبده ، وفى التكاليف التى يظنها الجاهل لحكمة الخالق ضروبا من التعبد الفارغ الذى لا طائل وراءه ، ولكنها فى حقيقة أمرها وسائل لتنمية ملكة الاقدام على الخير والرحمة والاقلاع عن الشر وترويض النفس على الفضائل الشاقة لتتعود على الصبر والثبات والعزم والحزم والنظام والتحرر من استعباد الشهوات الحيوانية ٠ ولناخذ كمثال على ذلك فريضة الصيام ٠

يقول الشيخ البشير الابراهيمى : « صوم رمضان محك للارادات النفسية، وقمع للشهوات الجسمية ورمز للتعبد فى صورته العليا ، ورياضة شاقة على هجر اللذائذ والطيبات ، وتدريب منظم على حمل المكروه من جوع وعطش ، وسكوت ، ودرس مفيد فى سياسة المرء لنفسه ، وتحكمه فى أهوائها وضبطه بالجهد لنوازع الهزل، والعبث فيها ، وتربية عملية لخلق الرحمة بالعاجز المعدم ، فلولا الصوم لما ذاق الاغنياء الواجدون ألم الجوع ، ولما تصوروا ما يفعله الجوع بالجائعين ٠٠٠ فلو أن جائعا ظل وبات على الطوى خمسا ووقف خمسا أخرى يصور للاغنياء ما فعل الجوع بأمعائه وأعصابه ، وكانت حاله أبلغ فى التعبير من مقاله ، ما بلغ فى التاثير ما تبلغه جوعة واحدة فى نفس غني مترف ، لذلك كان نبينا امام الانبياء وسيد الحكماء أجود ما يكون فى رمضان» (10) ٠

---

(7) سورة الحديد ، آية 22 ٠

(8) مجلة منار الاسلام ، العدد الثانى ، السنة الثالثة ، ص 97 ٠

(9) جريدة الشعب ، عدد 1459 ٠

(10) جريدة الشعب ، عدد 1459 ٠

العالم الاسلامى
بين
مواجهة التحدى والخلق الحضارى

عبد اللطيف عبادة

من قوانين العمران العزيزة على ابن خلدون « ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده» وساد هذا المنطق الجدلى العالم الاسلامى مدة طويلة من تاريخه المعاصر فتشبه بالغرب فى كيفيات التفكير وكيفيات العمل وفى النظم السياسية . غير أن تعمق الوعي السياسى والايديولوجى جعل العالم الاسلامى يواجه التحدى الغربى الذى لا يجده على الصعيد المادى والسياسى فحسب بل يجده على الصعيد العقائدى . واذا اقتضت المواجهة شيئا فانما تقتضى خلق وابداع كيفيات تفكير وكيفيات عمل نوعية نابعة من شخصيته وأصالته. ذلك أن حركة المواجهة ليست حركة سلبية بحتة ترفض ما يرد الى العالم الاسلامى من الغرب بل هي تفاعل أخذ وعطاء ونقد بناء يمهد السبيل الى ايجاد أسلوب حياتى نابع من الشخصية والتاريخ الخاصين بالعالم الاسلامى وهي بالاضافة الى ذلك نقد ذاتى اذ البناء يقتضى تقوية الامكانيات الذاتية وصقلها وتنقيتها من الشوائب وابرازها من حالة الكمون الى حالة الفعل .

بدأ العالم الاسلامى فى مواجهة التحدى الحضارى الغربى منذ بزوغ حركة النهضة فى رقعته . وكانت بداية المواجهة فى شكل نقد ذاتى اذ تقتضى حكمة الله العلي القدير أنه « لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وكان منطلق المواجهة أيضا من التشخيص الحقيقى للداء العضال الذى يعانى منه العالم الاسلامى والذى ينخر جسمه فيصيبه الوهن والضعف .

وأحرى بنا أن نقارن العالم الاسلامى فى بداية نهضته ببوادر النهضة فى العالم المسيحى خلال العصور الوسطى على ألا يعزب عن بالنا أثناء اجرائنا لهذه المقارنة الابعاد الحالية للتحدى

التى لا يمكن أن نقول عنها الا أنها عملاقة ، والصفات المميزة لكل من الايديولوجية المسيحية والعقيدة الاسلامية ٠

كما انه يجدر بنا أن نعترف بوجود فوارق بين مختلف الاقطار الاسلامية أن فى ميدان النقد الذاتى أو فى ميدان تشخيص الداء ووصف أعراضه أو فى ميدان مواجهة التحدى أو فى ميدان الخلق الحضارى ٠ فحركة النهضة فى باكستان تختلف عن حركة النهضة فى المغرب الاسلامى ٠ واختلافهما ناتج عن اختلاف الظروف والمشاكل ٠ غير أن هذه الفوارق ليست جوهرية الى حد يجعلنا نتكلم عن الاسلام الافريقى والاسلام الايرانى والاسلام الآسيوى كما يحلو لبعض الانثروبولوجيين من المستشرقين ٠ فالعالم الاسلامى واحد بماضيه وبمشاعره وبآماله وهو واحد فوق كل ذلك بوحدة الكتاب الذى لم يلحقه تحريف ٠ وان اختلفت التأويلات فستبقى مجرد تأويلات قد تصمد أمام التاريخ والاجيال أو لا تصمد ٠

وكان على العالم الاسلامى أن يواجه التحدى على جميع الجبهات والاصعدة وعلى وجه التحديد كان عليه أن يقف بحزم ضد الغزو العسكرى والهيمنة الاقتصادية والغزو الفكرى وضد تسرب العادات والتقاليد الغربية الى المجتمع الاسلامى ، وكذا الانحلال الاخلاقى وتفسخ الاواصر العائلية ٠ كما كان لزاما عليه مواجهة مصيره بعزم لا يلين بمواجهة التخلف الاقتصادى والجهل والمرض ٠

وقد كان الغرب آنذاك يدافع عن فلسفة عرقية ورجعية مفادها أن العالم صنفان : بدائى ومتحضر ، ديكارتى الاستدلال وخاضع لذهنية ما قبل المنطق ، متحرر من ربقة التقاليد والخرافات ومتشبث بها ٠ وهم لا يقفون عند هذا الحد بل يكادون يعتقدون أن هذه الصفات جبلية لا تزول بمفعول جدلية التطور ٠ وينيطون بانفسهم مهمة تحضر هذه الاقوام « المتوحشة » ٠

والتحضير فى نظرهم غاية نبيلة ومهمة أخلاقية تبرر جميع الوسائل اللاأخلاقية التى تبذل لاجل تحقيقه سواء تمثلت فى احتلال الوطن بالقوة أو فى نهب الخيرات أو فى تقويض مقومات شخصية العالم الاسلامى وهويته ٠

فى حين أن العالم الاسلامى انقسم فى مواجهة التحدى الحضارى الغربى شيعا وأحزابا : فمنهم دعاة التغريب ومنهم الجموديون الوثوقيون ومنهم دعاة الاصلاح وقادة الثورات ٠ والحق يقال ان كلا من دعاة التغريب والجموديين الوثوقيين يمثلون مواقف سلبية ٠ فدعاة التغريب يرفضون الاعتراف للاسلام ومبادئه بقدرة التلاؤم مع عصرنا الحالى لذلك ينسلخون منها ويتنكرون لها ويتبنون مواقف مستوردة من المادية الجدلية أو من البراجمانية أو

من العلمانية أو من شتى الفلسفات التى لا تنسجم وتراثنا الحضارى ، ويرون أن طريق الخلاص هو طريق التقليد الاعمى للغرب وأنه أحرى بالبلدان الاسلامية أن تشارك الغرب حلو الحياة ومرها · أما الجموديون الوثوقيون فقد تشبثوا بالماضى ورفضوا التكيف مع متطلبات العصر · غير أن المشبثين بالخرافات والاساطير هم أخطر أصناف الجموديين · ذلك أن الجموديين الخلص يقضون بالضرورة وفى يوم من الايام الى خلق كيفيات تفكير وعمل أصيلة ووفية لمبادىء الاسلام الحنيفة ·

وأما دعاة الاصلاح وقادة الثورات فقد عمدوا الى تغيير الواقع بطرق مختلفة · ففى حين عمد دعاة الاصلاح الى تعليم الجماهير الاسلامية روح الشريعة الاسلامية والى تزويدها بفكر نقدى يجعلها تنفض عنها غبار الجمود والخمول والتواكل والركون الى الحلول السهلة والخرافات · وعملوا أيضا على تعميق الوعي السياسى والاجتماعى والاخلاقى لدى الجماهير الاسلامية · وأزاحوا الشبهات التى أثارتها أقلام أجنبية أو اسلامية حول الرسول ـ ص ـ وصحابته وحول التاريخ والفكر الاسلاميين · وتصدوا بشجاعة لحملات التنصير والمسخ الثقافى ولحظر تعليم الاسلام واللغة التى جاء بها · غير أن الاصلاح بدوره اتخذ أشكالا وصورا اصطبغت بصبغة العصر والمصر الذى ظهر فيه · ومجمل القول أن دعاة الاصلاح ركزوا حركاتهم على التربية والتعليم والتوعية والوعظ والارشاد وكان لذلك أثره البالغ فى تنبيه الجماهير الاسلامية من غفوتها ·

أما قادة الثورات فقد قاموا بما عجز عنه رجال الاصلاح والدعوة فحققوا دعوتهم فى جزء كبير منها اذ عملوا على تحقيق الاستقلال السياسى وأقبلوا على انجاز برامج ومخططات ترمى الى الاستقلال الاقتصادى والرقى الاجتماعى · غير أن المشكلة المطروحة على الثورات التى ظهرت فى العالم الاسلامى تتمثل فى مدى تشبثها بأصالتها الاسلامية وقيمها الروحية · وقد تاهت بعض النظم السياسية فى معضلة شائكة تتمثل فى التوفيق بين النظم السياسية الوضعية وركائز السياسة الاسلامية المنصوص عليها فى القرآن والسنة النبوية على غرار حركة التوفيق بين الحكمة والشريعة التى كانت محور تفكير بعض اتباع أرسطو من فلاسفة الاسلام · وقد ادعت نظم أخرى الصفة الاسلامية غير أنها لا تعدو أن تكون سوى خليط بين الليبيرالية والاقطاعية يرتاد قادتها كباريهات الغرب ويشترون عماراته ويودعون أموالهم الخاصة فى بنوكه · ولقد اثبتت التجربة فعالية الاسلام فى المجال السياسى والاقتصادى والاجتماعى فراح الكثير من المنظرين الليبيراليين والماركسيين يراجعون نظرياتهم ويعترفون للاسلام بثوريته ونجاعته ·

فجـارودى Garaudi مفكـــر شيوعى يعترف للاسلام كعامـل ذاتى بمفعوله الكبيـر فى تفجيـر الثـورات ويستشهد لذلك بالثورات الجزائريـــة والليبية والايرانية · ذلك أن الثورة بدون عقيدة دينية فى نظره هي ثورة تفتقر الى طابع انسانى · « **فطرة الله الـتى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** » · واضطر من وراء ذلك الى تصحيـــح الادعاء الذى صرح به بعض الماركسيين اقتداء بأبى الشيوعية ومؤسسها الاول والقائل بأن الدين عفيون الشعوب · فقال بأن الدين قد يستغل من طرف بعض الحكام لاخضاع الرعية غير أنـــه فى صميمه صرخة المستضعفين ضد قوى الظلم والطغيان · ولا أدل على ذلـــك فى نظره من حركـة طوماس منـــزر (Thomas Munzer)

هنا بالذات نرى أنه من الضـــرورى أن نقف وقفة قصيرة عند أشكـــال التحدى التى واجهها العالم الاسلامى · لقد اكتست الهجومات ضد الاســـلام أشكالا متنوعة متراوحة بين الاحتـلال العسكرى للبلدان الاسلامية والغـــزو الفكرى والايديولوجى : فالاستعمـــار والامبريالية والصهيونية والصليبيـــة والشيوعية والفرنكفونية والانجلوفونيـة والبرجماتية والاستشراق والتبشير كلها حاولت أن تحد من عظمة ألمد الثـــورى الاسلامى وأن تطفىء نوره **والله متم نوره ولو كره الكافرون**· وهكذا بقى المصلحون والثوار فى جميع أنحاء العالم الاسلامى يرفعون لواء الدعوة والجهاد من أجـل تصحيح الاوضاع فى العالم الاسلامى · وان معظم الحركـات التحريريـة التى قامت فى العالم الاسلامى رفعت شعارات اسلامية بحتة وحركتها العقيدة الاسلامية السمحة ، ذلك أن الاسلام لا يـرضى بالعبودية لغير الله · ألم يفضل الاسلام المؤمن القوي على المؤمن الضعيـف ؟ بل ، ألم يحرض المسلمين على اعـــداد ما استطاعوا من قوة لاعدائهم ؟

ان الغزو الفكرى هو الذى أغـــرق العالم الاسلامى الحديث فى مشاكـــل زائفة ومارس ضغوطا قمعية على طاقاته الابداعية ومبادراته الخلاقة التى يمكن أن تجد حلولا مناسبة للظروف المناسبة من المنظور الاسلامى النقي · وتخبـط العالم الاسلامى فى معضلات وهميـة أهمهـــا :

– هل تحرير المرأة أمر مشـــــروع دينيا ؟ وهل تساوى المرأة الرجل ؟ ·

– هل يتنافى الغاء الملكية مع ما ورد فى القرآن والسنة من تعاليم ·

– هل يساير الدين روح العصر ؟· وهل يتفق مع العلم ومع هذا النظـــام السياسى أو ذاك ومع هذه القوانين او تلـــك ·

هل شرع ديننا الحنيف الحـــدود لعصر ومصر معينين أم شرعها لكـــل عصر ومصر ؟

هل للمحرمات الاسلامية أساس علمي ؟ وهل يسمح تطبيقها بمواكبة ركب العالم المعاصر ؟

هل يمكن للعالم الاسلامى أن يحل النقائض بين الانتاج الاقتصادى والذهنية الدينية ، بين الحياة الصناعية وممارسة العبادات ·

وهذه أسئله كما نرى تندرج فى الاطار التقليدى الذى ابتدعه المشاؤون المسلمون وهو التوفيق بين الحكمة والشريعة ، ويمكن أن نطلق عليه فى الوقت الحالى اسم التوفيق بين الاسلام والنظم الوضعية الحديثة · وكان الاجدر بنا نحن المسلمين أن نفهم مقاصد الاسلام فى كل مجال من المجالات قبل أن نتحدث عن التوفيق ذلك أن النظم الوضعية متناقضة بالضرورة : فهذا يقول بالغاء الملكية وذاك يقول بحمايتها وتقديسها ، وهذا يقول بالحرية المطلقة للفرد وذلك يقول بضرورة توجيه الطليعة الثورية للجماهير الواسعة من الشعب · وكان الاحرى بنا أن نعمق المفاهيم الاسلامية قبل أن نحكم عليها أو لها ·

وكان ينبغى على المفكرين المسلمين فى نظر الاستاذ مالك بن نبى ألا يقلدوا كما يفعل العوام · ولا ينبغى أن يشل حركة تفكيرهم ايمانهم وتصديقهم بانه ليس فى الامكان فى ميدان الفكر الاقتصادى الاتيان بأبدع مما كان ، فالمفكرون السابقون ما هم الا بشر مثلنا لهم محاسنهم ونقائصهم ، وعلينا اذن أن نتحذر من الوقوع فى نقائصهم على أنها شر لابد منه كما يقول البعض · فلا يجوز لنا أن نقلد الرأسمالية فى اباحيتها ولا المادية الجدلية فى الحادها · المهم أن تتوفر الارادة : ارادة التعبير والثقة بالنفس ومعهما تذلل جميع الصعوبات بدون استثناء ·

وكأنى ببعض دعاة التغريب يريدون أن يتنصلوا من المبادىء الاسلامية فيهرعون الى النظم الوضعية ويأخذون منها ما يأخذون دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تعميق فهمهم للمفاهيم الاسلامية ·· وبعد ذلك فقط بدافع من عاطفة الشعور بالذنب أو خوف من الجماهير الاسلامية يلجأون الى « أكذوبة التوفيق » ، أما المشاؤون القدامى فقد كانوا يخافون من التفكير والرمي بالزندقة ·

والحل الصحيح يكمن فى الخلق الحضارى أعنى فى ابداع حلول أصيلة تتماشى وروح الشريعة الاسلامية وتستجيب والاوضاع الجديدة للعالم الاسلامى ـ اذ من الضرورى ابداع حلول لمشاكل الاقتصاد والانتاج والاكتفاء الذاتى من منظور اسلامى ·

اذ النظم الوضعية تتحمس وتنسى · فأين نحن يا ترى من نداء ماركس بالغاء الملكية والدولة والجيش مع حلول الشيوعية ؟ ! لم يعد هذا النداء سوى عبارة عن نظرة طوبوية لا أساس لها من الواقع بعد أن رفضتها كل المجتمعات الشيوعية المعاصرة · وأين نحن من

مقولة ماركس « الدين أفيون الشعوب» بعد قول جارودى عن العقيدة الحقة بأنها « ليست أفيونا كلا ! بل هي خميرة لتغيير العالم · وكل ضربة توجه ضد هذه العقيدة هي ضربة موجهة ضد الثورة ذاتها » · وأين نحن من أوهام تحرير المرأة فى العالم المعاصر بعد أن أصبحت مجرد بضاعة تعرض زينتها على القاصى والدانى · والاسلام ينص « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » « و للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » · « و لا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او ··· » ·

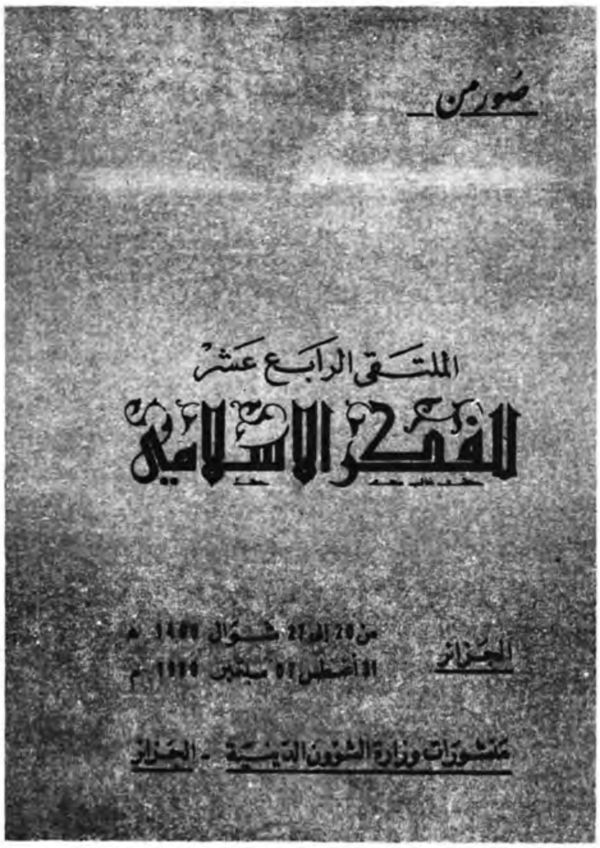
لقد آن للعالم الاسلامى أن يتحد ويتكتل من أجل بناء الحضارة لاننا فى عصر الاتحاد والتكتل ! والعبرة بالبلدان المتقدمة (أمريكا وروسيا والصين والبلدان الغربية التى تسعى بكل الوسائل لتحقيق وحدتها · لماذا نطالب بالوحدة والتكتل ؟ اننا لا نطالب بذلك من أجل الاعتداء بل من أجل ابداع حلول لصالح شعوب العالم الاسلامى ومن أجل الانتصار فى معركة الانتاج ومن أجل تحقيق الاكتفاء الذاتى ومن أجل ضمان عدالة فى المبادلات التجارية وارساء قواعد اقتصاد عالمى جديد · وفى هذا الصدد يقول الاستاذ المرحوم مالك ابن نبى « على المسلمين أن يتخلصوا من الاسباب التى تجعلهم أقل فعالية فى أوجز مدة ممكنة ، بالطرق التى يفرضها عصر تسريع التاريخ ، وهذا يعنى ، فى مجال الاقتصاد ، أن يوحدوا امكانياتهم وحاجاتهم حتى يحققوا فى أسرع ما يمكن شروط الاكتفاء الذاتى أي الحلقة الاقتصادية التى تستطيع الانغلاق على نفسها ، اذا ما اقتضت الضرورات الداخلية والخارجية ذلك » ·

وأملنا أن يكون مطلع القرن الخامس عشر فاتحة عهد جديد فى ميدان الخلق الحضارى والانتفاضة ضد الحلول الجاهزة التى لا تتلاءم وطبيعة المجتمع الاسلامى ومطامحه · ويحتاج المفكرون المسلمون بهذا الصدد وكذا القادة السياسيون الى شجاعة فكرية هائلة وقوة عزيمة خارقة وثقة بالنفس · « وان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ·

ان المبادرة التى شرع العالم الاسلامى فيها هامة وخطيرة فى نفس الآن ذلك أنها تهدف الى بناء حياة جديدة فى مستهل القرن الخامس عشر وفى العقدين الاخيرين من القرن العشرين · وانها مهمة عسيرة ونحن نحس اكثر من غيرنا بالمجهودات الجبارة (من الناحية المادية البحتة) التى يتطلبها اللحاق بركب الحضارة واجتياز الهوة التى تفصلنا عن العالم المتطور تكنولوجيا وعلميا عندما يتعلق الامر ببناء السدود وتنظيم المجتمعات الصناعية وارساء المؤسسات التقنية وتعميم العلاج والتعليم · غير أننا نحس أقل بالمهمة التى لا تقل خطورة ولا صعوبة عن

سابقتها وتنحصر فى المجالين الديني والايديولوجي • وليس بالامر الهين تعويض خسارة بضعة قرون فى هذين المجالين ، اذ يبقى على كاهل المسلمين ان يصيغوا دلالة الدين فى عالم جديد يحتوى على حدود ومجمعات صناعية ومؤسسات تقنية ومؤسسات تضمن التعليم والعلاج للجميع مع ما يتطلبه كل ذلك من مسؤولية • وقد تبدو هاته المهمة عديمة الاهمية بالنسبة لاناس يعزلون الدين عن الحياة غير أن الاسلام كما يدركه ذلك الجميع يهدف الى تطبيق الاوامر الاخلاقية على الحياة اليومية ويربط بين الدين والدنيا برباط لا تنفصم عراه •

صدر :


صدر من
الملتقى الرابع عشر
للفكر الإسلامي
الجزائر
منشورات وزارة الشؤون الدينية - الجزائر

الوقف ومكانته فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالجزائر

أواخر العهد العثمانى وأوائل الاحتلال الفرنسى (*)

1 ـ تعريف الوقف وتحديد أحكامه :

ظلت الاوقاف ، أو الاحباس كما تعرف فى أقطار المغرب العربى باعتبارها **تقليدا اسلاميا عريقا تشكل احدى مظاهر** الحضارة العربية الاسلامية **التى تميز بها العهد العثمانى** بالجزائر **وتاثرت بها أوضاع البلاد** الجزائرية اثر تعرضها للغزو الفرنسى عام 1830 م ، بحيث **لا يمكن لاى مؤرخ أو باحث التقليل من أهمية قضايا الوقف أو اهمال النتائج المترتبة عليه ؛ وهذا ما دفعنى الى تناول مكانة الوقف فى الجزائر كما شجعنى على التعرف على آثاره فى مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية أو الثقافية وحتى السياسية** منها ، وحتى نأخذ فكرة واضحة على أوضاع الوقف بالجزائر أواخر العهد العثمانى وأوائل الاحتلال الفرنسى يجدر بنا أن نشير فى مستهل هذا البحث الى طبيعة الاحكام الشرعية للوقف وما تميزت به من أحكام خاصة ومعاملات محددة . **فالوقف باعتباره عقد لعمل خيرى ذى صبغة دينية** (1) ، يقوم على توفر **الواقف** الذى له أهلية التبرع (2) بما يملك من ذات **أو منفعة** ، وعلى وجود **الموقوف** ، وهو المنفعة التى تصرف على سبيل الحبس ، فضلا على توفر **الموقوف عليه** ، وهو المستحق لصرف تلك الذات أو المنفعة ولو كان مصلحة عامة كالمسجد والمدرسة والزاوية وغيرها . هذا مع اشتراط **صيغة الوقف** ولو كانت بكتابة على مسجد أو مؤسسة خيرية .

فبفضل هذه الاسس والاركان كما تعرف فقهيا يأخذ الوقف مفهومه الشرعى ويصنف حسب الفرص من صرف المنافع المترتبة عليه ، فمنه ما هو **وقف عام** يعود أساسا على المصلحة العامة التى **حبس من أجلها ومنه ما هو وقف خاص** لا يتحول **صرف منفعته على** المصلحة العامة التى **حبس على أساسها** الا بعد انقراض العقب أو انقطاع نسل صاحب الحبس أى الواقف ، وهذا

(*) قدم هذا البحث فى مؤتمر تاريخ الحضارة العربية الاسلامية المنعقد بجامعة دمشق فى شهر أفريل 1981 بمناسبة الاحتفال بحلول القرن الخامس عشر الهجرى

الصنف الاخير من الوقف يعرف بالوقف الذرى أو العائلى أو الاهلى وهو الشائع فى أغلب أقاليم الامبراطورية العثمانية ومن ضمنها الايالة الجزائرية وهو عكس الوقف الخيرى الذى سبقت الاشارة اليه • وقد نتج عن هذا التنوع فى الوقف تباين نظرة كل من المذهب الحنفى والمذهب المالكى الى الهدف والغاية من صرف الحبس ، فالمذهب المالكى الذى يتمسك به غالبية الجزائريين كان يرى ضرورة صرف الحبس على المصلحة العامة التى حبس من أجلها مباشرة بدون قيد أو ارجاء أو تردد بينما المذهب الحنفى الذى كانت تتميز به الطائفة التركية وجماعة الكراغلة وبعض الحضر بالمدن الكبرى فى الجزائر كان يسمح بجواز انتفاع الموقوف وعقبه بما حبسه من وقف بحيث لا يعود الوقف الى الغاية التى حبس من أجلها الا بعد انتفاء الورثة المنصوص عليهم فى وثيقة الحبس • وعلى كل فان التسهيلات التى يقرها المذهب الحنفى دفعت غالبية الجزائريين الى تحبيس أملاكهم حسب أحكام المذهب الحنفى حتى يتمكنوا من الانتفاع بها هم وعقبهم من بعدهم مع كونهم من اتباع المذهب المالكى وهذا ما تؤكده أغلب الوثائق الشرعية الخاصة بالوقف التى تعود الى العهد العثمانى (3) • والتى نجد فى بعضها فتاوى شرعية تشير الى موقف كل من المذهب المالكى والحنفى من قضية الوقف ، قبل الاخذ برأى أبى يوسف الذى يجيز الوقف الاهلى (4) • هذا ما دفع حمدان خوجة الى القول فى كتابه المرآة : أن الفقهاء بالجزائر قد أجمعوا على العمل بمقتضى المذهب الحنفى الذى يجيز حبس الهبات المشروطة وذلك ليكثروا من مردود الهدايا لصالح الفقراء (5) •

أما كيفية الانتفاع بالحبس واستغلاله لفائدة العقب اذا كان وقفا أهليا أو لمصلحة الغرض الذى حبس من أجله فى حالة ما اذا كان الوقف خيريا فتراعى فيه الاحكام الشرعية التى ترى فى صيغة الوقف صفة اللزوم والديمومة Inaliénabilité بحيث لا يمكن التراجع فيه أو الغاؤه أو تحويله الى منفعة أخرى غير التى حبس من أجلها فلهذا تجيز الاحكام الشرعية بيعه أو اعارته أو رهنه وقد نص على ذلك أبو حنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد وعامة العلماء (6) بأن الوقف عقد مؤيد لا يمكن تحويله من الغرض المحبس عليه أو هذا ما نص عليه ابن عرفة بقوله : « الحبس اعطاء منفعة شىء مدة وجوده لازما بقاؤه فى ملك معطيه ولو تقديرا » (7) • وقد

استثنى العلماء عند الضرورة كراء الحبس أو استبداله ، فيسمح استبدال الحبس فى حالة توقع فساده أو ضياعه أو انقطاع مردوده أو عجز مستغله عن اصلاحه وترميمه ما لم يكن مسجدا ، وقد أشار الى ذلك صاحب التنوير بأنه : « يجوز شرط الاستبدال به أرضا أخرى ... فاذا فعل صارت الثانية كالاولى فى شرائطها وان لم يذكرها » (8) كما يسمح بكرائه كراء مؤيدا لضمان مردوده والمحافظة عليه ، وفى هذه الحالة يصبح كل ما يستخدمه متولى الكراء من بناء وغرس ملكا شخصيا له شريطة أن يلتزم بخدمته وصيانته ، وبذلك تراعى مصالح متولى الكراء ويحافظ فى نفس الوقت على وصية الواقف ويحترم وصية صاحب الحبس والغرض الذى حبس من أجله . وهذا ما يسمح لنا أن نصف الوقف بانه ملكية انتفاع وليس امتلاك حيث أن المحبس ليس له سوى حق التمتع بفوائد الحبس وتعرف عملية كراء الحبس التى قد تكون مؤيد أو محدد بعدد من السنين قد بلغ فى كثير من الاحيان التسعين سنة (9) ، بالعناء لدى أهالى الجزائر وبالانزال فى ايالة تونس أو التنكير فى اقاليم المشرق العربى . ومما يلاحظ استبدال الحبس أو كرائه لا يمكن أن تتم الا بعد تزكيتها من وكيل الوقف اذا كان الوقف خيريا أو متولى الوقف اذا كان الوقف أهليا وبعد استشارة أهل الرأى والمشورة فى البلد وبعد اقرار صريح من المجلس العلمى الذى كان ينعقد فى الجامع الكبير فى كل الحواضر الكبرى مرة كل أسبوع هذا ولا يسجل عقد الكراء أو الاستبدال الا بعد وضع الحبس فى المزاد العلنى لتقدير مقدار العناء (الكراء) المتوجب عليه ، وذلك حتى لا تتخذ عملية الاستبدال أو الكراء مطية لابطال الحبس أو الغائه أو تحويله عن عرضه ، لا سيما وان كثيرا من الاحباس تحولت عن اغراضها بعامل الزمن الى ملكيات خاصة . وهذا ما تفطن له الفقهاء اذ أشار شارح البدر المنتقى الى ذلك بقوله : « ونحن لا نفتى به وقد شاهدنا فى الاستبدال من الفساد ما لا يعد ولا يحصى ، فان ظلمة القضاء جعلوه حيلة الى أبطال أكثر أوقاف المسلمين » (10) ومما يلاحظ أن متولى الحبس لا يلزم الا بدفع نصف الكراء اذا تعهد باصلاح الحبس وترميمه . بينما نصف الكراء المتبقى عليه يسدد به نفقات الاصلاح ، ولهذا بعد أن يستوفى صاحب العناء ما صرفه عن الحبس يصبح بعد ذلك ملزما بدفع الكراء كاملا . والجدير بالذكر أن هذه العملية لا تتم الا بعد أن

يحقق وكيل الحبس من ضرورة هـذا الترميم ويقر فائدته يستشير عادة شيخ البنائين في ذلك ، أما اذا تهدم الحبس ولم يعد بناؤه أو أهمل تماما فان الارض التي كان مقاما عليها تعتبر حبسا لاتباع ولا تشترى وانما يحدد لها عناء مـؤبد محافظة على أحكـام الـوقف واحتراما لطبيعته .

2 ـ وضعية الحبس بالجزائر أواخر العهد العثماني :

بعد هذه النبذة المقتضبة عن أحكـام الـوقف الشرعية ننطرق الى وضعيـة الوقف بالجزائر أواخر العهد العثماني وأوائـل الفتـــرة الاستعمارية . هذه الوضعية التي اتصفت بأوضاع خاصـة وأحوال مميـــزة نجملها في النقـاط التاليـة :

1 ـ يعتبر **الوقف في حد ذاته ظاهرة اجتماعية اسلامية عرفتها الجـزائر في الفترة الاسلامية** التي سبقت مجـــيء الاتراك واستحواذهم على مقاليد الامور ، غير اننا **لا نملك الآن الا النـزر القليل من الوثائق التي تعود الى تلك الفترة .** خاصة تلك التي تهم القطاع القسنطيني أواخر العهد الحفصي والجهات الغربية من الجزائر تحت حكم **الزيانيين** وهي في أغلبها تعود الى القرن الخامس عشر مثل الوثيقة التي تسجـل **أوقـاف مسجد ومدرسة سيدي أبـي مـدين بتلمسان والتي يرجع تاريخها الى عـام 906 هـ 1500** م والتي توزع أوقاف أبي مدين على الوجه التالي : 9 بساتين و 4 مزارع وقطعتا أرض وطاحونتان (2) وحمـام واحـد داخل تلمسان ونصف الحمـام القديم بالمنصورة وبالاضافة الى نصف بستان وقطعة أرض للحراثة تقـــدر مساحتها بعشر زويجات (100 هكتـار) وأراض صالحة للزراعة نقـدر مساحتها بعشرين زويجـة (200 هكتار) (12) ، **كما أن أقـــدم وثـائق أوقاف الجامع الاعظم بالجزائر العاصمة لا تتجاوز عام 1540/947 (12) .**

2) ـ تميزت الفترة العثمانية بالجزائر بتكاثر الاوقاف وانتشارها في مختلف أنحاء البلاد وذلك بفعل الظروف التي عرفتها الجزائر **منـذ أواخر القـرن 15 وحتى مستهل القرن 19** ، والتي **اتصفت** أساسا **بازدياد نفـوذ الطرق والزوايا وتعمـق الروح الدينية لـــدى السكان** الذين وجدوا فيها أحسن وسيلة وخير **عزاء أمام مظالم الحاكم وانعدام الامن وهجمـات الاسـاطيل الاوروبية عـــلى السواحل وتكـرر الكوارث الطبيعية ،** فضـلا على أن **الحكـام الاتراك الـذين رأوا في الرابطة الدينية عاملا قـــويا**

مكنهم من بسط نفوذهم وتدعيم مكانتهم لدى الاهالى ، الامر الذى دفعهم فى كثير من الاحيان الى تحبيس أملاكهم اظهارا للورع والتقوىوتقربا للمرابطين واكتسابا لتأييد رجال الدين ، فعلى سبيل المثال نذكر أن الباى حسين بن صالح عام 1221 (1807) • عندما خرج فى احدى حملاته العسكرية أخذ على نفسه نذرا يتعهد فيه « ببناء دار الولى سيدى على العريان والسيد محمد بن سيدى سعيد واصلاح مسجده ، وتحبيس أوقاف يستعين بها على رعاية الطلبة والغرباء وأبناء السبيل » (13) ، **وذلك حتى يكسب تأييد السكان المحليين ويضمن معاضدتهم له فى حملته العسكرية على الجهات الشرقية من بايليك قسنطينة** ومما يلاحظ أن الاوقاف ما لبثت أن **تزايدت فى أواخر العهد العثمانى حتى أصبحت تشكل نسبة كثيرة من الممتلكات الزراعية الحضرية منذ أواخر القرن 18م** وهذا ما تؤكده لنا سجلات الاوقاف ووثائق الاحكام الشرعية وأحسن دليل على هذا التطور الذى عرفته الاوقاف فى الجزائر العثمانية نستخلصه من وضوح **أوقاف سيدى عبد الرحمن الثعالبى** التى لم تتجاوز منذ أواخر القرن 15 وحتى بداية القرن 18 هـ **احد عشر وقفا** ثم ما لبثت أن تزايدت بعد أن اكتسب صاحبها شعبية وصيتا فى أوساط الاهالى منذ أواخر القرن 18 م حتى أصبحت **عشية الاحتلال** الفرنسى يناهز عدد أوقافها على **82 وقفا** (14) ، ونفس التطور عرفته كثير من أوقاف المؤسسات الدينية مثل أوقاف **الجامع الاعظم** بالجزائر العاصمة التى لم تتجاوز **150 عقدا خلال 210 سنة** (1540 1750) ، ثم ما لبثت أن تزايدت منذ **نصف القرن 18 حتى أصبحت سنة 543/1841 أى بزيادة 384 عقدا** خلال الفترة الممتدة من 1752/1842 م (15) **أصبح الوقف بالجزائر بعد انتشاره وتكاثره فى أواخر العهد العثمانى مؤثرا على مختلف أوجه الحياة** بحيث أصبحت الاوقاف تشتمل على الاملاك **العقارية** والاراضى **الزراعية** وتضم العديد من **الدكاكين والفنادق وأفران الخبز والعيون والسواقى والحنايا والصهاريج والطواحين وأفران معالجة الجير** ، هذا بالاضافة الى الكثير من الضيعات والمزارع والبساتين والحدائق حتى أن أحد القنصل الفرنسى فاليير الذى تعرف على الجزائر عام 1781 أكد على « أن مؤسسة أوقاف الحرمين الشرفين تمتلك جل مساكن مدينة الجزائر وأغلب البساتين المجاورة لها » (16) ولم يقتصر أمر انتشار الحبس على مدينة الجزائر

وضواحيها بل شعلت أغلب جهات البلاد الجزائرية ، بحيث اشتهرت كثير من المدن والفحوص بكثرة أوقافها مثل مازونة وتلمسان ومعسكر وقسنطينة وعنابة وبجاية والمدية ومليانة والبليدة والقليعة. ففي مدينة قسنطينة وضواحيها كان عدد الاملاك المحبسة تزيد على : 17 وقفا منها 10 رحي واقعة على وادي الرمال والباقي أملاك مختلفة ومساكن وأراض زراعية (17).

4) ـ لم تعرف الاوقاف بالجزائر العثمانية تنظيما محكما وإشرافا فعالا الا فى فترة متأخرة نسبيا تعود الى أوائل القرن 18 ، وهذا ما تؤكده كثير من الاشارات الواردة ضمن وثائق الوقف مثل الوثيقة التى تسجل الاوقاف بمدينة قسنطينة وتتعرض للاوضاع المتردية التى كانت عليها والمبادرة التى قام بها صالح باى من أجل ضبطها وتسجيل مردودها فى عدة دفاتر توزع بين الموظفين والمكلفين برعايتها وهم ناظر بيت المال وشيوخ البلد والقاضي الحنفي والقاضي المالكي . وحسب ما يفهم من هذه الوثيقة المؤرخة فى أواسط ربيع الاول عام 1190 افريل عام 1776 م . ان الهدف من هذه التنظيمات التى خضعت لها الاوقاف كان الغرض منه وضع حد للتهاون والتحايل على الاوقاف وأن العملية انتهت الى وضع احصاء دقيق وضبط محكم وهذا ما تنص عليه الوثيقة فى الفقرات التالية : « الحمد لله ولما وقع التقصير من وكلاء مساجد قسنطينة ولم يكن لهم اعتناء بشأن الاوقاف وفرطوا فى ذلك غاية التفريط وضاع الكثير منها ... وبلغ أمر ذلك لحضرة المعظم الاسعد المظفر سيدنا صالح باى أيده الله تعالى ... فالهمه الله الى احياء ما تدرس من المساجد والاوقاف ... أمر حينئذ قضاته والمفتيين ان يبحثوا على أوقاف المساجد وعلى المساجد التى دثرت ويثبتوا ذلك باربع سجلات متماثلة فامتثلوا أمره وبذلوا جهدهم فى البحث عن أوقاف المساجد وعن المساجد التى دثرت » (18)

5) ـ اتخذت تنظيمات الاوقاف شكل ادارة محلية مميزة وجهاز ادارى مستقل محدد الصلاحيات يتميز بمهارة المشرفين عليه وكفاءة القائمين به (19) فرغم أن العديد من موظفى الاوقاف كانوا يخضعون مباشرة للسلطة الحاكمة بعد أن يعينوا بأمر من الباشا (الحاكم) أو باقرار منه بعد تزكيتهم من طرف أعضاء الديوان وكبار الموظفين (20) الا أن التصرف فى شؤون الاوقاف واتخاذ الاجراءات العملية المتعلقة بها كانت

تعـود الى المجلس العلمى الـذى ينعقد للبث فيها عادة كل يوم خميس من كل أسبوع فى الجامع الكبير بحضور المفتى المالكي والحنفي والقاضي المالكى والحنفي وبعض الموظفين الآخرين كوكيل بيـت المال وشيخ البـلد · وللمجلس العلمى صلاحيات مطلقة فى التصرف فى شؤون الاوقاف ومراقبة الموظفين القائمين عليه كالشيخ الناظر وجماعة الوكلاء والكتاب (الخوجـات) والاعــوان والشــواش والحزابة (21) (الطلبة الذين يقـرأون القرآن بالمسجد) .

ويعتبر الشيخ الناظر او المتولى او الوكيل العام كما تعرفه بعض المصادر (22) يعتبر الموظف الرئيسى بمصلحـة الاوقاف فهو يكلف بالاشراف على أوجه الانفاق وحفظ مصادر الاوقاف ومراقبة دفاتر الحسابات الخاصة بالمؤسسة التى تقع تحت رعايته مباشرة ويأتى فى درجة ثانية من حيث السلم الادارى لموظـفى الاوقاف وكــلاء المدن الكبرى والاحياء الرئيسية بمدينة الجزائر فهـم مكلفون بجمع المحاصيل وقبض المداخيل وصرف المرتبات وصيانة الحبس وتقديم حساب مفصل عن ذلك لناظر الاوقاف كل ستة أشهر على مـا تحت أيديهم مـن أملاك محبسة كما كانوا ملزمين ايضا بضبط حسابات كل سنة وتسجيلها فى الدفاتر الرسمية بعـد طـرح مصاريف شؤون الصيانة والخدمات المختلفة (23) ·

وقد جرت العادة على أن يقـدم هؤلاء الوكلاء عرضا عن خدماتهم بمحضر وكيل بيت المال وشيخ البـلد حتى يمكن ان يطلع عليه المجلس العلمى بعد أن يتكلف الشيخ الناظر بتقديمه له ونظرا لطبيعة عمل موظفى الاوقاف وتـزايد اهميتهم اضطر الشيخ الناظر الى توظيف كاتب خـاص يعرف بالسايجى أو الخـوجة لضبط حسابات الاوقاف التـى يشرف عليها كما اضطر الوكلاء الى الاستعانة بجماعة العدول الذين يعينون من طرف القضاة وذلـك لاداء مهامهـم المختلفة ، ويلحق بهؤلاء الموظفين جماعة الشواش والقيمين المكلفـين بأمــور الحـراسة والقيام بالخدمات الضرورية ·

والجدير بالذكر أن انتشـار الاوقاف وتزايد أهميتها جعــل بعض الموظفين الآخرين يتولون الاشراف عليها مثــل شيخ البلد والمزوار وبيت المالجى (24) ، فشيخ بلد قسنطينة توسعت صـلاحيته فى أواخر العهد العثمانى فاصبح يشرف على الاوقاف بالجامع الكبير بقسنطينة ، كـما أصبح يتصرف بأوقاف الحـرمين الشريفين بنفس المدينة الامر الذى سمح له أن يحتكر عوائد ومغارم قبيلتي أولاد جبارة وبنى وافطين حتى يتمكن مــن

الانفاق على الاوقاف التى وضعت تحت رعايته بينما خصصت منح سنوية لباقى موظفى الاوقاف فكل من الوكيل أو الناظر كان يخصص له عطاء سنوى لا يزيد على 40 ريالا (25) مما اضطر كثيرا من النظار **ووكلاء الوقف الى البحث عن مصادر أخرى قد تكون فى اغلب الاحيان على حساب مردود اوقاف المؤسسة** التى يقومون بخدمتها وهذا ما لاحظه موظفو الادارة الفرنسية اثر الاحتلال مباشرة (26) كما كان سببا رئيسيا فى تحول كثير من الاوقاف عن الغرض الذى حبست عليه لتصبح من الاملاك الخاصة تحت حجج مختلفة واعتبارات متباينة وأساليب ملتوية .

ج) ـ المؤسسات الدينية التى تتوزع عليها الاوقاف الجزائرية .

بعد هذه المميزات التى اتصفت بها أوضاع الاوقاف بالجزائر العثمانية ، نذكر أن الاوقاف الجزائرية كانت تتوزع على عدة مؤسسات خيرية ذات طابع دينى وشخصية قانونية ووضع ادارى خاص ، وهى حسب كثرتها تصنف حسب الترتيب التالى :

1) ـ أوقاف الحرمين الشريفين : كانت تشكل أغلب **الاوقاف الخيرية أو الاهلية** وذلك للمكانة السامية والمنزلة الرفيعة التى خص بها سكان الجزائر البقاع المقدسة بالحجاز وقد كانت هذه الاوقاف من الكثرة اذ كانت تبلغ نسبتها فى أواخر العهد العثمانى ثلاثة أرباع الاوقاف الموجودة آنذاك (27) بحيث كان عدد أوقاف الحرمين بمدينة الجزائر وضواحيها عشية الاحتلال الفرنسى يتراوح ما بين 1357 و 1558 ملكية عقارية تبعا للمصادر المختلفة (28) التى نرجح منها احصاء دوقو (29) التى أعتمد فيه على سجلات الاوقاف والذى ذكر فيه نوع الحبس ومردوده السنوى كما يلى :

ـ 840 منزلا مردودها السنوى 26653،80 ف .

ـ 258 دكانا مردودها السنوى 4278،60 ف .

ـ 33 مخزنا مردودها السنوى 449،70 ف .

ـ 11 فرنا للخبز مردودها السنوى 102،60 ف .

ـ 06 طاحونات مردوها السنوى 97،50 ف .

ـ 06 فندق مردودها السنوى 185،70 ف .

ـ 04 مقاهى مردوها السنوى 161،70 ف.

– 82 غرفة مردودها السنوى 846,65 ف ٠

– 57 بستانا مردودها السنوى 1257،45 ف ٠

– 62 ضيعة مردودها السنوى 1830,45 ف ٠

– 03 أفران جير مردوها السنوى 200,45 ف ٠

فيكون المجموع : 1357 ملكا عقاريا مردوده السنوى 36013،45 ٠ يضاف لها كراء (عناء) 201 وقفا آخرا يقدر محصوله بـ 7209،25 بحيث يصبح عدد الاملاك المحلية على الحرمين الشريفين 1558 ومردودها السنوى 43222,70 ف٠

والجدير بالذكر ان جزءا ضئيلا من عوائد أوقاف الحرمين كان يتجاوز 15,000 ف٠ سنويا (30) يرسل الى البقاع المقدسة بواسطة أمير ركب الحجاز أو يسلم لمبعوث شريف مكة عند زيارته للجزائر بينما ينفق الباقى على المحتاجين المقيمين بالجزائر وأبناء السبيل أو يعطى كاعانة للمنتسبين الى الحرمين الشريفين المقيمين بالجزائر أو الوافدين عليها من الحجاز كما يساهم فى بعض الاحيان بجزء من عوائد أوقاف الحرمين فى عتق المسلمين الذين وقعوا فى الاسر ومما يلاحظ أن أوجه صرف عوائد أوقاف الحرمين التى سبقت الاشارة اليها لا تتم فى الغالب الا بعد تسديد نفقات الصيانة وأجور الموظفين اذ كانت مؤسسة الحرمين ملزمة بصرف منحة سنوية للموظفين القائمين بها وبالانفاق على ثلاثة مساجد حنفية بمدينة الجزائر (31) وصيانتها ٠

2) – أوقاف الجامع الاعظم وبقية المساجد المالكية الاخرى : وهى من حيث كثرة عددها ووفرة مردودها تحتل الدرجة الثانية بعد أوقاف الحرمين ولعل هذا يعود أساسا الى الدور الذى كان يلعبه الجامع الاعظم فى الحياة الثقافية والدينية ولكثرة عدد المساجد المالكية فى الحواضر الجزائرية الكبرى ففى مدينة الجزائر مثلا كان عدد المساجد المالكية يبلغ 92 مسجدا (32) كل مسجد خصصت له أوقاف تنفق عليه وكان فى طليعة هذه الاوقاف الخاصة بالمساجد الحنفية أوقاف المسجد الاعظم التى بلغت من الكثرة والضخامة بحيث كانت تناهز 550 وقفا كانت تشتمل على المنازل والحوانيت والبساتين والمزارع والضيعات وغيرها ويعود التصرف فيها للمفتى المالكى الذين يوكل أمر تسيير شؤونها الى الوكيل العام الذى يعاضده وكلان أحدهما متكلف بأوقاف المؤذنين وآخر يهتم بأوقاف الحزابين ٠

3) أوقاف سبل الخيرات :

أسست حسب بعض المصادر عام 999 هـ 1584 م ، على يد شعبان خوجة (33) وهي مخصصة للانفاق على المساجد الحنفية الواقعة بمدينة الجزائر والبالغ عددها ثمانية مساجد (الجامع الجديد وجامع سفير وزاويته وجامع دار القاضى وجامع كتشاوة وجامع الحاج شعبان خوجة وجامع الشبارلية ومسجد حسين داى ومسجد على خوجة الواقعين بحصن القصبة) .

ويعود أمر التصرف فى أوقاف سبل الخيرات الى المفتى الحنفى الذى يقوم بالصلاة ويتولى الافتاء بالجامع الجديد (المسجد الرئيسى لاتباع المذهب الحنفى بالجزائر) الذى اسس مكان مدرسة المولى أبى عنان سنة 1070 هـ/1660م .

وتعود أهمية أوقاف سبل الخيرات رغم قلة عدد المساجد الحنفية وكون غالبية الجزائريين من اتباع المذهب المالكى ، الى غنى الطائفة التركية وجماعة الكراغلة وبعض العائلات الحضرية المنتسبة للمذهب الحنفى وهذا ما جعل عدد أوقاف سبل الخيرات يناهز 331 وقفا منها 119 ملكية عقارية 212 عناء توفر مدخولا سنويا يقدر بـ180000 ف وذلك قبل ان تتعرض الى ضغط الادارة الاستعمارية فتتضاءل الى 175 وقفا فى السنوات الأولى للغزو الفرنسى(34) .

4) أوقاف الاولياء والاشراف وأهل الاندلس :

حظى أغلب الاولياء (المرابطين) بأوقاف خصصت للانفاق على أضرحتهم ، ففى مدينة الجزائر كانت تتوزع أوقاف الاولياء على 9 أضرحة 8 منها تقع داخل مدينة الجزائر بينما واحد وهو ضريح سيدى عبد الرحمن يقع خارجها بنواحى جرجرة . وتاتى فى مقدمة أوقاف الاولياء أوقاف سيدى عبد الرحمن الثعالبى التى كانت تقدر فى السنوات الاولى للاحتلال الفرنسى بـ 69 وقفا مردودها السنوى 6000 فرنك تنفق على القائمين على الضريح ويوزع قسم منها على فقراء المدينة كل يوم خميس بنسبة فرنك الى ثلاثة فرنكات لكل فرد (35) .

أما الاشراف الذين كانت تنتسب الى جماعتهم 200 الى 300 أسرة (36) فقد يحظون بتقدير العامة ورعاية الحكام الذين خصصوا بعض الاوقاف لرعايتهم مثل الداى محمد بقطاش الذى اسس لفائدتهم زاوية عام 1121 هـ/1709 م وقد عرفت هذه الزاوية بزاوية الاشراف التى خصصت لها اوقاف كثيرة قبل ان تتعرض للتصفية من قبل الادارة الفرنسية عام 1832 م .

ولا تقل أوقاف أهل الاندلس عن أوقاف الاولياء والاشراف وذلك لاستقرار كثير من مهاجري الاندلس بالبلاد الجزائرية وامتلاكهم لثروات ضخمة نتيجة أعمال القرصنة والاشتغال بالزراعة ، وقد خص كثير منهم جامع الاندلس والزاوية الملحقة به الذي اسس في النصف الاول من السادس عشر بكثير من الهبات والاوقاف بلغت 40 ملكية و 61 [illegible] وكيل الاندلس (37)

5) اوقاف الجند والثكنات والمرافق العامة :

خصصت كثير من الاوقاف للانفاق على المعوزين من الجند وصيانة بعض الثكنات والحصون والابراج فضلا عن العديد من المرافق العامة الاخرى كالعيون والسواقي والحنايا والصهاريج والآبار ، وقد خصص لكل مصلحة من هذه المرافق العامة وكيل خاص يرعى أوقافها ويتعهد شؤونها مثل وكيل العيون والسواقي الذي كان مدخوله السنوى من الاوقاف التي يشرف عليها يبلغ 150,000 ف في السنوات الاولى للاحتلال (38) .

ولكي ناخذ فكرة واضحة عن مختلف أوقاف المؤسسات الدينية ونتعرف على مدى أهمية نفقاتها والفوائد التي توفرها نثبت الجدولين التاليين اعتمادا على المعلومات المتخلصة من الموظفين الفرنسيين الذين أوكل اليهم الاشراف على الاوقاف اثر الاحتلال وهما رغم كونهما تعودان الى السنوات الاولى من الاحتلال الا أنهما يعكسان واقع الاوقاف في الفترة التي سبقت الاحتلال مباشرة :

أ) ـ جدول عام لمصاريف أوقاف بعض المؤسسات الدينية حسب تقرير المدير المالى للادارة الفرنسية بالجزائر بتاريخ 30 سبتمبر 1842 مقدر بالفرنكات :

السنة	أوقاف الحرمين الشريفين	أوقاف سبل الخيرات	أوقاف أهل الاندلس
ـ 1836	105701,15	9750,40	–
ـ 1837	109895,99	13341،27	3870،80
ـ 1838	109937،25	13903،70	3973
ـ 1839	143068،62	12192,709	4141,24
ـ 1840	166495,25	12712	3384,20
ـ 1841	177268,91	10615,55	2775،20
المجموع	812367،17	72515،61	18734،20

جدول عام نتائض مردود أوقاف بعض المؤسسات الدينية من 1836 الى 1841 مقدر بالفرنكات :

السنة	الحرمين الشريفين	سبل الخيرات	أهل الاندلس
ـ 1836	107462,96	10019،33	92،22
ـ 1837	111038,46	13408,04	3988،50
ـ 1838	127895،65	13989,25	4098,54
ـ 1839	131941،13	14393،78	4063،98
ـ 1840	167585,44	15715،66	4017,85
ـ 1841	178815،19	14447,19	2823،10
المجموع	824788،83	81973,25	19879،19

د) تاثير الوقف على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر أواخر العهد العثماني .

وكان للوقف تأثير مباشر على النشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية يمكن أن نلخصها في النقاط التالية :

1) ــ النفقة على رجال العلم والمدرسين والطلبة فبفضل مردود الاوقاف والمداخيل التي يوفرها تمكن حكام الاتراك بالجزائر من ايجاد وسيلة ملائمة لتسيير بعض المصالح التعليمية والخدمات الثقافية التي لم تر الدولة ضرورة لرعايتها ولم تكن الخزينة العامة تهتم بالانفاق عليها مثل منح الطلاب وأجور المدرسين وجرايات القائمين على شؤون العبادة بالمدارس والزوايا والمساجد والاضرحة مثل الخطيب والامام والحزاب وقيم المكتب والمؤذن وصاحب تربة والند والشعال .

فباستثناء الجهات النائية والمناطق الجبلية التي كانت القبائل فيها تتكفل بالانفاق على أماكن العبادة والتعليم بها فان مردود الاوقاف كان يشكل المصدر الوحيد لرعاية الخدمات الثقافية والدينية بأغلب البوادي والحواضر الجزائرية ، التي كانت تزخر بالمساجد والمدارس ، فمدينة الجزائر مثلا كانت تتوفر على 106 مساجد أهمها الجامع الاعظم الذي يقوم بخدمته 19 مدرسا و 18 مؤذنا و 8 حزابين و 13 قيما (40) ، بالاضافة الى ثلاثة وكلاء يسهرون على تنظيم الاعمال به ، أما مدينة قسنطينة فكان عدد أماكن العبادة والتعليم بها ينيف عن 100 ، منها 35 مسجدا و 169 زاوية و 7 مدارس رئيسية 600 تلميذ منهم 150 من الارياف ، وكلهم يتقاضون منحة سنوية من وكيل الاوقاف تقدر بـ 36 ف للطالب (41) ، مع اعانة نصف سنوية تتألف من كمية من الزيت والشموع والبخور والسجاجيد (42) .

والجدير بالذكر أن فائض مردود الاوقاف كثيرا ما يستغل في انشاء أماكن جديدة للعبادة والتعليم ، مثل زاوية الجامع الاعظم بالجزائر التي بنيت بفضل مردود الاوقاف عام 1639 هـ/29 ــ 1630 م ، وأصبحت تضم طابقين من الغرف خصصت للمدرسين وطلبة العلم مما جعل مدينة الجزائر تتوفر على ست زوايا مخصصة لاقامة الطلبة ، ثلاثة منها لطلبة الجهات الغربية واثنتان لطلبة النواحي الشرقية ، وواحدة افردت لطلبة مدينة الجزائر (43) ، وهذا ما ساعد على انتشار العلم والمعرفة في أوساط السكان ، حتى أن أحد الكتاب الفرنسيين وهو راينال الذي تعرف على الجزائر اثر الاحتلال كتب ما يلي : «كان

يوجد بمدينة الجزائر عدد كبير من المدارس التى تتميز بانتهاج طرق تعليمية تشابه كثيرا نظم التعليم بفرنسا ··· ولا أظن انى مبالغ حين أؤكد أن التعليم الابتدائى كان أكثر انتشارا فى الجزائر منه فى فرنسا» (44)

2) ـ **الاحسان الى الفقراء والتخفيف من شقاء المعوزين** : يتكفل وكلاء الاوقاف بتقديم مبالغ مالية ومساعدات عينية للفقراء والمحتاجين ، فى شكل اعانات وصدقات تقدم فى أيام محددة ، ومواسم معينة مثل صدقة وكيل بيت المال التى توزع على 200 فقير كل يوم خميس (45) واعانة وكيل أوقاف سيدى عبد الرحمن الثعالبى التى يحظى بها عادة زوار الضريح من الفقراء وأبناء السبيل ، وتكفل وكيل الاوقاف بقسنطينة بتقديم نصيب من الزلابية لموظفى المساجد والطلبة فى منتصف شهر رمضان بعد أن يقتطع 300 ف من مدخول الاوقاف التى يشرف عليها لهذا الغرض (46) ·

3) ـ **الحد من المظالم والاحكام التعسفية للحكام** : كان الوقف يوفر وسيلة فعالة للمحافظة على الثروات والامـلاك والاراضى الموقوفة ، لكونها لا تباع ولا تشترى ولا يمكن حيازتها بتصرف أو استحواذ أو مصادرة ، وبالتالى لم يعد فى استطاعة الحكام وذوى النفوذ مد أيديهم الى الامـلاك المحبسة ، فرغم الظروف الصعبة التى عرفتها الجزائر أواخر العهد العثمانى والتى دفعت كثيرا من الحكام الى اصدار قرارات العزل والمصادرة والتغريم فان جل الاملاك الموقفة ظلت فى مأمن من تعسفاتهم وتجاوزاتهم نظرا للاحكام الشرعية الصريحة فى شأنها والتى لم يجسر أحد على انتهاكها أو التحايل عليها ·

4) ـ **تمكين العجزة والقصر من تسيير واستغلال مصادر رزقهم** : وذلك لكون الحبس الاهلى يسمح لصاحبه بكرائه مقابل عناء محدد يقره المجلس العلمى بعد وضعه فى المزاد العنى ، مما مكن فئات من المجتمع من المحافظة على مصادر دخل قارة ومضمونة ، كالنساء المطلقات والارامل غير الراشدات وبعض المعوقين ، ولهذا السبب بالذات نلاحظ كثرة النساء اللاتى كن يحبسن أملاكهن فعلى سبيل المثال تذكر أن هناك اثنين وعشرين امرأة وضعن أملاكهن وقفا على الجامع الاعظم بالجزائر (47) ، كما سمحت طريقة استغلال الحبس الاهلى استغلالا غير مباشر لبعض الجماعات من الموظفين المشتغلين بمهام وأعمال لا تسمح لهم بالتفرغ لاستغلال املاكهم كالمنخرطين فى

الجيش والمتـــولين لبعـض الوظـائف الخاصة ، من الانتفاع مـن ملكياتهم ، وهذا ما يؤكده توارد أسماء العديد من الموظفين والجنـــد فى وثـائق الحبس الاهـلى (48) ٠

5) ـ العمل عـلى تماسـك الاسرة الجزائرية وحفظ حقوق الورثة : فأحكام الوقف الاهلى تقـر لصالح الحبس أن ينتفع هو وعقبه بالحبس حسب الوصية التى يسجلها فى وثيقة الوقف فلا يصرف الحبس على الغاية التى وقف من أجلها الا بعد انقراض العقب وانتفاء الورثة وهذا مـا مكـن الاسرة الجزائرية مـن المحافظة على تماسكها وحال دون اقتسام الامـلاك أو بيعها أو رهنها من طـرف الورثـة ٠

6) ـ رعاية وصيانة المرافق العامة :

ساهمـت الاوقاف فى المحافظة عـلى بعض المـرافق العـامة مثـل العيـون والسواقى والآبـار والطـرق والمسالك التى خصت بأوقاف عديدة كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وهذا ما وفر للسكان خدمات أساسية وأوجد وسائل ضرورية للحياة لم تكن الدولة تهتم بها ولم يكن الحكام يحرصون عـلى توفيرها ، فـفى مدينـة قسنطينة كان وكيـل أوقـاف العيون يصرف حوالى 500 ف لنقل الماء الى الاحواض السبعة المنتشرة وســط المدينة بنسبـة حمولتين لكـل حـوض يوميا تكلف حمولة الفــل الواحــد 0,25 ف (49) ، وفى مـدينة الجـزائر ساهمت الاوقاف فى احداث كثير مـن العيون حتى بلـغ عددها مائـة بالمدينة وضواحيها فى منتصف القرن 18 م (50)

7) ـ انشـاء وترميــم الثكنـات والتحصينات المختلفة :

كان لعائدات الاوقاف الفضــل فى تشييد العديد مـن الثكنات والحصون والابراج والاسوار والبطاريات قصــد الدفاع عن البلاد ضد الهجمات البحرية الاوروبية وغارات القبائل داخل البلاد وكان أكثـرها يتـركز بمدينة الجزائر والجهات القريبة منها ، فـفى وســط المدينة كانـت الثكنات السبع تنــال نصيبا وافرا من عائدات الاوقاف تنفقه على رعاية الجند وصيانة المرافق بها ٠ وفى الجهات القريبة منها كانت الحصون المختلفة تنتفع بما يخصص لهـا مـــن أوقاف مثل حصن تافورة (باب عزون) وحصن مـولاى الحسن (الامبراطور) وبرج الزوبية (البرج الجديد) وحصن سيــدى تقليلالت (حصـن الانكليـز) وبرج العتار (المرسى) وبرج قامـــة الفول (حصن الانكليز) الذى نقتبس من وثيقة الحبس الخاصة به نصا (51)

على سبيل المثال نتعرف من خلالها عن نوعية هذه الاوقاف الخاصة بالحصون ، وقد جاء في هذه الوثيقة ما يلى : « وبعد ان كان المكرم مصطفى باشا فى التاريخ ابن المرحوم ابراهيم أحدث بقامة الفول خارج الوادى برجا معدا لمحاربة الكفار وكان مما رامه السيد مصطفى باشا من الحسنات استجلاب الماء للبرج من عين ماء جنته الكائنة بفحص زفارة المعروفة بجنة السناجى لمرور الماء ان يبتاع من الجنة الى أسفل جنته بتاريخ أوائل محرم 1195 هـ ... وقد انفق لتحبيس الماء على حصنه مقدار من المال قدر بـ 148 دينار ذهبا مقسطه على أماكن مرور ماء الساقية الى الحوض » .

هـ) ـ موقف الفرنسيين من الوقف في الجزائر : نظرت سلطات الاحتلال الفرنسى بالجزائر الى الوقف على أنه أحد المشاكل العويصة والقضايا الصعبة التى تحد من سياسة الاستعمار وتتنافس مع المبادىء الاقتصادية التى يقوم عليها ، وذلك لكون الوقف كان فى حد ذاته جهازا اداريا ووسيلة اقتصادية فعالة تحول دون المساس بالمقومات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية للجزائريين ، وهذا ما دفع قادة الجيش الفرنسى للعمل على مراقبة المؤسسات الدينية وتصفيتها والاستيلاء على الاحباس التابعة لها باعتبارها أحد العوائق التى كانت تحول دون تطور الاستعمار الفرنسى وتحول دون نجاحه وهذا ما دفع أحد الكتاب الفرنسيين الى القول : « بأن الاوقاف تتعارض والسياسة الاستعمارية وتتنافى مع المبادىء الاقتصادية التى يقوم عليها الوجود الاستعمارى الفرنسى فى الجزائر (52) ، ولهذا السبب بالذات عملت الادارة الفرنسية جاهدة لاصدار قرارات ومراسيم تنص على نزع صفة المناعة والحصانة عن الاملاك المحبسة ، هذه الحصانة التى لم يتردد أحد الكتاب الفرنسيين من وصفها بأنها تشكل أحد العوائق التى لا يمكن التغلب عليها والتى تحول دون الاصلاحات الكبرى التى هى وحدها القادرة على تطوير الاقليم الذى اخضعته أسلحتنا وتحويله الى مستعمرة حقيقية » (53) .

« l'inaliénabilité des biens habous ou engagés est un obstacle invincible aux grandes amélioration qui seules peuvent transformer une véritable colonie, les territoires conquis par nos armes ».

كان الهدف من تلك القرارات والمراسيم ادخال الاوقاف فى نطاق التعامل التجارى والتبادل العقارى حتى يسهل للاوروبيين امتلاكها بعد أن وضع الجيش الفرنسى بالجزائر العاصمة فى السنوات الخمس الاولى للاحتلال يده

على 27 مسجدا و 11 زاوية ومصلى (54) وكان أول قرار فرنسى يتعلق بالاوقاف قد صدر فى 8 سبتمبر 1830 وتضمن بنودا تنص على أن للسلطات العسكرية الفرنسية الحق فى الاستحواذ على أملاك موظفى الادارة التركية السابقة وبعض الاعيان من الكراغلة والحضر بالاضافة لبعض الاوقاف التابعة لمؤسسة أوقاف الحرمين وهذا ما أثار سخط واستنكار رجال الدين والعلماء واعيان مدينة الجزائر الذين رأوا فى هذا القرار انتهاكا صريحا للبند الخامس من معاهدة تسليم الجزائر (4 جويلية 1830) وكان فى طليعة المحتجين المفتى ابن العنابى ، مما حال دون مصادرة أوقاف الحرمين ٠

ثم تلا هذا القرار مرسوم فى 7 ديسمبر 1830 يخول للاوروبيين امتلاك الاوقاف ، عملا بتوصية كل من فوجرو ونلاندان الموظفين بمصلحة الاملاك العامة ، والرامية الى وضع الاوقاف تحت مراقبة المدير العام لمصلحة الاملاك العامة السيد جيراردان ، مع ابقاء المشرفين عليها من الوكلاء ، وهذا ما اعتبره رجال الدين وبعض الاعيان مخالفا للاحكام الشرعية ومنافيا للاتفاقيات المنصوص عليها فى معاهدة التسليم السابقة الذكر وكان فى طليعتهم المفتى محمد بن محمود ابن العنابى وابن الكبابطى وحمدان خوجة وبوضربة الذين اتضح لهم مدى خطورة هذا المرسوم بعد ان استولى المدير المدنى بيشون على 81 وقفا منها و 55 وقفا تابعة للحرمين و 11 وقفا تخص الجامع الاعظم مع بعض الاوقاف المخصصة للمرافق العامة كالطرق والعيون (55) ، لكن المرسوم اصطدم بصعوبات جمة حالت دون تنفيذ بنوده فبغض النظر عن رجال الدين والاعيان ، فان هذا المرسوم يفتقر الى خطة محكمة ودراسة وافية ، كما أنه لم يجد التأييد المطلوب من طرف الحاكم الفرنسى الجديد برتوزان الذى خلف كلوزال فى حكم الجزائر ، والذى فكر جديا اثر الصعوبات التى اعترضت تطبيق هذا المرسوم فى ارجاع الاوقاف المصادرة لمستحقيها رغم معارضة الوكيل المدنى بيشون لهذا الاجراء ، وهذا ما يجعلنا ننظر الى هذا المرسوم على أنه بداية خطة تكتيكية وفاتحة مرحلة انتقالية لتصفية الاوقاف استمرت 5 سنوات وانتهت بسيطرة الادارة الفرنسية على كل الاوقاف الجزائرية ٠ وقد بدأت هذه الخطة بالفعل فى 25 أكتوبر 1832 حين تقدم المدير العام لاملاك الدولة (الدومين) السيد جيراردان بمخطط عام لتنظيم الاوقاف الى المقتصد المدنى l'intendant

وقد حظى هذا المخطط بتأييد جانتى دوبوسى Genty de Bussy الامر الذى دفع السيد بلاندال Blondel بقبوله وتصويره ليتخذ شكل تقرير مفصل حول المؤسسات الدينية فى نهاية سنة 1834 ، وتقدم به الى اللجنة الافريقية الملكية المكلفة بالتعرف على أوضاع الجزائر فى مستهل سنة 1835 (56) ·

وبذلك امكن للسلطات الفرنسية بالجزائر فرض رقابتها الفعلية على الاوقاف وتشكيل لجنة لتسييرها تتالف من الوكلاء المسلمين برئاسة المقتصد المدنى الفرنسى الذى أصبح يتصرف بكل حرية فى ألفى وقف (2000) موزعة على مائتى (200) مؤسسة ومصلحة خيرية حسبما جاء في التقرير العام عن الاوقاف بتاريخ 10 ديسمبر 1835م (57)

وبمقتضى هذا الاشراف الفعلي على الاوقاف امكن للادارة الفرنسية بالجزائر ان تصدر قرارا آخر Ordonnance فى أول أكتوبر 1844 ينص بصريح العبارة على أن الوقف لم يعد يتمتع بصفة المناعة وأنه بفعل هذا القرار أصبح يخضع لاحكام المعاملات المتعلقة بالاملاك العقارية والامر الذى سمح للاوروبيين بالاستيلاء على كثير من أراضى الوقف التى كانت تشكل نصف الاراضى الزراعية الواقعة بضواحى المدن الجزائرية الكبرى (58) وبذلك تناقصت الاوقاف وشحت مواردها فلم تعد تتجاوز 293 وقفا منها 125 منزلا و 39 دكانا و 3 أفران و 19 بستانا و 107 عاء عام 1843 (59) وكانت قبل الاحتلال تقدر بـ 550 وقفا ·

ثم جاءت الخطوة التالية المتمثلة فى مرسوم le décret 30 أكتوبر 1858 الذى وسع صلاحيات القرار السابق واخضع الاوقاف لقوانين الملكية العقارية المطبقة فى فرنسا وسمح لليهود وبعض المسلمين بامتلاكها وتوارثها (60) · واعقب هذا الاجراء القرار الاخير الذى عرف بقانون 1873 والذى استهدف تصفية أوقاف المؤسسات الدينية لصالح التوسع الاستطانى الاوروبى فى الجزائر وبذلك فقد الجزائريون احدى الوسائل المادية والروحية والثقافية للوقوف على وجه مطامع الاستعمار ومخططاته الرامية الى القضاء على المقومات الاقتصادية والاسس الاجتماعية للشعب الجزائرى المسلم ، ومما تجدر ملاحظته فى ختام هذا البحث ان الوقف رغم الفوائد المباشرة وانعكاساته الايجابية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية الا أنه لا يخلو من سلبيات على النشاط الاقتصادى والعلاقات الاجتماعية ، فهو

قد ساعد على تمايز الطوائف السكانية تبعا لمختلف المؤسسات الدينية والاوقاف التابعة لها مما حافظ على هيكل كـل جماعة على حدة من اشراف واندلسيين وأتراك ومنتسبين الى الحرمين الشريفين زيـادة عـلى أن الاوقاف كانت احـدى العوامل التى ساهمت فى تجميد الملكية الفردية والحيلولة دون انتقال الدورة المقـارية تبـعا للنشاط الاقتصادى واحرام الوراثة ومعاملات البيع والشراء مـما تسبب فى الانكماش الاقتصادى والجمود الاجتماعى قبل الاحتلال ، ومع ذلك فاننا نرى أن الوقف باعتباره عاملا اجتماعيا وحافزا ثقافيا وجهازا اداريا ووسيلة اقتصادية له فضل كبير عـلى تماسـك المجتمع الجزائـرى وتـوفير الخدمات الضرورية لافراده والحيلولة دون تنفيـذ المخططات الاستعمارية فـى الفترة الاولى من الاحتلال ، فلم يستطع الفرنسيون تصفيته الا بعـد الاستيلاء عـلى العـديد مـن المسـاجد والزوايا والمدارس التى نثبتها فى القائمة الدينية التالية (61) ، حتى نتعرف على مـدى خطورة الاستعمار الفرنسى على الاوقاف ومؤسساته •

قائمـة بالمساجـد والـزوايا التى استـولى عليـها الفرنسيـون بمـدينة الجـزائر فى العـامين الاولـين للاحتـلال

- مسجد الشواش •
- مسجد الشماين •
- مسجد الجنائـز •
- مسجد المـرسى •
- مسجد سيدى حدى •
- مسجد باب الجزيرة •
- مسجد الكشاش القديم •
- مسجدخضير باشا •
- مسجد عبدى باشا •
- مسجد سوق اللوح •
- مسجد قاع السور •
- مسجد سوق الكتان •
- مسجد العين الحمراء •
- مسجد ضباط الحوت •
- مسجد على باشا •
- مسجد بيدى عامر الشنى •
- مسجد على خوجة •
- مسجد حسين بالقصبة •
- مسجد القصبة •
- مسجد فرن القشور •
- مسجد ستى مريـم •
- مسجد على بتشنى •
- مسجد على خوجة •
- مسجد كتشاوة •

ـ مسجد سيدى الرجى ·
ـ مسجد سيدى سعدى ·
ـ مسجد سيدى جامعى ·
ـ زاوية سيد الصيد ·
ـ زاوية سيدى بتكتة ·
ـ زاوية كتشاوة ·
ـ زاوية الكشاش بالمرسى ·
ـ زاوية الانكشارية بالقصبة ·
ـ زاوية تشيكتون ·
ـ زاوية الانكشارية القديمة ·
ـ زاوية محمد ميزومورقو ·
ـ زاوية الولى سيدى الغبرينى بالمرسى·
ـ مصلى الانكشارية القديم بالقصبة ·
ـ مصلى الانكشارية الجديد بالقصبة ·
ـ مصلى سيدى عبد الرحمن ·

الهــوامش والتعليقـــات :

(1) Mercier (E.) : *Le Habous ou Oukaf*. Alger. Jourdan 1895, p. 51.

(2) كما هو معروف أهلية التبرع بالحبس يشترط فيها البلوغ وصحة الملكية وأحقية التصرف فيها ·

(3) راجع دراستنا حول وضعية الاوقاف العقارية بفحص مدينة الجزائر أواخـر العهد العثمانى ، التى قدمت فى ندوة المؤسسات الدينية بالمغرب العربى المنعقـدة بجامعة برلين الحرة فى شهر مارس 1980 ، وهى فى طريق النشر باللغتين العربية والفرنسيـة ·

(4) الارشيف الوطنى الجزائر ، الوثائق الشرعية ، علبة 106 رقم 208 ـ 53 ·

(5) حمدان بن عثمان خوجة ، كتاب المرآة ، ترجمة وتقديم محمد بن عبد الكريم ، بيروت 1972 ، ص 237 ·

(6) الشيخ عبد العزيز خياط ، أوقاف القدس عن تاريخ الدر المنتقى ، مع العلـم بأن ابى يوسف اشترط لصورة الوقف ان يسلم للمتولى وان يكون مفرزا ومؤيـدا وغير مشترط ·

(7) Mercier (E.) : *Le Code du Habous*. Constantine 1899, p. 10.

(8) Idem, p. 34,

(9) Robe (E.) : *Origine et formation et état actuel de propriété immobilière en Algérie*. Paris, Challamed 1885, p. 58.

(10) الشيخ عبد العزيز خياط ، نفس المصدر ، اعتمادا على تاريخ الدر المنتقى ·

(11) Brossard : *Les inscriptions religieuses de Tlemcen.* In Revue Africaine 1859, p. 413.

(12) التميمي ، عبد الجليل ، من أجل كتابة تاريخ الجامع الاعظم بمدينة الجزائر المجلة التاريخية المغربية ، جويلية 1980 عدد 19 ـ 12 ، ص 160 ·

(13) Férand (L.) : *Un vœu d'Hussein Bey de Constantine,* 1807, in Revue Africaine 1863, pp. 91 - 92.

(14) Tableau de la situation des établissements français en Algérie. Année 1837.

(15) التميمي ، نفس المصدر ، ص 165 ·

(16) Vallière (Ch.) : Mémoire, l'Algérie en 1781. Publiés par L. Chaillon. Toulon S.D., L 31.

(17) Archives du Ministère de la Guerre de Vincennes à Paris (A.M.G.) H 226.

(18) Féraud (L.) : *Les anciens établissements religieux musulmans de Constantine.* in Revue Africaine 12 - 1868, pp. 125 - 126.

(19) صالح خرفي ، الجزائر والاصالة الثورية ، اعتمادا على مقال ينسب الى الصفحى الجزائرى ابن قدور نشر بجريدة اللواء عدد 2153 بتاريخ 7 أكتوبر 1906 ·

(20) مما يلاحظ أن بعض المدن الكبرى كانت تتميز بتنظيماتها الخاصة لشـؤون الاوقاف مثل مدينة قسنطينة التى كان يتولى بها قائد الدار مهام ناظر الاوقاف ويعين مباشرة من طرف الباى ، وليس للمفتى المالكى سلطة أو مراقبة عليه ، راجع وثائق الارشيف الفرنسى السابق الذكر : ص 226 ·

(22) مثل فاتور دو بارادى الذى يطلق عليه لقب المتولى ، راجع :
Venture de Paradis, Alger au XVIII[e] siècle, in Revue Africaine N° 219 - 1895, p. 275.

(23) Féraud : *Les anciens,* pp. 130 - 131.

(24) نور الدين عبد القادر ، صفحات فى تاريخ مدينة الجزائر ، نشر كلية الآداب الجزائر ، ص 76 ·

(25) Féraud : *Les anciens,* pp. 130 - 131.

(26) Yacon (X.) : *La régence d'Alger en* 1830 d'après l'enquête des commissions de 1833-1834. In Revue d'Occident musulman et de la Méditerranée N° 1/1966.

(27) Busson de Jenssen (S.) : *Contribution à l'étude des herbons publics algériens.* Thèse, Alger 1950, p. 27.

(28) يختلف عدد اوقاف الحرمين باختلاف المصادر ، فهى حسب تقرير مدير الاملاك العامة «جيراردان» 1400 وقفا بمدينة الجزائر وضواحيها · وفى جدول المؤسسات الفرنسية فى الجزائر 1419 ، وفى تقرير اول سبتمبر 1837 ـ 1414 ، وعنـــد جانتى بوسى تقـدر بـ : 1417 ·

(29) Devouls, notice, pp. 14 - 15.

(30) Yver (G.) : *Mémoire de Bouderbah.* In Revue Africaine 57 - 1913, p. 240.

(31) Aumerat (F.) : *La propriété urbaine et le bureau de bien faisance musulman d'Alger.* In Revue Africaine 41 - 1897, p. 323.

(32) ذكر بانانتى ان مدينة الجزائر تضم 50 مسجدا صغيرا و 9 مساجد كبرى ، و 3 مدارس فى وقت كان فيه عدد سكانها يناهز 120 الف نسمة • كما ذكر لوجى دوتاسى (1725) ان مدينة الجزائر بها 10 مساجد كبرى و 50 مسجدا صغيرا ، بالاضافة الى ثلاث مدارس ، وحسب احصاء دوفو ان عدد مساجد الجزائر 122 مسجدا منها 109 مساجد صغيرة و 13 مسجدا كبيرا • كما ذكر ابن حرة اوميرا ان عدد المساجد بالجزائر عام 1830 كان يبلغ 103 منها 89 مسجدا مالكيا و 14 حنفيا ، بينما تقرير أول سبتمبر 1837 الذى وضعته السلطات الفرنسية يحدد عددها بـ 107 مسجدا وزاوية • ولا يختلف عن هذا التقرير كثير المعلومات التى أدلى بها بوضربة الذى قدرها بـ 106 مساجد منها 92 خاصة بالمذهب المالكى و 14 تابعة المذهب الحنفى •

(33) Devouls (A.) : *Les édifices religieux de l'ancien Alger.* In Revue Africaine 1867, pp. 383 et 385.

(34) اعتمادا على مقارنة العديد من المصادر ووثائق الارشيفات ، راجع الارشيف الوطنى الفرنسى لما وراء البحار فـ 80 ـ 1632 ، تقرير اول سبتمبر 1837 وكذلك الارشيف الوطنى الجزائرى ، عليه 35 سجل 354 •

(35) Aumerat, op. cit., p. 329.
Emerit (M.) : *L'état intellectuel et moral de l'Algérie en* 1830. In Revue d'histoire moderne et contemporaine 1954, p. 200.

(36) Archives Nationale d'Outre-Mer à Aix-en-Provence, France (A.O.M.) F 80 - 1632. Rapport du 1° septembre 1842.

(37) Tableau, op. cit., année 1837.

(38) Idem, p. 287.

(39) A.O.M. F 80 - 1932 - 2 corporations. Réponse aux questions de M. le Directeur des Finances, 30 septembre 1842.

(40) Devoulx : *Les édifices*, pp. 377 - 381.

(41) Emerit. Op. cit., p. 203, d'après Rapport Resseau en 1847.

(42) A.M.G. H. 226, p. 46.

(43) Emerit. Op. cit., p. 203.

(44) Raymand : *De la domination française en Afrique.* **Paris 1832, p. 28.**
Aumerat. Op. cit., pp. 7 - 8.

(45) Aumerat. Op. cit., pp. 7 - 8.

(46) A.M.G. H. 226, p. 46.

(47) التمــيمى نفس المصدر ٠

(48) حسبما يستخلص من وثائق المحاكم الشرعية الجزائرية التى تعود للفتــــرة العثمانيــة ٠

(49) A.M.G. H. 226, pp. 50 - 51.

(50) Lespes (R.) : Alger, Esquisse de **géographie urbaine. Paris 1930, p. -75 - 176.**

(52) Zeys, cité par Terras. Essai sur les biens **habous** en **Algérie** et **Tunisie. Lyon 1899 p. 68.**

(53) Blanqui : *L'Algérie, rapport sur la situation économique de nos possessions dans le nord de l'Afrique.* Paris 1840, 228.

(54) راجع القائمة الملحقة بآخر البحث والمتضمنة اسماء المساجد والزوايا الــتى استولى عليها الفرنسيون فى مدينة الجزائر ما بين 1830 ـ 1832 ٠

(55) A.O.M. F. 80 - 1673.

(56) A.O.M. F. 80 - 1632. 2ᵉ réponse aux questions.

(57) A.O.M. F. 80 - 1632. 2, 30 septembre 1842.

(58) Berthaul : *La propriété rurale en Afrique du Nord.* in **Revue l'Afrique Française N° 4,** 1936, p. 211.

(59) A.O.M. F. 80 - 1632. Etat daté 1843.

(60) Terras. Op. cit., p. 7.

(61) Klein (H.) : *Les fenillets d'El-Djazaïr,* **Alger. Fontana 1937, p. 1.**

الرياضيـــات عند العــرب

د. عبد القادر حليمى

الحضارة سلسلة وللعرب فيها حلقة قيمة

ربما ظهر هذا العنوان هزيلا لــدى بعض القراء مــن الذيــن يقولــون ان المعارف القديمة لا تهمنا ، لاننا فى عصر الذرة ، والعقول الالكترونية التى سلكت شوطا بعيدا عن كل ما هو بال وعتيق ، ثم ان القدماء سواء اكانوا عربا أم غيرهم لم تكن آراؤهم صائبة فى نواحى شتى من المعارف . ومن هنا كانــت الفائدة فى البحث عن الرياضيات عند العرب محدودة للغاية ، اللهم الا مــن ناحية التاريخ والتسلية بالماضى عــن الحاضر ، أو قل من الوجهة الاثريــة يمكن أن يدخل هذا الموضوع ، مثلـــه مثل البقايا فى المتاحف .

والواقع ان هؤلاء الذين يقولون بهذا الرأي قد غلطوا ويغلطون كل المغالطـة ما داموا يهملون جانبا مهما من أسس الاختراع ويغضون الطرف عن اصالة طبيعية المعرفة . ولنا فى هذا أدلـــة كثيرة ، منها ان العلم بمفهومه الواسع قديم بقدم الانسان . وان التراث الذى خلفه الاقدمون والتطورات التى تعاقبت منذ الاجيال القديمة هي التى أوصلــت الانسان الى ما وصل اليه حاليا . ولا يمكن أن نتصور عالما أو مثقفا دون أن يسبق له تعليم والاخذ عن غيره ، والا لكانت المعجزة التى يقتصرها الخالق على من يريد ، اذ هو الذى يؤتى الحك[illegible] من يشاء ، ثم ان التعمق فى البحـ[illegible] والوصول الى معرفة أصل الشيء هــو أساس الاكتشافات . لهذا نقول فلولا جهود العرب فى تطوير الرياضيـــات واصلاحها واضافة عدة أشياء لها لبدأت النهضة الحديثة الاوروبية من حيث بــدأ العرب ، ولتأخرت النهضة الحديثة بمدة زمانية تساوى على الاقــل المــدة الــتى

طور فيها العرب تلك العلوم العتيقة · فالعلم سلسلة ذات حلقات متصلة وان كل جيل له حلقته الخاصة فيها بحيث لا يمكن أن تستقيم هذه السلسلة دون هذه الحلقة · ذلك أن آثار الفكر البشرى يجب أن ينظر اليها ككائن ينمو ويتطور · وان كل فكرة أو اختراع ما هو فى الواقع الا دور من أدوار أو مرحلة من المراحل الحضارية مهيئة لمرحلة تالية لها ومبنية على مرحلة سابقة لها · ومعنى هـذا انه لا يمكن معرفة الحاضر الا بالرجوع الى الماضى · فمثلا لولا محمد بن موسى الخوارزمى المتوفى سنة 232 هـ الموافق لسنة 837 م · وابن الهيثم وهو الحسن بن الحسن بن الهيثم أبو على المهندس البصرى نزيل مصر والمتوفى سنـة 430 هـ الموافق لسنة 1038 م لما ظهر جاليلى الايطالى المتوفى سنة 1642 م ولما اشتهر السير اسحاق نيوتن الانجليزى المتوفى سنة 1727 م بنظرياته فى علم الطبيعة والفلك·ولولا ابن الهيثم لاضطر نيوتن أن يبدأ فى بحثه حيث بدأ ابن الهيثم · ولو لم يظهر جابر بن حيان لبدأ جاليلى من حيث بدأ جابر · وبايجاز فلولا النهضة العربية والحضارة الاسلامية لما بدأت النهضة الاوروبية فى القرن الرابع عشر للميلاد بل لبدأت فى القرن الثامن للميلاد وبذلك لتأخرت نهضتنا بستة قرون تقريبا ، فالماضى هو مفتاح الحاضر · هذا ولا نريد فى الاشادة بأمجادنا أن نقول : « اقعد فانت الطاعم الكاسى » ، ولا نريد ترديد القائل : « كان أبى » لكن نقصد : ما نحن الا كالامم التى نعاصرها لا نقل عنها مستوا فى الذكاء والقدرة على بناء سرح الحضارة ، وان تقدمت عنا أشواطا ، واننا للمجد لبانين ، وللركب لزاحفين ، وللمستقبل لمتطلعين ·

بعض التقويمات الحضارية

فالحضارة العربية ظاهرة طبيعية مثلها مثل الحضارات السابقة عنها واللاحقة لها ، وان كان البعض يريد الحط من قيمتها عمدا أو جهلا بقوله : لم يزد العرب عن نقلهم للتراث القديم · بل نقول ان العرب نقلوا واضافوا الى العلم لبنات ، ففى نقلهم روح وحياة ، وابتكار وتصويب لمفاهم خاطئة ظلت مدة طويلة من الزمن تقف حجر عثرة أمام تطور العلوم · وربما هذه الانطلاقة العربية تعود فى أصلها الى الدين الحنيف الذى يحث على المعرفة ، ويأمر بنشرها، على عكس ما كانت تتمسك به بعض الفلسفات القديمة ، مثل الفلسفة الاغريقية فى بعض مراحلها حيث يطالعنا التاريخ ان اتباع فيتاغورس كانوا يحرمون الافشاء بأسرار الارقام، وانهم قتلوا أحد زملائهم غرقا اسمه هبا سوس فى القرن الرابع قبل الميلاد لانه أفشى للعامة بسر الرياضيات ، كما احتفظ الكهنة المصريون فى عهد الفراعنة بأسرار كهنوتهم ، ومعانى

طلاسيمهم حتى لم يعرف لحد الآن عملية التحنيط لديهم ·

والرياضيات من العلوم التى نالت الشيء الكثير من اهتمام العرب وعنايتهم · لقد برعوا فيها واضافوا لها اضافات كثيرة وقيمة ، أعجبت غير المتعصبين من علماء الغرب وادهشت المنصفين لهم ، لذلك اعترف لهم أولو الالباب بالبراعة والاختراع ، والفضل الكبير الذى لا يمكن أن يستهان به · ويكفيهم فخرا انهم جمعوا العلوم القديمة المتنوعة من كل الحضارات العريقة : بابلية ، فرعونية ، يونانية ، هندية ، وبعد مزجها وتنخيلها خرجوا بخلاصة ظل معمول بها حتى الوقت الحاضر ·

فالفوا الكتب الكثيرة فى علم الحساب، وكان لهم أسلوب خاص فى اجراء العمليات الحسابية ، وهم الاولون فى وضع الجداول المتنوعة · وكانوا يوردون طرقا عديدة لكل عملية ، مما يدل على سعة ادراكهم ، من هذه الطرق ما كانت خاصة بالمبتدئين ومنهم ما كانت خاصة بالباحثين ، هذا فى الفترة التى كانت فيها أوروبا يخيم عليها الجهل والظلام لسيطرة الكنيسة عليها وتعصبهم للمسيحية الخاطئة ، وتحريم رجال الكنيسة على العوام تعاطى الحضارة الاسلامية ومنع المجتمع المسيحى عن الاتصال بالاسلام والمسلمين خشية الكفر والظلال كما يزعمون أو خشية رؤية نور المعرفة القيمة ، على القول الصحيح · لذلك لم تدخل الارقام العربية الى أوروبا حتى القرن 12 للميلاد ، حيث تطالعنا أول قطعة نقدية كتبت عليها الارقام العربية فى صقلية تعود الى سنة 1134 · أما بقية ايطاليا فقد ظلت فيها الارقام العربية مجهولة حتى منتصف القرن الرابع عشر · بسبب تعصب الكنيسة التى حرمت بقرار سنة 1259 استعمال أرقام الكفار (أي المسلمين فى زعمهم) · بل ذهبت جامعة بادو فى ايطاليا سنة 1348 الى اصدار أمر الى أمناء مكتباتها باستبدال الارقام بالحروف خشية تسرب الارقام العربية الى البلاد المسيحية · لكن هذا التشدد لم يمنع بعض المغامرين من رجال الكنيسة وهم من أولئك الذين كانوا يدعون الى التجديد ، من السفر خفية الى اسبانيا والاتصال بالمسلمين والاخذ عنهم بالدراسة فى جامعاتهم ، والاطلاع على سر تقدمهم · ومن هؤلاء المغامرين يذكر لنا التاريخ أدلرد دى باث الذى تزي بزي المسلمين سنة 1120 وذهب الى بلاد الاندلس واستطاع أن يدرس مدة زمنية بجامعة قرطبة باللغة العربية على علماء مسلمين ، ثم رجع الى بلاده حاملا نظريات الخوارزمى ومؤلفات عديدة باللغة العربية منها ما ترجمه العرب لاقليدس ، ثم ترجم ادلرد هذه الكتب الى اللغة اللاتينية · ومن المغامرين المسيحيين يذكر أيضا لنا التاريخ جيرارد دى كريمون الذى ذهب فى نفس الفترة الى جامعة طليطلة ، وأخذ فيها

المعرفة عن أساتذة مسلمين ، ثم رجع الى بلاده حاملا معه ما يزيد عن 90 مصنفا عربيا ، ترجمه الى اللغة اللتينية، منها كتاب الماجسطى لبطليموس الذى ترجمه وصلحه العرب فى العهد العباسى الاول . ولعل أشهر المغامرين فى هذا المجال ليونارد فيبوناسى الذى تعلم العربية فى بلاد الاندلس عن اساتذة مسلمين كما أخذ عنهم معارف شتى وهو يظهر الاسلام ويخفى الكفر ثم رجع الى بلاده فى ايطاليا حوالى سنة 1228 حاملا معه ذخائر العلم باللغة العربية منها كتبا فى الرياضيات وأخرى فى علم الفلك والهندسة ، وما وصل اليه البحث فى ذلك الزمن لدى المسلمين ، وكان لهذا القسيس شأن بعيد فى نشر النور الاسلامى والمعارف العربية على طلاب جامعات صقلية ، خاصة جامعة سالرم التى درس بها عدة سنوات ، فى الفترة التى ظل فيها شمال أوروبا يحرم الاتصال والاحتكاك بالمسلمين ، اذ لو اتيحت الفرصة لديدرو الفرنسى المشهور بالفلسفة والمؤسس لدائرة المعارف (1751) ، ان يتعلم ولو قليلا لما جاء به المسلمون فى العلوم الحسابية، لما وقف صامتا أمام ايلير الرياضى القيصرى الروسى البسيط ، عندما تجادلا أمام الجمهور وفى قصر قيصر روسيا عن وجود الاله . فالقصة تروى لنا ان ديدرو كان ثائرا على الديانة المسيحية وغير معترف بوجود الاله وانه من الماديين ، وبينما هو نزيل قيصر روسيا أثناء الثورة الفرنسية قيل له ان هناك عالما فى الحساب قد اثبت وجود الاله بمعادلة رياضية،فنكر ديدرو هذا الادعاء ، لكن القيصر استدعى كلا من ديدرو وايلير لحضور احتفال عظيم فيه يتناقش العالمان لاثبات من هو على حق ومن هو على ظلال .

وعندما اجتمع الرجلان بادر ايلير الرياضى ديدرو الفيلسوف بقوله : ان $\frac{أ+ب^{ن}}{ن} = س$ اذن فالله موجود . فدهش ديدرو لهذا الكلام الغريب ، وظن ان هذه الحروف عبارة عن طلاسيم اذ انه لم يسمع بها من قبل ولم يعرف ان هذه الحروف ما هي الا هي رموز لارقام ، ولو عرف ان الجبر هو اللغة التى نستعمل فيها الحروف بدل الاشياء لسأل ايلير عن معنى هذه الرموز ، ولفهم ان صاحبه يقصد بكلامه ان العدد س يمكن الحصول عليه باضافة الى الحرف (أ) العدد (ب) مضروبا فى نفسه ن مرات ثم قسمة الحاصل على العدد (ن) نفسه . وبلغة الارقام مثلا العدد 3 يمكن الحصول عليه بجمع العدد 1 الى العدد 2 مضروب فى نفسه 3 مرات ثم قسمة الناتج على 3 .

لكن ديدرو خشي من هذه الطلاسيم وانسحب من المجلس واجلا من لغة الرياضيات بعد أن تعالت أصوات الجماهير بالضحك ، ومن ذلك الحين لزم ديدرو غرفته يفكر فى هذه الفضيحة التى نزلت به ، ثم طلب من القيصر رخصة الرجوع الى بلاده . ولو كان ديدرو أحد

طلاب الجامعات العربية فى الاندلس او فى بغداد أو فى القاهرة أو فى المغرب أو فى بجاية أو فى تونس لسأل ايلير أن يفصح عن كلامه وعندئذ لاتضح لدى الجمهور ان المعادلة التى جاء بها ايلير ما هي الا معادلة بسيطة للغاية ، ولضحك الناس من كلام ايلير بدلا من ضحكهم على ديدرو ، لكن هذه هي عاقبة الجهل والتعصب وما كانت تدعو اليه الكنيسة المسيحية التى ظلت مدة طويلة من الزمن تحول دون انتشار نور المعرفة العربية خشية دخول الاوروبيين فى الدين الحنيف ٠

نشأة الحساب والاعداد :

ان المتتبع لتاريخ الآثار البشرية يلاحظ ان الحساب فى حد ذاته يمثل مرحلة من مراحل تطور التفكير البشرى ٠ ذلك ان انسان العصر الحجرى القديم الذى كان يأخذ من الطبيعة ما جادت به عليه لم تدفعه الحاجة الى التفكير فى الحساب : بل ان فكرة الحساب ربما ظهرت لاول مرة لدى الانسان عندما بلغ مرحلة الحضارة الزراعية وتربية الماشية والمبادلات ٠ ففى هذه المرحلة بالذات فكر الانسان فى ثروته ، كتفكيره فى عدد أغنامه ، وما يجمعه من حبوب وفواكه او ما يخزنه لوقت الحاجة وتوالى الفصول الزراعية ، وفيما يقبضه مقابل ما يدفعه ٠ فهذه الاستعمالات للعقل البشرى تعد المرحلة البدئية لنشأة الحساب التى تلت مرحلة نشأة الارقام ثم مرحلة الرياضة ٠ ولا شك ان الانسان فى بداية حساباته كان يستعمل ما يجده حوله لتعبير عن الوحدات القياس ، نيستعمل مثلا أصابعه للدلالة على الارقام ، كاستعمال أصابع احدى اليدين للدلالة على الخمسة وأصابع الايدين الاثنين للدلالة على العشرة وبهذا يظهر ان عده كان محدودا للغاية ٠ وربما لم يزد عن عدد اصابعه ٠ اذ هناك قبائل بدائية كانت تعيش حتى زمن قريب لا تعرف من العدد أكثر من خمسة ٠ ولقد أثبتت التحريات الحديثة ان العلوم الرياضية ميدان اشتركت فيه قرائح عديدة وحضارات متنوعة ، وشعوب كثيرة ٠ فالمصريون مثلا عرفوا الحساب منذ آلاف السنين ، واستعملوه فى حضاراتهم القديمة ، ويتجلى هذا فى اهراماتهم ومسلاتهم وهياكلهم ، وأحسن دليل على درايتهم بعلم الاحصاء ما نفهمه مما جاء فى القرآن الكريم عن قصة يوسف عليه السلام : « **وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات ، يا أيها الملأ افتونى فى رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون** » ٠ كما تحقق لدى الكثير من علماء الآثار ان المصريين استعملوا المعادلات ذات الدرجة الاولى، واتوا فى حلولها بطرق صحيحة ٠ ولم يكن البابليون أقل دراية فى الرياضيات من المصريين حيث استعملوا النظام الستينى ، وعرفوا مربعات الاعداد ومكعباتها ٠ وقسموا محيط الدائرة الى

ستة أقسام متساوية ثم الى 360 قسما متساويا . وعرفوا اشكالا هندسية كثيرة منها المربع والمثلث . أما الهنود فقد اخترعوا النظام العشرى وبذلك قدموا خدمات جليلة للحضارة الحديثة، وقد برزوا فى الحساب والجبر براعة لم يسبق لها مثيل ، وعنهم أخذ العرب الكثير، منها سلسلة الارقام ، وحل بعض المعادلات . وفى الهندسة عرف الهنود المربعات والمستطيلات والعلاقة بين الاقطار والاضلاع ، وربما سبقوا فيتاغرس فى نظرية التناسب . وبينوا ان نسبة طول الدائرة الى قطرها ثابتة، وقدروها بجدر عشرة كمان جاء عن أريابهاتا الذى اشتغل بالمعادلات وحلولها . واعتنى اليونانيون ، الذى كانت لهم اتصالات وثيقة بجيرانهم من المصريين والبابليين والفينيقيين ، بالرياضيات والهندسة . وقد نقلوا عن هذه الامم المجاورة لهم الكثير من نظرياتهم المعمول بها حتى الآن ، فطاليس مثلا الذى كان يعيش فى القرن السادس قبل الميلاد (640 ــ 548 ق م) والمشهور بنظرياته الهندسية والرياضية قد زار مصر وشاهد اهراماتها قبل أن يضع نظرياته الهندسية . وفيتاغورس المولود بساموس حوالى سنة 570 ق م المشهور بالرياضيات وعلم الفلك خالط المصريين قبل البرهنة على ان مربع الوتر فى المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع مربع الضلعين الباقيين . فاليونانيون آخذوا عن المصريين العلوم دون الديانة مثلهم فى ذلك مثل الاتحاد السوفييتى مع الولايات المتحدة حيث ان الروس فى الوقت الحالى يحاربون النظام الرأسمالى ويستعملون المهندسين الامريكان فى مشاريعهم الاقتصادية وتطوراتهم التقنية . ولسنا بحاجة الى القول بأن كتاب اقليدس فى الهندسة هو أهم الكتب التى وضعت فى هذا العلم ، بل هو المنبع الذى استقى منه علماء الغرب والشرق على السواء ، والمنهل الذى لا يزال ينهل منه علماء الهندسة ويرجع اليه الاساتذة والمعلمون وكان أستاذا يونانيا بجامعة الاسكندرية (300 ق م) .

فعلم الحساب ظهر عندما ظهرت حاجة الانسان اليه ، فاليونانيون الذين ألفوا فيه كتبا عديدة كانوا يعيشون فى عالم رأوا فيه المعابد ترفع بعد رسمها على الرمل ، وقياس ابعاد زوايا النجوم، وتحديد الارتفاع بقياس الظل ، ورسم الاشكال على الطين الخ . وعلى أي حال يكون من الخطأ التصور فى أن علم الحساب نشأة صدفة أو بعيدا عن الاستعمال ، أو اخترعته طبقة من طبقات المجتمع البشرى دون ان تكون لها اتصالات بالعالم الواقعى .

كما يكون من الخطا التصور فى ان الحساب هو علم اخترعه أحد الناس من العدم أو اخترعته أمة من الامم السابقة بل ان علم الحساب وما صاحبه من اختراعات للارقام عبارة عن آثار

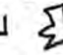
انسانية ومجهودات عقلانية عبر الازمنة الطويلة ، ظل يتطور حتى الوقت الحالى ٠

ما أحدثه العرب فى الرياضيات :

بعد أن فتح العرب بلاد الفرس والهند ومصر والشام شاهدوا ما لهذه الامم والشعوب من تقدم حضارى ، وتنظيم ادارى، وتراث قيم٠فبدأوا اولا بنقل هذا التراث وجمعه ثم ترجمته الى اللغة العربية حتى يكون فى متناول كل الناس ٠ وانطلاقا من المبادىء الاسلامية فى أن المعرفة حق لكل انسان ، انفقوا فى ذلك أموالا كثيرة ، وما كان يهمهم المال فى سبيل المعرفة ، ولا المشاق فى سبيل اكتشاف الحقائق ٠ وهذا النبى عليه السلام يقول:اطلبوا العلم ولو فى الصين ٠ وبعد أن هضم العرب هذه العلوم وصححوا ما فيها من أخطاء أضافوا اليها اضافات كثيرة اثارت الاعجاب والدهشة لمن جاء من بعدهم من علماء الغرب ٠

ولعل من أهم ما برع فيه العرب هو علم الرياضيات وعلم الفلك ٠ وسنقتصر فى موضوعنا هذا على علم الرياضيات فقط وان كان القدماء لا يفصلون بينهما، ولا بين علم الحساب وعلم الجبر ، لما بين هذه العلوم من ارتباطات وثيقة ٠

نظام الترقيم :

لم يكن للشعوب القديمة قبل ظهور الاسلام ترقيم موحد كما لم تكن لها مكاييل ومقاييس موحدة ٠ بل كان لكل شعب أو قل لكل حضارة ارقامها الخاصة بها ٠ فالمصريون مثلا استعملوا الرموز الآتية منذ حوالى الثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد :  للتعبير عن الآحد و  للتعبير عن العشرات و  للتعبير عن المئات و  للتعبير عن الآلاف ٠ والسومariون كانوا يستعملون الرمز  للدلالات على الآحاد والرمز < للدلالة على العشرات ٠ والسريانيون استعملوا الرمز \ للدلالة على الواحد والرمز  للدلالة على اثنين ٠ واليونانيون استعملوا الحروف للدلالة على الارقام مثال :

α	θ	κα	εθ	ρξθ
1	9	21	69	169

كما استعمل الرمانيون رموزا أخرى للتعبير عن الارقام وهي عبارة عن شرط عمودية متوازية أو متقطعة كما استعملوا الحروف أيضا مثل :

I	II	III	IIII	V	VI	VII	VIII
1	2	2	4	5	6	7	8

IX	X	L	C	M
9	10	50	100	1000

وكل هذه الارقام كانت مبنية على أساس الجمل ، لذلك وضع العرب فى أول الامر لكل حرف رقما خاصا به للدلالة على الارقام ٠ فكان جدول ارقامهم كالتالى :

ا	ب	حـ	د	هـ	و	ز
1	2	3	4	5	6	7

ح	ط	ى	ك	ل	م	ن
8	9	10	20	30	40	50

س	ع	ف	ص		
60	70	80	90		
ق	ر	ش	ت		
100	200	300	400		
ن	خ	ذ	ض	ظ	غ
500	600	700	800	000	1000

أما رموز الاعداد التى تزيد عن الالف فتكتب باضافة الحروف الى بعضها مثال لذلك 2000 تكتب : بغ و 20000 تكتب : كغ الخ ...

ووجد العرب من أرقام الجمل صعوبات فى الانطلاق نحو العمليات الحسابية لذلك راحو يبحثون عن الرموز الاقرب للاختصار والتعبير ، فوجدوا بغيتهم فى الارقام الهندية . ويذكر البيرونى ، وهو محمد بن أحمد أبو الريحانى المولود بخوارزم عام 362 هـ 973 م . المشهور بالرياضيات ، ان صور الحروف وارقام الحساب ، تختلف باختلاف المحلات . وان العرب أخذوا أحسن ما عند الهند ، فلقد كان عند الهنود اشكال عديدة للارقام ، فهذب العرب بعضها ، وكونوا من ذلك سلسلتين ، عرفت احداهما بالارقام الهندية ، وهي التى تستعملها بلادنا وأكثر الاقطار الاسلامية والعربية . وعرفت الثانية باسم الارقام الغبارية ، وقد انتشر استعمالها فى بلاد المغرب والاندلس ، وعن طريق هذا البلاد دخلت الارقام الغبارية الى أوربا وعرفت عندهم باسم الارقام العربية . ويقصد البيرونى بالارقام الغبارية : 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 9 ، أما الهندية فهي : ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩
ويرى بعض العلماء ان الاساس فى كتابة الارقام الغبارية مبنى على الاشارة الى الزوايا . فالرقم 1 مثلا يتضمن زاوية واحدة والرقم 2 يتضمن زاويتين الخ ... وبذلك تكتب الارقام على أساس الزوايا كما يلى :



فيها نلاحظ ان كل نقطة تشير الى زاوية .

ويرى البعض ان هذه الارقام اشتقت من الحروف العربية ، فالواحد مثلا 1 اشتق من الالف ا واثنان من ج = 2 وتسعة 9 من الواو وستة من الهاء . 6 = 6 . وعلى أى حال وهو الاصح فالعرب قد استخلصُوا هذه الارقام من عدة رموز هندية وغير هندية . واليهم يعود الفضل فى تجريدها من الخرافات وما كان يظن فيها من سحر واسرار اللهوت فالهنود والصينيون من قبلهم اعتقدوا فى أن الارقام منها ما هي حقيقية ومنها ما هي خالصة أي مثالية وهذه الاخيرة هي التى ترمز الى سر من أسرار المعرفة . فالرقم 6 مثلا يعد رقما مثاليا فى كونه يدل على ان الله خلق كل شيء فى ستة أيام . وصنف الصينيون الارقام الى ذكور واناث فالذكور هي التى لا تقبل القسمة الا على نفسها مثل : 3 ، 5 ، 7 ، 11 ، 13 ، 17 ، 19 ... وهى المعروفة لدينا حاليا

بالاعداد الاولية · ثم الارقام الاناث مثل : 4 ، 6 ، 8 الخ ··· وهي عكس الاولى · كما اعتقد الصينيون قبل فيثاغورس بآلاف السنين فى أن لكل رقم دلالة سحرية أو يحوى سرا لاحد الاشياء ، فالرقم ثلاثة يحوى سر السماء والارض والنار ، والاربعة تتضمن الماء ايضا ، والخمسة للهواء ، والستة للرياح ، والسبعة للجبال · كما اعتقد اليونانيون ان رمز الحق واحد والضمير اثنان ، ونسبوا الى العدالة الرقم أربعة، أما الزواج فظنوا انه يكمن فى الخمسة لانه يتألف من اتحاد أول اعداد الذكور وهو ثلاثة مع أول اعداد الاناث وهو اثنان وظنوا ان سر البرد يكمن فى ستة والصحة فى سبعة ، والحب ثمانية · وزعموا ان الشكل الهندسى الذى له ستة وجه يحوى سر الارض ، وان الشكل الهرمى يحوى سر النار ، والشكل الهندسى ذى الوجوه الاثنى عشر يحوى سر السماوات ، وان الشكل الكروى هو الشكل المثالى أو الكامل · ومنهم من قسم الارقام الى ارقام مثالية وأخرى غير مثالية فالاولى مثل الستة وهي التى تساوى مجموع الارقام التى تقبل القسمة عليها (1 + 2 + 3 = 6) ، ومثل 28 (28=14+7+4+2+1)

وزعم نيكوماك الاسكندرى ان الارقام المثالية نادرة الوجود مثلها فى ذلك مثل الخير والحسن والجمال ، فهي قليلة يمكن عدها وحصرها ، اما غيرها من الارقام فهى اكثر انتشارا كالقبح والشر

فالديانة الاسلامية تتنافى وهذه المعتقدات البالية والخرافات العقلية فالنبي عليه السلام يقول أمرت ان أحكم بالظواهر والله يتولى السرائر ، لذلك راح العرب يزيلون عن هذه الارقام ما كان يكسوها من غبار ومفاهيم زائفة · كما راحوا يدافعون ضد عبادة الاوثان والسحر والشعوذة · وعملوا على اطلاق تفكير الانسان فى مجال البحث والمعرفة ، والوصول به الى مجال التحرر والاختراعات والاكتشافات · ويكفيهم فخرا انهم اضافوا الرمز العاشر للرموز التسعة التى عرفت من قبلهم · وبذلك أصبح الانسان باستطاعته أن يعبر عن اي كمية مهما كبرت باستعمال احد الرموز العشرة وهو 0 ، 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 9 ، أو مركباتها · ولعل اهم ما اخترعه العرب فى هذا الميدان هو النظام العشرى القائم على أساس موقع الرقم أو وضعيته بالنسبة لما وضع له · بحيث يكون للرقم دلالتان فى نفس الوقت الاولى دلالة ذاتية والثانية دلالة منزلية · فالعدد 301 مثلا يدل على ان الرقم 1 منزلته الآحاد ، والرقم 0 منزلته العشرات ، والرقم 3 منزلته المئات لذلك يقرأ ثلاثمائة وواحد ·

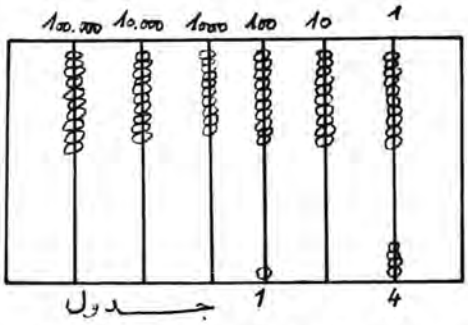
نشأة الصفر :

يعد الصفر آخر اختراع وصل اليه العقل البشرى فى اكتشافاته للاعداد وهو أصغر أبناء العدد · ولم يفكر فيه الرياضيون والمتعاطون للحساب الا فى

عصر الحضارة الهندية · ولم تكتشف أهميته الا فى عصر الحضارة الاسلامية ·

ففى العصر المسيحى الاول كـــان الناس يستعملون العصي أو القطـــع الخشبيـــة المستديـــرة أو المحـــار فى حساباتهم · كما استعملت الحضارات القديمة · مصرية ، بابلية ، يونانية ، صينية نفس الوسائل تقريبا فى اجراء العمليات الحسابية وكانت تجابههـــم صعوبات شتى فى انشاء الجداول . ولقد كان الهنود يستعملون كلمة سونيا (ومعناه فراغ) للدلالـــة عـــلى معنى الصفر · وبعد أن فكر الرياضيون العرب فى هذا الفراغ اخترعوا له رمزا سموه الصفر ، ثم انتقلت هذه اللفظة مـــن العرب الى الاوروبيين الذين استعملوها فى لغتهم فكان من ذلك chiffre التى تطور حاليا الى كلمة زيرو ومعناه لا شيء : rien

وباكتشاف الصفـــر تجـــرر العقـــل البشرى من تقيده بالجداول لمدة طويلة من الزمن فأصبح بامكانه نقل الارقام وكتابتها على الورق أو على الالواح كما يفعل فى الجداول · اذ كان قديما تترك خانة فارغة دون أي شيء عندما ينتقل من عمود الوحدات الى عمـــود العشرات أو أضعافها ، وبذلك يصعب عليه نقلها على الورق ·



كما ساعد الصفر على حل الكثير من المعادلات الجبرية خاصة تلك المعادلات من الدرجة الثانية فما اكثر · ومثال لذلك المعادلة من نوع :

$$\text{س}^2 - 5\,\text{س} + 6 = 0$$

التى يمكن أن نعبر عنها بلغة الكلام كالآتى :

ما هو العدد الـــذى اذا ضـــرب فى نفسه ، ثم طرح منه حاصل ضربه فى خمسة ، ثم أضيفت له ستة كان مساويا للصفر ؟ ولندع الجواب للخـــوارزمى الذى يقول فى حل هذه المشكلة : خذ نصف المعامل للرمز س (ويقصد بالمعامل هنا الرقم 5 وبذلك يكون نصفه $\frac{5}{2}$) ثم اضرب هذا النصف فى نفسه (أي $\frac{5}{2} \times \frac{5}{2} = \frac{25}{4}$) ثم اطرح هذا من العدد 6 (أي $\frac{25}{4} - \frac{24}{4} = \frac{1}{4}$) ثم خذ الجذر التربيعى لهذا الحاصـــل (أي $\sqrt{\frac{1}{4}} = \frac{1}{2}$) ثم أجبره الى نصف معامل س (أي $\frac{5}{2}$) تحصل على قيمة س التى تبحث عنها · أي $\frac{5}{2} + \frac{1}{2} = \frac{6}{2}$ ، وبعد الاختصار س = 3 · أو $\frac{5}{2} - \frac{1}{2} = \frac{4}{2}$ وبعد الاختصار س = 2 وللاختبـــار

نعوض س بقيمتيها فنجد :

$$2^2 - 5 \times 2 + 6 = 0$$

$$3^2 - 5 \times 3 + 6 = 0$$

وهكذا نلاحظ ان الصفر ساعدنا كثيرا فى حل هذه المعادلة التى ظلت مجهولة لدى الرياضيين من اغريق ومصريين وبابليين وهنود الى ان جاء محمد بن موسى الخوارزمى فى القرن الثالث للهجرة ·

وبهذا يتجلى لنا ان من مزايا الصفر استعماله فى المنازل الخالية من الارقام والاجابة به عن لا شىء ، وتسهيل جميع العمليات الحسابية ، ولولاه لاحتاج المرء الى طرق عويصة وملتوية وربما كانت غامضة لاجراء عملية الضرب والقسمة بالخصوص ، حيث ان هاتين العملتين كانتا فى القديم تقتضيان جهدا كبيرا ووقتا طويلا · ولسنا بحاجة الى القول انه لولا اختراع العرب للصفر واستعماله فى الترقيم لما فاقت الارقام العربية والهندية غيرها من الارقام ، ولما كان لها أي ميزة بل لما فضلتها الامم المختلفة على الانظمة الاخرى المستعملة فى الترقيم ·

وبايجاز نقول انه لولا الصفر لما تقدمت المدنية هذا التقدم العجيب حيث ان الاورديناتور وهو أساس التطور الحضارى الحالى يستعمل فى حساباته رقمين فقط هما : الواحد والصفر · فاختراع الصفر لا يقل أهمية عن اختراع الورق واختراع الطباعة ·

الكسور :

لقد اهتم اليونانيون ومن عاصرهم بالاعداد الصحيحة ولم يشتغلوا بالكسور بل تركوها للعرب الذين جاؤوا فيها بالعجب والعجاب · فمثلا ظل الرياضيون اليونانيون مدة طويلة من الزمن لا يجدون حلا لمشكلة آشيل والسلحفات التى وضعها لهم كسينون فيلسوف ايليا·واليك هذه المسالة :

اجريت مسابقة عدو بين اشيل المشهور والسلحفاة المشهورة ببطء سيرها ، وكانت المسافة الفاصلة بينهما عند بدء الانطلاق هي 100 متر · فاذا كانت سرعة آشيل تساوى عشرة أضعاف سرعة السلحفات ، ما هو بعد النقطة التى يقبض فيها آشيل على السلحفات ؟ فكان التفكير السائد لدى اليونانيين هو انه عندما يقطع آشيل مسافة 100 متر وهي المسافة البدئية الفاصل بينه وبين السلحفات تكون هذه الاخيرة قد قطعت 10 م وعند ما يقطع اشيل العشرة أمتار تكون السلحفات قد قطعت مترا واحدا وعندما يقطع آشيل المتر الواحد تكون السلحفات قد قطعت عشر المتر وعندما يقطع آشيل عشر المتر تكون السلحفات قد قطعت جزءا من مائة من المتر الخ ··· وهكذا يظل آشيل يجرى والسلحفات تجرى دون أن يقبض عليها · ولو تمعن اليونانيون فى الكسور لأدركوا ان آشيل سيقبض على السلحفات على مسافة 111،11 متر من نقطة انطلاقه أو

على مسافة تساوى $11 \frac{1}{2}$ م من نقطة انطلاق السلحفات ، ذلك ان الفارق فى البعد بين آشيل والسلحفات سيظل فى النقصان الى أن يصل الى حد فيه يكون أقل بقليل من طول السلحفات نفسها • فاليونانيون كانوا يحللون الكسور الى وحدات صغيرة كتحليل الاطنان الى قناطر ، والقناطر الى كيلوغرامات ، وهذه الى غرامات • وبذلك كانوا يحللون الكسور كما يحللون الاعداد الصحيحة ومن هنا كانت لهم صعوبات فى تحليل الكسر $\frac{2}{43}$ مثلا الى مجموعة من الكسور لها الواحدة هو البسط • فتحليل الكسر المذكور عند اليونانيين كان كالآتى : $\frac{2}{43} = \frac{1}{30} + \frac{1}{86} + \frac{1}{645}$ ومن هذا المثال تتجلى الطريقة العقيمة وغير الدقيقة • وكثيرا ما كانوا يضعون الكسور الى جانب بعضها للمقارنة مثلما نفعل حاليا فى المقارنة بين وزنين مثلا •

لهذا لم يتقدموا فى علم الحساب • أما الهنود فكانوا على عكس الاغريق ، لكن العرب هم الذين خاضوا فى الكسور وعرفوا عنها الاشياء الكثيرة • وممن اشتهر منهم فى هذا الميدان غياث الدين الكاشى الذى توفى سنة 1436 م وقد الف فيها رسائل عديدة منها رسالة فى مفتاح الحساب الذى ضمنه بعض اكتشافاته للكسور العشرية وغير العشرية •

كما بين ان عمليات الضرب والجمع هي عمليات تعاوضية اي تبادلية • commutatifs وان عمليات القسمة والطرح هي عمليات غير تعاوضية • وان عملية القسمة هي عملية عكسية للضرب • كما ان عملية الطرح هي عملية عكسية لعملية الجمع • ويتجلى هذا فى قولنا مثلا بالنسبة لهذه الاخيرة : اذا طرحنا من سبعة ثلاثة بقيت أربعة • فيكون عكس هذا : جد عددا اذا أضيف الى ثلاثة أعطى سبعة • ونفس هذه العلاقة تنطبق على الضرب والقسمة ذلك ان ضرب ثلاثة فى أربعة معناه جمع أربعة مجموعات ذات ثلاث وحدات ، وقسمة 4 على 3 معناه ايجاد كم من مرة 3 يمكن طرحها من 4 • وبتطبيق العرب لهذا المنطق الرياضى على الكسور برهنوا على ان قسمة كسر على كسر يكون بضرب المقسوم فى عكس المقسوم عليه مثال لذلك : $\frac{3}{5} \times \frac{4}{7} = \frac{12}{35}$ وان $\frac{3}{5} : \frac{4}{7} = \frac{3}{5} \times \frac{7}{4} = \frac{21}{20}$ ومعنى قانون قسمة كسر على كسر هو ايجاد العدد الذى اذا ضرب فى المقسوم عليه أعطى قيمة المقسوم ، وبتطبيق هذا القانون على المثال السابق نجد : $\frac{21}{20} \times \frac{4}{7} = \frac{84}{140}$ وبعد الاختصار $\frac{84}{140} = \frac{3}{5}$ وهو المطلوب • ونفس الطريقة سلكوها فى البرهنة على جمع وطرح الكسور •

وبايجاز فان العرب قد وضعوا مؤلفات كثيرة فى الحساب والرياضيات والهندسة وعلم الفلك وكانوا يكثرون من الامثلة والتمارين فى مؤلفاتهم ويأتون

بمسائل عملية تتناول ما يقتضيه العصر ٠ وجل مؤلفاتهم النفيسة موزعة فى الوقت الحالى بين المكتبات الاوربية ، ومنها ما ترجمت الى اللغة الاجنبية ومنهـــا ما بقيت محفوظة فى الخزائن ٠ ولقد أخذها منهم الاوربيون عندما تفرقـــوا الى أحزاب وشيع وابتلوا بالاستعمار التركى ثم الاستعمار الاوربى ٠ وبذلك اطفئت شمعتهم وفقدوا حرية التفكيـــر والابتكار وانساقوا فى درب الجهـــل والتأخر ، وانشغلوا بكارثة الاحتـلال الاجنــبى ٠

فالله أرجوه أن يلهمنا الصواب وان يهدينا الصراط المستقيم لكي نعود الى ما كنا عليه من خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنـكـر ، وتخوض فى المعرفة ، وتعمل على نشر العلم والمعرفة ٠

★

الاصالة فى شعر ثورة نوفمبر

د. محمد نـاصر

ان من أبرز الظواهر التى يمتاز بها شعر الثورة ظاهرة التحدى ، ونكران الذات وهى ظاهرة تدل من دون شك على الالتزام المتأصل فى نفوس أولئك الشعراء . والواقع لقـد كان التحـدى ونكران الذات جانب من أروع جوانب ثورة نوفمبر المعجزة ، فقد قامت أساسا على التحدى منذ بداية أمرها فليس ثمة ما يدع مقارنة بين شعب اعزل الا عن ايمانه بحقـه وثقته بنفسه ، ومستعمر جبـار متسلح بكـل وسائل التدمـير الجهنمية ، متجرد من كل معانى الرحمة والانسانية ٠

ولقد كان هذا الكبرياء الشامخ الذى ميز الشعب الجزائرى مما بث الرعب فى نفوس المستعمرين فتهاوت كل مظاهر الجبروت أمامه ٠

وقد حاول شعراؤنا التعبير عن هذه المشاعر التى غمـرت نفوسهم اصـرارا وثباتا ، وتجسدت من خـلال مواقفهم التى تنكروا فيها لذواتهم منصهرين فى أتون الثورة الملتهبة حيث ذابت نوازعهم الفردية ذوبانا كليا ٠ وتجردوا مـــن عواطفهم الخاصة تجردا متساميا ٠ وان أروع آيات التحدى ونكران الذات هى تلك التى عبر فيها الشعراء عن معاناة واقعيـة عاشـوها بنبضات قلـوبهم ، وخلجات أفكارهم ٠

وأى شاعر لم يتعرض للعذاب ابان الثورة التحريرية ، فهو ان لم يتعرض لآلام التعذيب الجســدى فى الزنزانات والمعتقلات ، فأنى له ان ينجو من آلام العذاب النفسى تنهشه مواجد الاغتراب بعيدا عن الاهل والاحبة والوطن ٠

فهذا مفدى الذى كتب أروع قصائده الثورية من قعر (باربروس) ذلك السجن الرهيب الذى سيبقى شهادة تاريخية حية تدين فظاعة الاستعمار الفرنسى من جانب ، وشهادة فخرية تمجـد الشعب الجزائرى الذى لـــم يعرف الاستخذاء والتذلل ، مفدى يتحدى (بارباروس) وما فيه من ألوان التعذيب الجهنمية ، وهو

يتحداه عن خبرة وابتلاء فقبل ارتياده له شاعرا ثائرا فى صفوف جبهة التحرير ارتاده مناضلا سياسيا فى صفوف حزب الشعب الجزائرى ، لـذا فهـو يخاطبه قـائلا :

سيـان عنـدى مفتـوح ومنغلـق
يـا سجن بابك ان نفدت بـه الحلق

ام السياط بهـا الجـلاد يلهبنـى
ام خـازن النـار يكوينى فأصطفـق

والحوض حوض وان شـتى منـابعه
ألقى الى القعـر أم أسقـى فانشرق

سرى عظيم فـلا التعذيب يسمـح لى
نطقـا ورب ضعاف دون ذا نطقـوا

يـا سجن بابك ان شدت بـه الحلق
من يحذق البحر لا يحدق بـه الغرق

انـى بلوتك فى ضيـق وفى سعـة
وذقت كأسك لا حقـد ولا حنـق

نـام ملئـى عيـونى غبطـة ورضى
على صياصيك لا هـم ولا قلـق

طـوع الكرى واناشيـدى تهدهـدنى
وظلمـة الليـل تغـريني فانطلـق

والروح تهـزأ بالسجان ساخـرة
هيهات يـدركها ابـان تنـزلق (1)

اما أحمد سحنون الذى عرف هـو الآخر قسـوة السجن ، وآلام المعتقل وعرف وهـو فى المعتقل عذابا نفسيا مريرا يتجلى فى هـذا الصراع النفسى الذى كان يستبد به من حين لآخر حين تنتهبـه عواطفـه الشخصية تلهـفا الى فلذات كبـده وأهلـه ، وبـين عواطفه الوطنية التى تخفف عنه مـا يلاقيه فى سبيل حرية الوطن من أسى وعذاب •

وقد ثمر به لحظة من لحظات الضعف النفسى حين تعصره وحشة السجن حين تتيقظ مشاعر الاغتراب فى أعماقه حادة شائكة قد تصل به لحظة الياس أحيانا ولكنه لا يلبث حتى يتحرك بين جنبيـه الانسان الجزائرى الثائر • فيتحدى قوة الظلم بقوة أشد وأعتى ، انها قوة تنبع من أعماقه وتمتزج بدمه وروحه قـوة الايمان التى لا تنفد طاقتها •

يا لسجن الانسان حين نـراه يتحـدى الافكـار بالجـدران
لسـت اعنـو لقـوة تتحـدى فكـرتى غـير قـوة الديـان
والايمان القـوى زادى ، وهـل ينفد زاد من قـوة الايمان
وطريق التحرير قد حـف بالاشواك لا بالورود والريحان (2)

(1) اللهب المقدس ص 21 •
(2) ديوان سحنون ص 105 •

وطائفة أخرى مـن الشعراء تعرضت لعذاب من نوع آخر انه عذاب الاغتراب بعيدا عن الاهل والوطن هذا الاغتراب الذى زاد من قسوته انقطاع الصلة عن الاهل انقطاعا كـان فى بعض الاحيان كليا • وزاد مـن حـدته انـه اغتراب لا يعلم له انتهاء مما يجعل الانفس معلقة بـين اليـأس والطمع •• ولكن هـذه المشاعر رغم توثبها بين الحنايا فقـد طوتها الضلوع وهى تتمزق ، وتنكرت لها وهى تضرب بجذورها فى أعماقها •• وتسامت عليهـا وانصرفت عـن ذكرها حـين استحوذت عليها عاطفـة أروع واقدس هى حب الوطن الثورة •

فهذا أبو القاسم خمار الذى لـم يستطع ان يخفى أحاسيه فيما اشتملت عليـه دواوينـه (أوراق) (وظلال واصداء) (وربيعى الجريح) • من قصائد ذاتية رائعة •• ولكنه تتنكـر لعواطفه الخاصة حين يكون فى هذا التنكر تحديا للمستعمر • ويتعـالى عـلى أشـواقه الشخصية عندما يتحول الشـوق الى الوطن المحرر دون غيره •

لا لن أقـول أبـى أخـى سافرتما وتركتمانى
نضوا يعانى من لهيب الشوق قلبى ما يعـانى
انا يا أبى ، انا يا أخى ، ان شئتما ان تعرفانى..
.. فتحسسا ما خلف الشهداء عندى ، تلقيانى •

☆ ☆ ☆

ان لن أزورك منزلى والدمع يجرى من جفونى
أتعثـر الاشـلاء أدعوها واغرق فى شجـونى
أمى ، أبى ، أختاه ، قوموا كلمونى كلمونى !
لا لـن أزورك منـزلى الا اذا درت ديـونى
سأظل فى الدنيا مدانـا يا بـلادى امهليـنى
حتى أكلـل هامتى فخـرا والا فانبذينى (1)

ويتخذ نكران الذات عند صالح خرفى هـو الآخر طـابع التضحية بالعواطف الشخصية ، ويتجـلى التسامى عـلى المشاعر الذاتية رائعا حين يكون متعلقا بهذه العاطفة التى تمتلك قلب الانسان فلا يستطيع لها دفعا ، واية عاطفة أنبل مـن عاطفة الحنين الى الزوجة الصبور الوفية ، أو الام الحانية ، ويتعالى نـداء الضمير من أعماق الشاعر ليصور هذه الاحاسيس التى تضطرم بها حناياه حين يقـول :

(1) ظلال واصداء ، ص 46 •

يا حبيبى ذكريات الامس لم تبـرح خيـــالى
كيف تغفـو مقلتى عـن ذكرها عبر الليـــالى
لا تلصنى ان ترامـت بى أمـــواج البعـاد
لا تلصنى لـم يــزل يخفـق للحب فـؤادى
غـير ان القلـــب هــزته نـداءات شجيـة
صعدتها فى دجى الليـــل قلـــوب عـربية
وجفـون مســها الضيـم فغصـت بالدمـوع
فاستعارت شعلـة الحـب لهيبا فى ضلـوعى
وتراءت لى وراء الصـــوت اعــلام البشائر
فوهبت الحـب قربانا وبايعت الجـزائر (1)

وطالما لمسنا هذا الحنين الجارف الذى يتحـرك فى قلـوب شعرائنا المغتربين ولا سيما فى تلك المناسبات التى تذكرهم باجتماع الاسرة والاحباب ، ولعل خرفى أكثرهم عناية بهذه المناسبات العيدية فنجـد فى ديوانه (اطلس المعجزات) خمس قصائد فى هذا الموضوع بالذات ولكن العيد عنده كان يتخذ طابعه الثورى ابدا ، فاحيانا يـرى العيد الحقيقى فى قمم الجبال المضمخة بعطر الشهداء ودم الابطال ٠ فيخاطبه بقوله (يـا عيـــد لذ بالشاهقات) (2) وهو عبد جريـح تحرم فيه الابتسامة الا ان تكون ابتسامة جرح ثائر ٠٠ وهــو يرى بأن الضحية فى عيد النحر انمـا يجـب ان تكـون بالاعداء المناكيد ٠

غير ان الاشواق قـد تكون ملتهبة ، والحنين جارفا عندما تفرض الغربة على الشاعر ان يقضى (عيــد الام) بعيدا عن أمه ، هذا العيد يذكر الشاعر بأمه النائية وهو يرى الابناء يتسابقون الى أمهاتهم يحملــون الهدايا والزهور ٠٠ ويبحث عن أمه بين الوجوه فلا يجدها ويجهد نفسه بحثا عنها فلا تسعفه عيناه اللتان تذرفان الدموع غزارا ٠ وعندما تمل رجلاه تطواف الشوارع يعـود الى كسر بيته غريبا وحيدا محطم النفس ، ليكتب الى أمه الرسالة التالية : (1)

---

(1) اطلـس المعجزات ص 193 ٠

(1) اطلـس المعجزات ص 98 ٠

أمـــى اليـك حكـــاية منـــى تجسـم دائيـة
كان الصديق صباح عيد الام يعرف مـا بيـه
والخل ابـن النيـل مصرى يفيض حساسية
فمشـى بجنبى ساعـة اقضـى الحياة كماهية
حتى اذا كـان الـوداع وفى الـوداع أنـانية
فسألته عـن قصـده ، عـن سعـده وشقائية
فأجاب أمـى لا أشــك بغيبتى فى داهيـــة
قلقـــت عليـه أمـــه لمـــا تغيـــب ثانيـة
وصبـرت انـت لغيبـة سنـــواتها متتـالية

☆ ☆ ☆

رجع الصديق لامــه ورجعت للكـوخ الصغير
فلزمت بيـتى يـوم يتـرك بيتـه خلق كثـير
وسئمت تجوال الشوارع فارتميت على السرير
لكن يا أمـى بسمت ، بسمت مرتاح الضمير
لما علمـت بـان هـذا كلـه ثمـــن المصير

واذا استطاع الشعراء المغتربون أن يتساموا على عواطفهم ، واذا علموا كيف يذيبون آهاتهم ومواجدهم لتصبح حـبا خالصا للجزائر وحدها ، فان أمهاتهم أنفسهن أكثـر استطاعة وقدرة عـلى نكران الذات بل انهن هن اللائى ارضعن هـؤلاء الابنـاء الانفـــة والكبـرياء ، واستبدلن بالزفرة والنحيب للغريب أو الشهيد بسمة طمأنينة ورضى وزغرودة اباء وايمان ، وما الام التى يعتز بـــها محمد الصالح باوية الا نموذج لـــلام الجزائرية ·

اقسمت أمـــى بقيـدى سـوف لا تمسـح مـن عينـى دمـوعى
اقسمت ان تمسح الرشاش والمـدفع والفأس باحقـاد الجموع
ان أراها ضربة عذراء تغـزو بسمـة السفاح فى الحقل الخصيب
اقسمت ان ترضع النصر واختى فى ضفاف الموت فى عنف اللهيب
يـا صرير الثـأر يسرى فى حنايا ضربتى نـارا تناغى امنيـاتى
انـا جبـار ورعـد وانفجار احمـل الفجـر بـأيد داميـات (1)

(1) أغـانى نضـالية ص 42 ·

رأينا فى النماذج السابقة صــورا للتحدى ونكران الـذات تشهـد جميعها بالاصالة الثورية لاولئك الشعراء ، ولكن الصورة التى يبـرز فيها التحدى مهيبا جليلا هى صورة الشهيد عندما يواجـه المقصلة دون أن يرف له طرف أو يتردد له خطو ٠٠ ان صورة البطولة تكون فى قمـــة روعتها عنـــدما تمتزج بالابـاء المتشامخ والكبرياء المتعـالى ٠٠ هـذه الصورة التى تصور اللحظة الرهيبة فى حياة كل مخلوق لخطة مواجهة للموت ٠

تلك هى اللوحة التى صور فيها مفدى زكريا الشهيد أحمد زبانه أول شهيـد جزائرى يدشـن المقصلة فى سجـن (باريروس) ٠ لقـد استقبـل الشهيد زبانه المقصلة

باسـم الثغـر كالملائك أو كالطفـل
يستعبـل الصبـــاح السعيـــدا
شـامخـا انفـــه جـــلالا وتيـــها
رافـعا راســه ينـاجى الخلـــودا

ان منظر هذا الشهيد ، وهو فى أشد المواقف استدرارا للعطـف والشفقـة ينقلب بايمانه المتأبى ، الى أشد مواقف البطولة بعثا للرعب فى نفوس الاعداء ومن أمرها تحريكا للغيظ فى قلوبهم ، وذلك حين يتحداهم بقوله :

اشنقونى فلســت اخشــى حبــالا
واصلبونى فلست اخشــى حــديدا
وامتثل ســافرا محيـــاك جـــلا
دى ولا تلتثــم فلســت حقــودا
واقض يا مـوت فى مـا أنـت قاضى
انــا راض ان عاش شعبى سعيـدا
انــا ان مـــت فالجـزائر تحيـــا
حـــرة مستقلـــة لـــن تبيـدا (2)

ومن مظاهر التحدى ايمان الشعـراء القـوى بأصالة الشعب الثـورية هـذه الاصالة التى لم تعرف عبر تاريخ كفاحها الطويل ضد المحتل الفرنسى ، خفضـة رأس أو انحناءة ظهر ، ثقة منهم بـان هذه الثورة انما تضرب بجذورها فـى عمق كل جزائرى حر ، وتستمد نارها وتأججها من تاريخه الذى ظل يغـلى ببركان الثورة منذ ان وطئت قدم أول فرنسى أرض الجزائر ٠

فعظمة الثورة واصالتها عند (مفدى) مثلا ، هى ارتكازها على قوتين جبارتين قوة روحية هى قوة الدين الاسلامى ٠ وقوة مادية هى قـوة الشعب وتضامنه فيما بين أفراده وانضباطه حول قيادته

---

(2) اللهـب المقـدس ص 9 ٠

وهو ما أعطى لثورة التحرير الاستمرارية الصامدة ، والشعبية الشاملة ، وقد صور ذلك التجاوب الرائع بين الثورة والشعب ذاهبا الى ان جلال ليلة أول نوفمبر لا يقل عن جلال ليلة القدر التى نزل فيها القرآن فيصلا بين الحق والباطل ·

وهزت ثورة التحرير شعبا
فهب الشعب ينصب انصبابا
تنزل روحها من كل أمر
بأحرار الجزائر قد أهابا
ولعلع من (شلعلع) ذو بيان
فانطق فوق (جرجرة) الجعابا
وشبت من ذرى (وهران) نار
رآها (برج مدين) فاستجابا
وقال الله كن يا شعب حربا
على من ظل لا يرعى جنابا
وقال الشعب كن يا رب عونا
على من بات لا يخشى عقابا
فكان ، وكان من شعب ورب
قرار أحدث العجب العجابا (1)

ومن أبرز مظاهر أصالة الشعب الجزائرى الثورية وحدته الوطنية واتحاده الملتحم الذى برز ابان الثورة فى أكثر من مناسبة ، ولعله من أبرز تلك المناسبات حدثان رائعان أولهما نضالى وثانيهما سياسى · اما الاول فهو الاضراب الاسبوعى الذى لقن المستعمرين درسا رائعا عن انضباط الشعب الجزائرى والتحامه الشديد مع ثورته وقادتها·ان الاضراب الاسبوعى الذى وقع فى سنة (1957) وتجليه بذلك المظهر الذى ادهش المستعمرين ، وأصابهم بخيبة أمل مريرة · قد قدم أمام اعينهم دليلا قويا على مدى العمق الثورى والالتفاف الشعبى الذى تحظى به هذه الثورة ·

لقد تحركت أحاسيس الشعراء الجزائريين تفاعلا بهذا الحدث الجليل فلم يستطع تجاوزها أى شاعر منهم حتى أولئك الذين كانت كتاباتهم قليلة فان الفيض الشعرى هذه المرة تدفق عليهم فخلدوا هذه الذكرى التى تحمل فى مطاويها أكثر من رمز ، واذا كان من المتعذر هنا الاستشهاد بتلك القصائد كلها أو بعضها ، فلا أقل من ان نشير الى ان النزعة الغالبة على تلك القصائد هى نزعة الالتفاف حول الثورة تحت قيادة جبهة التحرير الوطنى ، واظهار الوحدة الشعبية الرائعة التى تمخضت عن هذا الحدث · وهى فى حد ذاتها من أغلى مكاسب حرب التحرير ·

---

(1) اللهب ص 198 ·

ومن هذه القصائد نستشهد بنموذج (لسعد الله) وهو يصف ذلك الاسبوع التاريخي في قصيدته (اصرار) :

الافــق خبــاء يتمزق
والليــل عيـــاء
والارض عـــرق
وقباب بيض سهرانه
رعب يدنو في عجــل
مــن دبابات تتــأفف
في كل الاحياء العربية
ونــداء الجيش الوطني
صــرخة عمــلاق هــائل
في كل فراش مخنوق
في كل طريق مشنوق
وعلى الجدران المغتصبة
نقش الشعب الثائــر
تحــيا الحــرية

☆ ☆ ☆

والشمس جريحــة
ثلــج مطــر أحمر
يــوما سبعة أيــام
عامــين ثلاثــة أعــوام
والافق خبــاء يتمزق
والليل مقــابر جوعانه
والشعب الــه يتالق (1)

امــا القضية الثانية فهــي قضيــة محاولة فصل الصحراء عن الشمال هذه القضية التي حركت أقـــلام الشعراء فكتبت عنــها تعــرية وكشفا وتناولتها بأساليب تختلف بين الحماسة والتهكم فقد فضل بعض الشعراء السخرية من سذاجه السياسيين الفرنسيين الذين رغم طول احتكاكهم بالشعب الجزائري لــم يستطيعوا ان يعرفوا أصالته الثــورية ونظرته المقدسة الى كل شبر من أرض وطنـــه ٠

ولناخذ كنموذج لهذا التهكم قـــول (خباشـــة) وهــو يخاطــب الساســة الفرنسيين ٠٠٠ ويتندر بما عرف عندئذ (بربع ساعة) الذى حــدده (لاكوست) لتصفية الثورة الجزائرية :

شعــب الجــزائر وحـــدة جبــارة
جســـم تكامــل فهـــو لا يتقطــع
هــذى ارادتـــنا وذلـــك حلمـــهم
وارادة الشعـــب المصمـــم اقطــع
(أربــاع ساعــات) توعـــدنا بـــها
(لاكوست) ايـــن وعيـــده المتميــع
او للهشيم مـــع اللهيــب تطـــاول
ان الجبـــان لبالتـــوعد مــولــع
زعـــم المغفــل ان سيمحق شعبـــنا
فابشر بطــول ســلامة يا مربع (2)

(1) ثــائر وصــب ص 64 ٠
(2) الروابي الحمر ص 156 أيضا ص 36 ٠ انظر أيضا اللهب المقدس ص 314 ٠

اما صالح خرفى فقد صب موقفه فى أسلوب حماسى تزدحم فيه الصور البدوية :

خبر قراصنة الفضاء بانـنا
في البيد عين لا يراودها الكرى
البيد سفح للاشم كلاهما
للثار مشدود الاواصر والعرى
يا من على الصحراء سال لعابهم
كم مورد فيها سلوا هل اصدرا ؟
اقسمت بالرمضاء فيها ، بالرياح
الهوج تنتعل الجديب المقفرا
بالناقة الوجناء فيها لم تزل
عربية الخطوات شامخة الـذرا
اقسمت بالحادى وبالفصحى التى
ناجى بها الليل الجميل المقمرا
بالخيمة السوداء بالليل الانيس ،
بنارها ما انفك طائى القرى
بالنفط فى الصحرا عشقت سواده
الداجى ، وعفت به النضار الاصفرا -
سنشنها عمرية سعدية
سنثير رملتها قتاما اغبرا (1)

والاصالة الثورية لا تتخذ مظهرا لها فى تماسك الشعب ووحدته الوطنية فحسب ، وانما تتجلى أيضا فى ايمانه بأصالته الذاتية دينا وقومية .

(1) اطلس المعجزات ص 176 .

فقد ادرك الشعراء عن وعى بأن القيم الاسلامية التى حفظت للشعب أصالته المتميزة طيلة قرن ونصف من الاستعمار الصليبى الحاقد ، هى القيم نفسها التى كانت تمد الثورة المسلحة بالمدد فيزداد لهيبها اشتعالا ، وهى القيم التى حددت هوية الثورة وأعطتها بعدها الشعبى الساحق ، وكان الثوار بالتالى يصدرون عنها فى حالتى النصر والاستشهاد .

ان هذا الادراك الواعى من شعرائنا يفسر لنا ارتباط كثير من القصائد ابان الثورة بالمناسبات الدينية كالمواسم والاعياد ، فنجدهم يتغنون بالسنة الهجرية التى ترمز الى بداية الكفاح العملى ضد الظلم والجبروت ، تمجد ذكرى غزوة بدر التى تعد نقطة التحول من الكتمان الى الظهور ومن الضعف الى القوة . وهكذا راحوا يهتمون بعيد النحر .. وعيد الفطر .. ورمضان المعظم والمولد النبوى مستمدين منها جميعها معانى الفداء والتضحية ، والصمود والثبات .

كما نجد بعضهم كثير الربط بين ثورة نوفمبر وبين الشخصيات الاسلامية ذات التاريخ الجهادى من امثال الامام على ، وخالد بن الوليد ، وعمرو

ابن العاص وعقبة بن نافع الفهرى ، وحسان بن النعمان ، وطارق بن زياد ، مؤكدين بان هذه الثورة إنما هي استمرار للجهاد الاسلامى ضد الكفر ، والظلم والطغيان ، وان الذين اشعلوا الثورة فى الجزائر ينحدرون أصلا من أصلاب أولئك الفاتحين الاوائل • (وعن هذا يقول مفدى) :

أرض الجزائر والسماء تحالفا
فاختط حلفهما النجيع الاحمر

والشعب اسرع للشهادة عندما
ناداه عقبة للفداء (وحيدر) (1)

ولعل أكثر شعرائنا اهتماما بهذا الجانب من الثورة هو الشيخ أحمد سحنون ، الذى قلما اغفل مناسبة من هذه المناسبات الدينية ، وهو فى كل هذه القصائد يؤكد انتماء الثورة الجزائرية الى هذه الجذور الروحية العظيمة • يقول الشيخ سحنون ، مستلهما ذكرى 17 رمضان يوم بدء نزول القرآن الكريم •

يا رسول الله لو تبصرنا
نتحدى كل أعداء الحياه

نتحدى السجن والنفى معا
نتحدى الموت فى كل اتجاه

لو ترانا أمة واحدة
كلنا ينصر فى الخطب أخاه

لو ترانا خلتنا عندنا كما
كنت فينا لمباديك حماه

من فتى كالسهم سباق الى
مورد الحتف ليجنى مبتغاه

وفتاة روحها فى كفها
ضربت خير مثال للفتاه (2)

ويلتقى خباشه بالشيخ سحنون فى هذه النظرة التى لا ترى فى معارك التحرير على أرض الجزائر سوى امتداد لغزوة بدر الكبرى ، لان هدف تلك وهذه واحد وهو ان تصبح راية القرآن خفاقة فى هذه الربوع التى أراد المستعمر الصليبى ان يجعلها مسيحية •

تبارك ليلنا عن ألف شهر
وكلل زحفنا فى يوم بدر

تواكبنا الفتوح بغير سيف
وتحدونا ملائكة بنصر

فخلدنا البطولة معجزات
يرتلها الزمان بكل مصر

اعدنا للورى يوما اغرا
لنهزم بالجهاد فلول كفر

(1) اللهب ص 306 ويريد بحيدر هنا الامام على (كرم الله وجهه) •
(2) ديوان سحنون ، ص 215 •

لتخفق رايـــــة القـــرآن ظـــلا عـــلى دنـــيا تقلـــب فـوق جمـر
فـما نـــزل الكتـاب لبعض يـــوم لقـد نـزل الكتاب لكـل عصـر (1)

ويكون الربط بين الاجداد والاحفاد من الصور والمعانى التى سيعتمد عليها الشعراء فى قصائدهم واسترواح الامجاد التاريخية عندهم يتخذ طابع الاستلهام الذى يبعث النخوة والاعتزاز بالنفس والثقة فى مميزاتها لا مجـرد تفاخـر وتواكل عقيم ، وتصبح هذه الامجـــاد التى هى جزء لا يتجزأ من كيان هـــذه الامة قسما به عند الامور العظام كقول خـرفى مثـلا عنـدما راح المستعمرون يحاولون لعبـة الفصـل بـين الجنوب والشمال ٠

اقسمـــــت بالصحـــراء مهـــــدا لانبثاق الوحى نقاها حـراء وطهـرا
سنعيـــــد ذكـــــرى القـــادسيـة للنهى تهـوى بكسرى تطيح بقيصرا
سننشئـــها عمـــــريـة ، سعـــدية ، سنشـــير رملتـــها قتـــاما أغبـــرا
ذكـــرى سنجعلها وتبـــقى عبــرة فى الخافقـــين لمـــن وعـــى وتذكـــرا
ان كنتـــم تجـــار حـــرب ان مـن أجـــدادنا مـن بـــاع فيهـا واشتـرى
فرسـان حـومتها سلـوا صهواتها كـم أسرجت بابن الـــوليد وعنتـرا (2)

ولا تكتمل الاصـالة الثـورية الا فى التعلق بكل مقومات الشخصية ، ومـن أبـرز مقوماتها التمسك باللغة العربية لغة القرآن الكريم ٠ وقد كان شعراؤنا يؤكدون على هذا الجانب من الشخصية الجزائرية التى تعرضت لمسخ متفرنس

وكان بعضهم يبرز هذا الجانب فى المحافل الادبية العربية التى كان يرفع فيها صوت الجزائر العربى ٠٠ وكانت الجزائر فى معتقد كثـير مـن أشقائنا العرب انها مسخت مسخا وان الجزائريين لا يحسنون غير لغة المستعمر لغة تعبير وانها بالتالى قد تفرنست ذوقا وسلوكا ، فكان الرد على هذه الدعوى العريضة من مستلزمات الكفـــاح ، ومـن أوكـــد الواجبات الداخلة فى الاطار الثورى ، ومن هنا نجد صالح خرفى الذى مثـل الجزائر فى المؤتمرات العربية الادبية من أحرص شعرائنا على تفنيد هذا الزعم الباطل بمثل قوله :

مـن قال عـنا فى العـروبة قـالـة فقـد افتـرى زورا علينـا وادعـى

(1) الـروابى ص 147 ٠
(2) اطلـس المعجزات ص 178 ٠

هى بعض ما ينساب بين عروقنا
هى وقع دقات تهز الاضلعا
هى طرفنا ان مسه يوما قذى
متطاول ، فلقد أقض المضجعا (1)

وقد يلتمس الخرفى عذرا للجزائر من الذين كانوا يتكلمون الفرنسية فى تلك الظروف التى لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها ، ولكن الفرنسية لا تتجاوز اللسان الى القلب ، ولا تتعدى التحادث الى المشاعر ، فالعربية ان غاضت لسانا فهى فى الاعماق تتفجر اباء ونخوة ، وان سكتت السن عن الضاد كلاما فانها ظلت تفصح عن عروبتها وأصالتها بلغة السلاح فى ساحة الشرف ·

عرب نحن والعروبة غذت
بهواها عروقنا ودمانا
هى كالنبع دافق فى الحنايا
ان تكن فى اللسان غاضت بيانا
لوثة العجم ان غزتنا فبأس
العرب فينا بيانه لا يدانى
سكتت السن عن الضاد لما
ألسن النار رددته بيانا
عرب اليوم بالدماء وانا
عرب فى غد دما ولسانا (2)

والاصالة العربية عند (خمار) ليست هى الاعتزاز باللغة العربية لسانا أو التعلق بها عاطفة فحسب ، وانما أبعد من هذا وذاك وانها ماض حضارى ، وحاضر نضالى ، ومستقبل مشترك · وما الثورة الجزائرية الا تجسيد لكل هذه المعانى السامية وهى لن يخبو لها أجيج حتى تحقق هذا الامل الذى لا يتجلى الا فى وحدة الامة العربية ·

عرب نحن والعروبة ارث
ولسان ومذهب ومشاعر
كل جزء فى موطنى من خليجى
تفديه منى الكواسر
ثورتى لن تكف الا اذا ما
وحدت أمة ، وهزت مصائر (3)

ومنذ بداية الثورة سنجد (خمار) يربط بين الثورة الجزائرية وقضية فلسطين ، ويرى بانه لا يكتمل للثورة انتصار الا اذا عادت فلسطين الى عروبتها الاصلية ·

أى نصر كسبته فى بلادى
ليس نصرا ما دمت أحمل ثارا
فانهمر يا دم الكفاح بارجائى
ولون ثراك شبرا فشبرا

---

(1) م· س· ص 122 ·
(2) اطلس المعجزات ص 142 ·
(3) ظلال واصداء ، ص 111 ·

مـا خلقنـــا الا لنفتـــح الآفـــاق
نـــورا ونـــزرع الارض نصـــرا (2)

اما (خباشه) فـيرى الوحدة العربية واقـــعا معاشا تجسد كاروع ما يكون التجلى ابان مرحـــلة الكفاح المسلح فى الجزائر ، وهى وحدة لا يمكن فصلها عن القيـــم الاسلامية التى هـــى الوازع الحقيقى الذى شـــد أزر هذه المشاعر ونماها فى النفوس •

لقـــد انتظمـنا أســـرة عـربيـة
مـذ شـع فينـا الـوحى والالهـام
كـــم صوب المستعمرون سهـــامهم
فـاذا صـــدور المعتـدين مـــرام
كـم حاولوا تقسيم جســم واحـــد
ويعـــز أن تتقســـم الاجســـام
مـا خطـه الشعب العظيـم لنفسـه
سيكون ، لا ما خطـه الحكـام (2)

وبعد فهذا هو الموقف الاصيل الذى وقفه شعراؤنا اثناء الثورة التحريرية ايمان قوى بالكفاح المسلح وثقة كاملة بالنصر ، وانصهار تام فى اتون الثورة تجلى فى نكران الذات وتحدى القـــوة المستعمرة ، وأصـالة ثـورية تستمـد مقوماتها من الشعب ومن قيمه الروحية والقـومية •

---

(1) م• س• ص 112 •
(2) الروابى الحمر ص 140 أيضا ص 85 ـ 108 ـ 112 •

الشعـر العـــربى
بـــــين
المنهـج الفـــنى والمنهـج الاســلامى

د. حامد حفنى أحمد داود
أستاذ بجامعة الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

الشعر ديوان العـرب ، ومعقـــــل محافلهم ومفاخرهم ، وفيه صـــوروا حياتهم فى الجاهلية والاسلام ، ورسموا معالم تاريخهم ، ولعلهم آثروا هـــذه الصناعة على صناعة النثـر لحلاوة جرسه وعذوبة موسيقاه ، وخفة تأتيه، وجريانه على طرف اللسان فى سهولة ويسر ، وهـذه القسمـات الفنيـة فى أسلوب الشعر مكنـتهم مـــن حفظـــه واستيعابه وروايته عبر الاجيـــال ، بالاضافة الى ما تميـز به مـــن وزن وقافية . وهو الى جانب ذلك أوسع من النثر مجالا وأقرب تناولا لكل ما عناهم من مطـالـب الحيـــاة وأغراضهـــا وموضوعاتها ودوافعها ، فكان خير أداة فى التعبير عن كل ما يريدون من مدح وهجاء ، وغزل ورثاء ، وفخر ووصف، وشكوى وعتاب ، فى صورة بليغة مؤثرة لا يتاح مثلها فى النثر بلاغة وتأثيرا . وهم فى هذه الصناعة لم يفضلوا شعرا على شعر ، أو يقدموا قصيدة على قصيدة على أساس من القيم الفلسفية المشهورة وهي : الحق والخير والجمال : وانما جعلوا نصب أعينهم الجمال الفنى وحده، واختاروا من ذلـك : الجـمال الموحى بالقوة والمتعة الحسية ، وجعلوا ذلـك شرطا فى صلاحية النص . ومن ثـــم أصبح عنصر الجمال الحسى دستورا عاما لفنهم الشعرى . ولم يكترثـــوا بعنصري الحق والخير الا نادرا .

واذا نظرنا نظرة عامة للشعـــر العربى : جاهلية واسلامية لاحظنا ان المقياس الفنى عند نقاد الشعر كـــان مقياس الجمال وحده ، دون مبالاة بما

يحمله النص من خير أو شر ، من حلال مشروع أو حرام ممنوع ، من بناء للقيم أو هدم لها • وهم فى ذلك أقرب شبها الى ما تدعو اليه « المدرسة البرناسية » الحديثة فى دعوى الفن للفن ، دون نظر الى ما يحمله الفن من خير أو شر ، حق أو باطل • وأسلوب الشعر عند هؤلاء البرناسيين يقاس بقدر ما فيه من عاطفة متأججة وخيال مجنح ، وما يشتمل عليه النص من خلابة أساسها التشبيه الجميل، والتمثيل الرائع ، والاستعارة الموحية • ونحن لا نعنى بذلك كوكبة الشعر العربى، ولكننا نعنى الشعر الجاهلى ، وكذلك نعنى الشعر الاسلامى الذى ليس له من جانب الاسلام الا الاطار الزمنى ، ذلك الشعر الذى لم تمسسه يد الاسلام ولم تعمل فيه قيمه ومثله العليا ، ولم يأبه بمبادئه وما فيها من دعوى الحق والخير •

ان الاسلام حين أظل الجزيرة العربية والبلاد التى فتحها العرب بنى أمية قوية ، جديدة فى اقتصادها وسياستها، جديدة فى اجتماعها وفكرها ، جديدة فى فنها وأدبها • وأخضع ذلك كله لقيم جديدة ، ومثل جديدة ، غايتها التوحيد ، وأساسها الاخلاق ، ومنهجها الالتزام بالعمل لتحقيق سعادة الانسان فى الدنيا والآخرة • لذلك كان لابد من أن تتغير نظرة الاسلام للشعر ، وأن يحل (المنهج الاسلامى) محل (المنهج الفنى) ليضيف الى الشعر العربى قيما جديدة تتركز حول الحق والخير • وليس لقائل ان يقول : « ان الفن لا ينبغى أن يقاس الا بمقاييس الجمال » ، ذلك لان الاسلام لم يرفض المقياس الفنى ، وانما رفض أن يكون الجمال وحده هو الفيصل فى مجال الفن البناء ، فأضاف اليه هذين المقياسين ليستكمل الصورة الفنية من جميع جوانبها •

هذا هو الموقف الذى وقفه خاتم الانبياء محمد عليه السلام وهو يبنى الامة الجديدة فأزاح عن الشعر كل ما كان عالقا به من رذائل الجاهلية وسخفها وعاداتها • وهدم ما فى الشعر من واقعية متطرفة هدامة لا تؤمن بالتراحم والتعاطف ، وقعية تؤثر مبدأ الاثرة والاخذ بالثأر على مبدأ الايثار والتسامح • وهكذا كان لابد للمنهج الاسلامى من أن ينفى بطريق مباشر وغير مباشر كل معنى واقعى ، كقول زهير بن أبى سلمى :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وكان لابد للرسول عليه السلام من أن يستبدل بهذه الدعوة الواقعية الدعوة الى التعامل المثالى ، فيؤثر التسامح والتعاطف على التراشق والشحناء ، ويقدم المثالية على الواقعية ، حين يقول عليه السلام : اصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله ، وحين يقول : واعف عمن ظلمك • فشتان ما بين منهج واقعى

دعا اليه الفن القديم ومنهج مثالى دعا اليه الاسلام ٠

ولهذا السبب ازدرى النبي عليه السلام امرؤ القيس وأترابه من شعراء الجاهلية ، كما ازدرى غيرهم من شعراء عصره الذين لا يؤمنون برسالة الاسلام فقال مهجنا أميرهم : « امرؤ القيس صاحب لواء الشعر الى النار» (1) وفى رواية أخرى : « امرؤ القيس قائد الشعراء الى النار لانه أول من أحكم قوافيها » ٠ (2)

واذا كان المنهج الاسلامى يأمر الشعراء أن يتمسكوا بالحق والخير والجمال وألا يفرقوا بين هذه القيم، أو ينفوا احداها على حساب الاخرى ـ فان الاسلام رفض رفضا باتا المنهج الذى يؤثر الفن لذاته (أي الفن للفن) ، وهو المنهج الذى لا يحمل فى طياته خدمة الناس ومبادىء الانسانية ولا يكاد يحفل الا بعنصري الخلاية والصورة الفنية ٠ وفى مثل هذا المنهج يقول النبي عليه السلام : « من قرض بيت شعر بعد العشاء لم تقبل له صلاته تلك الليلة حتى يصبح » (3) ٠ ويقول : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيما حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعرا » (4) ٠ ولامر ما كان النبي صلوات الله عليه يقول : « أبغض أن أرى المجنون أو الشاعر » (5) ٠ ولهذا السبب لم يرض الله لنبيه صناعة الشعر ، ونزه مقام النبوة عن أساليب الشعراء لما فى الشعر من كذب ومبالغة ، وللذى فيه من سمات قريبة الشبه من سجع الكهان وأساليب الجاهلية ٠ وفى ذلك يقول سبحانه : **« وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، ان هو الا ذكر وقرآن مبين »** ٠ (6)

ان تشقيق الشعراء لشعرهم تشقيق الخطب ، واسرافهم فى عنصرى المبالغة والايغال ، وايثارهم هذه الصناعة فى أغراض الشعر بعامة ، وفى المدح بخاصة ، جعلت النبى صلوات الله عليه يشدد النكير على شعراء المدح ، حتى كان المدح أبغض أغراض الشعر الى نفسه بسبب ما يتضمنه من كذب ونفاق ورياء ، وتزلف ممقوت ، وتقرب لغير الله ، وايثار لحظوظ الدنيا على حظوظ الآخرة ، وهناك أحاديث كثيرة تزرى بالمدح والمداحين ، منها قوله :

---

(1) رواه أبو هريرة ، وأخرجه الامام أحمد فى مسنده ٠
(2) رواه أبو هريرة ، وأخرجه ابن عساكر ، وأبو عروبة فى الاوائل ٠
(3) رواه شداد بن أوس ، وأخرجه الامام أحمد فى مسنده ٠
(4) أخرجه الشيخان ٠
(5) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس ٠
(6) سورة يس آية 69 ٠

« احثوا فى وجوه المداحين التراب» (7)، وقوله : « اذا رأيتم المداحين فاحثــوا فى وجوههم التراب » (8) ، وقوله : « اياكم والمدح فانه الذبح » . (9)

فهل يفهم من هذه الاحاديث ونحوها أن الاسلام ضيق دائرة الشعر كما يبدو للسطحيين من نقاد الفن والادب اليوم ؟؟ والجواب : لا ، لان الاسلام لم ينف من الشعر الا أرذله ، ولم يرفض من الشعراء الا كفارهم وأرذالهم الذين يعارضــون مبادىء الاسلام ويخرجون على نواميسه وآدابه وأخلاقه ، مستثنيا شعراء الاسلام المؤمنين بقيمه الروحية ومبادئه العليا ، وهذا ما أشار اليه الحق سبحانه فى قوله من سورة الشعراء : « **والشعــراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون . الا الذين آمنوا وعملــوا الصالحــات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعــد ما ظلموا** ... الآية » (10) . وهكــذا ارتفع الاسلام – فى منهجه الاسلامى – بشخصية الشاعر ، ونزهها عن العبث والتذلل بين يدى الممدوح ، وأبى الا أن يحفظ للشاعر ماء وجهه ويحبس عليه كرامته أن تهدر . ولكن السطحيين من نقاد الشعر لا يعلمون .

وليس أدل على صــدق ما ندعيــه ، من أن الاسلام وسع دائرة الشعر الهادف البناء ، ذلك الموقف الذى وقفه النبي حين أجاز للشعراء أن يهجوا كفار قريش ، وسوغ لهم النيل من أعداء الاســلام وخصومه الى أبعد الحدود . ولهــذا استحث النبي حسان بن ثابت الانصارى على هجاء قريش مع أنهم عشيرتــه ومسقط رأسه ، ذلك لان النبي عليــه السلام أراد أن يطبق المثل العليا التى أوحى بها الله اليه ، ولم يجد طريقــا لتحقيق ذلــك الا أن يقتــل العصبيــة الجاهلية فى مهدها ويحل محلها المثــل العليا التى أقام بها دعائم الاســلام . كيف لا !! وهو القائل « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتــل على عصبية ، وليس منا من مات عــلى عصبية » (11) . ولذلك كان يأمــر حسانا أن ينوب عنه فى هجاء قريش . والنبي – هنا – آثر الشعراء فى هجائهم دون الخطب النثرية لانه – وهو سيــد الحكماء – أراد أن يحاربهم بســلاح من جنس سلاحهم ، وهو سلاح أشــد على نفوسهم من وقع السهام فى غلس الظلام . وفى هذا يقول النبي مخاطبا حسانا : « اهج قريشا فان الهجاء أشــد

---

(7) أخرجه مسلم وأبو داود .
(8) أخرجــه مسلــم .
(9) أخرجه الامام أحمد فى مسنده .
(10) سورة الشعراء آيات 224 – 227 .
(11) حديث حسن رواه جبير بن مطعم وأخرجه أبو داود .

عليهم من رشق النبل » (12) . ويقول : « اهــج المشركيــن فــان روح القدس معك » (13) . وفى رواية ثالثة أخرجها الشيخان : « اهجهم فانّ روح القدس سيعينك » (14) . وفى رواية رابعــة أخرجاها : « يا حسان اهجهم وجبريل معك » (15) . وفى رواية خامسة لهما : « يا حسان أجب عنى ، اللهم أيده بروح القدس » (16) . وهكذا نرى أن أحاديث هجاء قريش من رواية الشيخين تؤيـد تأييدا لا شك فيه ـ ليس فقط ـ عـلى اجازة النبي لشعراء الاسلام جهــاءَ الكفار ، بل على الدعوة لذلك والامــر به ، وأن هذا الهجاء من أسباب القربى الى الله ، والا ما كان لجبريل وهو أمين الوحى أن يشارك فى ذلك . ومن تأمـل ذلك من نقاد الشعر عرف كيف وســع الاسلام دائرة الشعر فيما يحمى دعــوة الحق والخير بقدر يفوق كثيرا ما ضيق فيه من مجال الفن غير الهادف وما نفاه نفيا باتا من مجال الشر .

ودعنى أشرح لك كيف وسع سيــد الانبياء مجال الشعر الهادف حــتى أشرف على كل مجال من مجالات الشعر الفنى وغلب بمنهجه الاسلامى الهادف كل قيم الجمال المحض ، وحمل الشعر حملا على الحق والخير ـ ما يحكيه الرواة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل على النبي عليه الســلام والصحابة يقرءون بين يديه شعرا فى مجلس القرآن ، فقال أبو بكــر : قــرآن وشعر !! ـ متعجبا لا معترضا ـ فقال صلوات الله عليه ـ وهو الحكيم بطبائع النفوس والهادى الى سعادة الدارين ـ قوله المشهور : « روحوا القلوب ساعــة فساعة » (17) . والنبي ـ فى هــذا المقام ـ يعنى المغايرة بين : العلم النافع للدين والدنيا المتمثل فى القرآن والادب الهادف المروح عن النفس المتمثل فى الشعر . وقد أثبت فلاسفة التربية وعلماء النفس فضل المغايرة والمراوحة فى تثبيت العلوم فى الذاكرة وتوسيع دائرة الفكر مما تغنى فيه الاشارة عن الاطالة فى هذا الصدد ، الامر الذى يؤكد أن هذا الحديث ـ على الرغم من كونه فى درجة الضعيف ـ يعتبر من أعلام النبوة .

والمنهج الاسلامى الذى أرسى قواعده فى مجال الشعر يدخل فى دائرته كـل شعر هادف نافع ، فيجيز شعر الحكمة، وشعر الامثال ، كما يعتبر الشعر الهادف

(12) أخرجــه مسلــم .
(13) أخرجه الترمــذى .
(14) أخرجه الشيخــان .
(15) أخرجــه الشيخــان .
(16) أخرجــه الشيخــان .
(17) رواه أنس ، وابن شهاب مرسلا ، وأخرجه القضاعى وأبو بكر المقرى فى فوائده ، وأبو داود .

فى مجال الحق والخير وسيلة من وسائل تعلم اللغة وصقل اللسان ، وعونا على الافصاح عما فى النفس ، وتدريبا عمليا على صناعة البلاغة . ولهذا نجد كوكبة من الاحاديث ليست بالقليلة اجاز فيها النبي عليه السلام رواية الشعر الهادف ، شعر الحق والخير ، وربما حث عليه فى بعض المواطن ، كقوله عليه السلام « تعلموا من الشعر حكمه وأمثاله » وقوله « تعلموا الشعر فانه يعرب السنتكم » (18) . وقوله « ان من البيان شحرا وان من الشعر حكما » . (19)

وفى هذا المنهج الاسلامى الرائع تقبل النبي عليه السلام قصيدة كعب بن زهير « بانت سعاد » حين جاءه معتذرا مادحا له :

ان الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

فاجازه النبي على مدحه وخلع عليه بردته .

وقد تسالنى — فى هذا المقام — كيف أجاز النبي مدح كعب له وهو القائل : احثوا التراب فى وجوه المداحين . والجواب عن ذلك واضح لا يحتاج الى دليل : أولا : أن المدح هنا يتعلق بالنبي والنبوة ، وطاعة النبي فى ذلك من طاعة الله ، ومادحه كأنه مادح الله ، والله يقول : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله** » (20) ، والنبي نفسه يقول « من أطاعنى فقد أطاع الله » (21) ، ثانيا : أن المدح هنا مهما بالغ فيه الشاعر — ما دام متحاشيا التقديس والتأليه اللذين وقع فيهما اتباع موسى وعيسى — يعتبر قول صدق مهما اكثر الشاعر من الثناء ومن ثم فلا أشكال ، ومقام النبوة لا يقاس على غيره .

أن هذا المنهج الاسلامى الذى استنه سيد الانبياء وسار على هديه شعراء الاسلام الاولون أصبح اليوم موضع اجلال الاصلاء من النقاد المعاصرين ، واليه انتهت آراؤهم فى اختيار المنهج النقدى الصحيح بعد طول المعاناة التى مر بها تاريخ النقد . فالنقاد المعاصرون — اليوم — يمقتون الصنعة فى الاسلوب شعرا ونثرا ، وهم أشد مقتا للتصنع والمعاظلة والاسراف فى استخدام الحلى اللفظية فى أساليب الشعر . وذلك عين ما ارتئاه النبي وأشار اليه فى أحاديثه . فكان عليه السلام يكره المغالاة فى كل شيء ، لا يستثنى من ذلك السلوك فى مقام السلوك الشرعى «هلك المتنطحون» (22)

(18) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس .
(19) رواه ابن عباس ، وأخرجه الامام أحمد وأبو داود . وورد الحديث فى ثلاث صيغ .
(20) النساء : آية 80 .
(21) أخرجه الشيخان . وانظر الجامع الصغير ج 2 ص 474 (طبعة الحلبى) .
(22) رواه ابن مسعود واخرجه احمد ومسلم وابو داود .

وقال فى مجال السلوك الاجتماعى : « اياكم والغلو فانما هلك من كان قبلكم بالغلو » (23) · أما فى مجال المعاناة الادبية ـ ولا سيما الشعر ـ فكان يقول : « لعن الله الذين يشققون الخطب تشقيق الشعر » (24) · وكان ينهى عن السجع بسبب عنه : « اياك والسجع يا ابن رواحة » (25) ولنفس السبب حكمنا على شعر ابن العميد والصاحب ابن عباد فى القرن الرابع الهجرى وغيرهما من شعراء الكتاب بأنه فى الطبقة الثانية من الشعر وذلك لانهم حاولوا نقل ما التزموه من سجع فى رسائلهم الى ما نظموه من شعر فى دواوينهم فصار شعرهم متكلفا على الرغم مما فيه من احساس رقيق وتجربة شعرية عميقة ·

وعلى هدى من هذا المنهج الذى وضع النبي أساسه ارتضى الكثير من شعر أصحابه كحسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة ولبيد بن ربيعة · وكان خير ما أعجبه من ذلك : الشعر الهادف ، والشعر الرمزى ، وشعر الحكمة ، وشعر الدعوة · وكان يعجبه من شعر الدعوة ما جاء على لسان (حسان) يؤيد ذلك ما قدمناه لك من أحاديث الشيخين · وقد بلغ حب النبى عليه السلام له القدر الذى روته عائشة أم المؤمنين فى قوله : « حسان حجاز بين المؤمنين والمنافقين، لا يحبه منافق ولا يبغضه مؤمن » (26) · أما شعر الحكمة فكان يعجبه من قول لبيد يؤيد ذلك ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل * »

وكثيرا ما كان يدور على طرف لسان النبى كلام موزون يعتبر فى القمة من البلاغة وجودة السبك · كقوله : « اشتدى أزمة تنفرج » (27) وهى حكمة موزونة من بحر المتدارك · وقوله من الرجز :

والله لولا الله ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

وقوله من الخفيف :

ليس من مات فاستراح بميت

انما الميت ميت الاحياء (28)

(23) أخرجه ابن منيع ·
(24) حديث ضعيف : رواه معاوية وأخرجه أحمد ·
(25) أخرجه ابو يعلى الموصلى ·
(26) أخرجه ابن عساكر ·
(27) أخرجه أبو يعلى ·
(28) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس · وانظر الجامع الصغير للسيوطى ج 2 ص 467 ·

وقوله عليه السلام من الرجز :

ان تغفر اللهم تغفر جما
وأي عبد لك لا ألما

والنبي ـ هنا ـ لا يعنى الوزن ولا يقصده لان مقامه فوق مقام الشعر · ولعله فى ذلك يمىء ايماء واضحا انه لو اراد الشعر لبلغ فيه فوق مدارك الشعراء · ولكن الله نزه أسلوب نبيه ـ كما نزهه القرآن من قبل ـ عن أساليب الشعراء · كيف لا ! وهو سيد الناطقين بالضاد وفى الطبقة العليا من الاسلوب العربى البليغ المحكم · وهو القائل : « أنا أعربكم ، أنا من قريش ، ولسانى لسان بنى سعد بن بكر » · (29)

وعلى غرار هذا النمط من المنهج الاسلامى سار عمر فى توجيه الشعر وجهته الصحيحة ، وكان يعجبه شعر زهير ، وكان يعزو اعجابه به الى أنه كان لا يعاظل فى شعره· وفى هذا الخط سار النقاد المعنيون بالمنهج الاسلامى ، الامر الذى نرجىء تفصيله الى مقال آخر ·

وأخيرا نستطيع أن نقول : ان المنهج الاسلامى وسع مجال الشعر العربى بخلاف ما كان يظنه بعض النقاد من أن الاسلام حجر على الكثير من أغراض الشعر ، وأضعف الكثير من أهدافه ومراميه · كذلك حول المنهج الاسلامى مسار الشعر العربى من مهاوى الشر ومفاسد الجاهلية الى شعر هادف أصيل بناء يحمل فى طياته أسمى المبادىء التى نعمت بها البشرية طوال أربعة عشر قرنا ، محققا للنفس المؤمنة ـ ذات الجوانب المتكاملة ـ كل ما تصبوا اليه من قيم الحق والخير والجمال ·

---

(29) رواه يحيى بن يزيد السعدى ـ مرسلا · وقال السيوطى : حديث صحيح ·

العلاقات بين بنى حماد والمسيحيين

د. عبد الحليم عويس
الاستاذ بجامعة الامام محمد
ابن سعود الاسلامية ـ كلية العلوم
الاجتماعية ـ الرياض

دولة بنى حماد :

دولة بنى حماد من الدول الاسلامية الجزائرية ، التى استقلت بعد نزوح الفاطميين الى مصر سنة 361 هـ . وكان ذلك حين ورث بنو زيرى الفاطميين ، فاستقل عنهم ـ بعد أن أثبت جدارته ـ (حماد بن بلكين) الذى كان قد أصبح « عما » لحكام بنى زيرى أبناء أخيه المنصور بن بلكين، وقد تم هذا الاستقلال سنة 405 هـ (1014 م) .

وبوفاة حماد سنة 419هـ خلفه أبناؤه من بعده ، وكانت عاصمتهم الاولى (قلعة بنى حماد) ثم انتقلوا أيام ازدهارهم على يد (الناصر بن علناس) (ت 481 هـ) الى موضع بجاية ، فبنوا فيها عاصمتهم ، ونجحوا فى جعلها عاصمة حضارية كبرى .

وقد استمر بنو حماد فى حكم الجزائر ، حتى سقطوا على يد (عبد المؤمن بن على الموحدى) سنة 547 هـ ، واعلن استسلامه وخضوعه آخر أمراء بنى حماد (يحيى بن العزيز الحمادى) سنة 547 هـ فدخلت الجزائر فى عصر جديد هو عصر الجزائر الموحدية !!

ملاحظات عامة حول العلاقات الحمادية المسيحية :

تعاونت عدة عوامل على تحديد نوعية علاقة الحماديين بالمسيحيين ، وكان موقع الدولة الحمادية وسط الدول الموجودة فى المغرب ، وكحاجز بين المرابطين والنورمان ، أبرز العوامل فى تحديد نوعية السياسة الحمادية المسيحية وبما ان العلاقات المغربية الداخلية القائمة بين دول المغرب كانت

علاقات تفكك وصراع فى أغلب أحايينها لذا لم يحاول الحماديون فتح باب جديد من أبواب ـ الصراع على أنفسهم ، حتى ولو كان هذا الباب جهادا مقدسا ضد المسيحيين ، وقد استغل الغزو المسيحى هذه النقطة ، فحاول جهده تعميق علاقات الود بينه وبين الحماديين وعدم تهييجهم (1) ٠

ومن الملاحظ ان العلاقات بين الحماديين والمسيحيين لم تبرز واضحة قوية الا فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وحتى نهاية الدولة ، أما قبل ذلك فقد كانت سياسة الدولة الخارجية تخضع بنسبة كبيرة لسياسة الزيريين والفاطميين ، كما ان هذه السياسة لم تسر على وتيرة واحدة ، فحينما وجد المسيحيون أن علاقة السلم التى تربطهم بالحماديين فى غير صالحهم ورأوا فى الحماديين منافسا فى مجال الاستيلاء على المدن الزيرية التى كانوا يطمعون فى الاستيلاء الكامل عليها بعد استيلائهم على مالطة وصقلية ، فى هذا الوقت هاجموا الحماديين بشراسة وعنف (2) ٠

كان النورمانيون قد نزلوا ـ على امتداد القرنين الثالث والرابع للهجرة من شمال فرنسا الى جنوبها ، وشرعوا يتعقبون المسلمين ويناجزونهم فى ايطاليا ، حتى ملكوا جميع البلاد الاسلامية فى جنوب أوروبا ـ وساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية اثر الزحف الهلالى سنة 442 هـ (3) ٠

ولم تقف أطماع هؤلاء النورمان عند محاولتهم ازالة الحكم الاسلامى من أوروبا ، بل جنحوا الى التغلب على المسلمين فى مواطنهم الآمنة فى افريقيا (4) ٠ فأصبح واجب الدفاع عما بقى من سيادة المسلمين على غرب البحر الابيض المتوسط على عاتق بنى زيرى أصحاب افريقيا وبنى حماد أصحاب القلعة (5) ، لكن قدر على الزيريين فى المهدية أن يتولوا وحدهم ـ فى هذا الجانب ـ عبء الجهاد ضد هؤلاء الغزاة حتى سقطوا أمام زحفهم

(1) انظر تاريخ الجزائر للهلالى 210/2 ٠
(2) انظر تاريخ الجزائر العام للجيلالى 281/1 ٠
(3) انظر تاريخ غزوات العرب شكيب ارسلان 201 ونحن نذكر ان الزحف الهلالى كان سنة 452 وقد ذكرنا تاريخه الصحيح وهو 442 ٠
(4) المكان السابق نفسه ٠
(5) اثر ظهور الاسلام فى البحر الابيض المتوسط ، دكتور حسين مؤنس ص 117 ٠

المستمر بعد كفاح قرابة ثلاثة أرباع قرن ، كما وقف المرابطون ــ من جانبهم ــ يكافحونهم فى ميدان آخر ٠ أما الحماديون فلم يلح الخطر عليهم باتخاذ موقف مماثل ، وتمكنوا من اقامة علاقات طيبة مثالية مع المسيحيين مدة طويلة !!

الناصر الحمادى قمة العلاقات الحمادية المسيحية :

لقد أقام الناصر بن علناس علاقات ودية مع البابا « جريجورى السابع » ، وكان مما توصل اليه جريجورى والناصر اقامة أسقفية فى بونة ، ترك للنصارى الموجودين فى بونة حرية انتخاب أسقفهم (6) ، وقد انتخبوا أسقفا يدعى «سرفاند» صادق الناصر على تعيينه (7) .

ويحدثنا جنرال (دوبلين) أن هذا الاتفاق الودى بين الناصر والمركز البابوى (الكرسى الرسولى) هيأ نوعا من الامان للقضايا المسيحية (8) ، بل ان المستشرق (فرديناند جوتيه) يرى أن هذا الاتفاق منح الرعايا المسيحيين (آمنا كاملا) (9) ٠

ومبالغة فى تعميق الود استغل الناصر فرصة سفر (سرفاند) الى (البابا جريجورى) فحمله هدايا جميلة ، كما حمله رسالة ودية الى البابا ــ لم يحفظ لنا التاريخ نصها ــ كما اشترى الناصر جميع الاسرى المسيحيين الذى عثر عليهم بمملكته وأرسلهم هدية الى البابا ، ووعده بأن يعتق كل أسير مسيحى يعثر عليه من بعيد (10) ٠

وثيقة خطيرة :

وعندما عاد سرفاند الى بونة أرسل معه كبار الكنيسة رسائل شكر وثناء الى الناصر ، وأرسل البابا أيضا رسالة خاصة تعد أكبر رسالة واعظمها أرسلت من بابوات ، ومنه الى ملوك المغرب ، وذلك سنة 469 هـ 1076 م وهى رسالة تدل على ما كان يكنه البابا للناصر من تقدير واحترام (11) ٠ وقد روى لنا (ماس لاترى) نص هذه الرسالة ، ونحن نترجمها عنه كاملة بنصها ٠٠٠

(6) انظر : La Kalaâ des Beni Hammad : De Beylei, p. 10.

(7) تاريخ الجزائر للهيلالى 211/2 ٠

(8) De Beylei : La Kalaâ, p. 20
Gautier : Le passé de l'Afrique du Nord, p. 737

(9) انظر : La Kalaâ : De Beylei, p. 10.

(10) تاريخ الجزائر للهيلالى 211/2 ٠

(11) اثر ظهور الاسلام 118 ٠

تقول الرسالة :

« من جريجوار .. خـــادم خـدام اللــه ... الى الناصر ملـك موريتانيا ومقاطعة سطيف فى افريقية ... تحيات وبركات رسولية ... » كتبتم الينــا نبالتكم تطلبون الينا تعيين قس ، وفقا للشرائع المسيحية وهو هذا القس الخادم (سرفاند) الـذى بادرنا بتعيينه ، لان طلبكم كان منصفا ، وفى نفس الوقت أرسلتم الينا بعض الرسائل ، وأطلقتم سراح المسيحيين الذين كانوا أســـرى لديكم ، مراعاة للطوباوى البار بيير ، المبشرين وحبا لنــا ، ووعدتم باطـلاق سراح كل من يوجد لديكم ثانية .

ولا شك أن اللــه خالق كل شيء ، والذى لـولاه لـما استطعنا شيئا عـلى الاطلاق ، لا شك أنه قد ألهمكم هـذا الحلم ، وهيأ قلبكم لهذا العمل النبيل . والله ـ القادر ـ الذى يريد لكل الرجال النجاة ، ولا يريد الهلاك لاحد ـ لا يتقبل منــا شيئا أكثر مـن تقبله لحبنا لمـن يماثلوننا ـ بعد حبنا الواجب له ـ ومن مراعاتنا لذلك المبدأ القائل « افعــل للآخرين ما تحب أن يفعلوه لك » ونحن بصفة خاصة ملزمون بـأن تمـــارس الشعوب الاخرى فضيلة المحبة هـذه . ونحـن وأنتم ـ بصورتين مختلفتين ـ نعبد نفس الاله الواحد، وكل يوم نمجده ونجل فيه خالق القرون وسيد العالم . وقد أعجب نبلاء روما ـ الذين عـرفوا منا نبأ الصنيع الذى ألهمكم الله اياه ـ بسمو قلبكم ، وأشاعوا الثناء عليكم ، وثمة اثنان من بينهم من أكثر اتباعنا ألفة ـ وهما البيريك وسسنيوس اللذان نشأ معنا منذ يقاعتهما فى قصر رومـا ـ يرغبان فى توثيق أواصر الصداقـة والمصالح الخاصـة معـكم ، وسيكونان سعيدين اذا استطاعا أن يكونا من ذوى الحظوة لـديكم ، وفى وطنكـم انهمـا يرسـلان اليـكم بعض رجالهما الذيـن سيشرحون لكم مـدى تقـدير سيديهما لسعـة أفقكـم ، ولسموكم ، ومـــدى سرورهما بتقديم أية خدمة لكـم هنا ، ونحن نوصى جلالتكم بهم ، ونطلب منكم لهـــم نفس الحب ونفس الوفاء الذى سنكنه دائما لكم ، ولكل من ينتمى اليكم ويعلم الله أن عزة الله القادر هى التى تلهمنا الصداقة التى قد نذرناها لكم ، ويعلم مدى رغبتنا فى سلامكم ومجدكم ، فى هذه الحياة ، وفى الحياة الاخـرى ونحن ندعـوه مـن أعمـاق القلب أن يتلقاكم ـ بعد حياة مديدة ـ فى أصفيائه فى نعيم الاب المقدس ابراهيم (12) .

(12) انظـر : Relation et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les natinos chrétiennes au Moyen-Age : De Mas Latrie, pp. 42, 43, 44.

تعليق على الوثيقة :

وكما ترى ، فان الرسالة تحمل مشاعر ودية من البابا ، ومن البريك وكنسيوس من خدام قصر البابا الذين نشأوا به ، وتحمل رغبتيهما فى تقديم خدماتهما لما يتعلق بالناصر فى أن يخدماه ببلده ، وأنهما أرسلا له بعض رجالهما لتاكيد ودادهما ، كما تنص الرسالة على أن البابا مستعد لمعاملة كل من تعلق بالناصر معاملة ودية . صادقة (13) .

وقد استمرت محاولات الحماديين للابقاء على علاقة الود التى تربطهم بالمسيحيين ، وان كان الاخيرون لم يبذلوا مثل هذه المحاولة ، ففى سنة 508 هـ 1114 م سمح العزيز بن المنصور بانشاء كنيسة القلعة دشنت باسم كنيسة مريم العذراء ، وكان كاهنها المسمى « عزون » يطلق عليه العامة لقب (خليفة) تأثرا بالطابع العربى واللغة العربية ، وكان يسكن فى بيت مجاور للكنيسة ويؤكد « جوتيه » أننا لا نستطيع أن نمارى فى وجوده (14) .

وفى العام 1114 م ، وقع حادث تدل نتائجه على رغبة الحماديين الملحة فى ارضاء المسيحيين ، فقد وقع بعض رهبان (مون كاسان فى أيدى القراصنة !! (المنتمين للحماديين) أثناء عودتهم من (سردينيا) الى صقلية ، وبعد فترة وجيزة رمت عاصفة على سواحل صقلية بالرهبان الذى كان قد أرسلهم المطران الاكبر لافتداء اخوانهم ، وقد بادر الكونت روجية حاكم صقلية - بإرسال مبعوثيه الخاصين الى العزيز ملك القلعة ، فرحب العزيز بمساعى روجيه وقبل وساطته (15) .

وقد استقبل الحماديون من المسيحيين أعدادا غفيرة خلطوهم بأنفسهم ، واستعانوا بهم فى بعض أعمالهم ، لا سيما العمرانية (16) .

(13) ومن الملاحظ أنه بعد ذلك بسنوات قليلة كان البابا يحرض على غزو المهدية ، وقد أحدث الصليبيون فيها ببركة البابا مقتله ذريعة ، وحرقوا وخربوا معالم المهدية المشهورة وسبوا النساء والذرارى واضطر تميم الى ان يدفع لهم مائة الف دينار ويقبل تجارتهم بلا مكسب 11 (راجع دائرة المعارف 59/6 ، وتاريخ غزوات العرب 201 شكيب أرسلان) .

(14) انظر : Le passé de l'Afrique du Nord, p. 372. And Encyclopedia of Islam vol. II, part 2, p. 680.

(15) انظر : La Kalaâ des Beni Hammad, p. 13°

(16) انظر : La Kalaâ des Beni Hammad, p. 20

سياسة الجانب المسيحى :

لقد غلب على سياسة الحماديين تجاه المسيحيين روح التسامح والود . ولم يتركوا فرصة الا استغلوها لتعميق هذه ـ العلاقة ، لكن المسيحيين كانوا ينظرون الى الامور نظرة مصلحية محددة ، فلما ان استوجبت ظروفهم المصلحية الانقضاض على الحماديين حتى بادروا الى ذلك ، دون نظر الى اية خدمات حمادية سابقة او اية عهود او مواثيق ·

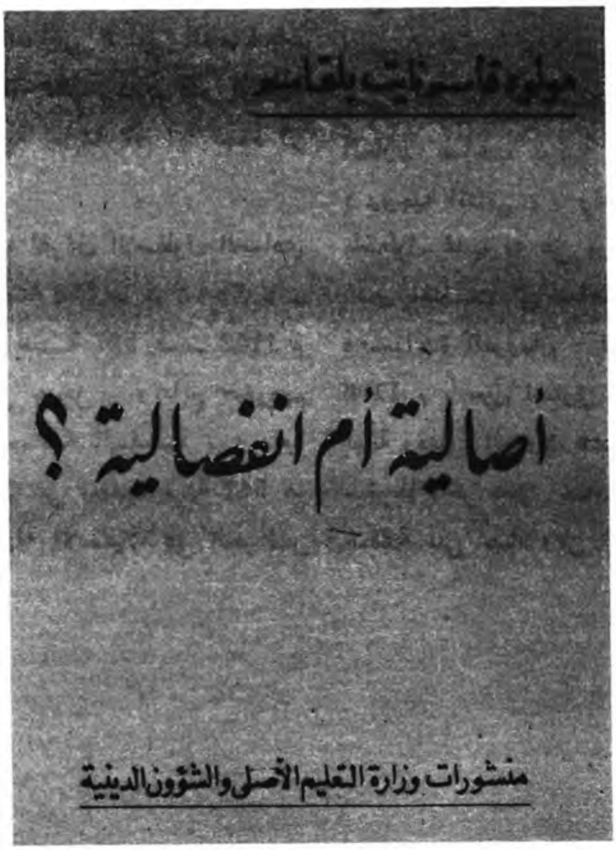
وقد حاولوا اغراق الاسطول الحمادى أمام المهدية سنة 528 هـ ـ كما ذكرنا ـ كما شهدت سنة 527 هـ ـ 1142 م هجومهم على جيجل ، وتتابع هجومهم على المدن الحمادية الساحلية ، وبدأوا بعد استيلائهم على المهدية سنة 542 هـ 1148 م محاولة الاستيلاء على الجزائر الحمادية ، وهاجموا مدينة بونة لهذا الغرض ، ولم يمنعهم عن التوغل فى الارض الحمادية الا ظهور الموحدين الذين وضعوا حدا لاطماعهم وتوسعهم ·

ومع ذلك بان بقية من هذه الروح التى تمسك بها الحماديون فى علاقاتهم مع المسيحيين ظلت باقية الى آخر أيامهم ، فعندما سقطت بجاية واستسلم يحيى آخر ملوك الحماديين ، لحق أخوه الحارث صاحب بونة بصاحب صقلية (روجيه الثانى) ، واستصرخه فأنجده باسطول غلب به على بونة ، وظل بها غير ملتفت الى سلطة الموحدين ، وبمساعدة النورمان ، الى سنة 552 هـ 1156 م ، حين استولى الموحدون على بونة وقتلوا الحارث صبرا ، فاعتبر هذا سقوطا لآخر معقل حمادى (17) وانتهت صفحة بنى حماد ومن التاريخ ·

---

(17) العبر 264/6 ، وانظر دائرة المعارف الاسلامية 247/4 مادة بونة وتاريخ الجزائر العام الجيلالى 594/1 ·

صـدر



ـ فى مجلـدين ـ

بيان من رئيس المجلس الاسلامى الاعلى

بسم الله الرحمن الرحيـــم

والصلاة والسلام عـلى محـمد النبىء الكريـــم ،

اليكم ـ شبان الجزائـر وفتيانهـا

الله الله فى بلادكم وامتكم أيها الشبان!

كل من سمع ، أو قرأ ، أو شاهد على الشاشة الصغيرة ـ بالاذاعة المرئية ـ آثار (أعمال) طائـفـة من شبيبتنـــا (المدللة) أخذه العجب ، والفزع ثـــم الاشمئزاز والتقزز مما وصلت اليـــه أخلاق بعض من يعدهم الوطن لاستلام زمامه ، وتحمل مسؤولياته الجسام ، فى مستقبل ايامه ، وتولى قيادته ، والسير به الى الامام : نحو الازدهار والقـوة والرشد فى صنع مصيره ٠

أهكذا ـ أيها الشـبان ـ تفعلـــون بوطنكم ، وترتكبون فى حقه من جرائم وحماقات ما لا يفعله العدو بعدوه : مما يحرمه الدين وتدينـــه القوانـين وتشمئز منه الحضارة ، فساد ، وتخريب، واتلاف لمنشآته وتمزيق وتحريق لوثائق تخص المواطنين ، ويعود عليهم فقدهـــا بالضرر المبيـــن ، وتحطيـم لوسائـــل المواصلات لا ينتفع بها ـ مضطرين اليها ـ الا الضعفاء من أبناء الشعب الكادح فى تنقلاتهم وحركاتهم ، ثم حفر لخنادق عميقة توسع الانفصال ، وتتلف كـــل اتصال مأمول بينكم ، وتديم العـــداوة والبغضاء ، والتقاطع بين الاخـــوان الاشقاء المفروض عليهم ـ دينا واخلاقا ومصلحة وطنية وسياسة ـ أن يتعايشوا ٠

من يقبل هذا أو يرضى به ؟ ان اللـــه ينهى عنه ويحرمه ، ثم ان الحكمـــة والتعقل والمصلحة توجب الاتصـــال ـ لا كمال الانقطاع ـ بينكم ، والتعـاون على البر والتقوى ، والاحسان وصالحات الاعمال ، وان لا تقربوا الاثم والعدوان والعدول عن هذا المنهج انما هو مـــن

وساوس الشيطان من الجن أو من الانسان ، من كل زنيم لا يريد لكم ولا لامتكم ولا لوطنكم مثقال ذرة من الخير، وانما يبيت للجميع الشر والفساد ٠

أهكذا تفعلون بالوطن والمواطنين وبالدولة التى بناها آباؤكم واخوانكم بالتضحيات الغالية من الملايين ، وبدماء زكية ، ونفوس طاهرة من الشهداء المجاهدين ؟

لو ارتكب ما فعلتم — من تخريب — أميون ، لا يقرأون ولا يكتبون ولا يعرفون حادثة واحدة من حوادث التاريخ ، ولا مبدأ ولا كلمة من الدين ، ولا قاعدة من قواعد الفلسفة والحكمة ، ولا قياسا فى المنطق ولا شيئا من علم الاجتماع ، ولا احصائية من فن الحساب لجاز أن يلتمس لهم عذر ولرجونا أن ياتى العلاج منكم ، وأنتم أطباء أمتكم بحكم ثقافتكم وحكمتكم وفهمكم ، ولتوقعنا ان يتعلموا منكم ، ويفهموا ، لان جهلهم بسيط يعترفون به ، ويطلبون أن يتعلموا ما لم يتعلموا ، ويفهموا ليرتقوا ويزول جهلهم ٠

أما أنتم فلستم بالاميين ، انكم (علماء) مدركون ، وجامعيون فهمون ، منكم أطباء الاجساد والارواح فى المستقبل القريب يعالجون الادواء ويصفون الدواء ، ومنكم المهندس فى مختلف شعب الهندسة يخططون وينفذون ما به نكون دولة قوية متطورة تخرج بنا من صفوف الامم المتخلفة الى أمم الصدارة ، ونحن بذلك جديرون ، ومنكم علماء الاجتماع الذين درسوا أحوال الامم السالفة ، واخلاقها وأسباب يقظتها وقوتها ثم أسباب فتورها وضعفها وانحطاطها ، ثم انهيارها وموتها ، فأنتم حريصون على سلامة أمتكم ، وقوة دولتكم وحمايتها من الضعف والانهيار ، والمحافظة على استمرارها فى طريق التطور المفيد والاخذ بأسباب القوة والكرامة والعزة ٠

ومنكم علماء المادة وعلماء الروح يربطون هذه بهذه ، ويبنون لنا من وسائل المادة ما به نحمى انفسنا ونسلح به جيشنا ، ومن وسائل الروح ما به نحقق سلامة مجتمعنا من السوس والانهيار ٠

ومنكم قادة الحرب ، وزعماء السياسة، والموظفون السامون المعدون لتحمل أعظم المسؤوليات فى القيادة والسياسة والادارة مما يجعل أمتنا أحسن مثال فى الضبط والنظام والعدالة المطلقة، والسير الحكيم ٠

من كانوا هكذا ، أو من ينتظر منهم هذا ، ثم يندفعون اندفاعا أعمى الى التخريب والفساد المادى والمعنوى فلا عذر لهم ، ولا يعتبرون فى ذوى الالباب والبصائر ، كما يستفاد من وصف الله سبحانه لمن فعل فعلهم « **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الابصار** » بل يعتبرون من الذين بيتوا الجريمة ثم ارتكبوها عن (عمد وسبق أصرار) وذلك ما كان يدبره العدو لامتنا، ويعمل لتحقيقه فينا فهم عملاؤه ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، أحبوه أم كرهوه ٠

الا تخجلون ـ أيتها الفئة المثقفة المستنيرة ـ أنكم كنتم تحيون ذكرى حوادث 19 مايو 1956 م ؟ انه اليوم الاغر ، يوم طلاب الجزائر وفتيانها ، وآمال مستقبلها ـ آنذاك ـ كانوا مقبلين على طلب العلم ، فى الداخل والخارج ، وشعبهم يحترق ، كانوا يشاركون فى الكفاح مشاركة رأوها متواضعة قد لا يعلمها كثير من الناس ، فقرروا تلبية نداء الجهاد الصادر من جبهة التحرير 1954 م ومغادرة مقاعدهم فى الجامعات والثانويات ـ وهم على أبواب نهاية سنتهم الدراسية ـ والالتحاق باخوانهم الجنود فى الكفاح علنا ، فى الجبال والوهاد ، بجانب من لبوا النداء من العمال والفلاحين والتجار والمحترفين، كل الفئات من المجاهدين ، فكان لفعل هؤلاء الطلاب دوى هائل فى العالم أجمع ، كأثر زلزال مريع فى ادارة العدو ومشاريعه الخبيثة التى كان يود أن يصل بها ـ ببث سمومه فى المثقفين ـ الى الفصل بينهم وبين شعبهم •

حدثنى بعض هؤلاء الطلاب أن مدير ثانويتهم حاول أن يثنيهم عن عزمهم على مغادرة مقاعد الدراسة ، فلما رأى تصميمهم أدركه اليأس وقال أمامهم : « آديو لفرانس ! » •

ولم يكن فى يد طلاب 1956 م سوى أرواحهم وخبراتهم التقنية وما فى عروقهم من دماء زكية ، وما فى قلوبهم من ايمان ووطنية ، فجادوا بكل ذلك لانقاذ أمتهم ، واعزاز دينهم وتحرير وطنهم ، وبناء دولتهم قوية عزيزة منيعة، فاستشهد معظمهم ، وتم ما أرادوه ـ بفضل الله أولا وأخيرا ـ ثم بفضل جهاد واستشهاد مئات الالوف ، وبلغوكم الامانة وحملوكم اياها ، فوجدتم أمة حرة ، وشعبا متحدا ، ووطنا مستقلا ، ودولة فتية غنية أكرمتكم ، ويسرت لكم كل أسباب العلم ، ولم تبخل ببناء الجامعات الفخمة العصرية ولا بملحقاتها، ولم تشح عليكم بالمآكل اللذيذة والفرش المرفوعة والبرامج الدراسية القوية وجاءتكم بأمهر العلماء العالميين ، ووفرت المنح السخية فى الداخل وفى الخارج للبعثات العديدة ، ووضعت فيكم كل آمال شعبها ، لتجعلوا من الجزائر رائدة من رواد أمم العالم وقائدة من قادة الرشد فيه ذائدة عن الحرية والكرامة والسلام بين جميع أبناء الانام

هؤلاء هم طلاب 1956 م وها أنتم طلاب 1981 م أفلا يحق لكل من قارن بين الطائفتين أن يهتف : نعم السلف ، نعم السلف ، وهدى الله الى الحق هؤلاء الخلف •

ماذا تريدون ـ يا طلاب اليوم ـ أو على الاصح ماذا يراد بكم أو منكم ، وانتم عنه غافلون ؟ أتريدون أيها الشبان ـ أو يراد بكم ـ أن تحطموا ما بناه آباؤكم واخوانكم بالدموع والدماء والآلام والتضحيات الجسام وكان أمل الاجيال منذ 1830 م حتى

الآن ، وهو بناء دولة تجمع شملنا وتصلح ذات بيننا وتحقق وحدتنا ، وترفع رايتنا ، وتضمن سلامتنا وأمننا ؟ انكم لا تمثلون جمهور طلابنا فهم سالمون ، ولكنكم تمثلون طوائف لنا أن نسائلهم :

أحقا ان منكم ـ أو فيكم ـ من يحب الحرية ثم يفهم منها انها اطلاق العنان لنزوات الجسد الخسيسة ، تذبح فيها الفضيلة وتنصر الرذيلة وتهان الاخلاق الفاضلة ، وتمجد الاخلاق السافلة ، ويترك الفرض وينتهك العرض ، ويحتقر الدين ، ويؤذى المتدين ، وتحول جامعاتنا ومعاهد العلم عندنا الى قاعات رقص ، وحانات قصف ، ونوادى الحاد وانحراف واستهتار يبث فى أبنائنا وبناتنا فيدمر منهم الارواح والاجساد ، ثم يراد من الآباء والامهات ، والاخوان والاخوات ، والجيران والجارات ، والعفائف المحصنات يراد منهم الرضى بذلك وقبوله والانغماس فيه ، أو على الاقل السكوت عنه ، فان لم يفعلوا ـ ولن يفعلوا ـ فهم الرجعيون المتحجرون وهم المتوحشون الواقفون فى طريق التقدم والرقى يجب القضاء عليهم بالقوة أو بالقانون أو بالسياسة ، ان كان هذا ظنكم وتصوركم للحرية وعملكم للتمتع بها فبئس ما تظنون وما تدعون وما تتوقعون وساء ما تعملون ·

أحقا ان منكم من تنكر للوحدة الجزائرية واصالتها ، فانحرف عن مقوماتها التى لا جدال فيها ولا مساومة عليها وهي (الاسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا) وعاد الى العصبية الجاهلية ـ التى أماتها الاسلام، وقضى عليها منذ عصر موسى وطارق ـ وحماقتها ، وراح يركض ـ فى ميادينها ـ ويتنسم روائحها المنتنة فيلذها ، ويحقق أحلام الاستعمار فينا ويروج لها ، ويريد منا أن نتقاطع ونتدابر ونرجع كفارا يضرب بعضنا رقاب بعض ، بعد ألفة وانسجام واتحاد والتحام ، واعتصام بحبل الله المتين حبل الاسلام بلا فرقة ولا انفصام ؟

أحقا أيتها الطائفتان ان الوقاحة بلغت ببعض من اندس فى صفوفكم ـ وحاشاكم أن نقول انه منكم ـ وبلغت به أن يكتب فى جامعاتكم ، ويعلن باسمكم : (لا) للعروبة والاسلام ؟

ان العروبة قومية الجزائر ، بنص الميثاق والدستور ، والاسلام دينها بارادة جميع أهلها ، ومن قال (لا) للاسلام فقد ارتد عنه وحل فيه الجهاد وان الجزائر ـ بسهولها وجبالها ـ بلاد المجاهدين ، فليحذر الذين يخالفون أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ·

أحقا ان منكم ـ أو فيكم ـ من يعتز بالاسلام ويفديه ويحب أن يكون دين الانام ، ثم يكون أول المخالفين لمبادئه وآدابه فيقتصر على المظاهر والتظاهر، ويكفر الناس بالصغائر فضلاعن الكبائر، ويعمل للفتنة فىالمساجد : فىالمحراب ومن

فوق المنابر ، ويكون فى دعوته عنيفا الى أقصى درجات العنف ، أو قاسيا الى ابعد غايات القسوة ، أو ساذجا الى درجة الغفلة ويعرض عن أخلاق النبوءة وآدابها فى السيرة والسلوك ومباشرة الدعوة فقد قال الله سبحانه فى صفة نبيه : « **لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** » وقال : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » وقال : « **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم** ··· » وقال فى أسلوب الدعوة : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتيهي أحسن** » وقال : « **ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين ، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هي أحسن . فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** » وقال عليه الصلاة والسلام : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » وقال « من قال هلك الناس فهو أهلكهم أو أهلكهم » واذا كان محمد عليه الصلاة والسلام ــ وهو نبىء الرحمة ــ يؤمر بهذا الاسلوب فى الدعوة الى الله فأحرى وأولى غيره من البشر لان الدعوة ان لم تكن بالحسنى أدت الى الفتنة ، والفتنة أكبر وأشد من القتل قد أمر الله باتقائها فى قوله سبحانه : « **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** » · وأحمق الحمقى من نهى عن منكر بارتكاب منكر مثله أو أشد منه ، اراد الهداية فكان السبب فى الضلالة وابتغى السلم فكانت الحرب ·

فحذار ، حذار أيها الدعاة الى الله أن تحدثوا الفتنة أو توقظوها أو تفرقوا بين المؤمنين او تصدوهم عن جماعة المسلمين ، ومن كان يحب الله ورسوله حقا فسبيله وعلامته قول الله : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** » · ولا يكفى فى المحبة مظهر من المظاهر المادية وانما يتحقق بالقيام بالاركان والواجبات واجتناب الموبقات وجهاد النفس الامارة بالسوء ·

ان صح هذا أو ذلك فى سلوك الطوائف الثلاث أو فى بعضها فقد ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ·

ايها الشبان :

ان الجامع والجامعة فى الامم وظيفتهما جمع الاشتات والاتحاد والوئام وبث العلم النافع بجميع فنونه، والقضاء على الجهل ــ أو الحمق ــ بجميع الانواع ، فاذا رأينا ان الجامع أصبح أداة تفريق ، وان الجامعة صارت آلة تخريب علمنا اننا أمام انحراف شديد ، ودق عندنا ناقوس الخطر ووجب علينا أن نفزع الى الدواء والقضاء على الداء ، وليتق الصائدون فى الماء العكر غضبة الحليم اذا نفد صبره وبدأ زئيره ·

ان الاسلام ديننا جميعا ـ أو هو دين شعبنا ودين دولتنا وهو أقدم الاديان وأوسطها : دين الاخوة والمحبة والكرامة والخلق القويم يجمع بيننا ولا يفرقنا · ويعلمنا كتاب ربنا أن نتيجة التنازع : الفشل والوهن وذهاب الريح ، وهي القوة أو الدولة ، وقد جربنا ذلك فى تاريخنا وذقناه ـ فى مدة قرن وثلث قرن ـ فعشنا بلا دولة ولا راية فى ذلة وهوان وشر ما يبتلى به الانسان ، افلا نتعظ ؟

أن الجزائر وطننا جميعا ، ورثناه عن آباء صدق كلا لا يتجزأ واحتفظنا بوحدة ترابه وشعبه ، وعلى هذا مات مئات الآلاف من شهدائنا ، ورغم مكائد الاستعمار ومكره الكبار ومساوماته الفاشلة فى الصحراء أو فى التل ومشاريعه مثل (لالوا كادر) التى أراد بها أن يمزقها وغير ذلك من المكر ، فاننا صبرنا وصابرنا وقبلنا التضحيات الجسام ، واطالة ايام الثورة حتى وصلنا به الى شاطىء السلامة موحدا، فالتنكر لهذا جريمة فى حق الوطن والامة وخيانة لله ولرسوله وللامة وللماضى والتاريخ وهو رضوخ لما أراده المستعمر بنا وخيانة لا يقبل أن يرتكبها وطنى مسلم كريم ، ان الوطن لنا جميعا ، ولا يكون حرا سعيدا الا بنا جميعا ، خلقنا فوق أديمه كلنا ، فلنتعايش فيه اخوة متحابين متعاونين متنبهين ـ شبانا وشيبا ، رجالا ونساء ، طلابا وعمالا ـ الى حقيقة مصلحتنا ، وكيد أعدائنا ومكرهم العلنى والخفى ، والله معنا وقواته فى نصرنا ما اقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور ·

يا شبان الجزائر وفتيانها استيقظوا، وآمنوا بالله واستقيموا ·

احمد حمانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى

اقامة التماثيل الرخامية أو النحاسية

ومن السيد التيجانى زغودة ـ أيضا ـ وهو السؤال السادس والاخير :

الرجاء منكم افادتنا بالحكم الشرعى فى اقامة التماثيل الرخامية والنحاسية لبعض الملوك والامراء والزعماء فى الاوطان الاسلامية ·

الجـــواب :

التمثال هو كل ما صور على مثال صورة شيء آخر من انسان أو حيوان أو نبات أو جماد ، قد يصنع من حجارة أو طين أو زجاج أو رخام أو نحاس أو ذهب أو فضة · وقد عرف الانسان صنع التماثيل منذ القديم كما يستفاد من أقوال المفسرين لقوله تعالى فى قوم نوح حكاية لقولهم : « **وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا** ··· » وروى البخارى فى صحيحه أن ابن عباس قال : « صارت الاوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب » ثم قال عن هذه الاسماء المذكورة فى الآية انها : « أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون نصابا وسموها باسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك ، وتنسخ العلم عبدت » اهـ · ونقل الشوكانى عن محمد بن كعب قوله : « هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم فى العبادة فقال لهم ابليس (يعنى وسوس لهم) لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأسوق الى العبادة ففعلوا ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم ابليس : « ان الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم فابتداء عبادة الاوثان كان من ذلك الوقت ، وسميت هذه الصور بهذه الاسماء لانهم صوروها على صورة أولئك القوم » اهـ · وقال عزوة بن الزبير وغيره « ان هذه كانت أسماء لاولاد آدم » اهـ ·

وهكذا نجد ان اتخاذ التماثيل موغل فى القدم ، وأنهن اضللن كثيرا من الناس كما قص القرآن على لسان ابراهيم عليه السلام ·

ولم يكن اتخاذ الصور والتماثيل محرما فى شرع من قبلنا ، كما يستفاد من قول الله تعالى عن عمل الجن لسليمان ابن داود عليه السلام : « **يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجوابى وقدور راسيات ...** » . قال الشوكانى : « قيل كانت هذه التماثيل صور الانبياء ، والملائكة والعلماء والصلحاء ، وكانوا يصورنها فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا وقيل هي تماثيل اشياء ليست من الحيوان ، وقد استدل بهذا على أن التصوير كان مباحا فى شرع سليمان ونسخ ذلك بشرع محمد » اه .

وكان عيسى عليه السلام يصور الطير من الطين وينفخ فيه فيكون طائرا باذن الله آية له من الله ليتحدى بها مكذبيه ، كما جاء فى قوله تعالى على لسانه : « **انى قد جئتكم بآية من ربكم انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طائرا باذن الله** » وقال الله سبحانه يمتن عليه : « **واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طائرا باذنى** » وفى الآية نص صريح بأن تصويره لهيئة الطير كان باذن الله .

وقد عرفت التماثيل والانصاب فى جاهلية العرب ، وكانت الكعبة مشحونة بالصور والتماثيل ، ومنها صورة ابراهيم عليه السلام يستقسم بالازلام افتراء على ابراهيم الحنيف فأبطلها الاسلام ، وحطمها النبىء صلى الله عليه وسلم بيده يوم الفتح وهو يقول : « **قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** » وقد مر فى الحديث أن عليا قال لابى الهياج : « أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا تدع تمثالا الا طمسته ، ولا قبرا مشرفا الا سويته » فدل الحديث على وجود التماثيل فى المقابر فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المباهاة بالبناء فوق القبور ، وامتد ذلك الى عهد علي كرم الله وجهه فى الجنة ، وعلى أن ذلك منكر فى الاسلام لا يقبله ولا يقره ، بل يأمر بتغييره باليد ، بل حتى مجرد البناء المترفع المتجاوز قدر شبر لا يقره خشية الفتنة بعبادة الناس له ، ولما كان شأن الخلق عبادة التماثيل مآلا أو ابتداء ـ فان الاسلام جعل التصوير والتمثيل لخلق الله من كبائر الذنوب ، دليل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة « أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » ، وفى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود انه صلى الله عليه وسلم قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » . وروى مسلم عن عائشة قالت : « كان لنا ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل اذا دخل استقبله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحى لى هذا فانى كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا » وقالت أيضا انه كان

لها ثوب فيه تصاوير ممدودة الى سهوة (بيت صغير منحدر قليلا فى الارض) فكان النبىء صلى الله عليه وسلم يصلى اليه فقال : « أخريه عنى » قالت فاخرته فجعلته وسادتين » وعنها أيضا قالت : « دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا مستترة بقزام (ستر رقيق) فيه صور فتلون وجهه ثم ناول الستر فمتكه ، ثم قال ان من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله عز وجل » قال القرطبى عن بعض العلماء « يمكن أن يكون تهتيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخيره ورعا لان محل النبوءة والرسالة الكمال » اهـ ٠

الصور الجائزة والصور الممنوعة :

سمعنا من بعض شيوخنا ـ هو ابن باديس رحمه الله ـ أن الصور الممنوعة انما هي صور الانسان والحيوان التامة التى لا ينقصها الا النطق أو الصوت ، وما سواها من الناقصة بعض الاعضاء ، أو صور الآلة ، أو الشجر أو الجماد فلا حرمة ، وهذا ما نص عليه فى مختصر خليل ابن اسحاق وشراحه ـ عند الكلام على الوليمة ، ووجوب استجابة المدعو اليها ـ اذ قالوا ان الوجوب يسقط عليه ان حضرها من يتأذى به كالمغتاب والنمام أو وجود منكر ، قال خليل فى الوجوب والاستثناء : « ان لم يحضر من يتأذى به ، ومنكر كفرش حرير ، وصور على كجدار » الخ ٠ وفى كلام الدردير عن الصور قال : « ولم يكن هناك صور أي تماثيل مجسدة كاملة لها ظل كحيون على جدار أي فوق سمته ، لا فى عرضه اذا لا ظل له فلا يحرم كالناقصة عضوا ، والحاصل انه يحرم تصوير حيوان عاقل أو غيره ، اذا كان كامل الاعضاء اذا كان يدوم اجماعا وكذا لم يدم على الراجح كتصويره من نحو قشر بطيخ ، ويحرم النظر اليه ، اذ النظر الى المحرم حرام بخلاف ناقص عضو فيباح النظر اليه وغير ذى ظل كالمنقوش فى حائط أو فى ورق والا فخلاف الاولى كالمنقوش فى الفرش ، وسفينة فجائز » اهـ ٠

واستنتج العلماء من قوله صلى الله عليه وسلم « يضاهون خلق الله » ٠ اباحة تصوير ما لم يكن له شبيه فى خلق الله مثل صورة حصان مجنح ، أو حيوان أعلاه آدمى واسفله سمكة أو شبه ذلك ٠

فتصوير الانسان أو الحيوان الكامل الاعضاء هو ما جاء فيه الحديث الصحيح : ان أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، ويقال لهم أحيوا ما خلقتم فاذا كانت الصورة ناقصة غير تامة أو لم يكن لها ما يضاهيها لم تكن من الممنوع ولعل اشتراط التمام مستفاد من أن عائشة جعلت الثوب الذى فيه تصاوير وسادتين فتغيرت الصورة ، قال القرطبى : « ثم بقطعها له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيأتها ، فان جواز ذلك اذا لم تكن الصور فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة

لم يجز » اهـ · ثم نقل عن الشافعي بنقل المزني قوله : « ان دعي رجل الى عرس فرأى صورة ذات روح أو صورا ذات أرواح لم يدخل ان كانت منصوبة ، وان كانت توطأ فلا بأس وان كانت صور شجر » اهـ · ثم قال القرطبي : « ولم يختلفوا أن التصاوير في الستور المعلقة غير محرمة ، وكذلك ما كان عندهم خرطا أو نقشا في البناء ، واستثنى بعضهم ما كان رقما في ثوب لحديث سهل بن حنيف » اهـ · وقد يكون ناجيا منهما قال : « من صور الحيوان ليعبد أو قصد به المضاهاة لخلق ربه واعتقد ذلك فهو اشد الناس عذابا بالكفر ، ومن لم يقصد ذلك فهو فاسق ، فتصوير الحيوان كبير ولو على ما يمتهن كثوب وبساط ونقد واناء وحائط ، ولا يحرم » ·

مذهب الاستاذ محمد عبده :

من علمائنا المتأخرين الذين تكلموا عن عمل الصور والتماثيل الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله ، ففي رحلته الى صقلية كتب فصلا تحت عنوان : « الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها » جاء في طاله قوله : « لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج ، ويوجد في دار الآثار عند الامم الكبرى ما لا يوجد عند الامم الصغرى ··· يحققون تاريخ رسمها واليد التي رسمتها ··· » ثم يقول ان الرسم ضرب من الشعر الذي لا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى ··· ويذكر ان السبب الذي دعا سلفنا لحفظ الشعر وضبط دواوينه والمبالغة في تحريره خصوصا شعر الجاهلية هو السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل التي ··· حفظت من أحوال الاشخاص في الشؤون المختلفة ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيآت والاحوال البشرية » وبعد أن بسط الكلام عما تعرب عنه تلك الصور ، وما يفهم منها متأملها يتساءل : « ما حكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيآت البشر في انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجثمانية : هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ فأقول لك : ان الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال قد محي من الاذهان فاما ان تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، واما أن ترفع سؤالا الى المفتي وهو يجيبك مشافهة ، فاذا أوردت عليه حديث : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » أو ما في معناه مما ورد في الصحيح فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك : « ان الحديث جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الاول اللهو ، والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والاول مما يبغضه الدين ، والثاني مما جاء الاسلام لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به ، فاذا زال هذان العارضان

وقصدت الفائدة كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات وقد صنع ذلك فى حواشى المصاحف ، وأوائل السور ، ولم يمنعه احد من العلماء ، مع ان الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع ، وأما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر » اهـ · ثم قال : « وبالجملة يغلب على ظنى أن الشريعة الاسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من افضل وسائل العلم بعد تحقيق انه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ، ولا من جهة العمل » وقد علق الامام محمد رشيد رضا على كلام استاذه وبين ان الذين رسموا الصالحين والانبياء انما ارادوا التبرك بصورهم تعظيما واكراما لهم وهذا التعظيم سمي ـ فى كل اللغات ـ عبادة ، وجميع الصور والتماثيل التى كانت عند العرب ، كانت معظمة للدين ، ولذلك سمي فى القرآن تعظيمها عبادة ، وكذلك النصارى كانوا يحرمون بأن تعظيم « الايقونات » ونحوها من الصور عبادة فلما عارض المصلحون فى ذلك صار بعض المصرين عليه يسمى تعظيما اكراما وأصر بعضهم على تسميته عبادة · ثم ختم قوله بـ : « ان النهي عن التصوير فى الاسلام لم يزد على النهي عن تعظيم القبور وتشريفها وبناء المساجد عليها ، وايقاد السرج عليها ، والاحاديث الصحيحة فى حظر هذا كله ولعن فاعله مشهورة ، وقد فعله المسلمون مع بقاء علته وهم يتركون التصوير وفوائده مع انتقاء علة النهي عنه » وقد قارن الامام محمد عبده بين تساهل المسلمين فى البناء على القبور وزيارتها » وكلام الاستاذ الامام محمد عبده فى نفع عمل الصور والتماثيل ودفاعه عن جواز استعمالها لم يتناول المجسم منها من تماثيل الانسان أو الحيوان كما يستفاد من احتياطه فى أول كلامه بنصه على « الصور المرسومة على الورق والنسيج » من مثل ما تركه رفائل ، أما التماثيل المجسمة للانسان أو الحيوان ، مما يوجد فى الدور أو القصور أو ينصب فى الميادين ، ويكلف الاموال الطائلة عامة أو خاصة فانها لا تخرج عن غرض اللهو أو التعظيم ، أو التبرك ، وقد حكم ضدهما بقوله « الاول مما يغضه الدين ، والثانى مما جاء الاسلام لمحوه والمصور فى الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به » وفى كلام الاستاذ محمد رشيد رضا نص على أن تعظيم التماثيل واكرامها عبادة اذ قال فى الذين صنعوها قديما « ارادوا التبرك بصورهم وتعظيمها اكراما لهم » وهذا التعظيم يسمى ـ فى كل اللغات ـ عبادة وان « النصارى كانوا يصرحون بأن تعظيم الايقونات ونحوها من الصور عبادة ، ثم آل بعضهم الى تسميه (اكراما) فالمسلم لا يكبر فى نفسه الا الله ولا يعظم عنده الا بديع السموات والارض ، والاسلام لا يقر السفه بانفاق أموال طائلة دون منفعة راجحة،

واذا كان يمنع من رفع قبر الميت ويأمر بتسويته ان رفع فأحرى وأولى أن يمنع من نصب تمثال له ، أما مجرد وجود صورة له على ورق أو نسيج فقد ينتفى المحذور وتزول الفتنة وتترجح الفائدة وهذا ما أشار اليه بقوله ان المسلمين « يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صورة الانسان والحيوان لتحقيق المعانى العلمية وتمثيل الصور الذهنية » اه · وهكذا ما لا يمكن الاستغناء عنه ـ اليوم ـ فى المدارس وفى جميع مراحل التعليم فعرض الصور من وسائل الايضاح الضرورية ·

التماثيل المجسمة المأذون فيها :

أذن الشارع ـ للمصلحة ـ فى اتخاذ بعض التماثيل المجسمة للانسان أو الحيوان اذا لم يكن لها بقاء ، ولم يخش معها الفتنة ، وذلك مستفادٌ من اذنه عليه الصلاة والسلام لعائشة والجوارى صواحبها فى اللعب بالعرائس كما نقله القرطبى فى الاحكام وقال : « ذلك للضرورة الى ذلك وحاجة البنات حتى يقدرن على تربية أولادهن ، ثم انه لا بقاء له ، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له فرخص فى ذلك » اه ·

ونقل الدسوقى فى حاشيته على شرح الدردير لمختصر خليل ، ان الشيخ عبد الباقى نقل عن الحطاب « انه يستثنى من المحرم تصوير لعبة على هيئة بنت صغيرة لتلعب بها البنات الصغار فانه جائز ، ويجوز بيعهن وشراؤهن لتدريب البنات على تربية الاولاد » اه (فى الكلام على الوليمة » ومثل الضرورة فى تدريب البنات على تربية الاولاد بالعرائس تعليمهم فى الفصول الدراسية على معرفة أجسام الانسان والحيوانات ووظائف الاعضاء، ولا يجول بذهن أحد ـ اساتذة أو طلابا وتلاميذ ـ عبادتها ·

التصوير الشمسى والغلو فى تحريمه :

أفرط بعضهم فى تحريم التصوير والتنفير منه ، وجعلوا التصوير الشمسى مشمولا بالتحريم مع ان صوره لا جسم لها ولا ظل ، فاذا بولغ فيها فان حكمها حكم ما لا ظل له كالصور على النسيج ، وقلما يكون فيها الجسم كاملا ومع انها من عمل آلة تعكس صورة الشىء كما تعكسها المرآة أو صفحة الماء ، ثم انه الآن ضرورة لابد منها فى حاجات الانسان والدول وفى اثبات الشخصية فى الحل أو الترحال ، ولا تستغنى عنه دولة فى حفظ أمنها من الداخلين أو الخارجين ونصوص علمائنا تستبعد حرمة هذا النوع من التصوير ، ثم ان تأويل النص اذ صح سنده ومتنه أو شموله ـ تأويلا صحيحا ـ كما فعل الامام محمد عبده، أو القياس على ما ورد الاذن فيه كما فعل علماؤنا فى قياس صور الحلاوة والعجين على عرائس البنات ـ أولى من الاصرار على القول بالتحريم ثم الوقوع فيه ولابد ···

والله اعلم ·

1981 n° 91

كلمة العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

عنيت « الاصالة » ، منذ تأسيسها عام 1971 (1) ، بنشر الدراسات الاسلامية المتعمقة ، والابحاث الفكرية والثقافية ، في شتى مجالات المعرفة الانسانية • فمحافظة منا على ميزتها هذه ، ونظرا الى أن طبع كتب ملتقيات الفكر الاسلامي يعاني تأخرا كبيرا في الانجاز (2) ، وتلبية لرغبات الاوساط الثقافية ، داخل الوطن وخارجه ، في التعجيل بنشر أعمال هذه الملتقيات للاستفادة منها ؛ فان « الاصالة » ستخصص معظم صفحاتها لتأدية هذه المهمة ، الى جانب ما يطعم به كل عدد ، من دراسات وأبحاث اسلامية ، تدعو اليها الاحداث والمناسبات •

وبهذا تكون الاصالة « مجلة فصلية للفكر الاسلامي » تصدر كل ثلاثة أشهر ، ان شاء الله •

واننا نهيب بالكتاب والمفكرين الذين يؤمنون بفعالية الثقافة الاسلامية ، أن يثروها بأبحاثهم ودراساتهم ؛ فيرفع مستواها شكلا ومضمونا ، وبانتظام صدورها ، مدعومة بمجلة « الرسالة » (3) الشهرية المتوجهة الى الشباب بخاصة ، وبصحيفة « العصر » (4) الاسبوعية المتوجهة الى القراء بعامة ، نكون قد خاطبنا جميع الفئات ، ولبينا معظم الاهتمامات وعملنا ـ قدر الامكان ـ على توحيد الرؤية والمنهج ، لارساء أسس ثقافة اسلامية أصيلة ، تحقق التكامل والشمول ، لمسيرة ثورتنا نحو الغد الافضل والمعاد الاسعد ، وتساهم في نشر الوعي الاسلامي الصحيح الذي يضمن للمسلمين ، في المغرب والمشرق ، مزيدا من التفاهم والتعاون على مواجهة مسؤولياتهم نحو أنفسهم ونحو الناس أجمعين •

عبد الرحمن شيبان
وزير الشؤون الدينية

---

(1) أصدرت وزارة الشؤون الدينية قبل « الاصالة » مجلتين ، هما : « المعرفة » وصدرت سنة 1963 • ثم « القبس » ، سنة 1967 •

(2) آخر كتاب قدم للطبع ، هو كتاب الملتقى الحادي عشر الذي انعقد في ورقلة ، ونحن الآن على أبواب انعقاد الملتقى السادس عشر •

(3) صدر العدد الاول من مجلة « الرسالة » في مارس 1980 •

(4) صدر العدد الاول من صحيفة « العصر » في 16 أفريل 1981 •

بسم الله الرحمن الرحيم

الأصالة

مجلة فصلية للفكر الإسلامي تصدرها وزارة الشؤون الدينية

السنة الحادية عشرة ـ العدد 91

محرم 1402 هـ ـ نوفمبر 1982 م

- هذه المجلة منبر حر ، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن آرائها ، وباب المناقشة والرد فيها مفتوح للجميع.
- المقالات التى ترد الى المجلة لا ترد الى أصحابها ، نشرت أو لم تنشر .

التحرير :

12 ، نهج على بومنجل ـ الجزائر

تليفون : 74 ـ 88 ـ 64

المراسلات الخاصة بـ :

الاشتراكات | **التوزيع**

ساحة ابن باديس ـ الجزائر العاصمة

تليفون : 14 ـ 67 ـ 62

الحساب الجارى : 09 04 39

صندوق البريد : 93

في هذا العدد

● **ثمن النسخة : 3 د.ج**

● **قيمة الاشتراك السنوي :**

في الجزائر : 12 د.ج

في الخارج : ما يعادلها

الاشتراك للطلبة : 10 د.ج

ذكـــرى خـــالـــدة

ان ذكرى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابـه من مكـة المكرمة الى المدينة المنورة هى بداية الطريق والاعداد للمستقبل وبناء الدولة الاسلامية الكبرى التى تربط بـين الشرق والغرب وتصل بين الارض والسماء وتسوى بين الابيض والاسود . وتؤاخى بين العربى والعجمى وتمحو فوارق اللغة والجنسية وتوحد بين القبائل العربية المتنازعة المتناحرة وتجمع شملهم وتضع حدا نهائيا للدسائس والمكائد اليهودية وتقطـع رؤوس تلك الافاعى التى تنفث سمومها فى جسم الامة العربية. وتنطفىء نار الحرب التى تأكل الاوس والخزرج وتقف الدماء السائلـة بـين الاخـوة والاشقاء فتصفوا القلـوب وتتيقظ الضمائر وتتفكر العقـول وتتعانق الارواح وتسمـو النفوس وتتعالى عـلى المادة ... فى هـذا المكان بالذات أى فى المـدينة المنورة أسست الدولة الاسلامية وانطلقت الدعوة المحمديـة وانتشر نورها فى آفاق الدنيا وغمرها بشعاعها .

فى المدينة اعلنت دولة القرآن ، أساسها العدل والاحسان ، ومن هنا تبدو لنا طبيعة الهجرة ، انها هجرة الى الله ورسوله ،

وليس لها من دافــع الا الايمان ، ولا حافــز الا الامتثال لامــر اللــه تــعالى ، والسعى لايجاد قاعــدة يستطيع فيها الاسلام ان يرفع اعلامه وينشر أنواره ويهدى الناس الى الحق ، ولذلك كانت الهجرة فتحا جديدا فى تاريخ الانسانية ونصرا ملحوظا للدعوة الاسلامية وفاصلا بين عهدين : عهد الكفر وطغيانه ، وعهــد الاسلام وأنواره .

لقد اعلن الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة ، وأخــذ يكافح من أجل الرسالة ، وأصحابه من حولــه يؤمنون بــه ، ويدافعون عن دعوته ، وقد ذابت أرواحهم ، وذبلت أجسامهم فى سبيــل رسالته ، وأحــاط بهــم البلاء ، وأخذهم الكــرب ، وصب عليهم العذاب صبا ، وهم صابرون ، محتسبون ، يبتغون فضلا مــن اللــه ورضوانا ، لا يرجون مــن وراء ذلك عرض الدنيا ، من منصب ، أو حكم ، أو مال ، أو رياسة ، انما يرجون الله والدار الآخرة ، وقد طال بهم ليل كفاحهم وامتد زمــن امتحانهم ، ضربوا وجلدوا وعذبوا بالنار والحديد ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، وما فروا من ميدان التضحية بل قابلوا التعذيب بالصبر والثبات وصمدوا فى وجه الكفر والطغيان صمود الجبال في وجه الزمان . وتحملوا الآلام بنفوس مليئة بالايمان .

وكم فى الهجرة من دروس وعبر .

وكم فى الهجرة من معان وأسرار .

وكم فى الهجرة من ذكريات واشواق تثير الاحاسيس وتهز الشعور وتلهــب العواطف وتحيــى الضمائر وتــوقظ النيــام وتبعث الاموات ، ليت المسلمين يفهمون هذه الدروس القيمة

ويحللون معانيها السامية ويدركون أغوارها ، ويغوصون فى أعماقها ويستخلصون كنوزها الثمينة ، فيعيشون داخلها لحظات من الزمان يستخلصون من اعماق التاريخ معانى وعبرا كما تعيش النحله لحظات داخل الزهرة تمتص رحيقها فى صمت وسكون مختفية عن الانظار حتى تقضى حاجتها وتنهى العملية وتعود الى قفرها لصنع العسل وتترك الاوراق الغضة التى تستهوى الفؤاد وتجلب الانظار بعبيقها المؤقت وجمالها الزائل تتركها للفراشة المفتونة بالجمال الخارجى والمظاهر البراقة فتحوم حول الزهرة تقبل أوراقها حتى تذبل وتسقط على الارض وتسقط معها الفراشة فتموت فينتهى كل شىء لا زهرة تفوح ولا فراشة تطير وتحوم وعمر الفراشة محدود بعمر الزهرة . هكذا نحن المسلمين كم لنا من أعياد ومواسم وذكريات نحيى لياليها ونقيم لها الحفلات ونأكل فيها الحلويات ونلقى المحاضرات ونعقد الندوات ونتلو القرآن وننظم الشعر ، ونردد القصائد والمدائح الدينية والخطب الرنانة ... فاذا انتهى يوم العيد انتهى العمل وانطفأ الحماس وانمحت ذكرياته من القلوب واسدل عليه ستار النسيان .

ان يوم الهجرة يوم كسر الاسوار الحديدية التى تحيط بالدعوة المحمدية وخطر الحواجز التى وضعت أمامها ومزق الستار المسدول عليها ليحجب نورها ويخفى شعاعها .

فالهجرة كانت مبدأ السلام والامن فى الارض ، وتحويل مجرى الانسانية المعذبة وانهاء المظالم والاعتداءات لتأخذ العدالة مجراها الطبيعى فى كل نواحى الحياة « وأساس العمل فى الاسلام اخضاع الحياة للعقيدة » فتكون العقيدة أقوى من الحاجة ، فيكون الفقير معدما ويتعفف ، ويكون الغنى موسرا ويتصدق ويكون الشره طامعا ويمسك ، ويكون القوى

قادرا ويحجم . والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه ، تبعثه روح الرسالة ويسطع فى نفسه اشراق النبوة فيكون دائما فى أمره كالمسلم الاول الذى غير وجه الارض ويظهر هذا المسلم الاول باخلاقه وفضائله وحميته فى كل بقعة من الدنيا .

أيها المسلم لا تنقطع عن نبيك العظيم ، وعش فيه أبدا ، واجعله مثلك الاعلى ، وحين تذكره فى كل وقت فكن كأنـك بين يديه كن دائما كالمسلم الاول ، كن دائما ابن الهجرة الذى صنع المعجزة ، واجعل يوم الهجرة يوم تفكير وتأمل ، يوم جد وعمل ، يوم درس وبحث ، وغص فى اغواره وتغلغل فى أعماقه وعشه بعقلك وشعورك واحساسك واجعله يـوم التوحيـد والوحدة ، يوم الانطلاق والعودة الى اللـه ، وتمسك بدينـه الحنيف ، وشريعته السمحاء وكتابه الكريم ، وسنـة رسولـه العظيم.

محمـــد نسيـــب

تامـلات فى الهجـــرة

البسيـونى قنعـــان

حيـــاة نموذجيـــة :

فى اعتقادى ان حياة الرسول (ص) وما تحمل نموذج يضعه الله أمام عباده للاقتداء به وصدق الله العظيم اذ يقول : « **لقد كان لكم فى رسول الله اســـوة حسنة** » (1). وفى اعتقادى أيضا وبناء على ما قلت أن ما يحدث للرسول ومنه انما هو لحكمة أرادها الله ، وليس للصدفـة اليه من سبيل، فكرت فى هذا وأنا أمسك بقلمى لاكتب عن هجرة الرسول (ص) ، ولئن كانت هجـــرة الرسول (ص) بما تحمل من معان موضوعا طرقه الباحثون على مدار تاريخ طويل ، وان القول فيما كثر فيه القول من اصعب الامور ، فانني أريد أن اقتصر هنا على بعض الجوانب ، محاولا بالتامل فيها ان أعلل لها ، أو أستقي منها الحكمة أو العبرة ، وتلـك ـ لعمرى ـ ما يجب أن يهتم به المسلمون، فكثيرا ما ينسينا ـ نحن المسلمين ـ ذكرى ما حدث الحدث نفسه ، والعبرة منه ، فنصبح فى واد ، وما يراد منا فى واد آخر ، فان الله علمنا فى كتابه العزيز أن العبرة هى المقصد الاسمى من كل حدث يرد ، وكل قصة تحكى ، قال الله تعالى : « **لقـــد كان فى قصصهم عبـــرة لاولى الالباب** » (2) ، ومن هنا أبدأ الحديث :

اهـو وقـت ضائـع ؟ :

لقد مكث محمد بمكة ثلاثة عشر عاما يدعو الى ربـــه ، ويلـــقى من العنـت والاضطهاد هو ومن آمـن معه فـوق ما

---

(1) سورة الاحزاب : 21 .

(2) سورة يوسف : 111 .

يتحمل البشر ، فما آمن معه الا القليل على خوف من قريش ، فاذا أضفنا الى هذا أن حياة الرسول (ص) من بعثته الى وفاته ثلاثة وعشرون عاما ، فان معظمها يكون فى مكة ، حيث لم يكن للاسلام شوكة ، ولم يؤمن به الا القليل ، فاذا سألنا أنفسنا لماذا ؟ أو ما كان الله قادرا على أن يختصر على رسوله هذه الفترة ؟

ان الله يعلمنا أن ارادته اقتضت ألا تنتصر دعوة حتى يبتلى أصحابها ، والقائمون عليها ، ولو أراد الله أن يعفى أحدا من عباده من هذا الابتلاء لاعفى رسوله وخير خلقه ، ولكنها سنة الله فى خلقه ، لا تولد دعوة ولادة طبيعية حتى تعانى من مشاق الحمل ، وآلام المخاض .

وكلما عظمت دعوة كان التمهيد لها أعظم ، وبناء الاساس أعمق ، تماما كما يحدث فى كل بناء ، فعلى قدر عظمة البناء وشموخه يكون رسوخ الاساس وقوته .

ان الدعوة حين تبدأ قد يدخلها القوى فى ايمانه والضعيف ، والمؤمن اقتناعا أو استهواء والداخل فيها طمعا فى مغنم أو منصب أو جاه، والانتخاب الذى يتحدث عنه العلماء يقتضى التصفية ، وكما يعرض الذهب على النار لتزول عنه شوائبه فان الداخلين فى الدعوة ــ وبخاصة فى أول أمرها ــ لابد أن يعرضوا على نار الابتلاء والاختبار ، فلا يبقى الا كل قادر على حمل العبء ، وقوى الايمان ، والا كان عبئا عليها ، وعامل هدم لا بناء . **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (3) .**

كما أن الدعوة كلما عظمت كثر حسادها والحاقدون عليها ، واذا كان الحاقدون على الدعوات يكيدون لها ، وهم شر عليها فانهم من جانب آخر وبالرغم منهم يكون لهم دور فى قيام الدعوة وشهرتها ، فهم يبعدون عنها ضعاف الايمان ، وطلاب المغنم الذين يكون ضررهم أكثر من نفعهم ابان تأسيس الدعوة ، كما أن حسد الحاسدين يلفت الانتباه الى المحسود ويدفع الى الحرص عليه ، والتمسك به . فقد غرس الله فى قلوب عباده أنه كلما عظمت نعمة كثر الحاسدون لها ، مما يجعلهم دليلا عليها ، ولله در البحترى اذ يقول :

وكفانى على الذى يوجد الفضـ ـل لديه بالحاسدين دليلا

---

(3) الآيتان : 2 ، 3 من سورة العنكبوت .

وابى تمام اذ يقول :

واذا أراد اللـه نشـر فضيلـــة
طويـت أتـاح لهـا لسـان حسود
لولا اشتعـال النـار فيما جاورت
ما كان يعرف طيب عـرف العـود

والذى لا شك فيه أن حقد قريش ورجالاتها، وشدة ضراوتهم لفتت الانظار، وشدت الانتباه بطريقة أو بأخـرى الى دعوة محمد فى مكة وفى غيرها ·

واذن فلم تكن الفترة التى عاشهـا الرسول فى مكة وقتا ضائعا على الدعوة ، وانما كان لازما لها ، ولابد منه لبنائها من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه درس نتعلم منه ·

المبـادىء لا وطـن لها :

ولد النبى (ص) فى مكة ، وفيها بيت الله الحرام مهوى قلوب العرب ، وقبلة انظارهم ، ومجتمع حجيجهم ، وكان من قريش ذوى المكانة بين العرب ، وقـد استطاعت قـريش أن تستغل نفوذها واجتماع الحجيج فيها بان اصبحوا ملوك التجارة والمال ، وشاءت ارادة الله أن تبدأ الدعوة فى مكة وفى قريش ، وأن تقابل بالصد ، الوقوف فى وجهها خوفا على نفوذهم وتجارتهم ، ولو فكرت قريش لوجدت فى هذه الدعوة عزها فى الدنيا والآخرة كما قال الرسول ، وكما حدث بالفعل بعد انتشار الدعـوة فى أرجاء المعمورة ، ورغم مـا كان يخترق آذان قريش من مثل قوله تعالى : « **وإنه لذكر لـك ولقومك وسـوف تسئلـون** » **(4)** فان قومه أمعنوا فى العناد ، ولجوا فى الطغيان ، ولم ير الاسلام منعته فى مكة ، وانما رآها فى يثرب ، الا يعلمنا هذا أن المبادىء السامية لا وطن لها ، وان أحدا ليس أحق بالهداية والعقيدة والحق من احد ، فان العقيدة لمن اعتنقها ، والحق لمن اتبعه ، وان الهدى هدى الله ، كمـا يعلمنا أن صاحب الدعوة ينتسب اليها ، فالقرابة عنده قرابة العقيدة لا الـــدم ، ويدور معها ، فحيثما كانت يكون ·

لمـاذا يثـرب ؟ :

لقد عرض النبى دعوته على قبائـــل كثيرة ، ولم يترك اذنا استطاع أن يصل اليها الا حثها، ولا قلبا الا ناجاه وناشده، فلم تجد الدعوة الاذن الصاغية ولا القلب الواعى كما وجدت فى يثرب ··· فلماذا يثرب ؟

ان الله هيأ يثرب للدعوة قبـل أن نبدا ، فلقد كان الاوس والخزرج مـــن عباد الاوثان يجاورون اليهود ، وكثيرا

الآية : 44 من سورة الزخرف ·

ما نشبت بينهما العـــداوة والبغضاء ، واستعر بينهما القتال ، وقد كان لهـذا الجوار غير النزاع على السيادة والسلطان اثر آخر عند الاوس والخزرج مما كان عند سائر العرب، ذلك هو الاثر الروحي، فقد كان اليهود ـ وهم اهـــل كتاب ـ يعيبون عليهم اتخاذ الاوثان لتقربهم الى الله زلفى ، وينذرونهم ببعث نبى قرب زمانه ، وأنهـــم أى اليهود سيتبعونــه ويقاتلونهم معه ، ويقتلونهم قتل عــاد وارم ، ولم تصل هذه الدعوة الى تهديد العرب لاسباب لا محـــل لذكرها هنا ، الا انها مع ما هياه اتصـــال الجوار والتجارة هيات اذهان اليثربيين ليكونوا اكثر استماعا للحديـــث فى الشؤون الروحية من غيرهم من العرب ·

« خرج نفر من الخزرج الى مكـــة فى موسم الحج ، فلقيهم النبى فسألهم عـــن شانهم ، وعرف أنهم من موالى يهـــود ، فلما كلم النبى اولئك النفر ودعاهم الى الله نظر بعضهم الى بعض وقالوا : « والله انه للنبى الذى تواعدكم به يهـــود فــلا يسبقنكم اليه ، واجابوا محمدا الى دعوته وأسلموا ، وقالوا : « انا تركنا قومنا من الاوس والخزرج ولا قوم بينهم مـــن العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك ، وان يجمعهم عليك فلا رجـــل أعز منك » ·

وعاد هؤلاء النفر الى المدينة ، فذكروا لقومهم اسلامهم ، فوجدوا قلوبا منشرحة ونفوسا متلهفة لدين يجعلهم موحديـــن كاليهود ، بل يجعلهم خيرا منهم ، فلـــم تبق دار من دور الاوس والخزرج جميعا الا فيها ذكر محمد عليه السلام (5) ·

اليس فى هذا ما يعلمنا أن الله اذا اراد امرا فقد يسخر لاظهاره أعدى أعدائه فيعملون له وهم لا يشعرون ؟، ان اليهود أعدى أعداء العرب ـ كما كانوا ـ وأشد الناس عداوة للاسلام والمسلمين ـ كمـــا سيكونون ـ كانوا ـ كما رأينا ـ مـــن بين العوامل التى أيدت الاسلام ، وأهدت اليه اكبر انصاره واشد مؤيديه ·

واذا أراد اللـــه نصرة دعـــوة
جعـــل العـدا سببا من الاسبـاب

اول الغيــث :

وتتتابع الاحداث ، وتكـــون بيعـــة العقبة الاولى ، ويرســـل النبى مصعـــب ابن عمير مع المبايعين الى يثرب يقرئهـــم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقهم فى الدين ، ويقيم مصعب بـــين المسلمين ، ويزداد الاسلام انتشارا ، ويعود بعد أن

---

(5) حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل بتصرف · ص 214 ·

آذنت الاشهر الحرم أن تعود الى النبى ليقص عليه خبـــر المسلمـــين بيثرب ، وما أصبحوا عليه من قوة ، ثم تكون بيعة العقبة الثانية ، وتعلم بها قريش ، وتبدأ الامور تسير على نحو آخر من الطرفين .

فأما من طرف النبى فقد رأى ما أصبح عليه المسلمون فى المدينة من منعة ، فلماذا لا يهاجر مسلمو مكة اليها ليصبحوا أحرارا يعبدون الله كما يريدون، لا يعتدى عليهم معتد ، ولا يضطهدهم أثيم ؟ ، ولمــاذا لا يهاجر هو أيضا ليجعل للاسلام دولة فى المدينة ، ويخرج من الحصار الذى أحكمته قريش حول دعوته ، والطريق المسدود الذى حاولوا أن يحصروها فيه ؟

ويأذن النبى (ص) لاصحابه بالهجرة الى المدينة فرادى أو نفرا قليلا ، فــان الهجرة الجماعية قد تلفت أنظار قريش ، وتثير ثائرتهم ، ويؤجــل هجرته حتى يهاجر أصحابه ، ألا يعطينا هذا درســا رائعا فى سمو القيــادة ؟ ان القائــــد العظيم عند الخطر يعرض نفسه أكثــر من أى انسان آخر للخطـــورة والفداء ، فربان السفينة الكريم يكـــون آخـــــر الخارجين من السفينة اذا تعرضت للغرق، وقائد الجيش الشهم ـ يحمى جنوده قبل أن يحمى نفسه .

ويطلب أبو بكر من الرســـول أن يسمح له بالهجرة ، فيقول له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا ، ولم يزد على ذلك » ، أليس فى هذا ما يعطينا درسا فى الكتمان ؟ ، ان الرسول (ص) لو قال لابى بكر ستهاجر معى فان أبا بكـــر سيكون موضع سر ، لا شك فى هــــذا ، والرسول يعلم ، ولكن كتمان السر حتى عن أبى بكر نفسه يعطينا من الرسول درسا : أن الحكيم لا يبوح بسره الا اذا كان للبوح هدف أو فائدة ، والا فخير مكان للسر قلب صاحبه ، و « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

الشعـــور بالخطـــر :

هذا ما كان من أمر النبى ، أما ما كان من أمر قريش فقد بدات تدرك أنهـــا أصبحت أمام الخطر وجها لوجه أكثـر من أى وقت مضى، ماذا لو أن محمدا هاجر الى المدينة وأصبح ذا قوة بأتباعـــه ؟ ، ألا يهدد تجارتهم الى الشام ؟ ، ألا يرجع اليهم ليغلبهم على أمرهم ، ويرد عليهم ما فعلوه معه ؟ ، صحيح أن هجرة محمد الى يثرب لم تتأكد لديهم بعد ، وهجـــرة أصحابه اليها قد لا يكون معناها هجرته هو ، فقد سبق أن هاجـــر المسلمون الى الحبشة ولم يهاجر محمد ، ولكن يكفى فى نظر قريش أن تتمثل الخطر لتخافه ، ولتعمل على درئه قبل أن يفوت الاوان ، ناهيك بقــوم آكــل الحقــد اكبادهم ،

وغطى على عقولهم ، فلم يبق الا أن يتآمروا على محمد ليضعوا نهاية تشفى غيظ قلوبهم ، وتؤمنهم قبل أن يفلت الزمام من أيديهم والى الابد ٠

ويتفقون على قتله بطريقة غاية فى الدهاء والاحكام ، أن تختار كل قبيلة من فتيانها فتى شابا جلدا ، وأن تعطيه سيفا بتارا قاطعا ، وأن يضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعا ، فيرضوا بالدية ، وتستريح قريش من هذا الذى بدد شملها ، وسفه أحلامها ، وجعلها فى هم مقيم ، ٠٠٠ خطة محكمة ، وتنفيذها أمر سهل ، وهكذا الطغاة فى كل زمان ومكان ، يظنون أنهم قادرون على اطفاء كل شعلة ، وخرق كل ناموس ، ما داموا يملكون القوة والجبروت ، فالجبروت وحده كفيل فى رأيهم بوأد كل خير ، وقطع كل طريق ، ولو تأملنا ما فعله فرعون حينما ذبح أبناء بنى اسرائيل لينجو من رجل منهم تكون نهايته على يديه ، وتأملنا سخرية العناية الالهية منه ، فيربى الوليد نفسه فى بيته ، حتى يتم ما اراد الله أن يكون ، وحتى يصبح ما فعله فرعون ليدرأ عن نفسه الخطر هو نفسه الذى جلبه لها ، ودفعه اليها ، أقول لو تأملنا هذا لادركنا أن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٠

وهذا ما حدث من طغاة قريش ـ وفيهم أبو جهل فرعون هذه الامة ـ حينما أرادوا نهاية النبى فكانت بداية نهايتهم ، ألا يعلمنا هذا أن العاقبة للمتقين ، وأن الطغاة كثيرا ما يتعجلون نهايتهم ، وأن ما يتوهمونه فى أنفسهم أو يوهمون الناس به من قوة وجبروت انما هو فى حقيقيته ضعف عن فهم الامور وما تتطلبه ، وجبن عن مواجهة نفوسهم والصراحة معها ، وأن الاحجام خوفا من الطغاة أمر لا مبرر له ، وأنه شأن الجبناء ، وضعاف الايمان والنفوس ؟ ٠

ارادة وارادة :

دخلت المؤامرة حيز التنفيذ حينما حاصر الفتيان الذين أعدتهم قريش لقتل محمد داره ، وتبدأ قصة من أعظم ما عرفه تاريخ التضحية والفداء فى سبيل المبدا والعقيدة ، ففى الثلث الاخير من الليل خرج النبى من داره رغم الحصار بعد أن ترك فى فراشه على بن أبى طالب مسجى ببرده الحضرمى الاخضر ، ويستطيع النبى صلى الله عليه وسلم أن يخترق صفوفهم ، وأن يمضى لما أمره الله من الهجرة ، وسواء نام المحاصرون ام طمس الله على ابصارهم وبصائرهم فاننى أرى أن الامر غير عادى بل خارق للعادة ، على خلاف

ما يقول به البعض ، فالمعتاد دائما فى مثل هذه الامور أن يدفع الحرص هؤلاء أن يكونوا فى يقظة دائمة ، وحتى لو نام بعضهم فان الحراسة يكلف بها آخرون.

ويصطحب النبى (ص) معه أبا بكر بعد ان كان قــد أعلمه باذن الله لــه بالهجرة ، واتجها جنوبا الى غار ثور ، لانهما يعلمان أنهما سيطاردان ، والاتجاه نحو الجنوب أمر لا يرد ببال احد لانه عكس الاتجاه الى يثرب. ويبقى المهاجران فى الغار ثلاثة أيام حتى يهدأ البحــث عنهما من قريش ، وكانت الخطة مــن الاحكام بحيث أعيت قريشا وأعجزتهم ، فقد كان عبد الله بن أبى بكــر يقضى نهاره بين قريش يستمع ما يأتمرون به ليقصه ليلا على النبى وأبيه ، وأما عامر ابن فهيرة مولى أبى بكر فكان يرعى غنم أبى بكر وكان اذا أمسى اراح عليهمـا فاحتلبا وذبحا ، واذا عاد عبد الله بن أبى بكر من عندهما تبعه عامر فمحا اثره ... لماذا كل هذه الحيطة ؟ ، أولا يعلم محمد انه رسول الله ؟ ، وان الله الذى أمره بالهجرة سيحميه ؟ ، وان الله أقوى من كل جبار ؟ ، ان الرسول يعطينا درسا لابد منه لكل صاحب رسالة ، بل لكل صاحب حاجــة ، أن يبــذل أقصى ما يستطيعه من حيلة بريئة ، ومن جهد ، ويترك بعد ذلك أمره الى ربه ، هذا هو الفرق بين التوكل على الله المصحوب بالحزم والعزم والارادة ، وبين التواكل المقرون بالعجز والسلبية والاستسلام ، التوكل الذى يدفعنا الى القوة والاخـذ بكل ما نستطيع من أسباب ، لا التواكل الذى يسلمنا الى الضعف والاستكانـة والخمول ، وأخيرا الا يقول الله تعالى : **« ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة » (6) .**

وتجد قريش فى البحــث ، وتلقى راعيا على مقربة من غار ثور ، فتسأله ، فيكون جوابه : قد يكونان بالغار ، وان كنت لم أر أحدا . هذه الاجابة مـن الراعى كفيلة أن تدفع قريشا بكــل حرصها وحقدها وخوفها من نجاة محمد أن تفتش كل شبر فى الغار ، وأن تتأمل كل بوصة فيه ، ويتسلق فتيان منهـم الى الغار ، بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لراى النبى وأبا بكر ، ولكنهــم يحجمون ، لقد رأوا على الغار المنكبوت من قبل ميلاد محمــد ـ كما قالوا ـ ، ورأوا حمامتين وحشيتين بفـم الغار ، وشجرة تدلت فروعها الى فوهته ، ولا سبيل الى الدخول فيه من غير ازالــة فروعها ، فتأكدوا من عدم وجود أحد .

---

(6) سورة البقرة ـ الآية : 195 .

معجـزات ام صـدف ؟ :

يا لله ... هذا العنكبوت الذى غير مجرى تاريخ العالم ، وهاتان الحمامتان اللتان كانتا سببا فى حفظ سيد الانبياء والمرسلين وصاحبه ، وهذه الشجرة التى خيبت اعتى الكفار، وردتهم خاسئين ... ما شانها ؟ اهى آية من آيـات الله ، ومعجزة من معجزاته ، أم أنها المصادفة، ولا شيء غير المصادفة ؟ .

يذهب فريق مـن الناس الى أنهـا المصادفة لا غير ، مدعـين أن الحمـام والعنكبوت والشجر موجود فى كل ارض ولنقرأ قول أحـد المستشرقين وهـو المستشرق در منحيم : « ان هذه الامور الثلاثة هى وحدها المعجزة التى يقص التاريخ الاسلامى الجد : نسيج عنكبوت، وهـوى حمامة ، ونمـاء شجـرة ، وهى اعاجيب ثلاث لها كل يوم فى أرض الله نظائر » ، لقـد كشف الرجل ـ كمـا ترى ـ عن هويته ، واسقط عن وجهه كل قناع ، فبدا للعيان عدم الحيـاد اللازم لكل باحث نزيه ، فقد أراد أن يوهم أن الاسلام ليس له معجزة الا معجزة الغار ، ثم أسرع الى هدمها ، واذن فلم تبق للاسلام معجزات .

ويذهب فريق آخر الى أنها معجزة ، ووجه المعجزة فيها أن هذه الاشياء لـم تكن موجودة ، وأنه حينما حل النـبى وصاحبه بالغار أسرعت العنكبـوت الى نسج خيوطها ، وجاءت الحمامتان فباضتا عند بابه ، ونمت الشجرة ولم تكن نامية.

على أن الامر ـ فى رأيى ـ لا يعدو أن يكون أحد احتمالات ثلاثة ، اذ لا يتصور العقل غيرهما ، اما الاحتمال الاول فهو : أن تكـون العنكبـوت والحمامتان والشجرة غير موجودة قبـل دخول النبى (ص) وصاحبه الغار ثـم وجدت للتمويه على الكفار حماية مـن الله لنبيه ، ولا عبرة للقول بأن هذا أمر غير عادى وبالتالى غير معقول ، فاننا لم نقل بانه امر عادى، أوليس محمد رسولا ثبتت رسالته ، وأيده الله بمعجزات منها ما هو باق خالد وهو القرآن ؟ ، فما الذى يمنع عقلا أن يؤيـده الله بمعجزة أو معجزات أخرى ؟ ، ان غير العادى مـن المعجزات معقول كما هـو معروف فى تاريخ الرسالات والرسل ، وان القول بأن الخارق للعادة غير معقول مرفوض عقلا وواقعا ، كالقرآن مثلا فانه خارق للعادة وموجود فى الواقع .

الاحتمال الثانى : أن تكون الاشياء الثلاثة موجودة قبل دخول الغار ، ولكنها بقيت على حالها بعد دخوله ، فلم ينقشع العنكبوت ، ولم تطر الحمامتان ، ولـم يتغير اتجاه أغصان الشجرة ، وهذا أمر غير عادى أيضا .

أما الاحتمال الثالث فهو : أن أثر دخول الغار كان ظاهرا ، ولكن قريشا ـ على شدة حرصها على اجتلاء الامر ـ صرفها الله عن النظر ، وأعمى الابصار منها والبصائر عن رؤية رسوله ، وهذا أيضا أمر غير عادى ٠

واذن فالاحتمالات الثلاثة غير عادية ، فاذا أضفنا الى مسالتى فتيان قريش المحاصرين ، والغار ، مسألة ثالثة وهى ما حدث من سراقة بن مالك بن جشتم وله، أصبح الامر أكثر وضوحا ٠

فها هى ذى قريش بعد أن باءت كل جهودها بالفشل تلجأ الى سلاح المال ، فترصد جائزة سخية مائة ناقة لمن يستطيع العثور على محمد ورده حيا او ميتا ، وينشط سراقة للحصول على هذه الثروة ، لدرجة أنه ضلل غيره ليفوز بالنوق المائة ، حينما اقبل رجل على قريش فاخبرها أنه راى ركبة ثلاثة مروا عليه يعتقدهم محمدا وبعض أصحابه ، فقال سراقة وكان حاضرا : انما هم بنو فلان ٠

ومكث مع القوم قليلا ، ثم عاد الى بيته ، فتدجج بسلاحه ، وأمر بفرسه فأرسل الى بطن الوادى حتى لا يراه أحد ساعة خروجه ، وامتطاه ودفعه الى الناحية التى ذكرها الرجل ، وكان محمد وصاحباه قد أناخوا فى ظل صخرة ليقيلوا ٠

وبدأت الشمس تنحدر ، وبدأ محمد وصاحباه فى امتطاء جمالهم ، وكانا من سراقة قيد البصر ، وكان جواد سراقة قد كبا به مرتين ، فلما راى أنه اصبح من هدفه قاب قوسين لز جواده ليسرع به الى الظفر ، ولكن الجواد فى قومته كبا كبوة عنيفة القى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج فى سلاحه ، وصار سراقة اذا حرك فرسه فى اتجاه غير محمد سار ، أما فى اتجاه محمد فيحجم، عند ذلك ادرك سراقة انه ليس أمام شخص عادى ، وأن ما جاء من أجله لا يمكن تحقيقه ، وأنه معرض نفسه لخطر داهم اذا أتم المحاولة ، هنالك وقف ونادى القوم : أنا سراقة بن جشم ، انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ، فلما وقفا ينظرانه طلب الى محمد أن يكتب له كتابا يكون آية بينه وبينه ، وكتب ابو بكر بأمر النبى كتابا على عظم أو خزف القاه الى سراقة ، فاخذه وعاد أدراجه ، وأخذ نفسه بتضليل من يطاردون المهاجر الاعظم بعد أن كان يطارده ٠

هذا ما تحكيه كتب السيرة باختصار، ويجوز لنا أن نتساءل : أما حدث لسراقة

كان صدفة أيضا ؟ ان فريقا يدعى هذا، وان الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه ـ حياة محمد ـ ذكر أن كبوة الجواد انما كانت من شدة الجهـــد ، وان ما صرف سراقة : « أنه تطير والقى فى روعه أن الالهة مانعة منه ضالته » (7) ٠

ولنا أن نسأل : ما الذى قلب سراقة من المطارد الحريص أشد الحرص عـلى الظفر بمحمد الى المسالم الذى يتجاوز المسالمة الى تضليل مـــن يطاردونه ؟ ، أويحدث هذا لان فرسه كبا من شدة الجهد ؟ ، أوليس سراقة فارسا يعرف فرسه شأن كل فارس مجرب ؟ لو أن الفرس أصابه الجهد ، أو كبا المـرات الثلاث صدفة فلماذا لم يرح جواده قليلا ثم يعود الى المطاردة ، والطريق ما زال طويلا قبل وصول محمد الى يثـــرب ، والفرص ما زالت مهياة للمطاردة ؟ ، ثم لماذا يطلب من محمد كتابا ؟ ، أليس لانه أصبح يعتقد أنه أمام نبى له شـــأن ؟ فما الذى جعله يعتقد هذا ؟ ، اهو مجرد أن كبا به الجواد من شدة الجهد ، أو المصادفة ؟ ، لو أن الجواد انسان لاسرع الكثيرون الى القول بأن كبوته قد تكون من حالة نفسية ، ولكن أيمكن أن يقال هذا على الفرس أيضا ؟ ٠

مكـابـــرة :

وهكذا نرى أننا حيال اصرار غريب على المكابرة ، فما حدث لفتيان قـريش المعاصرين صدفة ، وما حدث فى الغار صدفة ، وما حدث لسراقة ومنه صدفة ، ألا نحمل الصدفة أكثر مما تطيق ؟ أمن العقل أن نضلل العقل بحمل أمور كثيرة تضافرت على حماية خير نبى ورســـول من أعداء ألداء دبروا له باحكام ، فلمـا نجا منهم تصدوا للبحث عنه ومطاردتـه بامعان واصرار على الصدفة وحدها ؟ ، واذا سلمنا ـ لمجرد الجدل ـ أن كل أمر من هذه الامور صدفة ، فهل يكون توالى هذه الصدف صدفة أيضا ؟ ٠ واذا قرأنا قوله تعالى : « **الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا واللــه عزيز حكيم** » (8) ، ألا نرى أن الله أيد رسوله بجنود لم يروها ، فما معـــنى هذا ؟ ، أقاتل الرسول (ص) مطارديـه أو تعرض لقتالهم حتى تكون الجنود التى لم يروها قد قاتلت معه أو عنه ؟ ، ان عمل الجندى فى الحرب لا يكـون القتـــال

(7) حياة محمد ـ الطبعة الخامسة عشرة ـ ص 227 ٠
(8) سورة التوبة ـ الآية : 40 ٠

فحسب ، بل قد يكون التعمية والتخذيل أيضا ، وكما يكون الجندى بشرا مقاتلا يكون شيئا مما خلق الله ، وسخره للنصر والتأييد ، كالطير الابابيل التى سلطها الله على جيش أصحاب الفيل ، وكالريح الصرصر العاتية ، فلم لا تكون الجنود هى هذه الامور الخارقة التى أيد الله بها رسوله وحماه فاعمتهم وخذلتهم وردتهم على أعقابهم خاسرين ؟ ·

فى سبيل الله :

وانطلق محمد وصاحبه بعد أن سلكا طريقا غير الطريق الذى ألفه الناس ، فسار بهما دليلهما ممعنا الى الجنوب بأسفل مكة ، ثم متجها الى تهامة على مقربة من شاطىء البحر الاحمر ، ثم اتجه بهما شمالا محاذيا الشاطىء مع الابتعاد عنه ، متخذا من السبل ما قل أن يطرقه احد ، ولئن كان الحذر الواجب والذى أمر الله به يقتضى سلوك طريق غير الذى الف الناس ، فان سلوكه على هذا النحو زاد من طول الطريق ووعورته ، وأعباء السفر ومشقته ، ومن يعرف قيظ الصحراء المحرق وطبيعة الوهاد والآكام التى كابد الرسول وصاحباه منها يعرف الى أى حد كانت المعاناة التى لم يهون منها الا أنها فى سبيل الله ، وكل مشقة فى سبيل الله عند رسوله تهون ·

ولئن ترك محمد فى مكة قلوبا أكلها الحقد ، ونفوسا متعطشة لدمه فان فى المدينة قلوبا أرهفها الحب ، واشرأبت الى اللقاء ، فمنذ أن ترامى الى علم أهل المدينة نبأ هجرة الرسول (ص) فانهم جعلوا يتجهزون للقائه ، وكانوا يخرجون كل يوم بعد صلاة الصبح الى ظاهر المدينة يتلمسونهم حتى تغلبهم الهاجرة فى هذه الايام الحارة ، يفعلون ذلك وكثير منهم لم ير الرسول بعد ، بل آمن به وصدق قبل أن يكرمه الله برؤيته ·

فلما أشرق الرسول بمقدمه استقبلوه استقبالا فوق الوصف والخيال ، ما منهم الا من يريد أن يفوز منه بنظرة، أو يتقرب اليه بعمل ، أو يتشرف منه باهتمام ·

وجهان لعملة واحدة :

ولكن هل انتهت الاعباء الجسام ، ووصلت الدعوة الى بر الامان ، وانتهت الاخطار التى كانت تهددها ، واصبح من حق صاحب الرسالة ان ينام عنها قليلا، أو ينعم بما ينعم به الناس من راحة ؟ ، صحيح أن الهجرة كانت دفعة كبرى ، وطفرة عظمى ، وفيصلا كبيرا بين عهدين، ونقطة انطلاق كان لابد منها للدعوة ، وصحيح أيضا أن المسلمين الذين كان يتخطفهم الناس فى مكة وكان احدهم لا يأمن على نفسه ولا يستطيع أن يعبد الله كما أراد أصبحوا فى المدينة من

المنعة والقوة والحرية والامان بمكان ، ولكن الصحيح ايضا ان اعباء الدعوة زادت ، وأن متاعبها أصبحت في ازدياد. ان الله الذى يبتلى الناس بالشر والخير فتنة كما يقول فى كتابه العزيز : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (9) ، يبتلى الدعوات بالشر والخير ، ولا يكون النصر الا للمؤمنين الذين لا يؤنسهم الشر ، ولا يبطرهم الخير .

لقد أصبح للعملة وجه آخر ، فلئن اختفت ظاهرة المؤمن الذى يخفى ايمانه خوفا من تعذيب قريش فى مكة فقد ظهرت فى المدينة مع قوة المسلمين ومنعتهم ظاهرة المنافق الذى يبطن الكفر ، ويظهر الايمان « واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ » (10) .

ولئن انتهت معاناة المسلمين من أعداء أشداء يظهرون العداوة ويبطنونها فى مكة فقد أصبحوا فى المدينة يعانون من كيد أعداء يتخفون تحت شعار التوحيد ، ويتسترون باقامة الصلاة ، ويجتهدون فى النيل من المسلمين ، والتنكيل بهم ، والعدو المختفى قد يكون اشد ضررا وخطرا من الاعداء الظاهرين ، ولئن اختفى خطر قريش وكيدهم الى حين فلقد أصبح المسلمون بالمدينة قوة يحسب حسابها ، وتلفت أنظار المشركين فى أنحاء شبه الجزيرة العربية وغيرها من العالم ، ويخشى خطرها ، وبذلك اتسع نطاق الاعداء ، ولئن كان المسلمون بالمدينة أصبحوا أكثر عددا واستقرارا ، وان الاسلام قد أصبح له دولة فان هذا يقتضى جهودا جبارة فى التنظيم والتوحيد والتشريع الى آخر ما تحتاجه دولة ناشئة يعيش فيها أخلاط منهم المؤمن والمشرك والمنافق ، ويجاورهم اليهود ، ويحيط بهم من كل جانب عدا قريش ألقبائل المعادية حتى لكأن المدينة جزيرة صغيرة وسط محيط من الاعداء . فماذا فعل محمد ؟

اول الاعمال :

ان أول عمل يقوم به عظيم حين يتولى امرا عظيما يكون له دلالة خاصة ، ومغزى هام ، واذا كان العظيم هنا محمدا خير رسل الله وقد وطئت اقدامه خير عاصمة لخير امة اخرجت للناس فانه يجدر بنا أن نتأمل أول عمل ، وأن نفكر فى دلالته ومغزاه .

ان الرسول حينما نزل قباء وهى ضاحية من ضواحى المدينة كان أول

(9) سورة الانبياء ــ الآية 35 .
(10) سورة آل عمران ــ الآية : 119 .

ما فعله أن بنى مسجد قباء أول مسجد في الاسلام . والذى قال الله تعالى فيه : « **لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » (11) ٠**

وكذلك فعل فى المدينة ، بنى مسجده حيث بركت ناقته أمام مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار أخواله عليه السلام ، فما دلالة هذا ؟ ٠ ان المسجد عند المسلمين أهم مكان على الاطلاق ، انه مكان تجمعهم للعبادة ، وجامعتهم للعلم والمعرفة ، وبرلمانهم الذى يتشاورون فيه فى أمورهم ، ويرسمون فيه سياستهم ، ومنه تخرج جيوشهم ، وفيه ينام ضيفا على الله من لا بيت له ، ويلتقى فى رحابه المسلم مع المسلم فلا يكون مكان أحب منه الى قلب المؤمن ، وأقرب منه الى الله ، والمسجد هو المرآة العاكسة لحياة المسلمين ، يقوى بقوتهم ، ويضعف تأثيره والاهتمام به حينما يضعفون، وتصبح رسالته محدودة حينما يضيق أفقهم ، فاذا أردت أن تسبر غور المسلمين فى عصر من العصور ، أو فى بلد من بلاد الله لتطلع على ما هم عليه من قوة أو ضعف فمن مساجدهم تعرف كل شىء ، ويأتيك الخبر اليقين ٠

(11) سورة التوبة ــ الآية : 108 ٠

محمد والانبياء :

بدأ بيثرب طور جديد من أطوار حياة النبى (ص) لم يسبقه اليه أحد من الانبياء والرسل ، وهو الطور السياسى. فعلى غير عادة العرب المحيطين به أظهر النبى قدرة سياسية ، وحنكة وعبقرية تجعل اقدر الرجال ، وأكثرهم فهما وعمقا يقفون أمامه مبهوتين تعقد الدهشة السنتهم ، ويطأطئون رؤوسهم اكبارا واجلالا ، ولا عجب فالله أعلم حيث يجعل رسالته ٠

لقد كان أول هم النبى (ص) أن يجمع المسلمين ويوحدهم ، فعمل على تصفية ما بين الاوس والخزرج لئلا يثور الداء القديم فتكون نكسة لا يعرف مداها الا الله ، وآخى بين المهاجرين والانصار بجعلهم أخوين أخوين ٠ اخاء جعل له الرسول حكم اخاء الدم والنسب ، فتأكدت وحدة المسلمين ، وزاد ما بينهم من المحبة والمودة الى حد يقرب من الخيال.

ثم عقد مع اليهود معاهدة تعد آية من الآيات « فى تقرير حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرمة المدينة ، وحرمة الحياة ، وحرمة المال ، وتحريم الجريمة. وهى فتح جديد فى الحياة السياسية ، والحياة المدنية فى عالم يومئذ ، هذا

العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد، وتعيث فيه يد الظلم فسادا » (12) ٠

وهكذا عرفت المدينة التى مزقتها الحروب ، وأرقتها العداوة والبغضاء قبل حلول محمد الطمأنينة والراحة والسكينة ، وقد كان هم النبى الاول أن ينشر الحرية ليدخل في دين الله من هدى الله ، فان الحرية تدفع النفوس الى طلب الحق ، وتدفع الملكات أن تزهد وتزدهر ، كما أن اطفاء شعلة الحرية يعنى انتشار الظلم والظلام ، وطمس النور الالهى فى القلوب والنفوس ٠

أكانت الهجرة فرارا ؟ :

يطيب لبعض الناس أن يتحدثوا عن هجرة الرسول (ص) بأنها فرار وهروب وفى دائرة المعارف لبعض البلاد الاوروبية كتب مكان هجرة محمد فرار محمد ، فهل كانت هجرة الرسول فرارا وهربا ؟، وما الفرق بين الهجرة والفرار ؟

لقد كانت هجرة الرسول (ص) عملا ايجابيا اقتضى من الشجاعة الفائقة ، والتدبير المحكم ما يجعل شجاعة محمد فوق كل شجاعة عرفها تاريخ البشر ، فلم يبال بما جمعت قريش ، ولم يلق بالا لمطاردتهم له ، وبحثهم عنه ، وهل هناك قلب فى سكينة قلب محمد حينما أحاط الاعداء بالغار ، وقال له صاحبه : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » فيقول له محمد : « لا تحزن ان الله معنا، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »، وحتى كلمة الخوف لا ترد على لسان محمد حينما يطمئن صاحبه ، فلا يقول لا تخف ، بل يقول لا تحزن ٠

كما كان تدبيره للامر ـ على الوجه الذى ذكرنا ـ غاية فى الاحكام ، وقوة العقل والتدبير ، بحيث لم يترك ثغرة واحدة يستطيع الخطر أن ينفذ منها ، يفعل هذا مع علمه ويقينه أنه رسول الله ، وان الله مانعه وحاميه ٠

ثم انها هجرة فى سبيل العقيدة ، يترك فيها محمد بلده وأعز بقعة عليه ، يناجيها وقد هم بمغادرتها فيقول : « والله انك لاحب بلاد الله الى، ولولا أن اهلك أخرجونى ما خرجت » ، أقول يترك بلده من أجل هدف أسمى ، وهو علو كلمة الله ، ونشر دينه ، وبناء دولته، ثم تظل بلده فى قلبه وفى قلوب أصحابه حتى يرجع اليها فاتحا عظيم القدر والجاه ، وقد جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ليمامل جبابرة الامس الذين أصبحوا من الخوف والذعر يستجدون

(12) حياة محمد ـ للدكتور محمد حسين هيكل ـ ص 241 ٠

منه الرحمة ، ويناشدونه العفو ، فيقول لهم فى عفو الشجاع القادر وكرمـــه : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » •

اذا كان هذا هربا وفرارا فأين أدن الثبات ؟ ، ان الفرار سلوك سلبى جبان، لا يفكر صاحبه فى أكثر من النجـاة ، ولو دفع الثمن من سمعته وكرامته ، على أن من الفـرار والهـروب نوعا يجلبه التعصب الاعمى ، والحقد المكبوت يجعل أصحابه يهربون من مواجهة أنفسهم فى شجاعة ، ومن مواجهة الحقائق فى ثبات فيفتاتون (13) حتى على خير الانبيـاء والمرسلين ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويكذبون على الناس وعـلى أنفسهم ، ويفترون على الله الكذب وهم يعلمون •

---

(13) يكذبـون •

المظاهـر السياسيـة للهجـرة

الدكتور عبد اللطيف عبـادة

يصعب على الباحث الواحد أن يدرك جميع أسرار الهجرة النبوية وأن يتبين جميع مظاهرها وأن يستخلص منها جميع النتائج الضرورية كى يعتبر بها عالمنا المعاصر ويتعظ بها المسلمون فى بداية القرن الخامس عشر الهجرى · هؤلاء المسلمون الذين هجروا التاريخ الهجرى الى التاريخ الميلادى وهجروا معه اشرافات الهجرة واشعاعاتها ، لذلك فاننا سنحاول فى هذه العجالة أن نلفت انتباههم الى جانب من جوانب هذه الهجرة ـ وهو المظهر السياسى ـ علهم يعودون اليها ليستلهموا منها معالم طريقهم وما ذلك على الله بعزيز · غير أن دراسة هذا الجانب تستحق بدون مبالغة أن يفرد لها مجلد كامل وذلك لان الاسلام دين ودولة وما كانت الهجرة الا رفضا لحكم الجاهلية وسعيا لاقامة دولة اسلامية تستوحى تعاليمها من القرآن والسنة ·

ان الهجرة النبوية حدث هام على الاصعدة كافة وفى مقدمتها الصعيد السياسى لانها تشكل انقلابا فى حياة العالم الاجتماعيةوالاقتصادية والسياسية فضلا عن كونها انقلابا فى حياته العقائدية والثقافية · لذلك فقد أولى القرآن الكريم أهمية خاصة للهجرة والمهاجرين ، فمدح الهجـرة والمهاجرين وذم المستضعفين القادرين على الهجرة والممتنعين عنها وأوعدهم شر الوعيد لرضاهم بالاستبداد الذى يخنق حرياتهم فى مجالات الاعتقاد خاصة · فالهجرة فى نظر القرآن يترتب عنها اذلال الخصم والسعة فى الرزق واظهار الدين وتبدل الخوف بالامن فى الصدر ، وقد ذكر المهاجرون أكثر من

عشر مرات فى القرآن بصيغة المــدح . قال المولى سبحانه وتعالى : « **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله وكان الله غفــورا رحيمــا** » (النساء : 100) وقد خصص القــران الكريم الهجرة الى الله ورسوله دون غيرها من أنواع الهجرة تأكيدا على أهمية النية فى هذا المجال . ذلك أن الهجرة قد تكون لاغراض دنيوية كما سيوضح ذلك الحديث الشريف . لذلــك فالمقياس الصحيــح الذى لا يتبدل بالنسبة للهجرة وبالنسبة لغيرها من الاعمال التعبدية يتمثــل فى النية : (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى . فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسولــه ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو الى امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه).

وقد اتخذت الهجرة مقياسا للمفاضلة بين المؤمنين وقرنها المولى سبحانه وتعالى بالجهاد . قال المولى عز وجل : « **ان الذين آمنوا وهاجــروا وجاهدوا بأموالهــم وأنفسهم فى سبيل الله والذيــن آووا ونصروا أولئك بعضهم أوليــاء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ، ما لكم من ولايتهم من شىء حــتى يهاجــروا** » (الانفال : 72) .

وعلى هذا فان الهجــرة النبوية هى نقطة الانفصال بين عالمين عالم الشرك والطاغوت والاستبداد وعالم الايمــان والنور والشورى ، لقد أمر المؤمنون أن يعرضوا عن الحياة الجاهلية ومؤسساتها وأن يطلقوها الى الابد وأن يعملوا على بناء مجتمع جديد كل الجدة غريب عن الحياة الجاهلية كل الغرابة يستمد أسسه مــن القرآن الكريم ومن السنة النبوية ويتكون من أفراد تربط بينهم أواصر الاخــوة الاسلامية وقرابة الايمــان لا روابــط العصبية القبلية وحميــة الجاهليــة . فالمؤمن ينصر أخاه ظالما بنصحه أيــاه وارشاده الى الطريق المستقيم لا بتأييده على الظلم والاعتداء كما يفعل الجاهليون.

لقــد كان فى العمــل الــذى قام بــه الرسول ـ ص ـ بمكة المكرمة من أجــل التمهيد للهجرة النبوية اعــدادا حقيقيا للمؤمن الصالح مواطن المجتمع الاسلامى الجديد الذى ستتشكل نواتــه الاساسية بالمدينة المنورة . هذا المؤمن لا يخاف الا اللــه ويحتقر مـا سـواه مـن طواغيت ومستبدين وكــهان ورهــبان اتخــذتهم البشرية أربابا من قبل . لقد قام الرسول ـ ص ـ باعداد المؤمن الصالح والفاضل والعالم والعادل والتقى وشرع فى تحطيم الهياكل الاساسية البالية للمجتمع القبلى وكذا العبودية تمهيدا للهجرة كما شرع

في اعـداد الاطـر السياسية الاسلامية للمجتمع الجديد قبل أن يهاجر اليه عـن طريـق بيعتي العقبـة الاولى والثانية ٠ حتى أن القرآن سجل بيعة العقبة الثانية في آياتـه كما يذهـب الى ذلـك بعض المفسرين ، وذلك لعـلو شأوها وعظيم قدرها وأهميتها بين الاحداث السياسية التي عرفها التاريخ الاسلامي منذ بعثـة الرسول صلى اللـه عليه وسلم ٠ لهذه الاسباب وغيرها يعتقد هؤلاء المفسرون وفي مقدمتهم رشيد رضا أن القرآن قد نوه ببيعة العقبة الثانية في قوله تعالى : **« ان اللـه اشترى مـن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التـوراة والانجيل والقـرآن ومن اوفى بعهده من اللـه فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم بـه وذلك هـو الفـوز العظيم »** (التوبة : 111) ٠ ومما يؤيد ما يذهبون اليه ما يروى بأن اللـه لما أذن للرسول ـ ص ـ في الحـرب بايعهم في العقبـة الاخيرة على حرب الاحمر والاسود وأخذ لنفسه واشترط على القوم لربه وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة (1) ٠ وأى فـوز أعظم من الجنة ؟! ومن أوفى بعهده من اللـه ؟!

ولا يهمنا الآن الـدخول في تفاصيل هاتـين البيعتـين وصيغتيها وظـروفهما ونتائجهما لاننا تعرضنا الى ذلك في مقالة سابقة بل الشيء الذى يهم هو أن الانصار لم يبايعوا الرسول ـ ص ـ بيعة الحرب ، على السمع والطاعة في عسرهم ويسرهم ومنشطهم ومكرههم وأثرة عليهم ، وأن لا ينازعوا الامر أهله ، وأن يقولوا بالحق أينما كانوا ، لا يخافون في اللـه لومـة لائم ، مقابل مغانم مادية أو سؤدد دنيوى أو غير ذلك من الامور التي يبايع عليها الحكام اليوم بل بايعوه مقابل الفــوز برضا الله وبفسيح جناته ٠ فقد أصبح المحرك الرئيسي للنشاط السياسي هـو الفوز برضوان الله ٠ ولا عجب بعد ذلك أن تتخذ هـذه البيعة وبيعـة الرضوان نموذجين يحتذى بهـما الخلفاء والحكام المسلمون في حياتهم السياسية المقبلة ٠ وانـه لانقلاب عظيم أحدثه الاسـلام في نفـــوس الاوس والخـــزرج المتباهـين بسؤددهم وعصبيتهم وشوكتهم وأيامهـم فجعلهم يرون أن أكرمهم عند الله أتقاهم وأن السؤدد والعلو لكلمة اللـه وحدها وأن المؤمنين اخوة يجمع بينهم حبل الله المتين اذا اعتصموا به وتمسكوا به ٠

(1) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ـ فقه السيرة ـ ط ، 5 ، دار الفكر 1972 ص 170 ٠

كانت الهجرة نقطة تحول فى حياة المسلمين وفى تاريخ العالم بما حطمته من أصنام وعبادة الطواغيت وبما أجهزت عليه من هياكل بالية فى الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ٠ وكان لابد أن ينشأ على هذه الانقاض مجتمع جديد مبنى على الاخوة وعلى اقامة القرآن وعلى التعايش مع الاديان وعلى اشعاع المسجد فى مجالات الحياة كافة ٠ وهكذا يظهر أنه الى جانب الاعداد العقائدى والروحى للهجرة تم الاعداد السياسى المتمثل فى تكوين المؤمن الصالح الذى سوف يضطلع بأعباء المسؤولية فى الدولة الاسلامية الناشئة والذى تتكون منه الخلية الاولى لاول دولة اسلامية يؤسسها الرسول ـ ص ـ فى المدينة المنورة ٠ والدليل على ثبوت الطابع السياسى لهذا الاعداد هو ما سيتبع هذا الاعداد من بيعة ٠ (ومدلول البيعة معروف فى اللغة وفى الفقه) ٠ وما سيتبع ذلك بعد الهجرة من اعداد دستور يحكم المسلمين ومن يعايشهم فى مجتمع المدينة ومن اشعاع اجتماعى وثقافى وسياسى للمسجد ومن اشاعة الاخوة والمساواة بين المؤمنين ٠

هاجر الرسول ـ ص ـ وانجاه المولى سبحانه وتعالى من مكرهم فلم يسجنوه ولم يقتلوه ولم تنجح مكائدهم وتمت الهجرة باذن الله على أحسن ما يرام ٠ وخلف الرسول ـ ص ـ وراءه مجتمعا قبليا مبنيا على العصبية والحمية ـ حمية الجاهلية ـ والارسطوقراطية القرشية التى تبيح لنفسها استرقاق الآدميين وتبيح لنفسها فرض عقيدتها على غيرها ومنع الناس من الخروج عنها بالقوة ٠ هاجر بعد أن صمد هو وصحابته صمودا هائلا أمام القمع والحصار اللذين فرضتهما عليهم قبيلة قريش ٠

هاجر وفى نيته انشاء دولة لا تقوم على عرقية ولا استبداد ولا بطش ولا خنق للحريات الانسانية ٠

هاجر بعد أن رفض جميع العروض التى عرضت عليه من طرف قريش وفى مقدمتها الملك والسؤدد لان الملك الذى يقوم على الاستبداد وعلى الترف والبذخ لا يتوافق مع ما يدعو اليه الاسلام من شورى ونظافة أخلاقية ٠ بل الملك الذى ورد فى القرآن بصيغة المدح هو مرادف للامامة والخلافة ٠ والدين فى جوهره ثورة وليس توفيقا خارجيا تعسفيا ٠ وقد كان الانبياء ثوارا مصلحين ومجددين ٠ ألم يثر ابراهيم ضد التقاليد والاصنام باسم العقل والتوحيد وموسى ضد الطغيان باسم التحرر وعيسى ضد المادية باسم الروح ؟ ألم يكن الاسلام ذاته ثورة الفقراء والعبيد والمضطهدين ضد

الارسطوقراطية القرشيـــة وسادتهـــا وطغاتها من أجل اقامة مجتمع اسـلامى تسوده الحرية والاخوة والمساواة ومـن أجل تحقيق العدالة الاجتماعية واقامة مجتمع حر واقامة وحدة الامة الاسلامية ؟

فما هى المظاهر السياسية التى افضت اليها الهجرة النبوية الشريفـة ؟ وكيف يمكن تقييم الفوارق الكيفية بين المجتمعين الجاهلى الذى هاجره المسلمون والاسلامى الذى هاجروا اليه؟ ما هى سلبيات المجتمع القديم وما هى أسس المجتمع الجديد ؟ ما هو حكم الجاهلية الذى يرفضـــون وما هو حكم الاسلام الذى يرغبـون فى اقامته ؟

ان المسلمين قد هاجروا مجتمعا جاهليا وسياسة جاهلية وحكما جاهليا وأخلاقا جاهلية • ومن غير المعقول أن نقول أو يدعى أن النظام السيـــاسى الاسـلامى مستوحى من النظام السياسى القبـــلى العربى •

ذلك أن النظام القبلى فى المجـــال السياسى يقوم على :

- حاكمية أعيان القبيلة •

- العصبية القبلية والحمية الجاهلية•

- الرقيـــق •

- شن الحروب لاتفه الاسباب •

- الخضوع لنظم الحكـم المجاورة : القيصرية والكسروية وغيرها •

- اعتبار النسـب والمـال والفروسية سلما موصلا الى السؤدد والمجد •

- اعتبار النظام الملكى أرقى ما يمكن أن يصل اليه نظام الحكم عندهم لذلك عرضوا على الرسول (ص) أن يملكـــوه عليهـم •

- قوانين وتشريعات بالية مثـــل وأد البنات وغيره •

أما نظام الحكم فى الاسلام فيقـــوم بالعكس من ذلك على :

- حاكمية الله وطاعة الرسول (ص) وأولى الامر فى المعروف •

- الشورى بين المسلمـــين وضرورة مشاورة أولى الامر لهم •

- الغاء العصبية والحمية الجاهليـــة واحلال الاخوة الانسانية والدينية محلها.

- سن التشريعات الرامية الى التحرير التدريجى للرقيق •

- سن الجهاد دفاعا عن النفس وعـن المجتمع الاسلامى وعن العقيدة الاسلامية.

- اعتبار الملكية المرتبطة بالعلـو فى الارض والفساد والترف والبذخ شرا كلها والاقتصار على ما يرادف منها الخلافـــة والامامـــة •

ـ ذم الخضوع والاستسلام للطغــاة والجبابرة سواء كانوا فراعنة أو قياصرة أو غير ذلك .

ـ الغاء القوانين والتشريعات الجائرة كالغاء عادة الوأد عند عرب الجاهلية .

هذا وقبل ان نقول أى شىء عن هذا المجتمع الجديد الذى سيقام بالمدينـة المنورة نؤكد أنه بهجرة الرسول (ص) من مكة الى المدينة خرج المسلمون مـن دار الحرب الى دار الاسلام ـ المدينـة المنورة ـ فكانت لهم بمثابة معقل يأوون اليه ويلوذون به . وكانت بذلك أول دار للاسلام وكانت كذلك مهدا لاول دولة اسلامية يؤسسها الرسول (ص) بنفسـه ويرعاها بعنايته ويتعهـدها بتوجيهاته وارشاداتـه حتـى يتطابـق الـواقع السياسى مع المثل السامية التى يدعـو اليها . ألا قاتل الله الخراصين الذيـن رمـوا النظـام السياسى الاسـلامى بالطوبوية ! وما أبعده عنها ! فأفلاطون ومور طوبويان لانهما أتيا بأفكار خيالية لم تطبق فى الواقع ويستحيل تطبيقها . أما النظام السياسى الاسلامى فقد طبـق وتبين الناس من خلال الوقائع التاريخية أنـه أصبـح واقعـا حيـا فى عهـد الرسول (ص) وفى عهد الخلفاء الراشدين ولم يبق مجرد مثل واردة فى القرآن .

لقد حمل المسلمون على الهجرة حملا. حملهم على ذلك ايـذاء المشركين لهـم وتضييق الخناق على حرياتهم فى الاعتقاد والتعبير من طرف قريش وفرضها الحصار عليهم والحاقها شتى أنـواع العـذاب بصحابة الرسول (ص) . لذلك فالاسلام لا يرضى باكـراه الناس على الايمـان « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** » . « **وما أنت عليهـم بجبـار** » (ق : 45) « **لست عليهم بمصيطـر** » (الغاشية : 22) . ولذلك أيضا فقد عمل الاسلام على ارجاع الحريات الى أصحابها وتخليصهم من العبودية. فقد مدح القرآن أبا بكر لانه أعتق مجموعة من الرقيـق الذين عذبوا من قبل المشركـين . قال سبحانه وتعالى : « **وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى** » .

وكان لابد بعد الهجرة من أن ينتهى الصراع المقيت القائم بين القبائـل فى المدينة المنورة وكان لابد من أن تؤسس دولة تتعايش فى ظلها الاجناس ويكفل قانونها الحريات ويسمح تحت رايتهـا بممارسة الاعتقادات والديانات . وكانت أول لبنـة وضعت فى صرح المجتمـع الاسلامى هى بناء المسجد الذى سيكون من بين اشعاعاته الاشعاع السياسى اذ فيه

تجتمع كلمة الامة وفيه تعتصم بحبل الله وفيه يتشاور المسلمون فى شؤونهم وأمورهم وفيه يتكون المؤمن الصالح مواطن المجتمع الاسلامى وفيه تتكافل الامة وتتضامن • يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى متحدثا عن دور وأهمية المسجد فى المجتمع الاسلامى والدولة الاسلامية : « ان اقامة المسجد أول وأهم ركيزة فى بناء المجتمع الاسلامى ذلك أن المجتمع المسلم انما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الاسلام وعقيدته وآدابه ، وانما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه » (1) •

ثم ان الرسول (ص) قد وضع اللبنة الثانية فى بناء صرح المجتمع الاسلامى بمؤاخاته بين أصحابه من المهاجرين والانصار على الحق والمساواة وهذا هو الاساس الثانى الذى اعتمده الرسول(ص) فى سبيل بناء المجتمع الاسلامى والدولة الاسلامية يضمن به وحدة الامة وتساندها وليؤسس مبادىء العدالة الاجتماعية •

وكانت اللبنة الثالثة فى بناء صرح المجتمع الاسلامى هى كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم • وهذا الاساس هو أهم ما قام به النبى (ص) مما يتعلق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة الى جانب تطبيق الشورى فى وسط المسلمين حتى أصبحت صفة راسخة فيهم ملازمة لشخصيتهم الايمانية •

ويلاحظ أن هذه الوثيقة تدل على مدى العدالة التى اتسمت بها معاملته (ص) لليهود وعلى أن الاسلام هو وحده الذى يؤلف وحدة المسلمين ويجعل منهم أمة واحدة وعلى أن من أهم سمات المجتمع الاسلامى ظهور معنى التكافل والتضامن فيما بين المسلمين بأوضح صوره وأجلاها وعلى مدى الدقة فى المساواة بين المسلمين من حيث انها ركن من الاركان الشرعية الهامة للمجتمع الاسلامى • وهكذا يظهر أن هذه الوثيقة تتضمن أسس الدولة الاسلامية• يقول الدكتور البوطى : «ومن تطبيق هذه الوثيقة والاهتداء بما فيها والتمسك بأحكامها قامت تلك الدولة على أمتن ركن واقوى أساس » (1) •

كذلك ان المسلمين بعد هجرتهم من مكة الى المدينة انتقلوا من مرحلة الصبر الايجابى الى الجهاد فى سبيل الله دفاعا عن عقيدتهم وردا للعدوان وفيما بعد لتبليغ كلمة الله الى أنحاء العالم كافة •

كما ان الهجرة سنة حميدة للمسلمين فى كل العصور كى يتخلصوا من الاستبداد الذى يخنق حرية الاعتقاد لديهم وحرية ممارسة العبادات • يقول

---

(1) ن• م• ـ ص 203 •

(1) ن• م• ـ ص 219 •

رشيد رضا : « يؤخذ من علة وجـــوب الهجرة فى عهد التشريع أنها تجب بمثل تلك العلة فى كل زمان ومكان • فلا يجوز لمؤمن أن يقيم فى بلاد يفتن فيها عن دينه بأن يؤذى اذا صرح باعتقاده أو عمـــل بما يجب عليه • وان كان حكام تلـك البلاد من صنف المسلمين ، ومن ذلك أن لا يقدر المسلمون على التصريح قولا وكتابة بكل ما يعتقدون ولا يتمكنوا من القيام بفريضة الامر بالمعروف والنهى عـــن المنكر فى المجمع عليه منهما » (1) •

وقد ذكر صاحب تفسير المنار فى مكان آخر أنه ورد فى الحديث أن الهجرة دائمة لا تنقطع حتى تمنع التوبة أى الى قبيل قيام الساعة • لذلك أفتى علماء المسلمين وفى مقدمتهم ابن العربى بوجوب الهجرة من دار الحرب الى دار الاسلام • فقد روى القرطبى عن ابن العربى : « أن هـــذه الهجرة كانت فرضا فى أيام النبى (ص) وهى باقية مفروضة الى يوم القيامة » • ومما يستدل به على ذلك قوله تعـالى : « **ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فاولئك ماواهم جهنـــم وساءت مصيرا، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلـــة ولا يهتدون سبيلا**»(النساء 97 ، 98) (2) ويذكر النسفى فى شرح هذه الآيـــة : « ان من لم يتمكن من اقامة دينه فى بلد كما يجب وعلم أنه يتمكن من اقامته فى غيره حقت عليه المهاجرة • وفى الحديث من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان شبرا من الارض استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه ابراهيم ونبيه محمد (ص) (3).

ودار الحرب هى كل بلد يناصـب العداء المسلمين وللعقيدة الاسلامية ومثل دار الحرب فى ذلك كل بلد لا يتمكن فيه المسلم من اقامة الشعائر الاسلامية مـن صلاة وصيام وجماعة واذان وغير ذلك من أحكامه الظاهرة •

نستطيع أيضـا أن نستخلص مـــن الهجرة النبوية الشريفة أن كل الصحابة رضوان الله عليهم قاموا بأدوار فى الهجرة والتمهيد لها من مصعب بن عمـير الى أبى بكر الى عمر الى على وغيرهم • ومن

---

(1) رشيد رضا ــ تفسير المنار ــ ط 4 ، مكتبة القاهرة ــ مصر 1960 الجـزء الثانى ص 320 •
(2) الدكتور البوطى ــ ن• م• ــ ص 181 •
(3) تفســير النسفى ــ دار الكتاب العربى ــ بـيروت ، لبـــنان ، المجلـــد الاول ، ص : 349 ــ 350 •

غير المعقول أن يعمل البعض على التفريق بين الصحابة وعلى الحط من شأن البعض منهم ظلما وعدوانا ٠

وخلاصة القول أن الهجرة انقلاب هام في حياة المسلمين وتحول هام في مجرى التاريخ البشرى لانها الطريق الى اقامة القرآن في مجالات الحياة كافة وخاصة في مجال الدولة ولذلك اتخذها المسلمون بداية لتأريخهم بتوجيه من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى كان يدرك حق الادراك عظمة هذا الحدث التاريخى الهام.

فمن واجبنا اليوم أن نعود الى ظل هذه الهجرة ونستلهم منها معالم طريقنا في المستقبل خصوصا ونحن في بداية قرن هجرى جديد والله الموفق للصواب ٠

الاسلام ومشاكل التخلف

محمد الثميني
مدير المدرسة العليا للتجارة
بجامعة الجزائر (سابقا)
والرئيس المدير العام
للبنك الوطني الجزائري

تنبيه

تلبية لرغبة الكثير من الاصدقاء انشر فيما يلي ملخصا لسلسلة من محاضرات القيتها فى مناسبات عديدة خلال شهر رمضان المعظم لسنة 1401 هجرية وذلك بطلب من وزارة الشؤون الدينية ·

رب زدني علما

الجزائر فى 15 سبتمبر 1981 ·

محمد الثميني

بسم الله الرحمن الرحيم

ان كل شعوب العالم الثالث وخاصة الشعوب الاسلامية لا تحتاج الى تعريف التخلف لانها تعيشه وتحسه فى الحياة اليومية فى كل الميادين ، ولذلك فهى كلها تتطلع الى حياة افضل·

التطلع الى حياة أفضل فى دنيانا هذه هو شعور قبل كل شيء بالحرمان من ضروريات الحياة ، حياة الانسان

الذى هو اشرف مخلوقات الله بكونه خليفته فى الارض ، « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى اعلم ما لا تعلمون** »(1) « صدق الله العظيم ».

والتطلع الى حياة افضل هو علاوة على هذا رغبة ملحة فى الخروج من التخلف أى من الجاهلية كما كان يعبر عنه فى صدر الاسلام أى الخروج من الحالة التى كان عليها المجتمع العربى قبل الاسلام .

والتطلع الى حياة افضل هو فوق كل هذا عند المسلمين ارادة وعمل للخروج من الظلمات الى النور ، بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتغييره ، « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » . أو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم . فالانسان المسلم بايمانه وارادته وعمله فى سبيل تغيير المنكر وتحقيق المعروف يسمو الى درجة خليفة الله فى الارض .

هذا وان حدة الشعور بالحرمان من ضروريات الحياة لتتفاقم من سنة الى أخرى لعاملين أساسيين هما تزايد نسبة عدد السكان وتدهور الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى البلدان المتخلفة لعجز هذه البلدان من رسم استراتيجية محكمة من الخروج ولو بمراحل من حالة التخلف .

وهذا ما حدا بالكثير من المفكرين والاقتصاديين ونذكر خاصة الاقتصادى السويدى الشهير ميردال بالتكهن الى ان اتساع الهوة بين البلدان المتطورة والمتخلفة سيخلق عواقب وخيمة وسينتهى الامر الى كارثة من النمط الماركسى بحجم يشك أن ماركس نفسه قد توقعه (2) ، ان كل الاصوات التى ارتفعت بعد ميردال من ساسة ومسؤولين فى الامم المتحدة وكل الجهود التى بذلت أثناء لقاءات دولية وجهوية ، كلقاءات مجموعة دول 77 أو الحوار بين الشمال والجنوب أو ملتقى رومة ... الخ . لم تفلح الى حد الساعة من ايجاد أى حل للكارثة التى يتوقعها الجميع .

ان الشعور بالحرمان فى البلدان الاسلامية خاصة وبلدان العالم الثالث عامة هو شعور حقيقى موضوعى ناتج عن وجود أمراض وآفات اجتماعية من جوع وانتشار الامية ومن أمراض متفاوتة الخطورة وآفات اجتماعية ، كتعاطى المشروبات الكحولية والحشيش ، وكالعبودية والعنصرية والطائفية وانتشار الزنا واستغلال الانسان لاخيه الانسان

... الخ . ويجدر بنا في هذا المقام ان نشير الى ان التطلع الى حياة افضل هو شعور نفساني ربما كان وهميا في بعض الاحيان في الاوساط غير المحرومة والتي هي في يسر وليست في عسر اعني الاوساط البرجوازية .

ان هذه الظاهرة طبيعية ناتجة عن تقليد سلوك المجتمعات الاستهلاكية التي تستهلك لا عن حاجة موضوعية بل عن حب للترف والتبذير ، ان ما تستهلكه هذه المجتمعات فوق الحاجة كالماء المالح الذي لا يزداد شاربه شربا الا ازداد عطشا ، كما ان المستهلك في حالة كهذه كالكلب ان تحمل عليه يلهث وان تتركه يلهث .

ان هذه الظاهرة نجدها في البلدان المتقدمة وخاصة في الولايات المتحدة الامريكية وفي الاتحاد السفياتي اعظم بلدان العالم وذوي أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة . نجد هذه الظاهرة في الاوساط الغير محرومة وفي الاوساط الراقية منها .

ولقد شخصها وندد بها مفكرون وصحافيون وكتاب كثيرون في كلا المعسكرين الرأسمالي والشيوعي .

ان هذه الظاهرة يعني الاستهلاك للاستهلاك جعلتنا نسمي المجتمعات في تلكم البلدان مجتمعات استهلاكية لان الفراغ الايديولوجي الذي تتسم به المجتمعات الاستهلاكية جعلها تتخذ من الاستهلاك هدفا وفلسفة في الحياة لتشغل نفسها عن الحيرة التي تعتريها والمنتشرة في كل الاوساط والتي استفحلت الى ان صارت من اخطر الآفات الاجتماعية .

هذه الآفة ناتجة عن عدم توفق الايديولوجيات المعاصرة على القضاء على الحيرة في مصير العالم وفي الشك في صلاحيات الانظمة المعاصرة حتى ان الانسان الدارس للاوضاع بدون تعصب وبكل موضوعية صار يدرك ان اشباع الغرائز وتلبية الرغبات وسد الحاجيات ان جعلها المرء غاية لا وسيلة سوف تنزل بالانسان الى مستوى البهائم بدلا من ان تسمو به الى درجة خليفة الله في الارض، لهذا السبب قرن الله دائما الاطعام من الجوع بالامن من الخوف ، « **فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** » (3) « صدق الله العظيم » . الأمن من الخوف يقضي على الحيرة التي هي آفة آخر هذا القرن ، ان مقاومة التخلف اذا اقتصرت على اشباع الحاجات الاقتصادية دون القضاء على الحيرة سوف تهوي بالمجتمعات المتخلفة وخاصة الاسلامية منها في الاقتصادانية كما أكده المرحوم مالك بن نبي الذي قال في كتابه، المسلم في عالم الاقتصاد : « يبدو ان

العالم الاسلامى فى هذه الآونة مصاب بهذا الداء ، الاقتصادانية ، لانه انتقل من عدم الوعى الاقتصادى الشامل الى الحصر الاقتصادى كانما ليس للمسلم الا سبيل واحد للتفتح : ان يكون بشرا اقتصاديا وان لا يكون غير هذا .

فتوعية الانسان المسلم فى الميدان الاقتصادى يجب ان لا تجره الى وثنية جديدة بحيث يصير من عباد صنم جديد اسمه الاقتصادانية أو حتى الاقتصاد»(4)

فالوثنية الجديدة التى هى ظاهرة الانظمة المتقدمة المعاصرة هى التى جعلت من المواطن غايته الاستهلاك ومن اشباع الغرائز الحيوانية هدفا للانشغال عن الحيرة والقلق واضطراب النفس وعدم الاطمئنان .

ناهيكم ان المؤرخ والفيلسوف الانكليزى الراحل أرنولد طونبى تكهن منذ سنة 1947 عن دور الاسلام فى وسط الانقاض والفوضى التى يحدثها لقاء الحضارات فى عصرنا هذا ، ولقد قال ان للاسلام « رسالة مزدوجة : النضال ضد الكحول وضد التمييز العنصرى ، اما تاثير الاسلام على البروليتارية العالمية الجديدة التى خلقها التصنيع فنتائجه حميدة ، والاسلام وسيلة لملء الفراغ الفكرى الذى تحدثه الحضارة الغربية فى البلدان الاستوائية خاصة لان الحضارة الغربية تملأالفراغ الاقتصادى والسياسى اما الاسلام فهو يحمل معه أهدافا جديدة رفيعة » (5) .

كما أن ملتقى رومة يرى أن الكثير من الامراض الاجتماعية كتعاطى المخدرات والجرائم والقتل الجماعى وشبح الحرب العالمية الثالثة سببه التنمية الفوضوية العمياء ، التنمية فى سبيل التنمية (6) .

ان القضاء على التخلف فى أوطاننا الاسلامية لا يمكن ان يتحقق بتقليد النظام الرأسمالى ، أو النظام الشيوعى تقليدا اعمى بدون الرجوع الى أصالتنا الاسلامية.

لذلك كان أرنولد طونبى يشك فى نجاح الثورة الكمالية فى تركيا لانها كانت تقلد الغرب فى محاولتها الخروج من التخلف بتركيزها على القومية التركية بدلا من الايديولوجية الاسلامية . «فالحركة الاسلامية هى فى سبات ــ كما كتب ــ وبالرغم من ذلك يجب الاخذ بعين الاعتبار احتمال اليقظة اذا ثارت البروليتارية المتغربة ضد السيطرة الغربية ونادت بأصوات عالية مناهضة للغرب ، فهذا النداء قادر على ايجاد نتائج نفسية ليس لها حصر على الفكرة الجهادية فى الاسلام وذلك بايقاظ اصداء العصور البطولية » (7) .

فتنبوءات أرنولد طونبى هذه صارت تتحقق فى البلدان الاسلامية وخاصة فى الجزائر ابان حرب التحرير عندما كان المجاهدون الجزائريون يخوضون المعارك باسم الاسلام ، الاسلام الثورى، الاسلام الاشتراكى ، وفى ايران كذلك ٠

وفى رأينا ان الثورة الاسلامية الايرانية ثورة شعبية وان الصعوبات التى تواجهها ناتجة عن عدم درس مبدأ اسلامى مقدس ألا وهو مبدأ الشورى درسا علميا وعدم تطبيقه تطبيقا منطقيا محكما بل طبقته بطريقة فوضوية حتى آل بها الامر الى الخلط بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، ولقد ادرك الامام الخومينى نفسه خطورة الوضع الناتج عن تداخل السلط وحذر فى 11 فيفرى 1981 رجال الدين من التدخل فى شؤون الدولة (8) ٠

ومهما يكن الامر فان محاولات كل انظمة البلدان الاسلامية المعاصرة من الخروج من التخلف ناتجة اما عن تقليدها الاعمى للانظمة الاخرى كما اشرنا أو عن سلوك سياسة الاصلاحات دون تحقيق ثورة اجتماعية وثقافية وسياسية شاملة٠

ومن المؤسف كما اشار اليه المرحوم مالك بن نبى ان كل الاصلاحات فى البلدان الاسلامية تكاد تقتصر على الميدان الاقتصادى تقليدا للانظمة الرأسمالية او الشيوعية « وفى كلا الاتجاهين نراه ـ أى العالم الاسلامى ـ فى محاولة تركيب روح اسلامية على جسم أجنبى يرفضها وترفضه » (9) ٠

ان العالم الاسلامى يرفض كما هو واضح التجربة الغربية الليبرالية بخوضه معارك التحرير من هيمنة الاستعمار الرأسمالى ٠

فهو يرفض أيضا التجربة الشيوعية فى الجمهوريات السوفياتية الاسلامية ٠ ومن المفيد جدا أن يقرأ المرء الكتب التى تناولت هذه النقطة بالذات ، ان فى كتاب الامبراطورية المتصدعة للكاتبة الشهيرة ايلين كاريودا نكوص (10) تحليلا علميا مشكورا للاوضاع فى الجمهوريات السوفياتية ٠ ترى الكاتبة ان المسلمين رغم تعدد مذاهبهم يشعرون خلافا لكل الديانات الغير اسلامية بوحدة كاملة وانهم يكونون أمة رغم اختلاف لغاتهم واجناسهم ، وهذا الشعور بعد ستين عاما من التجربة الشيوعية يتزايد من سنة الى أخرى خاصة فى أوساط الشباب الذى ترعرع فى الايديولوجية الماركسية، والقادة السوفياتيون أنفسهم فى حيرة لانه رغم التركيز على الوطنيات واللغات الوطنية والثقافات الشعبية طيلة ستين عاما ظهر فى الجمهوريات الاسلامية

السوفياتية شعور تضامني حضاري وثقافي لا شعور ديني محض فحسب ، وتلاحظ الكاتبة متعجبة ان تراث الشعوب الاسلامية السوفياتية وثقافاتها قبل الاسلام قد ادمجتها تلك الشعوب ادماجا كاملا في ثقافاتها الاسلامية ولم تكن حائلا دون الشعور التضامني الاسلامي (11) .

وأعجب من هذا كله ان شعب جمهورية داقستان الذي لم يضطهد قط وخاصة المثقفين منهم ثقافة روسية يطالبون باستبدال الروسية بالعربية لان هذه الاخيرة هي « لاتينية المشرق » (12)، على حد تعبيرهم .

وهذه الملاحظة الاخيرة تخصنا نحن في الجزائر لانها تبين بوضوح ان الشعب الجزائري يطالب بالتعريب لانه مسلم قبل كل شيء ، هذا وان الشعور التضامني الاسلامي في الجمهوريات الاسلامية السوفياتية تبلور الى درجة ان طرح المشكل على المستوى الحضاري ـ ناهيكم انه في المؤتمر الاسلامي المنعقد في تاشكنت سنة 1970 أكد كثير من الخطباء ان الاسلام سبق الاشتراكية المعاصرة باعلانه منذ أربعة عشر قرنا مبادىء الحرية والعدالة والمساواة والاخاء (13) .

والواقع ان الزعماء الشيوعيين المسلمين قد طرحوا على بساط البحث منذ اندلاع الثورة البولشفية في سنة 1917 مشكل دور الاسلام في البلدان الاسلامية السوفياتية ولكن صراحتهم وبعد نظرهم قد تسبب في اقصائهم ومحاكمتهم ونفيهم وسجنهم .

وهذا ما وقع بالضبط للسيد سلطان ڤاليف مساعد ستالين منذ سنة 1917 وزعيم الجمهورية البولشفية التتارية منذ سنة 1920 ، وقد طرد سلطان ڤاليف من الحزب الشيوعي في سنة 1923 ثم حكم عليه بالسجن والنفي في سنة 1929 .

والذنب الذي ارتكبه سلطان ڤاليف هو طرحه ثلاث مشاكل على زملائه في الحزب الشيوعي :

ـ مشكل تلاءم الاشتراكية السوفياتية مع المجتمعات الاسلامية التي لم تبلغ بعد مرحلة الرأسمالية .

ـ مشكل دور الاسلام في العالم الاشتراكي .

ـ مشكل مكانة البلدان المستعمرة في الاستراتيجية العالمية الشيوعية (14).

ان الزعماء السوفيات أنفسهم يرون اليوم ان الحركة الاسلامية لم تقض عليها التجربة الشيوعية ، وان النهضة الاسلامية الحالية في البلدان السوفياتية الاسلامية تثير في أنفسهم تخوفات لانها

من شأنها ان تهدد كيان الدولة السوفياتية وذلك لان المشكل صار حضاريا .

وليس معنى ذلك ان الاسلام صار يقاوم النظام السوفياتى بل لان الرجل المسلم صار ينافس سلميا الرجل السوفياتى ، الذى يعتبر الرجل المثالى فى الجمهوريات السوفياتية .

والمسلمون السوفياتيون يعتبرون الرجل المسلم الرجل المثالى واما الرجل السوفياتى فما هو الا مرحلة فى سبيل تكوين الرجل الامثل (15) . ذلك لان الاسلام كما قلته فى مشروع لائحة قدمته الى المجلس الوطنى الاقتصادى والاجتماعى فى الربيع من سنة 1976 بمناسبة مناقشة مشروع الميثاق الوطنى « ليس بدين فحسب وانما هو نظام حياة وايديولوجية فهو يعطينا عن الانسان والكون نظرة منطقية وموضوعية تتلاءم مع العصر والتاريخ » .

التخلف لا يتجزأ فهو تخلف فى كل الميادين العقائدى والاجتماعى، والثقافى، والاقتصادى ، أو لا تخلف . ولمقاومة التخلف يجب رسم استراتيجية محكمة متكاملة وبدون هذا سوف تذهب كل المجهودات هباء منثورا ، يجب ان تصير استراتيجيتنا لمقاومة التخلف فى ايديولوجية مستوحات من اصالتنا الاسلامية ، وهذا هو الشرط الوحيد لضمان نجاحها ، ولكن يجب علينا ان نتفق هنا على الاسلام الذى نطالب به وننشده ، انه اسلام القرآن والسنة ، اسلام الخلفاء الراشدين ، اسلام العدالة الاجتماعية الحقة ، الاسلام الذى تحدث عنه الميثاق الوطنى بأحرف ذهبية حيث قال : «الاسلام هو أحد المقومات الاساسية لشخصيتنا التاريخية ، وقد ثبت انه هو الحصن المنيع الذى مكن الجزائر من الصمود فى وجه جميع محاولات النيل من شخصيتها . فقد تحصن الشعب الجزائرى بالاسلام ، دين النضال والصرامة والعدل والمساواة واحتمى به فى احلك عهود السيطرة الاستعمارية واستمد منه تلك الطاقة المعنوية والقوة الروحية التى حفظته من الاستسلام لليأس ، واتاحت له أسباب الانتصار .

وان ما أصاب العالم الاسلامى من انحطاط ، لا يمكن تفسيره بالاسباب الاخلاقية البحتة ، بل هناك عوامل أخرى ذات طابع مادى واقتصادى اجتماعى ، كالغزو الاجنبى ، والفتن الداخلية ، وتصاعد الاستبداد ، وانتشار الاضطهاد الاقطاعى واضمحلال بعض الانظمة الاقتصادية العالمية . وقد كان لهذه العوامل كلها دور حاسم فيما آل اليه

المسلمون ، لذلك فان ظهور الخرافات والشعوذة ، وانتشار العقليات التي تعيش على الماضى ، ليست من أسباب تلك الوضعية وانما هى فى الحقيقة من نتائجها • وهكذا يتجلى ان التركيز على محاربة هذه الانحرافات دون العناية البالغة بالبيئة الاجتماعية ، هو بمثابة الوقوع فى عملية وعظية لا جدوى من ورائها • والواقع ان العالم الاسلامى ، لابد له ، اذا ما أراد ان ينبعث من جديد، ان يجتاز مرحلة الاصلاح ليخوض غمار الثورة الاجتماعية •

ان الثورة لتندرج تماما فى المنظور التاريخى للاسلام • لانه فى مفهومه الصحيح ، لا يرتبط بنوع من المصالح الخاصة ولا يخضع لاى كهنوت أو أية سلطة زمنية ، ولهذا فلا يحق للاقطاعية ، ولا للرأسمالية أن تتخذ الانتماء اليه ذريعة لخدمة مصالحها وقضاء مآربها • لقد جاء الاسلام بمفهوم رفيع للكرامة الانسانية ، يدين العنصرية وينبذ النعرة الشعوبية واستغلال الانسان للانسان ، وان المساواة المطلقة التى نادى بها الاسلام ، تنسجم وتتلاءم مع كل عصر من العصور •

اذن ، يتحتم على كل الشعوب الاسلامية التى أصبح مصيرها مرتبطا بمصير العالم الثالث ان تكون واعية بالمكاسب الايجابية لتراثها الثقافى والروحى ، وان تستوعبه من جديد على ضوء القيم والتحولات الجارية فى الحياة المعاصرة ومعنى هذا ان أية محاولة جادة تهدف اليوم الى اعادة بناء الفكر الاسلامى يجب ان تمتد حتما الى تحوير بنية المجتمع تحويرا كاملا •

ان الشعوب الاسلامية مدعوة فى عصرنا هذا ، عصر التحولات الاجتماعية الحاسمة الى تقويض أركان الاقطاعية البائدة ، والقضاء التام على جميع أشكال الاستبداد والجهل •

وسيتزايد ادراك الشعوب الاسلامية بانها ، حين تعزز كفاحها ضد الامبريالية وتسلك طريق الاشتراكية بكل حزم ، ستقوم على احسن وجه بما تفرضه العقيدة الاسلامية من واجبات » (16) •

وانى اذ استشهد بالميثاق الوطنى فلاننى عشت ظروف مناقشة المشروع التمهيدى وساهمت بكل تواضع فى اثرائه خصوصا فى نقطة الاسلام بالذات كما انى اعترف واشهد ان النص الحالى فى معالجته الاسلام مساهمة ايجابية وثورية تعطى للجماهير الاسلامية عن الاسلام وجها ثوريا تقدميا ، وتمكن المسؤولين فى وطننا من طرح قضية التخلف طرحا كاملا فى اطار المدنية الاسلامية •

ويرى الفيلسوف الفرنسى الشهير روجى ڤارودى ان التنمية الحقة ليست مشكلا اقتصاديا أو سياسيا فحسب بل هو مشكل دينى لان الذى يهمنا أساسا هو معنى حياتنا والهدف الذى تنشد ، ولا عجب اذن ان نرى الديانات تجند الجماهير أكثر ما تفعله السياسة ، فباسم الديانات العصرية تقاوم الآن انماط التنمية الغربية .

لذلك يعتقد الفيلسوف قارودى انه يمكن تحقيق الاشتراكية عن طريق الاسلام لان « الاشتراكية الاسلامية يمكن لها ان تفسح لنا مجالا جديدا – فهى لا تهدف فحسب الى القضاء على الحواجز التى تعترض تطوير الانتاج وتحقيق توزيع جديد للدخل ، ولكن الى طرح مشكل الغاية والمعنى الانسانى للانتاج والاستهلاك » (17) .

ان رأى قارودى يتفق تمام الاتفاق مع ما كتبه المرحوم مالك بن نبى الذى يرى كما اسلفنا ان طرح قضية استراتيجية التنمية بتقليد ايديولوجيات الغير ، « انما هو تركيب روح اسلامية على جسم أجنبى يرفضها وترفضه » .

ولقد اتخذ الميثاق الوطنى نفس الموقف عندما اعطى تعريفا للاشتراكية بالجزائر حيث قال :

« ان الاشتراكية فى الجزائر لا تصدر عن أية فلسفة مادية ولا ترتبط بأى مفهوم متحجر غريب عن عبقريته الوطنية.

وان بناء الاشتراكية يتماشى مع ازدهار القيم الاسلامية التى تشكل أحد العناصر الاساسية المكونة لشخصية الشعب الجزائرى » (18) .

ولكن ما هى استراتيجية الاسلام فى مقاومة التخلف ؟

أتى الاسلام كما يعلم الجميع فى ظروف ملائمة تماما حيث تعفنت الاوضاع فى كل الاوساط لا العربية فحسب بل فى العالم بأسره الى درجة ان المؤرخين أسموا القرن الذى ظهر فيه الاسلام بعصر النور، لان عصر ما قبل الاسلام هو عصر الظلمات عصر الجاهلية . الجهل مخيم على كل الاوساط .

– أهل الكتاب تنكروا للمبادىء المقدسة والديانات السماوية وانحرفوا عنها – الوثنية قضت على كل القيم وأنزلت الانسان الى مستوى البهائم – الشعوذة والسحر والخرافات والعادات القبيحة طغت على كل الاوساط الى درجة ان البنت يتشاءم منها وتدفن حية **«واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت»(19)** – آفات الطائفية والقبلية والاقطاعية والعبودية والفقر والربا والزنا والكحول تفتك بالمجتمع .

ولا غرو والحالة هذه ان يكـون فى المجتمع العربى آنذاك طبقات ٠

ـ طبقة العبيد الشبيهـة بالحيوانات تباع وتشترى وتعامل بـــدون شفقـة ولا رحمـة ٠

ـ طبقة الرعايا من الفقراء والكادحين المستغلين من قبل الاسياد ٠

ـ طبقة الاشراف والاغنياء الذيـــن يستغلون العبيد والفقراء لما لهم من حق مزعوم فى السيادة ٠

فهذه الحالة ساعدت كثيرا على جعل التفاوت بين طبقة الاغنياء وطبقة الفقراء يتفاقم مـن يــوم لآخـر حتى استحال التقريب بين الطبقتين رغـــم الثـورات الدامية اليائسة التى كثيرا ما نكون فيها الغلبة لدولة الاغنياء ـ وكان من نتيجة هذا كله ان تكدست الثروات بين أيدى فئة قليلة تسرف وتبذر وتعيث فى الارض فسادا بينما السواد الاعظم من الشعـب الكادح يستغل على أرض أحياها بعرقه ورواها بدمه فلم يكن لهؤلاء المعذبين فى الارض حيلة ولا ملجأ سوى الاستسلام أو المقاومة اليائسة ٠

كيف عالج الاسلام هذه الاوضـاع واصلحها فى فترة قصيرة من الزمان حتى تقبل النظام الاســلامى واعتنقه عـــن طواعية أكثر من نصف العالم آنذاك فى أقل من ربع قرن ؟

أبالحديد والنار كما تفعله حاليـــا الانظمة الامبريالية والدكتاتوريات ؟ كلا والف كلا باعتراف كـل المؤرخين غـير المسلمين ٠

رسالة الاسلام كانت رسالة سـلام توخى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم لبث الدعوة الطرق السلمية مـن اقناع بالوعظ والارشاد وباستعمال الحكمـــة والمنطق ومتجنبا العنف والاكراه ومتحملا فى ذلك كل مكروه واذى ، بصبر وجلد **« واصبر وما صبـرك الا بالله »** (20) **« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسـن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »** (21) لانه **« لا اكراه فى الدين »** (22) (صدق الله العظيم) ٠

كان الرسول صلى الله عليه وسلـم عندما بدأ التبشير وحيدا ولكن الافكـار الثورية التى كان يبثها سرت كالبرق عبر الاقطار والقارات ، فتوحيد الاله جل وعلا وتفسير الكون والكائنات ومقاومة الجهل والخرافات والدعوة الى تحرير العبيد من ربقة الاسياد والى كسر اغلال الاضطهاد والاستغلال والاستبداد والى التساوى بين جميع الناس فى الحقوق والواجبات والى القضاء على الفقر والمرض وكل الآفات احدث دويا وثورة اجتماعية وهز كـل الاوساط ، وهدد أركان اعظم الدول لان

السواد الاعظم من الشعوب داخل الجزيرة العربية وخارجها استبشر بالرسالة المحمدية وكان ينتظر بفارغ صبر يوم التحرير والخلاص يوم الخروج من الظلمات الى النور ·

النور هو قبل كل شيء توحيد المولى جل وعلا الله الاحد الله الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ، الخالق لكل شيء وهو على كل شيء قدير ·

النور هو الله نور السماوات والارض هو نور على نور به يستضاء كل شيء وبدونه يغرق المرء فى الظلمات الحالكات الرسالة المحمدية اعطتنا تفسيرا لوجود الكون ولم تنكر الديانات السماوية بل اعترفت بها وبكل الرسل · « **آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله** » (23) (صدق الله العظيم) ·

قضت الدعوة المحمدية فى سنواتها الاولى على كل الانحرافات والخرافات لان الرسول صلى الله عليه وسلم فى مقاومته الجهل والظلم بدأ باخطرها على المجتمع الا وهو الشرك لان الشرك ظلم عظيم وعندما نجح فى مهمته هذه وافلح طمأن نفوس الناس وآمنها من الخوف وقضى على الشك والحيرة ، منذ ذلك الحين كان طريق الدعوة المحمدية معبدا وكان نجاحها محققا لان الرسول صلى الله عليه وسلم وجد آذانا صاغية وقلوبا واعية وأفئدة منقادة ·

لم يكون الرسول صلى الله عليه وسلم حزبا طلائعيا من افراد متحمسين متعصبين ليستحوذوا على الحكم بالقوة بل كان وحيدا فى البداية وقد ركز اهتمامه على اصلاح الفرد وخلق الرجل المسلم المثالى اذ باصلاح الافراد يصلح المجتمع ·

فالثورة الاجتماعية الاسلامية مبنية أساسا على الجهاد الاكبر جهاد النفس يعنى أصلاح الافراد بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر والوعظ والارشاد ، ولا عجب اذن ان دخل الناس عن طواعية فى دين الله أفواجا وانقلبت الاوضاع فى بضع سنوات وانتقل حزب الله من حزب الاقلية الى حزب الاغلبية الساحقة من الشعب بالطرق السلمية ولم تستعمل القوة أى الجهاد الاصغر الا دفاعا عن النفس ولمقاومة الكفار والمنافقين المناهضين للمسلمين ·

انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم فى معركة الجهاد الاكبر يشكل مرحلة حاسمة فى الدعوة الاسلامية ويضمن نجاحها ·

مقاومة الظلم والتخلف تبدأ بمقاومة النفس الامارة بالسوء ونجاح الرسول

صلى الله عليه وسلم فى ذلك مكنه من اصلاح الافراد واكتسابها ، ومن أحداث ثورة اجتماعية شاملة عن طريق هؤلاء الافراد ، وفشل كل ثورة اجتماعية فى العالم يفسر بفشلها فى اصلاح الافراد واعتنائها بالمجتمع ككل قبل اعتنائها بالفرد كجزء من ذلك المجتمع .

ولاحداث ثورة اجتماعية شاملة اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم اجراءين :

1 ـ مقاومة الجهل بكل أنواعه ،

2 ـ مقاومة الفقر بكل اشكاله .

1 ـ مقاومة الجهل :

قال ملك الوحى فى أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم .

ـ اقرأ .

ـ فاجاب الرسول صلى الله عليه وسلم . ما انا بقارىء .

ـ قال الملك مرة ثانية : اقرأ .

ـ فكان نفس الجواب ما انا بقارىء .

ـ فقال للمرة الثالثة : **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم** (24) .

أول أمر تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم من ملك الوحى هو اذن التعلم وقد تكررت مادة العلم فى القرآن الكريم 850 مرة (25) .

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . طلب العلم الحقيقى الكامل لا رفع الامية فحسب بتعلم القراءة والكتابة .

ويقصد بالعلم كل العلوم بدون استثناء علوم الدنيا وعلوم الدين « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما جميعا فعليه بالعلم » أو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولقد أشاد الله بالعلم الى درجة انه اقسم بالقلم حين قال جل وعلا « **ن والقلم وما يسطرون** » (26) . والانسان العالم الملم بكل علوم الدين والدنيا هو الذى يستحق ان يكون خليفة الله فى الارض . «**انما يخشى الله من عباده العلماء**» (27) « **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » (28) صدق الله العظيم .

والجدير بالذكر ان الكثير ممن اعتنقوا الاسلام فى أوروبا وأمريكا هم من العلماء الفطاحل ، اعتنقوا الاسلام بفضل بحوثهم العلمية وتمعنهم فى ملكوت السماوات والارض كما انه من الاسباب الكبرى لانحطاط المسلمين وتخلفهم اعراضهم عن العلم الحقيقى بغلقهم باب الاجتهاد .

ويقول الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء : « ان غلق باب الاجتهاد كان صدمة ممهدة لبداية عهد الانحدار الفقهى » (29) .

2 ـ مقاومة الفقر :

الفقر أمـر نسبى ويمكن النظر اليه من زاويتين :

أولا : الفقر بالنسبة للاغنياء أى عدم التساوى بين الناس فى الرفاهية ومستوى المعيشة وعدم الغنى والثراء ٠

فهذا الفقر أمر وهمى ناتج عن تقليد لمن هم فى يسر كما اسلفنا ، ولا يمكن لاى نظام مهما كان ان يمحو التفاوت فى الرزق « **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فـوق بعض درجات ليتخـذ بعضهم بعضا سخـريا** » (30) (صدق الله العظيم) ٠

ثانيا : اما الفقر الحقيقى فهو عدم امتلاك ما يكفى الحاجة ، فهذا الفقر هو السبب فى أمراض اجتماعية كالجوع ، والعرى ، والمرض ، والتشرد ، والهوان ، والبطالة ، ٠٠٠ وقد عالـج الاسلام هذه الآفة ، آفـة الفقر وما يترتب عنها من أمراض بحكمة وفى اطـار نظام محـكم كفيل بان يمحو الآفة محوا كاملا ٠

فهذا النظام المحكم هو نظام اقتصادى متكامل الاجزاء ولا يمكن مسخه باخـذ البعض منه وترك البعض الآخر ٠

وانا نستعرض النقاط الاساسية من هذا النظام فيما يلى :

ـ نظام الزكاة ٠

ـ نظام الانفاق فى الصالح العام ٠

ـ تحريم الربا تحريما قطعيا ٠

ـ نظام الميراث ٠

ـ تحرير العبيد ٠

الزكاة هى ضريبة على رؤوس الاموال لا الارباح فقط لان الاموال يمكن حصرها واما الارباح فيمكن كتمانها مـن طـرف اصحاب رؤوس الاموال ٠

فمبدأ تقرير الزكاة التى هى حـد أدنى يقدمه صاحب رأس المال لبيت المال مبدا ثورى لاسباب ثلاثة :

1 ـ الزكاة ليست صدقـة ولا منـة ولا التفاتة من الغنى وانما هى واجبة على الغني وحق للفقير عليه مهما كان سبب الفقـر ٠

بهذا الاجراء جعـل الاسلام حـدا لاستغلال الاغنياء للكادحين اذ كان هؤلاء فى الجاهلية يسخرون لخـدمة اسيادهم ويدفعون أرواحهم فداء لهم ٠

2 ـ والزكاة كضريبة على رأس المال تضع صاحب رأس المال أمام مسؤولياته فاما ان يستثمر راس مالـه فى مشاريع منتجة يتمكن بها من تحقيق ربـح كاف بعد أداء الزكاة عليه واما ان يستثمره فى مشاريع الدولة ٠ فلا يمكن له كنـزه

باية حال لان استمرار دفع الزكاة عليه استهلاك لرأس المال ٠

3 ـ وأخيرا فان الزكاة التى تدفع للدولة على الطريقة الاسلامية تمكن المسؤولين من التصرف فى أموال تفوق غالبا حاجيات الدولة لانه كما ذكرنا يمكن دائما ضبط كل الاموال بينما يستحيل ذلك فى ما يخص الارباح ٠

فبهذه الوسيلة يمكن لاولى الامر استكشاف كل الثروات وتطبيق سياسة من أين لك هذا ؟

كل هذه الاسباب توضح لنا حكمة اعتبار الاسلام الزكاة ركنا من أركان الدين وقرن حتميتها بحتمية الصلاة :
« واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (31) ٠
وتجعلنا أيضا ندرك تمام الادراك الغاية المقصودة من تنديد الله جل وعلا بكانزى رؤوس الاموال وجامعيها بطرق غير مشروعة كالارتشاء والمضاربة ٠

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (32) ٠

« ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتاكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وانتم تعلمون» (33) ٠

والخليفة أبو بكر رضى الله عنه كان موفقا فى صلابته وحزمه ابان حرب الردة ٠ فهذه الحروب لها أسباب اقتصادية ٠ اذ هى ثورة الاغنياء الذين جعل الاسلام حدا لامتيازاتهم ٠ اراد الاثرياء انذاك الرجوع الى عهد الجاهلية عهد الاستغلال فابى أبو بكر ان يساومهم ولو فى عقال وفضل قتالهم والضرب على ايديهم ٠

فاذا كانت الزكاة كما سبق فرضا عينيا ثابتة فى ذاتها كركن من أركان الاسلام محددة فى أوجه ادائها ، فهناك مبدا آخر لا يقل عنها أهمية ولا وجوبا ، وهو مبدأ الانفاق فى الصالح العام ٠

ففى الظروف الطارئة كالمجاعة وتفاقم عدد السكان أو الحروب والزلازل والقحط وما الى ذلك من ويلات وحالات تجعل المجتمع مهددا ، فالصالح العام والتضامن الاجتماعى يحتمان تدابير استثنائية ٠ فعلى الحكومة ان تاخذ المال حيث يوجد وعلى الموسرين ان يمتثلوا وان يتسارعوا الى البر والاحسان ٠ فليس هناك حد فى ما يدفعه الموسر قدرة أو المعسر قدرة فالكل سواء فى الواجب ، وعلى كل ان يساهم بحسب طاقته اذ لا يكلف الله نفسا الا وسعها ٠

فهذا المبدا الذى يطبق فى حالات معينة من شانه ان يضيق على الملكية الفردية اذا اقتضت الحال ٠ ولكن ليس معنى ذلك ان الاسلام لا يحترم الملكية

الفردية وانما يقرها على أساس ان لها وظيفة اجتماعية فى خدمة الصالح العام .

على ان الملكية الفردية التى يقرها الاسلام ليست ملكية مطلقة بل محددة فى ذاتها • فانتزاع الملكية واجب اذا كان فى الصالح العام على شرط ان يعوض المالك تعويضا عادلا على ما اكتسبه بطرق مشروعة •

والملكية الفردية يصعب ان تتسع اهميتها فى مجتمع كالمجتمع الاسلامى يطبق فيه نظام الضرائب على رؤوس الاموال ويحاسب فيه المرء حسابا عسيرا على كل ما يملكه وتنتزع تلك الملكية اذا اقتضت الحال ويضرب على ايدى المرتشين والمضاربين والذين يكنزون الذهب والفضة •

على انه اذا ما قدر للمرء ان يجمع ثروة هائلة رغم هذه المضايقات فهناك اجران آخران يمنعانه من تكديس الثروات وهما تحريم الربا ونظام الارث.

فتحريم الربا يمنع الانسان من استثمار ماله فى مشاريع غير منتجة أو بواسطة آخرين أى فى عمليات احتكارية أو مضاربة بل يحتم عليه استثماره بنفسه أو بتكوين شركات يتساوى فيها الشركاء فى الغنم والغرم • اما نظام الارث فهو يفتت الثروة بين الوارثين الذين هم كثيرون فى غالب الاحيان • فان لم يكن للهالك وارث فالثروة تذهب كاملة الى بيت المال ، كما ان الهالك لا يمكن له ان يوصي باكثر من ثلث ماله •

واما الاسترقاق فقد كان شائعا فى كل العالم ومعمولا به فى كل الدول •

والاسلام سلك منذ أربعة عشر قرنا سبيلا منطقيا فى القضاء على الاسترقاق، فمن ناحية المبدأ فهو يوصى بتحرير الرقاب فى كل مناسبة والقرآن الكريم زاخر بآيات كثيرة فى هذا المضمار • هذا وقد خصص الاسلام جزءا من ميزانية بيت المال « **فى الرقاب** » (34) •

الا أن الامر ليس بهين لان العبيد فى كل الاقطار هم قوة اقتصادية تستثمر بابخس الاثمان وبدون شفقة ولا رحمة كما تستعمل الحيوانات فهم ملك للاسياد والاعيان وأرباب الصناعات والحرف ، فالاسلام عندما اتخذ موقفا صريحا فى سبيل تحرير كل العبيد كان مدركا كل الادراك ان المسألة ليست بهينة وانها تستلزم سياسة حكيمة لتهيئة الافكار آنذاك لقبول مبدأ تحرير العبيد •

لذلك علاوة على الموقف الصريح فى سبيل تحقيق هذا الهدف أوجب الاسلام معاملة العبيد معاملة انسانية •

فالعبيد يتمتعون بكل حقوق اسيادهم يأكلون ويشربون مما يأكله ويشربه ويلبسه الاسياد ويعيشون مثلهم ويعملون نفس الاعمال .

« اخوانكم خولكم فاذا كان احدكم تحت يده أخ فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس » أو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

هذه آراء وجيزة عن استراتيجية الاسلام في معالجة مشاكل التخلف ولقد نجحت هذه الاستراتيجية في الماضي نجاحا كاملا مكن الحضارة الاسلامية من الاشعاع على كل العالم قرونا وقرونا .

ولقد كتب الكثير من البحوث عن أسباب انحطاط المسلمين بعد ما كانوا خير أمة أخرجت للناس ، والسبب الحقيقي لتخلف المجتمعات الاسلامية هو كما أسلفنا غلق باب الاجتهاد والتمسك « بارتدوكسية » قضت قضاء مبرما على ديناميكية الثورة الاسلامية في كل الميادين .

وانا نرى ان الشرط الوحيد للخروج من التخلف هو نفض الغبار عما لصق باذهاننا وعقولنا طيلة قرون كاملة وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه والرجوع الى كتاب الله وسنة نبيه والتسلح قبل كل شيء بكل العلوم علوم الدنيا وعلوم الدين .

ان الثورة الاجتماعية التي ننشدها الآن في الاوطان الاسلامية لتمكننا من الخروج من التخلف أي من الظلمات الى النور ، لا يمكن ان تتحقق الا بالجهاد الاكبر جهاد النفس .

« **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » (35) (صدق الله العظيم)

المصـــــادر :

1 ـ الآية رقم 30 ـ من سورة البقرة ·

2 ـ ميردال G. Myrdal - Betnoud the welface state — London, 1960 ص 164 ·

3 ـ الآيتان رقم 3 و 4 من سورة قريش ·

4 ـ مالك بن نبى ـ المسلم فى عالم الاقتصاد ـ دار الشرق ، ص 48 ·

5 ـ أرنولد طونبى ـ الترجمة الفرنسية ·
Arnold Toynbee - La civilisation à l'épreuve - Bibliothèque des idées, 1951
الصفحات : 201 الى 229 ·

6 ـ Roger Garandy - Le projet espérance - Ed. Robert Laffont, 1976 ص 46 ·

7 ـ أرنولد طونبى ـ نفس المصدر ·

8 ـ جريدة الفرنسية بتاريخ 13 فيفرى 1981 ·

9 ـ مالك بن نبى ـ نفس المصدر ، ص 52 ·

10 ـ Hélène Carrère d'Encausse - L'empire éclaté - Ed. Flammarion, 1979

11 ـ نفس المصدر ، ص : 243 ـ 244 ·

12 ـ نفس المصدر ، ص 277 ·

13 ـ نفس المصدر ، ص 245 ·

14 ـ Roger Garandy - Appel aux vivants - Ed. Seuil, 1979 ص 286 ·

15 ـ نفس المصدر ، ص : 246 ـ 270 ·

16 ـ الميثاق الوطنى ، ص : 25 ـ 26 ـ 27 ·

7 _ Roger Grandy - Appel aux vivants

18 ـ الميثاق الوطنى ، ص 29 ٠

19 ـ الآيتان : 8 و 9 من سورة التكوير ٠

20 ـ الآية رقم 127 من سورة النحل ٠

21 ـ الآية رقم 125 من سورة النحل ٠

22 ـ الآية رقم 256 من سورة البقرة ٠

23 ـ الآية رقم 285 من سورة البقرة ٠

24 ـ الآيات : 1 و 2 و 3 و 4 و 5 من سورة العلق ٠

25 ـ احصائية وردت فى جريدة الاهرام المصرية بتاريخ 25 نوفمبر 1969 ٠

26 ـ الآيتان : 1 و 2 من سورة القلم ٠

27 ـ الآية رقم 28 من سورة فاطر ٠

28 ـ الآية رقم 9 من سورة الزمر ٠

29 ـ الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء ـ مجلة العربى ، عدد نوفمبر 1980 ٠

30 ـ الآية رقم 32 من سورة الزخرف ٠

31 ـ الآية رقم 20 من سورة المزمر ٠

32 ـ الآية رقم 34 من سورة التوبة ٠

33 ـ الآية رقم 188 من سورة البقرة ٠

34 ـ انظر الآية رقم 60 من سورة التوبة ٠

35 ـ الآية رقم 11 من سورة الرعد ٠

فلسفة العمل فى الاسلام

بقلم : **البخارى حمانه**
استاذ علم النفس
جامعة وهران

علاقة الانسان بالعمل علاقة قديمة قدم الانسان ذاته وقدم سعيه المستمر لتلبية حاجاته البيولوجية والنفسية التى عليها يتوقف بقاؤه واستمراره ·

واذا كانت هذه الوضعية قد ربطت الانسان منذ القدم بوسطه الطبيعى ربطا ظل حتى وقت قريب أقرب الى التبعية منه الى التفاعل المتكافىء فان التقدم العلمى والتقنى الذى حققه الانسان اثناء سيرته الحياتية الطويلة ، والذى تجسد بصورة خاصة فى الثورة الصناعية التى بدأت أوروبا تشهدها منذ القرن 18 ، قد قلب تلك الوضعية راسا على عقب ومكنه من السيطرة الى حد كبير على ذلك الوسط وتسخيره لخدمة مطالبه الضرورية وغير الضرورية بجهد ووقت أقل ·

غير أن هذه الوضعية الجديدة التى حررت الانسان من عناء العمل وفتحت أمامه آفاقا غير معروفة من قبل هى نفسها التى أفرزت له مشاكل نفسية واجتماعية لا تقل تعقيدا وخطورة عن تلك المشاكل السابقة التى توهم أنه قد تحرر منها ومن تبعاتها الى الابد ·

فقد تبين أن « الآلية » و « نظام العمل المسلسل » و « فاعلية التكنولوجيا » اذا كانوا قد حلوا الكثير من المشاكل المادية للعمل وللعمال وحققوا قدرا كبيرا من النتائج الايجابية (مثل زيادة الانتاج كما وكيفا ·· ونقص التعب) فانهم قد أفرغوا فى نفس الوقت العمل من محتواه الانسانى وفتحوا الباب واسعا أمام كل أنواع الاستغلال البشع للعمال ابتداء من « العمل الاسود » وتشغيل

---

(1) نص محاضرة ألقيت بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة يوم 4 مايو 1981 ·

الاطفال والشيوخ والعجزة ، وارهاق ربات البيوت ، والحجم المرتفع لعدد ساعات العمل الاسبوعية ٠٠ وتاخير سن التقاعد ٠٠ وغيرها من المشاكل العديدة الاخرى التى أدت الى « اغتراب العمل » وازدياد العامل بالتالى فقرا كلما ازداد عملا ، خاصة فى المجتمعات الرأسمالية ، وتمزيق الاسرة ٠ وارتفاع نسبة الجنوح والتشرد لدى الاطفال وانغماس العمال فى الجنس وفى الجريمة وادمانهم على الخمر والمخدرات كحلول بديلة لهذه الوضعية التى حولت حياتهم الى حياة حيوانية لا مجال فيها الا للاكل والنوم والجنس ٠٠

وكان من الطبيعى أن تؤدى تلك الوضعية الى انعدام فى التوافق بين العمال وبين عملهم ، وعدم رضاهم عن تلك الحالة التى آلوا اليها ، وأن تولد بالتالى مشاكل نفسية واجتماعية لا تتمثل فقط فى تزايد البطالة لدى الشباب وفى الانخفاض المستمر لمستوى معيشة العمال ، بل تتمثل كذلك وبصورة خاصة فى ذلك القلق والتوتر النفسى (2) ، الذى لم يعد يجد العمال متنفسا له الا فى الاضرابات والاضطرابات العاصفة التى تهز اليوم المجتمعات الاوروبية الغربية ٠٠ والولايات المتحدة الامريكية ٠٠ والتى تعد ايطاليا وبريطانيا أصدق صورة لها اليوم ٠

ولقد وجدت الشركات السياحية فى هذه الوضعية المؤلمة التى آل اليها العمال فرصة سانحة لاستغلال العمال من جديد عن طريق شركات السياحة التى تبيع لهم « الرحلات الى بلاد الشمس المشرقة ٠٠ والهدوء » باسعار خيالية ٠٠

وأمام مثل هذه الحالة بدأ المفكرون الغربيون منذ النصف الثانى من هذا القرن بصورة خاصة يبحثون عن الوسيلة المثلى لاعادة المحتوى الروحى والانسانى للعمل ٠٠ وهكذا ظهرت عدة محاولات تهدف كلها الى وضع حد لهذا المفهوم الاعمى الذى أصبح يميز العمل ٠ فظهرت « فلسفة العمل » لأفرون (H. Avron) و « الآلة والانسانية » لفريدمان (G. Freidmann) « والطبيعة الانسانية والعمل » لهزربرغ (Herzberg) و « الصحة العقلية وتنظيم العمل » لـ ماكلين (A. Mc LEAN) الخ ٠

وفى هذا الصدد يأمل الباحث أن تؤخذ كل تلك المشاكل وغيرها ـ وهى كثيرة ـ بعين الاعتبار من طرف المسؤولين عن التصنيع فى بلادنا بصورة خاصة ،

(2) Alan Mc Lean ; J. MO. Nov. 1974, vol. 16, n° 11.

وفى العالم الثالث الذى يعمل اليوم على اللحاق بالدول المصنعة ، بصورة عامة · حتى يتجنب ما هو واقع فيه الغرب اليوم ـ بقدر الامكان ـ ·

أ ـ فما هو العمل ؟

نلاحظ أن تعريف العمل أمر بالغ الصعوبة نظرا لارتباطه بمجمل النشاط الانسانى ، الجسدى والنفسى ، الفردى والاجتماعى · ومن هنا فان الدراسات الاجتماعية والنفسية للعمل لا تزال دراسات حديثة نسبيا الى الآن ·· ولذلك لا يوجد الى اليوم تعريف للعمل متفق عليه من طرف كل أولئك الباحثين (3) ·

ذلك أنه اذا كان من السهل بالنسبة للفزيائيين تعريف العمل بأنه « نتاج طاقة ما فى زمن ما » (4) فان الامر ليس بمثل هذه السهولة بالنسبة لعلماء النفس وعلماء الاجتماع · ومع ذلك فقد حاول هؤلاء الاخيرين تقديم بعض التعاريف للعمل نورد البعض منها فيما يلى :

1 ـ التعريف الاجتماعى : يرى علماء الاجتماع أن العمل نشاط يرتكز على نحو مباشر حول اكتساب المعيشة (5).

2 ـ التعريف النفسى : أما التعريف النفسى فانه يرى أن « العمل استغلال للطاقة وتصميم لاحداث التغيير » (6) ·

3 ـ التعريف الفلسفى : وأخيرا يذهب الفلاسفة الى أن « العمل مخطط يدعو الى التنفيذ ، وتوقع يدفع الى الانجاز وقصد يسبق الفعل ، وباطن للانسان يتحول الى ظاهر يزداد بواسطته الانسان خصوبة وتعرفا على ذاته » (7) · انه « تلك الرابطة الجوهرية التى تمثل الوحدة المجسدة لكل كائن عن طريق تحقيقها لوحدته الشعورية مع الكل» (8).

هذه التعاريف ، بالرغم من اختلافها المذهبى تلتقى كلها فى نقطة هامة وهى تركيزها على الطابع الواعى والمستمر للعمل تمييزا له عن غيره من النشاطات الاخرى غير الواعية أو العابرة مثل الهيجان (l'agitation) والاعمال الجزئية (les actes) الخ ··

كذلك فان هذه التعاريف حديثة ، حيث أن مفهوم العمل قد تغير تبعا لتغير القيم الحضارية والعلمية السائدة وتبعا لتطور أدواته كذلك حيث لا يعقل أن يكون مفهوم العمل عند اليونان هو نفس

(3) A. Mc Lean : The meaning of work, journal of occupational medecine, Nov. 1974.
(4) Théories et pratiques de l'action (Dict) CEPL, Paris, 1974, p. 269.
(5) A. Salz : Encyclopedia, of Social psychology, 4, v. XI, pp. 425-435.
(6) A. Zilosky : (ed.) Vocationnal behavior, 18, 4.
(7) M. Blondel : L'Action, vol. I, Puf, 1950, p. 51.
(8) H. Avron : La Philosophie du Travail, pp. 51-52, Puf, 1973.

المفهوم عند الاوروبيين اليوم ، أو تصوره فى عصر الادوات الحجرية ·· هو نفس التصور فى عصر الطاقة بمختلف أنواعها.

وللتدليل على ذلك نعرض فيما يلى لموقف بعض الفلسفات والديانات القديمة من العمل ·· ذلك الموقف الذى كان فى معظمه ، وكما سنرى ، معاديا للعمل خاصة بمفهومه المادى والجسدى ·

ويعتقد الباحث أن تحقير القدماء بصورة عامة للعمل الجسدى والمادى سببه الاساسى نظرتهم الخاطئة للحقائق الوجودية الثلاثة ممثلة فى : اللــه والانسان والارض وفى العلاقة القائمة بينهما ·

فاليونانيون مثلا راوا أن الكون (le cosmos) هو الحقيقة الثابتة وأن اشرف شىء فيه هو الفكرة (l'idée) أو (logos) التى تعكس كمال ذلك الكون والتى من أهم خصائصها الثبات ومن ثم قال كل فلاسفتهم ، باستثناء هراقليدس (Héraclites) ، بأن الحقيقة فى الثابت وليست فى المتغير الذى هو على حد تعبير أفلاطون (Platon) «مصدر للنقص والاضطراب» (9) · وهكذا فان الارض نتيجة لتغيرها حقيقة وجودية ناقصة تماما كما أن العمل الذى هو مصدر ذلك التغير ناقص بالتالى ·· ولا يليق الا بالعبيد ··

وبالنسبة للــه فان فيلسوفا مثل ارسطو (Aristote) الذى عرف المسلمون مؤلفاته أكثر من غيره من فلاسفة اليونان الآخرين ، يرى أن اللــه ، باعتباره عقلا محضا لاشغل له سوى التفكير فى ذاته ولا صلة له بالتالى بالعالم أو بما يجرى فيه من أحداث (10) ·

وأمام لامبالاة هذا « الاله » اليونانى بالارض وبمن فوقها اضطر اليونان الى الاستعاضة عن ذلك الاله بآلهة وسيطة تشبه فى صفاتها البشر ومهمتها متابعة ما يجرى فوق الارض من أحداث ··· والتدخل فى تلك الاحداث اذا لزم الامر ··· مثل الاله زوس (Zeus) وابولون (Apollon) ، ومارس (Mars) وفينوس (Vénus) ··· وغيرهم ··· وهى نفس الآلهة الوسيطة التى نجدها عند غيرهم من الشعوب الاخرى ··· كالمصريين (رع) والهنود (سيفا Civa) والعرب الجاهلية (اللات ، ومناة ، والعزى ، وهبل ، وود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ··· الخ) (11) ·

وقد ترتب عن هذا المفهوم اليونانى لله وللكون مفهوم آخر لا يقل خطأ

(9) E. Béchier : Histoire de la Philosophie. T. I, p. 159, Puf, 1948.
(10) Platon : Phédon, libr. Hatier, Paris, 1957, p. 17.
(11) E. Béchier : Histoire de la Philosophie, vol. 2, p. 462.

وخطورة الا وهو مفهومهم للانسان حيث راى معظم فلاسفة اليونان أن الانسان جوهر لا مادة وفكر لا جسد ، وروح لا بدن ، ومن ثم قال أفلاطون أن البدن يمثل سجنا بالنسبة للروح ، نزلت فيه نتيجة لخطا ارتكبته فى ماضى بعيد ، وعليها بالتالى العمل على التخلص منه للعودة الى عالم مثلها الاول الذى يمثل وحده الحقيقة ... والكمال ... وكذلك قال أفلوطين (Plotin) وغيره من الفلاسفة القدماء .

من هنا ذهب أولئك الفلاسفة الى أن افضل عمل للانسان يتمثل فى التأمل والحكمة (Sapiens) وليس فى العمل المادى الذى لا يسهم فى الوصول بالانسان الى ذلك العالم المثالى الذى ينشده . ومن هنا أيضا حقروا من العمل الجسدى والمادى وجعلوه من نصيب العبيد ... فافلاطون يرى ان اشتغال الانسان بأى مهنة (يدوية) كانت ، يصرفه عن واجباته الحقيقية المتمثلة فى التأمل والنظر (12) ، وارسطو يؤكد بدوره فى كتابه « السياسة » « ان العمل (اليدوى) شىء مخزى ولا يمكن أن يكون بالتالى الا من نصيب العبيد ... الذين يجدون فيه المبرر الوحيد لوجودهم ... لان الناس لا يمكن ان يكونوا فى يوم من الايام أحرارا الا اذا أصبح نبات «المكوك» (les navettes) ينبت ويتحرك من تلقاء نفسه » (13) . كما يزعم .

. ونفس الموقف من العمل ومن العمال نجده قبل ذلك وباشكال متفاوتة ومختلفة عند قدماء الاشوريين ، والعراقيين ، والهنود والصينيين ، والفرس (14) ، كما نجده بعد ذلك عند الرومان.. ابتداء من شيسرون (Ciceron) الذى ذهب الى « أنه لا يمكن لاى شىء نبيل أن يخرج من دكان أو من ورشة » (15) الى سنيكا (Sénèque) الذى رأى بان « تشريف صانع الاحذية هو محاولة ايهامه بانه فيلسوف ، ولكن الفلسفة مهمتها ليست تعليم الناس استعمال أيديهم بل تكوين أرواحهم»(16)

وغنى عن البيان أننا لن نتوقف عند هذا المفهوم الغريب للفلسفة ولدورها فى الحياة ... ولكننا سنكتفى بالملاحظة فقط بانه لولا العمل اليدوى الذى قدمه أولئك العبيد لما وجد فلاسفة اليونان وغيرهم وقتا للتفلسف ولقضوا مثل

(12) H. Avron : La Philosophie du Travail. pp. 9 - 10.
(13) L. Millet : Aristote, Bordas 1967, pp. 102 - 103.
(14) J. Heers : Le Travail du Moyen-Age. Que sais-je ? Puf, 1968, p 106.
(15) H. Avron : La Philosophie du Travail. pp. 9 - 10
(16) H. Avron : La Philosophie du Travail. pp. 9 - 10

الكثيرين ممن سبقوهم وتلوهم حياتهم بأكملها فى الجرى وراء لقمة العيش ٠

وبالنسبة للمسيحية فاننا نلاحظ أنها بالرغم من نظرتها الجديد المؤيدة للعمل الجسدى أو الانسانى ، (Ars Humana) باعتباره مكملا للعمل الالالهى (Ars Divina) وهى النظرة الناتجة عن موقفها الجديد من تلك الحقائق الوجودية الثلاثة التى سبقت الاشارة اليها ٠ (الله الانسان الكون) ، فان مفهومها للعمل ظل بالرغم من ذلك مفهوما تشوبه بعض النقائص والاخطاء وآية ذلك أنه نتيجة للمفهوم المسيحى للانسان بصورة خاصة ومبـــدا الخطيئة الاصلية (le péché originel) الذى تبناه كل المسيحيين على اختلاف نزعاتهم ومذاهبهـم ، فان الوجـود الانســانى بأكمله قـد تحول على أيديهم الى عملية افتداء (17) (Rachat) لتلك الخطيئة ٠٠٠ وذلك عن طريق الابتعاد شبه الكلى عـن الجسد وملذات البدن ، مثل الزواج (18) والتمتع بخيرات الارض لتحقيق خلاص الروح من «أدران» الجسد ولذلك تحـول المفهوم المسيحى للخطيئة الاصلية الى مبرر لمعارضتها للتقدم الاجتماعى (19) ٠٠٠ وكان مفهومها للعمل مفهوما عقابيا (20) ٠٠٠ غلـــب عليه الجانب النظـــرى والتأملى ٠٠٠ وحتى البروتستانتية التى مجدت العمل الجسدى المستمر « لانــه يزيد من محبة الله » ، لم تضع للعمــل قوانين كفيلة بحمايته وبذلك أسهمـت بالتالى وبطريقة غير مباشرة فى تدعيـم أسس الرأسمالية ٠

فهذا توماس الاكوينى (St Thomas d'Aquin) يفرق بين الاعمال اليدوية « المنحطة » ، والخاصة بالعبيد ، وبين الاعمال الحرة (أو النظر) الخاصة بالسادة ٠ وهـذا باسكال (B. Pascal) يذهب فى تحقيره للعمل الجسدى الى حد مهاجمة النشاط المرح (Le divertissemen) وكل نشــاط جسدى آخر لانه يرى فيه ظاهرة مدنسة ومخدرة للانسان ووهم يصرفه عن حقيقة الموجود (21) ٠

ولقد استمر هذا الموقف من العمل لدى بعض المفكرين المسيحيين المحدثـين والمعاصرين من أمثال (برنانو (Bernanos) (وباندا (J. Banda)) وغيرهم الذيـــن استمروا فى معارضة العمل الجســدى تحت ستار محاربة الآلية ٠

---

(17) Ibid.

(18) هذا الموقف المعادى للزواج نجده كذلك عند قبائـل (الانكا) فى البـيرو وفى تاهيتى والتبت والهند واليابان ٠٠ الخ ٠

(19) C. Moix : La pensée d'E. Mounier, Paris, Seuil, 1960, p. 263.
(20) H. Avron : La Philosophie du Travail, p. 11.
(21) B. Pascal : Pensées. p. 71, Bordas, Paris, 1972.

وكان طبيعيا أن يؤدى مثل هـذا الموقف من العمل الى رد فعل عنيف من طرف الكثيرين من المفكرين الذين رفضوا ذلك المفهوم المزرى للعمل ونادوا بضرورة اعادة الاعتبار للعمل المادى والتفاعل المباشر مع العالم المادى المحيط بالانسان كوسيلة وحيدة لتطور الانسان وازدهاره (La Praxis) .

ولعل من أبرز المفكرين الذين مثلوا هذا الاتجاه (ميلتون (Milton)) الذى ذهب فى تمجيده للعمل المادى الى حد المطالبة بنزع كل محتوى روحى عن العمل ، وحصره فى الجانب المادى البحث ؛ ثم تلاه (آدام سميث (A. Smith)) الذى نشر سنة 1779 كتابه المشهور « بحث فى طبيعة وأسباب ثراء الامم » وهو الكتاب الذى أكد فيه أن الثروة الحقيقية لاى أمة لا تتمثل فقط فى مقدار ما تملكه من ذهب بل فى مقدار ما تبذله من عمل كذلك ؛ ثم تلاه (كانت (E. Kant) ومفهومه الاخلاقى للعمل القائم على الآمر المطلق "L'impératif catégorique" ، ثم (فيخته (J. G. Fichte)) ومفهومه للعمل النابع من الذات الواعية بنفسها والعاملة على النفاذ الى حقيقة الاشياء التى حولها، ثم (هيغل (Hegel) — وجدليته العقلية الشمولية التى حاول من خلالها وعلى حد تعبيره « وضع حد لتلك الهوة التى اغرقت فيها فلسفة (كانت ... وفيخته) العمل وأبقته بالتالى مفهوما مجردا لا صلة له بالواقع » (22) ثم (ماركس (K. Marx)) وجدليته المادية التى حاول بدوره ، ومن خلال أطروحاته الخاصة «باغتراب العمل» (l'aliénation du travail) وبضرورة سيطرة البروليتاريا على وسائل الانتاج ، والغاء الملكية الفردية ، اخراج العمل من المجال النظرى الذى اغرقه هيغل فيه ، ثم (دوركايم (E. Durkheim) ونظريته الاجتماعية ومفهومه لتقسيم العمل ، وأخيرا (تايلور (F. W. Taylor) ومفهومه الآلى للعمل ذلك المفهوم الذى لم يلبث ان امتد منذ العشرينات من هذا القرن من الولايات المتحدة الامريكية ليشمل أوروبا واليابان ، وليفرز فى النهاية تلك المشاكل الانسانية التى تتخبط فيها المجتمعات الغربية المصنعة اليوم والتى سبقت الاشارة الى البعض منها فى بداية هذا البحث .

ب ـ موقف الاسلام من العمل :

لقد جاء الاسلام رافعا لشعار التغيير الجذرى لمختلف أوجه الحياة الانسانية، الدينية والدنيوية ، الروحية والمادية ، الفردية والاجتماعية ، « **كتاب انزلناه**

---

(22) H. Marcuse : Reason and Revolution, chapt. III, Blacon Press, 1960.

اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور » (23) ·

وهذا التغيير الذى جاء الاسلام مطالبا به كل فرد انسانى تغيير بماضى من أجل المستقبل الذى يرى ، عكس كل تلك الفلسفات والديانات والنحل ، أنه افضل من ذلك الماضى والحاضر معا ·

وتترتب عن هذا المبدا عدة نتائج لعل أهمها :

1 ـ أن مستقبل الانسان فى الاسلام ليس وراءه كما ذهبت تلك الفلسفات والديانات والنحل بل أمامه ··· وفى هذا الصدد نذكر أن تلك الفلسفات والديانات قد نظرت الى التاريخ نظرة تشاؤمية ··· ابتداء من أفلاطون وعصوره الذهبية والفضية والبرونزية الى (هزيود (Hésiode) وأوفيد) (Ovide) الى الهنود وعصر (سيفا) (Civa) الذهبى ··· الى الصينيين وعصر (Kouang-Tsé) الى غيرهم من الشعوب الذين ذهبوا كلهم الى نفس ما ذهب اليه أفلاطون ·

وبالنسبة للاسلام فانه لا يعقل أن يطالب الانسان بضرورة التغيير نحو الافضل ويتبنى فى نفس الوقت تلك النظرة الرجعية والتشاؤمية لمسيرة الانسانية ·

2 ـ ان هذا التغيير الذى يطالب الاسلام به يجب أن يكون متكاملا بحيث يشمل الدين والدنيا ، الروح والجسد ، الفرد والجماعة ··· « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » (24) ، ومن ثم فانه لا يمكن أن يتحقق الا بالانسان ككل روحا وجسدا، قلبا وعقلا ، فكرا وبدنا ··· لانه لا يعقل كذلك أن يطالب الاسلام بضرورة تحقيق التكاملية المادية والروحية فى ذلك التغيير وأن يلفظ أو يحقر فى نفس الوقت من احدى ادواته الاساسية المثلة فى الجسد أو ان يحصره فى الجانب الروحى والنظرى المحض كما فعلت تلك الفلسفات والديانات والنحل السابقة ·

ونتيجة لهذا المفهوم للتغيير ولادواته وللنظرة الاسلامية التفاؤلية والواقعية لمسيرة الانسانية كان من الطبيعى أن تختلف نظرة الاسلام لتلك الحقائق الوجودية الثلاثة (الله ـ الانسان ـ الكون) عن نظرة تلك الفلسفات والديانات ·

فالله فى الاسلام ليس ذلك الموجود الغارق فى تأمل ذاته والذى لا شأن له

(23) ابراهيم ، 1 ·
(24) القصص ، 77 ·

بالعالم أو بالانسان كما ذهب أرسطو بل ان من أهم خصائصه الخلق باليد بالذات والابداع « **أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون** » (25) ، وهو المبدع « **بديع السموات والارض** » (26) ، والصانع « **صنع الله الذى اتقن كل شيء** » (27) . وهو لم يخلق الكون عبثا « **وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين** » (28) ، بل انه يدبرها « **يدبر الامر** » (29) ، ويحميها من الدمار والهلاك « **ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا** » (30) . فهو محيي الارض « **وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون (31)** . وهو عالم بكل شيء يجرى فى الكون مهما صغر أو كبر « **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر** » (32 .

وهو منهى وجوده « **يوم تبدل الارض غير الارض والسموات** » (33) . فالارض احدى آيات قدرته ووجوده « **ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب** » **(34)** .

والانسان فى الاسلام ليس كائنا مهملا من طرف الله لا تربطه بخالقه آية صلة مثل الانسان الارسطى أو الماركسى أو الوجودى ، تماما كما أنه ليس فى تناقض مبدئى مع الارض ... لانه نتيجة لتكوينه المزدوج الذى يجعل منه كائنا وسطا بين البهيمة والملك على حد تعبير الامام الغزالى ، يرتبط ارتباطا طبيعيا وديناميكيا بالله وبالارض معا وفى نفس الوقت ... ولا يعرف تلك الهوة المفتعلة بينه وبين الارض أو بينه وبين الله . لانه فيه نفحة من روح الله وجزءا من الارض فى نفس الوقت « **اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا**

---

(25) يس ، 71 .
(26) البقرة ، 117 .
(27) النمل ، 88 .
(28) الدخان ، 38 .
(29) الرعد ، 2 .
(30) فاطر ، 41 .
(31) يس ، 33 .
(32) يونس ، 90 .
(33) ابراهيم ، 48 .
(34) آل عمران ، 190 .

من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (35) ·

وهكذا فان الانسان بفضل تلك الازدواجية الروحية والمادية يرتبط بالله وبالارض ارتباطا طبيعيا · فبفضل العنصر الالالهى الكامن فيه فان صلته بالله صلة وثيقة الى حد تجعل الله اقرب اليه من حبل وريده « **ونحن اقرب اليه من حبل الوريد » (36) · « واذا سالك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداعى اذا دعان** » (37) · وبفضل ذلك العنصر الترابى المكون له فان علاقته بالارض علاقة طبيعية كذلك وفى نفس الوقت ·

فالارض أصله « **والله انبتكم من الارض نباتا** » (38) ، وهى مجال رزقه «**هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها** » (39) ، وهى مجال سعادته الدنيوية والاخروية « **انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا** » (40) وهى منتهاه « **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى** » (*) · ومن ثم فان الارض ليست سجنا أو عقابا له ··· بل هى مجال خلافته لله « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة** » (41) ··· ونقطة الالتقاء بينهما ··· كما انها مجال اختبار مدى أهليته لتلك الامانة التى قبل عن طواعية تحملها بعد ان أبت السموات والارض حملها ··· خشية منها ومن تبعاتها « **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا** »(42)· « **ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون** » (43) · ولذلك طالب القرآن لا بعدم مقاطعة الارض فحسب بل بتعميرها بالعمل الصالح وتوعد كل مفسد فيها بأشد العواقب « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا ان يقتلوا او**

---

(35) ص : 71 ـ 72 ·
(36) ق ، 16 ·
(37) البقرة ، 186 ·
(38) نوح ، 17 ·
(39) الملك ، 15 ·
(40) الكهف : 7 ·
(*) طه : 55 ·
(41) البقرة ، 30 ·
(42) الملك ، 2 ·
(43) يونس ، 14 ·

يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف » (44) ·

بمثل هذا المفهوم لله وللانسان وللارض وللعلاقات القائمة بينهما تتحول علاقة الانسان بالله وبالارض الى علاقة طبيعية يتمكن بواسطتها من تحمل مسؤوليته الدنيوية والدينية ومن تحقيق سعادته وتحديد مصيره في هذه الدنيا وفي الآخرة عن وعي وارادة ··· دونما خطيئة مسبقة ··· أو مصير محتوم سلفا « **ولا تزر وازرة وزر اخرى** »(45).

لذلك يلح الاسلام عكس كل تلك الفلسفات والديانات ، على ضرورة الاهتمام بالبدن وبالدنيا ، دونما افراط أو تفريط ، لتمكينه من الوفاء بتلك الواجبات التي على أساسها سيحاسب يوم القيامة ·

ولقد تجلى اهتمام الاسلام بالبدن في ربطه للايمان بالله ورسوله بالايمان بالبعث الجسدي والروحي للانسان يوم القيامة ·· وهي الحقيقة التي أنكرها الفلاسفة اليونانيون خاصة ، وبعض الفلاسفة المسلمين المتاثرين بهم من أمثال الفارابي وابن سينا..الذين أنكروا بدورهم بعث الاجساد يوم القيامة · وكذلك قال بعض المعتزلة (46)· فالبعث في الاسلام بعث للروح وللجسد معا بالتالي « **يوم ينفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون** » (47) · والحساب والعقاب يوم القيامة قائمان على أساس الجسد بل على كل جزء من أجزاء الجسد « **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** » (48) « **ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا** » (49) · « **يوم تَبْيَضُّ وجوه وتَسْوَدُّ وجوه** » (50) · « **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها** » (51) · «**فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة** » (52) ·

---

(44) المائدة ، 33 ·
(45) الانعام ، 164 ·
(46) البغدادي : الفرق بين الفرق ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، ص 136 ·
(47) يس ، 51 ·
(48) يس ، 65 ·
(49) الاسراء ، 36 ·
(50) آل عمران ، 106 ·
(51) النساء ، 56 ·
(52) البقرة ، 24 ·

جـ ـ مكانة العمل فى الاسلام :

ونتيجة لذلك المفهوم للانسان ولدوره الدنيوى والاخروى فان العمل قد حظى فى الاسلام بمكانة قل ان تعادلها أية مكانة أخرى فى أى فلسفة أو ديانة حتى تلك الفلسفات التى قامت باسم العمال ومن أجلهم ·

وللتدليل على عظمة هذه المكانة التى حظى بها العمل فى الاسلام نشير الى ان الاسلام قد انطلق فى ثورته الكبرى ، التى غيرت فى فترة لا تزيد عن ربع القرن الملامح الروحية والمادية والسياسية للعالم باكمله بالعمال الذين كانوا فى مقدمة طلائعه الاولى (53) ، وان القرآن قد خصص حوالى 360 آية للحديث عن العمل و 106 آية للصنعة أو الفعل والتى تتضمن كلها اشارات واضحة الى مختلف الحرف والصناعات ابتداء من صناعة النسيج والبناء الى النجارة والزراعة والتجارة الخ ··

ولا غرابة فى ذلك فالعمل فى الاسلام يمثل المحور الاساسى الذى تدور عليه حياة الانسان وسعادته الدنيوية والاخروية ·

فالهدف من خلق الانسان هو اختبار مدى صلاحيته للعمل الصالح « **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملا** » (54) « **انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** » (55) والتفاضل بين الناس فى الدنيا والآخرة أساسه العمل « **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار** » (56) « **وما يستوى الاعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء** » (57) · والسعادة الاخروية قائمة على أساس العمل «**والعاقبة للمتقين** » والعمل أساس العزة « **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** » (59) وهو اساس رحمة الله « **ان رحمة الله قريب من المحسنين** » (60)

(53) كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة تاجرا وخباب بن الارث (ض) حداد وعبد الله بن مسعود (ض) راعيا ، وسعد بن أبى وقاص (ض) صانع نبال وبلال خادما ، وأبو بكر (ض) تاجرا وخديجة (ض) تاجرة ··

(54) الملك ، 2 ·

(55) الكهف ، 7 ·

(56) ص ، 28 ·

(57) غافر ، 58 ·

(58) القصص ، 83 ·

(59) المنافقون ، 8 ·

(60) الاعراف ، 56 ·

والحياة بدون عمل موت وعدم « **ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا** » (61) والموت مع العمل حياة « **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله اموات بل احياء عند ربهم يرزقون** » (62) . والجنة قائمة على العمل « **ام حسبتموا ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** » (63) . وكذلك النار . « **وان الفجار لفي جحيم** » (64) .

لذلك اعلن الاسلام قبل اى عقيدة أو مذهب سياسى آخر ان العمل شرف وليس وصمة ، **ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا** » (65) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « **ما كسب رجل كسبا اطيب من عمل يده** » .

والعمل حق وليس منحة . « **هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور** » (66) . وفى هذا الصدد يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل يطلب اليه ان ينظر فى أمره لانه خال من وسائل الكسب ، ولا شىء عنده يستعين به على القوت .. فما كان من الرسول الا ان دعا بقدوم وبيد من خشب سواها بنفسه ووضعها فيها ثم دفعها للرجل .. ليعمل لكسب معيشته . ومعنى هذا ان الدولة فى الاسلام مسؤولة عن البطالة تماما كما أنها مطالبة بتوفير أدوات الانتاج بالنسبة للعامل الذى لا يملك مثل تلك الادوات . حتى يكسب عيشه .

والعمل نعمة « **ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم افلا يشكرون** » (67) . ويقول الرسول (ص) فى هذا الصدد : « لكل عمل باب من أبواب الجنة يدعون اصحابه بذلك العمل يوم القيامة » (حديث) .

والعمل عبادة « **يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا** » (68) ويقول الرسول (ص) « الساعى على الارملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » كما يقول : « من أمسى كالا (متعبا) من عمل يده أمسى مغفورا له » (حديث) .

(61) النبأ ، 40 .
(62) آل عمران ، 169 .
(63) آل عمران ، 142 .
(64) الانفطار ، 14 .
(65) فصلت ، 33 .
(66) الملك ، 15 .
(67) يس ، 35 .
(68) الانشقاق ، 6 .

لذلك يحارب الاسلام التواكل الذى هو استسلام وخنوع للواقع دون سعى لتغييره ، عكس التوكل الذى يعد أمـرا محببا الى اللـه « **وعـلى اللـه فليتوكل المؤمنون** » (69) لانه يمثل تواضعا من العبد أمام الله وأمام الناس بعد تأدينه لعمله · ولعل فى رد الرسول صلى الله عليه وسلم على الاعرابى الذى تــرك ناقته دون رباط بحجة توكله على الله فى عدم ضياعها ، ابرز مثال على الفرق بـين التواكل والتوكل · وذلك ما أكده كذلك عمـر بـن الخطاب (ض) حـين قـال : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقـد علمتـم ان السماء لا تمطر ذهبا أو فضة » ·

ونفس الحقيقة تصدق عـلى التمنى والرجاء ·

فلا تواكل فى الاسلام ولا تمنى بل عمل مستمر بما يتفق والموقف الحاضر دونما حسرة على ما فات أو انشغال بما هو آت تأكيدا لقوله تعالى : « **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** » (70) لان الوقت فى الاسلام كما يقول الصوفية كالسيف ان لم يقطعه المرء قطعه ·· ومن ثم فهو ليس النفوذ فحسب كما يقـول المثل الانجليزى الشائع بـل انه الحياة ذاتها (71) ·

هذا الموقف الاسلامى من العمل هو الذى مكن الاسلام من الانتصار والانتشار وحال دون فتوحاته الكبرى من أن تتحول الى استعمار لتلك الشعوب التى اعتنقت الاسلام ، أو الى تسلط واستغلال لخدمة أهداف توسعية واستغلالية لهذه المجموعة أو تلك ·· بل بقيت كما كانت فتوحات ورسالة نور وهدى ·· لا فرق فيها بين عربى وأعجمى الا بالعمل والتقوى ··

ولم يتدهور العالم الاسلامى بعـــد ذلك ويقـع فيما وقـع فيه مـن تخلف واستعمار وانحطاط الا حين ابتعد عن هذا المفهوم الاسلامى للعمل ، نتيجـة لتغلغل التيارات الثقافية الاجنبية ، تلك التيارات التى حملت اليه من جملة مـا حملت مواقف تلك الفلسفات والمذاهب والديانات القديمة المحقرة للعمل · وآلت به بالتالى الى تلك الوضعية المزرية التى آل اليها ··· والتى يعمل اليوم جاهدا على التخلص من أثارها ·

د ـ تعريف العمل :

استنادا الى ما تقدم يمكن أن نعرف العمل فى الاسلام « بأنه كل جهد جسدى

(69) التوبة ، 51 ·
(70) الحديد : 23 ·
(71) السلمى : طبقات الصوفية مكتبة الخانجى ، القاهرة ، 1969 ، ص

أو روحي شريف ومنتج يقوم به الانسان لكسب العيش أو لاداء واجباته نحو ذاته أو نحو مجتمعه أو نحو ربه » .

هذا المفهوم للعمل في الاسلام يجعل منه احدى القيم الاساسية التي لا تنفصل أهدافها عن وسائلها وأخلاقيتها عن منفعيتها ومثاليتها عن واقعيتها ، كما ميزه في نفس الوقت عن كل أنواع النشاط الغريزي وغير الواعي .. الذي يظل مهما بلغت دقته (نسيج العنكبوت .. خلية النحل ، عش الطير .. الخ) عملا تحكمه الغريزة لا العقل .. بخلاف الحال عند الانسان الذي يستطيع عكس أرقى أي حيوان تصور العمل كمشروع في ذهنه قبل البدء في تنفيذه فعلا .. كما يلاحظ الباحثون .

وبالرغم من اتفاق الباحثين من أن العمل في الاسلام هو المخالف للنظر فان ذلك لا يعني انفصالا بينهما بأي حال من الاحوال .. كما يؤكد ذلك ربط القرآن في أكثر من آية للايمان بالعمل .. « **الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون** » (72) ، ورد النبي صلى الله عليه وسلم حينما سئل عن رجل يصلي النهار ويقوم الليل ويكثر من ذكر الله ، فقال : أيكم يكفيه طعامه فقالوا كلنا يا رسول الله ، فقال (ص) « كلكم أعبد منه » (73) . وهذه المساواة للعمل بالعبادة من طرف الاسلام نجدها بعد ما يقرب من ثلاثة عشرة قرنا ، لدى الفلاسفة الاوروبيين من أمثال « هيغل » الذي يقرن بدوره بين «العبادة والعمل» (Ora et Labora) ولدى « بلوندل (M. Blondel) » الذي يرى في العمل « وسيلة تمكن الفرد من تعدي حدود فرديته ومن المشاركة عن طريق ارادته المحدودة في المجهود الالاهي اللا محدود » (74) .

ولقد أثار هذا المفهوم الاسلامي للعمل باعتباره الجانب التطبيقي والضروري للايمان ، عدة قضايا ومشاكل دينية وسياسية بدأت ملامحها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، اثناء اجتماع سقيفة بني ساعدة ، ثم اثناء حرب الردة في عهد خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، واثناء مقتل عثمان رضي الله عنه ، لتأخذ كل أبعادها بعد ذلك في

---

(72) التين ، 6 .

(73) حديث متفق عليه مثل كل الاحاديث الواردة في هذا البحث .

(74) J. Lacroix : M. Blondel. Puf, 1963, p.

(75) الشهرستاني : الملل والنحل ، ج 1 ، ص 35 ـ 42 ، مكتبة صبيح ، القاهرة 1964 .

معركة صفين (40 هـ) بين علي رضى الله عنه ومعاوية .

فلقد كانت هذه المعركة ، بما أثارته من مشاكل دينية وسياسية حادة لم يعرف الاسلام لها مثيلا من قبل ، وبما ولدته من انقسامات (الخوارج ، المرجئة ، الشيعة) لا تزال أثاراها ماثلة فى العالم الاسلامى الى اليوم ، بحق نقطة تحول كبرى فى التاريخ الدينى والسياسى للاسلام .

ولعل من أبرز وأول القضايا الدينية التي تولدت عن تلك المعركة ، هى قضية مرتكب الكبيرة وايمانه أم كفره .. وقضية الحرية الالاهية وعلاقتها بالحرية الانسانية تلك القضية التى اسهم فى اثارتها وفى تعقيدها كذلك اتصال الفكر الاسلامى بثقافات البلدان المفتوحة والمجاورة . (الفرس ، الروم ، الهند ، مصر .. الخ) . وهكذا كان معبد الجهنى (80 هـ) وغيلاف الدمشقى (110 هـ) ويونس الانصارى أول من تكلموا فى القضاء والقدر وأكدوا حرية الانسان المطلقة فى كل ما يأتيه من أفعال ... وهو الموقف الذى لم يلبث أن ادى الى ظهور رد فعل عنيف تمثل فى الحرية الجبرية التى نفت على لسان أبرز ممثليها ، الجهم ابن صفوان (128 هـ) ، تلك الحرية الانسانية وأكدت مبدا جبر الانسان فى كل ما يأتيه من أفعال .

وبين تلك المواقف المؤيدة لحرية الانسان والنافية لها يتشعب هذا الموضوع ليشمل موضوعا اوسع وأخطر الا وهو موضوع الصفات الذى أدى على يد المعتزلة الى أخطر محنة فكرية عرفها الاسلام ... تلك المحنة التى انتهت بظهور اتجاهات جديدة تمثلت بصورة خاصة فى الحركة الاشعرية وأهل السنة الذين حاولوا كلهم ، خاصة الاشاعرة من خلال نظريتهم فى « الكسب » التوفيق بين تلك الاتجاهات المتصارعة والمتضاربة

وتخمد المحنة .. وسيطر التيار الجبرى على معظم العالم الاسلامى الذى لم يلبث أن سقط فى هوة التخلف والاستعمار . والتى لم يخرج منها الا بفضل زعماء الاصلاح الاسلامى الذين بدأوا منذ القرن التاسع عشر ، استنادا الى النظرية الاشعرية ، يهزون العالم الاسلامى هزا من سباته وتواكله وخضوعه ابتداء من جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا الى عبد الحميد ابن باديس ومحمد اقبال ليدفعوه الى نهضته الجديدة التى استطاع بفضلها أن يتخلص - بعد كفاح مرير - من الاستعمار الاجنبى وأن يبدأ مسيرته من جديد .

وأخيرا فان هذا المفهوم للعمل قد أثار مشكلة ثالثة الا وهى مشكلة تقييم العمل ومصدره أهو الله أم الانسان ؟ ودون الدخول فى التفاصيل الخاصة بهذا الموضوع نشير الى أن هذه المشكلة قد أدت بدورها الى ظهور ثلاثة مواقف متباينة : الموقف الظاهرى والحشوى الذى يرى أن الله وحده هو مصدر تقييم حسن وقبح الافعال ، والاتجاه الاعتزالى والفلسفى الذى يرى أنه العقل الانسانى والاتجاه النسبى والاشعرى الذى وقف موقفا وسطا كذلك حين قال بان الله هو مصدر تقرير الحسن والقبح بالنسبة للواجبات ، والعقل الانسانى بالنسبة للمعارف ٠

هـ ـ وسائل العمل :

ان العمل فى الاسلام باعتباره محور الحياة الانسانية ، كما سبق ، لا يمكن أن ينفصل بالتالى فى أسسه وأهدافه عن تلك الحياة ، التى تتطلب الروح الى جانب البدن والدنيا الى جانب الدين ٠٠ والفرد الى جانب المجتمع ٠

ومن هنا كانت وسائل العمل فى الاسلام هى ذاتها الاسس التى تحكم حياة الفرد المسلم وما فيها من عبادات ومعاملات ومن علم وعمل ٠٠

ودون التوسع فى الحديث عن موقف الاسلام المعروف من العلم نكتفى بالاشارة فقط فى هذا الصدد الى أن الايمان ذاته لا يمكن أن يكون كاملا فى نظر الاسلام الا اذا كان قائما على العلم ، تماما كما أن العمل لا يمكن أن يتحقق بالفاعلية المطلوبة فى غياب العلم ٠ ولذلك ربط الاسلام دوما الايمان بالعمل والايمان والعمل بالعلم ٠٠ حيث أنه اذا كان صحيحا أنه لا ايمان أفضل ولا عمل أنجع من الايمان والعمل القائمين على العلم ، فانه لا علم أفضل كذلك وأنفع من العلم القائم على التقوى والعمل ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم « تعلموا ، تعلموا فاذا علمتم فاعملوا » وقال أيضا : « لا تكن بالعلم عالما حتى تكون به عاملا » ٠

وفى ربط الاسلام للعلم بالعمل رفض قاطع للمفهوم اليونانى للعلم باعتباره تأملا مجردا لا تربطه بالواقع أية صلة ، ودعوة بالتالى الى ربط العلم بالعمل ، والنظر بالتطبيق ، والى الابتعاد عن كل الشعارات الفارغة وكل أنواع المزايدات والنفاق الذى يجعل صاحبه يقول ويدعو الى ما لا يفعل هو ذاته ٠٠ وهو أكره ما يكره الاسلام « **يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا**

عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (76)

كذلك فان فى ربط الاسلام للعلم والعمل بالايمان ضمان لأخلاقية العلم ولفاعلية العمل ، حيث أن العلم فى الاسلام لا يعنى حتما الفضيلة كما ذهب سقراط (Socrate) بل ان العلم سلاح ذى حدين يمكن أن يوجهه الانسان للتطوير والتعمير تماما كما يمكن أن يوجهه ، فى غياب الوازع الدينى والخلقى ، الى التخريب والتدمير، كما هو الحال اليوم .

و ــ أهداف العمل :

على ضوء ما تقدم يمكن أن نلخص أهداف العمل فى الاسلام فى نقطة رئيسية واحدة الا وهى : تحقيق غائية الانسان التى من أجلها خلق ، واستحق خلافة الله فى الارض ·· والمتمثلة فى تلك الامانة التى قبل عن طواعية تحملها والتى ليست شيئا آخر فى نظر علماء الاسلام من أمثال الامام ابن كثير،والحسن البصرى ، والامام محمد جمال الدين القاسمى ، وصاحب الجواهر ، سوى الرعاية لحقوق الله ، وما تفرضه تلك الرعاية من واجبات دينية ودنيوية ، فردية وجماعية · **« انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا »** (77) ·

واستنادا الى هذا المفهوم لاهداف العمل فى الاسلام تتحدد بالتالى قيمة العمل ومراتبه ومعاييره ·

فالاسلام لا يفرق بين عمل وآخر استنادا الى مفاهيم طبقية أو عنصرية بل أن أساس التفاضل الوحيد بين الاعمال عنده هو مدى اسهامها فى تقريب صاحبها من ذلك الهدف ، ومدى تحقيقها الفعلى له ، ولذلك وقف الاسلام ذلك الموقف الاصيل والمشرف من العمل اليدوى ولم يجعله ، مثلما فعلت الفلسفات والديانات الاخرى ، أدنى مرتبة من العمل الفكرى ·· ولذلك أيضا قال الرسول صلى الله عليه وسلم « انا قوم نعمل بأيدينا » ·

وفى هذا الموقف من العمل تاكيد للمبدا الاسلامى فى المساواة بين كافة أبناء البشر ورفض قاطع للتمييز بين الناس على أساس الحرفة التى يشغلونها ·· كما نرى اليوم ذلك فى مواقف المجتمعات الغربية من العمال المهاجرين ·· والسود ·

واذا كان البعض من أئمة الاسلام قد راووا أن بعض الاعمال تفضل الاخرى

---

(76) الصف ، 3 ·
(77) الاحزاب ، 72 ·

مثل الشافعي الذى فضل التجارة على سائر أنواع الاعمال ، ومالك الذى حبذ الزراعة والنووى الذى مجد الصناعة فان الاساس الاول لذلك التفاضل هو مدى الاثار المترتبة عن كل من تلك الاعمال ·· ومدى اسهامها بالتالى فى تقريب صاحبها من ذلك الهدف الاساسى.

واستنادا الى نفس المبدا كذلك ، تتحدد معايير العمل وأخلاقيته · فالاسلام الذى جعل من العمل محور الحياة الانسانية وأداة سعادة الانسان الدينية والدنيوية قد حرص فى نفس الوقت على توفير الشروط الضرورية التى تمكنه من تأدية ذلك العمل على أكمل وجه ، ولعل من أهم تلك الشروط :

ـ الحرية : وهى شرط أساسى للعمل فى الاسلام لان المسؤولية لا تقوم الا على الحرية ولانه لا قيمة لاى عمل فى مظر الاسلام ، حتى ولو كان الايمان ذاته ، اذا كان قائما على الاكراه « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي** » (78) ·

ويترتب على هذا الشرط شرط آخر لا يقل اهمية الا وهو الاستطاعة ·· فلا حرية فى الاسلام لعاجز أو مريض · ولذلك يرفض الاسلام الاطروحة الكانتية القائلة بأن الارادة هى الاستطاعة (vouloir c'est pouvoir) لان الانسان قد يريد شيئا ولكنه قد يكون عاجزا عن تحقيقه · ولان الدين الاسلامى يسر وليس بعسر « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** » (79) · ولذلك قال الرسول (ص) : « يسروا ولا تعسروا » ·

واستنادا الى مبدا الحرية والاستطاعة فى العمل أسقط الاسلام بعض الواجبات على غير القادرين على أدائها « **ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج** » (80) · وذلك انطلاقا من مبدا « رفع الحرج » · بل ان الاسلام ذهب فى هذا الصدد الى أبعد من ذلك حين أباح بعض المحضورات فى حالة الضرورة كأكل الميتة بالنسبة للمهدد بالموت جوعا ·· والافطار فى شهر رمضان بالنسبة للمريض أو المسافر الى مكان بعيد ··· وكل تلك أمور تدخل ، كما هو معلوم ، ضمن المباحث الفقهية الاسلامية التى تعد كما وكيفا أعظم رصيد قانونى وتشريعى عرفته البشرية ، ذلك الرصيد الذى لا يبلغ الى جانبه التشريع الرومانى سوى نسبة واحد على عشرة ·

---

(78) البقرة ، 256 ·
(79) البقرة ، 280 ·
(80) النور ، 61 ·

أما المعيار الثالث والاخير للعمل فهو النية أو القصد التى يعتبرها الاسلام بدورها عنصرا أساسيا فى تقييمه للعمل الى درجة جعل منها فى النهاية الشرط الذى تتوقف عليه كل تلك الشروط المتقدمة ، حيث يرى أن قيمة العمل لا تتوقف فقط على النتيجة الفعلية الحاصلة منه بقدر ما تتوقف كذلك وفى نفس الوقت على القصد الفعلى للعامل ·· ذلك القصد الذى يجعله ، حينما يكون مخلصا وشريفا ، يحصل على نفس الثواب وان لم يتمكن من التحقيق الفعلى للاهداف المنشودة من وراء عمله · ولذلك يقول القرآن : « **لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** » (81) · ويقول الرسول (ص) : « انما الاعمال بالنيات ·· وانما لكل امرىء ما نوى ·· الخ » ·· ولذلك أيضا قرر الفقهاء كما هو معلوم للمجتهد المصيب أجران ·· وللمجتهد المخطىء أجر واحدة ·

واستنادا الى هذا المبدا كذلك كان الاستنكار الصادق من المسلم بقلبه للمنكر مساويا لمقاومته الفعلية له فى حالة عجزه عن تلك المقاومة ·· كما كانت الكلمة الطيبة والقول المعروف أفضل من الصدقة المؤذية « **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى** » (82) ·

على ضوء ما تقدم نتبين أنه اذا كانت الحرية والاستطاعة تضمنان للعمل امكانيته وتحققه فان النية تضمن له اخلاقيته التى تحول صاحبه الى مصدر خير لنفسه ولمجتمعه والى عنصر تقارب وتحابب وتعاون وتقوى وثقة بين أفراد المجتمع ·· وهى الغاية الاولى والاخيرة من كل عمل فى الاسلام ·

من هنا نفهم سر رفض القرآن لكل عمل لا تحركه نوايا طيبة مهما كانت نتائجه ونفهم كذلك وبالتالى سبب رفضه للمبدا المكيافيلى القائل بتبرير الغاية للوسيلة ، حيث أنه لا انفصال فى الاسلام بين الغاية وبين الوسيلة ، لان الوسيلة لا تتحدد أخلاقيتها الا بأخلاقية الغاية التى ترمى اليها ، تماما كما أن الغاية لا تقيم الا استنادا الى الوسيلة التى تجسدها ·

وعلى ضوء ما تقدم كذلك تتحدد الاعمال الصالحة فى الاسلام من الاعمال الصالحة ويقيم حسنها أو قبحها والاثار الدينية والدنيوية المترتبة عنها لا بالنسبة لصاحبها فقط بل بالنسبة للانسانية بأكملها ، انطلاقا من المبدا الاسلامى الذى

---

(81) البقرة ، 225 ·
(82) البقرة ، 263 ·

ينص ، قبل الفلسفة الوجودية بقرون وقرون ، على مسؤولية الانسان الجماعية عن كل عمل فردى يقوم به « **من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس او فساد فى الارض فكانما قتل الناس جميعا ومن احياها فكانما احيا الناس جميعا** » (83) ·

ز ـ نتائج العمل :

لا يكتفى الاسلام بالحث على العمل وتحديد وسائله وأهدافه فقط بل يهتم كذلك وفى نفس الوقت بنتائجه كذلك التى لا يقل حرصه عليها عن حرصه عن العمل ذاته ·

واذا كانت النتائج الروحية والاخروية للعمل لا تمثل بالنسبة للمؤمن مشكلة ، حيث وعد الله وأكد فى أكثر من آية من القرآن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا بتمكينهم فقط من نتائج أعمالهم يوم القيامة « **وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون** » (84) · بل بمضاعفة تلك الاعمال لهم اضعافا مضاعفة « **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها** » (85) . فان تلك النتائج بالنسبة للعمل الدنيوى كانت ولا تزال ـ بسبب ظلم الانسان لاخيه الانسان وجشعه ـ مصدرا لكل المشاكل التى عرفتها الانسانية منذ فجر تاريخها الى اليوم ·

ذلك أن الانسان ، كما هو سبق ، قد عرف العمل منذ عرف الحياة ، ولكنه لم يكن يحصل دوما على النتائج الكاملة أو العادلة لعمله ذاك . تلك النتائج التى كانت تسخر لخدمة أطراف أخرى مستغلة ومسيطرة ، ممثلة فى فئات السادة الاقطاعيين فى العهود القديمة والوسيطة وفى الفئات الراسمالية والاستغلالية فى العصر الحديث ·

واذا كان النظام الرأسمالى ، الوريث التاريخى لنظام الرق والاقطاع ، قد كرس بحدة ذلك الفصل بين العامل وبين نتائج عمله استنادا الى فلسفته الاقتصادية والاجتماعية القائمة كما هو معلوم على تسخير الانسان لخدمة الاقتصاد والاقتصاد لخدمة النقود والنقود لخدمة مصالح طبقة مستغلة خاصة ، وفتح بالتالى الباب على مصراعيه لكل أنواع الكسب غير المشروع ابتداء من الربا والمضاربة الى افتعال الازمات الاقتصادية العالمية ، فان النظام الماركسى الذى جاء

(83) المائدة : 32 ·
(84) البقرة ، 272 ·
(85) الانعام ، 160 ·

بمثابة رد فعل لهذه الممارسات الرأسمالية اللا انسانية لم يستطع بالرغم من الغائه للمكلية الفردية ، التى رأى منها السبب الرئيسى لذلك الاستغلال ، وبالرغم من تمليكه للعمال لوسائل الانتاج أن يضع حدا لذلك الاستغلال أو أن يحقق تلك الحرية الكاملة التى وعد بها العمال بل العالم بأكمله ، وذلك بسبب عدم فهمه للطبيعة الانسانية من جهة ، وبسبب تعقد جهازه الاقتصادى (les apparachikhs) الذى جعله يقع فى النهاية فى نفس المحضور الذى عابه ماركس على النظام الرأسمالى (86) ·

وبين طغيان الرأسمالية ، وجمود وتعثر الماركسية تحاول نظريات اشتراكية اليوم شق طرق جديدة لتحقيق العدالة الاجتماعية بأساليب أكثر ملاءمة وواقعية بالنسبة لظروف ومطامح كل أمة ومجتمع ·

على ضوء هذا العرض الموجز لموقف كل من النظامين الرأسمالى والماركسى من نتائج العمل نعرض الآن لموقف الاسلام بالنسبة لهذا الموضوع ·

ان الاسلام يرفض ، بالنسبة لهذا الموضوع بالذات الحل الرأسمالى والحل الماركسى معا ·· فقد أدان الاسلام الرأسمالية فى أكثر من آية فى القرآن ـ خاصة اثناء حديثه عن الممارسات غير المشروعة لآل شعيب (87) ـ · كما ادان الاسلام كل الفلسفات المادية ، وذلك انطلاقا من مفهومه للانسان الذى لا يمكن ان يحصر فى نظره فى معادلة مادية باهتة (88) ·

ولذلك طرح الاسلام حلا أصيلا بالنسبة لهذا المشكل ، ذلك الحل الذى لا يصام الطبيعة البشرية ونزعتها نحو التملك ، ولا يتيح لها فى نفس الوقت أن تحول ذلك التملك الى أداة للاستغلال والسيطرة والظلم ·

وتجسيدا لهذا الموقف الاصيل طرح الاسلام مبدا ملكية الله للمال ـ مصدر ذلك الظلم والاستغلال ـ واعلن أن الانسان مجرد مستخلف لله عليه « **آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » (89) « **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** » ادراكا منه للدور الاجتماعى الذى يجب أن يكون للمال ، كعنصر تقارب وتكافل ، وابتعادا بالانسان عن كل ضلال وطغيان قد يسببه له ذلك المال ·

---

(86) انظر في هذا الصدد مقال :
Maurice Duverger : Le Monde, 18-7-1981. (Le Socialisme du Troisième Type)
(87) هود ، 84 ـ 85 ·
(88) أنظر :
E. Mounier : Le Marxisme contre la personne. in, Mounier par J. Conilh, Puf, 1966.
(89) الحديد ، 7 ·

ولان المال ملك لله وللمجتمع بأكمله نص الاسلام على ضرورة قطع يد السارق أمام المجتمع كله كعقاب لـه عن فعلته تلك التى لم يمس بها فقط صاحب المال الفعلى ، بل المجتمع بأكمله ··· ومن ثم فان عقابه يجب أن يكون أمام المجتمع بأكمله كذلك · ونفس العلة تكمن وراء الحجر على السفيه الذى يبدد ماله ، وعلى الصبى والمجنـون اللـذين لا يحسنون التصرف فى أموالهم ·

ولا يعنى مبدا الملكية النهاية للـه للمال ، دعـوة مـن الاسلام الى مساواة العامل على كسب ذلك المال بمن لا يبذل أى جهد فيه ، فذلك أبعد ما يكون عن روح الاسلام القائمة على الجزاء الكامل عن كل عمل يقوم به الانسان كما رأينا ، ولكنه يحدد فقط طرف اكتسابه وجمعه ·· وطرف انفاقه ووضعه فى خـدمة الجميع كذلك ·

وهكذا فان المال فى الاسلام لا ينمو بالربا « **وأحل الله البيع وحرم الربا** » (91) أو باستغلال الضعفاء « **وآتـوا اليتامى امـوالهم ولا تتبـدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا اموالهم الى اموالكم انـه كان حوبا كبيرا** » (92) أو بعـدم المماثلة «**ويل للمطففين**» (93) أو بالغش « **يأيها الذين آمنـوا لا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عـن تـراض منـكم** » (94) ، أو بالاحتكار « **والذين يكنزون الذهـب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم** » (95) ·· أو بالرشوة « **ولا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتـدلوا بـها الى الحكام لتاكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون** » (96) ·

وكما يحدد الاسلام طرف كسـب المال يحدد كذلك طرق الانفاق الكفيلة بوضعه فى خدمـة المجتمع باكملـه ·· بكيفية لا تعرف الاسراف أو التقسير ، بـل بين ذلك قـواما ·· « **والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** » (97) · ولذلك كانت الزكاة والخـراج والضرائب ، والصـدقات الموسمية أو الـدائمة ، والكفـارات ، وغيرها مـن مظاهر الانفاق الواجبة أو المستحبة فرصا وطرقا وأبوابا لخروج

---

(91) البقرة : 275 ·
(92) النساء : 2 ·
(93) المطففين : 3 ·
(94) النساء : 29 ·
(95 التوبة ، 33 ·
(96) البقرة ، 180 ·
(97) الفرقان ، 67 ·

المال من يد المستخلف عليه الى كل فئات المجتمع كل حسب استحقاقه ·· وحاجاته (98) ·

بمثل هذا المفهوم الاصيل يسخر المال لخدمة المجتمع بأكمله ولتدعيم تكافله وتضامنه وتحابيه . وبمثله كذلك يتحول بالنسبة لمالكه الى سبب لسعادته الدنيوية والدينية لا الى وسيلة لشقائه وتعاسته ·

واذا كان ذلك هو دور المال بالنسبة للمجتمع باكمله فان دوره بالنسبة للعاملين عليه لا يحتاج بالتالى الى مناقشة ·· أو مراوغة ··

لذلك كانت التشريعات الاسلامية الخاصة بالعمل وبالعمال نموذجية فى تلقائيتها وفى واقعيتها وفى بساطتها وعدالتها ·

ولذلك أيضا سبق الاسلام ، قولا وعملا ، كل الفلسفات والديانات بالنسبة لهذا الموضوع ·

فالاجر حق لا ينازع : « **الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون** » (99) ·· وهو لا يمكن أن يكون الا على قدر العمل « **ولكل درجات مما عملوا** » (100) ·· والاجر يجب أن يكون بالاتفاق مثل البيع والشراء ، وان لا يقل فى نفس الوقت عن الحد الضرورى الادنى للمعيشة الكريمة للعامل « من استأجر أجيرا فليسم له أجرته حتى يطمئن خاطره الى قيمة ماله من أول لحظة » (حديث شريف) « من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس » (101) · والدولة متكفلة بحماية الاجر « أعطوا الاجير أجره قبل ان يجف عرقه » (حديث) « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا وأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه » (حديث) ·

والدولة مسؤولة كذلك عن توفير العمل للعاطلين ومدهم بأدوات الانتاج والعمل « يروى أن الرسول (ص) جاءه رجل خال من وسائل الكسب ، فدعا (ص) بقدوم وبيد خشبة سواها بنفسه ووضعها فى القدوم ثم دفعها للرجل وأمره أن

(98) د· على عبد الواحد وافى : المساواة فى الاسلام ، اقرأ ، 1965 ، دار المعارف القاهرة ، ص 98 ·

(99) التين ، 6 ·

(100) الانعام ، 132 ·

(101) انظر كتاب : الاسلام لا شيوعية ولا رأسمالية ، للاستاذ البهى الخولى ، دار الفكر ، بيروت ·

يذهب للعمل في مكان عينه له » (102) . كما سبق أن أشرنا .

ولا يكتفي الاسلام بهذه الاجراءات بل يسبق كذلك كل تلك الفلسفات والنظم والديانات الى تقرير حقوق أخرى لم تتوصل الى تحقيق البعض منها أي من تلك الفلسفات أو الديانات أو النظم وذلك مثل حق العامل في تامين نفقاته العائلية باعتبار ذلك جزءا من كرامته حيث يؤكد الرواة ان الرسول (ص) كان يعطي الاهل حظين والاعزب حظا واحدا ، وحق العامل في المسكن وفي المواصلات « من ولي لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليس له زوجة فليتزوج أو ليس له دابة فليتخذ دابة » (حديث) . وحق العامل في عدم اجباره على العمل «لا تكلفوهم بما لا يطيقون فاذا كلفتموهم فاعينوهم» (حديث) . وحق العامل في الراحة « ان لنفسك عليك حقا وان لجسدك عليك حقا » (حديث) . وحق العامل في الاخذ من مال الغني اذا جاع دون أن يوصف بالسرقة وفي هذا الصدد يروى عن الخليفة عمر بن الخطاب (ض) أنه قال لرأسمالي جاءه يشتكي اليه عماله الذين أخذوا من ماله لياكلوا « أيها اللص اذا عاد هؤلاء الى السرقة قطعت يدك أنت » . وحق العامل في طلب تدخل الامة الاسلامية باكملها اذا تنازع مع صاحب العمل وخشي منه ظلما .. وجورا « **وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين** » (103) .

تلك هي فلسفة العمل في الاسلام ، وتلك هي مبادئها وتطبيقاتها كذلك ، تلك المبادىء والتطبيقات التي يعد الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه (ض) أصدق نموذج لها ... فما أحوج المسلمين اليوم الى العودة اليها ... من جديد ليستلهموها في مسيرتهم بل ما أحوج الانسانية باكملها اليها ، خاصة بعد ان أثبتت كل الايدلوجيات والمناهب المعاصرة الشرقية والغربية على السواء فشلها الذريع داخل اوطانها ذاتها .

---

(102) نفس المرجع السابق .
(103) الحجرات ، 9 ـ 11 .
وانظر في هذا العدد كذلك مقال الدكتور محمد البهي ، مجلة الوعي الاسلامي العدد 152 ، شعبان 1397 هـ .

العمل والعامل فى المفهوم الاسلامى

محمد الاكحل شرفاء

ان آيات القرآن المجيد لا تذكر العمل الا مسبوقا بالايمان اى قائما عليه والعقيدة الاسلامية ، انما تعلن عن نفسها بافعال المؤمن ومواقفه ، ولذلك حدد العلماء مفهوم الايمان بانه « ما وقر فى الصدر وصرح به اللسان وصدقته الجوارح » وتعبير « **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** » يتكرر فى الكتاب بشكل يشد الانتباه ولا يدع للشك مجالا فى حقيقته ان الاسلام لا يتحقق أبدا فيمن يقول ولا يفعل ، ويعلن ولا يلتزم والالتزام **اسلاميا** يعنى تكييف المواقف وتعديلها استمرارا كى تتلاءم تماما مع ما جاء فى الكتاب وصح فى السنة ٠ وبدون ذلك فلا يصلح عمل ولا يستقيم سلوك ٠ والعمل فى المفهوم الاسلامى يعنى التحرك فى كل مجال انما داخل الحدود المرسومة من الله الحكيم الخبير وان كل تجاوز لحدود الله يعتبر ظلما للعامل نفسه ، قبل ان يمتد اثره الى غيره.

والله هو خالق الانسان وهو مدبر أمره وهو أعلم بما يصلح به شأنه فى عاجل حياته وآجلها ، ولذلك وضع لحياته نظاما عمليا ينبع من عقيدة راسخة اذا هو اقام حياته عليها فلن يضل ولن يشقى ، واذا هو أسس بناءه على قواعدها فان البناء يطول ويسمو ويتحدى كل الهزات ٠ اما اذا اقامه على غير ما شرع له ربه فانه لا محالة سينهار مهما طال الزمان ، « **افمن اساس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، ام من اسس بنيانه على شفا جرف هار ٠ فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين** » (التوبة : 109) ٠

لذلك جعل الاسلام ضمانا لكل عمل كى يؤتى ثماره المرجوة يانعة طيبة أن يؤسس على تقوى الله ويستهدف مرضاته وبدون ذلك فلا يمكن الاطمئنان الى قول قائل، أو عمل عامل ٠٠ والشعور برقابة

الله عز وجل يجعل المؤمن يقول فصلا ويحكم عدلا · لانه يتعامل أساسا مع ربه وهو مؤمن بأنه سيلقاه وان عمله ذاك معروض عليـه يـوم القيامة · « **يـوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى اللـه بقلب سلـيم** » · واذا كان الموظف أى موظف عـلى يقـين بأن عملـه فى اطار وظيفته مراقب وأنه سوف يحاسب على كل ما كلف به فى اطاره ، نتيجة لعمله فانه سيجازى ثوابا أو عقابا ، انه بهذا الاعتبار سيحذر أى تـهاون وتفريط أو عبث فى عمله هـذا مـع الناس فكيف يتصرف مع الله وله المثل الاعلى وهـو يعلم خائنـة الاعين وما تخـفى الصدور وعندما يتلو المسلم العامل فى أى مجال قول الله عز وجل : « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بـما كنتم تعملون** » (التوبة : 105) ·

فانه يشعر حتما بان واجبه هـو استفراغ الجهد والطاقة فى اتقان عمله على الوجه الذى يبلغ به رضوان اللـه تعالى علما بان اللـه يعلم · وعلما بان رسول الله أيضا سيعلم ، وبان المؤمنين أيضا سيشهدون جميعا عدالة الله تعالى وهو يجازى عباده بما يستحقون من ثواب يوفى لهم ان احسنوا · كما سيشهدون عقاب الذين صدوا عن سبيل الله وتعدوا حدوده وظلموا أنفسهم فاوردوها موارد الهـلاك ·

هذه التعبئة النفسية ضرورة لبناء انسان نظيف شريف يصـون الامـانة ويحافظ على العهد ، وينهض بالمسؤولية ويرعى كل ما استحفظ عليه من مال أو متاع أو أسرار · وبمثل هؤلاء الصفوة من الثقات بنيت الامة الاسلامية العظمى التى علمت الدنيا دروس الحق والعدل فعلا بنفس القوة والجد الذى بلغت به رسالة الله قولا ·

الامة التى علت بما تركز فى وجدانها من خير وفضيلة فنوه اللـه بها منزلا : « **كنتم خير امة اخرجت للناس** » فلم تكن افضليتها على الامم لسبب من تلك التى تعودت الامم ان تتفاضل بها · مثـل القـوة العسكرية والكثرة العـددية أو العراقة الحضارية وما الى ذلك من نعوت تعود الناس ان يفاخر بها بعضهم بعضا وانما كانت افضلية الامـة الاسلامية نابعة من الخـير فقط هذا الخـير الذى امتلأت بـه أنفس المؤمنـين والمؤمنات فتشبعت بـه ، وفاض منها عـلى العالم فملأه حقا وعدلا وسعدت بـه البشرية عهدا طويلا وما تزال بقية مـن الفضائل الاسلامية تعيش عليها البشرية فى مجال التعامل حتى الآن ·

العمل حياة : قال الله تعالى : **« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »** ، الآية العاشرة من سورة الجمعة . هذه الآية تلقى ضوءا ساطعا على نوع الحياة التى ارادها الله للمسلمين باعتبارهم **رادة** النوع البشرى فوق الارض . هذه الحياة التى تمتلىء الانفس بطاقتها الروحية الزكية بالصلاة **« قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصل »** (الاعلى) ثم تنطلق الى العمل الجدى الحازم فى كل مجال طلبا للرزق وابتغاء للعز ، وسعيا للكرامة ، وجهدا لبلوغ أرقى ما يجب أن يصل اليه الانسان ممارسة لرسالته فى الارض باعتباره خليفة الله فيها .

ان الحياة حركة وسعى ، واذا توقف هذا فمعنى ذلك الموت . وحياة المسلم مقصورة على هذه الدنيا بل هى ممتدة الى عالم الجزاء بلا انقطاع . وحتى المسلم ـ وهو متمسك باسلامه ـ لا يعتبر الا معبرا من عالم العمل الى عالم الجزاء ، وخاصة أولئك الذين وهبوا حياة العاجلة سخاء وبذلا فى سبيل الله ثم أستشهدوا فيه انهم احياء غير اموات بتقرير الله سبحانه : **« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا ، بل احياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وان الله لا يضيع أجر المؤمنين »** (آل عمران : 69 ـ 71) .

كيف طبقوا ؟ من هذا المنطلق نهر أمير المؤمنين رجلا رآه نائما بالمسجد بعد ان قضيت صلاة الجمعة وانتشر الناس الى أعمالهم . انه فعل ذلك تاديبا لهذا الذى حسب وجوده بالمسجد وقت انطلاق الناس الى اعمالهم عبادة فى حين لا تعتبر العبادة الا التزاما بالخط المرسوم للانسان الا مثل فى المنهج الاسلامى . فحين يكون الوقت للشغل فى اى مجال فتلك هى العبادة المطلوبة لا الصلاة . ولا العكوف فى المساجد . فان للصلاة وقتا محدودا لا تصل قبله ولا بعده وهو لا يستغرق الا دقائق معدودة ثم يجب ان يتحرك المسلم للعمل المتواصل بغية الحصول على رزق كريم من عمل يديه ونتاج جهده هذا هو الخط الاسلامى المستقيم . وقد عبر عن ذلك أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ حين قال : لا يقعد احدكم عن طلب الرزق وهو يقول : (اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وانما يرزق الله الناس بعضهم من بعض) .

المجـالات : فاذا كان العمل مظهرا من مظاهر الحياة بما يؤديه من وظائف ويحققه من أهداف ، فانه لا يمكن اعتبار كل عمل ينجزه الانسان قادرا على تلبية الحاجات الضروريـــة للبناء الانســـانى الامثل · فالعمل عملان :

الاول : وهو الذى يصفه الاســلام بـ « الصالح » اذا نظفـــت وسائله ، وشرفت أهدافه والسيء اذا خبثت وسائله وانحطت أهدافه وقد حذر الاسلام من الاعمال السيئة ، وانذر فاعليها بالعذاب الاليم فقال تعـــالى : « **والذين كسبـوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم كانمـا أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ، اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** » (يونس : 27) ·

كما بشر الذين يأتون بصالح الاعمال لصالح الفرد أو المجتمع أو هما معا ، بحسن الثواب فى العاجلة ، وحســـن المآب فى الآجلة : « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن ، فلنحيينـه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم باحســن ما كانوا يعملون** » (النحل : 57) ·

والعمل الذى يعد صالحا فى الاسلام لا يدخل تحت حصر لتعدد المجـــالات ، ولكن يمكن حصر ذلك كله ـ حسب مجالنا هذا الصحفى المحدود ـ فى عنصرين :

أ ـ العمل لله : وهو يتمثل فى أداء الشعائر التى هى ـ كما أسلفنا ـ تعبئة روحية للنفس الانسانية كى تقوى عـلى المواجهة والتحدى فى معركـة الصراع ضد الهوى المضل ، والشيطان المزل · وتتلخص هذه الشعائر فى (الصـــلاة والصوم والزكاة والحج ، والصدقـــة والنجدة· واماطة الاذى ويقظة الاحساس الدينى) مع ملاحظة ان هذه الشعائر ذاتها لا يمكن فصلها اطلاقا عن الواقع الاجتماعى عند تاملها وتحليل أهدافهـا كما ذكرت ذلك فى غير هذا المكان ·

ب ـ عمل الفرد لصالح المجتمع :

ان ذلك يعنى سعى الفرد لاصـــلاح مجتمعه ورفع مستواه ، ودفع الشر عنه وذلك بتنوير العقل بالمعارف ، وتهذيب الخلق بالتربية الحسنة ، وترويض الجسم على الحياة الصحية السليمة ، كل ذلـك لتكون لنا من افرادنا جميعا أعضـــاء سليمة قوية نهنى بها مجتمعنا القـوى السليم الذى يجب ان يعيش حياة طيبة يامن كل فرد فيها على نفسه وماله وعرضه (تطبيقا للمعاملات الاسلامية والاخـلاق الاجتماعية التى اقرها الاسلام) مـن ذلك تحديد حقوق الاسرة وواجبات كل فرد منها نحو الآخرين واذا قامت الاسرة ـ وهى اللبنة الاولى للمجتمع صحيحة سليمة البنية فان البناء الاجتماعى كلـه

بالتالى سينمو قويا راسخ القواعـــد ، وينشأ كل فرد فى الامة ساعيا فى كـل ما يحقق للامة نجاحها وسموها وتحقيق أهدافها سعيه لصالـح أسرتـه وذوى قرابته · وبهذا تقوى الروابط وتضمن المصالح ويعلو شان المجتمع ويبرز لنا ان شاء الله جيل صالح جديد يعيد امجاد السلف ويمحو صفحة الهزيمة على خريطة الوطن الاسلامى ، وعندئذ يجىء بحول الله ـ كرة أخرى ـ نصر الله والفتح ·

« كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا انا كنا فاعلين · ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون ، ان فى هذا لبلاغـا لقوم عابدين » (الانبياء : 104 ـ 106) ·



«حسدا من عند أنفسهم»

ـ حـول افتراءات كتـاب ـ

ابو المجـد احمـد

بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفـارا حسدا من عند أنفسهم من بعـد ما تبـين لهـم الحق » (البقرة : 109) .

ستظل هذه الحقيقة بلا شك قائمة ما بقى الصراع الابدى بين قوى الحـق وطاغوت الضلال . ان مرور أربعة عشر قرنا كاملة لم يزد تلك الحقيقة الا تأكيدا وثبوتا .

ولقد كان تاريخنا كله مرآة لهـذا الصراع المعلن حينا والمستتر إحيانـا بيننا وبين اعدائنا من الصليبين واليهود، وسيظل ذلك الصراع بين الدين الحـق والتحريف الحاسد ما دامت الارض ومن عليهـا .

واذا كان قانون الفعل ورد الفعل له فعاليته الملحوظة دنيـا الماديـات والاجسام، فمن السهل أن نلاحظ بوضوح أيضا تلك الفعالية فى دنيا الافكـار والعقائد والسياسيات .

وعلى ذلك فلم تكن بالمستغربة تلك الحملة الاعلامية الصليبية المسعـورة ، التى صاحبت مظاهر الصحوة الاسلامية الحديثة ، خاصة بعد نجـاح الثـورة الاسلامية فى ايران .

والواقع أن أحدا من الاوروبيـين لا يقلل أبدا من الاخطار المتوقعة مـن جراء تلك الصحوة على مستقبل الغـرب واحتكاراته ونهبه لثروات وامكانيـات الشعوب بأبخس الاثمان . ولن تتوانى الصليبية الجديدة فى استعمـال كـل

امكانياتها لاجهاض هذه الصحوة الاسلامية ولمحاولة هدم صرح ذلك الدين المحرك لكل تلك الشعوب الناهضة ·

ومن الاسلحة المجربة منذ مدة سلاح الاستشراق الذى طالما خبأ تحت عباءته العلمية المزعومة خناجر الاكاذيب المسمومة والافتراءات المغرضة ·

وآخر ما وصلنا من ذلك كتاب جديد بعنوان « صلة القرآن باليهودية والمسيحية » للمستشرق الالمانى د· فيلهم رودلف ، ترجمه عن الالمانية عصام الدين حفنى ناصف ونشرته دار الطليعة للطباعة والنشر ببيروت ، ضمن سلسلة كتب تحت عنوان « نقد الفكر الدينى » ·

ونظرا لما يحتويه الكتاب من افتراءات وادعاءات بأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى ألف القرآن ، وأنه اقتبس مواده من التوراة والانجيل ، فقد نويت ان شاء الله أن أحاول توضيح الاخطاء العلمية والاكاذيب المتعمدة فى طول الكتاب وعرضه من خلال هذه الصفحات ·

الموقف المبدئى المسبق :

ولعل أهم ما يلاحظه القارىء هو موقف مؤلفه المسبق الذى يقوده فى كل استنباطاته الخاطئة ، والتى منبعها ليس فقط انكار لنبوة الرسول ورسالة الاسلام ، بل حقد عليها وازدراء لها ، ونلاحظ ذلك فى كثير من المواضيع بالكتاب نذكر منها ما يلى :

1 ـ فى صفحة 7 يقول المؤلف : ـ « وانا لمضطرون الى أن نفرض كذلك أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا السبيل على نحو ما الى مكة ـ التى يعنينا أمرها كثيرا لانها موطن محمد ـ وان لم يكن ثم ما يثبت انه كان بها يهود أو مسيحيون فى عهد محمد » · ـ فهو مضطر الى هذا الفرض رغم غياب ما يثبته ·

2 ـ وفى صفحة 14 يقول : « وعندما ننتقل الى سؤال : كيف كان اقتباس محمد للمواد من الدينين العالميين الكبيرين يبدو لنا من بادىء الامر انه من غير المرجح أن يكون قد قرأ كتبا دينية من كتب اليهود والنصارى وثم ما يبعث على الاعتقاد بأنه عكس ذلك : أى حصل ما حصل من المعلومات والانباء عن طريق السماع » ·

والكاتب هنا بعد أن استحال عليه اثبات اطلاع الرسول على كتب اليهود والمسيحيين يستنتج مباشرة أنه قد حصل على ما حصل عليه عن طريق السماع ، دون أن يقيم أى احتمال ـ بدافع الحياد العلمى ـ لان تكون هذه المعلومات والانباء وحيا ربانيا أنزل على محمد ·

ولكنه فى نفس الصفحة ، وفى الصفحة التالية لها يعود فيشكك فى أمية الرسول ، فيقرر أن الرسول كان يعلم القراءة والكتابة بلا شك ، لان البيئة المكية كانت « تضطرب بالتجارة وتعج بالحياة المالية ويدلى فيها بالمحاضرات والبحوث العلمية » ـ يقصد ملتقى عكاظ بلا شك ، ويخلط عن عمد أو عن خطأ فاحش بين نظم الشعر بالسليقة ثم حفظه والقائه فى سوق عكاظ وبين البحوث العلمية والمحاضرات المكتوبة التى نعرفها اليوم • فمكة بيئة ثقافية تعرف القراءة . ومحمد لذلك ـ فى رأيه ـ لابد وأن يكون على علم بالقراءة ، متجاهلا ما ثبت فى سيرته عن أميته ، واقرار الصحابة والمسلمين فى عهده ومن بعده بذلك دون استثناء •

وللاستفادة من هذا الاستنتاج الخاطىء يقول بشكل عارض فى نفس الصفحة : ـ «على أنه اذا كان قد قرأ تلك الكتب فلابد أن يكون قد اقتبس منها بعض عبارات أدرجها فى القرآن » ـ متناسيا أن التوراة والانجيل فى هذا العصر لم يكونا قد ترجما من اللغتين اللاتينية والسريانية الى العربية • وهو يجتهد فيما بعد فى فحص بعض العبارات التى يقول عنها : ـ « يجوز لنا مع التسامح أن نعدها مقتبسة » •

3 ـ ويدفعه موقفه المبدئى فى صفحة 26 الى السخرية من احد النصوص القرآنية ، فيقول فى معرض حديثه عن تفسير الآية الكريمة « **ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط** » : ـ « كلمة جمل فى اللغة العربية تفيد أيضا معنى الحبل ولهذا يلجأ بعض المفسرين الى هذا المعنى ليهربوا من الصورة المضحكة السخيفة آنفا » •

4 ـ بعد أن يفترى على النبى صلى الله عليه وسلم فيزعم أنه أخطأ فى سرد قصة طالوت وجالوت وانه أخطأ اذ ظن أن مريم أم عيسى هى أخت هارون ، وأنه أخطأ فى الحديث عن هامان وزيرا لفرعون بدلا من ملك فارس ، وأنه وضع قارون فى بلاط فرعون ، وخلط بين مناسك التوراة ـ وكل هذه الافتراءات الواهية سنرد عليها فى موضع آخر من هذا التعليق ان شاء الله ـ بعد ان افترى على النبى كل ذلك صدق نفسه واستنبط حكما لا يصل الشك اليه فيقول فى صفحة 40 : « لم يكن كل ما رأيناه من اساءة فى الفهم لتقع لو أنه تيسر لمحمد أن يطلع على الكتاب المقدس» ـ والمعلوم أن كل هذه المفتريات لم تكن لتقع لولا افتراض الكذب مسبقا فى الرسول ، ولو كان موضوعيا لافترض ايضا أن تكون نصوص التوراة بدورها عرضة

للخلط والخطأ على نحو ما يؤمن بـــه المسلمون الآن من تحريفها .

5 ـ والكاتب ليس على استعداد لان يرى سوى محمد المؤلف المبتدع أو الناقل المقتبس فيقول فى صفحة 46 : ـ « على أن محمدا أخذ عن الوثنيين اسم اللـه وتصور أنه اسمى من الاصنام ، بيد أنه أضفى على هذا اللفظ معنى جديدا بقوله أنه لا شريك له». وفى صفحة 57 يقول : « بيد أنه ـ أى محمد ـ ابتدع بعـض تفصيلات عذاب الجحيم من بنات أفكاره كتجريع الملعونين ماء مغليا وذلك ما لم يتسن لنا العثور عليه فى غير القرآن » . وفى صفحة 59 يقول : ـ « وبغض النظر عما نجد فى الديانة الاسلامية من آثـار يهودية فان محمدا كان فى جميع المواضع الهامة متأثرا بالمسيحية » . ويقول فى صفحة 61 : ـ « وهناك الى جانب هـذا شيء فنى لا يمكن أن يكون محمد قـد ابتدعه ابتداعا » . ـ وننتظـر لعـل الدكتور رودلف يرعوى فيذكر الوحى ، ولكنه يتابع فيقول : ـ « وهو تصور أن فى السماء كتابا يرسل الله اليه منـه قطعة اثر قطعة ، ويسميه محمـد « أم الكتاب » كما يسميه « اللوح المحفوظ » و « كتاب مكنون » . ـ ونسال عن مصدر هذا العلم لدى محمد فيجيب رودلف : ـ « من البديهى أن هذا التصور لميكانيكية التنزيل ليس بفكرة طرأت على ذهن محمد وانما هو راجـع الى معرفته بالنقليات اليهودية ـ المسيحية » . ولان رودلف لا يعتقد أن الاسلام دين سماوى فهـو لا يستطيع أن يتصور للحظة أن مصدر علم محمد يمكن أن يكون هو نفسه مصدر علم اليهود والمسيحيين ، وهو الـــوحى المنزل من السماء .

6 ـ وبما أن رودلف ينكر أن يكون هناك وحى على محمد منذ البداية فهـو حين يتحدث عن حادثة رؤيته لجبريـــل وحادثة بدء الوحى يقول فى صفحة 60 : « وانا لننزع الى تصديق محمد وتفسير ما حدث بأنه شاهد حقا ظاهرة مـــن الظواهر المادية حسبها هو ظاهرة سماوية فان الحادث الاول الذى وقع له لم يكـن سوى رؤيا اما الحادث الثانى فكان مـن احلام اليقظة لا مجرد هذيان او حلـــم عادى ، وبذلك تكون سدرة المنتهى وجنة المأوى مكانين فى مكة لا فى السمـاء » هكذا .

7 ـ ويعتقـــد رودلف أن محمـدا هو مؤلف كتابه ومؤسس دينه بنفســه بالاقتباس والتلفيق فقد جعله يختــار اسم جبريل ليعلن أنه حامل الوحى اليه ليكيد اليهود به فيقول فى صفحة 70 : ـ « يزعمون أن يهود المدينة كانوا يعدون جبريل عدوهم ، ولم نجد فى علم الملائكة

اليهودى سندا لهذا الزعم فيما يتصل بجبريل أما ميكائيل فهو حقا أمير الملائكة عند اسرائيل وهو حاميها » . ـ ولكنه يعود فيثبت فى هامش تلك الصفحة أن ابن صوريا سأل النبى أو عمر عمن يأتى بالوحى من الملائكة فقال جبريل ، فقال عدونا يأتى بالعذاب ولو كان ميكائيل لآمنا لانه يأتى بالخصب والسلم . فنزلت آية « **قل من كان عدوا لجبريل ...** » .

8 ـ ودائما مع أثر الموقف المسبق لدى الكاتب فى اصداره لاحكامه ، نجده يفترى على الرسول حتى فيما زعمه من الاقتباس ، فيقول فى صفحة 74 . ـ « ولم يتورع ـ أى محمد ـ فى سبيل احكام المطابقة بينه وبينهم ـ أى الانبياء السابقين ـ عن تعديل قصصهم وجعلهم يتحدثون بأسلوبه . فجاءوا فيما يتصل بأمرهم شديدى الشبه بعضهم ببعض وبمحمد » . ـ ولم يتعب المؤلف نفسه فى اثبات ذلك ولو بدليل واحد يكون واهيا كعادته فى كل الكتاب .

9 ـ وينطلق خيال المؤلف فى صفحة 77 فيقول : ـ « فلما أقام بالمدينة ولابس أهل الكتاب وخيب أمله فيهم أنهم لم يؤمنوا برسالته ، كان عليه لكى يواجه معارضتهم أن يعيد تشييد دينه على دعائم جديدة ، وقد وجد العون فى ذلك من شخصية ابراهيم الذى يوقره اليهود والمسيحيون على السواء ـ ثم زعم أن الكعبة انما بناها ابراهيم وابنه اسماعيل ومن البديهى أن هذا الزعم لا يستند الى أساس فى المنقولات اليهودية ـ المسيحية فلعله نبت قبل محمد فى أذهان اليهود والمسيحيين العرب» . ـ وروولف يطمئن الى التوراة والانجيل كمصادر وحيدة للمعلومات التاريخية . وليس للقرآن من هذا الاطمئنان نصيب أبدا ، ويزيد على ذلك أنه لم يحاول بالمرة أن يثبت زعمه بأن فكرة بناء ابراهيم واسماعيل للكعبة قد نبتت قبل محمد فى أذهان اليهود والمسيحيين العرب دون أى دليل دينى أو تاريخى على ذلك .

10 ـ لازلنا مع أثر الموقف المسبق على الفهم واصدار الاحكام الخاطئة ، فنرى فى صفحة 83 كيفية فهم رودلف للشهادة اذ يقول : ـ « أضيفت الى صيغة الشهادة الاسلامية (لا اله الا الله) كلمة (محمد رسول الله) أى رسوله الوحيد » . ـ فهل هناك مغالطة أوضح وأكبر من هذه .

11 ـ وهو حين يعييه البحث عن الاصل الذى اقتبس منه محمد فريضة الصيام يقول فى صفحة 99 : ـ « ولم يكن اليهود يعرفون صياما من هذا النوع وبهذا الطول . ويبدو أن فرض الصوم شهرا كاملا هو انتحال من الصوم الكبير

(صوم الاربعين) الذى لعله لم يكن يدوم عند المسيحيين العــرب المنعزلين عــن الكنيسة الكبرى 40 يوما كاملة » • — فهو يأبى الا ان يتعسف الاستنباط حتى يكون صوم الاربعين هو نفسه صــــوم الشهر الاسلامى ، لانه لــم يعثـــر فى اليهودية أو المسيحية على صوم مقداره شهر كامل •

12 — وحين يتعرض لتحريم الخمر بأسلوبه الغير علمى يتجاهــل حكمـــة تحريمها ، وحكمة التدرج فى التحريم ، ويقر بجهله لاصل هذا التحريم ، ويدفعه موقفه المبدئى الى القـــول : — « فليس الحافز الوحيد — اى حافز التحريم — بواضح جلى ، وربما كان الباعث عليـه دوافع صوفية مصدرها يهودى أو عــلى الارجح مسيحى » • وهكذا يتردد بـين اليهودية والمسيحية باصرار على ان ينسب اليهما كل عناصر الشريعة الاسلامية •

13 — وحين يلاحظ ان القرآن يتحدث عن عيسى بالاحترام والتبجيل يقول فى صفحة 111 : — « وهناك دليل آخر على مبلغ وقوع محمد تحت سحر المسيحيـة هو الطريقة التى يتحدث بها عن عيسى ••• ولا تفسير لذلك الا بانه كان متأثرا بالمسيحية » • — فرودلف هنا أيضا ليس على استعداد أبدا لمناقشة احتمـال أن يكون عيسى ومحمد نبيين مرسلين يجـل المتأخر منهما السابق •

14 — وهو من موقفه المبدئى المسبق يعتقد أن محمدا قد الف القرآن وليس لديه اعتقاد فى أى احتمال آخر ، فيرى فى صفحة 120 : — « ان محمدا لم يقف فى سبيل السجع عند تغيير الاشكـال المألوفة للكلمات بل انه عمد كذلك فى بعض الاحيان الى تغيير المعنى » • — كما أن محمدا قد قرأ انجيل لوقا فعــرف الشطر الاول من حيـــاة يوحنا (النبى يحيى) — « أما الشطر المتاخر من حياة يوحنا فلم يكن محمد على علم به ومن ثم لم نسمع عنه الا بضع كلمات عامة » صفحة 125 — هكذا تستمر الاستنتاجات الغير موفقة فى تتابع يبعث على الدهشة•

15 — ومن نفس المنطلق لا يجـــد المؤلف تفسيرا لحديث القرآن عن معجزة ميلاد عيسى ثم حديثه عن عيسى كانسان عادى ياكل ويمشى فى الاسواق الا أن هذه هى طريقة محمد غير النظامية فى الاقتباس فيقول فى صفحة 130 : « وكون محمدا قد انتحل ميلاد عيسى العجيب هو فى الواقع امر يستدعى الانتباه ، اذ أنه فيما عدا ذلك قد الح فى تبيان أن عيسى شخص عادى وكان دائما يجادل فى نبوته لله ، وهذا يبين طريقته غــير النظامية فى تقبل الآراء الاجنبية ، لــم

يكن محمد ثاقب الفكر ، ولذلك فهو ، فيما أورده عن حبل مريم ، يجعل المرء لا يفقد الاحساس برغبته فى أن يستبين بالدقة ، ما الذى يدور بخلده » ۰ ـ والمؤلف هنا لا يستطيع التسليم بسهولة بأن يكون عيسى بشرا عاديا ، ولكنه يطمئن جدا الى أن محمدا لم يكن ثاقب الفكر ، مخالفا بذلك كل ما عرف عنه صلى الله عليه وسلم وشهد به حتى الاعداء الذين ينكرون نبوته ويعللون نجاحه بذكائه الخارق للعادة لا أكثر ولا أقل ۰

16 ـ حين يتعرض لنبوءة « النبى الذى سيرسل » المذكورة فى الانجيل لا يجد الكاتب بدا من الاعتراف بوجودها فى مصادر مسيحية ، ولكنه يقلل الى حد الانكار أهمية هذه المصادر فيقول فى صفحة 134 : ـ « ومن التفصيلات الهامة أن الآية 6 من سورة الصف تعلن مقدما أن النبى الذى سيأتى بعد عيسى سيكون اسمه أحمد ، ومهما تبدو لنا فكرة محمد الاخيرة هذه عجيبة فان لها عند المسيحيين اليهود الغنوصيين بعض السند ، فقد نقل لنا هيبوليت من تعاليم الياس أن المسيح لم يولد الا فقط من العذراء ۰ ولعله قد وصل الى مسامع محمد بعض الآراء مثل أن « المسيح » أى النبى الحق سيظهر بعد عيسى فى شخصيات أخرى ، فخوله ذلك بعض الحق فى القول بأنه قد أعلن عن مجيئه فى كتاب الوحى المسيحى » ۰ ـ وهو يظهر محمدا هنا بصورة الانتهازى الذى استغل وجود رأى ضعيف عند شيعة قليلة محرفة بأن المسيح سيعود فى شخصيات أخرى ، ولا يتطرق اليه الشك أبدا فى أن يكون هذا الرأى بقايا نبوءة حقيقية حذفت عمدا من الاناجيل الاربعة ، وان كانت لا تزال موجودة فى الانجيل الخامس المحظور وهو انجيل برنابه ، بل ربما فى انجيل يوحنا أيضا الذى نقل منه رودلف فى صفحة 31 قوله : ـ « كلمتكم وأنا عندكم ، وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم » ۰

وموقف رودلف يتكرر عند التعرض لفكرة أن هناك شبيها قد صلب مكان المسيح ، وهى الفكرة التى اعترف بوجودها فى صفحة 138 اذ يقول ۰ ـ « فمن المحال عنده ـ أى عند محمد ـ أن يكون من الممكن أن تنتهى حياة رسول من الرسل مثل هذه النهاية ، وانما حدث على العكس من ذلك أن صلب اليهود أثناء نقله وتنفيذ الحكم فيه رجلا آخر شبيها به ، وهو رأى لم يصدر من عنديات محمد ، بل قال به بعض الجنوستكيين ومن ذلك

ما زعمه البازيليديانيون من أن سيمون من بلده كيرينيا صلب مكان المسيح » ٠

ونفس الموقف عند الحديث عن المائدة التى تختلف بعض الشىء عن العشاء الاخير المعتقد أنه هو نفسه المائدة التى ذكرها القرآن ، اذ يقول رودلف « من المستبعد تماما أن يكون قد تنوقلت بينهم - يقصد المسيحيين العرب - مثل هذه السيرة الممسوخة عن العشاء الربانى فلابد أن يكون الامر هنا أمر سوء فهم من محمد » ٠ - فليس هناك أدنى شك فى النصوص الانجيلية ، ومع ذلك يتغاضى عن تعضيدها للنصوص القرآنية. وهذا يتفق تماما مع منطقه العلمى فى كل الكتاب ٠

17 - عندما تعرض الى آية « **وانه لعلم للساعة** » فى صفحة 139 تشبث بتفسير ضعيف لها على أنه علم لعيسى بالساعة ، رغم أنه يقر بان ضمير الغائب فى « انه » قد يعود كما يحدث كثيرا على القرآن نفسه ، ولكنه يتشبث بالتفسير الذى يرى أن عيسى يعلم الساعة ليقول فى بساطة أن ذلك يتناقض مع كل أقوال محمد ، التى يتفرد فيها الله بعلمه للساعة ، ويعضد اعتقاده بالآية التى تقول : « **فلا يظهر على غيبه أحدا ، الا من ارتضى من رسول** » ٠ - والغيب هنا كما هو واضح غير محصور بأى شكل فى علم الساعة ٠

18 - كما لم يتلكأ الكاتب فى استعمال التأثير النفسى عن طريق الايحاء اللاموضوعى فى نفسية القارىء من أول الكتاب ، فتجده يقول فى صفحة 8 مثلا :
- « ولو شئنا أن نستدل على مدى علمهم - يقصد اليهود العرب - بما استقاه عنهم محمد من معلومات - « وسنرى فيما بعد أنه استدلال صائب » - لما كان لنا أن نعزو اليهم علما كثيرا » - ٠ والقارىء يتجرع هذه الجملة الاعتراضية مسبقا وعن قصد من الكاتب وبدون أى دليل ٠

وفى صفحة 126 نجد هذه العبارة « يضاف الى ذلك أن محمدا - كما هو معلوم - خلط بين اسمى ماريا ومريم» - ولا يقول الكاتب « كما هو معلوم » عند من بطبيعة الحال ٠

وفى صفحة 20 نجد هذه الجملة « وسنتحدث عن صياغة محمد للوصايا العشر بين ما نتحدث عنه فى الفصل الثالث»٠وهو يلقى فى روع القارىء مسبقا فكرة أن محمدا قد صاغ الوصايا العشر وبالتالى فهو الذى صاغ القرآن الذى ألفه ٠

وفى صفحة 96 يقول عند الحديث عن مصدر كيفية الصلاة الاسلامية :
- « وكان - أى محمد - فى ذلك مقلدا ولا ريب لصورة يهودية مسيحية » - ٠

فليس لديه « ريب » فى ذلك ، ويريد من القارىء أن يشاركه هذا اليقين رغم أنه يكمل العبارة السابقة باعترافه « بيد أننا لا نستطيع أن نجزم هل هو أخذ الصلوات الثلاث عن صلوات اليهود الثلاث أم عن صلوات الرهبان المسيحيين » ـ ٠

الاصل الواحد للاديان وغياب المنهج العلمى :

ولعل الفكرة الرئيسية التى تحرك الكاتب هى نفس الفكرة التى يريد أن يقنع بها القراء ، وهى فكرة لم تكن وليدة الاستقراء ولا الاستنباط ، بل كما يتضح من قراءة الكتاب فكرة مسبقة أصلها انكار الرسالة المحمدية واتهام محمد صلى الله عليه وسلم بالكذب والاقتباس ٠

ولقد كانت هذه الفكرة المسبقة الغير قابلة للشك سببا رئيسيا فى كثير من الاخطاء الجسيمة التى وقع فيها ، وهو يبحث عما اقتبسه محمد من التوراة والانجيل ، فلو كان قد أقام احتمالا ولو ضئيلا لان يكون القرآن بالفعل كتابا منزلا لما تسرع باطلاق صفة الاقتباس على الكثير من الاصول العقائدية التى تشترك فيها جميع الاديان السماوية ، ما دامت كلها من رب واحد ، خاصة وأن الاسلام يعترف بهذه الاديان السماوية السابقة ويحترمها ويجعل الايمان بها شرطا أساسيا فى الايمان به نفسه ، غير أنه مع ذلك قد نبه الى أن النصوص الحالية من التوراة والانجيل يشوبها الكثير من التحريف سواء بالحذف من الكتاب الاصلى أو باضافة ما ليس منه اليه ، أو بتعديل وتغيير عبارات وقصص كاملة ٠

ومعنى ذلك أن الاسلام لم يقل أبدا أن النصوص الحالية خلو فى كل شىء من الاصول الصحيحة للنصوص الاولى ، بل انه يرى أن هناك أصولا عقائدية لازالت موجودة فى هذه النسخ الحالية وان كان يوجد بجانبها أصولا أخرى قد حرفت أو بدلت ٠

ولكن د٠ فلهم رودلف لا يقيم وزنا لذلك الرأى الاسلامى فى الكتب السابقة التى نؤمن بها ، ولذلك فقد وقع فى خطأ الاعتقاد بأنها كانت مصدرا لعدد غير قليل من المعتقدات الاسلامية المذكورة بالقرآن ، فنرى على سبيل المثال أقواله الآتية :

1 ـ فى صفحة 49 يقول : ـ «ينتظم دين محمد أربعة فكرات متتابعة هى البعث فالمحاكمة فالفردوس وجهنم »٠ ـ يعتقد رودلف أن الرسول قد اقتبس هذه الفكرات من اليهودية والمسيحية ، فيقول فى نفس الصفحة عن المسيحيين :

ـ « ثم تغلبت فكرة البعث العام فى الديانة المسيحية على فكرة بعث الصالحين وحدهم ، التى كانت تقول بها مدرسة الاحبار (الحاخامات) القديمة • وقد اتخذ محمد موقفه فى وضوح على الخط المسيحى » ـ •

2 ـ وعندما يرى مكانة الشهداء فى الاسلام لا يسعه الا أن يربط ذلك بمكانتهم فى المسيحية فيقول فى صفحة 51 : « لم يكن اليهود يجهلون فكرة الحياة السعيدة عقب الموت مباشرة ، ولكن ربط هذه الفكرة بالحرب المقدسة يوجه أفكارنا دون اختيار منا الى المكانة الممتازة التى تحتفظ بها الكنيسة للشهداء ، ومن ثم كان محمد هنا أيضا يضطرب فى تصورات مسيحية » •

3 ـ وفى حديث رودلف عن المحاكمة فى الاسلام يقول فى صفحة 52 : « والبعث العام عند محمد متصل بفكرة المحاكمة : ظهور الله ومن ورائه حشد من الملائكة ، فتح الكتاب السماوى ، الوزن بالميزان، وذلك كله قد اشتمل عليه الوصف اليهودى والمسيحى للمحاكمة ، فالناس ينقسمون بحسب انجيل متى 25 الى « الذين عن يمينه » و « الذين عن اليسار » ، كما ينقسمون فى سورة البلد 17 18 الى أصحاب «الميمنة» وأصحاب « المشأمة » •

4 ـ ويقع رودلف فى نفس الخطأ المنهجى عند حديثه عن الجحيم الخالد فيقول فى صفحة 59 : ـ « ويعلم محمد الناس أن عذاب الجحيم خالد ، وهو رأى تشاطره فيه اليهودية والمسيحية ، وان تكن كتابات‌الاحبار الربانيين تستثنى الاسرائيليين كلهم أو بعضهم من الخلود فى النار ، وذلك ما تصدى محمد فى المدينة لادحاضه بقوة ••• وبذلك يكون قد وقف مرة أخرى الى جانب المسيحية التى لا تعرف استثناء » ـ •

5 ـ وقد وضحنا من قبل رأى رودلف فى أن محمدا قد اقتبس تصور أن فى السماء كتابا يرسل الله اليه منه قطعة اثر قطعة من العهدين القديم والجديد للتوراة والانجيل •

6 ـ ويعتقد رودلف كذلك أن محمدا قد اقتبس اسم جبريل من المسيحية فيقول فى صفحة 69 : ـ « ذكر اسم جبريل أيضا على أنه حامل لوحى القرآن ، أى محل الروح القدس ، وقد بنى محمد تسويته بين الروح وجبريل على قصة عيد البشارة ، حيث بدت الروح لمريم فى صورة بشر كامل • ومن ثم كان لنا أن نعد هذه التسوية بينهما مسيحية النشأة وان كان اليهود أيضا لا يجهلون جبريل معبرا عن الوحى » •

7 ـ وفى معرض حديثه عن الوصايا العشر يعتقد رودلف أن محمدا قد عرفها « ولكنه لم يحافظ على عددها ، ولا على ترتيبها ، كما أن فحوى كل منها لم يبق دائما مطابقا للاصل ، فاذا كان التباين فى العدد والفحوى قد أحدثه محمد عمدا حتى يجعل هذه الوصايا ملائمة للاحوال والملابسات التى تكتنفه، فما من سبب للتغيير فى ترتيبها غير النقص الناتج من النقل الشفوى » ٠

8 ـ وحين يتعرض لاركان الاسلام يشكك كذلك فيها فيقول فى صفحة 91 : « أركان الاسلام هى الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج . نجد الثلاثة الوسطى واضح فيها أثر اليهودية والمسيحية وضوحا لا مشاحة فيه » ٠ وفى صفحة 94 يقول : ـ « اما السجود فيكاد يكون من المقطوع به أن محمدا شهده عند المسيحيين ، اذ أن اليهود يصلون بوجه عام وهم وقوف ، وعلى خلاف ذلك نجد أن الوضوء الذى أوجبه محمد قبل كل صلاة موجود فى كلا الدينين » ٠

9 ـ وعن طريق الاستنباط الخاطىء يصل فى النهاية الى نتيجة مؤداها ما يقوله فى صفحة 108 من : ـ « ان جذور الاسلام متأصلة فى المسيحية ونابتة منها ٠ أما اليهود فلم تكن منهم الخميرة، ولكن على أية حال كان منهم الجانب الاكبر من الدقيق الذى أضيف اليها فيما بعد » ٠ ـ وفى صفحة 109 يستكمل فيقول : ـ « الافكار والعادات المسيحية القحة التى جاء بها محمد فى الزمن المكى الاول ـ فكرة البعث العام لجميع البشر والمحكمة العامة ودوام العذاب فى النار وتصور وجود كتاب فى السماء يضاف الى ذلك صلاة التهجد وربما كذلك فكرة التنزيل وكل ما ادخل فى الاسلام من أشياء مسيحية غير ما تقدم فهى ترجع الى العصر المكى المتاخر مثل فكرة أمر ـ روح ـ ومثل قصص الانبياء أو العصر المدنى مثل ايثار الشهداء وحمل جبريل للوحى والشهادة والصيام » ٠

ورودلف كما سبق ولاحظنا لا يمنح نفسه الفرصة أبدا لكى يفرض على سبيل الجدل أو تمسكا بالمنهجية العلمية أن يكون أصل الاديان الثلاثة كلها واحدا بما فيها الدين الاسلامى ، وأن هذا التشابه مرده الى الاصل الواحد وليس الى الاقتباس بعضها من الآخر ، اذ أن منطق الاقتباس الذى انتهجه رودلف يمكن أن يوجه الى المسيحية ، ويمكن أن يقال أن المسيح قد اقتبس الكثير جديدا من اليهودية ، وهو الشيء الذى يبدو أن رودلف لم يفكر فيه اطلاقا ٠

ونحن لا نعجب كثيرا مما يعتبره رودلف اقتباسات بناء على رأيه المسبق

الراسخ ، فان ادعاءه بأن ما سبق اقتباسات لا يخالف المنطق فى شىء ، ولا يعتبر فى نفس الوقت برهانا علميا على أن الرسول قد اقتبس بالفعل ، ومهما اجتهد رودلف فى اكتشاف أصول مشتركة بين الديانات الثلاث فلن يثير لدينا ذرة استغراب ، وهل يمكن أن نستغرب أن يكون موجودا بمزامير داوود عبارة « اهدنى فى سبيل مستقيم » أو « الصديقون يرثون الارض » — مع ملاحظة أن القرآن نفسه قد أقر بوجودها فى الزبور اذ تقول الآية الكريمة : « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون** » ·

كما اننا لا ننكر ان يكون بالمزامير « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » أو « ان كنت تراقب الآثام يا رب يا سيد فمن يقف » أو « اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم الذين لهم أعين ولا يبصرون ، لهم آذان ولا يسمعون » أو « اصنامهم فضة وذهب عمل أيدى الناس ، لها أفواه ولا تتكلم ، لها أعين ولا تبصر ، لها آذان ولا تسمع ، لها مناخر ولا تشم ، لها أيد ولا تلمس ، لها أرجل ولا تمشى ، ولا تنطق بحناجرها » ·

ونفس الشىء يقال عن المزامير التى تذكر صفات الله مثل « انه لا ينعس ولا ينام حافظ اسرائيل » ، مع ملاحظة أن الآية القرآنية « **لا تاخذه سنة ولا نوم** » يفهم منها أن الله هو حافظ كل الكون وليس شعبا واحدا هو شعب اسرائيل كما تصرح التوراة ·

وكل ذلك يقال أيضا عن عبارات فى المزامير مثل « الرب يستهزىء بهم » أو « الاخ لن يفدى الانسان فداء » التى يبدو فيها تشابها من نوع ما مع آيات قرآنية ، ومثل ذلك فى قول لوقا : « انزل الاعزاء عن الكراسى ورفع المستضعفين» وقول أشعيا عن الله : «أنا الاول وأنا الآخر » · فمثل هذه الاوصاف لله سبحانه وتعالى ولا يعقل أن تتبدل أو تتغير بتغير المرسلين أو تقدم الزمان ·

كما أن الله قد أخبرنا ببعض مما فى التوراة مثل : « **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص** » · — ولا يعتبر رودلف وجود هذه النصوص بالفعل فى التوراة دليل اعجاز لهذا النبى الامى بل يعتبره دليل اقتباس خاصة بعد أن ادعى أنه لم يكن أميا فى موضع سابق ·

وتمشيا مع نفس المنهج يقول فى صفحة 23 ان « لفظ الشهادة لا اله الا الله » يتفق تماما مع « هكذا يقول الرب ملك اسرائيل وفاديه رب الجنود ، أنا

الاول وأنا الآخر ولا اله غيري » اشعيا 44 ، ومع « أنا الرب وليس آ خر ، ولا اله سواي » اشعيا 45 ٠

ومن العهد الجديد يرى رودلف أن محمدا قد أخذ وصف الجنة ـ صفحة 24 ـ ووصف النار ـ صفحة 28 ـ وتقبيح الرياء في الصلاة ـ صفحة 23 ـ ووصف القلوب التي عليها أكنة ـ صفحة 25 ـ وكذلك الآية « **ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله** » التي يقول عنها رودلف : « انها تذكرنا بحكاية يعقوب » ـ هكذا فقط دون أي توضيح ودون أن يورد أي نص ٠

وبنفس طريقة الاستنباط الخاطيء يأخذ محمد ـ في رأي رودلف ـ فكرة الطيور المسخرة في الجو والجبال التي تزول بالايمان والانسان الذي يحصد ما يزرع ٠٠ الى آخره ٠

الاندفاع الى درجة التهافت

لقد رأينا فيما سبق كيف أن المؤلف كان مندفعا في المقارنة والمقاربة بين المتشابهات في القرآن الكريم والكتب السابقة بناء على فكرة انكار الرسالة المحمدية ، مما جعله مطمئنا الى اعتبار هذه الاصول المشتركة للديانات دليل اقتباس الرسول لها من التوراة والانجيل ولكن على ما يبدو فقد كان اندفاعه أكثر بكثير من أن يستطيع التحكم فيه أو في مساره ٠

ذلك أنه ما لبث أن اجتزأ عبارات من القرآن ، واجتزأ عبارات من التوراة والانجيل كل منهما في سياق مختلف غالبا ، واعتبر تشابهما أيضا اقتباسا ٠

ومعلوم أن القرآن لا يفصل جملة جملة ، والتوراة لا تفصل جملة جملة ، وأن هذا الفصل للجملة من سياقها أسلوب غير صحيح في المقابلة مع جملة أخرى ، لان هذا التجزيء يضر أيما ضرر بالمعنى ولان كل آية كانت تنزل في أسباب وشروط وظروف محددة ٠

كما أنه من المعلوم أيضا أن التوراة والاناجيل الحالية ليست سوى ترجمات للاصول اللاتينية والسريانية ، ولم تكن هذه الترجمات موجودة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أن الترجمة تتصرف بطبيعتها في الالفاظ بشكل واسع حتى أنه قد قيل اذا كان لدينا نص واحد ثم ترجمه تسعة رجال فقد أصبح لدينا في الحقيقة عشرة نصوص ٠

وعلى هذا فان التشابه في الالفاظ الذي قد يجيء عرضا بين القرآن والنسخ الحالية لا يعني تشابه هذه الالفاظ حتما

مع الاصول التى ترجمت هذه النسخ عنها ٠

ومع ذلك فقد كان اندفاع رودلف وتسرعه سببا فى تنكبه الطريق العلمى ، حتى أنه اعتبر أشياء لا تمت الى بعضها بصلة اقتباسا ٠

1 ـ ففى صفحة 21 يقول أن الآية التى تصف الجنة « **وانهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى** » ٠ ربما كانت متأثرة بالارض التى تفيض لبنا وعسلا ٠

2 ـ وفى صفحة 22 يقول («تذكرنا» الصورة التى وردت للوم والتانيب فى الآية 12 من سورة الحجرات « **يأكل لحم اخيه ميتا** » بالكال كارس) ٠ ولكنه لا يستطيع أن يثبت اقتباسها فيقول : « ولكنها ليست مقتبسة عنها » ٠

3 ـ وفى صفحة 30 نموذج آخر صارخ ومثير للسخرية اذ يقول أن الآية الكريمة « **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ، انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم الم نكن معكم ، قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الامانى حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور** » ٠ مقتبسه من انجيل : « حينئذ يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذت مصابيحهن وخرجن للقاء العريس ٠ وكان خمس منهن حكيمات وخمس جاهلات ٠ أما الجاهلات فأخذت مصابيحهن ولم ياخذن معهن زيتا فى آنيتهن مع مصابيحهن وفيما أبطأ العريس نعسن جميعا ونمن ٠ ففى نصف الليل صار صراخ هوذا العريس مقبل فاخرجن للقائه ، فقامت جميع العذارى وأصلحن مصابيحهن ، فقالت الجاهلات للحكيمات اعطيننا من زيتكن فان مصابيحنا تنطفىء فأجابت الحكيمات قائلات لعله لا يكفى لنا ولكن بل اذهبن الى الباعة وابتعن لكن ، وفيما هن ذاهبات ليبتعن جاء العريس والمستعدات دخلن معه وأغلق الباب ، أخيرا جاءت بقية العذارى ايضا قائلات يا سيد افتح لنا ، فاجاب وقال : الحق أقول لكن أنى ما اعرفكن » ٠

4 ـ ويصل الكاتب الى ذروة اللامعقولية فى صفحتى 16 و 17 حين يرهف السمع ليكتشف أن الرنين فى النص القرآنى مقتبس من الرنين فى النصوص المترجمة للتوراة ، وكان المترجم حين ترجمها ترجم أيضا موسيقاها مع التاكيد على أن هذه الترجمات كلها متاخرة عن عصر النبى ٠ وهو يكتفى بأن يقول أن سورة يونس مثلا تشبه فى

الرنين مزامير 13 ، وسورة كذا تشبه مزامير كذا ــ وهكذا دون أن يذكر الكلمات التى تسببت فى هذا الرنين فى أى من القرآن أو التوراة · وللقارىء أن يحكم على هذا الهذيان بما يشاء ، وله أن يطمئن الى نزاهة صاحبه بدون تحفظ بعد ذلك ·

5 ــ ولكى يسهل ابتلاع هذه الاقتباسات الواهية فانه كثيرا ما يجتزىء الكلمات كما قلنا كأن يقول فى صفحة 19 : ــ « ··· كشجرة طيبة تؤتى أكلها كل حين ··· كشجرة خبيثة » مقتبسة من « فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه ، التى تعطى ثمرها فى أوانه وورقها لا يذبل » ــ دون أن يحدد من هو الذى يكون كشجرة مغروسة ومن هى التى أو من هو الذى كشجرة طيبة ·

وفاتته أشياء :

لقد كان رودلف كما نرى مندفعا فى اتجاه واحد ، هو محاولة النيل من هذا النبى وفاته فى اندفاعه الموجه أن يلاحظ ما تحتويه بضاعة الرجل من نفائس وآيات ، رغم تعرضه لها ومده يده اليها ··· ومن هذه اللائى ما يلى : ــ

1 ــ ذكر فى صفحة 23 أن محمدا قد اقتبس « **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون** » و « **واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس** » من انجيل متى : « ومتى صليت فلا تكن كالمرائين » ويقول ردولف : ــ « ولكن محمدا يتجه اتجاها يختلف عن اتجاه موعظة الجبل ، لاحظ كلمة ساهون وكسالى » · ــ دون أن ينتبه الى دلالة هذا الاتجاه والنضج التحليلى لظاهرة المرائين ·

2 ــ وهو حين يلاحظ قول القرآن : « **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الأنجيل كزرع اخرج شطاه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع** » يقول فى صفحة 33 : « ولكننا لم يتسن لنا أن نعرف الموضع الذى يشير اليه فى التوراة » · دون أن يفكر لحظة فى امكانية أن يكون ذلك دليلا على صحة ما قاله محمد فى موضع آخر من وقوع الحذف والتبديل والتغيير فى التوراة والانجيل ·

رغم أنه يعترف عرضا بوجود التحريف فى التوراة والانجيل فى صفحة 48 اذ يقول : « ولا عجب فى ذلك فان العهد الجديد أقل ما يكون أصالة فيما يتصل بالعقائد الاخروية ، كما أن التصورات اليهودية قد تسربت الى العقائد الاخروية المسيحية فى طور متأخر بعض الشىء ، واذا كان الامر كذلك فى الكنيسة الكبرى ، فكيف به فى الشيع

الشرقية » ٠ ـ وفى صفحة 49 لا ينتبه الى الاعتراف بالتغيير والتحريف فى قوله : ـ « أما اليهودية المتاخرة والمسيحية فنجد فيهما فكرة البعث العام وفكرة بعث الصالحين وحدهم تسيران متوازيتين جنبا الى جنب ، ثم تغلبت فكرة البعث العام فى الديانة المسيحية على فكرة بعث الصالحين وحدهم » ٠

3 ـ وحين شهد رودلف للرسول بالعالمية ، يفوته أن يسأل عن سر هذا الشمول فى دعوته ، رغم أنه يقول فى صفحة 73 : ـ « ومن الخطا أن يقال أن محمدا قد تدرج من المحلية الى العالمية فكان يعد نفسه فى أول الامر مبعوثا لعشيرته ثم لشعبه العربى ثم للناس كافة ، فقد كان محمد من أول الامر يفكر تفكيرا عالميا » ٠

4 ـ وحين يمر على روعة وتنزيه محمد لله يفوته أن يسأل عن سر ذلك ويكتفى بالقول فى صفحة 90 : ـ « ولكنه ـ اى محمد ـ لم يستطع أن يختار السبت أو الاحد ، لا يختار السبت لنفوره مما زعمه الكتاب المقدس من أن الله استراح من عمله فى اليوم السابع ، وهو ما يتنافى تنافيا تاما وفكرته عن الله » ـ ٠ دون أن يسأل عن مصدر هذه الفكرة النزيهة لدى محمد ٠ وفى صفحة 91 يقول : ـ «أوجب ـ يقصد محمدا ـ على المسلمين معارضا اليهود والمسيحيين ، أن يخفوا عقب الصلاة الى مزاولة ما كانوا فيه من أعمال » ـ ويفوته أيضا هنا أن يلاحظ ذلك التقرير العظيم للعمل ، ويكتفى بأن يفسر هذا الموقف بأنه معارضة لليهود والمسيحيين لا أكثر ولا أقل ٠

5 ـ فى صفحة 97 يعترض رودلف على أن للمسلمين قبلة فيقول : ـ « ان مثل هذه القبلة لا تتلاءم وفكرته ـ أى محمد ـ عن الله (**ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله**) » ٠ متجاهلا اعترافه فى نفس الصفحة بأن اليهود والمسيحيين دائما كان ـ ولا يزال ـ لهم قبلتهم ، ويفوته أن يلاحظ أن لاله محمد المشرق والمغرب وهى فكرة سامية للاله ، ويتجاهل أن المسلمين لا يرون أى تعارض بين اتجاههم للقبلة وقت العبادة، وبين ايمانهم بالاله الذى له المشرق والمغرب فى كل وقت ٠

6 ـ ويفوت رودلف كذلك أن يلاحظ انسانية الدين الاسلامى فى اباحة انتهاك الاطعمة المحرمة فى حالة الاضطرار بالجوع وخلافه ٠ وهذه الاباحة ليست واردة فى الكتب السابقة باعتراف رودلف نفسه فى صفحة 106 اذ يقول : ـ « واذا كان محمد قد الحق بهذا التحريم أن من اضطره الجوع ، مع حسن نيته ، الى أن

ينتهك حرمة هذا التحريم فلا جناح عليه فاغلب الظن أن هذا التيسير غير منتحل».

7 ــ وفاته اجتلاء ما فى الاسلام من عدالة ازاء ذنوب البشر رغم اعترافه فى فى صفحة 113 : ــ « ان القرآن خلو من أى شىء عن وراثة الذنوب وعن الخلاص وهما من الامور الجوهرية فى المسيحية » ــ ورغم ذكره لآيات قرآنية فى صفحة 114 مثل : «**ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى** » . ويلاحظ رودلف أن هذه الآيات تعنى « انكارا لتحمل المسيح الآلام بدل البشر » . ــ ولكنه لا ينتبه الى أن هذا المبدأ الاسلامى أكثر عدلا وأكثر معقولية بكثير من فكرة تحمل المسيح لآلام المذنبين من أتباعه .

8 ــ وفى صفحة 52 يقول : « على أن اغفاله للبعثات الدينية اليهودية اغفالا تاما لم ينجم عن حصوله على العناصر عن طريق المسيحية بقدر ما نجم عن انبرائه للذياد عن وحدة الله اذ أن عيسى أيضا الذى يعمل فى المسيحية كقاضى الى جانب الله ، لم يرد ذكره فى هذا الشأن البتة فالله وحده هو قاضى العالم » ــ ويفوت رودلف أيضا أن يلاحظ ما فى هذه الشهادة من اقرار بصفاء فكرة التوحيد فى الاسلام ونزاهة التصور الاسلامى لله ولحكمه وقدرته ، رغم أنه يعود اليها دون جدوى فى صفحة 140 فيقول : ــ « ومهما يكن من أمر فعلى المرء أن لا يبحث عند محمد عن شىء يشبه المحاكمة العالمية عند عيسى . ففى ذلك معارضة لانفراد الله بالسيادة ، الله الذى « **لم يكن له شريك فى الملك** » ــ » . ــ ويقول أيضا فى نفس الصفحة : ــ « وبوجه عام ، فمع عظم ما اعتقده محمد تحت تأثير المسيحيين فى عيسى فقد كان دائما يرقب فى حمية أن لا يتطرق من جراء ذلك صدع الى وحدانية الله » .

9 ــ وفاته أيضا أن يلاحظ نقاء الفكرة الاسلامية عن الملائكة رغم مروره عليها فى صفحة 129 التى يقول فيها : ــ « بيد أن محمدا ، لم ير أن يكون جبريل هو الذى انتج عيسى ، اذ كان من العسير عليه أن يوفق بين مباشرة الملائكة للوظائف الجسدية مع الناس وبين آرائه عن الملائكة » .

10 ــ وفى ما أسماه بالاقتباسات لم يلاحظ الفروق التى تجعل النص القرآنى أكثر علمية ومعقولية : ــ

أ ــ فهو لا يلاحظ فى صفحة 16 أن النص المسيحى « الشمس تعرف مغربها تجعل ظلمة فيصير ليل » يحمل معنى أن حركة الشمس هى سبب الليل وهذا ما يتناقض مع العلم ، وهذا ما لا تجده

فى النص القرآنى. وقد ألفت كتب كثيرة فى هذا الشأن ولعل من أهمها كتاب موريس بكاى « التوراة والقرآن والعلم » الذى أثبت فيه تهافت نصوص التوراة الحالية وصحة النصوص القرآنية فى ضوء العلم المعاصر .

ب – وفى صفحة 28 يقول رودلف من انجيل متى : – « احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم والا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماوات » . – وهذا النص يحرم المجاهر بصدقته من أى اجر فى الآخرة وليس هذا عدلا ، خاصة أن الجهر بالصدقة قد يفيد فى اشاعة الخير عن طريق الاقتداء لذلك قال النص القرآنى : **« ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ».** – فالاخفاء مفضل على الجهر ، ولكن للمجاهر أجرا لا خلاف فيه وان كان أقل من المخفى لها ، وهذا الفرق يتماشى تماما مع العدل الالهى وحكمة الاقتداء الاجتماعى .

ج – ويفوته فى صفحة 26 أن يلاحظ فى النص الانجيلى « وأقول لكم أيضا ان مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله » – أن الثراء فى حد ذاته كافيا لمنع صاحبه من الدخول الى الملكوت ، بينما الثراء فى حد ذاته ليس ذنبا ، وفى الاسلام لا يذنب الثرى الا اذا كان مصدر ثرائه غير مشروع أو ارتبط الثراء بالاستغلال أو البخل أو التمطيل عن المشاركة فى الحياة بالكنز والاخفاء .

اعترافات المؤلف :

يعود المؤلف فى صفحة 33 فينفى صفة الاقتباس عن الكثير مما أسماه بالمقتبسات فيقول : – « فان الكثير منها – أى المقتبسات – مثل رقم 1 ، 3 ، 19 ، 23 ، 25 من العهد القديم لا تستحق أن تسمى مقتبسات » . – ولا غرو فى هذا التردد فان الكاتب يعترف فى أكثر من موضع بالكتاب بقلة أو انعدام معلوماته التى يبنى عليها أحكامه المختلفة . ونجد أمثلة ذلك فيما يلى : –

1 – فى صفحة 7 فرض أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا الطريق على نحو ما الى مكة ، وان لم يكن ثم ما يثبت أنه كان بها يهود أو مسيحيون فى عهد محمد » .

2 – وفى نفس الصفحة : « ومن المهم أن نتبين : أكان العرب الجاهليون قبل محمد يعرفون من الافكار اليهودية – المسيحية أكثر مما كنا نظن حتى الآن. الا أنا لنجد انفسنا ، لسوء الحظ ، واقفين فى هذا المجال على أرض متمورة » .

3 ـ وفى نفس الصفحة : ـ « ومن المهم الآن أن نعرف مدى ثقافة أولئك اليهود والمسيحيين العرب وحظهم من العلم والمعرفة ، بيد أنا لا نجد معينا ننقع منه غلتنا » ·

4 ـ وفى صفحة 10 : ـ « وليست لدينا معلومات كافية عن العلاقات فيما بين هؤلاء الهراطقة » ـ يقصد العرب المسيحيين ·

5 ـ فى صفحة 12 : ـ « وليس فى وسعنا ـ وقد غاب جميع الشهود ـ أن نجيب عن السؤال : هل كان لدى اليهود والمسيحيين العرب المعاصرين لمحمد كتب مقدسة أم كانوا يعتمدون على النقل والسماع » ·

6 ـ وفى صفحة 43 يقول عن ورقة ابن نوفل : « فليس من المقطوع به هل كان قبل دخوله المسيحية حنيفا أم يهوديا » ـ وبعد أن يفشل فى البحث عما يمكن أن يثبت أن محمدا تعلم على يد أحد معين يقول فى صفحة 44 : « ومن ثم فلنتخل عن محاولة ذكر اسم معلم محمد » ·

7 ـ وفى صفحة 46 يقول : ـ « واذا تساءلنا كيف كانت كل من اليهودية والمسيحية تحد من نفوذ الاخرى على محمد، الفينا أن الملابسات والاحوال التى كانت تكتنف المسيحية العربية تجعل الاجابة عن ذلك عسيرة » ·

8 ـ وهو يعترف بعدم استطاعته اتباع منهج البحث التاريخى فى صفحة 47 فيقول : ـ « يقتضينا منهج البحث التاريخى أن نكشف عن المؤثر الذى تأثر به محمد· ذلك أمر غير ميسور » ·

9 ـ وفى صفحة 85 يقول أنه لا يستطيع الجزم فى كيفية وصول الوصايا العشر الى الرسول فيقول : ـ « وليس فى مكنتنا أن نقطع هل حدث ايصال هذه الوصايا اليه عن سبيل يهودى أو مسيحى » ·

10 ـ وفى صفحة 96 يبنى حكما لا ريب فيه مقتضاه أن محمدا أخذ صورة الصلاة الاسلامية تقليدا لصورة يهودية ـ مسيحية ، ولكنه يكمل ذلك بقوله : ـ « بيد أننا لا نستطيع أن نجزم هل هو أخذ الصلوات الثلاث عن صلوات اليهود الثلاث أم عن الصلوات التى يقيمها الرهبان المسيحيون (كل صباح وظهر ومساء) » ·

11 ـ وفى صفحتى 113 ، 114 لم يلتفت مثلا الى فكرة العدل الثاقبة فى خلو القرآن من أى شىء عن وراثة الذنوب رغم اعترافه فيهما بقوله : ـ « ولكنا لا ندرى أكان للتعاليم الخاصة بهما ـ أى وراثة الذنوب والخلاص ـ ،

على عظم شأنهما فى المسيحية ، اى شأن عند الشيع المسيحية الشرقية ؟ واذا كان الامر كذلك فمن يدرينا أن محمدا قد أحاط بهما خبرا ؟ » ٠

اكم من المغالطات والاخطاء :

وقد كان الموقف المسبق الذى تحدثنا عنه الى جانب نقص وانعدام المعلومات الضرورية للكاتب سببا فى ظهور المغالطات والاخطاء كسمة بارزة بطول الكتاب وعرضه ، ونعدد منها بالاضافة الى ما سبق ما يلى : ـ

1 ـ فى حديثه عن عام الفيل يؤرخه بعام 525 م٠ بينما التاريخ الصحيح هو 570 م٠ (انظر كتاب حياة محمد لمحمد حسين هيكل صفحة 118) ـ يتحدث رودلف فى صفحة 6 فيقول : « ولكن الهزيمة حاقت بها فعادت أدراجها وأفل نجم المسيحية فى جنوب البلاد العربية على صورة ما » ٠ وهو لا يحلل أسباب هذه الهزيمة التى حاقت بها لانها دليل العناية السماوية بتلك الكعبة التى أنكر فى صفحة 78 أن يكون ابراهيم واسماعيل قد بنياها ، ولكن المغالطة اكثر وضوحا فى اعتباره ان أسباب هذه الحملة كانت دينية ، فمما لا شك فيه أن الهدف من حملة الفيل لم يكن نشر المسيحية، ولكنه كان نقل المركز التجارى والاقتصادى من مكة الى اليمن ، حتى أن ابرهة الاشرم المسيحى قد بنى بيتا مزخرفا باليمن ليصرف الوثنيين العرب اليه بدل الكعبة ، ولو كان هدفه دينيا لما بنى هذا البيت لهم ولدعاهم مباشرة الى اتباع دينه ٠

ورودلف يقرر فى نفس الصفحة وبنفس الطريقة أنه « لو لم يظهر الاسلام فى تلك الفترة لاصبح شمال البلاد العربية كله مسيحيا فى وقت قصير » ٠ ـ دون أن يعطى سببا واحدا لعدم حدوث ذلك طيلة ما يربو على ستة قرون قبل البعثة المحمدية ٠

2 ـ ويتحدث رودلف كذلك عن اليهود الذين علموا محمدا كما لو كانوا جهلاء ليكون محمدا ـ الوثنى ! ! ـ أكثر جهلا منهم فيقول فى صفحة 8 : ـ « ومع ذلك لقد كان اولئك اليهود على شدة جهلهم متفوقين فى العلم على من يحيط بهم من الوثنيين ومن بينهم محمد » ٠ ـ وما ورد عن اليهود بالجزيرة يؤكد أنهم كانوا أصحاب علم وكتاب لم يتوانوا عن مباهاة الوثنيين به ، ولكن الغرابة التى نسجلها على رودلف هو أنه بعد أن أثبت هنا ما يعتقده من قلة علم الرسول أثبت فى نفس الصفحة أن الرسول كان يعلم جهل هؤلاء اليهود ـ وهو تلميذهم فى رأى رودلف ـ فقال فى القرآن : ـ « **ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب**

الا أمانى » ـ فهل يستقيم أن يكون لدى محمد من العلم ما يميز به اساتذته ، فيحكم عليهم بالجهل ، الا أن يكون لديه مصدر آخر للمعرفة ٠

3 ـ وفى صفحة 9 يفهم رودلف الآية القرآنية « **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** » على أن اليهود كانوا يشعرون بأنهم اسمى من محمد ، وذلك جهل أو خطأ أو مغالطة ، فالله سبحانه قد فضل بنى اسرائيل بالرسالة على العالمين واختارهم للرسالة ، وهذا هو التفضيل الذى نفهمه نحن المسلمون لبنى اسرائيل الاوائل ، ولا يعنى ذلك بحال تفضيل عرقى أو عنصرى لان الناس فى الاسلام سواسية كلهم لآدم وآدم من تراب ومقياس التفضيل الوحيد هو التقوى وليس العرق ٠

4 ـ وفى صفحة 9 كذلك يقول رودلف عن دعوى شعب الله المختار : « وهى دعوى تقبلها محمد نفسه فى بادىء الامر حتى اذا ما تغير موقفه من اليهود حمل عليهم حملات شعواء » ٠ وهذه مغالطة تاريخية صريحة فلم يغير الرسول موقفه من يهود بل هم الذين غيروا موقفهم منه ونقضوا الصلح معه بعدما استقبلوا وصوله المدينة أحسن استقبال ليستميلوه اليهم ، ويتخذوه حليفا لهم للدفاع عن الجزيرة العربية ضد النصرانية التى لا يعترفون بها بعد أن أجلتهم عن أرض المعاد بفلسطين ٠ فلما تبين لهم أن محمدا لن يطاوعهم فى ذلك نقضوا حلفهم معه ، وتحالفوا مع الوثنيين ضده ، حتى أن قريشا قالت لوفد اليهود الذى جاء يعرض عليها الحلف ضد محمد ـ وكان فيه حى بن أخطب وسلام ابن ابى الحقيق وكنانة بن أبى الحقيق ونفر من بنى وائل هوذة بن قيس وأبو عمار ـ سألتهم قريش : يا معشر يهود ، انكم أهل الكتاب الاول وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالت اليهود : « بل دينكم خير من دينه وانتم أولى بالحق منه » ٠ والقصة مذكورة بالقرآن الكريم ـ فقد وقف اليهود الموحدين مع المشركين ضد التوحيد الذى جاء به الاسلام ٠ وبعد ذلك يدعى رودلف أن موقف محمد هو الذى تغير ؟!

5 ـ وفى صفحة 10 يرى رودلف أن كلمة نصارى بالقرآن هى « نسبة الى الناصرة ليدل على صلتهم باليهود وكونهم ليس سوى شيعة من الشيع » ٠ بينما النصارى منسوبة الى الناصرى أى الى المسيح فهى كلمة تفيد صلتهم بالمسيح الناصرى وليس باليهود كما يستنبط رودلف ٠

6 ـ وفى صفحة 10 يقر رودلف أن محمدا كان على علم بانقسام المسيحيين فيما بينهم شيعا دون أن يبحث أو يشير الى مصدر هذا العلم ، وحين يتحدث عن علم الرسول بالرهبانية يقول : « محمد كان على علم بـ (الرهبانية) » · كأنـــه علم الممارسة ، فى حين انه صلى الله عليه وسلم كان يعلم بوجودها ولكنه لم يكن راهبا بحال ولم يثبت أنه استخدم طرق الرهبان فى دعوته ، بل كان صريحا فى موقفه ضد الرهبانية ، وتأكد فى القرآن أنه ما هو بقول كاهن ·

7 ـ ومن المغالطات الواضحة كذلك اعتبار رودلف فى صفحة 12 أن آيـــة المصباح فى سورة النور يمكن أن يكون المصباح فيها هـــو مصباح المتعبدين · والآية تصف المصباح أقرب ما يكون الى المصباح الكهربائى ، وليس الى مصباح الزيت والشحم ، فرغم ذكـر الزيت فى الآية الا أن وصف المشكاة التى فيـــها مصباح فى زجاجة والزجاجة كوكـب درى يكاد زيتها يضىء « **ولو لم تمسسه نار** » · وهذا ما لاحظه الدكتور صبحى الصالح فى نقاش لـه عـلى التليفزيون اللبنانى ·

8 ـ وحين يتحدث عن قصة طالوت (شاوول) وجالـوت يعتقـد الخطـأ فى النص القرآنى لان التوراة تتحدث عن جدعون بدل شاوول ، ولا يشك لحظة فى أن يكون الخطأ ـ ان كان هناك خطأ ـ فى النص التوراتى المحرف · ونقول ان كان هناك خطأ لاحتمال ان تكون قصة جدعون هذه قصة أخرى لا تمـــت الى قصة شاوول بصلة ·

9 ـ وهو يعتبر أن محمدا قد خطـــأ حين وصف مريم أم عيسى على أنها أخت هارون أخو موسى فى زمان بعيد ، لان هارون وموسى كان لهما أخت تسمـى مريم أيضا ، ولم يكن رودلف ليقع فـى هذا الخطأ لو تذكر مبدأ الاخوة الاسلامى الشهير « انما المؤمنون اخوة » و « المسلم أخو المسلم » ·· فقد اطلق القرآن على مريم حارسة المعبد وصف اخت هارون الذى كان هـــو أيضا حارسا للمعبد ، وذلك طبيعى جدا من وجهة نظر المفهوم الاسلامى ·

10 ـ يفهم المؤلف فى صفحة 36 أن محمدا اعتبر هامان وزير ملـك فارس هـو نفسه وزير فرعون ، وهذا فهـم خاطىء ، لان هامان فرعون غـير هامان الملـك الفارسى ، ويؤيدنا فى ذلـك أن رودلف يظـــن أن الصرح المذكور فى القرآن هو نفسه برج بابل ، والمعروف أن برج بابل قد بنى بعد الطوفان فى زمان سابق بكثـير عـلى زمان فرعـون وهامان وموسى · ويكفى أن نطلع عـلى

الوصف الذى نقلـه رودلف من التوراة الحالية فى صفحة 36 لنعـرف تفاهـة التصور التوراتى للالـه فى هذا النص الذى يجعل الاله غيورا دون حق ويكيد للناس عن غير حق ويمنع العمران عـن غير حق ويشتت الناس عن غير حـق ، ويقول النص : « وكانت الارض كلهـا لسانا واحدا ، وقالوا هلم نبن لانفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الارض ، فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان آدم يبنونها • وقال الرب هو ذا شعب واحـد ولسان واحـد لجميعهم ، وهذا ابتداؤهم بالعمل • والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه • هـلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض ، فبددهم الرب من هناك على وجه كل الارض ، فكفوا عـن بنيان المدينة ، لذلك دعى اسمها بابـل لان الرب بلبل لسان كل الارض ، ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الارض» •

11 ـ ومن المغالطات الغريبة كذلك ادعاء رودلف فى صفحة 37 أن محمدا وضـع قارون خطـا فـى بلاط فرعون مستشهدا بالآيـة القرآنية : « **وقارون وفرعـون وهامان ولقـد جاءهم مـوسى بالبينات فاستكبروا** » ـ فالآيـة لا تعنى كما هو واضح أكثر من أن قارون كان فى زمن فرعون ، ولا ندرى من أين أتى رودلف بهذا الادعاء الغريب •

12 ـ وحـين يسرد القـرآن أسماء الانبياء والرسل جنبا الى جنـب يعتقد رودلف فى صفحة 37 أن ذلك خلطا من محمد بين أنبياء العهـد القديم وانبياء العهد الجـديد مـع أن تقسيم اليهـود والمسيحيين الزمان الى عهـدين قـديم وجديد غير ملزم اطلاقا للمسلمين ، وأن ذكـر الانبياء والرسل جنبا الى جنب يتماشى تماما مع الاعتراف العام بهم على أنهم اخـوة فى الايمان أرسلهم الله الواحد • ومن الطبيعى أن يذكرهم الله بهذا الشكل فى القرآن لانه لا يفـرق سبحانه بين عهد قديم وعهد جديد تعارف عليهما البشر يهودا أو مسيحيين •

13 ـ ونفـس الاستنتاج الخاطـىء نجده مرة أخرى فى صفحة 39 حـين يظن أن فى قصة البقـرة المذكورة فى سورة البقرة بالقرآن خلطا بـين أمرين من أوامر التوراة هما : 1) الامر باتخاذ رماد بقـرة حمـراء مـادة للتطهـير • 2) التكفير عن جريمة القتل التى تقترفها أيد مجهولة بفرس ـ اى دق ـ رقبـة عجلة • ونحن نرى أن لا هذا ولا ذاك ذو صلة بالقصة التى نظن انها ربمـا تكون قد حذفت من التوراة لما تشتمل عليه من اشارة الى لـؤم وجدل وعند

اليهود . فقصة البقرة فى القرآن لا صلة لها بموضوع الطهارة عند اليهود ، كما أن البقرة فى القرآن قد تسببت فى نطق القتيل واخباره عمن قتلـه ، ولكن فى الامر الثانى الذى ذكره رودلف وهـو « التكفير عن جريمة قتل » يظل قاتلها مجهولا الى الابد .

14 ـ ثم يخطىء المؤلف خطا جسيما حين يتعرض فى صفحة 67 للآية الكريمة « **رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من امـره على مـن يشاء من عباده** » . فيقول : « هنا تتراءى فى جلاء سلسلة اشتقاقات اللـه ـ أمر ـ روح ، وهذه السلسلة تطابـق مطابقة تامـة تعاليـم الثالوث المتدرج الذى تنبثق فيه الكلمة من الله والروح من الكلمة » ـ رغم أنه يعترف أن محمدا قـد حارب التثليث فيقول فى نفس الصفحة : « ذلك الثالوث الذى كافحه محمد فيما بعد بسبب سوء فهمه لـه بعد أن كان قد اقترب منـه كثيرا » . فالرسول قد كافح الثالوث فى رأى رودلف بسبب سوء فهمه ، ولـو كان قد فهمه جيدا لما كافحه ، ويتناسى رودلف رأيه فى أن محمدا كان يرقب فى حمية أن لا يتطرق أبدا الى صـدع الى وحدانية الله المنفرد بالسيادة والملك .

15 ـ ويجهد المؤلف نفسه فى البحث عن الاصول الآرامية او العبرية لكلمات كثيرة ذكرت فى القـرآن مثـل : الـلـه السموات والارض ـ الرحمـن ، وغيرها فى الصفحات 6 ، 58 ، 63 ، 91 ، 101 متجاهلا فى هـذا الالحاح أن الآرامية احـدى اللغات السامية التى سـاهمت بدور كبير فى نشوء العربية والعبرية ، ولا يستغرب لذلك وجود هذه الكلمات فى البيئـة العربية قبـل الرسالـة ، ولا يشكل وجودها دليـلا علميـا عـلى اقتباس النبى لها من جهات أخرى .

16 ـ لقد كان فى مقدور رودلف أن يتجنب كل هذه الاخطاء لو حاول تفسير ما وصـل اليـه فى صفحة 47 مـن أن « الدوافع الاولى لتنبؤ محمد لم تكـن اجتماعية أو سياسية بل دينية » ، وما وصل اليه رودلف فى هذه العبارة حقيقة ثابتة من سيرة الرسول من أول دعـوته الى يوم موته . ذلك الرسول الحريص على المؤمنين ، المتواضع لهم ، العامـل بيده معهم ، الفريد فى اخلاقه بشهادة الاعداء والاخلاء .

لقـد كان طبيعيا ومنطقيا أن تنتهى حياة رجل تلك هى سيرته دون أن يكون فى حوزته سوى سبعة دنانير ، تصدق بها وهو على فراش الموت قائلا « ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه » . ولكن رودلف لم يقف طويلا عند هـذه الحقيقة التى وصل اليها .. ولم يسال

عن دوافع أساتذته المجهولين الى تعليمه وتزويده بكل هذه المعلومات ، لماذا لم يدعوا هم النبوة ؟٠٠ لماذا لم يدعوا محمدا الى اتباع اديانهم أيا كانت يهودية أو مسيحية ؟٠٠ ما الفائدة التى جعلتهم يواصلون تعليم الرسول فى مثل هذا النكران للذات والايثار المتناهى حتى لم يكتشف المسلمون المحيطون بمحمد صباحا ومساء هؤلاء المعلمين ؟٠ وأين كان يمكن له الاجتماع بهم بعيدا عن أعين المسلمين جميعا ؟ ، وما سبب اسلام الكثيرين من أحبار اليهود كعبد الله بن سلام اذا كان محمد مبتدعا ومقتبسا كما يدعى رودلف ؟ ، وما دفع محمد الى تحمل كل هذا الاذى ومعاداة القوم ما دام بطبعه لا يحب الظلم والعدوان ولا يطمع الى حياة الملوك التى لو أرادها لما امتنعت عليه ٠

يقول رودلف فى صفحة 71 « كان أهم شيء لديه ـ يقصد محمدا ـ أن ينذر قومه ، الذين لم يكن قد أرسل اليهم قبل منذر ، بخطر المحكمة ـ اى يوم القيامة ـ وباهوا لها قبل فوات الآوان» ـ واذا كان ذلك قد صح لدى رودلف فيحق لنا أن نعجب لانه لم يفكر فى تفسير عدم اعتناق الرسول لليهودية أو المسيحية ، خاصة بعد ايمانه هذا بخطورة اليوم الآخر ورهبته الشديدة منه ، وكيف يستقيم فى المنطق أن يخشى الرسول هذه المحكمة الى هذا الحد ثم يكذب على قاضيها ويأمن غضبه الى حد الادعاء بأنه مرسل من طرفه الى الناس كافة ٠

وكيف استقام لرودلف هذا الحكم الراسخ على الرسول بالكذب رغم علمه بأن محمدا الصادق الامين « كان له من حياته واعماله ما يوحى بصدق رسالته » ص 43 ٠

وما الهدف ؟

كان من الطبيعى بعد كل تلك الاخطاء والمفتريات أن يحاول رودلف جنى ثمارها فى عالم السياسة المعاصرة ، وذلك ما لم يتضح الا فقط فى آخر صفحة بالكتاب فى قوله : « ان الاسلام مهما تفوت على تلك الشيع المسيحية فليس يصح أن يوضع فى مرتبة واحدة مع مسيحية العهد الجديد ٠ ان هذه المحاولة التى طالما تكررت فى هذه الايام ، ولا سيما فى عهد الحلف الالمانى التركى ، بغض النظر عن التباين القائم وان اشتد التشابه الظاهرى ، مثال ذلك أن الله هو الرحمن الرحيم بيد أن رحمته هى رحمة الطاغية الذى يعروه مزاج حسى لا الحب الرحيم من الاب السماوى الذى يراعى فى أعماله أسمى الاغراض » ٠ ـ وردولف لا يكتفى فى هذه العبارة

باهانة الرسول صلى الله عليه وسلم كما في باقى الكتاب ، بل يتجرأ على اللـــه سبحانه فيصفه بالطغيان والهوى المتقلب لقد كان حريا برودلف ـ لـــو أراد أن يتبـع منهجا علميا ـ أن يتبنى أحـــد موقفين ٠

ـ فاما أن يعتبـر الاديان الثـلاثة خرافات وأساطير واكاذيب ، وبالتـالى لا يكون هناك مجال لتلك الاشادة بالاب السماوى الرحيم الذى يراعى فى أعماله أسمى الاغراض ٠

ـ واما أن يعتبرها كلها أيضا بـما فيها الديـن الاسلامى أديانا سماوية ، فينتفى الاساس الذى أقـام عليه هـذا البحث غير الموضوعى ٠

أما أن يتخـذ هذا الموقف العـدائى تجاه رسالة الاسلام فقط فأمر غير علمى اطلاقا ، لان اليهود يدعون بدورهم أن المسيح كان كذلك كاذبا مـدعيا ، وأن المسيحيين قـد اقتبسوا مواد دينهم مـن اليهودية ٠ وفى المقابل نجـد أن أبحاثا عديدة قد وضحت الكثير من التحريفات فى نصوص التوراة الحالية ، ومنها ما ذكره محمد عزة دروزة فى كتابه القيم « تاريخ بنى اسرائيل مـن اسفارهم » حيث أثبت أن التوراة الحقيقية مفقودة تماما ، وأن التوراة الحالية ما هـى الا حكايات ، مجهول كاتبها ومجهول زمان كتابتها ، والحديث فيها دائما عن موسى بصيغة الغائب ، وفى الاصحاح 24 مـن سفر الخروج يقـول الراوى المجهول : « فكتب موسى جميع كلام الرب » ٠ ولم يعثر احد أبدا على هذا الذى كتبه موسى من كلام الرب حتى الآن ٠

فموقف رودلف من القرآن والتوراة والانجيل لـم يكن علميا ولا موضوعيا ، فهـــو لم يناقش ما كتب عن تحريفات الكتب السابقة ، ولم يناقش ما قيل فى اعجاز القرآن مما يثبت أنه كتاب سماوى بلا أدنى شك ، ولعل آخر ما كتب فـى ذلك اكتشاف الاعجاز العددى للقرآن ، بواسطة الحاسب الاليكترونى على نفقة المركز الاسلامى بجامع توسان بأمريكا ، ونشر فى العديد من الصحف والمجلات العربية والاجنبية ٠ ولا يوجد ما يوحى باطلاع رودلف على ما كتب فى هذا أو ذاك ، ورغم ذلك لم تجـــد دار الطليعة للطباعة والنشر بأسا فى وصف الكتاب بسعة الاطلاع وغزارة المعلومات ٠

ويجدر بنا أن نشجب أسلوب الاتجار والمزايدة باستعمال هـذه الاوصاف أو غيرها من الكلمات الطنانة مثل «العقلية الموضوعية» و «العلمانية» و «التحـويل الديمقراطى للمجتمع» ٠٠ تلك الكلمات التى أفلسها الاسراف الشـــديد فـى

استعمالها ، حتى تغرب معناها وتبدل مضمونها • هذه المتاجرة التى نجدها فى الغلاف الاخير من كتاب رودلف فى التعليق الذى يقول : « السمة الاساسية لهذا الكتاب ، علاوة على سعة الاطلاع وغزارة المعلومات ، العقلية الموضوعية والعلمانية التى هى العماد الذى يقوم عليه التحويل الديمقراطى للمجتمع » •

ولعل هذه الكلمات كانت سببا رئيسيا فى اخفاء حقيقة الكتاب ، مما سمح له بالتسلل الى الجزائر المسلمة المعتزة باسلامها •

انسان القرآن وانسان الشيطان (*)

محمـد الصالح الصديق

خلق الله الانسان نموذجا عجيبا فى هذه الحياة ، جمع بـين العالمين : المادى والروحى وهـو بروحه يشارك أهـل السماء فى العلـو والصفاء ، وبجسده يعيش فى الارض ، ويشارك الحيوانات فى تعاطى أفعالها ويقضى فى هذا الوجود وقتا محددا ثم هو تراب فى تراب ٠

وللاتقاء هذين العنصرين المتضادين فى الانسان أى لكـونه سماويا وأرضيا نال ميزة التكريم ، واستخلفه اللـه فى هذه الارض ، وجعله فيها سيد الكائنات.

ولخطورة هـذه الخلافة ، وثقـل تبعاتها ومسؤولياتها أودع اللـه فـى الانسان من قـوة التمييز ، والادراك ، والارادة ، والاختيار ، ما يحقق به رسالته فى هذه الحياة ٠

ثم من فضل الله على الانسان ، أنه أنزل عليه القرآن ، ورسم له فيه المعالم والانظمة والحدود ، التى عليها تتـرتب استقامة الانسان ، ثم بالتالى تأديته لمهام رسالته خير تأدية ، اذا هو أحكم النظر ، واستغل العقل فى الانتفاع بها ، وسخره فى البحث السليم ، والدراسة الهادفـة المتزنة ، دون مغالاة أو تطرف :

(مـن عمل صالحا فلنفسه ، ومـن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (1) ٠

(وقـل الحق من ربـكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (2) ٠

(فمـن ابصر فلنفسه ومـن عمـى فعليها) (3) ٠

(قل كل يعمل عـلى شاكلته فربكم أعلم بمن هو اهدى سبيلا) (4) ٠

(*) هذا المقال من كتاب « فى ظل الاسلام » الذى سيصدر قريبا للكاتب ٠

(1) فصلت الآية 46 ٠

(2) الكهف من آية 29 ٠

(3) الانعام من آية 104 ٠

(4) الأسراء من آية 84 ٠

(ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلحْ من زكاها وقد خاب من دساها) (5) ٠

(فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون) (6) ٠

ففى هذا الكتاب المبين ، الذى يصل الارض بالسماء ، ما يرقى الانسان الى أسمى مكانة يحلم بها المصلحون فى هذا الوجود ، ويضمن له بعد هذه الحياة حياة أخرى « فيها ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (7) ٠

فالانسان اذا اعتصم بالقرآن ، واستضاء بتعاليمه وأنظمته وتوجيهاته ، كان انسان القرآن الذى تسعى من أجل صنعه الاديان السماوية ، على اختلاف عصورها وأصحابها ٠ وقد تفتح العقل البشرى لهذا الكتاب ، وتفاعلت النفس مع تعاليمه ، ووعى القلب أحكامه وأسراره ، فكان ما كان من تأثيره العجيب فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم فى التابعين بعدهم ٠

فبينما كان الانسان فى الجاهلية فى الدرك الاسفل من الانحطاط العقلى ، والنفسى ، والروحى ، يعاقر الخمر الى حد الادمان ، ويماجن الى حد الاستهتار ، ويطمع الى حد الجشع والنهامة ، ويقسو ويظلم الى حد الوأد وقتل الاولاد ، ويرتكس فى عادات وتقاليد لا أسخف منها ولا أحط ، ويعبد الاصنام والنجوم ، فاذا بالقرآن الكريم يحول هذا الانسان الذى حاطت به أسباب الفناء العاجل من كل جهة ــ الى انسان آخر مهذب النفس ، سامى العواطف ، رقيق الشعور ، حر التفكير ، يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئا ، ويضحى بماله ونفسه فى سبيل عقيدته ، ويحب لاخيه المسلم ما يحب لنفسه ، ويحارب الفساد ، ويقاوم العادات السيئة ، وينشر العدالة والمساواة والاخاء ، ويتحفز للتضحية والاستشهاد فى سبيل صيانة الحقوق والحرمات ٠

واذا أردت أن تسمع وصفا دقيقا موجزا لهذه النقلة الضخمة العجيبة ، التى لم يعرف التاريخ مثيلها فى مختلف العصور ، فارهف أذنيك واستمع الى جعفر بن أبى طالب وهو يجيب النجاشى أمبراطور الحبشة ، وقد سأل المهاجرين عن وصف الاسلام يقول :

---

(5) الشمس الآيات 7 ــ 8 ــ 9 ــ 10 ٠
(6) الانبياء الآية 94 ٠
(7) رواه مسلم ٠

(كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الارحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الامانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به ٠٠ فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك) ٠

وفى هذه الاجابة الدقيقة الوجيزة ، وصف للعرب وأخلاقهم قبل الاسلام وأثر الاسلام فيهم بعد أن اعتنقوه عن عقيدة وايمان ٠

وغير خاف اذن أن الذين انتفعوا بعقولهم وحكموها فيما جاء به القرآن الكريم من شرائع ، ومبادىء ، وتوجيهات قد ارتفعت عن بصائرهم غشاوة الجهالة واضاء أمامهم سبيل المعرفة فتحرروا من أغلال التقليد وأسر محاكاة الآباء الاولين لانهم اتبعوا ما أنزل الله ٠

وأما الذين طبع على قلوبهم ، وخيمت على عقولهم سحب الوهم واستبدت بها الضلالة وزاغت بها الاهواء ، فهؤلاء كلما دعوا الى تعاليم القرآن وشرائعه وهجر ما ألفوه مما لا يقره الاسلام ولا يتفق ومكانة الانسان فى هذا الوجود ، رفضوا الاستجابة وأصروا على التشبث بما وجدوا عليه آباءهم وان كان ذلك لا يقبله المنطق ويتناقض مع الواقع وليس من العدل فى نظرهم أن يتنكروا لما عليه الآباء والاسلاف ٠

وما أجمل أن نسمع من القرآن الكريم تنديده بهؤلاء الجامدين وتشنيعه بسخافة عقولهم التى عطلوها عن أداء وظيفتها ٠

قال تعالى :

(واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) (8) ٠

وسواء أكانت هذه الآية تعنى المشركين الذين تكرر منهم هذا القول

(8) البقرة الآية 170 ٠

كلما دعوا الى الاسلام أم تعنى اليهـود الذين كانوا يصرون على ما عندهم مـن مأثور آبائهم وأجدادهم فان لهم أشباها ونظائر بين المسلمين فى كل عصر وفى كـل بـلد ٠

وهؤلاء هـم الذيـن ينتسبون الى الاسـلام ويؤدون شعائر منه ، ولكنهم انحرفوا عن جادته ولم يتقيدوا بما أنزل اللـه ٠

فتـراهم يؤمنـون بالدجالـين ، والمشعـوذين ، ويستمسكون بالـعادات الزائفة التى وجـدوا عليها آباءهـم ، ويتشبثون بالبدع والخرافات ، ويتكلون على الاموات ويتمسحون باضرحة الاولياء ويترامون على أعتابها ، ويشدون الرحال اليها للاستـعانة والاستشفاء وقضـاء الحاجات ٠

وكم فقيرات فى القرى لم يجدن ثوبا يلبسنه ، وتوابيت الاولياء قد لبست من الحرير ، وأنـواع مختلفة مـن الاقمشة ما يكسو عشرات منهن بل مئات وآلاف ٠

(واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) ؟

وما تـزال الاحتفالات التى تسـمى الموالد ، تقام فى بعض البلاد الاسلامية تقربا الى الله وهو زعم باطل يعرفه من شاهد هذه الاحتفالات لانها فى الحقيقة اسـواق للفسوق ، وحانات للخمـور ، ومراقص تعرض فيها الاجسام فى خلاعة ومجون واستهتار ٠

وكم من حرمات تنتهك فيها ، وكـم من منكرات ترتكب فيها ، وبعض هذه الاحتفالات تقام فى المقابر ، وفى أضرحة الاولياء والصالحين ٠

(واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) ؟

فالآية الكريمة تنتظم هؤلاء ، وأولئك وتستهدفهم جميـعا بالنـعى والتشنيع والسخـط ٠

وأى فرق بين المشركين الذين تعصبوا لما عليه آباؤهم وتنكروا للاسلام وبـين (انصاف) المسلمين الذين حرفوا الاسلام وشوهوا وجهـه وحطـوا مـن قيمته ، وجعلوه مثار السخرية والانتقاد من قبل الاجانب ٠

واذا كان هناك من فـرق فهـو أن المسلمين الذين ألحقوا بالاسلام ما ليس منه وسخروا أنفسهم للبدع والخرافات والشعوذة أشد خطرا على الاسلام من غير المسلمين ٠

والعجيب أن هؤلاء قد أنسوا بالاوهام والاباطيل ، والخرافات ، التى اغـرقوا

فيها الاسلام واستوحشوا من شعائـــر الدين ، وتعاليم القرآن حتى اذا ما دعوتهم الى نبذ ما هـــم عليـه هاجوا وثاروا ، ونعتوك بالكفر والالحاد ، وحاجوك بعمل فلان ، أو قوله ، أو سكوته ، فكأن فلانا محمد صلى الله عليه وسلم ، يعمل بقوله وعمله وسكوته ٠

وقد قلت يوما لرجل من هؤلاء ان ما أنت عليه ضلال وطريق الى الشرك وكان قد بنى قبة على ضريح شيخ ، وأنفق فى زخـرفتها ونقشها واضاءتها بالكهـرباء أموالا طائلة وذكرت له ما روى من أن النبى صلى اللـه عليه وسلم أمر علـيا ابن أبى طالب أن يسوى بالارض كـــل قبر ، وأن يهدم كل صنم (9) لانهما فى الضلالة سواء ٠

فتأفف الرجل وقال فى حسرة وألم :

ما أفسـد الاسـلام الا الملحدون ، والعلماء المصريون فالملحدون ينكـرونه والعلماء يحاربونه ٠

وهكذا أنس هؤلاء بالبدع والخرافات فظنوها من صميم الاسلام ، ومن حاول محاربتها والقضاء عليها عـد فى نظرهم زنديقا أو كافرا ، أو محاربا للاسلام ٠

تحدث راهب فى الجزائر مع أحـــد الاساتذة منذ أيام فى شأن الاسلام ثم قال له : (ما أشبه دينكم فى صفائه ونقاوته وطيبه ، بالعطر ، ولكنكم أضفتم اليـه مادة قذرة منتنة فصار بها متعفنا ٠ أما ديننا فكان كالماء الآسن المتعفن ، فأضفنا اليه مادة نقية عطرة ، فصار بها بهجـة للناظرين) ٠

ان هذا القول جدير بالتأمل والاعتبار سيما من رجال الدين الذين تقع عـــلى كواهلهم عهدة الدين ومسؤوليته ٠

فليتخذ هؤلاء الرجال ، مـن عزمهم سلاحا ماضيا ، ومن ارادتهم سيفا قاطعا ومن ايمانهم قوة ماحقة ، يحاربون كل ما هو دخيل على الاسلام ، حتى يعـود الى أصله وصفائه وقوته ٠ وان تقاعسوا عن الواجب ، وناموا عن الحـــق ، وسكتوا سكوت الموتى فلينتظروا مع الله حسابا عسيرا ، وخزيا مبينا ، حينما يساقون لساحة حق ، وميزان عدل ٠

---

(9) رواه مسلم ٠

الهجـــرة

و

دار النــــدوة

«تمثيليـــة ذات خمســـة فصـــول»

الشيخ عبد الرحمن الجيلالي
مـؤرخ جزائري

الفصـــل الاول

فى بادية المدينة ـ يثرب ، ما بين النخيل ، القوم يتسامرون تحت ضياء القمر ... وحولهم الخيام ...

مشهــــد ـ 1 ـ

ذكـــوان ـ **يخاطب الجماعة :** ... ولكنكم انتم كتمتم عنا رحلتكم الى مكة ، واخفيتم عنا لقاءكم بمحمد فى العقبة ولم ندر عن محادثتكم معه هنالك شيئا ؟ ... فكيف كان ذلك ؟ ...

ابـن زرارة ـ انما كنا نترقب الفرصة السانحة والوقت المناسب لنحدثكم عن ذلك ...

ذكـــوان ـ **ساخرا :** ولعلكم كفرتم بدين قومكم وتنكرتم لقوميتكم ووطنيتكم الموروثة أبا عن جد ! ... واتبعتم محمدا ؟ ...

ابـن زرارة ـ ليس بذاك ، ليس بذاك !.. ولكن ها نحن نقص عليكم الحادثة كما هى ، ثم انظروا فيها ...

ذكـــوان ـ هات يا سعد حدث ! ...

ابـن زرارة ـ **لابى الهيثم :** تقدم يا أبا الهيثم وانشر بيننا حديث شعب العقبة.

ابـو الهيثـم ـ أتشرف ! ... لقـــد كان ذلـك أيها الرفقاء فى منتصف أيـام التشريق حيث كنا يومئذ نحو السبعين رجلا وأمرأتين ... حتى اذا جاء وقت الموعد المعين بيننا وبين محمد صعدنا لانتظاره.

ذكــــوان - مقاطعا : وهل انتظرتموه طويلا ؟ ...

ابـو الهيثـم - لا ، بل جاءنا فى الموعد بالضبط ، ولم يخلف وعده .

ابــن زرارة - وكيف يخلف وعده وهو مثال الوفاء والصدق والامانة فى قومه حتى انه عرف بالامين عندهم .

ذكــــوان - وهل جاءكم وحده منفردا ؟ ...

ابـو الهيثـم - لا ! ... بل جاء يصاحبه عمه العباس بن عبد المطلب .

ذكــــوان - ساخرا : ... انها لشجاعة ... لماذا لم يحضر وحده بمفرده ؟

ابـو الهيثـم - انما كان اجتماعنا ليلا فى الخفاء ... متحمسا ! ثم ما يهمك أنت من ذلك ؟ ... لقد كانت مصاحبة العباس له ليستوثق منا لابن أخيه ولقومه بعد ذلك .

عــويــم - دعونا من كل هذه المناقشة الفارغة ... ... وحدثونا عن الغاية والمقصود بالذات من هذا اللقاء ... فبماذا تكلم محمد ؟

ابـو الهيثـم - كان أول من تكلم عمه .

ذكــــوان - انما قصدتم محمدا أم عمه ؟ ! ...

ابـو الهيثـم - بل محمدا ... ولكن لا تنس ان عمه سيد وعظيم من رؤساء قريش ... وزد الى ذلك ان محمدا نفسه لما قدم لنا عمه قال هذا بقية آبائى .

عــويــم - وكأنه بذلك يريد التحصن لنفسه ... وماذا قال العباس ؟

ابــن زرارة - قال لنا يا معشر الخزرج ، ان محمدا منا لا نسلمه ولا نخذله ، وهو بيننا فى المكان الذى تعلمونه من رفعة وعز وشرف ، وهو الآن فى سبيل عقيدته يريد الهجرة اليكم والالتحاق بكم فى يثرب بناء على عهدكم السابق له ، فان كنتم حقا من أنصاره وحزبه وتدافعون عنه حق الدفاع فها هو لكم ، وان كنتم فى شك أو ريب من امركم فدعوه لنا من الآن واتركوه بين قومه وعشيرته فى بلده .

عــويــم - ملتفتا الى الجماعة : ... وهل العباس مؤمن ومصدق بنبوة ابن أخيه ؟ ...

ابــن زرارة - لا ... بل هو ما زال على دين آبائه وقومه ... على ملة عبد المطلب .

قهقهة من خصوم محمد

عــويــم ـ **لانصار محمد** : وبماذا أجبتم محمدا ؟ ...

ابــن زرارة ـ لقد وعدناه بالنصرة وعاهدناه على ذلك .

عــويــم ـ تبا لكم ... أهكذا تبرمون أمرا عظيما كهذا عن غير تفكير ولا روية ... فهذا راى فطير . ولا خير فى الرأى الفطير ! ...

البــراء ـ ان مسؤوليته علينا . لا عليك .

عــويــم ـ أنتم وما تحملتم .

ذكــوان ـ ولكن الى حد الآن لم نعلم منكم عن محمد شيئا ... فماذا قال محمد ؟ ...

البــراء ـ ... كان بعد ما تلى علينا القرآن ... قال : أبايعكم على ان تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم . فقلنا أجل .

ابــو الهيثم ـ واعترضتهم انا قبل التعاقد على هذا بأخذ العهد منه ايضا مسبقا.

عــويــم ـ **مبتهجا فرحا** : ذاك عهدى بك والظن فيك أيها البطل الصنديد .

آبــو الهيثم ـ **مستمرا فى حديثه** : انى خشيت ورب الكعبة اذ ربما يظهر علينا وينتصر ثم يعود الى قومه ... وما يدرينا ؟ ...

عــويــم ـ وما فعل محمد وقتئذ ؟ ...

آبــو الهيثم ـ تبسم فى وجهى وأكد لى بانه منا ونحن منه . يحارب من حاربنا ويسالم من سالمنا ... وحينئذ تصافحنا معه متعاهدين على البيعة.

البــراء ـ **مفتخرا** : وكنت أنا أول من مد له يده . وقلت بايعنا يا رسول اللــه فنحن واللــه أبناء الحرب وأهل الحلقة ورثناها عن آبائنا واجدادنا الكرام كابرا عن كابر .

لنا فى كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء

ذكــوان ـ ما اطيب قلوبكم واسرعكم الى الايمان ! ... وهل بايعتموه على الحرب أيضا ؟ ...

البــراء ـ نعم بايعناه على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا وفى كل موقف كان لنا أو علينا ... وان نعلن كلمة الحق حيثما كنا . كان ذلك لنا أو علينا فلا نخاف فى الله لومة لائم .

ذكـــوان - ثم ماذا **ويقوم مستعدا للذهاب** ···

البـــراء - ثم افترقنا ·

ذكـــوان - سننظر فى الامر ··· عموا مساء **يذهب وتذهب معه البقية :** عموا مساء ··· عموا مساء ··· **ويبقى ابن زرارة والبراء ·**

مشهـــد - 2 -

أسيـــد - **يجىء مغضبا وبيده حربة :** ما جاء بكما الى هنا تعبثان بعقول ابنائنا وضعفائنا ! ··· اعتزلا عنا ان كانت لكما حاجة فى الحياة والبقاء ·

البـــراء - **مجيبا لاسيد :** أوتجلس فتسمع ؟ ··· فاذا لم يرقك أمر كففناه عنك ·

أسيـــد - **يجلس ·**

البـــراء - اسمع مرتلا : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** » ·

أسيـــد - **يتهلل وجهه :** كيف تصنعون يا قوم اذا أردتم الدخول فى هذا الدين الجديد ، دين محمد ؟ ···

البـــراء - نشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ·

أسيـــد - **متأملا** : وما هو ملاك هذا الامر وغايته ؟

البـــراء - ملاكه وأساسه مكارم الاخلاق وغايته وروحه اخلاص العبادة لله رب العالمين وحده لا شريك له واطاعة رسوله ·

أسيـــد - ما أحسن هذا ··· انه وحياتكم لدين الفطرة ·

ابـن زرارة - **لأسيد** : وما يمنعك يا أسيد ان تسلم وأنت سيد أهل يثرب ، فتزيد بذلك شرفا الى شرفك ، ورفعة الى رفعتك وتترك فى قومك منقبة خالدة خلود هذا الدين الخالد ؟ !

اسيـــد - **فى حالة قيام :** أشهد انه لا يأتى بمثل ما جاء به محمد الا نبى ! ··· ولقد تركت ورائى رجلا ان اتبعكما لا يتخلف عنه أحد - **ذاهبا** - : وسأرسله اليكما ·

ابـــن زرارة ـ على رسلك يا أسيد ··· فمن هذا الرجل الذى تعنيه ؟

أسيـــــــد ـ سعد بن معاذ سيد الاوس بلا منازع ! ··· **ياخذ حربته ويذهب.**

ابـــن زرارة ـ **للبراء** وما يدريك يا براء فلعل الله يؤيد هذا الدين على يد رجل فاجر ؟ ··· ولعله يسلم ؟ ···

البـــــــراء ـ ولان يهدى الله على يدك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس ـ **ويلتفت فيرى ابن معاذ مقبـــلا فيقــول لصاحبه ـ ابن زرارة :** لقد جاءك سيد الاوس ! ···

ابـــن زرارة ـ فالله المستعان ·

مشهـــد ـ 3 ـ

اسعـد بن معاذ ـ **مغضبا ومهددا لابن زرارة ، قائلا :** لولا قرابتك منى يا ابن زرارة ما صبرت على اذاك فى مجالسنا هذه ·

ابـــن زرارة ـ **مبتسما :** مرحبا بسعد بن معاذ سيد الاوس ··· أوما يسمع ؟ ··· فان رضيت فذاك ، وان كرهت عزلنا عنك ما تكره ·

سعـــــــد ـ أنصفت فقل ·

ابـــن زرارة ـ **يتلو مرتلا : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقــولوا اشهدوا بـانـا مسلمون » ·**

اسعـد بن معاذ ـ **بعد أن يطرق :** وكيف تصنعون اذا أنتم اسلمتم ؟··

مصعـــــب ـ ان ننبذ ونترك الطواغيت ونتجنب الاصنام والاوثان و ···

البـــــراء ـ **مقاطعا :** نعم ، نعم ، اذ هى جماذات لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنا من الله شيئا ·

ابـــن زرارة ـ أجل فذاك هو ·

اسعـد بن معاذ ـ أشهد كما انى آمنت بالله ··· آمنت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا ·

الحـاضران ـ اللـه أكبر !··· اللـه أكبر !···

اسعـد بن معاذ ـ **ينهض فيمشى خطوات يميـنا وشمـالا منـاديا :** يـا بنى عبـد الاشهد !··· يا أهـل يثرب !··· أسلموا تسلموا ··· فانى

اقسمت وآليت على نفسي باني لا أكلم اليوم منكم أحدا كائنا من كان رجلا أو امرأة حتى يسلم !٠٠٠

هنا تسمع أصوات من بعيد : اسلمنا ٠٠٠ اسلمنا يا ابن معاذ ٠٠٠ فنحن على قدمك يا سيد الاوس !

ابـــن زوارة ـ **يلتفت مشيرا بعصاه :** ها هم المهاجرون قادمون ٠

الحـاضران ـ **يلتفتان ليقتبلا المهاجرين :** مرحبا أهلا وسهلا ٠٠٠ فعلى الرحب والسعـة ٠

مشهـــد ـ 4 ـ

وهم يحملون امتعتهم وازوادهم : السلام عليكم ٠٠٠

الحـاضرون ـ وعليكم السلام ورحمة اللـه !٠٠٠ مرحبا باخواننا المهاجرين ! مرحبا بصحابة رسول الله !٠٠٠ أهلا وسهلا ٠٠٠ قدمتم خـير مقدم ٠٠٠ مرحبا مرحبا ٠٠٠

الفصـــل الثـــانى

مشهـــد ـ 1 ـ

منظر مكة وابو سفيان يماشي أبا الحكم في شوارع مكة متاملا في ابواب منـازل المهاجرين المغلقة فيتنفس الصعداء قائلا :

وكـل بيــت وان طالــت ســلامته
يــوما ستـدركه النكـباء والحــوب

ابـو سفيـان ـ أيـن آل بني مظعون ؟ ٠٠٠ أيـن آل بني جحش ؟ ٠٠٠ أيـن بنو بكـير ؟ ٠٠٠ لقد فـرق محمد جمعنا وشتت شملنا وقطـع ما بينـنا !٠

ابـو الحكـم ـ هون عليك يا أبا سفيان ، أو مثلك يهتم بمحمد ؟ وهو ذلك الرجل المشعوذ الساحر الكذاب ؟!! ٠٠٠

ابـو سفيـان ـ الا ترى يا أبا الحكم الى ما بلغ اليه هذا الصابىء من التاثير على قومنا وعشيرتنا حتى آقفرت منهم هذه البيوت والديار ٠٠٠ وقد خرج اهلها من مكة وذهبوا مهاجرين الى يثرب ٠

ابـو الحكـم ـ نعـم فليذهب عنا هؤلاء ضعفاء العقول والاغبياء وليتركوا لـنا بلدنا آمنا مطمئنا ٠

ابــو سفيــان ـ وقد بلغني انه ملتحق بهم ·

ابــو الحكــم ـ وبعد ؟ ··· فليذهب !··· أليس في ذلك راحة لنا من هوسه ؟ وهو انتصار لنا أيضا ، فيا حبذا لو يفعل ·

ابــو سفيــان ـ أنا أخشى ان ينعكس علينا الامر !؟

ابــو الحكــم ـ مستحيــل !···

ابــو سفيــان ـ انت تقول مستحيل ··· أو لا ترى ذلك الاقبال الهائل الــذى وقع على دينه بيثرب ؟···

ابــو الحكــم ـ نعم ، وما علينا نحن يا أبا سفيان اذا لم يكن ذلك من أهل مكة ··· من قريش ·

ابــو سفيــان ـ لا اظنك يا أبا الحكم تجهل موقع يثرب من بلادنا ؟

ابــو الحكــم ـ وكيف ذلك ؟···

ابــو سفيــان ـ اليست يثرب في طريقنا الى الشام ؟···

ابــو الحكــم ـ نعــم ·

ابــو سفيــان ـ فاذا تمكن منها محمد وأصحابه فايــن لنا مــن مواصلة رحلتنا صيفا الى هنالك ؟··· وكيف بتجارتنا ومصالحنا بتلك الديار ؟

ابــو الحكــم ـ نعم صدقت ، واذا فكيف العمل ؟

ابــو سفيــان ـ أرى اننا اذا لم نسرع نحن بالقضاء عليه قضى علينا هو بسرعة عاجلة !···

ابــو الحكــم ـ ما العمل ؟··· ما التدبير ؟···

ابــو سفيــان ـ لنجمع سادة العرب واشرافها بــدار الندوة حالا ولنتشاور في الامــــر ·

ابــو الحكــم ـ مرحى ··· مرحى ··· لا عدمناك يا أبا سفيان ··· فما خاب من استشار ·

ابــو سفيــان ـ البدار البدار ··· **يهرول فيصعد شرفا وينادي :** يا صباحاه !· يا صباحاه !··

مشهــــد ـ 2 ـ

الجمهــــــور ـ لبيك ··· لبيك يا أبا سفيان ··· لبيك وسعديك والخــير في يديك ، والشر ليس اليك ···

ابـو سفيـان - **خطيبا :** يا قوم ! لقد علمتم أمر هذا الساحر الكذاب ماذا صنع فى مجتمعنا هذا من تشتيت وتفريق ، وانى أرى أمـره هذا يزداد كل يوم تمكنا من القلوب وانتشارا فى الارض ... ولم يكتف بمقاومة ديننا وتسفيه أحلام شبابنا وتغيير عقائدنا حتى أصبح اليوم يسعى فى قطع معاشتنا بالحيلولة بيننا وبين بلاد الشام التى نستورد منها معاشنا ونكتسب منها ومن غيرها رزقنا وذلك بنزوله واصحابه معه أرض يثرب ،... فقد بلغنى وانه سيلتحق بهم هنالك !... فتعالوا نعالـج أمـره هذا قبل ان ينتشر خطـره ، وليتقدم السادة مـن أشراف قريش وسادتها الميامين الى دار الندوة مسرعين .

الجمهـور - **فى ازدحام عظيم :** حبا وكرامة !.. حبا وكرامة !.. الى دار النـدوة ...

مشهـد - 3 -

ابليـس - **فى دار الندوة يتقدم فى هيئة شيخ نجدى .**

ابـو سفيـان - من الشيخ ؟..

ابليـس - شيخ من أهل نجد حنكته التجارب يرجو المساهمة معكم فى هذا الاجتماع الهام ليسمع ما تدبرونه فى شان هذا المارق ، فعسى أن تجدوا عندى رأيا صائبا ونصحا مخلصا .

ابـو سفيـان - أجل ، تقدم يا سيخ .

هنا يتقدم الجمع الى دار الندوة ومعهم الشيخ النجدى

ابـو سفيـان - **لابى الحكم :** تكلم يا أبا الحكم .

ابـو الحكـم - ان محمدا قد كان من أمره ما علمتم ، ولقد اتبعه عمر بن الخطاب وهو رجل عظيم فى قريش ، ذو قوة وباس شديد ، كما انه نراه قد اعتز باسلام عمه حمزة ، وانه يتلقى الوفود مـن الناس فى المواسم والاسواق ، ولا سيما فى موسم الحج فيوسوس لهـم ويعرض عليهم دينه الجديد !.. فواللات والعزى لقد خشيت من نهضة عارمة من قبله تكون علينا فتأتى على الاخضر واليابس ... فأجمعوا فيه رأيا ؟!..

أبـو سفيـان ـ **يقول لامية :** وماذا عندك أنت يا أمية ؟٠٠٠

أبو البختـرى ـ احبسوه وكبلوه فى الحديد واغلقوا عليه بابا غير طاق واحـد صغير تلقون اليه طعامه وشرابه منه ، وتربصوا بـه ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله كزهير أو النابغة وغيرهما ممن مضى قبلهم ٠

الشيخ النجدى ـ **صارخا :** لا واللات !٠٠٠ ما هذا لكم برأى يا قوم ! والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم الى أصحابه وأتباعه ، فيكثرون ويحاربونكم حتى يغلبوكم علـى أمركم **ويلتفت الى اميـة قائلا :** فبئس الرأى الذى رأيتـه يـا أبا البخترى فانظروا فى غيره يا قوم وتشاوروا ٠٠٠

أبو الاسـود ـ صدق الشيخ ورب الكعبة ، !٠٠٠ ألم تحبسه وعشيرته قريش من قبل فى الشعب ؟٠٠٠ انسيت كـل ذلك يا أمية ؟٠٠٠ ماذا نفعـنا سجنه ؟ ٠٠٠ لا شىء ! ٠٠٠ فالـرأى عنـدى هـو ان تحملوه على جمل وتخرجوه من بين اظهركم فننفيه من بلادنا ثم لا يضرنا ما صنع ، واسترحنا منه جميعا ، ولا نبالى أين ذهـب

شيـبـة ـ **(مقاطعا)** نعم ، نعم ، ثم بعد ذلك نشتغل بأنفسنا فنصلح مـن شأننا وما اختل من أمور حياتنا ومعاشنا وتعود الفتنا كما كانت .

الشيخ النجدى ـ **صارخا :** كلا واللات ما هذا لكم براى !٠٠٠ **(القوم فى دهش)** ألم تروا الى حسن كلامه ، وحلاوة منطقه ، وقوة حجته ، وغلبته على قلوب الرجال فيما يأتى به ؟٠٠٠ أليس أحد بمكـة عنده شىء يخشى عليه الا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ؟٠٠٠

هشـام ـ نعم ، نعم ، ثم ماذا ؟ وما العمل اذن ؟٠٠٠

الشيخ النجدى ـ فواللات لو فعلتم ذلك لنزل صاحبكم على حى من أحياء العـرب فيغلب عليهم بكلامه اللطيف ، وحـديثه الظريف حتى يبايعوه فيعـز ويمتنع ويفشو أمره فى القبائل ثم يسـير بهم فيغزوكم ويفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأيا غير هذا ٠

أبـو الحكـم ـ **بعد اطراق وتفكير طويل وتامل :** نعم صدقتم ٠٠٠ وربما افلت من أيدينا والتحق بيثرب ٠٠٠ واللات ان لى فيه لرايا غير هذا ، ما أراكم رأيتموه ولا وقعتم عليه بعد ٠

ابـو سفيـان ـ وما هو يا أبا الحكم ؟٠٠٠

ابـو الحكـم ـ الرأى هو ان نأخذ من كل قبيلة شابا قويا يكون من عائلة شريفة فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما بتارا فيقصدون محمدا فيضربونه بسيوفهم هذه ضربة رجـل واحد فيقتلونه ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم.

أميـــة ـ واذا طلبوا منا الدية ؟٠٠٠

ابـو الحكـم ـ ذلك ما كنا نبغ ٠٠٠ أديناها لهم فعقلناه واسترحنا ٠

الشيخ النجدى ـ بخ بخ بخ !٠٠٠ الآن وقعتم فى الصواب ، وهذا هو الرأى الذى لا أرى لكم غيره ، ٠٠٠ هكذا يذهب دمه هدرا ٠٠٠

الحـاضرون ـ **لابى الحـكم** : أصبت يا أبا الحكم ٠٠٠ أصبت يا أبا الحـكم أصبـت ٠

مشهـــد ـ 4 ـ

تسمع ضجة من خارج دار الندوة ٠

ابـو سفيـان ـ **يتحدث مع أبى الحكم** : انظر يا أبا الحكم ما هذه الضجة ؟٠٠٠

ابـو الحكـم ـ **ينهض ليـرى ما يسمع** : أرى سـادة العرب ورؤساء قـريش يتحاورون بينهم ٠٠٠ **يفكر** ٠٠٠ واظنهم قادمين نحونا وهم فى طرب وانشراح ٠٠٠

مشهـــد ـ 5 ـ

الجمهور فى دار الندوة ٠

ابـو الحكـم ـ اهـلا ، آهـلا ومرحبا وسهلا ، مرحبا بابنائنا وفلذات أكبادنا **ثم يقف خطيبا بينهم** : انتم يـا معشر الشباب محـط أملنا فى تخليص ديننا وانقاذ وطننا وقومنا مـن هذه الفوضى والخلاف الذى مزق شملنا وشتت جمعنا ، ويحكم أيها الشباب !

ان دام هذا ولم يحدث له غير   لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

أنتم أيها الابناء الكرام عصمة هذه الامة العربية القرشية التى لم يسجل لها التاريخ انهزاما قط ، ولم يثبت انها وقعت تحت نفوذ أجنبى مطلقا ، فلم يملكها أحد مـن بنى البشر لا أصفـر ولا أحمـر ٠

الجمهـــور ـ مـرحى ٠٠٠ مـرحى ٠

ابـو الحكـم - **مستمرا فى خطابه :** ولقد علمتم ما فعـل محمد بآلهتنا وديننا ومعابدنا وانظمتنا وجميع مقومات حياتنا ، فاليكموه ! فاقتلوه فى ضربة رجل واحد ومزقوه شر ممزق !...

الجمهـــور - **هتاف :** ... مرحى ...

ابـو الحكـم - واليكم السلاح - **يناولهم السيوف .**

ابـو سفيـان - فقفوا محيطين بمنزله وانزلوا عليه فى ضربة واحدة عند خروجه يقع لها صريعا .

صياح ابتهاج من الشباب .

ابـو الحكـم - اياكم ان يفلت من ايديكم الليلة مثلما افلت من يـدى يوم ان احتملت الحجر عازما على فضخ رأسه فى المسجد .

اميـــة - وكيف أفلت من يدك يا أبا الحكم ؟...

الجمهور منصت اليه .

ابـو الحكـم - **فى دهش :** لا أدرى واللات ... لقد تقدمت نحـوه يومئذ حـتى اذا اقتربت منه أخذتنى رعشة فعدت مرعوبا وقد يبست يداى على الحجر حتى رميت به من يدى .

اميـــة - لقد سحرك يا أبا الحكم .

ابـو الحكـم - لئن كان قد سحرنى يومئذ وانا وحدى فلا أخاله اليوم يستطيع ذلك معكم جميعا .

شيبـــة - **يدفعه حب الاطلاع :** ... وما هى مزاعم محمد ؟!...

هشـــام - **بعـد قهقهة وسخرية :** ... يزعم انكم ان آمنتم به وصدقتموه واتبعتموه كنتم ملوك سادة هذه الارض وتنتصرون على ملـك كسرى والروم ويخضع لكم جميع العرب والعجم ... ثم انكم بعد موتكم تبعثون فتكون لكم جنات ونعيم خالدين فيها أبدا .. وان لم تفعلوه كان له فيكم قتل وذبح ثم تبعثون من بعد موتكم الى نار جهنم فتسجرون .

ضحك وقهقهة سخرية من الحاضرين .

اميـــة - حيـاة ثم مـوت ثم بعـث حـديث خـرافة يا أم عمـرو

ابـو سفيـان - البدار البدار ... البدار ...

بينما القوم فى اندفاع للخروج للعمل من دار الندوة اذا بصارخ يصرخ فيهـم :

الصـــارخ ـ أيها الملأ من قريش !··· ويحكم قد خيبكم الله ! ان محمدا قد هاجر !

ابـو سفيـان ـ مغضبا : انى جعلت فيه مائة ناقة لمن يرده علينا أو يقتله !··· اسرعوا !··· بادروا !···

يذهب الجميع غير ابى سفيان وابى الحكم ·

الفصــل الثـالـث

مشهـــد ـ 1 ـ

خيمة ام معبد بالبادية

ام معبـــد ـ منهمكة فى خدمة الضيوف بخيمتها حريصة على اكرامهم مــع شدة فقرها ···

ابـو بكـــر ـ يقترب من ام معبد قائلا : يا أم معبد أما لديك ما تشتريه قوتا لحاضرنا ونتخذ منه زادا لسفرنا ؟···

ام معبـــد ـ بـلى يا سيدى ··· ولكن ليس بيعا ، وانما هـو قرى متواضع بحسب ما ترونه من القحط والجدب النازل اليوم ببلادنا ·

وتسرع فتقدم لهم لبنا ·

صاحب أبو بكر ـ شكرا يا أم معبد ـ **ويلتفت فـيرى بكسر الخيمة عنـزا مهزولة الجسم فيتساءل :** وما هذه الشاة يا أم معبد ؟···

ام معبـــد ـ هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم فلم تستطع الخروج الى المرعى !

الصـــاحب ـ وهل بها من لبن ؟···

ام معبـــد ـ هي اجهد من ذلك !···

الصـــاحب ـ أتأذنين لى فى حلبها ؟···

ام معبـــد ـ نعم ، بأبى انت وأمى ان رأيت بها حلبا فاحلبها ·

الصـــاحب ـ آتينـى بانـاء ·

ام معبـــد ـ تناوله الاناء وهى تقول فى نفسها : ماذا عسى أن يعمل هذا ؟

الصـــاحب ـ يتقدم نحو العنزة فيمسح ضرعها قائلا : بسم اللـه اللهم بارك لها فى شاتها ·

ام معبـــد ـ تنظر اليه متعجبة قائلة : ماذا عسى ان يفعل ؟···

الصـــاحب ـ يحلـب ···

أم معبـــــد ـ **مندهشة : ما اعجب الذى أرى هذا اليوم !!٠٠**

أبــو بكـــــر ـ لا تعجبنى يا أم معبد ٠

الصـــاحــب ـ **يسقى القوم مبتدئا بام معبد ٠**

أم معبــــد ـ **تشرب حتى تروى :** جزيت خيرا ووقيت ضيرا ٠

الصـــاحــب ـ **يناول أبا بكر الاناء ٠**

أبــو بكـــــر ـ **لصاحبه :** وانت يا رسول الله !٠٠٠

أم معبــــد ـ **ماخوذة من سماعها لكلام ابى بكر وقوله : يا رسول الله !٠**

الصـــاحــب ـ ساقى القوم آخرهم ٠

أبــو بكـــــر ـ **يشرب حتى يروى ثم يناول الاناء لباقى الرفقة ٠**

الصـــاحــب ـ **هــو آخر من يشرب ، ثم يعود الى الشاة فيحلبها للمـرة الثانية ويترك الاناء هكذا مملوء لبنا وينصرف ٠**

ابــن اريقــط ـ اما وقد روينا واسترحنا فلنرحل ٠

الصـــاحــب ـ **لام معبد :** جزاك الله خيرا يا أم معبد ٠

أم معبــــد ـ **متمثلة :** يا ضيفنا ان زرتنا لوجدتنا

نحن الضيوف وأنت رب المنزل

تنهض الجماعة تريد الرحيل فتشد رحلها للمسير وتنطلق ٠

أم معبــــد ـ على خير طائر ٠٠٠ على خير طائر ٠

مشهـــد ـ 2 ـ

أبــو معبـــد ـ **يدخل الخيمة يسوق عنزا عجافا ويلتفت فيرى لبنا فى الانـــاء فيقول مخاطبا لزوجه أم معبد :** يا أم معبد ما الخبر ؟ ٠٠٠ **ويشير الى ايناء اللبن :** وما هذا الذى أراه ؟ ٠٠٠

أم معبــــد ـ لا والله ، الا أنه مرت بنا جماعة مسافرة ومن بينهم رجل مبارك قام الى شاتنا العجفاء هذه ، فمسح ضرعها بيده حتى درت واجترت وجاءت بلبن غزير ، فسقانى فشربت حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رووا وسمعته يقول : ساقى القوم آخرهم ، فكان هو آخر من شرب ٠

أبــو معبـــد ـ صفى لى هذا الرجل العجيب ٠

ام معبـــد ـ هو رجل ظاهر الوضاءة ، مليح الوجه ، فى عينيه دعج ، وفـى اشفاره وطف ، أحور ، أكحل ، شديد سواد الشعر ، أزج أفرق الحاجبين وفى لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه وقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، حسن الخلق والخلق ، ربعـة ، لا تشنوه العين من طول ولا تقتحمه من قصر ، وكانه بين صاحبيه غصن بين غصنين ، فهو انضر الثلاثة منظرا ، واحسنهم قدرا ، وهم يحفان به ، اذا قال استمعوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمـــره .

ابـو معبـــد ـ ويحك يا أم معبد ! ... هذا والله صاحب قريش الذين ما زالوا يطلبونه ، وقد بذلوا جعلا لمن يرده اليهـــم ، ولو كنت وافقته لالتمست صحبته ـ **ويندفع نحو باب الخيمة ...**

ام معبـــد ـ نعم ، هو بلا شك ، اذ قد سمعت رفيقه فى السفـــر يناديه : يا رسول الله .

ابـو معبـــد ـ ولافعلن ان وجدت الى ذلك سبيلا ، **يخرج مسرعا .**

مشهـــد ـ 3 ـ

ام معبـــد ـ **فى خيمتها وفى خدمة بيتها .**

جمـــاعـــة ـ **رجال ونساء وصبيان يدخلون على ام معبد :** احقا ما يذكر عن زوجك فيما يحدث به الناس الساعة عن الرجل الذى مر بكم ؟

ام معبـــد ـ نعم هو كذلك ...

احـد الجماعـة ـ فهذا رجل مبارك حقا ! ... وصفته هى ما ذكرت يا أم معبد ؟

ام معبـــد ـ نعـــم .

احـــدهـــم ـ **مندهلا :** يا أم معبد ما بال وصفك لهذا الرجل جاء هكذا أنتم اوفى من وصفنا له لو رأيناه نحن الرجال ؟ ...

ام معبـــد ـ أما علمتم أن المرأة اذا نظرت الى الرجل كان نظرها اشـفى من نظر الرجل الى الرجل ؟ ! ...

النســـوة ـ بلى ورب البيت ! ... بلى ورب الكعبة ! ...

الفصـــل الـرابـع

مشهـــد ـ 1 ـ

فى دار الندوة ·

اعــــرابـى ـ **يدخل** : عموا مساء ···

امـيـــــة ـ ما وراءك يا عصام ؟ ··· ما الخبر ؟ ···

الاعــرابـى ـ لقد اطلعت على خبر حول محمد فنقلته اليكم طريا ·

امـيـــــة ـ لا عدمناك يا أخا العرب ·· وما ذاك ؟ ···

الاعــرابـى ـ اخبرنى صديقى الآن وقد جاء من قديد بانه سمع بنفسه حديث أم معبد لزوجها فى الخيمة حين رجع من الرعى ·

امـيـــــة ـ ومن أم معبد ؟ ···

الاعــرابـى ـ هى عاتكة بنت خالد الخزاعية ، وهى امرأة برزة جلدة تسقى وتطعم بفناء الكعبة ·

امـيـــــة ـ نعم أعرفها وأعرف فضلها على العرب وأعـــرف زوجهـا ذاك الخزاعى ··· وما ذاك ؟ ···

الاعــرابـى ـ قال محدثى بانه سمع عاتكة هذه أم معبد تقول لزوجها بانـه مر بها ثلاثة رجال من بينهم رجل مبارك ، قالت بعد ما رغبوا منها شراء طعام أو شراب لزادهم ذكرت لهم انه ليس عندها ما يباع او يشترى ··· فلمحوا فى بيتها شاة مهزولة فاستاذنها أحدهـم فى حلبها فقالت هى أجهد من ذلك ··· وان رايت بها حلبـا فتقدم ، فتقدم أحدهم للشاة ومسح ضرعها وحلب ما اشبع أهل الخيمة كلهم وشرب هو آخرهم ثم أعاد الحلب فملأ ايناءها لبنا وتركها وخرج مع رفقته ·

امـيـــــة ـ ويا ترى من تكون هذه الجماعة ؟ ···

ابـو سفيـان ـ ولعلهم جماعة مسافرين رفقة ·

الاعــرابـى ـ لا وربك انه لمحمد فى رفقته ·

ابـو سفيـان ـ ومن أين لك هذا ؟ ···

الاعــرابـي ـ حسبما ذكر لى الراوى ان ابا معبد طلب من زوجته وصف هذا الرجل فقالت هو رجل كذا وكذا وذكرت من صفته ما نعرفـه من صفات محمد ·

أبـو سفيـان ـ وهل علمت ما قال لها زوجها أبو معبد ؟

الاعــرابـي ـ نعم ، قال لها ويحك يا أم معبد ! هذا والله صاحب قريش الذين ما زالوا يطلبونه ولو رأيته لاتبعته ·

أبـو سفيـان ـ تبا له وسحقا ! ··· نعم صدقت يكون ذاك هو محمد بعينـه حسب الاوصاف الذى وصفت ·

الاعــرابـي ـ لا ريب فى ذلك ·

مشهـــد ـ 2 ـ

شيبـــة ـ **يدخل مع هشام ·**

أبـو سفيـان ـ **مبادرا لهما** : ··· ماذا فعلتما ! ··· وهل قتلتمـوه ! ··· بشرنا ياشيبة ! ···

شيبـــة ـ انه لم يوجد فى بيته ! ··· بل ولم يبت فيه البارحة أصلا ··· ولقد ظننا انه هو على فراشة ، فاذا بـه هو عـلى بن أبى طالب ملفوفا فى برد أخضر ·

أبـو سفيـان ـ وهلا اجتهدتم فى البحث والتنقيب عنه ؟ ···

شيبـــة ـ نعم ، وكيف لا ، لقد انطلقنا جماعات وفرادى نبحث عنه هنا وهناك وبعثنا بالجواسيس الى جميع النواحى والجهات وطلبناه فى السهل والجبل ، فى اعلا مكة وأسفلها وتتبعنا خطواتـه ومشينا فى آثره حتى انقطعت عنا جميع الطرق ولم نترك مكانا الا ودخلناه ، ولا منزلا الا واقتحمناه فطفنا مكة بأطرافها طواف الحجيج بالبيت ونفضناها نفضا حتى استوقفنا الغار ·

أبـو سفيـان ـ وأى غار تعنى ؟

شيبـــة ـ غار ثور بأسفل مكة ···

ابـو الحكـم ـ سحقا لكم أيها التعساء ! ··· فهلا دخلتم الغار ؟ ! ···

شيبـــة ـ كيف كان يتيسر لنا ذلك وقد تدلت فروع شجر الراءة على فوهة الغار فضيقت مدخله ، ولا سبيل لاحد الى اقتحام الغار وهو على ذلـك ! ···

ابـو الحكـم ـ فلو انكم حاولتم ازالة ذلك الحاجز وغامرتم فاقتحمتوه على كل حـال ؟

شيبـة ـ كيف ؟ ··· وقد عشش على بابه حمامتـان وحشيتان وباضتا عنده ، ونسج عليه المنكبوت بكثافة من قبل ميلاد محمد ، فلو دخله محمد أو غيره لتكسر ذلك البيض ولفسخ بيت المنكبوت ··· ومع ذلك فقد سالنا رعاة الشاء فى الجبل : هل من أحـد رأيتموه حام حول هذا الغار ؟ ··· فكلهم أجاب بانه لم يشهد أحدا قصده ·

ابـو جهـل ـ فلا عنكبوت ولا شجر الراءة ولا بيض ولا حمام ! ··· وانمـا صرفت ابصاركم وقلوبكم واسماعكم واحاسيسكم كلها عن هـذا الرجل فعمى عليكم الاثر ! ···

هـاتـف ـ **يسمع ولا يرى صاحبه : « الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجـه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنوده لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا واللـه عزيز حكيم » ·**

الفصـل الخـامس

مشهـد ـ 1 ـ

المسلمـون ـ **فى تحرق وشوق ينتظرون مقدم النبى** : نرجو ان يقدم اليـوم رسول الله ! ··· تعالوا ننتظره ···

يهـودى ـ أنتم كل يوم تقولون هذا ؟ ···

ابـن زرارة ـ نعم نحن والله لنخرج فى أول النهار من كل يوم هكذا كما ترانا نترقب قدومه حتى تحرقنا الشمس فنرجع الى منازلنا وديارنا وما قدم ·

البـراء ـ صبرا يا سعد صبرا ···

ابـن زرارة ـ والله لا استطيع اليوم صبرا ، لقد برح بى الجوى حتى لا استطيع صبرا ··· أحببت ان أرى وجه محمد !

أسيـد ـ صدقت والله ··· فلقد اتبعناه واحببناه وما رأينا وجهه ·

اسعد بن معاذ ـ لقد فاز برؤيته والتمتع بملقاه اخواننا أصحاب العقبة ·

اسيد - هنيئا لهم ثم هنيئا ...

يهودى - أوسمعتم بخروجه وحده ؟ ...

ابن زرارة - لقد سمعنا باندفاعه من مكة صحبة رفقة .

البراء - يضع يده على عينيه اتقاء وهج الحر وشعاع الشمس الوهاج ويقول : ان ضياء الشمس وحرارتها قد عم البقاع ولم يبق لنا ظل قائم نستظل به فلندخل بيوتنا وخيامنا ... فما أحسبه آتيا اليوم .

الجميع - ينهضون : نعم فلندخل ... لندخل ... لندخل .

رجل - يقبل من نحو قباء مسرعا : اسمعوا يا قوم !... اسمعوا يا قوم !

الجميع - يتلهف : وما ذاك ؟ ... وما ذاك ؟ ! ... ما وراءك ؟ ...

الرجل - جئت الآن من قباء وقد رأيت رجلا واقفا على باب بيت وعليه من المهابة والوقار ما حملنى على الترحيب والتبرك به فقصدته ، واذا هو يمسكنى من يدى ويقودنى الى داخل البيت ، قائلا : هذا هو نبيك !

أسيد - ومن هذا الرجل الذى قادك من يدك الى البيت ؟

الرجل - هو أبو بكر بن أبى قحافة .

اسعد بن معاذ - وكيف حتى عرفته ؟

الرجل - عرفته حينما رأيته فى قباء والنبى متهيىء للمسير ، فرأيت هذا الرجل يظلله بردائه وقاية له من حر الشمس ، فسمعت النبى يخاطبه بقوله : شكرا لك يا أبا بكر شكرا ...

اسعد بن معاذ - هنيئا لك هذا بما فزت به دوننا وتمتعت به قبلنا من رؤية طلعة النبى وصاحبه أبى بكر .

الجميع - فى تهنئة الرجل : هنيئا لك هنيئا ...

اسيد - هلموا أيها الرفقاء الى ثنية من ثنايا هذا الجبل نرقب مجىء محمد.

الجميع - هلموا ... هلموا الى ثنية الوداع علّه يطلع علينا من هناك ؟...

يهودى - وما يكاد ينصرف الجمع من مكانه حتى يظهر .

يصعد الجبل فيرى محدقا بنظره فى الافق وكأنه راى شيئا غير عادى فيصرخ قائلا : يا بنى قيلة ! ... يا بنى قيلة ! ... هذا صاحبكم قد حضر ... هذا صاحبكم قد جاء ! ... يذهب .

المسلمـــون ـ يصيحون بصوت واحد : الله أكبر ؟ ··· الله أكبر ! ··· يهرعون جميعا نساء ورجالا وصبيانا لاقتبال النبي وتسمع لهم أصوات تدل على البهجة والسرور ··· جاء نبي الله ! جاء نبي الله ! جاء رسول الله ··· هذا محمد رسول الله ···

مشهـــد ـ 2 ـ

اليهـــودى ـ عائدا مع عمته خالدة : الله أكبر !

خـــالـــدة ـ خيبك الله يا بنى ! ··· والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران حضر ورأيته قادما اليك لما زدت على ذلك ··· أخسأ ! ·

اليهـــودى ـ يا عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران جاء بمثل ما جاء به موسى وما جاء به الانبياء قبله ··· وقد بشر به التوراة والانجيل

خـــالـــدة ـ اذن هو النبي الذى كنا نسمع انه يبعث فى آخر الساعة ·

اليهـــودى ـ نعـم ·

خـــالـــدة ـ مشيرة بيدها : أذاك هو النبي الذى نراه ؟ ! ···

اليهـــودى ـ نعم ، تعالى لنراه يخرجان ···

الجمهـــور ـ هى وراء المنظر ومن بعد يسمع هتافهم : اقبل يا رسول الله ! ··· اقبل الى القوة والمتعة اقبل الى الحمى ، اقبل يا رسول اللـه ! ···

هنا يقـام مهرجان عظيم يحتفل فيه الشباب والشيوخ ، ويظهـر فيه بنات ونساء وصبيان وهم فى ابهج زينة وافخر مظهر وكلهم ينشد نشيد الهجرة :

طلـــع البـــدر علينـــا   مـــن ثنيـــة الـــوداع
وجـــب الشكـــر علينـــا   مـــا دعـــا للـــه داع
الخ ··· الخ ··· الخ ···

مصـــادر :

ـ تاريخ الطبرى ، ط : القاهرة 1357 هـ ·
ـ سيرة ابن هشام بشرح السهيلى ، ط القاهرة 1389 هـ ·
ـ السيرة الحلبية ، ط : بولاق 1292 هـ ·
ـ نهاية الارب للنويرى ، ط : دار الكتب ـ القاهرة 1972 م ·